مختصر

تاريخ الكنيسة

أندرو مِلر

مختصر تاريخ الكنيسة

مختصر

تاريخ الكنيسة

أندرو مِلر

الطبعة الرابعة

٢٠٠٣

مختصر تاريخ الكنيسة

المؤلف : اندرو ملسر

يطلب من : مكتبة الإخوة ٣ش انجه هانم - شبرا - مصر ت: ٥٧٩٢٢٨٤

بريد الكتروني *brethren_pub@writeme.com*

وفروعها :

مصر الجديدة : ٦٥ش نخلة المطيعي - تريومف ت: ٢٩٠٤٠٠٢

الأسكندرية : ٦ش الفسطاط - كليوباترا

المنيا : ٦ش الجيش ت: ٣٦٤٤٠٦

اسيوط : ٢١ش عبدالخالق ثروت ت: ٢٤٢٠٢٨

ومن المكتبات المسيحية الكبرى

رقم الإيداع: ٢٢٢٩ / ٢٠٠٣

شركة الطباعة المصرية ت ٦١٠٠٥٨٩

محتويات الكتاب

مقدمة للطبعة العربية الرابعة

"التاريخ عبرة لِمَنْ يَعتبِر" هذه حقيقة، ولكن قلّ من يعتبر منه. والتاريخ نفسه يشهد بأن الإنسان قلّما استفاد من تاريخه. أما نحن المؤمنين فلنا امتياز أن نقرأ تاريخ الإنسان مدونًا بيد المؤرخ الأعظم، الأمين في أقواله، روح الله القدوس نفسه. وما دونه لنا من تاريخ على صفحات الوحي المقدس ليس فقط عبرة لمن يعتبر، بل هو أيضًا تعليم لمن يتعلم، ودرب لمن يسعى. فالتاريخ المقدّس كما دوّنه الروح القدس ليس فقط يعطي حكمة لمن يدرسه، بل يقودنا إلى معرفة مقاصد الله وطرقه وفهم أفكاره. كما أنه من امتيازنا أيضاً أن نقرأ باقي التاريخ من منظور ما تعلمناه من المكتوب، فنرى يد الله العاملة، على طول التاريخ، لإتمام مقاصده ولخير الذين يحبونه.

وحسنًا فعل الأخ الفاضل أندرو ملر أن قام بدراسة تاريخ الكنيسة، من بدايتها وحتى أيامه، من أكثر مصادره ثقة، ثم حقّقه وأوجزه لنا في هذا المجلد. وقد اتبع في سرده للتاريخ نهج كلمة الله، فإن الكاتب المستنير قام بتحليل المواقف التاريخية ووضعها في نور كلمة الله، واستخرج منها التعليم الذي يتوافق مع الكلمة. فما هو بين يدي القارئ الآن ليس مجرد تاريخ للاعتبار، ولكنه تعليم كتابي وشرح للتاريخ في ضوء الكلمة، بل تضمن أيضًا شرحًا للكلمة النبوية من خلال تحقيقها التاريخي، ودروسًا روحية وأدبية جديرة بأن نتعلمها بكل عناية.

ولد أندرو ميللر بقرية كيلمورز بمقاطعة إيرشاير بإنجلترا في يناير عام ١٨١٠م. وانتقل إلى لندن حيث لاقى نجاحًا كبيرًا في عمله الزمني، وكان في ذات الوقت راعيًا لإحدى الكنائس الطائفية بها. ولما استنار ذهنه ترك هذه الكنيسة وانضم مع الإخوة الذين يجتمعون على الأساس الكتابي واستمر يخدم الرب بينهم. وقد جمع بين كونه مبشرًا ملتهب القلب غيرة على النفوس وبين كونه معلّمًا فاهمًا لكلمة الله، ولقد استخدمه الرب بين الشباب والكبار على حد السواء. وقد كتب عدة كتب أهمها هذا المختصر وتأملات في نشيد الأنشاد وتأملات في المزامير. وقد كان مؤرخًا مميّزًا كما كان أديبًا وشاعرًا، مما أضاف على كتاباته الروحية رشاقة الأسلوب وسلاسة العبارة. ورقد في الرب في يونيه عام ١٨٨٣.

وقد بذل الأخ الراحل ناشد ساويرس إنطاكية، من الرعيل الأول للإخوة بمصر، مجهودًا ضخماالأخ الراحل ناشد ساويرس إنطاكية، من الرعيل الأول للإخوة بمصرًا في ترجمة هذا الكتاب الثمين إلى العربية . وقد طبع هذا الكتاب مرتين بعد الطبعة الأولى نقلاً عنها. أما هذه الطبعة الرابعة فقد تم مراجعتها على الأصل لتحقيق دقة الترجمة، وأضيفت إليها القصائد الشعرية التي لم تتضمنها الطبعة الأولى، كما أنه أضيفت بها بعض الأجزاء التي أغفلت ترجمتها حينئذ. علاوة على ذلك، رغبةً في تحقيق أكبر نفع لهذا المرجع القيّم، فقد تم فهرسة الموضوعات والأعلام التي وردت فيه، وكذلك الشواهد الكتابية ليسهل على القارئ الرجوع إلى أي جزء يريده.

ونحن نقدم هذا المختصر لا كقصص أو روايات أدبية، ولا حتى كمجرد تاريخ، بل إننا نرجو أن كل من يقرأه يجد من خلاله طعامًا للروح وباعثًا على التمسك بالحق المعلن في الكلمة.

مقدمة

لعلمنا أن السواد الأعظم من القراء ليس عندهم من الوقت أو الوسائل ما يسمح لهم بدراسة المطولات في تاريخ الكنيسة، قصدنا - بنعمة الله - متابعة الكتابة في هذا الموضوع الهام اللذيذ، فإن معرفة الأدوار التي مرت على بيت الله كل هذه القرون العديدة مما يلذ لسمع أولاد الله. على أننا متى تكلمنا عن الكنيسة بهذا المعنى فإننا نقصد وصف مسكن الله كما أشارت إليه كلمة الله لا كما تداولته الألسنة. فالكتاب المقدس يخبرنا عن الكنيسة أنها «جسد المسيح» أو «مسكن الله بالروح» (أف٢).

ومما يجب الالتفات إليه بنوع خاص عند دراسة تاريخ الكنيسة من أيام الرسل إلى وقتنا الحاضر أن نميز بين الفريقين اللذين تتألف منهما دائرة المسيحية. فمما لا نزاع فيه أنه يوجد المسيحيون الحقيقيون والمسيحيون بالاسم، أي أن هناك المؤمنين بالحق، وهناك الذين لهم صورة الإيمان فقط. وقد أشار إلى ذلك الرسول بولس في سفر الأعمال بقوله «لأني أعلم هذا أنه بعد ذهابي سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية ومنكم أنتم سيقوم رجال يتكلمون بأمور ملتوية ليجتذبوا التلاميذ وراءهم» (أع٢٠: ٢٩، ٣٠). كما نقرأ في رسالته الثانية إلى تيموثاوس إرشادات وإنذارات من جهة الشرور والبدع الكثيرة التي تهددت هذا البيت وأصبحت واضحة لكل ذي عينين، لأن حالة الكنيسة كانت قد تأخرت جدًا عن السابق حينما كتب إليه رسالته الأولى. ولذلك فهو ينصح جميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع أن يعرضوا عن الذين لهم صورة التقوى ولكنهم ينكرون قوتها بقوله «فاعرض عن هؤلاء» وكما كانت هذه النصيحة لازمة حينئذ فهي لازمة جدًا الآن. على أننا لا نستطيع أن ننفصل عن المسيحيين، ولكن في إمكاننا أن نطهر ذواتنا ممن يدعوهم الرسول «أواني للهوان».

والوعد الذي لنا هو «إن طهر أحد نفسه من هذه يكون إناء للكرامة مقدسًا نافعًا للسيد مستعدًا لكل عمل صالح» (٢تي٢: ٢٠، ٢١).

ويهمنا جدًا - ولو أنه يحزننا أيضًا - أن نلاحظ الفرق العظيم بين ما ورد في رسالة تيموثاوس الأولى ورسالته الثانية في هذه النقطة. ففي الرسالة الأولى وُصفت الكنيسة بحسب حقيقة مركزها على الأرض بصفتها بيت الله ومستودع الحق. أما في الرسالة الثانية فقد وصفت حالتها بحسب ما وصلت إليه من الخراب والتشويش بسبب سوء تصرف القائمين على أمرها.

ولأجل إيضاح غرضنا نورد شاهدًا من كل من الرسالتين، فقد جاء في ١تيموثاوس٣: ١٤، ١٥ قوله «هذا أكتبه إليك راجيًا أن آتي إليك عن قريب. ولكن إن كنت أبطئ فلكي تعلم كيف يجب أن تتصرف في بيت الله الذي هو كنيسة الله الحي عمود الحق وقاعدته». أما في الرسالة الثانية فالظروف تغيرت ووصلت إلى أسوأ حال بدليل قوله: «ولكن في بيت كبير ليس آنية من ذهب وفضة فقط بل من خشب وخزف أيضًا، وتلك للكرامة وهذه للهوان» فعوضًا عن الترتيب الإلهي دخل التشويش حتى أن «بيت الله الذي هو كنيسة الله الحي عمود الحق وقاعدته» صار «بيتًا كبيرًا». فذلك البيت الذي كان يليق بالله وموافقًا لسكناه ومرتبًا حسب فكره ومطابقًا لمشيئته، أصبح تحت تصرف البشر واستحسانهم، يتصرفون فيه بحسب ما يوافق أهواءهم وأغراضهم لأجل افتخارهم. فالشر قد نبع وسط الكنيسة من البداءة، ثم أخذ يتزايد من ذلك الحين إلى الآن. ولكن الله قد حوّل ذلك الشر إلى الخير. والروح القدس من رحمته بنا أعطانا نصائح وإرشادات كافية وصريحة لكي نعمل بها وسط ظلمة تاريخ الكنيسة، ونقرأ في نورها تلك الصحائف

السود، ونعرف ما يجب أن نعمله في الأزمنة الصعبة، فمهما تغيرت الظروف وتبدلت أحوال البشر فإن حق الله لا يتغير.

غلطات المؤرخين إجمالاً

يسوؤنا أن نقول إن بعض المؤرخين قد غض الطرف عن حقيقة اختلاط أواني الهوان بأواني الكرامة - أي المسيحيين بالاسم مع المسيحيين الحقيقيين. ولسبب ضعف بصرهم الروحي لم يميزوا بين الغث والسمين، فجعلوا غرضهم الإطناب في وصف بعض أمور ليست من المسيحية في شيء، وذكروا سير بعض الأشرار الذين كانوا منتمين إلى المسيحية كأنهم من المؤمنين، وأفاضوا في التعليق على البدع والأضاليل التي دخلت خلسة وسط الكنيسة وأقلقت بالها، وأرخوا لأقلامهم العنان في بسط أوجه الخلاف والمباحثات الغبية والهرطقات التي تطرقت إليها. أما غرضنا نحن هنا فهو تتبع خط سير المسيحية الصحيحة وسط التشويش وظلمة الحوادث التاريخية، فإن الله لم يترك نفسه قط بلا شاهد، بل كان له شهود أمناء أحياء وسط كل تلك الأدوار التي مرت فيها الكنيسة في جميع العصور، ولو كانوا غير ظاهرين، مثلما أبقى لنفسه سبعة آلاف نفس لم تحن رِكبة لبعل في أيام آخاب وإيزابل، ولو لم تَرهم عين إيليا أو تسمع عنهم أذن إنسان. ولا ريب عندنا أن ألوفًا من المسيحيين سيكونون من ضمن تلك «الكنيسة المجيدة» متى أحضرها المسيح لنفسه أخيرًا في فجر ذلك النهار الأبدي، ولو أنهم عاشوا وسط أزمنة الخراب وعصور الجهل والظلمة الأولى. ومجرد التأمل في هذا الحق يملأ النفس سرورًا والقلب بهجة وحبورًا. فيا رب عجِّل بذلك اليوم السعيد من أجل اسمك. آمين.

ولما كان التواضع هو من أبرز ما يتميز به الأتقياء في كل زمان ومكان فإننا نجدهم عادة يميلون إلى الانزواء، وفي أغلب الأوقات يكونون غير معروفين. وسر التواضع الحقيقي هو في معرفة النعمة، لأنها ثمر من أثمارها. وواضح أن مثل هؤلاء الأشخاص لا تُذكر أسماؤهم بكثرة على صفحات التاريخ لأنهم عاشوا مجهولين مستورين. أما الأدعياء المعجبون بأنفسهم ففي غوغائهم ما يستلفت النظر وفي طنطنتهم ما يسترعي السمع، ولهذا يحفظ لهم التاريخ أثرًا وذكرًا. من ثم نرى أغلب المؤرخين يطنب في ذكر أمثال هؤلاء وما آتوه من البدع وارتكبوه من الشرور ودسوه من المبادئ الفاسدة.

الكنائس السبع

أما نحن فنتأمل الآن أولاً تاريخ الكنيسة بإلقاء نظرة عامة على السبع الكنائس التي في آسيا، وسنرى في الرسائل السبع الموجهة أنه في تلك الكنائس ملخص لتاريخ الكنيسة إجمالاً، لأننا نعتقد أن هذه الرسائل وإن كانت تاريخية إلا أنها أيضًا نبوية. ومع أن الأقوال الواردة فيها تطابق الواقع تاريخيًا إلا أن الوحي قصد في سردها أن يعطينا تاريخ مستقبل الكنيسة. لا شك أنه وجدت سبع كنائس فعلاً في تلك المدن السبع نفسها بالوصف المذكور في سفر الرؤيا، ولكنه واضح أيضًا أن غرض الرب الذي يعرف النهاية من البداية أن يعطينا وصفًا نبويًا فيما يسطر من رسائل تاريخية. وقد اختار هذه الكنائس السبع بالذات من بين الكنائس العديدة ورتبها ووصفها بكيفية تنطبق على تاريخ الكنيسة مستقبلاً. أما إذا قصرنا هذه الرسائل على تلك الكنائس دون سواها وتمسكنا بالمعنى الحرفي دون المعنى الرمزي فنكون قد قصّرنا في فهم الغرض من سفر الرؤيا، وخسرنا الامتياز المبارك الجميل الذي يتضمنه قول الرب «طوبى للذي يقرأ وللذين يسمعون أقوال النبوة» (رؤ ١:٣). فإنه ظاهر من هذا القول إن سفر الرؤيا هو سفر نبوي رمزي، ولا ريب أن الأصحاحين الثاني والثالث يدخلان ضمن نبوة هذا السفر، وقد أشار الرب إلى معناهما النبوي ومغزاهما السري بقوله «سر السبعة الكواكب التي رأيت على يميني والسبع المناير الذهبية. السبعة الكواكب هي ملائكة السبع الكنائس والمناير السبع التي رأيتها هي السبع الكنائس» (رؤ ١: ٢٠).

والعدد سبعة يشير إلى الكمال، ويدل على مجموعة أفكار الله وطرقه من جهة الزمان. لذلك نقرأ عن سبعة أيام وسبع سنين وسبعة أسابيع سنين وسبعة أعياد وسبعة أمثال الملكوت. وقد ورد ذكر هذا الرقم مرارًا في هذا السفر النبوي الذي يتناول البحث في مستقبل تاريخ اليهود والأمم وكنيسة الله على الأرض. ومن ثم نقرأ عن سبع كنائس وسبعة كواكب وسبع منابر وسبعة ملائكة وسبعة ختوم وسبعة أبواق وسبعة جامات وسبع ضربات. وكما أن الأصحاحين الثاني والثالث يتضمنان تاريخ الكنيسة مدة وجودها تحت المسئولية على الأرض موضع عناية الله وسياسته، هكذا نراها من الأصحاح الرابع حتى الأصحاح التاسع عشر في السماء، ثم نقرأ بعد ذلك عن ظهورها في المجد بظهور سيدها «والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه

على خيل بيض لابسين بزًا أبيض ونقيًا» (رؤ١٩:١٤).

وفي هذا السفر، لا سيما ابتداء من الأصحاح السادس، نجد ذكر اليهود والأمم ووصف معاملات الله معهم وقضائه عليهم من السماء، ولكن الأمر الجدير بالاعتبار أن هذا القضاء لا يحل عليهم إلا من بعد انتقال الكنيسة عروس الخروف واختطافها إلى السماء، بحيث لا يبقى على الأرض حينئذ سوى الجزء المرفوض الفاسد.

وإذا التفتنا إلى كلام الرب في بداءة هذا السفر فإنه يسهل علينا معرفة الأقسام الثلاثة التي ينقسم إليها، ويصبح ترتيب تلك الحوادث الواردة وتبويبها أمرًا بسيطًا، ولا يعسر علينا تفسير أقوال النبوة تفسيرًا مجملاً. فقد ورد في أصحاح١٩:١ ملخص حوادث السفر والخطة التي اتبعها الوحي في سرد تلك الحوادث، حيث قيل «فاكتب ما رأيت وما هو كائن وما هو عتيد أن يكون بعد هذا». فقوله «ما رأيت» يشير إلى إعلان الرب يسوع نفسه بالصورة التي شرحها يوحنا الرسول في هذا الفصل. وقوله «ما هو كائن» يشير إلى وصف الكنيسة الاسمية كما ورد في أصحاح٢، ٣. أما «ما هو عتيد أن يكون بعد هذا» فمذكور في باقي السفر من أصحاح٤ إلى النهاية. وهذا القسم يبتدئ من أول عدد في الأصحاح الرابع إذ نقرأ عن باب ينفتح في السماء، وقد دُعي الرسول إلى الصعود إليه، وصوت يقول له: «اصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا» أي «ما هو عتيد أن يكون» كما قيل في أصحاح١٩:١. فليس في الإمكان أن نرى «ما هو كائن» في ذات الوقت الذي فيه نرى «ما هو عتيد أن يكون بعد هذا». بل يجب أن ينقضي «ما هو كائن» وبعد هذا يبتدئ «ما هو عتيد أن يكون». والعبارة الواردة في أصحاح١٩:١ تتضمن الترتيب مع التعقيب.

وبما أن عدد سبعة يتضمن الكمال الدائم متى ورد بالمعنى الرمزي فلا ريب أنه يتضمن هذا المعنى عينه بالنظر إلى السبع الكنائس الواردة في رؤيا٢، ٣. ومع أننا نعلم أنه وُجدت كنائس أخرى غير الكنائس المذكورة في هذين الأصحاحين، إلا أن اختيار سبع من بينها يدل على غرض الوحي من إعطاء تاريخ نبوي يتضمن تاريخ الكنيسة كله. لأن المبادئ الأدبية التي ظهرت حينئذ رأى الرب، في سابق علمه، أنها ستعود إلى الظهور بصورة أوضح مع مرور الزمان. فكأنه أعطانا صورة مستوفاة للأدوار المتتابعة التي ستمر فيها الكنيسة الاسمية على مر زمان مسئوليتها على الأرض.

ولنأتِ الآن إلى لمحة من وصف هذه الكنائس السبع ثم نشير إلى الأدوار التاريخية التي ترمز إليها واحدة فواحدة.

أفسس

يذكر الرب هنا علة السقوط ومنشأ الانحطاط «تركت محبتك الأولى» (٢:٤). ومع أن هذا الوصف ينطبق بنوع خاص على الزمان الرسولي، إلا أنه يصدق على تاريخ الكنيسة إجمالاً بصورة نبوية. وقد تهددها الروح القدس بأن يزحزح منارتها من مكانها إن لم تَتُب. ويمتد هذا الدور من أيام الرسل إلى نهاية القرن الثاني.

سميرنا

في هذه الرسالة يُفصِّل الرب ما أجمل ذكره في الرسالة السابقة. ومع أن الأقوال الواردة هنا تمت حرفيًا أثناء كتابة هذه الأقوال، إلا أنها تنطبق بصورة عجيبة على زمن الاضطهادات المتتالية التي وقعت على الكنيسة على يد الأباطرة الوثنيين. ويُحتمل أن يكون الله قد استخدم هذه الوسائط لقمع الشر ومنع انتشاره وسط الكنيسة. ويمتد هذا الدور من نهاية القرن الثاني إلى أيام قسطنطين.

برغامس

هنا نرى المسيحية وقد صارت دين الدولة على يد قسطنطين. فالذين كانوا يضطهدون الكنيسة أصبحوا حُماتها. ومن هذا الوقت أخذت الكنيسة في الانحطاط السريع، وثبت أن اتحادها مع العالم عاد عليها بالوبال. وهذا الدور يمتد من أوائل القرن الرابع إلى أوائل السابع عند قيام البابوية.

ثياتيرا

نرى في ثياتيرا البابوية * في القرون الوسطى، وهي مشبهة بإيزابل من حيث اضطهادها للقديسين تحت ستار الدين. إلا أنه وجدت في نفس هذا الزمان بقية تخاف الله، ونجد الرب يعزيها برجاء مجيئه ككوكب الصبح، ويعدها بسلطان على الأمم متى ملك هو نفسه، وينصحها بالقول «إنما الذي عندكم تمسكوا به إلى

* لقب «البابا» استحدثه هيجينوس سنة ١٣٩ ميلادية، وقد حث البابا بونيفاس الثالث الإمبراطور فوكاس إمبراطور الشرق على أن يطلقه على أساقفة روما عام ٦٠٦ ميلادية، ثم بموافقة فوكاس تثبتت ولاية البابا على الكنيسة المسيحية- عن قاموس هايدن التاريخي.

أن أجيء». والنظام الذي له هذا الوصف يستمر إلى يوم مجيء الرب، إلا أنه بنوع خاص من مميزات القرون المظلمة الوسطى إلى بدء الإصلاح.

ساردس

هنا نجد الحقبة البروتستانتية من تاريخ الكنيسة، أي حالة المسيحية من بعد زمن الإصلاح المبارك. ومع أن ملامح البابوية تقلصت، إلا أن النظام الجديد له صورة الحياة فقط «لك اسم أنك حي وأنت مَيت». على أنه حتى في وسط هذه الأنظمة العقيمة يوجد قديسون بالحق، والمسيح يعرفهم كلهم «عندك أسماء قليلة في ساردس لم ينجسوا ثيابهم فسيمشون معي في ثياب بيض لأنهم مستحقون». ويمتد هذا الدور من القرن السادس عشر أي من وقت الإصلاح إلى النهاية.

فيلادلفيا

تمثل كنيسة فيلادلفيا بقية ضعيفة، ولكنها أمينة من نحو الكلمة ومن نحو اسم الرب يسوع، فكان ما يميزها هو حفظ كلمة صبره، وعدم إنكار اسمه. لم تتسم حالتها بأية صورة من صور القوة ولا بمظاهر العظمة، بل تميزت بالشركة معه في الخفاء، فكان هو في وسطها كالقدوس الحق، فاعترفت بسلطانه على بيته. وإذ هو الذي له مفتاح داود، فتح لها كنوز الكلمة النبوية وفك لها أسرارها. لقد شاركته في صبره، وانتظرت مجيئه، لهذا أعطاها وعده «لأنك حفظت كلمة صبري أنا أيضا سأحفظك من ساعة التجربة العتيدة أن تأتي على العالم كله لتجرب الساكنين على الأرض». وهي تشير إلى الوقت الذي وصلت فيه دعوة الله إلى أذهان المؤمنين للانفصال عن الشر والخروج لملاقاة العريس منذ مطلع القرن التاسع عشر. ولكننا نرى الآن التطورات تجري سريعة نحو الدور الأخير للمسيحية الآخذ في الظهور. *

لاودكية

يتصف هذا الدور بالفتور والتراخي وعدم المبالاة، مع الإدعاء والاعتداد بالذات وروح الصلف والكبرياء، وهذا هو وصف الأزمنة الأخيرة التي تمر فيها الكنيسة في دورها الأخير. وهي حالة لا يطيقها الرب، لذا فلا يطول انتظارها. ولذلك متى دعا من وسطها كل مؤمن حقيقي سيتقيأها من فمه، لأن التي كانت شاهدة له أصبحت لا تعرفه، ولذلك ينبذها إلى الأبد. وقد بدأت بعد فيلادلفيا، ولكنها هي الطابع المميز للأزمنة الأخيرة.

وبما أننا أجملنا القول عن السبع الكنائس فسنجتهد بمساعدة الله أن نتتبع بالاختصار تاريخ الكنيسة العام في أدوارها المختلفة. وقصدنا إن شاء الله أن نطبق تاريخ الكنيسة على ما ورد في هذه الرسائل، لنرى مقدار النور المنبعث من بين سطور الوحي بخصوص تلك الأحقاب، ونثبت مطابقة التاريخ للكتب المقدسة. نسأل الله أن يرشدنا إلى ما فيه خير القديسين وبركة شعبه المحبوب. آمين.

* هذا عندما كتب الكاتب. أما الآن فهو بارز وواضح للعيان.

الفصل الأول

الكنيسة

قبل الشروع في كتابة تاريخ الكنيسة يحسُن بنا كتابة تمهيد نُبيِّن فيه البداءة، وخط السير، وكيف وصلت الحالة إلى ما وصلت إليه. وهذا ما نجده في الكتب المقدّسة بالتفصيل الكافي، فلا نقرأ فقط عن الكنيسة وماهيتها، بل كيفية نشأتها على يد مؤسسها العظيم حيث قيل «وكان الرب كل يوم يضُم إلى الكنيسة الذين يخلصون» (أع٢: ٤٧). هذا هو واقع الحال من حيث تكوين الكنيسة، فالأساس كان قد وُضع، والرب نفسه كان هو الباني. فالبناء صحيح ومتين.

وكما أن الرب ابتدأ في نهاية التدبير اليهودي أن يضم المؤمنين باسمه من البقية إلى الكنيسة التي أخذت في الظهور، ففي نهاية تدبير الكنيسة سيأخذ المؤمنين باسمه إلى السماء، بعد أن يُغيِّر شكل جسد تواضعهم إلى صورة جسد مجده، فلا يبقى بين جماعة القديسين مدة الألف سنة واحد منهم «لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء. والأموات في المسيح سيقومون أولاً. ثم نحن الأحياء الباقين سنُخطَف جميعًا معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء، وهكذا نكون كل حين مع الرب» (اتس٤: ١٦، ١٧). هذه هي الخاتمة المجيدة للتدبير الحاضر للكنيسة على الأرض. وإذ عرفنا حدود تاريخ الكنيسة على الأرض نرجع الآن إلى بزوغ فجر وجودها هنا.

كان الرب قد أشار إلى الكنيسة بصفتها بناء على الأرض في أقوال ثمينة جدًا، ويحسُن بنا أن ننقشها على صفحات ذاكرتنا مدة دراسة تاريخ الكنيسة بأكمله. فقد وجد شعب الله في كل الأجيال الغابرة تعزيةً لقلوبهم فيما تضمَّنته تلك الكلمات من الحكمة البالغة والمعنى الجميل، فكانت كبرجٍ حصين للمؤمنين في كل الظروف. وما أعظم السلام واليقين النابعَين من قول الرب «على هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت١٦: ١٨).

وفي هذا الفصل نقرأ عن سؤال الرب عمَّا يقوله الناس من جهته، واعتراف بطرس الاعتراف الحسن، وتصريح المسيح السابق إيراده من جهة الكنيسة. ولكن بالنظر لما حواه الفصل كله من الحقائق الثمينة فيجمُل بنا إيراد النص كما هو، ولا يخفي أنه يناسب موضوعنا كل المناسبة.

«ولما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلُبس سأل تلاميذه قائلاً: من يقول الناس إنّي أنا ابن الإنسان؟ فقالوا: قومٌ يوحنا المعمدان، وآخرون إيليا وآخرون إرميا أو واحد من الأنبياء. قال لهم: وأنتم من تقولون إنّي أنا. فأجاب سمعان بطرس وقال: أنت هو المسيح ابن الله الحيّ. فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان ابن يونا. إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك لكن أبي الذي في السماوات. وأنا أقول لك أيضًا أنت بطرس. وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت١٦: ١٣-١٨).

وفي هذا الفصل نقرأ عن أمرين جوهريين لازمين للبناء هما: أساس صخري، وبناء إلهي. «على هذه الصخرة أبني كنيستي»، وإذ سأل البعض ما هذه الصخرة؟ فالجواب: اعتراف بطرس لا بطرس نفسه. صحيح أن بطرس كان حجرًا حيًا في البناء الروحي أو الهيكل الجديد «أنت بطرس» أي «أنت حجرٌ»، ولكن إعلان الآب الذي اعترف به بطرس من جهة مجد ابن الله كان أساس بناء الكنيسة «أنت هو المسيح ابن الله الحي» وهذا الإعلان هو عن مجد الابن في القيامة «إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك لكن أبي الذي في السماوات». وبمجرد سماع المسيح هذا الاعتراف أعلن عزمه عن بناء كنيسته التي لا تتزعزع «وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها».

قد كان المسيح نفسه نبع الحياة، ولا يُمكن للموت أن يقوى عليه.

وإذ مات عوضًا عن الخطاة قام منتصرًا على الموت من القبر في قوة حياة إلى الأبد «أنا الحي وكنت ميتًا وها أنا حيٌّ إلى أبد الآبدين. آمين. ولي مفاتيح الهاوية والموت» (رؤ١: ١٨). وما أسمى هذه الكلمات الدّالة على النصرة والغلبة. فقد نطق بها من له سلطانٌ على الهاوية والموت إذ ظفر عليهما، وها هي المفاتيح التي تُشير إلى سلطانه عليهما تسلمت مقاليدها ليديه. ومع أن الموت يقع على المؤمن إلا أن شوكته قد زالت، فجسده يسكن في القبر ولكنه لا يضبطه، لأن غلبته قد زالت. وها هو صوت النصرة يرن في أُذني المسيحي المسافر إلى وطنه، فيتيقن وصوله إلى هناك مهما كان ضعفه وتعبه من مشقة السفر. فما عاد للموت سلطانٌ على المؤمنين، بل أصبح الموت ملكًا للمؤمن «كل شيء لكم. أبولس أم أبلوس أم صفا أم العالم أم الحياة أم الموت أم الأشياء الحاضرة أم المستقبلة، كل شيء لكم وأما أنتم فللمسيح والمسيح لله» (١كو٣: ٢١-٢٣).

من ثمّ نرى أن شخص المسيح ابن الله الحي في مجد قيامته هو الأساس الراسخ المتين الذي تُبنَى عليه الكنيسة، وكمُقام من الأموات يعطي كل المبنيين عليه كحجارة حية حياة القيامة. وهذا ما قصده بطرس الرسول حين كتب للمؤمنين في رسالته الأولى «الذي إذ تأتون إليه حجرًا حيًا... كونوا أنتم أيضًا مبنيين كحجارة حية بيتًا روحيًا»(١بط٢: ٤،٥) ثم يقول في الفصل ذاته «فلكم أنتم الذين تؤمنون الكرامة» (ع٧). ليُعطِ الرب الكاتب والقارئ معًا أن يُدركا هذين الحقين الثمينين المقترنين بهذا الأساس الصخري، وهما حياة الله وكرامة الله. هذان هما امتيازا كل مؤمن بيسوع المسيح، الذي إذ نأتي إليه فمن هذا الحين تُصبح حياة المسيح حياتنا. «الذي إذ تأتون إليه حجرًا حيًا ... كونوا أنتم أيضًا مبنيين كحجارة حية» فكل ما له يصبح لنا، فيا له من حق مبارك وامتياز عجيب. ومن ذا الذي لا يريد حياة كهذه حياة لا يسود عليها الموت، ولا تقوى عليها أبواب الجحيم. لأنها حياة القيامة - حياة المسيح المنتصر - الحياة التي امتُحنت فغلبت. هذه هي حياة المؤمن.

على أن هذه الحجارة المبنية في هذا البيت أو الهيكل الروحي ليست فقط حية، بل لها أيضًا كرامة المسيح «لكم أنتم الذين تؤمنون الكرامة». وكما أننا بالإيمان بالمسيح ننال حياته، فإننا كذلك تصير لنا كرامته. والمبدأ الذي بمقتضاه ننال هذين الامتيازين واحد. ويمكن لنا أن نقول إن الحياة هي قوة التمتع والكرامة هي ما نتمتع به، فمجد المسيح وصفاته وامتيازاته وكرامته وكل ما له يُصبح لنا فيه «لكم أنتم الذين تؤمنون الكرامة». ما أعجب وأسمى هذا الفكر، فقد «أحبَّ المسيح الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها» (أف٥: ٢٥). هذا هو أساس غبطتنا نحن الذين بُنينا على الصخرة، مثل يعقوب قديمًا الذي لما استند على الحجر وهو غريب وسائح في البراري والقفار رأى تلك المناظر السماوية العجيبة، إذ انفتحت له أبواب السماء وأبصر غنى تلك الأمجاد (تك٢٨).

المسيح باني الكنيسة الوحيد

كما أن المسيح هو الأساس الوحيد فهو كذلك الباني «على هذه الصخرة (أنا) أبني كنيستي». هذا هو الحق الذي يجب أن نتثبت منه جيدًا، فلا نخلط بين عمل الإنسان وعمل المسيح، وإلا يلتبس علينا الأمر من جهة هذا البناء ومتانته وسلامته. فإن المسيح وحده هو الباني للكنيسة ولو اشتغل في هذا البناء بعض الخدّام مثل بولس أو أبلوس أو صفا أو أي مبشّر بالإنجيل. وعمل الرب في نفوس الخطاة كامل وحقيقي وشخصي وروحي. ومتى عمل بنعمته في قلوبهم فإنهم يأتون إليه، فيُصبحون مبنيين عليه كحجارة حية بقوة قيامته من الأموات، لأنهم ذاقوا أن الرب صالح. هذه هي الحجارة التي يبني بها المسيح هيكله المقدس، وأبواب الجحيم لن تقوى عليه، وبطرس وبولس وباقي الرسل والمؤمنين مبنيين معًا هذا البيت الروحي. وعندما تكلم الرسول بطرس عن هذا البيت في رسالته الأولى لم يُشر قط إلى نفسه كبنّاء، لأن المسيح هو الباني الوحيد، فهو القائل «أبني كنيستي».

وإذ تكلمنا عن بناء المسيح فلنتحول لننظر الآن بناء الإنسان، وماذا يبني وكيف يبني، وهذا ما نجده في كورنثوس الأولى٣ وتيموثاوس الثانية٢. فذلك «البيت الكبير» المذكور في تيموثاوس الثانية٢ هو نتيجة مساعي الإنسان، وإن كان من وجه هو بيت الله الموصوف في تيموثاوس الأولى بأنه «بيت الله الحي»، المعبَّر عنه في الرسالة إلى العبرانيين بأنه بيت المسيح، حيث يقول «وبيته نحن»(عب٣: ٦). ولكن هذا البيت من حين سُلّمَ ليد البشر تحت مسئوليتهم ها هو قد تخرّبَ بسبب ضعف الإنسان وشره، لأن كثيرين انحرفوا عن كلمة الله وساروا بمقتضى أفكارهم وإرادتهم، وإذا تداخلت حكمة الإنسان وفلسفته في عمل المسيح وصلت الحالة إلى ما نراه الآن. ومعلومٌ أن «الخشب والعشب والقش» لا تتلاصق مع «الذهب والفضة والحجارة الكريمة». نعم إن البيت كبُرَ وعظُمَ في نظر العالم، وحبة الخردل الصغيرة أصبحت

شجرة تأوي في أغصانها طيور السماء، لأن الإنسان لا يرضى أن يبقى في صورة المذلة والاحتقار في نظر الآخرين كما كان سيده، بل يسعى لأن يكون له مركز واسم بين الناس. حتى أن خدّام المسيح انحشروا في سلك أصحاب المقامات العالية وأخذوا مركزًا بين الأمراء، والكنيسة الاسمية أصبحت تفاخر بعظمتها مدّعيةً لنفسها سلطانًا مطلقًا، وأن لها حق التصرف في كل شيء، وهذا هو منتهى الشر ومنبع الخراب والفساد والجهل والارتباك والرجوع إلى العالم.

وقد وضع الرسول بولس كرسول من الله بين الكورنثيين أساس «بناء الله»، ولكن آخرون بنوا عليه. على أن المواد التي بنوا بها لم تكن كلها إلهية، فالأساس كان صحيحًا وكان يجب أن لا يُبنى عليه إلا ما هو من الله، ولكننا نقرأ عن مواد عديمة القيمة، فمع الذهب والفضة والحجارة الكريمة بنى البعض خشبًا وعشبًا وقشًا. ومعنى ذلك أن قومًا كانوا يعلّمون تعاليم صحيحة، ولا يقبلون في الشركة إلا من تحققوا صحة إيمانهم، ولكن غيرهم نادوا بتعاليم فاسدة، وقبلوا في شركة الكنيسة أشخاصًا لا إيمان لهم، مكتفين بممارسة صورة التقوى دون التحقق من نوال الإيمان والحياة الأبدية، وهذه هي مسئولية الإنسان، وهنا ظهر ضعفه. على أن الباني نفسه ولو بنى في وقت ما موادًا عاطلة إلا أنه إذا كان مخلّصًا يخلص بإيمانه بالمسيح، وإن احترق عمله. ولكي يتتبع القارئ غرض الوحي تمامًا نورد له الشاهد بنصه، فإن العبارة واضحة وضوحًا لا يقبل التأويل. «حسب نعمة الله المُعطاة لي كبنّاء حكيم قد وضعت أساسًا وآخر يبني عليه. ولكن فلينظر كل واحد كيف يبني عليه. فإنه لا يستطيع أحدٌ أن يضع أساسًا آخر غير الذي وُضعَ الذي هو يسوع المسيح. ولكن إن كان أحدٌ يبني على هذا الأساس ذهبًا فضةً حجارة كريمة خشبًا عُشبًا قشًا، فعمل كل واحد سيصير ظاهرًا لأن اليوم سيبينه. لأنه بنار يُستعلَن، وستمتحن عمل كل واحد ما هو. إن بقي عمل أحد قد بناه عليه فسيأخذ أجرة. إن احترق عمل أحد فسيخسر، أما هو فسيخلص ولكن كما بنار... إن كان أحد يفسد هيكل الله فسيفسده الله» (١كو ٣: ١٠-١٧).

ومما يجدر بنا ملاحظته في قول الرب «أبني كنيستي» إن هذا البناء لم يكن قد وُجدِ بعد حينئذ، فالبناء كان مستقبلاً، فهو لا يقول «بنيت» ولا إنه جارٍ في ذلك الوقت في البناء. ونحن نعلم أن ذلك البناء قد ابتدأ من يوم الخمسين.

بقيت نقطة أخرى مقترنة بمسألة بناء الكنيسة ولها علاقة وارتباط شديد بوجود الكنيسة على الأرض، ولذلك فينبغي أن يتناول بحثنا الكلام عنها لاستيفاء الموضوع من كل وجوهه، ونقصد بها قضية...

مفاتيح ملكوت السماوات

وهذه المسألة تقودنا إلى الكلام عن «البيت الكبير» أي الكنيسة الاسمية. ومع أنه توجد علاقة بين الملكوت والكنيسة، إلا أنه لا يجب الخلط بينهما. فإن المسيح كملك له حق على العالم كله، لأنه اشتراه، فإن «الحقل هو العالم» وعلى عبيده أن يزرعوا في هذا الحقل، والنتيجة هي ذلك البيت الكبير، أي المسيحية *. ولكن الملكوت لن يثبت بالقوة والمجد إلا بعد تنقيته من المعاثر وفاعلي الإثم، وهذا ما سيحدث في الألف سنة.

على أن الرب في أثناء كلامه مع بطرس عن الكنيسة قال له أيضًا «وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات» (مت١٦: ١٩) وشتّان بين الكنيسة التي يبنيها المسيح والملكوت الذي كان بطرس مزمعًا أن يفتحه. ومن أخطاء المسيحية اعتبار الملكوت هو الكنيسة وبالعكس، وأغلب اللاهوتيين، بالنظر إلى عدم فهم هذا الفارق، نجدهم يكتبون عن الملكوت ما يقصدون به الكنيسة وعن الكنيسة ما يقصدون به الملكوت، ومن ثمّ وُجد التشويش. وكما أن «ملكوت الله» يشير إلى الوجه الأدبي «فملكوت السماوات» يشير إلى الوجه التدبيري، وما لم ندرك معنى التدابير المختلفة فإنه يصعب علينا تفصيل كلمة الحق بالاستقامة. ولا يصحُّ مطلقًا الخلط بين ما يبنيه المسيح بنفسه وما يُستخدم فيه الإنسان كواسطة، سواء كان بالكرازة أو بالمعمودية، فالكنيسة التي هي جسد المسيح تُبنى على الاعتراف الصحيح بأن المسيح هو ابن الله الحي الممجَّد بالقيامة، وكل نفس رجعت إلى الله فإن أمرها مع المسيح، ولو

* التعبيرات «الكنيسة» و«ملكوت السماوات» و«البيت الكبير» هي تعبيرات كتابية، وهي تختلف كل منها عن الآخر في معناها حسبما استخدمها الرب ورسله. وتعبير «كنيستي» كما استخدمه الرب لا يمكن أن يطلق إلا على الأعضاء الحقيقيين الأحياء. والفكر الأساسي في تعبير «ملكوت السماوات» لا شك يعبر عن سلطان الرب الذي رفع إلى السماء، وكل من يعترف بخضوعه له يشملهم ملكوت السماوات. أما تعبير «البيت الكبير» ففيه إشارة إلى الشر العامل الذي زحف على دائرة الاعتراف بسبب فشل الإنسان، وبالتالي فهو في اتساعه يوازي ملكوت السماوات والكنيسة المعترفة. في مقابل ذلك نجد تعبيرًا مستخدمًا وإن كان ليس كتابيًا، وهو «المسيحية» وهو تعبير جامع كان المقصود به أولاً كل من تنصروا، أو ذلك القطاع من العالم الذي سادت فيه المسيحية بالمقابلة مع البلاد الإسلامية والبلاد الوثنية. ولكنه الآن يستخدم كمرادف للتعبيرات الثلاثة السابق الإشارة إليها بالرغم من اختلاف المقصود بها أصلاً، وما هذا إلا دليل على مبلغ التشويش الذي وقع فيه المسيحيون.

لم تنتسب للكنيسة الاسمية، أما الملكوت فهو أعم، ويشمل كل المعتمدين باسم المسيح، سواء كانوا مؤمنين حقيقة أم لا.

على أن المسيح لا يقول لبطرس إنه يعطيه مفاتيح الكنيسة، ولا مفاتيح السماوات، فلو أنه قال كذلك لكان النظام البابوي على حق، ولكنه يقول: «أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات» أي التدبير الجديد. ومعلوم لنا أن المفاتيح لا تستعمل للبناء بل لفتح الأبواب، والرب أكرم بطرس بتسليمه مفاتيح الملكوت لفتح الباب أولاً لليهود ثم للأمم (أع٢؛ ١٠)، وكلام المسيح صريح ولا يحتمل غير هذا المعنى. وما أجمل قوله «كنيستي (أنا)»، فمتى كان القلب في شركة مع المسيح من جهة كنيسته فإنه يستطيع أن يُدرك عواطف قلبه من نحوها التي لا يستطيع اللسان أن يُعبِّر عنها. ونحن نحب أن نمكث طويلاً مفكِّرين في قول الرب «كنيستي»، لكن أين لنا بقلم يصوِّر معاني هذه الكلمة وعواطف قلب المسيح المنطوية تحتها. ثم تأمل قوله «هذه الصخرة» وكأنه يقول إن قوة قيامتي وأمجادي كالابن المُقام من الأموات هي أساس ثبات المؤمن وصخرة الكنيسة. وما أجمل قوله «أبني» الذي يدل على أن كل أمور «الكنيسة التي هي جسده ملء الذي يملأ الكل في الكل» (أف١: ٢٣) هي في يديه.

فتح ملكوت السماوات

لقد سلم الرب إدارة الملكوت إلى بطرس كما نشاهد ذلك في الأصحاحات الأولى من سفر الأعمال. أما التعبير نفسه فمأخوذ عن العهد القديم، كما نقرأ في دانيآل (ص٢) عن الملكوت وفي (ص٧) عن المُلك. ومتّى البشير وحده يستعمل عبارة «ملكوت السماوات» لأنه يكتب لأمة اليهود خاصة.

وقد كان الأتقياء من شعب إسرائيل ينتظرون مجيء ملكوت السماوات بقوةٍ ومجدٍ على الأرض بيد مسيا، ويوحنا المعمدان الذي أتى قدّام المسيح كان يكرز بقرب مجيء هذا الملكوت، ولكن اليهود لم يقبلوا المسيح كملكهم، بل بالحري رفضوه وصلبوه، وكانت النتيجة أن الملكوت الذي كان اليهود ينتظرونه أُقيم بصورة أخرى، لأنه لما صعد الرب المرفوض من شعبه إلى السماء وتبوأ كرسيه عن يمين العظمة منتصرًا على كل الأعداء بدأ ملكوت السماوات. فالمَلك الآن في السماء، وكما يقول دانيآل «إن السماء سلطان» (دا٤: ٢٦)، ولو أن هذا السلطان لم يُستعلن بعد. فإنه منذ دخل الرب السماوات إلى وقت رجوعه يبقى الملكوت سرًا (مت١٣). ولكنه متى رجع بقوة ومجد عظيم حينئذٍ يُظهر هذا الملكوت.

وقد أعطى لبطرس امتياز أن يفتح الباب لليهود وللأمم، وهذا ما فعله في خطابيه لليهود في أعمال٢، وللأمم في أعمال١٠. ولكننا هنا نعود ونذكّر القارئ بالفرق الكائن بين الكنيسة التي هي جماعة الله في العهد الجديد وبين ملكوت السماوات، فإن هذه النقطة جوهرية، ويجب أن نتثبت منها جيدًا قبل أن نخطو بالقارئ خطوة أخرى. ويمكننا أن نقول إن عدم التمييز بين هذين الأمرين قد سبب الكثير من التشويش في أذهان المسيحيين، بل ربما كان هو منشأ كل نظام بشري أُدخل على المسيحية. ولفائدة القراء نورد فيما يلي فصلاً لأحد الكتّاب عن مثَل الزوان المذكور في متى١٣ لمناسبته لموضوعنا، ولو أن الكاتب يُشير فيه إلى فترة متأخرة في تاريخ الكنيسة(٢).

مثل الزوان

«قدّم لهم مثلاً آخر قائلاً يُشبه ملكوت السماوات إنسانًا زرع زرعًا جيدًا في حقله. وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زوانًا في وسط الحنطة ومضى» (مت١٣: ٢٤، ٢٥) هذا هو نفس ما حدث في الكنيسة الاسمية، ونتعلم منه أنه يوجد سببان لانتشار الشر بين المسيحيين. السبب الأول عدم سهر المسيحيين أنفسهم، أي تراخيهم وعدم اهتمامهم، ومتى ناموا اغتنم العدو الفرصة فدخل في وسطهم وزرع زوانًا. ونشاهد هذا من بدء تاريخ الكنيسة في سفر الأعمال، حيث نقرأ عن ظهور جرثومة الشر، ثم نقرأ في الرسائل عن انتشارها. والرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي هي أولى تلك الرسائل التي كتبت بالوحي، ثم أعقبها الرسول بالثانية بعد وقت قصير، ومع ذلك فإننا نقرأ فيها عن سر الإثم الذي أخذ يعمل حينئذٍ. ثم بيّن الرسول الأمور التي لابد أن تتبع هذا الأمر، مثل الارتداد، وظهور إنسان الخطية، ثم استعلان الأثيم بعد أن كان يعمل سرًا، فظهور الرب ليبطله بنفخة فمه. ويظهر من هذا أن «سر الإثم» يقابل زرع الزوان، ولكنه بعد مضي زمان «لما طلع النبات وصنع ثمرًا» أي لما نمت المسيحية على الأرض وأينعت أثمارها «حينئذٍ ظهر الزوان أيضًا». إلا أنه واضح أن مبادئ الشر دخلت في وسط المسيحية خلسةً من بدء نشأتها بعد زرع الزرع الجيد، وهذا ما نشاهده دائمًا بمجرد ما يعمل الله عملاً صالحًا فيأتي الشيطان ليُفسده، لأنه يتعقب كل عمل لله. فحين

خلق الله الإنسان جاء الشيطان ووسوس في أذنه فأسقطه من مركزه، وحين أعطى الله الشريعة كسرها الشعب قبل وصولها إلى يديه. هذا هو تاريخ الإنسان على مر الأزمان.

ومتى دخل الشر لم يعد إصلاحه ممكنًا، كما أن الزوان لما زُرع في الحقل لم يتيسر اقتلاعه. ولكن هل معنى ذلك أن نسمح بالزوان في الكنيسة؟ لو كان الملكوت هو الكنيسة لما كان من الواجب أن يكون هناك تأديب في الكنيسة، بل كان ينبغي السماح فيها بدنس الجسد والروح. من ذلك يتضح أهمية التمييز بين الملكوت والكنيسة، فإن الرب حظر اقتلاع الزوان من ملكوت السماوات إذ يقول «دعوهما ينميان معًا إلى وقت الحصاد» (عدد ٣٠) أي حتى يأتي الرب لإجراء الدينونة. فلو كان ملكوت السماوات هو الكنيسة لتحتم علينا - كما قلت سابقًا - أن نسمح للشر أن ينتشر في وسط الكنيسة مهما كانت صورته فلا ننقيه حتى يأتي الرب للقضاء عليه، ومن ثمَّ نرى أهمية ملاحظة هذا الفرق الذي يظنه الكثيرين بلا أهمية. مع أن أهميته ظاهرة لكل راغب في الحق والقداسة العملية. وواضح أن كل كلمة في كتاب الله لها اعتبار ومعنى خاص.

فما معنى هذا المثل إذًا؟ لا شك أنه لا يُشير إلى شركة المؤمنين قط. بل إلى ملكوت السماوات الذي هو مجموع المعترفين باسم المسيح سواء كانوا مؤمنين حقيقيين أم لا. وجميع المنتسبين إلى الطوائف المسيحية، يونانيين كانوا أم أقباط، كاثوليك أو نسطوريين، مع الإنجيليين بجميع مذاهبهم هم ضمن دائرة هذا الملكوت. فهو لا يضم فقط المؤمنين الحقيقيين، بل الأدعياء أيضًا ما داموا يعترفون باسم المسيح. وكل من سمى اسم المسيح ولو كان هرطقيًا أو فاسد الأخلاق هو من ضمن هذه الدائرة ولا يُمكن عزله عنها. ولكن هل يصحُّ قبوله على مائدة الرب؟ حاشا وكلاً. بل كل من يقع في خطية ظاهرة ولا يتوب عنها يجب عزله من الشركة. أما اقتلاعه من الملكوت فغير ممكن، لأن معنى ذلك يكون أخذ حياته من على الأرض. وهذا هو اقتلاع الزوان، وهو الخطأ الذي وقع فيه المسيحيون من بدء تاريخ الكنيسة، فأخذوا يوقعون تأديبات بدنية وعقوبات زمنية عوضًا عن التأديب الكنسي، فسنُّوا القوانين والشرائع الصارمة للضرب على أيدي الأشرار والاقتصاص من فاعلي الشر بطرق مدنية سياسية، وكانت النتيجة أن كل من كان يهين ما يُدعى اسميًا بالكنيسة أو يُخالف رأي زعمائها كان يُحرم من الحياة.

على أن هذا لا يمنع المسيحيين من تأدية مسئوليتهم نحو الذين يُحيطون بمائدة الرب. وفي كلمة الله نجد تعاليم كافية بخصوص ذلك للكنيسة، لأن «الحقل هو العالم» وأما الكنيسة فلا تضم سوى المؤمنين الذين هم أعضاء جسد المسيح. وإذا رجعنا إلى رسالة كورنثوس الأولى حيث يتكلم الروح القدس عن مسألة التأديب الكنسي، ولنفرض وجود أشخاص يعترفون بأنهم مسيحيون ولكنهم واقعون في شر، فمثل هؤلاء لا تقبلهم الكنيسة في الشركة ولا تعتبرهم أعضاء في جسد المسيح ما داموا مستبيحين الشر. وهب أن المؤمن الحقيقي وقع في الشر علنًا ثم عُلِم الأمر للكنيسة فمن واجبها القضاء على ذلك الشر، أما التصريح لمرتكب الشر بالاشتراك في مائدة الرب يُعتبر بمثابة مصادقة من الرب على الخطية، وحاشا أن يكون ذلك. فالمسألة ليست هي هل هذا الشخص مؤمن حقيقةً أم لا، لأنه إذا كان غير مؤمن فكيف دخل الكنيسة؟ وإذا كان مؤمنًا فكيف يُسمح له بالبقاء في الشر؟ فمرتكب الإثم لا يُنزع من الملكوت ولكنه يُعزل من الكنيسة، فلا تناقض إذًا في أقوال الله. ومن الخطأ معاقبة المذنب عقابًا بدنيًا حتى إذا تحقق الأمر، ولو أني قصدت له الخير ولكن لا يصح لي أن أخالف النص الكتابي. ومتى أخطأ المسيحي فوإن كان على الكنيسة أن تتأنى في القضاء، لكن لا يجب أن تسمح ببقاء الشر في وسطها. أما الأشرار غير المؤمنين فأمرهم مع الرب الذي يدينهم عند ظهوره.

هذا ما نتعلمه من مثل الزوان، وهذه هي المسيحية الصحيحة. وكما أن ابن الإنسان زرع حنطة كذلك العدو زرع زوانًا نما مع الحنطة، ولا يُمكن اقتلاعه من دائرة الملكوت. فالداء الذي يتطرق إلى جسم الكنيسة له دواء. أما إلى العالم فلا.

وواضح من كلمة الله ومن التاريخ أن أكبر خطأ وقعت فيها الكنيسة المعترفة كان هو الخلط بين هذين الأمرين - الزوان والحنطة - فمنحت للمُعترفين باسم المسيح بمجرد معموديتهم بدون إيمان صحيح تلك الوظائف والامتيازات الوقتية التي للمؤمنين الحقيقيين المتعلمين من الله. وشتان بين نظام حي ونظام طقسي، وهذا ما يجب على كل دارس لتاريخ الكنيسة أن يميز بينهما.

ومن هذا الخطأ نبت خطأ آخر لا يقل عنه خطورة، وهو أن تلك الدائرة الواسعة التي ضمَّت إليها كل المعترفين أصبحت مُعتَبرة في نظر الناس واصطلاحهم هي كنيسة الله، حتى أن رجال الله أنفسهم

وقعوا في هذا الخطأ، فالتبس عليهم الأمر بين الكنيسة والملكوت، وغاب هذا الفرق عن أذهانهم في وقت مبكر، فأسندوا العمل في المقدسات إلى المعترفين جنبًا إلى جنب مع الأتقياء. والإصلاح لم يتناول هذه المسألة بل فشل في تطهير الكنيسة من هذا الخلط المعيب. والكنائس الإنكليزية والبروتستانتية انساقت وراء هذا الخطأ كما يظهر ذلك من مفهومهم عن المعمودية، ومن كيفية القبول في الشركة. وقد أصبح في أوقاتنا الحاضرة النظام الطقسي منتشرًا إلى درجة مخيفة ولا يزال يزداد انتشارًا، فلم يعُد التمييز بين الحق والباطل، أو بين الحي والميت أمرًا ميسورًا، حتى بين الإنجيليين نفسهم. ويسوؤنا أن نقول إن مئات وألوف في دائرة الكنيسة الاسمية ليسوا مؤمنين بالحق، لأنها جمعت بين الزوان والحنطة - بين الأمناء والأشرار - بين الحكيمات والجاهلات. فعلينا أن نميز أنه وإن كان المعتمدين جميعًا يدخلون ضمن دائرة الملكوت، إلا أن الأحياء المختومين بالروح القدس هم فقط الكنيسة.

بقيت أمامنا نقطة لها علاقة بالكنيسة الاسمية تستدعي التأمل وأعني بها:

القانون الإلهي لسلطان الكنيسة

إن الرب لم يسلِّم لبطرس المفاتيح لفتح أبواب التدبير الجديد فقط، بل عهد إليه بإدارة شؤونه الداخلية أيضًا، وهذا الأمر له علاقة هامة بموضوع كنيسة الله. وصيغة التفويض كما أبلغها الرب إليه كانت هكذا «فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات» (مت١٦: ١٩) فماذا قصد المسيح بهذه العبارة؟ واضح أن الرب أعطى للكنيسة سلطانًا وقوة، ولكن دائرة نفوذها محصورة هنا على الأرض، ولا يوجد في هذا القول إشارة إلى إعطاء الرب سلطانًا للكنيسة في السماء كما يحاول البعض أن يستنتج من هذه الجملة. والكنيسة هنا على الأرض لا شأن لها بما يجري في السماء من جهة الحل والربط، لأن دائرة نفوذها ضمن دائرة وجودها، ولكنها إذا أصدرت حكمًا تحت رياسة الرب فلها وعد منه بالمصادقة على هذا الحكم في السماوات.

وبمناسبة ذكر هذا التفويض يجدر بنا أن نقرر هنا أن هذه العبارة لا يؤخذ منها أن الكنيسة أو أي شخص يتخذ لنفسه صفة فيها له حق التداخل بين النفس وبين الله من جهة خلاصها أو هلاكها ولا من جهة غفران خطاياها أو دينونتها. ومن قال غير ذلك فقد جدَّف على الله، لأنه «من يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحده؟» (مر٢: ٧). هو الذي له هذا السلطان دون سواه. فضلاً عن ذلك فإن الذي تحكم فيهم الكنيسة مغفورة لهم خطاياهم، أو على الأقل مفترض فيهم كذلك. «ألستم أنتم تدينون الذين هم من داخل؟» فالكنيسة إنما تُجري سياستها وتحكم في الذين هم ضمن دائرة الكنيسة «أما الذين هم من خارج فإن الله يدينهم» (١كو٥: ١٢، ١٣). وقد قيل عن كل مؤمن في دائرة المسيحية إنه «بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدسين» (عب١٠: ١٤)، إذاً فإمساك الخطايا أو غفرانها بمعرفة الكنيسة إنما يَصدُق على الوقت الحاضر، وهو في إجرائه حكم تدبيري ليس إلا، بمعنى أن قبول المؤمنين في الشركة مع جماعة الله يتوقف على هذا الحكم المبني على الاعتراف بصحة إيمانهم وسلامتهم من جهة التعليم وقداسة الحياة. وهكذا العزل من الشركة بسبب احتضان شر في السلوك أو التعليم إلى أن تُرَد النفس بالتوبة الصحيحة.

على أنه قد يخطر على بال بعض القراء أن هذا السلطان قد سُلم لبطرس ولبقية الرسل الذين كانوا معه فقط، ثم انقضى أمره بانقضاء حياة الرسل. ولكن هذا الفكر غير صحيح، لأنه وإن كان هذا السلطان قد منحه الرب لبطرس وحده أولاً كما رأينا، ولكنه عاد فأعطاه للكنيسة أيضًا. نعم إن الرسل أظهروا في أيامهم قوة في ممارسة هذا السلطان أعظم مما للكنيسة في الوقت الحاضر، ولكن السلطان الممنوح لهم لم يكن أعظم. فإن السلطان المخوَّل للكنيسة الآن لا يختلف في جوهره عن سلطان الرسل في إجراء التأديب الكنسي، ومع أن القوة أضعف لكن كلمة الرب لا تتغير. صحيح أن الرسول وحده هو الذي يقدر أن يقول كما في ١ كورنثوس٥: ٤، ٥ «باسم ربنا يسوع، إذ أنتم وروحي مجتمعون مع قوة ربنا يسوع المسيح، أن يُسَلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكي تخلص الروح في يوم الرب يسوع» لأن هذا الأمر يحتاج إلى تمييز روحي لا مجرد حكم كنسي *والرسول

* إن أمر التسليم إلى الشيطان يستلزم سلطاناً، ولكن عزل الخبيث واجب محتَّم على الجماعة السالكة بالأمانة. صحيح أن عزل شخص من الشركة مع جماعة الله أمر خطير جداً يُحزن النفس ويُثقل القلب ويعطي للشيطان فرصة علينا، ولكن التسليم للشيطان يستدعي سلطاناً في من يُجريه. ولنا مثال لذلك في قضية أيوب، وكانت النتيجة خيراً له، وهذا ما أجراه الرسول بولس (١كو٥) ولو أنه فعل ذلك من خلال اجتماع القديسين معاً باسم الرب يسوع. ومارسه أيضاً بخصوص هيميناس والاسكندر (١تي١) بدون الرجوع إلى الكنيسة، وذلك حتى لا يُجدفا. وعلى العموم فإن الغرض من التأديب هو إصلاح الشخص، ولو أنه يراعى فيه مجد الرب وحفظ بيت الله في حالة القداسة التي تليق به، وتطهير الجماعة وتبرئة ذمتها. (يوحنا داربي).

نفسه يقول في هذا الصدد «فاعزلوا الخبيث من بينكم» فالعزل لم يكن عمل الرسول وحده، بل عمل الجماعة كلها. وهكذا نجد في هذه الحالة أن خطايا الشخص المعزول قد أُمسكت، ولو أنه واضح أن الشخص كان أخًا مؤمنًا، ثم في الرسالة الثانية والأصحاح الثاني نقرأ عن توبته ورد نفسه تمامًا. وعندما ظهرت توبته وندامته للكنيسة غفرت له خطيته وأُعيد إلى الشركة. وفي حاسيات قلب الرسول من جهة هذا الشخص، ونصائحه التي قدّمها للكنيسة دروس نافعة لكل الذين يتداخلون في أمر التأديب وسياسة الكنيسة حتى لا يُفسحوا المجال للشبهات، ولا يغلقوا أحشاءهم من جهة الأخ المذنب التائب متى أخلص رجوعه للتمتع بامتيازاته وسط شعب الله «مثل هذا يكفيه القصاص الذي من الأكثرين حتى تكونوا بالعكس تسامحونه بالحري وتعزونه، لئلا يُبتلع مثل هذا من الحزن المفرط. لذلك أطلب أن تُمكّنوا له المحبة» (٢كو٢:٦-٨). وفي هذه الواقعة نجد مثالاً كاملاً للتأديب الكنسي بحسب مشيئة المسيح، «كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطًا في السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء» (مت١٨:١٨).

بقاء قانون سياسة الكنيسة

على أن كثيرين يجدون صعوبة في تطبيق هذا القانون الآن ولا يجدون سبيلاً لتنفيذه، ولأجل إزالة هذا الاعتراض نرجع إلى كلمة الله، لأنه ينبغي أن يكون لسان حالنا «أننا لا نستطيع (أي لا نعمل) شيئًا ضد الحق بل لأجل الحق» (٢كو١٣: ٨).

إن هذا السلطان السياسي الذي تكلمنا عنه لم يُعطَ لبطرس ورفقائه من الرسل فقط، بل أُعطى للكنيسة أيضًا. وفي متى١٨ نقرأ عن تطبيق هذا المبدأ الوارد في متى١٦، حيث يقول الرب «فقل للكنيسة. وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشار. الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطًا في السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء ... لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم». ومن هنا نتعلم أن ما يحكم به اثنان أو ثلاثة من المؤمنين مجتمعين معًا باسم المسيح يسوع يصادق عليه الله من السماء، تمامًا مثلما وعد بطرس بهذه المصادقة في (ص١٦). وفي يوحنا ٢٠ عاد الرب فأعطى هذا القانون السياسي بعينه للتلاميذ وليس للرسل وحدهم، وذلك على أساس القيامة من الأموات، حيث أصبحت الكنيسة مقترنة بالمسيح كالإنسان الممجد المقام من الأموات. ولا يخفى ما في ذلك من الأهمية. فإن روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتق كل تلميذ للمسيح من ناموس الخطية والموت، فبُنيت الكنيسة على هذه الصخرة - المسيح المُقام - وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. «ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع، وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود، جاء يسوع ووقف في الوسط، وقال لهم: سلامٌ لكم. ولما قال هذا أراهم يديه وجنبه. ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب. فقال لهم يسوع أيضًا: سلامٌ لكم. كما أرسلني الآب أُرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم: اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياه تُغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت» (يو٢٠:١٩-٢٣). في هذا الفصل يمكننا القول بأن الرب يُقيم أو يفتتح الخليقة الجديدة، فيملأ التلاميذ ويوشحهم بالسلام وبروح الحياة في المسيح يسوع، ثم يرسلهم كسفرائه من جانب القبر الفارغ حاملين بشائر السلام والحياة الأبدية لعالم قد انحنى تحت ثقل الخطية والموت والهلاك الأبدي. ثم يقرّر لهم بكل وضوح قانون سياستهم الداخلية مع بعضهم البعض، الأمر الذي يجعل للكنيسة المسيحية مركزًا سماويًا متميزًا أمام الله والناس.

قانون القبول في البداءة

وبما أن هذا القانون هو أساس اجتماع كل المسيحيين فجدير بنا أن نتأمله مليًا حين كان نافذ المفعول أيام الرسل، ولا ريب أنهم فهموا معناه وأدركوا كيف ينبغي تنفيذه.

أما في يوم الخمسين والأيام التالية له فلا يظهر أن الانضمام إلى شركة المؤمنين كان يقتضي فحصًا وتدقيقًا من جهة صحة إيمان المولودين، سواء كان بمعرفة الرسل أو سواهم «فقبلوا كلامه بفرح واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس» (أع٢:٤١). فقبول الكلمة بفرح كان هو أساس المعمودية والشركة. ولكن العمل كان في ذلك الحين في يدي المسيح وحده «وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون» (أع٢:٤٧). وبمجرد ما مال قلب حنانيا وسفيرة للاختلاس انفضح أمرهما، وقد سلك بطرس حينئذ مسلكًا صالحًا، لأن الروح القدس كان عاملاً بملء قوته ومجده وهو غير محزون، وقد اعترف

بطرس بذلك إذ قال لحنانيا «لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس وتختلس». على أن تلك الحالة لم تلبث طويلاً هكذا، فتطرق الضعف وأحزن الروح القدس، وحينئذ أصبح فحص طالبي الانضمام أمرًا لازمًا للتحقق من أن غرضهم وحالة قلوبهم هي بحسب فكر المسيح. ومعلوم أننا الآن في الأزمنة التي ينطبق عليها ما ورد في تيموثاوس الثانية والأصحاح الثاني، فشركتنا يجب أن تكون «مع الذين يدعون الرب من قلب نقي» (٢تي ٢:٢٢).

ومن حين دخل في الكنيسة أناسٌ مسيحيون بالاسم أصبح من المحتم فحص طالبي الانضمام إلى الشركة بتدقيق. فلم يعد مجرد الاعتراف بالإيمان كافيًا للقبول في الكنيسة، بل وجب امتحانه بمعرفة بعض المؤمنين المتقدمين في الاختبار، حتى إذا قال إنه شعر بثقل خطاياه وحزن في نفسه على تلك الحالة، وندم من قلبه وتاب إلى الله وآمن بالرب يسوع المسيح فيمكنهم الحكم من جهة حقيقة تلك الأقوال. ولكن حتى إذا كان إيمانه حقيقيًا فإن قبوله يجب أن يكون بكل احتراس وتأن، لئلا ينشأ عن انضمامه عن غير قصد إهانة للمسيح أو ضرر لنفسه، أو ضعف للجماعة، وأمر كهذا يستدعي تمييزًا روحيًا، وفي ذلك خدمة لطالب الانضمام نفسه، فضلاً عن ملاحظة مجد المسيح وسلامة ضمائر القديسين. ولكن متى كان قبول الأفراد في الشركة مع المؤمنين متوقفًا على رغبتهم فقط فقل على شركة المسيحيين السلام.

وفي الأصحاح التاسع من سفر الأعمال نقرأ عن تطبيق هذا المبدأ في قبول نفس ذلك الرسول العظيم بولس. وإذا كان شخص كهذا لم يُقبل ضمن جماعة المؤمنين إلا بعد الفحص الدقيق فمن ذا الذي له الحق في أن يشكو من معاملة كهذه إذ طلب القديسون منه برهانًا على صحة دعواه؟ صحيح أن مسألة بولس كانت فريدة في بابها، ولكنه يصح لنا أن نتخذها مثالاً عمليًا نقيس عليه ما يُماثلها.

ومع أن اهتداء بولس كان بطريقة عجيبة وغريبة اشتهر أمرها وذاع خبرها، ولكننا نجد حنانيا في دمشق يتساءل عن صحة الخبر، وهل يا ترى كان اهتداء شاول أمرًا حقيقيًا أم لا، وهكذا فعلت الكنيسة في أورشليم أيضًا. نعم إنه كان عدوًا لدودًا لاسم يسوع، وكان للتلاميذ أن يرتابوا في صحة الإشاعة من هذا الوجه، وهذا هو سبب تردد حنانيا في بادئ الأمر عن تعميده، حتى يتتقن من صحة رجوعه، فنراه يطلب وجه الرب ليستشيره في الأمر. ومنذ عرف فكره تعالى قام توًا نحو شاول قائلاً له إن نفس يسوع الذي ظهر له في الطريق وهو سائر إلى دمشق قد أرسله إليه. فثبت بذلك صدق الأمر من الجهتين، وهكذا تعزى شاول أيضًا، فرجع إليه بصره واعتمد باسم الرب.

أما من جهة الكنيسة في أورشليم فإننا نقرأ «ولما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ، وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ. فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل وحدثهم كيف أبصر الرب في الطريق وأنه كلمه، وكيف جاهر في دمشق باسم يسوع» (أع٩:٢٦-٢٨). وكما أن بولس قدوة للمؤمنين من جملة وجوه فهو أيضًا مثال لطالبي الانضمام من هذا الوجه، لأن قبوله بين الجماعة كان مبنيًا على شهادة قوية وصريحة من جهة حقيقة مسيحيته، وهكذا يجب أن يكون شأن كل طالب الانضمام. على أنه وإن كان يجب التدقيق والاعتناء الكلي في خوف الله حتى لا يدخل بين الجماعة مثل سيمون الساحر، إلا أنه ينبغي أيضًا التلطف والتودد مع النفوس الضعيفة في الإيمان والخائفة. وعلى كل حال فإن أقل ما ينتظر في مثل هؤلاء ظهور حياة المسيح بالتصرف المطابق لتلك الحياة (راجع رو١٤؛١٥؛ ١كو٥؛ ٢كو٢) لأن طريق الجماعة طريق ضيق.

أما البابوية فقد أساءت استعمال سلطان الحل والربط بما يسمونه «الحل الكهنوتي» كما تجاوزت البروتستانتية الحد بالتمادي في الطرف الآخر، حتى أوشكت أن تنكر التأديب الكنسي بالمرة. ربما كان ذلك بادئ الأمر خوفًا من أن تظهر في مظهر الاستبداد البابوي، إلا أن خطة الإيمان تقوم في اتباع كلمة الرب ليس إلا.

• • •

إذ قد مهدنا الطريق بذكر مبادئ الكنيسة والملكوت فنأتي بالقارئ إلى يوم الخمسين، وهو بدء تاريخ الكنيسة. ولكن بدون فهم حقيقة مبادئ المسيحية يتعذر تتبع تاريخ الكنيسة الحقيقي.

الفصل الثاني

يوم الخمسين

يصح لنا أن نعتبر يوم الخمسين اليهودي يوم ميلاد الكنيسة المسيحية. وقد كان هذا اليوم أيضًا عيد تذكار إعطاء الشريعة على جبل سيناء، وإن كان اليهود على ما يبدو لم يحفظوا هذا اليوم لذكرى هذه الحادثة. لقد مر خمسون يومًا على قيامة الرب حتى ظهرت الكنيسة، أي ابتدأ تاريخها، لأن قديسي العهد القديم لا يُعتبرون جزءًا من الكنيسة التي لم يصبح لها وجود واقعي إلا منذ يوم الخمسين.

نعم إن جميع القديسين من البدء لهم حياة أبدية واحدة، وجميعهم أبناء الله الآب الواحد، وسيستوطنون كلهم السماء الواحدة، إلا أن قديسي العهد القديم هم من تدبير آخر، أو بالحري من تدابير أخرى سبقت مجيء ربنا يسوع المسيح.

وكل تدبير كان له بداية ونهاية، كان له ظهور، فارتقاء، فسقوط، فاضمحلال كما نقرأ في الكتاب. ولكل تدبير طابعه الخاص، كما سيكون لمؤمني كل تدبير وضعهم المتميز في السماء. من ثم نقرأ في عبرانيين ١١ عند ذكر أبطال الإيمان في العهد القديم «هؤلاء كلهم مشهودًا لهم بالإيمان لم ينالوا الموعد إذ سبق الله فنظر لنا شيئًا أفضل لكي لا يُكملوا بدوننا» (عب ١١: ٣٩، ٤٠). وإذا كان الله قد نظر لنا «شيئًا أفضل» فلا شك أنه يختلف عما لأولئك القديسين، ونحن ليس لنا سوى أن نصادق فقط على كلمة الله. وفضلاً عن ذلك فإن ربنا يقول لنا في متى ١٦ «وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي» وفي الوقت نفسه يعطي لبطرس مفاتيح الملكوت ليفتح أبواب هذا التدبير الجديد. فالكنيسة إذًا في ذلك الوقت لم تكن قد بُنيت بعد، وأبواب الملكوت لم تكن قد فُتحت. على أنه سيظهر لنا الفرق بين العهد القديم والعهد الجديد بأكثر وضوح متى تكلمنا عن حادثة يوم الخمسين نفسها، ولكن لنستعرض أولاً الرموز التي وردت عنها في سفر اللاويين ص٢٣.

كان الله قد أمر بنى إسرائيل أن يأتوا بحزمة باكورة غلاتهم للكاهن، الذي يرددها أمام الرب لكي يقبلها عنهم. وفي هذه الفريضة إشارة إلى قيامة ربنا يسوع المسيح في فجر الأحد، الذي هو غد السبت اليهودي، والتي هي أساس قبول المؤمن أمام الله. «كلم بني إسرائيل وقل لهم: متى جئتم إلى الأرض التي أنا أعطيكم وحصدتم حصيدها تأتون بحزمة أول حصيدكم إلى الكاهن فيردد الحزمة أمام الرب للرضا عنكم. في غد السبت يرددها الكاهن» (لا٢٣: ١٠، ١١. قارن متى٢٨، مرقس١٦).

ثم بعد مرور سبعة أسابيع على ترديد تلك الحزمة يعيدون بيوم الخمسين، باعتبار أن اليوم الأول هو بدء الحصاد في اليهودية، ويوم الخمسين هو يوم ضم الحصاد، وفيه يعيدون بتقديم الشكر لله وهم حاملون حزمهم إلى المخازن. وكانت تقدمه الشكر عبارة عن رغيفين مخبوزين من دقيق ذلك الحصاد الجديد. وكان الرغيفين يخبزان خميرًا، ويأتون بهما من منازلهم. وقد رأى البعض في الرغيفين إشارة إلى جمع الله الكنيسة من اليهود والأمم معًا. وعلى كل حال فرقم٢ له معنى، فالشهادة كانت تقوم على فم شاهدين. أما الخمير فلا شك عندنا أنه يشير إلى الخطية الساكنة في المؤمن، والكنيسة مكونة من الأفراد المؤمنين.

فحزمة الترديد - وهي رمز جميل للمسيح الطاهر القدوس، المقام من الأموات - كانت تُقدم معها قرابين رائحة سرور، ولا تقدم ذبيحة خطية. أما رغيفا الترديد - وهما رمز للذين هم للمسيح

- فكانت تُقدم معهما ذبيحة إثم، لأنه إذ الخطية موجودة فوجب تقديم ذبيحة للتكفير عنها. ومع أن ذبيحة المسيح الكاملة قد أرضت الله من جهة الخطية الساكنة فينا كما من جهة الخطايا الفعلية التي تظهر في حياتنا اليومية، إلا أن الواقع يؤكد حقيقة سكنى الخطية فينا، أي في أجسادنا، وستبقى هكذا ما دمنا في الجسد في هذا العالم. هذا ما يختبره الجميع، وإن كان ليس الجميع يدركون قيمة كمال عمل المسيح. فالمسيحي «بقربان واحد» قد تكمل إلى الأبد، إلا أنه يجب أن يتذلل ويعترف دائمًا بضعفه أمام الله.

وقد تم الرمز المشار إليه في يوم الخمسين بطريقة عجيبة بحلول الروح القدس فيه، وهكذا نُزع النظام اليهودي، وتثبتت مكانه الكنيسة، ذلك الإناء الجديد، ليكون شاهدًا جديدًا لله. وهنا نستلفت نظر القارئ إلى ترتيب الحوادث، وفي أولها نذكر:

قيامة وصعود المسيح

إن التجسد والصلب والقيامة هي الحقائق العظمى الثلاثة للمسيحية، فالتجسد كان لازمًا ليتم الصلب، والصلب كان ضرورة لتتم القيامة. وواضح أن المسيح جاء في الجسد، وأنه مات فوق الصليب من أجل خطايانا، وبموته مات المؤمن به (راجع رومية٦ وكولوسي٢) فحياة المسيحي هي حياة القيامة، كما أن الكنيسة مبنية على المسيح المقام. ومع أن التجسد والصلب حقيقتان هامّتان وثمينتان، إلا أن الكنيسة متحدة مع المسيح المُقام المُمجد.

وفي الأصحاح الأول من سفر الأعمال نقرأ عن حوادث لها ارتباط بقيامة الرب وصعوده إلى السماء، وكذا بما صنعة الرسل قبل حلول الروح القدس، فربنا المبارك مع أنه قام ولكنه لا يزال يتكلم ويعمل بالروح القدس، وقد أوصى «بالروح القدس الرسل الذين اختارهم». وهذه المسالة جديرة بالالتفات، لأنها تعلمنا أمرين:

أولاً: طبيعة اتحادنا مع المسيح، فإن الروح القدس هو في المؤمن وأيضًا في المسيح المقام، فبهذا يقرنهما معًا. «من التصق بالرب فهو روح واحد» (١كو٦: ١٧) لأنهما اتحدا «بروح واحد».

ثانيًا: أن هذا الأمر يبرز الحق الثمين الخاص بسكنى الروح القدس وعمله في المؤمن حتى بعد قيامته حرفيًا. في ذلك الوقت لن يكون فينا الجسد ليجاهد الروح ضده كما الآن، بل وهو غير محزون أو معطل يقودنا إلى كل أفراح السماء، سجودًا بفرح، وعبادة مباركة، فسوف يكون الكل حينئذ من الله.

ثم إن الرب المقام وهو مجتمع مع الرسل أوصاهم أن لا يبرحوا من أورشليم بل أن «ينتظروا موعد الآب» الذي سمعوه منه، «لأن يوحنا عمد بالماء وأما أنتم فستتعمدون بالروح القدس ليس بعد هذه الأيام بكثير». فلم يعد أمامهم بعد موعد إسرائيل حسب الجسد، لأن تلك المواعيد الأرضية قد تأجلت إلى يوم آت. أما موعد الآب بإرسال الروح القدس كان شيئًا جديدًا له نتائج مختلفة لم تخطر على بال.

وبعد ما لبث مدة وهو يتكلم مع رسله «عن الأمور المختصة بملكوت الله» صعد إلي السماء و أخذته سحابة عن أعينهم. وفي تلك اللحظة أعطي لهم ذلك التعليم الهام المختص برجوعه من السماء بطريقة واضحة وأسلوب صريح «ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون، وأخذته سحابة عن أعينهم. وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس أبيض وقالا: أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقًا إلى السماء». وواضح من هذه العبارة أن الرب بشخصه قد صعد إلى السماء بجسده، وأنه سيظهر شخصيًا ثانية من السماء هكذا كما صعد، فتراه كل عين ظاهرًا للعيان بجسده. إلا أنه سيظهر حينئذ بقوة ومجد كثير.

من هذا المشهد تعلم الرسل درسين، هما:

١- أن يسوع قد أُخذ من هذا العالم و دخل إلى السماء.

٢- وأنه سوف يأتي مرة ثانية إلى هذا العالم.

وعلى هاتين الحقيقتين تأسست شهادتهم، تلك الشهادة التي كانت أورشليم يجب أن تكون نقطة الانطلاق لها، ففيها وجب أن ينتظروا حتى يُلبسوا قوة من الأعالي لتأدية تلك الخدمة. وهذا يقودنا إلى الكلام عن الحادثة الثانية التي تفوق كل الحوادث الأخرى في الأهمية من جهة حال الإنسان هنا على الأرض، ألا وهي عطية الروح القدس. ففي الصليب كان الله عاملاً لأجلنا، ولكنه الآن عاملاً فينا، وهذا ما حدث في يوم الخمسين.

نزول الروح القدس

قد حان الوقت. فالفداء تم، والله تمجد، والمسيح جلس عن يمين العظمة في السماء، فنزل الروح القدس على الأرض، وهوذا الله يدشن الكنيسة ويحتفل بإنشائها احتفالاً يليق بحكمته وقدرته وعظمته وجلاله ومجده بآيات وعجائب ظاهرة، كما نقرأ في وصف هذه الحادثة الشهيرة في أعمال ٢ «ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معًا بنفس واحدة، وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين. وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم» (أع٢:١-٣). وهنا يجدر بنا أن ننتظر قليلاً ريثما نتأمل في بعض أمور لها علاقة بحلول الروح القدس بالقوة في هذا اليوم المشهود.

وأول شيء نلاحظه إتمام موعد الآب، فالروح القدس نفسه نزل من السماء، وهذا هو الحق الثمين المتعلق بيوم الخمسين. لأنه إنما نزل من السماء لكي يسكن في الكنيسة، حيث أُعد له مكانًا برش دم يسوع المسيح. وكان نزوله أيضًا وفاء بوعد الرب لرسله عندما قال لهم «ستتعمدون بالروح القدس ليس بعد هذه الأيام بكثير» (أع١:٥). ليس أن التلاميذ فهموا معنى هذا الوعد عند النطق به، ولكن الوعد أصبح الآن حقيقة راهنة، ولو أن الإعلان الكامل المختص بوحدة «الجسد» بقي مكتومًا، حتى أظهره الرب بواسطة خدمة الرسول بولس، كما يقول في موضع «لأننا جميعًا بروح واحد أيضًا اعتمدنا إلى جسد واحد يهودًا كنا أم يونانيين عبيدًا أم أحرارًا، وجميعًا سُقينا روحًا واحدًا» (١كو١٢: ١٣).

على أنه فضلاً عن العطايا المختلفة التي أُعطيت بعمل الرب فقد نلنا عطية لم يسبق لها نظير، لأن الروح القدس نفسه نزل ليسكن لا في الكنيسة فقط بل في كل فرد من أفراد المؤمنين بالرب يسوع. وهو الآن ساكن في كل مؤمن مستند على عمل المسيح الكامل. لأن الرب سبق فقال عنه «ماكث معكم ويكون فيكم» (يو١٤:١٧). وقد تم هذان الأمران المرتبطان بحضور الروح القدس على الأرض في يوم الخمسين، لأنه جاء من السماء ليسكن في كل مسيحي بمفرده وفي الكنيسة إجمالاً، وصرنا الآن نعلم هذا الحق المبارك وهو أن الله ليس فقط لنا، بل هو أيضًا فينا ومعنا.

لما مسح الله «يسوع الذي من الناصرة بالروح القدس والقوة» ظهر الروح القدس في هيئة حمامة، إشارة إلى الطهارة مع الوداعة التي اتصف بهما الرب يسوع، فصوته لم يكن يسمع في الشوارع، وما كان ليقصف قصبة مرضوضة ولا ليطفئ فتيلة مدخنة. أما التلاميذ الذين كانوا في أورشليم فلم يكونوا هكذا، ولذلك نزل عليهم الروح القدس في ألسنة منقسمة كأنها من نار. ومعنى ذلك ظاهر، فإن الله كان عاملاً بقوة لتأدية تلك الشهادة التي كان يجب أن تبلغ ليس إلى إسرائيل فقط، بل إلى العالم أجمع، وكان لا بد لكلمة الله أن تحكم على كل شيء يقف أمامها، لذلك ظهرت ألسنة كأنها من نار. لقد استعلن قضاء الله على الخطية في الصليب، وها هو الحق ينشر بين الملأ بقوة الروح القدس، لكي تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح. فقد نادوا للخطاة بمغفرة خطاياهم، وللهالكين بالخلاص، وللنفوس المتعبة بالراحة، وللضمائر المضطربة بالسلام، وطوبى للذي يؤمن فيتبارك في المسيح المقام من الأموات ومعه إلى الأبد.

ولا عجب أن اندهش الشعب اليهودي ورجال المجمع حين رأوا تابعي يسوع المصلوب وقد ظهروا في هذا المظهر الغريب بملء القوة، لأنهم كانوا ولا ريب قد اعتقدوا أنه ما دام سيدهم قد مات فما عاد أحد يرى للتلاميذ أثرًا أو يسمع عنهم شيئًا، فقد كانوا على وجه الإجمال من عامة الشعب، وليسوا على شيء من العلم أو الجاه. وما أشد استغرابهم حين سمعوا أن أولئك القوم السذج البسطاء يكرزون جهارًا في شوارع أورشليم، وأن ألوفًا بواسطة كرازتهم هذه آمنوا باسم يسوع. هذه الحادثة كان لها رنة بدون شك حتى من الوجهة التاريخية، لأنه لم يسبق لها مثيل في صفحات التاريخ.

فيسوع كان قد صُلب، والذي قال عن نفسه أنه المسيا المنتظر قد دُفن في القبر، والعسكر الذين كانوا يحرسونه أخذوا رشوة حتى يكذّبوا الخبر الذي شاع من جهة قيامته. ولا شك أن هيجان الرأي العام كان قد انطفأ، فعادت المدينة إلى السكينة والهدوء، ورجع اليهود إلى السجود في الهيكل كما كانوا، وعادت المياه إلى مجاريها كأنه لم يحدث شيء ذو بال. ولكن الله لم يترك الحبل على غاربة ولم يدع الأمور تجرى في أعنّتها، بل كان يرقب الوقت المناسب ويتحين الفرص لإظهار بر ابنه وإعلاء شأنه في نفس المكان الذي أُهين فيه. وهذا ما حدث في صباح يوم الخمسين حين ظهر أتباعه الضعفاء في مظهر القوة العجيبة في وقت لم يُنتظر، ومشهد لم

يخطر على بال أحد، وجاهروا بكل جرأة بأن الله أقام يسوع المسيح وجعله رئيسًا ومخلّصًا، ورفعه إلى السماء حيث تبوأ يمين العظمة في السماوات، وألقوا تبعة محاكمته وصلبه على الرؤساء وعامة الشعب، الذين قتلوا ملكهم ورفضوا المسيا المرسل من الله. «ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جدًا» (رو٥: ٢٠).

ويمكن لنا أن نقول إن الحكم الذي نطق به عدل الله وقت بناء برج بابل قد صدر عكسه في ذلك اليوم، لأن اللغات إذ تبلبلت بها ألسنة الناس في ذلك الحين قد سر الله الآن أن يبلّغ بها بشائر الخلاص، حتى يسمعها كل واحد بلغته الخاصة. فالتفت الجماهير حول التلاميذ ليروا عمل الله العجيب واندهشوا مما رأوا، لأن كل واحد كان يسمعهم يتكلمون بلغته التي وُلد فيها من أفواه قوم جليليين. ولكن اليهود الساكنون في أورشليم إذ لم يفهموا معنى ذلك استهزئوا. حينئذ وقف بطرس في الوسط وخاطبهم بلسانهم مبرهنًا لهم من كتبهم صحة ما شاهدوه بعيونهم.

خطاب بطرس لليهود

جاء في الأصحاح الثاني من سفر الأعمال «وكان يهود رجال أتقياء من كل أمة تحت السماء ساكنين في أورشليم. فلما صار هذا الصوت اجتمع الجمهور وتحيروا لأن كل واحد كان يسمعهم يتكلمون بلغته. فبهت الجميع وتعجبوا قائلين بعضهم لبعض أترى ليس جميع هؤلاء المتكلمين جليليين؟ فكيف نسمع نحن كل واحد منا لغته التي وُلد فيها؟ فرتيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية وبنتس وآسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحي ليبية التي نحو القيروان، والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء، كريتيون وعرب نسمعهم يتكلمون بألسنتنا بعظائم الله. فتحير الجميع وارتابوا قائلين بعضهم لبعض ما عسى أن يكون هذا؟ وكان آخرون يستهزئون قائلين إنهم قد امتلأوا سلافة. فوقف بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وقال لهم: أيها الرجال اليهود والساكنون في أورشليم أجمعون ؛ليكن هذا معلوما عندكم و أصغوا إلى كلامي، لأن هؤلاء ليسوا سكارى كما أنتم تظنون، لأنها الساعة الثالثة من النهار (أي التاسعة صباحًا)».

ثم يتقدم الرسول بطرس فيوضح لليهود أن تلك العجائب التي عاينوها وسمعوها في ذلك الصباح لم تكن مجرد انفعالات وتهيجات عصبية، بل هذا ما كان يجب أن يتوقعوا إتمامه كما جاء في كتبهم النبوية، لأن «هذا ما قيل بيوئيل النبي». ولكن لاحظ جيدًا الأساس الذي يركز عليه الرسول بكل تلك الجرأة، فهو يبني كلامه على قيامة المسيح وتمجيده. ويهمنا أن نلتفت إلى هذه المسالة، لأن ذلك يرينا أساس الكنيسة ومبدأ وجودها على الأرض، ويوم الخمسين هذا كان بدء وجودها وأول صفحة في تاريخ حياتها «يسوع هذا أقامه الله ونحن جميعًا شهود لذلك. وإذا ارتفع بيمين الله وأخذ موعد الروح القدس من الآب سكب هذا الذي أنتم الآن تبصرونه وتسمعونه. لأن داود لم يصعد إلى السماوات، وهو نفسه يقول قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئًا لقدميك. فليعلم يقينًا جميع بيت إسرائيل إن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم ربًا ومسيحًا».

وقد آثرنا أن نقتطف بعض الأقوال التي قيلت تعليقًا على موعظة بطرس هذه وحضور الروح القدس على الأرض على لسان أحد الإخوة المعروفين، قال:

"لم يكن الأمر مجرد تغير في الأخلاق، بل قوة وحّدت الفكر وربطت الذين قبلوها معًا ليصيروا نفسًا واحدة وفكرًا وحدًا، فأصبحوا يواظبون معًا على تعليم الرسل مع بعضهم البعض، وكسر الخبز، صارفين أوقاتهم في الصلوات، وهم شاعرون بقوة حضور الله في وسطهم. وكانت آيات وعجائب كثيرة تعمل فيما بينهم على أيدي الرسل، وكان ارتباطهم شديدًا بهذا القدر حتى أن كل شيء كان عندهم مشتركًا. والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقتسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج، وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل، الذي هو محل عبادة اليهود - ولكن منفصلين عنهم - بنفس واحدة. وعند كسر الخبز كانوا يوجدون في البيوت كل يوم. وكانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب مسبحين الله، ولهم نعمة لدى جميع الشعب الذي حولهم. وبهذه الصورة تكونت الكنيسة، وكان الرب يضم كل يوم الذين يخلصون من غضب الله الذي كان مزمعًا أن يقع على الشعب لرفضه المسيا ابن الله. فابتدأ بذلك عمل جديد يمتاز بحلول الروح القدس، وأصبحت الكنيسة مسكنًا لله بالروح، وإن كان النظام القديم ظل موجودًا إلى أن حل قضاء الله عليه.

ينتج من ذلك أن هذه الجماعة قد تكونت بقوة الروح القدس النازل من السماء بناء على شهادة الرسل بأن يسوع هذا الذي

رفضه الناس قد رفعه الله إلى السماء، وإياه جعل ربًا ومسيحًا. وكانت تلك الجماعة في ذلك الحين تتألف من البقية الإسرائيلية التي قصد الله أن يخلصها من القضاء العاجل، مع بقاء قصده في إدخال الأمم الذين يدعوهم الله(٢:٢)».

هذه هي إذًا كنيسة الله. فهي مكونة من كل الذين دعاهم الله بالروح القدس ليجتمعوا إلى اسم ربنا يسوع. المحبة هي قانونها، بل هي طابع هذا الكيان الجديد. وقد ظهرت قوة المسيح الممجد، وثبت حضور الروح القدس في ذلك اليوم المشهود بمظاهر النعمة القوية الظافرة، إذ انضم ثلاثة آلاف نفس بعظة واحدة. وأولئك القوم الذين كانوا ألد أعداء الرب وشركاء قاتليه في الجرم نُخسوا في قلوبهم بتأثير أقوال بطرس. ولما شعروا بفظاعة إثمهم، وكيف أنهم صلبوا رب المجد ومسياهم المنتظر، ورأوا أن الله مجده وأجلسه عن يمينه في السماء، صرخوا قائلين «ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة؟».

حينئذ أخذ بطرس في تعميق العمل في أعماق نفوسهم، لكي ينسحق أولئك المستهزئون وتذل كبرياؤهم، فقال لهم «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس» فهو لا يقول لهم «آمنوا بالرب يسوع المسيح فتخلصوا» لأن الإيمان والتوبة متلازمان ما دام العمل عمل الله. ولكن بطرس هنا يشدد على أمر التوبة، لأن جرمهم كان عظيمًا، وكان يجب أن يجرى عمل عظيم في ضمائرهم، تتنبه لخطورته فتنتخس في الداخل وتتذلل نفوسهم. كان يجب أن يشعروا بإثمهم في حضرة الله لكي ينالوا غفران خطاياهم عند قدمي ذلك الذي رفضوه وصلبوه. ولكن هذا الحق قد اقترن بالنعمة، فإنه لما مس قلوبهم أصبحوا مع الله ضد أنفسهم، وتابوا عن الشر إليه تعالى، فغُفرت لهم خطاياهم وقبلوا عطية الروح القدس. فأصبحوا الآن أولاد الله ولهم حياة أبدية، وروح الله صار ساكنًا فيهم. وقد ظهر عليهم هذا التغيير بتغيير سلوكهم، إذ «قبلوا كلامه بفرح واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس. وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات».

فكان ما يميزهم عن الآخرين هو المعمودية المبنية على اعترافهم بالإيمان، ثم قبولهم ضمن الكنيسة، وممارسة عشاء الرب، وشركتهم مع القديسين ومواظبتهم على الصلاة، وفي ذلك الوقت تحققت طلبة الرب الأخيرة حين قال: «ليكونوا واحدًا»

كما نقرأ في أعمال ٤:٣٢ «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة، ولم يكن أحد يقول إن شيئًا من أمواله له، بل كان عندهم كل شيء مشتركًا».

الآن نأخذ القارئ إلى الأصحاح العاشر، لأنه مرتبط بهذا المبحث، وفيه نقرأ عن:

دعوة الأمم إلى الدخول

فقد انضم إلى الكنيسة في هذه الحادثة كرنيليوس قائد المئة التقي، مع كل الذين كانوا معه، على أثر خطاب ألقاه بطرس. وكان قد سبق لبطرس الإشارة إلى هذه الدعوة في خطابه الأول يوم الخمسين، ولكنه الآن دعي من الله دعوة خصوصية بطريقة عجيبة لفتح باب الدخول أيضا للأمم الخائفين الله، وقد كانت الكنيسة إلى ذلك الوقت مؤلَّفة من اليهود، إن لم تكن كلها فجُلها، ولكن الله من رحمته وتنازله من نحو شعبه لم يشأ أن يعمل معهم إلا بحسب ضعف أفكارهم، فاختار كرنيليوس «وهو تقي وخائف الله مع جميع بيته، يصنع حسنات كثيرة للشعب ويصلي إلى الله في كل حين» وشخص كهذا لا اعتراض عليه شخصيًا ولا شيء يمنع قبوله وسط الجماعة، وذلك يدل على عناية الله ولطفه ورحمته بشعبه. وهكذا تنازل الله لإزالة كل ريب علق بذهن بطرس، ودفع كل اعتراض بدا منه إذ وبخه بقوله «ما طهره الله لا تدنسه أنت».

فتقدم بطرس لفتح الباب، ولو أنه سار مترددًا وبكل تؤدة، لأن العمل كان جديدًا عليه. إلا أن دهشته بلغت أشدها عندما وجد كرنيليوس يقبل عطية الروح القدس وينال كل البركات بدون أن يصير يهوديًا أو يخضع للفرائض اليهودية. وفي الواقع كانت هذه خطوة كبرى في نظر بطرس واليهود أجمعين، بل في نظر كرنيليوس والأمم أنفسهم، وهي خطوة لا تروق في نظر التقليديين، أو مدعي الخلافة الرسولية أو الطقسيين بأنواعهم. بل في هذا المشهد نجد نورًا كافيًا لكشف حقيقة التدبير الذي نحن فيه الآن «ففتح بطرس فاه وقال: بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه، بل في كل أمة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده». وواضح من هذا أن نوال أعظم بركة سماوية لم يعد وقفًا على اليهود أو مرهونًا بحفظ فرائض وطقوس خارجية، ولا بوضع يد رسول - مع أن الرسول بطرس نفسه بسلطانه كان موجودًا - فقبل أن يعتمدوا

بالماء تعمدوا بالروح القدس، لأنه بينما بطرس يتكلم حل الروح القدس على جميع الذين سمعوا. ولكن كان الله عاملاً في كرنيليوس عمل الإحياء الإلهي قبل هذا كله.

ولا يخفي أن الإحياء بعمل الروح هو غير الختم بالروح. وقبل أن يختم الروح القدس نفسًا يجب أن يوجد ما يختمه، والروح القدس لا يختم طبيعتنا العتيقة، بل يجب أولاً أن ننال طبيعة جديدة من الله حتى يستطيع الله أن يضع ختمه عليها. وعلى ذلك فإن المؤمن ينال الحياة أولاً، ثم لابد أن يكمل العمل بأن يُختم ثانيًا «الذي فيه إذ آمنتم خُتمتم» (أف ١: ١٣). وإذا راجعنا قصة الابن الضال مثلاً، فإننا نقرأ عن رجوعه من الكورة وكان في طريقه إلى بيت أبيه، فقد نال الحياة عندما ترك الكورة البعيدة، إلا أنه كان لم يزل غريبًا عن محبة أبيه ونعمته، ولذلك صدرت منه أقوال تدل على أن لم ينل الإيمان الذي يستند بالتمام على المسيح كمن هو مصدر كل بركة، فقد نال حياة بالرغم من أنه لم يصل إلى الإيمان. ولا شك أنه لم يأخذ ختم القبول والغفران التام إلا من بعد ما وقع أبوه على عنقه وقبّله قبلات المصالحة، وألبسه الخاتم في يده، الذي هو علامة المحبة الأبدية. إن الاهتمام بالنفس وإن كان واجبًا، لكن إنجيل الخلاص يعنى أكثر من ذلك، وقد ينتج عن الاهتمام بالنفس عمل حقيقي لروح الله في النفس، وإن لم يصاحبه الإيمان الذي يكرم المسيح إلى هنيهة. إن ذلك الابن الضال الذي عرف عن الخير الذي يفضل عن الأجرى في بيت أبيه كان عنده بدون ريب بعض الإيمان بما في قلب الآب، وهذا ما حدا به للرجوع إليه، ولكن هذا الإيمان ليس الإيمان المطلوب بحسب حق الإنجيل «من قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق» (ايو ٣: ٣٣).

هذا هو الإيمان. وحيثما وُجد إيمان كهذا فإن الله يختمه، وقد بقي بولس على الأقل ثلاثة أيام في تدريب مر للنفس قبل أن ينال السلام، والراحة الصحيحة التي تتبع الختم بالروح القدس «وكان ثلاثة أيام لا يبصر فلم يأكل ولم يشرب» (أع ٩: ٩). على أننا نعود إلى النقطة التي كنا عندها.

ختم الأمم

إن الحقيقة الجوهرية التي يجب ملاحظتها في أمر دخول الأمم هي أنهم نالوا عطية الروح القدس بمجرد الكرازة بالإنجيل.

ففي أورشليم نرى اليهود يعتمدون أولاً ثم يقبلون الروح القدس، وفي السامرة نقرأ عن نوال الروح القدس بعد المعمودية ووضع أيدي الرسل أيضًا. أما في قيصرية فإن الأمم قبلوا تلك العطية الثمينة بدون معمودية وبدون وضع الأيدي وبدون صلوات، مع أن سر دخول الأمم وسر جسد المسيح لم يكن أعلن بعد.

وهكذا نجد أن نعمة الله التي فاضت على الأمم في بداية هذا التدبير هي امتياز الكنيسة الحاضر. ومعلوم أننا نحن أمم، فلا نحن يهود ولا سامريون، ومن ثم تكون طرق الله ومعاملاته بالنعمة من نحو الأمم منطبقة علينا تمام الانطباق. ولا يوجد شاهد واحد فيما كتبه المؤرخون بالوحي الإلهي يثبت أن شخصًا اعتمد بدون أن يعترف أولاً أنه مؤمن بالمسيح. فإذا تتبعنا مثال الأمور التي حدثت في قيصرية، واعتبرناها نموذجًا لنا، فإننا يجب أن نتحقق دائمًا من الإحياء وكذلك من الختم بالروح، من السلام مع الله مع الإيمان بالمسيح، قبل المعمودية. ولا شك أن قضية كرنيليوس تُعد علامة لتدبيرنا الحاضر، فقد كانت أول خطاب مباشر للنعمة إلى الأمم، ويقينًا هي المثال الذي على تلاميذ المسيح وعلى المبشرين بين الأمم أن يحتذوا حذوه، فمن آمن اليوم بالكلمة التي كرز بها بطرس حينئذ لكرنيليوس فإنه ينال ذات الامتيازات التي نالها هو لا محالة.

والذي نستفيده من هذا هو أن الترتيب الإلهي للأمور كما وردت هنا هو الكرازة بالإنجيل، فالإيمان بالمسيح، فالختم بالروح، فالمعمودية بالماء. ومع أن الأزمنة تتغير، وتتغير معها آراء البشر ومعتقداتهم وطقوسهم، لكن أقوال الله تبقى كما هي. والذين اعتمدوا يهودًا كانوا أم أممًا أم سامريين اعترفوا بالإيمان بالمسيح أولاً. ولا غرابة، لأن المعمودية لا تكون إلا لأناس يفترض أنهم نالوا حياة أبدية بواسطة الإيمان بكلمة الله لا مجرد ممارسة فريضة كما يعلم الكاثوليك الأنجليكان. فهم يقولون إن "الإنسان ينال النعمة والحياة بواسطة الأسرار المقدسة، التي هي وسيلة إيجاد الحياة، بدون امتحان أفكار الشخص الذي ينضم، فإن المعمودية هي واسطة منح الحياة الروحية لطالب الانضمام"(١). ولا حاجة لنا أن نفند هذه الأفكار أو نقول إنها تناقض المكتوب في كلمة الله. ونحن نقرر بكل وضوح وصراحة أن المعمودية لا تهب المتعمد شيئًا، بل الحياة التي ينالها المؤمن إنما تأتي بوسائط أخرى مذكورة في الكتاب. وكل هداية وولادة من فوق إنما هي نتيجة عمل الروح القدس ليس

إلا، كما نقرأ في ١بطرس ١: ٢٢،٢٣ «طهروا نفوسكم في طاعة الحق بالروح للمحبة الأخوية العديمة الرياء، فأحبوا بعضكم بعضًا من قلب طاهر بشدة. مولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد». فنرى هنا أن حق الإنجيل هو الواسطة، والروح القدس هو القوة العاملة في هداية الناس، والمسيح أو الله في المسيح هو غرضها الجديد. فالتغيير الذي يحدث في الإنسان إنما ينشأ من عمل الحق الإلهي بالروح القدس. أما الذين يعتمدون على مجرد الماء وينتظرون أنه يُحدث فيهم تغييرًا فهم مخدوعون بلا شك ووا أسفاه عليهم *.

ونلاحظ في حادثة كرنيليوس التي نحن بصددها أن الأمم قبل أن يمارسوا المعمودية لم يكونوا فقط قد نالوا الحياة، بل أخذوا ختم الله. فالمعمودية إذًا هي العلامة على الخلاص الكامل الذي للمؤمن بموت وقيامة المسيح. ومع أن كرنيليوس كان رجلاً تقيًا، إلا أنه كان يجب أن يرسل ويستدعى بطرس الذي يخبره بأقوال متى سمعها يخلص بها. وهذا الحق نتعلمه من العهد القديم كما من الجديد، فإسرائيل مثلاً كشعب رمزي بعدما رجع إلى الله واحتمى بالدم داخل الأبواب اعتمد لموسى في السحابة وفي البحر، وهكذا خلصوا من مصر خلاصًا كاملاً وأبصروا بعيونهم خلاص الله. وكذلك نوح وعائلته، فقد خلصوا بالماء ليس كواسطة، بل اجتازوا فيه كأنهم عبروا فيه من العالم القديم، مجتازين نهر الموت إلى أن أرسوا على اليابسة وقد صارت كل الأشياء في حالة جديدة، الأمر «الذي مثاله يخلصنا نحن الآن أي المعمودية... بقيامة يسوع المسيح» (قارن خر ١٤ مع ١بط ٣: ٢١).

ولكن قد يتساءل البعض: وما هي الكلمة التي كرز بها بطرس، فنال بواسطتها كرنيليوس كل تلك البركات؟ والجواب إنه بشّره بالسلام بيسوع المسيح كمن هو رب الكل، فالمسيح المقام الممجد كان هو موضوع الشهادة وغرضها، فقد ختم أقواله بهذا التلخيص الكافي «له يشهد جميع الأنبياء أن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا» (أع ١٠: ٤٣). وعلى أثر ذلك أتت البركة، فاندهش لذلك الحاضرون من اليهود. إلا إنهم سجدوا واقتنعوا بتنازل الله إلى الأمم «فبينما بطرس يتكلم بهذه الأمور حل الروح القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة، فاندهش المؤمنون الذين من أهل الختان كل من جاء مع بطرس لأن موهبة الروح القدس قد انسكبت على الأمم أيضًا، لأنهم كانوا يسمعونهم يتكلمون بألسنة ويعظمون الله. حينئذ أجاب بطرس: أترى يستطيع أحد أن يمنع الماء حتى لا يعتمد هؤلاء الذين قبلوا الروح القدس كما نحن أيضًا؟ وأمر أن يعتمدوا باسم الرب. حينئذ سألوه أن يمكث أيامًا» (أع ١٠: ٤٥-٤٨).

ولكننا نتقدم قليلاً فنأخذ القارئ معنا إلى بعض الحوادث الوارد ذكرها قبل الأصحاح العاشر فنتكلم عن أشهرها، ملاحظين في ذلك ترتيب ورودها.

أول شهداء المسيحية

كان استفانوس شماسًا ومبشرًا، وهو أول واحد ينال إكليل الشهادة لاسم يسوع، وله الفخر أن يدرج اسمه في رأس قائمة الشهداء، وهو مثال حسن لمن لحقه منهم. فقد كان رابط الجأش ثابت الجنان، قوي الإيمان غير هياب للأعداء، بل جسورًا جريئًا أمام خصومة، وأمينًا لله في أحرج المواقف، لا يهزه تهديد السنهدريم ولا يرعبه وعيد

* إن الذي يطالع أقوال الآباء في الجيل الرابع بخصوص المعمودية يستطيع أن يحكم في مصدر هذه الخرافات التي سادت على الأذهان، ويدرك سبب هذه المعتقدات التي يتمسك بها الطقسيون في أوقاتنا الحاضرة، لأنهم غضوا الطرف عن الكتب المقدسة وسلطانها الإلهي، كما جاء في كتاب تاريخ المسيحية تأليف: ميلمان بالمجلد الثالث ما تعريبه: "إن فريضة المعمودية كانت تُمارس جهاراً في يوم الخمسين، وفي بعض الجهات في عيد الغطاس، فكان يؤتى بكل المعتنقين للدين المسيحي طول السنة، ما عدا الذين لأسباب خصوصية كانوا يعتمدون وقت إيمانهم، أو الذين كانوا يؤجلون المعمودية إلى وقت احتضارهم، إقتداء بقسطنطين الملك (الأمر الذي حاول الإكليروس أن يبطلوه فلم يفلحوا، مما يدل على أن المسيحيين رسخ في أذهانهم أهمية المعمودية في أمر الخلاص). وكانت المعمودية في نظرهم عبارة عن تطهير النفس من أدران الخطية، والمتنصر الذي يخرج من جرن المعمودية يخرج في حالة الطهارة الكاملة، لأن الروح القدس كان كالحمامة، يرف على وجه المياه لكي يقدسها، حتى أن كل من غطس فيها جلت عنه الدنس، فمحيت خطاياه، بحيث إذا انتقل في الحال من هذا العالم يدخل إلى دار الغبطة والطهر لأن القلب قد تنقى، والذهن استنار، والروح لبست عدم الموت".

وكان المعتمد يلبس ثوباً أبيض علامة الطهارة، ثم يدنو من جرن المعمودية، وهناك يتعهد أن يحافظ على مبادئ الدين، ثم يحول طالب المعمودية وجهة شطر المغرب، ويجحد الشيطان ثلاثاً، ثم يلتفت نحو المشرق ليعبد شمس البر، ويعلن التصاقه برب الحياة، وفي كل دفعة يكرر تعهده ثلاثاً. وأخيراً يغطس في الجرن بعد خلع ملابسه إشارة إلى خلع الإنسان العتيق، وفي بعض الأحيان كان يكتفى بالرش عند الضرورة، وهكذا أصبح ماء المعمودية في لغة الكنيسة بدل دم المسيح، واعتبروا أنه هو المشار إليه بالبحر الأحمر في العهد القديم، وقد بالغ الآباء في المشابهة، حتى قالوا إن ذلك الماء كان يتحول إلى لون ماء البحر الأحمر.

وقد كتب كثيرون من الآباء في ذلك الجيل المصنفات العديدة عن فريضة المعمودية منهم باسيليوس وأغريغوريوس وامبروسيوس وغيرهم، وكان كل واحد منهم يجتهد أن يبارى الآخرين في تبجيل المعمودية وتعظيمها، ونسبة عظائم الأمور إليها، حتى إن أغريغوريوس لم يبق لفظة في قاموس اللغة اليونانية لرفع شان المعمودية إلا واستعملها في مؤلفه[٣٢/٣].

مجمعهم، لا أثر للبغضة في قلبه ولا شيء من الحقد في صدره.

ولا يُشتمُّ من أقواله رائحة الانتقام، بل بكل رقة ولطف من نحو مقاوميه، ودعة وعطف على راجميه، يختم شهادته ويسفك آخر قطرة من دمه، ويرقد بسكون في يسوع.

ونرى في استفانوس مشابهة لسيده من بعض الوجوه، فقوله «أيها الرب يسوع اقبل روحي» (أع٧: ٥٩) يذكرنا بنطق ربنا الأخير السامي «يا أبتاه في يديك أستودع روحي» (لو٢٣: ٤٦). وفي قوله «يا رب لا تقم لهم هذه الخطية» (أع٧: ٦٠) بعض المشابهة للقول «يا أبتاه اغفر لأنهم لا يعلمون ما يفعلون» (لو٢٣: ٣٤). وإن لم يكن في كلام استفانوس التماسًا للعذر لراجميه بسبب جهلهم ذنبهم.

هذه لمحة عن الضيقات التي وقعت على تلك الجماعة حديثة الإيمان من خارج ومن داخل. نعم إن كلمة الله كانت تنمو، وجماهير غفيرة كانت تنضم إلى الكنيسة، وكثيرون من زمرة الكهنة أنفسهم كانوا يقبلون إلى طاعة الإيمان، إلا أن اليونانيين (من اليهود) تذمروا على العبرانيين (وهم مستوطنو اليهودية) لأن أراملهم كن يُغفل عنهن في الخدمة اليومية. فكان ذلك باعثًا لتعيين سبعة شمامسة (أع٦) ومن مراجعة أسماء المنتخبين يتضح أنهم كانوا كلهم يونانيين - أي من جانب المتذمرين، وهكذا يسود الروح القدس دائمًا بالنعمة. وكان استفانوس واحدًا من السبعة، وقد ظهرت فيه تلك الصفات التي ذكرها الرسول بولس لتيموثاوس حين قال «لأن الذين تشمسوا حسنًا يقتنون لأنفسهم درجة حسنة وثقة كثيرة في الإيمان الذي بالمسيح يسوع» (١تي٣: ١٣)، لأنه كان ممتلئًا من الإيمان والقوة، صانعًا عجائب وآيات بين الشعب. وهكذا ظهر عمل الروح بكل جلاء في استفانوس.

وكان في أورشليم في تلك الأيام مجامع كثيرة لليهود تختلف بحسب اختلاف أجناسهم، إلا أن الذين قاوموا استفانوس كانوا من مجمع الليبرتينيين والقيروانيين والسكندريين، ومن الذين من كيليكية وأسيا، ولكنهم «لم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذي كان يتكلم به». فكانت النتيجة التي لا بُد أن تظهر في كل الأحوال التي يُعترف فيها باسم الرب يسوع، فإذ عجز المقاومون عن الجواب، كان أنهم اتهموه ظلمًا أمام المجمع، فأقاموا شهود زور قالوا إن هذا الرجل لا يفتُر عن أن يتكلم تجديفًا ضد هذا الموضوع المقدس والناموس، لأننا سمعناه يقول إن يسوع الناصري هذا سينقض هذا الهيكل ويغير العوائد التي سلمنا إياها موسى. وهكذا ابتدأت محاكمة السنهدريم، ولا تسل عن الدهشة التي أصابتهم جميعًا حين رأوا وجهه كوجه ملاك.

حينئذ طفق استفانوس يلقي على مسامعهم ذلك الخطاب البليغ الذي وقع على آذانهم وقع الصاعقة، فذهلوا منه وذعروا، بل بهتوا من الشهادة التي نطق بها الروح القدس على فم استفانوس. وما كان أوقع تلك الأقوال في نفوسهم المتشامخة، لأن الذي نطق بصورة الحكم كان يونانيًا. ومن ذلك نتعلم عن سلطان الروح القدس المطلق في استخدام من يشاء متى كان عمله غير معطل بالترتيب البشري أو النظم الإنسانية.

وفي خطابه يبرز استفانوس الوقائع الشهيرة في تاريخ شعب إسرائيل مجملة بصورة صريحة ولهجة فصيحة. فقد أشار إلى تاريخ يوسف وموسى، فذكر عن الأول أنهم باعوه حسدًا إلى الأمم، وعن الثاني أنهم أنكروا رسالته وأبوا عليه أن يكون رئيسًا وقاضيًا، ثم أفصح لهم القول أخيرا باتهامه إياهم بأنهم في كل حين يقاومون الروح القدس غير حافظين الناموس، إذ أسلموا البار وقتلوه. وعندما وصل إلى هذه النقطة قاطعوه في الكلام ولم يمهلوه حتى يكمل خطابه. بل مثلوا فيه صورة المعاملة التي ما زال يُعامل بها كل الشهداء إلى يومنا هذا، فحنقوا بقلوبهم وصروا بأسنانهم عليه، وامتلأوا غيظًا واستشاطوا غضبًا. أما هو فعوضًا عن متابعة الموضوع نراه يشخص إلى السماء وهو ممتلئ من الروح القدس، وإذ يرى مجد الله ويسوع قائمًا عن يمين العظمة، حيث موطن القديسين السماوي، فإنه يقول «ها أنا أنظر السماوات مفتوحة» فقد انفتحت له السماء ليرى ابن الإنسان يقف متأهبًا لأن يقبل روحه، أو كما قال أحدهم تعليقًا على هذا المشهد: "هذا هو مركز كل مؤمن حقيقي، فهو من السماء، ولو أنه على الأرض، وسط عالم رفض سيده من قبله و قتله. فالمؤمن إذ هو حي وسط مشهد الموت، فإنه يستطيع أن ينظر بقوة الروح القدس إلى السماء، فيرى ابن الإنسان عن يمين الله. إن استفانوس لا يقول إنه رأى «يسوع» بل «ابن الإنسان» وما أحلى ذلك اللقب لمسمع المؤمن. فهو هنا شاهد لابن الإنسان في المجد، لذا انفتحت له السماء، فيا له من مشهد فريد سواء تأملناه من جهة الرب الذي هو غرض الإيمان، أو من جهة مركز المؤمن".

ابنُ الإنسان ربُّ المجد قائمًا ... وعن يمين الله قد رأيتَهُ
فسرتَ نحوهُ في ثوب النُصرة ... طوباكَ في موتكَ قد شابهتَهُ

نحو السماء قد شخصتَ ثابتا ... حتى خَبا النورُ بعين الجسد
لكن عينَ الروح زادتْ حدةً ... نحوَ الحبيب قد رنتْ في سؤدد

أوجهُكَ اللامعُ لا يَنخسُهُم؟ ... وبالحجارة أرادوا حجبَهُ
بركبتيك قد جثوتَ راكعاً ... لقاتليك العفوَ قد طلبتَهُ

قد فاضت الروحُ إلى خالقها ... فلتفرح النفسُ بفاديها الأمينْ
يا أولَ الشهود أنعمْ راحةً ... لا تعبَ بعدُ ولا مضطهدينْ

• • •

إلى هنا ينتهي القسم الأول من تاريخ الكنيسة، وقد أسهبنا الكلام فيه، لأن أغلب المؤرخين يغفل ذكره، فيبدأون كتبهم من حيث انتهي الوحي. ونخص بالذكر ما ورد في متى١٦ عن الكنيسة، فإنه ليس في بالنا الآن أن أحدًا أشار إليه تاريخيًا مطلقًا. أما سفر الأعمال فقليلون هم الذين نقلوا عنه، مع أنه يسرد أحداث فترة هامة من تاريخ الكنيسة، بل هو فقط من تاريخها ما يحتوي على حق يلزم طاعته، ويفرض إطارًا محددًا لأيماننا.

آن لنا الآن أن ننتقل إلى الأصحاح الثامن من سفر الأعمال، حيث نرى الروح القدس عاملاً في السامرة على يد فيلبس الذي كان قد بارح أورشليم. فهذا الأصحاح يُعد تطورًا هامًا في تاريخ الكنيسة، لا سيما من جهة علاقتها بأورشليم. فلنترك الآن شعب اليهود المتحمس المتهيج المضطهد، ونتتبع مسيرة الروح القدس نحو مدينة السامرة. ولكن ينبغي أولاً أن نلقي نظرة على ما يدعوه البعض «الاضطهاد الثالث».

الفصل الثالث

اضطهاد التلاميذ وتشتتهم

بعد موت استفانوس حدث اضطهاد شديد (أع٨) لأن قادة اليهود على ما يظهر ظنوا أنهم انتصروا على التلاميذ، فأرادوا أن يتمادوا في غيهم ويتابعوا ذلك الفوز الموهوم بكل ما في وسعهم. ولكن الله هو فوق الكل، وهو يعرف كيف يكبح جماح شهوات الناس، فحوّل تلك المقاومة إلى إتمام مقاصد مشيئته.

ولكن الإنسان لم يكن يفهم حينئذ أن "دماء الشهداء هي بذار الكنيسة". وقد تحقق صدق هذه المقولة فعلاً في استشهاد استفانوس. ولكن الغريب أنه مع مضي ثمانية عشر قرنًا على هذه الحادثة، ومع تحقق نفس نتائجها من حين إلى آخر، فإن الإنسان لم يتعلم بعد هذا الدرس *وهو أن الاضطهاد الذي يُقصد منه خفض الجناح، يكون غالبًا سبب رفعه. هذا هو قول الصواب، لأن المقاومة تولّد في المضطَهدين مقاومة نظيرها، فحماسًا، فقوة، فثباتًا. صحيح أن الجبان في مثل هذا الميدان ينكص على أعقابه ويولي الأدبار، فيرتد إلى حين، ولكن مثل هذا أغلب الأحيان يتأثر من جبنه ويندم على حالته. ولكي يعوض عما فرط منه يتحمل من العذاب ألوانًا ويكابد من الاضطهاد ما ينوء تحته الصناديد. وعلى العموم فجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى ويتمثلوا بالرب يسوع يُضطهدون، وعليهم أن يحملوا الصليب كل يوم ويتبعونه. وفي ذلك امتحان لإيماننا وتزكية للبواعث العاملة فينا، وتنشيط لعواطفنا وتقوية لنا في انتظار المسيح والاعتماد عليه.

والشخص غير مخلص النية متى جاء الاضطهاد يعثر لا محالة. أما المحبة فتحتمل كل شيء لأجل الغرض الموضوع أمامها متى لم يكن في وسعها غير ذلك. وهذا ما نجده في شخص ربنا المبارك نفسه، فقد احتمل الصليب من الله، واستهان بالخزي والخجل من الناس، فبانت محبته الشديدة في قوتها وملئها وسط آلام وخجل الصليب، وانتصر على كل العقبات، فلم تستطع أن تحوله عن قصده أو تبرد نار محبته، لأنها كانت أقوى من الموت. وهكذا ترك لنا السيد مثالاً في هذا، كما في كل شيء آخر، لكي نتبع آثار خطواته. ليعطينا الرب أن نجدّ في اقتفاء آثاره.

ومن تاريخ الكنيسة كما ورد في سفر الأعمال نفهم أن نتيجة استشهاد استفانوس كانت سرعة انتشار الحق الذي حاول مضطهدوه أن يلاشوه، لأن تأثير شهادة كهذه لا بُد أدهش الأعداء أنفسهم، وأقنع العقلاء منهم، وفتح لهم بابًا للتفكير. فإن منتهى قساوة البشر كانت الموت، ولكن اتضح أن الإيمان المسيحي أقوى من الموت في أقبح صوَره. وقد شهد الأعداء بذلك ولم يعودوا ينسونه، فإستفانوس كان مبنيًا على صخرة، ولذلك فأبواب الجحيم لم تقوَ عليه.

ولكن نتيجة ذلك تشتت الكنيسة التي في أورشليم، فجالوا مبشرين بالكلمة. وكما يحمل السحاب الذي يدفعه الريح المطر إلى الأرض العطشى، هكذا التلاميذ الذين ساقتهم عاصفة الاضطهاد، حملوا المياه الحية للنفوس الظامئة. «وحدث في ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم، فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل» (أع٨:١). وقد رأى بعض المؤرخين في بقاء الرسل في أورشليم بالرغم من هروب التلاميذ برهانًا على أنهم كانوا أكثر أمانة وجرأة وتمسكًا براية المسيح. ولكننا على العكس نعتبر أن بقاءهم في أورشليم يعد فشلاً وليس أمانة، لأن الرب كان قد أمرهم «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن الروح القدس»

* هذا في أيام الكاتب، والآن مر نحو عشرين قرناً، ولم يتعلم الإنسان هذا الدرس بعد.

(مت٢٨:١٩)، وقال لهم أيضًا «ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى» (مت ١٠:٢٣). ولكن المفهوم من تاريخ الوحي أن الرسل لم ينفذوا هذه الأوامر، ومع كل ذلك فقد عمل الله القدير في بولس للأمم كما في بطرس للختان.

فمن حيث مظاهر القوة ها هو الروح القدس كأنه يودّع أورشليم. وهذا الحق له أهمية عظمى، فإن تلك المدينة الأثيمة فضلت حماية رومية على قوة قيامة مسياهم. بل إنهم قالوا «ماذا نصنع؟ فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة. إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا» (يو ١١:٤٧،٤٨). وكما أنهم رفضوا المسيح في اتضاعه ها هم الآن يرفضون شهادة الروح القدس لارتفاعه، فكمل بذلك مكيال إثمهم وأدركهم الغضب إلى النهاية. فلنتركهم الآن لنتتبع تاريخ الكنيسة في مسيرة الروح القدس إلى السامرة، لنرى النعمة المخلّصة للنفوس الغالية.

نصرة الإنجيل في السامرة

فانحدر فيلبس الشماس، وهو يضارع استفانوس في غيرته وحماسه، إلى السامرة، وكان الروح القدس عاملاً معه. وبمقتضى طرق الله الحكيمة تكون السامرة المحتقرة أول موضع يُكرز فيه بالإنجيل خارج دائرة اليهودية بواسطة ذلك الشاهد الأمين «فانحدر فيلبس إلى مدينة من السامرة وكان يكرز لهم بالمسيح، وكان الجموع يصغون بنفس واحدة إلى ما يقوله فيلبس عند استماعهم ونظرهم الآيات التي صنعها، لأن كثيرين من الذين بهم أرواح نجسة كانت تخرج صارخة بصوت عظيم، وكثيرون من المفلوجين والعرج شفوا، فكان فرح عظيم في تلك المدينة»(أع٨:٥-٨). وهكذا آمن كثيرون واعتمدوا رجالاً ونساء. حتى أن سيمون الساحر نفسه اعترف أن تلك القوة تفوق قوته، فخضع لسلطانها، ولو أن الحق نفسه لم يصل إلى أعماق قلبه وضميره.

ولكن بما أننا فارقنا أورشليم فيحسن بنا هنا أن نذكر مجمل وصف الأرض المقدسة نظرًا لأهميتها أدبيًا تاريخيًا. أما مساحتها فصغيرة جدًا، فهي لا تتجاوز ٢٢٠ كيلو مترًا طولا (طول المسافة بين الإسكندرية والقاهرة) و٦٥ كيلو مترًا عرضًا. "الجليل في الشمال، والسامرة في الوسط، واليهودية في الجنوب. على أنها، مع صغر حجمها، كانت مشهد أعظم الوقائع التاريخية. فيها وُلد المخلّص وعاش ومات ودفن ثم قام ثانية. وفيها عاش الرسل، واستشهد الشهداء. وفيها أُلقيت أول عظة إنجيلية، وهناك تأسست أول كنيسة مسيحية"[٥].

والأرض التي كان يسكنها شعب إسرائيل أولاً تمتد بين مملكتي أشور ومصر، وهذا هو سبب تكرار الإشارة إليهما باعتبارهما «ملك الشمال» و«ملك الجنوب» في العهد القديم، حسب موقعهما الجغرافي بالنسبة لأرض إسرائيل. وبما أنها كانت محصورة بينهما فقد كانت أحيانًا كثيرة ميدان حرب لهما. ونعلم من دانيآل ٩ أنها ستكون أيضًا ميدان آخر موقعة تجرى بينهما أخيرًا. وبالنظر لأهمية هذه البقعة عند التقليديين فقد كانت موضوع نزاع بين الطوائف المختلفة من أيام الرسل إلى الآن. ومن يستطيع أن يحصر الدم الذي سُفك أو الأموال التي أهدرت على هذه السهول المقدسة تحت ستار الغيرة الدينية أو بالحري رايتي الصليب والهلال. وفضلاً عن ذلك فإنها مقصد الحجاج والسياح على مر الأجيال، يؤمها رجال الدين راغبين في تقديم العبادة عند القبر المقدس حيث يوفون نذورهم، ويقصدها المؤرخون والأثريون، ويجول بمدنها الزائرون، فراجت فيها تجارة الآثار المقدسة التي نسبت إليها القدرات المعجزية. فمن أيام إبراهيم كانت هذه البقعة أعظم مركز جذب على وجه الأرض. ودارس الأخبار النبوية يجدها لها أيضًا أهمية في مستقبل التاريخ حين تُعمر بأسباط إسرائيل، وتمتلئ بمجد وجلال المسيا المنتظر، حينئذ تصبح أورشليم أم مدائن العالم.

ولكننا نعود إلى السامرة وأفراحها الحديثة، فقد سمعوا الإنجيل، وبتركة الله قبلوه، وظهرت نتائج عمله في نفوسهم، لأنه «كان فرح عظيم في تلك المدينة» فاعتمد كثيرون. وهذه هي النتيجة الطبيعية للكرازة بالإنجيل، وإلا فالعيب فينا نحن. لأنه حيث توجد بساطة الإيمان فلا بد من طاعة الإنجيل، فالفرح والسلام. هكذا ظهرت قوة الإنجيل، فما عجز الناموس عنه قد أكمله الإنجيل، أو كما قال بعضهم "إن كل قوى اليهودية لم تفلح في فتح السامرة، ولكن نصرة الإنجيل هناك كانت عظيمة لم يسبق لها مثيل".

اتحاد أورشليم والسامرة بالإنجيل

كانت العداوة التي بين اليهود والسامريين مضربًا للأمثال، حتى قيل إن «اليهود لا يعاملون السامريين» (يو ٤:٩)، أما الآن

فبواسطة الإنجيل أزيلت تلك العداوة وقُضي على أصل المرارة. ولكن الله رأى في حكمته أن لا يعطي للسامريين بركة الإنجيل العظمى إلا بوضع أيدي رسل الكنيسة في أورشليم، وتقديم صلوات المؤمنين من اليهود. وهذا الحق ثمين، لا سيما إذا اعتبرنا الخصومة الكائنة بين الفريقين، فلو كانت السامرة لم تتلقن هذا الدرس - درس التواضع - لتاهت وازدهت كبرًا على أورشليم، وشعرت بالاستقلال عنها. ولكن الرب لم يشأ ذلك، فالسامريون كانوا قد آمنوا واعتمدوا، ولكنهم لم يقبلوا الروح القدس «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا اللذين لما نزلا صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس... حينئذ وضعا الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس» (أع٨: ١٤-١٧).

أما وضع الأيادي فيفيد المصادقة والشركة. وعطية الروح القدس أنتجت الوحدة. وهذان الأمران هما امتياز الكنيسة وعنوان تقدمها. وهكذا تحققت السامرة أنها هي وأورشليم وحدة واحدة، لأن الله لم يشأ أن تكون إحداهما مستقلة عن الأخرى، لأنهما لو كانتا قد بوركتا كل منهما بمفردها لبقيت العداوة بينهما واشتدت الخصومة أيضًا، أما الآن فقد زال الفاصل، وتم قول الرب «لا في هذا الجبل ولا في أورشليم» (يو٤: ٢١)، بل واحدٌ هو الرأس في السماء، وواحد هو الجسد على الأرض. روح واحد، عائلة واحدة مفدية تسجد للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين[٥/١].

أما إذا أردت أن تعرف شيئًا عن السامريين وعبادتهم فعليك بمراجعة ٢ ملوك١٧، ومن هناك ترى أنهم «أنصاف يهود»، ولو أنهم كانوا يفاخرون بنسبتهم إلى يعقوب. وهم يعتبرون أسفار موسى الخمسة، ولكنهم لا يقبلون بقية الأسفار كموحى بها من الله. وكانوا يختتنون ويحفظون الناموس على مذهبهم وينتظرون مسيا آت. وفي قصة ربنا المبارك مع المرأة السامرية فائدة ولذة (يو٤) أما البئر التي استراح عندها الرب فقد قيل إنها واقعة في واد محصور بين جبل عيبال وجبل جرزيم حيث كان الناموس يُقرأ، وقد بنى السامريون على قمة الأخير هيكلهم العظيم، الذي طالما أثار حفيظة وغيرة اليهود لما فيه من مناوأة صريحة لمقدسهم الذي بني على جبل المريًا.

الخصي الحبشي وقبوله الإنجيل

ومن السامرة دعا الرب فيلبس فترك العمل الناجح فيها، وقام منحدرًا نحو غزة. وفي الطريق في البرية قابل ذلك الخصي منفردًا، فكرز له بالإنجيل. ولا شك أن المبشر يتعلم من ذلك درسًا نافعًا، من الأهمية بمكان عظيم، ولا يصح أن نمر عليه بدون تعليق.

والمبشر الذي تصادفه ظروف مثل التي وجد فيها فيلبس من جهة نجاح العمل وهداية نفوس كثيرين بالضرورة ينشغل بالخدمة، ويفرح بأثمارها، لأن الله مد يده بالبركة وصادق على الخدمة، وكرس الاجتماعات بحضوره، فأفلح العمل، وأصبح هو موضوع إعجاب الإخوة واحترامهم ومحبتهم. وبالطبع ينتظر من أولاده في الأيمان أن يلتفوا حوله ويطلبوا منه زيادة النور والإرشاد والتعليم، فهل يترك حقل التبشير بهذه الصورة؟ أما جوابنا الوحيد فهو: إذا كان الرب يدعوه إلى مكان آخر كما دعا فيلبس فنعم. ولكن رُبَّ سائل يقول: وكيف يُعلم ذلك الآن مادام روح الله وملاكه لا يكلمان إنسانًا فما لفم كما في أيام فيلبس؟ الجواب: وإن كان الروح لا يكلم الإنسان هكذا، إلا أنه يرشده، وعلى المبشر أن ينتظر الإرشاد، ولكن يجب أن ينقاد للإيمان لا للعيان، فإن الظروف ليست مرشدًا أمينًا. قد يمكن لنا أن نستفيد من الظروف ونتوبخ ونصحح أفكارنا بمقتضاها، ولكن عين الله هي المرشد الوحيد، فوعده «أعلمك وأرشدك الطريق التي تسلكها. أنصحك عيني (أي بعيني التي) عليك» (مز٣٢: ٨). والرب يعلم ما هو خير لعبده ولعمله، وما على المبشر إلا الانقياد، لأنه في خطر السقوط في الكبرياء والافتخار، ومن ثم فتغيير مكان الخدمة في بعض الأحيان يكون لازمًا.

وقال ملاك الرب لفيلبس «قم اذهب نحو الجنوب على الطريق المنحدرة من أورشليم إلى غزة التي هي برية، فقام وذهب. وإذا رجل حبشي خصي وزير لكنداكة ملكة الحبشة كان على جميع خزائنها، فهذا كان قد جاء إلى أورشليم ليسجد، وكان راجعًا وجالسًا على مركبته وهو يقرأ النبي إشعياء. فقال الروح لفيلبس تقدم ورافق هذه المركبة» (أع٨: ٢٦-٢٩).

وما أجمل تلبية فيلبس نداء الروح وطاعته في حينها. لا فرق عنده بين غزة والسامرة، ولا يقارن بين التبشير في برية والعمل في المدن الآهلة بالسكان مثل السامرة، ولا يفضل التبشير

لجمهور كبير على الكرازة بإنجيل الخلاص لشخص واحد، بل يعتمد على إرشاد روح الله. وهذا ما يجب أن يتصف به كل مبشر، فإن الخادم الذي لا يصغي لصوت الروح قد يبقى في مكان ما حتى بعد ما ينتهي الروح من عمله، فتصبح خدمته باطلة.

ونرى أيضًا عناية الله بخادمه، فقد أرسل له ملاكه ليرشده الطريق التي يسلكها، ولكن عندما حان وقت العمل نجد الروح هو الذي يقود فيلبس، «فقال الروح لفيلبس تقدم ورافق هذه المركبة». ولا نجد في تاريخ الكنيسة مشهدًا أجمل من هذا الذي أمامنا على الطريق إلى غزة، فالملاك وروح الله كانا مرافقين لفيلبس، الأول يمثل عناية الله التي ترافق الخادم في الطريق، والثاني هو مصدر القوة الروحية التي تعمل عملها المباشر في النفوس. وكما كان الحال حينئذ هكذا الآن، ولو أننا تعودنا أن نفتكر في قيادة الروح فقط ونسينا إرشادات العناية الإلهية. يا ليتنا نتكل عليه في كل أمر، فهو لا يتغير أبدًا.

وبواسطة هذا الوزير المتصرف في خزائن مملكته في الحبشة دخل الإنجيل تلك الأرجاء القاصية وانتشر، لأن الخصي بعدما آمن رجع إلى بلاده فرحًا، وما كان يتوقع نواله في أورشليم، وتكبد من أجله ذلك السفر الشاق والأموال الكثيرة ها هو قد ناله مجانًا بلا تعب في البرية. وهي أمثولة جميلة لمبدأ النعمة بالإنجيل، فالخروف الضال قد وُجد تائهًا في البراري، وينابيع الماء الحي جرت في القفر، بل في هذه القصة نرى مثالاً جميلاً للنفس الراغبة في الخلاص، فنجد ذلك الشخص يدرس الكتاب متأملاً مفكرًا في أقوال النبوة، مندهشًا لتواضع ذلك الحمل الوديع وعدم مقاومته. وعندما سطع النور في ذهنه وأتى إليه الخلاص، وشرحت له الكلمة بواسطة المبشر، نراه يقبل التعليم ويشربه كما تتوق الأيل إلى جداول المياه، فيؤمن ويطلب المعمودية، ثم يعود إلى بيته فرحًا بتناول كاس الخلاص. وهل نظن أنه رجع إلى بلاده ساكنًا صامتًا ولم يخبر بما حدث أو يبشر بما ناله؟ بالطبع لا. فشخص كهذا عنده هذه الحاسيات وفي مثل ظروفه لا شك أنه اغتنم كل فرصة لنشر الحق، ولكن بما أن الوحي لم ينقل لنا أثمار خدمته في بلاده فنحن نسكت.

أما الروح فلم يزل مرافقًا لفيلبس حتى أتى به إلى أشدود، وهناك كرز لجميع المدن التي في نواحي قيصرية. ثم بزغ في تاريخ الكنيسة فجر يوم جديد بظهور خادم سينفرد بتمثيل دور مهم على مسرح الخدمة، وهو من جملة وجوه يعد أشهر خدام الرب، وأول من تعب في خدمة المسيح والكنيسة.

اهتداء شاول الطرسوسي

لا توجد حادثة في تاريخ الكنيسة عادت بالبركة والنجاح مثل اهتداء شاول، فبعد ما كان أول الخطاة أصبح أول القديسين، وتحول من ألد أعداء المسيح إلى أشد أنصاره غيرة وتمسكًا بالحق. لقد كان خصمًا عنيدًا ومضطهدًا لاسم يسوع على الأرض بقدر ما في وسعه، وهو من هذا الوجه أول المقاومين وكلهم دونه (راجع أعمال ٩، ١ تي ١).

وواضح، مما شهد به عن نفسه، أنه كان يعتقد في الديانة اليهودية أنها ديانة الله الأبدية إلى الإنسان غير القابلة للتغيير. هذا هو سر غيرته وهذا هو المبدأ الذي سار عليه، ومن هنا نقدر أن نفهم سبب مقاومته لكل مشروع يعبث بالديانة اليهودية أو يبطلها، واعتباره كل عامل على إدخال جديد عليها عدوًا يجب مناهضته. وقد سمع خطاب استفانوس البليغ، أو شاهده وهو يرحب بالموت غير هياب. إلا أن استمرار مقاومته للمسيحيين يدل على أن ذلك المشهد المؤثر لم يترك في ذهنه أثرًا يذكر، لأن الحماس قد أعمى بصيرته، مع أن غيرته على اليهودية حينئذ كانت بمثابة اضطهاد للرب نفسه، وها هو «لم يزل ينفث تهددًا وقتلاً على تلاميذ الرب» (أع٩: ١).

ولما سمع أن بعض القديسين التجأوا من جراء الاضطهاد إلى دمشق، وهي من مدائن الشام العريقة في القدم، عزم في نفسه أن يذهب إليهم ويقودهم موثقين بالأغلال كمجرمين يساقون للمحاكمة (أع٢٢، ٢٦). وقد أخذ معه لهذه الغاية رسائل من رئيس الكهنة ومجلس الشيوخ لكي يأتي بهم مقيدين إلى أورشليم حيث يحاكمون. فهو من هذا الوجه رسول اليهود في اضطهادهم لتلاميذ يسوع. نعم إنه فعل ذلك بجهل، ولكنه سلم نفسه لأيديهم ليكون آلة لتنفيذ أغراضهم بمحض إرادته.

وهكذا شرع في المسير وهو على أقصى حد من الحماس والغيرة، فسافر حتى وصل بالقرب من دمشق مأخوذًا بعزمه، شديد التمسك بدين آبائه وأجداده، مستعدًا لأن يقبض على كل من اعتنق المسيحية من قومه، لأنه ارتد عن الديانة الموسوية. ولكن الرب أوقف سيره واعترضه في الطريق بينما هو سادر في غيه حتى الجنون، فأبرق

حوله نور من السماء يفوق الشمس لمعانًا، فسقط على وجهه من شدة النور على الأرض خائر العزم ضعيف القوة، مكسور الإرادة منسحق الروح، فخضع من قلبه للصوت الذي كلمه واعترف بسلطان وصولة الشخص الذي كلمه، لقد تغيّر كل شيء، لأن الاحتجاج والفلسفة وتبرير النفس يبطل أمام الرب، حيث يستد كل فم ويُلجم كل لسان.

عندئذ جاء صوت من المجد الأسنى قائلاً «شاول شاول لماذا تضطهدني؟ فقال من أنت يا سيد. فقال أنا يسوع الذي أنت تضطهده» (أع٩: ٤،٥). وهكذا نرى الرب يسوع، ولو أنه في السماء إلا أنه يعلن وحدته مع تلاميذه الذين على الأرض، فبكلمات قليلة يعلن له إعلانًا أوّليًا عن الحق المبارك الخاص بالكنيسة باعتبارها جسدًا واحدًا، ووحدة الكنيسة معه كالرأس في السماء. «شاول شاول لماذا تضطهدني... أنا يسوع الذي أنت تضطهده»، فمن يشن حربًا على القديسين فإنه يشنها على الرب نفسه. وما أثمن هذا الحق للمؤمن، ثم ما أصعبه على نفوس مضطهديهم.

فذهل شاول من هول المنظر الذي رآه، وتحير من القول العجيب وما يحويه من معنى جديد عليه، وأصابه العمى فلم يبصر ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب. وهكذا دخل دمشق ضريرًا كسير الجناح مؤدّبًا من يد الرب. وشتان بين وصف حاله حينئذ وبين ما كان عازمًا أن يصنعه أولاً، فقد دخل من الباب وأخذ مكانه بين الجماعة التي كان يبغي إفنائها. حينئذ أُرسل إليه حنانيا وهو تلميذ تقي ليعزيه، فعاد إليه بصره، ثم امتلأ بالروح القدس معتمدًا على يديه «ثم تناول طعامًا فأكل وتقوى» (أع٩: ١٩).

لم يكن اهتداء شاول فقط نموذجًا لأناة الرب على الخطاة في اقتيادهم إلى التوبة والخلاص، وإنما كان أيضًا مثالاً لرد الأمة مستقبلاً. ويخبرنا بولس نفسه أنه رُحم لأنه فعل بجهل في عدم إيمان. وهذا هو الأساس الذي تبنى عليه رحمة الله للشعب في أواخر الأيام، فالرب يطلب من أجلهم وهو على الصليب قائلاً «يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (مت٢٣: ٣٤) وعلى هذا الأساس أيضًا قال بطرس «والآن أيها الإخوة أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم كما رؤساؤكم أيضًا» (أع٣: ١٧).

وبما أن إرسالية بولس تختلف عن إرسالية الاثني عشر رسولاً فيحسن بنا أن ندرسها أولاً بالاختصار، لأن في فهمها فهمًا لحقيقة التدبير الحاضر الذي نعيش فيه.

إرسالية بولس

كان الناموس والأنبياء حتى يوحنا المعمدان. ومن بعد يوحنا أخذ الرب نفسه يقدم الملكوت في شخصه لأمة إسرائيل، ولكن «خاصته لم تقبله» فصلبوا رئيس الحياة، ولكن الله أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه في السماوات. ثم جاء الاثني عشر رسولاً وقد ألبسوا قوة من الأعالي بحلول الروح القدس، وشهدوا بقيامة المسيح. ولكن اليهود رفضوا الشهادة وقاوموا الروح ورجموا استفانوس الذي كان بمثابة النداء الأخير لهم، فلم يبقَ سوى أن يرفضهم الله كأمة إلى حين. وهكذا تكررت مشاهد شيلوه القديمة، حين كُتب على أورشليم «ايخابود *»، وأقام الله لنفسه شاهدًا آخر هو صموئيل، فهكذا فعل الآن.

فظهر رسول الأمم العظيم في الوقت المناسب والموضع المناسب، ولم تكن إرساليته ترتبط بأورشليم ولا بالاثني عشر، إذ أن إرساليته كانت غير عادية، فقد أخذها من الرب مباشرة وهو في السماء. لذلك كان له امتياز إعلان الحقائق الجديدة عن الصفة السماوية للكنيسة، ووحدة المسيح والكنيسة، واشتراكها معه في الوطن السماوي الواحد (أف ٢)، تلك الحقائق المباركة التي كانت سرًا لم يعلن من قبل، بل ظلت مكتومة في فكر الله طوال زمان معاملاته مع إسرائيل. لذلك يقول بولس: «لي أنا أصغر جميع القديسين أُعطيت هذه النعمة، أن أبشر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يُستقصى، وأنير الجميع فيما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور في الله خالق الجميع بيسوع المسيح» (أف٣: ٨،٩).

ولا توجد أقل شبهة في كون دعوة الرسول بولس سماوية. وهو الذي يقول في رسالته إلى أهل غلاطية: «بولس رسول لا من الناس ولا بإنسان بل بيسوع المسيح والله الآب الذي أقامه من الأموات» (غل ١: ١) بمعنى أنه لم يستمد سلطانه كرسول من سلطة بشرية، ولا جاءه السلطان على يد إنسان كواسطة. فقد دُعي لا قديسًا فقط، بل رسولاً أيضًا، وتلك الدعوة كانت من الرب يسوع المسيح رأسًا والله الآب الذي أقامه من الأموات. ويمكننا أن نعتبر رسالته من جانب معين أسمى من رسالة الاثني عشر، فأولئك دعاهم الرب يسوع وهو على الأرض، أما هذا فقد دعاه المسيح المقام

* أي «زال المجد».

الممجد في السماء، وبما أن دعوته كانت سماوية، فما احتاج إلى تصديق من الرسل ولا إلى اعتراف بها من الناس «ولكن لما سَر الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيَّ لأبشر به بين الأمم للوقت لم أستشر لحمًا ولا دمًا، ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي، بل انطلقت إلى العربية ثم رجعت أيضًا إلى دمشق» (غل١: ١٥-١٧).

وقد كان الأسلوب الذي دُعي به بولس رسولاً هادمًا لأساس الكبرياء اليهودية ومبطلاً لزعم الخلافة الرسولية. والرسل أنفسهم الذين اختارهم الرب وعيّنهم أثناء وجوده معهم على الأرض لم يكن لهم شأنًا في تعيين بولس رسولاً بأي وجه من الوجوه. ولم يقترعوا عليه كما فعلوا مع ميتاس، العمل الذي برهنوا به على أنهم كانوا لا يزالون على الأرضية اليهودية، فقد كانت القرعة وسيلة مألوفة وسط اليهود لمعرفة القصد الإلهي في مثل هذه الظروف. ولكن عبارة «بولس رسول لا من الناس ولا بإنسان، بل بيسوع المسيح» تنفي كل تدخل من الإنسان مهما كانت صفته، وتبطل فكرة الخلافة الرسولية، فنحن مدعوون قديسين ومدعوون عبيدًا للمسيح، وهذه الدعوة إنما تأتي من فوق من السماء. وها هو بولس نموذج أمامنا للمبشرين بالإنجيل وخدام الكلمة، يأخذ مكانه كأحد المبشرين، فمع كونه رسولاً عظيمًا يقول « فإذا لنا روح الإيمان عينه حسب المكتوب آمنت لذلك تكلمت، نحن أيضًا نؤمن ولذلك نتكلم أيضًا» (٢كو٤: ١٣).

وحالما اعتمد بولس وتقوّى أخذ يجاهر بالاعتراف بالرب يسوع، ويكرز في المجامع بأن هذا هو ابن الله. وهذه الكرازة كانت جديدة، لأن بطرس كرز به مرتفعًا عن يمين الله، وأنه تعين ربًا ومسيحًا. أما بولس فارتقى على سلم الكرازة مناديًا «أن المسيح هو ابن الله». كان الآب في متى١٦ قد أعلن للتلاميذ أن المسيح هو «ابن الله الحي» أما الآن فإن ابن الله لم يعلن فقط لبولس، بل في بولس الذي قال إنه قد سَر الله «أن يعلن ابنه فيَّ» ومن هو كفوٌ أن يعبر عن الامتيازات والبركات التي أصبحت للذين أعلن لهم ابن الله بهذه الصورة، فإن مقام الكنيسة وثباتها متعلق على هذا الحق الثمين. وإنجيل المجد بهذه الصورة قد أؤتمن عليه بنوع خاص الرسول بولس، لذا يدعوه «إنجيلي».

وقد كتب بعضهم في هذا الموضوع فقال إن قضية إعلان الابن بهذه الصورة يتوقف عليها كل ما يختص بدعوة الكنيسة وأمجادها - امتيازاتها المقدسة وقبولها في المحبوب، مع غفران الخطايا بدمه، وتمتعها بكنوز الحكمة والعلم لمعرفة سر مشيئة الله، وشركة الميراث المستقبل مع المسيح وفيه، ذاك الذي سيُجمع فيه كل ما في السماوات وما على الأرض، والروح القدس الذي هو الختم الحاضر، وعربون هذا الميراث، وبعبارة أخرى جميع الامتيازات التي يجملها الرسول في قوله: «كل بركة روحية في السماويات» أي البركات الفائضة لنا بالروح القدس من المسيح الرب، والتي تُتحدنا مع ذاك الذي هو في السماء[٤/٧][٨] (راجع أفسس١: ٣-١٤).

على أن تعليم الكنيسة، الذي هو سر المحبة والنعمة والامتيازات، لم يُعلن لأحد قبل بولس. وإن كان الرب قد أشار إليه عند كلامه عن الروح المعزي، إذا قال «في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في الآب والآب فيَّ وأنا فيكم» (يو١٤: ٢٠)، وأيضًا في قوله بعد القيامة: «أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (يو٢٠: ١٧). ولكن بولس امتاز بإعلانها والتوسع فيها توسعًا خصوصيًا.

الآن لنترك تاريخ بولس قليلاً ونعود إلى ذكر بطرس الذي تفرد بحقل العمل لغاية ظهور بولس بخدمته الجهارية في أعمال١٣.

الفصل الرابع

رسل الصليب

عوضًا عن تتبع فصول سفر الأعمال بالترتيب ربما كان الأكثر فائدة والأنسب أن ندرسها بالنظر إلى هذين الرسولين العظيمين، ومعلوم أن سفر الأعمال عبارة عن سيرة حياة بطرس وبولس، وإن كانا كلاهما منقادين بالروح القدس، لكن كان الأول رسول اليهود العظيم، والأخير رسول الأمم العظيم. ولكننا نحب أن نغتنم هذه الفرصة بأن نأتي على ذكر الاثني عشر رسولاً الذين اختارهم الرب، مع إيراد لمحات مختصرة من تاريخ حياة كل منهم.

على أننا نريد أن نبرز أولاً السبب الذي دعانا للخروج قليلاً عن موضوعنا المباشر. فإن كتب تاريخ الكنيسة التي وقعت تحت بصرنا على ما نعلم لا تتبع تواريخ الرسل بصورة منتظمة. والمؤلفات الأخرى التي تبحث عن سير هؤلاء الأشخاص لا تصل إلى يد أكثر القراء. ونعتقد أنه ينبغي أن يكون لمؤسسي الكنيسة العظام موقعهم في تاريخ الكنيسة، ومن ثم قصدنا أن نسد هذا النقص ونفي بهذه الحاجة بغاية الاختصار.

على أنه مما ينبغي لنا أن ما نعلمه بالتحقيق من سير هؤلاء الرسل خارجًا عن الوحي قليل جدًا، لأن أقوال المؤرخين في هذا الصدد لا يُعوّل عليها كثيرًا. فقد خلط الآباء الوحي مع التقليد فلم يميزوا بين الغث والثمين، ولا فصلوا الحق من الباطل. ومع أننا نعتبر كل شعاع من نور التاريخ الصحيح مفيدًا في محله، إلا أننا يجب أن نرجع إلى الوحي لمعرفة صحيح الأخبار من فاسدها. وبمقارنة ما ورد في سفر الأعمال مع نُتَف التاريخ المبعثرة هنا وهناك يمكن لنا أن نستدل على مميزات كل رسول على حدة. بل أننا في أثناء دراستنا لتواريخ الرسل، لا سيما بولس، سيصادفنا أيضًا ذكر غيرهم من أعمدة الكنيسة، فيصبح لدى القرّاء مجموعة تاريخية لأشهر المبشرين والرعاة والمعلمين والشهداء والقديسين الذين عاصروهم.

الرسل الاثنا عشر

وهؤلاء هم الاثنا عشر رسولاً: سمعان بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا (ابنا زبدي) وفيلبس وتوما وبرثولماوس ومتى ويعقوب ابن حلفى وتداوس وسمعان الغيور ومتياس الذي أخذ مكان يهوذا الإسخريوطي (مت ١٠؛ مر ٣؛ لو ٦).

وكان بولس أيضًا رسولاً بدعوة من الرب رأسًا، وهو كما رأينا متميز عنهم. وكان آخرون مدعوّين رسلاً ولكنهم في الحقيقة كانوا رسل الكنيسة، أما بولس والاثنا عشر فكانوا رسل الرب على الأخص (قارن ٢كو٨: ٢٢ مع ٢في:٢٥ مع رو١٦: ٧).

ومعنى رسول «مرسل» «وهؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع» وهو الذي أعطاهم هذا اللقب «ودعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر الذين سماهم أيضًا رسلاً» (لو ٦: ١٣)، لأن الشرط اللازم للرسولية كان مرافقة الرب في كل أيام خدمته على الأرض، وهذا ما قرره بطرس عندما خطب وسط إخوته لتعيين خلف ليهوذا الخائن حيث قال «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع، وخرج منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا يصير واحد منهم شاهدًا معنا بقيامته» (أع ١: ٢١، ٢٢). فارتباط الشخص مع الرب هو الذي أهّله لأن يكون شاهدًا لخدمته على الأرض وارتفاعه إلى السماء. وهذا ما قصده الرب بقوله: «أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي» (لو ٢٢: ٢٨).

ويكشف العدد ١٢ عن ارتباطهم بأسباط إسرائيل الاثني عشر، وقراءة أقوال الآباء عن معنى العدد ١٢ تكشف عن ضعف تأثرهم بنصوص الكلمة. يقول القديس أغسطينوس: أرى أن ربنا هنا كان ينظر إلى أربعة أطراف الأرض التي كان ينبغي أن ينادى

لها بالكرازة بالإنجيل، ثم ضاعف رقم العالم ثلاثًا كرقم الثالوث الأقدس، فنتج العدد «اثنا عشر» هذا يكشف عن مدى التشويش الذي ينتج عن عدم التمييز بين أمة اليهود والكنيسة.

والعدد ١٢ في الكتاب المقدس يفيد الكمال التدبيري في الإنسان. ومن ثم نقرأ عن اثني عشر سبطًا واثني عشر رسولاً، واثني عشر كرسيًا يجلس عليها الرسل ليدينوا أسباط إسرائيل (مت١٩: ٢٨). وفي هذا الموضوع يحصر الرب إرسالية الاثني عشر إلى خراف بيت إسرائيل الضالة، فلا يفتقدون السامريين ولا في طريق الأمم يذهبون، لأن الإرسالية كانت يهودية بكل معاني الكلمة. «هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (مت ١٠: ٥،٦). ولا يوجد أصرح من هذا الكلام الذي لا توجد فيه إشارة للكنيسة مطلقًا، فإن هذه تعين لها رسول جديد هو بولس، الذي دعي رسول الأمم. حينئذ أخذ الرسل الاثنا عشر مركزهم في الكنيسة، أما بولس فقد دُعي خادمًا لها بنوع خاص.

أما الرأي الشائع أن الاثني عشر رسولاً كانوا أميّين فلا نوافق عليه، وحكم رجال مجمع اليهود عن بطرس ويوحنا أنهما «إنسانان عديما العلم وعاميان» (أع٤: ١٣) في ظننا يشير إلى كونهما لم يدرسا تحت قدمي المعلمين المشهورين مثل غمالائيل. وهذا التعبير يشبه قولنا عن شخص أنه «علماني» أي ليس من رجال الإكليروس أو اللاهوتيين الضالعين في الكتب، وغير حائز على ألقاب إكليريكية. وعلى ذلك فربما كان بطرس ويوحنا دارسين للكتب المقدسة كما يجب ومحيطين بتاريخ أمتهما وبلادهما، ولكن المجمع يعتبرهما «عاميين عديمي العلم». أما يعقوب ويوحنا على الأقل فنعلم أنهما تربيا تربية عائلية دينية، وقد أثمرت في حياتهما وخدمتهما وسط كنيسة الله.

بطرس

مما لا ريب فيه أن بطرس شغل المكان الأول بين الرسل، والرب هو الذي أعطاه هذا المركز بين رفقائه، وفي كل مرة ذكرت أسماء الاثني عشر كان هو الأول. إلا أننا نعلم أن هذا التمييز لم يكن سببه تعرُّف بطرس بالرب قبل إخوته، لأنه من هذا الوجه لم يكن الأول ولا الآخر. فأندراوس عرف الرب قبله، وربما يوحنا أيضًا. وأول مقابلة حدثت بينه وبين الذين أصبحوا عشراءه باقي مدة حياتهم على الأرض تستحق الذكر فنلخصها هنا لإفادة القراء.

كان يوحنا المعمدان يحمل شهادة عن يسوع بأنه «حمل الله» المزمع أن يرفع خطية العالم، فتركه اثنان من تلاميذه وتبعا يسوع. «كان أندراوس أخو سمعان بطرس واحدًا من الاثنين اللذين سمعا يوحنا وتبعاه، هذا وجد أولاً أخاه سمعان، فقال له قد وجدنا مسيًا - الذي تفسيره المسيح - فجاء به إلى يسوع» (يو ١: ٤١،٤٢). هذه كانت بداية التعارف بين بطرس والرب، وأهميتها ظاهرة من القول التالي «فنظر إليه يسوع وقال أنت سمعان بن يونا أنت تدعى صفا الذي تفسيره بطرس (أي حجر)». كان واضحًا فيه صفات الحماس والاندفاع نحو تحقيق هدفه، ولكن كان عنده الاستعداد للتراجع عن طريقه متى نبّهه آخر إلى خطئه. فالرب بنعمته أعطاه ثباتًا، ولو أن صفاته الطبيعية كانت تظهر من حين إلى آخر.

وأهم نقطة ميزت بطرس بين رفقائه كانت اعترافه جهارًا بالمسيح أنه هو ابن الله الحي (مت١٦)، لذلك أكرمه الرب إذ سلمه مفاتيح ملكوت السماوات، فصار له المقام الأول بين إخوته. وقد سبقت الإشارة إلى هذه المسألة التي فصّلناها عند الكلام عن الأصحاحات الأولى من سفر الأعمال، ولذلك فنحن نكتفي الآن بإيضاح ما لم نتكلم عنه.

لذا نذهب إلى الأصحاح الرابع الذي لم نتكلم شيئًا عنه بعد، والذي نعتبره وصفًا لألمع يوم في حياة هذا الرسول، كما كان يوم معمودية كرنيليوس آخر ما بلغ إليه في الخدمة. ربما ظهر في تاريخ هذا الرسول العظيم ضعف كما ظهرت فيه قوة، فأبدى بعض النقائص وسط فضائله العديدة، فمن المفيد لنا أن نتتبع تاريخه من خلال السحب التي اكتنفت المسيحية في بدء نشأتها. إلا أنه لا ينبغي أن ننسى أن سر الجرأة والحكمة والقوة التي ظهرت في الرسل لم تكن بسبب صفاتهم الطبيعية، بل نظرًا لحلول الروح القدس الذي كان معهم وفيهم وعاملاً بهم، فالروح القدس كان هو قوة الشهادة.

ولاحظ بنوع خاص النتائج المباركة لحلوله من أربعة وجوه:

١- من جهة الجرأة التي أظهرها بطرس ومن معه: «حينئذ امتلأ بطرس من الروح القدس وقال لهم يا رؤساء الشعب وشيوخ إسرائيل، إن كنا نُفحص اليوم عن إحسان إلى إنسان

سقيم بماذا شُفيَ هذا، فليكن معلومًا عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع الناصري الذي صلبتموه أنتم، الذي أقامه الله من الأموات. بذلك وقف هذا أمامكم صحيحًا. هذا هو الحجر الذي احتقرتموه أيها البنّاؤون، الذي صار رأس الزاوية. وليس بأحد غيره الخلاص، لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أُعطيَ بين الناس به ينبغي أن نخلص» (أع٤:٨-١٢). فيقرِّر الرسول هنا أن القضية هي بين الله وبين رؤساء إسرائيل، وذلك بأقوال صريحة للغاية. فلم تعد شهادة الله بين أيدي رؤساء الهيكل، بل على أفواه رسل المسيح الممجد.

٢- من جهة حضوره مع التلاميذ كجماعة: «وعندما صلّوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه، وامتلأ الجميع من الروح القدس، وكانوا يتكلمون بكلام الله بمجاهرة» (أع٣:٣١). وواضح من هذا العدد أن الروح القدس كان حاضرًا وسط التلاميذ وساكنًا فيهم كما سبق القول. فإن تزعزع المكان الذي اجتمعوا فيه يبرهن على حضوره معهم. وامتلاؤهم بالروح حينئذ لم يترك فرصة للجسد ليعمل.

٣- من جهة القوة في الخدمة: «وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع ونعمة عظيمة كانت على جميعهم» (أع٤:٣٣).

٤- من جهة الإخلاص وصفاء النية: «لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل» (أع٤:٣٤،٣٥). ونقرأ أيضًا في الأصحاح الثاني أن الأملاك كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج، ولا يخفي أن ذلك يرفع الأغنياء في نظر إخوتهم الفقراء، لأنهم هم الذين كانوا يوزعون عليهم بأنفسهم، أما هنا في الأصحاح الرابع فالأغنياء كانوا يضعون أموالهم عند أرجل الرسل. وعندنا أن هذا العمل دليل على إخلاص النية والبساطة والتواضع في التلاميذ.

كما نجد في هذا الأصحاح أيضًا جواب بطرس ويوحنا الذي ردا به على كلام رجال المجمع بكلمات ملآنة من الحكمة والقوة «إن كان حقًا أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا» (أع٤:١٩). ومن ذلك اليوم إلى الآن قد وجد كل شاهد حقيقي لاسم يسوع في هذه العبارة جوابًا مناسبًا لكل مقاوم أو مضطهد.

وهنا يحق أيضًا أن نقارن بين بطرس وهو جالس يصطلي بالنار في دار رئيس الكهنة، وبينه وهو أمام المجمع في الأصحاح الرابع هذا من سفر الأعمال، وشتان بين من يخاف ويهرب من جارية، ورجل يوقع الرعب في قلوب أمة بجملتها فيذعرها. وما سبب هذا الفرق الهائل يا ترى؟ على السائل أن يذكر حضور الروح القدس بملء قوته وهو غير معطَّل أو محزون أو مُطفأ، فيعرف سر القوة ويستنتج أن سر الضعف المستولي على المسيحيين الآن هو في إهمال هذه الحقيقة عينها، لأن روح الله وحده هو قوة المسيحي. ليعطنا الله نعمة لنعرف سر العيشة بالقداسة والقوة في الخدمة بالروح كما عرفناه عاملاً في الخلاص «لا تحزنوا روح الله القدوس الذي به ختمتم ليوم الفداء» (أف٤: ٣٠).

والآن لنتقدم إلى آخر دور في خدمته المذكورة في كتب الوحي المقدس، فمن عدد ٣٢ من الأصحاح التاسع لغاية عدد١٨ الأصحاح الحادي عشر نقرأ عن كرازته والآيات التي عملها، هناك نراه في ملء سلطانه الرسولي وقوة مرافقة الروح القدس له، وقد بارك الرب جدًا على عمله في ذلك الوقت، سواء كان هذا العمل في مدن إسرائيل أو في نواحيَ قيصرية. ويلوح لنا أن مدينة لدّه ومنطقة سارون حصلت فيها نهضة عامة، فإن الآيات التي صنعها بطرس والمجاهرة بالإنجيل قد استخدمها الله لهداية نفوس الكثيرين، ومن ثم فإننا نقرأ عن «جميع الساكنين في لدّه وسارون الذين رجعوا إلى الرب» (أع٩:٣٥). فالعمل انتشر، وتبارك قول الوحي «رجعوا إلى الرب» يفيد أنهم اهتدوا. وكذلك في يافا أيضًا، فإن إقامة طابيثا أحدثت نهضة «فصار ذلك معلومًا في يافا وآمن كثيرون بالرب» (أع٩:٤٢).

أما في الأصحاح العاشر فنقرأ عن دخول الأمم إلى الكنيسة كما سبق لنا القول. وبعدما انتهي بطرس من رحلته هذه عاد إلى أورشليم، وهناك صار القبض عليه من هيرودس، وفي الأصحاح الثاني عشر تفاصيل كيفية نجاته من السجن، ومن ذلك الوقت لا نسمع عن رسول الختان إلا من حين إلى آخر.

وبمناسبة ذكر هيرودس أغريباس ملك اليهودية الأدومي يحسن بنا أن نذكر بالاختصار الدور الذي مثله على مسرح تاريخ الكنيسة. ويبدو أنه كان غيورًا لناموس موسى، بل تظاهر أيضًا بالمحافظة على طقوسه الخارجية، ولذلك كان من السهل عليه أن يمالئ أمة اليهود في

اضطهاد تلاميذ المسيح، هذه كانت سياسته التي اختطها لنفسه. فهو من هذا الوجه رمز لذلك الملك الذي سيظهر في آخر الأيام.

وكانت بداية أعماله في مناهضة المسيحيين لاستجلاب رضا اليهود من رعاياه سنة ٤٤ بعد الميلاد، ولكن ذلك لم يكن عن محبة لليهود، لأنه كان يبغضهم جدًا في قلبه، بل نكايةً في المسيحيين. ولكنهم جميعهم اتفقوا على مقاومة شهادة الله السماوية، فقتل هيرودس يعقوب بالسيف وألقى بطرس في السجن. وكان قصده أن يبقى بطرس هناك حتى تنتهي أيام الفطير، ثم يستعرضه أمام جمهور اليهود النازحين من جهات كثيرة استرضاء لهم. ولكن الله أجاب صلوات القديسين وخلص عبده من السجن، لأن أسلحة المؤمنين ليست جسدية، ورجال السياسة في هذا الدهر لا يعلمون عنها شيئًا. إلا أن الله بحكمته سلم في يعقوب حتى يختم شهادته بدمه، وأبقى بطرس لكي يتمم شهادته على الأرض. وهكذا نرى الله متداخلاً في كل أمر، فهو العلي المتسلط بين الأمم مهما كان كبرياء الإنسان وإرادته، لأن له القوة والقدرة والجبروت. إذا تداخل بادت كل قوة من أمامه واتضع كل متشامخ. فلما اندحر هيرودس وعجز أمام مظاهر تلك القوة التي لم يستطع تحجيمها لم يجد في وسعه سوى الحكم على الحراس بالموت. ثم ترك اليهودية وهرب إلى قيصرية، ولم يدر في خلده قط أنه سيلقى حتفه قبل الحراس الذين حكم عليهم بالموت.

فإنه عندما وصل إلى قيصرية، وهي عاصمة مملكته، أمر أن تُصنع وليمة فاخرة إكرامًا للإمبراطور كلوديوس، ويُقال إن جمعًا غفيرًا من الأعيان والوجهاء انسلوا إلى هناك من كل صقع. وفي صباح اليوم التالي تجلى الملك في أبهى حلله الملوكية المفضضة التي كانت تبهر الأنظار. ولما رآه الشعب جالسًا هكذا على كرسي الملك ارتاعوا جدًا من المنظر، فجعل يخاطبهم. وعندما سمعوا كلامه صرخ البعض من المداهنين المتملقين «هذا صوت إله لا صوت إنسان»، فهيرودس عوضًا عن ردع هؤلاء أظهر ارتياحه، إلا أنه على ما يُقال لما أحس بقضاء الله العادل انتُخس في قلبه. وبلهجة الآسف الحزين قال: "إن إلهكم مائت نظير بقية الخلائق". وبحسب رواية الوحي نقرأ: «في الحال ضربه ملاك الرب لأنه لم يعطِ المجد لله، فصار يأكله الدود ومات»، لأن مغصًا شديدًا أصابه فصار يلتوي من شدة الألم، فحملوه من الكرسي إلى قصره. وهناك لبث خمسة أيام يتلظى، وأخيرًا فارق الحياة وهو في حالة الفزع الشديد، ومنظر جسمه يقبض النفس ويصغرها.

الهرادسة

وبما أن ذكر سلسلة الهرادسة ملوك اليهودية في غاية المناسبة هنا، ولا بُد أن يجد القرّاء فيها لذّة وفائدة، فقد آثرنا إيراد أهم الملوك الذين أخذوا هذا الاسم، فمنهم من عاصر المسيح، أو ورد ذكرهم في الجيل الرسولي، وجميعنا سمعنا منذ الطفولية بحادثة قتل الأطفال في بيت لحم بأمر هيرودس ملك اليهودية، ولو أن يوسيفوس المؤرخ الأول لهيرودس أهمل ذكرها، والمرجح أن قتل بضعة أطفال في قرية صغيرة لم يكن يستحق عناية مؤرخ مثل يوسيفوس، خصوصًا متى ذكرنا لهيرودس حوادث قتل وسفك دماء بريئة أبشع من هذه. ففي نظر يوسيفوس تلك الحادثة بالنسبة إلى غيرها أصغر من أن يعبأ بها، ولكن ذلك ليس بحسب فكر الله، فقد فضح بهذه الحادثة أخلاق ذلك الملك الغشوم، وأظهر خداع قلبه وفظاعة أعماله، وبيّن الله أن عينيه كانتا تراقبان ذلك المولود ملك اليهودية ورجاء الأمم. وهكذا أُحبطت مساعي هيرودس وخابت آماله البطالة.

وقد تربع هيرودس الكبير أول الملوك الأدوميين على كرسي الولاية في إسرائيل، وصار رأس ملوك تلك السلسلة الهيرودسية بأمر من مجلس الشيوخ في رومية بفضل مساعي مرقس أنطونيوس، وذلك قبل ميلاد المسيح بنحو ٣٥ سنة، وقد مات بعد أن قضى سبعة وثلاثين عامًا في ملكه. والهيرودسيون متناسلون من الأدوميين القدماء، الذين في أيام سبي اليهود في بابل لما أخلوا بلادهم وأجلوا عنها احتلوا القسم الجنوبي منها، وعمروا الأرض التي كانت من نصيب سبط شمعون ونصف نصيب سبط يهوذا، ومن ذلك الوقت سكنوا هناك. ولكن حدث من بعد سنين أن غزاهم يوحنا هيركانوس وطردهم ومن هناك إلى اليهودية قبل ميلاد المسيح بنحو مائة وثلاثين عامًا، وهناك مارسوا فريضة الختان اليهودية، وحافظوا على طقوس موسى، واندمجوا مع نسل الأمة الإسرائيلية، وهكذا تهودوا وإن لم يكونوا يهودًا أصليين *. وقد خرج منهم أمراء عتاة وساسة دهاة، لهم رأي صائب في السياسة وفكر ثاقب في الحيلة، حتى أنهم اكتسبوا ثقة رومية، وأسسوا تلك العائلة المالكة التي أشرنا إليها، ولكن لما انقرضت أورشليم انقرضت أيضًا دولتهم، لأن الله أراد أن يمحو آثار تلك السلالة الظالمة، حتى أن اسم هيرودس

* نقلاً عن مؤلفات لاردنر.

نفسه أصبح أثرًا بعد عين، حتى بين العائلات اليهودية.

وفضلاً عن قتل أطفال بيت لحم فإنه يُعزى إلى هيرودس قبل وفاته بزمن وجيز أنه لطخ يديه بدماء كثيرين من ذوي قرباه، وعدد ليس بقليل من بيت أسمون، وكانت كراهيته لأهل بيته شديدة بهذا المقدار حتى أنه من فرط حسده أمضى قرار ذبح ابنه بيده. وعند احتضاره مؤدّبًا من يد العدل الإلهي مثل هيرودس أغريباس حفيده، انتصب وهو على فراش الاحتضار، وأوصى بموت أنتيباترس، ورشح أرخيلاوس ليكون خليفته على العرش، ثم ارتمي على ظهره ومات.

هكذا عادة ما تكون نهاية ملوك الأرض الذين على شاكلة هيرودس، يوزعون فيها الموت بيد، والملكوت بالأخرى. ولكنهم لا بد يقفون وحقيقتهم عارية أمام محكمة الله العادل، لن ينفعهم حينئذ البز والأرجوان، فالعدل الصارم هو قاعدة كرسي ذلك القاضي. سيجازون بحسب أعمالهم في الجسد، فيُلقَوْن إلى ما وراء الهوة السحيقة التي أُثبتت. هناك سيتذكرون، في العذاب، كل لحظة من تاريخهم على الأرض، سلطانهم الذي أساءوا استخدامه، وفرص عمل الخير التي أضاعوها، وكل شر اخترعوه. ليت الرب يعطي توبة للخلاص لكل نفس تقع عيناها على هذه الصفحات، فتهرب من هول هاوية تذكر الماضي، هاوية العذاب التي أثبتت (لو ١٦).

وكان بين أحزاب اليهود حزب «الهيرودسيين» الذين كانوا موالين سياسيًا لهيرودس، وكان هدفهم السياسي هو تحقيق الاستقلال الذاتي لليهود في مواجهة سلطان روما ومطامعها التوسعية. ولربما تصوروا في هيرودس القدرة على تحقيق ذلك، وقد كشف الوحي الإلهي في الأناجيل أنهم كان يتعاملون بالمكر مع ربنا المبارك، كما كانوا غير أمناء مع الفريسيين (مت٢٢: ١٥، ١٦؛ مر ١٢: ١٣، ١٤).

• • •

نعود الآن إلى تاريخ الرسول بطرس، فبعد خمس سنوات لا نقرأ فيها في سفر الأعمال عنه، يعود للظهور في الأصحاح الخامس عشر، حيث نجده يشغل مركزًا مؤثرًا في الكنيسة في أورشليم، مما ينم عن أنه احتفظ بمكانته الأولى بين الرسل والشيوخ.

بطرس في أنطاكية

من غلاطية٢ نفهم أنه بعد ذلك زار أنطاكية، ولكن بالرغم من قرار الرسل والكنيسة في أورشليم، يغلبه ضعفه الطبيعي، فيجعله يأتي بعمل فيه جانب من الرياء. هذا يكشف عن أن الاقتناع بالمبدأ شيء وتطبيقه شيء آخر. كان بطرس قد تكلم حسنًا أمام الكنيسة في أورشليم بكل مبادئ الإنجيل الذي كان ينادي به بولس بموجب الإعلان الذي أعطي له، أن الله لم يميز بين الأمم واليهود بشيء، فما نالوه من بركة الإنجيل ليس أقل على الإطلاق مما ناله اليهود، ولما كان بمفرده في أنطاكية كان يتصرف على أساس هذا المبدأ، سالكًا بالحرية حسب الحق السماوي وآكلاً مع الأمم. ولكن لما أتى بعض المسيحيين من ذوي الفكر اليهودي من عند يعقوب، نجده يجبن عن أن يستعمل هذه الحرية، إذ «كان يؤخر ويفرز نفسه خائفًا من الذين هم من الختان. وراءى معه باقي اليهود أيضًا، حتى أن برنابا أيضًا انقاد إلى ريائهم» (غل٢: ١٢، ١٣). وقد علق أحدهم على هذا بالقول: "ما أضعف الإنسان حقًا، إننا ضعاف دائمًا أمام مسألة اعتباراتنا وقيمتنا أمام الناس، في الوقت الذي فيه نحن بالحقيقة لا شيء. وعندما نضع في الاعتبار ماذا يقول الناس عنا فليس غريبًا أن نفعل أي شيء. إن بولس، وقد حركه الإيمان متقويًا بالنعمة، بقي في هذا الموقف أمينا بمفرده، ووبخ بطرس أمام الجميع".

ومن بعد هذا الوقت، أي حوالي سنة ٤٩ أو ٥٠ بعد المسيح، لا نعود نقرأ عن بطرس في سفر الأعمال ولا نعلم بالتحقيق دائرة عمله، إلا أنه من عنوان رسالته الأولى التي كتبها للمسيحيين من العبرانيين «الذين في شتات بنتس وغلاطية وكبدوكية وآسيا وبيثينية» يظهر أنه كان يشتغل في هذه الجهات، وقد كتب رسالته الثانية بعد الأولى بكثير. ومن قرائن الأقوال يظهر أنه كتبها قبل وفاته بوقت قصير، بدليل ما ورد في الأصحاح الأول حيث يقول «عالمًا أن خلع مسكني قريب كما أعلن لي ربنا يسوع المسيح» (٢بط١: ١٤ راجع يو ٢١: ١٨، ١٩).

أما تاريخ زيارة بطرس لمدينة رومية فقد كان موضوع بحث وجدال مستطيل بين الكاثوليك والبروتستانت في كل العصور، ولكن يمكن أن يقال بوجه الإجمال أنه أوشك أن يصبح من المقرر الثابت الآن أن بطرس لم يزر تلك المدينة إلا قبيل موته بوقت قصير. وكذلك وقت استشهاده فإنه غير معروف بالتدقيق، ويغلب أن يكون بين سنتي ٧٠ و٧١ بعد المسيح، أي في نحو السبعين من عمره، لأن تاسيتوس المؤرخ يذكر أن حرق رومية بمعرفة نيرون كان في شهر يوليو سنة ٦٤، ومعلوم أن الاضطهاد وقع

على المسيحيين بعد ذلك بقليل، وفي أثناء هذا الاضطهاد لاقى الرسول حتفه نائلاً إكليل الشهادة.

ومع أنه حكم عليه أن يموت مصلوبًا بأشنع صورة، ولكنه لما نظر إلى الصليب توسل إلى أولياء الأمر أن لا يصلبوه كالمعتاد، بل يجعلوا رأسه من أسفل ورجليه من فوق، لأنه لم يكن يستحق أن يأخذ نفس الوضع الذي أخذه قبله ربه وسيده، فأجيب إلى طلبه. وهكذا أسلم الروح ومات مقلوبًا. وسواء صحت هذه الرواية أو كانت من ملفقات التاريخ فهي تنطبق تمام الانطباق على أخلاق الرسول وتواضعه الفائق.(٥)(٩)(١٠)

أندراوس

مع أن الوحي أفاض في شرح تاريخ حياة بطرس، لكنه اكتفى بالقليل جدًا عن أندراوس شقيقه الذي نشأ مع بطرس على حرفة الصيد التي أخذاها عن والدهما، وبقيا يمارسانها حتى دعاهما الرب ليكونا «صيادي الناس».

وكان أندراوس، مثل كثيرين غيره من شباب الجليل، تتلمذ على يدي يوحنا المعمدان، ولكنه لما سمع معلمه يكرز في مسامعه عن يسوع أنه حمل الله الذي يرفع خطية العالم ترك يوحنا وتبع يسوع. وكان هو واسطة إقناع أخيه بطرس لاتّباع هذا السيد الجديد. ومن هذا الوجه له فخر السبق في الدعوة إلى المسيح والكرازة به للآخرين (يو ١). ومن بعد ذلك لا نعود نسمع عنه إلا في الأصحاح السادس من إنجيل يوحنا، ثم الثاني عشر، وأيضًا في الأصحاح الثالث عشر من إنجيل مرقس، وفيما عدا هذه المواضع لا يذكر الوحي عنه شيئًا إلا مجرد ذكر اسمه في الأصحاح الأول من سفر الأعمال.

أما التاريخ والتقليد والحدس والتخمين فقد روت عنه أمورًا عديدة لا نذكر منها إلا ما يترجح صحته. ومما قيل عنه أنه كرز في سكيثيا، وطاف جهات تراقية ومقدونية وصقلية، وأخيرًا مات شهيدًا في أخائية في باترا. ويقال إن صليبه تركب من قطعتين من الخشب متقاطعتين في الوسط على شكل علامة الضرب، حتى اشتهر باسم صليب القديس أندراوس، وقد فاضت روحه وهو يتوسل إلى الشعب ويعظهم أن يثبتوا في الإيمان ويواظبوا على كلمة الله، أما السنة التي توفي فيها فغير معلومة بالتحقيق.

والآن ننتقل من تاريخ بطرس وأندراوس إلى تاريخ يعقوب ويوحنا لأن الأربعة كانوا زملاء في حرفة الصيد. ولكننا نبدأ بذكر:

يعقوب

كان زبدي مع ابنيه يعقوب ويوحنا يمارسان مهنتهما على بحر الجليل عندما مرّ عليهما الرب يسوع. وحالما وقع بصره على الأخوين «دعاهما، فللوقت تركا السفينة وأباهما وتبعاه» (مت ٤: ٢٢) وكان هناك أندراوس وبطرس. وفي هذا الوقت أمر الرب سمعان أن يبعد إلى العمق ويلقي شباكه للصيد، فسمعان في بادئ الأمر نظر إلى المسألة عقليًا حاسبًا أنه ما دام قد تعب الليل كله ولم يأخذ شيئًا فلا فائدة من إلقاء الشباك. ولكنه عاد فقال «على كلمتك ألقي الشبكة. ولما فعلوا ذلك أمسكوا سمكًا كثيرًا جدًا فصارت شبكتهم تتخرق» (لو ٥: ٥، ٦) فاندهش بطرس جدًا وأومأ إلى رفيقيه أن يقتربا لمساعدته واستحضار السفينة إلى البر.

وهكذا اقتنع هؤلاء الرفاق الأربعة أن يسوع هذا هو المسيا المنتظر، وتلك الشكوك التي ربما اختلجت في صدورهم أولاً قد زالت الآن وليس لها أثر فيما بعد، وهكذا دعاهم يسوع أن يتركوا كل شيء ويتبعوه، ومن ذلك الحين أصبحا «صيادي الناس». وفي كل مرة ذُكر فيها تلاميذ الرب كان هؤلاء الأربعة في مقدمة القائمة، لأنهم كانوا الأوائل بين الاثني عشر (انظر مت ٤: ١٧-٢٠؛ مر ١: ١٦-٢٠؛ لو ٥: ١-١١).

هذه هي قصة دعوة يعقوب ليكون تلميذًا ليسوع، وبعد ذلك بنحو سنتين من الزمان تعين رسولاً مع إخوته الاثني عشر (مت ١٠؛ مر ٣؛ لو ٦؛ أع ١).

وقد كان بطرس ويعقوب ويوحنا وفي بعض الأحيان أندراوس، أقرب الرسل إلى الرب المبارك وأخص رفقاءه، وفي أثناء إقامة ابنة يايرس لم يسمح السيد لأحد أن يحضر تلك المعجزة سوى أولئك الثلاثة (مر ٥؛ لو ٨). وهؤلاء الثلاثة وحدهم هم الذين أذن لهم الرب أن يصعدوا معه فوق جبل التجلي (مت ١٧؛ مر ٩؛ لو ٩). ونفس الثلاثة كانوا معاينين آلامه في بستان جثسيماني (مت ٢٦؛ مر ١٤؛ لو ٢٢). أما عند الاستفهام من الرب عن وقت خراب أورشليم فكان الأربعة معًا على انفراد وهم بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس.

وكما غير الرب اسم بطرس فقد لقّب يعقوب ويوحنا بابني الرعد «بوانرجس» ويظهر أنهما اتصفا بالجرأة والغيرة الشديدة، وربما كان ذلك سبب إلقاء القبض على يعقوب أولاً بمعرفة هيرودس لكي يلجم فمه، ولا غرابة إن كان «ابن الرعد» و«الصخرة» هما اللذان يُلقي عليهما الأيادي أولاً. ولكن يعقوب حاز شرف افتتاح قائمة الشهداء من الرسل سنة ٤٤ بعد المسيح، بينما بطرس نجا بمعجزة.

وقد جاءت مرة سالومة بسبب غيرتها النابعة من غريزة الأمومة، وطمعًا من ولديها، تسأل من الرب أن يعطي ابنيها يعقوب ويوحنا أنصبة متميزة في الملكوت. أما الرب فإنه وبخها بلطف، ثم التفت إلى التلميذين قائلاً لهما إن الكأس التي يشربها سيشربانها، والصبغة التي يصطبغ بها سيصطبغان بها. وقد دُعي يعقوب لتحقيق صدق هذه النبوة، فإنه بعد صعود الرب نراه برفقة الرسل كما جاء في الأصحاح الأول من سفر الأعمال. وبعد ذلك لا نعود نقرأ عنه على صفحات الوحي إلا حين إلقاء القبض عليه ليلاقي حتفه كما في أعمال١٢. وكل ما ورد في شأنه على لسان الروح القدس هو أن هيرودس الملك «قتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف» (ع٢).

وقد روى أكليمندس السكندري عن واقعة استشهاد يعقوب رواية لا يبعد أن تكون صحيحة لمطابقتها للظروف ؛مفادها أن الضابط أو الجندي الذي كان يخفر يعقوب ويسوقه من السجن إلى المحكمة قد أدهشته شجاعته وثبات عزيمته، لا سيما وقت المحاكمة، حتى أنه ندم على ما فرط منه وأتى ساجدًا عند رجلي الرسول طالبًا الصفح عما جناه. أما يعقوب الذي راعه المنظر فإنه أخذ بيده وأقامه على رجليه وعانقه، ثم قبّله وهو يقول: "سلام يا ابني سلام لك. لقد صفحت عنك"، وحينئذ أعلن الرجل إيمانه واعترف جهارًا أنه اعتنق المسيحية، فقطعوا رأسه كما قطعوا رأس يعقوب. وهكذا مات يعقوب أول شهداء الرسل، وبكل سرور شرب تلك الكأس التي كان الرب قد تنبأ أنه سيشربها [11].

يوحنا

هو ابن زبدي وسالومة وأخو يعقوب الأصغر، ومع أن والده كان صياد سمك إلا أنه يظهر من رواية الكتاب عنه أنه كان من عائلة شريفة، ويؤكد بعض الثقاة من الرواية أنه كان من أسرة غنية وعريقة في النسب، ولكننا لا نجزم بهذه الرواية ونظنها لا تنطبق تمامًا على روح الإنجيل ؛إلا أننا نعلم أنه كان عندهم خدم، وربما كثير من آنية البيت، ولا شك عندنا أن سالومة أمه كانت من ضمن النساء الموسرات اللواتي خدمن الرب يسوع من أموالهن، وواضح أن يوحنا كان له منزل خاص به (لو٨: ٣ ؛ يو١٩: ٢٧) وكل هذه الحقائق تدل على أنه كان في سعة من العيش أو على الأقل لا يُعد من طبقة الفقراء، وبما أن البعض بالغوا في وصف الرسل كأميين وفقراء جدًا فالرجوع إلى كلمة الله لإثبات تطرفهم في هذا الأمر لا يعد خروجًا عن الموضوع.

أما زبدي فلا علم لنا بشيء عنه سوى أنه لم يعترض على انفصال ولديه عنه واتباعهما يسوع، ولكننا فيما عدا ذلك لا نقرأ عنه شيئًا في الوحي. أما والدته فكثيرًا ما قرأنا عنها برفقة ولديها، ويحتمل أن يكون والده توفي عقب دعوة الرب للابنين بقليل.

وحينما وصل مرقس البشير عند إيراد أسماء الرسل الاثني عشر في ص٣: ١٧ إلى ذكر يعقوب ويوحنا قال إن الرب دعاهما «بوانرجس أي ابني الرعد». أما قصد الرب بالتمام في هذا اللقب فلا يمكن الجزم فيه ولا استنتاجه بسهولة. صحيح أن كثيرين أوّلوا هذا اللقب تأويلات شتى، فالبعض ظن أن سبب هذه التسمية تحمس الشخصين وحدة طبعهما الناري بالمقابلة مع بقية الرسل، ولكننا لا نرى أساسًا لهذا الزعم في صفحات الوحي. صحيح أنهما أظهرا غيرة شديدة وتطرفًا في التحمس مرة أو مرتين، ولكن ذلك صدر منهما قبل أن تتغير طباعهما. ويحتمل أن الرب أطلق عليهما هذا الاسم لما توقعه منهما من جهة المجاهرة بالإنجيل، ولما توسمه فيهما من الغيرة الشديدة على نشر لواء الإنجيل بعدما تمكنا منه. ونحن متأكدون أن يوحنا مع بطرس أيضًا قد أظهرا في بداية تاريخ الكنيسة كما ورد في الفصول الأولى من سفر الأعمال جرأة لا تعرف التهديد ومجاهرة لا تخشى الوعيد، ولا ترهبها المقاومة مهما اشتد وطيسها.

ويوحنا، على ما يُظن، كان أصغر الرسل سنًا. ومن مطالعة كتاباته يظهر أن طبعه كان هادئًا وديعًا ومحبوبًا جدًا، وقد اتصف بكونه «التلميذ الذي كان يسوع يحبه» وطالما اتكأ على صدره، وكانت له فرصة للمحادثة معه سرًا والاختلاء به كما نقرأ في يو١٣.

قال نياندر: "يمتاز يوحنا على رفاقه بكونه جمع بين الصفات المتخالفة التي هي لازمة لتقدم ملكوت الله، كما شاهدنا ذلك في

كل الأواني التي استخدمها الرب لهذا الغرض، مثل الرزانة والهدوء الكامل مع الحماس والغيرة الشديدة. بحيث أن غيرته لم تكن مجرد اندفاع وتهور، كما كان بولس قبل هدايته، بل غيرة بحسب الحق. كذلك المحبة التي اتصف بها، فإنها لم تكن مجرد تساهل واستسلام، بل كانت تمسكًا بالحق، الذي هو الغرض الذي اتجهت إليه تلك المحبة بكل قوة، مع نفور بشدة من كل ما يهين ذلك الغرض أو يغاير صفات المحبة".

وبما أن تاريخ يوحنا مرتبط مع تاريخ بطرس ويعقوب اللذين سبق الكلام عنهما فيجمل بنا أن نوجز القول هنا، لأن الثلاثة يندر أن نقرأ عن أحدهم بالانفصال عن الآخرين. إلا أنه يوجد فصل كان يوحنا يمثل دوره وحده دون سواه. فقد كان هو الرسول الوحيد الذي تبع الرب يسوع إلى مكان صلبه، ولذلك أكرمه الرب بوضع ثقته فيه «فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفًا قال لأمه يا امرأة هوذا ابنك، ثم قال للتلميذ هوذا أمك. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته» (يو ١٩: ٢٦، ٢٧).

وقد أصبح يوحنا، بعد صعود المسيح وحلول الروح القدس يوم الخمسين، واحدًا من رسل الختان المعروفين، ولكن خدمته امتدت حتى نهاية القرن الأول، وبموته كانت نهاية العصر الرسولي.

ومما يروى عن يوحنا من الأحاديث المأثورة والمنتشرة في أغلب كتب التاريخ أنه بقي في اليهودية حتى وفاة مريم العذراء. أما وقت موتها فغير معروف بالتدقيق. ثم بعد ذلك غادرها إلى آسيا الصغرى في الحال، وهناك أسس جملة كنائس في عدة جهات، وكان يجول بينها للخدمة، ولكنه جعل مركز إقامته في أفسس التي منها نفي إلى جزيرة بطمس في أواخر حكم الإمبراطور دومتيان، وهناك كتب سفر الرؤيا (ص ١: ٩) ولما أطلق سراحه عقب تولي الإمبراطور نرفا عرش الإمبراطورية عاد إلى أفسس حيث كتب إنجيله ورسائله، وتوفي حوالي سنة ١٠٠ بعد المسيح في السنة الثالثة من ملك تراجان وقد بلغ نحو السنة المائة من عمره [١٢].

وهنا نأتي على ذكر قصة من القصص العديدة التي حفظها التاريخ عن يوحنا، لأنها في رأينا ألذها، وربما كانت أصدقها وأكثرها احتمالاً للواقع. ذلك أن واحدًا من النفوس التي كان يحبها ويسهر لأجلها ويهتم بها ارتد، ولما حدث أنه زار المدينة التي كان فيها ذلك الشخص بلغه عنه أنه التف مع جماعة من اللصوص وصار هو زعيمهم. ونظرًا لمحبته الشديدة إليه عقد النية على السعي إليه لرد نفسه. فألقى بنفسه في الطريق التي كانت تلك العصابة تتهددها ورضى أن يقع في أيديهم، ثم التمس من اللذين أخذوه مكتوفًا أن يذهبوا به إلى رئيسهم، الذي لما رأى ذلك الشيخ الوقور تأثر من المنظر وعادت إلى ذهنه ذكرى الأيام السابقة، فانتخس ضميره ولم يستطع الوقوف أمامه، فهرب مذعورًا. أما يوحنا الذي امتلأ قلبه بالمحبة نحوه فأسرع وراءه وأمسك به وتوسل إليه أن يندم على شره ويتوب في الحال ويرجع إلى الرب لينال غفران خطاياه باسم الرب يسوع. فعملت هذه الأقوال في نفس الرجل، وتلك المحبة التي أبداها الرسول الشيخ تغلبت عليه، فتاب إلى الله ورجع نادمًا وأصبح من ذلك الحين أحد أفراد الكنيسة العاملين. ليعطينا الله نعمة أن تكون فينا روح المحبة هكذا لرد نفوس الضالين.

يصح لنا أن نعتبر الرسل الأربعة الذين مرّ بنا الكلام عنهم مجموعة قائمة بذاتها. وعلى هذا القياس نأتي الآن على تاريخ المجموعة الثانية لأربعة آخرين، وكما كان بطرس زعيم المجوعة الأولى فالمجموعة الثانية كان زعيمها:

فيلبس

وقد ذُكر اسمه في رأس قائمة الأربعة الثانية في كل من الأناجيل الثلاثة الأولى. وروى يوحنا أنه من بيت صيدا من مدينة أندراوس وبطرس (ص ١: ٤٤) ويحتمل جدًا أن يكون واحدًا من الجليليين الذين احتشدوا حول يوحنا المعمدان ليسمعوا كرازته، ومع أنه لم يكن في فلسطين كورة أكثر احتقارًا وعارًا من الجليل، إلا أن الرب رأى فيها البساطة والإخلاص والحماس، فاختار منها رسله. أما الفريسيون فكانوا يقولون «فتش وانظر، إنه لم يقم نبي من الجليل» (يو ٧: ٥٢) مما يدل على أن ألسنة الخلق ليست دائمًا أقلام الحق، مثل هذا القول السائر المثل المشهور «أمِن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟».

ولم يَرد في الأناجيل شيء مطلقًا عن تاريخ أبوي فيلبس ولا صناعتهما، إلا أن القول الراجح أن أباه كان صيادًا، لأن الصيد كان هو الحرفة الشائعة في تلك الأنحاء. وبمقارنة لهجة فيلبس مع لهجة أندراوس ومع ملاحظة وورود ذكرهما معًا يصح لنا أن نستنتج أن هذا الرسول صديق ابني زبدي وابن يونا، وأنهم كانوا جميعًا منتظرين مسيا. على أن فيلبس له شرف سبق الالتحاق بالسيد، فهو أول من

دعاه ربنا يسوع. نعم إن الثلاثة الأول جاءوا إلى يسوع قبله، ولكنهم عادوا إلى ممارسة صناعتهم ولم يُدعوا لاتباع الرب إلا بعد مضي عام، أما فيلبس فقد دُعي من أول وهلة. فإننا نقرأ أنه «في الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل. فوجد فيلبس فقال له: اتبعني» (يو ١:٤٣). وما أشهى قوله «اتبعني» ففيه كنز بركات وغنى لا يستقصى للنفس. وفي اعتقادنا أن هذه الكلمة قيلت لفيلبس أولاً، وعندما أفرز الرب الاثني عشر رسولاً للخدمة كان هو من بينهم.

وحالما دعاه الرب وجد نثنائيل فأتى به أيضًا إلى يسوع، وواضح من لهجة كلامه وهو يبشر نثنائيل أنهما تجاذبا أطراف الحديث في هذا الشأن مرارًا قبل ذلك الحين. ولذلك كان للخبر وقع حسن في أذنه، فطفح السرور وظهر من بين ثنايا ألفاظه إذ قال «وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء، يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة» (يو ١:٤٥) ويؤخذ من رواية الأناجيل أن فيلبس كان مخلص النية صافي القلب، ولو أن الكلام عنه قليل. وآخر ما ورد عنه مثل أول قصته لا تخلو من لذة ومعنى، فإنه لما سمع السيد يكرر على مسامعهم الكلام عن أبيه في يوحنا ١٢؛ ١٣؛ ١٤ أظهر رغبة شديدة في معرفة ذلك الآب. ويلوح لنا أن تعبيرات الرب عن الآب قد أثرت في ذهن ذلك الرسول، ولا عجب فقد سمعه يقول مثلاً «أيها الآب نجني من هذه الساعة» (يو ١٢:٢٧) وأيضًا «أيها الآب مجد اسمك» (يو ١٢:٢٨) وأيضًا «ففي بيت أبي منازل كثيرة»(يو ١٤:١) وهذا ما شغل قلوب التلاميذ حتى قال فيلبس ببساطة، ولو أنها بساطة تنم عن بطء فهم «يا سيد أرنا الآب وكفانا». أما جواب السيد فقد حوى توبيخًا مع رقة تعبير وتلطف في الرد «قال له يسوع أنا معكم زمانًا هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟ الذي رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أرنا الآب؟ ... صدقوني أني في الآب والآب فيَّ، وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها» (يو ١٤:٨-١١) فقد كان الآب مُعلَنًا في شخص الابن، وكان ينبغي أن فيلبس يفهم ذلك، لأنه قد مضى عليه مع التلاميذ زمان هذه مدته وكان يجب أن يعرفوا ويفهموا أنه كان في الآب والآب فيه، ومن ثم يعرفون أين كان مزمعًا أن يمضي لأنه كان ماض إلى الآب. كانت تكفيهم أقوال وأعمال الابن لتبرهن لهم وتقنعهم أن الآب فيه. لقد سمعوا كلامه وأبصروا أعماله، وهذا كان يجب أن يُستحضر الآب لدى أذهانهم، لأن شخصه كان فيه لهم سدّ لكل عوز ومطلب «أنا هو الطريق والحق والحياة» بمعنى أنه كان هو الطريق الوحيد لمعرفة الآب، ووحدُه الحق الذي به معرفة الحقيقة من جهة كل أمر. بل هو «الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا» (١يو ١:٢). ولكن هذا جميعه لا يصل إلينا إلا بالتعليم وبقوة الروح القدس، وحينئذ نتمتع ونعرف من هو «الطريق والحق والحياة»، وبالطبع ذلك يستلزم خضوع القلب للمسيح حتى نكون منقادين لإرشاد وتعاليم الروح.

وفيما عدا هذه المحادثة التي جرت فيما بين فيلبس والسيد فلا نعلم شيئًا عنه بالتحقيق ولا نعود نسمع عن اسمه على صفحات التاريخ الموحى به من الله إلا مجرد ورود ذكر اسمه في جدول الرسل الاثني عشر في أع١: ١٣. وقد خلط المؤرخون بين فيلبس المبشر وفيلبس الرسول. ومع أننا على يقين أنه صرف باقي أيام حياته في خدمة سيده، ولكننا لا نستطيع الجزم بدائرة عمله أين كانت، فقد ذكر البعض أن آسيا العليا كانت دائرة عمله في الكرازة، وقال آخرون إنه صرف أواخر عمره في فريجية، وهناك مات شهيدًا موت العذاب.

برثولماوس

رأى كثيرون من الأقدمين والمتأخرين أن تاريخ برثولماوس هو تاريخ شخص تسمى بغير هذا الاسم أيضًا. أما كونه واحدًا من الاثني عشر رسولاً فواضح جدًا من روايات الأناجيل، ولو أن اسمه ذُكر مجردًا عن كل تعليق أو شرح. وبما أن في الأناجيل الثلاثة الأولى ذُكر فيلبس مع برثولماوس، وفي إنجيل يوحنا ذكر فيلبس مع نثنائيل فمن هنا نشأ الظن بأن برثولماوس هو نفسه نثنائيل، بمعنى أن الشخص واحد ولكن له اسمان مختلفان، لا سيما وأن هذه العادة كانت شائعة بين اليهود، فسمعان بطرس مثلاً دُعي ابن يونا، كذلك ابن تيماوس. ومن هذا القبيل برثولماوس تعني "ابن تولماوس". فكان الاسم نثنائيل والكنية ابن تولماوس. ونظرًا لشيوع هذه العادة كثيرًا في ذلك الوقت فمن الصعب تمييز عدة أسماء ذكرت في الأناجيل من هذا القبيل.

وعلى فرض أن نثنائيل الوارد في إنجيل يوحنا هو نفسه برثولماوس الذي ذكره باقي البشيرون فإننا نروي للقراء خلاصة تاريخ حياته. أما وطنه فالجليل مثل بقية الرسل، وهو «من قانا الجليل» وعندما قابله المسيح أول مرة حيَّاه بتلك الجملة المشهورة «هوذا إسرائيلي حقًا لا غش فيه»، ولا ريب أنه كان رجل طيب السريرة نقي

السيرة، ومن ضمن الذين "كانوا ينتظرون فداء في إسرائيل"، أما هو فندهش من تلك التحية غير المنتظرة، ولم يفهم كيف عرفه من أول وهلة «فقال له نثنائيل: من أين تعرفني؟ أجاب يسوع وقال له قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك» (يو ١:٤٧). وهنا وجد نثنائيل نفسه أمام أمر خطير من جهة ومجيد من جهة أخرى. إذ رأى أنه واقفًا أمام إنسان في هذا العالم يعرف أفكار القلوب والنيات، فهو إذاً ابن الله، المسيا المنتظر «ملك إسرائيل».

وقد قرأ بعضهم في تاريخ حياة نثنائيل ودعوته صورة رجوع البقية التي ستخلص من الأمة في أواخر الأيام. والإشارة إلى شجرة التين تدعم هذا الرأي، وكذلك شهادة نثنائيل للمسيح بتلك اللهجة «يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل» (يو ١:٤٩) وهكذا البقية التي ستكون "إسرائيلية لا غش فيها" معروفة عند الرب وعينه عليها. وعندما يرون الرب ويعرفونه سيعترفون به أنه هو الذي كتب عنه موسى والأنبياء، وسيعاينون مجده في الخليقة كابن الإنسان أيضًا كما ورد في مزمور ٨. ويوجد أيضًا تلميح إلى يوم ذلك المجد العتيد في أقوال ربنا التي ختم بها حديثه مع نثنائيل إذ قال «الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو ١:٥١) لأن في ذلك الوقت ستتصل الأرض مع السماء، كما رأى يعقوب سلمًا منصوبًا بينهما. ولكننا نعود إلى تاريخ نثنائيل.

مما يؤيد رسوليته بما لا يقبل النقض تلك الجملة المذكورة في يوحنا ٢١، ففيها نراه مع بقية الرسل رفاقه حين ظهر لهم الرب عند بحر طبرية بعد القيامة «كان سمعان بطرس وتوما الذي يقال له التوأم ونثنائيل الذي من قانا الجليل وابنا زبدي واثنان آخران من تلاميذه (اللذان يحتمل أن يكونا أندراوس وفيلبس) مع بعضهم» (يو ٢١:٢).

ومن المتواتر عن نثنائيل على صفحات التاريخ المنقول أنه سافر لغاية الهند حيث كرز بالإنجيل، وبعد تنقله من مملكة إلى أخرى ناشرًا ألوية الخلاص بالمسيح، وصل أخيرًا إلى البانو بأرمينيا العظمى (في ألبانيا حاليًا) حيث كانت عبادة الأصنام منتشرة، وهناك ألقى محافظ المدينة القبض عليه أثناء تأدية خدمته، وحكم عليه بالموت صلبًا. أما تاريخ وفاته فغير معروف بالتحقيق.

متى

وهو المدعو أيضًا لاوي بن حلفى. ولكن حلفى هذا ليس حلفى أبو يعقوب على حسب اعتقادنا (راجع مت ١٠: ٣ مر ٢:١٤؛ لو ٥:٢٧،٢٩) ومع أنه كان موظفًا في الحكومة الرومانية، إلا أنه كان «عبرانيًا من العبرانيين» والأرجح أنه كان من قانا الجليل أيضًا، وإن كنا لا نعرف عشيرته ولا الجهة التي ولد فيها. وكان قبل أن يدعوه السيد المسيح عشارًا، أي جابيًا للضرائب في الحكومة الرومانية. ويظهر أن كفر ناحوم كانت مركز خدمته، وهي ميناء على بحر الجليل. ووظيفته عندما دعاه الرب كانت أشبه بوظيفة "مأمور الضرائب".

وفي أول مرة قابله الرب «كان جالسًا عند مكان الجباية... فقال له اتبعني، فقام وتبعه» (مت ٩:٩). ولكننا قبل سرد تاريخ متى يحسن بنا أولاً أن نأتي على وصف موجز للعشارين الذين كان متى واحدًا منهم، بما أنه تكرر ورود ذكرهم على صفحات العهد الجديد، وفي ذكرهم رمز لا يخلو من معنى.

العشارون

كانت وظيفتهم جباية العشور أو الضرائب المقررة من الحكومة الرومانية، وكانوا في الغالب من ذوي الثروة الطائلة والثقة المالية. وكانت مهنتهم معتبرة عند الرومانيين من الوظائف السامية والرتب التي لا تمنح إلا للأشراف والأعيان، حتى يُقال عن سابينون والد الامبراطور فاسباسيان إنه كان عشارًا لولايات آسيا. وكان للعشارين مساعدون أقل منهم رتبة، ينتخبون من الأهالي المقتدرين لجباية الأموال في البلاد والنواحي التابعة لتلك الولاية. ولا ريب متى كان واحدًا من هؤلاء.

وقد اشتهر هؤلاء العمال بالظلم، وكان اليهود يحتقرونهم بنوع أخص، لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أحرارًا، ويعدون هذا الامتياز معطى لهم من الله رأسًا، حتى كانوا يفخرون بالقول «إننا ذرية إبراهيم ولم نُستعبد لأحد قط» (يو ٨:٣٣). ومن ثم فقد حسبوا عمل أولئك العشارين مع الرومان برهانًا على عدم رضى الله عنهم ودليلاً على انحطاط الأمة وعبوديتها. وكانت تلك الأغلال سبب مرارة وحزن لهم، وطالما ساقتهم إلى العصيان والتمرد على حكومة روما.

هذا هو سبب بغضهم لجماعة العشارين الذين كانوا في نظرهم خونة مارقين على الوطنية، بل آلات في يد مضايقيهم، هذا فضلاً عن الجور والتحكم الذي كان يظهر منهم. وبما أن القانون كان يؤيدهم في تنفيذ سلطتهم فقد استبدوا بالأهالي استبداد مطلق التصرف، لأن السلطان المعطى لهم كان يخول لهم حق فحص كل الصادرات والواردات، وتقدير العوائد المستحقة الدفع بالطرق الإغتصابية الإكراهية. ومما قاله لهم يوحنا المعمدان نستنتج أنهم كانوا يحصّلون أكثر من القدر القانوني متى سنحت الفرصة «فقال لهم لا تستوفوا أكثر مما فُرض لكم» (لو٣: ١٣) (راجع أيضًا حادثة زكا وأقواله في لوقا١٩: ٨).

هذه الرذائل وما شاكلها كانت سببًا كافيًا لتنفير القلوب منهم، ولكننا نحصر كلامنا ضمن حدود ما ورد عنهم في العهد الجديد، فإن روح الحق لا يعرف المغالاة. والوحي يذكرهم مرارًا ضمن قائمة الخطاة (مت٩: ١١؛١١: ١٩) بل يضمهم مع الزناة (مت٢١: ٣١) وعبدة الأوثان (مت١٨: ١٧) ولم يكن لهذا الفريق نصيب في خدمة الأقداس، ولا في امتيازات الشعب المدنية الاجتماعية. ولكن مع كل هذه السيئات التي اتصفوا بها فإننا نجد منهم أول من سار وراء يوحنا، بل وراء الرب أيضًا، لأنهم كانوا بعيدين عن الرياء الذي اتصف به بالطبيعة الذين كانوا يفاخرون بالدين الخارجي، أما هم فلم يكن لهم صورة تقوى لكي يستتروا بها، وهذا ما قصده الرب في مثل الفريسي والعشار (لو١٨). ونتعلم من ذلك أن الدين الوراثي قد يكون عائقًا لخلاص النفس، لأنه يتعذر على مثل أولئك أن يعترفوا بهلاكهم وخرابهم وعدم نفعهم لكي تجرى ينابيع النعمة داخل نفوسهم، فيستفيدوا من عمل الله المخلّص الثمين، لأن من أراد أن يتبرر أمام الله ينبغي أن يأخذ مركز العشار، ويتمثل بكلامه في صلاته «اللهم ارحمني أنا الخاطئ» (لو١٨:١٣).

• • •

نعود الآن إلى حياة متى الرسول.. لقد لبى متى دعوة الرب يسوع بكل نشاط، وفي الحال تخلى عن مركزه ورجع إلى الرب رجوعًا فعليًا، وكانت هدايته بركة لآخرين غيره، وحدثت نهضة كبيرة بين أهل طائفته «وصنع له لاوي ضيافة كبيرة في بيته، والذين كانوا متكئين معه كانوا جمعًا كثيرًا من عشارين وآخرين» (لو٥: ٢٩). والضيافة دليل على السرور والابتهاج وبرهان على تسليم القلب للمسيح. ومما يستحق الذكر هنا أن متى يُشير دائمًا في إنجيله إلى نفسه باعتباره «متى العشار» ذاكرًا أصله، أما غيره من البشيرين فيذكرون اسمه مجردًا. وقد دُعي مع الاثني عشر وانتُخب رسولاً معهم، ومن ذلك الحين لازم الرب مثل بقية الرسل. ويا له من امتياز جميل، فقد عاشر شخصه وشاهد خدمته، وعاين حياته وسمع أقواله، وشهد آياته وعجائبه، وأصغى لخطاباته، وصار شاهدًا لقيامته وصعوده إلى المجد. وكان متى أيضًا مع الرسل يوم الخمسين عندما حلّ الروح القدس، أما المدة التي صرفها بعد ذلك في اليهودية فغير معلومة بالتحقيق. والأرجح أنه كتب إنجيله قبل البشيرين الآخرين، وقصد أن يوجه أقواله فيه لأمة إسرائيل بنوع خاص.

والمشاع أن الحبشة كانت دائرة خدمته الرسولية، ويقول بعضهم إنه هناك انتصر بواسطة كرازته والآيات التي صنعها على البدع والضلالات والهمجية والوثنية، وكان سبب هداية لكثيرين، ثم أقام رعاة روحيين وانتخب لهم مرشدين لبنيانهم وثباتهم واجتذاب غيرهم إلى دائرة الإيمان، وهكذا أنهى خدمته وأكمل سعيه. ولكننا لا نستطيع أن نعوّل كثيرًا على المصادر التي استقينا منها لتقرير هذه النقط.

توما

دُعي توما الرسول من الرب في حينه، وذُكر اسمه في كل مرة أدرجت فيها قائمة الرسل. أما مكان ولادته واسم والديه فلا تخبرنا كتب الوحي شيئًا عنها، لكن المتواتر أنه ولد في أنطاكية. وكل ما نعرفه عنه من المكتوب يُعزى إلى يوحنا البشير. إلا أنه وإن كانت معرفتنا بتوما محدودة، فلا توجد صفات لأخلاق الرسل أكثر وضوحًا من صفات توما. وفي الواقع أصبح اسم توما في الكنيسة - بل في العالم أيضًا - يكنى به عن الشك وضعف الإيمان. ومما يُروى أن أحد المصورين لما طلب منه أن يرسم صورة توما الرسول وضع مسطرة في يده يشير بها إلى عادة الرسول أن لا يصدق خبرًا حتى يقيسه أولاً على تلك المسطرة. فتوما كان كثير الحساب كثير التفكير، بطيء الإيمان. وكان يجد في كل أمر بابًا للسؤال، وفي كل مسألة سببًا للجدال. ومن عادته أن ينظر إلى الوجه المظلم من القضية. ولكننا نحصر تأملنا في ثلاثة مواضع ذُكر فيها الرسول على صفحات الوحي لندرس منها صورته الحقيقية كما خطها قلم الوحي.

أولاً - يوحنا ١١ حيث يتضح لنا وصفه الصحيح، فقد نظر إلى سَفَر سيدنا إلى اليهودية، وتوقع فيه شرًا، وظن السوء كعادته «فقال توما الذي يقال له التوأم للتلاميذ رفقائه لنذهب نحن أيضًا لكي نموت معه» (يو ١١:٢٦). وعوضًا عن أن يؤمن بقيامة لعازر من الأموات نراه يتوقع أن يلاقي حتفه مع الرسل الآخرين وسيدنا هناك في اليهودية. فلم ينتظر من ذلك السفر سوى أخبار السوء، إلا أنه كان مستعدًا أن يقتحم الأخطار مع ربنا مثل بقية الرسل رفقائه. وهذا أيضًا ما امتاز به توما، فقد كان شديد التعلق بالرب مخلصًا له، حتى أنه كان في عزمه أن يتوجه معه ولو كان في طريقه إلى الموت.

ثانيًا - في يوحنا ١٤ وقت العشاء الأخير. كان سيدنا يحدثهم عن انطلاقه والمكان الذي سيعده لهم في السماء، وأنه سيأتي أيضًا ويأخذهم إليه حتى حيث يكون هو يكونون هم أيضًا معه، ثم أردف ذلك بقوله «وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق» ولكن هذه المواعيد الجميلة نبهت ذهن رسولنا إلى المستقبل الغامض، فخطرت على باله أفكار مظلمة حسب عادته «قال له توما يا سيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق»، وواضح من هذا السؤال أن توما كان يرغب في الذهاب معه، ولكنه أحب أن يعرف الطريق ويتأكد منها قبل أن يخطو أول خطوة «قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤:٤-٦). وبالحقيقة متى كان الرب يسوع هو غرض النفس، وكانت العين شاخصة إليه فلا نضل السبيل قط. ومتى كانت العين بسيطة، فنور السماء يشرق أمامها ليضيء لها الطريق، فلن نعثر أبدًا.

ثالثًا - بعد القيامة كما ورد في يوحنا ٢٠: لم يكن توما مع التلاميذ حين ظهر لهم الرب أول مرة. وعندما أخبروه أنهم أبصروا يسوع أبى سماع أقوالهم، وأصر على عناده بأنه لن يؤمن حتى يراه بنفسه. ويظهر من أقواله أنه شاهد الرب وهو على الصليب، فترك ذلك المنظر المهيب أثرًا خالدًا في ذهن الرسول، حتى قال «إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع إصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه لا أؤمن». فلما جاء يوم الرب التالي، وبينما كان التلاميذ مجتمعين معًا، ظهر يسوع ووقف في الوسط، فهذا مركزه بين الجماعة. وبعد أن حياهم بتحيته المعتادة قائلاً «سلامٌ لكم» التفت إلى توما، وكأنه هو المقصود بالذات من ظهوره لهم ذلك اليوم «ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدي، وهات يدك وضعها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمنًا». وقد ظهرت في الحال نتائج هذه المعاملة فزالت شكوك توما، وفي يقين الإيمان صرخ قائلاً: «ربي وإلهي. قال له يسوع لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٠:٢٥-٢٩).

وقد ظن البعض أن إيمان توما في هذه المرة فاق إيمان رفقائه الرسل، وأن شهادته هذه لم ينطق بها فم من أفواههم بمثل تلك القوة والحماسة. ولكن هذا الرأي ولو شاع فإنه بلا أساس من كلمة الله. فإن المسيح نفسه في جوابه غبط الذين آمنوا ولم يروا، وفضلهم على الذين يبنون إيمانهم على العيان. وفي الحقيقة مثل هذا الإيمان بالجهد يمكن أن يطلق عليه اسم إيمان مسيحي كما يؤخذ من المكتوب: «الذي وإن لم تروه تحبونه، ذلك وإن كنتم لا ترونه الآن ولكنكم تؤمنون به» (١بط١:٨)، «بالإيمان نسلك لا بالعيان» (٢كو٥:٧).

ولا ريب عندنا أن توما يشير، في بطء إيمانه وارتيابه، إلى أمة اليهود في الأزمنة الأخيرة، التي سوف تؤمن بعد رؤية الرب (زك١٢) فإنه لم يكن حاضرًا مع القديسين في اجتماعهم معًا بعد القيامة، ومع أننا لا نعرف سبب تخلفه عنهم ولكن من منا لا يقدّر نتائج غيابه وما خسره بسبب عدم حضوره مع القديسين. فإعلانات المسيح عن نسبته إليهم لم تصل إليه «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» فإيمانه لم يقترن بمركز البنوة، أو كما قال بعضهم "إن إعلانات قيمة عمل المسيح وعلاقته مع أبيه التي أوجد فيها خاصته، أي الكنيسة، لم تطرق أذني توما. فربما كان له سلام، ولكنه خسر كل الإعلانات المختصة بمركز الكنيسة. وما أكثر النفوس، حتى من الذين نالوا الخلاص، الذين هم في مثل هذه الحالة".

أما عن تاريخ خدمة الرسول ونهاية حياته فمشحون بالتقليد، حتى أنه يتعذر معرفة صحيح الحديث من فاسده. فالبعض يقول إنه اشتغل في الهند، وآخرون يقولون إنه خدم في بلاد فارس. والمتواتر أنه مات قتيلاً بطعنة رمح، ولا تزال الكنيسة اللاتينية تذكر نياحته يوم ٢١ ديسمبر، بينما الكنائس الشرقية تعتبر وفاته يوم ٦ أكتوبر، أما الهنود فيوم أول يوليو.

يعقوب

هو ابن حلفى، وقد التبس اسم يعقوب كما التبس اسم مريم وإخوة الرب على الباحثين، فوجدوا صعوبة في التمييز بين تلك الأسماء المتشابهة. ولكن المقام لا يسمح لنا بالدخول في هذا البحث، إلا أنه قد رسخ في أذهاننا أن رسولنا هو نفسه يعقوب الذي كان معدودًا من الأعمدة في كنيسة أورشليم، وأنه هو كاتب الرسالة المدعوة باسمه، وأنه هو أخو الرب*، وأنه هو الملقب بالصديق والبار والصغير - ربما نظرًا إلى قصر قامته - ولكن تشابه الأشخاص والأسماء التبس على المؤرخين بسبب العادة التي درج عليها اليهود أن يدعو الأقرباء إخوة وأخوات، ونظرًا لاشتراكهم في المسمى الواحد.

وفي الجداول الأربعة التي ذكر فيها أسماء الرسل الاثني عشر كما وجدت في البشائر نجد يعقوب حافظًا مركزه، فهو زعيم المجموعة الثالثة لأن الرسل كما قلنا انقسموا إلى ثلاث مجموعات، الأولى وزعيمها بطرس، والثانية فيلبس، والثالثة يعقوب. وتاريخ يعقوب معلوم لنا أكثر من بعد القيامة. وظاهر من كلام بولس في ١كورنثوس١٥: ٧ أن الرب قبل صعوده أكرمه بمقابلة خصوصية قبل يوم الخمسين، وربما كان ذلك لتشجيع وإرشاد وتقوية الرسول. ولكننا الآن ننظر في الشواهد التي نستطيع أن نقتطف منها بعض معلومات عن تاريخ حياته.

ففي الأصحاح الأول من سفر الأعمال نراه مع بقية الرسل منتظرًا موعد الآب، الذي هو عطية الروح القدس، ثم يغيب عن أعيننا حينًا، إلى أن نعود فنسمع عن زيارة بولس له (غل١: ١٨، ١٩) سنة ٣٩م. وهنا نلاحظ مساواته ببطرس كرسول، وقد كان في هذا الوقت أسقفًا (ناظرًا) في الكنيسة في أورشليم، وهو لم ينقص شيئًا عن فائقي الرسل. ونقدر أن نحكم من جهة مقامه في نظر بطرس، لأن هذا لما أُنقذ من السجن طلب أن يبلغ خبر ذلك إلى يعقوب وباقي الإخوة (أع١٢: ١٧).

ثم في سنة خمسين بعد الميلاد نجده في المجمع الرسولي ناطقًا بلسان الجماعة بحكمها قائلاً «أنا أرى أن لا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم» (أع١٥: ١٩) وهذا المركز لم يبلغه غيره من الرسل، فيتضح من ذلك أنه بلغ درجة عالية وأخذ شهرة واسمًا بينهم. وفي سنة ٥١م حين زار بولس أورشليم للمرة الثانية يصف يعقوب بأنه معتبر من أعمدة الكنيسة، ويذكر اسمه قبل صفا ويوحنا (غل٢: ٩). وأخيرًا فإنه حوالي سنة ٥٨م زاره بولس زيارة خاصة أمام جميع المشايخ «وفي الغد دخل بولس معنا إلى يعقوب وحضر جميع المشايخ»* (أع٢١: ١٨). فيتضح من هذه الشواهد أن يعقوب أخذ مركزًا بين الرسل رفقائه بالغًا حد الاعتبار، وكان مركزه في كنيسة أورشليم لا يجاريه فيه أحد آخر. على أن تعلقه باليهودية كان شديدًا، ويظهر أن تقدمه في المسيحية كان بطيئًا وتدريجيًا. وقد كان هو وبولس على طرفي نقيض، كما كان بطرس أشبه بحلقة الاتصال بينهما.

ويقال أنه استشهد نحو سنة ٦٢ أي بعد يوم الخمسين بثلاثين سنة. وقد أجمع المؤرخون على شهرته بالتقوى والقداسة، ويظهر أنه اشتهر أيضًا بتواضعه الفائق. ومع أنه كان أخا الرب أو على الأقل قريبًا له فإنه يدعو نفسه «عبد يسوع المسيح» ولا يتجاسر حتى أن يدعو نفسه رسولاً. ونظرًا لما اتصف به من التقوى والبر والقداسة فقد تلقب «يعقوب البار» وبما أنه كان يجاري اليهود في عوائدهم على نوع ما فلم يكن ممقوتًا في نظرهم مثل رسول الأمم. على أنه بالرغم من صفاته هذه المحبوبة فقد لاقى حتفه شهيدًا.

وأوثق المصادر التي يمكن الاستقاء منها لمعرفة أخلاق الرسول وتاريخ حياته وموته ما كتبه هيجيسبوس، وهو يهودي متنصر عاش في منتصف القرن الثاني، وعنه نقلنا نحن لأنه كان معدودًا من أعظم الثقاة وأصدق الرواة، وقد ذكر سميث في قاموسه للكتاب المقدس كيفية استشهاده كما رواها هذا المؤرخ حرفًا بحرف، وها نحن نلخصها للقارئ فيما يلي:

"لما رأى الكتبة والفريسيون أن كثيرين من الرؤساء وشعب اليهود آمنوا بيسوع بواسطة كرازة يعقوب وخدمته تآمروا ضده، لأنهم خافوا أن يؤمن الشعب كله بيسوع. فاجتمعوا معًا وجاءوا إلى يعقوب وقالوا له: نرجوك أن توقف هذا التيار فقد ضل الشعب

* هذا هو رأي الكاتب ولكن كثيرون من المفسرين يرون أن يعقوب الرسول هو شخص آخر غير أخي الرب الذي كان الأسقف في مدينة أورشليم، وكاتب الرسالة، والرأي الآخر أقرب لأن إخوة الرب لم يكونوا يؤمنون به في مدة حياته (يو٧: ٥).

* انظر الحاشية السابقة.

وراء يسوع حاسبين أنه المسيح. ونحن نتوسل إليك أن تقنع جميع القادمين إلى هنا في عيد الفصح وتفهم الشعب أن لا ينغوي بيسوع هذا. وثق أننا وجميع الشعب نسمع لك وننصاع إليك. فقف على جناح الهيكل بحيث يراك جميع الشعب ويسمعونك وناد بما أوصيناك، لأن كل الأسباط، بل الأمم أيضًا، سيحتشدون في هذا العيد العظيم من كل صوب. ولكن يعقوب عوضًا عن الانقياد بنصيحتهم نادى بأعلى صوته في آذان كل الجمهور قائلاً إن يسوع هذا هو المسيا نفسه، وإنه هو مؤمن به، وإن يسوع في السماء الآن عن يمين الله، وأنه سيأتي بقوة ومجد عظيم. فآمن كثيرون بكرازة يعقوب ممجدين الله وقائلين: أوصنا لابن داود.

ولما سمع الكتبة والفريسيون ذلك قال بعضهم لبعض: قد أخطأنا باستحضار شاهد كهذا لاسم يسوع، فلنصعد إليه ونلقيه من فوق إلى أسفل حتى يخاف الشعب فلا يؤمن به. ثم صرخوا بأعلى صوتهم قائلين: هوذا يعقوب البار أيضًا قد ضل. ثم طرحوه أرضًا، ولما لم يمت بالسقوط أخذوا يرجمونه بالحجارة. ثم إن واحدًا من الحاضرين أخذ هراوة وضرب بها رأس يعقوب فمات. ومثل استفانوس الذي سبقه في الاستشهاد فاضت روحه وهو يصلي من أجل قاتليه جاثيًا على ركبتيه. وبعد موته مباشرة بدأ فسبسيان في حصار أورشليم، فقضى جيش روما عليها بعدما حاصرها وتركها خرابًا ملوثة بالدم بحيث لم يترك فيها حجر على حجر".

سمعان الغيور

وهو الملقب بسمعان القانوي، ويظهر أنه غير سمعان أخي يعقوب. أما تاريخه فلا تذكر الأناجيل عنه شيئًا سوى ورود اسمه عند سرد أسماء الاثني عشر فيها وفي سفر الأعمال.

والأرجح أنه قبل أن يُدعى رسولاً كان تابعًا لطائفة من اليهود تُعرف "بالغيورين" وقد اشتهروا بتمسكهم بمبادئ الطقوس الموسوية. وكانوا يعتبرون أنفسهم خلفاء فينحاس، الذي من فرط غيرته على مجد الله قتل زمري وكزبي (عدد ٢٥) وفي سبيل اقتفائهم آثار الكهنة الأقدمين في غيرتهم كانوا يعطون لأنفسهم حق إعدام الكافر والزاني والأثيم بدون محاكمة كالمعتاد. وكانوا يدعون أن الله صنع عهدًا أبديًا مع فينحاس ونسله من بعده لأنه غار لله وكفّر عن بني إسرائيل. وقد انخدع الولاة والشعب معًا بهذه الأقوال المصنعة والإدعاء الباطل المزخرف إلى حين. وفضلاً عن ذلك فإن حماسهم وهيجانهم وغيرتهم لناموس موسى وخلاص الشعب من نير العبودية الرومانية أعطاهم نعمة في عيون جميع الشعب، ولكن هذه الغيرة كما ينتظر دائمًا في مثل تلك الظروف تحولت إلى الفجور وصاروا كالوباء بين الأمة.

وكانوا تحت ستار الغيرة على مجد الله يقضون على من شاءوا باعتباره قد جدف أو ارتكب إثمًا لا يُغتفر، ويحكمون عليه بالقتل، ثم يصادرون أمواله. ومما رواه عنهم يوسيفوس المؤرخ أنهم لم يخشوا بأس الأشراف، فأذاعوا عنهم مذمات وتهمًا، ولما نجحوا في تكدير صفو الأمن العام صاروا يصيدون في الماء العكر، وقد دعاهم يوسيفوس "وباء الشعب". ومع أن الشعب حاول أن يقضي عليهم مرارًا إلا أنه يظهر أنهم بقوا على حالهم، إلى أن اكتسحهم الرومان في ذلك الحصار المشهور.

فسمعان تلقب بالغيور نظرًا لانتسابه لهذه العصابة. ومع أنه ربما وُجد بينهم مخلصون، ولكنهم جميعًا اشتهروا «بالغيورين» أما مستقبل خدمة الرسول فلا يُعرف منه شيء بالتحقيق. فبعضهم روى أنه بعدما ساح قليلاً في الشرق، جعل الغرب وجهته وسار حتى وصل بريطانيا العظمى، حيث كرز بالإنجيل وصنع قوات وآيات، واحتمل تجارب وضيقات، وأخيرًا مات شهيدًا.

يهوذا

هو أخو يعقوب، وقد تسمى أيضًا تداوس ولباوس. ولهذه الأسماء معاني مختلفة ولكن البحث في ذلك لا ينطبق على هذا "المختصر" ويهوذا هو ابن حلفى من أقرباء ربنا كما نقرأ في متى١٣: ٥٥ «أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا».

أما عن كيفية دعوته رسولاً ومتى كان ذلك فلا علم لنا بشيء منه. وفي العهد الجديد يكاد لا يُذكر اسمه إلا في معرض تعداد الاثني عشر. وفيما عدا ذلك فقد ورد ذكره مرة في إنجيل يوحنا عندما تقدم منه هذا السؤال «قال له يهوذا ليس الإسخريوطي يا سيد ماذا حدث حتى أنك مزمع أن تظهر ذاتك لنا وليس للعالم» (يو ١٤: ٢٢)، وواضح من هذا الاستفهام أن أفكاره كانت مثل بقية التلاميذ رفقائه متعلقة بالملكوت الأرضي الزمني أو إعلان سلطان

المسيح بصورة ظاهرة على الأرض، بحيث يستطيع أن يراها العالم. أما مجده كمسيا فلم يكونوا يفهمون عنه شيئًا، لأنهم جهلوا عظمة قدرته وبهاء مجده وروحانية ملكوته، مع أن تابعيه لا يُنقَذون فقط من هذا العالم الحاضر الشرير بل أيضًا من سلطان إبليس ومن ملكوت الموت والهاوية، «الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته» (كو ١: ١٣)، فجواب المسيح على سؤال يهوذا له أهمية عظمى، لأنه يتكلم فيه عن بركات الطاعة، وتابعو المسيح المطيعون يعرفون بالتأكيد لذة الشركة مع الآب ومع ابنه في النور وبقوة الروح القدس. فكلام المسح هنا لا يتعلق بمحبة الله أو بالنعمة المطلقة من نحو الخطاة، بل بمعاملة الآب لأولاده، أعني ظهور محبة الآب ومحبة المسيح للذين يسلكون في الطاعة (انظر ع٢٢-٢٦).

وعلينا أن نذكر في بالنا عند تأملنا في أسئلة الرسل وأجوبة المسيح عليها أن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجد بعد، أما بعد حلول الروح القدس فأفكار الرسل وحاسياتهم وآمالهم تغيرت تغيُرًا كاملاً، ومن ثم فهذا الرسول مثل يعقوب أخيه يدعو نفسه «يهوذا عبد يسوع المسيح وأخو يعقوب» فهو لا يدعو نفسه رسولاً، ولا يقول إنه «أخو الرب» وهذا هو التواضع الصحيح المبني على معرفة مركزهم وعلاقتهم مع شخص الرب الممجد في السماء. لأنه في يوم الخمسين جاهر التلاميذ بالقول «وليعلم يقينًا بيت إسرائيل أن الله قد جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم ربًا ومسيحًا» (أع٢: ٣٦).

أما عن تاريخ الرسول في نهاية حياته فلا يُعلم شيء بالتحقيق، فالبعض يقول إنه أول من كرز في اليهودية والجليل، ثم السامرة فأدومية، وأخيرًا في مدن العربية. ولكن المرجح أن بلاد فارس كانت في أواخر أيام خدمته حقل أتعابه ودائرة استشهاده.

ويؤخذ من ١كورنثوس٩: ٥ أنه كان من ضمن الرسل المتزوجين «أليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة مثل بقية الرسل وإخوة الرب وصفا». وفي كتب التاريخ رواية عن حفيديه لا تخلو من الفائدة، ويلوح عليها مسحة الصدق في النقل، فقد تناقلها يوسيفوس عن هيجيسيبوس اليهودي المتنصر، ذلك أن دومتيان الإمبراطور لما بلغه أن بعض أفراد بيت داود وأقرباء المسيح لا زالوا على قيد الحياة استشاط غيظًا وحسدًا، وأمر أن يلقى القبض عليهم ويؤتى بهم إلى روما. وكان بينهم حفيدان ليهوذا، اللذان اعترفا أنهما من نسل داود ومن ذوي القربى للمسيح. فسألهما عما يمتلكان فقالا إنهما لا يمتلكان سوى حقلاً صغيرًا يعيشان من أثماره، ويدفعان الضريبة المعتادة لبيت الملك عنها. فاستعلم منهما عن الأمور المختصة بملكوت المسيح، ومتى وأين يكون ذلك. فأجاباه بالقول إن ملكوته ليس أرضيًا بل روحيًا سماويًا، وإنه لا يُستعلن حتى انقضاء الدهر. ولما تحقق الملك من حسن نيتهما واقتنع بفقرهما، وأنهما لا يقدران على فعل الشر، أطلق سراحهما وكف عن اضطهاد المسيحيين إجمالاً. ولما عادا إلى فلسطين قبلتهما الكنيسة بفرح عظيم لأنهما أظهرا تعلقًا بالرب واعترفا باسمه جهارًا من جهة ملكوته وقدرته ومجده.

متياس

هذا هو الرسول الذي أخذ مركز يهوذا الإسخريوطي الخائن. فلم يكن من ضمن الاثني عشر الذين وقع عليهم الاختيار في أول دفعة - الذين دعاهم وعينهم الرب بنفسه - إلا أنه من المحتمل جدًا أن يكون واحدًا من السبعين الذين لازموا الرب يسوع في كل مدة خدمته على الأرض، فقد كان هذا الشرط لازمًا، كما يقول الرسول بطرس، ليكون شاهدًا لقيامة الرب يسوع. ولم يرد ذكر متياس في العهد الجديد على ما نعلم في غير هذا الموضع.

أما طريقة انتخاب هذا الرسول فكانت بالقرعة، وهي عادة يهودية قديمة كانت شائعة بينهم، وكانت أوراق القرعة تلقى في وعاء ثم تسحب واحدة، والاسم الذي يُقرأ فيها يكون هو المنتخب «فأقاموا اثنين، يوسف الذي يُدعى برسابا الملقَّب يوستس، ومتياس. وصلوا قائلين أيها الرب العارف قلوب الجميع عيِّن أنت من هذين الاثنين أيًا اخترته... ثم ألقوا قرعتهم فوقعت القرعة على متياس، فحسب مع الأحد عشر رسولاً» (أع١: ٢٣-٢٦).

ويروى في بعض كتب التاريخ أنه نادى بالإنجيل في بلاد الحبشة وهناك مات شهيدًا، ولكن آخرين يعتقدون أنه لاقى حتفه في كبدوكية.

وكانت القرعة في ذلك الحين معدودة بمثابة تفويض الأمر لله «ويلقي هارون على التيسين قرعتين، قرعة للرب وقرعة لعزرائيل» - «القُرعة تُلقى في الحضن، ومن الرب كل حكمها» (١٦لا:٨ ؛

أم١٦ : ٣٣)، ومعلوم أن الرسل لم يكونوا قد نالوا عطية الروح القدس بعد، أما بعد يوم الخمسين فلا نعود نقرأ عن إلقاء قرعة.

• • •

وهكذا رقد جميع مؤسسي الكنيسة في الرب فانتقلوا من الأرض إلى السماء بدون أن يسجل التاريخ لهم أفعالهم، أو يثبت لنا خدماتهم، أو يدون أقوالهم التي نطقوا بها ولو عند ساعة احتضارهم، أو على الأقل يذكر مكان دفن جثثهم. ولكن السماء سجلت أسماءهم هناك، وسيبقى ذكرهم خالدًا إلى أبد الآبدين. حقًا يا لعمق أفكار الله وطرقه، وما أبعدها عن أفكار البشر وطرقهم.

الفصل الخامس

بولس الرسول

إلى هنا انتهي الكلام عن الاثني عشر رسولاً، وبقي علينا سرد تاريخ بولس الرسول، الذي يصح لنا أن ندعوه "الرسول الثالث عشر".

سبق لنا فيما مضى الكلام عن اهتدائه ورسوليته. وأما الآن فنبحث في خطة سيره، ونقصر الكلام على أهم أجزاء خدمته، ولكننا نلخص أولاً ما نعلمه من أمره.

قبل هدايته

واضح، مما ورد عنه في رواية أسفار العهد الجديد من جهة حياته قبل الإيمان، أنه تربى تربية ساعدت جدًا على إتمام الخدمة التي قبلها من الرب. وهذا كان من الله الذي كان ساهرًا على أفكار عبده وطرقه لتكون مطابقة لقصده من بدء نشأته (غل ١: ١٦). وكان معروفًا في ذلك الحين باسم «شاول الطرسوسي» - لأن اسم شاول هو اسمه اليهودي الذي دُعي به من والديه، أما بولس فهو اسمه الأممي. وسنتكلم عنه الآن باسم شاول، إلى أن نصل إلى الوقت الذي دُعي فيه بولس كما جاء في كتب الوحي.

كانت طرسوس عاصمة كيليكية، وكما يقول بولس عنها «مدينة غير دنية» (أع ٢١: ٣٩). لأنها كانت مدينة تجارية عظيمة ومحط رجال الأدب. وقد درس أساتذة أغسطس وطيباريوس فيها، إلا أن شهرتها التاريخية بالأكثر ستبقى على مر الأجيال كمسقط رأس رسولنا العظيم ومهد إقامته في أيام صباه.

على أنه، وإن كان قد ولد في مدينة للأمم، فقد كان عبرانيًا من العبرانيين، وكان أبوه من سبط بنيامين من شيعة الفريسيين مقيمًا في طرسوس. وقد حصل على امتياز الجنسية الرومانية، وإن كنا لا نعرف الواسطة، لهذا استطاع ابنه أن يقول لذلك القائد الروماني «أما أنا فقد وُلدت فيها». وفي طرسوس تعلم صناعة الخيام، وكانت مهنة شريفة عند اليهود، الذين من عاداتهم أن يعلموا أبنائهم صناعة يستند عليها الولد عند اللزوم لأود معيشته.

ولما وقف بولس يترافع أمام أهل مدينته (أع٢٢) قال إنه مولود في طرسوس، إلا أنه تربى «عند قدمي غمالائيل على تحقيق الناموس الأبوي». ويذكر التاريخ عن غمالائيل هذا أنه كان من أشهر معلمي الناموس، ونفهم من أسفار الوحي أنه كان معتدل الأفكار وعنده حكمة إنسانية. ولكن غيرة شاول جعلته يظهر في مظهر يناقض ما اتصف به معلمه من التسامح.

وعندما استشهد استفانوس قيل عن شاول إنه كان شابًا، وكان راضيًا بموته، بل كان حارسًا لثياب الذين رجموه. أما هدايته فالأرجح أنها حدثت بعد ذلك بعامين، إلا أنه لا يمكن تعيين التاريخ بالتحقيق.

ويستفاد من رواية سفر الأعمال ص٩ أنه لم يتأخر بعد الإيمان عن الاعتراف بإيمانه بالمسيح والمجاهرة باسمه للذين حوله. وكان شاول لبضعة أيام مع التلاميذ الذين كانوا في دمشق، وفي الحال كرز بالمسيح في المجمع أنه ابن الله. وهذه الشهادة الجديدة عن المسيح جديرة بالالتفات، لأن بطرس كان يشهد عن يسوع أن الله أقامه ربًا ومسيحًا، أما بولس فقد كرز به في أعلى درجات مجده كابن الله، إلا أن خدمته الجهارية لم يكن وقتها قد حان بعد، لأنه بقيت عليه بعض الدروس التي يجب أن يتعلمها، ولذلك اعتزل الناس منقادًا بالروح سائرًا نحو العربية حيث صرف ثلاث سنين، ثم رجع إلى دمشق (غل ١: ١٧).

وقد ازداد في عزلته ثباتًا وعزيمة ونشاطًا في الإيمان، وطفق

يكرز بالكلمة بأكثر مجاهرة، مبرهنًا على أن يسوع هو المسيح ابن الله. ومن ذلك الحين أخذ اليهود في معاداته والقيام ضده، وكانوا يراقبون الأبواب ليلًا ونهارًا عساهم يقابلونه ليقتلوه، وإذ علم التلاميذ أخذوه بالليل سرًا ودلوه من السور في زنبيل (٢كو١١: ٣٢،٣٣)، فوجد نفسه في الطريق إلى دمشق. وبواسطة شهادة برنابا الودية والتوصية عليه التصق بالتلاميذ هناك، وما كان أغرب تلك الحادثة وأعجب تلك النعمة التي انتصرت هكذا.

زيارة شاول الأولى لأورشليم (حوالي ٣٩م)

ها هو الرسول في أورشليم مدينة آبائه المقدسة ومقر الديانة اليهودية، ومركز المسيحية في ذلك الحين. وما أعظم التغيير الذي طرأ عليه ما بين خروجه منها في رحلته المشهودة إلى دمشق، وعودته إليها.

وهنا يحسن بنا أن ننتظر قليلاً ريثما نتأمل في وصف مدينة دمشق نظرًا لعلاقتها بهداية الرسول بولس وخدمته وتاريخ حياته، علاوة على شهرتها تاريخيًا وكتابيًا.

يُعتقد أن دمشق هي أقدم مدائن العالم، وبحسب رواية يوسيفوس المؤرخ قد أسسها عوص بن آرام حفيد سام. وأول ذكر لها في التوراة كان بالارتباط بإبراهيم، الذي كان له وكيل أمين مولود في تلك المدينة «مالك بيتي هو أليعازر الدمشقي» (تك١٥: ٢)، فهي إذاً حلقة الاتصال بين عصور الآباء القدماء والعصور الحديثة. وقد كانت مضرب الأمثال لجمالها وغناها لمدة أربعة آلاف سنة كاملة. وقد غزاها ملوك نينوى وبابل وفارس واليونان وروما، ولكنها كانت ناجحة تحت حكوماتهم المتعاقبة على السواء. وقد بليت تلك الدول أما هي فلم تبل. ومما زاد عظمتها وجعل لها ذكرًا خالدًا في التاريخ علاقتها بتاريخ حياة الرسول بولس [١٧].

ولكننا نعود إلى أورشليم حيث قضى الرسول خمسة عشر يومًا مع بطرس ويعقوب يباحث اليونانيين، ثم أن الأخوة انحدروا به إلى قيصرية «وأرسلوه إلى طرسوس، وأما الكنائس في جميع اليهودية والجليل والسامرة فكان لها سلام، وكانت تبنى وتسير في خوف الرب، وبتعزية الروح القدس كانت تتكاثر» (أع٩: ٣٠،٣١). فكان العدو ساكتًا إلى حين، وهكذا من رحمة الله ساد السلام واستتبت السكينة، لأن الاضطهاد كان قد تمم مقاصد نعمته، وآل إلى بركتين عظيمتين، وهما خوف الرب وتعزية الروح القدس. وما دامت الجماعة تسير في خوف الرب ولها تعزية الروح القدس فلابد من البنيان والنمو وتكاثر العدد.

وبينما كان شاول في طرسوس مسقط رأسه، كان عمل الرب الصالح يزداد في أنطاكية، واجتاز أناس من الذين تشتتوا من جراء الاضطهاد الذي حدث بسبب استفانوس إلى فينيقية وقبرص وأنطاكية، ولكن كان منهم رجال قبرصيون وقيروانيون، الذين لما جاءوا إلى أنطاكية «كانوا يخاطبون اليونانيين مبشرين بالرب يسوع، وكانت يد الرب معهم، فآمن عدد كثير ورجعوا إلى الرب» (أع١١: ١٩-٢١). وهنا نشاهد بدء نهضة جديدة ونظام جديد، لأن الكرازة حتى هذا الوقت كانت محصورة بين اليهود فقط. ولما سُمع خبر عمل الله المبارك هذا بين الأمم في آذان الكنيسة التي في أورشليم أرسلت برنابا إلى أنطاكية بمهمة خاصة «الذي لما أتى ورأى نعمة الله فرح ووعظ الجميع أن يثبتوا في الرب بعزم القلب، لأنه كان رجلاً صالحًا وممتلئًا من الروح القدس والإيمان. فانضم إلى الرب جمع غفير» (أع١١: ٢٤).

ولما رأى برنابا تكاثر العمل لا بد شعر بحاجته لرفيق يشد أزره، فخطر على باله شاول، وللوقت قام منقادًا بالروح ليبحث عنه، ولما وجده أتى به إلى أنطاكية، وهناك اشتركا في الخدمة وهما يعملان معًا «سنة كاملة» سواء كان وسط جماعات المؤمنين أو بين الشعب. وكان برنابا هو المتقدم فيهما إلى ذلك الوقت، ومن ثم فعند ورود ذكرهما كان يقال «برنابا وشاول». أما بعد ذلك فقد فنقرأ «بولس وبرنابا».

ثم لاحت للمؤمنين الأحداث في أنطاكية فرصة لإظهار ما تكنه صدورهم من العواطف لإخوتهم الذين في أورشليم، لأن نبيًا اسمه أغابوس إذ علم بالروح أن مجاعة عظيمة ستحدث في كل العالم، التي حدثت في أيام كلوديوس قيصر، فعزم التلاميذ أن يرسلوا كل واحد بحسب طاقته تبرعًا للإخوة الساكنين في اليهودية، فأرسلوها للشيوخ على يد برنابا وشاول.

زيارة شاول الثانية لأورشليم (حوالي ٤٤م)

وهكذا صعد برنابا وشاول إلى أورشليم مزوَّدين بهذه الخدمة، وكانت أورشليم إلى هذا الحين مركز العمل الذي كان يمتد بسرعة

إلى الأمم. ولكن الوحدة بين اليهود والأمم كانت محفوظة، وقد توثقت عراها بواسطة جمع هذه الخدمة. إلا أنه من ذلك الحين ظهر وضع جديد وخدمة جديدة وطابع جديد من القوة في تاريخ الكنيسة. وكان برنابا وشاول بعدما أكملا مأموريتهما رجعا إلى أنطاكية آخذين معهما يوحنا الملقب مرقس.

بدءًا من الأصحاح الثالث عشر من سفر الأعمال نشاهد نظامًا جديدًا في الخدمة الرسولية، ويحسن بنا أن نلاحظ هذا التغيير الجوهري. وهذه النقطة المهمة التي نشير إليها هي سلطان الروح القدس وحده في اختيار وإرسال برنابا وشاول. وكما كان المسيح هنا على الأرض يرسل التلاميذ حيثما أراد هكذا الروح القدس الآن، لذلك نسمعه يقول «افرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه... فهذان إذ أرسلا من الروح القدس انحدرا إلى سلوكية ومن هناك سافرا في البحر إلى قبرص» (أع١٣: ٢، ٤). ليس معنى ذلك أن سلطان الرب تقلص، ولا أن الروح القدس أخذ سلطانًا جديدًا، بل أسلوب العمل هو الذي تغير. فالروح القدس الآن على الأرض لأن المسيح تمجد في السماء، وأصبح هو مصدر وقوة العمل الذي أمامنا، وقد أرسل برنابا وشاول حسب إرادته. وهذا يقودنا إلى:

رحلة شاول الأولى كمرسل (حوالي٤٨م)

قبل مرافقة الرسولين في رحلتهما التبشيرية هذه، نلاحظ هنا تغييرًا آخر، فإن برنابا وشاول لم يسافرا من أورشليم، المركز القديم للخدمة، بل بدأا رحلتهما من أنطاكية المدينة الأممية. ولا يخفي ما في ذلك من الأهمية، فكأن مظاهر القوة والسلطان التي كانت لأورشليم والاثني عشر رسولاً قد أُسدل عليها الستار، وها هو الروح القدس بنفسه يدعو برنابا وشاول للعمل، وبعد ما يرشحهما يرسلهما مباشرة بدون تداخل الاثني عشر.

ولا يسعنا في مختصر كهذا ذكر كل الحوادث التي صادفت الرسول بولس في جميع أسفاره بالتفصيل، ويمكن للقارئ أن يدرس هذا الموضوع في الرسائل وسفر الأعمال. إنما غرضنا أن نأتي على مجمل تلك الحوادث، مع تفصيل ما يستحق الإسهاب منها بكيفية يسهل معها على القارئ أن يحيط برحلات هذا الرسول العظيم، بل أعظم مبشر وأقوى عامل بعد الرب نفسه. ولكننا قبل الشروع في ذلك نذكر رفقاءه في الخدمة والأماكن التي نشأوا فيها.

برنابا

كان رفيقًا لشاول وصديقًا له مدة من الزمان. وكان لاويًا من جزيرة قبرص، وقد سبق أن دعاه الرب ليتبعه، وإذ كانت له أملاك ومقتنيات باعها وأتى بثمنها ووضعه عند أقدام الرسل. وإذا قرنّا سخاءه هذا بما شهد به الروح القدس عنه فإنه يتمثل أمامنا هذا الشخص المحبوب في صورة جميلة وأخلاق بديعة. ومن تعلق نفسه بنفس بولس وترحيبه به عند تعريفه إياه بباقي الرسل نحكم بأنه كان أوسع صدرًا من كثيرين من معاصريه الذين تربوا تربية يهودية، فنشأوا على التزمت. إلا أنه كان ينقصه العزم الثابت والجرأة في الخدمة، والنشاط والحماس اللذان اتصف بهما زميله بولس الرسول.

يوحنا مرقس

هو ابن أخت برنابا كما يتضح من كولوسي٤: ١٠، وأمه تُدعى مريم، وكانت تقطن في أورشليم، وكان بيتها مكان اجتماع الرسل والمسيحيين في البداية. وعندما أُنقذ بطرس من السجن خرج توًا من هناك إلى «بيت مريم أم يوحنا الملقب مرقس» (أع١٢: ١٢). والمرجح أن هدايته كانت في هذه الفرصة على يد بطرس كما يؤخذ من قول الرسول عنه في رسالته الأولى٥: ١٣ «مرقس ابني».

ومما تقدم يتضح للقارئ أن مرقس هذا لم يكن رسولاً ولا واحدًا من السبعين، وأنه لم يكن رفيقًا لربنا المبارك أثناء خدمته الجهارية هنا، ولكنه كان يميل إلى الخدمة ويرغب في العمل للرب، ولذلك قصد الالتحاق ببولس وبرنابا، وإن كان يتضح من رواية سفر الأعمال أنه لم يقوَ على احتمال مشاق الخدمة، وإيمانه لم يبلغ درجة رفيقيه في التغلب على صعوبة التبشير «ثم أقلع من بافوس بولس ومن معه وأتوا إلى برجة بمفيلية، وأما يوحنا ففارقهم ورجع إلى أورشليم» (أع١٣: ١٣). ويُعتقد أنه كتب إنجيله حوالي سنة ٦٣م.

أنطاكية

هي عاصمة سلوقيدية القديمة التي أسسها سلوقوس نيكاتور نحو سنة ٣٠٠ ق.م. وقد بلغت من الشهرة في تاريخ الكنيسة القديم ما لم تبلغه سوى مدينة أورشليم، وكما كانت أورشليم مركز اليهود أصبحت أنطاكية مركز المسيحيين من الأمم، وكان موقعها

متوسطًا. ومن هذا الحين أخذت مركزًا جديرًا بالذكر في نشر المسيحية بين الوثنيين، وقد تأسست فيها أول كنيسة للأمم (أع١١: ٢٠، ٢١) وفيها دُعي التلاميذ مسيحيين أولاً (أع١١: ٢٦) وهناك بدأ بولس الرسول في مباشرة خدمته الجهارية.

• • •

ولكننا نعود إلى رحلة بولس التبشيرية، فقد خرج برنابا وشاول مرسلين من الروح القدس، وبرفقتهما في الخدمة يوحنا مرقس. وبما أن المواعيد هي لليهود فقد كرزوا لهم أولاً بالإنجيل، ولكن اهتداء سرجيوس بولس فتح الباب بنوع خاص للعمل بين الأمم، كما كانت هذه الحادثة نقطة انقلاب في تاريخ خدمة الرسول بولس، لأنه من ذلك الحين تغير اسمه من شاول إلى بولس. ومن هذا الوقت لم يعد الوحي يقول «برنابا وشاول» بل «بولس وبرنابا». وهكذا أصبح بولس هو القائد، وجميع الذين ساروا معه دعوا رفقاءه. ولنا أيضًا من ذلك معنى رمزي نبوي، فإن ذلك الوالي المشهود له أنه رجل فهيم شعر بحاجة نفسه، فأرسل يستدعي برنابا وشاول، والتمس أن يسمع منهما كلمة الله، فقاومهما عليم الساحر إذ علم أنه متى قبل الوالي الحق الذي كان يكرز به بولس ضاع نفوذه في دار الولاية، ومن ثم فقد حاول أن يفسد الوالي عن الإيمان. أما شاول الذي أخذ اسم بولس الآن فامتلأ من الروح القدس وشخص إليه، وبكل جرأة وحماس انتهره في حضرة الوالي قائلاً له: «أيها الممتلئ كل غش وكل خبث يا ابن إبليس يا عدو كل بر، ألا تزال تفسد سبل الله المستقيمة؟ فالآن هوذا يد الرب عليك فتكون أعمى لا تبصر الشمس إلى حين... فالوالي حينئذ لما رأى ما جرى آمن مندهشًا من تعليم الرب» (أع١٣: ١٠-١٢) لأن قوة الله العجيبة قد رافقت خادمه الأمين، والحكم الذي نطق به وقع في الحال، فدهش الوالي من رهبة مجد هذا المشهد، وخضع لتأثير الإنجيل صاغرًا.

قال أحدهم "لا شك عندي في أن باريشوع هذا صورة لأمة اليهود في الوقت الحاضر، المضروبة بالعمي إلى حين بسبب مقاومتهم لحق الإنجيل. ولكي يملأوا مكيال إثمهم قاوموا التبشير للأمم، ولهذا ضربهم الله بالعمى الروحي بسبب إفسادهم سبل الله المستقيمة ومقاومتهم النعمة، وإن كان هذا القضاء إلى حين"[٤/٣].

وقد جرت في هذه الرحلة الأولى بين الأمم أعمال مباركة جميلة بكثرة (قارن أع١٣مع١٤)، من زيارة جهات وتأسيس كنائس، وإقامة شيوخ، وتأثير عمل الروح القدس وظهوره بقوة في تقدم الإنجيل ونشر الحق. ففي لسترة هاجت الوثنية ضد المسيحية، ولكن الإنجيل انتصر كما في كل مكان أيضًا. وهكذا ظهرت مواهب الرسول المتنوعة بحسب النعمة المعطاة له من الله. فسواء خطب في وسط اليهود العارفين بالناموس، أو البرابرة الهمجيين، أو اليونانيين الحكماء المتعلمين، أو عصابات الشعب المتجمهرين، ففي كل الظروف أثبت أنه إناء مختار من الله ومعد للخدمة ومهيأ من الرب.

بقيت لنا كلمة عن أنطاكية التي في بيسيدية جديرة بالذكر، فإن خطاب بولس الذي ألقاه هناك، ولو شابه في ألفاظه الخطابات التي وردت في الفصول الأولى من سفر الأعمال على لسان بطرس واستفانوس، إلا أن له بعض الملامح الخاصة بكرازة بولس، ففي مقدمته التي استهل بها موضوعه، كما في كيفية استطراده للكلام إلى ذكر المسيح، ثم مناداته بالتبرير بالإيمان، في كل هذا نرى تلك المبادئ التي اختص بها بولس في بقية خطاباته، كما في كل الرسائل أيضًا. فلم يكتب أحد بالوحي عن التبرير بالإيمان كما كتب بولس. وقد اقتبس الواعظون خاتمة خطابه في تبشيرهم في كل العصور، فبكلمات قليلة وضع أمامهم البركة التي ينالها جميع الذين يقبلون المسيح بالإيمان، والمصير المرعب الذي ينتظر كل الذين يرفضونه، مبرهنًا بذلك أنه لا توجد حالة وسط بين الطرفين، فمسألة الإيمان بالمسيح إما قبول وإما رفض، ولا ثالث لهما. «فليكن معلومًا عندكم أيها الرجال الإخوة أنه بهذا يُنادى لكم بغفران الخطايا، وبهذا يتبرر كل من يؤمن من كل ما لم تقدروا أن تتبرروا منه بناموس موسى. فانظروا لئلا يأتي عليكم ما قيل في الأنبياء انظروا أيها المتهاونون وتعجبوا واهلكوا، لأنني عملاً أعمل في أيامكم. عملاً لا تصدقون إن أخبركم أحد به». (أع١٣: ٣٨-٤١).

ولما كملت مأموريتهما رجعا إلى أنطاكية التي في سوريا. وإذ سمع الرسل بما صنع الرب على أيديهما، وأن باب الإيمان قد انفتح للأمم، لم يسعهم إلا أن يمجدوا الله ويباركوا اسمه القدوس.

• • •

نعود الآن لنلقي نظرة على أورشليم، فإن تأثير إرسالية بولس الأولى على التلاميذ الذين كانوا في أورشليم أفضى إلى نقطة تحول عظيمة في تاريخ الكنيسة، فقد نبهت غيرة الفريسيين بصورة وصلت إلى درجة أن انقسامًا بين أورشليم وأنطاكية كاد يحدث في هذا الوقت المبكر من تاريخ الكنيسة، ولكن الله تنازل بنعمته وفض المشكلة في أنطاكية بالحسنى، إلا أن تعصب المؤمنين من اليهود كان أشد من أن يهدأ بسهولة، فقد ظلوا في كنيسة أورشليم متمسكين بربط المسيحية بمطاليب الناموس، بل حاولوا أن يضعوا المؤمنين من الأمم تحت ذلك النير عينه.

وفي ذلك الوقت نزل بعض المسيحيين المتشبعين بالمبادئ اليهودية إلى أنطاكية، وأخذوا يقنعون الأمم بأنهم إن لم يختتنوا بحسب ناموس موسى ويحفظوا الناموس فلا يستطيعون أن يخلصوا. فحدث بينهم وبين بولس وبرنابا مناقشة ومجادلة ليست بقليلة. ولكن لما كانت المسألة أكبر من أن يفصل فيها بين الرسول وخصومه مباشرة في كنيسة أنطاكية فقد أتفق الرأي على إرسال لجنة إلى أورشليم وطرح المسألة بين الرسل والمشايخ هناك. وكان بولس وبرنابا هما المنتخبان عن أنطاكية، وذلك بالطبع لأنهما كانا أول العاملين في نشر المسيحية بين الأمم، وهذا يقودنا إلى:

رحلة بولس الثالثة لأورشليم (حوالي ٥٠م)

عندما وصلا أورشليم وجدا أن الأمر لم يكن مجرد فكرة تشغل أذهان أفرادًا من الإخوة لم يتثبتوا بعد، بل هو تعليم تأصل وسط كنيسة الله. وهذا هو منشأ الصعوبة، فالأمر لم يقتصر على غير المؤمنين من اليهود بل تناول المعترفين باسم يسوع أنفسهم، إذ «قام أناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين وقالوا إنهم ينبغي أن يُختتنوا ويوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى» (أع١٥: ٥).

وبطرح هذا الرأي على كل الكنيسة بدأ فحص المسألة كما هي مفصلة في الأصحاح الخامس عشر، الذي يبين كيف تقررت المسألة. فلم يمارس الرسل سلطانهم الرسولي، ولم ينفرد المشايخ بالرأي في علاج هذه المسألة، بل كان مجموع الكنيسة التي في أورشليم معًا بنفس واحدة مشاركين في المناقشة. وإن كان هذا الاجتماع يعرف في التاريخ باسم "مجمع الكنيسة الأول" لكنه كان أيضًا أخر مجمع للكنيسة أمكن أن يختتم بالقول «رأى الروح القدس ونحن» (أع١٥: ٨).

ولكن كثيرون في أيامنا الحاضرة من الذين يذهبون إلى وجوب التمسك "بالأساسيات"، دون الاهتمام بما يسمونه "الشكليات" يقولون إن مسألة ختان طفل أو عدم ختانه ليست من المسائل الجوهرية، ولكن ليس هذا فكر الله، بل كانت هذه القضية عنده مسألة حيوية تتوقف عليها سلامة أساسات المسيحية، وتثبيت مبدإ النعمة، بل هي مسألة علاقة الإنسان بالله. وعلى من يريد أن يفهم أهمية هذه القضية أن يطالع رسالة غلاطية، لأنها تُعَد شرحًا لهذا الموضوع.

ولم يكن بين الفرائض التي تمسك بها اليهودي بشدة ما هو مثل فريضة الختان، لأنها كانت علامة وختم علاقته بالله، وواسطة نوال بركات عهده مع إبراهيم ونسله، حتى ظن البعض أن معمودية الأطفال قد دخلت في الكنيسة كبديل للختان لمواجهة التعصب اليهودي الشديد له، مع إنه لو كان الأمر كذلك لكان مجمع أورشليم هو خير مناسبة لإعلان ذلك، فتنتهي بذلك المشكلة بحل مُرض لكلا الكنيستين في أورشليم وفي أنطاكية، يحفظ وحدتهما، ويستعيد السلام بينهما. ولكن لم يقترح أي من الرسل أو الشيوخ ذلك، ولم يشر أي من الإخوة إلى المعمودية بكلمة.

على أننا قبل مبارحة هذه النقطة في تاريخ الرسول يحسن بنا أن نلاحظ بعض الحقائق التي لم ترد في سفر الأعمال، ولكن ذكرت في غلاطية٢، حيث نقرأ أن بولس صعد بموجب إعلان في هذا الوقت إلى أورشليم آخذًا معه تيطس أيضًا. كما نفهم أيضًا أن سفر الأعمال يسجل التاريخ مجردًا، فيظهر خضوع بولس لأقوال ومشاعر وأفكار الناس. أما رسالة غلاطية فتعطينا ما هو أدق وأعمق: إذ تكشف لنا حقيقة قلب بولس وأفكاره. أما الذي استطاع أن يوفق بين تلك الظروف الخارجية والحاسيات الداخلية فهو الله وحده بقوة وإرشاد الروح القدس. لأن القضية كانت متعلقة بحرية المسيحي أو عبوديته للطقوس والفرائض، وهل يفرض ناموس موسى - وعلى الأخص وصية الختان - على الراجعين من الأمم. لذلك صعد بولس إلى أورشليم ومعه تيطس أيضًا، فهكذا وضع في مواجه الرسل الاثني عشر وجمهور الكنيسة ذلك الأخ اليوناني غير المختتن. ولا شك أن هذه كانت خطوة جريئة من بولس ذات أهمية ومعنى خطير أن يدخل بأممي غير مختتن إلى معقل التعصب اليهودي، إلا أنه إنما فعل ذلك بموجب إعلان من الله، الذي قاده أن يخطو هذه الخطوة، لأنه رآها لازمة للفصل في الموضوع فصلاً نهائيًا بينه وبين دعاة تهويد المسيحية،

أو كما يقول هو نفسه في هذا الشأن أنه فعل ذلك «بسبب الإخوة الكذبة المدخلين خفية الذين دخلوا اختلاسًا ليتجسسوا حريتنا التي لنا في المسيح كي يستعبدونا، الذين لم نذعن لهم بالخضوع ولا ساعة ليبقى عندكم حق الإنجيل» (غل ٢: ٤،٥).

ولما انتهت مأمورية بولس في أورشليم ونال غرضه الذي سافر لأجله من جهة حق الإنجيل، رجع مع برنابا إلى أنطاكية إلى المسيحيين من الأمم، وكان معهما أيضًا يهوذا وسيلا اللذين انتدبتهما الكنيسة ليحملا معهما قرار المجمع. ولما اجتمعوا هناك بجمهور المؤمنين وقرئت عليهم الرسالة فرحوا فرحًا عظيمًا وتعزوا معًا. وهكذا انتهى أول خلاف بين الرسل إلى قرار، وأنفض أول مجمع رسولي.

قد نتصور من رواية سفر الأعمال أن الخلاف الذي كان بين اليهود والأمم زال بصدور هذا القرار، إلا أننا نفهم من الرسائل أن المقاومة استمرت من دعاة التهويد الذين كانوا دائمًا ضد حرية المسيحيين من الأمم، وطالما دارت رحى المناقشة واشتد وطيسها، حتى أضطر بولس أن يجدد الكَرّة عليها ويناضل من جديد دفاعًا عن ذلك المبدأ الذي سبق له الانتصار له.

رحلة بولس التبشيرية الثانية (حوالي٤٨م)

بعدما صرف بولس وبرنابا وقتًا في أنطاكية عزما على العودة إلى التجوال مرة أخرى. «ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا لنرجع ونفتقد أخوتنا في كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب كيف هم. فأشار برنابا أن يأخذا معهما أيضا يوحنا الذي يُدعى مرقس. وأما بولس فكان يستحسن أن الذي فارقهما من بمفيلية ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما. فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر. وبرنابا أخذ مرقس وسافر في البحر إلى قبرص. وأما بولس فاختار سيلا وخرج مستودعًا من الأخوة إلى نعمة الله، فاجتاز في سورية وكيليكية يشدد الكنائس». (أع١٥: ٣٦-٤١).

فبولس الرسول إزاء سفرة مهمة كهذه، محفوفة بالتجارب والأخطار، تستدعي عزمًا ثابتًا جريئًا، لم يسعه أن يعتمد على رفقة مرقس، ولا استطاع أن يتناسى بسهولة ما حدث منه عندما فارقهما، تاركًا عمل الرب بسبب بعض صلات عائلية وروابط شخصية، فإن بولس لم يحسب لهذه العلاقات أدنى حساب، بل ضحى بصوالحه الذاتية على مذبح صالح خدمة الرب، وبالطبع انتظر من رفقائه أن يكونوا مثله. أما برنابا فبسبب الروابط الطبيعية أحب أن يقحم ابن أخته معه في الخدمة، فغلبت صلة القرابة على طباع برنابا الرقيقة وأستسلم لها. أما بولس فكان طابعه عدم التهاون مع التراخي، ويتضح لنا هذا الطابع من موقفه في أنطاكية عندما ظهرت الليونة في بطرس عندما ساير دعاة التهويد الذين جاءوا إلى أنطاكية (غل٢)، فقاومه موبخًا إياه. فقد كان لنشر الإنجيل في البلاد الوثنية أهمية وأولوية في نظر بولس. أما مرقس فقد فضّل أورشليم على العمل، وأما سيلا فقد فضل العمل على أورشليم، وهكذا رأى بولس أيضًا، وبالطبع كان في ذلك منقادًا بالروح القدس. فأخذ برنابا مرقس قريبه وأقلع إلى قبرص التي هي وطنه، وهنا نستودع نحن أيضًا برنابا ذلك الأخ المحبوب والخادم الأمين للرب، فإننا لا نعود نقرأ عنه مرة ثانية في سفر الأعمال. وعلى كل تلميذ للرب أن يتذكر باستمرار لفظة «قريبه» و«وطنه» ويأخذ منهما لنفسه درسًا.

ولو كنا الآن في موقف وعظ وتعليم وليس في معرض دراسة تاريخية لكنا أطلنا التأمل في هذه الموقف المحزن، إلا أننا نتجاوزه ذاكرين فقط من نتائجه أمرين رائعين:

الأول: أن نعمة الله استخرجت من هذه المشاجرة بركة للأمم، فإن نهر الخدمة انقسم إلى شطرين، فجرت المياه في نهرين بعدما كانت تجري في قناة واحدة. وهذا هو صلاح إلهنا ،ولكن هذا لا يفتح بابًا يسوّغ للمسيحيين أن ينقسموا!!

والثاني: أن بولس بعد ذلك كان يذكر برنابا بكل تقدير ومحبة، بل وطلب أن مرقس يأتي إليه ثانية، لأنه صار نافعًا للخدمة (راجع ١كو٩: ٦، ٢تي٤: ١١). ولا شك أن أمانة بولس كانت بركة لكليهما معا، لأن عسل العواطف البشرية غير مقبول على مذبح الله.

وهكذا سافر بولس وسيلا مستودَعين من الأخوة إلى نعمة الله، لم تقام لهم حفلة وداعية، ولم يقوموا بعمل دعاية عن رحلتهم التي عزموها، ولا عن أهدافهم العريضة من ورائها، بل بكل بساطة نسمعهم يقولون «لنفتقد إخوتنا». كان هذا هو غرض الرسول في سفرته الثانية الهامة بكل إخلاص. أما الرب فكان مشغولاً بخادميه، مهتمًا بتجهيز ما يلزم لهما في السفر، فلم يمضِ عليهما زمن حتى التحق بهما من

لسترة رفيق ثالث هو تيموثاوس، وهكذا امتلأ الفراغ الذي قد أحدثه انفصال برنابا. ومع أن بولس خسر بفراق برنابا زميلاً صادقًا وأخًا محبوبًا، إلا أنه ربح برفقة تيموثاوس ابنًا صريحًا في الإيمان ورفيقًا أمينًا، لازم الرسول حتى آخر حياته على الأرض. «فأراد بولس أن يخرج هذا معه، فأخذه وختنه من أجل اليهود الذين في تلك الأماكن، لان الجميع كانوا يعرفون أباه أنه يوناني» (أع١٦:٣). فبولس هذه المرة خضع لتأثير اليهود وقبل ختان تيموثاوس ليتجنب مقاومتهم.

وكان تيموثاوس ابنًا لوالدين لا يوافق الكتاب على اقترانهما معًا، لا في العهد القديم ولا في العهد الجديد، لأن أباه - وهو مجهول الاسم - كان يونانيًا، وأما أمه فكانت يهودية تقية، وقد استنتج البعض من عدم ذكر اسم أبيه لا في سفر الأعمال ولا في الرسائل أنه مات عقب ولادة ابنه مباشرة وتركه طفلاً، وقد عنيت بتربيته أمه أفنيكي وجدته لوئيس، وعلّمتاه منذ الطفولية الكتب المقدسة. ومن الإشارات العديدة في رسائل بولس إلى رقة عواطف ابنه المحبوب في الإيمان ودماثة أخلاقه وذكر دموعه يصح لنا أن نعتقد أن التربية العائلية كان لها تأثير على أخلاقه في كل أيام حياته. وقد كانت محبة بولس لتيموثاوس وذكرى أيام حداثته التي صرفها في لسترة، ووصف الأيام التي قضاها في المنزل مع والدته وجدته من أبلغ ما كتب أو عبر عنه رسولنا العظيم. ومع أنه كان قد بلغ سن الشيخوخة وهو في حالة الضنك الشديد، مقيدًا في السجن لا ينتظر سوى الموت، إلا أنه يكتب: «إلى تيموثاوس الابن الحبيب، نعمة ورحمة وسلام من الله الآب والمسيح يسوع ربنا. إني أشكر الله الذي أعبده من أجدادي بضمير طاهر، كما أذكرك بلا انقطاع في طلباتي ليلاً ونهارًا، مشتاقًا أن أراك ذاكرًا دموعك، لكي أمتلئ فرحًا. إذ أتذكر الإيمان العديم الرياء الذي فيك الذي سكن أولاً في جدتك لوئيس وأمك أفنيكي، ولكني موقن أنه فيك أيضًا» (٢تى١: ١-٥). ثم يطلب منه في سياق الكلام بإلحاح شديد أن يأتي لزيارته في أول فرصة إذ يقول: «بادر أن تجيء إليّ سريعًا... بادر أن تجيء قبل الشتاء» (٢تي٤: ٩، ٢١) ويصح لنا أن نعتقد أن الله لا بد سمح لابن محبوب كهذا أن يصل إلى هذا الشيخ في الوقت المناسب لتعزية أبيه في المسيح وقت احتضاره، ولكي يسمع منه أقواله الوداعية ونصائحه الودية، ويكون شاهدًا لإتمام سعيه بفرح.

أما سيلا أو سلوانس فأول ذكر له في سفر الأعمال كان كمعلم في كنيسة أورشليم، والأرجح أنه كان يونانيًا ولكن من رعايا الحكومة الرومانية مثل بولس (راجع أع١٥:٢٢-٤٠) وقد انتدبه المجمع لمرافقة بولس وبرنابا، فرجع الثلاثة إلى أنطاكية يحملون القرار المصدق عليه من الرسل والمشايخ، ولكن بما أن تفصيلات تاريخ حياة تيموثاوس وسيلا سنذكرها عند تتبع حياة الرسول بولس فلا حاجة إلى تكرارها هنا، لكننا نعود إلى رحلتنا التي نحن بصددها.

فقد اجتاز بولس وسيلا مع رفيقهما الجديد المدن العديدة، حاملين معهم قرار الرسل والمشايخ لتسليمه إلى المؤمنين والتنبيه باتباعه، وكانوا يتركون نسخة منه في كل كنيسة حتى يكون لدى اليهود حكم كنيسة أورشليم بنصه، فلا يُحتّمون على المؤمنين من الأمم حفظ الناموس. وبعدما أكملوا زيارة الكنائس في سورية وكيليكية جعلوا وجهتهم فريجية وغلاطية لتثبيت المؤمنين هناك. «اجتازوا في فريجية وكورة غلاطية» (أع١٦:٦). وهنا نستوقف نظر القارئ قليلاً لكي يلاحظ كيف اختصر الوحي خدمتهم في هذه الكلمات القليلة «فريجية وكورة غلاطية» مع أن فريجية وغلاطية لم تكونا مجرد مدينتين بل مقاطعتين كبيرتين، ومع كل ذلك فمؤرخ الوحي المقدس يدون أعمالهم هنالك في بضع كلمات. وشتان بين هذا الاختصار وبين إسهاب المؤرخين الحاليين في وصف رحلات المبشرين، مع أن نياندر يذكر في تاريخه أن فريجية وحدها كانت في القرن السادس مؤلفة من اثنين وستين مدينة، والمرجح أن بولس والذين معه اجتازوا في جميع المدن التي كانت فيها وقتئذ.

وهذه الملاحظة عينها تصدق على غلاطية، مع أننا نفهم من رسالة بولس إلى الغلاطيين أنه كان عندهم في هذا الوقت، وكان يشكو من ألم في جسده، حيث يقول «ولكنكم تعلمون أني بضعف الجسد بشرتكم في الأول» (غل٤:١٣) إلا أن قوة كرازته بالمقابلة مع ضعف جسده قد جعلت عطف الغلاطيين وحنانهم عليه يظهران بصورة بارزة جدًا للعيان، إذ يقول «وتجربتي التي في جسدي لم تزدروا بها ولا كرهتموها، بل كملاك من الله قبلتموني كالمسيح يسوع. فماذا كان إذًا تطويبكم؟ لأني أشهد لكم أنه لو أمكن لقلعتم عيونكم وأعطيتموني» (غل٤:١٣-١٥). ومن التاريخ يؤخذ أن أهل غلاطية كانوا شديدي الانفعال، كثيري التقلب سريعي التأثر [١٣].

ونفس رسالة بولس من أولها إلى آخرها تشهد لهذه الصفات المحزنة أنها كانت فيهم، وها هي تأثيرات دعاة تهويد المسيحية ظاهرة بينهم، حتى قال «إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعًا عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر. ليس هو آخر غير أنه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحوّلوا إنجيل المسيح» (غل ١:٦،٧).

ولا ريب أن تاريخ خدمة بولس الرسول الوارد في الأصحاحات ١٦-٢٠ عجيب جدًا في وصفه وذكر نتائجه، فإن تلك الخدمة بلا مثيل في كل التاريخ، وعلى كل خادم للمسيح - ولا سيما المبشرين - أن يدرسوا هذه الفصول ويطالعوها بكل تدقيق مرارًا كثيرة. فقد قال أحدهم - وما أجمل ما قال - تعليقًا على هذه الفصول: "إن إناء الروح القدس هنا ينبعث منه النور السماوي بلمعان تام في كل عمل الإنجيل، فتراه لين العريكة في أورشليم، وهو يقود الرسل نحو إقرار مبدأ حرية الأمم من الناموس، ثم نراه صلبًا شديد الوطأة في غلاطية من أجل سلامة النفوس المتقلقلة. كان يستعمل الحرية في أن يكون لليهود كيهودي، وللذين بلا ناموس كأنه بلا ناموس، وهو في كل حين خاضع لناموس المسيح، سائرًا «بلا عثرة» لأنه لا يسمح لشيء في داخله أن يعطل شركته مع الله الذي منه يستمد قوته، حتى يكون أمينًا بين الناس. ومن ثم فقد استطاع أن يقول ما لم يقدر غيره أن يقول مثله «كونوا متمثلين بي معًا كما أنا بالمسيح»، أو قوله أيضًا في موضع «أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني» أو «أنا أصبر على كل شيء لأجل المختارين لكي يحصلوا هم أيضًا على الخلاص الذي في المسيح يسوع مع مجد أبدي» (١كو ١١:١؛ في ٤:١٣؛ ٢تي ٢:١٠)"[٤٣].

وكذلك طريق الروح القدس مع الرسول في هذه الفصول، فإنه عجيب أيضًا، فهو وحده القائد والمرشد له في كل سيره، المعزي له في جميع تجاربه، الذي يشدده في وسط ضيقاته. وها هو مثلاً يمنع بولس من الكرازة بالكلمة في آسيا، ولا يدعه يذهب إلى بيثينة، ثم «ظهرت لبولس رؤيا في الليل رجل مكدوني قائم يطلب إليه ويقول اعبر إلى مكدونية وأعنا. فلما رأى الرؤيا للوقت طلبنا أن نخرج إلى مكدونية، متحققين أن الرب قد دعانا لنبشرهم» (أع ١٦: ٩-١٢).

بولس يحمل الإنجيل إلى أوربا

وهنا يبتدئ دور جديد في تاريخ الكنيسة، بل في تاريخ حياة بولس وامتداد المسيحية، فقد سافر بولس واللذان معه حاملين الإنجيل إلى أوربا. وهنا ليسمح لنا القراء في الاستراحة قليلاً حتى نسترجع بعض وقائع فتح مكدونية، ونشبع الكلام عن سهول فيلبي المشهورة في التاريخ الروماني. فقد دارت هناك رحى المعركة الفاصلة بين الجمهورية والإمبراطورية، ولكي يُخلد أوغسطس ذكرى هذه الواقعة أسس في فيلبى مستعمرة لتكون كعاصمة المقاطعة، وهي أول مدينة دخلها بولس عند وصوله إلى أوربا.

ويذكرها الوحي أنها «أول مدينة من مقاطعة مكدونية وهي كولونية» (أع ١٦:١٢) والمستعمرات الرومانية كانت حينئذ صورة مصغرة لروما، وكانت فيلبي في ذلك الحين أكثر المستعمرات شبها بروما عاصمة الإمبراطورية.

ومع أننا شردنا عن الموضوع قليلاً ولكن هذه النقطة لا تخلو من فائدة وأهمية لدى القراء، فضلاً عن موافقتها للنبوات الواردة في سفر دانيآل، لا سيما الأصحاح السابع منه. فمدينة فيلبي كانت في حد ذاتها أثرًا يذكّر بقوة اليونان، التي كانت وراء سحق سلطان الفرس الزائل. حين انتصر الإسكندر الأكبر ابن فيليب على الملك داريوس العظيم، فكان هو "النمر اليوناني" الذي تغلب على "الدب الفارسي"[٤٤]. ومن الوقت الذي فيه أبحر الإسكندر من أوربا ليغزو آسيا إلى الوقت الذي فيه أقلعت سفينة بولس من آسيا إلى أوربا كان قد انقضى أربعمائة سنة تقريبًا، ولكن شتان بين غزوتيهما وما وراءهما من البواعث والآمال والأغراض. فما أثار عاطفة الغزو في قلب الإسكندر كان ما قرأه وما سمعه عن تاريخ أجداده، فعقد العزم على القضاء على حكم الشرق، لكنه دون أن يعي كان يتمم مقاصد الله حسب النبوات. أما بولس فقد لبس سلاح الله وتهيأ للحرب لغرض آخر، وفي نفسه آمال أرقى، وهو واثق من الفوز في ميدان الجهاد الروحي، لأن الروح القدس كان قد أرسله لا لمجرد إخضاع دول الغرب، بل لاستئثار كل فكر لطاعة المسيح. فالمسيحية لا تنحصر في أمة أو جماعة أو طائفة من الناس، بل هي للعالم أجمع، أو كما يقول الرسول نفسه في كولوسي ١:٢٣ «كل الخليقة التي تحت السماء» هذه هي رسالة الإنجيل ودائرة الكرازة بها.

على أنه توجد نقطة أخرى لا بد من الإشارة إليها قبل التقدم في موضوع رحلة الرسول بولس. فإن لوقا الطبيب الحبيب، والمؤرخ المدقق والكاتب الأديب، بل المبشر أيضًا، لازم بولس على ما يظهر منذ ذلك الوقت. لأنه من العدد العاشر يغير لوقا صيغة الرواية من الغائب المفرد إلى جمع المتكلم، فيقول «لما رأى الرؤيا للوقت طلبنا أن نخرج إلى مكدونية متحققين أن الرب قد دعانا لنبشّرهم» (أع١٦:١٠). والمرجَّح أنه كان أمميًا ثم تنصر في أنطاكية، ويبدو أنه بقي رفيقًا لبولس أمينًا له كل أيام حياته، إلى أن أكمل سعيه وختم تاريخ أتعابه وآلامه (٢تى٤:١١).

تأثير كرازة بولس في فيلبي

يلوح لنا أن عدد اليهود في فيلبي كان قليلاً جدًا، بدليل عدم وجود مجمع لهم هناك، إلا أن الرسول حسب عادته وجه كرازته إليهم أولاً، ولو أن اللواتي كن يسمعنه هن بعض النسوة المجتمعات معًا على شاطئ النهر (أع١٦:١٣-١٥). وإذ كان بولس يتكلم آمنت ليدية، فانفتح بواسطتها الباب وآمن آخرون غيرها . وهكذا كان دخول الإنجيل إلى أوربا في ظروف بسيطة وبين بضعة نساء مشهورات بالتقوى. وهناك اعتمد أول بيت مسيحي *.

ولكن الشيطان لم يرق في عينيه انتصار الإنجيل بهذه الصورة الهادئة السلمية، فأخذ يدبر الحيل ليعكر صفو العمل وتهييج الخواطر على الرسل. ولم يكن ممكنًا أن يترك الإنجيل يغزو الوثنية بدون إلقاء عثرات في طريقه ومقاومات تسلب القائمين بالعمل راحتهم وهدوء بالهم. فحدث بينما كان الرسول ورفيقاه ذاهبين إلى مكان الصلاة أن جارية بها روح عرافة صارت تتبعهم وهي تصرخ قائلة: «هؤلاء الناس هم عبيد الله العلي الذين ينادون لكم بطريق الخلاص» أما بولس فلم يكترث بأمرها في بادئ الأمر، بل استمر في عمله وهو يكرز بالمسيح لربح النفوس إلى ذلك الشخص المبارك. ولكن تلك الجارية المسكينة المستعبَدة ظلت تتبعهم أيامًا كثيرة وهي لا تزال تنادي بتلك الكلمات عينها! وكان غرض العدو من ذلك أن يحول نظر الناس عن المسيح إلى خدام إنجيله، فإن تلك الجارية لم تشهد للرب يسوع، بل شهدت "لعبيد الله العلي" وبولس لم يكن في حاجة إلى شهادة من إنسان أو جارية، أو حتى من روح عرافة «فضجر بولس والتفت إلى الروح وقال أنا آمرك باسم الرب يسوع المسيح أن تخرج منها. فخرج في تلك الساعة». وهكذا أصبحت الجارية غير قادرة على ممارسة العرافة. ولما رأى مواليها أنه قد خرج رجاء مكسبهم، وأنهم حرموا مورد رزقهم اغتاظوا في نفوسهم لهذه الخسارة، فأثاروا الشعب ضدهم، فأمسكوا بولس وسيلا وجروهما إلى السوق إلى الحكام. وإذ كانوا يعلمون أنه لم تكن لديهم شكاية صحيحة ضدهما ضربوا على وتر تلك النغمة القديمة والمعروفة قائلين: «إن هذين الرجلين يبلبلان مدينتنا» وأنهما يناديان بعوائد يهودية لا يجوز المجاهرة بها في مقاطعة رومانية، وينشران تعاليم تضاد شريعة روما (أع١٦:١٦-٢١).

وكما هو مألوف إلى يومنا هذا انصاع الحكام لضغط الرأي العام، وحكموا بمقتضى غوغاء الناس بدلاً من إقامة الدليل وسماع شهادة الشهود. فمزق الولاة ثياب الرسولين وأمروا أن يُضربا بالعصي وأن يُزج بهما في السجن بدون فحص أو تحقيق. وهكذا صار! وبعدما وضعوا عليهما ضربات كثيرة وجلدوهما سلموهما إلى السجان مثخنين من الجراح، والدماء تسيل من جسميهما، وشدة قساوة قلب ذلك الحارس زادت الطين بلة، فقد ضبط أرجلهما في المقطرة، وبناء على توصية الشعب ألقاهما في السجن الداخلي. أما بولس وسيلا فعوضًا عن الضجر من هذه المعاملة والانشغال بالآلام التي كانا يقاسيانها داخل ذلك السجن المظلم، فإنهما كانا يصليان ويسبحان الله معًا، لأنهما حُسبا مستأهلين أن يقبلا العار والألم من أجل المسيح. وفي وسط سكون ذلك الليل البهيم الذي لا تسمع فيه سوى أنات وتنهدات المسجونين كان هذان الرجلان «يصليان ويسبحان الله والمسجونون يسمعونهما»... وإن كان الشيطان يبذل قصارى جهده لإبطال حركة عمل الله، فهو تعالى لا يسكت حتى ينفذ مقاصده الصالحة، وها هو يستخدم الآن كل تلك الظروف القاسية لنشر الإنجيل وإتمام أفكار محبته لهداية السجان وأهل بيته، وجمع الكنيسة، وإقامة

* إن عمل الروح القدس من جهة «البيت» يبدو واضحًا بين الأمم، أما بين اليهود فحسبما أعلم لا نقرأ عنه. لقد رأينا افرادًا بين اليهود، وكذلك بين السامريين، تأثروا بقوة بالإنجيل. أما بين الأمم فقد افتقدت نعمة الله بيوتًا بأكملها كما سجل لنا الروح القدس: على سبيل المثال «بيت كرنيليوس» و«بيت سجان فيلبي» و«بيت إستفاناس»، وبيوت أخرى نجدها. ولاشك أن هذا مما يعزي، لاسيما بالنسبة لنا. (وليم كلي)[١٥].

الشهادة للرب يسوع المسيح وسط الوثنية. ففي منتصف الليل بينما كان بولس وسيلا يسبحان، والمسجونون منصتون لسماع أصوات لم يألفوها، وإذا زلزلة شديدة حدثت، لأن الله كان مزمعًا أن يتداخل بجلاله ورحمته. ومتى أسمع الرب صوته ارتجت الأرض، وتزعزعت أساسات السجن وانفتحت أبوابه، وانفكت قيود المسجونين، فأين هي سجون روما وقوانينها؟ بل ما هي كل قوات العدو أمام عظمة قدرة الله؟ ولكن مع أن صوت الله يُسمع في العاصفة، فثورة غضبه يتبعها صوت الإنجيل المنخفض الخفيف، وصوت السلام الهادي من السماء.

فاستيقظ السجان من نومه مذعورًا، وكان أمر المسجونين أول فكر جال بخاطره. وإذ رأى الأبواب مفتوحة ظن أنهم هربوا، فاستل سيفه وهمّ بأن يقتل نفسه «فنادى بولس بصوت عظيم قائلاً: لا تفعل بنفسك شيئًا رديًا لأن جميعنا ههنا» فأثرت أقوال المحبة هذه في قلب السجان ولينت قساوته، لأن رزانة بولس وسيلا وعدم هروبهما من السجن، مع أن الفرصة كانت سانحة لهما، واهتمامهما بأمره إلى هذا الحد، هذه كلها أدهشت السجان، إذ رأى من خلالها فيهما نوعية أسمى من البشر، فألقى سيفه أرضًا، وطلب نورًا و دخل به إلى السجن حيث كان الرسولان، ثم سجد أمامهما وهو مرتعد لأن ضميره قام عليه، فانكسر قلبه وشعر كأن الزلزلة قد هزت جسمه كله. وإذ أخذ مركزه كخاطئ هالك صرخ قائلاً: «يا سيديَّ ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص؟» فلم يقل مثل ذلك الناموسي المذكور في لوقا ١٠: ٢٥ «يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟» لأن القضية لم تكن أمامه عمل شيء ينال به الحياة الأبدية، بل شعر أنه هالك يحتاج إلى مخلّص. أما ذلك الناموسي فمثل كثيرين غيره لم يعرف نفسه كخاطئ، ولذلك فإنه لم يبحث في أمر خلاصه.

أما جواب الرسول على ذلك السؤال الهام، الذي هو أخطر ما ينبغي على الإنسان أن يسأل، فكان هو توجيه نظر السجان إلى المسيح ليس إلا: «آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك» وهكذا بارك الرب على الكلمة، فآمن هو وجميع بيته واعتمدوا بابتهاج. وهكذا تغير الكل، فقد أصبح السجان مضيفًا للمسجونين في بيته، وتبدلت قساوته إلى حنو وعطف وكرم أخلاق. وفي نفس تلك الساعة من الليل غسل جراحهما وقدّم لهما طعامًا، فأكلا وهو في فرح وسرور مع جميع أهل بيته الذين آمنوا واعتمدوا معه. ويا لها من ليلة مشهودة يبقى ذكرها في الأذهان، بل يا له من تغيير كلي حدث في بضع ساعات. بل ما أمجد وأسعد ذلك النهار الذي أشرق عليهم نوره في ذلك اليوم!! (أع١٦: ٢٢-٣٤). للرب كل المجد.

ويبدو أن الحكام صرفوا تلك الليلة في هواجس واضطراب، مثل داريوس في زمانه. وإما أن يكون خبر الزلزلة وصل إلى مسامعهم أو يكون بلغهم أن بولس وسيلا رومانيان، فإنه ما كادت تبزغ شمس ذلك النهار حتى أرسلوا إلى السجان قائلين: «أطلق ذينك الرجلين» وفي الحال أبلغ هذا الأمر إلى بولس وسيلا طالبًا منهما أن ينطلقا ويذهبان بسلام. أما بولس فأبى قبول هذه المنة من السجان بدون أن يشهرها جهرًا، مع اعترافه بالخطأ الذي اقترفه. وفي الوقت نفسه صرح بولس بأنه هو وسيلا رومانيان. وكانت كلمة شيشرون التي فاه بها "إن إلقاء القبض على روماني جنحة وجلده جناية لا تُغتفر" قد صارت مبدأ مقررًا في تلك الأيام له أهميته الكبيرة، وها هم الولاة قد تعدوا شريعة روما، ولم يطلب بولس منهم سوى أنهم كما حكموا عليهم وسط جمع حافل من الناس جهارًا أن يعلنوا براءتهما أيضًا على رؤوس الإشهاد. ولما رأى هؤلاء أنهم مخطئون لبوا الطلب صاغرين «فجاءوا وتضرعوا إليهما وأخرجوهما، وسألوهما أن يخرجا من المدينة». أما الرسولان فأذعنا للرجاء وغادرا السجن، ثم دخلا بيت ليدية جهرًا، ولما أبصرا الأخوة تعزوا معًا ثم افترقوا (أع١٦: ٣٥-٤٠).

وقبل مبارحة هذا الفصل يجدر بنا أن نتأمل في رسالة بولس إلى الفيلبيين، ففيها شواهد عديدة على تعلق الرسول بمؤمني فيلبي «من أول يوم» حتى سجنه في رومية. وقد كانت محبته من نحوهم ظاهرة وعجيبة جدًا، فقد وجه إليهم خطابه قائلاً «يا إخوتي الأحباء والمشتاق إليهم، يا سروري وإكليلي» (في ٤: ١). وعندما يذكر مشاركتهم إياه في الإنجيل بدون ملل ومد يدهم بالمساعدة، والبراهين الكثيرة العملية التي أظهرت شدة عنايتهم به واهتمامهم لأجله وعطفهم عليه، فإنه يظهر سرورًا ليس بقليل «غير أنكم فعلتم حسنًا إذ اشتركتم في ضيقتي. وأنتم أيضًا تعلمون أيها الفيلبيون أنه في بداءة الإنجيل لما خرجت من مكدونية لم تشاركني كنيسة واحدة في حساب العطاء والأخذ إلا أنتم» (في ٤: ١٤-١٥).

بولس في تسالونيكي وبيرية

ثم اتجه بولس وسيلا نحو تسالونيكي (أع١٧). ويبدو أن تيموثاوس ولوقا تأخرا في فيليبي وقتًا، فبعدما اجتازا في أمفبوليس وأبولونية وصلا إلى تسالونيكي أخيرًا. وهناك وجدا مجمعًا لليهود، لأن المدينة كانت مشهورة بالتجارة ويقطن بها عدد كبير من اليهود «فدخل بولس إليهم حسب عادته وكان يحاجهم ثلاث سبوت من الكتب» فاقتنع بعض منهم بأقواله، وجمهور كبير من اليونانيين المتعبدين والنساء الشريفات آمنوا. إلا أن عدو بولس القديم لم يزل وراءه «فغار اليهود غير المؤمنين واتخذوا رجالا أشرارًا من أهل السوق، وتجمعوا وسجسوا المدينة وقاموا على بيت ياسون طالبين أن يحضروهما إلى الشعب. ولما لم يجدوهما جروا ياسون وأناسًا من الإخوة إلى حكام المدينة صارخين: إن هؤلاء الذين فتنوا المسكونة حضروا إلى هنا أيضًا. وقد قبلهم ياسون. وهؤلاء كلهم يعملون ضد أحكام قيصر قائلين إنه يوجد ملك آخر يسوع». وهذه الكلمات القليلة كافية لإظهار العداوة التي كان يضمرها اليهود ليسوع وإنجيله وخدامه، كما يظهر منها أن بولس كرز لأهل تسالونيكي بالحق من جهة تمجيد المسيح الآن في السماء ورجوعه مرة ثانية بالمجد، كما نقرأ في رسائله العديدة للكنائس عن «مجيء الرب» و«يوم الرب». ومن رسالته الأولى إلى التسالونيكيين نتعلم أن أتعابه هناك جاءت بأثمار نفيسة، وأن الرب بارك على خدمته لنفوس كثيرين (١تس١: ٩، ١٠؛ ٢: ١٠، ١١).

ومن هناك سافر الرسول إلى بيرية، وكان اليهود الذين هناك أشرف من الذين في تسالونيكي، فكانوا بكل نشاط يفحصون ما يسمعونه في نور كلمة الله. وكانت بركة الرب هناك عظيمة أيضًا، فآمن منهم كثيرون. إلا أن اليهود الذين من تسالونيكي اقتفوا أثره كما يقتفي الصياد أثر فريسته، فجاءوا إلى بيرية وهيجوا عليه الجمع، حتى اضطروا بولس أن يبارح المدينة في الحال، فرافقه بعض المؤمنين من بيرية واتجهوا نحو أثينا، تاركين وراءهم سيلا وتيموثاوس.

زيارة بولس لأثينا

كان مجيء بولس إلى أثينا من أهم الحوادث في تاريخه، لأن أثينا من عدة اعتبارات كانت تُعد عاصمة العالم ومركز المدنية، ومعهد الفلسفة والعلم، غير أنها كانت أيضًا مركز الخزعبلات والوثنية.

ومما يلذ لنا ملاحظته أن الرسول لم يكن مستعجلاً في كرازته وسط هذه المدينة العظيمة، بل صرف وقتًا طويلاً في التأمل، وهو يزن كل ما يراه في الميزان الإلهي، وقد ملأ فكره موت المسيح وقيامته. كان في نيته أولاً أن ينتظر قدوم سيلا وتيموثاوس، وكان قد بعث إليهم برسالة أن لا يتمهلوا في المجيء إليه، ولكن لما رأى نفسه محاطًا بالمعابد والمذابح وتماثيل الآلهة الوثنية لم يستطع أن يبقى صامتًا. وكالعادة بدأ باليهود أولاً، وفي ذات الوقت صار يحاج الفلاسفة كل يوم في السوق، حتى بلغ التحدي بينه وبينهم مبلغه. كان الرسول وحيدًا في مسيحيته في أثينا، محاطًا من كل ناحية برسل الوثنية ومعبوداتها الكثيرة، حتى أن أحدهم قال إنه "أن تجد إلهًا في أثينا أيسر من أن تجد رجلاً فيها".

سخر البعض مما سمعه واستهزأوا، بينما البعض الآخر طلبوا أن يسمعوا المزيد، «فقابله قوم من الفلاسفة الابيكوريين والرواقيين، وقال بعض ترى ماذا يريد هذا المهذار أن يقول. وبعض إنه يظهر مناديًا بآلهة غريبة، لأنه كان يبشرهم بيسوع والقيامة». من هذا نفهم أن كلماته عن «يسوع والقيامة من الأموات» كانت هي موضوع الجدل اليومي بين بولس وأولئك الفلاسفة، وهي ما لفت انتباه الكثيرين من العامة مع الفلاسفة من مختلف المذاهب. وإنه حقًا لأمر جديد لهم، وحقيقة مباركة لنفوسهم، فإن شخص المسيح ليس مجرد نظرية فلسفية، والقيامة لم تكن أمرًا غير يقيني كخزعبلات الوثنية. وها هو خادم المسيح يضع أمام الأثينيين المتحضرين حالتهم المخيفة في نور محضر الإله الحقيقي. ومع ذلك فقد طلبوا عرضًا لهذا الفكر الجديد عليهم بتفصيل أكثر، فأتوا ببولس إلى «أريوس باغوس».

يقال إن هذا الموضع كان هو أفضل موقع للخطابة، كما كانت تُعقد فيه المحاكمات الهامة في الأحداث التي تشغل الرأي العام منذ الأحقاب القديمة، فكان القضاة يجلسون في الهواء الطلق على أرائك منحوتة في الصخر. وقد شهدت هذه الساحة المداولات، وصدرت فيها القرارات الخطيرة بشأن الأمور المصيرية، بدءًا من المحاكمة الأسطورية للإله "مارس"، فدعي لذلك هذا الموضع "ربوة المريخ *Mars Hil* ".

في هذا المشهد وجّه بولس خطابه إلى الجمع، ولا نجد في تاريخ حياة الرسول، ولا في تاريخ تأسيس المسيحية، مشهدًا أكثر إثارة من هذا المشهد.

ماذا كانت مشاعر الرسول، وقد حصرته مظاهر الوثنية من كل جانب وهو يقف على ربوة المريخ، وقد ملأه الروح القدس برغبة تمجيد الله، واضعًا في الوقت ذاته أمامه حالة الإنسان في ضوء الصليب؟ أينما أدار وجهه وقع بصره على رايات الوثنية. كان من الممكن تحت تأثير هذا المشهد أن يغلبه الحماس، لكنه سيطر على مشاعره، فلم تخرج منه الكلمات عنيفة. فإذا أخذنا في الاعتبار احتداد روحه فيه، وغيرته الشديدة للحق، فإن هذه اللحظات تكشف عن إنكار للذات وسيطرة على النفس عند بولس. ولكن ربه وسيده كان معه، ولو كان في نظر الناس وحيدًا أمام الأثينيين أجمعين والغرباء المستوطنين، الذين جاءوا من كل أنحاء العالم ليدرسوا الفلسفة في أثينا.

وقد امتاز خطاب بولس التي ألقاه في هذا المحفل بالحكمة والفصاحة والذكاء المتوقد النادر الوجود، فلم يستهل أقواله بالهجوم على آلهتهم الكاذبة والتشهير بها، ولا بالتعريض بدياناتهم الموهومة وذم عباداتهم التي كان الشيطان زعيمها كما تفعل الغيرة الكاذبة التي ليست بحسب المعرفة، وتحسب مثل هذا التهور أمانة في الخدمة. بل أعطانا في محاضرته هذه قدوة لأحسن الوسائل التي يمكن استخدامها لربح النفوس والتأثير على الأذهان، وإقناع القلوب المخدوعة الجاهلة في كل العصور والأجيال. ليعط الرب جميع عبيده مثل هذه الحكمة في التبشير بين الأمم والنسج على هذا المنوال. ومن بلاغة فاتحة أقواله أنها ذم بما يشبه المدح إذ يقول: «أيها الرجال الأثينيون أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيرًا» فهو يعترف بتدينهم على نوع ما، ولكنه يضمن كلامه ما يؤخذ منه أنهم سائرون على غير هدى. ثم يشير إلى نفسه كمن هو على استعداد أن يقودهم إلى معرفة الإله الحقيقي «الذي تتقونه. وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادي لكم به». والمحور الذي جعل خطابته تدور عليه هو كتابة وجدها على مذبح من مذابح معبوداتهم «لإله مجهول» فأخذ من هذه العبارة أول درجة من درجات السلم التي يتوصل بها إلى الحق. وهكذا انتقل من وحدانية الله إلى أنه الخالق المعبود، رب السماء والأرض، ثم إلى علاقته مع الإنسان، ثم أشار إلى عبادة الأصنام بدون أن يدخل في بحث معهم من جهتها، وتدرج من ذلك إلى الكرازة بالإنجيل مباشرة. ومن حسن السبك أنه لم يذكر اسم يسوع صراحة في خطابته معتمدًا على سبق التبشير به في خدماته الانفرادية، مراعيًا ظروف الوسط الذي خطب فيه، لأن الذين كانوا يسمعونه كانوا جهابذة علماء وفطاحل فلاسفة، تلامذة أمثال سقراط وأفلاطون وزينو وأبيقورس، وحاشاه أن يعرض باسم يسوع في وسط محفل كهذا لئلا يوضع يسوع في مستوي واحد مع هؤلاء، وهو يعلم جيدًا أن اسم يسوع الناصري كان «عند اليونانيين جهالة». إلا أنه مع ذلك يتضح من خاتمة هذا الفصل أن الأفكار اتجهت إلى الإنسان يسوع المسيح، ولو لم يذكر اسمه في كل المحاضرة إذ يقول «فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا متغاضيًا عن أزمنة الجهل، لأنه أقام يومًا هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه، مقدمًا للجميع إيمانًا إذ أقامه من الأموات».

وعندما نطق بهذه العبارة فرغ صبر السامعين، فقاطعوه في هذه النقطة، إلا أن تأثيرها بقى في أذهانهم شاهدًا عليهم لما لها من الأهمية الأبدية. وقد كان الرسول يرمي في خطابه إلى غرض وجيه وهو إقناع ضمائرهم لا إشباع أذهانهم بالأقوال الفلسفية. وقد كان لذكر الموت والدينونة والقيامة من الأموات سطوة وسلطان على أذهان أولئك القوم المتكبرين المنغمسين في شهواتهم ولذاتهم، لأن أسمى مبدأ وأول غرض كان يسعى إليه الأبيقوري الفيلسوف إنما كان إشباع شهوته وإرضاء ذاته، بينما الصوفي كان يفتخر بزهده وعدم مبالاته بخير الدنيا أو شرها، لذاتها أو آلامها.

فلا عجب إذا انقسم المتجمهرون على أنفسهم بين مستهزئ متهكم وبين غير مبال، ولكن المسيحية بالرغم من كل ذلك كانت هي الفائز في الميدان على الوثنية. ومهما كانت نتائج عظة بولس هذه في ذلك الوقت فمما لا ريب فيه أنها أتت بفوائد جزيلة منذ ذلك اليوم إلى الآن، وأثمرت في نفوس الكثيرين، ولا تزال تثمر لمجد الله.

وبعد هذا سافر بولس من أثينا، ويبدو أنه لم يعد أحد يتجمهر عليه بعدئذ أو يضطهده، وكأن الرب أعطاه أن يذوق أخيرًا لذة أفراحه وأفراح الملائكة في السماء بالخطاة التائبين «ولكن أناسًا التصقوا به وآمنوا، منهم ديونيسيوس الأريوباغي وامرأة اسمها دامرس وآخرون معها» إلا أنه واضح أن عدد الذين خلصوا في

فيلبي وتسالونيكي وكورنثوس كان أكثر مما في أثينا المشهورة بالعلم والآداب. وفي هذا ما يخفض من كبرياء الإنسان وإعجابه بالمدنية والحضارة. فقد كتب الرسول إلى فيلبي مرة وإلى كورنثوس وتسالونيكي مرتين، أما إلى أثينا فلا نقرأ أنه كتب إليهم ولا أنه زارهم مرة أخرى بعد ذلك.

زيارة بولس لكورنثوس

إن علاقة كورنثوس بتاريخ الرسول بولس وتعاليمه وكتاباته لا تقل أهمية عن علاقته بأورشليم وأنطاكية. ويصح لنا اعتبارها عاصمة رحلاته في أوربا (أع١٨). فقد كان للرب «شعب كثير في هذه المدينة. فأقام سنة وستة أشهر يعلم بينهم بكلمة الله» وفي هذه المدينة أيضًا كتب بولس رسالتيه إلى أهل تسالونيكي.

وكانت كورنثوس عاصمة اليونان الرومانية. وهي مدينة تجارية عظيمة لها صلة مع مدينة روما وغرب البحر الأبيض المتوسط من جهة، وتسالونيكي وأفسس على بحر إيجة، وأنطاكيةوالإسكندرية في الشرق من جهة أخرى. وكان لها مرفآن شهيران ترسو عليهما السفن القادمة من الشرق ومن الغرب *.

ويبدو أن بولس سافر إلى كورنثوس بمفرده، ولما حضر تيموثاوس عنده وهو في أثينا (١تس٣: ١) أرسله من هناك إلى تسالونيكي. ولكن بمجرد وصول الرسول إلى كورنثوس وجد فيها على غير انتظار صديقين عاملين معه، هما أكيلا وبريسكلا امرأته، ويظهر أنه كان في هذا الوقت عدد من اليهود أكثر من المعتاد في كورنثوس «لأن كلوديوس كان قد أمر أن يمضي جميع اليهود من رومية» وهكذا استخدم الرب أكيلا وبريسكلا واسطة في إقامة بولس عندهما مدة وجوده في كورنثوس، لأنه كان من صناعتهما ووطنهما، متحدًا معهما قلبًا وقالبًا. «ولكونه من صناعتهما أقام عندهما وكان يعمل، لأنهما كانا في صناعتهما خياميّين».

وما أعجب وأحلى معاملات الرب مع خادمه، فقد أوجده في مدينة التجارة والمال، وسط يونانيين ويهود، ومهاجري المقاطعات الرومانية من كل الطبقات، لكي يشتغل بيديه بينهم فلا يثقل على أحد منهم، مع أنهم كانوا أغنياء موسرين. ونستفيد من ذلك على كل حال إمكان الجمع بين العمل في كرم الرب في أسمى درجة روحية والاشتغال بالمهن الزمنية، وبولس قدوة لنا في هذا الباب ودرس نافع. فعمله الشاق كل يوم لم يعطل شركته مع الله، فقد عرف معنى وقيمة الإنجيل أكثر من سواه، وها هو يوفق بينه وبين مرافق الحياة الوقتية. فيخدم الرب، مع ملاحظة أعماله الاعتيادية بدون أن يتراخى، مهتمًا بها اهتمامه بالكرازة وخدمة الرب والقديسين. وقد أشار إلى ذلك في رسائله مرارًا، وكان يعتبر عمله هذا من أهم امتيازاته «في كل شيء حفظت نفسي غير ثقيل عليكم وسأحفظها. حق المسيح فيّ إن هذا الافتخار لا يسد عني في أقاليم أخائية» (٢كو ١١: ٩، ١٠).

وبما أن البعض تطرف في تفسير هذه الجملة بالزيادة والبعض بالنقص فقد رأينا أن نكتب رأينا الذي نظنه المعنى المقصود هنا، فإن الرسول قصد أن لا يثقل على القديسين، وهذا ما أراده بتوجيه خطابه إلى أهل كورنثوس. فمع أنه ضمَّن كلامه مبدأ صحيحًا، إلا أنه كان خصوصيًا لا عموميًا. فقد قبل إعانات من الكنائس بالشكر (في٤) ثم يكتب إلى كورنثوس في موضع قائلاً «سلبت كنائس أخرى آخذًا أجرة لأجل خدمتكم. وإذا كنت حاضرًا عندكم واحتجت لم أثقل على أحد لأن احتياجي سده الأخوة الذين أتوا من مكدونية» (٢كو ١١: ٨، ٩).

لا شك كان الرسول عنده أسباب قوية في رفضه أن يكون في شركة مع الكنيسة في كورنثوس، فقد كان هناك «رسل كذبة» وأعداء للمسيح عديدون، فضلاً عن التشويش الكثير المحزن، والأخطاء الكثيرة التي سمحوا بها بينهم، والتي وبخهم عليها الرسول قاصدًا إصلاحها. فلكي لا يتهموه بغرض سيئ فضَّل أن يشتغل بيديه على قبول خدمة منهم. ولكنه يقول متسائلاً «لماذا؟ ألأني لا أحبكم؟ الله يعلم. ولكن ما أفعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة». (٢كو ١١: ١١).

ومما يهمنا معرفته عن زيارته هذه لكورنثوس أنه كتب فيها رسالتيه لأهل تسالونيكي. ويظن البعض أنه كتب رسالته لأهل غلاطية هناك أيضًا. وهذا مما يؤكد لنا أن شركته الروحية مع الله لم تتأثر بسبب اشتغاله بيديه. وكان متى جاء السبت وأغلقت الحوانيت وهرع الناس إلى المجمع ذهب هو إلى هناك أيضًا،

* من أراد زيادة البحث في الوثائق الجغرافية، فليراجع «حياة ورسائل بولس»، تأليف: كونيبير وهوس[١٦]. الذي نقلنا عنهما أغلب ما كتبنا لأن كتابهما هو أحدث وأدق ما كُتب عن هذا الرسول العظيم – المؤلف.

لأن هذه كانت عادته «وكان يحاج في المجمع كل سبت ويقنع يهودًا ويونانيين». وبينما كان بولس يشتغل هكذا حضر سيلا وتيموثاوس من مكدونية. وواضح أنهما أحضرا معهما مساعدة لسد أعواز الرسول في ذلك الحين حتى لا يكدّ نفسه بالعمل الذي كان فوق طاقته بسبب واجباته الروحية الكثيرة، ويبدو أن مجيء سيلا وتيموثاوس كان سبب تشجيع وقوة لنفس بولس، فازداد غيرة ونشاطًا وحماسًا في الإنجيل، فكان «منحصرًا بالروح وهو يشهد لليهود بالمسيح يسوع» أما هم فكانوا يقاومون التعليم ويجدفون. ولكن بولس ازداد جرأة، فنفض ثيابه، علامة على أنه بريء من دمهم، وقال لهم إنه من الآن مزمع أن يذهب إلى الأمم. وكان في كل ذلك منقادًا من الله عاملاً بحسب مشيئته تعالى. فإنه كان يكرز في المجامع ما دام ممكنًا، ومتى اضطر فكان يختار لنفسه محلاً آخر لائقًا بالكرازة.

ففي أفسس كان يكرز في مدرسة تيرانس، وفي رومية أقام سنتين كاملتين في منزل استأجره. وهنا في كورنثوس نقرأ عن رجل اسمه يوستس كان متعبدًا لله وكان بيته ملاصقًا للمجمع. هذا فتح بيته لضيافة الرسول الذي رفضه اليهود.

وفي ذلك الوقت الحرج تنازل الرب نفسه بإعلان خصوصي شدد به قلب رسوله المغبوط «فقال الرب لبولس برؤيا في الليل لا تخف، بل تكلم ولا تسكت، لأني أنا معك. ولا يقع بك أحد ليؤذيك لأن لي شعبًا كثيرًا في هذه المدينة، فأقام سنة وستة أشهر يعلم بينهم بكلمة الله». إلا أن أعداءه لم يهدأ لهم بال، فلما رأوا نجاح الإنجيل بين الأمم هيجوا اليهود ضد بولس، وأرادوا أن يغتنموا فرصة وصول غاليون الحاكم الجديد لتنفيذ مآربهم الشريرة.

وكان غاليون هذا أخا سينيكا الفيلسوف، ومولعًا بالعلوم نظيره. وقد اشتهر بالرزانة والحكمة والمرونة كحاكم، ولو أنه كان كثير التهكم على الأمور الدينية. والرب الذي وعد عبده الأمين أن يكون معه استخدم استخفاف غاليون بالمسائل الدينية واسطة لإحباط مساعي اليهود الشريرة ورد كيدهم في نحرهم. ولما رأى بولس أن آمالهم الشريرة قد خابت ازداد جرأة في نشر لواء الإنجيل بلا خوف، فأثمرت أتعابه ونضج ثمارها بكل سرعة في جميع أخائية (اتس ١:٨،٩).

مرور بولس الرسول على أفسس

وفي هذا الوقت استحسن بولس أن يبارح كورنثوس ويرجع إلى أورشليم ثانية، لأنه كان شديد الرغبة في حضور العيد القادم.

ولكنه قبل سفره ودع الأخوة وداعًا حماسيًا واعدًا أن يرجع إليهم أيضًا إذا شاء الله. وقد رافقه في خروجه من كورنثوس أكيلا وبريسكلا. وبمجرد وصوله إلى الميناء قبل أن تقلع السفينة بهم مارس بولس فريضة كانت سبب القيل والقال، لأن بولس كان عليه نذر، فحلق رأسه في كنخريا. مع أننا نعلم أنه في فكره وحسب إرشاد الروح القدس كان فوق ديانة الفرائض والطقوس والعادات، ولكنه تنازل بالنعمة لمجاراة قومه في عوائدهم، فلليهود صار يهوديًا. ومع أنهم قاوموا تعاليمه واضطهدوا شخصه فإن عواطفه نحو أمته المحبوبة كانت شديدة، وهذا كان من الله بدون شك. فنراه وهو بقوة وعمل الروح يكرز بالإنجيل للأمم لا ينسى أن يكرز بالإنجيل لليهود أولاً حتى تتم الكلمة المكتوبة. وفي كل ذلك يتمثل أمامنا كشاهد أمين لنعمة الله المتجهة للأمم وهي لا تتأخر عن إبداء عطفها على اليهود أولاً.

وهكذا وصل هؤلاء المرسلون إلى أفسس، وهناك دخل بولس المجمع وأخذ يحاج اليهود. وكانوا يودون بقاءه عندهم، ولكنه صمم على الصعود إلى أورشليم، لكي يعمل العيد القادم هناك «فودعهم قائلاً ينبغي على كل حال أن أعمل العيد القادم في أورشليم، ولكن سأرجع إليكم أيضًا إن شاء الله. فأقلع من أفسس».

زيارة بولس الرابعة لأورشليم

لا يذكر الوحي شيئًا مما حدث في زيارة بولس هذه المرة لأورشليم، بل يقتصر على القول إنه «لما نزل في قيصرية صعد وسلّم على الكنيسة، ثم انحدر إلى أنطاكية» ولكننا واثقون أن عزم الرسول الشديد على الزيارة من الأول لا بد أن يكون له شيء من الأهمية. وربما يكون قد شعر أن الوقت قد حان للاجتماع بالمسيحيين من اليهود في فرصة العيد، حتى يقص عليهم أنباء وصول الإنجيل للأمم، فيروى إليهم أخبار عمل الله العظيم في المقاطعات الرومانية والعواصم اليونانية. هذا كله طبيعي ومنتظر، ولكنه لا حاجة بنا أن نكشف عن أمور أسدل الوحي عليها الستار عمدًا.

وهكذا انحدر بولس من أورشليم إلى أنطاكية مجتازًا بالتتابع في جميع النواحي التي أنشئت فيها كنائس. وكأنه بهذه الواسطة يربط أجزاء عمله مع بعضها البعض، إذ يصل بين أنطاكية وأورشليم. وزيارة بولس لأنطاكية هذه المرة كانت الأخيرة على ما نعلم. وقد شاهدنا الجهات العديدة التي أصبحت مراكز للحياة المسيحية في وسط مدن إيجه اليونانية. وهكذا امتد الإنجيل نحو الغرب شيئًا فشيئًا إلى أن أصبح مركز حياة الرسول في رومية بعد زمن قصير صرفه في اليهودية.

رجوع بولس إلى أنطاكية

أخيرًا رجع الرسول العظيم إلى أنطاكية بعد أن غاب عنها حوالي ثلاث أو أربع سنوات في سياحته، يجول من مكان إلى مكان ناشرًا لواء المسيحية في وسط المدائن الكبرى الآهلة بالسكان، فاتسع بذلك نطاق دائرة العمل. وكل ذلك بمجهود يكاد يكون فرديًا. وإذا كان القارئ من الذين يهمهم دراسة تاريخ حياة بولس بالتفاصيل فعليه أن يلاحظ الأدوار المتتابعة التي ينقسم إليها تاريخه، وأشهر النقط التي امتازت بها كل رحلة. على أننا قبل أن ندرس رحلة بولس الثالثة يجدر بنا أن نوجه التفات القارئ إلى كارز جديد بالإنجيل ظهر على مسرح التاريخ في هذا الوقت، وسيبقى اسمه خالدًا، وربما كان الثاني بعد بولس في التبشير أيام المسيحية الأولى، ونعني به:

أبولس

هو يهودي وُلد في الإسكندرية، وكان فصيحًا ومقتدرًا في الكتب، عارفًا بمعمودية يوحنا فقط. وقد اشتهر بالتقوى والإخلاص والاستقامة، وكان يجاهر ويعلم بكل تدقيق بالأمور التي وصلت إلى ذهنه، وكانت قوة الروح القدس ظاهرة فيه. وواضح أنه لم يتعين برسامة أو وضع يد أو مصادقة ما، لا من الاثني عشر ولا من بولس. إلا أن الرب الذي هو فوق الجميع كان قد دعاه، وكان هو العامل فيه وبه ومعه. وهكذا نرى في أبلوس ظهور قوة وحرية الروح القدس بدون تداخل يد بشرية، وهذا ما ينبغي ملاحظته جيدًا، لأن تقييد عمل الروح القدس وسلطانه داخل دائرة إكليركية يعد بمثابة إنكار لحرية الروح عمليًا «قاسمًا لكل واحد بمفرده كما يشاء» (١كو١٢: ١١). إلا أن أبلوس مع شدة غيرته ونشاطه وفصاحته فإنه لم يعرف من الحقائق سوى ما علمه يوحنا لتلاميذه، وقد أحاط علم الرب بهذا، ولذلك أرسل إليه معلمين لإرشاده. فقد كان من بين الذين حضروا خطاباته وأصغوا إلى أقواله اثنان من المؤمنين الذين تعلموا على يدي بولس، فانشغلا بأمره. ومع أن أبلوس كان عالمًا، إلا أنه كان على درجة من التواضع تسمح له أن يقبل التعليم من أكيلا وبريسكلا، اللذين طلبا إليه أن يزورهما في منزلهما. وبروح الوداعة بلا شك «أخذاه إليهما وشرحا له طريق الرب بأكثر تدقيق» وما أبسط هذا التعبير وأجمل هذا التصرف التلقائي، لأن كل شيء كان مرتبًا من الله. فهو الذي رتب بقاء أكيلا وبريسكلا في أفسس، كما رتب زيارة أبلوس لها قبل وصول بولس، حتى بعد أن يتمكن من معرفة الحق يذهب إلى كورنثوس لتتميم العمل الصالح الذي ابتدأ على يد بولس هناك. وهكذا سقى أبلوس ما زرعه بولس، وكان الله ينمي الزرع فجاء بالأثمار الشهية. هذه هي طرق الرب المباركة مع خدامه والمخدومين أيضًا بحسب أفكار محبته وعنايته الأبوية بهم أجمعين.

الفصل السادس

رحلة بولس التبشيرية الثالثة

بعدما صرف بولس زمانًا في أنطاكية - عاصمة الأمم - بارحها وشرع في سياحة تبشيرية جديدة. ولم يُذكر شيء عن رفقائه في هذه الرحلة، بل أنه «خرج واجتاز بالتتابع في كورة غلاطية وفريجية يشدد جميع التلاميذ» ويوصي الكنائس من جهة الجمع لأجل فقراء القديسين في أورشليم ١(كو١٦: ١،٢) وفي وقت قصير وصل إلى مركز العمل في آسيا، وهو:

مدينة أفسس

كانت أفسس في هذا الوقت عاصمة آسيا الصغرى وأكبر مدنها. ونظرًا لتوسط مركزها أصبحت مركز تجمع لمختلف الأجناس وطبقات الناس. وكان أبلوس قد غادرها في ذلك الوقت إلى كورنثوس، ولكن اثني عشر تلميذًا من تلاميذ يوحنا كانوا لا يزالون فيها، ولما تحادث معهم بولس فهم وضعهم. وهنا يحسن بنا أن نتوقف قليلاً مع القارئ عند تفصيلات ما حدث.

كانت معمودية يوحنا تتطلب التوبة، ولكن بلا انفصال عن اليهود ومجمعهم. أما الإنجيل فيعلمنا عن المسيحية أنها مؤسسة على الموت والقيامة. فموت المسيح أولاً، ويتضمن الفداء، ثم موتنا وقيامتنا معه بحيث نصبح فيه ومثله أمام الله، مطهرين بدمه الكريم من جميع خطايانا. وفي المعمودية المسيحية رمز إلى هذه الحقائق «مدفونين معه في المعمودية التي فيها أقمتم أيضًا معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات» (كو٢: ١٢،١٣) وبما أن هؤلاء القوم لم يعرفوا هذه الحقائق الأساسية فإنهم لم يختلطوا بالمسيحيين، ولا ريب أن الرسول شرح لهم فاعلية موت وقيامة المسيح وحلول الروح القدس، فآمنوا واعتمدوا بالمعمودية المسيحية. فوضع الرسول حينئذ يديه عليهم بمقتضى سلطانه الرسولي، فقبلوا الروح القدس وطفقوا يتكلمون بألسنة ويتنبأون.

وبعد ما ذكر الوحي هذه الحادثة المهمة قادنا إلى مجمع اليهود، حيث كان الرسول يحاج ويقنع فيما يختص بمَلكوت الله ثلاثة أشهر، وهو يكرز بالمسيح بكل مجاهرة. وكان قوم يتقسون شاتمين الطريق، ولكن آخرين تابوا وآمنوا. ولكن بما أن كثيرين من اليهود كانوا يقاومونه أمام الجمهور اعتزل عنهم، «وأفرز التلاميذ» من مجمع اليهود، وأنشأ منهم جماعة خاصة، وكان كل يوم يجتمع بهم «في مدرسة إنسان اسمه تيرانس». وفي هذا العمل تعليم عملي من الرسول ونافع لنا، فقد عمل الرسول في قوة الحق الإلهي، وهكذا أصبحت الكنيسة في أفسس متميزة، سواء بين اليهود أو الأمم، وفي ذلك تطبيق لتحريض الرسول في (١كو١٠: ٣٢) حيث قال «كونوا بلا عثرة لليهود ولليونانيين ولكنيسة الله» وإذا لم نميز بين هذه الفئات الثلاث التبست علينا كلمة الله وطرقه في أمور كثيرة.

وهكذا ظهر الرسول أمامنا كآلة في يد الله لإعلان قدرته بطرق متنوعة وغريبة. فيعطي الروح القدس لتلاميذ يوحنا الاثني عشر، ثم يفرز تلاميذ يسوع فيؤسس بذلك الكنيسة في أفسس، ثم يسمع بواسطته جميع الساكنين في آسيا من يهود ويونانيين كلمة الرب يسوع، وتجري على يديه آيات وعجائب خاصة، فتزول الأمراض عن كثيرين بمجرد لمس ثيابه، وتخرج الأرواح الشريرة أمام القوة التي في بولس، فيتمجد اسم يسوع بواسطته وتعترف الأرواح الشريرة بسلطانه، يخزى العدو ويقر بخسارته، وتتخلص ضمائر الوثنيين فيتحررون من سلطان إبليس عليهم. وأخيرًا فإن الخوف يقع على كثيرين من الذين يستعملون السحر، حتى صاروا «يجمعون الكتب ويحرقونها أما الجميع، وحسبوا أثمانها فوجدوها خمسين ألفًا من الفضة (ما يوازي ثمن ٥٧ كيلوجرامًا

من الفضة تقريبًا) هكذا كانت كلمة الرب تنمو وتقوى بشدة» (راجع أعمال١٩: ١-٢٠) وهكذا ظهرت قوة الرب في شخص وإرسالية بولس، فثبتت رسوليته ثبوتًا لا يقبل نقضًا ولا إبرامًا.

وكان بولس قد صرف ثلاث سنوات في الخدمة بلا انقطاع في أفسس، وقد أشار هو نفسه إلى أتعابه هناك في خطابه الذي ودع به الشيوخ في ميليتس، إذ قال «لذلك اسهروا متذكرين أني ثلاث سنين ليلاً ونهارًا لم أفتر عن أن أنذر بدموع كل واحد». وقد رجح البعض أنه في أثناء هذه المدة زار أيضًا أهل كورنثوس وكتب إليهم رسالته الأولى.

الشغب في أفسس

هكذا تم على يدي بولس - ذلك الخادم المختار من الله - عمل عظيم وعجيب بواسطة قوة الروح القدس وسلطانه المطلق، فوصل الإنجيل إلى عاصمة آسيا، ومن هناك انتشر في كل الكورة المحيطة بها. وحينئذ شعر الرسول بأن عمله قد كمل هناك، فاشتاق أن يتوجه إلى رومية مركز مدنية الغرب وعاصمة العالم كله في ذلك الوقت. فإن مكدونية واليونان كانتا قد قبلتا خبر الخلاص، ولم يبق أمامه سوى رومية «ولما كملت هذه الأمور وضع بولس في نفسه أنه بعدما يجتاز في مكدونية وأخائية يذهب إلى أورشليم، قائلاً إني بعدما أصير هناك ينبغي أن أرى رومية أيضًا» (أع١٦: ٢١).

ولكنه بينما كان بولس يفكر في هذه الأمور ويرتب نفسه للشروع في هذه الرحلة كان العدو مشغولاً في تدبير حملة هجوم جديدة، لأنه سهران دائمًا فلا تغمض له أجفان، وبواسطة ديمتريوس أحدث شغبًا ليس بقليل ضد المسيحية، فهاج الشعب واجتمع الفعلة على هؤلاء الشهود الأمناء لله. ورفع الصناع أصواتهم ليس فقط بسبب ضياع مكسبهم، بل لأن هيكل أرطاميس الإلهة العظيمة كان في خطر أن يحصل في إهانة. ولما سمع الجمع هذه الأمور استشاطوا غضبًا وهم يصرخون: «عظيمة هي أرطاميس الأفسسيين» فامتلأت المدينة كلها اضطرابًا. أما بولس فقد اختطفه إخوته من هذا المشهد، وبواسطة مساعدة بعض الرؤساء استخلصوه من الخطر ومنعوه من الظهور وسط ذلك المشهد.

ولكن يبدو أن اليهود خافوا أن ينقلب الشعب عليهم، فتحدث مقتلة فيما بين بعضهم البعض، لأن أغلب الذين كانوا مجتمعين لم يعرفوا سبب التجمهر، ولا كانوا يدرون لأي شيء قد اجتمعوا. فاجتذبوا شخصًا من وسط الجمع اسمه إسكندر ليخطب في وسطهم. ويبدو أن قصدهم كان تبرئة أنفسهم وإلقاء تبعة هذا الشغب على المسيحيين. ولما علم الوثنيون أنه يهودي ازداد هيجانهم واستمروا صارخين مدة ساعتين متواليتين «عظيمة هي أرطاميس الأفسسيين» ومن حسن حظ الطرفين أن كاتب المدينة كان شخصًا ماهرًا وسياسيًا محنكًا، يحسن سبك ألفاظه، وبهدوء ورزانة أقواله سكن الجمع، وبالأقوال اللينة صرف المحفل. والإيمان يرى في هذه الحادثة تداخل الله الذي استخدم فصاحة إنسان وثني لصيانة حياة عبده وتسكين اضطراب أولاده الأعزاء العديدين.

وكان هيكل أرطاميس هذا - التي هي ديانا - معدودًا عند القدماء من بين عجائب الدنيا السبع. ومما قالوه عنه "إن الشمس في فلكها لم تر ما هو أروع من هيكل ديانا". بُني هذا الهيكل من أنقى أنواع الرخام، واستغرق إنشائه نحو ٢٢٠ سنة. ولكنه اضمحل بانتشار المسيحية، حتى أن موضعه لا يمكن تحديده بالضبط الآن. وكانت صناعة ديمتريوس هي عمل نماذج صغيرة من الفضة على صورة ضريح تلك الإلهة العظيمة، يحفظونها في البيوت للتذكار ويصطحبونها معهم في الأسفار. ولكن انتشار المسيحية بالطبع أضعف هذه التجارة، وهذا ما دعا أولئك الصناع أن يحملوا تلك الحملة المريعة على بولس وأتباعه دفاعًا عن ديانا.

سفر بولس من أفسس إلى مكدونية

بعدما انتهى الشغب وزال الخطر وتفرق المتجمهرون أرسل بولس ليستدعي التلاميذ، حتى يودعهم قبل سفره إلى مكدونية. ويبدو أن اثنين من إخوة أفسس وهما تيخيكس وتروفيمس كانا مرافقين له في كل هذه المدة، وقد ذكرهما الرسول في رسائله مرارًا عديدة، ولهما محل خاص في الفصل الأخير من رسالته الثانية إلى تيموثاوس (٤: ١٢، ٢٠).

وقد كتب مؤرخ الوحي حياة بولس في هذه النقطة بغاية الإيجاز، فقد لخص روايته عنه في جملة قصيرة جدًا إذ قال: «خرج ليذهب إلى مكدونية. ولما كان قد اجتاز في تلك النواحي ووعظهم بكلام كثير جاء إلى هلاس فصرف ثلاثة أشهر». وقد اتفق أغلب الكتاب على أن هذه الرحلة استغرقت نحو تسعة أو عشرة شهور، أي من

بداية صيف سنة ٥٧م لغاية ربيع سنة ٥٨م. ولكن من حسن الحظ أن عندنا تفصيل هذا النص الموجز في الرسائل التي كتبها بولس، فقد أرسل أثناء رحلته هذه جملة رسائل تحتوي على تفصيلات مهمة من تاريخ حياته، وأكثر من ذلك فإننا نقرأ فيها بقلم الشخص نفسه وصفًا لتدريبات الفكر والقلب العميقة التي جاز فيها بسبب ما أصابه في هذه الأثناء من الآلام والصعوبات.

ويظهر أن الرسول كان قد رتب في نفسه أن يقابل تيطس في ترواس، منتظرًا أن يأتي إليه بأخبار طيبة عن كورونثوس وما وصلت إليه الأمور فيها. ولكن مضى الأسبوع بعد الأسبوع وتيطس لم يحضر. ونقدر أن نفهم حاسيات بولس ومشغوليته في هذا الوقت من جهة هذا التأخير، وما كان يدور في فكره وقلبه مما كتبه بعد ذلك عن نفسه إذ يقول: «ولكن لما جئت إلى ترواس لأجل إنجيل المسيح وانفتح لي باب في الرب لم تكن لي راحة في روحي لأني لم أجد تيطس أخي. لكن ودعتهم فخرجت إلى مكدونية» (٢كو٢: ١٢، ١٣) على أن كثرة مشغوليته من جهتهم لم تمنعه من القيام بعمله الذي انفتح بابه أمامه كما يتضح لمن يطالع عددي ١٤، ١٥ بعد ذلك مباشرة.

وأخيرًا وصل تيطس بعد الانتظار الطويل، وكان ذلك غالبًا في فيلبي، فتنفس بولس الصعداء واستراحت روحه وأحشاؤه بمجيئه، لأنه كان يحمل أخبارًا سارة من كورنثوس فوق ما كان بولس يتوقع. ورد فعل تلك الأخبار ظاهر من حالة الرسول الذي فاض قلبه بالحمد لله وهو يقول: «لي ثقة كثيرة بكم. لي افتخار كثير من جهتكم. قد امتلأت تعزية وازددت فرحًا جدًا في جميع ضيقاتنا. لأننا لما أتينا إلى مكدونية لم يكن لجسدنا شيء من الراحة بل كنا مكتئبين في كل شيء، من خارج خصومات من الداخل مخاوف. لكن الله الذي يعزي المتضعين عزانا بمجيء تيطس. وليس بمجيئه فقط بل أيضًا بالتعزية التي تعزى بها بسببكم، وهو يخبرنا بشوقكم ونوحكم وغيرتكم لأجلي، حتى أني فرحت أكثر» (٢كو٧: ٤-٧).

وبعد هذا الوقت بقليل كتب الرسول رسالته الثانية هذه إلى الكورنثيين، التي لم يخاطبهم فيها وحدهم، بل جميع المسيحيين في كل مقاطعة أخائية، لأنه يبدو أن حالة كورنثوس الأولى أحدثت تأثيرًا سيئًا في كل الكنائس المجاورة. وقد أرسل بولس تيطس نفسه كخادمه الأمين المطيع إلى كورنثوس مرة أخرى، لا لكي يحمل إليهم رسالته الثانية فقط بل لأجل الجمع لفقراء القديسين.

وفضلاً عن التعليمات الشفوية التي زوده بها من جهة هذه الخدمة فقد كتب الرسول أصحاحين كاملين في هذا الشأن (ص٨، ٩). ومع أن هذه الخدمة كانت خاصة بالشمامسة أكثر منها بالرسل إلا أنه كان يشعر بالواجب عليه من جهة هذا الأمر، كما يقول في تعليقه على طلب يعقوب وصفا ويوحنا أن يهتم بأمر الفقراء ويذكرهم في خدماته، إذ قال: «هذا عينه كنت قد اعتنيت أن أفعله».

وحجم اهتمام الرسول بولس بأمر الفقراء يقودنا إلى زيادة التأمل فيه، لأنه ربما كان البعض غافلين عن أهميته، فتعود الخسارة عليهم هم. لاحظ كلامه عن كنيسة فيلبي الذي يظهر كيف أنهم اعتنوا بأمر الرسول من البداية، وهم يلحون عليه أن يقبل منهم مشاركتهم في سد أعوازه من حين زيارته الأولى لتسالونيكي إلى أن صار سجينًا في رومية، علاوة على سخائهم في العطاء لغيره من خدام المسيح (قارن ٤في مع ٢كو٨: ١-٤). وربما يظن البعض من سخائهم أنهم كانوا أغنياء موسرين، ولكن الأمر كان على العكس، حتى أن الرسول بولس يخبرنا عنهم «أنه في اختبار ضيقة شديدة فاض وفور فرحهم وفقرهم العميق لغنى سخائهم» فذلك الكرم المفرط ظهر في فقر مدقع.

ووصف أهل فيلبي في الرسائل يذكرنا بوصف تلك الأرملة المذكورة في الأناجيل، فإنها لم تكن تملك من الدنيا سوى فلسين، وكان يمكنها أن تعطي منهما فلسًا وتبقي لنفسها الآخر، ولكن هي أيضًا من أعوازها أعطت كل ما عندها، لأن قلبها السخي لم يكن مقسّمًا. وحيثما يكرز بالإنجيل في الخليقة كلها ينادى بهذه الأمور تذكارًا لسخائهم الذي يجب النسج على منواله والاقتداء به.

وبعدما ودع بولس تيطس ومن معه بالرسالة التي كتبها بقي هو في تلك النواحي من بلاد اليونان يعمل عمل المبشر، إلا أن ذهنه بقي مشغولاً بزيارة الكورنثيين زيارة خصوصية شخصية، ولكنه فضّل أن يتيح فرصة من الوقت حتى تعمل الرسالة عملها بتأثير بركة الله. وكان أهم أغراض الرسول فيها أن تهيئ الطريق لخدمته الشخصية في وسطهم. والمرجح أنه كرز بإنجيل المسيح إلى ما حول الليريكون في هذه الأثناء (رو١٥: ١٩) ويحتمل أنه وصل إلى كورنثوس في فصل الشتاء حسب عزمه الذي أخبر به الكورنثيين إذ قال: «وربما أمكث عندكم أو أشتي أيضًا لكي تشيعوني إلى حيثما أذهب» (١كو١٦: ٦) وهناك مكث ثلاثة أشهر.

وقد اتفق كل المؤرخون على أنه في هذه الأثناء كتب بولس رسالته الشهيرة إلى أهل رومية، ويقول البعض أيضًا إنه كتب رسالته إلى أهل غلاطية في هذا الوقت نفسه، ولكنهم لم يتفقوا في هذه النقطة، وربما يتعذر البت في هذا الأمر لأنه لم يذكر في خاتمتها أسماء أشخاص أو تحيات كما في رسالة رومية. إلا أنه إذا لم يكن قد كتب رسالته إلى أهل غلاطية في نفس هذا الوقت فلا بد أن يكون قد كتبها قبل ذلك لا بعده، لأن الرسول يتعجب من انتقالهم هكذا سريعًا فيقول: «إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعًا عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر» ومن لهجة كتابته وروح الرسالة يتضح أن غضبه كان شديدًا.

ولكننا نترك هذه الدقائق التي لا يمكن لنا التوسع فيها ونحن نكتب "مختصرًا" كهذا وننتقل إلى تاريخ الرسول بعد فحص أقوال المؤرخين عنه وانتقاء ما نراه أقرب إلى الصواب.

بولس يغادر كورنثوس

بعدما انتهى عمل الرسول في كورنثوس تأهب للارتحال، وكان فكره مشغولاً بالذهاب إلى رومية إلا أن خدمة التوزيع كانت موضوعة على قلبه، ورأى نفسه مضطرًا أن يؤديها أولاً. وقد وصلت إلينا حاسياته من جهة هذه النقطة وما كان يدور في خلده مما كتبه هو عن نفسه إذ قال: «وأما الآن فإذ ليس لي مكان في هذه الأقاليم ولي اشتياق إلى المجيء إليكم منذ سنين كثيرة، فعندما أذهب إلى أسبانيا آتي إليكم، لأني أرجو أن أراكم في مروري، وتشيعوني إلى هناك إن تملأت أولاً منكم جزئيًا» (رو١٥: ٢٣، ٢٤). ومن المعتقد أن الأشخاص الذين ورد ذكرهم في أعمال ٢٠: ٤ وهم سوباترس وأرسترخس وسكوندس وغايوس وتيخيكس وتروفيمس كانوا هم الإخوة الذين أودعت معهم الخدمة التي جمعت من الجهات العديدة التي نقرأ عنها هناك أيضًا. وعوضًا عن التوجه مباشرة نراه يذهب عن طريق مكدونية، بسبب اليهود الذين كانوا له بالمرصاد، يتربصون مروره عليهم. أما رفقاؤه فسبقوه إلى ترواس وانتظروه هناك، حيث صرف معهم أسبوعًا كاملاً حتى يوم الرب ليتمكن من مشاهدة الإخوة. وينبغي أن نتأمل هنا قليلاً فيما حدث هناك، وأهم ما فيه أمران لهما شأن خطير مع كل مسيحي، أعني بهما يوم الرب وعشاء الرب، وقد أسهب مؤرخ الوحي في هاتين النقطتين لكي نعرف نحن ما كان يجري في تلك الأيام.

وواضح من رواية هذا الفصل أن المسيحيين كانوا معتادين في البداءة على الاجتماع معًا أول يوم في الأسبوع لأجل كسر الخبز. وهنا نلاحظ الغرض من الاجتماع، والوقت الذي كانوا يجتمعون فيه معًا «وفي أول الأسبوع إذ كان التلاميذ مجتمعين ليكسروا خبزًا» (راجع أيضًا ١كو١٦: ٢، يو٢٠: ١٩، رؤ١: ١٠). ومع أن خطاب الرسول كان ثمينًا، إلا أنه ذكر كأمر ثانوي، لأن ذكرى محبة المسيح الذي مات لأجلنا وما نتج لنا من الفوائد بقيامته من بين الأموات كان ولا زال أهم أمر لدى المسيحي. نعم إن من واجباتنا اغتنام كل فرصة لسماع كلمة الله، والاجتماع معًا لتقديم السجود والعبادة للرب، ولكن يجب أن يكون كسر الخبز له المكان الأول في نظرنا والغرض الجوهري من اجتماعنا معًا، وكان اجتماع التلاميذ معًا في هذه المرة لممارسة عشاء الرب بعد غروب الشمس، إلا أن العادة في تلك الأيام لم تنحصر في ميعاد واحد، بل أحيانا كانوا يجتمعون قبل شروق الشمس، ومرات بعد غروبها. على أنهم هنا لم يكونوا مضطرين للاجتماع سرًا، بل «كانت مصابيح كثيرة في العلية التي كانوا مجتمعين فيها». وبما أن الفرصة كانت قصيرة فقد خاطبهم بولس وهو مزمع أن يمضي في الغد، وأطال الكلام إلى نصف الليل، وقد لاحظ بعضهم أن المؤمنين حينئذ كانوا في حرارة الروح، فلم تكن اجتماعاتهم تقاس بالدقيقة، ولا كان حماس المتكلم تطفئه برودة السامعين وفتور العالميين من المسيحيين، ونعاس وتثاؤب المعترفين باسم المسيح صوريًا. ومع أن أفتيخوس الذي كان جالسًا في الطاقة تثقل بالنوم «وإذ كان بولس يخاطب خطابًا طويلاً غلب عليه النوم فسقط من الطبقة الثالثة إلى أسفل وحمل ميتًا» إلا أن بعضهم اعتبر هذه الحادثة قصاصًا من الله على عدم الانتباه للوعظ. وأما بولس فقد عمل الله على يديه معجزة إذ أقام الميت. وهكذا تعزى الإخوة تعزية ليست بقليلة.

بولس في ميليتس

كانت ميليتس أهم محطة في هذه الرحلة، وإن كان مؤرخ الوحي لم يترك جهة من الجهات التي زاروها أو نادوا فيها إلا دونها. وبما أن بولس كان ممتلئًا بالروح فكان هو القائد لهذه الرحلة، وقد خضع له زملاؤه، لا بصفته سيدًا عليهم، بل كمن

أعطيت له حكمة من الله ليقود بموجبها إخوته في وداعة المحبة. وقد رتب أن لا يذهب إلى أفسس مع أنها كانت مدينة شهيرة، لأنه قصد في قلبه أن يكون في يوم الخمسين في أورشليم. ولما وجد أن السفينة لا بد أن تنتظر وقتًا في ميليتس أرسل إلى شيوخ كنيسة أفسس يستدعيهم لمقابلته، وكانت المسافة بين المدينتين على ما يُقال خمسين كيلومترًا تقريبًا، تستغرق وقتئذ مسيرة يومين أو ثلاثة أيام ذهابًا وإيابًا. ولكن الوقت كان كافيًا للقاء والتوديع قبل أن تقلع السفينة من ميليتس. وهكذا نرى الرب مشغولاً بخادمه، فيجعل كل الأشياء تعمل معًا لخيره، ولمجد اسمه تعالى.

أما خطاب بولس الوداعي لشيوخ أفسس فمن الأهمية بمكان بحيث يتحتم علينا أن نتأمل فيه قليلاً، لأنه يشرح لنا من جهة عواطف قلب الرسول، ومركز الكنيسة في ذلك الحين، وعمل الإنجيل بين الأمم من الجهة الأخرى. كما أنه مفعم بالنصائح والإنذارات الجادة الرقيقة، لا سيما لأن الرسول كان يشعر أنه يودعهم الوداع الأخير، ومن ثم فإنه يذكرهم بأتعابه في وسطهم وكيف كان يخدم الرب بكل تواضع ودموع كثيرة وبتجارب أصابته بمكايد اليهود، ثم يحذرهم من المعلمين الكذبة والهراطقة الذين هم ذئاب خاطفة في ثياب حملان، وأن منهم هم سيقوم رجال يتكلمون بأمور ملتوية ليجتذبوا التلاميذ وراءهم «ولما قال هذا جثا على ركبتيه مع جميعهم وصلى. وكان بكاء عظيم من الجميع ووقعوا على عنق بولس يقبلونه متوجعين، ولا سيما من الكلمة التي قالها إنهم لن يروا وجهه أيضًا. ثم شيعوه إلى السفينة».

وبما أن شهادة بولس هذه لها اعتبار عظيم وشأن خطير في تاريخ الكنيسة، فضلاً عن النور الذي يسطع منها ويشرق على الأنظمة الكنسية العديدة، فيحسن بنا أن نقتطف بعض الأقوال التي نطق بها أحدهم تعليقًا على هذا الموضوع الهام:

"كانت الكنيسة في هذا الوقت قد انتشرت وعمت جهات كثيرة. وفي أغلب تلك الأماكن أخذت شكلاً محددًا مقررًا، بحيث ترتب لها شيوخ معروفون. وها هو يرسل ليستدعيهم، وهم حضروا معترفين بسلطانه. وفي خطابه الذي يوجهه إليهم يتكلم عن خدماته فيما بينهم كأمر مضى وانقضى. ويا لخطورة هذا الأمر! كأن الروح القدس وهو يروي لنا تفاصيل العمل الذي تم بواسطته بين اليهود والأمم معًا يقول لنا في الوقت نفسه إن خدمته على وشك الانتهاء، لكي يفهم أولئك الخدام أنهم أصبحوا في مركز جديد، وكأنهم من وجهة ما قد تُركوا لأنفسهم. وخطاب بولس كأنه يقرر لنا انتهاء دور من أدوار تاريخ الكنيسة - أعني به دور الخدمة الرسولية - والبدء في دور جديد، هو دور المسؤولية الكنسية حيث يختفي أصحاب السلطان الرسولي، بل خدمة الشيوخ «الذين أقامهم الروح القدس أساقفة» مع توقع الأخطار، وانتظار المشاكل العديدة التي لا بد أن تقع ما دام الجيل الرسولي قد انقرض، وخدماتهم قد انتهت وأصبح الخدام تحت مسؤوليتهم الخاصة.

وأهم ما نستنتجه من هذه المحاضرة أن الخلافة الرسولية وهم باطل وإدعاء فارغ، لأنه بمجرد رحيل الرسل كان لا بد أن تظهر المشاكل وتتعدد الأخطار، ولا يوجد من يقمعها أو يبطل ظهورها.

والأمر الثاني الذي نستنتجه هو أنه باختفاء القوة التي كانت تلجم روح الشر فلا بد من ظهور الذئاب الخاطفة من خارج الكنيسة، والمعلمين الكذبة داخلها. وهؤلاء وأولئك سيهاجمون الكنيسة لكي يفسدوا أذهان البسطاء ويحرموهم سعادتهم الروحية، لأن الشيطان سيجد لنفسه فرصة للعمل بدون مقاومة من الرسل لصد هجماته.

والأمر الثالث الذي نستنتجه هو ما كان يجب على الخدام أن يعملوه لدرء هذا الشر المتفاقم، وذلك بأن يرعوا قطيع الرب، فيسهروا ويحترزوا لأنفسهم وللرعية. من أجل ذلك كله.

وأخيرًا فإنه يستودعهم، لا إلى تيموثاوس ولا إلى أسقف أو رئيس أساقفة، بل بطريقة يمتنع معها كل تدخل بشري ورئاسة دينية يستودعهم إلى الله وإلى كلمة نعمته. هذه هي النقطة التي استودع عندها بولس خدام الرب، وهكذا انتهت خدمة رسول الأمم التجوالية. ويا لخطورة الأمر! فإن ذلك الإناء الذي استخدمه الله لإعلان مشوراته ومقاصده من نحو الكنيسة وتقرير فكره تعالى في أذهان المؤمنين من جهة عواطف محبته نحو غرض قلبه المقترن بالمسيح الجالس عن يمين العظمة في المجد، ذلك الإناء نفسه قد بلغنا بواسطته ما سيؤول إليه أمر الكنيسة هنا على الأرض من بعد ارتحاله عنها وانقطاع خدماته الرسولية في وسطها"(٨/١٨).

أعمال ٢١

إذ كانت الريح معتدلة أقلع بولس والذين معه من ميليتس، تاركين وراءهم شيوخ أفسس الآسفين على فراقهم، راجعين إلى أوطانهم بقلوب حزينة. أما هم فساروا بالاستقامة إلى كوس، ثم ردوس، وأخيرًا وصلوا إلى باترا، واستقلوا منها سفينة إلى صور. وهناك تعرف بولس بالتلاميذ، فتعلقت قلوبهم به، ومع أنه لم يصرف بينهم سوى أسبوع واحد إلا أنه اكتسب مودتهم، حتى قال لوقا إنهم كانوا «يشيعوننا مع النساء والأولاد إلى خارج المدينة. فجثونا على ركبنا على الشاطئ وصلينا». ويظهر أن بعض أولئك المؤمنين الأحباء انسكبت عليهم روح النبوة، حتى أنهم نصحوا بولس لكي لا يصعد إلى أورشليم.

وبعد ما صرفوا في صور سبعة أيام جاءوا إلى بتولمايس حيث أقاموا يومًا واحدًا. أما في قيصرية فقد نزلوا إلى فيلبس المبشر، الذي كان واحدًا من السبعة. وهو معروف لنا وإن كنا لم نقابله في طريقنا منذ نحو عشرين سنة بعد مقابلته المرة الأخيرة. وقد صار عنده أربع بنات عذارى وكلهن يتنبأن. وهنا نجد أغابوس النبي يسبق فيخبرنا عن سجن الرسول بولس قائلاً له أن «لا يصعد إلى أورشليم» وهكذا قال بقية التلاميذ متوسلين إليه بدموع لكي لا يذهب إلى هناك. أما بولس، الذي لا شك تأثر من أقوالهم وانفطر قلبه لبكائهم، فإنه لم يسعه إلا رفض كل تلك التوسلات من أولاده في الإيمان، التي لم تثنه عن عزمه ولا حولته عن قصده، إذ شعر أنه محصور في روحه لأن يذهب، مستعدًا لأن يتحمل النتائج، مسلّمًا الأمر لمشيئة الرب. وهكذا نأتي إلى:

زيارة بولس الخامسة لأورشليم (٥٨م).

بمجرد وصول الرسول ورفقائه إلى أورشليم رحبت بهم الكنيسة كقول لوقا «ولما وصلنا إلى أورشليم قبلنا الإخوة بفرح». وفي اليوم التالي توجه بولس ومن معه لزيارة يعقوب الذي كان حاضرًا عنده في بيته جميع المشايخ. ووقف بولس في الوسط وأخذ يحدثهم بما عمله الله بين الأمم بواسطة خدمته. ولكن مع سرور الحاضرين بهذه الأخبار وتقديمهم الشكر لله من أجل عمله ظهرت عليهم علامات الارتباك. وابتدأوا يفهّمون بولس أن أغلب اليهود الذين آمنوا غيورون جدًا للناموس، وعندهم ظنون سيئة من جهة بولس.

ولكن ما العمل لدفع تلك الظنون؟ هذا ما تباحث فيه بولس معهم. لأنهم علموا أنه لا بد على كل حال أن يجتمع جمهور من اليهود، مؤمنين وغير مؤمنين، متى سمعوا بخبر وصول بولس إلى أورشليم، وقد أخبروا عنه أنه «يعلّم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلاً أن لا يختنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد». فإذًا ماذا يكون؟ أخيرًا اقترح المشايخ على بولس أن يتظاهر بالطاعة للناموس علنًا. ولكن هذا الاقتراح كان من الصعوبة والألم بمكان على نفس رسول الأمم. ولكن ماذا كان يعمل؟ هل يتنازل رسول إنجيل المجد خادم دعوة الله العليا السماوية للخضوع لنذر باطل؟ هذه كانت المسألة المهمة أمام ذهنه، لأنه لو رفض، لتحققت ظنون اليهود فيه، وإذا عمل برأيهم نزل عن مقامه وكأنه نسي دعوته العليا إلى حين، وخضع لجهالات وكبرياء أمة اليهود. وماذا كان يفعل غير ذلك وهو وسط جماعة من اليهود المتعصبين، وجلّ رغبته أن يرفع الكنيسة التي في أورشليم إلى مسيحية أرقى شأنًا وأسمى اعتبارًا؟

على أن الكثيرين قد انتقدوا خطة الرسول التي سلكها في هذا الوقت. ومع أن لنا نحن الحق أن نبحث في ما كتبه الوحي عنه بكل تواضع، ولكنه يلوح لنا أن بعضهم أفرط في الانتقاد ونهش عرض الرسول بالأقوال القارصة. نعم إن إرادة بولس وعواطفه من نحو أنسبائه حسب الجسد قد ساقته إلى هذا الموقف الحرج رغمًا من التنبيهات التي وصلت إليه من إخوته بالروح، ولكنه يجدر بنا أن ندرس الظروف الخارجية التي قادت الرسول إلى انتهاج تلك الخطة التي حولت دفة حياته هكذا.

• • •

كان الرسول مشغولاً بزيارة رومية من أمد طويل، وله رغبة شديدة أن يكرز بالإنجيل هناك، وكانت أشواقه هذه في محلها وعلى غاية الصواب وبحسب مشيئة الله. ولم يكن للذات دخل في هذا الأمر، لأنه تعين رسولاً للأمم. نعم إن الله كان عاملاً في رومية بقوة بدون وساطة الرسل، لأنه لم يكن قد زارها أحد من الرسل بعد. وفي الرسالة التي كتبها إليهم بولس نقرأ عن أشواقه الحارة إليهم ورغبته في الخدمة بينهم، إذ يقول «لأني مشتاق أن أراكم لكي أمنحكم هبة روحية لثباتكم» هذا ما كان يجول في فكره حينئذ،

وهذا ما ينبغي أن نحفظه في بالنا عند تأملنا في هذه النقطة من تاريخ حياة بولس (راجع رو ١: ٧-١٥، ١٥: ١٥-٣٣).

وصلنا هنا في بحثنا إلى سؤال مهم يتوقف عليه مستقبل تاريخ بولس، وهو هل يتوجه توًا إلى رومية؟ أم يذهب إليها عن طريق أورشليم؟ وعلى هذا المحور تدور قضية بحثنا. وإذا علمنا أن بولس كان مشغولاً بزيارة أورشليم أيضًا أدركنا حجة الرسول في مروره على أورشليم. لأنه إذا كان المسيح قد أرسله بعيدًا جدًا للتبشير بين الأمم في تلك النواحي القاصية فهل يقصد الروح من أجل المسيح أن يمر به على أورشليم أيضًا في طريقه؟ ويلوح لنا أن هذا الرسول في هذا الموقف فقط سُمح له أن يسلك بموجب شهوة قلبه ورغبته الخاصة. ومع أنها كانت رغبة صالحة في حد ذاتها، إلا أنها لم تكن بحسب فكر الله في ذلك الوقت. صحيح أنه أحب شعبه محبة خالصة، ولاسيما فقراء القديسين في أورشليم، ولكي يزيل سوء الظن الذي علق بأذهانهم من جهته أحب أن يحمل بنفسه إلى فقراء الشعب ما تبرع به المؤمنون من الأمم. ولذلك قال «متى أكملت ذلك وختمت لهم هذا الثمر فسأمضي مارًا بكم إلى أسبانيا». وهنا كأني بالبعض يمتدحون الرسول في احساساته هذه، وهذا صحيح من وجه، إلا أن إحساساته كانت جسدية لا روحية. لأن الوحي يقول في أعمال ٢١: «وإذ وجدنا التلاميذ مكثنا هناك سبعة أيام وكانوا يقولون لبولس بالروح (أي الروح القدس) أن لا يصعد إلى أورشليم» وكان يجب على بولس أن يخضع. ولكن بولس مال بعواطفه وحنَّ إلى «فقراء القديسين الذين في أورشليم». وفي ذلك أخطأ الرسول خطأ يشفع له فيه شرف قصده، لأن حبه للفقراء وسروره بأن يحمل لهم خدمة الأمم هو الذي قاده للتعريج على أورشليم في طريقه إلى رومية. لا ريب أنه أخطأ، وكانت غلطته سبب حرمانه حريته الشخصية وانقطاعه عن الخدمة الجهارية، فسمح الرب للأمم أن يربطوه بالأغلال. وفي ذلك دليل على محبة الرب لعبده، لأنه لم يتركه لرغباته، بل أراه أن المسيحية لا ترتبط لا بأورشليم ولا برومية، بل بالمسيح الذي هو رأس الكنيسة الجالس في السماء. هناك مركز المسيحية، فأورشليم اضطهدت الرسل، ورومية نكلت بالقديسين ففاضت أرواحهم شهداء. ولكن الرب حوَّل كل شيء لخير عبده ونشر الحق وبركة الكنيسة ومجد اسمه تعالى.

وهنا نجد موضوعًا لتأملنا نحن، لأنه كم من القديسين ساقوا أنفسهم للعذاب وهم يحسبون أنفسهم يخدمون للمسيح، فلولا ما كشفه لنا الروح القدس لحكمنا في بولس أنه كان منقادًا بأسمى الدوافع في سفره إلى أورشليم، ولكن الرب لم يكن قد أمره بذلك. ومن ذلك نتعلم ضرورة الاسترشاد في كل عمل نؤديه وكل خطوة من خطوات زياراتنا، بحيث يكون الروح مرشدنا وكلمة الله نورنا وخدمة الرب غرضنا. ولكننا نعود إلى تاريخنا.

تركنا بولس متكئًا وسط المشايخ في بيت يعقوب ينظر معهم في الاقتراح الذي أبدوه لمصالحة اليهود وإزالة أسباب سوء الفهم الذي عندهم، فقد نسبوا إليه خيانته لأمته ورفضه لدين آبائه، مع أننا في نور الرسائل نجد أن السبب الحقيقي إنما هو عداوة القلب البشري ومقاومته لنعمة الله. ولكي نفهم هذه القضية يجب أن نلاحظ خدمة الرسول بولس من وجهيها:

١- باعتباره مرسلاً لكي يكرز بالإنجيل «لكل الخليقة التي تحت السماء» ومن هذا الوجه لم تكن فقط دائرة خدمته أوسع من اليهودية، بل هذه وتلك على طرفي نقيض.

٢- باعتباره خادمًا لكنيسة الله مناديًا بسموّ مركزها، ومجاهرًا بغبطة امتيازاتها التي لها بالاتحاد مع المسيح الممجد في السماء كرأسها. وواضح أن حقائق ثمينة كهذه ترفع نفس المؤمن وأفكاره فوق الديانات الجسدية مهما كثرت طقوسها وتعددت فرائضها، من نذور وأصوام وأعياد وقرابين وتطهيرات، وفلسفة كاذبة وتقاليد بشرية، التي ليست بقيمة ما في نظر الله، وهي ضد طبيعة المسيحية على خط مستقيم. ومعلوم أن تعاليم كهذه تثير سخط اليهودي المتمسك بالتقاليد، واليوناني الواثق في فلسفته، ومن ثم نراهما كليهما قد اتفقا معًا على اضطهاد ذلك الشاهد لتلك الحقائق السامية. ولا زلنا نراهما يضطهدان كل من يحذو حذوه. فالمتدينون المفاخرون بفرائضهم وطقوسهم، والطبيعيون المتمسكون بفلسفتهم الكاذبة هم أضداد لكل شهادة لمركز المسيحية السماوي، الذي يسمو فوق كل ما هو أرضي (راجع كو ١، ٢).

ولو كان الرسول بولس كرز بالختان لزالت عثرة الصليب، ولأخذ مركزًا بين الناس وصارت له فرصة للافتخار، وبدا للناس مناصرًا لدين الله، الذي امتاز به اليهود، وأعطى ذلك الشعب حق التفاخر على بقية الشعوب. أما إنجيل نعمة الله فيقرر أن الجميع أخطأوا وهلكوا معًا. كانوا «أمواتًا بالذنوب والخطايا» وليس عند الله محاباة، فلا فضل لليهودي على اليوناني إزاء تلك النعمة، فهي كالشمس في

إشراقها، تضيء على كل الخليقة. فلا قبيلة أو لسان، ولا شعب ولا أمة لا تسطع عليها أشعتها السماوية، فالإنجيل مكروز به «لكل الخليقة التي تحت السماء». هذه هي دائرة إرسالية المبشرين بالإنجيل، أن يعرِّفوا كل الذين يؤمنون بما لهم من كمال في المسيح. هذا هو امتياز وواجب كل خادم للعهد الجديد. هذه هي البواعث التي حملت الرسول على أن يخطو تلك الخطوة، وهذا هو غرضه.

وأما الآن فنتقدم إلى ذكر باقي تاريخ حياته. وقد حان الوقت لرسولنا العظيم أن يقف أمام ملوك وولاة، بل أن يمثل لدى قيصر نفسه من أجل اسم ربنا يسوع المسيح.

بولس في الهيكل

بناء على مشورة الرسل والمشايخ صعد بولس إلى الهيكل مع «أربعة رجال عليهم نذر» ولذلك يقول المؤرخ بالوحي «حينئذ أخذ بولس الرجال في الغد وتطهر معهم ودخل الهيكل مخبرًا بكمال أيام التطهير، إلى أن يقرب عن كل واحد منهم القربان». ولما قاربت الأيام السبعة الأيام أن تتم كان لا بد له من تقديم بعض القرابين في الهيكل. وكانت تلك القرابين تستلزم مصاريف باهظة، كما يُستفاد من سفر العدد والأصحاح السادس. وكان الأغنياء يفاخرون بمساعدة الفقراء على الوفاء بنذورهم، ويعتبرون الصرف على مشتري تلك الذبائح من آيات التقوى وشعائر الدين. ومع أن بولس لم يكن من ذوي اليسار ولكن رقة قلبه جعلته يدفع عن نفسه وعن الرجال الأربعة الذين دخلوا معه. وكان يُنتظر أن ذلك الكرم الذي ظهر من بولس يشفع فيه لدى البعض، فيهدئ من روع أولئك اليهود المتحمسين ويسكّن اضطرابهم، وكان يحتمل أن عمله هذا يفيد في أمثال من كانوا حاضرين في منزل يعقوب، أما أولئك الغيورون فالأمر أتى بالعكس لأنهم ازدادوا صخبًا وهياجًا عليه. ونظرًا إلى الاحتفال بالعيد كان الازدحام شديدًا، فاكتظت الجماهير وتراكضت نحو تلك المدينة المقدسة، حتى امتلأ الهيكل بالزائرين من كل صوب.

وكان من بين أولئك اليهود النزلاء بعض من آسيا، وربما كانوا خصومًا ألداء لبولس ولهم عداوة قديمة ضده أيام كان في أفسس. وبمجرد وجود الفرصة للانتقام فرحوا، لأنه تيسر لهم النكاية بمن استظهر عليهم سابقًا. ولما رأى هؤلاء اليهود الذين من آسيا بولس في الهيكل في نهاية الأيام السبعة التي كانت تقدم فيها القرابين، تراكضوا عليه «صارخين يا أيها الرجال الإسرائيليون أعينوا. هذا هو الرجل الذي يعلم الجميع في كل مكان ضدًا للشعب والناموس وهذا الموضع، حتى أدخل يونانيين أيضًا إلى الهيكل ودنّس هذا الموضع المقدس. لأنهم كانوا قد رأوا معه في المدينة تروفيمس الأفسسي، فكانوا يظنون أن بولس أدخله إلى الهيكل. فهاجت المدينة كلها وتراكض الشعب وأمسكوا بولس وجروه خارج الهيكل، وللوقت أغلقت الأبواب» وهكذا هاجت المدينة كلها واجتمعت حول الرسول، وقد بلغ الحماس حد الجنون، حتى أنه لولا احترامهم للمكان المقدس الذي اجتمعوا فيه لقطعوه إربًا إربًا. وكان غرضهم حينئذ أن يخرجوه خارج الهيكل ليقتلوه، ولكن قبل أن تنفذ هذه الفكرة تداخل الرب لنجاة عبده وإفساد مساعيهم الباطلة.

لا شك أن حراس الأبواب تخابروا للحال مع الحامية الرومانية المحتلة تجاه الهيكل بأنه يوجد شغب بالساحة، فأسرع أمير الكتيبة كلوديوس ليسياس إلى ذلك المكان فورًا ومعه عسكر وقواد مئات، فلما رأى اليهود أمير الكتيبة والجند الروماني قادمًا كفوا عن ضرب بولس. ولما عرف الأمير أنه لأجله كل ذلك الهياج قبض عليه حالاً وقيده بسلسلتين، أي وضع في كل يد سلسلة مع جندي (أنظر أعمال ١٢:٦).

وبعد ذلك طفق ليسياس يستخبر عن سبب الاضطراب الحقيقي، وإذ لم يحصل على فائدة من الجمهور الجاهل الهائج أمر أن يؤخذ بولس إلى المعسكر، فهجم أولئك الرعاع الهائجون بعنف على فريستهم لما رأوه قد أفلت من أيديهم، فحمل العسكر بولس على أذرعهم على درج المعسكر. وفي ذلك الوقت صاح الجمهور الواقف من أسفل بأصوات تصم الآذان كما فعلوا منذ ثلاثين سنة قبل ذلك تقريبًا «صارخين خذه».

في هذه اللحظات الحاسمة أظهر الرسول سيطرة على النفس، وضبط عواطفه من الانفعال وتصرف بكل فطنة دون تفريط في الحق. وعندما قاربوا أن يدخلوا المعسكر خاطب بولس الأمير بكل احترام قائلاً «أيجوز لي أن أقول شيئًا. فقال أتعرف اليونانية؟ أفلست أنت المصري الذي صنع قبل هذه الأيام فتنة وأخرج إلى البرية أربعة الآلاف الرجل من القتلة؟». أما بولس فقال: «أنا رجل يهودي طرسوسي من أهل مدينة غير دنية من كيليكية.

والتمس منك أن تأذن لي أن أكلم الشعب». ومن الغريب أنه أجيب إلى هذا الالتماس. كان بولس قد اكتسب احترام الأمير الروماني، إن لم يكن قد أثر على عقله تأثيرًا كبيرًا. ولكن يد الرب تداخلت في الأمر، فإنه كان ملاحظًا خادمه. لأن بولس كان قد ألقى بنفسه في أيدي أعدائه بطلبه إرضاء اليهود المؤمنين، ولكن الله كان معه وعرف كيف ينجيه من سلطانهم ويستخدمه لأجل مجد اسمه العظيم (أع٢١: ٢٦-٤٠).

خطاب بولس على درج المعسكر

كان بولس قد كلم الأمير باليونانية، أما اليهود فكلمهم بالعبرانية، وهذه اللفتات الصغيرة تحمل مزيجًا جميلاً من المحبة والحكمة وحسن تقدير الأمور. وينبغي أن نتخذ منها درسًا مفيدًا لنا، فإنه كان مستعدًا على الدوام لأن يربح، لذلك «صار للكل كل شيء ليربح على كل حال قوم». ونرى النتائج العجيبة من تأثيره على القوم الهائجين كما على الأمير الضابط، ففي اللحظة التي تكلم فيها تغير المشهد، فهدأ بحر الانفعالات المزبد، إذ أسمعهم صوت لغتهم المقدسة، فوقع ذلك الصوت على آذانهم موقعًا حسنًا، فللحال «أعطوا سكوتًا أحرى». ونجد احتجاجه الشريف الذي خاطب به آباءه وإخوته بإسهاب مذكورًا في أعمال٢٢: ١-٢١.

ونلاحظ من قراءة ذلك الخطاب أن مواطنيه أصغوا بالتفات عظيم إليه وهو يخاطبهم عن حياته الأولى واضطهاده للكنيسة وإرساليته إلى دمشق، واهتدائه المعجزي، ورؤياه في الهيكل، ثم مقابلته مع حنانيا. ولكنه عندما ذكر إرساليته للأمم فما كادوا يسمعون هذه الكلمة حتى علا الصياح من الجماهير الواقفة أسفل، وصرخوا بشدة وقد صموا آذانهم وقاطعوا الخطيب، ولم يستطيعوا أن يحتملوا هذا الفكر بأن نعمة الله تصل إلى الأمم، فهاج سخطهم وعصت كبرياؤهم متمردة على هذا التعليم بمساواة الوثنيين الغلف بأولاد إبراهيم، وطرحوا عنهم بكل احتقار وازدراء كل برهان سواء كان بشريًا أو إلهيًا يمكن أن يقنع عقولهم. كان الرسول واهمًا حين علق أهمية كبرى على ما حدث بينه وبين حنانيا التقي، فكان احتجاجه باطلاً وذهب أدراج الرياح ما دام الأمم لهم هذا الاعتبار. وتبع ذلك مشهد شغب من أشد ما يكون، فكانوا يصيحون ويطرحون ثيابهم، ويذرون غبارًا إلى الجو، ثم «رفعوا أصواتهم قائلين خذ مثل هذا من الأرض لأنه كان لا يجوز أن يعيش».

فلما رأى أمير الكتيبة شراسة الشعب الجنونية ولم يفهم معنى ما يقولون وقع في حيرة جديدة، ورأى ما انتهى إليه الخطاب الذي ألقي باللغة العبرانية - التي ربما لم يكن يفهمها - فاستنتج بالطبع أن أسيره لا بد يكون مذنبًا بجرم فظيع، فأمر أن يوثق ويجلد لكي يقر بذنبه، فأوقف بولس هذا العمل فورًا بأن أعلن حقيقة كونه رومانيًا.

وهنا انسحب العسكر الذين مدوه للسياط، وعادوا برعب وحذروا الأمير مما هو مزمع أن يفعل، فجاء ليسياس في الحال «وقال له قل لي. أنت روماني؟ فقال نعم. فأجاب الأمير أما أنا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية. فقال بولس أما أنا فقد وُلدت فيها» وصار ليسياس في مشكلة صعبة، لأنه تعدى على القانون الروماني وخالفه إذ عرّض رومانيًا لمثل هذه الإهانة، وتلك خيانة لشرف الشعب الروماني. ولم تكن لديه طريقة لإنقاذ حياة بولس سوى بالإبقاء عليه محروسًا، ومن هنا ابتدأ يفكر في كيفية أخرى أبسط وأهدأ ليعلم اليقين عن ذنب أسيره.

بولس أمام السنهدريم

وفي الغد «أمر أن يحضر رؤساء الكهنة وكل مجمعهم، فأحدر بولس وأقامه لديهم». وحكمة ليسياس وسياسته أفلحت في إخماد الهياج والشغب، وحمى رومانيًا، وأظهر احترامًا لدين وعوائد اليهود. وهذه السياسة الممتزجة بالأدب في الروماني المتكبر في مثل هذه الظروف تستحق التأمل وجديرة بالاعتبار، ولكننا نتجاوزها.

خاطب بولس المجمع بكل هيبة ووقار، ولكن بتعبير واضح دل على سلامة الضمير «فتفرس بولس في المجمع وقال: أيها الرجال الإخوة إني بكل ضمير صالح قد عشت لله إلى هذا اليوم»، فهذا الشعور بالصلاح العديم النقص أهاج حنانيا رئيس الكهنة، حتى أنه أمر الواقفين بقربه أن يضربوه على فمه. وذلك الحكم المخالف للناموس الذي صدر من رئيس الكهنة حرك إحساسات الرسول، حتى أنه قال بلا خوف «سيضربك الله أيها الحائط المبيض. أفأنت جالس تحكم عليّ حسب الناموس وأنت تأمر بضربي مخالفًا للناموس؟» وظاهر أن رئيس الكهنة لم يكن لابسًا ما يدل على رتبته، فلذلك اعتذر بولس بأنه يجهل الحقيقة، واقتبس نهي الناموس

الرسمي القائل «رئيس شعبك لا تقل فيه سوءًا».

وأدرك الرسول في الحال - كما قيل - أن المجمع ينقسم إلى حزبين: الصدوقيين والفريسيين، فلذلك صرخ قائلاً: «أيها الرجال الإخوة أنا فريسي ابن فريسي، على رجاء قيامة الأموات أنا أحاكم». وسواء كان عمدًا أم عن غير قصد، فقد أنتج هذا التصريح انقسامًا بين الجماعة وقيام فرقة منهم ضد الأخرى. واشتد نزاعهم حتى انحاز بعض الفريسيين فعلاً إلى جانب بولس وقالوا: «لسنا نجد شيئًا رديًا في هذا الإنسان وإن كان روح أو ملاك كلمه فلا نحاربن الله». فصارت قاعة المحكمة أقسى وأشد جدلاً وخصامًا، واستلزم الأمر حضور كلوديوس ليسياس، فعاد وأخذ بولس مرة أخرى إلى المعسكر.

وهكذا انقضى ذلك الصباح المملوء بالحوادث في تاريخ رسولنا. فهل نستغرب أنه لما صار وحده في المساء كان قلبه منكسرًا داخله، فقد كان كل شيء قاتم حوله، وكان في حاجة ماسة للتعزية والقوة التي يمنحها دائمًا حضور السيد، فمن يدرك جيدًا ويشعر من أعماق قلبه بحال ذلك الأسير الوحيد كالسيد نفسه؟ فظهر له بأغنى نعمة ليعزي ويفرح قلب خادمه، فكانت تعزية إلهية في وقتها، حيث وقف الرب بجانبه كما فعل في مدينة كورنثوس، وكما فعل بعد ذلك أثناء السفر إلى رومية، «وقال ثق يا بولس، لأنك كما شهدت بما لي في أورشليم هكذا ينبغي أن تشهد في رومية أيضًا» (أع٢٣:١١، انظر أيضًا ١٨:٩،١٠؛ ٢٧:٢٣،٢٤). واكتُشفت مؤامرة مؤلفة من أكثر من أربعين رجلاً عزموا على أن يقتلوا بولس، فأُحبطت كل مساعيهم الشريرة، وللحال دعا كلوديوس ليسياس قواد مئاته وعسكره، وأصدر أوامر مشددة بنقل بولس سالمًا إلى قيصرية. وقد قص لوقا تفاصيل هذه الحادثة بدقة (أع٢٣:١٢-٢٥).

احتجاج بولس أمام فيلكس

ربما لاحظ القارئ كيف تغير هنا أسلوب معاملات الله مع عبده، لذا فإنه من المفيد أن نتوقف قليلاً لنستكشف بكل وقار الأسباب البادية لهذا التغير. ولما كان الكثيرين قد سمحوا لأنفسهم بان يتوغلوا في هذه النقطة الوعرة، فإننا نكتفي بأن نقتبس هنا سطورًا قليلة عن واحد منهم نعتقد أنه كان عنده فكر الروح القدس:

"إنني أرى أن يد الله كانت وراء رحلة بولس هذه، فهو في حكمته المطلقة سمح أن يقوم عبده بها، بل وينال من ورائها بركة لنفسه، حتى وإن استخدم مشاعر الرسول الإنسانية نحو إخوته أنسبائه حسب الجسد لأن تدفعه إلى القيام بها بدلاً من أن يكون فيها منقادًا بالروح القدس، الذي يعمل لأجل المسيح في الكنيسة. فإن تعلقه بأمته ومشاعره الإنسانية من نحوهم قوبلت بمشاعر معاكسة ورفض من أمته، مما أتى بمحبته من نحوهم إلى مكانها الصحيح الذي كان يجب أن تكون فيه. فإن دوافعه كانت حسنة - أتكلم إنسانيًا - لكنها لم تكن من عمل الروح القدس المؤسَّس على موت وقيامة المسيح، حيث لا يهودي أو يوناني. كانت محبته حسنة في ذاتها، ولكن لم يكن حسنًا أن تكون هي المحرك له، فهي لم تنبع من عمل الروح القدس، الذي لأجل المسيح أرسله إلى الأمم بعيدًا عن أورشليم، ليعلن الكنيسة كجسده الذي اتحد معه في السماء.

كان بولس رسول المجد السماوي، الذي استحضر الحق الخاص بالكنيسة المكونة من اليهود والأمم متحدين معًا بلا تمييز بينهما في جسد المسيح الواحد، وفي هذا كانت نهاية اليهودية. ولكن بولس حملته محبته لأمته حتى أتت به إلى معقل العداوة اليهودية، فأيقظ فيهم السخط على مبدأ المساواة بين اليهود والأمم روحيًا. ولكن على كل حال كانت يد الله بلا شك في الأمر، فقد تعلم بولس ما هو مركزه الصحيح.

أثار حديث بولس شغبًا، ولكن يأتي الأمير ويأخذه من بينهم، فكل الأمور هي في يد الله. ثم أن ابن أخت بولس، الذي لا نقرأ عنه سوى هنا، يسمع تدبيرًا لمكيدة ضد بولس ويأتي ليحذره، فيرسله بولس إلى الأمير، الذي يسرع بترحيل بولس بحراسة مشددة إلى قيصرية. كان الله يراقب كل خطوة، وإن كان يفعل كل شيء بواسطة آنية بشرية ينفذ بها خطة عنايته بعبده. ليست الواسطة ملاكًا كما كان مع بطرس، ولا الزلزلة كما كان في فيلبي، فواضح أننا الآن على أرضية مختلفة" [٤/٣].

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً ليجد أعداء بولس طريقهم إلى قيصرية، فإنه «بعد خمسة أيام انحدر حنانيا رئيس الكهنة مع الشيوخ، وخطيب اسمه ترتلس، فعرضوا للوالي ضد بولس» (أع٢٤:١) وفي خطاب وجيز مملوء بالتملق والمداهنة، اتهم ترتلس بولس بالمشاغبة والهرطقة وتهييج الفتنة وإفساد الهيكل.

ثم أومأ فيلكس إلى بولس بأن له الفرصة أن يجيب ويدافع عن نفسه. والآن يمكننا أن نقول إن رسول الأمم أخذ مرة أخرى مركزه الصحيح، حتى وإن كان في حالة من المذلة، فهو لا يزال رسول الله للأمم. وكان الله مع خادمه المحبوب فأسكت اليهود، وشرع بولس بحسب عادته المألوفة يفند اتهاماتهم.

ويبدو أن فيلكس كانت لديه دراية بهذه الأمور، وواضح أنها تركت في فكره تأثيرًا قويًا. كانت المسيحية قد وجدت طريقها إلى أفراد الجيش الروماني في قيصرية قبل هذه الأحداث بعدة سنوات (أع ١٠) لذا فإنه من المحتمل أن يكون قد عرف عنها شيئًا، مما جعله مهيئًا للاقتناع بصدق ما قاله بولس، لكنها لم تكن أمورًا ذات قيمة عنده، ولم يكن بولس بالنسبة إليه سوى أسير حقير، لذا فقد أجل المحاكمة بحجة أنه ينتظر حضور الأمير ليسياس لينظر معه في الأمر، إلا أنه أعطى أوامره بحسن معاملة بولس، وأن يسمح لأصدقائه بزيارته.

ثم بعد أيام دخل فيلكس مع دروسلا امرأته قاعة الاستماع واستحضر بولس. ولا شك أنهما كانا يريدان أن يشبعا فضولهما بسماع خطابه «عن الإيمان بالمسيح» ولكن بولس لم يكن الشخص الذي يهتم بإشباع رغبة الوالي الروماني والأميرة اليهودية الشهوانية. فإذ كان الرسول الأمين يكرز بالمسيح تكلم بوضوح وجسارة لضمير سامعيه، وقد صارت له الآن فرصة وهو في قيوده ربما لم تكن تتاح له لو كان قد بقي في الحرية. «وبينما كان يتكلم عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون ارتعب فيلكس». ويقل استغرابنا إذا صدقنا مؤرخي عصره أمثال يوسيفوس وتاسيتوس بأن هذين المنافقين اللذين بلا مبدأ لم يجلسا قط أمام واعظ. ومع أن فيلكس انْتَخس في ضميره إلا أنه رفض التوبة، ويا لها من حالة مخيفة! لقد أجابه بقوله: «أما الآن فاذهب ومتى حصلت على وقت أستدعيك». ولكن الوقت المناسب لم يحنِ قَط، مع أنه رأى الرسول مرارًا بعد ذلك، ولا شك عندنا أنه ألمح إليه أنه في الإمكان أن يطلق سراحه نظير رشوة، وتدل أخلاقه على أنه كان منغمسًا في كل أنواع المفاسد والشرور. وما كان يخطر ببال ذلك الحاكم الروماني أن حكمه الموصوم بالرشوة سيسجَّل في كتاب الله ويبقى ذكره كل هذه الأجيال. لقد استعمل سلطانه كملك، ولكنه كان في الحقيقة عبدًا لشهواته. «ولما كملت سنتان قَبِلَ فيلكس بوركيوس فستوس خليفة له. وإذ كان فيلكس يريد أن يودع اليهود منة ترك بولس مقيدًا».

بولس أمام فستوس

ثم أن فستوس بعد أن قدم إلى الولاية صعد توًا إلى أورشليم، وهناك اغتنم رؤساء اليهود فرصة وجوده وطلبوا منه أن يستحضر لهم بولس. وقد كان الغرض الظاهري من طلبهم هذا وجوب محاكمته ثانيةً أمام المجمع، ولكن قصدهم الحقيقي كان أن يقتلوه في الطريق.

أما فستوس فقد رفض طلبهم، ودعاهم لأن ينزلوا معه إلى قيصرية ويشتكوا عليه هناك. وقد كانت المحاكمة تكرارًا لما حدث أمام فيلكس. ومن الواضح جليًا أن فستوس عرف أن الدعوى ضد بولس كانت متعلقة بأمور دينية تختص باليهود، وأنه لم يخطئ ضد قوانين الدولة، ولكنه مع هذه المعرفة إذ أراد أن يودع اليهود منة سأل بولس إن كان يشاء أن يصعد إلى أورشليم ليحاكَم هناك. وقد كان هذا الطلب أفضل نوعًا من أن يقضي على حياة الرسول إرضاء لكراهية اليهود وحقدهم. وإذ عرف بولس خبايا نواياهم السيئة استأنف دعواه إلى قيصر «إلى قيصر أنا رافع دعواي».

وقد اندهش فستوس بلا شك من هذه الشهامة والوقار اللذين ظهرا في هذا الأسير. وقد كان من امتيازات بولس بصفته أحد رعايا الحكومة الرومانية أنه يحق له أن يستأنف دعواه إلى محكمة إمبراطور روما العليا. «حينئذ تكلم فستوس مع أرباب المشورة فأجاب إلى قيصر رفعت دعواك إلى قيصر تذهب».

وحسب حكم العيان لم يكن لبولس سوى هذا الملجأ الوحيد في ظروف صعبة كهذه، ولكن الحقيقة هي أن يد الله ومقاصده كانت متداخلة في الأمر، فإنه كان ينبغي لبولس أن يشهد للمسيح وللحق في رومية أيضًا، فإن أورشليم قد رُفضت الشهادة للأمم، ورومية أيضًا يجب أن يكون لها نصيبها في رفض الشهادة عينها، وأيضًا في أن تكون سجنًا لهذا الشاهد الأمين. ولكن في كل هذه الظروف الصعبة حظي بولس بلطف الرب وعنايته، فإنه فيها يشبه سيده المبارك الذي سلّمه اليهود بحقدهم إلى أيدي الأمم، ولكن الرب يمتاز عن بولس بكونه كاملاً في كل تصرفاته، وقد كان شاغلاً مركزه الحقيقي أمام الله، فقد كانت إرساليته إلى خاصته اليهود، أما بولس فقد أنقذه الله من أيدي اليهود، وهذا هو الفرق. فالمسيح بذل نفسه طواعية كما نقرأ عنه «الذي بروح أزلي قدَّم نفسه لله بلا عيب». أما بولس فكانت إرساليته تتضمن قول الرب له «منقذاً

إياك من الشعب، ومن الأمم الذين أنا الآن أرسلك إليهم». ولكن بولس رجع إلى «الشعب» مدفوعاً بعواطفه الإنسانية، بعد أن أخرجه الرب من بينهم بقوة الروح القدس (أع٢٦: ١٧). لقد أخرجه الرب من بين الشعب والأمم، ليقوم بخدمة تُتَّحِد كليهما في جسد واحد في المسيح، كما يقول بولس نفسه «إذًا نحن من الآن لا نعرف أحدًا حسب الجسد». ففي المسيح ليس يهوي ولا يوناني.

بولس أمام أغريباس وبرنيكي

حدث في ذلك الوقت أن أغريباس ملك اليهود وأخته برنيكي أتيا ليسلما على فستوس، وإذ لم يكن لدى فستوس شيء يقيني يكتبه من جهة بولس إلى الإمبراطور انتهز فرصة وجود أغريباس معه لاستشارته في الأمر، حيث أنه كان أكثر إلمامًا منه بظروف القضية. وقد أظهر هذا الأمير اليهودي رغبة لاستماع بولس، ولا بد أن يكون قد عرف شيئًا عن المسيحية، كما وأيضًا سمع عن بولس نفسه قبل هذا الحين، وقد أجاب فستوس الطلب فورًا قائلاً له «غدًا تسمعه». وهوذا الآن لدى الرسول فرصة ثمينة لتأدية الشهادة لاسم المسيح أمام أعظم هيئة حاكمة لم يسبق له الوقوف أمامها، حيث قد اجتمع الملوك اليهود والحكام الرومانيون والقواد الحربيون وأمراء قيصرية «في احتفال عظيم» ليسمعوا هذا الأسير يحتج بما لديه أمام أغريباس. وإذ لم يستطع فستوس أن يتصرف في هذه القضية المعضلة اكتفى أن يسلم الأمر لدراية ذلك الملك اليهودي. وقد أشار أغريباس إلى بولس بكل احترام بأنه مأذون له أن يتكلم لأجل نفسه. وهنا نشاهد موقفًا من أهم المواقف في كل تاريخ حياة الرسول، فإن الهيبة التي وقف بها أمام هؤلاء الحكام، مع أنه بسط يده التي كانت مقيدة بسلسلة بيد عسكري، لا بد أنها أثرت كثيرًا في قلوب السامعين، ومنتهى تواضعه قد برهن على علو نفسه، إذ لم يكن مشغولاً بذاته ولا بالسلاسل، بل كان سروره كاملاً في الرب، وكان حبه متّقدًا نحو جميع الذين حوله، فقد نسي بالكلية نفسه وظروفه. ومع احترامه الكامل لجميع سامعيه وقف في وسطهم شاهدًا بكل ضمير صالح، وقد سما فوقهم جميعًا. وجعل يخاطبهم موجهًا عباراته إلى أعماق ضمائرهم بشجاعة وكمال رجل قد اعتاد أن يسير مع الله ويعمل لأجله. ومن هذا نرى الفارق العظيم الذي يجلب الأسف بين أخلاق وصفات هؤلاء الحكام وأخلاق وصفات هذا الرسول المغبوط. وفي هذا صورة واضحة للعالم حسب حقيقته كما يكشفها لنا الروح القدس. وقد قال أحد المفسرين هذه العبارة: "بلا إطالة للكلام عن الأنانية والكبرياء المتمثلتين في شخصي ليسياس وفستوس، فإننا نرى فيهما صورة الضمير المستيقظ مع عدم احترام أي مبدإ. كما ترى أيضًا رغبتهما في إرضاء اليهود تنفيذًا لصالحهما الشخصي، ولكي يستطيعا ضبط ذلك الشعب الهائج. إن موقف أغريباس وكل التفاصيل التاريخية لها من الواقعية ما يجعلنا نخال بأننا حاضرون في تلك الحوادث ومعاينون لنفس الأشخاص. وهذا ما تمتاز به كتابات البشير لوقا بوجه خاص".

ثم نرى بولس في أصحاح ٢٦ يخاطب الملك أغريباس بصفته رجلاً عالمًا بالعوائد والمسائل الجارية بين اليهود، وهو يقص عليه تاريخ اهتدائه العجيب وما حدث له بعد ذلك بأسلوب مؤثر على ضمير الملك. ولابد أن أغريباس كان على وشك الاقتناع بما وجهه إليه بولس شخصيًا من الأقوال الواضحة، وأن ضميره قد تنبه، إلا أن محبة العالم وشهوات نفسه حالت دون ذلك. أما فستوس فقد سخر بهذه الأقوال، لأنها لم تكن لديه سوى غيرة عمياء وكلام هذيان، حتى أنه قاطع الرسول في كلامه قائلاً «بصوت عظيم: أنت تهذي يا بولس. الكتب الكثيرة تحولك إلى الهذيان». أما بولس فقد تمالك عواطفه وجاوبه بكل رزانة وتعقل، وقد حوّل مجرى الكلام إلى شخص أغريباس بحكمة عظيمة وسرعة خاطر «لست أهذي أيها العزيز فستوس، بل أنطق بكلمات الصدق والصحو، لأنه من جهة هذه الأمور عالم الملك الذي أكلمه جهارًا، إذ أنا لست أصدق أن يخفى عليه شيء من ذلك، لأن هذا لم يفعل في زاوية».

ثم التفت إلى الملك اليهودي الجالس مع فستوس ووجه إليه الكلام قائلاً: «أتؤمن أيها الملك أغريباس بالأنبياء؟ أنا أعلم أنك تؤمن. فقال أغريباس لبولس: بقليل تقنعني أن أصير مسيحيًا؟».

عند هذا كانت عواطف الملك قد انجذبت من قوة خطاب بولس ومن تأثير وخز عباراته في ضميره، ومن ثم أجاب الرسول بكلام مقنع قوي الحجة، مملوء بالغيرة الروحية والآداب المسيحية والمحبة المضطرمة في قلبه لخلاص النفوس وفرحه الكامل في الرب. «فقال بولس: كنت أصلي إلى الله أنه بقليل وبكثير ليس أنت فقط بل أيضًا جميع الذين يسمعونني اليوم يصيرون هكذا كما أنا ماخلا هذه القيود».

وبعد إظهار هذه العواطف الشريفة انفضَّ الجمع وانصرف الحضور، ولم يشأ أغريباس أن يسمع أكثر من ذلك لأن عبارات بولس كانت كسهام موجهة رأسًا لقلبه، وكانت ممتزجة بالوقار والمحبة، حتى أنه لم يستطع مقاومة تأثيرها في ضميره، ثم «قام الملك والوالي وبرنيكي والجالسون معهم». وبعد مداولة وجيزة قرر فستوس وأغريباس والذين معهما أن بولس لم يفعل شيئًا يستحق الموت أو الحبس، حتى قال أغريباس «كان يمكن أن يطلق هذا الإنسان لو لم يكن قد رفع دعواه إلى قيصر».

وقد ظهر في كل هذه الحوادث اهتمام الرب بخادمه المحبوب حتى ثبتت براءته للملأ أجمع بواسطة نفس القضاة الذين جلسوا للحكم عليه. وبعد هذا انصرف الملك ومن معه، وعاد كل واحد إلى مكانه كما كانوا من ذي قبل، منغمسين في شهوات العالم. وأما بولس فعاد إلى سجنه، ومع ذلك فإن قلبه لم يمتلئ فرحًا وسرورًا بروح سيده أكثر مما في تلك الفرصة.

رحلة بولس إلى رومية (سنة ٦٠م- أع٢٧)

قد حان الوقت لبولس لينطلق إلى رومية، ولم تكن قد عقدت له أية محاكمة رسمية حتى ذلك الوقت. ولا شك أن تألمه من قساوة ومقاومة اليهود، وحبسه سنتين في قيصرية، وتكرار فحصه أمام الولاة وأمام أغريباس، كل ذلك ألزمه أن يستأنف دعواه أمام المحكمة الإمبراطورية برومية. وقد رافقه في هذه الرحلة لوقا كاتب سفر الأعمال وأرسترخس الذي من تسالونيكي. وكان بولس تحت مراقبة قائد مائة اسمه يوليوس من كتيبة أوغسطس، وقد عامل الرسول في كل الأحوال بمنتهى الشفقة والاعتبار.

ثم استقر الرأي بأن يتم إرسال بولس مع أسرى آخرين إلى إيطاليا عن طريق البحر، ويقول لوقا: «فصعدنا إلى سفينة أدراميتينية وأقلعنا مزمعين أن نسافر مارين بالمواضع التي في آسيا ... وفي اليوم الآخر أقبلنا إلى صيداء، فعامل يوليوس بولس بالرفق وأذن أن يذهب إلى أصدقائه ليحصل على عناية منهم» وإذ أقلعوا من صيدا سافروا من تحت قبرص، لأن الرياح كانت مضادة، ونزلوا إلى ميرا إحدى مدن ليكية. وإذ وجد قائد المئة هناك سفينة إسكندرية مسافرة إلى إيطاليا أدخل أسراه فيها. وبعد أن تركوا ميرا سافروا في السفينة رويدًا رويدًا أيامًا كثيرة. وقد كان الطقس غير معتدل من البداية. ولكنهم عبروا من تحت كريت ووصلوا بسلام إلى الموانى الحسنة.

وإذ كان وقت الشتاء قد اقترب صاروا في ارتباك وحيرة، أينزلون إلى الموانى الحسنة ليشتوا هناك أم يسافرون إلى ميناء أخرى أفضل منها.

وهنا نقف برهة لنتأمل في مركز الرسول العجيب إزاء هذا الاقتراح الخطير. وكما أنه ظهر أمام فستوس وأغريباس، هكذا نراه هنا ظاهرًا أمام ربان السفينة وصاحبها وقائد المئة والنوتية كمن له فكر الرب. ونراه يشير وينصح ويتصرف كأنما هو صاحب السفينة وليس أسيرًا تحت مراقبة الجنود. وقد نصحهم بأن لا يبرحوا من مكانهم، وأنذرهم بأنهم إن خاطروا وأقلعوا سيصادفون ريحًا شديدة، وأن ضررًا عظيمًا سيحدث للسفينة والشحن، علاوة على ما في ذلك من مخاطرة لأنفس المسافرين. ولكن ربان السفينة وصاحبها اللذين كانا أكثر الجميع اهتمامًا بها قد انقادا بالظروف وليس بالإيمان، فقد كان جل مرادهم أن يرسوا على مينا حسنة لكي يشتوا فيها. وبالطبيعة انقاد قائد المئة إلى رأيهما، وقد اتفقت آراء الجميع ضد رأي رجل الإيمان، رجل الله الذي كان يتكلم ويتصرف لمجد الله. ومع أن ظروف الحال كانت حسب الظاهر تؤيد آراءهم أكثر مما تؤيد رأي الرسول، ولكن لا شيء يبطل حكم الإيمان، الذي لا بد أن يثبت أنه الصواب رغم كل الظروف.

وقد استقر رأي أكثرهم أن يقلعوا من الموانى الحسنة ويقبلوا إلى فينكس ليشتوا فيها. وقد نسمت الريح في نفس اللحظة التي أقلعوا فيها، فبدت الأمور كلها حسب الظاهر مؤيدة لأفكارهم. ويخبرنا لوقا أنه نسمت ريح جنوب، فظنوا أنهم ملكوا مقصدهم، فرفعوا المرساة. وإذ هبت ريح خفيفة من الجنوب أقلعت السفينة من الموانى الحسنة بالمئتين والستة والسبعين نفسًا الموجودين على ظهرها. ولكنها ما كادت تسير أربعة أو خمسة أميال فقط حتى هبت ريح شديدة على السفينة وخطفتها، حتى تعذر على الربان أن يجعلها تقابل الريح، وكما يقول لوقا «سلمنا فصرنا نحمل» أي أنهم اضطروا أن يتركوا السفينة للريح تحملها كما تشاء.

أما غاية ما يهمنا من هذه الحادثة فهو أن نتأمل في موقف بولس كرجل الإيمان، وماذا يا ترى كانت أفكار وحاسيات أولئك المسافرين الذين كانوا قد وثقوا في تلك الريح الخفيفة التي نسمت،

وهوذا الآن عليهم أن يحصدوا نتيجة تلك الثقة الباطلة عاصفةً شديدةً. وقد ازدروا بنصائح وإرشادات الإيمان وضربوا بها عرض الحائط. وكثيرون، ويا للأسف، لا يتعلمون درسًا من حادثة كهذه، وتراهم ينخدعون بظروف مرتبة حسب الظاهر، فيقلعون بسفينتهم في معترك الحياة غير مكترثين بصوت الإيمان. وكما خدعت الريح الحقيقية السفينة حتى خرجت من الشاطئ هكذا هم أيضًا ينخدعون، فيحملون بعواصف شديدة وسط بحر الحياة المضطرب.

الزوبعة في بحر أدريا (الأدرياتيكي)

يقال أن "أوروكليدون" تلك الريح العاصفة التي هبت على السفينة في بحر أدريا هي زوبعة شديدة جدًا، مصحوبة بضجة وحركة دورانية سريعة في الغيوم، واضطراب هائل في البحر يرتفع بأمواجه فتهدد السفينة بالغرق، والمؤرخ المغبوط يصف لنا فيما يلي بكل وضوح ماذا حدث للسفينة في تلك الظروف الخطرة. وإذ جروا تحت جزيرة يقال لها كلودي أمكنهم بالجهد أن ينجوا من شدة تلك العاصفة. وفي هذه الأثناء أمكنهم أن يجدوا فرصة للاستعداد لمقاومة الريح.

وفي اليوم التالي بعد أن تجاوزا كلودي إذ كانت الريح لا تزال شديدة ابتدأوا يفرغون السفينة مما يمكن الاستغناء عنه، ويظهر أن الجميع كانوا مهتمين بهذا العمل «وإذ كنا في نوء عنيف جعلوا يفرغون في الغد. وفي اليوم الثالث رمينا بأيدينا أثاث السفينة. وإذ لم تكن الشمس ولا النجوم تظهر أيامًا كثيرة واشتد علينا نوء ليس بقليل انتزع أخيرًا كل رجاء في نجاتنا».

هاجَ الظلامُ بغيمٍ قاتمٍ وعلى — سنا النهار سطا، يسلبُ أسهمَهُ
ما للصباح أتاهُ ليلُهُ عَجِلا — حتى بدا غسقًا لم يأتِ مَشرِقُهُ
تحالفتْ معَهُ الأفلاكُ فاستترت — نجومُها وتوارى البدرُ يمحَقُهُ
يا ليلةً طالتْ، أنواؤها عَصَفتْ — غابَ الرجاءُ وذابت معَهُ فرحتُهُ

ولم يكن شيء أكثر خطرًا لدى النوتية في الزمان الغابر من استمرار تلبد الجو بالغيوم، إذ كانوا معتادين الاسترشاد بالأجرام السماوية. وفي ذلك الوقت الذي ظهر فيه ارتباكهم وقنوطهم وقف الرسول ورفع صوته إليهم وسط تلك العاصفة. ومن عباراته الرقيقة التي فاه بها نفهم أنهم علاوة على تلك الشدائد زاد ضنكهم أنهم لم يستطيعوا أن يتناولوا شيئًا من الطعام.

«فلما حصل صوم كثير حينئذ وقف بولس في وسطهم وقال: كان ينبغي أيها الرجال أن تذعنوا لي ولا تقلعوا من كريت فتسلموا من هذا الضرر والخسارة. والآن أنذركم أن تسروا لأنه لا تكون خسارة نفس واحدة منكم إلا السفينة. لأنه وقف بي هذه الليلة ملاك الإله الذي أنا له والذي أعبده قائلاً لا تخف يا بولس. ينبغي لك أن تقف أمام قيصر. وهوذا قد وهبك الله جميع المسافرين معك. لذلك سروا أيها الرجال لأني أؤمن بالله أن يكون هكذا كما قيل لي. ولكن لا بد أن نقع على جزيرة» (أع٢٧: ٢١-٢٦).

تحطم السفينة

أما السفينة فقد تحطمت بعد ذلك بمدة قصيرة. «فلما كانت الليلة الرابعة عشرة ونحن نُحمل تائهين في بحر أدريا ظن النوتية نحو نصف الليل أنهم اقتربوا إلى بر. فقاسوا ووجدوا عشرين قامة. ولما مضوا قليلاً قاسوا أيضًا فوجدوا خمس عشرة قامة» وقد استمرت هذه الريح الشديدة أربعة عشر نهارًا وأربع عشرة ليلة بدون انقطاع. ولا بد أنهم في أثنائها كانوا يكابدون آلامًا يعجز الإنسان عن وصفها. فلما كانت الليلة الرابعة عشرة «نحو نصف الليل» سمع النوتية صوتًا عرفوا منه أنهم قد يقتربون إلى بر، وقد كان الصوت بلا شك صوت الأمواج المتكسرة على ذلك الشاطئ المجهول. وكان على النوتية أن ينتهزوا الفرصة بأسرع ما يمكن، ولذا رموا من المؤخر أربع مراس وكانوا يطلبون أن يصير النهار. وقد حدث من النوتية في ذلك الحين أنهم طلبوا نجاة أنفسهم، الأمر الذي وإن كان طبيعيًا في كل إنسان، ولكنه دل على الخسة ومحبة الذات، فإنهم أنزلوا القارب إلى البحر بعلة أنهم مزمعون أن يمدوا مراسي من المقدم، وغرضهم الحقيقي أن يهربوا ويتركوا السفينة التي كانت على وشك الغرق. أما بولس فإذ أدرك قصدهم الحقيقي، للحال قال لقائد المئة وللعسكر: إن لم يبق هؤلاء في السفينة فأنتم لا تقدرون أن تنجوا. حينئذ قطع العسكر حبال القارب وتركوه يسقط. وقد كانت نصيحة الرسول سببًا لنجاة كل الذين في السفينة. ولم تعد الأنظار موجهة بعد إلى ربان السفينة أو إلى النوتية طلبًا للإرشاد، ولكنها أصبحت تحدق في ذلك الأسير بولس، رجل الإيمان الذي يؤمن ويعمل حسبما يعلن له الله. إن الظروف كثيرًا ما تخدع الإنسان إذا انقاد بها، أما كلمة الله فهي مرشدنا الوحيد الأمين في

كل الأحوال، سواء كان جو الحياة صافيًا أو كان ملبدًا بالغيوم.

وبينما هم يترقبون بزوغ فجر النهار بقلق رفع بولس صوته إلى الله، مشجعًا جميع رفاقه المسافرين. يا له من منظر بديع، فقد كان ليلاً مظلمًا مملوءًا بالزوابع، والسفينة في خطر الهبوط إلى العمق أو أن تتحطم باصطدامها بذلك الشاطئ الصخري، ولكن كان هناك شخصًا على ظهر تلك السفينة مملوءًا بالسرور وسط كل هذه المخاوف إذ لم يكن للرعب مكان في قلبه، لا من جهة حالة السفينة المحفوفة بالخطر، أو تلك المياه القليلة العمق، أو أصوات الأمواج المتكسرة. كل هذه لم تكن تخيفه، بل كان فرحًا في الرب متعمقًا في معرفة أفكاره ومقاصد قلبه. وهذا هو مركز المسيحي الحقيقي وسط كل زوابع واضطرابات الحياة، وقليلون هم الذين يبلغونه، فالإيمان وحده هو الذي يستطيع أن يصل إليه. ثم إننا في الأعداد التالية نطالع كلمات بولس الأخيرة التي شجع بها رفاقه في السفينة. «وحتى قارب أن يصير النهار كان بولس يطلب إلى الجميع أن يتناولوا طعامًا قائلاً: هذا هو اليوم الرابع عشر وأنتم منتظرون ولا تزالون صائمين ولم تأخذوا شيئًا. لذلك ألتمس منكم أن تتناولوا طعامًا لأن هذا يكون مفيدًا لنجاتكم، لأنه لا تسقط شعرة من رأس واحد منكم. ولما قال هذا أخذ خبزًا وشكر الله أمام الجميع وكسر وابتدأ يأكل، فصار الجميع مسرورين وأخذوا هم أيضًا طعامًا» (أع٢٧: ٢٣-٣٦).

كان رجاؤهم الوحيد حينئذ أن يدفعوا السفينة إلى الشاطئ وهكذا ينجون إلى البر «فأبصروا خليجًا له شاطئ» فأجمعوا على أن يدفعوا إليه السفينة. وهكذا نزعوا المراسي وحلوا ربط الدفة، ورفعوا قلعًا للريح الهابة، فأقبلوا إلى الشاطئ. وإذ دفعوا السفينة هكذا ارتكز المقدم في شاطئ الخليج ولبث لا يتحرك، وأما المؤخر فكان ينحل من عنف الأمواج.

هكذا وصلت حينئذ سفينة بولس إلى الشاطئ، وهكذا في هذه المدة أيضًا نرى رجل الإيمان سببًا في نجاة أنفس كل الأسرى. وإذ تأثر قائد المئة تأثرًا عميقًا من كلمات بولس، وأراد أن يخلص حياته منع العسكر من قتل الأسرى وأمر بأن القادرين على السباحة يلقون أنفسهم أولاً في البحر فيخرجون إلى البر، والباقين بعضهم على ألواح، وبعضهم على قطع السفينة كما تيسر «فهكذا حدث أن الجميع نجوا إلى البر» كما سبق بولس فأنبأهم بذلك من قبل.

بولس في مليطة (مالطة) (أع٢٨)

قدّم سكان الجزيرة إلى هؤلاء الغرباء الذين انكسرت بهم السفينة إحسانًا غير المعتاد، وفي الحال أوقدوا لهم نار ليصطلوا بها. والمؤرخ المغبوط يرسم لنا ما حدث بصورة واضحة وجلية وكأننا نحن شهود للحادثة بأنفسنا. فنرى الرسول يجمع قضبانًا للنار، فنشبت أفعى في يده، فظن البرابرة أولاً بأنه قاتل، ولكنهم إذ رأوا أنه لم يعرض له شيء مُضرٍ تغيروا وقالوا إنه إله.

وقد استضافهم بوبليوس مقدم الجزيرة بكل ملاطفة ثلاثة أيام. وحدث أن أباه كان مضطجعًا معتري بحمى، فشفي بوضع يدي بولس عليه وصلاته لأجله. وقد استطاع الرسول بقوة الله أن يصنع معجزات عديدة أثناء إقامته بالجزيرة. وقُدمت من أجله إكرامات كثيرة لجميع الذين معه. وهنا نرى الله مرافقًا خادمه المحبوب، وها هو يستعمل مواهبه وسط هؤلاء البرابرة. وبما أن الجزء الختامي من رحلة بولس إلى رومية مشحون بالفوائد الثمينة، حتى أن الوحي لم يترك ولا واقعة حدثت إلا وسجلها فإننا سنتأمل فيه بوجه الاختصار.

بعد أن أقام الجنود بأسراهم في مالطة ثلاثة أشهر أقلعوا في سفينة إسكندرية إلى إيطاليا، فنزلوا إلى سراكوسا حيث مكثوا ثلاثة أيام، ثم داروا وأقبلوا إلى ريغيون، وهناك حدثت ريح جنوب، فجاءوا إلى بوطيولي حيث «وجدوا إخوة». وبينما هم يصرفون معهم بعض أيام متمتعين بشركة المحبة الأخوية نما الخبر إلى رومية بوصول الرسول. فأرسل الإخوة للحال بعضًا منهم واستقبلوا بولس ورفاقه إلى فورن أبيوس والثلاثة الحوانيت. وفي هذا المنظر نرى صورة جميلة ومثالاً حسنًا لشركة القديسين، ويا له من سرور عجيب قد ملأ قلب الرسول في ذلك الحين عندما تعرف لأول مرة بالقديسين من كنيسة رومية، فقد نال مراده الذي كان يتمناه منذ أمد مديد، ففاضت حاسياته بالشكر لله، أو كما يقول لوقا عنه «شكر الله وتشجع».

وصول بولس إلى رومية

يرجح أن بولس والذين معه وصلوا إلى رومية عن طريق أبيوس، ولما وصلوا «سلم قائد المئة الأسرى إلى رئيس المعسكر *

* كان بورّوس، ذلك الرجل العاقل اللطيف الخلق، رئيساً للحرس الروماني عندما وصل يوليوس بأسراه، وكان رومانياً شريفاً، وقد عامل بولس بكرامة وشفقة لامثيل لهما (أنظر قاموس الدكتور سميث).

وأما بولس فأذن له أن يقيم وحده مع العسكري الذي كان يحرسه».

ومع أنه لم يتركه بدون حراسة جندي يراقبه دائمًا ضابطًا إياه بسلسلة، ولكنه مع ذلك كان يعامله بكل احترام لائق بشخصه، فكانت لديه حينئذ فرصة ثمينة لكي يبشر بالإنجيل للذين هم في رومية أيضًا. وقد بدأ في خطته بالسير حسب مبدئه المقدس، وهو أن يكرز إلى اليهود أولاً، فنراه يستدعي وجوه اليهود ويشرح لهم حقيقة أمره، مؤكدًا لهم بأنه لم يرتكب أي ذنب ضد أمته أو ضد عوائد الآباء، وإنما أحضر إلى رومية ليجاوب عن دعاوى موجهة ضده من اليهود الذين في أورشليم، وكلها كانت دعاوى كاذبة بلا أساس، حتى أن نفس الحاكم الروماني كان يريد إطلاق سراحه، ولكنهم جميعًا قاوموا ذلك. وفي الحقيقة فإنه كما يقول هو عن نفسه «إني من أجل رجاء إسرائيل موثق بهذه السلسلة» وقد كان جرمه الوحيد إيمانه الراسخ بمواعيد الله لإسرائيل عن المسيا.

أما هؤلاء اليهود الرومانيون فقد أجابوه بأنه لم يصل إلى رومية مطلقًا أي خبر رديء عنه، وأنهم يستحسنون أن يسمعوا منه شيئًا عن إيمانه، إذ علموا من جهة هذا المذهب أنه يقاوم في كل مكان. فعيّنوا له يومًا للاجتماع في منزله الخاص. وقد أتى كثيرون في ذلك اليوم «فطفق يشرح لهم شاهدًا بملكوت الله ومقنعًا إياهم من ناموس موسى والأنبياء بأمر يسوع من الصباح إلى المساء». ولكن بكل أسف فإنه كما حدث من اليهود في أنطاكية وفي أورشليم من امتناع عن قبول الشهادة وتباطؤ قلوبهم عن الإيمان هكذا حدث في رومية أيضًا «فاقتنع بعضهم بما قيل وبعضهم لم يؤمنوا». أما الرسول فكان يجاهد بكل عزيمة لا تعرف الكلل، وغايته أن يجتذب قلوبهم للمسيح. وكان يتعب من الصباح إلى المساء، ليس فقط لكي يبشرهم بالمسيح بل لكي يقنعهم بأمره. ومن المؤكد أنه اجتهد أن يقنعهم بلاهوته وناسوته وبذبيحته الكاملة، وبقيامته وصعوده ومجده. ويا له من درس ثمين وموضوع خطير يجب على كل المبشرين في كل زمان أن يهتموا به ويجعلوه نصب عيونهم «مقنعين الناس بأمر يسوع من الصباح إلى المساء».

هذه هي آخر مرة تذكر الكرازة لليهود فيها، فقد كان القضاء الرهيب الذي نطق به إشعياء عليهم وشيك الوقوع، وهم لم يزالوا تحت هذا القضاء عينه إلى يومنا هذا، وسيظلون تحته إلى أن يتداخل الله ويعطيهم توبة، ويخلصهم بنعمته لأجل اسمه ومجده. أما الآن فإن «خلاص الله قد أرسل إلى الأمم وهم سيسمعون».

ومجدًا لاسمه، فقد سمعوا بالفعل، ونحن شهادة على ذلك.

«وأقام بولس سنتين كاملتين في بيت استأجره لنفسه. وكان يقبل جميع الذين يدخلون إليه، كارزًا بملكوت الله ومعلّما بأمر الرب يسوع المسيح بكل مجاهرة بلا مانع».

بهذا يختتم سفر الأعمال مسدلاً الستار على نتائج رفض اليهود لما كان لخلاص نفوسهم، القضاء الذي وقع بالفعل بعد هذا المشهد الأخير من سفر الأعمال بفترة وجيزة. ومن جهة أخرى هو ستار ينسدل أيضًا على تاريخ خادم الله الأمين هذا، ولكن تبقى أمامنا رسائله الأخيرة كالمصدر الوحيد الذي تستطيع أن نتتبع منه ما بقي من تاريخه. وليس فقط نتعرف على تاريخه، بل منها نستطيع أن نتفهم حاسياته ومشاعره المتضاربة، كما نرى منها حالة كنيسة الله التي صارت إليها، حتى يوم استشهاده.

سفر الأعمال كمرحلة انتقالية

يجب أن نقف هنا ونتأمل قليلاً في رسولنا العظيم كأسير مسجون في عاصمة الإمبراطورية الرومانية. في ذلك الوقت كانت بشارة الإنجيل قد انتشرت في جميع الأنحاء من أورشليم إلى رومية، وقد حدثت تحولات عظيمة في طرق الله التدبيرية. فنرى اليهود قد رُفضوا، أو بالحري جلبوا الرفض على أنفسهم، لعدم قبولهم لعمل الله.

ولا شك في أن مقاصد نعمة الله من نحوهم تبقى ثابتة إلى الأبد، ولو أنهم في الوقت الحاضر قد رفضوا، وآخرون قد أخذوا مكانهم وتمتعوا بالشركة التي كانت لهم مع الله.

أما بولس فقد كان شاهدًا لنعمة الله لشعب إسرائيل، وكان هو نفسه إسرائيليًا، ولكنه كان أيضًا مختارًا من الله ليعلن لنا شيئًا جديدًا بالكلية، أي الكنيسة التي هي جسد المسيح «بالإنجيل الذي صرت أنا خادمًا له حسب موهبة نعمة الله المعطاة لي حسب فعل قوته. لي أنا أصغر جميع القديسين أعطيت هذه النعمة أن أبشر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يستقصى. وأنير الجميع في ما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور في الله خالق الجميع بيسوع المسيح» (أف٣: ٧-٩).

ولقد أبطل هذا الأمر الجديد جميع الفوارق التي كانت بين اليهود والأمم، سواء كخطاة، أو من جهة صيرورتهم واحدًا في جسده. وقد

رأينا فيما سبق مقاومة اليهود التي لم تنقطع لهذه الحقائق، ورأينا أيضًا النتائج التي ترتبت على تلك العداوة. فقد اختفى اليهود اختفاءً تامًا، وأصبحت الكنيسة هي الإناء المختار من الله للشهادة على الأرض، ومسكنه بالروح القدس (أف٢: ٢٢). فالأفراد الذين يؤمنون من اليهود يباركون في شخص المسيح السماوي، وفي الجسد الواحد. أما إسرائيل كأمة فقد ترك إلى حين بدون إله وبدون شركة معه في الوقت الحاضر. ويظهر ذلك التعليم بأجلى وضوح في الرسائل إلى رومية وأفسس، لا سيما في رومية٩، ١٠، ١١.

والآن لنرجع إلى:

عمل بولس وهو في السجن

رغمًا عن أن بولس كان أسيرًا في السجن فقد كانت له حرية كاملة من جهة الاجتماع بأحبائه. وقد احتاط به كثيرون من أقدم رفقائه الأخصاء، إذ يتضح لنا من الرسائل أن لوقا وتيموثاوس وتيخكس وأبفراس وأرسترخس وآخرين أيضًا كانوا معه في ذلك الوقت. ولكن يجب أن لا ننسى أنه كان أسيرًا سجينًا مكبلاً بالقيود، موضوعًا تحت حراسة جنود، معرضًا لخشونة معاملتهم. وبالنسبة لتأخير النظر في دعواه فقد بقي على هذه الحالة مدة عامين كاملين، كان في أثنائهما يكرز بالإنجيل ويشرح الكتب المقدسة للجماعات التي كانت تفد إليه لسماع أقواله. وكتب فيهما أيضًا عدة رسائل إلى الكنائس في أماكن بعيدة.

ثم نراه بعد أن تمم خدمته بأمانة لليهود صار ينادي للأمم، وبالطبع لم يستثن أحدًا من اليهود ممن أرادوا سماع الكلمة عن تبليغه بشارة الإنجيل. وقد كان مستعدًا طوال اليوم لقبول جميع الذين يرغبون سماع الحقائق المسيحية. ولم تكن له فرصة أفضل من هذه من بعض الوجوه، وذلك لوجوده تحت حماية الرومانيين، فلم يستطع اليهود أن يؤذوه.

وقد ظهر حالاً تأثير كرازته بعد مدة وجيزة، إذ كانت سبب بركة للحراس الرومانيين ولبيت قيصر «وباقي الأماكن أجمع» فنراه يكتب إلى الفليبيين قائلاً: «ثم أريد أن تعلموا أيها الإخوة أن أموري قد آلت أكثر إلى تقدم الإنجيل. حتى أن وثقي صارت ظاهرة في المسيح في كل دار الولاية وفي باقي الأماكن أجمع» ويقول أيضًا «يسلم عليكم جميع القديسين ولا سيما الذين من بيت قيصر» (في ١: ١٢، ١٣؛ ٤: ٢٢).

ويظهر أن أتعابه ابتدأت تثمر أولاً في دار الولاية وسط الحرس الملوكي، كما يتضح من قوله: «وثقي صارت ظاهرة في المسيح في كل دار الولاية». أي في مقر الحرس وسط الجنود. فكان يسمع بشارة الخلاص المجيدة التي يكرز بها بولس كل المعسكر، وامتد صوت إنجيل نعمة الله حتى ربما بلغ مسامع رئيس جند الحرس المسمى بوروس وصديقه الحميم سنيكا معلم الإمبراطور نيرون. ذلك أن دماثة أخلاق بولس وسمو آدابه ومقدرته ومواهبه العظيمة كان لها قوة في جذب الساسة والفلاسفة إليه، وتيسر له أن ينتهز فرصًا كثيرة للوجود معهم نظرًا لإقامته سنتين كاملتين بينهم.

ويمكننا أن نقول بأنه كانت له معرفة شخصية بكل جندي تقريبًا.

ومما ساعد على تقدم الإنجيل أكثر فأكثر تبدل الحراس. فإن بقاءه دائمًا مكبلاً تحت حراسة أحد الجنود، مع وجوب تناوبهم على حراسته، ساعده على التعرف على الكثيرين منهم، الذين كان يكلمهم بمحبة عظيمة وغيرة متقدة وطلاقة لسان عن الرب يسوع وعن حاجتهم الشديدة إليه.

وإذا أردنا أن نعرف نتائج خدمة الرسول فعلينا أن ننتظر إلى «ذلك اليوم» حين تظهر بالتمام لأن اليوم سيبينها. وسيكون لله كل المجد.

ثم إن الرسول يعرفنا بأن الإنجيل أدرك القصر نفسه، وأنه كان هناك قديسون في بيت قيصر، وقد غرست المسيحية داخل جدران القصر الملكي، وفي «باقي الأماكن أجمع» كما يقول الرسول المغبوط.

ولم يكن العمل قاصرًا على خدمة بولس داخل النطاق الملكي بل كان رفقاؤه الذين يدعوهم "شركاءه العاملين معه" يكرزون بالإنجيل في «باقي الأماكن أجمع» داخل العاصمة وخارجها. فنجاح الإنجيل وتقدمه يعزى إلى أتعاب الآخرين كما يعزى إلى مجهودات ذلك الرسول العظيم أثناء أسره.

العبد الهارب أنسيمس

لم يوجد بين جماعة المخلّصين الذين أعطاهم الرب للرسول في وثقه من اكتسب قلبه وعواطفه نظير ذلك العبد المسكين الهارب أنسيمس، فهو يرينا صورة جميلة لقوة الله وتنازله وشدة محبته التي

تعمل في القلب بالروح، والتي تظهر بلمعان باهر في كل جزئيات الحياة الشخصية، فإن نجاح الرسول في قصر الإمبراطورية لم يكن ليضعف من اهتمامه بتلميذ من أقل الطبقات قدرًا، إذ لم يكن في الهيئة الاجتماعية من هو أدنى رتبة وأحط قدرًا من طائفة العبيد.

ولكن ماذا الذي أتى بذلك العبد إلى مدينة الترف والبذخ؟ لقد كانت يد الله المحبة غير المنظورة هي التي تنتشل أنسيمس من أحط الدركات، فعبرت به الطريق إلى حيث كان الرسول، ليسمع الكرازة بالإنجيل، ثم يؤمن، وعلى التو يكرس حياته للرب ولخدمته. ولقد وجد في الرسول صديقًا وأخًا، كما وجد فيه مرشدًا ومعلمًا. ومن ثم بدأت فضائل المسيحية وقيَمها السامية تظهر ببهائها وتتجلى بلمعانها. وما أحلى وصول تلك النعمة إلى ذلك العبد المسكين المعدم الهارب.

والآن لنسأل: ما هي المسيحية؟ ولننظر إليها كأمر جديد في رومية بل في العالم. أعند قدمي غمالائيل تعلم بولس أن يحب هكذا؟ كلا أيها القارئ العزيز، بل عند قدمي الرب يسوع. يا ليت ذلك المؤرخ البليغ صاحب كتاب "انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها" ميّز هذه المظاهر الحية، إذ لو أنه كان قد تبينها لما هزأ بالمسيحية كما فعل، بل لأظهر إعجابه واحترامه الكلي للمبادئ السامية التي تضمنتها. وإذا تأملنا لحظة في أتعاب الرسول في هذا الوقت وما بلغ إليه من العمر، وما انتابه من الضعفات والظروف، عدا ما هو خلاف ذلك من المشغولية بالموضوعات الهامة والحقائق الجوهرية التي كانت تملأ ذهنه، لكنا نعجب بتلك النعمة التي استطاعت أن تجوز في كل تفاصيل العلاقات الكائنة بين سيد وعبد، دون أن تجحف بحق السيد أو تتساهل في واجبات العبد.

فالرسالة التي أرسلها بولس بيد أنسيمس إلى سيده المتألم فليمون لهي أفضل ما كتب وأشده تأثيرًا. فالناظر إليها من هذه الوجهة فقط لا يسعه إلا الإعجاب بحرارة وصدق تلك العواطف وصواب الأفكار من وجه، والكرامة والوقار اللذين يتخللان الرسالة بأكملها من وجه آخر. والآن لنتأمل برهة في:

الرسائل التي كتبها بولس في سجنه

لا يوجد مجال للشك في أن الرسائل إلى فليمون وكولوسي وأفسس وفيلبي قد كُتبت جميعها في أواخر أيام سجن الرسول برومية. وفي جميعها يشير إلى «وثقه» ويكرر توقعه إطلاق سراحه من السجن (قارن فل ٢٢؛ كو ٤: ١٨؛ أف ٣: ١؛ ٤: ١؛ ٦: ٢٠، في ١: ٧، ٢٥؛ ٢: ٢٤؛ ٤: ٢٢).

ولا بد أن يكون الرسول قد بقي طويلاً في رومية قبل أن يصل خبر سجنه إلى أحبائه الفلبيين، ولكنهم إذ سمعوا أرسلوا إليه خدمة أظهروا بها عواطف قلوبهم الحبية من نحوه.

ومن المرجح أن الثلاث الرسائل الأولى كتبت قبل الرسالة إلى الفلبيين التي تكلم فيها بوضوح عما وصل إليه أمر دعواه «هذا أرجو أن أرسله أول ما أرى أحوالي حالاً. وأثق بالرب أني أنا أيضًا سآتي إليكم سريعًا» (٢في: ٢٣، ٢٤). فالرسائل الثلاث الأول ربما كتبت حوالي ربيع سنة ٦٢ ميلادية، وأرسلت على يد تيخيكس وأنسيمس، أما تاريخ الرسالة الأخيرة ففي خريف تلك السنة عينها. وقد أرسلت على يد أبفرودتس.

أما الرسالة إلى العبرانيين فمن المرجح أنها كتبت في تلك المدة عينها. وكلما تأملنا فيها تحققنا صحة القول بأن كاتبها هو بولس، فإن العبارة المذكورة في آخر الرسالة «يسلم عليكم الذين من إيطاليا» برهان قاطع يثبت لنا المكان الذي كان فيه الكاتب حين كتب الرسالة. ولنا في قوله «اعلموا أنه قد أطلق الأخ تيموثاوس، الذي معه سوف أراكم إن أتى سريعًا». أيضًا حجة فاصلة، إذ تبين لنا تاريخ كتابتها. قابل هذا مع ما كتبه الرسول إلى الفلبيين «على أني أرجو في الرب يسوع أن أرسل إليكم سريعًا تيموثاوس... هذا أرجو أن أرسله أول ما أرى أحوالي حالاً. وأثق بالرب أني أنا أيضًا سآتي إليكم سريعًا». فلا يوجد مكان للشك بأن هاتين الجملتين كتبتا بقلم واحد في توقيت واحد، وكلاهما تشيران إلى غرض واحد. والأمر الذي نتحقق من معرفته جيدًا هو أن هذه الرسالة كتبت قبل خراب أورشليم سنة ٧٠ ميلادية، لأن الهيكل كان لا يزال باقيًا، والعبادة فيه لم تتعطل بعد (قابل عب ٨: ٤؛ ٩: ٢٥؛ ١٠: ١١؛ ١٣: ١٠-١٣).

براءة بولس وفك أسره

بعد اكتمال السنوات الأربع التي قضاها الرسول في السجن، والتي قضى نصفها في اليهودية والنصف الآخر في رومية، نراه للمرة الثانية يتمتع بكمال الحرية. ولا نعلم يقينًا بأي كيفية كانت محاكمته، ولا الأسباب التي بنيت عليها براءته، فإن المؤرخ المغبوط يخبرنا

أنه أقام سنتين كاملتين في منزل استأجره لنفسه، ولكنه لا يذكر ماذا أعقب تلك المدة: هل حكم عليه بعد ذلك بالموت؟ أم تبرأ وأطلق سراحه؟ والجواب الوحيد على ذلك يمكن معرفته من رسائله الرعوية، ويظهر أن الرسالة الأولى إلى تيموثاوس وإلى تيطس كتبتا في وقت واحد، وأما الرسالة الثانية لتيموثاوس فكتبت بعدهما بزمن قليل.

ولقد استقرّ رأي معظم القادرين على البت في مثل هذه المسائل بأنه قد حُكم ببراءة الرسول، وأنه صرف بضع سنوات في السفر متمتعًا بكامل الحرية قبل أن يلقى به في السجن مرة ثانية ويحكم عليه، وأنه وإن تعذر تتبع سير الرسول في هذه المدة، إلا أنه يمكننا أن نتوصل إلى نتيجة من رسائله بدون أن نركن إلى الأوهام، ومن المرجح جدًا أنه سافر بسرعة متفقدًا أماكن كثيرة في طريقه، وذلك لأن طول مدة سجنه أوجد للأعداء فرصة لإحداث تشويش في الكنائس التي أسسها والتي كانت في حاجة إلى حضوره وسماع مواعظه وتشجيعاته. وما نعلمه من نشاط وغيرة الرسول يؤكد لنا أنه لم يأل جهدًا في سبيل زيارتهم.

سفر بولس من إيطاليا

قد ذكر الرسول بولس في رسائله التي كتبها لأهل رومية قبل سجنه أن في نيته أن يمر برومية ثم يتجاوزها إلى أسبانيا «فعندما أذهب إلى أسبانيا آتي إليكم» ونراه يكتب إليهم أيضًا «فمتى أكملت ذلك وختمت لهم هذا الثمر فسأمضي مارًا بكم إلى أسبانيا» (رو ١٥: ٢٤،٢٨).

١- يظن البعض أنه ذهب إلى أسبانيا توًا بعد فك أسره، وأهم شاهد يؤيدون به أقوالهم ما كتبه أكليمندس، الذي كان شريكًا وعاملاً مع بولس في الخدمة، وهو المذكور في رسالة فيلبي ٤: ٣. وقد أقيم بعد ذلك أسقفًا في رومية، فإنه يقول عن بولس «إنه كرز بالإنجيل في الشرق والغرب، وإنه بشر العالم أجمع (ولا شك أنه يقصد بذلك الدولة الرومانية) وأنه ذهب إلى أقاصي الغرب (ويقصد بذلك أسبانيا)». وحيث أن أكليمندس هذا كان تلميذًا لبولس وشريكًا عاملاً معه فشهادته إذًا جديرة بالاعتبار، ولكنها طبعًا لا تعادل الوحي.

٢- يستنتج البعض الآخر مما كتبه بولس في رسائله الأخيرة أنه غير خطته وعدل عن فكرة ذهابه إلى أسبانيا، وأرجأ ذلك لفرصة أخرى. ونفهم ذلك من رسائله إلى فليمون ورسالته إلى الفيلبيين، ففي الأولى يكتب هكذا «ومع هذا أعدد لي منزلاً لأني أرجو أنني بصلواتكم سأوهب لكم» (ع٢٢). فهو هنا يجعل فليمون يتوقع قدومه العاجل ووجوده معه شخصيًا. ثم يكتب إلى الفلبيين عن تيموثاوس قائلاً «هذا أرجو أن أرسله أول ما أرى أحوالي حالاً. وأثق بالرب أني أنا أيضًا سآتي إليكم سريعًا»، وأيضًا «على أني أرجو في الرب يسوع أن أرسل إليكم سريعًا تيموثاوس لكي تطيب نفسي إذا عرفت أحوالكم» (في٢: ١٩،٢٣،٢٤). فالرحلات التي كان يقصد الرسول أن يعملها مع إلحبيب تيموثاوس تظهر جليًا من خلال هذه الأقوال. ومن الواضح أن الرسول قصد أن يرسل تيموثاوس إلى فيلبي عند انتهاء محاكمته، وأن يبقى هو في إيطاليا حتى يرجع إليه تيموثاوس ويخبره عن أحوالهم.

٣- ومن المقبول عقلاً أن بولس الرسول قد نفذ هذه الرغبة التي أظهرها مؤخرًا، وأنه زار كنائس آسيا الصغرى التي لم ير بعضها وجه الرسول في الجسد. ثم أن البعض يرجحون أنه بعد إتمام غرض إرساليته إلى آسيا الصغرى قام بسياحته إلى أسبانيا التي كان مشغولاً بها منذ زمن طويل، ولكن لا يوجد لدينا ما نستند عليه من براهين. وليس الظن مما يعتد به.

٤- هناك فرض رابع وهو أنه ذهب توًا من إيطاليا إلى اليهودية ومنها إلى أنطاكية معرجًا في طريقه على آسيا الصغرى وبلاد اليونان. وهذا الرأي مأخوذ من رسالة العبرانيين١٣: ٢٣،٢٤ «اعلموا أنه قد أطلق الأخ تيموثاوس الذي معه سوف أراكم إن أتى سريعًا... يسلم عليكم الذين من إيطاليا». ولقد زعم البعض أنه لما كان الرسول في بوطيولي يتأهب للسفر بعد رجوع تيموثاوس مباشرة بلغه أن ضيقًا واضطهادًا وقع على المسيحيين في أورشليم، فملأ هذا الخبر قلبه حزنًا، حتى أنه كتب إليهم في الحال رسالته المشهورة إلى العبرانيين وبعد كتابتها بوقت وجيز وصل تيموثاوس وأقلع بولس ومن معه إلى اليهودية *.

الأماكن التي زارها بولس أثناء حريته

قد ذكرنا للقارئ الفروض المختلفة ليمتحنها. ولنتطرق الآن إلى ذكر الأماكن التي زارها بولس حسبما هو واضح من الرسائل التي كتبها.

*أنظر كتاب يوسيفوس المؤرخ إذا أردت معرفة حوادث الإضطهاد المشار إليه بالتفصيل.

١- لابد أن يكون الرسول قد زار مع رفقائه آسيا الصغرى وبلاد اليونان عقب سفره من رومية بزمن قصير «كما طلبت إليك أن تمكث في أفسس إذ كنت أنا ذاهبًا إلى مكدونية لكي توصي قومًا أن لا يعلموا تعليمًا آخر» (١تي ١:٣). فإذ شعر الرسول بخطورة وعظم المسؤولية الملقاة على عاتق تيموثاوس في أفسس أرسل إليه كتاب تشجيع وتعزية، منحه فيه سلطانًا. وهذا الكتاب هو الرسالة الأولى إلى تيموثاوس التي أرسلها إليه من مكدونية.

٢- ثم بعد هذا بقليل زار بولس جزيرة كريت مع تيطس وتركه هناك، وأرسل إليه كتابًا يزوده بالنصح ويؤيده بالسلطان، وهذا الكتاب هو رسالته إلى تيطس. فتيموثاوس وتيطس يعتبران إذًا نائبان للرسول «من أجل هذا تركتك في كريت لكي تكمل ترتيب الأمور الناقصة وتقيم في كل مدينة شيوخًا كما أوصيتك» (تي ١:٥).

٣- قصد بولس أن يشتي في مكان يقال له نيكوبوليس «حينما أرسل إليك أرتيماس أو تيخيكس بادر أن تأتي إليّ إلى نيكوبوليس لأني عزمت أن أشتي هناك» (تي ٣:١٢).

٤- ثم ذهب إلى ترواس وكورنثوس وميليتس «الرداء الذي تركته في ترواس عند كاربس أحضره متى جئت، والكتب أيضًا ولا سيما الرقوق ... أراستس بقى في كورونثوس. وأما تروفيمس فتركته في ميليتس مريضًا» (٢تي ٤:١٣، ٢٠).

سجن بولس في رومية للمرة الثانية

يظن البعض أنه قد ألقي القبض على بولس في نيكوبوليس حيث قصد أن يشتي، وأنه أخذ منها أسيرًا إلى رومية. ويقول البعض الآخر إنه بعد أن شتى في نيكوبوليس وزار الأماكن التي ذكرناها رجع إلى رومية بكامل الحرية الشخصية، ولكنه قُبض عليه هناك وألقي في السجن أثناء الاضطهاد الذي حدث في حكم نيرون.

ولا يمكننا الوقوف على معرفة حقيقية التهمة التي وجهت ضد الرسول، والتي بسببها ألقوا القبض عليه. ربما هي أنه مسيحي، فالاضطهاد العام الذي حدث للمسيحيين في ذلك الوقت لم يكن له مثيل في الصرامة والقساوة. ولم يكن بولس بعد متهمًا بخصوص مسائل من جهة الناموس، ولم يكن تحت عناية وحراسة ذلك الحاكم اللطيف الخلق رقيق العواطف بوروس، ولكنه أصبح متهمًا كفاعل شر، وعومل كباقي المذنبين كما يقول عن نفسه «والذي فيه أحتمل المشقات حتى القيود كمذنب» وفي هذه المرة تختلف قيوده بالكلية عن وثقه في سجنه الأول عندما كان مستأجرًا منزلاً وساكنًا فيه.

ولا بد أن يكون إسكندر - الذي من المؤكد أنه هو «إسكندر الأفسسي» - له يد في القبض على الرسول، وهو إما إنه كان أحد المشتكين عليه أو كان شاهدًا ضده، وهو الذي كتب عنه الرسول إلى تيموثاوس يقول: «إسكندر النحاس أظهر لي شرورًا كثيرة»، وهو بعينه الذي قبل عشر سنوات من ذلك الحين قاوم الرسول جهارًا في أفسس (أع١٩)، ولربما أراد الانتقام، فبلّغ الحاكم أقوالاً ضده. والذي يحقق لنا أن إسكندر هذا هو نفسه إسكندر الذي في أفسس ما كتبه بولس في رسالته الثانية إلى تيموثاوس٤:١٤، ١٥ يقول له «فاحتفظ منه أنت أيضًا».

إن الرسول أثناء سجنه الطويل في المرة الأولى احتاط به كثيرون من أعز وأقدم رفقائه الذين كانوا له أعظم المعاونين، والذين يدعوهم «العاملين والمأسورين معي» فمع أنه كان مقيدًا محدد الإقامة، ولكنه استطاع بواسطة هؤلاء الأحباء الذين كان يرسلهم من طرفه وفودًا أن يخاطب أصدقاءه في كل أنحاء الإمبراطورية، وأن يراسل كنائس الأمم الذين لم يروا وجهه في الجسد. أما سجنه في المرة الثانية فيختلف كل الاختلاف عن المرة الأولى، إذ نرى كل رفقائه قد فارقوه، فأراستس بقي في كورونثوس، وتروفيمس تُرك في ميليتس مريضًا، وتيطس ذهب إلى دلماطية، وكريسكيس إلى غلاطية، وتيخيكس أرسل إلى أفسس. أما ديماس الفاتر فتركه «إذ أحب العالم الحاضر».

فالرسول هنا يكاد يكون وحيدًا، إذ يقول «لوقا وحده معي» ولكن الرب كان مهتمًا ومشغولاً بخادمه المحبوب في هذه الوحدة الكئيبة، فإن أشعة النور كانت تنبعث من نبع المحبة وسط ظلمة ووحشة ذلك السجن. وقد وجد الرسول شخصًا واحدًا فقط كان أمينًا له وشريكًا معه في هذه الضيقة، بينما الجميع تركوه وهو أنيسيفورس الذي لم يخجل بسلسلته. وحقًا لم يكن هناك ما هو أحلى وأجمل وألذ إلى قلب الرسول في ذلك الوقت من خدمة أنيسيفورس هذا، فهي خدمة لا يمكن أن تُنسى إلى الأبد. نعم، أنيسيفورس وبيته، الذي يربطه الرسول بنفسه لا بد أن يبقى ذكره حيًا إلى الأبد، وسيحصد ثمر تلك الشجاعة والتكريس اللذين أظهرهما في خدمة الرسول، وسيتمتع بهذا الثمر إلى أبد الآبدين، ويصدق عليه قول

الرب «كنت محبوسًا فأتيتم إليّ» (مت٢٥: ٣١-٤٦).

وليس لدينا معلومات أكيدة عن وقائع محاكمة بولس. ومن المرجح جدًا أنها كانت في ربيع سنة ٦٦-٦٧م. حين جلس نيرون على كرسي القضاء، يحيط به أعضاء محكمته وحرسه الملكي، وأحضر بولس للمحكمة. ولا يخامرنا أدنى شك في أن قاعة المحكمة مع اتساعها العظيم قد غصت بجمهور كثير من يهود وأمم. وهنا وقف الرسول للمرة الثانية أمام العالم، وسنحت له الفرصة ثانية ليشهد أمام جميع الأمم بذاك الذي من أجله صار أسيرًا موثقًا. وكما يقول هو «ويسمع جميع الأمم». نعم فإنه كان ينبغي أن يسمع إنجيل نعمة الله المجيد أولئك القياصرة وأعضاء مجلس الشيوخ والأمراء والأشراف وكل عظماء الأرض. وقد حول الرب بنعمته كل مساعي العدو إلى شهادة عجيبة لاسم يسوع؛ فإن كل الذين لم يتسنَ للرسول الوصول إليهم هوذا نراهم يسمعون الإنجيل يكرز به في آذانهم بقوة من الأعالي.

ويلذ لنا أن نتأمل قليلاً في موقف الرسول في ذلك الوقت، فإنه لم يقم قط شاهد مثل هذا الشاهد الأمين، ولا قُدمت شهادة نظير هذه الشهادة في قاعة قضاء الإمبراطور نيرون. وما أعمق حكمة الله الفائقة التي حولت كل مجهودات العدو ومساعيه إلى شهادة عجيبة لأجل اسمه، فإن محبة الله ونعمته الظاهرتين في الإنجيل كانتا تضيئان بلمعان يفوق الوصف لكل الطبقات على السواء. والرسول نفسه جدير بكل إعجاب، إذ وهو كسير القلب حزين النفس بسبب عدم أمانة الكنيسة، وقف متشددًا بالرب متقويًا بشدة قوته. وإن تُرك من الجميع، ولكن الرب وقف معه وقواه، فقاوم أعداءه بكل شجاعة، مترافعًا عن نفسه، مناضلاً ومحاميًا عن الإنجيل، فكانت لديه فرصة ثمينة للتكلم عن يسوع وعن موته وقيامته، حتى يسمع بشارة الإنجيل جموع الوثنيين. كان لكبر سنه وضعف جسمه، ووقار منظره ويده المقيدة بالسلاسل ما أضاف إلى فصاحة كلماته وشهامته تأثيرًا عميقًا ووقعًا كبيرًا في نفوس سامعيه. ومن حسن حظنا أنه ترك لنا بقلمه كل ما حدث عند سماع دفاعه الأول، فقد كتب إلى تيموثاوس بعد ذلك مباشرة يقول «في احتجاجي الأول (أي دفاعي الأول) لم يحضر أحد معي، بل الجميع تركوني. لا يحسب عليهم. ولكن الرب وقف معي وقواني لكي تتم بي الكرازة ويسمع جميع الأمم. فأنقذت من فم الأسد» (٢تي٤: ١٦، ١٧).

يا رافعَ العين إلى المسيحِ — كنت له إناءه المختارْ
نظيرَ رب المجد أوثقوكَ — طوباكَ حُزتَ غايةَ الفخارْ
بجرأةٍ شهدتَ عن يسوعَ — لا وجلَ عندك لا خوارْ
لك المسيحُ ذاتُه الحياةُ — والموتُ ربحٌ، بل هو انتصارْ

استشهاد بولس

وإن لم يكن لدينا معلومات عن الجولة الثانية من محاكمته، ولكن لا شك في أنها حدثت عقب الدفاع الأول، وأنها أفضت إلى الحكم عليه بالموت. ولنا في رسالته الثانية إلى تيموثاوس تاريخ إلهي نعلم منه ما كان يجول بخاطره في تلك اللحظة الخطيرة: انشغاله العميق بالحق الإلهي وبكنيسة الله، حنوه الشديد واشتياقه للقديسين - ولاسيما لابنه الحبيب تيموثاوس، رجاء غلبته وانتصاره بالاستشهاد العاجل. ولا يمكننا التعبير عن ذلك بأحسن مما كتب هو قائلاً «فإني أنا الآن أسكب سكيبًا ووقت انحلالي قد حضر. قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيرًا قد وضع لي إكليل البر الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل. وليس لي فقط بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضًا» (٢تي٤: ٦-٨).

فمحكمة نيرون تلاشت من أمام نظره، والموت بكل أهواله لم يكن ليرعبه، وكان المسيح نصب عينيه وغرض قلبه في المجد، وهو ينبوع فرحه وقوته، وقد أكمل سعيه وتمم أتعاب محبته. وهو وإن كان أسيرًا مسكينًا وشيخًا وحيدًا، ولكنه كان غنيًا في الله، له المسيح فله فيه كل شيء. يسوع الذي رآه مرة في المجد عند بداءة حياته المسيحية، وقاده في كل هذه الضيقات وخدمة الإنجيل، كان هو له الآن، بل كان هو إكليله. ولم يكن قضاء نيرون الظالم، وسيف الجلاد الملطخ بالدماء، سوى رسل سلام جاءت لتنهي ذلك الطريق الطويل المحفوف بالمتاعب، ولتدخله إلى حضرة يسوع في المجد. فقد حان الوقت الذي فيه طلبه الرب يسوع الذي أحبه ليأخذه عنده. لقد جاهد الجهاد الحسن لأجل الإنجيل إلى النهاية، وأكمل السعي، فلم يبق أمامه سوى إكليل المجد الذي سيناله عند ظهور الرب - الديان العادل - واستعلانه في المجد «ولكننا في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا. فإني متيقن أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا

رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا» (رو٨: ٢٧-٣٩).

ولدينا شهادة أخرى من كتابات أثرية من عصر نيرون جاء فيها أن بولس استشهد في أيامه في عصر الاضطهاد، ومن المرجح أن ذلك كان سنة ٦٧م. وحيث أنه كان رومانيًا فقد حُكم عليه بقطع الرقبة عوضًا عن الجلد والصلب، أو التعرض للتعذيب بأنواع العذابات المرة التي كانوا يستعملونها مع المسيحيين. وهو نظير سيده قد «تألم خارج الباب» إذ أن استشهاده تم في موقع على طريق يسمى "طريق الأوستيا" أي الطريق الخارج من الباب، وعلى بعد حوالي ثلاثة كيلومترات من أسوار المدينة. هناك تم تنفيذ حكم الموت في هذا الرسول الأمين، وهذا آخر ما وصلت إليه فظاعة وقساوة الإنسان. هناك تغرب الرسول الأمين عن الجسد واستوطن عند الرب. هناك أُطلق سراح تلك الروح الحارة المغبوطة من عقال ذلك الجسد المتألم الضعيف، وتم للرسول غرضه الذي كان مشتهى قلبه... «أن أنطلق وأكون مع المسيح ذلك أفضل جدًا».

جدول تاريخي لحياة بولس

السنة م	الواقعة
٣٦	اهتداء شاول الطرسوسي (أع٩).
٣٦-٣٩	بولس في دمشق، كرازته في المجمع، ذهابه إلى العربية، رجوعه إلى دمشق، هروبه منها، زيارته الأولى لأورشليم بعد مضي ثلاث سنوات من تاريخ اهتدائه، انطلاقه من هناك إلى طرسوس (أع٩: ٢٣-٢٦؛غل١: ١٨).
٣٩، ٤٠	كان في أثنائهما سلام للكنائس في اليهودية (أع٩: ٣١).
٤٠-٤٣	كرازة بولس بالإنجيل في سورية وكيليكية (غل١: ٢١) وذلك أمد غير معلوم. ولربما كان هو الوقت الذي لاقى فيه معظم الأخطار والضيقات التي يعددها للكورنثيين (٢كو١١)، ثم أُحضر بولس بواسطة برنابا من طرسوس إلى أنطاكية، ومكث هناك سنة كاملة قبل حدوث الجوع (أع١١: ٢٦).
٤٤	زيارة بولس الرسول الثانية لأورشليم حاملاً معه الخدمة لأجل القديسين هناك (أع١١: ٣٠).
٤٥	رجوعه إلى أنطاكية (أع١٢: ٢-٥).
٤٦-٤٩	رحلة بولس الرسول التبشيرية الأولى مع برنابا، ذهابه إلى قبرص، فأنطاكية بيسيدية، فأيقونية، فلسترة، فدربة، ثم رجوعه إلى أنطاكية مارًا بتلك المواضع عينها، ثم مكوث بولس وبرنابا وقتًا طويلاً في أنطاكية، ثم مباحثة التلاميذ والخلاف الذي وقع بينهم في أمر الختان (أع١٣،١٤،١٥: ١،٢).
٥٠	زيارة بولس الرسول الثالثة لأورشليم مع برنابا بعد مضي أربعة عشر عامًا من تاريخ اهتدائه (غل٢: ١)، حضورهما المجمع في أورشليم (أع١٥)، رجوع بولس وبرنابا إلى أنطاكية مع يهوذا وسيلا (أع١٥: ٣٢-٣٥).
٥١	رحلة بولس التبشيرية الثانية مع سيلا وتيموثاوس، ذهابه من أنطاكية إلى سورية، فكيليكية، فدربة، فلسترة، ففيريجية، فغلاطية، فترواس. انضمام لوقا إلى هذه البعثة الرسولية (أع١٦: ١٠).

السنة م	الواقعة
٥٢	دخول الإنجيل في أوروبا (أع١٦: ١١-١٣) زيارة بولس الرسول لفيلبي، وتسالونيكي، وبيرية، وأثينا، وكورنثوس، إقامته سنة وستة أشهر في كورنثوس (أع١٨: ١١).
٥٣	كتابة الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي، كتابته الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي، انطلاقه من كورنثوس وإقلاعه في البحر إلى أفسس (أع١٨: ١٨، ١٩).
٥٤	زيارة بولس الرسول الرابعة لأورشليم في العيد ورجوعه إلى أنطاكية.
٥٤-٥٦	رحلة بولس الرسول التبشيرية الثالثة، مبارحته أنطاكية، زيارته لغلاطية، وفيريجية، ووصوله إلى أفسس حيث مكث سنتين وثلاثة أشهر. وهناك أفرز التلاميذ عن مجمع اليهود (أع١٩: ٨-١٠)، كتابته الرسالة إلى أهل غلاطية.
٥٧	في ربيع تلك السنة، كتابته الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، حدوث الشغب في أفسس، تركه إياها وذهابه إلى مكدونية (أع١٩: ٢٣، ٢٠: ١)، في خريف السنة عينها. كتابته الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس (٢كو ١:٨؛ ٢:١٣، ١٤؛ ٧:٥؛ ٨:١٠؛ ٩: ١)، زيارة بولس إلى الليريكون، ثم ذهابه إلى كورنثوس وتمضيته فصل الشتاء هناك (رو٥: ١٩، ١كو١٦: ٦).
٥٨	في ربيع تلك السنة، كتابته الرسالة إلى أهل رومية (رو٥: ٢٥-٢٨، ١٦: ٢١-٢٣، أع٢٠: ٤)، انطلاق بولس من كورنثوس مارًا بمكدونية، إقلاعه من فيلبي وكرازته في ترواس، خطابه لشيوخ ميليتس، زيارته لمدينة صور وقيصرية (أع٢٠، ٢١: ١-١٤).
٥٨-٦٠	زيارة بولس الرسول الخامسة لأورشليم قبل عيد الخمسين - القبض عليه في الهيكل والإتيان به أمام حنانيا رئيس الكهنة ومجمع اليهود - إرسال ليسياس إياه إلى قيصرية حيث مكث مقيدًا لمدة سنتين.
٦٠	بولس يحتج أمام فيلكس وفستوس، رفعه دعواه إلى قيصر، كرازته بالإنجيل في حضرة الملك أغريباس والملكة برنيكي ورجال قيصرية في خريف تلك السنة، إقلاع بولس قاصدًا إيطاليا في شتاء السنة عينها، انكسار السفينة على جزيرة مالطة (أع٢٧).
٦١	في ربيع تلك السنة دخوله إلى رومية وإقامته هناك سنتين في بيت استأجره لنفسه.
٦٢	في ربيع تلك السنة، كتابته الرسائل إلى فليمون وكولوسي وأفسس، في خريف تلك السنة عينها كتابة الرسالة إلى فيلبي.
٦٣	في ربيع تلك السنة الحكم ببراءته وإطلاق سراحه، كتابة الرسالة إلى العبرانيين، سياحته مرة أخرى قاصدًا زيارة آسيا الصغرى واليونان (فليمون٢٢، في٢: ٢٤).
٦٤	زيارته لجزيرة كريت وتركه تيطس هناك، طلبه إلى تيموثاوس أن يقيم في أفسس، كتابته الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ثم الرسالة إلى تيطس.
٦٤-٦٧	عزمه بأن يشتي في نيكوبوليس (تي٣: ١٢) زيارته لترواس وكورنثوس وميليتس (٢تي١٣: ٢٠)، القبض عليه وإرساله إلى رومية، تركه وحيدًا وليس معه من أصدقائه القدامى سوى لوقا، كتابته الرسالة الثانية إلى تيموثاوس. ويرجح أنه كتبها قبل موته بزمن قليل. ويغلب على الظن أن جميع الرحلات والحوادث استغرقت نحو ثلاث سنوات فقط.
٦٧	استشهاد بولس الرسول.

الفصل السابع

حريق روما

لما كان استشهاد رسولينا العظيمين بطرس وبولس قد حدث أثناء أول اضطهاد جرى في العصر الإمبراطوري، فقد يهم الكثيرين من قرائنا أن يقفوا على بعض تفاصيل الحوادث التي أدت إلى إصدار هذا المرسوم القاسي. ولكننا نضطر هنا على غير رغبة منا إلى أن نلجأ إلى مصادر أخرى غير كلمة الله الصادقة، ونستقي أخبارنا من كتابات بعض الناس غير اليقينية. فمن هذه النقطة التي وقفنا عندها نترك أساس الوحي الثابت المتين ونستند على أقوال المؤرخين الرومانيين ومؤرخي الكنيسة، ومع كلٍ فقد اتفق المؤرخون في العصرين السالف والحديث، وثنيون كانوا أم مسيحيون، على الأسباب الرئيسية لحريق رومية واضطهاد المسيحيين، وهاك هي:

في شهر يوليو سنة ٦٤م. شبت نار عظيمة في الأمفيثياترو (أي ساحة الألعاب الرياضية وما أشبهها) وقد استمر اللهيب بقوة عظيمة، حتى دمر تلك المدينة الملوكية، وقوّض عظمتها وفخامتها. وكانت روما مدينة ذات شوارع طولية ضيقة، كثيرة التلال والوديان، وقد أعطت الرياح للنار قوة حتى لفت ألسنتها كل المدينة في برهة قصيرة بنطاق من اللُّهب المستعرة.

ويقول تاسيتوس المؤرخ الروماني، الذي يُعد من أصدق المؤرخين في ذلك العصر وأكثرهم توخيًا للدقة، إنه "لم يبق من الأحياء الأربعة عشر التي تتكون من مجموعها مدينة رومية سوى أربعة لم تصل إليها لُهب الدمار، وأمست ثلاثة أحياء رمادًا، والسبعة الباقية صارت أطلالاً بالية لمنازل خربة خاوية". واستمرت النار مستعرة مدة ستة أيام وسبع ليال، حتى دمرت القصور والهياكل والآثار ومساكن الأغنياء وأكواخ الفقراء. والخسارة وإن كانت فادحة فهي لا تُعد شيئًا بجانب ما وقع على السكان من الآلام، ولقد أضاف إلى هول المنظر المرعب كهولة الشيوخ وعجز الشباب، وضعف المرضى وصراخ النساء ونوحهن. فكنت ترى البعض يجاهدون لأجل نجاة أنفسهم، والبعض الآخر يقتحمون النار لإنقاذ ذويهم. ولكن من أين لهم النجاة وهم جميعًا في حيرة ودهشة، لا يدرون إلى أين يذهبون أو كيف يهربون، لأن النار كانت قد اضطرمت اضطرامًا من كل جانب. وانطرح الكثيرون على الأرض في الشوارع يحتضنون الموت طوعًا واختيارًا فأكلتهم النيران.

أما السؤال المبهم الذي كان موضوع البحث في كل الأنحاء فهو الوقوف على منشأ هذا الحريق. ولقد أجمع جل القوم بأن بعض الناس أضرموا النار وذلك كان بإيعاز من الإمبراطور نيرون نفسه، ومن المحقق أن عددًا من الرجال كان يعمل في امتداد النار بدلاً من إخماد لهيبها، وقد صرحوا بكل جسارة أن لديهم سلطانًا بذلك الفعل. وقد أشيع بين الجميع أنه بينما كانت رومية تتقد بذلك اللهيب كان نيرون - ذلك الوحش المجرد من العواطف الإنسانية - واقفًا في إحدى الحصون عند اشتداد لظى النار، مشرفًا عليها يراقب تقدمها وهو يتغنى وينشد على آلات العزف أغنيته المفضلة قصيدة سقوط طروادة.

ولا شك أنه سيعتري الكثيرين من قرائنا الدهشة والعجب متسائلين ما عسى أن يكون غرضه من تخريب معظم المدينة. وعندنا أنه كان ينوي أن يعيد بناء المدينة ويقيمها على مقياس أكثر فخامة من ذي قبل ويدعوها باسمه، ولهذه الغاية حاول محوها بأوفر سرعة وبأشد الوسائل تدميرًا. ولكنه بذلك فقد ثقة الشعب فيه ومحبتهم له، ولم يستطع أن يمحو ما لصق به من تلك التهمة الشنيعة من جهة إحراق المدينة. وإذ خابت آماله في استرضاء عواطف

الشعب والآلهة عمد إلى تدبير ينقل به التهمة عن نفسه ويلصقها بآخرين. ولما كان يعلم عداء الأمة من يهود ووثنيين لجماعة المسيحيين أراد أن يلقي على عاتقهم تبعة هذا التعدي، فألصق بهم التهمة وأذاع خبرًا بأنه وقف على حقيقة الفاعلين، وأن المسيحيين هم الذين ارتكبوا هذه الجريمة. وكانت النتيجة أنهم ألقوا القبض على الكثيرين منهم وأتوا بهم للمحاكمة لينالوا القصاص، فيخمد بذلك غيظ الشعب وغضب الثائرين. وهنا نأتي إلى

الاضطهاد الأول تحت حكم القياصرة

نقف هنا لحظة لنتأمل في تقدم المسيحية وحالة الكنيسة في رومية في ذلك الوقت، فإن المسيحية قد دخلت رومية في وقت مبكر، ولم يكن دخولها فيها على يد رسول ما. ولا خلاف بأنها دخلت هناك بواسطة بعض الذين آمنوا بكرازة بطرس في يوم الخمسين، لأننا نقرأ في سفر الأعمال أن كان من بين السامعين «الرومانيون المستوطنون، يهود ودخلاء» (أع٢: ١٠). ويكتب بولس في رسالته إلى كنيسة رومية شاكرًا الله إذ أن إيمانهم «يُنادى به في كل العالم» (رو١: ٨). ثم يقول في تسليماته عن أندرونكوس ويونياس إنهما نسيباه المأسوران معه، وأنهما كانا مشهورين بين الرسل، وقد كانا في المسيح قبله. وقد جرت في ظرف ثلاثين سنة آيات وعجائب الإنجيل، فأصبح من بعدها المسيحيون شعبًا ظاهرًا منفصلاً متميزًا بذاته، إذ كانوا في ذلك الوقت يُعرفون كشعب خاص يمتاز عن اليهود الذين كانوا يبغضونهم بغضًا شديدًا.

أما أتعاب بولس ورفقائه في السنتين اللتين أقامهما في السجن. فقد كانت بلا شك بركة من الرب وواسطة لاهتداء عدد كبير، إذ أن المسيحيين في ذلك الحين لم يكونوا طائفة سرية أو جماعة لا يعتد بهم، بل كانوا يهودًا وأممًا من كافة الطبقات وسائر الدرجات، وكان بينهم من هو من القصر الملكي، كما كان أيضا من هو عبد هارب.

ولم يكن وقوع الاضطهاد عليهم وإلحاق الأذى بهم متسببًا عن تمسكهم بالمسيحية، فقد علمنا الحقيقة ورأينا أن نيرون أسلمهم ليهدئ غضب الشعب الهائج وليصالح آلهتهم المغتاظة.

هذا هو أول اضطهاد حدث للمسيحيين بناء على قرار رسمي، ويتميز عن غيره من بعض الوجوه، إذ قد انفرد من بين الفظائع التي تخلد للإنسان في بطون التاريخ بما أوتي فيه من ضروب الوحشية والتفنن في التعذيب إرضاء لشهوات ذلك السفاح نيرون، الذي يُعد في طليعة الظالمين الذين تربعوا على عرش القياصرة. فإن أتباع الرب يسوع المعروفين باللطف والسلام، والحيدان عن فعل الشر أو طلب الأذى، قد خيطوا في جلود الوحوش البرية وتركوا فريسة للكلاب لتنهش لحومهم، والبعض كانوا يلقون في ملابس ملطخة بمواد قابلة للاشتعال كالشمع والزفت، ووضعت لهم مناخس تحت ذقونهم لبقاء قامتهم منتصبة، حتى إذا أقبل الظلام أضرمت فيهم النيران ليقوموا مقام المصابيح لإنارة المتنزهات العامة التي يؤمها الشعب، حيث اللهو والطرب. وقد تنازل نيرون عن حداثته لهذه الغاية لتسلية الشعب، وكان هو بنفسه يشاركهم في هذه الألعاب، فكنت تراه تارة يسير على قدميه مترجلاً حتى يدخل وسط المتجمهرين، وأخرى يمتع نظره برؤية تلك المناظر وهو متكئ في عربته.

أما الرومانيون، وإن كانوا قد اعتادوا من ذي قبل على رؤية مشاهد القتل والإعدام التي كانت تجري علنًا أمام الجمهور، ومناظر المصارعات الفظيعة، ولكنهم تأثروا وانفعلوا بعواطف الحنو والإشفاق عندما رأوا الشناعة والقسوة عديمتي المثيل، اللتين بهما كان يُعذب المسيحيين. وقد أيقنوا أن هذا التعذيب الذي وقع عليهم لم تكن إرضاء للشعب أو لفائدة عامة، بل كانت إرضاء لشهوة ذلك الرجل القاسي. ومع أن موت المسيحيين كان بأشنع صورة ولكنها لم تكن إلا لحيظة وعبرت، ولا شك أنها كانت لديهم أسعد لحظة في حياتهم. وقبل أن تنطفئ تلك النيران التي كانت تأكل أجساد هؤلاء الشهداء في حديقة نيرون بزمن طويل كانت أرواحهم قد فاضت ودخلت إلى مساكن الراحة العليا هناك في نور فردوس مسرات الله الأبدية. هذا الحق الثمين نتعلمه مما قاله المخلص للص التائب على الصليب «اليوم تكون معي في الفردوس» (لوقا٢٣: ٤٣).

ومع أن المؤرخين لم يجمعوا على الدائرة التي حدث فيها هذا الاضطهاد الشنيع ولا على مدته، ولكننا لا نشك أنه قد بلغ كل أنحاء الإمبراطورية، وقد دام حتى آخر سني هذا الظالم الذي مات منتحرًا شقيًا تعيسًا يائسًا، وكان ذلك سنة ٦٨م، أي بعد أربع سنوات من حريق روما وبعد سنة واحدة من تاريخ استشهاد الرسولين بطرس وبولس. وفي أواخر أيامه أمر المسيحيون بتقديم ذبائح للإمبراطور وللآلهة الوثنية، وكانوا يهددهم بأشد

العقوبات حتى بالموت، ولا بد أن يكون الاضطهاد قد استمر طالما كانت تلك الأوامر نافذة المفعول.

وبعد موت نيرون أوقف الاضطهاد، وتمتع تابعوا الرب يسوع بسلام أفضل من ذي قبل، حتى حكم دومتيانوس الذي كان إمبراطورًا شريرًا، ولكن أخف نوعًا ما من نيرون. وإنما ينبغي لنا الرجوع برهة لنتتبع تتميم الإنذارات الخطيرة التي أنبأ بها السيد المسيح عن:

خراب أورشليم ٧٠م)

إن تشتت اليهود وخراب مدينتهم وهيكلهم خرابًا كاملاً هما الحدثان الهامان اللذين حدثا فيما بقي من القرن الأول، ولو أنهما في الحقيقة لا يُعتبران جزءًا من تاريخ الكنيسة، بل تتعلقان بتاريخ اليهود. ولكن بما أنهما حدثا إتمامًا لنبوة المخلّص إتمامًا حرفيًا، ولما كان لهما من التأثير المباشر على المسيحيين، فقد رأينا وجوب ذكرهما هنا.

إن التلاميذ قبل موت المسيح وقيامته كانوا يهودًا في كل أفكارهم وارتباطاتهم، فكانوا يربطون بين المسيا والهيكل، ويظنون بأنه سيخلّصهم من سلطة الرومانيين، وأن كل النبوات المذكورة في الكتاب عن امتلاكهم الأرض وعن الأسباط ومدينة أورشليم والهيكل قد أصبحت قريبة الإتمام. ولكن إسرائيل قد رفض المسيا نفسه، وبالتبعية رفضوا رجاءهم ومواعيدهم التي كانت فيه. وما أهم وأخطر تلك الكلمات التي يُفتتح بها الأصحاح الربع والعشرين من إنجيل متى «ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل»، فكان الهيكل بعدئذ فارغًا حقيقة في نظر الله، إذ قد أُفرغ من كل ما كان سببًا في جعله ذا قيمة أمامه، حتى أن الرب قال عنه «هوذا بيتكم يُترك لكم خرابًا» (مت٢٣:٣٨). نعم وكان حقًا قد اقترب وقت خرابه.

«فتقدم تلاميذه لكي يروه أبنية الهيكل». ويظهر من هذا أن أفكارهم كانت لا تزال مشغولة بعظمة تلك الأشياء ومجدها الخارجي. «فقال لهم يسوع أما تنظرون جميع هذه. الحق أقول لكم إنه لا يُترك ههنا حجر على حجر لا ينقض» (مت٢٤:٢)، وقد تمت هذه الكلمات حرفيًا بعد أربعين سنة من حين نطق بها الرب، يوم دخلها الرومانيين وأخربوا الهيكل كما سبق الرب وأنبأ بذلك تمامًا. «فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة. ويهدمونك وبنيك فيك، ولا يتركون فيك حجرًا على حجر، لأنك لم تعرفي زمان افتقادك» (لو١٩:٤٣، ٤٤).

بعد أن فشل الرومان وخذلوا مرات عديدة، ولم يتسن لهم أن يخترقوا أسوار المدينة نظرًا لمقاومة اليهود العنيفة حتى كادوا يقنطون، ولم يبق لديهم إلا رجاء قليل من جهة الاستيلاء على المدينة، دعا تيطس رجاله الحربيين ليتشاوروا معًا في الأمر. وقد تناقشوا في ثلاث طرق وهي: إما أن يأخذوا المدينة عنوة، أو أن ينتظروا ريثما يصلحون ما فسد ويعدون العدة وآلات الحرب، أو أن يحاصروا المدينة حتى تستسلم إليهم طائعة مخافة أن تموت جوعًا. وقد استقر الرأي على اتباع هذه الطريقة الأخيرة، وأخذ الجيش بأسره يتأهب للعمل "فأحاطوا بالمدينة وأحدقوا بها بمترسة حولها"، وطال زمن الحصار وتكبدوا صعوبات شتى دامت من الربيع حتى شهر سبتمبر. وفي ذلك الوقت قاسى المحاصرون من ضروب البؤس والشقاء ما لم يكن له مثيل، وأخيرًا انتهى الأمر بان أصبحت المدينة والهيكل في قبضة الرومانيين.

أما تيطس فكان يود بأن لا يمس الهيكل الفخم بأذى، وأراد أن يستبقي آثاره وكنوزه، ولكن رغمًا عن أوامره التي ألقاها على الجنود فإن أحد قادته حمل جنديًا من جنوده على كتفه، وألقى الأخير بشعلة متقدة على أحد الأبواب المغشاة بالذهب، فاشتعل في الحال. وما أن وقع نظر تيطس على هذا المشهد حتى أسرع توًا إلى المكان وأخذ يصيح ويشير إلى الجند ليخمدوا النار، فلم تبلغ صيحاته مسامعهم واختفت إشاراته وسط الاضطراب الشديد. أما هو فقد انبهر من جمال الهيكل وبهائه من الداخل، ولما رأى أن اللهيب لم يصل إلى الأقداس اجتهد للمرة الأخيرة أن يحول دون تدميره فألقى على مسامع الجند النصائح ليتمكنوا من إيقاف تيار الحريق، ولكن نصائحه جاءت متأخرة، فإن السنة النار الملتهبة كانت تتطاير في كل الأركان. وبلغ الاضطراب الحادث من القتال العنيف مبلغه، وتسابق الجميع إلى السلب والنهب. أما تيطس فكان لا يدري أن من هو أعظم منه قد سبق فقال إنه «لا يُترك ههنا حجر على حجر لا ينقض»، فكلمة الرب وليست أوامر تيطس هي التي يجب أن تنفذ وتطاع، فإن الهيكل كله قد هوى من شامخ عزه، وأصبح ما ارتفع منه في مستوى الأرض طبقًا لما تكلم به الرب من قبل.

ونحن مديونون ليوسيفوس المؤرخ اليهودي الذي منه نستقي أخبارنا ومعلوماتنا عن كل حادثة من حوادث هذا الحصار المريع، فقد كان في المعسكر الروماني، وكان من المقربين من تيطس في ذلك الوقت، إذ كان هو واسطة التفاهم أو الترجمان بينه وبين الثائرين.

أما تيطس فكان يشتاق إلى إبرام الصلح مع اليهود، لأن أسوار صهيون كانت منيعة أمام الجيش الروماني، ولكن اليهود رفضوا كل مشروع بشأن عقد الصلح، فدارت عليهم الدائرة وظفر أخيرًا الرومانيون.

ويقول يوسيفوس "إن تيطس عند دخوله المدينة اندهش من عظمتها"، وعندما تأمل في موقع الحصون وعظمة الأحجار ومتانة بنائها، وسعة عرضها وسمو علوها الشاهق، قال متعجبًا "حقًا إن الله كان معنا وقت القتال، وأنه هو الذي دفع اليهود لأيدينا وهم في هذه الحصون. إذ كيف يمكن لقوة بشرية وآلات أن تقوى على هدم هذه الحصون".

هذه هي كلمات ذلك القائد الواثق واعترافه. ولا جدال في أنه كان أشد حصار رعبًا دُوِّن على سجلات التاريخ.

أما التفاصيل التي كتبها يوسيفوس عما حل باليهود من الذل والمشقة مدة هذا الحصار فلا يمكننا أن ننقلها إلى صفحاتنا، فقد أحصى عدد الذين هلكوا في عهد فاسبسيان في المملكة والذين قتلوا في عهد تيطس في المدينة ما بين سنة ٦٧، ٧٠م بسبب القحط والفتن الداخلية والسيف الروماني بنحو مليون وثلاثمائة وخمسين ألف وأربعمائة وستين، عدا مائة ألف بيعوا كعبيد أرقاء (٢/١٩). هذه بالأسف كانت النتائج المحزنة التي نجمت عن عدم إيمانهم وعدم قبول مسيحهم، ورفضهم توسلاته إليهم التي كانت مملوءة بالوداعة والمحبة. فهل نتعجب إذا رأينا الفادي يذرف الدموع ويبكي على تلك المدينة المغرورة؟ وهل نستغرب إذا رأينا عبرات المبشرين والخدّام تسيل عندما يدعون الخطاة المساكين المغرورين وينذرونهم بالهرب من الدينونة الأبدية القادمة عليهم؟ كلا أيها القارئ العزيز، بل إننا نتعجب كل العجب عندما نرى الدموع قليلة على أولئك الخطاة الهالكين عديمي المبالاة بأمر خلاصهم. ومَن لنا بقلب رقيق المشاعر مثل قلب ذلك المخلِّص، وعيون تبكي كما بكى هو على الخطاة!

أما المسيحيون الذين هم موضوع كلامنا فقد تذكروا إنذار الرب لهم وتركوا أورشليم جميعًا قبل البدء في الحصار، وسافروا إلى قرية تقع وراء الأردن تسمى "بلا"، وأقاموا هناك حتى أذن لهم هدريان بالرجوع إلى أطلال مدينتهم القديمة الخربة. وبهذه يكون القرن الأول للمسيحية قد أتى إلى نهايته.

وإبان حكم فاسباسيان المعتدل وابنه تيطس تزايد عدد المسيحيين بصورة ملحوظة. ونحن لا نعتمد على أي مرجع لهذه الفترة في القول بأن المسيحيين فيه وجدوا راحة ونجاحًا، وإنما على ما تلاها من أحداث وظروف نستعرضها فيما يلي:

حكم دومتيان القاسي

دومتيان هو الأخ الأصغر لتيطس، وقد ارتقى كرسي المملكة سنة ٨١ ميلادية، وهو يختلف في طباعه وأخلاقه اختلافًا كليًا عن أبيه وأخيه، اللذين أباحا للمسيحيين ممارسة عبادتهم، أما هو فقد اضطهدهم. وكان جبانًا كثير الظنون وشديد القسوة، إذ أثار اضطهادًا ضد المسيحيين لأنه تصور أن الإنسان الذي وُلد في اليهودية من نسل داود سيملك - كما صورت له مخاوفه وأوهامه - على ممالك العالم. وفضلاً عن ذلك فإن أصحاب الحسب أو النسب من الرومانيين الذين اعتنقوا المسيحية لم ينج واحد منهم من صواعق سخطه ومظالم حكمه، فبعضهم قُتل شهيد تمسكه بالحق الإلهي، والبعض الآخر نُفي لينفَّذ فيه حكم الإعدام في منفاه، حتى ابنة أخته "دوميتلا" وابن عمه "فلافيوس كليمنس" زوجها وقعا فريسة قسوته لاعتناقهما المسيحية. ومع كل هذه الاضطهادات كانت المسيحية تنمو ببركة الله وقوته، ليس بين الطبقات الوسطى والدنيا فقط، بل بين الطبقات العليا أيضًا، رغمًا عن الجيوش والأباطرة، متحدية النار والسيف، اللذين كانا مشهرين ضدها.

وقد قال يوسبيوس - وهو أول من كتب عن تاريخ الكنيسة - إن دومتيان بعد أن أظهر قسوة ووحشية ضد الكثيرين من المسيحيين بذبحه ظلمًا عددًا ليس بقليل من أشراف ومشاهير رجال رومية، ونفيه بدون سبب العدد العظيم من الأعيان ومصادرة أملاكهم، مثّل دور نيرون الظالم ببغضه وعداوته لله، واتبع خطته في تأليه نفسه، وأصدر أمرًا قضى بوجوب السجود لتمثاله كإله، وأعاد إلى الوجود قانون الخيانة، ونفذ أحكامه الصارمة بكل شدة وقسوة مرعبة. ولا بد

للقارئ أن يدرك من ذلك مدى الاضطهاد الذي وقع على المسيحيين في هذه الظروف، التي كان فيها الجواسيس والمخبرون مندسين في كل مكان لاغتيالهم والإيقاع بهم(١٩/٢٠).

ولكن قد اقتربت أخيرًا نهاية هذا الطاغية المُغتر الأحمق، وذلك لأنه كان معتادًا أن يحرر من وقت لآخر كشفًا بأسماء الأشخاص الذين عقد النية على قتلهم، وكان شديد الحرص على ألا يطّلع أحد على هذا الكشف ويحافظ عليه بنفسه، وكان من عادته ملاطفة هؤلاء الأشخاص والتودد إليهم لدرجة يأمنون فيها جانبه ولا تخامرهم مظنة سوء من جهته. ويوماً وضع دومتيان الظالم هذه القائمة تحت وسادة في غرفة نومه وسها عنها، فدخل أحد أطفاله إلى الغرفة، وبينما هو يلعب عثر على هذه القائمة فسلمها لوالدته الملكة وكان اندهاشها عظيمًا لدى اطلاعها على اسمها وأسماء كثيرين من أخص المقربين إليه ممن أعدهم للموت الشنيع. فأسرعت وأبلغت أولئك الأشخاص واقعة الحال وما يتهددهم من الخطر المحقق. وبالرغم من الاحتياطات الكثيرة التي اتخذها ذلك الغر الجاهل والشرير العاتي للمحافظة على حياته تمكن اثنان من ضباط حرسه من اغتياله.

حكم نرفا القصير الأجل والجزيل السلام

في نفس اليوم الذي لقي فيه دومتيان حتفه اختار مجلس الأعيان نرفا إمبراطورًا، وتوّجوه ملكا في اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر سنة ٩٦م. وقد اشتهر بالاستقامة والطيبة. وتمتعت الكنيسة بنعمة السلام، ونمت وزهت واستراحت أثناء حكم هذا الإمبراطور العادل، الذي سمح للمسيحيين الذين نفاهم دومتيان بالرجوع إلى أوطانهم وديارهم، وردّ لهم أملاكهم المغصوبة ومقتنياتهم المسلوبة. وفي أيام حكمه رجع يوحنا الرسول من منفاه في جزيرة بطمس ومارس خدمته في كنائس آسيا، واستمر على قيد الحياة حتى بلغ من العمر زهاء المائة سنه أيام حكم تراجان، ورقد بشيبة صالحة في الرب يسوع المسيح على رجاء القيامة.

بدأ نرفا حكمه بإنصاف المظلومين، وألغى القوانين الجائرة، وسن عوضًا عنها مراسيم عادلة، ومنح هبات كثيرة بسخاء عظيم لمستحقيها. وبالنسبة لما لمسه في نفسه من ضعف قواه البدنية وعدم استطاعته القيام بأعباء ومهام الإمبراطورية الواسعة الأطراف اختار تراجان ليكون زميلاً له ووارثًا للملك من بعده، ومات في سنة ٩٨ ميلادية.

حالة المسيحيين أثناء حكم تراجان(٩٨-١١٧م)

كان تاريخ الكنيسة من الوجهة الخارجية وأحوال المسيحيين في كل مكان وعلى وجه عام يتوقف على شخصية من يتولى زمام الأحكام في الإمبراطورية الرومانية. ولهذا يحسن بنا أن نذكر على سبيل الإيجاز بعض الملاحظات الخاصة بنزعات الأمير الحاكم ورغائبه التي كانت سائدة عليه في وقته. فتراجان كان إمبراطورًا ذا شهرة عظيمة، ربما لم يفُقه في الشهرة أحد ممن جلس على عرش القياصرة. ويقال إن المملكة الرومانية أيامه امتد سلطانها واتسع نطاقها وبلغت أقصى ما وصلت إليه بفضل انتصاراته الكثيرة. وقد شعر سكان البلاد المجاورة لها في أيام هذا الإمبراطور بصولة المملكة الرومانية وشدة مراسها لدرجة أدخلت الرعب إلى قلوبهم وبكيفية لم يسبقه أحد إليها من قبل. فهو من هذه الوجهة كان قائدًا عظيمًا وحاكمًا حربيًا. وبسبب ما أوتيه من سعة العقل ورجحانه كان حاكمًا مقتدرًا، ونجحت وتقدمت رومية في أيامه. وأما من جهة تاريخ الكنيسة فإن أحواله لم تكن ملائمة بالكلية، لأنه صادق على إيقاع الأذى بالمسيحيين ووافق على اضطهادهم، ويقول البعض إنه فكر في محو اسمهم من الوجود. وهذه صحيفة سوداء شوهت جمال تاريخ تراجان.

ولكن المسيحية رغماً عن مناهضة الأباطرة الرومان لها وتعقبهم وتعذيبهم وإذلالهم لجميع المتمسكين بها، والزج بهم في أعماق السجون الرومانية والتنكيل بهم بالرغم عن هذا كله استمرت المسيحية في تنمو في صمت وثبات، وتتقدم بصورة أدهشت العالم. فلم يمض سبعون عامًا على موت المسيح - له المجد - إلا وكانت قد انتشرت انتشارًا سريعًا عظيمًا، حتى صارت في بعض الأماكن مصدر تهديد لعبادة الأوثان، فهُجرت فيها هياكل الأصنام وأُهملت عبادة الآلهة الكاذبة، وانحسرت عادة الذبح للأوثان. وبالطبع هذا أحدث ضجة شعبية ضد المسيحية كالتي ثارت في أفسس، حين قام «ديمتريوس، صائغ صانع هياكل فضة لأرطاميس، كان يكسب الصناع مكسبًا ليس بقليل. فجمعهم والفعلة في مثل ذلك العمل وقال: أيها الرجال أنتم تعلمون أن سعتنا إنما هي من هذه الصناعة، وأنتم تنظرون وتسمعون أنه ليس من أفسس فقط، بل من جميع آسيا

تقريبًا استمال وأزاغ بولس هذا جمعًا كثيرًا، قائلاً إن التي تُصنع بالأيادي ليست آلهة. فليس نصيبنا هذا وحده في خطر من أن يحصل في إهانة، بل أيضًا هيكل أرطاميس الإلهة العظيمة أن يُحسب لاشيء، وأن سوف تهدم عظمتها، هي التي يعبدها جميع آسيا والمسكونة. فلما سمعوا امتلأوا غضبًا وطفقوا يصرخون قائلين: عظيمة هي أرطاميس الأفسسيين. فامتلأت المدينة كلها اضطرابًا» (أع١٩: ٢٤-٢٩). وقد رفع كثيرون ممن كانت معيشتهم تتوقف على صناعة الهياكل الوثنية شكاوى مُرة ضد المسيحيين أمام الحكام والولاة، وبالأخص في الأقاليم الآسيوية التي انتشرت فيها المسيحية أكثر من غيرها.

وحوالي سنة ١١٠م أُحضر كثيرون من المسيحيين أمام محكمة بليني الأصغر حاكم بيثينية وبنتس. ونظرًا لسعة صدر بليني وحكمته وإخلاصه وإنسانيته أجهد نفسه لمعرفة مبادئ المسيحيين وممارساتهم، وعندما وجد أن كثيرين منهم نُفذ فيهم حكم الموت بغير ذنب جنوه أو جريمة اقترفوها ارتبك جدًا واحتار في أمره، لأنه لم يسبق له أن اشترك في مثل هذه المظالم، ولم تكن هناك قوانين نافذة المفعول تقضي بذلك، لأن الأوامر التي أصدرها نيرون ألغاها مجلس الأعيان، والتي أصدرها دومتيان ألغاها خلفه الإمبراطور نرفا. ولهذه الأسباب كتب بليني إلى مولاه الإمبراطور تراجان يستشيره في الأمر. وتعتبر الخطابات التي تبادلاها بينهما بهذا الخصوص من أثمن ما دُوّن في تاريخ الكنيسة في ذلك العهد، وتستحق أن يُفسح لها مجال واسع في هذه الخلاصة لولا ضيق المقام، ولهذا نكتفي بسرد جزء صغير من رسالة بليني الشهيرة، ونركز على الجزء المتعلق بأخلاقيات المسيحيين وانتشار المسيحية، مع جزء من رد تراجان عليه.

من بليني إلى الإمبراطور تراجان

ليدُم سيدي في صحة وعافية... وبعد. حيث أنني معتاد أن أستشير جلالتكم في الأمور التي يخامرني فيها الشك والارتياب، لأنه ليس لي من يرشدني إلى طريق الصواب في الأحكام التي أتردد فيها خلافكم، ولا من يهذب عقلي عند كبوته غيركم. ولما لم يسعدني الحظ مرة قبل حضوري إلى هذا الإقليم بالوجود في المجالس التي كانت تحقق فيها التهم الموجة ضد المسيحيين، لذا تجدني يا مولاي في حيرة وتردد من جهة الخطة الواجب اتباعها في التحقيق، والعقوبة الواجب توقيعها .... وعلي أية حال أذكر لجلالتكم الطريقة التي اتبعتها في محاكمة هؤلاء المسيحيين بمجرد أن قُدِّموا إليّ: كنت أسألهم أولاً عما إذا كانوا مسيحيين؟ فإذا أجابوا بالإيجاب كنت أعيد عليهم السؤال مرة ومرتين وثلاث، مهدّدًا إياهم بالإعدام فيما إذا أصروا على المجاهرة باعتقادهم. وفي حالة عدم إذعانهم واستمرارهم على التمسك بديانتهم المسيحية كنت آمر بإعدامهم .... وقد وُزعت نشرة بلا توقيع تحتوي على أسماء كثيرين ممن أنكروا أنهم كانوا مسيحيين وانصاعوا لأمري وعبدوا الآلهة وسجدوا لتمثال جلالتكم، وقدموا تقدمات من البخور والخمر، وفوق ذلك جاهروا باحتقارهم للمسيح واستعدادهم لصب اللعنات عليه، إلى غير ذلك من الأمور التي لا يجرؤ على عملها أحد من المسيحيين الحقيقيين كما تحققت، ولذلك رأيت من العدل أن أطلق سراحهم .... والجرم وكل الجرم المنسوب للمسيحيين ينحصر في أنهم اعتادوا أن يجتمعوا في يوم معين قبل شروق الشمس، وأن يرنموا فيما بينهم بتسابيح وأغاني لمسيحهم كإله، ثم يأخذون على أنفسهم أشد المواثيق ويتعهدون بالابتعاد عن الرذائل والدنايا، وعدم ارتكاب جريمة السرقة والسلب والنهب أو الزنا أو الكذب، أو عدم الوفاء بالوعد أو عدم رد الوديعة لصاحبها بمجرد طلبها. وبعد أداء هذه الفرائض كانوا يفترقون على أن يجتمعوا مرة أخرى حول مائدة لا ضرر فيها، ويتناولون منها بالاشتراك معًا بدون تشويش. ولكن هذه الفريضة الأخيرة أوقف إقامتها من وقت أن أصدرت أمري بعدم التجمهر عملاً بإشارة جلالتكم.

وبعد هذه الإجراءات رأيت أنه من الواجب فحص المسائل التي من هذا القبيل فحصاً أوسع، وبواسطة إجراءات التعذيب اتضح لي من حالة امرأتين يقال عنهما إنهما شماستان أن لا شيء عليهما، وأنهما بريئتان من كل ما نسب إليهما. وكل ما يمكن مؤاخذتهما عليه تصديقهما لخرافات غبية غير معقولة. ولذا أوقفت كافة الإجراءات القضائية الخاصة بهذه المسائل، ولم أر بابًا أطرقه سوى الالتجاء إلى جلالتكم للاسترشاد بنصيحتكم، لأن المتهمين كثيرو العدد جدًا لدرجة تستدعي الحصول على مشورتكم الرشيدة، لا سيما وقد قُدمت بلاغات ضد أشخاص كثيرين من كلا الجنسين ومن كل طبقة وسن. ولا بد وأن نتلقى بلاغات باتهام كثيرين غيرهم، إذ أن عدوى هذه الخزعبلات لم تتفش في المدن فقط بل تعدتها إلى البلاد الصغيرة

والقرى الحقيرة. ومع ذلك أرى من المتيسر إيقاف تيار هذه الخرافات وإصلاح ما أفسدته الديانة المسيحية. ومن المحقق أن العباد الذين هجروا الهياكل قبلاً قد عادوا وبدأوا يترددون عليها. والاحتفالات المقدسة التي اختفت فترة من الزمن عادت إلى الانتعاش، ويجري تقديم الأضحية في كل مكان بعد أن أوقف مشتراها زمنًا. ومن ذلك ترون جلالتكم أنه من السهل كما أعتقد إرجاع عدد غفير من المسيحيين بمجرد صدور عفو عن الذين يتوبون منهم."

من الإمبراطور تراجان إلى بليني

"قد أحسنت صنعًا أيها العزيز بليني. أصبت كبد الحقيقة في تحرياتك التي أجريتها بخصوص المسيحيين. وفي الواقع لا يمكن وضع قاعدة عامة يسري مفعولها على جميع الحالات لاختلاف الظروف في كل منها. وأرى أن لا تتعقبوا هؤلاء الناس وتقتفوا آثارهم، ولكن إن قُدمت إليك شكوى في حق أحدهم وبعد ذلك اقتنعت بمذنوبيته احكم عليه بالإعدام ونفذه فيه عاجلاً، إلا إذا ترك مسيحيته وبرهن على إخلاصه في توبته بسجوده لآلهتنا، فمثل هذا الشخص اعف عنه مهما كانت درجة تعصبه في الماضي. والبلاغات التي تقدم بغير إمضاء وكذلك النشرات الخالية من التوقيعات لا تهتم بها واضرب بها عرض الحائط، لأنه من الخطر التعويل على ما جاء فيها، ولا يليق بمبادئ عصرنا الراقي الأخذ بما هو مسطر فيها."

ولا بد وأن تُنهض هذه الشهادة الصريحة الحقة الواضحة في هذين الخطابين ذهن المسيحي الحقيقي في عصرنا الحاضر، وتقوده للاهتمام والتأمل فيما يجب عليه كمسيحي. وقد خاطب الرسول بطرس في رسالته الأولى آباء هؤلاء الشهداء القديسين، وربما البعض ممن تمتعوا بخدمة الرسول بطرس أثناء وجوده بينهم بالجسد كانوا لا يزالون على قيد الحياة أثناء حكم تراجان. لهذا سبق الروح القدس وشجعهم بواسطة الرسول بطرس وعلمهم أن يكونوا مستعدين دائماً لمجاوبة كل من يسألهم عن سبب الرجاء الذي فيهم بوداعة وخوف (١بط٣:١٥)، ولو كان حاكمًا رومانيًا. وكأن رسالة بطرس الرسول الأولى بأكملها قد كُتبت خصيصًا لتشديد هؤلاء المسيحيين الأفاضل، الذين لم يرتكبوا وزرًا وبالرغم عن ذلك عاملهم بليني بظلم وأساء إليهم بغير مقتض «فإذ قد تألم المسيح لأجلنا بالجسد تسلحوا أنتم أيضًا بهذه النية» (١بط٤:١). ويصور الرسول بطرس في رسالته جماعة الرب أهل الإيمان كمسافرين في برية قاحلة، والله كالحاكم الأعلى مهيمن على الجميع، مؤمنين وغير مؤمنين «لأن عيني الرب على الأبرار وأذنيه إلى طلبتهم. ولكن وجه الرب ضد فاعلي الشر» (١بط٣:١٢).

السبب الحقيقي للاضطهاد

بتأملنا في الخطابات وما قد دُون فيها من الشهادات، مع الوضع في الاعتبار مركز تراجان وبليني كرجال سياسة وثنين، لا بد أن نتساءل ماذا كان يا ترى السبب الحقيقي في الاضطهاد؟

ومع أن أشخاصًا كثيرين يقيمون أسبابًا مختلفة، وتنتحل الحكومات أعذارًا متنوعة في اضطهاد المسيحيين، غير أننا نعتقد أن السبب الحقيقي هو عداوة القلب للمسيح ولحِقه الذي يظهره أتباعه وشعبه في العيشة التقوية. وزِد على ذلك أن نورهم يُظهر ما حولهم من الظلام، ويكشف ويوبِّخ مناقضات المدعين الكذبة وعيشة الشر. وعليه فالعدو ينتهز هذه الفرصة، ويحرك المشاعر القاسية في أصحاب السلطان حتى يطفئوا النور بالاضطهاد، وتعذيب من يحملون ذلك النور. لأن «من يعمل السيئات يبغض النور» (يو٣:٢٠).

هذا هو اختبار جميع المسيحيين في كل العصور، سواء في أوقات السلام أم في أوقات الاضطراب، فلا مناص من الاضطهاد إما سرًا أو جهرًا إن كنا نسلك بحسب الروح ونتبع حق المسيح. وكما قال الرسول العظيم في كلماته الأخيرة «جميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهَدون» (٢تي٣: ١٢).

فهذه الحقائق الإلهية المعطاة لتعليم وإرشاد الكنيسة في جميع الأجيال بانت جليًا في حوادث بليني مع المسيحيين في بيثينية. وقد تكلم جميع المؤرخين عن بليني كرجل الفضائل، وكانت له ثروة طائلة، وقد ذاع صيته بين المحسنين. ولذا يتبادر إلى ذهننا هذا السؤال: لماذا كان مثل هذا يضطهد المسيحيين مع أنه رجل سياسي معتدل؟ نجد جوابًا على هذا السؤال في خطابه، فلا سبب غير إيمانهم بالمسيح، إذ قد برهن له الأصدقاء والأعداء أن المسيحيين لم ينتهكوا قط حرمة قانون الآداب أو الاجتماع أو التشريع، ولذا كان يسألهم أكثر من مرة "هل أنتم مسيحيون؟" فإذا أجابوه بالإيجاب حكم عليهم بالموت. ولم يجد ما يبرر ظلمه كحاكم غير هذه العبارة "المسيحيون مُصرّون على التمسك بديانة لا تقرها قوانين الإمبراطورية".

وكم كانت هذه فرصة لكثيرين لإرسال شكاوى بلا اسم لاتهام أعدائهم بأنهم مسيحيين وهم لم يكونوا كذلك، فكانوا يطالبون بإنكار الإيمان وتقديم محرقات للآلهة والسجود لصورة الإمبراطور وترك المسيح. فكل من سار على هذا نجا، أما كل مسيحي حقيقي فكان يحكم عليه بالموت، إذ هو لا يستطيع أن يفعل شيئًا من هذه الأمور كما شهد بليني. وقد عذب امرأتين عرف أنهما خادمتان للكنيسة. غير أن كل هذه الأساليب لم تجعل المسيحيين يخرجون عن التزامهم أو تدفعهم لمقاومة أعدائهم، حتى أن الحاكم لم يجد ما ينسبه إليهم غير ما أسماه "خرافات غبية".

وكان أن كأس ذنوب بليني قد امتلأ بما أجراه ضد المسيحيين، مع أنه كان مقتنعاً ببراءتهم وعدم ارتكابهم أي عصيان. بخلاف صديقه تاسيتوس، الذي كان يحمل نفسه ضدهم لمجرد ما يسمعه من الإشاعات، فكان يكتب ضدهم بكيفية غير منطقية ويشنع بهم. أما بليني فكان يعتبره واجبًا عليه أن يفحص الأمور بدقة قبل إصدار حكمه. وربما يتساءل أحد: كيف يتفق لمثل هذا الشخص الذي كان يريد أن يحكم بلا محاباة أن يضطهد شعبًا بريئًا حتى الموت؟ وسؤال كهذا يقودنا إلى

الأسباب الظاهرية للاضطهاد

كان الرومان يدَّعون أنهم يسمحون بكل الأديان طالما لا تهدد نظام الدولة أو حقوق الآخرين، وكانوا يفتخرون بهذا، حتى أنهم كانوا يسمحون لليهود أن يعيشوا حسب شرائعهم. ولذا يخطر ببالنا هذا السؤال: ماذا كان يدعوهم لمعاملة المسيحيين بهذه القسوة؟ هل لأنه كان في وجودهم ما يهدد نظام الدولة؟ وما هو الضرر من وراء حياة أولئك الذين كانوا بلا لوم، الذين لم تكن لهم تعاليم غير الحق السماوي الصافي، وعقيدتهم كانت تؤول إلى سلامة الناس من الوجهة الاجتماعية والفردية؟

ومع التأمل في السؤال من وجهيه نرى أن الأمور الآتية تعتبر من الأسباب الواجب سردها كأسباب للاضطهاد:

١- المسيحية بخلاف كافة الأديان التي سبقتها هي دعوة عامة. أما اليهودية مثلاً فهي ديانة خاصة موضوعة لأمة بعينها. فكانت المسيحية على هذا القياس ديانة للعالم أجمع، وهذا كان شيئًا جديدًا في نظر الناس، لأن أمر السيد لتلاميذه «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (مر١٦: ١٥) فكان عليهم أن يذهبوا وأن يحاربوا الشر في أي صورة وفي جميع الأحوال، وكان عليهم أن يخضعوا القلب للمسيح «إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية بل قادرة بالله على هدم حصون، هادمين ظنونًا وكل علو يرتفع ضد معرفة الله، ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح» (٢كو١٠: ٤، ٥). ومن ثم لم ينتظر التلاميذ من حرب كهذه ضد التقاليد الموجودة والعادات الوثنية الفاسدة غير الاضطهاد والمقاومة والآلام.

٢- الديانة الوثنية، التي أخذت المسيحية تسحب البساط من تحت أقدامها. كانت هي دين الحكومة، فكانت جزءًا من نسيج النظام المدني والاجتماعي، حتى أن مهاجمتها كانت تعتبر بمثابة الدخول في خصومة مع السلطة المدنية والأوضاع الاجتماعية، وهذا ما حدث تمامًا. ولو كانت الكنيسة الأولى كحالتها الآن، متساهلة مع الأنظمة العالمية، لنجا التلاميذ من كثير من الاضطهادات. غير أن مثل هذا التساهل لم يكن موجودًا، فالإنجيل الذي كانوا يبشرون به، ونقاء التعاليم والعيشة التي اتبعوها هزت جميع الأساسات القديمة التي كانت ترتكز عليها ديانة الحكومة.

٣- كان على المسيحيين بالطبيعة أن ينفصلوا عن الوثنية ليصيروا شعبًا خاصًا متميزًا. لذلك لم يكن ممكنًا إلا أن يدينوا ويوبخوا تعدد الآلهة، الأمر الذي يناقض حقيقة وحدانية الله ويخالف إنجيل ابنه يسوع المسيح. وهذا جعل الرومان ينظرون إلى المسيحيين كأعداء العالم والبشرية، إذ هم يحكمون ببطلان كل الأديان ما عدا عقيدتهم. ولذا اعتبروهم ملحدين، لأنهم لم يؤمنوا بألوهية الأوثان واحتقروا عبادة الأصنام.

٤- اتسمت العبادة المسيحية بالبساطة والوداعة، فكانوا يجتمعون في هدوء قبل شروق الشمس أو بعد غروبها تجنبًا لإثارة غيرهم، وكانوا يرنمون للمسيح ولله، ويكسرون خبزًا تذكارًا لمحبته حتى الموت عنهم. كانوا يبنون أحدهم الآخر، ويتعاهدون معًا على العيشة المقدسة. لم تكن لهم هياكل ولا تماثيل، ولا نظام كهنوتي ولا ذبائح يقدمونها. وصار

هذا التباين بين العبادة المسيحية وغيرها من الديانات الموجودة في الإمبراطورية واضحًا، حتى أن الوثنيين بجهلهم استنتجوا أنه لا دين للمسيحيين، وأن اجتماعاتهم السرية كانت لأغراض سيئة. وكما كان العالم يقول آنذاك لا يزال يقول إن الذين يعبدون الله بالروح والحق لا دين لهم مطلقًا. فالعبادة المسيحية بالبساطة وبلا هياكل ولا كهنة، بلا طقوس ولا مراسيم، ما زالت أمرًا غامضًا في نظر العالم الآن كما كانت في أيام الإمبراطورية الرومانية. ولكن مع كل ذلك لا يزال الحق واضحًا وصريحًا «الله روح، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو ٤: ٢٤).

٥- لقد أثر انتشار المسيحية على الفوائد المادية التي كان يجتنيها الكثيرون، وهذا كان سببًا قويًا وشديدًا في اضطهاد المسيحيين. فكم كان الكثيرون من الكهنة وصانعي التماثيل وبائعيها والعرافون والصناع يجتنون من الفوائد من وراء العبادات الوثنية لآلهة كثيرة مصنوعة بالأيادي. جميع أولئك إذ وجدوا أن صناعتهم في خطر تألبوا وقاموا قومة رجل واحد في وجه المسيحيين، وطالبوا بمنع انتشار المسيحية بكل الطرق، واحتالوا وتذرعوا بكل وسيلة، حتى نسبوا جميع المصائب إلى المسيحية. والكهنة الماكرون والعرافون المخادعون أقنعوا الأشرار والجمهور بأن كل المصائب والحروب والعواصف والأمراض التي أصابت البشرية راجعة إلى غضب الآلهة لانتشار المسيحية(٢١/١)، (٢٢).

ويمكن لنا أن نذكر أشياء كثيرة أخرى، غير أن هذه هي أهم الأسباب التي كانت تؤدي يوميًا إلى اضطهاد المسيحيين أفرادًا وجماعات. ولا شك أن التأمل البسيط في هذه الأسباب يقنع القارئ بصحتها، غير أن الإيمان يستطيع أن يرى أن الرب يتكلم من خلالها جميعها «هاأنذا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب... سيسلمونكم إلى مجالس وفي مجامعهم يجلدونكم. وتساقون أمام ولاة وملوك من أجلي شهادة لهم وللأمم... لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض. ما جئت لألقي سلاما بل سيفًا» (مت ١٠: ١٦-١٨، ٣٤).

وقد قلنا الكثير عن المقاومة التي اعترضت الكنيسة، ولذا يجدر بنا التأمل في الأسباب الحقيقية في:

سرعة تقدم المسيحية

بلا شك كانت هذه الأسباب إلهية، فروح الله الذي نزل بقوة يوم الخمسين واتخذ مسكنه في الكنيسة وفي المسيحيين أفرادًا، هو الأساس الحقيقي لكل نجاح في الكرازة بالإنجيل وتغيير في النفوس، والشهادة ضد الشر «لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي قال رب الجنود» (زك ٤: ٦). كما أن الرب يقول لتلاميذه «دُفع إليَّ كل سلطان... وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ١٨-٢٠). على أن غرضنا في هذه العجالة التأمل في الأسباب التاريخية وليس الأسباب التي مرجعها إلى الإيمان فقط.

١- من أكبر العوامل التي ساعدت على انتشار المسيحية بسرعة ملاءمتها التامة لكل إنسان في كل الأجيال، في كل مكان وفي كل حال، فهي تُخاطب الجميع كهالكين، وتفرض أن الجميع يعوزهم شيء واحد. فهي توافق اليهودي والأممي، الملك والرعية، الكاهن والشعب، الغني والفقير، الشاب والشيخ، المتعلم والجاهل، المؤدب والفاجر، فهي ديانة الله للقلب معلنة لنا سلطان الله وصفاته ليس إلا. فهي تعلن عن نفسها أنها «قوة الله للخلاص لكل من يؤمن»، فهي تقدِّم القوة القادرة لرفع الإنسان من أحط مستوى إلى أعلى قمة في المجد الأبدي. ومن يستطيع أن يقدِّر تأثير إعلان بشارة كهذه للوثنيين الذين يعيشون في الظلام رغمًا عن المقاومات، فكم من ألوف - بل ملايين - من النفوس المتعَبة من الديانات العديمة الجدوى لبّت صوت البشارة السماوية واجتمعت إلى اسم يسوع، وقبلوا سلب أموالهم بفرح، وصاروا مستعدين لأن يتألموا من أجل اسمه. فالمحبة حلّت في الديانة الجديدة موضع البغضاء في الديانة القديمة.

٢- تقديس وحفظ المسيحية لكل العلاقات الأرضية حسب غرض الله، كان من الأسباب التي جعلت الوثنيون يقبلون الإنجيل، فهي تحرض الجميع أن يبقوا في هذه العلاقات ويمجِّدوا الله فيها. فبركات المسيحية للأزواج والأطفال والعبيد لا يمكن سردها لكثرتها، حتى اندهش الوثنيون من محبة المسيحيين وسعادتهم وراحتهم، وصارت شيئًا جديدًا في نظرهم. وكل ذلك كان يسير سيرًا طبيعيًا بنظام. وقد

وصف أحد المسيحيين الذين عاشوا في أوائل القرن الثاني حياة معاصريه فقال: "المسيحيون ليسوا منفصلين عن الآخرين في مساكنهم الأرضية، ولا يختلفون عنهم في لغاتهم ولا عوائدهم. فهم لا يسكنون منفصلين في مدن لهم دون غيرهم، ولا يتكلمون بلغة مختلفة، ولا يغيرون شيئًا في صيغة الحياة، بل يعيشون في مدن اليونانيين أو في بلاد البرابرة كما قسم الله لكل واحد منهم. ومع أنهم يتفقون مع أهل البلاد في الملبس والمأكل والأشياء الظاهرية، لكنهم يسلكون سلوكًا ساميًا عجيبًا يدهش الجميع"[١/٢٣].

٣- حياة المسيحيين غير الملومة ونقاء تعاليمهم الإلهية، وصبرهم، ومقابلتهم الآلام بفرح ولو كان الموت ذاته، وتعففهم عن المطامع العالمية، وشجاعتهم بالإيمان في الحياة على اختلاف ظروفها - كل هذه كانت أسبابًا رئيسية في انتشار المسيحية كما قال ترتيليان "مَن ينظر هذه الأمور ولا يتساءل عن السبب؟ ومن لا يعتنق المسيحية عند معرفة السبب؟ ومن لا يريد أن يتألم في سبيل المسيحية إذا اعتنقها؟".

فهذه الأسباب الهامة القليلة تساعد القارئ على معرفة كيف أن اليد التي كانت تعمل على تعطيل نمو المسيحية ساعدت على انتشارها وتقدم الإنجيل، ولا شيء يلذ لفكر المسيحي أكثر من مطالعة هذا العمل العظيم المجيد، لان خدام الرب كانوا غالبًا بلا اعتبار، فقراء بلا أصدقاء ولا عضد بشري، ومع ذلك أقنعوا، في وقت قصير، جانبًا عظيمًا من العالم بترك دين أسلافهم واعتناق دين جديد، مخالف لميولهم الطبيعية وملذات العالم والعادات الراسخة منذ أجيال. ومن ثم مَن يستطيع أن يفحص القوة الداخلية إزاء مثل هذه العوامل الخارجية؟ حقًا لا قوة غير قوة الروح القدس، روح الله الذي لبسوه من الأعالي، الذي كان يرافق بقوة كلمات أولئك المبشرين الأولين. ولا جدال أن قوة تأثيرهم على الأذهان كانت قوة إلهية، أحدثت تغييرًا تامًا، فوُلدوا ثانية وخُلقوا جديدًا في المسيح يسوع. وفي أقل من مائة سنة من يوم الخمسين انتشرت البشارة في جميع أنحاء العالم، لا سيما مقاطعات الإمبراطورية الرومانية التي انتشرت فيها بسرعة. وفي مختصر تاريخ الرسول بولس الذي سبق أن أوردنا جدولاً تاريخيًا لإرسالياته تتبعنا تأسيس كثير من الكنائس، واقتفينا آثار انتشار الحق في أصقاع كثيرة، وفي المدن الكبيرة الهامة كأنطاكيا في سوريا وأفسس في آسيا وكورنثوس في اليونان، ورأينا انتشار وتأسيس المسيحية ببركاتها الوافرة بين البلاد والقرى المجاورة.

ونفهم من الآثار القديمة أن علاقة هذه البلاد بسوريا وآسيا واليونان كانت كعلاقة قرطاجنة بأفريقيا، فإن سكابولا رئيس قرطاجنة لما أراد أن يهدد المسيحيين بإجراءات قاسية وحشية أرسل إليه ترتيليان يقول: "تأمل فيما أنت فاعله بأولئك الألوف من الرجال والنساء على اختلاف أعمارهم ودرجاتهم، الذين يقدمون أنفسهم للموت طوعًا واختيارًا. ماذا تفعل لهم تلك السيوف والنيران؟ وتفكر فيما ستعانيه قرطاجنة نفسها حينما يجد كل واحد جاره وقريبه يقتل، ومنهم رجال ربما يكونون مثلك في الرتبة والمقام، بل منهم من أبرز رجالك، ومنهم أصدقاء وأقرباء لأقرب المقربين إليك. فأرجو أن تخلي سبيلهم إن لم يكن لأجلنا فلأجل نفسك"[٢٢].

لنرجع الآن إلى سياق الحوادث بالتتابع وهذا سيأتي بنا إلى

استشهاد إغناطيوس

لا توجد حادثة في تاريخ الكنيسة الأول محفوظة حفظًا مقدسًا كاستشهاد إغناطيوس أسقف أنطاكية، ولا توجد واقعة أشهر من رحلته كسجين من أنطاكية إلى رومية.

وقد اتفق رأي المؤرخين على أن تراجان، أثناء حملته إلى الحرب البارثيانية في سنة ١٠٧م، أتى إلى أنطاكية. ومن الصعب أن نجزم في سبب تهديد المسيحيين بالاضطهاد في ذلك الوقت، ولكننا نعزي السبب إلى أوامره التي أصدرها أثناء زيارته المذكورة.

وبما أن إغناطيوس كان المسئول في كنيسة أنطاكية، فقد رغب في المثول أمام الإمبراطور تراجان. وكان جل غرضه أن يمنع الاضطهاد الذي يهدد المسيحيين إن أمكن. ولكي يصل إلى هذه الغاية وضح بالبينات القوية للإمبراطور أخلاق المسيحيين وأحوالهم، وقدّم نفسه ليضحي عوضًا عنهم.

وقد دون كثيرون من كتاب تاريخ الكنيسة تفصيلات تلك المقابلة المشهورة، ولكنها تفصيلات غير موثوق بصحتها، ولذا نرى من الأفضل تركها الآن مكتفين بذكر النتيجة الختامية لهذه المقابلة، وهي قضاء الإمبراطور على إغناطيوس بأن يُحمل إلى رومية ويُطرح

للوحوش المفترسة للترفيه عن الشعب. فقابل إغناطيوس هذا الحكم القاسي بالارتياح التام، وبكل سرور قدّم نفسه للقيود والأغلال، موقنًا أن ذلك ما تقتضيه أمانته للرب، وليكون ككبش فداء لأجل قديسيه. وهكذا عُهد أمر إغناطيوس إلى عشرة من الجنود القساة الذين لم يحترموا شيخوخته وعاملوه بكل فظاعة وتوحش.

ومع أنه كان أسقفًا في كنيسة أنطاكية مدة أربعين سنة، وقد بلغ من الكبر حده، ولكنهم أجبروه بكل عنف وسرعة على سفرة طويلة متعبة بَرًا وبحرًا، وذلك لكي يصلوا إلى رومية قبل انتهاء المهرجان.

وفعلاً وصل إليها في اليوم الأخير من عيد الرومانيين، وحُمل توًا إلى الملهى حيث نُفذ فيه الحكم وافترسته الوحوش أمام أعين الألوف المحتشدة من المتفرجين. وبهذه الطريقة استراح ذلك السائح المتعَب إذ دخل إلى راحة فردوس الله بعد عناء سفره الطويل.

وماذا يا ترى كان القصد من حكم الإمبراطور على إغناطيوس بتلك الرحلة الطويلة من أنطاكية إلى رومية ليُعدم هناك؟ المرجح أنه لا يوجد سبب إلا رغبته في إيقاع الرعب والخوف في قلوب باقي المسيحيين، وبالأخص عندما يرون شخصًا ظاهرًا ومعروفًا بهذا المقدار يُقاد في السلاسل والأغلال إلى ميتة شنيعة مريعة محتقرة.

ولكن إن كانت هذه هي نوايا الإمبراطور ومقاصد قلبه فقد خاب ظنه، وجاءت النتيجة عكس ما كان ينتظر تمامًا، لأن خبر الحكم على إغناطيوس والطريق المزمع أن يسافر فيه قد ذاع وانتشر انتشارًا عظيمًا، حتى أن وفودًا من الكنائس المحيطة أتت لمقابلته في كل بلدة ونقطة وصل إليها، وذلك لكي يحيوه ويشجعوه. وهكذا تمتع هذا القديس بالتهنئات الحارة الصادرة من قلوب إخوته الأحباء، الذين تمتعوا هم أيضًا برؤية شخصه المحبوب، وقد تزودوا منه بالبركات الروحية قبل مفارقته لهم. وهذا مما شجع القديسين حتى يحتملوا - إن لم نقل يشتاقوا إلى - ميتة الاستشهاد التي يعقبها إكليل البر البهي. وكان بوليكارب أسقف سميرنا واحدًا من ضمن الذين قابلوه، وقد قصد هو أيضًا أن يموت شهيد الإنجيل، وقد كانا كلاهما قبلاً تلميذين ليوحنا الرسول. وعلاوة على هذه المقابلات الشخصية النافعة والمجيدة يُقال أنه كتب سبع رسائل بخصوص هذه الرحلة، وقد حُفظت هذه الرسائل بعناية الله إلى يومنا الحاضر، وقد أفادت القديسين في كل جيل.

كتابات الآباء والوحي المقدس

وإن كان إغناطيوس كرجل الله الممتلئ من الروح القدس مستحق لكل إكرام واحترام لائقين بشهيد المسيح، إلا أنه لا يجب أن يغرب عن أذهاننا أن رسائله ليست هي كلمة الله. قد نتعلم منها، ولكن لا نبني عليها إيماننا، الذي ينبغي أن لا يستند على التقليد غير الثابت، بل على كلمة الله التي هي الأساس الراسخ. وما أجمل ما قاله أحدهم بهذا الصدد "إن كلمة الله تقف متفردة في منزلة خاصة لا يشاركها فيها شيء آخر، فهي تتميز عن كل ما عداها بجلالها، في سمو لا تدانيه كتابات الآباء، حتى الذين كانوا معاصرين أو تالين مباشرة للرسل، الذين تركوا لنا أقوالاً لإنذارنا أكثر من كونها لبنياننا". والكتّاب المسيحيون الأول يستحقون بلا شك كل اعتبار واحترام، وتعتبر كتاباتهم كشيء أثري جميل، لأنهم عاصروا الرسل وتمتعوا بامتياز سماع تعاليمهم، وقد شاركوهم في أتعاب الإنجيل وتكلموا معهم بكل حرية من وقت إلى آخر، وقد تكلم الرسول بولس عن إكليمندس (المدعو بالأب الرسولي) كشريكه العامل الذي كُتب اسمه في سفر الحياة. أيضًا ما قاله عن تيموثاوس يصح أن ينطبق ولو جزئيا على الكثيرين «وأما أنت فقد تبعت تعليمي وسيرتي وقصدي وإيماني وأناتي ومحبتي وصبري واضطهاداتي وآلامي» (٢تى٣: ١٠، ١١).

فمن هؤلاء الذين امتازوا بهذه الامتيازات الغالية كنا ننتظر بطبيعة الحال تعاليم صحيحة، هي ترديد للحقائق والتعاليم التي نادى بها الرسل أنفسهم. فإغناطيوس من أوائل الآباء الأقدمين، وقد كان أسقفًا في أنطاكية عاصمة سوريا حوالي سنة ٧٠م، كما كان تلميذًا للرسول يوحنا، وعاش بعده أيضًا ما يقرب من سبع سنوات، ولذا كنا ننتظر من شخص كهذا تعليمًا مطابقًا تمامًا لتعاليم الرسل، ولكن بالأسف فقد جاء الأمر خلاف المنتظر، وذلك يتضح لنا من تطبيق كتاباته على أقوال الوحي، أقوال الحكمة السماوية الدقيقة المتقنة، التي تصل النفس والقلب بالله لأنها آتية من الله رأسًا. فكلمة الله هي وحدها المرساة المؤتمنة والثابتة للنفس «أما أنتم فما سمعتموه من البدء فليثبت إذًا فيكم. إن ثبت فيكم ما سمعتموه من البدء فأنتم أيضا تثبتون في الابن وفي الآب» (١يو٢: ٢٤). وواضح أن هذا التعبير يشير بنوع خاص إلى شخص المسيح، وبالتالي إلى كتابات العهد الجديد، التي فيها أيضًا يُستعلن

لنا الآب في الابن بواسطة الروح القدس. وفي رسائل بولس الرسول تتكشف لنا أكثر مشورات الله من نحو الكنيسة وإسرائيل والأمم. لذا فإننا لسنا بحاجة لأن نرجع إلى كتابات الآباء بحثًا عن أساس صحيح للإيمان، بل إلى ما سمعناه «من البدء» فهذا فقط ما يحفظنا «في الابن وفي الآب».

وقد تشكك البعض في صحة مصدر الرسائل المنسوبة إلى إغناطيوس، بينما افترض البعض الآخر أنه قد حدث الكثير من التحريف فيها لصالح أغراض خاصة. ولكن ليس مجالنا في هذا المختصر أن نثبت عدم صحة ذلك[٢٣].

• • •

نرجع الآن إلى تاريخنا من موت تراجان عام ١١٧م لنلقي نظرة سريعة على أحوال الكنيسة خلال:

حكم هدريان والأنطونيين (١١٧-١٨٠م)

مع أنه قد لا يكون من الإنصاف أن نصنف هدريان والأنطونيين الأوائل كمضطهدين رسميين للكنيسة، إلا أن المسيحيين تعرضوا في ذلك العهد لأشد الآلام وقاسوا من أنواع التعذيب ألوانًا حتى الموت، فقد سرت عدوى إيعاز كل المصائب العامة إلى غضب الآلهة بسبب الإهانة التي ألحقتها بهم، فكان هذا يدفع الرومانيين إلى طلب سفك دماء المسيحيين الأبرياء إرضاء للآلهة الناقمة عليهم على حد زعمهم. وقد خضع الحكام المحليين لتلك العادة، وبكل أسف لم يُبالِ الأباطرة بذلك، فاشتد اضطهاد المسيحيين وسرت هذه الروح الخبيثة من الصناع إلى مجموع الشعب، إلى أن وصلت إلى السلطات العليا التي كانت أكبر مشجع على الاضطهاد. ففي عصر الإمبراطور الأنطوني الثاني مرقس أورليوس ازدادت روح الاضطهاد حدة، وأُلغيت الحماية القانونية الهشة التي مُنحت للمسيحيين، والتي تمثلت في القرارات المبهمة التي صدرت أبان حكم تراجان وهدريان وأنطونينوس، وأطلقت السلطة العنان لجموح الوثنيين. وإنه لأمر مثير للعجب لدارسي تاريخ المسيحية أن يحدث هذا تحت حكم أمير اشتهر في التاريخ بدماثة أخلاقه وشخصيته المعتدلة، وكان معدودًا ضمن فلاسفة العالم.

كان السلام النسبي خلال الستين عامًا التي سبقت قد فتح المجال أمام الدعوة للإنجيل، فشهدت تلك السنين تقدمًا سريعًا في مجالات شتى، وازداد عدد الاجتماعات المسيحية، وقوي تأثيرها، وتوافرت لها الإمكانيات المادية في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية. وكثيرون من الأغنياء الذين امتلأوا بالمحبة الإلهية كانوا يوزعون أملاكهم على الفقراء، ولم يقتصروا على ذلك بل جالوا في الأقاليم التي لم تصل لها بشارة الإنجيل وألقوا بذار الكلمة المقدسة فيها. وكلما أتموا مأموريتهم في موضع انتقلوا إلى غيره. وبذلك اتسع نطاق العمل جدًا لدرجة أذهلت ماركوس أورليوس، وجعلته ينظر إلى المسيحية كقوة تفوق إدراكه، وأن فلسفته الوثنية ليست ذات تأثير يُذكر بجانب سلطان المسيحية الحق الذي استولى على قلوب الكثيرين. ولهذا امتلأ قلبه حقدًا وغيظًا، وأخذ يشجع السلطات في الأقاليم على سحق روح التعصب المسيحي على حد زعمه الباطل. غير أن إنجيل النعمة كان أرفع من أن تصل إليه قوة أورليوس، ولم يكن لسيفه ولا لبطش وحوشه تأثير يمنع من امتداده وسرعة انتشاره. ولذا رغمًا من الاضطهادات المريعة التي سمح بها أورليوس كانت المسيحية تنتشر وتنمو في جميع أنحاء العالم المعروف حينذاك.

• • •

وصلنا الآن إلى نقطة يحسن الوقوف عندها قليلاً للتأمل فيما يحيط بنا، فهناك شيء أعمق مما تستطيع عين المؤرخ العادي أن تراه، وهو بدء دور جديد في معاملات الله نحو الكنائس، لأننا نعتقد أننا قد أتينا الآن إلى

ختام الدور الأول للكنيسة وبدء الثاني

فدور الكنيسة الأول (دور أفسس المشار إليه في الخطاب الأول من الخطابات إلى السبع الكنائس الواردة في سفر الرؤيا). يمكن أن يقال إنه انتهى بموت أنطونيوس كابيوس سنة ١٦١م، وبدأ دور سميرنا ببداية حكم مرقس أورليوس. وقد بدأ الاضطهاد في آسيا بعنف شديد في سنة ١٦٧م بموجب مراسيم جديدة من هذا الإمبراطور. وقد عانت سميرنا بالذات الكثير من الألم، وفي ذلك الوقت استشهد بوليكارب أسقف سميرنا الفاضل الموقر. ولكي نثبت وجهة نظرنا هذه نرى من الضروري إلقاء نظرة سريعة على الخطابين إلى كنيستي أفسس وسميرنا.

الخطاب إلى كنيسة أفسس

غير خاف أن الغرض الرئيسي من وجود الكنيسة على الأرض هو أن تكون عمود الحق وقاعدته، وقد شبهت بالمنارة الذهبية لتحمل النور. ولذا فمن اللازم أن تشهد الكنيسة لما أظهره الله في المسيح على الأرض، وتبين صفاته أثناء وجوده في السماء. ومن الخطاب المذكور نتعلم أن الكنيسة كآنية للشهادة في العالم مهددة بأن تزاح من مكانها إذ لم ترجع إلى حالتها الأولى. ولا يغيب عن بالنا أنها معرضة لإظهار الضعف في الشهادة كما هو الحال في جميع الخلائق، فالملائكة الذين سقطوا، وآدم، ثم إسرائيل، ثم الكنيسة، الكل لم يحفظوا حالتهم الأولى. والرب يقول «لكن عندي عليك أنك تركت محبتك الأولى، فاذكر من أين سقطت وتُب واعمل الأعمال الأولى، وإلا فإني آتيك عن قريب وأزحزح منارتك من مكانها إن لم تتُب» (رؤ ٢: ٤،٥).

غير أن هذا لا يمس ما استحقته الكنيسة من المدح، وقد أظهرت أمورا كثيرة جديرة بالثناء. فكجماعة كان لهم صبر وتعب بلا كلل، ولم يحتملوا الأشرار سيما أولئك الذين كانوا يرغبون في أن يكون لهم المركز الأول والكلمة النافذة في وسط الجماعة «وليسوا رسلاً». ولكن مع كل هذا شعر الرب بانتقالهم عن شخصه المبارك كالمركز، إذ تركوا محبتهم الأولى. ومن العبارة «تركت محبتك الأولى» ندرك أن حالة الكنيسة قد وصلت إلى حالة الفشل واليأس، فقد فقدت لذتها بمحبته لها، وبالتالي ضعفت محبتهم له. إن محبتنا الأولى هي الثمرة المباركة لتأملنا وإدراكنا لمقدار محبة الله لنا. وكما قال أحد الأفاضل: "يمكن أن تستمر الشهادة الخارجية، وهذا وإن يكن له قيمة في نظر الله، لكنه ليس أثمن أمامه من المحبة الأولى. لأن الله يقدّر فوق كل شيء القلوب المكرسة تمامًا له كثمرة محبته الكاملة. ولذا يشتاق دائمًا أن يرى عروسه مشغولة بشخصه المبارك وحده، محافظة على عفتها وطهارتها، غير مشتبكة بالعالم وأموره، بعيدة عن كل دنس، لأن الله قد دعانا لنكون عروسًا لابنه وليس للخلاص والشهادة الحسنة له فقط، مع أن هذا هام وحقيقي. وهذا ما نحتاج إليه ليكون المسيح أمامنا هو الأول والآخر، وليكون على الدوام أعز محبوب لدينا، وبه وحده تنشغل قلوبنا إذ أنه خطبنا لنفسه. فكم ينبغي أن تكون محبتنا له إزاء ذلك!!"[٢٤]

أدت حالة الكنيسة في أفسس، وفي الكنيسة بوجه عام إلى تداخل الرب بالتأديب حسب أمانته وعدله، لأن الكنيسة التي بذر بذورها الرسول بولس قد تزحزحت من مكانها، وطلب الجميع ما هو لأنفسهم وليس ما هو ليسوع المسيح، كما قال بولس «جميع الذين في آسيا ارتدوا عني». ولذا سمح الرب بالضيق الذي تكلم عنه في الخطاب إلى سميرنا. إنه بار يحكم على الشر، مع أنه مملوء بالنعمة والمحبة في كل معاملاته نحو الكنيسة. ولذا لا نراه في هذه الخطابات يظهر نفسه كالرأس في السماء للجسد الواحد، ولا كعريس الكنيسة، بل كالديان الذي يتمشى في وسط المناير، الذي يقضي بعدل، كما هو واضح في الأصحاح الأول.

وليلاحظ القارئ التحول الكبير في أسلوب خطاب الرب، فهو هنا يأخذ مركزه في وسط المناير السبع الذهبية، فيوجه خطابه إلى «ملاك كنيسة أفسس» وليس إلى «القديسين الذين في أفسس والمؤمنين (أي الأمناء) في المسيح يسوع» (أف ١: ١) كما في رسالة بولس إليهم.

وقد وقع جدل كثير حول ماذا يكون المقصود بملاك الكنيسة، ونحن نعتقد أنه كان بالفعل شخصًا كان له ارتباط أدبي بالكنيسة، حتى أنه كان يمثلها ويميز حالتها. والرب يخاطب ملاك الكنيسة وليس الكنيسة مباشرة، لذا فملاك الكنيسة يمثلها، مثلما نقرأ في العهد القديم عن «ملاك الرب»، و«ملاك العهد»، ثم في العهد الجديد تسمع عن ملائكة الأطفال، وفي أعمال ١٢ قالوا عن بطرس «إنه ملاكه».

الخطاب إلى كنيسة سميرنا

تزداد لذتنا بدراسة تاريخ الكنيسة عندما نرى أن الرب قد ميز بوضوح أدوارها المتعاقبة، فنرى في الخطاب إلى كنيسة أفسس حالة الكنيسة، من الوجهة الخارجية، إلى موت الإمبراطور الأنطوني الأول، كما هي مفصّلة في كتب التاريخ الموثوق بها. فكانت هناك مثابرة وغيرة ظاهرتين بدون كلل، وكانت هناك طهارة وشجاعة وتفان، حتى أنه لم يكن لديها ما يؤخرها عن أن تتألم بأي كيفية من أجل الرب. وفي الوقت نفسه يظهر لنا من الوحي والتاريخ بأنه قد دبت فيها التعاليم الكاذبة. وقد أظهر كثيرون غيرة، لكنها ليست حسنة، إذ كان غرضهم الظهور في الكنيسة، لدرجة أن إنكار الذات والمشغولية بالمسيح ومجده وغير ذلك من ثمار النعمة لم يبقَ لها أثر. وهكذا وصلنا تاريخيًا إلى الدور السمرني، ولكي لا نكلف القارئ مشقة

الرجوع إلى الفصل سنذكر الخطاب بنصه.

«واكتب إلى ملاك كنيسة سميرنا: هذا يقوله الأول والآخر، الذي كان ميتًا فعاش. أنا أعرف أعمالك وضيقتك وفقرك - مع أنك غني - وتجديف القائلين إنهم يهود وليسوا يهودًا بل هم مجمع الشيطان. لا تخف البتة مما أنت عتيد أن تتألم به، هوذا إبليس مزمع أن يلقي بعضًا منكم في السجن لكي تُجرَّبوا، ويكون لكم ضيق عشرة أيام. كُن أمينًا إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة. من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس. من يغلب فلا يؤذيه الموت الثاني» (رؤ٢: ٨-١١).

ومن هنا نرى أن الرب لم يجد علاجًا لانحطاط كهذا غير التأديبات المُرة. فلم تكن وسائل ألين من هذه لتؤدي إلى الغرض المطلوب. وحالة كهذه هي عيّنة لأحوال كثيرة تعودنا أن نراها. ومع أنهم ربما افتكروا كأنهم أصابهم أمر غريب، غير أن كل آلامهم كانت معلومة للرب مرتَّبة بيمينه وتحت رقابته «سيكون لكم ضيق عشرة أيام» فحتى مدة الآلام معينة بالضبط والدقة. وهو يخاطبهم كمن قد عرف أعماق الضيق بنفسه «هذا يقوله الأول والآخر الذي كان ميتًا فعاش» فهو الذي اجتاز أهوال الموت واحتمل أشد الآلام وأعمقها إذ قد مات لأجلهم، وهو الآن حي. فأمامهم هذا الشخص المبارك ليلجأوا إليه في زمن تجاربهم. وبينما هو ينظر إليهم ويسير معهم نراه يقول «كن أمينًا إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة». كأننا بهذا نراه ماسكًا بيمينه إكليل الشهادة وعلى أهبة أن يكلل به رأس المنتصر الأمين.

وسنرجع الآن إلى تاريخنا لنلاحظ المشابهة بينه وبين الرسالة المطروحة أمامنا.

الفترة الثانية من تاريخ الكنيسة (من حوالي ١٦٧م)

اتسمت مدة حكم أورليوس بالكوارث المتنوعة وبالاضطهادات القاسية التي كانت مرتبة بعناية الله، إذ نرى يد الرب بمحبة صادقة تؤدب مختاريه وشعبه المحبوب، وفي الوقت نفسه نرى غضبه مشتعلاً ضد أعدائهم. فالجيش الشرقي تحت قيادة فيرس قد جلب معه أثناء رجوعه من الحرب البارثينية إلى رومية أوبئة كانت متفشية في آسيا في ذلك الحين، فانتشرت بسرعة في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية، تاركة في أثرها الموت والخراب. زد على ذلك فيضان نهر التيبر الذي كسح جزءًا عظيمًا من المدينة وأتلف مقادير كبيرة من محاصيل الحقول والحبوب التي كانت موجودة في المخازن العمومية. وقد أعقب هذه المصائب بطبيعة الحال مجاعة أهلكت عددًا عظيمًا. فحوادث كهذه كانت سببًا في ازدياد العداوة الوثنية ضد المسيحيين، إذ قد نسبوا كل المصائب إلى غضب الآلهة التي كان يظن أنها تهيجت لانتشار الديانة الجديدة. ولذا بلغ الاضطهاد ضد المسيحيين في الإمبراطورية الرومانية أشده، فكان نداء عام "ألقِ المسيحيين للأسود" يتصاعد من الشعب إلى الولاة، فارتعب أمام صوت الشعب كل حاكم ضعيف مستعبد للخزعبلات، فكان يخضع نفسه لهم ليستخدموه كيفما أرادوا. وسنتقدم الآن إلى رؤية أوضح، مسترشدين بسجلات التاريخ المختلفة الموجودة أمامنا، إلى وصف الحالة أثناء هذا الاضطهاد وكيفية تصرف المسيحيين إزاءه في ذلك الوقت العصيب.

الاضطهاد في آسيا (سنة ١٦٧م)

شبت نيران الاضطهاد بشدة لم يسبق لها مثيل في آسيا الصغرى، حيث كان يُعتبر اعتناق المسيحية جريمة ضد الدولة. وهذا بلا شك قد غيّر مظهر كل شيء. فالمسيحيون كانوا معتَبرين كمجرمين اعتياديين، خلافًا لرأي تراجان ومعاملة الأباطرة الألين عريكة كهدريان والأنطونيين. فكانوا يطردون من دورهم بغلظة وقسوة إرضاء للشعب، ويعرَّضون لأقسى الآلام والتعذيب. فإذا ثبتوا على إيمانهم ورفضوا أن يذبحوا للآلهة لم يكن أمامهم سوى المحاكمة والإدانة. ولم تكن هناك آلات للتعذيب غير صور الموت الوحشية القاسية التي اجتازوا فيها، خاصة الأمناء للرب في كل مكان، كطرحهم للوحوش الضارية، وصلبهم والتنكيل بهم. وقد حركت صور الوحشية هذه ميليتو أسقف ساردس الموقر، فمثل أمام الإمبراطور كالمحامي عن المسيحيين. ولا شك أن دفاعه قد أنار الظلام الذي كان مخيمًا على أفكار الولاة في ذلك العصر وكشف لهم الحقائق المسيحية.

وهذا نص دفاعه:

"إن جماعة الساجدين لله في هذه المملكة يُضطهدون بموجب أوامر استثنائية اضطهادًا لم يعهدوا مثله من قبل ذلك. وإن بعضًا من المتملقين الأدنياء، الذين لا خجل عندهم ولا حياء، وقد ملكوا

مقصدهم بمثل هذه الأوامر، يتذرعون بها لنهب وسلب المسيحيين الأبرياء الذين يقعون ضحية لهم نهارًا وليلاً. ولو كان هذا العمل يجري بناء على أمرك لحسبناه حقًا وعدلاً، لأن إمبراطورًا عادلاً مثلك لا يُنتظر منه أن يتخذ إجراءات ظلم كهذه. ومع أننا نرحب بكل سرور بنصيبنا من هذا الموت الشريف، إلا أننا نود أن نرفع إليك هذا الطلب لنحيطك علمًا بأولئك الناس الذين يثيرون حقد الشعب على المسيحيين، لتحكم بغير محاباة بما إذا كانوا يستحقون العقاب والموت، أو النجاة والسلام. أما إذا كانت هذه الأوامر قد صدرت منك، مع أنها لا تصدر حتى ضد ألد أعدائك من البرابرة، فإننا نرجوك عظيم الرجاء ألا تتركنا فريسة لمثل هذا النهب العلني"[٢٥].

ولعلنا لا نجد ما يحملنا على الاعتقاد بأن هذا الالتماس أتى بأي فائدة لإنقاذ للمسيحيين. وقد حار المؤرخون في بيان صفات أوريليوس وتصرفاته، فقد كان فيلسوفًا من الفلاسفة الستويكسيين وكان بحسب طبيعته لطيف المعشر رقيق العواطف، محسنًا غيورًا، له بساطة الأطفال في طباعه، ويعزو بعضهم ذلك إلى تأثير تربية والدته له. ومع ذلك ظل يضطهد المسيحيين بإفراط مدة تناهز العشرين عامًا. ومما زادهم حيرة وقوع الاضطهاد في آسيا، لأن الوالي هناك لم يكن شخصيًا يكره المسيحيين، لكنه رضخ لحنق العامة ولأوامر الإمبراطور. على أن الإيمان لا يقف نظره عند حد الحكام والأباطرة والشعب. بل يتعداهم فيشاهد من ورائهم رئيس سلطان الظلمة مستخدمًا هؤلاء الناس الأشرار كآلات لتنفيذ مقاصده. كما يرى الرب يسوع فوق الجميع «أنا أعرف أعمالك وضيقتك... لا تخف البتة مما أنت عتيد أن تتألم به... كن أمينًا إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة... من يغلب فلا يؤذيه الموت الثاني».

إن أوريليوس، رغمًا عن كل فلسفته، لم يكن يعرف شيئًا بالمرة عن حلاوة وقوة ذلك الاسم الذي يستطيع وحده أن يسد ويشبع رغبات القلب البشري، الأمر الذي لم تستطع نظريات الفلسفة وأفكارها أن تفعله. إن المبدأ الأساسي في مذهب الستويكسيين الذي كان هو من أتباعه هو الثقة في الذات، واعتبارها الكل في الكل مما يؤدي إلى الكبرياء والتعظم، ولا يدع مجالاً للتواضع والشعور بالخطية والاحتياج إلى مخلّص، ومن هنا نشأت عداوة قلب الإنسان للإنجيل، وكلما زاد تمسكًا بمبادئه كلما ازداد حنقًا على المسيحية.

وفي الخطاب الدوري الذي أرسلته كنيسة سميرنا إلى الكنائس المسيحية الأخرى نرى بيانًا مفصلاً عن آلام من كانوا أمناء إلى الموت. جاء في هذا الخطاب "لقد أثبتوا وحققوا لنا جميعًا أنهم في وسط تلك الآلام كانوا غائبين عن الجسد، أو بالحري أن الرب كان واقفًا معهم ومتمشيًا في وسطهم. وإذ ألقوا رجاءهم على نعمة المسيح استهانوا بتعذيب العالم لهم". إلا أن جماعة اندفعوا بحماس شديد واثقين بأنفسهم، وتقدموا إلى القضاء وأعلنوا مسيحيتهم. وما لبثوا أن رجعوا وقدموا بخورًا للآلهة عندما ألح عليهم القاضي وعمل على إرهابهم وأراهم الوحوش الضارية. وقد أشارت الكنيسة إليهم في خطابها بقولها "إننا لا نمدح أولئك الذين اندفعوا إلى الأمام في ميدان الشهادة معتدّين بذواتهم معتمدين على قوتهم، الأمر الذي لا تعلمنا به الكتب المقدسة". وليس هناك شيء يستطيع أن يقوي النفس على احتمال أشد أنواع العذاب وأفظع أهوال الموت بهدوء ورباطة جأش سوى الشعور بحضور الرب، وهذا هو الشيء الذي جعل آلافًا من المسيحيين يحتملون بوداعة وارتياح وسرور أقصى ما استطاعت قوات الظلمة فعله معهم، مما بعث في قلوب الوثنيين الذين كانوا واقفين ينظرون إليهم عاطفة الشفقة والحنان عليهم وهم لا يدرون ما هي علة راحة بالهم ومحبتهم لأعدائهم واستعدادهم للموت.

وقبل أن نختم تاريخ الاضطهاد في آسيا نذكر على الخصوص الشخصين الشهيرين اللذين استشهدا في ذلك الوقت، وأعني بهما جوستين وبوليكارب.

استشهاد جوستين الملقب بالشهيد

ولد جوستين في نيابوليس في سميرنا من أبوين أمميين، ثم درس باعتناء أصول المعتقدات الفلسفية المختلفة إبان شبابه. وإذ لم يجد فيها الشبع الذي كانت تتوق إليه نفسه عمد إلى سماع الإنجيل علّه يجد فيه حاجته، فوجد فيه بنعمة الله راحة تامة لنفسه وسدًا كاملاً لرغبات قلبه. وما لبث أن أصبح مسيحيًا غيورًا وكاتبًا قديرًا يناضل عن المسيحية.

وفي أوائل عهد الإمبراطور أورليوس اشتهر أمر جوستين، حتى وصل خبره إلى الإمبراطور. فأمر بإلقاء القبض عليه مع ستة من رفقائه، وسيقوا جميعًا إلى القضاء. ولما أمرهم القاضي

أن يقدموا ذبائح للآلهة أجابه جوستين: "أي إنسان ذو عقل سليم لا يرضى بأن يترك دينًا صحيحًا ليتبع الفساد والكذب"، فأجابه القاضي: "إن لم تُطع هذا الأمر فلا بد من التنكيل بكم بدون رحمة ولا شفقة". فكان جواب جوستين: "إننا لا نرغب في شيء بإخلاص أكثر من رغبتنا في أن نحتمل أنواع التعذيب لأجل الرب يسوع المسيح"، ووافقه بقية رفقائه على ذلك وقالوا "إننا مسيحيون ولا يمكننا أن نذبح للأوثان". فأصدر القاضي حكمه عليهم، وهذا نصه: "إن الذين رفضوا أن يقدموا ذبائح للآلهة، وأبوا أن يخضعوا لأوامر الإمبراطور يُجلدون أولاً ثم تُقطع رؤوسهم". ففرح الشهداء وباركوا الله. ثم أخذوهم إلى السجن حيث جلدوهم، وبعد ذلك قطعوا رؤوسهم بالسيف. وكان ذلك في روما نحو سنة ١٦٥م. وهكذا رقد في الرب يسوع أحد الآباء الأولين نائلاً ذلك اللقب المجيد لقب "الشهيد" الذي يقترن عادة باسمه. وقد فحص كثيرون كتاباته فوجدوها بمكانة عظيمة من الأهمية.

استشهاد بوليكارب

سلك أسقف سميرنا في استشهاده مسلكًا مسيحيًا جليل الشأن، إذ تأهب واستعد لملاقاة مضطهديه، ولم يندفع بالطيش والاستخفاف وعدم الروية والتبصر في الأمور كما فعل غيره في بعض الأحيان بسبب الانفعالات النفسية. بل إنه عندما سمع الشعب يصرخ طالبًا موته. قصد أن يبقى في المدينة حتى يرى النتيجة التي عيّنها له الله. ولكن الكنيسة ألحت عليه حتى أقنعته بالالتجاء إلى قرية قريبة منه، فذهب إليها وكان يقضي الوقت مع بعض أصدقائه في الصلاة نهارًا وليلاً من أجل جميع الكنائس في أنحاء العالم. على أن مضطهديه ما لبثوا أن علموا مقره، فسعوا إليه. ولما وصله خبر مجيئهم ووصولهم إلى باب البيت الذي كان هو فيه استدعاهم إلى الداخل، وأمر أن يقدم لهم الطعام والشراب، وطلب منهم أن يمهلوه ساعة يقضيها في صلاة هادئة. وإذ كان قلبه مملوءًا فرحًا وسرورًا استمرت الصلاة ساعتين. حتى أن الوثنيين أنفسهم تأثروا جدًا من تعبده وخشوعه ومنظر شيخوخته إذ كان يربو على التسعين عامًا. ولما انتهى من الصلاة حملوه إلى المدينة. ويظهر أن حاكم تلك المدينة لم يكن يحمل أي ضغينة للمسيحيين، فأخذ منه منظر شيخوخة بوليكارب مأخذًا عظيمًا، فسعى جهده أن يخلصه، وطلب منه أن يترك المسيحية ويجدف على المسيح وهو يطلقه، فأجابه الشيخ "ستًا وثمانين سنة خدمته ولم يفعل معي إلا خيرًا، فكيف أجدف عليه وهو ربي ومخلصي؟". ولما وجد الحاكم أنه لا يستهويه الوعد ولا يرهبه الوعيد. أمر أن ينادى جهارًا أن بوليكارب يعترف علنًا بمسيحيته. فلما سمع العامة ذلك حنقوا عليه. وصاحوا بصوت عظيم قائلين "هذا هو معلم الكفر وأبو المسيحيين وعدو آلهتنا، الذي أغوى الكثيرين حتى امتنعوا عن تقديم الذبائح لآلهتنا". وطلبوا من الحاكم أن يأمر بتنفيذ حكم الإعدام عليه حرقًا بالنار، وإذ خضع الحاكم لمطالبهم أسرع اليهود والوثنيين ليحضروا حطبًا لهذا الغرض. وبينما كانوا مزمعين أن يسمروه في عمود من الخشب قبل إضرام النار فيه منعهم عن ذلك قائلاً لهم: "إن الذي يقويني على احتمال شدة النيران المتقدة يقويني أيضًا على أن أثبت في مكاني بجانب العمود بينما النار تلتهمني". وقبل أن يشعلوا فيه النار صلى قائلاً: "أيها الرب الإله القادر على كل شيء، أبو ربنا يسوع المسيح ابنك الحبيب، الذي به قبلنا معرفة ذاتك، يا إله الملائكة وكل الخليقة والجنس البشري والأبرار الذين هم أحياء عندك. أني أحمدك إذ أهلتني لهذا اليوم وهذه الساعة لأكون من بين شهودك، وأشترك معهم في شرب كأس مسيحك". وإذ فرغ من الصلاة أشعلوا فيه النار، فكانت ألسنة اللهب تتقد في جميع أنحاء جسمه. وإذ ظن ذوو الخرافات من الرومانيين أن النار لا تحرقه طعنوه بحربة في جنبه، وهكذا نال بوليكارب إكليل النصرة.

هذه مقتبسات مختصرة من الروايات التي تسلمناها عن استشهاد ذلك الأسقف الجليل الفاضل، ومن يريد التفاصيل فعليه بمطالعة تاريخ الشهداء. وقد بارك الرب كثيرًا على هذا التصرف المسيحي الذي فعله بوليكارب وتلك الآلام التي قاساها لأجل خير الكنيسة، فقد سكنت ثائرة الشعب بعد أن شفى غليله بهذا الانتقام. وكأنه روى ظمأه من الدم المسفوك. ومَلّ هذا الحاكم من رؤية مثل هذه المذابح، فرفض رفضًا باتًا إحضار مسيحيين آخرين لمحاكمتهم قدامه. ويا له من تغيير عجيب فجائي ترى فيه يد الرب ظاهرة ظهورًا جليًا. فمهما كانت ضيقتهم شديدة وأتون الاضطهاد مستعرًا فإن أيام الضيق محدودة، وإذ كملت لم يكن في وسع قوة في الأرض أو في الهاوية أن تزيد عليها ساعة واحدة، ولقد كانوا أمناء إلى الموت فنالوا إكليل الحياة.

الاضطهادات في فرنسا (١٧٧م)

لنتأمل الآن في الاضطهاد الثاني الذي وقع في فرنسا في أيام حكم هذا الإمبراطور، بعد الاضطهاد الذي وقع في آسيا، وربما حصلت اضطهادات أخرى خلال هذه السنوات العشر، ولكن لم يُذكر عنها شيء في السجلات التي يعول عليها حتى سنة ١٧٧م. والمصدر التي نستقي منه تفاصيل هذا الاضطهاد الأخير هو رسالة مرسلة من كنائس ليون وفيينا لكنائس آسيا. ولا يمكننا أن نجزم ما إذا كان الرب في كلامه لكنيسة سميرنا يشير إلى هذه السنين العشر، ولكن إذا قارنا أحداثها بقول الرب في الرسالة: «ويكون لكم ضيق عشرة أيام» يبدو لنا هذا الفكر مقبولاً، لا سيما وأن في مواضع أخرى من سفر الرؤيا المملوء بالأسرار يعبر عن السنة بيوم. ولكن دعنا الآن نتأمل في بعض التفاصيل التي تكون فيها المشابهة أقوى وأكثر وضوحًا.

كان السجن من أكبر وسائل الاضطهاد في فرنسا، وقد مات كثيرون بسبب فساد هواء السجون. ومن هذا الوجه كان الاضطهاد في فرنسا يختلف عنه في آسيا. وقد زاد هياج العامة عما كان في سميرنا نفسها، فكان المسيحيون يهانون ويعاملون أسوأ معاملة في الخارج، ويسلبون حتى وهم في منازلهم. وقد وقع هذا الاضطهاد في غياب الحاكم، فزج بالكثيرين من المسيحيين في السجون إلى أن يعود من غيبته. ومع أن روح الاضطهاد في ذلك الوقت كانت سارية في العامة، لكنها لم تكن قاصرة عليهم، إذ أن الحاكم نفسه لما عاد ظهرت عليه أعراض عدوى تعصب الطبقات السفلى. وقد جلب على نفسه العار والازدراء، إذ أخذ في فحص المسجونين مستعملاً معهم أنواع التعذيب. ولم يكن فقط يقبل شهادة العبيد ضد سادتهم، مخالفًا بذلك أحكام قانون قديم في روما، ولكنه كان يضطرهم إلى ذلك باستعمال منتهى القسوة معهم، وهم لكي ينجوا من السوط وآلات التعذيب كانوا يقولون ويشهدون كما يأمرهم. وإذ شهدوا على المسيحيين أنهم يأتون في اجتماعاتهم أشنع وأفظع الجرائم، انقضوا عليهم بكل أنواع القسوة فلم يشفقوا على شيخ ولم يبالوا بامرأة ولم يعتبروا قرابة ولم يحسبوا لشيء حسابًا.

وكان شاب اسمه فيتوس شريف المولد رفيع القدر عظيم الجود والإحسان، لما سمع أن هذه التهم نسبت إلى إخوته شعر في نفسه أنه محصور بأن يتقدم أمام الحاكم ليشهد ببراءتهم من هذه التهم، وطلب من الحاكم أن يسمع له، فرفض الحاكم طلبه، بل سأله فقط عما إذا كان هو مسيحيًا أيضًا، فأجابه بالإيجاب، فأمر الحاكم بإلقائه في السجن مع الباقين. وبعدئذ نال إكليل الشهادة.

وبوثينوس، ذلك الأسقف الشيخ الذي كان قد جاوز عامه التسعين، والذي يحتمل أن يكون هو الذي أدخل الإنجيل من آسيا إلى ليون لم ينجُ من الوقوع بين مخالب إبليس، ذلك الأسد الزائر الجائل ملتمسًا من يبتلعه، فبالرغم من ضيق التنفس الذي أصيب به بدرجة لم يستطع معها أن يتنفس إلا بكل صعوبة، تحتم القبض عليه وجره مساقًا إلى الموت أمام السلطات المختصة. ولما أتوا به إلى الحاكم سأله: "من هو إله المسيحيين؟"، فأجابه الشيخ بهدوء ولطف إنه لا يستطيع معرفة الإله الحقيقي إلا إذا أظهر روحًا مستقيمة تميل إلى معرفة الحق برغبة صحيحة. فلما سمع ذلك الذين كانوا يحيطون بالمحكمة تسابقوا في إظهار غيظهم وحنقهم على ذلك الأسقف الجليل. وبعد ذلك أمر الحاكم بطرحه في السجن، فساقوه إلى هناك وكانوا يلطمونه ويضربونه كثيرًا، إلى أن جاءوا به إلى السجن، فألقوه فيه مع أخوته الآخرين المتألمين معه. وبعد ذلك بيومين رقد في الرب يسوع وهو بين أذرع أخوته.

وما أعظم التعزية والتشجيع المتضمنين في قول الرب لهؤلاء القديسين المتألمين: «لا تخف البتة مما أنت عتيد أن تتألم به»، لا شك أن هذا الكلام قيل في الأصل لكنيسة سميرنا، ولكن يرجح أن بوثينوس نقله إلى الكنائس الفرنسية في ليون وفينا، وقد جازت تلك الكنائس عمليًا في اختبار ذلك الإنذار النبوي الخطير الوارد في القول «هوذا إبليس مزمع أن يلقي بعضًا منكم في السجن لكي تجرّبوا». فعلموا أن إبليس هو عدوهم الألد ومضطهدهم العظيم، وأن الأباطرة والحكام والعامة ما هم إلا آلات في يده. أما الرب تبارك اسمه فكان مع شعبه المتضايق المتألم العزيز لديه، ولم يقتصر على معونتهم وتعزيتهم في اضطهاداتهم وأحزانهم، بل كان يظهر قوة حضوره في أضعف البشر بطريقة عجيبة وكيفية مباركة، إذ كان المسيحيون يستخفون بكل أنواع المصائب والمحن ويزدرون بآلام التعذيب وأهوال الموت، مما أدهش الجمهور وأثر في المعذِّبين أنفسهم وحَطّ من كبرياء الإمبراطور، إذ لم يسبق لهم أن شاهدوا مثل هذا المنظر الغريب في بابه. وحاروا

فيما يفعلونه مع شعب كهذا يصلي من أجل مضطهديه، ويظهر راحة وطمأنينة وسلامًا في وسط النيران المتقدة والوحوش المفترسة. وحسبنا دليلاً على ذلك أن نورد مثالاً واحدًا جديرًا بالمدح والثناء الآن وفي الأبدية أيضًا، وهو مثال بلاندينا.

كانت جارية تدعى بلاندينا امتازت عن سائر الشهداء بكثرة أنواع التعذيب التي احتملتها. وكانت سيدتها قد استشهدت من قبلها وخشيت عليها أن تخور عزيمتها عند اجتيازها تلك الضيقات الشديدة، ولكنها بنعمة الله ثبتت كالصخر وعانت بصبر وسكون أشد أنواع الآلام. وقد طلب منها معذبوها بإلحاح شديد أن تنكر المسيح وتصرح أن الاجتماعات الخصوصية التي يعقدها المسيحيون هي لأغراض سافلة وأعمال شريرة فيكفوا عن تعذيبها. فكان جوابها لهم "إني مسيحية ولا يوجد شر في اجتماعاتنا نحن معشر المسيحيين". فلم تخشَ الجَلد ولا آلة التعذيب، ولم ترهب الكرسي الحديدي الذي كان محمى بالنار ولا منظر الوحوش الضارية، ذلك لأن نظرها كان مثبتًا في المسيح، وهو قد حفظها قريبة منه روحيًا. ولا شك أن تلك الصفات التي كانت متصفة بها لم تكن مكتسبة من حالتها الاجتماعية، إذ أن مقام الجواري كان أحط مقام في تلك الأزمنة، بل من إيمانها بالرب يسوع المسيح بقوة الروح القدس الساكن فيها. وكانوا يستعرضونها من يوم لآخر أمام الناس كصورة تمثلت فيها أنواع الآلام. وإذ كانت جارية ومن الإناء الأضعف توقع الوثنيين أن يفلحوا في حملها على إنكار المسيح والاعتراف بأن المسيحيين يرتكبون الجرائم المنسوبة إليهم، ولكن مساعيهم ذهبت عبثًا وما كانت تجيبهم إلا بجوابها السابق ذكره. فملّ معذبوها وسئموا من استنباط طرق القسوة المتنوعة إذ كانت ثابتة راسخة، وقد تعجبوا كيف أنها لا تزال على قيد الحياة رغمًا عن توالي وقوع الآلام المريعة عليها، ولكنها كانت تجد في شدة آلامها وفرط توجعها قوة وعونًا في النظر إلى الرب يسوع والشهادة له. ومما جاء عنها في خطاب من كنيسة ليون مكتوب منذ أكثر من ١٨٠٠ سنة ما يأتي:

"إن بلاندينا متحلية بفضيلة الاحتمال والجَلَد العظيم، حتى أن الذين كانوا يوالون تعذيبها من الصباح إلى المساء ضجروا وتعبوا، واعترفوا أخيرًا بعجزهم وفراغ جعبة حيلتهم في اختراع أساليب التعذيب، وأخذتهم الدهشة من بقاء النَفَس يتردد فيها مع أن جسمها كان قد تمزق *".

وقبل أن نختم مشهد آلامها نريد أن نُبدي ملاحظة عن سر قوتها وثباتها العظيمين. لا شك أن الرب كان معضّدًا ومعينًا لها بكيفية عجيبة كشهادة لاسمه وكشهادة لكل الأجيال عن قوة المسيحية وسلطانها على العقل البشري، بالمقابلة مع سائر الديانات الأخرى التي وُجدت على الأرض. ولكن بصفة خاصة كان تواضعها وتقواها من الأسباب الفعالة التي أدت إلى انتصارها على العدو والتمسك بإخلاصها الكامل للمسيح، وقد كانت بذلك متمِّمة خلاصها - نجاتها من صعوبات الطريق - «بخوف ورعدة».

وذات مرة كانت بلاندينا راجعة من المسرح الذي كانوا يعرضونها فيه إلى السجن مع رفقائها المتألمين معها، فأحاط بهم أصدقاؤهم الذين حزنوا لأجلهم. ومن عطفهم عليهم وحبهم لهم أطلقوا عليهم لقب "الشهداء لأجل المسيح"، أما هم فأجابوا في الحال معترضين "إننا لا نحسب أنفسنا أهلاً لهذا الشرف العظيم، لأن سعينا لم يكمل وجهادنا لم ينته. وليس هناك من هو جدير بحق لأن يلقَّب بالشهيد غير ذلك الشاهد الأمين الصادق، البكر من الأموات، ورئيس الحياة. أو على الأكثر قد يستحقه أولئك الذين ختم المسيح على شهادتهم بثباتهم إلى النهاية. أما نحن فلسنا سوى أناس ضعفاء معترفين بالمسيح". ثم توسلوا إلى إخوتهم طالبين منهم بدموع كثيرة أن يصلوا لأجلهم لكي يثبتوا ويكونوا أمناء إلى المنتهى. وهكذا تبدّل ضعفهم قوة، إذ قادهم إلى الاستناد على ذراع القدير. وهذا هو الحال دائمًا معنا سواء كنا في تجارب كبيرة أو صغيرة.

على أن حزنًا آخر كان ينتظرهم في السجن، إذ وجدوا بعضًا من إخوتهم هناك قد فشلوا بسبب الخوف الطبيعي، وأنكروا مسيحيتهم طمعًا في الإفراج عنهم، ولكنهم لم يستفيدوا شيئًا من وراء ذلك، ولم يسمح الشيطان أن يطلق سراحهم بل اتهموا بارتكاب جرائم أخرى، فظلوا في سجنهم. فأخذت بلاندينا والذين معها يصلّون مع هؤلاء الضعفاء لكي ترد نفوسهم ويثبتوا ويتقووا، فسمع الرب صلواتهم حتى أنه حدث لما أُتي بهم مرة أخرى لفحصهم أنهم اعترفوا بإيمانهم بالمسيح، وبذلك قبلوا حكم الموت على أنفسهم

* من يريد الاطلاع على تفاصيل آلام بلاندينا فليطالع تاريخ الكنيسة تأليف ملنر مجلد أول صحيفة ١٩٤.

ونالوا إكليل الشهادة. وكثيرون من الذين يحسبون عند الناس أعلى مقامًا من بلاندينا قد نجوا من مشهد أليم كهذا، ولكن رجالاً على قدر عال عند الله والناس أيضًا شهدوا للرب يسوع بصبر وثبات للنهاية، أمثال فتيوس وبوثينوس وسانكتوس وناتوروس وأتاليوس.

والآن جاء دور بلاندينا، وبلغت يومها الأخير من تجربتها الذي فيه تعاني آخر آلامها وتسكب آخر دموعها. حدث في ذلك اليوم أنهم أرسلوا فأحضروها للفحص الأخير مع شاب يبلغ الخامسة عشر يدعى بونتيكوس، وأمروهما أن يقسما بحياة الآلهة، فرفضا رفضًا باتًا، وكانا هادئين غير متزعزعين. فاستشاط الجمهور غضبًا وغيظًا عليهما بسبب صبرهم العظيم، وأتوا معهما كل أعمال الوحشية. ومع أن بونتيكوس كان يتقوى ويتشدد بواسطة صلوات أخته في المسيح، إلا أنه ما لبث أن أسلم روحه بسرعة من شدة التعذيب، ورقد في الرب يسوع. وبعد ذلك جاء دور بلاندينا الجليلة المباركة كما تلقبها الكنيسة، وقد كانت كالوالدة اللازمة لتعزية وتشجيع أولادها، ولذا رتبت العناية الإلهية أن تبقى آخر الكل. كانت قد أرسلت أولادها قدامها فانضموا إلى جيش الشهداء في السماء وارتاحوا مع يسوع في فردوس الله حيث السلام والهناء، كما يرتاح الجندي المحارب من عناء الحرب بعد طول كفاحه. وها هي مشتاقة أن تلحق بهم، راغبة في الانضمام إليهم. فبعد أن جلدوها أجلسوها على كرسي حديدي محمى بالنار، ثم لفوها في شبكة وألقوا بها أمام ثور أخذ يدفعها بقرنيه هنا وهناك. وأخيرًا تقدم جندي وأخمد حربة في جنبها. لا شك أن روحها كانت قد فاضت قبل أن تطعن بالحربة بزمن، ولكنها بذلك نالت شرف التشبه بسيدها وربها. حقًا ما أبهى وأشد لمعان الإكليل التي ستلبسه بلاندينا الثابتة المتواضعة الصبورة المحتملة وسط الأكاليل العديدة في السماء.

إن الحقد الذي كان يثيره الشيطان في صدور الوثنيين لم يكن قد بلغ أقصاه، فلم يكتفوا بما فعلوه بل قاموا يشعلون نيران الحرب على أجساد القديسين، كأن دماءهم لم تشف لهم غليلهم، فمدوا أيديهم إلى أجسادهم الميتة وأرادوا أن يحولوها رمادًا. فشرعوا يجمعون أجساد الشهداء ويحرقونها بالنار، وبعد ذلك ألقوها في نهر الرين ولم يتركوا ذرة منها مخافة أن تتنجس الأرض بها على حد زعمهم. على أن الحنق مهما أشتد فمصيره إلى الانتهاء، والطبيعة مهما كانت وحشية همجية فلا بد أن تكل وتعيا من سفك الدماء. وهكذا نجا كثيرون من المسيحيين من شر هذا الاضطهاد العظيم.

إننا توسعنا أكثر مما اعتدنا في الكلام عن الاضطهاد الذي حدث في حكم ماركوس أوريليوس، ولكننا نعتقد أن ما ذكرناه هو إتمام للإنذارات النبوية الخطيرة التي قيلت لكنيسة سميرنا، ولنعمة الله التي وعد بها، إذ كان يشدد عزائم المتألمين. ويقول نياندر المؤرخ "إنهم لم يذكروا بالكراهية والبغضاء أقسى وأشد مضطهديهم، بل كانوا يصلون لأجلهم ويطلبون المغفرة لهم، فتركوا بذلك وصية لإخوتهم، لا وصية النزاع والخصام والشحناء، بل وصية السلام والفرح والمحبة".

في رثاء شهيد

إلى موطننا الأسنى مضيتَ ... وفي أعماقنا قلبٌ وجيدُ
وأسرعتَ الخُطى نحو العُلاءِ ... سَبقتَ فلمْ تُعرقِلكَ السُدودُ
دموعي تجري من عيني كنَهرٍ ... لتُروي زهرَ رَمسك يا شهيدُ
تعبت، وآن أن ترتاح معْهُ ... فليسَ هناك سجنٌ ولا قيودُ
وكيف أقولُ فيك "أخي وداعًا" ... وعندي رجاؤه الحيُّ الوطيدُ
رفاتك سوف يحيا يا شهيد ... ومعْكَ جنودُ وارثُهم لُحُودُ
ومعكمْ نحن نرقَى للقَاهُ ... لنحيا مع المسيح، وذا خُلودُ

قوة الصلاة

في تتبعنا لسلسلة معاملات الله بالنعمة مع شعبه المحبوب يجدر بنا أن نشير بكلمة إلى تقرير انتشر كثيرًا بين المسيحيين في أواخر حكم أورليوس بعد بداية القرن الثالث حمله على تغيير مجرى سياسته نحو المسيحيين. ذلك أنه في إحدى حروبه التي اشتبك فيها مع الألمان والسارماتيين الذين كانوا يُعرفون في ذلك الوقت بالبرابرة تعرض لخطر عظيم وأصبح في مركز حرج، إذ أحاط البرابرة بجنوده وأخذوا يثخنونهم بالجراح. وكانت الشمس المحرقة تضرب بكل قوتها على وجوههم، والتعب الشديد أنهك قواهم والظمأ كاد يقتلهم، وفي الوقت نفسه كان الأعداء يستعدون للهجوم عليهم. وبينما هم في هذا الحال إذا بالفيلق الثاني عشر تقدم إلى الأمام، وكان على ما قيل مؤلفًا من المسيحيين، ثم جثا على الأرض ليصلي، فما لبث أن تلبدت الغيوم في الجو وابتدأت الأمطار الغزيرة تتساقط بشدة، فخلع الجنود الرومانيون خوذاتهم ليتلقوا على رؤوسهم الأمطار التي تجدد قواهم وتنعش نفوسهم. ثم ازدادت الأمطار بسرعة حتى أصبحت أشبه بعاصفة من البرد

تصحبها الرعود والبروق، مما ألقى الروع والفزع في قلوب البرابرة، وجعل الرومانيين ينالون النصرة دون مشقة ولا عناء. فاندهش الإمبراطور من استجابة الصلاة بهذه الطريقة المعجزية، واعترف بتداخل يد إله المسيحيين، وأنعم بإنعامات كثيرة على الفيلق المسيحي، وأصدر أمرًا عاليًا يثني فيه على دينهم. ومن ذلك الوقت صاروا يعرفون باسم "فيلق الرعد". وقد عني بتدوين هذه الحادثة العجيبة المؤرخون من يوسيبيوس فمن بعده. إلا أنها كغيرها من الروايات دخل عليها الكثير من الزيادات. على أنه توجد أسباب قوية تجعلنا نعتقد أن العناية الإلهية سمحت بإجابة صلاة أولئك المسيحيين ليفوز الرومانيين بالنصرة، وهذا الأمر واضح جدًا ولدى الإيمان لا يوجد شيء في هذه الحادثة عسر التصديق، وإن كان بعض من الأقاويل التي قيلت فيها مشكوك في صحتها، فمثلاً عدد الفيلق الروماني يحتمل أنه كان خمسة آلاف رجل، وربما كان في الفيلق الثاني عشر نسبة كبيرة من المسيحيين جعله يمتاز عن سواه، ولكن يصعب علينا أن نصدق أنهم كانوا جميعًا مسيحيين.

وبعد رجوعهم من ساحة الحرب أخبر المسيحيون إخوتهم كيف أن الله تنازل بنعمته ورحمته واستجاب صلاتهم، فأخذت الكنيسة هذا الخبر وأذاعته بين المسيحيين لمدح مجد اسمه تعالى، وبينما اثبت الرومانيون أنفسهم وأيدوا هذه الحقائق بطريقة جلية واضحة، إلا أنهم اعتقدوا هم أيضًا أن خلاصهم أتى لهم من السماء، وإنما إجابة لصلوات الإمبراطور للإله. وهكذا خلدوا ذكرى هذه الحادثة بالرسوم والنقوش المختلفة حسب عوائدهم، فرسموا صورة الإمبراطور رافعًا يديه إلى الآلهة بالتضرعات، والجيش وهو يتلقى المطر على خوذاته، وجوبيتر أشهر آلهة الرومانيين وهو ينزل صواعقه على البرابرة الذين صوروا قتلى وصرعى على الأرض.

ترتليان والمدافعون

لم يمض كثير على هذه الحادثة حتى مات ماركوس أورليوس الفيلسوف والمضطهد، وبموته حدثت تغيرات عظيمة واندثر مجد الإمبراطورية، وقُضي على المساعي التي كانت تبذل لحفظ شرف الدين الروماني القديم. أما المسيحية فخطت خطوات واسعة وسريعة وانتشرت انتشارًا عظيمًا، إذ أخذ يناصرها أناس ذوو مقدرة وعلم نبغوا نحو ذلك الوقت، وكانوا بشجاعة وقوة يدافعون بأقلامهم عن حقوقها، ولذا سموا بالمدافعين. وكان ترتليان الأفريقي الذي قيل أنه ولد سنة ١٦٠م أقدرهم وأكفأهم، وابتدأ أشد الوثنيين مدنية وأكبرهم علمًا يشعرون أن دينهم يحتاج إلى الدفاع عنه وإلى إصلاحه ليتمكن من الثبات أمام قوة الإنجيل العظيمة. ومن ذلك الحين ابتدأت المجادلات والمحاورات، فانبرى للدفاع عن الوثنية فيلسوف من الفلاسفة الأبيقوريين يدعى سلسوس، الذي قيل إنه وُلد في نفس السنة التي ولد فيها ترتليان وكان زعيم حزب الوثنيين. ومن هذا الزمن - السنوات الأخيرة من القرن الثاني - أصبحت كتابات الكنيسة أكثر فائدة ولذة إذ كانت أكثر تحديدًا وصحة.

• • •

ولكن يحسن لنا قبل أن نتقدم أكثر في التاريخ العام أن نرجع إلى الوراء ونلقي نظرة بسيطة على تاريخ الكنيسة الداخلي من أوله، فنرى كيف أدخلت بعض الأمور المعروفة عندنا جيدًا، والتي لا نزال نشاهدها إلى يومنا هذا.

الفصل الثامن

تاريخ الكنيسة الداخلي

هنا نتقدم مرة أخرى فنضع أقدامنا على أساس راسخ ومتين، وإنه لمن امتيازنا الجميل أن يكون مرجعنا هو الكتاب المقدس. قبل إتمام كتابة الأسفار المقدسة وقعت أخطاء كثيرة تتعلق بالتعليم والسلوك أزعجت الكنسية المعترفة ومزقت شملها، فأرشد الله بالروح القدس الرسل لملاحظة هذه الأخطاء واستعراضها بحسب حكمة الله ونعمته. فإذا حفظنا هذا الأمر في بالنا لا نستغرب إذا وجدنا في تاريخ الكنيسة الداخلي أمورًا كثيرة تناقض كلمة الله تمامًا، وإذ نتسلح بأقوال الرسل لا نلقى أدنى صعوبة في التعامل مع تلك الأخطاء. لقد ظهر من بدء تاريخ الكنيسة حب الرئاسة والطموح إلى المناصب العالية، وأضيفت فرائض كثيرة من اختراع البشر، وهكذا صارت حبة الخردل شجرة عظيمة - إشارة إلى امتداد السلطان السياسي على الأرض - هذا كان ولا يزال منظر العالم المسيحي في الخارج، أما في الداخل فكانت الخميرة تعمل عملها إلى أن «اختمر العجين كله». وكل الذين طالعوا الأصحاح الثالث عشر من إنجيل متى وأقوالاً أخرى في سفر الأعمال والرسائل يمكنهم أن يبدوا رأيًا صحيحًا وحكمًا صائبًا عن تاريخ الكنيسة من أوله إلى أخره، الذي يمتد من وقت أن زرع ابن الإنسان البذار إلى وقت الحصاد. ولنعد الآن إلى بعض هذه الفصول.

أولاً: تنبأ ربنا المبارك، في مثل الحنطة والزوان (مت١٣: ٢٤-٣٠)، عما هو مزمع أن يحدث إذ قال «يشبه ملكوت السماوات إنسانًا زرع زرعًا جيدًا في حقله، وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زوانًا في وسط الحنطة ومضى»، وعلى مر الأيام «طلع النبات وصنع ثمرًا» كناية عن انتشار المسيحية السريع في الأرض، ولكننا نقرأ أيضًا «حينئذ ظهر الزوان» ويشير بالزوان إلى المعترفين اسميًا بالمسيح. والرب يسوع هو الذي زرع الزرع الجيد، ولكن الشيطان اتخذ فرصة من ضعف الإنسان وإهماله وزرع زوانًا.

وماذا يُصنع للزوان يا ترى؟ هل يُقلع من الملكوت؟ إن الرب يجيب على ذلك قائلاً: كلا. «لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه. دعوهما ينميان معًا إلى الحصاد» أي إلى نهاية العصر أو التدبير عندما يأتي الرب للدينونة.

وربما معترض يقول هل يقصد الرب بذلك ترك الحنطة والزوان ينميان معًا في الكنيسة؟ والجواب: كلا. لأنه إن كان قد سمح بالزوان أن لا يُقتلع من الحقل إلا أنه في الكنيسة الأمر بالعكس، إذ يعلمنا أن ننزع الزوان بمجرد ظهوره، أي أن نعزل الأشخاص الأشرار من الكنيسة. ذلك لأن الكنيسة والحقل أمران مختلفان أحدهما عن الآخر وإن كانت الكنيسة موجودة في الحقل، لأن الحقل يشير إلى العالم لا إلى الكنيسة، وحدود الملكوت تمتد كثيرًا عن حدود كنيسة الله الحقيقية. والمسيح هو باني الكنيسة، أما الناس فعملهم يقوم في امتداد دائرة المسيحية. ولو طبقنا كلمة «ملكوت السماوات» على «كنيسة الله» لما وجد ثمة مكان للتأديب بالمرة. على أن الرسول يقول صريحًا «اعزلوا الخبيث من بينكم» (١كو٥: ١٣). فلم يقل اعزلوه من الملكوت، لأن ذلك لا يتأتى إلا بالقضاء على حياته، بل يجب ترك الحنطة والزوان ينميان معًا إلى وقت الحصاد، وحينذاك يقضي الرب نفسه على الزوان، فيأمر بحزمه حزمًا وإلقائه في النار. ولا يوجد ما هو أبسط وأوضح من تعليم الرب في هذا المثل، فالزوان يجب عزله من مائدة الرب، ولكن لا يجب اقتلاعه من الحقل، فالكنيسة غير مسموح لها أن توقع عقوبات العالم على المذنبين فيها. ولكن مع الأسف قد حدث فعلاً ما حذر الرب منه تلاميذه كما تدل قائمة الشهداء المطولة، إذ أدخلت الكنيسة العقوبات الشديدة لتأديب المذنبين، فكانت تسلمهم

إلى السلطة المدنية ليموتوا حرقًا بالنار أو قتلاً بالسيف.

ونقرأ في أعمال ٢٠ قول الرسول «لأني أعلم هذا أنه بعد ذهابي سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية». وفي رسالتي تسالونيكي اللتين يظن أنهما أول رسائل الرسول بولس يخبرهم أن سر الإثم الآن يعمل وأن شرورًا أخرى ستلي ذلك، ثم يكتب للفلبيين أن كثيرين سيسيرون كأعداء لصليب المسيح، الذين نهايتهم الهلاك وإلههم بطنهم ومجدهم في خزيهم. فمع أنهم كانوا يدعون مسيحيين ولكن اهتمامهم بالأرضيات لم يفت عين الرسول اليقظة، فقد كان غرضه المسيح في المجد والتشبه عمليًا به على الأرض. وفي رسالته الثانية إلى تيموثاوس ويرجح أنها آخر رسائله، يشبه المسيحية «ببيت كبير» به كل أنواع الأواني، بعضها للكرامة وبعضها للهوان. هذه هي صورة الكنيسة العمومية الخارجية، والمسيحي مُطالَب أن يطهر نفسه من كل ما لا يتفق مع اسم المسيح. وما أوضح ذلك وأبسطه لدى الذهن الروحي في كل العصور والأجيال، فواجب المسيحي يقتضي منه ألا يشترك في ما ليس حقًا. وهذا هو معنى تطهيره نفسه من أواني الهوان، أي أنه كان مكلفًا بأن ينفصل عن ما لا يطابق ويليق بكرامة الرب. وقد تكلم الرسول يوحنا وباقي الرسل عن هذه الأمور عينها وقدموا لنا مثل هذه الإنذارات والتعاليم، ولا حاجة إلى سرد تلك الشواهد إذ أن ما ذكرناه يكفي لإعداد القارئ لفهم ما يسمى بالدائرة المسيحية.

من جاءوا بعد الرسل مباشرة

هنا سؤال مهم طالما سأله الكثيرون وهو: في أي عصر من العصور وبأية وسيلة من الوسائل توطدت دعائم الإكليركية ونالت مكانة قوية في الكنيسة الاسمية؟ والجواب علي ذلك يؤدي بنا إلى أن نسرد بالتفصيل تاريخ الكنيسة الداخلي.

لقد نشأ النظام الإكليركي وتقدم شيئًا فشيئًا، وإذ أُدخل في الكنيسة المسيحية بدّل شكلها وغيّر حالتها كل التغيير. وبالإجمال قد صاغها في قالب الديانة اليهودية، فتعددت الوظائف الكنسية ووُضعت الفوارق والمميزات بين الرتب المختلفة. ومهما كان من الصعب أن نتتبع الكثير من تفاصيل نظام الإكليروس، إلا أنه لا ريب في أنه مأخوذ عن نظام المجمع اليهودي.

ونتعلم من مجموع أسفار العهد الجديد أن الديانة اليهودية كانت عدوًا لدودًا للمسيحية، ولم تنفك عن مناهضتها ومقاومتها. فمن جهة كانت تعمل بدون انقطاع على إدخال طقوسها وفرائضها، ومن جهة أخرى كانت تضطهد إلى الموت الأمناء للمسيح الذين ظلوا متمسكين بمبادئ كنيسة الله الصحيحة. وهذا نشاهده على نوع خاص في سفر الأعمال والرسائل. وقد أفسح المجال للديانة اليهودية فسادت وانتشرت وأصبح لها نفوذ عظيم بعد أن انقطعت المواهب الفائقة من الكنيسة ورقد الرسل - أواني الوحي الكرام - الذين كانوا يدافعون عن الإيمان المسيحي بكل أمانة وقوة. والذي ساعد على امتداد سلطان الديانة اليهودية هو أن السواد الأعظم من المسيحيين الذين تألفت منهم الكنائس الأولى كانوا من اليهود الذين ألفوا العبادة في المجمع اليهودي، فبقوا محافظين على أسلوبهم ونزعتهم اليهودية زمنًا طويلاً. وساعدت تلك الميول اليهودية على تشييد دعائم أركان النظام الإكليركي الذي كان يستمد سلطته وقوته منها، لأنه وإن كانت الفلسفة والهرطقة فعلتا الكثير في الكنيسة لإفسادها وجذبها إلى العالم لتتحد معه وتضع يدها في يده، إلا أنهما لم يكونا أساسًا لنظام الإكليروس الذي كان نابعًا من الديانة اليهودية دون سواها. ومن هذا فإن كثيرين في ذلك الوقت وبعده كانوا يعتبرون المسيحية امتدادًا للديانة اليهودية بدلاً من كونها نقيضتها تمامًا، وقام معلمون من اليهود لينادوا بكل جسارة أن المسيحية ليست سوى فرع من اليهودية. ولكننا نتعلم من جميع الرسائل أن اليهودية أرضية والمسيحية سماوية، الأولى علاقتها بالخليقة القديمة، أما الثانية فعلاقتها بالخليقة الجديدة. «لأن الناموس بموسى أعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» (يو ١:١٧).

ولنعد الآن إلى الكلام عن الذين جاءوا بعد الرسل مباشرة، الذين يسمونهم:

الآباء الرسوليين

مثل أكليمندس وبوليكارب وإغناطيوس وبرنابا، فهؤلاء سمعوا تعاليم الرسل واشتركوا في التعب معهم في الإنجيل، وربما كانوا على صداقة متينة وألفة وثيقة معهم. ولكن رغمًا عن هذه الامتيازات السامية التي كانت لهم كتلاميذ للرسل فإننا نراهم انتقلوا سريعًا عن التعاليم التي تسلموها، سيما المتعلق منها بسياسة الكنيسة.

ويلوح لنا من الرسائل التي كتبوها أنهم نسوا تمامًا تلك الحقيقة العظمى المرتبطة بالعهد الجديد: حقيقة حضور الروح القدس وسكناه وسلطانه وسيادته في الكنيسة، مع أننا نجد كلامًا مسهبًا

عنها في أقوال الرسولين بولس ويوحنا، وهناك تعاليم واضحة وإرشادات كافية بشأنها في إنجيل يوحنا١٣، ١٤ وأعمال٢ وكورنثوس الأولى١٢، ١٤ وأفسس ١-٤.

فلو كنا حفظنا هذه الحقيقة كما يعلمنا الرسول بولس بقوله «مجتهدين أن تحفظوا (لا أن توجِدوا) وحدانية الروح» (أف٤: ٣)، لما وجدت الإكليركية مكانًا لها داخل المسيحية.

ويظهر أن المعلمين الجدد نسوا جمال وبساطة النظام الذي رتبه الله في الكنيسة، حيث أوجد وظيفتين فقط من المهام المحلية، وهما الأساقفة والشمامسة. فالشمامسة عملهم الاهتمام بالأمور المادية للكنيسة، والأساقفة اهتمامهم بالأعواز الروحية اللازمة للقديسين. وكلمة «أسقف» معناها "ناظر"، أي الذي يراقب المؤمنين مراقبة روحية. ومع ضرورة أن يكون صالحًا للتعليم إلا أنه ليس بالضرورة معلمًا، بل هو ناظر. أما الممارسات التي رسمها الرب في العهد الجديد وسلمها للمؤمنين فهي المعمودية وعشاء الرب ليس إلا. ولا يوجد أبسط وأكثر وضوحًا من الحقائق المعطاة لنا لنؤمن بها ونمارسها، بحيث لا يكون مكان بالمرة في كنيسة الله لتعظيم الإنسان ورفع شأنه. فقد نزل الروح القدس من السماء ليقود المؤمنين في اجتماعاتهم بحسب كلام الرب يسوع ووعد الآب. والمسيحي الذي يؤمن بهذا لا يتجاسر، مهما كان له من المواهب الروحية، أن يتخذ لنفسه مقام القائد، وبذلك يأخذ مكان الروح القدس عمليًا. ولكن عندما غاب هذا الحق عن الأذهان أخذ الناس يتخاصمون ويتنازعون على المناصب والرتب والسلطة والسيادة في الكنيسة، ولم يعد للروح القدس مقامه الحقيقي وسط الجماعة.

وسرعان ما انقطع صوت الوحي في الكنيسة حتى سمعنا المعلمين الجدد يرفعون صوتهم عاليًا، طالبين بإلحاح تقديم أعظم فروض الإكرام وأسمى ألقاب الشرف للأساقفة، بينما لم ينطقوا بكلمة واحدة عن مقام الروح القدس وسلطانه في كنيسة الله، وهذا يتضح لنا من رسائل إغناطيوس التي قيل إنها كتبت سنة ١٠٧م. وقد قام كثيرون من العلماء يشككون في صحتها، كما قام غيرهم يؤكدون صحتها، وليس هنا محل لإيراد براهين كلا الفريقين، على أن كنيسة إنجلترا اعتقدت بصحتها من زمن طويل واتخذتها برهانًا مقنعًا ودليلاً قاطعًا على أقدمية عهد تسلط الأساقفة في الكنيسة.

وقد كتب إغناطيوس سبع رسائل أثناء رحلته من أنطاكية إلى رومية[٢٦]، فكتب إلى أفسس ومجنيسيا وتراليا ورومية وفيلادلفيا وسميرنا، ثم إلى صديقه بوليكارب. وإذ كان تلميذًا وصديقًا للرسول يوحنا، وأسقفًا في أنطاكية في ذلك الحين، وربما كان أشهر شخص بين المسيحيين، وكتب رسائله قبيل استشهاده بغيرة وحماس عظيم، فلا بد وأن تكون قد أحدثت أثرًا كبيرًا في الكنائس زاده شدة افتتان الطبيعة البشرية بحب المناصب والسلطة. وهاك عينة بسيطة من تحذيراته وإنذاراته للكنائس:

كتب إلى كنيسة أفسس يقول: "لنحترص أيها الإخوة ألا نقاوم الأسقف في شيء وبذلك نظهر خضوعنا لله... يجب علينا أن نحترم الأسقف كما نحترم الرب نفسه". وكتب إلى مجنيسيا قائلاً: "إني أعظكم أن تتعلموا أن تفعلوا كل شيء برأي واحد وفكر واحد وباتحاد إلهي. فأساقفتكم هم الرؤساء عليكم بدلاً من الله، وشيوخكم بدلاً من الرسل، وشمامستكم الأعزاء عندي قد عهدت إليهم بخدمة الرب يسوع". ونراه يضرب على نفس النغمة في رسالته إلى تراليا إذ يقول "فبينما تخضعون لأسقفكم كما ليسوع المسيح تظهرون لي أنكم لستم سالكين بحسب الناس بل بحسب يسوع المسيح، الذي مات لأجلنا... ثابروا على تمسككم بيسوع المسيح إلهنا وبأسقفكم وبوصايا الرسل". وفي رسالته إلى فيلادلفيا نشاهد صورة أخرى من كتاباته حيث يقول: "صرخت لما كنت بينكم. تكلمت بصوت عال قائلاً: التفتوا إلى الأسقف والشيوخ والشمامسة. وقد ظن البعض أني أقول ذلك على طريق النبوة بما سيحدث بينكم من الانقسام، ولكن يشهد لي ذاك الذي لأجله أنا موثق في سلاسل أني لم أعرف شيئًا من أي إنسان، ولكن الروح تكلم قائلاً: لا تعملوا شيئًا من غير الأسقف. احفظوا أجسادكم كهياكل الله. أحبوا الاتحاد، اهربوا من الانقسامات. كونوا متمثلين بالمسيح كما كان هو متمثل بأبيه"*.

ويظهر من العبارة الأخيرة أن الأب الجليل إغناطيوس يريد أن يضفي على تعاليمه سلطان الوحي الإلهي. ومع يقيننا بفساد تلك الدعوة وبطلان ذلك القول، لا ننكر على هذا الأب الجليل أمانته وإخلاصه، كما أننا لا نرتاب في أنه كان مسيحيًا تقيًا ممتلئًا غيرة ومتقدًا حماسًا. ولكننا لا نرتاب أيضا في أنه خدع نفسه كثيرًا في هذا الأمر وغيره. وإذا تصفحنا كتاباته نجد أن الروح السائد فيها هو

* الاقتباسات السابقة نقلا عن ترجمة ويكس.

طلب خضوع الشعب خضوعًا كليًا لرؤسائه رجال الإكليروس.
كان لا شك يهتم جدًا بتقدم الكنيسة و نجاحها، وإذا خشي عليها من شر الانقسامات التي يشير إليها في رسائله، ظن على ما يرجح أن وجود إدارة قوية حاسمة في أيدي الإكليروس أحسن وسيلة وأقوى عامل في حفظ سلامة الكنيسة من البدع والانحراف عن الحق. ومن قبيل ذلك قوله "اجتهدوا أن تتأيدوا وتتثبتوا في تعاليم يسوع ورسله وأسقفكم الجليل وشيوخكم وشمامستكم. واخضعوا لأسقفكم ولبعضكم بعضًا كما كان المسيح حسب الجسد خاضعًا لأبيه، وكما كان الرسل خاضعين للرب يسوع وللآب وللروح القدس، لكي تكونوا بذلك متحدين روحًا وجسدًا". وبذلك جعل منزلة الأسقف في أسمى مراتب الرفعة والسمو. ومن ذلك الوقت أصبح ذلك المركز موضوع المطامع الكنسية والمنازعات الدينية الكبيرة التي أفضت إلى نتائج وخيمة.

الإكليروس والخدمة والمسئولية الشخصية

من المفترض أن هذه الرسائل كُتبت بعد وفاة الرسول يوحنا بسنيين قليلة، حتى ظن البعض أنه لا بد أن يكون لكاتبها إلمام تام بأفكار الرسول، وأن يكون معبرًا عن آرائه. ومن ذلك ذهبوا إلى أن حكم الأساقفة وتسلطهم في الكنيسة دخل مع دخول المسيحية وكان معاصرًا لها. ونحن لا يعنينا كثيرًا تحقيق من هو كاتب تلك الرسائل ولا وقت كتابتها بالضبط، إذ أنها ليست وحيًا مقدسًا، وعلينا أن نحكم من جهتها في ضوء كلمة الله، وأن نلاحظ تأثيرها في الكنيسة من واقع تاريخها. ونحن لا يجب علينا أن نعرف فكر الرب من جهة كنيسته ومسئولية شعبه من كتابات أحد الآباء مهما كان من الأولين الأجلاء، بل من كلمة الله نفسها. ويجمل بنا هنا قبل مبارحة هذه النقطة أن نسرد للقراء بعض الفصول الكتابية التي يحسنون صنعًا إن قارنوها بالأقوال السابقة، وهي تتعلق بالخدمة المسيحية والمسئولية الشخصية، وبذلك نعرف الفارق العظيم بين الخدمة والوظيفة، أو بين كرامة العمل وكرامة المركز. ففي إنجيل متى٢٤: ٤٥ إلى٢٥: ٤ توجد ثلاثة أمثال يخاطب فيها الرب تلاميذه من جهة سلوكهم وتصرفاتهم مدة غيابه عنهم.

١- المثل الأول يبين مسئولية الخدمة داخل البيت، أو في الكنيسة كما هو مكتوب «وبيته نحن». قال الرب في ذلك المثل «فمن هو العبد الأمين الحكيم الذي أقامه سيده على خدمه ليعطيهم الطعام في حينه؟ طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا. الحق أقول لكم إنه يقيمه على جميع أمواله». ومن هنا نتعلم أن الخدمة الحقيقية مصدرها الرب، ومانحها الرب دون سواه، وهو يقيم في بيته الكثير من العبيد، فمنهم الأمناء ومنهم غير الأمناء. إن شعبه على قلبه دائمًا، فمن عاشوا بالأمانة من خدامه وسلكوا بالتواضع أثناء غياب سيدهم سيقيمهم على كل أمواله عند رجوعه. وعلى كل خادم حقيقي للمسيح أن يعلم يقينًا أن أمره مع المسيح، إذ هو الذي يتولى أمر تعينه وأمر محاسبته، ويعلم أنه ليس أجيرًا لأحد من الناس أو هيئة خاصة بشرية، بل هو لسيده. «طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا». كذلك من الوجه الآخر هو الرب الذي يوبخ ويدين الإهمال والقصور في الخدمة، فإن «قال ذلك العبد الردي في قلبه سيدي يبطئ قدومه. فيبتدئ يضرب العبيد رفقاءه ويأكل ويشرب مع السكارى». وهكذا نرى أن حالة الخدمة تتأثر تأثرًا عظيمًا بقبول أو برفض حقيقة قدوم السيد. وعوض أن يقوم ذلك العبد بخدمة حسنة ويؤدي عملاً صحيحًا في البيت، واضعًا رضا سيده نصب عينيه مفكرًا في نفسه بما يسر ويبهج قلب السيد، نراه يفترض إبطاء قدومه، فيظلم ويسلك مسلكًا عالميًا معيبًا، فيأتي السيد ويجعل نصيب ذلك العبد «مع المرائين» - وهذا كان نصيب يهوذا الإسخريوطي - حيث «يكون البكاء وصرير الأسنان». فيا لها من نتائج صعبة وعواقب وخيمة إذا نسي ذلك العبد أمر رجوع السيد، فالمسألة لم تكن مجرد خطأ في التعليم أو اختلاف في الرأي من جهة قدوم السيد، بل إنه «قال في قلبه سيدي يبطئ قدومه»، أي أنه كانت لإرادته يد في الأمر، وكأنه تمنى بكل قلبه ورغب من صميم فؤاده أن السيد يبطئ، لأنه كان يعرف أن مجيئه سيبطل كل مشروعاته ومقاصده وينهي كل عظمته ورفعته في العالم. أوَلم يحدث هذا بالفعل عندما جاء السيد؟ ويا له من درس خطير وعظة بالغة لكل الذين يأخذون مركز الخدمة في الكنيسة. مثل هؤلاء عليهم أن يعلموا أن مجرد تعيينهم بواسطة السلطات الدينية أو انتخاب الشعب لهم لا قيمة له في ذلك اليوم ما لم يكونوا منتخَبين من الرب الأمين على بيته.

٢- المثل الثاني يشبّه المسيحيين المعترفين باسم المسيح أثناء غياب السيد بعذارى خرجن لملاقاة العريس ومرافقته إلى بيته، وهو يبين لنا صورة المسيحيين في العصور الأولى عندما خرجوا من العالم ومن النظام اليهودي قاصدين مقابلة عريسهم، ولكن بكل أسف فيما أبطأ نعسوا جميعهم وناموا «ففي نصف الليل صار صراخ: هوذا العريس مُقبل فاخرجن للقائه». وما كنا نسمع منذ أيام المسيحية الأولى إلى أوائل القرن التاسع عشر إلا القليل جدًا عن مجيء الرب، وذلك في أوقات متقطعة وبأصوات خافتة، ولكن الصراخ «هوذا العريس مقبل» الذي صار في نصف الليل لم يحصل حتى بداءة القرن التاسع عشر. أما الآن فلدينا الكثير من المجلدات والنبذ عن مجيء الرب، كما يوجد كثيرون يبشرون به في جميع البلدان، فقد مضى الآن نصف الليل وتقارب النهار *. وكان إحياء الحق الخاص بمجيء المسيح بداية لعصر جديد في تاريخ الكنيسة، ومثل سائر النهضات التي سبقته كان من عمل الروح القدس وبالآلات التي اختارها، وبالوسائل التي رآها مناسبة. ونشكر الله الذي سمح بوجود فرصة كافية في تلك النهضة العظيمة بين الصراخ بقدوم العريس وبين قدومه فعلاً ليمتحن فيها حالة كل فرد. ونرى أن خمسًا من العذارى لم يكن معهن زيت في مصابيحهن - أي لم يكن لهن المسيح، ولم يكن ساكنًا فيهن الروح القدس، بل كان معهن مصابيح الاعتراف الخارجي فقط. ويا له من فكر خطير جدًا أن نتصور أنه يوجد بين المعترفين بالمسيح عدد عظيم ليسوا مسيحيين بالحق، وسيقفل الباب في وجوههم إلى الأبد، وكم يجب أن يولّد فينا هذا الفكر من النشاط والغيرة في التبشير. يا ليتنا نفتدي الوقت الذي أعطاه لنا الرب من نعمته وكرمه، فنشتغل فيه لمجده ولجذب النفوس في الوقت الكائن بين صراخ نصف الليل ومجيء العريس!

٣- المثل الثالث يوضّح لنا الخدمة خارج البيت، كما أن المثل الأول يبين لنا الخدمة داخل البيت والمثل الثاني يرينا مسئولية الانتظار الشخصي لمجيء الرب وما يلزمنا للدخول إلى العرس. «وكأنما إنسان مسافر دعا عبيده وسلمهم أمواله، فأعطى واحدًا خمس وزنات وآخر وزنتين وآخر وزنة. كل واحد على قدر طاقته، وسافر للوقت». هذا المثل يصّور لنا الرب وقد ترك العالم ورجع إلى السماء. وفي مدة وجوده هناك يجب على عبيده أن يتاجروا بالوزنات التي سلمها لهم. «فمضى الذي أخذ الخمس وزنات وتاجر بها، فربح خمس وزنات أخر وهكذا الذي أخذ الوزنتين ربح وزنتين أيضًا أخريين»، وهنا نرى المبدأ الصحيح والوصف الحقيقي للخدمة المسيحية، فالرب نفسه هو الذي دعا عبيده وأعطاهم الوزنات، وبذلك أصبحوا مسئولين أمامه بإتمام تلك الدعوة التي دعاهم بها ولأجلها، والعمل بالموهبة واستخدامها.

وسواء داخل البيت أو خارجه فإن استخدام المواهب يجب أن يكون في خضوع لتوجيهات كلمة الله، وأن تمارس الخدمة بالمحبة ولبركة وفائدة الآخرين، لكنها لا ينبغي إطلاقًا أن تخضع لنظام كهنوتي، ولا لإرادة الشعب، بل للمسيح نفسه الذي هو رأس الكنيسة الحقيقي. وأنه لأمر خطير أن يتداخل أحد في حقوق المسيح من جهة خدمة عبيده وعملهم. وكل من يمس تلك الحقوق بشيء كأنه ينفي ويبطل المسئولية نحو المسيح، ويقلب المبدأ الأساسي للخدمة المسيحية.

كان الكهنوت من مميزات العصر اليهودي، كما أن الخدمة التي رتبها الله هي من مميزات العصر المسيحي، إلا أن الكنيسة الاسمية إذ أعوزها إدراك الفارق بين العصرين حاولت أن تحذو حذو الديانة اليهودية وتنسج على منوالها في كهنوتها وطقوسها، فارتكبت بذلك خطأ عظيمًا وفشلت فشلاً كبيرًا.

ولو كان وجود نظام كهنوتي بطقوسه وفرائضه لا يزال ضروريًا لبطلت قيمة عمل المسيح وتقوض أساس المسيحية. ولكن شكرًا لله الذي أعطانا كلمته لتكون الحكم الوحيد والمرجع لكل الأمور وفيها فصل الخطاب. فقد قال الرسول بولس في رسالته إلى العبرانيين ١٠: ١٢-١٨ «وأما هذا (أي المسيح) فبعدما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس إلى الأبد عن يمين الله. منتظرًا بعد ذلك حتى توضع أعداؤه موطئًا لقدميه. لأنه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدّسين... وإنما حيث تكون مغفرة لهذه لا يكون بعد قربان عن الخطية».

فالخدمة أمر جليل القدر عظيم النفع، إذ تشهد للخطاة الهالكين عن عمل المسيح وغلبته ومجده، لكي يُقبلوا إليه فيخلصوا، وتظهر

* ليلاحظ القارئ تاريخ كتابة هذه المذكرات، فإن كان في يومه قد تقارب النهار، فكم تقارب في يومنا؟

للملأ محبة الله المتجهة نحو عالم مجرم أثيم قد ابتعد عن خالقه، وتدعو النفوس لتأتي وتتصالح مع الله، لأنه «كان في المسيح مصالحًا العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم، وواضعًا فينا كلمة المصالحة...» (٢كو٥: ١٩-٢١).

إن الكهنوت اليهودي لم يغيّر شيئًا من نسبة شعب إسرائيل وعلاقتهم بالله، بل أبقى تلك النسبة على ما هي عليه. أما الخدمة المسيحية فتغير من حال إلى حال، إذ تنقل النفوس، بواسطة عمل نعمة الله فيها، من سلطان الظلمة إلى ملكوت ابن محبته. تنتشل النفوس من الخطية والهلاك وتقربها إلى الله لكي تتمتع بغبطة السجود له داخل الأقداس.

ولنعد الآن إلى مثل الوزنات، وأريد أن أوجّه نظر القارئ العزيز على وجه الخصوص إلى نقطة تدل على سلطان الرب المطلق من جهة، وحكمته البالغة من جهة أخرى في مسألة الخدمة. فقد أعطى لكل واحد من عبيده وزنات مختلفة العدد، كل بحسب طاقته. ولذلك نرى أن لكل واحد من خدام الله مؤهلات طبيعية خاصة تناسب الخدمة التي ميّزه الرب بها، وهو يمنح المواهب حسب قياس هبته هو لتتميم تلك الخدمة «وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلاً والبعض أنبياء والبعض مبشرين والبعض رعاة ومعلمين» (أف٤: ١١)، فلا بد أن يكون في الخادم صفات خاصة تؤهله للعمل الذي أُعطي له، أما القوة فيمنحها الروح القدس. مثالاً لذلك إذا دعا الرب شخصًا ما ليبشر بالإنجيل فمن المحتم أن تكون فيه قدرة لعمل التبشير، والرب ينشئ في قلبه بالروح القدس محبة حقيقة للنفوس، وهي أحسن هبة يهبها الرب للمبشر، فيصبح ملزمًا أن يضرم موهبته ويمارسها بحسب طاقته، وبقوة الروح القدس لبركة النفوس ومجد الله. ليتنا لا ننسى المسئولية التي علينا إزاء هذين الأمرين: أعني بهما الموهبة التي أعطيت لنا من مجرد النعمة، والإمكانيات الطبيعية التي يجب أن نستخدم بها الموهبة. وعندما يأتي الرب لمحاسبة عبيده لا يفيد البعض اعتذارهم بأنه لم تكن لديهم مقدرة أو جدارة للخدمة، أو أنهم لم يُمنحوا موهبة، لأن عندهم هذا وذاك، بل السؤال الذي يقدّم لهم وتقوم عليه المحاسبة هو: هل قاموا بالخدمة التي ائتمنهم الرب عليها وأهّلهم لها ومارسوها بالاتكال والاستناد عليه؟ أم ذهبوا وأخفوا الوزنة في الأرض؟ أي أن الأمر الوحيد الذي يُسأل عنه الخادم أمام سيده هو: هل كان أمينًا في ما له أم لا؟

وعلينا أن نلاحظ أن الذي أوجد الفرق والتمييز بين العبدين الأمينين والعبد الخائن البطال هو الثقة في السيد، فقد كانت موجودة عندهما، ولكن لم يكن لها وجود في قلب العبد البطال الذي كان يجهل صفات سيده ومبادئه، فتصرف تصرفًا يدل على خوفه ووجله بدل أن يتصرف بالمحبة، ولذلك مضى وأخفى وزنته في الأرض. أما العبدان الأمينان فعرفا سيدهما تمام المعرفة وفهما صفاته ووثقا فيه وخدماه خدمة محبة، فنالا أخيرًا الأجرة والجزاء منه. ومن هنا نرى أن المحبة هي الباعث الصحيح والمصدر الحقيقي للخدمة للمسيح، سواء كان داخل الكنيسة أو خارجها في العالم. يا ليتنا لا نوجد في حالة نضطر معها إلى تقديم الأعذار عن أنفسنا كما فعل ذلك العبد الشرير والبطال، بل نكون في كل حين متكلين على ربنا المبارك ومخلّصنا يسوع المسيح، واثقين بمحبته ونعمته وحقه وقوته.

تأثير نظام الإكليروس الجديد

من المرجح عندنا أن أولئك الرجال الصالحين، الذين كانوا الواسطة في إدخال نظام جديد في الكنيسة وإبطال حرية عمل الروح القدس في المؤمنين أعضاء جسد المسيح، كانوا يقصدون من صميم أفئدتهم تقدم الكنيسة ورفاهيتها. ولا شك أن إغناطيوس كان يرجو من وراء هذا النظام تجنب الانقسامات والانشقاقات في الكنيسة، ولكن مهما كانت النية صالحة والغرض شريفًا والباعث حسنًا، فإنه لمن منتهى الجهل الإنساني أن نتداخل، أو نحاول التدخل، كي نغير نظامًا رسمته ورتبته يد الله. هذا ما وقعت فيه حواء، ومَن منا يجهل النتائج الوخيمة التي جرّتها علينا بسبب ذلك؟ هكذا أيضًا كانت الخطية الأولى للكنيسة والتي عانت الكثير منها هذه القرون الطويلة إلى الآن.

يجب أن نترك الحرية للرب ليختار ويعيّن خدامه، ولا نتداخل بإرادتنا البشرية في عمله، كما يجب أن نرفع أيدينا عن التعرض لحرية الروح القدس النازل من السماء ليعمل في الخدام ويوجّههم كما يشاء، فهو القوة الوحيدة لهم في الخدمة. فلا نُدخل الترتيبات الإنسانية التي من شأنها أن تُطفئ عمله. وعلينا أن نعلم جميعًا

أن الرب وحده هو الذي يعرف أن ينتقي الأشخاص اللائقين لخدمته، كما يعرف الزمان والمكان اللذين يستلزمان منح المواهب. قال الرسول بولس في سياق حديثه عن المواهب التي كانت في الكنيسة في العصر الرسولي بعد أن تكلم عن الخدم والأعمال المتعددة «ولكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه، قاسمًا لكل واحد بمفرده كما يشاء (الروح القدس)» (١كو١٢: ١١)، وأيضًا «فأنواع مواهب موجودة ولكن الروح واحد، وأنواع خدم موجودة ولكن الرب واحد، وأنواع أعمال موجودة ولكن الله واحد الذي يعمل الكل في الكل. ولكنه لكل واحد يعطى إظهار الروح للمنفعة (أي لمنفعة الكل)» (١كو١٢: ٤-٧). فنرى من ذلك أن كل العمل في يدي الله ولا دخل للإنسان فيه البتة، فالرب يسوع يعطي الموهبة أو الخدمة، والروح القدس يعمل فيها، والله يجعل لها تأثيرًا وفاعلية، فما أسماها خدمة مصدرها وينبوعها الرب وقوتها الروح القدس والعامل في تأثيرها هو الله!

وما أخطر التجاسر على تغيير النظام الإلهي، وما أشد مرارة ذلك على الجميع، فهو لا يُحسب سوى ضلال وابتعاد. ولكن إن كنا نعترض ونحتج على مجرد التعيين البشري في حد ذاته، سواء كان المعينون أهلاً أو غير أهل للخدمة، فإننا نحتج أكثر على إسناد خدمة الكلمة لمؤمنين وغير مؤمنين. وبكل أسف قد وجدت الكنيسة أن إبطال نظام الخدمة المرسوم لنا في كلمة الله وإدخال نظام جديد لم يحولا دون وقوع الانقسامات ودخول البدع وقيام المعلمين الكذبة. لا شك أن الجسد قد يتحرك ويعمل عمله ويظهر ذاته حتى في أعظم المؤمنين تقوى وأكثرهم مواهب. ولكن متى كان روح الله عاملاً بقوة وكلمة الله لها السيادة والسلطان علينا، يكون ممكنًا معالجة الشر والقضاء عليه.

ومن قبل بداية القرن الثاني انزعجت الكنيسة انزعاجًا عظيمًا وتعكر صفوها بدخول البدع، ولم تتحسن الحال على مر الأيام بل ازدادت سوءًا. ونجد معلومات كثيرة عن هذه البدع في كتاب يدعى "ضد البدع" يُظن أنه كتب نحو عام ١٨٣م، وواضعه هو إريناوس الذي كان أسقفًا في ليون سنة ١٧٧م بعد بوثينوس. ويشتمل الكتاب على دفاع عن الإيمان المقدس ودحض وتفنيد التعاليم الفاسدة التي كان يناضل لأجلها كبار الهراطقة[٢٧].

منشأ تقسيم المسيحيين إلى إكليروس وعلمانيين

إن المسيحية في بداءة أمرها لم يكن لها فرقة كهنوتية خاصة، بل إن الذين آمنوا أولاً جالوا في كل مكان يبشرون بالرب يسوع، وكانوا أول من نشر أخبار الخلاص المفرحة خارج أورشليم قبل أن يبرحها الرسل أنفسهم (أع٨: ١١)، ثم أخذ عدد المؤمنين يزداد على مر الأيام، فمتى صار عددهم في مكان ما كافيًا لتكوين كنيسة محلية كانوا يجتمعون معًا باسم الرب في أول يوم من الأسبوع ليكسروا خبزًا ويبنوا بعضهم بعضًا في المحبة (أع٢٠: ٧). ومتى حانت الفرصة لأحد الرسل ليزور مثل هذه الاجتماعات كان يقيم شيوخًا فيها للاهتمام بهذا القطيع الصغير ومراقبته روحيًا، والجماعة نفسها هي التي تختار الشمامسة. هذا هو النظام الذي كان متبعًا في الكنائس في أيام المسيحية الأولى. ثم أن النفوس التي تخلص على يد مبشر، مُقام ومعيَن من الرب، كانت تعتمد باسم الآب والابن والروح القدس. وهذا ما كان يحدث خارج الاجتماع، لأنه ليس عملاً كنسيًا. وبعد ذلك يُفحص الأشخاص الروحيون بين المؤمنين طالبي الانضمام للشركة فحصًا مدققًا. ومتى اقتنعت الجماعة بصحة إيمانهم ونقاوة سلوكهم تقبلهم في الشركة. فنرى من هذا الوصف المختصر أنه لم يكن في نظام الكنائس بحسب الترتيب الإلهي فرق بين الخدام والشعب، بل كانوا جميعًا في مستوي واحد من حيث الكهنوت والسجود والاقتراب لله، كما نتعلم ذلك من أقوال الرسولين بطرس ويوحنا. فقد قال الرسول بطرس في رسالته الأولى «كونوا أنتم أيضًا مبنيين كحجارة حية بيتًا روحيًا كهنوتًا مقدسًا لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح» (١بط٢: ٥)، ثم أنشد الرسول يوحنا مع جميع المؤمنين تلك الترنيمة الجميلة قائلاً «الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكًا وكهنة لله أبيه. له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين. آمين» (ر١: ٥، ٦). يتضح لنا من ذلك أن الكهنوت الوحيد الذي تتكلم عنه كلمة الله في العهد الجديد هو الكهنوت العام لكل المؤمنين وليس كهنوتًا قاصرًا على هيئة من بين المؤمنين. وأقل خادم فقير في قصر رئيس الأساقفة إن كان قد غُسل بدم المسيح أصبح أهلاً للدخول إلى الأقداس والسجود داخل الحجاب مثل رئيس الأساقفة نفسه.

ولا توجد الآن دار خارجية للسجود كما كان في العهد القديم. وإقامة هيئة متيزة وفرزها كفئة كهنوتية لا محل له في العهد الجديد على الإطلاق. لقد كانت فكرة التمييز بين الكهنة والشعب موجودة

في الديانة اليهودية، ثم أسرع العقل البشري إلى تعظيم وتوسيع نطاق ذلك التمييز، حتى جاء نظام تعيين الأساقفة ورسامتهم فوطد دعائمه وثبت أركانه وعظم شأنه، حتى بلغ الأمر تدريجيًا إلى خلع لقب "رئيس الكهنة" أو "الحبر الأعظم" على الأسقف. وهكذا أيضًا أخذ الشيوخ، وبعد ذلك الشمامسة، يعتبرون أنفسهم، ويعتبرهم الشعب، هيئة مقدّسة كالأساقفة. ثم ادعت تلك الفئة الكهنوتية لنفسها مركز الوساطة وزيادة القرب إلى الله، كما ادعت السيادة والسلطان على الشعب. وبدلاً من أن الله يكلم الإنسان ويخاطب ضميره وقلبه مباشرة بواسطة كلمته، وهكذا يأتي بالقلب والضمير إلى محضره تعالى، تصدى الكهنوت متوسطًا بين الله والإنسان. وبهذه الكيفية غض البشر النظر عن كلمة الله، وأنكروا - بل وأبطلوا - عمليًا مقام الرب يسوع المبارك كرئيس كهنة لشعبه وكالوسيط الوحيد بين الله والناس *.

وهكذا نرى - بكل أسف - في الكنيسة ما رأيناه في الإنسان من آدم ومن بعده، أن كل ما عُهد به للإنسان لم يكن نصيبه سوى الخيبة والفشل. فمن الحين الذي أُلقيت فيه مسئولية حفظ الكنيسة كعمود الحق وقاعدته على عاتق الإنسان وتسلم زمام المسئولية في يديه لم نرَ غير الخراب والفشل. ولكن تبارك اسم إلهنا، فإن كلمته تبقى ثابتة وسلطانها لن يبطل. ومن أغراضنا الأساسية في كتابة هذه المذكرات لفت نظر القارئ إلى مبادئ ونظام الكنيسة كما تُعلمها لنا كلمة الله الثابتة الباقية إلى الأبد في العهد الجديد. قال الرب يسوع في حديثه مع المرأة السامرية «الله روح، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو ٤: ٢٤) أي أنه يجب علينا أن نسجد لله ونخدمه بحسب الحق، وتحت قيادة وإرشاد الروح القدس، ذلك إن كنا نريد أن نمجد اسمه ونسجد له سجودًا حقيقيًا ونخدمه خدمة مقبولة.

وقد ادعى كل كتبة الكنيسة تقريبًا أنه "لا الرب ولا رسله أعطوا أوامر جلية وتعليمات صريحة بخصوص النظام الذي يجب أن تكون عليه الكنيسة، وكيفية إدارة شؤونها، وأن هذه الأمور تُركت لحكمة وفطنة حملة وظائفها ومقتضيات الظروف والأزمنة"، وبهذا الزعم اتسع المجال جدًا أمام الإنسان وإرادته البشرية، وليس أحد منا يجهل ما نشأ عن ذلك من النتائج السيئة. فالإنسان طلب مجد ذاته، وغَضّ الطرف عن بساطة العهد الجديد وسبيل الاتضاع الذي انتهجه الرب ورسله، كما يظهر من غيرة بولس الرسول وإنكاره ذاته. وسرعان ما أصبحت العظمة العالمية والمجد الأرضي غرض الإكليروس ومطمح أنظارهم.

ونوضح فيما يلي ذلك أكثر، بكلمة وجيزة، عن وظيفة الأسقف، ولا شك أن ذلك يلذ لقرائنا كثيرًا.

ماذا كان الأسقف في الأيام الأولى

إن أبسط البسطاء يعرف عظمة وأبهة الأسقف، ولكنه قد لا يعلم كيف وصل ذلك الأسقف - الذي هو خادم المسيح وتابع صيادي الجليل البسطاء - إلى مثل هذا المركز السامي والشرف العظيم. كان عمل الأسقف في الأيام الأولى لمدة تربو على المائة سنة بعد أيام الرسل عملاً شاقًا متعبًا، ولكنه كان عملاً جليلاً. فكان يعتني ويهتم بأمر كنيسة واحدة، كانت في غالب الأحيان في بيت خاص، فلم يكن إذًا متسلطًا على المؤمنين «كمن يسود على الأنصبة» (١بط٥: ٣)، بل كان بالحقيقة خادمًا وعبدًا لهم، صالحًا للتعليم، يعلم الشعب ويزور المرضى، يعتني بالفقراء والمساكين. لا شك أن الشمامسة وغيرهم كانوا يساعدونه في إدارة شؤون الكنيسة التي كان يقوم بأهم أعمالها وأثقل أعبائها، ولكنه معَ ذلك لم تكن له أدنى سلطة لأن يصدر أوامر أو يصدّق عليها من غير موافقة المؤمنين. أي أنه لم يكن هناك فكر بوجود طبقة من الإكليروس أقل رتبة من الأسقف تكون تحت رئاسته وسيطرته.

ولم تكن في ذلك الوقت للكنيسة إيرادات سوى التبرعات التي كان يجود بها المؤمنون من تلقاء أنفسهم. ومع أنها كانت قليلة وزهيدة فقد كان يُسد منها أعواز الفقراء والمحتاجين، وما بقي، وهو شيء يسير جدًا، يُعطى للأسقف. ولكن من المرجح جدًا أن من كانوا يقومون بالخدمة في الكنيسة في أيام المسيحية الأولى استمروا يمارسون أشغالهم الخاصة وحرفهم السابقة، ويؤدون وظائفهم كما كانوا قبلاً لكي يعولوا أنفسهم وعائلاتهم، فقد ذكر الرسول بولس في قائمة الصفات التي يجب أن يتحلى بها الأسقف أن يكون «مضيفًا للغرباء» (١تي٣: ٢)، وكيف كان يتسنى له ذلك لو كان يعتمد في دخله على ذلك

---

* من أهم ما استند عليه النظام الأسقفي فكرة أن التمييز بين الأكليروس والشعب مأخوذ عن العهد القديم، بمعنى أنه كان لرئيس الكهنة وظيفته المعين لها، ثم كان الكهنة لهم وضعهم الخاص، ثم يأتي من بعدهم اللاويون ولهم خدمتهم المتميزة، وأخيراً يأتي الشعب في خضوع لهذا النظام الطبقي. وإن كان هذا النظام يعترف رسمياً بأن العهد الجديد يعلم بكهنوت كل المؤمنين، لكنه يستند على أن الآباء منذ العصور الأولى أقاموا الكنيسة على النظام اليهودي. (١/١١٦)

الإيراد الضعيف. ولم تُعيَّن للإكليروس مرتبات شهرية إلا في سنة ٢٤٥م، وحينئذ منعوا عن الاستمرار في ممارسة وظائفهم الحرفية.

وقرب نهاية القرن الثاني طرأت حوادث في تاريخ الكنيسة أثرت كثيرًا على ما كان لنظارها (أساقفتها) من التواضع والبساطة وأدت إلى إفساد النظام الكهنوتي. قال ودنجتون "إن هذا التغيير حدث نحو نهاية القرن الثاني، ومن الثابت أن أولى الشكاوى من فساد الإكليروس ابتدأت في ذلك الوقت".

بمجرد أن أصبح خدام الكنيسة لا يهتمون بمصالحها وصارت لهم مصالح شخصية غير فائدة الكنيسة وتقدمها حدثت تغييرات كثيرة وعظيمة، ولنذكر بعضًا من هذه الحوادث وأولها:

بدء عهد الأبروشيات

إن الأساقفة الذين سكنوا المدن كانوا السبب في إقامة اجتماعات جديدة في البلاد والقرى المجاورة لهم، وذلك بواسطة تبشيرهم أو تبشير غيرهم مثل الشيوخ والشمامسة وأفراد من الشعب. وظلت تلك الاجتماعات الحديثة العهد تحت عناية واهتمام كنائس المدن التي أوصلت إليها كلمة الخلاص وبشارة النعمة، ثم دعيت بعد ذلك كنائس. وبهذه الكيفية أُنشئت بالتدريج الأبروشيات كدوائر أسقفية. ثم ادعى أساقفة المدن حق الرسامة والتعيين في هذه الكنائس القروية، وأطلق على الشخص الذي يعهد إليه بأمر العناية بها لقب "أسقف منطقة"، وكانوا يُعتبَرون، من حيث المقام، في درجة متوسطة بين الأساقفة والشمامسة، أي أن منزلتهم دون الأولين وفوق الآخرين. فأدى تعدد الوظائف وكثرة الألقاب إلى الانشقاق والانقسام.

منشأ لقب "مطران"

انتظمت الكنائس التي تكوّنت وكانت تنمو بسرعة في كل أنحاء الإمبراطورية، وازداد عدد التلاميذ واتسع نطاق الكنائس، مما أدى بعض الأحايين إلى وجود بعض الاختلافات بالنسبة لبعض التعاليم التي لم يتيسر حلها دائمًا بواسطة أفراد الكنيسة الواحدة. ولهذا أنشأوا المجالس والمجامع التي كانت مؤلَّفة على نوع خاص من الذين كان لهم نصيب في الخدمة. وما لبث أن اجتمع مندوبو الكنائس حتى رأوا أن الحاجة تدعو إلى إقامة رئيس عليهم، يُسلَّم له زمام قيادة المجلس. ولا ريب أنه حيث لا يوجد اعتراف بسيادة الروح القدس في الكنيسة ولا خضوع لسلطانه فلا ننتظر أن نشاهد في المجلس الذي لا رئيس له سوى التشويش، ولا نتوقع غير الارتباك. وقد جرت العادة أن يُنتخب أسقف عاصمة المقاطعة رئيسًا للمجلس ويُمنح ذلك اللقب السامي الرفيع "أسقف مقاطعة". وكان متى رجع إلى مدينته بعد انفضاض المجلس يرى من المُتعذَّر عليه أن يتخلى عن ذلك اللقب الذي ما اتخذه إلا مؤقتًا لرياسة المجلس، فادّعى ذلك اللقب لنفسه بصفة مستديمة.

كان المؤمنون قبل ذلك الوقت يعتبرون أن الأسقف والشيخ واحد وعملهما واحد لا فرق بينهما البتة، وأن الكلمتين مترادفتان يؤديان معنى واحدًا *ولكن الأساقفة بعد ذلك الوقت زعموا أن الله أودعهم قوة فائقة وسلطانًا ساميًا في إدارة الكنيسة، وآلوا أن يحتفظوا لأنفسهم بهذه السلطة، فأبى عليهم الشيوخ هذا الحق المزعوم ورفضوا الرضوخ لسيادتهم، فقامت المنازعات العظيمة بين الأساقفيين والمشيخيين، ودامت إلى يومنا هذا. وسنتكلم عن هذه المنازعات بأكثر تفصيل وإسهاب فيما بعد. وما ذكرناه يكفي لأن يبين للقارئ بداية كثير من الأمور التي لا نزال نشاهدها إلى اليوم في الكنيسة الاسمية(١/٢١)، (١/٢٨)، (١/٢٦).

. . .

وإذ انتهينا من تلك النظرة التي ألقيناها على ما كان جاريًا داخل الكنيسة من البداية نعود الآن إلى التاريخ العام من وقت وفاة أوريليوس.

---

* جاء في تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة للعلامة يوحنا لورانس فان موسهيم سنة ١٨٧٥ ص ٣١ فقرة ٨ ما يطابق ذلك حرفياً حيث قال: إن رؤساء الكهنة كانوا يسمون قسوساً أو شيوخاً... وأحياناً يدعونهم أيضاً أساقفة، لأنه يتضح بأجلى بيان أنهما كلمتان مترادفتان مستعملتان في العهد الجديد لرتبة واحدة بعينها (راجع أع٢٠: ١٧، ٢٨؛ تي١: ٥، ٧؛ ١تي٣: ١).

الفصل التاسع

من عصر كومودوس إلى تولي قسطنطين

تمتعت المسيحية بعصر راحة وهدوء في عهد خلفاء أورليوس، حيث انشغل كومودوس الدنيء بشهواته ونزواته عن الاهتمام بأمر المسيحيين الذين عانوا آلامًا طويلة في زمن أبيه. ولم تكن هناك فرصة لكثيرين من الأباطرة لشن الغارة على المسيحية واضطهادها لقصر مدة حكمهم . قال ملمان: "إنه في خلال مدة تربو قليلاً عن قرن، أي من وقت تولي كومودوس إلى بدء عصر ديوكليشيان ظهر على مسرح القصر الإمبراطوري أكثر من عشرين إمبراطورًا، عبروا كالظل ومروا مرور الخيال، ثم أصبحت إمبراطورية العالم مطمح أنظار المهاجمين من الأجانب وغنيمة يتهافت عليها جنود فوضويون، لا يعرفون نظامًا ولا يخضعون لقانون، وتعدد الغزاة الذين كانوا في معظم الأحيان أجنبيين عن اسم روما ولغتها وشعبها - أفريقيين وبيرينيين وعرب وقوط - وقبضوا على صولجان العالم وامتلكوا ناصية الحكم الذي كان مزعزع الأركان. فتعاقب انتقال الملك من أسرة مالكة إلى أخرى مع انتهاء فترة معظم الأباطرة. فكان إذا حاول أحد الملوك الأجانب الذين ملكوا في روما إعادة تأسيس خلافة وراثية أنه يُقضى على تلك المحاولة بالفشل بسبب رذائل الوارث للملك".

هكذا لم ينحصر المُلك في أسرة واحدة، بل كان يتولاه ملوك عديدون من أسر مختلفة. وهكذا ظل المسيحيون في راحة واطمئنان وسلام مدة تناهز المائة عام. لا شك أنه وقعت حوادث اضطهاد واستشهاد أثناء ذلك العصر، ولكن تلك الحوادث كانت نتيجة العداء الشخصي وليست سياسة منظمة دبرتها الحكومة ضد المسيحيين. كان الغرض الأول والأعظم أمام الإمبراطور الذي يخلف آخر هو ضمان تثبيت عرشه المتنازع عليه، وبذلك لم يكن لديهم وقت يخصصونه لمحاربة المسيحيين ولعمل التغييرات الاجتماعية والدينية داخل الإمبراطورية.

وهكذا جعل رأس الكنيسة العظيم، الذي هو أيضًا «رأس فوق كل شيء للكنيسة»، جعل ضعف العرش وعدم ثباته واسطة غير مباشرة لتقوية الكنيسة ونجاحها. على أنه وإن كان حكم كومودوس حسنًا على وجه عام وآل إلى تقدم المسيحية، فقد وقعت في أثنائه حادثة نأتي على ذكرها.

كان أبولونيوس أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني مشهورًا بعلمه وفلسفته، وكان مسيحيًا حقيقيًا، وقد اعتنق المسيحية في ذلك الوقت كثيرون من أشراف روما هم وعائلتهم. فوجد مجلس الشيوخ أن شانه انحط أمام الناس بسبب اعتناق هؤلاء للمسيحية، وهذا أدى على ما يُظن إلى اتهام أبولونيوس ومحاكمته أمام القضاء. وكان أنطونيوس بيوس قد سن قانونًا ينص على أن من يتهم أحدًا بأنه مسيحي يعاقب عقوبات صارمة. ومع أن ذلك القانون كان غير معمول به في ذلك الوقت، فقد حكم القاضي بموجبه على الذي اتهم أبولونيوس بالموت، وتم تنفيذ الحكم فيه. ثم طلب القاضي من أبولونيوس أن يشهد عن إيمانه أمام مجلس الشيوخ والمحكمة، فأجاب الطلب واعترف بإيمانه بالمسيح بشجاعة، الأمر الذي كانت نتيجته قطع رأسه بمقتضى قرار من مجلس الشيوخ. و قد قال أحدهم إن هذه هي المحاكمة الوحيدة المسجلة في التاريخ التي حُكم فيها بالموت قضائيًا على كل من المتهم والمدعي. ولكن يد الرب كانت في الأمر وكانت فوق المشتكي والقاضي بيرينيوس، إذ من ذلك الوقت اعترف كثير من العائلات الشريفة والأسر الكبيرة بالمسيحية. ولم يقف الأمر عند تلك العائلات فقط بل وصل إلى العائلة الإمبراطورية المالكة، وأصبح بعض من أفرادها مسيحيون.

ثم مات كومودوس الحقير ابن أورليوس بعد أن ملك نحو اثنتي عشرة سنة، وكان موته بسبب تجرعه كأس نبيذ وُضع فيه السم. وبمجرد وفاته انتخب مجلس الشيوخ برتيناكس للارتقاء إلى العرش، ولكنه قتل في ثورة بعد ستة وستين يومًا من ملكه. وقامت بعد ذلك حرب أهلية، وأخيرًا قبض سبتيموس سيفيروس على زمام الحكم في روما.

المسيحية مدة حكم سيفيروس (١٩٤-٢١٠م)

كان سيفيروس في بداية مُلكه محبوبًا عند المسيحيين على نوع ما، فقد كان بروكولوس، وهو عبد مسيحي، هو الواسطة في شفائه من مرضه بواسطة دهنه بالزيت. فأعطى هذا الشفاء - الذي كان ولا شك نتيجة الصلاة - للمسيحيين نعمة عظمى في عيني سيفيروس، فمنح بروكولوس وظيفة سامية في العائلة الإمبراطورية، واستخدم الإمبراطور مرضعة مسيحية ومربيًا مسيحيًا لتربية الأمير الصغير وتثقيف عقله وتهذيب أخلاقه. كما أنه حمى كثيرين من الرجال والنساء من أعاظم أشراف روما وأكابرهم ومن أعضاء مجلس الشيوخ وزوجاتهم وعائلاتهم الذين اعتنقوا المسيحية من سخط الجماهير.

ولكن وأسفاه، كان هذا الإنعام والإحسان نحو المسيحيين نتيجة ظروف محلية ليس إلا، لأن القوانين لم تتغير بل بقيت كما هي، والاضطهادات العنيفة ضد المسيحيين لم تبطل نهائيًا بل حصلت في بعض المقاطعات.

الاضطهاد الذي حصل في زمن سيفيروس (٢٠٢م)

لم تأت السنة العاشرة من ملكه حتى ظهرت شراسة عقله المظلم نحو المسيحيين، ففي سنة ٢٠٢ بعد رجوعه من الشرق حيث نال انتصارات عظيمة زادت من كبريائه، مدّ يده وتجاسر بكل وقاحة على إيقاف تقدم المسيحية ونشر الإنجيل، إذ وضع قانونًا يمنع بمقتضاه على أي واحد من رعاياه من أن يكون يهوديًا أو مسيحيًا، وإلا عوقب بعقوبات شديدة. فأشعل هذا القانون نار الاضطهاد الشديد ضد المخلّصين الحديثين وضد المسيحيين عمومًا، وقوّى ساعد أعدائهم، فأخذوا يأتون معهم كل أنواع القسوة. وكان بعض الولاة يطلبون مبالغ طائلة من المسيحيين الخائفين في مقابل ألا يضطهدونهم، وقد رضخ بعضهم لهذا العمل حفاظًا على حياته وحريته، ورفض الآخرون واحتجوا علي ذلك بشدة. كما أعتبره المسيحيون الأكثر غيرة أنه حطة في شرف المسيحية ومقايضة معيبة لا توازي شيئًا من أمجاد وعظمة الاستشهاد.

ويظهر أن الاضطهاد لم يكن عامًا، ولكنه ترك آثاره الشديدة في مصر وأفريقيا. ففي الإسكندرية استشهد ليونيدس والد أوريجانوس المشهور، وكان الأحداث في المدارس من شبان وشابات معرّضين لضروب العذاب الأليم بسبب تعليمهم وتربيتهم تربية مسيحية، وقُبض على بعض مدرسيهم وأُحرقوا بالنار. واشتهر في ذلك الوقت الشاب أوريجانوس بنشاط وشجاعة أتباعه في تلك المدارس التي أصبحت مهجورة تقريبًا، فاشتاق أن ينهج منهج أبيه ولم يخجل أو يخف، بل رغب وسعى بالحري لينال إكليل الشهادة. أما في أفريقيا فقد ظهرت نعمة الله بوضوح أكثر في صبر وتجلد المتألمين القديسين واحتمالهم الاضطهادات العظيمة بشجاعة مقدسة وصبر إلهي، ولا يسعنا إلا أن نذكر بعض تفاصيل مختصرة.

الاضطهاد في أفريقيا

أجمع المؤرخون على أنه ليس هناك جزء من أجزاء الإمبراطورية الرومانية تأصلت فيه المسيحية وتثبتت أكثر من إقليم أفريقيا، الذي كان في ذلك الحين تابعًا للدولة الرومانية، آهلا بالسكان غاصًا بالمدن الغنية. وكان نموذج المسيحية في أفريقيا يختلف كل الاختلاف عنه في مصر. فالأول كان يدل على الجد والحماس، أما الثاني فكان نظريًا خياليًا بسبب سوء تأثير المبادئ الأفلاطونية التي كانت منتشرة في مصر. ونرى في ترتليان الذي كان من معاصري هذا الزمن صورة حقيقية توضح لنا هذا الفارق، ولكننا سنشاهد هذا الفارق أكثر فيما بعد. والآن لنتأمل في بعض الشهداء الأفريقيين.

بربتوا ورفقاؤها

من بين الذين قُبض عليهم وماتوا شهداء في أفريقيا أثناء هذا الاضطهاد بربتوا ورفقاؤها. وقد أفسح لهم جميع المؤرخون مكانًا لما تبرزه قصة استشهادهم من صيغة حق الختان بموت المسيح، وليس ذلك فقط، ولكن أيضًا لما فيها من إثارة للمشاعر

والعواطف الإنسانية. ففي استشهادهم نلمس جمال توافق أرق المشاعر الإنسانية مع أقوى عواطف المحبة المسيحية التي تزيد المشاعر الإنسانية رقة وتعمقًا، ثم تضحي بكل ذلك على مذبح التكريس الكلي لذاك الذي مات لأجلنا، قائلين مع الرسول بولس: «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل ٢: ٢٠).

ففي قرطجنة سنة ٢٠٢م قُبض على ثلاثة من الشبان، هم ريفوكاتوس وساتورنيوس وسكاندولوس، مع شابتين هما بربتوا وفيليشيتاس، وكانوا بعد يتعلمون مبادئ المسيحية طالبين أن يعتمدوا ليُقبلوا في الشركة.

وكانت بربتوا شابة من أسرة صالحة غنية وشريفة، تربت تربية حسنة وتزوجت زوجًا من الأشراف، وكان عمرها إذ ذاك قرابة الثانية والعشرين، وكانت أمًا طفلها صغير على صدرها، ويبدو أن جميع أفراد عائلتها كانوا مسيحيين عدا والدها الشيخ الذي كان لا يزال وثنيًا، أما زوجها فلم يُذكر عنه شيء. وكان والدها يحبها حبًا جمًا ويخشى كثيرًا عاقبة ما تجلبه آلامها لأجل المسيح على عائلته من العار والخزي. وما كان أشد الضغوط التي على تلك الشابة، فلم يكن أمامها الموت المريع المخيف فقط، بل أيضًا العواطف والرُبط الطبيعية التي كانت تربطها بأبيها وعائلتها.

فلما جيء بها أولاً أمام مضطهديها تقدّم إليها والدها المسن، وأخذ يحرضها على أن تصرح بأنها ليست مسيحية، فأجابته بهدوء مشيرة إلى إناء كان على الأرض: "هل يمكنني أن أدعو هذا الإناء بغير اسمه؟"، أجابها: "كلا". فقالت: "وهكذا أنا لا أستطيع أن أقول عن نفسي سوى إني مسيحية".

وبعد ذلك بأيام قليلة اعتمد هؤلاء الأحداث الذين وإن كانوا تحت حراسة بعض الجنود، إلا أنهم لم يكونوا قد أُودعوا السجن بعد، ولم يمضِ وقت طويل حتى زج بهم في الزنزانة. حينئذ قالت بربتوا: "إنـي مرتعدة ومرتعبة، إذ لم أُوجد أبدًا في ظلام حالك كهذا من قبل. فما أرعب هذا اليوم وما أشد هوله على نفسي! إن شدة الحرارة في الزنزانة المكتظة بالمسجونين، والمعاملة القاسية التي يعاملني بها الجنود، علاوة على جزعي الشديد على طفلي، كل هذا جعلني تعيسة شقية". وبينما هي في هذه الحال إذا بشمامسة الكنيسة قد تمكنوا من شراء مكان أفضل داخل السجن لينقل إليه المسجونون المسيحيون بعيدًا عن باقي المجرمين، وذلك بدفع مبلغ إلى ضباط السجن، الذين كانوا عادة يمنحون هذه الميزة نظير مبلغ من المال.

و قد سُرّت بربتوا حينئذ إذ أتوا إليها بطفلها الصغير، الذي ضمته إلى صدرها قائلة: "الآن أرى هذا السجن قصرًا". ثم أشيع بعد ذلك بقليل أنه سيؤتى بالمسجونين أمام القضاء ليحاكموا، فأسرع الأب إلى ابنته وهو مضطرب القلب ومنزعج الفكر وقال لها: "يا بنتي يا بنتي.. ارحمي شيخوختي وأشفقي على شيبة أبيك إن كنت لا أزال أستحق أن أُدعى لك أبًا. وإن كنت قد ربيتك حتى بلغت ريعان شبابك وزهرة عمرك، وآثرتك على سائر إخوتك، فلا تعرضيني إلى مثل هذا العار بين الملأ... انظري إلى طفلك ابنك الصغير هذا، الذي لا يستطيع أن يعيش طويلاً بعد موتك، واخفضي من عزيمتك وعلو همتك حتى لا تلقي بنا إلى الهلاك والدمار... إنك لو مُتِّ هكذا فلن يجسر أحد منا أن يرفع الرأس ويتكلم بين الناس بحرية". ثم بعد أن خاطبها بذلك أقبل عليها وقبّل يديها، وألقى بنفسه أمامها وأخذ يستعطفها بكل أساليب الرجاء ويلح عليها بدموع كثيرة، ولكنها مع أنها تأثرت شديد التأثير وتألمت عظيم الألم من منظر والدها العزيز ومن عواطفه الرقيقة من نحوها ومحبته القوية من جهتها، فقد كانت هادئة ثابتة، وكانت مهتمة بنوع خصوصي بما فيه مصلحة نفسه، ثم قالت: "إن شيبة والدي آلمتني إذ أرى أنه وحده من جميع أفراد أسرتي لا يسر ويفرح باستشهادي"، وخاطبته قائلة: "إن ما يحدث لي عندما يؤتى بي أمام المحكمة موكول لإرادة الله، لأننا لا نعتمد على قوتنا نحن ولا نثبت بها، بل بقوة الله وحده".

ولما جاء اليوم الأخير من محاكمتها اجتمع جمهور عظيم، وظهر ثانية ذلك الأب الشيخ لكي يبذل غاية الجهد، محاولاً لآخر مرة أن يتغلب على عزيمة ابنته، وقد أحضر لها ابنها الرضيع على ذراعيه ووقف أمامها. وهكذا وقفت هي أمام القضاء وأمام الجمهور المحتشد، تُعجبُ بها أجناد السماء وتعبس لها جنود جهنم. فيا لها من لحظة ويا له من منظر! منظر أبيها الشيخ وشيخوخته. منظر ابنها الرضيع. وما كان أشد التوسلات والتضرعات التي كان يقدمها لها أبوها، فتارة يستر حمها على شيبته، وأخرى على رضيعها، ثم خاطبها الوالي قائلاً: "أشفقي على شيبة أبيك وارحمي طفلك الضعيف العاجز". أما بربتوا فكانت هادئة ثابتة، وهي

كإبراهيم أبي المؤمنين لم يكن نظرها عن ابنها بل على إله القيامة. وإذ كانت قد استودعت ابنها لأمها وأخيها أجابت الوالي: "إني لا أستطيع أن أجيبك إلى ما تطلبه". فسألها الوالي: "هل أنت مسيحية؟". أجابته: "نعم أنا مسيحية". فتقرر مصيرها، وصدر الحكم عليهم جميعًا بأن يُلقوا في يوم الاحتفال السنوي بعيد ميلاد الأمير الصغير جيتا أمام الوحوش الضارية، ويحضرهم الشعب والجنود ليمتعوا أنظارهم بمشاهدة مصارعة تلك الوحوش معهم وفتكها بهم. ثم رجعوا إلى سجنهم وهم فرحون جزلون لأنهم استطاعوا أن يشهدوا لاسم الرب يسوع، ولأنهم حُسبوا أهلاً لأن يتألموا لأجله. ولما شاهد السجان بودا هدوءهم وثباتهم وعدم اضطرابهم أو خوفهم تأثر من منظرهم هذا وآمن بالرب يسوع.

وجاء الوقت المعيَّن، فسيقوا إلى الملعب، فكان يعلو وجوههم البِشر والسرور. وكانت العادة في قرطجنة في مثل هذه الظروف أن يلبس الرجال ثيابًا قرمزية مثل كهنة "زحل" والنساء يلبسن ثيابًا صفراء ككاهنات "الزهرة". ولكن المسجونين لما أريد إلباسهم مثل هذه الملابس احتجوا على ذلك قائلين: "إننا جئنا هذا المكان باختيارنا ولم نرضَ أن تُسلب حريتنا منا. لقد بذلنا أنفسنا وضحينا بحياتنا كي لا نضطر لمثل هذه الرجاسات". فاعترف الوثنيون بعدالة هذا الطلب وأعفوهم من لبس هذه الملابس، ثم قبَّل المسجونون بعضهم بعضًا بقبلة المحبة الأخوية متواعدين على لقاء اليقين بعد قليل، عالمين أنهم إن تغربوا عن الجسد فإنهم يستوطنون عند الرب. وتقدّموا إلى الموت بثيابهم البسيطة، وقد مجد الله كثيرون من المتفرجين عندما شاهدوا بربتوا ترنم وتغني للرب. وأُلقي الرجال للسباع والدببة والفهود، أما النساء فقد وضعن أمام بقرة هائجة متوحشة كانت تدفعهن هنا وهناك. وما لبثوا أن ارتاحوا من آلامهم ودخلوا إلى أفراح سيدهم.

هذه القصة العجيبة التي أوردناها باختصار لصحيحة وحقيقية وجديرة بالاحترام وثقة كل الأجيال. وإنما غرضنا الوحيد في ذكرها للقراء هو أن نقدم لهم صورة حية، امتزجت فيها أجمل أعمال الإيمان المسيحي مع أرق مشاعر المحبة المسيحية. ولكي نتعلم أن لا نكون متذمرين بما يصيبنا في طريقنا، بل نحتمل كل شيء لأجل المسيح لكي تضيء نعمته فينا وينتصر إيماننا ويتمجد إلهنا.

• • •

وبعد هذه الأمور بسنين قليلة وجه سيفيروس التفاته إلى بريطانيا، حيث كان الجيش الروماني منهزمًا هناك، فرأس الإمبراطور جيشًا قويًا جدًا وطرد أهل كاليدونيا الانفصاليين، واسترجع المملكة جنوبي سور أنطونيوس، ولكنه خسر جيوشًا كبيرة في المواقع المتوالية التي اضطر إلى الدخول فيها، لذلك لم يرَ من الحكمة والصواب أن يمتد في فتوحاته إلى ما وراء هذا الحد، وإذ شعر أخيرًا أن نهايته قد اقتربت اعتزل في يورك حيث قضى نحبه سنة ٢١١ ميلادية، وهي السنة الثامنة عشرة من ملكه.

تغير مركز المسيحية

تمتعت الكنيسة في المدة ما بين وفاة سبتيموس سيفيروس وتولية ديسيوس سنة ٢٤٩م. - ماعدا العهد القصير الذي حكم فيه ماكسيمان - بعصر هدوء وسلام على نوع ما. وقد حدث في حكم ألكسندر سيفيروس الهادئ تغيُّر عظيم في علاقة المسيحية بالهيئة الاجتماعية، إذ كان في جميع أطوار حياته تحت تأثير والدته "ممايا" التي وصفها يوسيبوس بأنها امرأة مشهورة بتدينها وتقواها، حتى أنها أرسلت واستدعت أوريجانوس عندما سمعت عنه، وتعلمت منه شيئًا من تعاليم الإنجيل، وصارت بعد ذلك شفوقة بالمسيحيين محسنة إليهم، ولكن ليس هناك ما يدل على أنها أصبحت هي نفسها مسيحية.

وكان ألكسندر يميل إلى المسيحية وكان في منزله كثيرون من المسيحيين، وكان يقبل الأساقفة ويرحب بهم حتى في السراي نفسها بصفة رسمية، وكثيرًا ما كان يستعمل كلمات ربنا المبارك ومخلصنا العزيز «كما تريدون أن يفعل الناس بكما افعلوا أنتم أيضًا بهم هكذ» (لو ٦: ٣١)، وقد كتب تلك الكلمات على جدران قصره وعلى مبان عمومية أخرى. ولكن جميع الأديان كانت في نظره سواسية تقريبًا، وقد منح المسيحية مكانًا في نظامه الديني المبتكر.

إقامة المباني العامة للاجتماعات المسيحية

قد وصلنا الآن إلى نقطة هامة في تاريخ الكنيسة تدل على تحول في مركزها في الإمبراطورية الرومانية، وهي إقامة الأبنية لأجل اجتماعات المسيحيين في عهد هذا الأمير الجليل. ومما يبرهن على ميل الإمبراطور وحبه للمسيحيين وعلى ازدياد قوتهم ونفوذهم في ذلك الحين ما حدث بشأن قطعة أرض من أراضي الملكية العامة برومية،

وقع اختيار جماعة من المسيحيين عليها لإنشاء كنيسة فيها، فقامت جماعة من تجار الغذاء تحتج على ذلك بدعوى أنها هي أولى بأخذها، فرُفع الأمر للإمبراطور للفصل فيه فمنح الأرض للمسيحيين، مفضلاً تخصيصها لعبادة الله بأي شكل كان على استعمالها لغرض آخر.

ومن ذلك الوقت أخذ المسيحيون يشيدون الأبنية العامة، أو ما يسمى بالكنائس المسيحية، ويمتلكون بعض الأراضي في كافة أنحاء الإمبراطورية. ولم يستطع الوثنيون أن يدركوا السبب في عدم وجود هياكل ومذابح عند المسيحيين الذين كانوا قبل ذلك الحين يعقدون اجتماعاتهم الدينية سرًا إذ لم يكن لهم مكان معيَّن مخصص لذلك، مع أنه حتى اليهود كانت لهم مجامع عامة جمهورية، أما هم فكانوا يعقدون اجتماعاتهم الهادئة السلمية في المنازل أو في سراديب تحت الأرض، أو في مدافن ومقابر موتاهم. وطالما كان من وراء خلوتهم هذه أمانهم وسلامتهم في تلك الأزمنة المضطربة والأوقات الصعبة. على أنه من الجهة الأخرى يجب أن نلاحظ أن عزلتهم هذه كثيرًا ما اتُخذت سلاحًا ضدهم كان أعداؤهم يشهرونه في وجههم، كما شاهدنا سابقًا كيف أن الوثنيين لم يقدروا أن يفهموا معنى لعبادة تخلو من هيكل، ولذا فقد اقتنعوا بسهولة أن تلك الاجتماعات الخاصة السرية التي كانت تُعقد تحت ستار الخفاء كانت ترمي لأردإ الأغراض وأسفل الغايات. ولكن هذا الاختفاء الذي كان فيه المسيحيون أخذ يزول شيئًا فشيئًا، وبزواله تغيرت حالة المسيحية في الخارج تغيرًا عجيبًا، لكنه لم يكن لصالح التقدم المسيحي والنمو الروحي كما سنرى الآن.

أنشئت مبان عظيمة لاجتماعات المسيحيين، وكانت أبوابها مفتوحة لترحب بجميع البشر، وقد اعتُرف بالمسيحية في ذلك الحين أنها أحد أنواع العبادة المتعددة التي لم تمنعها الحكومة. ولكن هذا التساهل مع المسيحيين والسماح لهم بتأدية عبادتهم ما كان إلا نتيجة ميل وعطف إسكندر إليهم، ولم يعمل تغييرًا ما لصالح المسيحيين في قوانين وشرائع الإمبراطورية. ولما مات انقضى زمان راحتهم وسلامهم، وكان موته بسبب مؤامرة دُبرت ضده من جنود منحطي الأخلاق فاسدي الآداب، لم يمكنهم أن يطيقوا النظام الملتزم الذي كان يسعى إلى إعادته، فقُتل في خيمته وهو في ريعان شبابه في السنة التاسعة والعشرين من عمره، وهي السنة الثالثة عشرة من ملكه.

معاملات الرب مع الإكليروس

ما كادت الكنائس الجديدة تُبنى، والأساقفة يُرحَّب بهم في المجالس والمجتمعات، ويدخلون القصور والسرايات حتى امتدت عليهم يد الرب، إذ جلس على عرش الإمبراطورية فلاح خشن الطباع فظ الأخلاق يدعى مكسيمين، كان هو المحرض الأكبر، إن لم يكن القاتل الفعلي للإمبراطور الفاضل الإسكندر. فبدأ مكسيمين حكمه بالقبض على جميع أصدقاء الإمبراطور السابق وقتلهم، واعتبر كل أصدقاء سابقه أعداء له، وأمر بقتل الأساقفة، لا سيما الذين كانوا مقربين إلى الإسكندر الرجل الفاضل. وامتدت يده بالنقمة على كافه المسيحيين من كل الطبقات، وإن كانت أشد على الإكليروس. ولم يكن ينكل بهم بسبب مسيحيتهم في حد ذاتها، إذ ما كان عنده أدنى اهتمام ولا مبالاة بدين من الأديان، وإنما كان حسدًا منه على المركز الذي وصلوا إليه في العالم، ويا له من أمر محزن للغاية.

وقد حدثت نحو ذلك الوقت زلازل مدمرة في جهات متعددة من الإمبراطورية، فكان ذلك باعثًا على إشعال نيران الاضطهاد الشديد والبغض العظيم ضد المسيحيين عمومًا. وقد كان غضب الشعب تحت حكم إمبراطور كهذا غضبًا لا يقف عند حد، حتى أن الولاة المعادين للمسيحيين كانوا يشجِّعونهم على ذلك، فأخذوا في حرق الكنائس الجديدة واضطهاد المسيحيين. وحسنًا أنه لم تطل مدة حكم ذلك الإمبراطور المتوحش، الذي أصبح لا يطاق، فخرج عليه جيشه وقتله في السنة الثالثة من ملكه، ورجع للمسيحيين عصر أكثر راحة وسلامًا من عصره.

تمتعت الكنيسة بهدوء وسلام في عهد جورديان سنة ٢٣٨-٢٤٤م، وعهد فيليب سنة ٢٤٤-٢٤٩م. ولكن كما رأينا مرارًا أن الحكومة المسالمة للمسيحيين لا تلبث أن تعقبها أخرى معادية لهم تظلمهم وتضطهدهم، وهذا ما حدث في ذلك الحين. فإنه برعاية وحماية فيليب تقدمت الكنيسة تقدمًا عظيمًا خارجيًا، ولكنها كانت قادمة على اضطهاد أشد وأعم من أي اضطهاد جازت فيه من قبل.

ومن الأسباب التي ساعدت على ذلك عدم حضور المسيحيين في الاحتفالات الوطنية التي أقيمت تذكارًا لمرور ألف عام على بناء مدينة رومية، وكان ذلك عام ٢٤٧م، وقد أقيمت فيها الألعاب العالمية ببراعة لا مثيل لها. ونظرًا لأن فيليب كان محبًا للمسيحيين فقد نجوا

من حنق كهنة الوثنيين وسخط العامة. ومع أن المسيحيين كانوا حينئذ هيئة معترفًا بها من الحكومة، ويتجنبون بكل ما في وسعهم كل الانشقاقات والتحزبات في الإمبراطورية، ويبتعدون عن الاختلاط بالأحزاب، إلا أنهم كانوا معتبَرين أعداء لبلادهم وسببًا في كل مصائبها وبلاياها. ثم تغيرت الحكومة بأخرى ضايقت كنيسة الله ضيقًا شديدًا.

الاضطهاد العام في عهد ديسيوس

انتصر ديسيوس على فيليب سنة ٢٤٩م وارتقى إلى العرش، وقد عُرِف مُلكه في تاريخ الكنيسة بالاضطهاد العام الأول. وقد كان هذا الإمبراطور يكره المسيحية ويحب الديانة الوثنية ويغار عليها، فوطد العزم على السعي لاستئصال الأولى وإعادة الثانية إلى مجدها القديم، فعمد إلى واسطة وهي إصدار أوامر إلى الولاة بتنفيذ القوانين القديمة ضد المسيحيين، وأنهم إن لم يستأصلوا جميع المسيحيين أو يرجعوهم بأنواع الآلام والتعذيب إلى دين آبائهم فإنهم يعرضون أنفسهم للقتل.

وقد كان هناك أمر إمبراطوري من عهد تراجان يقضي بعدم البحث والتفتيش على المسيحيين، كما يوجد قانون آخر ينهى عن تقديم تهم أو شكايات سرية ضدهم من الآخرين، ومن عبيدهم على وجه الخصوص كما رأينا في حالة أبولونيوس. وكان هذان القانونان مرعيين ومعمولاً بهما لدى أعداء الكنيسة، ولكنهما أُهملا تمامًا في هذا الحين، وأخذت السلطات تفتش على المسيحيين والمشتكون يشتكون عليهم ولا حرج، وحلت الجلبة والضوضاء في إثبات التهم وإدانة المسيحيين الأبرياء محل الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة. وحُكم في السنتين التاليتين على عدد عظيم منهم في كل البلاد الرومانية بعضهم بالنفي وبعضهم بالسجن وبعضهم بالتعذيب بجميع أنواع الآلام والعقاب حتى الموت، فكان هذا الاضطهاد أشد وأقسى مما سبقه. ولكن أشد هذه المناظر إيلامًا للقلب وأعظمها وقعًا على النفس هو حالة الضعف التي كان عليها المسيحيون أنفسهم، وهي النتيجة المحزنة للراحة والنجاح في العالم.

نتائج محبة العالم في الكنيسة

كل من يطالع تاريخ الكنيسة يرى التأثير الواضح الذي أثره العالم فيها. ولو أنه درس محزن، ولكن يجب على القارئ المسيحي أن يستفيد منه، لأن ما كان حينئذ فهو ما يكون الآن، وسيظل دائمًا. والروح القدس الساكن فينا ليس الآن بأقل حساسية مما كان في ذلك الوقت من جهة مبادئ العالم الباطلة. إن الذي عجز الشيطان عنه بقوة الأباطرة الظالمين والولاة القساة وإراقة الدماء البريئة وإشعال نار الاضطهادات، استطاع أن يعمله بجعل الكنيسة صديقة للعالم. وهذا شأنه من قديم الزمان، كلما أخفق في مسعاه باتباع سياسة الشدة لجأ إلى استعمال الحيلة، إذ جرب ذلك فوجد أنه في صورة الحية الخداعة أشد خطرًا منه في شكل الأسد الزائر. فاستخدم رضاء الأباطرة والعظماء على الكنيسة، وما كانوا يظهرون من العطف عليها ذريعة لحمل الإكليروس على عدم الحذر واليقظة والسهر، وجعلهم يضعون يدهم في يد العالم، ويتحدون معه وينخدعون بتملقاته. وصار للمسيحيين أن يبنوا هياكل كالوثنيين، ويلاقي أساقفتهم في قصور الأباطرة نفس الترحاب الذي يلاقيه كهنة الأوثان. فهذا الاختلاط مع العالم نقض نفس الأسس والدعائم التي شيدت عليها مسيحيتهم وهي الانفصال عن العالم. وقد اتضح ذلك لما هبت عواصف الاضطهاد الشديد بعد السكون الطويل وراحة المسيحيين وتقدمهم في العالم.

تمتع المسيحيون في أجزاء كثيرة من الإمبراطورية بسلام تام مدة ثلاثين عامًا، وكان لهذا تأثير غير حسن على الكنيسة عمومًا، إذ كان إيمان الكثيرين في ذلك الحين ليس مبنيًا على اقتناع داخلي قوي كإيمان المسيحيين في القرنين الأول والثاني للميلاد، بل على حقائق في العقل اكتُسبت من التربية المسيحية، وهذا هو الإيمان السائد في عصرنا الحاضر بدرجة كبيرة. فكان الاضطهاد الشديد الذي انتشر بعد انقضاء سنين كثيرة في الهدوء والسكينة أشبه بغربال تغربل فيه المسيحيون. وكان جو المسيحية قد أصبح فاسدًا، وتكلم سيبريان في الغرب وأوريجانوس في الشرق عن روح العالم الذي دخل الكنيسة، روح الكبرياء والبذخ والترف، وطمع الإكليروس، وحياة الشعب في الخمول والإهمال والابتعاد عن الدين.

قال سيبريان أسقف قرطجنة: "متى عُلم سبب الداء وُجد الدواء. إن الرب قصد أن يمتحن شعبه فسمح لهم بعصر راحة، فلما لم يحسنوا استخدامه ولم يمجدوه فيه ويعيشوا لاسمه كما ينبغي أرسل إليهم قضاءه ليردهم إلى طريق الإيمان الصحيح ويوقظهم من سباتهم العميق. إن خطايانا تستحق أكثر من ذلك، ولكن ربنا المنعم الرحيم قد أشفق علينا بأن جعل كل ما حدث لنا بمثابة امتحان لا اضطهاد. وإذ نسي المسيحيون ما عمله المؤمنون في

عصر الرسل وما يجب أن يعملوه دائمًا أخذوا يجدّون برغبة شديدة ويسعون بكل جهدهم حتى يزيدوا في ثروتهم وممتلكاتهم الأرضية. وكثيرون من الأساقفة الذين كان يجب أن يكونوا قدوة حسنة للآخرين في التعليم والسلوك أهملوا دعوتهم السماوية، وانشغلوا في الاهتمام بالمصالح العالمية".

كانت هذه حال كثير من الكنائس، فلا نستغرب إذًا مما حدث. أمر الإمبراطور بعمل فحص دقيق وتفتيش واسع عن كل من يشتبه فيه أنه يرفض السجود والعبادة حسب دين البلاد الرسمي، وقد طلب من المسيحيين أداء طقوس وفرائض الدين الروماني، فإذا رفضوا ذلك كانوا يهدّدون ثم يعذّبون لعلهم يضطرون إلى الخضوع، فإذا أصروا على البقاء على عزمهم وثبتوا في أمانتهم نفذ فيهم حكم الموت، سيما على الأساقفة الذين كان يكرههم ديسيوس أشد الكره. وقد جرت العادة في الجهات التي سرى فيها مفعول هذا المرسوم الإمبراطوري المريع أن يعين يوم يحضر فيه كل المسيحيين القاطنين في الجهة ليمثلوا أمام القاضي، وينكروا دينهم وينبذوا معتقداتهم ويقدموا البخور على مذبح الأوثان. فكثيرون لم ينتظروا حتى يأتيهم ذلك اليوم المخيف، فهربوا ونفوا أنفسهم إلى البلاد النائية، فصودرت أموالهم وممتلكاتهم وحظر عليهم العودة إلى بلادهم، فإن عادوا يوقع عليهم حكم الموت. أما الذين ظلوا ثابتين راسخين بعدما أتوا معهم من ضروب العذاب ألوانًا فألقوهم في غياهب السجون، حيث أضافوا إلى آلامهم ألم الجوع والظمإ، لعلهم يتغلبون عليهم فيحولونهم عن عزمهم ويزعزعونهم عن ثباتهم. وقد أفلحوا إذ جعلوا كثيرين منهم ممن كانوا أقل ثباتًا وأمانة يشترون بأنفسهم أو بواسطة أصدقائهم شهادة من القاضي بالإفراج عنهم دون أن يلتزموا بتقديم ذبائح للأوثان. ولكن هذا التصرف غير اللائق لم يرق في نظر الكنيسة وحسبته مصادقة منهم على العبادة الوثنية، وهروبًا من موقف الشهادة الحقيقية لله.

قال ديونيسيوس أسقف الإسكندرية في وصف تأثير هذا المرسوم: "إن كثيرين من ذوي الشهرة والجاه امتثلوا للأمر. بعضهم كان مدفوعًا بمخاوفه، وبعضهم بإلحاح أصدقائه، وكثيرون منهم علا وجوههم الاصفرار والرعب فوقفوا حيارى، فلا هم يرغبون في الإذعان لتلك الفرائض الوثنية، ولا هم مستعدون للمقاومة حتى الموت. وآخرون احتملوا تعذيبهم إلى درجة معينة ثم خاروا".

كانت هذه بعض النتائج المؤلمة المحزنة التي نتجت عن التساهل في مشاكلة وممالأة هذا العالم الحاضر الشرير، فكم لا يليق بنا نحن الذين نعيش في زمن الحرية الدينية أن نقع باللائمة على ضعف أولئك الذين عاشوا في أزمنة صعبة كهذه، بل علينا أن نشعر بالخجل والعيب كأنه عيبنا نحن، ونصلي حتى يحفظنا الرب من الاستسلام، بأي صورة كانت، لأشياء هذا العالم الجذاب.

قوة الإيمان والتعبد المسيحي

على أن هناك وجهًا آخر منيرًا غير هذا الوجه المظلم الذي كنا ننظر إليه. يخبرنا ديونيسيوس نفسه أن كثيرين كانوا كأعمدة للرب، صاروا أقوياء فيه وأصبحوا شهودًا أمناء لنعمته. ويذكر من بينهم ولدًا يناهز الخامسة عشرة من عمره اسمه ديوسكوروس، كان يجيب على كل الأسئلة بكل حكمة، وأظهر ثباتًا عجيبًا بالرغم من تعذيبه، حتى لفت إليه نظر الحاكم نفسه ونال إعجابه، فأمر بإخلاء سبيله على أمل أن يرجع عن خطئه متى شب وكبر. وامرأة أحضرت إلى المذبح بواسطة زوجها، وأجبرت على أن تقدم بخورًا بأن أمسك واحد بيدها بعد أن وضع فيها البخور حتى يكون كأنه مقدم منها، فكانت تصرخ قائلة: "إني لم أقدمه أنا بل أنت (مشيرة إلى الماسك بيدها) الذي قدمته"، فحكم عليها بالنفي.

وكان المسيحيون في سجن قرطجنة يعذّبون بتعريضهم لحرارة النار، وبالجوع والعطش حتى يضطروا إلى الإذعان والخضوع، ولكنهم كانوا يرون الموت واقفًا لهم بالمرصاد ويقفون ثابتين على اعترافهم بالمسيح. وقد كتب بعض المعترفين بالمسيح الذين كانوا مسجونين مدة سنة في سجن رومية إلى الأسقف سيبريان يقولون له: "أي نصيب أمجد وأعظم غبطة للإنسان من الاعتراف بالرب الإله وسط التعذيب ومخاوف الموت نفسه؟ وأي شرف أسمى للمؤمن مهما تمزق جسده وكادت تزهق روحه من الاعتراف بالمسيح ابن الله؟ وأي مقام أرفع للمسيحي من أن يصبح شريكًا في آلام المسيح لأجل اسمه؟ إننا وإن كنا لم يُسفك دمنا بعد إلا أننا مستعدون لسفكه، فصلّ أيها العزيز سيبريان حتى يتنازل الرب ويقوي ويشدد إيماننا يوميًا أكثر فأكثر بشدة قوته، وحتى يقود أخيرًا - وهو خير القائدين - أجناده الذين يدربهم ويعلمهم ويتقدم بهم إلى ميدان القتال الذي أمامهم، مسلحين بتلك الأسلحة الإلهية التي لن تقهر أبدًا".

وكان من بين الذين ذهبوا ضحية هذا الاضطهاد المريع فابيان أسقف رومية وبابيلاس أسقف أنطاكية وإسكندر أسقف أورشليم. أما سيبريان وأوريجانوس وجريجوري وديونيسيوس وغيرهم من مشاهير الرجال فقد تعرضوا للتعذيب الشديدة والنفي، ولكنهم نجوا بحياتهم.

وكانت كراهية الإمبراطور بالغة أشدها ضد الأساقفة، ولكن من رحمة الرب كان ملكه قصيرًا إذ قُتل قرب نهاية سنة ٢٥١م بينما هو مشتبك في حرب ضد القوط (١/٢٨)، (١/٢١)، (١/٢٥).

استشهاد سيبريان في عهد فاليريان

لما كان سيبريان من الأشخاص المشهورين فيما يختص بتدبير الكنيسة وسياستها وجب على قرائنا الإلمام بحياته، وملاحظة هدوءه ورباطة جأشه في انتظار الاستشهاد.

وُلد سيبريان في مدينة قرطجنة حوالي سنة ٢٠٠ ميلادية، ولكنه لم ينل الإيمان حتى سنة ٢٤٦م. ومع أنه كان في ذلك الوقت في سن الرجولة الكاملة إلا أن نشاط الشباب وحميته كانا لا يزالان باقيين فيه. وقد كان مشهورًا بكونه مسيحيًا تقيًا غيورًا ومعلمًا بليغًا، فقد أخذ بسرعة وظيفة شماس، ثم شيخ، وفي سنة ٢٤٨م انتُخب أسقفًا بمقتضى رغبة الشعب العامة. وقد تعرضت خدمته للاضطهاد الذي حصل في حكم ديسيوس، ولكن الرب حفظ حياته حتى سنة ٢٥٨م. وفي صباح يوم ١٣سبتمبر من تلك السنة جاءه ضابط ومعه بعض الجنود ليستدعوه إلى الحاكم، فعلم سيبريان بدنو رحيله، ولكنه أجاب طلبهم بوجه تلوح عليه علامات البشر والثبات. ولما وصل إلى هناك أجّل الحاكم محاكمته يومًا. ولما سرت الأخبار بالقبض عليه اجتمعت المدينة كلها إليه، أما أهله فقد قضوا طوال ليلتهم أمام بيت الضابط الذي قضى ليلته فيه.

وفي صباح اليوم التالي اقتادته قوة كبيرة من الجنود وهو محاط بجمع غفير إلى سراي الحاكم، وبعد وقت قصير حضر الحاكم وسأله: "هل أنت تاسيوس سيبريان أسقف تلك الجماعة الشريرة؟". فأجابه سيبريان بالإيجاب، فقال له: "إن الإمبراطور المقدس يأمرك أن تقدم ذبيحة". فأجابه: "إني لا أقدم ذبيحة". فقال له الحاكم: "فكر في الأمر مليًا". فأجاب سيبريان: "إن الأمر لا يحتاج إلى تفكير. نفذ ما عندك من أوامر".

وبعد أن تداول الحاكم مع مجلسه نطق بالحكم الآتي: "إنك يا تاسيوس سيبريان قد عشت زمنًا طويلاً في الهرطقة، وأزغت وراءك قومًا كثيرين إلى طريقك الشريرة، وبذلك أظهرت نفسك في مركز العداء للآلهة ولقوانين الإمبراطورية. وعبثًا حاول الأباطرة الأتقياء القديسون أن يردوك إلى عبادة أجدادك. وحيث أنك كنت زعيمًا وقائدًا لهذه البدع الشريرة فيجب أن تكون الآن عبرة لأولئك الذين أغويتهم وقدتهم إلى اجتماعاتك المخالفة للقانون - فبناء عليه يجب أن تكفر عن جريمتك بإهراق دمك".

ولما نطق الحاكم بهذا الحكم أجاب سيبريان: "مجدًا لله". وقال جمهور الإخوة الحاضرين: "نريد أن نستشهد معه". بعد هذا حملوا الأسقف إلى حقل مجاور حيث قطعوا رأسه.

ومما يجدر بالذكر أن الحاكم مات بعد أيام قلائل من استشهاده، وفي السنة التالية هزم الفرس الإمبراطور فاليريان وأخذوه أسيرًا، وعاملوه بغلظة واحتقار ليس لهما مثيل في تاريخ روما. وقد أثرت الميتات الشنيعة التي ماتها كثيرون من مُضطهَدي المسيحية على الرأي العام، وحملت على الاعتقاد بأن أعداء المسيحية هم أعداء السماء. ولذلك بعد هذا الهياج لم يعترض الكنيسة ما يهدد سلامتها وتقدمها مدة أربعين سنة تقريبًا. فيحسن بنا أن نتجاوز عن تلك المدة الآن، ونأتي إلى المعركة النهائية بين الوثنية والمسيحية.

حالة المسيحية العامة

قبل أن نورد بيانًا وجيزًا عن الاضطهاد الذي حدث في مدة حكم ديوكليشيان يحسن بنا أن نراجع تاريخ وحالة الكنيسة وقت أن دنت هذه المعركة الأخيرة. ولكيما تحصل على حكم صحيح عن حالة الكنيسة وتقدمها في نهاية ثلاثمائة سنة من تاريخها علينا أن نتأمل في قوة الأعداء الذين كان عليها أن تقاومهم.

١- الديانة اليهودية: قد رأينا على نوع ما، وبالأخص في حياة الرسول بولس، أن الديانة اليهودية كانت أول الأعداء الألداء للمسيحية. فمن أول نشأة المسيحية كان عليها أن تقاوم التعاليم التي كان يدخلها المؤمنون من اليهود، والعداوة الشديدة التي كان يظهرها غير المؤمنين منهم. وأينما امتدت المسيحية كان يتابعها هذا العدو القاسي. وبعد موت الرسل عانت الكنيسة آلامًا كثيرة من جراء الرضوخ لضغط الديانة

اليهودية حتى رجعت أخيرًا إلى كثير من أنظمتها، وبذلك قد وضعت الخمر الجديدة في زجاج عتيقة.

٢- الفلسفة الشرقية: في أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني أخذت المسيحية تخوض غمار النزاع مع مبادئ الفلسفة الشرقية، وأول معركة دارت بينهما أثارها سيمون الساحر كما هو مكتوب في سفر الأعمال. ومع أن الرجل كان سامريًا أصلاً، ولكن يُظن أنه درس سائر الأديان الشرقية في الإسكندرية، وإذ رجع إلى وطنه أظهر معرفة عظيمة وقوة فائقة، وغرّر بالسامريين قائلاً إنه شيء عظيم، وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير قائلين: «هذا هو قوة الله العظيمة». من ذلك نستطيع أن ندرك التأثير الذي كان له على أذهان البسطاء، ونعرف قوة الشيطان العظيمة التي كان على الكنيسة الأولى أن تقاومها في شخص هؤلاء الناس. وفضلاً عن ادعاء سيمون أنه قوة الله العظيمة فقد ادعى أيضًا أنه جمع في شخصه كل كمالات اللاهوت، لذلك يكتب عنه المؤرخون كأب جميع الهراطقة والمشعوذين. وبعد أن انهزم جهارًا بكيفية مخجلة أمام بطرس الرسول، يُقال إنه ترك السامرة وقصد بلدانًا أخرى كثيرة، منتقيًا منها ما لم تصل إليه بشارة الإنجيل. ومن ذلك الوقت ابتدأ يُدخل اسم المسيح في سحره محاولاً بذلك أن يخلط الإنجيل بتجديفاته ويربك عقول الناس. ولا نريد أن نذكر شيئًا من أعماله السحرية وادعاء هبوطه من السماء وما أشبه، إلا أننا نقول أنها أعاقت تقدم الإنجيل وبالأخص في البلاد الشرقية.

وبعد أن مات سيمون قام أتباعه، وبالأخص شرنثوس وفالنتوس، ونظموا مبادئه ونظرياته جاعلين إياها أساسًا لذلك النوع من الغنوسية، الذي كان على الكنيسة أن تقاومه في القرن الثاني. ومعنى هذا الاسم "الادعاء بسمو المعرفة". ويظن أن الرسول بولس كان يشير إليهم في تحذيره لابنه تيموثاوس من «العلم الكاذب الاسم».

ومع أنه لا يتسع لنا المجال في هذا المختصر أن نسهب في شرح مبادئ هذه الشيعة الكثيرة الانتشار، إلا أنه يلزمنا أن نعرّف قراءنا شيئًا عن ماهيتها، إذ قد كانت وقتًا من الزمان من ألد خصوم المسيحية. ولكن لما انتشرت مبادئ الإنجيل تقهقرت الغنوسية وآلت إلى الفناء. ويندمج تحت اسم الغنوسية كل الذين حاولوا في عصور الكنيسة الأولى أن يدخلوا في مبادئهم الفلسفية بعضًا من التعاليم اليهودية والمسيحية المشهورة الملائمة لهم، حتى أصبحت الغنوسية بذلك خليطًا من الفلسفة الشرقية وكل من اليهودية والمسيحية. وبهذه البدعة الشيطانية فقد الإنجيل جمال بساطته في عدة أماكن لمدة طويلة، وخفيت حقيقة تعاليمه عن أذهان الكثيرين. فما أقوى وأعمق هذا المسعى من جانب الشيطان الذي أفسد به تعاليم الإنجيل وقلبها رأسًا على عقب. فمن قبل العصر المسيحي (ويرجح أنه من قبل السبي) اختلطت الديانة اليهودية بالغنوسية. ومن بدء نشأة المسيحية ابتدأت الغنوسية تقتطف كثيرًا من أسمى مبادئها وتدخله على نظمها.

ويرجع أصل الغنوسية إلى ديانات الشعوب الشرقية كالكلدانية والفارسية والمصرية وغيرها. ولم تكن مبادئها دنيئة أو فاسدة، ولكن كل كتبة تاريخ الكنيسة كانوا يسمونها هرطقة، وذلك لأنه في أيام المسيحية الأولى كان يطلق لقب هرطقة على كل من يدخل اسم المسيح في أي نظام فلسفي. ويجب أن يثبت ببالنا من الجهة الأخرى أن مبادئ الفلسفة اليونانية، وبالأخص الأفلاطونية قد دخلت إلى الكنيسة في أول عصورها، فعكرت مجرى الحق الصافي وبقيت وقتًا تهدد فعل الإنجيل وتأثيره على الناس.

أوريجانوس

ولد أوريجانوس في مدينة الإسكندرية مهد الغنوسية حوالي سنة ١٨٥م. وهو الأب الذي وضع بل أتم النظام السكندري لتفسير الكتاب المقدس. وقد لاحظ في وضعه ثلاثة أوجه – الوجه الحرفي، والأدبي، والروحي. وذلك بالمقابلة مع جسم الإنسان ونفسه وروحه. وقصد أن الوجه الحرفي يفهمه أي قارئ منتبه، والأدبي يفهمه من كان أكثر ذكاء، أما الروحي فلا يُدرك إلا بنعمة الروح القدس التي تُنال بالصلاة.

وكان جل الغرض الذي يرمي إليه هذا المعلم الشهير هو التوفيق بين المسيحية والفلسفة، الأمر الذي كان بمثابة الخمير في مدرسة الإسكندرية، فسعى في جمع الجزئيات المتفقة مع الحق في جميع الفلسفات وأتحدها في قالب مسيحي، حتى إذا ما قدم الإنجيل للفلاسفة لا يجدون فيه ما يخالفهم أو ينفرهم، بل يضمن قبول اليهود والغنوسيين والعلماء الوثنيين له. ولكن هذا المبدأ ونظام التفسير الذي وضعه قد قاداه إلى الوقوع في كثير من الأخطاء العملية

والتعليمية. ومع أنه كان في شخصه مسيحيًا غيورًا متعبدًا محبًا بالحق للرب يسوع، إلا أن انحراف مبادئه قد سبب ضعفًا إن لم نقل انقلابًا في الإيمان بحق الله الثابت، وخصوصًا باستعمال الاستعارة والكتابة في الأمور الجلية، وتحويل كل الأمور المادية إلى روحية.

فساد المادة

كان هذا المبدأ أول مبادئ الغنوسية بكل شيعها، وقد عم كل الأديان الشرقية، وكان هو الأصل في تلك النظريات الخاصة بتكون العالم المادي وكل الكائنات المجسَّمة. وبمقتضى هذا المبدأ ابتدأ الناس يعتقدون أن أجسادهم أصلها شرير وفاسد، فنزعوا إلى الزهد والتقشف وقمع الأجساد بواسطة التنكيل بها، حتى تستطيع عقولهم وأرواحهم، التي اعتقدوا أنها طاهرة وإلهية، أن تتمتع بالتأمل في الأمور السماوية بأكثر حرية.

ولسنا بحاجة إلى أن نوضح المزيد في هذا الصدد، حتى يعرف القارئ أن مبدأ منع زواج الإكليروس الذي ظهر بعد ذلك الوقت، وكل نظم النسك والرهبنة لا ترجع إلى كلمة الله، بل إلى الفلسفة الشرقية *.

• • •

٣-الديانة الوثنية: لم يكن على الكنيسة الأولى أن تنازع الديانة اليهودية والفلسفة الشرقية فقط، ولكنها قد كابدت مشقة كبرى من جراء عداء الديانة الوثنية لها.

هذه كانت قوات الشيطان الثلاث المريعة التي بها حمل على المسيحية القرون الثلاثة الأولى من تاريخها. ففي سبيل القيام بتنفيذ المأمورية السامية التي تلقتها الكنيسة من الرب «تلمذوا جميع الأمم... واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» قد واجهت أولئك الأعداء وتغلبت عليهم، ولو أنها عاشت بالانفصال عن العالم والأمانة التامة لمخلِّصها المجيد لما أمكن لشيء ما أن يعيق تقدمها ونموها. إلا أنه بكل أسف ما لم يمكن أن يعمله أولئك الأعداء الأقوياء من التغلب على الكنيسة أمكن لغرور العالم أن يعمله. وهذا يأتي بنا إلى التأمل الختامي في حالة الكنيسة عند نشوب الاضطهاد العظيم.

* من يريد زيادة التفصيل والتوسع في معتقدات الشيع المختلفة عليه أن يطالع (قاموس الكنائس والشيع المسيحية)، لواضعه مارسون روبرتس، المجلد الأول صفحة ٩٤، ونيندر، المجلد الثاني، صفحة ٣٨٧، وملمان، مجلد٢ صفحة٨٠ وموسهيم مجلد١ صفحة١١٧.

لمحة من حال الكنيسة (٣٠٣م)

اعتلى ديوكليشيان أريكة الملك عام ٢٨٤م. وفي سنة ٢٨٦ أشرك معه في الحكم ماكسمليان بلقب "أوغسطس"، ثم انضم إليهما سنة ٢٩٢م جاليريوس وقسطنطينوس بلقب "قيصر". وهكذا أصبح للإمبراطورية الرومانية في بداية القرن الرابع أربعة حكام: اثنان بلقب أوغسطس، واثنان بلقب قيصر.

ومع أن ديوكليشيان كان يؤمن بكثير من الخرافات، لكنه لم يكن يحمل أي عداء للمسيحيين. وكان قسطنطينوس والد قسطنطين الكبير صديقًا لهم، فبدت الأحوال المسيحية في بادئ الأمر بمظهر يدعو إلى السرور والارتياح. ولكن كهنة الوثنيين كانوا حاقدين على المسيحيين، فعز عليهم أن يروهم يتمتعون براحة وسلام، فأخذوا يدسون الدسائس لهم ويدبرون الحيل للإيقاع بهم، لأنهم علموا أن تقدم المسيحية وانتشارها يفضيان إلى سقوطهم وضياع سلطانهم وكرامتهم.

وسارت الكنيسة على مدى خمسين سنة كاملة دون أن يعكر صفوها أي تداخل من جانب الحكومة في شؤونها، وبذا بلغ المسيحيون في تلك الفترة درجة لا مثيل لها في التقدم والنجاح، ولكنه لم يكن إلا تقدمًا ظاهريًا، إذ كانوا قد ابتعدوا كثيرًا عن طهارة وبساطة إنجيل المسيح! وأنشأت في معظم بلاد الإمبراطورية كنائس فخمة البناء، وأدخل فيها استعمال الملابس الفاخرة والأواني المصنوعة من الذهب والفضة. ودخلوا إلى المسيحية أفواجًا من كل طبقات الهيئة الاجتماعية، حتى أنه يلوح أن امرأة الإمبراطور وابنته فاليريا زوجة جاليريوس كانتا من بين من دخلوها. وشغل المسيحيون مراكز عالية في الحكومة وفي البيت الإمبراطوري، وعهدت إليهم الوظائف السامية ذات السلطة العليا في الأقاليم والجيش. ولكن وا أسفاه، لقد نجم عن هذا التقدم الخارجي الطويل الأمد النتائج المعتادة، فضعف الإيمان وفترت المحبة، ودخلت الكبرياء وسرت المطامع، وابتدأت السيادة الكهنوتية تمارس سلطتها المغتصبة، وادعى الأساقفة سلطان الوكالة عن الله. وتطرق الحسد والخصام إلى المجتمعات الهادئة، فسلباها هدوءها وشوشا على سلامها، وأدت المجادلات والمحاورات إلى مقاومة علنية بعض الأحيان. فلما رأى الله أن سلام الخمسين سنة أفسد الجو المسيحي

بأسره سمح بهياج ديوكليشيان وغضبه لكي ينقي ويطهر هذا الجو. هذا ما اعترف به المسيحيون أنفسهم بكل حزن في ذلك العصر، إذ أدركوا في ضوء القضاء الإلهي الأخطار والمصائب العديدة التي كانوا معرضين لها بسبب ذلك.

أعمال ديوكليشيان ونهاية دور سميرنا

اجتازت الكنيسة حتى ذلك الوقت في تسعة اضطهادات رسمية، في عهود نيرون ودوميتيان وتراجان وماركوس أوريليوس وسيفيروس وماكسيمين وديسيوس وفاليريان وأوريليان. والآن جاءت الساعة الرهيبة التي ستمر فيها عشر سنين في الاضطهاد العاشر، الذي هو أشدها هولاً ورعبًا. وقد شاهدنا في أوائل الدور السميرني أنه قد انقضت عشرة أعوام كاملة بين بداية الاضطهاد الذي حصل في حكم أوريليوس في الشرق ونهايته في الغرب. ويمكن للقارئ المسيحي أن يتتبع فقط تشابيه أخرى يشير إليها «ضيق العشرة الأيام» ونحن إنما قصدنا مجرد التلميح إلى هذه الملاحظة دون أن نحتم على الآخرين قبولها، وإن كنا على يقين تام من أن الرسالة إلى سميرنا تشير إليها.

لحكم ديوكليشيان أهمية تاريخية عظمى، وكان من أول مميزاته إدخال نظام جديد في الحكومة الإمبراطورية. ونقل ديوكليشيان العاصمة من مدينة رومية القديمة إلى نيكوميديا، التي جعلها مقرًا لإقامته. وهناك جمع حوله حاشية في مظهر من مظاهر العظمة الشرقية، ضمت رجال العلم والفلسفة، أما الفلاسفة الذين كانوا يكثرون من الحضور في مجلسه فكانوا مملوئين عداوة وبغضة نحو المسيحية، فاستخدموا ما كان لهم من نفوذ عند الإمبراطور في محاولة استئصال شأفة دين طاهر نقي لا يوافق أذهانهم الفاسدة ولا يتفق مع مبادئهم الباطلة، فأدى هذا إلى آخر وأعظم اضطهاد ضد المسيحيين. وبما أن معظم تواريخ ذلك العصر مأخوذة عن كتابات يوسيبيوس ولكتانتيوس، اللذين كتبا في ذلك الحين، وعاينا اضطهادات كثيرة، فما علينا إلا أن نقتبس شيئًا مما كتباه في هذا الخصوص، مع الإشارة إلى أقوال بعض مؤرخين سبق ذكرهم.

لما لم ينجح الكهنة الوثنيون والفلاسفة الذين سبق الإشارة إليهم في السعي لدى ديوكليشيان، ولم يوفقوا في تحريضه على إثارة نار الحرب على المسيحيين، عمدوا إلى الالتجاء إلى صهره جاليريوس قيصر لإتمام مقصدهم. وهذا الرجل القاسي الذي كان مدفوعًا من جهة بميله تحت تأثير والدته، التي كانت من أشد الوثنيين اعتقادًا في الخرافات، ومن جهة أخرى بإيعاز من الكهنة، أخذ يلح على صهره الإمبراطور ديوكليشيان حتى فاز بغرضه، ففي شتاء عامي ٣٠٢م. و٣٠٣ جاء جاليريوس إلى نيكوميديا وزار ديوكليشيان، وكان غرضه العظيم أن يثير الإمبراطور الشيخ ضد المسيحيين، وقد قاوم ديوكليشيان هذا العمل ردحًا من الزمن، إذ كان يكره وسائل إراقة الدماء التي رسمها ودبرها شريكه مهما كانت البواعث. ولكن والدة جاليريوس التي كانت عدوًا لدودًا للمسيحيين استخدمت كل نفوذها على ابنها، وأوقدت نار العداء والبغضاء في صدره من نحوهم ليؤثر على ذهن ديوكليشيان ويقنعه بالقيام حالاً بوسائل عدائية فعالة، فخضع ديوكليشيان أخيرًا ووافق على الاضطهاد بشرط عدم قتل نفوس المسيحيين. وقبل ذلك كان جاليريوس قد قام وأبعد من الجيش كل الذين رفضوا تقديم ذبائح، وكان نصيب بعضهم الفصل ونصيب بعضهم الموت.

المرسوم الأول

حوالي ٢٤ فبراير صدر المرسوم الأول وكان يقضي بأن كل الذين يأبون تقديم ذبائح يفقدون وظائفهم وأملاكهم ورتبهم وامتيازاتهم المدنية، وأن العبيد الذين يصرون على الاستمرار في اعترافهم بالإنجيل يُحرمون من رجاء تحريرهم، وأن المسيحيين من كل الطبقات يكونون عرضة للتعذيب، وأن الكنائس تُهدم، والاجتماعات الدينية تُمنع، والكتب المقدسة تُباد *. ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن محاولة إبادة الكتب لم تحصل في أي اضطهاد سابق، بل كانت عملاً جديدًا في هذا الاضطهاد، ولا شك أنه كان نتيجة اقتراح الفلاسفة الذين كثر ترددهم على سراي الملك، لأنهم علموا أنه لا قيمة لكتاباتهم ولا تأثير لأقوالهم طالما كانت الأسفار المقدسة وكتب أخرى دينية متداولة بين الناس.

وبمجرد أن حصلت الموافقة على اتخاذ هذه الإجراءات هجم

* قد يهم القارئ أن يعرف أن أقدم النسخ الخطِّية للعهد الجديد الباقية إلى الآن لا يرجع عهدها إلا إلى منتصف القرن الرابع للميلاد، وسبب ذلك إبادة الكتابات المسيحية خصوصاً الأسفار المقدسة في عهد ديوكليشيان في النصف الأول من ذلك القرن. ولا يخفى أنه قد بُذلت مجهودات كثيرة في عهد قسطنطين لعمل نسخ مضبوطة ويعتقد تنشندورف أن النسخة السينائية هي إحدى تلك النسخ.

القوم على كنيسة نيكوميديا ونقضوا أبنيتها في ساعات قليلة، وأحرقوا الكتب المقدسة. وفي جميع أنحاء الإمبراطورية قُوضت أركان الكنائس المسيحية، وسُلمت الكتب المقدسة إلى الضباط المرسلين من قبل الإمبراطور. ولم يُنفذ الشرط القاضي بعدم قتل المسيحيين، بل قُتل كثيرون منهم لامتناعهم عن تسليم الكتب المقدسة لإحراقها، بينما الذين رضخوا لهذا الأمر اعتبرتهم الكنيسة خائنين للمسيح، وكانوا سببًا فيما بعد في متاعب كثيرة من جراء إيقاع التأديب عليهم.

وعندما عُلّق هذا المرسوم القاسي على جدار في مكان ما تقدم أحد الرجال المسيحيين من الأشراف ومزقه. لقد كان سخطه على هذا المرسوم الظالم عظيمًا لدرجة جعلته يتسرع ويقدم على هذا العمل دون تروٍ وتبصُر في العواقب، فتعدى بذلك أمرًا من أوامر الإنجيل يوجب تقديم الاحترام والإكرام للرؤساء والسلاطين وجميع الذين هم في منصب. وقد رحب الأعداء بهذا العمل أيما ترحيب واتخذوه فرصة وسببًا للحكم على مسيحي ذي مكانة عالية بالموت، فأُحرق حيًا بنار بطيئة ليطول أمد عذابه. أما هو فاحتمل آلامه بصورة مجيدة أدهشت الذين تولوا أمر إحراقه وأذابت قلوبهم أسى وحسرة. ومن هنا ابتدأ الاضطهاد، وإذ اتخذت أول خطوة فيه تبعتها الثانية بسرعة وهكذا.

وبعد نشر المرسوم بفترة قصيرة شبت نار في سراي نيكوميديا، وامتدت لهبها إلى أن وصلت إلى غرفة الإمبراطور. ولم يُعرف سبب لاشتعال هذه النار، ولكنه عزي إلى المسيحيين كالعادة. وصدق ديوكليشيان ذلك، فغلى صدره بالحقد والغيظ على المسيحيين، فسيقوا جماعات كبيرة وزُجّ بهم في أعماق السجون، بلا تمييز للمشتبه فيهم من غيرهم، وعاملوهم أشد معاملة علهم يحصلون منهم بالإجبار والقهر على اعتراف بالجريمة، فلم يفلحوا. وأخيرًا حكموا على كثيرين منهم بالموت حرقًا أو قتلاً بالسيف، أو غرقًا في البحر.

وبعد ذلك بأربعة عشر يومًا شبت نار أخرى في السراي فأصبح من الواضح أن العمل مقصود بالذات، أتاه صاحبه عمدًا ليحدث المشاغبات ويثير الفتن. ولكن الوثنيين عادوا إلى اتهام المسيحيين، وصرخوا بأعلى صوتهم طالبين الانتقام منهم، ولو أنهم لم يستطيعوا أن يأتوا بدليل واحد يثبت أنه كان للمسيحيين يد بأية صورة كانت في تلك النيران المريعة. وقد اتجه اتهام قوي - ونعتقد أنه صحيح - ضد الإمبراطور جاليريوس نفسه، إذ كان غرضه من البداية أن يستذنب المسيحيين ويزعج ديوكليشيان بتلك الوسائل المخيفة القاسية. وإذ كان يعلم يقينًا تأثير هذه الأمور على ذهن الإمبراطور الشيخ وعقله المظلم كثير الخرافات، ترك في الحال مدينة نيكوميديا مدّعيًا أنه لم يستطع أن يحسب حياته في أمان داخل المدينة.

وقد حصل على بغيته وحصل على أمنيته إلى أقصى حد كان يتمناه هو ووالدته الوثنية، إذ هاج خاطر ديوكليشيان واشتد غضبه على المسيحيين رجالاً ونساء، فألزم زوجته برسكا وابنته فالريا أن تقدما ذبائح، وأوقع ضباطًا من أكبر وأشرف العائلات ومن سكان القصور تحت أشد ضروب التعذيب بناء على أمره وفي حضوره أيضًا، وفصل الوزراء المسيحيين من حكومته، إذ فضلوا عار المسيح على كل عظمة قصره. وأحضر أحد نظار بيته أمامه وعذبه بشدة لأنه رفض أن يقدم ذبائح. وكأنهم قصدوا أن يجعلوه عبرة للآخرين فصبوا مزيجًا من الملح والخل على جراحه المفتوحة، ولكن ذلك لم يُجدِ نفعًا، إذ أنه اعترف جهارًا بإيمانه بالمسيح كالمخلص الوحيد، ولم يعترف بإله آخر سواه، فأحرقوه حرقًا بطيئًا حتى مات. وقُتل أيضًا ثلاثة من الخصيان الذين يخدمون في القصر وهم: دوروثيوس وجورجونيوس وأندرياس. أما أنسيمس أسقف نيكوميديا فقطعوا رأسه. ثم أعدموا كثيرين وأحرقوا كثيرين أحياء. ولكن إعدام الناس أفرادًا أصبح عملاً مملاً ومتعبًا وبطيئًا، لذلك أشعلوا نيرانًا عظيمة لإحراق كثيرين دفعة واحدة، وألقوا بآخرين في وسط البحر بعد أن ربطوا أعناقهم بحجارة.

وأصدر الإمبراطور أوامره من نيكوميديا مركز الاضطهاد إلى القياصرة الآخرين يطلب منهم معاونتهم على محو المسيحية محوًا كاملاً، وإرجاع شرف الدين القديم، فامتدت بذلك نار الاضطهاد إلى أنحاء العالم الروماني ما عدا فرنسا التي كانت تحت حكم قسطنطينوس قيصر، ذلك الرجل الوديع الحليم الرقيق العواطف، ومع أنه تظاهر بالموافقة على خطة زملائه ومجاراتهم في هذا العمل بإبادته الكنائس، إلا أنه امتنع عن إجراء أي عنف مع أشخاص المسيحيين، لأنه وإن لم يكن شخصيًا مسيحيًا بالمعنى الكامل إلا أنه كان بحسب طبيعته شفوقًا رحيمًا ميالاً للمسيحية وللمعترفين بها، وقد تولى رئاسة الحكم في فرنسا وبريطانيا وأسبانيا. أما ماكسيميان الشرس الطبع وجالريوس الوحش القاسي فكانا ينتظران بفارغ الصبر إشارة بسيطة للقيام بتنفيذ الأوامر الصادرة من نيكوميديا. وهكذا هاج أولئك الوحوش الثلاثة

بكل قوة سلطتهم المدنية على أتباع يسوع الوديع المتواضع رئيس السلام، أولئك الأبرياء العزل من كل سلاح مادي.

المرسوم الثاني

لم يمض زمان طويل على تنفيذ المرسوم الأول في سائر أنحاء الإمبراطورية حتى وصلت إلى مسامع الإمبراطور إشاعات بحدوث فتن وثورات في أرمينيا وسوريا، وهما الإقليمان المزدحمان بالسكان المسيحيين، وعزيت هذه القلاقل زورًا وكذبًا إلى المسيحيين، فكانت سببًا في إصدار هذا المرسوم الثاني. ونظرًا لأن رجال الإكليروس هم زعماء المسيحيين فقد كانوا على نوع خاص عرضة للشبهة في هذه الحوادث، ولذا فقد نص في المرسوم على إلقاء القبض على جميعهم والزج بهم في أعماق السجون، ولم تمض إلا برهة وجيزة حتى غصت السجون بالأساقفة والشيوخ والشمامسة.

المرسوم الثالث

بعد ذلك بقليل صدر مرسوم ثالث يحظر إخلاء سبيل أحد من الإكليروس ما لم يقدم ذبائح. وقد وُصفوا به صراحةً أنهم أعداء الحكومة. ولذلك متى كان الوالي في جهة معاديًا للمسيحية وأراد أن يستعمل سلطته غير المحدودة كان يملأ بهم السجون المخصصة لأشر المجرمين. وقد نص المرسوم على منح الحرية لكل من يرغب من المسجونين أن يقدم الذبائح للآلهة، وعلى إجبار الآخرين الباقين على ذلك باستعمال التعذيب والعقوبات. وبسبب ذلك سيق كثيرون من الأتقياء الأجلاء في الكنيسة إلى المناجم، وأوقع التعذيب بشدة متناهية على غيرهم. ولكن خاب فأل الإمبراطور الذي ظن أن في التغلب على الأساقفة والمعلمين والعمل على إلزامهم بتقديم ذبائح يحمل الكنيسة أن تقتفي آثارهم. فلما رأى أن مسعاه قد فشل فشلاً معيبًا اندفع بتأثير جالريوس والفلاسفة والكهنة الوثنيين فأصدر مرسومًا رابعًا أشد وأفظع.

المرسوم الرابع

صدر المرسوم الرابع بتعميم الاضطهاد، فبعد أن كان قاصرًا على الإكليروس أصبح شاملاً جميع المسيحيين، وأمر القضاة بتعذيب المسيحيين رجالاً ونساء وأطفالاً، واستعمال القسوة معهم لإكراههم على عبادة الآلهة. وقد خاض ديوكليشيان وزملاؤه غمار هذا النزاع العظيم، ووقفت قوات الظلمة - الإمبراطورية الرومانية بأسرها - مسلّحة وآلت على نفسها الدفاع عن الديانة القديمة - ديانة تعدد الآلهة - واستئصال شأفة المسيحية من الأرض، ورأت أن في التقهقر إقرارًا منها بالضعف، كما أن التقدم يؤول إلى إبادة الأعداء. إلا أن تلك القوات لم تحُز أي انتصار، لأن المسيحيين لم يبدوا أدنى مقاومة. ولم يكن هذا الاضطهاد إلا الجولة الأخيرة في مصارعة عنيفة بين الوثنية والمسيحية. وقد اشتد الأمر وعلقت إعلانات في شوارع المدن بأن الرجال والنساء والأطفال ملزمون جميعًا أن يذهبوا إلى هياكل الآلهة، وما كان أمام الواحد منهم إلا أمرين يختار بينهما: إما تقديم الذبائح للآلهة أو الموت الزؤام، وقد استُدعي كل شخص باسمه من واقع كشوف كانت معمولة من قبل، وكانوا يُفحصون بكل دقة عند أبواب المدينة، وكل من وُجد مسيحيًا ألقي القبض عليه في الحال. ويعوزنا الوقت إن أردنا أن نذكر بالتفصيل آلام واستشهاد البعض إذ أن ذلك يستلزم كتبًا ومجلدات.

على أنه مع سرعة توالي تلك المراسيم القاسية كانت القوة لاحتمال تلك الاضطهادات تزداد لدى المسيحيين، وروح الاستشهاد تتقوى وتعظم، حتى أن الرجال والنساء ما كانوا ينتظرون حتى يُقبض عليهم ليساقوا للموت، بل كانوا يسرعون ويركضون من أنفسهم مرحبين بالموت، ويقبلون إلى النيران العظيمة المشتعلة كأنهم صاعدون إلى السماء في مركبات من نار. وقد أبيدت أسر عن بكرة أبيها بطرق مختلفة من العذاب، فالبعض هلكوا جوعًا، والبعض صُلبوا، وآخرون رُبطوا مدلين الرؤوس إلى أسفل ليموتوا موتًا بطيئًا فيطول عذابهم، وفي بعض الأماكن كان يستشهد في اليوم الواحد عشرة أو عشرون أو ستون أو مائة من الرجال والنساء والأطفال بأنواع التعذيب المتنوعة. وظلت هذه المناظر الوحشية البربرية الخالية من أي مظهر من مظاهر الشفقة مستمرة بشدة في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية مدة طويلة تصل تقريبًا إلى عشرة أعوام، ولم يكن من جميع القياصرة إلا قسطنطينوس الذي اجتهد وشرع في حماية المسيحيين في الغرب، سيما في فرنسا حيث كان يقيم. أما في الجهات الأخرى فقد سلموا لكل ضروب القسوة دون السماح لهم بالالتجاء إلى السلطات، ومن غير أقل

حماية عليهم من جانب الحكومة. وقد سُمح للرعاع الوثنيين أن يتجاوزوا كل حد ويستعملوا كل إفراط ويرتكبوا الشطط في الإيقاع بالمسيحيين. ويمكن للقارئ أن يتصور من هذه الظروف والأحوال كم كانوا معرضين على الدوام للأخطار العظيمة سواء في أشخاصهم أو في أملاكهم، وكان هؤلاء الرعاع من القائمين بأمر الاضطهاد هادئي البال مرتاحي الخاطر، إذ هم متيقنون أنهم لن يُطلبوا يومًا من الأيام ليُسألوا أمام القضاء عن ارتكابهم أي عمل ضد المسيحيين.

على أن آلام الرجال مهما عظمت بدت يسيرة بجانب آلام النساء لأن الخوف من الفضيحة وهتك الأعراض كان أشد بما لا يقاس من مجرد الموت. ولنذكر مثالاً واحدًا: كانت امرأة فاضلة مكرسة مشهورة بالفضائل العديدة، موصوفة بالصفات الحسنة، ذائعة الصيت أكثر من جميع الذين في أنطاكية بالنظر لثروتها وجاهها وكرم محتدها، وشريف عنصرها وعظيم اسمها. وكانت لها بنتان في عنفوان شبابهما عُرفتا بجما لهما البديع، وقد ربتهما وهذبتهما أمهما على مبادئ التقوى وطرق الصلاح. فبعد أن كانت الأم وبنتاها في سلام وسكينة في مكمنهن، يتمتعن بلذة الاحتجاب والاختفاء عن الأنظار، إذا بهن يفاجأن بالقبض عليهن، فصرن بين أيدي الجنود، فحارت الأم في مصيرها ومصير ابنتيها، إذ عرفت ما كان أمامهن جميعًا، وفضلت الموت على الوقوع بين وحشية وفظاظة أولئك الجنود، فطلبن المعونة من المسيح، واتفقن جميعًا على ذلك، فتوسلن إلى الخفر القائمين بحراستهن بالسماح لهن برهة وجيزة، ثم ألقين بأنفسهن في نهر فائض تخلصًا من شر أعظم ومصيبة أكبر. وإن كان هذا العمل لا يُبرر تمامًا، إلا أنه يجب النظر إليه بعين الاعتبار من الوجوه الكثيرة، فإنهن قد وقعن في القنوط وأيسن من النجاة، ولا شك أن الرب العارف ضعف جبلتنا يغفر لنا ما يصدر منا من الخطأ في أعمالنا، سيما إذا كانت البواعث صالحة والمقاصد حسنة.

وقد تصور المضطهدون إلى حين أنهم ظفروا وانتصروا على المسيحية ونالوا بغيتهم من إسقاطها، فأقيمت الزينات وضربت النقود باسم ديوكليشيان وجاليريوس إكرامًا لهما، واعترافًا بجميلهما على إعادة عبادة الآلهة، وإطفاء المسيحية التي كانوا يرون فيها مجموعة من الخرافات والأوهام. ولكن الجالس في السماء كان في هذه اللحظة عينها يتسامى ويتعالى فوق غضب هؤلاء الناس، وجعل غضب الإنسان يحمده، فإنه تداخل بنعمته لخلاص شعبه خلاصًا كاملاً ونصرهم على أعدائهم، وخذلان أعدائهم وسقوطهم. صحيح أنهم استطاعوا أن يقتلوا المسيحيين ويهدموا الكنائس ويحرقوا الكتب، ولكن ينابيع المسيحية، تلك الينابيع الحية، كانت أبعد من أن تصل إليها أيديهم وأعظم مما تبلغه مجهوداتهم وقواتهم.

تداخل يد الرب للقضاء

أخذت تحدث تغييرات عظيمة ومهمة في الإمبراطورية، فإن رأس الكنيسة كان سهرانًا على كل الأمور ويدير دفتها بحكمته وعنايته. وإذ كان قد حدّد وعيّن مدة آلام الكنيسة فلا يمكن لكل قوات الجحيم ولا لجيوش روما الجرارة أن تضيف إلى تلك المدة ساعة واحدة، فضرب الرب أعداء المسيحيين بأرهب المصائب وأفظع الضربات، وظهر كمن هو ولي الدم، فجاليريوس الذي كان وراء الاضطهاد ضُرب وهو في السنة الثامنة عشرة من ملكه والثامنة من الاضطهاد بمرض كريه جدًا، فمات معذبًا أشد العذاب، وهو يأكله الدود كما مات هيرودس الكبير وفيليب الثاني ملك أسبانيا، فاستدعى الأطباء الماهرين واستشار الحكماء الحاذقين ولكن بدون طائل، والأدوية التي استعملها إنما زادت المرض شدة، وسرت عدوى المرض إلى كل القصر، وابتعد جميع أصدقاء الإمبراطور عنه وهجروه. ومن شدة ما قاساه من آلام الموت اضطر أن يصرخ طالبًا الرحمة، والتمس بإلحاح من المسيحيين أن يتضرعوا إلى الله من أجله لكي يرحمه ويزيل عنه تلك الآلام المبرحة، وأصدر وهو على فراش الموت مرسومًا تنازل فيه عن أعمال الشدة التي عومل بها المسيحيون واعتذر عنها بحجة المحافظة على سلامة الإمبراطورية ورفاهيتها، وحفظ كيان وحدتها، واعترف فيه صريحًا بفشل تلك الوسائل الشديدة وعجزها التام عن إخماد المسيحية وقمعها، ومنح في هذا المرسوم الحرية الكاملة في ممارسة العبادة المسيحية علنًا، ولم تمض إلا أيام قليلة على نشر هذا المرسوم حتى مات جاليريوس، فاستمر معمولاً به نحو ستة شهور، فأطلق سراح جمهور غفير من المسجونين والمسخرين في المناجم، حاملين في أجسادهم سمات العذاب الأليم لا ينقصهم سوى الموت، إذ كانوا كأموات في صورة الأحياء. فوقوف الاضطهاد هذه الفترة

اليسيرة أظهر في الحال نتائجه المريعة وخطورة استمراره.

ولكن ماكسيمين الذي خلف جاليريوس في حكومة آسيا عمل من جهة على إحياء الدين الوثني ورفع شأنه وإعادة ما كان عليه من عزه السالف ومجده الغابر، ومن الجهة الأخرى جدد أعمال القسوة والشدة نحو المسيحية، وسعى في إطفاء نورها وإخماد حركتها. فأصدر مرسومًا بأن كل رجال حكومته من كبيرهم إلى صغيرهم، مدنيين وعسكريين، وجميع الأحرار والعبيد، الرجال والنساء، وحتى الأطفال الصغار، الكل ملزمون بتقديم الذبائح والأكل مما يُقدّم للأوثان. وكانت الخضروات والمواد الغذائية التي تباع في الأسواق ترش بالماء أو النبيذ الذي يكون قد استُعمل في الذبائح لإرغام المسيحيين على التعامل مع التقدمات الوثنية.

واخترعت أساليب جديدة للتعذيب وفاضت أنهار أخرى من دماء المسيحيين في ولايات الإمبراطورية الرومانية عدا ولاية فرنسا. فعادت يد الرب ثانية وثقلت بشدة على الإمبراطور والإمبراطورية، وسادت في البلاد كل أنواع البلايا والمصائب، فعمت المظالم وشبت نيران الحروب، وانتشر الوبأ والجوع، ففني كثير من سكان الأقاليم الأسيوية، ولم تهطل الأمطار الصيفية في سائر أملاك ماكسيمين حتى سادت المجاعة الشرق بأسره، فافتقر الكثيرون من العائلات الغنية الشهيرة، وآخرون باعوا أولادهم عبيدًا، وأدى الجوع إلى الأوبة، فانتشرت الدمامل على أجسام الناس، وتفشت أمراض العيون فذهبت ببصر الكثيرين الذين صاروا عميانًا عاجزين بلا رجاء ولا أمل في الشفاء، واستولى الضعف على القلوب وخارت العزائم ووهنت الهمم، وهرع إلى الهروب من تلك المنازل التي سرت إليها عدوى الوبإ كل الذين استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وتركوا وراءهم ألوفًا وربوات يهلكون ويموتون وهم متروكون ومهملون. ولكن المسيحيين تحركت الشفقة في قلوبهم وعملت فيهم محبة الله ليقوموا بواجبهم نحو أولئك المساكين البائسين فقاموا بأعمال الرحمة والإنسانية إذ اعتنوا بالأحياء وخدموهم، ودفنوا الأموات بكرامة وإجلال.

ولما ملك الخوف كل نفس واستولى الرعب على كل بشر بسبب تلك المحن العظمى استنتج الوثنيون أن تلك البلايا التي أصابتهم ما هي إلا انتقام السماء منهم لأجل اضطهادهم لشعب الله العزيز المحبوب إليه، فارتعب ماكسيمين واصطكت ركبتاه فزعًا، وسعى في الرجوع إلى الوراء وإبطال كل ما وضعه من أنظمة الاضطهاد، ولكن جاء ذلك متأخرًا جدًا، فأصدر مرسومًا اعترف فيه علنًا بوسائل التعذيب الشديدة المتخذة ضد المسيحيين وأمر بإيقافها، وأوصى باستعمال طرق الإقناع بالدليل والبرهان لجذب هؤلاء المرتدين إلى دين آبائهم وأجدادهم السالفين. ولما انهزم في حربه مع ليسينيوس حوّل غضبه نحو كهنة الوثنيين واتهمهم بأنهم خدعوه بالآمال الكاذبة، إذ منّوه بالانتصار على ليسينيوس، وأنه بذلك يصبح إمبراطورًا عامًا في الشرق، فانتقم منهم بسبب فشله وخيبته في الحرب شر انتقام إذ عمل مذبحة شنيعة لكل الكهنة الذين وقعوا تحت سلطانه وفي قبضة يده. وكان آخر عمل إمبراطوري له أن نشر مرسومًا آخر لصالح المسيحيين أقر لهم فيه التمتع بحرية الضمير الكاملة غير المقيدة، وأرجع لهم كل أملاك كنائسهم التي كانت قد سُلبت. ثم جاءه الموت وأنهى جدول جرائمه الفظيعة، وقُضي على هذه السلسلة من الأباطرة المضطهدين للمسيحية الذين ماتوا في أشد عذاب وتحت يد العدل الإلهي الرهيب.

وكان من بين شهداء هذا العصر كثيرون من علية القوم وأعاظمهم مقامًا وأخلاقًا وآدابًا، وألوف كثيرة غيرهم الذين وإن لم يكن لهم اسم ولا صيت في هذه الأرض، إلا أن تاريخهم مسطر في الأعالي وأسماؤهم مكتوبة في سفر حياة الخروف.

وهكذا انتهى أكبر هجوم لقوات الظلمة على الكنيسة المسيحية، وانقضى آخر رجاء للوثنية للمحافظة على نفسها باستعمال قوة الحكومة وبأسها، وذهبت أقسى وأغرب وأطول المحاولات المنظمة التي قصد بها العدو ملاشاة الإنجيل من أصوله، وهي تستحق منا أن نسرد تلك التفاصيل التي أوردناها عنها. ولذلك لا نرى داعيًا لأن نعتذر لقرائنا عن التطويل في هذا الموضوع والإسهاب فيه. وقد شاهدنا فيما سطرناه أن يد الرب تمتد تارة بصورة خطيرة على كنيسته لتأديبها وتنقيتها، ثم تارة أخرى تبرهن على تلك الحقيقة الراهنة وهي عدم إمكان زوال المسيحية رغمًا عن إثارة نيران الاضطهاد ضدها، ثم أيضًا تمتد لإخجال أعدائها الجسورين خجلاً أبديًا. ويمكن لنا أن نتعجب مع موسى حين رأى «العليقة تتوقد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة؟ فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة» (خر٣:٢-٤). فإذا سألنا: لماذا

العليقة لم تحترق؟ أو لماذا الشعب في مصر لم يفنَ؟ ولماذا الكنيسة في العالم لم تنقرض؟ فالجواب هو أن الله كان في وسط العليقة، وهو الآن في وسط كنيسته التي هي مسكن لله بالروح.

وفضلاً عن ذلك فإن المسيح له المجد قد قال صريحًا مشيرًا إلى قوته ومجده في القيامة من الأموات: «وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت١٦: ١٨).

الفصل العاشر

قسطنطين الكبير

يُعد حكم قسطنطين الكبير من أعظم وأهم عصور الكنيسة، وكان أبوه قسطنطيوس وأمه هيلانه بميلان بعاطفة دينية نحو المسيحيين، ويعطفان عليهم دائمًا، ويعاملانهم بالرفق واللطف والوداد. وقد قضى قسطنطين بضع سنيين من شبابه سجينًا أسيرًا في قصر ديوكليشيان وجاليريوس، وشاهد بعينيه نشر مرسوم الاضطهاد في مدينة نيكوميديا سنة ٣٠٣م، ورأي الفظائع الكبرى والأهوال العظمى التي نتجت من جرائه. ولما فاز بالهروب والنجاة من الأسر ذهب إلى أبيه في بريطانيا، ثم مات أبوه في مقاطعة يورك عام ٣٠٦م، وكان قد أوصى أن يخلفه في المُلك عوضًا عنه ابنه قسطنطين، فنال بذلك رتبة "أغسطس" في الجيش. ودرج قسطنطين على سياسة أبيه ونهج منهجه في حسن معاملة المسيحيين والسماحة لهم.

في ذلك الوقت كان هناك ستة أشخاص يدّعون لأنفسهم حق الجلوس على عرش الإمبراطورية، وهم: جاليريوس، وليسينيوس، وماكسيميان، وماكسنتيوس، وماكسيمين، وقسطنطين. فقامت المنازعات والخصومات بسبب ذلك مما يندر أن نرى لها مثيلاً في تاريخ روما. وقد أسفرت النتيجة عن تفوق قسطنطين على نظرائه ومنافسيه في الحكمة والذكاء والأهلية والكفاءة والمقدرة السياسية والحربية. فدخل روما سنة ٣١٢م دخول الظافر المنتصر.

وفي سنة ٣١٣م اصدر مرسومًا ألغى به جميع مراسيم الاضطهاد التي أصدرها ديوكليشيان، فتشجع المسيحيون ونال معلموهم احترامًا وإكرامًا، وارتقى المعترفون بالمسيحية إلى المراكز العالية والمراتب السامية ذات النفوذ والسلطة في الحكومة.

هذا الانقلاب الكبير في تاريخ الكنيسة يأتي بنا إلى:

دور برغامس (٣١٣-٦٠٦م)

تصف الرسالة إلى كنيسة برغامس - حسب اعتقادنا - الحالة في عصر قسطنطين وصفًا تامًا. وقبل المقارنة والتطبيق نقتبس للقراء الخطاب الموجه إلى الكنيسة «واكتب إلى ملاك الكنيسة التي في برغامس، هذا يقوله الذي له السيف الماضي ذو الحدين: أنا عارف أعمالك وأين تسكن حيث كرسي الشيطان، وأنت متمسك باسمي ولم تنكر إيماني، حتى في الأيام التي فيها كان أنتيباس شهيدي الأمين الذي قُتل عندكم حيث الشيطان يسكن. ولكن عندي عليك (قليل): أن عندك هناك قومًا متمسكين بتعليم بلعام الذي كان يعلم بالاق أن يلقي معثرة أمام بني إسرائيل أن يأكلوا مما ذبح للأوثان ويزنوا. هكذا عندك أنت أيضًا قوم متمسكون بتعاليم النقولاويين الذي أبغضه. فتُب وإلا فإني آتيك سريعًا وأحاربهم بسيف فمي. من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس. من يغلب فسأعطيه أن يأكل مِن المَنّ المُخفى، وأعطيه حصاة بيضاء، وعلى الحصاة اسم جديد مكتوب لا يعرفه أحد غير الذي يأخذ» (رؤ٢: ١٢-١٧).

فنرى في كنيسة أفسس أن أول خطوة سلكتها الكنيسة في طريق الحيدان والابتعاد هي ترك «المحبة الأولى». فالقلب تحوّل عن المسيح ومال عن التمتع بمحبته. ونشاهد في كنيسة سميرنا أن الرب سمح بأن يُلقي قديسيه في الأتون، وأن يجتازوا تنور الاضطهادات الشديدة والآلام المُرّة كي يوقف سريان تيار الابتعاد والتمادي في الضلال والسقوط، فوقعت عليهم الاضطهادات من يد الوثنيين، فانتعشت المسيحية بسبب هذه التجارب والامتحانات، فنهضت من نومها وقامت من سقطتها، والذهب قد تنقى وتصفى، وتمسك القديسون باسم المسيح وثبتوا راسخين في الإيمان. وهكذا دحر الشيطان

وانهزم، وانتصر الرب وغلب، إذ اعترف الأباطرة جهارًا الواحد بعد الآخر بفشلهم وعجزهم عن نيل ما كانت تصبوا إليه نفوسهم من هدم صروح المسيحية ومحو أثرها من عالم الوجود. ولكننا نشاهد الشيطان في كنيسة برغامس يبدل خططه السابقة، فبدلاً من الاضطهاد الذي كان يثيره على الكنيسة من الخارج استعمل الخداع والغواية والتضليل من الداخل. فقد ظهر في عهد ديوكليشيان كالأسد المزمجر، أما في حكم قسطنطين فكالحية الخداعة. ففي برغامس نشاهد تأثير دخول الشيطان إلى الكنيسة بالتملق والمداهنة. وتعاليم النقولاويين فيها تحويل لنعمة الله وتشويه لجمالها، إذ تعطي للجسد مجالاً للعمل والظهور في كنيسة الله. وخلاصة القول أننا نجد في سميرنا الشيطان واقفًا خارجًا كالخصم العنيد، أما في برغامس فهو في الداخل كالمخاتل الماكر، وهذا ما حدث تمامًا أثناء حكم قسطنطين.

إن نظرة إلى التاريخ ترينا أن الإنسان قد أفرغ آخر سهم في كنانته في اضطهاد المسيحيين وصب جامات غضبه عليهم، وبذل أقصى ما في مقدوره للتنكيل بهم، والتفت فلم يرَ نتيجة لتعبه ولم يَجنِ ثمرة مقصده وتدبيره، بل إن هذه الوسائل الشديدة والاضطهادات العنيفة لم تكن لها قوة على المسيحيين المضطهَدين إلا في فك قلوبهم من ربط العالم، وزيادة تمتعهم بربهم المبارك وشدة تعلقهم به وتعبدهم له. وكان عدد المسيحيين يتكاثر ويزداد بالرغم من كل عوامل الفناء. فلما رأى الشيطان خيبة آماله في سياسة العنف والشدة عَمَدَ إلى تغييرها بسياسة الخداع والحيلة، وهي سياسة سبق أن جربها مع بني إسرائيل ونجحت، إذ لما عجز عن أن ينال من الرب إذنًا ليلعن الشعب، أغراهم وخدعهم وأوقعهم في شرك بنات موآب، وهكذا سبّب لهم الموت والهلاك (عد٢٥). وكذلك دخل في الكنيسة في برغامس كالنبي الكذاب ليستميل القديسين إلى معاشرة العالم، الذي هو مكان عرشه ومجال سلطانه، والتحالف والاتحاد معه. فالعالم الذي كان بالأمس مضطهِدًا أصبح حليفًا صديقًا، وصار المسيحيون يتمتعون بمنافع ومزايا كثيرة بعد أن صارت المسيحية مؤسسة مدنية اجتماعية. واعترف قسطنطين أنه تجدد، ونسب جميع انتصاراته إلى فضائل الصليب. وواأسفاه، لقد نجحت حيلة العدو إذ راقت للكنيسة حماية قسطنطين، فوضعت يدها في يد العالم، الذي أسقطها معه إلى «حيث كرسي الشيطان» فخسرت مقامها كشاهدة أمينة، وأصبح الطريق إلى البابوية مفتوح أمامها. لا شك أنها نالت كل الفوائد العالمية وحظيت بكل منفعة زمنية، ولكن واحسرتاه! قد باعت في مقابل ذلك كرامة ومجد ربها ومخلِّصها.

يجب أن نتذكر أن الكنيسة أمة مقدسة مفرزة عن العالم، مأخوذة من اليهود والأمم لتشهد أنها ليست من هذا العالم بل من السماء، وأنها متحدة مع المسيح الممجَّد. وكما قال بفمه الطاهر: «ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم. قدّسهم في حقّك. كلامك هو حق. كما أرسلتني إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم» (يو١٧: ١٦-١٨).

فإرسالية المسيحي مبنية على نفس المبدإ ولها نفس الصفة التي لإرسالية المسيح «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا»، فكأنهم أُرسلوا من السماء من قبل الرب المبارك إلى العالم ليفعلوا مشيئته ويهتموا بمجده، ومتى أتموا عملهم يرجعون إلى وطنهم السماوي. فعلى هذه الصورة يجب على المسيحي أن يكون الشاهد السماوي لحق الله، خصوصًا لتلك الحقائق التي تتعلق بخراب الإنسان الكامل، ومحبة الله في المسيح من نحو العالم الهالك. وبذلك يجتهد المؤمن أن يأتي بالنفوس من العالم ليخلصوا من الغضب الآتي. ولكن عندما نغض الطرف عن دعوتنا السامية ونتحد مع العالم كأننا منه، نصبح شهودًا كاذبين، وتبطل وتفسد شهادتنا، ونسبب للعالم ضررًا عظيمًا وللمسيح إهانة كبرى. وسنرى بعد قليل أن هذا ما وقعت فيه الكنيسة، فخسرت مركزها وأفسدت عملها. لا شك أنه وُجدت حالات كثيرة ظهرت فيها الأمانة الفردية في وسط هذا الانحطاط العام، والرب نفسه يشهد عن أنتيباس أنه شهيده الأمين، لأن السماء تهتم اهتمامًا خاصًا وتعتني اعتناءً كبيرًا بذكر الأمانة الشخصية، وتكتب سفر تذكرة للأمناء ذاكرة إياهم بأسمائهم.

ولكن عين الرب المحب تتبعت كنيسته المسكينة الخائنة إلى الهوة السحيقة التي سقطت فيها. «أنا عارف أعمالك وأين تسكن حيث كرسي الشيطان». يا لها من أقوال خطيرة، سيما وأنها صادرة من فم ربها التي سببت له الإهانة والاحتقار. فلم يكن شيء خفي عن عينيه، بل كل شيء عريان ومكشوف لديه «أنا عارف أعمالك» وما هي يا ترى؟ الجواب: إن الكنيسة قد قبلت شروط الإمبراطور، واتحدت مع الحكومة وخالطت العالم وشاكلته، الأمر الذي يستدعي المزيد من الأسف والحزن. وهذا ما يعبِّر عنه الكتاب روحيًا ببابل التي زنت مع ملوك الأرض. ولكن الماشي في وسط السبع المنائر الذهبية نراه يدين عملها

ويحكم على حالتها. «واكتب إلى ملاك الكنيسة التي في برغامس: هذا يقوله الذي له السيف الماضي ذو الحدين». فيظهر بمظهر المتسلح بالسيف الإلهي، الذي هو كلمة الله الحية الفعالة الخارقة للنفس والمميِّزة أفكار القلب ونياته. ومن المعلوم أن الذي يُرجع إليه للفصل في كل المشاكل هو السيف، سواء كان سيف الأمم المادي أم سيف الروح. وكثيرًا ما قيل إنه توجد دائمًا علاقة واضحة وجلية بين الكيفية التي يظهر المسيح ذاته فيها وبين حالة الكنيسة التي يوجه إليها خطابه، وهذا صحيح تمامًا في هذا الخطاب الموجَّه لكنيسة برغامس، فمن الواضح أن كلمة الله فقدت مكانتها الصحيحة في اجتماع قديسيه المؤمنين، ولم يعد لها السيادة العليا في الأمور الإلهية، ولكن الرب يهتم بأن يظهر أنها لم تفقد قوتها ومركزها وسلطتها في يده حيث يقول «فتُب وإلا فإني آتيك سريعًا وأحاربهم بسيف فمي». لاحظ أنه لا يقول «أحاربك» بل «أحاربهم». وهكذا نجد الرب عندما يوقع التأديب في الكنيسة يميز ويرحم الأمناء.

لا شك أن مركز الكنيسة العام لم يكن هو المركز الصحيح الذي يجب أن تشغله في العالم، فبدلاً من أن تكون شاهدة أمينة للمسيح نراها تتحد اتحادًا علنيًا مع رئيس هذا العالم.

أما كل من كان له أذن ليسمع ما يقوله الروح للكنائس أصبحت له شركة سرية مع ذلك الذي يعضد النفوس الأمينة ويغذّيها من المَنّ المُخفى «من يغلب فسأعطيه أن يأكل من المَنّ المُخفى، وأعطيه حصاة بيضاء وعلى الحصاة اسم جديد مكتوب لا يعرفه أحد غير الذي يأخذ». إن القصور العام والنقائص من شأنها أن تُظهر الأمناء القليلين. والمَنّ، كما نتعلم من يوحنا٦ يشير إلى شخص المسيح الذي جاء من السماء ليعطي حياة لنفوسنا «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد» (يو٦: ٥١). وإذ أخذ مكان الاتضاع في هذا العالم أصبح طعامنا في مسيرنا اليومي في البرية. وقد كان من اللازم جمع المن كل يوم جديدًا من الندى الذي يسقط كل صباح. والمَنّ المخفى يشير إلى القسط الذهبي الذي كان فيه المَنّ، والذي كان موضوعًا في التابوت تذكارًا أمام الرب. وهذا المن المخفى تذكار مبارك للمسيح، الذي كان الإنسان المختفي المتألم في هذا العالم، وهو الآن سرور الله الأبدي ومسرة الأمناء في السماء وعلى الأرض، فالقديسون ذوو القلب الصادق ليس لهم شركة مع المسيح حال كونه ممجَّدًا في الأعالي فقط، بل لهم شركة معه أيضًا كيسوع الذي جاء متضعًا هنا على الأرض. ولكن هذا لا يكون إذا كنا نصغي إلى تملقات العالم ونقبل نعمه وأفضاله، فإن قوتنا الوحيدة ضد روح العالم تقوم بالسير مع المسيح المرفوض، والتغذي منه كنصيبنا في الوقت الحاضر. وامتيازنا السامي ليس هو أن نأكل من المَنّ فقط بل من المَنّ المخفى. ومن يستطيع أن يعبر عن غبطة مثل هذه الشركة أو يصف خسارة أولئك الذين يبتعدون بقلوبهم عن المسيح وينغمسون في الأمور العالمية؟

والحصاة البيضاء علامة سرية عن رضا الرب الخاص. وبما أن الوعد مذكور في الخطاب الموجه إلى كنيسة برغامس فقد يكون القصد منه إيضاح مصادقة المسيح على الكيفية التي شهد بها الذين غلبوا العالم، وموافقته على الصورة التي تألموا بها لأجله، بينما كثيرون قد ابتعدوا وضلوا بسبب غواية الشيطان وحيله الخداعة. وإن كان من الصعب أن نفسر معنى هذا الوعد تمامًا، إلا أنه يدل بوجه عام على الاستحسان الكلي والسرور التام من جانب الرب. وقد يمكن للقلب أن يتمتع بغبطة وبركة هذا الوعد ومع ذلك يشعر أنه عاجز عن وصفه. ويا لسعادة كل من عرفه شخصيًا وحاز رضاه اختباريًا! توجد أفراح عامة للجميع، ولكن هناك فرحًا خاصًا، وسيكون فرحنا الخاص في المسيح إلى الأبد. «وعلى الحصاة اسم جديد مكتوب لا يعرفه أحد إلا الذي يأخذ». إننا نجد في الحصاة البيضاء والاسم الجديد المكتوب بيده تعالى ينبوعًا من الراحة التامة والسلام الحلو اللذيذ والاكتفاء الصحيح والقوة الإلهية، ينبوعًا مباركًا لا يعرفه أهل العالم. قد يخطئ الآخرون في فهم أقوالنا ويظنون أننا مخطئون، ولكن ما دام الرب هو العارف بكل شيء فيمكن لقلوبنا أن تهدأ وتستريح مهما كانت الظروف التي تحيط بنا. وفي الوقت ذاته يجب علينا أن نحكم في كل شيء بحسب كلمة الله – السيف الماضي ذي الحدين – حتى ولو كانت هذه الكلمة تديننا وتحكم علينا.

طعامي ذا المنّ الخَفي — يسوعَ من اتضعَ
حبُّهُ بانَ للأبدْ — وسبحَ قلبي رفعَ
بنور مجد أبدي — اسمي جديدًا يَكتُبُ
على حصاة ناصعةْ — فالعارُ معْه يَعذُبُ

• • •

بعد أن ألقينا نظرة على الرسالة إلى برغامس نستطيع بسهولة أن نفهم فكر الرب من جهة سلوك المسيحيين وتصرفهم في عهد قسطنطين، فالكنيسة الاسمية وضعت يدها في يد العالم وتصادقت معه وشاركته ما يتمتع به. ولما لم يكن للعالم أن يسمو إلى المستوي العالي الذي للكنيسة فكان من الضروري أن تنزل هي وتنحط إلى مستوي العالم الخاطئ، وهذا ما حدث تمامًا. على أن شكل الكنيسة الجميل ظل محفوظًا، كما كان يوجد بدون شك كثيرون متمسكون بإيمان يسوع المسيح واسمه.

ولنعد الآن إلى اهتداء قسطنطين الكبير وتاريخه.

اهتداء قسطنطين (٣١٢م)

إن أهم حادث في تاريخ قسطنطين الديني وقع عام ٣١٢م بينما كان ذاهبًا من فرنسا إلى إيطاليا لمحاربة مكسينتوس. وكانت المعركة التي كانا مزمعين أن يخوضا غمارها من أكبر المعارك وأهمها لكليهما، إذ كان يتوقف عليهما إما السقوط إلى الحضيض والخراب الكامل، أو الرفعة إلى أعظم ذروة من العظمة والفخار. لذلك كان قسطنطين غارقًا في بحار الأفكار والهواجس، مهتمًا بنتيجة تلك الحروب أيما اهتمام. وقد ذاع بين الجميع أن مكسينتوس أعد عدة عظيمة لتلك المعركة، فوسع في نطاق جيشه وزاد في تنظيمه وتنسيقه، وأدى الفرائض والطقوس الوثنية بكل عناية ودقة، وعانى مشقة عظمى لأجل استشارة العرافين الوثنيين، وكان يعتمد في نجاحه على مساعدة قوات خارقة للطبيعة. أما قسطنطين فهو وإن كان عالمًا وحكيمًا إلا أنه كان لا يزال وثنيًا، وما كان يجهل الغرض الذي يحارب لأجله.

وبينما كان يفكر في أي إله يجب أن يلتجئ إليه ليجد فيه الحمى والنجاة، وينال على يديه الظفر والنجاح، تأمل في طرق أبيه إمبراطور الغرب بأسره، فتذكر أنه كان يصلي إلى إله المسيحيين، فكان النجاح حليفه في كل الأوقات، بينما أن الأباطرة الآخرين الذين اضطهدوا المسيحية والمسيحيين افتقدتهم دينونة الله العادلة. فصمّم أن يترك عبادة الأوثان ويسأل معونة الإله الحق الوحيد السماوي، فصلى إلى الله طالبًا منه أن يعلن له ذاته تعالى ويعرف اسمه المبارك ويمنحه النصر والغلبة على خصمه مكسينتوس، رغمًا عن تسلحه بفنونه السحرية واعتماده على تأدية فرائضه وطقوسه الخرافية.

وبينما كان قسطنطين يجول في تلك الأفكار تصور أنه رأى في وقت الظهر منظرًا خارقًا للعادة في السماء، فإذا برسم صليب لامع يتألق نورًا وضياءً، وعلى رأسه مكتوب بحروف بارزة "بهذا تنتصر". فاستولى الذهول على الإمبراطور وعلى كل الجيش الذين رأوا هذا المنظر العجيب وتولاهم الرعب والخوف. وبينما كان الإمبراطور يتأمل ويمعن النظر فيما عسى أن تكون تلك الرؤيا إذا بالليل قد أقبل والظلام قد أرخى سدوله، فنام ورأى في منامه أن المخلّص ظهر له حاملاً في يده ذات الرسم الذي سبق أن رآه في السماء، وحثه على أن يعمل راية على نفس المثال الذي رآه ويجعلها راية له في الحرب، وأكد له أنه إن عمل هذا فالنصر يكون حليفه لا محالة.

فلما استيقظ قسطنطين وصف ما عاينه في نومه، وعول على أن يتخذ شارة الصليب من غير تردد ولا إبطاء علمًا للإمبراطورية.

راية الصليب

روى يوسيبوس المؤرخ الشهير أن الإمبراطور أرسل في الحال واستدعى صناع الذهب والحجارة الكريمة، وألقى عليهم الأوامر والتعليمات بنفسه. وقد شاهد يوسيبوس الراية ووصفها وصفًا تفصيليًا مسهبًا، وقد اهتم جميع كتبة الكنيسة بذكر هذا الأثر القديم بالتفصيل، لذلك رأينا أن نأتي لقرائنا الأعزاء بوصف موجز عنه:

كان القضيب العمودي طويلاً ومغشّى بالذهب، وعلى رأسه تاج مصنوع من الذهب والحجارة الكريمة، منقوش عليه علامة الصليب والحرفين الأولين من اسم المخلّص باليونانية متقاطعين. وتحت هذا التاج مباشرة صورة للإمبراطور مصنوعة من الذهب، وتحت الصورة صليب من الخشب تتدلى منه راية مربعة أرجوانية اللون مزدانة ومرصعة بالأحجار الكريمة. وأطلق على هذه الراية اسم "لاباروم". هذا العلم المتألق كان يُحمل في مقدمة الجيوش الإمبراطورية يحرسه خمسون رجلاً منتخبون، وكانوا يظنون أنه إكرامًا للصليب الذي يحملونه لا يلحقهم أدنى أذى.

ثم أرسل قسطنطين وأحضر المعلّمين المسيحيين واستعلم منهم عن الله الذي ظهر له وعن المعنى الذي يشير إليه رسم الصليب الذي رآه، فانتهز المعلمون هذه الفرصة، وأرشدوه إلى كلمة الله وعلموه عن شخص المسيح وموته فوق الصليب، ومن

ذلك الوقت أعلن الإمبراطور اعتناقه للمسيحية. وقويت الثقة وازدادت الآمال إلى أسمى درجة في أن النصر سيكون له ولجيشه. وحدثت الموقعة الفاصلة عند قنطرة ملفيان، ونال قسطنطين فوزًا عظيمًا وانتصارًا باهرًا على أعدائه، مع أن جنوده لم يكونوا يبلغون ربع جنود مكسينتوس عددًا.

مرسوم قسطنطين وليسينيوس (٣١٣م)

ثم توجّه الإمبراطور قسطنطين متوّجًا بالنصر، وزار مدينة روما زيارة قصيرة. ومن ضمن الأشياء التي عملها أنه أمر بإقامة تمثال له في قلب المدينة، مع وضع علم في اليد اليمنى للتمثال على شكل صليب مكتوب عليه: "إني حررت مدينتكم من نير الظلم العاتي بفضل هذه العلامة المجيدة، التي هي العنوان الحقيقي للبسالة والإقدام".

أما مكسينتوس فقد ظهرت جثته طافية على مياه نهر التيبر في صباح اليوم التالي للمعركة. ولا شك أن الإمبراطور قسطنطين قد شعر تمامًا بأنه مدين كل الدين لإله المسيحيين لأجل هذا الظفر الباهر، وعزا انتصاراته إلى اتخاذه إشارة الصليب راية له. وإننا نجسر على القول إن مسيحيته لم تتعدَ هذا الحد في ذلك الوقت، إذ لم يكن يشعر أنه محتاج إلى المسيحية كإنسان خاطئ، بل رحب بالمسيحية كمحارب وقبلها بسرور، وبعد ذلك اعترف بالمسيحية كسياسي وقدّرها قَدْرَها. ولكن لا يعلم أحد إلا الله وحده إن كان قد قبل المخلِّص كخاطئ هالك أثيم أم لا، لأنه من الصعب على الأمراء والعظماء أن يصيروا مسيحيين.

ثم سار قسطنطين إلى الليريكون لمقابلة ليسينيوس، الذي كان قد عقد معه تحالفًا سريًا قبل ذهابه لمحاربة مكسينتوس، فتقابل الإمبراطوران في مدينة ميلانو حيث تقوى تحالفهما باقتران ليسينيوس بابنة قسطنطين. عندئذ أمكن لقسطنطين أن يؤثر على ليسينيوس ليوافق على إلغاء جميع أوامر الاضطهاد التي أصدرها ديوكليشيان، وليصدر مرسومًا جديدًا فيه يمنح الحرية التامة للمسيحيين في أداء واجباتهم الدينية.

وإذ وافق ليسينيوس على هذا صدر مرسوم عام باسم قسطنطين وليسينيوس معًا في سنة ٣١٣م في صالح المسيحيين، ويمكن القول إنه بموجبه منحوا حرية مطلقة كاملة، وأعيدت إليهم كنائسهم، ورُدّت إليهم ممتلكاتهم بدون مقابل. وتقدمت المسيحية في مظاهرها الخارجية تقدمًا عظيمًا.

ولكن السلام بين الإمبراطورين الذي ظهر أنه مبني على أساس راسخ ما لبث أن تعكر صفوه وأخذ يتقوض بنيانه. ذلك لأن الحسد وحب السيادة والطموح إلى امتلاك ناصية السلطة المطلقة على الإمبراطورية الرومانية، كل هذا لم يسمح لهما بالتمتع بالسلام طويلاً. فاشتعلت نيران الحرب سنة ٣١٤م، ودارت الدائرة على ليسينيوس فانهزم، وتكبد خسائر فادحة في رجاله وأملاكه. وعقدت معاهدة صلح بينهما دامت نحو تسع سنوات.

وبعد ذلك أصبح من المستحيل تجنب وقوع حرب أخرى، وقامت الحرب ثانية واتخذت شكل جهاد ديني بين الإمبراطورين المتنافسين، فألحق ليسينيوس الكهنة الوثنيين بحزبه واضطهد المسيحيين وقتل كثيرين من الأساقفة لعلمه أنهم مقربون إلى سراي خصمه. وقبل أن يقدم ليسينيوس على الحرب ذبح للآلهة وأقام لها محفلاً تعبديًا جهاريًا. أما قسطنطين فجعل اعتماده على الإله الذي كان قد اتخذ رمزه علمًا لجيشه. فتقابل الجيشان المتقاتلان وكانت الحرب شديدة والقتال عنيفًا، وسالت الدماء أنهارًا. ولم يكن ليسينيوس بالخصم العادي الهين، ولكن قسطنطين انتصر عليه انتصارًا باهرًا بفضل ذكائه ونشاطه وبسالته. ولم تطل مدة ليسينيوس بعد هزيمته هذه إلا سنة واحدة ثم مات، أو بالحري قُتل في سنة ٣٢٦م. وكان قسطنطين في ذلك الحين قد بلغ منتهى عظمته وسؤدده، ونال أسمى مطامحه ومراميه، فكان المسيطر الوحيد والحاكم المطلق الفريد على الإمبراطورية الرومانية، وظل هكذا حتى قضى نحبه عام ٣٣٧م. وإذا أراد القارئ الاطلاع على تاريخ حياة هذا الإمبراطور العظيم من الوجهتين الحربية والسياسية فعليه الرجوع إلى التاريخ المدني، ولكننا نورد هنا لمحة قصيرة من حياته الدينية.

تاريخ قسطنطين الديني

إن غاية ما نعلمه عن الديانة التي كان يدين بها قسطنطين قبل اهتدائه للمسيحية، حسبما يقال، لا يتعدى أنه كان وثنيًا في الظاهر، إن لم يكن غيورًا للوثنية. ويوسيبوس نفسه يعترف أن قسطنطين لم يكن في ذلك الحين على يقين من جهة أي دين عليه أن يعتنق، بل كان مترددًا وفي ريب منها فكانت تتناوبه عوامل السياسة

والرياء تارة، والخرافات طورًا، والوحي الإلهي تارة أخرى. وهذه العوامل هي التي حددت صفة حياته الدينية المستقبلة. ولكن من الظلم الفادح أن نظن أن اعترافه بالمسيحية وتصريحاته العلنية في صالحها لم يكن إلا رياء مقصودًا ومداهنة عمدية، لأن حياته الدينية والكنسية تدل على شيء أفضل بكثير من ذلك، وتبرهن على حالة أرفع وأعظم.

وكذلك لا نصدق حصوله على إعلان إلهي في الرؤيا التي رآها في وقت الظهيرة، أو الحلم الذي شاهده في منامه، بل ربما كان هناك منظر غير عادي حول الشمس أو في السحاب، وتخيل له من هذا المنظر شكل الصليب. ويحتمل أن يكون المنظر الذي رآه في حلم نتيجة مشغوليته الكثيرة واضطرابه العظيم. وقد تعتبر القصة كلها الآن كخرافة مملوءة بالتملق والمداهنة للإمبراطور العظيم، أبهجت وأسرت يوسيبوس، الذي كان معجبًا جدًا بالإمبراطور مثنيًا عليه أحسن الثناء، فدونها كأنها حقيقة واقعية، وقلَّ من يعطيها مكانًا بين الأخبار التاريخية الصحيحة.

أما السياسة والخرافة فكان لهما بدون شك دخل كبير في التغيير الذي حصل في ذهن قسطنطين، فمنذ حداثته عاين اضطهاد المسيحيين، فرأى في ثباتهم واحتمالهم الآلام بصبر قوة حية في دينهم تغلبت على قوة مضطهديهم، وبقيت مستمرة بعد سقوط كل الأنظمة الأخرى. كما أنه شاهد أن الأباطرة الذين أظهروا العداء للمسيحية كانوا يموتون الواحد بعد الآخر أشنع وأفظع ميتة، إلا أباه الذي دافع عن المسيحية وعن حقوقها أثناء الاضطهاد الطويل، فهو وحده دون باقي الأباطرة مات موتًا مكرمًا وعزيزًا في سلام وسكينة. فمثل هذه الحقائق العجيبة أثرت في ذهن قسطنطين، فضلاً عن أنه يُحتمل أنه قدّر بحكمته السياسية فضل المسيحية أدبيًا وتأثيرها في أن تجعل الناس يخضعون خضوعًا تامًا للسلطة المدنية، والأثر العظيم التي كان لها على عقول نحو نصف إمبراطوريته.

على أن البواعث التي حدت بالإمبراطور إلى اعتناق المسيحية ليست جزءًا من تاريخنا، ولا يلزم أن ننشغل بها أكثر من ذلك. وإنما لكي يتيسر لنا معرفة هذا العصر المهم جدًا، وفهم نقطة الانقلاب العظيم في تاريخ الكنيسة، يحسن بنا أن ننظر إلى حالة الكنيسة كما وجدها قسطنطين في سنة ٣١٣م، وحالتها عندما تركها سنة ٣٣٧م.

حالة الكنيسة كما وجدها قسطنطين

كانت الكنيسة قبل هذا الوقت ترتع في بحبوحة الحرية وتتمتع بلذة الاستقلال عن الحكومة، وكان لها دستور إلهي تسير عليه، صادر من السماء مباشرة، وليس من دساتير هذا العالم. وسارت الكنيسة في طريقها محمية، لا بحماية الحكومة، بل بقوة الله ضد كل الأعداء. وعوضًا عن أن تنال تعضيدًا وتأييدًا من الحكومة المدنية اضطُهدت من أول نشأتها كعدو أجنبي وكبدعة يُخشى من انتشارها. وقد سمح الرب للشيطان عشر مرات أن يثير خواطر العالم الروماني ضدها، ولكن في كل مرة اضطر للاعتراف بضعفه وعجزه عن النيل من المسيحية. فلو كانت الكنيسة قد تذكرت تلك العناية الإلهية ومحبة خطيبها الذي قال: «إنه لم يبغض أحد جسده قطّ، بل يقوته ويربيه كما الرب للكنيسة» (أف٥: ٢٩) لما قبلت حماية قسطنطين بكلفة باهظة وأجر عظيم، إذ خسرت في مقابلها إخلاصها للمسيح سيدها وأمانتها من نحوه.

كانت الكنيسة، إجمالاً، في ذلك الوقت قد اختلطت كثيرًا بالعالم وابتعدت بعيدًا عن محبتها الأولى، وسبق أن شاهدنا أنه منذ أيام الرسل أخذت محبة العالم تظهر شيئًا فشيئًا في الكنيسة، وحب الظهور يزداد تدريجيًا. ونظرًا لأننا ميالون بحسب الطبيعة إلى الأمرين فقد سمح الرب للشيطان بأن يضطهد الكنيسة، ولكن بدلاً من أن تقبل الكنيسة ذلك الأمر كتأديب من يد الرب وتعترف بتزحزحها عن مركزها وبحالتها العالمية، سئمت من رفض العالم لها وعدائه ضدها، وظنت أنها ترضي الرب وتخدمه إذا سايرت العالم وسارت في وئام واتفاق معه. وهذه الضلالة الشيطانية قد جاءت على يدي قسطنطين، مع أنه لم يكن يدري ما كان يعمل. يقول ميلمان: "مهما تكن بواعث تجديد قسطنطين واعتناقه المسيحية فإنه بلا شك سلك مسلكًا يدل على السياسة الرشيدة، إذ نال بذلك إخلاص ومحبة قسم وافر من سكان الإمبراطورية ممن كان لهم نصيب في ثروة البلاد وسعة أملاكها. ولم يسلك طريق أسلافه الذين حسبوا المسيحيين أعداء وحاربوهم واضطهدوهم".

اتحاد الكنيسة والحكومة

في شهر مارس سنة ٣١٣م نُشرت بمدينة ميلانو نصوص التحالف غير المقدس بين الكنيسة والحكومة. وفي ذلك التاريخ عينه صدر المرسوم الشهير الذي منح المسيحيين الحرية الدينية

إلى أقصى حدودها، ومهد السبيل لجعل المسيحية الديانة الشرعية الرسمية للبلاد، مما أدى إلى رفع شأنها وإعلاء منزلتها فوق سائر الأديان. وقد ظهر ذلك علنًا في عمل الراية الإمبراطورية الجديدة المسماة "لاباروم" وقد كانت تلك الراية تحمل - علاوة على الحروف اليونانية الأولى من اسم المسيح وصورة الصليب - صورة الإمبراطور مصنوعة من ذهب. وقد كان الغرض من تلك العلامات والرسوم أن تكون موضوع عبادة الجنود المسيحيين والوثنيين، وأن تضرم فيهم نار الغيرة والحماس في يوم الحرب والنزال. وهكذا اقترنت المسيحية جهارًا بعبادة الأصنام، بواسطة ذلك الشخص الذي كان يلقب بالإمبراطور المسيحي العظيم.

ولكننا إذا تعمقنا في معرفة فكر قسطنطين معرفة صحيحة لما ترددنا لحظة في القول بأنه كان في ذلك الوقت وثنيًا بالقلب ومسيحيًا من الوجهة الحربية فقط. وما اعتنق المسيحية إلا كجندي واقع تحت تأثير الخرافات، حيث كان في تلك اللحظة على استعداد أن يقبل بسرور ويرحب بمساعدة أي إله قدير ليستعين به في حروبه لأجل لَمّ شمل أطراف الإمبراطورية الشاسعة تحت لوائه، ولا يمكننا أن نرى في هذا أثرًا من المسيحية الحقيقية، وبالأولى جدًا لا نشتم منه شيئًا من رائحة الغيرة القوية التي تكون للمؤمن حديثًا، بل بالعكس يسهل جدًا أن نشاهد الخرافات القديمة الوثنية تحت ثوب المسيحية الجديد الذي ارتداه. ولولا ذلك لكنا نحسب أن الراية "لاباروم" ما هي إلا مظهرًا من مظاهر الاحتقار والازدراء بشخص ربنا المبارك، ولكنه عمل ذلك بجهل. وقد كان يتطلع أيضًا إلى عمل ما يلائم أفكار جنوده ورعاياه الوثنيين، ويبدد مخاوفهم ويهدئ روعهم، ويجعلهم في أمن واطمئنان من جهة دينهم القديم. ولذلك فإن المراسيم التي أصدرها قسطنطين في بداية ملكه، وإن كانت لصالح المسيحية، إلا أنها صيغت في قالب يدل على الحذر والحرص، بحيث لم تمس طقوس الوثنية وحرية ممارستها في شيء ما.

على أن المسيحيين كانوا ينالون شيئًا فشيئًا اعتبارًا ومكانة في عينه. وقد كان لأعمال الشفقة والحنان من نحوهم وأفعال الكرم والسخاء لهم، والنعم التي أغدقها عليهم، صوت أعلى وأشد من صوت المراسيم. فلم يكتف بأن رد لهم الحقوق المدنية والدينية التي كانوا قد حرموا منها، واسترجع الكنائس والأملاك التي كانت قد صودرت في الاضطهاد الذي حصل في عهد ديوكليشيان، ولكنه مكنهم بواسطة عطاياه السخية الوافرة من بناء أماكن جديدة كثيرة لاجتماعاتهم، وأظهر إنعامًا عظيمًا للأساقفة، فقد كانوا على الدوام يحيطون حوله، سواء في قصره أو في أسفاره أو في حروبه. كما أنه دل على احترامه العظيم للمسيحيين بأن عهد أمر تربية ابنه كريسبوس وتهذيبه إلى لاكتانتيوس الشهير الذي كان مسيحيًا. ولكنه بسبب هذه الرعاية الملكية اتخذ لنفسه مقام السيادة على أمور الكنيسة، فكان يحضر مجامع الأساقفة بدون حراسه، ويتحاور معهم، ويحسم الخلافات العقائدية. ومن ذلك الوقت فصاعدًا صارت الكنيسة تُعرف في المكاتبات الرسمية باسم الكنيسة الكاثوليكية.

قسطنطين كرئيس الكنيسة والكاهن العظيم للوثنيين

بعد أن انهزم ليسينيوس تلك الهزيمة الساحقة التي سبق أن أشرنا إليها، اتحد العالم الروماني بأسره تحت صولجان قسطنطين. وفي إعلانه الذي أصدره لرعيته الجديدة في الشرق أعلن عن نفسه أنه آلة في يد الله لنشر الإيمان الصحيح، وأن الله منحه الظفر على كل قوات الظلمة لكي يثبت بواسطته عبادته تعالى في العالم أجمع. وفي خطابه إلى يوسيبوس يقول "إن في إعادة الحرية مرة أخرى، بفضل رعاية وعناية الإله القدير وخدمتي، وفي القضاء على عوامل الاضطهاد التي كانت تثيره الحكومات، ما يبعث في نفسي الاعتقاد بأن القوة الإلهية أصبحت ظاهرة للجميع، وبأن الذين سقطوا في جرائم كثيرة بسبب الخوف أو عدم الإيمان سيُقبلون إلى معرفة الإله الحقيقي".

ومن ذلك الحين اتخذ قسطنطين مقام رأس الكنيسة بصورة علنية أمام العالم أجمع، وفي الوقت ذاته احتفظ لنفسه بمقام الكاهن العظيم للأوثان، ذلك اللقب الذي لم يتخل عنه قط، حتى مات وهو حائز للقبين - رأس الكنيسة، والكاهن العظيم للأوثان.

إن التحالف غير المقدس والاندماج المحرم بين الكنيسة والحكومة، الذي أشرنا إليه آنفًا بكل أسف وحزن عند استعراض الخطاب إلى ملاك كنيسة برغامس، نشاهده في كل نقطة من تاريخ ذلك الإمبراطور. وإذ سبق لنا أن تكلمنا عن الخطاب فنترك للقارئ المقارنة بين الحق المكتوب والتاريخ. ويا لها من رحمة عظيمة في أن يكون لنا مثل هذا المرشد الأمين في مطالعة ذلك العصر المشهور في تاريخ الكنيسة.

ومن الأعمال الأولى التي قام بها إمبراطور العالم الوحيد، إلغاء جميع الأوامر التي أصدرها ليسينيوس ضد المسيحيين، وإطلاق سراح كل المسجونين من السجون والمناجم أو الحرف الدنيئة الحقيرة التي كان بعضهم قد حُكم عليهم بالاشتغال بها احتقارًا وتصغيرًا لشأنهم وحطًا من كرامتهم، واسترجع جميع الذين حرموا من وظائفهم في الجيش أو في الخدمة الملكية، ورد لهم جميع الأملاك التي أُخذت منهم. وأصدر مرسومًا إلى رعاياه نصحهم فيه بقبول الإنجيل، ولكنه لم يُرغم أحدًا على ذلك، إذ رغب أن يكون قبول الإنجيل مبنيًا على اقتناع داخلي. على أنه سعى في تحبيذه واجتذاب الناس إليه بمنح مراكز ونعم على الذين يقبلونه من الأشراف، وإسداء عطاياه للذين يقبلونه من الفقراء، وهو مسلك أدى إلى دخول كثيرين من المرائين والمدعين، كما اعترف بذلك يوسيبيوس. وأمر ببناء الكنائس في كل مكان باتساع كاف لاجتماع جميع السكان، ومنع إقامة تماثيل الآلهة، ولم يسمح بوضع تمثاله هو في الهياكل، ومنع كل الذبائح الرسمية، وبطرق كثيرة عمل على رفع شأن المسيحية وإبادة الوثنية.

نتائج الإنعامات الملكية

وصلنا الآن إلى التأمل في المعضلة التاريخية العظمى التي بدت للناس من جميع الطوائف والأمم وهي: أيهما أكثر ضررًا للكنيسة ولشعب الله على الأرض؟ هل حكومة تعمل على تقدم المسيحية بالوسائل العالمية التي تحت سلطتها؟ أم حكومة تقاومها بالقوانين الصارمة؟

لا شك في أن الحرية الدينية بركة عظمى، وأن استئصال العادات الشريرة بالوسائل القانونية يعود على المجتمع الإنساني بالفوائد الجزيلة، إلا أننا لا ننسى أن الإنعامات الملكية قد أضرت كثيرًا بالتقدم الصحيح لكنيسة الله. إنها لرحمة كبرى أن لا يكدرنا مكدر ولا يزعجنا مزعج، ولكنها رحمة أكبر أن لا نكون تحت حماية السلاطين. ولا يفوتنا أن الصفة الحقيقية للمسيحيين هي أنهم غرباء ونزلاء على الأرض، وهم خدام المسيح في العالم، وليسوا من العالم، بل السماء موطنهم، وليس لهم هنا مدينة باقية، ولكنهم ينتظرون المدينة السماوية التي صانعها وباريها الله. وماذا تنتظر الكنيسة من عالم قد صَلب سيدها وربها؟ أو بالحري ما الذي تتوقع أن تقبله منه، وقد أصبح نصيبها الحقيقي في العالم الضيق والآلام والرفض؟ كما يقول الرسول «إننا من أجلك نُمات كل النهار. قد حُسبنا مثل غنم للذبح» (رو ٨: ٣٦). قد يشفق الرب ويرحم شعبه من وقوع التجارب والمحن عليهم، ولكن متى حلت التجارب فلا يجب أن نستغرب كأنه أصابنا أمر غريب، بل لنذكر كلام السيد القائل «في العالم سيكون لكم ضيق» (يو ١٦: ٣٣).

شهادة التاريخ

يمكن لنا الاستدلال من التاريخ نفسه على أن العصر الذي كان يُعذّب فيه المسيحيون ويقضون نحبهم قتلاً بالسيف أو حرقًا بالنار، كان أجزل فائدة وأكبر نفعًا للمسيحية من العصر الذي كانوا يجلسون فيه على موائد الإمبراطور وتغدق عليهم الإنعامات الملكية العديدة. ولإيضاح ذلك نورد لقرائنا الأعزاء صفحة من تاريخ الاضطهاد العظيم في عهد ديوكليشيان، وأخرى من أبهى وأسمى أيام قسطنطين. والصفحتان من كتابات ميلمان، الذي كان رئيس أساقفة كنيسة القديس بولس، لذلك فلا يُظَن فيه عدم إنصافه للإكليروس أو أقل تحامل عليهم. وكلامنا هنا لا يتناول إلا الأمناء فقط، فمن المعلوم لدينا أنه في الاضطهادات الأخيرة عندما تكاثرت اجتماعات المسيحيين وازداد عددهم فشل البعض منهم في ساعة التجربة، وبرهنوا على عدم أمانتهم، ولكن هؤلاء قليلون إذ قيسوا بالآخرين، فضلاً عن أن معظمهم قد ندموا بعد ذلك وتابوا. وهاك ما قاله ميلمان:

"إن الاضطهاد استمر ست أو سبع سنوات، ومع ذلك فلم يَبدُ على المسيحية في أي جهة من جهات العالم شيء من الضعف، بل بالعكس قد ازدادت تعمقًا وتأصلاً في نفوس البشر واتسعت انتشارًا وكثرت تنظيمًا وترتيبًا، ولم ترضخ في زمن من الأزمان بسبب ما كانت تلاقيه من الصدمات العنيفة والهجمات القوية. ولما أُوقف عقد الاجتماعات العلنية كان المسيحيون يجتمعون سرًا في منازلهم أو يكتفون بالتعزيات الانفرادية، حيث يتلذذون في قلوبهم بالرب، وحيث لا يهجم عليهم هاجم ولا تصل إليهم أيدي البشر، فتسلب منهم فرحهم الداخلي. وقد وقع الاضطهاد بأشد أنواعه وأقساها على مشاهير الكنيسة، والذين قاوموا حتى الموت كانوا يتشجعون أكثر بمرأى الجماهير، التي وإن لم تجسر على إظهار الثناء والمديح لهم فإنه لم

يسعها إخفاء إعجابها بهم، حتى احتشدت النساء لتقبل أطراف أهداب ثياب الشهداء. وبعد حرق الشهداء وتحويل أجسامهم إلى رماد، أو قتلهم بالسيف وعدم دفن جثثهم، كان كثيرون من المسيحيين الغيورين يقبلون ويجمعون سرًا تلك العظام المبعثرة والرماد المنتثر".

ولما صدر مرسوم جاليريوس الأخير وهو على فراش موته أوقف الاضطهاد ومنح المسيحيون حق ممارسة عبادتهم علنًا بكل حرية. في هذا الوقت الذي لم يدم إلا بضعة أشهر تنفس المسيحيون هواء الحرية، ولكن ما أعجب هذا المنظر الذي أعقب ذلك، وما أقواها شهادة للحق ولقوة المسيحية. فإن ميلمان، ذات رئيس الأساقفة هذا يستطرد الحديث فيقول:

"إن قرار إبطال الاضطهاد أظهر في الحال اتساع نطاقه، فالسجون التي غصت بالكثيرين فُتحت على مصاريعها فخرج المسجونون، والذين حكم عليهم بالشغل في المناجم أُطلق سراحهم. وكنت ترى في كل مكان أفواجًا من المسيحيين يسرعون في الشوارع للذهاب إلى الأطلال الباقية من كنائسهم، ويزورون الأمكنة التي تقدست بعبادتهم السالفة. وغصت الطرق الرئيسية والشوارع والأسواق بمواكب عظيمة من المسيحيين تسبّح وتغني للرب من أجل إنقاذهم وخلاصهم. والذين ثبتوا في الإيمان تحت أشد التجارب وأعظم الامتحانات تقاطرت عليهم التهاني الحبية من إخوتهم. والذين فشلوا في ساعة الضيق أسرعوا إلى الاعتراف بخطيتهم والسعي للدخول ثانية إلى هذا الجمهور الفرح المسرور".

والآن نتأمل فيما آل إليه الحال في عهد قسطنطين بعد موت جاليريوس بنحو عشرين سنة، ونلاحظ التغيير العظيم في مركز الإكليروس، فيقول ذات الأسقف:

"أصبح الأساقفة ندماء القصر الدائمين، يجالسون الإمبراطور. وأصبحت الأمور الكنسية الداخلية أمورًا تختص الحكومة بالنظر فيها. وتسلط الأسقف، لا بما له من سمو المقام في الحياة المسيحية، بل بسلطان وظيفته وسطوة مركزه، فصار يفتح باب الكنيسة لمن يشاء دليلاً على منحه البركة الأبدية، ويغلقه في وجه من يشاء حرمانًا له من تلك البركة. وأصبح ينطق بحكم الحرمان الذي كان يطوح بالمذنب الخائف المرتعد إلى الوثنيين الهالكين. وقد وضع عرشه في أفضل مكان في الهيكل المسيحي. ومع أنه كان لا يزال يعمل بعد باسم زملائه من الكهنة والشيوخ وفي حضورهم، لكنه كان يُعترف به كرئيس هيئة كبرى، وأعطى لنفسه سلطانًا أبديًا مبهمًا، وإن لم يُقلل عدم وضوح ماهية هذا السلطان على مهابته وسطوته"(٣/٢٨)، (٣٠).

وقد حلت المسائل العقلية والفلسفية محل حقائق الإنجيل، كما قامت الديانة الظاهرية مقام الإيمان والمحبة والاهتمام بالأمور السماوية والمخلّص المصلوب. أما التغيير الحقيقي والتبرير بالإيمان وحده والانفصال عن العالم، فكانت حقائق غير معروفة عند قسطنطين، ويحتمل أنها لم تُذكر أمامه، لذا يكمل ميلمان أقواله: "وقد أصبحت علاقات العالم الطبيعي بالعالم الروحي هي موضوع البحث عامة، وصارت هذه لأول مرة هي الحقائق الأساسية للدين المرغوب، وهي بالطبع لا تمنع الانفصال عن الملذات العالمية والشهوات المحببة. فلما شاهد الناس ذلك، حتى من اللذين في دائرة المسيحية ذاتها، ولّوا وجههم شطر الديانة اليهودية، وابتدأت أسفار العهد القديم تسمو وتسود على إنجيل المسيح".

اختفاء الصفات الحقيقية للكنيسة

مهما كان لمعان وبهاء الإنعامات الإمبراطورية في أعين الطبيعة البشرية فإنها كانت القاضية على الصفة الحقيقية للمسيحيين أفرادًا والكنيسة إجمالاً. فكل شهادة عن مسيح مرفوض على الأرض وممجد في السماء قد بطلت. وكأن المسيحيين قد عمّدوا العالم بدل أن يعتمد المؤمنون كمن ماتوا مع المسيح بموته وقاموا معه بقيامته. إن كلمة الله صريحة وواضحة: «مدفونين معه في المعمودية التي فيها أقمتم أيضًا معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات» (كو٢: ١٢). فالمعمودية يُشار إليها هنا كعلامة للموت والقيامة، ولكن قد انعكس الحال تمامًا في ذلك العصر. إن الإيمان بالمسيح وغفران الخطايا والقبول في المحبوب كل هذا لم يهتم به الإكليروس ولم يبحثوا عنه.

وإذ أصبح مجرد الاعتراف بالمسيحية هو الطريق الأكيد للوصول إلى الثروة والجاه والإنعامات الجزيلة أقبل الناس من كل الطبقات يتهافتون على المعمودية. وفي عيدي الفصح ويوم الخمسين كانت تحتشد الألوف لابسين الثياب البيض حول الكنائس العديدة منتظرين عمادهم. وكان العدد عظيمًا جدًا والمنظر هكذا عجيبًا، حتى أن كثيرين ظنوا أن هذا الجمهور هو المشار إليه في سفر الرؤيا بالجمع الكثير الذي لم يستطع أحد أن يعده من كل الشعوب والألسنة، الواقفين أمام العرش متسربلين بثياب بيض. وقد قدّر بعض الكتاب أن عدد الذين

اعتمدوا في بحر سنة واحدة في مدينة روما فقط يبلغ اثني عشر ألفًا، بخلاف النساء والأطفال. وقد وعد الإمبراطور أن يعطي كل مخلَّص حديث من الطبقات الفقيرة عشرين قطعة ذهبية وثوبًا أبيضَ. وبواسطة هذه الظروف وتلك الوسائل كمل سقوط الديانة الوثنية وقضي عليها القضاء الأخير، وتقدمت المسيحية في العالم، واعتلت أريكة عرش العالم الروماني.

اعتماد قسطنطين وموته

لقد أدى اعتماد قسطنطين إلى بحث كثير وتأمل طويل، كما حصل عند إعلانه مسيحيته، فإنه رغمًا عن الغيرة العظمى التي أظهرها نحو المسيحية قد أخّر معموديته، وبالتالي قبوله في الكنيسة، لغاية قرب موته. وقد اقترح الكتّاب عدة بواعث سياسية وشخصية كأسباب لتأخيره، ولكن السبب الحقيقي على ما نظن كان سببًا شخصيًا، فإن الخرافات في ذلك الوقت علّمت الناس أن يجعلوا مغفرة الخطايا مقترنة بالمعمودية، فبناء على هذه الضلالة أجّل قسطنطين على ما يبدو معموديته، حتى الوقت الذي لم يستطع فيه أن يتمتع بعد بأمجاد الإمبراطورية وهو منغمس في ملذات العالم. ومن المستحيل أن نتصور انغماسًا في الشر أكثر هلاكًا للنفس وأعظم مجلبة لإهانة المسيحية وأشد خطرًا على كل فضيلة أدبية مثل ما انغمس هو فيه. لقد وجد قسطنطين في هذا التعليم رخصة لأن يسعى لنيل مطامعه الكثيرة ويسلك في سبيل ذلك أظلم المسالك من إراقة الدماء واستعمال القسوة، متشجعًا بأن وسيلة غفران الخطايا سهلة وتحت يده متى أرادها. ولكننا من الجهة الأخرى نرى أنها لرحمة عظمى من الرب أن شخصًا كهذا كانت حياته العائلية وحياته الجهارية ملوثة بسفك الدماء لم يُسمح له بالاعتراف علنًا بالمسيحية بقبول المعمودية وعشاء الرب. ونرجو أن يكون قد تاب حقيقةً وهو على فراش موته، فإن الأساقفة الذين استدعاهم في قصر نيكوميديا عند مرضه الأخير سمعوا اعترافه واستراحوا عليه وباركوه. وقد عمّده يوسيبيوس أسقف نيكوميديا، وقد اعترف لأول مرة بأنه إذا شفاه الرب وأقامه من مرضه يتعهد أن يسير مع جماعة القديسين، وأن لا يعود يخلع هذا الثوب الأبيض، ثوب معموديته، ويلبس بدلاً عنه الثوب الأرجواني الذي يلبسه الأباطرة، ولكن هذه التعهدات والنيات جاءت متأخرة، فقد مات بعد معموديته بفترة وجيزة في سنة ٣٣٧م(٣٠).

هيلانه والدة قسطنطين

يجدر بنا أن نأتي على ذكر والدة الإمبراطور بإبداء بعض ملاحظات مختصرة عنها. فقد اعتنقت المسيحية، وكانت شديدة الورع والتقوى، مشهورة بكرمها وسخائها. وكانت تقصد إلى الأماكن المقدسة التي حدثت فيها الحوادث الشهيرة المذكورة في الكتاب. ثم أنها أمرت بهدم هيكل الإلهة "فينيس" الذي بناه هدريان على القبر المقدس، وأمرت أن تُبنى مكانه كنيسة تفوق في جمالها وعظمتها جميع الكنائس الأخرى. وتوفيت سنة ٣٢٨م.

• • •

قد رأينا الآن جَليًا صدق كلمات الرب المحزنة القائلة إن الكنيسة تسكن حيث كرسي الشيطان. هناك تركها قسطنطين بعد موته متربعة على عرش العالم، وهي التي وجدها سجينة في المناجم والسجون والمغاير. وليس ذلك فقط بل إذا تأملنا في التاريخ من وجوه أخرى نرى أن ما ورد في الرسالة إلى برغامس ينطبق على حالتها تمامًا.

فلم يتميز مُلك قسطنطين بنقل الكنيسة من مكانها الصحيح بواسطة غواية إبليس فقط، بل تميز أيضًا بالنتائج المُرة التي نتجت عن هذا النقل المعيب، إذ نبتت حالاً بذور الخطأ والفساد والشقاق، وظهرت علنًا أمام المحاكم العالمية وأمام العالم الوثني في بعض الأحوال.

المباحثات الدوناتسية والأريوسية

وقعت في عهد قسطنطين نوعان من المباحثات، الدوناتسية والأريوسية. نشأت أولاهما في البلاد الغربية بسبب خلاف على تعيين أسقف قرطاجنة. وقامت الأخرى في البلاد الشرقية بسبب خلاف في معتقدات الكنيسة الأساسية. فإحداهما خلاف في التعليم، والأخرى في الممارسة الكنسية، ولكن كلتاهما كانت فاسدة ومن نفس المصدر والجوهر. ولعل هذان الأمران هما المشار إليهما بتعليم النقولاويين، وسنأتي على التوسع في ذلك مستقبلاً، ولكننا نقتصر الآن على التأمل في هاتين المباحثتين على قدر ما تعطيانا من النور فيما يختص بنتائج اتحاد الكنيسة بالحكومة، إذ نرى أن الإمبراطور كان يحضر في مجالس الأساقفة بصفته رئيس الكنيسة.

الدوناتسيون

ونبدأ الآن التأمل في المشكلة الأولى. لما مات منسوريوس أسقف قرطاجنة، التأم مجلس من أساقفة البلاد المجاورة لتعيين خلفًا له، وكان هذا المجلس صغيرًا، يديره كاهنان هما بطرس وسيليسيوس، اللذين كان يطمعان في الحصول على هذا المنصب. ولكن أسفرت النتيجة عن انتخاب كاسيليان الشماس، الذي كان محبوبًا جدًا من المجمع. فطعن بطرس وسيليسيوس في الانتخابات. وكان منسوريوس قبل موته بعيدًا عن قرطاجنة قد أودع بعض الشيوخ الأمتعة والأواني الكنسية، وأعطى قائمة بجميع هذه الأشياء لامرأة تقية. فلما تعين كاسيليان سلمته هذه المرأة القائمة، فطلب الأمتعة من الشيوخ، ولكنهم رفضوا تسليمها له لأنهم ظنوا أن هذه الأشياء لن يطلبها منهم أحد بعد أن مات الأسقف القديم. لذلك انضموا إلى حزب المعارضة، وتقوى هذا الحزب بانضمام لوسيلا إليه، وهي امرأة غنية كان كاسيليان قد سبق أن أوقع عليها بعض اللوم والتوبيخ بحسب ما تقتضيه أمانته لمركزه.

ثم أن المقاطعة كلها ادعت حق التدخل في المسألة، فرأس دوناتس أسقف كوسا نياجرا مجمع القرطاجيين، وأرسل فاستدعى سكوندس رئيس أساقفة نوميديا، فحضر ومعه سبعون أسقفًا إلى قرطاجنة، وكوّنوا مجمعًا استدعوا إليه كاسيليان، واحتجوا عليه أنه لا يجوز أن يُرسم إلا بواسطة رئيس أساقفة نوميديا. وبما أن رسامته كانت قد تمت بواسطة أحد الأساقفة الخائنين(*radators*) *فالمجلس لا يعتبر انتخابه صحيحًا. ولكن كاسيليان رفض أن يعترف بسلطة المجلس. أما المجلس فشرع في انتخاب ماجورينوس بدلاً عن كاسيليان الذي قرروا عزله. ولكن أبى الله إلا أن تسوء سمعة هذا المجلس، لأن ماجورينوس هذا كان من عائلة لوسيلا، التي دفعت مبلغًا طائلاً لتأييد انتخابه، وقد اقتسم الأساقفة هذا المبلغ فيما بينهم. هكذا تكوّن حزب المعارضة وكان هذا سببًا في تحول بعض الناس الذين كانوا أولاً ضد كاسيليان إلى صفه.

بلغ خبر هذا الخلاف إلى مسامع قسطنطين، وكان في ذلك الوقت قد اعتلى لتوه عرش البلاد الغربية، وكان قد أرسل مبلغًا وفيرًا من المال لمساعدة الكنائس الأفريقية التي قاست مُرّ العذاب أثناء الاضطهادات الأخيرة. ولما كان الدوناتسيون معتبرين خارجين عن الكنيسة الكاثوليكية الحقيقية، فقد أمر الإمبراطور بحرمانهم من الهبات والامتيازات التي منحها للمسيحيين في مراسيمه الماضية، وقصر هذه الامتيازات على أتباع كاسيليان، الأمر الذي دعا الدوناتسيين أن يرفعوا التماسًا إلى الإمبراطور راجين أن تفحص مسألتهم بواسطة أساقفة "الغال"، لأنهم انتظروا منهم الإنصاف وعدم المحاباة. وهنا نرى لأول مرة أنه يرفع التماس إلى السلطة الحكومية بتعيين مجمع تحكيم إكليركي.

وقد وافق قسطنطين على هذا الطلب، وانعقد مجمع رومية في سنة ٣١٣م، مؤلفًا من نحو عشرين أسقفًا، وأصدر حكمه في صالح كاسيليان الذي شرع على أثر ذلك في الدعوة إلى الصلح والاتحاد. ولكن الدوناتسيين رفضوا وازدروا بكل وسائل الصلح، وقدّموا طلبًا إلى الإمبراطور عرضوا فيه أن مجمعًا مؤلفًا من عشرين أسقفًا لا يكفي لنقض حكم قد أقره سبعون أسقفًا بإدانة كاسيليان. فأمر الإمبراطور بعقد مجمع آخر حضره عدد كبير جدًا من الأساقفة من أفريقيا وإيطاليا وصقليه وسردينيا، ولكن الأغلبية كانت من بلاد الغال، وكان هذا أكبر مجمع إكليركي انعقد حتى ذلك اليوم. والتأم المجمع في أرليس سنة ٣١٤م، فأقر تعيين كاسيليان مرة ثانية وأصدر بذلك عدة منشورات إلى المعارضين من أفريقيا.

وفي نفس ذلك الوقت مات ماجورينوس، وتعين شخص آخر خلفًا له لقبوه "دوناتس العظيم" تمييزًا له عن دوناتس الأول، ويصفونه بأنه كان عالمًا مقتدرًا فصيح اللسان ممتلئًا نشاطًا وغيرة. وقد اتخذ هؤلاء المعارضون لأنفسهم اسم الدوناتسيين. وقد اكتسبوا أخلاق زعيمهم كما تسموا باسمه.

قسطنطين يفصل في الخلافات الكنسية

توسل الدوناتسيون إلى الإمبراطور مرة ثانية طالبين منه أن يعيد النظر في مسألتهم، وأن يتولى الأمر بنفسه في هذه المرة، فقبل الإمبراطور طلبهم، وإن كان قد استاء من عنادهم وعصيانهم. وسمع قضيتهم في مدينة ميلانو سنة ٣١٦م، وأصدر حكمه فيها، فجاء مطابقًا لما قرّره مجمعا روما وأرليس. ثم أصدر قوانين

* هذا الاسم كان لقب احتقار أطلق على من سلموا الكتب المقدسة والأدوات الكنسية في وقت الاضطهاد خوفاً من القضاء على حياتهم(١/٢٥).

ضدهم، ما لبث أن ألغاها خشية النتائج الخطرة التي قد تنجم عن وسائل الشدة والعنف. ولكنهم بالرغم من ذلك كله ازداد عددهم بسرعة، وبذلك سبّبوا انشقاقًا عظيمًا في الكنيسة واسع النطاق، إلى أن بلغ درجة لا تُطاق، حيث وصل عدد المجتمعين في مجمع سنودسي سنة ٣٣٠م مائتين وسبعين أسقفًا، وفي بعض الأوقات بلغ أربعمائة أسقف. وأثبتت الأيام أن هذا الجمع الخفير كان مصيبة عظمى على الولايات الإفريقية مدة تربو على الثلاثمائة عام، بل في الواقع لغاية الفتح الإسلامي.

تأملات في الخلاف الأول العظيم في الكنيسة

لما كان هذا أول خلاف أدى إلى انشقاق الكنيسة، رأينا أنه يحسن بنا أن نذكر بعض بيانات تفصيلية عنه، فقد يتعلم القارئ العزيز بعض الدروس اللازمة من هذا الانشقاق المشهور، الذي ابتدأ بحادثة تافهة ليس لها أدنى قيمة في حد ذاتها، ولا تستحق أقل إشارة في التاريخ، فلم تكن مسألة تعليم باطل أو سلوك سيئ، بل مسألة انتخاب أسقف لأبروشية قرطاجنة!

كان في الإمكان منع أحزان داخلية وتعييرات خارجية لكنيسة الله دامت عدة مئات من السنين لو إنه وُجد قليل من التقدير، ومقدار يسير من إنكار الذات، ورغبة صادقة في سلام ووحدة الكنيسة، وفوق ذلك كله اهتمام حقيقي بمجد الرب. ولكن الكبرياء والجشع والطمع - أثمار الجسد المحزنة - تُركت لتعمل عملها المريع وتلعب دورها الفظيع. ويمكن للقارئ أن يحكم من المركز الذي حازه الإمبراطور في مجالس الكنيسة كيف أن مقامها وصفاتها تغيرت تغيرًا كليًا. وكم كان غريبًا ومدهشًا لدى قسطنطين أن يرى أنه سرعان ما أن اتخذ الصليب علمًا له، حتى استؤنفت لدى محكمته قرارات صادرة من مجامع أسقفية بخصوص أمور كنسية للبت فيها، وهذا يدل على الحالة التي وصل إليها الإكليروس. ولكن لنلاحظ النتائج التي تضمنها مثل هذا الالتجاء إلى حكم الإمبراطور، وهي أن الطرف الذي تحكم السلطة المدنية ضده ويأبى الرضوخ لهذا الحكم يصبح متعديًا على القوانين والشرائع، وهذا ما حصل في هذه المسألة، إذ من ذلك الوقت عومل الدوناتسيون كمتعدين على قوانين الإمبراطور، فحُرموا من كنائسهم، وكثيرون منهم عانوا النفي والطرد، وصودرت أموالهم وممتلكاتهم، وصدر قانون يقضي بجواز الحكم بعقوبة الموت عليهم، ولكن لا يظهر أن هذا القانون نُفّذ في أية حالة مدة حكم قسطنطين. على أن الحكومة لجأت إلى اتخاذ وسائل شديدة بقصد إرغام الدوناتسيين على أن يتحدوا ثانية مع الكاثوليك، وكما دلت التجارب في مثل هذه الأحوال كانت نتيجة الشدة التي استُعملت لإرجاعهم قهرًا إنما تقوية روح العصيان والتحزب بينهم. وإذ أثيروا بالاضطهاد تقووا بأقوال أساقفتهم لا سيما دوناتس نفسه، الذي كان زعيم حزبه، برأيه المقنع وعزيمته القوية، فأسرعوا إلى كل أنواع التعصب والعنف.

أخيرًا تعلم قسطنطين اختياريًا أنه وإن كان قد استطاع أن يحمي الكنيسة، لكنه عجز عن أن يمنحها السلام، فأصدر أمرًا بمنح الدوناتسيين حرية كاملة ليتصرفوا حسب اقتناع ضمائرهم، مصرحًا أن هذا الأمر يتعلق بهم بينهم وبين الله، وأن الله هو الذي يدينهم وحده(٣/٢٩)، (٢/١٩)، (١/٣١).

النزاع الأريوسي

ما لبثت الكنيسة أن تمتعت بالسلام الخارجي بواسطة منشور ميلانو حتى تعكر صفو السلام بسبب المنازعات الداخلية. فبعد اتساع الشقاق الدوناتسي في أفريقيا بوقت قصير، بدأ النزاع الأريوسي الذي نشأ في الشرق، وامتد إلى جميع أنحاء العالم. سبق أن ذكرنا أن هذه المخاصمات والمنازعات هي النتيجة السيئة والثمرة المرة لاتحاد الكنيسة مع الحكومة، ذلك الاتحاد الذي لا يستند على شيء في كلمة الله. وإن لم تكن هذه النتيجة قد نشأت من هذا الاتحاد بصفة مباشرة، إلا أنها نتجت من صيرورة قسطنطين رئيسًا ظاهرًا للكنيسة، معترفًا به جهارًا في رئاسة اجتماعاتها الدينية الخطيرة.

وتلك المنازعات التعليمية والتدبيرية قد أوجدت هياجًا واضطرابًا في جميع أرجاء الكنيسة. وليس في الكنيسة وحدها، بل سببت تأثيرًا سياسيًا قويًا في أمور العالم، وهذا أمر كان لا بد منه بسبب المركز الجديد الذي شغلته الكنيسة، لأن الإمبراطورية إذ كانت في ذلك الوقت مسيحية من حيث المبدأ على الأقل، كانت مثل هذه المسائل كبيرة الأهمية وعظيمة الاعتبار. لذلك كان النزاع الأريوسي أول ما فرّق شمل المسيحيين، ونظم في جميع أنحاء العالم أحزابًا متعادية، تقاوم بعضها بعضًا بحقد وغيظ عظيمين.

ظهرت في الكنيسة قبل اتحادها وارتباطها بالحكومة بدع تُحاكي

في طبيعتها بدعة أريوس، ولكن تأثيرها قلّما تعدى المكان أو الزمان الذي نشأت فيه، إذ كان يُقضى عليها القضاء المبرم بعد محاورة عنيفة ومجادلة حادة، فتصبح نسيًا منسيًا كأن لم تكن. أما البدعة الأريوسية فأمرها كان على خلاف ذلك تمامًا، لأن قسطنطين الذي تبوأ أريكة عرش العالم اعتبر نفسه الرئيس المطلق الوحيد المتصرف في شئون الكنيسة، فاستخدم ما لديه من سلطان ونفوذ، وحدد وعرّف ما أقره من التعاليم الدينية، غاضًا النظر عن كلمة الله، وإرادة المسيح، ومقام الروح القدس، والعلاقات السماوية التي للكنيسة، أو بالحري لم يكن يدرك شيئًا من هذا كله. ربما سمع عن بعض الآراء العديدة التي أدت إلى انقسام المسيحيين، ولكنه شاهد في الوقت نفسه أنهم كجماعة وهيئة كانوا يتقدمون في القوة والعظمة، وكانوا في الحقيقة متحدين متآزرين رغمًا عن هذه البدع، أقوياء أشداء مهما كانت اليد التي تسود عليهم ظالمة وقوية. على أنه لم يستطع أن يرى ولا أن يفهم أنهم رغمًا عن فشلهم وضعفهم في ذلك الحين فقد كان اتكالهم واستنادهم على الله وحده دون سواه، وأن كل يد أخرى إنما كانت آلة في يد العدو يستخدمها ضدهم، وأنهم كانوا صاعدين في البرية مستندين على حبيبهم، وكل آلة صوِّرت ضدهم لم تنجح. ولما كان الإمبراطور يجهل علاقة الكنيسة السماوية، ظن أنه كما أمكنه أن يمنحها حماية كاملة من التعدي عليها من الخارج يمكنه أن يهبها سلامًا داخليًا ويقيها شر الانقسامات والانشقاقات. ولكن واأسفاه، لم يدرك أن ذلك فوق مقدوره، وأنه ليس في وسع إنسان مثله أن يهب السلام الداخلي للكنيسة، بل إن نفس الراحة والطمأنينة اللتين أغدقهما على الكنيسة، والتمتع في بحبوحة الرخاء والرفاهية والانغماس في الملذات العالمية التي منحها بسخاء للإكليروس، هذه كلها كانت الوسائل الفعالة والعوامل القوية على اتساع الخرق وإشعال نيران المطامع في المتنازعين، فانهالت عليه الشكاوى من المتنازعين في حق بعضهم البعض، وكثرت التهم والمطامع بينهم.

بدع الأريوسية

كانت البدعة الأريوسية النتيجة الطبيعية لتطور الغنوسية. وإذ كانت مدينة الإسكندرية مهد المباحثات في مسائل الغيبيات وتفصيلاتها، صارت أنسب مكان لظهور الأريوسية فيها لأول عهدها. ولا غرابة في ذلك، فقد مهد السبيل إليها بولس السامو سطائى وسابيليوس الليبي، إذ ناديا في القرن الثالث بما هو مشابه لتعليم أريوس في القرن الرابع. ويمكن لنا أن نعتبر الشيع الغنوسية مهما تعددت أشكالها واختلفت أنواعها، والمانيشية التي كانت دين بلاد الفرس، مطعَّمة بشيء من المسيحية، كانت مناوئة ومقاومة للمسيحية وليست من المسيحية في شيء، على أنها عملت عملها السيئ بين المسيحيين من جهة عقيدة الثالوث. ولم يكن نصيب هذه التعاليم الغريبة لدى الإمبراطور سوى الاستياء العظيم، ولم يكن نصيب تابعيها غير تعرضهم للوقوع تحت أحكام قانون العقوبات. وكان من بين هذه الشيع المضطهدة والمنهي عنها شيع المونتانسيين والبولسيين والنوفاتيين والماركونيين والفالنتينيين. ولكن هناك بدعة أخرى أعمق غورًا وأوسع نطاقًا وأشد تأثيرًا من كل البدع التي ظهرت قبلها، كانت على وشك الانفجار من وسط ما يسمونه بالكنيسة الكاثوليكية المقدسة، وكان حدوثها على الوجه الآتي:

وقف إسكندر أسقف الإسكندرية في المجمع الكهنوتي لكنيسة الإسكندرية وعبر عن آرائه وأفكاره في موضوع الثالوث. فشكّك في سلامة هذا التعليم أحد الكهنة المدعو أريوس، باعتبار أن هذه الآراء تتفق مع ما علمه سابليوس من التعاليم التي حكمت الكنيسة ببطلانها وفسادها. فقام بينهما نزاع، قام فيه أريوس يفضي للمجمع برأيه الخاص في مسألة التثليث، فجاء رأيه في الحقيقة إنكارًا للاهوت المخلِّص، إذ قال عنه إنه أول وأشرف خليقة الله الآب التي خلقها من العدم، وأنه وإن كان أسمى وأرفع بما لا يقاس من أعظم المخلوقات مقامًا، وأجلّها رفعة من حيث القدرة والمجد، إلا أنه أقل من الآب، وأنه وإن كان أقل من الآب في طبيعته ومقامه، إلا أنه صورة الآب، وأنه نائبه، وبه عمل العالمين *.

* إن تعليم أريوس ما هو إلا جزء من الآراء الغنوسية. وربما ظهر في شكله الخارجي أنه أقلها خطراً، ولكنه كان ينقض مجد الابن الشخصي كالله، وبذلك يقلب أساس الفداء. إن القائلين بعقيدة التوحيد ينكرون لاهوت الرب يسوع وكذلك ميلاده من العذراء مريم بطريقة خارقة للعادة. ولكن أحدهم وهو سوسينوس يجزم بأن الرب بعد قيامته نال رفعة عظيمة وتمجيداً عجيباً مما جعله أهلاً لأن يصبح موضوع وغرض العبادة الإلهية. وقد اقترب أريوس من الحق قليلاً عندما صرح بأن الرب يسوع كان موجوداً قبل أن يُخلق في عالم الوجود وأنه ابن الله الذي عمل العالمين، ولكنه كان يعتقد أن وجوده قبل أن يأتي إلى العالم كان بطريق الخلق، أي أنه هو أيضاً مخلوق وإن كان أول المخلوقات وأسماها وأرفعها. فلم يكن أريوس ينكر شخصية الابن كما أنكرها سابليوس ولكنه أنكر لاهوته الأزلي، كما أنكر لاهوت الروح القدس.

وليس فقط تختلف الأريوسية اختلافًا جوهريًا عما ورد عن الابن في الأسفار المقدسة من أولها إلى آخرها، وعن عمل المصالحة غير المحدود، والخليقة الجديدة التي ما كانت الخليقة القديمة إلا طريقًا ممهدًا لها وواسطة لإظهارها، ولكن يوجد بين صفحات الوحي كثير من الآيات تدحض الأريوسية بكل جلاء ووضوح، ويجدر بنا أن نذكر شيئًا يسيرًا منها:

ذاك الذي لما جاء الملاك ليبشر بولادته قال «وتدعو اسمه يسوع» (مت ١:٢١)، صرّح الروح القدس أنه هو الكلمة الذي كان في البدء عند الله وكان هو الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان (يو ١:١-٣). ومن المستحيل أن نتصور دليلاً أقوى وشهادة أعظم من هذه على وجوده الأزلي وطبيعته الإلهية وذاتيته البارزة، إذ كان عند الله قبل كل خليقة، منذ الأزل. وقد قيل عنه هنا إنه الكلمة، ومرادفها الله، وليس الآب. «وكان الكلمة الله». فبعد أن قال الوحي إن الكلمة كان عند الله أردف ذلك بقوله «وكان الكلمة الله» للدلالة على جوهره ولاهوته. وقوله «في البدء كان الكلمة» يدل على أزلية الابن، قبل الأزمنة والأجيال، والخلائق والكائنات بما لا يمكن لأفكارنا البشرية العاجزة أن تدركه أو تتخيله. واللفظ الأصلي المترجم «كان» ليس بمعنى وُجد كأنه حادث في الزمان، بل بمعنى الكينونة الأزلية المطلقة. أما اللفظ الآخر المترجم «كان» في قوله «كل شيء به كان» فمعناه الوجود والحدوث في زمن من الأزمان. فالفرق في الأصل بين الكلمتين شاسع جدًا، فهما كلمتان مختلفتان في اليونانية، وإن وضعت لهما كلمة واحدة في اللغة العربية، إلا أنها تحمل معنى في الآية الأولى غير ما تحمله في الآية الثانية. إن الرب يسوع هو الخالق في كل شيء، حتى أن الرسول يسترسل في قوله «وبغيره لم يكن شيء مما كان». ومن الجهة الأخرى لما تكلم عن تجسده في العدد ١٤ يقول عنه «والكلمة صار جسدًا» واللفظ المترجم «صار» هنا هو عين اللفظ المترجم «كان» في قوله «كل شيء به كان» وهو غير اللفظ المترجم «كان» في قوله «في البدء كان الكلمة». وعندما تكلم الرسول عن ظهور الرب بين الناس يقول «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو (ليس فقط الذي كان) في حضن الآب هو خبّر» (يو ١:١٨)، وهذا يدل دلالة واضحة على أن ناسوته لم ينفصل أبدًا عن لاهوته، وأن العلاقة غير المحدودة التي للابن مع الآب مستمرة ودائمة إلى الأبد.

ثم في رومية ٩:٥ جملة مختصرة وجامعة وتصريح جلي واضح عن لاهوت المسيح الفائق المساوي للاهوت الآب ولاهوت الروح القدس «المسيح ... الكائن على الكل إلهًا مباركًا *إلى الأبد». ونفس المساعي التي يبذلها الخارجون على الكنيسة المحاربون ضدها تشهد بصحة هذه الحقيقة الهامة، إذ يحاولون عبثًا أن يزعزعوا من ثبات هذه الحقيقة ورسوخها بمساعٍ غير طبيعية، استوجبت استياء وغضب كتابهم ومؤلفيهم. ولا يوجد في الكتاب المقدس قول تأكيدي مثل هذا عن لاهوت مطلق، وذلك ليس لأن الآب والروح القدس غير متساويين في اللاهوت مع الابن، ولكن نظرًا لاتضاع الابن وتنازله العجيب وتجسده وأخذه صورة إنسان، وموته فوق الصليب، كان من المناسب والضروري أن يستعمل الوحي في الكلام على لاهوت المسيح أقوى العبارات تأكيدًا وأشدها تقريرًا، حتى لا يتطرق إلى ذهن أحد أدنى ريب أو شك في لاهوت الابن المبارك.

ثم يقول الرسول بولس عن المسيح «الذي هو صورة الله غير المنظور، بكر كل خليقة. فإنه فيه خُلق الكل ما في السماوات وما على الأرض، ما يُرى وما لا يُرى، سواء كان عروشًا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين، الكل له وبه قد خُلق، الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل» (كو ١: ١٥-١٧). فكأن الوحي سبق فرتب ما يدحض به تعاليم الغنوسيين الفاسدة من جهة شخص المسيح، الذي يصفه الوحي بأنه بكر - أي رأس - كل خليقة، وذلك لكونه هو الخالق لكل شيء، ولا يعني أنه مخلوق من الخلائق. وهذا التعبير يوافق ما ورد عن سليمان في مزمور ٨٩: ٢٧ حيث يقول «أنا أيضًا أجعله بكرًا أعلى من ملوك الأرض» مع أنه كان ابن داود العاشر، ولكن الله عظّمه وقدّمه على جميع إخوته وعلى ملوك الأرض الآخرين. فالمسيح كان صاحب السلطان المطلق منذ الأزل كالله غير المنظور، ولما وُجدت الخليقة كان هو المتسلط عليها. وهذا هو المعنى من قوله «بكر كل خليقة... فإنه فيه خلق الكل ما يُرى وما لا يُرى». كما أن الكل قد خلق له وبواسطته، وكما أنه قبل كل شيء كذلك يقوم فيه الكل.

والموضع الآخر الذي أريد الإشارة إليه هو الأصحاح الأول من الرسالة إلى العبرانيين، حيث يوضح الرسول كمال وبهاء شخص

* حسب الأصل «الله المبارك» «who is over all, God blessed for ever. Amen»

المسيح من آيات كتابية مقتبسة من أسفار العهد القديم، مثل المزمور ٤٥ والمزمور ١٠٢، حيث في الأول نشاهد المسيح مخاطَبًا كالله «كرسيك يا الله إلى دهر الدهور» وممسوحًا كإنسان «من أجل ذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أكثر من شركائك» وفي الثاني معترَفًا به كخالق «وأنت يا رب في البدء أسست الأرض والسماوات هي عمل يدك»، بعد أن نقرأ كثيرًا في أوائل المزمور عن آلامه وأوجاعه التي يسكبها أمام يهوه كالمسيا المرفوض.

فمن المستحيل أن نقبل الكتاب المقدس ونؤمن به من غير أن نرفض الأريوسية ونعتبرها افتراءً شنيعًا على المسيح وعلى الحق الإلهي، لأن حقيقة كونه صار إنسانًا بواسطة التجسد ليست أشد يقينًا وأقوى تأكيدًا من حقيقة كونه الله من قبل الخليقة، وأنه هو الخالق والابن المبارك والرب يهوه. فكما أن الحقيقة الأولى صحيحة هكذا الحقيقة الثانية *.

...

فلما سمع إسكندر أقوال أريوس وآراءه واعتراضاته استاء منه جدًا وكاد يتميز منه غيظًا، فرماه بالتجديف وأجاب قائلاً "إن أريوس المتعدي على كرامة الرب ومهيئ الطريق لضد المسيح تجاسر بأن ينطق بمثل هذه التجاديف الردية ضد الفادي الإلهي"، فحوكم أمام مجلسين اجتمعا في الإسكندرية، وطُرد من الكنيسة. فذهب إلى فلسطين معتزلاً هناك، ولكن لم ينثن عزمه مما لقيه من العار والإهانة. وقد عطف عليه كثيرون من بينهم اثنان من الشاغلين لأسمى مراكز في الكنيسة، واسم كل منهما «يوسيبوس» أحدهما من قيصرية وهو المؤرخ الكنسي، والثاني أسقف نيكوميديا وهو رجل ذو نفوذ عظيم.

وكان أريوس يكاتب أصدقاءه مخفيًا آراءه الأكثر ضررًا وعثرة، فأصدر إسكندر تحذيرات وإنذارات ضد أقواله، ورفض كل توسط لديه من أصدقاء أريوس بشأن إرجاعه ثانية إلى الكنيسة. وقد كان أريوس خصمًا ماكرًا ومخادعًا وقد وصفه المؤرخون بأنه طويل القامة وجليل الهيئة، هادئ الطبع أصفر اللون، تظهر على محياه علامات الدعة والخضوع، له مقدرة في الخطابة وذو ذكاء حاد، مدقق في سلوكه، أخلاقه حسنة، ولكنه كان يخفي تحت هذه الصورة الخارجية المتواضعة أشد حاسيات الطمع والعُجب، فكأن العدو قد أحسن اختيار الآلة المناسبة لغرضه، فإن من كانت هذه مزاياه يكون في غاية اللياقة والمناسبة لمقاصد العدو، لأنه بدون هذه المظاهر الخارجية ما كان في استطاعته أن يخدع أحدًا.

قسطنطين والأريوسية

اشتد الخلاف بسرعة حتى صار من الضروري الالتجاء إلى الإمبراطور. وهو في أول الأمر اعتبر أن المسألة كلها شيء زهيد لا أهمية له مطلقًا، فكتب خطابًا إلى إسكندر وأريوس معًا وبّخهما فيه على تنازعهما لأجل أمور تافهة واختلافات وهمية، وأوصاهما أن يتخليا عن كل عاطفة عدائية الواحد نحو الآخر، وأن يعيشا في السلام والاتحاد. ويظهر أن الإمبراطور لم يفكر في خطورة النزاع وإلا لما كان قد حسبه زهيدًا لا يُعتد به، ولكن إذا كان الخطاب قد كتب بيد هوسيوس أسقف قرطبة كما يُظن فلا محل للزعم بأن الأسقف كان يجهل حقيقة النزاع، ولكنه عبّر في الخطاب عن شعور قسطنطين لا عن رأيه الخاص. وقد قدّر كثيرون ذلك الخطاب معتبرين إياه أنموذجًا في الحكمة والاعتدال، وقد كان يستحق ذلك الثناء العطر لو كانت المسألة قاصرة على تحديد زمن معين لعيد القيامة أو ما شاكل ذلك من الأمور، أما والنزاع يتعلق بلاهوت المسيح ومجده، وبالنتيجة خلاص النفس فهو جد خطير.

وقد انتدب الإمبراطور هوسيوس وأرسله إلى مصر لحل المشكلة وفض النزاع. ولكنه وجد أن الانشقاقات والمنازعات قد عظم شأنها وازدادت خطورتها حتى أن كلا الطرفين رفض الإصغاء إلى نصائحه وإنذاراته مع أنه كان مزودًا بسلطان من الإمبراطور.

* عن خطاب لم يُنشر لوليم كلي

الفصل الحادي عشر

مجمع نيقية

اضطر قسطنطين أن ينظر بإمعان أكثر إلى طبيعة النزاع، وابتدأ يفهم أن المسألة ليست زهيدة تافهة كما ظن أولاً، بل هي في غاية الأهمية ومنتهى الاعتبار، وعزم على استدعاء الأساقفة إلى عقد مجمع يقررون فيه التعليم الصحيح، فيخمدون بذلك فوران تلك المنازعات ويسكتون عواصف الانشقاقات، وجعل كل ما يلزم لسفرهم على نفقة الحكومة، كأن المسألة تتعلق بنظام الدولة.

و في شهر يونيو سنة ٣٢٥م اجتمع أول مجمع عام للكنيسة في مدينة نيقية (نيس) في بيثينية، وكان مؤلفًا من نحو ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، ومن جمع غفير من الكهنة والشمامسة، وكما قال يوسيبوس: "إن زهرة خدام الله من جميع الكنائس المنتشرة في أوربا وأفريقيا وأسيا كانت مجتمعة في ذلك المجمع". ولقد كان المنظر جديدًا وعجيبًا، لم يُدهش الشعب فقط بل الأساقفة أنفسهم. فأولئك الأساقفة هم الذين كانوا منذ سنوات قليلة هدفًا لأشد أهوال الاضطهاد، ولم يكن اختيارهم لهذا المجمع إلا لأنهم حازوا شهرة عظيمة لأنهم كانوا ضحايا الاضطهاد المرير، وكثيرون منهم كانوا يحملون في أجسادهم فعلاً سمات الرب يسوع، فقد ذاقوا مرارة النفي واشتغلوا في المناجم وتعرضوا لكل أنواع الإهانة، ولكن الآن تغير كل شيء حتى أنهم بالكاد يصدقون أن ذلك صار حقيقة لا وهمًا. فأبواب القصر فُتحت الآن لهم، وإمبراطور العالم يتصرف كرئيس المجمع.

ولا شيء يستطيع أن يثبت ويعلن للعالم سقوط الكنيسة المحزن وحالتها المؤلمة ورضوخها للحكومة مثل المقام الذي كان للإمبراطور في هذه المجالس والمجامع. لم يصل الإمبراطور إلى نيس إلا في ٣يوليو، وفي اليوم التالي اجتمع الأساقفة في صالة القصر التي كانت معدة لهذا الغرض. ونعلم مما كتبه يوسيبوس أن المجمع جلس والسكون مخيم عليه. وبينما هو في هذه الحال إذ بضباط الحكومة العظام وبعض ذوي المقامات الرفيعة يدخلون الصالة منتظرين بارتعاد وخوف ظهور الإمبراطور. وأخيرًا دخل قسطنطين، وكان لابسًا ثيابًا فاخرة، فانبهرت عيون الأساقفة من لمعان الذهب وبريق الحجارة الكريمة التي كانت ثيابه مرصعة بها، وهَبَّ المجمع بأسره واقفًا ليقدّم له الإكرام. وتقدم الإمبراطور إلى كرسي ذهبي أُعدّ له، ووقف بجانبه وقفة الاحترام والإجلال لهذه الهيئة الروحية الموقرة، حتى طُلب إليه أن يجلس فجلس. وبعد أن رنم المجمع ترنيمة سبح للرب، تكلم الإمبراطور كلمة وضح في أهمية السلام والاتحاد. واستمر المجمع يعقد جلساته باستمرار مدة تربو على الشهرين. ويظهر أن قسطنطين كان حاضرًا في معظم جلساته مصغيًا بكل أناة وصبر لأقوال المجمع، ومتحادثًا بكل صراحة وحرية مع أفراده المتعددين.

قرار مجمع نيقية

إن قانون الإيمان المشهور الذي يسمى عادة "قانون نيقية" كان نتيجة المباحثات الطويلة التي حصلت في هذا المجمع. وقد استقر رأي المجمع على رفض آراء أريوس، وتثبيت التعليم بالثالوث الأقدس، ولاهوت المسيح، وأنه واحد مع الآب في القوة والمجد. وقد استحضر المجمع أريوس نفسه وسأله عن إيمانه وتعليمه، فلم يتردد في تكرار تعاليمه الفاسدة التي أفسدت سلام الكنيسة، وفي أثناء تلاوة تجاديفه سد الأساقفة آذانهم وصرخوا بنفس واحدة: "إن هذه التعاليم الفاسدة تستحق «أناثيما» هي

ومؤلفها". وقد لفت القديس أثناسيوس - مع أنه لم يكن في ذلك الوقت سوى شماسًا - نظر المجمع بكل غيرة إلى الدفاع عن الإيمان الصحيح وأوضح له فساد المعتقدات الهرطقية.

وقانون الإيمان الشهير الذي أشرنا إليه وضعه جميع الأساقفة الحاضرين ماعدا القليل من الأريوسيين، وعرضوه على قسطنطين، فلاحظ من إجماع المجمع أن هذا عمل الله، فقبله بكل احترام، معلنًا وجوب نفي كل من لم يخضع له. ولما سمع الأريوسيين ذلك أمضوا، تحت تأثير الخوف، على قانون الإيمان الذي وضعه المجلس، فأعلنوا بذلك أنهم لم يكونوا أمناء. ولم يثبت مع أريوس سوى أسقفين مصريين وهما سكوندس وثيوناس، وقد نفيا معه إلى "الليريا".

وقد حوكم يوسيبيوس الذي من نيكوميديا وثيوجينس الذي من نيس بعد ذلك بثلاثة أشهر وحكم عليهما الإمبراطور بالنفي. وأوقعت عقوبات صارمة على أتباع أريوس، وحُكم بحرق جميع كتبه، وبأن من يخفي شيئًا من كتاباته يُعد مجرمًا جرمًا عظيمًا.

ولما أتم الأساقفة مأموريتهم تفرقوا إلى جهاتهم الخاصة، وعلاوة على قرارهم الإجماعي الخطير المتعلق بقانون الإيمان قد حلوا نهائيًا مشكلة عيد القيامة*. كما فصلوا أيضًا في بعض الأمور الأخرى التي عُرضت أمامهم.

قسطنطين يغير فكره

لم يكن للإمبراطور رأي خاص مستقل في المسائل الكنسية، ولا تمييز روحي في هذه الخلافات التعليمية، ولذلك فلا يمكن التعويل على استمرار رضاه وتأييده ومعاونته. وهذا ما حدث إذ تغير فكره كلية في أقل من سنتين. ولكن هاتين السنتين كانتا مفعمتين بحوادث وقعت في بيت قسطنطين أشد خطورة وأهمية من تغيير رأيه من جهة الأريوسية. ففي نفس العام الذي استدعى فيه مجمع نيقية أصدر أوامر سرية بقتل ابنه الأكبر كريسبوس، وخنق زوجته فاوستا في حمام ساخن بعد أن قضت عشرين سنة زوجة له، وقد حار المؤرخون في تعليل تلك الأعمال القاسية ولم يجدوا لها سببًا غير الغيرة والحسد. إن حكمة وشجاعة كريسبوس في كسر ليسينيوس نهائيًا قد أشعلتا - على ما قيل - حسد أبيه. ومن المحتمل أن ذلك الحسد ازداد اشتعالاً بتحريض من فاوستا التي كانت زوجة أب له، ولما علم الإمبراطور بما ناله من استياء عام من أجل قسوته على ابنه، أمر تحت تأثير الندم ولوم الضمير أن تُقتل زوجته فاوستا، فقُتلت. وكما أننا أوضحنا حكمًا مقررًا ورأيًا جازمًا في علاقة الكنيسة بالحكومة بأنها علاقة غير مقدسة، كذلك ذكرنا لمحة من تاريخ ذلك الإمبراطور وحياته الخصوصية، حتى يمكن للقارئ أن يحكم بنفسه في عدم صلاحية شخص كهذا، تلطخت يداه بسفك الدم، للجلوس كرئيس في مجمع مسيحي. ومن ذلك اليوم إلى الآن تعرضت الكنيسة بسبب اختلاطها مع الحكومة إلى هذا الدنس نفسه، إما في شخص الحاكم أو النائب الملكي.

كان لقسطنطيا أرملة ليسينيوس وأخت قسطنطين نفوذ عظيم وتأثير كبير على أخيها، وكانت تعطف على الأريوسيين، وقد وُفقت وهي على فراش الموت سنة ٣٢٧م في إقناع أخيها بأن أريوس عومل معاملة ظالمة، واقترحت عليه أن يستدعيه إلى قصره، فاستدعاه فحضر أريوس. ولما مثل بين يدي الإمبراطور عرض عليه تعاليمه، وبيّن بطريقة عامة اعتقاده في تعليم الآب والابن والروح القدس، والتمس من الإمبراطور أن يضع حدًا لما يزعمون أنه نظريات باطلة ومبادئ خيالية، حتى تشفى الكنيسة من هذا الداء العضال، داء الانقسام، ويعود الجميع إلى الوحدة، ويرفعوا بنفس واحدة صلوات وطلبات لأجل الإمبراطور لكي يكون ملكه في هدوء وسلام، ولأجل كل أفراد عائلته. وبواسطة كلامه الجذاب وحديثه الرقيق نال غرضه وحظي بمرغوبه، فأظهر قسطنطين رضاه وسروره بما سمع، وأصبح لأريوس وأتباعه منزلة عالية لدى الإمبراطور، وحازوا درجة سامية من عطفه، فأمر بإرجاع المنفيين إلى أوطانهم. وهكذا غيّر هذا الأمر الإمبراطوري المنظر الخارجي للكنيسة، وأصبح للحزب الأريوسي نفوذًا كبيرًا لدى الإمبراطور، فأسرعوا بدون إبطاء ولا توان في استخدام هذا النفوذ لمنفعتهم ومصلحتهم.

* كانت الكنائس الشرقية قد درجت على الاحتفال بعيد القيامة في ذكرى يوم صلب ربنا يسوع، الذي يوافق عيد الفصح عند اليهود، في اليوم الرابع عشر من الشهر، ولعل ذلك كان راجعًا إلى أن عددًا كبيرًا من اليهود الذين آمنوا كانوا يعيشون في الشرق. أما الكنائس الغربية فكانت تحتفل به في ذكرى القيامة. وقد سبب الخلاف على يوم الاحتفال جدلاً طويلاً وعنيفًا. وبعد مناظرات مطولة بين الغربيين والشرقيين استقر رأي مجمع نيقية على أن يكون الاحتفال في ذكرى يوم القيامة، وهو الأحد التالي لليوم الرابع عشر للشهر الذي يستهل من بعد يوم ٢٠ مارس. فلو أتى اليوم الرابع عشر من الشهر يوم أحد فلا يكون هو عيد القيامة، بل الأحد التالي له.

القديس أثناسيوس أسقف الإسكندرية

لقد قام أثناسيوس بدور هام في مجمع نيقية، فإن غيرته العظيمة ومقدرته الفائقة جعلتاه في الحال أهلاً لرئاسة الحزب الأرثوذكسي، وصار أقوى مناهض للأريوسيين. ولما مات إسكندر عام ٣٢٦م اختير لأبروشية الإسكندرية بإجماع إخوته جميعًا، وكان في ذلك الحين في الثلاثين من عمره فقط. وكان يقدِّر مسئوليات مركزه، كما كان يعلم شيئًا عن ضروب الإكرام التي تحف بهذا المركز، وكان يفضل مركزًا آخر أقل مسئولية وأخف عبئًا، ولكنه خضع لرغبات وأشواق الجماعة التي كانت تحبه كثيرًا. وقد شغل هذا المركز نحو نصف قرن تقريبًا، وكانت حياته الطويلة مخصصة لخدمة الرب وحقه، واستمر ثابتًا في الإيمان قوي العزيمة راسخ القدم في الرأي، لم يحد ولم يمل عن موقفه الشريف الذي وقفه في مجمع نيقية حتى آخر ساعة من حياته.

وقد كان لاهوت المسيح في نظره ليس بالأمر النظري كما حسبه أريوس، بل كان مصدر وقوة حياته المسيحية بأسرها، تلك الحياة لا يتأتى لأحد أن يجدها بعيدًا عن ذلك الشخص العجيب ربنا يسوع المسيح، وهذا ما نجد الرسول المغبوط يؤكده لنا في قوله «وهذه هي الشهادة أن الله أعطانا حياة أبدية وهذه الحياة هي في ابنه. من له الابن فله الحياة. ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة» (ايو ٥: ١١، ١٢). هذه الحياة هي في الابن الوحيد، فهو ذاته «الحياة الأبدية» وهذه الحياة تُعطى لمدح مجد نعمة الله لجميع الذين يؤمنون بمسيح الله الحقيقي. وبواسطة قبولنا للمسيح ننال حياة أبدية ونصير أولاد الله، ورثة الله ووارثين مع المسيح. هذه الحياة لا يمتلكها أي مخلوق كان مهما عظم شأنه وعلت منزلته. فالملائكة القديسون لهم وجود مستمر ومحفوظ حفظًا مباركًا بقوة الله القدير، أما المسيحي فله حياة أبدية بالإيمان بالمسيح بنعمة الله، ولا شيء يمكن أن يكون أشد خطرًا وأعظم هولاً على النفس البشرية من تعليم أريوس. ولكن لنعد إلى تاريخنا.

إن اختيار أثناسيوس لكرسي الإسكندرية سبَّب من الجهة الواحدة فرحًا عظيمًا وأملاً كبيرًا لأصدقائه ومريديه، ومن الجهة الأخرى ملأ صدور أعدائه وخصومه كراهية شديدة له وحقدًا كثيرًا عليه، إذ رأوا أن زعيم الكاثوليك* العظيم أصبح أسقفًا لتلك الكنيسة التي طُرد منها أريوس، وأنه معضَّد بمحبة الشعب له وتعلقهم به، وبإخلاص وولاء مائة أسقف اعترفوا بخضوعهم وطاعتهم لأسقفية الإسكندرية العظيمة. عرف أعداؤه قدرته العظيمة وغيرته العجيبة وثباته المدهش في دفاعه عن قرارات مجمع نيقية، فيحق لهم أن يحكموا أنه إذا كان نفوذه قد وصل إلى تلك الدرجة من القوة لما كان مجرد أسقف، فأي مدى عساه أن يصل الآن بعد أن شغل مركزًا عظيمًا كهذا. لذلك خشوا بأسه جدًا وأخذوا يدبرون الوسائل والحيل، ويضمون شملهم ويجمعون قواهم لإسقاطه وخلعه.

أثناسيوس ينكر سلطة قسطنطين

لجأ يوسيبوس الذي من نيكوميديا إلى أن يسلك مسلكا وديًا حسب الظاهر مع أثناسيوس بقصد أن يحمله على قبول أريوس مرة ثانية في شركة الكنيسة، فلما أُحبط في مسعاه وفشل فشلاً تامًا طلب من الإمبراطور وأثَّر عليه لكي يأمره بذلك. فأصدر الإمبراطور أمره إلى أثناسيوس بقبول أريوس وجميع أصدقائه الراغبين في العودة والانضمام مرة أخرى إلى الكنيسة، وأنذره أنه إن لم يفعل ذلك يُعزل من وظيفته ويُنفى من وطنه. ولكن أثناسيوس لم يكن من يخيفه الوعيد ويرهبه التهديد، فلم يخُر عزمه بسبب تلك الأوامر الإمبراطورية، بل بكل ثبات وشجاعة أجاب عليها بأنه لا يسعه أن يعترف بأشخاص ويقبلهم مع أنهم محكوم عليهم بقرار من الكنيسة بأسرها. قال ميلمان "ما كان أشد اندهاش قسطنطين حينما رأى أن أمره الإمبراطوري، الذي من شأنه أن تخضع له الإمبراطورية الرومانية بأسرها من أقصاها إلى أقصاها، وترتعد له فرائص أعظم أمير وشريف في مملكته، حتى ولو كان يقضي بقيام ثورة سياسية أو تعريض أملاك وامتيازات ألوف من الرعية للخطر والضياع، رآه يُقابَل بالازدراء وعدم الاعتبار من أسقف مسيحي واحد. وقد ظل أثناسيوس يرفض وينكر سلطة الإمبراطور على الكنيسة مدة حكم قسطنطين وخلفه"[٣٢].

* إن المقصود باسم «الكنيسة الكاثوليكية»، الذي أطلقه قسطنطين على الكنيسة، هو الكنيسة المعترف بها قانوناً والمؤيدة من الحكومة.

وقد احتمل أثناسيوس الاضطهاد الشديد والتهم الكاذبة والافتراءات الباطلة والنفي المؤلم، وكانت حياته مهددة بالأخطار في معظم الأحيان بسبب دفاعه عن ذلك الحق الأساسي العظيم، ألا وهو لاهوت الرب المبارك، وقد كان على استعداد لأن يستشهد ليس دفاعًا عن حقائق المسيحية وامتيازاتها الكبرى وأفضالها العظمى على الوثنية، بل لأجل ذلك التعليم الواحد الرئيسي، تعليم الإيمان المسيحي.

وقد قُدمت عدة شكاوى إلى الإمبراطور ضد أثناسيوس من الحزب الأريوسي، أو بالحري من الحزب اليوسيبوسي، ونرى أن الدخول في التفاصيل الدقيقة خارج عن نطاق موضوعنا. على أننا سنتتبع قليلاً ما جرى مع هذا الشاهد الفاضل والخادم الأمين.

كانت أشد تهمة قُذف بها في حقه هي أنه أرسل مبلغًا من المال إلى شخص في القطر المصري ليساعده في تدبير مؤامرة ضد الإمبراطور. وقد كُلف بالحضور ليجاوب عن هذه التهمة أمام الإمبراطور، فأطاع ومثل بين يديه. ويظهر أن منظر أثناسيوس الشخصي، ذلك الرجل صاحب التأثير العظيم على أذهان الآخرين ألقى إلى حين رعبًا ومهابة في نفس قسطنطين. ومع أنه كان واقفًا أمام محكمة جميع أعضائها من أعدائه، إلا أنه خرج منتصرًا بريء الساحة، إذ فنّد تلك التهمة التافهة التي لا أساس لها، مما جعل أعداءه لا يستطيعون إنكار براءته وجميل صفاته. وكان تأثير حضور أثناسيوس أمام الإمبراطور شديدًا حتى قال عنه: "هذا هو رجل الله" واعتبر أن أعداءه هم سبب القلاقل والانقسامات. ولكن واأسفاه، لم يدم هذا التأثير طويلاً في نفس الإمبراطور، لأنه ظل تحت نفوذ الحزب اليوسيبوسي.

مجمع صور

في سنة ٣٣٤م استُدعي أثناسيوس للمثول أمام مجمع في قيصرية، فرفض بحجة أن المجمع المؤلف لمحاكمته مكون جميعه من أعدائه. ثم دُعي في السنة التالية أمام مجمع آخر كان مزمعًا عقده في صور بمقتضى مرسوم إمبراطوري، فلبى الدعوة. وكان في هذا المجمع أكثر من مائتي أسقف، وكان حاضرًا مندوب من قبل الإمبراطور ليشرف على أعمال المجمع. وقد قُدمت جملة تهم في حق هذا الأب الجليل الشجاع، ونكتفي بالإشارة إلى أشدها فظاعة وأعظمها جرمًا، وكانت جريمة مزدوجة هي جريمة القتل والسحر. فقد اتهموه بأنه قتل أرسانيوس الأسقف المليتيني، وقطع إحدى يديه واستعملها في أغراض سحرية. ولتأييد دعواهم قدموا يدًا، ولكن أثناسيوس كان مستعدًا لدحض هذه التهمة، وكان إله الحق معه. فسأل الحاضرين بكل رزانة وهدوء إن كانوا يعرفون أرسانيوس شخصيًا، فأجابه كثيرون بالإيجاب. وإذا برجل أتي به إلى المجمع مغطى كل جسمه بملاءة، فتقدم إليه أثناسيوس وكشف الغطاء عن رأسه، فاندهش الحاضرون إذ عرفوا في الحال أنه أرسانيوس الذي قيل إنه قُتل، وبعد ذلك كشف الغطاء عن يديه وفُحص فحصًا دقيقًا بمعرفة الحاضرين، ولم يبق بعد مجال للشك في أنه أرسانيوس نفسه، وأنه حي لا ضرر فيه، ويداه سليمتان. كان الحزب الأريوسي قد بذل كل ما في وسعه لإخفاء أرسانيوس، ولكن الرب كان مع خادمه البريء فأرشد أصدقاء أثناسيوس إلى مكان أرسانيوس وجاءوا به إلى المجمع، وبذا افتضح أمر المشتكين عليه وظهر غشهم وخداعهم.

وعاود الأريوسيون الكَرّة، ولكن براءة أثناسيوس اتضحت للملأ وتحققت لدى الجميع. وقد كنا ننتظر أن هؤلاء الأعداء يقفون عند هذا الحد، ولكن واأسفاه، نراهم يواصلون السعي ويختلقون التهم، وقد أفلحوا إذ جعلوا الإمبراطور يستدعي أثناسيوس إلى القسطنطينية ليُسأل عما نسبوه إليه. وفي هذه المرة عدل أعداؤه عن ذكر التهم القديمة واختاروا، بعد طول الروية والتفكير، تهمة جديدة من شأنها أن تثير حقد الإمبراطور عليه وتوغر صدره، فادّعوا أنه هدد بمنع السفن التي تحمل الحنطة من السفر من ميناء الإسكندرية إلى مدينة القسطنطينية، وبذلك تحصل مجاعة في العاصمة الجديدة، ولا يخفى أن هذا الأمر يمس كبرياء الإمبراطور. وسواء اعتقد بصحة التهمة أو رغبة منه في إبعاد رجل ذي نفوذ كبير كهذا فقد حكم عليه بالنفي إلى تريف في بلاد الغال. ولا ريب كان هذا الحكم ظالمًا قاسيًا.

موت أريوس

لم يعش قسطنطين ولا أريوس طويلاً بعد نفي أثناسيوس. واعترف أريوس بقبوله العقيدة الصحيحة فقبل قسطنطين اعترافه هذا وأرسل إلى إسكندر أسقف القسطنطينية، مخبرًا إياه أن أريوس يجب أن يُقبل على مائدة الرب في اليوم التالي الذي كان يوم

الأحد. وكان إسكندر في ذلك الحين قد بلغ من العمر مائة عام، وتضايق جدًا من أوامر الإمبراطور، فدخل الكنيسة وصلى بلجاجة إلى الرب طالبًا إليه أن لا يسمح بمثل هذا الأمر الذي ينجس كنيسته تعالى. وفي مساء ذلك اليوم كان أريوس يتكلم بخفة وبنغمة المنتصر عن الاحتفالات المُعَدّة للغد، ولكن الرب رتب غير ذلك إذ سمع لصلاة عبده الشيخ. وفي تلك الليلة أخذت نفس ذلك الزعيم الهرطقي العظيم، وقد اقترنت نهايته بظروف تعيد إلينا ذكرى نهاية يهوذا الإسخريوطي. ولم يخبرنا التاريخ شيئًا عن وقع هذا الحادث لدى قسطنطين، ولكنه مات بعد ذلك حالاً وهو في السنة الرابعة والستين من عمره[١/٣١]، [٢/٣٢].

تأملات في الحوادث العظمى في مدة حكم قسطنطين

قبل أن نتقدم إلى الأمام نحو تاريخنا العام يجدر بنا أن نقف قليلاً ونتأمل في تأثير التغيرات العظيمة التي حصلت، وما أحدثته في مركز الكنيسة والعالم أثناء ملك قسطنطين الكبير.

لا نبالغ إذا قلنا إن الكنيسة اجتازت أهم وأعظم أزمة في تاريخها، وإن سقوط عبادة الأصنام يُعتبر من بعض الوجوه أهم حادثة في تاريخ العالم بأسره. لقد سادت عبادة الأصنام بعد حادثة الطوفان بقليل وانتشرت بين أمم الأرض، وكان الشيطان بدهائه وحيله موضوع ومركز تلك العبادة. ولكن قد قُضي على عبادة الأصنام هذه في جميع أنحاء العالم الروماني، وإن كان قسطنطين لم ينزعها نزعًا كليًا ويقضِ عليها قضاء مبرمًا، فإنه على كل حال جرحها جرحًا مميتًا. أما الكنيسة فقد خسرت بدون شك الكثير باتحادها مع الحكومة، فهي لم تعُد بَعد هيئة منفصلة، ولم تعد محكومة فقط بإرادة المسيح، بل أضاعت استقلالها وفقدت امتيازها السماوي وأصبحت تحت تسلط أهواء ورغبات القوة الحاكمة. كل هذا محزن للغاية، وحدث نتيجة لعدم إيمانها.

ولكن من الجهة الأخرى استراح العالم كثيرًا واستفاد أكثر من هذه التغيرات. ولا يجب أن نغض الطرف عن هذه الحقيقة عند نوحنا على سوء حالة الكنيسة وفشلها، فإن راية الصليب قد رُفعت في جميع أنحاء الإمبراطورية، وأُعلن المسيح جهارًا أنه المخلِّص الوحيد للبشر، واعتُرف بأن الكتب المقدسة هي كلمة الله وهي المرشد الأمين الوحيد للوصول إلى البركة الأبدية. ولا شك أن الكنيسة الاسمية كانت في حالة منخفضة غير روحية قبل أن تتحد وترتبط مع الحكومة، ولذلك فكرت في راحتها أكثر من إرساليتها والمسئولية الموضوعة عليها لأن تكون بركة للآخرين، ومع ذلك فإن الله تعالى استخدم هذه الظروف الجديدة وعجّل في اختفاء رجاسات عبادة الأصنام ونزعها من أنحاء العالم الروماني.

إن التشريع العام الذي وضعه قسطنطين يشهد بفضل المبادئ المسيحية، وقد كان تأثير تلك الشرائع الجليلة عظيمًا في الدائرة المسيحية وسواها، فقد وضع قوانين لحفظ يوم الأحد بصورة أفضل وأكمل مما كان حاصلاً، ومنع بيع الأطفال عبيدًا، الأمر الذي كان شائعًا بين الأمم، كما سن تشريعًا ضد سرقة الأطفال بقصد بيعهم، وقوانين أخرى كثيرة اجتماعية وأدبية ذكرها المؤرخون السابق ذكرهم. ولكن الحادثة الوحيدة العظمى ذات التأثير الكلي من بين حوادث مُلكه الكثيرة إنما هي نزع عبادة الأوثان، وتطهير البلاد من الأصنام، ورفع المسيح ليكون هو المعبود الوحيد. ويقال إن الأثيوبيين والأيبيريين آمنوا وقبلوا المسيح أثناء ملكه.

أبناء قسطنطين (٣٣٧-٣٦٢م)

خلف قسطنطين الكبير في الحكم بنوه الثلاثة وهم قسطنطين وقسطنطيوس وقسطانس، وكان هؤلاء قد تربوا تربية مسيحية، وتهذبوا في إيمان الإنجيل، وكان والدهم يلقبهم بالقياصرة. ولما مات اقتسموا الإمبراطورية فيما بينهم، فنال قسطنطين بلاد الغال (فرنسا) وأسبانيا وبريطانيا، وظفر قسطنطيوس بالولايات الأسيوية مع عاصمتها مدينة القسطنطينية، وحظي قسطانس بإيطاليا وأفريقيا. وابتدأ هذا الحكم الجديد - كما جرت العادة في تلك الأزمان - بقتل الأقرباء خشية قيامهم يومًا من الأيام في وجه العرش لمناهضة ومنافسة الجالسين عليه. وظهر في البلاد علاوة على العداء السياسي القديم عنصر جديد هو عنصر النزاع الديني.

كان أكبر الأبناء وهو قسطنطين مواليًا للكاثوليك، فافتتح أعمال مُلكه باستدعاء أثناسيوس من منفاه وإرجاعه إلى أبروشيته في الإسكندرية، ولكن قسطنطين لم تطل مدته إذ قُتل عام ٣٤٠م في غزوته لإيطاليا، فأخذ قسطانس أملاك أخيه وبذلك أصبح حاكمًا على ثلثي الإمبراطورية، وكان مصادقًا على قرارات مجمع نيقية، ومن أنصار أثناسيوس، أما قسطنطيوس وزوجته الإمبراطورة وحاشية قصره فكانوا

يميلون للأريوسية. وهكذا ابتدأت الحرب الدينية بين الأخوين، بين الشرق والغرب، تلك الحرب التي ما كان يبررها العدل ولا الإنسانية، ولا تتفق مع روح المسالمة التي تدعو إليها المسيحية. وتداخل قسطنطيوس في شؤون الكنيسة كأبيه، وادعى أنه من علماء اللاهوت. وقد ظلت الإمبراطورية أثناء ملكه في هياج مستمر بسبب النزاع الديني، وقد كثرت المجامع، حتى أن الأماكن العمومية كانت دائمًا تستخدم بواسطة الأساقفة المتجولين لعقد تلك المجامع، وكلما عقد أحد الحزبين مجمعًا عقد الحزب الآخر مجمعًا لمقاومة المجمع الأول.

ولما كانت نعمة الله ظاهرة بوضوح في تاريخ حياة أثناسيوس، كما أن الحوادث الرئيسية لذلك العصر مقترنة به، كان من المناسب العودة إلى تاريخ حياته.

تاريخ أثناسيوس

بعد أن قضى أثناسيوس سنتين وأربعة أشهر صابرًا على آلام النفي أُعيد إلى أبروشيته بواسطة قسطنطين الصغير، حيث قوبل بترحاب عظيم وفرح جزيل من الشعب.

ولكن موت هذا الأمير عرّض أثناسيوس لاضطهاد آخر، فإن قسطنطيوس، الذي يصفه المؤرخون بأنه رجل معجب بذاته ولكنه ضعيف، سرعان ما أصبح صديقًا في السر للحزب اليوسيبوسي. وفي نهاية عام ٣٤٠م أو بداية عام ٣٤١م التأم مجمع في أنطاكية لتدشين كنيسة فاخرة أسسها قسطنطين الكبير. ويقال إن عدد الأساقفة الذين حضروا بلغ نحو سبعة وتسعين، منهم أربعون من اليوسيبوسيين. وكان من ضمن القوانين التي صدّقوا عليها قانون يقضي بأن الأسقف الذي يُعزل بواسطة مجمع لا يجب أن يعود إلى وظيفته إلا متى حكم مجمع آخر مساو للأول في السلطة ببراءته. وهذا القانون سُن بمناسبة مسألة أثناسيوس، فانعقد مجمع أيد عزل أثناسيوس وعين جريجوري الذي من كبدوكية بدلاً عنه. وأصدر التعليمات لفيلاجريوس والي مصر بتأييد الرئيس الجديد بكل ما في وسعه من النفوذ والسلطة العسكرية. ولما كان أثناسيوس محبوبًا لدى الشعب رفضوا أن يقبلوا أسقفًا يعين عليهم من قبل الإمبراطور رغم أنوفهم، فنتج عن ذلك استياء شديد واضطراب وفوضى. قال ملنر: "وجد الحاكم الأريوسي أنه من الضروري استعمال الشدة لتأييد الشر. فاضطر أن يسير في نفس خطوات أسلافه الوثنيين. وذلك لحماية ما كان يسميه الكنيسة".

لما رأى أثناسيوس أن أساقفة آسيا ظلموه بهذا الحكم ترك الإسكندرية وذهب إلى روما حيث قضى هناك ثلاث سنين. على أن رئيس أساقفة روما المدعو يوليوس مع مجمع مؤلف من خمسين أسقفًا إيطاليًا قرر براءة أثناسيوس وأجاز له الانضمام إلى الكنيسة والاشتراك فيها.

وقد عقد الأساقفة الشرقيون عدة اجتماعات في أنطاكية بين سنة ٣٤١م وسنة ٣٤٥م ووضعوا ما لا يقل عن خمسة قوانين إيمان بقصد إخفاء آرائهم الحقيقية، ولكن بفحص تلك القوانين اتضح أنه ولا واحد منها يخلو من العنصر الأريوسي، مع أن المبادئ الأريوسية الأكثر ضررًا قد حُكم جهارًا بفسادها وبطلانها، فاشتاق الإمبراطوران قسطنطيوس وقسطانس إلى سد هذه الثغرة التي وُجدت بين الكنائس الغربية والشرقية، فاستدعيا مجمعًا لينعقد في سارديكا في مقاطعة الليريا عام ٣٤٧م ليفصل في نقط الخلاف، فاجتمع أربعة وتسعون أسقفًا من الغرب وواحد وعشرون أسقفًا من الشرق وبحثوا الموضوع من كلا الوجهين. وقرروا صحة تعاليم أثناسيوس وإعادة هذا الرئيس المضطهد إلى الإسكندرية، ومحاكمة جميع الذين قاوموه باعتبارهم أعداء للحق.

وفي أثناء ذلك مات جريجوري ورجع أثناسيوس إلى الإسكندرية بعد نفي دام ثماني سنوات، فقوبل بفرح عام شمل الجميع. قال بعضهم: "إن دخول رئيس الأساقفة إلى عاصمة أبروشيته كان موكب انتصار. لأن ما قاساه من العناء في طول غربته وما عاناه من آلام نفيه زاد من مكانته في قلوب الشعب السكندري، فذاع صيته وانتشر اسمه من إثيوبيا إلى بريطانيا في سائر أنحاء العالم المسيحي".

وحدث بعد موت قسطانس صديق وحامي أثناسيوس عام ٣٥٠م، أن قسطنطيوس شعر أن الوقت قد دنا لينتقم لنفسه من أثناسيوس بعد أن مات قسطانس الذي كان يحميه. ولكن الصعوبة التي عرضت له هي كيف ينفذ غرضه، لو كان قد أمر بقتل أعظم عظيم وأشهر شريف من مواطنيه لتنفذ هذا الأمر القاسي دون تردد ولا إبطاء، ولكن محاكمة وموت أسقف محبوب يجب أن يُعمل بكل احتراس وحذر وإمعان الفكر والروية، مع وضع مسحة من العدل عليه حتى لا يظهر عليه غبار من الظلم. وشرع الأريوسيون في التفكير وابتداع الحيل، وأكثروا من عقد الاجتماعات، وأجهدوا قواهم للوصول إلى غرضهم، وجددوا مكائدهم ودسائسهم.

مجمعا أرليس وميلانو

في سنة ٣٥٣م التأم مجمع في مدينة أرليس، وفي سنة ٣٥٥م انعقد مجمع آخر في مدينة ميلانو حضره أكثر من ثلاثمائة أسقف، وكانت جلساته تنعقد في قصر الإمبراطور قسطنطيوس وهو نفسه كان حاضرًا ومعه حرسه. فانبرى خصوم أثناسيوس ونهضوا يؤيدون فكرة الحكم عليه، وأنه لا وسيلة أخرى غير ذلك يتسنى بها إرجاع السلام والاتحاد للكنيسة الكاثوليكية.

ولكن أصدقاءه كانوا مخلصين الإخلاص كله لزعيمهم ولتأييد الحق ونصرته، فأكدوا للإمبراطور بكل شجاعة وجرأة مسيحية أنه مهما استرضاهم بالنعم والتعطفات الملكية، أو أرهبهم بالتهديد والوعيد، فلا يمكنه أن يحملهم على الموافقة على محاكمة خادم أمين مكرم بريء من خدام المسيح وهو غير حاضر في المجمع. وقد طال الجدل واحتدت المناقشة واشتد النزاع، فمل الإمبراطور الأريوسي وسئم من طول الانتظار، وقبل أن ينفض مجمع ميلانو أصدر الحكم على أثناسيوس رئيس أساقفة الإسكندرية بعزله، وأعلن الاضطهاد على جميع أصدقائه ومريديه بقصد أن يرغمهم على قبول حكمه على أثناسيوس.

كان ذلك الاضطهاد شديدًا حتى أن الحزب الأرثوذكسي رفعوا أصواتهم صارخين: "إن أيام نيرون وديسيوس قد عادت"، وأثناسيوس نفسه لم يطق هذا الاضطهاد فالتجأ إلى صحاري مصر.

موت قسطنطيوس وارتقاء خلفائه العرش

في سنة ٣٦١م مات قسطنطيوس حامي الأريوسيين، وهو كأبيه أجّل معموديته إلى قبيل وفاته. وبموته انتهت أيام رخاء وسعادة الأريوسيين.

وارتقى العرش جوليان المعروف بالمرتد والجاحد للدين، ومن المحتمل أنه أراد أن يظهر نفسه غير متحيز لفريق في المسألة اللاهوتية المتنازع فيها، فأمر بإعادة الأساقفة الذين نفاهم قسطنطيوس، وبعد حكم قصير دام اثنين وعشرين شهرًا مات فجأة بجرح في صدره نشأ عن سهم رماه به رجل فارسي.

ثم ارتقى العرش جوفيان بعد جوليان مباشرة، واعترف جهارًا بالمسيحية، وهو أول إمبراطور روماني ظهر فيه ما يدل دلالة صريحة على أنه فعلاً أحب الحق كما هو في يسوع. ويظهر أنه كان مسيحيًا صادقًا ومؤمنًا حقيقيًا قبل أن يعتلي العرش، كما يتضح من قوله لجوليان المرتد إنه يفضّل أن يترك وظيفته ويتخلى عن مقامه ومركزه على أن يتهاون في عقيدته، وبالرغم من ذلك فإن جوليان كان يحترمه ويجله وقرّبه إليه حتى يوم وفاته.

وفي إبان حكم جوفيان أعلن الجيش اعتناقه المسيحية، كما وأن الراية المعروفة باسم "لاباروم" التي كانت قد طُرحت جانبًا أيام حكم جوليان أعيدت وصارت ترفرف على رأس الجيش. وقد تعلم جوفيان من الحوادث الماضية التي مرت على أسلافه أن الدين لا يمكن أن يتقدم ويزهو بمظاهر القوة الخارجية ووسائل الشدة والإرهاب، ولذلك أباح الحرية التامة لرعاياه الوثنيين لممارسة طقوسهم وعبادتهم. ومن جهة الانقسامات بين المسيحية أعلن أنه لا يمانع أي شخص في اعتقاده، وأن لكل واحد الحق في أن يعتقد ما يراه، وأنه يحب جميع الذين يعملون على سلام وسعادة كنيسة الله. ولما سمع أثناسيوس بموت جوليان عاد إلى الإسكندرية بين تهليل الشعب به وإكبارهم إياه.

وقد كتب إليه جوفيان رسالة مؤيدًا إياه في وظيفته، وملتمسًا منه أن يزوره في قصره، فلبى الدعوة. ولما جاء طلب منه الإمبراطور تعليمًا وإرشادًا ونصحًا، وبواسطة تلك المقابلة وما دار فيها من الحديث نال أثناسيوس نفوذًا لدى جوفيان وتأثيرًا عليه، مما جعل أعداءه يحسدونه، وحاولوا عبثًا النيل من هذا النفوذ والحط من كرامة صاحبه، ولكن بدون جدوى.

على أن حكم هذا الإمبراطور المسيحي لم يستمر إلا ثمانية أشهر، إذ وُجد قتيلاً على فراشه في ١٧فبراير سنة ٣٦٤م مختنقًا بغاز الفحم كما يُظن.

فالنتنيان وفالنس

خلف جوفيان في الملك أخوان هما فالنتنيان وفالنس، أولهما حكم في الغرب وثانيهما في الشرق. وقد قيل إن فالنتنيان سلك على منهاج جوفيان فيما يتعلق بشؤون الكنيسة، فأنكر كل تداخل في المسائل التعليمية، وتمسك بشدة بعقيدة الإيمان التي أقرها مجمع نيقية. وقد جمع في شخصه كجندي وسياسي كفاءة عظمى ومقدرة فائقة. ويقال إن كلا الأخوين عرّضا نفسيهما لأخطار جمة أثناء

عهد جوليان باعتناقهما المسيحية، ولكن فالنس أثرت عليه زوجته بعد ذلك وأمالته إلى الأريوسية، وأقنعته أن يعتمد على يد أسقف القسطنطينية الأريوسي. ويقال إن الأسقف أخذ يستهويه ويستدرجه حتى حمله على أن يُقسم قسمًا بأن يضطهد الكاثوليك.

ومهما كان الأمر فمن المؤكد أنه أظهر بعد معموديته مباشرة غيرة عظمى للأريوسيين، واضطهد بعنف وغلظة رجال الإكليروس، لا لذنب سوى تمسكهم بقانون الإيمان الذي أقره مجمع نيقية ودفاعهم عنه. وبمقتضى أمر صدر من فالنس سنة ٣٦٧م هوجم أثناسيوس من الأريوسيين أعداء التقوى المسيحية. وقد حاول تاشيان حاكم الإسكندرية أن يطرده من المدينة، ولكن حماس الشعب وشعوره نحو هذا الأسقف الجليل كانا بدرجة لم يجسر معهما الحاكم أن ينفذ أوامره مدة من الزمن. ولكن أثناسيوس إذ علم بما كان مزمعًا أن يقع اعتزل منصبه بكل هدوء وسكينة وظل مدة أربعة أشهر منزويًا في مقبرة أبيه، وهذه هي رابع مرة يهرب فيها من الإسكندرية.

على أن فالنس خشي على ما يظهر غضب الشعب وسخطه، فأرسل واستدعى أثناسيوس وأذن له أن يستمر في تأدية خدماته الرعوية. ولم يعترضه أي عارض آخر بعد ذلك حتى لبى نداء سيده عام ٣٧٣م، ليستريح في السماء من عناء أعماله على الأرض. ومات فالنس في موقعة بينه وبين الغوط سنة ٣٧٨م بعد أن ملك أربع عشرة سنة.

الخدمات التي أداها أثناسيوس للكنيسة

إننا نميل إلى الاعتقاد بأن أثناسيوس كان بنعمة الله الواسطة في حفظ الكنيسة من شر الهرطقة الأريوسية، التي كانت تهدد بالقضاء على اسم الرب يسوع المسيح والإيمان بشخصه المعبود. وقد كان العدو يرمي إلى إيجاد نظام خال من المسيح، لا يلبث أن يحمل الناس إلى نبذ المسيحية نبذًا تامًا، ولكن الله - جل شأنه - استخدم مجمع نيقية لإبطال حيل العدو الشريرة وإفساد طرقه وتدابيره، وقد بارك كثيرًا جدًا على إعلان حقيقة مساواة لاهوت المسيح ولاهوت الروح القدس بلاهوت الآب، تلك الحقيقة التي أقرها وأيدها ذلك المجمع. وكما كانت إذاعة هذه الحقائق مباركة من الله في ذلك الحين، فهي لا تزال كذلك إلى يومنا هذا.

ومع أن الكنيسة كانت غير أمينة وتدهورت في العالم، حتى وصلت إلى حيث كرسي الشيطان، ولكن الرب، من رحمته، أقام شهادة عظمى لاسمه القدوس ولإيمان قديسيه. ويشهد المؤرخون الدينيون وغيرهم أجلّ شهادة عن كفاءة ونشاط وثبات أثناسيوس، وإنكاره لذاته وغيرته التي لا يعتريها الكلل في دفاعه الشريف عن حقيقة الثالوث الأقدس. ونحن لا نشك في أن تلك الكلمات المجيدة «وأنت متمسك باسمي ولم تنكر إيماني» (رؤ٢:١٣) يشير بها الرب إلى أمانة أثناسيوس وأصدقائه كما إلى كل الأمناء في العصور الأخرى. وهكذا يدخل أثناسيوس وأصدقاؤه ضمن زمرة الغالبين الذين يشير إليهم الروح القدس في سياق هذا الخطاب.

ولكن الرب لم يسمح بأن هذه الغلبة يراها المؤرخون ويسجلونها ويشيدون بذكر أصحابها لأنهم خاصة الرب المختفون عن أعين العالم الذين يتغذون من المن المخفى، وسيكون لهم مكان قريب جدًا من الرب في المجد. «من يغلب فسأعطيه أن يأكل منَ المَنّ المُخفى، وأعطيه حصاة بيضاء، وعلى الحصاة اسم جديد مكتوب لا يعرفه أحد غير الذي يأخذ» (رؤ٢: ١٧).

المسيحية في عهد جراشيان

خلف فالنتنيان في الحكم ابنه جراشيان سنة ٣٧٥م، وكان عمره إذ ذاك يناهز الستة عشر ربيعًا، وقد أشرك معه في الحكم اسميًا أخاه لأبيه المسمى فالنتنيان الصغير، ولكن ما لبث أن اختار ثيودوسيوس ليشترك معه فعليًا في الحكم، إذ أقامه حاكمًا على الشرق. وقد تهذب جراشيان وتربى في الإيمان المسيحي، وبرهن على أنه مؤمن حقيقي. وقد كان أول إمبراطور روماني رفض لقب ولباس رئيس كهنة الدين القديم، حيث قال: "كيف يتسنى للمسيحي أن يكون رئيس كهنة للديانة الوثنية. إن مثل هذا العمل مكرهة لدى الرب". وهكذا نشاهد في تقوى هذا الإمبراطور الصغير النتائج المباركة التي تنتج عن شهادة الأمناء. فيا له من أمر غريب وعجيب أن يعتلي إمبراطور تقي عرش روما - عرش القياصرة - ولم يبلغ من العمر إلا ستة عشر عامًا. وقد كان متواضعًا كما كان تقيًا، ومما يدل على تواضعه ما يأتي:

لما شعر بجهله في الأمور اللاهوتية وحاجته إلى التزود من الحقائق المسيحية كتب إلى أمبروس أسقف ميلانو يستدعيه لزيارته قائلاً له: "تعال لتعلم تعاليم الخلاص لشخص يؤمن إيمانًا حقيقيًا، ليس غرضه أن يتعلم المجادلات والمباحثات، بل أن تسكن الإعلانات

الإلهية بغنى في قلبه". فأجابه أمبروس بسرور عظيم وفرح جزيل قائلاً: "أيها الإمبراطور المسيحي بالحق. إني إلى هذه الساعة محجم عن زيارتك ليس بسبب قلة محبتي لك، بل بسبب حيائي وخجلي. فإن كنت غائبًا عنك بالجسد فأنا حاضر معك بصلواتي التي بها تقوم الخدمة الرعوية، والتي هي من أهم واجبات الراعي".

وقد كان هذا الإمبراطور الصغير محبوبًا من الجميع، ولكن تعلقه برجال الإكليروس الأرثوذكس والوقت الذي كان يصرفه معهم، والنفوذ الذي نالوه لديه خصوصًا أمبروس، عرّضه لاحتقار بعض رعاياه الذين يميلون إلى الحروب، فهجم البرابرة على الحدود، ولم يستطع جراشيان أن يشعل نار الحرب عليهم ويقود جيشًا لمحاربتهم، فانتهز ماكسيموس فرصة استياء الجيش وثار على الإمبراطور، فهرب ومعه نحو ثلاثمائة جندي، ولكنهم أدركوه وقتلوه في مدينة ليون عام ٣٨٣م، وجلس ماكسيموس القاتل والمختلس على العرش حاكمًا على الغرب بدل جراشيان، ولكنه عُزل بعد ذلك وقُتل بواسطة ثيودوسيوس، واعتلى فالنتنيان الصغير عرش أبيه.

ثيودوسيوس الملقب بالكبير

إن قياس لذتنا من دراسة تاريخ الأباطرة الرومانيين يجب أن يكون بمدى اعترافهم بالحق ومعاملتهم للمسيحيين. فإذا لم نميز يد الله في حكمهم لكان من العبث والتعب أن تقلّب صفحات تاريخ حياتهم في ذلك العصر الغابر، ولكن مشاهدة يد الله وسماع صوته، وتتبع سير معاملات نعمته في تلك الأزمان الغابرة من شأنه أن يحفظ شركتنا معه، ويقوي معرفتنا بشخصه ويزيد اختباراتنا. ولكن سواء كان الأمر متعلقًا بالخدمة لله أو البركة لنفوسنا فإن كل شيء يتوقف تقريبًا على الباعث أو الغرض الذي لأجله نتابع تاريخ الكنيسة، والعوامل المؤثرة فيه. وعلى مقتضى هذا المبدأ فإن تاريخ ثيودوسيوس يتطلب منا تأملاً مليًا ودراسة دقيقة، فقد كان خادمًا لله كما كان إمبراطورًا لروما. وقد استخدمه الله لإخضاع الأريوسية في الشرق، ولإبادة العبادة الوثنية في جميع أنحاء العالم الروماني، إن الوثنية أفظع وأكبر خطية يرتكبها الإنسان، ولا يمكن أن تنزع تمامًا حتى «يُستعلن إنسان الخطية ابن الهلاك المقاوم والمرتفع على كل ما يُدعى إلهًا أو معبودًا، حتى أنه يجلس في هيكل الله كإله مُظهرًا نفسه أنه إله» (٢تس٢: ٣، ٤). إن هذا التجديف سيتم بأجلى معانيه في المستقبل، وسيكون علامة على سرعة وقوع القضاء العادل والدينونة الصارمة، كما على قرب بزوغ فجر العصر الألفي السعيد.

على أن غيرة ثيودوسيوس لم تكن فقط سلبية، ولكنها كانت إيجابية أيضًا، حيث عضد المسيحية بحسب النور الذي عنده أكثر وأشد من جميع أسلافه، وأتم ما شرع فيه قسطنطين، وفاقه كثيرًا جدًا من حيث الغيرة المسيحية والاجتهاد الروحي. وبعد معموديته مباشرة جمع مجمعًا في القسطنطينية في ٢مايو سنة ٣٨١م، وكانت الأسباب الرئيسية التي لأجلها عُقد هذا المجمع هي أولاً: زيادة تحديد وتكميل قانون الإيمان الذي وضعه مجمع نيقية. و ثانيًا: القضاء على الهرطقات مثل هرطقات الأريوسيين واليونوميين والأودكسيين والسابليين والأبوليناريين وغيرهم. و ثالثًا: اتخاذ التدابير اللازمة لاتحاد الكنيسة.

البرابرة الغزاة

لا شك أن معظم قرائنا، حتى حديثو السن، قد سمعوا عن "اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية" التي هي القوة الرابعة العظمى في العالم، التي تكلم عنها دانيآل النبي في سفره ويوحنا الرسول في سفر الرؤيا. وقد ظلت الدولة الرومانية مدة من الزمن تتداعى أركانها ويتقوض بنيانها، حتى اعتلى ثيودوسيوس العرش فكان في ذلك القضاء عليها، والتعجيل في سقوطها. لقد كانت مهددة من كل ناحية بغزو البرابرة الذين كانوا يقطنون على حدودها. ولقد أشار ميلمان إلى ذلك بقوله "على شواطئ كل نهر من الأنهار العظمى التي تحيط بالإمبراطورية ظهر جيش من الغزاة. فالفرس والأرمن والأيبيريون كانوا يستعدون لعبور نهر الفرات الذي كان الحد الشرقي للإمبراطورية. أما نهر الدانوب فسبق أن كان ممرًا للغوط، ثم احتشدت فيه قبائل الهون كالسيل الجارف، وكانت بقية القبائل الألمانية متجمعة على نهر الرين". فما أشد هول هذا الغزو الذي قام به أولئك البرابرة المتوحشون، ومن هذا يمكن للقارئ أن يرى من أول وهلة مقدار الأخطار التي كانت محدقة في ذلك الوقت بتلك الإمبراطورية الرابعة، وأن الرب يسهل عليه أن يحطم الحديد كما يحطم النحاس أو الفضة أو الذهب.

وقد كانت العبادة الوثنية لا تزال تمارس في دائرة المملكة الرومانية، وهياكل الأصنام الفخمة ذات المنظر المهيب تملأ البلاد طولها وعرضها، حتى كان يتعذر على المسيحي أن يذهب إلى أية جهة دون أن يرى هيكلاً أو يشتم بخورًا مما يقدم للأوثان. كل ما في الأمر أن المسيحية قد صارت في حرية تماثل حرية العبادة الوثنية. على أن المبدأ الأريوسي والنصف أريوسي كانا قد انتشرا بأشكالهما المختلفة، حتى أصبحا سائدين على القسطنطينية والبلاد الشرقية، وكثرت أضاليل أخرى أيضًا. وهكذا كانت الأحوال محزنة داخل الإمبراطورية الرومانية وخارجها عند اعتلاء ثيودوسيوس أريكة الحكم. أما عن تفاصيل الحوادث التاريخية فنحيل القارئ إلى مؤلفات المؤرخين السابق لنا ذكرهم، فقط نزيد على ما تقدم أن الله قد استخدم ثيودوسيوس في إيقاف تيار الغزو إلى حين. وفي إبادة بعض التماثيل والهياكل الأممية، وفي محو العبادة الوثنية والقضاء على الخرافات، كما استخدمه في تعميم قرارات مجمع نيقية وإعطاء قوة ونصرة للاعتراف بالمسيحية.

تاريخ ثيودوسيوس الديني

ونريد الآن أن نلقي نظرة على بعض الحوادث الرئيسية في تاريخ ثيودوسيوس العظيم، ونستطيع من ملاحظة الظروف المحيطة بهذه الحوادث أن نحصل على مذكرات مفيدة عن حياة الإمبراطور وعن قوة الكهنوت وعن صفات ذلك العصر.

كان ثيودوسيوس أسبانيًا، وكانت المسيحية قد دخلت هذه البلاد منذ عهد بعيد، وكانت أسبانيا مشهورة بشدة تمسكها بمبادئ أثناسيوس طول مدة النزاع الذي قام بخصوص التعليم عن التثليث، وقد كان الأسقف هوسيوس رئيس مجمع نيقية أسبانيًا.

وفي أواخر السنة الأولى من حكم ثيودوسيوس نصحوه كثيرًا أن لا يؤخر معموديته كما كانت العادة حينئذ، فأرسل إلى أسقف تسالونيكي فحضر وعمده في الحال. ويقال إن ثيودوسيوس كان أول إمبراطور تعمد باسم الثالوث الأقدس كاملاً. وحالما انضم إلى الكنيسة أصدر منشورًا أعلن فيه عن معتقده ورسم ديانة رعيته قال فيه: "إنه يسرنا جدًا أن جميع الأمم الخاضعة لحكمنا العادل تتمسك بالديانة التي علمها بطرس الرسول للرومانيين، وحسب تعليم الرسل وحق الإنجيل يجب علينا أن نؤمن بلاهوت الآب والابن والروح الأقدس المتساوي في السلطان... وكل من يخالف ذلك يجب عليه أن ينتظر منا العقوبات الصارمة التي تقضي سلطتنا بإرشاد الحكمة السماوية أن توقعها به، وذلك علاوة على دينونة الله العادل".

هكذا كانت أرثوذكسية ثيودوسيوس الحادة. فكان يعتقد أنه يجب عليه كإمبراطور مسيحي أن يحكم الناس هكذا، والأساقفة الذين حوله كانوا ميالين إلى زيادة هذه الشدة لا إلى تلطيفها. ومن أمثلة ذلك أنه مرة دفعه حب العدل إلى إصدار أمر لبعض المسيحيين ببناء مجمع لليهود على نفقتهم، لأنهم كانوا قد هدموه في أثناء ثورة. ولكن أسقف ميلانو تداخل في الأمر ونصحه أن لا ينفذ هذا الأمر، بحجة أنه ليس في صالح المسيحيين أن يبنوا مجمعًا يهوديًا، وبذلك عمل الأسقف ما لا يتفق مع العدل بصفة عامة، وأظهر أن الإمبراطور أكثر عدالة منه.

عيوب ثيودوسيوس وفضائله

أكبر عيب كان في أخلاق ثيودوسيوس هو ميله إلى الحدة والغضب، ومع ذلك كان يمكن تلطيف حدته واستجلاب عطفه إذا ما قدمت إليه وساطة كبيرة، ولدينا مثال واضح في ذلك في عفوه عن أهل أنطاكية. أما تفصيل الحادثة فهو هكذا:

في سنة ٣٨٧م فرغ صبر أهالي أنطاكية من احتمال ضريبة كان قد فرضها عليهم الإمبراطور، فاستعطفوا الحكام بكل احترام، ولكن أولئك أساءوا معاملتهم. فما كان منهم إلا أن قاموا بثورة عظيمة في المدينة، وأسقطوا تماثيل الأسرة الإمبراطورية بامتهان واحتقار، ولكن في الحال ظهرت في المدينة شرذمة من الجنود فقمعت الثورة. على أن حاكم هذه المقاطعة أرسل بحكم وظيفته أخبارًا وافية عن تفاصيل هذا الحادث للإمبراطور. ولما كانت أنطاكية تبعد عن القسطنطينية ٨٠٠ ميلاً كان من اللازم أن تنقضي بضعة أسابيع قبل أن يصل الرد من الإمبراطور. وهذا أعطى فرصة لأهل أنطاكية أن ينتبهوا إلى جريمتهم وعواقبها الوخيمة، فابتدأ يلوح لهم الأمل تارة وتساورهم المخاوف تارة أخرى، لأنهم علموا بخطورة جرمهم. وأخيرًا اعترفوا بهذا الجرم إلى أسقفهم فلافيان وإلى غيره من أصحاب النفوذ، وتعهدوا أمامهم أنهم لن يعودوا إلى ذلك مرة أخرى، وبعد أربعة وعشرين يومًا وصل رسل الإمبراطور بالحكم على أنطاكية، ذلك الحكم الذي يبين مقدار

الانقلاب الذي كان يحدث لمجرد إرادة فرد واحد في تلك الأيام.

فقد تضمن الحكم أن تنحط أنطاكية قصبة الشرق من مركز مدينة إلى قرية حقيرة. ويطلق عليها اسم قرية تابعة لسلطة لاودكية، وتجرد من أراضيها وإيراداتها وامتيازاتها، وتقفل حماماتها وملاعبها وملاهيها، وتبطل كل وسائل التسلية وأسباب المسرات، ويوقف توزيع الغلال. هذا عن الحكم العام. ثم تقدم رسل الإمبراطور للتحقيق مع الأفراد، فكان يؤتى أمامهم بأشرف الناس وأغناهم مكبلين بالقيود، وكانت تستعمل وسائل التعذيب لمساعدة المحققين. وقد فوض الإمبراطور هؤلاء المندوبين في أن يصدروا حكمهم أو يؤجلوه بحسب ما يرون. أما بيوت المذنبين فقد تعرضت للمبيع، وتبدل حال زوجاتهم وأولادهم من العز والترف إلى الذل والهوان، وكان الناس يتوقعون حصول مذبحة عظيمة قال عنها كريسوستوم (يوحنا فم الذهب) إنها كانت ستكون مثالاً حقيقيًا لأهوال يوم الدينونة الرهيب. ولكن الله الذي في يده قلوب الملوك قد تذكر ماضي أنطاكية في أيام الكنيسة الأولى، فحرك قلوب رسل الإمبراطور بالشفقة والحنان، ويقال إنهم ذرفوا الدموع على مصائب القوم، وسمعوا لتوسلات الرهبان الذين انحدروا من الجبال زرافات زرافات، وأجلوا تنفيذ الحكم وقرروا أن يبقى أحدهم في أنطاكية، بينما يرجع الباقون بأوفر سرعة إلى القسطنطينية.

وعندئذ كان قد هدأ غيظ ثيودوسيوس ونال مندوبو أهل أنطاكية حظوة لديه، وكانت يد الرب في الأمر فسمع إلى توسلاتهم، وتغلب عامل الرحمة في قلب ثيودوسيوس فأصدر عفوًا شاملاً عن المدينة والأهالي، فانفتحت أبواب السجون، وخرج زعماء الشعب بعد أن يأسوا من الحياة، واستردوا بيوتهم وأملاكهم. ورجعت عاصمة الشرق إلى مجدها وبهائها السالف. وأثنى ثيودوسيوس على أسقف أنطاكية، وأنعم عليه إنعامًا كبيرًا لأنه تشفع في إخوته المساكين، واعترف الإمبراطور أنه إن كان من أهم واجبات الحاكم إجراء العدل، فإن من أعظم مسراته عمل الرحمة (٢/٣٢)، (٥/٣١)، (٢/٢٥).

خطية ثيودوسيوس وتوبته

إن الثورة والمذبحة التي حدثت في تسالونيكي في سنة ٣٩٠م قد حفر خطوطًا أعمق في تاريخ ثيودوسيوس. وفي دراستنا لهذا الدور من أدوار حياته يأتي إلى ذاكرتنا داود ملك إسرائيل. ففي هذا الدور المحزن قد حصل العدو على فرصة عظيمة على هذا الإمبراطور المسيحي، ولكن الله كان من وراء ذلك قاصدًا بركة أعظم لنفسه.

وأسباب هذه الثورة هي أن واحدًا من المسابقين في سباق المركبات كان قد أُلقي في السجن لجريمة مدنية، فبطبيعة الحال لم يحضر يوم الألعاب، وكان ذلك المسابق له شعبية كبيرة، فطلبوا من بوثريك القائد العام للمقاطعة إطلاق سراحه فرفض، وعلى أثر ذلك قامت الثورة فقتلوا بوثريك، وعددًا من كبار ضباطه. فنمت الأخبار إلى الإمبراطور، فأمر بإعمال السيف في رقاب الناس، ولكن أمبروس تشفع لدى الإمبراطور فوعده بالعفو عن أهالي تسالونيكي. غير أن مستشاري الإمبراطور العسكريين قد بالغوا في تصوير شناعة الجريمة أمامه واستصدروا منه أمرًا بمعاقبة المذنبين، وذلك بغير علم الأسقف، فهجم الجنود على الناس أثناء اجتماعهم في الملعب، وقتلوا منهم آلافًا بدون تمييز. كل ذلك لكي يأخذوا بثأر ضباطهم الذين قُتلوا.

ولما سمع الأسقف أمبروس بخبر هذه المذبحة امتلأ قلبه بالأسى والجزع، وكخادم لله أخذ مركز الانفصال عن الشر، ولو كان ذلك الشر في الإمبراطور نفسه. فرجع إلى المدينة ليقيم شعائر الحداد، وليتجنب الوجود في حضرة الإمبراطور، ولكنه بعث إليه بخطاب أظهر له فيه شناعة خطيته وأكد له أنه لن يسمح له بالدخول إلى كنيسة ميلانو حتى يتثبت من صدق توبته وندمه. فوقع الإمبراطور في ذلك الوقت تحت وخز ضميره الشديد وتأنيب الأسقف الشديد، وحزن حزنًا مفرطًا على استعمال الوحشية بدل العدل. ثم ذهب إلى كنيسة ميلانو ليظهر تعبده لله، ولكن أمبروس قابله عند مدخل الكنيسة وأمسك بثيابه ليمنعه عن الدخول بصفته سافك دم بريء. فأكد له الإمبراطور توبته وانكساره، فأجابه الأسقف أن الاعتراف والندم السري لا يكفيان للتكفير عن ذنوبًا ارتكبت جهرًا. فأشار الإمبراطور إلى داود الرجل الذي بحسب قلب الله وماذا فعل، فأجابه الأسقف الجريء "كما مثلت داود في جرمه هكذا مثله في توبته".

فخضع الإمبراطور وبقي ثمانية أشهر مبعدًا عن الكنيسة تأديبًا له، خالعًا كل نياشينه الإمبراطورية، حتى جاء عيد الميلاد، فعرض نفسه على رئيس الأساقفة والتمس بكل خضوع قبوله في الكنيسة مرة أخرى قائلاً: "إني أبكي لأن هيكل الله، وبالتبعية السماء، أصبحت مغلقة أمامي، بينما هي مفتوحة للعبيد والشحاذين". ولكن أمبروس

بقي ثابتًا أمامه وطلب منه ثمرًا عمليًا يدل على توبته، وذلك أنه في المستقبل لا ينفذ حكم الإعدام إلا بعد ثلاثين يومًا من تاريخ صدوره، حتى تزول عن الإمبراطور كل عوامل الغيظ والغضب، فوافقه الإمبراطور على ذلك في الحال، وعندئذ سمح له أن يدخل الكنيسة. وأعقب ذلك منظرًا في غاية التأثير إذ خلع الإمبراطور ثيابه الإمبراطورية وجثا على الأرض مصليًا صارخًا «لصقت بالتراب نفسي فأحيني حسب كلمتك» (مز ١١٩: ٢٥). فبكى الشعب وصلوا معه متأثرين بحزنه واتضاعه.

وقد ذكر أمبروس في الخطاب الذي ألقاه في تأبين الإمبراطور أنه من يوم انسحاقه العظيم هذا إلى يوم وفاته لم يمر يومًا لم يذكر فيه جريمته التي وقع فيها مغلوبًا من حدة طبعه.

تأملات في معاملة أمبروس التأديبية لثيودوسيوس

قلّ أن يوجد في تاريخ الكنيسة حادثة ألذ وأكبر تأثيرًا من حادثة تأديب ثيودوسيوس، والشروط القاسية التي اشترطها أمبروس لقبوله في الكنيسة. فلو صرفنا النظر عن الطقوس والخرافات الخاصة بذلك العصر لوجدنا أمامنا حادثة من أجلّ وأعظم حوادث التأديب، ولا يفتكرنّ أحد أن تصرف ثيودوسيوس كان نتيجة ضعف أو جبن في أخلاقه، كلا. بل كان نتيجة مخافة الله الحقيقية في قلبه والشعور العميق بذنبه والضمير الحساس، والعلم اليقين بمطالب الله المتسلط في مملكة الناس.

وأمبروس لم يكن متكبرًا ولا قليل الاحتمال، ولا مرائيًا كما كان كثيرون من رؤساء الأساقفة بعده، بل كان محبًا للإمبراطور مهتمًا بنفسه، ومع ذلك فقد تصرف معه بحسب ما يفرضه عليه واجبه. وقد كان عالمًا تمام العلم بخطورة مركزه، ووجد نفسه ملزمًا أن يستعمل واجبات مركزه في موضع العدل لقهر قوة السيادة الأرضية. وقد أعطاه الله سلطانًا لم يهبه لخادم مسيحي، وقد ثبت فيما بعد أن سلطانًا كهذا خطر جدًا، إذ قد استعمله الكهنة لإشعال أو إخماد نيران قساوة الأباطرة الذين كانت ضمائرهم بين أيدي أولئك الكهنة. أما أمبروس فقد استعمل هذا السلطان بباعث مسيحي طاهر، فظهر كمدافع عن الإنسانية المتألمة، وكقاض يستعمل سلطته على أرفع الناس كما على أدناهم. غير أنه لا يجوز أن نتعدى أمر الله ولو ظهر لنا أن ذلك يأتي بأفيد النتائج.

وبعد أربعة أشهر من انتصار ثيودوسيوس على أوجينيوس، ومن الحكم على قاتلي فالنتنيان، مات ثيودوسيوس العظيم في ميلانو سنة ٣٩٥م وهو لم يبلغ الخمسين من عمره، وكان آخر الأباطرة الذين حافظوا على عظمة الاسم الروماني. ولم يعش أمبروس طويلاً بعد صديقه الإمبراطور، بل توفي في مساء يوم عيد القيامة سنة ٣٩٧م بمدينة ميلانو. وكان هو الذي دعم سلطة الكهنوت وقواها حتى أثرت على المسيحية في الأجيال التالية. وحوالي ذلك العصر ظهر باسيل وجريجوري الأول والثاني ويوحنا فم الذهب.

الفصل الثاني عشر

ما حدث داخل الكنيسة

إن القرن الذي انتهى بوفاة ثيودوسيوس العظيم وأمبروس كان حافلاً بالحوادث التي تهم القارئ المسيحي، فهي حوادث هامة تتعلق بمجد الله وخير الناس. فمن سنة ٣٠٢ إلى ٣١٣م اجتازت الكنيسة أصعب تجاربها في عهد ديوكلشيان عشر سنين قضتها في الأتون المتقد، ولكن عوضًا عن أن تحترق كما توقع أعداؤها ازدادت في العدد كما في الطهارة والقوة أيضًا. ثم سمح الله للشيطان أن يهيج ضدها الوثنيين حتى أشهروا الحرب في جميع أجزاء الإمبراطورية، أولاً للدفاع عن آلهتهم القديمة، وثانيًا لإبادة المسيحية بواسطة اضطهاد المسيحيين وإعدام كتبهم المقدسة. وهكذا ابتدأ ذلك القرن بالنضال العظيم الأخير بين الوثنية والمسيحية، وانتهى بالدمار التام للأولى والفوز المبين للثانية. وقد انتهى النضال في القرن الرابع وأصبح النصر حليف المسيحية منذ ذلك التاريخ.

هذا هو تاريخ الكنيسة الخارجي، وفيه إتمام لكلمة الرب الواردة في الخطابين الموجهين لكنيستي سميرنا وبرغامس. على أن هناك أمورًا أخرى تستدعي أن نوجه إليها بعض التفاتنا قبل أن نبدأ كلامنا عن القرن الخامس. ولا يوجد موضوع في هذا الميدان الواسع المنبسط أمامنا يلوح أنه أكثر أحقية لاجتذاب أنظارنا من دائرة نفوذ كبار أحبار الشرق والغرب، ولا بد أن يكون قد خطر ببال قرائنا من التلميحات إلى المعمودية أن حفظ هذه الفريضة كان له مكانة عظمى في أذهان أولئك المسيحيين الأولين، فكانوا يعتقدون أن مياه المعمودية تطهر النفس تمامًا، لذلك رأينا أن نتكلم عن هذين الأمرين، فنبين باختصار تاريخ المعمودية من كتابات الآباء، وهو ما يعطينا في الوقت نفسه فرصة للتأمل في ما كان لهم من الآراء، ليس فقط فيما يختص بالمعمودية بل في حقائق الإنجيل الأساسية أيضًا.

الاختلافات الكنسية عن المعمودية

في العهد الجديد توافق تام بين ما ورد عن المعمودية تعليمًا وتطبيقًا، ولكن منذ بداية القرن الثالث للميلاد وحتى يومنا هذا نجد في الكنيسة الاسمية اختلافات لا نهاية لها من الوجهتين النظرية والعملية بخصوص هذا الموضوع الهام، وبالطبع غير الملمين بتاريخ الكنيسة يسألون: متى وبأي وسيلة نشأت تلك الاختلافات في الكنيسة.

وحيث أن قصدنا من كتابة هذه المذكرات هو الوقوف على بدايات المسائل العظمى التي أثرت في سلام الكنيسة وتقدمها، لذلك رأينا أن نبين بغاية الاختصار بداية تاريخ المعموديات الكنيسة، وقد استعملنا هنا كلمة "كنسية" بالمقابلة مع كلمة "كتابية" أي حسب الكتاب المقدس. ولنضع في الاعتبار أنه لا يوجد شيء مما أدخل بعد أيام الرسل الملهمين له سلطان إلهي، سواء من الوجهة التعليمية أو العملية: لذلك فكل معمودية تختلف عن المعمودية التي رسمها المسيح ومارسها الرسل لا يمكن أن نسميها معمودية مسيحية. إن إدخال التغييرات في المعمودية المسيحية غيّرها وحولها إلى معمودية أخرى، ولذلك نقرأ في التاريخ عن معموديات كثيرة.

وبما أن غرضنا ليس هو المناظرة والمجادلة، بل إيضاح تاريخ هذه الاختلافات من البداية، فإننا نتجنب إبداء أي رأي عن هذه المسألة التي كثر فيها الأخذ والرد، واستمرت المناقشات والمجادلات بشأنها بين رجال مقتدرين من كلا الطرفين مدة أكثر من ستة عشر قرنًا، وقد كان فيها كلا الطرفين واثقًا ثقة تامة بأن النصر حليفه.

وبما أنه لا يوجد ذكر صريح في الكتاب المقدس عن معمودية

الأطفال، فقد رأى المعمدانيون (وهم الذين لا يعمدون إلا البالغين وبالتغطيس) أن مركزهم صحيح لا شك فيه، كما أن غير المعمدانيين (المنادين بمعمودية الأطفال) يعتقدون بكل يقين أنه يمكن الاستدلال من عبارات عديدة معروفة جيدًا واردة في الكتاب المقدس على أن معمودية الأطفال حصلت في أيام الرسل. ولم تكثر المجادلة في أمر كما حدث بالنسبة إلى كيفية المعمودية، فإن اليونانيين واللاتينيين والفرنسيين والألمان كانوا يعمدون بالتغطيس. قال لوثر: "إن *Baptism* (معمودية) كلمة يونانية معناها باللاتينية *mersio* أي تغطيس، ومع أن السواد الأعظم منا قد ترك استعمال هذه الطريقة، إلا أنه يجب على الذين يعتمدون أن يغطسوا تمامًا ثم يرفعوا حالاً من الماء. وهذا ما يتضمنه أصل الكلمة وما يتضمنه معناها في اللغة الألمانية". وشهادة نياندر تؤيد هذا الكلام حيث قال "إن المعمودية كانت تتم في الأول بالتغطيس، وكثير من التشبيهات والمقارنات التي ذكرها الرسول بولس تدل بطريق الإشارة والتلميح إلى هذه الكيفية من المعمودية. إن التغطيس كناية عن الموت والدفن عن المسيح، والخروج من الماء هو رمز للقيامة، والأمران معًا يمثلان *الميلاد الثاني، الذي هو موت الإنسان العتيق، وقيامة حياة جديدة". وقد تكلم كيف وتيلوتسون وادنجتون وآخرون غيرهم عن كيفية المعمودية بصورة مشابهة.

مما تقدم، وبما أن هذه الشهادات جميعًا صادرة من غير المعمدانيين، فيمكننا أن نترك هذا الجانب من الموضوع بما أنه واضح وثابت من تاريخ الكنيسة، ومع ذلك فإن إيماننا لا يستند إلا على كلمة الله لأننا لسنا نتبع الآباء بل المسيح.

كان إيريناوس أسقف ليون هو أول من أشار من الآباء إلى معمودية الأطفال، ومات نحو عام ٢٠٠م، وبذلك كانت كتاباته في أواخر القرن الثاني، ولم يشر إليها الآباء الرسوليون مطلقًا. في ذلك الوقت كانت الخرافات تحل محل الإيمان بدرجة كبيرة، لذلك يجب على القارئ أن يتوقع أن يسمع بعض الآراء المبالغ فيها صادرة بعض كبار المعلمين اللاهوتيين، وإن كنا لا نشك في أن الكثيرين منهم كانوا مسيحيين حقيقيين غيورين. قال إيريناوس "إن المسيح جاء ليخلّص جميع الأشخاص بنفسه، أي جميع الذين ولدوا من الله بالمعمودية، رضعًا وصغارًا، أطفالا وشبابًا وشيوخًا، ولذلك اجتاز المسيح في الأعمار المختلفة، فللرضع صار رضيعًا لكي يقدسهم، وللصغار صار صغيرًا لكي يقدس الصغار، وليقدم لهم مثالاً للتقوى والخضوع والطاعة، وللشباب صار شابًا... الخ".

وهكذا كانوا يعلمون أن المعمودية هي تطهير كامل للنفس مهما اختلفت أعمار وظروف البشر، ولكن الخلاف قام على هذه النقطة الواحدة: الأطفال أم البالغين؟ وكانت التعبيرات "التجديد" و"الميلاد الثاني" و"المعمودية" مستعملة في كتابات الآباء كألفاظ مترادفة ذات معنى واحد.

هذا هو منشأ مسألة معمودية الأطفال كما نعلم من الكتب الكنسية القديمة. والعبارة التي اقتبسناها غامضة على نوع ما وغير واقعية، ولكنها أول أثر نجده عن هذه المسألة التي لم تُحل للآن، ومن المحتمل أنها أصل لكل الاختلافات التي حصلت في الكنيسة في هذا الشأن، وبها بدأ تأثير هذا التعليم على الأذهان التي تعتقد في الخرافات، فكم من آباء أسرعوا بقلق و لهفة إلى معمودية أطفالهم الرضع لئلا يموتوا تحت لعنة الخطية الأصلية. والرجل العالمي كان يؤجل معموديته إلى وقت قرب مماته ليتجنب وقوعه في الدنس من بعدها، وحتى ينتقل مباشرة من ماء المعمودية المطهّر إلى دار النقاء الأبدي. إن قدوة قسطنطين وشهرته حملا الكثيرين على تأخير اعتمادهم هكذا، ولو أن الإكليروس قاوموا هذا الأمر.

وإليك شهادات بعض الآباء*:

ترتليان: إن شهادة هذا الأب الذي مات نحو عام ٢٤٠م، تثبت أن الأطفال كانوا يعمدون في عصره، وأنه لم يكن راضيًا عن هذا، حيث قال "أما الذين من واجبهم القيام بعملية المعمودية يجب أن يعرفوا أن المعمودية لا يجوز أن تؤخذ باستخفاف وعدم اكتراث... لذلك يجب تأجيل المعمودية بحسب حالة كل شخص وميوله وسنه، فإن ذلك أكثر فائدة وأعم نفعًا، سيما في حالة الأطفال الصغار، لأنه لماذا يتعرض الآباء للخطر من أجل عدم وفائهم بعهودهم بسبب الموت، أو لخطيتهم بسبب طفل يظهر فيه طبع شرير وميل للفساد".

أوريجن: في كلامه عن شر الطبيعة البشرية يشير إلى المعمودية كالواسطة المعينة لإزالة تلك الطبيعة، فيقول "إن الأطفال يعمَّدون لأجل مغفرة الخطايا، ولكن أية خطايا أو متى

* هذا مجرد اقتباس لفكر نياندر.

* الاقتباسات التي أوردناها عن ترجمة د. وول لكتابات الأباء في كتابه «تاريخ معمودية الأطفال» ، الذي نال عنه درجة الدكتوراه من جامعة أكسفورد.

أخطأوا، أو كيف يصدق عليهم هذا لأمر. كل ذلك لا يتأتى إلا باعتبار المعنى الذي ذكرناه الآن وهو أنه لا يوجد أحد خال من الفساد، ولو كانت حياته على الأرض يومًا واحدًا، ولهذا السبب يعمد الأطفال، لأن فريضة المعمودية المقدسة هي التي تزيل الفساد المترتب على ولادتنا الطبيعية".

سبريان: أسقف قرطاجنة وصله خطاب نحو عام ٢٥٣م من شخص يدعى فيدوس، وهو أسقف من أساقفة القرى، يسأله فيه عما إذا كان يجوز معمودية الطفل قبل أن يبلغ ثمانية أيام من عمره إذا اقتضت الحاجة ذلك. فكان الرد لا يدل فقط على أن معمودية الأطفال كان جاريًا في ذلك الحين، بل على الاعتقاد الراسخ بضرورة إجرائها بالنظر لتأثيرها وفاعليتها، فقد عقد سبريان مجمعًا مع ستة وستين أسقفًا للمداولة في هذا الأمر، ثم كتب ردًا على خطاب فيدوس قائلاً "أما مسألة الأطفال التي من رأيكم أنه لا يجوز عمادهم بعد ولادتهم بيومين أو ثلاثة، وأنه ينبغي مراعاة قانون الختان، ولذلك لا يجب معمودية أحد وتقديسه قبل اليوم الثامن من ولادته، فإننا نحن جميعًا على نقيض رأيكم، وإن ما استحسنتم عمله لم يقركم عليه أحد منا، بل بالعكس قد حكمنا جميعًا أن نعمة الله ورحمته لا يجب الضن بهما على أي مولود. وبما أن ربنا المبارك قال في إنجيله إن «ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلّص» (لو٩: ٥٦) فينبغي علينا أن نسعى جهد طاقتنا حتى لا تهلك نفس واحدة إن أمكن".

جريجوري نازيانزين: أسقف القسطنطينية، كان من الآباء المشهورين جدًا نحو عام ٣٨٠م وكان الواسطة في القضاء على قوة الأريوسية في العاصمة الشرقية، حيث ظلت سائدة ومنتشرة مدة أربعين عامًا تقريبًا، فواجه في سبيل ذلك معارضة كثيرة واضطهادًا في بادئ الأمر، ولكن مكانته أخذت تزداد في النفوس شيئًا فشيئًا لسبب ما كان عليه من فصاحة وبلاغة في القول وتأثير في التعليم وتقوى في السلوك. وقد اقتبس الدكتور وول منه كثيرًا من العبارات المتعلقة بالمعمودية، وهي تدل على أنه كان كباقي الآباء غير متمكن من هذا الموضوع، وننقل جزءًا مختصرًا منها هنا: "ماذا نقول عن الذين هم بعد أطفال وليسوا قادرين أن يشعروا بنعمة المعمودية وخسارة عدم المعمودية؟ هل نعمدهم أيضًا؟ نعم بدون شك إذا دعت الضرورة إلى ذلك، لأنه خير لهم أن يقدسوا بالمعمودية مع عدم شعورهم بقيمتها من أن يموتوا غير مختومين. ودليلنا على هذا مسألة الختان الذي كان يعمل في اليوم الثامن، وكان ختمًا رمزيًا على الذين لم يكونوا يدرون شيئًا إذا كان عمرهم ثمانية أيام فقط"، ونراه يحتج بشدة وحماس على تأخير المعمودية إلى حلول وقت الوفاة، فيعتمد الإنسان وهو على فراش الموت، فيقول: "إن مثل هذا العمل أولى أن يدعى تغسيل الجثة من أن يطلق عليه اسم المعمودية المسيحية".

باسيل: كان أسقف قيصرية، ودائمًا يقرن اسمه مع جريجوري الذي من نيسا وجريجوري السابق الإشارة إليه، إذ كان جريجوري الذي من نيسا أخاه، والآخر أعز أصدقائه، وكان هؤلاء الآباء الثلاثة من كبدوكية، وقد أخلص باسيل لمبادئ أثناسيوس أيام مقاومتها ومحنتها، ولكن لم يعش ليشهد انتصارها النهائي إذ مات عام ٣٧٩م، وقد كان معجبًا كل الإعجاب بحياة التنسك والعزلة عن العالم، واعتنق مبدأ الزهد والرهبنة، وكان مثالاً عظيمًا لها، فترك أملاكه ومقتنياته، وأخذ يستعمل بعض الوسائل الشديدة لتعذيب جسده والإضرار بصحته. ثم هرب إلى البرية وبنى ديرًا، فاجتمع إليه جمع غفير لما كان له من الصيت، ومن ثم أخذت الأديرة تنتشر في جميع الأنحاء. أما آراؤه فيما يتعلق بالمعمودية فتشبه آراء صديقه جريجوري، وقد حث على ضرورة المعمودية مدفوعًا بتأثير الشعور الخرافي الذي كان عندهم جميعًا حيث يقول "لو لم يجتز إسرائيل البحر لما كان خلص من تحت يد فرعون، وهكذا إن لم نجتز في مياه المعمودية لا نستطيع أن ننقذ من تحت يد إبليس القاسية". وأرد أن يطبق هذا القول على الجميع مهما اختلفت أعمارهم، وكان يؤيد رأيه بكلمات الرب لنيقوديموس «الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يو٣: ٥).

أمبروز: أسقف ميلانو، وكان كجميع الآباء الذين ذكرناهم مخطئًا في فهم كلام الرب في فهم يوحنا٣: ٥ إذ كان مفهومه عن الولادة أنها هي المعمودية، حيث قال تعليقًا على كلام الرب السالف ذكره "من ذلك ترون أن المسيح لم يستثن شخصًا ما ولو كان طفلاً رضيعًا إذا انتهت حياته قبل أن يعمد حتى ولو كانت وفاته بسبب حادث فجائي لم يكن في الإمكان تجنبه".

يوحنا الملقب كريسوستوم أي فم الذهب: وقد حاز هذا اللقب بسبب سلاسة تعبيراته وفصاحة لسانه وبلاغة أقواله، وقد كان محبوبًا جدًا لدى الشعب لدرجة أنهم كانوا يقولون "إننا نفضل أن لا تشرق الشمس عن أن لا يعظ يوحنا". ومن الواضح أنه كان يؤيد معمودية الأطفال،

ولو أنه على ما يبدو لم يكن يعتقد في الخطية الأصلية، فيقول "لذلك نحن نعمد الأطفال أيضًا ولو أنهم لم يتدنسوا بالخطية، لكي ينالوا بذلك التقديس والبر والتبني والميراث ويصبحوا أخوة للمسيح، ويصيروا أعضاء معه". وقد يصعب علينا أن نعقب على ما ذكرنا من الفوائد العديدة التي نسبها للمعمودية، ومع أن قوله هذا مبالغ فيه، ولكن اتخذه غير المعمدانيين من ذلك الوقت إلى يومنا هذا كنص كتابي يستشهدون به على فوائد المعمودية. ومعظم قرائنا يعرفون هذه الكلمات الواردة في كتاب الصلاة العام "المعمودية التي صرت بها عضوًا للمسيح ومن أولاد الله، ووارثًا لملكوت السماوات". هذه الكلمات ليست من الكتاب المقدس بل من أقوال فم الذهب.

وقد أراد الدكتور وول - على ما يبدو - أن يثبت أن هذا المعلم الكبير لم يكن مخطئًا فيما قاله عن الأطفال من أنهم غير مدنسين بالخطية، فيقول إن المقصود من هذه العبارة ربما هو أنهم لم يتدنسوا بخطاياهم هم الفعلية، ولكن فم الذهب لم يقل "بخطاياهم الفعلية" بل "لم يتدنسوا بالخطية". وأما أن كل طفل مولود متنجسًا بالخطية فثابت من قول النبي «هاأنذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بي أمي» (مز ٥١: ٥).

وعبثًا نحاول أن نجد ما هو صحيح في كثير من التعاليم المسيحية الأساسية فيما كتبه الآباء، فضلاً عما أهمله جميعهم من الحقائق الراسخة مثل حضور الروح القدس في الكنيسة، والدعوة السماوية والعلاقات السماوية التي للكنيسة، والفرق بين بيت الله وجسد المسيح. والرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح (تي٢: ١١-١٥).

تأملات في تاريخ معمودية الأطفال

قد ذكرنا ما فيه الكفاية عن معمودية الأطفال، وأوردنا للقارئ شهادة أوثق شهود جاءوا في القرنين الأولين من تاريخها. وترجع ممارستها وما كان لها من التأثير العظيم إلى سوء فهم العدد الخامس من الأصحاح الثالث من إنجيل يوحنا «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله». فمن هذا العدد استنتجوا أن المعمودية ضرورية للخلاص ولنوال جميع بركات النعمة. أما فاعلية دم المسيح، والقوة المطهرة لكلمة الله، وعمل الروح القدس، فقد نسبوها كلها لممارسة المعمودية. فهل نتعجب بعد هذا من المقام العظيم الذي شغلته المعمودية في الكنيسة الاسمية هذه الستة عشر قرنًا، أو من تأثيرها القوي على جميع الطبقات والأجيال؟ مع وجود الكثيرين الذين لا يعتقدون بأن المعمودية هي التجديد والولادة الثانية.

ويؤكد الدكتور وول أن المسيحيين القدماء بدون استثناء كانوا يعلّمون أن كلمات المخلّص هذه تشير إلى المعمودية. وهو يعتقد أن كلفن هو أول من قال إن هذه الآية لا تعني المعمودية ورفض تطبيقها عليها. فإذا سلمنا بصحة ذلك ثبت لنا أن بناء المعمودية الشامخ الذي شاده رجال الكنيسة الأولون قد تأسس على سوء فهم لكلمة الله. ولا يزال أتباع كنيسة روما، واللوثريون، وتابعو الكنيسة الإنجليزية، يتبعون الآباء في هذا الخطأ. قال هوكر مشيرًا إلى تفسير كلفن للعدد الخامس من إنجيل يوحنا أصحاح٣ "هل يمكن أن هذا التفسير المستجد يزعزع تفسيرًا أجمع عليه جميع الآباء ولم يخالفهم فيه أحد؟ إن الله شاء أن تكون المعمودية لا مجرد علامة على نوالنا نعمته، وإنما أيضًا الأداة والوسيلة التي بها ننالها". ويقول الأسقف بيرنت في ملاحظاته حول الأيام القديمة "إن كلمات مخلصنا لنيقوديموس فسروها بأنها تعني الضرورة الحتمية للمعمودية للحصول على الخلاص، وتعبير «ملكوت الله» أخذ بأنه مرادف للمجد الأبدي، وبذلك فهموا قول الرب بمعنى أنه لا يستطيع أحد أن يخلص إن لم يعتمد"(٣٤)،(٣٥).

وقد علّم كلفن أن فوائد المعمودية قاصرة على أولاد المختارين، وبذلك أدخل فكرة المسيحية الوراثية، ويتبعه في ذلك المشيخيون، وبموجب تعليمه أصبح الختان هو المبدأ الذي على مثاله تقاس معمودية الأطفال. ولكن قد يهتم بعض قرائنا بالوقوف على نعتقده نحو تفسير يوحنا٣: ٥، نظرًا لما ترتب عليه من النتائج العظمى.

ما هو المقصود بما ورد في يوحنا٣:٥

إننا نعتقد أن تعبير «يولد من الماء» لا تعني المعمودية مطلقًا. وكلام الرب هو عن الميلاد الثاني الذي بدونه لا يستطيع أحد أن يعاين أو يدخل ملكوت الله، الذي لم يكن قد جاء بعد بصورة منظورة، ولكنه كان بينهم كالدائرة الجديدة لبركة الله وسلطانه. والجسد ليس في وسعة أن يعاين هذا الملكوت، والمسيح لم يأت ليعلم الجسد أو يصلحه كما ظن نيقوديموس على ما يبدو، بل لكي يجعل الإنسان شريكًا في طبيعة إلهية تُمنح له بواسطة الروح القدس. وليس

هناك فريضة خارجية إذا قام الإنسان بأدائها تخول له حق الدخول إلى الملكوت، بل لا بد من الحصول على طبيعة جديدة وحياة جديدة تناسب الحالة الجديدة. «فأجاب يسوع وقال له: الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله» (يو٣:٣)، ثم أوضح الرب لنيقوديموس الطريقة الوحيدة لدخول الملكوت بقوله «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله». وكلمة «الماء» مستعملة هنا كناية عن القوة المطهرة والمنقية التي لكلمة الله، كما نتعلم ذلك من مواضع عديدة، منها ما جاء في رسالة بطرس الأولى «طهروا نفوسكم في طاعة الحق بالروح». فهنا يتكلم عن الحق كواسطة، وعن الروح كالعامل في الولادة الثانية، حيث أردف ذلك بقوله «مولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى بكلمة الله» (١بط١: ٢٢، ٢٣). فمن الضروري اجتماع هذين الأمرين - الكلمة والروح.

فمن الواضح أن المقصود بهذه العبارة هو تطبيق كلمة الله بقوة الروح القدس لكي تؤثر في القلب والضمير والأفكار والأعمال، وبذلك تنشئ فينا حياة جديدة من الله نعرف بها فكره ومقاصده تعالى عن الملكوت. ونفهم هذا المعنى بوضوح أكثر من أقوال الكتاب في مواضع أخرى، مثل: «شاء فولدنا بكلمة الحق» (يع١: ١٨). «لكي يقدسها مطهرًا إياها بغسل الماء بالكلمة» (أف٥: ٢٦) «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به» (يو١٥: ٣). هذه الأقوال جميعها تشير إلى تطهير وتنقية النفس أدبيًا بتأثير كلمة الله بعمل الروح القدس، الذي يفحص كل شيء والذي ينشئ فينا أفكارًا وعواطف جديدة تليق بمحضر الله ومجده.

ولسنا نرى في الكلام الوارد في يوحنا٣: ٥ أدنى إشارة إلى المعمودية التي لا تهب في حد ذاتها شيئًا لمن يمارسها. هذا فضلاً عن أن الرسل وهم ملهمون بالوحي في شرحهم معنى المعمودية في رسائلهم أوضحوا أنها إشارة أو رمز للموت، لا أنها تعطي الحياة كما يقرر ذلك الآباء ويؤكدونه جميعًا. قال الرسول «أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدفنا معه بالمعمودية للموت» (رو٦: ٣، ٤؛ كو٢: ١٢؛ ١بط٣: ٢١). بالإضافة إلى ذلك فإنه لم يكن في إمكان نيقوديموس أن يفقه شيئًا عن المعمودية المسيحية الصحيحة، إذ لم تكن قد رُسمت بعد، حيث لم يرسمها الرب ويأمر بها إلا بعد قيامته من الأموات.

غير المعمدانيين في العصر الحديث

تعترف كنيسة روما وجميع الذين يتبعون الآباء أن الأصل في ممارستهم المعمودية على هذه الصورة يرجع إلى التقليد، على أنه يوجد كثيرون في وقتنا الحاضر، كما وُجد غيرهم منذ وقت الإصلاح، ومن بعد المصلحين جاء البيوريتان، وبحثوا باجتهاد عما يؤيد تقليد روما في كلمة الله، وأيدوا معمودية الأطفال من أسفار العهد الجديد، وهاك أهم الشواهد التي يوردونها للاستدلال بها على صحة معمودية الأطفال: «دعوا الأولاد يأتون إلي ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله» (مر١٠: ١٤). «وإلا فأولادكم نجسون، وأما الآن فمقدسون» (١كو٧: ١٤). «لأن الموعد هو لكم ولأولادكم» (أع٢: ٣٩). «ربوهم بتأديب الرب وإنذاره» (أف٦: ٤). وكثيرون يبنون حججهم وأدلتهم في هذا الموضوع على معمودية «أهل البيت» لبعض الأشخاص الذين ذكروا في العهد الجديد، وكذلك العهد الذي قطعه الله مع إبراهيم من جهة نسله (تك١٧).

رأي المعمدانيين

يقرر غير الموافقين على معمودية الأطفال، أو «المعمدانيون» كما يسمون أنفسهم، أنه حيثما جاء ذكر المعمودية في كتابات الرسل نجده مقترنًا بالأيمان، وإن مثل هذه العبارات «مدفونين معه بالمعمودية»، «اعتمدنا معًا بشبه موته» وغيرها إنما المقصود بها أن الشخص الذي اعتمد له نصيب مع المسيح بالإيمان، وهم يقولون أيضًا إنه بما أن المعمودية فريضة رسمها المسيح فينبغي أن تمارس بالصورة التي رسمها وعينها هو، ولا يجب أن نتخذ غير كلمة الله الصريحة أساسًا لإيماننا وتصرفنا في الأمور الإلهية. ومن ثم وجب أن يراعى في المعمودية أمران، وهما الشخص الذي يعتمد، وطريقة المعمودية، وهما أمران لازمان لزوم المعمودية نفسها. وعلى ذلك فالمعمودية المسيحية الحقيقية يشترط فيها أن يكون الشخص المراد تعميده مؤمنًا حقيقيًا، وأن تكون طريقة المعمودية بالتغطيس [٣/٣٦].

أصل مسألة اشتراك الأطفال في مائدة الرب

متى حلت الخرافات محل الإيمان واتخذت الآراء البشرية مكان كلمة الله فلا حد لابتعاد الإنسان وضلاله مهما كان مستنيرًا وعظيمًا، وهذا ما نراه في مسألة اشتراك الأطفال في مائدة الرب، حيث نشاهد

أغسطينوس يدافع بكل ما في وسعه عن هذه المسألة، التي ظهر أنها نتيجة لازمة لمعمودية الأطفال، حيث قرر الآباء أن نعمة الله الممنوحة للذين يتعمدون أعطيت بدون قياس ومن غير تحديد من جهة السن، ولذلك استنتجوا أنه على ذات القياس يمكن منح حق الاشتراك في مائدة الرب لجميع الذين اعتمدوا، أطفالاً كانوا أم بالغين. وقد استمرت هذه العادة متبّعة أجيالاً كثيرة، ولا تزال إلى يومنا هذا باقية في الكنيسة اليونانية. ولا حاجة بنا إلى ذكر التفاصيل والكلام عن هذا الموضوع بالإسهاب والتطويل، وإنما نقول بالإجمال إن البشر قد غضوا النظر بالتمام عن المعنى الروحي الداخلي، وأخطأوا فهم الغرض الحقيقي من عشاء الرب، وبينما هم مساقون بعامل الخرافات والتقليد نراهم يقدمون الإجلال والتعظيم للرموز الخارجية.

مركز وصفات الإكليروس

في مطالعتنا تاريخ الكنيسة الداخلي أثناء القرن الرابع نجد أمورًا لا تُحصى تتطلب أن نورد كلمة موجزة عنها، ولكننا سنقتصر على الإشارة إلى ما كان منها مميِّزًا لذلك العصر. فمن هذه الأمور الهامة التغيير الذي حصل في مركز الإكليروس، وكان سببًا في حدوث تغييرات كثيرة. فمنذ عهد قسطنطين بلغ الخدام المسيحيون مكانه جديدة في الهيئة الاجتماعية لها امتيازاتها العالمية، وهذا الأمر حدا بالجماهير الغفيرة أن تندمج في سلك الخدمة المسيحية مدفوعين إلى ذلك بعوامل غير حسنة. ومن هنا نشأ التأثير المحزن لهذا المزيج غير المقدس في الكنيسة الاسمية بأسرها، الأمر الذي كثيرًا ما يتجلى لنا في كبرياء وصلف وترف رجال الإكليروس جميعًا، حتى أنه قيل إن الأسقف مارتن دي تورز لما كان في قصر الإمبراطور مكسيموس سمح للإمبراطورة أن تقف وتخدمه وهو يتناول الغذاء على مائدة الإمبراطور، ولما قدم إليه الإمبراطور الكأس ليشرب قبله، وكان ينتظر منه أن يعيدها إليه بعد أن شرب منها، فإذا به يقدمها إلى أحد مرؤوسيه من رجال الإكليروس باعتبار أنه أرفع مقامًا وأعلى شأنًا من أي حاكم عالمي أيًا كان. هذه الحادثة ترينا إلى أي مدى من الرفعة بلغ الإكليروس، وما كانوا يفتكرونه في أنفسهم وفي المقام الروحي بالمقابلة مع المراكز العالمية. وقد أصبحت الكنيسة مثل «بيت كبير ليس (فيه) آنية من ذهب وفضة فقط، بل من خشب وخزف أيضًا، وتلك للكرامة وهذه الهوان» (٢تي٢: ٢٠).

هذا ما كان عليه الحال منذ ذلك الحين، وسيظل هكذا إلى النهاية، ولكن سبيل الأمناء واضح وهو «إن طهَّر أحد نفسه من هذه (أي من آنية الهوان) فإنه يكون إناء للكرامة مقدسًا نافعًا للسيد مستعَدًا لكل عمل صالح» (٢تي٢: ٢١).

بدء ظهور الرهبنة وانتشارها

قبل أن نتقدم إلى عصر كنيسة ثياتيرا يحسن بنا أن نلاحظ بدء ظهور الاتجاهات الزهدية والرغبات النسكية، ونمو تلك الأفكار. إن تأثير الرهبنة كان عظيمًا بلا شك في العصور المظلمة، وفي سائر أنحاء الكنائس الغربية، ولنتتبعه من منشأه الأصلي، لأنه يجمل بنا أن نعرف مبدأ الأمور، سيما الأمور الهامة ذات التأثير.

لما حصل الاضطهاد الشديد في عهد ديشيان نحو عام ٢٥١م لجأ الكثيرون من المسيحيين إلى النزوح عن أوطانهم والنفي الاختياري. وكان من بينهم شاب يدعي بولا من مدينة الإسكندرية، فهذا هرب إلى صحراء طيبة في الوجه القبلي وأقام هناك، وأخذ بالتدريج يألف نوع الحياة التي قضت الضرورة به عليه. وهو معروف كأول ناسك مسيحي، ولم يكن له في ذلك الحين حيثية أو شهرة ما، ولكن لم يكن هذه شأن خلفه العظيم الذي جاء بعده مباشرة.

أنطونيوس أبو الرهبنة

يُعد أنطونيوس أبا الرهبنة. وُلد في بلدة قمن العروس بالوجه القبلي نحو عام ٢٥١م، وقد قيل إنه كان مدة طفوليته وشبابه مفكّرًا ورزينًا يميل للانفراد والعزلة، ولم يكن يهتم بالعلم العالمي، ولكنه كان يهتم كثيرًا بمعرفة الأمور الإلهية. وقبل أن يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا مات والداه، فورث عنهما أملاكًا طائلة. وفي ذات يوم كان في الكنيسة، واتفق أن كان فصل الكتاب الذي يُقرأ هو المُتعلق بقصة الشاب الغني. فاعتبر أنطونيوس أن كلمات المخلص «بع كل مالك، ووزّع على الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال واتبعني» (لو١٨: ٢٢) موجّهه إليه من السماء. وفي الحال تنازل عن ضياعه لسكان قريته، وباع باقي أملاكه بنقود وزعها كلها على الفقراء، ولم يستبق إلا جزءًا صغيرًا حفظه لإعالة أخته الوحيدة. وفي فرصة أخرى كان متأثرًا تأثرًا عميقًا بكلمات الرب القائل «لا تهتموا للغد» (مت٦: ٣٤) وإذ أخذ هذا القول بمعناه الحرفي فأعطى

الجزء الباقي معه من المال للفقراء، ووضع أخته مع عذارى تقيات حتى يخلو من جميع الهموم المتعلقة بالأمور الأرضية، وعاش عيشة الزهد والتقشف الشديد.

ويقال إن أنطونيوس زار بولا الناسك وجميع النساك المشهورين الذين وصل إليه خبرهم، مجتهدًا أن يتعلم من كل منهم ما فيه من الفضائل المميزة له ليدرب نفسه على اكتساب هذه الفضائل والنعم في حياته العملية. فانزوى في مقبرة وأقام فيها عشر سنوات، ومن كثرة الأصوام وشدة إنهاك قواه وزيادة تأملاته وتصوراته توهم أن الأرواح الشريرة تهاجمه وتسطو عليه، فكان يجاهد ضدها جهادًا كثيرًا عنيفًا.

ثم ذاع صيته واشتهر أمره، وجاءه الكثيرون ليزوروه في ذلك المكان الذي اتخذه مقامًا له، وذلك حبًا منهم في مشاهدته أو في سماع صوت مصارعاته ومجاهداته مع قوات الظلمة. ولكنه غادر المقبرة وسكن في قلعة خربة بالقرب من البحر الأحمر مدة عشرين سنة أخرى، وقد زاد في استعمال وسائل إماتة أعضائه وقمع جسده بقصد التغلب على الأرواح الشريرة، ولكن التجارب والحروب عينها كانت ترافقه أينما وُجد.

ولقد كان هذا الرجل الشهير المخدوع محبًا للمسيح حبًا صادقًا، رقيق القلب عطوفًا على شعبه، فلما شبت نار الاضطهاد عام ٣١١ م في عهد ماكسيموس خرج من صومعته وظهر من مخبأه، وسار في الإسكندرية في وسط الجماهير، فبعث منظره هيبة في النفوس وأثرًا عظيمًا في القلوب. وذهب إلى المتألمين يشجعهم ويعظهم أن يكونوا رابطي الجأش ثابتي الجنان، راسخين في ثقتهم بالمسيح من غير تزعزع أو وجل، كما أظهر محبة عظمى نحو الذين زُج بهم في غياهب السجون، والذين أُلقوا في ظلام المناجم جزاء اعترافهم بالمسيح، وقد عرّض نفسه بكل الطرق إلى الخطر، ولكن لم يجسر أحد أن يمسه بسوء. ولما انتهى هياج الاضطهاد هرب إلى مكان عزلة جديد بجانب جبل عال، حيث زرع قطعة صغيرة من الأرض، فاجتمعت إليه جماهير من الناس ونهج منهجه جمع غفير. فكان الحزانى يأتونه لينالوا العزاء، وقصده المرتبكون الحيارى ليرتشدوا بنصحه، وهرع إليه المتخاصمون ليصلح ما بينهم. وقد نُسب إليه عمل المعجزات، كما كان له من التأثير ما لا يُحد.

وفي عام ٣٥٢ م لما كان ابن مائة سنة ظهر مرة أخرى في الإسكندرية، وكان الغرض من ظهوره هذه المرة مناهضة ومقاومة انتشار الأريوسية، والدفاع بما له من نفوذ وتأثير عن الإيمان الأرثوذكسي الصحيح، وقد بعث مرآه إحساسًا عظيمًا في النفوس، فاحتشدت الجماهير لتنظر هذا الراهب رجل الله - كما كانوا يدعونه - وتسمع وعظه وتبشيره، وقد عمل الرب على يديه فآمن بواسطته كثيرون من الوثنيين واعتنقوا المسيحية. ولقد كان أنطونيوس والرهبان الذين عاشوا معه مؤيدين ومعضدين لعقيدة مجمع نيقية بكل قوة ومثابرة. وعاش حتى بلغ عمره مائة وخمس سنين، ومات سنة ٣٥٦م قبل أن يلجأ أثناسيوس إلى الإقامة بين رهبان البرية بأيام قلائل.

فضائل أنطونيوس وضعفاته

كان أنطونيوس بلا ريب مخلصًا وأمينًا، وإن كان قد أخطأ خطأ كبيرًا، وانخدع بحيلة الشيطان، فإنه عوضًا عن أن يعمل حسب أمر المخلّص لتلاميذه حيث قال لهم «أذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (مر ١٦:١٥) ويسلك في خطوات ذاك الذي كان يجول يصنع خيرًا، ظن أنه يصل إلى حالة روحية أسمى وأرقى بابتعاده عن البشر وتكريس حياته للزهد والتقشف، وللشركة غير المنقطعة مع السماء. كان مسيحيًا حقيقيًا، ولكنه كان يجهل تمامًا حقيقة وغرض المسيحية.

وقد كان غرضه العظيم الحصول على القداسة في الجسد، مع أن الرسول قال «أعلم أنه ليس ساكن فيَّ، أي في جسدي، شيء صالح» (رو ٧:١٨)، إذًا فلا بد من الفشل التام لنا إن كنا نظن أنه يوجد شيء صالح في الطبيعة البشرية، أو إن كنا نحاول أن نصير أحسن في ذواتنا. وهذا ما وجده أنطونيوس، فإنه بدلاً من الحصول على تقديس طبيعته بما كان يجريه عليها من الأصوام، فإن كل شهوة شريرة أخذت تتحرك أكثر وتظهر بوضوح أجلى. وقد قال عنه نيندر: "كان عليه في وحدته أن يقاسي مجاهدات كثيرة ويعاني حروبًا جمة ضد الشهوة، الأمر الذي كان يتطلب منه أن يجهد كل قواه. وقد كانت التجارب التي وجب عليه مقاومتها والجهاد ضدها أكثر عددًا وأقوى بأسًا نظرًا لانصرافه إلى المشغولية بذاته، لأنه انهمك في محاربة التصورات النجسة التي كانت تنبع على الدوام من حمأة الفساد الكامن في قلبه البشري". وكان أحرى به أن ينشغل بأمور أفضل، وأن يفكّر في ينبوع الطهارة والقداسة، ذلك الينبوع الأبدي المجيد.

وقد اعترف أنطونيوس بعد ذلك بإقتناعه هذا الذي حصل عليه بعد اختبار سنين طويلة فقال لرهبانه: "لا ينبغي أن تنشغل مخيلتنا برسم صور أرواح شريرة، ولا أن ترتبك أذهاننا كأننا هلكنا. بل علينا بالحري أن نتعزى ونفرح في جميع الأوقات كمن قد افتدوا، واثقين أن الرب معنا، ذاك الذي انتصر عليهم ظافرًا بهم، جاعلاً إياهم كلا شيء، ولنضع في بالنا دائمًا أنه إن كان الرب معنا فإن العدو لا يستطيع أن يؤذينا. إن الأرواح الشريرة تظهر لنا على أشكال مختلفة بحسب اختلاف ما تكون عليه حالة أذهاننا. فإذا وجدتنا فرحين في الرب مشغولين في التأمل في بركاتنا المستقبلة وفي ما هو للرب، عالمين ومتيقنين أن كل شيء هو في يد الرب وأنه لا يستطيع أي روح شرير أن يفعل أقل أذى للمسيحي، فإنها في ارتباك واضطراب تبتعد حالاً عن النفس التي تكون محفوظة بمثل هذه الأفكار الصالحة"(٣/٣٨)، (١/٣١).

فيتضح تمامًا من هذه النصائح التي قدمها أنطونيوس لرهبانه أنه لم يكن فقط مسيحيًا مخلصًا، بل كانت له معرفة جيدة بالرب وبالفداء، وإن كان قد تطوح في أفكاره بعيدًا بسبب خداع قلبه. ونحن لا نكون في أمان إلا إذا كنا سالكين في الطريق الصحيح لحق الله. إن النظام الذي أدخله في أحلامه وأوهامه بالحصول على الكمال في الجسد أصبح على مر الأيام نبع الفجور والرذيلة. واستمر الحال هكذا أكثر من ألف عام، حتى جاء القرن السادس عشر وظهر عهد الإصلاح المبارك، فأرسل النور الإلهي أشعته على مشهد هذا الظلام الأدبي الحالك، وأعلن المفاسد والقبائح العظيمة الموجودة وسط هذه الأنظمة النسكية المختلفة. وقد كان الرهبان في ذلك الوقت كجيوش الجراد قد غطوا كل أوربا، وقد نادوا في كل مكان، كما يخبرنا التاريخ، بالخضوع لما يسمونه "الكنيسة الأم المقدسة" وبتقديم التكريم للقديسين لا سيما العذراء مريم، وبفاعليه وقوة آثار أجساد القديسين وصورهم وتماثيلهم، وعذاب المطهر والفوائد المباركة التي تنشأ عن صكوك الغفران.

ولنلق نظرة أخرى إلى تاريخ الرهبنة في أول عهدها.

باخوميوس وأول جمعية للنساك

أول شكل ظهرت فيه الروح النسكية في الكنيسة المسيحية لم يكن بتكوين مجتمعات أو هيئات، كما نشاهد ذلك فما بعد، بل بالتجاء بعض الأفراد إلى العزلة والانفراد، وقد اعتقدوا - وإن كانوا مخطئين في اعتقادهم - أنهم مدعوون دعوة خاصة ليسعوا وراء حياة مسيحية أعلى مستوى من غيرهم. ولكي يبلغوا هذه القداسة العظيمة فرضوا على أنفسهم أقصى وأشد القيود، وعمدوا إلى هجر المدن والاعتزال عن الناس لكي يعكفوا على التأمل الدقيق في الأمور الإلهية، ولكي تنصرف أذهانهم كلية عن جميع الأشياء الطبيعية وعن كل ما يلذ ويبهج الحواس ويسر الميول والرغبات.

وقد ظن الرجال والنساء معًا أنه يجب عليهم أن يرهقوا أجسادهم بأسهار وأصوام ومشقات وتعذيبات. وإذ اعتبروا الجسد الطبيعي حملاً ثقيلاً ومانعًا قويًا في سبيل رغباتهم الروحية تنافسوا بعضهم مع بعض في استعمال وسائل إماتة أجسادهم، فكانوا يتعاطون من الطعام ما هو غير صحي، وبعض الأحيان كانوا ينقطعون عن النوم والطعام حتى تكاد تفنى أجسادهم. وقد انتشرت عدوى هذه الحيلة الجديدة التي أدخلها الشيطان واتسع نطاقها كثيرًا، وكان الراهب المتواري عن الأنظار معتبرًا أنه قد أودع قداسة خصوصية. وكان الأشراف يأتون لزيارة الناسك في صومعته، وكذلك العلماء والأتقياء ليقدموا جميعًا إجلالهم وطاعتهم لرجل الله المقدس. وهكذا تولدت الكبرياء الروحية بواسطة تملق العالم ومداهنته. وهكذا ارتفع شأن الحياة النسكية، حتى أن كثيرين اختاروها كعمل شريف جدًا، وبعد ذلك كوّنوا هيئات أو جمعيات نسكية.

كان باخوميوس من أهل طيبة، وقد اهتدى إلى المسيحية في أوائل القرن الرابع، وبعد أن مارس التقشف بأساليب عدة ردحًا من الزمن أخبره الملاك في منامه أنه قد تقدم تقدمًا كافيًا في حياة الزهد، ويجب أن يصير الآن معلمًا للآخرين، فأسس جمعية على جزيرة في النيل، وهكذا ابتدأ الرهبان يعيشون معًا كجماعة.

وقد اتسع نطاق هذه الجمعية بسرعة حتى صارت قبل وفاة مؤسسها تضم ثمانية أديرة تضم ثلاثة آلاف راهب. وقد أصبح عدد الرهبان في بداية القرن التالي لا يقل عن خمسين ألفًا وكانوا يسكنون في كهوف تضم كل منها ثلاثة أشخاص، وكانوا ملزمين بالخضوع والطاعة المطلقة لأوامر رئيس الدير، الذي كان يعتبر في مقام أب لهم، وكانوا يرتدون لباسًا خاصًا أهم أجزاءه جلد معزى تشبهًا بإيليا، الذي كان يعتبرون أنه هو ويوحنا المعمدان مثلان لحالة الزهد والرهبنة. وما كانوا يخلعون ثيابهم، بل ينامون بها في كراسي مصنوعة بحيث يكونون وهم نائمون واقفين فيها تقريبًا. وكانوا

يصلون مرارًا كثيرة يوميًا، ويصومون اليومين الرابع والسادس من الأسبوع، ويمارسون الشركة يوم السبت ويوم الرب. وكانوا يأكلون الطعام في سكوت وقبعاتهم على وجوههم حتى لا يرى أحدهم الآخر. وكانوا يشتغلون في الزراعة وأنواع الصناعات المختلفة. وكان عندهم كل شيء مشتركًا اقتداء بالمسيحيين الأولين بعد يوم الخمسين (١/٣١)، (٣/٢٨)، (٢/٣٨). وقد أسس باخوميوس جميعات مثل هذه للنساء.

الأديرة والبابا الروماني

كانت الأديرة حتى نهاية القرن الخامس للميلاد تحت إشراف الأساقفة، وكان الرهبان معتَبرين من العلمانيين، ولم يكن لهم أدنى حق في الاندماج في سلك الهيئة الكهنوتية. ولكن الظروف على مر الأيام ساعدتهم على أن يتخذوا لأنفسهم صفة إكليروسية، فاشتغل كثيرون منهم بمطالعة الأسفار المقدسة وشرحها، كما انصرفوا جميعًا إلى الاهتمام بإنماء الحياة الروحية السامية، مما جعل الناس يحبونهم ويعظمون قدرهم، سيما عندما شرعوا في تأدية وظائفهم الإكليروسية خارج حدود دائرة إقامتهم. فبدأ عامل الحسد يتجلى بين الأساقفة والرهبان، وقد أسفرت النتيجة عن أن الرهبان طالبوا بأن يكونوا تحت حماية بابا روما، وذلك لكي يتخلصوا من الاعتماد على منافسيهم الروحيين، فصادف اقتراحهم الاستحسان والقبول وأخضعت في الحال جميع الأديرة كبيرها وصغيرها لسلطة أبروشية روما. وكان هذا الأمر خطوة واسعة في سبيل سيادة بابا روما وامتداد نفوذه، الذي تمكن من بث عيونه في جميع الجهات لمراقبة الأساقفة والسلطات الحاكمة العالمية. ويجب ملاحظة هذا الأمر إذا أردنا أن نعرف الوسائل التي أدت إلى زيادة واتساع سلطان البابا الروماني.

ولقد انتشر نظام الرهبنة بسرعة إلى ما وراء الحدود المصرية. وجميع المعلمين في ذلك العصر، سواء من الشرق أو من الغرب، كانوا يدافعون عن عيشة العزوبة والرهبنة. ونذكر منهم على الخصوص القديس جيروم الذي كان أعظم رجال زمانه علمًا، وكان يُعتبر حلقة الاتصال بين قسمي الكنيسة العظيمين، أي الكنيسة اليونانية والكنيسة الرومانية، أو الشرقية والغربية. فهذا كان يعضد بكل قواه عيشة العزوبة والتنسك، لا سيما بين الإناث. فكثيرًا من السيدات الرومانيات من ذوات الجاه والرفعة ترهبن بسبب تأثيره، وكان أمبروز يعظم في مواعظه شأن العذراوية، حتى أن الأمهات في مدينة ميلانو كن يمنعن بناتهن من سماع أقواله خوفًا عليهن من تأثيره، ولكن العذارى من كل حدب وصوب كن يحتشدن حوله للتقديس والبركة. وأدخل باسيل حياة الرهبنة إلى بنطس وكبدوكية، كما أن مارتن أدخلها إلى بلاد الغال، وأغسطينوس إلى أفريقيا. أما يوحنا فم الذهب فقد منعته والدته بحكمتها وهو شاب عن الانزواء في صومعة نائية في سوريا.

قبل ترك هذه النقطة يجدر بنا أن نلاحظ بدء إقامة

أديرة الراهبات

إننا نقرأ منذ أوائل تاريخ المسيحية عن العذارى المكرسات، اللائى عُرفن بالطهارة الدينية، وكرسن أنفسهن لخدمة المسيح. وكانت أعمالهن وتكريسهن يظهران في أنهن يحفظن أنفسهن في حالة العذراوية بدون زواج، لكن أساس الدخول في اتحادات لعمل أديرة للعذارى يرجع إلى باخوميوس المؤسس الكبير لأنظمة الأديرة. فقبل وفاته حوالي منتصف القرن الرابع كان في مصر عدد لا يقل عن سبعة وعشرون ألفًا من الراهبات اللائى اتخذن حياة الرهبنة. والقوانين التي وضعها للراهبات كانت مشابهة لتلك التي للرهبان. قال وادنجتون "كانت الراهبات تعشن من كيس نقود واحد مشترك، ولهن عنابر نوم مشتركة، ومائدة واحدة، ودولاب ثياب واحد، وكانت لهن نفس الخدمات الدينية الواحدة، ونظام التقشف الواحد، مع ممارسة الأصوام القاسية في فترات معينة. ولقد أعطيت لهن أعمال يدوية، لكن بدلاً من أعمال الزراعة التي يقوم الرهبان كان يعهد إليهن بواجبات أسهل، مثل أعمال الإبرة. وبهذه الواجبات المتنوعة والمتعددة كن يشغلن أنفسهن في عزلتهن القاسية" (٢/٣٩).

ومن المحقق أن كثيرًا من هذه الأديرة تأسست خلال القرن الرابع، وأنها كانت منتشرة في أنحاء مصر وسوريا وبنطس واليونان، وأنها وصلت تدريجيًا إلى كل الأماكن التي وصلت إليها المسيحية، وإلى الآن نجدها بكثرة في الممالك الكاثوليكية، ويعتبرونها من ملحقات الكنائس.

احتفال أخذ العهود

نستطيع أن نستشعر روح القسوة التي وُصمت بها البابوية، حتى على من لها، في مراسم تقديس الراهبة. كانت إجراءاتها غير طبيعية،

لا كتابية، ولا إنسانية، وتتسم بالعدوانية على المشاعر البشرية، ومدمرة للنفس والجسد جميعًا، ولا عائد منها سوى وضع النفس في عماها تحت سلطان الشيطان بالتمام. ونترك الحديث لشاهد عيان ليصف لنا شعائر احتفال أخذ العهود على إحدى طالبات الرهبنة في روما:

"بعد انتظار حوالي نصف الساعة، تقدم جنديان في ملابس التشريفة، فأفسحوا الطريق للكونتيسة الصغيرة، التي دخلت في أبهى ملابسها إلى الكنيسة المكتظة بالمشاهدين. كانت الماسات البراقة تلمع مزينة شعرها الأسود. وتقدمت الكونتيسة إلى المذبح وهي تستند على ذراع أمها. كان الكاهن المكلف بإجراء مراسم التقديس يدعى فيكاريو، وألقى العظة أحد الرهبان الدومنيكان، الذي خاطبها باعتبارها العروس المخطوبة للمسيح؛ وكقديسة على الأرض، قد نبذت أباطيل العالم، لتتذوق مقدمًا أفراح السماء.

وانتهت الخدمة، وتقدمت الضحية الغضة وسجدت أمام المذبح عند قدمي الكاردينال، وبصرامة جحدت العالم، الذي كان واضحًا أنها نهلت من مسراته الكثير، ونعمت بصحبة أهله زمانًا، وأقسمت أنها قد تركته بما فيه ومن فيه إلى الأبد. ولا أظن أن عينًا لم تدمع بين جميع الحاضرين.

وهنا نُزعت الماسات المتلألئة التي كانت تضم شعرها، فانسدل على كتفيها ناعمًا غزيرًا. ثم انفتح باب القبر الذي كان عتيدًا أن يضمها، فظهرت الهاوية خلفه وفيها طابور من الراهبات المتشحات في السواد، وهن يتغنين بأنشودة الترحيب قائلات: تعالي تعالي يا أخت الروح. ثم إذ خُلع عنها اسمها ولقبها، أعطيت اسمًا جديدًا، ومُنحت البركة العظمى من الكاردينال، وعانقت صديقاتها الباكيات عناق الوداع الأخير، ثم عبرت من الباب إلى حيث لا عودة. وهنا نزعت عنها زينتها وملابسها الفاخرة، وعمل مقص 'أخوات الروح' في شعرها الجميل فجزه عن رأسها بلا رحمة، مما اهتزت له مشاعر جميع الحاضرين. وإذ نُزع عنها غطاء رأسها الطبيعي أسرعت 'الأخوات' وألبسنها ملابس الرهبنة الخشنة، جبة بيضاء ونقاب الراهبات.

طوال الاحتفال أظهرت الفتاة ثباتًا وهدوءًا، فلم تذرف عيناها دمعة واحدة، ولم يبد عليها التأثر حتى انتهاء المراسم. ثم انفتحت بوابة الدير الخلفية الضيقة، فظهرت من خلالها الراهبة المستجدة، لتتقبل المديح والتهاني الممزوجة بالشفقة من أصدقائها ومعارفها، بل وحتى الغرباء كانوا يباركون على عروس السماء الجديدة"[٣٨].

هذا وصف لإجراءات إلباس طالبة الرهبنة "النقاب الأبيض"، لتبدأ أولى مراحل الرهبنة، وتقضي فيها سنة تحت الاختبار، وهي خطوة يمكن الرجوع عنها، أما احتفال إلباسها "النقاب الأسود" بعد انتهاء سنة الاختبار فكانت مراسمه أشد صرامة وهولاً، ولكن متى تمت إجراءاته فلا سبيل للرجوع، وتحتم على الراهبة أن تعيش كمتوحدة ما بقي من أيامها، ولا يفكها من عهودها سوى الموت. وفي قوانين روما، سواء المدنية أو الدينية، تعاقب الراهبة التي تتمرد على حياة الرهبنة بالسجن والتعذيب حتى الموت، علاوة على حرمانها من الحياة الأبدية. ومَنْ، إذا خرج خارج أسوار الدير، كان يستطيع أن يبوح بما يمارسونه داخلها من قسوة، فالباغي متسلط، ولا حق للمستعبَد أن يشكو، حتى يقف الخادع والمخدوع والظالم والمظلوم وجهًا لوجه أمام محكمة الله العادلة.

تأملات في مبادئ الزهد

من المحزن جدًا أن نتأمل في الأخطاء الخطيرة الكثيرة التي وقع فيها هؤلاء المعلمون العظام أو الآباء الأولون كما يسمونهم عادة. وليس بين الأمور التي نعرفها ما هو أشد خطورة من هذه الحقيقة، وهي أنهم كانوا سببًا في ضلال الشعب بما تركوه من التعاليم غير الصحيحة في كتاباتهم. ومن ذا الذي يمكنه تقدير النتائج السيئة التي نتجت عن هذه التعاليم مدة الأربعة عشر قرنًا الأخيرة على الأقل بسبب تفسير كلمة الله تفسيرًا سقيمًا، مع سوء تطبيقها.

وفي مسألة الزهد والتقشف يستطيع كل من له معرفة بسيطة بالكتاب المقدس أن يلمس تحويرهم لمعنى كلمته تعالى، فمثلاً نقرأ القول «تميتون أعمال الجسد» (رو٨: ١٣) ولكن لا يقول أبدًا "أميتوا الجسد نفسه" لأن الجسد هو ملك للرب ويجب العناية به والاهتمام بشؤونه. فالرسول يقول «ألستم تعلمون أن أجسادكم هي أعضاء المسيح؟» (١كو٦: ١٥)، صحيح إنه يجب إخضاعها للرب، ولكن هذا هو أحكم طريق للعناية بالجسد ويقول الرسول أيضًا «فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض»، ولكنه يبين هذه الأعضاء بقوله: «زنى، نجاسة، هوى، شهوة ردية، طمع الذي هو عبادة أوثان» (كو٣: ٥) هذه هي أعمال الجسد التي يجب علينا أن نميتها عمليًا،

على أساس أن الجسد *قد قُضي عليه في الصليب، «الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات» (غل٥: ٢٤). لاحظ أنه لا يقول إنهم "جارون في صلبه"، أو أنه "ينبغي عليهم أن يصلبوه"، بل "صلبوه". لقد أزال الله الجسد (الطبيعة الفاسدة) من أمام نظره بواسطة الصليب، ويريدنا أن نزيله نحن أيضًا من أمامنا بالحكم على الذات. أما الجسد المادي (أي جسم الإنسان) فبالعكس له مكانة هامة جدًا في العهد الجديد بصفته هيكلاً للروح القدس. ولكن التقشف يؤدي إلى إماتة الجسد المادي جوعًا، وإشباع رغائب الطبيعة الفاسدة «التي لها حكاية حكمة بعبادة نافلة وتواضع وقهر الجسد ليس بقيمة ما من جهة إشباع البشرية» (كو٢: ٢٣).

ويظهر أن الآباء قد فاتهم أن مبدأ الزهد نشأ عن الفلسفة الوثنية لا عن المسيحية، ولكنهم لم يتصفحوا الكتاب المقدس لمعرفة فكر الله عن هذه الأمور. وخطأ هؤلاء يرجع إلى عدم فهمهم طبيعة الإنسان الفاسدة، فظنوا خطأ أنه يمكن إصلاحها، وبذلك ضلوا ضلالاً بينًا في أشياء لا حصر لها، سيما ما يتعلق بعمل المسيح وقضاء الله على الجسد، ومبدأ السجود الحقيقي بالروح، وطريق الخدمة المسيحية.

قد رأينا الآن أسس نظام الرهبنة، الذي كان له تأثير قوي في المسيحية وفي الآداب والمدنية أثناء العصور المظلمة. ولنترك هذا الموضوع الآن ونعود إلى تاريخنا العام.

أركاديوس وأونوريوس (٣٩٥م)

مات ثيودوسيوس العظيم تاركًا ابنين، وهما أركاديوس وكان عمره ١٨ سنة وأونوريوس وكان عمره ١١ سنة، وقد تولى الأكبر حكم الشرق والأصغر حكم الغرب. ولا يوجد ما يستدعي الدهشة والرثاء أكثر من حالة العالم الروماني في ذلك الوقت، إذ ساد عليه إمبراطوران بلغا من الضعف درجة لم يستطيعا معها إدارة الشئون العامة، فضلاً عن أن الإمبراطورية كانت كلها مهددة بخطر غزو القوط. وقد كانت يد الرب ظاهرة في ذلك، فأين هي عظمة روما وقوتها ومجدها؟ قد احتضرت باحتضار ثيودوسيوس. وفي الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية في أشد الحاجة إلى الحزم والمهارة الحربية والمواهب التي كانت لقسطنطين، قد حكمها ذانك الأميران الضعيفان، وهكذا شاءت العناية الإلهية بانقضاء أيام عزها وابتداء اضمحلالها السريع.

وقد شاءت العناية أيضًا أنه في وقت ضعفها هذا تثور عليها عاصفة من أشد العواصف، فبعد موت ثيودوسيوس بقليل اغتيل القائد العسكري الروماني الماهر ستيليشو الذي كان الأمل الباقي لروما، فوقعت إيطاليا كلها في أيدي البربر، فقد كان القوط خاضعين لحكم القوة والسياسة الحازمة التي اتبعها ثيودوسيوس، وكانوا يترقبون سماع خبر موته حتى يثوروا وينتقموا لأنفسهم، وكان قائدهم الماهر القدير ألاريك يتحين الفرص ليقوم بتنفيذ خطته العظيمة التي هي أفظع خطة خطرت على بال أعداء روما منذ أيام هانيبال. ولا شك عندنا أن ذلك القائد كان عصا دينونة في يد الرب على أولئك الذين تلطخت أيديهم بدماء قديسيه، فضلاً عن صلبهم رب المجد وقتل رسله الكرام. ونترك تفاصيل هذه الحوادث للمؤرخين المدنيين الذين كتبوا عن انحلال روما وسقوطها، ونقتصر على القول إن ألاريك قاد جيوشه المؤلفة ليس من القوط فقط، بل من كل أمة وشعب على الأرض تقريبًا إلى اليونان بدون أن يلقى أدنى مقاومة، وأخرب أراضيها المثمرة ونهب أثينا وكورنثوس وأرجوس وسبارتا، وحاصر تلك المدينة التي كانوا يسمونها تجديفًا "المدينة الأبدية" وخربها. ثم دمر البرابرة بقيادة خلفاء ألاريك، وعلى رأسهم أتيلا، أغنى مقاطعات أوربا، وهي إيطاليا وبلاد الغال وأسبانيا، وأقاموا ممالك جديدة عوضًا عنها.

وهكذا انتهى تاريخ الإمبراطورية العالمية العظمى الرابعة في سنة ٤٧٨م، أي بعد ١٢٢٩ سنة من تأسيس روما.

ثم أتى ثيودوريك ملك الأستروقوط، وهو ملك ماهر في فنون الحرب وأصول الحكم، فأعاد إلى إيطاليا عهد السلام والتقدم، ومحا ما بقي من آثار الحكم الإمبراطوري، وجعل منها مملكة[(٢٠/١)(٤٠)].

تأملات في مصائب روما

قد يجد القارئ المسيحي فائدة لنفسه من الوقوف هنيهة عند هذه النقطة والتأمل في اضمحلال الإمبراطورية الغربية وتوزيع أملاكها على قبائل البرابرة المختلفة، إذ فيها يرى المتأمل إتمامًا

* توجد كلمتان في الأصل اليوناني ترجمت كل منهما في الترجمة العربية إلى «الجسد» هما: "sarka" وتعني الطبيعة البشرية للإنسان، والتي سقطت وفسدت بدخول الخطية إلى العالم، وكلمة "swma" وتعني الجسد المادي، أي اللحم والدم.

وتصديقًا للمكتوب وبرهانًا ساطعًا على سلطان الله المطلق على ممالك الأرض وتنفيذ مقاصده فيها. ويمكننا أن نستسلم لعواطفنا فنذرف دموع الشفقة على نكبات بني جنسنا، وما هذه الدموع إلا نظير عبرات الحنان التي سكبها ربنا المبارك حين بكى على أورشليم المدينة المقدسة. على أن واجبنا هو أن ندرس التاريخ في نور المكتوب، وليس كما يفكر البعض أن يدرسوا المكتوب في نور التاريخ المتزعزع. وإن كنا ندرس التاريخ على وجهه الصحيح هذا فإننا نسر في حضرة الله بهذا الجزء الماثل أمامنا، فيتقوى إيماننا إذ نرى الفرق الشاسع بين مملكة الله الثابتة وكل مجد العالم. يقول الرسول: «لذلك ونحن قابلون ملكوتًا لا يتزعزع ليكن عندنا شكر به نخدم الله خدمة مرضية بخشوع وتقوى» (عب١٢:٢٨). وهنا نرى بكل وضوح سمو قوة المسيحية على قوة الوثنية، حتى أنه لما أوقع الله تلك الدينونات المريعة على إيطاليا وكسر حكم الأباطرة القاسي لم يلحق الكنيسة أدنى أذى، بل بالعكس كانت آمنة وكانت حمى للآخرين أيضًا، وكما علا الفُلك فوق مياه الطوفان الغامرة هكذا حُفظت المسيحية من غائلة الغزاة. ولا يوجد دليل على أن البرابرة اعتنقوا ديانة اليونان والرومان القديمة، فهم إما أن يكونوا قد تمسكوا بخرافات أجدادهم أو اعتنقوا المسيحية. على أنه لا توجد مرساة مؤتمنة للنفس في وسط انقلابات العالم وقيام سقوط الممالك إلا صخر الدهور يسوع المسيح المقام من الأموات، والممجد الآن في السماوات «طوبى لجميع المتكلين عليه» (مز ٢:١٢). وقد سبق الرب بحكمته فجعل الذين قلبوا الإمبراطورية يهتدون إليه، وبهذه الواسطة أعد نجاة لشعبه.

اهتداء البرابرة

إنه من الملذ والمعزي لنا دائمًا أن نلاحظ يد الرب وهي تتدخل لتحوّل غضب الإنسان إلى حمد لاسمه تعالى، وتستخرج لشعبه أجزل البركات مما يبدو وكأنه أعظم المصائب. ففي حكم غالينوس، حوالي سنة ٢٦٨م سبي عدد كبير من الأهالي الرومانيين بأيدي جحافل القوط. وكان معظم هؤلاء المسبيين من المسيحيين، وكثيرون منهم ينتمون إلى الإكليروس، وقد شتتهم سادتهم كعبيد في القرى، ولكن الرب قصد بذلك التشتيت أن يبشّروا بالكلمة. وفعلاً بشروا شعب البرابرة بالإنجيل حتى اهتدى عدد كبير منهم. ويمكن أن نستدل على ازدياد عددهم ونظامهم من تمثيلهم في مجمع نيقية بواسطة أسقف يدعى ثاوفيلس.

ويستحق ألفيلاس، المعروف باسم "رسول القوط" أن يذكره الخلق بالثناء، وبالأخص المسيحيون. فحوالي منتصف القرن الرابع استنبط حروفًا هجائية وترجم الكتاب المقدس إلى اللغة القوطية ماعدا أسفار صموئيل والملوك، لئلا يتخذ البرابرة من حوادثها الحربية مشجعًا لهم على وحشيتهم. ويظهر أن إيمانهم في بادئ الأمر كان بسيطًا وصحيحًا، ولكنهم ما لبثوا أن اصطبغوا بالأريوسية، ولا سيما بعد أن عمل بينهم بنشاط الخدام الأريوسيون الذين فصلهم ثيودوسيوس عن كنائسهم.

وقد كان ألاريك وقومه من المعترفين بالمسيحية، فوجهوا سخطهم شطر المعابد الوثنية، ولكنهم كانوا يعتبرون الكنائس اعتبارًا عظيمًا، وكانت هذه رحمة عظمى من الرب لشعبه، الذي هرب منه كثيرون واحتموا في الكنائس. وكان إيمان ألفيلاس الشديد وغيرته المتوقدة المقترنان بحياة عملية بلا لوم قد أكسباه محبة القوم وثقتهم، فآمنوا بتعاليم الإنجيل التي نادى بها ومارسها عمليًا، وبهذا أعد الرب أن أول غزاه الإمبراطورية الرومانية يقبلون المسيحية وهم بعد في أرضهم، أو على الأقل يحترمونها، وفي هذا نرى إتمامًا لقول الرسول في رسالته إلى أهل رومية «إنجيل المسيح... قوة الله للخلاص لكل من يؤمن لليهودي أولاً ثم لليوناني» (رو ١:١٦) وأيضًا «إني مديون لليونانيين والبرابرة الحكماء والجهلاء» (رو ١:١٤)، فرعايا الإمبراطورية الرومانية المتمدينون والسكيثيون المتوحشون والجرمان قد خضعوا على السواء لقوة الإنجيل المخلّصة.

اهتداء كلوفس

حيث إن اهتداء كلوفس يعتبره المؤرخون أهم حادثة في القرن الخامس من حيث نتائجه المباشرة والبعيدة في تاريخ أوربا، وبالتبعية في تاريخ الكنيسة، فلا بد لنا أن نورد بعض التفصيلات عنه.

الفرنجة هم بعض قبائل الجرمان، كانوا يقطنون شمالي فرنسا بالقرب من كمبراي، وهي بقعة كانت من أكثر بقاع البلاد تدينًا

لوجود ضريح القديس مارتن التوري وغيره من القديسين فيها. وكان كلوفس وثنيًا، ولكن كلوتلدا زوجته كانت قد اعتنقت الإيمان الكاثوليكي، وكانت تلح عليه كثيرًا أن يصير مسيحيًا، ولكنه كان بطيئًا في قبول الإيمان. على أنه أخيرًا عندما اشتبك في حرب مع الألمان ووجد نفسه مهددًا بالخطر تذكر إله كلوتلدا، وصلى إليه معترفًا أن آلهته القديمة قد خيبت رجاءه، واعدًا أن يصير مسيحيًا إذا هو نال النصر. وفعلا اندحر أمامه الأعداء، وهكذا بر بوعده في عيد الميلاد سنة ٤٩١م، إذ عمّده الأسقف ريمجيوس في ريمس، وتبعه ثلاثة آلاف جندي معلنين استعدادهم أن يصيروا على دين ملكهم. وهنا نجد قسطنطينًا ثانيًا، فقد رأى كلوفس أن الاعتراف بالمسيحية نافع له في الشؤون السياسية، ولكنه لم يحدث تغييرًا في حياته الشخصية، بل كان غرضه الغزو والفتح، وكانت له مطامع لا حد لها وأعمال جريئة وقاسية، وهكذا أصبح مؤسس المملكة الفرنسية العظيمة بعد أن كان زعيمًا فرنجيًا بسيطًا. وباعتناقه الإيمان الكاثوليكي واتحاده مع الكهنوت الروماني، اعتُبر بطل الكاثوليكية والحاكم الوحيد الصحيح في الإيمان في الغرب، لأن الباقين كانوا أريوسيين. فألاريك فاتح روما، وجنسريك فاتح أفريقيا، وثيودوريك الأكبر الذي صار ملكا لإيطاليا، وكثيرون من الملوك اللمبارديين، كانوا أريوسيين. وعن كلوفس ورث ملوك فرنسا لقب "ابن الكنيسة الأكبر".

ويلذ لدارس النبوات أن يرى خمسة أو ستة من الملوك البرابرة يمتلكون المقاطعات الرومانية في ذلك الوقت، ويحكمون على ما كان يدعى قبلاً الإمبراطورية اللاتينية التي قد دالت وماتت كإمبراطورية، وستبقى في موتها هذا حتى تحيا ثانية في الزمان الأخير بحسب كلمة الرب في رؤيا ١٣ و١٧.

وقبل أن نختم الكلام عن عصر برغامس، نرى من الضروري أن نلاحظ ثلاثة أمور بالاختصار، وهي حالة الكنيسة الداخلية، والمنازعات البلاجية، والنسطورية.

الطقوس والفرائض

يمكننا أن ندرك بسهولة أن ازدياد اعتناق المسيحية كان يتبعه ازدياد في الجلال وفي الرونق في كل ما يختص بعبادة الله. فالتي يسمونها كنائس كانت تبني وتزين زينة أفخر من ذي قبل، والذين يسمونهم كهنة كانوا يؤدون خدمتهم بملابس أثمن وأبهى، والموسيقى صارت بشكل أنظم وأتقن، وأُدخلت على العبادة عدة طقوس جديدة. وكانوا يبررون تلك المظاهر بحجج تماثل تلك التي يستعملها أنصار الطقوس في وقتنا الحاضر[1]. فقد قالوا إن تلك المظاهر التي يراها الوثنيين أبهى من مظاهر ديانتهم القديمة تكون سببًا في اجتذابهم لقبول الإنجيل. وكانت النتيجة أن جماهير من الناس دخلوا في زمرة الكنسية حينئذ كما يدخل الكثيرون الآن، وهم غير مدركين مركزهم الجديد. وعقولهم ما زالت مشحونة بالآراء والمبادئ الوثنية الفاسدة. ونرى هذه الصورة حتى في أيام المسيحية الأولى، فقد وجدت أمور شاذة في كنيسة كورنثوس منشؤها العادات الوثنية التي لم يكن المسيحيون قد نسوها. أما إضاءة الشموع في رابعة النهار، واستعمال البخور والصور والاحتفالات والزينات وأشياء أخرى كثيرة، فقد أُدخلت في القرنين الرابع والخامس. وكما يقول موسهيم "كان غرض الأباطرة الصالح هو تقدم المسيحية، فإن تقوى الأساقفة كانت بجهل وعدم تبصر، بحيث ألقت ظلامًا على حقيقة المسيحية، وأضعفت نشاطها بواسطة الطقوس والفرائض الكثيرة"(١/١٠)، (١/٣١).

تأثير الطقوس في حال المسيحية

إن النتيجة المباشرة لكل الطقوس الإكليريكية هي إدخال الخرافات التي تحرِّف الإيمان، والاعتماد على الترتيبات الرسمية عوضًا عن قيادة الروح القدس، والاستناد على الأعمال الصالحة الذي يعني رفض عمل المسيح الكامل، وفي هذا رفض عملي لكلمة الله وإحزان للروح القدس واستسلام لهجمات الشيطان. ولكن عندما يكون الإيمان عاملاً بقوته، وكلمة الله متبعة بتدقيق، وقيادة الروح القدس المعزي الموعود به هي المعتمد الوحيد، حينئذ تكون النفس في حالة النشاط والقوة في الحياة الروحية. حينئذ يخزى الشيطان ويندحر، لأنه يراقب بدقة حالة نفس المؤمن وحالة الكنيسة الاسمية على وجه عام، ويعرف متى تكون هجماته ناجحة في الفرد كما في الكنيسة، فهو يتحين الفرص ويغتنم ما يسنح منها. فمتى رأى الذهن منحرفًا ابتدأ أن يلاينه ويلاطفه حتى يجره بعيدًا. يا لها من حقيقة خطيرة تستوجب الاهتمام والحذر.

الهرطقة البلاجية

إن حالة الكنيسة في بداءة القرن الخامس قد فتحت المجال أمام العدو لإدخال هرطقة جديدة أحدثت منازعة جديدة دامت بين قوة وضعف حتى وقتنا الحاضر، وهي الهرطقة المسماة بالبلاجية. فبينما نشأت هرطقة الأريوسية التي أقلقت الكنيسة حتى ذلك الوقت في الشرق، وكانت تتعرض للاهوت المسيح، نشأت تلك الهرطقة الجديدة في الغرب وكانت تتعرض لطبيعة الإنسان وعلاقته مع الله بعد السقوط. فالأولى تسيء فهم الله المخلِّص، والثانية تسيء فهم الخاطئ الهالك. ويقال إن بلاجيوس كان راهبًا في دير بانجور في ويلز، وهو في الغالب أول إنجليزي ظهر كعالم لاهوتي، واسمه الحقيقي مورجان. ويظن أن تلميذه سيلستيوس كان من أهالي أيرلندا، ويقول عنه أغسطينوس إنه أصغر من بلاجيوس وأقل منه جرأة ودهاء. وقد زار رفيقا الضلال هذان روما حيث صادقوا أشخاصًا كثيرين من المعروفين بالقداسة والتنسك، وبثوا إليهم أفكارهم في الخفاء وبحذر كبير، ولكن بعد الحصار سنة ٤١٠م عبروا إلى أفريقيا حيث نشروا أفكارهم بطريقة أكثر سفورًا وعلانية.

ويظهر أن بلاجيوس لم تكن له فكرة إنشاء نظام تعليمي جديد، بل كان يقصد أن يقاوم ما اعتبره إهمالاً أدبيًا وروحًا عالمية بين إخوته. من ثم اعتقد أن الإنسان فيه قوة داخلية لعمل مشيئة الله والوصول إلى أعلى درجة من القداسة، وبهذه الكيفية انتشرت آراؤه بدرجة كبيرة. ومع أنها باطلة كل البطلان، إلا أنها تتفق مع نزعته النسكية، وهي بمثابة الشيء الذي لا يستغرب من معدنه. ومع أن كلمة الله تعزو كل صلاح في الإنسان إلى نعمة الله، لكن بلاجيوس كان يعتقد أن نعمة الله ما هي إلا وسائل خارجية لإنهاض همة الإنسان، وأنه لا لزوم لعمل النعمة في القلب وتبكيت الروح القدس في الداخل. هذا قاده إلى التعليم بأن خطية أبوينا الأولين لم تؤثر إلا على شخصيهما، وأن الإنسان يولد الآن في حالة البراءة وله نفس القوة الأدبية والطهارة اللتين كانتا لآدم عندما خلقه الله.

وقد بث بلاجيوس وزميله سيلستيوس سرًا هذه التعاليم وتعاليم أخرى مقترنة بها في روما وصقلية وأفريقيا وفلسطين، أخصها القول بإرادة الإنسان المطلقة (أن للإنسان قوة على الاختيار بين الخير والشر). ولكن هذه الآراء الجديدة رُفضت إلا في الشرق، حيث أن يوحنا أسقف أورشليم اعتبر تعاليم بلاجيوس موافقة لآراء أوريجين التي كان يتبعها، فعضد بلاجيوس وسمح له بأن يعلم بنظرياته جهارًا ويجمع حوله تلاميذ *.

أغسطينوس ونعمة الله

أغسطينوس هو أسقف هبو الشهير والنجم الإنجيلي المتألق في الغرب، وأكثر الكتاب المسيحيين اللاتينيين تأثيرًا، ابتدأ حوالي ذلك الوقت أن يهدم بقلمه تعليم بلاجيوس وسيلستيوس، وإليه يرجع الفضل الأكبر كآلة استخدمها الرب في منع نمو تلك الشيعة في ذلك الوقت. وقد أعده الرب لهذا العمل العظيم بتدريبات خاصة عميقة دربه بها، وبذلك أقام الله – جلت حكمته – شاهدًا يقف ضد بلاجيوس، ويستخرج من الكلمة صورًا جميلة عن إنجيل نعمة الله لم يعلم أحد بمثلها منذ زمان الرسل، ويكشف عن حقائق أخرى ثمينة متعلقة بالقداسة والتواضع. وقد واظبت الكنائس الغربية تحت قيادة أغسطينوس على هدم التعاليم البطالة بواسطة المجامع والكتب والخطابات، فسحق الغاليين والإنجليز والفلسطينيين تلك الهرطقة وهي في مهدها بواسطة مجامعهم، كما سحقها الأباطرة بواسطة قوانينهم واقتصاصهم من المخالفين. على أن المبادئ الرئيسية البلاجية بقيت في بعض صورها إلى الوقت الحاضر، ونحن عوضًا

---

* كان الخطأ الرئيسي الذي وقع فيه بلاجيوس هو إنكار الفساد التام للإنسان الموروث عن آدم بسبب الخطية، والتي لا علاج لها إلا بموت وقيامة الإنسان الثاني آدم الأخير. فكان يؤكد أن كل إنسان الآن له مطلق الحرية في الاختيار بين الخير والشر، ليس فقط إزاء المؤثرات الخارجية، بل حتى من جهة طبيعته الداخلية، وبذلك أنكر استعباد الإنسان للخطية. من هنا يظهر انخفاض تقديره لقيمة النعمة حتى في تطبيقها المسيحي، فهي في نظره لا تزيد عن الصفح عن عثرة هنا أو زلة هناك، ولا ترقى إلى حد إعطاء المؤمن طبيعة جديدة بها يمتنع عن ممارسة الخطية، إذ أنه صار مولودًا من الله. فمن جانب لم يعد في المفهوم البلاجي للخاطئ البعيد رجاء، ومن الجانب الآخر لا أمان للمؤمن. فكان يعتبر أن الانسان يولد في حالة البراءة كما كان آدم قبل السقوط، حتى يسقط فيقع تحت المذنوبية وعواقبها. وقد أنكر البلاجيون نتائج خطية آدم على الجنس البشري، اللهم إلا من حيث تأثيره كقدوة سيئة للبشر. ولما كان هذا التعليم ينفي الخراب الأدبي للإنسان، ويقطع الصلة بين الرأس ونسله، فقد أدرج تحت النعمة القدرات الطبيعية والروحانية للجنس البشري، وبذلك صار كلاً من ناموس الضمير والإنجيل طرقًا تبادلية، أو متعاقبة، للوصول إلى البرّ، وفي جميع الحالات فإن وسائط وعمل النعمة لا يكون إلا على قدر إرادة الإنسان. وبهذا جعل فداء المسيح ليس سوى لتحسين حالة الإنسان، وفي هذا بلا شك تعظيم وتمجيد للذات الإنسانية. وليس المسيح عندهم سوى النموذج الأمثل للبرّ، سبقه فيه بعض من حفظوا الناموس الأدبي؛ ولحقه بعده من ساروا على نهجه في العمل والمحبة. فهو المثال للبلوغ إلى الكمال الأدبي الإنجيلي، الذي يسمو عن البر الذي في الناموس. – وليم كلي.

عن أن نتابع الكلام في تاريخ تلك الهرطقة نشير باختصار إلى ما يعلمه لنا الكتاب بخصوص النقطتين الرئيسيتين السالفتي الذكر.

تأملات في حالة الإنسان ونعمة الله

لو أننا سمحنا للعقل البشري أن يتدخل في البحث في هذا الحق لما وصلنا فيه إلى نهاية، ولكن إذا اعتمدنا على سلطان كلمة الله فإنه سريعًا ينجلي أمامنا. تقول البلاجية إن في الطبيعة البشرية الساقطة شيئًا صالحًا، وإن الإنسان له القوة على اختيار الخير ورفض الشر، وتنكر خراب الإنسان الكامل وترفض تعليم نعمة الله التي لا تتفق مع إرادة الإنسان المطلقة. فماذا يقول الكتاب المقدس؟ إن سطرًا واحدًا من كلمة الله لكاف بأن يقنع رجل الإيمان، فهي الحجة الوحيدة التي يجب أن يتخذها المعلم والمبشر وكل مسيحي، وما لنا إزاء كل المقاومين إلا أن نقف على أساس الإيمان.

يعطي لنا الله بيانًا لتقويمه للطبيعة البشرية الساقطة في تكوين٦ «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم» (تك٦: ٥) فلم يجد الله في الإنسان سوى الشر، والشر بلا انقطاع. ثم نقرأ في نفس الأصحاح «ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض» (تك٦: ١٢). ولنلاحظ أنه لا يقول: "بعض البشر" بل «كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض»، هذا هو حكم الله على الطبيعة البشرية. ولكنه في الوقت نفسه أعلن نعمته الكاملة لمعالجة حالة الإنسان التي أصدر عليها هذا الحكم، فقد أعد الله فُلكًا للخلاص، ثم أرسل الدعوة المجانية قائلاً: تعال، أدخل أنت وجميع بيتك إلى الفُلك، والصليب هو الشاهد الثابت والإعلان العظيم للحقائق التي أعلن الفلك ظلالاً لها. ففيه نرى بكيفية عجيبة حكم الله على طبيعة الإنسان وما فيها من الشر، وفي الوقت نفسه نرى فيه إعلان محبته ونعمته بكمالهما وقوتهما المخلّصة.

على أن كل الكتاب يتفق تمامًا مع ما يعلنه كل من الأصحاح السادس من سفر التكوين وصليب المسيح. خذ مثلاً رومية٥ وأفسس٢ فتجد في الأولى القول بأننا كنا «ضعفاء»، وفي الثانية تجد أننا كنا «أمواتًا بالذنوب والخطايا» والرسول، إذ سبق فأثبت في أوائل رسالة رومية خراب الإنسان وبر الله، يأتي في الأصحاح الخامس إلى إعلان محبته في حقيقة موت المسيح لأجلنا، «لأن المسيح إذ كنا بعد ضعفاء مات في الوقت المعيَّن لأجل الفجار» (رو٥: ٦). نعم «في الوقت المعين»، لأن في ذلك الوقت قد ثبت ليس فجور الإنسان فقط، بل أيضًا ضعفه وعجزه عن أن يعمل شيئًا واحدًا يرضي الله، أو أن يخطو خطوة واحدة في هذا السبيل. ففي الناموس أظهر الله للإنسان الطريق، وعين له الوسائل، ووضعه تحت التجربة زمانًا طويلاً أظهر فيه عجز الإنسان التام عن التخلص من حالته الخاطئة المحزنة. هذا هو حق الله الصحيح الذي، وإن كانت معرفته مذلة لكبرياء الإنسان، إلا أنها نافعة له. وما أكبر الفرق بين هذا الحق وبين النظريات اللاهوتية الباطلة والفلسفة البشرية الكاذبة!

ولكن - تبارك اسم الله - فإن حالة الإنسان الشقية كما وضحها آنفًا إنما فتحت المجال أمامه لإعلان نعمته المخلصة بموت المسيح لأجل أناس هذه حالتهم. «ولكن الله بيّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو٥: ٨). والإنسان الآن أمامه أحد أمرين لا ثالث لهما، فإما أن ينتظر دينونة الله كغير مؤمن، وإما أن يحصل على خلاص الله بالإيمان. والبرهان الكامل على حالتنا التعيسة وعلى محبة الله المنعمة هو أنه «ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا».

وفي رسالة أفسس لا يتكلم الرسول عن مجرد مرض أدبي، بل عن موت «إذ كنتم أمواتًا بالذنوب والخطايا... أحيانا مع المسيح» (أف٢: ١، ٥). ففي رومية ينظر إلى الإنسان كضعيف وفاجر وخاطئ وعدو، وأما هنا فينظر إليه كميت أدبيًا، وهذا هو أشر أنواع الموت، لأنه ينبوع كل شر عملي: «التي سلكتم فيها قبلاً حسب دهر هذا العالم، حسب رئيس سلطان الهواء، الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية» (أف٢: ٢). يا لها من ضربة قاضية على الكبرياء القائلة بقوة الإنسان في الاختيار بين الخير والشر، إذ نرى الإنسان هنا تحت سلطان أرواح الشر، عبدًا للخطية والشيطان! يسهل على الإنسان الاعتراف بأنه فاجر أكثر من الاعتراف بأنه ضعيف. لأنه يدعي أن له فكره الخاص ويفتخر باستقلاله وقوته في الحكم على الأشياء واختيار الأفضل منها.

وقد كانت إحدى عقائد بلاجيوس المحبوبة لديه، إن لم نقل الأساسية في تعليمه "إنه كما أن للإنسان قدرة على فعل الشر، هكذا له قدرة على محبة الخير، بل وفعله أيضًا. وهذه هي حرية الإرادة التي يجب ألا يفقدها الإنسان". ونحن نشير إلى هذه العقيدة الفاسدة

لأننا نرى أنها كثيرًا ما تعلق بالذهن الطبيعي، حتى إنه يصعب التخلص منها حتى بعد الإيمان، وكثيرًا ما تكون عائقًا كبيرًا لعمل نعمة الله في النفس. ولكننا رأينا أن الإنسان ميت بالذنوب والخطايا، ومن ثم يكون كل الفضل لله ولعمله. صحيح أن ثمة اختلافات كثيرة بين الناس بحسب الطبيعة، فمنهم المؤدب والمحسن، ومنهم الفاجر والمنغمس في الشر جهارًا، ولكنهم جميعًا في صلاحهم وطلاحهم: «عاملون مشيئات الجسد والأفكار»، وما يبدو منهم من أعمال الرحمة والشفقة ليس مصدره عمل مشيئة الله، لأن الله بعيد عن أفكارهم، وإنما مصدره آخر، فهم منقادون بروح إبليس، الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية، إلى السلوك حسب دهر هذا العالم. ولا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر.

مسئولية الإنسان

ولكن ربما يسأل سائل قائلاً: كيف تدخل إذاً مسؤولية الإنسان؟ فنقول إن الإنسان مسئول بأن يصدق الله ويبرره في حكمه على طبيعة الإنسان وحالته، وإن كان ذلك الحكم مذلاً: «إن كنا نقبل شهادة الناس، فشهادة الله أعظم» (ايو ٥: ٩). يجب عليك أن تتأمل في الصورة المظلمة التي يرسمها الله للإنسان وتقول: هذه هي صورتي، هذا هو شخصي، وتلك هي أعمالي. والخلاص بالإيمان وليس بالإرادة ولا بالعمل، بل بتصديق الله: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية. لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم... وهذه هي الدينونة: أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة» (يو ٣: ١٦-١٩).

ومن ذا الذي لا يستطيع أن يرى المسئولية الواضحة التي تنشئها نعمة الله الظاهرة في المسيح، تلك المسئولية التي تحكم على مصير الإنسان حكمًا حاسمًا وأبديًا، فمن لا يؤمن لا بد أن يُدان، ولماذا؟ هل لأنه لم يجد غفرانًا؟ كلا، بل لأنه أحب الظلمة أكثر من النور حتى يستمر في أعماله الشريرة. هذا هو الأساس الذي عليه يبني الله الدينونة. يا ليت جميع الذين يقرأون هذه الصفحات ينحنون خضوعًا أمام حكم الله على الطبيعة البشرية، ويشغلون مركزهم أمام الله كخطاة هالكين، لأنهم بهذه الطريقة فقط يتمتعون بمحبة الله العظيم في الرحمة والإحسان، ويتباركون بكل بركات المسيح التي يستحقها لكونه مخلص البشرية.

النساطرة

لما كانت الشيعة النسطورية تشغل مكانًا هامًا في تاريخ الكنيسة، وجب علينا أن نشير بالاختصار إلى منشئها. فمؤسسها سوري، ولذلك تسمى أحيانًا "شيعة السريان". وهم كثيرون في الوقت الحاضر على ما نظن في سوريا، ولكنهم لم يلقوا من الحكومة التركية الحماية اللائقة بهم، ولذلك كانوا معرَّضين لهجمات القبائل الناهبة بكثرة، حتى أن ألوفًا من النساطرة القاطنين في جبال كردستان، رجالاً ونساءً وأولادًا ذبحوا في سنة ١٨٤٣م وخربت مدنهم تخريبًا تامًا من جراء إغارات القبائل الكردية. ومنذ سنة ١٨٣٤م أرسلت لهم جمعية الإرساليات الأمريكية الخارجية إرسالية عملت بينهم عملاً عظيمًا، وأحد المرسلين، وهو الدكتور جرانت الذي أقام هناك زمانًا طويلاً، درس أخلاقهم وعادتهم بدقة وعناية فائقتين، ونشر بحثًا يريد أن يثبت فيه أن هؤلاء القوم هم من نسل أسباط إسرائيل العشرة المفقودين. ولكن هذه الاستنتاجات، كغيرها في هذا الموضوع، مشكوك في صحتها[٢/٣٨].

كان نسطوريوس راهبًا سوريا، ثم صار بعد ذلك شيخًا لكنيسة أنطاكية، وكان له اعتبار وشهرة عظيمان لتدقيقه في عيشته وقوة تأثيره في التبشير، حتى أنه اجتذب وراءه عددًا كبيرًا من سامعيه، وأصبح محبوبًا بين قومه. وفي سنة ٤٢٨م رسم بطريركًا للقسطنطينية. ولكن نشأته وتربيته في الدير لم تؤهلاه للقيام بمركز عظيم كهذا في الحياة الجهارية خير قيام. فبعد تبوئه هذا المنصب ما لبث أن أنزل من سخطه بغير اعتدال على الهرطقات المختلفة عوضًا عن إظهار روح اللطف والاحتمال الذي تمتاز به المسيحية، مما أظهر تعصب ذلك الراهب. وقد قال في الاحتفال برسامته مخاطبًا الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير: "أعطني بلادًا مطهَّرة من كل الشيع والهرطقات، وأنا أعطيك السماء. ساعدني على إخضاع تلك الشيع، وأنا أساعدك على إخضاع الفُرس". وليس بعد هذا الوقت بكثير كان أن نسطوريوس نفسه أُتهم بالهرطقة.

وقد أعلن هذا الأسقف الجديد حربًا عوانًا على الهرطقات،

مستعملاً الاضطهاد والقسوة ضد تابعيها، وبذلك أذكى نيران الشغب والفتن بين الناس. فهاجم الأريوسيين وأحرق أماكن اجتماعاتهم، واضطهد الشيع الأخرى. ومن الطبيعي أن نرى أن مقدمات كهذه قد أوجدت أعداء كثيرين لنسطوريوس، حتى من بين صحيحي الإيمان أنفسهم، وما لبث هؤلاء الأعداء أن سعوا في إسقاطه، وتحقق مرغوبهم بالكيفية الآتية:

ألسطاسيوس والاعتقاد عن العذراء مريم

كان ألسطاسيوس قسًا رافق نسطوريوس من أنطاكية، وكان صديقًا حميمًا له. وقف هذا وقاوم في خطاب جمهوري استعمال التعبير "والدة الإله" عن العذراء مريم، وكان هذا التعبير ذا قوة عظيمة نظرًا لاستعماله زمنًا طويلاً وتحبيذ الكثيرين من عظماء الرجال له، وقد وافق نسطوريوس على خطاب صديقه، ودافع عنه، ورد هجمات المعارضين له بخطابات كثيرة كان يلقيها. على أنه كما وافق كثيرون على هذه الخطابات هكذا عارضها كثيرون أيضًا، وهاجوا على نسطوريوس وصديقه، واشتد الهياج في القسطنطينية وارتفع الصراخ "هرطقة. هرطقة". وهكذا اشتعلت نيران منازعة عظيمة مؤلمة.

الفرق بين نسطوريوس ومقاوميه

لم تحدث قط منازعة في التعليم كان فيها طرفا الخصومة متقاربين مثل تلك المنازعة. فكلا الطرفين كانا متمسكين بقانون الإيمان الذي أقره مجمع نيقيه. وكلاهما كانا يعتقدان بلاهوت الرب يسوع المطلق وناسوته الكامل، ولكن أعداء نسطوريوس، ولا سيما كيرلس، اتهموه بأن اعتقاده في التجسد غير صحيح، وبنوا ذلك على معارضته لتعبير "والدة الإله". ولقد كان المعنى الذي قصده معلمي اللاهوت من هذا التعبير في القرن السابق ليس أن العذراء ولدت الطبيعة الإلهية للمخلّص، بل أن اللاهوت والناسوت كانا متحدين في شخص واحد، وقصدوا أن يثبتوا أن الطفل المولود كان هو الله المتجسد. وقد نسبوا إلى نسطوريوس أنه يعتقد بأن الفادي هو مجرد إنسان، وأن الروح القدس سكن فيه كما سكن في الأنبياء قديمًا، ولكن نسطوريوس نفسه ظل طوال حياته يقاوم هذه الأفكار ويعلن براءته منها. والحقيقة أنه يظهر أن نسطوريوس لم يكن يعتقد بهذه الأفكار، وإنما خصومه قد رموه بذلك بالنظر لرفضه التعبير "والدة الإله" ولبعض عبارات أخرى غامضة وملتبسة استعملها في خطابته الجمهورية في هذا الموضوع.

كيرلس والاعتقاد الصحيح

ظهر كيرلس أسقف الإسكندرية، كبطل الدفاع عن الاعتقاد الصحيح في هذه المنازعة. ولكن أجمع كل المؤرخين على اتهامه بعدم نزاهة الغرض، فرموه بأنه كان مدفوعًا بعامل الغيرة بالنظر لازدياد سلطة أسقف القسطنطينية وقوته، وأنه كان متصلفًا متكبرًا متقلقلاً في طرقه، كما كان أيضًا شديد النقمة على الهراطقة كما على نسطوريوس، وهو طرد اليهود من الإسكندرية. وقد يكون الدافع لهذين الأسقفين العظيمين إلى هذا الصراع هو الغيرة التقوية، ولكنها لم تكن ممتزجة بروح الاعتدال والتبصر اللائق بالمسيحية، بل بالعكس امتزجت بميول الطبيعة البشرية الشريرة.

وقد بدأ دخول كيرلس في المنازعة على أثر عثوره على نسخ من مواعظ نسطوريوس منتشرة بين رهبانه في مصر، الذين امتنعوا عن استعمال تعبير "والدة الإله". وحينئذ وجه اللوم إلى الرهبان وإلى نسطوريوس، وأعلن إن هذا التعليم الجديد يعتبر هرطقة. من ثم تهيجت كل الجماعات، وتقاذفوا أقوالاً شديدة لا محل لسردها هنا، ولكن يكفي أن نقول ن نسطوريوس إذ رأى أن كيرلس قد سعى بمهارة في استمالة سلستينوس، أسقف روما واستخدام نفوذه، وأنه قد قامت في وجهه صعوبات أخرى، طالب بعقد مجمع عام، والتمس بعض خصومه أيضًا عقد ذلك المجمع. فوافق الإمبراطور ثيودوسيوس على ذلك وأصدر أمره بعقد مجمع في أفسس سنة ٤٣١م. وقد انعقد ذلك المجمع فعلاً في شهر يونيه، ويسمى بالمجمع المسكوني الثالث. وقد رأسه كيرلس، بحكم مركز أبروشيته، وكان التيار ضد نسطوريوس، فقرروا أنه يجدف وجردوه من رتبة الأسقفية، وحرموه من كل وظائف الكهنوت، وحكموا عليه بالنفي الذي قضى فيه بقية حياته حتى توفي حوالي سنة ٤٥٠م.

وقد وقّع على هذا الحكم حوالي مائتي أسقف، ولكن لا يزال الأمر موضع خلاف بين أكثر المؤرخين. فهل كان نسطوريوس حقًا مدانًا بما اتهم به أما لا؟ غير أن المؤرخين كلهم مجمعون على أنه كان شديد اللهجة، قاسيًا في التعبير، وأنه كان يعتد بفصاحته ولا

يعتبر كتابات الآباء الأولين، وأنه كان يحكم بالهرطقة بسرعة على كل ما يخالف الاصطلاحات التي تعود عليها منذ حداثته. لكن يتعذر علينا أن نقرر ما هو السبب الرئيسي في تلك المنازعة العظيمة، كيرلس أم نسطوريوس [(٤١)، (٤/٢٨)، (١/٢١)].

ختام عصر برغامس

لم يكن مجمع أفسس ليضع حدًا لتلك المنازعات المشينة، ولكنه عوضًا عن أن يعيد إلى الكنيسة اتفاقها واتحادها، كان بالعكس عاملاً على ازدياد متاعبها. فيوحنا أسقف أنطاكية، وغيره من الأساقفة الشرقيين، حكموا على كيرلس وأصحابه أنهم تعجلوا ولم يتصرفوا باعتدال في مسألة نسطوريوس، ومن ثم قامت منازعة جديدة نبتت منها هرطقة جديدة، هي "الأفتيخية" التي أزعجت الكنائس الشرقية نحوًا من عشرين عامًا.

كان أفتيخس أبًا في دير للرهبان في القسطنطينية، ولئن كان غيورًا في مقاومة نسطوريوس، فقد تطرف من الجهة الأخرى. ولذلك اتهم بعدم صحة تعليمه في التجسد، وشُهر به كهرطقي، مما استدعى عقد مجمع آخر في مدينة خلقيدون سنة ٤٥١م يسمى المجمع المسكوني الرابع. ويضيق نطاق هذا "المختصر" عن ذكر التفصيلات الوافية لهذه المنازعات المحلية، فما غرضنا إلا أن نعطي القارئ بيانًا واضحًا مختصرًا، غير متوسعين إلا في المواضع التي يقترن فيها اسم الشخص باسم هرطقة مشهورة، كأريوس وبلاجيوس وغيرهما، أو في الحوادث الشهيرة كالاضطهادات العظيمة، والتي تحرك عواطف الكنيسة على مدى الأجيال. ولإتمام غرضنا هذا، نرى من اللازم أن نوجه انتباهنا على الأخص إلى ازدياد قوة كنيسة روما وعظمة ادعاءاتها. وفي ليو الكبير نرى انتهاء عصر برغامس واقتراب الحكم البابوي. ولكن قبل أن نخوض غمار هذه المياه المضطربة، نفعل حسنًا إذا رجعنا إلى دراسة الخريطة الإلهية: تاريخ الكنيسة في ذلك العصر المظلم العاصف كما يمليه الله بالنبوة.

الفصل الثالث عشر

الخطاب إلى الكنيسة التي في ثياتيرا

«واكتب إلى ملاك الكنيسة التي في ثياتيرا: هذا يقوله ابن الله الذي له عينان كلهيب نار، ورجلاه مثل النحاس النقي: أنا عارف أعمالك ومحبتك وخدمتك وإيمانك وصبرك، وأن أعمالك الأخيرة أكثر من الأولى. لكن عندي عليك (قليل)، أنك تسيِّب المرأة إيزابل التي تقول إنها نبية حتى تعلِّم وتغوي عبيدي أن يزنوا ويأكلوا ما ذبح الأوثان. وأعطيتها زمانًا لكي تتوب عن زناها ولم تَتُب. ها أنا ألقيها في فراش والذين يزنون معها في ضيقة عظيمة إن كانوا لا يتوبون عن أعمالهم. وأولادها أقتلهم بالموت، فستعرف جميع الكنائس أني أنا هو الفاحص الكلى القلوب، وسأعطي كل واحد منكم بحسب أعماله. ولكنني أقول لكم وللباقين في ثياتيرا، كل الذين ليس لهم هذا التعليم والذين لم يعرفوا أعماق الشيطان كما يقولون: إني لا ألقي عليكم ثقلاً آخر، وإنما الذي عندكم تمسكوا به إلى أن أجيء. ومن يغلب ويحفظ أعمالي إلى النهاية فسأعطيه سلطانًا على الأمم، فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف، كما أخذت أنا أيضًا من عند أبي، وأعطيه كوكب الصبح. من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس». (رؤ٢: ١٨-٢٩).

لا يحتاج الإنسان إلا لقليل من الفطنة الروحية، مع بعض الإلمام بتاريخ الإكليروس، ليرى البابوية في العصور الوسطى مصوَّرة بالنبوة في هذا الخطاب. وقد سبق أن رأينا في الخطاب في أفسس ترك المحبة الأولى، وفي سميرنا الاضطهاد من الإمبراطورية الرومانية، وفي برغامس غواية بلعام للكنيسة واتحادها مع العالم، ولكننا نرى في ثياتيرا حالة أسوأ من هذه جميعها، إذ نجد النتيجة الطبيعية المحزنة لذلك الاتحاد المدنس. كيف لا وقد كان جميع الذين يجتازون في معمودية الماء يُعتبرون مولودين من الله؟! فانفتح الباب على مصراعيه لدخول العدو المفسد إلى سياج كنيسة الله المقدس. وأضاعت الكنيسة الشهادة عن مقامها السماوي ومركزها في الانفصال عن العالم، وناقضت قول الرب عن تلاميذه «ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم» (يو١٧: ١٦). صحيح أن المسيحية كانت، بحسب الظاهر، نائلة فوزًا عظيمًا، إذ كان الصليب يحلَّى بالذهب والحجارة الكريمة، ولكن هذا المجد كان مجد العالم لا مجد المسيح المصلوب، والفوز كان في الحقيقة في جانب العالم، أما الكنيسة فكانت مذللة مخذولة.

ولا يستطيع أحد غير الرب أن يقدِّر العواقب المروعة لهذه الحالة، فهو الذي رأى الفساد والوثنية والاضطهادات التي وقعت في تلك العصور المظلمة، وصورها لنا بالنبوة في الخطاب إلى كنيسة ثياتيرا، والذي نريد أن نلقي نظرة مختصرة على محتوياته.

١- أول ما نلاحظه في هذا الخطاب هو أسماء الرب المملوءة بالإنذار للبقية الأمينة، بينما السواد الأعظم من المسيحيين منغمسون في العالم. فهو يعلن ذاته بصفته ابن الله الذي له عينان كلهيب نار، ورجلان مثل النحاس النقي. لما اعترف بطرس بأن يسوع هو المسيح ابن الله الحي، أجاب المسيح حالاً «على هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت١٦: ١٨). وهنا، إذ سبق فرأى كل ما هو آت من الخراب، يرجع بأفكار شعبه إلى الأساس المتين الذي بُنيت عليه الكنيسة الذي هو ابن الله. ثم يشير إلى حقه في الدينونة الإلهية، فالعينان اللتان هما كلهيب نار إشارة إلى الدينونة الفاحصة، والنحاس النقي إشارة إلى الدينونة الرهيبة المحققة.

ففي الصورة التي يعلن بها ربنا المبارك ذاته في هذا الخطاب نرى الضمان الكامل لسلامة البقية الأمينة، ونرى أيضًا الإشارة

إلى الدينونة الأكيدة التي لا بد أن تقع على النبية الكذابة وأولادها الكثيرين الأشرار، أولاد الغواية والفساد. فلم تكن إيزابل نبية فقط بل كانت أمًا أيضًا، لم تغوِ شعب الله بتعاليمها الفاسدة وتقتل بعضًا منه فقط، بل أوجدت لها ذرية من أشر الناس وأفسدهم. ونرى هذا بصورة مؤلمة واضحة في غضون العصور المظلمة، فإيزابل قد ثبتت أقدامها داخل الكنيسة كأنها في بيتها، وأعلنت إلى كل العالم أنها معصومة من الخطأ، وأنها يجب أن تُطاع طاعة عمياء في جميع مسائل الإيمان. ولا مراء أن الخضوع لها في ادعائها وتجديفها إنما هو خيانة للمسيح. أما مقاومتها فكانت نتيجتها الاضطهاد الموت.

٢- على أنه كما ازدادت ادعاءات روما وأشتد الظلام تكاثفًا هكذا ازداد قديسو الله تعبُّدًا وتفانيًا في خدمة المسيح. وهكذا يجب دائمًا أن تكون الأمور المختصة بالمسيح هي شعار المسيحي، لا الأمور المختصة بذوي المراكز العالية. وقد ظهر النشاط الروحي في ذلك الوقت بشكل أبدع منه في أي وقت آخر منذ عصر الرسل، وهذه نعمة عجيبة من الله لقديسيه الحقيقيين في ذلك الوقت العصيب، لأن الله يتطلع دائمًا إلى محبته في القلوب. وإن كنا لا نستطيع أن نرى تلك المحبة ظاهرة باستمرار في التاريخ الإكليريكي، إلا أنها كانت موجودة وظاهرة بلمعان باهر لعيني الله في وسط الشر المتزايد. ويجب علينا أن نتذكر ذلك دائمًا لأن فيه تشجيعًا كبيرًا للمسيحي عندما يوجد في ظروف صعبة. فلنسمع ما يقوله الرب نفسه «أنا عارف أعمالك ومحبتك وخدمتك وإيمانك وصبرك، وأن أعمالك الأخيرة أكثر من الأولى». في هذا التصريح نرى ممارسة الإيمان والمحبة والرجاء، تلك المبادئ الأساسية العظيمة للمسيحية العملية، ونرى أيضًا الأعمال الأخيرة أكثر من الأولى، وتلك شهادة جميلة لم نسمع بمثلها منذ الأيام الأولى لكنيسة تسالونيكي. على أن حالة الشر المحيطة زادت من جمال أمانة أولئك المؤمنين وقيمتها لدى قلب الرب، حتى أنه امتدحهم كثيرًا. وهكذا لا يمكن للرب أن يغفل عن أي قلب محب أمين لشخصه في يوم شرير، ولا يمكن أن يهمل مجازته.

٣- ولكن كما أن الرب يحب أن يمدح شعبه ويتكلم عن فضائله قبل نقائصه، فهو حاد البصر في اكتشاف عيوبه أيضًا. فقد كانوا في خطر التساهل مع التعاليم الفاسدة ونظام إيزابل الديني الفاسد. لذلك يقول: «لكن عندي عليك (قليل)، أنك تسيب المرأة إيزابل التي تقول إنها نبية حتى تعلم وتغوي عبيدي أن يزنوا ويأكلوا ما ذبح للأوثان» (ع٢٠). فمع وجود نفوس كثيرة أمينة في ثياتيرا (أو في كنيسة القرون الوسطى) سادت روح الشر بكيفية علانية. «أنك تسيب المرأة إيزابل» هذا هو الوجه المظلم، ولكن الرب لم يغفل عن إقامة شهود أمناء لاسمه كما في القديم، فكما وجد مؤمنون في بيت قيصر، ووجد عوبديا في بيت آخاب، ووُجدت بقية أمينة في إسرائيل لم تَحْنِ ركبة لبعل، هكذا لم يترك الرب نفسه بلا شاهد أمين في القرون الوسطى. على أن الحالة العامة كانت حالة تسيب للشر، مما أحزن قلب الرب وأوجب نزول قضائه العادل. ويجدر بنا أن نلاحظ أن «المرأة» يشار بها إلى الحالة العامة، أما «الرجل» فيقال إنه إشارة إلى الأعمال ذات المسئولية. فبلعام وإيزابل اسمان رمزيان، الأول كان عمله غواية المؤمنين، أما الثانية فقد وضعت نفسها داخل الكنيسة الاسمية، مدّعية أنها صاحبة السلطان المطلق فيها، متجاوزة في ذلك حدود شر بلعام بكثير. ونعلم جميعًا أن إيزابل كانت ملكة في إسرائيل، وقد عرفنا اسمها ملطخًا بالدماء وأعمال القسوة، وقد كانت تبغض وتضطهد شهود الله بينما تشجع وتحمي كهنة الأصنام وأنبياء البعل، وبذلك مزجت القسوة مع الفساد، فكان عصرها عصر خراب واضطراب. وهذا هو الاسم الذي اختاره الرب ليرمز به إلى الحالة العامة للكنيسة الاسمية في القرون الوسطى. ففي ثياتيرا يرى الرب بعينيه اللتين هما كلهيب نار جرثومة الشر المزمعة أن تأتي بأردإ الأثمار في ما بعد، فينذر عبيده أن يتمسكوا بما عندهم، أي بشخصه المبارك «إني لا ألقي عليكم ثقلاً آخر، وإنما الذي عندكم تمسكوا به إلى أن أجيء»، فبما أن الحالة الإيزابيلية تستمر إلى النهاية، ولا يمكن إصلاحها، لذلك وجّه الرب إيمان البقية الأمينة إلى مجيئه «إلى أن أجيء».

وهكذا يبسط الرب مجيئه كموضوع تعزية للقلب وسط الخراب العام، لأنه بمجيئه يريح قديسيه من كل مجهوداتهم في محاولة إصلاح العالم والكنيسة الاسمية، ويا لها من راحة عظيمة! ولكن الطبيعة البشرية المسكينة لا تستطيع أن تدرك ذلك بل تحاول عبثًا، والمرة بعد الأخرى، أن تصلح

الأمور في الكنيسة الاسمية وفي الحالة العامة.

٤- يتضح لدينا أن هذا الخطاب يتحدث عن ثلاثة أنواع من الناس:

أولاً: أولاد إيزابل، وهم الذين يتبعون نظامها الفاسد، ويأخذون مركزهم المسيحي بمقتضاه. هؤلاء ستنزل بهم الدينونة جميعًا، لأنه قد أُعطيت لهم فرصة للتوبة ولم يتوبوا. «وأولادها أقتلهم بالموت».

ثانيًا: الذين ليسوا من أولادها، ولكنهم لا يشهدون ضدها، بل يتساهلون معها. وهذا النوع بكل أسف موجود بكثرة في أيامنا، بل هو النوع السائد في المسيحية الاسمية. فالغالبية من دون ضمير أمام الله، يقنعون بالاستسلام للتيار، تابعين نظامًا دينيًا يوافق عقولهم، دون أن يفكروا في البحث عن موافقته لفكر الله، مع أنهم من أولاده. والحكم على هؤلاء هو «ضيقة عظيمة إن كانوا لا يتوبون عن أعمالهم».

ثالثًا: البقية الأمينة أو الغالبون، ويسمون في الخطاب «الباقين»، ويوعدون بالسلطان على الأمم مع المسيح عندما يجيء، وسيتحقق لهم هذا الوعد الثمين في الوقت المعين: «وأعطيه كوكب الصبح» وهذا يشير إلى الشركة معه في الوقت الحاضر.

كانت الكنيسة، في العصور الوسطى مذنبة في أمرين: الأول هو أنها سعت بطرق الغطرسة والشر لأن يكون لها سلطان وسيادة على الأمم، والثاني هو أنها اضطهدت البقية الأمينة من القديسين، كالولدانسيين وغيرهم. ولكن سيأتي الوقت حينما يملك أولئك القديسون الذين اضطُهدوا مرة، ويتمتعون بالسلطان مع المسيح ألف سنة، بينما يصير رفض النظام الإيزابلي كله رفضًا تامًا، بل يطرح في بحيرة النار إلى الأبد «لأن الرب الإله الذي يدينها قوي» (رؤ١٨: ٨).

٥- بقي شيء واحد يجدر بنا ملاحظته في هذا الرسم المختصر لحالة المسيحية العامة منذ ابتداء النظام البابوي، وهو أن التحريض «من له أذن فليسمع» يأتي بعد الوعد الخاص بالأمناء، وهذا يبين أن هذه البقية متميزة ومنفصلة له عن الغالبية. ففي الخطابات الثلاثة الأولى نجد القول «من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس» مذكورًا قبل الوعد، أما في الخطابات الأربعة الأخيرة فالوعد قبل الدعوة للسمع. والمعنى الواضح من هذا التعبير خطير جدًا، ففي الخطابات الثلاثة الأولى الدعوة للسمع موجَّهة للجماعة كلها، ولكنها في الأربعة الأخيرة موجَّهة للبقية فقط. ومن ذلك يظهر أنه لا ينتظر أن يسمع إلا الغالبون، أما الأغلبية فيظهر أنهم عميان وصُمٌ من تأثير عمل الشيطان وفساد إيزابل، ويا لها من حالة مخيفة!

ولنتذكر أن الحالات الأربع الممثلة في الكنائس الأربع الأخيرة ممتدة إلى وقت مجيء الرب. يا ليته يحفظنا من كل ما يتعلق بإيزابل حتى نتمتع باتحادنا بشخصه وببركاته التي وعد بها للغالبين.

وإذ قد تأملنا بالإيجاز الصورة التي رسمها الوحي للحالة الإيزابلية للكنيسة في العصور المظلمة نعود إلى تاريخ تلك العصور الواسع المخيف.

بداية العصر البابوي

من المسلَّم به أن هذا العصر يبتدئ بالبابا غريغوري الكبير سنة ٥٩٠م وينتهي بالإصلاح في أوائل القرن السادس عشر. ولكن قبل الدخول في التاريخ العام نجيب عن سؤال لا بد أن يخطر ببال الكثيرين، وهو: متى وكيف انتقلت السلطة إلى أيدي الباباوات الرومانيين، حتى أصبحت لهم السيادة التامة والسلطة المطلقة في القرون الوسطى؟ هذا السؤال هام ومفيد، ولكن الإجابة عليه تتسع بنا حتى تخرجنا عن حدود هذا المختصر، لذلك نكتفي بإيراد بعض الحقائق المستخلصة من سير الحوادث التي تُعتبر أساسًا لسلطة الكهنوت الروماني ونفوذه.

منذ صدور مرسوم ميلانو الشهير سنة ٣١٣م تغير تاريخ الكنيسة تغيرًا محسوسًا، إذ ارتفعت من حالة الذل والاضطهاد إلى ذروة التقدم والكرامة العالمية، ودخلت في تاريخها أمور لا شأن للمسيحية بها. وإذ اتحدت بالحكومة كان تاريخها بعد ذلك متأثرًا - بطبيعة الحال - بالعلاقات الجديدة التي ارتبطت بها، وكان من المتعذّر عليها بعد ذلك، أن تسلك باسم الرب يسوع وحده وبحسب كلمته المقدسة. غير أنه لم يكن ممكنًا أن تمتزج الكنيسة والحكومة امتزاجًا تامًا، لأن الأولى من السماء والثانية من العالم، فهما بطبيعتهما ضدان. فإما أن تطمع الكنيسة في السيادة على الحكومة، وأما أن تتعدى الحكومة على حقوق الكنيسة الموروثة. وهذا هو ما حدث، فبعد موت قسطنطين مباشرة ابتدأ النزاع والتجأ كلا الطرفين إلى طُرق وسائل ليس لنا أن نذكرها الآن إذ إنها ستأتي أمامنا في الحين المناسب.

قبل أن ينقل قسطنطين عاصمة الإمبراطورية إلى بيزنطة ويبني القسطنطينية كانت روما هي العاصمة المعروفة، وكان أسقفها هو رئيس الأساقفة، ولكن لما صارت القسطنطينية هي العاصمة رفعت درجة أسقفها إلى رتبة بطريرك، وإذ ذاك ابتدأ يدّعي لنفسه مقام الباباوات الرومانيين. وكان هذا ابتداء انفصال الكنيسة اليونانية والنزاع الطويل بين الشرق والغرب. وكان في ذلك الوقت أربعة بطاركة بحسب ترتيب الإمبراطور: واحد في روما، والثاني في القسطنطينية، والثالث في أنطاكية، والرابع في الإسكندرية. وكان مقام كل واحد منهم يُقاس بعظمة المدينة التي فيها كرسيه. وبما أن القسطنطينية كانت حينئذ عاصمة العالم، فقد كان أساقفتها أعظم الأساقفة كرامة ومقامًا، من ثم نشأ الحسد في قلوب الآخرين، وتذمر أساقفة روما، فابتدأ النزاع واتسع الخرق، ولكن روما لم تسترح حتى فازت بالتفوق على منافستها الضعيفة.

امتيازات روما

إن حكومة القسطنطينية، مع أنها شجعت مطامع الأساقفة وآمالهم، أرادت أن تحكم الكنيسة بسلطان مطلق، وتفصل في أعظم الخلافات الدينية، بينما لم يكن الأمر كذلك في الغرب، لأن الأساقفة الرومانيين أظهروا الاستقلال وروح الاعتداد بالبابوية التي تعاظمت جدًا في ما بعد. وهكذا كان أساقفة الشرق في مركز متفوق بالنسبة لاعتمادهم على الحكومة ومنازعاتهم مع الأباطرة، أضف إلى ذلك أن سلطة الحكام الشرقيين وعظمتهم أضعفت مقام الأساقفة، بينما لم يكن أحد يستطيع أن ينازع الأسقف مقامه في روما.

وقد كان انسحاب الأباطرة من روما وعدم جعلها مقر الحكم مما زاد في سلطة الإكليروس هناك، حتى أن روما ظلت تُعتبر العاصمة الحقيقية للعالم رغم هجر الحكام إياها، ومن ثم حازت امتيازات عديدة لكونها مقرًا لأعظم الأساقفة. ولكن العامل الأكبر في توطيد دعائم سلطة الإكليروس الروماني وازديادها هو الاعتقاد الذي ساد على المسيحية الاسمية من أن بطرس الرسول هو مؤسس ذلك الإكليروس. وقد كان الأساقفة الرومانيون ينكرون أن حقهم في التقدم على غيرهم يرجع إلى عظمة مقر كرسيهم، بل نسبوه إلى تسلسلهم من بطرس الرسول. وقد قُبلت حجتهم هذه بوجه عام في بداءة القرن الخامس.

بهذه الحجج ثبّتت كنيسة روما حقها في السيادة على الكنيسة عامة، وقالت إن بطرس الرسول كان متقدمًا على سائر الرسل، وإن أساقفة روما ورثوا عنه هذا المركز المتقدم. بيد أنه يجدر بنا أن نلاحظ صفتي السلطة الرومانية، وهما الصفة الإكليريكية والصفة السياسية، وقد ادعت الكنيسة الرومانية السيادة في كلتهما. فمن الوجهة الإكليريكية ادعت:

١-أن أسقف روما هو الحكم الأعلى في كل مسائل التعليم.

٢- أن له الحق في الحكم المطلق وعقد المجامع العامة والرئاسة عليها.

٣- أن له الحق في جميع التعيينات الإكليريكية.

٤- أن جميع المنفصلين عن الشركة في كنيسة روما يعتبرون منشقين عن الكنيسة.

أما من الوجهة السياسية فقد حازت فعلاً على السيادة على كل الهيئات الأوروبية وعلى كل الحكومات أيضًا، وسنرى أدلة وافرة على هذه الحقائق في سياق تاريخ الكنيسة الرومانية التي سنبتدئ فيه الآن.

لم تبتدئ سيادة الأساقفة الرومانيين إلا بعد مجمع نقية الأول، أما أساقفة روما الأولون فيندر ذكرهم في تاريخ الإكليروس. وقد كان ارتقاء إنوسنت الأول كرسي البابوية سنة ٤٠٢م، هو أول ما أعطى تحديدًا لشكل وقوة نظام الكنيسة اللاتينية الجديد هذا. قبل ذلك الوقت لم يكن معترَفًا اعترافًا رسميًا بسيادة روما، ولكنها كانت معتبرة كالكنيسة الرئيسية في الغرب، وكان يُرجع إلى أساقفتها للحكم الروحي في مسائل الخلاف. ولكن لما سقطت الكنيسة اليونانية في الأريوسية وتمسكت الكنيسة اللاتينية بقرار مجمع نيقية، فقد رفعها هذا في أعين الغرب كافة. قال ميلمان: "يظهر أن أول ما بزغت فكرة السيادة العامة لإكليروس روما بزغت في فكر إنوسنت، وإن لم تكن الصورة عنده واضحة التفاصيل، بل علاها كثير من الظلال، إلا أنه كان لها إطار عام محدد واضح".

ليو الأول الملقب بالكبير

نتقدم من الكلام عن إنوسنت إلى ليو، الذي ارتقى كرسي بطرس الرسول سنة ٤٤٠م، وبقي فيه مدة ٢١ سنة، وكان مشهورًا بمهارته السياسية ومعلوماته اللاهوتية ونشاطه الإكليريكي، وقد قرر بغيرة

وافتخار أن كل ادعاءات كنيسته وممارساتها إنما كانت بحسب التسليم الرسولي. على أنه يظهر أنه كان صحيحًا في الإيمان من حيث الخلاص، ومقاومًا للهرطقات بكل غيرة. أما الكنائس الشرقية فقد فقدت احترام العالم المسيحي بسبب المنازعات الكثيرة الطويلة التي قامت فيها، ولكن كنيسة روما كانت تطمح إلى القوة والنفوذ، وقد قضى ليو على الهرطقات من هرطقة أريوس إلى هرطقة أفتيخس وبالأخص على الهرطقة المانيخية.

وبمجهدات ليو العظيمة ومهارته الفائقة، رفع مقام الأسقف الروماني إلى درجة لم تكن معروفة من قبل، وهي جعله ممثلاً لبطرس الرسول. وكان يقول "إن الرسول كان يُدعى بطرس أي الصخرة، وبهذا الاسم أصبح هو الأساس، وأصبح في كرسيه السلطة الفائقة التي لا تنتهي، لذلك فليعلم الأخوة أنه هو رئيس جميع الأساقفة، وأن المسيح لا يهب مواهبه إلا بواسطته، مع أنه لا يضن على أحد بها"(١/٤٢).

إن تقديرنا لطبيعة الوقت الذي كان فيه ليو، وحكم وظيفته والظروف المحيطة به، يدعونا إلى الاعتقاد بأنه كان على الأرجح مسيحيًا حقيقيًا مُخلصًا في اعتقاده، وقد كان يعتني بشعب الله من قلبه، كما خلّص روما أكثر من مرة من أيدي البرابرة بواسطة صلواته ومهارته السياسية، فما أن قدم أتلا، وهو أقوى الغزاة الأجانب، بجمعه الغفير الذي لا يعد، وحاموا حول إيطاليا وكانوا على وشك الإيقاع بالعاصمة، ذهب ليو إلى ذلك القائد باسم الرب، وبصفته الرئيس الروحي لروما، وتشفع في شعبه بحرارة ليّنت ذلك القلب الوحش القاسي، حتى وافق على بعض الشروط التي بمقتضاها خلصت المدينة من التخريب والذبح، الأمر الذي أدهش الجميع. ولكن الغرض الرئيسي الذي كان أمام ليو، وقد تحقق له، هو أن يضع أساس سيادة روما الروحية. وفي زمانه كان هو أعظم اسم يشار إليه بالبنان في الإمبراطورية، إن لم نقل في المسيحية كافة. وقد توفي سنة ٤٦١م.

الإمبراطور جوستنيان

إن لجوستنيان اسمًا عظيمًا في التاريخ يرتبط بالتشريع المدني والإكليريكي. فلا يمكننا أن نتجاوزه دون ملاحظة، مع أنه لا يرتبط ارتباطًا مباشرًا بالكنيسة اللاتينية لأنه كان في الشرق، وكان معطلاً لنهضة الغرب.

ارتقى جوستنيان عرش القسطنطينية سنة ٥٢٧م، وبقي عليه حوالي أربعين سنة. وقد سلّم مقاليد الأمور الحربية والسياسية إلى الوزراء والقواد. أما هو فتفرغ للأشياء التي كان يعتبرها ذات أهمية أعظم، فصرف معظم وقته في الدراسات اللاهوتية وترتيب أمور رعاياه الدينية. كتعيين واجبات الكهنة، ومعتقدات الشعب. وكان شغوفًا بأن يكون مشرّعًا في الأمور الدينية، أما من حيث اعتقاده الخاص فكان متعصبًا للتعليم الصحيح، وقد صرف وقتًا طويلاً من مدة حكمه في القضاء على الهرطقات. وكان هذا سببًا في حدوث بعض الاضطهادات السرية والجهارية.

لكن في الوقت المعين انفتح أمام جوستنيان ميدان آخر للعمل والنشاط، فأدار التفاته حالا شطر ذلك الاتجاه، فبعد موت ثيودوريك الكبير سنة ٥٢٦م اختلّت الأحوال في إيطاليا، وتزعزع مركز أولئك الغزاة الحديثي العهد، فلم يستطيعوا الثبات على عروشهم. إذ ذاك اتحد الجيش الإمبراطوري تحت قيادة القائدين العظيمين بليساريوس ونارسيس، وفي مدة قصيرة جدًا فتحوا إيطاليا وأفريقيا، ذلك لأن جنود البرابرة، إذ وقع نظرهم على نسور الجيش الإمبراطوري امتنعوا عن الحرب، وفي الوقت نفسه كان الشعب يبغض سيادة الأستروقوط، فوجد هذان القائدان سبيلاً مُمهدًا للفوز. ويقدرون أنه في أثناء حكم جوستنيان فقدت أفريقيا خمسة ملايين من سكانها، إذ قضى على الأريوسية في تلك الأرجاء. أما في إيطاليا فيظن أن الذين ماتوا بالحرب والجوع والطرق الأخرى كانوا أكثر عددًا من جميع سكانها في الوقت الحاضر *. وقد كانت نكبات تلك البلاد أثناء التغيرات التي حصلت في ذلك العصر أعظم النكبات التي أصابتها في ماضيها ومستقبلها، ولذلك أثّر حكم جوستنيان وأعماله التشريعية والحربية تأثيرًا هامًا - ولكنه محزن - في تاريخ المسيحية.

وقد شيد جوستنيان كنيسة أياصوفيا وخمسًا وعشرين كنيسة أخرى في القسطنطينية، وأصدر طبعة جديدة من مجموعة قوانينه، ثم مات في سنة ٥٦٥م(١/١٩)، (١/٣١)، (٢/٢٥). ونتقدم الآن إلى المؤسس العظيم الثالث لبناء البابوية:

*عند كتابة هذه المذكرات في أواخر القرن التاسع عشر.

غريغوري الأول الملقب بالكبير (٥٩٠م)

أتينا الآن إلى ختام القرن السادس للمسيحية، الذي ينتهي به تاريخ الكنيسة القديم، ويبتدئ تاريخها المتوسط. ويمكن اعتبار عصر غريغوري الحد الفاصل بين التاريخين، إذ حصل فيه تغير عظيم، لأن الكنائس الشرقية انحطت وتدهورت، بينما الغربية، وبالأخص روما، ارتفعت وشغلت اهتمام المؤرخين. وبما أن غريغوري يُعتبر الرجل الظاهر الذي يمثل عصر الانتقال هذا فسنجتهد في تصويره أمام القارئ تصويرًا صحيحًا.

ولد غريغوري في مدينة روما حوالي سنة ٥٤٠م. وكان ينتمي إلى عائلة وجيهة، إذ كان الحفيد الأكبر للبابا فيلكس. وبذلك كان شريف المولد من الوجهتين المدنية والإكليريكية. توفي والده تاركًا له ثروة عظيمة أوقفها على الأعمال الدينية، فأسس سبعة أديرة، ستة منها في صقلية والسابع في قصر العائلة في روما، وأسماه باسم القديس أندراوس. باع غريغوري ثيابه الثمينة وجواهره وأثاثه الفاخر وأنفق ثمنها على الفقراء، وعند بلوغه سن الخامسة والثلاثين تنازل عن تعيينه بمجلس الشيوخ، وسكن في الدير الروماني، وابتدأ في عيشة تنسكية دقيقة ومع أن الدير كان ملكه، ولكنه ابتدأ فيه بأحقر واجبات الرهبان. وكان يصرف كل وقته في الصلاة والقراءة والكتابة، وأقسى التدريبات التي من شأنها العمل على إنكار الذات، حتى انتشر صيت إحسانه وتعففه انتشارًا عظيمًا. وبعد مدة من الزمن أصبح رئيسًا للدير، ثم بعد وفاة البابا بلاجيوس اختاره مجلس الشيوخ والكهنة والشعب جميعًا ليملأ هذا الكرسي، فرفض وحاول بوسائل متعددة أن يتخلص من مظاهر العظمة والمسؤولية البابوية. غير أن محبة الشعب له قادتهم لأن يرسموه بالقوة أسقفًا أعلى. فبعد أن كان في الدير الهادئ يقوم بالتأملات الساكنة، وجد غريغوري نفسه أمام مشاغل كثيرة من حيث إدارة أمور الكنيسة والحكومة، تلك الأمور المربكة المتشعبة. ولكنه كان مؤهلاً لذلك العمل الكبير تأهلاً تامًا، فنلاحظ أولاً:

محبة غريغوري الشديدة لعمل الخير

كانت الصفة البارزة التي تميزت بها أخلاق غريغوري هي محبته للتصدق والإحسان. ومع أنه ارتقى إلى عرش البابوية، إلا أنه كان يعيش عيشة تنسكية بسيطة. كانت جماهير الفقراء تلتف حول قصره، فتوزع عليهم الصدقات بسخاء كما كان الأمر عندما كانوا يلتفون حول ديره. ولم يكتف أن يمارس هذه الفضيلة وحده، ولكنه حرض إخوته الأساقفة عليها تحريضًا شديدًا، إذ قال: "لا يظن الأسقف أن عمله يقوم في القراءة والوعظ فحسب، أو في الاعتكاف والدرس، بينما يده مغلولة عن الأحسان، بل يجب عليه أن يبسط يده بسخاء، ويشترك في احتياجات المحتاجين، ويشعر بأعواز الغير كأنها أعوازه، لأنه بدون هذه الصفات يكون لقب الأسقفية لقبًا فارغًا عديم الفائدة".

وقد ساعده ثراء الإكليروس الروماني على عمل حسناته الواسعة النطاق، فبصفته ناظرًا متصرفًا في الأموال البابوية، كان مشهورًا بالعدل والنزاهة والسخاء. وقد أفاض جميع المؤرخين الذين تناولوا سيرته في وصف أعماله الخيرية بشكل يتعذر معه تلخيصها في بيان مختصر. على أننا إذ نعتبره مؤمنًا حقيقيًا بصرف النظر عن المركز الباطل الذي كان يشغله، وما ترتب على هذا المركز من الجهل ببعض الحقائق، فإننا نسر أن نتأمل قليلاً في سيرته ونتتبع عمل نعمة الله فيه، بالرغم من امتزاجها بالأمور الطقسية.

كان غريغوري في يوم الاثنين الأول من كل شهر يوزع كميات كبيرة من الصدقات على جميع طبقات الناس. وكان قد عين أشخاصًا مخصوصين لمتابعة المرضى والضعفاء في كل شارع. وقبل الجلوس على مائدته الخاصة كان يقسم منها جزءًا ويرسله للجياع الذين عند بابه. وكان له سجل ضخم بأسماء الذين يتقاضون إحسانات بابوية وبأمكنة سكنهم.

لقد كانت محبته لعمل الخير شديدة، حتى أنه إذ سمع مرة أن فقيرًا مات جوعًا فرض على نفسه قصاصًا أليمًا لجريمة الإهمال التي ارتكبها بصفته وكيلاً على خيرات الله. ولم تقتصر حسناته على مدينة روما، بل كانت عامة لكل العالم تقريبًا. فقد تدخل في جميع المسائل المختصة بصالح جميع الطبقات، ووضع نظامًا دقيقًا للجميع لئلا يظلم الأغنياء الفقراء أو يعتدي الأقوياء على الضعفاء. وهذا يظهر بوضوح أكثر عندما نتأمل في:

مركز غريغوري الإكليريكي والزمني

كانت رعاية الكنيسة هي سرور غريغوري وغرض قلبه الرئيسي، لأنه كان يعتقد أن هذا هو عمله. وكان يشتاق أن يتفرغ له، لأنه كان مقتنعًا، بحسب خرافة ذلك الزمان، أنه مسؤول عن

رعاية الكنيسة كلها وإدارتها، بصفته خليفة بطرس الرسول، وأنه مسؤول أيضًا عن رفع مقام الإكليروس. غير أنه اضطر بالنسبة لاختلال حكومة إيطاليا، ومحافظةً على أمن رعيته وشعبه المحبوب، أن يمارس أعمالاً كثيرة شاقة بعيدة كل البعد عن دعوته الروحية. ذلك أن الغزاة اللمبارديين *كانوا في ذلك الوقت مصدر رعب للإيطاليين، لأن القوط كانوا قد تمدينوا إلى درجة كبيرة وتشربوا بالمبادئ الرومانية. أما هؤلاء الغزاة الجدد فكانوا برابرة قساة، مع أنهم كانوا يعترفون بأنهم أبطال الأريوسية، وهذا هو الغريب المدهش. ولم تبذل القوة الإمبراطورية أي مجهود في حماية رعاياها منهم. من ثم كثرت الحروب والمجاعات والأوبئة بشكل أخرب البلاد وأدمى القلوب، فهرع الجميع إلى الأسقف كرجل الساعة الوحيد، واثقين تمام الثقة في مقدرته وصلاحه.

وهكذا نرى أن البابا أُلزم إلزامًا على تقلد السلطة الزمنية في بادئ الأمر، فهو لم يسعَ إلى ذلك المركز، بل بالعكس قام بمهامه رغم إرادته، معتبرًا أنه مركز تافه بالنسبة لغرض حياته الأعظم، فترك، رغمًا عن إرادته، حياة التنسك والتأمل الهادئة، ودخل في معترك الأمور السياسية كواجب يؤديه نحو الله والوطن. فعُهدت إليه معظم شؤون الدولة. ويشهد تاريخه كله أنه أظهر كفاءة عظيمة ونشاطًا لا يهدأ في مختلف المشاغل التي كانت له كحاكم روما الحقيقي وحامي إيطاليا من اللمبارديين.

ومع أن غريغوري لم يكن يدري تأثير شهرته العظيمة، إلا أنه في الحقيقة يُعزى إليها الجانب الأكبر في تأسيس النظام الإكليريكي الروماني وما يتعلق به من المعتقدات. فهو شخصيًا لم يكن يغتر بالمنصب العظيم، بل كان يحسن استخدامه، ولكن خلفاءه لم يكونوا هكذا. من ثم تكونت على مر الأيام الاعتقادات الخاصة بالبابوية مثل: عصمة البابا، وسلطانه الروحي المطلق، واضطهاد المخالفين في الاعتقاد، والخرافات، والتعليم بالخلاص بالأعمال، والمَطهَر، والشفاعة في الموتى... الخ.

ولا نريد أن نتوسع أكثر في هذا الموضوع الآن، ولكننا ندير التفاتنا إلى موضوع ألذ وأحلى لقلوبنا، وهو:

* اللمبارديون هم إحدى قبائل الجرمان من مدينة براندنبرج. والاعتقاد الشائع هو أن جوستنيان استدعاهم إلى إيطاليا لمقاومة القوط. وقد أسس رئيسهم ألبوين مملكة دامت من سنة ٥٦٨م إلى سنة ٧٧٤م. وآخر ملك لهم، وهو ديسيديريوس، خلعه شارلمان وقد أتينا بهذه الملاحظة عن أصلهم لأننا سنلتقي بهم مرة أخرى في تاريخنا.

غيرة غريغوري التبشيرية

بالرغم من الضيق الذي كان واقعًا على الكنيسة وعلى مختلف الهيئات من جراء غزوات البرابرة، كان ربنا المبارك ساهرًا على انتشار الإنجيل في البلاد الأخرى، وقد كانت رحمة عظيمة منه أن جماهير الغزاة الذين انقضوا على مقاطعات الإمبراطورية اهتدوا عاجلاً إلى المسيحية. ومع أنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا كثيرًا عن ديانتهم الجديدة، إلا أنها لينت طباعهم وهذبت نفوسهم إلى حد كبير. وكان غريغوري غيورًا على نشر حقائق الإنجيل بين البرابرة حتى يعتنقوا الإيمان الكاثوليكي. ولكن رغبة قلبه الخصوصية التي انشغل بها وقتًا طويلاً كانت تبشير الإنجليز السكسونيين.

والحادثة التي وجَّهت ذهن غريغوري إلى تبشير بريطانيا حادثة جميلة يليق بنا أن نفسح لها مجالاً في هذا المختصر. وهي أنه في أحد أيام رهبنته الأولى قبل ارتقائه كرسي البابوية، رأى في السوق أولادًا حسان المنظر ذوي شعر جميل يُعرضون للبيع، فأخذوا بمجامع قلبه، فسأل: "من أي بلاد أتوا؟" فأجابه الحاضرون: "من جزيرة بريطانيا". فقال: "وهل سكان تلك الجزيرة مسيحيون أم وثنيون؟" فأجابوا: "إنهم لا زالوا وثنيين". فقال: "واحسرتاه أن تكون تلك الصور البديعة في قبضة سلطان الظلمة! ما أحسن أن يقترن جمال الصورة هذا بجمال أفضل هو جمال النفس!" ثم سأل قائلاً: "ماذا يُدعون؟" فأجابوا: "إنهم إنجليز" فقال حقًا إنهم إنجيلز '(أي ملائكة)". ثم قال: "ومن أية مقاطعة؟" فأجابوا: "من مقاطعة ديرا '- وهي نورثمبرلاند". فقال: "حقًا يجب أن يُنقذوا من غضب الله*، ويتمتعوا برحمة المسيح". ثم سأل: "وما اسم ملكهم؟" فأجابوا: "اسمه إيلاً" فقال غريغوري: "نعم يجب أن تُنشد الهللويا في ربوع تلك المملكة".

قال ملمان: "أصبح من ذلك الوقت مطمح نفس غريغوري أن يكون أول مُرسل إلى هؤلاء القوم الحسان، وأن يربح تلك الجزيرة البربرية النائية إلى ملكوت المسيح كالفاتح المسيحي المنتصر. فسعى حتى تحصّل بعد الجهد على موافقة البابا، ثم قام برحلته فعلاً وسافر مسيرة ثلاثة أيام في نهايتها أدركه رسل البابا الموفدون لإرجاعه، لأن روما كلها هاجت وماجت وألزمت البابا

* عبارة «غضب الله» تنطق في اللاتينية «دي إيرا» *De Ira*

بإعادته"[١/٤٣]. ولكن مع أنه مُنع من القيام بهذه الإرسالية بنفسه إلا أن ذلك الغرض النبيل لم يبرح فكره. ومن ذلك الوقت لم يُسمح له بالرجوع إلى ديره، بل أُلزم بالدخول في ميدان الشئون العامة، أولا كشماس ثم كالحبر الأعظم. ولكن كل هذه المقامات أُلزم بها غريغوري إلزامًا، أما قلبه فكان شغوفًا بخلاص شباب إنجلترا الحسان المنظر، وكان يفضل ألف مرة أن يقوم برحلته إلى تلك البلاد بالرغم مما فيها من الصعاب والأخطار على أن يكلل بأمجاد البابوية. لذلك بعد ارتقائه إلى كرسي البابوية لم ينسَ هذا المشروع، لأن مبدأه كان المثابرة على كل مشروع تقوي يفكر فيه حتى ينفذه. وقد وُفق في الوقت المعين إلى إيفاد إرسالية مكونة من ٤٠ مرسلاً إلى شواطئ بريطانيا. ولكن قبل الكلام على تلك الإرسالية ونتائجها يحسن بنا أن نلقي نظرة مختصرة على تاريخ الكنيسة في الجزر البريطانية منذ الابتداء.

وصول الإنجيل إلى بريطانيا أول مرة

في اعتقادنا أن أول بزوغ لنور الإنجيل في بريطانيا يرجع إلى أيام البساطة الرسولية الأولى. ويوجد دليل تاريخي كاف للاعتقاد بأن كلوديا المذكورة في رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس هي ابنة ملك بريطاني تزوج بزوجة رومانية شريفة تدعى "بودنز". ولا يظهر هذا القول غريبًا إذا تذكرنا أنه في أثناء سيادة الرومان على بريطانيا لا بد أنه وُجدت فرص عديدة لانتشار المسيحية، ولا بد أن انتهز تلك الفرص كثيرون ممن يحبون الرب يسوع ونفوس الناس الثمينة. فضلاً عن ذلك، فقد كانت عادة ملوك بريطانيا وأشرافها في ذلك الوقت أن يرسلوا أبناءهم لتلقي العلوم في روما. ويقولون إن هذه العادة انتشرت حتى بُني قصر خصيصًا لهم في روما. وكانت تجبى ضريبة مقدارها بنس واحد من كل بيت في إنجلترا للقيام بنفقات ذلك القصر.

ويوجد دليل آخر على وصول نور الإنجيل إلى بريطانيا في الأيام الأولى، وهو شهادة الآباء. فقد أكد كل من جوستين مارتير وإيريناوس وترتُليان الذين كتبوا في القرن الثاني الميلادي أنه في كل البلاد المعروفة للرومان كان هناك مسيحيون، وأنه لم يخلُ جنس من الأجناس، ولا طبقة من الطبقات من أناس يقدمون الصلاة باسم يسوع المصلوب. ولدينا أيضًا شهادة الآباء المتأخرين. فقد ذكروا في سلسلة التاريخ أن أساقفة بريطانيين حضروا كثيرًا من المجامع العامة في القرن الرابع، وقد شهد أثناسيوس وهيلاري بصحة إيمانهم أثناء المنازعة الأريوسية. ويقال إن الهرطقة البلاجية وصلت إلى بريطانيا سنة ٤٢٩م، وصادفت هناك رواجًا كبيرًا، ولكن معلميها انهزموا أمام خدام التعليم الصحيح في مجمع انعقد في مدينة سانت ألبانز[١/٣١].

وحوالي ذلك الوقت حدث تغير كبير في تاريخ الكنيسة في بريطانيا، وذلك مهّد السبيل لإرسالية أغسطينوس الشهير بإرشاد غريغوري، التي تعتبر أيضًا فاتحة عصر جديد في تاريخ البلاد السياسي.

سبق أن لاحظنا أن شيئًا من الانحطاط والسقوط كان يهدد الإمبراطورية الرومانية. وبالنظر للمصائب الشديدة التي أصابت مدينة روما ومقاطعاتها، انسحبت القوات شيئًا فشيئًا من بريطانيا للمحافظة على عاصمة الإمبراطورية، حتى انتهى الأمر بأن جلت جميع القوات من هناك قبيل منتصف القرن الخامس، أي بعد وصول يوليوس قيصر إليها بنحو ٤٧٥ سنة. فإن الرومان رأوا أنه لا يمكنهم أن يستغنوا عن تلك القوات المحتلة لبريطانيا، ومن ثم وقع الحكم فيها في أيدي بعض أمراء صغار تشاجروا مع بعضهم البعض، فنشبت حروب أهلية وحدث ضعف داخلي أعقبه سقوط وانحطاط أخلاقي. وأصبحت البلاد بعد انسحاب القوات الرومانية، بطبيعة الحال، عرضه لغزوات الغازين، ولا سيما البكتيين والاسكتلنديين. ولما كان القواد البريطانيون عاجزين عن مقاومة الغزاة الناهبين فقد التجأوا في ضيقتهم هذه إلى روما وقالوا: "إن البرابرة يغيرون على حدودنا إغارة الذئاب على حظائر الغنم، ويرجعون بالغنائم الوافرة، ثم يعودون إلى هذا العمل سنة بعد أخرى". ومع أن الرومانيين قد رثوا لحالة أصدقائهم القدامى، إلا إنه لم يكن في مقدورهم مد يد المعونة إليهم. وإذ يأس البريطانيون من مساعدة روما وشعروا بعجزهم عن حماية أنفسهم من إغارات قبائل الشمال استعانوا بالسكسونيين[٥/٢٠].

وصول السكسونيين إلى إنجلترا

حوالي منتصف القرن الخامس وصلت السفن السكسونية إلى سواحل بريطانيا حاملة بضع مئات من الجنود الأقوياء تحت قيادة هنجست وهورسا. وفي الحال نزلوا إلى ميدان الحرب مع البكتيين

والاسكتلنديين وهزموهم شر هزيمة. ولكن ظهر أن العلاج كان أسوأ عاقبة من المرض نفسه، فخلصوا من شر ووقعوا في ما هو أشر، لأن السكسونيين إذ وجدوا أن طقس تلك البلاد ألطف من طقس بلادهم انتهزوا الفرصة لأن يرحلوا من تلك الشواطئ الشمالية الباردة إلى حقول بريطانيا الواسعة، فاستدعوا قوات جديدة من بلادهم. وهكذا أصبح المدافعون فاتحين ومسيطرين على البريطانيين منكودي الحظ. ثم تدفقت قبائل الإنجليز وبعض القبائل الأخرى إلى البلاد. ومع أن البريطانيين دافعوا بكل قوتهم، إلا أن السكسونيين تغلبوا عليهم وأخضعوهم، وطردوا بعضًا منهم إلى جبال ويلز وكورنوال وكمبرلاند، وهاجر الكثيرون إلى جهات أخرى، بينما أقام بعضهم في أرموريكا في شمالي فرنسا، وهي تدعى الآن بريتاني.

على أن السكسون والإنجليز لم يكونوا جنودًا جبابرة فقط، ولكنهم كانوا وثنيين متوحشين أيضًا، فعملوا على استئصال المسيحية من كل البلاد التي فتحوها، وهكذا قتلوا الأساقفة والشعب بدون تمييز بالسيف والنار، حتى لم يوجد من يدفن جثث القتلى، ودمروا الأماكن العامة والخاصة، وذبحوا الكهنة عند المذبح في كل مكان، وقبضوا على الذين هربوا إلى الجبال، وقتلوهم أكوامًا أكوامًا، وآخرون إذ أعياهم الجوع، سلموا أنفسهم ليكونوا عبيدًا إلى الأبد، وآخرون هربوا إلى ما وراء البحار، وآخرون عاشوا في الجبال والغابات والمغاير عيشة البؤس والفقر.

عادت بريطانيا بعد تلك الحوادث إلى حالة البربرية والهمجية، واختفت من العالم المتمدين، وهوت إلى حضيض البؤس والشقاء. على أن هؤلاء أنفسهم هم الذين وضع الرب في قلب غريغوري أن يريحهم بإنجيل السلام. والعقل البشري يتساءل: كيف يمكن لبضع رهبان مساكين قليلي العدد أن يجرأوا على الوصول إلى تلك الشواطئ بغير جيش ولا أسطول؟ وأكثر من ذلك: كيف يمكنهم أن يربحوا قلوب أولئك المتوحشين ويخضعوهم للإيمان بإنجيل السلام والحياة بمقتضاه؟ إننا نقول إن السر هو في ذلك الإنجيل الذي استطاع أن يتغلب على اليهودية والوثنية، والذي كان مزمعًا أن يتغلب بتلك القوة الإلهية عينها على وحشية الإنجليز السكسونيين. فما أغبى الكفرة الذين يتعرضون لأصل الإنجيل وقوته وتأثيره، وما أجهلهم وأضعفهم.

ولننتقل الآن للكلام عن سير الإرسالية:

إرسالية أغسطينوس إلى إنجلترا

في سنة ٥٩٦م، أي بعد وصول الإنجليز السكسونيين إلى بريطانيا بنحو ١٥٠ سنة، سافرت إرسالية غريغوري المشهورة من إيطاليا قاصدة بريطانيا، وكانت مؤلفة من أربعين مرسَلاً من الرهبان تحت قيادة أغسطينوس. ولكنهم إذ سمعوا بأخلاق القوم وعاداتهم الوحشية، وهم يجهلون لغتهم أيضًا، ضعفت عزيمتهم وخافوا أن يتقدموا في طريقهم، فأوفدوا أغسطينوس ليرجع ويلتمس من غريغوري إعفاءهم من هذه الخدمة. ولكن غريغوري لم يكن الرجل الذي يمكن أن يتخلى عن إرسالية كهذه، ولا سيما أن إرسالها لم يكن بتسرع أو عدم روية، بل كان نتيجة صلوات كثيرة وتفكير طويل. لذلك شجعهم غريغوري على المضي في طريقهم معتمدين على الإله الحي، واثقين أنهم لا بد يجنون ثمرة أتعابهم في الأبدية. وأعطاهم رسائل تعريف إلى الأساقفة والأمراء، وزودهم بكل ما في طاقته من المساعدة. وهكذا استأنفوا رحلتهم مارين بفرنسا حتى وصلوا إلى بريطانيا.

وإذ نزل الواحد والأربعون مرسلاً إلى جزيرة ثانيت أعلموا إثلبرت ملك كنت بوصولهم من روما، وبأن غرضهم هو توصيل بشائر مفرحة هامة له ولشعبه. وقد ساعدت الظروف هذه الإرسالية مساعدة كبرى، فإن برتا الملكة ابنة كلوتير الأول ملك الفرنجة كانت مسيحية. وكان أبوها قد اشترط عند زواجها أن يكون لها تمام الحرية في الاعتراف بالمسيحية التي تربت فيها. وقد كان ضمن حاشيتها أسقف، كما كان كثيرون من أهل منزلها مسيحيين، وكانوا يؤدون العبادة حسب الطريقة الرومانية. لقد استخدم الرب في هذا الظرف امرأة لمساعدة نشر الإنجيل بين الوثنيين كما استخدم كثيرات غيرها في ظروف مختلفة. وما أعظم الفرق بين هذا النوع من النساء وبين النوع الإيزابلي، الأمر الذي يبين حبل نعمة الله الفضي حتى في العصور المظلمة. وبرتا هذه كانت من عائلة كلوفس وكلوتلدا.

وقد أحسن إثلبرت استقبال المرسلين بتأثير من زوجته، فسمح لهم بأن يأتوا إلى كانتربري مقر الملك، والتقى بهم، ولكن في الخلاء خوفًا من السحر. وقد اقترب المرسلون من الحاشية الملكية بشكل عظيم التأثير، فتقدم أحدهم الموكب حاملاً صليبًا فضيًا كبيرًا

عليه صورة المخلص، وتبعه الباقون مرتلين ترنيماتهم اللاتينية، حتى وصلوا إلى المكان المعين للاجتماع. وهناك أذن الملك لهم أن يبشروا بالإنجيل له ولحاشيته، فأخبروه أنهم أتوا حاملين بشائر مفرحة، بشائر الحياة الأبدية والتمتع ببركات السماء إلى الأبد. فتأثر الملك وأعطاهم قصرًا في المدينة الملكية كانتربري، وأعطاهم الحرية في التبشير بالإنجيل للشعب. فدخلوا المدينة مرنمين بنغمة متحدة: "نسألك يارب أن تتنازل برحمتك وترفع غضبك وسخطك عن هذه المدينة وعن قدسك لأننا أخطأنا.. هللويا".

بهذه الخطوات التمهيدية أصبح طريق المرسلين سهلاً وواضحًا، لأن موافقة الملك أوجدت الثقة في نفوس الرعية وفتحت قلوبهم لأولئك المعلمين، فتكاثر سريعًا عدد المهتدين. ويقال إنه في يوم عيد الميلاد سنة ٥٩٧م زاد عدد الذين اعتمدوا ودخلوا إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية عن عشرة آلاف. وإثلبرت نفسه اعتمد أيضًا، وأصبحت المسيحية على النظام الروماني هي الديانة الرسمية للمملكة. كانت هذه أول خطوة للكنيسة الرومانية في بريطانيا. ومن ثم عزمت تلك الكنيسة على إخضاع الكنيسة البريطانية للبابوية، وبسط نفوذها على بريطانيا كما فعلت في فرنسا. فأنشأت تعمل كالآتي:

الرئاسة الدينية الرومانية في إنجلترا

ما إن سمع غريغوري بنجاح أغسطينوس العظيم حتى أرسل إليه مرسلين آخرين ومعهم عدد من الكتب والأناجيل والأواني الكنسية والتحف والملابس الكهنوتية، بما فيها الرداء الكهنوتي البهي الذي سيلبسه أغسطينوس كرئيس أساقفة كانتربري. وأمر غريغوري أغسطينوس برسامة اثني عشر أسقفًا في مقاطعته، وإقامة رئيس أساقفة آخر في يورك يكون له الحق في رسامة اثني عشرًا أسقفًا آخرين للمقاطعات الشمالية، هذا إذا كان يرى ذلك نافعًا لانتشار الإيمان. هكذا نشأت الكنيسة الإنجليزية، وهكذا بلغ شغف غريغوري بالسيادة الإكليريكية، حتى أنه أوحى بمشروع رئاسة دينية لأماكن لم تكن قد وطئتها أقدام المبشرين بعد.

واجتهد أغسطينوس، بعد أن أصبح رئيسًا لاثني عشر أسقفًا، أن يأتي بالكنيسة البريطانية القديمة تحت السلطة الرومانية. وتمكن بتأثير إثلبرت من عقد اجتماع مع الأساقفة البريطانيين التقى فيه الإكليروس البريطاني والروماني. وكان أول طلب طلبه أغسطينوس هو الخضوع لأسقف روما. فأجاب الأساقفة البريطانيون بوداعة: نحن نحب جميع الناس، وما نقدمه لك نقدمه أيضًا لذاك الذي تسمونه البابا. فاغتاظ أغسطينوس من هذه الإجابة وطلب منهم أن يمارسوا الفرائض الرومانية، كعيد الفصح وحلق قمة الرأس والمعمودية، حتى يكون هناك نظام واحد في التعليم والعبادة معمول به في كل الجزيرة، فرفضوا هذا الطلب قائلين إنهم قبلوا المسيحية في البداية من الشرق وليس من روما، وأنهم لا يعتبرون الكنيسة الرومانية أمًا لهم قَطّ. ولذلك فهم يعتبرون أنفسهم مستقلين عن الكهنوت الروماني. ثم عُقد مجمع ثان ثم ثالث، ولكن دون جدوى، لأنهم أخبروا أغسطينوس بصراحة أن الكنيسة البريطانية لا تعترف بسيادة أحد في كرم الرب. فألح أغسطينوس في الطلب، ووجه إليهم اللوم، وصنع المعجزات، ولكن بغير نتيجة لأن البريطانيين كانوا ثابتي العزم. أخيرًا أخبروه صراحة أنهم لا يستطيعون أن يخضعوا لكبرياء الرومانيين ولا لظلم السكسونيين. فأجابهم بغيظ قائلاً: "إن كنتم لا تقبلون إخوة يقدمون لكم سلامًا فسوف تقبلون أعداء يقدمون لكم حربًا. إن كنتم لا تتحدون معنا في إظهار طريق الحياة للسكسونيين فسوف تقبلون منهم ضربة الموت". وانسحب الأسقف المتكبر بعد ذلك. ويقال إنه توفي بعد ذلك بقليل (سنة ٦٠٥م). وقد تمت نبوءته المشؤومة بعد موته حالاً.

كان إدلفرد، أحد الملوك الأنجلوسكسون، لا يزال وثنيًا، فجمع جيشًا عرمرمًا، وتقدم نحو بانجور- مركز المسيحية البريطانية - فهرب الرهبان في جزع وخوف عظيمين، والتقى نحو ١٢٥٠ منهم في مكان قصي، حيث اتفقوا على أن يواظبوا معًا على الصلاة والصوم. فاقترب منهم إدلفرد، وإذ رأى عددًا كبيرًا من الناس العزل سأل: "مَن هؤلاء؟" فأخبروه: "إنهم رهبان بانجور، أتوا للصلاة لأجل خير مواطنيهم". فصرخ الملك قائلاً: "إنه وإن لم يوجد معهم سلاح لكنهم يحاربوننا". ثم أمر جنوده أن يقعوا بأولئك الرهبان المصلين، فقتلوا حوالي ١٢٠٠ منهم، ولم يهرب سوى خمسين. وهكذا ابتدأت سيادة الكنيسة الرومانية على إنجلترا - تلك السيادة التي دامت نحو ألف سنة.

ويتهم البعض أغسطينوس بأنه كان له يد في تلك الحادثة. ومع أن هذه التهمة غير مؤكدة، إلا أنه على كل حال تحوم شبهة مظلمة حول سياسة الكنيسة الرومانية. وهكذا كانت طريقة إيزابل، عندما

تفشل في الإقناع بالحجة تعمد إلى السيف. ولذلك توصم الكنيسة الرومانية بالقسوة والدماء.

أما الكنيسة البريطانية القديمة فقد انحصرت في المقاطعات الجبلية واضمحلت شيئًا فشيئًا(١/٣٨).

تأملات في إرسالية أغسطينوس

يتحدث بعض المؤرخون عن أغسطينوس على اعتبار كونه شخصًا مكرّسًا، وعن مشروع إرساليته كإحدى نقط التحول الهامة في تاريخ الكنيسة. ونحن لا نريد على الإطلاق أن نبخس الرجل حقه ولا أن ننكر على إرساليته أهميتها، ولكن لا يجب أن ننسى أن كلمة الله هي المقياس الوحيد الذي تُقاس عليه الأعمال وفاعليها. ومن كلمة الله نتعلم أن «ثمر الروح هو محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف» (غل ٥:٢٢،٢٣) ومن الواضح أن رجل الكنيسة العظيم هذا لم يُظهر من نحو إخوته المسيحيين البريطانيين نعمة المحبة والسلام واللطف، بل على العكس، كان متكبرًا متصلفًا ومنتفخًا باطلاً.

ولم تكن صفاته تلك خافية عن جريجوري، فقد قال له في خطاب أرسله إليه "إني أعلم أن الله قد أجرى بك معجزات عظيمة بين هذا الشعب، ولكن تذكر أنه عندما قال التلاميذ بفرح لمعلمهم القدوس «يا رب، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك» رد عليهم بالقول «بل افرحوا بالحري أن أسماءكم كُتبت في السماوات» (لو ١٠:١٧،٢٠). فبينما يستخدم الله هكذا موهبتك في الظاهر عليك أن تتذكر يا أخي العزيز أن تحكم على ذاتك في الخفاء، وأن تتعلم جيدًا ما هو أنت في ذاتك. فإن كنت قد أخطأت إلى الله بالقول أو الفعل أو الفكر فتذكر هذا الخطأ لتكتم دائمًا كبرياء قلبك، وأعلم أن الموهبة المعجزية لم تُعط لك لأجل ذاتك، بل لأجل من أُرسلت أنت إليهم لأجل خلاصهم". وفي خطاب آخر يحذره من "افتخار الذات الباطل" ويذكره بأن "ثوب المجد والبهاء ليس لك أن تلبسه سوى أثناء الخدمة الكنسية، ولا تستعمله في المحافل الرسمة مناوئًا به الملوك الذين في ثياب الأرجوان".

ولم يكن أغسطينوس الرجل المناسب لمهمة تستلزم الصبر والتعامل بالرفق مع الآخرين، فقد كانت الكنيسة الإنجليزية قائمة منذ قرون، وكان لأساقفتها دورهم في المجامع المسكونية، وأمضوا قراراتها. وفي سجلات مجمع أرليز سنة ٣١٤م ترد أسماء لندن ويورك ولنكولن، ولا نملك إلا أن نقدّر في البريطانيين تمسكهم بما ورثوه عن آبائهم من ممارسات دينية، ومقاومتهم لادعاء الآخرين بالسيادة الروحية عليهم. ولكن أغسطينوس فشل في تعلم درس التواضع من سيده العظيم.

عصر غريغوري وأخلاقه

لم يعش هذا البابا العظيم طويلاً بعد فتح إنجلترا روحيًا. ولكن إذ فرغت قوته من جراء الأعمال العظيمة التي قام بها توفي سنة ٦٠٤م. وقد أكد لأصحابه أن انتظار الموت هو تعزيته الوحيدة، وكان يطلب منهم أن يصلوا إلى الله لكي يخلصه من آلام الجسد.

كان سلوك غريغوري في مدة الثلاث عشر سنة ونصف التي كان فيها أسقفًا لروما سلوكًا يدل على غيرة وإخلاص يندر أن نرى مثلهما في تاريخ الكنيسة الرومانية. فقد كان محبًا لعمل الخير منكرًا للذات في كل ما كان يعتقد أنه خدمة لله أو واجب يؤديه نحو الكنيسة والإنسانية. ومجموعة خطاباته التي تبلغ الثمانمائة والخمسين تقريبًا هي أكبر شاهد على مقدرته ونشاطه في جميع شؤون البشر وكافة مرافق الحياة. قال روبرتسن عنه إنه "كان يلاحظ الشئون العظيمة والحقيرة في وقت واحد، فمن معاملة البطاركة والملوك والأباطرة بخصوص أعظم مهام الكنيسة والحكومة، إلى الإشراف على مزرعة أو النظر في التماس وإنصاف مظلوم، وذلك بدون الاعتماد على رجاله الكهنة إلا فيما ندر. فكان يظهر كبابا وكحاكم وكأسقف وكصاحب أملاك في وقت واحد، يأخذ نصيبًا وافرًا في حماية البلاد وفي هداية الوثنيين وفي مصالحة المخالفين... إلخ"(٢/٣١).

ولكن مع وجود كل هذه الفضائل في غريغوري فقد كان متأثرًا تأثرًا كبيرًا بمبادئ وروح العصر الذي عاش فيه. فقد كانت روح إيزابل قد ابتدأت العمل جهارًا، حتى أنه ندر وجود البساطة المسيحية في كنيسة الله في ذلك الوقت. إننا لا نشك في تقوى غريغوري، ولكن كيف كانت حالته كرئيس الإكليروس؟ كان متشبعًا تمامًا بأوهام كرسي بطرس الرسول وغروره ومطالبه، حتى أنه لم يكن يحتمل أن يناظره مناظر، كما نرى ذلك في مقاومته العنيفة لادعاءات يوحنا أسقف القسطنطينية، وكما نراه أيضًا بصورة أفظع في فرحه بقتل الإمبراطور موريس وعائلته

بواسطة فوكاس المخادع، وذلك نظرًا لاتهامه هذا الإمبراطور بالهرطقة. ويظهر أن موريس هذا كان معضّدًا ليوحنا في مطالبته بلقب أسقف عام، الأمر الذي اعتبره الأسقف الروماني جريمة كبرى. فلما حصلت مأساة قتل ذلك الإمبراطور شمت الأسقف، لأنه اعتبر ذلك من تدبير العناية لتحرير الكنيسة من أعدائها. ويبدو أن ينابيع العاطفة قد جفت من قلب كل من جلس على الكرسي البابوي تجاه كل مُناظر له من رجال الإكليروس. فالعدل والإنسانية والإخلاص، وكل عاطفة مسيحية صحيحة، كان يجب أن تخضع لمطالب الكنيسة الباطلة. من ثم نرى غريغوري نفسه كان من الخاضعين لفساد «المرأة إيزابل».

تجاوزات غريغوري

نرى في صفحات غريغوري مزيجًا من الطموح والاتضاع، ومن الخرافة والإيمان. وكان هذا المزيج الغريب بلا شك ناتجًا عن مركزه الباطل الذي كان يشغله، حتى أنه يتعذر علينا أن ندرك كيف أن رجلاً ذا إيمان وشعور صحيحين تصل به درجة الانحدار في الخرافة لأن يعتقد بعمل المعجزات بواسطة آثار القديسين، وأن يلتجئ إلى تلك الأمور لتثبيت صدق الكتاب المقدس. ولكن الحقيقة المُرة هي أن تقدم كنيسة روما كان هو الغرض الذي وضع الغشاوة على عيني ذلك البابا عوضًا عن أن يكون مشغولاً بتقدم مجد المسيح. يقول بولس الرسول «أفعل شيئًا واحدًا» ويقول في موضع آخر: «أعرف شيئًا واحدًا». فيجب أولاً أن نعرف أننا مقبولون ومصالَحون، ثم أن نعمل الأشياء التي ترضي المسيح، لأن هذه هي دعوة المسيحي السماوية العليا: «لأعرفه وقوة قيامته... متشبهًا بموته... ولكن أفعل شيئًا واحدًا إذ أنا أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام، أسعى نحو الغرض، نحو جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع» (في٣: ١٠-١٤). هذه كانت، ويجب أن تكون دائمًا روح المسيحية الصحيحة وأشواقها. ولكن ماذا نرى في ختام القرن السادس؟ ما هو الشيء الواحد الذي كان أمام غريغوري؟ من الواضح أنه لم يكن أمامه مطالب المسيح السماوي والتشبه بآلامه وموته وقيامته، ولكن الغرض الوحيد الأعظم من حياته الجهارية كان بالتأكيد أن يثبِّت الأسقفية العامة لروما بدون مُنازع. ولكي يصل إلى هذه الغاية كان يعمل على تحقيق مطالب الإكليروس الروماني بواسطة الوثنية والفساد، عوضًا عن أن يقود النفوس إلى الفرح في شخص المسيح وطرقه، كما كان يفعل بولس، ولم يخل الأمر من استعمال روح الاضطهاد أيضًا.

امتدت الرهبنة وتقدمت تحت رعاية غريغوري، ولا سيما حسب قوانين بندكت. ثم أنه علّم أو صرح بتعليم الاعتقاد بالمَطهَر، واحترام آثار القديسين والسجود لصور وتماثيل القديسين والشهداء، ومزايا الحج إلى الأماكن المقدسة، وكل ما يتعلق بالنظام الإكليريكي. وهذه بلا مراء صورة واضحة لتعليم بلعام وفساد إيزابل.

• • •

سنتأمل في القرن السابع، حيث بدأت العصور المظلمة ظلامها الكثيف، وحيث ابتدأت البابوية تتخذ شكلاً محددًا. وإذ قد وصلنا في تاريخنا إلى ختام أحد العصور المسيحية وبداية عصر آخر، يجدر بنا أن نقف لحظة وننظر نظرة عامة إلى تقدم الإنجيل في البلدان المختلفة.

الفصل الرابع عشر

انتشار المسيحية في ربوع أوربا

إن النظام الإكليريكي الذي أدخله الرهبان الإيطاليون إلى إنجلترا انتشر بسرعة ولاقى نجاحًا كبيرًا، حتى أنه في ظرف مائة سنة من وصول أغسطنيوس كان هذا النظام معترفًا به في بريطانيا الأنجلوسكسونية جميعها. وإذ تأسست الكنيسة الإنجليزية على النظام الروماني كان لا بد لها أن تكون معتمدة على روما. وقد ساعد الرهبان والراهبات والأساقفة والأشراف والأمراء الإنجليز على تقوية هذا الاتحاد في بداية عهده، وذلك بكثرة حجّهم إلى روما لزيارة قبر بطرس الرسول. ولم ينجح المرسلون الرومان في أية مملكة من الممالك بمقدار نجاحهم بين الانجلوسكسون، مع أن أولئك كانوا يعتبرون أشرف قوم في العنصر التيوتوني. أما الكهنة البريطانيون فمع أنهم تمسكوا بطرقهم القديمة وقاوموا النظام الأجنبي إلا أنهم اضطروا إلى الاعتزال في أطراف البلاد، وهكذا ساد النظام الروماني على إنجلترا بأكملها.

يظهر أن اسكتلندا وأيرلندا قد وصلت إليهما بركة المسيحية في نفس الوقت الذي وصلت فيه إلى بريطانيا. فقد نادى الجنود والبحارة والمرسلون والمسيحيون المضطهدون الذين أتوا من الجنوب بالإنجيل في تلك البلاد وآمن كثيرون. ولكن بالنظر إلى أن التاريخ الديني الأول لهاتين البلدين كان مملوءًا بالقصص الخرافية، فإننا نكتفي بالإشارة إلى الأسماء والحوادث الثابتة والمحققة.

المبشرون الأول بالمسيحية في أيرلندا

يقال أن باتريك، رسول أيرلندا ولد حوالي سنة ٣٧٢م على شواطئ نهر كلايد، ويظن أن كلباتريك قد سميت باسمه. كان أبواه مسيحيين مخلصين، وكان أبوه شماسًا وجده شيخًا، وأمه التي حاولت أن تغرس في قلبه التعاليم المسيحية هي أخت مارتن المشهور رئيس أساقفة تورز، ولكنه لم يظهر في وقت حداثته اهتمامًا ولا ميلاً لقبول تلك التعاليم. وبعد ذلك بمدة من الزمن ترك أبواه اسكتلندا وسكنا في بريطانيا. وعندما بلغ سن السادسة عشر كان يلعب ذات يوم مع أختيه على شاطئ البحر فأتى بعض القراصنة الأيرلنديون وحملوهم في قوارب وباعوهم كأسرى في أيرلندا، حيث ظل ست سنوات مستخدمًا في رعاية الماشية.

وفي زمن استعباده هذا قاسى صعابًا كثيرة، ولكن خطيته قد تبدت له، فأصبح مهتمًا ومفكرًا بالأمور الدينية. وقد تعذب ضميره كثيرًا ليلاً ونهارًا بسبب خطية كبيرة كان قد ارتكبها في سن الخامسة عشر، فصلى كثيرًا وبكى كثيرًا حتى أنه أصبح لا يشعر بالبرد ولا بالأمطار والصعاب التي كان يجتازها، وذلك نظرًا للحرارة التي في نفسه. وقد تذكر في ذلك الوقت وطنه والكلمات الرقيقة والصلوات الحارة التي كان يسمعها من أمه، وقد استخدم الله بنعمته هذه الذكرى لبركة نفسه فولد ولادة ثانية. وقد قال عن نفسه: "لما كنت في سن السادسة عشر لم أكن أعرف الإله الحقيقي، ولكن في تلك البلاد الغريبة فتح الرب عيني ذهني. ومع أن ذلك كان متأخرًا، ولكني تذكرت خطاياي ورجعت بكل قلبي إلى الرب إلهي الذي نظر إلى مذلتي وعطف على جهلي وشبابي، وعزاني كما يعزي الأب ابنه. وهكذا ازدادت محبة الله في أكثر فأكثر مقترنة بالإيمان ومخافة اسمه. وقد كنت محصورًا بالروح لدرجة أنني كنت أقدم نحو المائة صلاة في اليوم الواحد. وأثناء الليل في الغابات والجبال حيث كنت أرعى القطيع، كان المطر والثلج والصقيع والآلام التي قاسيتها تدفع نفسي لطلب الله. وفي ذلك الوقت لم أكن أشعر بالفتور الذي أشعر به الآن لأن الروح القدس كان ملهبًا قلبي"[٤٤/٥].

لو صح أن تلك الكلمات نطق بها باتريك لكان فيها شهادة لحق الإنجيل أنقى بكثير مما نستطيع أن نجده في كنيسة روما. فهي تمثل لنا حالة نفس مدرّبة في الشركة المتينة مع الله نفسه، تلك الشركة التي يشوّه جمالها الطقوس والكهنوت الروماني فتحرم النفس من الاتصال الشخصي المباشر مع الله ومع مسيحه بنعمة الروح القدس وقوته. ولا شك أن مسيحية الجزر البريطانية كانت صحيحة غير مشوبة قبل أن يفسدها رسل البابوية.

وعلى مر الزمن نال باتريك حريته، وبعد سياحات كثيرة بشر في أثنائها، عاد إلى عائلته، ولكنه شعر برغبة قوية في نفسه للرجوع ثانية إلى أيرلندا ليبشر بالإنجيل القوم الوثنيين الذين في وسطهم عرف مخلّصه. وعبثًا حاول أبواه وأصدقاؤه أن يمنعوه عن ذلك، فسافر إلى أيرلندا بقلب مملوء من الغيرة المسيحية، متغلبًا على كل العقبات التي قامت في وجهه. وكان عمره آنذاك يربو على الأربعين سنة، وحسب رواية بعض الكتاب كان مرسومًا شيخًا. وقد سمي بعد ذلك بالقديس باتريك، وكرس حياته الباقية للأيرلنديين، فعمل بينهم، وأحرز نتائج عظيمة بالرغم من الصعوبات والأخطار الكثيرة التي قابلها، وإليه يُعزى اهتداء أيرلندا. أما سنة وفاته ليست محققة.

غيرة أيرلندا التبشيرية

بعد سنوات ظهرت الثمار المباركة لمجهودات القديس باتريك، إذ وُصفت أيرلندا في ذلك الوقت بأنها مركز للسلام والتقوى، وقد ذاع صيتها بصحة التعاليم الكتابية، حتى أنها سميت بهذا اللقب المشرف "جزيرة القديسين". على أن مجهودات الإكليروس الأيرلندي لم تقتصر على داخل البلاد، فإذ كانوا بطبيعتهم مغرمين بالانتقال والتجول، وزاد هذه الرغبة محبتهم للنفوس، كان يهاجر الكثيرون منهم مكوّنين إرساليات تحت قيادة أحد رؤساء الأديرة الأتقياء المحبوبين. ويقال على وجه العموم إن الأديرة في ذلك الوقت كانت مملوءة من الرهبان الأتقياء، حتى إنهم لم يجدوا في بلادهم المتسع الكافي لإشباع غيرتهم، فشعروا أنه من واجبهم أن يمارسوا تلك الأعمال في البلاد الأخرى. ومن ثم نرى مقدار عمل نعمة الله في أولئك القوم القساة بشكل أوضح مما نراه في أي موضع آخر في الدائرة المسيحية. فما أمجد اسم الرب وما أعظم نعمته!

ولنأخذ الآن مثالاً نرى فيه عمل تلك النعمة، وهو:

إرسالية كولومبا

كان كولومبا رجلاً تقيًا من سلالة ملكية مملوءًا أعمالاً صالحة. وقد شعر بضرورة نقل الإنجيل إلى البلاد الأخرى، ففكر في اسكتلندا، وقرر أن يزورها. وإذ عرض عزمه هذا على بعض إخوته المسيحيين، دخلوا معه في المشروع، واتفقوا على القيام بالإرسالية. وحوالي سنة ٥٦٥م أبحر كولومبا برفقة اثني عشر شخصًا في قارب مكشوف مغطى بالجلود. وبعد أن لاقت تلك الإرسالية النبيلة صعوبة كبرى في ذلك القارب الصغير، وصلت إلى الجزر الغربية، وهي عدة جزر بجانب شاطئ اسكتلندا الغربي، تسمى جزائر الهبريدز. ثم أقاموا في جزيرة صغيرة تسمى أيونا حيث أسسوا فيما بعد ديرًا مشهورًا في تاريخ الكنيسة. وقد حفظ التقليد تذكارًا على الشاطئ الذي وصلوا إليه في صورة بوابة عليها شبه قارب مقلوب على شكل القارب الذي وصل فيه الرهبان الأتقياء. وسنتكلم فيما بعد عن رهبان أيونا، ولكننا نستأنف الآن الكلام عن أيرلندا.

كان كولومبانوس راهب آخر على جانب عظيم من التقوى، ولد في لينستر وتدرب في دير بانجور العظيم على شاطئ أولستر، حيث كان ثلاثة آلاف راهب يتدربون تحت إشراف كومجال مؤسس هذا الدير. ويبدو أن كولومبانوس ترك صومعته بعد كولومبا بنحو ثلاثين سنة. وقد كانت كنيسة أيرلندا في ذلك الوقت لا تزال حرة لم تستعبد بعد لكنيسة روما، فكان المسيحيون بسطاء ومخلصين في مسيحيتهم بالمقابلة مع الطقوس والكهنوت والروح البابوية. ولكن بالنسبة لبساطة المسيحية في العصر الرسولي فقد كانوا بعيدين، إذ لم تكن كلمة الله هي قائدهم الوحيد. ويمكننا أن نقول إن المسيحية لم تبق في العالم ستمائة سنة دون أن يدخلها كثير من التعاليم الفاسدة. فقد جازت في حوادث كثيرة لها أهمية كبرى في تاريخ الكنيسة. وقد كانت الغنوسية والأريوسية والبلاجية والرهبنة من الشرور الكبرى في تلك الأيام الأولى. ولكن الرهبنة كانت هي الأكثر شيوعًا في ختام القرن السادس.

صفات الراهب الممتاز

كانوا يعتقدون في ذلك الوقت أن الشخص الممتاز في التقوى التنسكية يعمل المعجزات، ويتكلم بالنبوات، ويتمتع بالرؤى والإعلانات، وكان يحاط برهبة التقديس، حتى أنه لم يكن أحد يجسر

أن يمس رجل الله. وكان يخرج من صومعته الحقيرة كأنه آت من عالم آخر تكسو جسمه وثيابه طبقة من التراب والرماد، وكان يوبّخ الملوك بكل جراءة على ذنوبهم ويواجه أعظم الجبابرة الظالمين، ويهدد بقلب الدول ويعتبر نفسه فوق جميع المقامات العالمية.

هكذا كان كولومبانوس الذي أبحر مع جماعة من الرهبان من أيرلندا حوالي سنة ٥٩٠م معتزمًا أن يبشر بالإنجيل وراء الأملاك الفرنسية. ولكنه نزل في بلاد الغال، فسمع بتقواه جونترام، ملك برغندي، فاستدعاه ليسكن في بلاده. ولكن الراهب رفض هذه الدعوة والتمس أن يؤذن له بالاعتزال في إحدى البراري النائية. وقد عانى هؤلاء المرسلون صعوبات جمة في بادئ الأمر، إذ كانوا يقضون أيامًا بغير طعام سوى الأعشاب البرية ولب الأشجار، وقليل من أسماك الجداول، ولكنهم شيئًا فشيئًا أثروا تأثيرًا حسنًا في نفوس الناس المجاورين، فكانت جميع الطبقات تتطلع إليهم باحترام، وكانوا يرسلون إليهم المؤونة اللازمة، ولا سيما من كانوا يرغبون في الانتفاع بصلواتهم المقدسة. وسرعان ما جُعلت تقوى ذلك الراهب وما نُسب إليه من أعمال معجزية الكثيرين يلتفون حوله. ومن ثم تأسست أديرة في أماكن مختلفة وامتلأت بجموع المتطوعين. وقد أخذ كولومبانوس مركز الرئاسة على جميع تلك الأديرة، فكان يلاحظ بنفسه الأشغال والمطالعة وأوقات الصلاة والغذاء وتوقيع العقوبات. ولكنه أخيرًا وقع في خلاف مع مجاوريه بخصوص ميعاد عيد القيامة. فكتب في هذا الموضوع إلى البابا غريغوري وإلى بونيفاس، معتبرًا كنيسة أورشليم فوق كنيسة روما لأنها مركز قيامة الرب. وقد اشتغل كولومبانوس أيضًا في متز وسويسرا وإيطاليا، وأسس أديرة عديدة، ثم مات في روما سنة ٦١٠م.

وقد خلفه مواطنه القديس جول الشهير الذي رافقه في جميع أسفاره. ولكنه إذ كان مريضًا لما سافر سيده إلى إيطاليا، بقي في هلفاتيا ولم يرافقه إلى هناك. وقد بشر القوم بلغتهم الخاصة وأسس الدير المشهور باسمه، كما سمي تكريمًا له "رسول سويسرا" ثم توفي سنة ٦٢٧م. ومنذ عهد القديس باتريك إلى منتصف القرن الثاني عشر استمرت كنيسة أيرلندا محافظة على استقلالها عن روما شاغلة مركزها كغصن حي عامل في الكنيسة، غير معترفة برئاسة أرضية(١/٣٨).

ولنتكلم الآن عن اسكتلندا.

أول المبشرين بالمسيحية في اسكتلندا

قبل وصول كولومبا إلى جزيرة أيونا بنحو ١٥٠ سنة، بشر القديس ننيان بالإنجيل في المقاطعات الجنوبية لاسكتلندا. وكان هذا المرسل رجلاً تقيًا من بريطانيا ومن نسل ملكي مثل كثيرين من القديسين في الأزمنة الأولى، وقد تتلمذ في روما على يد القديس مارتن أسقف تورز المشهور، وإذ رجع إلى اسكتلندا أقام في جالوواي.

وإذا اعتمدنا على رواية المؤرخين الذين كتبوا عنه، فإنه ذهب إلى كل مكان مبشرًا بالكلمة، وأن المتوحشين العراة أصغوا إليه واندهشوا ثم اهتدوا. وقد أسرع ننيان بالقيام بالعمل الذي أرسله إليه الروح القدس بأمر الرب، ولما رجع إلى بلاده عمل على اتحاد الشعب وأنشأ فرحًا وتعبدًا في قلوب الجميع، وتمجد اسم المسيح في كل مكان، حتى كان عند البعض كنبي. وبمجرد دخول ذلك العامل الأمين في حقل الرب ابتدأ يقتلع كل غرس رديء ويفرق كل اجتماع مضر، ويهدم كل بناء مخل. ويقال إن ألوفًا قد اعتمدوا وانضموا إلى جيش المؤمنين.

وقد شرع في بناء كنيسة بالحجر على شاطئ سولواي، وقبل إتمامها علم بوفاة صديقه وأستاذه القديس مارتن فدشن الكنيسة على اسمه. ويقال إن هذا هو أول بناء شُيد بالحجارة في اسكتلندا، وقد كان منظره اللامع ملفتًا للأنظار بالمقابلة مع الأكواخ المصنوعة من الخشب والطين التي كانت مستعملة إلى ذلك الوقت(١/٤٥).

ولا نعلم شيئًا عن خلفاء القديس ننيان المباشرين، حتى قامت إرسالية كولومبا. ولكننا واثقون أن الرب لا بد تعهد النار التي أضرمها وحافظ على انتشار حق الإنجيل الذي قبله كثيرون. ولكن بإرسالية كولومبا يبتدئ العصر المهم في تاريخ اسكتلندا الإكليريكي القديم.

سبق أن رأينا كولومبا وجماعته يقيمون في جزيرة أيونا، حيث بنى كولومبا هناك ديره. وقد اشتهرت تلك الكلية حتى أنها ظلت معتبرة أعوامًا، بل قرونًا، منارة العالم الغربي، ومنها كان يرسل كثيرون من العلماء ورجال التقوى لتأسيس جامعات وأسقفيات في جميع أنحاء أوربا. وقد عاش كولومبا ٣٤ سنة مشتغلاً في هذا العمل المنفرد، وكان بين آن وآخر يزور داخلية البلاد عاملاً عمل المبشر وسط البكتيين والاسكتلنديين المتبربرين، ومؤسسًا للكنائس، وتاركًا

تأثيرًا على جميع طبقات الناس. ولكن غرضه الرئيسي كان تدريب أناس على عمل التبشير داخل الوطن وخارجه، وبذلك تكونت بلا شك رابطة متينة بين شمالي أيرلندا، وشرقي اسكتلندا.

في أواخر القرن السادس وأوائل السابع ابتدأ المبشرون يفدون من أديرة أيونا حاملين نور المسيحية ليس إلى مختلف أنحاء اسكتلندا فقط بل إلى إنجلترا وأوربا بأجمعها. وقد وصل أغسطينوس ورهبانه الإيطاليون إلى "كنت" قبل وصول إيدان الذي من أيونا ورهبانه إلى نورثمبرلاند بزمن قصير، وهكذا تم الفتح المسيحي لإنجلترا من طرفيها.

إرساليات أيونا

كان أزولد ملك نورثمبريا مسيحيًا، وكان قد اهتدى واعتمد واشترك في الكنيسة الاسكتلندية أيام أن كان شابًا منفيًا في تلك البلاد. ولما رجع إلى عرش آبائه كان بطبيعة الحال ميالاً أن شعبه يهتدون إلى معرفة المخلّص. وقد أتت إرسالية برئاسة إيدان بناء على طلبه من شيوخ أيونا، فاختار لهم الملك جزيرة لندسفارن ليسكنوا فيها، وهناك عاشوا حسب قواعد الرهبنة ونظام أيونا. وقد أتى كثيرون إلى الدير الجديد من اسكتلندا وأيرلندا، وقد ساعد الملك بغيرة على انتشار الإنجيل أوقاتًا كمبشر وأخرى كمترجم، إذ كان قد تعلم اللغة السلتية في منفاه. وقد شهد بيد بفضائل رجال الدين هؤلاء شهادة قلبية مع أنه كان رومانيا في اعتقاده، فقال "إنهم اتصفوا بالغيرة واللطف والتواضع والبساطة والاعتكاف على درس الكلمة وإنكار الذات، والجراءة في التكلم مع العظماء، والرقة والعطف على الفقراء، والدقة في الحياة اليومية..."(٢/٣١).

ويظهر أن هداية النفوس قد نجحت على يدي كل من أغسطينوس وإيدان. فالرهبان الإيطاليون نشروا تعاليمهم في الجنوب والجنوب الشرقي من المملكة، بينما الرهبان الاسكتلنديون نشروا حقائق الإنجيل بشكل أوضح وأبسط في الشمال والشرق والمقاطعات الداخلية. وهكذا التقت روما وأيونا في الحقل الإنجليزي، فلم يكن هناك مفر من اصطدامها في نقطة الرئاسة. فأغسطينوس الذي رسمه البابا رئيس أساقفة إنجلترا طلب من الرهبان السلتيين أن يتبعوا النظام الروماني، الأمر الذي رفضوه بشدة ودافعوا بثبات عن نظام وقوانين أيونا. ومن ثم نشأت منازعات، لأن روما لا تستطيع أن تخضع لأي مناظر، بل وطدت العزم على أن تقبض على ناصية إنجلترا.

بعد موت أزوالد التقي جلس على العرش أخوه أوزوي الذي اهتدى إلى المسيحية واعتمد في اسكتلندا أثناء أسره، ولكن زوجته كانت متمسكة بتعاليم روما فأثرت على العائلة، وهكذا نشأت قوة كبيرة ضد الرهبان الاسكتلنديين الذين إذ تعبوا من الحملات المستمرة التي أثارها ضدهم رجال البابا الدينيون والعلمانيون، عزموا أخيرًا على ترك إنجلترا والرجوع إلى أيونا. على أن الجزء الأكبر من البلاد، وهو الأهم بما لا يقاس، اهتدى إلى المسيحية بواسطة مساعي أولئك الرهبان. غير أن انتصار روما في مجمع هوايتباي سنة ٦٦٤م بسبب دهاء الكاهن ولفرد أدخل إلى نفوسهم اليأس حتى انسحبوا من الميدان بعد أن احتلوه نحو ثلاثين سنة. قال لهم ولفرد "مهما يكن من قداسة رئيسكم كولومبا هل تفضلونه على رئيس الرسل الذي قال له المسيح «أنت بطرس .. وأنا أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات؟»". وكان أوزوي الملك حاضرًا المجمع واعترف بالخضوع لبطرس الرسول، لأنه خاف أن لا يجد من يفتح له عندما يذهب إلى أبواب السماء. وعندئذ حذا الشعب حذو مليكهم. وفى وقت قصير أصبحت إنجلترا بأكملها خاضعة لروما. ولم تتفوق البابوية في تلك العصور المظلمة الخرافية إلا لأنها نسبت إلى بطرس ما يتعلق بالرب المبارك نفسه «الذي يفتح ولا أحد يغلق ويغلق ولا أحد يفتح» (رؤ٣:٧). إذ لم تكن الحجة ولا التهديد ولا الازدراء لتؤثر على أساقفة الشمال فرفضوا الاعتراف بأية علاقة ببابا روما. فكانت اسكتلندا حرة من نيره وكانت المسألة العظمى عند الرومانيين هي كيف يخضعوها، فابتدأ الكهنة يعملون بمساعدة الأمراء، وبهذه الكيفية وصلوا إلى غرضهم.

من بين مواضيع النزاع التي قامت بين المرسلين الإيطاليين والسلتيين موضوع يوم عيد القيامة، والشكل الصحيح للزي الإكليريكي. فإن هذين الموضوعين قد أنشأ منازعات حادة ومجادلات محتدمة أدت أخيرًا إلى سقوط كنيسة اسكتلندا وانتصار كهنة روما. ولما كنا قد تكلمنا عن موضوع عيد القيامة بالارتباط مع مجمع نيقية نبدي الآن بعض الملاحظات عن النزاع الخاص بالزي الإكليريكي.

لا شك أنه يبدو غريبًا للقارئ البروتستانتي الشاب، الذي ربما لم يكن قد رأى كاهنًا كاثوليكيًا رافعًا عمامته، أن يعلم أن حلق قمة رأس

الكاهن كان من المسائل الرئيسية في رسامته وأكثر أهمية من مسألة تعليمه وتقواه، وأن الكيفية التي حلق بها رأسه كانت وحدها معتبرة امتحانًا هامًا لمعرفة صحة إيمانه. فالرهبان الإسكتلنديون اتبعوا كنائس الشرق في ممارسة عيد القيامة وكيفية حلق الرأس، فكانوا يحلقون مقدم الرأس من الأذن إلى الأذن على شكل هلال، وكان الشرقيون يتخذون يوحنا وبوليكارب كمثال وحجة لهم، بينما اعتبرهم الإيطاليون متبربرين وسموا طريقة حلق الرأس التي يستعملونها "طريقة سيمون الساحر". أما الكهنة الرومانيون فاستعملوا طريقة الحلق المستديرة، فكانوا يحلقون بقعة صغيرة مستديرة في قمة الرأس ويزيدون اتساع هذه البقعة كلما ارتقى الكاهن في وظيفته.

كان أغسطينوس وخلفاؤه من إكليروس كانتربرى يتبعون كتابات الآباء الأقدمين ويقررون أن مسألة حلق الرأس أدخلها أولاً رئيس الرسل، وذلك إكرامًا لإكليل الشوك الذي وُضع على رأس المخلّص، وأن الأداة التي اتخذها اليهود لتعذيب المخلص يليق بها أن تكون علامة تكريم ومجد لرسله.

وقد اشتدت تلك المنازعة لمدة أكثر من قرن، وامتدت إلى حد أنه كان يُحكم على الإنسان بالهرطقة من عدمها بواسطة رؤية طريقة حلقه مقدم الرأس أو قمته.

وقد امتلأت روما بالغضب وظهر أن الوسائل البشرية كانت غير كافية للتغلب على جماعة الكهنة المساكين الموجودين في زاوية جزيرة بريطانيا، إذ رفض أولئك الكهنة أن يخضعوا لروما. فماذا تعمل هذه الأخيرة؟ تمد يدها للاستعانة بالأشراف والأمراء. فأثرت على نايتام ملك البكتيين، حتى اعتقد أنه إذا خضع للبابا يكون معادلاً لكلوفس وكلوتير. وإذا انخدع بأمل الحصول على هذه العظمة، أوصى جميع الكهنة الذين في مملكته بأن يتبعوا طريقة بطرس الرسول في حلق الرأس. وفى الحال أرسل رسلاً وخطابات إلى كل المقاطعات، يأمر جميع الرهبان في الأديرة أن يتبعوا طريقة حلق الرأس المستديرة حسب النظام الروماني. على أن بعضهم رفضوا، وتمسك الشيوخ بالرفض وقتًا. ولكن أوامر الملك ومثال الكهنة وضعف البعض منهم في الداخل أدى إلى انهزام أيونا واسكتلندا. وفى بداءة القرن الثامن اتبعوا نظام حلق الرأس اللاتيني وأصبحوا عبيدًا لروما وظلوا هكذا حتى وقت الإصلاح[٤٤/٥] [٤٥/١].

الكلديون

الكلديون هم نُساك متوحدين كانوا يعيشون في مكان منعزل، ثم أطلق على المسيحيين في أيونا اسم "كلديين". ولربما كان هذا هو السبب في أن كولومبا اختار هذا الموضع المنعزل كمقر لديره. ومع أن تلاميذ كولومبا كانوا منفصلين تمامًا عن فساد أديرة أوربا، ولكنهم كانوا يعيشون عيشة تنسكية. وتوجد أدلة تثبت أنهم كانوا يحترمون آثار القديسين، ويؤدون عقوبات التكفير، ويصومون أيام الأربعاء والجمعة، ويمارسون الاعتراف ومنح الغفران، ويقيمون قداديس لأجل الأموات. ولكن من المؤكد أنهم لم يخضعوا قطّ للمنشورات البابوية بخصوص العزوبة. فقد كان بعض منهم متزوجون، والقديس باتريك نفسه كان أبوه شماسًا وجده كاهنًا[٤٥/١].

ومع أن هؤلاء الرجال الأتقياء الصالحين كانوا متأثرين بخرافات ذلك الزمان، إلا أنهم كانوا محفوظين من التأثيرات الرومانية، ومن فساد الأديرة الأخرى لبعد أماكن أقامتهم وبساطة معيشتهم وفقر بلادهم. ويمكننا أن نسمي ذلك الدير مدرسة لتدريب الناس على عمل الخدمة. على أنه في سنيين لاحقة أزعج اللصوص رهبانه، وذبحوا أناسًا منهم. وفى القرن الثاني عشر انتقلت أيونا إلى حيازة الرهبان الرومانيين، وإذ ذاك خمد صيتها بالتقوى والعلم، ولكن حفظت لها ذكرى طيبة، ثم صارت موضوع اعتبار الكثيرين للخرافات التي شاعت عنها. وقد كانت يومًا مقبرة للأسر الملكية، ثم صار يحج إليها الملوك والعظماء يتبرعون لها بالأموال والأملاك، ويقدمون لها العشور. والأسوار التي شيدت قديمًا صارت آثارًا مقدسة الآن، والزائر يراها أطلالاً تقف وسط المحيط كما تقف آثار الأقصر نصف مدفونة تحت بحر الرمال.

ولنترك تاريخ الجزر البريطانية قليلاً لنتأمل في غيرها.

انتشار المسيحية في ألمانيا وما حولها

• من المرجح كثيرًا أن المسيحية وصلت إلى قلب الغابات الألمانية في عهد مبكر، كما وصلت إلى المقاطعات التي كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية. وقد وردت أسماء كثيرين من الأساقفة الألمان في قوائم مجمعي روما وأرليس، اللذين عُقدا بأمر قسطنطين في سنتي ٣١٣، ٣١٤ م. ومع مطلع القرن السابع كانت المسيحية قد

انتشرت وتأصلت في تلك البلاد. وقد استخدم الرب البريطانيين والإسكتلنديين والأيرلنديين كآلات في يده لهذا العمل المبارك. وقد كان كولومبانوس، الذي تكلمنا عنه في إرساليته، قائدًا لأول إرسالية ذهبت لمعونة الوثنيين في قارة أوروبا. فذهب أولاً إلى فرنسا، ثم عبر نهر الرين واشتغل في هداية نفوس كثيرين من الأمم الألمانية. ثم تبعه القديس كيليان، وهو مبشر إسكتلندي تقي-يعتبر رسول فرانكونيا، قتل أخيرًا شهيدًا لأمانته المسيحية في سنة ٦٩٢م. ثم قام وليبرورد مع أحد عشر مبشرًا من مواطنيه الإنجليز بإرسالية إلى هولندا، ولكنه كان مخلصًا للإكليروس الروماني كغيره من الأنجلوسكسون في ذلك الوقت، وقد رسمه البابا أسقفًا لويتبرج. أما زملاؤه فنشروا الإنجيل في وستفاليا والبلدان المجاورة لها.

ولكن الرجل الذي قاد الأمم الألمانية كقطيع من الغنم إلى الحظيرة الرومانية هو ونفريد الشهير. وقد ولد من عائلة شريفة وغنية في مقاطعة ديفونشير سنة ٦٨٠م. وفى سن السابعة دخل ديرًا في إكستر، ثم نقل إلى نرسلنج في هامشير، وهناك اشتهر بمقدرته في التبشير وتفسير الكتاب. ثم شعر بدعوة الله له في باكورة حياته بأن يقوم بإرسالية تبشيرية للوثنيين، فأقلع إلى فريسيا سنة ٧١٦م. وكانت أعماله كثيرة استغرقت زمانًا طويلاً. وقد زار روما ثلاث مرات وحصل على رتب من البابا، وأخيرًا مات شهيدًا في سن الخامسة والستين وأعطي لقب "القديس بونيفاس رسول ألمانيا". ومع أنه كان مبشرًا ناجحًا، ورجلاً على جانب عظيم من العلم والتقوى، إلا أنه كان يسعى إلى تقدم كنيسة روما أكثر من سعيه إلى تقدم إنجيل المسيح.

إن انتشار الإنجيل في ذلك القرن فاق كثيرًا انتشاره في القرون السالفة في كل من البلاد الشرقية والغربية، وقد رأينا شيئًا من انتشاره في الغرب. أما في الشرق فيقال إن النساطرة اشتغلوا بجد ومثابرة في نشر حق الإنجيل في بلاد الفرس وسوريا والهند وبين القبائل الهمجية القاطنة في صحاري آسيا وشواطئها النائية. وعلى الأخص استنارت إمبراطورية الصين الفسيحة الأرجاء بنور المسيحية بواسطة مجهوداتهم وغيرتهم. وقد استمر بطريرك النساطرة بعد ذلك قرونًا عديدة يرسل أسقفًا بعد أسقف لرئاسة كنائس الصين. ولكن هؤلاء القوم المدهشين رفضوا السجود للتماثيل كما رفضوا الاعتراف، والتعليم بالمطهر، وكثيرًا غير ذلك من التعاليم الفاسدة التي للكنيسة الرومانية والكنيسة اليونانية.

ويظهر أن الكنيسة الشرقية، أو اليونانية، قد انشغلت بالمنازعات الداخلية عن الاهتمام بنشر المسيحية بين الوثنيين. أما في الغرب فكان النشاط عظيمًا، ولكن بالأسف ليس لنشر الإنجيل ولا لهداية النفوس(٢١/٢).

العصر البابوي

نعود الآن إلى روما، فإن أهميتها وتأثيرها كمركز للمسيحية يستدعيان منا اهتمامًا كبيرًا. كانت البلاد الخاضعة للبابا قد امتدت امتدادًا كبيرًا حتى صار في جميع أجزاء الإمبراطورية أساقفة وملوك وشعوب ينظرون إلى روما كأمهم في الإيمان وكالسلطة المسيحية العليا. ولكن مع ارتفاعها إلى ذلك السلطان السامي، كان البابا لا يزال معتبرًا خاضعًا للإمبراطورية الشرقية في ما يختص بعلاقته معها، وهذا ما لم يكن في وسع كبرياء روما ومطامعها أن تطيقه. ومن ثَمّ ابتدأ النزاع العنيف على السلطان السياسي، ودام هذا النزاع طوال القرنين السابع والثامن. وكان هذا عصر الانتقال من حالة الخضوع للسلطة المدنية إلى حالة الاستقلال السياسي. ولكن كانت المشكلة الكبرى التي أمام الفاتيكان هي كيفية إتمام هذا، لأن البابا اعتبر أن السيادة الروحية لا يمكن أن تتم بدون السلطة الزمنية أيضًا.

كان اللمبارديون - وهم أقرب الشعوب المجاورة الذين كان يجزع منهم الباباوات - من جهة، والإمبراطورية اليونانية من الجهة الأخرى، عقبتين عظيمتين في سبيل سيادة البابا الزمنية. على أن سقوط الإمبراطورية الغربية وعدم وجود حكومة أهلية حقيقية أديا بالشعب الروماني إلى أن يتطلع للبابا كرئيسهم الوحيد. وبذلك اكتسب تأثيرًا سياسيًا خاصًا، علاوة على تأثيره الإكليريكي. وقد ساعدت إغارات اللمبارديين كما رأينا، وضعف اليونان، على ازدياد السلطة السياسية في أيدي الباباوات. ولكن هذا كان بحكم الضرورة، وتحت تأثير الظروف، وكانت الولايات الرومانية لا تزال محكومة بواسطة حاكم من قبل الإمبراطورية الشرقية. وكان البابا نفسه، في حالة إساءته إلى الإمبراطور، معرضًا لأن يقبض عليه ويطرح في السجن، كما حصل فعلاً مع البابا مارتن سنة ٦٥٣م، الذي مات في المنفى في السنة التالية.

غرض البابوية الأعظم

كان يزداد وضوحًا كل يوم أنه لا يستتب السلام لروما، ولا تتأصل السيادة الروحية، إلا بسقوط اليونان والقوات اللمباردية في إيطاليا، وبحلول الكهنوت محل هذه السلطات. فكان هذا هو الغرض الأعظم أمام المدعين بأنهم خلفاء بطرس الرسول في المعركة التي كان يجب أن يخوضوا غمارها. ولكن هذا الغرض يشبه كَرْم نابوت اليزرعيلي: إما أن يمتلك بالوسائل المشروعة وإما بالغدر والقوة. ويكفي أن نشير هنا إلى ما قاله أحد المؤرخين بخصوص ذلك، وهو جرينوود: "يوجد دليل تاريخي كافٍ للاعتقاد بأن هذا الغرض تملك في ذلك الوقت تملكًا تامًا على البابوية: إن أملاك الإمبراطور يجب أن تُضم إلى ميراث الرسول بطرس، ولكن كيفية تنفيذ هذا المشروع، وانتشال تلك الأملاك من أيدي العدو اللمباردي، كانت المشكلة الكبرى. ويمكننا القول إن البابوية قد وجهت كل اهتمامها من ذلك الوقت إلى الحصول على ذلك الغرض الواحد"[٤٢].

بيبين وشارلمان

اتجهت أنظار الباباوات شطرًا من الزمان نحو فرنسا كالبلاد التي منها يحصلون على مرغوبهم. والأمة الفرنسية كانت كاثوليكية من بداءة مسيحيتها ولكنها اتصلت بروما اتصالاً أوثق بواسطة بونيفاس الراهب الإنجليزي الذي كان ممتلئًا من روح الاحترام لبطرس الرسول وخلفائه، فبذل كل مجهود بين أساقفة فرنسا وألمانيا لامتداد سلطة الإكليروس الروماني، وكان هذا تمهيدًا لحل المشكلة الكبرى التي تكلمنا عنها.

كان بيبين رئيس قصر شلدريك الثالث ملك فرنسا، كان في يده كل سلطات الحكم ومهام الملكية ما عدا اللقب. ففكر أن الوقت قد حان لإنهاء ملك سيده الملك وأخذ اللقب الملكي لنفسه. وكان حائزًا على قسط وافر من الصفات التي تعود الأشراف والشعب على احترامها في ذلك العهد. فكان رجلاً حربيًا شجاعًا وسياسيًا محنكًا، وقد حاز سلسلة انتصارات باهرة وسّع بها أملاك فرنسا. أما الملك المسكين فكان مجردًا من هذه المواهب فاحتقره الشعب وكانوا يلقبونه "بالغبي". ولكن بيبين كان حكيمًا فتقدم بحذر خطوة بعد خطوة نحو مشروعه، فأرسل سرًا بونيفاس إلى روما لكي يمهد السبيل عند البابا لرسالة بيبين ويوحي إليه كيفية الإجابة عنها. وفي الوقت المعين اجتمع أشراف المقاطعات للمفاوضة في الموضوع فاتفق رأيهم على أن أول شيء يعملونه هو استفتاء البابا عما إذا كان مطلب بيبين مشروعًا أو غير مشروع. فأرسلوا إلى روما اثنين من رجال الإكليروس الموثوق بهم حاملين إلى البابا زخاري هذا السؤال: "هل القانون الإلهي يجيز أن شعبًا محاربًا يعزل ملكًا جاهلاً غبيًا غير كفء للقيام بشيء من مهام الملك ويستعيض عنه برجل أكفأ منه على الحكم، وقد أدى فعلاً خدمات هامة للحكومة؟". فكان جواب البابا جوابًا مختصرًا مفيدًا عاجلاً، فقال "مَن يمتلك شرعًا السلطان الملكي يحق له أن يمتلك شرعًا اللقب الملكي".

كان هذا الجواب بلا شك وفق مرام السائلين. وبيبين إذ حصل على موافقة السلطة الدينية العليا وتأكد من موافقة الشعب تشجع على طلب اللقب الملكي. وفعلاً توّجه بونيفاس أمام مجمع من الأشراف وحكام المملكة في مدينة سواسون سنة ٧٥٢م. وقد دل الطابع الديني لهذا التتويج على ازدياد سلطة الإكليروس. وقد اتبع بونيفاس مراسيم احتفال المسحة عند اليهود، فوقف الأساقفة حول العرش بالمساواة مع الأشراف المسلحين وأعلن بيبين ملكًا على فرنسا. أما شلدريك فخُلع من المُلك وقص شعره الطويل وحلقت رأسه بحسب الطريقة الإكليريكية، ونُفي إلى أحد الأديرة.

مصادقة زخاري على خطة بيبين

كان الدور الذي مثله بونيفاس ورئيسه البابا زخاري في هذه المؤامرة موضوع خلاف كبير بين المؤرخين البابويين والمؤرخين من البروتستانت من حيث لياقته الأدبية، فالكتاب البابويون ناصروا الكهنة المخادعين، والكتاب من البروتستانت لاموا بشدة هذا التصرف. وإذا قارنا بين تصرف الكهنة ومبادئ العهد الجديد لرأينا أنه لم يكن هناك داعٍ للمنازعة بالمرة. ولكن الكهنة كانوا مستعدين أن يضحوا بكل مبدإ صحيح سواء أكان بشريًا أم إلهيًا في سبيل التحالف مع بيبين ضد اليونان واللمبارديين. فالبابا قد أقر اغتصاب حقوق الملوك وكسر قانون الوراثة في الملكية وشجع خادمًا ثائرًا على عزل الملك الشرعي، معتبرًا هذه الأمور صحيحة في نظر الله. كل هذا لأنه رأى في ذلك واسطة لرفع البابوية إلى السلطة الزمنية. هكذا كانت

جرأة وتجديف الإكليروس الروماني في أواسط القرن الثامن. ولينتبه القارئ إلى هذه الحادثة التي تبين صفات البابوية وتُعتبر كمقدمة لادعاءاتها المستقبلة، لأنها أول حادثة لتدخل البابا في حقوق الملوك. وقد استخدم خلفاء البابا زخاري هذه السابقة وتوسعوا في استخدامها في السنين التالية فكانوا يعتبرون أن ملوك فرنسا من ذلك الوقت إنما يمتلكون تيجانهم بسلطة البابا، وأن مصادقة البابا هي التي خولت لهم الحق بأن يكونوا ملوكًا. ولم يكن بيبين والبابا زخاري ليعلما مقدار تأثير تدبيرهما على تاريخ الكنيسة والعالم، إذ كان هذا التدبير الخطوة الأولى والعظمى نحو السيادة الملكية لأسقف روما.

تأسيس الإقطاعيات البابوية

في ظرف أقل من ثلاث سنوات عبر بيبين جبال الألب على رأس جيش جرار وتغلب على اللمباردبين وأرجع أملاك إيطاليا التي كانوا قد اغتصبوها من الإمبراطورية الشرقية. ولاشك أن العدل كان يقضي أن تلك الأملاك ترجع إلى الإمبراطور الذي كان يمتلكها قبلاً أو أن يأخذها بيبين لنفسه، ولكن بيبين لم يعمل هذه ولا تلك، بل قال إنه لم يخض غمار تلك الحرب لأجل أي إنسان بل لأجل بطرس الرسول وحده، لكي يحصل على غفران خطاياه، وعلى ذلك نقل ملكية المقاطعات التي حررها إلى بابا روما. وكان هذا أساس كل الممتلكات الزمنية التي للباباوات.

كان أسطولف ملك اللمبارديين قد حلف لبيبين أن يرجع لبطرس الرسول المدن التي اغتصبها، وعلى ذلك انسحبت الجيوش الفرنسية. ولكن تلك الهبة العظيمة التي وهبها بيبين للبابا كانت حبرًا على ورق، لأن البابا لم يمتلكها فعلاً، لأنه بمجرد أن رجع الملك الفرنسي من عبور الألب عاد أسطولف فرفض إتمام وعده وجمع جيوشه المشتتة واستأنف هجماته على أملاك الكنيسة وأتلف البلاد، حتى وصل إلى أسوار روما نفسها وحاصرها. فاغتاظ البابا من سكوت بيبين ومن غدر اللمبارديين، فأرسل رسلاً إلى الحماة الفرنسيين بكل سرعة عن طريق البحر، لأن العدو كان قد أغلق كل طريق بري، حاملين أول خطاب ذكّر فيه بيبين أنه في خطر الدينونة الأبدية إذا لم يكمل الهبة التي تبرع بها لبطرس الرسول. ثم الخطاب الثاني كان بلهجة أشد، ولكن الفرنسيين كانوا لا يزالون متراخين. أخيرًا أرسل البابا خطابًا ثالثًا، وكأنه من بطرس الرسول نفسه مملوءًا من الجرأة والادعاء، حتى أننا نكتبه للقارئ بنصه كعينة للوسائل التي كان يستعملها البابا لتخويف البرابرة حتى يحموا الإكليروس ويوسعوا ممتلكاته، وهذا نص الخطاب:

"أنا بطرس الرسول أحتج وأنذر الملوك المسيحيين بيبين وشارلمان وكارلومان، وكل الرؤساء الدينيين والأساقفة والكهنة ورؤساء الأديرة والرهبان، وجميع القضاة والأشراف وكل شعب الفرنجة. وأم الإله أيضًا تأمركم وتنذركم هي والرياسات والسلاطين الملائكية وكل جند السماء، أن تخلّصوا المدينة المحبوبة روما من اللمبارديين المبغضين. فإذا أصغيتم وأطعتم، أنا بطرس الرسول أعدكم بحمايتي لكم في هذه الحياة وفى الحياة الآخرة، سأعد لكم أفخر القصور في السماء وأنعم عليكم بأفراح الفردوس الأبدية. خلصوا شعبي في روما، وأنا أمنحكم كل ما تصلون لأجله. وأنا آمركم أن لا تسلموا هذه المدينة حتى لا يمزقها ويعذبها اللمبارديين، لئلا تمزق وتعذب نفوسكم في الجحيم مع إبليس وملائكته والأشرار. إن شعب فرنسا هو أعظم الشعوب تحت السماء اعتبارًا في نظري أنا بطرس الرسول، وأنتم مدينون لي بجميع انتصاراتكم. فأطيعوا، وأطيعوا عاجلاً. وباستحقاقاتي سيعطيكم ربنا يسوع المسيح في هذه الحياة طول الأيام والسلام والانتصار، وفى الحياة الآتية سيكثر لكم بركاته بين ملائكته وقديسيه" *.

ظل إنسان الخطية

لا يوجد شيء يوضح لنا بكيفية جلية حالة كنيسة روما أكثر من هذا الخطاب، فكان الشرط الوحيد لنوال الحياة الأبدية هو إطاعة البابا، وأعظم واجب على الإنسان هو حماية وتوسيع دائرة الإكليروس. ولكن أين المسيح؟ أين مطالبه؟ أين المسيحية؟ عوضًا عن السعي إلى هداية البرابرة وربح نفوسهم للمسيح كانوا يستخدمون اسم الرب الأقدس واسم رسوله لينالوا بهما أحط الأغراض. فكان الجندي الذي يحارب ببسالة لأجل الإكليروس الروماني، ولو كان مجردًا من كل فضيلة دينية وأدبية يمنح امتيازات عظمى في هذه الحياة ويؤكدون له نوال المكان الأعلى في السماء. لا شك أن هذا هوعمل سر الإثم في أبشع صوره. هذا ظل «إنسان الخطية ابن الهلاك المقاوم والمرتفع على كل ما يدعى إلهًا أو معبودًا، حتى أنه يجلس في هيكل الله كإله مُظهرًا نفسه أنه إله... الذي مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة» (٢تي٢: ٣-٩).

* لوصف أقدر لهذه الفترة الهامة أنظر «المسيحية اللاتينية» للكاتب ميلمان (٢/١٣).

وقد أثرت تهديدات ووعود الخطاب المنسوب إلى بطرس الرسول تأثيرًا عظيمًا في نفس بيبين، فجمع حالاً جيوشه وعاد لمحاربة إيطاليا. وفى الحال خضع أسطولف لمطالب بيبين وتنازل له عن الأملاك المختلف عليها. وقد حضر سفراء من الشرق في ختام المعاهدة وطلبوا إرجاع رافنا وتخومها إلى الإمبراطور ولكن بيبين أعلن أن غرضه الوحيد من الدخول في الحرب هو إظهار تكريمه لبطرس الرسول، وقد منح كل البلاد التي فتحها لخليفته. وإذ ذاك مر ممثلو البابا في تلك المدن نائلين كل تكريم من السلطات، وقد سلمتهم السلطات مفاتيح تلك المدن. ولكن تلك الأملاك التي قبلها البابا كمنحة من بيبين هي في الحقيقة ملك إمبراطور الشرق. ولكن البابا استأجر بقيمة كبيرة تدفع في السماء، ذلك الملك الأجنبي ليسلب تلك الأملاك، وقد قبلها البابا بلا خجل ولا تردد. فما دام الغرض هو تعظيم الكنيسة فكل شيء في سبيل ذلك مباح، سواء أكان عبد يخلع سيد من العرش، أو كاهن يسلب الإمبراطور اليوناني أملاكًا. هكذا كانت صفات كنيسة روما.

على أن هبة بيبين السخية كانت لا تزال تحتاج إلى التثبيت من ابنه شارلمان بعد موت أبيه في سنة ٧٦٨م. فلما عاد اللمبارديون إلى تهديد الأملاك الرومانية سنة ٧٧٤م استنجد الرومانيون بفرنسا، فذهب شارلمان لمعونتهم، ووصل إلى روما في عشية عيد الفصح، فاستقبلوه بكل مظاهر التكريم والابتهاج إذ خرج لاستقباله ثلاثون ألفًا من الأهالي، وكل جماعة الكهنة حاملين الصلبان والأعلام، وطلبة المدارس حاملين أغصان الزيتون وسعوف النخل، ومنشدين أناشيد الترحيب. فنزل من مركبته ومشى على قدميه إلى كنيسة القديس بطرس حيث كان البابا وهيئة الإكليروس في انتظاره. وكان الملك يقبل بكل احترام كل درجة من درجات السلم حتى وصل إلى فوق، فقبل البابا ودخل إلى البناء ممسكًا بيده اليمنى. وقد قضى ليلة الفصح في الصلوات والعبادة. فما أن رق قلب الملك وامتلأ حرارة فتح له البابا هدريان موضوع هبة جديدة للإكليروس.

وفى الحال وسع شارلمان حدود هبة بيبين للكنيسة وثبتها بقسم، ووضع حجة الهبة على قبر بطرس الرسول. وبعد الانتهاء من مراسيم العيد ودع البابا ورجع إلى جيشه. وقد كان النصر حليفه في كل مكان، ولم يهدأ له بال حتى قلب إمبراطورية اللمبارديين قلبًا نهائيًا وأعلن نفسه ملكًا على إيطاليا.

من المتعذر تحديد هبة شارلمان بالضبط، ولكن يظهر أن رأي المؤرخين العام هو أنها اشتملت على مقاطعات رافنا وسبوليتو، وبينفنتو وفينيسيا وإستريا وبعض الأملاك الأخرى في الشمال. وبالاختصار يمكننا أن نقول إنها اشتملت على شبه الجزيرة كلها تقريبًا وجزيرة كورسيكا. وكان كل "تابوت" يسلب منه كرمه ويسفك دمه إرضاء لمطامع إيزابل وتثبيتًا لعرشها الشرير. ولكن كمال الشر هو في الطريقة التي ثبّت بها البابا لنفسه المركز الجديد. فكان يقول: بما أن الجميع الناس خاضعون للمسيح وبما أني أنا خليفته ونائبه على الأرض فكل الناس خاضعون لي، وبما أن ملكوت المسيح يمتد إلى كل شيء لذلك لا يوجد شيء من أمور العالم وشؤونه خارج عن دائرة حكم كرسي بطرس لرسول، لأن ملكوته كملكوت المسيح، في الكل وعلى الكل وفوق الكل. على هذه النظرية وبمقتضى هذا الادعاء الباطل الشرير تصرف الباباوات من ذلك الوقت فصاعدًا، فكانوا يتداخلون في شؤون الناس والكهنة، الملوك والرعايا في البر والبحر وفى كل العالم.

وقد زار شارلمان روما مرة ثانية سنة ٧٨١م. ومرة ثالثة سنة ٧٨٧م وفى كل مرة كان يمنح الكنيسة هبات جزيلة "لصالح نفسه الخالدة" كما كان يقول، والبابا إذ شعر بحاجته المستمرة إلى حام ومدافع، وإذ أراد أن يعبر عن عواطف شكره لشارلمان توجه بتاج الإمبراطورية الغربية في ليلة عيد الميلاد سنة ٨٠٠م وأعطاه لقب أغسطس قيصر، وهكذا أصبح الأمير الفرنسي التيوتوني خليفة للقياصرة وتقلد كل سلطان إمبراطور الغرب. قال ملمان "قد امتدت إمبراطورية شارلمان إلى كل الدائرة المسيحية اللاتينية تقريبًا، وكانت إنجلترا هي المملكة الوحيدة المعترفة بسيادة روما الإكليريكية دون خضوع لإمبراطور الغرب" وكان هذا الحدث بداية عصر عظيم في تاريخ المسيحية الرومانية(٢/٤٢)، (٢/٤٣).

الفصل الخامس عشر

ليو الثالث والتماثيل

تتبعنا فيما سبق النمو المطرد لقوة المسيحية في أوروبا كلها خلال القرنين السابع والثامن، حتى ولو كان متّشحًا برداء البابوية، وقد صار اسم يسوع منتشرًا في كل أنحائها، واستطاع الله أن يستخدم شذا هذا الاسم الحسن للبركة بالرغم من قوانين روما الصارمة التي حاصرت عمل الله من كل جهة، إلا أن كل نجاح للإنجيل تحول بواسطة البابا ومرسليه إلى نصر لبابوية روما، فقد امتد سلطانها الروحي وفرضت سطوتها دون أن تلقى مقاومة تُذكر. فسمح الله بأن يُقضّ مضجعها ويقيم من يزعزع أمن البابا نفسه الجالس على كرسي بطرس الرسول.

منازعات المشيئة الواحدة وتحطيم الأيقونات

بينما كان العرب تحت قيادة أبي بكر وعمر بن الخطاب يغزون البلاد اليونانية ويحتلون المقاطعة بعد الأخرى من الإمبراطورية، اكتفى الإمبراطور بإرسال الجيوش لمحاربتهم أما هو فبقى في العاصمة لمناقشة المسائل اللاهوتية. لأنه بعد نهاية حروبه وانتصاراته على الفرس صارت الأمور الدينية الشغل الشاغل له. وكانت هناك منازعتان عظيمتان في ذلك الوقت تزعجان العالم المسيحي كله، أولهما هي منازعة المشيئة الواحدة وهي تقريبًا إحياء للمنازعة القديمة حول الطبيعة الواحدة، أو هرطقة أفتيخس، ولكن في شكل آخر. ومؤسس هذه الهيئة المسيحية القوية الكبيرة هو أفتيخس رئيس دير في القسطنطينية في القرن الخامس. والمعتقدون بالطبيعة الواحدة ينكرون التمييز بين الطبيعتين في المسيح. أما المعتقدون بالمشيئة الواحدة فينكرون التمييز بين المشيئة الإلهية والإنسانية التي في ربنا المبارك. وقد سعى الإمبراطور هرقل سعيًا جديًا لإرجاع القائلين بالطبيعة الواحدة إلى الكنيسة اليونانية ولكن مسعاه قد أحبط*.

على أن المنازعة الثانية تستدعي منا اعتبارًا أكبر وهي عاصفة تكسير التماثيل لأنها دخلت إلى قلب المسيحية الاسمية بشكل أعظم من أية منازعة أخرى. وهي تكون عصرًا هامًا في تاريخ الإكليروس الروماني. وهنا تظهر إيزابل في صورتها الحقيقية. فالباباوات الذين كانوا يجلسون على كرسي بطرس الرسول قد أجازوا عبادة التماثيل ودافعوا عنها جهارًا. وهنا تنكشف أسس البابوية ويظهر أن الاضطهاد وعبادة الأوثان هما العمودان اللذان عليهما ارتكزت سيادتها الغاشمة.

بدء اعتبار الأشياء المنظورة في المسيحية

توجد أدلة كافية للاعتقاد بأنه إلى أكثر من ثلاثمائة سنة بعد بداءة انتشار الإنجيل لم تكن هناك تماثيل ولا أشياء منظورة لها اعتبار ديني، ولم يكن يوجد شيء من ذلك في الخدمة الجهارية في الكنائس، ولا في العبادة السرية في البيوت. والأرجح أن المسيحيين لم يفكروا في شيء من هذا قبل أيام قسطنطين. ويمكننا أن نعتبر هذه من باكورة أثمار اتحاد الكنيسة والحكومة.

ولكن قبل هذا كان المسيحيون يشهدون ضد عبادة الأصنام عند الوثنيين، ولأجل ذلك كانوا يتعرضون للاضطهادات والموت. ومما يجدر ملاحظته أن الإمبراطورة هيلانه والدة قسطنطين هي أول من أغرى المسيحيين بتلك الخرافة، إذ يقال إنها اكتشفت خشبة الصليب الحقيقية واستخرجتها، وكان هذا كافيًا لوصول الشيطان إلى غرضه، فأضرم في الطبيعة البشرية حب احترام الأشياء المادية، وانتشرت

* لمزيد من التفاصيل انظر «قاموس الكنائس المسيحية والطوائف» لمارسدن(٤٦)، «ديانات العالم» لجاردنر(٣٨).

النار بسرعة حتى كانت النتيجة الطبيعية هي عبادة الأصنام.

وهكذا وجدت تذكارات أخرى للمخلّص والعذراء مريم والرسل والآباء. وظهرت آثار القديسين التي كانت مخفاة منذ أجيال، وهكذا نجحت مكيدة العدو حتى وقعت الكنيسة في الشرك، وقد ازداد احترام التماثيل والصور والآثار شيئًا فشيئًا بداية من عهد قسطنطين. وكانت الكنائس الغربية شغوفة بالآثار، بينما الشرقية شغوفة بالتماثيل، وكانت نتيجة ذلك أن ازدادت سلطة الكهنوت، وأصبحت الصور والتماثيل والرسوم المنظورة للأمور المقدسة هي الوسائط الشائعة لتوصيل التعليم للشعب وتشجيع التعبد، وتقوية المبادئ الدينية في أذهان الناس. وكان المستنيرون من الكهنة يجتهدون أن يفسروا احترام التماثيل بأنه وسيلة للعبادة وليست موضوع للعبادة، ولكن عند الأذهان العامية الخرافية لا شك أن احترام التماثيل والصور يلد عبادة الأصنام.

وقبل نهاية القرن السادس كانت الوثنية قد توطدت دعائمها في الكنيسة الشرقية. وفي القرن السابع تقدمت تقدمًا محسوسًا في الغرب وأصبح من الشائع جدًا السجود للتماثيل، والصلاة لها، وتقبيلها، وتحليتها بالجواهر والأحجار الكريمة، ووضع اليد عليها لأجل القسم، إلى درجة أن كانوا يستخدمونها كأشبنة في المعمودية.

محاولات ليو لمنع عبادة الصور (حوالي ٧٢٦م)

كان للإمبراطور ليو الثالث الشجاعة الكافية، فأخذ على عاتقه تطهير الكنيسة من أصنامها الممقوتة، مقابلاً المشقات الكثيرة في هذا السبيل. ويصمت التاريخ عن ذكر البواعث التي حركت الإمبراطور لذلك العمل، ولكننا نعتقد أن ظهور الإسلام ونجاحه، واعتقاده بالتوحيد، قد أثر على الإمبراطور تأثيرًا كبيرًا. فضلاً عن ذلك كان الاعتقاد سائدًا عند المسيحيين في الشرق أن غزوات الإسلام كانت تأديبًا من الله على ازدياد الوثنية في الكنيسة، وكان المسيحيون كثيرًا ما يسمعون تعييرًا من اليهود والمسلمين بأنهم يعبدون الأصنام. ونتيجة لهذه الظروف قامت المنازعة العظيمة.

المرسوم الأول للإمبراطور ليو الثالث

اعتلى ليو الثالث عرش الشرق سنة ٧١٧م. وبعد تأمين الإمبراطورية من الأعداء الأجانب وجّه اهتمامه إلى الأمور الدينية. وقد ظن عبثًا أنه يستطيع تحسين حالة دين رعاياه بمجرد إصدار أمره الملكي، فأصدر حوالي سنة ٧٢٦م مرسومًا ضد الاستعمال الخرافي للتماثيل ولكنه لا يقضي بإبادتها. ولا يمكننا أن نعتقد أن الإمبراطور كان مدفوعًا في ذلك بخوف الله، بل كانت البواعث نفسانية محضة، لأنه إذ كان رأسًا للإمبراطورية ولا يزال رأسًا اسميًا للكنيسة، ظن أنه بمراسيمه يمكنه القضاء على عبادة الأصنام، ولكنه كان مغاليًا في هذا التقدير، وكان يجب أن يتعلم درسًا مُرًّا عن كبرياء وسلطة الأساقفة، وعن شدة تعلق الشعب بتماثيلهم.

منع المرسوم الأول عبادة التماثيل وأمر أن ترفع إلى علو كبير بحيث لا تصل إليها أيدي الناس ليمسوها أو يقبلوها. ولكن في اللحظة التي امتدت فيها يد الإمبراطور إلى التماثيل لإبادتها، عظم الهياج وعم في كل مكان، وشمل جميع طبقات الناس من متعلمين وجهلة، كهنة ومزارعين، رهبان وجنود، رجال ونساء بل وأطفال أيضًا. فكانت نتيجة ذلك المرسوم أن قامت حرب داخلية في كل من الشرق والغرب. وقد لعب الرهبان على الأخص دورًا هامًا في الموضوع، فأقاموا شخصًا ادعى أحقيته في الجلوس على العرش، وسلحوا الجمهور وظهروا بأسطول غير منظم أمام القسطنطينية، ولكن نيران الجيش اليوناني شتت أولئك الثائرين غير المنظّمين، وقبضوا على القواد ونفذ فيهم حكم الإعدام.

المرسوم الثاني

إذ اغتاظ الإمبراطور ليو من المقاومة الشديدة التي قوبل بها مرسومه أصدر مرسومًا ثانيًا أشد من الأول أمر فيه بإبادة جميع التماثيل وتبييض الحيطان التي نقشت عليها الصور.

مع أن المرسوم الثاني كان شديدًا بطبيعته، ولكن رسل الإمبراطور قد تجاوزوا الحد في تنفيذه، فكانوا يكسرون أكثر التماثيل قدسية عند الشعب في كل مكان بكل قسوة، ويمزقون الصور إربًا إربًا أو يحرقونها علنًا أمام عيون عبادها المتهيجون. قال جرينوود في تاريخه "اندفع الناس رجالاً ونساء وأطفالاً للدفاع عن تماثيلهم العزيزة لديهم كأنفسهم غير مبالين بخطر الموت، فهجموا على رسل الإمبراطور المشتغلين بتنفيذ مرسومه وذبحوهم. وإذ كان أولئك الرسل مدعمين بالقوات النظامية فقد عاملوا الناس المثل بالمثل، وهكذا امتلأت شوارع العاصمة بمناظر الهياج والمذابح، وقد أعدم أغلب قواد الثورة وامتلأت السجون بالناس، وعُذب كثيرون

تعذيبًا بدنيًا. وبعد ذلك نفوا إلى جهات قصية»(٢/٤٢).

أصبح الشعب حينئذ في حالة هياج شديد، حتى أن حضور الإمبراطور نفسه لم يكن ليرعبهم. وقد صدرت أوامر الإمبراطور إلى أحد الضباط بإبادة تمثال للمخلّص كان مقامًا على الباب النحاسي للقصر الملكي، وكان الناس يعتقدون في هذا التمثال أنه يعمل المعجزات، وكانوا يعتبرونه كل الاعتبار، فاجتمعت جماهير من النساء حول المكان وتوسلن إلى الضابط أن ينجي تمثالهن المحبوب، ولكنه صعد إلى السلم وضرب بفأسه ذلك الوجه الذي طالما نظرن إليه، والذي كن يعتقدن أنه ينظر إليهن بكل حنان وعطف. وقد انتظرت النساء تداخل السماء في الأمر، فلما لم تتداخل هجمن على السلم وأوقعن من فوقه ذلك الضابط وقطعنه إربا إربا. وقد أرسل الإمبراطور جنودًا مسلحين لقمع الثورة ولكن الرعاع انضموا إلى النساء، وهناك وقعت مذابح فظيعة هائلة. أما التمثال فقد هدم ووضعت في مكانه لوحة مكتوب عليها إعلان بكراهية الإمبراطور للتماثيل(٢/٣١).

وقد كان تنفيذ الأوامر الملكية يقابَل بالمقاومة في كل مكان في العاصمة وفى سائر المقاطعات، وكان حماس الجمهور شديداً لا يُقهر إلا بمجهودات عنيفة من جانب رجال الأمن والجيش.

رفض البابا مرسومي ليو

لما بلغ الإيطاليون أخبار هجوم ليو على تماثيل القسطنطينية امتلأوا حزنًا وألمًا، ولكن لما وصلت الأوامر بتنفيذ تلك المنشورات في إيطاليا التابعة للإمبراطورية تسلح الشعب من الكبير إلى الصغير، ورفض البابا إطاعة الأوامر وحلف جميع الناس أن يعيشوا أو يموتوا في الدفاع عن البابا والتماثيل المقدسة. على أن ارتباك الأحوال السياسية في ذلك الوقت جعل من المستحيل على الإمبراطور أن يستعمل القوة في تنفيذ منشوراته في الممتلكات البابوية. وقد خاطب غريغوري الإمبراطور بلهجة الكبرياء والعظمة ورد على الأوامر الملكية ردًا مملوءًا بروح العصيان والمقاومة. والرهبان إذ رأوا أن صناعتهم في خطر، إذ كانوا مدينين إلى هذه الخرافة بنفوذهم وغناهم، أذاعوا عن الإمبراطور أنه مرتد مقاوم، وصوروه كمن جمع في نفسه كل هرطقة أفسدت الإيمان المسيحي وعرضت نفوس الناس للخطر. وسننقل إلى القراء بعض فقرات من رسائل غريغوري الثاني والثالث الأصلية لأنها تبين لنا الروح الحقيقية للبابوية، أولاً في الدفاع عن الخرافة المحبوبة خرافة الأصنام، ثانيًا في مقاومة القوة الزمنية.

يقول البابا غريغوري الثاني للإمبراطور "منذ عشر سنوات ونحن نذوق كل سنة تعزيات خطاباتك الملكية التي كنت تكتبها بخطك بمداد أزرق، تلك الخطابات التي كانت براهين مقدسة على تمسكك بعقيدة آبائك الصحيحة. ولكن ما أحط التغيير وما أفظع الجرم والذنب! إنك تتهم الكاثوليك بالعبادة الوثنية، وبهذا الاتهام تبرهن على كفرك وجهلك، ونحن يجب أن نعالج هذا الجهل بأشد الأساليب والحجج. إن ألف باء الأمور المقدسة كافية لكشف ضلالك. ولو أنك دخلت إلى مدرسة للصغار وأظهرت عداءك لعبادتنا لكان الصبيان الأتقياء يقذفون مكاتبهم في وجهك".

وبعد هذه التحية المهينة يبتدئ البابا بالدفاع عن عبادة التماثيل بالوسائل المعتادة، فيجتهد أن يثبت الفرق بين التماثيل المسيحية والأصنام الأثرية، فيقول إن الثانية كانت تمثيلاً خياليًا لأرواح شريرة، أما الأولى فإنها صور حقيقية للمسيح ووالدته وقديسيه. ثم يبرر عبادة هذه التماثيل استنادًا إلى زخارف الهيكل اليهودي والتابوت والكروبيم والزينات المختلفة التي صنعها بصلئيل لمجد الله، قائلاً إن الشريعة اليهودية لم تكن تحرم إلا أصنام الأمم. ثم ينكر عبادة الكاثوليك للخشب والحجز، ويقول إن هذه إنما تذكارات الغرض منها إنهاض المشاعر الدينية التقوية.

وفى كلامه عن كونه هو شخصيًا يبنى بواسطة رؤية الصور والتماثيل في الكنائس عبارة ذات فائدة تاريخية عظمى لأنها تبين الموضوعات المعتادة لهذه النقوش، فيذكر "صورة المسيح المعجزية المرسلة إلى أبجاروس ملك إدسا، وصور معجزات الرب والعذراء الوالدة حاملة يسوع الطفل على صدرها ومحاطة بجمهور من الملائكة، وصورة العشاء الأخير، وصورة إقامة لعازر، ومعجزة فتح عيني الأعمى، وشفاء المفلوج، والأبرص، وإطعام الجموع في البرية، وصور التجلي، والصلب، والدفن، والقيامة، والصعود، وعطية الروح القدس، وصورة تقديم إسحق ذبيحة(٢/٤٣).

ثم يتقدم غريغوري في عرض الأدلة المعتادة للدفاع عن التماثيل، ويوبخ الإمبراطور باحتقار شديد قائلاً: "لقد طلبت مجمعًا، كلا! بل اسحب مرسومك وأوقف تحطيم التماثيل، فإن

مجمعًا لن يُعقد. يا أيها المستبد إنك تهددنا بجيشك البشري الأعزل حافي الأقدام، ونحن نستطيع أن نطلب من المسيح رئيس الجند السماوي، فيرسل عليك شيطانًا لهلاك جسدك وخلاص نفسك. قد قلت في نفسك أبعث بأمري إلى روما، أكسر تمثال القديس بطرس، وتمثال غريغوري مع سلفه مارتن، فأجرها في سلاسل وآتي بها إلى موطئ قدمي تحت كرسي الإمبراطورية. لعل القضاء الذي حل على كونستانس يكون عبرة لكل من يضطهد الكنيسة. إن واجبنا هو أن نحيا لأجل إطعام وتشديد الشعب المؤمن، وليس علينا أن ندخل في صراعات. إنك وأنت غير قادر على حماية رعاياك الرومانيون ظننت أن موقع المدينة على البحر قد يجعلها سهلة للنهب، ولكن ما علينا إلا أن نلجأ إلى أقرب قلعة للمبارديين، ثم تكون أنت كمن يطارد الريح. ألم تعلم أن الباباوات هم حماة الوحدة ووسطاء السلام بين الشرق والغرب؟ إن عيون الشعوب إلى اتضاعنا، وهم ينظرون باحترام إلى بطرس الرسول كإله على الأرض، وأنت تهدد بتحطيم تمثاله".

ثم يهدد البابا الإمبراطور بحلفائه الجدد القاطنين فيما وراء جبال الألب، فإن الفرنجة أطاعوا وصايا بونيفاس رسول ألمانيا، وكانت قد بدأت المفاوضات السرية معهم لضمان مساندتهم للبابا. لذلك يقول له: "إن ممالك الغرب الدانية والقاصية يقدمون احترامًا للمسيح وخليفته، ونحن نعد الآن لزيارة واحد من أعظم ملوكهم، يريد أن ينال سر المعمودية على يدنا. إن البرابرة قد خضعوا لنير الإنجيل، بينما أنت وحدك تتصامم عن سماع صوت الراعي. إن البرابرة الأتقياء اشتعل غضبهم من جراء اضطهادات الشرق وأصبحوا متعطشين للانتقام. فاترك مشروعك الطائش المميت. تأمل. ارتعب وتب! أما إن قاومت فنحن أبرياء من الدم الذي يسفك في الحرب. إنه على رأسك"(٣/٤٢).

وإذا قرأنا بإمعان تلك الرسائل القديمة، لا يمكننا أن نعتقد أن غريغوري كان جاهلاً إلى هذه الدرجة حتى إنه يسرد حججًا كثيرة كهذه للإمبراطور للدفاع عن عبادة التماثيل، ولكننا نرجح أنه كان يعلم أنها باطلة، ولكنه اعتمد على جهل الإمبراطور، ولذلك فيكتب له: "أنت تقول إنه محظور علينا أن نسجد لأشياء من صنع أيدي الناس، ولكنك شخص غير متعلم. فكان يجب عليك أن تسأل أساقفتك المستنيرين عن المعنى الحقيقي للوصية. إنك لو لم تكن جاهلاً عنيدًا لكنت علمت منهم أن أعمالك هذه مخالفة تمام المخالفة لشهادة الآباء وعلماء الكنيسة، ومناقضة لسلطة المجامع المسكونية الستة". وهذه الأقوال واضح بطلانها بشكل يدعونا أن نعجب كيف يجرؤ إنسان ما على سردها كوقائع ثابتة، فبالأولى الرئيس الأعلى للإكليروس. ولكن ذلك يثبت أنه وجد منذ البدء روح كذب في فم البابوية كما وجد في أفواه أنبياء البعل (١مل٢٢:٢٣) حتى أن جرينوود يقول: "إنه لم تذكر كلمة واحدة في أحد المجامع المسكونية بخصوص التماثيل وعبادتها. كما أن ذكر شهادة الآباء خطأ محض أيضًا، فإني لم أجد أي ذكر لعبادة التماثيل في كتابات آباء الستة القرون الأولى للمسيحية، إلا في كتابات غريغوري الأكبر"(٣/٤٢).

على أن روح الكذب تستمر قائلة: "إن هيئة ظهور المسيح في الجسد قد أثرت في أذهان تلاميذه تأثيرًا عظيمًا، حتى أنه ما أن وقعت أعينهم عليه حتى أسرعوا بصنع صور كثيرة لشخصه، وكانوا يحملونها معهم عارضين إياها في كل العالم، حتى عندما يراها الناس يرجعون من عبادة الشيطان إلى خدمة المسيح، ويسجدون لهذه الصور ليس بمعنى العبادة التامة، بل تكريمًا واحترامًا". وعلى هذه الكيفية أكد البابا للإمبراطور أن "الصور والتماثيل قد أُخذت عن يعقوب أخي الرب، وعن إستفانوس، وسائر القديسين المشهورين، ونُشرت في جميع أنحاء العالم لأجل تقدم الإنجيل".

ثم يقلب البابا الحقائق الكتابية بطريقة عجيبة، إذ يقول للإمبراطور "إنك أشبه بعزيا الشرير، الذي تعدى على الحية النحاسية التي أقامها موسى وكسرها تكسيرًا". وفي هذه قد نلتمس للبابا عذر الجهل، لأن جهله بكتابه المقدس أقرب احتمالاً من جهله بالمجامع المسكونية الستة.

ويظهر أنه كان في ذهن البابا خلط بين قصة عزة التي اقتحمه الرب لمحاولته سند التابوت عندما انشمصت الثيران، وبين قصة حزقيا الذي كسر الحية النحاسية منعًا للشعب من عبادتها (أنظر ١أي١٣:٩، ٢مل١٨:٤). ثم يقول البابا "لا شك أن عزيا (مع أن الصواب حزقيا) هو أخوك في العناد وفي القسوة على كهنة الرب". ونحن نسأل (كما قال البابا عن الإمبراطور) ماذا يقول أولاد مدارسنا في هذا البابا الذي يعتبر حزقيا الملك الصالح ملكًا شريرًا، ويعتبر تكسير الحية النحاسة عملاً منافيًا للتقوى؟ وإذا

كان الإمبراطور يستحق أن الأولاد يقذفون مكاتبهم في وجهه، فماذا يستحق البابا؟ حقًا إن هذا كافٍ لأن يبين للقارئ روح البابوية وصفاتها منذ نشأتها. فقد كانت نظامًا كاذبًا ممتزجًا بالوثنية، مع أننا نعترف بوجود كثيرين فيها من قديسي الله أثناء عصورها المظلمة، لأن اسم يسوع المخلص كان ثابتًا على الدوام، وكل من آمن به خلص بالرغم من كل الضلالات. فكل إصبع لمس بالإيمان ولو هدب ثوب الرب في وسط تلك العصور المظلمة، لا بد أنه استمد من الرب الشفاء، ولا شك أن الرب تطلع بغض النظر عن الزحام إلى ذلك الشخص الذي لمسه بالإيمان، وتكلم بالسلام إلى نفسه المنزعجة (مر ٥:٢٥-٣٤).

وقف تكسير الأيقونات

لم يعش غريغوري طويلاً بعد رسائله، ولكنه مات في السنة التالية، وخلفه بابا آخر بنفس الاسم. وقد كان غريغوري الثالث غيورًا أيضًا للتماثيل، فسعى لزيادة احترامها ودعا إلى عقد مجمع من جميع أساقفة الممتلكات البيزنطية واللمباردية في شمال إيطاليا. فانعقد المجمع مؤلفًا من ٩٣أسقفًا بحضور "مخلفات بطرس الرسول المقدسة"، وكل كهنة المدينة، والقناصل، وجمهور كبير من الناس. ووضعوا منشورًا وتمت الموافقة عليه بالإجماع، ووقع عليه جميع الحاضرين، يقول "كل شخص من الآن فصاعدًا يحتقر عادات المسيحيين القديمة وعلى الأخص الكنيسة الرسولية، وينصب نفسه كمتلف أو مجدف على التماثيل المقدسة التي لإلهنا وربنا يسوع المسيح، ولوالدته الطاهرة العذراء إلى الأبد مريم، ورسله المباركين وسائر قديسيه، فإنه يحرم من جسد الرب ودمه ومن شركة الكنيسة الجامعة"(٣/٤٢).

ولما وصل المنشور إلى ليو استشاط غضبًا لأجل جرأة البابا، وقبض على رسله، وعزم على إرسال أسطول حربي كبير وجيش جرار لإخضاع إيطاليا إخضاعًا أتم. ولكن هاجمت عاصفة عنيفة ذلك الأسطول في بحر الأدرياتيك، فلم يتمكن من الوصول. واضطر ليو إلى تأجيل مشروعه الذي يرمي إلى تنفيذ مراسيمه بالقوة ضد التماثيل في المقاطعات الإيطالية التابعة للإمبراطورية، واكتفى بأن ألغى الدخل البابوي الذي كان يرسل من صقلية وسلبيريا ومقاطعات أخرى من أملاكه، وسلخ اليونان والليريكون من البطريركية الرومانية وضمهما إلى بطريركية القسطنطينية.

. . .

وإلى هنا ينتهي المشهد، إذ يموت كل من غريغوري وليو سنة ٧٤١م. أما الإمبراطور فخلفه ابنه قسطنطين، الذي ملك ٣٤سنة. وأما البابا فخلفه زخاري وهو رجل مقتدر شديد الاصطباغ بصبغة البابوية. وقد كان قسطنطين إلى نهاية ملكه شديد العداء لعبادة التماثيل، ويلام لأجل قسوته العظيمة على الرهبان، ولكنهم لا شك أمرّوا روحه للغاية بأخلاقهم الخشنة العصية.

وبعد وفاة قسطنطين ووفاة ابنه ملكت زوجة ذلك الابن باسم ابنها الصغير الذي كان عمره إذ ذاك عشر سنوات، واسمها إيريني وكانت أميرة متكبرة مخادعة، وقد أخفت عزمها على إعادة عبادة التماثيل مدة من الزمان، لأنها كانت سياسية ماكرة.

مجمع نيقية الثاني

وفي الوقت المعين أصدرت الملكة منشورات بعقد مجمع في مدينة نيقية. وقد اختارت تلك المدينة لأن اسمها كان مقدسًا بالنسبة لانعقاد أول مجمع مسيحي عظيم فيها. وكان الغرض من المجمع البحث في مسألة عبادة التماثيل. وقد حضر ذلك المجمع نحو الثلاثمائة والخمسين من رجال الإكليروس. وتولى القيادة الرجال الذين اختارتهم الملكة، ولا شك أن كل شيء كان مرتبًا من قبل. ومن المباحث الأولى التي دارت في المجمع: في أي درجة من الهرطقة يعتبر مكسرو التماثيل؟ قال نارسيوس رئيس المجمع إن هذه الهرطقة أردأ من أشر الهرطقات، لأنها إنكار تام للمسيح وهكذا كانت كل إجراءات المجمع نقمات على خصوم عبادة التماثيل. وبعد الموافقة على قرارات المجامع الستة الأولى، وعلى الحرمانات المذكورة ضد الهرطقة، أصدروا القانون الآتي مدعين أنه بإرشاد الروح القدس:

"يجب أن تحفظ مع الصليب المحيي المكرم جميع التماثيل المقدسة، وعلى الأواني والملابس المقدسة وعلى الحيطان والقواعد في البيوت والطرقات العامة. وهذه التماثيل - أي تماثيل ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، ووالدة الإله الطاهرة، والملائكة المكرمين، وجميع القديسين والأطهار - يجب أن تُعامل

كتذكارات مقدسة، فتُقبَّل ويُسجد لها، إنما بدون التعبد الخاص بالإله الذي لا يُرى ولا يُدرك. وكل من يخالف هذا التقليد التذكاري للكنيسة ويحاول، بالقوة أو بالحيلة أن يرفع تمثالاً، يجرد من رتبته ويحرم إن كان من الإكليروس، ويحرم إن كان من الرهبان أو العلمانيين".

ولم يكتف المجمع بذلك القرار المكتوب، ولكنهم قالوا معًا بصوت واحد: "نحن جميعًا نؤمن. نحن جميعًا نقر ونعترف: أن هذا هو إيمان الرسل، هذا هو إيمان الكنيسة. هذا هو الإيمان الصحيح. هذا إيمان العالم أجمع. نحن الذين نعبد الثالوث الأقدس، نسجد للتماثيل، ومن لا يفعل ذلك فليكن أناثيما. أناثيما على كل من يسمي التماثيل أوثانًا. أناثيما على كل من يخالط الذين لا يسجدون للتماثيل. ومجد أبدي للرومانيين المستقيمي العقيدة، وليوحنا أسقف دمشق، وغريغوري بابا روما. مجد أبدي لكل المبشرين بالحق".

بين هيلانه وإيريني

على هذه الكيفية انتهت هذه المشكلة التي تعتبر أخطر المشاكل التي قامت منذ أصبحت المسيحية ديانة العالم الروماني. وهكذا أقر المجمع المسكوني السابع عبادة الأصنام رسميًا كموضوع للسجود في النظام البابوي العظيم، وأوقع الحرمانات على كل من يخالف ذلك. من ثم وقعت أقسى الاضطهادات على المخالفين.

ويجدر بنا أن نلاحظ، ونحن نتأمل في صفات إيزابل، أن أول من أنشأ عبادة التماثيل امرأة وآخر من أعادها بعد أن أبطلت امرأة. كانت هيلانه أم قسطنطين الأكبر امرأة فاضلة متعبدة، ولكن العدو استخدمها في إدخال المخلفات والتذكارات المقدسة التي غيرت المسيحية من عبادة روحية محض إلى تلك الصورة الوثنية التي تقدمت كثيرًا في الأجيال التي أعقبت ذلك. وإيريني الماكرة أيضًا استخدمها الشيطان لإعادة السجود للتماثيل وتثبيته. ومن ذلك اليوم إلى الآن التصقت الكنائس اليونانية واللاتينية بهذا النوع من السجود واعترفت كل منها بقدسية تماثيلها.

ولم تكن النتائج السياسية لمنازعة تكسير التماثيل أقل أهمية وخطورة، فقد تسبب عنها أن قطعت روما علاقتها بالشرق وانفصلت انفصالاً أبديًا عن الإمبراطورية البيزنطية، وبذلك أصبحت المسيحية الشرقية من ذلك الوقت منفصلة عن الغربية، وكذلك الحكومة أيضًا. والغرب إذ ازدادت قوته خلال تلك المنازعة، بنى لنفسه في المستقبل إمبراطورية خاصة، وعقد محالفات مع الملوك الفرنسيين، ووضع تاج الإمبراطورية الغربية على رأس شارلمان كما سبق أن رأينا.

الفصل السادس عشر

حبل نعمة الله الفضي

قد رأينا تأسيس السيادة البابوية واتحادها بحكومة فرنسا وانفصالها عن الشرق، وصيرورتها مركز السيادة والتأثير على الغرب بأجمعه. وإذ قد تتبعنا التاريخ المظلم، تاريخ ارتداد الكنيسة اللاتينية من بداءة القرن الرابع إلى أوائل التاسع، ندير التفاتنا برهة مجتهدين أن نتتبع حبل نعمة الله الفضي في أولئك الذين انفصلوا عن شركتها أثناء تلك المدة. لأنه إذا كان الشيطان قد عمل بنشاط في إفساد الكنيسة الخارجية، فإن الرب كان عاملاً أيضًا في جمع مختاريه، وفصلهم من كتلة الفساد، ودعمهم بالقوة ليكونوا شهوده الأخصاء. فمن عهد أغسطينوس الشاهد الأمين الذي شهد لنعمة الله ضد البلاجية في الكنيسة الغربية إلى وقت الإصلاح يمكننا أن نتتبع سلسلة من الشهود الأمناء الذين شهدوا ضد الوثنية وظلم روما، وبشروا بالخلاص بالإيمان بالمسيح يسوع بدون أعمال الإنسان. وسنلاحظ الآن بالاختصار بعض الأفراد المشهورين الذين يكوّنون حلقات هامة في سلسلة الشهود، وبالأخص المرتبطين بتاريخ الكنيسة في أوروبا. سنتأمل في أفراد من الجمهور الكبير الذي تغذى بحق الإنجيل البسيط في السر، في العائلات وفي الأديرة.

النسطوريون والبولسيون

سبق أن ذكرنا نشأة النساطرة في القرن الخامس وغيرتهم التبشيرية العظيمة، وقد كان رئيسهم يلقب ببطريك بابل، وكانت إقامته الأصلية في سيلوسيا. ويقال إنهم حملوا الإنجيل من بلاد الفرس إلى الشمال والشرق والجنوب. وفي القرن السادس بشروا بالإنجيل بنجاح عظيم بين الهنود والماديين والعيلاميين، وعلى سواحل الملايو (ماليزيا حاليًا) وفي جزائر المحيط، واهتدى عدد كبير إلى المسيح بواسطتهم. وقد سار المرسلون من الهند إلى الصين واخترقوا الصحراء إلى حدودها الشمالية. وقد اكتشف اليسوعيون في سنة ١٦٢٥م حجرًا بالقرب من سنغافورة منقوش عليه باللغتين السريانية والصينية أسماء المرسلين الذين عملوا في الصين، وتاريخ المسيحية في تلك البلاد من سنة ٦٣٦ إلى سنة ٧٨١م. ولكن يظهر أن تقدم المسيحية قد حرك غيرة الحكومة فاضطهدت أولئك المرسلين، ويُظن أنهم قُتلوا أو هربوا حوالي نهاية القرن الثامن. وقد كان النساطرة مشمولين برعاية بعض ملوك الفرس، وقد نجحوا نجاحًا عظيمًا في زمان حكم الخلفاء أيضًا، واتخذوا لأنفسهم اسم "المسيحيين الكلدان أو السريان". ولا زالوا يدعون بهذا الاسم إلى اليوم(٢/٢٨)،(٢/٣١).

أما البولسيون فقد كانت تعاليمهم موضوع منازعة عظيمة، ولكنهم لم يتمكنوا من تسليم مبادئهم إلى خلفائهم، لأن الكاثوليك أعدموا بكل تدقيق جميع كتاباتهم ولم تصل إلينا معرفتهم إلا عن طريق تقارير أعدائهم الألداء الذين اعتبروهم هراطقة، وقالوا إنهم أسلاف المصلحين البروتستانت. ومن الجهة الأخرى يقول بعض الكتاب البروتستانت إنهم كانوا محتفظين بمسيحية كتابية صحيحة اعتبرتها البابوية هرطقة. ويسهل علينا تصديق هذا القول الأخير بالنسبة لما رأيناه من دخول الفساد المحزن في تعاليم وعبادة الكنيسة الكاثوليكية قبل قيام هؤلاء البولسيين بزمان طويل. فليس غريبًا إن كان أولئك الذين سجدوا للتماثيل يعتبرون المسيحية الكتابية هرطقة.

أصل البولسيين (٦٥٣م)

في تخوم نهر الفرات في قرية منانـاليس عاش رجل يدعى قسطنطين حوالي سنة ٦٥٣م. ويقول الكتاب الرومانيون إنه من سلالة المنيخيين. وبعد الفتح العربي لسوريا مباشرة كان شماس

أرمني راجعًا من الأسر بين العرب، فنزل في ضيافة قسطنطين هذا. وقد أهدى ذلك الشماس إلى قسطنطين نسخة مكتوبة باليد من الأناجيل الأربعة ورسائل بولس الرسول الأربع عشر اعترافًا بفضله وحسن ضيافته. وكانت هذه الهدية ثمينة حقًا، لأن الكتاب المقدس كان في ذلك الوقت مخفي عن العلمانيين. وقد درس قسطنطين هذه الأسفار المقدسة فأحدثت انقلابًا عظيمًا في مبادئه الدينية وفي مجرى حياته، وأصبحت هذه الأسفار الموضوع الوحيد لدراسته، والقانون الوحيد لإيمانه وتصرفاته.

وقد فكر قسطنطين حينئذ في تأليف شيعة جديدة أو بالحري في إعادة المسيحية الرسولية. ويقول أعداؤه إنه طرح جانبًا كتب المنيخية وهجر تلك الشيعة، وعلّم أتباعه أن لا يقرأوا سوى الأناجيل ورسائل العهد الجديد. وربما يكون ذلك قد أعطى حجة لأعدائه حتى يتهموه برفض العهد القديم ورسالتي بطرس. ولكن الأرجح هو أنه لم يكن عندهم تلك الأجزاء من كلمة الله، ولذلك يبدو أنهم تمسكوا بشغف عظيم بكتابات بولس الرسول وأهملوا سواها.

ومن المتفق عليه أن اسمهم مشتق من اسم رسول الأمم العظيم. وكان قسطنطين وتلاميذه يسمون أنفسهم بأسماء شركاء الرسول في الخدمة: سلوانس وتيموثاوس وتيطس وتيخيكس. وكانوا يسمون اجتماعاتهم في الجهات المختلفة بأسماء الكنائس الرسولية. ومن المتعذر علينا أن نرى لماذا استاء الكاثوليك من أولئك البولسيين وأية حجة اتخذوها عليهم حتى يصطادوهم للنار والسيف؟ ولكنهم هكذا فعلوا كما سنرى الآن. وكانت خطية البولسيين التي لا تُغتفر هي انفصالهم عن كنيسة الحكومة، وشهادتهم ضد الخرافات، وإحيائهم ذكرى المسيحية النقية الأولى.

سلوانس في سيبوسا

بثّ قسطنطين الذي سمى نفسه سلوانس أول دعواه إلى سكان مدينة تدعى سيبوسا في أرمينيا، وقد أسماهم "المكدونيين". وهناك استوطن وخدم بنشاط عظيم ثلاثين عامًا تقريبًا، هاديًا نفوسًا كثيرة من الكنيسة الكاثوليكية ومن الديانات الأخرى. ولما أينعت تلك الشيعة وأصبحت جديرة بأن تلفت الأنظار بلغ الأمر إلى الإمبراطور، فأصدر مرسومًا سنة ٦٨٤م ضد قسطنطين واجتماعات البولسيين. وقد عهد بتنفيذ هذا المرسوم إلى ضابط من الحاشية الملكية يدعى سيمون، الذي تلقى الأوامر بإعدام معلمهم وتشتيت أتباعه بين الكهنة، وإيداعهم الأديرة بقصد إصلاحهم وإرجاعهم. ولا شك أن الحكومة فعلت ذلك بإيعاز من الكنيسة كما في حادثة آخاب الذي أغوته امرأته إيزابل (١مل ٢١: ٢٥). ولكن الرب فوق الجميع وهو قادر أن يجعل غضب الإنسان يحمده.

وضع سيمون قسطنطين الذي هو موضوع انتقام الكهنة أمام جمهور كبير من رفقائه وأمرهم أن يرجموه، فرفضوا ورموا الأحجار التي سلحهم بها إلى الأرض، ما عدا شاب واحد رمى بحجره إلى قسطنطين فقتله، وكان ذلك الشاب هو يوستوس الابن الذي تبناه قسطنطين لنفسه. وقد عظّم الأعداء هذا الجاحد قائلين أنه داود ثان قتل بحجره جلياتًا ثانيًا هو زعيم الهرطقة. ولكن كما أن رجم إستفانوس أنبت للمسيحية زعيمًا عظيمًا هكذا رجم قسطنطين أنبت لشيعته زعيمًا بعده وهو الضابط الملكي الذي نفذ الحكم، فقد أثّر المنظر الذي رآه والكلمات التي سمعها تأثيرًا عميقًا في نفسه، فدخل في محادثة مع بعض أفراد الشيعة وكانت النتيجة أنه اهتدى وصار من زمرتهم. ثم رجع إلى الحاشية الملكية، وهناك قضى ثلاث سنوات في القسطنطينية في قلق وعدم راحة ضمير، وأخيرًا هرب تاركًا كل ممتلكاته خلفه واستوطن في سيبوسا صائرًا، تحت اسم تيطس، خلفًا لقسطنطين (سلوانس).

بعد خمس سنوات تقريبًا من استشهاد قسطنطين عاد يوستوس الخائن ووشى بالبولسيين. وقد كان نظير الخائن القديم يهوذا الإسخريوطي ملمًا بعادات وأحوال الجماعة، وعارفًا أيضًا أين يكافأ على خيانته. فذهب إلى أسقف كولونيا وأخبره بنهضة تلك الهرطقة - كما أسماها - وانتشارها. وأبلغ الأسقف هذا الخبر إلى الإمبراطور جستنيان الثاني. وكانت النتيجة أن أحرق سيمون وعدد كبير من أتباعه في كومة كبيرة، ولكن جستنيان القاسي ظن عبثًا أن يخمد ذكر البولسيين بحريقة واحدة، إلا أن دم الشهداء صار بذارًا أنبتت عددًا كبيرًا زادوا الجماعة قوة واتساعًا. وقد نهض من رماد الشهداء معلمون جدد وجماعات جديدة، وانتشرت الشيعة في كل البقاع المحيطة، في أسيا الصغرى وبنطس وتخوم أرمينيا حتى الجهة الغربية من نهر الفرات. وقد احتملوا بصبر مسيحي غضب الحكام الذي أثاره الكهنة سنوات طويلة.

إيزابل ثانية (٨٤٢م)

بعد وفاة الإمبراطور ثاوفيلس ملكت أرملته تيودورا كنائبة للملك المدة التي كان فيها ابنها قاصرًا، وكانت متمسكة بالأصنام بطريقة مستترة ولكنها لم تكن خافية على الكهنة. فلما مات ثاوفيلس وخلا لها الجو عمدت على إتمام غرضها، فعملت عيدًا عظيمًا لإرجاع التماثيل. فاجتمع كل كهنة القسطنطينية وكل من استطاع أن يأتي من البلدان المجاورة أمام قصر رئيس الأساقفة ومشوا باحتفال كبير حاملين الصلبان والمشاعل والبخور حتى كنيسة أياصوفيا، وهناك تقابلوا مع الإمبراطورة وابنها الصغير ميخائيل فطافوا دائرة الكنيسة بمشاعلهم ساجدين أمام كل تمثال وصورة كانوا قد سبقوا فأرجعوها إلى أمكنتها. ولم تنقل من هناك بعد ذلك إلى أن دخلها الأتراك العثمانيون(٢/٤٤).

بعد هذا الانتصار في تثبيت التماثيل رأى الفريق المنتصر أن الوقت مناسب للسعي للحصول على انتصار آخر، فألحوا على الإمبراطورة أن تعمل على إبادة البولسيين لأنهم كانوا يعملون ضد التماثيل والآثار وخشبة الصليب القديمة، فلم يكونوا لذلك يستحقون البقاء في الحياة. وفعلاً حصل الكاثوليك على بغيتهم إذ أصدرت تيودورا، بصفتها نائبة للملك، مرسومًا يقضي بإبادة البولسيين بالنار والسيف أو إرجاعهم إلى الكنيسة اليونانية. ولكنهم إذ رفضوا كل المساعي التي بذلت لإرجاعهم صاروا موضع الاضطهاد الشديد، فطاف رسل الإمبراطورة مدن وجبال آسيا الصغرى باحثين عن البولسيين ومنفذين فيهم أقسى أنواع التعذيب. ويمكننا أن نحكم على عدد المنتسبين لتلك الشيعة من الجماهير الكثيرة التي ماتت قتلاً بالسيف وحرقًا بالنار وإغراقًا في البحر، ويؤكد المؤرخون السياسيون والدينيون معًا أنه في زمن قصير قُتل مائة ألف شخص من البولسيين. فهل كانت لإيزابل حقيقة بنت كتلك الإمبراطورة؟ فضلاً عن ذلك لم يكن أمامها آخاب لتغريه على عمل تلك القساوة بل عملتها بيديها، يدي إمرأة كان المنتظر أن تكون لطيفة رقيقة. نعم لقد قتلت بواسطة مرسومها مائة ألف شخص من قديسي الله*،

وأعادت عبادة الأصنام، وشجعت بعطفها الملكي الكهنة الرومانيين المحبين للوثنية.

يتميز تاريخ مشكلة عبادة التماثيل بالتأثير النسائي فكانت هيلانه أول من اقترحت وشجعت احترام الآثار، ومن بعدها إيريني التي أعادت عبادة التماثيل، وها نحن نرى الآن تيودورا لا تثبت فقط عبادة الأصنام التي اجتهد زوجها في إزالتها، بل تضطهد العباد الحقيقيين.

ولا شك أن أولئك النسوة الثلاث، ولا سيما الأخيرتين، كانت لهن صورة إيزابل المرموز بها إلى الكنيسة المتسلطة في العصور المظلمة، كما أن النظام الكاثوليكي بجملته يحمل أيضًا تلك الصورة المخيفة، وله الأوصاف المظلمة المنسوبة إلى إيزابل. حقًا إن كلمة الله لا تسقط أبدًا، فقد قالت «لم يكن كآخاب الذي باع نفسه لعمل الشر في عيني الرب، الذي أغوته إيزابل امرأته» (امل ٢١: ٢٥) هذا عن الرمز، أما عن المرموز إليه فتقول «عندي عليك (قليل) أنك تسيب المرأة إيزابل التي تقول إنها نبية حتى تعلم وتغوي عبيدي أن يزنوا ويأكلوا ما ذبح للأوثان. وأعطيتها زمانًا لكي تتوب عن زناها ولم تتب» (رؤ ٢: ٢٠، ٢١).

إعجاب الكنيسة الرومانية بأخلاق تيودورا

أصبح نقولا الأول بابا لروما سنة ٨٥٨م، فكتب إلى تيودورا يمتدح أخلاقها، ويعجب على الأخص بطاعتها التامة للإكليروس الروماني، ويقول إنها قصدت أن ترجع البولسيين إلى الإيمان الصحيح أو أن تبيدهم أصلاً وفرعًا، وتتميمًا لهذا القصد أرسلت الأشراف والحكام إلى مقاطعات الإمبراطورية المختلفة فصلبوا بعض أولئك التعساء وقتلوا البعض بالسيف وأغرقوا البعض في البحر. وفي الوقت نفسه يقول نقولا إن أولئك الهراطقة قد رأوا في تلك الملكة حزم الرجال وقوتهم حتى كادوا لا يصدقون أنها امرأة. وبالحقيقة قد أعمت قوة الخرافات الوثنية بصيرة تيودورا، وغيرت فيها قلب المرأة الرقيق الشفوق إلى قلب ظالم قاس متعطش للدماء. ومن نفس كلمات البابا يظهر بوضوح أن الإكليروس الروماني كانت له اليد الطولى في قتل البولسيين، إذ يقول البابا للإمبراطورة "إن الهراطقة قد ارتعدوا، وإن كانوا أعجبوا من حزمك وثباتك في المحافظة على نقاوة الإيمان الكاثوليكي. ولم هذا؟ لأنك اتبعت تعليمات الإكليروس الرسولي"(٢/٢٥).

* لا نقصد أن نقرر أن جميع الذين قتلتهم تيودورا من البولسيين كانوا مسيحيين حقيقيين لأننا لا نقدر أن نحكم على القلب ولكننا نعلم أنهم اعترفوا بأنهم مؤمنون وتطوعوا للموت كشهداء.

حقًا إنه يصعب علينا أن نعتقد أن من يقول إنه خليفة المسيح وراعي الخراف يكتب أقوالاً كالسابق إيرادها، ولكن هكذا سمح لنفسه وهكذا وصلت إلينا تلك الأقوال شاهدة على ظلم الكنيسة الرومانية المرتدة عن المسيح في القرن التاسع.

البولسيون يثورون على الحكومة

وطد البولسيون في أرمينيا والمقاطعات المجاورة العزم على مقاومة مضطهديهم بشدة، وكانت هذه نقطة فشلهم وثمرة استماعهم لمشورة الشيطان. فبعد أن احتملوا الاضطهاد كمسيحيين مائتي سنة تقريبًا، مزينين تعاليم الإنجيل بحياة الإيمان والصبر، وبعد أن احتفظوا بالحق طول مدة آلامهم متشبهين بروح الاحتمال النبيلة التي كانت في المسيح، بعد ذلك لم يثبتوا في الإيمان والصبر إلى النهاية، بل ثاروا على الحكومة علنًا. وكان ذلك على الوجه الآتي:

كان كاربياس من كبار الضباط في الجيش الإمبراطوري. هذا سمع أن أباه قد مات أشنع ميتة بأيدي المضطهدين الكاثوليك، فخرج عن طاعة الإمبراطورية واجتمع بخمسة آلاف من رفقائه وذهبوا ليلتمسوا لهم ملجأ عند العرب. فرحب بهم الخليفة وسمح لهم بالإقامة في أملاكه. فبنى كاربياس مدينة تبريز وحصنها حتى صارت عاصمة البولسيين، الذين تجمعوا بطبيعة الحال في ذلك الوطن الجديد هروبًا من القوانين الإمبراطورية. وبعد وقت قصير صاروا جماعة قوية وأضرموا نار الحرب مع الإمبراطورية نائلين انتصارات متوالية لأكثر من ثلاثين عامًا. ونمسك القلم عن الدخول في التفصيلات لأنها ليست ملذة بل بالعكس محزنة ومؤلمة.

البولسيون في أوروبا

حوالي منتصف القرن الثامن نقل قسطنطين الملقب كوبرونيموس عددًا كبيرًا من البولسيين إلى "تراسيا" على الحدود الخارجية للإمبراطورية. وسواء كان قصده حمايتهم أو معاقبتهم، فإنهم هناك اشتغلوا كإرسالية دينية، وبواسطة هذه الهجرة دخلت تعاليمهم وانتشرت في أوروبا. ويظهر أنهم عملوا بنجاح عظيم بين البلغاريين، فقد أرسل بطرس الذي من صقلية رسالة إلى رئيس أساقفة بلغاريا سنة ٨٧٠م يحذره فيها من عدوى البولسيين، لأن كنيسة بلغاريا كانت إذ ذاك في المهد، وهذه الرسالة هي المصدر الرئيسي الذي منه وصلتنا أخبار تلك الشيعة. ثم في القرن العاشر أرسل الإمبراطور جون زيمسيس جماعة أخرى منهم إلى وديان جبل هيمس. ومن ذلك الوقت أصبح تاريخهم أوروبيًا، وقد أعطوا حرية تامة في أرض نفيهم، الأمر الذي خفف عنهم آلامهم وقوى جماعتهم وفتح أمامهم الطريق إلى الجزء الغربي من أوروبا. وقد انضم إليهم الكثيرون من الأهالي البلغاريين، ولذلك صار اسم البلغاريين من ألقاب البغضة التي ألصقت بالبولسيين في كل مكان.

أما باقي التاريخ الديني لهؤلاء القوم ففيه يختلف المؤرخون كثيرًا، ولا نعرف عنهم شيئًا إلا من كتابات أعدائهم، وليس من العدل أن نحكم عليهم من حجة أعدائهم. غير أن شيئًا واحدًا هو المؤكد، وهو أنهم احتجوا على عبادة القديسين والتماثيل، وعلى شرعية الكهنوت المتمسك بالمبادئ الوثنية. وقد احتجوا أيضًا على أشياء كثيرة في التعاليم والممارسات والسلطة التي اتخذتها الكنيسة الرومانية. ويتكلم عنها المؤرخون الرومانيون كمنيخيين وهم أشر الهراطقة، ولكن بعض المؤرخين البروتستانت فحصوا بتدقيق كل ما يمكن أن يلقي نورًا على تاريخهم ووصلوا إلى الحكم بأنهم أبرياء من الهرطقات التي نُسبت إليهم، وأنهم كانوا شهودًا أمناء للمسيح وللحق أثناء عصر حالك الظلام من العصور الوسطى. ولنرجع الآن إلى تاريخنا العام.

حروب شارلمان الدينية (٧٧١-٨١٤م)

منذ عهد بيبين نرى التاريخ الإكليريكي متداخلاً وممتزجًا بتاريخ الملوك الفرنسيين وبدسائس الباباوات المخزية، لذلك وجب علينا أن نتتبع باختصار مجرى الحوادث التي لها علاقة بصفات البابوية وتاريخ الكنيسة.

نظر الباباوات باهتمام عظيم إلى ازدياد قوة شارلمان الابن الأصغر لبيبين واستغلوا هذه القوة بمهارتهم لتتميم أغراضهم ومطامعهم. فقد نجح كل من البابا هدريان الأول وليو الثالث اللذين جلسا على العرش البابوي في زمان ملك شارلمان نجاحًا كبيرًا في تعظيم الإكليروس الروماني بواسطة حروبه الدينية.

حدث نزاع بين دسيدريوس ملك اللمبارديين وبين البابا هدريان أدى إلى نشوب حرب مع فرنسا، انتهت بالقضاء التام على الملوك اللمبارديين في إيطاليا، وكان هذا نتيجة مشروع البابوية العظيم،

ووليد خديعة البابا. كان شارلمان صهرًا لدسيدريوس، ولكن لم يمض إلا عام واحد من الزواج حتى طلق شارلمان الزوجة اللمباردية وتزوج في الحال سيدة من عائلة شريفة. فلما وصلت الابنة إلى أبيها سعى ذلك الأب بطبيعة الحال في صلحها بواسطة البابا رئيس الكنيسة الذي كان شارلمان ابنًا خاضعًا له. وكان من مبادئ الكنيسة أن تشدد تشديدًا عظيمًا على قدسية الرابطة الزوجية متى كان ذلك موافقًا لأغراضها، ولكن البابا في الحادثة التي أمامنا رفض أن يتدخل، لأن الكنيسة الرومانية كانت تعوّل على مساعدة شارلمان، لذلك لم يجسر أن يعمل شيئًا يغضبه.

أراد دسيدريوس في النهاية الانتقام لأجل إهانة شارلمان له وإغضاء البابا هدريان الطرف عنه فظهر على رأس جيوشه في إيطاليا وحاصر وأخرب أماكن كثيرة وهدد البابا في مقره.

هدريان يرسل إلى شارلمان

حينئذ أرسل البابا رسائل على جناح السرعة يتوسل فيها إلى شارلمان أن يساعده عاجلاً. وفي الوقت نفسه عمل بمهارة ترتيباته الحربية اللازمة للدفاع عن المدينة وسلامة أموالها. وأرسل ثلاثة أساقفة لكي يهددوا الملك بالحرمان إذا هو تجاسر على اغتصاب أملاك الكنيسة. بذلك كسب البابا فرصة تمكن فيها شارلمان بسرعته المعهودة من جمع جيوشه وعبور الألب ومحاصرة بافيا. وفي أثناء الحصار الذي استمر بضعة شهور زار شارلمان البابا فرحب به وأكرمه إكرامًا عظيمًا، وهتف له الأشراف والنواب والأهالي كابن الكنيسة المطيع الذي لبى في الحال دعوة أبيه الروحي وأتى لإنقاذهم من اللمبارديين. ولما انتهت الزيارة المقدسة رجع شارلمان وضباطه إلى الجيش، وفي النهاية سقطت بافيا في أيديهم، وخُلع دسيدريوس من العرش، والتجأ إلى أحد الأديرة، وهو الملجأ المعتاد للملوك المخلوعين. وهرب ابنه أدلكيس إلى القسطنطينية. وبذلك اضمحلت مملكة اللمبارديين، العدو اللدود للإيطاليين والعقبة الكئود في سبيل العظمة البابوية. وبذلك خلا الجو وانفسح المجال أمام الفاتح حتى يعطي للبابا مملكة ليست حبرًا على ورق كأبيه بيبين، بل بلدانًا ومقاطعات وأموالاً طائلة. وإذ أصبح مالكًا لمملكة اللمبارديين بحكم الفتح قدّمها هبة مطلقة للمدعين بأنهم "خلفاء بطرس الرسول"، والبعض يقولون إنه قدّم إيطاليا بأكملها. وفي الوقت نفسه أخذ شارلمان لنفسه اللقب الملكي وأظهر نوعًا من السيادة على إيطاليا، بل وعلى الكنيسة الرومانية نفسها. والبابا إذ أمن على امتلاك تلك الممتلكات لم يحجم عن أن يسمح لشارلمان بالحصول على جميع الامتيازات الملكية.

مُلك الباباوات الرومانيين

أصبح البابا إذ ذاك مَلكًا زمنيًا. وبذلك أقبل اليوم الذي طالما انتظروه، وتحقق الحلم اللذيذ الذي ظلوا يحلمون به زمانًا طويلاً. فنودي بخلفاء بطرس الرسول باباوات وملوكًا ومالكين لمدينة روما وممتلكاتها. وانكسرت الحلقة الأخيرة من حلقات الخضوع الاسمي للإمبراطورية اليونانية، وعادت روما إلى مركزها كعاصمة الغرب.

وفي الحال اتخذ البابا العظيم هدريان لنفسه سلطان الملك الزمني وامتيازاته ولغته، مطالبًا بالطاعة والخضوع له، وأسكت التذمرات الصادرة من رافنا ومن الشرق، ومَلك في روما مُلكًا فعليًا. وصارت لغة البابا، حتى في مخاطبة شارلمان، لغة الند للند، فكتب إليه قائلاً: "كما أنه لا يُسمح لرجالك بالإتيان إلى روما بدون إذن وتصريح كتابي منك، هكذا لا يجوز أن يُسمح لرجالي بالظهور أمام بلاط فرنسا إلا بأوراق الاعتماد الرسمية مني". وطالب الإيطاليين بالخضوع له كما يخضع رعايا شارلمان لملكهم. وكانت الأحكام القضائية تصدر باسم البابا، وكانت تدخل إلى خزائنه الإيرادات المدنية والحقوق الإكليريكية وإيجارات الضياع الداخلة في ميراث بطرس الرسول. وبالجملة فقد أظهر بالقوة مجد ملك عظيم، وابتدأت روما بواسطة زيادة الإيرادات البابوية أن تسترد مجدها القديم.

العصر العظيم في تاريخ البابوية

بما أن مملكة شارلمان مرتبطة ارتباطًا خاصًا بتاريخ الكنيسة وهي تكوّن العصر العظيم في تاريخ الإكليروس الروماني، لذا وجب أن نفسح للكلام عنها مجالاً أوسع. فقد كانت الكنيسة الرومانية مدينة بالكثير من عظمتها لشارلمان العظيم. قال ملمان: "كان شارلمان يعتبر حروبه مع السكسون التي ضمت ألمانيا كلها تقريبًا إلى ممتلكاته حروبًا دينية. فإذا اعتبرنا بونيفاس رسولاً لإنجيل

السلام يمكننا أن نعتبر شارلمان رسولاً لمبدأ غرس الدين بالقوة. لأنه كان يعترف أن غرضه من حروبه هو انقراض الوثنية وإخضاع الناس للإيمان المسيحي أو إعدامهم. وكانت المعمودية في نظره هي علامة الخضوع والولاء. وكان السكسون يقبلون تلك العلامة أو يرفضونها تبعًا لحالات الخضوع أو العصيان. أما تلك الحروب فكان لا بد من وقوعها لأنها إنما كانت استمرارًا لذلك النزاع العظيم الذي أشعلت ناره القبائل الشمالية والشرقية المتبربرة ضد الجنوب والغرب المتدينين، وقد دامت تلك الحروب قرونًا طويلة. وإنما كان الفارق بينها وبين حروب شارلمان أن الشعب الروماني المسيحي إذ تقوى باختلاطه بالعنصر التيوتوني كان في هذه المرة المهاجم لا المدافع. فعوضًا عن أن ينتظر رعايا الممالك الغربية حتى يروا القبائل المتوحشة قد أغارت عليهم وخربت بلادهم، تقدموا هم بشجاعة إلى قلب بلاد الأعداء مخترقين غاباتهم وعابرين مستنقعاتهم، ومؤسسين محاكم الإقطاع، والكنائس والأديرة في تلك الأصقاع النائية المتوحشة حتى شواطئ بحر البلطيق".

كان السكسون ينقسمون إلى ثلاث قبائل رئيسية: الأوستفاليين والوستفاليين والإنجريين. وكل قبيلة من هذه القبائل كانت تنقسم إلى ثلاث طبقات: الأشراف والأحرار والعبيد، ولكن عند دواعي الأحوال كانت تجتمع الأمة كلها ككتلة واحدة مسلحة. وكان السكسون يحتقرون ويكرهون الفرنجة المتشبهين بالرومانيين، والفرنجة كانوا يعتبرون السكسون برابرة وثنيين. وهكذا اشتغل شارلمان العظيم ثلاثة وثلاثين عامًا في إخضاع تلك القبائل السكسونية المتوحشة. ولكننا نريد أن نحصر تأملنا على الأخص في الوجهة الدينية لتلك الحروب.

سيف شارلمان أو المعمودية

كان الغرض الذي يعترف به شارلمان هو غرس المسيحية في أجزاء ألمانيا النائية، ولكن مما يدعو للأسف الشديد أنه استخدم لذلك وسائل عنيفة جدًا، فكان يضطر الألوف للدخول في مياه المعمودية تخلصًا من الموت الشنيع. وكان الاصطلاح الذي يستعمله الغازي هو: السيف أو المعمودية، وقد سن قانونًا يقضي بعقوبة الموت على كل من يرفض المعمودية، ولم يكن يقبل عقد أية هدنة، أو الدخول في أية معاهدة لا تكون المعمودية شرطها الأساسي. وكان شعار الفرنسيين، الاهتداء أو الإعدام. فكان السكسوني يدخل في المسيحية وديانته القديمة باقية في ضميره، وهو لا يرى في الديانة الجديدة أية ميزة أفضل، لأن المعمودية كانت في نظره كلمة مرادفة للعبودية، والمسيحية عنده كان معناها الخضوع لنير أجنبي، وكان يعتبر الخضوع للمعمودية ليس فقط تخليًا عن ديانته القديمة بل عن حريته الشخصية أيضًا.

بهذا الشعور المضاد للمسيحية، بل والإنسانية أيضًا، أجرى شارلمان حروبه ثلاثة وثلاثين عامًا كما قلنا، فخرج على رأس جيوشه قاهرًا القبائل المتوحشة. ويقال إنه لم يقابل قط خصمًا يعادله في العدد أو الأسلحة أو التدريب الحربي. وبعد نزاع عنيف ومعارك دموية هائلة شديدة تغلبت في النهاية الجيوش الفرنسية القوية المدربة على مجهودات السكسون غير المنظمين وغير المدربين. قال جرينوود: "إن البقية التي بقيت بعد ثلاثين معركة هائلة ومذبحة عامة انضمت إلى الإمبراطورية الفرنسية وإلى الديانة المسيحية، وأنشئت الأديرة ومختلف الأماكن الدينية في جميع أجزاء البلاد، وزودت الكنائس التي أنشئت بخدام من مدرسة بونيفاس، تلك المدرسة التي لم تكن تفرق بين قانون المسيح وقانون روما".

كانت المعمودية هي البرهان الوحيد الذي قبله الفرنسيون كعلامة على خضوع السكسون، ولذلك - بكل حزن نقول - بعد أن انتهت الملحمة الدموية وتم الفتح دخل الكهنة في الميدان، وكانت مهمتهم هي تعميد القوم المقهورين، وبذلك أرغم الألوف وهم مهددون بالسيوف المسلولة أن يدخلوا فيما أسماه الكهنة "مياه المعمودية المجددة". أما في نظر أولئك السكسون فلم تكن المعمودية تعني أكثر أو أقل من التخلي عن الديانة القديمة وعن الحرية الشخصية. وكانت النتيجة أنه ما كادت جيوش شارلمان تنسحب حتى عاد أولئك السكسون إلى الثورة، مخترقين تخوم الإمبراطورية، ومتلفين الأديرة وقاتلين سكانها، غير معتبرين الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال، حتى ظهرت البلاد كلها كأنها شعلة من نار أو طوفان من دم. ويقال إن هذه الثورات قد اضطرمت نيرانها بسبب قسوة وسوء تصرف رسل الإمبراطور والرهبان، والطمع الأشعبي الذي أظهروه في فرض الضرائب. ولكن هذه الثورات قد أعقبها غزوات جديدة ومذابح قاسية قام بها الفرنسيون حتى أخضعوا القبيلة بعد الأخرى لسلطان شارلمان. وفي مرة من المرات ذبح شارلمان بعد ثورة

شديدة ٤٥٠٠ من المقاتلين الشجعان بعد أن كانوا قد أذعنوا واستسلموا. على أن سوء استعمال القوة بطريقة الجبن هذه قد ترك وصمة لا تمحى في تاريخ شارلمان، حتى أن المؤرخ غير المؤمن يشير إلى هذه الحادثة إشارة مؤثرة بقوله: "إن أبناء كارلومان أخي شارلمان، والأمراء الميروفنجيين، والأربعة الآلاف والخمسمائة سكسوني الذين ذبحهم، سيشهدون في يوم عقاب أليم على ظلم شارلمان وعدم إنسانيته. ولقد كانت معاملته للسكسون المقهورين تدل على سوء استعمال حقوق الفاتح".

التأثير السيئ لرسل البابا

إذا حق لنا أن نحزن عند تأملنا في مذابح السكسون، وفي تعميد البقية المقهورة بالقوة، فإن حزننا ليزداد أضعافًا عندما نرى أن الذين ادعوا أنهم رسل الرحمة كانوا المحركين لتلك الحروب الشعواء. فعوضًا عن أن يكونوا رسل إنجيل السلام صاروا في الحقيقة جواسيس البابوية القساة ورسل قوات الظلمة. ولا ريب أن أولئك الكهنة قد خدعوا شارلمان إلى حد كبير بحجة العمل عل اتحاد الكنيسة والحكومة لأجل فائدة الناس من الوجهتين الزمنية والروحية وتقوية الحكومة الملكية. ووجد الكهنة الماكرون الباب مفتوحًا لتحصيل العظمة الزمنية لأشخاصهم والسيادة المطلقة لروما. وهكذا حدث، كما يخبرنا التاريخ، فقد حصلوا بسرعة على عظمة عالمية على حساب القوم المقهورين وأملاكهم. وقد حدث في ذلك الوقت تغير كلي في حالة الإكليروس الخارجية، بل في النظام الاجتماعي بأكمله، فاختفى التاريخ القديم بموت بيبين وابتدأت حياة القرون الوسطى بابنه الذي كان آخر الملوك البرابرة وأول ملوك عهد الإقطاع. ولكننا إنما نريد حصر تأملنا في التاريخ الإكليريكي، لذلك نستحسن أن نقتبس بعضًا من أقوال ذلك الأسقف الذي كثيرًا ما يشار إليه، والذي لا يمكن أن يُرمى بالتعسف في القول لما هو مشهور عنه من النزاهة قال:

"كان بعد إخضاع الأرض أن شارلمان أخذ في تأسيس مستعمراته الدينية الثماني، وهي أبروشيات ميندن شليجنشتاد وفيردن وبريمن ومونستر وهيلدزهايم وأوشنابرج وبادربورن، التي صارت إلى جانب الأديرة الغنية مثل هيرشفولد مراكز إشعاع للمسيحية والمدنية، وأخذت دائرة نشاطها تتسع. ومع أنها كانت منشآت عسكرية ودينية في آن واحد، إلا أنها لم تكن تضم غرباء سوى رجال الإكليروس فقط. وكان شيوخ القبائل السكسونية الأكثر أمانة واحترامًا قد وفروا لهم الأمان، إذ كانوا على ما يبدو قد اهتدوا اهتداء حقيقيًا للمسيحية، وقد كان عندهم الاعتراف بالمسيحية هو المحك لاختبار إخلاص الناس...

يشغل شارلمان مكانًا هامًا في التاريخ المسيحي، ليس بالنظر لإخضاعه ألمانيا للإنجيل فقط، بل لتنظيمه - إن لم نقل لتأسيسه - نظام الإقطاع الديني العالي في جزء كبير من أوروبا. ويمكن أن يقال إنه تأسس في الإمبراطورية الغربية كلها ذلك النظام الأرستقراطي المزدوج، أي الإكليريكي والمدني، فقد وُجد في كل مكان رئيس الأساقفة والأشراف جنبًا إلى جنب، ثم من هم دونهم طبقات طبقات، ولكل طبقة واجباتها المنظمة. وكان لكل مقاطعة أسقفها وأميرها، وكانت حدود الأبروشيات والإمارات واحدة تقريبًا.

ولم يكن شارلمان أقل سخاء من ملوك أضعف منه في عطائه للكنيسة من الممتلكات والأديرة. وقد أوقف مع زوجته الملكة هيلداجارد كنيسة القديس مارتن في تورز، إلى جانب أراض في إيطاليا. ووهب عطاياه في زمان تسلطه لأديرة القديس دينيس ولورش وفولدا وبروم، ولكنه أكثر من العطاء لدير هيرشفولد وكثير من الأديرة الإيطالية...

ولم تكن الأراضي تُعطى للأمراء والأشراف فقط بل للأساقفة أيضًا، وفي بعض الأحيان كان القوامون على الفقراء يظلمون الفقراء. فقد قُدمت شكاوى عديدة على الأساقفة ورؤساء الأديرة لاغتصابهم الممتلكات، كما قدمت على الأمراء والعلمانيين سواء بسواء. فقد كانوا يلزمون الأحرار المساكين أن يبيعوا أملاكهم، أو أن يخدموا في الجيش خدمة مستمرة، وبذلك يتركون أملاكهم بدون صاحب، أو يعهدونها إلى الذين جلسوا في بيوتهم مستريحين، منتهزين كل فرصة لتوسيع أملاكهم. فلم ينجُ كرم نابوت واحد من مطامعهم الساهرة...

وكان للأسقف، أو رئيس الدير، في مقاطعته كل الحقوق التي يملكها الشريف الإقطاعي. وإذ أصبح للرئاسة الدينية نظام إقطاعي موازٍ تمامًا للأرستقراطية الزمنية، تمتع هؤلاء الرؤساء بقوة أرباب الأراضي وشرفهم وثروتهم. وكان للأساقفة ورؤساء الأديرة مقاطعات مستقلة لا تُباع ولا توهب، ومع ذلك ابتدأوا يحتجون ويرفضون دفع الضرائب التي كانت تُفرض بكثرة على الأراضي الأخرى. على أن روح الامتياز

الروحي هذا لم يكن قويًا في أيام شارلمان، ولكنه تقوّى ونما نموًا سريعًا أثناء النزاع بينه وبين ابنه لويس التقي. ففي ذلك الوقت أعلنت الرئاسة الدينية أن جميع الأملاك الموهوبة للكنيسة، وللفقراء، وللقديسين، ولله نفسه، لا يجوز إلغاؤها أو ردّها، أو استبقاء شيء منها. يجوز أن يكون للملك سلطان على أملاك الفرسان، أما على أملاك الكنيسة فلا سلطان له البتة. وادعاؤه بأي سلطان عليها يعتبر تعديًا شريرًا جزاؤه الحرمان من الحياة الأبدية، لأن الإكليروس وأملاكه تابعون لمملكة أخرى مستقلة تمام الاستقلال عن السلطة الزمنية[٢/٢٣].

نظام الإقطاع الديني

ظلت البابوية عدة قرون تصرخ إلى كل ملك يعتلي العرش قائلة: "أعط أعط. امنح امنح. وبطرس الرسول لا بد أن ينصرك على أعدائك ويمنحك نجاحًا في هذا العالم، ومكانًا قريبًا منه في السماء". وكانت تلك الصرخات تُجاب إلى حد كبير في أوائل القرن التاسع. ومن الأقوال التي اقتبسناها آنفًا يستطيع القارئ أن يكوّن فكرة عن الغنائم التي غنمها الإكليروس من انتصارات شارلمان في ألمانيا. وكان من نتيجة تلك الحروب التي دامت ثلاثة وثلاثين عامًا أن نشأ نظام الإقطاع الديني. فقد قُتلت الآلاف المؤلفة لكي تفسح مجالاً لحصول الأساقفة ورؤساء الأديرة على أرستقراطية إكليريكية، وشيدت القصور الفخمة لرجال الإكليروس العظام في جميع أنحاء البلاد المهزومة. ولكن تلك القصور قد تأسست على القسوة والظلم والدماء.

ومع أنه مرت آلاف السنين على وفاة شارلمان، حامي الكنيسة العظيم، إلا أن تلك القصور لا زالت قائمة متينة الدعائم في جميع أنحاء أوروبا. ولكن القلب ليدمى إذا رجع بذاكرته إلى أصل تلك القصور التي يسمونها "قصور السلام"، خصوصًا إذا ذكرنا روح الإنجيل الحقيقية، وأن خدام المسيح يجب أن يُظهروا دائمًا روح المسيح الوديع والمتواضع القلب، وأن يكون غرضهم النفوس لا الممتلكات، وأن يكون شعارهم على الدوام: "نحن لا نطلب مالكم بل أنفسكم ... وإننا خرجنا ولا نأخذ شيئًا من الأمم". ولكن بالأسف نُسيت روح المسيح منذ زمان بعيد، وانحدرت الكنيسة إلى روح العالم ومستواه منذ اتحدت مع الحكومة في أيام قسطنطين. هذه كانت سقطتها الكبرى التي نشأ عنها التحول عن دعوتها، ومن ذلك الوقت تملكها حب العالم وحب السلطان والنفوذ المطلق، وأعمى بصيرتها الشيطان الذي في عرشه جلست (رؤ ٢)، وهذا هو السر في شرورها وتصرفاتها المخجلة. وكانت كل الوسائل مباحة ومشروعة في نظرها مادامت تعمل على تقدم الإكليروس الروماني.

تأملات في عناية الرب بالذين هم له

لا شك أنه كان للرب أفراد مخبوؤن حتى في أشد العصور ظلامًا كثياتيرا «ولكنني أقول لكم وللباقين في ثياتيرا كل الذين ليس لهم هذا التعليم، والذين لم يعرفوا أعماق الشيطان كما يقولون إني لا ألقي عليكم ثقلاً آخر، وإنما الذي عندكم تمسكوا به إلى أن أجيء» (رؤ ٢: ٢٤،٢٥). فكان يجب أن ينشغل الأمناء بشيء واحد فقط في وسط الارتداد والخراب ألا وهو «المخلِّص في السماء» - الإنسان الكامل الممجد، ولهم جميعًا الوعد الجميل «وسأعطيه كوكب الصبح». أما المسيحية الاسمية الظاهرية التي اتحدت بالحكومة فقد فسدت، وتقست، وغرقت في حمأة الشرور، وكنت تجد جميع أنواع الشر متركزة في كرسي بطرس الرسول. حتى الحروب الدينية يُعتبر البابا مسئولاً عنها أكثر من مسئولية شارلمان نفسه.

يجب أن نتذكر أن شارلمان كان ملكًا بربريًا، ولذلك كان غرضه أن يكوّن إمبراطورية عظيمة ويثبتها. ولكنه كان جاهلاً وخرافيًا من جهة الأمور الإلهية. غير أن الفكرة الدينية كانت قوية في نفسه. ولذلك ضرب له البابا على الوتر الحساس، وجعله يعتقد أنه بتقوية الكنيسة وإغنائها تتقوى وتغنى الحكومة، وأن اتحاد الكنيسة والحكومة يجب أن يكون أساس كل مشروعاته إذا أراد أن يحوز رضى السماء ويحصل على الحياة الأبدية. وكان هو شخصيًا يحب هدريان ويلبي دعوته بكل استعداد، ويخضع لمشوراته، وقد بكى عند وفاته في يوم ٢٦ ديسمبر سنة ٧٩٥م، بعد أن جلس في الكرسي البابوي أكثر من ٢٣ سنة، وهي مدة طويلة نادرة. وقد كان شارلمان أحيانًا يلاحظ غرض البابا الحقيقي من وراء حيلته المتقنة ولكنه كان يتغاضى عن هذه الأمور ويحتفظ بصداقته غير المتغيرة.

التزوير البابوي

على أن لطف شارلمان إنما زاد من جشع الكهنة الطماعين، فلم يكتفوا بأملاكهم وبالعشور التي يحصلونها، بل طمحوا إلى

مركز أعلى من مركز الملك نفسه، فعمدوا إلى تزوير جريء لتنفيذ غرض مطمعهم الزمني، فأظهروا لأول مرة بعد انقضاء ٤٥٠ سنة حجة يطالبون فيها بما يقرب من السلطان الملكي. وبمقتضى تلك الحجة تكون كل الهبات التي أنعم بها بيبين وشارلمان على الكنيسة وفاء لقسط صغير من الهبة الملكية التي وهبها "الإمبراطور التقي قسطنطين" لكرسي بطرس الرسول.

وبما أن غرضنا الرئيسي من ذكر تاريخ الكنيسة في ذلك العصر هو أن نُظهر صفات البابوية الحقيقية، والوسائل التي بها حصلت على سلطانها ونفوذها العظيمين، وتأثير اتحاد الكنيسة بالحكومة تأثيرًا محزنًا، لذلك نرى أن ننقل للقارئ صورة خطاب البابا نفسه حتى يرى كيف أن رجلاً يدَّعي بمركز يُفترض فيه الأمانة يجرؤ أن يختلق حجة كهذه، وذلك لكي يحصل من ورائها على أملاك ونفوذ. ولكن يجب أن نتذكر أن ثياتيرا موصوفة بأنها «أعماق الشيطان»، ذلك الوصف الذي ينطبق على البابوية منذ نشأتها وإلى أن تلفظ النفس الأخير، ورؤيا ١٧ و١٨ يظهر لنا صفاتها ونهايتها أيضًا.

يقول البابا هدريان: "بما أنه في أيام البابا المغبوط سلفستر وهب الإمبراطور التقي قسطنطين إلى كنيسة روما الكاثوليكية المقدسة سلطانًا فائقًا على كل الأصقاع الغربية، لذلك نلتمس منك الآن أن تعمل على إنماء تلك الكنيسة المقدسة وإبهاجها ورفع مستواها أكثر فأكثر، حتى يقول جميع الناس الذين يسمعون: يحفظ الله الملك ويستمعنا في يوم ندعوه! فإنه في تلك الأيام أقام الله قسطنطين الإمبراطور المسيحي الذي قصد بواسطته أن يمنح كل شيء إلى كنيسته المقدسة، كنيسة بطرس رئيس الرسل. فعليك أن ترد إلينا في أيامك كل هذه الأملاك التي منحها الملوك والأشراف وخائفو الله المختلفون إلى بطرس الرسول وإلى كنيسة الله الرومانية الرسولية المقدسة، لأجل فائدة نفوسهم وغفران خطاياهم، بحسب فحوى صكوك الهبات المحفوظة عندنا. ولهذه الغاية أرسلنا إليك سفراءنا ليظهروا لك تلك الصكوك التي بمقتضاها نطلب إليك أن تأمر برد ميراث بطرس الرسول كاملاً إلى أيدينا. فإذا وافقت على ذلك، وحصلت كنيسة الله على حقوقها كاملة فإن رئيس الرسل نفسه سيتشفع لأجلك أمام عرش القدير، طالبًا لك طول العمر والنجاح في كل أعمالك".

الجهل والسذاجة في تلك الأيام

وصلت حالة الجهل والسذاجة في تلك الأيام إلى حد أن جميع طبقات الناس كانوا يقبلون أسخف الخرافات غير المعقولة ويحترمونها كل الاحترام. وقد استطاع الكهنة الماكرون أن يُلبسوا تلك الخرافات ثوبًا مهيبًا من التقوى أعموا به أذهان كل من الملك والشعب. ومن هذه الخرافات أن البابا سلفستر شفى قسطنطين من مرض البرص. فإظهارًا لممنونيته العظيمة تنازل الإمبراطور للباباوات عن السيادة الدائمة على روما وإيطاليا ومقاطعات الغرب، وعزم على أن يؤسس لنفسه عاصمة أخرى في الشرق.

كان غرض هدريان من تزوير حجة كهذه وكتابة خطاب كهذا أن يؤثر على شارلمان حتى يتمثل بكرم سلفه. فإن أعطى للباباوات ملكية الأشياء المذكورة في هبة قسطنطين المدعى بها إنما يكون منفذًا فقط لوصيته. ولكن إذا أراد أن يكون محسنًا من تلقاء نفسه وجب عليه أن يتعدى حدود تلك الوصية. على أننا لم نصل بعد إلى أعماق ذلك التزوير الذي أخذ يثبت أن الأباطرة اليونانيين، كل تلك القرون، كانوا مغتصبين وسارقين لميراث بطرس الرسول، وأن الباباوات كانوا محقين في العصيان على سلطتهم، وأن شارلمان يجب أن يعتبر نفسه مديونًا لله ولكنيسته ما بقيت هناك ذرة واحدة من حقوق الكنيسة المدعى بها بغير أن تدفع.

ومع أن ذلك الصك ربما أتى بمنافع جزيلة على البابوية في ذلك الوقت وبعده، إلا أن التزوير من ذلك الوقت أصبح ظاهرًا جليًا. وقد أعدم ذلك الصك المصطنع مع غيره من الصكوك الباطلة أثناء نهضة العلوم والحرية، إذ أدين هذا العمل الذي هو قمة الخداع. عن هذه الصكوك يقول ملمان: "لقد أدينت من الجميع، ولم يعد اليوم أحد ينكر زيفها، وكل ما يستطيع أن يردوا به هو التهوين من جريمة التزوير، ومحاولة إظهار أن تأثيرها لم يكن كبيرًا في تاريخ المسيحية منذ يومها"[(٢/٤٣)].

أسس البابوية وبناؤها

هكذا بكل أسف كانت أسس بناء البابوية العظيم، وقد آلمنا جدًا أن نرى وضع تلك الأسس. ولو أننا أردنا أن نفصّل أحجارها واحدة فواحدة لقلنا إنها إسراف باهظ في الادعاءات، وتشامخات

عظيمة، وتزويرات مفضوحة، وميول ظاهرة للعبادات الوثنية، ومطالبات مستمرة بالأملاك المسروقة، واضطهادات شديدة قاسية. وعلى رأس تلك الأحجار حجر الأساس وهو المحبة المفرطة للنفوذ العالمي.

وإذا تأملنا داخل هذا البناء فماذا عسانا نجد؟ نراه ممتلئًا بالتجاديف. وبأردإ أنواع الفساد، وبكل الجاذبيات الجسدية (رؤ١٨: ١٢، ١٣). أما الحقائق المسيحية الجوهرية فإما أن نراها مرفوضة وإما ممتزجة بالفساد، كالذبيحة والخدمة والكهنوت. فقد وُضع التناول موضع عمل المسيح الكامل، وتعليم عقائد الكنيسة عوض خدمة الروح القدس، والنظام الإكليريكي العظيم للكهنوت عوض الكهنوت العام الذي فيه جميع المؤمنين كهنة، بل عوض كهنوت المسيح نفسه.

وقد تغير القصد من العشاء الرباني من مجرد التذكار لمحبة المسيح والإخبار بموته، إلى ذبيحة، ودخلت عدة خرافات إلى الخبز المقدس. وقد اعتبروا أن تلك الذبيحة تنفع للأموات كما للأحياء، ولذلك مارسوا إعطاءها للأموات ودفنها معهم. وانتشر تعليم المطهر المفسد للنفوس، الذي وافق عليه غريغوري الأكبر، ويظهر أنه تأصل بصفة خاصة في الكنيسة الإنجليزية قبل القرن التاسع، ولكن فساد هذا التعليم ظاهر، لأنه لا يوجد مطهِّر إلا دم يسوع المسيح ابن الله المكتوب عنه: «دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية» (١يو ١: ٧). وشكرًا لله، لأنه لا حدَّ لقوة ذلك الدم المطهرة، فكل من يؤمن بهذا الدم يصير أبيض أكثر من الثلج ومؤهلاً تأهيلاً تامًا للوجود في محضر الله. ولكن تعليم المطهر قضى على هذه الحقيقية الأساسية من أصولها، وأصبح أداة قوية في أيدي الكهنة لابتزاز الأموال من المشرفين على الموت والحصول منهم على وقفيات كبيرة للكنيسة، وأصبح كل شيء تقريبًا يخدم هذه الأغراض المنحطة. أما حق الله وعمل المسيح وصفات الكنيسة ونفوس الناس وأجسادهم، فكانت يضحى بها بكل سهولة في سبيل تعظيم الإكليروس الروماني وما هو دونه من النظام الكهنوتي.

ويشكو جميع المؤرخين الأمناء أيضًا مُرَّ الشكوى من الحياة الشريرة التي عاشها أولئك الذين أنيطت بهم إدارة وشؤون الكنيسة والعناية بالنفوس. وإثباتًا لما قلناه عن ذلك العصر، نستحسن أن نورد بعض أقوال موسهيم، وهي شهادة لها تقديرها.

شهادة موسهيم

"في الشرق سادت المقاصد السيئة والضغائن والمنازعات في كل مكان. ففي القسطنطينية، أو روما الجديدة، كان يرقى إلى الكرسي البطريركي من يحوزون رضا البلاط الملكي. وعند فقدان ذلك الرضا، كانوا يُعزلون من ذلك المنصب بمرسوم ملكي. وفي الغرب التف الأساقفة ببلاط الملوك، وتنعموا بكل وسائل الترف، في حين أن الرهبان والكهنة الصغار كانوا شهوانيين وأفسدوا الناس المحيطين بهم بكل أنواع الرذائل، وهم الموضوعون لإصلاحهم. وكان جهل الإكليروس في كل مكان بينًا، حتى أن عددًا قليلاً منهم كانوا يجيدون القراءة والكتابة. لذلك عندما كانت تدعو الحاجة إلى كتابة خطاب، أو أي شيء آخر ذو أهمية كان يُلجأ إلى فرد له شهرة ذائعة بالمهارة في هذا الأمر. وكان للأساقفة ورؤساء الأديرة أملاكًا واسعة، أو أراضي يأخذونها بحسب النظام الإقطاعي، ولذلك عندما كانت تنشب الحرب كانوا يُستدعون إلى المعسكرات آخذين معهم العدد المعين عليهم توريده من الجنود إلى الحاكم. فضلاً عن ذلك، كان الملوك والأمراء ينزعون بعض الأملاك المقدسة ويمنحونها مكافأة لخادميهم وجنودهم عن خدمات يؤدونها، وبذلك كان يلجأ الكهنة والرهبان، الذين كانوا يعيشون من إيراد تلك الأملاك إلى ارتكاب أية جريمة، أو ممارسة أية خدعة، للحصول على حاجاتهم الضرورية. وقليلون من الذين ارتقوا إلى أسمى مناصب الكنيسة حوالي ذلك الوقت يمكن أن يوصفوا بالحكمة والعلم والفضيلة والمواهب الأخرى اللائقة بالأسقف. ولكن السواد الأعظم منهم لطَّخ تاريخه بالعار برذائله المختلفة أو بكبريائه وطموحه إلى النفوذ العالمي. وبين ليو الرابع الذي مات سنة ٨٥٥م وبنيدكت الثالث قامت امرأة فتنكرت ودعت نفسها يوحنا. وقد قيل إنها وصلت إلى الكرسي البابوي بعلمها وذكائها، وساست الكنيسة مدة من الزمان، ويطلقون عليها البابة "يونًا". وفي القرون الخمسة المتتابعة شهود عديدون على هذه الحادثة الخارقة العادة. ولكن لم يكن أحد يحسب أن هذا الأمر لا يليق بالكنيسة أو يعنيها، حتى الإصلاح اللوثري. والجميع يتفقون على أنه في تلك الأيام المظلمة كانت حالة المسيحية في كل مكان محزنة للغاية، ليس فقط لسبب الجهل المبين والخرافات، والانحطاط الأدبي، بل لأسباب أخرى أيضًا.

وكانت الطغمة المقدسة في كل من الشرق والغرب مؤلفة من أناس أميين أغبياء يجهلون كل شيء يختص بالدين. وسيرة ثيوفيلكتوس وحده تدل على ما كان عليه البطاركة اليونانيون فإنه كما يخبرنا المؤرخون ذوو الثقة، تاجَر بكل شيء مقدس ولم يبال بشيء إلا بخيله وكلاب الصيد. ومع أن البطاركة اليونانيين كانوا ملومين، إلا أنهم كان لهم مقام وفضل أكثر من الباباوات الرومانيين، إذ يتفق جميع الكتاب الثقات، بما في ذلك كتاب السلطان البابوي، على أن تاريخ الأساقفة الرومانيين في ذلك القرن تاريخ وحوش لا تاريخ بشر، تاريخ مملوء بالجرائم والشرور الفظيعة.

وكان جوهر الدين في نظر كل من اليونانيين واللاتينيين هو عبادة التماثيل، وإكرام القديسين المنتقلين، وحفظ الآثار، وإغناء الكهنة والرهبان. وكان العالم بأجمعه مشغولاً لدرجة الجنون في جمع آثار القديسين وحفظها»(٣/٢١).

لا يحتاج الأمر إلى كلام أكثر من هذا لتوضيح طبيعة النظام البابوي، أصله وفروعه، فقد تثبَّت كلامنا عنه من بداءة عصر ثياتيرا على فم ثلاثة شهود على الأقل. على أن النصف لم نخبر به، لا سيما في ما يختص بانحطاط الآداب، إذ لا نستطيع أن ننقل إلى هذه الصفات الفجور العلني الذي أظهره الكهنة والرهبان. ويُظن أن البابوية سقطت إلى أدنى درك من الانحطاط في القرنين التاسع والعاشر. فقد تصرفت في التاج البابوي سنين عديدة ثيودورا الرديئة الصيت وابنتاها ماروزيا وثيودورا، فكُنَّ يضعن في الكرسي البابوي أناسًا خلعين أشرارًا نظيرهن. ولا نريد أن ندنس هذه الصفحات بذكر شرورهن العلنية التي ارتكبنها بلا حياء ولا خجل. ولا شك أن إيزابل تتمثل في أولئك النسوة وفي التأثير الذي كان لهن على الباباوات والمدينة كلها. ولكن إيزابل لا تتمثل فيهن وحدهن، بل تتمثل بكل فسادها ومظالمها وأوثانها وحروبها المدنية في البابوية من أساسها.

الفصل السابع عشر

امتداد المسيحية في القرن التاسع

إنها لرياضة حقيقية لذهن كل من الكاتب والقارئ أن يتحول عن الأصقاع الرومانية المظلمة الفاسدة وأن يتتبع قليلاً حبل نعمة الله الفضي من حيث انتشار الإنجيل وأمانة كثيرين من خدام الرب. على أنه لا يجب أن نتوقع أن نرى شيئًا كثيرًا من التمسك بالمسيح وإنجيله الصريح من خلال شهادة المبشرين في ذلك العصر. فكانت العادة في ذلك الوقت تفضيل الكتابات البشرية على الكتاب المقدس، على الأقل في الجهات التي ساد فيها تأثير روما. ولكن يرجح أن البولسيين وغيرهم ممن كانوا خارج شركة روما احتفظوا بسلطة كلمة الله. أما المرسلون الرومانيون فكانوا متمسكين بقوانين الآباء، وكانوا على الدوام يحاجون بمقتضى قرارات المجامع وكتابات المعلمين العظام، حتى غُض الطرف تمامًا عن الكتاب المقدس. وقبل ذلك العصر بزمان طويل أيضًا كانت تُعتبر كلمة الله غامضة وغير مفهومة ولا تصلح للقراءة العامة، وظلت معتبرة هكذا عند الكاثوليك من تلك الأيام إلى يومنا الحاضر.

على أن الله هو فوق الجميع، يسيطر على جميع الأشياء ويستخدمها لمجد اسمه وانتشار المسيحية وخلاص الخطاة، وقد قال المسيح: «كل ما يعطيني الآب فإلي يقبل، ومن يقبل إلي لا أخرجه خارجًا» (يو٦: ٣٧). هذا بغض النظر عن العصر، أو البلاد، أو الحالة، أو التعليم، أو أي شيء آخر.

النهضة العلمية

مع أن مطامع شارلمان وحروبه وعيشته الخليعة تنفي من أفكارنا أنه كان مسيحيًا حقيقيًا، إلا أنه يحسن بنا أن نعترف بأن الله استخدمه لتقدم العلوم في روما، ولانتشار المسيحية خارجًا عنها. فقد شيد المدارس، وأسس الجامعات وبحث عن العلماء في إيطاليا وإنكلترا وأيرلندا لترقية مستوى رعاياه الأدبي والديني والعقلي، حتى إنه عند ختام أيام ملكه كان محاطًا في مقره الملكي برجال علماء من جميع الأقطار، إذ كان يرحب بالفلاسفة والباحثين لسماع أبحاثهم ومحاضراتهم في صالة كبرى أعدها لذلك. وكان أشهر أولئك العلماء ذلك الراهب الأنجلوسكسوني ألكوين أستاذ العائلة المالكة، وهو من أهالي نورثمبريا.

كان ألكوين مشهورًا بعلمه وبامتداد مجهوداته كمعلِّم بين الفرنسيين. ولكن الأهم من ذلك هو أنه يبدو أن أفكاره في المسيحية كانت أفكار صحيحة، فطالما عارض الإمبراطور في تحصيل العشور بالقوة من الإنجليز المهتدين حديثًا للمسيحية، وعارض أيضًا في إرغامه الناس على المعمودية دون تمييز بين المؤمنين وغيرهم. وكان يقول: "يجب أن يتعلم الناس أولاً مبادئ المسيحية الرئيسية، والحقائق العملية الجوهرية، وبعد ذلك تتبع المعمودية، لأنه إذا أُرغم الناس على المعمودية فلن يمكن إرغامهم على الإيمان، والمعمودية من دون إيمان ما هي إلا مجرد غسل للجسد لا قيمة له"[٢/٣١].

كم هو منعش للنفس، وكم هو موجب لشكر الله، أن نجد شخصًا يتكلم كلامًا صريحًا أمينًا كهذا أمام الإمبراطور، الأمر الذي يرينا أن للرب شهوده في كل زمان ومكان. ونرجو أن يكون الرب قد استخدم هذا الشخص لنشر الحق وبركة النفوس في تلك الدوائر العليا.

كانت نهاية شارلمان تقترب، ومع أنه أحاط نفسه بالعلوم والموسيقى، وبكل ما يمكن أن يشبع رغباته وشهواته، لكن كان لا بد له أن يستسلم لذلك القضاء الذي لا راد له، فتوفي في ٢٨ يناير سنة ٨١٤م، وقد بلغ الثانية والسبعين، بعد أن ملك ٤٣ سنة. وقد عين ابنه لويس خلفًا له.

لويس الملقّب بالتقي

من المسلّم به تقريبًا أن لويس الملقب بالتقي كان مسيحيًا مخلصًا متواضعًا. ولكن لم يوجد شخص في مركز ضعيف مثل لويس الوديع عندما سُلم إليه زمام الحكم، فكانت حياته كمأساة محزنة بين تواريخ الملوك. فبعد أن عرفت مبادئ حكومته، قامت شبه ثورة عامة، خصوصًا وأنه كان متساهلاً مع جنوده، وتقيًا مع كهنته. وقد منع الأساقفة من حمل السيوف والأسلحة، وقد اختفت سريعًا مظاهر الخلاعة التي كانت في بلاط أبيه، غير أنه كان متراخيًا في تربية أولاده. ويسهل علينا أن نتصور كيف أن تقوى كهذه لا يستطيع الناس احتمالها طويلاً، بل سرعان ما يحولونها إلى سخرية ومهزلة. لذلك نرى أن جنوده هجروه، لأن ثروتهم كانت قائمة على الغنائم التي كانوا يسلبونها من الأعداء. وأولاده بيبين ولويس ولوثير قاموا يحاربونه أكثر من مَرة، والكهنة الذين كان يجب عليهم أن يحيطوا الملك بعواطفهم المشفقة في يوم الشدة، وجدوا الفرصة لإظهار سيادتهم، فرجعوا به إلى أعماق أحد الأديرة. ولكي يعطوا مظهرًا حسنًا لذلك الاغتصاب والجور اضطروه أن يعترف بخطايا هو بريء منها تمام البراءة. وقد انحاز أولئك الكهنة إلى جانب ابنه لوثير المتوحش، ولكنهم خافوا أن يصرحوا له بالقضاء على حياة أبيه، ولذلك اعتزموا أن يسلبوا منه سلطة الحكم، فأجبروه أن يقدم عقوبات تكفيرية عن خطايا لم يفعلها جهارًا أمام الشعب، وألزموه أن يخلع سلاحه الملكي ولباسه الإمبراطوري ويضعها على مذبح القديس سباستيان، وأن يلبس عوضًا عنهما ثوب حداد أسود[٢/٤٣].

على أن الأشراف المحيطين بالملك استاءوا، وامتهنت كرامتهم بتجبر الإكليروس. والشعب أيضًا تألم لمصير ملكه الصالح، فكان لا بد من رد فعل، فقام الشعب يطالب برد ملكهم، وذهبوا إلى الدير وردوه إلى الحكم، وأعادوا إليه ثيابه الملكية. ولكن كان لا يزال أمامه صعوبات كبيرة. وأخيرًا خلصته يد الرحمة الإلهية من عقوق أبنائه واضطهاد الكهنة الذين كان جل اهتمامهم أن يوطدوا دعائم نفوذهم وسلطانهم، وبينما كان يحتضر وهو يضم صليبًا إلى صدره رفع عينيه إلى السماء، وطلب الغفران لابنه الذي كان يحاربه، وهكذا انطلق من هذا العالم ليكون مع المسيح، وذاك أفضل جدًا (في ١: ٢٣).

اهتداء الأمم الشمالية

توسع المؤرخون في الكلام عن انتشار الإنجيل إلى أطراف أوروبا الشمالية في القرنين التاسع والعاشر، حتى إننا لا نستطيع إلا أن نذكر الأماكن الرئيسية، وأسماء العاملين المشهورين الذين اشتركوا في العمل الصالح. وإننا بسرور نتتبع خطوات أولئك المرسلين المضحين الذين عملوا في قلب مملكة الشيطان، حيث ساد قرونًا عديدة وليس من يقاومه. وقد سبق أن رأينا سيف شارلمان يفتتح الطريق للوصول إلى القبائل السكسونية والألمانية وغيرها.

وفي أوائل ملك ابنه لويس أدخل الإنجيل بين الدنمركيين والسويديين، وكانت منازعات قد حدثت على عرش الدنمارك بين هارولد وجودفرت أدت إلى أن يطلب هارولد حماية لويس. فرأى ذلك الإمبراطور التقي أن هذه فرصة سانحة لإدخال المسيحية بين الدنمركيين، لذلك وعد هارولد بالمساعدة بشرط أن يعتنق هو نفسه المسيحية، ويقبل المبشرين بالإنجيل في مملكته. وقد قبل هارولد هذه الشروط، واعتمد في مدينة منتز سنة ٨٢٦م هو والملكة وعدد كبير من حاشيته. وقد كان لويس إشبينًا للملك في حفلة المعمودية، والإمبراطورة إشبينة للملكة، ولوثير إشبينا لابنه، ولكل فرد من أعضاء الحاشية إشبين يناسب مقامه. وبعد أن تنصر هارولد رجع إلى وطنه آخذا معه اثنين من معلمي المسيحية. وقد خصص لويس ضيعة في فريزلاند لهارولد، حتى إذا ما عجز عن استرداد ملكه يستولي عليها.

وقد اشتغل الراهبان الفرنسيان اللذان رافقاهم، وهما أنسجاريوس وأوبرت، بغيرة ونجاح عظيمين. غير أن أوبرت عاجلته منيته بعد سنتين وسط متاعب إرساليته.

وبعد وفاة زميله ذهب أنسجاريوس النشيط إلى بلاد السويد. وكان هناك ناجحًا في العمل ومسرورًا كما كان في الدنمرك. وقد كافأه لويس على مجهوداته العظيمة سنة ٨٣١م بأن جعله رئيس أساقفة همبورج وكل البلاد الشمالية. وكان يلاقي مقاومات عنيفة في كثير من الأحيان، ولكنه كان يفوز على مضطهديه بحسن نواياه واستقامة سلوكه. وقد عاش حتى سنة ٨٦٥م، وكانت أعظم مجهوداته بين الدنمركيين والسويديين.

السلاف يقبلون الإنجيل

حوالي ذلك الوقت عملت بعض المساعي لهداية الروس والمجريين وغيرهم، ولكن يظهر أن عمل الإنجيل لم يصادف نجاحًا كبيرًا في تلك البلاد، إلى أن فتح أوثو بوهيميا سنة ٩٥٠م، أو بعبارة أخرى إلى أن تزوج فلاديمير ملك الروس بحنة أخت باسيل الإمبراطور اليوناني، وبعد زواجه اعتنق دين الملكة وعاش عمرًا طويلاً. وقد تبعته رعاياه في إيمانه. كما أن اهتداء دوق بولندا يعزى أيضًا إلى تأثير ملكة مسيحية. وقد كانت القاعدة المتبعة في تلك الأيام أن الناس على دين ملوكهم، والملوك على دين ملكاتهم على وجه الإجمال. ومن هنا يظهر تأثير الزوجة، سواء كان للخير أو للشر. وقد لاحظنا سريان هذه القاعدة، على الأخص منذ أيام كلوتلدا وكلوفس. قال ملمان: "يوجد تشابه غريب في الآلات التي استخدمها الرب لهداية الملوك البرابرة ولهداية رعاياهم بواسطتهم. فقد تكون تلك الآلة امرأة ذات مقام ونفوذ، أو راهبًا غيورًا، أو مصيبة مزعجة على البلاد، وسرعان ما كانت تحدث هذه الأمور حتى تفتح البلاد الوثنية أبوابها لقبول المسيحية".

بلغاريا: سبق أن أشرنا إلى دخول المسيحية بين البلغاريين عند كلامنا على البولسيين. وقد كان القوم برابرة متوحشين جدًا، وقد أسر اليونانيون أخت بورجورس ملكهم وهي في عهد الطفولة، فتربت على الإيمان المسيحي في القسطنطينية. وبعد أن رُد سبيها ورجعت إلى وطنها، تألمت كثيرًا لمشاهدة العادات الوثنية في أخيها وشعبه. ويظهر أنها كانت مسيحية غيورة ولكن كل حججها في الدفاع عن المسيحية قلما كان يلتفت إليها، حتى حدثت في البلاد مجاعة عظيمة ووباء شديد، فصلى الملك إلى إله المسيحيين، والرب تنازل برحمته العظيمة وأوقف سير الوباء. من ثم اعترف بورجورس بطيبة إله المسيحيين وقوته، وسمح للمسيحيين أن يبشروا شعبه بالإنجيل.

كان مثوديوس وكيرلس هما الراهبين المتميزين بالغيرة والعلم الذين علما البلغاريين حقائق إنجيل المسيح وبركاته، فاعتمد الملك وحذا الشعب حذوه بالتدريج. ويقال إن ذلك الملك أرسل مائة سؤال وستة إلى البابا نقولا الأول تختص بكل نقطة في النظام الإكليريكي وممارسة الفرائض، والأخلاق. ويقال إن الأجوبة التي وصلته كانت حكيمة وحازمة بحيث تصلح لتلين عريكة أمة متوحشة.

ومن بلغاريا زار المرسلان الغيوران كثيرًا من القبائل السلافونية، وذهبا إلى أصقاع متبربرة تمامًا، حتى أن لغتها كانت لا تزال تُنطق ولا تكتب، ولكن هذين الرجلين المخلصين تعلما لغة البلاد وبشروا بالإنجيل للقوم بلغتهم الوطنية. وكان هذا أمرًا جديدًا غريبًا في تلك الأيام، ولكن هكذا تأتي المسيحية السماوية بالكثير من البركات الثمينة. كان المتبع في ذلك الوقت أن يكون التبشير والتعليم باللغتين الإكليريكيتين اليونانية واللاتينية، ولذلك قدمت شكاوى إلى البابا بخصوص هذا الأمر الجديد، وهو العبادة بلغة بربرية، ولكن حجج المرسلين تغلبت على تردد البابا وريبته في الأمر. على أن هذه المنازعات عادت إلى الظهور في ما بعد، حيث ظن البعض بجهالة أن ممارسة الخدمات الكنسية بلغة بربرية تدنيس لها.

ويقال إن كيرلس اخترع حروف هجاء، وعلم القوم المتوحشين استعمالها. وترجم خدمة العبادة وبعض أسفار الكتاب المقدس إلى لغة المورافيين، ومن يستطيع أن يخبر عن مبلغ تأثير عمل كيرلس الباقي إلى وقتنا الحاضر؟ فقد اعتمد ملك مورافيا، وحذا الشعب حذوه، كالعادة المتبعة في تلك الأيام. وهكذا وصل الإنجيل في القرنين التاسع والعاشر إلى مقاطعات دلماطية وكثير غيرها كانت في الظلام الحالك.

نهر الحياة المتدفق

ما أعظم جود الرب رأس الكنيسة العظيم، إذ أرسل مياه المقادس الحية إلى كثير من البلاد النائية، بينما كانت روما - مركز المسيحية - راكدة وفاسدة. في ذلك العهد صرخ بارونيوس، مؤرخ الكنيسة الرومانية المشهور بتحيزه للإكليروس الروماني، قائلاً: "كم كان مشوهًا ومخيفًا وجه كنيسة روما! فقد وقع الإكليروس الروماني تحت ظلم امرأتين فاسدتين كانتا تنصبان وتعزلان الأساقفة بحسب ما يوحي إليهما خلقهما السيئ، وإني أرتعد عند الفكر والقول بأنهما كانتا تضعان عشاقاهما في كرسي بطرس الرسول...". وقال أرنولد، أسقف أورلي، مشيرًا إلى نفس ذلك العصر: "يا روما التعيسة، يا من كنت ممسكة بيدك منارات لامعة ومجيدة لأجدادنا، كيف سقطت الآن في قلب الظلمة الحالكة التي ستشوه سمعتك أمام كل العصور المقبلة!"[٢/٤٧].

بينما كانت هذه حالة روما، مركز إيزابل المفسدة، كان نهر الحياة الأبدية يجري من المخلّص الممجّد إلى الأطراف النائية

في الإمبراطورية، وكانت الأمم الكثيرة، والقبائل العديدة، تقبل الإنجيل ببركاته الغزيرة. صحيح أنه كان ممتزجًا بخرافات كثيرة، ولكن على كل حال دخلت كلمة الله واسم المسيح بينهم، والروح القدس يستطيع أن يعمل العجائب بواسطة ذلك الاسم الكريم وتلك الكلمة الثمينة. فكان يبشر بالمخلص لأولئك القوم، وكانوا يتعلمون عن محبة الله وعمل المسيح، وكان على التعليم مسحة مقدسة قادت البرابرة القساة إلى التوبة والإيمان. حقًا أن هذا عمل الله تنفيذًا لمقاصده. لو رأى بولس تلك الصورة أما كان يقول: «بهذا أنا أفرح بل سأفرح أيضًا» (في ١:١٨)؟

إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا

قبل أن نختم ملاحظاتنا عن أعمال الرب في ذلك العصر، لا بد لنا من ذكر بعض الأسماء التي تبين ما كانت عليه الأمور في بلاد إنجلترا.

لا حاجة بنا لأن نتكلم كثيرًا عن مجد الملك ألفرد، الذي يعتبره بعض المؤرخين مثالاً للحاكم الكامل. وقد كان على أي حال ملكًا مسيحيًا حقيقيًا استخدمه الرب بركة لكل من الكنيسة والعالم. وكل من له إلمام بتاريخ إنجلترا يعلم جيدًا الحرب التي انتصر فيها على الدنمارك، وتخليصه إنجلترا من الرجوع إلى البرابرة، وتشجيعه للتعليم والعلماء، وأعماله الكثيرة، وإيمانه المسيحي، وغيرته الدينية. وقد ملك خلفًا لأبيه سنة ٨٧١م، وهو في سن الثانية والعشرين، وبقي في الملك ثلاثين سنة. وهكذا نرى أن القرن التاسع، الذي ابتدأ بأيام شارلمان العظيمة، انتهى بأيام ألفرد التي هي أكثر عظمة ومجدًا، لأنه على الأرجح أعظم رجل في تاريخ العصور الوسطى.

وقد ظهر في قلب أوروبا حوالي منتصف القرن الثامن مبشر بالإنجيل اسمه كليمنت، وهو قسيس تقي من الكنيسة الإسكتلندية. ويتكلم عنه التاريخ كمحامٍ شجاع عن سلطان كلمة الله ضد بونيفاس بطل التقليد وقرارات المجامع، وقد يعطينا نورًا عن حالة المسيحية وحالة الكنيسة في تلك الأيام أن نتأمل في هذين المرسلين كممثلين لنظامين: الأول هو النظام البشري العظيم، أي النظام الروماني، والثاني هو المسيحية الكتابية التي كانت لا تزال باقية في اسكتلندا.

إذ جزع بونيفاس من شجاعة كليمنت عمد إلى مقاومته، فواجهه بقوانين الكنيسة الرومانية، وقرارات المجامع المختلفة، وكتابات آباء الكنيسة اللاتينية. فأجاب كليمنت بأن قوانين الكنيسة، وقرارات المجامع، وكتابات الآباء، ما دامت تناقض الكتاب المقدس، فليس لها أي سلطان على المسيحيين. فاحتج بونيفاس بالوحدة المنيعة التي للكنيسة الكاثوليكية، البابا مع الأساقفة والكهنة الخ. ولكن مناظره أجاب بأن عروس المسيح لا توجد إلا حيث يسكن الروح القدس.

تحير بونيفاس، ووجد أن وسائل الإقناع لا تنفع، فعمد إلى وسائل الشدة وحوكم كليمنت كهرطقي أمام مجمع عقد في مدينة سواسون في مارس سنة ٧٤٤م وبعد ذلك أمر بأن يذهب إلى روما تحت حراسة مشددة. ولا يعلم تاريخ كليمنت بعد ذلك، ولكن من السهل علينا أن نتكهن ما انتهى إليه مصيره.

يقول البعض إن كليمنت كان له أفكار غريبة بخصوص نزول المسيح إلى الهاوية وموضوع الزواج، وسبق التعيين. ولكن لا يمكننا الاعتماد على هذه الأقوال لأنها صادرة من أعدائه، فقد كان بونيفاس في المحاكمة هو له الخصم والمدعي والقاضي في آن واحد. لذا فإننا نتوسم فيه أنه كان ممثلاً حقيقيًا لإيمان بلاده القديم.

ولكن لا يجب أن يخطر ببالنا أن كليمنت وحده هو الذي ظهر مقاومًا للمرسلين الرومانيين في ذلك العصر، لأننا نجد بين آن وآخر شهودًا أمناء للحق يشهدون علنًا ضد ادعاءات روما، وقد حوكم بعض أساقفة اسكتلنديين أمام مجمع عقد في شالون سنة ٨١٣م، لأنه ما دامت الطقوس الإكليريكية قد أخذت مكان كلمة الله فمن الطبيعي أن يحاكَم الأمناء والمستنيرون كهراطقة.

وكان جون سكوت إريجينا أيرلنديًا يعيش في فرنسا في بلاط الملك شارلمان الأجرد. ويعتقد بعض المؤرخين أنه كان أشهر رجل في العصور المظلمة من حيث الآداب والفلسفة. ومع أنه كتب كثيرًا في موضوعات دينية، إلا أنه كان فيلسوفًا أكثر منه لاهوتيًا، وقد درس كتابات الآباء الأولين والفلسفة الأفلاطونية. وكان يميل إلى استعمال العقل البشري حتى في قبول الحق الإلهي، ولكن يبدو أنه كان تقيًا تقوى حقيقة، فقد قال: "أيها الرب يسوع، لا أطلب منك سعادة أكثر من أن أدرك الكلمة التي أوحيتها بروحك القدوس خالية من النظريات الخادعة، فأظهر ذاتك يا رب للذين يطلبونك أنت وحدك".

كانت الأمور الدينية في أيرلندا في القرن الثامن متميزة بسعة العلم، حتى أن أكثر العلماء الذين استدعاهم شارلمان إلى بلاطه كانوا من أيرلندا. وقد احتفظت كنيسة أيرلندا باستقلالها عن روما حتى عهد هنري الثاني ملك إنجلترا، وبذلك احتفظت بمركزها كفرع حي نشيط من كنيسة المسيح، ولم تعترف برئاسة بشرية. ولكن من عهد ذلك الملك اختفت الكنيسة الأيرلندية الأصلية ذات الصيت الرفيع.

النورمان

ما كنا لنتكلم عن هؤلاء الأعداء الأقوياء للمسيحية - وهم القراصنة الذين أتوا من الأصقاع الشمالية - لولا اعتقادنا بأنهم كانوا آلات في يد الرب استخدمها لتأديب كنيسة روما المرتدة. ولكن بما أنهم كانوا دينونة من الله على الروح العالمية التي امتدت بين كل طبقات الكهنوت الكاثوليكي، لذلك نفسح لهم مجالاً بسيطًا.

جاء هؤلاء القراصنة أصلاً من شواطئ بحر البلطيق في الدنمرك والسويد والنرويج، وكانوا على الأرجح مزيجًا من الغوط والدنمركيين والسويديين والنرويجيين. ومع أنهم كانوا خليطًا من قبائل متعددة، إلا أنهم اتفقوا في الغاية الرئيسية، وهي النهب والقتل. وكان ملوكهم وأمراؤهم أمهر القراصنة وأجرأ من غزا شواطئ المسيحية الغربية. وكانوا يجولون بقواربهم الخفيفة في الأنهار على قدر ما يستطيعون ناهبين قاتلين، ومحرقين الأماكن التي يذهبون إليها.

قال ملمان: "أبحرت أساطيل القراصنة من جزائر اسكندنافيا من البحيرات والخلجان إلى حيث ساقهم التيار. وكانت سفنهم قوية، مع سوء صنعها، حتى أنها كانت تتغلب على رداءة الجو، فترسوا على الشواطئ الوعرة، وتدخل في المضايق والأنهار قليلة الغور. ولم يسلم شيء من مفاجأة هؤلاء المتوحشين القساة ولو كان في قلب البلاد". وكانوا يلقبون "بعربان البحر". غير أنهم يختلفون عن العرب لأن حروبهم لم تكن دينية، ولا كان غرضهم نشر الإيمان، بل كانوا وثنيين وآلهتهم قراصنة مثلهم، وكانت أغراضهم السلب والنهب، فما كانوا يفرقون بين القصر والدير، ولا بين الأسقف والأمير، ما دام يوجد هناك غنيمة وافرة. غير أن الأماكن الدينية، وبالأخص في فرنسا، كانت أكثر تعرضًا للخسائر من غيرها، لأن ثروتها ومركزها غير المنيع جعلاها غرضًا رئيسيًا لهجمات أولئك القوم.

من هذا نرى أن الله قصد أن يوقع العقاب الصارم على أولئك الذين دعوا أنفسهم شعبه. ويظهر أن غضبه قد أشتعل على الكنيسة لأجل عظمتها ومجدها العالميين، اللذين كانا مطمح نفسها قرونًا عديدة، وقد وصلت إليها في عهد شارلمان الذي رفع الإكليروس إلى درجة عالية من الثروة والترف العالمي، ولكنهم ما كادوا يستقرون في قصورهم حتى انهال عليهم سيل الغزو البربري الذي خرب أبنيتهم وأفسدها. وبقدر ما ازدادت ثروة الأديرة كانت أشد تعرضًا لفتك البرابرة وذبح سكانها بدون تمييز بين الطبقات المختلفة. وامتلأت فرنسا بالرهبان والأساقفة الفارين من الأديرة المخربة، والكنائس المتهدمة، حاملين معهم بعض آثار القديسين، زارعين الروع واليأس في كل مكان.

وقد تنازل الملك تشارلز البسيط عن مقاطعة نورماندي سنة ٩٠٥م لقائدهم رولو حتى يجلو بجيوشه عن البلاد، بعد أن كان قد تغلغل فيها وحاصر باريس سنتين كاملتين. وبذلك اعتنق ذلك القرصان المسيحية وصار أول من لقب بدوق نورماندي، وكان بين أشراف فرنسا الاثني عشر. وكان وليم فاتح إنكلترا سنة ١٠٦٦م هو دوق نورماندي السابع.

وقعت إنجلترا، نظير فرنسا، فريسة في أيدي الشماليين. وكان أول غزو شديد منهم سنة ٨٣٠م، ومن ذلك الوقت لم تنقطع غزواتهم. وكانت الأديرة الغنية وغير المحصنة أكثر تعرضًا لتخريبهم من غيرها، كما حصل في فرنسا. وأخيرًا بعد أن انتصر الملك ألفرد على جوثرام سنة ٨٧٨م، وتنازل عن مساحة شاسعة من الأرض في شرق إنجلترا للدنمركيين، تحت شرط أن يعتنقوا الدين المسيحي ويعيشوا خاضعين لقوانين البلاد كالوطنيين. ولكن السلام الذي تم بهذه الكيفية كان إلى وقت قصير [٢/٣١].

لم يكن عصر في تاريخ الكنيسة، بل ربما في أي تاريخ كان لأي بلد من البلاد، أشد ظلامًا من أواخر القرن العاشر على أوروبا المسيحية، إذ كانت مهددة بالانقلاب بالنسبة لانحطاط البابوية، وفساد حالة الكنيسة من الداخل، وكثرة الأعداء الأقوياء من الخارج. فضلاً عن ذلك، قام المسلمون في الشرق، والشماليون الوثنيون في الغرب. وكان هناك عدو جديد أيضًا هو المجريون، وفي لغة التاريخ القاسية يعبر عن هؤلاء بقطعان من المتوحشين أو الحيوانات المفترسة أطلقت على البشرية. وكان منبع ورودهم

غير معلوم، بينما كان عددهم لا يحصى ولا يعد. ولم يكن لهم قانون حربي إلا القتل والذبح من غير استثناء، فكانوا وبالاً على المدنية وعلى المسيحية، ونكبة على الجنس البشرى عامة.

الاعتقاد بحلول نهاية العالم

علاوة على تلك المصائب الشديدة، كثرت المجاعات وأتت الأوبئة في أثرها. ويقال أيضًا إنه ظهرت علامات مزعجة في الشمس والقمر، وتوهم الناس أن نبوة الرب قد تمت: «وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم، وعلى الأرض كَرْب أمم بحيرة. البحر والأمواج تضج، والناس يغشى عليهم من خوف وانتظار ما يأتي على المسكونة، لأن قوات السماوات تتزعزع». ومع أن تلك الكلمات تصلح لوصف حالة الأمور في ذلك الوقت، إلا أن النبوة كانت بعيدة التحقيق، لأن الرب يزيد على الأقوال السابقة بقوله: «وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيًا في سحابة بقوة ومجد كثير» (لو ٢١:٢٥-٢٧).

ولكن إن كان يصح أن يغتفر للإنسان توهمه بحلول نهاية العالم في أي وقت من الأوقات، فإن ذلك الوقت أولى بهذا الأغتفار. وقد نادى الكهنة بنهاية العالم، والشعب صدق، وهكذا انتشر الأمر في أوروبا كلها. وقد تجاسر الناس على إذاعة الخبر بأن العالم ينتهي في تمام السنة الألف من وقت ميلاد المخلِّص، ومن ابتداء سنة ٩٦٠م تقريبًا ازداد الكرب، ولكن الناس نظروا إلى سنة ١٠٠٠ كأنها آخر سنة يمكن للإنسان أن يراها. وهذا الضلال والوهم مصدره سوء تفسير النبوة الخاصة بملك الألف سنة التي يملك فيها القديسون مع المسيح: «مبارك ومقدس من له نصيب في القيامة الأولى. هؤلاء ليس للموت الثاني سلطان عليهم، بل سيكونون كهنة لله والمسيح، وسيملكون معه ألف سنة» (رؤ ٢٠:٦).

تخلى الناس عن هموم هذه الحياة ومشغولياتها، وتركوا الأرض من غير حراث، لأنهم لماذا يحرثون ولماذا يزرعون بينما لا يتبقى أحد ليحصد؟ وأهملوا البيوت لتخرب وتسقط، لأنهم لماذا يبنون، ولماذا يرممون، ولماذا يهتمون بمتاع العالم بينما بعد شهور قليلة ستنحل كل عناصر الأرض؟ وتركوا كتابة التاريخ، ولماذا يتعبون ويسجلون بينما لا يوجد خلف ليقرأ أخبار أسلافه؟ وقد هجر الأغنياء والأشراف والأمراء والأساقفة أصدقائهم وعائلاتهم، وأسرعوا إلى شواطئ فلسطين، معتقدين أن جبل صهيون سيكون مقر عرش المسيح عندما ينزل ليدين العالم. وتبرع الكثيرون بأموال طائلة للكنائس والأديرة حتى يخف عنهم قضاء الملك العظيم. وقد توسل الملوك والأباطرة على أبواب الأديرة حتى يسمح لهم بالدخول كأخوة للإكليروس المقدس. وكانت جماهير الناس تبيت داخل الأماكن المقدسة، أو على الأقل في ظلها.

ولكن لا ننس أن الجماهير كانت تحتاج إلى طعام. وقد انتهى الطعام قبل نهاية أيام السنة الألف. ففرغت الحنطة، وانتهت الماشية، ولم تعد العدة لمؤونة المستقبل. لذلك قاسى الناس آلام الفاقة بدرجة أشد من أن يعبر عنها هنا. وكان يوم الهول يدنو شيئًا فشيئًا، حتى أتت الليلة الأخيرة من السنة الألف، وكانت ليلة ساهرة عند جميع سكان أوروبا، مملوءة بالمخاوف والأوهام. ولكن عوضًا عن أن يحدث انقلاب عظيم كما توقع الجميع بارتعاد، مرت الليلة بهدوء كباقي الليالي، وفى الصباح أشرقت أشعة الشمس الزاهية كالمعتاد. فدهش الناس، ولكنهم اطمأنوا وابتدأوا يرجعون إلى بيوتهم، ويرممون أبنيتهم، ويحرثون ويزرعون، ويزاولون أعمالهم السابقة.

على هذه الكيفية ختمت الألف السنة الأولى من تاريخ الكنيسة، وكانت أظلم أيام في ملك إيزابل، وفى تاريخ المسيحية.

الفصل الثامن عشر

عودة إلى بناء الكنائس

تتميز بداءة القرن الحادي عشر بالنشاط العظيم في ترميم الكنائس وبنائها، ولولا أن الفقراء كان يستخدمون تلك الأبنية لأغراض متعددة، لما استحقت تأملنا. يمكننا أن نقول بحق إنه في مدة الثلاثين أو الأربعين سنة الأخيرة من القرن العاشر لم يكن هناك اهتمام بتلك الأعمال، ولكن ما أن مرت الليلة المخيفة، وأشرقت شمس اليوم الأول من سنة ١٠٠١م، تجددت آمال جميع الأمم. فقد ركدت أذهان الناس في ختام القرن العاشر إلى الدرجة الأخيرة، ولكن من ذلك الوقت ظهرت حركة نشيطة، وأول ما اتجهت إليه الأفكار كان الأماكن المقدسة، لأنهم اعتقدوا أنهم بفضلها نجوا من الدينونة واستردوا رضا السماء عليهم.

لا ريب أن ذلك الشعور الخرافي هو الذي قاد الناس إلى تلك المجهودات المعمارية العظيمة التي تميز بها ذلك العصر. ولا زال كثير من تلك الأبنية باقيًا، شاهدًا بعظمة الفن ومتانة البناء. قال جيمس هويت في كتابه "ثمانية عشر قرنًا مسيحيًا": "كانت الأساسات عريضة وعميقة، والجدران سميكة جدًا، والسقوف عالية ومنحدرة لتزيح المطر والثلج... وكانت الأعمدة العالية تدعم القباب المرتفعة عوضًا عن الأسقف المسطحة التي كانت في الأيام السابقة... وقد استبدلت بالأبراج العظيمة المربعة التي كانت ترمز إلى مقاومة غزو العالم أبراج كمسلات تشير نحو السماء"[١٠].

ولكن لا يظنن أحد أن الغرض من تلك الأبنية العديدة كانت مجرد استعمالها كأماكن للعبادة، لأن كنيسة القرية في القرون الوسطى كانت بمقام عدة أبنية في وقتنا الحاضر. فكانت متسعة جدًا لدرجة أنها تسع معظم السكان ليطوفوا في طرقاتها. وكانت أكواخ الفقراء حينئذ عبارة عن عشش حقيرة بلا شبابيك، فكانوا يلجأون إليها للنوم. وكان البناء الفسيح الجميل المكرس للدين هو قصر الفقير الذي فيه يصرف وقت فراغه ويشعر كأنه ملكه الخاص، فكان بمثابة نادي المدينة، وسوقها، ومدرستها، ووكالة الأنباء، ومكان مقابلات الأصدقاء، كل هذه مجتمعة معًا. ونحن الذين نعيش يومنا الحاضر في بيوت مريحة، لا يمكننا أن ندرك تمامًا فوائد تلك الأبنية، وكيف كانت مريحة للناس. ولكن هذا إنما عمل على زيادة سلطة الكهنوت وعبودية الناس لهم، شأن كل شيء آخر في ذلك الوقت. فتمجد الكهنة أكثر في أعين الشعب، وفاق مجدهم مقام الملوك أنفسهم.

الحركة الفكرية

لم تتميز بداءة القرن الحادي عشر بالمهارة المعمارية العظيمة فقط، بل تميزت بنشاط العقل البشري في مختلف العلوم أيضًا. فكان يجب أن تتمزق في ذلك الوقت روح الجهل والتسليم الأعمى التي سادت قرونًا عديدة وأن تنشأ حركة تفكير حر.

كانت الحركة الفكرية في أوربا في كساد متزايد من القرن الخامس إلى منتصف القرن الثامن. ومع أن حالة الجزر البريطانية وأعمال بيد المشهورة يمكن أن تعد استثناء من القاعدة العامة، إلا أن الجهل وصل إلى أقصى حدوده في ذلك الوقت. وبمناسبة ذكر بيد نقول إنه يعتبر الرجل الذي يستحق أن يسمى معلم إنجلترا، فقد ولد في سنة ٦٧٣م في قرية جارو في نورثمبرلاند، وكان راهبًا وكاهنًا، ولكنه كان رجلاً تقيًا غيورًا ونشيطًا. وكان من أعظم أغراضه في الحياة تهذيب الشباب، وقد قام بهذا العمل حتى ساعاته الأخيرة، وتوفى بين تلاميذه المحبوبين في ٢٦ مايو سنة ٧٣٥م[٢٨/٥].

إحياء الآداب بواسطة العرب

نقابل الآن أمرًا لم يكن من المتوقع في تاريخ الآداب أثناء العصور المظلمة. ومع أن هذا في الحقيقة خارج عن دائرة تاريخ الكنيسة، ولكننا رأينا أن لا نغض النظر عنه لأهميته ولذته. فمن المعلوم أن معلمي المسيحية في ذلك الوقت كانوا غارقين في لجة الجهل. ولكننا نجد العرب قد نهضوا لدراسة الآداب اليونانية، حتى أصبحوا معلمين فيها.

سبق أن رأينا أن صحابة محمد وخلفاءه قاموا بحروب عنيفة، وكانوا لا يهتمون بالعلم، ويكرهون الآثار، ولكنهم في القرن الثامن استقروا في البلاد التي أخضعوها، وبالنسبة لمميزات طقسها الجميل، وأرضها الخصبة، بدأوا يتفرغون لدراسة العلوم. قال دين ودنجتون في تاريخه: "في القرن التاسع، وتحت إرشاد خليفة حكيم، أظهر المسلمون نشاطًا في تلقي العلوم كالنشاط الذي أظهروه قبلاً في أعمال الحروب. فأسسوا مدارس فسيحة الأرجاء في مدائن آسيا الرئيسية كبغداد والكوفة والبصرة، ورتبوا مكاتب عديدة بدقة ونشاط عظيمين، واستدعوا رجالاً علماء، ورحبوا بهم في بلاط المأمون. واليونان، التي هي أصل مدنية الجمهورية الرومانية والتي أنارت بعد ذلك بلاد الغرب قاطبة، دعيت في ذلك الوقت لأن تحول مجرى علومها إلى أحضان آسيا المقفرة، لأن اليونان كانت لا تزال البلاد الوحيدة التي لها علوم وآداب أصلية. وقد ترجمت معظم مؤلفاتهم إلى اللغة العربية، ووجد العرب سرورهم في مناقشة النظريات الفلسفية أو الخضوع لقواعدها. وقد انتقلت هذه الحركة النشيطة بسرعة عظيمة إلى مدارس صقلية وقرطبة، مرورًا بشواطئ مصر وأفريقيا. ومن ذلك الوقت اقترنت العلوم والآداب بحروب العرب. وقد فتحوا صقلية، ومن صقلية غزوا مقاطعات إيطاليا الجنوبية. وبذلك أعاد العرب حكمة فيثاغورس إلى موطنها الأصلي"(٢/٠٣٩).

انتقال علوم العرب إلى الأقطار المسيحية

كان البابا سلفستر الثاني، الذي جلس على كرسي بطرس الرسول في فجر القرن الحادي عشر، هو حلقة الاتصال بين حكمة العرب وجهل الرومان وتسليمهم الأعمى. فقد تعلم في المدارس الإسلامية في مدينة قرطبة، حيث استقى علومًا نافعة ابتدأ أن يظهرها في روما ويعلمها للناس. ولكن بسبب روح الخرافة التي سادت في ذلك الوقت نسب الناس أعماله العظيمة ومعارفه إلى فنون السحر، لأن الناس اعتقدوا أن مثل هذه القدرات لا يمكن إلا أن تكون نتيجة التحالف مع الشيطان. وقد ظلت ذكرى البابا سلفستر عدة أجيال بعده منظورًا إليها بعين الريبة، لئلا يكون قد جلس على كرسي بطرس الرسول في وقت من الأوقات ساحر. ولكن مع مرور الزمن اضمحل ظلام القرن التاسع شيئًا فشيئًا وظهر أناس مشهورون، ليس بالدراسات الفلسفية فقط، بل بدراسة الكتاب المقدس أيضًا، وبالغيرة على تقدم المسيحية، وكان هذا بركة جزيلة للبشرية، فقد استخدم الرب تقدم العلم آلة في يمينه، جعل بها القرن الحادي عشر يتميز كثيرًا عن القرن العاشر.

ولكن لا بد لنا أن نقول كلمة أخرى عن سلفستر، لأنه ليس من العدل أن نترك رجلاً عظيمًا كهذا تحت ظلال أفكار الناس الخرافية عنه، بينما تكلم عنه المؤرخون المستنيرون كرجل عصره العظيم. كان اسمه الأصلي جربرت، وهو من مقاطعة رافنا. قال ملمان بخصوصه: "إنه كان متفوقًا في العلم، ولا غبار عليه من حيث التقوى". وقد كان صديقًا ومعلمًا لروبرت، الذي ورث عن أبيه هوف كابت عرش فرنسا، الذي ارتقى إليه بعد ثورة صامتة سنة ٩٨٧م. ويظهر أن ذلك التلميذ الملكي استنار من تعليم سلفستر، لأنه في مدة ملكه على فرنسا التي بدأت سنة ٩٩٦ كان محبًا للعلوم حتى إنه لقب بالحكيم، ومات سنة ١٠٣١م مبكيًا عليه. وكان تعيين البابا سلفستر في المركز البابوي من قبل أوتو الثالث إمبراطور ألمانيا سنة ٩٩٨م وتوفى في ١٢مايو سنة ١٠٠٣م.

آثار حبل نعمة الله الفضي

كان إسطفانوس أميرًا مجريًا تقيًا، وعمده أدلبرت أسقف براغ، وبدأ حكمه في سنة ٩٩٧، وكان غيورًا جدًا على المحافظة على الإنجيل والمدارس والعمل التبشيري. وكثيرًا ما كان يرافق المبشرين، وكان أحيانًا يبشر بنفسه. وكانت تساعده في ذلك زوجته التقية جسلا ابنة هنري الثالث. وقد أدخل أيضًا كثيرًا من الإصلاحات الاجتماعية، وكان عطوفًا على الفقراء مجتهدًا في مقاومة كل شر في مملكته. وقد عاش حتى رأى بنعمة الله كل بلاد المجر تعتنق المسيحية، ومات سنة ١٠٣٨م. ولكن أعقبته حكومة اضطهدت

المسيحيين وعطلت العمال الأتقياء عن أداء عملهم الصالح.

• • •

أونجار أسقف دنماركي وأنفان أسقف همبورج كانا كلاهما خادمين مخلصين استخدمهما الرب لنشر الحق. ويوحنا أسقف مكلنبرج عمد كثيرين من الاسكلافونيين. ولكن البروسيين قاوموا كل مسعى في إدخال الإنجيل بينهم، حتى إن بولسلاوس ملك بولندا حاول أن يصيرهم مسيحيين بالقوة، ولكنه أخفق في مسعاه. ثم توجه بعد ذلك ثمانية عشر مبشرًا تحت رئاسة مرسل اسمه بونيفاس للعمل بينهم على نشر إنجيل السلام، ولكن القوم المتوحشين ذبحوهم جميعًا. ويظهر أن البروسيين كانوا آخر الأمم الأوروبية التي أخضعت لنير المسيح، ولم يتم لها ذلك إلا في القرن الثالث عشر وما بعده.

• • •

ملك أوليف على بلاد السويد قبيل نهاية القرن العاشر، وكان ملكه مشهورًا بتقدم الإنجيل في تلك البلاد. وقد انتهز الكهنة الإنجليز الغيورون تلك الفرصة وذهب كثيرون منهم للتبشير بالإنجيل في بلاد السويد، منهم سيجفريد الذي عمل كثيرًا بين السويديين، ولكن غيرة أوليف قادته إلى استعمال وسائل عنيفة لنشر المسيحية، حتى أوغرت صدور أتباع الديانة القديمة ضده. وبعد عدة منازعات ومعارك دموية تأصلت المسيحية في تلك البلاد في أواخر القرن الحادي عشر، وقد ازداد عدد الكنائس في بلاد السويد إلى ألف ومائة كنيسة تقريبًا.

• • •

وكان تقدم الإنجيل في بلاد النرويج بطيئًا منذ إرسالية أوسنجار. ولكن لما ملك أوليف بن هارولد سنة ١٠١٥م، اعتزم على القيام بعمل التبشير بغيرة عظيمة، فدعا كثيرين من المرسلين من إنجلترا، وعلى رأسهم أسقف اسمه جريمكل، وهو الذي وضع القانون الإكليريكي لبلاد النرويج. ولكن الملك اتبع الخطة التي كانت شائعة في تلك الأيام، ألا وهي إرغام الناس على اعتناق المسيحية بقوة نفوذه وباستعمال عقوبات بدنية قاسية حتى إلى الموت. ولذلك قامت في وجهه حروب داخلية، وأخيرًا اتفقوا على عقد مجمع اجتمع فيه الملك ومبشره جريمكل مع الكهنة الوثنيين في مدينة دالن سنة ١٠٢٥م. ويقال إن أوليف صرف معظم الليلة السابقة للمجمع في الصلاة، وقد أحضر إلى مكان الاجتماع الإله "ثور" الذي قالوا إنه أعظم من إله المسيحيين لأنه منظور. وعندما اجتمعوا في الصباح أشار الملك إلى الشمس المشرقة كبرهان محسوس على وجود إله خلقها. وبينما كان الوثنيون يتفرسون في لمعانها رفع جندي قوي هراوته وحطم بها الصنم تحطيمًا، فخرجت من ثناياه وشقوقه جحافل من الصراصير تفر مفزعة في كل اتجاه، فكان أن أهل مدينة دالن اقتنعوا ببطلان خرافتهم القديمة وخضعوا للمعمودية. وقد قُتل أوليف بعد ذلك في حرب أهلية، ولكن أشيع أن دمه قد أبرأ جرحًا كان في يد الجندي الذي قتله، وأشيع أيضًا أنه أتى معجزات كثيرة، ولذلك اعتبروه قديسًا واختاروه أبًا لبلاد النرويج.

• • •

وقد ظهرت انتصارات الإنجيل بشكل واضح على الأخص في بلاد الدنمرك قبيل نهاية ذلك القرن. قال آدم الذي من بريمن، والذي كتب سنة ١٠٨٠م "انظر كيف صارت الأمة الدنمركية المتوحشة تشدو بتسابيح الله. انظر كيف أصبح القوم الناهبين قانعين بثمار بلادهم. انظر كيف غدت تلك البلاد الهمجية التي كانت متمسكة بالأوثان تقبل المبشرين بالإنجيل وترحب بهم". ويبدو الدنمركيون والإنجليز في وسط تاريخ تلك الأيام كمنظر من مناظر الألف سنة، وذلك بفضل مجهودات المرسلين. فقد كانوا يتمتعون ببركات المسيحية، وبشركة المحبة والثقة المتبادلة. ولا شك أن هذا يبدو غريبًا مدهشًا للغاية لكل شخص عرف كيف أخرب الدنمركيون قبلاً مساكن الإنجليز وعاملوهم بكل وحشية، ولكن هكذا هي انتصارات إنجيل المسيح، إنجيل السلام. ولا بد أن تعليم الصليب يأتي بتلك النتائج المباركة، ويُجري تلك التغييرات العظيمة في الناس المتوحشين، ما دام الروح القدس هو الذي يوصله إلى القلوب. فالإنجيل لا يحرر النفس من عبودية الخطية فقط، ولكنه يصلح حالة الإنسان في هذه الحياة، وينشر في العالم مبادئ السلام والنظام والحكم الصالح، هذه هي تأثيرات الإنجيل، ولكنها كثيرًا ما تعاق بسبب عداوة القلب البشري الطبيعية، ولا سيما في أولئك الذين يتقلدون السيف.

• • •

لانفرانس وأنسلم اسمان مشهوران في تاريخ الكنيسة في ذلك الوقت، ولكن شهرتهما في العلم والمباحثة أكثر منها في النعمة. وكان كل منهما رئيس أساقفة كانتربري، وكان عدد التلاميذ الذي

كانوا يسمعون محاضرات لانفرانس لما كان راهبًا في كاين يربو على الأربعة آلاف. ولكنه عمل بما له من التأثير والعلم على تثبيت التعليم بالاستحالة، ذلك التعليم الذي ابتدأ ظهوره في الكنيسة في ظلام القرن العاشر. وقد هاجم هذا التعليم برنجر التوري، الذي سخّر كل قواه العقلية، وكل إمكانياته في دحض ذلك التعليم. ولكن لانفرانس أيد هذا التعليم، وإذ استمال أكثرية الكهنة في جانبه انتصر على برنجر، فجردوه من رتبه وحرموه تحريمًا باتًا بقية أيام حياته. ومن ذلك الحين صارت البرنجرية تعتبر مسبة عظيمة وهرطقة شنيعة. بهذه الكيفية تثبتت هذه النظرية الغريبة - نظرية الاستحالة - حوالي منتصف القرن الحادي عشر. وقد مات لانفرانس سنة ١٠٨٩م، وعُيّن وليم روفس أنسلم خلفًا له. وكان أنسلم كسابقه له تأثيره على تلاميذه من النورمانديين، وكان مشهورًا بكونه لاهوتيًا عظيمًا ومسيحيًا مخلصًا، وأنه بلا لوم في حياته، وتوفى سنة ١١٠٩م عن ست وسبعين عامًا، بعد أن شغل كرسي الرئاسة مدة ستة عشر عامًا. وغني عن البيان أن كلا من لانفرانس وأنسلم كانا من أعوان سيادة روما المتحمسين.

• • •

أما مرجريت ملكة اسكتلندا فكانت بلا شك مجرى إلهيًا لنعمة الله في هاتيك الأيام، رغمًا من سيادة البابوية الشرعية في بلادها. فقد كانت مشهورة بتقواها وسخائها وتواضعها، ولها في هذا المضمار حكايات غريبة جدًا. وقد التمست مع شقيقها إدجار أتلنج آخر النسل الملكي السكسوني في اسكتلندا ملجأ لهما هروبًا من جشع الأمراء النورمانديين، لاسيما وليم روفس، وهناك تزوجها الملك مالكولم كانمور. والحق أن أخلاقها كانت أهلاً لأن تكون مقدمة لعصر أبهى وأطهر من سابقه. كان لها ستة أولاد وبنتان. تولى ثلاثة من أولادها العرش، الواحد بعد الآخر، وكانت ماتلدا إحدى ابنتيها زوجة لهنري الأول ملك إنجلترا، وكانت هذه أيضًا مشهورة بتقواها.

ولما كانت حياة مرجريت وصفاتها تجسد أمامنا صورة أفضل للمسيحية الرومانية في أجمل وأسمى مظاهرها فإننا نقتبس نبذة من تاريخ حياتها العملية.

"إن الملكة التي تشرّفت بلقب القديسة بعد وفاتها، ولو أنها كانت تميل ميلاً شديدًا للخرافات، وتظهر بعض الأحيان بمظهر التفاخر بأعمالها الخيرية، إلا أنها كانت متحلية بكثير من الفضائل الممتازة التي ترفعها إلى مستوى أحسن ملكاتنا. وكان نفوذها وتأثيرها على زوجها الشجاع عظيمًا بهذا المقدار، حتى أنه كان معتادًا على تقبيل كتبها المقدسة بكل حرارة واحترام، ولو أنه لم يكن في استطاعته قراءتها نظرًا لأميته. وكانت تجهز كل صباح طعامًا لتسعة يتامى وتطعمهم وهي جاثية، وطالما خدمت بيديها على موائد جماهير الفقراء والمعوزين الذين كانوا يجتمعون عادة للتمتع بخيرها وإحسانها. لا بل هناك ما هو أشد من ذلك تأثيرًا، فقد كانت كل ليلة قبل الذهاب إلى فراشها تقدم دليلاً جديدًا على تواضعها، وذلك بغسل أرجل ستة أشخاص من هؤلاء الفقراء المعوزين. وكانت تقضي أغلب أوقاتها في الكنيسة مجاهدة أمام المذبح بدموع وتنهدات، وبصلوات طويلة كانت تقدم نفسها قربانًا للرب. وفى الصيام الكبير كانت تقرأ كتاب المزامير كله مرتين أو ثلاثة كل أربعة وعشرين ساعة، علاوة على بعض قراءات أخرى. وقبل سماعها القداس العام، كانت تجهز نفسها لهذا الحادث الخطير بسماع خمسة أو ستة قداديس خاصة. وعند انتهاء الخدمة كانت تطعم أربعة وعشرين جوعانًا مظهرة إيمانها بأعمالها. ولم تكن تذهب هي لتناول طعامها البسيط، إلا بعد أن تشبع هؤلاء تمامًا. ولكن مع هذه الأعمال الكثيرة التي تدل على التواضع، كان هناك ما يعادله من مظاهر العظمة والكبرياء. فملابسها كانت فاخرة، وحاشيتها عظيمة. وطعامها البسيط كان يجب أن يقدم في صحاف من الذهب والفضة، مما لم يسمع له مثيل قبل ذلك في تاريخ اسكتلندا من قبلها.

وقد نالت لحسن حظها قسطًا من التعليم الراقي، ولذلك كانت دائمًا مغرمة بإظهار علمها ومعرفتها بالكتب المقدسة. فكثيرًا ما كانت تتباحث مع كهنة اسكتلندا في مواضيع دينية. وبواسطة نفوذها أصبح الصيام الكبير يراعى طبقًا للمبدأ الكاثوليكي. والواقع أنها أدت خدمات جليلة للدين والفضيلة بطرق شتى. ولكن هذه الملكة الصالحة لم تعمر طويلاً نظرًا لما كانت تفرضه على نفسها من صيامات كثيرة وقاسية، مما أثر على صحتها، فهذه الصيامات جعلت جسمها يضعف شيئًا فشيئًا. وقد كانت طريحة فراشها تعاني المرض وتترقب الموت والصليب أمامها، وعندما جاء ابنها إدجار من موقعة ألتويك نظرت إليه وسألته: كيف حال الملك وابني إدوارد؟ فوقف الشاب صامتًا لا يعطي جوابًا. فقالت

بنفس حسيرة: إنني أعرف كل شيء. نعم اعرف كل شيء، وبحق هذا الصليب المقدس ومحبتك البنوية أناشدك وأستحلفك أن تنبئني بالخبر اليقين. فأطرق الشاب قليلاً وقال: إن زوجك وابنك قد قتلا كلاهما. وبمجرد أن وقع هذا النبأ السيئ على مسمعها رفعت يديها وعينيها إلى السماء، وقالت بكل خشوع وتعبد: ليتعظم وليتبارك اسمك أيها الإله القدير، لأنك سررت بأن تجعلني أحتمل مثل هذا الألم المرير ساعة رحيلي من هذه الديار، حتى بذلك تطهرني نوعًا ما من دناسات خطاياي. وأنت يا ربي يسوع المسيح، يا من بمشيئة الآب قد أحييت العالم بموتك، استمع لي وخلصني. وإذ كان الكلام لم ينته بعد من بين شفتيها فاضت روحها بكل هدوء وسلام»(٤٥)(١/١)؛(٣٢)(٢/٢)؛(٣١)(٢/٢).

تأملات في روح الإرساليات الرومانية

رأينا في تتبعنا للأثر الجليل والعمل الصالح الذي كان للإنجيل في الممالك المختلفة ذلك النشاط التي كانت تبديه كنيسة روما، وروحها العدائية. ولكن مع وجود الكثير من التقاليد البشرية المخيفة، والكثير من السخافات الغبية، مختلطة بإنجيل الله، فإن اسم يسوع المسيح ظل عاليًا وظل الاعتراف بأن الخلاص به، وإن كان - كما يقولون بالأسف - ليس به وحده. ولكن رغمًا عن كل ذلك فإن الله في نعمته استخدم هذا الاسم المبارك، وأعطى لعين الإيمان أن ترى قيمته الثمينة وعظمته السامية بين أقذار الخرافات الرومانية. أما إنجيل المسيح الكامل الطاهر فقد تلاشى نهائيًا فلم يصبح الأمر فيما بعد يسوع وحده، بل يسوع وألف شخص آخر. إنهم كانوا مقتدرين في الحض على الأعمال الصالحة، ولكنهم في الوقت نفسه ألقوا ستارًا من الظلام على الإيمان الذي منه يجب أن تنبع كل الأعمال الصالحة. فالأقوال: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» و«تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» و«من يقبل إلى لا أخرجه خارجًا» (يو ١:٢٩؛ إش٤٥:٢٢ متى ١١:٢٨ يو ٦:٣٧)، جميع هذه النصوص، وكثير مثلها، تدل على إنجيل يدفع النفس إلى المسيح نفسه عن طريق الإيمان وحده، وليس إلى المسيح وآلاف مؤلفة من الطقوس والمراسيم قبل أن يتسنى للنفس أن تحصل على الخلاص. ولكن هذه النصوص لم يكن لها أي اعتبار، وقد نسوا - أو تناسوا - أن التغيير الصحيح إنما يكون بالمسيح نفسه، وأن الاعتماد على دمه الثمين وكفايته الأبدية إنما هو الخلاص الوحيد الذي فيه تجد النفس سلامها الكامل مع الله.

لا شك أنه كان هناك كثير من الرجال الصالحين المخلصين في الحقل التبشيري ممن كانت حالتهم الروحية أسمى بمراحل من مركزهم الديني، وكان ممكنًا لله أن يستخدمهم في جذب النفوس الغالية إليه. ولكن لا شك أيضًا أن روح الإرساليات الرومانية كانت ترمي إلى جمع الناس لكنيسة روما أكثر منه للإيمان وإطاعة المسيح. فالخضوع المطلق والتسليم الأعمى لسلطان البابا وسيادته كانا هما أول واجب يفرض على المهتدين، حكامًا كانوا أو محكومين. أما الإيمان بالمسيح فلم يكن هو وجهة النظر وموضوع البحث والطلب، ذلك لأن أطماع البابوية كانت تنحصر كلها في جعل العالم بأسره ينطوي تحت لوائها. وفيما يختص بأوروبا، لم يكن نصيب كل جماعة مسيحية تعلن استقلالها عن السيطرة البابوية إلا إلغاؤها والقضاء عليها نهائيًا.

• • •

في هذا الظرف العصيب ظهر في الميدان راهب من أصل وضيع، ولكنه كان ذا صفات مدهشة ومقدرة غريبة، ففيه قد تمت جميع أحلام البابوية في السيادة على العقل البشري، الأمر الذي لم تكن قد نجحت فيه روما إلى ذلك الحين. وحيث إنه لم يسبق أن جلس على كرسي البابوية رجل مثل هذا، ولم يقم مثله إلى الآن، فيجدر بنا أن نلم بطرف من حياته التي ليست لها مثيل.

الفصل التاسع عشر

البابا غريغوري السابع

اسمه الأصلي هلدبراند. ولد في تسكانيا في أوائل القرن الحادي عشر، وكان متشبعًا من حداثته بأشد مبادئ الرهبنة وأقساها. ولما لم تعجبه رخاوة الرهبان الإيطاليين عبر جبال الألب ميممًا نحو برجنديا. وهناك دخل دير كلوني المشهور بالتقشف والزهد، والذي كان أكثر الأديرة عددًا وثروة وتقوى آنذاك.

وحدث أن جاء برانو أسقف تول إلى الدير عام ١٠٤٩م، تحف به مظاهر الأبهة المختلفة، وحاشية عظيمة تليق بمقامه كبابا منتخب. وهناك طلب ضيافة الرهبان وخضوعهم له. وقد كان برانو ابن عم هنري الثالث إمبراطور ألمانيا، وهذا عينه ليجلس على كرسي البابوية الذي كان خاليًا وقتذاك. ولم يكد يستقر به المقام في كلوني إلا وملك هلدبراند منه زمام عقله بما كان له من قوة التأثير، وكان قد أصبح رئيسًا للدير، فأقنعه أنه ارتكب خطأ فاحشًا بقبول وظيفته من رجل علماني، وأشار عليه أن يطرح جانبًا ملابس البابوية التي كان قد اتشح بها قبل الأوان، وأن يسافر إلى روما كأحد الحجاج، وهناك يتقبل من يدي الكهنة والشعب ذلك المركز الرسولي الذي لم يكن لمخلوق علماني الحق في منحه. وقعت هذه الفكرة موقعًا حسنًا لدى برانو، وتغلبت بلاغة هلدبراند وآراؤه السامية فيما يتعلق بكرامة الوظائف الدينية على عقل صديقه الجديد، فما كان منه إلا أن قبل النصيحة وألقى بملابسه جانبًا، واستأنف الرحيل إلى روما بملابس أحد الحجاج البسيطة مستصحبًا معه الراهب هلدبراند.

وقد كانت النتيجة عظيمة جدًا وفى صالح برانو. فلم يكن في إمكان أية أبهة دينية أو إمبراطورية مهما بلغت عظمتها، أن يكون لها نفس قوة التأثير التي كانت لهذا العمل على عامة الشعب. فقد أشيع أنه أتى بالمعجزات في طريقه، وأن أنهارًا عظيمة فائضة عن شطوطها قد جفت، أو تراجعت إلى مجاريها الطبيعية بقوة صلواته. وعلى ذلك استقبله الشعب بتهليل عام باسم البابا ليو التاسع. وقد كوفئ هلدبراند في الحال على خدماته فرقي إلى رتبه كردينال، وعين وكيلاً لأبروشية روما مع مزايا سخية أخرى. ومن ذلك الحين صار هو البابا الفعلي، وكان هو المدير الحقيقي لشؤون البابوية بأجمعها.

النقيضان

عند هذه النقطة من تاريخنا نقابل صفتين هما أشد ما يكون من التناقض والتطرف، وهذا لا شك من حيل الشيطان ومكره. فبينما كان غرض هلدبراند الوحيد ينحصر في إخضاع العالم الخارجي، كان الآخرون بما يفرضونه على أنفسهم من عذابات قاسية يحاولون إخضاع العالم الداخلي في أنفسهم.

فمثلاً بطرس داميانو، أسقف أوستيا، كان زاهدًا متقشفًا إلى أقصى حد، فكان يلبس المسوح سرًا، وكان يصوم ويسهر ويصلي. ولشدة رغبته في إذلال شهواته، كثيرًا ما كان يقوم في الليل ويقف ساعات متوالية في مجرى من الماء إلى أن يجمد فخذاه من شدة البرد، ثم يصرف ما بقي من الليل في زيارة الكنائس، وترتيل المزامير. وكان الغرض الظاهر الذي من أجله يجاهد هذا الجهاد هو إرجاع مجد الكهنوت، وإيجاد نظام كنسي أدق. هكذا كانت قوة العدو المضلّلة التي كانت تعمل داخل كنيسة روما.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كان هناك راهب اسمه دومينيك، وكان له شأن كبير في هذه الحملة الشعواء، وكان هو

بطل هذه الحرب العنيفة ضد ذلك الجسد المسكين المظلوم. والشيطان أخفى عنه الفرق بين الجسد وأعمال الجسد. فكان يلبس على لحم جسمه مباشرة درعًا ضيقًا من الحديد، وما كان يخلعه قليلاً إلا ليعطي نفسه فرصة فيها يجلد نفسه. وكان يكبل ذراعيه وباقي جسمه بحلقات من حديد، كما كانت رقبته دائمًا مثقلة بالسلاسل، وملابسه القليلة كانت مهلهلة، وطعامه كفافًا. وكان لون جلده أسود كجلد الزنجي من جراء هذه التأديبات القاسية المختلفة. وكان شغله ينحصر في قراءة سفر المزامير مرتين في اليوم، مع جلد نفسه بكل قوته جلدات عنيفة بمعدل ألف جلدة لكل عشرة مزامير، وكان المعتقد وقتذاك أن كل ثلاثة آلاف جلدة توازى التكفير عنه سنة. فكان إذاً سفر المزامير بأجمعه، مع ما يتخلله من هذه الجلدات، يوازي خمس سنين كاملة. أما في الصيام الكبير والمناسبات التكفيرية الخاصة، فكان المنسوب اليومي لقراءة سفر المزامير يرتفع إلى ثلاث دفعات على الأقل. وقد قيل أن دومينيك كان عادة يقطع هذا الكتاب عشرين مرة في بحر ستة أيام، أي ما يوازي غفران مائة سنة كاملة. وحدث مرة أنه أراد في بداية الصيام الكبير أن يفرض على نفسه غفران ألف سنة، وقد تحقق هدفه، فلم يحل عيد القيامة إلا وكان قد بلغ مبتغاه.

كان الاعتقاد السائد أن هذه الجلدات تكفر عن خطايا الآخرين، ولذلك كانت هي رأس المال لبيع الغفرانات التي سيأتي ذكرها فيما بعد. أما دومينيك فلم يرحمه من أوهامه الكاذبة وحياته البائسة التي تثير الشفقة سوى الموت الذي سطا عليه عام ١٠٦٢م.

خذ مثلاً آخر في الحياة الدينية، ولا يأخذنك العجب، فالشيطان كان أبدًا على استعداد لأن يوجد ما يناسب كل ذوق ومشرب.

كان الأساقفة العالميين عادة يخرجون راكبين في مواكب حافلة، تحف بهم الجنود من كل جانب، وفي أيديهم الرماح والسيوف، فكنت تراهم وهم محاطون بهؤلاء المدججون بالسلاح كما كان للقادة الوثنيين. كان لهم كل يوم مآدب فاخرة، وحفلات ساهرة ساحرة، فيها الموائد منضدة بأفخر الأطايب، ولم يكن الضيوف إلا محاسيبهم الجشعين. أما الجرائم والفجور، فكانت قائمة على قدم وساق في قصورهم الشاهقة. وبالاختصار كان شر روما في القرن العاشر عظيمًا، حتى أن المؤرخون جميعًا اتفقوا على أن يسدلوا الستار على هذا الجزء الأسود من التاريخ رحمة بآداب الإنسانية العامة. ويمكنك أن تتصور الحالة المزعجة التي سادت في الفاتيكان في هذه المدة لو علمت أنه في ظرف قرن ونصف من الزمان "قُتل اثنان من الباباوات، ونُفي خمسة، وخُلع أربعة، واستقال ثلاثة، نظرًا لما كان يتهددهم من الخطر... ووصل بعضهم إلى كرسي البابوية بقوة السلاح، وبعض بالمال، بينما آخرون قبلوا التاج من أيدي الأمراء... وقد لا يتفق أن يقال في هذا الصدد إن أبواب الجحيم قد قويت وقتذاك على مركز الكاثوليكية وكرسي رئاستها، ولكن لو أننا استدعينا بارونيوس نفسه للمحاكمة لكان شهادة كافية لتؤكد إن تلك الأبواب قد انفتحت على مصاريعها وانطلق منها، بسماح من الله، طغمات من الأرواح الشريرة، لكي تصب جامات من الحنق والغضب على أكبر رأس فيها"(١/٤٨)،(٣/٤٢)،(٢/٣١).

• • •

نعود الآن إلى الغرض الأصلي من تاريخنا، أعني به حياة هلدبراند، أو غريغوري السابع، الذي سنسمع من شفتيه قصة الباباوات المعصومين، بصورة تختلف كل الاختلاف عن كل ما عهدناه حتى الآن.

غريغوري والاستقلال الإكليروسي

لم يأت بعد اليوم الذي سيقوم فيه ضد المسيح المذكور في رسالة تسالونيكي الثانية ٢:٤، والذي بعمل الشيطان وقيادته سيرفع نفسه «على كل ما يدعى إلهًا أو معبودًا» . ولكن مما لا ريب فيه أننا يمكننا أن نرى في حياة غريغوري وأخلاقه صورة مبكّرة لهذا العمل العجيب، الذي تتمثل فيه منتهى قوة الشيطان. ولولا ما نراه في مشاريع هلدبراند من الأدلة والتفاسير لبعض آيات الكتاب، لكنا أغفلنا تاريخه بكل ارتياح. فعبثًا نحاول أن نرى أي أثر لحبل نعمة الله الفضي، أو المحبة بشرية كانت أو إلهية، في أي عمل من أعماله العامة. ولكنك بالعكس لا تسمع منه سوى أبلغ الكلمات الرنانة وأشدها تجديفًا وجسارة يتكلم بها عن نفسه كخليفة القديس بطرس وتابع يسوع والناطق بلسان الله. بينما الواضح للجميع أنه لم يكن إلا صورة مجسمة لضد المسيح في كبريائه وتصلفه وعدم تسامحه. وقد كانت لغته بعض الأحيان تكاد تنم على ادعاء بالألوهية وتقرب من تجديف «إنسان الخطية».

ومن اليوم الذي دخل فيه روما في رفقة برانو إلى أن ارتقى كرسي البابوية، أي ما يوازي أربعة وعشرين سنة، كان هو الروح العاملة المتسلطة في الفاتيكان، ولكنه لم يكن متسرعًا في الحصول على كرسي الرئاسة رسميًا، بل بحكمة فائقة كان طول هذه المدة دؤوبا على دراسة الأحوال العامة والعلاقات بين الكنيسة والدولة، منكبًا على البحث في ما هو الإنسان، والوقوف على دقائق الجو السياسي في أوروبا. وكان في كل ذلك يضمر في دخيلة نفسه مشروعًا خطيرًا واسع النطاق، ألا وهو تكوين ثيوقراطية* في شخص البابا. وقد ظهر هذا للعيان عندما تسلم العرش رسميًا، وأعلن في نفسه السلطان الذي طالما مارسه بالفعل من مركز أقل.

وقد كان غرضه المعلن من البداية هو الحصول على الحرية الكاملة والاستقلال التام للكهنوت، وفصله عن كل تدخل إمبراطوري أو علماني من أي نوع، سواء أكان في تعيين القساوسة أو في رسامتهم. وفي سبيل الوصول إلى هذه الغاية، كان دائمًا يؤكد بكل تشدد أن السلطة الروحية هي أسمى من السلطة الزمنية، وأكثر منها شرعية. وهذه الادعاءات أدت بكنيسة روما، في شخص البابا، إلى اغتصاب السلطة من الإمبراطورية الغربية، والسيادة على جميع الممالك الأوربية، أو بالحري على كل العالم. وليس أدل على ذلك من المراسيم الآتية:

مرسوم غريغوري

نذكر فيما يلي بعضًا مما قيل إنها أقوال غريغوري المأثورة، وهي تعطي للقارئ فكرة عن الرجل، وعن روح البابوية في ذلك الوقت. يقول: "من المقرَّر أن بابا روما هو الأسقف العام، وأن اسمه هو الوحيد من نوعه في العالم قاطبة، فله وحده حق عزل الأساقفة أو تعيينهم، وهو مطلق الحرية في عزلهم في غيابهم، وبدون حاجة لموافقة أي مجمع من المجامع. ومن حقه وحده إصدار القوانين الجديدة للكنيسة، وتقسيم الأبروشيات أو ضمها أو تعديلها. وله وحده حق استعمال شارات الإمبراطورية. وجميع الأمراء مرغمون على تقبيل قدميه. وله الحق في أن يعزل الأباطرة، وأن يحرر الرعايا من واجب الخضوع لهم. كذلك له الكلمة العليا في مسائل الحرب والسلم. وله وحده حق الفصل في المنازعات الخاصة بالعروش، ذلك لأن كل الممالك إنما هي خاضعة لسلطان القديس بطرس. وبإذنه يمكن للمرؤوسين أن يتهموا رؤساءهم، ولا يمكن لمجلس أن يكون له صفة رسمية بدون أمره. إن الكنيسة الرومانية لم تخطئ البتة، وكما يشهد الكتاب لن تخطئ أيضًا. فالبابا هو فوق كل الأحكام، وباستحقاقات القديس بطرس صار مقدسًا تقديسًا تامًا. إن الكنيسة لم تقم لتكون خادمة للأمراء بل سيدة عليهم، وإذا كانت قد تسلمت من الله السلطان بأن تربط وتحل في السماء، فبالأولى جدًا يكون لها نفس هذا السلطان في الأمور الأرضية"[٢٣١].

ولما كانت السيادة الكنسية هي شغل هلدبراند الشاغل، وحلمه اللذيذ، رأى أنه لا بد له من إدخال بعض إصلاحات، قبل أن يتسنى له الوصول إلى غرضه، ولذلك ولّى وجهه نحو هذه الإصلاحات بكل ما أوتي من قوة وعزم ونشاط وجرأة.

إصلاحات غريغوري

في مارس سنة ١٠٧٤م، أي في ختام السنة الأولى من رئاسته، استدعى غريغوري مجمعًا عظيمًا في روما لشن الغارة ضد أعظم رذيلتين في الكهنوت الأوربي، أو بالأحرى أعظم عائقين في سبيل مشروعه الثيوقراطي، ألا وهما السراري والسيمونية. أو بعبارة أخرى زواج القساوسة، وبيع المواهب، وقد كان الكثيرون من الذين يميلون للإصلاح يعتبرون أن تحتيم العزوبة لم يكن فقط أمرًا قاسيًا بل جائرًا أيضًا، لأنه كان لا يفرق بين أشرف نوع من الزواج، وأحط نوع من الفجور، ولكن العزوبة تقررت في المجمع بدون معارضة. وهذه هي القرارات التي اتخذت بشأنها:

١- القساوسة لا يتزوجون.

٢- على القساوسة المتزوجين أن يتركوا نسائهم، أو أن يتخلوا عن مراكزهم الكهنوتية.

٣- لا يُقبل أي واحد في المستقبل ضمن الكهنوت المقدس ما لم يكن ذا عفة لا تُقهر.

حاول الكثيرون من الأباء الأولين إثبات العلاقة بين العزوبة والتقديس، وإقناع الناس أن كل من خُطب للكنيسة يجب عليه أن لا يتدنس بعشير أرضي. كذلك عزز هذه الفكرة كثيرون من الباباوات. ولكن العزوبة لم تُراعَ إلا في أحوال نادرة جدًا، إما في حالات التدريب

* أي نظام حكم رجال الدين.

الشخصي الشديد وإما في أشد الأديرة دقة ونظامًا. وفي الغالب لم يكن معمولاً بها خارج حدود إيطاليا. ولكن غريغوري جعل صوته بخصوص ذلك الأمر يُسمع ويخشى من الفاتيكان إلى أقصى حدود المسيحية اللاتينية. وكتب رسائل إلى جميع المطارنة والأساقفة والأمراء والملوك وكافة الموظفين الملكيين من جميع الطبقات، يطلب إليهم فيها أن يعزلوا ويطردوا بلا أدنى رحمة جميع القساوسة المتزوجين، وأن يرفضوا جميع خدماتهم المدنسة. وكل من يخالف ذلك يعرض نفسه للعقاب الشديد أو الهلاك الأبدي. وقد جاءت هذه الرسائل مليئة بلعنات الأناثيما على كل من يقاوم مراسيمه، وإذا يدعي لنفسه مركز الله، يقول: "كيف يمكن لهؤلاء أن ينالوا غفرانًا لخطاياهم، وهم يحتقرون ذلك الذي يفتح ويغلق أبواب السماء في وجه من يشاء؟ ليحذر مثل هؤلاء كيف أنهم بعملهم هذا يستنزلون غضب الله على رؤوسهم... وكيف يستوجبون على أنفسهم اللعنة الرسولية بدلاً من نوال النعمة والبركة التي كان يجب أن تفيض عليهم بغزارة من لدن بطرس المبارك. ليتأكد مثل هؤلاء أنه لا يمكن لأي شخص، سواء أكان أميرًا أو أسقفًا، أن ينجو من الهلاك إذا هو تغافل عن خلع القساوسة المتزوجين، أو السيمونيين، وطردهم بحزم لا يعرف لينًا أو هوادة. وكل من يتأثر بأية عاطفة طبيعية أو قرابة جسدية، أو لأي سبب عالمي آخر، ويمنع السيف عن سفك الدماء في سبيل كنيسة الله وقضيته المقدسة، أو يقف على الحياد بينما هذه الهرطقات الشنيعة تعمل في أساس المسيحية بالهدم والدمار... ليعلم مثل هذا، أيا كان، أنه سيُعتبر شريكًا في الهرطقة وأنه خائن ومراء"(٤٢/٤).

أحدث إصدار هذا المرسوم، كما هو المنتظر، هياجًا شديدًا وقلقًا خطيرًا في أرجاء المسيحية عامة. فإلى ذلك الحين كان الزواج معتبرًا هو القاعدة والعزوبة هي الاستثناء، سواء عن فهم صحيح أو غير صحيح. ومما زاد الطين بلة وجعل المرسوم بغيضًا لا يطاق، ما كان فيه من جور، إذا أنه سوّى بين أفضل الناس وأرذلهم، واصمًا إياهم بتهمة اقتناء المحظيات. ونحن نترك للقارئ تقدير الأثر السيئ الذي يحدثه مرسوم كهذا في الآلاف من العائلات الهادئة المطمئنة، فالتفاصيل تكفي لأن تملأ مجلدًا خاصًا. وإنما نقول إنه قضى على كثير من الأسر الفاضلة الشريفة، وفرّق بين ما قد جمعه الله، وشتت الآباء والأمهات والأطفال، وأعطى مجالاً لأسوإ المنازعات وأشدها إيلامًا، ونشر في كل مكان أفظع المصائب وأهولها. وكان للنساء على الأخص النصيب الأوفر من الكارثة، إذ تملكهن اليأس والحزن، مما دفع بالكثيرات منهم إلى مهاوي الردى والعار. وعلى قدر ما كانت تعظم المعارضة كانت تعظم الأناثيمات على أي تأخير أو تردد في تنفيذ أوامر البابا، فكان العاصي يسلم إلى المحاكم الأهلية بعد أن تنزع منه جميع أملاكه ويعرّض لصنوف مختلفة من الإهانات والعذابات. فقد جاء في إحدى رسائل غريغوري بخصوص هذه النقطة ما يأتي: "كل من يشك أو يتردد إنما هو جسدي وهالك من نفسه. ليس له نصيب في عمل الرب، هو غصن فاسد. كلب أبكم. عضو أبرص. خادم خائن. محب للعالم ومراء".

وبينما تقول كلمة الله كالسيف القاطع «ليكن الزواج مكرّمًا عند كل واحد» (عب١٣: ٤) وليس للبعض فقط، كان غريغوري يقول إنه للكهنة عهارة وخطية مُهلكة للنفس، مع أن الله نفسه هو الذي وضعه حين أحضر المرأة إلى آدم. ولما لم يوجد بين ملوك أوروبا من كان يميل للمدافعة عن نساء الكهنة، فلم يمض إلا القليل حتى تم الأمر للبابا. وقد كانت المسألة في صالح الكثيرين من القساوسة، إذ إنهم لم يأسفوا كثيرًا لتخلصهم مما كانوا قد أوقعوا نفوسهم فيه بسبب طرقهم الشريرة.

الهرطقة السيمونية

أما النزاع الذي أحدثه القانون الذي صدر في نفس الوقت والخاص بإلغاء السيمونية، فكان من أعقد الأمور وأصعبها. وبما أن هذا النزاع قد استمر لسنين كثيرة، فقد أوقع الكنيسة والدولة في مشاكل عديدة وجلب على الاثنين مصائب عظيمة.

وصل النظام الإقطاعي في القرن الحادي عشر إلى قمته، وفيه وصلت الخطية السيمونية، أو بيع الوظائف الدينية إلى منتهاها. ويخبرنا التاريخ أنه في ذلك الوقت كانت جميع وظائف الكهنوت، من وظيفة البابا إلى أصغر وظيفة في الأبروشيات، تباع وتشترى، وكان لكل منها ثمنها الخاص، حتى أن أسقفية روما نفسها كانت كسلعة في السوق، يتهافت على شرائها الكثيرون، لدرجة أن وُجد حوالي ذلك الوقت عينه ثلاث باباوات معاصرين وهم بندكت التاسع في لاتيرن، وسلفستر الثالث في الفاتيكان، وغريغوري السادس في سانتاماريا. وقد وصلت المنازعات والحروب بين هؤلاء

الباباوات الثلاثة وأصدقائهم إلى درجة مخزية ومهينة جدًا، جعلت الإيطاليين يلجأون إلى الإمبراطور هنري الثالث، ويطلبون إليه أن يأتي إلى روما ويفحص بنفسه ادعاءات هؤلاء الباباوات المتضاربة. وقد انعقد مجمع في سوتري حوالي سنة ١٠٤٤م، فيه تبرهنت أمام هنري مفاسد ومخاز يقف القلم عن ذكرها، كان هؤلاء الباباوات واقعين فيها في أشر وأحط أنواع السيمونية الممقوتة. ونحن لا ندري أيًا من هؤلاء الثلاثة تعتبره الكنيسة العليا الخليفة الشرعي للقديس بطرس، ولكن مما لا شك فيه هو أن ثلاثتهم كانوا من سلالة سيمون الساحر، الذي ظن أنه يستطيع أن يقتني موهبة الله بالدراهم. وإن قليلين وقليلين جدًا هم الذين كانوا حقًا من سلالة سمعان بطرس الذي ترك كل شيء وتبع المسيح.

وقد انتشر الشر من أعلى إلى أسفل، حتى عمّ كل وظيفة من وظائف الكهنوت وأثر فيها، إن لم يكن أفسدها. فقد كان الأسقف يرى أنه قد تكلف كلفة باهظة في الحصول على وظيفته، ومن ثم كان يرفع أثمان الوظائف الصغرى لكي يعوض بذلك لنفسه ما قد خسره. ولهذا، كان الشغل الشاغل لذوي المراكز العليا في الكنائس هو هذه التجارة المنحطة، وما إليها من مضاربات مخزية. حالة لا يمكن أن يوجد أحط منها، فتحت باب الوظائف الكنسية لكثيرين من أشر الناس، فمن علمانيين مجردين من كل علم أو دين، إلى برابرة غير متمدينين، كان السوق مفتوحًا أمام جميعهم ليبتاعوا منه ما شاءوا من الوظائف الدينية، ولأن يزجوا بأنفسهم في صفوف الكهنة المقدسين، جالبين معهم بلا نزاع أحط الشرور العالمية وأشر الفظائع الوثنية. هكذا كانت السيمونية هي الخطية السائدة في ذلك الوقت، وقد نشأ عنها طبعًا كل أنواع الرذائل الأخرى. ولذلك يجدر بنا أن نتحرى أصلها ونتأكد منه.

نشأة السيمونية وتطورها

طالما كانت الكنيسة فقيرة ومضطهدة ومحتقرة من العالم لم يكن هناك من يشتري وظائفها. فلما كان الإنسان يفقد مركزه العالمي بمجرد صيرورته مسيحيًا، ويعرض نفسه للسجن والموت لم يكن هناك مجال للتزاحم على الوظائف الدينية والمتاجرة فيها. ولكن عندما اتحدت الكنيسة بالدولة، وأخذت ثروة العالم تتدفق إلى خزائن الكنيسة، ظهرت تجربة الجاذبية إلى الكهنوت، والميل إلى الحصول على وظائفه طمعًا في الامتيازات والحصانات التي صارت من خصائصه. ولذلك كانت السيمونية هي النتيجة الحتمية للأموال الطائلة، والأوقاف الكثيرة، التي كانت تسيطر عليها الأبروشيات الغنية.

في عهد الأساقفة الأول، كان الأسقف يُنتخب بواسطة الكهنة والشعب التابعون لأبروشيته. ولكن بمرور الزمن صارت الانتخابات الأسقفية عظيمة الأهمية، حتى أن الأمراء العلمانيين، لا بل الملوك، تدخلوا فيها وادعوا لأنفسهم حق التعيين النهائي. فشارلمان نفسه أعطى المثال الأول في تعيين أبنائه في مراكز الكهنوت العليا، وسرعان ما أسيء استعمال هذا الحق المغتصب، فالوظائف العليا ومهام الكنيسة الكبرى كانت تعهد إما للمحاسيب، أو تباع لمن يدفع فيها ثمنًا أكبر من دون أي اعتبار لمصالح الدين، أو طهارة السلوك، أو حتى المؤهلات العلمية أو الأدبية.

هذا والمبدأ العام الذي كان سائدًا في النظام الإقطاعي، وهو تقديم الهدايا للملوك والرؤساء المباشرين عند كل ترقية، صار متبعًا أيضًا بواسطة رجال الدين. فكلما مات أسقف أو قسيس، كان المتبع أن يخطر البلاط أولاً بخلو الوظيفة. ثم يسلم الخاتم وشارة الصليب إلى البديل المؤقت، وكان الأسقف أو القسيس الذي يعين بعد ذلك مرغمًا، بحكم العادة والتقاليد، على تقديم هدية مناسبة. وفي البداية كانت هذه الهدية تقبل كنوع من التقدير الاختياري، ولكن مع مرور الوقت أصبحت بمثابة صفقة تجارية تسبقها عطاءات ومساومات كثيرة، وصارت ثمنًا للوظيفة، لا تراعى في تقديرها ذمة ولا ضمير، بل كان أساسها الجشع وحب المال. مع هذه الصفقة أيضًا كانت توجد مسألة رسامة الإكليروس الشهيرة. وكان الخاتم، وهو عربون زواج الأسقف السري بأبروشيته، والصولجان، وهو شارة سلطانه الروحي، يعطيان للأسقف حق السيادة المؤقتة على ما لأبروشيته من أوقاف وممتلكات تحت حماية السلطة المدنية وضمانتها.

كذلك كان لكثير من الأبروشيات ممتلكات واسعة داخل حدودها، حتى إنها صارت إمارات وحكومات ذات استقلال ذاتي، وأصبح الأساقفة فيها بمثابة أمراء دينيين وضعت في أيديهم مقاليد الحكم. وبمقتضى النظام الإقطاعي كانوا متساويين من كل الوجوه بالأشراف من المدنيين. يقول المؤرخ ملمان في هذا الصدد: "في كل مدينة كان الأسقف هو أول الناس، أو على الأقل في

مستوى واحد مع أولهم. وخارج المدينة كان هو المالك لأكبر جزء من الأراضي، أما رؤساء الأساقفة فكانوا في مصاف الملوك تمامًا، إن لم يزيدوا عنهم في بعض الأحيان"(٣/٤٣).

ولم يكن رؤساء الكهنوت بأي حال من الأحوال دون الأمراء العلمانيين في اتباع ذلك المبدأ الفاسد الخاص ببيع الوظائف في دائرة اختصاصاتهم، فالأساقفة كانوا يبيعون كنائسهم بلا خجل أو مراعاة ضمير، حتى يستردوا بذلك ما يدفعونه، فما كانوا يجمعونه بوسائل دنيئة كانوا بالتبعية يستخدمونه في غايات دنيئة. هذه كانت الحالة المزعجة في كل من الكنيسة والدولة على حد سواء، وهذه كانت البواعث الدنيئة التي طالما دفعت الناس للتهافت على المراكز الدينية في الوقت الذي واجه فيه هلدبراند الأمر وأصدر مرسومه الشهير ضد السيمونية وضد مبدأ الرسامة من قبل أي سلطة زمنية، سواء أكانت هذه السلطة ملكًا أو أميرًا أو شريفًا أو أي مخلوق علماني آخر.

غريغوري ورسامة الإكليروس (١٠٧٥م)

يرجع تاريخ هذه العادة إلى ما قبل إدخال شارلمان النظام الإقطاعي بكثير، ويرجح أنها نشأت في عهد كلوفس. فكان كل إمبراطور أو ملك أو أمير يمنح الأسقف أو رئيس الدير خاتمًا وعصًا، رمزًا لرسامته الرسمية. وإذا تذكرنا ما كان بين الكنيسة والدولة من علاقة، وأدركنا مصدر هذه المنحة الأصلي، نجد أنها منطقية وواجبة، ولكنها في حكم الذهن الروحي تدل على اتفاق غريب بين السلطة الزمنية والروحية، اتفاق لا يمكن أن تكون له إلا نتيجة واحدة، وهي خراب الاثنتين. يقول دين وادنجتن مؤرخ الكنيسة "لما كان أباطرة الغرب الأولون يهبون الكنائس هبات عقارية، كان من المحتم على الأفراد الذين يؤول إليهم حق التمتع بهذه الهبات أن يذهبوا إلى البلاط الإمبراطوري، وهناك يحلفون يمين الولاء للإمبراطور ويتسلمون من بين يديه رمزًا خاصًا، دليلاً على أن هذه الممتلكات الأرضية صارت في حوزتهم، ويتم هذا في ما يسمى 'حفل التنصيب'. وهذا الواجب الرسمي كان مفروضًا على الإكليروس كما كان مفروضًا على رؤساء الإقطاعيات العلمانيين تمامًا. وبمرور الزمن، عندما اغتصب الأمراء حق التعيين في الوظائف الدينية الرئيسية، حتى التي لم تكن ترجع في أصلها إلى هبات ملكية، صاروا لا يفرقون بين هذه وتلك، بل استمروا يفرضون على من يعينونهم نفس هذه الرسامة، بحلف يمين الولاء أمامهم كما كان يفعل الأتباع العلمانيون تمامًا"(٢/٣٩).

في بدء تحول أوروبا إلى المسيحية، اعتاد الفاتحون بدءًا من قسطنطين أن يهبوا قسمًا من أراضيهم الجديدة للأديرة والكنائس، فتكاثرت أملاك الكنيسة بسرعة، وخاصة في عهد الأباطرة الجرمانيين، وامتدت إلى مساحات عظيمة جدًا. يقول المؤرخ جرينوود إنه "في القرنين الحادي عشر والثاني عشر تضخمت أملاك الكنيسة المستديمة إلى حد عظيم جدًا، فكان الأباطرة يمنحون الأساقفة ورؤساء الأديرة ليس مجرد قطع من الأراضي أو الحقول، كما كان الحال قبلاً، بل مدنًا ودويلات وإمارات بأكملها. فقد منح أوثو الأول لدير مجدبرج عدة مدن مع ضواحيها والقرى التابعة لها، كما منح أوثو الثاني لكنيسة أشافنبرج ثلاث مدن من مدن الإمبراطورية مع كل زمامها. ولم تختلف شروط المنح لا كثيرًا ولا قليلاً عن تلك التي كانت شائعة في حالة الرؤساء العلمانيين، بل كان على الرئيس الروحي أن يقوم بنفس الالتزامات المفروضة على التابع العلماني، بغض النظر عن الفرق بين مركزيهما ومقاميهما. فكان الأساقفة ورؤساء الأديرة يمتشقون الحسام، ويمتطون الجياد، ويسيرون إلى ساحة الوغى على رأس جيوشهم المكونة من اتباعهم ومستأجريهم، قيامًا بما هو مفروض على أراضيهم من واجبات والتزامات. والغريب أن هؤلاء الرؤساء الدينيين، بدلاً من أن يعارضوا في القيام بهذه الواجبات التي لا تدخل في دائرة اختصاصهم واستعدادهم، كانوا يخوضون معامع القتال بصدر رحب، وهناك يظهرون تفوقًا حربيًا وبراعة في أساليب الكر والفر يحسدهم عليها أشجع الفرسان العلمانيين"(٤/٤٢).

تلك كانت الحالة السائدة في ما يمكن أن يسمى بالدائرة المسيحية عندما أصدر هلدبراند مرسومه الشهير ضد الرسامات العلمانية. وتلك كانت العادة المتبعة من جانب أصحاب التيجان في انتخاب الرؤساء الدينيين وتعيينهم. وكان هلدبراند يرمي بمشروعه إلى محو أي تدخل علماني في التعيينات الروحية محوًا كاملاً، وأن يبطل أي ادعاء من هذا القبيل، سواء كان في صالح المسيحية أو ضدها، وأن يحرم الملوك من حق رسامة الإكليروس الذي سلحهم به القانون وعززته التقاليد أجيالاً وقرونًا، والذي كان يعتبره الملوك من أثمن حقوق التاج الموروثة، إن لم يكن أثمنها جميعًا. من هنا كانت المعضلة العظيمة،

والمعركة الفاصلة، والحرب الداهمة، التي أصبح من المحتم أن تدور رحاها بين ملوك أوروبا الجبابرة، وذلك الراهب الهزيل في الفاتيكان. وقد واجه غريغوري الحالة بعزم ثابت، وقام يزج بنفسه في هذا النضال الذي هو بلا جدال أعظم نضال قام به شخص بمفرده في أي عصر من عصور التاريخ قاطبة.

غريغوري وهنري الرابع

كان البابا من أمد بعيد متتبعًا، بما أوتى من دقة في الملاحظة وبعد في النظر، جميع الحركات الحاصلة في أرجاء المسيحية، فأمكنه أن يعرف الروح المعنوية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، فكان على علم تام بدقائق الحياة السياسية والأدبية، واقفًا تمام الوقوف على ما لكل أمة من قوة أو ضعف. فكان في حربه الروحية يساير القوي، بينما يميل بكل قوته ضد الضعيف، فهو يتكلم مثلاً عن ملك فرنسا الضعيف بكلمات ملؤها الامتهان والاحتقار، ويطلب منه الجزية كحق له قديم، كذلك يقول عن سكسونيا إن شارلمان منحها قديمًا للرسول. أما عن وليم المرعب ملك إنجلترا ونورماندي فكانت لغته لغة التبجيل والاحترام، مع أنه كان مستقلاً استقلالاً تامًا، وكان يعين الأساقفة ورؤساء الأديرة بمحض إرادته الشخصية، وكان هو الملك المستبد المتسلط على جميع رعاياه سواء من الإكليروس أو علمانيين[٢/٤٣].

أما في أسبانيا وممالك الشمال، فكانت ادعاءات غريغوري أقوى ونجاحه أوفر. ولكنه على أي حال أراد أن يوجه كل قواه ضد الإمبراطورية. وعقد النية على أن يجعل البابوية تسود على كل ما يتسلط عليه هنري الرابع. فإذا أمكنه أن يكسر شوكة هذا الملك - خليفة القياصرة - الذي كان أكبر ملوك أوربا وأكثرهم قوة وتكبرًا، فإن نصرته تصبح مضمونة على كافة الملوك الآخرين.

وقد كانت ظروف الحال في جانب غريغوري، فحداثة هنري وقلة خبرته، ونزعات تربيته الفاسدة، وثورة الأمراء الجرمانيين عليه، ومتاعبه السياسية الأخرى، كل هذه العوامل شجعت هذا الراهب الجسور على السير في مشروعه الخطير. وأول ما عمله هو أنه أرسل للإمبراطور قرارات مجمع سنة ١٠٧٤م ضد السيمونية وزواج الكهنة، ومن مكره الشديد أظهر لهنري أنه يحمل له أكبر دلائل الصداقة، وأنه يطلب إليه كأب، أن يرجع إلى أحضان أمه، الكنيسة الرومانية المقدسة، وأن يحكم الإمبراطورية بأسلوب أحسن وأن يمتنع عن السيمونية الممقوتة، وأن يقدم الولاء اللائق لرئيسه الروحي.

وقد استقبل الإمبراطور الرسول البابوي بكل تجلة واحترام، وامتدح غيرة البابا لإصلاح الكنيسة، وعلى العموم أظهر خضوعًا متناهيًا، وكان في لهجته وديعًا إلى آخر حد. على أن غريغوري لم يكن الرجل الذي تغريه كلمات المديح التي لا معنى لها، أو التوبة الظاهرية التي لا أساس لها، فقام يطلب منه الإذن، بصفته الحاكم الأعلى لألمانيا، لاستدعاء مجامع هناك للنظر في مسألة المتهمين بالسيمونية وخلعهم. ولكن، لا هنري ولا الأساقفة، رضوا أن يسمحوا لمندوبي البابا بعقد أي مجمع في ألمانيا لهذا الغرض، فرجال الإكليروس خافوا من شدة تدخله في مراكزهم، كما كان الإمبراطور كان يخشى من التعريض بسياسته الشخصية. ولكن غيرة البابا المتأججة وأطماعه الثائرة لم تكن لتقبل أي تأخير أو تخضع لأي معارض.

ففي السنة التالية (١٠٧٥م) عقد مجمعًا آخر في روما للنظر في الإجراءات التي كان في عزمه إتمامها بواسطة المجامع في ألمانيا. وهناك على رأس الإكليروس الروماني، وهم رجال أخذوا يناصرونه إشباعًا لمصالحهم الذاتية وكبرياء قلوبهم، صمم على أن يسلط الفأس على أصل كل المخازي التي تتصل باسم السيمونية الممقوت مهما كلفه الأمر. وابتدأ تلك الفرصة بعزل وتحريم بعض المقربين لهنري. فعزل أساقفة بريمن وستراسبورج وبامبرج، وآخرين من الأساقفة اللمبارديين، وخمسة من البلاط الإمبراطوري كانوا يساعدون الإمبراطور في بيع الوظائف الكهنوتية. وأصدر مرسومًا قرر فيه أن "كل من يقبل منحة لأبروشية أو ديرًا أو يتم تنصيبه بواسطة أي شخص علماني يحرم تحريمًا باتًا". قابل هنري هذا القرار بشيء من التوبة لثاني مرة، واعترف بوجود السيمونية، وأعلن عزمه على عدم تشجيعها في المستقبل. ولكنه أظهر أنه لا يمكنه بحال أن يتنازل عن حقه في تعيين الأساقفة، ورؤساء الأديرة، ومنح الرسامات التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بهذا الحق. على أن هذا لم يُرض غريغوري الذي أغاظه تصرف الملك في تعيين أسقف لميلانو وأبروشيات أخرى، بدون انتظار الموافقة من صاحب الكرسي الرسولي. فأرسل إليه يدعوه للمثول أمامه في روما بلا أدنى تأخير لكي يجيب عن

جميع التهم الموجهة إليه أمام المحكمة البابوية ومجمع رجال الإكليروس، مهددًا إياه بأنه إذا رفض أو تباطأ فسيوقع عليه حكم التحريم، وحدد له يوم ٢٢فبراير للحضور فيه.

يقول المؤرخ ملمان "هكذا أصبح ملك الجرمانيين العظيم المنتصر مجرمًا من المجرمين. وكان عليه أن يجيب عن تهم غير محددة، وإلا وقع عليه حكم القانون الذي كان للقاضي حق تطبيقه وتفسيره وتنفيذه بأقصى العقوبات. كما أن شؤون الإمبراطورية كلها كان لا بد لها من التعطل مدة وقوف الملك للمحاكمة. والمسألة لم تكن لتقبل أي تأخير أو إمهال. ولم يكن لهنري مفرًا من أحد أمرين: إما التذلل والطاعة العاجلة، وإما تعريض نفسه لحكم التحريم الذي معناه خلعه من الإمبراطورية وهلاكه الأبدي".

كان هنري أميرًا ذا عقل راجح وطبع حاد، فاعتبر هذه الدعوة إهانة فظيعة، فراح توًا يدعو أساقفة ألمانيا لعقد مجمع في ورمز، وكان غرضه في ذلك خلع البابا الذي يبغي من وراء تصرفه هذا إعلان الحرب ضده. واجتمع هؤلاء الأساقفة، وبعد أن وجهوا لومًا كثيرًا لهلدبراند وعابوا عليه تصرفه الرديء، أعلنوا عدم استحقاقه لهذا المركز السامي. فخلعوه وقرروا عقد اجتماع آخر لانتخاب بابا جديد. وصل هذا الحكم إلى مسامع غريغوري عن يد مندوبي الإمبراطور، فلم يأبه له بتاتًا وفى الحال أمر بعقد مجمع قوامه مائة أسقف وعشرة. وهناك قرر إيقاف الأساقفة الجرمانيون الذي أعطوا أصواتهم ضده، ونادى بتحريم الإمبراطور معلنًا أنه "قد أصبح معزولاً من مملكتي ألمانيا وإيطاليا، وأن رعاياه قد صاروا في حل من يمين الولاء له".

غريغوري يخلع الإمبراطور عن العرش

وقف غريغوري في المجمع خطيبًا وقال: "والآن أيها الإخوة، يلزمنا أن نشهر سيف الانتقام. يلزمنا أن نسحق عدو الله وعدو كنيسته، ونجعل رأسه المهشمة التي رفعها في كبرياء ضد دعائم الإيمان وضد جميع الكنائس تسقط إلى الأرض. بمقتضى ذلك الحكم الصادر ضد كبريائه وصلفه، يجب أن يسعى على بطنه ويأكل من التراب. هكذا قال الرب: لا تخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم سر أن يعطيكم الملكوت. قد احتملتموه طويلاً وأنذرتموه كثيرًا. والآن دعوا ضميره المطعون يشعر ويحس". فأجاب جميع الحاضرين بصوت واحد: "لك الحكمة ولك السلطان أيها الأب الكامل القداسة، الذي رفعتك الرحمة الإلهية لتحكم العالم في أيامنا، فلتصدر هذا الحكم ضد ذلك المجدف، ذلك الغاصب، ذلك الطاغية، وذلك الجاحد المرتد حتى ينسحق إلى الأرض ويكون عبرة للأجيال المقبلة... جرد سيفك ونفذ حكمك، لكي يفرح البار عندما يرى الانتقام ويغسل يديه في دم الفاجر".

وقد تلا ذلك الحكم ووقف ذلك الراهب الجسور وفاه بعبارات من أخطر أنواع التجديف، آخذًا لنفسه مركز الجلالة الإلهية، وناطقًا بأسمى وأقدس الكلمات في أسفل وأحط أنواع الرياء. فبعد أن أكد بلسان كاذب أنه أرغم بعد تردد على ارتقاء العرش البابوي قال: "بكامل الثقة في السيادة المعطاة من الله لخليفة القديس بطرس فوق جميع المسيحيين لتمجيد الكنيسة والدفاع عنها، وباسم الإله القادر على كل شيء، الآب والابن والروح القدس، وبقوة وسلطان القديس بطرس، أحرم الملك هنري ابن الإمبراطور هنري، الذي في كبرياء لا مثيل لها قام ضد الكنيسة. وها أنا أعلن عزله من حكومتي ألمانيا وإيطاليا عامة. كما أني أحرر جميع المسيحيين من الأيمانات التي حلفوها، أو قد يحلفونها أمامه، وأمنع كل طاعة له كملك... لأنه اشترك مع المحرومين واحتقر الإنذارات التي قدمتها له لخلاصه... إني أربطه إذاً باسمك أيها القديس بطرس بربط لعناتك، كي تعلم جميع الشعوب وتعترف أنك أنت بطرس، وأنه عليك، كما على صخرة، قد بنى ابن الله كنيسته، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها".

وقبيل انتهاء المجمع كتب غريغوري رسائل "لجميع المسيحيين" حاوية قرارات المجلس، وفيها يأمر كافة الناس، بصفتهم من عداد قطيع المغبوط بطرس، أن يقبلوا ما فيها من أوامر ويخضعوا لها خضوعًا تامًا، خاصة ما كان منها متعلقًا بخلع الملك ولعنة الأناثيما عليه وعلى "أساقفته المنافقين وخدامه الفاسدين". وبعد أن يحث الناس على مقاومة هنري، ولو إلى الموت وسفك الدماء، يختم كلامه بعبارات كلها كذب ورياء فيقول: "الله يشهد أننا غير مدفوعين لهذا العمل بأي رغبة في الجاه العالمي، أو بأي اعتبار جسدي، ولكن كل ما نفعله من توبيخ الحكام الأشرار والقساوسة الفجار إنما مصدره المحافظة على كرامة وظيفتنا السامية، وشرف الكرسي الرسولي وحقوقه الموروثة".

حرب أهلية عظيمة

كان ما حدث معناه إعلان الحرب جهارًا، إذ لا يخفى على القارئ مبلغ الأثر الذي تحدثه مثل هذه الرسائل في مملكة منقسمة على ذاتها وشعب مغلوب على أمره، ومعتاد على التوارث. فهذه الرسائل كانت أشبه بقنبلة، تمزقت لها أوصال الكنيسة والدولة. فالبعض صار في جانب الملك والبعض الآخر انحاز إلى البابا، وقامت حرب أهلية ظلت مستعرة مدة سبع عشرة سنة في كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية. فالأساقفة كانوا ضد بعضهم البعض، بينما كان الشعب منقسمًا على ذاته، وساد الهول والرعب في كل مكان. وقد وصف أحد المؤرخين هذه الحالة الشنيعة إذ قال: "وكانت الأرض تشرب الدماء التي تسيل والقبور تضم كلاً من المعذَّبين والمعذِبين". وبالإجمال كانت ألمانيا كلها في حالة تعاسة وشقاء، وانقسام ورعب لا مزيد عليها.

وقد انتهز أمراء سوابيا فرصة هذا الشعور العام ضد هنري، وقاموا، بتحريض من رسل البابا، يرفعون راية العصيان ضد ذلك الملك الذي حلفوا له يمين الولاء في الماضي، وانتخبوا أودلف نيابة عنه. وفي الوقت نفسه لم يترك هلدبراند حيلة من حيلة الحربية التي كان فيها ماهرًا للغاية. فالكلمات الضخمة الرنانة ذات المعاني الرهيبة كانت هي سهامه الحادة، فاسم الله، وسلام الله، ووصايا الله، وخلاص الله ومفاتيح بطرس المغبوط، وغلق أبواب السماء وفتح أبواب الجحيم، والهلاك الأبدي، وما شاكل ذلك من العبارات الخطيرة، هذه كانت هي سهامه النارية التي تلقي الرعب في قلب كل البشر، والأغلال التي بها كان يربط الذين استعبدهم.

وعلى طول المدة التي كانت فيها رحى الحرب دائرة، كان البابا يزداد قوة واقتدارًا. بينما قوة هنري تتناقص شيئًا فشيئًا، وقد تملكه الشعور بالخيبة والفشل. فكل شيء بدأ يتلاشى تحت لعنة القديس بطرس، فالأمراء أخذوا يثورون، والكهنة والشعب قلبوا له ظهر المجن وأعلنوا عدم الطاعة له، والمؤامرات أخذت تدبر في كل ناحية. هذا هو الأثر السيئ لنفوذ البابا الذي قام الآن بكل قوته اللاهوتية، أو بالحري الشيطانية، لكي يدوس بأقدامه رئيسه الإقطاعي. فأمام كل هذه الظروف المذلة والمضادة اتفق هنري مع الأمراء على أن تعرض مطاليب كل فريق وسيئاته لدى البابا، الذي دعاه لكي يرأس مجمعًا يعقد في أوجسبرج لهذا الغرض.

هنري يقصد إيطاليا

أوقعت الحوادث الماضية الإمبراطور المخلوع في شباك عدوه. فسياسة غريغوري نجحت نجاحًا تامًا، فبعد أن أثار الثورة وسفك الدماء بين هنري وأمراء المملكة، الأمر الذي استطاع بدهائه أن يرفعه من مجرد عداء شخصي أو استيلاء سياسي إلى إصلاح ديني، أخذ الآن يظهر بمظهر المتوسط في السلام، ويدعى الشفقة على هنري، ومن ثم بدأ ينادي في رياء ويقول: "عاملوا هنري بالرأفة وأظهروا له الرحمة التي تشمل آلاف الملايين من الخطاة". هذا ما كان يقوله، ولكننا سنرى بعد قليل نوع تلك الرأفة وهاتيك الرحمة التي بها سيعامله بها فعلاً.

وصل الملك إلى حالة اليأس والقنوط، فإذ قد تجرد من كل قوته وانسلخت عنه حتى شارة الملك، ولم يعد يرجو شيئًا من مجمع يتكون من رعاياه الثائرين وعلى رأسهم عدوه الأكبر، ولم يرَ بُدًا من أن يلجأ إلى آخر حيلة، وهي أن يحاول اكتساب رضى البابا بأن يلتمس مقابلة شخصية معه، وهناك يطرح نفسه عند قدميه كتائب. وبصعوبة كبيرة أمكنه أن يجمع من أصدقائه الباقين القليلين نفقات رحلته إلى إيطاليا. وقد غادر مدينة سبيرس في الشتاء القارص، ومعه زوجته وولده الطفل وخادم واحد بقي أمينًا له. ولكن جبال الألب كانت حائلة بينه وبين إيطاليا، وكأن الطبيعة نفسها أخذت تتآمر مع البابا ضد ذلك الملك المخلوع، فالطقس كان شديد البرودة بخلاف المعتاد، ونهرا الراين وبو كانا متجمدين، والثلوج التي تغطي جبال الألب تعوق السير لشدة انحدارها. وفوق ذلك كانت الممرات تحت مراقبة شديدة من جانب أميري بافاريا وكارنثيا الحاقدين عليه. فكان كل شيء يدل على أن العبور لإيطاليا مستحيل. ولكن مهما كان الأمر، فلا بد من تنفيذ الفكرة. وقد كان الاتفاق بينه وبين منافسيه من الأمراء أنه إذا لم يحصل على غفران البابا في ظرف سنة ويوم من تاريخ إصدار لعنة الأناثيما عليه، فانه يفقد تاجه وملكه إلى الأبد، ولكنه إذا استطاع الحصول على هذا الغفران قبل فوات هذه المدة فإنهم على استعداد أن يقبلوه ملكًا ويخضعوا له.

فلابد من عبور الألب. وكان اليوم الرهيب، يوم ٢٣فبراير، يقترب سريعًا، وقد عُملت الترتيبات اللازمة للرحلة الملكية،

فاستأجر بعض المرشدين الخبيرين بالطريق، وبعد مشقة شديدة وصل الملك وحاشيته إلى رأس الجبال. ولكن النزول من الجانب الآخر كان لا يزال باقيًا وهو أشد خطرًا، فلم يكن يرى إلا مساحات واسعة من مزالق الثلوج. ولكن كان لا بد من التغلب على الصعوبة، فالرجال زحفوا على أيديهم وأرجلهم، وكثيرًا ما كانوا ينزلقون إلى أسفل بلا انتظام. أما الملكة وابنها الصغير وخادمتها فكان المرشدون يجرونهم إلى أسفل في أكياس من جلود الثيران. كذلك استُعملت مختلف الحيل في إنزال الخيل فبعضها كانت تعقل سيقانها وتدفع على الثلج، فتنزلق إلى أسفل، والبعض الآخر قتل، والعدد القليل منها وصل إلى الوادي في حالة تصلح للخدمة.

هنري في كانوزا

أحدث وصول هنري غير المنتظر إلى إيطاليا حماسًا شديدًا، فكثير من الأمراء والأساقفة اجتمعوا لمقابلته، وقدموا له أسمى فروض الاحترام. كما أن الإيطاليين نظروا إليه كالمنقذ لهم من السيئات المحيطة بهم. كما أن الذين حرمهم هلدبراند كانوا يتوقعون الانتقام بفارغ الصبر. بينما علق أشراف لمبارديا وقساوستها آمالهم عليه، لظنهم أنه قد أتى لكي يخلع هذا البابا المرعب المكروه. وكلما كان يتوغل في إيطاليا كان عدد أتباعه يتزايد بكثرة، ولكنه لم يشأ أن يغير مقصده الأول ويزج بنفسه في أي مشروع جديد، إذ ربما يعرض هذا عرش ألمانيا للخطر وكان لا بد له من الحصول على الغفران قبل يوم ٢٣فبراير المخيف.

وقد تصادف في الوقت نفسه أن رحل غريغوري لألمانيا. ولكن أخبار نزول هنري لإيطاليا أوقفت مسيره، ولم يكن متأكدًا: أجاء هنري كعبد خاضع أم على رأس جيش جرار، ولذلك أسرع لكي يتخذ لنفسه ملجأ أمينًا في كانوزا وهو قلعة منيعة على جبال الأبنين تابع لصديقته المخلصة وحليفته الوفية الكونتيسة ماتلدا العظيمة.

وقد حذا حذو الملك جميع الأساقفة ورؤساء الأديرة الذين فقدوا مراكزهم في عهد البابوية، فأسرعوا هم أيضًا إلى كانوزا، وهناك بأقدام حافية ومسوح على أجسامهم التمسوا أعتاب البابا، وطلبوا بكل خضوع وتذلل العفو والغفران من لعنة الأناثيما المزعجة. وبعد أن بقوا أيامًا قليلة، كل منهم تائب نادم في حجز انفرادي مع قليل من الطعام سامحهم البابا، على شرط أن لا تكون لهم أية علاقة مع الملك إلى اليوم الذي فيه يُمنح الصلح والغفران. أما هنري نفسه فقد احتفظ البابا له بكلمات أقسى وأمرّ.

وصل الملك إلى كانوزا، وهناك تقابل مع ماتلدا ومع هيو رئيس دير كلوني، وطلب إليهم التوسط من أجله لدى البابا لكي ينظر في مسألته بعين العطف والرحمة. وبعد رفض كثير وموانع عديدة من جانب البابا العنيد وإلحاح متواصل من جانب أصدقاء هنري، اقترح غريغوري أخيرًا "أنه إذا كان حقيقة تائبًا ونادمًا فليضع تاجه وجميع شارات الملك بين يديه ويعترف جهارًا بأنه غير مستحق لشرف المُلك". وقد ظهر هذا الطلب شديدًا أكثر من اللازم حتى في نظر المعجبين بالبابا والمتحمسين له، فطلبوا إليه أن "لا يكسر القصبة المرضوضة" وإجابة لإلحاحهم وعد أن يمنح الملك مقابلة معه.

الملك يكفر عن ذنوبه

كان هذا الكلام في أواخر شهر يناير، وقد أوشكت سنة النعمة على الانتهاء، فاستقر رأى هنري على قبول شروط البابا، فقد عقد النية على أن يفعل كل شيء حتى يتمكن في النهاية من إفساد المؤامرات التي كان يدبرها ضده أتباعه الثائرون، وحتى يحتفظ بذلك بالإمبراطورية في قبضة يده.

ويقول ملمان: "وفى صباح يوم من أيام الشتاء الشديدة البرودة، والثلج يكسو صفحة الأرض، سُمح للملك سليل الأباطرة العريقين في السيادة أن يعبر بابين من أبواب الحوائط الخارجية الثلاثة المحيطة بقصر كانوزا العظيم، وقد طرح عن نفسه كل علامة من علامات الملك، وتناسى جملة مركزه الممتاز، ولم يكن مرتديًا سوى هذا الجلباب الكتاني الأبيض الخاص بالتائبين النادمين. وهناك انتظر بصبر وصوم وتذلل أمر البابا ومسرة مشيئته، ولكن الباب الأخير لم يُفتح في اليوم الأول، وانتظر اليوم الثاني في البرد والجوع، وخاب الرجاء. ومع ذلك فقد مر اليوم الثالث أيضًا من الصباح إلى المساء والملك لا يزال حاسر الرأس، تلك الرأس التي كان يغطيها في ما مضى أعظم تاج في العالم. وقد تحرك بالعطف والرحمة كل قلب إزاء هذه الحالة عدا قلب مُمثل

يسوع المسيح! وحتى في حضرة غريغوري كانت قلوب الملتفين حوله تتألم وتتذمر وتثور من أعماقها ضد كبريائه غير الرسولية وقسوته غير الإنسانية. وقد عيل صبر هنري ووصل به الضجر إلى التمام، فالتجأ إلى كنيسة مجاورة هي كنيسة القديس نيقولا، وهناك بتوسلات ودموع طلب إلى رئيس دير كلوني أن يتشفع فيه. وقد تصادف وجود ماتلدا هناك فذاب قلبها النسوي من شدة الحنان والشفقة. فاشتركت مع هنري في التوسلات لدى رئيس الدير الذي قال لها: "إنك وحدك لا يمكنك الوصول إلى هذا الغرض". فما كان من هنري إلا أن جثا على ركبتيه، وبحزن عميق التمس الرحمة والشفاعة. وأمام هذه التوسلات الصادرة من قلب امرأة شفوقة رضي غريغوري أخيرًا أن يسمح للملك بالاقتراب من حضرته والمثول بين يديه. وهناك، بقدمين حافيتين وبلباس المسوح والتوبة وقف الملك بطلعته المهيبة وقامته الطويلة ومحياه الذي طالما أوحى الرعب والخوف في قلوب أعدائه، وقف هناك أمام البابا، وهو ذلك الشيخ الضئيل النحيل الذي لا تدل هيئته على أية رهبة أو روعة، وقد عبث المشيب بشعره وأحنت السنوات ظهره»[٣/٤٢].

وكانت الشروط التي فُرضت على هنري في هذه المقابلة تليق بذلك الطاغية العنيد القاسي الذي تصرف في هذه المسألة كشيطان متجسد أكثر منه كإنسان آدمي، لأنه إذ وجد أن هذا الملك التائب قد اتضع وتذلل إلى هذا الحد، حتى إنه أصبح على استعداد لأن يقبل ويخضع لأية شروط مهما كانت مذلة وقاسية، اضطره لأن يشرب كأس الذل والاتضاع إلى آخر جرعاتها المرة. ونحن لا نريد أن نتعب القارئ بقائمة شروطه الطويلة، بل يكفي أن نقول إنها مطالب لم يُسمع بمثلها في تاريخ البشر قاطبة. ولكن البابا كان مدفوعًا لهذا العمل الوحشي بغرض كبير قد ملأ رأسه وهو سيادة البابوية العامة، وإذ قد وطأ بأقدامه عنق أكبر ملك في العالم أخذ يقرر أمام أوروبا كلها حق البابوية في محاكمة الملوك والتصرف في الممالك وتحرير الرعايا من يمين الولاء لملوكهم المحرومين. وهكذا حصلت البابوية من وراء هذا العمل على سلطة واسعة النطاق فوق العالم كله، وأثبتت بعملها هذا أن الثورة ضد الملك الشرعي هي واجب مقدس من نحو الكنيسة والله.

تأثير سياسة البابا

أدرك غريغوري سريعًا أنه قد ذهب إلى حد بعيد في إذلال هنري، وأن مذلة كانوزا لا يمكن أن تُنسى أو تنام قبل الانتقام لها. وقد كانت بوادر الحال تدل على ذلك، فكثير من الأمراء ورجال الإكليروس أخذوا يلتفون حول هنري، وخاصة بعد أن رُفعت عنه لعنة الحرمان، وكانوا مدفوعين إلى ذلك إما بعامل العاطفة وإما جريًا وراء مصالحهم الخاصة. بينما كان هلدبراند مكروها على وجه عام، نظرًا لطغيانه السياسي، ولو أنه في الوقت نفسه مخوفًا نظرًا لقصاصه الديني. أما الأمراء الثائرون في ألمانيا فقد شجعهم البابا سرًا على منازعة العرش مع هنري، وهذا مما زاد في حيرة هنري ومنعه إلى حين من إشهار الحرب على روما ذاتها. وقد كانت صلاة البابا المستمرة هي أن لا يفلح هنري في حرب ما، وباسم الرسل وبركتهم منح رودلف دوق سوابيا الثائر عرش ألمانيا، لا بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فتجاسر على التنبؤ بأنه سوف لا يمضي عام واحد إلا ويكون هنري قد قُتل، أو عزل. ولتأكيد هذه النبوة، أو كأنه قد عرف النهاية من البداية، أرسل تاجًا للملك العتيد وعليه كتابة معناها أن هذا التاج هو هدية المسيح للقديس بطرس، وهدية القديس بطرس لرودلف. ولكن سرعان ما دلت الحوادث على أنه كان نبيًا كاذبًا، كما كان كاهنًا كاذبًا، وأنه لم يكن سوى المحرك لحرب أهلية فظيعة بلا قلب أو ضمير[٢/٣١].

كانت قوة الملك تتزايد رغم مؤامرات غريغوري الخبيثة الردية. وبعد عدة سنين شاهدت حربًا أهلية مزعجة وسفك دماء مرعبًا، اشتبك أخيرًا جيش هنري مع جيش منافسه رودلف في موقعة على نهر أولستر في أكتوبر سنة ١٠٨٠م، وكانت الملحمة طويلة ودموية. ولكن النصرة كانت أخيرًا في جانب هنري بعد أن سقط رودلف من على جواده، ويقال إن جرحه المميت أصابه من رمح جدفرى، الذي تعين أول ملك لأورشليم في ما بعد، ثم جاءته ضربة من آخر قطعت يده اليمنى. ويشهد التاريخ أن الأمير وهو يلفظ النفس الأخير نظر إلى يده المقطوعة واعترف قائلاً: "بهذه اليد أمضيت يمين الولاء لملكي هنري. فالعقاب عادل والآن قد خسرت الحياة والملك معًا". وإذ رأى هنري أنه قد أوقع الرعب في قلوب منافسيه وشل حركتهم، عزم

أن يوجه قواته ضد عدوه الأكبر ومنافسه الجبار العتيد، فعبر الألب ودخل إيطاليا وعسكر بجيشه عند أسوار روما.

ولما كانت المدينة منيعة، وأسوارها محصنة، يضاف إلى ذلك إخلاص الرومانيين الذي ضمنته ثروة ماتلدا الطائلة، اضطر هنري إلى مداومة الحصار لما يقرب من ثلاث سنين. ولكن في صيف عام ١٠٨٣م تمكن من فتح المدينة الآثمة، وما كان من غريغوري إلا أن التجأ إلى قلعة القديس أنجلو الحصينة، كما تحصن بعض أعوانه في قصورهم الخاصة. أما هنري فكان مستعدًا لأن يصل إلى اتفاق مع غريغوري، وأن يقبل التاج الإمبراطوري من يديه. ولكن البابا كان يأبى أي شيء آخر سوى الخضوع المطلق الخالي من كل شرط أو قيد، فلم يكن يعرف أي أساس للاتفاق إلا كلماته المشهورة: "فليتخل الملك أولاً عن مركزه ويخضع كتائب". وقد تضرع إليه جميع رجال الإكليروس من أساقفة ورؤساء أديرة ورهبان من جميع العلمانيين أن يرأف بالمدينة المعذبة ويصل إلى اتفاق مع الملك، ولكن جميع المحاولات في إيجاد تفاهم أو مفاوضة بين الاثنين ذهبت أدراج الرياح. فالبابا العنيد احتقر التضرعات والتهديدات على حد سواء، وكانت مطاليبه وهو لا يزال سجينًا تنحصر في الخضوع المطلق من جانب هنري، وإرضاء الكنيسة إرضاءً كاملاً. ولكن هنري لم يكن بعد الرجل المنفرد المنكسر الروح، والمتواقع عند أقدامه كما كان في كانوزا.

تتويج هنري (١٠٨٤م)

تتضايق الرومانيون أخيرًا وملوا من احتمال مصائب الحصار ومرائره ويئسوا من وصول أية معونة من الإيطاليين النورمانديين، فأعلنوا أنفسهم في جانب هنري، وبذلك أصبح سيدًا على الجزء الأكبر من المدينة. وأول خطوة اتخذها كانت إجلاس جبرت رئيس أساقفة رافنا على الكرسي البابوي باسم كليمنت الثالث، بعد أن أجرى انتخابه بواسطة سنودس من الأساقفة. وعند ذلك استلم هنري التاج من كليمنت، وحيّاه الشعب الروماني باسم الإمبراطور.

أصبح غريغوري الآن في مركز حرج محفوف بالمخاطر. فقد كان سجينًا وربما يُسلّم بعد قليل لانتقام هنري، كما أنه لم يكن يرجو أية مساعدة من فيليب ملك فرنسا، كما أن وليم ملك إنجلترا لم يكن مستعدًا لإرباك نفسه بمشاكل البابا. ولم يكن هناك من كان يمكن الاعتماد عليه سوى ماتلدا أميرة تسكانيا، فهي كانت شديدة الإخلاص للبابا، كما كانت أقوى وأغنى أعوان الكنيسة في تلك المملكة، وأشدهم حماسة. فعند موت والدتها وزوجها، وهي بعد صغيرة السن وجميلة المنظر، تمكن البابا الماكر من إقناعها بأن توقف كافة ممتلكاتها على كنيسة روما، وأصبحت هذه الممتلكات فيما بعد تسمى ممتلكات الكنيسة. غير أن رجال ماتلدا وأموالها لم تكن كافية لحاجة البابا الراهنة، ولذلك التجأ في ضيقته العظيمة إلى مساعدة روبرت جسكارد، أحد الأمراء الحربيين من نورماندي، كان قد سبق منذ عدة سنين أن اتُهم بالاشتراك في مؤامرة ضد غريغوري، وأصبح تحت لعنة الكنيسة من ذلك الحين. ولكن البابا كان على استعداد لأن يحله من الحرمان، بل وحتى يعده بالتاج الإمبراطوري إذ ما أتى في الحال لمعونته. وقد قبل هذا الأمير العظيم شروط البابا ووضع سيفه الرهيب تحت تصرف غريغوري وفي خدمته.

روبرت جسكارد يدخل روما

لكي يتمم روبرت رغبات البابا، وينال بركته، ويقهر أعداءه، جمع جيشًا قوامه ٣٠ ألف جندي نظامي وستة آلاف فارس، وسار بهم جميعًا إلى روما. وقد كان جيشًا جرارًا اشترك فيه أشر وأقسى الغزاة والمغامرين من كل أمة. فالبعض دخل تحت لوائه لإنقاذ البابا، والبعض الآخر دخل حبًا في الحرب لذاتها، حتى أن جمهورًا غفيرًا من العرب غير المؤمنين انخرطوا في سلك هذا الجيش. وسرعان ما وصلت الأخبار إلى روما أن جيشًا جرارًا كان قادمًا لإنقاذ البابا وفك الحصار من القلاع المحاصرة.

كان هنري قد أمّن جانب عدوه بعد أن دحر جيوش حليفه، لذلك سرّح جزءًا عظيمًا من جيشه. ولما كان الباقي من الجيش لا يكفي لمنازلة جيوش عدوه الهائلة، تصرف بحكمة إذ سحب قواته مؤكدًا لأصدقائه الرومانيين أنه سيعود عاجلاً. فتراجع إلى مدينة كاستلانا حيث يمكنه الأشراف على حركات أعدائه من على كثب.

بعد مرور ثلاثة أيام من ترك هنري المدينة ظهر الجيش النورماندي عند أسوارها. مساكين مساكين أهل تلك المدينة الآثمة! فقد كان لها قريبًا أن تمر في يوم من أظلم وأمرّ الأيام التي شاهدتها، وكل مصائبها ومحنها إنما كانت ترجع إلى رئيس

كهنتها العنيد وروحه المنتقمة، الذي أبى أن يظهر أي خضوع أو استسلام للسلطة الزمنية، مفضلاً بالأحرى أن تسفك دماء روما مدينته المحبوبة وعاصمة ملكه، من أن يظهر أية مسالمة مهما كانت. فالفكر الوحيد الذي كان متسلطًا عليه إنما هو امتداد سلطته البابوية على جميع ممالك هذا العالم، وما كان في استطاعة أية قوة أو مصيبة أن تحوله قيد شعرة عن آماله العالية وادعاءاته الكاذبة فالعناد كان لاصقًا به سواء أكان في سجن أم في قصر: "ليطرح الملك تاجه ويرض الكنيسة إرضاء تامًا" كانت هي كلمات الكبرياء والاحتقار التي ما فتئ هلدبراند ينطق بها حتى وهو سجين، ورغمًا من توسلات رجال الإكليروس والعلمانيين بأن يتنازل للوصول إلى اتفاق مع هنري. ولكنه لم يأبه لجميع التذمرات أو التهديدات أو التوسلات التي كانت تصل إلى سمعه، ولم يقابلها كلها إلا بالازدراء والاحتقار. ومع أنه كان يدرك يقينًا أخلاق القتلة الذين كانوا مرابضين عند أبوابه، والنتائج المروعة التي لا بد أن تحدث في اللحظة التي يدخلون فيها المدينة، فانه لم يتزحزح عن فكره، بل صمّم على متابعة خطته المدمرة مهما كلف ذلك من خسائر في الأنفس البشرية وسفك دمائهم البريئة، وما كان يترتب على ذلك من تعاسة وشقاء.

أما أهل روما فلم يكونوا قد استعدوا للدفاع عن أنفسهم، ولذلك لم يظهروا مقاومة تذكر. وسرعان ما هاجم الجيش على باب القديس لورانس وفتحوه عنوة واحتلوا المدينة في الحال. وأول عمل قام به روبرت، ذلك الابن البار للكنيسة، هو أنه أطلق البابا من عقال سجنه الطويل في قلعة القديس أنجلو، وتلا ذلك طبعًا استلامه البركة الرسمية من غريغوري. ولكن ما أشنع المهزلة التي حصلت بعد ذلك! فلم يكد هذا الأمير النورماندي يقوم من عند قدمي البابا مزودًا بهذه البركة حتى أطلق العنان لعصابات جيشه المتوحشين لكي يعيثوا فسادًا في المدينة وينكلوا ما شاءوا بقطيع من يسمى برئيس الرعاة. استمرت روما ثلاثة أيام كاملة تعاني فظائع النهب والسلب، وانتشرت الجيوش في كل أنحاء المدينة يقتلون وينهبون، ويفسقون ويعذبون، بلا رادع أو رقيب. وفي اليوم الثالث، بينما كان النورمانديون يعيّدون ويسكرون واهمين أنهم في طمأنينة من كل اعتداء، قام الأهالي قومة واحدة بعد أن تملكهم اليأس والقنوط، واندفعوا إلى الشوارع مسلحين، يقتلون من الجنود من يلاقوه. فكانت مذبحة عظيمة كانوا فيها الغالبين، وإذ رأى الجند أنهم قد أُخذوا على غرة بهذا الشكل أسرعوا إلى أسلحتهم، وفي الحال تحولت المدينة إلى مذبحة هائلة. فكان المشهد مروعًا اختلط فيه الحابل بالنابل، وكان يومًا لم ترَ روما أشأم منه لا قبل ولا بعد!

خراب روما القديمة

يقول المؤرخ ملمان: "كان الفرسان النورمانديون يملأون الشوارع. ولكن الرومانيين كان لهم الباع الأطول في الملحمة لتحصنهم في منازلهم، ولمعرفتهم بميدان المعركة. فكان التفوق في جانبهم. وفي الحال أدرك النورمانديون الخطر المحدق بهم، وما كان من جسكارد الحجري القلب إلا أن أصدر الأمر بإحراق المنازل، فاشتعلت النيران بفظاعة في كل أحياء المدينة، وامتدت ألسنة اللهب إلى جميع المنازل والقصور والأديرة والكنائس، واظلم الجو بالدخان، وتحول النهار إلي ليل حالك الظلام، وصارت المدينة شعلة من نار، فانطلق الأهالي المساكين إلي الشوارع في حالة هلع وانزعاج، لا لكي يخلصوا أنفسهم، بل نساءهم وأطفالهم، فلم يلاقوا إلا الموت، فوقعوا قتلى بالمئات. أما العرب الذين كانوا قبلا حلفاء البابا في السلب والنهب فقد صاروا الآن المتقدمين في الذبح وإشعال النار"[٣/٤٢].

أما غريغوري فيقال إنه أظهر نشاطًا غريبًا في هذه الساعة الرهيبة، ولكن بالأسف ليس لكي يخلّص ما يسمى بقطيعه من قسوة النورمانديين الوحشية، ولكن لكي يخلص بعضًا من الكنائس الرئيسة من أن تدمرها النيران المستعرة.

تمكن جسكارد أخيرًا من أن يكون سيدًا للمدينة، أو بالحري سيدًا على خرائب روما القديمة. ولكن ذلك لم يكن كافيًا لأن يخمد جذوة انتقامه، بل استمر في أعمال وحشيته، ذلك أنه باع الآلاف من الرومانيين جهارًا كعبيد، وأخذ آلافًا آخرين أسرى. ويجمع المؤرخون على أنه لا القوط، ولا الوندال، ولا اليونان أو الألمان، أوقعوا مثل هذا الخراب والدمار على المدينة، الذي انتابها من جراء هذا الفتح النورماندي. وليلاحظ القارئ جيدًا هذه النقطة التي تظهر روح البابوية الحقيقية، وهي أن جسكارد - هذا الجبار المتوحش - كان قد أرشاه غريغوري لكي يصبح

حليفه ومخلصه والمدافع عنه والمنتقم له. وحقًا أن جميع المظالم والمذابح التي أصابت أهل روما، وكذلك تدمير روما نفسها، نسبت جميعها بعدل في ذلك الحين إلى عناد البابا وصلفه. وما زال هذا الحكم إلى الآن مُجمعًا عليه من جميع الكتاب غير المتحيزين. ولم يكن هناك شخص مقتنعًا تمام الاقتناع بهذه الحقيقة المرة مثل غريغوري نفسه، فلم يأمن يومًا من الأيام لا على نفسه ولا على أمواله بعد مغادرة حلفائه النورمانديين لروما، حتى وهو محتمٍ داخل أسوار قلعة القديس أنجلو المنيعة.

موت غريغوري ١٠٨٥(م)

بخزي لا يُمحى أبد الدهر، وعار قد لصق به إلى الأبد، وجزع من سهام التوبيخ والتأنيب التي كانت توجه إليه كالسبب في جميع المصائب التي حلت بالناس أخيرًا، غادر غريغوري مدينة القديس بطرس في رفقة حلفائه، بينما كان الدخان لا يزال يتصاعد من خرائبها، وشوارعها مهجورة، وسكانها المعدودون إما قتلى وإما حرقى أو أسرى. ولا شك أنه ترك المدينة وهو في حالة إعياء شديد وانكسار قلب مؤلم، نظرًا لكبريائه التي أُذلت إذلالاً مُرًا. ولذلك استراح في منتصف الطريق في دير مونت كازينو، ومن ثم توجه إلى الانزواء في ساليرنو، قلعة النورمانديين الحصينة، وكان هذا آخر عهده بروما فلم يرها بعد ذلك قط.

وقد تبعه إلى ساليرنو عدد عظيم من رجال الإكليروس المتحمسين لمبادئه والمتمسكين بادعاءاته، رغمًا عن حالة الانحطاط التي وصل إليها، وهناك عقد مجمعًا وقام فيه يرعد ويبرق، وكأنه قد من حجر جلمود، فنسي تلك الأهوال والمخاوف التي كان هو السبب فيها والتي شاهدها بعيني رأسه. قام يمطر مرة ثانية من لعناته وتحريماته ضد هنري والبابا الدجال كليمنت، وكل من يمُتّ إليهما بصلة. ولكن هذه كانت آخر رعوده وختام صواعقه، فالموت كان يدنو منه سريعًا، وكان لا بد للعنيد العظيم المتمسك بنظام السلطة المقدسة فوق العالم من أن يموت مثل جميع الناس. وقد نادى إليه جميع رفاقه المنفيين واعترف أمامهم بإيمانه وخاصة فيما يتعلق بالأفخارستيا، لأنه كان متهمًا بالميل نحو آراء برنجر، وسامح كل من كان قد لعنهم وحلهم من ربط الحرمان، ما عدا الإمبراطور والبابا الدجال، أو "ضد البابا" كما كان يسميه.

ويقال إن عاصفة هوجاء هبت بينما كان أصدقاء البابا يحيطون به ساعة احتضاره، وآخر ما نطق به كانت هذه الكلمات المشهورة: "أحببت البر وأبغضت الإثم، ولذلك أموت في المنفى... في المنفى يا رب". فردّ واحد من الأساقفة الحاضرين لم يؤثر في كبريائه الكهنوتية منظر الموت الرهيب: "إنك لا يمكن أن تموت في المنفى، فأنت خادم المسيح وشريك رسله الكرام، الذي قد أعطاك الله الأمم ميراثًا، وأقاصي الأرض ملكًا لك". وبذلك التجديف انتهت حياة رجل الكنيسة العظيم، كما كانت كلها تجديفًا في تجديف. ولكن روحه التي غادرته كانت بعيدة كل البعد عن عبارات المجاملة التي أحاطه بها أصدقاؤه، إذ ذهبت لكي تظهر على حقيقتها أمام محكمة أخرى، فهناك سيّدان الجميع ليس بحسب المبادئ البابوية، بل طبقًا لحق الله الأبدي، كما هو مُعلنٌ لنا في شخص ربنا يسوع المسيح وعمله.

«طوبى لجميع المتكلين عليه» (مز ٢:١٢).. كلمة حلوة ومطمئنة للقلب. لأنه ما أغنى وما أعظم كلمة «طوبى» عندما يقولها الله نفسه، ولكن ما أتعس أولئك الذين يحيون ويموتون بدون المسيح، والذين يضطرون أن يقولوا أخيرًا «مضى الحصاد انتهى الصيف ونحن لم نخلص» (إر٨:٢٠)، يا له من أمر خطير! من يستطيع أن يسبر غور التعاسة الأبدية والمصير المخيف التي تتضمنها هاتان الكلمتان «لم نخلص». حقًا إنها لكلمات محذّرة للخاطئ، ومحركة للمبشر. ويا ليت القارئ العزيز يتأمل فيها في قلبه قبل أن يطرح جانبًا هذا التاريخ، ويا ليته يقارن بالتدقيق بين موت رجل الكنيسة الكبير وموت الرسول العظيم: «جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيرًا قد وُضع لي إكليل البر الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل. وليس لي فقط بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضًا» (٢تي٤:٧،٨)! حقًا إن هذا حسن وجميل، حتى أن نبيًا كاذبًا اضطر مرة أن يقول: «لتمت نفسي موت الأبرار ولتكن آخرتي كآخرتهم» (عد٢٣:١٠)!

نهاية هنري

استقرأنا في ما مضى علاقة الملك بالبابا، والآن نلقي نظرة على أواخر أيامه قبل أن نبدأ فصلاً جديدًا.

عاش الملك بعد عدوه الأكبر إحدى وعشرين سنة، وكان يوم ٧ أغسطس من عام ١١٠٦م هو ختام حياته الطويلة المضطربة، ونهاية

حكمه المليء بالحوادث، والذي طال أمده إلى خمسين سنة. وقد أفاضت كُتب التاريخ في وصف حوادث هذا الملك العظيم من عهد صباه إلى يوم مماته. ولكنه يكون خروجًا عن موضوعنا إن نحن ذكرنا، ولو ملخصًا بسيطًا لحياته السياسية. غير أننا نقول إن مجرد الفرق بين محبة شعبه وعداوة الكنيسة له هو فرق عظيم، وله معناه، فمع أنه كان دائمًا موسومًا من البابا بسمة الوحش، فإنه ظل محبوبًا من شعبه حبًا جمًا. كانت له غلطات كثيرة ككل الملوك، ولكنه مع ذلك كانت له مكانة عظيمة في قلوب شعبه. يقول المؤرخ جرينوود: "بمجرد أن وقعت على مسامع الشعب أخبار وفاته فاضت محبتهم في دموع غزيرة، وتجلت في تأوهات مريرة، فسُمع صراخ عظيم في شوارع مدينة لييج، وهرع جميع الشعب من أشراف وعامة وأرامل وأيتام وفقراء ومعوزين، من المدن والقرى، متقاطرين أفواجًا أفواجا إلى جنازة مليكهم، أو بالحري صديقهم وولي نعمتهم. وبعويل تصاعد إلى عنان السماء بكوا على فقد أبيهم، وبدموع منهمرة كالسيل قبلوا يديه الباردتين، وعانقوا فخذيه الجامدتين. وبصعوبة كبرى أمكن إقناعهم بأن يعطوا مكانا للخدم المنتظرين لإعداد الجثة للدفن. على أنه لم يمكن البتة إقناعهم بأن يتركوا قبره، فاستمروا أيامًا كثيرة جدًا يتناوبون الليل والنهار لحراسة ذلك المكان الذي وضعوه فيه وإقامة الصلوات بجانبه"(٤٢/١١).

حقًا إنها لشهادة جميلة ومؤثرة للغاية من جانب هؤلاء الباكين المحزونين على طيبة الإمبراطور وصلاحه. ولكن ما أعظم الفرق، ويا له من أمر مؤسف للغاية عندما ندير التفاتنا إلى ما كانت تسمى بالكنيسة، أو إلى من كانوا يسمون بممثلي يسوع الوديع المتواضع! وكأن أتون غضب أعدائه البابويين قد حمي سبعة أضعاف لسماعهم بمثل هذا التكريم يعطى لجثمان هنري المحروم. فهددوا ابنه الملك الصغير هنري الخامس بلعنات السماء وأناثيماها إن هو لم يخرج رفات أبيه الملعون ويلقيها في بقعة غير مقدسة، وهذا منتهى الشر والادعاء الكاذب، وأن يلتمس من البابا أن يحل روحه! وكانت النتيجة أن أسقفه الأمين ألبرت، الذي كان قد أعطى لمليكه مدفنًا مناسبًا في كنيسة القديس لمبرت اضطر رغمًا عنه، للتكفير عن هذا العمل الذي يدل على المحبة وعرفان الجميل، أن يخرج الرفات بيديه، ويأمر بنقلها إلى مكان غير مقدس في جزيرة صغيرة، في نهر الموز بألمانيا. ولكن هذه الإهانات التي أوقعت بجثمان الإمبراطور المائت أهاجت الشعور العام. فالملك الصغير، الذي وإن كان قد تربى على يد البابا بسكال الثاني الذي كان يغرس فيه بذور العداء لأبيه ويحثه على خداعه والقيام بثورة جهارية ضده، فزع لهذا الطغيان الروحي وأمر بنقل الجثمان إلى مدينة سبيرس حيث دُفن بكل مهابة في مقابر آبائه. وقد سار في الموكب الرهيب جميع الشعب تقريبًا، واحتفل بالصلاة على الجثة بكافة المراسيم المتبعة عادة في مثل هذه الأحوال.

تصادف في أثناء ذلك أن الأسقف جبرد، وهو ألد أعداء الإمبراطور وأشد مضطهديه قسوة، كان غائبًا عن المدينة. ولكن بمجرد أن وصلته الأخبار قفل راجعًا على جناح السرعة، ودمه يغلي من شدة الغضب والغيظ، وأمر في الحال بإخراج الجثة مرة ثانية ووضعها في أرض غير مقدسة، بعد أن فرض عقابًا على كل من اشترك في حفلة الدفن. على أن قسوة الأسقف ووحشيته لم يمكنها أن تخمد صوت العاطفة والحب فسار الناس وراء الجثة وشيعوها إلى مقرها الأخير بصياح عال وعويل كثير، ويقول المؤرخ ملمان: "إنهم أخذوا يذكّرون الأسقف كيف أن الإمبراطور المحسن قد أغنى كنيسة سبيرس بهداياه العديدة فمن زخارف متنوعة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، إلى ملابس حريرية، إلى تحف فنية، إلى ذلك المذبح الذهبي الدقيق الصنع الذي أهداه إياه إمبراطور الشرق ألكسيس والذي جعل كاتدرائيتهم أفخم وأشهر كاتدرائية في ألمانيا. رفعوا الصوت عاليًا معبرين عن حزنهم وعدم رضائهم. وبالكاد مُنعوا من الثورة. ولكن جميع توسلاتهم لم تفلح! على أن ذلك لم يمنع أولئك الذين ارتبطت قلوبهم بهنري لما غمرهم به من الإحسان، وطوق به أعناقهم البريئة من أعمال البر والمعروف، أن يستمروا في زيارة قبره من حين لآخر. وأخيرًا، أي بعد خمس سنين من العناد والأخذ والعطاء، سمح لهنري أن يستريح في مثواه الأخير بين أجداده الأباطرة"(٤٣/٣).

تأملات في الصراع بين هنري وغريغوري

أوردنا فيما مضى، بتفصيل غير المعتاد، قصة ما كان بين غريغوري وهنري من كفاح، لكي نضع أمام القارئ صفحة واضحة كعينة تدل على الروح البابوية وأعمالها في العصور الوسطى. وليكن معلومًا أن روحها لم تتغير، وإن كان قد طرأ بعض الأحيان

تغير في أعمالها بحسب ما كان لكل بابا من قوة واستعداد. فكما كان الحال في الماضي، هكذا هي الآن، وستستمر كذلك إلى ما شاء الله. هذا، ونفس الروح تسود كثيرًا أو قليلاً على كل عضو في حظيرتها، وإلا فيمكن للإنسان أن يتساءل بكل صراحة ما هي الجريمة التي ارتكبها هنري والتي استحق عليها مثل هذا الاضطهاد الوحشي في حياته وبعد مماته؟ يذكر القارئ أن أصل النزاع يرجع إلى ما يسمى في تاريخ الكنيسة "بالرسامة".

على أن نظرة بسيطة في الأمر ترينا مبلغ هذه الجريمة. أن الحق التقليدي للملوك في أن يكون لهم صوت في تعيين الأساقفة وذوى المراكز الكبيرة في الكنيسة كان معترَفًا به من قرون عديدة. وكثيرًا ما كان يرجع إليهم لتعيين البابا نفسه كباقي الأبروشيات الأخرى في ممتلكاتهم، حتى أن هلدبراند نفسه (غريغوري فيما بعد) انتظر بفارغ الصبر إلى أن حاز انتخابه موافقة الإمبراطور الرسمية، ولكنه لم يكد يعتلي الكرسي البابوي إلا وأرسل خطابًا جارحًا للإمبراطور آمرًا إياه بالامتناع عن السيمونية والتخلي عن حق منح الرسامة. فما كان من هنري، دفاعًا عن نفسه، إلا أن تمسك بحق مارسه أسلافه بلا منازع من عهد بعيد، وخاصة من أيام شارلمان، فأرعد غريغوري وأزبد، وأصدر حكم الحرمان ضده، وحرر رعاياه من يمين الولاء له، وأعلن عزله بحجة أنه عاص. وبذلك رفعت البابوية النقاب عن نواياها، ولم يكن العالم في ما بعد في أي شك من جهة مقاصدها ومراميها فيما يتعلق بالسلطة الروحية، ولكن هكذا كان الجهل مخيمًا في تلك العصور حتى إن هذه الادعاءات الفظيعة وجدت معضدين كثيرين، ووصلت الخرافات بعقول الناس لدرجة أنهم كانوا يصدقون أن كل من يشهر سلاحًا في وجه الملك المحروم يعتبر بطلاً من أبطال الإيمان.

هذه كانت كل جريمة هنري ضد البابوية، وهذا كان سبب كل تلك الويلات والضحايا من البشر الذين سُفكت دماؤهم هدرًا. فالبابا العنيد أبى أن يتزحزح قيد شعره عن ادعاءاته، والإمبراطور دافع عن حقوقه التقليدية الموروثة. وهكذا استمر الكفاح العظيم، إلى أن سطا الموت على الطرفين فوضع حدًا لهذا المشهد المحزن.

الفصل العشرون

الحملات الصليبية

أخذ العدو الآن يغير أساليبه الحربية، فالبابا لم يكسب شيئًا يُذكر من رواء حروبه الطويلة مع الإمبراطورية، وقد جرح الإنسانية في صميمها بواسطة عتوه الذي لا مثيل له، والآن كان لا بد له أن يستنبط وسائل أكثر ملاءمة وقبولاً وأشد خداعًا وأقرب إلى صورة التقوى. فقد كانت المعضلة التي لا تزال تطلب حلاً هي كيف يمكن للسلطة الروحية أن تسود على السلطة الزمنية؟

هذه معضلة لا يصعب على شيطان روما الماهر أن يجد لها حلاً. وسرعان ما اقترح، وهو المسيطر على مجالسها، حربًا مقدسة لتخليص قبر المسيح من أيدي الأتراك. وقعت الفكرة في الحال موقعًا حسنًا لدى البابا أوربان، فأخذ يطبل لها ويزمر، وأصبح هو بطلها الصنديد المدافع عنها بكل قوته. كذلك وافق عليها الفاتيكان بأجمعه، مع أنه لم يكن هناك أدنى شك في أن تلك الحملات الطويلة على فلسطين ستمتص دماء أوروبا وتستنفذ قوتها ومواردها. ولم يكن ليدخل في الموضوع بالمرة أمر السعي وراء خلاص النفوس الهالكة وجذب الخطاة إلى الإيمان بيسوع المسيح، الأمر الذي هو مهمة المسيحية الحقيقية، وإنما كان غرض الباباوات إنما كان ينحصر في إضعاف الملوك الزمنين حتى بذلك يتسنى لهم السيادة عليهم. وهذا ليس بغريب، فالبابوية في جوهرها ملحدة، فمثلاً أوصى المُخَلِّص كل من يقبله ربًا قائلاً «اكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (مر ١٦:١٥)، ولكن يقول أوربان: "اذبحوا الكفار بلا حنو ولا رحمة. هذا هو العمل الذي يطلبه الله من أيديكم. اقتلعوا الزوان من جذوره وألقوه في النار حتى يحترق". ولكن هذا لم يكن القصد، وإنما كان الهدف أن تتضاءل قوة ملوك أوروبا حتى يستطيع البابا أن ينتصر عليهم. وسنرى من النتائج أن هذه لم تكن سوى مشورات شيطان البابوية النابغة.

الأماكن المقدسة

منذ عهد بعيد كان الحج للأراضي المقدسة هو شهوة المسيحيين الذين يؤمنون بالخرافات. ويشير المؤرخ جيروم إلى الجماهير الغفيرة التي كانت تؤم الأماكن المقدسة من كل فج وناحية. على أن الاكتشاف المزعوم للقبر الحقيقي، والعثور على الصليب الأصلي، مضافًا إلى ذلك تلك الكنيسة الفخمة التي بنتها فوق القبر هيلانه التقية وابنها قسطنطين، كل هذه أثارت في كل الطبقات حماسًا شديدًا لزيارة الأراضي المقدسة. ومنذ سنة ٣٢٦م أخذت وفود الحجاج تتقاطر وتزداد، إلى أن استولى المسلمون على بيت المقدس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب في سنة ٦٣٧م. كان الحجاج فيما قبل يجدون عناية كافية، وكانوا يجيئون ويروحون في أمن وطمأنينة، ولم يكن يتهددهم سوى مخاطر السفر الطويل وآلامه، أما في عهد حكومة المسلمين فكانوا يُمنعون من دخول المدينة المقدسة إلا إذا اشتروا هذا الامتياز بدفع إتاوة معينة للخليفة. ومع ذلك فكان الحجاج يتقاطرون أفواجًا أفواجا لتأدية العبادة عند القبر المقدس.

وحوالي سنة ١٠٦٧م. استولى التتار على فلسطين، وهم قبيلة من شرق آسيا يُعرفون الآن بالتركمان، وكانوا أشد مراسًا من الفاطميين. كانوا قد اعتنقوا الدين الإسلامي وصاروا أكثر تعصبًا من العرب الأصليين، وتمثلت فيهم فوق هذا التعصب وحشية البرابرة وطغيانهم، فأصبح بذلك مركز السكان والحجاج المسيحيين لا يُطاق، إذ لا بد من معاملتهم كرعايا يدفعون الجزية، فقد أصبح السكان يُعتبرون كعبيد، وتعرض الحجاج لكل أنواع العسف والاضطهاد.

بطرس الناسك

كان من الطبيعي أن تثور حاسيات المسيحيين في الغرب بسبب ما كان يرد من الأخبار المفزعة عن القسوة والاضطهاد والقتل الذي كان يلحق بإخوتهم في الشرق من واضعي اليد على الأرض المقدسة. وهذا أعطى وجهًا من العدالة لفكرة الحرب الدينية.

وفي سنة ١٠٩٣م زار بطرس الناسك من أهالي أميئس بيت المقدس. وقد اهتاجت روحه جدًا برؤية ما كان يتحمله المسيحيون هناك من الفظائع والإهانات، فتكلم مع شمعون بطريك أورشليم في ذلك الوقت في موضوع خلاصهم من تلك الآلام، ولكن شمعون أظهر أنه لم يكن هناك أي أمل في تخفيف ويلاتهم، لأن اليونان الذين هم الحماة الطبيعيون للميسحيين في سوريا كانوا في حالة من الضعف لا تمكنهم من تقديم أية مساعدة، فوعده بطرس بمساعدة اللاتينيين قائلاً "سأحرك أوروبا الحربية لتقوم في جانبك"، وقد كان معتقدًا أن السماء مشتركة معه في هذا الوعد ومصادقة عليه تمام المصادقة. وبينما كان جاثيًا في الهيكل قال إنه سمع صوت الرب يسوع يناديه قائلاً: "قم يا بطرس وأعلن ضيقات شعبي. هوذا قد جاءت الساعة لإنقاذ عبيدي واسترداد الأماكن المقدسة". وفي ذلك الوقت كان الرهبان في عزلتهم وأعصابهم المضطربة يتخيلون ما يشاءون ويؤمنون به، ثم يرون أحلامًا ورؤى تؤيد لهم ما قد آمنوا به.

إذًا فقد آمن بطرس بإرساليته، وهذا كان فيه الكفاية لأن يؤمن بها الآخرون أيضًا. فأسرع إلى روما وهناك تأثر البابا أوربان الثاني بغيرته وحماسه، فأعلن له موافقته التامة على التبشير بخلاص أورشليم في الحال. ولما كان الناسك قد نال الآن موافقة السماء والبابا معًا فلم يكن هناك ما يمنعه من القيام بمهمته، فغادر إيطاليا وعبر جبال الألب ودخل فرنسا. ويقال في وصفه إنه كان قصير القامة، نحيف القوام قمحي اللون، ولكن ذا عينين كأنهما من نار. أخذ يجول ممتطيًا بغلاً. بصليب في يده، حاسر الرأس وعاري القدمين، مرتديًا ثوبًا طويلاً وممنطقًا بحبل، وفوق الكل عباءة ناسك من أشد الأقمشة خشونة. أخذ ينتقل من مكان إلى آخر حاثًا الأمير والحقير، الغني والفقير، في الكنائس وفي الطرقات، في الميادين والأسواق. وقد كانت كلماته الفصيحة مما يؤثر في قلوب الناس ويحركها لأنها كانت خارجة من قلبه هو أيضًا. وقد ضرب على كل وتر حساس: عزة النفس، الشفقة والرحمة، كرامة رجل الحرب، عواطف المسيحي، محبة الإخوة، كراهية الكفار الملحدين، تدنيس الأرض التي شرفها الفادي بميلاده وقدسها بحياته. ومن أقواله الحماسية: "كيف يُسمح لغير المؤمنين أن يستمروا في وضع أيديهم على هذه الأراضي المسيحية، مثل جبل الزيتون وبستان جثسيماني؟ كيف يُسمح لغير المعمَّدين أن يدنسوا بأقدامهم الأثيمة تلك الأرض المقدسة التي شاهدت من الآيات والمعجزات ما لا حصر له ولا تزال تحوي من البقايا والآثار ما يدل على القوة الخارقة للطبيعة؟ ها إن عظام الشهداء وأثواب القديسين ومسامير الصليب وشوك التاج منتظرة بفارغ الصبر حتى يجمعها الكهنة الأمناء الذين سيتقدمون الحملة. فلتطهر أراضي صهيون بدماء الملحدين"[٥].

وعندما كان صوته يُبح والكلمات تخونه كان يبكي ويكتئب ويضرب على صدره ويرفع الصليب عاليًا، وكأن المسيح نفسه كان يستعطف السامعين أن ينضموا إلى صفوف جيش الله. وقد كان لخطبه الحماسية أثر كبير في كل الطبقات وفي جميع البلدان. وكان الرجال والنساء والأطفال يلتفون حوله ليلمسوا هدب ثوبه، حتى أن الشعر الذي كانت يسقط من بغله كان يُجمع ويُحفظ كقنية فاخرة. وفي وقت قصير رجع إلى البابا مؤكدًا له أن أقواله قوبلت بحماس شديد في كل مكان، حتى أنه بالكاد استطاع أن يمنع السامعين من تقلد السلاح في الحال والسير وراءه إلى الأراضي المقدسة. ولم يكن الأمر في حاجة بعد ذلك سوى إلى خطة حربية وقواد محنَّكين ونظام يُتفق عليه، فعزم البابا بكل جرأة وإقدام على أن يتولى هذا الأمر العظيم بنفسه.

البابا أوربان والحروب الصليبية

في مارس سنة ١٠٩٥م. أطلق البابا أوربان نداءً بانعقاد مجمع في مدينة بلاشنتيا للبحث والتشاور في مسألة الحرب المقدسة وشئون أخرى هامة. ولم يكد يصل هذا النداء إلى مسامع الناس حتى وفد على المدينة مائتي أسقفًا وأربعة آلاف قسيسًا وثلاثون ألفا من العلمانيين. ولما لم يكن في المدينة كلها مكان يسع هذا الجمهور الغفير كانت الجلسات الكبيرة تُعقد في الفضاء. وبجانب مشروع الحرب المقدسة انتهز البابا هذه الفرصة الطيبة لإقرار قوانين غريغوري وتثبيت مبادئه، ففي بلاشنتيا صدر قرار نهائي بالموافقة على أعظم شيئين تتميز بهما تعاليم الكنيسة الكاثوليكية

وقوانينها، ألا وهما الاستحالة وعدم زواج الإكليروس(٢/٣٩).

وفي نوفمبر من نفس السنة عُقد مجمع آخر في مدينة كليرمونت، وكانت الدعوة إليه مستعجلة، مع تكليف رجال الإكليروس أن يحثوا الشعب على الاهتمام بمسألة الحرب. وفي وقت قصير هرع إلى مكان المجمع عدد غفير من رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وخلافهم، حتى امتلأت بهم المدن والقرى المجاورة التي كانت تُرى مائجة بالغرباء في ذلك الحين، حتى اضطر الكثيرون منهم إلى السكن في خيام. وقد دام المجمع عشرة أيام صدرت فيها التحريمات المعادة ضد السيمونية وخلافها، بل تجاسر أوربان فاتخذ خطوة أخرى فاق بها على غريغوري وهي أنه حرَّم على رجال الإكليروس أن يقسموا يمين الولاء لأي سلطة زمنية، وكان المقصود من هذا التحريم هو إنهاء كل اعتماد للكنيسة على السلطة الزمنية. ومن ذلك نرى أن هذا البابا الماكر اتخذ فرصة الالتفاف حوله من الجميع لتعزيز سيادته المطلقة في وقت كانت فيه عقول الناس متجهة بأفكارها نحو الحرب المقدسة التي كانت بلا نزاع أهم ما يشغل الأفكار حينئذ، فلم تكن هناك فرصة أحسن من هذه لتثبيت غرض البابوية العظيم مطمعها الأسمى وهو السيادة المطلقة فوق المسيحية اللاتينية بأجمعها، ورفع أوربان نفسه فوق منافسه البابا كليمنت والأمراء الآخرين الذين كانوا يقصدونه.

وفي الجلسة السادسة من جلسات المجمع أثيرت مسألة الحرب، فاعتلى أوربان منبرًا عاليًا وأخذ يخاطب الجماهير المجتمعة وكانت خطبته طويلة وحماسية ذكر فيها أمجاد فلسطين الغابرة عندما كان كل شبر فيها موطئًا لقدمي المخلّص وأمه العذراء وقديسين آخرين، وأخذ يتكلم بإسهاب عن الحالة التعيسة التي وصلت إليها الأراضي المقدسة، وكيف أنها صارت مدوسة من شعب هم أولاد الجارية المصرية. كذلك أشار بحماس إلى الإهانات والفظائع وأعمال الجور والعسف التي كانوا يصبونها على رأس المسيحيين الذين افتداهم المسيح بدمه. ولم ينسَ أن يشير إلى الاعتداءات المستمرة التي كان يقوم بها الأتراك ضد المسيحية جمعاء. وعندئذ اشتد حماسه فصاح بأعلى صوته "اطردوا الجارية وابنها. تقلّدوا سيوفكم وتقدموا إلى الأمام، والله معكم. كفّروا عن خطاياكم وما ترتكبونه من هدم وسلب وحريق وسفك دماء بطاعتكم، فليظهر الإفرنج شجاعتهم المشهودة وبسالتهم المعهودة في قضية الموت فيها هو الضمان لكل بركة. احسبوه فرحًا أن تموتوا لأجل المسيح حيث مات المسيح لأجلكم. انسوا أقرباءكم وبيوتكم فأنتم مدينون لله بمحبة أعظم. ولا تنسوا أن كل مكان للمسيحي هو أرض غربة، كذلك كل مكان هو بيت ووطن".

وبالإجمال لم يترك البابا عاطفة إلا وأثارها، ووترًا حساسًا إلا وضرب عليه، ولكن غرضه الحقيقي ومطمعه الأوحد لم يكن إلا تعظيم ذاته والتخلص من الأمراء والملوك العتاة بإرباكهم في حملة بعيدة محفوفة بالمهالك والأخطار، وبذلك يصفو له الجو ويستطيع في غيابهم أن يجمع في يده خيوط تلك الحركة الواسعة النطاق، ويدعم تلك المشاريع البعيدة المرمى التي بدأها سلفه ومعلمه هلدبراند.

وكأنه قد أبى إلا أن يختم خطبته بقطعة من التجديف الفظيع، فأعطى تحليلاً وغفرانًا لجميع الخطايا من قتل وزنى وسرقة، وذلك بدون توبة، لكل من يحمل السلاح في هذه القضية المقدسة، وكذلك وعد بالحياة الأبدية لكل من يقابل الموت المجيد في الأرض المقدسة، أو حتى في طريقه إليها. فكل صليبي لا بد أن يعبر توًا إلى الفردوس، ومعركة الصليب العظيمة لا بد أن تتم نهائيًا في الأرض المقدسة. أما عن نفسه فقال إنه يجب أن يبقى في مكانه لأن حاجة الكنيسة والعناية بها كانت تتطلب وجوده، ولكن إذا سمحت الظروف فسيلحق بهم. على أنه كموسى قديمًا سينشغل بالصلاة لأجلهم، فبينما هم يكونون مشغولين في قتل العمالقة سيكون هو مشغولاً بالشفاعة والصلاة الحارة لأجل نصرتهم(٢/٣١).

وهنا قوطعت خطبة البابا بصرخة حماسية من كافة المجتمعين: "هذه مشيئة الله. هذه مشيئة الله". صرخة صارت فيما بعد شعار الصليبيين وأنشودة هتافهم في الحرب. وعلى ذلك انفض الاجتماع بعد أن أعلن المجتمعون بأنهم من الآن قد صاروا جيش الله. ومن تلك اللحظة أخذت الحركة تنتشر بسرعة تفوق حد التصور. قال أحد المؤرخين في وصف هذه الخطبة: "ربما لم يحدث في التاريخ مطلقًا أن خطبة إنسان عملت ما عملته خطبة أوربان الثاني في مجمع كليرمونت، وأنتجت ما أنتجته من الآثار الثابتة بعيدة المدى" وقال آخر "إنها أول هزة تعصبية عنيفة ارتج لها كيان الهيئة الاجتماعية بأجمعها من أقاصي الغرب إلى قلب آسيا لما يزيد عن قرنين كاملين".

والآن وقد ذكرنا أغراض الحروب الصليبية الظاهرة، بقدر ما أمكننا من الدقة والإيجاز، أو بالحري أغراض البابوية، لم يبق علينا إلا أن نذكر تواريخ الحملات المختلفة مع بعض بيانات عن كل منها.

الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦م)

اختير يوم ١٥ أغسطس - عيد صعود العذراء - ليكون هو اليوم الذي يبدأ فيه الصليبيون مسيرهم. أخذت النساء يحثثن أزواجهن وإخوتهن وأولادهن على حمل الصليب، وكل من رفض صار موضع الهزء والاحتقار من الجميع. كذلك بيعت المقتنيات من كل نوع لجمع الأموال اللازمة. ولكن لما كان الجميع يريدون أن يبيعوا وليس منهم من يريد أن يشتري هبطت الأسعار هبوطًا هائلاً، فانتهز رجال الإكليروس الفرصة وتقدموا للشراء، وبذلك تدفقت جميع ممتلكات الشعب تقريبًا إلى أيديهم، حتى أن جدفري نفسه رهن قصره الأنيق لأسقف لييج. فالصانع باع آلته، والزارع باع محراثه، وتمثل أمام مخيلة الجميع عظمة الشرق الخرافية وثروته الطائلة التي كانت تتغنى بها روايات شارلمان في ذلك الزمان. زد على ذلك أنه بجانب الحماس الديني الذي تملك على جميع الطبقات في ذلك الوقت وُجدت دوافع أخرى كثيرة. فالفلاح وجد الفرصة سانحة لكي يتخلص من عيشته المرهقة ومن نير خدمة سيده القاسية، بينما اللص والمتشرد وطريد العدالة وجدها فرصة للرجوع ثانية إلى أحضان الهيئة الاجتماعية، والمدين وجد فيها مفرًا من ديونه والتزاماته، وفوق كل ذلك كان لجميع من يتخذون الصليب ويموتون في الحرب المقدسة الضمان الأكيد بأنهم سينالون نصيبًا من مجد الشهداء ونعيمهم، وهكذا كان الحماس الذي أنتجته هذه الدعوة البابوية شديدًا بهذا المقدار، حتى أنه قبل الوقت المعين لقيام الحملة بكثير نفذ صبر الناس حتى ملوا الانتظار وصاروا كأنهم على أحر من الجمر.

وما أن استهل ربيع سنة ١٠٩٦م. حتى بدأ بطرس الناسك، رسول الحرب الصليبية الأول، مسيره إلى الشرق على رأس جيش عظيم من مختلف الطبقات. ذلك أن حوالي ستين ألف شخص من سكان حدود فرنسا واللورين التفوا حول هذا الراهب وطلبوا منه بإلحاح أن يقودهم إلى القبر المقدس. فلم يكن منه إلا أن أجاب سؤلهم على الفور متخذًا لنفسه صفة القائد. وهكذا سار بهم على ضفاف نهري الرين والدانوب. بعد ذلك سار جيش آخر مكون من خمسة عشر ألفًا تحت قيادة والتر الملقب بالمفلس، وهو رجل فقير ولكنه جندي باسل. كذلك قام راهب آخر يدعى جوتشوك وسار وراء بطرس ووالتر على رأس جيش قوامه عشرون ألفا تقريبًا من سكان ضواحي ألمانيا. بعد ذلك قام جيش رابع مكون من مائتي ألف من صعاليك القوم بقيادة الكونت إميشو وأخذ يزحف وراء من سبقوه. بلغ عدد هذه الجموع المتتالية ما يقرب من ثلاثمائة ألف محارب تكوّن منهم جيش الصليب كما كانوا يسمونه. على أنه سرعان ما تملكتهم روح أخرى، فليس منهم من كان يعرف الصليب إلا كعلامة خارجية. هذا وجماهير أخرى من الأشياخ والعجزة والنساء والأطفال وحثالة القوم العاطلين أخذوا يسيرون وراء محلة الصليبيين!

حقًا ما أروع ما كان ينتظر هذه الجماهير المسكينة من موت وبلاء، فلا شيء يدعو للحزن والكآبة مثل التأمل في حالة ذلك الجيش المغرور ومصيره المظلم، فحاجاتهم المتعددة وعددهم الغفير اضطرهم للانفصال عن بعضهم. كانوا بلا نظام ولا تدريب، ومعظمهم بلا سلاح أو مال وكانوا لا يدرون المسافة الطويلة التي كانت تفصلهم عن بيت المقدس، وكذلك الصعوبات الكثيرة التي كان يجب أن يتغلبوا عليها في طريقهم. كان جهلهم عظيمًا بهذا المقدار حتى أنهم لم يكادوا يصلون إلى أول مدينة خارج حدود البلاد التي كانوا يعرفونها إلا وتساءلوا عما إذا كانت تلك المدينة هي بيت المقدس. وبدلاً من الصبر والنظام اتصفت رحلتهم بحوادث القتل والسلب والنهب والجرائم المخزية من كل نوع، فمن ذلك أنهم بمرورهم على مدن اليهود الآمنة على أنهار الموسي والرين والمين والدانوب نهبوا البيوت وذبحوا السكان لأنهم قتلة المسيح وأعداء الصليب. كذلك استمروا في فظائعهم من نهب وسلب وتخريب حتى أثاروا ضدهم أهالي هنغاريا وبلغاريا الذين قاموا في وجههم وقتلوا منهم عددًا عظيمًا.

وبعد فظائع متكررة ومغامرات غبية وصلوا أخيرًا إلى القسطنطينية، ولكن ألكسيس إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية أخذته رعدة عند رؤية هؤلاء الحلفاء، فنقلهم بسرعة، إن لم يكن بغدر وخيانة إلى الجانب الآخر من البوسفور. ولم تكد تستقر أقدامهم على ذلك الشاطئ إلا واشتبكوا في موقعة عظيمة عند أسوار نيقية عاصمة الأتراك. أما جيش بطرس الناسك فضربه سليمان سلطان أيقونية التركي شر ضربة ومزقه شر تمزيق. كذلك والتر المفلس وقع قتيلاً مع أغلب جنوده وقد جمعت عظامهم وبقاياهم في كومة كبيرة إنذارًا لرفقائهم بما كان يتهددهم من موت زؤام، وما كانوا

مقدمين عليه من مهمة لا رجاء فيها. ويخبرنا التاريخ أن ثلاثمائة ألف نسمة من هذه الحملات غير النظامية وقعت قتلى، لا بل بعض المؤرخين يذهب بالعدد إلى نصف مليون، فمن أولئك الذين ساروا تحت قيادة بطرس وزملائه لم يفلت سوى ما لا يزيد عن عشرين ألفًا، الذين حاولوا الرجوع إلى بلادهم لعلهم يوصلون إلى مسامع مواطنيهم قصة زملائهم المرجفة ومصيرهم المحزن، وكيف أنهم وقعوا صرعى إما بسيف الأتراك، أو بسهام الهنغاريين، أو من الإعياء والجوع. وهكذا لم يصل إلى حدود الأراضي المقدسة جندي واحد من جيش بطرس بأجمعه. أما البابا أوربان فقد طال به العمر إلى أن سمع بكل الفظائع والمصائب التي جرّها عمله الرديء، ولكنه مات قبل الاستيلاء على بيت المقدس.

القسم الثاني من الحملة الصليبية الأولى

في الوقت الذي كانت فيه جماهير العامة المساكين العراة المغرورين تقابل الموت الزؤام الذي يحصد أعدادهم حصدًا وُجدت حركة بين الطبقة الأرستقراطية في الغرب، إذ قام الأشراف يحملون الصليب ويشجع أحدهم الآخر على الاستعداد للرحيل في نفس المأمورية. وهنا يجدر بنا أن نقول كلمة عن الزعماء حتى يتسنى لنا أن ندرك كيف عمّ هذا الوباء جميع الطبقات على السواء.

أكثر من اشتهر بين طبقة الأشراف هو جدفري دي بويو أحد أحفاد شارل الأكبر إذ كانت له المكانة الأولى في كل من الحرب والمشورة. لقد اشترك سابقًا مع وليم الفاتح في حملته على إنجلترا، كما اشتهر عنه أنه لما كان في خدمة هنري الرابع كان هو أول من طعن رودلف طعنة نجلاء كانت هي السبب في إنهاء الحرب الأهلية. كذلك كان هو أول من تسلق أسوار روما من جيش هنري. وقد وصفه المؤرخون بأنه كان مشهورًا بعمق تقواه وبوادعته وجمال أخلاقه واعتداله في حياته اليومية. وبأنه كان حكيمًا في الرأي والمشورة وجسورًا كالأسد في ميادين الحرب والقتال. عدا جدفري كان هناك أخواه يوستاس وبلدوين. كذلك ظهر في الحملة هيو أخو ملك فرنسا، والكونت ريموند دي تولوز والكونت روبرت دي فلاندر، والكونت ستيفن دي بلوا، والدوق روبرت دي نورمنديا ابن وليم الفاتح الشهير. وهكذا كان الحماس بالغًا منتهاه حتى أن جميع أبطال أوروبا وقوادها المشهورين انخرطوا في سلك هذه الحملة وكل منهم يريد يظهر نفسه في هذه الحرب المقدسة.

ستمائة ألف رجل يقال إنهم تركوا بيوتهم هذه المرة ومعهم من الأتباع ما لا يحصى ولا يعد من نساء وخدم وعمال من كل نوع. كان أمر الحصول على مؤونة تكفي لهذه الجماهير الغفيرة التي بلغ عددها نحو المليون أمرًا صعبًا، ولهذا اتفقوا على أن يسيروا في وحدات منفصلة، وفي طرق مختلفة وأن يتقابلوا جميعًا عند أسوار القسطنطينية، ومن هناك يبدأون حملاتهم ضد الأتراك. وبعد مسير طويل ومضن، هلكت فيه الألوف من الأنفس وصل الباقون إلى عاصمة الإمبراطورية الشرقية (القسطنطينية) ولا شك أن الإمبراطور ألكسيس كان على استعداد أن يرحب بأية قوة معتدلة تصله من الغرب لتساعده ضد الأتراك الذين كانوا يهددون عاصمة ملكه، ولكنه فزع من وصول مثل هذا الجيش الجرار تحت قيادة نخبة مثل هذه من أعظم أبطال أوروبا وأشرافها. صحيح أن الأمن في حدود إمبراطوريته كان قد اختل بسبب أعمال السلب والنهب التي قامت بها جماهير بطرس الناسك الهمجية، ولكنه تشاءم بحدوث شر أعظم ونتائج أسوأ عند وصول مثل هذا الجيش المخيف بقيادة جدفري. وإذ كان يعلم من كل فرقة تصل أن فرقة أخرى ستلحق بها بعد قليل، استعمل المكر وأصدر أوامره في الحال بنقل كل فرقة بمجرد وصولها إلى الجانب الآخر من البوسفور حتى بذلك لا يمكنهم التجمع بالقرب من عاصمته، وبهذه الطريقة تمكن الصليبيون من النزول في الأراضي الأسيوية قبل عيد الخمسين.

حصار نيقية

هاجت عواطف الصليبيين واستعرت نيران حماستهم عندما شاهدوا أكوام العظام البشرية التي كانت أشبه بأهرامات قائمة تعلن المكان الذي سقط فيه والتر وأتباعه من قبلهم، فحاصروا نيقية التي سلّمت في ظرف خمسة أسابيع، ولكن خابت آمالهم فيما كانوا يطمعون فيه من الغنائم، ذلك أن الأتراك عندما رأوا أنه لا يمكنهم الثبوت اتفقوا سرًا مع ألكسيس أن يسلموه المدينة، وسرعان ما رفرف العلم الإمبراطوري فوق القلعة التي قامت فيها حامية من اليونان الخائنين لحراسة المدينة ضد حلفائهم الصليبيين. تذمر الرؤساء واحتجوا، ولكن تذمراتهم لم تُجد نفعًا. وبعد أن استراحوا أيامًا قليلة واصلوا سيرهم إلى فرجية.

بعد حصار نيقية بأسبوعين تقريبًا جاءت موقعة دوريليوم* العظيمة فقد جمع القائد سليمان فلول جيشه التركي وزحف وراء كل من كان يسميهم بالبرابرة الغربيين، فأخذهم على غرة وهجم عليهم قبل وصولهم إلى دوريليوم. وكان عدد الفرسان في جيشه، حسب تقدير المسيحيين ثلاثمائة ألف، وكانت الموقعة من بدايتها حامية الوطيس إذ أخذ الأعداء يرشقون الصليبيين بوابل شديد من سهامهم السامة حتى أدخلوا الرعب في قلوبهم والارتباك في صفوفهم. ولولا بسالة بوهمند وتانكرد وروبرت دي نورمانديا ومهارتهم الحربية، مضافًا إلى ذلك وصول جدفري وريموند في الوقت اللازم لكان من الممكن أن يتلاشى الجيش بأجمعه. انتهت المعركة أخيرًا وكان النصر في جانب الصليبيين الذين استولوا على معسكر سليمان. ومن الادعاءات التي قيلت في هذا الصدد أن النصر يرجع إلى جند سماوي نزلوا من الأعالي لمساعدة المسيحيين.

تعرض الجيش في مسيره مسافة خمسة آلاف ميل في فيافي آسيا الصغرى إلى أهوال كثيرة، فالجوع والعطش والحر الشديد وقلة الطعام وصعوبة السير، كانت كلها عوامل مضنية هلك بسببها الكثيرون. فالعطش كان يفتك بالمئات كل يوم، بينما ماتت جميع الخيول تقريبًا. لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كان هناك ما زاد الطين بلة وأوجد الفشل والارتباك في الصفوف، وهو أن الزعماء انقسموا على أنفسهم، حتى وصل الأمر إلى حد العداء العلني. ولكن رغمًا عن كل صعوبة استمرت الأغلبية التي نجت من هذه المصائب تجاهد وتجالد في طريقها إلى بيت المقدس بعد أن نجح بلدوين أخو جدفري في الاستيلاء على مدينة إدسا**. وبذلك أسّس أول ولاية لاتينية في ما وراء الفرات.

حصار أنطاكية

في ١٨ أكتوبر من عام ١٠٩٧م. حاصر جيش الصليبيين مدينة أنطاكية التي فيها دعي التلاميذ مسيحيين أولاً، والتي صارت بعد ذلك بقليل مركز أعمال الرسول العظيم بولس وأتعابه التبشيرية. ولكن ما أعظم الفرق بين ذلك الرسول وبين من يدّعي الخلافة الرسولية في الروح والغرض والأساليب. ما أكبر الفرق بين الرسول الحقيقي وبين ذلك المجدِّف الذي ادّعى لنفسه مركز وكيل المسيح على الأرض، بينما جريمة هذا العمل الفظيع، بل قُلّ جريمة أفظع غرور سُمع به في التاريخ، هي أبدًا رابضة أمام بابه. أي نعم، وإن كانت إيزابل تستمر مسيطرة في كل من الكنيسة والدولة ويضحّي الأصدقاء والأعداء معًا في سبيل إشباع مطامعها وتحقيق أغراضها، ولكن اليوم يقترب سريعًا الذي فيه سينتقم الرب للدماء المُهدرة وينفذ الدينونة، ليس فقط بحسب أعمال الإثم، بل بحسب نوايا القلب وأغراضه. ولكن شكرًا لله لأن تلك الشهادة المجيدة التي خرجت مرة من أنطاكية واستمرت تذاع منها في القرن المسيحي الأول لا تزال هي هي حافظة لجمالها وتأثيرها ووضوحها كما كانت وقتذاك، ولا تزال لها نفس القوة والسلطان على القلب والضمير بغضّ النظر عن آلاف المجاري الفاسدة الأخرى التي يُقال إنها صادرة من نفس الينبوع والتي تبدو بحسب الظاهر أنها كذلك. هناك شيء واحد هو الذي يستحق أن نتمسك به، وهذا الشيء إنما هو تعاليم الرسل وليس تقاليد الآباء. إن شعارنا المسيحي الذي يجب أن يكون على مدى العصور والأيام إنما هو: شخص المسيح للقلب، وعمل المسيح للضمير، وكلمة الله للسبيل.

دام حصار أنطاكية ثمانية شهور كاملة تعرض فيها المحاربون لصنوف مريعة من التعاسة والشقاء. كانت حالة الطقس في البداية في اعتدال وجمال، ولكن سرعان ما جاء الشتاء فتبدل الحال إذ هجمت السيول والأمطار على المعسكر فأغرقته وجاءت العواصف بشدة فاقتلعت خيامهم. واشتد الجوع وعمّ البلاء ووصل البؤس إلى منتهاه. وصلت بهم الحالة إلى أنهم كانوا يلتهمون لحوم الخيل والكلاب وحتى جثث الأعداء. في بداية الحصار كان عدد خيولهم سبعون ألفًا، وفي نهايته لم يزد العدد عن ألفين، لم يوجد بينها سوى مائتين على الأكثر صالحة للاستخدام. على أن معونة جاءتهم في آخر الأمر لولاها لكانوا هلكوا عن بكرة أبيهم، ذلك أن أحد ضباط الحامية، وهو رجل سوري كان مقرّبًا لدى الوالي وكان في عهدته ثلاثة أبراج. خان خيانة إذ فتح بابًا من أبواب المدينة، فاندفع الجيش إلى داخل المدينة والكل يهتفون هتاف الصليبيين المعروف "هذه مشيئة الله!"، وبذلك عادت أنطاكية مرة أخرى إلى أيدي المسيحيين. ولكن النصر لم يكن تامًا، فالقلعة أبت أن تستسلم، ولم يمض وقت طويل بعد هذا

* تسمى الآن أسكي شهر –المعرب.
** (الرهى) بالعربية –المعرب.

الانتصار الظاهري إلا ووصل جيش تركي بقيادة قرة بوجا والي الموصل، وبذلك استمر الصليبيون مدة خمسة وعشرون يومًا محصورين بين نيران حامية القلعة من جهة ونيران جيش قرة بوجا من جهة أخرى، وبذلك تعرضوا مرة ثانية للفناء التام.

ولكن في اللحظة التي وصل فيها الجميع إلى حالة اليأس والقنوط من النجاة، وكان شبح الموت المخيف يهدد الكل على السواء ظهر في الميدان راهب ماكر يسمى برثلماوس. هذا تقدم إلى باب غرفة المشورة وقال لأعضاء المجلس أنه قد أُعلن له من السماء في حلم أنه تحت المذبح الكبير في كنيسة القديس بطرس توجد الحربة التي طُعن بها المخلِّص وهو على الصليب. وفي الحال دار الحفر في الموقع المعين. ولكن بعد أن وصلوا إلى عمق اثني عشر قدمًا ولم يعثروا على غرضهم، جاء المساء فتقدم برثلماوس نفسه عاري القدمين ومرتديًا رداء التائبين، ونزل إلى الحفرة وسرعان ما وقعت يده على مقبض الحربة! سمع للحربة رنين في الخارج فأيقن الناس أنها لا بد هي السلاح المقدس، وبمجرد أن وقعت أنظار الصليبيين على الحربة تملكهم روح من الحماس الشديد فانتقلوا في الحال من اليأس إلى الرجاء، وأنشد الكهنة والرهبان مزمورًا حربيًا حماسيًا «قُم يا الله وليتبدد أعداؤك». وفُتحت أبواب أنطاكية على مصاريعها، وانطلق المحاربون كالسهام إلى داخل المدينة يتقدمهم أحد مندوبي البابا حاملاً الرمح المقدس. أمام هذا الحماس الديني العظيم لم يستطع العرب الثبوت، ففروا هاربين من أمام هذا الهجوم غير المنتظر، تاركين وراءهم كميات عظيمة من الغنائم، فاستولى الصليبيون على أنطاكية استيلاء كاملاً ونصبوا بوهمند أميرًا عليها، شريطة أن يرافقهم إلى بيت المقدس.

حصار بيت المقدس (١٠٩٩م)

بدلاً من أن يسير الصليبيون توًا إلى بيت المقدس وهم في فرح الانتصار وقوته وأعداؤهم في حالة الفشل والانهزام، أخذوا يتلكأون في سوريا ويتمتعون بما فيها من ملذات مدة عشرة أشهر تقريبًا. وعندما جاءتهم أوامر المسير في شهر مايو لم يكن قد بقي إلا جزءًا ضئيلاً جدًا من ذلك الجيش الذي كان مرة كبيرًا للغاية، إذ يقال إن عدد من وصلوا إلى أنطاكية كان ثلاثمائة ألف، ولكن الجوع والمرض والسيف جعلهم لا يزيدون عن أربعين ألفًا إلا قليلاً. تحركت هذه البقية إلى الأمام في غضون شهر مايو، ولما كانوا يقتربون إلى مطمعهم الأسمى والغرض الرئيسي من رحلتهم الطويلة المهلكة، ويقابلون في طريقهم تلك الأماكن المقدسة مثل صور وصيدا وقيصرية ولدة وعمواس وبيت لحم، كان حماسهم يعظم ويزداد لدرجة تفوق حد كل تصور. وعندما وصلوا إلى ربوة مرتفعة في طريقهم وأمكنهم منها أن يشاهدوا المدينة المقدسة هتفوا بصوت واحد "أورشليم! أورشليم! هذه مشيئة الله! هذه مشيئة الله!" وسقطوا جميعهم على ركبهم وقبلوا الأرض المقدسة، إذ أن المشاهد المدوَّنة في الإنجيل ملأت عقولهم وسحرت ألبابهم، ولكن أورشليم كانت لا تزال في أيدي المسلمين، وهم لم يكونوا مزودين بالمعدات اللازمة للهجوم.

دام الحصار أربعين يومًا ولكنها كانت أربعين يومًا مليئة بأشد الآلام والضيق على المحاصرين، خاصة من العطش الشديد الذي كان يزيد في شدته وهج شمس الصيف المحرقة في تلك البلاد الحارة، وقد جفت مياه قدرون.

نفذت المؤونة ووصل بهم اليأس إلى أنهم كانوا على وشك التسليم. ولكن كما حدث في أزمات سابقة هكذا هذه المرة كانت المعونة قريبة، إذ تداخل الخيال في الأمر وتولى أمر الإنقاذ، فسرعان ما رأى جدفري جنديًا سماويًا واقفًا على جبل الزيتون وملوحًا برمح براق في يده وكأنه يأمرهم بالهجوم، ففي الحال تبددت مخاوفهم وتجدد حماسهم وهجموا بعنف على الأعداء، فاستولوا على المدينة عنوة بعد كفاح شديد. وقد أجمع المؤرخون على أن ذلك كان في يوم ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م. وكان يوم جمعة وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، أي في يوم وساعة موت المخلِّص. وقف جدفري منتصرًا على أسوار أورشليم، ومن هناك قفز إلى المدينة المقدسة وبجانبه تانكرد ووراءهما الجنود الذين أخذوا يقتلون الناس حتى امتلأت بجثثهم جميع الشوارع والطرقات.

قال المؤرخ روبرتسن يصف هذه المذبحة العظيمة: "وصل حنق الصليبيين إلى حد الجنون بسبب ما كان يجول بخواطرهم من الفظائع التي أصابت إخوتهم من قبل، وبسبب ما لقوه هم أنفسهم من المقاومة العنيفة من المحاصرين، ولهذا لم تكد أقدامهم تطأ داخل المدينة إلا وأعملوا السيف في أهلها، فلم يرحموا شيخًا ولا امرأة ولا طفلاً. فقُتل في هذه المجزرة سبعون ألفًا من المسلمين. كما أن كثيرين ممن كان الزعماء قد أمَّنوهم على حياتهم لم ينجوا

من سيف الجنود الذين نكلوا بهم شر تنكيل. وهكذا كانت المذبحة عظيمة حتى امتلأ الهيكل ورواق سليمان بالدماء، وفي وسط هذه الثورة العارمة ضد أعداء المسيح أحرقوا اليهود في مجمعهم. لم يشترك جدفري في هذه الفظائع، ولكن بعد أن هدأت المعركة وتم النصر للصليبيين ارتدى لباس الحجاج وتوجه إلى كنيسة القبر المقدس. وهناك قدّم شكره الجزيل لله لأنه أعطاه أن يصل إلى المدينة المقدسة. وقد تبع مثاله الكثيرون فاستبدلوا أعمال الوحشية بدموع التوبة والفرح مقدّمين عند المذبح الغنائم التي وصلت إلى أيديهم. ولكن سرعان ما غلب عليهم ثوران الشعور والهياج العنيف، فعادوا إلى أعمال العنف والوحشية، فاستمرت أورشليم ثلاثة أيام كاملة وكأنها بحر من الدماء"(٢/٣١)(٤٠).

أورشليم في أيدي المسيحيين

بذلك عادت أورشليم مرة ثانية إلى أيدي المسيحيين بعد أن استمرت تحت نير المسلمين منذ أن فتحها عمر في سنة ٦٣٧م. وبعد ثمانية أيام من هذه الحادثة التاريخية العظيمة أخذ الزعماء المنتصرون يفكرون في انتخاب الملك، فكان الرأي في جانب جدفري دي بويو الذي أجمع رجال الجيش على أنه بطل المسيحية، وأنه الملك الذي يليق ببيت المقدس. ولكنه وإن كان قد قبل الاضطلاع بالمسئولية إلا أنه أبى أن يطلق عليه هذا الاسم أو أن يتقلد شارات الملك، إذ كيف يمكن أن يسمى ملكًا ويلبس تاجًا من ذهب بينما ملك الملوك، مخلصه وربه، قد لبس من قبله تاجًا من شوك؟! وعلى ذلك اكتفى باللقب المتواضع "حامي القبر المقدس".

ولم يكد جدفري يجلس على العرش إلا ونودي مرة ثانية للخروج إلى الميدان حيث أن قوة عظيمة من العرب خرجت من مصر لرد المدينة والانتقام من فاتحيها. ولكن الصليبيون انتصروا مرة ثانية فيما يسمى بموقعة عسقلون. وإذ استتب لهم الأمر وتأيد مركزهم في الأراضي المقدسة أخذ معظم الجنود يستعدون للرجوع إلى أوروبا. فبعد أن تسلقوا موضع الجلجثة بين أناشيد الكهنة وترتيلهم، وبللوا الأرض المقدسة بدموعهم، واستحموا في نهر الأردن، بدأوا مسيرتهم إلى أوطانهم حاملين معهم سعفًا من نخيل أريحا وآثارًا أخرى لا تحصى ولا تعد. وكان بين الراجعين بطرس الناسك الذي قضى بقية أيامه في دير أسسه بنفسه بالقرب من لييج إلى أن مات عام ١١١٥م.

ثلثمائة فارس و ٢٠٠٠ جندي بيادة هم الذين احتفظ بهم جدفري للدفاع عن فلسطين. ولكن سرعان ما هوجمت المملكة الفتية من عدو آخر هو أحد كهنة روما، ذلك أن هذا الكاهن تعين باسم البابا بطريركًا على أورشليم، فأخذ يطلب للكنيسة من المال والأملاك ما ترك الدولة في حالة فقر صحيح. ولم يكن من جدفري التقي إلا أن يخضع، فقد تسلم هو وبوهمند مسحة المُلك من هذا الكاهن الذي أصبح هو القابض الحقيقي على زمام الأمور، أو بالحري أصبحت أورشليم في قبضة البابا الطماع. ولم يكن جدفري ميالاً كثيرًا لمنازعة الأمر مع البطريرك وخاصة بعد أن جاهد جهاده وقام بمأموريته العظيمة، ولهذا ترك له الحبل على الغارب لكي يفعل ما يشاء فيما يختص بالشئون الروحية والزمنية. وكان من نتيجة ذلك أن اضطهد المسيحيون اللاتينيين إخوتهم اليونانيين بصفتهم منشقين، مما زاد طبعًا في اتساع هوة الخلاف بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية.

وقد مات جُدفري بطل الحروب الصليبية الحقيقي في ١٧ أغسطس سنة ١١٠٠م بعد أن ملأ كرسيه في أورشليم لما يزيد قليلاً عن سنة، جعل فيها اللغة الفرنسية لغة البلاد الأصلية ووضع الأساس لمجموعة القوانين التي عرفت فيما بعد باسم "قوانين أورشليم".

الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧م)

الآن وقد أعطينا وصفًا دقيقًا ومسهبًا للحملة الصليبية الأولى لم يبق علينا سوى أن نذكر تواريخ الحروب السبعة التي تليها مع بعض معلومات موجزة عن حوادثها. وقد تميزت كل واحدة منها بنفس العوامل الطائشة وغير المتفقة مع كلمة الله، وكذلك بنفس النتائج المحزنة، فكانت كل واحدة منها صورة حقيرة وغير مفلحة للأولى.

يصف المؤرخون نسل الصليبيين الأوائل بأنهم قوم خلدوا للراحة ولمسرات الحياة السورية ورفاهيتها، حتى أصبحوا في منتهى الانحطاط وفقدوا كل رجولة وشجاعة، بينما كان المسلمون يجمعون صفوفهم ويوحدون مجهوداتهم ويوالون هجماتهم على الصليبيين من حين لآخر. وفي سنة ١١٤٤م. قام عماد الدين زنكي والي الموصل واستولى على الرهى وذبح السكان ونهب المدينة وأخربها خرابًا تامًا. فرح المسلمون فرحًا لا حدّ له بهذا

النصر، فهددوا أنطاكية الأمر الذي جعل المسيحيين في خوف شديد، فقاموا يطلبون المعونة من ملوك أوروبا وجيوشها متوسلين بدموع ومعلنين أن أعداء الصليب آخذون في التقدم نحو المدينة العظيمة، وقد قتل الآلاف من المسيحيين وسوف لا يبقى واحد منهم حيًا في الأرض المقدسة إن لم تأتهم النجدة في الحال.

قابل البابا أوجين الثالث هذه التوسلات بكل عطف، وعزم على أن يثير حربًا صليبية جديدة، فكتب رسائل لملوك أوروبا وأمرائها وشعوبها يطلب إليهم الاشتراك في الحرب المقدسة، وانتدب القديس برنارد الشهير أسقف كليرفو للقيام بمهمة "التبشير" بهذه الحرب في مختلف الممالك. وكان برنارد رجلاً ذا نفوذ هائل وأخلاق حميدة، وكانت له شهرة عظيمة في عمل المعجزات. أخذ هذا القديس يجوب البلاد متنقلاً من مكان إلى مكان، مصورًا بكل ما أوتي من فصاحة وبيان آلام المسيحيين في الشرق، ورجاسات أعدائهم في الأراضي المقدسة، ذاكرًا بعض الانتصارات التي حازتها جيوش الرب هناك.

وكان أول من تطوع لهذه الحرب لويس السابع ملك فرنسا، الذي كرّس نفسه هو والملكة وعدد كبير من أشرافه لهذه الحرب المقدسة. وكذلك كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا بعد أن استمر وقتًا متوقفًا عن تلبية نداءات برنارد وتوسلاته أعلن أخيرًا استعداده لإطاعة الدعوة لخدمة الله. كذلك حذا حذوه كثيرون من أشراف ألمانيا الذين حملوا الصليب - كما كان يسمى هذا العمل حينذاك - ولكنه كان صليبيًا مجردًا من كل حق أو نعمة. ولم يكن إلا خدعة من الشيطان الذي استطاع بمكره أن يستخدم هذه العلامة المقدسة لمقاتلة الملايين وإذلالهم.

لم يكد يُعلن عزم هؤلاء الملوك على خوض غمار الحرب إلا وقامت الاستعدادات على قدم وساق، فجمعت الجيوش والمؤن من كل نوع، وفي سنة ١١٤٧م. تحركت الحملة ووجهتها فلسطين. وكانت حقًا حملة عظيمة يربو عددها عن تسعمائة ألف معظمهم من الفرنسيين والألمان والإيطاليين، الذين ساروا وهم معتقدون، كما أكد لهم برنارد، بأن السماء من فوق تعاونهم، ولذلك كانوا يتوقعون بأن هذه ستكون الضربة القاضية على المسلمين، وأن مملكة أورشليم ستثبت نهائيًا، وأن السلام سيكون مضمونًا للمسيحيين اللاتينيين. وقد اختلفت الحرب الصليبية الثانية عن سابقتها في بعض الوجوه من بادئ الأمر، فتلك كانت ثمرة لحماس شعبي عام، وأما هذه فكانت عبارة عن حركة أوروبية عظيمة يقوم على رأسها ملكان يعاونهما فيها أشرافهما، وتعضدهما أمم كاملة بكل ثروتها ونفوذها، ولكنها فشلت في غرضها كما فشلت حملة بطرس الناسك تمامًا. فقد خانهم اليونانيون الظالمون خيانة كبرى، لأنهم كانوا يخافون من الصليبيين أكثر من خوفهم من المسلمين. فوصول مائة وأربعين ألفًا من الفرسان الأبطال بحاشيتهم وخدمهم، علاوة على جيوش المشاة، والكهنة والرهبان والنساء والأولاد، الذين بلغ مجموعهم جميعًا ما يقرب من مليون أدخل الرعب في قلوب اليونانيين، حتى أن الإمبراطور أرسل إليهم وفودًا يستحلفونهم بأن لا ينووا الشر بالإمبراطورية. ولكن لم يلبث خوفهم أن انقلب عداوة، فعندما وصل الصليبيون إلى الأراضي الإمبراطورية ابتدأت المصاعب تكتنفهم من كل جانب.

إن تاريخ الحملة الصليبية الثانية في الأراضي المقدسة لهو أكثر إيلامًا وأشد خزيًا من الحملة الأولى. ففي عام ١١٤٩م رجع كونراد ولويس إلى أوروبا بأفراد قلائل من الجيش العرمرم الذي كان معهما. فما الذي حلّ بالآخرين؟ إن عظام هؤلاء المساكين كانت تُرى ملقاة على رمال الطرق والصحاري التي مروا فيها. فمليون من الأنفس البشرية ذهبت ضحية في بحر سنتين أو أقل. وارتفعت أصوات التذمر والحنق ضد برنارد بصفته الكاهن الذي كان السبب في هذه الحملة المشئومة بواسطة وعظه ونبواته ومعجزاته. ولكن هذا الراهب الداهية تمكن من إقناع الناس بأنه كان مصيبًا في كل ما قال وعمل، وأن فشل الحملة لم يكن سوى قصاصًا عادلاً نتيجة لخطايا الصليبيين. من ذلك نرى أن الحرب الصليبية الثانية لم تكن لها أية نتيجة سوى سلب أوروبا جزءًا عظيم من ثروتها وإهلاك جمع غفير من زهرة شبابها وجيوشها دون أن تتحسن حال المسيحيين في الشرق بأي شكل كان.

الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩(م)

في عام ١١٨٧م أغار صلاح الدين، سلطان مصر الشهير، على الأراضي المقدسة على رأس جيش كبير، وغرضه المُعلَن استعادة بيت المقدس من قبضة المسيحيين. ووصل إلى طبرية وهناك انتصر على أعدائه نصرة عظيمة، أخذ بعدها يزحف إلى

أسوار المدينة المقدسة فحاصرها، وأخذها عنوة وأسر ملكها. وسلمت المدينة لصلاح الدين في ٣ أكتوبر، فتوارى الصليب وتبددت الآثار وامتهنت الأماكن المقدسة، وعادت العبادة الإسلامية كما كانت. ولكن مع ذلك كان تصرف صلاح الدين، وهو المسلم المنتصر، خاليًا كل الخلو من روح الانتقام التي ظهرت من الفرنجة بقيادة جدفري، فقد حافظ على القبر المقدس وسمح للمسيحيين بزيارته في نظير إتاوة معلومة. أما كرمه وتسامحه في معاملة أسراه فهو أمر قد أشاد به كل الكتّاب وأجمع عليه كل المؤرخين. فقد أطلق الآلاف من الأسرى بلا دية، وأرسل عددًا كبيرًا إلى أوروبا على نفقته الخاصة، كما أنه سمح للمسيحيين بالبقاء في أماكنهم بشرط أن يدفعوا الجزية.

هذه المصائب الجديدة، وخاصة ضياع أورشليم أثار أعظم المخاوف والانزعاج في المسيحية عامة. ولم يمض وقت طويل إلا واستغاث المسيحيون في الشرق بإخوتهم في الغرب، ولكن هؤلاء صموا آذانهم في بادئ الأمر. كانت قد انقضت أربعون سنة بعد الحملة الأولى، فيها بالجهد تنفست أوروبا الصعداء ونسيت أو تناست مصائبها الماضية، وأخذت تستعيد شيئًا من قواها. ولكن سرعان ما ظهر على المسرح البابا كليمنت الثالث الذي قام يدعو إلى امتشاق الحسام مرة ثانية. أما الكرادلة فأخذوا عهدًا على أنفسهم أن لا يمتطوا جوادًا "طالما أن الأرض التي وقفت عليها أقدام السيد هي مدوسة تحت أقدام الأعداء"، وعزموا على أن يجولوا مبشرين بالحرب سيرًا على الأقدام. ومع أن الناس كانوا في بادئ الأمر مترددين في المغامرة بأنفسهم في هذا المشروع، إلا أن الاهتمام بالأمر ازداد شيئًا فشيئًا. وتقدم أخيرًا ملوك أوروبا الثلاثة العظام يطلبون الصليب من أيدي البابا، بعد أن فرضوا ضريبة على رعاياهم باسم "عشور صلاح الدين" لكي يسدوا بها نفقات الحرب.

وفي عام ١١٨٩م. بدأت الحملة الصليبية الثالثة وعلى رأسها فريدريك الأول ملك ألمانيا الملقب "بربروسا"، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، ورتشارد الأول ملك إنجلترا الملقب "قلب الأسد" أو "الملك أسدي القلب". أما بربروسا، وكان عمره وقتئذ ستة وسبعين سنة، فسار بجيشه الكبير عن طريق هنغاريا وبلغاريا وبلاد اليونان، أي في نفس الطريق التي سارت فيها الحملات السابقة. وقد لاقى فيها ما لاقاه الأولون تمامًا، فوجد مضايقات من هنغاريا وبلغاريا، كما وجد خيانة من اليونانيين. ثلاثة وثمانون ألفًا من الألمان عبروا الدردنيل، وساروا بضعة أيام في آسيا الصغرى بلا أدنى مقاومة، ولكن المرشدون والتراجمة الذين رافقوهم من قبل اليونانيين كانوا قد أخذوا رشوة لكي يضلوهم الطريق، وفعلاً بعد أن أخذوهم إلى قلب الصحراء اختفوا عنهم وفروا هاربين. ولم تكن هناك أسواق ليبتاعوا منها حاجاتهم، فماتت الخيول من قلة الطعام، وما كان من الجنود إلا أن يلتهموا جثثها التهامًا. ومع ذلك استطاع بربروسا أن يحتفظ بالنظام في صفوف جيشه، وبالعدد القليل الذي بقي منهم هاجم أعداءه الأتراك بكل بسالة وشجاعة، وكان النصر حليفه، فقتل منهم عددًا كبيرًا. وفي الوقت نفسه انقض ابنه على مدينة أيقونية وأرغم سلطانها على الاستسلام ودخل المدينة ظافرًا. كانت هذه فرصة طيبة لجيش الصليبيين الذين انتعشوا بخيرات أيقونية واستعادوا قوتهم ونشاطهم، فتقدموا إلى الأمام يحدوهم الأمل بأنهم لا بد واصلون سريعًا إلى قبلة أنظارهم وغرض رحلتهم. ولكن لسوء الحظ مات زعيمهم في العام التالي بالقرب من طرسوس، ولم يمض زمن طويل حتى مات فردريك الأصغر أيضًا، فبدأ الفشل يدب في البقية الباقية، حتى أن أغلبهم تخلوا عن الحملة ورجعوا قافلين إلى أوروبا. وكانت النتيجة أن ثمانية وستون ألفًا من الجيش الألماني هلكوا في أقل من سنتين.

أما الجيوش البريطانية والفرنسية فوصلت إلى فلسطين عن طريق البحر في سنة ١١٩٠م. واشتركت في الحرب تحت راية واحدة، ولكن بعد الاستيلاء على عكا رجع فيليب ملك فرنسا إلى أوروبا تاركًا ريتشارد ليواصل الحرب. وقد قام هذا الملك الأسدي القلب بواجبه خير قيام. أما أخبار شجاعته وبسالته فقد شادت بها كتب التاريخ الإنجليزية منها والإسلامية على حد سواء، حتى أننا لسنا في حاجة إلا أن نذكر أنه هزم صلاح الدين عند عسقلون. وبعد أن وصل إلى اتفاق يتضمن بعض الامتيازات للحجاج في أورشليم والجهات الواقعة على الساحل رجع إلى إنجلترا في سنة ١١٩٤م، وإن كان رجوعه هذا لم يتم إلا بمشقة شديدة ونفقات طائلة. ومات صلاح الدين في سنة ١١٩٥م. بينما كان ريتشارد لا يزال في طريقه إلى إنجلترا. ويقال إنه بانتهاء الحملة على هذا الشكل هلك من الصليبيين ما يزيد عن نصف مليون من الأنفس، إذ في حصار عكا وحدها هلك من المسيحيين مائة وعشرون ألفًا ومن المسلمين مائة وثمانون ألفًا. تلك كانت الحرب المقدسة التي أوحت بها مشورات روما الجهنمية.

باقي الحملات الصليبية (١١٩٥-١٢٧٠م)

كانت الحملة الخامسة التي بدأها الإمبراطور هنري السادس سنة ١١٩٥م سياسية في مراميها أكثر منها دينية، فلم يكن غرضها الرئيسي خلاص الأرض المقدسة بقدر ما كان إبادة الإمبراطورية اليونانية. ولكن بعد قليل من الانتصارات مات هنري، فصمم الألمان على الرجوع إلى بلادهم. أما البابا سلستين الثالث، الذي كان السبب في إثارة تلك الحرب، فلم يعش بعد الإمبراطور إلا بضعة أشهر ومات سنة ١١٩٨م.

إن وصف الحملتين الخامسة والسادسة فيه تكرار كثير لما جاء في الحملات السابقة نظرًا للتشابه الكبير بينها، ولكن الحملتان السابعة والثامنة تستحقان شيئًا من التأمل.

كان لويس التاسع ملك فرنسا المعروف باسم القديس لويس يعتقد أن السماء قد خلّصته من مرض خطير أصابه لكي يقوم فيُرجع الأراضي المقدسة. وما كان في استطاعة أي شيء أن يزحزحه عن هذا الاعتقاد أو أن يقف في طريق تنفيذه لنذره، وبعد أربع سنوات من التأهب والاستعداد أبحر إلى جزيرة قبرص في سنة ١٢٤٩م ترافقه الملكة وإخوته الثلاثة وجميع أبطال فرنسا وفرسانها، وبعد أن حاز بضع انتصارات ليست ذات بال، واستولى على دمياط، انقلب له ظهر المجن، فانهزم شر هزيمة وأُخذ أسيرًا هو واثنان من إخوته. أما اللورد سالسبري الإنجليزي (إرل أوف سالسبري) الذي رافق لويس فهلك أيضًا في هذه الهزيمة مع معظم أتباعه من الإنجليز. هذا وقد أخذ الوباء والجوع يعملان عملهما المرعب في صفوف الفرنجة ويفتكان بهم فتكًا. ليس هذا فقط بل ازداد البلاء وكبر المصاب إذ غرق الأسطول. وأخيرًا افتدى الملك بدية كبيرة وأُطلق سراحه بعد أن وصل الطرفان إلى صلح لمدة عشر سنوات، وبعد أن زار الملك بعض الأماكن المقدسة بكل هدوء وسكينة قفل راجعًا إلى فرنسا. ولكنه في وسط متاعب الحكم الكثيرة في فرنسا لم ينسَ مطلقًا نذره الخاص بالحروب الصليبية، وكان هذا الفكر متسلطًا عليه دائمًا وهو أن السماء قد ائتمنته على هذه المأمورية العظيمة.

وأخيرًا، في ١٤ مارس سنة ١٢٧٠م، بدأ حملته الثانية وهي الحملة الصليبية الثامنة، وقد كانت صحته قد اعتلت وجسمه صار ضعيفًا هزيلاً، حتى أنه لم يكن يقوى على حمل سلاحه أو الانتظار طويلاً على ظهر جواده، ولكنه لم يكد ينزل بجيشه على شواطئ إفريقيا حتى تبددت جميع أحلامه الذهبية، فجيوش السلطان، والمناخ، والعطش، والجوع، ابتدأت كلها تعمل عملها المريع، فهلك الجيش برمته تقريبًا، ولويس نفسه مع ابنه يوحنا ترستان غرقا وماتا في شهر أغسطس، فرجع الباقون إلى أوروبا. وهكذا انتهت هذه الحروب التي يدعونها "مقدسة"، تاركة الغرض الرئيسي من الحملات الصليبية كلها في حيز الخيال كما كان الأمر تمامًا قبل أيام بطرس الناسك.

حرب الأطفال الصليبية (١٢١٣م)

بين الحرب الخامسة والسادسة، حوالي سنة ١٢١٣م. وصل الحماس والجنون في ذلك العهد إلى حد أن أنتج حملة من الصبيان دون سواهم. وتتلخص هذه الحملة في أن غلامًا من الرعاة يسمى ستيفن بالقرب من فندوم في فرنسا قال إن المخلِّص قد جاءه في رؤيا وكلّفه بالتبشير بالصليب. كان لأقواله الغريبة تأثير على طبقة الأولاد نظيره، فاجتمع حوله العدد الكثير منهم، وأخذوا يسيرون إلى الأمام متوقعين أنهم سيقهرون الأعداء بترتيل الأناشيد وترديد الصلوات، فاخترقوا المدن والقرى رافعين الأعلام والصلبان وهاتفين كل الطريق: "أيها الرب ساعدنا في إرجاع الصليب الحقيقي المقدس". وحوالي هذا الوقت قامت حركة شبيهة بهذه في ألمانيا، ويقال إن العدد كان يزداد شيئًا فشيئًا في الطريق حتى وصل إلى نحو تسعين ألفًا من الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة، كلهم على أهبة الاستعداد للزحف على الأراضي المقدسة، ولكن سرعان ما تلاشت الجماعة كلها في وقت قصير، فكثير من هؤلاء الأولاد المنكودي الحظ ماتوا جوعًا وتعبًا، وآخرون منهم ذهبوا ضحية لغدر أصحاب السفن الذين وعدوهم بتوصيلهم إلى شواطئ فلسطين، ولكن يقال إنهم باعوهم كرقيق. هكذا كان هوس ذلك الزمان وجنونه، حتى أنه بدلاً من منع تلك الحركة أعلن البابا أن غيرة هؤلاء الغلمان أخجلت برود الآباء وجمودهم[٣/٣١].

تأملات في الحملات الصليبية

كثيرة ومتعددة هي آراء المؤرخين في منشأ الحروب الصليبية وصفتها وآثارها، ولكنهم يتفقون جميعًا على ما كان لها من أثر هائل في مجرى تاريخ البشرية، وخاصة في أوروبا وآسيا،

فقد كانت هي الأداة التي استخدمتها عناية الله المطلقة السلطان في تغيير النظام الاجتماعي في أوروبا عامة. وقد تناول هذا التغيير العظيم جميع الأفراد من العبد إلى الحر ومن السيد إلى المسود، ذلك أن عدد اللوردات أرباب الحقول والإقطاعيات قلّ وتضاءل، فارتفع مركز المزارعين وتحسنت حالتهم الاجتماعية بعد أن كانوا أشبه بالعبيد. وفي الوقت نفسه عظمت قوة الملوك وازداد سلطانهم، وتقدمت التجارة تقدمًا عظيمًا نظرًا للعلاقة التي أوجدتها هذه الحروب بين الشرق والغرب. وفي الوقت نفسه نزل الأشراف والأمراء من سماء مجدهم وغناهم لما تكبّدوا من الخسائر في تلك الحروب، فكثيرون منهم كانوا قد رهنوا أراضيهم إلى المقتدرين من عامة الشعب، فانتقلت هذه الأراضي مع الزمن إلى أيدي هذه الفئة الأخيرة، مما أدى أخيرًا إلى قيام طبقة ثالثة في الأمة هي الطبقة المتوسطة، التي يعزى إليها فيما بعد فضل إيجاد الحريات في أوروبا سواء أكانت دينية أم مدنية.

على أن البابوية هي أول المكتسبين من هذه الحروب الصليبية، التي كان من نتائجها المباشرة أن ازدادت قوة البابا وسيادته ونفوذه وثروته، وهكذا كان الحال مع رجال الإكليروس ومعاهد الرهبنة. وهذا وحده كان مطمح البابوية الأسمى وغرض سياستها الأوحد، فالذي حارب من أجله هلدبراند ورآه من بعيد اقتنصه أوربان واستخدمه بكل مكر وقوة، وقد حصل على هذه السيادة بوسائل في ظاهرها صالحة ومقدّسة ولكنها في حقيقتها خبيثة وشيطانية إلى أقصى حد. فنظريته كانت هذه: "إن المحارب الصليبي جندي للكنيسة، ولها وحدها ولاؤه الذي يحرره من كل ولاء آخر". هذه نظرية جامعة مانعة لا نظير لها في تاريخ البشر قاطبة، ظاهرها تقوى وورع، وباطنها مكر وجشع.

عندما نصّب أوربان نفسه رئيسًا لجيوش الإيمان في سنة ١٠٩٥م اتخذ لنفسه صفة المدير لحركاتهم والمدبر لبركاتهم، مدعيًا أنه هو مستشارهم الذي لا يخطئ ومشرعهم المعصوم الذي لا يكل ولا يعيا. قال إن الحرب ليست حربًا قومية من جانب إيطاليا أو فرنسا أو ألمانيا ضد الإمبراطورية المصرية، بل هي حرب مقدّسة من جانب المسيحيين ضد المسلمين. فالمسيحي لم يكن مدعوًا لمحاربة مسيحيًا آخر، بل كان على الجميع أن يتحدوا معًا برابطة مقدسة واحدة ضد عدوهم العام. والمزايا التي وعد بها جنود المسيح كانت سامية وعديدة كما يتبين من خطبة أوربان: غفران مؤكّد من جميع الخطايا، مع الذهاب توًا إلى فردوس الله إذا ما سقطوا في ساحة الوغى أو ماتوا في طريقهم إلى الأراضي المقدسة. بل كان هناك ما هو أكثر من ذلك، ففيما يتعلق بهذه الحياة الحاضرة أعلن البابا أن جميع الديون والالتزامات المدنية أو الاجتماعية تصبح لاغية ومنحلة بمجرد حمل الصليب. بهذه الوسيلة تلاشت كل الربط القديمة التي كانت تربط الهيئة الاجتماعية ببعضها وحلت محلها ربط جديدة، وبذلك أصبح البابا هو سيد البشرية عامة[٤٢/٣].

هيئات الفرسان الدينيين

قبل أن نترك هذا الموضوع يجدر بنا أن نلاحظ أنه أثناء هذه الحروب التي دارت رحاها بين المسيحيين والمسلمين تأسست ثلاث هيئات دينية حربية كان لها أثر عظيم فيما بعد، وهي جماعة فرسان هيكل أورشليم. والفرسان الهوسبتاليين (أي فرسان المستشفى) ثم جماعة الفرسان التيوتون، وأهم واجبات هؤلاء الفرسان طبقًا لمبادئ مؤسسيها هو حماية الفقراء ومساعدتهم والعناية بالمرضى والجرحى بين الحجاج الصليبيين، والدفاع بكل الوسائل الممكنة عن أورشليم والأراضي المقدسة. ولم تكد هذه الطوائف تؤسس حتى نالت شهرة واسعة وانضم إليها كثير من أشراف أوروبا، الذين حملوا الصليب وعاهدوا أنفسهم بأن يكونوا فرسانًا لفلسطين. ولكن الخرافات تسلطت عليهم وأفسدت مبادئهم. وبعد أن ضاعت الأراضي المقدسة مرة ثانية من أيدي المسيحيين تشتت هؤلاء الفرسان في ممالك متعددة. فجماعة الهيكليين انحلت في القرن الرابع عشر بقرار من مجلس فينا. وجماعة التيوتون انحلت في القرن السابع عشر بقرار من الحكومة الألمانية. أما جماعة الهسبتاليين فمنحهم شارل الخامس جزيرة مالطة ويُعرفون الآن باسم فرسان مالطة[١].

الفصل الحادي والعشرون

هنري الخامس وخلفاء غريغوري

الآن وقد تتبعنا بالتتالي تاريخ الحروب الصليبية التي أتت بنا إلى نهاية القرن الثالث عشر، علينا أن نرجع قليلاً إلى النقطة التي خرجنا منها عن مسار تاريخنا العام لنستجمع خيوطه مرة أخرى.

إن الحروب الطويلة المخربة التي قامت بين هنري وغريغوري بسبب نزاعهما على ما يُعرف في التاريخ بمسألة حق تنصيب رجال الكهنوت، فشلت فشلاً تامًا في الوصول إلى حسم نهائي لهذا الخلاف، فخلفاء غريغوري حاولوا جهد استطاعتهم مستعملين كل الوسائل التي في متناول أيديهم لكي ينفذوا مشروع سلفهم، ومن الجهة الأخرى كان الملك الجديد هنري الخامس مصمِّمًا على مقاومة المطالب البابوية وعلى استرداد كل ما فقده تاجه بسبب طغيان الباباوات الروحي، فمنح الأساقفة الخاتم والعصا، وألزم أساقفة ألمانيا على تكريسهم كما فعل سلفاؤه. أما عدد اللعنات والحرمانات التي صدرت ضده من المجالس والباباوات فحدِّث عنها ولا حرج، ولكنه سمح لجميعها أن تمر فوقه في سلام دون أن يأبه لأي منها. وعلى هذا استمر الصراع، ولو أن سفك الدماء كان أقل مما كان في عهد غريغوري.

منحة ماتلدا

في عام ١١١٥م ماتت ماتلدا أميرة تسكانيا العظيمة. وقبل وفاتها أوصت بجميع ممتلكاتها الواسعة للبابوية. وهذا العمل كان مخالفاً كل المخالفة للقانون الإقطاعي (أي القانون المدني في ذلك الوقت) ولكنه كان على أتم اتفاق مع القانون البابوي. وهذا فجّر شقاق جديد بين الباباوات والأباطرة بسبب هذه المنحة، إذ لو أنه سمح للبابا أن يستولي على هذه الممتلكات بدون منازع لكان قد أصبح ملكًا حقيقياً لإيطاليا، ولكن مهما كان تكريس هذه المرأة لخدمة كنيسة روما وإخلاصها في المنحة فقد كانت الوصية متناقضة مع القانون، ولم تُنفذ مطلقاً تنفيذاً فعلياً. ولو أنها ساعدت كثيراً في ازدياد سلطة الباباوات الزمنية. أما التفصيلات فلا حاجة بنا إلى ذكرها هنا، ولكن غاية ما نقول هو أن العالم وصل في ذلك الوقت إلى حالة سئم فيها الناس تاريخ الباباوات وأضداد الباباوات وما إلى ذلك من منازعات وانقسامات وتفنُّن في الخبث والرياء، وكذلك من سفك الدماء وعوامل الخراب والدمار التي استمرت لما يزيد عن نصف قرن. فكانت جميع القلوب تتوق إلى السلام وانعدمت محبة الحروب من جانب الطرفين، وكان تيار الكوارث العامة أشبه بفيضان أخمد نيران الخلاف الديني والمدني التي أشعلها غريغوري وألهبها خلفاؤه. وبعد محاولات كثيرة صار توقيع اتفاقية الصلح بين مندوبي البابا والإمبراطور عام ١١٢٢م بالشروط الآتية:

اتفاق ورمز

ولو أن البابا كالكستس كان من المتمسكين بالمطالب البابوية أشد تمسك، إلا أنه إذ رأى الرغبة العامة في السلام أصدر تعليماته لمندوبيه بأن يعقدوا في منتز مجمعاً عاماً يضم كافة أساقفة فرنسا وألمانيا للبحث في مسألة إعادة السلام والوفاق بين البابوية والإمبراطورية. ولما تم الاتفاق على هذه المعاهدة الشهيرة وتوقع عليها بخاتم الإمبراطورية الذهبي، خرج المجتمعون من منتز إلى حقول فسيحة بالقرب من مدينة ورمز، وهناك اجتمعت جماهير لا عدد لها لكي تشاهد تبادل وثائق هذه المعاهدة التي كانت ستعيد إلى كل أوروبا سلامها الديني والمدني. وقد تمت مراسيم الاحتفال طبقاً لعادات ذلك العهد مع قداس عظيم وصلاة شكر من أسقف أوستيا الذي تفاوض مع الإمبراطور، وباسم البابا منحه قبلة السلام.

وهذه المعاهدة صارت تعتبر من ذلك الوقت إلى الآن المستند الأساسي في تبيان حقوق الإمبراطورية. وهاك نصوصها:

* إن الإمبراطور يسلّم لله وللقديس بطرس وللكنيسة الكاثوليكية حق تفويض السلطان للكهنة بواسطة منح الخاتم والعصا، وهو يمنح لرجال الإكليروس في كافة أنحاء الإمبراطورية حق حرية الانتخاب، ويعيد إلى كنيسة روما وإلى جميع الكنائس الأخرى، وكذلك إلى الأشراف، كافة الممتلكات والمقاطعات التي استولت عليها الإمبراطورية أثناء الحروب في عهده وعهد أبيه، فيعيد الممتلكات التي تحت يده حالاً، أما الممتلكات التي في قبضة غيره فيعد أن يستعمل كل نفوذه لإرجاعها كما كانت، وهو يمنح السلام للبابا ولجميع وأعوانه، ويتعهد بأن يحمي كنيسة روما كلما دعي الحال.
* كذلك قَبِل البابا أن يتم انتخاب جميع الأساقفة أو رؤساء الأديرة في حضور الإمبراطور أو نائبه، بشرط أن يخلو من الرشوة أو استعمال العنف، مع حق الاستئناف في الحالات الانتخابية المختلف عليها. ويكون الاستئناف أمام هيئة مختلطة من الأساقفة والحكام العلمانيين. ويكون للأسقف المنتخب في ألمانيا كافة الحقوق الزمنية مع السيادة على جميع المقاطعات والممتلكات التي للإكليروس ما عدا ما كان منها تابعاً مباشرة لبابوية روما، وعليه أن يقوم للإمبراطور بتنفيذ كافة الواجبات المتعلقة بتلك المقاطعات. أما في باقي أجزاء الإمبراطورية الأخرى فيجب أن تسلّم للأسقف كافة الملكيات في بحر ستة أشهر من رسامته. هذا والبابا يمنح السلام للإمبراطور وجميع أتباعه ويعد بالمعونة والمساعدة في كافة الأحوال المشروعة(٣/٤٢)(١١/٤٢).

بهذا انتهى ذلك النزاع الذي استمر ينخر في جسم ألمانيا زهاء خمسين سنة كانت فيها مسرحاً للحروب الأهلية. واستراحت إيطاليا أيضاً من الإغارات المريعة التي تعرضت لها إبان تلك المدة المشئومة. إن نظرة واحدة إلى هذا الاتفاق وما تنازل به كل فريق من الامتيازات الطفيفة، يرينا مبلغ الشر العظيم والإثم الجسيم الذي تورط فيه أولئك الذين كانوا يعملون على إطالة أمد ذلك الصراع المروع. أما كالكستس وهنري فلم يعمّرا طويلاً بعد اتفاق ورمز، فمات أولهما في سنة ١١٢٤م ومات الثاني عام ١١٢٥م.

ولسنا في حاجة لأن نسهب في حوادث ذلك القرن من الزمان الذي تميز بالحروب الصليبية ونتائجها التي أشرنا إليها آنفًا، ولكن يجمل بنا لأن نشير باختصار إلى رجلين أو ثلاثة ظهروا في تلك الفترة وأسماؤهم معروفة عندنا إلى هذا اليوم، كما أن تاريخهم يقودنا إلى معرفة أسرار الأديرة وأعماقها. هذا ويمكننا من تاريخ مثل هؤلاء الأفراد أن نعرف الحالة الدينية والأدبية والأخلاقية بوجه عام أكثر مما نعرفه من مجرد الدراسة الإجمالية.

القديس برنارد رئيس دير كليرفو

أشهر هؤلاء الأفراد هو القديس برنارد الذائع الصيت، وهو يعتبر أحسن ممثّل للمذهب الكاثوليكي رأته الكنيسة منذ عهد جيروم وأمبروز وأغسطينوس وغريغوري. وكان هو زعيم المسيحية ورأسها المدبر زهاء نصف قرن. وكان محط أنظار أوروبا كلها، حتى أن صيته فاق صيت جميع الباباوات، وكان أسمه يغطي على أسمائهم جميعًا. يقول أحد المؤرخين "إنه كان المركز الذي دارت حوله حوادث التاريخ المسيحي في ذلك الوقت، وكان عقله هو المدبّر والمرشد والمنعش للمسيحية اللاتينية. وكانت عنده تنتهي جميع أفكار الناس الدينية، فكان هو الحاكم المتسلط على الأديرة وعلى مجالس الحكم الزمنية وعلى تطورات الفكر في عصره. ويظن فيه أبناء جيله المعجبين به أنه هو الذي دحر أبيلارد وأفكاره، لا بل هو الذي قضى على ما كان أشد خطرًا من ذلك، أي مبادئ وتعاليم أرنولد الذي من بريشيا". إن كل من قرأ تاريخه لا يجد في هذه الصورة أية مبالغة ولكن لكي نفهم أكثر دقائق حياته يجب علينا أن ننظر أولاً إلى نشأته وتربيته.

وُلد برنارد من أسرة شريفة في بورجنديا. وكان أبوه تسيلين فارسًا على جانب عظيم من الشجاعة والتقوى طبقًا للأفكار الدينية السائدة في ذلك الوقت. كذلك كانت أمه أليث من أسرة راقية ومثالاً في التقوى والإحسان. وقد ولد برنارد، ابنهما الثالث، في فونتين عام ١٠٩١م وكان من عهد طفولته مفكرًا وميالاً للدين كثير الدرس والاطلاع. وماتت أمه التقية وهو لا يزال يافعًا، تاركة وراءها ستة بنين وابنة واحدة. بذلك كانت لبرنارد مطلق الحرية في أن يختار مصير نفسه. ولم تكن هذه معضلة أمامه، إذ كان في عزمه أن يكون أحد رجلين لا ثالث لهما: إما فارسًا مجاهدًا ومحاربًا، وإما راهبًا صائمًا ومصليًا. وأخيرًا قرر قراره أن ينزوي عن العالم ويكرس نفسه لحياة الرهبنة. وفعلا دخل دير سيتو وهو في الثالثة والعشرين من عمره.

لما وصل خبر هذا القرار إلى أسرته قاوموه أشد مقاومة، وكان أبوه تسيلين في ذلك الوقت وأخواه جيدو وجيرار جنودًا محاربين في جيش دوق بورجنديا، ولكنك تستطيع أن تحكم على قوة شخصية برنارد لو علمت أنه تمكن من إقناع إخوته الواحد بعد الآخر، لا بل وأخته أيضًا أن يكرسوا أنفسهم للرهبنة. وفى وقت قصير توارت الأسرة بأجمعها داخل جدران الدير.

القديس برنارد والرهبنة

كانت الرهبنة في نظر الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت هي الطريق الوحيد للكمال المسيحي الحقيقي، ولذلك رأينا أن نقدم لقارئ القرن العشرين شيئًا من تفصيلات هذا النظام حتى يستطيع أن يحكم لنفسه عن مبلغ العمى الروحي الذي كان يتخبط فيه حتى المؤمنون الحقيقيون أمثال برنارد، وعن المدى الذي ذهبوا إليه في تحريف اسم المسيحية المقدس. وحقًا لو لم تكن الأدلة من المتانة بحيث لا يمكن دحضها أو الشك في صحتها لما كان في الإمكان تصديق هذه الحقائق الآن. فترك العالم والوحدة والتقشف وتعذيب الجسد كانت هي الطريق الوحيد المأمون إلى السماء. وحسنات الرهبنة المزعومة، وليس عمل المسيح الكامل، كانت هي الأساس الوحيد الذي عليه يفتح القديس بطرس للنفس أبواب المجد. ومن هنا كانت تلك الحقيقة المرة، وهي أنه كلما كان الراهب أكثر إخلاصًا كلما أشتد في تعذيب نفسه بكل أنواع التعذيب والشقاء. وهذا كان وهمهم الباطل، "على قدر البُعد من الإنسان يكون القرب من الله. إن مقياس القداسة هو الآلام. كل العواطف البشرية والاحساسات الاجتماعية، وجميع الربط العائلية والعلاقات - مهما كانت - يجب أن تُنزع من أصولها من النفس المتألمة. فالألم والصلاة، والصلاة والألم، يجب أن يكون الشغل الشاغل بلا ملل أو كلل لحياة القداسة الحقة".

حقًا إنها لأكبر خدعة من الشيطان وأعظم مشورة من جهنم. ليكن الكتاب المقدس هو مرشدك الوحيد أيها القارئ العزيز، وثق ثقة كاملة أن كل من يؤمن بالرب يسوع المسيح قد خلص، ليس أنه سيخلص، بل هو مخلَّص الآن، وأن كل من يؤمن به إيمانًا حقيقيًا لا بد وأنه يتبع البر ويعمل الأعمال الصالحة، وذلك بفضل الطبيعة الإلهية وقوة الروح القدس.

الأديرة السِستركانية

كان ستيفن هاردنج، وهو رجل إنجليزي، أصلا من شربورن في مقاطعة دورستشير، رئيس دير السستركيان في سيتو من أعمال فرنسا. وقد اتبع أحكام بندكت مع زيادة في الشدة والتقشف، فكان الرهبان في ديره يتناولون وجبة واحدة مشتركة في اليوم، وكانوا لا يتناولونها إلا بعد أن يكونوا قد قضوا اثنتي عشرة ساعة في العمل، ولم يذوقوا قَط شيئًا من اللحم أو السمك أو البيض، أما اللبن فكان نادرًا جدًا.

يقول كاتب تاريخ حياة برنارد إنه عندما كان يريد أي راهب دخول الدير في سيتو كانت العادة أنهم كانوا يجعلونه ينتظر أربعة أيام قبل أن يأخذوه إلى الكنيسة في حضور الرهبان مجتمعين. وكان يجثو بوجهه على الأرض أمام المنبر، فيسأله الرئيس عما يريد فيجيب قائلاً: "رحمة الله ورحمتك". عندئذ يأمره الرئيس بالقيام ويتلو عليه أحكام الدير وما فيها من شدة، ويسأله ثانية عن نيته، فإذا أجاب مرة ثانية أنه مستعد للمحافظة على جميع هذه الأحكام، يقول له الرئيس: "إلهي الذي بدأ فيك عملاً صالحًا هو يكمل". وكانت تتكرر هذه العملية ثلاثة أيام متوالية. وبعد اليوم الثالث كان يمر من دار الضيافة إلى صوامع المبتدئين، ومن ذلك الوقت يبتدئ عام الاختبار بالنسبة له.

وإليك ما كان يُتبع في الدير أثناء عام الاختبار لراهب مثل برنارد. في تمام الثانية صباحًا كان يدُق الجرس الكبير، فيسرع الرهبان في القيام حالاً من فراشهم الخشن ويسيرون في صمت عميق في ممرات الدير المظلمة حتى يصلوا إلى الكنيسة، وهناك بالقرب منها، تجد معلَّقًا في السقف مصباحًا واحدًا صغيرًا يلقي بنور ضئيل يكفي لأن يريهم باب البناء فقط. وبعد الصلاة أو الخدمة كانوا يعودون، وبعد قليل من الراحة يقومون ثانية لصلوات الصباح التي كانت تستغرق ساعتين. بعد ذلك كانت تأتي خدمات أخرى تختلف مواقيتها باختلاف الفصول، صيفًا أو شتاء، وهكذا يستمرون في خدمات دينية مختلفة حتى الساعة التاسعة. وعندها يذهبون للعمل في الحقول. وفى الساعة الثانية بعد الظهر يتناولون الغذاء. وعندما يحل المساء يجتمعون للصلوات المسائية وفى الساعة السادسة أو الثامنة، بحسب الفصول، ويختمون اليوم بالخدمة النهائية وبعدها يتوجهون في الحال إلى مأواهم.

ولكن مهما كان اعتقادنا في شدة هذا النظام وصرامته فهو لم كافيًا البتة في نظر برنارد لإذلال نفسه وإشباع روحه التقشفية، فكان يصرف

وقته في الوحدة والدرس، ويعتقد أن الوقت المخصص للنوم هو خسارة، وكان يشبه النوم بالموت حاسبًا أن النائمين يمكن اعتبارهم كأموات في نظر الناس كاعتبار الأموات نائمين في نظر الله. كان يقرأ الكتاب باجتهاد وكان يجاهد في تكميل ما كان يعتقده الدين الملائكي الكامل، فقطع العلاقة بين جميع حواسه والعالم الخارجي حتى أصبحت وكأنها ماتت عن كل المؤثرات الخارجية فكانت عينه لا تستطيع أن تخبره عما إذا كانت غرفته مسقوفة من الداخل أم لا وعما إذا كان لها نافذة واحدة أم ثلاث، وقد فقدت حاسة التذوق عنده كل شعور حتى لم يكن في إمكانه تمييز الطعام الفاسد من الجيد، فكان يأكل طعامه القليل دون أن يتذوق له طعمًا. كان يشرب الزيت ولا يميزه من الماء. كل ذلك كان يعمله هذا المسكين الواهم لكي ينال الخلاص، مع أننا لا نشك البتة في أنه كان مخلّصًا فعلاً بالنعمة. والأغرب من كل ذلك أنه لم يكن مكتفيًا بكل هذا التقشف، فكان يتكلم عن نفسه بأنه لم يكن سوى مبتدئ، وربما كان آخرون قد أدركوا أما هو فلم يكن إلا مبتدئًا في قداسته.

اعتراف برنارد

مر عام منذ دخول برنارد إلى الدير في سيتو، وانتهى اختباره، وجاء دور اعترافه. عُمل ذلك الاحتفال بكل وقار واحترام وكان فيه كل ما من شأنه أن يبعث على الرهبة والجلال، فأُتي به إلى كنيسة الدير، وهناك أمام الجميع تخلى عن كل شيء عالمي كان في حيازته، وحلق شعر رأسه وأُحرق في إناء خاص. ثم تقدم عند أقدام شيوخ الكنيسة وتلا صيغة الاعتراف ورشم الصليب، وأخذ يتقدم إلى أعتاب الهيكل حتى اقترب إلى المذبح وهو جاثٍ على ركبتيه، وهناك وضع صك الاعتراف على جانب المذبح الأيمن وقبّله، ثم تناول رئيس الدير الواقف على الجانب الآخر من المذبح صك الاعتراف، بينما كان الراهب المستجد يتراجع إلى الأعتاب مرة ثانية زاحفًا على يديه ورجليه وهو يستعطف ويقول "اقبلني يا رب"، مكرّرًا هذا القول ثلاث مرات، فيجيب عليه كل الرهبان بأنشودة "المجد للآب". وعندها بدأ رئيس المغنين يرتل مزمور «ارحمني يا الله» ومن ورائه جوقة المرتلين على كلا الجانبين. وفى هذه الأثناء جثا الراهب الجديد عند قدمي رئيس الدير مكرّرًا نفس العمل عند أقدام الوكيل وأقدام الإخوة وحتى أقدام المرضى لو فُرض أن كان البعض منهم هناك. وعندما قارب المزمور على الانتهاء اقترب الرئيس وبيده الصليب إلى الراهب المستجد وأمره بالقيام، ثم نزعوا من عليه الثياب العلمانية وألبسوه قميص الرهبنة، بعد أن باركه الرئيس برش الماء المقدس عليه. عندئذ أنشد المغنون قانون الإيمان، فصار برنارد راهبًا وأخذ مكانه بين جوقة المرتلين*.

برنارد يترك سيتو

كان دخول برنارد وأقاربه وأتباعه إلى دير سيتو خطوة فاصلة في تاريخ هذا الدير، فقد ذاع صيته وازدحمت أروقته، حتى أصبح من الضروري تأسيس دير آخر. فما كان من ستيفن الرئيس العام للأديرة السستركانية بفرنسا إلا أن انتخب برنارد ليكون رئيسًا للجماعة الجديدة. وهناك في الكنيسة اجتمع اثنا عشر راهبًا مع رئيسهم الشاب - ممثلين الرب ورسله - ووضع ستيفن الصليب في يد برنارد الذي خرج من سيتو على رأس جماعته الصغيرة. وبعد أن ساروا جهة الشمال مسافة مائة وخمسة وأربعين كيلومترًا تقريبًا وصلوا إلى وادٍ في مقاطعة شمبانيا كان يسمى "وادي المر" ولكن أصبح اسمه الآن "كليرفو" أي الوادي البهيج، وكانت عزلة فاصلة فيها احتملت هذه الجماعة الصغيرة مشقات عظيمة، ولكن سرعان ما بنوا لأنفسهم وبأيديهم بناء بسيطًا يقيهم من العواصف والمطر والحر والبرد، وكانوا مضطرين لأن يناموا على أوراق الأشجار والجذور المختلطة بالحصى الخشن، إلى أن تنازل الرب في رحمته وسد حاجتهم من إحسان القرويين المجاورين لهم، وطبعًا كانت تعزى هذه المساعدات من مال وغلال إلى وساطة القديس برنارد المعجزية وإلى تقواه وصلواته ورؤياه النبوية، ولكن الرب تبارك اسمه تحنن على هذه الجماعة المنعزلة وخلصهم من موت محقق.

ولما سمع وليم دي شامبو أسقف شالون بأن حياة برنارد كانت مهددة بالخطر بسبب تطرفه في التقشف وإماتة الجسد تمكن من إخراجه من كليرفو مدة سنة كاملة وأرغمه على تناول الطعام اللازم، وأخذ الراحة الضرورية، وبذلك نجا من انتحار بطيء وموت محقق. وقد أتى وقت بعد ذلك فيه أظهر برنارد عدم استحسانه لهذا التقشف المفرط الذي أضعف جسده وأضاع قوته.

قوة برنارد في الوعظ

بعد هذه المدة، كما يقول مؤرخ حياته، ذاع صيت برنارد وانتشر نفوذه بكل سرعة، وكان من جراء تقشفه الصارم وإذلال نفسه الشديد

---

* هذا الملخص مأخوذ من كتاب "حياة القديس برنارد" لجيمس موريسون[19].

إن تضعضعت صحته ولم يعد في إمكانه العمل مع إخوته في الحقول للحصول على قوتهم اليومي، ولكنه كان يعمل ويكد بقلمه، واحتفظ بكل قوته المؤثرة وفصاحته المقنعة، وكان وجهه الشاحب اللون وجسمه النحيف وجسده الضعيف على عكس ما كان عليه صوته الجهوري، مع بلاغة في التعبير وتدفق في اللغة وحماس في الخطابة وروعة في الأسلوب تأخذ بمجامع القلوب، كما لو أنه كان يصيغ كلماته من نار قلبه المستعر. ووصلت قوة تأثيره إلى حد أنه عندما كان يشاع أنه سيعظ في مكان معين كنت ترى النساء يمسكن بتلابيب أزواجهن، والأمهات يمنعن أولادهن، والأصحاب يقفون حائلاً بين أصحابهم، لئلا تسحرهم فصاحة الرئيس القديس فيهجروا العالم وينزووا في الأديرة. وسرعان ما انتشر صيته ككاتب وواعظ في أرجاء المسيحية عامة، وأخذ الكل يعزون التأثير الذي يحدثه إلى قوة إلهية كامنة فيه، وينسبون إليه عمل الآيات والمعجزات.

وفي وقت قصير ازدحم "الوادي البهيج" بطالبي الانضمام حتى ازداد عدد سكانه إلى سبعمائة نفس. أما عدد الأديرة التي أسسها برنارد نفسه فبلغ مائة وستين ديرًا منها ما كان في فرنسا ومنها ما كان في إيطاليا وألمانيا وإنجلترا وأسبانيا، لا بل قُل في كل مملكة من ممالك الغرب. وكان الكل، كما هو المنتظر، ينظرون بعين المحبة والاحترام الخرافي لزعيمهم، وأصبح دير كليرفو بعد ذلك محكمة مفتوحة للجميع يلجأون إلى ساحتها دون مقابل. ويقال إن الجميع كانوا يعودون منها وهم في غاية الرضا، مُدانين أو مبرَّئين على حد سواء. عرف برنارد كيف يخاطب الناس على قدر عقولهم، وبذلك كان له نفوذ كبير على كافة الناس مهما اختلفت طبقاتهم. أما تلاميذه المعجبون به فكانوا يتنافسون في إذاعة العجائب التي صنعتها يداه أو صلواته إلى أن أصبح كل عمل من أعماله وكل كلمة من كلماته نبوة، حتى زاد ما نسبوه إليه عما ورد في الأربعة الأناجيل، فكانوا يقولون إنه يشفي الأمراض بلمسة، وإن الخبز الذي يباركه له تأثير خارق للطبيعة، وأن رجلاً أعمى عاد إليه بصره بمجرد وقوفه في نفس البقعة التي وقف عليها ذلك الرجل المقدس!

عصر المعجزات والرؤى

للملمين بروح العصور الوسطى وما كان سائدًا فيها من خرافة قد لا تبدو هذه العقائد التي لا أساس لها غريبة ولا تثير فيهم أي دهشة، ولكن أولئك الذين لا يعرفون سوى وقتنا الحاضر لا بد يستغربون كيف وصل الجهل بأي شخص في ذلك العهد إلى حد تصديق مثل هذه الخرافات. ونحن نصارح القارئ أنه لولا ما لهذه الأمور من قيمة تاريخية لضربنا عنها صفحًا واعتبرناها لا تستحق عناء التدوين. ولكنها في الواقع ترينا بصورة أوضح من أي شيء آخر أساليب الفكر في ذلك الوقت، ومبلغ تطور عقل الإنسان في ذلك العهد، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفهم ونفسر كيف أن مثل هذه الأقاصيص الغبية والروايات الغريبة قُبلت كأنها إعلانات من الله. وكانت النتيجة، كما أرادها الشيطان ورسم لها الخطة، أن كلمة الله، التي هي المقياس الوحيد للإيمان والسلوك، طُرحت جانبًا حتى بواسطة المسيحيين الحقيقيين، وحلت محلها أكاذيب الشيطان وخدع الخادعين.

فمع أن برنارد كان رجلاً تقيًا ومقتدرًا إلا أنه كان متأثرًا كثيرًا بروح عصره الخرافية، فكان يعتقد كغيره أن الله قد أجرى معجزات بواسطته. وكان الناس في القرن الثاني عشر على وجه الخصوص يؤمنون بالمعجزات والرؤى والأحلام، وبتداخل الملائكة الأبرار والأشرار في أمور البشر ومصالحهم.

وكانت للرهبنة سطوة عظيمة على عقول الناس في تلك العصور المظلمة، وهذا يفسر استعدادهم لتصديق أي شيء كان يقوله الراهب وخاصة فيما يتعلق بالخير والشر، وبالسماء وجهنم. إن رنين أجراس الدير وجلجلة نواقيسه كانت على الدوام تذكر الشريف المحارب مع عبيده بمهمة الرهبان السماوية وما لها من آثار عظيمة. ولا عجب، فهناك في الوادي البعيد وفي تلك البقعة المنفردة المنعزلة كان يقوم الدير المقدس، وللأمير والحقير أن يقرع على أبوابه فيجد بين جدرانه مأوى وراحة، وكل من يدخله كان له الوعد المبارك بالسلام في الأرض والنعيم في السماء. هذا ونغمات الأناشيد المسائية والصباحية التي كانت تنبعث من قلب الدير وسط سكون الطبيعة وهجوع الناس في ظلام الليل كانت بدون شك تؤثر تأثيرًا عميقًا على عاطفة الناس الدينية، فتثير في نفوسهم رهبة مقدسة واحترامًا كليًا لذلك الشعب السماوي. وكان الناس ينظرون إلى الدير كأنه باب السماء، وسكانه خدام الله العلي. ولا شك أنهم كانوا في ذلك الوقت رحمة عظمى للناس المساكين وخاصة في عهد الحكم الإقطاعي.

انحطاط الأديرة

قبل أن نترك موضوع الأديرة، وقد نظرنا إليها وهي تحت الرئاسة العامة لبرنارد، يجدر بنا أن نلاحظ ما كانت عليه قبل عهده وما صارت إليه بعد موته. جاء وقت على معظم الأديرة القديمة صارت فيه غنية جدًا وكان لها أن تعاني نتائج الثروة والغنى، فالبعض منها تساهل في قوانينه وخلع عنه رداء الفقر، فانعدمت بين الرهبان روح الطاعة لرؤسائهم. كانوا قد فلحوا في الأرض المجاورة لهم مباشرة وكأنهم أرادوا الآن أن يتمتعوا بأثمار عمل أيديهم فخلدوا إلى السكون والراحة، وهكذا جرت عليهم البطالة وما يلازمها عادة من آلاف الشرور. ومن يطالع ما كتبه المؤرخ ملمان عن الرهبنة يراه يصورها لنا آخذة نفس الأدوار في كل العصور والأجيال. والحق إنه يصور لنا الحقيقة بغاية الدقة، حتى أنه يكفينا أن نقتبس منه الفقرة الخاصة بذلك كما هي. غير أنه من واجبنا أن نقول إنه أغفل في هذه الفقرة جميع المفاسد والانشقاقات والتحزبات المخيفة التي هي من مستلزمات الغنى على الدوام.

يقول ملمان: "قد تغير الحال. فمرة كانت البرية، والعزلة، والفقر المدقع، والكفاح ضد الشر هي ما يميز الدير، وكانت هناك التقوى في أسمى درجاتها، والعبادة المستمرة التي لم تكن لتجد في ساعات النهار والليل ما يكفيها، والنظام الصارم بلا هوادة، والتنافس في التقشف، والابتداع في تهذيب النفس، والتفنن في تعذيب الجسد وما يقتضيه ذلك من أساليب لا حصر لها، والافتخار بروح الطاعة والمذلة. ولكن كل ذلك ولّى وأدبر وحل محله حب الاشتهار بالتقوى، وتقدمات المؤمنين السخية، ومنَح اللوردات التائبين، وعطايا الملوك النادمين، وبذلك توافرت للأديرة مزايا الثروة والسلطان والجاه. فالكوخ البسيط والصومعة الخشنة قد أضحت الآن قصرًا منيفًا وديرًا ملكيًا. والكنيسة الخشبية المتواضعة أصبحت كاتدرائية شامخة فخمة، والمستنقع صار جنة فيحاء بما فيها من الخضرة وماء، وفيها من الأثمار كل ما لذ وطاب، والغابة البرية الملأى بالشوك صارت حديقة غناء فيها كل ما تشتهيه النفس وتتوق إليه العيون. والمجرى المتدفق أو السيل الجارف أصبح سلسلة متتابعة من القناطر أو أحواض تربية الأسماك، والرئيس الذي كان في الماضي رجلاً متواضعًا منحنيًا إلى الأرض من فرط وداعته نحيلاً نحيفًا شاحب اللون، مرتديًا ثوبًا خشنًا وممنطقًا بحبل، حافي القدمين، قد صار الآن رئيسًا لديره العظيم، يركب العربة الفاخرة تجرها الجياد المطهمة، يرتدي أفخر الملابس وأنفسها، يتقدمه الخدم حاملين صليبه الفضي، ويذهب بموكبه العظيم ليأخذ مكانه بين أكبر أمراء الدولة وعظمائها"(٤٣/٣).

أما تحت رئاسة برنارد فجاء نظام جديد وترتيب جديد، وكان دير كليرفو بدء عهد جديد في تاريخ الرهبنة، قصده الكثير من الناس من مختلف الطبقات. كما نشأت في الصحاري أديرة عديدة على غراره، ولكن برنارد بكل قوته لم يستطع أن يمنع التحزبات المرة والانشقاقات المخزية بين رهبان النظام الجديد ورهبان النظام القديم، وخاصة مع أشهر الأديرة قديمًا وهو دير كلوني الذي تربى فيه هلدبراند، أكبر من جلسوا على عرش البابوية.

برنارد يترك دير كليرفو ١١٣٠(م)

حصل في الكنيسة انقسام خطير، بسبب اثنين من البابوات المذبذبين، وهذا جعل برنارد يترك رغمًا عن إرادته مكان عزلته الهادئ ويزج بنفسه دفعة واحدة في تيار العالم وأموره المقلقة. ولكن لكي يعرف القارئ ما كان يحصل عادة فيما يتعلق بالانتخابات البابوية، فها نحن نعطيه على سبيل المثال بعض تفصيلات موجزة، وله بعد ذلك أن يحكم بنفسه فيما يسمى بالعصمة البابوية... حقًا إنه لأمر مؤسف للغاية أن القليل جدًا من البابوات كانت لهم سيرة خارجية شريفة.

بينما كان البابا أونوريوس الثاني يعاني سكرات الموت، وقبل أن يلفظ نفسه الأخير، أراد الكردينال بطرس لينس، وهو حفيد أحد المرابين اليهود، أن يعتلي عرش القديس بطرس، وفعلاً قام بمحاولة جريئة في هذا السبيل، إذ جاء على رأس جمهور كبير ينادى بتوليه، ولم تنفض المظاهرة إلا بعد أن حُمل البابا المريض إلى نافذة القصر وتأكد الناس أنه لا يزال على قيد الحياة. عندئذ انسحب بطرس وجماعته وقتيًا. كانت هناك جماعة أخرى مقاومة لبطرس ومصممة على إبعاده، وكان أفرادها يراقبون موت البابا القديم من دقيقة إلى أخرى، حتى أنه لم يكد يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى أعلنوا الكردينال غريغوري رئيسًا عامًا للعالم المسيحي باسم البابا إنوسنت الثاني. أما جماعة بطرس فقامت في الوقت نفسه بمراسيم الانتخاب، وألبسوه ملابس البابوية، وأعلنوا أنه هو وكيل المسيح الحقيقي، باسم أناكليتوس الثاني.

أما روما، وهي ميدان الصراع المستمر والحروب غير المنقطعة، فقد صارت الآن تموج بجيشين عظيمين من الأنصار

الهائجين المتحمسين. وسرعان ما انتشر السلب والنهب وسفك الدماء بعد أن تراشق الطرفين بسهام التهديد واللعنات الروحية. أما عن أنكليتوس فيقال إنه جاء على رأس جيش من المرتزقة وبدأ هجومه بأن حاصر كنيسة القديس بطرس، وشق لنفسه طريقا إلى الأقداس (الهيكل) ومن هناك اختطف الصليب الذهبي وجميع الأواني الذهبية والفضية والأحجار الكريمة، وهذه القنية الفاخرة جعلت الكثيرين ينضمون إلى جانبه. هذا وقد كان هو غنيًا وفي استطاعته أن يستأجر المحبذين، فهاجم كنائس العاصمة وسلبها الواحدة بعد الأخرى. أما إنوسنت فأيقن أن روما، في حالة الهياج الحاضرة، لم تصبح مكانًا أمينًا له، فعزم على الهروب. كانت حياته في خطر، وبصعوبة كبرى تمكن هو وأصحابه من الهروب في عربتين والوصول آمنين إلى ميناء بيزا، ومن هناك عبروا إلى فرنسا حيث قوبلوا بكل الترحاب من جماعات كلوني وكليرفو.

أما برنارد فانحاز إلى جانب إنوسنت بكل حماس، وقد بلغت به الغيرة إلى حد أن جعلته يهجر صومعته ويجول من مقاطعة إلى مقاطعة، ومن ولاية إلى ولاية، ومن دير إلى دير، حتى استطاع أن يصرِّح مفاخرًا أن إنوسنت قد صار معترًفا به من ملوك فرنسا وإنجلترا وأسبانيا ومن الإمبراطور لوثير، ومن رجال الإكليروس الأقوياء ومن الهيئات الدينية في تلك الممالك على وجه الإجمال. ولم يبق في جانب أنكليتوس إلا ردجر دوق صقلية، وهي التي منعت إنوسنت من دخول روما. ولكن الموت هو الذي أراح الطرفين، ذلك أن أنكليتوس قضى نحبه في قلعته الحصينة (سانت أنجلو) في يناير سنة ١١٣٨م بعد أن استمر ثماني سنوات متحديا جميع أعدائه. بعد ذلك دخل إنوسنت روما في شهر مايو وبجانبه برنارد، وبذلك صار هو البابا الفعلي والرئيس الأعلى.

مجمع اللاتيران الأكبر (١١٣٩م)

بعد أن استتب الأمر لأنوسنت وصار هو سيد روما الأوحد، عقد مجمعًا عامًا في اللاتيران لم تشهد روما مطلقًا ولا أية مدينة في العالم المسيحي على الإطلاق مجمعًا عظيمًا مثله، فمن بين الذين حضروا هذا المجمع ألف أسقف وعدد لا يُحصى من رجال الدين العظام، وما أُلقي فيه من الخطب وما صدر عنه من المراسيم يصور مسيحية ذلك العصر أدق تصوير، فالمحور الوحيد الذي دارت عليه جميع مناقشات المجمع كان هو حق البابا في السلطان الإقطاعي، فقد قال البابا في هذا الصدد: "كما أن روما هي المدينة المشرفة على العالم أجمع، ومنها تخرج جميع الأوامر والنواهي الأرضية، إذ هي مصدر السلطان الأرضي بأجمعه، كذلك يجب أن يكون العرش البابوي مصدرًا للسلطان الديني. وكل رئيس ديني يجب أن يتسلم سلطانه من بابا روما، ويعتبر نفسه كتابع للفاتيكان، ويكون البابا بمثابة سيده الإقطاعي الروحي".

وكما هو المتبع عادة في مثل هذه الأحوال ألغى إنوسنت جميع مراسيم خصمه أنكليتوس، وحكم عليه بالزج في زمرة الشيطان وجنوده، كما خلع جميع القسوس الذين نالوا رسامتهم أثناء فترة الانقسام وطلب إليهم أن يحضروا للمثول بين يديه، وعندما وقفوا أمامه تملكته روح الانتقام فأخذ يوبخهم بكل صرامة ويعنفهم بكل ازدراء واحتقار، ثم نزع صلبانهم من أيديهم بكل عنف، وجردهم من ملابسهم ومن خواتم رسامتهم. وبعد ذلك لعبوا أحقر الاعيب الرياء، بتوقيع "اتفاقية هدنة الله" التي لم تكن في الواقع سوى هدنة من الصراعات الشخصية والحروب النفسانية. ولكن أهم الأحكام التي صدرت في ذلك المجمع المشهور هو الحكم ضد فئة من الرجال سيفرضون علينا ذكرهم بعد قليل بالنسبة للدور الهام الذي لعبوه في تاريخ الكنيسة، وهاك نص الحكم الذي نقصده: "إننا نقطع من الكنيسة أولئك الهراطقة الذين تحت ستار الدين يعارضون في فريضة جسد المسيح ودمه، وفي معمودية الأطفال، وفي الكهنوت... إلخ". إن هذه الأناثيما الخاصة وأولئك الذين صدرت ضدهم يمكن اعتبارهم بمثابة خيوط ضعيفة من الأشعة لفجر ذلك الكفاح العظيم في سبيل الحرية الدينية الذي أدى إلى حركة الإصلاح المجيدة.

أما بقية حياة هذا الرجل التعيس فقد صُرفت أغلبها في المشاحنات والحروب، رغم توقيعه "هدنة الله". فقد جرد جيشًا وسار به لمهاجمة ردجر دوق صقلية صديق أنكليتوس، ولكنه وقع أسيرًا في أيدي النورمانديين، ولكن هؤلاء إذ خافوا وارتعبوا من أسيرهم المقدس جثوا أمامه وحصلوا على بركته ثم شيعوه سالمًا إلى وطنه! هذا يدل على مبلغ تسلط الخرافة على عقل الملك وكذلك على مبلغ قدسية البابا في نظر الناس آنذاك. على أن حياة البابا كانت آخذه في الأفول، وسيقف قريبًا أمام الكرسي الرهيب لديّان الأرض كلها «لأنه لابد أننا جميعًا نظهر أمام كرسي المسيح، لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيرًا كان أم شرًا» (٢كو٥: ١٠).

وفي ٢٤ سبتمبر سنة ١١٤٣م لفظ البابا نفسه الأخير وسط هياج الشعب وثوراتهم، وملك عوضًا عنه سلستين الثاني.

برنارد وأبيلارد

قبل وفاة إنوسنت، استدعي برنارد من عزلته الهادئة في كليرفو لكي يشن الغارة ضد عدو جديد للكنيسة في شخص بطرس أبيلارد، وهذا الصراع نشأ بسبب الحركات الفكرية التي ظهرت في ذلك العصر، وبها بدأ عهد جديد في تاريخ الكنيسة والآداب والحرية المدنية والروحية. وغرضنا هنا أن نشير بالإيجاز إلى العوامل التي أدت إلى هذا الصراع.

لا يخفى على معظم قرائنا أن جميع الكتب اللاتينية واليونانية وما كانت تحويه من علوم وفلسفة تلاشت جميعها تقريبًا على أيدي البرابرة في القرن الخامس، وأن ما كان يسمى بآداب القدماء لم يبق له أثر بعد قيام حكم البرابرة على أنقاض الإمبراطورية الرومانية، وبذلك ساد الجهل وخيم بظلامه الدامس لمدة خمسمائة سنة كاملة، وإن كان قد وُجد أي شيء من العلوم والمعارف فكانت منحصرة في رجال الدين، وهؤلاء كانوا ممنوعين في تلك المدة من درس أو نسخ أي شيء من العلوم الدنياوية، ومع ذلك اهتم بعض الرهبان وخاصة من اتباع بندكت، بجمع ونسخ الكتب الخطية القديمة، وفي ذلك يقول المؤرخ هالام "يجب ألا ننسى أنه لولاهم لتلاشت هذه الآداب بأجمعها. وبغض النظر عما كان يبدو منهم من الجهل في بعض الحالات فإن اهتمامهم بالاحتفاظ باللغة اللاتينية المدونة بها الكتب المقدسة والطقوس وقوانين الكنيسة الأخرى ولوائح عبادتهم وخدمتهم الدينية ساعد في أحلك الأوقات ظلامًا على إبقاء شعلة مستمرة الإضاءة ولو أنها ضئيلة ومحدودة"[(١/٥٠)].

وبين هؤلاء الرهبان كان لا بد أن توجد مجموعات مختلفة الألوان من الأمزجة والعقول، فالبعض بسطاء خاملون، والبعض الأخر مهذبون ونشطاء ميالون للبحث والاستقراء مما جعلهم لا يقتصرون على حدود الكاثوليكية الرسمية وتعاليمها الموروثة، أو يخضعون خضوعًا أعمى لسلطان السلطة الروحية. هذا ما حدث فعلاً وهذا ما برهنت الأيام عليه. فالمصلح العظيم ومنشئ البروتستانتية خرج من بين صفوف الرهبان حيث كان يوجد كثيرون من أمثال لوثر وإن لم يبلغوا نضوجه. وقد قيل إنه لم تقم حركة تجديدية، دينية كانت أو فلسفية، إلا وكان زعيمها وحامل لوائها راهب من الرهبان، وقد حدث من هذه الحركات ثلاثة أو أربعة قبل قيام أبيلارد، في القرن التاسع تحمل جونتشوك الجلد والسجن لتمسكه بثبات بعقيدة "التعيين المُسبق". أما جون سكوت إريجينا فكان راهبًا متعلمًا من إيرلندا، أو ربما من الجزر الاسكتلندية، ودعاه هنكمار أسقف ريمز لمقاومة جونتشوك، ولكنه قَضّ مضجع الكنيسة أكثر من خصمه إذ أسس مبدأ العقلانية، الذي جعل العقل فوق سلطان روما. وقد كان عقلانيًا عملاقًا ولكنه شكك في سلامة التعليم اللاهوتي التقليدي. وتحت ضغوط الكنيسة هرب إلى إنجلترا، حيث أسس ديرًا يقال إنه صار جامعة ألفريد الجديدة في أوكسفورد.

انبثاق النور في العصور المظلمة

في أواخر القرن الحادي عشر ظهر ثلاثة من الرجال المشهورين وهم لانفرانك وأنسلم وبرنجر. وبواسطة مجهوداتهم ومجهودات بعض الفلاسفة الآخرين حدثت حركة فكرية واسعة النطاق. وكان حوالي ذلك الوقت أن تطورت المدارس الكاتدرائية القديمة وصارت معاهد تدرس فيها العلوم المختلفة، وهي التي نشأت منها على مر الأيام جامعات أوروبا الحديثة. هذه الحركة الفكرية، بعد ذلك السكون الطويل، حلت النفوس من عقالها وجذبت إليها الكثيرين حتى كان الآلاف من الناس يهرعون لسماع المحاضرات. وكأناس كانوا محرومين لمدة طويلة من المعرفة كانوا يلتهمون بشراهة كل ما كانوا يسمعونه، وبالتالي يستوعبونه ويؤمنون به. ولكنها على أية حال كانت ثورة شديدة ضد سلطة الكنيسة الاستبدادية، علمت الناس أنه كان في إمكانهم من ذلك الوقت فصاعدًا أن يبحثوا لأنفسهم عن الحق، وأن يناقشوا ويجادلوا ولا يقبلوا الأشياء على علاتها.

وكان بطرس أبيلارد هو أكثر هؤلاء المحاضرين جرأة، وأقواهم حجة، وأعظمهم شهرة وكانت أبحاثه تدور حول المنطق، أو بالحري الفن الذي يستطيع به الإنسان أن يميز بين الحق والباطل بقوة العقل البشري. وُلد هذا الرجل في عام ١٠٧٩م بالقرب من نانتس في بريطانيا. وكان أبوه برنجر وكيل القصر الملكي وأحد الأشراف العظام. ومع أن بطرس كان أكبر أولاده سنًا وكان عليه في هذا الحال أن يدخل حلبة الإشراف ويحترف المبارزة والفروسية، إلا أنه فضل من صغره "مجادلة الألسنة عن مجالدة الأسنة" أو بالحري حرب الكلام عن حرب الحسام، ولهذا ترك الميراث العائلي لإخوته وتفرغ لحياة الدرس

والاطلاع، فتتلمذ أولاً على يد روسلين ثم وليم رئيس شمامسة باريس ثم أنسلم المحاضر اللاهوتي في جامعة لاون. أما تاريخ هذا الجل الطويل المدهش فليس في نيتنا تتبعه بأجمعه، فهو في مجموعه عبارة عن سلسلة من الانتصارات والنكبات، فقد كان بطلاً وضحية في نفس الوقت لتلك المدرسة اللاهوتية التي قوضت سلطان الكنيسة الكاثوليكية ونظامها. كما أنه كان أول رجل احترف علم اللاهوت دون أن يكون قسيسًا، وأنى ذهب كانت تلتف حوله الآلاف من طلاب العلم المتحمسين. يقول عنه موريسون مؤلف "تاريخ حياة برنارد": إن آلافا من الجماهير كانت تعبر الجبال الشامخة والبحار الشاسعة، وتتحمل كل نوع من أنواع المشقة والتعب في سبيل التمتع بسماع ولو محاضرة واحدة من محاضرات أبيلارد. وقال آخر إن بلاغته كانت ساحرة بهذا المقدار، حتى أنه لم يكن في مقدور السامع إلا أن ينسى نفسه وينساق انسياقًا في تيارها الجارف. وإذا تصادف أن وُجد بين خصومه من يجرؤ على القيام لمعارضته فإن عباراته المقنعة كانت تتدفق من فمه كتدفقها وقت خطابته. وفي كل معركة كان يخرج منها فائزًا منتصرًا[٩].

وقد كتب أبيلارد كما حاضر في مواضيع شتى وهامة، ولكنه كان على ضلال مُبين فيما يتعلق بمبادئ المسيحية الرئيسية. ومع ذلك فلم يوجد في أوروبا قاطبة من أبطال الحق والتعليم الصحيح من كان يجرؤ على الوقوف ولو في معركة واحدة ضد هذا الهرطقي الجبار. إلا أن الأنظار اتجهت أخيرًا إلى برنارد الذي خرج من صومعته بناء على خطاب ورد إليه من وليم رئيس دير القديس تيري. وفي سنة ١١٤٠م تقابل رجل المنطق مع رجل القداسة في مدينة سنس، وكان ملك فرنسا حاضرًا هذا المجمع الخطير مع عدد عظيم من الأساقفة ورجال الدين، وكان أبيلارد محاطًا بتلاميذه، وبرنارد باثنين أو ثلاثة من رهبانه. وقف الأول فأشبع عقول الأقلية، ووقف الثاني فأشعل قلوب الأكثرية. وجد الأول تعضيدًا من المعجبين، ووجد الثاني تشجيعًا من المتعبدين. كان الأول قد حكم عليه بأنه هرطقي، وكان الثاني مشهورًا بأنه أقدس رجل في عصره من ملوك وقساوسة وحتى البابا نفسه، وإزاء هذه الظروف لم يكن هناك مجالاً لأبيلارد. وفي الحال فطن إلى القوة العظيمة التي كانت ضده، وقبل أن تتم قراءة فصول الاتهام وقف على قدميه وقال لدهشة جميع الحاضرين: "إني أرفض أن أسمع شيئًا آخر أو أن أجيب على سؤال. إني أرفع دعواي إلى روما". قال هذا وترك المجلس.

يقول البعض في تفسير هذا التصرف غير المنتظر إن وجوه الصفوف المعادية التي رآها أمامه لم تخمد فقط حماسته، بل جعلته يشعر أن حياته ذاتها كانت في خطر، وإذ سمع أخيرًا أن تقريرًا وصل عنه من المجمع إلى روما، وأن البابا قد أصدر الحكم عليه، التجأ في يأسه إلى بطرس الوقور رئيس دير كلوني، وهذا من فرط شفقته على ما أصابه من الويلات منحه ملجأ في ديره رغمًا عن كونه من المعارضين لآرائه وتعاليمه.

ويجدر بنا أن نلاحظ في سياق الكلام، أن قصته المأساوية المشهورة "إليوزا الجميلة" عن ما تكبدته من الآلام والأحزان قد أوجدت فكرًا جديدًا عن مركز المرأة في المجتمع، بدونه ما كان ممكنًا لأية مدنية صحيحة أن تتحقق. فإلى ذلك الحين كانت الكنيسة تنظر إلى المرأة نظرة احتقار لأنها كانت الأولى في التعدي، ولكن مأساة إليوزا المؤثرة أدت إلى رفع المرأة إلى المركز اللائق بها في المجتمع.

أما أبيلارد المسكين المنكسر القلب فقد استمر نحو السنتين في عزلته في كلوني مغمورًا بعطف رئيسه المحسن، ومجتهدًا في تهدئة نفوس القضاة من الإكليروس بمذلته ومرارة توبته إلى أن ختم حياته المضطربة عام ١١٤٢م. أما مبادئه فقد عاشت في كثير من تلاميذه الذين من بينهم يوجد واحد يستحق التفاتا خاصًا، وهو:

أرنولد أوف بريشيا

مع أن أرنولد كان تلميذًا لأبيلارد وتابعًا أمينًا له، إلا أنه يتضح من كل ما جمع عنه أنه كان رجلاً من طراز آخر. وهناك ما يدل على أنه كان مسيحيًا مخلصًا توفرت فيه عناصر كثيرة كمصلح، ولو كان في عصر لم ينضج بعد للإصلاح. زد على ذلك أنه كان سياسيًا أكثر من اللازم، أو بالحري كان من المعجبين جدًا بنظام الجمهورية الرومانية القديم إلى حد جعله لا يصلح لأن يستخدمه الله في وضع أسس راسخة لإصلاح الكنيسة. ولقد تشرف بالاستشهاد، ولكن ذلك كان في سبيل دفاعه عن الحرية المدنية أكثر من تعليمه عن الخضوع للمسيح ولكلمة الله، ومع ذلك فهو يستحق منا كل احترام وتقدير بصفته من أقدم من وضعوا بذار حركة الإصلاح العظيمة.

ولد أرنولد في بريشيا في مقاطعة لمبارديا على الأرجح حوالي سنة ١١٠٥م، وقد بدأ تاريخه بالانفصال عن طبقة

الإكليروس واعتناقه الرهبنة، وأخذ يحارب بكل ما أوتي من قوة نقائص الإكليروس والرهبان. ويظهر أنه كان يعتقد اعتقادًا داخليا راسخًا أنه مُرسل من الله لكي يجاهد ضد كبرياء رجال الإكليروس وتنعمهم ومخازيهم، مبتدئًا من البابا نفسه إلى أصغر الوظائف في الكنيسة. وقد كرس كل قوته للقيام بهذه الإرسالية بكل شجاعة وجرأة، وقد أجمعت كل الأخبار الخاصة به على أنه كان يملك أسلوبًا خطابيًا ساحرًا، مضافًا إليه قوة في البلاغة لا يدانيه فيها أحد، حتى أنه كان يلهب الجماهير أينما خطب. يقول برنارد: "إن كلامه أنعم من الزيت وأحد من السيف"، ونظريته العظيمة التي كان يدين بها هي الفصل التام بين الكنيسة والدولة، فذلك النظام البابوي الشامخ، وذلك النظام الهرمي الذي أخذ يمتد ويتسع من عهد قسطنطين، والذي وصل في عهد غريغوري السابع إلى حد أن طمع في حكم العالم بأسره، وأن تكون كل ممالك الأرض إقطاعيات للقديس بطرس، هذا النظام كان يجب - في نظره - أن يُهدم هدمًا وأن يُزال نهائيًا من على وجه البسيطة. وقد اتخذ شعارًا له في ذلك القول الذي اتخذه كثيرون قبله، ولو أنهم كانوا يجهلون معناه الروحي، «مملكتي ليست من هذا العالم» (يو ١٨: ٣٦). فكان يؤكد أن خدام الإنجيل يجب أن لا يكون لهم أي سلطان سوى فيما يتعلق بالهيمنة الروحية على قطيع المسيح، وأن لا تكون لهم أي ثروة سوى عشور المؤمنين وتقدماتهم الاختيارية، كما كان يؤكد أن جميع الشرور الفظيعة والانقسامات المرة التي نشأت في الكنيسة إنما ترجع في أصلها إلى الثروة الهائلة التي كانت تحت أيدي الباباوات والأساقفة والقساوسة.

ومع أن تعاليمه كان فيها كثير من الحق، إلا أنها مع الأسف كانت خليطًا من محبته للحرية الرومانية القديمة من جانب، وديانة يسوع المسيح من جانب آخر، أو بالحري قد جمع في نفسه بين الراهب المتقشف والجمهوري المتعسف. كان يقول: "إذا كان الفقر هو من صفات المسيح وصفات رسله فإن الحياة الحقيقية الوحيدة التي تشبه حياة الرسل وحياة المسيح هي حياة الصوم والعمل. فما أبعدهم إذًا أولئكم الأساقفة الملوكيين ورؤساء الأديرة المترفين عن حياة الرسل وحياة المسيح، وهم يختالون في ملابسهم المزركشة بالفراء والقرمز والأرجوان وحرابهم الفضية، في عرباتهم الضخمة، تجرها الخيول المطهمة ذات اللجم الذهبية، ومجالس بلاطهم التي تشبه مجالس الأمراء والملوك!". وعملاً بهذا الرأي كان يعلم الناس "إن المَلك الأرضي هو الينبوع الصحيح لكل شرف وثروة وجاه وقوة، وإلى هذا الينبوع يجب أن تنصرف كل ممتلكات الكنيسة وأطيان الأديرة وإمارات الباباوات والأساقفة"([٣/٤٣]).

عظات أرنولد

وقعت هذه التعاليم الجديدة الخطرة موقع الاستحسان عند أهالي بريشيا، فكانوا يصغون إليها بكل حماس وغيرة، وقد كشف لهم أرنولد عن هذه الصفحات المظلمة من التاريخ الديني التي تصفحناها للآن، فارتجت المدينة كلها وأصبحت في حالة هياج شديد. وليس ثمة ما يدعونا للدهشة من حماس الشعب هذا متى علمنا بسماعهم أن ثروة الإكليروس يجب أن تعود للدولة، وأن رعاتهم في المستقبل سيعيشون على عطايا رعيتهم الاختيارية. وإذا كان يعتبر واعظًا جريئًا من يتجاسر على دعوة الناس إلى هذا المبدأ بمثل هذه العظات في القرن التاسع عشر، فكم كان جريئًا حقًا ذلك الذي يدعو إلى نفس الشيء في القرن الثاني عشر، قرن الظلمة الحالكة والجهل والخرافات! ذلك كان مصلح بريشيا الذي جاء قبل الأوان. ولقد كان في شخصه راهبًا متقشفًا ذا حياة غير ملومة واستقامة في الحق غير مشكوك فيها، وكان يعطف بكلياته على ديانة الشعب العامة، كل هذه الصفات أعطت لوعظه وإرشاده قوة لا تقاوَم. وكان غرضه الأعظم من مجهوداته قلب السلطان الروحي قلباً تامًا، أو بالحري ملاشاة سيادة البابا الزمنية. إذاً فهو قد تجاسر فوضع اليد على ذلك المشروع البابوي العظيم الذي يرمي إلى حكم البابا العالمي، فجعله يهتز من أساساته ولو إلى حين. فأقصي البابا عن عرشه ونودي بالجمهورية ورفع علم الحرية، وأذيع فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية، وألغى حكم الكهنة. إلا أن حماس الشعب كان حماسًا زائلاً وغير موحد وإلى وقت قصير، ولم تكن الأرض قد تهيأت بعد لغرس الحرية ونمائها، كما أن إثم الباباوات لم يكن قد كمل بعد، بل كان يجب أن تتسبب في هلاك ملايين أخرى قبل أن يأتيها جرحها المميت كما سنرى بعد قليل.

وجد أرنولد أن حياته لم تعد آمنة في إيطاليا، إذ أيقن أن مقاومة رجال الدين كانت أقوى وأعمق بكثير من ولاء الشعب، فهرب إلى ما وراء الألب، وأخيرًا وجد ملجأ أمينًا وكريمًا في مدينة

زيورخ، تلك المدينة التي قام منها فيما بعد زوينجل الشهير، والذي كان أرنولد يهيئ له الطريق. وسُمح له هناك بأن يلقي محاضراته، وقد تشبع الأهلون البسطاء بروح تعاليمه لمدة طويلة. إلا أن مثل هذا الرجل كان يجب أن لا يعيش في أي مكان، إذ كان برنارد وراءه بالمرصاد ملاحظًا كل حركة من حركاته، فأثار عليه البابا بكل الوسائل المتطرفة، كما أنه كتب غاضبًا إلى المضيفين له منذرًا إياهم أن يحترسوا من عدوى الهرطقة المميتة، وموبخًا أسقف أبروشية زيورخ توبيخًا صارمًا لحمايته له. فمن ضمن ما وجهه إليه من اللوم قال: "لماذا لم تطرد أرنولد لأول وهلة؟ إن الذي يرافق المشبوه يصبح عرضة للشبهة، والذي يميل إلى شخص تحت الحرمان البابوي إنما يخالف البابا، لا بل الرب الإله نفسه. فالآن وقد عرفتم حقيقة الرجل اطردوه من بينكم حالا أو - وهذا يكون أفضل - قيدوه بالسلاسل حتى لا يفسد فيما بعد".

وبعد كثير من المحن وتقلبات الزمن التي تصحب عادة مثل هؤلاء الرجال، عاد أرنولد إلى روما حيث سُمح له بالبقاء هناك نظرًا لضعف البابا آنئذ، وحالة المدينة المضطربة. ولكن بمجرد أن أرتقي البابا أدريان عرش القديس بطرس أصبحت أيام أرنولد معدودة.

استشهاد أرنولد (١١٥٥م)

كان البابا الجديد رجلاً إنجليزيًا ذا مقدرة عظيمة، ويقال إنه الإنجليزي الوحيد الذي جلس على العرش البابوي. كان أصلاً راهبًا في دير القديس ألبانز، ولكنه اضطر أن يهجر موطنه نظرًا لقسوة والده، وأخذ يتنقل في ممالك أوروبا المختلفة دؤبًا على دراسة اللاهوت وقوانينه بنشاط ونجاح، متقدماً من درجة إلى درجة في وظائف الإكليروس، حتى تبوأ أخيرًا أسمى مركز فيها باسم أدريان الرابع، أما اسمه الإنجليزي الأصلي فكان نيكولاس بريكسبير.

والآن قد سنحت الفرصة للتخلص من ذلك المصلح الجريء، ذلك أن الإمبراطور بربروسا كان في طريقه ليتسلم تاجه الإمبراطوري من يدي أدريان، فأرسل هذا وفدًا من ثلاثة كرادلة لكي يقابلوا الإمبراطور، ويطلبوا منه ثمنًا لتتويجه أن يسلم أرنولد أوف بريشيا إلى أيدي البابا. ولما كان فردريك (بربروسا) ممن لا يعبأون كثيرًا بالحياة البشرية ظهر له هذا الطلب رخيصًا جدًا، فأرغم أصدقاء أرنولد على تسليمه إلى أيدي مندوبي البابا. وإذ تم هذا كان لا بد من الإسراع لئلا يسمع أتباع أرنولد فيحاولوا تخليصه. وقد أخذت الكنيسة على عهدتها أمر محاكمته محاكمة صورية، دون الالتجاء في تنفيذ الحكم إلى سيف السلطة الزمنية كما هو المتبع. ولم يكد يبزغ فجر النهار حتى كان جلاد البابا قد لطخ يديه بدماء فريسته، الذي أحرقت جثته حتى صارت رمادًا وألقى بها في الحال في نهر التيبر مخافة أن يأتي الشعب فيجمعوا بقايا صديقهم الشهيد ويكرموها. لقد انتصر الإكليروس بوفاته، ولكن ذكراه استمرت حية في أذهان الرومانيين. يقول ملمان: "وفي رماد أرنولد استمرت ملتهبة، لأجيال عدة، تلك الجمرة التي استعرت أخيرًا وكان لسعيرها قوة لا تقاوم (مشيرًا بذلك إلى حركة الإصلاح المعروفة)".

أما برنارد، عدو أبيلارد اللدود وخصم أرنولد العنيد، فقضى نحبه بسلام في مدينة كليرفو عام ١١٥٣م، وهكذا توارى القديس، والفيلسوف، والمصلح، وذهب ثلاثتهم إلى عالم آخر، أي نعم إلى عالم آخر حيث هناك يعطون حسابًا ليس بمقتضى المراسيم البابوية بل بمقتضى مطاليب عرش البر الأبدي والقداسة المطلقة. فالإيمان بربنا يسوع المسيح وبعمله الذي أكمله على الصليب لأجل الهالكين والخطاة المجرمين إنما هو الأساس الوحيد للعفو والقبول في نظر الله. ولا يوجد في الأرض أو في السماء ما يطهر من الخطية سوى دمه الثمين الذي سفكه على الصليب. ومع ذلك فما أعظمها رحمة إذ أن ذلك الدم يستطيع أن يطهر أشر الخطاة. «طهِّرني بالزوفا فأطهُر. اغسلني فأبيضّ أكثر من الثلج» (مز ٥١:٧). لا شيء سوى دم يسوع المسيح يستطيع أن يصيّر النفس أبيض من الثلج ويجعلها مؤهَّلة للسماء. وكل الوسائل الأخرى إنما هي غش وخداع وغرور من الشيطان ليس لها إلا نتيجة واحدة وهي تعظيم الجرم وتمكين الذنب وتخدير النفس ولكن «دم يسوع المسيح ابنه يطهِّرنا من كل خطية» (١يو ١:٧)، والخلاص بالإيمان وحده دون أعمال الناموس. وينبغي أن نثبت في الكرمة الحقيقية أولاً قبل أن يتسنى لنا الإتيان بالثمر المطلوب لله. والمسيح وحده هو الكرمة، وما نحن المؤمنين إلا أغصان فيه «من قال إنه ثابت فيه ينبغي أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضًا» (١يو ٢:٦). فبدون إيمان حي حقيقي بالمسيح لا يوجد غفران ولا خلاص ولا سعادة ولا سماء، ولكن «طوبى لجميع المتوكلين عليه» (مز ٢:١٢).

نعود الآن إلى تاريخنا فنلاحظ أولا:

الاجتماع بين أدريان وفردريك

ما حدث في هذا الاجتماع هو في نظرنا أحرى بألاعيب الأطفال منه بعمل الرجال، ولولا أنه نقطة في سجل تاريخ البابوية لغضضنا الطرف عن هذا الاجتماع بين أدريان وفردريك ولم نعره أي التفات لضآلة أهميته في تاريخ الكنيسة، ولكنه على أي حال ذو أهمية كبرى في تاريخ البابوية. ونحن نعتقد أنه من الواجب علينا أن نذكر كل شيء من شأنه أن يظهر للقارئ العزيز حقيقية روح البابوية في ذلك العصر الثياتيري. زد على ذلك أن أتفه الحوادث في بعض الأحيان تكون دليلاً على أعمق النوايا وأبعد الأغراض، وكاشفة لأشد أنواع التصلب والعناد.

إن دم أرنولد، الذي سلمه فردريك لأدريان بكل سرعة وسخاء، لم يستطيع أن يمحو من عقل البابا المظلم كل الشكوك فيما يتعلق بنوايا فردريك، على أن المفاوضات وصلت في آخر الأمر إلى دور يرضي البابا. فامتطى أدريان جواده وذهب إلى معسكر فردريك، وهناك قوبل بكل تجلة واحترام من بعض الأشراف الجرمانيين، الذين ساروا به إلى الخيمة الملكية. وهناك استمر البابا على ظهر جواده منتظرًا أن يأتي الإمبراطور ويمسك موضع القدم من السرج حتى ينزل البابا. ولكنه انتظر عبثًا، ذلك أن فردريك لم يحرك ساكنًا. واضطر البابا أخيرًا إلى النزول بدون مساعدته. هذا الإهمال من جانب الإمبراطور في إظهار الخضوع للبابا المعظم اعتبر إهانة شديدة ودليلاً على أن هناك عداء دفينًا. إزاء هذه الحالة هرب معظم الكرادلة خوفًا وفزعًا، ولكن نيكولاس بريكسبير الجرئ استمر باقيًا. ادعى فردريك أنه يجهل هذه العادة، ولكن البابا أبى أن يتصالح معه أو أن يمنحه قبلة السلام إلا بعد أن يذلل نفسه ويقوم بأداء الفريضة. أما الجرماني المتكبر فقال إنه يجب عليه أن يستشير أشراف مملكته أولاً. وحصلت مباحثة طويلة تمسك فيها أدريان بأن العادة قديمة جدًا يرجع تاريخها إلى عهد قسطنطين الأكبر، الذي أمسك الركاب للبابا سلفستر. على أن هذا القول كان محض ادعاء. ذلك لأن أول مرة حصل فيها هذا النوع من الخضوع والتذلل كانت قبل خمسين سنة فقط، عندما قام بها أحد أبناء هنري الرابع، وهو كونراد المتمرد الحقير الشأن. ولكن الحزب البابوي لم يكن ليعبأ بمثل هذا الاعتراض ما دام الغرض هو إذلال الإمبراطور وتعظيم البابا، ولم تعوزهم الأمثلة الكثيرة يأتون بها من بطون التاريخ تدليلاً على أن هذه العادة كان معمولاً بها منذ ثمانمائة سنة. وعلى هذا كان قرارهم كالآتي: "بما أن الإمبراطور قد امتنع عن أداء فروض التبجيل والاحترام اللائقة بالرسولين بطرس وبولس فلا يمكن أن يكون هناك أي سلام بين الكنيسة والإمبراطورية إلا بعد أن يقوم الإمبراطور بأداء هذا الواجب حرفيًا". كان ذلك مبلغ ادعاء وتجديف هؤلاء الناس الأشرار، الذين كانوا يطالبون البشر بالخضوع لهم على أساس أنهم في مكان الرسل، وفى مكان المسيح، وفى مكان الله نفسه. إزاء هذه الحالة لم يكن من فردريك إلا أن يتمشى مع القائلين بأن الماضي يعزز حجة البابا. وأنه يجب عليه أن يقوم بتأدية هذه العادة القديمة، وأن يقدم الخضوع للبابا. وعلى ذلك قام فردريك في صبيحة اليوم التالي ولعب دور الابن البار للكنيسة. بأن نزل من على ظهر جواده. بينما كان أدريان مقبلاً وقبض باليد الواحدة على اللجام وبالأخرى على الركاب حتى نزل البابا من على الجواد. وبذلك عادت الصداقة الظاهرية إلى مجاريها، وتقدم الأب الروحي وبجانبه الابن المطيع إلى المدينة المقدسة حيث تم التتويج.

بعد أن حكم أدريان أربعين سنة تقريبًا قضاها كلها في الصراع وسفك الدماء قضى نحبه في سنة ١١٥٩م. وقد كان يتهيأ لإعلان الحرب علانية وحرمان الإمبراطور عندما وافاه الموت، فوضع حدًا لهذا الصراع. هكذا عاش هؤلاء الرجال وهكذا ماتوا وهم في حرب علنية ضد السلطة الزمنية. هذا ويعتبر فردريك بربروسا أقدر عاهل حكم في أوروبا منذ عهد شارلمان، وقد اشترك في الحملة الصليبية الثالثة كما رأينا في سنة ١١٨٩م، ومات غريقًا في نهر صغير بالقرب من طرسوس سنة ١١٩٠م.

الفصل الثاني والعشرون

احتواء روما لإنجلترا

منذ أن غزا وليم الفاتح إنجلترا في القرن الحادي عشر، والسيادة الأنجلوسكسونية أخذت تضمحل ويحل محلها النفوذ الأنجلو نورماندي في كلا الكنيسة والدولة. فحالة المملكة بصفة عامة كانت إما قد تغيرت أو سائرة في طريق التغيير، ولكن البابا الإيطالي لم يكن ليقنع بهذا الحد من النفوذ الذي كان له تحت حكم النورمانديين، بل أخذ يتطلع إلى ما هو أكثر من ذلك، فهناك كَرْم نابوت المفعل، وهو قد اشتهاه ولا بد أن يحصل عليه بأي وسيلة مشروعة كانت أو غير مشروعة. فإنجلترا بكل كبريائها وعظمتها وثروتها وقوتها لا بد أن تطأطئ الرأس وتصبح خاضعة لسيادة البابا. كان هذا غرض البابوية الأول، وكان لا بد من تنفيذه إتمامًا لمشروعها العظيم. فلننظر أولاً إلى مراكز الخصمين وبعد ذلك نتأمل في حوادث الصراع العنيف ونتائجه.

في عهد إسكندر الثالث، وهو أحد الباباوات المقتدرين الماكرين، قام في إنجلترا صراع خطير بين هنري الثاني وتوماس بكت رئيس أساقفة كانتربرى، شغل بال سكان أوروبا عامة لعدة سنين. وهذا الصراع كان يشبه في كثير من مظاهره تلك الحرب الطويلة التي دارت رحاها بين هنري الرابع وغريغوري السابع، ولو أنه اختلف عنها بما كان في قلوب الطرفين من حقد وعناد، وما انجلت عنه من نتائج محزنة وخاتمة سيئة. فلم يحدث قَطّ من أيام قسطنطين أن وقع بين القوتين الروحية والزمنية تصادم أشد عنفًا وقسوة من هذا التصادم. وليس هناك أدنى شك في أن شخصية كل من المتخاصمين ومركزه أعطيا لهذا الصراع صفة خاصة، وجذبا إليه أنظار العالم بأسره. فالمسألة لم تكن مسألة شخصية فحسب، بل كان هناك ما هو أخطر من ذلك، فمبدأ سيادة روما في إنجلترا وحقوق الملك التقليدية ومسئولية الشعب وواجباته، كانت كلها مسائل يتعلق مصيرها بهذا الصراع ونتيجته. أما هنري وهو رجل يجرى في عروقه الدم النورماندي الأصيل، فقد عقد النية على أن يكون ملكًا بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى، وأن يحكم رعاياه طبقًا لقوانين المملكة وعاداتها. ومن الجانب الآخر صمم بكت، وهو رجل لا يقل عن الملك عزمًا وشدة، على أن يحافظ على قوانين روما التي لا تُنسخ، وهي أن رجال الإكليروس هم طبقة ممتازة عن باقي الطبقات في الهيئة الاجتماعية، ولهم حق المعافاة من المحاكمة أمام المحاكم المدنية، ولا يخضعون إلا لقوانينهم ومحاكمهم الخاصة دون سواها.

ولا شك أن القارئ في وقتنا الحالي يستغرب أشد الاستغراب عندما يسمع أن مرسومًا يصدر من الفاتيكان عن طريق مندوب البابا، وغرضه تغيير أو قلب قانون إنجلترا وعاداتها، يقام له أي وزن أو يُلتفت إليه لحظة واحدة، ولكن هكذا كان الحال وقتئذ، حتى أن أعظم ملك في أوروبا كان عليه أن يطأطئ الرأس في خضوع مزرٍ أمام إرادة البابا. ولِمَ يا تُرى كان كل هذا الخوف من روما؟ ذلك لأن جميع الناس بصفة عامة كانوا فريسة الجهل والخرافة. يقول أحد الكتاب: "إن نظام روما بكل ما فيه من ادعاءات وقحة كان لا يزال محاطًا بهالة مرجفة من الاحترام الخرافي، يسد أمامه كل فم ويحتبس حياله كل فكر خوفًا من عقاب الموت إما زمنيًا أو أبديًا". فالبابا الماكر كان يمكنه أن يلوح كل حين بمفاتيح القديس بطرس في وجه كل خصم، مهددًا أن يغلق أمامه باب السماء أو يغلق عليه باب جهنم إذا هو لم يطع الكنيسة طاعة عمياء. إن قداستهم المزعومة وتحريفهم الشيطاني للمكتوب هو الذي أعطاهم مثل هذا السلطان على الجهلاء ومعتنقي الخرافات.

القانون والعرف الإنجليزي

كان لملوك إنجلترا من قديم الأيام، باعتراف كل من الإكليروس والعلمانيين، كامل السلطان في الشئون الخارجية للكنيسة. ففيما يختص بأملاك الكنيسة وأوقافها أو بأشخاص رجال الإكليروس كانت سلطة التاج، بحكم القانون والتقاليد، هي العليا، وبناء على ذلك قال مرة إدوارد الملك الأنجلوسكسوني لرجال الإكليروس "إن كان بيدكم سيف القديس بطرس فأنا بيدي سيف قسطنطين". أما عن وليم الفاتح فيقول مؤرخ حياته "إن كافة الشئون، كنسية كانت أو دنيوية، كانت كلها تحت تصرفه ورهن إشارته ومشيئته". ولكن إبان القرن الثاني عشر أخذت البلاد تنحدر تدريجيًا إلى هوة عميقة من الخضوع المشين لسلطان روما.

ولكن في الوقت نفسه يجب أن لا ننسى أنه وإن كانت الكنيسة قد ولّت وجهها نحو روما، فإن الله في رحمته غير المحدودة حوّل سلطان الإكليروس الزمني وأديرة الرهبان العظيمة إلى خير المساكين من عامة الشعب. ذلك أنه بواسطة الفتح النورماندي دخلت في إنجلترا طبقة أجنبية من الإكليروس، وكذلك طبقة أجنبية من الأشراف، ولكن هؤلاء لم يشغلوا سوى المراكز السامية فقط. أما الوظائف الصغرى فكانت تعطى عادة للسكسونيين الذين كانوا يتفقون في لغتهم ومشاعرهم من أهل البلاد، وهذا أعطاهم سلطانًا عظيمًا على عقول العامة الذين كانوا ينظرون إليهم كرعاة الشعب الحقيقيين وكالمرشدين للضالين، والمعزين للمحزونين.

أما النورمانديون الذين كانوا لا يزالون غرباء في لغتهم ومشاعرهم فكانوا ممقوتين، وكان الشعب ينظر إليهم كظالميهم وناهبيهم، فالملك وليم قد ضحى بالإنجليز في سبيل إرضاء أتباعه النورمانديين الذين أغدق عليهم هباته السخية من أملاك ومراكز سامية، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح السكسونيين، بحكم الظروف، ورغمًا عنهم، أتباعًا وخدامًا للفاتحين الغالبين. ولكن وإن كان صحيحًا أن الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد، ولا بد من أن تصيبه خطيته، إلا أن هذا شيء والشعور بالظلم الشخصي شيء آخر، فكان لا بد أن يظهر أثره في كل صراع جديد بين الجنسين المختلفين، وقد بدا هذا جليًا في الصراع العنيف الذي قام بين الملك النورماندي وبين الأساقفة الإنجليز، وهذا يساعدنا كثيرًا في الحكم على نتائجه الخطيرة. ومع ذلك فعلينا أولاً أن نلاحظ السبب المباشر الذي أدى إلى النزاع.

إدخال القوانين الكنسية إلى إنجلترا

بعد محاولات عديدة وفشل متكرر من جانب البابا في إدخال السلطة البابوية في إنجلترا، تم له ذلك في عهد استيفن المضطرب سنة ١١٣٥م وكان هذا شيئًا جديدًا في تاريخ إنجلترا كله، وخطوة جريئة جدًا من جانب روما. ولكن لما كانت هذه الخطوة هي فاتحة عصر متميز وهام جدًا في تاريخ الكنيسة الإنجليزية فيجدر بنا أن نلاحظ بدقة ذلك التغيير الذي أُدخل. ولكي نكون مدققين للغاية يحسن بنا أن نقتبس بعض فقرات من مؤرخ إنجلترا القانوني الشهير توماس جرينوود[٤٢]:

"إن إدخال هذا القانون والعمل به قَلَبَ النظام الكنسي رأسًا على عقب، وغيَّر توزيع السلطة تغييرًا كليًا، فكل وظيفة تتعلق بإدارة الكنيسة أصبحت منحصرة في رجال الإكليروس، أو بالحري في بابا روما بصفته رئيسهم الأعلى، وكل نفوذ للحكومة حتى فيما يتعلق بأبعد الأمور صلة برجال الدين وحياتهم وسلوكهم، زمنيًا أو روحيًا، زال زوالاً تامًا ورُفض رفضًا باتًا، فممتلكاتهم صارت مقدّسة وغير قابلة لأي اعتداء، وأعمالهم لا رقيب عليها سوى رؤسائهم الرسميين، وأشخاصهم معافين من المحاكمات المدنية، وكل تدخل من جانب أي ملك أو أي شخص علماني في تعيين الأساقفة أو القسوس أو في كل ما له علاقة بالأمور الروحية صار باطلاً وأطلق عليه صفة السيمونية. ومع أن هذه المبادئ والقوانين الكنسية كانت قد تناولتها يد التنقيح والتعديل في بعض المواضع، إلا أنها كانت مقبولة ومعمولاً بها بلا أدنى اعتراض في فرنسا وإيطاليا وألمانيا. وفي نورمنديا كان التشريع المدني منفصلاً تمام الانفصال عن التشريع الإكليريكي، أما إنجلترا فلم يكن معروفًا فيها إلى ذلك الحين سوى القوانين الكنسية التي وضعتها الكنيسة الوطنية بنفسها بموافقة الملك ورضائه... وقد كانت محاولات أساقفة روما الموجودين في إنجلترا من عهد الفتح موجهة جميعها نحو إدخال المواد الهامة في قانون روما (المعروف بالقانون الأيزيدوري) إلى التشريع الكنسي في إنجلترا، وخاصة فيما يتعلق بتحرير ممتلكات الكنيسة وأوقافها من سيادة التاج أو القوانين المدنية، وكذلك بإخراج أشخاص رجال الإكليروس وقضاياهم من دائرة اختصاص المحاكم الملكية...

صحيح أن القوانين الأولى التي أصدرها وليم الفاتح بخصوص فصل المحاكم المدنية من المحاكم الدينية لم تصل في مداها يومًا من الأيام إلى حد إعفاء رجال الدين من المسئولية أمام القانون، ولكنه صحيح أيضًا أن كلا من الفاتح وخلفائه إلى عهد الملك يوحنا حاولوا جميعًا الجمع بين القوانين الكنسية الجديدة وبين القوانين القديمة الموروثة. وكثيرًا ما بلغت بهم غيرتهم الشديدة على الاحتفاظ بروابط الصداقة والمودة مع البلاط الروماني إلى حد اتخاذ بعض الإجراءات التي عرّضت قوانين البلاد للخطر، وإن كانت لم تهدم أسسها القديمة أو تمس حقوق التاج التقليدية. ففي أثناء الصراع العنيف بين أنسلم رئيس أساقفة كانتربرى وهنري الأول تمسك هذا الأخير تمسكًا شديدًا بحقه في تحديد أي من الشخصين المتنافسين على البابوية يكون هو البابا الذي يخضع له رجال مملكته الدينيون، وعندما صمم أنسلم بدون موافقة الملك على تحويل خضوعه الروحي إلى أوربان الثاني مفضلاً إياه عن منافسه كليمنت الثالث قال له هنري بكل عنف وشدة: إنني لا أعرف في مملكتي قانونًا أو عادة تسيغ لأحد الرعايا، بدون إذن الملك، أن يقيم على إنجلترا بابا معينًا. إن أي إنسان يظن في نفسه أنه قادر على إخراج حق البت في هذا الأمر من يدي، فليعلم مثل هذا، كائنًا من كان، أنه أيسر له أن ينتزع التاج من على رأسي !..

وكان الصراع بين هنري وأنسلم طويلاً وعنيفًا، إلى أن جاء وقت فر فيه أنسلم إلى روما واستولى الملك على ممتلكاته. وقبل أن ينتهي الصراع بنتيجة نهائية وصل إلى شواطئ إنجلترا رسول بابوي معلنًا أنه موفد من روما وبيده تفويض من البابا بإعلان التشريع البابوي فوق جميع إنجلترا، ولكن الملك أعلن أنه من حقه وحده، بحكم التقاليد والعادات الموروثة، قبول أو رفض أي تدخل مثل هذا في تصريف أمور الكنيسة العادية من جانب أي سلطة أجنبية، وعلى هذا اضطر الرسول البابوي إلى الرجوع دون أن يسمح له بمقابلة الملك. وبعد خمسة عشر عامًا من ذلك التاريخ حاول نفس البابا مرة ثانية إرسال مندوب فوق العادة إلى أرض إنجلترا، ولكنه لم يفلح كما في المرة الأولى... كذلك قام نفس البابا بمحاولة ثالثة، ولكنها فشلت كسابقتها. وقد كان المفهوم إلى ذلك الحين أن قوانين إنجلترا وتقاليدها لا تسمح بمثل هذا التدخل من جانب البابا في الشئون العامة للكنيسة، التي كانت بحكم القانون خاضعة لسيادة الملك".

ولكن بعد وفاة ذلك الملك الحكيم المقتدر، هنري الأول، الذي قضى نحبه عام ١١٣٥م، تمكن ذلك البابا الداهية إسكندر الثالث من إنجاح المشروع، ففي عهد الملك استيفن، وهو أحد ملوك إنجلترا الضعفاء، استطاع مندوب روما أن يجد لنفسه طريقًا إلى الجزر البريطانية. وقد فطن رجال الدين الإنجليز إلى خطر هذه الحركة الداهم، فعقدوا مجمعًا في لندن وأعلنوا احتجاجهم في وجه المندوب على هذا الادعاء بجلوس رجل أجنبي على كرسي الرئاسة فوق جميع رؤساء أساقفة إنجلترا ورؤساء أديرتها ومجمع أشرافها. على أن هذا المجمع لم تكن له أية نتيجة فعالة، ولم يقترن بأية خطوة جديدة، ذلك أن روحًا من الخوف والممالأة ومجاراة الظروف أخذت تدب بين رجال الكنيسة الإنجليزية. زد على ذلك أن الجهل كان مخيمًا على جمهور الشعب في ذلك الحين، مضافًا إلى الروح العالمية التي كانت منتشرة بين رجال الدين، وحالة البلد التعيسة بوجه عام في عهد حكم استيفن الضعيف. كل هذه كانت أسبابًا هيأت الفرصة لأن يتوغل الحزب البابوي في اعتداءاته المتكررة على حقوق التاج الموروثة، وعلى حريات الكنيسة الأهلية. أما الأساقفة الأنجلو نورمانديين في ذلك الوقت فكانوا في الواقع لوردات أكثر منهم رجال دين، فقصورهم كانت قلاعًا وحصونًا، وأتباعهم كانوا أبطالاً وجنودًا، والكل بصفة عامة كانوا رجال سيوف وحراب، مشتركين في الحروب ومنغمسين في ارتكاب فظائعها وأهوالها. كانت هذه حالة الأساقفة ورجال الدين في إنجلترا حين اعتلى العرش هنري الثاني عام ١١٥٤م، وهو الملك الذي قام بكت لمناوأته. ولنا في هذا الصدام الذي وقع بين بكت وبين هذا الملك الغني الجبار نور لامع يكشف لنا عن نوايا روما وأطماعها الزمنية أكثر من أي صدام أشرنا إليه إلى الآن.

توماس بكت وهنري الثاني

لا يُعرف على وجه التحقيق أصل بكت ونشأته، ويرجح أن هذا الغموض يرجع إلى مؤرخي حياته الذين أرادوا أن يسدلوا ستارًا كثيفًا عليه، ولكن يقول البعض إنه ولد حوالي عام ١١١٩م وبدأ مرحلته الدراسية في لندن، وأنهاها في باريس. ولم يكد يرجع إلى إنجلترا إلا واتجهت إليه أنظار ثيوبولد، رئيس أساقفة كانتربرى، لما سمعه عنه من المديح والاطراء، فعينه لإدارة

شئونه الخاصة، وهذه كانت خطوة مباركة فتحت أمام بكت الطريق إلى أعلى المناصب في الكنيسة، فثيوبولد الذي كان يعلم في دخيلة نفسه أن الملك الشاب لا بد سائر في طريق والده من المعارضة في سياسة روما وآمالها، أراد أن يضع في مواجهته شخصًا يكون في استطاعته الوقوف في أمام هذا العداء من جانب الملك، وقد نظر هذا الأسقف الحكيم إلى رئيس شمامسته بكت، فلمح فيه ليس فقط المقدرة الفائقة في تصريف الشئون الزمنية، بل رآه وقد توفرت فيه جميع العناصر التي تؤهله لأن يكون من رؤساء الكنيسة المخلصين ورجال الدين العظماء المقتدرين، فسعى له حتى تمكن من تعيينه مستشارًا للدولة، وبذلك أصبح ثاني رأس في المملكة، إذ كان لا بد أن تحمل جميع الأوامر الملكية ختمه قبل أن يتسنى لها الخروج إلى حيز التنفيذ. زد على ذلك أن هذه الوظيفة لم تتجرد عن أن يكون لها نفوذ عظيم فيما يتعلق بالشئون الكنسية، ذلك أن المستشار كان بيده تعيين قساوسة البلاط الملكي، كما كانت له السيادة على الأبروشيات والأديرة الخالية. ولكن لما كانت سيرة توماس بكت قد وصلتنا عن كتب الأساطير والتواريخ المدرسية كأحد القديسين والشهداء، فيحسن بنا قبل كل شيء أن نمر بالإيجاز على صفحة تاريخه كرجل عالمي.

توماس بكت مستشار الملك

استطاع توماس بكت، بما كان عليه من متانة في الخلق، ومرونة في الطباع، وحدة في الذكاء، ودقة في الشعور والإحساس، وجاذبية شخصية في الحديث والمسامرة، أن يكسب ثقة الملك ومحبته، حتى جعله رفيقًا له في كل مسراته وملاهيه، ليس ذلك فقط بل في أمهات المسائل وشئون الدولة الخطيرة كان يلجأ الملك إلى حكمة مستشاره وفطنته، فيجد عنده الحل لكل معضلة. أما عن صفاته كنديم ملكي مهذب، أو كزعيم عسكري محنك، أو كسياسي بعيد النظر، فيقال إنه في جميعها كان منقطع النظير. وقد يبدو غريبًا في نظر قارئ القرن العشرين أن رجلاً من رجال الدين يشغل مناصب كنسية مختلفة ويكون في الوقت نفسه قائدًا حربيًا مغوارًا، ولكن هكذا كان ذلك الرجل الذائع الصيت. يقول أحد مؤرخي حياته: "في الحملة التي أرسلها الملك هنري لتقرير حقوقه في مقاطعات تولوز ظهر بكت على رأس سبعمائة فارس. وكان في كل مأزق خطير هو البطل الصنديد والقائد المغوار والفارس الذي لا يشق له غبار. وفي وقت آخر بعد ذلك عهد إليه بهدم بعض الحصون التي قامت في وجه سيده، فأظهر من الشجاعة والبطولة ما رفع اسمه عاليًا وأكسبه شهرة عظيمة في مضمار الحرب والقتال. ورجع إلى هنري في نورماندي على رأس ألف ومائتين من الأبطال وأربعة آلاف من الفرسان كان قد جمعهم ووفر مؤنهم على نفقته الخاصة". وقال عنه آخر: "من يستطيع أن يصف الخراب والدمار الذي كان يوقعه بأي مكان إذا ما قام على رأس جماعة من الجنود الأقوياء؟ فكم من الحصون دكها وكم من المدن اكتسحها، وكم من مساكن دمرها ومزارع أحرقها ولاشاها دون أن تخامره ذرة من الشفقة، فما من مرة أظهر أقل رحمة نحو أي شخص ساقه سوء الطالع للوقوف في وجه سيده أو معارضة أي أمر من أوامره"[٣/٤٣].

إن كل رجل من رجال الكنيسة الغيورين غير الهازلين لا بد، حتى في تلك الأيام، أنه يحزن ويكتئب لحصول مثل هذه الأعمال من رئيس شمامسة كانتربرى، ولكن هذه العادة كانت شائعة حتى أنها لم تكن لتثير أي دهشة، وها نحن نرى، واحسرتاه، أن الشرف العالمي قد أصبح بغية جميع رجال الإكليروس تقريبًا ومطمعهم الأسمى، حتى أنك لتجد المعجبين بتاريخ بكت منهم أكثر عددًا بما لا يقاس من الذين هم على استعداد لأن يكتئبوا له أو يحزنوا عليه. أما ثروة بكت وعظمته وقوته قد فاقت كل حد سابق. وقد كان في الواقع هو الملك دون الاسم، وقد قيل في هذا الصدد إن العالم بأسره لم ير قط اثنين من الأصدقاء كانا هكذا واحدًا. ولكن صداقتهما، ككل صداقة عالمية أساسها المحبة الذاتية والمطامع الشخصية، انتهت بانتهاء مصالحهما. هذا ما سنراه بعد قليل، وقد حدث هذا بشكل يندر أن يكون له مثيل.

توماس بكت رئيس أساقفة كانتربري (١١٦٢م)

بعد مرور ما يقرب من العام على وفاة ثيوبولد حل بكت مكانه بأمر الملك كرئيس أساقفة كانتربري، أو بالحري رئيسًا عامًا لجميع كنائس إنجلترا. وقبل أن يتبوأ العرش فعلاً لم يفتأ يظهر إخلاصه المتناهي وتفانيه العظيم في خدمة مصالح سيده الملك، ولكن من اللحظة التي وصل فيها خبر انتخابه إلى مسامع البابا

إسكندر الثالث، وخاصة بعد المقابلة التي تمت بينهما في مجمع تور، تغير قلبه جملة من جهة مليكه، فرجع من تور إلى كانتربري وهو العبد الخاضع الأمين لروما والعدو اللدود العنيد للملك ولقوانين البلاد. هذه هي الروح البابوية التي كانت والتي هي كائنة والتي لا بد أن تكون على الدوام. كانت نوايا الملك في وضع حد لسلطة الكنيسة المتزايدة معروفة لبكت وقت أن كان رئيسًا لمجلسه المخصوص، والآن لا بد من مقاومة هذه النوايا مهما كلف الأمر، ومن هنا بدأت المعركة.

كانت دعوى رجال الإكليروس في جعل أنفسهم طبقة منفصلة عن باقي البشر من كبيرهم لصغيرهم أمرًا مربكًا للحكومة وعقبة كؤود في سبيل إدارتها. فالكنيسة طلبت الاستقلال التام عن القضاء المدني، وأعلنت في جرأة غريبة أن رجال الدين وممتلكاتهم يجب أن تخرج كلية عن سلطة المحاكم المدنية، وأن يكونوا مسئولين أمام رؤسائهم الدينيين فقط وخاضعين مباشرة بأشخاصهم وممتلكاتهم لقوانين روما. ولكن الخروج من تحت طائلة القانون لا بد أن يؤدي للفوضى دائمًا، وهذا ما حصل فعلاً إذ ازدادت الجرائم ازديادًا مروعًا على أثر هذا التعدي البابوي في إنجلترا، مما جعل حياة الفرد وممتلكاته في خطر مستديم. فمثلاً كما قال مؤرخ إنجلترا القانوني العظيم "قد ثبت أنه منذ بداية حكم هنري الثاني ارتُكبت أكثر من مائة جريمة قتل بواسطة رجال الإكليروس دون أن يلحقهم أي عقاب. وحوادث الفعل الفاضح والحريق عمدًا والسرقة والسلب، كلها كانت تُلتمس لها المعاذير أو تُدارى تحت عباءة القسيس أو رداء الراهب. ولم يكن في القانون الكنسي أية مادة تنص على عقاب رادع لمثل هذه الجرائم الشنيعة، حتى أن الملك هنري انتهى به الأمر أخيرًا إلى أن يضع السؤال الحاسم الخطير عما إذا كانت قوانين المملكة القديمة وتقاليدها الموروثة ستظل مرعية أم لا".

عزم الملك أن يضع حدًا لذلك الأمر الخطير فعقد برلمانًا في وستمنستر وطلب من النواب جوابًا صريحًا على سؤاله. كان جواب رجال الإكليروس على سؤاله هو أن قوانين الملكة وتقاليدها القديمة يجب أن تظل مرعية ومعمولاً بها "إلا فيما يختص بامتيازات طبقتهم". وهذا الجواب لو أنه في ظاهره مراوغة إلا أنه في حقيقته رفض، ولذلك لم يكن من الملك إلا أن حل المجلس غاضبًا، وترك لندن، وبدأ يجرد بكت من سلطته، بعد أن حرمه من امتياز وشرف القيام بتربية ابنه. ملك الذعر قلوب الأساقفة لعلمهم بكبرياء هنري وشدة مراسه، فطلبوا إلى رئيس الأساقفة إما أن يسحب هذا الجواب الجارح أو يعدله، ولكنه أعلن في بادئ الأمر أنه ولو نزل ملاك من السماء وأشار عليه بمثل هذا التقهقر للعنه إلى الأبد دون أن يتزحزح قيد أنملة عن موقفه المشرف. إلا أنه استسلم أخيرًا، والبعض يعزو هذا الاستسلام إلى تأثير البابا إسكندر، ذلك لأن هنري هدد بأنه سيمتنع عن دفع "بنس بطرس" (أي العشور)، وهكذا كان البابا في كل المعركة وأثناء الصراع الطويل يقف في صف الملك إذا كان في حاجة إلى النقود، وفي صف بكت إذا كان في استطاعته الاستغناء عنها.

قوانين كلارندون

وصل الرد بالإيجاب إلى الملك، فاستدعى مجمعًا عظيمًا من كبار رجال المملكة في كلارندون، وهو قصر ملكي بالقرب من سالسبري، للتصديق على القرار. كان غرض الملك من ذلك هو السلام، فقانون البلاد أصبح في كل مكان مهددًا من الكنيسة، وأختل نظام العدل وأصبحت المملكة كلها مهددة بحرب داخلية طاحنة. جمع الملك قوانين البلاد وتقاليدها في صيغة قانونية وفي وثيقة واحدة لكي يوقع عليها البارونات العلمانيون، والأساقفة، بأمل حسم النزاع بين التاج والكنيسة. فهل كانت موافقة رئيس الأساقفة في هذا الموقف عن خوف من غضب الملك، أم عن سياسة كان يرمى إليها، أم عن خيانة كان يضمرها؟ هذا ما يصعب أن نحدده ولكنه على أية حال حلف اليمين وصدق على "قوانين كلارندون" الشهيرة، وتبعه في ذلك باقي الأساقفة. وبهذه الطريقة نجوا من أيدي الملك والبارونات. ولكن من الواضح تمامًا أن بكت لم يكن يدخل في حسابه في أي وقت من الأوقات أنه سيطيع هذه القوانين التي أمضاها بعد أن أقسم قسمه العظيم على حفظها والخضوع لها، فهو قد عرف العلاج لهذه الحالة وهو علاج في نظره بسيط ولو أنه في حقيقته نكث بالعهد خطير وخيانة من أحط الخيانات. لم يتلكأ كثيرًا أو يضيع الوقت سدى بل في الحال طير الخبر إلى البابا وعرفه بالأمر الذي أقدم عليه مضطرًا. ولم يمض أكثر من شهر واحد حتى أتاه الرد من البابا محرمًا هذه القوانين ومحللاً إياه من كل تعهد لا يتفق مع القانون الكنسي، مع تفويض لجميع أساقفة المملكة وقساوستها

أن يحنثوا في كل وعد من هذا القبيل يكونون قد ارتبطوا به.

هل هناك حنث بالقسم أكثر تعمدًا من هذا؟ وهل هناك نفاق أحط من هذا النفاق وأحقر منه؟ وكل هذا يصدر من شخص يشغل أكبر مركز في الكنيسة وأقرب مكان عند مليكه. حقًا إن القلب لينفطر والقلم يدون مثل هذه المخازي الشنيعة والجرأة الغريبة المجردة من كل ضمير أو حياء. وهل يمكن للقارئ أن يتصور شرًا أعظم من هذا الشر المتستر باسم الرب يسوع وباسم المسيحية؟ هذه الأمور وأمثالها تعطينا بلا شك فكرة محزنة عن روح البابوية الخبيثة التي تظن أن أشر الجرائم ضد الله والناس هي مبررة ما دام الغرض منها تقدم سلطة الكنيسة العالمية وعظمتها. وإننا نتساءل أمام هذا النفاق وهذا الرياء: متى وفي أي الظروف يمكن للإنسان أن يصدق بابويًا أو يركن إليه؟ شكرًا لله إننا لسنا قضاته أو دائنيه، ولكن الله سيدين جميع البشر «لأنه أقام يومًا هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عيّنه مقدّمًا للجميع إيمانًا إذ أقامه من الأموات» (أع١٧: ٣١).

كان رئيس الأساقفة، الذي حصل على ثقة الملك وكان بذلك ملمًا بكل عاطفة من عواطف قلبه، على اتصال تام مع البابا معطيًا إياه علمًا أولاً بأول بكل ما كان يدور بينهما، حتى عرف البابا بذلك متى يجامل الملك ومتى يجامل خادمه الغيور. ولكن لا شك أن تصرفًا مثل هذا إنما هو أحط خيانة من جانب بكت كخادم للملك، كما أنه أشنع وأشر سلوك من جانب مرشد بكت الروحي. ولكن لا ننس أنه «لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين» (مت٦: ٢٤)، فلا بد أن يكون خائنًا لأحدهما، وهذا ما نراه في حالتنا هذه، وهي حالة من أظلم الحالات المدوّنة على صفحات التاريخ. فلم يكد رئيس الأساقفة يضع ختمه على قوانين كلارندون إلا وكان لدى البابا اعترافه بالتوبة والندم. أو كما قال أحد كبار المؤرخين "لم يكد يبلع السم إلا وكان الترياق على شفتيه"(١٢/٤٢)، (٤/٤٣).

توماس بكت يقاوم الملك

جاء الآن دور الحرب العلنية بين حقوق التاج ومزاعم الكنيسة، وكأن التاريخ يعيد نفسه، إذ نفس المعركة التي دارت رحاها في الماضي بين هنري الرابع ملك ألمانيا وغريغوري السابع نراها الآن تتكرر فوق أرض إنجلترا بين الملك ورئيس الأساقفة. استقال بكت من منصب الاستشارية وسلم أختام وظيفته. ترك مسرات القصر الملكي والصيد والولائم والسباق والحرب ومجلس البلاط، وتحول مرة واحدة إلى راهب من أشد الرهبان تنسكًا وتقشفًا. لبس رداء الراهب وتجلبب بقميص من الشعر، وجلد نفسه بجلدات من حديد، وتخلص أيضًا من جميع مقتنياته الفاخرة، فباع خيله وجميع آنيته الفضية. أخذ في الصيام ولم يكن يتناول سوى الخبز والماء، وكان ينام على الأرض الخشنة، وكان في كل ليلة يغسل بيديه أقدام ثلاثة عشر شحاذًا. هذه القداسة التمثيلية التي لا مثيل لها كانت هي سلاحه في المعركة، فمن ذا الذي يجسر أن يمس رجل الله المقدس، مسيح الرب ورئيس كهنته؟! كان بكت يعرف خصمه تمامًا لأنه كان قد درس كل صفة من صفاته ولهذا عرف السلاح الذي به يقاومه.

دُهش الملك واضطرب واكتأب. كان قد رفع وزيره العزيز إلى ما هو أرقى من ذلك، إذ جعله رئيس أساقفة كانتربرى لعل خدماته في هذه الوظيفة الجديدة تكون أشد فاعلية في مقاومة الحزب البابوي في إنجلترا، ولكن قد خاب فأله. لنلاحظ جيدًا أن المسألة لم تكن تمس مطلقًا امتيازات الكنيسة الإنجليزية المشروعة، فهنري لم يخطر على باله قط أن يعتدي على هذه الامتيازات. ولكن الكنيسة هي التي أظهرت، بناء على تعليمات البابا، أنها كانت عازمة عزما أكيدًا على الاعتداء على حريات التاج والشعب البريطاني أجمع. ولم ير الملك بين جميع رجال مملكته من كان أهلاً بمواهبه ومضاء عزيمته لمقاومة مندوبي روما سوى مستشاره ورفيق نعمته العزيز. فقد ظن الملك أنه قد أصبح لديه على رأس الكنيسة ورأس الدولة رجل يستطيع أن يذود عن حريات التاج والشعب، ولكن بالأسف لم يكن لهذه الغايات الجميلة قد استلم بكت الخاتم والصليب، فمن اللحظة التي فيها مست أنامله صليبه الأسقفي أصبح العبد الخاضع لروما المستميت في الدفاع عن مزاعمها، وأصبح العدو اللدود لكل إنسان أو مبدإ يتعارض مع مصالح كرسي القديس بطرس. وسرعان ما وجد هنري أن مستشاره القدير المذبذب "الذي منه كان ينتظر كل مساعدة، وعلى يديه كان يرجو النصر، قد انقلب عليه بعداوة لا تعرف سبيلاً للهوادة أو الرحمة. وقد دفع بمزاعم روما إلى حد لم تصله من قبل"(١٠).

حيرة الملك

ليس من الصعب أن ندرك الشعور الذي به قابل الملك المتكبر أخبار هذا التصرف من جانب رجله. فعلاوة على أنه كان أقوى وأغنى ملك في عصره كان أيضًا على جانب عظيم من المقدرة والنشاط ومضاء العزيمة، ولكنه لم يلجأ إلى الشدة في بادئ الأمر، بل حاول جهد طاقته لرد قسيسه الثائر إلى صوابه وإرجاعه إلى التوبة، ولكن كل محاولاته ذهبت هباء، وعندئذ أصدر أوامره بمحاكمة بكت كخائن. ولما كان بكت ملم بطباع الملك وجبروته، رأى - وكان محقًا فيما رأى - أن الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها أن ينجي نفسه إنما هي الهرب توًا. وفعلاً هرب إلى فرنسا وهناك رحب به ملكها ليس كشخص هارب، بل بالحري كضيف عزيز كريم يستحق كل مظاهر التبجيل والاحترام. عندئذ أذيع رسميًا أن رئيس الأساقفة قد أصبح خائنًا للبلاد، وصدرت الأوامر بنفي جميع أصحابه وأقاربه، واتخذت تدابير مشددة لمنع كل اتصال بينه وبين أعوانه في إنجلترا. أما هو فأجرى انتقامه بأن حرّم جميع مخالفيه، وهكذا اشتدت العاصفة واستمر الصراع لمدة سبع سنوات طويلة لم يقف الأمر فيها عند حد هنري وبكت بل تعداهما إلى آخرين كثيرين من ملوك، وباباوات، وأضداد باباوات، ورؤساء أساقفة، وأساقفة من كل نوع، ولكنها قصة طويلة ومعقدة من كذب وخيانة وباطل وإثم لا نريد أن نتتبعها.

والآن إذ قد تأملنا باختصار في المسائل الجوهرية الخاصة بالكنيسة والدولة والتي قادت إلى هذا الصراع المعيب، نشعر أن مأموريتنا قد انتهت. أما تفصيلات ما جرى في بحر هذه السبع السنوات فهي صفحة مطولة علاوة على أن قراءتها منهكة وبلا جدوى، مع ما تبعثه في نفس الكاتب والقارئ من ألم وحسرة، فهي سلسلة من المخازي ظهرت فيها بأقبح صورها كل نقيصة من نقائص طبيعتنا البشرية الساقطة. زد على هذا أن مثل هذه المنازعات ما كان يمكن لها أن تنتهي سوى بموت رئيس الأساقفة أو بخضوع الملك، إذ بمقتضى المبادئ البابوية كان الأسقف دائمًا هو المصيب، ولا يجوز له مطلقًا التسليم أو الخضوع.

كان هذا موقف بكت، وقد تمسك به تمسك المستميت، ولكنه أخيرًا بوساطة ملك فرنسا والبابا سُمح له بالرجوع من منفاه. أما عن إخلاص هنري فهذا أمر كان يشك فيه بكت كثيرًا، ولكنه كان يعتبر رجوعه نصرة مجيدة ضد الملك، واستمر في كبريائه وعناده كما كان قبل هروبه تمامًا، فطلب إرجاع جميع ممتلكات أسقفيته في الحال، ورفض بكل عنف تحليل من كان قد حرمهم من الأساقفة وغيرهم.

وكما كان في بداية المعركة تمامًا هكذا استمر متمسكًا بروح الازدراء والاستخفاف والتحدي، وكانت أخبار تصرفاته وأعماله منذ رجوعه تصل بالتفصيل إلى مسامع هنري بواسطة الأساقفة الذين كانوا يلجأون إليه لحمايتهم مع باقي رجال الدولة الدينيين. وقد تسرع أحدهم مرة فقال مخاطبًا الملك "طالما أن توماس يعيش فأنت لن يكون لك سلام". ارتبك الملك ارتباكًا شديدًا وراح يتلمس مخرجًا من هذه الحالة المزعجة. وقد وصل به قلقه إلى حد الجنون لما كان يسمعه عن عجرفة بكت وعناده الذي لا يُقهر حتى انطلقت شفتاه مرة بما كان يدور بخلده من رغبة سرية عميقة، إذ قال: "يا لي من أمير تعس. أليس في كل مملكتي من ينتقم لي من أسقف واحد بذئ قد سبب لي كل هذه الأتعاب ولا يفتأ يحاول جهد استطاعته وبكل وسيلة لكي يشل سلطتي الملكية ويجعلها سلطة صورية لا حول لها ولا قوة؟".

اغتيال توماس بكت (١١٧١م)

ليس من المؤكد البتة أن الملك كان يقصد القتل حينما نطق بهذه الكلمات المتسرعة، ولكن هكذا فهمها الذين كانوا ملتفين حوله، فقام أربعة من أمناء الملك الفرسان، وكانوا رجال حرب قساة وذوي بأس، وتآمروا فيما بينهم على تنفيذ هذه المهمة الخطيرة مهما كلفهم الأمر. وفي الحال توجهوا إلى حيث رئيس الأساقفة. كان غيابهم من القصر مفاجأة غريبة أثارت شكوك الملك من نحو نيتهم، فأرسل ورائهم في الحال اللورد مندفيل آمرًا إياه بالقبض على بكت وإرجاع الأربعة فرسان قبل تنفيذ غرضهم، ولكن القتلة كانوا أكثر سرعة، فعبروا المانش وقبل أن يلحق بهم رسل الملك كانوا قد اغتالوا رئيس الأساقفة وقتلوه شر قتلة.

تفاصيل هذه الجناية المريعة معروفة جيدًا لمعظم القراء ولهذا لا لزوم للاستفاضة فيها هنا، غير أننا نود أن نذكر، كمسألة تاريخية محققة، أن الأربعة الفرسان لم يكن قصدهم قتل رئيس الأساقفة دون أن يحاولوا أولاً الحصول منه على وعد بطاعة

الملك وتحليل الأساقفة الذين كان قد حرمهم، ولهذا دخلوا غرفته غير مسلحين، ولكن طلباتهم المتعجرفة وردوده الناشفة المشربة بروح التشامخ والتحدي، أثارت أقسى العواطف في هؤلاء اللوردات الإقطاعيين الذين كانوا يقدرون أعظم تقدير مبدأ خضوع أفراد الرعية لجلالة الملك. ثارت ثائرتهم فانطلقوا إلى الخارج يلتمسون أسلحتهم. أغلقت الأبواب وراءهم ولكنهم تمكنوا أخيرًا من الدخول عنوة. كان كل شخص يعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك وكان في إمكان رئيس الأساقفة أن يهرب ولكنه لم يرد، فالنصر كان للآن حليفه، ولا بد أن هذا النصر سيتعظم إذا هو مات شهيدًا. كان الناقوس يدق في تلك الساعة الرهيبة مؤذنًا بالصلاة المسائية فأخذ رئيس الأساقفة يسير نحو الكنيسة في ثبات وصليبه محمولاً أمامه. شعر الرهبان بحركة الرجال المسلحين في رواق الكنيسة الخارجي فتولاهم الذعر وفروا هاربين، وانقض الرجال إلى الداخل وأحدهم يصيح: "أيها الخائن؟" فلم يكن من مجيب. "أين رئيس الأساقفة؟" فأجاب "هاأنذا"، وهنا مرة ثانية طلب إليه الفرسان أن يحلل الأساقفة ويقسم يمين الولاء للملك ولكنه أبى. تلا ذلك مشاجرة عنيفة انتهت بضربات وختمت بقتل رئيس الأساقفة بجوار المذبح، ثم فر القتلة على الأثر متجهين أولاً إلى روما لتقديم التوبة، ثم إلى أورشليم حيث قضوا بقية أيام حياتهم بناء على أمر البابا في التكفير والزهد والتقشف.

خضوع هنري الثاني

اضطرب الملك جدًا عندما وقعت على مسامعه أخبار هذه الجريمة الدينية المزعجة، وارتج العالم المسيحي بأجمعه وسرت فيه هزة من الخوف والرعب، وأصبح الملك موصومًا بوصمة الطاغية الخارج على الدين، بينما بكت صار يُعبد كأحد الشهداء القديسين، وذاع أن موته كان بناء على أوامر الملك الصريحة. أغلق الملك المسكين الباب على نفسه ثلاثة أيام وثلاث ليال أبى فيها أن يتناول أي طعام أو يقبل أي تعزية، حتى أخذ أتباعه يخافون على حياته، وفى نهاية توبته أرسل رسلاً إلى البابا يبرئ نفسه من هذه الخيانة ويؤكد أنه لم يكن له أي علاقة بها. أما إسكندر فكان في بادئ الأمر في غاية الغيظ والاهتياج، حتى أنه لك يكن ليسمح بمجرد ذكر اسم ملك إنجلترا المكروه أمامه، وهدد بأن يحرم الملك بالاسم وأن يضع كل مملكته وملحقاتها تحت الحرمان القاطع، ولكن كما يقول جرينوود "كان من السهل دائمًا وجود الوسطاء في البلاط البابوي، فقام من استطاع أن يجس نبض بعض الكرادلة بطريقة سرية، وهؤلاء عطفوا على حجج الرسل التي كانوا مزودين بها بكثرة كالمعتاد. وبهذه الكيفية وجد الرسل بابًا مفتوحا لدى البابا"، وهناك جرت الألسنة ببعض شروط الصلح، ولكن البابا كان قد وضع قدمه على عنق الملك فصمم على فرض شروطه البابوية قبل أن يفلت من قبضته. أما انتصاره الشخصي ضد الملك العنيد فكان الآن على أتم ما يرغب.

بعث إسكندر باثنين من الكرادلة لمقابلة هنري في نورماندي، وبحث المسألة بدقة من كل وجوهها، والتأكد من توبة وتذلل الملك. وهناك حلف هنري على البشائر الأربعة بأنه لم يأمر بقتل بكت، ولم يكن يرغب البتة في هذا القتل، وأنه لم يحزن مثل هذا الحزن العميق عند وفاة أمه أو أبيه، ولكنه اعترف بأنه نطق في غضبه ببعض كلمات ضد هذا الرجل "المقدس" قد تكون هي السبب في هذا القتل، ولهذا فهو على استعداد بأن يقوم بأي نوع من التكفير يراه البابا. إزاء ذلك قدم البابا الشروط الآتية ووافق عليها الملك:

١- إرسال مائتين من الفرسان إلى الأراضي المقدسة والقيام بتكاليفهم على حسابه الخاص.
٢- في ظرف ثلاث سنين ينضم هو نفسه إلى فرسان الصليب إن لم يعفه البابا من هذا الشرط.
٣- إلغاء قوانين كلارندون وكافة التقاليد الردية التي أدخلت في عهده.
٤- أن يعيد لكنيسة كانتربرى كل حقوقها وممتلكاتها ويعفو عن كل من تناولهم غضبه في قضية رئيس الأساقفة ويعيدهم إلى كنائسهم.
٥- يتعهد هو وابنه هنري الأصغر بأن يحفظ تاج إنجلترا أمينًا للبابا إسكندر وخلفائه، وأنهما وخلفاءهما لا يعتبرون أنفسهم ملوكًا ما لم يعترف البابا وخلفاؤه بهم.

بعد أن أمضى الملك هذه الشروط وصادق عليها تمت مصالحته مع البابا في رواق الكنيسة في مايو ٢٢ عام ١١٧٢م، ولكن هذا كله لم يخرجه من أيدي الكهنة العنيدين، ولم يكن إذلاله في نظرهم قد كمل بعد.

كان الكهنة يذيعون من على منابرهم، والناس على استعداد لتصديق ما يذيعون، أن بعض المصائب العائلية التي كانت واقعة على الملك حوالي ذلك الوقت لم تكن إلا قصاصًا من الله بسبب الاضطهاد الذي وقع على قديسه. كذلك أدخلوا في أذهان الناس أن القديس بكت كان يحارب حروب الفقراء ضد الأغنياء، وخاصة الفقراء من السكسونيين المظلومين ضد النورمانديين القساة الطماعين. وصل الملك إلى حالة تعسة جدًا، فمن مصائب في الداخل إلى اتهام بالاشتراك مع القتلة في الخارج، حتى امتلأت رأسه بالهواجس الغريبة والمخاوف الخرافية المزعجة مما جعله على أتم استعداد للتكفير عن خطاياه تكفيرًا كاملاً، ولم يكن هناك شيء، كما أكدوا له، يكفي لإرضاء السماء الغاضبة والقديس الشهيد إلا بإظهار التذلل الجهاري، فمشهد كانوزا كان يجب أن يتكرر مرة ثانية. تلك هي الروح الحقيقية لكهنوت روما الذي لا يعرف الرحمة فإنهم إذا لم يستطيعوا سفك دماء فريستهم فليس أقل من إجباره على تجرع كأس المذلة حتى الثمالة.

هنري يكفر عن نفسه على قبر بكت

بعد انقضاء ثلاث أعوام على موت بكت زار الملك قبره في كانتربري. وإذ كان لا يزال على مسافة بعيدة جدًا من الكنيسة التي كان رئيس الأساقفة مدفونًا فيها، ترجل من على ظهر جواده وأخذ يسير حافي القدمين مسافة ثلاثة أميال في ملابس الحجاج وقدماه يدميان فوق الطريق الوعر. وما كاد يصل إلى قبر القديس حتى وقع على وجهه منبطحًا على الأرض. وبعد أن استمر على هذه الحالة وقتًا طويلاً، طلب إلى الرهبان ملتمسًا إياهم أن يجلدوه بالسياط، الأمر الذي لم يكونوا ليترددوا لحظة واحدة في القيام به، وهكذا أرضى الرهبان كبرياء نفوسهم بأن أخذ كل واحد منهم، وكانوا قد جعلوا أنفسهم صفًا واحدًا امتد من أول الكنيسة إلى آخرها، يشفي غليله بإيقاع بعض الجلدات على ظهر النورماندي العاتي، وبعد ذلك قضى هنري طول ذلك النهار والليل وهو جاثٍ بركبتيه على الأرض دون أن يتناول شيئًا من الطعام أو الشراب.

وهنا يمكننا القول بأن انتصار السلطة الروحية على السلطة الزمنية في شخص الملك وكذلك على قانون البلاد قد تم. وهكذا خدم بطل البابوية مطامعها بموته أكثر مما لو كان قد استمر حيًا.

تأملات في نتائج الصراع الطويل

لكي نعاون القارئ في الوصول إلى حكم عادل فيما يتعلق بهذا الصراع الحاد الطويل نحب أن نورد له قليلاً من التأملات، فنحن نعتقد أنه لا يوجد شيء يمكّن القارئ المحايد من تقدير الروح البابوية حق قدرها سوى إلمامه بتاريخ مطامعها ووسائلها الظالمة لتحقيق هذه المطامع.

وإذا ما تساءل القارئ ما هو يا ترى الغرض الحقيقي من هذا الصراع الطويل المحزن، فبماذا نستطيع أن نجيب؟ هل كان الغرض الحصول على الحرية الروحية لكنيسة الله حتى يتسنى لها التمتع بامتياز عبادته وخدمته طبقًا لتعاليم كلمته المقدسة؟ هل كان البابا أو رئيس الأساقفة يرمي إلى تحقيق الحريات الدينية والمدنية للفرد المسيحي، أو إلى صالح البشرية بصفة عامة، أم هل على الأقل رفعوا صوت الاحتجاج ضد الملك وحاشيته لكسرهم وتعديهم قوانين الله بصورة علنية واضحة وإنذارهم بالدينونة الآتية؟ لا هذا ولا ذاك، فكل من كلف نفسه عناء تتبع تفاصيل هذا الصراع يعترف، مهما كان هذا الاعتراف مؤلمًا ومحزنًا، أن واحدًا من هذه الأغراض النبيلة لم يكن ليدخل البتة في دائرة تفكيرهم. فغرضهم كان واحدًا ليس إلا، وهذا الغرض هو السلطة الكهنوتية. فكل شيء: الحق، والمسيحية، وسلام الكنيسة، وسلام الأمة، ناهيك عن مجد المسيح أو حقائق الأبدية - كل هذه الأمور قد ضحيت على مذبح مطامع الكهنوت المؤلمة. وكان بكت هو الممثل لهذه المطامع، فطلب التقديس المطلق لأشخاص الإكليروس وممتلكاتهم. يقول ملمان: "من البداية إلى النهاية كان الصراع يدور حول سلطة الكهنة وحصانتهم وممتلكاتهم. فحرية الكنيسة كانت هي معافاة الإكليروس من سلطان القانون وتبرير انفصالهم عن باقي البشر كطبقة منعزلة ممتازة. وليس هناك أي شك، بل هذا ما يجب أن يعترف به الجميع، أنه لو أن الملك سمح لرجال الكنيسة باحتقار كل قانون، ولو أنه لم يصر على ضرورة الحكم بالإعدام على رجال الإكليروس الذين يرتكبون جريمة القتل كباقي العلمانيين - لو أنه لم يفعل ذلك لكان في إمكانه أن يستمر في طريق أطماعه بدون أدنى توبيخ من رجال الدين، وأن يحيا حياة الاستهتار بكل مبدإ مسيحي يتعلق بالعدل والإنسانية أو الأمانة والزوجية، وأن يبتز بلا أدنى اعتراض من جانب الإكليروس أية

ضرائب من رعاياه، ما دام يحفظ يده بعيدة عن أموال الكنيسة".

هذا حكم هام وخطير لرجل من أقطاب الكنيسة لا يمكن لأحد اتهامه بالتعصب ضد طبقته، بل هو مؤرخ يعرف الجميع أن انتقاداته سامية جدًا وعادلة، كما أن تاريخه مشهود له بالدقة وتحري الحقيقة من جميع نواحيها. ونحن لسنا فقط نتفق مع كل ما يقوله ملمان، بل نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنه لا توجد لغة مهما كانت خطيرة وسامية تستطيع أن تعبر تعبيرًا كافيًا ودقيقًا عن أعماق الشر الذي كانت تنطوي عليه السياسة البابوية، ونحن لا نقول هذا القول عن الكنيسة الكاثوليكية باعتبارها شيئًا متميزًا عن البابوية، بل ما نرجو ملاحظته هو أننا إنما نقصد مطامع الباباوات الزمنية وسياستهم الجريئة الظالمة، وخاصة من عهد هلدبراند، ولكن مع ذلك قد وجد في هذه الكنيسة، في أحلك أوقات تاريخها، كثير من قديسي الله المحبوبين الذين كانوا لا يعرفون شيئًا البتة عن نوايا بابا روما وطرقه الشريرة. هذا ما يشير إليه الرب نفسه في خطابه لثياتيرا. «ولكني أقول لكم وللباقين في ثياتيرا كل الذين ليس لهم هذا التعليم والذين لم يعرفوا أعماق الشيطان» (رؤ ٢: ٢٤). هنا نجد بقية مؤمنة مرتبطة بنظام له هذه العلامات المميزة «أعماق الشيطان».

وقبل أن نترك هذه القصة الطويلة نحب أن نقول إن موت بكت كان فرصة عظيمة استغلها تلاميذه وأتباعه، فقد قيل إن آلافًا من الكتب عن تاريخ حياة الشهيد ومذكراته طبعت ونشرت في جميع الممالك بأرباح طائلة، كما أن عنصر الوثنية القوي الذي كان سائدًا من قديم في كنيسة روما وجد له منفذًا الآن إلى قلب إنجلترا، فأصبحت زيارة قبر الشهيد لغفران الخطايا أمرًا شائعًا، وصار القديس نفسه موضوعًا جديدًا لعبادة الناس، وأخذ الحجاج يفدون إلى قبره من كل حدب وصوب ويقدمون له أثمن الهدايا والمجوهرات. كما راجت هناك تجارة عظيمة جدًا في أشياء قيل إنه كانت لها علاقة بشخصه، فأصبحت ذات قوة معجزية، ويقال إنه في مرة من المرات وفد على القبر مائة ألف من الحجاج دونت أسماؤهم جميعًا في كانتربري، حتى أن لويس السابع ملك فرنسا حج إلى هذا القبر الذي كان يعتبر معجزيًا وقدم له جوهرة كانت معتبرة في ذلك الوقت أثمن جوهرة في العالم المسيحي عامة. ولكن هنري الثامن تجاسر على سلب ما في القبر من نفائس ومجوهرات، وأمر بإخراج القديس وإحراق عظامه وتذرية رماده في الهواء.

الفصل الثالث والعشرون

تعاليم كنيسة روما

نحن الآن على أعتاب القرن الثالث عشر، فالقرن الثاني عشر بما تخلله من أزمات حادة وما ظهر على مسرحه من شخصيات بارزة قد ولّى وأدبر، ونحن نقف إزاءه عند هذا القدر من التأمل، إذ ليس في استطاعتنا أن نتعدى الخط الفاصل بين الحياة الحاضرة وبين ما وراء القبر. والحق أن القرن الثاني عشر بأجمله ما كان ليهمنا كثيرًا أو قليلاً في يومنا الحاضر لولا ما بين حوادثه وقلاقله من علاقة متينة، ولو بعيدة، بحركة الإصلاح العظيمة في القرن السادس عشر. فنحن نستطيع من دراستنا لسيرة أولئك الأشخاص وما ارتبط بهم من حوادث أن نتبين تلك التطورات الفكرية التي نشأت وترعرعت في الأديرة، وتمخضت أخيرًا عن هذه الحرية المدنية والدينية التي نتمتع بها الآن بتدبير عناية الله الصالحة.

يظهر على المسرح جيل جديد من الناس يسترعي انتباهنا، فالباباوات والأساقفة والأباطرة والرهبان والفلاسفة والزعماء الذين تعرفنا بهم للآن قد تواروا من المشهد مُخلين مكانهم لآخرين. ولكنهم إلى أين ذهبوا يا ترى؟ وأين هم الآن؟ هذا سؤال إنما نسأله لعلنا نجد فيه باعثًا ومحركًا لنا لنعتبر يومنا وننتهز فرصتنا الثمينة، حتى لا يأتي الوقت الذي فيه نضطر أن نندب مع النبي قديمًا: «مضى الحصاد، انتهى الصيف، ونحن لم نخلص» (إر ٨: ٢٠).

لقد حان الوقت لأن يشغل الشهود الأمناء لله ولحقه مكانًا خاصًا في تاريخنا، فهم يبرزون أمامنا بجلاء في ختام القرن الثاني عشر. ولكننا نجد أنه من اللازم قبل كل شيء أن نبسط أمام القارئ الكريم بعض تعاليم وتقاليد كنيسة روما في ذلك الحين، لأننا سنجد أنه بمقتضى هذه التعاليم وتلك التقاليد حوكم هؤلاء الشهود، واكتسبت البابوية سيادتها على حياة وحريات قديسي الله.

الأسرار السبعة

في العهد الجديد، حيث كل شيء واضح وجلي، لا نقرأ سوى عن ممارستين إلهيتين خاصتين بالشعب المخلّص، وهما المعمودية وعشاء الرب، ولكن في كلتا الكنيستين اللاتينية واليونانية زيد عدد الفرائض كثيرًا، وتضاربت فيها أقوال علماء اللاهوت المختلفين، فلم تعد المسألة فيما بعد مسألة إعلان إلهي أو «ماذا يقول الكتاب» بل ماذا يقول الفكر البشري والتخمين الإنساني. فالبعض ذهبوا بعدد الأسرار إلى اثني عشر، وآخرون خاصة في الكنيسة الغربية تمسكوا نهائيًا بالعدد سبعة بالمقابلة مع فكرة سبع مواهب الروح القدس. وهاك هي بحسب ترتيبها: المعمودية - المسحة أو الميرون (مسحة المرضى) - الكهنوت - الرسامة - الأفخارستيا أو العشاء الرباني - الاعتراف - الزيجة.

هكذا وُضعت الشبكة لأقدام أتباع المسيح الحقيقيين، فلم يكن من المهم بالمرة مبلغ تمسك الإنسان بكلمة الله وطاعته لها، فإنه إن تهاون في أسرار الكنيسة ومراسيمها، التي لا عدد لها، عرّض نفسه لتهمة الهرطقة ونتائجها المريعة. ومن الجهة الأخرى لم يكن من المهم بالمرة أن يستهين الإنسان كلية بكلمة الله ما دام يعترف بطاعته للكنيسة ومبادئها. أما كل الذين يتبعون الرب طبقًا لكلمته فلم يكن لهم من مفر أو نجاة، إذ الشبكة كانت واسعة النطاق وموضوعة لأقدامهم في كل مكان.

تعليم الاستحالة

إذا أردنا أن نعدد الإضافات الكثيرة التي زيدت على الطقوس الدينية الخارجية فإننا نبغي المستحيل، فهناك من المراسيم الجديدة والعادات والأعياد والأيام المقدسة ما كان يُضاف من وقت لآخر،

سواء أكانت عامة بواسطة البابوات أو في نطاق خاص بواسطة القسوس، ولكن ليس هناك من اختراع امتد واتسع أو تسلط على عقول العامة مثل فكرة الاستحالة، وهي فكرة لم تَرِد قَطّ في كتابات الآباء الأولين، اللاتينيين منهم أو اليونانيين، بل أول أثر لها نجده يظهر في القرن الثامن. وفي القرن التاسع، وهو قرن امتاز بظلمته الحالكة، قام أحد الرهبان المدعو باسكاسيوس وأعطى شكلاً وتحديدًا لهذه الخرافة الكبرى. وفي القرن الحادي عشر قاومها برنجار الذي من تورز مقاومة شديدة، ولكن دافع عنها أنسلم الذي من كنتربري دفاعًا شديدًا. وهكذا استمرت هذه المسألة موضوع بحث ومجادلة الفلاسفة الدينيين حتى مجمع لاتيران الرابع الذي عُقد عام ١٢١٥م، حيث عُرضت على بساط البحث بين الأمور الأخرى المختلف عليها، وتقرر إثباتها كأحد تعاليم كنيسة روما المسلّم بها. أصدر هذا المجمع قرارًا يثبِّت فيه أنه عندما ينطق الكاهن القائم بالخدمة كلمات التقديس تتحول عناصر الخبز والخمر المقدسة إلى مادة جسد ودم الرب يسوع المسيح، أو على حد تعبيرهم "إن جسد ودم المسيح يكونان حقيقة على المذبح في شكل الخبز والخمر، إذ يتحول الخبز إلى جسد يسوع المسيح، والخمر إلى دمه، وذلك بقوة الله عن طريق الكاهن. وهذا التغيير الحاصل يكون تامًا وكاملاً حتى أن العناصر المذكورة تكون حاوية للمسيح كليًا وجزئيًا – اللاهوت والناسوت، الروح والجسد والدم مع كل أجزائه ومقوماته"(٣٨/٢/٢)، (٥١).

من ذلك الحين اكتسب خبز الأفخارستيا صفة إلهية. كذلك أدخلت حوالي ذلك الوقت تغييرات هامة في طريقة ممارسة السر، فقيل إن الخمر المقدس كان عرضة لأن يتنجس بواسطة وصول اللحية إلى الكأس أو بواسطة عدم مقدرة المرضى على ابتلاعه، أو من الأطفال الذين قد يسكبونه، ولذلك مُنع الكأس عن المرضى والمتقدمين في الأيام، وأبطل نهائيًا اشتراك الأطفال في الكنيسة اللاتينية على الأقل، وأما الأروام فلا زالوا يمارسونه.

كان من الطبيعي أن تلي تثبيت مبدأ الاستحالة خرافات شنيعة أخرى، مثال ذلك أنه عند نقطة معينة من خدمة القداس يرفع الكاهن القربان المقدس، فيخر الناس أمامه سجودًا على الأرض. وفي بعض مناسبات أخرى يوضع القربان في صندوق مزخرف جميل ويسيرون به في موكب عظيم في الشوارع، وكل شخص يمر عليه يجثو على ركبتيه علامة الخشوع والتعبد. أما في أسبانيا، فعندما يحمل الكاهن القربان المقدس في طريقه إلى شخص يُظن أنه على وشك الموت، فيكون معه آخر بيده جرس صغير يدق به طول الطريق، وجميع الذين يصل إلى آذانهم صوت الجرس مرغمين على الركوع أرضًا والاستمرار على هذه الحالة حتى يختفي الصوت ويتلاشى بعيدًا فلا يعود يصل إلى آذانهم. فكان الكهنة يجعلون الناس يعتقدون أن الله الحي يحل في هذا الصندوق الصغير في شكل الخبز، وأنه من الممكن حمله من مكان إلى مكان. حقًا أن هذا لمنتهى الإثم والفجور، وأفظع أنواع الوثنية والتجديف، وما هو إلا تعريض لكل ما هو مقدس لهزء وسخرية النجسين، ولا غرابة فهي بدعة نشأت وترعرعت في وقت تميز بالجهل العظيم، وسادت فيه الفجور، وعمت الأباطيل والخرافات.

تلك هي آثام البابوية الجريئة الشنيعة، وذلك هو عمى كنيسة روما الذي يرثى له. ومع أنها كان شنيعة جدًا، فقد احتملها الله لما يزيد عن ألف سنة، ولكن سيأتي يوم فيه يدين الله سرائر الناس، ليس بحسب نواميس روما وطقوسها بل بحسب إنجيل يسوع المسيح ربنا «لأنه مكتوب أنا حي يقول الرب إنه لي ستجثو كل ركبة وكل لسان سيحمد الله. فإذًا كل واحد منا سيعطي عن نفسه حسابًا لله» (رو ١٤: ١١، ١٢).

عبادة العذراء مريم

نشأت عبادة العذراء مريم أصلاً من الروح التقشفية التي سادت في القرن الرابع. قبل هذا الوقت لم يكن لعبادتها أي أثر، ولكن حوالي ختام القرن الرابع أُذيع أنه اكتُشف أنه كان في هيكل أورشليم عذارى قد كرسن أنفسهن لله ومن بينهن كانت مريم التي نذرت الاحتفاظ بعذراويتها إلى الأبد. وهذا التعليم الجديد قاد إلى اعتبارها المثل الأعلى لحالة العزوبة، كما أعطى صفة رسمية لمبدإ عدم الزواج. بعد ذلك توًا أصبح من المعتاد أن يطلق على العذراء مريم اسم "والدة الإله" الأمر الذي تسببت عنه المجادلة النسطورية. غير أنه رغمًا عن كل معارضة انتشرت العبادة المريمية. وفي القرن الخامس وُضعت في جميع الكنائس تماثيل وصور جميلة للعذراء وهي تحمل بين ذراعيها الطفل يسوع. وبهذه الصورة تطورت الأمور بسرعة غريبة حتى صارت العذراء غرضًا مباشرًا للتعبد، وأصبحت المريمية من ذلك الحين هي شهوة كنيسة روما المتحكمة فيها. أما عن الخدمة اليومية

الخاصة بمريم، وكذلك الأيام والأعياد التي تكرست لتكريمها فقد أمر بها وثبتها جميعًا البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥م.

إذاً فعبادة العذراء قد أصبحت مبدأ من مبادئ كنيسة روما، واستمرت هكذا حتى إلى يومنا الحاضر. قد يدعي أتباع روما إنكار عبادتهم لمريم، لأن العبادة هي من حق الله وحده، ولكن رغمًا عن ذلك فإن الصلوات للعذراء تشغل حيزًا هامًا وكبيرًا في كتب صلواتهم، لا بل نحن نعتقد أنه لا توجد صلاة تستعمل في الكنائس باستمرار وبكثرة مثل صلاة "السلام لك يا مريم"، التي بعد أن تُقتبس فيها فقرة من تحية الملاك جبرائيل للعذراء تضاف هذه الكلمات "يا قديسة مريم، يا والدة الإله، صلي لأجلنا نحن الخطاة، الآن وساعة الممات، آمين". وكذلك في صلاة أخرى يخاطبون العذراء قائلين: "إننا نلتجئ إلى رعايتك، يا والدة الإله المقدّسة، فلا تحتقري طلباتنا وقت حاجتنا، بل خلصينا من كل خطر، أيتها العذراء المباركة الممجدة إلى الأبد". وثالثة تقول: "السلام لك أيتها الملكة المقدسة يا أم الرحمة، يا حياتنا ويا سرورنا ويا رجاءنا. إليك نحن نصرخ، نحن أولاد حواء المساكين المطرودين، إليك نرسل تأوهاتنا وتنهداتنا وبكاءنا في وادي الدموع هذا، فحولي لنا أذن، أيتها الشفيعة الكثيرة النعمة، حولي عين رحمتك إلينا". وهي أيضًا تُسمى "تابوت العهد" و"باب السماء" و"كوكب الصبح" و"ملجأ الخطاة" وكثيرًا مما يماثل هذه الألقاب، الأمر الذي يدل جليًا على عظم المكان الوثني الذي أعطوه لها في كتب صلوات كنيسة روما*.

أما التسبحة، أي سلسلة من الصلوات مع سبحة تُعد على حباتها تلك الصلوات، فهي تتكون من خمسة عشر قسمًا، كل قسم منها يحتوي على عشر صلوات "السلام لك يا مريم" لكل واحدة حبة صغيرة، يليها "أبانا الذي..." وهذه لها حبة أكبر، وأخيرًا "المجد للآب". وأما الأجبية الرومانية وهي كتاب الصلوات العام الذي من واجب كل كاهن أن يقرأ جزءًا منه يوميًا في خلوته، وإلا عرض نفسه لخطية للموت، فيحتوي على لغة أقوى فيما يتعلق بالعذراء، وهي تقول "إن هبّت عليك عواصف التجارب، وإن ركضت أقدامك على صخور الضيقات فانظر إلى الكوكب واستغث بمريم. وإن ساورك الغضب أو هجم عليك الطمع أو رطمت سفينة عقلك عواصف الجسد وتجاربه، فتطلع إلى مريم. وإن أزعجتك جسامة خطاياك واضطربت لتدنس ضميرك وروّعتك مخاوف الدينونة وأهوالها وابتدأتَ تُبتلع من الحزن وتسقط في هوة اليأس، فاذكر مريم - في أخطارك - في ضيقاتك - في شكوكك اذكر مريم. ادع مريم".

هكذا أصبحت العبادة المريمية عبادة المسيحية أجمع، حتى أن كل كاتدرائية، لا بل تقريبًا كل كنيسة كبيرة، كان لها "معبد سيدتنا" أو كما يسمونه "شابل دي نوتردام" الخاص بها. ولا شك أنه واضح جدًا من هذه الاقتباسات التي أوردناها أن العذراء كانت ولا تزال تُخاطب ليس فقط كشفيعة عند ابنها، بل كأول وأسمى غرض تتجه إليه العبادة. وما هذه الاقتباسات التي أوردناها سوى عينة هادئة ورزينة بالمقابلة مع تلك اللغة الحماسية التي هي أشبه شيء بعبادة فروسية، والتي تجدها في كتب الترانيم والتسابيح والأجبيات المختلفة، فصفات اللاهوت منسوبة لها، وتراها ممثلة كملكة السماء جالسة بين الكروبيم والسرافيم.

عبادة القديسين

إن عبادة القديسين يمكن اعتبارها مشتركة من القدم مع العبادة المريمية، ومن ثمار نفس التربة. والواقع أنها نفس الشيء مع فارق، وهو أن مريم لها المكان الأسمى فوق جميع جمهور القديسين والشهداء، لما لها من قداسة خاصة ونفوذ عظيم في السماء.

لا شك أن الاحترام الذي كان يقدّم، في العصور الأولى للمسيحية، لأولئك الذين شهدوا بالأمانة للمسيح وتألموا لأجله قاد إلى ممارسة التضرعات للقديسين والتماس الاستفادة من شفاعتهم، فتحولت مجرد العاطفة الأولى، التي قد يُلتمس لها العذر، إلى احترام خرافي، تطور أخيرًا فصار عبادة قائمة بذاتها. فالخطوة بين الاحترام والتعبد سهلة وطبيعية، حتى أن الإنسان قد لا يشعر بها. ومن ثم كانت أهمية تحذير الرسول «أيها الأولاد احفظوا أنفسكم من الأصنام» (١يو٥: ٢١).

بالتأمل في هذا التحذير والموضع الذي ورد فيه، نرى أن كل من ليس أمامه شخص المسيح كغرض قلبه والمحور الوحيد لجميع عواطفه إنما له صنم من الأصنام. تكلم الرسول قبل ذلك مباشرة عن مركزنا العجيب ومقامنا المبارك في الرب «ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (ع٢٠). فإذ لنا الحياة الأبدية فيه، وإذ صرنا واحدًا معه فيما يتعلق بمقامنا أمام الله، فينبغي أن يكون هو بلا شك غرض قلوبنا الأوحد، وكل ما

* أن أردت التفاصيل فانظر كتاب ديانات العالم لجاردنر عن ديانة "المريمية"(٢/٣٨ ص ٣٧٢)، أو كتاب بتلر "حياة القديسين"(٥١) وهو أعظم كتاب كاثوليكي في هذا الموضوع.

عداه فهو صنم. وأحس أن المسيحيين في خطر أن يقدموا خضوعًا أكثر من اللازم لبعض المعلمين أو المرشدين المحبوبين. ما أبعد هذا حقًا عن روح رسالة الرسول يوحنا. وكم يكون يا ترى مبلغ انطباقها علينا في ذلك اليوم العظيم الأخير؟ ليت الرب يحفظنا من المغالاة في تبجيل المخلوق سواء أكان حيًا أم ميتًا.

من هذه المبادئ الصغيرة نشأ أخيرًا نظام كبير، بواسطة دهاء رجال الكهنوت، مما درّ الربح الوفير والثروة الطائلة على الكنيسة فيما بعد. ففريضة الحج (زيارة الأماكن المقدسة) وما يتعلق بها من مال ثمنًا للغفران، والهبات السخية الأخرى، ما هي إلا جزء من هذا النظام العظيم. كان من المعتاد في بعض الأزمنة الغابرة أن تُقام خدمات دينية عند أضرحة القديسين والشهداء، ولكن مع مرور الزمن وتكاثف الظلمة وانتشار روح الخرافة لم يعد هذا العمل كافيًا، فأقيمت في القرن الرابع كنائس فخمة فوق تلك القبور التي كانت مرة متواضعة وبسيطة، لا بل حدث ما هو أنكى من ذلك، إذ جاءوا ببعض الآثار وزعموا أنها من مخلفات القديس ودفنوها في البناء الشامخ الذي أقاموه تكريمًا له، وقد كان من الأمور المؤكدة عندهم أن جسد القديس صاحب المعجزات مدفون تحت المذبح الأعلى، ولهذا كانت شفاعة مثل هؤلاء القديسين لها شأن عظيم وفاعلية خاصة. هذا الاعتقاد الغريب جذب الآلاف إلى تلك الأضرحة، فكانت الجماهير لا تنقطع عن زيارتها، البعض منهم لكي يروا معجزات تُصنع، والبعض الآخر لالتماس المعجزات فيما يتعلق بأشخاصهم، أو الغفران فيما يتعلق بأرواحهم. وهكذا أصبحت فرائض الحج أشهر وأعم أنواع العبادة. ولما كان الحجاج المتعبدون أسخياء في عطاياهم وتقدماتهم لما في قلوبهم من حرارة وبساطة، وجد هذا النوع من العبادة تشجيعًا عظيمًا من الكهنة الجشعين، حتى جاء القرن السادس فأقيمت هياكل لا حصر لها تكريمًا للقديسين، وتقررت أعياد عديدة للاحتفاظ بذكرى أولئك الرجال الراحلين.

يذهب ملمان وآخرون إلى القول بأن عبادة القديسين أصبحت منتشرة وعامة بهذا المقدار حتى أنهم كانوا في خطر من أن يُهمَلوا بسبب تعددهم وعدم إمكان حصرهم. "فالتقويم المزدحم لم يكن ليعرف أي يوم من أيامه يخصصه لقديس جديد دون أن يتعارض مع قديس قديم أو يلغي يومه*. فالشرق والغرب كان ينافس كل منهما الآخر في عدد قديسيه. وكان الغرب لا يقبل إلا النذر اليسير من قديسي الشرق، بينما الشرق رفض بإباء واحتقار كثيرًا من أشهر القديسين الذين كان الغرب يعبدهم بأعظم غيرة وأشد حماس. وعلى كلّ فتعدد القديسين وكثرتهم بهذا الشكل إنما هو أكبر شاهد على انتشار الوثنية". وقد أنتج التنافس في هذا المضمار بين كنيسة وكنيسة، وبين مدينة ومدينة، ومملكة ومملكة، وطائفة وطائفة، حالة من الهوس والحماس الشديد استمرت لعدة قرون، وكل فريق يحاول جهد استطاعته اجتذاب جماهير العباد لضريح قديسهم المحبوب. فمثلاً شهرة قديس ذائع الصيت مثل توماس بكت جعل تيار المغانم والأرباح يتحول إليه من الأماكن الأخرى بعض الوقت. ومن ثم كانت الغيرة الشديدة والضرورة القصوى لاكتشاف قديس جديد من حين لآخر يكون من شأنه أن يزيد في حماس الناس وتوجيه انتباههم إلى ضريح آخر. ومن الغريب والمحزن أنه حتى في وقت كتابة هذه الأسطر - سبتمبر سنة ١٨٧٣م - ترى ما يقرب من الألف من سكان إنجلترا سائرين، وإن كانوا بأقدام ليست عارية هذه المرة كما كان الحال قديمًا. في طريقهم إلى "باراي لي مونيال" في فرنسا ليجثوا هناك أمام ضريح "القلب المقدس" المقام تكريمًا للأم المباركة مرجريت ماري الاكوك. هذا شيء مدهش حقًا وجدير بأن يثير أعمق التأمل في عقول الكثيرين من نحو الغايات الحقيقية التي ترمي إليها البابوية من وراء كل ذلك. إن المعترَف به طبعًا هو أن الغاية هي خير النفوس وتكريم القديس أو القديسة، وكذلك نصرة الكنيسة، ولكن إذا نحن رجعنا إلى الماضي البعيد إلى أيام أوريجن الذي كان أول من دعا إلى عبادة القديسين، أو إذا رجعنا إلى ضريح "مارتن دي تور" الذي كان أشهر ضريح في القرنين الرابع والخامس، ثم تقدمنا إلى يومنا الحاضر، لوجدنا أن هذه العبادة تبلغ من العمر ما ينيف عن ألف وخمسمائة عام في كلتا الكنيستين اللاتينية واليونانية، فلا عجب إذاً إن حكم المسلمون بأن المسيحيين عبدة أوثان.

قد يعرف معظم القراء كثيرًا من أسماء أولئك القديسين الذين يمكن تسميتهم بقديسين عالميين (أي لكل العالم) مثل الآباء الأولين، علاوة على ما لكل مملكة من حاميها الخاص وقديسيها، ولكن إذ ندقق البحث لكشف الستار عن مبلغ امتداد هذه الوثنية فهذا مما يكون مزعجًا لقرائنا حقيقة، ففي المسيحية البابوية بوجه عام يوجد لكل مملكة ولكل هيئة ولكل فرد وسيط خاص عند المسيح (الذي هو الوسيط الوحيد العظيم بين الله والناس). وهناك كثيرون من الكاثوليك يتم اختيار

* معلوم طبعاً أنه لا يوجد في التقويم إلا ٣٦٥ يوماً فماذا يعمل إن كان عدد القديسين يزيد عن هذا العدد، وهم كما عرفنا أكثر منه بمراحل؟

قديسهم الخاص من يوم ولادتهم، وهو القديس الذي في يومه يولدون. وهذا القديس يعتبر بمثابة الحامي الخاص لذلك الفرد أو تلك الهيئة أو تلك المملكة، حتى أنهم ينسبون لهؤلاء القديسين ليس أقل من القوة الإلهية والمشيئة الربانية، حجتهم في ذلك هي أنه بما أن هؤلاء القديسين كانوا بشرًا ولا يزالون يحتفظون بعواطفهم البشرية فهم أقل رهبة من المسيح وأكثر منه إلفه، بحيث يسهل الدنو منهم بلا خوف ولا وجل، ومع ذلك فهم يعتبرونهم أيضًا قابلين للتغيير وسريعي الغضب، فالمحصول الوفير من الغلات، والانتصار في الحروب، والخلاص من الضيقات، والنجاة من أخطار الأسفار، وما شاكل ذلك من المراحم ينسبونها جميعها لشفاعتهم. ولكن إذا حلّت بعض المصائب فهذا دليل على أن القديس في حالة غضب ولا بد من إرضائه وذلك بتقديم كرامة أكثر لضريحه ووضع تقدمات أثمن على مذبحه.

عبادة الآثار

لما كان تاريخ هذه العبادة شبيه كل الشبه بتاريخ عبادة القديسين فسنكتفي بالإشارة إليه إشارة وجيزة. إن الأصل في الاثنين واحد وهو عواطف الطبيعة البشرية، أو قد يكون ضعفها، وميلها للاحتفاظ بآثار الأحباء الراحلين وذكراهم، وهذه العواطف استخدمها العدو لإيقاع المسيحيين في أحط أنواع العبادة. وقد كنت دائمًا تجد من يناقش قائلاً: "إن كان غرامنا بالاحتفاظ بذكرى الأحباء جميلاً بهذا الشكل وله ما يبرره من المعاذير، فكم بالحري الأشخاص الذين هم موضوع المحبة المقدسة مثل القديسين، والعذراء المباركة، والمخلّص نفسه"! ولكن مهما كانت هذه الخدعة الشيطانية المريعة فهذا النوع من العبادة إنما يرجع في الغالب إلى هذه الحقيقة، وهي أن كنيسة روما تؤمن أنه يوجد في هذه الآثار قوة لا تقاوم على عمل المعجزات، ولهذا تجدها موضوع عبادة الجميع من أكبر كبير إلى أصغر صغير، وفي مقدمتهم البابا.

ويمكن القول بأن هذه العبادة يرجع تاريخها إلى أيام قسطنطين، الذي في عهده اتخذ الاحترام الذي كان يقدم لمخلفات القديسين والشهداء شكلاً جديًا من التعبد، فالإمبراطورة هيلانه أم قسطنطين، نظرًا لرغبتها الخرافية الشديدة في تكريم الأماكن التي تشرفت بحياة وموت المخلّص في أرض فلسطين، أمرت ببناء كنائس فخمة فوق الأماكن التي قالوا إنها أماكن ميلاده أو موته أو صعوده. وفي أثناء عمليات الحفر اللازمة قيل أنهم عثروا على القبر المقدس، وفيه الصلبان الثلاثة، واللوح المكتوب أصلاً بيد بيلاطس في ثلاث لغات. انتشرت أخبار هذا الاكتشاف الغريب بسرعة البرق في جميع أرجاء المسيحية وأثارت حماسًا شديدًا في النفوس. ولما كان من المشكوك فيه إلى أي واحد من الصلبان الثلاثة يتعلق اللوح، لم يمض وقتًا طويلاً إلا وقالوا إنه حدثت معجزة أظهرت الصليب الحقيقي وأثبتت حقه في هذا اللوح! ومن الغريب المدهش أن قالوا إن نفس مسامير التي دُقت في يدي المخلّص وُجدت في ذلك القبر المقدس. ولسنا في حاجة أن نقول إن هذه التي اعتبروها كنوزًا ثمينة كانت رأسمال عظيمًا للتجارة في الآثار. فأجزاء من الصليب حوّلت إلى صلبان صغيرة للأغنياء، وأجزاء أخرى دُفنت في الكنائس الرئيسية في الشرق والغرب، حتى قال بعض الظرفاء "هكذا أفرخت خشبة الصليب بسرعة حتى صارت غابة عظيمة في وقت قصير".

هذه الشهوة نحو الآثار، التي كانت تزداد من قرن إلى قرن، وجدت لها مشجعًا عظيمًا في الحروب الصليبية، فقديسون كثيرون لم يكونوا معروفين من قبل، وآثار لا عدد لها وصلت إلى علم المسيحيين في الغرب عن طريق هذه الحروب. ونحن نغض الطرف عن الكمية الهائلة من عظام القديسين المشهورين والمخلفات الصغيرة التي أحضرت من الشرق وصارت فرعًا هامًا من فروع التجارة، ونكتفي بذكر أشهر أثنين أو ثلاثة منها. أهم هذه الآثار جميعها هي "الآنية المقدسة" وهي عبارة عن كأس من الزجاج الأخضر أحضرت من قيصرية وقيل إنها استُعملت في العشاء الأخير. وهناك أثر آخر ذو شهرة عظيمة وهو "القميص الذي بغير خياطة" الذي كان يلبسه ربنا المبارك، والذي قيل إنه وُجد في أرجنتويل سنة ١١٥٦م، وكذلك "القميص المقدس" الذي قيل إن الإمبراطورة هيلانه أهدته إلى رئيس أساقفة تريفيس.

ولسنا في حاجة أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في هذا الموضوع سوى أن نذكر مثالاً عمليًا يوضح لنا عبادة الآثار هذه، وهو أنه في الأسبوع المقدس (أسبوع الآلام) من كل عام، كان البابا والكرادلة يذهبون في موكب عظيم إلى كنيسة القديس بطرس في روما لتقديم العبادة للآثار الثلاثة العظيمة الموجودة هناك، وفي أثناء تأدية مراسم الاحتفال يركعون جميعًا في صحن الكنيسة تطل عليه من شرفة عالية الآثار الثلاثة الشهيرة، وهي عبارة عن

قطعة خشب من الصليب، وجزء من الحربة التي اخترقت جنب المخلّص، وأخيرًا الوجه المقدس وهذا الأثر الأخير هو قطعة من القماش قيل إن ربنا له المجد طبع عليها صورة وجهه المقدس بطريقة معجزية، وأُحضرت إلى إيطاليا لشفاء الإمبراطور طيباريوس عندما أصيب بالبرص. وكان الاحتفال يتم على هذا النحو في صمت خطير، حتى أنه يكاد يكون أروع وأعمق جزء من أجزاء العبادة المعروفة لدى كنيسة روما الكاثوليكية. فهل هناك سخافة أو ضعف بشري أو قوة شيطانية تبلغ في مداها إلى أبعد من هذا الحد؟ وبماذا يمكن أن نعلّل هذا الأمر؟ أناس متعلمون، وفي أحيانًا كثيرة حكماء وأتقياء، يجثون في تعبد عميق أمام قطعة من الخشب التالف، مع رمح مكسور، وخرقة ملونة! حقًا إن هذا لا يمكن تعليله إلا بالعمى الروحي الذي يصيب الناس على مبدإ التأديب والقضاء الإلهي. إنها ظلمة حالكة قد خيمت على الناس من قسوس وعلمانيين لأجيال عديدة بسبب إصرارهم على إخفاء كلمة الله وإطفاء نور الروح القدس. وهذا ما لا بد أن يكون على الدوام، ما دام الله وكلمته متروكين جانبًا وغير معتبرين، كما يقول النبي: «أعطوا الرب إلهكم مجدًا قبل أن يجعل ظلامًا، وقبلما تعثر أرجلكم على جبال العتمة، فتنتظرون نورًا فيجعله ظل موت ويجعله ظلامًا دامسًا» (إر١٣: ١٦).

المَطْهَر

أول من ابتدع التعليم بوجود حالة متوسطة (المطهر) هو أغسطينوس أسقف هبو، ولكن آراءه كانت غامضة وغير ثابتة، ولم تقبل كنيسة روما هذا التعليم بصفة رسمية كمبدأ من مبادئها الأساسية إلا في عهد غريغوري الأكبر عام ٦٠٠م، الذي اشتهر بأنه المكتشف لنيران المطهر. ففي بحثه في موضوع حالة النفس بعد الموت يقول صريحًا: "يجب أن نؤمن بوجود نار مطهِّرة لبعض التعديات البسيطة قبل يوم الدينونة". ولكن لما كان من الصعب تتبع التطور الذي لازم هذا التعليم لمئات من السنين فنكتفي بإشارة مباشرة إلى قرارات مجمع ترنت، وهي الحجة القوية في هذا الموضوع التي لا يختلف عليها اثنان.

"قرر هذا المجمع أنه يوجد مطهر، والنفوس المحجوزة فيه تجد معونتها في شفاعات المؤمنين، وخاصة في ذبيحة الأفخارستيا المقبولة. وهذا المجمع يأمر جميع الأساقفة بأن يبذلوا جهد استطاعتهم في هذا السبيل حتى يصبح هذا التعليم الخاص بالمطهر، والذي تسلم إلينا بواسطة الآباء المبجلين والمجامع المقدسة، عقيدة راسخة في النفوس يؤمن ويتمسك بها الجميع، ويعظ ويعلم بها وكلاء المسيح الأمناء في كل مكان ... ففي نيران المطهر تنتقى نفوس الأبرار بواسطة العقاب الوقتي، حتى بذلك يتسنى قبولهم في موطنهم الأبدي، حيث لا يمكن أن يدخل شيء دنس. وذبيحة الأفخارستيا إنما تقدم لأجل الأموات في المسيح غير المطهرين بالتمام"(٥٣)(٣/٥٤).

ويحاول الكتاب الكاثوليك تدعيم هذا التعليم المزعج بواسطة اقتباسات مختلفة من الكتاب المقدس، ولكن على الأخص من كتب الأبوكريفا ومن التقليد، أما فيما يختص بالاثنين الأخيرين فليس لنا فيهما كلام، فكل شيء يشتهيه الإنسان يمكن أن يجد له إثباتًا في هذه المصادر غير الثابتة، إن لم نقُل الكاذبة، ولكن ليس هناك أفظع وأجرأ من تفاسيرهم المغلوطة لكلمة الله في هذا الصدد. خذ نصين على سبيل المثال:

١- «الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفي الفلس الأخير» (مت٥: ٢٦). هنا يناقض الكاثوليك أنفسهم بأنفسهم، فإن كانت الخطايا القابلة للبيع والشراء تُغفر حقيقة في المطهر، فالنص يتكلم عن وجوب دفع الفلس الأخير.

٢- «المسيح... مُحيى في الروح، الذي فيه (أي في الروح كما هو واضح) أيضًا ذهب فكرز للأرواح التي في السجن» (١بط٣: ١٨، ١٩). وما يلاحظ في هذا النص هو: أولاً أنه لا يمكن أن يشير إلى سجن المطهر المزعوم، ذلك لأن المرتكبين للخطية المميتة لا يذهبون إلى المطهر. ومن الغريب المدهش والتناقض البين أنه بحسب الترجمة الكاثوليكية لهذه الفقرة "جميع السابقين للطوفان كانوا غير مؤمنين وقد ارتكبوا خطية للموت"، والمطهر كما تبين لنا من القرائن والاقتباسات التي أوردناها سابقًا إنما هو خاص بأولئك "الأموات في المسيح غير المطهرين بالتمام دون سواهم". ثانيًا، يقول النص صريحًا أن المسيح لم يكرز شخصيًا، ولكنه كرز بالروح، في شخص نوح، للذين عصوا قديمًا، وهم الآن في السجن.

وهكذا كل النصوص المزعومة أنها في صالح فكرة المطهر بعيدة كل البعد عن الموضوع، حتى أن عقلاء الكاثوليك يحاولون أن يدعموا الفكرة بواسطة سلطان الكنيسة ليس إلا.

ولكن أين هو المطهر وما هو المطهر؟ هذه نقطة لا تستطيع أن نتبينها، لا من مؤلفات كتّاب روما ولا حتى من قرارات مجمع ترنت. على أن الفكرة السائدة هي أن المطهر هو مكان تحت الأرض وعلى مقربة من جهنم، وأنه متوسط بين السماء وجهنم، تجوز فيه النفس عابرة في نيران التطهير قبل أن تدخل السماء.

ولكن كيف يمكن للنيران المادية أن تطهر الروح؟ هذه أيضًا نقطة تجنب تحديدها الكتاب الكاثوليك. أما مجمع فلورانس الذي انعقد عام ١٤٣٩م فيقول إن المطهر هو مكان للتعذيب، ويزيد على ذلك بالقول "ولكن هل هو نار أو زوبعة أو أي شيء آخر فهذا ما لا نستطيع البت فيه". ومع ذلك فالفكرة الغالبة هو أنه سجن تحجز فيه النفس وهناك تعذب وتطهر، ليس بعذاب عقلي أو تأنيب نفسي بل بنار حقيقية أو ما يصدر عنها، ولكن رغمًا عن هذا فالأفكار متضاربة بين أحسن كتابهم ورجالهم اللاهوتيين، حتى أن البعض قد صور عذاب المطهر بأنه انتقال مباغت من حرارة شديدة إلى برد شديد. زد على ذلك أن تخمينات أغسطينوس أسقف هبو الغامضة وتعاليم غريغوري المبالغ فيها والمتعسفة وجدت سريعًا ما يؤيدها من الأحلام والرؤى الغريبة. فقد وجد في العصور المظلمة كثيرون ممن سافروا إلى تلك المناطق السفلية وقاموا بمأمورية التفتيش فيها وقدموا عنها التقارير اللازمة، مبينين فيها أسرار المطهر المدهشة! خذ مثلاً واحدًا من هذه التقارير العديدة، وهو أخفها لهجة وأقلها سخافة.

منطقة المطهر

"إن دريثلم، الذي وصلتنا قصته عن طريق المؤرخين المحققين بيدي وبلارمين، ذهب في رحلته يقوده ملاك في ثياب من نور متجهًا نحو الشمس المشرقة. وصل السائحان أخيرًا إلى واد فسيح الأرجاء منقسم إلى قسمين: القسم الواحد على شمالهم وهو عبارة عن أتون متقد، والقسم الآخر على يمينهم تغطيه الثلوج ويعمه البرد الزمهرير. وكان الوادي كله مملوءًا بالنفوس البشرية، وفيه زوبعة عاصفة تهب بشدة في جميع أرجائه ونواحيه.

وكانت الأرواح المسكينة تقفز من ناحية إلى أخرى، فمتى حلّت بقسم الحرارة المتقدة لم تقوَ على احتمالها، فتنطلق فزعة إلى القسم الآخر وما فيه من ثلوج وبرد قارس، وهناك تجد الحالة أمر وأنكى، فترتد راجعة إلى اللهب المستعرة، وهكذا دواليك. جمهور غفير من النفوس المشوهة كانت بهذه الكيفية تروح وتغدو، وعذابها لا ينقطع بين الحرارة الكاوية والبرودة القارصة. ذلك، بناء على أقوال الملاك الذي كان مرشدًا ودليلاً لدريثلم، هو مكان العقاب لأولئك الذين يؤجلون الاعتراف والتوبة وإصلاح سلوكهم إلى ساعة مماتهم. على أن هؤلاء جميعًا سيُقبلون في اليوم الأخير ويُسمح لهم بدخول السماء، بينما كثيرون منهم، بواسطة الصدقات والشفاعات وخاصة الأفخارستيا والقداس، يطلق سراحهم قبل يوم الدينونة العامة"[٥١].

كل واحد يستطيع لأول وهلة أن يدرك الغرض من هذه الرؤيا. فهي قد وُضعت بكل حذق ومهارة، والغرض منها استغلال مخاوف الناس أو إثارتها بأسلوب مرعب لازدياد قوة الكهنوت، وجلب الهدايا والهبات العظيمة للكنيسة.

ونحن نسأل: هل هذا حقًا هو المكان الذي إليه تبعث الكنيسة الأم المقدسة أولادها الأتقياء التائبين؟ نعم. والمبررون وحدهم هم الذين يذهبون هناك، أما الذين يموتون بإثم الخطايا المميتة فيذهبون مباشرة وبغير رجعة إلى جهنم المكتوب على أبوابها المزعجة "لا رجاء". يا للهول الذي لا بد أن تحدثه على الدوام فكرة المطهر في قلب كل تقي! ولتوضيح ذلك نذكر أننا نعرف سيدة قد اعتنقت حديثًا المذهب الكاثوليكي وكرست نفسها تكريسًا شديدًا للكنيسة ومبادئها، وهي لا تزال في حرارة محبتها الأولى، ولكنها ترتجف وتأخذها الرعدة عند ذكر المطهر. ولقد سمعناها مرارًا تقول "إنني أعتقد إني سأذهب إلى هناك، وأنا أرجو أن أذهب لأنني لا أستطيع أن أدعي أنني صالحة للحد الذي يؤهلني للذهاب مباشرة إلى السماء عندما أموت، فلا بد لي من اجتياز المطهر، ولكنني قد لا أستمر هناك أكثر من خمسمائة سنة". ليس هناك أقل شك بأن هذه السيدة هي مسيحية بالحق ومبررة من كل شيء، ولكن هكذا هي قوة الشيطان التي تعمي الأبصار والقلوب بسبب هذه البدعة البابوية. ونحن لا يسعنا إلا أن نهلل بالفرح لأنهم بعد قليل سيعرفون الحقيقة ويدركون أنهم ما كانوا إلا مخدوعين كما تخبرنا كلمة الله في أماكن عديدة، إذ تصرح لنا مثلاً بالقول «شاكرين الآب الذي أهلنا لشركة ميراث القديسين في النور»... «فنثق ونُسرّ بالأولى أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب»... «لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح. ذاك أفضل جدًا»... «اليوم تكون معي في الفردوس»... «قد غُفرت خطاياها الكثيرة»... «فمات المسكين

وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم». (كو ١:١٢؛ ٢كو ٥:٨؛ ١في ١:٢٣؛ لو ٢٣:٤٣؛ ٧:٤٧؛ ١٦:٢٢).

واضح جدًا من هذه الأعداد وكثير غيرها، من السهل إيرادها، أنه في اللحظة التي فيها تفارق نفس المؤمن جسده تستوطن عند الرب في فردوس الله، وهو بكل تأكيد أسعد مكان في السماء كلها. ما هو إذاً غرض كنيسة روما من تحوير كلمة الله بهذا الشكل، ومن إنكار كفاية دم المسيح بهذه الكيفية، ذلك الدم المكتوب عنه أنه يطهر المؤمن من كل خطية؟ للجواب على هذا السؤال يجب أن يرجع الذهن إلى أعماق أفكار الشيطان فهناك الخبر اليقين.

الأغراض التي استخدم المطهر لأجلها

من الوجهة التاريخية كان الغرض الذي لأجله استخدم رجال الكهنوت هذه الخرافة الشيطانية هو استغلال مخاوف البشر وعواطفهم. فأي شيء يا ترى كان يعز على تلك السيدة الشابة التي أشرنا إليها سابقًا، أو على والديها، أن يقدموه للكنيسة لكي يخلصوها من هذه الحالة المزعجة ويوفروا عليها خمسمائة سنة من العذاب في تلك البقعة المخيفة؟ وبناء عليه صارت الصلوات من أجل النفوس التي في المطهر لإخراجهم من هناك بواسطة قداديس تعمل لأجلهم، وهي مورد عظيم للكنيسة تدر عليها من المال ما لا يحصى ولا يعد. ففي حالة أي رجل غني يعاني سكرات الموت وعلى وشك الرحيل من هذا العالم إلى حيث لا يستطيع أن يأخذ ثروته معه، ولا يشغل أفكاره إلا الفزع من عذابات المطهر، كان في استطاعة القسيس أن يملي شروطه كما يهوى ويشاء. زد على ذلك أنه من هذه الخرافة نتجت تلك التجارة المخزية، وهي صكوك الغفران البابوية لتخفيف عذابات الممر المتوسط.

على أن هناك أيضًا نقطة خبيثة متعلقة بهذا التعليم الخاص بالمطهر، وهي نقطة تجعلنا ندهش كيف أمكن لعقل إنسان أو قل لعقل الشيطان نفسه أن يتصورها أو يستسيغها، وهي الخاصة بسلطان الكاهن على فريسته بعد الموت والدفن، فهو يجعل النفس الراحلة تؤمن أنها سوف تستمر معتمدة على نفوذه وعلى شفاعته، وأن بيده مفتاح المطهر، وأن أمر هلاكه يتوقف على كلمة من شفتيه. حقًا إن هذه هي أعماق الشيطان عينها. ونحن نرتعد إذ نحاول النفاذ إليها، ولكن ما هي إلا أكاذيب من أولها إلى آخرها. ومن أفظع وأرهب أنواع التجديف أن يدعي أي إنسان أن مفاتيح السماء وجهنم والمطهر قد أودعت إليه. «لا تخف» قال ربنا المبارك ليوحنا «لي مفاتيح الهاوية والموت» (رؤ ١:١٨)، فهو وحده له القوة والسلطان على العالم غير منظور. والكتاب يجعل كل ذلك جليًا وواضحًا للإيمان، ويرينا أن الله «أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته». فالكتاب يعلّمنا بكل جلاء ووضوح أن المؤمن قد أصبح ليس فقط مبرَّرًا ومخلّصًا، بل قد أنقذ الآن من سلطان الظلمة بأجمعه، وانتقل الآن إلى ملكوت ابن الله المحبوب. هذه لغة واضحة وليس هناك مجال لإنكارها أو سوء فهمها. «أنقذنا» وليس "سينقذنا" أو "يستطيع أن ينقذنا"، بل «أنقذنا ... ونقلنا». هذا حق لا شك فيه الآن، ولنا من الله أن نتمتع به من الآن. ليس هناك من سلطان إلا وهو في يدي ابن الله المُقام، وليس هناك من مطهِّر سوى دمه الثمين. وهناك أيضًا «غسل الماء بالكلمة»... «طهِّرني بالزوفا فأطهُر. اغسلني فأبيضّ أكثر من الثلج» (كو ١:١٣؛ أف ٥:٢٦؛ مز ٥١:٧؛ *انظر أيضًا* يو ١٣؛ ١٥؛ ١يو ٥).

هذا والكنائس اليونانية والأرمنية والقبطية ترفض تعليم المطهر صوريًا، ولكنها تتمسك به عمليًا، فيقدمون الصلوات ويعملون القداسات على أرواح الموتى، كما يحرقون البخور على قبور الراحلين[٣٨](٤٣)(١/٤٣).

مسحة المحتضرين

كما هو الحال في كل نظام كاذب هكذا البابوية في هذا الأمر تناقض نفسها تناقضًا بينًا مزعجًا، فالبهتان عنوانها على جبينها بحروف من نار، الذي هو مصدر جميع الأكاذيب، ولو أنه قد يوجد تحت لوائها كثير من القلوب المخلصة التقية. وما أبعد الفرق بين تعاليم البابوية المتنافرة المتناقضة وبين الحق الإلهي وما فيه من وحدة كاملة متناسقة، فمع أن هذا الحق قد دوّنه أناس كثيرون مختلفون، ويتضمن مواضيع كثيرة مختلفة، وجاء في ظروف عديدة متباينة، وفي أماكن وعصور متباعدة، إلا أنه مع كل ذلك وحدة كاملة لا تناقض فيها ولا تنافر. فمن ذا الذي لا يستطيع أن يرى في الكتاب المقدس من أوله إلى آخره أمجاد الصليب، وغنى النعمة الإلهية، وحالة الخاطئ الهالك، وخلاصه الكامل الأكيد؟ من ذا الذي لا يستطيع أن يرى كل هذه الحقائق واضحة وجلية في حمل هابيل مثلاً، أو في فلك نوح، أو في تطهير الأبرص؟ ولكنك إذا مررت على أسرار روما السبعة

الواحد بعد الآخر، فلا ترى إلا التناقض الصريح والتنافر المدهش. خذ مثلاً المطهَر ومسحة المرضى. إن كان أحدهما صحيحًا فلا بد بداهة أن يكون ثانيهما كاذبًا. إن كانت مسحة المرضى على شيء من الحق فالمطهَر ما هو إلا خدعة وأكذوبة ووهم باطل، إذ لا يمكن أن يكون هناك حاجة لمكان من هذا القبيل، فالغرض الظاهر والمعترف به، طبقًا لقرارات مجمع ترنت، والأثر المزعوم لهذا الزيت المقدس إنما هو مسح الخطايا الباقية، والهرطقي الذي يحتقر هذا الأمر لا بد من ذهابه توًا إلى أعماق جهنم. وإليك الكيفية التي يمارس بها هذا السر.

عندما يدخل الكاهن إلى البيت، عليه أن يرتدي حلته الكهنوتية البيضاء، ثم يقدّم الصليب للشخص المريض لكي يقبّله بكل تعبد وخشوع. ثم يقوم الكاهن بأداء الصلوات المعتادة، ويرش الماء المقدس، وبعد ذلك يغمس إبهامه في الزيت المقدس ويمسح المريض على شكل الصليب مبتدئًا بحاسة البصر إذ يمسح كل عين على حدة قائلاً: "يغفر لك الرب بمسحته المقدسة ورأفته الكثيرة جميع ما قد تكون ارتكبته من خطايا بالبصر". على هذه الكيفية يقوم الكاهن بسبع مسحات. خمس منها للحواس الخمس: العينين والأذنين والأنف والفم واليدين، والاثنين الآخرين للصدر والقدمين. وهكذا بعد عدة صلوات وتصليبات، وإتمام مراسم حرق قطعة القماش التي مسح بها الزيت من مختلف أجزاء جسم المريض ومن إبهام الكاهن، يصرّح الكاهن بأن الشخص المائت، رجلاً كان أو امرأة، قد أصبح مؤهّلاً لأن يعبر أبواب السعادة الأبدية بكل أمان واطمئنان.

وهذا السر لا يُمارس مطلقًا إلا إذا لم يكن هناك أي أمل في الشفاء، وهو يسمى في القاموس الكاثوليكي اللاهوتي "بالمسحة النهائية" لأنه آخر شيء يُعمل. فبناء على هذا السر الذي يقال بأن تأثيره في محو خطايا المائت محقق ومعصوم من كل فشل، كان المنتظر طبعًا أن المطهر لا يدخله إلا القليلون جدًا من رعايا الكنيسة الكاثوليكية، ولا بد أن سكانه جميعًا من البروتستانت الذين يهملون أمر هذه المسحة الكهنوتية، أو من أولئك الكاثوليك الذين لم يكونوا مؤهلين لقبول هذا السر المقدس. أي نعم، هذه هي النتيجة الطبيعة التي لا يمكن دحضها، وهي أن المطهر إنما يموج بهذه الفئات دون غيرها، ومع ذلك فهناك اختلاف كثير في الرأي بين الكاثوليك أنفسهم حول هذه النقطة، فالبعض يقولون إن كل نفس بلا استثناء، من البابا إلى ما دون، مهما كانت حياتهم مقدسة، ومهما كانت الدقة في استعمال السر الأخير، لا بد من عبورها المطهر، وإنه ليس في استطاعة أية نفس أن تذهب مباشرة من الأرض إلى السماء، وحجتهم في ذلك هي أنه لا يوجد إنسان له مطلق السلطان والمراقبة على أفكاره، فقد تخالجه بعض أفكار غبية أو ربما أفكار شريرة أثناء عملية المسحة النهائية أو بعدها مباشرة، ولهذا فلا بد للنفس من عبور منطقة المطهر في طريقها إلى السماء. وطبعًا قد تكون الخطية صغيرة وعلى هذا تكون مدة الحجز قصيرة، ولكن لا بد لكل إنسان على أي حال، حتى ولو كان جريجوري أو برنارد، من التطهر بنيران المطهر. وأسفاه على أبناء روما! حقًا لا يسعنا إلا التأسف عليهم جميعًا، إذ لا بد لهم من كبيرهم إلى صغيرهم أن يستعبدوا لرئيس المطهر قبل أن يتسنى لهم أن يذوقوا حرية وسعادة السماء. يا للهول والفزع والمرارة التي كانت تحدثها في كل نفس فكرة الموت حينئذ! ويا للفرق العظيم والبون الشاسع بين هذه الأفكار المزعجة وبين أفكار الرسول العظيم وعواطفه المطمئنة الهادئة إذ يقول «لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح»، فإن عاش كانت حياته للمسيح متمتعًا بكامل الشركة وحلاوتها مع شخصه المبارك، وإن مات نال ربحًا فوق ذلك «لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح. ذاك أفضل جدًا». زد على ذلك أن كلمة الله صريحة وحاسمة فيما يتعلق بجميع المؤمنين في المسيح يسوع فلكل منهم عند انطلاقه أن يقول «نتغرب عن الجسدونستوطن عند الرب» (في ١: ٢١-٢٣؛ ٢كو ٥: ٨).

وقد أعطت الإشارة الواردة في العهد الجديد عن عادة المسح القديمة جرأة عظيمة للكتاب الكاثوليك في الحث على ضرورة ممارسة هذا السر، وفاتتهم هذه الحقيقة، أو هم تناسوها عمدًا، أن المسحة المذكورة في الكتاب كانت لشفاء الجسد بطريقة معجزية، مما يمد بحياة الإنسان، أما المسحة الكاثوليكية فهي خاصة بالروح، والغرض منها توصيل النعمة وغفران الخطية ونوال الخلاص ساعة الممات. المسحة الرسولية كانت لنوال الشفاء وإعادة الصحة الجسدية، أما المسحة الكاثوليكية فهي الإعداد النهائي للموت والذهاب إلى القبر «وأخرجوا شياطين كثيرة ودهنوا بزيت مرضى

كثيرين فشفوهم»... «أمريض أحد بينكم فليدعُ شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب، وصلاة الإيمان تشفي المريض والرب يقيمه» (مر ٦:١٣؛ يع٥: ١٤،١٥).

وليس من الصعب إدراك كيف أن روح الخرافة تستخدم مثل هذه النصوص لتتميم أغراضها. ولكن من الواضح الجلي أن المسحة الأصلية كان الغرض منها إعادة الصحة لأشخاص معينين، وقد استمر هذا الأمر طالما كانت موهبة الشفاء والقوة لعمل المعجزات باقية، الأمر الذي لم يتعد العهد الرسولي. أما المسحة المبتكرة كما هي في شكلها الحالي فلم تكن معروفة في الكنيسة طيلة الأحد عشر قرنًا الأولى من تاريخها، ولكنها برزت وتقررت في عهد الجهل والسيادة الإكليريكية في القرن الثاني عشر، وأخيرًا تأيدت بواسطة مجمع ترنت، ودمغت بختمه العظيم.

سر الاعتراف

لما كانت أسرار كنيسة روما معتبرة لازمة للحياة الروحية، وهي في الوقت نفسه تحت تصرف رجال الكهنوت، فقد أعطتهم بالتبعية سلطانًا عظيمًا. على أنه ليس من بين أسرارها الكثيرة ما عمل على ازدياد نفوذ الكهنة أو استعباد الناس وانحطاط مستواهم الأدبي، مثل مسألة الاعتراف السري. فمن الإمبراطور العظيم إلى الفلاح الصغير، أو بالحري كل شخص تابع لكنيسة روما، رجلاً كان أو امرأة، لا بد له أن يفتح مغاليق قلبه ويسكب أسرار نفسه أمام الكاهن. فليس هناك أي عمل أو أي فكر يبقى سرًا محجوزًا عن أب الاعتراف، على الأقل في العصور المظلمة، إذ أن إخفاء الحق أو مداراته كانت خطية مريعة عقابها أذل وأقصى أنواع التوبة والتكفير، أو ربما عذابات جهنم إلى أبد الآبدين. أمام قوة استبدادية تعسفية خالية من كل مسئولية مثل هذه، من ذا الذي كان لا يرتجف ويرتعد؟ على هذا النحو أصبح رجال الإكليروس نوعًا من البوليس الروحي، والمطلوب من كل إنسان أن يكشف نفسه أمامهم. وبذلك عرفوا أسرار جميع الناس، وجميع العائلات، وجميع الحكومات، وجميع الهيئات والجمعيات. وبذلك طبعًا عرفوا كيف يتسلطون ويضعون الخطط لتنفيذ ما شاءوا وشاءت أهواؤهم، فضمير كل إنسان، أو بالحري كل كيانه الأدبي والديني أو الروحي، كان في قبضة يدهم. وهذا بلا شك هو غاية ومنتهى كل شر وتجديف. فالآباء والأبناء والأمهات والبنات والأسياد والعبيد، الكل كانوا تحت ملاحظتهم ومراقبتهم الفعلية، ولو إنها ملاحظة ومراقبة سرية.

أما السلطان المكتسب من كرسي الاعتراف فقد استخدموه لخير الكنيسة كما يزعمون، إما بمنح التحليل أو تأجيله أو رفضه، كما يكون الحال، فكل شيء كان يتوقف على الأغراض التي ترمي إليها الكنيسة وتريد الحصول عليها. وكثيرًا ما استُخدمت مثل هذه المعلومات المعطاة بهذه الصفة الدينية في أحط الأغراض النفسانية وأشنعها وأبعدها عن كل شرف ومبدإ قويم. ونحن هنا نشير بصفة خاصة إلى حالات النزاع والتأديب التي استمرت أوقاتًا طويلة والتي لم يكن من الممكن وضع حد لها إلا بالفوز في المعركة بواسطة الكنيسة. فالحرمان كان شيئًا له خطره في تلك الأيام، والبابا كان خصمًا حقيقيًا يُخشى منه ويُعمل له ألف حساب وحساب. لما أرعد هلدبراند بحكم الحرمان ضد هنري، وأعفى رعاياه من يمين الولاء له، وأعلن حرمانه من عرشه، وجد هنري أنه من العبث محاربة البابا مع أنه كان في ذلك الوقت أعظم وأقوى ملك في أوروبا، فاضطر إلى التسليم، وفي أشد حالات المذلة والانكسار تقدم بأقدام عارية مرتعدًا من شدة البرد، والتمس بكل خضوع وخشوع من ذلك الراهب العنيد أن يرفع عنه غضب الكنيسة ويعيده إلى عرشه. هذا وحكم الحرمان المخيف كان معناه قطع المذنب من حظيرة روما مهما كان مركزه ومقامه. ولما كان الخلاص معتبرًا أمرًا مستحيلاً تمام الاستحالة خارجًا عن جدران كنيسة روما لم يكن هناك رجاء لأي شخص يموت تحت هذا الحكم، حتى الجسد كان معرضًا لأن يحرم من مكان يستريح فيه في أرض مقدسة بينما الروح تصبح فريسة للشياطين إلى الأبد.

منشأ سر الاعتراف

تاريخ هذه البدعة ليس من السهل الوصول إليه، وليس هو كذلك ضروريًا لبحثنا. إن مسألة الاعتراف السري والتحليل الكهنوتي كانت ولا تزال موضع بحث اللاهوتيين، ولكن لم يوضع لها قانون ثابت نهائي حتى بداءة القرن الثالث عشر، إذ في سنة ١٢١٥م في عهد البابا إنوسنت الثالث أصدر مجمع لاتيران الرابع مرسومًا رسميًا يفرض واجب الاعتراف السري على المؤمنين من الجنسين،

وضرورة ممارسته مرة في السنة على الأقل. ومن ذلك الوقت إلى يومنا هذا أصبح الاعتراف معتبرًا طقسًا إلهيًا محتمًا في كنيسة روما، كما أنه يمارس أيضًا في الكنيستين اليونانية والقبطية.

وأهم النصوص الكتابية التي يستند عليها أتباع روما في هذا الأمر هي: «اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلّوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا»... «من غفرتم خطاياه تُغفر له ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت» (يع١٦:٥، يو٢٣:٢٠). النص الأول يشير بداهة إلى اعتراف المسيحيين المشترك بزلاتهم بعضهم لبعض، كما يشير الثاني إلى التأديب الكنسي، ولكن بكل تأكيد لا هذا ولا ذاك يشير إلى الاعتراف السري بالخطايا في أذني الكاهن بقصد نوال التحليل والغفران. إن واجب أو امتياز الاعتراف يجب أن يعترف به الجميع، ولكن السؤال هو هذا: لمن يجب علينا أن نعترف؟ أللكاهن أم لله؟ ليس أسهل من اقتباس نصوص عديدة من كلا العهدين القديم والجديد لإثبات أن الاعتراف بالخطية يجب أن يكون لله. خذ مثلاً من كل من العهدين «فقال يشوع لعخان: يا بني أعط الآن مجدًا للرب إله إسرائيل واعترف له واخبرني الآن ماذا عملت، لا تُخفِ عني»... «إن قلنا إنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (يش١٩:٧؛ ١يو٨:١، ٩).

ولكن صورة الاعتراف التي نصت عليها كنيسة روما والتي يجب على كل تائب أن ينفذها أمام أب الاعتراف، ترينا بأجلى بيان الصفة الحقيقية لهذا الاعتراف. فعلى المعترف أن يجثو على ركبتيه أمام الكاهن ويرشم علامة الصليب وهو يقول "باسم الآب والابن والروح القدس، أعترف للإله القدير، ولمريم المطوبة العذراء البتول، ولميخائيل رئيس الملائكة، وليوحنا المعمدان المغبوط، وللرسولين القديسين بطرس وبولس، ولجميع القديسين، ولك يا أبي الروحي، بأنني أخطأت كثيرًا جدًا بالفكر والقول والعمل، وأنا الملوم. أنا الملوم. أنا الملوم". وعند هذه النقطة يأخذ المعترف في سرد خطاياه العديدة بتفصيلاتها بدون تملص أو مراوغة بأبشع التفصيلات وأشنعها تصب في أذني الكاهن مهما كان، ونحن نعرف كيف كان كثيرون منهم. وبعد أن يشبع الكاهن نفسه من التفصيلات يستمر التائب في القول "ولهذا ألتمس من مريم المطوبة، العذراء البتول، ومن ميخائيل رئيس الملائكة، ومن يوحنا المعمدان المغبوط، ومن الرسولين القديسين بطرس وبولس، ومن جميع القديسين، ومنك يا أبي الروحي، أن تصلّوا للرب إلهنا من أجلي. إني حزين من القلب وأعتزم تحسين حالتي في المستقبل، وبكل خضوع ألتمس العفو من الله والغفران والتحليل منك يا أبي الروحي"(١/٣٨)،(٦/٤٢).

هنا يكون التائب بين يدي الكاهن وتحت رحمته المطلقة فإما أن يحله، أو يؤجل أمر حله إلى أن يحصل الكاهن على أغراضه الخبيثة. فلنتركهما عند هذه النقطة، ونتقدم لنلاحظ باختصار البدعة المشابهة لهذه، ألا وهي:

صكوك الغفران

إن نظام صكوك الغفران البابوية الذي وصل تدريجيًا إلى حد خطير، وكان له من الآثار ما ملأ بطون التاريخ، يستدعي منا التفاتًا دقيقًا. لقد كانت عادة روما وسياسة روحها الخبيثة أن تبدأ بالبدايات الصغيرة أكبر وأعظم الشرور التي تميز بها تاريخها. فبطريقة غير محسوسة تحاول أولاً بدهائها وسياستها إدخال الطرف المدبب من الوتد، ولكنها متى وثقت وتمكنت من ذلك تراها وقد استخدمت جميع مطارق روما وآلاتها في الضرب على الوتد حتى يصل إلى منتهاه. فبواسطة الاحترام، بحسب الظاهر، لذكرى الأموات، وتقديم ما يليق من الكرامة لآثارهم، دخلت خطية عبادة الآثار والقديسين، التي تطورت شيئًا فشيئًا حتى صارت في النهاية عبادة وثنية صريحة. هكذا هو الحال مع مسألة صكوك الغفران، هذا النظام الكنسي الفاسد، إذ سُمح له مرة بالدخول، استمر وتكاثر وانتشر من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل حتى اكتسح شره المسيحية بأجمعها، وامتهنت حاسة البشر الأدبية والدينية بتلك التجارة المزرية في صكوك الغفران مما جعل صوت الاحتجاج يرتفع وحركة الإصلاح تتبع.

لقد كان المبعث الأول لهذا التعليم الجديد الخاص بصكوك الغفران هو اكتشاف مَعين لا ينضب أو كنز لا يفرغ في الكنيسة يمكن بواسطته غفران الخطايا دون حاجة إلى التوبة وما يلازمها من أعمال قاسية ومذلة، وبدون الالتجاء إلى ممارسة الأسرار المقدسة، فلقد ادعى مخترع هذه البدعة الكبيرة أنه يوجد كنز من الفضائل في المسيح وفي العذراء مريم والقديسين الآخرين أكثر

مما هو لازم لهم، ومع أنه قيل إن المخلِّص نفسه هو مصدر جميع هذه الفضائل، إلا أنهم أشادوا كثيرًا بفضائل القديسين، مما أدى أخيرًا إلى الفكرة الجديدة الخاصة "بالأعمال التطوعية" أو الأعمال الزائدة عن المطلوب! فقيل إن القديسين، بأعمال تنسكهم وتقشفهم وبآلامهم التي لم يكونوا يستحقونها في هذا العالم، قد عملوا أكثر مما كان لازمًا لخلاص أنفسهم، وبهذه الأعمال الزائدة عن الحاجة مضافًا إليها فضائل المسيح، تيسر وجود رصيد عظيم، وإن البابا يملك مفتاح هذا الكنز، ومنه يستطيع أن يهب الغفران للمذنبين سواء أكانوا في هذه الحياة أم في المطهر. وهكذا حلت قوة هذه المفاتيح محل تأثير وفاعلية الأسرار الأخرى.

تلك هي نظرية الغفرانات البابوية. على أن صفتها المتناقضة مع الكتاب تكشف الستار عن شخصية مؤلفها، ولا تترك شكًا في أصل مخترعها، فهي متناقضة مع المكتوب بصورة صارخة لأنها تجيز غفران الخطايا بدون توبة، وحتى إذا نظرنا إليها من الوجهة الكاثوليكية فشرها واضح بين. إنها تحل محل التوبة وما فيها من تدريب للفرد، كما أنها تهدم نظام التأديب الكنسي جملة. إنها تقدِّم، نظير مبلغ من المال، العفو عن جميع الخطايا التي ارتُكبت. وهذا ليس معناه سوى أنها رخصة لارتكاب الخطايا والمنكرات. إنها تعطي ضمانًا وتعهدًا كتابيًا للخلاص من عذابات المطهر ومن جهنم نفسها، فتشجع ارتكاب أفظع الشرور وأشنعها مع الاعتراف بالمسيحية في الوقت نفسه. حقًا إن هذه البدعة فصلت الفضيلة عن الدين فصلاً نهائيًا. وهل كان في الإمكان حتى للفساد البابوي أن يذهب إلى أبعد من هذا الحد؟ لقد تشجع الناس على أن يتركوا للرذيلة الحبل على الغارب، وأن يسيروا إلى أبعد مدى في طريق شهواتهم، وبعد ذلك يشترون الغفران الأبدي بلا شرط أو قيد بقطعة من النقود! يا له من حساب عسير ويوم خطير ينتظر إيزابل روما وجميع أولاد زناها! ليت الرب يحفظ شعبه من زناها وغوايتها في الوقت الحاضر.

يذكر التاريخ أن أول صك من صكوك الغفران الرسمية أصدرته كنيسة روما كان في أوائل القرن الحادي عشر، ولكن البدعة برزت بكل قوتها بواسطة الحروب الصليبية. ففي عام ١٠٩٥م أعلن البابا أوربان الثاني، في كليرمونت، الغفران المطلق لجميع الخطايا لكل من يشترك في الحرب المقدسة. ثم بعد هذه المدة أصبحت العادة منح غفرانات من درجات أقل. فالعتق من مائة سنة أو أكثر من العذاب المطهري كان يمكن شراؤه من أحد الأساقفة نظير ترميم أو توسيع كنيسة ما، أو بناء كوبري أو إقامة سور حسب طلب الأسقف، وأيضًا نظير القيام بواجبات دينية إضافية مثل ترديد عدد من الصلوات أمام مذبح من المذابح، أو الحج إلى مخلفات القديسين وآثارهم، وما شابه ذلك. والبابا في عرف الفاتيكان هو المسيطر الأعظم على كنز الكنيسة، وفى استطاعته أن يهب هذا السلطان للأساقفة في أبروشياتهم المختلفة. والفرق بين البابا والأسقف هو أن البابا له الحق أن يمنح غفرانات لجميع المسيحيين بينما سلطة الأسقف قاصرة على حدود أبروشيته لا غير.

تاريخ صكوك الغفران

وهكذا تقدم نظام صكوك الغفران وانتشر مع مرور الزمن. ومع أن بعضًا من الكتاب المقتدرين، نظرًا للفضائح الشنيعة المريعة لذلك النظام، لم يترددوا في إعلان اعتراضاتهم على تلك التجارة المزرية في بيع الغفران، فإن آخرين كتبوا معضدين هذا النظام. والناس على وجه عام لم يكونوا على استعداد أن يقاسوا مرارة التوبة وأن يعرضوا أنفسهم لسلسة طويلة من أعمال التقشف غير المسرة ما دام في إمكانهم الحصول على غفران سريع نظير مبلغ من المال، أو إعطاء بعض الإعانات للكنائس ورجال الكنائس. كان المتبع في كنيسة روما منذ القديم أن تُفرض أعمال قاسية وعذابات أليمة على المذنبين، وعندما كانت هذه الأعمال تؤدى وتحتمل تلك العذابات بصبر ومذلة وخضوع، كانت تسمى ترضية. ولكن إذا حصل تقصير لدور التوبة أو إلغائه نهائيًا نظير مبلغ من المال أو القيام ببعض أعمال خيرية كان هذا يُسمى غفرانًا. والثمن كان يُقدَّر بحسب نوع الجريمة أو الذنب وبحسب ظروف المشتري.

والحادثة الغريبة الآتية كما اقتبسها ملنر من المؤرخ برنت تعطي للقارئ فكرة عن مدى انتشار هذه التجارة أوضح من أي شيء آخر يمكن أن نقوله في هذا الصدد. وليلاحظ القارئ أن هذه الحادثة حدثت في وقت كانت فيه هذه التجارة قد كسدت كسادًا عظيمًا بسبب حركة الإصلاح. وهاك القصة كما يرويها ملنر: "يخبرنا برنت أن هذه التجارة المزرية في بيع الغفران لم تندثر نهائيًا بأي حال في الممالك البابوية، كما كان يظن، فهو يقرر أنه

في أسبانيا والبرتغال كان يوجد في كل مكان وكيل خاص مهمته القيام بهذا البيع بأساليب مخجلة وفاضحة لدرجة لا يتصورها العقل. وفي أسبانيا كان الملك بالاتفاق مع البابا يستولي على كل الإيراد، أما في البرتغال فالملك والبابا كانا يتقاسمان الغنيمة بالتساوي.

وفي سنة ١٧٠٩م داهمت الطرادات الإنجليزية في بريستول سفينة أسبانية كبيرة واستولت عليها، وقد وجدوا في هذه السفينة خمسمائة بالة من صكوك الغفران مطبوعة باسم البابا، وكانت كل بالة تحتوي على ستة عشرة رزمة* فكان مجموع ما تحمل هذه السفينة من صكوك الغفران يعادل ثلاثة ملايين وثمانمائة وأربعون ألفًا. وكل هذه الصكوك كان مفترضًا أن يشتريها الناس بأسعار تبدأ من ثلاثة ريالات أسبانية وهي أقل ثمن للصك، ومنها ما كانت قيمته مرتفعة لما يعادل أحد عشر جنيهًا إسترلينيًا، والكل مضطرون لشراء هذه الصكوك في نظير إعفائهم من الصيام الكبير. وعلاوة على ما جاء في وصف هذه الحادثة في تاريخ رحلة الطرادات الإنجليزية المشار إليها. فإني حصلت على تأكيد خاص بشأنها من الكابتن دامبير» (٣/٢٥).

على أن القارئ سيكون على استعداد أتم لتصديق هذه القصة التي لا تكاد تُصدَّق لو أن الرب سمح لنا بالاستمرار في تاريخنا إلى وقت حدوثها، ومع هذا فقد أوردنا ما فيه الكفاية لإعطائه فكرة صحيحة عن أساس هذه التجارة وصفتها وآثارها.

• • •

أما سر الزواج فسيظهر أمامنا جليًا في نتائجه وآثاره بحيث يغنينا الآن عن كتابة صفحة خاصة به. وعليه فنحن سنترك مؤقتًا هذا الموضوع المثير المؤلم الخاص بفلسفة روما اللاهوتية، أو، وا حسرتاه، موضوع المسيحية البابوية، ونعود إلى مجرى تاريخنا العام*.

* رزمة الورق، في ذلك الوقت، كانت تساوي ٤٨٠ فرخاً (المعرب).

* للتفاصيل الكاملة بقلم الكتاب الكاثوليك عن الأسرار اقرأ "مجمع ترنت" لكاتبه بول(٥٣)، وكتاب "نهاية المجادلة" لملنر(٥٤). ولناقدي هذه الآراء والتعاليم اقرأ "تقلبات البابوية"(٥١) لإدجار، وكذلك التواريخ العامة.

الفصل الرابع والعشرون

إنوسنت الثالث

ارتفع الكرسي البابوي في عهد هذا البابا إلى قمته. ويتميز القرن الثالث عشر بكونه نهار البابوية الساطع، الذي بلغت فيه أوج مجدها. فقد رأينا بزوغ شمس الادعاء البابوي وخيوطه الأولى في ادعاءات إنوسنت الأول الجريئة، وكذلك في ليو الكبير في القرن الخامس. ثم بعد ذلك جاء غريغوري الكبير في القرن السابع، ونيقولا ويوحنا في القرن التاسع وعملوا كثيرًا في وضع أساسات المشروع البابوي العظيم. ولكن هلدبراند (غريغوري السابع) هو الذي أقام البناء الشامخ، فقد كان كل غرض هذا الراهب الجريء الطماع غير الهياب أن يعيد إلى روما البابوية جميع ما فقدته روما الإمبراطورية. وبهذه الوسيلة يرفع كرسي القديس بطرس فوق هامة جميع العروش الأخرى. ولكن البابا الجسور هلك في محاولته المستميتة، إذ أخذت روما كما رأينا واضطر هلدبراند إلى الهروب حيث مات منفيًا في سالرنو. وبعد موته لم يجلس على الكرسي البابوي من كان في استطاعته أن يكمل العمل الذي بدأه هو لما يزيد عن مائة سنة، ولكن في مستهل القرن الثالث عشر جاء إنوسنت الذي فاقت عبقريته عبقرية غريغوري الفائقة، فالمشروعات الجريئة التي رسمها هذا قام بتنفيذها ذاك، لا شك أن الظروف كانت مواتية لإنوسنت، ولكنه استخدم أيضًا مواهبه وقوته العقلية الجبارة في تحقيق غرضه العظيم، حتى حصل بالكامل على ما كان هو الشغل الشاغل لجميع الباباوات لعصور عدة، ألا وهو "الرياسة الكهنوتية، والسيادة الملكية، والسيطرة على جميع ملوك الأرض". وأصبح بابا روما المتوّج، من ذلك الوقت، هو القوة المطلقة السلطان التي تحرك، بيد لا رقيب عليها، وبمثابرة لا تعرف الكلل أو الملل، دولاب البابوية عامة. وغرضه في ذلك كله الوصول بالكرسي البابوي إلى مركز الزعامة العليا، والاحتفاظ بهذه الزعامة على كرّ الأيام ومر الأعوام. ولكن هنا، وعلى هذه القمة، يجب أن نقف قليلاً للتأمل، ولنحاول التأكد من فكر الله بخصوص هذا النظام الديني العظيم ولا نكتفي بشهادة التاريخ.

بابل (رؤ ١٧)

لقد كانت قصدنا منذ أن بدأنا في تدوين هذه الصفحات أن ندرس التاريخ في نور كلمة الله، وخاصة في نور الرسائل إلى السبع الكنائس الواردة في سفر الرؤيا. فالشرور التي لم تكن إلا نبتة قد كمل نموها وترعرعت الآن. ففي برغامس نجد بلعام يعلم شعب الله «أن يزنوا» وفي ثياتيرا نرى إيزابل تفرض عبادة الأوثان بالقوة. ولكن هذه الشرور وكثير غيرها نراها متجمعة في كأس المرأة الفاسدة، الزانية المذكورة في رؤيا ١٧.

ونحن لا يوجد لدينا أي شك في المعنى المقصود من هذا الرمز، فنحن لا نرى امرأة فقط، ولكن امرأة زانية جالسة وسط رجاسات ونجاسات المدينة ذات السبعة التلال «هنا الذهن الذي له حكمة. السبعة الرؤوس هي سبعة جبال * عليها المرأة جالسة» هنا نقطة هامة تميزت بها روما في كل الأجيال والعصور، واشتهرت بها في جميع الكتب الأدبية سواء أكانت نثرية أم شعرية، كما قال واحد في سياق كلامه عن أرنولد أوف بريشيا "كانت فصاحته في الدعوة إلى الحرية ترعد فوق التلال السبعة". وكل قارئ يعرف أية مدينة يقصدها المؤرخ بهذا الوصف. ولكن مع ذلك فكلمة الله واضحة وضوحًا تامًا «للذهن الذي له حكمة» فروما هي المقصودة بلا شك، ورجاساتها الدينية مرموز لها

* يعرف القارئ أن مدينة روما مشهورة في التاريخ بأنها مبنية على سبعة تلال. (المعرب).

بالقول «أم الزواني» ولكن قد يسأل سائل: لماذا هي تسمى بابل؟ نحن نعتقد أن هذه التسمية مجازية مثل إطلاق اسم «سدوم ومصر» على أورشليم «وتكون جثتاهما على شوارع المدينة العظيمة التي تدعى روحيًا سدوم ومصر حيث صُلب ربنا أيضًا» (رؤ ١١:٨). زد على ذلك أن بابل الحرفية، أي العاصمة الكلدانية كانت مبنية على وادٍ هو وادي شنعار، وليس على تلال سبعة.

فالآن وقد أوضحنا هذه النقطة وأثبتنا للقارئ صفة روما الحقيقية، نستطيع أن نرى بوضوح أن رؤيا ١٧، ١٨ يصفان البابوية وصفًا حقيقيًا، نرى في هذين الأصحاحين صفات بابل الروحية هذه وتصرفاتها وعلاقاتها، ودينونتها النهائية موضّحة لنا بالتفصيل بكل دقة، ليس بقلم مؤرخ يمكن أن يكون متحيزًا أو غير مُلِم بكل جوانبها، بل بقلم الروح القدس، روح الحق، الذي يعرف النهاية من البداية. فنحن نستطيع أن نرى النظام البابوي وصفته الأدبية كما يراه الله، وهذه نقطة عظيمة عند رجل الإيمان. والآن نريد أن نلقي نظرة على بعض مظاهره الرئيسية الهامة.

١- تظهر هذه المرأة في الرؤيا «جالسة على المياه الكثيرة»، وهذه المياه يشرحها الملاك في عدد ١٥ بأن معناها «شعوب وجموع وأمم وألسنة»، وهذا الرمز يتضمن أن هذه المرأة الزانية، أو بالأحرى نظام روما الديني الفاسد، يسود بنفوذه المخرب على جميع هذه الشعوب والأمم والألسنة، ولكن الله يرى كل شيء ويلاحظ كل شيء وتاريخها الأسود الشرير مدون بأجمعه في السماء.

٢- نراها ممثلة كمن لها علاقات من أشر أنواع الغواية والفساد الأدبي مع جميع الطبقات «التي زنى معها ملوك الأرض وسكر سكان الأرض من خمر زناها» يا لها من صورة مزرية لمن تدّعي جهارًا بأنها تحمل اسم المسيح الطاهر المجيد! ونحن لا نشك البتة في أن تعبير «زنا» المستعمل هنا معناه قوة الإغراء التي لنظام روما على إبعاد العواطف عن المسيح، الذي هو وحده موضوع الإيمان للقلب. والرب المبارك مخفي عن الأنظار والكتاب المقدس مغلق، وفكر الله غير معروف والناس سكارى من خمر أكاذيبها المخدِّرة، ولا علم لهم بالعبادة الصحيحة. جميع الأرض قد تنجست بخمر زناها، ولكن نهايتها، النهاية المخيفة، تقترب سريعًا.

«لأن خطاياها لحقت السماء وتذكّر الله آثامها. جازوها كما هي أيضًا جازتكم وضاعفوا لها ضعفًا نظير أعمالها. في الكأس التي مزجت فيها امزجوا لها ضعفًا» (١٨:٥،٦).

٣- نراها بعد ذلك سائدة ومتسلطة على الحكومات المدنية ومديرة لدفة سياستها «فرأيت امرأة جالسة على وحش قرمزي مملوء أسماء تجديف له سبعة رؤوس وعشرة قرون» وسواء كان المقصود بذلك هو الإمبراطورية الرومانية المنتعشة من جديد (رؤ ١٣) أو الممالك المختلفة التي انتفضت من انقساماتها، أو جميع الحكومات والرياسات الأرضية، فالمرأة هي القابضة على الصولجان، أو بالحري على سيفها الملطخ بالدماء، وهي السائدة على جميعها مدّعيةً أن هذا حقها المُعطى لها من الله. فقرمز القياصرة أصبح من حق الباباوات، والنسور الإمبراطورية استُبدلت بالصلبان، وأصبح حضرة صاحب القداسة هو الملك العام. وسيدة العالم الجديدة هذه لم تكن هكذا بالاسم فقط، بل قد تسربلت بلباس جديد من القوة الفعلية، حتى أن روما الإمبراطورية نفسها لم تكن تبعث بسيوفها وجيوشها من الرعب والمخاوف مثل ما كانت تبعث روما البابوية بحرماناتها ولعناتها وأناثيماتها. أو كما قال واحد "إن المسيحية بأجمعها، لسبب ما تتخبط فيه من ظلمة عقلية وأدبية، كانت ترتعد إذا ما أرعد البابا بحرماناته، فالعروش كانت تهتز تحت الملوك الجالسين عليها خوفًا ورجفة من الجبروت البابوي، كما كان الملوك يخرون ويسجدون أمام سلطانه الروحي كأحقر العبيد. ورجال الإكليروس كانوا ينظرون إلى البابا كمصدر سلطانهم والسبيل الوحيد لرقيهم. أما بقية الناس فنظرًا لما كانوا يتخبطون فيه من جهل مطبق وخرافة مريعة، كانوا ينظرون إلى سلطان البابا كلاهوت أرضي، ويثقون أن في قبضة يده توجد مصائر جميع البشر الزمنية والأبدية. وكانت ثروة الأمم تتدفق إلى الخزينة المقدسة، حتى استطاع خليفة الصياد الجليلي أن يحوز لنفسه على أبهة وفخامة تتضاءل أمامها أبهة أعظم ملوك الشرق وفخامتهم"[٥١]. وهكذا انتشرت السيادة البابوية وتعدت أبعد فتوحات الإمبراطورية، حتى أن كثيرًا من الأمم التي استطاعت أن تنجو بنفسها من قبضة روما الإمبراطورية أصبحت ترسف تحت نير روما البابوية كما رأينا في سياق كلامنا عن حروب

شارلمان الدينية. وهذه الممالك كما حصرها البعض هي أيرلندا وشمالي اسكتلندا والسويد والنرويج والدانمرك وبروسيا وبولندا وبوهيميا ومورافيا والنمسا والمجر وجزء كبير من ألمانيا. ويخبرنا التاريخ أن هذه الممالك جميعها قد سيقت كالغنم إلى حظيرة راعي روما بواسطة بعض المرسلين مثل بونيفاس، ولكنهم في حساب الله لم يكونوا إلا فريسة لجبروت وغواية تلك الزانية العظيمة.

٤- ولكن هناك ما هو أكثر من جلوسها على المياه الكثيرة، وجلوسها على الوحش، فهي مملوءة من الأوثان ومن رجاسات زناها «والمرأة كانت متسربلة بأرجوان وقرمز ومتحلية بذهب وحجارة كريمة ولؤلؤ ومعها كأس من ذهب في يدها مملوءة رجاسات ونجاسات زناها». ولكن رغمًا عن كل مجدها الظاهري، الأمر الذي يحسبه العالم كشيء ثمين وجميل، فهي في نظر الله ليست إلا امرأة زانية لها كأس عظيمة مملوءة بكل أنواع الرجاسات، فقد رأينا غرامها الشديد بالصور والتماثيل، وهي الأشياء المعبَّر عنها هنا «بالرجاسات».

٥- ادعاءاتها العظيمة وافتخارها المطلق بأنها المالكة لحق الله «وعلى جبهتها اسم مكتوب: سر بابل العظيمة أم الزواني ورجاسات الأرض». هذه هي أشنع وأخطر خطايا روما، إذ هي صورة مقلدة مخيفة للشيطان، وفيها أحط أنواع الرياء. أما عن السر السماوي الحقيقي فيخبرنا بولس قائلاً «هذا السر عظيم، ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة» (أف٥:٣٢). ولكن بدلاً من الخضوع للمسيح والأمانة له، نراها كامرأة مهجورة قد رفعت عن وجهها برقع الحياء وجردت نفسها من كل عفة واستحياء، فتدنس عظماء الأرض بعناقها المشين، وبسطت ذراعيها وسلطانها عليهم. وليس هذا هو الكل، فهي «أم الزواني» ولها بنات كثيرات، فكل نظام ديني في المسيحية من شأنه أن يبعد النفوس عن شخص المسيح مهما كانت درجة هذا الإبعاد، ويشغل عواطفهم بأغراض تحول بين القلب وبين الرب يسوع الإنسان الممجَّد، فهو نظام ينتسب برابطة القرابة إلى هذه الأم، أم الإثم الروحي.

٦- نرى ظمأها الشديد إلى دم قديسي الله «ورأيت المرأة سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء يسوع. فتعجبت لمّا رأيتها تعجبًا عظيمًا». هذا المنظر الغريب - منظر امرأة، هيئة دينية تدّعي بأنها عروس المسيح الحقيقية، سكرى من دم الشهداء قديسي الله - ملأ عقل الرسول بالدهشة الشديدة. ولكن ليس هناك ما يدعو للدهشة من جانبنا، فقريبًا سنرى هذا المشهد العجيب ليس في رؤيا فقط بل كحقيقة واقعية لم يسبق لها مثيل. ولِمَ الدهشة والعجب؟ أليس إنوسنت الثالث هو الرجل الذي أعلن الحرب على فلاحي جنوب فرنسا، وسلط سيف ذلك الطاغية المشهور، سيمون دي مونتفور، ليعمل بلا رحمة ولا شفقة في رقاب المؤمنين، وذلك بحجة تنفيذ مشيئة المسيح وأوامره.

ومن العدد السابع إلى ختام الأصحاح الثامن عشر نجد تفسير الملاك للرؤيا، وقضاء الله المخيف على بابل. ولكن بما أن غرضنا ليس هو التفسير فلا حاجة بنا للذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك في تتبع موضوع هذين الأصحاحين الخطيرين*. والآن يمكننا أن نعود لنتابع في نور كلمة الله آثار التاريخ المظلم والملطخ بالدماء.

إنوسنت وملوك الأرض

إن الصفات المختلفة المميِّزة لبابل والتي أرانا روح الله إياها بكل جلاء في هذين الأصحاحين، والتي هي بغيضة للغاية لديه، سنجدها ظاهرة على وجهها الأكمل في تاريخ هذا البابا. ولكن على القارئ والكاتب معًا أن يكونا على حذر لئلا تتسرب روح بابل إلى قلوبنا، إذ من الخطإ أن نظن أنها قاصرة على البابوية، وإن كانت متخذة عرشها العلني هناك، وسوف تنال أيضًا جزاءها العلني هناك. إن لم نأخذ مكاننا حول يسوع المرفوض، ونجتمع إليه ونسير معه في شركة آلامه وعلى رجاء أمجاده، فنحن في خطر أن نقع في حبائلها. إن روح بابل يمكن أن تظهر في المسيحيين الاسميين الذين يقرنون التمتع الحاضر بمسرات هذا العالم مع اسم المسيح وعبادته. هذا هو جوهر الروح البابلية: المزج النجس بين المسيح والعالم، وبين السماء والأرض، وكل من يعترف بأنه يؤمن بمسيح مرفوض ومع ذلك يضع قلبه في العالم الذي يرفضه ما هو إلا إنسان مشبَّع بالروح البابلية، ومَثَله

---

* إن أردت تفصيلاً أكثر فارجع إلى كتاب "محاضرات على سفر الرؤيا" بقلم وليم كلي[٢٤]، وبالعربية إلى تفاسير سفر الرؤيا لرشاد فكري وناشد حنا ويوسف رياض.

مَثل عروس مخطوبة لرب السماء ومع ذلك تصغي لمداهنة ونفاق رئيس هذا العالم وتقبل هباته وهداياه. ألسنا نرى بكل أسف وفي كل مكان ذلك الانغماس في العالميات مع الاعتراف باسم المسيح؟ هذا هو التناقض والتذبذب البغيض المكروه لدى الله، والذي سيدينه ويقضي عليه قضاءه الحق المخيف. يا ليت الرب في نعمته يحفظنا من الوقوع في أي وقت من الأوقات في محاولة خلط الصليب ومجد المسيح السماوي بهذا العالم الحاضر الشرير.

إن جوهر الروح البابلية هو في الواقع أن الكل للعالم مع الادعاء الكبير في الوقت نفسه بأن الكل للمسيح. فهي تقول: «أنا جالسة ملكة ولست أرملة ولن أرى حزنًا» (رؤ١٨: ٧). فالمُلك هو دائمًا أبدًا شهوة قلبها؛ الملك على الكنيسة وعلى الدولة، على البحر والبر، على الأرواح والأجساد، مع ادعاء القدرة على فتح أبواب السماء وجهنم كما تشاء وتهوى. هكذا ظن إنوسنت وهكذا عمل وتصرف كما سنرى بعد قليل.

"لوثريو دي كونتي" هو الاسم الأصلي لإنوسنت، وهو ينتسب إلى عائلة من أكبر العائلات الرومانية وأشرفها، وقد تولى تربيته عماه الكردينال سانت سرجيوس وسانت بول. وقد ظهرت فيه منذ صغره مؤهلاته الطبيعية العظيمة، مما جعل أصدقاءه وأقاربه يرون فيه بشيرًا بالعظمة والنبوغ، وهكذا نال لوثريو شهرة عظيمة أثناء دراسته في مدارس روما وبولونيا وباريس. ولكن الشريعة الدينية كانت هي أحب شيء لديه. وعند موت سلستين الثالث انتُخب للكرسي البابوي، وفي يوم ٢٢ فبراير سنة ١١٩٨م تمت رسامته وكان عمره إذ ذاك سبعة وثلاثين عامًا. وقد حياه الكرادلة باسم إنوسنت (أي الطاهر) شهادةً لحياته الطاهرة الخالية من كل عيب.

رؤية إنوسنت للمملكة البابوية

إن قليلاً من المقتطفات من خطبة الرسامة ومن بعض كتابات أخرى من كتابات إنوسنت كفيلة بأن تعطي القارئ أحسن فكرة عن الادعاءات البابوية أو البابلية، فالتوكيدات التي لا حد لها لعظمته، مع الادعاءات العلنية عن وداعته وحقارة شأنه إن هي إلا لسان ناطق عن حقيقة روحه. خذ ما فاه به في خطابه الشهير. "أنتم ترون أن خادمًا قد أقامه الرب على شعبه. هذا الخادم ما هو إلا وكيل المسيح على الأرض وخليفة القديس بطرس. هو مسيح الرب الذي يتوسط بين الله والناس. هو أقل من الله وأكبر من الإنسان. هو تحت الله ولكنه فوق الإنسان. هو يحكم على الكل ولكنه لا يُحكم فيه من أحد، لأنه مكتوب «أنا أدين». على أن من يرتفع بحكم عظمته كرئيس يتضع بحكم وظيفته كخادم، حتى بذلك يتمجد الاتضاع. وتحط الكبرياء فإنه «يقاوم الله المستكبرين أما المتواضعون فيعطيهم نعمة» (يع٤: ٦).. وكل من يرفع نفسه لا بد وأنه يتضع". ليس هذا فقط ولكنه يكتشف البابوية في سفر التكوين! اسمع ما يقوله في هذا الصدد. "إن الجَلَد يشير إلى الكنيسة، وكما أن خالق كل الأشياء قد وضع في السماء نورين عظيمين، الأكبر لحكم النهار والأصغر لحكم الليل، هكذا أيضًا وضع في جلد كنيسته قوتين عظيمتين، أكبرهما لحكم الأرواح وأصغرهما لحكم الأجساد. هاتان القوتان هما القوة البابوية والقوة الملكية. ولكن القمر، بما أنه الأصغر، يستعير كل نوره من الشمس، هو أقل من الشمس من حيث كمية ونوع النور الذي يرسله، كما هو أيضًا أقل من الشمس من حيث مركزه وأعماله في الجلد: وعلى هذا القياس تستعير القوة الملكية كل عظمتها وجلالها من القوة البابوية، حتى أنها على قدر اقترابها من النور الأعظم يكون تضاؤل أشعتها وخسوف أمجادها المستعارة. هذا وقد تعين فوق ذلك أن يكون مقر هاتين القوتين في أرضنا هذه، إيطاليا. وطالما أنه في هذه الأرض توجد السيادة العليا المشتركة للإمبراطورية والكهنوت فهنا يستقر أساس وبناء الإيمان المسيحي بأجمعه"(١٣/٤٢).

لا شك أن القارئ لا يجد صعوبة في أن يكوّن لنفسه من هذه الأقوال فكرة عن المزاعم الجريئة التي تحوط النظام البابوي كما كان ينظر إليه هذا البابا الشهير، الذي يؤكد بصورة حاسمة أن كل سلطان أرضي إنما هو مكتسب من البابوية، وأن جميع ملوك الأرض ورؤسائها هم رعاياه وعبيده، وأنه صاحب السلطان المطلق دون سواه.

إنوسنت ومدينة روما

كرجل حكيم بدأ إنوسنت عمل حياته العظيم بإصلاح أهل بيته. فالبساطة الشديدة حلت محل الأبهة الملكية، وجمهور الأشراف والعظماء الذين كانوا يملأون القصر رُفتوا من وظائفهم، ولكنه زودهم بالهبات والعطايا الكفيلة بأن تحتفظ بهم أصدقاء مخلصين له، يسارعون إلى خدمته كلما دعت الحاجة، وخاصة في الالتفاف حوله كبطانة فخمة في المناسبات الرسمية. والأهالي الذين اعتادوا أن ينالوا الهبات والعطايا عند افتتاح كل عهد بابوي جديد لم تفته

مجاملتهم، بل أغدق عليهم ما أشبعهم وأرضاهم، وبهذه الكيفية استطاع أن يكسب عطف الجماهير ومحبتهم. فلقد جمع في نفسه جرأة غريغوري السابع مع دهاء وصبر إسكندر الثالث. وقد عرف الرومان ونفسياتهم، ومن ثم عرف كيف يسوسهم ويملك قيادهم. كانت أخلاق هذا الشعب أسوأ من أخلاق أي شعب آخر ظهر في التاريخ، وهاك شهادة سانت برنارد عنهم في كتاباته للبابا: "وهل أنا في حاجة للإشارة إلى الشعب؟ إنه الشعب الروماني، وهذا فيه كل الكفاية للتدليل على نفسياتهم، لا بل أنا لا أجد تعبيرًا أوجز أو أوضح من هذا التعبير لإيضاح فكري عن أهل أبروشيتكم، لأنه أي شيء أشهر لدى جميع الناس وفي كل العصور والأجيال من فجور الرومانيين وعجرفتهم؟ هم جنس لا يعرف السلام ولم يعتادوه. هم جنس ثائر، جنس لا يعرف الرحمة وعنيد، وإلى هذه اللحظة يزدري بكل سلطان ويأبى أي خضوع إن كان هناك أي مجال لسلطان أو خضوع. وهل تجد في مدينتك الواسعة الأطراف من هو على استعداد أن يرضى بك بابا إلا إذا كان ذلك لمنفعة شخصية أو على رجاء الحصول على مثل هذه المنفعة؟ وهل الوعد من جانبهم بالولاء إلا وسيلة تمكنهم من الغدر بمن وضع فيهم ثقته وإلحاق الضرر بمن صادقهم واطمأن إليهم؟ إنهم أناس أكبر من أن يخضعوا ويطيعوا، وأجهل من أن يُحكموا ويساسوا. خونة للرؤساء، طغاة لا يطاقون للمرؤوسين. بجحون في الطلب ووقحون في الرفض. لحوحون في التماس المكارم والإحسانات، قلقون أثناء الطلب، وجاحدون بعد النوال. متشامخون كثيرو الكلام والثرثرة ولكنهم غير أكفاء. أسخياء جدًا في الوعود، بخلاء للغاية في الوفاء. أنعم المداهنين، وأغدر الحانثين الخائنين. بين شعب هذه صفاته أنت ذاهب لتكون راعيًا مغمورًا بالذهب ومحاطًا بكل أنواع العظمة. إلى أي شيء تنظر رعيتك؟ إنني إن جاز لي وصفهم وتجاسرت على الجهر به فلن أتردد في القول إنهم رعية من أرواح شريرة أكثر منهم رعية من خراف"[٢/٣٩].

بهذه الشهادة يوصف الشعب الذي كان من حول راعي روما الجديد، والذي كان عليه أن يسهر عليهم. على أن إنوسنت لم يكن الرجل الذي يفزع قلبه إزاء أسلوب سانت برنارد المزعج، بل بنشاط عظيم وحكمة مقترنة بالدهاء والمقدرة بدأ عهده الناجح.

وبعد أن فرغ إنوسنت من أمور أهل بيته ولّى وجهه مباشرة شطر شعب المدينة، وكان غرضه الأول ملاشاة كل أثر للسلطة الإمبراطورية في روما. كانت هذه خطوة جريئة، ولكنه كان قد مهد لها الطريق بتوزيعه الأموال والهدايا في صمت وهدوء في كل أحياء المدينة الثلاثة عشر. إلى هذه اللحظة كان رئيس بلدية روما تحت سيادة الإمبراطور، وكان الممثل فيها للسلطة الإمبراطورية، فاستطاع إنوسنت أن يجذبه إليه ويجعله يرفض السيادة الإمبراطورية ويخضع للسيادة البابوية، فأخذ منه السيف العلماني، الرمز القديم لسلطته، وأعطاه بدلاً عنه كأسًا فضيًا، رمزًا للسلام والصداقة، كما أعفاه من يمين الولاء للإمبراطور، وأن لا يتسلم مقاليد سلطته إلا من يده. بهذه الكيفية انقطعت آخر حلقة كانت تربط روما بالإمبراطورية.

على هذا النحو أيضًا استطاع إنوسنت أن يقنع قاضي القضاة، وهو الممثل للهيئة التشريعية، بالاستقالة من وظيفته لكي يتسنى له أن يعين مكانه أحد صنائعه المرتبط معه بيمين الولاء كرئيسه وسيده، وهكذا أرغم جميع القضاة والضباط وكافة الأهالي على حلف يمين الطاعة لجلالته الروحية، وأن يعترفوا جميعًا بسيادة العرش البابوي.

إنوسنت ومملكة صقلية

كانت المدينة الإمبراطورية في تلك اللحظة محاطة بجيران عديدين خطرين، وكان لا بد لإنوسنت أن يعمل على الخلاص منهم بكل وسيلة. وكانت في ذلك الوقت ممالك إيطاليا الوسطى والجنوبية، بما في ذلك مملكة صقلية، ترسف تحت نير المغامرين الألمان القساة القلوب، وقد وقعت هذه البلاد في قبضة الألمان بالكيفية الآتية:

في سنة ١١٨٦م تزوج هنري الرابع إمبراطور ألمانيا الملقب بالقاسي بالأميرة كونستانتيا الوريثة الشرعية لتاج صقلية وصاحبة السيادة على جميع مقاطعات النورمان في جنوبي إيطاليا، وكان هذا معناه طبعًا وقوع جميع هذه الأراضي في قبضة هنري.

أزعج امتداد نفوذ الإمبراطور بهذا الشكل الواضح الخطورة البابا ليسياس الثالث الذي كان على الكرسي وقتذاك، إذ صارت البابوية نفسها مهددة لوقوعها محصورة بين هذه الأملاك الواسعة الأطراف، فقام لوقته يقاوم هذا الزواج بكل ما أوتي من قوة ودهاء، ولكن الموت عاجله بغتة، فراح دون أن يتمم شيئًا. ثم جاء خليفته أوربان الثالث وفشل هو أيضًا في فسخ الخطوبة، فتم الزواج في ٢٧ يناير سنة ١١٨٦م. ولكن كما هو المعتاد وُجد في الحال من يدعي أنه هو الوارث الشرعي لعرش صقلية، فقام يطالب بحقوقه

بمعاونة البابوية. وكان ذلك سببًا في نشوب حرب طاحنة دارت رحاها عدة سنين، فقد أغار هنري على الأراضي الإيطالية بحجة أنه يريد أن يضع يده على أملاك زوجته، ونجحت حملته نجاحًا تامًا. ووقعت الإمارات الواحدة تلو الأخرى في قبضته، وفي وقت قصير أصبحت إيطاليا الجنوبية أجمعها بما فيها مملكة صقلية خاضعة لذلك الطاغية القاسي زوج كونستانتيا الخائنة، وقبل أن يغادر الأراضي المفتوحة. يقول المؤرخ جرينوود "سلّم جميع القيادات العليا لجماعة من أمهر ضباط جيشه، كما أنه منح القصور والقلاع والأراضي والمرافق المالية والسلطان الذي ليس له حد لجماعة المغامرين والمرتزقة، الذين لم يكن لهم غرض سوى السلب والنهب، والذين لم تقف في سبيل جشعهم أقوى الاعتبارات الخاصة بحقوق أو صالح الشعب الذي وقع تحت نير حكمهم".

هكذا تعين فليب دوق سوابيا، أخو هنري، حاكمًا على إيطاليا بما في ذلك أملاك الكونتيسة ماتلدا ودوقية تسكانيا. وماركفالد، بطل من أبطال الإلزاس وأحد محاسيب الإمبراطور، جُعل دوقًا على رافنا ورومانيا، بينما كونراد أوف لوتزنبرج الفارس السوابي كان من نصيبه دوقية سبوليتو وما حولها. وهكذا حوصرت الممتلكات البابوية بسلسلة معادية من الحصون والقلاع من كل ناحية، حتى كاد الاتصال بينها وبين العالم الخارجي يكون منعدمًا، ولكن اليد العليا التي كانت لازمة لإدارة ومراقبة هذه الحاميات المختلفة انتُزعت بغتة، إذ مات هنري في ٢٨ سبتمبر سنة ١١٩٧م قبل جلوس إنوسنت على كرسي البابوية بثلاثة شهور تقريبًا"(١٣/٤٢).

أشرنا الآن باختصار إلى ذلك الاحتلال العسكري الذي حل بإيطاليا قبل أن يتسلم إنوسنت مقاليد الحكم. وإذا أراد القارئ تفصيلات أكثر فسيجدها طبعًا في كتب التاريخ العامة، ولكن بما أن غرضنا في هذا الفصل هو بيان كيف أن السلطة الدينية تغلبت وانتصرت على السلطة المدنية. شعرنا أنه من اللازم توضيح المركز القوي الذي كان لهذه السلطة الأخيرة، والمعضلة الآن التي تتطلب حلاً هي كيف يتسنى لشخص واحد وبكلمة واحدة أن يقلب قوة الإمبراطورية العسكرية، وأن يرغم الجميع، سيدًا ومسودًا على الخضوع لسلطة روحية استبدادية؟ لا شك أن القوات السفلية غير المنظورة عندها السر في حل المسألة، وأن الجمع بين صورة الخروف والتنين، إنسان الخطية، في قوة واحدة أو نظام واحد، هو الأساس (رؤ١٣: ١١-١٨).

إنوسنت ومقاطعات الكنيسة

إن موت هنري، ودبيب الحسد والمنافسات بين الرؤساء الألمانيين، وحالة الإيطاليين المشبعة بروح الثورة والسخط والغضب، كلها كانت عوامل هيأت الجو لإنوسنت لأن يظهر مواهبه الإدارية. فالقسوة الشنيعة التي بها عامل هنري رعاياه الإيطاليين جعلت المملكة كلها على أهبة الثورة، وكل ما كانوا يصبون إليه هو منقذ يخلصهم من النير الألماني، وكان هذا المنقذ هو إنوسنت. وأول ما بدأ به أنه دعا ماركفالد، وهو أخطر القواد الألمانيين وأرهبهم، أن يسلم القديس بطرس جميع ممتلكات الكنيسة. توقف ماركفالد قليلاً، إذ مع أنه كان رجلاً جريئًا وطماعًا وذا ثروة طائلة وسلطان عظيم، لكنه أراد أن يتجنب بقدر المستطاع أي صراع علني مع البابا. فكان يعلم تمام العلم مبلغ كراهية الشعب ونفوره من النير الأجنبي، والخطر العظيم الذي يهدده من هذه الناحية، فعمل على جذب البابا إلى محالفته واعدًا إياه بخدمات جليلة يقوم بها للكنيسة، ولكن البابا كان متشددًا ورفض بإباء جميع عطاياه من مال أو خدم، وطلب بدون شرط أو قيد تسليم جميع ممتلكات الكنيسة في الحال. رفض ماركفالد، وقام الشعب يؤيد مطالب البابوية، وكان من وراء ذلك أن نشبت الحرب، وثارت المدن الواحدة بعد الأخرى، ومزق الناس الأعلام الألمانية وهدموا وضربوا كل ما هو ألماني. وثارت ثائرة ماركفالد وشعر بالعار يمزق أحشاءه فخرج غاضبًا "منتقمًا لنفسه بتخريب المنطقة بأجمعها، هادمًا وسالبًا ومشعلاً النيران في كل شيء من بيوت وحقول وقصور وكنائس. ففتح إنوسنت الخزائن البابوية على مصراعيها، كما اقترض مبالغ كبيرة من المال، وجرد الجيوش الجرارة بعد أن أصدر حرمانًا ضد ماركفالد الثائر على الكنيسة، محللاً في الوقت نفسه جميع رعاياه من يمين الولاء الذي أقسموه له"(٤/٤٣).

ملأ سقوط ماركفالد قلوب الآخرين بالرعب والفزع، فقاموا عن بكرة أبيهم يقترحون شروطًا للسلم، ويعلنون استعدادهم لدفع الجزية. ولكن إنوسنت رفض كل اتفاق وطلب جميع الممتلكات بلا تحفظ، معلنًا نفسه الوريث الشرعي لأملاك الكونتيسة ماتلدا والسيد المُطلق لدوقية تسكانيا. على أنه لم تكن هناك حادثة، بعد وفاة الإمبراطور، أعظم أهمية للبابوية من خيانة الإمبراطورة كونستانتيا. فبعد وفاة زوجها مباشرة، رغمًا عن كونها الوصية الطبيعية على

الإمبراطورية، نفضت يدها من المسألة الألمانية ورجعت إلى صقلية مع ولدها الطفل فريدريك، وهناك انشغلت بصالح وطنها الأصلي وألقت بنفسها وبولدها في أحضان البابوية المقدسة، واحتفلت بتتويج ولدها في بالرمو، والتمست من البابا الموافقة على ذلك باعتبار أنها تابعة لمملكة الفاتيكان. شعر إنوسنت بقوته ولمح أيضًا ضعفها، فأملى عليها الشروط التي أرادها، وكانت فحوى هذه الشروط أن تعترف الإمبراطورة وولدها بسلطان البابا الأعلى على جميع مملكة نابولي وصقلية، وأن تدفع له جزية سنوية عظيمة. أما المحاربون الألمان فأرغموا على التقهقر والرجوع إلى الحصون الإيطالية، وفي عزمهم أن يتحينوا الفرصة للانتقام.

كانت انتصارات إنوسنت سريعة وحاسمة، ففي أقل من سنة بعد ارتقائه العرش البابوي أصبح ملكًا لمملكة صقلية، وسيدًا مطلقًا لجميع أراضيها الواسعة، وكان له في كل مكان وكلاء ومبعوثون جعلوا هيبته تقع على كل إنسان وطاعته فرضًا واجبًا على الجميع، ولكن كما هو الحال دائمًا، سرعان ما أصبح الوحش الذي عليه المرأة جالسة جامحًا وشامخًا، ذلك أن البابوية ادعت أن جميع الأراضي والقلاع والحصون والمقتنيات التي استرجعت من الألمانيين هي ملكها الخاص، ولكن لما كانت هذه المطالب ظالمة وغير شرعية، لم يستطع أهالي البلاد وحكامها الإمبراطوريين إلا أن يثوروا ويقاوموا. وبذلك استمرت صقلية عدة سنين مشهدًا للفوضى والعنف وسفك الدماء والدسائس المستمرة. ومع ذلك، وفي ذات هذه اللحظة، قام إنوسنت يذكّر هذه المدن التي أبت أن تعطيه جميع ما حصلت عليه بالكفاح والجهاد لقمة سائغة له، بتلك القوة الرهيبة المخيفة التي يتجاسرون على مناهضتها. فعدم ثقتهم فيه لم تكن إلا جريمة ضد الرب يسوع نفسه، الذي هو خليفته «الذي لم يكن فيه الخطية البتة ولم يكن في فمه غش». هل يمكن أن يكون هناك تجديف أفظع وأوقح من هذا؟ وهل يمكن أن يكون هناك محاولة أعظم من هذه لاتحاد التنين والخروف في شخص واحد.

إنوسنت والإمبراطورية

قبل أن تنتهي هذه السنة المفعمة بالحوادث ماتت كونستانتيا الأميرة الصقلية والإمبراطورة الألمانية، فأسلمت روحها في ٢٧ نوفمبر سنة ١١٩٨م. ويقال إن الذي عجل بموتها كان عجزها الشديد وانكسار قلبها لمصير ولدها الصغير فريدريك، فقد كان عمره في ذلك الوقت لا يتجاوز الأربع سنوات، وهو ملك صقلية المتوج والوريث الشرعي للإمبراطورية. وقد استودعته في وصيتها الأخيرة لعناية البابا كسيده الأعلى، وأوصت بثلاثين ألفًا من الذهب تدفع سنويًا للبابا نظير حمايته التقوية لابنها، وأن كل مصاريفه الأخرى تؤخذ من خزينة الدولة.

على أن هدوء روما لم يتم لها بانتصاراتها العظيمة، فالحرب الأهلية بأهوالها وفظائعها العديدة تجددت، ذلك أن البابا لم يدع الوقت يذهب سدى، بل في الحال أعلن أشراف صقلية بتسلمه مقاليد الحكم كالوصي، وكلف مندوبيه هنالك بفرض يمين الولاء على الجميع. وفي الوقت نفسه قام ماركفالد بمجرد أن سمع بوفاة الإمبراطورة يدعي لنفسه لقب القيم على الامبراطورية، وأبرز وثيقة قيل إنها وصية الإمبراطورة السابقة، طالب بمقتضاها بحق الوصاية على صقلية مدة حداثة الملك الصغير. وتعزيزًا لمطالبه جمع جيشًا كبيرًا من المغامرين حاصر به المدينة البابوية المسماة جرمانو وأخذها عنوة، كما كان على وشك أن يصبح سيدًا لدير مونت كازينو العظيم بعد أن دافعت عنه الحامية البابوية مدة ثمانية أيام، إلا أن قوة جديدة مزودة بالمؤن والذخائر أتت من روما وعززت هؤلاء الرهبان المحاربين، وأرغمت الدوق العظيم على رفع الحصار. ويقول المحققون إن إنوسنت في هذه اللحظة ظهر بمظهر القائد الحربي الصنديد والبطل المغوار الرعديد، فأصدر بلاغًا يدعو فيه جميع أهالي نابولي وصقلية لحمل السلاح، كما أنه جمع جيوشًا من لمبارديا وتسكانيا ورومانيا وكامبانيا على نفقة الخزينة البابوية. وفي صباح كل يوم أحد كانوا ينطقون بالحرمانات المرعبة على ماركفالد وجميع أتباعه وسط الشموع المطفأة وقرع الأجراس الرهيب، بينما كانت جيوش البابا تعيث في المملكة فسادًا ونهبًا وتخريبًا. إلا أن موت ماركفالد عام ١٢٠٢م أراح البابا من ألد أعدائه وأقوى معانديه.

والآن نعود لنتأمل قليلاً في أعمال ذلك العقل الجبار إزاء حالة الإمبراطورية المرتبكة: إمبراطور طفل ويتيم، مع عرش خال تتقاتل عليه جماعة من الأمراء المتنافسين. كل هذه فتحت بابًا جديدًا ومتسعًا للأطماع البابوية.

وكان الغرض الأول لسياسة إنوسنت فصل مملكة صقلية عن الإمبراطورية، إذ طالما كانت الاثنتان في يد واحدة فلا بد يأتي

ملك أقوى منه ويجلس على عرش صقلية. واحتمال وجود جار قوي وخطر مثل هذا كان أمرًا يجب العمل على إبعاده كلية وجعله من المستحيلات. وقد وجد إنوسنت الفرصة سانحة في المنافسة الشديدة القائمة على العرش. وتصادف أن احتاجت ألمانيا إلى جيوشها فسحبتها من صقلية، فلم تقوَ الحاميات الضعيفة الباقية على المقاومة، فاضطرت إلى التسليم. وبهذا انفصلت المملكة عن الإمبراطورية واستتب الأمر فيها للبابا وثبت سلطانه بالقوة.

بعد موت هنري مباشرة قام أخوه فيليب دوق سوابيا ووضع يده على الخزائن الإمبراطورية، وأعلن نفسه وصيًا على المملكة وحاميًا لمصالح ابن أخيه القاصر. إلى هذا الحد كان يبدو أن غرضه صالح ونيته حسنة، ولكن إمبراطورا طفلاً كان أمرًا مخالفًا للتقاليد الألمانية وغير لائق في تلك الأوقات الصعبة. وسرعان ما قام حزب معاد أخذ يعارض بكل قوة في انتخاب هذا الوليد ملكًا. أما الموالون لأسرة هوهنشتافن (أي أسرة هنري)، فالتمسوا من فيليب أن يكون الممثل لأسرته لوقوف في وجه المرشحين الآخرين، فقبل ذلك واختير للإمبراطورية بواسطة جماعة قوية من الأمراء والأساقفة.

أما الحزب المعادي لأسرة هوهنشتافن فكان على رأسه أودلف رئيس أساقفة كولونيا، وكان يتكون غالبًا من أساقفة الراين العظام، ذلك كان الشاغل الرئيسي لأساقفة ورجال الإكليروس في ذلك العهد المنكود، فصمموا على إقامة منازع لأسرة هوهنشتوفن. وبعد أن رفض عدد كبير من الأمراء ترشيح أنفسهم للعرش الإمبراطوري ولى رجال الكنيسة وجهتهم نحو أسرة سكسونيا، العدو اللدود لأسرة سوابيا (هوهنشتافن). وقد وقع اختيارهم على أوتو، الابن الثاني لهنري الملقب بالأسد، ودوق سكسونيا وقتئذ.

ولما كانت أسرة أبيه واقعة تحت غضب الإمبراطورية. وكان أوتو قد نُفي من ألمانيا، فقد تربى في البلاط الملكي البريطاني، لأن أمه ماتلدا كانت أخت الملك ريتشارد ملك إنجلترا الملقب بقلب الأسد، وقد أظهر في حداثة عهده شجاعة نادرة جذبت إليه أنظار ريتشارد الذي أعجب به ومنحه لقب كونت أوف يورك. والآن بعد أن تزود بالشيء الكثير من الذهب الإنجليزي، وببعض الأتباع، غادر إنجلترا ووصل إلى كولونيا، وهناك نودي به إمبراطورا وحاميًا للكنيسة.

فيليب وأوتو

كان فيليب في الثانية والعشرين من عمره بينما كان أوتو في الثالثة والعشرين، ويقول المؤرخون إنه "من حيث الصفات الشخصية والثروة وعدد الأتباع كان فيليب هو صاحب الكفة الراجحة، وكان مشهورًا باعتداله ومحبته للعدل، وكان قد تهذب بالآداب والعلوم الفلسفية إلى حد كان يندر وجوده بين الأمراء في ذلك العهد. وكانت صفاته الاجتماعية المحببة ومزاياه الأخلاقية الحميدة تتعارض تمامًا مع كبرياء أوتو وعجرفته. على أن أوتو كان محبوبًا لدى هيئة الإكليروس الموقرة التي كانت تمقت فيليب بصفته الممثل لتلك الأسرة البغيضة المعارضة لمصالحهم ونظام وظائفهم"[٣/٣١].

ولكن قد يسأل القارئ: أين إذًا الصبي فريدريك الذي مُسح وتُوّج إمبراطورًا، وله قد حلف كل من الأساقفة والأمراء يمين الطاعة والخضوع والولاء، وتعين البابا حارسًا وملاحظًا على حقوقه نظير أجر هائل وعظيم؟ الجواب الوحيد على هذا السؤال نجده في سياسة إنوسنت السرية الغدرية، فإن غرضه الأكبر في السماح - إن لم يكن في خلق هذه الحرب الأهلية العظيمة - حول التاج الإمبراطوري لم يكن سوى إذلال أسرة سوابيا العاتية المتكبرة، وفي سبيل ذلك الغرض كان يجب أن يضحّي بكل شيء آخر. على أن ضمير البابوية المطاط الواسع لم يعوزه أبدًا إيجاد سبب في ظاهره مقدس لتبرير ارتكاب أعظم الشرور والآثام، أو سلوك أشد السبل خيانة وغدرًا. لم يكن في استطاعة إنوسنت أن ينكر حقوق فريدريك، ولهذا تظاهر بالعدل والصراحة في الاعتراف بها. ذلك كان صوت التنين. فهو يعترف بقانونية انتخابه وكذلك بشرعية يمين الولاء الذي أقسمه له أمراء الإمبراطورية وأشرافها، ولكنه من الجهة الأخرى يعلن أنه قد اكتشف أمرًا خطيرًا وهو أن هذا القسَم قد انتزعه أبوه من الأمراء والأشراف قبل أن يصبح الطفل مسيحيًا بواسطة المعمودية، وعلى هذا أصدر في الحال فتوى مؤداها أن طفلاً عمره سنتان وغير معمد هو "لا شيء" أو "باطل". وعلى هذا يكون القسَم المذكور لاغيًا وباطلاً، وكل التزام من نحو الوارث الصغير لا قيمة له ولا تأثير، ويجب طرحه جانبًا بالكلية.

حقًا لا يسعنا إلا أن نتعجب في حزن. تلك هي الصفحة الأخلاقية

التي تركها إنوسنت وراءه لكي تتأمل فيها الأجيال. ذلك الذي انتحل وادَّعى لنفسه مركز "الممثل لعدالة الله الأزلية الثابتة على الأرض، المتسامي كلية فوق جميع العواطف والمصالح" يحل الآن سكان ألمانيا جميعهم من ذلك القَسَم الخطير للغاية، قَسَم الولاء للوريث الشرعي لعرش المملكة. وبدلاً من العمل على صيانة حقوق الشخص الذي اؤتمن عليه، والذي كتبوا له عندما قبل المهمة إنه "ولو أن الله قد افتقده بوفاة أبيه وأمه فقد أعطاه أبًا أعظم: نفس وكيله على الأرض، وأعطاه أمًا أحسن: الكنيسة". وعوضًا عن أن يكون زاجرًا وموبِّخًا لجماعات المعارضين المنافسين وداعيًا إياهم إلى السلام والوئام، نراه الآن يثير العداء بين الاثنين، فنرى العدالة والحق والصدق والسلام وكل فضيلة إنسانية تُضحى جميعها باستخفاف على مذبح المطامع البابوية وفي سبيل ازدياد نفوذها وتدعيم قوتها وسلطانها. كان هذا البابا الداهية يعمل في الخفاء ومن وراء الستار، ولكنه كان دائمًا أبدًا منكبًا على وضع الوقود، والنفخ في الكور لإشعال نار البغضاء والنزاع، موقنًا أن الطرفين المتنازعين لا بد، بسبب ما، يلحقهما من خسائر في الأنفس والمال، أن يلجآ في النهاية إلى أعتابه واضعين مسألتهما عند أقدامه، وعندئذ يمكنه أن يتقدَّم إلى الأمام كالمدير الأعلى للملوك ويملي شروطه كما يشاء ويهوى. هذه هي الحقيقة المُرّة التي يقررها المؤرخ المشهور دين ملمان إذ يقول: "عشر سنين كاملة من الصراع والحرب الأهلية في ألمانيا سبّبها البابا إنوسنت الثالث بعناده الشديد إن لم يكن بتحريضه المباشر"(٤/٤٣).

الحرب الأهلية في ألمانيا

كان ريتشارد ملك إنجلترا - كما نعلم - في جانب أوتو، بينما كان فيليب أوغسطس ملك فرنسا في جانب فيليب. ولم يدخر كل منهما جهدًا في سبيل جذب البابا إلى ناحية مرشحه، مستعملين في ذلك كل أنواع المداهنة والتملق. ولكن البابا تلكأ، ذلك لأنه كان أمامه من الأغراض المستترة الملتوية الكثيرة ما لا يستطيع معها أن يكون مستقيمًا أو صريحًا. وفي هذه الأثناء شبت الحرب على طول نهر الراين، وكان النجاح في بادئ الأمر حليف فيليب، حتى أنه تقدم في فتوحاته حتى أبواب كولونيا تقريبًا، ولكنه وجد نفسه أمام جيش قوي من كهنة الراين وأشراف هولندا، فاضطر إلى التقهقر. على أنه يجب أن نلاحظ هنا أن أعظم وأقوى جزء من الإمبراطورية كان يعزز قضية فيليب، بينما لم يكن إلا رجال الإكليروس وأمراء الفلاندرز وحدهم في جانب أوتو.

كانت تلك حربًا أهلية من أشد ما عُرف في التاريخ بربرية ووحشية، وفي ختام السنة الأولى منها لازم الحظ قضية فيليب، إذا مات الملك ريتشارد عام ١١٩٩م، وبذلك حُرم أوتو من أعظم وأقوى حلفائه، وخصوصًا لأن الملك يوحنا الذي جاء بعد ريتشارد لم يكن ميالاً لأن يقامر بأمواله في لعبة بعيدة وغير مضمونة مثل هذه.

كان من الممكن أن تنتهي الحرب عند هذا الحد بشيء من الفخار والشرف حتى في جانب أوتو، ولكن الانتقام البابوي من أسرة هوهنشتافن المكروهة لم يكن قد بلغ منتهاه، فجاهر البابا علانية بانضمامه إلى قضية أوتو الغاضب، وبذلك استمرت ألمانيا تسع سنين كاملة، ماعدا فترات قليلة من الهدنة، تعاني أهوال الحرب الأهلية، وراعي الفاتيكان الورع الوديع جالس في قصر على نهر التيبر لا يحرك ساكنًا. على أن سياسة إنوسنت الخفية أصبحت مكشوفة للجميع فهبّت رعيته المتألمة عليه باللائمة تتهمه بأنه هو السبب في كل ما تعانيه من شقاء وتعاسة، وأنه هو السبب في هذا الصراع المروع الذي كان البابا على الدوام يشعل ناره وينفخ في أواره جريًا وراء إشباع أحقاده وتتميمًا لمقاصده الخبيثة في هدم أسرة هنري القاسي وإذلالها، فأصبح البابا في مركز حرج، وكان الموقف يتطلب منه استخدام جميع مواهبه، مع مساعدة الشيطان، حتى يتسنى له تبرئة نفسه من هذه التهمة الخطيرة.

ولكن الحرب كانت قد عملت عملها التنيني، فهي كما يصفها المؤرخون "لم تكن حرب مواقع حاسمة فاصلة، بل كانت حرب كر وفر، حرب سلب ونهب وتخريب وإفساد في الحقول والمزارع، وشن الغارات على البلاد الآمنة المطمئنة، حرب كان يشنها أسقف ضد أسقف، وأمير ضد أمير، حرب فيها أُطلقت يد الغجر المتوحشين والجنود المرتزقة وقطاع الطرق من كل جنس، فراحوا يعيثون في الأرض فسادًا ويلقون الفزع والرعب في كل مكان، حتى فقدت الحكومة هيبتها ولم يبقَ للقانون أية حرمة في طول البلاد وعرضها، وتعطلت طرق المواصلات بسبب اللصوص. وهكذا لم ينجُ أي شيء على الإطلاق، ولم يعد أي شيء له حرمة أو قدسية، حتى الدير والكنيسة. تلك، وما هو أسوأ منها، كانت الحرب الأهلية في

ألمانيا، ومع ذلك فهذا الرجل المنجوس الذي لا يعرف الرحمة استمر يرعد بأناثيماته ضد فيليب معلنًا أن جميع الأقسام التي حُلفت له هي لاغية وباطلة، ومغدقًا في الوقت نفسه امتيازات وحصانات من كل نوع على الأساقفة وجمعيات الرهبان الذين انضموا إلى حزب أوتو. ولكن رعود الفاتيكان ذهبت عبثًا، وكان فيليب يزداد قوة وانتصارًا من سنة إلى أخرى"(٣/٣١)(٤/٤٣)(٧/٢٨).

على أن الواقع لا يمكن إنكاره، وتياره لا بد أن يجرف كل عنيد حتى وإن كان إنوسنت. فهذا الراهب الجبار لم يستطع أن يصمد أمام مجرى الحوادث، بل رأى أنه كان مهدَّدًا بمذلة شنيعة تصيبه بسبب هزيمة كاملة مؤكدة، ذلك لأنه في نهاية عشر سنين أصبحت قضية أوتو لا رجاء فيها على الإطلاق، وكان سبيل الخلاص الوحيد هو الميل نحو كفة الميزان الراجحة. ولكن كيف يتسنى للبابا أن يتناسى عداوته القاتلة التي طالما صرّح بها ضد أسرة سوابيا أو أن يخلّص نفسه من وعوده الكثيرة بالتحالف المستديم مع أسرة سكسونيا؟ كان لزامًا عليه أن يخترع بعض الأسباب المقدسة التقوية لتبرير عمله في ترك قضية أوتو والتمسك بقضية فيليب. ولقد وجد صعوبة كبرى حقًا في ستر عار وفضيحة هذا الموقف المخجل، ولكن فيليب قدّم للبابا بواسطة سفرائه من الاعترافات العديدة والوعود الضخمة ما جعل إنوسنت يشعر أن من واجبه قبول ابنه التائب وتحليله من لعنات وتوبيخات الكنيسة، وهذا ما حدث فعلاً إذ سرعان ما شد الرسول البابوي رحاله إلى ميتز وهناك نادى بفيليب إمبراطورا منتصرًا.

مصرع فيليب

بهذه الكيفية انتهى الصراع، وكان السلام يبدو كأنه حل محل الخصام، ففيليب نال منتهى ما كان يصبو إليه، لا بل بلغ الوئام إلى حد أنه أريد تزويج أوتو بالأميرة بياتريس ابنة فيليب، ووافق البابا على هذا المشروع بحجة شفاء ذلك العداء القديم بين أسرتي سوابيا وسكسونيا. ولكن ما أسرع زوال كل عظمة إنسانية وكل مجد عالمي، ففي يوم ٢١ يونيو سنة ١٢٠٨م قُتل الإمبراطور فيليب، ذلك الرجل الذي كان أقدر وألطف أبناء جنسه، إذ اغتاله الكونت بالاتين أوف بافاريا لعلة شخصية، وقد كان لموته وقع شديد على الجميع، وشلت المملكة بأجمعها لأخبار هذه الجريمة الدنيئة، وأخذ الانتقام البشري يطارد القاتل حتى نسف قصره وأرداه هو أيضًا قتيلاً مثخنًا بالجراح.

أخذ إنوسنت الآن يتراجع إلى حيث كان، فجريمة الكونت البافاري قد خلصته من مذلة الارتداد عن أوتو، وبكل سرعة كتب إلى الأمراء الألمانيين يدعوهم إلى الخضوع لإرادة السماء والموافقة على هذا الإعلان الصريح من العناية الإلهية في صالح أوتو، واستخدم كل وسيلة مكنته في منع أي انتخاب جديد، وجمع كل الأحزاب لمناصرته، كما حث أوتو بكل حمية وإخلاص على ملازمة الاعتدال والمسالمة. وقد كانت الرغبة شديدة من جانب الطرفين للصلح والسلام، فأصبح أوتو هو الإمبراطور بلا منازع.

وفي العام التالي، ١٢٠٩م توجه أوتو إلى إيطاليا لاستلام التاج الإمبراطوري تحف به الأمراء والأساقفة والأشراف من كافة أنحاء الإمبراطورية، وكذا جيش كبير من أتباعه الحربيين. وقد لاقوا في مسيرهم سلسلة متتابعة من الاستقبالات الشعبية، فالمدن كانت تفتح أبوابها للترحيب ببطل الكنيسة وبالإمبراطور مختار البابا، وهكذا استمر الموكب حتى تقابل إنوسنت وأوتو في مدينة فيتربو "فتعانقا وسكبا دموع الفرح والابتهاج في ذكرى تجاربهما المشتركة، وفي نشوة انتصارهما المشترك". ولكن البابا لم ينسَ أمجاد عرشه البابوي وحقوقه القديمة الممتازة فطلب ضمانًا لذلك، وهو أن يسلم أوتو بعد التتويج مباشرة جميع أراضي الكنيسة، وأن يتنازل عن كل ادعاء فيما يتعلق بذلك النزاع القديم على ميراث الكونتيسة ماتلدا. وكان أوتو طيّبًا ومتواضعًا وخاضعًا وهو جاث على ركبتيه لاستلام التاج، إلى حد أنه تألم جدًا عندما بدا شبه شك في ولائه لوالده المقدس، فأخذ يصرخ قائلاً: إن كل ما كنته في الماضي وكل ما أنا كائنه الآن وكل ما سأكونه إلى الأبد، إنما أنا مدين به بعد الله لك وللكنيسة ".

ارتداد أوتو

أصبح تاج الإمبراطورية الآن على رأس أوتو، وهو لم يتوج بأيدي إنوسنت في كاتدرائية القديس بطرس بروما فقط، ولكنه قد ارتفع أيضًا إلى هذا المركز العظيم بواسطة سياسة الكرسي الرسولي الوحشية الخادعة. ولكن الماكر قد أُخذ بمكره، والخائن قد خين، فلم تكد تتم حفلة التتويج إلا وألقى أوتو قناع الطاعة الذي كان يخفي تحته نواياه الحقيقية. شعر أوتو أنه الآن إنسان جديد في مركز جديد، ولا بد له من المحافظة على حقوق تاجه ضد أي اعتداء من جانب السلطة الروحية.

ومن تلك الساعة أصبح الإمبراطور والبابا عدوين لدودين. تلك

كانت الخسة، كما حكمت سياسة الله البارة العادلة، التي لحقت بهذا البابا الذي لا ضمير له، فالشيطان قد يرتب ولكن الله الكلي الحكمة هو الذي يغلب. «لا تضلوا. الله لا يُشمخ عليه. فإن الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضًا» (غل٦:٧). قد علم إنوسنت مختاره أن يضل ويخدع، فها الآن لا بد أن يأكل أثمار تعليمه المرة.

كانت جيوش أوتو المرابطة عند أسوار روما التي صحبته في رحلته قد ضربت خيامها عند أبواب مدينة الفاتيكان، فكانت سببًا في إثارة حسد السكان وإثارة خواطرهم، والمناوشات المتكررة التي صارت مألوفة في مثل هذه المناسبات أخذت تتجدد هذه المرة بوحشية شديدة، فقُتل عدد كبير من الألمان ومن خيولهم حسبما قالوا هم أنفسهم على الأقل، ولكن هذا كان فيه الكفاية، فأطماع أوتو المختلفة قد تحولت الآن إلى شعلة ملتهبة من الحنق والغضب، فانسحب من المدينة ساخطًا وغاضبًا. وما أن وصل إلى معسكره حتى طلب من البابا تعويضًا، فرفض إنوسنت. فما كان من أوتو إلا أن وزع جيوشه على أملاك القديس بطرس بأجمعها، مما كان سببًا في إحداث خسائر عظيمة للناس وباعثًا على ازدياد فزع البابا، فالتمس هذا من الإمبراطور أن يسحب جيوشه من المنطقة المجاورة لروما. ولكن أوتو أعلن أنهم سيبقون هناك حتى تنفذ مؤونة المملكة بأجمعها، وأخذ يملأ خزائنه من الغنائم التي كان يسلبها له جنوده من الحجاج الوافدين على روما. وفي الوقت نفسه سار بجيشه إلى تسكانيا ووضع يده على المدن المتاخمة لأملاك الكونتيسة ماتلدا، واستولى على القلاع والحصون التي كان قد احتلها البابا من عهد قريب، ومنح كثيرين من محاسيبه ضياعًا وأملاكًا واقعة في حدود المطالب البابوية، كما جعل الكونت ديفولد، وهو أشد خصوم البابا وأرهبهم جانبًا، واليًا على دوقية سبوليتو. ألهب هذا النجاح أطماع أوتو، فأخذ يفكّر في الإغارة على مملكة صقلية والقبض على الصبي فريدريك آخر سلالة هوهنشتافن.

أما ذاك الذي أعلن عن نفسه في الماضي أنه معصوم من كل زلل فقد أصبح الآن في حالة يأس وقنوط، فها هو بعد كل تعبه ومجهوداته وخياناته يرى أنه قد أقام لنفسه خصمًا أشد وعدوًا ألد، عدوًا قد فاق الجميع إذ لم يقم من بين أسرة سوابيا نفسها من كان مثله. فأحر الالتماسات، وأخطر الإنذارات والتوبيخات، وأشد رعود الحرمانات، لم تكن لتلين قلب أوتو العنيد تلميذ ريتشارد قلب الأسد.

سقوط أوتو

صار لأوتو الآن ثلاث سنين غائبًا عن ألمانيا، فيها تمتعت البلاد بسلام لم تعتده، مما قوّى أيدي الرؤساء فيها وجعل الناس ينظرون إلى مصلحتهم الحقيقة، وأين يلتمسونها. كان من بوادر هذا التغيير أن أخذت أسرة فريدريك تهتم بسلامة هذا الصبي فقاموا يخاطبون البابا سرًا فوجد هذا من الأسباب القوية ما يجعله يتخذ إجراءات حاسمة ضد أوتو، ويظهر أشد الميل والصداقة نحو فريدريك. كانت هناك مصاعب عديدة في الطريق نظرًا لاحتلال البلاد بواسطة أوتو. ولكن اثنين من أبطال سوابيا الشجعان المخلصين قاما بتنفيذ المهمة الخطرة، واستطاعا أن ينقلا فريدريك من باليرمو إلى ألمانيا، حيث استُقبل بكل حفاوة وترحاب في سبيل استعادة عرش أجداده. غير أنه يجدر بنا هنا أن نقرر أن الفضل في نجاح قضية فريدريك ضد أوتو يرجع في الواقع وحقيقة الأمر إلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا، كما يتضح من مجرى الحوادث.

لم تحدث أية موقعة حربية قط بين هذين المتنافسين على عرش الإمبراطورية. كانت فرنسا على طول الخط الصديقة الحميمة للسوابيين، بينما كانت إنجلترا حليفة السكسونيين. دخل فيليب في تحالف وثيق مع فريدريك، بينما دخل الكونت أوف فلاندرز وأمراء جنوبي الراين وملك إنجلترا في تحالف مع أوتو، الذي قام على رأس جيش كبير يهاجم حدود فرنسا، ونار الانتقام تتأجج في داخله، لأنه كان يعتبر فيليب المصدر الحقيقي لكل مصائبه. ولكن خصمه الحريص كان على تمام الاستعداد لاستقباله. وفي يوم ٢٧ يوليو عام ١٢١٤م وقعت بين الاثنين موقعة رهيبة عند قرية فوفين التي لا تبعد كثيرًا عن مدينة ليل، فيها انتصر فيليب على أوتو وجميع حلفائه. وعاش أوتو بعد سقوطه خمس سنين سُمح له أن يقضيها ناسكًا في أحد الأديرة دون أن يُخلع من العرش رسميًا.

وفي العام التالي توّج فريدريك الثاني في إيكس لاشابل، وفي حماس تلك اللحظة نذر هو وآخرون أن يتوجهوا شخصيًا على رأس حملة صليبية إلى الأراضي المقدسة، وقد كان هذا النذر فيما بعد سببًا في مشاكل كثيرة لم يكن ليحسب لها حسابًا. وهذه المشاكل لازمته طيلة حكمه الطويل البالغ خمسًا وثلاثين سنة.

إنوسنت وفيليب أوغسطس

قد رأينا الآن تداخل إنوسنت في رفع ثلاثة أباطرة إلى عرش ألمانيا، والسياسة التي اتبعها للحصول على سلطة زمنية أكبر للكرسي البابوي وسيطرة أوسع على عقول جميع البشر وشئونهم. والآن نتبعه إلى مملكة فرنسا حيث نشاهد هناك مظهرًا من مظاهر البابوية، وإن كان على أساس آخر ولأغراض أخرى، فهو الآن يبدو أمامنا كالمحامي للعدالة ضد الظلم وكالمبشر بالفضائل المسيحية والمتمسك بقدسية الزواج ورابطته الشريفة. ونحن على استعداد لأن نوافق على أنه في صراعه مع فيليب قد يكون مدفوعًا بعوامل صالحة، ولكن مسلكه الخارجي كان مصطبغًا بنفس الروح الدكتاتورية التي تميز بها تاريخ حكمه إلى الآن. فهو يدّعي لنفسه وظيفة المدير الأعلى لشئون الناس، والحكم النهائي الذي يجب أن يلجأ إليه الفصل في كل المنازعات سواء أكانت خاصة بعرش أم بزواج. ولكن غرضنا الرئيسي تحت هذا العنوان هو أن نعطي للقارئ مثلاً لمملكة بأجمعها واقعة تحت طائلة الحرمان البابوي، وإن كان من الصعب في أيامنا هذه تصديق ما كان لمثل هذا الشيء من الآثار المرعبة والنتائج الخطيرة.

حادث غريب متعلق بالزواج الثاني لفيليب أعطى إنوسنت الفرصة المناسبة لمعاقبة وإذلال حليف آل سوابيا وساعدهم الأيمن. وتتلخص المسألة في أنه بعد رجوع فيليب من الحرب الصليبية سنة ١١٩٣م هام قلبه بالأميرة إنجيبوريا أخت ملك الدانمارك لِما كان يُذاع عنها من رشاقة وجمال وفضائل. وقد قُبلت في الحال خطوبة ملك فرنسا لهذه الأميرة وتقرر المهر. وسرعان ما وصلت العروس إلى أرض فرنسا تحف بها جماعة من أشراف الدانمارك. وأسرع الملك للقائها في أميلس. واحتفل بتتويج العروسين ثاني يوم للزواج. إلا أنه لوحظ أثناء حفل التتويج أن فيليب كان يرتعد، وكان لونه ممتقعًا، وقد ظهر بعد ذلك بقليل أن الملك شعر بنفور غريب من ملكته الجديدة. ولما لم يمكن معرفة أي سبب حقيقي لهذا التغيير الفجائي من جانب الملك لم يبق أمام الناس إلا أن ينسبوا المسألة للسحر أو تأثير الشياطين. أما الملكة فيقال عنها إنها كانت رقيقة الأخلاق حسنة الصفات جميلة الصورة جدًا ومسيحية مخلصة. وأراد فيليب أن يعيدها في الحال إلى الدانمارك، ولكن أتباعها أبوا أن يقوموا بهذه المهمة المخجلة، كما صممت هي نفسها على البقاء في فرنسا.

أصبح الملك الآن في مركز حرج وأمام معضلة صعبة للغاية، فطلب الطلاق، ولكنه كان يعلم تمام العلم أنه إن لم يحصل على فسخ قانوني لهذا الزواج فلن يهدأ له بال أو يكون له سلام. أخذ البحث في سجلات أنساب البيتين الملكيين، وكانت النتيجة أن وجد الأساقفة المشايعون للملك أن الزوجين كانا ضمن درجات القرابة المحرمة، وعلى هذا حكم رجال الإكليروس الفرنسي وعلى رأسهم رئيس أساقفة ريمز أن الزواج كان باطلاً ولاغيًا. ولما بلغ الحكم إلى إنجيبوريا التي لم تكن تعرف كلمة فرنسية واحدة استطاعت أن تعبر عن شعور غيظها وغضبها بالقول: "تبًا لك يا فرنسا الخبيثة! روما يا روما!". وتولى أخوها قضيتها ورفع أمرها للبابا المسن سلستين، ولكن هذا لم يكن كفوا لمقاومة ملك فرنسا الجبار، ولم تُتخذ أية خطوة حاسمة طيلة المدة الباقية من بابويته، وفي الوقت نفسه حبست إنجيبوريا في أحد الأديرة، وتزوج فيليب بالأميرة أجنس الجميلة، ابنة الدوق ميران، التي كانت شدة محبته لها على قدر كراهيته لإنجيبوريا، فبينما كانت الأولى زينة الحفلات الملكية في كل المناسبات كانت الثانية تُقاد من دير إلى دير، أو بالأحرى من سجن إلى سجن.

تلك كانت الحالة في فرنسا عندما أخذ إنوسنت على عاتقه قضية الأميرة الدانمركية المرفوضة، فكتب أولاً لأسقف باريس ثم بعد ذلك للملك نفسه، مبينًا له بكل توسع وتفصيل قدسية الزواج. ثم يطلب إليه في حزم أن يطرد أجنس ويعيد إنجيبوريا. فلم يكن من الملك إلا أن يعلن في إباء وكبرياء أن مسألة زواجه لا دخل للبابا فيها. ولكن كان على فيليب أن يشعر بقوة وفزع الرعود البابوية بصورة لم يسبق لفرنسا أن شعرت بها من قبل.

أرسل البابا كردينال القديسة مريم المدعو بطرس كمندوب له إلى فرنسا، مزودًا بسلطة وضع كل ممتلكات الملك تحت الحرمان البابوي في حالة عناده. إلا أن وصية تأمر الملك بطرد أجنس المحبوبة وقبول إنجيبوريا المكروهة لم تكن حتمًا لتقابل من فيليب إلا بالازدراء والاحتقار، وهذا ما كان فعلاً. ثارت ثائرة البابا الذي لم يكن لتلين قناته بأي حال، فكتب توًا إلى المندوب يقول: "إذا لم يقبل ملك فرنسا، في بحر شهر من تاريخ إنذارك إعادة الملكة محفوفة بعواطفه الزوجية. عليك أن توقع كل مملكته تحت الحرمان بكل ما يتضمنه هذا الحرمان من العواقب الوخيمة". عقد المندوب مجمعًا

في ديجون، سرعان ما حضر إليه رسل من قبل الملك يحتجون باسمه ضد التمادي في أي إجراءات أخرى، ويعلنون أنهم رافعين الأمر إلى روما. ولكن الأوامر للمندوب كانت حاسمة وصريحة، فأعلن الحرمان بكل صفاته المزعجة. وهاك مل قيل في وصفه: "في منتصف الليل البهيم، وكل كاهن ماسك في يده مشعل، رُتلت مزامير البؤساء، وأقيمت الصلوات على أرواح الأموات وهي آخر صلوات ينطق بها رجال الإكليروس في فرنسا مدة الحرمان، ووضعت الستائر السوداء على الصليب المعلق عليه المخلِّص، كما أُخفيت الآثار في قبورها. وفي وسط هذا الكون الرهيب قام الكردينال وهو لابس ملابس الحداد ونطق بحكم الحرمان على جميع أراضي فرنسا وممتلكاتها، فانقطعت من تلك اللحظة جميع المراسم الدينية، وأُغلق باب السماء فما عادت تفلح في فتحه لا صلوات ولا تقدمات، وأصبح الدنو من الله من رابع المستحيلات. لقد كانت ساعة رهيبة حقًا ساد فيها الصمت والسكون إذا استثنينا زفرات المسنين وتأوهات العجائز وبكاء الأطفال. صدر هذا الحرمان في ديجون. ولم تسمح الكنيسة بممارسة أية فريضة سوى عماد الأطفال والمسحة الختامية للمحتضرين طالما كانت المملكة تحت لعنة الحرمان البابوي".

وقد كانت حجة البابا هي أنه من أجل ذنب الملك يجب أن تتألم الأمة بأجمعها، لعل ذلك يلين قلبه، إما شفقة على تعاسة شعبه وشقائهم، وإما خوفًا من هياجهم وغضبهم. ولا يخفى على القارئ ما كان للحرمان في أيام الخرافات هذه من هول يبعث على شقاء النفس وتعاستها إلى أقصى حد، لأن الموت في ظروف كهذه كان معناه الهلاك الأبدي. وهاك ما قاله شاهد عيان في وصف الحادث المريع: "يا للهول والفزع! كم كان أمرًا يبعث على الشفقة أن ترى الحراس واقفين على أبواب الكنائس، والمسيحيين يُطردون عنها كالكلاب. انقطعت جميع المظاهر الدينية، وسر الجسد والدم لم يعد يُعطى لأحد، ومُنعت حفلات الناس التي اعتادوا عليها أيام أعياد القديسين، وجثث الموتى لم يُسمح لها بالدفن المسيحي، فكانت رائحتها تعكر الهواء، ومنظرها يرعب الأحياء. لم يكن مسموحًا إلا بالمسحة الختامية وعماد الأطفال. وبالاختصار خيم على المملكة كلها صمت عميق، وخفتت أصوات وأناشيد أولئك الذين كانوا يسبحون بحمد الله في كل مكان"(٤/٤٣).

غضب فيليب

كان فيليب أوغسطس رجلاً عاتيًا متكبرًا وليس البتة من الناس الذين يقبلون الاعتداء أو الإهانة بصمت وسكون، فانفجر كالبركان وحلف بسيف شارلمان أنه لن ينفصل عن أجنس ميران ولو كان في ذلك ضياع نصف مملكته، وهدد الإكليروس بأقصى العقوبات إن هم أطاعوا البابا، وأمر بالقبض على إنجيبوريا المسكينة وسحبها من ديرها وسجنها في حصن إتامبس المنيع. على أن غضب الملك لم يجد فتيلاً أمام مرسوم البابا الحاسم الشديد. فالأشراف الذين كان الملك قد أضعف من سلطتهم لم يهتموا بالالتفاف حوله، والناس كانوا في حالة ثورة دينية، حتى أنهم اجتمعوا حول الكنائس وكسروا أبوابها وصمموا على أن لا يحرموا من مراسمهم الدينية. فارتاع الملك من ثورة الشعب ووعد بأن يطيع البابا.

وبناء عليه أرسل وفدًا إلى روما يشكو على لسانهم من إجراءات المندوب القاسية، ويعلن استعداده للخضوع لحكم البابا. قابل "قداسته" هذا التصريح بالقول محتدًا: "أي حكم؟ هو يعلم قرارنا. فليطرد خليلته ويقبل زوجته الشرعية، وليرجع الأساقفة الذين أبعدهم ويعطي تعويضًا عما لحقهم من خسائر، وعندئذ نرفع حكم الحرمان ونقبل ضماناته وننظر في مسألة العلاقة النسبية المزعومة ونصدر حكمنا". اخترق هذا الرد أعماق قلب أجنس وأصابها في الصميم. أما الملك فكاد يجن جنونه وأخذ يصيح: "سأعتنق دين محمد وأصير مسلمًا. ما أسعد صلاح الدين، فليس له بابا فوقه". ولكن فيليب العاتي كان لا بد له على أي حال أن يخضع، فعواطف جميع الطبقات ومشاعرهم الدينية كانت في جانب الإكليروس، ولذلك عقد برلمانًا في باريس حضره جميع أتباع التاج العظام ووقف بينهم متسائلاً، وأجنس الجميلة واقفة بجواره "ماذا ينبغي أن يُصنع؟". فكان الجواب الحاسم من جميع الجهات "أطع البابا، وأطرد أجنس، وأقبل إنجيبوري". ياله من قرار! هاهو الرجل الذي ضاعف ممتلكات فرنسا بحد سيفه وحكمة سياسته، والذي رفع التاج إلى أشبه شيء باستقلال تام فوق جميع رؤساء المقاطعات العظام، هاهو الآن يجد نفسه أمام أمر البابا مرغمًا على تجرع حثالة المذلة في حضور أشراف فرنسا.

كان المشهد مريعًا مؤثرًا. أعلنت أجنس أنها لا تهتم البتة

بالتاج بل بشخص زوجها الذي تحبه. وقالت: "أنا غريبة، ابنة أمير مسيحي، صغيرة وأجهل العالم، قد تزوجت الملك ورزقت منه بطفلين، فبالله لا تفصلوني عن زوجي"، ذلك كان ندائها المؤثر واسترحامها المبكي، ولكن كان قد سبق السيف العزل، والقرار الحاسم قد صدر "أطع البابا وأطرد أجنس وأقبل إنجيبوريا". رضي الملك أخيرًا بأن يتصالح مع إنجيبوريا فأتى بها، ولكن منظرها أثار مكامن البغضة في قلب الملك حتى أن المفاوضات كانت على وشك الانقطاع، إلا أنه أخيرًا مَلك قياد نفسه إلى حين وخضع لحكم البابا وأقسم أن يقبل إنجيبوريا ويحترمها كملكة فرنسا. وفي الحال أخذت النواقيس تقرع والأجراس تدوي معلنة أن ذلك الحرمان الذي ناء بكلكل الناس وخيم على رؤوسهم بظله الثقيل لما يزيد عن سبعة شهور قد ارتفع الآن وانقشع. "فرُفعت الستائر عن الصور والتماثيل والصلبان، وفُتحت أبواب الكنائس على مصاريعها، وتدفقت الجماهير إليها تشبع رغباتها الدينية التي كانت محبوسة في صدور الناس مدة الحرمان".

وصلت روما الآن إلى غرضها، لا بل انتصرت على أعظم ملوك المسيحية، وبذلك تم المكتوب «والمرأة التي رأيت هي المدينة العظيمة التي لها مُلك على ملوك الأرض» (رؤ١٧: ١٨)، فالسيطرة العالمية على جميع أجسام الناس وأرواحهم وشئونهم كانت هي شهوة قلبها المتأججة وغرضها المتواصل. ونحن لا نظن أن روما كان لها أي غرض أسمى من هذا الغرض وهو الحصول على هذا السلطان العالمي، لأننا من الوجهة الأخلاقية أو الروحية قد رأيناها توافق على أبشع التصرفات الأدبية من جانب سلف فيليب العظيم.

والآن قد انفصل الملك الحزين عن أجنس الكبيرة القلب، التي ماتت بعد ذلك بوقت قصير من فرط الحزن. وكانت قد وضعت طفلاً ذكرًا أطلقت عليه اسمًا ذا معنى وهو تريستان، أي ابن حزني. أما إنجيبوريا فأعيدت بشيء من الكرامة الظاهرية، ولكنها في حقيقة الأمر أصبحت سجينة الدولة، وما من شيء استطاع أن يقنع فيليب على أن يعيش معها كزوجة ولو أنه وافق على إقامتها في القصر. حدثت بعد ذلك حوادث جديدة في فرنسا وإنجلترا حوّلت انتباه إنوسنت عن الملكة المهجورة وفتحت مجالاً أوسع أمام أطماعه التي لا تقف عند حد كما سنرى فيما يأتي:

إنوسنت وإنجلترا

يذكر القارئ أن ريتشارد قلب الأسد كان أعظم حليف لأوتو مختار البابوية للعرش الإمبراطوري، كما كانت إنجلترا في ذلك الحين على أتم وفاق مع الكرسي البابوي. وبعد وفاة ريتشارد خلفه أخوه يوحنا الذي تولى الحكم من سنة ١١٩٩ إلى ١٢١٦م.

كان الملك يوحنا أشر وأردأ ملوك إنجلترا قاطبة، وتاريخ حكمه الطويل هو عبارة عن صفحة سوداء من الضعف والقسوة والشر والانحطاط والخيانة، ولكن يد الرب كانت متداخلة بجلاء في شئون إنجلترا في ذلك الحين. صحيح أنه لم يقم على عرش إنجلترا ملك أحط وأنذل من يوحنا، ولكن الله في رحمته وعنايته بإنجلترا تدارك الأمر وحوّل أخطاء هذا الملك العديدة إلى خير الكنيسة والشعب في إنجلترا. نحن نتكلم هنا بصفة عامة طبعًا، ولكن يمكن القول بأن فزع إنجلترا من روما وجهادها في سبيل الحرية المدنية والدينية بدأ من هذا التاريخ. فمع أن حكم يوحنا كان سيئًا إلى أقصى درجة ومذلاً للملك وللأمة على حد سواء، إلا أن صوت التاريخ يؤكد بالإجماع أنه في هذه الأثناء وُضعت أساسات "الأخلاق الإنجليزية والحريات الإنجليزية والعظمة الإنجليزية، وأنه إلى هذا العهد الذي فيه حاولت البابوية أن تخضع إنجلترا وتجعل منها ولاية تابعة لها، ترجع أول علامات ذلك الاستقلال وتلك الثورة ضد الافتئات البابوي، التي أدت أخيرًا إلى حركة الإصلاح المعروفة". كانت يد الله العليا عاملة من وراء الستار في جميع الثورات التي قامت بها إنجلترا حتى ذلك الحين. أما في فرنسا فلم ينتج أي خير لا للكنيسة ولا للدولة من وراء تداخل البابا في شئون فيليب إلا بقدر ما جعل الناس يشعرون بفظاعة النير البابوي، ولم يصدر هناك ماجنا كارتا (أساس الدستور الإنجليزي)، ولم يشكّل برلمان كما حدث في إنجلترا.

واحدة من أول وأكبر فضائح يوحنا تكشف بأجلى بيان سياسة إنوسنت التي لم يكن لها أي مبدأ تسير عليه، وتتلخص تلك الفضيحة في أن يوحنا كان قد تزوج بابنة إرل أوف جلوستر قبل ارتقائه العرش باثني عشر عامًا. ولكن عندما ارتقى العرش طمحت نفسه لأن تكون له زوجة من بيت ملكي، وسعى للحصول على طلاق من زوجته الأولى، ووجد بغيته في أسقف بوردو الضعيف الذي قام لوقته بفسخ عقد الزواج، وعلى التو وقع يوحنا

في حب سيدة أخرى كانت مخطوبة للكونت دي لامارك، فخطفها وتزوج بها، بينما امرأته الأولى لا تزال على قيد الحياة.

ولكن ما الذي يقوله البابا الآن يا ترى عن رابطة الزواج وقدسيتها، وهو الذي صال وجال وأرعد وأمطر مدافعًا عن قدسية الزواج في حادثة فيليب وأجنس؟ لا شك أننا لا نتوقع منه سوى صواعق رهيبة تتطاير منه مسرعة فتنهال على رأس ذلك الملك الزاني، ولكن كلا صمتت روما صمتًا عجيبًا في هذه الحادثة، ولم يخرج منها أدنى صوت من التوبيخ أو الإنذار ضد الملك أو شريكه الأسقف، بل على النقيض نجد البابا يوافق على الطلاق في وجه الله والكنيسة والعالم أجمع. تلك كانت شناعة إثم "قداسته" ومبلغ فجور "عصمته". ولكن لماذا هذا التحيز ليوحنا؟ ذلك لأن يوحنا كان حليف أوتو وعدو أسرة سوابيا.

ولكن إذا كان البابا راضيًا فالعالم غاضب محتد، فمثل هذه الجريمة ضد أمير إقطاعي عظيم كانت انتهاكًا صارخًا لأول مبادئ النظام الإقطاعي وقوانينه. فقام أربعة من أمراء الإقطاعيات العظام وصمموا فيما بينهم على الانتقام لكونت دي لامارك وغسل الإهانة الشنيعة التي لحقته. ومن تلك اللحظة اعتبروا أنفسهم خارجين على يوحنا وغير مرتبطين بأي ولاء له. فاستنجدوا بفيليب ملك فرنسا وطلبوا إليه العمل على رفع هذه الإهانة. شعر فيليب أوغسطس بقوته وعظمته، وأعلن ملك الإنجليز بالوقوف أمام محكمة البلاط الفرنسي بباريس للإجابة عن المساوئ التي ارتكبها ضد الكونت دي لامارك. لم يجب يوحنا هذا الطلب ولم يظهر أمام القضاء في باريس، وكان ذلك سببًا في وقوع حرب طاحنة بين فرنسا وإنجلترا، كانت نتيجتها أن خسرت إنجلترا كثيرًا من أملاكها في فرنسا، إذ في شهور قليلة استطاع فيليب أن يسلخ من يوحنا دوقية أنجلو نورمان العظيمة، التي كانت في أيام أبيه هنري الثاني تضارع في اتساعها ومواردها وقوتها وثروتها جميع الممتلكات التي كان يسيطر عليها ملك فرنسا نفسه.

يوحنا والبابوية

نترك الآن الناحية المدنية ونعود إلى الناحية الدينية التي تهمنا بطريقة مباشرة في تاريخ إنجلترا في هذه الفترة الهامة.

رأينا البابا يتغاضى عن أشر المفاسد في يوحنا بسبب كونه حليفًا لأوتو وصديقًا للكرسي البابوي، كما نعتقد، ولكن يوحنا قد أصبح الآن مذنبًا بجرائم لا يمكن لقداسته أن يتغاضى عنها بأي حال، فمساوئه الزوجية مهما كانت مؤثمة يمكن السكوت عليها دون انتقاد أو توبيخ، ولكن كونه يتمادى في أفعاله إلى حد التدخل في شئون الأبروشيات وفرض الضرائب على الأديرة والتدخل في تعيين الأساقفة فهذا ما لا يمكن أن يطاق ولا بد من أنه يقف وجهًا لوجه مع البابوية، ويعرِّض نفسه للخصومة والنزاع الشديد مع حليفه البابا إنوسنت.

بعد وفاة هوبرت رئيس أساقفة كانتربري مباشرة، انتخب الرهبان بتسرع ريجينالد وكيل الدير خلفًا له، ولكنهم إذ أدركوا بعد ذلك بقليل أنهم لم يتصرفوا بحكمة في هذا الأمر، طلبوا إلى الملك إذنًا بعمل انتخاب جديد، ذلك لأن اختيار الأسقف كان في يد الملك في الحقيقة، ولو أنه اسميًا في يد الإكليروس. ذلك كان النظام المتبع، وبناء على هذه التقاليد أوصى الملك بتعيين أحد رؤساء مستشاريه وهو جون دي جراي أسقف نورويك، الذي اختير فعلاً وأرسل إلى روما للمصادقة عليه. رأى البابا الآن أن فرصته قد سنحت، ولشدة رغبته في ازدياد نفوذه وسلطانه في إنجلترا، ألغى اختيار كل من ريجينالد وجون دي جراي، وأمر باختيار ستيفن لانجتون، وهو رجل إنجليزي الأصل عالم وحكيم وذو أخلاق سامية. وفي الواقع لم يكن في الإمكان أن يقع اختيار البابا على شخص أفضل منه وأصلح لهذا المركز الخطير، ولكن عمله هذا كان تحديًا صريحًا لحق الرهبان المكتسب وللأساقفة الآخرين وللملك نفسه. وعبثًا حاول ممثلو كانتربري ومبعوثو الملك إقناع البابا بضرورة الموافقة على الاختيار الملكي، ولكن كان إنوسنت يرى خلاف ذلك. وعليه فقد أعطاهم وصية بحق "سلطان الله والخلافة الرسولية". وجد الرهبان أنفسهم الآن بين جبارين طاغيين، الطاغية الروحي والطاغية المدني. وكان اثنا عشر شخصًا منهم قد ارتبطوا بقسم مع الملك أن لا ينتخبوا سوى أسقف نورويك، فأمرهم البابا أن ينتخبوا لانجتون وإلا كان نصيبهم الحرمان واللعنة. وإذ أسقط في يدهم وارتاعوا من هذا التهديد المخيف انصاعوا للطاغية الروحي وانتخبوا ستيفن، وفي يوم ١٧يونيو عام ١٢٠٧م كرسه البابا رئيسًا لأساقفة كانتربري.

مثل هذا التدخل في حقوق الكنيسة المكتسبة وامتيازات التاج الموروثة كان شيئًا جديدًا تمامًا في تاريخ إنجلترا. ولو كان

يوحنا ملكًا محبوبًا ومحفوفًا بعواطف وقوة شعبه المُهان لكان في استطاعته أن يهزأ بجرأة بهذا البابا الأجنبي ويحتقر كل تهديداته وادعاءاته الجريئة الكاذبة، ولكن يوحنا لم يكن ملكًا محبوبًا، وقد وجد البابا في طيشه وكراهية الشعب له الفرصة التي كان يريدها. أما رهبان كانتربري فقد اتهموا بمجرد رجوعهم من روما بالخيانة العظمى، وبناء على ذلك نفوا واغتصبت أملاكهم. على أن غضب الملك لم يقف عند هذا الحد، بل أرسل توًا فرقة من الفرسان لطرد الرهبان من المملكة وقتلهم بحد السيف في حالة المقاومة. وقد تم تنفيذ الأوامر بنفس الشدة والصرامة التي أُعطيت بها، إذ هجم الجنود على الدير ودخلوه عنوة وسيف كل منهم مشهور في يده، وصدرت الأوامر في الحال لرئيس الدير والرهبان بمغادرة المملكة توًا مع تهديدهم إن قاوموا أو تباطأوا بإحراق الدير في الحال وإلقائهم هم أنفسهم وسط اللهيب. فترك الرهبان الدير وهاجر الكثيرون منهم إلى فلاندرز بفرنسا. إلا أن الملك استمر يسب ويلعن في البابا هاجيًا إياه بأشد الأقوال سبابًا وفحشًا، ناعتًا إياه بأقبح النقائص وأرذلها، ومعلنًا في الوقت نفسه أنه لن يقبل ستيفن لانجتون رئيسًا لأساقفة كانتربري وسيظل متمسكًا بحق أسقف نورويك، وأنه في حالة رفض البابا سيقطع كل علاقة بين أملاكه وبين روما. على أن هذه التهديدات جميعها لم تؤثر في البابا الذي استمر في طريقه بحماسة لا تقل عن حماسة يوحنا، وإن كانت في صورة أهدأ وأقرب إلى الكرامة وعزة النفس.

وفي الرسائل التي تبودلت بعد ذلك أفاض البابا في التدليل على سعة علم لانجتون وتقواه، حاثًا الملك على عدم التمادي في إشهار الحرب ضد الله والكنيسة. ولكن لما لم تفلح هذه النصائح في يوحنا أمر البابا أساقفة لندن بوضع المملكة كلها تحت الحرمان. وعندما أبلغ الأساقفة رسالتهم إلى الملك هاج وثار وأخذ يحلف ويلعن بأغلظ الأيمانات واللعنات، وأقسم بغضب أنه إذا تجاسر البابا أو أحد الأساقفة على وضع المملكة تحت الحرمان فإنه سيطرد الأساقفة ورجال الإكليروس من المملكة كلية "بلا أعين وبلا آذان وبلا أنوف ليكونوا نواطير لجميع الأمم". فانسحب الأساقفة من عند الملك وبعد أن صاروا بعيدين عنه وفي مأمن منه أعلنوا حكم الحرمان.

إنجلترا تحت الحرمان

بين غمضة عين وانتباهها تبدل الحال في إنجلترا بغير الحال، فأصبحت المملكة جميعها محرومة، وإذا بكافة المراسم الدينية فيها معطلة، اللهم إلا فريضتي العماد والمسحة الختامية. كتب شاهد عيان في وصف هذه الحالة بقول: "من أقصى المملكة إلى أدناها أُغلقت أبواب الكنائس وخفتت أصوات الأجراس، ولم يكن يبدو للعين من رجال الإكليروس سوى أولئك الذين كانوا ينسلون في صمت وسكون إما لعماد الأطفال المولودين حديثًا أو لسماع اعترافات المحتضرين. أما الموتى فكانوا يُلقون خارج المدن ويدفنون كالكلاب في أحد الأماكن النجسة بلا صلاة وبلا ناقوس وبلا مراسم. وليس ثمة أحد يستطيع أن يقدّر مبلغ تأثير هذا الحرمان البابوي على حياة جميع الطبقات والأفراد إلا أولئك الذين يعرفون كم كانت هذه الحياة مرتبطة بطقوس الكنيسة ومراسمها اليومية، فكل شأن هام كان يجري تحت إرشاد الكاهن أو الراهب، ومراسم الكنيسة كانت هي أعياد الناس الوحيدة وأيام عطلتهم، وحفلات الكنيسة كانت هي وحدها موضع فرحتهم، ومواكبها كانت هي وحدها موضوع تسليتهم. أما أن تنقطع هذه كلها فلا صلاة تُسمع، ولا تُرتيلة تنشد، وأن تصبح الدنيا وإذا بها تحت سلطان الشيطان المطلق وأرواحه الشريرة، بلا قديس يشفع أو ذبيحة تقدم للحيلولة بين الناس وبين غضب الله. أما وجميع الصور والتماثيل قد اختفت فلم يبق منها واحد تراه العين أو صليب يقع عليه النظر. أما وكل اتصال بين الله والإنسان قد انقطع تمامًا، والنفوس قد تُركت لتهلك إلا ما كانت تناله من تحليل بسيط يعطى ساعة الاحتضار بعد إبطاء وتردد. أما وكل هذا يحدث فما أتعس الحالة، وما أشقى الناس".

كذلك كتب بعض المؤرخين يقولون إنه لكي تزداد الرهبة وتشتد التعاسة، فُرض على الناس أن يطلقوا لحاهم وألا يقصوا شعور رؤوسهم، كما أصبح أكل اللحم محرمًا، وحتى السلام الاعتيادي ممنوعًا.

تلك كانت الحالة في إنجلترا لما لا يقل عن أربع سنوات كاملة، كان الشقاء فيها عظيمًا وعامًا. ولكن لا شقاء الناس بصفتهم رعية حرك قلب الملك العاتي، ولا شقاؤهم بصفتهم مسيحيين وحرمانهم من امتيازاتهم الروحية حرك قلب البابا القاسي، فإن انتصار راعي

روما على مملكة عظيمة كإنجلترا كان شيئًا أهم بمراحل من مصالح القطيع وسعادته. أما الأساقفة الذين أذاعوا حكم الحرمان مع عدد كبير من الأغنياء بينهم ففروا من المملكة إلى حيث كانوا يعيشون، كما يقول أحد المؤرخين "عيشة البذخ والترف بدلاً من قيامهم بواجب الدفاع عن بيت الرب، تاركين رعيتهم فريسة للذئب الخاطف". أما الطاغية الموتور يوحنا فاستمر في تحديه محتقرًا بكل خفة واستهانة نتائج الحرمان المرعبة التي كان يئن تحتها رعاياه الأشقياء المتألمون، متلذذًا بأعمال الانتقام التي كان يجريها ضد الأساقفة والقسوس الذين أطاعوا حكم البابا، فاغتصب أموال رؤساء الإكليروس والأديرة في جميع أنحاء المملكة، وأرغم اليهود على تسليم أموالهم وإلا عرضوا أنفسهم للسجن والتعذيب، استمرت هذه الحالة ما يقرب من سنتين إلى أن صدر في نهايتها مرسوم آخر كان فيه تغيير للحالة بعض الشيء.

كان البابا الداهية يتتبع آثار المرسوم الأول بكل دقة. وإذ أدرك أن يوحنا قد خسر كثيرًا من أصدقائه ومحبذيه، وأن كراهية الشعب له كانت آخذة في الازدياد يومًا فيومًا، أصدر حكم الحرمان ضد شخص الملك. فبينما كان الملك يتحدى البابا ورجال الإكليروس كان في الوقت نفسه مستمرًا في تهتكه وفجوره، مما أبعد عنه عواطف جميع الطبقات في المملكة. فانتهز البابا هذه الفرصة وأصدر مرسومًا آخر كان أشد هولاً من الأول، ذلك أنه حلل جميع رعايا يوحنا من واجب الولاء له وأمرهم بتجنب محضره. ومع ذلك صمم الملك، بما عُهد فيه من الاستهتار الغريب بمصائب البشر وآلامهم، على أن يواجه هو وشعبه جامات غضب روما وانتقامها الكامل حتى النهاية. هكذا بدت جميع الرعود البابوية وكأنه لم يكن لها أدنى أثر على الملك العديم الدين والعاطفة، مع أنه لو عرف كيف يسوس أشرافه وشعبه بحكمة لاستطاع أن يجعل أعظم البابوات وأشد رعودهم تعبر دون أن يكون لها أي أثر على شعب إنجلترا. ولكنه لم يكن كذلك، بل بالعكس لم تستطع وحشيته وبربريته وخلاعته إلا أن تنفر منه جميع الطبقات على اختلافها. على أن النفور تطور إلى تذمر بل إلى عصيان أيضًا. وإذ ذاك أدرك إنوسنت أن خميرة النفور هذه كانت تعمل وتنتشر في إنجلترا بهذا الشكل الجدي، تأهب لأن يقذف آخر وأخطر قنبلة ضد الملك المتمرد. فإلى الآن "كان قد أصاب الدولة بالحرمان، ثم جاء الحرمان ضد شخص الملك، ولم يبق إلا حكم العزل ليطيح بالملك من فوق عرش أجداده. وهذا ما أرعد به البابا الآن. فأصدر حكمًا فحواه أن يوحنا ملك إنجلترا يُخلع عن العرش ويؤخذ عنه التاج. وأن رعاياه أصبحوا في حِل من واجب الولاء له ولهم الحرية في توجيه هذا الولاء إلى أي شخص آخر يستحق أن يملأ العرش الخالي"(١٢/٤٢)(٤/٤٣)(٢/٣٩).

أصبح الآن عرش إنجلترا خاليًا بصفة علنية، بحكم مرسوم البابا، كما أصبحت أموال الملك وممتلكاته حلالاً لكل من يستطيع أن يغتصبها من بين يديه الدنستين، تلك كانت قوة البابوات في هاتيك الأيام، وذلك كان مبلغ الهول والفزع الذي كانت تسببه رعودهم، فكان البابا يرمي أعظم الأمم بقذائف أناثيماته فيجعلها تخر صريعة عند قدميه، كأنه قد أصابها مس من الشيطان فسلبها قوتها وعرضها للخراب والدمار. كان يقذف بالملوك من فوق عروشهم ويضطرهم للانحناء أمام عاصفة غضبه والخضوع المهين لأمر مشيئته. فالجميع بلا استثناء، سواء أكانوا من أتباع الكنيسة أم الدولة، كان عليهم إما أن يقبلوا شروط صلحه التي يفرضها وإما أن يموتوا بلا خلاص يتعذبون في لهيب جهنم إلى أبد الآبدين. ففيليب أوغسطس ملك فرنسا العاتي الجبار خضع واستكان، واستطاع البابا في شهور قليلة أن يذيقه كأس المذلة والهوان. بينما يوحنا المستهتر الضعيف صمد لرعوده واستهان بها بعض الوقت، ولكنه خضع أخيرًا لضربة أشد ومذلة أمر. وسنرى الآن كيف تم هذا، وسيلاحظ القارئ أيضًا في ثنايا هذه المؤامرة المكر العميق والخداع المشين الذي كان عليه البابا. والواقع إننا لا نجد صعوبة البتة ونحن نمر على أدوار هذه القضية في مشاهدة أعماق الشيطان واضحة مكشوفة.

إهداء تاج إنجلترا إلى ملك فرنسا

أصدر البابا حكمه الخطير بعزل ملك إنجلترا، وأرسل يكلف فيليب ملك فرنسا بتنفيذ المرسوم. ذهب مندوبو البابا إلى فيليب ووضعوا بين يديه تفويضًا رسميًا للقيام بالمأمورية، طالبين إليه بمقتضى السلطان الرسولي غزو إنجلترا، وخلع الملك والاستيلاء على العرش. ويقول المؤرخون إن هؤلاء المندوبين تظاهروا بالحماس الشديد والإخلاص المتناهي من بادئ الأمر إلى نهايته، مع أن المسألة كلها كانت محض تصنع وخداع، فلم يكن هناك شيء أبعد عن فكر إنوسنت من توحيد التاجين على رأس واحدة، فذلك

كان معناه تقوية فرنسا وليس البابوية. لم يكن فيليب قد نسي وقاحة البابا في وضع مملكته كلها، ثم شخصه تحت الحرمان، ولكن كراهيته ليوحنا وحبه للمغامرة، ومكر البابا وخداعه، كل ذلك أعماه عن رؤية الحقيقة. اعتمد على صدق البابا وأمانته، ولكنه في ذلك قد ارتكب شططًا وكان مخدوعًا. لم يُضع فيليب لحظة واحدة بل قام لوقته يجمع الجيوش ويعد الأساطيل للإغارة على إنجلترا.

في الوقت نفسه أعلن البابا في جميع أنحاء العالم المسيحي الحرب الصليبية ضد الملك يوحنا الأثيم، واعدًا كل من يشترك في هذه الحرب المقدسة بغفران خطاياه وكافة امتيازات المجاهدين الصليبيين. إلا أن الملك المخلوع لم تكن تعوزه القوة ولا الخداع، فجمع في الحال أسطولاً كبيرًا عند ميناء بورتسموث، وجيشًا عرمرمًا بالقرب من كانتربري، ووضع خطة الهجوم. إلا أنه أدرك سريعًا أن بين جيشه الكبير لم يكن هناك كثيرون يستطيع الاعتماد عليهم، وفي ثورة غضبه هدد أنه سيعتنق الإسلام ويتحالف مع الخليفة. ولكن في هذه اللحظة انتابه تغير فجائي نظرًا لتسرعه، وقلقه فانحدر من شاهق غضبه وقوته إلى هوة عميقة من الاستكانة والخوف.

خضوع إنجلترا لروما

لما لم تكن نية "قداسته" ولا من مصلحته أن يسمح للأمور أن تذهب إلى منتهاها، أدرك بثاقب بصيرته أن الوقت قد حان لتداخله، فأرسل توًا إلى يوحنا مندوبين يحملان طلباته النهائية. أكد هذان المبعوثان ليوحنا أن ملك فرنسا يتأهب لغزو إنجلترا بجيش كبير وأسطول ضخم ومعه جميع رؤساء الأساقفة والأساقفة والقسوس الذين طردهم يوحنا من إنجلترا، وأن هؤلاء سينقلون ولاءهم إلى منافسه فيليب ويضعون التاج على رأسه. بهذه العبارات وكثير من أمثالها استطاعوا أن يدخلوا الرعب إلى قلب الملك ويجعلوه يلقي بنفسه ومملكته بين يدي المندوبين بلا قيد ولا شرط، وبتذلل يكاد لا يُصدق وخضوع مشين لا حد له، وضع تاجه عند أقدام المندوب المتكبر، وسلم إنجلترا وأيرلندا لخلفائه من بعده. وشروط هذا التسليم المشهور طويلة ومملة، إلا أن ما يأتي هو ملخصها كما جاء في دائرة المعارف البريطانية:

"أنا يوحنا، بنعمة الله ملك إنجلترا وسيد أيرلندا، رغبة في التكفير عن خطاياي وبمحض إرادتي ومشورة أشرافي، أسلّم لكنيسة روما وللبابا إنوسنت وخلفائه من بعده مملكة إنجلترا وجميع حقوق تاجي الأخرى، ومن الآن سأتولاها جميعها كتابع للبابا. سأكون أمينًا لله ولكنيسة روما وللبابا رئيسي ومولاي، وكذلك لخلفائه المنتخبين شرعيًا. وأتعهد أن أدفع له جزية مقدارها ١٠٠٠ ميرك* ٧٠٠ عن مملكة إنجلترا و٣٠٠ عن مملكة أيرلندا». وقد تم هذا التسليم المشهور في يوم ١٥ مايو عام ١٢١٣م في السنة الرابعة عشرة من حكمه بالقرب من دوفر.

وهذا اليمين أقسمه الملك وهو جاث على ركبتيه أمام جميع الشعب، ويداه ممسكتان بين يدي المندوب البابوي، والشهود كانوا واحدًا رئيس أساقفة وآخر أسقفًا وتسعة لوردات وأربعة بارونات. وإذ قبل الملك تعيين لانجتون في مركز الرئاسة استلم تاجه الذي كان مفروضًا أنه قد خسره. وبمجرد أن حصل المندوب السياسي الداهية باندلف على صك الولاء من ملك إنجلترا، وثمانين ألفًا من الجنيهات الإنجليزية تعويضًا للأساقفة المنفيين، حزم في الحال أمتعته مع وثيقة التسليم وأكياس النقود وذهب مسرعًا للحاق بالأساقفة المنفيين في نورمنديا، حيث تم تقسيم الغنيمة، ثم خف بعد ذلك إلى معسكر الملك فيليب أوغسطس. وإذ وجد الجيش على أهبة العبور إلى إنجلترا أخبر الملك بكل هدوء وبرود "أنه لم تعد هناك حاجة فيما بعد لخدماته، لا بل في الواقع إن القيام بأية محاولة لغزو إنجلترا أو تعكير صفو الملك يوحنا بأي حال سيعتبر عملاً عدائيًا شديدًا ضد كرسي البابوية المقدس، حيث أن هذه المملكة أصبحت الآن جزءًا لا يتجزأ من أملاك الكنيسة. وعلى ذلك كان من واجبه الآن أن يسرّح جيشه ويرجع إلى بيته بسلام".

لما أدرك فيليب كيف أنه كان ألعوبة إلى هذا الحد انفجر بعاصفة من الاستهجان والحقد ضد البابا "فقد تكلف مصاريف باهظة، وقد جمع كافة قوات ممتلكاته وهو تحت تأثير وعد كاذب بنوال مملكة جديدة والحصول على غفران خطاياه وقد فعل كل ذلك إزاء إلحاح البابا والتماساته، فهل لم يبق الآن أمام فرسان فرنسا وأشرافها الملتفين حول الملك بكامل عدتهم إلا أن يؤمروا بالانصراف كالعبيد المأجورين عندما لا تكون هناك حاجة لخدماتهم فيما بعد؟". على أن غضب الملك لم يقابَل إلا بتكرار

* الميرك هو عملة اسكتلندية فضية قديمة قيمتها ٧٠ قرشاً تقريباً وهذه الجزية كانت تدفع سنوياً علاوة على جزية بطرس المسماة "بنس بطرس".

الأمر بكل هدوء. "امتنع عن معاداة تابع الكرسي المقدس"(١٣/٤٢).

كانت خيبة فيليب ومذلته عظيمة، ولكنه نظرًا لعدم جرأته على إساءة البابا، ورغبة منه في عدم تسريح جيشه دون القيام بمغامرة ما، نزل بكتائبه لغزو هولندا، إلا أن الأساطيل الإنجليزية اشتركت مع الهولندية وانتهت حملة فيليب بالفشل بعد أن أسر الإنجليز ثلاثمائة قطعة من أسطوله ودمروا ما يزيد عن مائة أخرى، وإذ أدرك فيليب أنه أصبح من المستحيل عليه أن يخلص السفن الباقية من الوقوع في أيدي العدو أطلق فيها النيران بنفسه وتخلى عن الحملة نهائيًا. تلك كانت الخسارة الفادحة والخيبة المريعة التي أصابت فيليب من جراء المؤامرة الشنيعة التي حاك له خيوطها البابا إنوسنت.

الماجنا كارتا

بعد أن انتصر يوحنا هذا الانتصار الباهر على عدوه اللدود وأصبح حليفًا للكرسي البابوي استمر في طغيانه وأعماله القاسية الوحشية التي كرّهت فيه جميع طبقات شعبه. فحكمه الطويل السيئ، وانغماسه في الرذائل والشهوات وكل العادات القبيحة التي كان يمارسها بكل استهتار وتطرف، أنفد صبر الناس جميعًا في الكنيسة والدولة على حد سواء، وبدت من جميع الطبقات رغبة عامة في الحصول على الحرية على أساس قانون ثابت.

وقصة الماجنا كارتا * هي قصة إنجليزية محضة وذات شهرة عظيمة وعلاقة متينة بتاريخ الكنيسة كما بتاريخ إنجلترا العام، حتى أنه من اللازم لنا أن نعيرها شيئًا من الالتفات في هذا "المختصر". هذا وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يحدث في ممالك أوروبا قاطبة في القرن الثالث عشر حادث له من الأهمية ما يضارع هذا الحادث على الإطلاق، وقد كان له من النتائج الباقية البعيدة الأثر مثلما كان لاجتماع البارونات الإنجليز في رونيميد واستدعاء نواب المقاطعات إلى البرلمان. فبينما كانت الملكية تخطو خطوات واسعة وسريعة في فرنسا، كانت الديمقراطية تنمو وتزداد في إنجلترا باتحاد الأشراف مع الشعب وقيام مجلس العموم، مما أوجد توازنًا في القوى.

أما رئيس الأساقفة لانجتون الذي أقامه إنوسنت لكي يحتفظ بواسطته بادعاءات روما وسلطانها المطلق فوق إنجلترا، فكان إنجليزيًا قبل كل شيء، وقد أظهر في كل المناسبات إخلاصًا صريحًا لمصالح المملكة وحقوقها، مما كان فيه إساءة مستمرة للبابا وخيبة كاملة لآماله. وتصادف أن عثر لانجتون بين مهملات أحد الأديرة المهجورة على صورة من وثيقة هنري الأول، فأخرجها وتشاور سريعًا مع الأشراف وحثهم على تجديدها. وقد كان كثيرون منهم يشعرون بمبلغ الانحطاط الذي سببه يوحنا، ويتألمون للعار الذي جلبه على المملكة كلها بسبب خضوعه المزري للبابا، فقبلوا هذه الوثيقة بالانشراح والتهليل وأقسموا أن ينتصروا أو يموتوا في سبيل الدفاع عن حرياتهم. وبعد تشاور كثير، وأخذ ورد، وإقدام وتردد، صمم أخيرًا جماعة من البارونات وعددهم أربعة وخمسون على أن يهجموا بكامل أسلحتهم ودروعهم، ممتطين جيادهم وحولهم أبطالهم وعبيدهم وجنودهم، لتقديم عريضة إلى الملك يلتمسون منه فيها تجديد الوثيقة والمصادقة عليها. عارض يوحنا أولاً هذا التطاول من جانبهم بكل حدة وغضب، وأقسم على أنه "لن يمنحهم هم حريات تجعله هو عبدًا". ولكن البارونات كانوا ثابتين في عزمهم ومتحدين في رأيهم، وسرعان ما أخذت حاشية الملك تتضاءل سريعًا، فاضطر يوحنا أخيرًا إلى الخضوع ورضي بالتشاور في الأمر حبيًا، وعين البارونات رونيميد كالمكان الصالح للاجتماع، وهو عبارة عن مكان فسيح بالقرب من وندسور، وقد اكتسبت هذه البقعة شهرة تاريخية عظيمة ولا تزال لها مكانة واحترام في قلب كل إنجليزي بصفتها البقعة التي فيها رفرف علم الحرية لأول مرة. وفي يوم ١٥ يونيو سنة ١٢١٥م تقابل الفريقان معًا في هذا المكان التاريخي، وأمضى الملك وثيقة الحريات الإنجليزية العظمى.

غضب البابا

كان بين من شاهدوا إمضاء الملك لهذا العهد باندولف رسول البابا المتغطرس، وقد أدرك أنها كانت ضربة قاتلة للسيادة البابوية في إنجلترا، فطيّر الخبر المحزن في الحال لإنوسنت. وقع هذا الخبر المشئوم على أذن البابا كالصاعقة، فاهتز "عصمته" بالهول والفزع، وللوقت - كما كانت عادته - ثارت ثائرته فهاج وماج

* أي "الميثاق الأعظم" وهي وثيقة شهيرة تعتبر أساس الدستور الإنجليزي - المعرب.

وسب ولعن. "فقطب حاجبيه" على حد تعبير المؤرخين، وانطلق يقول صاخبًا متعجبًا: "ماذا؟! أشراف إنجلترا ينوون أن يخلعوا من العرش ملكًا قد قبِّل الصليب ووضع نفسه تحت حماية الكرسي الرسولي؟ أينقلون حقوق كنيسة روما الموروثة إلى آخرين؟ بحق القديس بطرس لن نترك مثل هذه الجريمة تمر بلا عقاب". وعلى الأثر، أعلن البابا أن العهد الأعظم لاغ ولا قيمة له، وأنه محظور على الملك إطاعة القسَم الذي أقسمه أو المصادقة على الحريات التي منحها، وإلا كان قصاصه الحرمان. ولكن جميع التهديدات الروحية لم يكن لها أدنى تأثير على أشراف إنجلترا الذين قابلوا مرسوم الإلغاء بكل احتقار ولم يعيروه أي التفات.

فاندلعت نيران الحرب الأهلية، ولم يكن لدى يوحنا جيش خاص به، فلكي يزيد في خزيه وعاره جلب من الممالك الأخرى جماعات من المرتزقة وقطاع الطرق، واعدًا أن يعطيهم ممتلكات أشراف إنجلترا كمكافأة لهم على بسالتهم. وعلى رأس هذه الجيوش المأجورة، يعاونه اثنان من الأساقفة الحربيين هما أسقف ورشستر وأسقف نورويك. وجاب الملك المملكة كلها من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، مطلقًا العنان لجنوده المتوحشين الذين أخذوا يعيثون فسادًا في مملكته المسكينة، فانقضوا عليها كالوحوش الكاسرة. ولم يكن الأشراف مستعدين للحرب، لأنه لم يكن يخطر على بالهم دخول أي جيش أجنبي إلى المملكة. هنا أيضًا نستطيع أن نرى أعماق الشيطان، فهو أبدًا على استعداد أن يعطي ما له من سلطان على ممالك الأرض لمن يخضع نفسه لإرادته خضوعًا كاملاً. «أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي» (مت ٤: ٩). وقد كان سيّان عند يوحنا أن يكون واحدًا من أتباع البابا أو من أتباع الشيطان. وعلى هذا استطاع إلى حين أن يكون هو سيد الميدان بلا منازع، وأن يخضع المملكة جميعها بالنار والحديد، ويعرض الناس للسلب والنهب والقتل والتعذيب بلا رقيب، وهكذا لم يبقَ لأي شيء حُرمة، بل كل شيء كان معرضًا للفساد والبوار، ولذلك كان الأشراف والفلاحون على حد سواء يهربون بزوجاتهم وأولادهم بمجرد أن يكون ذلك في ميسورهم.

كان جيش السفاحين وقطاع الطرق، أو بالحري زبانية الملك والبابا الملطخين بالدماء، يسيرون ليلاً في طول المملكة وعرضها وفي يدهم الواحدة السيوف وفي اليد الأخرى المشاعل، بينما كانت تنهدات الناس تتعالى إلى السماء وهم يئنون "رحمتاه على إنجلترا المسكينة. إيه أيتها المملكة الشقية التعيسة. ليت رحمة الله تدركنا وليت قضاءه يحل على الملك والبابا".

والقضاء لم يتأخر طويلاً. فلا السماء ولا الأرض كانت لتحتمل فظائعهما أو تصبر على قسوتهما وطغيانهما، فمات البابا في ١٦ يوليو سنة ١٢١٦م وله من العمر خمسة وخمسون عامًا، أي بعد إمضاء الماجنا كارتا بسنة واحدة وشهر واحد ويوم واحد. أما يوحنا فلم يعش بعده إلا شهورًا قليلة، إذ مات في ١٢ أكتوبر من نفس السنة، أي في السنة التاسعة والأربعين من عمره، والسابعة عشرة من حكمه، ويقال أنه مات بتأثير الخوف مقترنًا بالسكر، ذلك أنه بينما كان راجعًا من إحدى مشاهد مذابحه وكانت العربات الملكية تسير على رمال أحد الشواطئ ارتفع المد بغتة، وغمر العربات فغرقت جميعها.

تشاءم الملك من هذا الحادث تشاؤمًا شديدًا، وامتلأت نفسه بالفزع والرعب، حتى أنه كثيرًا ما كان يشعر أن الأرض تميد تحت قدميه وعلى وشك أن تفتح فاها وتبتلعه حيًا، فالتجأ في يأسه إلى الخمر يجرعه بكثرة. هذا، علاوة على الخوف وتنغيص الضمير، قضى عليه. وبذلك انتهت أيام أنذل وأحط طاغية جلس على عرش إنجلترا في كل تاريخها. فإن أسماء أسوأ الملوك الآخرين الذين كان لهم من الرذائل والتاريخ الأسود ما يكفي لأن يثير غضب الأجيال المتعاقبة، نراها بالنسبة له وحولها هالة من الفخار سواء في السياسة أو ميادين القتال. أما الملك يوحنا فمات غير مأسوف عليه وليس له فضيلة واحدة تشفع في تاريخه القاتم الأسود(٢٠/٨)،(٤٤/٥)،(٤٠).

الفصل الخامس والعشرون

إنوسنت وجنوبي فرنسا

حقل دم جديد ونوع آخر من الحرب يختلف كل الاختلاف عن سوابقه يأتي الآن أمام راعي روما الشرهِ. لم تكن الحرب هذه المرة ضد أعداء الإيمان في الخارج، أو ضد ملوك معاندين في الداخل، بل هي حرب نكراء تشنها جيوش الكنيسة ضد أتباع الرب يسوع المسيح والمعترفين باسمه. كان ذلك شيئًا جديدًا على في تاريخ المسيحية، وهو وصمة عار أبدية في جبين البابوية.

كانت جماعة الألبينيين قد أتيح لها أن تبشّر بالإنجيل لعدة قرون بتأييد من بعض الأمراء، ونتيجة عدم اكتراث الإكليروس بهم، فكانوا ينشرون الحق وليس من يزعجهم، حتى لم يبقَ للكاثوليكية الرومانية وجود تقريبًا في مقاطعات الكونت ريمون، وأصبح سكانها على استعداد لأن يقطعوا كل صلة بكنيسة روما. فلما علم إنوسنت بهذه الأمور نادى بحرب صليبية ضد "هراطقة لانجدوك"، ولم يهدأ له بال حتى أنهى وجودهم على أرض فرنسا.

على أننا قبل أن ندخل في تفصيلات تلك الحرب الصليبية نرى من اللازم أن نرجع ولو خطوات قليلة لنستعرض سلسلة الشهود الأمناء للمسيح وإنجيله.

سلسلة الشهود

لما كنا نتأمل فيما سبق في جماعة البولسيين الذين كانوا شهودًا لله ولِحقه في الشرق، ودّعناهم على وعد أن نتقابل معهم مرة ثانية على أرض الغرب. يؤكد المؤرخون أن غيرة هذه الجماعة التبشيرية دفعت بهم إلى أوروبا حيث انتشروا في جميع ممالكها. أما كونهم استمروا كطائفة مستقلة متميزة أو اندمجوا في طوائف الغرب الأخرى فهذا أمر يختلف عليه المؤرخون، ولكنه من المحتمل أنهم وجدوا أشخاصًا كثيرين منشقين على تعاليم روما ولو سرًا، وبهذا أمكنهم أن ينشروا مبادئهم.

على أن شهود الغرب كانوا لا شك نتيجة نفس تلك النعمة التي أساسها أمانة الله، الذي لم يترك نفسه أبدًا بلا شاهد. ونحن وإن كنا لا نجد ما يجعلنا نعتقد أنهم سلالة البولسيين، إلا أنه في الغالب كان هناك اتصال بشكل ما بين هؤلاء المنشقين عن الكنيسة الرسمية.

والآن دعنا نتتبع ذلك الحبل الفضي لنعمة الله، الذي كان عاملاً ولو تحت أشكال وأسماء مختلفة في أحلك أوقات الظلم البابوي، فليس من الصعب البتة معرفة شهود الله وتمييزهم، وتتبع سلسلة الشهادة المتصلة ضد إثم روما ولأجل إنجيل نعمة الله الحقيقي منذ أقدم العصور إلى عهد الإصلاح. وقد تتبعنا سلسلة الشهود هذه في تاريخ البولسيين إلى القرن العاشر. والآن نستعرض أهم الطوائف التي قامت في الغرب قبل ومنذ ذلك العهد.

١- كلوديوس:

هو أسباني الأصل، وكان مشهورًا كمفسر للكتب في بلاط لويس، وقد رقّاه مولاه الإمبراطور إلى مركز أسقف توران في سنة ٨١٤م، ويُعرف في التاريخ بأنه "وكليف"* القرن التاسع، والمبشر العظيم بالمسيحية الأولى. عند ما وصل إلى أسقفيته وجد الكنائس ملأى بالصور والتماثيل ومزخرفة بالأزهار والأكاليل، فأمر في الحال، وبشدة خالية من كل مجاملة، نزع جميع هذه الزينات فورًا، بلا أقل تمييز بين صورة أو أثر أو صليب، الكل كان يجب أن يُزال على حد سواء، معلنًا في الوقت نفسه أن عبادة مثل هذه الأشياء ما هي

* مصلح إنجليزي كبير عاش في القرن الرابع عشر قبيل حركة الإصلاح، سيأتي الحديث عنه بالتفصيل في الفصل الثلاثين – المعرب.

إلا تجديد لعبادة الشياطين تحت أسماء أخرى، بدلاً من التبشير بقيامة الرب يسوع المجيد، ومؤكدًا أن وظيفة القديس بطرس الرسولية قد انتهت بانتهاء حياة الرسول، ولهذا هو لا يهتم كثيرًا بالرعود البابوية أو بسلطة المفاتيح المزعومة. لا بل يقال إنه ذهب إلى حد فصل كنيسته عن كنيسة روما.

ولكن كلوديوس ككثيرين من المصلحين الآخرين، كان خشنًا وعنيفًا في غيرته، وقد دفعه فساد الإكليروس المخيف وميل الشعب إلى هذه الأوثان أن يكتب ويتكلم عادة بلغة قوية وأسلوب حاد وحماس شديد، ولا عجب في ذلك، ولكن الرب كان في ذلك ساهرًا عليه بصورة عجيبة للغاية. فمع أنه كان مصلحًا جسورًا وهدامًا جريئًا للصور والتماثيل في مدينة إيطالية، فقد سمحت له يد العناية غير المنظورة أن يستمر حتى يكمل عمله وهو متمتع بكامل الامتيازات الأسقفية، ولو أن المقاومة ضده لم تكن في أي وقت من الأوقات ضعيفة.

يكوّن كلوديوس حلقة بارزة متميزة في سلسلة الشهود، فتأثيره كان عظيمًا وواسع النطاق. يقول ملمان أن ثيودمير، وهو رئيس أحد الأديرة المشهورة، يعترف صراحة أن أغلب كهنة ما وراء الألب الكبار كانوا يتبعون تعاليم كلوديوس، كما أن العداء الذي بدأ بعد ذلك ضد كنيسة روما وأسرارها المقدسة الكثيرة من جانب سكان وديان الألب، ينسب عادة إلى مجهودات المصلح كلوديوس. وقد مات عام ٨٣٩م.

٢- البتروبرسيون

حوالي عام ١١١٠م قام مبشر اسمه "بيتر أوف برويس" (أي بطرس الذي من برويس) وابتدأ ينادي ضد مفاسد الكنيسة ورذائل الإكليروس. وكان أغلب تبشيره في جنوبي فرنسا ومقاطعتي بروفانس ولانجدوك. ومما قد يبدو غريبًا لنا أنه استمر ينشر تعاليمه بلا عقاب حوالي عشرين سنة، ذلك لأن العدو لم يكن في استطاعته في أي وقت من الأوقات إسكات الشاهد أو قتله قبل أن يتمم شهادته. وبما أن كل ما نعرفه عن أمثال هؤلاء الرجال إنما عن طريق كتابات خصومهم فنحن لا نسمع إلا ما يسمى بهرطقاتهم.

فقد كتب مثلاً رئيس دير كلوني الذائع الصيت رسالة ضد أتباع بطرس، الذين أصبحوا من ذلك الحين يسمون بتروبروسيين، يتهمهم فيها بتهم عديدة يمكن تلخيصها فيما يأتي: معارضتهم لمعمودية الأطفال، وللقداس، ومبدأ البتولية، وللصلبان، وتعليم الاستحالة، وفاعلية الصلوات لخلاص الأموات. على أن شيئًا مما عمله أو قاله مؤسس هذه الطائفة لم يثر الشعور العام ضده إلا عندما أحرق عددًا من الصلبان عليها صورة المسيح، فانتهز القساوسة هذه الفرصة ونجحوا في إثارة الرأي العام. وكانت النتيجة أن أُحرِقَ بطرس حيًا في لانجدوك. ولكن احتجاجه لم يتلاش بهذه السهولة، فالنور الإلهي قد يخفي إلى حين، ولكن لا يمكن أبدًا إطفاؤه.

٣- الهنريون

لم تستطع النيران التي أحرقت بطرس أوف برويس أن تثبط همة اتباعه أو أن تسكتهم، بل إن واحدًا من هؤلاء اسمه هنري، وهو أحد رهبان دير كلوني الشهير، أصبح بعد قليل واعظًا أقوى من بطرس وأشد جرأةً منه. لما كان هنري معتكفًا في ديره كرس نفسه لدراسة العهد الجديد، وإذ أدرك المسيحية على حقيقتها كما تبينها كلمة الله الطاهرة النقية اشتاق أن يخرج إلى العالم لكي يعلن الحق لإخوته في الإنسانية، وقد كان له من مظهره الخارجي وتربيته الشخصية قوة جعلت لوعظه جاذبية خاصة. كان كثير الانفعال حتى أن تغيرات ملامحه الفجائية كانت تشبه عادة بالبحر الهائج، وكان طويل القامة وعيناه سريعتي الحركة ونظراته حادة، كان يسير حافي القدمين ولم يكن يهتم بملابسه أو هندامه. كل هذه الصفات الخارجية، مضافًا إليها سيرته النقية وعِفته الشخصية، جعلته قِبلة الأنظار. ومع أنه كان شابًا، لكن نبراته العميقة وفصاحته المدهشة ومظهره العجيب كانت كلها صفات مفزعة لرجال الإكليروس، ولكن محبوبة لعامة الشعب. وبروح يوحنا المعمدان كان ينادي في الناس أن يتوبوا ويرجعوا إلى الرب، غير ناسٍ في الوقت نفسه أن يهاجم من وقت لآخر رذائل الإكليروس المكروهة.

ولم تزده المقاومة التي لاقها من رجال الإكليروس إلا محبة من الناس أكثر فأكثر وجاذبية إليه، فجماهير عديدة من الفقراء والأغنياء على حد سواء قبلوه كمرشدهم الروحي في كافة الشئون. وأول ما نسمع عنه تاريخيًا كان في لوزان، ولكنه جال في جنوبي فرنسا من لوزان إلى بوردو، وكما يقول عنه المؤرخ نياندر "لقد جعل الناس يتعلقون به، وملأهم بروح الاحتقار والكراهية لرؤساء الإكليروس، حتى أنهم أصبحوا لا يريدون أن يكون لهم أية علاقة بهؤلاء الناس. فلم يعد أحد يحضر الاحتفالات الدينية التي كان يقيمها رجال الإكليروس، لا بل كثيرًا ما وجدوا أنفسهم معرضين للإهانات

والسخرية من جانب الشعب، حتى أنهم كانوا يلجأون لرجال الشرطة لحمايتهم". وإذ رأى أسقف لي مانس المتعقل مبلغ النفوذ الذي كان لهنري على الناس اكتفى بأن يحيله إلى حقل آخر من العمل، فانسحب الراهب الغيور بكل هدوء وتوجه إلى مقاطعة بروفانس، حيث كان يعمل قبله بطرس أوف برويس. وهناك أعلن بأكثر صراحة مقاومته لأخطاء كنيسة روما، فجلب على نفسه حقد الإكليروس وعداءهم المر.

ولم يمض وقت طويل حتى قبض عليه رئيس أساقفة أرلي وساقه للمحاكمة أمام مجمع بيزا الذي انعقد عام ١١٣٤م، فحكم عليه المجمع بأنه هرطقي وأصدر الأوامر بحبسه في صومعة. إلا أن هنري هرب من صومعته بعد وقت وجيز وعاد إلى لانجدوك. ويؤكد التاريخ أن هجران الكنائس واحتقار الإكليروس إلى آخر حد لازم الهرطقي الفصيح أينما ذهب. فلم يكن من البابا يوجينيوس الثالث إلا أن أرسل مندوبًا يسمى ألبريك لإخماد الثورة. وكان من الممكن أن بعثة ألبريك تفشل، لولا أنه استطاع أن يقنع سان برنارد بمشاركته في العمل ومقاسمته الفخار بالقول: "إن هنري مقاوم عنيد لا يقهره إلا قاهر إبلار وأرنولد أوف بريشيا".

فكتب سان برنارد رئيس دير كليرفو القوي إلى أمير مقاطعة بروفانس يخبره بقدومه ويعرفه بالغرض من مجيئه، قائلاً: "إن الكنائس أصبحت بلا شعب، والشعب بلا كهنة، والكهنة بلا كرامة، والمسيحيين بلا مسيح. لقد فقدت الكنائس حرمتها وقدسيتها، ولم تعد الأسرار تُحترم ولا الأعياد تُعتبر. الناس يموتون في خطاياهم، والنفوس تنحدر انحدارًا جارفًا إلى كرسي الدينونة المخيف بلا توبة وبلا تناول. والمعمودية غير مصرح بها للأطفال الذين أصبحوا بذلك محرومين من الخلاص". هكذا كتب رئيس الرهبان العظيم صاحب المعجزات كما كان يعتقد الناس، فلم يبق أمام هنري إلا الهروب أمام مطاردة برنار، الذي جال يطهر البلاد من وباء الهرطقة، كما كان يقول، وأخيرًا قبض على الهرطقي نفسه وسلمه في سلاسل لأسقف تولوز، الذي أرسله إلى السجن حيث مات فجأة بعد ذلك بقليل، وهكذا خلص من جميع مضطهديه ودخل راحته الأبدية عام ١١٤٨م.

٤- الفوديون والألبينيون - الولدانسيون

هم جماعات قديمة في الغرب، تُجمع معًا عادة تحت اسم الولدانسيين، يقول عنهم الكتّاب المتحيزون للبابوية إنهم استمدوا مبادئهم من الشرق، أو بالحري من جماعة البولسيين، وأنهم وُسموا بالهرطقة المانيخية، بينما يؤكد الكتاب الآخرين أنهم أبرياء من هذه الهرطقة، وأنهم جماعات توارثت الحق الكتابي المسيحي الصافي أبًا عن جد منذ عهد قسطنطين، إن لم يكن من أيام الرسل، وبرهنوا على أنهم كانوا أمناء على الحق الإلهي والإيمان الأقدس الذي سُلم لهم مرة.*

وبما أنه ليس غرضنا في الوقت الحاضر تتبع تاريخ هؤلاء المسيحيين القدماء البسطاء إلا بقدر إظهار لون جديد من ألوان البابوية في عهد إنوسنت، فسنكتفي هنا بإيراد لمحة بسيطة تبين للقارئ مَن هم هؤلاء الناس وأين كان مشهد ذبحهم وتعذيبهم. يصفهم المؤرخ الشهير الدكتور جلي بأنهم كانوا يُعرفون باسم "رجال الوادي" وكان لهم شرف المحافظة على المسيحية الأولى، واستمروا أمناء للإيمان الذي نادى به المبشرون الأولون في تلك الأصقاع، وحفظوا أنفسهم طاهرين من تعاليم كنيسة روما ومفاسدها. ومع أن هؤلاء الألبينيين والولدانسيين كانوا على مبدإ واحد فيما يتعلق بالإيمان، إلا أنهم تميزوا في الاسم عنهم، فقد أوجد الله للولدانسيين مكانًا أمينًا في الوديان الواقعة شرقي جبال الألب، كما أوجد للألبينيين مكانًا حصينًا غربي تلك الجبال، فظلت جبال الألب فاصلة بينهما، واستمروا هناك محفوظين ومحميين لقرون عديدة.

بطرس فالدو (بطرس والدو)

لتشابه في الأسماء، يقال عادة إن بطرس والدو، مصلح ليون المشهور، هو مؤسس شيعة الولدانسيين، ولكننا نعتقد أن هذا خطأ من السهل الوقوع فيه نظرًا لشدة رغبة البابويين في التماس كل حجة للتدليل على حداثة الولدانسيين وإنكار أصلهم القديم. على أن المؤرخ إلبوت وكثيرين أمثاله درسوا الموضوع درسًا جديًا مستفيضًا وقاموا بأبحاث كثيرة بخصوصه، كان من نتيجتها أنهم أثبتوا بما لا يقبل الشك تقادم العهد على "رجال الوادي" وأنهم جماعة يرجع أصلها إلى عدة قرون مضت[٤٦]، [٣/٣٥]، [٥٥].

هذا ويستحق بطرس والدو كل مديح وثناء لتضحياته الكثيرة وخدماته العديدة في سبيل الحق وضد الباطل، فتقواه وغيرته

* ورد في الطبعة الأولى لهذا الكتاب في الإنجليزية أن الألبينيين يرجعون أصلا إلى البولسيين، ولكن الكاتب بعد الفحص الدقيق والاستعانة بالمؤرخين الثقاة تأكد من أنهم من نسل الألبينيين القدماء، وانهم كانوا أنقياء الإيمان، وأنهم وجدوا كشعب مسيحي منفصل من قبل البولسيين بزمان، بل ومن قبل نشأة البابوية ذاتها.

وشجاعته ظهرت بأجلى وضوح في عصر كانت فيه البابوية تصب جامات غضبها على كل من يتجاسر على وضع سلطانها وعصمتها موضع الشك أو الجدل، ولا شك أنه أُقيم من الله في ذلك الوقت لكي يعطي وضوحًا أكثر للشهادة التي قام بها فلاحو الألب، فإن البساطة التي امتازت بها عبادة هؤلاء المسيحيين ومكان سكناهم الحصين جعلهم إلى ذلك الوقت بعيدين عن هجمات الكنيسة العامة، ولم يكونوا مدعاة لإثارة الحقد والحسد من جانب جيرانهم. هكذا دبرت عناية الله، وهكذا كان.

وحوالي سنة ١١٦٠م أثرت الطقوس الوثنية التي لازمت مبدأ الاستحالة تأثيرًا عميقًا في نفس بطرس، وجعلته يشعر شعورًا مرًا بالحد الذي وصل إليه الإثم في تلك الأيام وبمفاسد البابوية الخطيرة، وهذا أنشأ فيه غيرة حقيقية لله، ومن تلك اللحظة كرس حياته لمجد الله وخدمته، فهجر أشغاله التجارية ووزع ثروته على الفقراء والمعوزين اقتداء بالتلاميذ الأولين. فالتفت الجماهير حوله، وشعر في نفسه بالحاجة لأن يتعلم طريق الرب بأكثر تدقيق. فأين كان يجد هذا التعليم؟ اشتاق جدًا لفهم الأناجيل التي اعتاد أن يسمعها في الكنيسة، فكلف اثنين من الإكليروس بترجمة الأناجيل إلى اللغة القومية، مع بعض أسفار أخرى من الكتاب وبعض فقرات من كتابات الآباء. ذلك كان أعظم عمل قام به والدو واستحق عليه شكر الأجيال، إذ كانت الكتب المقدسة إلى ذلك الحين عبارة عن سفر مختوم في المسيحية، لأنها لم تكن مكتوبة إلا باللغة اللاتينية، فكان من نتيجة هذه الترجمة أن استطاع أتباع والدو أن يؤكدوا للناس أنهم لا ينشرون تعاليم من عندياتهم، بل هو الإيمان النقي كما هو موجود فعلاً في الكتاب المقدس. وكما فعل الرب مع السبعين هكذا أرسل والدو تلاميذه اثنين اثنين إلى القرى المجاورة لكي يكرزوا بالإنجيل.

أهاج ذلك العمل الفاتيكان، الذي أخذ يبرق ويرعد. فطالما كان والدو وأتباعه مكتفين بالاحتجاج ضد البدع وقاصرين ذلك على أنفسهم، لم يرَ الفاتيكان داعيًا لمقاومتهم. أما وقد لجأوا إلى هذا السلاح المرعب، وهو ترجمة الكتاب إلى لغة الناس، فلا بد من دمغهم بسمة الأناثيما، وحرمانهم بأسرع ما يمكن، وهذا ما فعلته البابوية بدون إبطاء. إلى ذلك الحين لم يفكر أتباع والدو في الانشقاق عن الكنيسة، ولكن كان رائدهم الإصلاح ليس إلا، وأصروا على الكرازة بإنجيل نعمة الله المجيد للخطاة الهالكين. وأصدر رئيس أساقفة ليون حرمانًا ضدهم، فأجاب والدو بكل حزم: «ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس» (أع٥:٢٩). ومن ذلك الوقت أخذ رجال الإكليروس يسمون "رجال ليون المساكين"، كما كانوا يطلقون عليهم، بسمة الهراطقة للتعيير والاحتقار. واستمر والدو لمدة ثلاث سنين بعد الحكم الأول الذي صدر ضده سنة ١١٧٢م مختفيًا في مدينة ليون وضواحيها؛ إلا أن البابا إسكندر الثالث أصدر بيانات شديدة ضده، مهددًا ليس والدو وحده، بل كل شخص يجرؤ على أن تكون له أية علاقة به، مما جعل والدو يشفق على أصدقائه، ومن أجل خاطرهم هرب من ليون وعاش هائمًا طريدًا بقية حياته. وبعد أن حاول عبثًا أن يجد ملجأ لنفسه في أي بلد أو راحة لجسمه في أي مكان، عبر إلى راحته الأبدية عام ١١٧٩م، بينما كان بين البوهيميين الجبليين، أحفاد هيس وجيروم.

تشتيت أتباع والدو

لما هرب والدو تبعه تلاميذه، وقد حدث هذا التشتيت بشكل يماثل التشتيت الذي حدث عند اضطهاد إستفانوس، وكانت النتيجة مشابهة أيضًا، إذ آل ذلك إلى انتشار الإنجيل المبارك في كل أنحاء أوروبا بازدياد عظيم. وكانت قوتهم في كل مكان هي امتلاكهم الكتب المقدسة بلغتهم المعروفة، فكانوا يقرأون الإنجيل ويعظون ويصلّون بلغة القوم الدارجة. وذهب كثير منهم إلى وديان بيدمونت ومدن لانجدوك. ولا شك أن ترجمة الكتاب كانت ذخرًا جديدًا زاد في الكنوز الروحية التي كان يتمتع بها سكان هاتين المقاطعتين المشهورتين.

وهنا سنحت الفرصة للبابا إنوسنت، الذي أخذ ينفذ العقوبات البابوية بلا رحمة ولا شفقة، إذ مع أنه هو الذي كان قد أخضع ملوك ألمانيا وفرنسا وإنجلترا العظام، ودانت له المسيحية في جميع الأنحاء تقريبًا، كانت لا تزال سلطته العليا كرأس الكنيسة غير معترف بها من أتباع والدو أينما حلوا. ولم يكن من المنتظر أن شخصًا مثل إنوسنت يحتمل بسكوت استمرار هذه المقاومة لسلطته العامة التي كان يفاخر بها. ولكن أية جريمة كان يمكن إلصاقها بهؤلاء الناس؟ وأين كان يمكن العثور عليهم؟ وكيف السبيل للقضاء عليهم؟

أما عن جريمتهم فقد كانوا مشهورين في كل مكان بالتواضع والوداعة والاعتدال والعمل الشريف والعفة والمحبة، حتى ألد أعدائهم كانوا يعترفون بذلك. كتب عنهم أحد كبار المؤرخين الموثوق بهم، ولو أنه لم يكن خاليًا من التحامل على "أعداء الكهنوت"

كما كان يسميهم فقال: "إن ألد الأعداء لا يمكنهم أن يجدوا علة واحدة في بطرس والدو ومسيحيي الألب الكتابيين من حيث الآداب والسلوك". فخطيتهم الوحيدة التي كانت تستحق الموت في نظر الفاتيكان هي رجوعهم إلى الكتاب المقدس وحده لإرشادهم في كل الأمور المتعلقة بالإيمان والعبادة. فقد تركوا نهائيًا نظام الديانة التقليدية التي كانت متبعة في كنيسة روما، وكانوا من حيث العيشة والتعليم شهودًا شرفاء للمسيح ولبساطة الإنجيل، فكانوا أعداء أقوياء لخرافات الديانة الرسمية وثروتها وسلطانها. فرفضوا جميع طقوس روما وأسرارها التي لا تحصى، ونادوا بأنه لا توجد إلا ممارستان اثنتان في العهد الجديد، وهما المعمودية وعشاء الرب. وبالإجمال نقول إنهم بصفة عامة كانوا ينادون بنفس التعاليم التي نشرها رجال الإصلاح في ألمانيا وإنجلترا بعد ذلك بثلاثة قرون، والتي تُكوِّن عقيدة البروتستانت في الوقت الحاضر.

أما من جهة النقطة الثانية وهي أين كانوا يقيمون، فالظاهر أن انتشار "رجال ليون المساكين" بعد الاضطهاد الأول كان انتشارًا سريعًا وعظيمًا، ويخبرنا التاريخ أنهم انتشروا في جنوبي فرنسا ولمبارديا وأراجون. ويقول روبرتسون: "إنهم في مقاطعتي لمبارديا وبروفانس كانت مدارسهم تزيد كثيرًا عن مدارس الكاثوليك، ومبشروهم كانوا يجادلون ويعلمون جهارًا في كل مكان، وكان لهم من الأنصار والأتباع الأقوياء ما جعل مواجهتهم أمرًا خطيرًا. أما في ألمانيا فكان لهم إحدى وأربعون مدرسة في أبروشية باسو، وكان عددهم كبيرًا جدًا في أبروشيتي متز وتول. وكانت تعاليمهم منتشرة انتشارًا عظيمًا من إنجلترا إلى جنوبي إيطاليا"(٣/٣١)، (٢/٣٩)، (١/٥٦).

ذلك كان مبلغ تقدم الولدانسيين وانتشارهم عندما ارتقى عرش البابوية إنوسنت الثالث، فكيف السبيل للقضاء عليهم؟ تلك هي النقطة الثالثة التي كانت تشغل باله. كان يراقب هذه الروح الاستقلالية بحذر وقلق، وكان يرى أنه لا بد من القضاء عليها بأي حال. زد على ذلك أن يده في ذلك الوقت كانت مغلولة لما كان لديه من مشاغل أخرى كثيرة، فقد كان منهمكًا وقتئذ بهدم التوازن الدولي بين ألمانيا وإيطاليا. وكان في عراك عنيف مع ملكي فرنسا وإنجلترا كل في دوره. وكان يدير دفة الحرب الصليبية محاولاً بها قلب الإمبراطورية اليونانية في القسطنطينية. ومع ذلك لم يلهه كل هذا عن مراقبة الولدانسيين مصممًا تصميمًا حاسمًا على معاقبة كل منشق عن تعاليم كنيسة روما وقانون إيمانها، والقضاء على كل تفكير حر في الأمور الدينية. وكانت الإشاعة قوية في ذلك الحين أن القاعدتين الرئيسيتين لهذا التيار المعادي لروما هما بيدمونت وجنوبي فرنسا. أما مسيحيو بيدمونت فكانوا مجهولين نوعًا ما، وكانوا بذلك راغدين متمتعين، بينما كان الألبيين لهم شهرة وخطورة بسبب احتمائهم بمدن لانجدوك الغنية، علاوة على أنهم كانوا متمتعين بحماية بعض العناصر القوية. فالكونت ريموند السادس، أمير مقاطعة تولوز، لم يعاملهم معاملة حسنة فقط معتبرًا إياهم أحسن رعاياه، بل عين الكثيرين منهم في بلاطه، مع أن معتقده الرسمي كان كاثوليكيًا. وكذلك كان الحال مع الكونت دي فوا الذي تزوج بسيدة ولدانية، ويقال إن واحدة من أختيه كانت ولدانية والأخرى بيوريتانية.

مقاطعة ألبي

كان يطلق على هذه المقاطعة اسم لانجدوك (أي بلاد اللغة) نظرًا لما امتاز به أهلها من لغة غنية ومرنة وجميلة. وقد كان سكانها من حيث المدنية والثروة والحرية السياسية والدينية يفوقون بمراحل جميع سكان فرنسا الآخرين. وكان الأمراء الإقطاعيون (وخصوصًا الكونت دي تولوز والكونت دي فوا) متمتعين بشبه استقلال تام، ولو أنهم كانوا يعترفون بالملك كمولاهم الأعلى. ولكن تقدم المدنية في تلك البلاد كان دائمًا كما يقول ملمان مضادًا للنفوذ الإكليريكي، ذلك لأن البابوية كانت تمقت كل تقدم، ليس فقط من حيث الروحيات بل من حيث المدنية بوجه عام، فالعقل البشري كان يجب أن يظل دائمًا مظلمًا ومستعبدًا للخرافات حيثما وُجد النفوذ البابوي. ولكن الله أراد أن يظل دائمًا سكان لانجدوك بعيدين عن تأثير روما مدة طويلة، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ازدهرت مدنهم بالصناعات المختلفة، ورفرف على ربوعها علم الحرية والسلام من الوجهة المدنية والدينية على حد سواء.

على أنه من الجهة الأخرى، بقدر ما كانت تتقدم كلمة الله وحرية الأفكار بقدر ما كانت تتردى كنيسة روما وطائفة الإكليروس في مهاوي الخزي والاحتقار، فالأشراف لم يعودوا بعد يرسلون أبناءهم إلى المدارس اللاهوتية، بل اكتفوا بتقليد أبناء مرؤوسيهم الوظائف الكهنوتية محتفظين لأنفسهم بالعشور. ولم يكن في استطاعة رجال الإكليروس مقاومة هذه الفكرة الحرة

نظرًا لكراهية الأشراف وعامة الشعب لهم، فلم يعد أحد يخشى سلطانهم الروحي، بل بالحري أصبح الجميع يحتقرونهم لسيرتهم الردية، فصاروا أضحوكة "البمبادور" *وموضوع أغانيهم، فسلْبهم لحقوق اليتامى والأرامل وعدم أمانتهم وسلوكهم المشين كانت في كل مكان مضرب الأمثال. يقول روبرتسون "كانوا يشعرون هم أنفسهم بحقارتهم، حتى أنهم كانوا يخفون قمة رأسهم المحلوقة حسب طقس روما بأن يزيحوا شعرهم من الخلف إلى الأمام فيخفونها". حتى الفلاح البسيط اعتاد أن يقول كلما سمع عن حادثة مخزية "إني أفضل أن أكون كاهنًا عن أن أكون متهمًا بفعله مثل هذه". وهكذا كثر عدد المنشقين من روما حتى أصبحوا يكونون أغلبية السكان. كان هناك أيضًا يهود كثيرون، وكذلك أغنياء، كما كان يفد على مدن لانجدوك الزاهرة رجال عديدون للإقامة فيها، ولم يكونوا يتبعون طائفة معينة. ولكننا سنتكلم الآن عن جميعهم تحت اسم الألبيين.

إنوسنت واضطهاد الألبينيين

تلك كانت الحالة في تلك المقاطعة المزدهرة الآمنة عندما تلبدت في أفقها غيوم كثيفة مظلمة تنذر بالرعد القاصف. علم إنوسنت بتقدم هذه الأفكار الجديدة، فارتعب منها وصمم على القضاء عليها. وللوصول إلى هذه الغاية أرسل أولاً خطابًا لكهنة وأمراء جنوبي فرنسا يحضهم فيه على اتخاذ أشد الإجراءات للقضاء على هذه الهرطقة، مع لعن جميع الهراطقة ونفيهم من البلاد. رأى ريموند وآخرون من الأمراء أن هذا الطلب القاسي كان تعسفًا لا مبرر له، ولذلك لم يعيروه كثيرًا من الالتفات. أجاب ريموند بالقول "إننا قد نشأنا وتربينا مع هؤلاء الناس، ولنا أقارب بينهم، ونعلم أنهم أمناء وسيرتهم طيبة. فكيف يمكنا أن نضطهد أخلص الناس في شعبنا وأشدهم ميلاً للهدوء والسلام؟".

كان من البديهي أن التضحية بالشعب بهذه الصورة معناها خسارة كبيرة تصيب الأمراء في مصالحهم ومواردهم، وأنها ستؤدي إلى مذابح خطيرة. ولكن هذه الوسيلة الأخيرة لم يتردد راعي قطيع المسيح الأعلى في الالتجاء إليها مهما كانت شفقة السلطات الأرضية. وعليه وضع الألبيين المساكين تحت الحرمان ولعنة الأناثيما، التي لم تكن قاصرة عليهم، بل تناولت كل من يجرؤ على حمايتهم والتعامل معهم تجاريًا أو اجتماعيًا. ولكن ريموند العاصي ظل يعطف على رعاياه الهراطقة، فاغتاظ البابا واتخذ خطوة أخرى وهي أنه أرسل مندوبين، هما رينريوس وجيدو، للتحري في أسباب الفشل، بعد أن زودهما بالسلطة الكاملة لإبادة الهراطقة. وكانت النتيجة أن قبض على الكثير من هؤلاء الناس المسالمين، وحكم عليهم بالحرق أحياء، ومع ذلك استمر ريموند ساكنًا، وكانت "الهرطقة" تزداد قوة ونموًا.

فما العمل؟ الحل في قوات جديدة وأعوانًا أشد نشاطًا وقسوة، فريموند بصفته أميرًا مستقلاً وعالمًا ببراءة رعاياه أبى أن ينفذ مطالب روما. وسان برنارد، بطل روما المغوار، كان قد مات، فالتجأ البابا إلى خلفاء سان برنارد، فأرسل واحدًا منهم يسمى الراهب بطرس أوف كاستيلنو كنائب رسولي، لكي يطلب من ريموند أن يبيد رعاياه الهراطقة بالسيف والنار، ولكن الأمير الذي يبدو أنه كان شخصًا أنيقًا محبًا للهو والسرور، وليس قوي الإرادة بدرجة تمكنه من أن يكون إما هرطقيًا صحيحًا أو كاثوليكيًا متعصبًا، أبى أن يُطيع المرسوم البابوي. ولم يفلح الإلحاح في إقناعه، فرفض مرتين، وحُرم مرتين، ووضعت جميع ممتلكاته تحت الحرمان الخطير. ووافق إنوسنت على ما فعله مندوبه وأرسل لريموند خطابًا لا مثيل له في التاريخ من العجرفة والوقاحة في الأسلوب، وإليك شيئًا منه: "تبًا لك من رجل مفسد عاث فاسد، وطاغية مستبد غطريس! ما هذه الكبرياء التي ملأت قلبك، وهذا الغباء الذي ملك ناصية عقلك حتى تأبى السلام مع جيرانك، وتقاوم النواميس الإلهية بحمايتك لأعداء الإيمان! إن لم تخف من النار الأبدية أفلا تجزع من العقاب الأرضي الذي جلبته على نفسك بجرائمك الكثيرة؟ ثق أن الكنيسة لا يمكن أن يكون لها سلام مع رئيس السراق واللصوص، حامي الهراطقة، محتقر المواسم المقدسة، صديق اليهود والمرابين، عدو الكهنة ومضطهد يسوع المسيح وكنيسته، ها إن ذراع الرب ستظل ممدودة ضدك حتى تسحقك سحقًا فتصبح ترابًا ورمادًا. حقًا إنه سيريك كم هو صعب عليك أن تحاول الهروب من الغضب الذي جلبته بنفسك على رأسك".

هذه هي عينة من عينات السباب والهجو البابوي في العصور الوسطى. وقد يسأل القارئ لماذا كل هذا؟ الجواب ليس لخطية ارتكبها ريموند ولا لفساد في أخلاقه بالغًا ما بلغ هذا الفساد، بل

* «البمبادور» اسم كان يطلق على المغنيين الرحالة في فرنسا - المعرب.

لأنه أبى أن يكون جلاد البابا وآلة في يده لسفك دماء رعاياه المسالمين المخلصين العاملين. ولكن هكذا كانت قوة هؤلاء الشياطين المتجسدين في تلك العصور، حتى أرغموا ريموند أخيرًا بدافع الخوف والتهديد على التسليم والخضوع، فبعد تردد كثير أمضى معاهدة تعهد فيها بإبادة جميع الهراطقة من ممتلكاته، ولكنه مع ذلك كان بطيئًا في بدء عملية الاضطهاد، وإذ أدرك المندوب ذلك لم يستطع أن يكظم غيظه، بل انفجر بوابل من أقسى الأقوال سبابًا وهجوًا ضد الأمير داعيًا إياه بالجبان ومتهمًا إياه بالخيانة.

وأخيرًا جدد ضده حكم الحرمان بكامل عواقبه. وهل نعجب بعد ذلك إن ثارت ثائرة هذا الأمير الإقطاعي الكبير وامتلأت نفسه بالغضب من جراء هذه الوقاحة الجريئة من جانب ذلك الراهب؟ وقد قيل إنه صرح في ساعة من ساعات الغضب أنه سيجعل بطرس يدفع حياته ثمنًا لوقاحته، ومن المعتقد أن هذا التهديد سمعه أحد أتباعه، فذهب إلى المندوب في اليوم التالي، وبعد مناقشة حادة استل خنجره وطعن به جنب الراهب فأوقعه قتيلاً لوقته، وقد شُبهت هذه الحادثة بتلك التي وقعت قبل ذلك بقليل (كما يذكر القارئ) بين هنري الثاني ملك إنجلترا وتوماس بكت رئيس الأساقفة.

ريموند طريد روحي

وصل إنوسنت الآن إلى بغيته، إذ أعطته هذه الحادثة حجة كاملة لسكب جامات غضبه، أما القتيل فقد خُلعت عليه ألقاب الشهداء، وصدر المرسوم باعتباره شهيدًا كبيرًا، واعتبار ريموند مرتكب الجناية، وبذا أصبح طريدًا روحيًا محرومًا من حماية القانون، وصار على المؤمنين أن يعاونوا في إهلاكه، "هيا جنود المسيح" هكذا كتب إنوسنت لفيليب أوغسطس ملك فرنسا "أيها الملك المسيحي الصميم! هوذا الدم يناديك فاستمع لصراخه، وأعنّا على الانتقام من فعلة الشر. هيا أيها الأشراف، يا رجال فرنسا وأبطالها الصناديد، فإن أراضي الجنوب الغنية المشرقة ستكون لكم جزاء شجاعتكم". أما أمر التبشير بهذه الحرب الصليبية فقد عهد به إلى جماعة الرهبان البندكتيين وعلى رأسهم أرنولد رئيس الدير، وهو الذي يقول عنه ملمان "رجل حديدي القلب قد تجمعت فيه الكبرياء والقسوة والتعصب". وقد تصادف في هذا الوقت أن انضم إلى المرسلين الشريف دومينيك وهو الذي اشتهر من ذلك الحين كالمؤسس لمحاكم التفتيش ولجماعة الفرير الدومينيكان.

ولم يكن قلب هذا الأخير أقل قسوة من قلب أرنولد، بينما كان يفوقه في الخطابة وقوة التأثير. وسرعان ما ذاع التنديد بهذه الجريمة ومرتكبيها في كل مكان، وأصبحت جميع القلوب والأيادي على تمام الاستعداد للانتقام للإهانة التي لحقت بالله في شخص خادمه، وقد وُعد بجميع الامتيازات والغفرانات التي كانت من نصيب أبطال القبر المقدس لكل من يشترك في هذه الحرب الصليبية الجديدة ضد ريموند والألبينيين، وقد أخذ رجال الإكليروس في كل مكان يبشرون بكل غيرة وحماس بهذه الطريقة الجديدة لنوال غفران الخطايا والحصول على الحياة الأبدية، ويحرضون الناس على انتهاز هذه الفرصة النادرة الحدوث.

يقول السير جيمس ستيفنس: "لدى ذلك الجيل المغمور بالجهل والخرافة لم تكن هناك دعوة أحب للقلب من هذه الدعوة، فالأخطار والمتاعب وأشد أنواع الشقاء لازمت الصليبيين أثناء مسيرهم إلى بيت المقدس يحدوهم الأمل بنوال الفردوس الموعود، أما في حالة الحرب ضد الألبينيين فسيربح كل من يشترك فيها نفس الأجرة التي لا تثمن لا بشيء من إنكار الذات، بل الانغماس في كل الملذات، فكل من كان عليه دين سيُعفى منه، وكل من ارتكب خطية ضد نواميس الله ستغفر له، وفوق ذلك حياة أبدية سعيدة ينالها الواحد منهم، ليس بالعيشة المقدسة في المستقبل بل بحياة ملوثة بالإثم والجريمة، وليس بكبح جماح شهواتهم، بل بإطلاق العنان لأحط غرائزهم وإشباع أطماعهم على حساب شعب مسالم كانت ثروته تثير لعابهم، ووجوده يلهب حقدهم". إلى هذا الحصاد الخليط من السلب وسفك الدماء وغفران الخطايا الروحية ونوال الشهرة العسكرية، اندفعت جميع النفوس المفترسة الشريرة التي كانت تعيش في ذلك الجيل. وهكذا تحركت أوروبا كلها تأهبًا واستعدادًا للحرب المقدسة.

الحرب الصليبية الأهلية

تلبية لدعوة رجل واحد، وما هذا الرجل إلا راعي كنيسة المسيح الأعلى، اجتمع ثلاثمائة ألف جندي في عام ١٢٠٩م حول المقاطعات الموبوءة.

يقول بعض كتّاب ذلك العصر إن عدد الجنود كان نصف مليون، وكانوا جميعًا - ويا لها من سخرية خطيرة! - يحملون

شارة الصليب على صدورهم. كانوا يكوّنون ثلاثة جيوش مختلفة، على رأس كل جيش رئيس أساقفة يعاونه أسقف ورئيس دير. على أن أكبر قواد هذه الحرب المقدسة كان سيمون دي مونتفورت حاكم إحدى المقاطعات بجوار باريس. ونحن إذا نظرنا إلى هذه الشخصيات التي تقدمت صفوف هؤلاء المحاربين لقلنا إن الشيطان قد أحسن الاختيار حقًا وأبدع كل الإبداع في انتقاء آلاته: إنوسنت .. أرنولد .. دومينيك .. دي مونتفورت.. أسماء تحمل أسوأ الذكريات المرجفة في التاريخ، ويصعب القول أيًا منهم كان أشر من الآخر، أو أي قلب من الأربعة كان أقسى من أخيه.

أما ريموند فلم يكن على استعداد لمواجهة مثل هذا الجيش الجرار، ولذلك اضطر إلى التسليم. وهنا وعد الباب بالعفو عنه نظير شروط كانت صعبة وقاسية إلى آخر حد، فكان على ريموند:

١- أن يبرئ نفسه من تهمة قتل بطرس.

٢- أن يقدم دليلاً على إخلاصه بتسليم سبع من أحسن قلاعه.

٣- أن يكفر عن سيئاته الماضية بالتوبة الجهارية.

٤- أن يُصبح هو نفسه مُحاربًا صليبيًا ضد رعاياه.

شكى الكونت المسكين من قسوة هذه الشروط، ولكنها "مراحم البابا"، ولا بد من تنفيذها بالحرف الواحد. وعليه خضع ونال المحاللة في كنيسة القديس جيل بحضور ثلاثة رؤساء أساقفة وتسعة عشر أسقفًا. بعدئذ توجه إلى الكاتدرائية التي دُفن فيها بطرس، وهو عاري الكتفين وحول عنقه حبل طويل يمسك طرفيه اثنان من الأساقفة، وهنا بدأت عملية الجلد، وسُلطت على جسمه السياط ليس كمجرد تتميم رسميات، بل "بنية خالصة ومن كل القلب"!! حتى سال الدم بكثرة وغطى كل جسمه، وبعد ذلك سُمح له بأن ينجو من معذبيه ويهرب لنفسه من أمام الجماهير المحتشدة، التي جاءت لتشاهد مليكها التاعس وهو يجتاز هذا الإذلال الذي لا يكاد يُصدقه عقل. على أن هذا لم يكن الكل، فقد أُرغم على مرافقه المحاربين ضد رعاياه المخلصين وضد ابن أخيه ريموند روجر، أمير مقاطعة بيزير، الذي قيل إن أراضيه كانت تموج بالألبينيين الممقوتين.

فبعد أن أروى البابا غله بهذا القدر من الانتقام، وبعد أن أذل عدوه هذا الإذلال أمر الجيش المقدس بالفتك ببلاده العامرة الجميلة، فأخذ ثلاثمائة آلاف من الجنود المتعطشين يغيرون على تلك المدن الهادئة، بعد أن صاح فيهم كبير كهنتهم: "إلى الأمام أيها الجنود البواسل، أتلفوا كل حقل. اذبحوا كل إنسان أضربوا ولا تشفقوا، قد امتلأ كأس إثمهم، وهوذا بركة الكنيسة تحل على رؤوسكم". هكذا أمر الكاهن المقدس واستعد دي مونتفورت للعمل، فسار الجيش الكبير في أرض الكروم والزيتون، يحرق ويُخرب ويقتل الفلاحين المساكين في غير رحمة ولا إشفاق.

مذبحة بيزير وإحراقها

أما ريموند روجر، وهو فتى في الرابعة والعشرين من عمره، فقد أظهر شجاعة أكثر من عمه، وصمم على الدفاع عن شعبه مهما كلفه الأمر. كانت أهم حصونه بيزير وكاركاسون، فترك حاميه في الأولى واتجه هو إلى الثانية. أما "جنود الصليب وكهنة الرب" كما كانوا يسممون أنفسهم، فظهروا أمام بيزير. كان كاهنها ضمن الجيش، فأمره أرنولد أن ينصح الشعب بالتسليم، فنصحهم هذا أن "اتركوا أفكاركم وخلصوا حياتكم". فأجاب الألبينيون بكل عزم وحزم أنهم لن يتركوا إيمانًا يقدم لهم ملكوت الله وبره. وقد اشترك الكاثوليك مع إخوانهم "الهراطقة" فأعلنوا أنهم لن يسلموا ولو كان في ذلك موتهم الزؤام. وعندئذ صاح أرنولد: "إذًا لن يُترك حجر على حجر، وليكن الرجال والنساء والأطفال فريسة السيف والنار". وسرعان ما سقطت المدينة في أيدي المحاصرين وتنفذ الأمر بكل قسوة وفظاعة. ووقف القواد عند الأبواب وسألوا رئيس الدير كيف يمكن للجنود أن يميزوا الكاثوليك من الهراطقة؟ فقال له هذا "اذبحوهم جميعًا. يعلم الرب الذين هم له"، وعندئذ ابتدأت المذبحة فكان السيف يحصد الرجال والنساء والأطفال بلا تمييز، ونواقيس الكاتدرائية تقرع حتى انتهت المجزرة. وهرعت الجماهير المرتعدة إلى الكنائس لعلها تجد ملجأ داخل الجدران المقدسة، إلا أن هذا لم يغنيهم فتيلاً ولم يفلت من السيف مخلوق بشري واحد، فأصبح سكان بيزير جميعًا أكوامًا من الجثث الآدمية مكدسة بعضها فوق بعض، بعد أن كانوا بالأمس يملأون شوارع المدينة وأسواقها حركة ونشاطًا، حتى أنه يُقال إن عدد الذين راحوا ضحية هذه المجزرة كان يتراوح بين العشرين والمائة ألف، فجماهير عديدة هربت من القرى في ذلك الوقت لعلها تجد مأوى في المدن، ولذلك لم يكن في الإمكان تحقيق العدد بالضبط. وما كادت المذبحة تنتهي حتى أُطلق العنان للجنود

يعيثون في المدينة سلبًا ونهبًا، وبعدئذ أشعلت النيران فاندلعت ألسنتها في كل مكان وصارت المدينة كلها كالأتون المتقد.

حقًا لم يَقُل قط ذلك التنين الراهب كلمة حق في حياته أصدق من قوله «يعلم الرب الذين هم له» ولو أنه فاه بها في سخرية مريرة، وكان هو نفسه بعيدًا كل البعد عن الجزء الباقي من الآية الكريمة «وليتجنب الإثم كل من يسمي اسم المسيح» (٢تي٢:١٩). نعم. إن الرب بكل تأكيد يعلم جميع الذين هم له، وأضعف قديس له غلاوة عند الرب لا تُقدَّر، وسيأتي اليوم قريبًا الذي فيه يرى أرنولد أولئك الذين اعتبرهم هراطقة وذبحهم بالسيف، يراهم وهم في نفس المجد مع سيدهم. يا له من يوم فيه يقف أولئك السفاحون القساة وجهًا لوجه أمام ذاك الذي يدين بالعدل والبر. وإلى أن يأتي ذلك اليوم ليتنا نسير بالإيمان وليس لنا غرض سوى إرضاء الرب وعمل مسرته.

حصار كاركاسون

بعد أن تلاشت بيزير وأصبحت كومة محترقة، تقدم الصليبيون إلى ناحية كاركاسون، وكانوا كلما حلوا في مكان على طول الطريق وجدوه بائسًا خربًا، إذ ملأ رعب بيزير قلب القرويين المساكين، فهجروا قراهم الوادعة الآمنة لما رأوا دخان المدينة القوية يتصاعد إلى العلاء، وهكذا كان الويل والخراب ماثلين في كل خطوة يخطوها هذا الجيش الشيطاني، حتى وصلوا إلى أسوار كاركاسون، وهناك كان يرأس الحامية روجر نفسه، واستطاع أن يقاوم المحاصرين مدة طويلة وبشجاعة نادرة المثال. كان سيمون دي مونتفورت في طليعة المهاجمين، بينما كان روجر على رأس المدافعين معرضًا نفسه للخطر في كل مكان، وشاحذًا لهمة الجنود تارة بكلمات التشجيع، وتارة بإعطائهم المثل بنفسه في العزم والثبات. واستمر الحصار مدة أربعين يومًا، ارتد بعدها المحاصرون بعد أن تحملوا خسائر كبيرة، ولولا خيانة الكاهن لكان النصر حليف ريموند روجر، ولكن على هذه الصورة انجلى الموقف.

كان على جنود الصليب أن يخدموا أربعين يومًا فقط لكي ينالوا فخار الصليبيين وكافة امتيازاتهم المقدسة، وفي نهاية المدة رجع أكثر القواد وجمهرة الجنود إلى بلادهم يائسين ساخطين، فشدة الحرارة وقتذاك وقلة المياه وفساد الجو بكافة الميكروبات الناتجة عن الجثث غير المدفونة، علاوة على وحشية الكهنة وقسوتهم وخيانتهم، جعلت الأكثرين يرحبون بانتهاء المدة. إزاء كل هذه الظروف السيئة والانحلال الذي حل بالجيش لم يجد أرنولد رئيس الدير إلا أن يلتجئ للمكر والخديعة وحيل الشيطان، فاستمال روجر، الكونت الشريف الشجاع، إلى عقد مؤتمر للصلح، فتوجه هذا إليهم في ثلاثمائة رجل من أتباعه بعد أن أقسم له رئيس الدير وباقي الأشراف الذين معه أنهم إنما يقصدون خيرًا ولا يبغون سوى الصلح والصداقة. غير أن القسم لم يكن جديرًا بالحفظ والوفاء مع هرطقي رهيب كهذا، فلم يكد روجر يفوه باقتراح شروط الصلح إلا ووقف رئيس الدير معلنًا أنه لا محل لحفظ العهد والأمانة مع رجل قد خان إلهه، وعلى ذلك أمر في الحال بوضع الكونت في السلاسل والأغلال وزج به في السجن مع أتباعه. على أن روجر لم يبقَ طويلاً في هذه المذلة والآلام بل خلص من جميعها بالموت، إذ قتله سيمون حسبما أشيع في ذلك الحين. وحزن الناس على فقد رئيسهم فهجروا المدينة بهروبهم من سرداب تحت الأرض. أما الكهنة فقد طابوا نفسًا بالقبض على حوالي أربعمائة شخص، وأجروا فيهم عملية الشنق والإحراق بتهمة الهرطقة.

وقعت الآن مدينة كاركاسون في أيدي أتباع البابا، وأصبحت مقاطعة ريموند روجر تحت تصرفهم المطلق بمقتضى قانون الفتح، فقام المندوب البابوي وكهنته وقدموا هذه الأراضي الغنية لسيمون دي مونتفورت كباكورة غنائم الانتصارات المجيدة على الهراطقة، ونادوا به أميرًا لبيزير وكاركاسون بعد أن وُعد بأن يتولى أملاكه الجديدة، شريطة دفع جزية سنوية للبابا كالرئيس الأعلى للمقاطعات المفتوحة.

وافق البابا على انتخاب سيمون مع ما في هذا العمل من انتهاك صارخ مُخزٍ لمبادئ العدالة ولنصوص المعاهدات. غير أن ملك أراجون أبى الموافقة على هذا التعيين. ومع أن الانتصار كان بحسب الظاهر كاملاً إلا أنه في الواقع لم يكن كذلك، فدوق برجنديا وكثيرون من أشراف فرنسا الآخرين انسحبوا من الحرب لاستيائهم الشديد من هذه الأعمال الوحشية من جانب رجال البابا، ولم يعُد في مقدور سيمون المحافظة على مركزه بالقوة الصغيرة التي بقيت معه، فكثير من المدن والحصون التي استولى عليها الحزب البابوي ضاعت من أيديهم مرة ثانية وتجددت الحرب بصورة أشنع من ذي قبل، فهلك العدد الكبير من الطرفين. وملأ اليأس قلب سيمون فكتب

إلى أساقفة المسيحية جمعاء يناشدهم أعداد جيوش جديدة. وضربت أبواق روما مرة ثانية، وارتفع في كل مكان صوت التبشير بحرب صليبية جديدة. يقول جرينوود "إن أسرابًا من الرهبان خرجت هذه المرة من صوامعها وأديرتها التي لا عدد لها، ينادون بهلاك الهراطقة والغفران المطلق لكل من يسفك دماء هؤلاء الملاعين، فما من جريمة مهما كانت سوداء، وما من رذيلة مهما كانت متأصلة في القلب، إلا وتمسح مسحًا كاملاً بمحاربة هؤلاء المنبوذين أربعين يومًا. فكل ذنب يُمحى غير تارك وراءه أدنى أثر للشعور بالندم أو لوم الضمير". انجذب الناس وراء هذه الأماني الخلابة التي تعدهم بغنائم أرضية عظيمة في بلاد الجنوب المشرقة، وبسعادة أبدية أكيدة في السماء، فأخذوا ينضوون تحت راية سيمون أفواجًا لا حصر لها. وفي سنة ١٢١٠م وصلته قوات جديدة كبيرة تحت قيادة زوجته، وبدأت الحرب مرة ثانية بهول جديد.

القضاء على ريموند مقرر

كان خضوع ريموند السادس للشروط البابوية خضوعًا كاملاً، فقد سلَّم حصونه، وتجرع شخصيًا كأس المذلة حتى الثمالة، ورافق المحاربين رغم أكتافه الدامية ضد قريبه روجر، وكان على الكنيسة بكل تأكيد أن ترضى بذلك وتبدي موافقتها وتقبله مرة ثانية في أحضانها. غير أن الواقع بالأسف كان على عكس ذلك تمامًا. صحيح أن البابا ادعى بمكر مدهش قبوله كابنه المطيع، وبرّأه من تهمة قتل بطرس المزعومة، وأعطاه عباءة وخاتمًا، وقد رجع الكونت بهذه الهدايا إلى بلاده متوقعًا أن مندوبي البابا سيوافقون على شروط رئيسهم، ولكن - ويا لها من ذكرى مريرة - قد رفع التاريخ النقاب عن حقيقة المسألة، فكانت أكبر فضيحة ظهرت في الوجود وأبشع خيانة تلطخت بها سياسة حاكم ما، ففي خطاب أرسله هذا البابا لمندوبيه في تولوز اقتبس كلمات الرسول تبريرًا لخداعه ومسلكه المشين «لكن إذ كنت محتالاً أخذتكم بمكر» (٢كو١٢: ١٦) وزاد على ذلك قائلاً "فنشير عليكم مع الرسول بولس بأن تستعملوا المكر والخداع مع هذا الكونت، لأنه يجب أن يُسمى المكر في هذه الحالة حكمة. علينا أن نهاجم على انفراد جميع من انفصلوا عن الوحدة، فاتركوا الآن هذا الكونت وتظاهروا أمامه بالصداقة والمسالمة حتى بذلك يمكن التغلب على الهراطقة الآخرين بأكثر سهولة، وبعدئذ يكون في استطاعتنا سحقه سحقًا نهائيًا عندما نكون قد قضينا على الآخرين وبقي هو وحده منفردًا".

كان من الطبيعي أن يطلب الكونت بسلامة نية تنفيذ قرار البابا، ولكن المندوبان الماكران ثيودسيوس وأرنولد، اللذان كانا على علم بسر سيدهما، كانا مبيِّتين النية على خلاف ذلك. فالتجأ إلى المماطلة والأخذ والرد حتى يئس الكونت من قضاء مسألته على أيديهما، وعندما أخبراه أنه لم يبرئ نفسه للآن من جريمتي الهرطقة والقتل، وأنهما لذلك لا يستطيعان تحليله، انفجر بالبكاء وذرف الدموع. وقد قابل رجلا الكنيسة القساة القلوب هذا الموقف المؤثر بالهزء والسخرية، مقتبسين القول الكريم بشيء من التحريف «(حقًا) عند غمارة المياه الكثيرة إياه لا تُصيب» (مز ٣٢: ٦) وأردفوا ذلك بإعلان الحرمان عليه من جديد.

غرض الكاثوليك الحقيقي

لقد وضح الآن أمام القارئ ذلك الغرض الخفي الذي كان يرمي إليه سرًا هؤلاء الناس، الذين كانوا ولا شك ينقادون بواسطة الشيطان، وإنها لقضية نابوت القاسية القديمة تتكرر مرة أخرى في التاريخ، فإيزابل كان لا بد أن تضع يدها على أرض الجنوب الجميلة لتكون كرمًا لها، ونابوت اليزرعيلي المسكين كان لا بد أن يسفك دمه بأي حال، وها قد رأينا من أوامر البابا السرية التي بعث بها لمندوبيه إنه لم يكن يقصد فقط القضاء على ريموند وحده، بل على جميع أمراء مقاطعة لانجدوك، وأنه قد أغوى الكونت ريموند بصلح كاذب حتى بذلك يفصله عن بقية الأشراف، لكي يتسنى له بأكثر سهولة القضاء عليهم منفردين الواحد بعد الآخر. تلك كانت سياسة إنوسنت كما سجلها بيده وكما لا تزال موجودة في بطون السجلات الرسمية، بحيث لا يمكن لأحد إنكارها. ولم يكن المندوبان إلا تلميذين مطيعين لمعلمهما. على أن جشع سيمون وحلفائه الكهنة لم يكن ليقنع بأقل من جميع ممتلكات ريموند وأتباعه، ولذلك صمموا على إدخال الأشراف الآخرين في المسألة، واعتبار أملاكهم موبوءة بالهرطقة ولا بد من القضاء عليهم جميعًا.

كان الكونت أوف تولوز ملكًا على خمس مقاطعات كبيرة، على رأس كل منها والٍ أو أمير، وكان هؤلاء الأمراء يتنافسون في جعل بلاط كل منهم يفوق الآخر في العظمة والأبهة، حتى أنه يقال

إن حياة هؤلاء الأمراء كانت سلسلة أعياد وملاه، فالبعض منهم اشترك في الحروب الصليبية في الشرق ورجعوا إلى موطنهم بكثير من العادات الشرقية التي أدخلوها في بلاطهم، فجعلتها أشبه شيء بقصص ألف ليلة وليلة. ولم يكن هؤلاء الأمراء يعبأون كثيرًا بالفروقات الدينية، فهم وإن كانوا كاثوليك ظاهريًا إلا أن دينهم في الواقع كان الفروسية وقيثارة البمبادور وأغانيهم. على أنه كانت هناك حالات فردية كريمة حقًا، فنحن نستطيع أن نعثر على الحبل الفضي لنعمة الله الغنية بين هؤلاء الأمراء المترفهين، فنقرأ مثلاً عن ألمريك أمير مونتريال وأخته لادي جيرالدا أوف فيتفيل اللذين كانا من الألبيين، وقد دافعا دفاع الأبطال عن مدنهما ضد الكاثوليك، ولو أنهما غُلبا على أمرهما وهلكا مع آخرين كثيرين من رجال والسيدات والأشراف، فقد اقتيد ألمريك مع ثمانين من الأشراف أمام دي مونتفورت، الذي أمر في الحال بشنقهم جميعًا، ويُقال أن المشانق انكسرت من ثقل ما تعلق بها، فصدر الأمر بتقطيعهم إربًا. أما اللادي جيرالدا فطُرحت في بئر عميق وانهالت عليها الأحجار الضخمة وهي في أسفل البئر، وهكذا لم يفلت من مذبحة فيتفيل العامة سوى أفراد قلائل لكي يخبروا بهول ما لاقوا. على أن هذا لم يكن نصيب فيتفيل وحدها، بل تشاركت فيه جميع المقاطعات الجنوبية على حد سواء، فالمسيحي الحقيقي ورجل البلاط الأنيق والفارس الشجاع وجمهور الناس الذين ألهتهم الملاهي والمسرات عن أن يكونوا إما هراطقة أو متعصبين، كل هؤلاء بلا أدنى تمييز كان عليهم إما أن يخضعوا لشروط البابا أو لحبل المشنقة أو للحريق.

فلكي يصلوا إلى غايتهم ماذا يعملون؟ اتهموا كل مقاطعات الجنوب بتهمة التستر على الهراطقة اللاجئين إليها، وأعلنوا ريموند بصفته الرئيس الأعلى بالحضور أمام مجلس في آرل، وهنا بانت نواياهم وانفضحت أسرارهم ورفع الستار عن آثامهم الردية وأعمالهم الوحشية. حضر الكونت برفقة صديقه بدرو، ملك أراجون، وهو رجل كاثوليكي مخلص، وهذا تولى الدفاع عن ريموند وعرض أن يكون ضامنًا لإخلاصه وعهوده. أما الشروط التي فرضوها للصلح فهي كالآتي:

"على الكونت ريموند أن يسرح جيشه، وأن يهدم جميع حصونه وقلاعه، وأن يستدعي جميع قواده المعسكرين في المدن الكبيرة ذات الأسوار. وأن يتنازل عن جميع الرسوم والضرائب التي تكوّن الجزء الرئيسي من دخله. وأن يلزم جميع سكان ممتلكاته بما فيهم الأشراف والعامة بلبس ثوب الاعتراف والتوبة. وأن يسلم جميع رعاياه المتهمين بالهرطقة لكي يعودوا إلى مذهبهم أو يحرقوا بالنار. وأن يحفظ نفسه هو شخصيًا على تمام الاستعداد للسفر إلى فلسطين للخدمة تحت إمرة القديس يوحنا الأورشليمي إلى أن يستدعيه البابا. وأن يدفع كل رئيس عائلة جزية سنوية لمندوب البابا مقدارها أربع بنسات. وأن يكون مطيعًا للكنيسة وأن يقوم بدفع جميع النفقات التي تفرضها عليه، وأن يكون كل حياته خاضعًا مطيعًا دون أي اعتراض. وعندما يقوم بتنفيذ هذه الشروط جميعها تعاد إليه أملاكه بواسطة المندوب والكونت دي مونتفورت"[٤٢/١٣][٤٣/٤][١/٥١]. وهنا نرجو القارئ أن يلاحظ هذه الشروط جيدًا، لأنها تظهر مبلغ كبرياء البابوية وعجرفتها الغريبة في تلك الأيام.

إن النية التي كان ينطوي عليها هذا التعسف الجديد لم تخفَ على أحد، ولم يكن من الكونت التاعس إزاء هذا القرار من مجلس آرل إلا أن يمتطي جواده ويهرب به مع وسيطه وشفيعه ملك أراجون، وعندئذ نطق المجلس بالحكم الآتي: "إن الكونت أوف تولوز قد وُجد هرطقيًا صريحًا، عدوًا للكنيسة ومرتدًا عن الإيمان وقد أصبحت أملاكه نصيبًا لمن يحتلها أولاً". هذه الشروط والقرارات تعطي للقارئ فكرة بسيطة عن الكيفية التي حاولت بها الكنيسة في تلك الأيام، تحت ستار أقدس الكلمات والادعاءات، القضاء على رجل شريف لكي تحصل لنفسها على ثروته وأراضيه. وقد كان هذا هو الحال في كل مكان. فالأمير وشعبه كان لا بد أن يغرقوا جميعًا في الدماء أو يُحرقوا بالنار إن لم يسلّم أملاكه بالتي هي أحسن، وكل نابوت كان مرغمًا على تسليم كرمه لإيزابل إن هي طمعت فيه. وليتذكر القارئ قبل أن نترك هذه النقطة، أنه في نفس هذه اللحظة التي كان البابا فيها عاملاً مع مندوبيه على القضاء على الكونت وأتباعه، كان عضوا محكمة التفتيش دومينيك ورينريوس مشغولين في حملة "استطلاع ديني في جميع أراضي الهراطقة" مزودين من البابا نفسه بكامل السلطة للحكم بالإعدام على كل هرطقي مهما كان. تلك المحكمة المخيفة التي كانت ولا تزال تحمل اسم "محكمة التفتيش" بدأت كيانها في تلك السنة التعيسة ذات الذكريات المرجفة، سنة ١٢١٠م في حصن قريب من ناربون.

الحرب تغير صفتها

أسرع الكونت ريموند إلى تولوز وهناك أمر بأن يُقرأ قرار الحرمان وشروط الصلح القاسية بصوت عالٍ على الجماهير، فعندما سمع الناس هذه الشروط ثارت ثائرتهم وأعلنوا أنهم يفضلون الموت على أن يستسلموا لمثل هذا العار. وبقدر ما كانت تنتشر الأخبار من مدينة إلى أخرى كان يزداد حماس الشعب، حتى أصبحت البلاد كلها مستعدة للموت ذودًا عن كيانهم وشرفهم. وهنا تغيرت صفة الحرب تغيرًا كليًا، فقد ظهر عيانًا للجميع أن الغرض الحقيقي الذي انعقدت عليه نية الصليبيين هو غزو هذه المقاطعات لتحويلها إلى إمارات خاضعة لبابا روما، ولذلك أجمع أهالي المقاطعات جميعًا على الوقوف في وجه الصليبيين المرائيين، كما صمموا على تحرير أنفسهم كلية من أغلال روما ونيرها القاسي. وبذلك تطورت الحرب وانحطت أغراض الصليبيين الدينية بحسب الظاهر إلى مطامع جسدانية قوامها السلب والنهب وهتك الأعراض. وهكذا أصبحت كل الأمة في حالة ثورة عارمة ضد الكنيسة الرسمية كما لو كانت مغيرًا أجنبيًا.

أعلنت الحرب، ودارت رحاها ولكن الطرفين المتحاربين لم يكونا متكافئين، فريموند على ما يظهر كان ملكًا لطيفًا رقيق الجانب وغير نشيط، محبوبًا لدى شعبه، وليس له من المطامع سوى أن يتنعم بملذات ومسرات هذه الحياة، وليس هناك أدنى دليل على أنه كان ميالاً لمذهب الألبيين، بل الواقع أنه من الوجهة الرسمية كان كاثوليكيًا. أما سيمون دي مونتفورت، قائد روما العام وبطلها المغوار، فكان معروفًا بأنه أشجع وأمهر قواد عصره وسيف البابوية الرهيب، وكان متمسكًا بطقوس عقيدته، ويسمع القداس يوميًا. غير أنه، كما قال عنه آخر: "مع صفاته الحسنة امتزجت بعض الرذائل التي كثيرًا ما تقرن نفسها بالادعاءات الدينية السامية لكي تعمل تحت ستارها على إشباع نفسها، فكان رجلاً ذا مطامع كبيرة، ذا ضمير موسوم، لا يبالي باتباع أشنع الوسائل للوصول إلى أغراضه، ذا قلب كالصوان لا يتأثر أدنى تأثر بمصائب البشر وآلامهم، مضافًا إلى ذلك جشع مفضوح وميل متطرف للسلب والنهب"(٣/٣١). هذا هو سيمون دي مونتفورت، الذي سار على رأس جيش جديد من الصليبيين إلى تولوز تنفيذًا لحكم الكنيسة، وطمعًا في نوال جائزة أملاك ريموند الغنية، وقد تلطخت كل خطوة من خطواته بأشنع الأعمال البربرية من ذبح وسلب وإتلاف، فالهراطقة أو من يشتبه فيهم بأنهم هراطقة كانوا يُرغمون بواسطة المندوب أرنولد ودي مونتفورت على أن يتسلقوا كومة عالية كبيرة من الوقود المشتعل، بينما الرهبان يقفون من بعيد يتلذذون بمنظر هذه الآلام الفظيعة، ويستهزئون بصراخ وعويل النساء اللواتي كن يحترقن في النار.

وهكذا أصبحت جميع المملكة، كلما كان يتقدم الجيش البابوي في مسيره، مشهدًا مؤلمًا للفظائع التي يعجز عنها كل وصف، فكانوا يفسدون الكروم ويتلفون الحقول ويحرقون القرى، ويقتلون الفلاحين الآمنين رجالاً ونساء وأطفالاً، وهكذا نشروا الخراب والدمار في كل مكان. وبعد ذلك كانوا يتكلمون عن غيرتهم المقدسة للكنيسة والدين. وبالطبع حاول الناس المظلومون أن ينتقموا لأنفسهم، فكانت حرب وحشية بين الجانبين. على أننا لا بد أن نترك التفاصيل للتاريخ العام، فبعد أن أوضحنا بواعث البابا ونواياه في هذه الثورة التي لا مثيل لها ضد البشرية والدين، وحاولنا أن نبين ذلك بقدر ما استطعنا من إيجاز، نود فقط أن نشير إلى المواقع الرئيسية التي حدثت في هذا العراك العنيف، والتي وضعت حدًا له، وخصوصًا لأنها تبين بصورة قد تكون أكمل وأوضح مما سبق صفات سيمون ورهبان شيتو بإرشاد وموافقة رئيسهم البابا.

فظائع سيمون وأرنولد

كان لزامًا على سيمون دي مونتفورت بصفته أميرًا لمقاطعتي بيزير وكاركاسون، وبحكم تبعيته للكنيسة أن يبيد الهراطقة، ولذلك بدأ حملته، وسرعان ما سقطت في يده مدن وقلاع كثيرة، بعضها بالقوة وبعضها بالإرهاب والتهديد. أما في أبروشية ألبي معقل التعاليم الممقوتة، فالحرب كانت على أشدها قسوة ووحشية، فعندما سقطت مدينة لامينرف القريبة من ناربون بعد حصار عنيد، اقتراح واحد من الفاتحين، وكان لا يزال في قلبه شعاع من الرحمة، أن يعفى عن السكان إن تركوا هرطقتهم. على أن مثل هذا الشرط الهيّن لم يُرضِ الرهبان القساة الذين صاحوا قائلين "هذه شروط هزيلة. نحن أتينا هنا لنبيد الهراطقة وليس لنعطف عليهم". فأجابهم أرنولد في سخرية قاسية "لا تجزعوا. فلن يتوب منهم الكثير". وقد صدق فيما قال، ولكن ليس بالمعنى الذي كان يرمى إليه، فكان قصده أنه سيقتل الكل، بينما كانت نيتهم وعزمهم الأكيد أن يواجهوا الموت دون أن يخضعوا للشروط البابوية، وعليه

اجتمع الألبينيون معًا للصلاة، وقد وجد رئيس دير فو جماعة من النساء المسيحيات مجتمعات معًا في بيت ومشتركات بكل هدوء في الصلاة وانتظار ما قد يصيبهن من سوء. لم تكن أولئك النسوة تتوقع آية رحمة من أولئك الآباء القديسين، وكن على استعداد تام للموت. كذلك وجد هذا الرئيس عددًا من الرجال جاثين على ركبهم في بيت آخر، ومتوقعين نهايتهم بكل هدوء وسكينة. ابتدأ الرئيس يكلمهم بتعاليم البابوية ومبادئها، ولكنهم جميعًا قاطعوه بصوت واحد قائلين "لن نقبل شيئًا من تعاليمك وقانون إيمانك. قد رفضنا رفضًا باتًا كنيسة روما، وعبثًا كل مجهوداتك، لأنه لا الموت ولا الحياة ولا شيء آخر مهما كان يستطيع أن يجعلنا ننكر الحق الذي نحن به متمسكون". بعد ذلك طلب إلى دي مونتفورت أن يتكلم معهم، فتوجه هذا إلى الرجال أولاً ثم النساء، وكانوا جميعًا حوالي مائة وأربعين، قائلاً لهم: "أرجعوا إلى الإيمان الكاثوليكي أو اصعدوا إلى هذه الكومة"، وكان قد أعد لهم سابقًا كومة من الوقود، ولكن واحدًا من الألبينيين لم يتزعزع لحظة، بل أنكروا جميعًا سيادة البابا وسلطان الكهنوت، ولم يعترفوا برئيس سوى المسيح، ولا بسلطان سوى لكلمته المقدسة. احتد دي مونتفورت غيظًا من هذا الثبات الهادئ، فأمر بإشعال النيران في الكومة وسرعان ما تحولت هذه إلى آتون متقد، ولم يكن من المؤمنون الشجعان باسم الرب يسوع سوى استيداع أرواحهم بين يديه، والتقدم طوعًا وبخطوات ثابتة إلى كومة الحريق، وكأنهم كانوا يصعدون إلى السماء في مركبة من نار.

وعندما سقط حصن برو في أيدي المحاصرين أمر دي مونتفورت بتقليع عيني أكثر من مائة من المدافعين، ممثلاً بهم أشنع تمثيل، تاركًا عينًا واحدة لأحدهم لكي يستطيع أن يقود الباقين "ليس لأن الكونت كان يسر بمثل هذه الأعمال، (هكذا يقول رئيس دير فوسرناي) لأنه كان أحلم وألطف جميع الناس، بل لأنه أراد فقط أن ينتقم من الأعداء". هذا هو حكم المؤرخ المترهبن.

أما في لافور، مدينة الكونت دي فوا، فأعمال الهمجية التي ارتكبت فاقت عن كل ما عداها، فالولدانسيين يقولون إن الكونت كان واحدًا منهم، ويقول عنه ملمان "كان الكونت دي فوا أقوى الأمراء وأكثرهم مكرهة لدى كنيسة روما بصفته حامي حمى الهراطقة، وفي هذه الحالة كانت التهمة شرفًا لا عارًا، فكان رجلاً متدينًا بمعنى الكلمة، وكان أول من رفع علم الجهاد ضد دي مونتفورت، وكان بطلاً في الشجاعة كما في الإيمان المسيحي". وبعد حصار طويل سقطت المدينة في أيدي المحاصرين، وكانت بعد ذلك مذبحة من أشد المذابح هولاً، فالرجال والنساء والأطفال كانوا يُقطّعون إربًا، ولم يبقَ سوى العدد القليل من رجال الحامية لأن مصيرًا أفظع كان مُعدًا لهم، وقد أُحرقت أربعمائة نفس في كومة واحدة، وكان ذلك سبب فرح عام في كل المحلة، وفي وسط هذا التهليل بكل هذه الفظائع الشيطانية وقف الأساقفة والرهبان ينشدون ترتيلة "تعال أيها الروح القدوس". عندئذ جاءوا باللورد ألمريك مع ثمانين من أشرافه أمام دي مونتفورت، حيث أمر بشنقهم جميعًا كما رأينا، وكان ذلك في ذات مكان تعذيب اللادي جيرالدا التي يُقال عنها "إن فقيرًا واحدًا لم يترك بابها دون إطعام"[(٤/٤٣)(٣٨)].

حصار تولوز

من كومة الحريق المشتعلة في أربعمائة نفس بشرية، ومن المشانق المحملة بأشرف الرجال وأعظم اللوردات، من هذا المكان الخطير الذي يبعث على الأسى والحزن، والذي كانت تضحى فيه الإنسانية صارخة إلى إله السماء من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، من هذا المكان عينه تقدم بطلها وقائدها المغوار لحصار تولوز. فالانتصارات العديدة الماضية قد أثارت شراهته بدلاً من إشباعها، وكان يرجو أن يضيف إلى أملاكه أمارة تولوز، حتى بذلك يرفع نفسه إلى مرتبة الأمراء المستقلين. وكان الأسقف فوكيه في المحلة، هذا الأسقف الجديد الذي عينه البابا على أبروشية تولوز لكي يكون آلة نافعة في خدمة أغراضه، ويصفه المؤرخون كأفظع وأقسى وأنذل رجل ظهر على وجه البسيطة. وقد أبعد البابا سلفه لكي يخلي له مكانًا، حتى بذلك يستطيع أن يعمل على إهلاك الكونت داخل الأبواب، بينما الصليبيون يعملون لنفس الغرض خارجها. على أنه رغمًا عن خيانة فوكيه من الداخل، وبطولة سيمون من الخارج كانت الكفة الراجحة في جانب الكونت الذي أظهرت المحن والتجارب إنه كان الرجل الذي لم تعوزه الحكمة والشجاعة وقوة الإرادة، فقد جمع حلفاؤه وعهد إليهم بالدفاع عن أبواب المدينة، بينما توجه هو إلى الطابية ومن هناك أصلى المحاصرين نارًا حامية، جعلت سيمون يفك الحصار

ويرجع متقهقرًا، ولو أنه انتقم لنفسه في الطريق بإتلاف الحدائق والكروم وكافة الحقول. وبهذه الكيفية تغيرت المسألة تغييرًا كليًا، فبدلاً من أن يظل ريموند في موقف الدفاع انقلب فأصبح المهاجم العنيف، حتى أنه في مدى شهور قليلة استطاع أن ينتزع من أيدي الصليبيين معظم الأماكن التي كانوا قد احتلوها. هذا وقد كان مبدأ الأربعين يومًا كحد أقصى للخدمة العسكرية بحسب النظام الإقطاعي عقبة كؤود في سبيل سيمون، الأمر الذي جعل جيشه دائمًا في مد وجزر وتغيير وتبديل، حتى أن انتصاراته لم تكن تلبث أن تنقلب إلى هزائم. على أن هذا الانتصار من جانب ريموند لم يكن إلا انتقامًا وقتيًا ومنذرًا بهزيمة أروع ومصيبة أشد. فقد ارتفعت في كل مكان أصوات التبشير بحرب صليبية جديدة، وانضم إلى الجيش الجديد جماعة من المتدربين على الحرب لاشتراكهم سابقًا في حروب ألمانيا والشرق، بينما الوعد بالبركات الأرضية وبمملكة جميلة ثم السماء بعد ذلك جعلت الكثيرين من الناس يُقبلون على حمل الصليب، بعد أن انخرط في سلك الجيش أكبر الأساقفة وأعظمهم شأنًا. ارتاع الألبينيون المساكين لمقدم هذا الجيش العرمرم، فهجروا القرى والحقول يلتمسون لهم ملجأ في الجبال أو الغابات والمدن الحصينة، فشعر ريموند بضعفه أمام هذه القوة الهائلة، والتجأ إلى التحالف مع قريبه دون بدرو ملك أراجون، فلبى الدعوة هذا الأسباني الشجاع، ووعد بالمساعدة، ولكنه قبل أن يشترك في الحرب توجه إلى البابا بالتماس في صالح ريموند.

إزاء هذا الالتماس، وغيرة من قوة دي مونتفورت الآخذة في الازدياد. بدا قداسته إلى حين وكأنه يميل إلى تغيير سياسته، فأسر إلى مندوبيه عدم ارتياحه للموقف، لاستيلائهم على أراضٍ لم تتدنس مطلقًا بالهرطقة، وأمرهم بإعادة هذه الأراضي إلى الكونت دي فورا وآخرين، وقد أوقف في الوقت نفسه غفراناته للصليبيين. غير أن هذا المظهر من العدل لم يكن إلا عاطفة وقتية من جانب البابا، سرعان ما تحول عنها وسحب أوامره إزاء ما كان يرد إليه من مندوبيه ومفتشيه من رسائل نقتبس للقارئ واحدة منها "سلّح نفسك سيدي البابا بغيرة فينحاس. أصدر أوامرك بإبادة تولوز، تلك البلدة التي ما هي إلا سدوم وعمورة بكل ما حوت من أنذال جبناء. لا تدع الطاغية الهرطقي ريموند ولا ابنه الصغير يرفعان رأسيهما. هما الآن نصف مسحوقين، فاسحقهما حتى النهاية. واعلم سيدي أنه لن يمكن تطهير لانجدوك من أدرانها إلا بملاشاة تولوز نهائيًا وإبادة سكانها عن آخرهم. فلو سُمح لأتباع ريموند أن يرفعوا رؤوسهم لأدخلوا في نفوسهم سبعة شياطين أُخر أشر من الأول. فلتعمل حكمة سيدي الرسولية للقضاء على هذا الشر الوبيل. ليت يدك الكريمة لا تتخلى عن هذا العمل الجليل المقدس إلا بعد أن تكون حية موسانا قد ابتلعت حيات هذا الفرعون، وبعد أن يبيد جميع الجبعونيين وغير المختونين، فيفرح شعبك بالامتلاك الهادئ لأرض الموعد".

البابا يؤجل - موقعة موريه

رأى البابا نفسه الآن في مركز حرج، ولكنه استسلم أخيرًا لحكم الضرورة، فهو وحده الذي أثار الحركة من أولها، وإن كانت السلطة على إدارتها قد أفلتت من يده إلا أنه لم ير لنفسه أي حق في الشكوى، لأن أعوانه لم يكونوا إلا منفذين لأوامره وتعليماته، فاستسلم كما قلنا لحكم الضرورة وأرسل يوبخ ملك أراجوان توبيخًا شديدًا، رغم كونه أكبر نصير للقضية الكاثوليكية في الأراضي الأسبانية، متهمًا إياه بتصوير الأمور على غير وجهها الصحيح، ومهددًا إياه بحملة صليبية تغير على بلاده فلا تبقي ولا تذر، مؤيدًا من جديد حكم الحرمان ضد ريموند وحلفائه، ومُعلنًا في وجه الجميع أن دي مونتفورت هو خادم يسوع المسيح النشط، وبطل الإيمان الكاثوليكي الذي لا يُقهر، ولا بد له من الاحتفاظ بثمرة انتصاراته وفتوحاته. وصل الآن صبر ملك أراجون الطويل البال إلى منتهاه، وقد زاده رجال الإكليروس حدة وهياجًا بوقاحتهم وعجرفتهم المعهودة، فلم يرَ وسيلة يلتجئ إليها سوى السيف يضع به حدًا لهذه التصرفات الغريبة. وسرعان ما كان على رأس جيش كبير يعبر جبال البرانس الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا، حيث تقابل مع الصليبيين عند بلدة موريه على بعد تسعة أميال من تولوز. أما جيش الصليب فكان يتقدمه سيمون دي مونتفورت في كامل سلاحه العسكري، يحيط به سبعة من الأساقفة العُظام. ويقول جرينوود عن هذا الجيش: "إنه مع قلة عدده كان يحوي أشجع أبطال فرنسا بكامل عدتهم، وكلهم شوق وتلهف للانتصار على جيش الهراطقة، حتى بذلك ينالوا الفخار الأدبي أو يموتوا شهداء في ساحة الوغى، فيزفون توًا إلى حضرة القديسين في فردوس الخلد والنعيم".

دارت المعركة وكانت عنيفة وقصيرة وحاسمة، وانجلت عن هزيمة شنيعة لخصوم الصليبيين، إذ قتل دون بدرو وكثيرون من أشرافه، وتشتت الجيش لفقد قائدهم. أما جنود ريموند وحلفائه فقد تلاشوا عن آخرهم إما قتلاً بالسيف أو غرقًا في نهر الجارون.

بعد هذه النصرة العظيمة التي حازها الصليبيون في موقعة موريه أصبحت قضية الألبيين لا رجاء فيها، وبدا مصير هذه الأرض وكأنه قد تقرر إلى الأبد، فجُرد ريموند من جميع أملاكه، واعتُرف بدي مونتفورت أميرًا وواليًا على مدينة تولوز والإمارات الأخرى التي فتحها الصليبيون تحت قيادته.

وإذ رأى ريموند نفسه في هذا الظرف العصيب وقد أحاط به النحس من كل ناحية، وأصبح موضوع غضب الكنيسة وتهديدها، لم يستطع أن يُبدي أية معارضة، فقام فوكيه ووضع يده على قصر أسلافه آمرًا إياه باحتقار وقسوة تجل عن كل وصف أن يهجر المكان هو وعائلته، وأن يتواروا عن الأنظار. تلك كانت ولا تزال "مراحم" كهنوت روما حتى لأفراد قطيعهم إن هم فقط اعتُبروا عاصيين، فريموند لم يتهم بالهرطقة في يوم من الأيام، بل كانت كل تهمته حماية الهراطقة في بلاده، أو بعبارة أخرى رفضه القضاء على أخلص وأطوع رعاياه وذبحهم جميعًا كالأغنام بغير رحمة ولا شفقة. تلك كانت كل تهمته في نظر روما، وذلك كان جزاءه ومبلغ قصاصه منها.

الفاتحون يتشاجرون

بدا الانتصار كاملاً وأخذ الفاتحون يُقسمون الغنائم والأسلاب، فتشاجر أرنولد ودي مونتفورت حول دوقية ناربون، مدعيًا كل منهما التاج لنفسه، فالأول اتخذ لنفسه مركز رئيس الأساقفة، مؤكدًا أن هذه الوظيفة تحمل معها السلطان المدني أيضًا، بينما الثاني الذي اتخذ لنفسه لقب دوق ناربون شعر بالعار أن يقوم كاهن ويضع يده على السلطان الذي هو ملكه الرسمي بحق وظيفته كملك البلاد. تفاقم النزاع وأصبح خطيرًا، فأعلن سيمون أن أرنولد وأتباعه هراطقة! وأغار عليهم ووضع يده بالقوة على المدينة، بينما قام أرنولد من الجهة الأخرى وبحكم سلطانه الروحي بإيقاع حكم الحرمان على الصليبي العظيم، ووضع جميع كنائس المدينة تحت الحرمان. أما البابا فامتلأ بالغيظ والحسد من قوة هذين المنافسين الخطرين، ولكنه إذ رأى أنه لم يكن في إمكانه التدخل في المعركة بأي حال أمر بانعقاد مجمع لاتيران الرابع سنة ١٢١٥م، لكي يضع حدًا للحرب الصليبية ضد الألبيين، ويُقرر نهائيًا مصير الأراضي المفتوحة.

ذلك كان أكبر مجمع عُقد في المسيحية على الإطلاق، ولكننا لسنا في حاجة إلى التوغل في وصف إجراءاته، وإنما نقتصر فقط على ذكر ما له علاقة بموضوعنا. صدر الإذن لريموند وابنه ومعهما الكونت دي فوا وكثيرون غيرهم بالمثول في حضرة البابا والجلوس في مجمع كنسي كامل بين هيئة الكرادلة والأساقفة. وركعوا جميعًا أمام قداسته، وتقدم ريموند الابن الصغير، يحمل رسائل من خاله ملك إنجلترا معبرًا فيها عن سخطه الشديد على أعمال سيمون دي مونتفورت واغتصابه لميراث ريموند الذي لم يَجنِ ذنبًا. تأثر البابا بجمال الأمير الصغير وطلعته البهية، وتفكر مليًا فيما أصابه من ظلم وعنت، حتى لوحظ أن الدموع تترقرق في مآقيه، فهذا الشاب الشريف الذي يمُت بصلة النسب إلى جميع ملوك أوروبا، والذي لم يرتكب إثمًا ولم يُتهم بالهرطقة في يوم من الأيام، قد سُلب من حقوقه وميراثه بواسطة وكلاء البابا، وأصبح طريدًا منفيًا. بعد ذلك جاء دور الأب، فتقدم إلى البابا بنفس الأسباب، ثم تلاه الأشراف الآخرون يشكون ما أصابهم من ظلم المندوب ودي مونتفورت وما حل ببلادهم من نهب وسلب، وبرعاياهم المساكين من ذبح وقتل بلا رحمة ولا شفقة. أما أعمال فوكيه الوحشية فكانت أهم ما شهد به جميع الشهود، معلنين أنه الشخص الذي أهلك ما يزيد عن عشرة آلاف نفس من القطيع المؤتمن عليه والمُسلَّم لعنايته الرعوية.

ظهر البابا وكأن شيئًا من الشفقة أخذ يعمل في قلبه لرؤية هذا العدد الكبير من الأشراف المعزولين من عروشهم جميعًا كاثوليك. كذلك شعر الكثيرون من أعضاء المجلس بلوم في ضمائرهم، فقاموا يدافعون عن قضية الأمراء المعزولين.

على أن هذا الميل لشيء شبيه بالعدل من جانب المجلس أثار سخط أنصار سيمون إلى آخر حد، فقاموا يؤكدون لقداسة البابا أنه في حالة إرغام المندوب ودي مونتفورت على تسليم الأراضي والإمارات التي في أيديهم فلن يتقدم أحد فيما بعد للدفاع عن قضية

الكنيسة، ولن يخاطر أحد بالدخول في مجازفة الذود عن حياضها ما دامت النتائج ليست مضمونة بهذا الشكل. على أن البابا، رغمًا عن ذلك، استمر ميالاً لسماع شكوى الأمراء. وأخيرًا رفع صوته قائلاً: "إني أصرح لريموند أوف تولوز وورثته باسترجاع جميع أراضيهم وإماراتهم من جميع من هم يستولون عليها الآن بغير حق". هاج الأساقفة وماجوا، ووقف البابا حائرًا أمام هذه القوة الهائلة التي خلقها بنفسه، والتي أصبح أمامها الآن مرغمًا على استعمال الجور والظلم، ولم يستطع إلا أن ينقاد إليها، فتثبت دي مونتفورت في جميع فتوحاته ما عدا مقاطعة فنيزان، التي حُفظت لتكون ميراثًا لريموند الصغير، إن هو أرضى المندوب بتصرفاته، وافق فيليب أوغسطس ملك فرنسا على هذا الحكم، فمنح سيمون دي مونتفورت ولايات تولوز وبيزير وكاركاسون ودوقية ناربون. بذلك ارتقى سيمون ذلك العرش الذي استولى عليه بالجور والظلم والطغيان وسفك الدماء، ونُودي به ملكًا لتولوز وقائداً أعلى لجيوش الله، وابن الكنيسة المحبوب، وخرج الكهنة والشعب لمقابلته وهم ينادون بالهتاف التجديفي «مبارك الآتي باسم الرب». على أن نجاح الشرير إنما إلى حين، فكانت نهايته قريبة وجزاؤه الأبدي قاب قوسين أو أدنى.

أكاذيب فوكيه

كان قرار مجمع لاتيران القاضي بإيقاف التبشير بالحرب الصليبية سببًا في حرمان دي مونتفورت من قوات جديدة. هذه الحالة أنعشت روح ريموند الصغير الذي رأى أن الوقت قد حان للقيام بمحاولة جريئة لاسترداد أملاك والده، وخصوصًا لما رآه في الأهالي من استعداد لموازرته أملاً في الخلاص من استبداد سيمون، ولتعلقهم بأسرتهم الملكية القديمة. فلم يجد صعوبة في تعبئة جيش جرار لهذا الغرض. أحس دي مونتفورت بهذه الحركة فلم يكن منه سوى معاملة تولوز كمدينة مقهورة، فوضعها تحت الأحكام العرفية وفرض على الأهالي ضرائب باهظة، وأخذ يجمعها بكل وسائل العنف والشدة. لم يطق الناس صبرًا وكانوا على وشك القيام بالثورة، إلا أنهم بتسرع قبلوا وساطة فوكيه أسقفهم الخائن الغدار، الذي أكد لهم أن شعرة واحدة من رؤوسهم لن تُمس إن هم قبلوا شروط دي مونتفورت وخضعوا له، فانصاع الأهالي إلى رأيه بعد أن حلف لهم قائلاً: "أقسم لكم بالله وبالعذراء المقدسة وجسد الفادي أنني أعطيكم مشورة حسنة لم أُعطِ نظيرها مدة حياتي. وإن ظلَمكم الكونت دي مونتفورت في أقل شيء فقدموا لي شكواكم، والله وأنا كفيلان لكم بإجراء العدل وإنصافكم". يا له من خداع! ولكن تلك هي البابوية لا أكثر ولا أقل، مع أن هذا الشعب كان رعية فوكيه. فنحن الآن لا نتكلم عن مساوئ الحرب أو محاسنها، ولكننا نتكلم عن أكاذيب وخداع من كان يُسمى رسميًا براعي الخراف.

على أن فوكيه لم يبر بوعده، فعامل سيمون الناس معاملة قاسية بعد أن هدم حصونهم وجردهم من كل شيء حتى من الغذاء. هكذا كان عليهم أن يقضوا الشتاء حتى يأتيهم الربيع بالفرج.

مصرع دي مونتفورت

لم يكد الكونت ريموند وابنه يظهران بجيشهما الكبير عند أسوار تولوز المنهدمة حتى علا البِشر وجوه الناس وقاوموا قومه واحدة، فرحين مغتبطين لمقدم أسرة الريمونديين إلى مقرهم وعرش أجدادهم. وقد بلغ حماس الشعب مبلغًا عظيمًا حتى أن الكثيرين من أشراف لانجدوك جمعوا الجيوش وأخذوا يزحفون بها صوب المدينة لمعاونة مليكهم القديم. أما سيمون وابنه فأسرعا إلى المكان، ولكنهما رُدا خاسرين. وعلى الأثر توجه أسقف تولوز ومعه زوجة سيمون يطلبان المعونة من فرنسا، وسرعان ما نادى المنادون بحرب صليبية جديدة. على أنه لم يكن في مقدور سيمون الاحتفاظ بجيش معين أكثر من أربعين يومًا، بينما كانت الجموع تتدفق بلا توقف إلى صفوف الريمونديين، وعلى ذلك استمر الحصار تسعة أشهر كانت الحرب فيها سجالاً، إلى أن حلّ ربيع سنة ١٢١٨م حيث هجم دي مونتفورت على المدينة بجيش جديد من الصليبيين عددهم مائة ألف ويزيد. "ستفتحون المدينة" قال روح الكذب "وستهجمون على البيوت التي لن تنجو منها نفس واحدة، رجل أو امرأة، بل لن تفلت نفس في كنيسة أو هيكل أو مستشفى!".

تلك كانت مشورة روما، ولكن الله قضى بغير ذلك، إذ بينما كان سيمون جاثيًا على ركبتيه ساعة قداس كبير سمع صياحًا يدل على أن المحاصرين خرجوا يهجمون. وفي الحال وثب على قدميه وأسرع بجيشه إلى نقطة الخطر، ولم يكن يدري أنها الجولة

الأخيرة، فقد أصابه في تلك اللحظة سهم قاتل صوبه نحوه أحد المدافعين الذين على السور. ولم يكد يتراجع للوراء خطوات قليلة حتى أصابته شظية حزت عنقه وفصلت رأسه عن جسمه، مما جعل المعجبين يرفعون عقائرهم بعبارات التجديف والتعبير ضد الله وعدل السماء. على أننا هنا يجب أن نتركهم، فسيمون الآن أمره مع الله، وسيعلم هول مصيره الأبدي.

رُفع الحصار وهُزم الجيش المحاصر هزيمة شنيعة، وقرعت النواقيس داعية الناس لتقديم الشكر لله بين التهليل والتكبير، وحيُّوا ريموند تحية مليكهم الشرعي الذي ليس له منازع، ورفرف مرة ثانية علم سلالة القديس جيل فوق حصن تولوز وقلاعها.

ملوك فرنسا والألبينيون

كان إنوسنت الثالث في ذلك الوقت قد مات، وجلس على عرش البابوية هونريوس الثالث، الذي لم يكن يقل عن سلفه تحمسًا لقضية دي مونتفورت، يعاونه ملوك فرنسا أشد معاونة. ولم يطق راعي روما الجديد حالة السلام والطمأنينة التي أخذ يتمتع بها الألبينيون المساكين تحت حكم ريموند العادل، فقام لويس ابن فيليب أغسطس بحرب صليبية جديدة عام ١٢١٩م وذلك لإرضاء البابا الهائج، وبحجة تنفيذ وعده، ولضمان مصيره الأبدي، فتجددت بذلك كل فظائع العهد المائت، لا بل زادت بفعل رجال الإكليروس وإرشادهم. على أننا نوفر على القارئ مرارة اطلاعه على وصف هذا الخليط الشيطاني من مكر وخداع ورياء ودناءة وقسوة وتوحش مما كان يقترفه رجال الإكليروس بموافقة الملك ورضاه.

أما ريموند الكبير فقد توفى تاركًا الدفاع عن أملاكه لابنه، الذي كان في ذلك الوقت في قوة الشباب تجيش في صدره أعظم الآمال. يقول ملنر إن ريموند "توفى على أثر مرض أصابه، وقد قضى نحبه في سلام ورغد عقب انتصاره على سيمون. ولا يوجد مَن عانى من البابوية مثل ما عاناه في حياته من الظلم والمعاملة القاسية. مات أيضًا فيليب أوغسطس، تاركًا تاجه لابنه لويس. أما دي مونتفورت الأصغر فقد ترك لانجدوك نهائيًا عام ١٢٢٤م بعد أن يئس من النجاح، وجلس ريموند السابع على عرش أجداده بلا عدو يخشاه سوى البابا ومليكه الأكبر، الذي كان يرمق مقاطعة ريموند الجميلة بعين الغيرة والحسد، ويعمل على ضمها لأملاكه بكل وسيلة ممكنة".

وهنا تتآمر إيزابل مرة ثانية، فتدعو إلى عقد مجمع في بورج عام ١٢٢٥م. وهذا المجمع يكلف لويس بتطهير الأرض من الهراطقة ويأمر بجمع الأموال لهذا الغرض. وبناءً عليه يقوم لويس بحمل الصليب على رأس جيش كبير من أتباعه، ويغير مرة أخرى على حقول لانجدوك المزدهرة، لكي يوقع بها الخراب والدمار ولكي يلاشي الهراطقة بناءً على أوامر روما. مسكينة يا لانجدوك! متى تشبع روما - التنين - مفترس قديسي الله - من دماء أبنائك المهدرة؟ دماء الرضع والأطفال والبنات والأمهات والأحداث والآباء الوادعين غير المسلحين! حقًا لقد كان في الإمكان إعطاء اسم للحيوان الذي يرمز للإمبراطورية الكلدانية أو الفارسية أو اليونانية، أما الحيوان الرابع الذي يرمز للإمبراطورية الرومانية، سواء كانت وثنية أو بابوية، فليس له نظير بين الوحوش، ويجب أن يُترك بلا اسم. يقول دانيآل «بعد هذا كنت أرى في رؤى الليل وإذا بحيوان رابع هائل وقوى وشديد جدًا، وله أسنان من حديد كبيرة. أكل وسحق وداس الباقي برجليه. وكان مخالفًا لكل الحيوانات الذين قبله. وله عشرة قرون» (دا ٧: ٧). وأن كانت رؤيا دانيآل تشير إلى السلطة المدنية لروما بصفة أخص، غير أن الصورة الدينية للحيوان في سفر الرؤيا تظهره أشد تعطشًا للدماء منه في صورته المدنية على مر عصورها.

هذا الوحش الذي لا يُسمى، نراه الآن ماثلاً في ملك فرنسا، والبابا يدفعه ليطغى ويستبد إلى آخر حد. فعندما ظهرت جيوش الصليبيين ذابت قلوب الشعب وسُلمت المدن الواحدة بعد الأخرى، لأن الموت ذهب بجميع المدافعين "فقد تحملوا مصائب الحرب وأهوالها المرة بعد المرة حتى سئمت نفوسهم. وأجمع أشراف لانجدوك وأبطالها وعامتها بنفس واحدة على تجنب استمرار هذه الحالة وذلك بالخضوع والتسليم كلما دعت الحاجة". على أنه في نفس هذه اللحظة التي فيها ضاع كل أمل وولى كل رجاء تداخلت يد الرب في المسألة، فانتشر وباء عظيم في معسكر المغيرين، وكان أول من اكتسحه الوباء لويس نفسه مع ثلاثين ألفًا من جنوده، وهكذا تأجل إلى حين ذلك الخراب المريع الذي كان على وشك الحلول بالشعب وبأسرة ريموند.

وبموت لويس الثامن ارتقى العرش ابنه الذي لم يكن إلا طفلاً صغيرًا، فآلت مقاليد الحكم إلى يد أمه بلانش أوف كاسيل، التي أمرت بتجديد الحصار على تولوز، ولكن الحرب في هذه المرة كانت في صالح ريموند، الذي مع ذلك شوه مجد انتصاراته، كما يقول أحد المؤرخين، بالمعاملة القاسية التي عامل بها الأسرى المهزومين الذين وقعوا في قبضة يده. كان الحصار طويلاً وصعبًا، وقد فقد الصليبيون كل رجاء، وفي حيرتهم اقترح فوكيه، داهية تولوز وروح الكذب فيها، الوسيلة الوحيدة للقيام بحركة هجومية ناجحة، وهي إتلاف جميع الكروم والحقول وإحراق المساكن المحيطة لمسافة أميال عديدة، حتى تحولت المقاطعة كلها بناءً على مشورته إلى صحراء جرداء، فأصبحت مدينة تولوز قائمة وحدها وسط برية قاحلة، وكان طبيعيًا أن تنقطع عنها كافة موارد الغذاء. ذلك كان عمل أسقف البلاد، وهكذا فعل بأبروشيته وبالشعب الذي عُين عليه راعيًا وناظرًا!! وللقارئ أن يحكم من أي روح كان فوكيه: أمن روح حيوان دانيآل الرابع، أم روح ذاك الذي يقول لكل راعٍ «ارع خرافي ... ارع غنمي» (يوحنا ٢١).

بعد أن صُبّت هذه الجام الأخيرة من جامات غضب روما على لانجدوك حتى جف فيها كل رطب وأخضر، صغرت نفوس الأهالي وانسحقت روح زعيمهم ريموند ولم يبقَ أمامهم سوى قبول الصلح، فقبلوه بشروط قاسية ومُذلة للغاية، ففي أبريل عام ١٢٢٩م أمضيت معاهدة باريس التي أنهت الحرب إلى حين، وقد أُمليت الشروط بواسطة مندوب البابا ووافق عليها ملك فرنسا. وريموند السابع، الذي استطاع بطلعته البهية وطابعه الجذاب وما حلّ به من كوارث وأضرار، أن يستدر الدموع من عيني إنوسنت في مجمع لاتيران العظيم، يحني الآن عنقه للنير الأجنبي والجبروت الروحي. وهكذا قاده المندوب إلى الكنيسة في باريس. وهناك، نظير والده تمامًا في كنيسة القديس جيل، بأكتافه العارية وأقدامه الحافية، احتمل عملية الجلد الجهارية المُذلة من الأيدي الكهنوتية، وإذ هو جاثٍ على ركبتيه في كنيسة نوتردام أعلن تخليه تمامًا عن حقوقه الإقطاعية لملك فرنسا وخضع لعقاب الكنيسة وما فرضته عليه من تكفير وتوبة. ويذكر القارئ أن الأب في تكفيره تنازل عن سبع قلاع، وها هو الابن يتنازل عن سبع مقاطعات. وهكذا قضى الله الذي هو فوق الجميع، إعدادًا لمذلة روما فيما بعد، أن تكون امتيازات الصُلح الذي تم مع لانجدوك ليس في صالح روما بقدر ما هو في صالح ملكية فرنسا التي كانت آخذة في الازدياد والعظمة بسرعة عجيبة، ففيليب أغسطس انتزع من يدي يوحنا ملك إنجلترا الضعيف جميع ممتلكات التاج الإنجليزي في فرنسا، وها هي الآن تنضم إلى التاج الفرنسي أيضًا أملاك الكونت أوف تولوز، وأملاك أراجون الواقعة شمالي جبال البرانس. يقول جيمس هوايت في هذا الصدد "إن امتلاك فرنسا لمقاطعة نورمنديا الإنجليزية قد جعلها قوة بحرية لا يُستهان بها. والآن بامتلاكها مقاطعات ريموند السابع لم تمتد حدودها إلى البحر الأبيض فحسب، بل كان في القضاء على أميرين خطيرين كالكونت أوف تولوز ودوق نورمنديا ما زاد في قوة التاج الملكي زيادة لا تُقدر" *.

تأملات في حوادث لانجدوك

إن الحروب التي وقعت في لانجدوك لا بد لها من معنى عميق لدى كل عقل مفكر وكل رجل من رجال الإيمان، ولا سيما أولئك الذين يدرسون التاريخ من الجهة الروحية الكتابية. فهي الأولى من نوعها في سجلات التاريخ. وقد كان من نصيب إنوسنت الثالث أن يبدأ هذا النوع الجديد من الحرب. فقد حدثت قبل ذلك حوادث كان يُضحى فيها بالأفراد على مذبح مطامع الكهنوت، مثل أرنولد أوف بريشيا مثلاً، أما هذه الحرب التي نحن بصددها فكانت التجربة الأولى التي قامت بها الكنيسة على قاعدة أوسع في سبيل حصولها على السلطان بقوة السلاح. وليلاحظ القارئ أنها لم تكن جيوش الكنيسة تتقدم في غيرة مقدسة ضد الوثنيين أو ما شاكلهم من المنكرين للمسيح، بل الكنيسة نفسها مُسلحة ضد أتباع المسيح الحقيقيين، ضد أولئك الذين كانوا يعترفون بلاهوته وبسلطان كلمة الله. أي نعم، ضد أولئك الذين نستطيع أن نملأ صحائف عديدة باقتباسات من أردإ أعدائهم تدل على صحتهم في الإيمان وطهارتهم في السلوك وبساطتهم في العيشة والعادات، وها نحن فقط نُقدم للقارئ اقتباسين أو ثلاثة من أوثق المصادر في كنيسة روما نفسها،

* لتفاصيل أوفي لوجهتي النظر البابوية والألبينية لهذه الحروب الدامية انظر دو بان «القرن الثالث عشر»، ومحاضرات السير جيمس ستيفن مجلد (١)، و«المسيحية اللاتينية» لميلمان مجلد (٤)، و«ثمانية عشر قرنًا للمسيحية» لجيمس هوايت، و«تاريخ الكنيسة» لروبرتسون مجلد (٣)، و«تاريخ الكنيسة» لملنر مجلد (٣)، و«ديانات العالم» لجاردنر باب «الألبينيون».

فبارونيوس يقول "كانوا ينكرون فائدة معمودية الأطفال، واستحالة الخبز والخمر إلى دم الرب بتقديس الكاهن، ويقولون إن الخدام غير الأمناء ليس لهم حق ممارسة السلطان الروح أو في العشور والباكورات، وإن الاعتراف الجهاري ليس ضروريًا. كل هذه الأمور كان يقول هؤلاء التعساء إنهم تعلموها من الأناجيل والرسائل، وإنهم لن يقبلوا شيئًا ما لم يكن مذكورًا فيها، وبذلك كانوا ينكرون تفاسير المعلمين مع أنهم في أنفسهم كانوا أميين". أما رينريوس عضو محكمة التفتيش وكبير مضطهدي الألبينيين فيقول "كانوا ألد وأرهب أعداء كنيسة روما، لأنه كان لهم صورة عظيمة من التقوى، ولأنهم كانوا يسلكون بالاستقامة قدام الناس ويؤمنون إيمانًا حقيقيًا بالله في كل شيء، ويتمسكون أشد التمسك بوصايا الكتاب. غير أنهم كانوا يمقتون كنيسة روما ورجال الإكليروس. وكان الناس يصدقون اتهاماتهم بكل سهولة". والقديس برنارد، الذي عرفهم جيدًا وعاش بينهم، ومع ذلك رأى من واجبه مقاومتهم كأعداء للبابا، يعترف صراحة قائلاً: "إن سألت عن إيمانهم فليس هناك ما يمكن أن يكون أكثر نقاوة، ما يقولونه بالفم يحققونه بالعمل، فترى الواحد منهم لا ينقطع عن الكنيسة، يُكرم الشيوخ، يُقدم عطاياه، ويداوم على الاعتراف والشركة. أما من حيث الحياة والسلوك فلا يغش إنسانًا ولا يشي بأحد ولا يفعل الضرر بمخلوق. يصوم كثيرًا، ولا يأكل خبز الكسل بل يشتغل عاملاً بيديه ليكسب قوته لنفسه".

تلك كانت روحانية وآداب وأخلاق الألبينيين كما يشهد عنها أعداؤهم، فكانوا شهودًا أمناء للمسيح قد أعدتهم النعمة بلا شك للتخبير بفضائل سيدهم في هذا العالم. ولو كان بين أيدينا من كتاباتهم بقدر ما لدينا من كتابات المصلحين في القرن السادس عشر لوجدنا في الغالب أنهم كانوا في بعض النقاط أبسط وأسلم مما كان عليه أولئك. غير أنه كان في مشورة الله وقصده أن تمر ثلاثمائة سنة أخرى قبل أن يتم نضوج أوروبا واستعدادها لحركة الإصلاح، علاوة على ذلك كان لازمًا اكتشاف فن الطباعة وأن تتطور صناعة الورق.

وقد يسأل سائل ماذا إذًا كانت جريمة الإلبينيين؟ كل جريمتهم كانت هذه: إنكارهم لسيادة البابا وسلطان الكهنوت، والأسرار السبعة كما كانت تعلمها كنيسة روما. هذه كانت جريمتهم، وهي في نظر الكنيسة أشنع جريمة على وجه الأرض، ولذلك كانت الإبادة المطلقة هي العلاج الوحيد والحكم الذي لا نقض فيه ولا إبرام، فمن كان ينجو من سيف الصليبيين كان لا بد من وقوعه في مخالب المفتشين.

يقول المؤرخ: "في مئات من القرى لم ينجُ فرد واحد من القتل، ومنذ نهب روما وتخريبها على يد الوندال لم يرَ العالم الأوروبي مصيبة أفظع من هذه، ولم يذرف الدموع على كارثة أهلية أوسع نطاقًا أو أشد رعبًا". ياله من سجل! ويا لها من شهادة! وإن كانت هذه سجلات الأرض فماذا تكون سجلات السماء! إيه يا روما. يا روما! أيتها السكرى بدم قديسي الله، والمغمورة بلعنات الملايين! أي مصير ينتظرك وأي مستقبل تتوقعين! بأي وجه ستقابلين توبيخات أولئك الذين خدعتهم أكاذيبك وأهلكهم سيفك؟ أيظن أحد أننا قساة في كلامنا؟ ألا فليصغ إلى خطاب أحد الأساقفة الذي ألقاه على الصليبيين قبيل موقعة موريه. وقف هذا خطيبًا وقال: "كل من اعترف بخطاياه لكاهن أو من ينوي أن يفعل ذلك بعد الموقعة سينال بموته الحياة الأبدية وسينجو من اجتياز المطهر. سأكون ضامنكم في يوم الدين. فهبوا باسم المسيح". ألم تكن أكذوبة على نفس مخدوعة؟ ولكن إيزابل ستسمع يومًا ذلك الصوت الرهيب «لأن خطاياها لحقت السماء وتذكر الله آثامها. جازوها كما هي أيضًا جازتكم وضاعفوا لها ضعفًا نظير أعمالها. في الكأس التي مزجت فيها امزجوا لها ضعفًا ... من أجل ذلك في يوم واحد ستأتي ضرباتها موت وحزن وجوع، وتحترق بالنار، لأن الرب الإله الذي يدينها قوي ... وفيها وُجد دم أنبياء وقديسين وجميع من قُتل على الأرض» (رؤ١٨: ٥-٢٤).

على أن روما قد خدعت نفسها وتجاوزت قصدها، فمع أن لانجدوك أصبحت خربة فإن الألبينيين الذين نجوا من السيف هربوا إلى ممالك أخرى، وبنعمة الله وجميل عنايته أخذوا يبشرون بالإنجيل في جميع أنحاء المسيحية تقريبًا، ويشهدون ضد فظائع كنيسة روما وخرافاتها وأكاذيبها، التي بدأت من ذلك الوقت تفقد مكانتها واحترامها في نفوس الناس. وهكذا كان الرب يعد الطريق لوكليف وهس وميلانكتون ولوثر.

الفصل السادس والعشرون

محكمة التفتيش تقام في لانجدوك

انتهت الحرب العلنية ضد لانجدوك بمعاهدة باريس عام ١٢٢٩م، ولكن محكمة التفتيش استمرت في حربها السرية التي لم تكن أقل ضررًا من سابقتها، فلم يكن يكفي أن خيانة أرنولد وسيف مونتفورت قد أبادا أولئك الهراطقة - كما كانوا يصفونهم - بل كان يجب اتخاذ الإجراءات لمنع ظهورهم مرة ثانية في المستقبل. فدومينيك وأذنابه، ولو أننا لم نرهم لا في الحصار ولا في الموقعة، كانوا يعملون عملهم المرجف سرًا، أما الآن فيجب أن تُعلن محكمة التفتيش جهرًا وتقام قانونًا.

تحريم قراءة الكتاب المقدس

انعقد لأجل ذلك مجمع في نوفمبر من نفس السنة في تولوز، حيث تقرر إقامة محكمة مستديمة ضد الهراطقة باسم "محكمة التفتيش". وقد جاء أحد قراراتهم في هذا الشأن على غير ما يشتهون، إذ فضح بطريقة غير مباشرة السبب الأصلي لهياج الشيطان وغضبه، ذلك لأنهم وجدوا بالفحص أن الكتاب المقدس هو المصدر الأصلي لآراء الألبيجيين، ولا بد من منع الناس من مطالعته، ولذلك أصدر المجمع القرار الآتي: "إننا نقرر منع كتب العهد القديم والجديد عن العلمانيين، إلا من كان منهم يريد اقتناء كتاب المزامير أو الأجبية أو ساعات العذراء مريم الطوباوية، ولكننا نحرم تحريمًا باتًا ترجمة أي جزء من أجزاء الكتاب الأخرى إلى اللغات الدارجة". ولم تكن الكتب المقدسة قبلاً متاحة للعلمانيين، ولكن هذا أول تحريم رسمي تقابله.

والتفسير البابوي لهذا القرار أو تبرير تشدده هو عيِّنة لا بأس بها تظهر للقارئ كيف كان رجال الإكليروس يقتبسون آيات الكتاب ويطبقونها في تلك الأيام. قالوا في تبريرهم لهذا القرار: «إن مست الجبل بهيمة ترجم أو ترمى بسهم» (عب١٢: ٢٠). هاك طريقة اقتباسهم وهاك تفسيرهم، فالناس في نظرهم كانوا بهائم بسبب جهلهم، وكلمة الله كانت جبلاً إن تجاسروا على مسه لا بد من قتلهم في الحال.

وقد كانت لإنوسنت معرفة عامة بالكتاب وكثيرًا ما استعمله في رسائله ومراسيمه على هذا النمط. ولكن كلمة الله حتى في حالة تطبيقها المخطئ كان لها سلطان عظيم على العقول الجاهلة، وكان أهم أغراض محكمة التفتيش إبعاد الناس إبعادًا تامًا عن النور الإلهي، وجعلهم في ظلام دامس فيما يختص بمشيئة الله في الأمور الروحية، حتى بذلك تستمر سلطة الإكليروس، أو بالحري سلطة الشيطان رئيس الظلمة، مطلقة وغير مشكوك فيها. فلم يقتصر مجلس تولوز على إلغاء كل تعليم جهاري، بل منع حرية التفكير السري وجعلها مهددة بأشد أنواع العقاب. حقًا إنه يصعب أن يتصور العقل إثمًا أشد جرأة من ذلك، ولا شك أن منع كلمة الحياة عن الناس وتعريضهم للهلاك الأبدي، وجعل حيازة الكتاب المقدس جريمة كبرى، لَهو منتهى العداوة الشيطانية للمسيح وللنفوس الثمينة. ولا ننسَ أن أولئك كانوا رعاة الخراف الذين حلفوا أنهم في مراع خضر سيربضونهم وإلى مياه الراحة سيوردونهم، ولكننا لا نريد أن نطيل الوقفة عند هذه النقطة السوداء، ولو أنه يصعب اجتيازها دون أن يظهر الإنسان ما يجيش به القلب من ثورة وغضب ضد مثل هذا الإثم الروحي. ولكننا إذ نعلم أن قضاءهم العادل في يد الله الحي فنحن نمسك عن إصدار حكمنا.

قرارات مجلس تولوز

سنورد هنا إشارة موجزة إلى القرارات ضد الهراطقة، وهي كفيلة بأن تعطي للقارئ فكرة ما عن قسوة مصدريها، وعن الاضطهاد التي أصبح ينصَبّ على البقية الضعيفة من أهل لانجدوك المساكين: "على جميع رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة أن يعينوا كاهنًا في كل أبروشية مع ثلاثة مفتشين علمانيين، تكون مهمتهم تفتيش كل بيت وكل متجر بحثًا عن الهراطقة، وأن يقتادوهم إلى الأسقف أو إلى رئيس الأساقفة، الذي هو رئيس المحكمة، لتأكيد القبض عليهم. وهكذا على الأمراء أن يعملوا مثل ذلك في كل ناحية من نواحي ممتلكاتهم. وكل من يثبت عليه التستر على هرطقي يجرد من منصبه وتعطي أملاكه لسيده، ويصبح من العبيد الأرقاء. وكل منزل يوجد به هرطقي يهدم، وكل رئيس يهمل في البحث والقبض على الهراطقة يعزل من وظيفته ولا يكون له حق الرجوع إليها في المستقبل. والهراطقة الذين يتوبون ويرجعون ينقلون من بلادهم ويوضعون في المدن الكاثوليكية، حيث يلبسون صليبين يختلف لونهما عن لون ملابسهم، واحدًا على الجانب الأيمن والآخر على الجانب الأيسر. والذين منهم يرجعون خوفًا من الموت يسجنون مدى الحياة. وكل شخص في سن الرابعة عشرة من الذكور أو الثانية عشر من الإناث يجب عليه أن يقسم بأنه يمقت الهراطقة ويتمسك بإيمانه الكاثوليكي. وكل من يتغيب ولا يحضر لأداء هذا القسم في ظرف خمسة عشر يومًا يعتبر متهمًا بالهرطقة".

هذه المقتطفات من قانون الاضطهاد الكاثوليكي تكفي لأن تبرز أمام القارئ ماذا كانت روح البابوية في تلك الأيام، وماذا تكون اليوم لو أن لها نفس القوة التي كانت لها في ذلك الزمان. على أن هذه القوانين لم تكن في نظر البابا شديدة بالقدر المطلوب، ولذلك عقد مجمعًا في ميلَن، حيث صدرت قوانين أشد صرامة وأكثر فاعلية. ولكن لما كان الهراطقة لا يمكن محاكمتهم إلا بواسطة الأساقفة وأصبحت العملية شاقة ومنهكة بسبب زيادة المتهمين المقبوض عليهم زيادة مضطردة، قرر البابا غريغوري التاسع عام ١٢٣٣م إحالة هذا الاختصاص القضائي لجماعة الدومينيكان، وبذلك أصبحت محكمة التفتيش هيئة قائمة بذاتها. وإذ قلنا هذا القدر فيما يتعلق بمنشأ هذه المحكمة فقد يكون من المفيد أن نلقي نظرة سريعة على التطور المدهش والاتساع التدريجي الذي اتخذته فكرة التفتيش لدى كنيسة روما من بدء نشأتها.

تاريخ محكمة التفتيش

قبل عهد قسطنطين، أي قبل اتحاد الكنيسة والدولة، كانت الهرطقة وما إليها من الجرائم الروحية تُعاقب بالحرمان فقط، ولكن بعد موته بقليل تقررت العقوبات الأخرى بما فيها الإعدام. ويُقال إن ثيودسيوس هو أول إمبراطور روماني قرر اعتبار الهرطقة جريمة كبرى، ولكن المفتشون في ذلك الوقت لم يكونوا تابعين لهيئة الإكليروس، ولكنهم كانوا علمانيين معينين بواسطة الولاة الرومانيين. وقد كان بريشليان الأسباني أول هرطقي أعدم حوالي عام ٣٨٥م. وجاء جستنيان عام ٥٢٩م وأصدر قانونًا جنائيًا ضد الهراطقة. وكلما كانت تتعاقب القرون كانت الإجراءات ضدهم تتزايد في الشدة والصرامة، حتى جاء القرن الثالث عشر حينما تقررت محكمة التفتيش رسميًا واتخذت صفتها القانونية، وعندئذ أصبحت محكمة جنائية مهمتها تعقب الهراطقة ومحاكمتهم بتهمة الهرطقة والارتداد وجرائم أخرى ضد الإيمان الرسمي. وسواء كان دومينيك أو إنوسنت هو صاحب هذه البدعة، فمن المؤكد على أي حال أن الحروب الألبينية هي التي أخرجتها إلى حيز الوجود. فقد رأى البابا إن طريقة إعدام الهراطقة بصورة علنية لن تؤدي إلى إبادتهم إبادة كاملة، وقد أدت هذه الصعوبة إلى إنشاء جمعية أخوية جديدة تسمى "جمعية الإيمان المقدس" مهمة أعضائها استخدام منتهى قوتهم ونفوذهم في الضرب بيد من حديد على كل تفكير حر أو بحث مستقل في الأمور الدينية، مع العمل على الاحتفاظ بوحدانية الإيمان وإبادة جميع الهراطقة، والقضاء على كل حركة هرطقية في منازل الناس أو قلوبهم أو نفوسهم. وكان على كل عضو أن يقسم أغلظ الإيمان وأخطرها متعهدًا بقيامه بهذه المهمة بكل ما أوتي من قوة قبل أن يتسنى له الاشتراك فيها. غير أنه كان من نصيب غريغوري التاسع أن يقرر في مجمع تولوز إنشاء محكمة التفتيش بالصفة التي اشتهرت بها في التاريخ، صفة المحكمة الجنائية ذات القوانين الخاصة.

وقد أدخلت هذه المحكمة المرعبة بالتدريج في الولايات الإيطالية وفرنسا وأسبانيا وممالك أخرى، غير أنها لم تستطع أن تشق لنفسها

طريقًا إلى الجزر البريطانية، وقد احتاجت في فرنسا وإيطاليا إلى مجهودات عنيفة ومتواصلة لتثبيت قدمها هناك. أما ألمانيا فقد قاومت بنجاح فكرة إيجاد محكمة مستديمة فيها، ولكن الحال كان على عكس ذلك في أسبانيا، إذ مع أن محكمة التفتيش قابلت بعض المقاومة في بادئ الأمر، إلا أنها سرعان ما رسخت قدمها هناك وحصلت مع الزمن على مركز خطير لم تستطع، لأسباب عدة، الحصول عليه في أي مملكة أخرى. وقد اتسع بالتدريج نفوذ محكمة التفتيش وسلطانها، وأصبح لأعضائها حق إصدار الأحكام لا على الأقوال والأعمال فحسب، بل حتى على الأفكار والنيات. وقد استمر نفوذها ونشاطها في الازدياد في القرن الرابع عشر، ولكن سلطانها لم يعُم كل المملكة إلا في ختام القرن الخامس عشر، عندما ارتقت إيزابلا امرأة فرديناند ملك أراجون عرش كاستيل، واتحدت ممالك أسبانيا المختلفة كاستيل ونافار وأراجون والبرتغال تحت راية هذا الملك وزوجته. عندئذ اتخذت محكمة التفتيش تلك الصفة التي استمرت عليها إلى أن أُلغيت عام ١٨٠٨م (١٢/٢٠)(٥٧)(٣٨)(٥/٤٣).

إجراءات محكمة التفتيش الداخلية

تحت هذا العنوان، كما يعرف الآن كل إنسان، يمكن أن تُسجل أسوأ الأعمال وأفجر الطغيان وأفظع المظالم البشرية وأقساها، مما لم تسوِّد به صفحة من صفحات التاريخ البشري قاطبة. على أن التفصيلات المطولة، مهما كانت مشوِّقة ومؤلمة، لا تتفق مع هذا "المختصر" ولذلك سنقنع بأن نذكر بإيجاز بعض الملاحظات والاقتباسات القليلة. غير أنه يمكننا أن نؤكد أنه لم تُقم في أية مملكة من ممالك العالم الوثني محكمة نظير هذه المحكمة في احتقارها لكل عدل وامتهانها لكل كرامة، وازدرائها بكل علاقة مقدسة في الحياة.

فعندما كان يُشتبه في أي إنسان اشتباهًا بسيطًا بأنه هرطقي كانت الجواسيس تسلط عليه في الحال، يتتبعون حركاته ويعدون عليه أنفاسه، لعلهم يصلون في وقت ما إلى علة مهما كانت بسيطة يستندون عليها في القبض عليه وتسليمه لهيئة المحكمة المقدسة. قد يكون الرجل كاثوليكيًا مخلصًا، كما يؤكد لنا المؤرخ لورنتيه أن تسعة أعشار المسجونين كانوا مخلصين للإيمان الكاثوليكي، ولكنه قد يُتهم بأنه صاحب أفكار حرة، أو قد يكون فاه بحديث بأنه يعرف في اللاهوت أكثر مما يعرف الرهبان الأميون، أو بأنه يختلف معهم في بعض نقاط تعليمية. هذه الأشياء وما شاكلها كانت كافية بأن تُثير الشك وتوجد الشبهة، لأنه لم يكن هناك ما تخشاه كنيسة روما أكثر من أن يتسرب لعقول الناس نور جديد أو حق جديد. مثل هذا الإنسان كان دائمًا هو الضالة المنشودة لأذناب محكمة التفتيش، فمتى عثروا عليه يقتادونه توًا إلى حيث يلقى مصيره المحتوم.

في منتصف الليل البهيم كان الباب يقرع، والأمر يصدر للرجل المشبوه بأن يرافق رسل المحكمة المقدسة. وكانت الزوجة وجميع أفراد العائلة يعرفون المعنى المقصود من ذلك، ففي الحال يتولاهم الرعب، ويعظم كربهم وحزنهم ويودعون الزوج أو الأب الوداع الأخير، وليس من يجرؤ على أن يلفظ بكلمة واحدة من كلمات الاستعطاف أو الاحتجاج. بهذه الطريقة المباغتة غير المنتظرة كانت هذه المحكمة المخيفة تنقض على ضحاياها. وكانت الزوجات تسلمن أزواجهن، والأزواج زوجاتهم، والأمهات فلذات أكبادهن، والآباء أبناءهم، والأسياد عبيدهم دون أن يجرؤ أحد على إبداء أقل تذمر أو احتجاج، فالإرهاب كان المبدأ الرئيسي الذي اصطبغت به أعمال محكمة التفتيش وسلطانها. ولم يكن رجل، من الملك إلى العبد، يعلم الساعة التي فيها قد يقرعون بابه، فالسرية العميقة التي لا يمكن النفاذ إليها كانت الطابع الذي تميزت به جميع إجراءات هذه المحكمة. هذا الشعور بعدم الأمن والطمأنينة، مضافًا إليه الأراجيف والتخيلات، زاد في رهبة تلك الأعمال وفظاعتها، بحيث لم يستطع مخلوق في كل العصور والأجيال أن يُقدم كلمة دفاع عن جاسوسية محكمة التفتيش اللعينة وقسوتها التي لا تعرف الرحمة.

أما من يقع فريسة في أيديهم فكان يسجن داخل أبواب محكمة التفتيش. وقَلَّ من كان يدخل إليها ويخرج معافى أو مبرأ – ليس أكثر من واحد في الألف كما قيل. كانت تمارس بعض الإجراءات والرسميات فيما يتعلق بالتهمة المزعومة، ولكنها كلها سخرية بالعدالة، فكانت المحكمة تنعقد في سرية رهيبة، لا محامين يدافعون عن المتهم، ولا شهود يواجهون به، ولم يكن أحد يعرف من هم المبلِّغون، أو ما هي التهم، اللهم إلا تهمة الهرطقة الغامضة. كان الهرطقي المتهم يُدعى أولاً لحلف اليمين بأنه سيقول الحق – الحق كله فيما يتعلق بكل شخص، حيًا كان أو ميتًا، يكون مشتركًا معه أو نظيره في تهمة الهرطقة. وإن رفض ذلك فالويل له كل الويل، فكان يُلقى في أعماق السجن، وما أدراك بالزنزانة المظلمة الرهيبة المخيفة. وهناك كانوا

لا يتورعون عن استعمال أخس صور الكذب وأنذل المكر وأحط الحيل، وكل أنواع التعذيب المنظمة المدبرة لحمل المسجون على الاعتراف على نفسه والإبلاغ عن الآخرين. وكان المقصود من وسائل التعذيب هذه هو سحق نفس المسجون، فكان الطعام يُقدم له بكميات أقل شيئًا فشيئًا بالتدريج حتى ينعدم أو يكاد، وحتى يصبح جسم السجين وروحه في حالة انكسار وتذلل واستسلام، وعندئذ كان يُترك وحيدًا في الظلمة والوحشة في السجون السرية. ثم يبدأ الدور الثاني من إجراءات المحكمة المقدسة، بإيقاع كافة أنواع التعذيب البدني. كان السجين يُتهم بجريمة إخفاء الحق وإنكاره، وعبثًا كان يحاول المسكين إقناع المحققين بأنه قد أجاب على كل سؤال بكل أمانة وبكل ما تصل إليه معرفته، فكانوا يحثونه على الاعتراف عما إذا كان في أي وقت من الأوقات تطرق إليه أو خطر في قلبه أي فكر شرير بخصوص الكنيسة، أو البابوية المقدسة، أو أي شيء آخر شاء لهم أن يسموه، ومهما كانت إجابته على هذا السؤال فلم يكن يلقى منهم سوى الإعلان بأنه هرطقي عنيد، وبعد أن يخاطبوه ببعض عبارات الرياء عن محبتهم لنفسه، ورغبتهم المخلصة في تخليصه من الضلال لكي يحصل على الخلاص الأبدي، يعرضون أمامه جهازًا كبيرًا من أجهزة التعذيب ويهددونه به إن لم يعترف بخطيته.

التعذيب البدني

حقًا لولا أن الحق والتاريخ الصريح غير المتحيز يتطلبان وجوب الإخبار عن حقيقة البابوية كما هي لفضّلنا عدم الإشارة ولو بأبسط الإيجاز إلى وصف هذه المناظر المروعة، ولكن القليل من قرائنا الأحداث في هذه الأيام الهادئة يعرفون شيئًا عن قسوة البابوية وتعطشها لدم قديسي الله. والمؤلم أن نقول إن هذه الطبيعة هي هي لم تتغير، فحتى عهد قريب في سنة ١٨٢٠م عندما فُتحت أبواب محكمة التفتيش في مدريد وُجد فيها واحد وعشرون سجينًا، وليس واحد من هؤلاء كان يعرف عندما أُطلق سراحه اسم المدينة التي كان بها، فالبعض كان له في السجن ثلاث سنين، والبعض الآخر أكثر من ذلك، وليس منهم فرد واحد كان يعرف بالضبط الجريمة التي كان متهمًا بها. ومن حسن الحظ أن واحدًا من هؤلاء المساجين كان مقضيًا عليه بالإعدام ثاني يوم بآلة البندول - هكذا كانت تسمى آلة التعذيب هذه - فكان المتهم يُطرح ظهرًا على طاولة خشبية ويُربط ربطًا محكمًا في مجرى محفور في أعلى الطاولة لهذا الغرض، وكان يتدلى فوقه شيء يشبه بندول الساعة، وهذا البندول له طرف حاد ومركب بكيفية تجعله يستطيل إلى أسفل مع كل دورة يتأرجحها. وكان المتهم المسكين الذي لا حول له ولا قوة يرى آلة الهلاك هذه تتأرجح فوقه جيئه وذهابًا، والطرف الحاد يقترب إليه لحظة بعد لحظة، وأخيرًا يصل إليه فيقطّع جلد وجهه أولاً ثم يأخذ يحز في رأسه تدريجيًا حتى تنتهي الحياة. تلك كانت وسيلة من وسائل التعذيب لدى المحكمة المقدسة عام ١٨٢٠م. وقد يكون الحال كذلك إلى الآن في بعض أماكن أخرى في أسبانيا وإيطاليا*

هذا وآلات التعذيب التي كان يُعرّض إليها المتهمون للحصول منهم على الاعترافات كما يشتهي المفتشون كانت كثيرة ومتنوعة، إلا أن أولها عادة كانت الآلة المشهورة المسماة بالمطّاطة. فكانوا يربطون ذراعيّ المتهم عارية وراء ظهره ويحبكونها بحبل صغير متين، ثم يأتون بأثقال حديدية ويربطونها في قدميه بعد أن يكونوا قد علقوا في سقف المكان بكرة عليها حبل، يربط أحد طرفيه إلى ذراعيّ المتهم، والطرف الآخر يجذبونه للرفع والخفض، وتبدأ العملية برفع المعذب إلى أعلى غرفة التعذيب، وبعد أن يبقى معلقًا على هذه الصورة بعض الوقت يُفلت الطرف الآخر بغتة، فيهوي المسكين إلى ما قبل الأرض بمسافة قليلة، ثم يُرفع مرة أخرى، وهكذا تتكرر هذه العملية عدة مرات، حتى تنحل مفاصل الذراعين وتنتقل من مكانها وحتى يكون الحبل الرفيع به قد حز الجلد واللحم ووصل إلى العظام، بينما تكون الأثقال المعلقة بقدميه قد فعلت فعلها في حل مفاصل الجسم كله حلاً قاسيًا وفظيعًا. وهذا النوع من التعذيب كان يستمر مدة ساعة، وبعض الأحيان أكثر من ذلك بحسب شهوة المفتشين الحاضرين أو بحسب مقدرة المتألم على الاحتمال. كذلك كان التعذيب بالنار ليس أقل ألمًا، فكانوا يطرحون السجين على الأرض ويدهنون رجليه بالشحم ثم يضعونها بالقرب من النار حتى يتلظى المسكين من شدة الوهج ويصبح مستعدًا للاعتراف بما يريد معذبوه. بعد ذلك كان القضاة يحكمون على المتهم بنفس التعذيب مرة ثانية حتى يعترف بنيات وبواعث قلبه التي قادته إلى ما اعترف به من فعل أو قول، ثم بعد ذلك يحكمون عليه مرة ثالثة لكي يعترف على شركائه أو محرضيه.

* ليلاحظ القارئ أن هذا الكتاب كتب عام ١٨٧٦م.

وعندما كانت تفشل وسائل التعذيب في انتزاع الاعتراف كانوا يلجأون إلى الخديعة والمكر وكافة الحيل الممكنة، فكانوا يرسلون أناسًا إلى السجن مدّعين أنهم سجناء نظيرهم، وهؤلاء يسبون ويلعنون محكمة التفتيش، وغرضهم في كل ذلك اصطياد الآخرين حتى يصبحوا شهودًا ضدهم. وعندما كان يُدان المتهم إما بشهادة الشهود أو باعترافه القهري كان يُحكم عليه بحسب جسامة جريمته، فقد يكون الحكم بالإعدام أو السجن المؤبد أو الجلد. أما المحكوم عليهم بالموت حرقًا فكانوا يُجمعون معًا وينفذ فيهم الحكم دفعة واحدة، حتى يكون للمشهد وقع شديد وتأثر مرعب.

أوتو دي فيه

كان الموت القاسي الذي تختم به محكمة التفتيش تاريخ ضحاياها يُلقب في أسبانيا والبرتغال باسم "أوتو دي فيه" أي "عمل إيمان"، إذ كانوا يعتبرونه خدمة دينية ذات خطورة خاصة. ولكي يعطوا العملية صفة عظيمة من القداسة كانوا ينفذونها دائمًا في يوم الرب. أما المتهمون الأبرياء وضحايا هذه الوحشية البابوية فكانوا يساقون في موكب إلى مكان التنفيذ لابسين أشد الملابس سخرية وهزءًا، فكنت ترى على البعض منها لهب جنهم مرسومة بحمرة نارية، والتنانين والشياطين تنفخ في هذه اللهب لكي تحفظها مستعرة لتعذيب الهراطقة! بينما كان اليسوعيون يصرخون في وجوههم كل الطريق بأن هذه اللهب التي يرونها ليست شيئًا بالمقابلة مع نيران جهنم التي سيتقلبون فيها إلى أبد الآبدين. وإن تجاسر أحد على أن يفوه بكلمة كصلاة للرب أو دفاعًا عن الحق الذي هو مزمع أن يتألم لأجله كان فمه يكم بأسرع من لمح البصر. وأخيرًا كان يُربط المتهمون في أعمدة استعدادًا لإشعال النيران فيهم. وإن صرح واحد منهم بأنه كاثوليكي بالحق، ويود أن يموت في الإيمان الكاثوليكي كان له امتياز أن يُحرق حيًا حتى يُصبح رمادًا.

وكانت طريقة الحرق هي أن يضعوا حول الأعمدة كميات من الأخشاب بعضها أخضر وبعضها يابس ثم يُشعلون فيها النيران بحيث تحصر الفريسة من كل جانب، فكانت آلام المتألمين لا توصف. وكثيرًا ما كانت الأطراف السفلية من الجسم تشوى قبل أن تصل اللهب إلى الأجزاء الحيوية. وكان يشاهد هذا المنظر المرعب آلاف الناس ذكورًا وإناثًا، ومن كل الأعمار وسط الهتاف والتهليل. هكذا وصلت حالة الناس الأدبية وانحطت مشاعرهم تحت تأثير مبادئ روما وتعليمها، واستمر "الأتو دي فيه" ما يزيد عن أربعة قرون معتبرًا عيدًا قوميًا في أسبانيا، تُعطل من أجله المصالح وتخرج لمشاهدته الملوك والملكات والأمراء والأميرات في عظمة وأبهة ملكية.

ويُستدل من إحصائيات لورنتيه المأخوذة عن سجلات محكمة التفتيش أنه من سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٨٠٨م أعدمت هذه المحكمة في أسبانيا وحدها ما يزيد عن ثلاثمائة وأربعين ألفًا من النفوس. فإذا أُضيف إلى هذا العدد جميع من قتلوا في سائر الممالك الأخرى التابعة لأسبانيا حينذاك فكم يا تُرى يكون العدد؟ قيل إن تركيمادا وحده عندما عُيّن مفتشًا عامًا لمحكمة التفتيش في أراجوان عام ١٤٨٣م حرق ما لا يقل عن ألفين من المساجين أحياء تمييزًا أو تدشينًا ليوم ترقيته لرئاسة الإدارة المقدسة. فملوك وأمراء وأميرات وعلماء وقضاة وأساقفة ووزراء كانوا يُتهمون كذبًا وعدوانًا بواسطة هذه المحكمة المقدسة. ولكن الرب يعرف الجميع، يعرف المتألمين ويعرف المضطهدين، ويعرف كيف يكافئ الأولين، ويدين الآخرين. إن جميع الأعمال السرية التي كانت تُرتكب في غياهب السجون السحيقة المظلمة، وعويل وصراخ المتألمين المساكين، وتعييرات المضطهدين واستهزائهم المرير القاسي، كل ذلك لا بد من ظهوره في الوقت المعين أمام عرش القضاء العادل، فالبابا والكرادلة أعوانه، ورئيس الدير والرهبان أتباعه، والمفتش العام والجلادون أذنابه، وهكذا كافة المعذبين والمنفذين، لا بد من وقوفهم جميعًا أمام «العرش العظيم الأبيض»، عرش المسيح الديان العادل. ونحن نترك هؤلاء الناس الأشرار، شاكرين الله أنه ليس لنا أن ندينهم، راضين تمام الرضى بما ينطق به الرب إزاءهم. «أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً؟» (تك١٨: ٢٥).

إن ذاك الذي وبخ تلاميذه مرة لمجرد التفكير في طلب نار تفني السامريين، سيدينهم بلا نزاع بحسب مقاييسه الخاصة. حقًا مبارك أنت أيها الرب سيدنا، يا من انتهزت الفرصة حينئذ فسجلت لنا على صفحات الوحي ما أردته أن يكون مرشدًا ودليلاً لشعبك في كل العصور والأجيال. ماذا فعل سيدنا؟ انتهر تلميذيه وقال «لستما تعلمان من أي روح أنتما، لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلّص» (لو ٩: ٥٥، ٥٦).

وقد يكون من اللازم أن نُقرِّر هنا أننا لا نعتبر كل من تألم على أيدي محكمة التفتيش شهداء أو حتى مسيحيين، فالجرائم بحسب عُرف هذه المحكمة كانت الهرطقة في أشكالها المختلفة، مثل اليهودية والإسلام والسحر، وتعدد الزوجات، والارتداد. زد على ذلك أنه ليس لدينا معلومات عن شهادة المتألمين الختامية، والحالة هنا تختلف كل الاختلاف عن الشهداء تحت حكم الأباطرة الوثنيين. على أنه في الوقت نفسه يستحيل على الإنسان أن يقرأ قصص تلك الأيام المظلمة الشيطانية دون أن يتحرك قلبه بالفزع والعطف الشديد.

أصبح الآن أمام القارئ صفحة يرى فيها كيف بدأت محكمة التفتيش وكيف كانت صفاتها العامة. أما فيما يتعلق بحوادث التعذيب الفردية فسيتجلى لنا ذلك كلما تقدمنا في تاريخنا. إنما الشيء الذي يلي ما تقدم من حيث الأهمية فهو طوائف الرهبان التي نتجت من نفس تلك الحرب الألبينية الشهيرة.

الرهبنة قديمًا وحديثًا

قد تأملنا جيدًا في نشأة الرهبنة ومبدأ تاريخها في الجزء الأول من هذا "المختصر". ولكن بما أنها تغيرت تغيرًا كليًا في القرن الثالث عشر، فقد يكون من المستحسن أن نمر بعجلة على التطورات التي مرت فيها منذ ذلك العهد، حتى يتضح أمامنا الفرق جليًا. زد على ذلك أن ذلك سيعطينا الفرصة في سياق الكلام لأن نلقي نظرة على حالة كنيسة روما الداخلية قبل أن يشع عليها نور الإصلاح ويكشف ظلمتها المخيفة.

منذ أواخر القرن الثالث، وخاصة إبّان القرن الرابع، كانت صحاري سوريا ومصر مسكنًا للنساك والرهبان، وكانت أبعد الأمكنة عن الأنظار، وهي التي اختارها المنعزلون الأصليون ملجأ لهم في تلك البراري الشاسعة، وصارت سيرة تقواهم وقداستهم ومعجزاتهم من أهم سجلات الكنيسة ومقتنياتها المقدسة. وانتشرت العدوى بسرعة، حتى أن كل من اشتاق أن يتفوق في القداسة أو يحصل لنفسه على صيت خاص في التقوى كان يلجأ إلى هذه الأديرة ويتخذها مقرًا مختارًا له. وهكذا كانت تنتشر الرهبنة من مكان إلى آخر، فما أن وافى القرن السادس حتى عمت العالم المسيحي بأجمعه. وكان السور الذي يضم الرهبان داخله يضم أيضًا في بعض الأحيان آبارهم وبساتينهم وكل ما هو ضروري لإعالتهم وتموينهم، حتى بذلك لا تبقى أمامهم أية حجة لأقل اتصال بالعالم الخارجي الذي هجروه وتركوه إلى الأبد.

وجاء القرن الخامس بغزواته واضطراباته في أوروبا، فكان عونًا ونصيرًا للرهبنة، ذلك أن الغزاة البرابرة تأثروا بكثرة عدد الرهبان وعاداتهم الخاصة، فاعترفوا بقدسيتهم وحرمة أديرتهم، وبذلك صارت مساكنهم بعيدة عن كل اضطراب، وأصبحت أمكنة هادئة يهجر إليها كل من أراد الاعتكاف والخلاص من قلاقل ذلك العهد ومتاعبه الكثيرة. أما الخرافة فقد أعطتهم مكانة خاصة في نظر الناس، وأخذت الثروة تتدفق من كل حدب وصوب، جالبة معها طبعًا عوامل الانحطاط والفساد، حتى أصبحت الحاجة ماسة حتى في ذلك التاريخ المبكر إلى مُصلح، والشخص الذي كان من نصيبه أن يبرز بهذه الصفة كان هو القديس بندكت المشهور.

القديس بندكت

لما كانت القاعدة التي سارت عليها أغلب معاهد الرهبنة في أوروبا لمدة زادت عن ستمائة سنة هي قاعدة النظام البندكتي، فيلزمنا أن نُلقي نظرة على هذا النظام لنعرف صفات تلك المعاهد كلها.

ولد هذا الرجل المشهور من أسرة رومانية عريقة سنة ٤٨٠م، ولما بلغ الثانية عشر من عمره أرسله أبواه إلى المدرسة في روما، ويُرجح أنه درس في صباه قصص نساك الشرق وسيرهم المقدسة. بهذه المُثُل السامية أمام مخيلته لم يستطع أن يحتمل عادات إخوانه الطلبة وحياة المجون التي تُحيط به، فمال إلى العُزلة واشتاق للاعتكاف والوحدة. ولما بلغ الخامسة عشر ضاق ذرعًا بما كان يشاهده من مفاسد الحياة الاجتماعية في روما، ولم يطق البقاء أكثر من ذلك، فانعزل بغتة عن كل مخلوق، حتى عن مربيته الأمينة شيريلا، التي كان قد أرسلها أبواه لتُعنى به في روما، فتركها وحيدة تندب جنونه وما حاق بعقله من هوس وخلل. ولقد كانت غزوات قبائل الهون والوندال شديدة الوطأة على إيطاليا في ذلك العهد، حتى جعلتها برية قاحلة، ولذلك لم يجد الشاب الناسك عناء كثير في العثور على نقطة منعزلة بالقرب من روما، واستمر في هذه البقعة عدة سنين لا يعرف بسر عزلته سوى راهب آخر يُسمى رومانوس، كان يمده بالخبز اللازم له وذلك باقتصاده جزءًا من تعيينه اليومي. ولكن بما أن صخرة زلقة

منحدرة كانت تفصل بين صومعة رومانوس ومغارة بندكت، فكان يربط الخبز في خيط ويجعله يتدلى حتى يصل إلى باب المغارة، وتصادف ذات يوم أن شاهد هذه العملية بعض الرعاة المارين في تلك النواحي، فاكتشفوا السر وجاءوا إلى بندكت يتبركون به ويستمعون إلى تعاليمه ويشاهدون معجزاته. ولما ذاع صيته وانتشر خبر تقواه، قبل بعد إلحاح شديد أن يُصبح رئيسًا لدير بالقرب من تلك الناحية، ولكن تشدده المتناهي نفّر منه الرهبان، الذين اتفقوا بين بعضهم البعض على أن يخلصوا أنفسهم من نظامه القاسي بأن وضعوا له السُم في الخمر. ولكنه عندما رسم علامة الصليب على الخمر، كما كانت عادته أن يفعل ذلك على أكله وشربه، انشق الكأس وتلاشت محتوياته، فلم يكن منه إلا أن وبخ الرهبان بلطف وهوادة وعاد إلى مغارته الأولى.

أصبح بندكت الآن مرغوبًا أكثر مما كان، فانتشر صيته وأخذت الجماهير الكثيرة تحج إليه وتزوره، وقد انضم إليه بعض الأثرياء وذوي النفوذ، ووضعوا أموالهم الطائلة تحت تصرفه، فاستطاع أن يبني اثني عشر ديرًا يضُم كل منها اثني عشر راهبًا وعليهم رئيس. وإذ نجح إلى هذا الحد في تتميم غرض سكناه في هذه المنطقة، وتضايق من غيرة فلورنتيوس ومناوراته، وهو أحد الكهنة القريبين، رحل من المكان سنة ٥٢٨م ومعه عدد قليل من التلاميذ والأتباع. وبعد أن ظل وقتًا يجول من مكان إلى مكان ألقى أخيرًا عصا الترحال في مونت كازينو، حيث كان الفلاحون لا يزالون يعبدون الإله أبولو، وبمهارة عظيمة ونشاط فائق استطاع أن يستأصل عبادة الأوثان من بين الفلاحين، فهدم المعبد وأباد تمثال أبولو، وأقام على أنقاضه ديرًا صغيرًا دعاه باسم القديس يوحنا الإنجيلي، وكان هذا نواة ديره العظيم المشهور، الذي صار فيما بعد أصلاً لفروع لا عدد لها استطاعت في زمن وجيز أن تغير وجه أوروبا، وفي هذا المكان وضع بندكت قانونه المشهور عام ٥٢٩م، وهو يحتوي كما يُقال على ثلاثة وسبعين بندًا تتضمن واجبات الرهبان من نحو بعضهم البعض، وكذا الواجبات المتبادلة بين الرئيس ورهبانه، فهي إدارة مُحكمة تتألف من وظائف مختلفة وأنواع أعمال عديدة، ولكنها كلها تخضع لمدير واحد مطلق السيادة والسلطان، والحق أنه استطاع أن يضع نظامًا محكمًا شاملاً يدعو للدهشة والإعجاب، خاصة وأنه جاء وليد عقل واحد لم يسبقه أحد ينسج على منواله أو نموذج يبني على غراره، وهو في نظر العلماء أعظم وأشهر تحفة كنسية أثرية، وقد صارت أحكامه قوة وشعارًا للقادة والزعماء في كنيسة روما.

قانون القديس بندكت

إن حكمة هذا الراهب العظيم كمُشرِّع، وتفوّق نظامه على كل ما سبقه تبدو بصفة خاصة في المكانة السامية التي أعطاها للعمل اليدوي. تلك كانت الصفة التي تميز بها هذا النظام الجديد، وهي العمل الشاق البدني الصحي. فالرهبنة كانت إلى ذلك الحين عبارة عن مجرد اعتكاف وتأمل، تعيش على هبات المُحسنين وتبرعاتهم. ولكن بندكت أدرك المساوئ الرديئة التي تنجم عن مثل هذه الحياة الخاملة السابحة في الأحلام والأوهام، ولذلك أوجد مجالاً فسيحًا من العمل لجميع الرهبان. أما الخمول فقد وصمه وصمة شنيعة، إذ اعتبره عدوًا لكلا الجسم والنفس، فلم يكن من واجب الرهبان أن يتعبوا فقط عن طريق الصلاة والعبادة والقراءة وتعليم الشباب، بل كان عليهم أيضًا أن يتعبوا عاملين بأيديهم، بالفأس في الغابات أو بالمنجل في الحقول أو المسطَر على الحائط. ولقد كانت مزايا هذا النظام عظيمة للغاية، إذ أصبحت الأديرة البندكتية عبارة عن مقاطعات زراعية صناعية، كما أن الفلاحة وما إليها من فنون التمدن والحضارة وصلت بفضل هذا النظام إلى أشد المناطق همجية، بينما البراري والقفار أصبحت تحت أيدي الرهبان بساتين مزهرة وحقولاً تفيض خصبًا ورخاء.

ولو أن نظام القديس بندكت كان مخالفًا لكلمة الله من حيث الحرف والروح، إلا أنه كان أكثر انطباقًا على العقل والمنطق السليم من نظم الخمول والكسل التي كانت شائعة في الشرق. يقول المؤرخ ترافرس هلِ عن بندكت إنه "كان يؤمن أن الإنسان لكي يعيش في هذه الحياة يجب أن يعمل عملاً، وأن الحياة التي تستهلك فقط ولا تُنتج ما هي إلا حياة مريضة، أو في الواقع حياة مآلها إلى الاضمحلال لا محالة. تلك كانت حقيقة هامة في نظره، ولذلك جعل العمل اليدوي والشغل اليومي المستمر أساسًا رئيسيًا لنظامه". هذا وقد كان بندكت بعيد النظر، حتى أنه راعى الاعتبارات المناخية في الغرب واستعداد الأجسام الأوروبية، فجاءت قوانينه ألطف وأقرب إلى الواقع العملي من تلك القوانين التي حاول الشرقيون تنفيذها، فكمية الطعام مثلاً كانت أكثر سخاءً، وفي الوقت نفسه لم

يتطرف في تعذيب الجسد وإماتته، كما أنه سمح لأتباعه أن يعيشوا طبقًا لعادات بلادهم المختلفة. هذه الاعتبارات الحكيمة المعقولة كانت هي سر النجاح المدهش الذي صادفه نظام بندكت.

وقد يتساءل القارئ إزاء ما قلناه عن سهولة هذا النظام وما لازمه من سخاء في الطعام، ما هو نوع تلك السهولة ومقدار ذلك السخاء. واستدراكًا لهذا نقول إننا ذكرنا ذلك فقط بالمقابلة مع ما كان متبعًا في الشرق. أما نظام الرهبنة البندكتية فكان كما يأتي:

يستيقظ الرهبان في الساعة الثانية صباحًا لخدمة البكور، وهي عبارة عن ترتيل اثني عشر مزمورًا مع قراءة أو استظهار بعض فصول من الكتب المقدسة، ثم يجتمعون ثانية في الفجر للخدمة الصباحية وكانت تشبه الأولى تقريبًا، أي أنه في خدمتي البكور والصباح كانوا يرتلون أربعة وعشرين مزمورًا يوميًا، حتى تتم قراءة كتاب المزامير كله أسبوعيًا. أما أوقات عبادتهم الداخلية وأعمالهم الخارجية فكانت تنظم صيفًا وشتاءًا كيفما يرى الرئيس، ولكنه كان محتمًا عليهم أن يحضروا على الأقل سبع خدمات دينية مختلفة كل أربع وعشرين ساعة، علاوة على سبع ساعات يوميًا للعمل اليدوي. وكانوا يفطرون حوالي الظهر ويتغذون في المساء.

وكان طعامهم الاعتيادي يتركب من خضراوات وبقول وفاكهة، ولكل راهب رطلاً من الخبز يوميًا وكمية قليلة من النبيذ. أما اللحم فلم يكن مصرحًا إلا إذا اقتضى الحال في حالة المرضى، وبعض الأحيان كان يُضاف إلى أكلة المساء شيء من البيض أو السمك. أما في أيام الصيام الكبير فكانوا يصومون إلى الساعة السادسة مساءً يوميًا وفي الوقت نفسه كانت تخفض ساعات نومهم.

أما لباس الرهبان فكان خشنًا وبسيطًا، ولكنه يختلف حسب الظروف والأحوال. كان مسموحًا لهم بمتعة الأحذية، وكان الثوب الخارجي عبارة عن قميص أسود فضفاض بأكمام كبيرة واسعة وقلنسوة على الرأس. وكان لكل راهب ثوبان وطاقيتان وكتاب وسكينة وإبرة ومنديل. أما أثاث صوامعهم فكان حصيرة وبطانية وسجادة ووسادة، وكان لكل راهب سرير خاص، وكانوا جميعًا ينامون بملابسهم، وكان لكل عنبر رئيس أو ملاحظ مع سراج يستمر مشتعلاً في كل منها، ولم يكن مسموحًا بالكلام بعد ذهابهم للنوم. أما العقاب فكان الحرمان من طعام الشركة الأخوية للزلات البسيطة، والعزل من هيكل الصلاة للأخطاء الكبيرة، والطرد من الدير للذنوب الجسيمة.

هكذا كان الراهب يصرف يومه الطويل الشاق، وكانت كل أعماله من صلوات نصف الليل إلى صلوات المساء أشياء آلية ميكانيكية محضة. ومن اللحظة التي فيها يدخل الدير كان يتخلى عن كل نوع من أنواع حريته الشخصية، كما كان يتعهد تعهدًا لا رجعة فيه بالطاعة العمياء لرؤسائه في كل شيء. ولم يكن في مقدور أحد أن يقبل هدية من أي نوع كان، حتى لو كانت من والديه، ولا أن يُكاتب أحدًا خارج الدير إلا تحت مراقبة الرئيس. وكان بواب يجلس على الدوام عند الباب، وكان هذا الباب مُحكم الغلق نهارًا وليلاً ولا يستطيع أي أجنبي أن يدخل إلا بتصريح من الرئيس، ولا أي راهب أن يخرج إلا بإذن من رئيسه.

وكانت الحديقة والطاحونة والبئر والمخبز كلها داخل جدران الدير، حتى بذلك تنقطع كل ضرورة للخروج، وكان الرئيس هو الذي يُعين مهنة كل راهب أو عمله. والذي كان منهم قبلاً غنيًا أو من أسرة شريفة كان عليه أن يُصبح مُعدمًا وفقيرًا، وقد يعينه الرئيس المطلق السلطان طباخًا أو خادمًا أو نجارًا أو في أي مهنة يراها الرئيس، وكان طعامه من حيث نوعه أو كميته يُعين ويُحدد له كما لو كان طفلاً صغيرًا. ولم يكن مسموحًا له الكلام إلا في أوقات معينة، وكل حديث كان ممنوعًا منعًا باتًا أثناء الطعام، بينما كان أحدهم يقرأ بصوت عال طول الوقت.

هكذا أصبح الإنسان، الذي هو بالطبيعة اجتماعي، منعزلاً ومفروزًا من الهيئة الاجتماعية. أما المرأة التي أعطاها الله للإنسان فكان يجب أن يعتبرها الراهب ليس فقط كشيء غريب عن دائرة أفكاره، بل العدو الطبيعي لكماله المنعزل، فبمكر الشيطان وحيلته الغريبة أصبحت الذات غاية الرهبان وهمهم الأكبر في جميع نُظم الرهبنة على السواء.

حقًا إن الإنسان لا يستطيع وهو يتأمل في البون الشاسع بين الحرية المسيحية والعبودية لأفكار الناس إلا أن يشعر في قرارة نفسه بقوة وسلطان تلك الكلمات التي فاه بها الرسول بولس «لكن ما كان لي ربحًا فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة» ولاحظ هذه الكلمات المسيحية بالحق «ما كان لي ربحًا» أي إذا كانت كل هذه الأشياء مجرد ربح لي فما المنفعة منها جميعًا؟ أنا أريد المسيح. أنا رأيت المسيح في المَجد وأريد أن أكون مثله. كل شيء يستطيع الجسد المتدين أن يفتخر به، وكان ربحًا للرسول

ولكنه طرحه خلف ظهره كالنفاية التي لا قيمة لها البتة. أي نعم «بل إني أحسب كل شيء أيضًا خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي». فيا له من عمى روحي وقلب لأمور الله أن يُفضل أي إنسان نظام القديس بندكت عن نظام فيلبي ٣: ٧، ٨، محبة المسيح وحريته! ولكن هكذا بلغت حيلة الشيطان وخداعه حتى أن الإنسان كان يظن أن أضمن طريق، إن لم يكن الطريق الوحيد، لدخول السماء هو أن يصير راهبًا.

البندكتيون

قبل أن يموت بندكت عام ٥٤٣م، كان نظامه قد تثبت في فرنسا وأسبانيا وصقلية، ومن هناك انتشر انتشارًا سريعًا في كل مكان. فحيثما حلّ الرهبان كانوا يحولون البراري إلى مقاطعات زراعية، فكانوا يقطعون الغابات، ويجففون المستنقعات، ويبنون بأيديهم الأديرة الشامخة، ويمدينون السكان، ويربون الماشية ويزاولون الزراعة بكافة وسائلها. كذلك نشروا التعليم، وأنشأوا المدارس للصغار. على أنه بالرغم من سرعة انتشار البندكتيين في ممالك مختلفة وصيرورتهم هيئة عظيمة، فقد استمروا جميعًا تحت سلطة رئيس واحد، خاضعين لنظام واحد. والوقت الذي دخل فيه هذا النظام إلى إنجلترا معروف جيدًا في التاريخ، فالقديس أغسطينوس ورهبانه كانوا بندكتيين. وكذلك كان غريغوري الذي أرسلهم، على أنه وإن كان الفضل يرجع إليهم في إصلاح الأراضي البور وتحويلها إلى مساحات خصبة زراعية، فإن الفضل يرجع إليهم أيضًا في اختيار أفخر المناطق في المملكة لإقامة منشآتهم ومساكنهم. يقول ملمان في كلامه عن إنجلترا "في كل حي غني وواد خصب، وعلى ضفاف كل نهر عميق ومجرى عذب، كان للبندكتيين دير، حتى يُمكن أن يُقال إن أتعاب الرهبان في الفلاحة، ومجهوداتهم في الغرس والزراعة وتخطيط الحدائق الغناء والبساتين المثمرة، وتغطية سفوح الجبال والتلال بالأشجار، قد زادت كثيرًا في بهاء تلك المناظر وروعة مواقعها. وأينما سرت في أي مقاطعة من مقاطعات إنجلترا ووقع نظرك على مكان بهرك بجماله، وحكمت حكمًا صائبًا أنه أحسن وأجمل وأخصب وأهدأ مكان، وسألت التاريخ عنه لقال لك توًا إنه كان مكانًا للبندكتيين وموقعًا لدير من أديرتهم"(١/٤٣)،(٥٨)،(١/٣٨)،(٣/٢٨).

ولم تكن نية القديس بندكت الأولى إنشاء نظام خاص للرهبنة، ولكنه أراد فقط أن يضع قواعد يسير عليها الرهبان الإيطاليون طبقًا لمبادئ النُسّاك الأولين، ولكن رهبان مونت كازينو اشتهروا سريعًا بتفوق ذكائهم وهدوء حياتهم وسلامة عاداتهم وصادق غيرتهم. ففي عهد ساد فيه الظلام والجهل، والسلب والنهب، والأخلاق الفاسدة، كان الدير بهدوئه وقدسيته ملجأ مغريًا يستطيع الإنسان أن يقضي فيه مدة الحياة الوجيزة مهتمًا بواجباته الدينية، وأن يُنهي أيامه بالسلام مع السماء والناس. ولم يكن في ذلك العهد أمام روح الشباب الفتية الداخلة في معترك الحياة مجال كبير لاختيار سُبل الحياة، فإما حياة كفاح وجهاد وحرب وقسوة، وشر واغتصاب، وبالاختصار حياة ملذات جهنمية وآلام وحشية، وإما حياة اعتكاف وتذلل، وخضوع وعمل لا دخل فيه للذات. وقد وجدت النفوس المفكرة والطبائع الهادئة مبتغاها في تلك الملاجئ المريحة، فرحبت بها وهرعت إليها. فرجال من كل الطبقات تركوا غناهم أو فقرهم وانضموا إلى هذه الجماعة الجديدة، التي أخذت في النمو والازدياد حتى وصلت ثروتها وقوتها في يوم من الأيام إلى درجة لا يمكن تصديقها. والإحصائيات الآتية تُعطي للقارئ فكرة عن ثروة هذه الأديرة البندكتية القديمة من مجرد الوصف أو التعبير.

"لقد بلغت ممتلكات دير مونت كازينو الأصلي أربع أبروشيات، ودوقيتين، وستًا وثلاثين مدينة، ومائتي قلعة، وثلاثمائة مقاطعة وثلاثًا وثلاثين جزيرة، وألفًا وستمائة واثنتين وثلاثين كنيسة. أما الرئيس فكانت له الألقاب الآتية: بطريرك الإيمان المقدس.. رئيس دير مونت كازينو المقدس.. رئيس وأمير جميع الأديرة والمعاهد الدينية.. نائب قاضي قضاة الصقليتين وأورشليم وهنغاريا.. كونت وحاكم كمبانيا وتُرا دي سافونو والمقاطعات البحرية.. نائب الإمبراطور.. رئيس السلام"(٤٦).

غيرة البندكتيين التبشيرية

على مر الزمان ازداد عدد البندكتيون، فأرسلوا مبشرين يكرزون بالإنجيل للأمم التي كانت غارقة وقتئذٍ في الوثنية. ولقد كانوا الواسطة في ضم أكثر من ثلاثين مملكة ومقاطعة إلى المسيحية، أو بعبارة أصح إلى كنيسة روما. ومهما كان الأمر فالرب في رحمته الغنية كان في استطاعته أن يستخدم صليب

المسيح، كما كانوا يكرزون به، لخلاص الكثيرين، فالقليل والقليل جدًا من حق الصليب ودم المسيح كاف لأن يستخدمه الله ليخلص النفس. وبالإجمال حدث تغيير عجيب في تاريخ الكنيسة أو في تاريخ المسيحية بواسطة كرازة البندكتيين، هذا التغيير الذي نكتفي بمجرد الإشارة إليه تاركين تقديره للقارئ المفكر.

ففي القرون الثلاثة الأولى من العهد المسيحي كان الأباطرة وجميع عظماء الأرض يضطهدون أتباع المسيح الأمناء، أما في القرن السادس والسابع والثامن والتاسع، فكثير من الأباطرة والملوك تركوا عروشهم وصاروا رهبانًا في النظام البندكتي، كذلك إمبراطورات وملكات صرن راهبات في نفس النظام *.

هذا ومن صوامع النظام البندكتي تخرج ٤٨ من الباباوات ليملأوا كرسي القديس بطرس، كذلك ٢٠٠ كردينال، ٧٠٠٠ رئيس أساقفة، ١٥٠٠٠ أسقفًا، ١٥٠٠٠ رئيس دير، ٤٠٠٠ قديس، وأنشئ ٣٧٠٠٠ ويزيد من المعاهد الدينية بما فيها أديرة الرهبان وأديرة الراهبات والمستشفيات وما إليها. كذلك تخرج من هذا النظام عدد غفير من الكُتّاب المشهورين المقتدرين والعلماء الفطاحل الأفذاذ. فالراهب رابانوس أسس أول مدرسة في ألمانيا، وألكوين أنشأ جامعة باريس، وجيدو أخترع السلم الموسيقي، وسلفستر اخترع الأرغن، وديونسيوس إكسيجوس قنن الحساب الإكليريكي.

يقول مارسدن في قاموس الكنائس والطوائف المسيحية[٤٦] "كان رؤساء الأديرة لا يقلون عادة عن الملوك ذوي السلطان المطلق. وكانت عظمتهم أكبر ما تكون في ألمانيا حيث كان دخل رئيس دير أنجيا، المُلقب بالغني، ستين ألف ريال من الذهب، ولم يكن يقبل في ديره سوى أبناء الملوك والأمراء والأشراف. أما رؤساء أديرة فيسمبرج وفولدا وسان جول فكانوا من أمراء الإمبراطورية". وهكذا استمر النظام البندكتي مدة ستمائة سنة حافظًا لتفوقه وانتشاره، حتى لم يستطع أي نظام آخر أن يدانيه أو ينافسه. فمع أن نُظمًا أخرى كثيرة قامت في ذلك العهد، إلا أنها جميعًا على اختلاف مناهجها كانت تعترف بنظام بندكت وتخضع لأحكامه، ولم تكن سوى فروع للشجرة الأصلية.

* لتفاصيل أكثر انظر «الرهبانية الإنجليزية» لكاتبه أوديل ترافرز هيل[٥٨]، دائرة المعارف البريطانية[٢٠] مجلد ٤ ص ٥٦٢. ويلاحظ أن الأرقام تختلف بينهما. ولما كان الأول قد صدر عام ١٨٦٧ فإننا نعتبره الأدق.

هكذا استمر الحال مدة لا تقل عن سبعمائة سنة فيها اختبر البندكتيون، ككل الأنظمة البشرية، أزمنة يسر وأزمنة عسر، وتقدم واضمحلال، لا شأن لنا بها هنا، وإنما نقول فقط قبل أن نترك هذا الموضوع ما يقوله التاريخ عادة عند ذكره لهذه القصة، إنه سرعان ما أصبح رهبان القديس بندكت أغنياء مترفين، فتحولوا عن مبادئ مؤسسهم وركنوا إلى الكسل والخمول، وانغمسوا في كل نقيصة ورذيلة، وكذلك تورطوا في الشئون المدنية ودسائس القصور، وصاروا لا همّ لهم سوى تقدم الكرسي الرسولي وازدياد نفوذه وسلطانه.

نظم الرهبنة الجديدة

يلاحظ دائمًا أنه حيث يكون روح الله عاملاً بواسطة الإنجيل وتكون النتائج بادية للعيان في إتيان النفوس للمسيح، يكون العدو كذلك عاملاً بنشاط واجتهاد، فهو لن يقف مكتوف اليدين عندما يرى أي هجوم على مملكته. فهو يعمل على تعطيل العمل بواسطة الاضطهاد، أو بمشغولية النفوس بالذات، أو بتقليد عمل الله بطريقة شريرة وخبيثة. ولنا أمثلة مُحزنة كثيرة من هذا القبيل في تاريخ إسرائيل وتاريخ الكنيسة لا يتسع المجال للإشارة إليها هنا، ولكننا سنرى الآن أثناء تأملنا في هذه الفترة من تاريخ الرهبنة ما يفسر هذا.

كان الغرض الأصلي للنظم الجديدة التي قامت في مستهل القرن الثالث عشر أن تكون قوة مضادة لعمل وتأثير المبشرين الألبينيين بين الطبقات الفقيرة، الذي نتج عن الاختلاط بهم والمداومة على نشر الإنجيل بينهم. فالتبشير بإنجيل المسيح بأسلوب يتفق مع حالة الطبقات الفقيرة لم يخطر ببال رجال كنيسة روما لعدة قرون، فأهملوه لولا ما كان يعمله الرب بإقامة مبشرين غيورين بين آن وآخر، أمثال كلوديوس وأرنولد وفولك وهنري الشماس وبطرس والدو الذي كرس نفسه لعمل الإنجيل وخلاص النفوس. ولكن هذه الأمثلة كانت قليلة ومتباعدة في الزمن، ولم تكن تحدث حركة تبشير عامة سوى لغرض بابوي حقير مثل الحروب الصليبية، عندما كان يحاول رجال الإكليروس أن يثيروا حماس الشعب بواسطة فصاحتهم وقوة خطابتهم.

يقول المؤرخ اللاهوتي "نظريًا كان التبشير امتياز الأساقفة الخاص، ولكن كان يندر بينهم من كانت عنده الموهبة أو الميل أو

الفراغ من مشاغله المدنية أو القضائية أو الحربية ليبشر ولو في حدود مدنهم الكاتدرائية. أما حضورهم في باقي مدن أبروشياتهم فكان أمرًا نادرًا، وكان من قبيل الرسميات وإظهار الوجاهة والعظمة أكثر من تعليم الناس أو إرشادهم. والوسيلة الوحيدة للتعليم الديني كانت الخدمة الطقسية، التي من حيث اللغة لم تكن مفهومة. وكان كلا الكهنة والشعب سيان في الجهل لا يتميزان، فلم يتعلم الكهنة سوى ترديد الخدمة الطقسية بطريقة آلية محضة. أما المتزوجون، أو الإكليروس العلماني كما كانوا يسمونهم، فمع أنهم كانوا أتقى وأدعى للاحترام بما لا يُقاس، إلا أنهم كانوا يتهمونهم بمخالفة قوانين الكنيسة وبحيازة السراري، لذلك كانت خدمتهم قليلة التأثير على الشعب. أما غير المتزوجين أو الإكليروس النظامي فكانوا يطيعون القانون الخارجي، ولكنهم كانوا يعيشون عيشة الاستهتار حتى أن وعظهم، إن حاولوا الوعظ فعلاً، كان يقع على آذان السامعين خلوًا من كل قوة أو تأثير "(٤/٤٢)،(٢/٣١).

مثل هذه الحالة في الكنيسة الرسمية تركت الباب مفتوحًا أمام الهراطقة كما كانوا يسمونهم، وهؤلاء رحبوا بالفرصة واندفعوا إلى الميدان عاملين بكل جد ونشاط في نشر تعاليمهم بين الناس، وكان التبشير جهرًا وسرًا هو سر النجاح العظيم الذي وصل إليه الولدانسيون والألبينيون تحت إرشاد الله وعنايته. كان ذلك منذ أقدم الأيام، ولا زال، الطريق الإلهي لنشر الحق وجذب النفوس للمسيح، وكلما كان التبشير جهاريًا كلما كان أنجح وأحسن. وهكذا في كل العصور والأجيال «استحسن الله أن يُخلّص المؤمنين» بما يسميه العالم «جهالة الكرازة» (١كو ١: ٢١). فالتبشير في الهواء الطلق، والزيارة والتعليم من بيت إلى بيت، والشهادة الجهارية داخل الأبواب وخارجها، هي طرق ووسائل يباركها الله دائمًا. ويبدو أن مثل هذه الوسائل استخدمها باجتهاد أولئك الذين كانوا متهمين بالهرطقة في لانجدوك.

أما العدو الساهر، فإذ رأى نتائج هذه الطريقة المباركة، أخذ في الحال يغيّر مناوراته وطريقة هجومه، فبدلاً من حبس أعضاء كنيسة روما المخلصين الغيورين داخل جدران الأديرة، يتفكرون فقط في ذواتهم ويُعلّمون أنفسهم، ويصلّون ويعظون لأنفسهم لا غير، نراه الآن يطلق سراحهم كمبشرين في الهواء الطلق، ولكي يغيروا على نفس الحقول التي كان يحتلها أتباع المسيح الحقيقيون منذ قرون عدة. وقد كان لدى رُسل العدو أوامر مشددة ليس فقط أن يقلدوا من يسمونهم الهراطقة، بل أن يباروهم في بساطة اللباس والتواضع والفقر والاختلاط بالناس، وهكذا حدث في تلك الآونة تغير تام في تاريخ نظم الرهبنة، فبدلاً من رهبان في الصوامع، منعزلين عن العالم ومرددين صلواتهم أو عاملين في الحقول أو جامعين لأثمار البساتين، نرى جماعات تبشيرية في زاوية كل شارع وفي كل مدينة في أوروبا، لا بل نراهم يتوسلون للناس من باب إلى باب. على أن هذا لم يكن الكل، فإذ كانوا أحباء البابوات ومحاسيبهم أصبحت بين أيديهم مقاليد كل شيء تقريبًا في كنيسة روما مدة ثلاثة قرون كاملة. يقول المؤرخ موسهيم "كانوا يشغلون أكبر الوظائف المدنية أو الإكليريكية، ويعملون بمطلق الحرية في كل مدرسة أو كنيسة، ويذودون عن جلال البابوات ضد الملوك والأساقفة والهراطقة بغيرة مدهشة ونجاح عظيم. فما أظهره اليسوعيون ضد حركة الإصلاح هو عين ما كان يعمله الدومينيكان والفرنسيسكان منذ القرن الثالث عشر إلى ظهور لوثر. فكانوا هم اليد العاملة والروح المحركة لكافة شئون الكنيسة والدولة، والواضعين والمنفذين لكل مشروع هام".

نشأة الدومينيكان وصفاتهم

لما كنا نعتقد أن خير وسيلة لفهم الأمور هي معرفة مبادئها، فسنحاول هنا أن نصف بإيجاز نشأة هذين العمودين العظيمين في بناء روما الشامخ.

إلى ذلك الوقت، أي إلى أوائل القرن الثالث عشر، كانت مجهودات البابوات منحصرة كلها في إقامة ذلك البناء الفخم وتثبيته، ألا وهو زعامتهم الشخصية في الكنيسة، وتدعيم سيادتهم الزمنية على الدولة. ولكن النور المتزايد الذي أخذ يشرق في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وحالة الفساد التي وصلت إليها الكنيسة حينئذ، أوجد في ميدان الشهادة شهودًا شرفاء كثيرين للمسيح وللإنجيل. وكان من نتيجة ذلك أن أخذ البناء يتزعزع بعد أن كان رجال الإكليروس قد أضلوا قلوب الشعب بواسطة غطرستهم وظلمهم، علاوة على أن تعسفهم واستهتارهم وخمولهم ومفاسدهم ظهرت للناس بأفظع وأبشع صورها بالمقارنة بما كانوا يرونه من وداعة وعفة واجتهاد وإنكار للذات في من كانوا متهمين بالهرطقة.

وبالاختصار كان البناء كله في خطر الانهيار لأن أولئك الهراطقة كانوا منتشرين في كل مقاطعة ومكان، وبين كل هيئة وطبقة، حتى في روما نفسها. وإذ أدرك العدو حاجة الساعة، أسرع بالنجدة لهذا البناء المهدد، وكان الرجلان المؤهلان لمواجهة الأزمة والقيام بمستلزمات الساعة هما دومينيك وفرنسيس.

ولد دومينيك عام ١١٧٠م من أبوين شريفين. ويقول بعض الكتاب إن أمه تنبأت عن الأثر الذي أحدثه في العالم بفصاحته المتقدة كمبشر، إذ حلمت أنها ولدت شبلاً حاملاً بفمه جمرة نار أضرم بها العالم وجعله شعلة نار. وسواء أكانت هذه الرؤيا هي من أحلام أمه أو من تأليف مؤرخه الراهب، فقد برهن دومينيك على كل حال بكل أمانة ودقة على صحة التشبيه، فالنار الحرفية وليست مجرد نار فصاحته كانت هي وسيلته المختارة من بدء تاريخه، فلقد زعم هو وأتباعه أن لهب جهنم كانت معدة للهراطقة، واعتبروه عملاً حسنًا أن يبدأوا عملية الحريق الأبدي من الآن، ولقد كانت حياته منذ طفوليته حياة نسك وتقشف، وظهرت فيه في بادئ الأمر بوادر صالحة تدل على أن طبيعته كانت تنطوي على عواطف الرأفة والحنان، ولكن غيرته الدينية على مر الزمن حجرت قلبه وجعلته كالصوان أمام كل عاطفة من عواطف طبيعته. هذا وقد كان يصرف الجزء الأكبر من لياليه في ممارسة أعمال التوبة والتكفير، فكان يجلد نفسه كل ليلة بسلسلة من حديد ثلاث مرات، مرة لأجل خطاياه، ومرة لأجل الخطاة في هذا العالم، ومرة لأجل الذين في المطهر.

أصبح دومينيك ظاهرة في عالم التقشف، وسرعان ما فاق أقرانه في مظاهر القسوة، ولما بلغ الثلاثين من العمر استدعاه رئيس أساقفة أوزما بأسبانيا المعروف بقدراته وحماسه الديني ليرافقه في رحلة إلى بلاد الدانمارك. وعندما عبرا جبال البرانس ووطأت أقدامهما أرض فرنسا وجدا نفسيهما وسط الهرطقة الألبينية، فثارت غيرتهما ولم يستطيعا السكوت أمام فضائح الإكليروس الروماني وحالتهم المخزية بالمقابلة مع تقدم الهراطقة ونجاحهم، فقد وجدا أن القداس لم يُقرأ في بعض الأماكن منذ ثلاثين سنة، وأن الإرسالية البابوية التي أرسلها إنوسنت الثالث عام ١٢٠٠م كانت في حالة سيئة ولم تلقَ نجاحًا ما، بينما الهرطقة كانت تتقدم في سبيلها غير عابئة بتهديداتهم، ولا معترفة بسلطان البابا، كما وجدا أن مندوبي البابا لا يزالون على طريقتهم القديمة يسيرون في الأرض من مدينة إلى مدينة في أفخر المواكب وأعظم أبهة، يحف بهم الأتباع وتسير وراءهم صفوف الفرسان، فناديا "كيف تتوقعون نجاحًا وأنتم متمسكون بهذه الأبهة العالمية. ازرعوا الزرع الجيد بينما الهراطقة يزرعون الرديء. ألقوا عنكم هذه الملابس الفاخرة واتركوا هذه الخيول المطهمة. سيروا عراة الأقدام ولا تحملوا كيسًا أو مزودًا نظير الرسل. اغلبوا هؤلاء المعلمين الكذبة وتفوقوا عليهم بأتعابكم وأصوامكم وتدقيقكم". وفي الحال ضربا لهم المثل بأن نزلا عن جواديهما وخلعا ملابسهما واستبدلاها بأخشن الأردية، وسارا في مقدمة الجيش الروحي.

تلك كانت حيلة الشيطان الجهنمية، فقوة الروح القدس كانت قد بدت ظاهرة جلية في رجال الوديان وسكان ليون المساكين، الذين انتشروا في كل المقاطعات، والآن يأتي الشيطان بصورة من التواضع المزيف والغيرة الكاذبة وتقليد حقير لمواهب الروح القدس ونعمه. ولا عجب فلم يكن ممكنًا لروما الاحتفاظ بسلطانها وسيادتها إلا بأساليب الرياء هذه، التي بدونها أيضًا لم يكن ممكنًا للعدو أن يستمر محتفظًا بشعوب أوروبا في ربق العبودية.

قد تكلمنا آنفًا عن مجهودات دومينيك في منطقة الألبينيين، حيث صرف عشر سنين محاولاً إبادة الهرطقة من أصولها، وذلك بأن ألف جمعية صغيرة كانت تُخرج اثنين اثنين كما فعل الرب عندما أرسل السبعين (لو ١٠، مت ١٠)، وبذلك بدأت عملية الإحراق في لانجدوك. هكذا كان الدومينكان يتنقلون من بيت إلى بيت باحثين عن فريسة يقدمونها طعامًا لسيف دي مونتفورت وللنيران التي أعدوها. وقد اكتسب دومينيك بهذه الأعمال العظيمة رضى البابا إنوسنت الثالث وهونوريوس الثالث، اللذين خلعا عليه لقب "المؤسس". وقد مات دومينيك سنة ١٢٢٠م، إلا أنه قبل أن يغادر مشهد مظالمه كان قد أسس ما لا يقل عن ستين ديرًا في جهات مختلفة، وليس ثمة شك في أن محكمة التفتيش المخيفة تدين بنشأتها لدومينيك، سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة، وكان أكثر أعضائها وأشدهم قسوة ينتمون إلى جماعته. وقد نأتي على ذكر بعض التفصيلات عند كلامنا عن الفرنسيسكان، لأن الاثنين يمكن وصفهما معًا.

نشأة الفرنسيسكان ومبدؤهم

كان يعاصر سان دومينيك وينافسه في الشهرة الدينية سان فرنسيس، الذي ربما فاق الراهب الأسباني في الشدة والقسوة. وُلد سان فرنسيس في إيطاليا. ولسنا في حاجة لأن نشير إلى الأقاصيص الكثيرة السخيفة التي تملأ صفحات تاريخه الفرنسيسكاني، لأنها تجاديف لا شك فيها، فقد بلغ حماس مؤرخيه حتى وصفوه بأنه مسيح ثان، وأن "السمات" أو جروح المخلِّص قد طُبعت بطريقة معجزية على جسمه، وقد بنوا هذا الادعاء الجريء على النص القائل «في ما بعد لا يجلب أحد عليَّ أتعابًا لأني حامل في جسدي سمات الرب يسوع» (غل ٦: ١٧).

بعد أن سجن نفسه سنة في بيروجيا، واجتاز في آلام جسمانية قاسية، أصبح فرنسيس موضوع رؤى مدهشة غريبة، شجعته لأن يخرج للعالم كخادم لله وكمخلِّص للبشرية، فأحلام عقله المحموم الضعيف كانت في نظر الكاثوليك رؤى سماوية وإعلانات إلهية.

بدأ فرنسيس يتكلم عن عروسه المستقبلة وهي الفقر، فغيَّر ملابسه بخرق بالية، لأنه كما قال قد أُقيم "ليواجه الضلال بالحق، وشهوة الغنى بالفقر، والطمع بالقناعة والتواضع". وأخذ يستعطي عند أبواب الأديرة ويزاول أحقر الأعمال وأدناها، مكرسًا نفسه للعناية بالبرّص، فكان يغسل أقدامهم ويضمد جروحهم. وكانت أمه كما قيل "تسمع عن أعماله الغريبة وتشاهدها بعطف وإعجاب. بينما كان والده يخجل منه ويعتبره مجنونًا". ولئن كان قد قوبل في بادئ الأمر بالسخرية والاستهزاء في شوارع المدينة، إلا أن الكنيسة كانت تؤمن به، وكان الأسقف يحميه، ولم يمض وقت طويل حتى تبعه جمهور من المقلدين.

وأخيرًا جاء يوم الزفاف، فاقترن فرنسيس علانية بعروسه الفقر بقسم لا رجعة فيه، على أن يكون فقره من أدنى نوع وأحط درجة وهو الشحاذة، فقبل من صديق قديم "جبة ناسك وسترة قصيرة وحزام جلد وعصا وصندل"، ولكن هذه كلها ظهرت له أنعم وأريح مما يليق به، وإذ لجأ إلى تعاليم المخلِّص لتلاميذه الواردة في متى ١٠ ولوقا ١٠ وأساء تطبيقها أسوأ تطبيق، رمى بعيدًا كل ما كان يمتلك ما عدا سترة رمادية قاتمة وخشنة، حبكها حول جسمه بحبل وخرج إلى المدينة يدعو الناس للتوبة.

مثل هذه التقوى الحماسية الغريبة لم تفشل، في زمن مظلم سادت فيه الخرافة والجهل، في إشعال الغيرة عند الآخرين. وكان فرنسيس يؤكد أن جوهر الإنجيل كما علّم به يسوع المسيح هو منتهى الفقر والتجرد المطلق من كل شيء، وأنه لا يوجد طريق مأمون يؤدي إلى السماء سوى التخلص الكامل من جميع حطام الدنيا ومقتنياتها. "ومن ذلك الوقت تطور التعجب إلى إعجاب، والإعجاب إلى تقليد، والتقليد إلى اتباع أعمى لخطواته. وابتدأ التلاميذ يلتفون حوله الواحد تلو الآخر، فانتحى بهم ناحية قصية منعزلة. وهناك احتاج الأمر إلى دستور تسير عليه هذه الجماعة الجديدة، فانفتحت الأناجيل وأخذ فرنسيس يقرأ النصوص الثلاثة الآتية:

- «إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع أملاكك واعطِ الفقراء» (مت ١٩: ٢١).
- «وأوصاهم أن لا يحملوا شيئًا للطريق» (مر ٦: ٨).
- «إن أراد أحد أن يأتي ورائي، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني» (مت ١٦: ٢٤).

وزود فرنسيس أتباعه بعلامة الصليب وأرسلهم إلى المدن المجاورة شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا.

• • •

تلك هي نشأة هذا النظام الجديد، وذاك هو مبدؤهم. ولو أن النظامين اختلفا نوعًا في نشأتهما، إلا أنهما تشابها تقريبًا في المبدإ والاعتراف، ودخلا نفس الميدان بنفس الأغراض ونفس المبادئ، وهي التجول للتبشير مشيًا على الأقدام، مع التزام الفقر والتشبه بالطبقات الفقيرة. فقد رأى العدو ما كان يعمله "رجال ليون المساكين"، وهوذا من الآن فصاعدًا يكون هؤلاء أيضًا "رجال البابوية المساكين" يواجهون الهراطقة بنفس سلاحهم، ويفوقونهم في الفقر والتواضع والعمل واحتمال الآلام. وإذ حصل فرنسيس على موافقة البابا أرسل في الحال أتباعه مكرسين ذواتهم لخدمة الله وإبادة الهراطقة، والتزام العفة والفقر والطاعة.

وقد ضم النظامين أديرة للراهبات أو الأخوات. كذلك كان يتبع نظام الفرير الشحاذين طائفة أخرى تسمى "ترتياري" مهمتهم الاستمرار في مزاولة الأعمال العالمية المعتادة، مما زاد كثيرًا في شهرة الفرير ونفوذهم. وكانوا بمثابة حلقة اتصال رسمية

بين الكنيسة والعالم. ويبدو لنا أن كلمات قليلة عن عادات الفرير المبشرين بالمقابلة مع نظم الأديرة الأولى هي أبسط طريقة لإعطاء القارئ فكرة واضحة عن كليهما. ولما كنا لا نشك في أن الله قد سمح لهذه النظم الجديدة بأن تسند بناء كنيسة روما المتهدم وتعوق تنفيذ الإصلاح مدة ثلاثمائة سنة، فإن تاريخهم هو في غاية الأهمية من هذه الوجهة. وقد كان ذلك من حكمة الله السامية، لأن هذه الفرصة الطويلة قد سمحت في الوقت نفسه لقديسي الله بأن يجتازوا دورًا طويلاً من التعليم والتدريب، كما زودت كنيسة المسيح الحقيقية بجيش شريف من الشهداء الأبرار قبل أن يأتي الإصلاح وتتم هذه الغاية المجيدة.

نظم الرهبنة المتقدمة والمتأخرة

نحن نعتقد تمامًا أن جميع النظم البشرية يجب أن تُمتحن بواسطة كلمة الله إذا أردنا أن نفهم حقيقتها على صورة صحيحة، فليس بالمقارنة بين المتقدمة منها والمتأخرة يمكننا تقدير المدى الذي ذهبت إليه كل منها في الابتعاد والشرود عن فكر الرب، وعلى ذلك فكلمة الله الحية التي بها سيدان الجميع في النهاية يجب أن تكون الآن مقياسنا الوحيد. وليس من المهم البتة ما قد نراه من تحسين أو أفضلية للواحدة عن الأخرى ما دام الجميع من ابتكار الناس واختراعهم. هذا حق يتساوى فيه الأفراد والجماعات على حد سواء، فكلمة الله يجب أن تكون كل حين دستور المسيحي الوحيد، كما أن المسيح نفسه يجب أن يكون هو وحده رأس ومركز وقوة وسلطان النظام الذي يخصه، ألا وهو كنيسة الله. ولكن بما أننا قد عرجنا على كلمة الله واسترشدنا بنورها في مناسبات مختلفة أثناء تأملنا الماضي، فسنكتفي بكلمات قليلة نوضح بها الفرق بين نُظم الرهبنة المتقدمة والمتأخرة.

إن الغرض الرئيسي، إن لم يكن الكلي، الذي كان قبلة أنظار الرهبان والنُساك والمتقشفين الأوائل، من كل نوع واسم، هو تكميلهم دينيًا. فخلاص الآخرين وتعليمهم لم يكن له مكان في مذهبهم، وإنما الاعتزال عن العالم والاعتكاف في صومعة منعزلة بعيدة كان هو الأمر الضروري لنوالهم الغاية التي يرمون إليها.

وعلى مر الزمن، لما أن ذاع صيتهم وجذبت قداستهم الأنظار، بنيت المساكن وزرعت الأراضي الواسعة لسد حاجات الحياة الحاضرة. وهذه المنشآت الصغيرة تطورت في بعض الحالات حتى أصبحت أفخم المناطق في المملكة، وإبّان العصور الوسطى وظلمتها الحالكة، بما ساد فيها من غارات البرابرة وحكم النظام الإقطاعي، برهنت هذه الأديرة في كثير من الأحيان على أنها كانت رحمة عظيمة للمرضى والمساكين والمسافرين. وهذه حقيقة يجب أن يذكرها كل واحد بالشكر. ففي الخمسة أو الستة القرون التي تلت سقوط الإمبراطورية الغربية كان نظام الرهبنة أقوى عامل في إصلاح رذائل المجتمع وحماية الطبقات الفقيرة من مظالم الأمير الإقطاعي وجبروته.

لقد كانت إضافة الغرباء والمسافرين وإكرامهم من أهم أغراض الأديرة في ذلك الحين، فالفنادق لإيواء الغرباء لم يكن لها وجود قبل القرن الحادي عشر، ولم يكن هناك أي ملجإ تقع عليه عين المسافر في تلك الأيام سوى بنائين شامخين، هما قصر الأمير العاتي ودير الرهبان المتعبدين. أولهما حرب وكفاح، وثانيهما هدوء وسلام. كذلك الدين والعلم وجدا ملجأ أمينًا داخل جدران الأديرة، كما أن التقوى الحقيقية كان في استطاعتها أن تجد هناك مكانًا هادئًا تستطيع فيه أن تتعب في الكتابة والنسخ أو جمع الحقائق النافعة المفيدة وادخارها.

يقول المؤرخ ترافرس هل "كان البندكتيون مستودع المعارف والفنون، فكانوا يجمعون الكتب النفيسة وينسخونها في هدأة صوامعهم، وقد استطاعوا بهذه الوسيلة لا أن يحتفظوا بالكتب المقدسة فحسب، بل بكثير من كتب الآداب والعلوم. وهم الذين بدأوا فن المعمار القوطي، وكان لديهم وحدهم أسرار الكيمياء والطب، فاخترعوا شتى الألوان وتخرج من بينهم أول المهندسين المعماريين، والرسامين، والنحاتين في القرون الوسطى، كما برعوا في نقش الزجاج والفسيفساء (الموزايك). لقد كان نظامًا جبارًا قام بأعمال مجيدة في العالم، ولكنه سار في طريق النظم البشرية كلها فأصبح ثملاً بسلطانه، وفاسدًا بثروته، فرؤسائه صاروا طماعين، ورهبانه متنعمين، فقدوا بساطتهم الأولى وضاعت أحكام مؤسسهم، فلم يبقَ لها أثر في أعمال مزارعيهم أو معلميهم أو فنانيهم، سوى في الكلمات التي كانت تُقرأ بطريقة ميكانيكية في هيكل العبادة. لقد دخل الفساد إلى الرهبنة، ومن فسادها جاء موتها".

أما عادات الرهبان الجدد فكانت على نقيض الرهبان الأوائل، فبدلاً من السكن داخل جدران الأديرة الضخمة، انتشر الدومينيكان والفرنسيسكان في وقت قصير حتى غطوا وجه المسيحية. وكانوا يجتمعون من مختلف الممالك، ولذلك كانوا ينطقون بكل لغة ولسان، وكانوا ينادون بالإيمان القديم في منتهى شدته التي امتاز بها في العصور الوسطى. وكان الإخلاص المطلق للبابا، وإبادة الهراطقة هو شعارهم الأعظم الذي لا يتحولون عنه. وفي نظير ذلك كان البابوات يحمونهم ويمنحونهم أسمى الامتيازات. وقبل أن ينتهي ذلك القرن بلغ عدد الأديرة ٨٠٠٠، كان فيها من الرهبان ما لا يقل عن ٢٠٠,٠٠٠ راهب وراهبة.

ارتداد الشحاذين

لم يكتف الحزبان المتنافسان: الدومينيكان والفرنسيسكان، بأن أوقعا أوروبا كلها في الارتباك والتشاحن، بل أخذا - بعد موت مؤسسيهما مباشرة - في التطاحن معًا، كل منهما يريد التفوق على الآخر. ومع أن البابوات في هذا القرن وما بعده حاولوا بمختلف الطرق حسم هذا النزاع غير اللائق، إلا أن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح، واستمر هذان النظامان عدة سنين يتنافسان معًا منافسة حادة، ويتراشقان أشد وأفظع أنواع السباب، فكانا يتقاتلان قتالاً عنيفًا على كراسي السيادة في دور التعليم في كل المسيحية. وأشهر ما عُرف من هذا القتال هو ما دار بين الدومينيكان وجامعة باريس. كذلك كان من الأمور التي دارت عليها رحى الحرب مدة طويلة، المبدأ الخاص بالحَبل بلا دنس فيما يختص بالعذراء مريم، فقد كان هو المبدأ المحبوب لدى الفرنسيسكان، بينما كان على الدوام موضع هجوم الدومينيكان. ولقد كان توماس أكويناس (أو توماس الأكويني) المشهور من أعوان الدومينيكان في هذا الموضوع، بينما كتاب آخرون كثيرون انحازوا إلى جانب الفرنسيسكان، وكانت المعركة التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، لأنه ولو أن البابا الحاضر بيوس التاسع (وقت كتابة هذا التاريخ) قد نادى بمبدإ الحَبل بلا دنس، إلا أن جماعة الدومينيكان لا تزال ترفضه، مع أنه أصبح الآن إحدى مواد قانون الإيمان في كنيسة روما *.

*لعل القارئ يعرف أن يعرف أن مبدأ «الحبل بلا دنس» معناه أن العذراء مريم حُبل بها بلا خطية. (المعرب)

وفي عام ١٢٥٦م عندما أصبح بونا فينتورا قائدًا للفرنسيسكان وجد أنهم صاروا غير أمناء لعروسهم البائسة (أي الفقر) وأنهم يجاهدون لتطليقها، ووجد أن عواطف فرنسيس ومحبته لهذه العروس لم تحيَ في أتباعه. غير أنه تحت إدارة هذا الجنرال الجديد وسياسته الحكيمة تمتعت الهيئة ببعض الهدوء النسبي، ولكن بمجرد أن مات في عام ١٢٧٤م انفجر بركان الانشقاق مرة أخرى. والحق يُقال إن هذه الهيئات المتسولة، أو بالحري الشيطانية، كانت سببًا في إشعال نيران البغضاء والتشاحن في أغلب ممالك أوروبا إلى وقت الإصلاح. ولكن جميع الطبقات من دينية ومدنية كان عليها أن تتحمل كبرياءهم وعجرفتهم، لأنهم كانوا خدام كنيسة روما الأمناء ونجومها الأزاهر.

والملخص الوجيز الآتي بقلم ماتيو باريس، وهو بندكتي المذهب، الذي كتبه عام ١٢٤٩م، يعطي للقارئ صورة جلية لماهية وأساليب هذا الوباء المريع الذي انتاب الهيئة الاجتماعية. والصورة ليس مبالغًا فيها بالمرة، ولو أن ماتيو كان من أتباع النظام الأرستقراطي القديم ويميل لاحتقار إخوته أتباع النظام الديموقراطي الجديد. فالعزلة والوحدة والاعتكاف في الصومعة وهيكل الصلاة الخاص، مع الانقطاع بتاتًا عن كل علاقة مع العالم الخارجي، كانت مبادئ النظام القديم. أما ما يأتي فهو عيِّنة من مبادئ النظام الجديد، وصورة لما كان منشرًا في إنجلترا في القرن الثالث عشر.

يقول ماتيو باريس "إنه لنبأ مفزع مخيف أنه في بحر ثلاثمائة سنة أو أربعمائة سنة، أو حتى أكثر من ذلك، لم تنحط الرهبنة القديمة انحطاط هذه الهيئات الحديثة. فالفرير الذين لم يمض على تكوينهم أكثر من أربعين سنة استطاعوا حتى في يومنا الحاضر في إنجلترا أن يشيدوا من المباني الفخمة ما يعادل قصور ملوكنا. هؤلاء هم الذين يتعاظمون يومًا فيومًا في تشييد مبانيهم الضخمة، يحيطونها بالأسوار العالية الشامخة، ويكومون داخلها ما لا يُعد ولا يُحصى من الكنوز، متعدين حدود الفقر بأبشع وأوقح صورة، وناقضين لأول مبادئ مذهبهم وكيانهم. هؤلاء هم الذين إذ يساقون بمحبة الربح يقعون على أعتاب الأمراء والأغنياء وقوع المائت المستجير، وفي استخفافهم بكل الحقوق يتخذون لأنفسهم مكان الرعاة المحليين وينتزعون الاعترافات والوصايا

السرية ويفاخرون بأنفسهم وبنظامهم، مدّعين بتفوقهم على كل هيئة أخرى، حتى أنه الآن لا يوجد واحد من المسيحيين يؤمن أنه يستطيع الحصول على الخلاص إلا بقيادة الفرير وإرشادهم. وقد دفعت بهم شهوتهم للحصول على امتيازات خاصة إلى أن يخدموا في بلاط الملوك والأشراف كمستشارين، وأمناء، أو كأشابين للعرائس، أو مسجلين لعقود الزواج. وبالاختصار كانوا المنفذين للمطالب البابوية وأطماعها المالية. أما في وعظهم فكانوا بعض الأحيان يلجأون للمداهنة والمديح، وفي أحيان أخرى للتهكم المر والتجريح المشين. وكانوا لا يترددون لحظة في إذاعة الاعترافات السرية والتشهير بأصحابها، أو في قذف الناس بأفظع التهم وأشنعها. وكانوا يحتقرون الأوامر المشروعة المؤسسة على وصايا الآباء القديسين أمثال سان بندكت وسان أغسطينوس، معتبرين أنفسهم فوق الجميع»[٤٣/٤]،[٢/٢١].

الفصل السابع والعشرون

بزوغ فجر الإصلاح

قبل أن يظهر لوثر ويعلق منشوره الشهير على باب الكنيسة وتمبرج كان الرب يعمل منذ قرون لإعداد الأمم والأفراد للقيام بهذا العمل العظيم، فاضمحلال السلطة البابوية شيئًا فشيئًا، وجرأة الشهود المتزايدة يومًا فيومًا كانت كلها بوادر تنذر بما هو آت.

هذا وعلينا في تأملاتنا عن روما أن نفرق دائمًا بين الكنيسة الكاثوليكية والبابوية، أو بالحري بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية. فالكنيسة، رغمًا عن كونها في حالة السقوط والاستبداد، كانت لا تزال هي الكنيسة التي فيها اسم المسيح ومحبته إلى حد ما، غير أنها إن تجاسرت في عبادتها على الخروج ولو قليلاً عن حدود الكاثوليكية الرومانية، أوقعها ذلك تحت طائلة العقاب والتأديب، فالبابوية كانت بالمرصاد لإبادة كل من يجرؤ على التعدي. كان من الممكن السكوت على المفاسد والاستهتار بالدين، أو على الأكثر معالجتها بتوبيخ لطيف، أما الهرطقة والانشقاق، أو بعبارة أخرى كل مظهر من مظاهر الخروج على كنيسة روما، فيجب استئصاله بالسيف والنار، كما يجب إبادة جميع الهراطقة والدفع بهم إلى الموت الأبدي بحكم البابا.

أما قديسو الله الحقيقيون فكانوا طيلة الحكم الإرهابي البابوي يشهدون ويتنبأون في المسوح والرماد. على أن الحبل الفضي لنعمة الله الغالبة استمر متصلاً لم ينقطع منذ أيام الرسل تحت حماية أجنحة الله الحي، فهو الذي استطاع أن يحفظ شهوده من هجمات التنين في أماكن مستترة من الأرض، في الجبال وفي الوديان وفي المغاير، وفي الأديرة البعيدة الهادئة في أرجاء المسيحية المختلفة.

على أنه قد يكون من الملذ قبل كل شيء أن نعيد إلى أذهاننا حالة المسيحية في بعض الممالك كما قد رأيناها سابقًا، وبهذه الوسيلة سنقابل بطبيعة الحال تلك السلسلة الطويلة من شهود الله الأمناء التي تمتد إلى عهد لوثر. ولننظر أولاً إلى حالة:

المسيحية في أيرلندا

مرت قرون عدة منذ ألقينا نظرتنا الأولى نتحرى الأمور في هذه الجزيرة، فعندما مات القديس باتريك عام ٤٩٢م ترك وراءه جماعة من الأتباع المتعلمين المخلصين الذين كانوا يخلصون الحب والاحترام لرئيسهم ويحاولون ترسم آثاره. وقد ذاع صيت أيرلندا بأديرتها ومدارس إرساليتها كمعقل التعاليم الروحية الصافية، الأمر الذي لأجله استحقت أن يطلق عليها هذا الاسم الشريف "جزيرة القديسين". ويقول المؤرخ بيدي إنه في منتصف القرن السابع هاجر كثيرون من الأشراف الأنجلوسكسونيين والإكليروس إلى أيرلندا بقصد الحصول على التعليم أو الالتحاق بالأديرة.

تتبعنا في الماضي أعمال رجال الإكليروس الأيرلنديين كمرسلين، فكثير من الجماعات المسيحية كانت تدين بنشأتها للرسول الأيرلندي كولمبا، وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وهولندا وأجزاء أخرى كثيرة من قارة أوربا كانت تدين بأول معرفتها للحق إلى المرسلين الأيرلنديين، وشارلمان الذي كان أديبًا ومغرمًا بالأدب استدعى إلى بلاطه علماء مشهورين من مختلف الممالك وخاصة من أيرلندا. وقد ظلت هذه الجزيرة مدة طويلة مستقلة عن روما رافضة لكل سلطان أجنبي ومعترفة بالمسيح وحدة كرأس الكنيسة، ولكن الحملة التي قام بها أهل الدانمارك في مستهل القرن التاسع، والتي انتهت باحتلال المملكة أطفأت النور وغيرت صفة جزيرة القديسين. فقد خربوا حقولها وقتلوا أبناءها أو جردوهم من ميراثهم، وهدموا كلياتها وأقاموا أنفسهم حكامًا على المملكة بقوة النار والحديد. وكان من نتيجة ذلك أن خيم الظلام الأدبي والروحي والعلمي على الجزيرة، وهيأ الطريق

لدخول روما ومبادئها. فإلى ذلك الحين كانت المعاهد الدينية ومجهودات الإكليروس هي أهم ما يملأ تاريخ الجزيرة، ولكن من تلك اللحظة انقلب الأمر، فأصبحت الحروب والاضطرابات والجرائم والتخريب هي مادة التاريخ وأهم موضوعاته.

لقد قام الباباوات المتعاقبون بمحاولات مختلفة لإخضاع كنيسة أيرلندا للكرسي البابوي، ولكنها فشلت جميعها، حتى قام البابا أدريان الرابع. وقد كان هذا البابا الإنكليزي الأصل معروفًا باسم نيقولا بريكسبير، وكان قد نشأ في أحضان الفقر والإهمال، مما دفع به للالتحاق بإحدى أديرة الرهبان، ومن هناك ارتفع مع تقلبات بني البشر، فوصل لكرسي البابوية. وإذ انتقل طفرة واحدة من الفقر المدقع للغنى الوفير، كانت كبرياؤه وعجرفته لا تطاق، حتى أنه استاء مرة أعظم الاستياء لأن الإمبراطور فردريك بَربَروسا نسي أن يمسك ركاب جواده، ورفض أن يمنحه قبلة السلام، فأعلن فردريك جهارًا أن الغلطة لم تكن مقصودة، وأنها ترجع إلى الجهل ليس إلا، وإذ خضع ليخدم كرئيس إسطبل لقداسته غفر له ونال القبلة.

وقد كان من بين الأعمال الأولى لهذا البابا ادعاؤه بالسيادة على أيرلندا، ومنحه إياها لهنري الثاني ملك إنجلترا، وكانت الحجة التي بنى عليها حقه في منح هذه الهبة كما عبر عنها بنفسه هي "أنه مما لا شك فيه، وكما تعترف جلالتكم أن جميع الجزائر التي أشرق عليها المسيح كشمس البر، والتي قبلت الإيمان المسيحي، هي تابعة بحق الملكية للقديس بطرس ولكنيسة روما المقدسة". وبمقتضى هذا الحق أعطى البابا لهنري سلطة الإغارة على أيرلندا لغرض امتداد الكنيسة وانتشار الدين والفضيلة، ونزع زوان الرذيلة من حقل الرب، شريطة أن بنسًا واحدًا يدفع سنويًا من كل بيت للبابوية في روما.

ومن ذلك التاريخ، أي عام ١١٥٥م، أصبحت الكنيسة الأيرلندية رومانية في تعاليمها وتركيبها ونظامها، فقبل الإصلاح بوقت طويل كان "ما يقرب من ستمائة هيئة من هيئات الرهبنة تغطي وجه المملكة بأجمعها، والفرير من كل شكل ونوع - أسود وأبيض ورمادي - كانوا يموجون أفواجًا أفواجًا، ممارسين أعمالهم بين شعب جاهل مخدوع". وفي عام ١١٧٢م أتم هنري فتحه للجزيرة، واجتمع رجال الإكليروس الأيرلندي في واترفورد، وأعلنوا خضوعهم لسيادة البابا، ونادوا بهنري سيدًا لأيرلندا، وأقسموا يمين الولاء له ولخلفائه من بعده. ومن تلك اللحظة تميزت الكنيسة الأيرلندية بالانحطاط السريع، فضاعت شهرتها الروحية والعلمية، ففي وقت من الأوقات كان لها حوالي ٣٠٠أسقفًا، ولكن في فجر الإصلاح تقلص العدد حتى أصبح يقل عن الثلاثين، وفي الوقت نفسه لا نرى إلا المنافسات والمنازعات والثورات تملأ كل صفحة من صفحات تاريخها، مدنيًا ودينيًا، من التاسع إلى وقتنا الحاضر *(٥٩)(٢/٣٨)(٥١).

المسيحية في اسكتلندا

رأينا في تأملاتنا في الجزء الأول من هذا المختصر كيف أن المحاولات العديدة التي قامت بها كنيسة روما لإخضاع المؤمنين في اسكتلندا لم تنجح، وذلك لأن أولئك المؤمنين، شأنهم شأن المصلحين الذين جاءوا بعد ذلك، كانوا متمسكين بكلمة الله كمرشدهم الأمين الوحيد وسلطانهم القوي الفريد في كل ما يتعلق بالإيمان والسلوك، حتى أن بيدي نفسه، وهو المؤرخ الراهب، يشهد عنهم بكل صراحة قائلاً أنهم "لا يقبلون سوى ما جاءت به كتب الأنبياء والأناجيل والرسائل، ملاحظين بكل اجتهاد أصول التقوى والفضيلة". على أن روما نجحت أخيرًا، لأنه مع مرور الزمن تضاءل عدد الأمناء في اسكتلندا وفترت عزيمتهم بسبب غواية إيزابل، فغابوا من الميدان وعادت اسكتلندا مرة أخرى وإذا بالظلام والخرافة يخيمان عليها، وإذا بالأديرة ترفع رؤوسها بصورة مدهشة وتغطي بظلها وجه الأرض. وبما أن أديرة اسكتلندا فاقت في ثروتها وسلطانها كافة الأديرة الأخرى في أوروبا، فيتحتم علينا أن نلقي عليها نظرة ولو بسيطة.

من الأمور المعروفة أن الميل الشديد نحو إغناء الكنائس وتعظيم ثروتها بدأ بشارلمان، وقد نسج ألفريد الكبير على منواله، وسرعان ما سرت العدوى في كل المسيحية، فانتشرت شمالاً في شخص مرجريت الأميرة السكسونية. ذلك أنه عندما غزا النورمان إنجلترا وأسسوا أسرة ملكية جديدة في تلك البلاد، هاجر الكثيرون من السكسونيين إلى اسكتلندا، وكانت لهذه الهجرة أثر عظيم في تاريخ الكنيسة هناك. فمن بين المهاجرين كانت مرجريت التي أصبحت بعد ذلك زوجة لمالكولم الثالث ملك اسكتلندا. وقد اشتهرت هذه الملكة

* أي عام ١٨٧٦م وقت كتابة هذا التاريخ (المعرب).

بتقواها وإحسانها وتقشفها، كما وصفها بإطناب أب اعترافها ومؤرخ حياتها ترجو، وهو أحد الأساقفة الرهبان. وبتأثيرها أعطى مالكولم عطايا جزيلة للكنيسة، ولكن ابنه دافيد الأول فاقه في عطاياه، مما جعل كتاب الرهبنة يخلدون اسمه بما أحرقوه له من بخور المديح ونظموه له من عقود الثناء وآلاء الإطراء، ولو أن الملك جيمس الأول يسميه "قديسًا مؤذيًا للتاج". والحق أن تطرفه في الخرافات لم يفقر التاج فقط، بل قاده لأن يفرض ضرائب باهظة على الشعب لكي يتسنى له القيام بنفقات الإبروشيات العديدة التي أنشأها والأديرة المتنوعة التي أوجدها، حتى أصبحت البلاد تموج بالرهبان والراهبات من كل لون وهيئة(١/٤٥).

على أن المهاجرين السكسون كان لهم أكبر أثر في تحويل دفة الأمور في اسكتلندا، فلم يمض وقت طويل حتى اصطبغ البلاط الملكي بالصبغة الإنجليزية، ومن ذلك الوقت أخذت جماهير المهاجرين السكسون والنورمان يفدون إلى اسكتلندا. وسرعان ما وضعوا أيديهم على أخصب بقاع المملكة، حتى أن كل أسرة شريفة في اسكتلندا في الوقت الحاضر يرجع نسبها إلى أولئك المهاجرين، وهؤلاء الأغنياء الجدد نسجوا على منوال الملك، فأغدقوا الأموال والهبات على الكنيسة. وقد بلغت الشهوة لإنشاء الأديرة ووقف العقارات عليها حدًا عظيمًا جدًا، حتى أنه قبل الإصلاح بوقت طويل كان في اسكتلندا ما يربو على مائة وخمسين ديرًا للرهبان والراهبات.

لن يكون من الممل للقراء التأمل بإيجاز في بيتين أو ثلاثة من هذه البيوتات الدينية، مما يعطينا في الوقت نفسه صورة للأشياء التي أدخلتها روما في تلك المملكة، التي كانت مرة بسيطة وبدائية. والإحصائيات الآتية مأخوذة عن كتاب المؤرخ كننجهام(٤٥).

ثروة الأديرة في اسكتلندا

ذلك *كان حال الرهبان، وذلك كان مبلغ ثروتهم ودخلهم في تلك الأيام. فلندعهم يتمتعون بوفرة خيرات هذه الحياة، ولكن العجيب في الأمر أنهم تركوا الكاهن المحلي فريسة الفقر والعوز، وأصبح دخل الأبروشية ملكًا حلالاً للأساقفة والأديرة، ولم يبقَ إلا القليل جدًا لسد حاجة رجال الإكليروس العاديين، وذهب كل شيء لتسمين الفرير العاطلين، الذين مهما كانت فضائلهم الأولى فقد أصبحوا الآن عثرة للكنيسة وعار عليها. ولما جاء الإصلاح كانت سبعمائة أبروشية من الألف الموجودة في اسكتلندا قد أصبحت ملكًا رسميًا للأساقفة والأديرة، وكان قد تم تقسيم المملكة إلى أبروشيات وأسقفيات في مطلع القرن الثاني عشر.

وقد يتساءل القارئ المبتدئ: لماذا في القرن الثاني عشر والثالث عشر على الخصوص كان الملوك والأشراف يتنافسون في إغناء الكنيسة بهذا الشكل؟ يرجع ذلك إلي أسباب عديدة، منها أن جميع الصكوك والمستندات في العهد الإقطاعي كانت تختم بصليب الملك دون وضع اسمه عليها، ولا يخفى ما في ذلك من تأثير علي رعاياه، وقد كانوا جميعًا سذجًا جهالاً، يؤمنون بالخرافات. علاوة على أن الرهبان كما رأينا كانت لهم شهرة عظيمة في القداسة الخارقة للعادة وتكريس الحياة للتعبد والتقشف. هذه الأمور تعاونت معًا في تعظيم رجال الإكليروس في أعين الناس في ذلك الجيل الساذج الخرافي. أضف أنهم كانوا يؤكدون للمعطي أن عطاياه ستضمن لنفسه راحة بعد الموت، أو بمعنى آخر الحياة الأبدية. بهذه الوسائل الدينية الغريبة استطاع رجال الدين أن يحصلوا علي تلك الدرجة العظيمة من الجاه والثروة، وأن يصبحوا موضوع عبادة الأغنياء، فبنوا لهم تلك القصور الشامخة التي لا يزال ما بقي منها قبلة أنظار السائحين وموضوع إعجاب المتفرجين.

تأثير المال علي الإكليروس

تقول أوثق الإحصائيات إنه قبل الإصلاح كان ما يربو علي نصف ثروة اسكتلندا ملكًا لرجال الإكليروس، والجزء الأعظم من هذه الثروة كان متضخمًا في أيدي أفراد قلائل. ولقد كان تأثير هذه الحالة، كما يحصل دائمًا في كل عصر ومملكة، فساد النظام الديني بأجمعه. "فالجشع والظلم وحب الفخفخة سيطرت علي الهيئات العليا، وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة يتنافسون في الوجاهة والعظمة مع أعرق الأشراف، حتى بارزوهم في امتلاك ناصية الوظائف الكبرى، فكان منهم المستشارون الملكيون

* يتكلم الكاتب هنا عن أنواع الهبات الملكية الكثيرة والعقارات العديدة التي أوقفها الملوك والأشراف والوزراء علي ديرين من أديرة اسكتلندا أمسكنا عن الإتيان بتفاصيلها، لأنها وإن كانت ملذة للقارئ الإنجليزي فقد لا تهم القارئ العربي كثيرًا. والكلام التالي هو ما انتهى الكاتب إليه من هذه الإحصائيات.

واللوردات في البرلمان والمجالس النيابية، كما وضعوا أيديهم على أكثر وظائف الدولة الرئيسية. وكلما خلت أبروشية أو رئاسة دير انبرى لها جماعة من المتنافسين الأقوياء، كما لو كانت المنافسة على ولاية أو مملكة صغيرة. أما وظائف الإكليروس الصغيرة فكانت تُعرض للبيع بالمزاد العلني أو تُمنح للمحاسيب الجهلة الأميّن، وعلى لاعبي النرد، أو الشعراء المتجولين، أو أبناء الأساقفة. هذا ولم يكن الأساقفة في أية مناسبة يتنازلون للتبشير، حتى أنه منذ نشأة الأسقفية الاسكتلندية إلى عهد الإصلاح لا يسجل التاريخ إلا مرة واحدة فيها وعظ أحد الأساقفة، وهو المدعو دونبار رئيس أساقفة جلاسجو، وكان الغرض حرمان المصلح جورج ويشارت"!

ولقد أصبحت حياة الإكليروس فاسدة بسبب الثروة والجهل، وصارت عارًا على الدين وامتهانًا شنيعًا للياقة والآداب، حتى أننا نمسك القلم عن اقتباس وصفها حتى عن أعف المؤرخين احترامًا لذوق القراء حفاظًا على كرامة هذا "المختصر". على أن المؤرخين جميعًا من كاثوليك وبروتستانت قد أجمعوا على أن الأديرة وجميع البيوتات الدينية كانت عشًا للخرافة والخمول، ثم انقلبت بعد ذلك أوكارًا للفجور والفسق، ومع ذلك فكان يعتبر من الأمور المحرمة التفكير في إنقاص عددها أو تحجيم ثروتها، "كانت المملكة تموج بجيوش كالجراد من الرهبان الجهال العاطلين المتنعمين، الذين التهموا ثمر الأرض وملأوا الجو بالعدوى الوبائية، فمن فرير من كل لون، بيض وسود ورماديين، إلى كرمليين وكارتوسيين وكردليين، ودومينيكان وفرنسيسكان، ويعقوبيين وتيرونيين وهيكليين، إلى الفرسان المقدسين أتباع القديس يوحنا الأورشليمي، إلى راهبات سان أوستن وسانت كلير وسانت سكولاستيكا وسانت كاترين السينائية، مع شمامسة وشماسات من كل مذهب *".

هذا ويستحيل بدون معرفة دقيقة لحالة المسيحية قبل الإصلاح أن نكوّن رأيًا صحيحًا عن ضرورة وأهمية هذه الثورة الإصلاحية والرحمة التي نتجت عنها. فمع تقادم العهد إلى هذا الحد، وحالة الجماعات المختلفة حولنا، قد يكون من الصعب جدًا علينا أن نصدق أن مثل هذه النقائص الشنيعة كانت منتشرة في الكنيسة.

* انظر وصفاً شاملاً لحالة الكنيسة في اسكتلندا قبل الإصلاح بقلم الدكتور ماك كرى عن حياة يوحنا نوكس ص٧-١٣ (٦٠).

البابوية كنظام

أول ظاهرة تبدو لنا عند التأمل في البابوية كنظام هي أن كلمة الله القادرة أن تحكّم الناس للخلاص كانت محرمة على الشعب. حتى الأساقفة أنفسهم لم يعتبروه أمرًا مخجلاً أن يعترفوا بأنهم لم يقرأوا في حياتهم أي جزء من الكتب المقدسة سوى ما كان يقابلهم في خدماتهم الطقسية. والخدمة الدينية كانت تمارس بلغة ميتة لا يفهمها أغلب الكهنة، وبعضهم كان بالكاد يعرف القراءة، حتى كتب أصول الدين التي هي من وضع وتأليف الإكليروس كانت ممنوعة من الوصول إلى أيدي العلمانيين. أما ذبيحة القداس فكانت تمارس للحصول على غفران الخطايا للأحياء والأموات، وبذلك تحولت ضمائر الناس عن عمل ربنا يسوع المسيح الذبيحة الكاملة، واستعاضوا عنه بالتحليلات الكهنوتية والغفرانات البابوية.

يقول مؤرخ حياة يوحنا نوكس الشهير "إنهم كانوا يعلّمون الناس أنهم إن اعترفوا للكهنة، وداوموا على دفع العشور وتقدمات الكنيسة، وشراء القداسات، وذهبوا لزيارة ضريح أحد القديسين المشهورين، وامتنعوا عن أكل اللحم أيام الجمعة، أو مارسوا عملاً آخر من أعمال إذلال الجسد وأماتته، فلا بد من حصولهم على الخلاص في حينه. أما من كان منهم غنيًا وتقيًا لدرجة أن يبني كنيسة أو مذبحًا، ويوقف عليها وقفًا لإعالة الكاهن الذي يمارس القداس والجناز، فسيحصل على تخفيف لآلام المطهر لنفسه أو لأقربائه بنسبة سخائه". إنه لَمن الصعب علينا أن نتصور مقدار سخافة مثل هذه الأقاويل التي كان يلقيها الرهبان كمواعظ، فالحكايات القديمة عن مؤسس إحدى النظم الدينية، وقداسته العجيبة، ومعجزاته المدهشة، وحروبه مع الشيطان، وأسهاره، وأصوامه، وجلد نفسه بالسياط، أو فضائل الماء المقدس، والميرون، ورشم الصليب والتعويذ، أو مخاوف المطهر، وعدد المفرج عنهم منه بشفاعة قديس معين من القديسين الأقوياء - كل هذه الأشياء مضافًا إليها بعض النكات الدينية والأحاديث الوضعية كانت هي مادة الوعاظ، يقدمونها للناس عوضًا عن كلمة الله النقية الطاهرة، وتعاليم الكتاب المقدس الجليلة السامية.

وكان الكهنة الجشعون يحاصرون أسرّة المرضى المحتضرين ويزعجون أنفاسهم ولحيظاتهم الأخيرة، حتى يبتزوا منهم منحة لهم أو للكنيسة. ولم يكتفوا بسلخ العشور من الأحياء، بل كانوا يفرضون

ضرائب على الأموات، فما يكاد الفلاح المسكين يلفظ نفسه الأخير إلا ويأتي القسيس الجشع لكي يحصل على "هدية الجثة"*، وكان يفعل ذلك كلما سطا الموت على عائلة بائسة مسكينة. وكل من كان يتأخر في تقديم هذه الهبات أو يظهر عدم الطاعة لرجال الإكليروس كان نصيبه اللوم الكنسي. وقد أهملت الخدمة الدينية، وأصبحت الكنائس في معظم أنحاء المملكة لا تستعمل للأغراض المقدسة، بل صارت بيوت تجارة أو ملاجئ للأشرار.

"وكانت الاضطهادات، وعدم نزاهة المحاكمة، هي فقط الوسائل التي بها استطاع مشايعو هذا النظام الفاسد الدفاع عنه، وكل ثغرة كان يمكن للنور أن يدخل منها كانت تراقب بكل حرص، وكان العلم موسومًا بأنه أبو الهرطقة، وكل شخص وصل إلى درجة من النور وسط الظلام الشامل وحاول أن يظهر أية إشارة تدل على عدم رضائه على سلوك الإكليروس، أو يقترح إصلاح مساوئهم، كان يوصم في الحال بوصمة الهرطقة، وإن لم يهرب لحياته كان مصيره السجن أو حريق النار. وإن حدث في النهاية رغمًا عن كل هذه الاحتياطات أن وجد النور سبيلاً للانبثاق والانتشار في المملكة، كان الإكليروس على تمام الاستعداد لاستخدام أفظع الوسائل والمذابح الدموية لإطفائه".

إزاء ما اقتبسناه لسنا نجده لزامًا أن نتحرى أصل البابوية وتقدمها في البلدان الأخرى. فالصورة الآنفة الذكر لما كان جاريًا في اسكتلندا من القرن الثالث عشر إلى السادس عشر كافية لتوضيح حالة أوروبا جمعاء. فالبابوية كنظام هي هي في كل العصور والأجيال، وشعارها الأعظم كان دائمًا أبدًا وحدة كنيسة روما الكاثوليكية، فسواء كان في تخوم روما المباشرة، أو في أصقاع الشمال النائية، فالروح هي هي، وستظل كذلك حتى تأتي نهايتها بقضاء الرب المباشر من السماء «بقدر ما مجدت نفسها وتنعمت، بقدر ذلك أعطوها عذابًا وحزنًا، لأنها تقول في قلبها أنا جالسة ملكة ولست أرملة ولن أرى حزنًا. من أجل ذلك في يوم واحد ستأتي ضرباتها: موت وحزن وجوع وتحرق بالنار، لأن الرب الإله الذي يدينها قوي» (رؤ١٨: ٧، ٨).

انتشار المسيحية

من عهد إنوسنت الثالث والكتاب الكاثوليك يفاخرون بغيرة الرهبان التبشيرية، وبأنهم كانوا أنشط ما يكون في زيارة السجون والمستشفيات والأماكن الخطرة، والاعتناء بحاجة الفقراء الروحية، كما كانوا أشد أعوان الكنيسة في نشر المسيحية بين الأقوام البعيدة الوحشية. هذا على ما يبدو كان الحال في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. ولكن بما أن التاريخ بأجمعه يثبت أن الرهبان كانوا أشد الطبقات غيرة لحصول البابوية على مطامعها، وأقوى أعوانها في انتشار أردإ أعمالها في أرجاء المسيحية، فمن الصعب وصفهم بالغيرة المسيحية البريئة. فمن الوسائل التي كانوا يستخدمونها والنتائج التي كانوا يحصلون عليها من خدماتهم يتضح جليًا أن غرضهم الرئيسي كان تقدمهم الشخصي وانتشار السيادة البابوية. ومع ذلك فقد كان لا يخلو الحال من وجود أناس أتقياء بينهم كانت لهم بواعث أسمى وأشرف، وجاهدوا بغيرة مقدسة وبغير مطامع شخصية، وبما أن مساوئ الرهبان معروفة بصفة عامة، فنحن بكل سرور نسجل لهم كل خير نستطيع أن نجده فيهم.

فمن عهد حروب شارلمان الدينية إلى الحروب الطاحنة في لانجدوك كان المرسلون الرومان يكرزون عادة بإنجيل السلام على رأس جيوش يقودها الأساقفة، فاتحين الطريق بقوة السيف. ولكن في القرن الثالث عشر بعث الباباوات إرساليات عديدة من المبشرين الأتقياء إلى بلاد الصين والتتار والممالك المجاورة، وعلى أيديهم اعترفت جماهير كثيرة من تلك البلاد بالإيمان المسيحي. وقد برز جون أوف مونت كارفينو، وهو راهب فرنسيسكاني، بنجاح خدمته هناك، وفي عام ١٣٠٧م أنشأ كليمنت الخامس أبروشية في كامبالو، التي هي بكين عاصمة الصين الحالية. كما أرسل سبعة أساقفة آخرين إلى تلك الأصقاع، واستمر هذا الفرع البابوي البعيد موضع عناية الباباوات من بعده. "وطالما كانت إمبراطورية التتار قائمة في الصين كان للاتينيين وكذلك للنسطوريين مطلق الحرية

* "هدية الجثة" كانت نصيب القسيس عند الوفاة، وكانت في الأرياف عبارة عن أفخر بقرة يمتلكها المتوفى مع غطاء سريره الأعلى أو أفخر ملابسه. وهذه الفريضة التي كان تحصل بغاية الشدة في اسكتلندا وأماكن أخرى، وهي بخلاف الرسوم الأخرى التي كانت تؤخذ مقابل دفن الجثة أو تخليص النفس من أهوال المطهر. وهنا يقتبس الكاتب قطعة شعرية مؤثرة في وصف "هدية الجثة" لأحد شعراء اسكتلندا الأقدمين يقول فيها على لسان زوجة فلاح محتضر:

واحسرتاه على الفلاح يحتضرُ ... والكاهن الخس عند الباب ينتظرُ
موت سيعقبه الخراب لبيتنا ... ولخادم القداس فرح يغمرُ
وجبت بهيمتنا لقدسه جزية ... وغطاء أطفالي به يستأثرُ
ولكم مصائب تعصف بديارنا ... عند القسوس فوائد تستثمرُ

في الاعتراف بدينهم في جميع أنحاء آسيا الشمالية، والمناداة به في كل مكان. ولكن عندما اعتنق تيمورلنك الإسلام، وهو أقوى أباطرة التتار، بدأ بالعنف والسيف في اضطهاد كل من ينتمي للمسيحية، وبذلك خضعت أمة التتار التي كان فيها عدد كبير من المسيحيين للقرآن، وتلاشت المسيحية من تلك البلاد الآسيوية التي كان يسكنها الصينيون والتتار والمغول وأجناس أخرى لا يُعرف تاريخهم تحديدًا، ولم يبق ذكر لمسيحيين لاتينيين في تلك النواحي من سنة ١٣٧٠م، ولو أنه يمكن العثور على بعض آثار تدل على بقاء النسطوريين في الصين إلى القرن السادس عشر".

أما أمراء أوروبا فلم يبق منهم تقريبًا سوى ياجلُو دوق لتونيا في بولندا، الذي استمر متمسكًا بعبادة أسلافه الوثنية، ولكنه أخيرًا اعتنق المسيحية عام ١٣٨٦م، وتعمد وأقنع رعاياه باتباع خطواته، وما بقي من الديانات القديمة في بروسيا وليفونيا قضى عليه الفرسان التويتون والصليبيون بواسطة الحروب والمذابح. أما أسبانيا فكان الفاطميون لا يزالون مسيطرين على غرناطة والأندلس ومراقيا، حتى قام ملوك كاستيل وأراجون ونافار المسيحيون وشنوا عليهم حروبًا شعواء، حتى انتصروا عليهم، وبذلك دانت لهم جميع أسبانيا في القرن الخامس عشر في عهد فرديناند وإيزابلا[٣/٣٦؛٢/٢١].

تأملات في تاريخ البابوية

تتبعنا ولو بصورة مختصرة نشأة البابوية وتقدمها حتى بلغت ذروة مجدها، وقد رأينا أن الفضل في ذلك يرجع إلى إنوسنت الثالث، ولكن ما أكثر المتباينات والمتناقضات التي حواها ذلك التاريخ العجيب، ونحن نقف الآن لحظة لنتأمل فيما اتصفت به تلك المرأة إيزابل من رياء وطغيان وتقوى مزعومة وقسوة صريحة. فهي التي أرسلت خير أبنائها قديمًا ليسكنوا في مغاير الجبال المنعزلة بحجة التأمل الهادئ في مجد الله والتغير إلى صورته، ولكنها هي أيضًا التي نسمعها بصوت مختلف تجمع الجيوش في أوروبا لكي تذهب وتنتزع الأراضي المقدسة من أيدي الفلسطينيين، وتدافع عن راية الصليب عند القبر المقدس، غير مبالية بعواطف الناس الطبيعية ولا مكترثة بمصائب البشر وتعاستهم، فتتلطخ بدماء الملايين، واستمرت مائتي سنة تستخدم كل قواها لتشجيع تدمير الحياة البشرية بالحملات الخاسرة الجنونية التي كانت ترسلها الواحدة تلو الأخرى للأراضي المقدسة. وكانت كلما رأت أن حربًا صليبية باءت بالفشل والخراب والقنوط أكثر من سالفتها، ضاعفت مجهوداتها لتجديد واستمرار تلك المشاهد الدموية الشنيعة.

ولكن هلم وانظر مرة أخرى إلى ريائها وتذبذبها، واحكم كيف كانت تتصرف بوجهين وتنطق بلسانين في وقت واحد. فعندما اقترب الصليبيون إلى أورشليم ولاحت المدينة لأعينهم نزلوا من على جيادهم وخلعوا أحذيتهم لكي يتقدموا إلى الأسوار المقدسة بصورة الحجاج الحقيقيين، وارتفع الهتاف، وتعالت الأصوات "أورشليم ! أورشليم !"، وكأن الخوف المقدس قد ملأ قلوبهم. ولكن عندما تقدم الحاكم وعرض عليهم الدخول كحجاج مسالمين رفضوا بتاتًا، وصمموا على الدخول بحد السيف وانتزاع المدينة المقدسة بالقوة العسكرية من أيدي غير المؤمنين. وما كادوا يتخطون الأسوار حتى اندفعوا كالوحوش الكاسرة يذبحون المسلمين واليهود بلا تمييز وبلا رحمة ولا شفقة، حتى امتلأت الأماكن المقدسة بالدماء. وهنا وقفت المذبحة هنيهة، وتأجلت أعمال السلب والنهب لحيظة حتى يتسنى للحجاج الأتقياء القيام بفريضة العبادة والسجود! ولكن الأرض التي كانوا يجثون عليها ساجدين متعبدين كانت مغطاة بأكوام الجثث المذبوحة. تلك هي صورة صحيحة لروح وصفات إيزابل كما تبدو في كل العصور والأجيال. وعندما ازداد خجل دومينيك نفسه من مناظر سفك الدماء في لانجدوك على أيدي رسل إنوسنت، بعد أن رأى الآلاف من الفلاحين المساكين يُذبحون ذبح الأغنام، دخل كنيسة وصلى لأجل نجاح القضية المقدسة. وبهذه الروح نفسها تعزى انتصارات مونتفورت وأذنابه لصلوات الأسبان الطاهرين، فقد كانت تلك حملة صليبية، لا على الأتراك والكفار، بل على قديسي الرب، وذلك لأنهم تجاسروا على أن يتكلموا عن بعض مساوئ الكنيسة الأم المقدسة، تلك الأم التي لكي تزيد في مصائب أبنائها وتأديبهم، خلقت لهم محكمة التفتيش الرهيبة، وهي آلة الاضطهاد الداخلي من قتل وتعذيب.

هذا ومما قد يبدو غريبًا في الأيام الحاضرة ويفوق في قسوته كل تقدير أو مقارنة هو أن القتل بالجملة وإبادة النفوس البشرية والأموال دفعة واحدة كان من أحب وسائل البابوية وعنصر كيانها الحيوي. فقد صارت غنية بسبب الإعانات التي كانت تجمعها باسم الحروب الصليبية، وصارت قوية بواسطة إضعاف ملوك

أوروبا وفراغ خزائنهم وإنقاص عدد رعاياهم.

هكذا كانت الغيرة البابوية تتقد في صالح الصليبيين، وهكذا استمرت الحالة من عهد أوربان الثاني ومجمع كليرمونت حتى وصلت لخلفائهم من بعدهم. فكل فكر كان يخطر ببال البابوية، وكل شعور كان ينبض بقلبها، وكل منشور كان يصدر من الفاتيكان، لم يكن له إلا غرض واحد، وهو إغناء الكرسي البابوي، وتعظيم سلطانه، مهما كان في ذلك من تعكير للسلام العام، وضرر للجماعات والأفراد. وكانت "الحرمانات" هي سيفها الذي تسلطه على كل من كان يجرؤ على الوقوف في طريقها. فالهرطقي لم يكن فقط يخسر كل امتيازاته وحقوقه وممتلكاته وكل حماية يعطيها له القانون، بل كان يُطارد ويُضطهد ويُسلب ويُقتل، فإن لم يكن بموجب القوانين العادية، فإن الحاكم المدني كان مجبرًا على تنفيذ أحكام المحاكم الدينية حتى ولو كانت تقضي بسفك الدم. وأما إذا تجاسر على المقاومة بأية وسيلة، مهما كانت سلمية، فإنه كان يعتبر متمردًا، وعلى المسيحية بأجمعها أن تشن الحرب عليه بأمر السلطة الروحية. وفي هذه الحالة لم تكن جميع ممتلكاته، مع سلطانه إذا كان ملكًا، معرضة للاغتصاب فقط، بل كان للكنيسة حق منحها لمن تشاء وكما يتراءى لحكمتها السامية.

وكان الجيش المكلف بتنفيذ قرارات البابا هو جيش الكنيسة، وعلَم ذلك الجيش كان صليب المسيح، وهكذا ابتدأت الحروب الصليبية، ليس فقط على حدود الممالك المسيحية المتنازع عليها، ولا في البلاد الوثنية، أو على ضفاف النيل، أو في غابات ليفونيا ورمال البطليق، بل في قلب المسيحية نفسها. وليس ضد اتباع مذهب معاند، بل على أرض فرنسا الكاثوليكية، وضد من كانوا لا يزالون يدعون مسيحيين(٤/٤٣)،(٢/٣٩).

تلك كانت ولا تزال، ولا بد أن تبقى على الدوام، روح كنيسة روما وصفتها. يا لها من صورة مظلمة! ويا له من تأمل محزن، أن تلك التي تسمي نفسها كنيسة الله الحقيقية، وأم أولاده المقدسة، والممثلة للمسيح على الأرض، تنقلب بعوامل الشيطان ومؤثراته فتصبح مثلاً أعلى للأساليب الريائية المزرية، ومقرًا للوثنية البغيضة، وأمًا رؤومًا لعبادة القديسين والآثار والصور والتماثيل، والمخترعة لنظرية الاستحالة، وطريقة الاعتراف، علاوة على أن مظهرها الخارجي من حيث أطماعها في تعزيز مجدها العالمي، وقسوتها في اضطهاد وإبادة كل من تجاسر على التردد في الاعتراف بسلطانها وسيادتها، وتعطشها لسفك الدماء البشرية، كل هذه مظاهر لا مثيل لها في تاريخ أشد الشعوب توحشًا أو أشد عصور الوثنية بربرية.

قد تسأل نفسك وأنت تتأمل قائلاً: هل هذه حقًا هي الكنيسة التي تنتمي إليها هذه الجماهير الغفيرة في يومنا الحاضر؟ نعم بكل أسف. فمن بين أتباعها كثيرون من الطبقات الراقية والمتعلمين. مثل هؤلاء لا يمكن أن يكونوا إلا ثمر غواية الشيطان، إله هذا الدهر، الذي يحاول كل حين أن يعمي الأذهان (٢كو٤:٣، ٤). فكثيرات من أرقى العائلات الإنجليزية قد خضعن في روح التعبد الأعمى لحلق شعورهن، غطاء رؤوسهن الطبيعي، وحبس أنفسهن في صوامع الأديرة مدى الحياة. كما التصق بكنيسة روما كثيرون من الطبقات الأرستقراطية، سواء أكانوا علمانيين أو إكليروس. ولكنها هي هي لا تتغير مدى الدهر، وإنما التغيير هو في أولئك الذين قد تحول نورهم إلى ظلام كقول النبي «أعطوا الرب إلهكم مجدًا قبل أن يجعل ظلامًا، وقبلما تعثر أرجلكم على جبال العتمة، فتنتظرون نورًا فيجعله ظل موت ويجعله ظلامًا دامسًا» (إر١٣:١٦)، فكما كانت في أيام غريغوري السابع وإنوسنت الثالث وماري الدموية هكذا هي الآن في روحها، ولا تتأخر عن إعادة تاريخها لو كانت لها القوة أو أتيحت لها الفرصة.

ولكن ما أعظم مسئولية المسيحيين وبين أيديهم العهد الجديد، وما فيه من فرق شاسع بين الرب المبارك وتلاميذه وبين البابا وإكليروسه، بين نعمة الإنجيل ورحمته وبين نقمة البابوية وقسوتها! ألا ليت القارئ العزيز يتذكر في ختام هذا التأمل المحزن تلك النصيحة الغالية «اخرجوا منها يا شعبي، لئلا تشتركوا في خطاياها، ولئلا تأخذوا من ضرباتها... إذ (بسحرها) ضلت جميع الأمم، وفيها وُجد دم أنبياء وقديسين وجميع من قُتل على الأرض» (رؤ١٨:٤، ٢٣، ٢٤).

الفصل الثامن والعشرون

اضمحلال السلطة البابوية

من عهد إنسوسنت الثالث إلى وقت الإصلاح كان الرب يُعِدّ الطريق لهذه الحركة العظيمة، وذلك بواسطة إضعاف السلطة البابوية التي كانت تسيطر على الحكومات البشرية وعلى عقول الناس بصفة عامة. وقد كان هذا الاضمحلال بطيئًا وتدريجيًا، حتى أنه استغرق ما يقرب من مائة سنة، ذلك لأن الشيطان استجمع كل قوته لمعاونة وتعضيد «سر الإثم». ولكن سرّ الله أن يقيم أناسًا أقوياء وأمناء لمقاومة شرورها الكثيرة، وهؤلاء الشهود هم الذين ننوي بمشيئة الرب التأمل في سيرتهم في الفصل المقبل. على أننا نقول إن الرأي العام بأجمعه في أوروبا كان إلى ذلك الوقت متأثرًا بادعاءات البابوية ومبادئها، حتى أصبحت هذه الادعاءات وتلك المبادئ كأنها جزء لا يتجزأ من المسيحية. والفكر الذي كان يسود هذا النظام الأوتوقراطي العظيم هو سيادة السلطة الدينية على السلطة المدنية سيادة مطلقة "كسيادة النفس على الجسد، وسيادة الأبد على الزمن، والمسيح على قيصر، والله على الناس، وأن كل سلطة أرضية هي سلطة خاضعة للسلطة الروحية في كل شيء له علاقة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالدين أو رئيسه". هذا المبدأ الذي نادى به هلدبراند في ملء قوته لأول مرة بلغ أوج شدته وعظيم انتشاره في عهد إنوسنت، الذي وصل بمهارته إلى قمة السلطان والمجد البابوي. فالشيء الذي كان خيالاً وحلمًا عند الكثيرين ممن سلفوه تحقق على أكمل وجه في عهد بابويته، ولكن من هذه القمة ابتدأ هذا الكاهن المتوج في الانحطاط والنزول.

أما تفصيلات الحروب الداهمة الطويلة التي دارت رحاها بين البابوية والإمبراطورية، وخاصة بين غريغوري التاسع وإنوسنت الرابع من جهة، وفردريك الثاني من جهة أخرى، فهي ليست لائقة بصفحاتنا وليست ضرورية لغرض تاريخنا، ولذلك سنكتفي بإيراد صورة سريعة ومختصرة للباباوات البارزين الذين ظهروا في هذه المدة من الانحطاط والتدهور البابوي.

في عام ١٢١٦م ارتقى أونريوس الثالث أريكة البابوية بعد إنوسنت، موجهًا كل اهتمامه للحرب المقدسة، فقد أصبحت روح الحرب الصليبية في ذلك الوقت مبدأ ثابتًا من مبادئ البابوية وعنصرًا لازمًا للاحتفاظ بسلطتها، حتى أن أي كردينال لم يكن ليحلم بالارتقاء إلى كرسي القديس بطرس ما لم يكن صليبيًا لحمًا ودمًا، فهذه كانت أسمى مؤهلات رئيس كهنة الدين المسيحي. وعلى هذا كان أول عمل قام به أونريوس بمجرد ارتقائه العرش أن أصدر منشورًا للمسيحية جمعاء، حاثًا المسيحيين بأشد عبارات الغيرة والحماس أن يشتركوا في تعضيد الحملة الجديدة، إما بالنفس أو المال. وكان الإمبراطور فردريك الثاني في غيرة الشباب وحماسته المتقدة قد أعطى تعهدًا لإنوسنت أن يشترك بلا إبطاء في حرب صليبية جديدة، ليس ضد الألبينيين الذلولين هذه المرة، الذين لا يزال رمادهم متوهج، بل ضد الملحدين لتحرير القبر المقدس من أيدي الكفار. ولم يكن في ذلك الوقت في استطاعة أحد قد أعطى مثل هذا التعهد أن يتخلى عن تعهده لأي سبب كان، فإن لم يكن في مقدوره مرافقة الحملة شخصيًا تحتم عليه أن يقدم شخصًا آخر كنائب عنه، أو مبلغًا من المال. وعلى ذلك أرسلت الرسائل في الحال لفردريك مذكرة إياه بتعهده الصليبي الأخير، ومشددة عليه بسرعة الرحيل إلى الأرض المقدسة. غير أن فردريك كان لا يزال شابًا، ومنافسه أوتو لا يزال حيًا، ومملكته في أشد حالات الارتباك، حتى أنه لم يكن ممكنًا له السفر توًا بأي حال من الأحوال. ولم ينفع في فردريك لا وعد ولا وعيد، مع أن آمال البابوية كانت متركزة فيه.

الاستيلاء على دمياط وضياعها

ارتفع الآن صوت النداء بشدة، وأنشد مبعوثو البابا أنشودة الحرب والقتال في كل أصقاع فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا وهنغاريا وكل بلدان الغرب، وحوصر الملوك والأمراء والأشراف، واشتد عليهم الإلحاح بأن يقدموا بدون إبطاء السفن والرجال والمال والأسلحة وكافة المهمات اللازمة. ولكن البابا قد وجد بالأسف أن حماس الأزمنة الغابرة قد ولى وانتهى، ولم تكن لأونريوس بعد تلك القوة السحرية التي كانت لأوربان. فلا مندوبو البابا ولا الرهبان المبشرون استطاعوا أن يشعلوا في قلوب الشعب أي حماس أو غيرة للحرب المقدسة، ولم يلب الدعوة إلا ملك واحد وهو أندرو ملك بلغاريا، وتبعه عدد من الأمراء والأشراف والأساقفة ورؤساء الأساقفة، وبذلك اجتمع جيش كبير وصل إلى مصر وحاصر دمياط، التي وقعت في أيدي الصليبيين بعد حصار دام ستة عشر شهرًا. على أن الحياة البشرية التي أهلكت والدماء البريئة التي أهدرت بسبب هذه الغباوة البابوية كانت مزعجة وشنيعة "فالمجاعة عملت في السكان حتى أفنت منهم العدد الكبير، وأشتد السيف، انتشرت الأوبئة، حتى أنه من بين ثمانين ألفًا من السكان لم يبق سوى ثلاثة آلاف. وامتلأ الجو من رائحة الجثث. ومع ذلك لم يمتنع الصليبيون وسط هذه الأهوال من الاستمرار في قسوتهم وأعمال وحشيتهم»[٢/٣١].

تلقى البابا أخبار هذا الانتصار بنشوة من التهليل والفرح، وانتعشت آماله في الانتصار النهائي. ولكن سرعان ما تبددت هذه الأحلام، إذ في العام التالي حاصرت دمياط قوة كبيرة بقيادة الملك الكامل سلطان مصر وسوريا، وانتزعوها من أيدي الصليبيين. كانت هذه صدمة عنيفة للبابا ومذلة لنفسه، جعلته يغلي حقدًا ضد الإمبراطور، ويلقي عليه كل اللوم. ففشل الحملة والكوارث التي حاقت بالمسيحيين لم يكن سببها إلا تردده وتسويفه. ويقال إن ٣٥٠٠٠ من المسيحيين وحوالي ٧٠٠٠٠ من المسلمين هلكوا في معركة دمياط. على أن الهزيمة والمصيبة لم تفعل سوى إذكاء نار الغيرة والحماس في قلب البابا لحرب صليبية جديدة، حتى أنه في مدى إحدى عشرة سنة، هي المدة التي قضاها أونريوس متربعًا على كرسي القديس بطرس، كان كل همه منحصرًا في شن الحروب ضد الألبينيين في جنوبي فرنسا وضد الفاطميين في فلسطين. وقد أسلم الروح عام ١٢٢٧م وهو لا يزال يحض فردريك على الرحيل.

غريغوري التاسع وفردريك الثاني

ارتقى غريغوري التاسع عرش البابوية وسط الاستحسان العام، وكان قريبًا لإنوسنت الثالث ومن أشد تلاميذه إخلاصًا. وقد كان حفل تتويجه غاية في الأبهة والعظمة "فقد عاد من كنيسة القديس بطرس وعلى رأسه تاجان، وممتطيًا جوادًا مزينًا بالجواهر والحلي، ومحاطًا بالكرادلة في ثيابهم القرمزية الفخمة، مع طائفة كبيرة من الكهنة. وفرشت الشوارع بالبسطة المزركشة بالذهب والفضة من أفخر مصنوعات مصر وأبهى ألوان الهند، ومعطرة بأثمن الروائح والأطياب"[٣/٣١]. وكان يبلغ من العمر واحدًا وثمانين عامًا حين ارتقى عرش القديس بطرس، ولكنه مع كبر سنه كان لا يزال محتفظًا بقواه العقلية كاملة، حتى قيل عنه إن قوة ونشاط وآمال الشباب كانت لا تزال تدب في عروقه، فكان حديدي الإرادة لا يلين، وكان متقد الغيرة والحماس.

كان فردريك في بدء عهده تحت وصاية إنوسنت الثالث، ولا مثيل في التاريخ للأخطار والأهوال والانتصارات التي اجتاز فيها ذلك الملك الشاب وهو يجاهد في وضع اليد على عرش أجداده في صقلية. وقد بلغ دور الرجولة في عهد أونريوس، إذ كان في الثالثة والثلاثين من عمره عندما مات هذا البابا، وفي هذا الوقت كان هو السيد المطلق السلطان في كل الإمبراطورية بكامل حقوقها في شمالي إيطاليا، فكان ملكًا لأبوليا وصقلية وأورشليم. ويتنافس المؤرخون في وصف أخلاقه وتعداد فضائله ونقائصه. فملمان بأسلوبه الشعري يصفه كالملك الخطير والبطل الصنديد والشاعر والمشرع، وصديق الفنون والآداب والعلوم، وكمن استطاع بحكمته البعيدة النظر أن يدرك شيئًا من مبادئ المساواة، واتفاقات التبادل التجاري، وإرساء قواعد السلام، والتسامح الديني، الأمر الذي كان يعتبر استباحة أثيمة في نظر كل ابن من أبناء الكنيسة المخلصين. والبعض لا يتوانون في وصفه كمن كان محبًا لذاته وكريمًا، ومتسامحًا وقاسيًا، وشجاعًا وخائنًا، لا يمتنع عن النزول إلى أحط درجات الخلاعة والدعارة. أما من حيث العلوم والمعارف فقد ضرب فيها بسهم وافر، حتى كان يجيد التكلم بكل لغات الأمم والشعوب التي كانت تخضع لسلطانه، وهي اليونانية واللاتينية والإيطالية والألمانية والفرنسية والعربية.

وصل الحد الآن بالبابوية والإمبراطورية أن كان على رأس كل منهما بطل مقتدر وعنيد، لا تلين قناعة في الذود عن حقوقه وامتيازاته، ففردريك لا يطيق أن يرى شخصًا أعلى منه، وغريغوري لا يحتمل أن يرى مخلوقًا مساويًا له. فمن الجهة الواحدة صمم الإمبراطور على المحافظة على حقوقه الملكية كاملة، ومن الجهة الأخرى عقد البابا نيته على المحافظة على شرف البابوية كالسيدة على الإمبراطورية. وبهذا التصميم من الجانبين ابتدأت المعركة العنيفة والجهاد المميت. وكانت هذه آخر مصارعة بين الإمبراطورية والبابوية، على أن الحروب الصليبية كانت على الدوام السلاح الذي لا غنى للبابوية عنه، والذي اعتزت به في كل أدوار كفاحها.

على هذا النحو كرّس البابا الشيخ نفسه للعمل والجهاد، فكان أول عمل قام به بعد تتويجه مباشرة هو الحث على حرب صليبية جديدة. على أن صرخاته قوبلت بآذان صماء في كل مكان، فلمبارديا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا التزمت ناحية العداء للحروب الصليبية ومحبذيها، وكانت لا تزال ذكرى سقوط دمياط حية في ذاكرتهم. فلم يبق أمام الشيخ العنيد إلا توجيه همه إلى فردريك والإلحاح عليه، ومع أن فردريك لأسباب سياسية كان لا يرغب في ترك بلاده في ذلك الوقت، إلا انه إرضاء للبابا جمع جيشًا كبيرًا وأسطولاً عظيمًا وارتحل به من برنديزي. ولكن وباء انتشر في الجيش فأودى بحياة الكثيرين من جنوده، من بينهم أمير ثورنجيا وثلاثة من الأساقفة، وأدرك المرض الإمبراطور نفسه بعد رحلة ثلاثة أيام في البحر، حتى اضطر أن يعود للاستشفاء، وبذلك تشتت الجيش وتأجلت الحملة وقتيًا.

فردريك لا يعبأ بالحرمانات البابوية

هاج البابا وماج، معتبرًا أن مرض الإمبراطور ما هو إلا ادعاءً فارغًا، وبغير أن ينتظر إيضاحًا أو يطلب تفسيرًا نطلق بحكم الحرمان ضد "طريد سوابيا الكذاب"، وكان ذلك بعد ستة شهور من تولي غريغوري عرش البابوية. ومن تلك اللحظة لم يذق فردريك راحة في هذا العالم إلى أن مات. وعبثًا حاول أن يرسل أساقفة يتوسطون له ويشهدون لحقيقة مرضه، فكان جواب الباب الوحيد "إنك كذبًا ونفاقًا ادعيت المرض ورجعت إلى قصورك، تتمتع بلذائذ الراحة والفخفخة". وكان كل مرة يجدد الحرمان ويطلب إلى الأساقفة نشره وإذاعته.

غير أن فردريك بدلاً من الاستكانة والخضوع والحضور أمام غريغوري التاسع كما حضر هنري الرابع أمام غريغوري السابع، أنكر البابوية بكل شجاعة، فكتب للبابا يقول "إن أسلافك استمروا طوال حياتهم يتعدون على حقوق الملوك والأمراء، ويجردونهم من أملاكهم وأراضيهم، ويوزعونها على أذنابهم ومحاسبيهم. لا بل وصلت بهم الجرأة أن أعفوا الرعايا من يمين الولاء لملوكهم، ولم يتورعوا عن إدخال الارتباك إلى ساحات القضاء والعدل، وذلك بالربط والحل وكافة أنواع العناد بلا أدنى مراعاة لقوانين البلاد، وكان الدين دائمًا هو ستارهم في كل هذه التعديات على السلطات المدنية، ولكن الباعث الحقيقي كان دائمًا أبدًا الرغبة في إخضاع الحكام والمحكومين على سواء لنير ثقيل وطغيان لا يطاق، ولسلب الأموال بأي وسيلة كانت، حتى ولو أدى ذلك إلى ملاشاة الهيئة الاجتماعية بجملتها وتدميرها من أساساها". هذه وأمورًا أخرى كثيرة نظيرها استطاع أن يقولها فردريك في غير خوف أو تردد، الأمر الذي يدل على حالة الضعف التي وصلت إليها السلطة البابوية. وفي الوقت نفسه كان فردريك ملكًا كاثوليكيًا مخلصًا من وجوه كثيرة، وطالما أصدر القوانين المتشددة ضد الهراطقة، وكل ما كان يبتغيه هو أن يقنع البابا بحدود مركزه كسيد على الكنيسة، ويتركه هو سيدًا على الإمبراطورية. وكان على تمام الاستعداد أن يكون البابا الرئيس الديني أو الكهنوتي، ويكون هو الرئيس المدني أو العلماني *.

وكانت كل جريمة فردريك في نظر البابا المتعصب هي تباطؤه في الذهاب إلى الأرض المقدسة، وأنه فضّل مصالح إمبراطوريته على أوامر الكرسي الرسولي. ذلك الحساب المتعقل الحكيم كان هو خطيته التي لا تغفر، فلم يكن الإمبراطور يرى أية فائدة في تضحية النفوس والأموال والسفن بلا أي أمل منظور في النجاح، ومع ذلك فقد كان مصممًا على تنفيذ عهده وإثبات إخلاصه كجندي من جنود الصليب.

وعلى ذلك أبحر فردريك مرة ثانية من برنديزي في يونيو عام ١٢٢٨م. في ذلك الوقت كانت قد ضعفت تلك العداوة القاتلة القديمة بين المسلمين والصليبيين الأوائل، فكانت بين فردريك والسلطان علاقات صداقة ومودة، ولذلك بدلاً من السيف والنار اقترح الإمبراطور

* يورد وادنجتون(٢/٣١) خطابًا طويلاً من الإمبراطور إلى هنري الثالث ملك إنجلترا يعبر فيه بحدة عن احتقاره للكنيسة الرومانية مؤيدًا أقواله بأسباب واقعية.

عمل معاهدة سلام ووئام، فوافق الملك الكامل على ذلك، ووقعت المعاهدة فعلاً في ١٨ فبراير ١٢٢٩م، وبمقتضاها سُلمت أورشليم للصليبيين ما عدا الهيكل، الذي وإن كان قد فُتح للمسيحيين، إلا أنه ظل في حراسة المسلمين. وكذلك تنازل المسلمون عن الناصرة وبيت لحم وصيدا وأماكن أخرى، فنال الصليبيون بتلك المعاهدة السلمية أكثر مما كانوا يرجون أو يتصورون[٣/٣١].

بيد أن هذا الانتصار السلمي الخالي من سفك الماء على يد ملك محروم لم يرق في عيني البابا الشيخ، بل ملأه بالحقد والغيظ، فأعلن استنكاره وسخطه لهذه الجرأة التي لم يسمع بمثلها في التاريخ، فكيف أن رجلاً تحت حرمان الكنيسة يتجاسر فيضع قدمه المدنسة على الأرض المفدية، أرض آلام المخلِّص وقيامته، وأخذ يترحم على المدينة المقدسة وما أصابها من دنس فظيع بحضور الإمبراطور إليها. على أن الله في عنايته استخدم هذا الحادث الشهير ليعلن للملأ كذب نوايا غريغوري وحماسه المصطنع لتحرير الأرض المقدسة، إذ أثبتت الأحداث أن كرامته الشخصية وعظمته البابوية كانت أعز لديه ألف مرة من محل ميلاد المسيح، فاستخدم كل وسيلة استطاع أن يمليها حقده وحقد مستشاريه لتفشيل الحملة وجلب الدمار على فردريك، فأرسل في بادئ الأمر جماعة من الفرير إلى بطريرك أورشليم وضباطها العسكريين، يطلبون منهم أن يقيموا كل ما يمكنهم من عراقيل في وجه الحملة، مع التمني الصريح لو أن فردريك وجد لحدًا أو سجنًا في فلسطين، مما جعل بعض الرهبان الهيكليين يدبرون مكيدة للفتك بفردريك في طريقه لنهر الأردن للاستحمام، إلا أن المكيدة اكتُشفت، وبذلك فشلت مؤامرة الهيكليين. على أن الشيخ الحاقد لم يكن بعد قد أفرغ جعبته، فأرسل جيشًا عظيمًا بقيادة يوحنا برْيِن للإغارة على ممتلكات الإمبراطور. ووصلت أخبار هذا الهجوم العدائي لفردريك، فعاد من الشرق على جناح السرعة، وسرعان ما ولت الجيوش البابوية الأدبار بمجرد سماعهم بقدومه. واستطاع فردريك بحضوره استرجاع المملكة بسرعة من يد غاصبيها.

على أن سيف كفاح البابوية كان قد استل، ذلك السيف الذي لا يرضيه شيء والذي لا يقف عند حد. ففردريك أعظم أباطرة بيت سوابيا، الذي في إبان حكمة الطويل حُرم عدة مرات، مرة لتردده في حمل الصليب، ومرة لتباطئه في الذهاب إلى الأرض المقدسة، ومرة لذهابه إليها، ومرة لوجوده فيها، ومرة لرجوعه منها بعد إبرام معاهدة رابحة مع المسلمين، صدر الآن أمر البابا بعزله من العرش وتحليل رعاياه من يمين الولاء له. وبما أننا لا نرغب في الإفاضة في سرد تفاصيل الحروب التي خاضتها الإمبراطورية، ولا أن نتتبع الأساليب السياسية غير الشريفة التي اتبعتها البابوية، فإننا نكتفي بالقول إن البابا الشيخ قضى نحبه وهو في التاسعة والتسعين من عمره وسط عواصف العداء من كل ناحية على أثر نوبة غضب وهياج انتابته. وقد خلفه إنوسنت الرابع الذي نسج في سياسته على منوال إنوسنت الثالث وغريغوري التاسع، فلم تربح قضية فردريك شيئًا من هذا التغيير في الباباوات، حتى كانت سنة ١٢٥٠م، وهي السنة السادسة والخمسون من عمره والسابعة والعشرون من حكمه، حينما فاضت روحه بين ذراعي ابنه مانفريد بعد أن تمم فريضة الاعتراف ونال التحليل من رئيس أساقفة باليرمو الأمين.

كنا نظن أنه بموت فردريك تهدأ العواصف البابوية ولو إلى حين، ولكن الأمر بالأسف كان على عكس ذلك تمامًا. فالحقد الذي تبع فردريك حتى القبر وما وراء القبر استمر يطارد أبناءه، حتى خمدت جذوته في دماء آخر وريث لبيته، الذي أعدم على المقصلة في مدينة نابولي. فقد استمرت الحرب سجالاً بين الجيوش البابوية والجيوش الإمبراطورية، إلى أن طلب البابا كليمنت الرابع من شارل أخي لويس التاسع أن يسرع بتولي قيادة الجيش البابوي، واعدًا إياه بتاج صقلية. وقد لبى شارل الدعوة، وكما يقول المؤرخ جرينوود، قَبِل المهمة البابوية بلهف المغامر وبالروح الصليبية المتهوسة. وقد كان الرجل من أقسى الطغاة الذين ظهروا في تاريخ البشر، ففعلت الوحشية والجشع والشهوة والفساد فعلها الكامل تحت إمرته. ودخل إيطاليا على رأس جيش عظيم كان قد أُعد أصلاً لإنقاذ الأرض المقدسة باسم "جيش الصليب" يضم بين أفراده عددًا كبيرًا من أشجع فرسان فرنسا وأبطالها الأشراف، ولكن بدلاً من التوجه لمعاونة إخوتهم في فلسطين، حلهم البابا من نذرهم، واعدًا إياهم بغفران الخطايا والحياة الأبدية إن هم اتجهوا ضد اخوتهم أتباع الإمبراطور السابق. تلك كانت الغيرة البابوية ومقدار أمانتها في تخليص القبر المقدس.

وبمجرد أن تُوِّج شارل دي أنجو ملكًا على صقلية أطلق العنان لجنود الصليب، فراحوا يذبحون وينهبون في الأحياء التي عينها البابا. ليس ذلك فقط، بل بإرشاد البابا هجم الجنود على أفخر ممتلكات

الإمبراطور. على أن الإمبراطور كان الآن في قبره، وقد ذهب ما كان لاسمه من سحر ورهبة، فأسرع أولاده في جمع الجنود ما استطاعوا واستطاعت أموالهم، واستمرت نتيجة الحرب معلقة بين الشك واليقين وقتًا ما، حتى تغلبت أخيرًا فروسية فرنسا ومهارة رجالها المدربين على فصائل الأمراء وجنودهم غير النظاميين، فوقع مانفريد قتيلاً في ساحة الحرب. ومات كونراد فجأة، وأُسر كونرادين وابن عمه فردريك أمير بافاريا اللذين أطاح شارل برأسيهما على المقصلة في ميدان نابولي العام كما تقدم ذكره.

ارتجت المسيحية جمعاء بأخبار هذه القسوة التي لا مثيل لها. فكونرادين آخر سلالة بيت سوابيا قُتل على مرأى من الجماهير كأحد الصعاليك الثائرين، لا لذنب جناه سوى دفاعه عن عرش أجداده ضد أتباع البابا الغاصبين. ووجّه الرأي العام إلى البابا تهمة الاشتراك في قتل ابن ملك ووريث ملوك، فهو الذي وضع السيف في يدي الطاغية، ولا بد له الآن من أن يقف أمام محكمتي السماء والأرض ويداه ملطختان بدماء كونرادين. ومن الغريب أنه لم يكد يمضي شهر على هذه الفاجعة الأليمة حتى انقض الموت على البابا البغيض، مسرعًا به وراء فريسته إلى القبر، ذلك الحد الذي ليس من اختصاصنا الكلام عما وراءه. غير أننا في الوقت نفسه متأكدون من شيء واحد، وهو أن ديان كل الأرض لا بد أن يصنع عدلاً، وأن البابا الراحل لا بد أن يسمع من عرش القضاء الإلهي صوت الحكم الأبدي الذي لا تغيير فيه ولا تبديل، فالنار أبدية ولن تطفأ، والدود لن ينعس أو ينام، والسلسلة لن تُكسر، والأسوار لن تُنقب، والأبواب لن تُفتح، والماضي لن يُنسى، ووخزات الضمير لن تهدأ وصوته لن يسكت، وكل شيء يتعاون على ملء النفس بعذاب الحسرة وقطع الرجاء إلى أبد الآبدين. حقًا من ذا الذي لا يهرب لحياته ويشتاق فوق كل شيء لأن ينال الغفران ويخلص بالرب يسوع المسيح، الذي مات لكي يخلّص الخطاة (١تي ١: ١٥).

يد الله الغالبة

استخدم الله، في عنايته، هذه الجريمة الشنعاء، التي لم يكن ممكنًا أن تغيب ذكراها من أذهان ملوك أوروبا وشعوبها، لإضعاف السلطة البابوية إضعافًا كبيرًا، وتقوية ساعد السلطات المدنية ضد اعتداءات كنيسة روما وادعاءاتها المزعومة. وقد أصبح هذا التغيير باديًا للعيان من ذلك التاريخ، إذ في سنة ١٢٦٩م، وهي السنة التالية لمصرع كونرادين وفردريك صدر المرسوم الشهير المعروف باسم "براجماتيك سانكسيون" أي "الدستور العلمي"، الذي يُعتبر بمثابة دستور الكنيسة الفرنسية المستقلة، مثلما كانت "الماجنا كارتا" لإنجلترا. أصدر هذا المرسوم الملك التقي لويس التاسع ملك فرنسا المعروف باسم "سانت لويس"، وهو ضد البابوية على خط مستقيم في لهجته، فهو يحدد سلطة روما في مسألة انتخاب الإكليروس، وينكر صراحة حقها في ضرائب الكنيسة إلا بموافقة ملك فرنسا وكنيستها. لا شيء كان يمكن أن يكون أكثر من هذا عدلاً وسخاء، فقد أصبح هذا المرسوم، بفضل عناية المحامين المدنيين الذين كانوا يُعتبرون على الدوام كتلة منافسة لسلطة الإكليروس والقانون الكنسي، وثيقة عظمى في تاريخ استقلال كنيسة فرنسا.

لم يلقَ هذا المرسوم الخطير الصادر من واحد هو أتقى الملوك، لا بل قديس باعتراف الكنيسة نفسها، أية معارضة من جانب البابوية. فلو أن هذا القانون صدر من فردريك الثاني أو أحد أتباعه لكان الموقف خلاف ذلك تمامًا، على أنه يرجح كثيرًا أنه لا لويس ولا البابا أدركا في ذلك الوقت ما سيؤول إليه أمر هذا المرسوم التقوي، الذي لم يُقصد منه سوى فائدة وإصلاح الإكليروس، ولكنه أصبح في أيدي المجالس النيابية والمحامين والملوك حاجزًا قويًا في وجه مطامع روما، وسدًا منيعًا تتحطم عنده آمالها وادعاءاتها.

وقبل أن نختم هذا الفصل الطويل نود أن نلقي نظرة عاجلة على بابوية بونيفاس الثامن، لأن فيه الشهادة الختامية على انحطاط البابوية، كما أنه المحور الذي عليه يدور تاريخها المستقبل.

بونيفاس الثامن وفيليب ملك فرنسا

لم يكد يمضي أربعون عامًا على هذا المرسوم الإكليريكي الخطير إلا واحتدم النزاع بين بونيفاس الثامن العاتي وفيليب ملك فرنسا الذي تحداه صراحة، فهو أول من علّم شعوب أوروبا أنه في استطاعة الملك أن يقهر الأساقفة ويدوسهم تحت أقدامه، كما استمروا هم أجيالاً عديدة يدوسون ملوك أوروبا تحت أقدامهم. وقد كان فيليب في تصلفه وشدته وكبريائه وقسوته وحديد إرادته لا يقل عن بونيفاس إن لم يفقه في المكر والخديعة.

أما كبرياء بونيفاس فكانت هي مصيبته الكبرى وبلاءه الأعظم،

فهي كبرياء لم تعرف حدودًا، كما كانت تسمو و تجل عن أن تخضع للظروف مهما كانت. فلم يكن في استطاعة أية اعتبارات دينية أو سياسية أو إنسانية أن تحول بينه وبين عنفه وقسوته. على أن نظراته المتعالية وكبرياءه المتشامخة كان مقضيًا عليها بالمذلة سريعًا. صحيح أنه كان واقعًا في مشاكل كثيرة مع شعوب وملوك وبيوت شريفة كثيرة، ولكن ملك فرنسا الداهية القوي أثبت أنه كان أكثر من ند له. فعندما أرسل البابا طلبًا متطرفًا لفيليب أرسل له هذا ردًا مهينًا جارحًا، وعندما أخذت التهديدات البابوية تسري من الفاتيكان، أمر الملك بإحراقها جميعًا في باريس، وأرسل لقداسته رسالة يذكره فيها أن وظيفة البابا هي الوعظ والحث وليس الأمر والنهي، وأنه لن يسمح بمثل هذه الدكتاتورية في شئونه الخاصة.

على أنه لم يكن ممكنًا أن تقف الأمور عند هذا الحد، فقد صمم فيليب على إذلال خصمه، ولكي يقوي مركزه ضد إجراءات روما التجأ إلى أعظم الوسائل الدستورية، فبينما بونيفاس يهين الشعب الفرنسي في شخص مليكه، كان الملك السياسي يعمل على كسب إعجاب شعبه وعطفه بدفاعه عن كرامة التاج وصالح الأمة ضد هجمات البابا المتكررة. فجمع أشراف فرنسا وأساقفتها ونوابها وجعلهم يبتون بأنفسهم في الموقف، ويقال إن هذه أول دعوة لانعقاد "مجلس الأمة العام"، وقد اتبع هذه الطريق ملوك آخرون، مما كان له أكبر أثر في تاريخ البابوية. وقد نجح الملك بأن نال من هذا المجلس العظيم احتجاجًا قويًا ضد مطالب البابوية، وتأييدًا شديدًا لاستقلال عرش فرنسا.

أما بونيفاس الذي لم يقدّر مدى تأثير هذه الأزمة في تاريخه وتاريخ البابوية كلها، فقد اتبع في كبريائه العمياء خطته القديمة، فكتب خطابًا لفيليب يقول فيه "قد أقامني الله على الشعوب والممالك لكي أرفع وأخفض وأبني وأهدم باسمه وتعاليمه. فلا تدع أحدًا يا بني يقنعك بأنك لست خاضعًا لرئيسك الروحي. فالذي يقول هذا القول قد فقد شعوره، والذي يتمسك به كافر وملحد ومنبوذ من قطيع الراعي الصالح. و لهذا نعلن ونحكم أنه محتم لخلاص كل مخلوق بشري أن يكون خاضعًا للبابا". وكان جواب الملك معتدلاً، غير أنه كان حازمًا ومتحديًا، فزادت الحيرة، ولكن إذ لم يقنع البابا بكل هذا وضع فرنسا كلها تحت الحرمان، وأقصى الملك، وأعطى تاجه لآخر. ولكن فيليب لم تهزه قط القرارات التي لم تكن لها الآن أية قوة، وفي الحال أصدر مرسومًا يحرم تصدير أي ذهب أو فضة أو جواهر أو أسلحة أو خيول أو أية معدات حربية من المملكة، وبهذا المرسوم انقطعت عن البابا جميع الموارد التي كانت تأتيه من فرنسا.

إذلال البابا

أخذ بونيفاس وهو محتدم غيظًا يضاعف تهديداته ويكررها، أما فيليب فقد صمم على سلوك أقصر طريق لوضع حد لهذا النزاع، فأرسل ثلاثمائة من الفرسان المسلحين وعلى رأسهم أحد ضباطه الأمناء المخلصين، وجماعة من الأشراف المغامرين، وخصوصًا من أسرة كولونا الإيطالية، التي كان البابا قد أذلها وأذاقها الأمرين، وأمر هؤلاء جميعًا أن يتوجهوا توًا ويقبضوا على البابا أنى وجدوه ويحضروه أسيرًا إلى باريس. أما البابا الشيخ - وكان عمره الآن ستًا وثمانين سنة - فكان في حيرته قد انعزل في قصره في "أنانيي"، لكي يعد تحريمًا آخر جاء فيه أنه "كممثل المسيح له الحق والسلطان المطلق أن يسود على الملوك ويحكمهم بقضيب من حديد ويكسرهم كالخزف".

غير أنه بالأسف سرعان ما تبدل الحال، وانقلب ادعاؤه التجديفي بالسلطان الإلهي المطلق إلى منظر من مناظر الضعف البشري والموت. فقد دوت في الفضاء صرخة، وارتعب البابا والكرادلة الملتفون حوله، إذ سمعوا وقع حوافر الخيل المسلحة. وما هي إلا لحظات حتى هجم الفرسان وهم يصرخون تلك الصرخة الرهيبة المفزعة "فليمت البابا بونيفاس! وليعش ملك فرنسا"! ووضعوا أيديهم على القصر في لمح البصر. أمام هذا الخطر الداهم فر جميع الكرادلة تقريبًا مع جميع الخدم والأتباع الخصوصيين، وبقي البابا منفردًا. إلا أنه مع ذلك لم يفقد شجاعته، بل ضبط نفسه، ونظير توماس بكت الإنكليزي من قبل، انتظر الضربة الأخيرة بكل هدوء وثبات. وبسرعة ألقى رداء القديس بطرس على كتفيه، ووضع تاج قسطنطين على رأسه، وأمسك بالمفاتيح في يد وبالصليب في اليد الأخرى وجلس على العرش البابوي. وقد كان لهذه الجلسة تأثيرها وروعتها، فمنظر شيخوخته وثبات جلسته وهيبة وظيفته وجلالها الديني ملأ بالرهبة والخوف قلوب المتآمرين، الذين عندما رأوا منظر عدوهم الوقور وجلال هيئته امتنعوا عن ارتكاب جريمتهم الدموية، واكتفوا بالشتائم وعبارات الازدراء والاحتقار يصبونها فوق رأس البابا الأشيب البائس.

إن الأضرار الجسيمة والمظالم العديدة التي جلبها البابا القاسي على عائلات وأصدقاء هؤلاء الضباط أخمدت فيهم كل عاطفة نحوه إلا عاطفة الانتقام، ولكن الله شاء في عنايته أن يمنعهم عن سفك دم رجل شيخ أعزل في السادسة والثمانين من عمره.

وبينما كان القواد والزعماء يقومون بهذه العملية كان الجنود الباقون منتشرون في غرف القصر الفاخرة وينهبون ويسلبون. ويقول المؤرخ ملمان إن "جميع ما في قصر البابا وابن أخيه نهب وسلب، وقد كانت الثروة عظيمة لدرجة أنه لو جمعت أموال ملوك العالم كله لما ساوت الذخائر التي وجدها الجنود وسلبوها. حتى غرفة البابا الخاصة تجردت من محتوياتها، ولم يبق في القصرين إلا حوائطهما العارية".

وأخيرًا هبت الثورة في أنانيي وهجم الأهالي على الجنود، الذين لم يروا ضرورة للبقاء ما دامت الغنائم في حوزتهم، والبابا أسيرًا في أيديهم، فانسحبوا. ثم بعد ذلك أُطلق سراح البابا الذي أسرع إلى روما ودمه يغلي بنار الانتقام لهذه المذلة التي أصابته. غير أن ثورة عواطفه تغلبت على عقله، فأضرب عن الطعام وصرخ يطلب الانتقام. ولكنه الآن كان قد فقد قوته وأصبح كواحد من الناس، فطرد أتباعه وحبس نفسه في غرفته، خوفًا من أن يراه أحد وهو يموت. لكنه مات، ومات منفردًا، وسيقف أمام كرسي قضاء الله منفردًا، وسيعطي حسابًا عما فعل بالجسد منفردًا، وعن مسئوليته الشخصية دون سواه. وهنا نقف ولا نتعدى حدودنا. يا له من جزاء أبدي لا بد أن يلقاه شخص يقول عنه التاريخ غير المتحيز "إنه بين جميع باباوات روما لم يقم شخص كبونيفاس، الذي ترك أسود صفحة في الخداع والكبرياء والطمع، لا بل في الشراهة والوحشية"(٥/٣٢)(٢/٣١)(٦/٤٢).

تأملات في موت بونيفاس

لا يستطيع المرء أن يتصور كيف أن رجالاً أذكياء يخاطرون بالأبدية مقابل وقت قصير من التمتع والمجد العالمي ومحبة الذات في أية صورة من صورها. ولكن للأسف الشديد فإن أشد الإنذارات وأرهبها، وأرق الدعوات وأعذبها، تُهمَل إهمالاً وتُرفض رفضًا بسبب انجذاب الإنسان وراء شهواته الذاتية النفسانية. وعندما يصل الإنسان إلى هذه الأغراض فكم من الزمن يتمتع بها وتبقى في حوزته؟ تسع سنين فقط هي التي تربع فيها بونيفاس على كرسي البابوية، ولكي يحصل على هذا المجد العالمي الزائل دبر خفية مكيدة لقتل البابا سلستين ليحل محله. ولكن «الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضًا» (غل٦:٧). فسلستين يتمتع بتعاطف ومحبة الأجيال، بينما على قبر بونيفاس قد كُتبت إلى جميع الأجيال هذه الكلمات القاسية "وصل إلى الكرسي كثعلب، وحكم كأسد، ومات ككلب". هكذا بلا تعزيات رأفة الله، وبلا رعاية الشفقة من جانب الإنسان. فعندما كُسر باب غرفته وُجد جثة باردة جامدة، وشعره الأبيض ملطخًا بالدماء، كما وُجدت على رأس عصاه آثار تدل على أنه كان يعض عليها بأسنانه.

ما أسعد أولئك الذين لهم ميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل، محفوظ في السماوات لأجل جميع الذين وضعوا إيمانهم ورجائهم في المسيح وحده، أولئك هم أولاد الله بالمسيح يسوع، وأفراد العائلة السماوية الملوكية. أولئك ليسوا في حاجة للسعي وراء المجد الأرضي، فهم ورثة الله ووارثون مع المسيح، لهم عروش لا تتزعزع، وتاج لا يُسلب، وصولجان لا يُنزع وميراث لا يزول. ومع ذلك فهم يستطيعون أن يتمهلوا قليلاً ليتأملوا بعطف وشفقة في مصير الخاطئ البائس، لعلهم يستطيعون أن يستخرجوا من هذا المشهد المظلم المحزن فائدة روحية لهم وللآخرين. إن نظرة إيمان واحدة إلى المخلِّص كان يمكن أن تكون حياة لنفس ذلك الإنسان، ولو كان أول الخطاة. «التفتوا إليَّ واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الله وليس آخر» (إش٤٥:٢٢).

باباوات أفنيون

لقد حاولنا جهدنا فيما سلف وبقدر ما تسع هذه الصفحات ان نصور للقارئ سبب النزاع الذي قام بين بونيفاس وفيليب، لأنه يمثل أحد الأدوار العظمى في تاريخ البابوية، فمن تلك اللحظة انهارت البابوية بسرعة ولم تقم لها قائمة بعد ذلك. على أن هذا الانحطاط الذي وصلت إليه البابوية لم يكن ليقنع روح فيليب العاتية القاسية، فالخطوة التالية التي أراد أن يخطوها هي أن يضع البابا تحت رقابة عينيه، ويجعله كأحد عبيده الأرقاء، وقد نفذ ذلك في كليمنت الخامس، الذي ارتقى كرسي البابوية سنة ١٣٠٥م، والذي في عهده وصلت كنيسة روما إلى أحط دور في تاريخها. فهذا البابا الفرنسي الأصل وأحد خدام الملك المطيعين نقل فور تنصيبه

مقر الكرسي البابوي من روما في إيطاليا إلى أفنيون في فرنسا، وبذلك أصبحت البابوية فرنسية، ولم تعد روما عاصمة المسيحية. وقد استمر هذا النفي مدة سبعين سنة، تعرف في التاريخ باسم "السبي البابلي للباباوات في أفنيون". فتاريخ الباباوات العظماء أمثال غريغوري وإسكندر وإنوسنت قد انتهى ببونيفاس الثامن. ثم بعد مضي سبعين سنة في النفي أُعتقت البابوية من العبودية لملوك فرنسا، واستعادت صورة معدلة من السيادة.

عاش فيليب إحدى عشرة سنة بعد خصمه، ومات سنة ١٣١٤م، ويصفه التاريخ كواحد من أشر الملوك الذين لا مبدأ لهم. على أن شيئًا لم يسود صفحات تاريخه نظير فتكه القاسي بجماعة الرهبان الهيكليين، فقد أثارت ثروتهم جشعه، وصمم على حل هذه الهيئة، وإبادة زعمائها والاستيلاء على ممتلكاتهم وأموالهم. فقد علم أن مساحات شاسعة من أجود أراضي فرنسا تخص هذه الجماعة، وأن الغنائم التي يستولي عليها منهم ستجعله أغنى ملوك المسيحية. ولكي يضع يده على هذه الكنوز اتهم زعمائها بفشلهم في موقعة كورتراي المعروفة باسم "موقعة الرماح"، ثم اغتصب موافقة صنيعه البابا كليمنت الخامس، واستدعى مجلس الأمة للموافقة على حل هذه الهيئة. وإذ أصبحت في يده جميع السلطات المدنية والدينية، استطاع بسهولة أن يحقق مأربه، فقبض على عدد كبير من هؤلاء "الفرسان المسيحيين الشجعان" كما كانوا يطلقون عليهم، وقد كانوا كذلك بالرغم من ارتدادهم عن مبدئهم الأول، وزج بهم في السجن بتهمة جلب العار على الصليب وإهانة علامة الخلاص. واستعمل معهم كل وسائل التعذيب لاستخلاص الاعترافات منهم، وأحرق عددًا كبيرًا منهم أحياء، كما أرسل رسائل إلى جميع الملوك والأمراء الآخرين بموافقة البابا لكي يفعلوا بهم مثلما فعل، ولكن ملوك أوروبا الآخرين قنعوا بالغنائم، واستخدموا وسائل سلمية لحل تلك الهيئة البائسة.

ولعل القارئ يلاحظ هنا ظاهرة جديدة في تاريخ أوروبا جديرة بالتأمل، وهي أن البابوية والنظام الإقطاعي والفروسية التي قامت وترعرعت معًا منذ عهد شارلمان انهارت معًا أيضًا في عهد فيليب.

على أن غيومًا قاتمة كانت قد تلبدت فوق أسرة هذا الملك، الذي كان أقسى وأشر ملوكها، وقد غطى العار جبين أفراد أسرته بسبب فسادهم وفجورهم، وخاصة الفضيحة التي عصفت بهذا البيت بسبب خيانة الملكة وبناتها الثلاث، مما أسرع بالملك إلى قبره. وبعض الناس اعتبروا ذلك انتقامًا من السماء لدم بونيفاس، بينما رأى البعض فيه انتقام السماء لاضطهاد الهيكليين وإبادتهم. وقد ذهب إلى سجن الهاوية قبل أن يمثل أمام المحكمة السماوية، بلا بابا يحميه، ولا مجلس أمة يظاهره، ولا بد له أن يعطي حسابًا عما صنع بالجسد، وعن كل كلمة نطقت بها شفتاه، بل حتى أفكار القلب ونياته لا بد أن تُستعلن أمام ديان الأرض كلها. لن يستطيع الأرجوان أن يحمي خاطئًا هناك، فليس سوى دم المسيح المرشوش بالإيمان على قوائم القلب قبل مغادرته هذا العالم ينفع وسط غمرات الموت. فكل الذين يهملون الاحتماء في دم المسيح بالإيمان الآن لا بد أن يغوصوا في أعماق دينونة أبدية بلا قرار في الظلمة الرهيبة، ولكن دم يسوع المسيح ابن الله يطهرنا نحن المؤمنين من كل خطية.

لنترك الآن هذا القسم من تاريخنا، وننتقل إلى سلسلة الشهداء وطلائع حركة الإصلاح.

الفصل التاسع والعشرون

طلائع الإصلاح

قد تتبعنا في فصل سابق سلسلة الشهود لحق الله وإنجيل ربنا يسوع المسيح حتى الحرب الألبينية الكبرى التي قُتل فيها العدد الكبير منهم.كما تتبعنا أيضًا تاريخ البابوية حتى إذلالها وسقوطها في شخص بونيفاس الثامن، ونفيها عن عرش القديس بطرس بما يحفه من عظمة وجلال قديم في شخص كليمنت الخامس. والآن نعود إلى سلسلة الشهود التي نؤمن أنها لم تنقطع منذ الأيام الأولى، ولو أن "الحبل الفضي" لنعمة الله كان في بعض الأحيان دقيقًا حتى ليصعب العثور عليه أو اقتفاء أثره، ولكنه رغمًا عن كل ذلك استمر لامعًا مضيئًا في عيني الله، وكأنه المرآة التي تنعكس عليها نعمته وأشعة مجده.

المدارس الأولى ونهضة العلوم

لا شك أن قيام المدارس والجامعات في القرن الثاني عشر وانتشار النشاط الفكري كان له ضلع كبير في إضعاف البابوية والأرستقراطية الإقطاعية، وأدى إلى قيام طبقة ثالثة في الهيئة الاجتماعية، وهي الطبقة الوسطى، وكذلك إلى ازدياد التجارة وانتشارها. وقد أخذت العلوم والحريات تتزايد في أرجاء أوروبا من ذلك الوقت، إذ قامت المدارس في كل مكان، وازداد التعطش إلى المعرفة والعلم. وإذ أيقن الملوك والأمراء ما يعود على ممالكهم وشعوبهم من انتشار الآداب والفنون، استدعوا العلماء إلى بلادهم وشجعوهم على غرس بذور العلم ومحبة الآداب بالمكافآت وألقاب الشرف. على أن هذا النشاط الفكري جلب معه كثيرًا من التعاليم الخطرة والمبادئ الجريئة، فالعلوم اللاهوتية والفلسفة الأرسطوطالية، والتشريعات الدينية والمدنية، صارت لها مكانتها وشهرتها المتزايدة. وقد كان حوالي ذلك الوقت (أي منتصف القرن الثاني عشر) أن أُنشئت جامعات أوروبا الكبرى مثل أكسفورد وكامبردج وباريس وما إليها، وأخذت اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية تُدرس في المدارس، والمحاضرات الدينية تُلقى على الطلاب بشكل شروحات وتعليقات على الكتب المقدسة، الأمر الذي استخدمه الرب لبركة الطلاب، ولبركة الآخرين بواسطتهم.

يقول وادنجتن "إزاء هذه الحالة من انتشار العلوم اللاهوتية والفلسفة، أصدر بطرس لمبارد كتابه الشهير المسمى: كتاب الأحكام، لكي يضع حدًا لهذه الحرية الفكرية العظيمة، ويُحيي شيئًا من الاحترام لمؤلفات الآباء الأولين، ويقيم حاجزًا أو على الأقل خطًا أحمر لمعاصريه. وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة فصول مقتبسة من كتابات الآباء، وخاصة القديس أمبروزو والقديس جيروم والقديس أغسطينوس، في خليط محزن من الحق والضلال. ولكن الرب فوق الكل ويستطيع أن يتعهد كلمته ويرعاها مهما خالطها من الأضاليل البشرية، ويستخدمها لخلاص وبركة النفوس. وقد استمر هذا الكتاب مدة طويلة حافظًا لمكانته الأولى في مدارس اللاهوت، كما ارتفع مؤلفه إلى أسمى درجات الشرف والتبجيل".

أفاضل التاريخ الكنسي

إن طلائع الإصلاح الحقيقيين وأفاضل التاريخ الكنسي لا يمكن اكتشافهم بسهولة، فقد عاشوا في حالة الاتضاع وإنكار الذات، سائرين في الخفاء أمام الرب، وبهدوء عاملين مشيئته ومرضاته، كما أن خدمات محبتهم وأعمال برهم وإحسانهم، وشوقهم للإتيان بالنفوس إلى المخلّص، ومجهوداتهم لنشر كلمته، كلها أمور لا تهم المؤرخ العالمي كثيرًا، بل على قدر عظمتهم في التقوى على قدر إهمال المؤرخين لهم، ولكن لهم جزاؤهم، فتاريخهم في السماء. إن جماهير غفيرة من قديسي الله عاشوا حياة الاختفاء في أيام العصور المظلمة الوسطى، وتمموا خدمتهم في هدوء، وعبروا من المشهد الحاضر

دون أن يتركوا أثرًا لما قاموا به من فائدة ونفع في صفحات تاريخ الزمن. ولكن ليس هكذا الأسقف الوجيه ولا القديس الصانع المعجزات، ولا الكردينال الطماع الدساس، ولا أمثالهم من جماعات المتحمسين المتكبرين، فلمثل هؤلاء يخصص المؤرخ قلمه وصفحاته(٣/٣٩).

وبعد الدراسة الدقيقة للشخصيات البارزة في صفحات التاريخ منذ القرن الثاني عشر إلى عهد الإصلاح نستطيع أن نقسمهم إلى ثلاث فئات مختلفة: رجال الأدب، واللاهوتيون، والمصلحون أو البروتستانت (المحتجون). وبتأملنا في هذه الفئات الثلاث بالترتيب سنرى بوضوح طلائع الإصلاح.

رجال الأدب

أهم أفراد هذه الفئة هم دانتي وبترارك وبوكاشيو وشوسر الإنجليزي. فبعد تأسيس الجامعات بوقت قصير وانفكاك العقل البشري من عقاله برز "نجوم الأدب" الأربعة هؤلاء في وقت واحد تقريبًا. وقد سُرَّ الله في حكمته السامية أن يستخدم كتابات هؤلاء الرجال وآخرين أمثالهم لإظهار مساوئ روما وإضعاف سلطانها. ومع أن كثيرين أقل منهم أهمية قد قاسوا آلام القيود والسجن والموت لجرائم بسيطة، فإن الله في عناية قد سمح ليس فقط أن ينجوا هؤلاء الكتاب الأربعة من انتقام الكنيسة، ولكن أن يستمروا في طريقهم مواصلين عملهم، فقد بلغت مؤلفاتهم درجة عظيمة من سمو الأسلوب والمعنى مما حبب فيهم جميع الناس، وأصبح الكهنة يخشون التحرش بهم. وبهذه الوسيلة التي لا شك دبرتها عناية الله رُفع النقاب عن مفاسد رجال الإكليروس والرهبان، ومختلف طبقات هذا النظام وهيئاته، وأصبحت مكشوفة للعيان بعد أن كانت فيما مضى مستورة بعض الشيء. وتحت ستار الأشعار الشعبية الجذابة، والروايات الرائعة الخلابة استطاع هؤلاء الكتّاب المقتدرون أن يندّدوا بالنظام الكنسي كله ويظهرون عيوبه للملأ، حتى أصبحت فضائح ومفاسد البلاط البابوي في أفنيون ورذائل رجال الإكليروس بصفة عامة موضوع أغاني وأناشيد وأزجال العامة في كل مملكة من ممالك أوروبا. ولكن شعر هؤلاء الكتّاب ونثرهم لا يليقان بصفحات هذا "المختصر".

ودانتي الذي يعتبر أصل وأبو الشعر الإيطالي، والذي اشتهر على وجه الخصوص بأوصافه الخيالية للمطهر وجهنم والسماء، مات سنة ١٣٢١م. وبترارك الذي كان أصغر سنًا من دانتي كان أعظم شهرة في النثر. أما بوكاشيو فلم يكن نظيرهم، وكتاباته كانت أكثر صراحة منهما. وشوسر معروف في إنجلترا كمؤلف "روايات كانتربري" وقد وُلد سنة ١٣٢٨م. ومات سنة ١٤٠٠م. ويكفينا هذا القدر من الكلام عن هذه الفئة. والآن ننظر إلى:

اللاهوتيين

نجد في روبرت جروستيت أو جريتهد، وهو كاهن إنجليزي عاش في القرن الثاني عشر، صورة لما نسميه لاهوتيًا محتجًا أو بروتستانتيًا، ولو أنه لم يكن مصلحًا بمعنى الكلمة. وكالكثيرين في كل العصور كانت آراؤه في الإصلاح لا تتعدى إدارة الكنيسة ونظامها، فلم تتناول إزالة ونزع المفاسد الرديئة كما حدث في القرن السادس عشر. فكان يعتقد اعتقادًا راسخًا في سمو البابوية، ولو أنه كان يتكلم عن بعض أفراد الباباوات كأضداد المسيح لفسادهم الأدبي وعصيانهم على المسيح، ولكن صفة البابوية ذاتها باعتبارها ضدًا للمسيح لم تكن إلى ذلك الوقت معروفة، كما لم تكن مبادئ وحقائق المسيحية الرئيسية مدركة تمامًا. ولد جريتهد سنة ١١٧٥م، وبعد أن أتم تعليمه في أكسفورد ذهب إلى باريس، الأمر الذي كان شائعًا في ذلك العصر، لأن جامعة باريس كانت أشهر جامعات أوروبا. وهناك درس اليونانية والعبرية، وأتقن الفرنسية كأبنائها. وبحسب أفكار العصر كان معتبرًا لاهوتيًا بارعًا وفيلسوفًا عظيمًا.

وفي سنة ١٢٣٥م عندما بلغ الستين من عمره أصبح أسقف لنكولن، وعمل بكل غيرة وإخلاص لإصلاح شئون أبروشيته في إنجلترا. وقد قيل إنه وجّه كل اهتمامه لدراسة الكتب المقدسة باللغات الأصلية، وكان يعتبرها السلطان الأعلى والمطلق. وفي ذلك كان تقدمًا كبيرًا عن الماضي، وكان تقدمًا في الاتجاه الصحيح. ومع ذلك فقد كانت عنده متناقضات رهيبة. وقد كان في بادئ أمره مفتونًا بهيئات الرهبنة الجديدة كالدومينيكان والفرنسيسكان نظرًا لقداستهم الظاهرية، ولكن العمر قد امتد به حتى رأى بعينيه رياءهم وحكم عليهم بأنهم مضلو الجنس البشري. فالإصلاح الصحيح كان يحكم بأن وجود الرهبنة - وليس فقط نقائصها - شيء مضاد لكلمة الله. وفي الوقت نفسه كان جريتهد رجلاً جريئًا تقيًا ونشيطًا، فرفع صوته عاليًا ضد مزامع إنوسنت الثالث التجديفية عندما أعلن أنه الممثل ليس فقط للقديس بطرس بل لله. فقد قال هذا الصدد "إن اتّباع بابا يسير ضد مشيئة المسيح لهو انفصال عن

المسيح وجسده. ومتى جاء الوقت الذي فيه جميع الناس يتبعون بابا ضال فعندئذ يكون الارتداد العظيم". وقد ثار ضد جشع البابوية وسوء استخدام صكوك الغفران، ومنح المناصب الإكليروسية لأشخاص لا يستحقونها وليسوا أهلاً لها. ولا شك أن أسقفًا كهذا، عاملاً مُجِدًّا غيورًا وجسورًا، لا بد أن يثير حوله الأعداء. فاتهمه معاصروه بممارسة السحر، كما اتهمه البابا بالكبرياء والادعاء. وقد نجا من الاستشهاد بأعجوبة. وكان من رحمة الله وعنايته بعبده أن مات بسلام سنة ١٢٥٣م(٣/٣٢، ٣/٣١)(١/٤٤).

أما روجر بيكون، وهو كاتب عبقري شهير، ذو فكر ثاقب وبصيرة نفاذة، وكان له فهم واضح لمجريات الأمور في معاهد العلم وفي الكنيسة، فيستحق منا نظرة وجيزة، ولو أنه ليست هناك أدلة كثيرة على تقواه أو محبته للحق الإنجيلي. وقد قيل إنه أعظم فلاسفة إنجلترا قبل ظهور سميه المعروف الشهير، وقد ولد عام ١٢١٤ بضيعة قرب إلشستر في سمرستشير.

وبعد أن أتم دروسه في أكسفورد وباريس اندمج في سلك الرهبان الفرنسيسكان، وكان ذلك في السنة الرابعة والثلاثين من عمره، وقد كان إلمامه بالعلوم الطبيعية كالفلك والميكانيكا والكيمياء، وكذلك علوم الإغريق والشرق، سببًا في أن يشاع عنه أنه ساحر. على أن أبحاثه أعطته مكانًا أسمى من كل رؤسائه الرهبان، مما أوغر صدورهم بالحقد عليه، وحاولوا إخفاء جهالتهم باتهامه بأنه يشتغل بالسحر والشعوذة، فاضطهد اضطهادًا شديدًا وظل سجينًا عدة سنين.

ومع أنه يتناول الكتب المقدسة بكل احترام ويتكلم عنها بكل إجلال، إلا أنه كان يعتقد اعتقادًا غريبًا باتحاد الفلسفة بالمسيحية، والعقل بالإيمان. وهو ينكر سفسطة العلماء في عصره، ويشكو ويتألم لإهمال اللغات الأصلية للعهدين القديم والجديد، ولأن الأولاد يتعلمون المكتوب ليس من الكتاب المقدس نفسه بل من مقتطفات ممسوخة، ولأن المحاضرات في موضوع "كتاب الأحكام" كانت تحظى بالأولوية عن محاضرات الكتاب المقدس. وبهذه الكيفية استطاع أن يظهر للملأ جهل رجال الإكليروس وخرافتهم وإهمالهم، وبذلك جلب على نفسه تهمة الهرطقة واضطهاد الكنيسة، مع أنه عاش كاثوليكيًا صميمًا ومات عليها حوالي سنة ١٢٩٢م على الأرجح.

يأتي بعد ذلك توما الأكويني "المعلم الملائكي"، وهو أشهر قادة الفكر في القرن الثالث عشر، وخير مثال للرجل اللاهوتي. ولد توما الأكويني من عائلة شهيرة في بلدة بالقرب من نابلس عام ١٢٢٥م. وانضم صغيرًا إلى الدومينيكان رغم معارضة أقاربه الشديدة، وأتم علومه في كولونيا وباريس. وفي عام ١٢٥٧م عُيِّن أستاذًا للاهوت في جامعة باريس، ولكنه مات صغيرًا في الخمسين من عمره. وعندما جُمعت مؤلفاته بعد موته بلغت سبعة عشر مجلدًا كبيرًا.

ويقول معلمي اللاهوت في عصرنا الحاضر إن أحسن وأعظم مؤلفاته كتاب "خلاصة اللاهوت" وهو عبارة عن تأملات في الأناجيل الأربعة وأسفار أخرى من العهدين القديم والجديد. وكتاب آخر يتضمن تعليقًا وافيًا على "كتاب الأحكام" لبطرس لمبارد، الذي كان يُعتبر إنجيل المدارس في ذلك العهد. وكذلك شروحاته لفلسفة أرسطو، ومبحث آخر في تعضيد الإيمان الكاثوليكي ومناقضة الكنيسة اليونانية. ولكن رغمًا عن عظمته وتفوقه في العلوم، ورغمًا عن مؤلفاته وكتاباته، فإنه يُخشى كثيرًا أنه كان يجهل تعليم الخلاص الهام، وهو التبرير بالإيمان وحده بدون أعمال الناموس، ولو أنه أثناء مرضه وفي ساعات احتضاره أظهر علامات عظيمة من التقوى نظير أغسطينوس، حتى أننا نرجو أنه كان من ضمن البقية المخلصة من رجال الأدب في تلك الأيام. حقًا إننا نتهلل بالفرح إذ نؤمن أنه سيكون في السماء بقية مخلَّصة من جميع الطبقات، أباطرة وملوك وباباوات وفلاسفة، الذين سيظهرون سلطان وقوة نعمة الله في كل العصور ولجميع طبقات الناس، وسيكون ذلك لمدح غنى ومجد النعمة إلى آباد الدهور.

ثم بونافينتورا وهو توسكاني انضم إلى نظام الفرنسيسكان عام ١٢٤٣م وهو في الحادية والعشرين من عمره. وقد أتم دراسته بجامعة باريس بتفوق عظيم، حتى أستحق لقب "المعلم السرافيمي". ومات سنة ١٢٧٤م. وقد كانت مؤلفاته أقل من معاصره توما الأكويني من حيث كمها وغزارة مادتها، وإن كانت أكثر منها ميلاً إلى التقوى. وقد قيل "إن مؤلفاته فاقت في فائدتها جميع مؤلفات عصره من حيث روح محبة الله والتقوى المسيحية المتكلمة فيها، وإنه كان عميقًا في غيرة ثرثرة، وحكيمًا في غير مكر، وبليغًا في غير زهو، وحماسيًا في غير تطرف. وكانت مؤلفاته الدينية مليئة بالتعليم، وتعاليمه موحية للتقوى". وعندما سُئل وقت احتضاره عن أية كتب استقى منها علمه أجاب مشيرًا إلى الصليب، وقد كانت عادته الاستشهاد بالمكتوب أكثر من استشهاد بأقوال القديس فرنسيس مؤسس طائفة الرهبان التي كان ينتسب إليها. على أننا لم نصل بعد

إلى الوقت الذي نجد فيه المبدأ الكلي الأهمية الخاص بالتبرير بالإيمان بالرب يسوع المسيح وحده معروفًا لدى المعلمين. ويُعد بونافينتورا من الكتاب المتصوفين، ولربما كان هو مؤلف كتاب "الاقتداء بالمسيح" الذي أشيع إن توما القمبيسي كتبه حوالي ذلك الوقت، غير أنه ليس هناك كتاب قد أُسيء تسميته كهذا الكتاب. فهو يبدأ بالذات وينتهي بالذات، التي هي كل مادة المتصوف، والتي هي مسيحية الأديرة. أما محبة المسيح فهي محبة طاهرة ليس للذات مكان معها، فقد وضع حياته لأجل خلاص أعدائه «إذ ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» ويستطيع الإيمان أن يقول بملء الفم «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (رو ٥:٨، غل ٢:٢٠).

دونز سكوتّس: معلم ذو شهرة عظيمة. مولده وحياته الأولى مجهولة. يجزم وادنجتون "إنه مات سنة ١٣١٨م. وهو اسكتلندي فرنسيسكاني. كان عالمًا لغويًا وكان يلقّب بالمعلم البارع، وخاض مغامرة جريئة في أن تناول بالنقد والتفنيد أقوال القديس توما العظيم، مما أثار جدلاً حادًا بين الدومينيكان والفرنسيسكان استمر مئات السنين، وشغل أذهان الباباوات والمجامع. كما ولا تزال آراؤه للآن موضع خلاف بين المدارس اللاتينية. ونقطة الاختلاف العظمى بين هؤلاء المعلمين كانت تدور حول "طبيعة المعونة الإلهية ومقدار نعمة الله اللازمة لخلاص الإنسان" مضافًا إليها ما يسمونه الحبَل بلا دنس، فكان الدومينيكان يعتقدون أن العذراء القديسة لم تكن خالية من أثر الخطية الأصلية، بينما الفرنسيسكان كانوا يتمسكون بنظرية الحبل بلا دنس"[٢١/٤].

وليم أوف أوكهام: تعلم في جامعة باريس على يدي أستاذه سكوتّس، ووصل إلى درجة عظيمة من الشهرة كمعلم فرنسيسكاني. وكما كانت العادة في المدارس في ذلك الوقت تمييز مثل هذا المعلم بألقاب علمية رنانة، كالمعلم الفذ الذي لا يقهر ولا يشق له غبار.

على أنه كان عالمًا ميتافيزيقيًا، يفهم في ما وراء الطبيعة أكثر مما يفهم في علوم اللاهوت، وقد هاجم بجرأة عظيمة مزاعم البابوية في نواح عديدة، وخاصة فيما يتعلق بالسيادة العالمية، وأنكر عصمة البابا والمجامع العامة. وكان يعتقد أن الإمبراطور ليس خاضعًا للبابا، بل له حق اختياره. وقد انتشرت هذه الأفكار المضادة للبابوية بسرعة في كل فج وناحية، وشقت لها طريقًا إلى كافة الطبقات على أيدي الفرير المتجولين. وعندما هددته الكنيسة وجد حماه في بلاط سان لويس، الذي كان يعطف كثيرًا على جماعة الفرنسيسكان، وقد قال وليم له "احمني بسيفك فأحميك بكلمة الله". ومات في ميونخ وهو لا يزال تحت حكم الحرمان سنة ١٣٤٧م[٣١/٤](٦١).

نظرة في رجال الأدب

يحق لنا أن نقول إن من ذكرناهم من معلمي الأدب وفلاسفة اللاهوت فيه الكفاية، فالمرور على هؤلاء جميعًا واختيار العدد القليل من بينهم كعينة صادقة لقادة الفكر في تلك العصور هو في الواقع عملية جافة ومملة، غير أنها علمية لا مفر منها، إذ أن هؤلاء الأفراد يكوّنون حلقة هامة في سلسلة الحوادث التي وقعت ما بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، وسيرى القارئ ما هو المقصود بالتعبير العام "رجال الأدب" في تلك الآونة من تاريخنا، فعلى الأقل نستطيع أن نتبين من هذه الأمثلة التي مررنا بها كثافة الظلمة الحالكة وحيرة العقل مهما بلغ من العلم والدراسة عندما تكون كلمة الله في بساطتها الإلهية غير معروفة ومستقرة بالإيمان في القلب، فآية واحدة هي «البار فبالإيمان يحيا» (رو ١:١٧) يستخدمها الله على فم لوثر كانت كافية لتبديد ظلمات العصور الوسطى، بينما جميع مجلدات رجال الأدب الأخرى الكثيرة لم تستطع إلا تعميق هوة الجهل وظلمة الحيرة والارتباك فيما يتعلق بمعرفة الله وطريق الخلاص. إن أعظم تصورات العقل البشري والحكمة الإنسانية مهما سَمت وعلت لا تستطيع أن تقود الخاطئ الأثيم إلى صليب المسيح وإلى الدم الغالي الثمين الذي يطّهر من كل خطية. أن عدو النفوس استطاع أن يستغل فرصة انتشار فلسفة أرسطو، ويغري أقطاب الأدب أن يؤمنوا بأن أحسن عمل يمكنهم أن يوجهوا إليه مجهوداتهم ويقصروا عليه أبحاثهم هو التوفيق بين تعاليم المسيح ومبادئ الفيلسوف اليوناني، لئلا ينحاز الدارسون إلى الثاني أكثر من الأول. ذلك كان العمل التعيس الذي انشغل به رجال الأدب في ذلك الوقت، على أنه على ليس هناك شك في أن الكثيرين ممن أتاهم الله عقلاً أبسط وقلبًا أكثر إخلاصًا لم تُعمِهم حيل المنطق وغرور الفلسفة، فاستطاعوا أن يجدوا طريق الحق والخلاص وسط الظلمة المحيطة بهم، ولو في حيرة وارتباك.

أما كنيسة المسيح فبالكاد نستطيع أن نميزها في أوروبا في تلك الآونة، فيما عدا في كنائس الوديان حيث كان النور الحقيقي لا يزال مضيئًا، وعلى هداه استطاعت آلاف النفوس أن تجد "الطريق الأفضل" رغمًا عن تكاثف قوات الظلمة والسلطات

الأرضية من علمانية ولاهوتية، وتحالفهم جميعًا من أجل إطفاء هذا النور الإلهي. فقد كان هناك بناء الله الحقيقي، وما كان في استطاعة أبواب الجحيم أن تقوى قط على عمل يديه.

والآن نعود قليلاً لنسترجع ما عرفناه عن جماعة الولدانسيين والمحتجين الآخرين الذين عاشوا في ذلك الوقت.

الولدانسيون

إن النقطة التي يقودنا إليها التاريخ تلقائيًا بمجرد ذكر هذه الجماعة الشهيرة هي الحرب الصليبية الشنيعة ضد الألبينيين في القرن الثالث عشر. فتلك البقعة الجميلة التي كانت تُعتبر من عدة وجوه أغنى وأرقى مقاطعة في إمبراطورية القديس بطرس الروحية قد دهمتها هذه الحرب، فأهلكت معظم سكانها ونشرت عوامل الخراب في كل ربوعها. فلم يكد هؤلاء السكان الآمنين المسالمين يناقشون تعاليم الفاتيكان وسلطان الإكليروس، الأمر الذي كان يُعتبر خطية لا تُغتفر ضد عظمة وجلال روما، حتى راحت مراسيم إنوسنت القاسية، وسيف دي مونتفورت الرهيب، ونيران أرنولد الحامية، وخيانة فوكيه الدنيئة، ومحكمة دومينيك التفتيشية، تعمل علمها الرهيب في أعناق المسيحيين. غير أن قوات أوروبا المتحدة ووسائلها المتعددة من نيران وسيوف وسجون خانقة لم تستطع كلها أن تمس أصل ما كان يسميه إنوسنت بالهرطقة، فالمبدأ الإلهي الحيوي للمسيحية كان بعيدًا وبعيدًا جدًا عن أن تصل إليه يده، فالمنجل قد يسقط الأغصان، والنار قد تأكلها، ولكن الأصل الحي مثبّت في حق الله ونعمته التي لن تسقط أبدًا. إن روح المسيحية لهي أشد وأقوى من سيف المضطهد، والذارع التي يعتمد عليها الإيمان أقوى من قوات الأرض والجحيم مجتمعة. والواقع أن ضعف البابوية قد ظهر وبان في انتصاراتها الظاهرية في لانجدوك، والهراطقة كما ظنت إيزابل قد غاصوا في دمائهم، ولكن بقية تدمى قد أبقتها نعمة الله وعنايته الصالحة لكي تحمل علم الشهادة في كل أنحاء أوروبا ضد قسوة البابوية وظلمها وطغيانها الروحي.

فالمنفيون الذين نجوا من جنوب فرنسا انتشروا إلى أقصى حدود المسيحية ينادون بتعاليم الصليب، ويشهدون بحماس مقدس ضد مفاسد وأضاليل الكنيسة الرسمية. ففي جهات مختلفة من فرنسا وألمانيا والمجر والأقطار المجاورة ظهرت جموع المسيحيين العاملين، ووجد البابوات أن كثيرًا من الملوك ما عادوا يميلون إلى إجهاد أنفسهم بأي حركة للقضاء على جامعات "الكتاري" كما كانوا يسمونهم أو الشيع الدينية المختلفة. والمرجّح كثيرًا أن عددًا كبيرًا من المضطهدين احتموا حوالي ذلك الوقت بوديان بيدمونت الهادئة. وقد أصبحت الأماكن المنعزلة من تلك الأصقاع ملجأ أمينًا لتأدية واجب الشهادة لله، حتى يجيء القرن الرابع عشر. ولو أنهم كانوا معروفين لدى كلوديوس أسقف تورين في القرن التاسع، إلا أنهم على ما بدا قد نجوا من النزاع حتى القرن الثالث عشر إن لم يكن أبعد من ذلك. ولكن على قدر ما كانت تزداد ظلمة البابوية حولهم على قدر ما كان نورهم يشع ويملأ الأرجاء. كانت الافتراءات تُخترع على الولدانسيين، وكانوا ينفون كمنشقين ملعونين، فانتشروا على جانبي جبال الألب في دوفيني في فرنسا وبيدمونت في إيطاليا.

فمن أقدم الأزمنة كان يسكن هذه المقاطعات الألبينية جنس من المسيحيين، الذين استمروا محافظين على شخصيتهم وطابعهم الخاص من جيل إلى جيل، ولم يعترفوا يومًا من الأيام بسلطان البابا عليهم، وبقوا على مر أزمنة التاريخ الكنسي وأحقابه المتعاقبة المختلفة فرعًا نقيًا من الكنيسة الأولى، على أنه كان محتومًا على أماكنهم الهادئة ومنازلهم السعيدة الآمنة وعبادتهم النقية البسيطة وعاداتهم المعيشية النشيطة أن تعانى هجمات محكمة التفتيش الرومانية، فيعمها الخراب والارتباك. فتاريخها من القرن الخامس عشر إلى وقتنا هذا عبارة عن سلسلة من المعارك الدموية، والكفاح والجهاد في سبيل البقاء، مع فترات وجيزة من الهدنة والراحة. وقد جاءت أوقات على أولئك السكان وصلوا فيها إلى حالة من الفاقة واليأس المميت، ولكن كنيسة الوديان استمرت حافظة لكيانها طوال هذا الكفاح. فنظير العليقة المحترقة كانت النيران تشتعل فيها، ولكنها لم تحرقها ولا أفنتها. فلم يكن حصنها جبال الألب فحسب، بل حق الله الحي كان هو قلعتها التي ما كان للعدو أن يصل إليها مهما كانت قوته.

الاضطهادات الولدانسية

في عام ١٣٨٠م عين البابا كليمنت السابع الراهب فرنسيس بورللي كمفتش لمحكمة التفتيش، وأناط به البحث عن الهراطقة في وديان بيدمونت. وإذ تسلح بورللي بهذا المرسوم البابوي جال في البلاد يقبض على كل من يعثر عليه، حتى أنه في ظرف ثلاث عشر سنة حكم على مائة وخمسين ولدانسيًا في جرينوبل وثمانين آخرين في فرانسنيير

بالموت حرقًا، وقد صار هناك دافعًا مزدوجًا لازدياد حملة الاضطهاد، إذ صدر في ذلك الوقت قانون يقضي بذهاب نصف ممتلكات المحكوم عليهم بالإعدام إلى مفتش محكمة التفتيش، والنصف الآخر للأمير المختص. وبهذه الصفة تعاون الجشع والحقد والخرافة ضد الفلاحين العزل المساكين، ولكن عمليات الإحراق كانت قليلة ومتباعدة في الزمن، بحيث أنها لم ترو تعطش روما لدماء قديسي الله.

ففي شتاء سنة ١٤٠٠م امتد سيف الاضطهاد من دوفيني إلى وادي براجيلا في إيطاليا. وإذ رأى السكان المساكين أن مغايرهم الجبلية قد احتلها أعداؤهم، هربوا إلى جبال الألب لعلهم يجدون مقرًا لهم في أعاليها المرتفعة. إلا أن قسوة الشتاء وشدة الصقيع في تلك المرتفعات الجبلية كانت أقوى من أن يحتملها الهاربون، فقضت على كل من نجا منهم من حد السيف. وقد كانت الكثيرات من الأمهات يحملن أطفالهن الرضع، ويقدن بأيديهن من كان يستطيع السير، إلا أن البرد والجوع سرعان ما وضعا حدًا لهذه الآلام المبرحة. فقد قيل إن مائة وثمانين طفلاً ماتوا بين أحضان أمهاتهم، ولم يمض وقت طويل حتى لحق بهم أطفال آخرون مع أمهاتهم الثكالى مكسورات القلوب. حقًا إنه لن يستطيع المرء أن يحصي الأعداد التي هلكت بسبب طغيان روما وأعمالها الوحشية، ولكن السماء لا تُخطئ عددهم، بل لا يمكن أن تنسى أسماءهم. فالشهداء من الآباء والأمهات مع أطفالهم مدوّنة أسماؤهم جميعًا في سجل السماء، ولهم أجرهم الأبدي هناك. كما أن مضطهديهم الآن قد أدركوا خطيتهم وقاسوا عذابهم طوال هذه السنين كلها في مكان العذاب والقنوط. هذه الفظائع التي تنقبض لها القلوب هي التي حركت شاعرية ملتون أشرف شعراء إنجلترا، فسجلها بأسلوبه المؤثر في أنشودته الخالدة التي يمكن تعريبها كما يأتي *

دماءٌ في جبال "الألب" تجري ... لقديسي العليِّ! أليتَ شعري!
ألوفًا قد تناثرت الضحايا ... على قمم الجليد ولا بقبرِ
لقد حفظوا كلامَكَ للنهايةْ ... وقد ثبتوا عليه بكل طُهرِ
جنودُ الشر قد هاجتْ عليهم ... لتبتلعَ الجميعَ كموجِ بحرِ
وأمًا مع رضيعٍ قد أهانوا ... وبالأولاد قد ضربوا بصخرِ
لقد نبذوا قطيعَكَ دونَ ذنبٍ ... وعاشوا بين ما قتلٍ وقهرِ
ألا دوِّنْ بدَرجِكَ كلَ جُرحٍ ... وآلامًا يعانون بصبرِ
سُفوحُ "الألب" قد ردّت صداهم ... إذا هم للسما صعدوا بنصرِ
أيا "إيطاليا" قد زرعوك عظما ... وأجسادًا رمادًا مثلَ بَذْرِ
سينبتُ منها أضعافًا رجالٌ ... ومثلَ الأرزِ ينمو زرعُ برِ
سيعرفُ طُرْقَكَ الجيلُ الجديدُ ... ومن "بابلَ" يهربُ كلُ حرِ
فينجو من قضاءٍ يأتي حتمًا ... عليها حيثُ فيها كلُ شرِ

وقد شبت نيران الاضطهاد مرة ثانية في وادي فرانسنيير عام ١٤٦٠م على يد أحد رهبان "الفرير مينور *" المزوّد بسلطان من أسقف أمبران. وإذ أصبح هؤلاء المسيحيون المضطهدون مطرودين من الهيئة الاجتماعية ومبعدين من أمكنة العبادة ومحاطين بالأعداء من كل ناحية، فلم يبق لهم أي معين أو ملجأ يحتمون به سوى الضمير الصالح والإله الحي الساهر على شعبه. أما أعضاء محكمة التفتيش فقد استمروا يشنون الغارة تلو الغارة، ويعملون عملهم المريع.

وفي بيدمونت بذل أسقف تورين أقصى جهده في إضرام أتون الاضطهاد ضد الولدانسيين، والتهمة التي وجهوها إليهم هي أنهم لم يكونوا يقدّمون القرابين على أرواح الموتى، ولم يقدّروا قيمة القداديس والتحاليل، ولم يهتموا بتخليص ذويهم وأقاربهم من عذابات المطهر. غير أن أمراء بيدمونت لم يريدوا أن يزعجوا رعيتهم الذين كان مشهودًا لهم بالإخلاص والخلود إلى السلام والنشاط في العمل. ومع ذلك فقد استُعملت ضدهم كل وسائل الدس والخداع والتشهير، واختُرعت ضدهم كافة الأباطيل والأكاذيب، وقد نجح رجال الإكليروس في النهاية، فسمحت السلطات الأرضية لجنود التنين أن يرووا غليلهم وتعطشهم لسفك الدماء.

وفي عام ١٤٨٦م صدر مرسوم إنوسنت الثامن الشهير، ليعطي سلطانًا مطلقًا لألبير دي كابيتاني رئيس شمامسة كريمونا أن ينفذ عمليات الاغتصاب والقتل في الوديان الموبوءة بداء الهرطقة، فجمع هذا جيشًا يبلغ قوامه ألفًا وثمانمائة ونزل به إلى مخابئ الولدانسيين الجبلية. وإذ وصل هؤلاء إلى حالة اليأس الشديد دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال بالسهام والعصي، متحصنين في ذلك بمواقعهم الطبيعية المنيعة، بينما كانت النساء مع الأطفال يصلون لله ويلتمسون معونته، حتى استطاعوا أن يوقعوا الارتباك في صفوف هذا الجيش الحربي الكبير.

* حاولنا على قدر المستطاع نقل أفكار الشاعر الإنجليزي ملتون مع نظمها شعرًا عربيًا.

* أي الأخوة الأصاغر.

إلى ذلك الوقت كانت أسرة سافوي الملكية صاحبة السلطان المطلق في بيدمونت في القرن الثالث عشر، وكانت تعامل المضطهدين باللين والتساهل، ولكن مما يؤسف له أن الملكة الأم أثناء وصايتها على ابنها كانت هي أول من وقع على ورقة رسمية لاضطهاد المنشقين. فقد كتبت إلى السلطات المدنية تأمرهم بمساعدة رجال محكمة التفتيش لإرغام الهراطقة على العودة إلى أحضان الكنيسة. يا لها من بنت بارة لأمها إيزابل! ولكن رغمًا عن كل ذلك لم يكن في الإمكان إرغام واحد من المضطهدين على الرجوع إلى أذرع روما. وعلى ذلك انطلق السيف من الغمد وراح يعمل عمله المريع في غير حساب أو رحمة، وسرعان ما اصطبغت مجارى الوديان بدماء القديسين. أما المراسيم التي صدرت من الأبناء بعد انقضاء عهد الوصاية فكانت أخف وطأة وأكثر احتمالاً. فقد أخذ هؤلاء يتكلمون عن رعاياهم الولدانسيين ليس تحت اسم الهراطقة المكروه، بل باسم المتدينين أو رجال الوادي أو الرعايا الأمناء، وصاروا يعتبرونهم كشعب قديم ممتاز. فإلى هنا فشلت روما فشلاً مريعًا في إنجاز غرضها الجهنمي. كانت قد عقدت النية على ملاشاة هؤلاء الأضداد العنيدين للبابوية، الشهداء الأمناء للحق، وأن تمحو اسمهم نهائيًا من الوديان، ولكن من المدهش أنه لا الاضطهادات الفردية ولا المذابح الجماعية، ولا الخيانات السرية أو المظالم الجهارية استطاعت أن تلاشيهم. فماذا تعمل إيزابل؟ سنرى أنها لا تزال تتآمر وتدبر.

المبشرون الولدانسيون

في نهاية القرن الرابع عشر غادر كثيرون من الولدانسيين بلادهم الأصلية يحدوهم غرض مزدوج، وهو نشر حق الله النقي الطاهر، والعثور على مواطن لسكناهم تكون أكثر هدوءًا وسلامًا. وبعد أن ارتحلوا ما سار بهم الارتحال ألقوا أخيرًا عصا الترحال في سويسرا ومورافيا وبوهيميا وأماكن كثيرة في ألمانيا، وربما نزح بعضهم أيضًا إلى إنجلترا. على أن أكبر مستعمرة أنشأوها كانت في كالأبريا عام ١٣٧٠م. وعندما استقر بهم المقام في تلك البلاد انصرفوا إلى مزاولة أعمالهم بهمتهم المعهودة وأساليبهم الشريفة، حتى اكتسبوا عطف جيرانهم وثقة حكامهم بما لهم من طباع هادئة وجد واجتهاد، مع دقة في السلوك وأمانة في كل معاملاتهم. ولما رأى الأشراف أن أراضيهم قد اغتنت وحقولهم قد أخصبت بفضل هؤلاء الفلاحين المهرة أقطعوهم الأراضي ومنحوهم الكثير من الامتيازات.

وقد سمح لهم أن يدعوا رعاة من كنيستهم الرئيسية في الألب، ويحضروا مدرسين لتربية أولادهم. ولكن هذا الرخاء الزمني والروحي المقترن بمثل هذه الراحة الاجتماعية لم يرق في عين البابوية الحسودة، فأخذ رجال الإكليروس يتشكون ويتذمرون بشدة، ويدسون لهم عند الأمراء وأصحاب الأراضي بأن هؤلاء الغرباء لا يراعون طقوس كنيسة روما ولا يرفعون القداديس على روح موتاهم، وأنهم هراطقة لا يجوز السكوت عليهم. إلا أن الأمراء أبوا الاستماع لهذه الشكايات قائلين لرجال الإكليروس في عزم وحزم "إن هؤلاء الناس أشرف جدًا وأمناء للغاية، وكل واحد يعرف عنهم الاعتدال والنشاط والعفة في القول والعمل، لم يسمعهم أحد قط يتفوهون بكلمة تجديف، وبما أنهم يصلحون أراضينا ويزيدون في ثروة حقولنا، ويؤدون بانتظام ما عليهم من عوائد، فنحن لا نرى سببًا في الحكم عليهم وإدانتهم".

وهكذا أثبت كهنة روما في كل الممالك ومختلف العصور والأجيال أنهم أشد الأعداء لمبادئ الكتاب المقدس البسيطة الطاهرة، وأقسى المقاومين لكل تعليم أو تهذيب أو تسامح أو نور أو حرية. فكل نور أو تسامح كان بالضرورة يفضح شهواتهم وأعمالهم الردية وينقص من سلطانهم ومصالحهم. ولكن الربح المادي والمنفعة الزمنية التي كانت تعود على الأشراف من هؤلاء "الهراطقة" كما كان يسميهم الإكليروس جعلتهم يتصدون لحمايتهم واستبقائهم في امتيازاتهم. إن لنا في هذا الموقف فصلاً ساميًا عجيبًا من فصول العناية الإلهية السرية التي يحلو لنا الوقوف عندها والتأمل فيها بقلوب مفعمة بالشكر، فقد استطاع هؤلاء المسيحيون المنشقون بفضل العناية الإلهية أن يستمروا زهاء مائتي سنة يتكاثرون ويتزايدون في مقاطعات كالابريا بالقرب من روما نفسها. إلا أنه أخيرًا جاء الوقت الذي فيه أصغى البابا لدسائس رجال الإكليروس وشكاياتهم، وتلك الغيمة السوداء التي كانت آخذة طوال ذلك الوقت في التجمع والتلبد فوق سهول كالابريا وأبوليا الآمنة الهادئة تحولت إلى أتون من نار انفجر عليهم بغتة بكل ما فيه من شدة وقسوة.

سنة ١٥٦٠م السوداء

حوالي عام ١٥٦٠م انتابت البابا بيوس الرابع حمى شديدة من الغيرة القاسية ضد انتشار الهرطقة التي قيل إنها تأصلت بعمق شديد في أنحاء عديد من إيطاليا، علاوة على وديان بيدمونت. وسرعان ما وضعت جميع سهول الألب وكافة الجهات الموبوءة تحت الحرمان البابوي، وانتشر الأذناب ينادون ويبشرون في كل مكان بحرب صليبية جديدة، وقامت الاستعدادات العظيمة على قدم وساق لمحو الهراطقة محوًا كاملاً، وما هي إلا عشية وضحاها حتى كان والي نابولي الأسباني على رأس جيش عظيم، يعاونه أحد أعضاء محكمة التفتيش وعدد من الرهبان، وأخذ يسير صوب المستعمرات الولدانسية في كالابريا. وفي الوقت نفسه أغار عمانوئيل فلبير دوق سافوي بقوة مسلحة على بيدمونت، في الوقت الذي كان فيه ملك فرنسا يزحف بجيشه على دوفيني. وهنا وجد "رجال الوديان المساكين" مع نسائهم وأطفالهم أنهم أصبحوا معرضين لقوة ملك فرنسا العدائية من جانب وجيش دوق سافوي من الجانب الآخر، بينما سكان كالابريا وفلاحوها النشطون وجدوا أنفسهم مع خدامهم ومعلميهم وأهالي بيوتهم محاطين بجيوش الوالي الأسباني.

في هذا الموقف الرهيب، وشبح الموت والذبح يحيط بهم من كل جانب، صدرت الأوامر للولدانسيين بطرد خدامهم ومعلميهم، والامتناع عن ممارسة عبادتهم بطريقتهم الخاصة، وأن يلتزموا بحضور العبادة في الكنيسة الرومانية. ولكنهم رفضوا بشمم وأباء. وهنا صدرت الأوامر بالمصادرة والسجن والإعدام، وانطلق سيف الاضطهاد القاسي يعمل عمله الرهيب في غير شفقة أو رحمة، ولم يعد إلى غمده لما ينيف عن مائة سنة. وبدأت المجزرة وسفك الدماء المرعب، وراحت فرقتان من الجنود بزعامة أعوان البابا تقتل وتحرق وتسلب فلاحي كالابريا العزل، حتى كادت عملية الإبادة تكتمل. وصرخت بقية تسترحم وتستغيث لأجل نسائهم وأطفالهم، واعدين أن يتركوا البلاد ولا يعودوا إليها مرة ثانية، إلا أن الرحمة لم تكن لتجد سبيلاً إلى قلوب المفتشين والرهبان، واستمرت أعمال القسوة والوحشية المتناهية تنصب على رؤوس الكثيرين، ونشطت كل وسائل الاضطهادات الوثنية من جديد، حتى تلاشت هذه الجماعات الأمينة كلها من جنوبي إيطاليا. أما أحد خدامهم المعتبرين وهو لويس باسكال، الذي كان قد نادى بأن البابا هو ضد المسيح، فأُخذ إلى روما حيث أُحرق حيًا بحضور بيوس الرابع، الذي أراد أن يلذذ عينيه بمنظر شخص هرطقي يتلظى في اللهيب. غير أن تقوى باسكال وآلامه المبرحة أثارت الشفقة والإعجاب في قلوب المتفرجين.

وهكذا هلك مئات الولدانسيين على المشنقة أو في النيران، وماجت القرى بجماعات الأشقياء ينهبون السكان العزل، وباسم العدالة يسوقونهم إلى السجون، حتى امتلأت وضاقت بهم على رحبها. فأصبحت الوديان قاعًا صفصفًا بعد أن ارتحل النساء والأطفال والعجائز والشيوخ، يلتمسون لأنفسهم مأوى في أعالي الجبال وفي الغابات. أما الرجال فقد تمنعوا بموقع بلادهم الحصين، وصمموا على المقاومة حتى النهاية. فانخرط كل رجل وكل قادر على حمل السلاح في جماعات حربية صغيرة، ووقفوا في مراكزهم يدافعون عن أنفسهم ضد المغيرين. على أن الدوق ملّ من الاستمرار في مثل هذه الحرب التي كانت سلسلة من الكر والفر والمناوشات المتقطعة، لذلك انسحب من الميدان بجنوده بعد قليل. إلا أن ذلك كان لفترة وجيزة. وحسب المعاهدات القديمة كان لرجال الوديان حقوق وامتيازات معينة لم يرغب الأمراء في سحبها أو التعدي عليها، ولكنهم في أحيان كثيرة كانوا يستسلمون لإلحاح رجال الإكليروس وتفاسيرهم المغلوطة. ومن التواريخ الآتية يستطيع القارئ أن يدرك كم كانت فترات الهدنة والراحة قليلة "فسنة ١٥٦٥م و١٥٧٣م و١٥٨١م و١٥٨٣م والمدة ما بين عامي ١٥٩١م و١٥٩٤م كانت كلها أيام حرب وكفاح ديني. إلا أن جلال الحق والبراءة من كل ذنب لم يبدُ ساطعًا في يوم من الأيام كسطوعه أثناء عواصف الاضطهاد التي كانت تثور من وقت لآخر إبان المائة سنة ويزيد التي تلت ذلك"[٢١/٢٠].

هذا وشهادة الدكتور بيتي، الذي زار وديان المنشقين في بيدمونت ودوفيني ودي لاروش منذ أربعين سنة (بالنسبة لتاريخ كتابة هذا المختصر) تذهب لتأييد نفس هذا المعنى. قال "ولكن قسوة الاضطهاد لم تُنتج على يظهر سوى قوة أكثر لثباتهم. فمع أنهم اشتهروا بأنهم كانوا ضحايا القتل بغير تمييز أو حساب، مع السلب والنهب والتعذيب والتجويع، فقد استمر عزمهم على التمسك

بالحق والثبوت عليه راسخين غير متزعزعين، فكل عقاب استطاعت الوحشية اختراعه أو سيف إيقاعه ذهبت غضبته أدراج الرياح. لا شيء استطاع أن يزحزحهم عن إيمانهم أو يضعف شجاعتهم. وفي سبيل الدفاع عن حقوقهم الطبيعية كرجال، والذود عن إيمانهم المهان كأعضاء في الكنيسة الأولى، والوقوف ضد الحرمانات الدموية التي جعلت بيوتهم خرابًا وغمرت معابدهم بالدماء، في سبيل كل ذلك أظهر الولدانسيون من مشاهد الرجولة والبسالة والاحتمال ما لا مثيل له في كل التاريخ"[٦٢]؛[٣/٢٥].

إذ وصلنا الآن بتاريخ الشهود الأمناء إلى القرن السادس عشر فإننا نودعهم على أمل أن نلاقيهم مرة ثانية بعد أن نصل إلى هذه الفترة في تاريخنا العام.

الفصل الثلاثون

يوحنا ويكليف

يجدر بكل قارئ مدقق للتاريخ أن يتذكر على الدوام تلك الكلمة الخطيرة والإنذار الهام الذي نطق به الرسول «لا تضلوا. الله لا يُشمخ عليه. فإن الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضًا» (غل٦:٧). فأعظم الإيضاحات وأخطر التفسيرات العملية لهذا القانون الإلهي نستطيع أن نجدها في شئون الناس وسِيَرِهم في كل صفحة من صفحات التاريخ. فمن يزرع زوانًا في الربيع *لا يجب أن يتوقع أن يحصد قمحًا في الخريف، وكذلك من يزرع حنطة في الربيع لن يُطلب منه أن يحصد زوانًا في الخريف. وفي إمكاننا أن نشاهد صدق هذا المبدأ فيما يدور حولنا كل يوم، فكم من مستقبل حدده الماضي، وكم من عادات زُرعت في الشباب فتحكمت في المشيب وكيَّفت المصير! لا بل إن النعمة الإلهية على غناها لا تعترض سبيل هذا القانون الإلهي. فملك إسرائيل كان عليه أن يسمع من فم النبي ذلك الحكم الرهيب «لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد»، ولكن هذا لم يمنع فيضان رحمة الله للملك التائب «فقال ناثان لداود: الرب أيضًا قد نقل عنك خطيتك. لا تموت» (٢صم١٢: ١٠،١٣)، تلك هي نعمة الله التي لا حد ولا قياس لها للتائب توبة صحيحة، ولكن ذلك أيضًا هو قانون سياسته الذي لا يتغير.

ولئن كنا لا نستطيع أن نتكلم بمثل هذه الثقة فيما يتعلق بنظام الهيئة الاجتماعية وما تجري عليه من أساليب، إلا أننا نستطيع بكل إجلال واحترام أن نتتبع يد الرب في كل طرق حكمته، ومعاملاته في تتميم أغراضه ومقاصده الصالحة.

مثال ذلك أن نجاح البابوية الدموي وانتصاراتها الحربية في لانجدوك دل أخيرًا على أنه كان الوسيلة لانحطاطها السريع وسقوطها الشنيع. فبهدم الكونت تولوز واللوردات الإقطاعيين الآخرين في جنوبي فرنسا اتسعت أملاك التاج الفرنسي اتساعًا عظيمًا، وامتد سلطانه على معظم فرنسا، ومن ذلك الوقت أصبح ملوك فرنسا أعداء البابا الألداء وخصومه الأشداء الذين لا يمكن مقاومتهم. وسرعان ما نشر لويس التاسع مرسومه الديني الذي فيه عزز كنيسة فرنسا وأثبت حريتها. وجاء بعده فيليب العادل الذي أرغم بونيفاس العتي على أن يتجرع كأس المذلة الذي طالما مزجه الباباوات لملوك أوروبا وأمرائها. ومن سنة ١٣٠٥م إلى ١٣٧٧م كان الباباوات في أفنيون ليسوا أكثر من أتباع لفيليب وخلفائه. ومن سنة ١٣٧٧ إلى ١٤١٧م انقسمت البابوية ذاتها إلى شطرين بسبب حادثة الانشقاق الشهيرة. وهكذا بجزاء عادل من يد العناية الإلهية أصبح أولئك الذين سعوا لهلاك الآخرين سببًا لهلاك أنفسهم، وحصدوا ما زرعوا[٥٦]. وهذا عين ما حصل في إنجلترا أيضًا.

إنجلترا والبابوية

إن خضوع الملك جون (يوحنا) لإنوسنت الثالث كان هو نقطة التحول في تاريخ البابوية في إنجلترا، ففي مذلة الملك شعرت الأمة كلها بأنها مُهانة ومحتقرة. وقد غالى إنوسنت وذهب في طغيانه إلى أقصى حد بعد أن ادعى لنفسه سلطانًا مزعومًا وأساء استخدامه. ولكن الأمر انعكس عليه في حينه، فإنجلترا لم تنسَ قَط، ولم يكن في استطاعتها أن تنسى، تلك المذلة التي أصابتها في سقوط ملكها على وجهه عند أقدام كاهن أجنبي. ومن تلك الساعة سرت روح عدائية نحو روما في كل طبقات الأمة، وتشبعت بها عقول جميع أفرادها. هذا وأعمال البابوية التعسفية

* هذا في بلاد الكاتب، أما في البلاد الدافئة كبلادنا فزرع القمح يتم في الخريف أو أوائل الشتاء، ويُحصد في فصل الربيع.

ومطالبها المتطرفة، وتدخلها في شئون الأبروشيات الإنجليزية، كلها أمور طالما أوقعت الحكومة في تصادم مع الكنيسة وزادت في هوة الخلاف. إلا أنه في اللحظة التي فيها نفد صبر الناس بسبب اعتداءات البابوية المتكررة ومظالمها العديدة، قصد الله أن يقيم خصمًا قويًا للنظام البابوي بأجمعه، وهو أول رجل هزّ أركان السيادة البابوية في إنجلترا من أساسها. وكان في الوقت نفسه الرجل الذي يحب الحق بإخلاص وبشر به جميع الناس متعلمين وغير متعلمين. هذا الرجل هو يوحنا ويكليف الذي سُمي بحق "كوكب صبح الإصلاح" أو طليعة هذه الحركة المباركة.

إن نشأة ويكليف وسني حياته الأولى محوطة بالشيء الكثير من الغموض، ولكن الفكرة السائدة هي أنه ولد من أبوين فقيرين بجوار رتشموند من أعمال يوركشَيَر حوالي عام ١٣٢٤م. وقد كان غرضه في الحياة أن يكون أديبًا، وهي المهنة التي يقال إنه في ميسور كل فقير أن يتطلع إليها. وقد كانت إنجلترا في ذلك الوقت بلد المدارس، فكانت هناك مدرسة لكل كاتدرائية ولكل دير تقريبًا. ولكن الشبان الذين كانوا أكثر طموحًا وثقة بالذات، وكفاءة أكبر، وظروفًا أحسن، كانوا يتزاحمون على أكسفورد أو كامبردج. ويقول التاريخ إنه في إنجلترا كما في كل العالم المسيحي وقتذاك اشرأبت أعناق الأغلبية الساحقة من السكان إلى طلب العلم والمعرفة، فامتلأت بهم دور التعليم والجامعات، فكانت كل منها تضم بين جوانبها الآلاف من الطلاب بدلاً من بضع المئات الذين لهم الآن امتياز دخول مثل هذه الجامعات العالمية(٦/٣٢).

وهكذا وجد جون ويكليف طريقه إلى أكسفورد. فدخلها أولا كطالب في الكلية الملكية، ثم انتقل سريعًا إلى كلية ميرتون، وهي أقدم وأغنى وأشهر مؤسسات أكسفورد، ويقال إنه كان له امتياز حضور محاضرات توماس برادواردين العالم الضليع التقي، وإنه من مؤلفات هذا الأستاذ الجليل استمد كل آرائه الخاصة بحرية النعمة وبطلان كل استحقاق بشري بطلانًا كاملاً في أمر الخلاص. أما كتابات جروستيت فكانت أول ما تعلم منه فكرة كون البابا ضد المسيح.

وقد أصبح ويكليف في وقت قصير مدرسًا للقوانين المدنية والدينية، ضالعًا فيها جميعًا. على أن جهده الأعظم اتجه ناحية اللاهوت، غير أن دراساته لم تكن قاصرة على المادة الباردة العقيمة الموضوعة للمدارس، بل ذلك العلم الإلهي المستقى من الروح كما من المكتوب.

وقد كان عليه، في مواصلة أبحاثه، أن يواجه مصاعب جمة وعقبات جبارة قوية. فتلك الدراسة لم تكن تقرها الكنيسة ولم توفر لها الإمكانيات اللازمة، فالكتاب المقدس كان مهملاً، وعلم اللاهوت المدرسي حل محل سلطان المكتوب. واللغات الأصلية للعهد الجديد والعهد القديم لم تكن معروفة في كل المملكة تقريبًا. ولكن رغمًا عن كل هذه العقبات والمفشلات استمر ويكليف في طريقه بكل نشاط ومثابرة، حتى قال فيه واحد "إن منطقه، ومهارته الأدبية، وفنه الخطابي، ومقدرته على قراءة الكتب اللاتينية، وثقافته المتنوعة، ربما يكون حصل عليها من جامعة أكسفورد. ولكن حدة نبوغه وقوة أسلوبه وامتلاكه لناصية اللغة الإنجليزية، وعقيدته الراسخة بسلطان المكتوب الذي تعب وجاهد في المناداة بها بلغة القوم العامة، كل هذه كانت صفاته الخاصة التي تميز بها ولم يتعلمها من أحد، فهي مواهب لا تُلقن في المدارس ولا يمكن الوصول إليها بأي طريق من طرق التعليم المعتادة"(٦/٤٢).

ويكليف والرهبان الفرير

حوالي عام ١٣٤٩م عندما وصل ويكليف إلى سن الرابعة عشرين، وقد حصل على شيء من الشهرة في الكلية، انتشر في إنجلترا وباء الطاعون الأسود المرعب، ويقال إن هذا الوباء ظهر أولاً في بلاد التتار، وبعد أن اجتاح ممالك كثيرة في آسيا انتقل عن طريق نهر النيل إلى جزر اليونان، حاملاً عوامل الفتك والهلاك إلى كل مملكة من ممالك أوروبا تقريبًا. وقد كان مرعبًا ومريعًا في حصده للحياة البشرية، حتى يقول البعض إنه ذهب بربع السكان، ويقول البعض الآخر إن نصف الجنس البشري، علاوة على كثير من الماشية قد هلك في بعض البقاع. هذا الافتقاد المريع والكارثة المرجفة ملأت قلب ويكليف التقي بأروع المخاوف وأظلمها، كما ملأت أفكاره بأرهب النبوات عن المستقبل. وكأن هذه الكارثة الدهماء كانت صوت البوق الأخير لقلبه، فاستنتج أن يوم الدينونة على الأبواب. وإذا استولت عليه أفكار الأبدية الخطيرة صرف أيامًا وليالي في صومعته، لا شك كان يقضيها في صلوات مخلصة حارة ملتمسًا الإرشاد الإلهي. وقد برز من صومعته بطلاً صنديدًا للحق، بعد أن وجد سلاحه الكامل في كلمة الله.

وقد كان من نتيجة غيرته وأمانته في التبشير بالإنجيل أن باستحقاق لقب "المعلم الإنجيلي" ولكن الشيء الذي أكسبه الشهرة

وذيوع الصيت في أكسفورد هو دفاعه عن الجامعة ضد اعتداءات الفرير الشحاذين. فقد هاجم بكل جرأة وبغاية الشدة هذه الهيئات، التي أعلن أنها أكبر ضرر على المسيحية.

وقد كان عدد فروعها في ذلك الوقت أربعة وهي: الدومينيكان والفرنسيسكان والأغسطينيون والكرمليون. وقد انتشروا في جميع أوروبا وخيار بقاعها، وجاهدوا بشدة في أكسفورد كما جاهدوا قبل ذلك في باريس لتثبيت أقدامهم وإعلاء كلمتهم. وانتهزوا كل فرصة لإغراء التلاميذ على الانضمام إلى أديرتهم على غير رضى من آبائهم، حتى بلغ الحد بهذا التصيد والإغراء أن امتنع الآباء عن إرسال أولادهم إلى الجامعات. وبعد أن كان في جامعة أكسفورد في يوم من الأيام ثلاثون ألفًا من الشبان، تقلص هذا العدد للسبب المذكور حتى صار ستة آلاف. وقد قام في وجه هؤلاء المخادعين أساقفة وكهنة وعلماء لاهوت في كل مملكة وجامعة في ممالك أوروبا، ولكن مجهوداتهم لم تثمر الثمر المطلوب، لأن البابوات كانوا يدافعون بشدة عن هؤلاء الفرير، ويعدونهم أحسن أصدقائهم، ويمنحونهم أعظم الامتيازات.

أما ويكليف فقد رفع فأسه بشدة وضرب بكل جرأة على أصل هذا الشر العظيم، ونثق أن ضرباته كان فيها القضاء المبرم عليها جميعًا، فبعد الانحطاط في سلطان البابوية الذي شاهدناه آنفًا، نبدأ الآن في ملاحظة انحطاط الرهبان الشحاذين. نشر ويكليف بعض نشرات روحية منها بعنوان "ضد شحاذة المقتدرين"، وأخرى عنوانها "ضد الشحاذة الكسول"، مع نشرة أخرى عنوانها "فقر المسيح". يقول المؤرخ "إنه حارب الشحاذة في حد ذاتها، كما شهّر بهيئات الشحاذين المقتدرين، أي ذوي الأجسام السليمة، الذين يجب تطهير الأرض منهم. وقد اتهمهم بخمسين تهمة من حيث التعليم والسلوك، فاتهمهم باختلاس الإحسانات التي كان يجب أن تكون ملكًا للفقراء، وباتباع أساليب غير شريفة في اكتساب الدخلاء إلى أنظمتهم، وبتعديهم على حقوق الأبروشيات. كما ندد بعاداتهم في إغراق العامة بالخرافات والأقاصيص القديمة الخيالة. وبادعاءاتهم الريائية وما انتحلوه لأنفسهم من طهر وقداسة، وبمداهنتم للعظماء الذين كان من واجبهم بالأحرى أن يوبخوهم على خطاياهم وشرورهم، كما اتهمهم بتكالبهم على المال والحصول عليه بكل الوسائل، وبعظمة مبانيهم وفخامتها غير الضرورية، بينما كانت كنائس الأبروشيات متروكة للتهدم والانهيار"[٣١/٤].

أصبح ويكليف الآن البطل المعترف به، والزعيم لحزب قوي في الجامعة والكنيسة، ومُنحت له النياشين وألقاب الشرف. على أنه، وإن كان قد اكتسب أصدقاء عديدين، إلا أنه أيضًا صار له أعداء كثيرون ليس من الهين الوقوف أمام غضبهم. والآن بدأت معاناته، فالفرير كانوا يرسلون للبابا التقارير عن كل ما هو حاصل. وفي سنة ١٣٦١م انتُخب أستاذًا في إحدى الكليات، وبعد ذلك بأربع سنين انتقل إلى كانتربري، وصار موضع إعجاب الجميع لمعرفته الدقيقة بالمكتوب وطهارة حياته الخاصة، وشجاعته في الحق وفصاحته كمبشر، وسمو أسلوبه كخطيب. وكان ينادي بأن الخلاص بالإيمان بالنعمة بدون أي استحقاق بشري على الإطلاق، وذلك كان ضربة قاضية ليس فقط على شرور روما الخارجية، بل على أصل وأساس النظام البابوي بأجمعه. وقد بدأ عمله بإرشاد إلهي وحكمة سماوية في المكان المناسب والوقت المناسب، فكان ينادي بالإنجيل ويفسر كلمة الله للناس باللغة الإنجليزية الدارجة، وبهذه الوسيلة استطاع أن يغرس ويعمق في أذهان الشعب تلك الحقائق والمبادئ العظيمة، التي انتهت أخيرًا إلى تحرير إنجلترا من نير روما وطغيانها.

ويكليف والحكومة

أصبحت شهرة ويكليف كالمدافع عن الحق والحرية غير قاصرة الآن على جامعة أكسفورد وحدها، وأصبح البابا والكرادلة يخافونه ويتتبعون أعماله بكل يقظة ودقة. ولكن الملك والبرلمان من الجانب الآخر كانوا يثقون ثقة كبرى بأمانته وعقله الراجح، حتى أنهم استشاروه في أمر عظيم هو في غاية الأهمية من جهة الكنيسة والدولة.

ذلك أنه حوالي عام ١١٦٦م حدثت مشادة بين البابا أوربان الخامس والملك إدوارد الثالث على أثر تجديد الطلب بجزية سنوية مقدارها ألف مارك كان قد تعهد الملك يوحنا بدفعها للبابوية، كاعتراف منه بسيادة بابا روما على إنجلترا وأيرلندا. والواقع أن هذه الجزية المهينة لم تُدفع قط بانتظام، بل انقطعت بالكلية قبل ذلك بثلاث وثلاثين سنة، فابتدأ أوربان الآن يطالب بكل المتأخرات، إلا أن إدوارد رفض رفضًا باتًا معلنًا عزمه الأكيد على التمسك بحرية مملكته واستقلالها. وقد عطف البرلمان والشعب على الملك وظاهروه، إذ أن كبرياء البابا وعجرفته كانت قد ألهبت نار الحماس في إنجلترا كلها. بعد ذلك عرض الأمر على البرلمان بهيئتيه. وقد أثار الموضوع وما

يتخذ فيه من قرار اهتمام الطبقات كلها، بل اهتمام العالم المسيحي بأجمعه. وقد تعين ويكليف، الذي صار الآن أحد قسوس الملك، للرد على الحجج البابوية. وقد فعل ذلك بنجاح عظيم، إذ أثبت أنه ما من قانون ديني بابوي يمكن أن تكون له أية قوة إذا كان متعارضًا مع كلمة الله، وأن البابوية منذ ذلك اليوم لم يعُد لها أي حق في المطالبة بالسيادة على إنجلترا. وقد استعان أعضاء البرلمان بحجج ويكليف وقرروا بالإجماع التمسك باستقلال التاج ضد مطالب روما ومزامعها، وتدل الخطب القصيرة القوية الواضحة التي ألقاها البارونات في تلك المناسبة على الروح الحماسية التي كانت سائدة في ذلك العصر.

وفي عام ١٣٧٢م رقي ويكليف إلى مرتبة الكرسي اللاهوتي. وكانت هذه خطوة هامة في جانب قضية الحق وبترتيب من الرب. فكان له الحق بصفته دكتورًا في اللاهوت في إلقاء محاضرات دينية عامة، كما كان يحاضر الطلبة في جامعة أكسفورد. ونظرا لما كان لـه من نفوذ ديني في المدارس كان يؤخذ كل ما يقوله كقضية مسلَّم بها لا تقبل شكًا أو ريبًا. والواقع أنه من المستحيل تقدير مبلغ النفوذ الصالح الذي كان له على عقول الطلبة الكثيرين، الذين كانوا يتزاحمون لسماع محاضراته. ولا ننسَ أن فن الطباعة في ذلك الوقت لم يكن من التقدم بحيث يوفر للطلبة الكتب اللازمة، فكان صوت المعلم وقوة أسلوبه وحيوية أقواله هي تقريبًا كل عدته وعتاده. والمئات الذين كانوا يسمعونه كان عليهم أن يذهبوا في دورهم كمعلمين متجولين حاملين نفس البذار الثمينة المباركة.

ويكليف في أفنيون

ولو أنه كان معروفًا في ذلك الوقت أن ويكليف لديه أفكار كثيرة مناهضة للبابوية، إلا أنه لم يكن إلى الآن قد وضع نفسه موضع المعارضة المباشرة لروما. وفي عام ١٣٧٤م أوفدته الحكومة في سفارة رسمية لمقابلة البابا غريغوري الحادي عشر الذي كان مقره في أفنيون. وكان الغرض من هذه البعثة إظهار المساوئ التي نتجت عن احتفاظ البابوية بحق التعيين في الوظائف في كنيسة إنجلترا ومحاولة إزالتها. وليس هناك شك في أن الرب سمح بذلك لكي يرى ويكليف بعينيه ما لم يكن في ميسور الناس تصديقه بسهولة، وهو أن البلاط البابوي كان منبع كل شر وأصل كل إثم. وبعد رجوعه من هذه البعثة أصبح هو العدو المباشر لروما وخصمها اللدود المخيف، فقد دله اختبار أفنيون على صحة ما كان قد حصل عليه في الماضي عن طريق الدرس والتحري، وأيّد اعتقاده بأن مزاعم روما لم يكن لها أي أساس من الحق تأييدًا كاملاً. وقد نشر بلا كلل ولا ملل اعتقاده الذي امتزج بنفسه، مستعملاً في ذلك كل وسيلة ممكنة، فكان يلقي المحاضرات البليغة ويرتب حلقات الدرس والمناقشة في أكسفورد، ويقوم بإلقاء المواعظ الرعوية في أبروشيته، ونشر النبذ الروحية الصريحة بين جميع الطبقات في إنجلترا. وفي هذه كلها كان يطعن بشدة وحماس ناري في النظام البابوي بأجمعه، فكان مما قاله "إن إنجيل يسوع المسيح هو المصدر الوحيد للدين الصحيح. إن البابا هو ضد المسيح، وكاهن روما العالمي المتكبر هو ألعن قناص للمال وسالب للجيوب". أما كبرياء رجال الإكليروس وتعظم معيشتهم وترفهم، وسلوكهم وآدابهم، فلم تنجُ من لذعاته المرة وهجماته العنيفة. ولما كان هو نفسه على مقدار عظيم من التقوى وطهارة السلوك والإخلاص الأكيد والفصاحة النادرة، فقد اجتمع حوله جمهور عظيم كالمعلم الجريء والأستاذ العظيم الذي لا يخشى في الحق لومة لائم [(٣١)؛(٤/٤)؛(٤/٤٣)؛(٢٠)].

ويكليف واتهامه بالهرطقة

وصل ويكليف الآن إلى مركزٍ سامٍ جدًا بعد أن نال كافة الدلائل على العطف الملكي. وفي ختام سنة ١٣٧٥م عيّنه الملك رئيسًا لجامعة لوتروُرْث في مقاطعة ليشِسْترشَيِر، التي أصبحت فيما بعد موطنًا له بقية حياته، ولو أنه كان يزور أكسفورد من حين لآخر. على أن الأخطار كانت تتجمع حوله وتهدده من نواح أخرى، بعد أن أثار غضب البابا والرؤساء الدينيين.

لقد أثار على نفسه غضب البابا ورجال الإكليروس. وكان في لوترُوُرْث والقرى المحيطة هو المبشر الجريء البسيط في أقواله وتعاليمه، أما في أكسفورد فكان المعلم العظيم والفيلسوف الحكيم. على أنه، سواء في المدن أم في القرى، كان يرفع صوته عاليًا ضد نظام الكنيسة وفضائح الإكليروس، وجهلهم وإهمالهم للوعظ، وامتهانهم لامتيازاتهم كرجال دين، واستخدام هذه الامتيازات في التستر على المجرمين المشهورين. فكان من الطبيعي أن مثل هذا الكلام الصريح يثير عليه الأعداء والخصوم، فاتهموه بالهرطقة وأعلنوه بالحضور أمام المجلس التأديبي الذي بدأ في فبراير سنة ١٣٧٧م.

خضع ويكليف لإعلان الحضور، وذهب إلى كاتدرائية القديس بولس، ولكنه لم يذهب بمفرده، بل رافقه يوحنا دوق لانكاستر واللورد مارشال برسي قائد جيوش إنجلترا العام. لا شك أن الباعث الذي حدا بهذين الشخصين العظيمين أن يرافقاه كان سياسيًا محضًا، ولم يضف إلى ما كان لويكليف من شرف، ولكننا هكذا نجد تصادمات وتحالفات غريبة بين الدين والسياسة في تاريخ كل المصلحين. كان وليم كورتناي، ابن أمير مقاطعة ديفون، أسقف لندن في ذلك الحين، فعيّنه رئيس أساقفة صدبري لهذا المجمع التأديبي. وقد اغتاظ الأسقف المتكبر واستاء أعظم استياء لرؤيته هذا الهرطقي يعضده أقوى شريفين من أشراف إنجلترا. وكان الزحام عظيمًا بسبب توافد الناس لمشاهدة هذه المحاكمة الحماسية، حتى أن المارشال وجد أنه من اللازم استعمال سلطاته لإفساح الطريق بالقوة لدخول القضاة. أما الأسقف الحانق فقد عارض في استخدام المارشال لسلطته هذه داخل الكاتدرائية، فقال بحدة موجهًا كلامه لبرسي "لو كنت أعلم يا سيدي أنك ستزعم أنك سيد في هذه الكنيسة لاتخذت الإجراءات اللازمة لمنعك من الدخول". فأجاب دوق لانكاستر، الذي كان المحرك لدفة شئون المملكة كلها في ذلك الوقت، بكل هدوء "إن المارشال سيستخدم السلطة اللازمة لحفظ النظام رغمًا عن أنف الأساقفة". وعندما وصلوا إلى مكان المحاكمة في الكنيسة أمر برسي بكرسي لويكليف. عند ذلك هاج كورتناي وبلغ حنقه درجة الغليان والانفجار، فصاح بصوت مرتفع "كلا. يجب أن لا يجلس، فالمجرمون يقفون أمام قضاتهم". وهنا تبودلت الإهانات من كل جانب، وهدد الدوق بأنه لا بد أن تُذل ليس كبرياء كورتناي فقط، بل طبقة الإكليروس كلها في إنجلترا. فأجاب الأسقف بشيء من المسكنة والتواضع الصوري بأنه يتكل على الله وحده. إلى هنا كان الجو قد تكهرب، وبدلاً من المحاكمة حصلت جلبة وضجة عنيفة، وانقلب المشهد إلى عراك واضطراب شديد، وأراد أعوان الأسقف الهجوم على الدوق والمارشال، ولكنهما كانا من القوة بحيث استطاعا أن يدافعا عن نفسيهما، كما استطاع ويكليف الذي ظل صامتًا طوال الوقت أن يهرب تحت حمايتهما.

ولو أن الشعب كله حينئذ كان من الكاثوليك، إلا أن أغلبهم كان ميالاً للإصلاح. هؤلاء هم الذين أطلق عليهم اسم الويكليفيين، وقد أحسنوا صنعًا إذ لزموا منازلهم أثناء هذا الهياج. أما حزب الإكليريكيين، الذين كانوا قد ملأوا كاتدرائية القديس بولس، فانتشروا في الشوارع يملأونها هياجًا وصياحًا، فهب الشعب وبدأت ثورة عنيفة، وهجم الثوار على بيت برسي، غير أنهم بعد أن كسروا كل باب وفتشوا كل غرفة ولم يجدوه ظنوا أنه لا بد مختبئ في قصر لانكاستر، فاندفعوا إلى القصر الذي كان في ذلك الوقت أفخم بناء في كل المملكة. تصادف أن كان هناك كاهن ظنه الثوار لسوء حظه أنه اللورد برسي فقتلوه، ثم بعد ذلك نهبوا القصر. وكان من الممكن أن يندلع لسان الثورة وتحصل اعتداءات أخرى فظيعة لولا تداخل الأسقف، الذي خاف مغبة مثل هذه الإجراءات الثورية.

ويكليف ومهازل البابوية

أصبح ويكليف الآن حرًا مرة ثانية بعد أن نجا من العقاب الشديد أو الموت الزؤام الذي كان قد أعده له مضطهدوه، فاستمر يكرز ويعلم الشعب بغيرة وشجاعة لم تَقُل عن الأول. في نفس ذلك الوقت كان هناك اثنين من الباباوات يتنافسان، واحد في روما والآخر في أفنيون، وهذا ما يعرف في التاريخ باسم "الانقسام" ويصوره بعض الكتاب صورة كاريكاتورية بهيئة ضد المسيح ذي الرأسين، فمن أي من الرأسين يا ترى ستنحدر الخلافة الرسولية، هذه مسألة نتركها للقارئ ليحكم فيها بنفسه. أما ويكليف فقد حكم على كليهما بأنهما ضدان للمسيح، ولاقى عطفًا كبيرًا في هذا الحكم من جانب الشعب. بعد ذلك جاءت أفظع المشاهد عارًا وخزيًا، ذلك أن بابا روما أعلن الحرب ضد بابا أفنيون، وابتدأ التبشير بحرب صليبية جديدة في صالح الأول، فيها ضمنت البابوية للمحاربين نفس الغفرانات والهبات الروحية التي منحتها للصليبيين الأقدمين الذين ذهبوا للأرض المقدسة، ورُفعت الصلوات في جميع الكنائس لنصرة بابا روما ضد بابا أفنيون، وصدر الأمر للأساقفة ورجال الإكليروس أن ينهبوا رعاياهم لواجب الاشتراك ماديًا وأدبيًا في هذا الغرض المقدس. وبقيادة الكابتن الإكليريكي سبنسر أسقف نرويك الشاب الحربي، تقدم الصليبيون إلى ساحة الوغى، فاستولوا على جرافلين ودنكيرك في فرنسا. ولكن مما يؤسَف له أن جيش البابا هذا بقيادة الأسقف الإنجليزي، تعدى كل حدود الإنسانية، فمزقوا أجساد الرجال والنساء والأطفال أشلاء في واحدة من أكبر المذابح، وكان الأسقف يحمل سيفًا طويلاً ذي حدين، استطاع به، بغيرة وحماس، أن يمزق

أحشاء قطيع بابا أفنيون الذي لا ذنب له.

مثل هذه الحملة كان لا بد أن تنتهي بشيء واحد، وهو الخراب المقرون بالخزي والعار، فقد هزت البابوية من أساسها، ودعمت قضية الإصلاح أعظم تدعيم. فمن سنة ١٣٠٥م إلى ١٣٧٧م لم يكن الباباوات إلا أتباعًا لملك فرنسا في أفنيون، ومن تلك السنة الأخيرة إلى سنة ١٤١٧م انقسمت البابوية نفسها إلى قسمين بسبب الانقسام المشهور. غير أن أجناد البابا القساة القلوب واصلوا سعيهم بلا انقطاع للإيقاع بالهرطقي ويكليف، فاخترعوا ضده تسع عشرة تهمة رفعوها إلى البابا غريغوري الحادي عشر، الذي أرسل في الحال خمسة مراسيم لإنجلترا، ثلاثة لرئيس الأساقفة، وواحدًا للملك، وواحدًا لجامعة أكسفورد، لإجراء تحقيق في تعاليم ويكليف المضلة، مع أن الأفكار التي نسبوها إليه لم تكن ضد قانون الكنيسة بل ضد سلطان الإكليروس، فالتهمة التي كانت موجهة إليه هي إحياؤه لأضاليل مرسليوس ويوحنا جودان اللذين كانا يدافعان فيما مضى عن سلطان الملك ضد البابا.

فاستُدعي ويكليف مرة ثانية للوقوف أمام نفس المندوبين البابويين ولكن ليس في سانت بول بل في لامبث. لم يكن بجانبه في هذه المرة دوق لانكاستر ولا مارشال إنجلترا، بل متكله الله الحي وحده. "ظن الشعب أن ويكليف سيُفترس افتراسًا إذ قد جيء به إلى جب الأسود"، فاندفع الكثيرون من سكان لندن إلى داخل الكنيسة، وإذ رأي الأساقفة نظراتهم المتحفزة ارتاعوا. ولكن المحكمة لم تكد تبدأ عملها وتفتح جلستها حتى وصلتهم رسالة من أم الملك الشاب أرملة الأمير الأسود تمنعهم من إصدار أي حكم نهائي فيما يتعلق بسلوك ويكليف وتعاليمه. وهنا يقول وَلسنجهام المحامي البابوي "إن الأساقفة الذين كانوا قد أعلنوا تصميمهم على القيام بواجبهم رغمًا عن كل وعد أو وعيد، حتى ولو أدى ذلك إلى تعريض حياتهم للموت، صاروا كالقصبة في مهب الريح، واستحوذ عليهم الخوف والجزع أثناء تلك المحاكمة، حتى كان كلامهم يسيل ناعمًا كالزيت مما أضر بسمعتهم وبكرامة الكنيسة بصفة عامة. وعندما ألقى ويكليف رسالته في أبهة وعظمة أخذتهم قشعريرة من الخوف، حتى أنك إن نظرت إليهم كنت تحسبهم كمن أصابهم صمم وليس في فمهم شكوى. وهكذا استطاع ذلك المعلم الضال والمرائي الكبير أن ينجو من يد العدل، ولم يكن في الإمكان دعوته مرة أخرى أمام نفس هذه الهيئة التي انتهت مهمتها بموت البابا غريغوري الحادي عشر"(٢٥/٣).

هكذا كان في عناية الله الصالحة أن يسهم موت غريغوري مع الانقسام العظيم في إنقاذ ويكليف من يد مضطهديه القاسية، التي لا شك كانت قد عزمت على افتراسه، فعاد إلى أعماله الأولى، ومن فوق منبره استمر يدعم ويقوي قضية الحق والحرية. وقد أنشأ في الوقت نفسه فرقة من المبشرين الرحّالة يطوفون البلاد المختلفة منادين بإنجيل يسوع المسيح، وقابلين الضيافة في الطريق معتمدين على الرب وحده في تسديد حاجاتهم المختلفة. وقد أُطلق عليهم أسم "الكهنة الفقراء". وكثيرًا ما واجهوا اضطهادات مختلفة من رجال الإكليروس، ولكن بساطتهم كمسيحيين وغيرتهم كمبشرين حببت فيهم الناس وجذبت حولهم جماهير العامة.

ويكليف والكتاب المقدس

من غير أن نتعرض لتفاصيل أتعاب ويكليف العامة والمؤامرات التي كان يدبرها له خصومه لإيقافه عن متابعة أعماله، نود أن نشير إلى أعظم عمل قام به في حياته النافعة، وهو ترجمته الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية. فقد رأيناه إلى الآن يهاجم بلا تردد أو خوف مساوئ البابوية، معلنًا الحق لطلاب الجامعة ومناديًا بالإنجيل للفقراء، ولكننا سنراه الآن وقد انشغل بعمل عظيم، لا شك سيملأ نفسه شبعًا ودسمًا أكثر من أي شيء آخر، وهذا الشيء هو مشغوليته بترجمة الأسفار المقدسة. فهو لم يتعرض لتعاليم كنيسة روما ويرفضها إلا بعد أن شبع هو نفسه بالمكتوب وأدرك ما فيه من حق جليل، فإن رؤيته لمساوئ الإكليروس الخارجية شيء، ومعرفة فكر الله في المكتوب شيء آخر.

كان كلما انتهى من ترجمة جزء من الكتاب سلمه بسرعة للنُسّاخ، حتى انتشر الكتاب المقدس انتشارًا واسعًا. ولن يستطيع العقل البشري تقدير الأثر الذي أحدثه توصيل كلمة الله بهذا الشكل لغير المتعلمين من عامة الشعب من سكان المدن وسكان القرى والجنود وكافة الطبقات الفقيرة، فقد استنارت العقول وخلصت النفوس وتمجد الله. ولقد قال في ذلك أحد الخصوم "لقد جعل ويكليف الإنجيل عامًا ومشاعًا بين الجميع، وفي متناول العلمانيين والنساء أن يقرأوه أكثر مما يقرؤه رجال الإكليروس الأذكياء المتعلمين، حتى أصبحت دُرر الإنجيل مبعثرة ومدوسة تحت أقدام الخنازير". في عام ١٣٨٠م تمت الترجمة الدارجة الإنجليزية. وفي سنة ١٣٩٠م

حاول الأساقفة استصدار حكم من البرلمان بالقضاء على هذه الترجمة، ولكن يوحنا جونت صرح بأن الإنجليز يجب أن لا يصل بهم الإذلال إلى الحد حتى يُنكر عليهم حق اقتناء الكتاب المقدس في لغتهم. ومما قيل حينئذ "إن كلمة الله هي إيمان شعبه، وإن غاب البابا وكل إكليروسه من على وجه الأرض فإيماننا لن يغيب أو يتزعزع، لأنه مؤسّس على يسوع المسيح وحده، معلمنا وإلهنا". وإذ فشلت هذه المحاولة الأثيمة انتشر الكتاب المقدس بالإنجليزية في طول البلاد وعرضها بفضل مجهودات "الكهنة الفقراء".

إن القارئ المسيحي لن يفوته ملاحظة يد الرب في هذا العمل العظيم، فالآلة الإلهية العظيمة قد أصبحت الآن مُعدّة وجاهزة بين أيدي الشعب، وهي الآلة التي كان مُعيّنًا أن تتم بها حركة الإصلاح في القرن السادس عشر. إن كلمة الله الحية الثابتة إلى الأبد قد أُنقذت الآن من دائرة المدارس الضيقة، وخلصت من ظلمة الأديرة وأسرارها العميقة، وأُطلق عقالها من رفوف الصوامع المغطاة بالتراب، وانحلت من ظلمة العصور وغموضها، وصارت في متناول الشعب الإنجليزي باللغة التي ولدتهم فيها أمهاتهم. من يستطيع أن يقدر عظم هذه البركة؟ دع ربوات المفديين وألسنة جماهير المخلّصين التي ستسبح الرب وتحمد إلى أبد الآبدين تجيب على هذا السؤال.

ولكن ما أروع حقًا ذلك الإثم القاتل للنفس، إثم الكهنوت البابوي، في حجز كلمة الحياة عن الشعب. أكان يجوز أن حق الله المجيد الخاص بمحبته للعالم في بذل ابنه، وبكفاية دم المسيح للتطهير من كل خطية، أن يُخفى عن الناس ويُمنع من الوصول إلى النفوس الهالكة، ولا ينظر إليه إلا جماعة قليلة متميزة؟ حقًا إنه لا توجد قسوة على وجه البسيطة كلها يمكن مقارنتها بهذه القسوة، التي معناها هلاك النفس والجسد معًا في جهنم إلى أبد الآبدين.

ترجمات الكتاب الجزئية

يظهر أن أول محاولة لترجمة أجزاء من الكتاب باللغة الدارجة كانت في القرن السابع. فإلى ذلك الوقت لم يكن الكتاب إلا في اللغة اللاتينية. وبما أنه كان في الغالب قاصرًا على رجال الإكليروس، فكل ما كان يعرفه الشعب من إعلان الله، إن عرفوا شيئًا، كان يصلهم عن طريق الوعظ. ولكن بما أن هؤلاء الإكليروس أنفسهم لم يكونوا يعرفون شيئًا سوى ما كانوا مضطرين لتكراره وإعادته في الخدمة الكنيسة، فقد بقي الشعب في ظلمة دامسة.

لم يكن هناك إلا قطعة شعرية مشهورة باللسان السكسوني تحتوي على بعض أجزاء تاريخية من الكتاب، ولكن بالنسبة لأسلوبها الغنائي لم تعتبر في يوم من الأيام في مصاف الكتابات المقدسة. على أنه على أي حال كانت بداءة لا بأس بها في هذا العمل المبارك لا نذكرها إلا بالشكر وعرفان الجميل.

وفي القرن الثاني نمت بعض ترجمات أخرى أهمها ترجمة "الصلاة الربانية" وإنجيل يوحنا الذي يقال إنه أول جزء من العهد الجديد تُرجم إلى اللغة الإنجليزية.

بعد ذلك جاء الملك ألفريد الذي في غيرته على تحسين حال مملكته لم تفته أهمية الكتاب المقدس في هذا المجال، فاستطاع بمساعدة رجال العلم في بلاطه أن يترجم الأربعة الأناجيل. وفي أواخر القرن العاشر ترجم إلفريك بعض أسفار العهد القديم. وفي مستهل حكم الملك إدوارد الثالث استطاع وليم شورهام ترجمة سفر المزامير إلى لغة الأنجلو نورمان، وتبعه في ذلك شخص آخر، حتى أنه يقال إن سفر المزامير هو أول كتاب تُرجم بأكمله إلى اللغة الإنجليزية قبل ويكليف. ولكن الوقت كان قد حان في عناية الله لنشر الكتاب المقدس بأكمله وإذاعته بين جميع طبقات الشعب، وكل عقبة قامت في ذلك السبيل حوّلها الله، في صلاحه، لتشجيع عبده في مهمته النبيلة.

وبعد أن اجتاز ويكليف ضيقات كثيرة وتهديدات عديدة، وبعد أن أنقذته يد العناية الإلهية من السجون وخطر الموت حرقًا مرات كثيرة، سمح له الرب أن يغلق عينيه في سلام وسط "محبيه وأتعابه الرعوية" في لوتروورث، فبعد أن لزم الفراش يومين على أثر شلل، رقد في الرب في آخر يوم من أيام سنة ١٣٨٤م.

تأملات في حياة ويكليف

رقد ويكليف في الرب، ذلك المسيحي المتواضع والشاهد الجريء والمبشر الأمين، والأستاذ القدير والمصلح العظيم، غاب وتوارى عن المشهد، ذهب إلى راحته، وأجرته هي هناك في السماء. غير أنه وإن كان هو قد توارى وانتهى، إلا أن تعاليمه التي نادى بها بمثل تلك الغيرة المقدسة لا يمكن أن تموت. وقد استمر اسمه ماثلاً في أشخاص أتباعه مرعبًا ومخيفًا لكهنة روما المزيفين،

حتى قال أحد الأعداء الحنقين "إنك ترى ويكليف في كل شخص تقابله في الطريق". فالله قد استخدمه لكي يحرك في النفوس محبة البحث والدرس المسيحي، الأمر الذي انتشر وظهر بصورة محسوسة في كل ركن من أركان أوروبا البعيدة، واستمر يتزايد خلال العصور التالية. وليس هناك شخص استطاع أن يعبّر تعبيرًا صادقًا عن مدى تأثير أتعاب ويكليف الكتابية نظير الدكتور لنجارد المؤرخ الكاثوليكي الذي قال "إنه عمل ترجمة جديدة، وضاعف النسخ بمعاونة النساخ، وعن طريق "كهنته الفقراء" كان يوصي سامعيه أن يطّلعوا عليها. وإذ كانت تقع هذه النسخ في أيديهم سرعان ما كانت تتحول إلى آلة ذات قوة عجيبة. وقد استطاع أن يكسب الناس بالالتجاء إلى حكمهم الشخصي، وبذلك تسربت إليهم التعاليم الجديدة من تلقاء نفسها وعن غير قصد، وصار لها من الأتباع والمدافعين عدد كبير من الطبقات الراقية الذين كان لهم إلمام بالقراءة، وتولدت روح البحث والاستقصاء، وغرست بذار تلك الثورة الدينية التي أدهشت أمم أوروبا فيما لا يزيد إلا قليلاً عن قرن واحد". إن الكثير من تعاليم ويكليف كانت أسبق جدًا من روح العصر الذي كان يعيش فيه، بمعنى أنها كانت سابقة لأوانها، وتتفق مع جيل جديد أكثر نورًا ومعرفة. كان يقول "الكتاب وحده هو الحق"، وبنى كل تعاليمه على هذا الأساس وحده، غير أن ترجمته للكتاب ونشره هو ما أعطى ثباتًا راسخًا للحقائق المقدسة التي كان ينادي ويعلّم بها، كما كان فيه تتويجًا رائعًا لجميع أتعابه ومجهوداته الأخرى، إذ أنها الكنز الذي تركه وأهداه للمستقبل والأجيال المستنيرة التي التالية[٣٩/٣].

طالما كان ويكليف قاصرًا هجماته الضيقة على بلاط روما وما يسود عليه من روح ضد المسيح وما كوّمه من ثروة، كان في استطاعته أن يجد أعوانا أشداء وحماة أقوياء من الذين كان يسرهم أن يقضي على المساوئ الكثيرة للنظام البابوي، ويجرفها أمامه الواحد بعد الأخرى، ولكنه سرعان ما ارتقى إلى دوائر الحق العليا ونعمة الله المجانية، حتى أخذت صفوف أتباعه تتضاءل وحماس غيرتهم تبرد، حتى أن تعاليمه المناقضة للبابوية جلبت عليه النفي والإبعاد من أكسفورد قبل وفاته بسنتين. غير أن هذا كان ترتيبًا صالحًا من العناية الإلهية، التي شاءت أن تمنحه فترة من الهدوء والراحة في ختام أتعابه وحياته المليئة بالعواصف، فقد استمر أعوامًا عديدة ينادي بأهم تعاليم المصلحين التي جاءت في القرن السادس عشر، وخاصة تعاليم كلفن، إلا أن معارضته لمبدإ روما فيما يتعلق بالخلاص بالأعمال كان من شأنها أن تقوده طبعًا لأن يتكلم بشدة. فكان يقول إن "الإيمان بقوة الإنسان في عمل التجديد هو هرطقة روما العظمى، ومن هذا الخطأ جاء خراب الكنيسة. إن التغيير يأتي من نعمة الله وحدها، والنظام الذي ينسب جزءًا منه للإنسان وجزءًا لله هو أشر من البلاجية. إن المسيح هو كل شيء في المسيحية، وكل من يترك هذا الينبوع المستعد كل حين لأن يعطي الحياة، ويتحول عنه إلى المياه الراكدة القذرة، هو بلا شك شخص مجنون. إن الإيمان هو عطية الله. إنه يطرح جانبًا كل استحقاق بشري، ومن شأنه أن يطرد كل خوف من القلب. يا ليت كل المسيحيين يخضعون لا لكلمة كاهن، بل لكلمة الله. في الكنيسة الأولى لم يكن هناك إلا وظيفتان، الأساقفة والشمامسة، فالشيخ والأسقف أو الناظر هم واحد. إن أسمى مهنة يستطيع الإنسان أن يصل إليها على الأرض هي أن يكون مبشرًا بكلمة الله. أن الكنيسة الحقيقية هي جماعة الأبرار الذين لأجلهم سفك المسيح دمه على الصليب".

تلك كانت أهم مبادئ ويكليف التي كان يعلم بها وينشرها في نبذ صغيرة على مدى أربعين سنة تقريبًا، مناديًا بها بغيرة شديدة ومقدرة عظيمة، وسط ظلمة البابوية وخرافاتها، وأشر أنواع الروح العالمية، حقًا إن القلب ليفيض بالحمد والشكر غير المنقطع إزاء هذا العمل الجليل المجيد الذي قام به الروح القدس في إنجلترا، وإزاء امتياز تدوينه للأجيال المقبلة. إن الباباوات والكرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة والدكاترة الذين كانوا يتعطشون لدمائه قد تلاشوا من صفحات التاريخ أو أصبحوا مقترنين بشيطان الاضطهاد، بينما اسم يوحنا ويكليف يبقى عالقًا بأذهاننا، وذكراه ماثلة أمامنا بتقدير واحترام متزايد[٢٠/٢١؛ ٤٤/٥].

اللولارديون

لم يكوّن ويكليف شيعة خاصة في حياته، ولكن قوة تعاليمه ظهرت في غيرة تلاميذه بعد موته. فمن الفلاح إلى الأمير، ومن الكوخ إلى القصر كانوا جميعًا يُعرفون في كل مكان بهذا الاسم الغامض "اللولارديون" وكانت الجماهير تتكاثر حول مبشريهم. كانوا ينكرون سلطان روما ويتمسكون بسلطان كلمة الله دون سواها، كما كانوا يعتقدون أن خدام المسيح يجب أن يكونوا فقراء وبسطاء وروحيين، وكانوا ينادون جهارًا ضد رذائل الإكليروس.

وقد استمروا وقتًا يتمتعون بشيء من العطف والحماية، حتى أنهم ظنوا أن الإصلاح كان على وشك الانتصار في إنجلترا.

وفي عام ١٣٩٥م تجاسر أتباع ويكليف وقدموا التماسًا للبرلمان يطلبون فيه إلغاء العزوبية، والاستحالة، والصلاة من أجل الأموات، والتقدمات للصور، والاعتراف السري، ومساوئ أخرى بابوية كثيرة. وبعد ذلك سمروا التماسهم على أبواب سانت بول ووستمنستر آبي. على أن هذا الصوت الضعيف من جماعة مضطهَدة ضعيفة ذهب دون أن يلتفت إليه أحد، وسط ضوضاء خلع ريتشارد الثاني من العرش، وموته، وجلوس هنري الرابع أول ملوك سلالة لانكاستر مكانه.

عندما اعتلى العرش هنري الرابع، وهو ابن دوق لانكاستر الشهير، صديق ويكليف ونصيره، توقع اللولارديون طبعًا أن يجدوا نصيرًا قويًا ومخلصًا لمبادئهم في شخص الملك الجديد. ولكنهم في هذا كانوا مخدوعين، ذلك لأن رئيس الأساقفة أراندل، عدو اللولارديين اللدود، كان له حظوة عظيمة ونفوذ كبير عند هنري، فهو الذي عمل أكثر من غيره على قلب ريتشارد وإحلال هنري محله، فكان له تأثير عظيم عليه، كما كان من بيت كبير، وكان متكبرًا وبلا ضمير، كما كان سياسيًا ماهرًا وكهنوتيًا ماكرًا خطيرًا، فعقد النية على استغلال نفوذه لدى الملك للقضاء على جماعة اللولارديون قضاء مبرمًا. وقد كان أول عمل تقريبًا عمله هنري الرابع إعلان نفسه كالحامي للإكليروس والرهبان والفرير ضد أعدائهم الخطرين.

مرسوم حرق الهراطقة

لم يكن في إنجلترا حتى ابتداء القرن الخامس عشر أي قانون خاص بحرق الهراطقة، بينما في كل أنحاء المسيحية الأخرى كان القاضي بمقتضى القانون الروماني الإمبراطوري القديم خاضعًا للأوامر واللوائح التي يصدرها الأسقف، أما إنجلترا فبقيت متفردة، فلم يكن في استطاعة أي ضابط تنفيذ حكم الإعدام في مجرم بأمر إكليريكي ما لم يكن بيده تفويض من السلطة القضائية. يقول ملمان "في كل الممالك الأخرى كانت السلطة المدنية تتسلم المجرم ضد قانون الكنيسة، وكان الحكم يصدر من المحكمة الإكليريكية، أو من محكمة التفتيش. ولكن الكنيسة بنوع من الرياء كانت تأبى أن تلطخ يدها بالدماء، فرجال الإكليروس كانوا يأمرون بإشعال النيران وربط الفريسة في العمود الخشبي بواسطة آخرين، وبذلك يبرئون أنفسهم من وحشية حرق بني جنسهم". ولكن الوقت كان قد حان لأن ينتهي هذا الامتياز الشريف الذي تميزت به إنجلترا عن سائر البلدان، فإرضاء لرئيس الأساقفة أصدر هنري مرسومًا ملكيًا يقضي بأن كل هرطقي يصعب إصلاحه يجب أن يُحرق حيًا. وكانت ألسنة الكهنة والفرير الكاذبة قد راحت تنشر في كل مكان وبكل نشاط أخبارًا مرجفة عن اللولارديين وأغراضهم الثورية، حتى انزعج البرلمان والتزم أن يوافق على مرسوم الملك.

وفي عام ١٤٠٠م أصبح "حرق الهراطقة" قانونًا دستوريًا في إنجلترا جاء فيه "في مكان عام مرتفع أمام عيون الشعب يحرق الهرطقي العديم الإصلاح حيًا". وسرعان ما أخذ الأساقفة والإكليروس يبدأون عملهم.

وقد كان وليم سوتري أول فريسة لهذا المرسوم الشنيع، وأول شهداء الويكليفية. كان أولاً مبشرًا في لندن، وبسبب الخوف الطبيعي من الآلام تراجع في المرة الأولى وذهب إلى نورويك، ولكنه عاد بعدئذ إلى لندن، وإذ تزود بقوة أكثر من رسوخ الإيمان جاهر علانية بالإنجيل، وشهد ضد تعليم الاستحالة، فصدر عليه الحكم بالموت حرقًا كهرطقي مرتد. يقول المؤرخ "إن حفل تجريده تم في كاتدرائية سانت بول بكل رسمياته وتفاصيله الثقيلة المرعبة، وبعد ذلك صار تسليمه إلى أيدي السلطة التنفيذية. ولأول مرة امتلأ جو لندن واسود بدخان هذا النوع من الضحايا البشرية".

وثاني فريسة لهذا المرسوم الدموي كان عاملاً بسيطًا، وجريمته كانت الجريمة العامة بين اللولارديين، وهي إنكار الاستحالة. هذا الرجل البسيط المسكين المسمى جون بادبي جيء به من وُرستر إلى لندن للمحاكمة، فماذا كان يا ترى شعوره وهو القروي البسيط عندما وجد نفسه واقفًا أمام هذه المحكمة الرفيعة القدر، المكونة من رؤساء أساقفة كانتربري ويورك وأساقفة لندن وونشستر وأكسفورد ونورويك وساليسبُري وباث وبانجور وسانت ديفيد، مع إدموند دوق يورك، والمستشار الملكي، ورئيس المحفوظات؟ حاول أراندل وأجهد نفسه كثيرًا أن يقنع هذا الشخص البسيط بأن الخبز المقدس هو بالحقيقة وبالذات جسد المسيح. فكانت أجوبة بادبي بكل بساطة ووضوح. قال إنه يؤمن "بإله واحد مثلث الأقانيم"، وأردف ذلك بالقول "إذا كان كل خبز يقدس على المذبح هو جسد الرب فلا بد عندئذ أن يكون في إنجلترا

عشرون ألف إله، ولكني أؤمن بإله واحد كلي القدرة". هذا الهرطقي عديم الإصلاح - على حد تعبيرهم - صدر عليه الحكم بالموت حرقًا بواسطة هؤلاء الذئاب، أو بالحري الشياطين، الذين في ثياب الحملان. وتصادف أن كان ولي العهد أمير ويلز مارًا في سمثفيلد في اللحظة التي كانت فيها النيران مشتعلة، أو قد يكون أتى خصيصًا لمشاهدة هذه العملية التي كانت تسمى "أوتو دي في"، نظر الشهيد فوجده هادئًا رابط الجأش لا يتزعزع، ولكنه ما أن مسته النيران سمع كلمة "رحمة" تخرج من شفتيه. وإذ ظن الأمير أنه كان يستصرخ الرحمة من قضائه أمر بانتشاله من النار، ثم قال له: "هل تترك الهرطقة وترجع إلى إيمان الكنيسة الأم المقدسة؟ إن فعلت ذلك فستُعطى معاشًا سنويًا من الخزانة الملكية". ولكن الشهيد لم يتحرك، فرحمة الله وليست رحمة الإنسان هي التي كان يستصرخها ويلتمسها. فاغتاظ الأمير، وفي ثورة من الغضب أمر بطرحه ثانية في اللهب المستعرة وبذلك أنهى بادبي تاريخه المسيحي بخاتمة مجيدة وسط اللهب والنيران.

مراسيم أراندل

انتهز الإكليروس فرصة التعاطف الملكي واستصدروا مراسيم أراندل الشهيرة، التي تقتضي بتحريم قراءة ترجمة ويكليف للكتاب المقدس وكتاباته الأخرى، مقررة أن البابا على الأرض "ليس من مجرد إنسان طاهر، بل من إله حقيقي". ومن ذلك التاريخ اشتدت عاصفة الاضطهاد في إنجلترا، وامتلأ السجن الذي أُطلق عليه "برج اللولارد" في قصر الرئاسة الأسقفية في لامبث بأتباع ويكليف. على أنه كما كان في برج اللولارد مساجين كذلك كان بالقصر الملكي سجين أيضًا، ذلك أن الموت وهو رسول القضاء الإلهي لغير المبرَّرين باغت القصر، فمات هنري الرابع عام ١٤١٣م. مكتوب أنه «وضع للناس أن يموتوا مرة ثم بعد ذلك الدينونة» (عب٩:٢٧). هاتان الغيمتان السوداوتان الثقيلتان: الموت والدينونة، انقضتا بكامل قوتهما على نفس ذلك الملك المضطهد الغشوم، بعد أن اسودت سنواته الأخيرة بمرض جلدي خبيث، في صورة بثور قبيحة في الوجه، جعلته سجين غرفته. ولكن أي مستقبل فظيع كان ينتظره! مستقبل لا يسوده مرض وقتي تتنازل رحمة الله فتوقفه عند حدود معينة، بل يسوده العذاب والويل الأبدي، مستقبل يزيد في هوله وحلكته ذكريات أشباح حرائق سمثفيلد الرهيبة وأكوامها المشتعلة المخيفة. يا له من موت! ويا لها من دينونة! ويا لها من أبدية فظيعة مرعبة وأكيدة! كيف يمكن للإنسان، بل كيف يجوز للإنسان، وحق الأبدية الخطير متأصل في نفس طبيعته، وموضوع من الله في أعماق قلبه، أن يعيش هكذا ناسيًا وهكذا مهملاً ومتغافلاً؟

الواقع أن حقائق القضاء والدينونة والعذاب الأبدي، حتى حيث لا تُنكر صراحة، فإنها لا تشغل في المنابر أو في المؤلفات المكان الذي تعطيه لها كلمة الله في العهد الجديد. فهناك نفور عام من التنبير على هذه الموضوعات الخطيرة المرعبة بالصراحة التي تتكلم بها كلمة الله، ومع ذلك لا يمكن إنكار أن أقوال سيدنا المباركة - وهو رسول المحبة الأعظم - رسول الحنان والعطف والنعمة الغنية، مليئة بأرهب العبارات عن الدينونة المستقبلة. قد يقول البعض إن الخوف من العقاب هو باعث غير حسن نسبيًا، ونحن نقول: فليكن كذلك، ولكن كم من أناس لهم نفوس خالدة لا يرتفع بهم ذكاؤهم إلى أكثر من مستوى هذا الباعث. إن الله أحكم من الإنسان، ونحن نجد في كلمة الله أعظم الإعلانات عن المحبة الإلهية وأوسع التصريحات عن النعمة المجانية مصحوبة بأخطر الإنذارات وأرهبها. هاك واحدًا منها فاسمع «قبّلوا الابن لئلا يغضب فتبيدوا من الطريق، لأنه عن قليل يتقد غضبه. طوبى لجميع المتكلين عليه» (مز٢:١٢، انظر مت١١:٢٠-٣٠).

والآن نعود إلى تاريخنا.

هوذا ولي العهد الذي عاين استشهاد يوحنا بادبي هو الآن على العرش باسم هنري الخامس. ولكن يُخشى أن انتصارات النعمة الغنية في شخص ذلك العامل البسيط والقروي الحقير لم يكن لها أي تأثير على نفس ذلك الأمير. لم يوجد قط أمير كان قبل ارتقاء العرش في درجة فساد أخلاق هذا الأمير، وكان الظن بما أن لا دين له أنه لن يكون تابعًا لرجال الإكليروس، ولكن في هذا أيضًا كان اللولارديون مخدوعين، فبمجرد أن أصبح ملكًا صار متدينًا بحسب مفهوم ذلك العصر، وكان لا بد أن يبرهن على تدينه بمحاربة اللولارديين والقضاء عليهم. وكان توماس نتر، وهو أحد أعداء اللولارديين الألداء، هو أب اعترافه، واستطاع بنفوذه أن ينفذ القوانين ضد الهراطقة بأشد قسوة ووحشية.

محاكمة اللورد كوبهام

كانت ضحايا الاضطهاد الجديد من كل الطبقات، ولكن أهمهم وأعظمهم مقامًا كان السير جون أولدكاسل، الذي كان بموجب حقوق زوجته عضوًا في البرلمان باسم اللورد كوبهام. ويقال إنه كان فارسًا ذا شهرة حربية عظيمة، وقد اشترك في الحروب الفرنسية، فأظهر من ضروب البسالة ما رفعه إلى مصاف القواد الممتازين، وكان من حيث المذهب ويكليفيًا مؤمنًا بكلمة الله، ومن قراء ويكليف المعجبين بكتاباته، كما كان مقاومًا عنيفًا للبابوية، وقد عمل على طبع نسخ عديدة من مؤلفات ويكليف وتشجيع "الكهنة الفقراء" على توزيعها والكرازة في كل أنحاء المملكة. ولم يقف أحد في طريقه طيلة مدة هنري الرابع، الذي لم يكن يسمح لرجال الإكليروس أن يمدوا أيديهم إلى صديقه الحميم القديم، ولكن الملك الجديد الشاب لم يكن يقدّر السير جون هذا التقدير، ولو أنه كان يعرف شيئًا عن قيمته كجندي شجاع وقائد ماهر، واشتاق أن ينقذه.

أما أراندل فكان يتتبع بكل دقة حركات خصمه، وقد صمم على سحقه، وعندما جاءت الفرصة وشوا به إلى الملك متهمين إياه بتمسكه بآراء هرطقية عديدة، وبناء عليه أُبلغ اللورد كوبهام بالحضور أمام الملك للإجابة على تلك التهم، فجاء واعترف للملك بأعمق عبارات الولاء والخضوع قائلاً له "أما أنت أيها الملك فأنا على أتم استعداد أن أطيعك وأخضع لأوامرك. أنت ملك مسيحي وخادم لله، ولا تحمل السيف عبثًا، بل لعقاب الأشرار ومجازة الأبرار. فأنا مدين لك بعد الله بكل خضوعي وطاعتي، وكل ما تأمر به في الرب أنا مستعد لتنفيذه بكل خضوع وسرور. أما البابا فليس له عليّ حق الاتباع أو الخدمة، إنه ضد المسيح الأكبر، ابن الهلاك ورجسة الخراب في القدس". وإذ أراد أن يقدم وثيقة اعترافه وإيمانه صد الملك يده ونفضها بعيدًا قائلاً له "لا أريد هذه الورقة فاذهب وقدمها لقضاتك". بعد ذلك خرج كوبهام وتوجه في الحال إلى قصره المنيع في كاولنج بالقرب من روشستر، وهناك قابل تحريمات رئيس الأساقفة وأوامره بالحضور بكل احتقار وازدراء، إلى أن استطاعوا أن يؤثروا على الملك، فأرسل ضابطًا للقبض عليه. وقد دعاه إخلاصه لمليكه أن يخضع لأمر الضابط، الذي لو كان واحدًا من أتباع البابا لكان أنهى معه المشكلة بحد السيف حسب تقاليد ذلك العصر وروحه العسكرية دون أن يخضع أو يطيع. وقد سيق بعد ذلك إلى البرج، الذي كان دائمًا علامة شؤم لجميع الذين تبعوا ذلك الطريق.

وانعقدت المحكمة الإكليريكية في كاتدرائية سانت بول، وجيء أمامها بالسجين، وقال أراندل "ينبغي أن نؤمن بما تعلم به كنيسة روما دون أن نسأل عما في ذلك من سلطان للمسيح". وطلب منه أن يعترف بأخطائه، وصرخ الكهنة في وجهه قائلين "آمن.. آمن". فقال السير جون "إني مستعد أن أؤمن بكل ما يريده الله، أما كون البابا له سلطان أن يعلم ما يناقض الكتاب فهذا ما لن أؤمن به". فساقوه مرة أخرى إلى البرج. وبعد ذلك بيومين جيء به مرة ثانية للمحاكمة في دير الدومينيكان، الذي امتلأ ردهته الكبيرة بجمهور غفير من الكهنة والشمامسة والفرير والكتبة وباعة صكوك الغفران، الذين هاجموا السجين بكل أنواع الكلام البذيء. وهنا لم يستطيع الفارس الشيخ أن يستمر في كتم غيظه فانفجر بإعلان نبوي عنيف ضد البابا والأساقفة، قائلاً بأعلى صوته "إن ثروتكم هي سم الكنيسة القتّال". فقال أراندل "ماذا تعني يا هذا بقولك سم قتال؟". فقال "أعني مقتنياتكم وعقاراتكم... انظروا أيها الرجال الواقفون وتأملوا في هذا: إن المسيح كان وديعًا ورحيمًا أما البابا فمتكبر وطاغ. إن روما هي وكر ضد المسيح ومن هذا الوكر يخرج تلاميذه" عندئذ حكموا بأنه هرطقي وأدانوه.

وإذا استعاد شجاعته وهدوءه جثا على ركبتيه ورفع يديه إلى السماء وقال "أعترف لك يا الله! أعترف بأني في شبابي أغظتك وأهنتك بكبريائي وغضبي وعدم طهارتي. من أجل هذه الذنوب أنا أرجو رحمتك وألتمس عفوك". وقد حاول أراندل بكل معسول الكلام أن يخفض من روح البارون العالية وأن يجعله يتزحزح عن موقفه، ولكن بلا جدوى "لن أؤمن بشيء خلاف ما قلته لكم. افعلوا بي ما تريدون. إنه من أجل كسر وصايا الله لم يلعنني واحد قط ولكن من أجل كسر تقاليدكم هاأنا وآخرون نعامل هذه المعاملة القاسية". فذكّروه أن اليوم كان يمر سريعًا وأن أمامه أحد أمرين إما أن يخضع للكنيسة وإما أن القانون لا بد يأخذ مجراه. فأجاب الفارس الأمين ووجهه لا يزال مبللاً بالدموع "لست أطلب عفوكم. إن عفو الله وحده هو الذي أحتاج إليه". وعندئذ قرأ أراندل حكم الإعدام بصوت واضح جهوري، وجميع

الإكليروس والشعب واقفون برؤوسهم عارية. وهنا قال كوبهام الجريء "هذا حسن. إن كان لكم أن تحكموا على جسدي فليس لكم بحمد الله سلطان على نفسي". وجثا مرة ثانية وصلي من أجل أعدائه، بعد ذلك عادوا به إلى البرج... ولكن قبل أن يأتي يوم تنفيذ الحكم هرب منه.

عندئذ انتشرت الإشاعات والأقاويل، وراحت ألسنة الكهنة والفرير تعلن في كل مكان عن مؤامرات يدبرها اللولارديون، وأنهم ينوون القيام بثورة عامة، فارتاع الملك، وفي الحال ابتدأت محاكمة حوالي أربعين شخصًا وحُكم عليهم بالإعدام. وصدر على الأثر مرسوم جديد غرضه محو اللولارديين، وكانت الحكومة تخاف أشد الخوف من رجل ككوبهام يقود الثورة، فأعلنت عن مكافأة مالية كبيرة لمن يقبض عليه، والظاهر أنه لم يكن هناك أي أساس لهذه المخاوف إلا في أكاذيب الكهنة وإشاعاتهم المختلقة، إذ أن اللورد كوبهام استمر مختبئًا حوالي ثلاث سنوات في ويلز، إلى أن قُبض عليه في ديسمبر سنة ١٤١٧م ونُفذ فيه الحكم في الحال.

استشهاد اللورد كوبهام

ذلك الفارس الشجاع والبطل الصنديد، الرجل الذي يكرمه الملك، نراه الآن يُساق بالإهانة والعار إلى ساحة الإعدام، حيث ذاق ألم الموت المزدوج. فقد علقوه على مشنقة فوق كومة من النيران الملتهبة ببطء وبعد ذلك أحرقوه حتى الموت. وقد حضر هذا المشهد المؤثر كثيرون من العظماء والكبراء. وقبل تعليقه جثا على ركبتيه وطلب الغفران لأجل أعدائه، وبعد ذلك وجّه كلامه إلى الجماهير المجتمعة حاثًا إياهم على اتباع وصايا وتعاليم الله التي دونها في كتابه المقدس، وأن يتركوا أولئك المعلمين المضلين الذين كل عيشتهم وسيرتهم على مثال ضد المسيح على خط مستقيم. وقد رفض خدمات الكاهن الذي تقدموا به إليه ليأخذ اعترافه قائلاً "الله الحاضر الآن كما في كل أوان ومكان، له وحده اعترف، ومنه وحده ألتمس الغفران". وهنا بكى الناس واشتركوا في الصلاة معه ولأجله. وعبثًا حاول الكهنة أن يقنعوا الشعب أنه كان يتألم كهرطقي وكعدو لله، فالناس كانوا يحبونه ويثقون به. وقد كانت كلماته الأخيرة الخارجة من أعماق اللهب وسط قرقعة النيران "حمدًا لله. حمدًا لله". وهكذا في مركبته النارية تحوطه ملائكة الله انضم في الأعالي إلى جيش الشهداء الشرفاء.

أتعابنا ستنتهي والحرب أيضا لا تعود
وفي النهار الأبدي نحل مع ذاك الودود

في ذلك الوقت كانت سجون لندن مليئة بالويكليفيين في انتظار انتقام هيئة الإكليروس وكهنة روما المزيفين، الذين كانت صرختهم المستمرة "يجب أن يُشنقوا من أجل الملك، ويُحرقوا من أجل الله". ومن ذلك التاريخ إلى وقت الإصلاح اشتدت ضيقاتهم وآلامهم، والذين نجوا من السجن والموت كانوا يُرغمون على عقد اجتماعاتهم الدينية في الخفاء. على أن النفوذ البابوي كان في الوقت نفسه آخذًا في التقلص بالتدريج، مهيئًا الطريق لحركة الإصلاح في القرن التالي.

أما هنري تشكيلي الذي خلف أراندل كرئيس أساقفة كانتربري، فلم ينسج على منواله فقط، بل فاقه في محاربته لجماعة اللولارديين، حتى أن ملنر يسميه "شعلة عصره"، فهو الذي كان يوغر صدر هنري في كفاحه مع فرنسا، مما أدى إلى وقوع حروب طاحنة كانت سببًا في هلاك نفوس بشرية لا عدد لها، كما جرّت الخراب والتعاسة على المملكتين. أما أراندل فيظهر أنه مات بيد الرب، ذلك لأنه بعد أن قرأ حكم الإعدام على اللورد كوبهام أصابه مرض في حنجرته كان القاضي على حياته. على أننا يجب أن نتركهم هنا ونتتبع روح الله الذي كان يعمل في بلاد أخرى، مهيئًا الطريق لحركة الإصلاح المجيدة في أوروبا (٥/٤٤)،(٣/٢٥)،(٦/٣٢)،(٦٢).

الفصل الحادي والثلاثون

حركة الإصلاح في بوهيميا

من المعزّي والمشجع حقًا أن نعلم أن حقائق الإنجيل المباركة التي كان يعلّم بها ويكليف وأتباعه لم تذهب عبثًا، بل كانت تزهر وتأتي بأكثر الثمرات بركة وأثبتها في البلدان المختلفة. فبالرغم من حرائق روما ومذابحها العديدة، كانت تلك الحقائق تتأصل بكيفية أعمق في قلوب الآلاف ومئات الآلاف في كل أنحاء أوروبا تقريبًا، فأسقف لودي قد أعلن في مجمع كونستانس الذي انعقد عام ١٤١٦م، أي بعد استشهاد كوبهام بسنة واحدة، وبعد ترجمة الكتاب المقدس بست وثلاثين سنة، أن هرطقات ويكليف وهس قد انتشرت وتغلغلت في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وهنغاريا وروسيا ولتوانيا وبولندا وألمانيا وفي كل بوهيميا، وبذلك شهد أحد الأعداء الحنقين، دون أن يدري أو يقصد، بما لزرع الله من تأثير وحيوية لا يمكن مقاومتها أو إطفاء جذوتها.

على أنه من اللازم هنا لكي نهيئ طريقنا لأن نتتبع آثار حبل نعمة الله الفضي في شهادة واستشهاد هس وجيروم بأن نقول كلمات عن الانقسام البابوي العظيم.

مجمع بيزا

في مستهل القرن الخامس عشر كان للكنيسة الكاثوليكية الرومانية رأسان أو باباوان متنافسان، أحدهما بندكت الثالث عشر في أفنيون والآخر غريغوري الثاني عشر في روما. كل منهما كان يدّعي أنه الممثل للمسيح على الأرض، وكل منهما كان يتهم الآخر بالتضليل والخيانة وأقبح الأمور السرية وأشنعها. وقد كان مسلك هذين الشيخين المتقدمين في السن، وقد تجاوز كلاهما السبعين من عمره، مخزيًا ومعيبًا، لدرجة أن أوروبا كانت تنظر بعين الاحتقار والغضب إلى ما كان دائرًا بينهما من صراع وشر وعناد. فما الذي كان يمكن عمله لتضميد جراح الكنيسة المنقسمة؟ ملوك وكرادلة كثيرون بدأوا في استعمال كل ما لديهم من قوة واستعطاف لإقناع الباباوين المتنافسين بالاستقالة، حتى يفسحا المجال لانتخاب واحد بالإجماع يحل محلهما، فوعد كل منهما بقسم أن ينسحب طواعية إذا كانت مصلحة الكنيسة تستدعي ذلك. ولكن ما كاد الوعد يخرج من شفاهما حتى تراجعا وخدعا كرادلتهما، وضربا بعهودهما عرض الحائط. فلما ثبت أنه لم يكن في الإمكان الاعتماد على كلامهما، وأنهما كانا رجلين بلا ضمير ولا شرف ولا دين، ثار كرادلة بندكت وانضموا إلى كرادلة غريغوري، واجتمع الفريقان في ليفورن لكي يتشاوروا فيما يمكن عمله لوضع حد لهذا الانقسام المخزي الطويل. وبعد البحث قرروا بأنه، نظرًا للظروف الحادثة، لهم كل الحق في أن يدعوا مجمعًا عامًا للفصل بين الباباوين المتنافسين وإعادة الكنيسة إلى وحدتها.

وقد اختيرت بيزا، وهي مدينة ذات أسوار في إيطاليا الوسطى، كأنسب مكان ينعقد فيه المجمع المشار إليه. كان هذا شيئًا جديدًا في المسيحية أن يدعو اثنا عشر كردينالاً بلا تفويض من بابا أو إمبراطور إلى مجمع، وقد أصبح "عصمة البابا" الآن معرضًا لأن يقف أمام محكمة جديدة، بعد أن تجرد من أعظم حق من حقوقه الموروثة، ولكن "قداسته" كان قد فقد احترامه بين الناس، لدرجة أن الكنيسة كلها بررت الكرادلة في اتخاذهم مركز السلطان عليه.

وافتُتح المجمع في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٤٠٩م، وكان المجمع من أعظم ما رأت المسيحية في كل تاريخها، وها نحن نكتب بعض تفصيلات قليلة تعطي للقارئ الحديث صورة لما كانت عليه المجامع الدينية العامة في تلك الأيام، التي كانت فيها الكاثوليكية الرومانية هي ديانة أوروبا. والذين

حضروا الاجتماع كانوا اثنين وعشرين كردينالاً، والبطاركة اللاتينيين للإسكندرية وأنطاكيا وأورشليم وغراد، واثني عشر رئيس أساقفة حضروا بأشخاصهم، وأربعة عشر حضروا ممثلين في أشخاص وكلائهم، وثمانين أسقفًا، ومائة واثنين نائب أسقف، وثمانية وسبعين رئيس دير ومائتي نائب رئيس دير، هذا بخلاف رؤساء الرهبان، وحاكم رودس العام ومعه ستة عشر قائدًا، وجنرال عام فرقة فرسان القبر المقدس، ووكيل قائد عام فرسان الرهبان التيوتون، ثم وكلاء جامعات أكسفورد وكامبردج وباريس وفلوارنس وكراكو وفينا وبراغ وجامعات أخرى كثيرة. ثم أكثر من ثلاثمائة معلم لاهوتي، ثم سفراء عن ملوك إنجلترا وفرنسا والبرتغال وبوهيميا وصقلية وبولندا وقبرص ودوقيات بُرجندي وبرابانت الخ الخ. وبالاختصار استمرت الطرقات والأنهار في كل الجهات تموج عدة أسابيع بهذه الشخصيات العظيمة، وتغطيها مواكبهم الفخمة، حتى أن بعضهم دخل بيزا وفي ركابه مائتان من الفرسان[1].

استمر المجمع يعقد جلساته شهورًا طويلة، وبعد مناقشات كثيرة قرر بالإجماع إدانة البابوين المتنافسين. وفي ٥ يونيو صدر حكم معلنًا أن كلا منهما هرطقي خائن متمرد محروم من ممارسة البابوية فيما بعد، وغير مستحق لأية كرامة، وأن الكرسي البابوي أصبح شاغرًا. وكانت الخطوة الثانية هي انتخاب بابا جديد، وهذه كانت مسألة أكثر صعوبة. فأين الرجل الذي يمتلك من الصفات والمؤهلات ما يستطيع به أن يكسب احترام الناس للبابوية؟ ذلك كان سؤال خطير في تلك الساعة. ولكن عشرة أيام أغلق فيها أربعة وعشرين كردينالاً على أنفسهم، كانت كافية لأن يخرجوا بعدها مقررين تعيين بطرس أوف كانديا كاردنيال ميلانو، البالغ من العمر سبعين عامًا باسم إسكندر الخامس. ولكن البابوين القديمين احتقرا قرارات المجمع، واستمر كل منهما يمارس أعماله كالبابا الشرعي. أما بندكت فصب جامات أناثيماته ضد المجمع وضد منافسيه. وهكذا فعل غريغوري بعد أن دخل في تحالف مع لادسلاوس ملك نابولي، الذي وجد الفرصة سانحة لتحقيق مطامعه القديمة. أما إسكندر الذي كان لا يزال بعيدًا عن الكرسي وعن مملكة القديس بطرس، فأصدر هو الآخر أناثيماته وتحريماته ضد بندكت وضد غريغوري ولادسلاوس الذي وضع يده على ممتلكات البابوية في روما.

ابتدأ الناس الآن يتهامسون في كل مكان بأن المجمع لم يحل الإشكال، بل زاده تعقيدًا، إذ بدلاً من وضع حد للانقسام قد أضاف بابا ثالثًا. وهنا أيضًا لا يسعنا إلا أن نتساءل: أين هي وحدة كنيسة روما الكاثوليكية موضوع الافتخار، ومن أي بابا يا ترى ستنحدر الخلافة الرسولية؟ إن البابوات الثلاثة الذين أتعبوا المسيحية وغطوا وجهها بالعار استمروا يتراشقون فيما بينهم بالتحريمات والتعييرات والأناثيمات. على أن إسكندر الخامس لم يعش إلا حوالي سنة واحدة، خلفه بعدها يوحنا الثالث والعشرون، وهو رجل يقول عنه المؤرخ موسهيم إنه لا مبدأ له ولا تقوى. وهنا كانت الصعاب أشد وأعظم من أي وقت مضى، فالمملكة البابوية وقد انقسمت على نفسها بهذه الكيفية ما كانت لتقوى على القيام، بل كانت قاب قوسين أو أدنى من خرابها النهائي. أمام هذه الحالة العصيبة اقترح البعض أن تتآزر القوات الأوروبية وتمحو اسم البابا وسلطانه من على الأرض، أو على الأقل تحدد سلطانه، فقد أصبح من الجلي أن البابوات أنفسهم لن يجودوا بأية تضحية شخصية في سبيل سلام الكنيسة، فما الذي كان يمكن عمله بعد ذلك لإيقاف هذه الحرب المخزية بين البابوات، وشفاء جراح الكنيسة المنقسمة؟ ذلك كان السؤال المحير في تلك الأزمة الخطيرة. لو كانت الكنيسة متروكة لذاتها لاستطاع لادسلاوس أن يضع يده نهائيًا على روما وكافة المقاطعات البابوية، ولترك كرسي القديس بطرس عرشًا بالاسم فقط. ولكن رؤساء الأرض لم يكونوا إلى الآن مهيئين لمثل هذا الانقلاب الديني، الذي كان يجب أن ينتظر حتى أيام فكتور عمانوئيل.

على أن سجيسموند إمبراطور ألمانيا، وملك فرنسا، وملوكًا وأمراء آخرين أظهروا اهتمامًا وعناية بصالح الكنيسة وكرامتها أكثر من البابوات الأنانيين، وتعاونوا معًا حتى استطاعوا أن يقنعوا يوحنا الثالث والعشرين بدعوة مجمع عام من كل الكنيسة لوضع حد نهائي لهذه المشكلة العظيمة.

مجمع كونستانس

وقع الاختيار هذه المرة على كونستانس، وهي مدينة إمبراطورية عظيمة على حدود الألب الألمانية، كمكان مناسب لمثل هذا الاجتماع الخطير، فهي مدينة مركزية يمكن الوصول إليها من

جميع جهات العالم، كما أنه بفضل بحيرتها العظيمة يتيسر الحصول فيها على المؤن اللازمة بسهولة. وقد أخذت الوفود تتقاطر عليها من كل حدب وصوب وبكثرة هائلة، حتى أنه قيل إن ما لا يقل عن ثلاثين ألفًا من الخيل دخلت كونستانس، وهذا يعطينا فكرة عن مبلغ ازدحام المدينة بالناس وحركة الأخذ والعطاء فيها، وكذلك عن كمية المؤن اللازمة التي كانت تأتي بها المراكب. فعلاوة على الشخصيات الدينية التي لا يُحصى عددها كان هناك ما يزيد عن مائة أمير، ومائة وثمانية كونت، ومائتي بارون، ومائتين وسبعين فارسًا. وقد أخذت الحفلات والمباريات وأنواع التسلية المختلفة تقام باستمرار للترفيه عن هذه الشخصيات العظيمة والترويح عنهم قيلاً، وسط مجهوداتهم المضنية الهائلة، كما كان هناك خمسمائة من المغنين والمطربين لملء أوقات هؤلاء الكهنة والأشراف، وتهدئة خواطرهم القلقة. فقد جاءوا وغرضهم شفاء جرح ضد المسيح الذي كاد أن يقضي عليه. ولكن ماذا تقول لنا حقائق التاريخ؟ لقد استمر هؤلاء الرجال زهاء ثلاث سنين ونصف ابتداء من ٥ نوفمبر سنة ١٤١٤م يملأون مدينة كونستانس الأثرية الهادئة بفضائحهم وشرورهم العلنية، حتى أن مجرد ذكر أمورهم المكشوفة، ولا نقول المستورة، كفيل بأن يدنس صفحات تاريخنا إن نحن دفعنا القلم لتسطيرها. إن القلب ليرتعب ارتعابًا كلما تذكرنا فساد وشر ورياء أولئك الآباء القديسين كما يسمونهم، إن لم نقل شيئًا عن قسوتهم الوحشية في حرق هس وجيروم.

كان الغرض من هذا المجمع العظيم مزدوجًا، أولاً لكي يضع حدًا للانقسام الذي عذب الكنيسة وأضناها كل هذه السنين الطويلة. وثانيًا للقضاء على هرطقات ويكليف وهس. أما عن الغرض الأول فقد استطاعوا أن يحلوه حلاً مرضيًا ولو إلى حين، ذلك أنهم قرروا أن البابا يجب أن يخضع لمجلس مكون من كل الكنيسة. وعلى هذا الأساس خلعوا يوحنا الثالث والعشرين، نظرًا لما في حياته من عيوب ونقائص، ولحنثه في القسم الذي حلفه للإمبراطور، وكذلك خلعوا غريغوري وبندكت، ومن جديد انتخبوا أوتو دي كولونا، الذي ارتقى عرش القديس بطرس باسم مارتن الخامس.

بعد ذلك جاء دور تعاليم ويكليف، التي كان يقوم هس وأتباعه بنشرها في مدن بوهيميا وقراها وفي جامعة براغ، فقد كانت هذه التعاليم بغيضة لأعضاء المجمع، وهي التي أخذوا الآن يوجهون إليها انتباههم.

انتشار الحق

إن زواج آني أميرة بوهيميا بريتشارد الثاني ملك إنجلترا ربط المملكتين بأوثق الربط، في الوقت الذي كانت فيه تعاليم ويكليف آخذة في الانتشار بسرعة كبيرة. وفي هذا يقول ملمان: "كان الطلاب البوهيميون يجلسون عند أقدام أساتذة أكسفورد اللاهوتيين، بينما كان الطلاب الإنجليز يلتقون علومهم في براغ، وبذلك انتشرت كتابات ويكليف في ألمانيا انتشارًا عظيمًا، البعض منها باللغة اللاتينية والبعض الآخر باللغة البوهيمية، وهناك وجدت لها أنصارًا كثيرين". وقد كانت الأميرة، التي شهد المبشرون والمؤرخون بتقواها ودراستها للكتاب المقدس، هي أول من تأثر بحركة الإصلاح في بلادها، وقد أحضرت معها إلى إنجلترا نسخًا من هذه الأناجيل مترجمة باللغة الألمانية والبوهيمية واللاتينية، وهذه كانت كنوزًا ثمينة في عيني واحدة مثلها تحترم وتحب كلمة الله الطاهرة النقية، ولكنها ترينا في الوقت نفسه، ولو بطريق غير مباشر، مبلغ التقدم والانتشار الذي كان للتعاليم الجديدة في ألمانيا في تلك الأيام الأولى.

وأول عمل قامت به هذه الأميرة في إنجلترا يدل على قوة نعمة المسيح في قلبها، ويبين الفرق الشاسع بينها وبين روح إيزابل المضطهدة. تقول مس ستريكلاند "عاد العروسان الملكيان إلى لندن بعد زواجهما ببضعة أيام، واحتفلت المملكة بتتويج الملكة احتفالاً رائعًا عظيمًا، وبناء على طلب الملكة الشابة أصدر الملك عفوًا عامًا يوم تتويجها. وقد كان الشعب المتضايق المسكين في حاجة قصوى إلى هذه الراحة التي جعلته يتنفس الصعداء من جراء الضيقات وأحكام الإعدام التي نفذت في أبنائه منذ ثورة وات تيلر، والتي لم يسبق لها مثيل في كل التاريخ. فالبلاد كانت مخضبة بدماء الفلاحين المساكين عندما أتت هذه الأميرة الرحيمة، وبشفاعتها الإنسانية وضعت حدًا لتلك المجازر الشنيعة. هذه الوساطة الكريمة أعطت لعروس ريتشارد لقب "الملكة الصالحة آني" ولم تنقص محبة الشعب لها على مر السنين في كل إنجلترا، بل كانوا يزدادون تعلقًا وإعجابًا وتقديرًا لهذه الأميرة المحسنة.

كم هو منعش حقًا أن نقابل مثل هذه الحالة من التقوى العديمة الرياء في أوقات صعبة كهذه، ومن واحدة تشغل مثل هذا المركز العظيم في سلم الحياة! على أن كثيرين مثلها وُجدوا في ذلك الوقت

في بوهيميا وأقطار أخرى. وبعد موت أني رجع أتباعها البوهيميون إلى بلادهم الأصلية، حاملين معهم الكثير من مؤلفات جون ويكليف الثمينة. هذه المؤلفات كان قد درسها كثيرون من الأجانب في أكسفورد، والآن أصبحت موضوع اهتمام ودرس أعضاء جامعة براغ.

وأشهر هؤلاء الدكاترة كان يوحنا هس من قرية بسيطة تدعى هاسينتز على الحدود البافارية، ولد حوالي عام ١٣٦٩م، ومن هذا يتضح أنه كان في الخامسة عشرة من عندما مات أستاذه ويكليف، الذي كان يحترمه ويعترف به. حقًا إنه من المشجع والمعزي أن نعود إلى الماضي متأملين في طرق الله وعناية لحفظ الحق وانتشاره. من كان يظن في ذلك الوقت أنه في بلدة صغيرة مجهولة في بوهيميا كان الرب يعد ويؤهل شاهدًا يحمل في دوره مصباح الشهادة ويسلمه بيد الاستشهاد لسلسة من الشهود المتعاقبين، وكان كفوًا وأهلاً لهذه الخدمة السماوية. يقول لنا التاريخ عن هس إنه تميز في صباه بحدة ذكائه وتواضعه ورزانتة، وطهارة حياته، طويلاً نحيفًا، له هيئة المفكر، لطيفًا وديعًا حلو المعاشرة، رقيق الجانب ومحبًا للجميع. ولما كانت مواهبه نادرة أرسله أبواه إلى جامعة براغ لكي يدرس اللاهوت ويستعد لخدمة الكنيسة. وهناك أظهر نبوغًا وتفوقًا كطالب، وقد تقدم بسرعة في مدارج الجامعة والكنيسة، حتى صار أب اعتراف الملكة صوفي، وتعين واعظًا في كنيسة الجامعة المسماة بيت لحم، نسبة للطعام الروحي الذي كان يوزع هناك باللغة الأهلية(٢/٣١).

وهذا أعطى الفرصة للواعظ الفصيح الجريء أن يعلن كلمة الله للشعب بلغتهم الأم، ونحن لا نشك في أنه فعل ذلك لأنه كان مسيحيًا مخلصًا وشاهدًا حقيقيًا للمسيح. ولكنه ككل المصلحين ربما كان همه في بادئ الأمر المناداة ضد المساوئ الحاصلة أكثر من تعليم الشعب حق الله الطاهر النقي. نحن مقتنعون أن هذا كان الحال بصفة عامة في كل نوع من أنواع الإصلاح، وإليه ترجع مشاهد القوة والقسوة التي كانت تلازم أحسن القضايا وأشرفها. فلو كانت أنظار الشعب توجه أولاً وقبل كل شيء، وببركة الله، لقبول الحق، وخاصة الحق كما هو في يسوع، لأمكن بكل تأكيد الوصول إلى الغاية بدون الالتجاء إلى إلهاب العقول والأفكار بأساليب اللهجة المتشددة ضد رذائل ظالميهم من الكهنة، ولكن كبرياء وترف ودعارة رجال الإكليروس والهيئة الدينية بصفة عامة كانت قد وصلت إلى حالة لا تطاق، حتى أن التشهير بهذه المساوئ والقضاء عليها دون المساس بتعاليم الكنيسة كانت هي الطريق الأمثل للوصول إلى قلوب الشعب في ذلك الوقت.

ولكن الله أحكم من الناس. وإذا كنا منقادين بكلمته فلا بد أن يكون غرضنا قيادة الجهال إلى محبة الحق واتباعه، بدلاً من أن نملأ أدمغتهم بكراهية الضلال، الأمر الذي إذا لم يكن مصحوبًا بمعرفة المسيح فلا بد أن يقود إلى الهياج والثورة والخراب. هذا المبدأ الإلهي ينطبق على أصغر المشاكل كما على أعظمها بين الناس.

فالأحسن دائمًا هو التنوير وليس التهييج، «وعبد الرب لا يجب أن يخاصم، بل يكون مترفقًا بالجميع، صالحًا للتعليم، صبورًا على المشقات، مؤدّبًا بالوداعة المقاومين، عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق، فيستفيقوا من فخ إبليس إذ قد اقتنصهم لإرادته» (٢تي ٢: ٢٤-٢٦).

اضطرابات داخلية

رغمًا عما كان عليه جون هس من طيبة وصلاح، فقد أغفل نصيحة الرسول الجميلة، واشترك أولاً في نزاع قام في الجامعة حول امتيازات الطلبة. ثم جاءت مقاومته للبابا غريغوري الثاني عشر التي أساءت إلى حليفه رئيس أساقفة بوهيميا إساءة عظيمة، فأصدر أوامره بتحريم هس، الذي مع ذلك ظلت له مكانة عظيمة لدى القصر الملكي والشعب، فلم يحدث له شيء بل استمر يلقي مواعظه باللغة القومية، ولكن بعد ذلك بأشهر قليلة قامت ظروف أشعلت من جديد نار النزاع الديني في بوهيميا.

فمن ضمن أعمال البابا يوحنا الثالث والعشرين أنه أرسل رسلاً ينادون بحرب صليبية ضد لادسلاوس ملك نابولي، ويقدمون صكوك الغفران كالمعتاد. وبينما كان باعة صكوك الغفران هذه يساومون الناس على أثمان بضاعتهم وقعت عليهم إهانات واعتداءات، فتداخلت السلطات في الأمر وصدرت الأوامر بالقبض على ثلاثة من مثيري الشغب وإعدامهم بصفة سرية. إلا أن الدماء التي سالت من السجن إلى الشارع فضحت السر ورفعت الستار عن مصير المسجونين، وجاءت النسوة يغمسن مناديلهن في تلك الدماء لكي يحتفظن بها كأثر مبارك ثمين، وهاجت مشاعر الجماهير إلى أقصى حد، فهجم الشعب على بيت السجن وأخذوا أجساد أولئك الشبان مقطوعي الرأس

وحملوهم على أكتافهم في مواكب عظيمة إلى مختلف الكنائس، وهم ينشدون ويرتلون تراتيل دينية، وأخيرًا دفنوهم في كنيسة بيت لحم مع الأزهار والرياحين والتقدمات العطرية التي توضع عادة على قبور الشهداء. ومن ذلك الوقت أخذ الوعاظ والكتّاب يشيدون بذكرى هؤلاء الشبان الثلاثة كقديسين وشهداء، وبذلك ازدادت النار اشتعالاً والمرجل غليانًا.

ولما كان جون هس يعلم أن السلطات تشتبه فيه بأنه هو المحرك الأول والرئيسي لكل المسألة، رأى أنه من الحكمة أن ينسحب مؤقتًا من المدينة. ولكن صدرت إليه الأوامر بالحضور أمام محكمة الفاتيكان، فلم يستجب لها. فأعلن الفاتيكان أن هس أصبح الآن تحت الحرمان هو والمكان الذي يقيم فيه. ولكن رغمًا عن هذه الحرمانات البابوية استمر هس يعظ في كل أنحاء المملكة. ولما كان الشعب هائجًا من ذاته هياجًا عظيمًا كان من السهل إثارتهم إلى أقصى حدود الحنق والغضب ضد رجال الإكليروس، حتى أصبحت المملكة كلها تقريبًا في جانبه، أو على الأقل ضد مساوئ الهيئة الإكليريكية.

اعتقال جون هس

لم تكن الاضطرابات التي نشأت من جراء هذه الحوادث قد هدأت عندما اجتمع مجمع كونستانس، فأرسل الإمبراطور سجيسموند، وهو صاحب الفكرة في عقد مجمع كونستانس، إلى زميله ملك بوهيميا أن يرسل هس إلى كونستانس متعهدًا بسلامته، بعد أن زوده بجواز سفر عليه أوامر واضحة وصريحة إلى جميع رعايا الإمبراطور أن يسمحوا لجون هس بالمرور والعودة بكامل الحرية والأمان. وقد أطاع هس دعوة الإمبراطور في الحال، لأنه كان يتوق أن تتهيأ له فرصة فيها يستطيع أن يعرض موضوعه على مجمع عام. ولذلك وصل إلى كونستانس قبل الإمبراطور. وفي الحال جيء به أمام البابا يوحنا الثالث والعشرين لفحصه. كانت كل تعاليمه معروفة، فلم تكن هناك صعوبة في مواجهته بسلسلة طويلة من التهم، ولما لم ينكر هذه التعاليم وأبى أن يتنازل عنها ألقوا به في السجن بتهمة الهرطقة، رغمًا عن تعهد الإمبراطور بحمايته وسلامته. ولكي يبرروا هذا العمل الذي يتنافى مع الشرف ويرضوا سجسموند أصدروا مرسومًا فحواه أنه لا ينبغي حفظ العهد والأمانة مع هرطقي.

انهالت الشكاوى الشديدة على الإمبراطور من بوهيميا. فلما سمع باعتقال هس غضب غضبًا عظيمًا وهدد بكسر أبواب السجن، ولكنه عندما وصل إلى كونستانس هدأ الكهنة الخائنون من غضبه بحجج من القانون الديني، مؤكدين له أن السلطة المدنية ليس من اختصاصها حماية الهراطقة، وأخيرًا حللوه من كل لوم أو مسئولية. فرضخ لمزاعمهم وسمح لأعداء هس أن يستمروا في خطتهم. وكانت النتيجة أن وضع هس في غرفة مظلمة ورطبة لا ينفذ إليها شيء من أشعة الشمس أو الهواء. هذا علاوة على مضايقات الكهنة والرهبان المستمرة، حتى أصيب هذا المصلح بمرض شديد. ومع ذلك فالإمبراطور المخدوع لم يعبأ بشيء من ذلك، لذلك فإن كثيرين من المؤرخين ينحون بأشد اللائمة على تصرفه الخائن، ويتهمونه بأنه انتهك الحق والشرف والإنسانية بتسليم هس لقمة سائغة لمشيئة الكهنة، فملمان يقول: "إن خيانة العهد والأمانة لا يقبل عنها عذر، والذنب مضاعف إذا صدر عن إمبراطور". بينما يقول آخرون إنه بتضحية هس على هذه الصورة جلب الإمبراطور على نفسه أتعابًا وارتباكات كثيرة طوال ما بقي من مدة حكمه. ولكن ماذا نقول عن المستقبل، المستقبل المظلم تحت ظل الذكرى الأليمة بترك خادم حقيقي للمسيح فريسة في أيدي كهنة روما القساة القلوب. إن المعلم الصالح لن ينسى في ذلك اليوم اقتران شخصه العزيز بشخص خادمه، وذلك بصورة مؤثرة إلى آخر حد «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم»(مت٢٥: ٤٠). ولكن إذا كان هذا مقدار ذنب الإمبراطور فكم يكون مقدار ذنب البابا ورجاله. إننا نترك الجواب للعرش الأبيض العظيم.

على أنه من ذلك الوقت أخذت الأهوال تحيط بالبابا من كل ناحية، فقد اقترح المجمع في أول جلساته ضرورة استعفاء الباباوات الثلاثة قبل البدء في انتخاب البابا الجديد. فوعد يوحنا، وهو الوحيد من بين الباباوات الذي كان حاضرًا المجلس، بأن يقدم استقالته من أجل سلام الكنيسة وأن يقرأ استقالته في اليوم التالي. ولكن الوعود والعهود والشرف لم تكن أشياء لها أي وزن عند يوحنا، فسرعان ما هرب من كونستانس بمساعدة بعض أصدقائه في زي عامل بريد. وغضب الإمبراطور وثار، وتراكض الجنود يتعقبون يوحنا بكل نشاط وحمية، حتى أمسكوه في سويسرا وجاءوا به أسيرًا. ولكنه على خلاف فريسته هس كان ملومًا، بلا شرف، بلا كرامة وبلا شجاعة، والتزم غصبًا

عنه بتسليم شارات سلطته الروحية العامة، وهي الختم البابوي وخاتم الصياد. ووقف روبرت هالام أسقف ساليسبُري، بصفته رئيس الوفد الإنجليزي، يعلن في ثورة من الغضب العادل أن بابا كهذا ملوثًا بالذنب والجريمة يجب أن يحرق موثقًا بالعمود. وعلى أثر ذلك ساقوه إلى قلعة جوتلبن، حيث كان جون هس مقيدًا لعدة أسابيع، وهناك بقي البابا المخلوع حتى نهاية المجمع الذي استغرق ما يقرب من أربع سنوات، ولكنه بعد أن تذلل عند أقدام البابا الجديد رفعوه إلى رتبة كردينال، وسمحوا له بأن يختم حياته بسلام. على أن شيئًا من هذا التساهل لم يظهروه للمصلح البار عديم اللوم، الذي سنتأمل باختصار في محاكمته وإعدامه.

محاكمة جون هس

في بدء الحركة ضد هس قام أسقف براغ ببحث دقيق لجمع مؤلفات ويكليف وترجماته. وإذ جمع حوالي مائتي كتاب مزخرفة بأجمل وأغنى الرسوم، أمر بإحراقها علانية في سوق المدينة العام. وقد اعتُبرت تعاليم هس مشابهة تمامًا لتعاليم ويكليف التي حكم عليها المجمع بأنها تعاليم هرطقية، وأصدر قرارًا بأن عظامه يجب أن تخرج من قبرها وتحرق، وكانت حيثيات لذلك بلغ عددها خمسًا وأربعين. علاوة على ذلك فقد اتهموا هس بأنه "مصاب بعدوى برص الولدانسيين". تحت هذين البندين الرئيسين، الويكليفية والولدانسية، أعدّوا له سلسلة طويلة من التهم، وكلها عن أمور لا يرضى عنها الإكليروس ورجاله.

ومع أن المجمع كان قد عقد النية على القضاء على هس وإعدامه، إلا أنه لم يكن يميل للدخول في فضيحة المحاكمة العامة، معتبرًا أن بعض الفقرات التي اقتبسها أعداؤه من مؤلفاته كافية لإدانته بدون محاكمة علنية. وعلى ذلك توالت عليه المضايقات والاضطهادات في جلسات خاصة، الغرض منها حمله على الاعتراف أو الرجوع عن أقواله، ولم تكن تخلو هذه الجلسات من الشتائم والتعييرات والإهانات المتكررة. وقد احتج على هذه السرية في التحقيق، وطلب أن يدافع عن نفسه أمام هيئة علنية من كل المجمع، وتقدم صديقه الأمين يوحنا شلوم، بمساعدة بعض الأشراف البوهيميين، والتمسوا من الإمبراطور أن يتدخل في الأمر. وكانت النتيجة من هذا التداخل أن فشلت مؤامرة الآباء، وصدر قرار بالمحاكمة العلنية.

وفي يوم ٥ يونيو سنة ١٤١٥م جيء بهس مكبلاً بالسلاسل أمام مجمع شيوخ المسيحية العظيم. وهنا قرأوا عليه سلسلة الاتهام، ولكنه عندما بدأ يبرهن على صحة تعاليمه بسلطان المكتوب وشهادة الآباء، حصلت ضجة من أعضاء المجمع، وضاع صوته وسط غارة الازدراء والاحتقار التي شنوها عليه، واضطر المجمع أن يؤجل إجراءاته. ثم بعد ذلك بيومين أحضروه مرة ثانية وحضر سجسموند نفسه لكي يحافظ على النظام.

كان المدّعون على هس هذه المرة عديدين، ولو أنهم كانوا أقل شغبًا من المرة الأولى. وإذا استثنينا شريفين أو ثلاثة من الأشراف البوهيميين فإن المصلح وقف وحده. ومع أن صحته كانت قد اعتلت بسبب طول الاعتقال، وقوته قد ضعفت جدًا بسبب المرض، إلا أن روحه النبيلة أبت أن تتراجع أمام قسوة مضطهديه وشدتهم. وقد أجابهم بكل هدوء ورزانة قائلاً "لن أتراجع ما لم تبرهنوا لي أن ما قلته مخالف لكلمة الله". ذلك كان جوابه في كل حالة. وعندما واجهوه بأنه كان ينادي بتعاليم ويكليف، اعترف بأنه قال ويقول: "إن ويكليف كان مؤمنًا حقيقيًا، وإن روحه الآن في السماء، وإنه لن يتمنى لنفسه راحة وأمنًا أكثر من راحة ويكليف وأمنه". قابل الآباء المحترمون هذا الاعتراف بانفجار عنيف من القهقهة الهازئة. وبعد أن استمروا بعض الساعات يتناقشون ويحتدون، صرفوا هس وانفض الاجتماع، فذهب هو إلى سجنه وذهبوا هم، أو غالبيتهم على الأقل، إلى مشاهد لهوهم ومجونهم الشنيع.

المجمع يرتبك

في اليوم التالي وقف هس مرة ثالثة أمام المجمع، ووقف مقرر المجمع يقرأ التهم الموجهة ضده وعددها واحدة وثلاثون، محتوية على أضاليل قيل إنه نادى بها في كتاباته ومواعظه وأحاديثه الخاصة، فكان هس ككل المصلحين الآخرين يتمسك بتعليم الخلاص بالنعمة بدون أعمال الناموس، وكان يؤكد أنه لا يمكن لأحد أن يكون عضوًا في كنيسة المسيح الحقيقية مهما كانت درجته أو رتبته، سواء أكان بابا أو كردينالاً، ما لم يكن تقيًا يخاف الله. فكان يقول "إن الإيمان الصحيح بكلمة الله هو أساس كل الفضائل". واستشهد على ذلك بأغسطينوس الذي يكرمه الجميع. كما كان يقول بأن الحجة الوحيدة لكل رجل من رجال

الكنيسة، سواء كان كاهنًا أو أسقفًا أو بابا، لتعزيز الادعاء بالخلافة الرسولية. هي أن تظهر الفضائل الرسولية في مثل هذا المدعي.

وقد اقتبس هس عبارة من أقوال سان برنارد جعلت لقوله الخطير وزنًا عظيمًا وهي "إن عبد الطمع ليس خليفة القديس بطرس، بل خليفة يهوذا الإسخريوطي". فارتبك المجمع، لأنه ليس من رجل إكليريكي كان يجرؤ على الاستخفاف أو الاستهزاء بأقوال مثل هؤلاء الآباء المحترمين.

وقد كانت التهم تتلخص في شيئين:

١- تعاليم روما المضلة. فقد أنكر هس التعليم البابوي الخاص بالخلاص بالأعمال وبالطرق الكثيرة التي تنص عليها الكنيسة.

٢- نظام البابوية الإكليريكي ومساوئه الشنيعة. وهذه قد شهر بها هس تشهيرًا مريرًا قاسيًا.

ولكن النقطة التي دارت حولها إدانته بصفة خاصة هي تمسكه الجريء بأنه ليس من وظيفة، سواء أكانت وظيفة ملك أو كاهن، لها أية قيمة أو اعتبار في نظر الله ما دام الملك أو الكاهن يعيش في الخطية المميتة. ولما سُئل في هذه النقطة بواسطة كردينال كامبري، الذي رأي خطورة موقفه في حضرة الإمبراطور، كرر هس كلماته بصوت مرتفع قائلاً "إن أي ملك يعيش في خطية مميتة ليس هو ملك بالمرة أمام الله". وقد ختمت هذه الأقوال مصيره، إذ قال سجِسموند "إنه لم يعش قط هرطقي عنيد كهذا". وقال الكردينال "ألم يكفك الحط من السلطان الإكليريكي حتى تريد أيضًا أن تخلع الملوك من عروشهم؟". وقال كردينال آخر "إنه يمكن أن يكون إنسان بابا أو أسقف أو ملكًا حقيقيًا حتى ولو لم يكن مسيحيًا حقيقيًا". فقال هس "لماذا إذاً خلعتم يوحنا الثالث والعشرين؟". فأجاب الإمبراطور "من أجل أعماله الردية الشهيرة". وهنا أصبح هس متهمًا بجريمة جديدة وهي: الجرأة في مواجهة خصومه وإرباكهم.

إنها لمشقة وملل أن نأتي على ذكر جميع التهم الباطلة التي كالوها له وواجهوه بها، وإجاباته الحازمة على كل منها. ولكن ما يأتي يمكن اعتباره ملخصًا لمحاكمته الطويلة. فقد شددوا عليه بإلحاح أن يسحب أقواله وأضاليله، وأن يعترف بالتهم، وأن يخضع خضوعًا كاملاً بلا شرط ولا قيد لقرارات المجمع ويتنازل عن كل آرائه. ولكن لا وعيد ولا تهديد استطاع أن يزحزحه، وهذه كانت إجابته "إن التنازل والتراجع هو أن ينكر الإنسان خطأ كان يتمسك به. ففيما يتعلق بالآراء التي نُسبت إليّ ولم أقل بها يومًا من الأيام فهذه أستطيع أن أتنازل عنها، لأني لم أكن أصلاً متمسكًا بها. أما عن المبادئ والآراء التي أتمسك بها فعلاً فأنا مستعد أن أتنازل عنها، وأتنازل عنها من كل قلبي، متى أنارني المجمع". فأجاب الآباء على هذه الصراحة والإخلاص من جانب فريستهم بالقول "إن مهمة المجمع ليست التعليم بل الحكم. إنه يأمر بإطاعة قراراته أو توقيع العقوبة". وهنا ارتفع صوت رعاة كونستانس، يطلبون إما تراجعه بلا قيد ولا شرط، أو إحراقه حيًا كهرطقي بغيض. وهنا تنازل الإمبراطور لكي يناقشه، ولكن هس كان يجيب بكل وداعة وحزم وتواضع رزين إنه يريد تعليمًا، وإنه لا يستطيع أن يتراجع عن أمور لم يقتنع أنها خطأ، فأعادوه إلى السجن، وذهب الفارس البوهيمي الأمين يوحنا شلوم، أنسيفورس زمانه، لكي يشجع ويعزي صديقه المنهك التعوب، حتى قال عنه هس "يالها من تعزية لي أن أرى هذا الشريف لا يستنكف أن يمد يده لهرطقي مسكين في السلاسل والأغلال قد نبذه الجميع".

حكم سجِسموند

إذ خلا جو المحكمة من السجين وقف الإمبراطور وقال "قد سمعتم التهم الموجهة ضد هس، بعضها اعترف به بنفسه، والبعض الآخر بالدليل وشهادة الشهود الصادقين، وفي اعتقادي أن كل جريمة من هذه الجرائم تستوجب الموت. فإذا لم ينكر بقسم كل أضاليله فلا بد من إعدامه حرقًا... إن الشر يجب القضاء عليه أصلاً وفرعًا. وإذا كان يوجد أحد من أعوانه أو تابعيه في كونستانس فيجب اتخاذ أشد الإجراءات ضدهم، خاصة تلميذه جيروم". وعندما بلغ حكم الإمبراطور إلى مسامع هس أجاب "لقد حُذِّرت من الثقة فيه، وها أنا أرى أني بالفعل كنت مخدوعًا. لقد حكم عليّ حتى قبل أعدائي".

بعد هذه المهزلة من المحاكمة وسماع الشهود تركوه في السجن حوالي ثلاثين يومًا. وفي هذه المدة زاره أشخاص كثيرون من أرقى المقامات، يستعطفونه أن يسحب الأخطاء التي نسبت إليه. وكان المعتقد أنه بسبب الضعف الجسماني المتزايد والإلحاح الشخصي قد ينغلب. ولكن هذا لم يكن، فذاك الذي كان معه ومنحه القدرة على أن يقف ثابتًا أمام التهديدات والإهانات العلنية، كان لا يزال معه، فاستطاع أن يقول "إني لو أنكرت بقسم

أخطاء نسبت إليّ ظلمًا وعدوانا فهذا لا يكون أقل من قسم زور". وهكذا أصبح مصيره في حكم المقرر، ولو أنه طوال مدة محاكمته وسجنه كان يظهر استعدادًا لأن ينكر أي رأي يمكن إثبات خطئه من المكتوب. والواقع أن الغرض الحقيقي من هذه الاستعطافات الخاصة من جانب الأساقفة كان لزعزعته عن ثباته وحمله على التراجع. ونحن نتفق تمامًا مع وادنجتن في وجهة نظره التي صورها بأسلوب رائع جميل إذ قال "إن كثيرين من الشخصيات الهامة الذين كانوا يختلفون من حيث الصفات ولكنهم يتفقون من حيث الرغبة في إنقاذ مصيره الأخير كانوا يزورونه في سجنه ويلحون عليه بمختلف الأساليب والحجج، ولكنهم فشلوا جميعًا أمام قوة ضميره ووحدة غرضه. وقد كان من بين هؤلاء الأشخاص واحد من ألد أعدائه، وهو المدعو بالنز. ولكن مشوراته وإن كانت قد نجحت في تحقير شخص المصلح، إلا أنها فشلت في الوصول به إلى موقف الخزي والعار".

وفي مساء اليوم الذي كان معينًا لإعدامه زاره صديقه الأمين الحميم يوحنا شلوم، صاحب الاسم الجدير بأن يُسجل في كل مكان بالاحترام والإكبار، الاسم الذي يبرز منفردًا بالعواطف المسيحية الحقة وسط هذا الجمهور الكبير ممن كانوا يسمون بالمعلمين المسيحيين. تقدم ذلك الشخص المسيحي النبيل الذي أثبت أنه كان لا يزال يوجد في العالم إنسانية، وأنه لا تزال توجد مسيحية حقة، تقدم ذلك النبيل وخاطب صديقه السجين قائلاً "أي معلمي العزيز. إنني لست عالمًا ولذلك لست أهلاً لأن أنصح واحدًا مستنيرًا مثلك، ومع ذلك فأنا أتقدم إليك بالرجاء أنه إذا كنت تعتقد في سرك بخطئك في أية خطإ من تلك الأخطاء التي نسبت إليك جهارًا فأنا أستعطفك بأن لا ترى أي عار في الرجوع عنها. ولكن إذا كنت بالعكس مقتنعًا ببراءتك، فأنا لا يمكن أن أشير عليك بمخالفة ضميرك، بل بالحري أشجعك على أن تحتمل كل أنواع التعذيب دون إنكار ما تعتقده حقًا". تأثر هس تأثرًا بالغًا بهذه المشورة الحكيمة المخلصة من صديقه الوفي الأمين، حتى لم يستطع أن يحبس الدموع في مآقيه، فقال وهي تترقرق على وجنتيه "إني أستشهد الله كم كنت مستعدًا، ولا أزال مستعدًا، أن أنكر بقسم ومن كل قلبي أي خطإ في نفس اللحظة التي أقتنع فيها بالبرهان من الكتاب المقدس".

هذا ومن الجلي الواضح في كل التاريخ، مهما كان كاتبه أو مصدره، أنه في كل آلام هس وثباته في موقفه لا يوجد أثر للكبرياء أو العناد. كان ثابتًا ولكنه كان وديعًا متواضعًا. كان ينتظر الموت ويتوقعه، وكان يستعد لملاقاته ولكنه لم يحاول أو يدبر للخلاص أو الهروب منه. كان يقول "لقد استأنفت إلى يسوع المسيح، القدير الكلي القدرة، الديان الكلي العدل. لقد طرحت قضيتي بين يديه، وهو الذي سيدين كل إنسان، لا بحسب شهود زور ومشورات خاطئة، بل بحسب الحق والاستحقاق". وقد كانت هذه آخر أقواله، وفي نظرهم ختام جرائمه، والساعة الرهيبة كانت تدنو وتقترب.

الحكم ضد هس

في صباح ٦ يوليو سنة ١٤١٥ اجتمع المجمع في الكاتدرائية. واستمر هس محجوزًا عند الباب كهرطقي، بينما كان القداس يقام. واتخذ أسقف لودي موضوعًا لموعظته النص القائل «ليبطل جسد الخطية» (رو٦:٦). وإنه من الصعب أن نقول هل بسبب الجهل المطبق أم بسبب الحقد والضغينة استطاع هذا الأسقف أن يحوّل كلمة الله حتى تتفق مع غرض المجمع. كانت الموعظة عبارة عن حملة شنيعة وتشنيع قاس ضد الهرطقة والهراطقة، وخاصة ضد هس الذي قال عنه إنه رديء كآريوس، وأردأ من سابليوس. وختم موعظته بتفخيم الإمبراطور والثناء عليه قائلاً له "إن مهمتك المجيدة هي القضاء على الهرطقات والانقسامات، وخاصة هذا الهرطقي العنيد" مشيرًا إلى هس الذي كان جاثيًا على مكان مرتفع يصلي صلاة حارة. بعد ذلك قرئت حوالي ثلاثين تهمة، وحاول هس مرارًا أن يتكلم ولكنه مُنع. وأخيرًا نُطق بالحكم الآتي "إن جون هس استمر عدة سنين يضل الناس ويغوي الشعب بتعاليم مضلة لا شك في هرطقتها ومخالفتها لتعاليم الكنيسة التي أدانتها، وخاصة تعاليم جون ويكليف. إنه داس عمدًا مفاتيح الكنيسة والتأديبات الكنسية. إنه التجأ ليسوع المسيح كالديان المطلق محتقرًا بذلك قضاة الكنيسة العاديين، وإن ذلك الالتجاء أو الاستئناف هو جارح ومزر، والقصد منه إهانة السلطة الإكليريكية. لقد تمسك إلى النهاية بأخطائه وأضاليله، بل اعترف بها علنًا أمام المجمع في هيئته الكاملة. من أجل ذلك قد صدر الحكم بعزله علنيًا وشلحه من الرتبة المقدسة كهرطقي عنيد غير قابل للإصلاح". عند ذلك صلى هس طالبًا الغفران لأعدائه، فقابل بعض

الأعضاء ذلك بالسخرية والاستهزاء، ولكنه في وسط هذه كلها رفع يديه وقال "انظر أيها المخلّص الكلي النعمة، كيف أن المجمع يحكم على ما أوصيت به ومارسته بأنه ضلال. إنك عندما اكتنفك أعداؤك سلمت أمرك لله الآب، تاركًا لنا مثالاً حتى عندما نحاط بالظلم نلجأ إلى قضاء الله". وفي سياق أقواله الختامية نظر إلى سجسموند نظرة ثابتة وقال "إني أتيت إلى هذا المجمع تحت حماية الإمبراطور العلنية"، فعلت وجه الإمبراطور سحابة من حمرة الخجل القاتمة عند سماعه هذا التوبيخ الفجائي غير المنتظر.

عزل جون هس وإعدامه

قام بمراسيم العزل المشئوم رئيس أساقفة ميلانو، يعاونه ستة أساقفة آخرين. ألبسوا هس ثياب الكهنوت، ووضعوا الكأس في يده، وأوقفوه على منبر عال كأنه مزمع أن يقوم بعمل قداس. وفي هذه كلها فاه الشهيد التقي بكلمة هادئة قائلاً "إن سيدي ومخلصي قد ألبسوه الأرجوان على سبيل الاستهزاء". فتقدم الستة الأساقفة ينفذون عملية الشلح. خلعوا ملابسه المقدسة واحدة بعد واحدة، ونزعوا الكأس من يده، وقصوا قمة رأسه بمقص، ووضعوا على رأسه تاجًا من الورق مرسومًا عليه صور شياطين ومكتوبًا عليه كلمة "هرطقي". وعندئذ كرّس الأساقفة "بخشوع وتقوى!" نفس الهرطقي لمناطق العذاب الأبدي قائلين "يا يهوذا الملعون، يا من تركت مشورة السلام ودخلت إلى مشورة اليهود، ها نحن ننزع هذا الكأس المقدس من يدك، الذي فيه دم يسوع المسيح". ولكن الله وقف بجانب عبده الأمين بشكل عجيب، وشجعه لأن ينادي بأعلى صوته "إني أثق في رحمة الله، لذلك سأشرب منها هذا اليوم في ملكوته". فأجاب الأساقفة على ذلك "إننا نكرس نفسك للأرواح السفلية"، فقال "ولكنني أستودع روحي في يديك أيها الرب يسوع المسيح. في يديك أستودع نفسي التي فديتها".

وبروح الاستهتار الخطير والرياء الجريء المخيف فكرت الكنيسة أن تبرئ نفسها من وصمة الدم، فأعلنت هس كمقطوع من الهيئة الإكليريكية ومنفلت من قبضة الكنيسة، ومسلّم كرجل علماني لانتقام السلطة المدنية. فانتقل الطريد المنبوذ إلى عهدة الإمبراطور، الذي أمر بإعدامه في الحال. وسرعان ما جاءت كتيبة مكونة من ثمانمائة فارس وجمهور كبير من المدينة، وقادت الشهيد إلى العمود، وفي الطريق وقفوا به أمام قصر الأسقف، حيث كانت النار تشتعل في كومة من كتبه التي كانوا قد أمروا بإحراقها. فلم يستطع هس إلا أن يبتسم أمام هذا الانتقام الضعيف. وحاول أن يخاطب الشعب والحرس الإمبراطوري باللغة الألمانية، ولكن القائد منعه وأمر بإحراقه. ومع ذلك فلم يكن هناك شيء يستطيع أن يزعزع سلام ذهنه. كان الله معه، فاستمر يرتل المزامير طوال الطريق ويصلي إلى الله بكل حرارة، حتى قال أهل المدينة "ماذا فعل هذا الرجل؟ لسنا نعلم. ولكننا نسمعه يقدّم أسمى الصلوات الحارة لله". وعندما وصل إلى مكان الإعدام جثا على ركبتيه وصلى طالبًا الغفران لأعدائه، واستودع نفسه في يدي المسيح.

وحتى بعد أن رُبط هس إلى العمود ووضعت أخشاب الوقود حوله سأله القائد إن كان يريد الآن أن يتراجع ويخلّص حياته، فأجاب بكل عزة ونبل "إن كل ما كتبته وعلّمت به كان الغرض منه تخليص النفوس من سلطان الشيطان وإنقاذهم من جبروت الخطية، والآن بكل فرح أختم بدمي على ما كتبته". عندئذ أشعلت الأخشاب وبقي هو ثابتًا يتحمل بيقين لا يتزعزع، ولكن آلامه كانت قصيرة، فقد سمح الرب بأن تتصاعد سحابة من الدخان وتخنق شهيده الأمين قبل أن تصل إليه النيران وتشويه. وبنغماته الأخيرة الضعيفة الخائفة سمعه المتفرجون ينشد بتسبيح الرب يسوع الذي مات لكي يخلصه.

وبعد أن فاضت روح جون هس والتهمته النيران جمعوا رماده وألقوا به في بحيرة مجاورة، ولكن نفسه السعيدة كانت قد أصبحت مع الرب يسوع في فردوس الله. أما تلاميذه وأتباعه المخلصون فقد دفعتهم تقواهم ومحبتهم لأن يقتطعوا قطعة من تربة بقعة استشهاده ويحملوها معهم إلى بوهيميا، وهناك بللوها بدموعهم واحتفظوا بها كأثر نفيس لشخص كريم لا يمكن أن يُنسى اسمه، بل يبقى دائمًا أبدًا عزيزًا مكرمًا محبوبًا.

هكذا رقد في الرب يسوع واحد من طلائع حركة الإصلاح الحقيقيين. وقد اعترف له المؤرخون بصفة عامة بأنه كان من أنقى وأفضل الناس، وأن تاريخ ثباته حتى الموت لم تلطخه لطخة واحدة من الفلسفة الكاذبة أو الكبرياء لتوقعه إكليل الحياة، بينما موته قد دمغ المجمع الذي أدانه والإمبراطور الذي خانه وحكم عليه، بدمغة العار الأبدي. أما صديقه المحبوب وأخوه في المسيح جيروم فقد لحقه بعد قليل إلى وطنه وراحته في الأعالي.

القبض على جيروم وسجنه

كان لأخبار سجن هس وقع شديد على نفس صديقه والعامل معه جيروم، فعندما سمع بمحاكمته تبعه إلى المجمع، ولكن هس أنذره بالخطر الذي كان محدقًا به. وإذ تأكد أنه لن يكون في أمان رحل إلى بوهيميا، ولكن قبض عليه هناك وجيء به إلى كونستانس مكبلاً بالأغلال. وبعد القبض عليه مباشرة، والسلاسل الثقيلة في يديه، أحضروه للفحص والتحري أمام المجمع. وهناك قام الكثيرون يتهمونه ويعيّرونه، ولكنه أعلن بثبات أنه مستعد لأن يبذل حياته في سبيل الدفاع عن الإنجيل الذي يكرز به. وهنا قرر المجمع تأجيل موضوعه حتى الانتهاء من قضية جون هس، وسلموه لرئيس أساقفة ريجو ليكون في حراسته. وقد كان هذا الأخير رجلاً وحشيًا قاسيًا، فعامله أقسى وأشنع معاملة. كان جيروم أستاذًا في اللاهوت، ولو أنه كان علمانيًا، وكان مشهودًا له بالتقوى والعلم والفصاحة. هذا الرجل المسيحي الكاثوليكي المحترم، الذي كانت له مكانة عظيمة في أرقى الهيئات الاجتماعية في بوهيميا، لم يتورع رئيس الأساقفة عن ربط يديه ورجليه في عمود خشبي طويل، وهكذا استمر عدة أشهر يقاسي ألم السجن والأغلال والظلمة والطعام القليل، دون أن يكون له أحد يشجعه أو يقويه، حتى صغرت نفسه وضعفت روحه تحت ثقل الآلام المبرحة، واستطاعوا أن يؤثروا عليه حتى ينكر تعاليمه، وخاصة تعاليم ويكليف وهس.

مسكين جيروم! بعد أن أنكر آراءه التي نسبت إليه أطلقوا حريته، ولكن هل وجد في هذا أمنه؟ فالمشاعر والإيمان والشرف والعدل، هذه كلها لم يكن لها وجود في المجمع، ولذلك سرعان ما زجوا به في السجن مرة أخرى على زعم أنهم يشتبهون في إخلاصه فيما قام به من تراجع واعتراف. هذا التصرف الجائر فتح عيني جيروم، واستخدمه الله لرد نفسه، فندم ندمًا على إنكاره وتراجعه، وعادت له شركته مع الله، وابتهج من جديد بضياء وجهه. وقد وجّهوا إليه تهمًا أخرى جديدة لكي يقودوه إلى مذلة أعمق، ولكن خصل شعر النذير كانت قد نمت في بيت السجن، وعند المحاكمة الأخيرة لما سمحوا له بأن يتكلم عن نفسه فاجأ أعداءه بأن إدانته لويكليف وهس وإنكاره لتعاليمهما كانت خطية شنيعة من جانبه، يندم عليها ندمًا مرًا. وابتدأ بالصلاة طالبًا من الله أن يسود على قلبه بالنعمة، حتى لا تنطق شفتاه بأي شيء سوى ما فيه مجده وبركة النفوس، وأخذ يقول "لست أجهل أن كثيرين من الرجال الأفاضل كانوا فريسة الشهود الزور وحكم عليهم ظلمًا وعدوانًا". وابتدأ يسرد قائمة طويلة من الكتاب المقدس، ذاكرًا يوسف وإشعياء ودانيآل والأنبياء ويوحنا المعمدان، والرب المبارك نفسه، ورسله وإستفانوس. وبعد ذلك أخذ يسهب في ذكر عظماء التاريخ الذين كانوا فريسة الاتهامات الباطلة والذين بذلوا حياتهم في سبيل الحق.

كان جيروم بليغًا وجريئًا في أقواله، حتى أثرت فصاحته على أعدائه وأثارت إعجابهم، وخاصة لما علموا أنه ظل ثلاثمائة وأربعين يومًا محبوسًا في سجن مظلم، وقد رجعت إليه كل شجاعته الهادئة، أو بالحري أصبح الآن يتكلم بقوة الروح القدس، فأعلن أنه لم يعمل في حياته عملاً سبب له حزنًا وندمًا مريرًا مثل إنكاره الأخير المقرون بالجبن والخوار، وصرح قائلاً "إن هذا التراجع الأثيم، أتراجع الآن عنه تراجعًا كاملاً، وإني مصمم على التمسك حتى الموت بتعاليم ويكليف وهس، موقنًا أنها تعاليم الإنجيل النقية الصحيحة، كما كانت حياتهما حياة مقدسة وبلا لوم". إزاء هذا التصريح لم تبق هناك حاجة لبرهان على هرطقته، فحكموا عليه بأنه هرطقي غير قابل للإصلاح، وكلفوا أسقف لودي هذه المرة أيضًا بموعظة الجنازة، التي جعل موضوعها النص الآتي «وبّخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم» (مر ١٦: ١٤)، مطبّقًا هذا الكلام بصفة خاصة على الهرطقي العديم الإصلاح الواقف أمامه. وهنا قال جيروم "قد حكمتم عليّ دون أن تثبتوا ضدي أية جريمة. وسيترك هذا لدغة في ضمائركم لن تزول، دودة لن تنعس أو تنام. إني أستأنف للديان الأعلى، الذي لا بد أن جميعكم ستقفون أمامه لتعطوا حسابًا عن هذا اليوم". ويقول بوجيوس الكاتب الروماني الكاثوليكي الذي كان حاضرًا حينئذ "إن كل أذن أُسرت وكل قلب مُس، ولكن المجمع كان مضطربًا جدًا ومتعسفًا للغاية". ونظير بولس أمام أغريباس كان جيروم بلا شك أسعد رجل بين هذا الحفل الكبير، فقد كان يتمتع بحضور سيده ومعلمه المبارك ووقوفه بجانبه.

إعدام جيروم

في يوم ٣٠ مايو سنة ١٤١٦ سُلم جيروم ليد السلطة المدنية. كان المجمع يظن باطلاً أنه بتكليف السلطة المدنية بأن تكون المنفذة لأوامره الدينية أنه يتجنب لطخة سفك الدماء التي لا تمحى. ولكن

الله لا يشمخ عليه، فقد قال عن أم الزواني «وفيها وُجد دم أنبياء وقديسين وجميع من قُتل على الأرض» (رؤ١٨: ٢٤) وهناك سيجد فيها الله الديان العادل دم هس وجيروم. كتب أحد الباباوات الذين جاءوا بعد ذلك، وهو إينياس سلفيوس خطابًا إلى أحد أصدقائه يقول "ذهب جيروم إلى عمود الحريق فرحًا مسرورًا كما لو كان ذاهبًا إلى احتفال بهيج. وعندما أراد الجلاد أن يشعل النار وراءه قال له جيروم: ضع النار أمامي من فضلك. لو كنت أخشاها لكان في ميسوري أن أتجنبها وأنجو منها. تلك كانت خاتمة رجل فاضل لا شك في تقواه. إنني كنت شاهد عيان لهذه الكارثة المفجعة، ورأيت كل شيء بنفسي". هذه هي شهادة اثنين من الكتّاب الرومان الكاثوليك - بوجيوس وسلفيوس - عضوين من أعضاء المجمع، شهدا عن تعسف المجمع وعن بطولة الشهيدين الأدبية. وقد استمر جيروم ينشد التسابيح والترانيم "بصوت عميق رزين" بعد ربطه في العمود، ورفع صوته منشدًا إحدى ترانيم القيامة التي كانت مشهورة في الكنيسة في ذلك الوقت، وتحمل نفس معاني ترنيمتنا العربية القائلة:

أين الشوكةُ يا موتُ ... وغلبةُ الهاويةْ
فها قمنا بانتصار ... للحياة الباقيةْ
عند ذا نهديك شكرًا ... أيها الربُ يسوعْ
وسنفرحُ جميعًا ... وستُمسحُ الدُموعْ

واستمر في اللهيب حيًا حوالي ربع ساعة، وكان من بين كلماته الأخيرة "أنت تعلم يا رب أنني أحببتك حقك". ولم يفه بأية كلمة تدل على خوف أو جزع، بل مثل هس استمر يرتل وسط اللهب إلى النفس الأخير، والملائكة الأطهار الذين كانوا في الانتظار حملوا نفسه إلى السماء حيث يكون هو وهس مع الرب.

تأملات في خصائص المجمع

لا يخطئ القارئ أو يتحير متى وضع مجمع كونستانس أمامه في حكمه على المبادئ التي كانت تسود الكاثوليكية الرومانية في معاملتها للمحتجين، أو الهراطقة كما كانوا يسمونهم. إن صفة إيزابل لا تتغير، فكما كانت بالأمس هي اليوم، وستبقى كذلك إلى النهاية، والأمر يتوقف فقط على وجود المحك لإظهار هذه الصفة. ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن حرق هذين المصلحين الفاضلين لم يكن بمقتضى حكم بابوي أو مرسوم صادر من محكمة روما، بل بمقتضى قرار من مجمع كنسي يمثل كنيسة روما بأكملها، بل في الواقع يمثل كل سلطات العالم الروماني بأجمعه، مدنية وكنسية.

إن عدم الاكتراث بتراجع جيروم المسكين الخائر، وخيانة عهد الأمانة من جانب الإمبراطور فيما يتعلق بسلامة هس، كلاهما أمران أثيمان ودنسان للغاية. فأية ثقة يمكن وضعها في كلمة أو وعد أو أقدس الأقسام من جانب هيئة تسير على مثل هذه المبادئ. إننا نترك الحكم للقارئ، ولكن أية لغة تستطيع أن تصف دناءة وجبن ونذالة مثل هذه المبادئ والأعمال، فها هو الحق والبر والشرف والعدل والإنسانية تضحى جميعها علانية على مذبح سيادة الكنيسة.

إن هرطقة هس وجيروم لم تحدَّد أو تعيَّن بدقة في أي وقت من الأوقات، ولكن يبدو أنهما ظلا إلى النهاية يتمسكان بعقائدهما القديمة الخاصة بالاستحالة وعبادة القديسين والعذراء مريم، ولكنهما شهدا ضد سلطان الإكليروس وطمعهم ومفاسدهم، وبهذه الشهادة العلنية أصابا ذات الأساسات التي يقوم عليها النظام البابوي بأجمعه، واستحقا أن تتوج رأساهما بأكاليل الاستشهاد. ولكن الله الذي هو فوق الجميع حوّل جميع هذه الحوادث لانتشار الإنجيل، الذي ظل مخفيًا أجيالاً طويلة، وكذلك لإعداد أوروبا وإنضاجها لقبول التغييرات التي كانت وشيكة الحدوث، والتي تناولت تقريبًا كل العلاقات بين الكنيسة والدولة في القرن السادس عشر. وعلينا الآن أن نلقي نظرة على الآثار المرعبة التي أحدثتها مراسيم هذا المجمع العام.

الحرب البوهيمية

كان لاستشهاد المعلمين البوهيميين أعظم الأثر على الشعب البوهيمي، فأثار فيهم شعور الغضب العام دينيًا ووطنيًا، وكان على الإمبراطور والبابا والأساقفة أن يدفعوا غاليًا وسريعًا ثمن ظلمهم الصارخ ونيران كونستانس الوحشية. فالجزاء لم يتوانَ، فقد وقّع أربعمائة واثنان وخمسون شريفًا وفارسًا من أبطال بوهيميا ومورافيا على خطاب للمجمع يحتجون فيه على إجراءاته وعلى التهم التي وجهها إلى تعاليم كنيسة بوهيميا بإحراق اثنين من أعظم وأشهر معلميها. ولكن المجمع أبى أن يصغي لهذه الاحتجاجات المنطقية، وصمم على عدم التنازل عن شيء. وقد برهن هؤلاء الآباء "القديسون" كما كانوا يسمونهم، على أنهم كانوا يهتمون بمسراتهم الشخصية أكثر

جدًا من اهتمامهم بصالح الشعب وراحته. ومع أنهم اجتمعوا لغرض إصلاح الكنيسة ظاهريًا، فإن الأثر الحقيقي الذي نجم عن مكوثهم أربع سنوات كاملة في كونستانس هو أنهم دنسوا كل المدينة وضواحيها، ونزلوا بمستوى الأخلاق فيها إلى الحضيض، لأن دعارة هذا المجمع واستهتار أفراده لم يكن لها مثيل.

وفي عام ١٤١٨م قبيل، انفراط عقد المجمع، أصدر البابا مارتن الخامس مرسومًا صليبيًا لشن غارة ضد الهراطقة، يطلب فيه من جميع السلطات الدينية والمدنية العمل على إبادة هرطقات ويكليف وهس وجيروم. فأصبح حل المشكل الآن يتوقف بدرجة كبيرة على السيف. وكان الكردينال الذي أرسله البابا مندوبًا في بوهيميا رجلاً قاسيًا، طالما هدد بإخضاع المملكة بالنار والحديد. وبصفته مندوبًا بابويًا أحرق عدة أشخاص رأي منهم مقاومة لسلطانه، مما أغضب البوهيميين وأثار حميتهم. واتحد أتباع هس وكونوا حزبًا قويًا وتعاهدوا فيما بينهم بأخطر العهود على تنفيذ مبادئ الإصلاح التي نادى بها رئيسهم الشهيد. وقد كان هس يحمل أشد الحملات ضد عادة الكنيسة في حرمان العلمانيين من كأس الشركة، فاتخذوا هذا شعارًا لهم، ورسموا صورة الكأس على راياتهم، وأخذوا يطوفون المملكة كلها وعلى رأسهم زسكا الأعور، وهو بطل حربي عظيم، يحضون في كل مكان على ممارسة العشاء الرباني بعنصريه الخبز والخمر.

وإذ وجدوا أن كنائس براغ قد أصبحت مغلقة في وجوه الإكليروس الذين اتّبعوا تعاليم هس، ابتدأوا يتطلعوا إلى أماكن يتسنى لهم فيها أن يتمتعوا بحرية العبادة. ففي يوليو ١٤١٩م انعقد مجمع عظيم من الهسيين على جبل عال جنوبي براغ، وفيه اتحدوا بصفة رسمية باحتفالهم جميعًا بعشاء الرب في الهواء الطلق. لا شك أن ذلك كان منظرًا بديعًا ومؤثرًا للغاية. هناك على قمة الجبل الفسيحة، نضدت ثلاثمائة مائدة، جلس عليها اثنان وأربعون ألفًا من الرجال والنساء والأولاد، يشتركون معًا في الخبز والخمر. وتلا ذلك وليمة محبة اشترك فيها الأغنياء مع الفقراء، ولكن لم يُسمح فيها بالشرب أو الرقص أو اللعب أو الموسيقى. هناك سكن الشعب في خيام، ولشدة تعلقهم بالأسماء الكتابية دعوا اسم المكان جبل تابور، حتى أصبحوا فيما بعد يطلق عليهم اسم التابوريين. وهناك دعوا أنفسهم "شعب الله المختار" ووصموا أعداءهم الكاثوليك الرومان باسم "العمالقة والموآبيين".

وهناك على جبل تابور أدانوا كبرياء رجال الإكليروس وترفهم وجشعهم ومساوئهم الأخرى. وقام زسكا يدعو المشتركين للتعاون في العمل على إصلاح الكنيسة.

هذه الجماعة العظيمة وعلى رأسها زسكا سارت أولاً إلى براغ، فدخلوها ليلاً، وفي الصباح سار موكب منهم بزعامة قسيس هسيّ، رافعًا الكأس بيده، وهكذا طافوا شوارع المدينة حتى وصلوا إلى دار البلدية حيث كان الحكام مجتمعين. وهنا أصيب القس بحجر، فتحمس الموكب بسبب هذه الإهانة وهجموا بعنف على دار البلدية، حيث وقعت معركة انهزم فيها الحكام، فقُتل بعضهم والبعض الآخر هرب والباقون ألقي بهم من النوافذ. وعلى ذلك انتشر الرعب في المدينة، وتسلح أصحاب الديانة القديمة الذين ابتدأ الهسيون يحاربونهم كأعداء الإيمان الصحيح. وأعلن زسكا وأتباعه أنهم خدام الله وأن مهمتهم إصلاح الكنيسة.

ولكن يا للأسف، فقد بدأوا عملهم بالتخريب والهدم وليس بالبنيان والإصلاح. فالأديرة هجموا عليها وسلبوها، والرهبان انقضوا عليهم وذبحوهم، والكنائس هدموها ودمروها، والتماثيل وآلات الأورغون والصور وكافة الأدوات الأصنامية كما كانوا يسمونها كسروها وحطموها. وامتدت الحركة إلى أماكن أخرى، فابتدأت عند ذلك حرب من أفظع ما شاهد التاريخ استمرت سنين وسنين طويلة.

انتصارات التابوريين

مات في ذلك الوقت ونسلاوس ملك بوهيميا. ولما لم يعقب وريثًا يخلفه آلت المملكة إلى أخيه سجِسموند، وهذا التغيير كان معناه إعلان الحرب من جانب حزب المصلحين. فسجِسموند في نظرهم كان خائنًا، فهو الذي أغرى هس للذهاب إلى كونستانس، وهو الذي تخلى عنه وتركه فريسة في أيدي خصومه القساة أعداء الإيمان الصحيح. وهكذا بغضبة التعصب الديني هجم المصلحون على كل شيء له علاقة بالديانة الرومانية وهشموه. وقد حولّ الإمبراطور انتباهه الخاص إلى المملكة الموروث عرشها حديثًا، ولكن بدلاً من أن يُقابل بالترحيب قوبل جلالته برفض سلطانه في كل مكان، وانهزم أول جيش صليبي أمام زسكا الغالب المنتصر، واضطر سجِسموند للفرار عبر أسوار براغ.

ولما كان أغلب أتباع زسكا من الفلاحين، لم يكن لهم في بادئ الأمر أدوات للحرب سوى آلاتهم الزراعية كالمجازف والنبابيت والطواري وما أشبه ذلك، حتى أن سجسموند أطلق عليهم سخرية وهزءًا اسم "الدرّاسين"، ولكنه أجبر سريعًا أن يشعر بقوتهم التي لا تقاوَم، وشدة الجروح التي أحدثوها. فزسكا كان قد علّمهم كيف يدرعون آلاتهم بالحديد، وكيف يصفّون عرباتهم الزراعية في ميدان القتال لتكون مثل قلعة كما كان في العصور القديمة. أما البابا مارتن الخامس، الذي كان الآن قابعًا بسلام وأمن في روما علم من على بُعد أن زسكا يشن الغارات بالنار والحديد في كل جهة، وأنه يذبح الكهنة والرهبان، ويحرق الكنائس ويهدم الأديرة ويصب جامات الانتقام على أعداء الإيمان الصحيح، ويستأصل الوثنية، معتبرًا أن ذلك مأموريته الإلهية. وكان على الفور أنه أصدر مرسومًا بناء على طلب الإمبراطور، داعيًا جميع المؤمنين لأن يقوموا لملاشاة الويكليفية والهسية والهرطقات الأخرى، واعدًا بالغفران الكامل لكل من يشترك في هذه الحرب، سواء كان شخصيًا أو بواسطة بديل، وعلى ذلك تعبأ جيش عظيم من كل ممالك أوروبا تقريبًا. اختلف المؤرخون في تقدير عدده بين مائة ألف ومائة وخمسين ألفًا.

ولكن روح الهسيين المعنوية كانت تتقوى وتتعاظم في جميع هذه المناسبات باتباع المثل الذي ضربوه لأنفسهم على جبل تابور، فكانوا يمارسون الشركة مُصممين أنهم يضحون أموالهم وممتلكاتهم، ويسفكون آخر نقطة من دمائهم في سبيل الدفاع عن الإصلاح، ولم يكن كأس الشركة مرسومًا فقط على راية التابوريين، بل كان يحمله كهنتهم وهم يسيرون في مقدمة جيوشهم.

دخل سجسموند بوهيميا على رأس جيش الصليبيين، مصممًا على سحق العصاة وإرغامهم على الطاعة، فأحرق بلا تردد المعلمين الهراطقة، وربط البعض الآخر بذيول خيله. ولكن ساعة الانتقام كانت قريبة، ذلك أن زسكا وأتباعه وهم يتوقدون غضبًا وحمية دينية انقضوا على الصليبيين وهزموهم شر هزيمة، بعد أن قتلوا منهم عددًا غفيرًا على تل بالقرب من براغ لا يزال يحمل اسمه. وبعد ذلك حصلت ملحمة أخرى فيها تشتت الجيش الإمبراطوري وفر جنوده مرتاعين، حتى لم ينجُ منهم سوى طويل العمر سريع العدو. عاود الإمبراطور الكرّة ثالثة ورابعة، حيث كان يغير على المملكة بجيوش جرارة، بلغ عددها في مرة من المرات مائتي ألف. ولكن جيش الكنيسة كان في كل مرة يفر هاربًا مذعورًا بعد أن يحل الارتباك في صفوفه، فلا يعود إلا بعد الهزيمة والفرار من أمام التابوريين الذين لا يقهرون. في بعض الحالات كانوا يطاردون ويقتلون أعداء الله والإيمان الصحيح، مفضلين ذلك على الرجوع إلى مواقعهم. وهكذا بلغت الوحشية من الجانبين مبلغًا فظيعًا، إذ كان التابوريين الذين يقعون بالمصادفة في أيدي أعدائهم يحرقون أحياء أو يباعون كعبيد. فكانت الحرب حرب انتقام وملاشاة، من أقدس الواجبات فيها القبض على أعداء الله وسفك دمهم وسلب أموالهم.

الجيش البابوي وهزيمته النهائية

بعد الهزائم المتقدمة أصبح الإمبراطور الكسير القلب متهمًا بالجبن الشخصي. فعقد عزمه على حرب صليبية خامسة يكون على رأسها كردينال، وقامت الاستعدادات على قدم وساق وبصورة أعظم، حتى كان من نتيجتها أن عبرت حدود بوهيميا أربعة جيوش جرارة يبلغ عددها مائتا ألف من الرجال، بينما قوة التابوريين التي استطاعوا جمعها لم تزد على واحد وثلاثين ألفًا. ولكن حملة البابوية العظيمة انتهت بالفشل وأعظم العار والخزي. فعندما وقع نظر الألمان على زسكا بعرباته الخشنة ذابت قلوبهم وملكهم الرعب، ولم يحتفظ بشجاعته وبسالته سوى الكردينال جوليان. وإذ كان يتقدم إلى الأمام قابل جنوده الفارين، فرفع الصليب في وجوههم واستعطفهم بأقدس الاعتبارات الدينية أن يعودوا ثابتين، ولكن بلا جدوى، فاضطر هو نفسه للهروب، وبالكاد استطاع أن ينجو متخفيًا في زي جندي اعتيادي، تاركًا وراءه المرسوم البابوي ووظيفة الكردينال وملابسه الكهنوتية. وقد حُفظت هذه المخلفات مدة قرنين كاملين في كنيسة تاس، كما عُلقت الرايات المأسورة في كنيسة ترون بمدينة براغ. أما الألمان فقد فقدوا عشرة آلاف رجل في أثناء هذا الفرار المخزي، علاوة على كثيرين لحق بهم الفلاحون وقتلوهم.

بعد أن حمل زسكا لواء الحرب زهاء ثلاث عشرة سنة مات، وعمل عليه التابوريون مناحة عظيمة، وكان حزنهم عليه مفرطًا لهذا الحد، حتى أنهم أصبحوا يطلقون على أنفسهم اسم "اليتامى". وقد خلفه بروكوبيوس، وهو اسم ليس أقل شهرة في تاريخ الحرب

البوهيمية. على أن الإمبراطور لم يعد بعد ميالاً لمواصلة هذه الحرب المخزية، فسيف زسكا المنتقم قد جرده من مجده في ساحة الحرب، وهدم آماله في تقوية الكنيسة، إذ في موقعة أوسيج سنة ١٤٢٦م مات من الألمان ما بين تسعة آلاف وخمسة عشر ألف رجلاً، بينما لم يفقد البوهيميون سوى خمسين رجلاً. وفي الوقت نفسه تلاشت كل كرامة للديانة الرومانية، واكتسح الفيضان كل احترام خارجي كان له أثر في النفوس لهذه الديانة، فالكنائس أُحرقت بمن احتموا فيها، وأديرتها التي وصفها المؤرخ سلفيوس بأنها كانت أكثر عددًا وأفخم بناء وأعظم زينة من كنائس وأديرة أي مملكة أخرى في أوروبا أبادها التابوريون عن آخرها باستثناء عدد قليل جدًا منها، حتى أن ما يزيد على ٥٠٠ كنيسة ودير بكل ما فيها من آثار ورموز وتماثيل وثنية دُمرت تدميرًا كاملاً.

ذلك كان مقدار انتقام العناية المريع الذي أوقعه الله في معاملاته العادلة على قتلة هس وجيروم، وهكذا حل الافتقاد المخيف بقسوة لا مزيد عليها على كلا الإمبراطورية الرومانية وكنيسة روما.

الانقسامات الداخلية

لم يكن الهسيون جميعًا ذوي رأي واحد فيما يتعلق بشروط المعاهدة التي كان مزمعًا عقدها. فكانوا منقسمين إلى فريقين: فريق منهم يسمى "الكأسيون" (نسبة إلى الكأس) وهم الحزب المعتدل، وكانوا مستعدين لأن يتنازلوا عن كل مطلب آخر بشرط أن يُعاد الكأس للعلمانيين، وأن يُصرح بقراءة كلمة الله. وفريق آخر وهم التابوريون ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك، فتمسكوا بتعاليم هس وطلبوا زيادة عن الاشتراك في عشاء الرب بعنصرية أن يعاد إصلاح الكنيسة إصلاحًا كاملاً، ومعنى ذلك إلغاء جميع الأخطاء والأعياد والاحتفالات البابوية، وإقامة نظام متين يتفق مع كلمة الله من حيث التعليم والتأديب.

وهنا وجدت الخيانة - وهي وسيلة روما التي لا تخيب ولا تفشل - طريقًا مفتوحًا لامتلاك ناصية الهسيين المنقسمين على أنفسهم. فتقرر في مجمع بازل تعيين روكيزان، وهو أحد الأساقفة المعتدلين الفصحاء، رئيسًا لأساقفة براغ، حتى بواسطته ونفوذه يصلون إلى أغراضهم. وقد تم الاتفاق في ذلك المجمع على أربع مواد سميت "العهد" وبمقتضاه قُبل الكأسيون الطيعون مرة ثانية إلى أحضان الكنيسة، ولكن ما لبثت الامتيازات التي نالوها أن ألغاها البابا بعد ذلك بقليل. أما التابوريون الذين رفضوا إمضاء العهد فأصبحوا موضع الاضطهاد من كل من أصحابهم القدماء الكأسيين ومن الكاثوليك، ولكن بدلاً من المقاومة بحد السيف المادي كما في أيام زسكا وبروكوبيوس انفتحت أعينهم إلى الحقيقة المباركة، وهي أن الإيمان بالله والصبر والمثابرة على الأعمال الحسنة، مع صلاة الإيمان، هي أسلحة الجندي المسيحي الحقيقية. وقد كان من روكيزان، الذي كان لا يزال يضم بين جوانحه شيئًا من العطف على أصدقائه القدماء، أن نال من الملك تصريحًا للتابوريين المضطهدين أن ينزحوا إلى مقاطعة ليتتز على حدود مورافيا وسيليسيا، وهناك ينشئون لأنفسهم مستعمرة يقيمون فيها عبادتهم الخاصة ونظامهم الكنسي الذي يريدونه.

الإخوة المتحدون

كانت أول هجرة إلى مورافيا في سنة ١٤٥١م، وقد انضم إليهم كثيرون من سكان براغ وبعض أشرافها وعلمائها، علاوة على بعض الكأسيين الأتقياء، وأصبحوا من الآن يطلقون على أنفسهم اسم الإخوة المتحدين. وهذه الهجرة كانت نواة لهيئة لا تزال قائمة إلى يومنا الحاضر. وقد تمتعوا لثلاث سنين في البداية بالسلام وحرية الضمير، وبرزت فيهم منذ ذلك التاريخ المبكر روح الإرساليات التي امتاز بها أهل مورافيا في جميع العصور. وهنا نستطيع أن نرى حبل نعمة الله الفضي ومحبة المخلِّص والغيرة المسيحية تلمع بضيائها البهيج. لم يكن في إمكاننا رؤية شيء منها عندما كانوا يستخدمون الأسلحة الجسدية للدفاع عن حق الله، ولكن سرعان ما أشرقت نعمة الله فيهم وأخذ عددهم يتزايد، حتى بدأ كهنة روما ينظرون إليهم بعين الخوف والقلق. فالكثير من النفوس خلصت بواسطة تبشيرهم وتكونت جمعيات في أنحاء مختلفة من المملكة.

فقام الرهبان والفرير يطوفون البلاد وينشرون الإشاعات والأراجيف فيما يتعلق بمسلك التابوريين، فادّعوا عليهم بأنهم يجمعون الجيوش استعدادًا لإحداث ثورة وقلب العرش وامتلاك ناصية الحكم في البلاد، فارتاع الملك. وإذ خاف روكيزان المذبذب أن يفقد هيبته في الكنيسة انحاز إلى الكاثوليك، وحرض الكأسيين

لأن يتحولوا ضد إخوتهم، الذين صدر قرار باعتبارهم هراطقة غير قابلين للإصلاح، وكان من نتيجة ذلك أن انفجر بركان شديد من الاضطهاد ضد الإخوة المبشرين. ولكن يظهر أن التبن كان قد فُصل من الحنطة، لأنه خلافًا لأيام زسكا، عزم جيل الهسيين الجديد ألا يستعملوا أي سلاح جسدي للدفاع عن أنفسهم أو إيمانهم، وكل ما خلفه لهم آباؤهم الأقدمون من شجاعة عظيمة في ميدان القتال ظهر فيهم الآن في صورة أخرى، وهي الصبر العظيم في احتمال الآلام من أجل المسيح، فلم يفقدوا نشاطهم في وسط أشد الضيقات والأهوال، مع أنه صدرت المراسيم بحرمانهم من التمتع بالحقوق العامة كرعية، واغتُصبت أموالهم، ووصل بهم حد الاضطهاد أن طردتهم الحكومة من بيوتهم في شدة برد الشتاء القارس، واضطرتهم إلى الهيام على وجوههم وسط الحقول بلا مأوى ولا مأكل، حتى هلك الكثيرون منهم بسبب البرد والجوع. وقد امتلأت سجون بوهيميا، وخاصة سجون براغ، بالإخوة الذين وقعت عليهم كل أنواع الآلام والتعذيب، وبعضهم قطعت يداه ورجلاه، وآخرون فصلت عظامهم بآلة التعذيب المعروفة بالمطاطة، أو حُرقوا أحياء أو قتلوا غيلة. وقد استمرت هذه الأعمال الوحشية زهاء عشرين سنة دون أن تخف في وقت من الأوقات. على أن موت الملك عام ١٤٧٠م، وتوبة روكيزان رئيس الأساقفة، كان لها أثر في تخفيف حدة الاضطهاد. فلم يعد الإخوة يُعذبون، بل اقتصر الأمر على طردهم من المملكة. وإذ اضطر الإخوة المتحدون إلى مغادرة بيوتهم في ليتتز ومدن وقرى أخرى رأوا أنفسهم مرغمين على السكن في الغابات ومغاير الصخور حيث كانوا يشعلون النار ليلاً.

ومن الغريب في أمر هؤلاء الإخوة أنهم وهم مطرودون في الغابات ومغاير الصخور لم ينشغلوا فقط بتعزية بعضهم بعضًا، بل وجهوا انتباههم أيضًا إلى تكميل ما أسموه "نظام الكنيسة" ناسين، ككثيرين غيرهم، أن الله قد أكمل نظام الكنيسة في يوم الخمسين، وأعلنه لنا واضحًا جليًا في كلمته المقدسة. وقد اجتمع منهم حوالي سبعين شخصًا في الغابة في هيئة سنودس، واتخذوا قرارين كان لهما أكبر الأثر في مستقبل المورافيين:

١- ضرورة إيجاد أناس صالحين للخدمة الكنسية.

٢- وجوب اختيارهم بالقرعة نظير متياس في الأصحاح الأول من سفر الأعمال.

وقد كان مبدؤهم الرئيسي أن الكتاب المقدس هو الدستور الوحيد للإيمان والسلوك، وفي الوقت نفسه فرّقوا بين ما هو جوهري وما هو غير جوهري، وفيما هو غير جوهري تركوا مجالا فسيحًا للمشيئة الإنسانية والخيال. فقد قالوا إن الجوهريات هي ما تتعلق بموضوع خلاص الإنسان، وغير الجوهريات هي ما تتعلق بمظهر المسيحية الخارجي، كالطقوس والمواسم والعادات والقوانين الكنسية، وأن هذه كلها يجوز تعديلها بحسب تقدم الفكر الإنساني، حتى بذلك يتسنى لعمل الإنجيل العظيم أن ينمو وينتشر. وهذه طبعًا أفكار البشر، وليست قاصرة على جماعة المورافيين. وهو ما يعبر عنه عادة بالقول "الغاية تبرر الوسيلة". ولكن الشيء المؤكد الذي لا شك فيه هو أن كل ما أعلنه الله لا يمكن مطلقًا أن يكون غير جوهري، وما لم يعلنه يجب أن لا يدخل بأي حال من الأحوال في الكنيسة.

والإخوة الذين نُفوا من مورافيا قوبلوا بالترحيب في هنغاريا ومولدافيا، حيث تميزوا هناك بروحهم التبشيرية العظيمة وأتعابهم الدينية الأخرى. وحوالي سنة ١٤٧٠م نشروا ترجمة الكتاب المقدس كله باللغة البوهيمية، فكانت هذه ثاني ترجمة للكتاب المقدس ظهرت في التاريخ باللغات الأوربية، وقد تضاعفت نسخها بسرعة عظيمة. وبهذه الكيفية استطاع ذلك الشعب الغيور أن يهيئ الطريق للوثر وملانكثون وكلفن.

اتصال حبل الشهود

قبل أن نترك موضوع المورافيين يجدر بنا أن نذكّر القارئ بما كان لهم من صلة قديمة بالولدانسيين، إن لم يكن بالبولسيين. فقد استمرت بوهيميا ومورافيا في الوثنية حتى القرن التاسع عندما قبلوا الإنجيل على أيدي مبشرين شرقيين. ومن المرجح أنهم كانوا من البولسيين. وفي القرن الثاني عشر عندما طُرد بطرس والدو من ليون بعامل الاضطهاد ذهب إلى بوهيميا، حيث استمر يخدم ويعمل زهاء عشرين سنة بنجاح عظيم. وفي القرن الرابع عشر بلغ عدد أتباعه في بوهيميا حوالي ثمانين ألفًا، وفي كل أوروبا حوالي ثمانمائة ألف. فعندما رأت روما اتحاد المسيحيين البولسيين والولدانسيين والبوهيميين والمورافيين، وغيرتهم الشديدة في العمل، وطريقة عبادتهم التي لا تروقها، هاج هائجها

وصممت على إخضاعهم للنير الروماني. فصدرت الأوامر تنص على مبدإ العزوبة، وحرمان العامة من الكأس وممارسة الخدمة في الكنائس باللغة اللاتينية. وهنا ابتدأ الكفاح، وأخذ البوهيميون يحتجون، وروما تضطهد. ومع أن الكثيرون استمروا ثابتين، إلا أن عددًا كبيرًا خارت عزائمهم بالتدريج، وفقدوا الكثير من طهارة تعاليمهم الأولى وبساطة عبادتهم. وهكذا استمر الحال على هذا المنوال زهاء ثلاثمائة سنة، حتى ظهر جون هس وجيروم يحملان راية الحق من جديد ويشهدان ضد مفاسد روما، وفي النهاية تشعل نيران استشهادهما نورًا سرعان ما انتشر في أرجاء أوروبا كلها بتداخل الله وعنايته الصالحة. والطريقة المعجزية العجيبة التي سار بها هذا النور وانتشر، هي التي ستكون موضوع تأملنا فيما يلي(٤٦)،(٣/٣٩)،(٦/٤٣)،(٣/٢٥)،(٣/٣١)،(٣/٢١)،(٥١).

الفصل الثاني والثلاثون

الاستيلاء على القسطنطينية

حوالي سنة ١٤٥٣م، بعد حصار دام ثلاثة وخمسين يومًا، سقطت عاصمة المسيحية الشرقية في أيدي الغزاة الأتراك. وقد أظهر الإمبراطور الذي كان اسمه على اسم مؤسس القسطنطينية، بسالة عظيمة أثناء الحصار، فقد طرح اللباس الملكي وحارب في الميدان حتى سقط قتيلاً هو والأشراف الذين كانوا يحيطون به، وقد كان هو آخر سلالة قسطنطين الكبير وآخر إمبراطور مسيحي للقسطنطينية. ومعظم السكان الذين بقوا بعد ذلك بيعوا كعبيد أو قُتلوا بحد السيف، وحلت محلهم خمسة آلاف أسرة تركية أحضرتها الحكومة العثمانية للسكن في المدينة. وأعقب ذلك من فظائع التخريب والقسوة وهتك الأعراض ما يجلّ عن كل وصف، أما كنيسة أياصوفيا الأثرية فقد جردوها من كل ما كانت تزدان به من نفائس العصور والأجيال، وكسروا كل التماثيل، وبعد أن ارتكبوا فيها أشنع الفجور والآثام حولوها إلى مسجد. وكافة كنوز الآداب اليونانية القديمة، التي بلغ عددها حسب بعض المؤرخين مائة وعشرين ألفًا من الكتب الخطّيّة أحرقوها أو بددوها. وقصارى القول كان الفتح تامًا، ونقل السلطان الفاتح محمد الثاني كرسي حكمه في الحال إلى القسطنطينية، التي اتخذها من ذلك الوقت عاصمة جديدة لملكه.

على أن ذلك لم يشبع أطماع ذلك العثماني الشرس التي لم تكن لترضى بأقل من إخضاع المسيحية جمعاء. والواقع أنه يظهر من فتوحاته السريعة وانتصاراته المتوالية على الولايات المسيحية في الشرق أنه لو لم يتداخل الموت وينقذ العالم من طاغية مثل هذا لكان من المحتمل أن تتغلغل في فتوحاته إلى قلب أوروبا. وأية مدينة أو أية مملكة أو أية قوة كانت تستطيع أن توقفه؟ كل أوروبا كانت ترتعد، وخاصة إيطاليا، حتى أنه قيل إن أخبار سقوط القسطنطينية عجلت بموت نيقولا الخامس، لأن الحزن والخوف كسرا قلب ذلك الشيخ المسن. ولكن السلطان الفاتح بعد أن أخضع وقلب إمبراطوريات وممالك ومدن لا عدد لها مات في سن الخمسين على أثر آلام في بطنه، يُحتمل إنها نتيجة سم.

وقد أحدثت أخبار هذه الكوارث والأهوال التي حدثت في الشرق رعبًا في الغرب. ولكن الشيء الذي كان يهدد تقدم المدينة وانتشار المسيحية حولته عناية الله الصالحة الكلية الحكمة لامتداد كليهما بطريقه مدهشة عجيبة. فسقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين دفع بالكثيرين من علماء اليونان إلى الرحيل إلى إيطاليا، ومن هناك إلى ممالك أوربية أخرى. في ذلك الوقت كان البابا نيقولا الخامس المشهور بغرامه بالآداب يستخدم سلطانه وثروته في العمل على تقدمها وانتشارها، وقد أحضر المهاجرون معهم كل ما استطاعوا ينقذوه من الكتب، وبذلك تجددت الرغبة في إحياء اللغة اليونانية، التي أصبحت في ذلك الوقت منتشرة انتشارًا عظيمًا. وقد شاء الله أن يقيم من بين طلابها ودارسيها رجالاً ذوي عقول مستنيرة وقلوب تقية مخلصة، عملوا كثيرًا على إعداد الطريق لحركة الإصلاح العظيمة.

اختراع الطباعة وتقدم صناعة الورق

في نفس الوقت كان الرب يجعل «كل الأشياء تعمل معًا للخير» (رو٨: ٢٨)، بكيفية مدهشة وعجيبة، فهذان العاملان الصامتان - فن الطباعة والورق - استخدمهما الله لأن يسبقا صوت مبشريه. هذان الاختراعان الشقيقان تقدما تقدمًا عظيمًا في النصف الأخير من القرن الخامس عشر، الأمر الذي لأجله نرفع قلوبنا بالحمد والشكر العظيم لله.

وصلنا الآن إلى نقطة فاصلة في تاريخنا، ليس فقط في تاريخ الكنيسة، ولكن في تاريخ المدنية والحالة الاجتماعية في ممالك أوربا، وفي الأسرة البشرية بصفة عامة.

إنه لمن الجميل أن نقف هنا قليلاً لكي نتأمل في المشهد الذي حولنا، لنرى اليد الإلهية تجمع كل شيء لخير وصالح الجميع، وإن كانت هذه الأشياء بحسب الظاهر لا رابط بينها: سقوط إمبراطورية.. هروب بعض علماء يونانيين بكنوزهم الأدبية والعلمية.. قيام نهضة فكرية في العالم الغربي بعد سبات عميق طويل.. اختراع الطباعة من حروف متحركة.. اكتشاف صناعة الورق الأبيض من ألياف الكتان، هذه الألياف التي قد لا تتناسب مع عظمة الآداب الإغريقية ولا مع مهارة وعبقرية جوتنبرج، ولكن لولاها لما كان للاثنين شأن كبير. إن الوسائل مهما كانت محتقرة في نظر الإنسان متى استخدمها الله كانت فيها كل البركة والكفاية، فبقوة الله الفائقة تستطيع عصا يابسة في يد موسى أن تهز مصر من كبيرها إلى صغيرها، كما تستطيع أن تشق البحر الأحمر إلى شطرين، وأن تخرج ماء عذبًا من صخر الصوان. وحصاة ملساء من الوادي، أو جرار فارغة، كل هذه تستطيع أن توجد خلاصًا عظيمًا من الله، لأن القوة من الله، والإيمان لا ينظر إلى سواه.

ومن الحقائق المبهجة لقلب كل مسيحي أن أول كتاب كامل طبعه جوتنبرج بحروفه المعدنية التي اخترعها كان هو الكتاب المقدس باللغة اللاتينية، والذي بلغ مجموع أوراقه ستمائة وواحد وأربعين. ويذكر هالام في تاريخ الآداب ملاحظة جميلة، إذ يقول "إنه لمن الأمور المؤثرة للغاية التي تلفت النظر أن أول ما اهتم به عباقرة ذلك الفن ومخترعوه العظام هو محاولتهم قبل كل شيء القيام بمهمة سامية وجريئة، هي طبعهم الكتاب المقدس كاملاً، وقد فعلوا ذلك بنجاح عظيم ... وإننا نستطيع أن نتخيل ذلك الكتاب الجليل المحترم متقدمًا كل الكتب التي تبعته، وسائرًا في طليعة ربواتها التي لا تُحصى ولا تعد، وكأنه يلتمس بركة لهذا الاختراع الجديد، الذي كرس باكورته لخدمة السماء"(١٨٤).

ولو أنه قد لا يكون من أغراض هذا المختصر أن نشير ولو بإيجاز إلى تاريخ ذلك الاكتشاف العظيم، لكن خدمة لبعض قرائنا الذين قد لا يكون في متناول أيديهم مثل هذه التواريخ نراه لزامًا علينا أن نذكر بعض تفاصيل موجزة عنه، إذ أنه كان من أهم وأقوى عوامل الإصلاح.

كانت الطباعة من قديم العصور تُمارس بواسطة الحفر على ألواح خشبية، ومع مرور الزمن طُبعت بهذه الوسيلة صفحات قليلة كانت تكوِّن ما يسمى كتبًا لوحيه. وفي القرن الحادي عشر، على ما يقال، توصل حداد ماهر إلى اختراع بعض حروف خشبية منفصلة. وفي عام ١٣٩٧م ولد يوحنا جوتنبرج الشهير في قرية بالقرب من منتز، وتوصل إلى استبدال الحروف الخشبية بحروف معدنية، واستطاع زميله شيفر حفر قوالب للحروف، بحيث أمكن صبها وإخراجها بكثرة وبسرعة. وبهذه السرعة كمل فن الطباعة كما نراه في أيامنا الحاضرة*.

وقد استمرت الرقوق وجذوع الأشجار والبردي والقطن عدة الطابع والكاتب حتى القرن الرابع عشر، ولكنها لم تكن تكفي بالمرة لإمداد الفن الجديد بما يتطلبه، ولذلك كان من الموافق أن حدث في نفس التاريخ اكتشاف صنع الورق من الألياف. وأول مصنع للورق في إنجلترا أنشأه في دارتموث عام ١٥٨٨م شخص ألماني يدعى سبيلمان، الذي قدرت الملكة اليزابيث خدمته فرفعته إلى مصاف الأشراف.

طبع أول كتاب مقدس

أجمع المؤرخون على أن جوتنبرج بعد أن قضى ما يقرب من عشر سنين يحسِّن في اختراعه، حتى أوصله إلى درجة من الكمال، كان قد افتقر إلى حد أنه وجد نفسه مضطرًا لأن يدعو أحد الماليين لمشاركته. وقد قبل جون فوست صائغ الذهب في منتز صاحب الثروة الطائلة، بعد أن أطلعه جوتنبرج على سر اختراعه، أن يشترك معه وأن يمده بالمال الكافي لإخراج المشروع إلى حيز الوجود. ويبدو من دلائل الأمور أن جوتنبرج وشريكيه شيفر وفوست لم يكونوا يسيرون في عملهم المجيد بأي باعث أخر أنبل من باعث حب المال وجمع ثروة طائلة من وراء تنفيذ مشروعهم، فقد كانت حروفهم صورة طبق الأصل لحروف أحسن النساخ وأشهرهم، ولذلك عقدوا النية على عرض بضاعتهم

* هذا في أيام الكاتب، أما في يومنا هذا فقد تطور فن الطباعة بالجمع الإلكتروني والطباعة التصويرية بدون استخدام الحروف المعدنية.

كنسخ خطية نادرة، حتى يحصلوا على الأثمان التي كانت تدفع عادة في تلك النسخ الخطية الدقيقة. وكل من استخدموهم للعمل في المشروع تعاهدوا معهم على الاحتفاظ بسرية الأمر. وقد استطاعوا أن يبيعوا الطبعة الأولى بثمن النسخ الخطية دون أن يعرف أحد السر. ولكن حوالي عام ١٤٦٢م ظهرت الطبعة الثانية، وذهب جون فوست لباريس يحمل عددًا من النسخ. وهناك باع واحدة للملك بسبعمائة كراون، وأخرى لرئيس الأساقفة بأربعمائة كراون. ولما كان فرح رئيس الأساقفة عظيمًا لحصوله على مثل هذه النسخة الجميلة بمثل هذا الثمن الزهيد ذهب لكي يريها للملك، فأخرج جلالته النسخة التي كان قد اشتراها بما يقترب من ضعف ثمن نسخة رئيس الأساقفة. ولقد كانت دهشتهما شديدة عندما تبين أن النسختين متشابهتان غاية التشابه، وأن الواحدة صوره طبق الأصل للأخرى، حتى فيما يتعلق بأدق العلامات والنقط، فاستنتجا أن الصورتين لا بد عُملتا بواسطة السحر. ولما كانت حروف التاج كلها مطبوعة بالحبر الأحمر ظنا أنه لا بد أنه دم، ولم يبق عندهما أي شك بعد ذلك أن البائع لهما متحالف مع الشيطان، وأن الشيطان يساعده في عمله السحري.

وفي الحال صدر البلاغ للبوليس ضد جون فوست، وتم تفتيش مسكنه تفتيشًا دقيقًا، وضبطت جميع نسخ الكتاب المقدس التي وُجدت عنده، وكذلك جمعت النسخ التي كان قد باعها وقورنت بعضها ببعض. وإذ وجدوا أن جميع النسخ متشابهة تمامًا، صدر الحكم الأكيد عليه بأنه لا محالة ساحر، فصدرت أوامر الملك بإلقائه في السجن، وكان حتمًا سيلقى في النار بعد ذلك. إلا أنه خلّص نفسه باعترافه بالأمر وبتصريحه بسر مهنته تصريحًا كاملاً. ومن تلك اللحظة لم يعد الأمر سرًا، وأصبح الطباعون معروفين، وانتشروا في كل مكان حاملين سر المهنة حيثما وجدوا قبولاً. وفي زمن وجيز سُمع صوت ماكينات الطباعة في بلاد وممالك كثيرة. وفي عام ١٤٧٤م دخل الاختراع إلى إنجلترا.

قبل فن الطباعة كانت هناك كتب خطية كثيرة ذات قيمة عظيمة، وقامت مدارس للتعليم في جميع الممالك المتمدينة، إلا أن المعرفة كانت بالضرورة قاصرة على عدد محدود من الناس. فالكتب الخطية كانت نادرة وغالية الثمن جدًا، بحيث لم يكن يحصل عليها سوى الملوك والأشراف ورؤساء المعاهد والهيئات الدينية. فنسخة الكتاب المقدس الواحدة كانت تبلغ تكاليف كتابتها فقط من أربعين إلي خمسين جنيها *؛ لأن النساخ الخبير كان يقضي حوالي عشرة شهور لكي يخرج نسخه كاملة.

ولو أن كتبًا أخرى كثيرة كانت تصدر بعد ذلك من المطابع، إلا أن الكتاب المقدس اللاتيني كان هو قبلة أنظار أصحاب المطابع. فحيثما حلوا كانوا يخرجون أول كل شيء طبعة من الكتاب اللاتيني، وذلك لأن الطلب كان شديدًا عليه، وثمنه كان مرتفعًا، وبهذه الوسيلة تكاثرت أعداد نسخ الكتاب المقدس باللغة اللاتينية. وهنا بدأ دور المترجمين وأخذ المصلحون يظهرون في الممالك المختلفة، وعلي أيديهم تُرجمت كلمة الله إلى لغات أوروبية عديدة في بحر سنين قليلة. ففي عام ١٤٧٤م ظهرت الترجمة الإيطالية، وفي عام ١٤٧٥م الترجمة البوهيمية، وفي عام ١٤٧٧م الهولندية، وفي نفس السنة ظهرت الترجمة الفرنسية، وفي عام ١٤٧٨م ظهرت الأسبانية، وهكذا كانت هذه الترجمات كلها كانت طلائع تنبئ بقرب مجيء حركة الإصلاح.

مقاومة روما للكتاب المقدس

رأينا فيما مضى كيف كان الكتاب المقدس بنعمة الله يشق طريقه إلى صفوف جميع الناس. هذا أزعج، كالمعتاد، أعداء الحق والنور والحرية، فقاموا عن بكرة أبيهم يناهضون الحركة ويضعون في سبيلها الموانع والعراقيل. فرئيس أساقفة منتز وضع أصحاب المطابع في تلك المدينة تحت مراقبة شديدة، والبابا إسكندر السادس أصدر مرسومًا يحرم على المطابع في منتز وكولونيا ومجدبرج وغيرها طبع أي كتاب بدون ترخيص صريح من رئيس الأساقفة. وإذ رأى رجال الإكليروس أن قراءة الكتاب المقدس آخذة في الانتشار بدأوا يعظون ضد ذلك من فوق المنابر، وإليك ما قاله أحد الفرير الفرنسيين في هذا الصدد "إنهم عثروا على لغة جديدة تسمى اليونانية، ونحن يجب أن نكون على حذر منها. إن هذه اللغة ستكون منبعًا لكل أنواع الهرطقات. إني أرى في أيدي أشخاص كثيرين كتابًا مطبوعًا بهذه اللغة يسمى "العهد الجديد". إنه كتاب مليء بالأعشاب السامة والحيات المميتة. أما عن اللغة العبرية فكل من

* حسب قيمة العملة في زمان الكاتب، ونستطيع أن نستنتج ما توازى اليوم من كون النساخ الماهر يحتاج إلى عشرة شهور لإخراجها.

يتعلمها يصبح يهوديًا في الحال". وأينما وُجد الكتاب المقدس كان يُصادر ويحرق. ولكن هذا الكتاب العجيب كان يتكاثر ويتزايد بطريقة إلهية. وكذلك عمال المطابع كان يُقبض عليهم ويحرقون، وقد قال أحد الكهنة في إحدى مواعظه "يجب أن نستأصل الطباعة، وإلا فهي ستستأصلنا لا محالة". وقد صرّحت جامعة باريس أمام البرلمان بعد أن استحوذ عليها الرعب "إنه إذا ما تم التصريح بدراسة اللغتين اليونانية والعبرية فقل على المسيحية السلام". وقد كان من أثر نجاح الترجمات الجديدة وانتشارها أن استحوذ الرعب على الكنيسة الرومانية كلها، التي خافت على مصير "الفولجاتا" ترجمتها الرسمية. وقد ازدادت مخاوف الكهنة والرهبان عندما رأوا الشعب يقرأون الكتاب المقدس بلغة أمهاتهم، وابتدأوا يتشككون في ضرورة حضور القداس وسلطان الكهنوت. وبدلاً من أن يكرروا صلواتهم عن طريق الكاهن باللغة اللاتينية بدأوا يصلون لله مباشرة بلغتهم القومية. وإذ رأى الإكليروس أن مواردهم أخذت تتضاءل التجأوا إلى السربون، التي كانت أشهر جامعة لاهوتية في أوربا، والسربون طلبت إلى البرلمان أن يتداخل في الأمر بيد قوية، وسرعان ما اشتعلت نار الحرب ضد الكتب وطابعيها، وكل من ثبت عليه أنه طبع كتابًا مقدسًا كان يُحرق بالنار حيًا. ففي عام ١٥٣٤م أحرق حوالي عشرين رجلاً وامرأة دفعة واحدة في باريس. وفي عام ١٥٣٥م حصلت السربون على مرسوم من الملك يحرم الطباعة، ولكن كما قال أحد الكتاب المقتدرين "جاء ذلك متأخرًا، فالفن الجديد كان قد وُلد ولادة كاملة، وما كان ممكنًا قط ملاشاته بقدر ما لم يكن في الإمكان ملاشاة النور والهواء والحياة، فقد أصبحت الكتب منذ ذلك الوقت ضرورة من ضروريات الحياة، وقد سدت حاجة اجتماعية عظيمة، وكانت الكتب تتكاثر وتتزايد في كل سنة عما كانت عليه في السنة التي قبلها"(٥).

وبينما كانت روما ترعد بتحريماتها المخيفة ضد حرية الفكر، وتمد يدها للاضطهاد أينما تغلغل الكتاب ووُجد له أتباع، وعلى الأكثر في فرنسا، في ذلك الوقت عينه كان الله يعد بوسائل من نفس كلمته، وبالطباعة، تلك الثروة القوية التي كان من شأنها أن تقلب سريعًا نظام الكنيسة والدولة رأسًا على عقب. ولو كانت الكاثوليكية نجحت في خطتها الخبيثة لكنا نحن الآن لا نزال نتلمس طريقنا وسط متاهات العصور المظلمة الحالكة، فقد كانت روما على الدوام العدو لكل اختراع وتجديد، خاصة إذا كان هذا الاختراع أو ذاك التجديد من شأنه زيادة نور المعرفة أو تقدم المدنية، أو تقريب الشقة بين الإكليروس والعلمانيين، أو إضعاف سلطة الكهنوت على نوع ما. فالجهل والعبودية والخرافات، والخضوع الأعمى للكهنوت، هي أهم عناصر وجودها. ولم يكن هناك اختراع كان له أعظم الأثر في الهيئة الاجتماعية نظير الطباعة، فهي الحافظة لجميع الاختراعات الأخرى. ومن ذلك يمكننا أن نقول إننا لسنا مدينين بشيء للكاثوليكية فيما يتعلق بمدنيتنا الحديثة أو امتيازات حريتنا المدنية والدينية. ولكن الله الحي فوق الجميع، ولا بد أن يكمّل جميع مقاصد نعمته.

كانت ظلمات العصور الوسطى تتلاشى سريعًا، وكانت شمس الإصلاح على وشك أن تبزغ فتُبدّد بنورها الساطع ظلمة عهد إيزابل، الذي استمر مخيّمًا على العالم زهاء ألف سنة. وها هي سيادتها العامة موضوع افتخارها لا وجود لها ولن تعود للظهور بعد ذلك، فأعمدة قوتها قد اهتزت وتزعزعت، وعوامل كثيرة تعمل متحدة على القضاء عليها نهائيًا. وهذه العوامل هي ما سنتأمل فيها الآن.

رجال الإصلاح الذين ظهروا قبل لوثر مباشرة

قد تتبعنا للآن بشيء من التفصيل سلسلة الشهود من أول عهد الكنيسة إلى مستهل القرن السادس عشر، ولم يبقَ علينا سوى معرفة بعض الأسماء التي تربط تلك السلسلة الشريفة باسم المصلح الكبير. فليس هناك حلقة مفقودة في تلك السلسلة الإلهية العجيبة. وأهم هؤلاء هم جيروم سافونارولا، ويوحنا ويساليا، ويوحنا ويسيلوس.

جيروم سافونارولا

ولد من عائلة شهيرة عام ١٤٥٢م في مدينة فيرارا بإيطاليا. وقد لازمته من بدء حياته عواطف دينية ومشاعر روحية عميقة. وإذ اعتقد أنه رأى رؤيا سماوية بخصوص مأموريته في الحياة، ترك العالم وانضم إلى الرهبان الدومينيكان في سن الحادية والعشرين من عمره. وقد كرس نفسه لدراسة الكتاب المقدس بأصوام وتذلل بصفة مستمرة. ويظهر أن اهتمامه الأكبر كان بالكتب النبوية، وخاصة سفر الرؤيا، الذي أُغرم بتفسيره، وكان شديد الاعتقاد بأن الدينونات

التي تهدد العالم في ذلك السفر وشيكة الوقوع. وبعد أن صرف سبع سنين في دير الدومينيكان في بولونيا نقله رؤساؤه إلى دير سان مارك في فلورنسا. وبعد عدة سنوات تم انتخابه رئيسًا للدير، وعندئذ أدخل إصلاحات عظيمة وأعاد البساطة الأولى في الطعام واللباس.

ولم يكن سافونارولا يُبارى من حيث قوته كمبشر، ولكنه ككثيرين غيره في ذلك العصر جمع بين صفة السياسي وصفة المبشر. وقد كان الإصلاح شعاره وغرضه الوحيد، فكان ينادي بالإصلاح والتوبة كما بصوت نبي. كان ينادي بالإصلاح في نظام الكنيسة من جهة حياة البذخ التي للإكليروس وروحهم العالمية، وفي آداب المجتمع بصفة عامة. ولما كان الإيطاليون يميلون إلى كل حديث يتعلق بحقوقهم كمواطنين، فقد جذبتهم نداءات سافونارولا، حتى كانت تضيق بهم كاتدرائية فلورنسا على رحبها. وقد كانت أقواله تتخذ شكلاً وكأنها أقوال نبي له سلطان أن يتكلم نيابة عن الله، ولو أنه لا يبدو أن نبوءاته كانت أكثر من كونها وليدة إيمانه الراسخ بسلطان الله على الأرض وبحتمية تتميم النبوات طبقًا للمبادئ المعلنة في الكتاب المقدس. ومع أنه كان على نوع ما متداخلاً في السياسة الإيطالية ومتشبعًا بآراء ذلك العصر، إلا أنه كان بلا شك مسيحيًا مخلصًا حقيقيًا. وكان ينتقد انتقادًا شديدًا سياسة لورنزو دي ميديتشي، وطغيان طبقة الأرستقراطيين، وخطايا رجال الإكليروس، كما كان في الوقت نفسه ينوح على البرود الروحي الذي ميّز ذلك العصر، فكان يقول "إن الكنيسة كان لها قبلاً كهنة من ذهب وكؤوس من خشب، أما الآن فالكؤوس قد صارت من ذهب والكهنة من خشب. إن صورة الدين الخارجية البراقة قد غطت على الحالة الداخلية الروحية وأفسدتها". كان قويًا مؤثرًا في فصاحته، وكان لكلامه كما قلنا صفة نبوية وكأنه رسول إله مُهان غاضب على وشك أن يصب جامات غضبه على إيطاليا، حتى أن الجماهير آمنت برسالته السماوية، وكان لنداءاته سطوة وسلطان على قلوب الشعب، فسرعان ما ظهر تأثيرها في حياة الناس الأدبية في كل مدينة. يقول المؤرخ سيسموندي "قد برهن الفلورنسيون ببساطة لباسهم ووداعة أحاديثهم ومظهرهم على أنهم قد اعتنقوا حقًا إصلاح سافونارولا". على أن إيزابل الشريرة كانت تراقب طريقه. فمثل هذا الشاهد الجريء لم يكن يصلح لأن يعيش، وخاصة في إيطاليا. كان لا بد من إخماد ذلك النور. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ هنا كانت المشكلة، لأن كثيرين من المواطنين كانوا على استعداد لأن يخوضوا اللهب نيابة عن سافونارولا. على أن كنيسة روما يساعدها أنصار ميديتشي نصبت نفسها لهذا العمل الجهنمي. وكما هو المعتاد تأسست خطتها على الغدر والخيانة وانتهت بالاضطهاد. ذلك أن إسكندر السادس الماكر دعا سافونارولا بأرق العبارات وأعمقها توددًا لزيارته في روما بحجة أنه يشتاق لأن يتأمل معه في موضوع مواهبه النبوية. ولكنه علم أن البابا لا يؤتمن رغم كلماته المعسولة، ولذلك رفض الدعوة. بعد ذلك أراد البابا أن يرفعه إلى وظيفة كردينال لكي يضعه تحت سلطانه المباشر، ولكن سافونارولا أعلن من فوق منبره أنه لن يقبل طاقية حمراء سوى المصطبغة بدم الاستشهاد. وهنا سقط القناع وانفجرت قنابل التهديدات والتحريمات ضد سافونارولا، الذي دُعي "زارع التعاليم الضالة"، وصار من اللازم إبادته. وهنا وجد الفرنسيسكان الفرصة سانحة للقضاء على ذلك الدومينيكاني، الذي كانت شهرته العظيمة قد أحرقت قلوبهم الحسودة، فانضموا إلى المؤامرة. ولسنا نريد أن نشرح الدسائس التي قاموا بها من هذه الناحية، لأننا نعتقد أنها لن تكون لذة للقارئ، ولكننا نقول بالإيجاز إنهم نجحوا في تحويل الشعب وفي إتمام سقوط منافسهم.

ففي عام ١٤٩٨م أُلقي القبض على سافونارولا وصديقيه دومينيك وسلفستر، وزُجّ بثلاثتهم في أعماق السجن وسلطت عليهم أنواع التعذيب. وقد كان من أثر خدمة سافونارولا وعيشته التقشفية أن ضعف جهازه العصبي، حتى أصبح غير قادر على احتمال الآلام التي كانت توّقع عليه. فكان يقول "إنني عندما أكون تحت التعذيب أفقد نفسي وأصير مجنونًا. إن الشيء الحقيقي هو فقط ما أقوله بدون تعذيب". وفي الوقت نفسه حضر مندوبان من روما يحملان حكم الإدانة من إسكندر. وفي اليوم التالي سيق السجناء الثلاثة إلى مكان الإعدام. وبعد عملية الشلح المعتادة شنقوهم أولاً ثم بعد ذلك أحرقوهم. وقد جمع الفرنسيسكان رمادهم بكل عناية وألقوا به في نهر أرنو. إلا أن بعضًا من مخلفات سافونارولا بقيت محفوظة بالإجلال والاحترام عند كثيرين من أصدقائه وأتباعه.

تأملات في حياة سافونارولا

يذكر التاريخ أن سافونارولا رئيس دير سان مارك هو أعظم شاهد أمين للمسيح ظهر في إيطاليا. ولكن أمورًا كثيرة في حياته كانت مغايرة لروح ودعوة المسيحي الحقيقي، لا سيما خلطه للسياسة مع الدين. ويقال إنه أراد أن يجمع بين شخصيتي إرميا وديموستين، أي أن يبكي وينوح على الخطية ويعلن قضاء الله كالأول، وأن يحرك الشعب ويحضهم على الجهاد للحصول على حرياتهم كالثاني.

هذه كانت غلطته، ويرجع سببها إلى جهله بروح وتعاليم العهد الجديد، الأمر الذي أدى في النهاية إلى سقوطه. ولكن يجب أن نلتمس له العذر وكل العذر نسبة لنشأته وظروفه وروح العصر الذي كان يعيش فيه. لا بل إن كثيرين من المعلمين الذين جاءوا بعده سقطوا في نفس الفخ، فلم يتعلموا في تلك العصور الثورية أن دعوة المسيحي سماوية، وأنه بينما اليهودي قد بورك بكل بركة زمنية في أرض جيدة، فقد بورك المسيحي بكل بركة روحية في السماويات في المسيح يسوع. ولم يروا أن غرض الله في التدبير الحاضر هو أن يجمع من كل أمة شعبًا على اسمه بواسطة الكرازة بالإنجيل (أع١٥). ولكن ما أقل الذين يدركون حتى في وقتنا الحاضر أن كنيسة الله هي "دعوة للخروج"، ولذلك يتحتم عليهم السير بالانفصال عن العالم.

إن أمجد عمل يصنعه المبشر لبني جنسه هو دعوتهم للخروج والانفصال عن العالم، والانضمام إلى المخلّص المرفوض. ولكن مثل هؤلاء المبشرين ليسوا محبوبين ولا مفهومين حتى في يومنا هذا. ويجوز لنا حقًا أن نتساءل هل حالة "الكنائس" بصفة عامة قد تقدمت كثيرًا أو قليلاً فيما يتعلق بالسياسة عن آراء سافونارولا؟ إنه قد تداخل في إدارة دفة الأمور العامة، وكان غرضه أن يجعل من سكان فلورنسا شعبًا لمجد سيده ومعلمه. لا شك أن بواعثه كانت صالحة، ولكنه أخطأ في ظنه أنه يستطيع الجمع بين ما هو سماوي وما هو أرضي. ودليل على غرضه الأسمى الذي كان يرمي أن إحدى قطع العملة التي ضربت وقت أن كانت فلورنسا متأثرة بنفوذه تحمل عبارة "المسيح ملكنا". ولكن هذا الرجل الجدير بالإعجاب لم يكن يتوق فقط لأن يرى إصلاحًا عظيمًا في الكنيسة والدولة على السواء، بل كان يتوق لخلاص النفوس، وكان قلبه يتهلل شخصيًا بالتعليم المجيد عن التبرير بالإيمان وحده. والاقتباس الآتي من تأملاته في مزمور ٣١ عندما كان في السجن تعطي للقارئ فكرة عن أعماق أفكاره عندما كان يقوده روح الله القدوس "لا أحد يستطيع أن يفتخر بنفسه. ولو وُضع هذا السؤال في حضرة الله أمام كل خاطئ مبرر: هل خلصت بقوتك؟ لأجاب الجميع بصوت واحد: ليس لنا يا رب. ليس لنا. ولكن لاسمك أعط مجدًا. ولذلك يا إلهي أنا أطلب رحمتك ولست أقدم أمامك بّري. في اللحظة التي بررتني فيها نعمتك قد صار البر ملكي ونصيبي، لأن النعمة هي بر الله. وأنت أيها الإنسان طالما لا تؤمن فأنت بسبب الخطية محروم من النعمة». ما أسمى وأمجد الأفكار التي كانت تملأ عقله وقلبه وهو يتأمل بإرشاد وتعليم الروح القدس في ذلك المزمور الجميل، مزمور الآلام وتسابيح الانتصار (٣١:٤)، (٣٦:٣)، (٦:١٦).

في رثاء سافونارولا ورفيقيه دومينيك وسلفستر

فلورنسا مدينةَ الجمالِ	فمنك يخرج خير الرجالِ
ثلاثي الشهود فيك كانوا	وهاهم يُحرقون على التلالِ
بعهدٍ قد تواعدوا شاهدينَ	لحق الرب كانوا مخلصينَ
وفي الآلام قد ثبتوا بصبرٍ	وعند الموت كانوا واثقينَ
محيّاهم يدلُ على السرورِ	ونارُ الحقد تأكلُ في سُعورِ
يقينًا عندهم في الموت ربحٌ	وفي مَلقى الحبيب ذُرى الحُبُورِ
ونهرك "أرنو" يجري في حياءٍ	أيبتلعُ رفاتَ الشهداء؟
كنوزًا حتى إنْ أضحتْ رمادًا	فما نالتْ رياحٌ من سماءِ
أيا "أرنو" فلا تجزعْ مياهُكْ	قَربُ المجد يسمعُ صلاتَكْ
له النقمةُ وحدَهُ يجازي	عليه وحدَهُ ألقِ رجاءَكْ
سيُنهي كلَ شرٍ في سهولكْ	ولن يُبقي المُخادعَ في تخومكْ
ونورٌ من علاليه سيُشرقْ	ويملا كلَ ركنٍ في ربوعكْ

يوحنا ويساليا

دكتور في اللاهوت من جامعة إرفورت، امتاز بجرأته ونشاطه ومعارضته لروما، وقد جلب على نفسه حقد الرهبان وغضبهم لتبشيره بأن الناس يخلصون بالنعمة بالإيمان وليس بحياة الرهبنة، وأن الإنسان يخلص بالإيمان بالمسيح حتى وإن

قام جميع الكهنة في العالم وحرّموه. كذلك كان يذيع أن غفران الكنيسة، والزيت المقدّس، وزيارة الأراضي المقدسة، لا تأتي بفائدة البتة، وأن البابا والأساقفة والكهنة ليسوا وسائط خلاص. وبالاختصار كان ما يمكن أن يسمى في الوقت الحاضر "تابعًا مخلصًا لكلفن" فيما يتعلق بآرائه من حيث النعمة. وعندما جاء دوره أمر رئيس أساقفة منتز بالقبض عليه والزج به في السجن. وفي عام ١٤٧٩م جيء به أمام مجلس كهنوتي، وبالرغم من شيخوخته واعتلال صحته وضعفه أخذوا يرهقونه إرهاقًا شديدًا بالأسئلة المحيرة الملتوية لمدة خمسة أيام متوالية حول آرائه ومبادئه، التي فسر بعضها ونفى بعضها، وتراجع عن البعض الآخر. ولكن قضاته كانوا مجرّدين من الرحمة، فلم يعبأوا بشيخوخته وظهره المقوس تحت عبء السنين، فصدر عليه الحكم من محكمة التفتيش المقدسة بالتكفير المؤبد، ولكنه لم يبق طويلاً بل عاجلته المنية في أحد سجونها المظلمة.

يوحنا ويسيلوس

من أهالي جروننجن بهولندا، وهو بلا شك أسطع شخصيه سبقت حركة الإصلاح مباشرة، فقد كان من أشهر فلاسفة القرن الخامس عشر، ولكن النور الذي كان عنده وعند آلاف آخرين بعده لم يكن مبعثه العلم البشري، بل كان متعلمًا من الله، فقد أضاء نور إنجيل نعمة الله المجيد وسطع بقوة في قلبه وفي أقواله وحياته. وقد كان دكتورًا في اللاهوت في جامعات كولونيا ولوفان وهيدلبرج وجروننجن. وكانت له الفرصة أن يشهّر بجسارته المعهودة بالكثير من تعاليم كنيسة روما المضلة وممارساتها الشريرة. كذلك استمر عدة سنين يشغل مركز أستاذ اللغة العبرية في جامعة باريس، وهناك أيضًا لم يتردد في الجهر بالحقيقة بكل جرأة، فكان يقول القرن الخامس عشر "كل عمل للتكفير عن الخطية يقوم به الناس إنما هو تجديف على المسيح". ولكن شهادة لوثر لكتابات يوحنا ويسيلوس تغنينا عن الإفاضة في سرد آرائه وتعاليمه.

بعد رقاد ويسيلوس بنحو ثلاثين سنة، كان لوثر ينادي بنفس التعاليم التي دونها سابقه، ولو أنه لم يكن إلى ذلك الوقت قد قرأ شيئًا من كتاباته. فكلاهما كانا يستقيان إرشادهما وتعاليمهما من الروح الواحد، ويستمدان مبادئهما من الكتاب المقدس الواحد، وقد تأهل كلاهما لنفس العمل الواحد. وكم كانت دهشة وسرور المصلح العظيم عندما وقع نظره لأول مرة على بعض كتابات ويسيلوس، حتى أنه كتب مقدمة شيقة لطبعة من مؤلفاته عام ١٥٢٢م قال فيها "إنني بعناية الله العجيبة قد اضطرت لأن أصبح رجلاً معروفًا، أخوض المعارك مع وحوش وجبابرة صكوك الغفران والفرمانات البابوية. وفي ذلك كنت أظن أني أقف فردًا، ومع ذلك فقد ثابرت في المعركة والكفاح بحيوية عظيمة، حتى أن الكثيرين كانوا يتهمونني في كل مكان بالحدة في القول والشدة في الانتقاد، وبالضرب بلا هوادة. ومع ذلك فالحقيقة هي أنه جاء عليّ وقت اشتقت فيه بإخلاص أن أتنحى عن أولئك القوم تابعي البعل الذين وقعت قرعتي معهم، وأن أعيش هادئًا ومنزويًا في ركن من الأركان، بعد أن يئست تمامًا من إحداث أي تأثير على تلك العقول المصفحة والجباه النحاسية ورقاب الإثم الصلبة. ولكن وأنا في هذا التفكير، أجتاز هذه الحالة النفسية، وإذا بمن يخبرني أنه حتى في هذه الأيام توجد في الخفاء بقية من شعب الله. نعم إني لم أُخبَر فقط، ولكن ها أنا أفرح إذ أرى برهانًا على ذلك. فها هي طبعة جديدة لمؤلفات ويسيلوس، الرجل ذي العبقرية العجيبة والعقل النادر الكبير، ومنها يتضح جليًا أنه كان متعلمًا من الله كما تنبأ إشعياء. وكما في حالتي تمامًا كذلك في حالته لا يمكن أن يقال إنه تسلم تعاليمه من الناس. ولو كنت قرأت كتاباته من قبل لكان لأعدائي أن يظنوا أني تعلمت كل ما أقول من ويسيلوس، لما بين مبادئه ومبادئي من تطابق تام. أما عن نفسي فإني لا أستمد من كتاباته تعزية فقط، بل قوة وتشجيع. وإنه لمن المحال على الآن أن أشك لحظة في صحة التعاليم التي ناديت بها، بعد أن رأيت بيني وبين ويسيلوس هذا التوافق التام والعجيب في العاطفة والشعور، وحتى في نفس الكلمات التي كان يستعملها هذا الرجل العظيم، الذي عاش في عصر غير عصري وفي بلاد بعيدة، ووسط ظروف تختلف كل الاختلاف عن ظروفي. إنه ليدهشني أن هذا الكاتب المسيحي الفائق يبقى مجهولاً إلى هذا الحد ولا يعرفه إلا القليلون، وقد يكون ذلك راجعًا إلى أنه عاش بلا كفاح، فإنه في هذه النقطة وحدها يختلف عني".

بعد هذا الاقتباس من لوثر نريد فقط أن نروي قصة صغيرة عن ويسيلوس، تدل على مبلغ ما ملأ قلبه وتشبع به من روح الإنجيل، وكيف استطاع أن يرتفع بذلك فوق أشد وأقوى التجارب.

عندما ارتقى سكستوس الرابع عرش البابوية، لم ينس الصداقة التي كانت بينه ويسيلوس في فرنسا، فعرض عليه أن يمنحه أي طلب يريده، فلم يكن من ذلك الهولندي التقي إلا أن يجيب: "إن طلبتي وشوق قلبي هي أن المدعو راعي الكنيسة الأعلى على الأرض يتصرف ويعمل بما يؤهله لأن يسمع من فم رئيس الرعاة عند ظهوره هذا المديح الغالي: نعمًا أيها العبد الصالح والأمين". فأجاب سكستوس "هذا ما سأعني به، ولكن هل من شيء تطلبه أنت لنفسك؟". فقال ويسيلوس "أعطني من مكتبة الفاتيكان نسخة يونانية وأخرى عبرية من الكتاب المقدس". قال البابا "ستأخذهما، ولكن أليست هذه غباوة؟ لماذا لا تطلب لنفسك أبروشية أو شيئًا من هذا القبيل؟". فأجاب البروفيسير القانع "لأني لا أرغب في مثل هذه الأشياء". وقد قضى بعد ذلك حياة هادئة في سلام إلى أن رقد عام ١٤٨٩م، بعد أن وصل إلى سن السبعين. وكانت كلماته الأخيرة "شكرًا لله! إن كل ما أعرفه هو يسوع المسيح وإياه مصلوبًا"[٣/٢٥].

ألريك فون هاتن

وهو شريف ألماني امتلأت نفسه بالغيرة والحماس للإصلاح، وكان من أشد المعجبين بلوثر، وجاء اسمه في أغلب التواريخ. وهو ينحدر من أسرة عريقة، وحباه الله مواهب عظيمة. برز في حياته الأولى كجندي في الجيش، وبعد ذلك صارت له شهرة عالمية في عالم الأدب، ونشر نقدًا لاذعًا ضد بلاط روما وجبروتها. ويقول المؤرخ هالام عن مؤلفاته "إنها لقيت من الإقبال ما لم تلقه أية كتب أخرى، وخاصة رسائله التي ظهرت سنة ١٥١٦م"، ولكنه لم يعش طويلاً لكي يرفع اللثام عن فضائح روما أو ينشر مبادئ الإصلاح، فمات عام ١٥٢٣م وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره.

روشلان وإرازمس

اسمان شهيران يليق بنا أن نذكرهما هنا. ومع أنهما لم يكونا مصلحين بمعنى الكلمة، إلا أنهما ساعدا كثيرًا على نجاح حركة الإصلاح. كان يطلق عليهما لقب إنسانيين، أي من رجال الأدب الذين غرضهم رفع الإنسانية بما يكتبون. فحركة إحياء اللغات العبرية واليونانية التي كتبت بها الكتب المقدسة، إلى جانب اللاتينية، كان لها أكبر الفضل في خدمة المصلحين الأوائل. فكما كان في أيام يوشيا وعزرا ونحميا، كذلك كان في حركة الإصلاح العظيمة، التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا باكتشاف ودراسة كلمة الله المكتوبة، فالكتاب المقدس الذي ظل أجيالاً عديدة صامتًا ومختفيًا في بطون الكتب الخطِّيَّة، تحت تراب المكاتب العتيقة، خرج مطبوعًا وصار في متناول الناس بلغة أمهاتهم. ذلك كان نورًا عجيبًا من الله، سلح المصلحين وأمدهم بقوة لا تقهر. فإلى أيام روشلان وإرازمس كانت النسخة اللاتينية فقط هي المعروفة، أما اليونانية والعبرية فكادت تكون مجهولة تمامًا في أوربا.

كان روشلان طالبًا بجامعة باريس، ولحسن حظه كان ويسيلوس الشهير يقوم بتدريس اللغة العبرية في تلك الجامعة اللاهوتية الذائعة الصيت. وهناك لم يتعلم فقط مبادئ العبرية، بل أيضًا إنجيل نعمة الله. كذلك درس اللغة اليونانية، وتعلم كيف يتكلم اللغة اللاتينية بطلاقة كمن ولد فيها. وقد ابتدأ في سن العشرين في تدريس الفلسفة واليونانية واللاتينية في جامعة بازل، حيث يقول المؤرخ دوبيني "هناك تم الأمر الذي كان يعتبر معجزة، ألماني يتكلم اليونانية!". بعد ذلك سكن في وتمبرج التي كانت مهد الإصلاح، وقام بتعليم الشاب ملانكتون اللغة العبرية، وأعد للنشر أول معجم عبري/ألماني يشمل قواعد اللغتين. حقًا إن أحدًا لا يستطيع أن يقدر ما تدين به حركة الإصلاح لمجهودات روشلان، حتى مع أنه استمر في شركة الكنيسة البابوية.

أما إرازمُس، وهو أصغر من روشلان باثنتي عشرة سنة، فقد اتبع نفس الدراسة، ولكن بتفوق أعظم وشهرة أكبر. فمن سنة ١٥٠٠م إلى سنة ١٥١٨م عندما ذاع صيت لوثر كان إرازمس يُعد عميد الأدب المتميز في كل المسيحية. ولد في روتردام سنة ١٤٦٥م، ومات أبواه تاركين إياه يتيمًا في الثالثة عشرة من عمرة. وقد اختلس أمواله الأوصياء عليه، الذين إذ أرادوا أن يخفوا جريمتهم أقنعوه بدخول الدير، ففعل. وفي عام ١٤٩٢م رسم كاهنًا، ولكنه كان ينفر على الدوام من حياة الرهبنة، وانتهز أول فرصة للهروب من أغلالها والرجوع إلى حريته الأولى. وبعد أن ترك دير أغسطينوس أنكب على دراساته التي كان شغوفًا بها في جامعة باريس، وهناك كرس كل مجهوده ووقته لدراسة الأدب، وسرعان

ما سطع نجمه وذاع صيته بين المتعلمين وأرباب القلم، واتجهت إليه أنظار المتأدبين في ذلك العصر. فاللورد مونتجوي الذي قابل ذلك الطالب الفقير لأول مرة في جامعة باريس دعاه للذهاب إلى إنجلترا، التي زارها بناء على هذه الدعوة عام ١٤٩٨م، وداوم على زيارتها عدة مرات بعد ذلك حتى عام ١٥١٥م، وهناك اختلط بالكثيرين من مشاهير وعظماء إنجلترا، ونال ألقاب شرف كبيرة، وارتبط بصداقات مخلصة وحميمة، وصرف أبهى أيامه في تلك هذه المملكة، حيث كان يقيم في جامعتيها الكبيرتين. وفي زيارته الثالثة، وهي أطول زياراته، كان أستاذًا للغة اليونانية في جامعة كامبردج. وقد عقد له الجميع لواء التفوق في عالم الأدب، الذي استمر فيه زمنًا طويلاً أميرًا بلا منافس. ولكن غرضنا الآن هو هذا السؤال: ما هو مدى تأثيره على حركة الإصلاح؟.

إنه بعناية الله الذي يعرف النهاية من البداية، وجه إرازمس كل عنايته وقواه العقلية ودراسته المستديمة المستمرة لإعداد نسخة تحليلية للكتاب المقدس باللغة اليونانية. وقد ظهر هذا الكتاب في بازل سنة ١٥١٦م، أي قبل حركة الإصلاح بسنة واحدة، مصحوبًا بترجمة لاتينية فيها تصحيحات لأخطاء الترجمة الرسمية المسماة "الفولجاتا". كان ذلك عملاً جريئًا في تلك الأيام، وقد تعالت الصيحات من كل جانب ضد هذا التجديد الخطر. يقول المؤرخ روبرتسون "إن حملة شعواء أثيرت ضد ترجمة إرازمس للعهد الجديد، فكيف يسوغ أن لغة اليونانيين المنشقين تتداخل في اللغة اللاتينية المقدسة التقليدية؟! كيف يمكن أن يكون هناك أي تحسين في الترجمة الأصلية؟ أما جامعة كامبردج التي كانت فخورة بصفة خاصة بمسحتها اللاهوتية فلم تسمح لنسخة واحدة أن تدخل أعتاب أبوابها. على أن الكاتب استطاع أن يحتمي باسم البابا ليو الذي قبل أن يكون إهداء الكتاب إليه".

وقد كانت جريمة شنيعة لا تُغتفر في عين الكنيسة الكاثوليكية أن يقوم أحد بوضع نسختها اللاتينية موضع الشك أو الجدل. والواقع أن النسخة اللاتينية، الفولجاتا، لم تعد من ذلك الحين صاحبة المكان الأول والسلطة المطلقة، فالنسخة اليونانية كانت تفوقها، ليس فقط من حيث القدم، بل من حيث اشتمالها على النص الأصلي. وكان إرازمس في ذلك الوقت زعيمًا لرجال الأدب وأميرهم الذي لا ينازعه أحد، وكان فوق ذلك مشمولاً برعاية البابا وأساقفة كثيرين وأعظم أمراء أوربا. وإذا رأى نفسه محاطًا بمثل هذه القوى شعر بأنه في مأمن كامل، ولذلك سار في طريقة يزاول عمله العظيم بلا خوف ولا وجل *.

ولكي نعطي للقارئ فكرة بسيطة عن مبلغ شهرة هذا الرجل العظيم، الذي كان مع ذلك ضعيفًا في بعض الوجوه، نذكر فقط على سبيل المثال أن كتابة المسمى "مدح الغباوة" وصل إلى الطبعة السابعة والعشرين في حياته، كما أن مجموعة محاضراته وجدت إقبالاً مدهشًا، حتى أنه في سنة واحدة بيع منها أربعة وعشرون ألف نسخة. وتزداد الدهشة عندما تعلم أنه في هذين الكتابين شن غارة شعواء بقوة عظيمة وتهكم مر ضد تذبذب الرهبان وحياتهم المتناقضة، وتطفلهم وجشعهم حول المحتضرين، والوصايا والجنازات وما شكل ذلك، وبهذه الكيفية خدم قضية الإصلاح بطريقه غير مباشرة[٣١/٤].

وقد واجهت إرازمس تجارب كثيرة، حيث كانت تعرض عليه هبات مغرية تتعلق بالمعيشة أو الترقية، ولكن محبته لأتعابه

---

* بالرغم من أن نسخة إرزمس للعهد الجديد باليونانية التي صدرت في بازل سنة ١٥١٦م كانت أول نسخة يقدم فيها النص الأصلي للوحي المقدس إلى العالم المستنير، إلا أنها لم تكن أول ترجمة تُطبع. فقد تمت في يناير ١٥١٤م الطبعة المسماة "العهد الجديد المتكامل *Testament New complutensian*" ولكن لم تنشر حتى عام ١٥٢٢م لأنها انتظرت استكمال باقي أسفار الكتاب المقدس وتصريح البابا بنشرها، وهكذا ظهرت نسخة إرازمس قبلها بست سنوات بالرغم من أنها طبعت بعدها بسنتين. وقد كانت نسخة «العهد الجديد المتكامل» هي أول نسخة للعهد الجديد متعددة اللغات، ولذلك سُميت بهذا الاسم، وقد تلتها طبعات باريس ولندن متعددة اللغات. وقد تحمل العبء الأول في هذا العمل الجليل الكاردينال إكسيمنس من توليدو، الذي أصدرها على نفقته الخاصة. ولكي يتمم هذا العمل جمع النسخ الخطية، ووظف عددًا من العلماء لتحقيق النص، واستورد حروف الطباعة من ألمانيا، وقد بلغت التكلفة ثلاثة وعشرين ألف جنيه إنجليزيًا، وهي بقيمة العملة في تلك الأيام مبلغ ضخم، ولكن لا ننسى أن دخل الكاردينال السنوي كان أربعة أضعاف هذا الرقم.

وقد اكتملت نسخة "الكتاب المقدس المتكامل" في الكالا بأسبانيا سنة ١٥١٧م، وكان قد بدأ الإعداد لها سنة ١٥٠٢م، وصدرت في ستة مجلدات من القطع الكبيرة. وتحتوي هذه المجلدات الثمينة على العهد القديم بالعبرية واللاتينية واليونانية، والعهد الجديد باليونانية واللاتينية، مع قاموس عبري وبعض المواد الإيضاحية.

ولما علم جون فابر وهو ناشر مغامر بأمر الإعداد لهذه النسخة حث إرازمس على اخراج نسخة العهد الجديد على وجه السرعة ليفوز بأسبقية الإصدار. وقد صدرت الطبعة الأولى مليئة بالأخطاء إذ ان تعجل جون فابر إخراجها لم يعطه الفرصة الكافية لمراجعتها وتصحيحها. وقد صدرت منها ثلاث طبعات خلال ست سنوات. أما الطبعتين الرابعة والخامسة فقد أعطاهما إرازمس مزيدًا من العناية بعد أن رأى نسخة "الكتاب المقدس المتكامل" سنة ١٥٢٢م - يمكن للقارئ الرجوع إلى كتاب "مقدمة صريحة لبيان أخطاء نسخة العهد الجديد" للدكتور شريفنر، وكذلك بعض التفاصيل الشيقة بكتاب روبرتسون «تاريخ الكنيسة» المجلد الرابع[٣١].

الأدبية جعلته يفضل الفقر النسبي مع الحرية الكاملة. وفي عام ١٥١٦م سكن في بازل، حيث طبعت مؤلفاته المتنوعة. على أن العمل العظيم الذي يبدو أن الله أعده له أعدادًا خاصًا كان العهد الجديد باللغة اليونانية. وفي ذلك يقول أحد مشاهير المؤرخين "لقد فعل إرازمس مع العهد الجديد ما فعله روشلان مع العهد القديم، ومن ذلك الوقت أصبح في مقدور اللاهوتيين أن يقرأوا كلمة الله بلغاتها الأصلية، وأن يدركوا نقاوة تعاليم الإصلاح. إن شعاعًا لامعًا أضاء من ترجمة إرازمس للعهد الجديد، فمذكراته على الرسائل وإنجيل متي ويوحنا، وترجماته لمؤلفات أوريجن وأثناسيوس وكريسوستوم، وكتابة المسمى "مبادئ اللاهوت الصحيح" ومؤلفه الآخر المسمى "المبشر"، وتأملاته في مزامير مختلفة، كل هذا ساعد مساعدة قوية على إيجاد ونشر روح التذوق الصحيح لكلمة الله، والشوق لكل تعليم طاهر حقيقي. وقد ذهبت نتيجة أتعابه إلى أبعد مما كان يظن أو يقصد، فقد قيل إن روشلان وإرازمس أعطيا الكتاب المقدس لطبقة الأدباء والمتعلمين، ولوثر أعطاه لطبقة العاملين"[١٤٤].

وهكذا كانت سلسلة الشهود كاملة وتامة، وقد ارتبط ويسيلوس وروشلان وإرازمس ولوثر برباط واحد، وحبل نعمة الله الفضي يمكن تتبعه من أيام الرسل، أو على الأقل من أيام قسطنطين إلى عهد لوثر. فقد تتبعنا شهادة الولدانسيين ووجدناها ترجع إلى تلك الأيام الغابرة. بعد ذلك وجدنا شهودًا للمسيح في البولسيين، ثم الألبينيين، ثم الويكليفيين، ثم البوهيميين، ثم المورافيين، ثم الإخوة المتحدين. كما وجدنا سافوناررولا وأفرادًا محتجين آخرين في ممالك أوروبا المختلفة.

• • •

والآن بعد أن واصلنا مسيرنا الشاق الموحش وسط مجاهل العصور المظلمة، حتى وصلنا إلى فاتحة القرن السادس عشر، نرى أننا قد وصلنا إلى نقطة بهيجة، حيث نجد الكتاب المقدس بلغاته الأصلية، والمطابع على أهبة الاستعداد لمضاعفة النسخ بالآلاف وعشرات الآلاف، وإرسالها إلى أربعة أطراف المسكونة.

وهكذا تهيأت الطريق لذلك الانقلاب العظيم الذي كان وشيك الحدوث. وشر روما الذي لا يطاق، ودماء شهداء الله القديسين، وجماهير النفوس الغفيرة المهددة بالهلاك لغياب المعرفة والنور، كل هذه كانت تصرخ عاليًا في أذني الله، الذي يستطيع أن يقصر أيام سيادة البابوية، وينقذ شعوب أوربا من ظلام وعبودية ألف سنة. وقد جاء الوقت لأن يتم هذا، ولكن ليس بمجرد الكتابة والمؤلفات الهادئة، بل بالإيمان بكلمة الله وقوة الروح القدس.

الفصل الثالث والثلاثون

إنطلاق حركة الإصلاح في ألمانيا

ها هي شمس سيادة الكنيسة اللاتينية المطلقة تدنو من المغيب. فمنذ عصر البابا غريغوري الأكبر مَرّ ما يقرب من ألف سنة، وصولجان السيادة العليا في يدها. ولكن التيوتوني المضطَهد قام الآن يشهر سلاح العصيان ضد طغيان الروماني، وانتهي الصراع بسلخ جزء عظيم من ممتلكات البابوية وتفكك المسيحية، مثلها في ذلك كمثل سفينة بولس التي سافر بها إلى روما.

وقد كانت رغبتنا طوال التأملات الماضية أن نضع أمام القارئ صورة صحيحة لطابع كنيسة روما الحقيقي وطرقها التي سارت عليها أثناء مدة سيادتها الطويلة، وله أن يحكم الآن إذا كان هذا التاريخ يعزز تفسيرنا للرسالة إلى ثياتيرا أم لا. أما اعتقادنا الشخصي فإنه قد ظهر الآن، في نهاية التاريخ، انطباقه بكيفية أعمق ألف مرة عما كان في بدايته على كلمات ربنا المبارك لكنيسة ثياتيرا. ونحن ليس لنا إلا شخصه العزيز نخدمه ونرضيه في كتابتنا لهذا التاريخ، وإنه لأجل شخصه وحده استعرضنا تاريخ تلك الألف السنة، مع العلم بأن ما كتبناه لا يُقاس بكمّ ما قرأناه للتحقق من صحة كل كلمة نكتبها. زِد على ذلك أن جزءًا عظيمًا جدًا من تاريخ البابوية لا يصلح البتة لصفحاتنا ولا يليق أن يُعرض أمام عيون الشعوب المتحضرة، فبالأولى أمام عيون المسيحيين، ولذلك يحسن أن نتركها على الصفحة التي كُتبت عليها في ذلك العصر، كما أنها لا محالة ستُطرح في النهاية إلى مكان حالك الظلمة في جهنم.

وبواسطة المدارس، والترجمات الجديدة، والمطابع، وتساهل الكنيسة، استمر الرب حوالي ثلاثمائة سنة يُعد الطريق لتنفيذ غرضه الصالح، وإذ تم هذا كانت أضعف آلة تكفي لأن توحّد كل هذه العوامل وتخرجها إلى حيز النشاط الكامل. فعندما يكون البارود معدًا، فأقل شرر، ولو عارض، يكفي لأن يُحدث الانفجار. وهذه هي دائمًا سياسة الله في عنايته، أن يتمم عظائم الأمور بأصغر الوسائط وأضعفها، لكي يثبت أنها قوة الله لا إنسان. وقد جاءت الفرصة، وكان لوثر هو الآلة المعدة لجمع حصاد حركة الإصلاح المجيد. على أن قلوبًا شريفة أخرى وأيدي كريمة عملت في الحقل ومنحته جهودها وأتعاب محبتها وغيرتها، وإن لم يصر لها الامتياز أن تجمع شيئًا من أثماره لنفسها، على الأقل في هذا العالم. هؤلاء يمكن اعتبارهم عوامل، أما لوثر فكان الآلة.

قد كانت مشغوليتنا تتبع تدوين تاريخ الألف السنة الماضية فيما هو خاص بالبابوية وشهود المسيح، أما منذ الآن فستكون مشغوليتنا بالبابوية والبروتستانتية. ولكن لكي يتسنى للقارئ أن يفهم جيدًا الفرق بين الاثنين عليه أن يعرف ما كانت عليه البابوية قبل ظهور لوثر.

البابوية والبشر

قليلون نسبيًا في وقتنا الهادئ الحاضر هم الذين يعرفون طبيعة البابوية الحقيقية وقبضتها الشاملة. لقد تطورت وتكونت تكوينًا كاملاً خلال مدة العصور المظلمة الطويلة، ولكن طبيعتها الحقيقية باقية إلى يومنا هذا. لقد تغيرت الأوقات والظروف، أما البابوية فلم تتغير. كان الإكليروس والرهبان والفرير طبقة خاصة ممتازة ومنفصلة انفصالاً كليًا عن باقي البشر. وكان حد فاصل عريض وعميق لم يمكن تخطيه يفصل بين هيئتي الإكليروس والعلمانيين. فحياة الطبقة الواحدة وقوانينها وممتلكتها وحقوقها وواجباتها الاجتماعية لم تكن فقط تختلف عن الطبقة الأخرى، بل كثيرًا ما كانت تناقضها على خط مستقيم.

فالتعليم كان قصرًا على طبقة الإكليروس، وكان من امتيازهم دون سواهم. وكل من كانت تتوق نفسه لنور العلم لم يكن في استطاعته الحصول عليه أو استخدامه إلا بالارتباط برجال الكنيسة أو الدير. وأبناء الأشراف، لا بل وأبناء الملوك، قرنوا أنفسهم بطبقة الإكليروس، وخاصة كلما كانت الكنيسة تتزايد في الثروة والقوة والجاه. وبهذه الوسيلة أصبحت أشهر الأسماء وأعظمها تلمع بين صفوف الإكليروس، واندمجت الكنيسة والدولة وصارت وحدة لا تتجزأ. والجامعات والمدارس وجميع دوائر ومنتجات العقل البشري كانت كلها في قبضة يدهم. أما الطبقة الأخرى من البشر - طبقة العلمانيين - فتُركت تتخبط في الظلام الدامس والجهل الكامل، وويل للرجل الذي يتجاسر ويرفع إصبعه مشيرًا إلى أي طريق جديد يؤدي للعلم أو الحرية. إن أضعف بصيص من نور كان لا بد من إخماده في الحال، وما يكشفه كان لا بد من احتسابه سحرًا شيطانيًا محرّمًا.

كان رجال الإكليروس وحدهم هم الذين يستطيعون أن يقرأوا ويكتبوا ويحرروا أوراق الدولة الرسمية والمعاهدات أو القوانين. ونظرًا لصفتهم القدسية وتفوق علمهم وذكائهم كان لهم امتياز الدخول إلى بلاط الملوك ومجالسهم، وكانوا هم مفاوضي الملوك وسفراءهم. على أن أسرار الملك ومعاهدته لم تكن هي وحدها التي يعرفونها، فالاعتراف كان يفتح مغاليق قلب كل واحد من أعظم عظيم إلى أحقر حقير، ويجعله مكشوفًا أمام أعين الكهنة، فلم يكن هناك أي عمل يمكن أن يبعد أو يغيب عن دائرة استطلاعهم، وبالكاد كان يمكن لأية فكرة أو نية أن تبقى سرًا عليهم. قد يكون هناك أنين وتذمر ضد جشع الكاهن وكبريائه واستباحته، ولكنه على أية حال لا يزال هو الكاهن أو الأسقف أو البابا، أسراره المقدسة لم تفقد سلطانها، وحكمه بالربط أو الحل لا يزال ساري المفعول، وكل من تجرأ على الشك في سلطان الإكليروس في هذه الأمور فهو هرطقي مرفوض ومحروم، لا يصلح إلا وقودًا للنار من الآن وإلى الأبد.

والبابا، كما كان الاعتقاد الشائع، جمع في شخصه صفات السيادة العليا في كافة أمور الدين والدولة. سلطان الأباطرة والملوك مكتسب، أما سلطانه هو فأصلي، وهو مسلح بسلطان إلهي لخلع الملوك وحل الرعايا من واجب الولاء ومن كل التزام آخر، وإذا لزم الحال من كافة ربط الهيئة الاجتماعية. ولكن فوق الكل، كان مخولاً له السلطان للمحافظة على سلامة الإيمان كما هو مسلّم له من أسلافه، أو كما يحدده هو بصفته رئيس الكنيسة، وأن يقضي عل كل انشقاق بأي شكل كان، وأن يُضطهد حتى الموت كل من يجرؤ على معارضة هذا الحق المطلق الموروث باعتباره عاصيًا وخائنًا لله وللكنيسة، وأن يطلب من الحكومة في أي وقت يريد أن تبذل الحياة والمال، وكل جهد مادي وأدبي في سبيل إعانته على المحافظة على سلامة الإمبراطورية الروحية(٦/٤٢)(١٤/٤٢).

حالة الكنيسة في بداية القرن السادس عشر

تلك كانت سيادة الكهنوت غير المحدودة في أوائل القرن السادس عشر. لم يكن هناك مخلوق مستقل عن الكاهن، بل كان الكاهن هو سيد كل صغير وكبير، وكان له مطلق السلطان على الجسد والنفس، على الدهر الحاضر والأبدية، ولم يكن في مقدور أحد التعرض لغضبه أو الوقوف أمام توبيخه، فالحرمان كان يقطع الكل في الحال مهما كانت رتبته أو مقامه، ويطوح به بعيدًا عن حظيرة الكنيسة، التي خارج حدودها لا يوجد أقل أمل في الخلاص.

أليس عجيبًا أنه في هذا الوقت لم يكن هناك أي خطر يهدد هذا البرج، برج الإثم العالي الشامخ؟ فمن الفاتيكان إلى أصغر أبروشية كانت طمأنينة الكنيسة وسلامتها تبدو كأنها قد ضُمنت ضمانًا أبديًا. فالهرطقات والحركات المختلفة التي أزعجتها وأقلقتها طوال القرون الماضية كانت قد سُحقت بالنار والحديد. والشكاوى والالتماسات من أعز أبنائها وأبرّهم رُفضت رفضًا شنيعًا جارحًا، ونصائح أصدقائها وأعز أحبابها قد أُهملت وامتهنت وضُرب بها عرض الحائط.

أين الآن جماعة الولدانسيين والألبينيين واللولارديين والبوهيميين وباقي الجماعات التي كانت تزعجها وتهددها في الماضي؟ قد أسكتتهم البابوية أو قضت عليهم قضاء مبرمًا. صحيح أنه كان لا يزال هناك تذمر فردي ضد مظالم روما وفضائحها وقسوتها وطغيانها، وكذلك ضد جرائم وجهل وإباحية كهنتها بصفة عامة، ولكن الباباوات قد ألفوا هذه التذمرات وتعلموا كيف يتجنبوها ويتخلصون منها، سواء بالعطايا والهبات المغرية والوعود المعسولة، أو بالزجر والوعيد والحرمان، بحسب مقتضيات الحال، وكما يروق لهم ويتفق مع سياستهم.

وهنا نستطيع أن نتخيل بابل الزانية، على حد تعبير سفر الرؤيا، تتطلع بعظمة وكبرياء إلى أعمدة ومساند قوتها، وتقول في قلبها

«أنا جالسة ملكة ولست أرملة ولن أرى حزنًا» ولم تسمع الصوت الذي قال «خطاياها لحقت السماء وتذكر الله آثامها» (رؤ١٨: ٣،٥).

وكأن الأوان قد حان.. وقت الله لتتميم هذه النبوة تتميمًا جزئيًا على الأقل، وأمر القبض على الزانية خرج من فمه. وفي الوقت الذي فيه كانت تظن أن كل شيء قد صار مضمونًا ومؤكدًا إلى الأبد، كانت نهاية سيادتها المطلقة تقترب سريعة. ولكن كيف كان يمكن تتميم هذا؟ هوذا منذ أجيال والصيحات تتعالى من كل مكان منادية بإصلاح الكنيسة من رأسها إلى أعضائها، ولكن هذه الصيحات كلها ذهبت هباء منثورًا، وقد احتقرتها وضربت بها عرض الحائط، فما الذي يُعمل الآن؟ هل ينزل ملاك قوي من السماء ليقلب روما الاستبدادية ويحطم نير البابوية الذي رزحت تحته البشرية طوال هذه السنين، ويكسر السلاسل والأغلال التي طالما قيدت بها أجساد الناس ونفوسهم؟ كلا، مثل هذه الوسائط لم تكن لازمة ولا داعي لاستخدامها، وذلك لكي يتمجد الله. فما لم يقدر عليه الملوك والأباطرة الأقوياء بجيوشهم الجرارة وقواتهم المسلحة ها هو الله يتممه بطريقة مجيدة وعجيبة بواسطة راهب سكسوني مجهول، لا حول له ولا قوة بحسب الظاهر.

ذلكم الراهب كان مارتن لوثر الذي من إيزلِبن. كان هو صوت الله الذي أيقظ أوروبا ووجّه انتباهها إلى هذا العمل العظيم، ونادى الفعلة إلى الحقل. على أننا إذا كنا نريد أن نكوّن فكرة صحيحة عن هذه الآلة الرئيسية التي استخدمها الله في هذا العمل الجبار العظيم، وعن النعمة التي أهلته لهذه الخدمة الجليلة، علينا أن نلقي نظرة على الأمور البارزة في حياة المصلح الكبير الأولى. لقد ذهب المؤرخ دوبينْيّ في محبته للوثر أن قال عنه إنه اختبر في نفسه مقدّمًا جميع أدوار حركة الإصلاح المختلفة قبل أن تتم فعلاً في العالم، ولذلك يحث قرّاءه على دراسة حياة لوثر الشخصية قبل أن يتقدموا لقراءة الحوادث التي غيرت وجه المسيحية.

الفترة الأولى في حياة لوثر

انحدر لوثر من أسرة فقيرة ولكنها فاضلة في مانسفلد، وكان يقول عن نفسه "إني ابن فلاح، فأبي وجدي، وجدي الأكبر، كانوا فلاحين أمناء". وقد انتقل أبوه يوحنا لوثر بعد زواجه إلى إيزلبن في سكسونيا، وهناك ولد لوثر في ١٠ نوفمبر سنة ١٤٨٣م ليلة عيد القديس مارتن، ولذلك دعوه في الصباح باسم مارتن، تكريمًا للقديس الذي وُلد في يوم عيده. وكان أبوه رجلاً مستقيمًا مُجدًا في عمله، صريحًا في أقواله، ثابتًا في آرائه لدرجة العناد أحيانًا، مغرمًا بالقراءة، حتى كان يدرس كل كتاب يصل إلى يديه، مما ساعد على تنمية قواه العقلية وتطور ذكائه الفطري، بينما كانت زوجته مرجريت امرأة وديعة تقية كثيرة الصلاة، معتبرة عند جيرانها كمثال للفضيلة والصفات الحميدة.

وعندما بلغ مارتن الشهر السادس من عمره رجعت أسرته إلى مانسفلد، حيث وقعوا في فقر مدقع. يقول لوثر "كان أبي حطّابًا، وطالمًا كانت أمي تحمل الحطب على ظهرها لكي تحصل على ما تستطيع به أن تربي أولادها". ولكن الرب لم يهمل هذه العائلة، بل نظر إلى أتعابها الأمينة، وأنقذها من مذلة الفاقة التي كانت تعانيها، فقد التحق يوحنا بأحد مناجم الحديد في مانسفلد واستطاع بكده واجتهاده واحترام الناس له أن يحصل على ما جعل حياته أيسر من ذي قبل. ثم انتُخب عضوًا في المجلس البلدي، واستطاع بفضل رجاحة عقله ومتانة خلقه أن يشق لنفسه طريقًا بين أرقى الطبقات والأوساط المحلية.

وقد كانت شهوة الأب وبغيته في الحياة أن يجعل ابنه الأكبر معلمًا، على أنه لم ينس أهمية تربيته العائلية أولاً، فمجرد أن وصل مارتن إلى سن الإدراك والفهم أخذ أبواه التقيان يكلمانه عن الرب يسوع ويصليان معه بجانب سريره، ثم أرسلاه إلى المدرسة صغيرًا حيث تعلم على يد جورج إميليوس الدروس الدينية الأولية والوصايا والصلوات، وقانون الإيمان، والصلاة الربانية، ومبادئ اللغة اللاتينية. وبحسب العادة المتبعة في ذلك العصر تعلم مارتن المسكين دروسه الدينية الأولى بطريق القصاص الشديد والجلد الموجع، حتى يمكن القول إنه من بدء نشأته كان يتدرب في مدرسة الفقر والضيق والألم، إعدادًا لحياة كلها جهاد وكفاح في المستقبل. ففي مناسبات، كما قال هو عن نفسه، جلده إميليوس القاسي خمس عشرة مرة في اليوم الواحد. ولم تكن معاملته في البيت أكثر رحمة.

يقول أحد مؤرخي حياته "كان أباه يطبِّق عليه بغاية الشدة ما كان معتبرًا في ذلك الوقت بأنه الطريقة الوحيدة لكل تهذيب عقلي أو خلقي، وهي طريقة القصاص البدني، وكانت أمه تشترك بكل غيرة في هذه

العملية، حتى يسيل الدم من جسمه". وقد كانت طباع مارتن المفطورة على الحماس وعدم الخشوع سببًا في تعرضه مرات كثيرة لمثل هذه الجلدات المبرحة. قال عن نفسه مرة "كان والديّ يعاملاني معاملة قاسية، حتى صرت خوّافًا جبانًا، فقد ضربتني أمي يومًا من الأيام ضربًا موجعًا من أجل بندقة، حتى سال الدم من جسمي، ولكنهما كانا يعملان بسلامة نية معتقدين أنهما يعملان الصالح"(١/٤٤)(١٦٧).

الفترة الثانية فـي حياة لوثر

في سن الرابعة عشر تعلم لوثر كل ما كان يمكن أن يتعلمه في مدرسة مانسفلد. وإذا كان قد أظهر شيئًا من المقدرة التي تبشّر بالنجاح، أرسله أبوه إلى مدرسة الفرنسيسكان في مجدبرج، ولكن القسوة التي لازمته في أيامه الأولى لم تتركه عند ما ترك بيت أبيه وتأديب إميليوس القاسي، فقد وجد نفسه في مجدبرج غريبًا، بلا أصدقاء، بلا نقود، وبلا طعام، فصغرت نفسه وانسحقت روحه، وكان يرتعد خوفًا في حضره معلميه، كما كان مضطرًا لأن يصرف فترات الراحة في استعطاء الخبز من أقرانه. وعندما كان يذهب هو وإخوانه الصغار إلى القرى المجاورة ينشدون الأناشيد في عيد الميلاد كانوا جميعًا يظهرون بمظهر الخوف والجبن الشديد بسبب الطغيان الذي أعتاد المعلمون في ذلك العصر أن يعاملوا به تلاميذهم، حتى أنهم كانوا يركضون خوفًا وجزعًا من فلاح رحيم يأتي لمقابلتهم لتقديم بعض الطعام لهم، فبمجرد سماعهم صوته الخشن الذي يناديهم "مرحبًا يا أولاد. أين أنتم؟"، كانوا يفرون خوفًا وجزعًا، وبالكاد كان يستطيع بعد نداءات متكررة أن يرجعهم ليتقاسموا سخاءه وكرمه.

ظل لوثر حوالي سنة في هذا المكان، ولكن الصعوبة التي كان يعانيها في الحصول على القوت الضروري بلغت حدًا عظيمًا، حتى اقتنع والداه بضرورة أن يرحل إلي إيزناخ، حيث كانت توجد مدرسة كبيرة، وحيث كان يقطن أقارب والدته، ولكن ذوي قرباه الذين كانوا هناك لم يخففوا عنه قسوة الحياة، فهم أهملوه، أو ربما كانوا غير قادرين على مساعدته. وهكذا بدت ظروفه مرة أخرى قاسية ومُرة، حتى أنه كاد يفكر في الرجوع. ولكنه هنا أيضًا التجأ إلى طريقة الشحاذة، فكان كلما عضه الجوع يدور من باب إلى باب منشدًا ومرتلاً من أجل كسرة خبز. وهذه العادة لا تزال *جارية في مدن كثيرة في ألمانيا، والمعروف في بعض الجهات أن مثل هؤلاء الأولاد المرتلين يجمعون الإعانات لمعهدهم أو مدرستهم. هذه الطريقة للحصول على القوت كانت مذلة للغاية للفتى لوثر. وحالات النفور والطرد الكثيرة التي كان يقابلها طالما هدت روحه وكسرت نفسه، فكان يذرف دموعًا كثيرة في الخفاء، وأخذت الهواجس تتنابه من جهة المستقبل، وتساوره أسئلة وأفكار مخيفة مزعجة، هل يترك كل آماله في التعليم والتقدم؟ هل يرجع إلى مانسفلد ويبقى في المناجم إلى الأبد؟ هذه وأمثالها كانت كأشباح تلازم الفتى التلميذ في روحاته وغدواته. ولكن هناك واحدًا كان ساهرًا عليه، ولو أنه لم يكن يعرفه بعد، ذاك الذي كان يعده للعمل في مناجم أخرى غير مناجم مانسفلد. أي نعم! كانت يد آب حنون تدير وتزن كل تجربة، وما كان في وسع العدو أن يزيد ذرة واحدة على وزنها الإلهي. إنه كان يدرب عبده في مدرسة الشدائد والضيقات، وبمجرد أن يتعلم درسه لا بد تأتي المكافأة ولا تتوانى. والآن كانت أزمة في تاريخه وشيكة الحدوث، ووقت الرب كان قد جاء لمد يد المعونة والإسعاف.

لوثر وأرزولا التقية

في يوم من الأيام، بينما كان لوثر راجعًا من أتعابه، خاسف البال كسير الخاطر، بعد أن كان قد أنشد تراتيله على ثلاثة أبواب، ولكنه ارتد خائبًا ولم يلق إلا النفور والطرد، انفتح بغتة أمامه باب، وظهرت على العتبة امرأة دعته للدخول وسدت حاجته وطيبت قلبه. تلك كانت أرزولا الشفيقة التي كانت قد لاحظته من قبل وتأثرت بحلاوة صوته ورزانة تعبيراته. وقد وافق كونراد زوجها على إحسان زوجته وكرمها، واتفقا معًا على أن يبقى لوثر معهما كابن متبنى. وإذ تحرر لوثر من هموم الحياة وصارت له فرصة لأن يتمتع بامتيازات عائلة مسيحية، ابتدأ عقله يستيقظ على مشاعر جديدة وأفراح لا عهد له بها من قبل، وبالاختصار لحياة سعيدة جديدة. والله في رحمته فتح قلبي أرزولا وزوجها وبيتهما للصبي المسكين المنسحق الروح. ولسنا في حاجة لأن نقول إن محبتهما ظلت منقوشة على قلب لوثر، ومسجلة في السماء للمجازاة الأبدية.

* في زمان الكاتب.

وهنا بدأ لوثر بنشاط جديد يواصل دراساته في الأدب والعلوم، وأضاف على ذلك فن الموسيقى. ورغبة في إرضاء أمه التي تبنته واعترافًا بجميلها، أخذ يتعلم في ساعات فراغه الضرب على المزمار والعود، لأنها كانت مغرمة بسماع صوته الحلو الطروب مقترنًا بصوت العود. وبذلك نشأت فيه محبة الموسيقى التي لازمته حتى شيخوخته، وكثيرًا ما كانت سببًا في تسليته وتشجيعه في أوقات الشدة والتجارب. وقد وضع الألحان لأناشيد كثيرة، كما ألف ولحن عددًا من أجمل الترانيم وأحلاها.

في ذلك الجو العائلي البهيج كان من الطبيعي أن تتغير صفات لوثر تغيرًا محسوسًا، فمخاوفه تلاشت، وحياؤه وجبنه لم يعد لهما أثر، وأفكاره هدأت، وقلبه امتلأ بالسلام، ومناحي حياته وطرق معيشته صارت كلها بهيجة وسعيدة، كما أن مواهبه النادرة جعلت له مكانته الخاصة في مدرسة الفرنسيسكان. وعلى هذه الصورة قضى لوثر أربع سنوات، وهنا يقول عنه المؤرخ ملانكتون "إنه فاق جميع أقرانه في الفصاحة والإنشاء نثرًا وشعرًا".

وقد اعتاد تريبونيوس رئيس الدير وناظر الكلية أن يحي تلاميذه برفع قبعته كلما دخل حجرة الدراسة، وإذ لم يكن من عادة زملائه أن يفعلوا مثل هذا أظهروا دهشتهم وتعجبهم من تنازله، فأجابهم قائلاً "إن بين هؤلاء الأولاد من سيجعلهم الله يومًا من الأيام حكامًا ومستشارين ومعلمين وقضاة، وإن كنتم الآن لا ترونهم متشحين بشارات عظمتهم، إلا أنه من الواجب معاملتهم بالاحترام". وكان الفتى لوثر حاضرًا وقتذاك، ولا شك أنه كثيرًا ما تذكر كلمات أستاذه المحترم. وإذ تشجع لوثر بانتصاراته الأولى في إيزناخ، وشعر بأنه في الإمكان مواصلة دروسه، تعطش أكثر للارتشاف من مناهل العلم والاستزادة منه، وتاقت نفسه للتقدم والبروز في هذا المضمار، وقد كانت رغبته الشديدة ومطمحه الأكبر أن يحصل على التعليم الجامعي بالانضمام إلى إحدى الجامعات. وكانت ظروف والده قد تحسنت وافق على دخوله الجامعة، إلا أنه أراد له أن يدرس القانون.

لوثر يدخل جامعة إرفورت

في عام ١٥٠١م دخل لوثر جامعة إرفورت، أشهر جامعات ألمانيا في ذلك الوقت، وكان قد بلغ الثامنة عشر من عمره، وانكب على دراسته بكل نشاط وشغف. وهنا يقول "إن أبي أعانني هناك بكل حب وأمانة وسدد جميع حاجاتي بعرق جبينه"، ويعلق أحد المؤرخين على هذه الملاحظة الشاكرة من جانب الابن بالقول "ومن المؤكد أن جميع مجلدات تاريخ البشرية لا تحوي حادثة فيها استطاع أب أن يجني من أتعابه وغرس يديه مثل ما جنى يوحنا لوثر من الحصاد المجيد الذي أنتجته مجهودات فتى مانسفلد الصغير. لقد تعب ونال المكافأة، فكل قطرة عرق سقطت من ذلك الجبين حولتها عناية الله الساهرة إلى وسيلة مباركة لتحقيق الأغراض التي كانت ترمي إليها، ولزيادة خصب ذلك العقل الذي كانت العناية قد أعدته لتغيير وقلب المبادئ التي كانت تسود المسيحية"(١/٦٧).

وهناك ما يدعو للاعتقاد أن أمورًا أخرى خلاف الرغبة العلمية كانت تدور في خلد لوثر وتشغل باله في ذلك الوقت، فعناية الله تداخلت في أمره، وقد بدت في عطف عائلة كونراد نحوه، وما كان يراه ويتعلمه في ذلك الوسط المسيحي، كل ذلك ترك أثرًا عميقًا لا يمحى في قرارة نفسه، حتى أنه عندما دخل الجامعة عارض معارضة شديدة في دراسة مؤلفات أرسطو، مع أن فلسفة ذلك العالم الشهير كانت على رأس مناهج الجامعة، وكانت لها أكبر شهرة في عالم الأدب في ذلك الوقت، وقد قيل له إنها خير وسيلة لتدريب عقله وتوسيع إدراكه. ولكنه كان دائما يقابل ذلك بالقول "لو لم يكن أرسطو إنسانًا لاعتبرته شيطانًا". ذلك كان مبلغ بغضه لفلسفة ذلك الفيلسوف العظيم. على أن أساتذته نصحوه بأن مؤلفات الفلاسفة القدماء أمثال سكوتس وأكويناس وأوكهام وبونافنتورا هي الأساس الوحيد لكل ثقافة صحيحة ولكل علم وتقوى. ولكن هذه كلها من جهة حاجة الضمير المتعب لم تكن بأفضل من منطق أرسطو وفلسفته. ومع ذلك فقد كان من اللازم في حكمة الله وعنايته أن يدرس لوثر هذه المؤلفات ويلم بها كل الإلمام، حتى بذلك يكون أقدر فيما بعد على دحضها وتسخيفها وإظهار عدم نفعها لعبادة الله وخدمته. وعلاوة على ذلك فقد درس أحسن المؤلفات القديمة وأشهرها، واستطاع بما حباه الله من بصيرة نافذة وذكاء حاد ومثابرة على العمل وذاكرة قوية أن يتقدم في زمن وجيز تقدمًا باهرًا في دراساته، ولم يلبث أن ذاع صيته كخبير حاذق في اللغات. وفي عام ١٥٠٣م نال درجته

الجامعية الأولى، وهي درجة البكالوريوس في الآداب.

وفي عام ١٥٠٥م، أي بعد ذلك بسنتين، نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة. وإذ كان قد ضرب بسهم وافر في فروع عديدة من الأدب، بدأ يوجه انتباهه، إطاعة لرغبة والده، إلى دراسة القانون. ولكن الرب كان قد أعد في مقاصده عملاً آخر للوثر، وكانت النعمة قد بدأت تعمل في قلبه، فأخذ ينشغل كثيرًا بالصلاة، واعتاد أن يقول "إن الصلاة هي نصف الدراسة الأفضل". قول جميل يا ليته يكون شعار كل طالب مسيحي.

رؤية لوثر الأولى للكتاب المقدس

كان لوثر، وهو في حالة نفسية مضطربة من جهة خلاص نفسه، يبحث يومًا من الأيام في مكتبة الجامعة عن شيء جديد يتسلى به، وإذا بيد الله تقوده إلى الكتاب المقدس. قرأ عنوان الكتاب وقال لنفسه: "أهذا حقًا الكتاب المقدس؟" وفي الحال أخذ يقلّب صفحاته بسرعة وبلهف شديد. كان عمره إذ ذاك عشرين سنة، ولم يكن إلى ذلك الوقت قد رأى الكتاب الثمين ولو مرة واحدة في حياته. ليتأمل القارئ في هذا الأمر! شخص تربى في أحضان أبوين تقيين، وعاش أربع سنوات في وسط عائلة مسيحية، ومع ذلك لم يقع نظره على الكتاب المقدس ولو مرة واحدة! وبالأسف الشديد نقول إن هذا الجهل المحزن بكلمة الله لا يزال سائدًا وسط الهيئات الكاثوليكية، فالكتاب المقدس ليس جزءًا من منهاج دراسة الكاهن الكاثوليكي، ومن الجهة الأخرى محرم على الشعب قراءته، مع انتشار عشرات الملايين من نسخ الكتاب المقدس الآن في كل أصقاع الدنيا.

ولكن ليتذكر القارئ البروتستانتي أيضًا أن الكتاب ليس من تفسير خاص «لأن من من الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه. هكذا أيضا أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله» (١كو ٢: ١١). فبدون تعليم وسلطان الروح القدس من خلال الإيمان بالمسيح يسوع لا يمكن أن يكون هناك أي فهم صحيح لكلمة الله، أو خضوع قلبي حقيقي لسلطانها المطلق. ولذلك فإن بعض الأقوال البروتستانتية المأثورة، وأن كانت تبدو جميلة وهامة بالمقابلة مع مبادئ البابوية، إلا أنها ليست صحيحة، وفي حالات كثيرة مضللة، كالقول "الكتاب - كل الكتاب - وليس شيئًا سوى الكتاب"، هذا حق أكيد عندما نتكلم عن الكتاب المقدس كالدستور الوحيد، ولكنه خطأ عندما يكون المراد منه أن الكتاب المقدس هو المفسر لنفسه بنفسه، لأنه استبعاد للروح القدس عمليًا. كذلك نسمع الكلام عن "حق الحكم الشخصي" وهو المبدأ الذي كانت له أسوأ النتائج. فكبرياء العلم الباطل، وكفاية العقل البشري، وعدم الخضوع لمشيئة الله المعلنة، ما هي إلا بعض آثار هذا المبدإ الخاطئ، وأن كان لم يُقصد به في الأصل سوى معارضة الكهنوت الكاثوليكي وادعائهم بالعصمة في تفسير الكتاب دون سواهم، واستعباد أذهان العامة لنير دكتاتوريتهم في التفسير.

كيف يمكن أن يكون للخاطئ الهالك المحكوم عليه بالدينونة أية حقوق شخصية أو فردية؟ الواقع أنه ليس له حق إلا في مكان بين الهالكين. ولكن إذا سَر الله في غني نعمته أن يتكلم إليه، فما عليه إلا الإصغاء والاستماع، وليس له أي حق في مناقشة ما يقوله له الله، ولا يمكن أن يكون له رأى خاص أو حكم شخصي في الأمور الإلهية. إن الناس لا يؤمنون بأنهم حقيقة هالكون، ولهذا يظن الناس أن لهم حق المناقشة والكلام، هم يؤمنون أن لهم خطايا وأنهم مذنبون، ولكنهم لا يؤمنون أنهم في حالتهم الحاضرة مدانون وهالكون. وكثير الناس لا يعرفون هل هم هالكون أم مخلّصون، ولذلك تجدهم يتكلمون عن حقوقهم كأناس أحرار. وقد يسأل البعض "ما الفائدة إذاً من عقولنا إن كنا لا نستخدمها؟" الفائدة هي أن قراءة كلمة الله والبحث والتأمل فيها ومعرفة مشيئة الله منها هي بكل تأكيد أسمى امتيازات العقل البشري وأجمل وأغنى تدريب له. اسمع ما يقوله آخر:

كيف أدرس الكتاب

"هوذا كتابي في يدي، وها أنا مغرم وشغوف بقراءته ودرسه، ولكن ما هو ضماني لفهمه؟ وما هي وسيلتي لإدراكه؟ هل كفايتي الذاتية؟ هل موافقته ومطابقته لما فيَّ وما حولي إن كان هذا حقًا لا غبار عليه؟ كلا. ليأخذ الإنسان مكانه في الخضوع والاتضاع، والله في هذه الحالة لن ينكر نفسه، والروح القدس لن يقصر في تمجيد الرب يسوع. مكتوب «إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله» (يو ٧: ١٧). هذا هو الأساس المبارك الذي عليه تستريح النفس بالقابلة مع أساس العقل البشري أو كفاية الذهن

الإنساني المبتدع، أما لروح الطاعة والخضوع فكل شيء أكيد ومضمون"(١/١٨). هذا مبدأ هام وخطير، فالعمل بمقتضى كلمة الرب يجب أن يسبق العلم. يجب أن يكون هناك استعداد لعمل مشيئة الله إذا أردنا أن نعرف أو نفهم تعليمه. هذا هو الوضع الإلهي الصحيح، أما كبرياء الإنسان فتقلب الأمر رأسًا على عقب وتقول: يجب أولاً أن أفهم كلمته قبل أن أخضع لمشيئته.

إن أقوال الله قد استؤمن عليها الكاثوليكي والبروتستانتي على حد سواء. وهذا الكتاب المقدس سيكون الأساس الذي عليه يدان جميع الناس أمام العرش العظيم الأبيض، ولكن من الوجهة التاريخية نرى الواحد قد حفظه في مناديل، قائلاً إنه أقدس من أن تراه عيون الناس أو أن تسمعه آذانهم، والآخر قد أخرجه إلى النور وأذاعه في طول الأرض وعرضها، وجعل صوته يُسمع في شوارع المدينة والطرقات كما في الأزقة والحارات، وهكذا تمت حركة الإصلاح. كانت البابوية قد تغلغلت في نفوس الجماهير وضربت بجذورها في أعماق قلوبهم، حيث استمرت ثابتة لا تتزعزع، إلى أن أشرق النور على عقول الناس ووجد سبيله إلى قلوبهم، وكان ذلك بواسطة نشر الكتاب المقدس وتوزيعه مجاناً. إن النهضة كان مصدرها من فوق، بحسب نعمة الله العظمى، والروح القدس الذي يشهد ليسوع رب الجميع أعطى صوته وقوته للكلمة، والله كان معهما في الأواني التي كان قد أعدها للعمل. وسواء أكان في عمل الإحياء والتجديد وإلقاء النور على طريق المجد والسالكين فيها، أو في عمل الإدانة والكشف عن الشيطان وأسراه والمنحدرين معه في طريق عصيانهم إلى جهنم، سواء في هذا أو ذاك كان الروح القدس هو قوة إدراك الكلمة وقوة المناداة بها وقوة تطبيقها.

والآن نعود إلى تاريخ لوثر:

استمر لوثر يزور المكتبة من حين لآخر، وبسرور متزايد كان يتصفح الكتاب المقدس اللاتيني، ويتمنى لو أن الظروف مكنته من أن يقتني يومًا من الأيام كنزًا كهذا، فقد دهش من كميه المعارف والمعلومات التي يحتويها الكتاب الجليل، كما أنه تأثر غاية التأثر ببساطة قصصه، وخاصة قصة حنة والصبي صموئيل. ولكن على قدر ما أصبحت كلمة الله عزيزة عليه وجذابة له، وعلى قدر ما كان يجد في قراءتها من سرور ولذة، فإنه كان لا يزال بعيدًا جدًا عن طريق الخلاص ورؤيتها. ولكن اعتلت صحته بسبب مجهوده المضني في الدرس والمذاكرة استعدادًا لامتحاناته التي أجتازها بدرجة شرف. ولما وقع على أثر ذلك في مرض خطير، وأخذ شبح الموت يدنو منه ويهدده، ماذا كان ملجؤه في تلك الساعات الرهيبة؟ كان يصيح طوال الليل "يا مريم انجديني". فلم يكن يعرف إلى ذلك الوقت مخلصًا أقوى من العذراء مريم، وقد كان يقول عن هذه الحادثة بعد ذلك بسنين "لو كنت مت حينئذ لكنت مت معتمدًا على مريم". فالأساس الصحيح لغفران خطايا الخاطئ ونوال الخلاص لم يُخبر به قَط، مع أنه حصل على أكمل وأتم تربية كان في استطاعة البيت والكنيسة بكل جامعاتها تقديمها في ذلك الوقت.

لوثر يدخل الرهبنة

إذ تشجع لوثر بدرجات الشرف والشهرة التي نالها، وإذ عادت إليه صحته بعد اعتلالها، شعر بميل نحو تكريس نفسه لدراسة القانون، وكان في الوقت نفسه يقوم بتدريس أخلاقيات أرسطو وفروعًا أخرى من الفلسفة. وبينما هو مشغول ومنهمك في مساعيه العلمية واتجاهاته الدنيوية إذا بحادثة خطيرة تحدث، كان من شأنها أن غيرت اتجاه حياته جملة، وكيّفت مستقبل حياته كلها. ذلك أن صديقًا عزيزًا عليه يدعي ألكسيس مات فجأة، ويرجح أن موته كان اغتيالاً، وإن كان هذا غير مؤكد، ولكن نتائج هذه الحادثة مؤكدة وهامة، فقد ارتعد لوثر! ماذا يكون مصير نفسه لو انقضت حياته بهذه الكيفية المباغتة وبدون سابق إنذار؟ وهكذا عاودته مخاوف الموت وهواجس الأبدية، ولكن بقوة مضاعفة ملكت عليه قلبه وحواسه. وبينما هو يسير في الحالة النفسية المضطربة، ومعضلة خلاص نفسه قائمة أمام عينيه لا يجد لها حلاً، إذا بعاصفة رعدية مخيفة تباغته بالقرب من إرفورت، فأضاء البرق ودوى الرعد واكفهر الجو، ولم يكن من لوثر المرتعب المسكين إلا أن يلقي بنفسه على الأرض، متصورًا أن ساعة الموت قد حانت. ولما اكتنفته مخاوف الموت وارتسمت أمام عينيه رهبة الأبدية المريعة، وكان لا يزال يجهل الطريق الوحيد لله بالإيمان بيسوع، نادى القديسة حنة، ونذر نذرًا أنه إذا خلصه الرب من هذه الورطة وأنقذه من هذه الخطر فإنه يهجر العالم وينزوي في دير بقية أيام حياته.

مرت العاصفة، ودخل لوثر إرفورت، ولكن ليس لكي يتابع محاضراته أو يدرس القانون ومواده، بل لكي يفي بنذره. وهكذا تخلى عن آماله واستعاض عنها بظلمة الدير. هذه كانت العادة المتبعة في تلك الأيام، والتي كان يلجأ إليها كل من أراد أن يحصل على قداسة تؤهله لمقابلة الله. كان لوثر يعلم أنها ستكون صدمة عنيفة لوالده، وهذا ما كان يؤلمه أشد الألم، ولكن عزمه كان أكيد لا يمكن التحول عنه. ففي يوم ١٧ أغسطس سنة ١٥٠٥م، بعد هذه الحادثة بأسبوعين، دعا أصدقاءه لحفل عشاء، وكما هو المعتاد في مثل هذه السهرات صدحت الموسيقى تنعش الحاضرين، ودارت الأحاديث بين الأحباب في مختلف الشئون والشجون، واستمر الحال على هذا المنوال حتى ساعة متأخرة من الليل، حينئذ وقف لوثر يفضي بعزمه لأصدقائه المجتمعين. لقد كان هذا حفل وداعه للعالم، وفي نفس تلك الليلة ورغمًا عن كل الاعتراضات والاستعطافات من كل ناحية، دخل لوثر دير أغسطينوس في إرفورت.

لم يكن من عادة لوثر أن يعمل شيئًا بفتور أو رخاوة. أنظر إليه الآن تاركًا أصدقاءه، وكتبه وملابسه، وفي ظلمة الليل البهيم يسير مسرعًا نحو باب الدير. أنظر إليه وهو يقرع الباب ويقول "افتح لي باسم الله" فيجيبه صوت الفرير من الداخل "ماذا تريد؟"، فيقول "أريد أن أقدس نفسي لله". وانفتح الباب، ودخل لوثر وأغلق الباب، وصار الآن منفصلاً عن والديه وعن أصدقائه وعن دروسه وكتبه وعن العالم أجمع، ولكن نفسه بحسب أفكار ذلك العصر أصبحت الآن في أمان تام. لقد صار منفردًا مع الله.

اختبار لوثر كراهب

يفسر لوثر، بعد ذلك بست عشرة سنة، البواعث التي قادته لاتخاذ تلك الخطوة المتسرعة، فيقول "لم أكن يومًا من الأيام راهبًا بقلبي، ولم يكن قصدي إماتة شهوات جسدي، بل كان السبب أني نذرت نذرًا قهريًا، وكان لا بد من الوفاء به".

وبمجرد أن دخل لوثر الدير أعاد إلى الجامعة الروب وخاتم وظيفته، ووزع ملابسه التي كان يرتديها إلى ذلك الوقت، لكي لا يبقى عنده أي شيء يذكره بالعالم الذي هجره. وحزن والده حزنًا شديدًا، ودهش أصدقاؤه وعارفوه في إرفورت دهشة عظيمة، ولم يفرح ويتهلل إلا الرهبان الذين كان مما يشرفهم بلا شك وجود مثل هذا الدكتور العظيم بين صفوفهم.

إلا أن رغبة لوثر التي كانت لا تزال تتأجج في داخله للاستزادة من المطالعة والدرس لم تجد مجالها في الدير، فإنه لم يكد يدخل إلى هناك حتى أخضعوه لأحط أعمال الدير وأشقها، رغمًا عن شهرته العلمية العظيمة في الجامعة، فكان عليه أن يكنس عنابر النوم، ويفتح الأبواب ويقفلها، ويحمل الأثقال، وبالاختصار يقوم بكافة أعمال الخدمة في الدير كالخادم الأجير تمامًا. على أن هذا لم يكن الكل، فكان عليه أن يخضع جسده لضروب التعذيب والإماتة الجهرية. ذلك الفيلسوف العظيم والعالم العبقري الشهير، كان لزامًا عليه أن يشرب كأس المذلة حتى الثمالة، ولم يكن لينتهي من أعماله البدنية ويتوقع أن تتاح له فرصة قليلة للراحة والمطالعة حتى تصدر له الأوامر بالخروج حاملاً حقيبته ليقوم بواجب الاستعطاء للدير، وكان يقال له إنه ليس بالدرس والقراءة يستطيع أن ينفع الهيئة الاجتماعية، بل بشحاذة الخبز والحنطة والبيض والسمك واللحم والنقود، وهكذا كان يطوف شوارع إرفورت حاملاً الحقيبة على ظهره، متسولاً من باب إلى باب، وليس هو الآن التلميذ الفقير الذي ينشد الأناشيد كما في عهد صباه، بل هو أستاذ في الأدب ودكتور في الفلسفة!

كان ذلك تدريبًا قاسيًا للوثر، ولكنه كان بلا شك بسماح من العناية الإلهية الكلية الحكمة، وذلك لكي يتعلم بالاختبار الشخصي ماهية حياة الرهبنة، ويدرك تمامًا غرورها، الأمور التي لم يكن يستطيع أن يتعلمها بأية وسيلة أخرى. ولكن الله في رحمته وضع حدًا لهذه الحالة المذلة، ذلك أن الجامعة وجدت أنه من العار عليها أن ترى واحدًا من أشرف أعضائها وأشهر أعلامها وأقطابها يسير في شوارع المدينة وطرقاتها حاملاً كيس الشحاذة على ظهره متسولاً الخبز، ربما من على عتبة باب أحد أصدقائه الأقدمين، فخاطبت رئيس الدير في هذا الشأن، وكان من أثر ذلك أن أعفي لوثر من مأمورية التسول والشحاذة.

اهتداء لوثر

عندما أعتق لوثر من مهمة الشحاذة، وأصبح عنده بعض الوقت الذي يستطيع أن يستغله في الدراسة، عاد إلى كتبه بشغف وشوق جديد. كانت المطالعة والتأمل هي لذته، وكانت كتابات الآباء وخاصة القديس أغسطينوس هي أهم ما جذبت انتباهه. وكان هناك

ركن معين من الدير به كتاب مقدس مربوط بسلسة، فأخذ الراهب الشاب يتردد عليه من حين لآخر ليقرأ كلمة الله، ولو أنه لم يكن مزودًا بعد بالتمييز الروحي الذي يمكنه من فهم معناها الصحيح. وكان أحد الرهبان المدعو جولان لانج، والذي صار صديقًا للوثر، ملمًا باللغتين اليونانية والعبرية اللتين لم يكن لوثر قد درسهما بعد، ولذلك إذ وجد الفرصة سانحة أقبل عليهما بكل شغف ومثابرة. بهذه الصورة استطاع لوثر في عزلة صومعته وبمساعدة جون لانج أن يتعلم اللغتين اليونانية والعبرية، وبذلك يضع الأساس لأعظم وأنفع عمل من أعماله فيما بعد، ألا وهو ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية. وقد ظهر في ذلك الوقت كتاب روشلان العبري فاستفاد منه لوثر فائدة عظيمة، وكان خير معوان له في عمله.

على أن قراءة لوثر وتأملاته في الكتاب لم تكن إلا لتزيد في حيرته وكآبته لعدم فهمه إياها، فقد كان الخلاص والتأكد منه هو الغاية العظمى التي تصبو إليها نفسه المضطربة، وبدون ذلك ما كان ممكنًا له أن يجد راحة. لقد دخل الدير وأصبح راهبًا، ومن وقتها وهو يجاهد جهادًا مستمرًا ضد فساد طبيعته، وقد صرف ليالي بجملتها جاثيًا على ركبتيه على بلاط صومعته، وقد فاق جميع إخوته في الأسهار والأصوام وإذلال النفس والجسد، ولكنه في هذا الكمال النسكي لم يستطع أن يجد راحة أو سلامًا، بل بالعكس قد دفعه هذا إلى يأس أعمق كاد يودي بحياته كلها، فبسبب إفراطه وشدته في التقشف أصيب جسمه بالهزال وعقله بالهستريا، فبدأ يتصور أنه يرى أرواحًا وشياطين تحيط به من كل جانب. قد يسأل واحد: ولكن لماذا هذا؟ ألم يكن مخلصًا؟ نعم، لقد كان مخلصًا بكل تأكيد، ولكنه كان يسعى للحصول على السلام مع الله بواسطة فرائضه الدينية وأعمال بره الذاتي، وفي ذلك كان مخطئًا كل الخطإ ولم يحصد إلا الخيبة والفشل. إنه كان يحاول أن يعمل لنفسه العمل الذي عمله له المسيح بصورة كاملة وتامة. أو ليس هناك الآلاف في الوقت الحاضر يعملون نفس الشيء الذي عمله لوثر، ولا يختلفون عنه سوى أنهم أقل منه إخلاصًا وغيرة وإنكارًا للذات؟ إنهم ينظرون إلى ذواتهم. قد يكون نظرهم متجهًا إلى شعورهم أو إلى أعمالهم، إلى استنتاجاتهم أو إلى أثمارهم، ولكن في كل الحالات، سواء في هذه أو في تلك، الذات هي موضوع المشغولية وليس المسيح وعمله الكامل. ماذا يقول الرب المبارك؟ «التفتوا إليّ». وماذا تكون النتيجة العاجلة السريعة؟ النتيجة هي خلاص كامل شخصي أكيد، وفي الحال. «التفتوا إليّ واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض، لأني أنا الله وليس آخر» (إش٤٥: ٢٢). لهذا الحق ينبغي أن تنحني كل نفس قبل أن يتسنى لها أن تذوق حلاوة السلام مع الله. ولكن لوثر كان لا يزال يجهل جلال بساطة إنجيل نعمة الله ومجده الأدبي العظيم.

كان لوثر في تلك النقطة من تاريخه لا يستعظم أية تضحية يقوم بها لكي يحصل على القداسة التي تضمن له الخلاص، هنا الآن، وفي السماء فيما بعد. وبعبارة أخرى كان يعتقد أنه يستطيع أن يشتري السعادة الأبدية بمجهوداته الذاتية. تلك هي ظلمة كنيسة روما، وهذا هو شطط وغرور واحد من أخلص وأتقى أبنائها. وبعد ذلك بسنوات، عندما تصححت أفكاره واستنار ذهنه، كتب إلى الدوق غريغوري أمير سكسونيا يقول "إني كنت بالحقيقة راهبًا تقيًا، وقد تبعت قواعد الرهبنة التي كنت انتمي إليها بدقة لا أستطيع أن أعبر عنها. وإن جاز أن أي راهب يستطيع أن يحصل على السماء بأعماله الرهبانية كان لي بالأولى هذا الحق بكل تأكيد، بهذا يشهد كل الرهبان الذين عرفوني. ولو كان الأمد قد طال بي لكنت من المحقق قد وصلت في تعذيب نفسي إلى حد الموت بالأسهار والصلوات والقراءات والأعمال البدنية الأخرى". وبالاختصار يمكن القول إن الدخول إلى السماء باستحقاقه الذاتي كان هو غايته القصوى التي سعى وراءها بغيرة جعلت حياته في خطر.

وقد بلغ به التقشف أثناء حياة الرهبنة إلى حد أن كانت تنتابه مرارًا كثيرة أعراض من الهستريا واليأس القاتل. ففي مرة من المرات عندما تضايقت نفسه بسبب شعوره العميق بنجاسته وخطيته، أغلق باب الصومعة على نفسه عدة أيام وليال لا يسمح لأحد بالدخول، واستمر على هذا الحال حتى قيض له الله راهبًا صديقًا، كان يعرف شيئًا عن حالته النفسية، فكسر باب الصومعة. ولشد ما كانت دهشته عندما رآه ساقطًا على وجهه في غيبوبة. وبصعوبة استطاعوا أن يعيدوه إلى وعيه على نغمات الأغاني الشجية من جوقة المرتلين الأحداث، ولكنه لم يكد يفيق حتى أغمي عليه مرة ثانية. إن الحمل الثقيل كان لا يزال يرهق نفسه المسكينة، فكان يحتاج ليس إلى موسيقى التراتيل الشجية، بل إلى موسيقى أحلى وأشجى، هي موسيقى إنجيل ربنا ومخلّصنا يسوع المسيح، وهذه بنعمة الله كانت قاب قوسين منه أو أدنى.

لوثر وستاوبتز

كان يوحنا ستاوبتز، الذي أرسله الرب إلى لوثر برسالة رحمة، رئيسًا عامًا لطائفة الأغسطينيين في كل ألمانيا، ويتكلم عنه المؤرخون بأسمى عبارات التبجيل والإكبار. يقول عنه واحد منهم "صحيح أنه ينحدر من سلالة شريفة، ولكن شهرته كانت ترجع لا إلى نسبه وحسبه، بل إلى قوة فصاحته وغزارة مادته وفيض علمه، واستقامة حياته ومتانة أخلاقه وطهارة سيرته"(١٦٧). إنه لمن الأمور التي تستحق تقديم الشكر لله حقًا وجود هذا الرجل التقي في مثل هذه الوظيفة الهامة، حتى في أسوإ أدوار البابوية وأحطها. وقد كان تأثيره عظيمًا وصالحًا، كما كان يتمتع بثقة وتقدير فردريك أمير سكسونيا الملقب بالحكيم، والذي أسس جامعة وتمبرج بإرشاده وتحت إدارته.

وقد ذاع خبر حضور هذا الرئيس الكريم للتفتيش على دير إرفورت، في الوقت الذي فيه كان يأس لوثر وعذاب ذهنه قد وصلا إلى أقصى حد. وكان في منظر لوثر وهيكل جسمه الذابل وهيئته الحزينة الكئيبة، المصحوبة رغمًا عن ذلك بنظرات الجد والعزيمة والإخلاص، ما لفت نظر ستاوبتز بصفة خاصة إلى هذا الراهب الشاب. وقد علم في الحال من اختباره الماضي سر هذا النحول واليأس والاضطراب، فشجعه وعزاه بكل عطف ومحبة وحنان، وأكد للوثر أنه مخطئ كل الخطإ في ظنه أنه يستطيع الوقوف أمام الله على أساس أعماله ونذوره، وبيّن له أنه لا يمكنه نوال الخلاص إلا من رحمة الله، وأن هذه الرحمة يجب أن تفيض وتأتي إليه بواسطة الإيمان بدم المسيح، وختم كلامه بأن قدم له هذه النصيحة الحكيمة "ليكن همّك الأول دراسة الكتاب المقدس". وشفع النصيحة بإهداء لوثر نسخة من الكتاب المقدس، وهو الشيء الوحيد على الأرض الذي كانت تتوق إليه نفس لوثر وتتمناه.

وهنا نرى شعاعًا من النور الإلهي بدأ يسطع ويضيء ظلمة ذهن لوثر، وقد ساعدته أحاديثه ومراسلاته مع الرئيس العام مساعدة عظيمة، غير أنه مع ذلك كان لا يزال بعيدًا عن السلام مع الله. وسرعان ما انحطت قواه الجسمانية مرة ثانية تحت صراع نفسه العنيف، حتى أنه في السنة الثانية لإقامته في الدير أصابه مرض خطير استدعى نقله إلى ملجإ المرضى، وهناك عاودته جميع مخاوفه وانزعاجاته الأولى لدنو شبح الموت منه. كان كرؤسائه ومرشديه ومعلميه لا يزال يجهل عمل المسيح الكامل للمؤمن، وكانت صورة خطاياه المزعجة ومطاليب ناموس الله المقدس لا تزال مرتسمة أمامه تقضّ مضجعه وتملأ قلبه بالاضطراب والخوف. ولما لم يكن رجلاً عاديًا، وكان يجتاز في اختبار لا يستطيع الناس العاديون فهمه أو إدراكه، ظل منفردًا في حزنه وهمه، لا يبوح لأحد بآلامه وأحزان نفسه.

وذات يوم عندما كان مضطجعًا واليأس يكاد يقتله، زاره راهب شيخ وتكلم معه عن طريق الخلاص. وإذ اكتسب ثقته بعذب كلامه ولطيف أقواله فتح لوثر له قلبه، وأخذ ذلك الأب الوقور يكلمه عن كفاية الإيمان، ويكرر له هذه المادة من قانون إيمان الرسل "نؤمن بغفران الخطايا". هذه الكلمات القليلة، ببركة الرب، استطاعت أن تنقل ذهن لوثر من الأعمال إلي الإيمان. لقد كان معتادًا من طفولته أن ينطق بهذه الكلمات، ولكنه إنما كان يكررها كمجرد أقوال نظير الآلاف من المسيحيين بالاسم في كل العصور والأجيال، ولكنها الآن وقعت على قلبه بقوة جديدة ملأته بالرجاء والتعزية. وإذ سمعه الراهب الشيخ يكرر هذه الكلمات لنفسه "نؤمن بغفران الخطايا" وكأنه كان يحاول سبر غورها قاطعه بالقول: إنه ليس إيمانًا عامًا بل إيمانًا شخصيًا فرديًا. "إني أؤمن بغفران الخطايا، ليس فقط خطايا داود، أو خطايا بطرس، بل خطاياي أنا، فإنه حتى الشياطين تؤمن إيمانًا عامًا". واستمر الراهب الشيخ التقي قائلاً "اسمع ما يقوله القديس برنارد! إن شهادة الروح القدس لقلبك هي هذه: مغفورة لك خطاياك". من تلك اللحظة غمر النور الإلهي قلب لوثر، وشيئًا فشيئًا بالاجتهاد والمثابرة على درس الكلمة والصلوات حتى أصبح خادمًا عظيمًا للرب.

تأملات في اهتداء لوثر

هذه هي قصة اهتداء لوثر البسيطة، وقد كان بنعمة الله تغييرًا صحيحًا حقيقيًا. ولكن بالنسبة لحالة لوثر الذهنية لم يكن العمل في بادئ الأمر ثابتًا وراسخًا كما يجب، وذلك لان مقدار الحق ونوعه، كما قدمه له ستاوبتز والراهب الشيخ، لم يكن ليحصنه تحصينًا كاملاً ضد هجمات العدو. وبمثل هذه المعرفة الضئيلة عن فكر الله، ومحبة المسيح وكمال عمله، والخلاص بموت

المسيح وقيامته، يمكن للنفس المخلّصة أن تنوء سريعًا تحت حمل المخاوف والشكوك، وهذا ما نجده في كل مكان في أيامنا الحاضرة. والقليلون جدًا هم الذين لهم سلام ثابت مع الله. إن الكثيرين يرجون أن يكونوا مخلّصين، ولكنهم لا يتمتعون بيقين الإيمان الكامل. وما هو السبب؟ لا سبب سوى أفكارهم الخاطئة عن حالة ذواتهم كهالكين، وجهلهم بعمل المسيح الكامل الذي فيه العلاج الوافي لحالتهم. خذ آية واحدة تفسيرًا لذلك «لأنه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدّسين» (عب ١٠: ١٤). إنه بكل تأكيد إذا كنا ندرك إدراكًا صحيحًا كرامة ومجد المتألم على الصليب كم يكون مقدار إيماننًا بقيمة ذبيحته وقربانه الواحد. إنها ذبيحة أبدية واحدة لا تكرر، ودمه قد رُش مرة واحدة؛ ولن يُرش ثانية، لأنه لن يفقد فاعليته أو كفايته. قد يكون من اللازم أن نغتسل يوميًا بماء التطهير، ولكن فكرة استعادة التقديس بدم الكفارة ليست في الكتاب المقدس، وهي غريبة كل الغرابة عليه، فإذ يتطهر الضمير مرة واحدة بهذا الدم الكريم يصبح مكمّلاً إلى الأبد.

والكلمة «إلى الأبد» لا تعني أبديًا زمنًا بقدر ما تعني كمالاً بلا انقطاع أو تغير أمام الله، بقدر كمال المسيح نفسه. فهذا العمل المجيد الذي أبطل الخطية تمامًا، ومجّد الله تمجيدًا كاملاً، وقهر كل عدو قهرًا شاملاً، وحصّل الفداء الأبدي لكل مؤمن لا يمكن بأي حال أن تقل أو تبطل قيمته أمام الله.

أما لوثر فقد كان إلى اللحظة التي فيها قابل ستاوبتز والراهب الشيخ لا يزال على حد تعبيره "في أقمطة البابوية ولا يرى شرورها". وهذا صحيح من بعض الوجوه فيما يتعلق بآلاف آخرين في الوقت الحاضر، إنهم لا يزالون في أقمطة طوائفهم وتعاليم كنائسهم، دون أن يتحركوا لمحاولة فحص هذه الأمور والتحقق منها في ضوء كلمة الله، وبسبب ذلك لا يزالون غرباء عن تلك الحرية المباركة التي بها يحرر المسيح شعبه. كان لوثر قد تغيّر، ولكنه إلى ذلك الوقت لم يكن بأي حال قد خرج من بيت العبودية، وقد كانت عملية تحرير نفسه بطيئة جدًا بسبب ضعف الإدراك الروحي، فكان لا يعرف شيئًا عن امتيازات أولاد الله وبركاتهم، ولا عن مقامهم ومركزهم في المسيح، وإن كنا نحن نعلم من الكتاب ماذا كانت بركاته، وما هي بركات كل نفس متجددة. فالمرأة نازفة الدم بمجرد أن مست هدب ثوب الفادي، في الحال جف ينبوع دمها، وبلمسة الإيمان اللطيفة صارت القوة التي كانت في يسوع ملكًا لها. يا لها من مثال رائع جميل لحالة النفس الراجعة حديثًا، ولمقامها أمام الله في كمال قوة وفضائل وحياة وبر وسلام وفرح وحرية المسيح نفسه! الحياة الأبدية تحل محل الموت الروحي، والبر الإلهي يحل محل مذنوبية الإنسان، والقرب من الله محل البعد عنه. هذه هي بركات كل نفس في اللحظة الأولى من تجديدها، رغمًا عن أنها قد تكون على حافة اليأس والقنوط بسب ظلمة حالتها كما كان الحال مع لوثر.

خذ مثلاً آخر، اللص التائب على الصليب. هذا المجرم الأثيم الذي لفظته الأرض دخل مع المسيح بعد دقائق قليلة من تجديده، صائرًا أهلاً لهذا المكان المقدس كالمسيح نفسه. «اليوم تكون معي في الفردوس». فالنتيجة العاجلة للإيمان بالمسيح هي التأهل التام لميراث القديسين في النور (مر ٥: ٢٥-٣٤؛ لو ٢٣: ٣٩-٤٣؛ أنظر أيضًا كو ١: ١٢-١٤).

لوثر كاهنًا وأستاذًا

صرف لوثر ثلاث سنوات مليئة بالحوادث في دير إرفورت، ولكنها ثلاث سنوات لم تضع من حياته سدىً، فثقافة ذهنه العامة وتدريب نفسه ودراسته العبرية واليونانية كانت كلها فروعًا من التربية والتهذيب اللازمين لتاريخه المستقبل في خدمة الرب. علاوة على ذلك فقد كان الدير مكان ولادته الروحية والمكان الذي سمع فيه لأول مرة عن التبرير بالإيمان - ذلك التعليم الإلهي الذي على أساسه بُني عمله العظيم بعد ذلك.

وفي عام ١٥٠٧م رُسم كاهنًا، وحضر والده حفل الرسامة، ولو أنه كان لا يزال غير راض عن مسلك ابنه. وبذلك تسلم لوثر من الأسقف سلطانًا لأن يقدم الذبائح والقرابين من أجل الأحياء والأموات، ويحول الخبز بكلمات قليلة يتمتمها إلى جسد الرب الحقيقي ودمه، وخضع لوثر لهذه الادعاءات البابوية رغمًا عن كونها مخالفة لعقيدته، وقبلها على نفسه ولكن بخوف ورعدة. على أن نفسه لم تخلص تمامًا من آثار هذه الرسامة التجديفية، وكأن شيئًا من العمى التأديبي قد استقر على ذهنه فيما يتعلق ببساطة الحق الكتابي الخاص بعشاء الرب. لقد استطاع بنعمة الله أن يرفض ويستنكر خرافات كثيرة من خرافات روما، ولكنه لم يستطع

قَط أن يتخلص تخلصًا كاملاً من خرافتها الكبرى، وهي الاستحالة.

وفي سن الخامسة والعشرين وضعه ستاوبتز صديقه ورئيسه الأمين في مركز يستطيع فيه أن يظهر قوته ونبوغ عقله النشيط، وأن يكمل نمو صفاته وأخلاقه، وذلك بأن اقترح على فردريك أن يدعوه ليتولى منصب أستاذ الفلسفة في جامعته الناشئة، وعلى ذلك انتقل إلى وتمبرج عام ١٥٠٨م. ولكنه وإن كان قد دُعي ليكون أستاذًا إلا أنه لم ينقطع عن أن يكون كاهنًا، ولذلك اتخذ دير أغسطينوس محلا لإقامته. وقد كانت الموضوعات التي تعينت له ليحاضر فيها هي منطق أرسطو وعلومه الطبيعية، وهذه لم تكن مهنة موافقة لشخص جائع وعطشان لكلمة الله. فلا علم الطبيعيات ولا الفلسفة الأدبية كانت تتفق مع طبيعة لوثر ورغائب قلبه. ولكن هذه أيضًا كانت إحدى نواحي التدريب اللازم له. فذاك الذي اختبر حياة الدير، كان عليه الآن أن يشغل إلى حين كرسي الفلسفة الجامعية، لكي يكون أقدر فيما بعد على التشهير بكلا الشرين ومحاربة أخطاء النظامين، وتحرير العقول من سلطانهما.

وفي الوقت الذي كان فيه محط أنظار طلبة وتمبرج والمستولي على عقولهم بقوة محاضراته وأسلوبه الرائع، كان منكبًا بكل غيرة ونشاط على دراسة اللغتين اليونانية والعبرية دراسة دقيقة عميقة، وذلك لأنه كان يشتاق أن يشرب من الينبوع الأصلي. والرب الذي رأى شوق قلبه واجتهاده فتح له الطريق وهيأ له الوسائل. وبعد شهور قليلة من وصوله لجامعة وتمبرج حصل على شهادة الليسانس في اللاهوت، التي أهلته لأن يحاضر في هذا العلم، أو بعبارة أخرى أن يلقي محاضرات عن الكتاب المقدس. وهنا بدأ يشعر أنه قد أصبح في جوه الخاص، وعزم على أن لا يتكلم بشيء إلا ما يتعلمه من كلمة الله، وكانت أولى محاضراته عن المزامير، ومنها انتقل إلى رسالة رومية.

وقد كان لتأملاته السابقة في هذين القسمين من كلمة الله في صومعته الهادئة في إرفورت وو تمبرج أثر عظيم أعطى المحاضرات مسحة جديدة تمامًا، فكان يتكلم لا كمجرد أستاذ فصيح، بل كمسيحي يشعر في قرارة نفسه بقوة وسلطان الحقائق العظيمة التي كان يفسرها. وعندما وصل في محاضراته إلى رومية ١:١٧ «أما البار فبالإيمان يحيا» شعر كأن نور، نستطيع أن نقول إنه يفوق لمعان الشمس، أبرق في نفسه وأضاء جوانح قلبه. ألبس الله الكلمات نورًا سطع على ذهن لوثر، وقوة غير عادية مسّت قلبه، والحق العظيم الخاص بالتبرير بالإيمان وحده وصل إلى قرارة نفسه كما بصوت من الله. والآن أدرك أن الحياة الأبدية تحصل عليها النفس ليس بالتعذيب والتقشف بل بالإيمان. هذه الكلمات القليلة «أما البار فبالإيمان يحيا» هي أساس حركة الإصلاح في ألمانيا، وقد ارتبط بها كل تاريخها. ففي ضوئها فسر لوثر أسفار العهد القديم والجديد، وفي ضوئها كشف أضاليل البابوية وهز قلب أوروبا، وأنهى دولة الخداع، وأكمل حركة الإصلاح العظيمة. وقف وحده أمام كل سلطة، بل أمام كل العالم، على أساس كلمة الحق كلمة الله «البار بالإيمان يحيا». فكلمة الله حق أما البابوية فأكذوبة، الأخيرة يجب أن تسقط والأولى يجب أن تنتصر. الحق صحة وعافية للنفس، أما الكذب فسم قاتل. هذه المبادئ الخاصة بالبر الأبدي تأصلت الآن بعمق عظيم بعمل الروح القدس في قلب لوثر، ومهما كانت بسيطة بحسب الظاهر فقد استطاع بها بالإيمان بكلمة الله أن ينتصر على باباوات وأساقفة وإكليروس وملوك وأباطرة، رافعًا راية الخلاص بالإيمان بالرب يسوع المسيح بدون أعمال الناموس.

والآن بدأ العمل العظيم، أما العامل فكان لا يزال عليه أن يتعلم بعض الدروس.

لوثر يزور روما

حدث أن قامت بعض منازعات بين رئيس الرهبان العام وبعض الأديرة، ووقع الاختيار على لوثر كخير شخص يستطيع أن يعرض الموضوع كله على البابا في روما. وقد كان ضروريًا في حكمة الله أن يرى لوثر روما ويعرفها، فكراهب في أقصى الشمال كان لا يعرف عن البابا إلا أنه الأب الأقدس، ولا يعرف عن روما إلا كونها مدينة القديسين. هذه الاعتقادات التقليدية والتصورات الوراثية ما كان ممكنًا ملاشاتها إلا برؤيا العيان الشخصية، وخاصة لأن الأخبار لم تكن ميسورة الانتشار كما في الوقت الحاضر.

وفي عام ١٥١٠م عبر لوثر جبال الألب خاوي الوفاض عاري القدمين، يلتمس طعام نهاره أو مبيت ليلته في الأديرة أو المنازل الزراعية التي قد تصادفه في الطريق، ولكنه لم يكد ينزل من الجانب الآخر من جبال الألب حتى وجد الأديرة من رخام،

والرهبان يتناولون أشهى وأفخر الطعام. كل هذا كان جديدًا ومدهشًا لراهب وتمبرج المتقشف. ولكن كم كانت دهشته عندما جاء يوم الجمعة ورأى موائد البندكتيين تموج بكل ما لذ وطاب، فثارت ثائرته وامتلأ بالغيظ والغضب، ولم يتمالك نفسه من أن يصرخ بالقول "إن الكنيسة والبابا يحرمان مثل هذه الأشياء". ويقول البعض إنه كان على وشك أن يكفّر بحياته عن هذا الاعتراض، لولا أن أشار إليه أحدهم إشارة حبية أن يغادر المكان، فخرج توًا إلى حال سبيله، يقطع سهول لمبارديا الحارة على قدميه، حتى وصل إلى بولونيا في حالة إعياء وهزال خطير. وهنا حوّل العدو أفكاره إلى نفسه، فبدأ يعاني حالة انزعاج نفسية شديدة، وقد ملأه شبح الموت الذي كان يهدده بالخوف والاضطراب. إلا أن كلمات الرسول «أما البار فبالإيمان يحيا» سطعت على أفكاره، وأعادت السلام إلى عقله. وإذ تمالك قواه من جديد عاود المسير مستأنفًا رحلته. وبعد أن عبر فلورنسا وقطع وادي أبينين الطويل تحت وهج شمس إيطاليا المحرقة، وصل أخيرًا إلى المدينة ذات السبعة الجبال.

وهنا يجب أن نمهد لدخول لوثر روما بتذكير القراء أنه وإن كان لوثر قد قَبِل حق الإنجيل، إلا أنه كان لا يزال بابويًا، وقد بلغ تكريسه وإخلاصه للبابوية حد التعصب الشديد. فروما في نظر الألماني الناسك لم تكن إلا المدينة التي أكسبتها قبور الرسل وآثار القديسين ودماء الشهداء قدسيتها الفريدة. ولكن بالأسف ما كان أبعد الفرق بين روما الحقيقية وروما التي يتخيلها. وعندما بدأ يقترب من أبوابها أخذ قلبه ينبض بشدة، وهناك جثا على ركبته، وبيدين مرفوعتين إلى السماء، هتف قائلاً "إيه يا روما المقدسة، إني أحبك. يا روما المباركة، يا مثلثة القداسة بدم الشهداء"! وهكذا بكل أنواع عبارات الحب والتبجيل والاحترام أخذ يحيي عاصمة المسيحية ومركزها الأكبر، وتحت تأثير هذا الحماس المتناهي أسرع يطوف بالأماكن المقدسة، ويصغي إلى أحاديث تاريخها ومعجزاتها، مؤمنًا إيمانًا قلبيًا بكل ما يرى ويسمع. ولكن سرعان ما امتلأ قلبه بالحزن والألم عندما شاهد حياة الكهنة الإيطاليين وعيشة البذخ التي يعيشونها، ففي يوم من الأيام بينما كان يقرأ قداسًا بهيبة وحرارة وانتباه عظيم، وجد أن الكهنة القائمين بالخدمة على مذبح مجاور قد قرأوا سبعة قداديس قبل أن ينتهي هو من واحد، والأغرب من ذلك أنه سمع واحد منهم يقول "أسرع. أسرع. أعد لسيدتنا ابنها"، مشيرًا بذلك إشارة تهكمية لاستحالة الخبز إلى جسد ودم يسوع المسيح. إن هذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه الشر، وعند هذه النقطة وصل اشمئزاز لوثر إلى منتهاه، وتم غرض الله في تدريبه وإعداده.

كان يتوقع لوثر أن يجد في روما ديانة دقيقة وتقوى مهيبة "جبينها تعلوه الأحزان، جالسة على الأرض الغبراء مطفئة بندي السماء، متسربلة بلباس الرسل، سائرة في طريق وعر، والإنجيل تحت إبطها. ولكنه عوضًا عن ذلك رأى أبهة البابا وفخامته، والكرادلة وعظمة مواكبهم، إما على ظهور الجياد المطهمة أو جالسين في العربات الفخمة، يلعبون بالحجارة الكريمة ويظللون من الشمس بمظلات من ريش الطاووس. أما الكنائس الفخمة والطقوس الأكثر فخامة، والرسوم الوثنية الرونق والبهاء، فقد كانت في نظر لوثر المثقل قلبه بدنس الإكليروس وحياتهم الماجنة أمورًا لا تُحتمل أو تطاق. ما أبعد روما هذه من روما رافايل ومايكل أنجلو وبيروجينو وبنفينوتو، والتي كان يتصورها الراهب الألماني المسكين الذي سار أربعمائة فرسخ على قدميه، متوقعًا أن يجد شيئًا يؤول إلى تعميق تعبده وتقوية وتدعيم إيمانه!".

ومع ذلك فقد بلغ سلطان التربية الخرافية في نفس لوثر إلى حد أنه رغمًا عن معرفته بكلمة الله، وخيبته المُرة في ما كان يتوقع أن يراه في روما، فإنه يومًا من الأيام إذ أراد أن يحصل على غفران موعود به من البابا لجميع من يصعدون زاحفين على ركبهم ما يسمى "سلم بيلاطس"، أخذ بكل خشوع يزحف على تلك السلم التي قيل له إنها انتقلت بطريقة معجزية من أورشليم إلى روما. وبينما هو على هذه الحالة شعر كأنه يسمع صوتًا عاليًا يدوي كالرعد «أما البار فبالإيمان يحيا»، فارتجف لوقته وانتصب قائمًا على السلم التي كان يسحب جسمه عليها. وإذ علاه الخجل برجوعه إلى نفسه وشعوره إلى أي حد أوصلته الخرافة، هرول في الحال وكأنه يبغي الهروب بأوفر سرعة من مشهد خزيه وغباوته.

وبمجرد أن انتهى من المهمة التي كان قد أوفد من أجلها عاد أدراجه موليًا ظهره إلي الأبد للمدينة البابوية، التي أخذ يناديها قائلاً "وداعًا يا روما. ليتجنب روما ويهرب منها كل من يريد أن يحيا حياة مقدسة. إن كل شيء مباح في روما إلا أن يكون الإنسان

أمينًا". ولم يخطر بباله حينئذ مسألة ترك كنيسة روما، ولكن كل ما في الأمر أنه عاد إلى سكسونيا خائرًا مرتكبًا.

وبعد رجوعه إلى وتمبرج بوقت قصير، حصل بعد إلحاح من ستاوبتز، على درجة دكتوراه في اللاهوت. وعينه مجلس الشيوخ واعظًا لكنيسة الأبروشية، التي وجد في منبرها بابًا مفتوحًا ومجالاً فسيحًا للقيام بأعظم الخدمات النافعة. وكان في بادئ الأمر أنه تردد في قبول هذه المسئولية العظيمة وهذا المركز الروحي الخطير، ولكنه تحت تأثير إلحاح ستاوبتز عاد أخيرًا فخضع للأمر، وكان من حين لآخر في طريق تأدية واجباته المنبرية يجد الفرصة سانحة للكرازة بكلمة الله وإنجيل المسيح في مناسك الدير أو معبد القصر أو كنيسة الجامعة. ويحدثنا التاريخ أن صوته كان عذبًا موسيقيًا يكهرب السامعين، وكانت إشارته هادئة ووقورة تدل على نبل عظيم، وكان تفكيره يمتاز بالطرافة والتجديد الجريء، يخلب الكثيرين بجدته، ويغلب الآخرين بقوته. كان قد حصل في الأربع أو الخمس السنوات الماضية على معرفة عميقة باللغتين اليونانية والعبرية، وكان قد قرأ العهد الجديد قراءة دقيقة، وكان يعتقد اعتقادًا راسخًا أن التبرير بالإيمان هو التعليم الذي يتميز به الإنجيل، وأن كلمة الله هي الوسيلة الأولى والرئيسية لإحياء الكنيسة وإصلاحها.

ومن سنة ١٥١٢م إلى سنة ١٥١٧م المشهودة ظل لوثر مقدام كلمة الحياة وطليعتها الجريء. وفي كل أمر كان يشتاق لشيء واحد، وهو معرفة الحق والتخلص من خرافات روما وأضاليلها. وهنا يجب أن نترك لوثر قليلاً وهو منهمك في عمله المجيد، ونلقي نظرة سريعة على الحالة السائدة في الكنيسة، والتي أحضرت يوحنا تتزل وصكوك غفراناته إلى نواحي وتمبرج[١/٤٤][١/٦٨][١/٦٦][١/٦٧].

الفصل الرابع والثلاثون

اليوبيل البابوي الأول

لقد أثارت الحروب الصليبية جشع الإكليروس الروماني، كما أصّلت روح الخرافة في الشعب. وقد استمرت هذه الحروب زهاء المائتي عام مصدر ثروة طائلة للبابوية وسلطان عظيم للكنيسة، وتعاسة لا تُقدّر وخراب وتدهور لشعوب أوربا. ففي تلك الحروب المقدسة - كما يسمونها - هلك حوالي ستة ملايين من الأوربيين، وضاع نحو مائتي مليونًا من الجنيهات. زد على ذلك أن أملاك كل محارب صليبي كانت توضع عادة تحت حراسة الأسقف مدة الحملة، وفي حالة الوفاة - وهو الاحتمال الأغلب - كانت تبقى هذه الأملاك في قبضته. ولكن هذه الحروب التي قال عنها أحد المؤرخين "تقف فريدة كوثن في هيكل التاريخ، رمزًا للسخافة البشرية والهوس الجماعي". كان حسنًا أن انتهت بانتهاء القرن الثالث عشر.

ففي سنة ١٢٩١م سقطت عكا في أيدي الأتراك، وهي أخر نقطة حربية كانت في أيدي المسيحيين في فلسطين، وأصبح قبر المسيح وكل الأراضي المقدسة في أيدي المسلمين، بذلك انتهى المشروع البابوي العظيم وختم عليه بالخيبة والفشل بعد كل ما جره من عار ودمار.

والآن قامت معضلتان كبيرتان. كيف تمتلئ الخزينة البابوية من جديد بالمال؟ وكيف تُجاب رغبة الشعب في الحصول على الغفران؟ البابا يرغب في المال، والشعب يرغب في غفران خطاياه، ومستعد لأن يدفع لأجله. فلكي يصل كل منهما إلى غرضه، اكتشف البابا طريقة جديدة وناجحة للغاية. قال بونيفاس "لقد وصلنا إلى السنة الأخيرة من القرن الثالث عشر، فلتكن السنة الأولى من القرن الرابع عشر سنة يوبيل. لقد ضاعت فلسطين ولا أمل في إرجاعها، والصليب وقبر المخلّص قد أصبحا في قبضة الفاطميين، ولكن ها هي مدينة روما المقدسة موجودة، وقبور الرسل والقديسين مفتوحة للحجاج والزائرين. فلتكن روما إذاً هي مقصد الحجاج". وبهذه الوسيلة، أي باستبدال أورشليم بروما، تمت الغاية المقصودة. نجاح عظيم لم تصل إلى مثله الخرافة في كل تاريخها.

وعليه في اليوم الثاني عشر من فبراير سنة ١٢٩٩م نودي بمنح الغفران الكامل لكل من يزور قبري القديسين بطرس وبولس مرة في اليوم مدة ثلاثين يومًا متتابعة في حالة الرومانيين، وخمسة عشر يومًا في حالة الأجانب. وفي الحال صدر المرسوم وانتشر في كل المسيحية، يؤكد أن كل من يعترف بخطاياه ويندم عليها، ويحج إلى قبر "رئيس الرسل" يحصل على غفران كامل، أو بعبارة أخرى، غفران شامل لجميع خطايا، ماضيها وحاضرها ومستقبلها. وغفران كهذا كان إلى ذلك الوقت قاصرًا على الصليبيين دون سواهم، ولكنه أصبح الآن في متناول الجميع. ولذلك تكهربت أوربا كلها واهتزت بالحماس الديني من أقصاها إلى أقصاها، وتدفقت الجماهير مسرعة إلى روما من كل حدب وصوب، وجذب صوت اليوبيل المرحب جميع المسيحية الغربية إلى هذه الحملة الصليبية السلمية. قال المؤرخ "كنت ترى طوال العام جميع الطرقات في أقصى أنحاء ألمانيا وهنغاريا وبريطانيا تموج بالحجاج من كل الأعمار ذكورًا وإناثًا، يسعون للتكفير عن خطاياهم، ليس برحلة مسلحة محفوفة بالمخاطر إلى أورشليم، بل برحلة أقل خطرًا إلى روما".

السنة الذهبية

ليس من السهل تحديد الأرقام، فقد يخطئ الإنسان في العد، ولكن شهود العيان يؤكدون لنا أنه كان في المدينة على الدوام ما لا يقل عن مائتي ألف حاج، وقد بلغ مجموع الحجيج المليونين في

تلك السنة. أما الثروة التي تدفقت في الخزائن البابوية سنة اليوبيل فكانت هائلة، فلو فرضنا أن كل واحد من هؤلاء الحجاج دفع مبلغًا ضئيلاً فكم من الثروة جمعت؟ أما التقدمات فكانت تكوم على المذابح تكويمًا، حتى أطلق الرومانيون على هذه السنة اسم "السنة الذهبية". ويقول لنا شاهد عيان إنه رأى كاهنين في يد كل منهما مجرفة، ويجرفان ليلاً ونهارًا، بلا عد، أكوام الذهب والفضة التي كان يضعها الحجاج على قبري الرسولين. ولم تكن هذه التقدمات جزية أو تبرع كتقدمات الحروب الصليبية لتصرف في سبيل أغراض أو منافع معينة، كتزويد الجيوش بالأسلحة أو المواد الغذائية، بل كانت هبات يتصرف فيها البابا بمطلق إرادته من غير حسيب أو رقيب. وهناك نقطة جدير بالذكر وهي أنه حُرم من التمتع بهذا الغفران أعداء الكنيسة، أو بالحري أعداء بونيفاس.

والآن قد حصلت المسيحية كلها، ما عدا نفر قليل من الثائرين ضد البابوية، على منحة الغفران والحياة الأبدية، وبمحض إرادتها كومت هذه الثروة الهائلة عند قدمي البابا. أما السلطات فقد أخذت كل الاحتياطات في روما لعدم حدوث مجاعة بين هذه الجماهير المتدفقة إليها، إلا أن الكثيرين منهم وقعوا في الزحام، وديسوا تحت الأقدام وماتوا مختنقين.

هذه كانت تجربة عظيمة وناجحة حقًا، تجاوزت كثيرًا كل تصورات البابا وأتباعه. كان بونيفاس قد قرر أن يحتفل باليوبيل كل مائة سنة، ولكن الفوائد التي حصلت عليها الكنيسة كانت عظيمة بهذا المقدار، حتى بدأ يفكر بطبيعة الحال أن الفترة أطول من اللازم. وعندما جاء كليمنت السادس كرر اليوبيل سنة ١٣٥٠م، أي بعد ٥٠ سنة فقط، وتدفقت الجماهير الغفيرة مرة أخرى إلى روما، وغنمت البابوية من وراء ذلك ثروة لا يصدقها العقل. وكان عدد الحجاج في تلك السنة يقرب من عددهم سنة ١٣٠٠م، وهكذا كانت الطرقات الموصلة لكنائس القديسين بطرس وبولس ويوحنا لاتيران مزدحمة بالجماهير المتراصة، حتى لم يكن في استطاعة أحد أن يتحرك في أي اتجاه إلا تبعًا لتيار حركة الجماهير. وقد انتهز الفرصة أهالي روما، فرفعوا أسعار الطعام وأماكن المبيت بصورة باهظة، حتى اضطر الكثيرون إلى المبيت في الكنائس أو الشوارع، ومات عدد كبير من الحجاج الفقراء المخدوعين. وجاء أوربان السادس فخفض فترة اليوبيل في سنة ١٣٨٩م إلى ثلاث وثلاثين سنة، قياسًا على المدة التي امتدت إليها حياة سيدنا على الأرض. وأخيرًا جاء بولس الثاني عام ١٤٧٥م فقرر الاحتفال بعيد اليوبيل كل خمس وعشرين سنة، وهي المدة التي لا يزال معمولاً بها إلى يومنا الحاضر.

أصبحنا الآن على علم بالخداعات الدينية العظمى التي كانت تجري في العصور المظلمة، ووقفنا على خطية التغرير بشعب جاهل سهل القياد، ولكن مما يكسر القلب حقًا هو استمرار هذه الحالة إلى يومنا الحاضر، وتصديق وممارسة مثل هذه الأعمال التجديفية، رغم انتشار نور الإنجيل وازدياد عدد الشهود لحق كلمة الله وعمل المسيح الكامل. والاقتباس الآتي المقتطف من المرسوم الذي أصدره البابا عام ١٨٢٤م بتحديد اليوبيل في السنة التالية يوضح ما نعنيه:

"قد عزمنا، بفضل السلطان المخول لنا من السماء، أن نفتح الباب على مصراعيه إلى ذلك الكنز المقدس من استحقاقات وآلام وفضائل المسيح ربنا، ووالدته العذراء، وجميع قديسيه، التي جعلها تحت تصرفنا صانع الخلاص للبشر. فمن واجبكم أيها الاخوة الأفاضل البطاركة والمندوبون ورؤساء الأساقفة والأساقفة أن تشرحوا بكل إيضاح قوة الغفرانات وفاعليتها، ليس فقط في الخلاص من العذاب التكفيري الآتي، بل من العقاب الزمني الذي يوقعه عدل الله عن الخطايا السالفة. كما يجب أن تبينوا مقدار العون العظيم الذي يصل من هذا الكنز السماوي، كنز استحقاقات المسيح وقديسيه، إلى أولئك الذين ماتوا تائبين حقيقيين في محبة الله، ولكن قبل أن يكفروا تكفيرًا كاملاً بالثمر الذي يليق بالتوبة عن خطايا السهو والعمد، والآن يتطهرون بنار المطهر"[٢/٣٨].

بيع صكوك الغفران

ارتقى ليو العاشر عرش البابوية عام ١٥١٣م. وهو الابن الثالث لأحد ملوك إيطاليا العظام، وهو لورنزو دي مديتشي، الملقب بالفاخر، وقد أدخل في بلاط البابوية مظاهر العظمة والأبهة والفخفخة التي اشتهرت بها أسرته، علاوة على ذلك فقد أمده مايكل أنجلو، الرسام الإيطالي الذائع الصيت، بتصميم كامل لنقوش كنيسة القديس بطرس، التي كان العمل جاريًا فيها، والتي زادت من نفقاته زيادة عظيمة. وقد كانت المعضلة الآن كيف يمكن الحصول على المال اللازم لتتميم بناء وزخرفة هذه الكاتدرائية الكبرى، وتوفير النفقات اللازمة للبلاط البابوي.

وخطابات لوثر لهذا البابا لا تُظهر حقيقته، إذ يبدو إن لوثر كان يجهل صفات ليو الحقيقية، وكان يكتب خطاباته إليه بحسن نية. فبينما اشتهر ليو بأنه كان من أعظم وأرقى رجال العلم والأدب في يومه، إلا أنه كان في غاية الانحطاط من الوجهة الأخلاقية، فبلاطه كان فاخرًا مستهترًا، بينما كان هو منغمسًا في الملذات والمسرات، مهملاً واجبات وظيفته كل الإهمال. صحيح أنه كان أفضل من أسلافه المباشرين أمثال إسكندر السادس الخليع الذي لا يذكر اسمه إلا بالاشمئزاز، ويوليوس الثاني البابا الحربي المتوحش، الذي ملأ قطاعًا عظيمًا من أوربا بالدماء والمذابح، فإذا قارناه بأمثال هذين البابوين قد تكون المقارنة في صالحة، ولا شك أن لوثر كان يكتب إليه خطابات المديح والإطراء تحت تأثير احترامه التقليدي لرأس الكنيسة مهما كان، وربما أيضًا من أجل شهرته العلمية.

ولأجل تحصيل الأموال اللازمة لنفقات ليو المبذر تعالت الصيحات من أجل المال شيئًا فشيئًا. "المال. المال". هذه كانت الصيحة التي رن صدها في كل مكان. قال واحد "إن المال وليس المحبة هو الذي كان يستر كثرة من الخطايا في ذلك الوقت". وقد قضت الضرورة بوجوب تخفيض أسعار صكوك الغفران، وتعيين عدد من الباعة الماهرين لنشر التجارة في كل أنحاء أوروبا. وقد نفذت الخطة، ولكن الله حوّل التجارة المخزية لتتميم حركة الإصلاح والقضاء على ظلم روما وسلطانها الاستبدادي. وقد صار الاتفاق على أن تكون ألمانيا أول مكان يتمتع بها الامتياز، وتباع فيها صكوك الغفران بصفة خاصة، ذلك لأن مركزها الجغرافي ربما يكون قد أعاق الكثيرين من "مؤمنيها" عن الحصول على بركات يوبيل روما.

ويبدو أن فكرة بيع الغفران، عندما ظهرت لأول مرة، لم تكن لأكثر من تقصير مدة التكفير المفروضة على التائبين في مقابل دفع غرامة، كما نجد عادة في أحكام قوانين العقوبات، كالقول مثلاً "خمسون جنيهًا غرامة أو الحبس ستة شهور". فإذا دُفعت الغرامة تصير لحساب المجرم الذي يعفى من السجن ويطلق سراحه. وبهذه الكيفية يتصور البابوي المسكين المخدوع أن صك الغفران الذي يشتريه يصير لحسابه في سجل السماء، ويوزن مقابل الحساب المدون ضده لخطايا الكذب والنصب والسرقة والقتل وكل أنواع الشرور الأخرى، أو كما عبر عنها آخر، إنه تشبه شيكًا على السماء ممهورًا بإمضاء البابا بقيمة المبلغ المدفوع، وبطبيعة الحال كلما كانت خطايا المذنب كثيرة وشنيعة كلما كان عليه أن يدفع أكثر لغفرانها.

وقد انتشر هذا النظام الغفراني انتشارًا عظيمًا، وتفنن فيه رجال الكهنوت، بحيث صار مصدر ثروة هائلة لخزينة البابوية، فقد كان يطلب من كل خاطئ - والكل طبعًا خطاة - أعمال تليق بالتوبة، مثل الصوم والتقشف والحج، علاوة على قضاء كذا من السنين في المطهر بعد الموت، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يذكرونه بأنه في الإمكان رفع عبء هذه الأعمال وتقصير مدة المطهر بالسلطان المخول من المسيح للمغبوط بطرس وخلفائه بشروط معينة، وأسهل هذه الشروط للخاطئ، وأريحها وأوفقها للبابا كانت المال ! المال!

مندوبو البابا - يوحنا تتزل

نجح مشروع ليو نجاحًا تجاريًا عظيمًا بعد أن بعث مندوبين إلى جميع أنحاء أوربا، يحملون أكياسًا من صكوك الغفران والحِل. فبمبلغ معين من المال كان يمكن شراء حِل يستطيع صاحبه أن يأكل لحمًا أيام الجمعة وأيام الصيام، أو يتزوج بإحدى قريباته المحرمات، أو يتمتع بأية لذة محرمة. وكان الباعة يتجولون منادين على بضاعتهم بصوت عالٍ، مؤكدين للناس بأنه في مقدورهم الآن شراء غفران خطاياهم وخلاص نفوسهم بأثمان مخفضة جدًا. وهكذا تتجمع عليهم جماهير الزبائن، وكانت تتدفق أموال "المؤمنين" بكثرة. وأخيرًا ظهر الباعة في شوارع سكسونيا، إذا أعطى رئيس أساقفةماينس ورؤساء روحيون آخرون وعدًا للبابا بتعضيد هذه التجارة المخزية الآثمة، في مقابل حصولهم على جزء من الأرباح. وهكذا استمر العمل يتزايد بلا انقطاع، حتى وصل الباعة الصائحون بالقرب من وتمبرج، حيث كان لوثر.

وقد كان بين الباعة الكثيرين الذين اشتركوا في هذه السوق البابوية العظمى رجل لفت أنظار المشاهدين بصفة خاصة. ذلك كان الراهب الدومينيكاني يوحنا تتزل، الذي اكتسب اسمه شهرة بغيضة في تاريخ أوروبا. كان هؤلاء الباعة يعبرون الممالك والبلدان بمواكب فخمة وأبهة عظيمة، وكانوا يعيشون عيشة الترف، وينفقون المال عن سعة وبلا حساب. وعندما كان يقترب الموكب إلى مدينة ما، كان يذهب أولاً مندوب إلى حاكم المدينة ويقول له : "نعمة الله الآب المقدس عند أبوابك". مثل هذا الإعلان في تلك الأيام كان كافيًا لأن يثير أهدأ المدن الألمانية ويبعث فيها أعظم الحماس الديني، فسرعان ما كنت

ترى رجال الإكليروس والرهبان والراهبات وأعضاء المجالس البلدية والحرف الصناعية يخرجون رجالاً ونساء وشيوخًا وشبانًا زرافات زرافات، حاملين الطبول والرايات لمقابلة الباعة التجار، وهم يحملون الشموع في أيديهم ويسيرون على دقات الطبول وأنغام والموسيقى. وكنت ترى الشوارع ملأى بالرايات ترفرف في كل مكان، والأجراس تدق والنواقيس تقرع، والرهبان والراهبات سائرين في شكل مظاهرة وهم يصيحون "اشتروا! اشتروا!". أما الراهب التاجر العظيم نفسه فكان يجلس في عربة، حاملاً في يده صليبًا كبيرًا أحمر، وأمامه المرسوم البابوي على وسادة من القطيفة. وقد كانت الكنائس هي صالات البيع، حيث كانت تعلق شارات البابا على رأس الصليب الكبير الأحمر ويوضع بجانب المذبح، وهنا يقوم تتزل ويعتلي المنبر، وبصوت جهوري وفصاحة قوية، يعلن للملأ قيمة صكوك الغفران ومبلغ تأثيرها وفاعليتها في محو الخطايا والآثام(١/٤٤)(١/٦٨).

عينة من عظات تتزل

خذ مثلاً المقتطفات الآتية من الأقوال التجديفية التي كان يفوه بها ذلك المدعي الوقح، وكلها بموافقة البابا ورئيس أساقفة المكان:

"إن صكوك الغفران هي أثمن وأسمى هبات الله. تعالوا فأعطيكم رسائل مختومة ختمًا بها تضمنون الغفران حتى للخطايا التي تنوون ارتكابها. إني لن أرضى بأن أستبدل امتيازاتي بامتيازات القديس بطرس في السماء، لأني خلصت بصكوك غفراني نفوسًا أكثر جدًا مما خلص الرسول بعظاته. لا توجد خطية مهما عظمت لا تستطيع صكوك الغفران التكفير عنها. ليس ذلك فقط بل هناك ما هو أكثر منه، فصكوك الغفران لا يقف حد مفعولها على الأحياء، بل يمتد إلى الأموات أيضًا. أيها الكاهن! أيها الشريف! أيها التاجر أيها الشاب! أيتها الشابة! ألا تسمعون والديكم وأقرباءكم وأصدقائكم الأموات يصرخون مستغيثين من أعماق الهاوية قائلين لكم: إننا نتعذب ونقاسي أهوالاً مرة، وفي إمكانكم إنقاذنا بشيء من الإحسان التافه الذي تستطيعون تقديمه، وأنتم لا تريدون! أيها الناس الأغبياء وقساة القلوب، من منكم لا يدرك وينتهز هذه النعمة المقدمة لكم بهذا السخاء؟ إنه في نفس اللحظة التي ترن فيها نقودك في قاع الصندوق تنطلق النفس من المطهر وتطير حرة إلى السماء. إن الرب إلهنا لا يملك فيما بعد، بل قد سلم كل السلطان للبابا".

وما كان ينتهي الراهب الدجال من ترهاته التجديفية الجافة حتى كان يقبل الدهماء الخرافيون على شراء غفران خطاياهم وإنقاذ ذويهم وأصدقائهم من لهب المطهر. وقد كان على الجميع، من الأسرة المالكة إلى الفقراء الذين يعيشون على الإحسان، تدبير المال اللازم لشراء الغفران. وهكذا كانت النقود تتدفق بكثرة، والصندوق البابوي يتضخم ويفيض، ولكن واحسرتاه! ما كان أروع النتائج وأفظعها! فإن الشروط السهلة التي بمقتضاها كان يستطيع كل الناس أن يحصلوا على ترخيص من البابا بكل أنواع الشر والإثم، فتحت الباب على مصراعيه لأفظع أنواع الفجور والفساد، ومهدت الطريق لكل ثورة وعصيان على كل سلطان، فحتى تتزل نفسه ثبتت عليه تهمة الزنا والسلوك الفاضح في إنسبروك، وحكم عليه الإمبراطور مكسمليان بوضعه في حقيبة وإلقائه في النهر، ولم ينج من هذا الموت الشنيع ويحصل على الصفح إلا بتداخل فردريك أمير سكسونيا المنتخب، ومع ذلك استمر الدومينيكاني الصفيق يزاول عمله كالممثل لقداسة البابا، وكأن شيئًا لم يكن.

احتجاج لوثر الجهاري (١٥١٧م)

لقد وصلت الحالة إلى درجة حرجة، ولوثر الذي كان يراقب عن كثب تقدم تتزل وأعماله برز في الميدان، وأخذ يناشد الشعب الألماني موجهًا نداءه إلى أذهانهم وضمائرهم، وعلق احتجاجه الشهير على باب الكنيسة في وتمبرج، وهو مكون من خمس وتسعين حجة بها تحدى لوثر الكنيسة الكاثوليكية بأسرها أن تقدم ما عندها للدفاع عن تتزل وبيع صكوك الغفران.

الآن كان الفأس قد وضع على أصل الشجرة. ومبادئ حركة الإصلاح وبذورها الأولى كانت متجمعة في فقرات ذلك الاحتجاج. قال لوثر "إن صكوك غفران البابا لا يمكن أن تمحو الخطايا. الله وحده يغفر الخطايا، وهو يغفر خطايا الذين يتوبون توبة حقيقية دون أن يحصل التائب على حل من إنسان. يجوز للكنيسة أن تغفر ما تُوقعه هي من جزاء، أما سلطانها فلا يتعدى العالم الحاضر، ولا يمكن أن يتناول ما وراء الموت. من هو هذا الإنسان الذي يجرؤ على القول بأن الخاطئ يستطيع الحصول على خلاص نفسه بمبلغ من المال؟ إن كل مسيحي بالحق يشترك في جميع بركات المسيح بنعمة الله وبدون خطاب توصية أو

صك غفران". هذا كان أسلوب احتجاج لوثر النبيل، ولو أنه كان ممتزجًا بالشيء الكثير مما يشتم منه رائحة الكاثوليكية.

والآن قد نزل لوثر إلى الميدان جهارًا ضد تعاليم كنيسة روما ومساوئها، واضطربت الجامعة وكل مدينة وتمبرج، وقرأ الجميع الاحتجاج وتناقلته ألسنة الناس، حتى أصبحت حجج لوثر على كل فم. كما أن الحجاج الآتين إلى وتمبرج من كل ناحية عادوا يحملون إلى بلادهم مضمون احتجاج الراهب الأغسطيني وينشرونها في كل مكان. قال المؤرخ فيزر "تلك كانت أول شرارة كهربائية انطلقت من نيران استشهاد الشهيد هس، وإذا وصلت إلى أقصى ركن من أركان الأرض كانت النذير بابتداء تطور خطير وحوادث مستقبلة هائلة". وقد قيل إنه في أقل من أسبوعين قرأ هذا الاحتجاج جميع سكان ألمانيا، وقبل أن تنقضي أربعة أسابيع تخطت الأخبار حدود الممالك وانتشرت في كل المسيحية، وكأن ملائكة السماء كانت رسلاً حملت الأخبار إلى كل الأذهان.

وثارت روما... وأخذت تصيح مهددة بالنار والحريق. يقول المؤرخ فرود "وكأن كل دور العبادة بألمانيا انقلبت إلى أوجرة ذئاب تتصايح بعضها لبعض في فضاء الخراب الروحي. فإذا لم يكن في الإمكان إخراج النفوس من المطهر فقد ضاعت وظائفهم، وقل على دولتهم السلام. أما الشباب العلمانيون والنفوس الأبية الشريفة في كل أوروبا فقد أصبحت وتمبرج في نظرهم المنارة التي يشع منها النور وسط الظلمة العامة". ولو لم يكن لوثر محفوظًا بنعمة الله ومساقًا بحكمته تعالى لجرفته هذه الشهرة العظيمة التي نالها بغتة، ولكنه بنعمة الله لم يكن يفكر في ذاته، فاستمر هادئًا في مركزه في الكنيسة الأغسطينية في وتمبرج، منتظرًا دعوة الله للخروج في الوقت المعين وبالطريقة المعينة.

لوثر في هيدلبرج

في ربيع سنة ١٥١٨م عُقد مجمع عام للرهبان الأغسطينيين في هيدلبرج، وحضر لوثر هذا المجمع بدعوة خاصة، أما أصدقاؤه الذين يعرفون خداع الدومينيكان وشراكهم فقد عملوا كل ما في استطاعتهم لإقناعه بعدم الذهاب، ولكن لوثر لم يكن الرجل الذي يمنعه الخوف من الخطر من تتميم ما يؤمن أنه من واجبه، وقد كان اتكاله في كل حين على الله الحي، ومثل هذه الفرصة العظيمة للمناداة بالإنجيل والحق، وإذاعة احتجاجه وتعاليمه كان لا يجب أن تضيع سُدى، ولذلك بدأ لوثر رحلته في ١٣ أبريل يرافقه مرشد كان يعاونه في حمل أمتعته، وقد قطع معظم المسافة سيرًا على قدميه.

وبباعث حب للاستطلاع لدى العامة، وبسبب اسم لوثر وشهرة مبحثه أو احتجاجه، توافدت على مدينة هيدلبرج جماهير غفيرة تبغي الوقوف على ما يدور فيها. وهنا قام لوثر أمام المجمع الحافل يناظر خمسة من فطاحل معلمي اللاهوت في موضوعات شتى، خاصة فيما يتعلق باللاهوت والفلسفة. أما معرفته بالمكتوب وبتعاليم الكنيسة التقليدية، وعدم إعطاءه التقدير لاسم أرسطو وفلسفته، علاوة على مقدرته العظيمة في المحاجة، كل ذلك أثبت لخصومه أنه مجادل غير عادي. وقد عاد إلى وتمبرج في حراسة مشددة وفي رفقة كثيرين من أصدقائه.

وقد كان من أثر هذه المناظرة وما أحدثته في النفوس من اقتناع، أن تحرك تتزل للرد على لوثر وهجومه على بيع صكوك الغفران. وبكل كبرياء وتجديف أخذ يؤكد سلطان البابا وسلطان الإكليروس كمندوبي البابا لغفران كل الخطايا غفرانًا كاملاً وأبديًا. وردًا على هذه التوكيدات كتب لوثر سلسلة أخرى من الحجج والقضايا اعتبرها إيضاحات أو تفسيرات لمحتويات احتجاجه الأول. وفي هذه التفسيرات الأخيرة برز المصلح بصورة أجلى وأوضح، فقد قرر بكيفية لا تحتمل الشك الحق الأساسي الذي قامت عليه حركة الإصلاح، وهو أن الإنسان يتبرر بالإيمان وحده وبدون أعمال الناموس «لأنه جعل الذي لم يعرف خطية (أي المسيح) خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه» (٢كو٥: ٢١).

وهنا تقدم لوثر خطوة أخرى، وتحدى قرار البابا نفسه، بأن أرسل له صورة من إيضاحاته مع خطاب رقيق متواضع جدًا بتاريخ ٣٠مايو سنة ١٥١٨م. ومع ما اشتهر به ليو من الإهمال الكلي لكل ما هو متعلق بصالح العقيدة، فإنه لم يستطع أن يستخف بخطاب لوثر، خاصة لأن الإمبراطور مكسمليان كان قد طلب تداخله في الأمر في نفس الوقت، فأمر بإرسال لوثر إلى روما لكي يجيب هناك عن وقاحته، ولكن لوثر أبى إجابة الدعوة، معلنًا مع ذلك استعداده للوقوف والدفاع عن قضيته أمام قضاة أتقياء غير متحيزين في ألمانيا. وإذ وجد البابا أن لوثر كان في حماية فريدريك أمير سكسونيا المنتخب، كتب رسالة إلى هذا الأمير

يدعوه فيها إلى تسليم الراهب الهرطقي للكردينال توماس كاجيتان، الذي كان عنده التعليمات الوافية لكيفية التصرف مع الدكتور العاصي. ومما يسجل بالمديح والفخار لهذا الأمير الشريف وحكمته المتميزة أنه أبى إطاعة أوامر البابا وأعلن حمايته للوثر. فاضطر البابا لأن يلجأ إلى إجراءات أقل تسرعًا وأقل خطورة، وأدعى إلى عدم إثارة الحروب وسفك الدماء، فغير الدعوة للحضور إلى روما بدعوة للذهاب إلى أوجسبرج، فقبل لوثر هذه الدعوة وأعلن عزمه على إطاعتها.

لوثر في أوجسبرج

حاول بعض أصدقائه الذين يهمهم سلامة حياته الغالية أن يقنعوه بالرجوع عن عزمه، ولكنه في عدم اهتمامه بالخطر وفي اتكاله على حراسة العناية الإلهية صمم على الذهاب وتلبية الدعوة، وفي ردائه الرهباني البني اللون بدأ رحلته من وتمبرج سيرًا على الأقدام. وبعد أن رافقه جمع كبير من الأهالي إلى أبواب المدينة ودَّعهم وسار مبتهجًا إلى أوجسبرج.

وهناك قابله الكردينال برقة ولطف، وبمظهر الأب العطوف الشفوق، وخاطب لوثر كابنه العزيز، مؤكدًا له مع ذلك بأسلوب واضح وحازم أن البابا مصر على سحب الاحتجاج والقرارات، وأنه لن يرضى بشيء أقل من ذلك، فقال له لوثر "فلتتازل وتعرفني في أي شيء قد أخطأت". كان الكردينال وحاشيته الإيطالية يتوقعون من الراهب الألماني المسكين أن يسقط على ركبتيه طالبًا العفو والغفران. ولكنهم دهشوا دهشة عظيمة عندما سمعوا جوابه الهادئ الرزين يلقيه بإباء وكرامة. فأجاب كاجيتان "إني هنا لآمر وليس لأحاجج أو أتناقش". فقال لوثر "بل دعنا نتناقش في النقط المختلف عليها ونصل إلى الاتفاق عليها بما تقره الكتب المقدسة". فأجاب الكردينال غاضبًا: "ماذا؟! أتظن أن البابا يهتم بآراء صعلوك ألماني؟ إن خنصر البابا لهو أقوى من ألمانيا كلها. أتظن أن أمراءك يتقلدون السيف للدفاع عن دودة بائسة حقيرة مثلك؟ أقول لك كلا! وأين تكون بعد ذلك؟! أين تكون بعد ذلك؟".

والآن لاحظ الإجابة النبيلة، لا إجابة مجرد راهب مسكين، بل إجابة رجل الله في ظروف قاسية وتجارب مرة "بعد ذلك سأكون كما أنا الآن في يدي الله القدير". لقد اندحرت روما، وانفض المجمع، وكم كانت دهشة الإيطالي المتكبر وحيرته أن يرى راهبًا بائسًا من إحدى بلاد ألمانيا القروية، ابن فلاح مسكين، مستعدًا لأن يتحدى ويقاوم سلطان ملك العالم المسيحي، مع أنه كان مزودًا بكل سلطان ليسحق فريسته سحقًا كاملاً، إلا أنه وجد نفسه مضطرًا لأن يرجع إلى روما ويبلّغ عن فشله، ويخبر سيده أنه لا وعد ولا وعيد، ولا تضرع ولا تهديد، ولا هبات من أسمى نوع استطاعت أن تزحزح الألماني العنيد عن هرطقته الآثمة. وأما الشاهد الأمين فلما رأى نفسه في خطر عظيم فقد ترك المدينة سرًا ورجع إلى وتمبرج.

كان هذا فشلاً للبابوية أغضب البابا وأثار حقده إلى أقصى حد، فكتب إلى أمير سكسونيا المنتخب مستعطفًا إياه أن يسلم المجرم ليد العدالة، أو أن ينفيه من بلاده. وهنا وقف فردريك مترددًا، لأن الدخول في مصادمة علنية بينه وبين البابا كان فيها ما فيها من أمور خطيرة، أما لوثر فلم يكن يبغي قط أن يجر متاعب على أميره، ولذلك عزم على أن يهرب إلى فرنسا، ولكن ذاك الذي يحول قلوب الملوك كما يشاء أرشد الأمير الصالح أن يلقي درع حمايته على لوثر.

وبما أن إرسالية كاجيتان فشلت ولم تنته إلى نتيجة مرضية، فقد صمم ليو من جانبه على أن يرسل رسولاً آخر هو السفير البابوي تشارلس فون ملتيتز. وهذا الرسول أحضر معه وردة ذهبية معطرة بأثمن العطور كهدية من البابا للأمير فردريك. وهذه الهدية كانت معتبرة عادة كعلامة فائقة لرضا البابا، ولكن في هذه الحالة كان المقصود منها بغير شك رشوة لفردريك المتردد.

وفور وصول ملتيتز إلى سكسونيا تقابل مع صديقه القديم سبالاتين، الذي أطلعه على مجريات الأمور وحقيقة الحال في ألمانيا، فأكد للسفير أن الانقسامات الحادثة في الكنيسة كانت راجعة بصفة خاصة إلى فضائح تتزل بائع صكوك الغفران وإلى ريائه وتجاديفه. فأظهر ملتيتز دهشته لهذه الأخبار، واستدعى تتزل للظهور أمامه في التنبرج للإجابة عن التهم الموجهة إليه. على أن الأمور كانت قد تغيرت تغيرًا كليًا فيما يتعلق بحالة صاحبنا الدومينيكاني، فهو لم يكن الآن متجولاً من مدينة إلى مدينة بمرسومه البابوي وعربته المذهبة، بل كان مختبئًا من غضب أعدائه في كلية ليبزج، فكتب إلى ملتيتز يقول "لم أكن لأهتم البتة بمشقة الرحلة لو كان في استطاعتي مغادرة ليبزج بدون خطر على حياتي، ولكن الأغسطيني مارتن لوثر قد أثار عليَّ رجال السلطة وأهاجهم

ضدي، حتى لم أعد في مأمن على حياتي في أي مكان". يا لها من خاتمة، ويا لها من صورة لأولئك الذين يرتبطون بأن يكونوا خداماً للناس ضد الله وحقه! وبضمير شرير، وكجبان حقير مات تنزل بعد ذلك في تعاسة عظيمة، ولكن قارن هذا بالشجاعة الأدبية الظاهرة في خادم الله وحقه، سائراً على الأقدام من وتمبرج إلى أوجسبرج.

لوثر في ألتنبرج

أدرك السفير البابوي سريعاً التعاطف العام الذي كانت تتمتع به قضية لوثر، فاتبع خطة تتناقض على خط مستقيم مع خطة كاجيتان العاتي، فأراد أن يتقرب إلى لوثر بأكبر مظاهر الصداقة مخاطباً إياه بالقول "عزيزي لوثر"، وقد كان غرضه الأكبر أن يستهوي المصلح بعبارات الرياء والمداهنة، ويستدرجه إلى سحب تعاليمه أو التراجع عنها، وبذلك ينتهي النزاع. وإلى هنا استطاع السفير الداهية أن يفوز بالنجاح، فقد كان سياسياً ماكراً ودبلوماسياً ماهراً، وقد وقع لوثر وقتياً في حبائله.

قال لوثر "إني أتعهد من جانبي أن ألزم الصمت في المستقبل فيما يتعلق بهذا الموضوع، وأن أتركه يموت موتاً طبيعياً من تلقاء ذاته، على شرط أن يلزم أضدادي الصمت من جانبهم". وقد قبل ملتيتز هذا التعهد بفيض من الفرح وقبّل الراهب الهرطقي غامراً إياه بكل عبارات المحبة والعطف. وبهذا ظهرت المشادة العنيفة بين الحق والضلال وبين البابوية وحركة الإصلاح البازغة كأنها على وشك الانتهاء. ولكن حركة الإصلاح لم تكن لتعاق بمصالحة لوثر لروما.

ففي الوقت الذي فيه أُسكت لوثر وأبرم صلحاً لا يليق به مع روما، رن في الآفاق صوت آخر. ذلك أن الدكتور إك بطل البابوية تحدى كارلشتاد صديق لوثر، واستدعاه إلى مجادلة علنية بشأن النقط اللاهوتية المتنازع عليها وأقوال لوثر الخاصة بالغفران. هذه الحركة استفزت من جديد مشاعر لوثر وأثارت نشاطه وفصاحته مرة أخرى، وسرعان ما عقدت مناظرة علنية في ليبزج استمرت عدة أسابيع، اتخذ فيها الدكتور إك جانب البابوية ولوثر وكارلشتاد جانب حركة الإصلاح. وقد تداخل الله فاستخدم هذه المناقشات الشهيرة لنشر الحق، ليس فقط في ألمانيا بل المسيحية جمعاء. فاستناد لوثر على المكتوب واستمداد الحجج منه خلق في أذهان الكثيرين - وخاصة في أذهان طلاب جامعتي ليبزج ووتمبرج - روح التحري والاستقصاء التي لم يكن ليشبعا سوى بحق الله الراسخ المتين. وهكذا كان عمل الرب يتقدم، وأصبحت الحالة الفكرية في أوروبا مهيأة للثورة العظيمة التي كانت وشيكة الانفجار.

رجال القرن السادس عشر البارزون

هنا نرجو أن نقف قليلاً لنلقي نظرة على بعض الرجال العظماء الذين ملأوا مشهد ذلك العهد الحافل بالحوادث، فإن عصر الإصلاح من أعجب عصور التاريخ وأشهرها برجاله العظماء وحوادثه العظيمة.

فمارتن لوثر الذي كان يستخدمه الروح القدس بصفة خاصة يقف أمامنا كأول وأبرز شخصية. وفي حالته المحفوفة بالخطر ربما كان يظن أنه وحيداً فريداً، ولكن الله كان يجمع حوله بعضاً من الرجال البارزين، الذين أعلنوا من بادئ الأمر تعاطفهم الكامل مع قضيته، واستعدادهم للدفاع عنها للنهاية بكل قواهم. ففي عام ١٥١٨م تعين فيليب ملانكتون أستاذاً للغة اليونانية في جامعة وتمبرج. ومن ذلك الوقت أصبح صديق لوثر الحميم والعامل الأمين معه حتى نهاية حياته. وأوكُلامباديوس الأستاذ في جامعة بازل، وأورليك زوينجل دكتور اللاهوت في زيورخ، ومارتن بوشر، وآخرون كثيرون غيرهم أقامتهم العناية الصالحة في نفس ذلك الوقت، وأصبحوا معدودين من ذلك الحين ضمن أبرز شخصيات حركة الإصلاح وأشهر آلاتها.

كذلك كان خلو العرش الإمبراطوري بموت مكسمليان في يناير عام ١٥١٩م فرصة طيبة في جانب قضية الإصلاح، وذلك لأن انتباه روما تحول من لوثر وقضيته إلى مكان هو أهم وأحق بعنايتها العاجلة، أي مسألة الإمبراطور الجديد، كما أن فردريك استطاع بصفته النائب الإمبراطوري في فترة خلو العرش أن يقدم للوثر حماية أكثر وأضمن، وقد عرض الناخبون التاج الإمبراطوري على فردريك، لكنه رفض هذا الامتياز الخطير ولم يرض أن يتعب نفسه بحمل الإمبراطورية الثقيل. وقد وقع الاختيار أخيراً على حفيد مكسمليان المدعو تشارلس، الذي هو أيضاً حفيد فرديناند الشهير "بالكاثوليكي" وقد تبارى في ميدان الانتخاب أمراء آخرون أهمهم هنري الثامن ملك إنجلترا وفرنسيس الأول ملك فرنسا، ولكن حقوق تشارلس الوراثية وممتلكاته المترامية جعلت كفة الميزان ترجح سريعاً على جانبه، فقد كان ملكاً على أسبانيا وبرغنديا والأراضي المنخفضة ونابولي وصقلية

وإمبراطورية جزائر الهند الجديدة، كما أن اكتشاف الأمريكتين بواسطة كريستوف كولمبوس أضاف العالم الجديد إلى ممالكه العديدة. ومن أيام شارلمان لم يتسلط ملك على أملاك بمثل هذا الاتساع.

وقد كان البابا معارضًا في بادئ الأمر في ارتقاء تشارلس العرش لتنافي ذلك من بعض الوجوه مع مصالح الفاتيكان، إلا أنه سحب اعتراضاته لما أيقن أن النية كانت منعقدة على انتخابه، وهكذا توج تشارلس في إيكس لاشابل في ٢٢ أكتوبر سنة ١٥٢٠م.

جلس تشارلس على عرش الإمبراطورية في مقتبل عمره، إذ كان في ذلك الوقت في التاسعة عشر، باسم تشارلس الخامس إمبراطور ألمانيا. ويصفه التاريخ بأنه كان شابًا ذا ذكاء عظيم وميل فطري قوي للأمور الحربية. وقد اشتهر بأنه كان يسبق عمره في الجد والرزانة، كما عرف عنه الرقة والطيبة متى كان ذلك لا يتنافى مع أغراضه، وقد جمع بين دهاء وذكاء الإيطالي ورزانة وتحفظ الأسباني. وفوق كل ذلك كان كاثوليكيًا متعصبًا مخلصًا. قال عنه لوثر "كان تقيًا وسكوتًا، وأستطيع أن أراهن أنه لا يتكلم في سنة قدر ما أتكلم أنا في يوم".

هذا هو الرجل الذي أصبح من المحتم الآن إحالة قضية لوثر إليه، وما كان في الإمكان وجود شخص أليق منه لتنفيذ أوامر الفاتيكان ومقاصده. وتستحق تعليقات مؤرخ حياة لوثر التقي دوبينيٌ على هذا التغيير في الحكم أن نقتبسها، إذ يقول "إن ممثلاً جديدًا كان على وشك الظهور على المسرح، وقد قصد الله أن يحضر راهب وتمبرج وجهًا لوجه أمام أقوى ملك عرفته المسيحية منذ أيام شارلمان، فقد اختار أميرًا في عنفوان الشباب تدل كل البوادر على أنه سيكون له عهد طويل في الحكم، وكان عليه أن يواجه تلك الحركة الإصلاحية الضعيفة، التي ولدت في صومعة منعزلة في دير إرفورت على أثر مخاض وتأوهات راهب مسكين. ويظهر أن الله قصد بتاريخ هذا الملك وعهد حكمه أن يعلم العالم درسًا هامًا، وهو بطلان وانتفاء كل قوة للإنسان متى أرادت أن تقيس نفسها بضعف الله. فلو أن أميرًا صديقًا للوثر كان قد جاء للحكم والجلوس على العرش الإمبراطوري لكان هناك المجال لأن يُنسب نجاح حركة الإصلاح لتعضيده وحمايته، ولو كان الإمبراطور الذي لبس التاج حاكمًا ضعيفًا لكان ذلك فرصة أيضًا لتعليل نجاح هذه الحركة بضعف الإمبراطور في مقاومة التعاليم الجديدة. ولكن الأمر كان على عكس ذلك كله، فقاهر بافيا العاتي والفاتح المنتصر القوي هو الذي تعين لإظهار كبريائه أمام قوة كلمة الله. وذلك الرجل الذي استطاع بسهولة أن يأسر فرنسيس الأول ملك فرنسا ويأتي به مقيدًا إلى مدريد، رآه العالم كله وهو يضطر إلى أن ينكس سيفه أرضًا أمام ابن رجل فقير من عمال المناجم"(٢/٤٤)(١/٦٨)(٨/٦٦)(١/٦٧)(٣/٢١).

لوثر ومرسوم الحرمان

نعود إلى لوثر وانتهاء المناظرة في ليبزج، وهناك نجد الدكتور إك اللاهوتي البابوي الشهير يتقد غيظًا ويشتعل غضبًا ضد لوثر، ويسرع إلى روما لعله يحصل من البابا على مرسوم حرمان ضد خصمه. فإذ عجز عن مقاومة المصلح ودحض حججه القوية وأسانيده الراسخة من كلمة الله، صمم في الحال على السعي لحرمانه وإهلاكه. تلك كانت على الدوام طريقة رُسل روما وممثليها.

وإزاء مطالب إك المُلحة وشكاياته الصارخة هو وأصدقاؤه، وخاصة جماعة الدومينيكان، اتخذ البابا ليو خطوة غير حكيمة كما يعتقد الكثيرون، فأصدر المرسوم المطلوب في ١٥ يونيو سنة ١٥٢٠م، قاضيًا بإحراق جميع مؤلفات لوثر، وبتسليمه هو شخصيًا للشيطان كهرطقي شرير إن لم يسحب تعاليمه ويلتمس رحمة البابا في ظرف ستين يومًا. ولكن الوقت كان قد مضى الذي فيه يصمت لوثر وأصدقاؤه خوفًا من الرعود البابوية. لو أن شيئًا من هذا حصل قبل ذلك بخمسين سنة لاختلف الموقف كل الاختلاف. أما الآن فلا ليو ولا تشارلس ولا هنري ولا فرنسيس كانوا يعرفون تمامًا التطورات الفكرية لجماهير ألمانيا، ولا التأثيرات الصامتة القوية التي نتجت عن انتشار الطباعة في كل أوروبا. فإن من رأى جوتنبرج يعمل في مطبعته، أو كريستوف كولمبوس عائدًا من رحلته بعد اكتشاف الأمريكتين، أو فاسكو دي جاما بعد أن دار حول رأس الرجاء الصالح، أو مثقفي اليونان وقد انتشروا في جميع ممالك أوربا بعد سقوط القسطنطينية في يد الأتراك، من رأى كل أولئك فقد رأى حوادث أنعشت العلوم وأحيت المعارف، وأيقظت العقول من سُباتها الذي كانت تغط فيه طوال ليل العصور المظلمة الحالك الطويل(٤٠).

قبل أن يصل مرسوم ليو إلى وتمبرج كانت قلوب غالبية ألمانيا قد صارت مع لوثر، وخاصة الطلاب والصناع والتجار. وإذ رأى لوثر أنه يقف على أرض صلبة، أيقن أن الوقت قد حان لاتخاذ

الخطوة الحاسمة وإشهار الحرب. كان قد كتب في الماضي أشد الخطابات خضوعًا ومسالمة للبابا والكرادلة والأساقفة والأمراء والعلماء، وقد استأنف القضية أمام محكمة عُليا في مجمع عام، ولكن كل هذه الوسائل لم تُجد، والآن لم يبق أمامه إلا أن ينسحب من كنيسة روما ويقاوم سلطانها جهارًا، وقد كان. ففي اليوم العاشر من ديسمبر سنة ١٥٢٠م في الساعة التاسعة صباحًا، بعد نشر دعوة عامة، أخذ لوثر مرسوم البابا ونسخة من القانون البابوي وبعض مؤلفات إك وإمزر، وألقاها في النار على مرأى من جمهور حاشد من المشاهدين. وبعد أن تمم هذا خارج أسوار المدينة عاد لوثر إليها تصحبه أساتذة الجامعة وطلابها والشعب. وإذ ألقى بهذه الكيفية نير روما عن كاهله خاطب الشعب منبهًا إياهم إلى واجبهم بكل نشاط وحمية، وقد سرت حميته في الشعب والتفت كل الأمة حول رايته. والآن قد أصبح لوثر حرًا، وانفكت تلك الرابطة التي استمرت طول هذا الزمن تربطه بروما، ومن ذلك الوقت أصبح عدوًا صريحًا وخصمًا لا يهادن للبابا، ونشر في الوقت نفسه عدة رسائل ضد النظام البابوي إعلانًا لحق الله.

لوثر وتشارلس الخامس

والآن ماذا يعمل ليو ابن لورنزو الفاخر إزاء هذه الإهانة من ابن أحد عمال الفحم في مانسفلد؟ لم يكن أمامه إلا أن يلجأ لتشارلس الخامس يطلب منه النجدة والمعونة، فكتب إلى هذا الإمبراطور الشاب مُذكرًا إياه بالقسم الذي حلفه كحامي الكنيسة والمدافع عنها، يطلب منه أن يوقع القصاص اللازم بهذا الراهب الوقح العاصي مارتن لوثر. والآن أصبحت جميع الأوساط والدوائر تترقب بقلق ماذا تكون سياسة الإمبراطور الجديد؟ هل سيعطف على مبادئ التقدم السائدة في كل مكان في الأدب والسياسة والدين؟ أم سيكون الآلة المطواعة في يد البابا؟ هذان هما السؤالان اللذان كانا يترددان في كل مكان في تلك الآونة الرهيبة.

إلا أن تشارلس كان مشغولاً بمهام أخرى، فمرت سنتان قبل أن يتيسر له الوقت لمعالجة الموضوع. وكانت هذه فرصة مفيدة للوثر وأصدقائه استغلوها أحسن استغلال. ففي السنوات من ١٥١٨ إلى ١٥٢٠م استطاعت النبذ العديدة وتفاسير كلمة الله التي كانت تصدر تباعًا من المطبعة أن تفعل فعلها في القلوب والأذهان، وبعناية الله وترتيبه الحكيم أخذت الأفكار الجديدة تنتشر بسرعة، ليس فقط في ألمانيا، بل في سويسرا وفرنسا وإنجلترا. وهكذا كانت أفكار التعصب القديمة المتأصلة في النفوس من أجيال عديدة آخذة في الاقتلاع من الأذهان والقلوب في أنحاء كثيرة من أوروبا.

وقد أدرك تشارلس أخيرًا أن الأمر يحتاج إلى شيء أكثر من مجرد المجادلة الكلامية لوضع حد لهذه الحركة، التي كانت تهدد بالإطاحة بديانة أجداده وزعزعة السلام في إمبراطوريته. ولذلك استدعى المجلس التشريعي للولايات الألمانية إلى الانعقاد في وُرمز، وأرسل يعلن لوثر بالحضور أمام هذا المجلس والإجابة عن تصرفاته الثورية. وقد صمم البابا وأعوانه على أنهم لن يدعوا هذه الفرصة تفلت دون أن يصلوا إلى سحق خصمهم والتخلص منه بأية وسيلة مشروعة كانت أو غير مشروعة. ولكن الأمير المنتخب إذ كان يعلم مبلغ خداع البابوية وخيانتها، وإذ خشي أن يلقى لوثر ما لقيه جون هس وجيروم عندما حضرا مجمع كونستانس، أبى أن يوافق على ذهاب لوثر إلى ورمز إلا تحت شرطين: أولاً أن يضمن الإمبراطور حريته وسلامته. وثانيًا: أن لوثر، فيما لو حُكم بإدانته، يكون له حق العودة إلى المكان الذي حضر منه، وأن يقرر الأمير بعد ذلك ما يجب أن يتبع إزاءه.

هذان هما الشرطان اللذان وضعهما الأمير المنتخب لحماية لوثر كأحد رعاياه. ولوثر نفسه كان على استعداد أن يُلبي دعوة الحضور فيما لو استراح المنتخب من جهة سلامته.

مجلس وُرمز (يناير-مايو ١٥٢١م)

هوذا راهب إرفورت، المسلح بكلمة الله والثقة في المعونة الإلهية، قد استطاع أن يُطهر الأرض من باعة صكوك الغفران، ويجعل جيشهم الجرار يلوذ بالفرار، كما استطاع أن ينال بغير عناء نصرة عظيمة على مندوب البابا في أوجسبرج، وعلى أبطال البابوية في صالات ليبزج. وكذلك استطاع أن يجيب على رعود البابا وتهديداته بحرق مرسومه علنًا في وتمبرج. تلك كانت أمورًا شلت روما وأشعرتها بأن قواها قد خارت وتهديداتها أصبحت محتقرة. وبالاختصار أصبح واضحًا أن ما تُسمى بالكنيسة لم تعد قادرة بعد على المُضي في تنفيذ رغائبها بالوسائل القديمة، فالناس بدأوا يُفكرون لأنفسهم وبدأوا ينظرون إلى أي

حد يجب أن تُطاع مثل هذه الأوامر. ولكن ها هو في الوقت نفسه أمير كاثوليكي مخلص جالس على عرش الإمبراطورية، وها هي المعركة الختامية بين يديه، فماذا يكون من أمرها؟

افتتح تشارلس، الخادم الأمين للقديس بطرس، المجمع يوم ٢٨ يناير الموافق ذكرى شارلمان. ولم يحدث قط في تاريخ العالم أن التأم في مجلس واحد مثل هذا العدد الغفير من الملوك والأمراء والأساقفة والأشراف وسلطات هذا العالم الأخرى، منتخبون ودوقات ورؤساء أساقفة ومركيزات ونبلاء وكونتات وأساقفة وبارونات ولوردات وأشراف مقاطعات ونواب مدن وسفراء ملوك، كل أولئك بمواكبهم الفخمة ملأوا الطرقات المؤدية إلى ورمز. يا له من مجلس خطير كانت ستُبحث فيه بحثًا جديًا مسائل عظيمة تمس سلام أوروبا وسلام العالم، وتحتدم فيه المعركة الحامية بين الحق والضلال.

ثم اعتلى المنصة ألياندر، سفير البابا، وهو رجل فصيح وخطيب مفوّه، وأخذ يخاطب الإمبراطور والأمراء والنواب زهاء ثلاث ساعات متوالية، وأمامه على المنصة كُتب لوثر ومرسوم البابا. لقد ألقى خطبة جامعة ضمنها كل ما كان يمكن لروما أن تقوله ضد الكتب ومؤلفها، وشدد على القول بأن مؤلفات لوثر تحوي من الضلالات ما يكفي لحرق مائة ألف هرطقي، واستطاع بقوة خطابته وبلاغة أقواله أن يحدث أثرًا عميقًا في نفوس المجتمعين، وسرعان ما أخذت الضجة تتعالى من كل جهة ضد لوثر وأعوانه. ولكن يتضح جليًا من إطالة ألياندر في خطابه أن غرضه الأعظم كان أن يحول دون دعوة المصلح الجريء للظهور أمام هذا الجمع الحافل، فإن أكثر ما كان يخافه الحزب البابوي هو القبول الذي كان من الطبيعي أن تناله التعاليم الجديدة إذا عرضها لوثر في مثل هذا المجمع العظيم. وقد كتب ليو نفسه يلتمس عدم مراعاة الوعد بسلامة لوثر، ووافق الأساقفة مع البابا على أن ضمانات السلامة لا يجب أن تحمي الهراطقة.

دعوة لوثر وضمان سلامته

والآن أصبح مركز الإمبراطور الشاب حرجًا جدًا، ورأى نفسه بين كفي رحى لا يدري كيف يفلت من بينهما، فهو بين نارين: نار السفير البابوي، ونار المنتخب الذي يدين له بتاجه، فما العمل؟ إنه يريد أن يرضي الطرفين. صحيح أن نجاة راهب أو التضحية به كانت أمرًا قليل الأهمية في نظر تشارلس، ولكنه ليس كذلك في نظر ذاك الذي بيده مقاليد أمور الملوك ودفة قلوب الحكام. فلوثر كان لا بد أن يقف شاهدًا لحق الله ضد أكذوبة الشيطان في ذلك المجتمع الهائل، ولذلك قرر الإمبراطور قراره، بعد أن بدا له أن ظهور لوثر أمام المجلس هو الوسيلة الوحيدة التي يُنتظر منها أن تضع حدًا لمسألة قد شغلت أذهان كل الإمبراطورية. وأخيرًا أُرسلت الدعوة مع وعد بضمان سلامته، وتهيأ لوثر لإطاعة الدعوة الإمبراطورية.

وفي اليوم الثاني من شهر أبريل استأذن لوثر من أصدقائه وبدأ رحلته، فركب عربة متواضعة في صحبة أصدقائه شورف وأمسدورف وشوفن يتقدمهم المندوب الإمبراطوري ورجال الأمن. وفي كل دور من أدوار رحلته كان لوثر يجد المخاوف والشكوك تملأ قلوب جميع محبيه، فأنذروه "أن في الأمر مؤامرة، وأن حكم الإدانة قد صدر ضده فعلاً، وأن مؤلفاته قد أحرقها الجلاد وهو لا بد مائت إذا ذهب" ٩. ولكن لوثر أجاب بشجاعة "إني متكل على الله القدير الذي كلمته ووصاياه دائمًا أمامي". وفي طريقه قام بإلقاء مواعظ تبشيرية في أماكن عديدة، وتمتع بضيافة الكثيرين من أصدقائه، ولكنه عندما اقترب من وُرمز اشتدت العاصفة التي كان قد أثارها ضده أعداء حركة الإصلاح، فبدأوا يتقدون غضبًا عند سماعهم باقترابه إلى المدينة، بينما قسيس المنتخب الخاص وصديق لوثر الأمين أرسل إليه رسولاً يقابله ويقول له "لا تدخل ورمز". ولكن الراهب الجريء الممتلئ شجاعة مقدسة حوّل عينيه للرسول وقال له "قل لسيدك إني سأذهب ولو كان في ورمز من الشياطين بقدر ما على سطوح المنازل من قراميد". وفي صبيحة يوم ١٦ أبريل وصل لوثر إلى أسوار المدينة الأثرية. وقد خرج لاستقباله رجال أشراف من كل طبقة، ورافقه أكثر من ألفي شخص إلى محل إقامته، بينما ازدحمت الشوارع بالمتفرجين، وبدت المنازل من أسفلها إلى سطوحها وكأنها كتلة واحدة من الآدميين لكثرة ما اجتمع في نوافذها وشُرفاتها من المتطلعين.

وفي اليوم التالي توجه لوثر إلى المجلس يقوده مارشال الإمبراطورية أورليخ أوف بابنهايم، وقد اكتظت الشوارع بالجماهير التي ترغب في رؤيته، لدرجة أصبح معها من المتعذر الوصول به إلى مكان الاجتماع إلا من خلال المنازل الخاصة والحدائق. وهناك

خاطبه كثيرون من الفرسان والأشراف الذين كانوا يملأون ردهات الاجتماع بكلمات إعجاب وتشجيع، بينما كان يشق طريقه إلى قاعة المجمع. فواحد منهم، الذي ربما كان قد قبل الحق وكان يحب المخلص، ذكره بكلمات السيد «ومتى قدموكم إلى المجامع والرؤساء والسلاطين فلا تهتموا كيف أو بما تحتجون أو بما تقولون لأن الروح القدس يعلمكم في تلك الساعة ما يجب أن تقولوه» (لو ١٢:١١، ١٢). وآخر، مع أنه كان مدججًا بالسلاح ومرتديًا لباسه الحربي اللامع، وضع يده على كتفه وقال له "تشجع أيها الراهب الصغير. إن بعضًا منا هنا قد اجتازوا في أزمات ومعارك حامية في حياتهم، ولكن لا أنا ولا أي فارس من هؤلاء الفرسان كان في حاجة في وقت من الأوقات إلى قلب قوي جرئ مثل حاجتك أنت اليوم إلى مثل هذا القلب. إذا كنت مؤمنًا حقًا بتعاليمك هذه فتقدم باسم الله". فأجاب لوثر وقد رفع رأسه إلى أعلى "أي نعم. باسم الله. باسم الله إلى الأمام!".

ظهور لوثر أمام المجلس

يا له من منظر رهيب بالنسبة إلى شخص نشأ وتربى بين جدران الدير وبساطة الصومعة! فهناك جلس تشارلس، الإمبراطور الذي يسود بصولجانه على نصف العالم، كما اصطف على الجانبين أمراء وعظماء الإمبراطورية الألمانية، أساقفة ورؤساء أساقفة وكرادلة في ثيابهم الأرجوانية، وسفراء بابويون في أبهتهم الرسمية، وسفراء من أقوى الممالك المسيحية، عدا ما هو دون أولئك، النواب والموظفين. ذلك كان مجلس الولايات الإمبراطورية في وُرمز. وقد يسأل القارئ لأي شيء قد اجتمعت كل هذه الجماعة العظيمة؟ اجتمعت لتحاكم وتحكم على ابن أحد عمال المناجم المساكين، هذا الذي في ردائه الرهباني ووجهه الممتقع اللون، المنهك القوى من جراء ما تحمل من متاعب واضطرابات في حياته، وقف وحده وسط ما يزيد عن خمسة آلاف مشاهد صامتًا متزنًا، وكان يجيب على جميع الأسئلة بقوة وتواضع، كما قال عنه المؤرخ الشاعر:

مـلوكٌ، قـضـاةٌ، أساقـفـةٌ ... وجمع تزاحم في حشده
ولـوثرُ وحْدًا يحَـاكَمُ ظُـلـمًا ... يُـعينـهُ ربُـهُ من مجده
كما لو نبيٍ، بوحيٍ يجيبُ ... فيرتـعدُ الجمعُ من ردّهِ

وبعد بُرهة من الصمت الرهيب خاطبه قاضي قضاة تريفس بصوت جهوري، أولاً باللغة اللاتينية، ثم بعد ذلك باللغة الألمانية "يا مارتن لوثر. أنت مدعو من صاحب الجلالة الإمبراطور لأن تجيب على سؤالين:

أولاً: هل تعترف بأن هذه الكتب (مشيرًا إلى حوالي عشرين مُجلدًا موضوعة على طاولة) هي من تأليفك؟

وثانيًا: هل أنت مستعد أن تسحب هذه الكتب ومحتوياتها؟ أم تُصر على الآراء التي ضمنتها إياها؟".

فأجاب لوثر بأنه فيما يتعلق بالسؤال الأول يعترف في غير شك بأنه هو الكاتب لهذه الكتب، ولن ينكر واحدًا منها. أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني فإنه يلتمس مهلة للتأمل، حتى يستطيع أن يصوغ إجابته بكيفية لا تهين كلمه الله ولا تضر نفسه. وعلى هذا منحوه مهلة يومًا واحدًا. ومهما يكن الباعث الذي دعا لوثر لأن يطلب هذه المهلة، فلسنا في حاجة لأن نتساءل عنه، ولكن شيئًا واحدًا محقق، وهو أن الله في كامل حكمته رتب هذه المهلة لكي يكشف ويُعلن سر قوة لوثر وشجاعته، وسر قوة وشجاعة الإيمان في كل العصور والأجيال، فتلك الصلاة العجيبة التي قدَّمها لوثر لله قبل وقفته الثانية أمام المجمع هي أثمن وأفخر وثيقة في كل تاريخ حركة الإصلاح، ونحن لا نستطيع أن نصفها، وإنما نقتبسها كما هي من تاريخ دوبيني.

صلاة لوثر

مرت على لوثر فترة فيها شعر بالاضطراب، إذ تحولت عيناه إلى حين عن الرب المبارك. أخذ يفكر في الأمراء الكثيرين العظام الذين كان عليه أن يقف أمامهم. بدأ إيمانه يضعف. كان نظير بطرس عندما تطلع إلى الأمواج بدلاً من تثبيت نظره على شخص الرب، فشعر كأنه يكاد يغرق. وإذ هو في هذه الحالة النفسية المضطربة سقط على وجهه، وأخذ يئن بأنات وأفكار عميقة لا يُنطق بها. إنه الروح كان يشفع فيه. وتصادف وجود صديق لمح ضيقة نفسه، فأصغي إليه، وكان له امتياز أن يسمع الأنات المتقطعة الصاعدة من قلب مكسور أمام عرش الله.

"أيها الإله القدير السرمدي! ما أرهب هذا العالم! أنظر، ها هو يفتح فمه ليبتلعني وأنا مسكين، ضعيف الإيمان فيك! ما أضعف

الجسد! وما أقوى الشيطان! إذا كان في قوة هذا العالم فقط يجب أن أضع ثقتي، فقد فني رجائي! قد أتت ساعتي الأخيرة، والحكم علي قد صدر! يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي! أعني ضد كل حكمة هذا العالم. أفعل هذا. لتفعل أنت هذا.. أنت وحدك.. فالقضية ليست قضيتي بل قضيتك. ليس لي أنا ما أفعل هنا، وليس لي ما أتنازع بشأنه مع هذا الجمع من عظماء العالم! كنت أود شخصيًا أن أرى أيامي تطير سريعًا في سلام وفي سعادة. ولكن القضية قضيتك.. وهي قضية عادلة وأبدية. أيها الرب أعنيَ! أيها الإله الأمين الذي لا تغيير عنده، إني لا أضع ثقتي في إنسان، فهو باطل.. يا الله! يا إلهي! ألا تسمعني؟ ... لماذا تختبئ؟ أنت قد اخترتني لهذا العمل، ونفسي تعرف ذلك يقينًا! اعمل إذًا يا الله! قِف بجانبي من أجل خاطر حبيبك يسوع المسيح الذي هو حِماي، ترسي، وبرجي الحصين".

وبعد فترة قصيرة من الجهاد الصامت مع الرب، انفجر مرة أخرى بهذه الأقوال القصيرة العميقة المتقطعة، التي يجب أن تختبرها النفس قبل أن تعرفها أو تفهمها. إنها عملية تكسير عظام الثقة في الذات وكبرياء الجسد. وهاهي تنكسر وتتحطم في حضرة الرب، فاسمع لها. "أيها الرب! أين تمكث؟ يا إلهي! أين أنت؟ تعالَ! تعالَ! إني مستعد! إني مستعد أن أضع حياتي في سبيل حقك.. صابرًا كالحمل. لأن القضية قضية البر والعدل.. هي قضيتك! لن أتركك، لا الآن ولا طوال الأبدية! ولو امتلأ العالم بالشياطين.. ولو احترق جسمي.. جسمي الذي هو عمل يديك.. ولو ذُبح ذبحًا، ولو طُرح على الأرض وقُطع إربًا إربًا.. ولو احترق حتى تحول إلى رماد.. تبقى نفسي لك. أي نعم. كلمتك تؤكد لي ذلك. نفسي هي ملكك! ستسكن إلى الأبد معك.. آمين.. يا الله! أعني! آمين".

هذه الصلاة تُفسر حاله لوثر النفسية ونوع شركته مع الله أحسن من أي وصف بقلم أي مؤرخ، فهنا نرى الإله الحي يؤهل عبده لعمله بجعله يذوق مرارة الموت (٢كو ٤:٧-١٢). فلوثر لم يكن إلا في طريق الانسلاخ من ظلمة الخرافة، ولم يكن للآن قد تعلم الحق المبارك الخاص بالموت والقيامة وبوحدته مع المسيح وقبوله في المحبوب، ولكن اقترابه إلى الله، وقوة صلاته، وحقيقة شركته تنعش قلوبنا بعد مُضي كل هذه المئات من السنين عليها.

عودة لوثر أمام المجلس

قد رأينا لوثر يجاهد أمام الله، وها قد انتهت المهلة وجاء الصباح، وكان عليه أن يقف للمرة الثانية أمام المجلس، حيث تظهر في الحال نتيجة صلاته وثقته في الله. وهنا وقف قاضي القضاة، وإذ رأى نفسه ثانية أمام الإمبراطور، بدأ بالقول "يا مارتن لوثر، قد التمست مهلة بالأمس وها هي المهلة قد انتهت.. والآن أجب عن سؤال صاحب الجلالة. هل تدافع عن كتبك أم تسحبها؟". وهنا التفت لوثر إلى الإمبراطور وبوجه تعلوه إمارات الجد المقترن بالتواضع والوداعة، ودلائل الحزم والشجاعة، أخذ في تبيان محتويات كتبه وشرحها شرحًا مستفيضًا بأقوال لا شك أن الكثير منها كان مُرضيًا جدًا للألمان ومُرجفًا للغاية للرومان، كما يمكنك أن ترى من الكلمات الآتية التي نقتبسها على سبيل المثال: "لقد كتبت في بعض كتبي ضد البابوية وتعاليم البابويين، وتكلمت عنهم كأناس قد جلبوا على المسيحية مصائب روحية وزمنية كبرى بسبب تعاليمهم الضارة وتصرفاتهم الرديئة، فتعاليمهم الفاسدة وتصرفاتهم المخزية وأعمالهم الشريرة مشهورة ومعروفة لدى جميع الناس. أو ليس من الجلي الواضح أن تقاليد البابوية وقوانينها البشرية تؤلم وتعذب وتحزن ضمائر المؤمنين، بينما جشع روما وشغفها المستديم في ابتزاز المال قد ابتلع غنى وثروة العالم المسيحي، وخاصة ثروة هذه الأمة المجيدة!". غير أن مثل هذا الشرح لمؤلفاته لم يكن هو الذي يطلبه المجمع، فطلبوا إليه أن يجيب إجابة صريحة واضحة على السؤال الموجَّه إليه. فقال له خطيب المجلس "أمامك شيء واحد مطلوب منك الإجابة عليه: هل تسحب كتبك أم لا تسحبها؟".

وهنا أجاب لوثر بلا تردد: "بما أن جلالتكم المعظمة وأصحاب السمو الأمراء يطلبون مني إجابة واضحة بسيطة مختصرة فها أنا أُعطي هذه الإجابة كالآتي: لست أستطيع أن أُخضع إيماني للبابا أو للمجامع، إذ هو واضح كالنهار ومعلوم للخاص والعام أن الباباوات والمجامع طالما أخطأوا وطالما اختلفوا وناقضوا بعضهم بعضًا. فإذا لم أقتنع بقوة شهادة المكتوب وبالمنطق المعقول السليم، وإذا لم يمكنهم ربط ضميري بحق كلمة الله، فإنني لا أستطيع أن أسحب أقوالي ولن أسحبها، لأنه من الخطر أن يتكلم المسيحي ضد ضميره". وهنا بعد أن نظر حوله إلى المجلس وكل من كان فيه من العظماء وذوي البأس والسلطان، قال في شرف ونبل "ها هو

موقفي لا أستطيع أن أفعل غير ذلك. الله عوني وناصري. آمين".

هذه كانت شجاعة وقوة يقين لم يعهدها الأمراء من قبل، فلم يستطع الكثيرون منهم أن يخفوا إعجابهم، بينما وقع الآخرون في حيرة وارتباك شديد. ولكن كما قال البعض إن كلمات لوثر القليلة هذه، والتي عبّر بها عن احتجاجه الصادق الأمين، كان فيها كل جوهر ومعنى حركة الإصلاح. وهل كان على الناس أن يستمروا إلى الأبد قائلين إن هذا أو ذاك حق لمجرد أن قال به البابا؟ أم أن مراسيم البابوات وقوانين المجامع كان يجب من الآن فصاعدًا أن تُمتحن كباقي أقوال الناس بقوانين العقل السليم وبمقياس كلمة الله الكامل؟ هذه هي الروح التي كانت منتشرة في ذلك الوقت. وكأننا نسمع في نبرات أقوال لوثر ناقوس وفاة الدكتاتورية اللاهوتية يقرع قرعاته الأخيرة، فيملأ جميع الأسماع.

وعندما انتهى لوثر من كلامه قال قاضي القضاة "بما أنك تأبى التراجع فالإمبراطور وأمراء الإمبراطورية سينظرون فيما يجب اتخاذه ضدك كهرطقي عنيد، وسيجتمع المجلس غدًا صباحًا لسماع قرار الإمبراطور في هذا الشأن".

لا شك أن الأثر العام الذي أحدثه لوثر في المجلس بأقواله وبأخلاقه كان في صالحه وصالح مركزه على طول الخط. فقد جعل أعداءه يهابونه ويرهبونه إذ استطاع في وسط مثل هذا الجمع الحافل من أقطاب الإكليروس المتعطشين لدمه أن يقف غير هياب، ويفضح بأسلوبه القوي المعتاد رذائل البابوية ومساوئها الشنيعة، بل كان في أقواله ما أدى إلى تدعيم حركة الإصلاح، فإن لوثر استطاع بوقفته هذه أن يبعث في أصدقائه ومعضديه ذات الثقة التي كانت له في الحق الذي ينادي به.

وبعد ليلة حالكة الظلام، مليئة بالمخاوف والقلق والاضطراب والمناقشات بين جميع الطبقات، جاء الصباح وجاءت معه أرهب الإشاعات عن مصير لوثر. ولما كانت سياسة الفاتيكان هي الغالبة في مجالس تشارلس، فقد جاء هذا وقدم للمجلس المرسوم الآتي:

"بصفتي سليل أباطرة ألمانيا المسيحيين وملوك أسبانيا الكاثوليك وأمراء النمسا ودوقات برغنديا الذين اشتهروا جميعًا باسم حماة الإيمان الكاثوليكي، قد صممت تصميمًا حازمًا أن أسلك سبيل أجدادي وأقتفي آثار أسلافي. فها راهب واحد، مغرور بخداع عقله، قد قام ضد إيمان المسيحية. فإذا تساهلت مع مثل هذا الشر فسأكون بذلك مضحيًا بممالكي وخزائني وأصدقائي وجسمي ودمي ونفسي وحياتي. ولذا فأنا مزمع أن أطرد لوثر الأغسطيني، وأمنعه من أن يتسبب في أقل اضطراب بين الشعب، وبعد ذلك سأطارده هو وأتباعه كهراطقة جديرين بالتحريم والحجر وكل وسيلة تؤدي إلى إهلاكهم. وإني أطلب من جميع أعضاء الإمبراطورية أن يتصرفوا في هذا الأمر كمسيحيين أمناء".

ومع ما ينطوي عليه هذا الحكم من الشدة فإنه لم يُرض البابويين، الذين حاولوا أن ينقضوا التعهد بضمان بسلامة لوثر، ويكرروا تمثيل الفاجعة التي ارتكبها أسلافهم من قبلهم، فقالوا "إن نهر الرين يجب أن يبتلع رماده كما ابتلع رماد جون هس منذ قرن مضى". ولكن هذه المقترحات الخائنة لم تستطع الوقوف أمام روح الشرف الوطني التي كانت تسود غالبية المجمع، وخاصة بين الأمراء الألمان. ولم يبق الآن سوى أمل واحد أمام الحزب البابوي وهو - ويا للعار والخزي - الاغتيال!! يقول المؤرخ فرود "دُبرت مؤامرة لاغتيال لوثر في طريق عودته إلى سكسونيا. فعظمة روما المُهانة كان لا بد من ترضيتها بالخنجر، ولكن هذه الوسيلة أيضا فشلت، إذ سمع أمير سكسونيا المنتخب بخبر المؤامرة، فأرسل فرقة من الفرسان متنكرين في صورة قُطاع طرق، فكمنوا للمُصلح في الطريق واختطفوه إلى قلعة فارتبورج، حيث استمر بعيدًا عن يد الأذى، إلى أن قامت الثورة العامة في ألمانيا ووضعته بعيدًا عن متناول الخطر[١٨].

تأملات في محاكمة لوثر في ورمز

إن مجرد حدوث محاكمة من هذا القبيل كان معناه نصرة حاسمة ضد البابوية. والواقع إن دخول لوثر مدينة ورمز كان أشبه بموكب انتصار، فمع كونه الهرطقي المحكوم عليه والمقطوع من حظيرة الكنيسة، والمنبوذ من الهيئة الاجتماعية، استطاع هناك أن يكون له امتياز الوقوف وسط أعظم وأسمى مجمع في العالم. كان محكومًا عليه من البابا بالصمت المستديم، ولكن ها هو يتكلم أمام الآلاف بناء على دعوة من أسمى الهيئات. واستطاع بعناية الله الصالحة أن يخاطب آذانًا مرهفة من كل أنحاء المسيحية وقتًا طويلاً وبجرأة عظيمة في غير مقاطعة وبلا أقل توبيخ. يقول دوبيني "حدثت ثورة عظيمة عن طريق

لوثر، وكانت روما آخذة في النزول من على عرشها، ولم يكن سوى صوت راهب واحد هو الذي أذاقها هذه المذلة". فمجرد وقوف لوثر للمحاكمة في ورمز كان إعلانًا للعالم بأن نير البابوية قد قُصم، واستبدادها المطلق بدأ يتلاشى، وأن نجاح حركة الإصلاح قد أصبح مضمونًا. فها هوذا راهب مسكين مضطهَد، وحيد أعزل، يقف ضد صاحب الجلالة الإمبراطور ذي التاج الثلاثي، والبابا يدعو السلطة التنفيذية لمعاونته، ولكنها تأبى تنفيذ مرسومه ويسقط الحرمان على الأرض. وبعد ذلك تأتي قوة روحية أعلى من الاثنين، وهي مجلس ورمز، ومع ذلك يعلو هتاف النصرة ويستمر يدوي، حتى يرن صداه في ممالك كثيرة.

من الجلي الواضح أنه لا البابا ولا الأساقفة ولا الإمبراطور كان يعلم حقيقة الرأي العام والحركة الفكرية التي كانت آخذة في الانتشار في ذلك الوقت. إن جيلاً جديدًا كان قد برز للإنسانية وشعاره، كما علّمه رجال الأدب، أن يُفكر لنفسه وأن يُكَوِّن له في كل شيء رأيه الخاص. وقد علم لوثر أن آراءه عن البابوية وعن كلمة الله كانت هي آراء الآلاف، ومع ذلك فقد وقف وحده في ذلك المجمع كالشاهد لحق الله، واستطاع في وجه الكنيسة العاتية والإمبراطور أن يُصرح بحق كل إنسان في قراءة وتفسير كلمة الله، ووجوب الخضوع لسلطانها دون سواها. ولم يكن للوثر بين كل الأمراء الحاضرين واحد فقط يحامي عنه، كما لم يكن له ولا محامٍ واحد من أية طبقة يترافع عنه أمام المجلس، ولكن الله الذي شدد إيليا وجعله يقف ضد كهنة البعل على جبل الكرمل، والذي وقف مع بولس لما جيء به أمام شرفاء وأمراء هذا العالم وأمام قيصر نفسه، أعطى حكمة وقوة لراهب وتمبرج لم يكن في استطاعة أي شيء أن يغلبها، حكمة جعلت الناس يرون أن القوة الروحية الصحيحة والحرية السعيدة لا تكون إلا في الضمير الصالح والإيمان بالحق، وبصفة خاصة في الإيمان بالرب يسوع المسيح، وبحضور وقوة الروح القدس(٧/٦٦)،(٢/٤٤)،(٤/٢٥).

الفصل الخامس والثلاثون

لوثر في فارتبورج

كان لاختفاء لوثر الفجائي أثر في كل الأوساط، فنشأ عنه قلق واضطراب لدى أصدقائه، وفرح ونشوة انتصار لدى أعدائه، وانتشرت عن هذا الحادث الغامض أغرب الإشاعات في كل البلدان، حتى أصبح اسم لوثر وصفاته وأعماله موضوع أحاديث الخاصة والعامة في كل مكان. ولكن لما كانت سلامته تقتضي التكتم الشديد، فقد أستمر الأمر عدة شهور مخفيًا عن الأصدقاء والأعداء على السواء.

هذا وقلعة فارتبورج التي كان مأسورًا فيها، والتي دعاها "بطمس" كانت أصلاً مقر أمراء ثورنجيا، وهي قلعة منيعة حصينة مبنية على جبل شامخ، وتطل من عَليائها على مدينة ايزناخ مسقط رأس أمه ومكان نشأته وتربيته الأولى. ولكي لا تثار أي شبهة نحو معرفة شخصيته ألزموه أن يترك رداءه وغطاء رأسه الرهباني، ويطلق لحيته وشعره، ويتخذ لنفسه لباس ولقب شريف ريفي باسم الشريف جورج، الأمر الذي كان يعد تغييرًا كليًا في حالة الراهب المتقشف والمصلح وخصم روما الجريء، حتى أنه كثيرًا ما كان يصاب بأمراض حادة وتنتابه آلام نفسية وأعراض عقلية، ففي بعض خطاباته التي كتبها في فترة وجوده في ما أسماه "جزيرة بطمس" يشكو مر الشكوى من عادة الخمول التي كانت آخذة في الاستيلاء عليه، ومن نتائج الأطعمة الفاخرة التي كانت تقدم إليه. ولكنه إن كان قد حُرم من أتعابه الجهارية في الجامعة ومن فوق المنبر، إلا أنه كان عاملاً بقلمه بكل جد ونشاط، حتى صار في اعتكافه موضع حنق أعدائه، فكان يكد ليلاً ونهارًا ويصدر المؤلف تلو الآخر، واستطاع في هذا الأسر أن يبدأ أنفس وأنفع كتاب من كتبه، وهو ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية. ففي صيف سنة ١٥٢١م انتهى فعلاً من ترجمة العهد الجديد، كما بذل جهدًا كبيرًا في إتقان اللغتين اليونانية والعبرية لكي يتسنى له إتمام ترجمة الكتاب كله.

تأملات في أسر لوثر

لنقف هنا قليلاً ونتعلم درسًا نافعًا. فها هو لوثر كالنسر المقيد، يجلس طوال النهار وسط غابات ثورنجيا المظلمة، متأملاً بكآبة في الحالة المنحطة التي وصلت إليها الكنيسة والإكليروس، ويتولاه الغضب والهياج الشديد كلما تذكر نتائج مجمع ورمز، وتفكر في حال أصدقائه وتقدم الحق. يتأمل في كل ذلك فتبعث هذه السلسلة من الأفكار في نفسه حسرة ومرارة، وذلك لأنه لم يتقبلها من يد الرب، فتنحط صحته ويقضي ليالي طويلة بلا نوم، وتزداد كآبته وهواجسه، ويتصور أنه موضع هجمات الشيطان المستمرة. كتب حينئذ يقول "صدقوني أني في هذه الوحدة فريسة ألف جندي من أعوان الشيطان، وأنه لأيسر جدًا أن يصارع الإنسان مع أعداء جسديين آدميين من أن يصارع أجناد الشر الروحية في السماويات". كان يشتاق لأن يُطلَق حرًا ويقف في مقدمة المعركة، ولئلا يُظن أنه كان هاربًا من الميدان كان يصرخ قائلاً "إني أفضل أن أمدد على جمر من النار من أن أبقى هنا نصف ميت". والعيان يقول: ها هو وقت الشدة قد جاء والحاجة لمجهودات لوثر أشد من أي وقت آخر. فإذا كان زعيم هذه الحركة القوية يؤسر ويُقيد في لحظة كهذه، فلا بد أن قضية الحق يعتريها الوهن والضعف، ويكون الانتصار حليف الخصوم. ولكن رغمًا عن حساب العقل ومنطق جميع الناس فالسيد يقول: كلا "إن طرقي ليست طرقكم وأفكاري ليست أفكاركم. إن أسر عبدي سيكون حرية الملايين". وهكذا كان. فليست هناك حادثة في كل تاريخه عملت على إذكاء عقله وإنضاج أفكاره فيما يتعلق بضرورة ومدى الإصلاح، الذي كان كل شيء حوله يتطلبه، أكثر من كتبه التي كتبها في معتقله،

والأسفار المقدسة التي ترجمها هناك. يا ليتنا نتعلم أن نخضع برضى وسرور عندما تكون أوامر الرب لنا أن اخرجوا واخدموا في الحقل الذي إليه دعوتكم والذي لأجله أعددتكم. فموسى في مديان، وبولس في العربية، ويوحنا في بطمس هم جميعًا دروس إلهية لجميع خدام الرب.

رجوع لوثر إلى وتمبرج

في فترة غياب لوثر في فارتبورج لم يوجد بين أتباعه من كانت عنده المؤهلات الكافية لأن يحافظ على تعاليم الإصلاح أو يقود جماعة المصلحين، ففيليب ملانكتون، الأستاذ الوادع المسالم، كان عالمًا ضليعًا ذا ذهن هادئ خصيب يستطيع أن يُغذي الآخرين، ولكنه لم يكن الرجل الذي يمكنه أن يخوض معمعة الثورات الفكرية وما يقترن بها من حماس وشدة. وأندرو كارلشتاد، أحد دكاترة وتمبرج وصديق لوثر القديم ولا يجهل الحق، صار بإلحاح أصدقائه رأسًا لجماعة متطرفة صغيرة كان يتخيل أفرادها أنهم على اتصال مباشر باللاهوت، وانتحلوا لأنفسهم ألقاب الأنبياء والرسل، وازداد عددهم وانضم إليهم شبان من الجامعة، وأخذوا ينددون بمحاولة لوثر للإصلاح، قائلين إنها ليست عامة ولا تامة كما يجب، وذهبوا في حماسهم المتطرف حتى نادوا بالويل والثبور "ويل. ويل. ويل" للكنيسة الضالة والأساقفة الفاسدين، وكانوا يدخلون الكنائس ويحرقون الصور ويحطمون التماثيل، وذهبوا في أعمال التطرف مذاهب أخرى عرّضت للخطر فجر الحرية والسلام العام، فتداخلت السلطات المدنية وألقت بكثير من الغيورين في غياهب السجون.

وكانت الحاجة ماسة للوثر، وكان النداء بحضوره عامًا. وقد سمع لوثر النداء في فارتبورج، فقام على الفور وبدون موافقة الأمير، ووسط الخطر الشديد على حياته، سارع إلى منطقة القلق والاضطراب. وقد كان بين الأسماء التي نالت شهرة في التاريخ بسبب هذه الحركة الغبية توماس مونتزر الذي ظهر على المسرح مرة أخرى سنة ١٥٢٥م على رأس ثورة الفلاحين، التي تعرف باسم "حرب الفلاحين".

عاد لوثر من بطمسه إلى وتمبرج في شهر مارس سنة ١٥٢٢م، فقوبل من الدكاترة والطلبة والأهالي بمظاهرات مخلصة من الفرح والترحاب، وكانت نصرته سهلة، ولكن أساسها القوة الأدبية. كان يقول "سأبشر. سأتكلم. سأكتب. ولكني لن أرغم أحدًا، لأن الإيمان اختياري. قد وقفت ضد البابا والبابويين، وقاومت بيع الغفران، ولكن في غير عنف ولا شغب. قدمت كلمة الله وبشرت وكتبت، هذا كل ما فعلت". وهكذا عند وصوله اعتلى المنبر، ورن صوته القوي مرة أخرى وسط الجماهير الهائجة، وفي سبعة أيام متتالية ألقى سبع مواعظ، يقول المؤرخ إنه "أعقبها أكمل وأتم نجاح، فتلاشى على الأثر كل مظهر من مظاهر التشويش والاضطراب، وعادت المدينة إلى هدوئها السابق، وفتحت الجامعة أبوبها واستؤنفت دراساتها المشروعة وأبحاثها الفكرية الحرة. أما كارلشتاد منشئ الثورة وزعيمها التعس، فقد رأى نفسه مغلوبًا على أمره أمام نابغة أعظم وأقوى منه، فانسحب بعد ذلك بقليل من ميدان خزيه وعاره". أما لوثر فكان ينفر بشدة من استعمال العنف، وقد عبر عن مبدئه الجميل بالقول "قبل أن تتمكن من إزالة آلات الوثنية كالصور والتماثيل، عليك أن تزيل الأضاليل من أذهان العابدين". وكان يؤمن أيمانًا قويًا مخلصًا بأن هذا يمكن تنفيذه بواسطة كلمة الله، التي يشتاق أن يُقدمها إلى أمته ومواطنيه بلسانهم القومي ولغتهم الخاصة.

لوثر والكتاب المقدس الألماني

بمجرد أن ساد السلام واستتب الأمن حوّل لوثر وجهه نحو غرضه الأفضل، وهو ترجمة العهد الجديد، وبعد أن انتهى من الترجمة وراجعها ملانكتون وتناولها بقلمه الأدق، نشرها في سبتمبر سنة ١٥٢٢م. وقد كان لظهور مثل هذه الترجمة في وقت كانت فيه أذهان جميع الناس في أشد حالات الهياج أعظم النتائج وأبلغها أثرًا، فانتشرت كما على أجنحة الريح من أقصى ألمانيا إلى أقصاها، وإلى ممالك أخرى كثيرة، ويصفها المؤرخ دوبينيٌ قائلاً "لقد كُتبت بنفس أسلوب الكتب المقدسة وبلغة لا تزال في قوة شبابها، وكأنها أرادت أن تظهر لأول مرة أجمل وأروع محاسنها. فكانت الترجمة مشوقة وجذابة ومحركة لكافة العقول من أدناها إلى أسماها". لا بل حتى المؤرخ البابوي ميمبورج يعترف بأن "ترجمة لوثر كانت قمة في رشاقة الأسلوب، وقد نالت الاستحسان بصفة عامة، حتى قرأها كل إنسان تقريبًا

في ألمانيا. ونساء من أرقى الطبقات وأشهرها كنّ يدرسن هذه الترجمة باهتمام وشغف ومثابرة شديدة، ويدافعن بقوة وعناد عن تعاليم المُصلح ضد الأساقفة والرهبان والمعلمين الكاثوليك". وبالاختصار صارت كتابًا قوميًا، فكان كتاب الشعب هو كتاب الله. وهذه الترجمة خدمت أكثر من كل كتابات لوثر في نشر وتوحيد التعاليم الإصلاحية. والآن أصبحت حركة الإصلاح على أساسها الصحيح الخاص، أساس كلمة الله الحية الباقية إلى الأبد.

وتدل الإحصائية الآتية على مبلغ نجاح وتقدم هذا العمل العظيم: "ظهرت الطبعة الثانية في شهر ديسمبر ١٥٢٢، ولم يأت عام ١٥٣٣م حتى كان قد طُبع في وتمبرج سبع عشرة طبعة، وفي أوجسبرج ثلاث عشر، وفي بازل اثنتي عشر، وواحدة في إرفورت، وواحدة في جريما، وواحدة في ليبزج، وثلاث عشر في ستراسبورج".

وفي الوقت نفسه كان لوثر يواصل إتمام عمله العظيم، وهو ترجمة العهد القديم، وبمساعدة ملانكتون وأصدقاء آخرين كانت تصدر أجزاء الكتاب تباعًا، حتى تم نشر العهد القديم كله عام ١٥٣٠م، وهنا تم عمل لوثر الأعظم. كان قبلاً هو يتكلم، أما الآن فالله نفسه هو الذي يُكلم قلوب وضمائر الناس. يا لـه من فكر سام وعجيب وخطير! شهادات الحق الإلهية تُقدم لأمة عظيمة كانت إلى الآن تهلك لعدم المعرفة، والكلمة الإلهية لم تعد سفرًا مختومًا تحت لسان أعجمي، وطريق السلام لم يبق غير معروف بسبب تقاليد الناس، وشهادة الله نفسه عن المسيح والخلاص تحررت من خرافات النظام البابوي.

تقدم حركة الإصلاح

إن هذه الحركة القوية التي وصلنا إليها لم تكن تعرف حدودًا أو غاية، فاليقظة في الإمبراطورية الألمانية، وإحياء الإنجيل والاهتمام المتزايد بحركة الإصلاح سرت بصفة عامة في جميع ممالك أوروبا، فالسويد والدانمرك وهولندا وسويسرا وبلجيكا وإيطاليا وأسبانيا وفرنسا والجزر البريطانية، كلها انجذبت مع تيار الثورة الدينية العُظمى، التي سرعان ما تغيرت صفتها، فلم تعد مسألة محلية أو حتى قضية قومية، بل أصبحت موضوع ذلك العهد ومسألته الكبرى. فوجدت كل حكومة أن حركة الإصلاح قد صارت جزءًا من برنامجها وسياستها سواء أرادت أو لم تُرد. وكانت دساتير أقدم الممالك تهتز بسبب هذا الكفاح الديني الجديد.

وكان الناس يروحون ويجيئون ولا حديث لهم سوى آخر الأخبار عن الأمور العجيبة التي كانت تسير على قدم وساق في كل مكان. فالبواخر كانت تصل إلى كل المواني، وتُفرغ في سرية طرود الترجمة الجديدة، وطرود النبذ ومواعظ المصلحين، وهكذا أصبح الاهتمام عامًا. ولكن لم يكن من المنتظر بطبيعة الحال أن الكنيسة القديمة ووراءها السلطة المدنية تقف مكتوفة الأيدي، وتسمح للأفكار الجديدة أن تنتشر في أحضانها دون أن تُجاهد للقضاء عليها. غير أنه كان هناك أُناس عقلاء مخلصون يرون الحاجة ماسة للإصلاح، وإذ لم يكن في استطاعتهم إخماد ما يدور بخلدهم أخذوا يكرزون بالمسيح بكل جسارة. وكم من قلوب صادقة وأمينة كانت تنبض في ذلك العهد، عهد الغربلة العصيب، تحت الرداء الرهباني، أُناس استطاعوا بشجاعة أن يكرزوا بالمسيح كغاية الناموس للبر لكل من يؤمن، وبأن الله وحده يستطيع أن يغفر الخطايا على أساس الإيمان بدم المسيح الثمين، أما الإكليروس فإذا رأوا أن مثل هذه التعاليم هادمة لسلطانهم وامتيازاتهم وكيانهم، رفعوا الصوت عاليًا وملأوا الأجواء صياحًا "هرطقة! هرطقة"، وانطلقت التحريمات الكنسية، تتبعها المراسيم الملكية، وانطلق الاضطهاد بقوة ضد الكارزين، وانتشرت المخاوف وعاد التعذيب، واشتعلت النيران. ومن ذلك الوقت بدأت قصص الاستشهاد المرجفة وحوادثها المريعة الدامية، والتعصب ينتصر إلى حين، والأتقياء يتألمون، ولكن حق الرب يسمو ويسود.

على أننا في الوقت الحاضر لا نستطيع التقدم والخوض في هذه المياه الهائجة المتلاطمة، بل قبل أن ندخل إلى العمق علينا أن نرجع قليلاً إلى ألمانيا، وهناك نشاهد قيام البروتستانتية التي أعطت اتجاهًا جديدًا لتاريخ البشر الروحي.

حركة الإصلاح وهنري الثامن

إن الانتشار السريع الذي صادفته ترجمة لوثر للعهد الجديد، والأثر الهائل الذي أحدثته في بيوت الشعب، أيقظ أشد المخاوف في قلوب البابويين. فقامت السلطات المدنية تحت تأثير رجال الدين وحرّمت نشر الكتاب المغضوب عليه، وكل من خالف ذلك كان يقع تحت طائلة أشد العقوبات. في ذلك الوقت قام واحد من أعظم ملوك المسيحية، ونصّب نفسه لمقاومة راهب وتمبرج الجريء. ذلك كان هنري الثامن ملك إنجلترا، الذي كان قد أعده

أبوه للانخراط في سلك الكنيسة، والآن رأى الفرصة سانحة لأن يُظهر موهبته، فكتب كتابًا عن السبعة أسرار ردًا على كتاب لوثر الذي عنوانه "الأسر البابلي" وهو الكتاب الذي أثار هياج البابويين أكثر من غيره من مؤلفات المصلح، فهل نعجب إذا كان البابا يدلل مثل هذا المدافع ويتملقه، فيُطلق عليه لقب "حامي الإيمان" الذي لا يزال أحد ألقاب التاج الإنجليزي؟ وقد كتب لوثر ردًا على هذا المهاجم الملكي لم يلتزم فيه جانب الاعتدال، بل حملته حدة طبعه لأن يستعمل أسلوبًا مهينًا كان الأفضل لو تجنبه.

وقرب انتهاء سنة ١٥٢١م حدث تغيير كبير في سياسة الفاتيكان بموت البابا ليو. لقد مات ليو الذي اشتهر بسيرته الفاضحة، لا لكي يدين فيما بعد بل لكي يُدان. لا لكي يرعد برعوده وبروقه ضد الهراطقة، بل لكي يُقاس هو نفسه بمقياس الحق الأزلي ويوزن بموازين الأقداس. مات منكرًا تعليم التبرير بالإيمان كشيء هادم لكل التزام أدبي، بينما هو وكرادلته المستهترون كانوا يبددون وقتهم وصحتهم في المسرات والبذخ، ويشجعون عروض الفسق باهظة التكاليف في الملاهي ودور التمثيل. وقد خلفه أدريان السادس، وهو رجل أفضل أخلاقيًا من ليو، ولكن ليس أقل منه مقاومة لحق الإنجيل.

الكنائس اللوثرية

عقب رجوع لوثر من فارتبورج، اجتمع مجلس ولايات الإمبراطورية في نورمبرج، وقام الأساقفة، الذين كانوا يكوّنون جزءًا كبيرًا من المجلس، يطلبون بإلحاح تنفيذ الحكم الذي كان قد صدر ضد رئيس الهراطقة، ولكن بعد مجادلات حادة ومناقشات طويلة بدون الوصول إلى نتيجة، تأجل المجلس إلى الخريف التالي.

وفي هذه الأثناء استمر لوثر يزاول عمله الخاص بلا كلل ولا ملل واعظًا وكاتبًا، رغمًا عن التحريم البابوي والمرسوم الإمبراطوري، كما استمر ملانكتون في تعاليمه وتفاسيره، حتى يمكن القول بحق عن هذه الفترة أن فيها كانت كلمة الله «تنمو وتتزايد». ورهبان كثيرون تركوا الأديرة وجالوا مبشرين بالإنجيل. ويشير لوثر في أحد خطاباته إلى صديقه سبلاتين إلى هروب تسع راهبات من الأديرة، ويذكر من بينهن كاترين فون بورا، التي صارت فيما بعد زوجة له. ومن ذلك الوقت بدأت أنواع من الخدمة تُمارس جديدًا في الكنائس التي كان يُطلق عليها اسم الكنائس اللوثرية، ولكن بغاية الحيطة والتمهل، فكرجل حكيم لم يرد لوثر أن يقتحم الأمور، بل أظهر صبرًا عظيمًا نحو أناس كانوا لا يزالون يزحفون ببطء من حظيرة النظام القديم إلى النظام الجديد. وبعد وقفته النبيلة في ورمز لا نعود نراه إلا قليلاً فيما يمكن أن نسميه ميدان الإصلاح الخارجي، فهناك في تلك المدينة شهد لله ولحقه شهادة لم يقم بمثلها في التاريخ إلا رجال قليلون، لا بل إننا نلمح في وقفته المشرفة في تلك الآونة عظمةً وسموًا أدبيًا لا مثيل لهما في كل تاريخه. بعد تلك اللحظة بدأ مجد حركة الإصلاح الأدبي الصحيح ينحط تدريجيًا، إذ دخل العنصر السياسي في الموضوع وأصبح هو الغالب، وصارت حماية الكنائس المُصلحة في يد القوى السياسية، وذلك كان الفشل المُحزن الذي أصاب الحركة في نشأتها. على أننا سنرى ذلك بأكثر وضوح عندما نتأمل في الرسالة إلى كنيسة ساردس.

أما البابا الجديد أدريان السادس فقد بدأ يولي وجهه نحو مسألة لوثر وإعادة السلام في الكنيسة، فراح يُصرح بأنه يأسف للفضائح العظيمة التي تلطخ بها الكرسي البابوي في عهد سلفه، وعزم على اتباع سياسة أخرى. وفي يوم ٢٥ نوفمبر عام ١٥٢٢م ألقى خطابًا في مجمع الإمبراطورية المنعقد في نورمبرج أعلن فيه استفظاعه لما هو حادث في الكنيسة بسبب اعوجاج شخص هرطقي، لم يستطع توبيخ ليو الأبوي ولا حكمه القاضي بالإدانة والمؤيد بمرسوم ورمز أن يسكته أو يرجعه عن مسلكه، واستعطف الملوك والأمراء أن يلجأوا إلى السيف، مُذكرًا إياهم كيف أن الله عاقب داثان وأبيرام لمقاومتهم رئيس الكهنة، وأعاد إلى أذهانهم ذلك المثل النبيل الذي تركه أجدادهم الأتقياء، الذين استطاعوا بوسيلة غاية في العدل أن ينقذوا العالم من الهراطقة هس وجيروم، اللذين كانا في تلك اللحظة يعيشان مرة أخرى في شخص لوثر.

المظالم المائة

قام الحزب البابوي عن بكرة أبيه يصرخ طالبًا الانتقام من لوثر، ولكن جماعة الأمراء رأت في الوقت نفسه أن الوقت قد حان لأن ينفضوا عن كواهلهم نير عبودية روما، الذي كانوا يئنون تحته منذ أمد مديد، والذي طالما تظلموا منه ولكن بلا طائل.

فأجمعوا كلمتهم على القيام بعمل حاسم للتخلص من هذا النير الثقيل، وقد كان. ففي أثناء دفاعهم عن تعاليم حركة الإصلاح وضعوا "المظالم المائة" ذات الشهرة العظيمة في تاريخ ألمانيا.

والآن أصبح الفرق بين العنصر الديني والعنصر المدني في حركة الإصلاح ظاهرًا ومحددًا، ولو أن العنصرين كانا يعملان معًا على إسقاط وإذلال الطاغية المشترك. فلم تعد المسألة فيما بعد قاصرة على الراهب العنيد الأعزل مواجهًا بقوة الله جليات البابوية، ولا على انتصارات ورمز السلمية، بل تغير وجه القضية فأصبحت نزاعًا سياسيًا حادًا ونزاعات حربية عسكرية. ويبدو مع الأسف أن نور حق الله المرتبط بحركة الإصلاح وقف إشراقه في تلك الفترة من تاريخها، فإننا لا نستطيع أن نعثر على أي تقدم في إدراك الحق بين المصلحين منذ الوقت الذي فيه تقدم الأمراء لتعضيد حركة الإصلاح بالسيف. ومع أن لوثر كان رجلاً على جانب عظيم من الإيمان الحقيقي الصحيح، إلا أنه لم ينتبه إلى الأثر السيئ الذي ينتج من تدخل الأمراء لأجل أغراضهم الشخصية وغاياتهم الذاتية، الأمر الذي كان وصمة روحية في جبين نتائج وانتصارات الإيمان.

ولسنا في حاجة لسرد قائمة "المظالم" هنا، بل يكفي أن نقول أن غالبيتها كانت تتعلق بأمور دينية ومساوئ كنسية، كانت تئن تحتها جميع الممالك الأخرى، كالضرائب الفادحة ورسوم العشور التي كانت تُفرض باستمرار لدواعي كاذبة، واقتحام الكرادلة لأسمى الوظائف، وجهل الرعاة المحليين وعدم كفايتهم للقيام بأعمالهم، وكثرة الأعياد لدرجة مرهقة، وانتشار بيع التحليلات وصكوك الغفران لدرجة مفرطة. وجشع رجال الإكليروس وابتزازهم أموال الناس عند عمل القداديس. وبالاختصار جميع مظاهر الفساد السائدة في الشئون الدينية، وانحطاط السيرة والحالة الأدبية العامة بين الهيئة الإكليريكية. وفي هذا يقول وادنجتن "بينما غرض الأمراء لم يكن يتجاوز إصلاح شكل الكنيسة خارجيًا، كان غرض لوثر التجديد بغض النظر عما يُصيب الكنيسة الاسمية، إلا أن اختلاف وجهة نظر الطرفين لم يكن يشعر به أحدهما في بادئ الأمر، نظرًا لحماسهما المتدفق واشتراكهما في مقت البابوية، ومعالجتهما لقضية مشتركة إلى حد ما". ومع ذلك فيمكننا القول بأن النتائج كانت وخيمة فيما يتعلق بانتشار النور وتقدم الحق(٢/١٧).

حوادث مضادة لحركة الإصلاح

بينما كانت حركة الإصلاح تنمو وتتقوى بفضل مجهودات لوثر وتنتشر في كل أنحاء أوروبا، ظهرت عدة شرور كان من شأنها تعطيل تقدمها وإلصاق العار بها.

ففي خريف سنة ١٥٢٤ قام فلاحو ألمانيا بثورة هائلة ضد الطغاة الدينيين، بسبب ما كانوا يعانونه من استنزاف النظام البابوي لهم وضرائبه التي لا تقف عند حد، فبجانب عيشة الترف والبذخ التي كان يعيشها رجال الهيئة الدينية العليا، كان على الفلاحين أيضًا أن يعولوا جيشًا من رجال الإكليروس الأصاغر.

ولكن ذلك لم يكن الكل، فطوائف أخرى من الرهبان كانت دائمة الظهور، كما أن جماعة الشحاذين القدماء انتشرت من جديد كالجراد حتى غطت وجه المملكة بأجمعها، والتهمت بشراهة وبغير رادع مؤونة الأهلين. ولطالما قامت في الماضي حركات تذمر وثورات جزئية، ولكن الانتفاضة الأخيرة العامة كان نذير ثورة شاملة تمتد إلى جميع أنحاء الدولة، فجميع مقاطعات ألمانيا العليا تقريبًا كانت في حالة عصيان وثورة، وقد هجموا بغتة وبغير إنذار على البيوتات الدينية، ونهبوا الأديرة وحطموا الصور والتماثيل، وارتكبوا فظائع أخرى متطرفة. وكما كانت العادة في تلك الأيام، كان الأشراف الروحيون والفرير المنتشرون في البلاد كالجراد هم السبب في هذه الثورة، فكانوا أول من وجه إليهم الثوار سيل حنقهم وغضبهم.

وقد كانت غالبية الجماهير الهائجة تتكون من الفلاحين، حتى أطلق على هذه الكارثة في التاريخ اسم "حرب الفلاحين". وقد كانت الحركة في بادئ الأمر مدنية محضة، إذ أن كل ما كانوا يصبوا إليه هؤلاء الفلاحون المساكين هو أن يعتقوا قليلاً من الأحمال المفروضة عليهم، وأن يُعطى لهم قدر أكبر من الحرية. ولكن لم تلبث الحركة أن انضم إليها جماعة من المتعصبين المتطرفين، وحولوها إلى حرب دينية مقدسة. وقد عصفت العاصفة بشدة وقتًا ما، ولكنها انتهت كالمعتاد باندحار الثوار وقتلهم، وفي الموقعة المنحوسة بين الفلاحين وجيش الأمراء الألمانيين في مُلهوزن عام ١٥٢٥م أُخذ توماس مُنتزر، زعيمهم الأكبر أسيرًا وأُعدم علانية، وقد حاول البابويون طبعًا وأعداء الإصلاح استغلال هذه الثورات

الوحشية وإلصاقها بلوثر وتعاليمه، ولكن محاولتهم كانت بغير أساس مطلقًا، لأن هذه الحركات لم تكن لها علاقة بأتباعه، ولم تأت قط كنتيجة مباشرة لتعاليمه وكتاباته.

الأنابابتست

بعد موت منتزر وإبادة أو تشتيت الفلاحين، قامت جماعة أخرى تعرف عادة باسم الأنابابتست (أي منكري المعمودية الأولى)، لأنهم كانوا يعمدون جميع أتباعهم بعد أن يصيروا مسيحيين. وقد كانت هذه الجماعة مصدر متاعب كثيرة للمصلحين، تمامًا كما كان الغنوسيين للآباء الأولين، لأن أفرادها لم يكونوا إلا متطرفين. فزعماؤهم كانوا يدّعون بموهبة الوحي، وأن لهم امتياز الاتصال المباشر والتعامل مع الذات الإلهية، وكان اتباعهم يصدقونهم. فكانت لهم رؤاهم وأحلامهم وإعلاناتهم المتعلقة بالماضي والمستقبل، وتزايد عددهم بسرعة كبيرة، واصبحوا في كل مكان يتابعون حركة الإصلاح ويسيرون في ركابها. وكان صراخ هذه الجماعة في كل مكان أنه "لا جزية ولا عشور ولا قضاة، وأن كل شيء مشترك. وأن مملكة المسيح على الأبواب، وأن معمودية الأطفال هي خدعة من واختراع من الشيطان". ولا شك أنهم أمرُّوا روح لوثر، لأنهم كانوا في كل مكان ينادون بأنهم المصلحون الحقيقيون. وقد كتب عنهم يقول "إن الشيطان يزمجر، وطائفة الأنابابتست الجديدة تزداد عددًا، وأفرادها يُظهرون مسحة التدقيق في السلوك والجرأة العظيمة في الموت، فلا يبالون أن كانوا يتعذبون بالنار أو الماء".

وفي بحر سنتين انتشر هؤلاء المتعصبون انتشارًا كبيرًا في سيلسيا وبافاريا وسوابيا وسويسرا. ولكن لما كانت بعض مبادئهم خطرة على نظام الهيئة الاجتماعية ومن شأنها الإخلال بالأمن، صدرت مراسيم سياسية ضدهم. وعلى أثر ذلك ابتدأ الاضطهاد يلحقهم. وبما أن المصلحين السكسونيين والسويسريين كانوا يقاومونهم، فقد ساعد ذلك على توقيع أشد العقوبات عليهم بواسطة السلطات المدنية. ولكنهم تحملوا الآلام والاضطهاد بعزيمة لا تلين فلا السيف ولا النار ولا المشنقة كانت لترجعهم أو تُخيفهم. على أنه على أثر القبض على زعمائهم وإعدامهم في مونستر عام ١٥٢٦م يبدو أن الطائفة تشتت وتلاشت.

مسألة الاستحالة

في السنة التي ظهرت فيها جماعة الأنابابتست ١٥٢٤م قامت مجادلة عنيفة وطويلة بين الخارجين من كنيسة روما حول كيفية حضور جسد المسيح ودمه في العشاء المقدس. فلوثر وأتباعه، بينما كانوا يرفضون عقيدة البابوية المغلوطة في الاستحالة، أي أن الخبز والخمر بعد التقديس يتغيران ويتحولان إلى جسد المسيح ودمه، كانوا في الوقت نفسه يعتقدون بأن كل من يتقدم إلى العشاء المقدس يشترك حقيقة في جسد المسيح ودمه كما يشترك في الخبز والخمر. أما زونجلي المصلح السويسري وأتباعه فكانوا أبسط من ذلك في عقيدتهم، لأنهم كانوا قد تخلصوا نهائيًا من تقاليد روما، فكانوا يعتقدون أن جسد المسيح ودمه ليسا حاضرين في العشاء المقدس، وما الخبز والخمر إلا علامتين أو رمزين يقودان الشعب لأن يتذكروا موت المسيح والبركات الغنية الناشئة عنه.

وبما أن جميع اللاهوتيين في سويسرا تقريبًا، وعددًا لا يُستهان به في ألمانيا العليا كانوا يشاطرون زونجلي رأيه ويتبعون تعليمه، ولوثر وأصدقاؤه كانوا يتمسكون ويدافعون بشدة عن عقيدتهم، نتج عن ذلك انقسام كبير بين أصدقاء حركة الإصلاح الحقيقيين. وقد استغل البابويون هذا الانقسام وعملوا بمهارة ومكر على توسيع شقة الخلاف بكافة الطرق والأساليب. وسنقرأ أكثر فيما بعد عن هذا الموضوع. أما الآن فلنتأمل في:

زعماء حركة الإصلاح السياسيون

إن حالة الهياج التي كانت تسود أمم أوروبا في ذلك العهد، والحروب المتكررة بين شارل الخامس وفرانسيس الأول، والتهديد من جانب الأتراك، كانت كلها أمورًا حيرت الإمبراطور وشغلت باله، حتى أنه استمر عدة سنين لا يوجه انتباهًا كبيرًا لشئون ألمانيا ومصالحها، وخاصة للموضوع المعقد الخطير، ألا وهو موضوع الهرطقة الجديدة، وفي هذه الظروف كلها كانت يد الرب ظاهرة بصورة بارزة. فبينما كان شارل يوجه كل اهتمامه وانتباهه إلى شئون فرنسا وأسبانيا وإيطاليا، كان لوثر وأتباعه بكتاباتهم ومحاضراتهم ومواعظهم ينشرون الحق في كل مكان، ويعمقون أصوله في قلوب الشعب، كما أن الزعماء السياسيين،

أو بعبارة أخرى الأمراء الإنجيليين، كانوا يتقربون بعضهم لبعض في سبيل الدفاع عن إيمانهم وحريتهم السياسية.

أما البابا الغادر كليمنت السادس وسفيره الماكر كامبجيو، فقد صمما على تنفيذ قرارات مجلس ورمز بالقوة، والقضاء على هرطقة لوثر قضاءً مبرمًا، ولكن لم يكن هذا في الإمكان بدون تعاون من القوى الحاكمة. على أن ظروفًا مختلفة اجتمعت في ذلك الوقت، وكأنها كانت تتعاون على دعم سياسة الفاتيكان، وتهدد بالقضاء على حركة الإصلاح الوليدة في مهدها. ولكن الله فوق الكل. «قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معًا على الرب وعلى مسيحه قائلين: لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما. الساكن في السماوات يضحك. الرب يستهزئ بهم» (مز ٢: ٢-٤)، فسيف الإمبراطور الذي استُل لذبح المصلحين تحول بخيانة البابا ضد روما نفسها. وهاك ما حصل:

وفي موقعة بافيا سنة ١٥٢٦م هزم شارل الخامس فرنسيس الأول وأخذه أسيرًا، فلما رأى البابا أن ملك فرنسا المهزوم لم يُصبح فيما بعد ذا فائدة له، حول صداقته في الحال نحو قاهره، وعقد تحالفًا مع الإمبراطور وملك إنجلترا والأرشيدوق فردناند، وقد نصت المادة الرئيسية في تلك المعاهدة على ما يأتي: "إن المتعاهدين جميعًا يوحدون قواتهم ويسيرون بجيوشهم ضد مقلقي الديانة الكاثوليكية ومهيني البابا، وينتقمون من كل عصيان على كرسي روما". وبحيلة الشيطان ومكره سادت نفس هذه الروح في المفاوضات الأخرى التي كانت تدور بين الممالك الكبرى في تلك الآونة، فمعاهدة مدريد التي أعادت فرنسيس إلى عرشه فرضت عليه أن ينضم إلى التحالف، وبذلك أصبح أقوى ملوك أوروبا الثلاثة متحالفين مع البابا لغرض صريح، وهو تنفيذ قرارات ورمز، وسحق الهيئة اللوثرية بالنار والحديد.

مؤتمر سبيرز الأول

كان الغرض من مؤتمر سبيرز الذي إنعقد في يونيو ١٥٢٦م هو أن يضرب الضربة القاضية. وقد ترأسه فرديناند شقيق الإمبراطور، واستهلت جلساته بقراءة الرسالة الإمبراطورية المعتادة، وهي تنص على إيقاف جميع المجادلات الدينية وحفظ عادات الكنيسة حفظًا تامًا، وتنفيذ مرسوم ورمز تنفيذًا عاجلاً، وإبادة اللوثريين بالقوة. وهنا تقارب أمراء ألمانيا بعضهم إلى بعض، ليس فقط لأنهم كانوا يرمون إلى غرض مشترك، بل بدافع الشعور بالخطر الذي كان يهددهم جميعًا، وقد كان زعماؤهم يوحنا منتخب سكسونيًا، وفيليب أمير هيس وأرشيدوق بروسيا، وجورج وكازيمير أميرا براندنبرج، والمنتخب بلانين وأمراء لُننبرج وبوميرانيا ومكلنبرج وأنهات وهنبرج. هؤلاء اجتمعوا في مؤتمر وأصدروا القرار الآتي:

"إنهم يبذلون قصارى جهدهم لتقدم مجد الله، ويتمسكون بالتعاليم التي تتفق مع كلمته، ويتقدمون لجلاله بالشكر، لأنه أحيا في عهدهم تعليم التبرير بالإيمان، الذي ظل زمانًا طويلاً مدفونًا تحت أكوام من الخرافات، وأنهم لن يسمحوا بإطفاء الحق الذي أعلنه الله لهم هكذا أخيرًا".

هذا هو القرار العذراوي الذي أصدره الأمراء، وهو أبسط وأطهر ما أصدروه في كل حياتهم، فليس فيه شيء سياسي أو اجتماعي أو مالي، وقد جاء هذا العزم من جانب الحزب الإنجيلي ورفضهم إطاعة المرسوم الإمبراطوري صدمة مُدهشة للبابويين. على أن صوتًا من ذاك الذي هو فوق الكل وضع حدًا سريعًا لمناقشات هذا المجلس. ذلك أن رسلاً جاءوا من عند ملك هنغاريا يصورون الكوارث التي حاقت بتلك المملكة، والخطر الداهم الذي يهدد كل أوروبا من جراء غارات الأتراك وانتصاراتهم المتوالية، فحوّل فرديناند نظره عن مسألة لوثر، وأسرع راجعًا إلى ممتلكاته الواقعة في طريق الأتراك.

وما أحدثته جيوش سليمان المنتصرة في نفس فرديناند أحدثته خيانة كليمنت عند شارل، فلم يكد فرنسيس الأول ينجو من أسره، حتى قام البابا مدفوعًا بالخوف من سطوة شارل في إيطاليا، وعقد تحالفًا مع الفرنسيين ودوق ميلانو وفينيسيا ضد شارل، وأعفى فرنسيس من قسمه وأباح له كسر معاهدة مدريد والخروج عليها. وقد أثار هذا التصرف غضب الإمبراطور وحنقه، لدرجة أنه ألغى السيادة البابوية إلغاء كاملاً في كل أسبانيا، وشن الحرب على البابا في إيطاليا، ووقعت روما في أيدي جيوشه الألمانية والأسبانية، وصارت المدينة مسرحًا داميًا لمشاهد الفساد والنهب والتخريب، حتى أن البابا نفسه عُومل شخصيًا معاملة مهينة ومذلة. والواقع أنه ليس في التاريخ سوى صفحات نادرة فيها ظهرت يد

العناية والمجازاة الإلهية مثل ظهورها في هذه الحادثة.

وفي وسط هذه الاضطرابات والارتباكات صدر من المجلس قرار، برهن في النهاية على أنه كان في صالح المُصلحين. وهذا القرار هو "أن يقدم التماس للإمبراطور فيه يطلب الموقعون عليه ضرورة عقد مجلس حر بصفة مستعجلة، وإعطاء الحرية في الوقت نفسه لكل واحد لترتيب شئون مملكته الدينية حسب ما يراه صالحًا، مع مراعاة المسئولية أمام الله والإمبراطور".

وبمجرد أن عاد الأمراء والمصلحون إلى أوطانهم عكفوا باجتهاد على استخدام هذه الفرصة لتقوية قضية الإصلاح ونشرها، فأحدثوا تغييرات هامة في شكل العبادة وفي اللوائح الخاصة بتصريف شئونهم الدينية، وقضوا على الكثير من الخرافات الأثرية القديمة، وبدأ الأمراء والشعب يحددون موقفهم شيئًا فشيئًا تجاه حركة الإصلاح، بحيث يمكن القول بأن أساس انقسام الدول فيما بعد إلى كاثوليكية وبروتستانتية وُضع في تاريخ حركة الإصلاح ما بين سنتي ١٥٢٦ و١٥٢٩م.

مؤتمر سبيرز الثاني

في ربيع سنة ١٥٢٩م عقد الإمبراطور مجمع سبيرز الثاني، الذي حضره مندوبون عن جميع دول الإمبراطورية. ويقول المؤرخ "لقد استجمع مندوبو الحزب البابوي كل قوتهم، وظهروا بمظهر من يتأهب للحرب والنزال. ولم يحدث في التاريخ قط أن اجتمع في مناسبة ما مثل هذا العدد الغفير من الشخصيات الروحية الكبيرة، وقد دل هؤلاء أكثر من غيرهم بملامح التهديد ونظرات عيونهم الحادة على ما كانوا يخفونه من مؤامرات وحقد وضغينة، حتى أن بعض الأمراء الذين كانوا إلى هذه اللحظة محايدين، أو ربما كانوا مشايعين لحركة الإصلاح أعلنوا الآن وقوفهم ضدها. وقد جاء آخرون يحوطهم حرس كبير من الفرسان، وهو يتميزون غيظًا وتهديدًا. وبالاختصار لم تكن النية منعقدة على أقل من سحق الهرطقة وإبادتها نهائيًا بالسيف".

وقد جاءت الخُطبة الإمبراطورية تنفث نفس الحمم في عبارات كلها تهديد واستبداد، فشكا الإمبراطور من التغييرات الحاصلة في الدين، ومن عدم الاحترام لسلطانه بصفته رئيس العالم المسيحي، وأنه لا بد من احترام مراسيمه وإطاعتها إطاعة مطلقة. وقال إن المستحدثات الدينية التي حرمها لا تزال في ازدياد يومًا فيومًا بحجة المرسوم الذي أصدره مجمع سبيرز الأول عام ١٥٢٦م، وهو المرسوم الذي استنكره وأبطله كشيء متعارض تمامًا مع أوامره.

هذه الرسالة من الإمبراطور أساءت أمراء ألمانيا وجرحت كرامتهم جرحًا بليغًا، لأنها مست امتيازاتهم واستقلالهم في الصميم. أما الأمراء الإنجيليون ومندوبو المدن الحرة فقد وقفوا موقفًا حازمًا عادلاً، إذ قرروا أن مرسوم سبيرز صدر طبقًا للرسميات المعتادة، وأن مندوبي الإمبراطور قد وقعوا عليه باسمه، وأنه قانون شرعي معبر عن رأي الجمهورية بأجمعها، وليس من حق الإمبراطور أن يلغيه.

الاحتجاج

إن المناقشات التي تبودلت حول هذا الموضوع طويلة وحادة في أغلب تفاصيلها، فالكاثوليك كان يمثلهم أقوى وأمهر خطبائهم أمثال إك المشهور، وقد زادوا الآن على صرخاتهم التي طالما كرروها في الماضي من جهة تنفيذ مرسوم ورمز صرخة جديدة أخرى وهي إلغاء مرسوم سبيرز، ولكن المصلحين كانوا ثابتين ومتحدين، وكانوا في حججهم أقوياء ومحقين. وأخيرًا وقف فرديناند الذي كان يترأس المجلس، وطلب في لهجة الآمر الناهي خضوع الأمراء الألمانيين بلا قيد ولا شرط لقرار المجلس. وهنا احتج المصلحون. كان ذلك في ١٩ أبريل عام ١٥٢٩م. ولما لم يعُر البابويون هذا الاحتجاج الشفهي أي اهتمام، قدم المصلحون في اليوم التالي احتجاجًا كتابيًا مطولاً، مستأنفين للإمبراطور ولمجمع آخر يعقد مستقبلاً، ومن هنا صار المصلحون يعرفون باسم البروتستانت، أي المحتجين. هذا هو أصل اللقب الذي يُطلق على جميع الكنائس والطوائف العديدة التي تحتج من حيث المبدأ ضد تعاليم وطقوس ومراسيم كنيسة روما.

هذا الاحتجاج النبيل، الذي لا شك حَير الحزب البابوي بما ينطوي عليه من حزم وعدالة. وقع عليه يوحنا منتخب سكسونيا وفيليب أمير هيس وجورج أمير برادنبرج وإرنست وفرنسيس من لُننبرج وولفانج أوف أنهالت، مع أربع عشرة مدينة من المدن الإمبراطورية الحرة، ولكن لم يكن على الاحتجاج أية توقيعات

من رجال الدين أو معلمي اللاهوت أو أساتذة الجامعة، وكأن حركة الإصلاح العظيمة، أو بالحري الثورة الدينية، قد انتقلت إلى أيدي رؤساء هذا العالم، فلم يكن لوثر في مجمع سبيرز كما كان في مجمع ورمز، ومع ذلك فقد كان هو وأصدقاؤه لا يزالون عاكفين على دراساتهم، مجاهدين من فوق منابرهم، وعاملين وسط جامعاتهم على نشر كلمة الله وانتصارات إنجيل نعمته، كل ذلك بطريقة سلمية هادئة. والرب يعرف كيف يُقدّر ويكافئ أتعاب خدامه «إذًا لا تحكموا في شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب، الذي سينير خفايا الظلام ويُظهر آراء القلوب، وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله» (اكو ٤: ٥).

وهنا كأن المسيحية البابوية أصيبت بجرحها المميت. فحكم إيزابل وسلطانها المطلق قد صدر عليه الحكم باعتباره شرًا لا يُحتمل وطغيانًا لا يطاق، والعقل التيوتوني الذي لم يتنازل يومًا من الأيام عن استقلاله الفطري بدأ الآن ينفض عن نفسه نير روما. وهنا ينتهي دور ثياتيرا تاريخيًا، ويبدأ الدور البروتستانتي المشار إليه في رسائل ساردس وفيلادلفيا ولاودكية، ولو أن الأربعة يسيرون معًا إلى النهاية، إلى اللحظة التي فيها يأتي الرب ويخطف كل مسيحي بالحق في جميع الطوائف والنظم المسيحية لملاقاته في الهواء، والظهور معه في الوقت المُعين في مجد مستعلن، وحينئذ تحل الدينونة الإلهية على نظام مرتد ناضج للقضاء.

الفصل السادس والثلاثون

البروتستانتية

إن الاحتجاج - أو البروتست - الذي قدمه المصلحون في مؤتمر سبيرز الثاني عام ١٥٢٩م يفتتح عهدًا جديدًا في تاريخ حركة الإصلاح والكنيسة. على أنه يجب أن نتذكر في الوقت نفسه أن البروتستانتية ليست شيئًا مستحدثًا، وأن أسبقية الديانة الرومانية الكاثوليكية ليست إلا إحدى افتخارات مروجيها الباطلة، الذين يدعون بأن البابوية هي بنت القدم، بينما البروتستانتية هي بنت البارحة - بنت لوثر وكلفن. صحيح أن اللقب كما جرى به العرف في القرن السادس عشر كان شيئًا مستحدثًا، ولكن المبدأ الذي كانت تناضل البروتستانتية من أجله لم يكن شيئًا جديدًا، بل هو حق الله وسلطانه على الضمائر، ومن هذا الوجه يرجع تاريخ البروتستانتية إلى تاريخ المسيحية نفسها، فقد كانت موجودة من عهد قسطنطين إلى القرن السادس عشر، ولو تحت أكداس من الأضاليل وأكوام من الخرافات التي كانت تتزايد وتتراكم على مدى الزمن.

ولكن في خلال هذه الحقبة القاحلة المظلمة كان هناك على الدوام بروتستانت كثيرون، وكان لا بد أن سيادة الاستبداد والضلال، مع وجود الأمناء وحق الله، تنتج في النهاية مبادئ البروتستانتية. فبجانب البولسيين والنسطوريين والأرمن في الشرق، كان الولدانسيون والألبينيون والويكليفيون والبوهيميون في الغرب، إلى جانب آخرين تميزوا بأسماء مختلفة، أمثال الكتاري والليونيين وغيرهم، ولكن جميعهم فروع من شجرة نبيلة واحدة، هي شجرة الشهادة للمسيح وإنجيله. ولئن اختلفت أسماؤهم فقد كانوا جميعًا من أصل واحد، ولهم إيمان مشترك واحد.

أما البروتستانتية التي هي الآن موضوع تأملنا فنبتدأ تاريخيًا من مجلس سبيرز الثاني عام ١٥٢٩م. هناك بدأت كيانها التاريخي لأول مرة، ولكنها سرعان ما تجسمت في دستور ألمانيا الوطني، ووقفت مسلحة ومستعدة للدفاع إن دعت الضرورة عن الدين والحرية. هذه كانت البروتستانتية في شكلها السياسي، التي - ويا للأسف - لم تكن لتتمشى مع روح المسيحية أو كنيسة الله جسد المسيح.

ولكن علينا هنا أن نقف قليلاً ونتأمل في خطاب الرب لكنيسة ساردس، فبداية الحقبة البروتستانتية في المسيحية هو الوقت المناسب للتأمل فيه، فهناك نرى الصورة، لا كما يصورها قلم المؤرخ المتحيز أو المتحزب، بل قلم الرب نفسه. هذا أمر خطير وجليل للغاية، وقيمته لا يُعبر عنها. فيا ليته يُعطينا أن نرى فكره في هذا الموضوع العظيم.

الخطاب لكنيسة ساردس

«وأكتب إلى ملاك الكنيسة التي في ساردس، هذا يقوله الذي له سبعة أرواح الله والسبعة الكواكب: أنا عارف أعمالك أن لك اسمًا أنك حي وأنت ميت. كن ساهرًا وشدد ما بقيَ الذي هو عتيد أن يموت، لأني لم أجد أعمالك كاملة أمام الله. فاذكر كيف أخذت وسمعت، واحفظ وتب، فإني إن لم تسهر أقدم عليك كلص، ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك. عنك أسماء قليلة في ساردس لم يُنجسوا ثيابهم، فسيمشون معي في ثياب بيض لأنهم مستحقون. من يغلب فذلك سيلبس ثيابًا بيضًا ولن أمحو اسمه من سفر الحياة وسأعترف باسمه أمام أبي وأمام ملائكته. من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس» (رؤ ٣:١-٦).

قد رأينا الحالة العامة كما كانت في العصور المظلمة، والآلات البابوية التي كانت تعمل في تلك العصور. والآن نتأمل في فترة من تاريخ الكنيسة تختلف عن سابقتها تمام الاختلاف، وفي ظروف جديدة

هي نتيجة حركة الإصلاح العظيمة. لا شك أن كثيرًا من العناصر الأدبية التي تميزت بها العصور السابقة نراها لا تزال في ساردس، ولكن لهذه الفترة الأخيرة صفات خاصة وبارزة بشكل واضح، بحيث تجعلها عصرًا جديدًا متميزًا في التاريخ الكنسي والمدني.

إن الأربع الكنائس الأولى التي سبق وتأملنا فيها تصف لنا الحالة كما كانت قبل الإصلاح، بينما الثلاث كنائس الأخيرة تصور لنا بصفة عامة حالة المسيحية الاسمية بعد أيام لوثر. ولكن علينا أن نميز بدقة بين عمل روح الله الأكيد بواسطة المصلحين، وبين صورة الرسميات الميتة التي سرعان ما دخلت في الكنائس المصلحة واللوثرية، والتي تتشابه تمامًا وبكل وضوح مع الحالة المحزنة الموصوفة في الرسالة الى ساردس. فسرعان ما ذاقوا طعم الحرية وبركات الخلاص من ظلم روما وطغيانها حتى سقطوا في حالة العبودية للحكومات الأرضية، ووضعوا أعناقهم تحت نير السلطات الزمنية، وبالتبعية وقعوا في حالة موت روحي. والرب يسوع يُشير إشارة مؤثرة إلى هذه الحالة في خطابه «أنا عارف أعمالك أن لك اسمًا أنك حي وأنت ميت» هذه هي حالة ما يُعرف بالبروتستانتية بعد أيام المصلحين الأوائل. طبعًا المسيحيون الحقيقيون ليسوا أمواتًا، بل هم أحياء وحياتهم «مستترة مع المسيح في الله»، ولكن الأنظمة التي هم فيها هي التي يُعلن عنها الرب هنا أنها بلا حياة، بل فقط صورة خارجية صحيحة، واسم بأنه حي، وروح البابوية النجس مطرود، وبيت مكنوس ومرتب. هذه هي مميزات البروتستانتية، ولكن - ويا لها من كلمة رهيبة من فم الرب - «أنت ميت» تصف الحالة الحقيقية كما يراه هو. فإن أنظمة جميع كنائس العالم المسيحي الوطنية، وكافة الطوائف الاسمية المنشقة، تأتي تحت وصف هذه الكلمة الرهيبة «ميت». أما الحقيقة فقد ذهبت وولت.

ولكن نظرة إلى محتويات الرسالة إلى ساردس كفيلة بأن ترينا بأكثر وضوح تقويم الرب لجميع الأنظمة البروتستانتية التي تحيط بنا.

أولاً: كما هو المعتاد في هذه الرسائل نرى الصفة التي يتخذها الرب تتناسب تناسبًا إلهيًا مع حالة أولئك الذين يخاطبهم «هذا يقوله الذي له سبعة أرواح الله والسبعة الكواكب». وهنا يُقدم الرب نفسه في صورة يراه فيها الإيمان كمن له ملء الروح القدس والحق المطلق في السيادة والسلطان، لأن العدد ٧ هو عدد الكمال. وهذا الملء الذي هو في المسيح وتحت سلطانه وتصرفه من حيث البركات الروحية يستمر هو هو لا يتغير، بغض النظر عن فشل الكنيسة وخرابها الخارجي، حتى أن الطوائف كجماعات والمسيحيين كأفراد ليس لهم أي عذر إذا اتجهوا في طلب المعونة إلى مصادر بشرية.

ولكن ويا للأسف هذا كان نفس الشرك الذي وقع فيه المصلحون، وهذا عين ما حصل. وبما أننا لا نزال نرى آثار هذه الخطأ حولنا، فإننا نصنع حسنًا إن فحصنا الأمر جيدًا بالتدقيق.

ثانيًا: هذان الأمران - الروحي والكنسي - اللذان نراهما هنا متحدين في شخص المسيح، قد فصل المصلحون بينهما. وهذه كانت غلطة الإصلاح الكبرى. ويظهر أن المصلحين لم يروا أو يدركوا هذا الحق بتاتًا، فإن رغبتهم الشديدة في التخلص من تهديد سلطان البابا وأعوانه الأمراء الكاثوليك قادتهم لأن يضعوا أنفسهم تحت حماية الأمراء البروتستانت. وهذه كانت نقطة فشلهم، حتى أننا من مجمع سبيرز الأول عام ١٥٢٦م نكاد لا نرى لهم ذكرًا في التاريخ. إنهم نسوا ذلك الحق العظيم، وهو أن قوة الكنيسة وكل ما تحتاجه من دعم إنما هو مذخر ومتركز في رأسها المجيد، وإنه لا طغيان روما ولا ضعف المصلحين القلائل يُقلل بأي حال من هذه الحقيقة المباركة. قال واحد "مهما كان فشل الكنيسة ومهما كان تحالفها مع العالم، فإن الحقيقة تبقى هي هي لا تتغير، وهي أن ملء كفاية الروح القدس في مواهبه المختلفة هو نصيبها برعاية ورئاسة رأس الكنسية، الذي يعتني بها ويحبها ويسهر عليها"[٦٩]. وهو الذي له السبعة الكواكب، ولا يُقال هنا كما في الخطاب لكنيسة أفسس «الممسك السبعة الكواكب في يمينه» إلا أن الرب المبارك لم يتخلَّ عنها. حاشاه أن يفعل هذا مطلقًا، فهي لا تزال تحت يده، إن جاز لنا هذا التعبير، وإن كانت ليست في يده «هذا يقوله الذي له السبعة الكواكب».

على أنه قد يكون من الضروري أن نقول كلمات قليلة في تفسير معنى الكواكب، قبل أن نتقدم إلى ما هو أبعد من ذلك.

«السبعة الكواكب هي ملائكة السبع الكنائس» معلوم أن الكواكب في الكتاب المقدس ترمز دائمًا للسلطات الخاضعة، كما ترمز الشمس للسلطة العليا، أما الملاك ففيه دائمًا معنى الممثل للشخص أو الجماعة، كما نرى ذلك في حادثة بطرس ونجاته من السجن إذ نقرأ «فقالوا إنه ملاكه» أو ممثله، ظنًا منهم أن بطرس كان لا يزال في السجن. ولا شك أن الملاك الذي صارعه يعقوب

كان ملاك الرب، حتى أن يعقوب دعا المكان «فنيئيل» أي وجه الله (أع١٢، تك٣٢). إذاً فالتعليم الذي نستخلصه من هذين الرمزين واضح جدًا وهام للغاية، وهو أن ملاك الكنيسة لا بد أن يكون صورة ومظهر قوتها الروحية بصفتها الممثلة للمسيح على الأرض. وهنا نرى مسئولية الكنيسة الاسمية من أخطر وجوهها، إذ مهما كانت الحالة السائدة في الكنيسة الاسمية فالرب يسوع هو الذي له سبعة أرواح الله والذي له السبعة الكواكب، أو بعبارة أخرى كل قوة روحية وكل سلطان كنسي. هذا هو المسيح في ملء بركته للكنيسة كما لكل فرد مسيحي أيضًا. ومن واجبنا بكل تأكيد أن نكون صورة صحيحة لذاك الذي هو حياتنا وحكمتنا وقوتنا في هذا العالم. يا ليت الرب يحفظنا لتكثر فينا روح الطاعة والاتكال عليه، ونكون في مركز القرب منه.. في يمينه.

ثالثًا: لا أظن أننا في حاجة بعد ذلك للقول بأن لقبي «كوكب» و«ملاك» لا يُعطيان بالمرة فكرة الكهنة أو الخدام المعينين من البشر، فإن النظام الذي ساد في البروتستانتية منذ الإصلاح قد ترك باب هذه الوظائف مفتوحًا على مصراعيه، حتى لغير المتجددين ما داموا متعلمين. ولكن ما أعظم الفرق بين هذا وبين النظام الإلهي.

وإذا رأينا الآن - كما نعتقد - فكر المسيح فيما يتعلق بشخصه وبما هو في ذاته للكنيسة في كل العصور والأحوال، أصبح من الميسور أن نفهم بصورة أوضح حالة الكنائس المصلحة كما تصورها لنا الحالة في ساردس.

رابعًا: في النظام الكاثوليكي القديم لم يكن الخلاص متوقفًا على مجرد الإيمان بالمسيح يسوع، بل كان امتيازًا تمنحه الكنيسة. فكل بركة كانت تتوقف على الارتباط بكنيسة روما، بحيث لم يكن هناك غفران خطايا أو سلام مع الله أو حياة أبدية في المسيح أو خلاص للنفس خارجًا عن شركة الكنيسة. وقد كان هذا التعليم التجديفي السافر هو الذي جعل تحريماتها أفظع وأرهب عقوبة يمكن أن تقع على فرد أو أمة. فعندما كانت الكنيسة تنطق بتوبيخها لم يكن في وسع فريستها إلا أن ترتعب أمام رعودها ولا يستطيع حراكًا أو مقاومة. ولم يكن هناك إنسان من أقوى ملك إلى أحقر فرد في الرعية لا يرتعد ويرتعب عند حلول الصاعقة، فالحروب والمجاعات والأوبئة كانت محتملة كمصائب زمنية، أما لعنة البابا فتقضي على النفس إلى الأبد، وتحكم عليها بمصير أبدي في جهنم. ومهما كان إيمان الرجل حقيقيًا، ومهما كانت درجة تقواه، فإنه لن يتمتع بالخلاص أو يحصل عليه ما لم يكن تابعًا للكنيسة الكاثوليكية الجامعة المقدسة، ومتمتعًا ببركة أسرارها. هذا التعليم المخيف الذي كان يؤمن به الناس وقتئذ جعل الكنيسة كل شيء، فهي المعلم والمشرع والمخلِّص، وجعل الشركة فيها هو الطريق الوحيد للسماء، بغض النظر عن السلوك الفردي. كذلك ادعت لنفسها حق تقرير مصير الناس، وتعيين من يمكن تسميتهم قديسين أو هراطقة، ومن يذهبون إلى السماء مباشرة بعد الموت، ومن يذهبون إلى المطهر وكم من الزمن يُحجزون هناك. وبالاختصار كان مركز كل إنسان وأهميته في الزمان الحاضر وفي الأبدية لا يمكن تقريره إلا بلسان تلك التي كانت تُسمي نفسها الكنيسة، عروس المسيح.

على أن هذا الشر الفظيع الذي استمر أجيالاً عديدة مخفيًا في طي الظلمات العميقة ظهر وافتضح وقت حركة الإصلاح، ولم تستطع كتلة الفساد الناضجة أن تنجو بعد ذلك من حنق البشرية وغضبها، فقام الكثيرون ضدها، وأعلنوا أن نظام البابوية بأجمعه هو أكذوبة الشيطان، وأن احتجاج لوثر هو حق الله. ولكن المصلحين بدلاً من الاتكال على المسيح الذي يُقدم نفسه للإيمان كمن هو فوق جميع الظروف، وبدلاً من اتخاذه ملجأهم وقوتهم، سقطوا في فخ الاستناد على ملوك الأرض وعلى الحاكم المدني كذراع يحميهم من اضطهاد روما، وكمن عليه تنظيم حركة السبعة الكواكب، وبذلك انتقل السلطان الكنسي وتعيين الخدام إلى أيدي رؤساء الأرض، وهذه كانت غلطة البروتستانتية في نشأتها. وإليك شهادة آخر قال:

"وهكذا كانت البروتستانتية خاطئة دائمًا من الوجهة الكنسية، إذ اعتبرت الحاكم المدني كمن في يده مقاليد الكنيسة، فإذا كانت الكنيسة في البابوية حاكمة العالم، فقد أصبح العالم في عهد البروتستانتية حاكم الكنيسة... وتصف ساردس الحالة بعد حركة الإصلاح، أي بعد أن ذهبت روعة الحق وحرارته الأولى، وحلت محله صورة ميتة من الرسميات الباردة. صحيح أنه كان هناك على الدوام في الممالك البروتستانتية شيء من حرية الضمير، ولكن غرض الله ليس فقط الخلاص من الكبائر والشرور الفاضحة، بل أن تصير النفس صحيحة في علاقتها مع الله، بما يسمح للرب أن يكون له طريقه ومجده، أو بعبارة أخرى إعطاء الحرية للرب، والعمل بإرشاد وقوة الروح القدس طبقًا لمشيئته المُعلنة في كلمته.

وعندما نُعطيه مكانه الصحيح اللائق به فهناك ملء البركة في المحبة والحرية المقدسة، إن الحرية التي نحتاج إليها ليست هي الحرية البشرية المستمدة من السلطان العالمي، ولو أنه حاشا لنا من الله أن نتكلم كلمة واحدة ضد السلطات القائمة في دائرتها الخاصة، بل ما نحتاج إليه إنما هو حرية الروح القدس. إن خطية المسيحيين هي أنهم وضعوا السلطات القائمة في غير موضعها، والرب يسوع يمس الموضوع كله من أساسه بالكيفية التي يُقدم بها نفسه لكنيسة ساردس، فسواء كانت القوة الروحية، أو السلطة الخارجية النابعة منها، فكلاهما ملك للرب ومن اختصاصه هو دون سواه. وعندما يوجد الإيمان الذي ينظر إليه في مركزه كرأس الكنيسة، فلا شك أنه يُسدد كل حاجة و يمنح كل عون، فإذا كان يصغي لأضعف صرخة من صرخات حملانه، أفلا يستجيب بالأولى للكنيسة ويُسدد كل حاجتها وهي أعز شيء لديه وأحب غرض لقلبه؟ إنه اتخذ مركزه كرأس الكنيسة في المجد السماوي، وهو هناك ليس فقط ليكون الرأس بل ليعمل كالرأس»[٢٤].

خامسًا: أن المصلحين في محاولتهم نقض أخطاء البابوية فيما يتعلق بسلطان الكنيسة تطرفوا حتى وقعوا في ضدها، فأعطوا أهمية أكثر مما يجب لرأي الفرد، فبحسب الكاثوليكية الكنيسة تصنع المسيحي، بينما بحسب البروتستانتية المسيحيون يصنعون الكنيسة. وعلى هذا من الوجهة العملية يفقد المسيحي مركزه الصحيح في الحالتين، فالكاهن يقول إن الإنسان لا يمكنه أن ينال خيرًا لنفسه إلا من علاقته الحاضرة بالكنيسة المقدسة التي هي أمّنا، وفي اللحظة التي ينقطع عن أن يكون لها تابعًا لها يهلك لا محالة، لأن وسيلة الغفران والخلاص الوحيدة هي أسرارها المقدسة، فالطرد من الكنيسة ليس معناه سوى الطرح في جهنم. طبعًا في حالة التوبة أو وجود مبرر آخر للتحليل الكهنوتي قد يمكن إنقاذ النفس من مصيرها المريع وإعادتها إلى أحضان الكنيسة وعطفها، الذي هو الحياة الأبدية، ولكن لا بد على أي حال من أن مصير الإنسان ومركزه في السماء أو على الأرض أو في جهنم تبت فيه الكنيسة وتقرره هي دون سواها. هذا هو مبدأ الكاثوليكية الرومانية الأساسي الأكبر، وهو الذي يُعطي لكهنتها هذا السلطان غير المحدود على اتباعها المخدوعين. على أن هذا النوع من التأثير ليس قاصرًا على الكاثوليكية، بل نجده سائدًا بكيفية تنقص أو تزيد حيثما العنصر الكهنوتي مُعترف به، وهذا هو الحال منذ أيام الآباء الأولى.

وفي بداية القرن السادس عشر صار للسلطان غير المقدس الذي في أيدي الكهنوت الكاثوليكي نتائج بغيضة لا تطاق لدى جميع الطبقات، وارتفع الصوت بالاحتجاج، وسرعان ما انتشر هذا الاحتجاج في جميع المسيحية، ونودي بالكتاب المقدس كمصدر السلطان المطلق، وصار التبرير بالإيمان وحده دون أعمال الناموس شعار المصلحين، وتخلصت النفوس من نير روما الثقيل. ذلك كان عمل روح الله، وبه ومنه كان كل النشاط الذي لازم حركة الإصلاح. وقد كان من نتائج هذه الثورة العظيمة، نتيجة تميزت بها بصفة خاصة، وهي انتقال السلطة والأهمية من الكنيسة إلى الفرد، ورفض الرأي القائل بأن الكنيسة مصدر البركات، وأصبح كل إنسان مطالبًا بأن يقرأ الكتاب لنفسه ويفحصه لنفسه، ويؤمن لنفسه، ويتبرر لنفسه، ويخدم الله لنفسه، بما أنه سيحاسب حتمًا عن نفسه. هذه الفكرة كانت وليدة حركة الإصلاح، وهي صحيحة على الدوام، ولكنها استمرت غير معترف بها مدة طويلة تحت الكاثوليكية. فبركة الفرد أولاً ثم تكوين الكنيسة ثانيًا، هذا كان الترتيب الجديد، ولكن ويا للأسف ضاعت حينئذ الفكرة الصحيحة عن كنيسة الله ضياعًا كاملاً، ولم تظهر ثانية إلا في القرن التاسع عشر كما سنرى في سياق الكلام إن شاء الرب.

إلى هذه النقطة كان المصلحون على حق، فالرب لا يبني على صخرة الأساس إلا حجارة حية. ولكن إذ غاب عن النظر مركز الرب الخاص وعمله في الكنيسة بالروح القدس، بدأ الناس يتحدون ويبنون ما يُسمى كنائس حسب فكرهم الخاص، وهكذا سرعان ما نشأت تشكيلة عظيمة من الكنائس والجمعيات الدينية في أنحاء كثيرة من المسيحية، واحتفظت كل مملكة بفكرها الخاص في كيفية تكوين الكنيسة وسياستها، فالبعض رأوا أن السلطان الكنسي يجب أن يوضع في يدي الحاكم المدني، بينما رأى البعض الآخر أن الكنيسة يجب أن تحتفظ بهذه السلطان لذاتها وفي داخلها. وقد نشأ عن هذا الاختلاف في الرأي العديد من الطوائف المنشقة التي لا نزال نراها في كل مكان حولنا. أما فكر المسيح عن ماهية الكنيسة وتكوينها في كل مكان كما تسهب في شرحه الرسائل وتعلم به فيبدو أنه غاب جملة وتفصيلاً عن زعماء الإصلاح. صحيح أن الإيمان الفردي كان يُنادى به في

كل مكان كشيء حتمي وكالمبدأ الأساسي العظيم لخلاص النفس، وشكرًا للرب على ذلك، فخلُصت نفوس كثيرة وتمجد الله، ولكن بعد الحصول على هذا الخلاص كان للناس أن يتفقوا ويعملوا كنائس كما يروق لهم. هذه حقيقة مؤلمة ليس أوضح منها لدى كل دارس لتاريخ الكنيسة وأمامه كتب العهد الجديد.

فمثلاً نقرأ في أفسس ٤: ٤ «جسد واحد وروح واحد» ولكن حسب البروتستانتية يجب أن تقرأ "أجساد كثيرة وروح واحد" ولكن واضح أنه لا يمكن أن يكون سوى جسد واحد إلهي. كذلك نقرأ «مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح» (أف ٤: ٣) هذا معناه بكل جلاء أن الروح القدس هو القوة المكوِّنة للكنيسة التي هي جسد المسيح، والمسيحيون هم الوحدات المكونة والمندمجة بالروح القدس في وحدانية كاملة. هذه هي الوحدانية التي نحن مطالبون بأن «نحفظها» وليس بأن نصنعها، مجتهدين أن نُحافظ عليها وأن نُظهرها وأن نمارسها عمليًا. «لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة، وكل أعضاء الجسد الواحد إذا كانت كثيرة هي جسد واحد، كذلك المسيح أيضًا. لأننا جميعًا بروح واحد أيضًا اعتمدنا إلى جسد واحد، يهودًا كنا أم يونانيين، عبيدًا أم أحرارًا، وجميعنا سُقينا روحًا واحدًا» (١كو ١٢: ١٢، ١٣)*.

سادسًا: ليست النظم الدينية التي تُمثلها ساردس ميتة فقط، بل إن أعمال تابعيها ناقصة أيضًا «لم أجد أعمالك كاملة أمام الله». فالرب يسوع ينظر إلى الثمر بحسب المقياس الموضوع أمام الإيمان والينابيع التي يضعها تحت تصرفه، ويقدم نفسه كمن له كامل القوة الروحية اللازمة لكنيسته، وكمن ينتظر ثمرًا يليق بشخصه، إذ هو لا يستطيع أن يُخفض مستواه الأدبي في تعامله مع نقائصنا، ومن ثم يقول «فاذكر كيف أخذت وسمعت واحفظ وتب» فيوجه انتباههم في الإنذار الخطير إلى النعمة التي أخذوها والكلمة التي سمعوها، لأنه يريد أعمالاً كاملة حسب قياس النعمة التي أخذوها والحق الذي قبلوه، ولكن ويا للأسف فإنه بحجة أنه "لا يوجد كمال" لا في الكنيسة ولا في الفرد قد ضاعت فكرة الطاعة بحسب كلمة الله من أذهان المسيحيين بصفة عامة.

خذ مثلاً لذلك، وهو مثل شائع كثير الحدوث! شاب يتعرف بالرب على أثر زيارة أحد المبشرين، وليس له أصدقاء في مكان معين للعبادة حتى يتميز في نظره عن سواه، ولكن قد صار من المحتم عليه الآن الحضور للصلاة والعبادة في مكان ما. فالنصيحة التي تُقدم إليه عادة هي أن يتردد على الكنائس المختلفة الموجودة في دائرة مسكنه، ويستقر حيث يظن أنه يجد أكبر فائدة لنفسه. هكذا يبني حكمه على أساس فائدته الشخصية. صحيح أن فائدتنا الشخصية وبركتنا الخاصة شيء مهم ولا يجب إغفاله، ولكن متى جعلناها الشيء الأساسي بدلاً من مشيئة المسيح فلا بد أنها تؤدي إلى ظلام في الذهن وجفاف في النفس، أما الطاعة لكلمة الله فهي بكل تأكيد ينبوع بركة لنفوسنا أعمق وأغنى بما لا يُقاس من مجرد السعي وراء مصلحتنا الشخصية، بدون مراعاة إرادة الله الخاصة بالكنيسة كما هي مُعلنة في الرسائل. ولكن، ويا للأسف، هذا نسمعه دائمًا "توجد فائدة في كل الطوائف، ولكن ليست واحدة منها كلها كاملة، ولذلك يجب أن نحكم لأنفسنا ونختار من بينها الطائفة التي نظن أنها أقرب من غيرها إلى الكتاب، فليس هناك أي نظام كامل". ولكن هذا القول مهما كان جميلاً في ظاهره لا يمكن أن ينطبق إلا على أنظمة الديانات البشرية، أما نظام الله فلا بد أن يكون كاملاً، ولا يمكن له أن يقبل أي نظام يشوبه النقص. وكل ما نراه من عدم كمال في المرتبطين بنظام الله، أو الذين يحاولون الحياة والسير بمقتضاه، لن يؤثر بأي حال على كمال النظام الإلهي.

إن الفرق بين نظام ما والذين يكوِّنون هذا النظام كثيرًا ما يغيب عن الأذهان. افترض أن جماعة قليلة وضعيفة - أو حتى قل وملومة أيضًا - من المسيحيين اجتمعت حول المركز الإلهي، فهل هذا يضعف المركز أو يجعله ملومًا؟ بكل تأكيد كلا. وافترض من الجهة الأخرى أن جماعة من أحسن المسيحيين في كل العالم اجتمعت حول مركز بشري، فهل هذا يجعل المركز إلهيًا؟ إن المسيح هو المركز الإلهي، وجميع الذين يجتمعون حول هذا المركز بقوة الروح القدس هم في دائرة الله وفي حضرته، ولا بد من نوالهم بركته. هذا يجب أن يكون غرضنا الرئيسي، أن نكون حيث الله، في يقين الإيمان، واثقين فيه من جهة الفائدة لنفوسنا «لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» (مت ١٨: ٢٠، أف ٤: ٣، ٤).

---

* أنظر هذا الموضوع موضحاً توضيحاً كاملاً في «محاضرتين عن كورنثوس الأولى ١٢، ١٤" لوليم كلي [٣٠].

والفرق بين نظام ساردس وبين أولئك الذين فيه نراه جليًا للغاية في رسالة الرب إليهم «لم أجد أعمالك كاملة أمام الله. فاذكر كيف أخذت وسمعت واحفظ وتب»، فالكنيسة يجب أن يُحكم فيها ليس بمقتضى نظام ميت لا حياة فيه، بل بمقتضى ما لها من ينابيع في المسيح الرأس. والحقيقة المؤلمة هي أن الأمور ليست الآن كما كانت في البداية، ولكن هذا لا يمكن أن يقوم سببًا لأن يعمل المسيحيين كنائس حسب أفكارهم الشخصية، ويديرونها بقوانين من صنعهم، ولكن هذه كانت خطية وخطة البروتستانتية من البداية، حتى تشتتت شيعًا «فاذكر كيف أخذت وسمعت» هذا هو إنذار الرب الخطير لساردس وللبروتستانت بصفة عامة. يجب أن تكون كلمة الله مرشدنا ودستورنا الوحيد، ويجب أن تكون نعمة الرب يسوع المسيح قوتنا الوحيدة، وهاهو يدعو الكنيسة لأن ترجع إلى هاتين النقطتين العظيمتين، النعمة المأخوذة والحق المسموع. هذان العنصران هما مقياس مسئوليتها، والمستوى الذي بمقتضاه يُحكم على نظام ساردس.

سابعًا: يُشار هنا إلى مجيء الرب كما لو كانت الكنيسة قد انحطت إلى درك العالم «فإني إن لم تسهر أقدم عليك كلص، ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك». هذا يشبه تمام الشبه ما قيل بالنسبة للعالم في تسالونيكي الأولى٥:٢ «يوم الرب كلص في الليل». فالرب ينتظر من شعبه أن يكون لهم طريق متميز بالانفصال عن العالم، ولكن ساردس فشلت في هذا «لم أجد أعمالك كاملة أمام الله»، وكان هناك تشابه عظيم بينها وبين العالم. وحتى في ثياتيرا يمتدح الرب القديسين لغيرتهم، ولأن أعمالهم الأخيرة أكثر من الأولى رغم وجود الشر، ولكن فكرة الطاعة لكلمة الله والانفصال عن العالم ليست معروفة كثيرًا في البروتستانتية، ولذلك لا بد لها من مشاطرة العالم نصيبه «أقدم عليك كلص». بهذه الصورة سيقدم على جمهرة المسيحية الاسمية، ولكن ليس هكذا على المؤمنين الحقيقيين.

ثم يقول «عندك أسماء قليلة في ساردس لم ينجسوا ثيابهم، فسيمشون معي في ثياب بيض لأنهم مستحقون». وهذه تعزية حقيقية لأولئك السائرين مع الرب في انفصال عن العالم. فالعالم في مشهده الأدبي هو الذي ينجس ثياب المسيحيين، والأسماء القليلة هنا تعني أنهم أفراد معدودون. فالرب يعرف بالاسم جميع السالكين بالأمانة على الأرض، ويؤكد لهم أنهم سيمشون معه في السماء. "طوبى للذي يغلب. فبدلاً من أن يمحى اسمه، سيعترف به الرب باسمه أمام أبيه وأمام ملائكته.

وإذ قد تأملنا في معنى الرسالة لساردس وتطبيقها على ما حدث بعد حركة الإصلاح، نعود الآن من تاريخها بشعور متباين، من جهة بشعور الشكر من القلب لعمل روح الله العظيم هذا، ومن الجهة الأخرى بشعور الأسف العميق لفشل الإنسان الذي ظهر بعده هكذا سريعًا. ولكن قد يحسن أن ننعش ذهن القارئ بمراجعة عاجلة للأدوار المتتابعة للكنيسة على الأرض قبل أن نتقدم أكثر.

ففي أفسس نرى الكنيسة وقد بردت محبتها للمسيح «قد تركت محبتك الأولى» هذا هو أصل ومنشأ كل الفشل الذي حدث بعد ذلك. وفي سميرنا نراها تتألم تحت الاضطهاد من الشيطان. وفي برغامس نرى الروح العالمية، فالكنيسة ساكنة في العالم حيث كرسي الشيطان. وفي ثياتيرا نرى الفساد، وإعطاء الحرية للنبية إيزابل أن تعلم وتغوي عبيد الرب حتى يأكلوا مما ذُبح للأوثان ويزنوا. وفي ساردس نرى الموت وعدم الحياة، ولكن إيزابل ليست هناك، إذ قد تركتها ساردس وابتعدت عن فسادها. أما في ساردس فاسم عظيم بأنه حي، اعتراف عظيم بالمسيحية ومظهر هائل لها، ولكن بلا قوة حياة.

الكنائس اللوثرية (١٥٢٦-١٥٢٩م)

ولإيضاح تفسيرنا للرسالة إلى ساردس، ولتثبيت ما قلناه عن تكوين الكنائس اللوثرية، نود الآن أن نشير إلى منشئها الأصلي. ولكي نذكر الحق كاملاً وبكل إخلاص عن هذه النقط هانحن نقتبس من المؤرخ دوبيني[٤٤]، الذي قال في مدح لوثر وحركة الإصلاح كل ما يمكن أن يُقال:

"كانت حركة الإصلاح في حاجة إلى بضع سنين من الراحة حتى تنمو وتزداد قوة، وما كان ممكنًا لها أن تتمتع بالسلام ما لم يكن أعداؤها الألداء في حرب وخصام مع بعضهم البعض. وقد كان جنون كليمنت السابع أشبه بفنار لسفينة الإصلاح، كما أن خراب روما أدى إلى بنيان الإنجيل. فمن سنة ١٥٢٦ إلى ١٥٢٩م تمتعت ألمانيا بفترة هدوء، استطاعت فيها حركة الإصلاح أن تنظم نفسها وتوسع نطاقها.

فبطرح النير البابوي كان لا بد من إعادة تنظيم الهيئة الكنسية، وفي الوقت نفسه كان من المستحيل إعادة النفوذ القديم للأساقفة، لأن هؤلاء الرؤساء ظلوا بصورة ما على مبدئهم كمن هم خدام البابا،

ولذلك كان لا بد من التفكير في إنشاء نظام آخر، حتى لا تقع الكنيسة في حالة فوضى وارتباك. وقد تم هذا فعلاً، ومن ذلك الوقت انفصلت الكنائس الإنجيلية انفصالاً كاملاً ونهائيًا عن سيادة البابوية الاستبدادية، التي استعبدت جميع ممالك الغرب أجيالاً عديدة.

ولقد أبدى المجمع رغبته في مناسبتين مختلفتين أن تكون مسألة إصلاح الكنائس مسألة أهلية، بمعنى أن تُترك لكل مملكة الحرية في اختيار النظام الذي يناسبها، ولكن الإمبراطور والبابا وبعض الأمراء عارضوا في هذا القرار، وكأن مجمع سبيِرز قد أحال إلى كل دولة أمر تنفيذ مهمة لم يستطع هو تنفيذها. ولكن أي نظام يا ترى يستبدلون به نظام البابوية الهرمي؟

كان في إمكانهم تحجيم البابا مع الاحتفاظ بالنظام الأسقفي، وهذا نظام أقرب ما يكون إلى النظام الذي كان على وشك الانهيار.

وكان في إمكانهم من الجهة الأخرى إعادة الترتيب الكنسي بالرجوع إلى سلطان كلمة الله المطلق، وإعطاء الشعب المسيحي حقوقه من جديد، وهذا الترتيب هو أبعد ما يكون من الترتيب التصاعدي الروماني. وبين هذين النظامين المتناقضين كان يمكن إيجاد عدة حلول وسط.

أما ألمانيا الإنجيلية، ففي اللحظة التي بدأت فيها تضع يدها في أمر الأنظمة الدينية أنشأت في الحال النظام الذي كان من شأنه أن يحدث شرخًا عميقًا في السلطان البابوي أكثر من غيره"[٤/٢١].

يرى القارئ جليًا من هذه المقتطفات القليلة أن أمراء ألمانيا كانوا يسترشدون في أمر إعادة تنظيم الكنيسة بمقتضيات الأحوال أو المبادئ السياسية، ومع أنهم ربما كانوا مخلصين في رغبتهم في التصرف طبقًا لكلمة الله، إلا أنه يبدو أنه لم يخطر على بالهم مطلقًا أن الله قد وضع دستورًا للكنيسة في كتاب العهد الجديد، وأنه لم يترك للإنسان الحرية في إضافة أو تعديل كلمة واحدة من ذلك الدستور الإلهي، كما لم يُعط لليهود قديمًا الحرية في إضافة أو تغيير وتد واحد في خيمة الاجتماع.

ولكن بما أننا قد عالجنا بالتفصيل موضوع الكنيسة وتنظيمها وتدبيرها في الأجزاء الأولى من تاريخنا، فلسنا في حاجة لأن نقول شيئًا أكثر عن هذا الموضوع هنا، وكل ما نقوله ونتبر عليه هو أن كل شيء يجب أن يُمتحن بحسب مقياس كلمة الله، وكل ما لا ينطبق على الكلمة ويتوافق معها يجب رفضه وطرحه جانبًا.

نشأة الكنائس اللوثرية

لا يمكن أن يُقال إن حركة الإصلاح في ألمانيا بدأت بجمهور العامة، فبينما في سويسرا كانت الحركة ديمقراطية، كانت في ألمانيا إمبراطورية. فالأمراء هناك كانوا في مقدمة المعركة، وقد اتخذوا مقاعدهم في الصفوف الأولى من المجلس. يقول دوبينيْ "إن الهيئة الديمقراطية اضطرت لأن تُخلي المكان لهيئة حكومية". وهذا اعتراف صريح بأن تكوين الكنائس اللوثرية كان ترتيبًا بشريًا وسياسيًا. أما المسيح كالمركز، والروح القدس كقوة الجمع حول هذا المركز فكان أمرًا منسيًا على الإطلاق، ولذلك يصدر الرب حكمه على أي نظام كهذا بأنه «ميت». فالمسيح والروح وكلمة الله كلها أمور يتكلمون عنها ويعتقدون بها، ولكن ليس واحد منها له مكانته الصحيحة في الكنائس اللوثرية أو المُصلحة، ولذلك فهي بلا حياة. إن لوثر قد وجد معضديه وأعوانه بين أفراد الطبقات العليا بصفة خاصة "وقد اعترف بالأمراء كالممثلين للشعب، ومن ذلك الوقت صار نفوذ الدولة أحد العناصر الرئيسية في تكوين الكنائس الإنجيلية".

ويجب أن نحمل في بالنا أن كلمة "الإصلاح (*Reformation*" لا تعني "التكوين الجديد(*Formation*"، إذ أن الكلمة الأولى معناها بعبارة صحيحة إعادة التكوين أو الرجوع إلى التكوين الأصلي. فإعلان الحق الأصلي الخاص بتكوين الكنيسة في يوم الخمسين يجب أن يكون هو مرشد المصلح ودليله. إن الإصلاح معناه توجيه أفكارنا إلى ما كان في البدء، أي إلى كلمة الله ونعمته، وإصلاح أو إعادة تكوين الكنيسة طبقًا لنعمته وحقه. وبكل تأكيد إذا كانت الكنيسة قد تكونت في القرن الأول بدون أمراء العالم، أفلا يمكن إصلاحها أو إعادة تكوينها بدونهم في القرن السادس عشر أو العشرين؟ يسأل دوبينيْ هذا السؤال، وكان طبيعيًا جدًا أن يسأله، وهو يدل على أنه كان يشعر بوجود نقص خطير في ناحية ما، لأنه ما الداعي للاستعانة بقوة لإعادة التكوين لم تكن لازمة وقت تكوين الكنيسة في البداية؟ لقد ضاع بسبب ذلك الحق الخاص بالكنيسة بصفتها كنيسة الله جسد المسيح. فحتى الكاثوليك يتكلمون عن حفظ وحدانية الكنيسة ولو على أساس فاسد وشرير. أما البروتستانت فقد بدأوا بداءة

خاطئة فيما يتعلق بهذه النقطة، ومن ذلك الحين إلى الآن وهم يبتعدون أكثر فأكثر عن الحق الإلهي «جسد واحد».

وقد اشتهر فيليب أمير هيس بأنه أول من وضع نظامًا كاملاً للكنائس في دائرة مقاطعاته الموروثة، وهو النظام الذي أصبح بعد ذلك أنموذجًا تشكلت على غراره كافة الكنائس الجديدة في المسيحية.

موت فردريك

في عام ١٥٢٥م مات فردريك الحكيم منتخب سكسونيا، الذي كان صديق لوثر وحاميه، ولو أنه لم يكن مصلحًا بمعنى الكلمة، أما أخوه يوحنا الذي خلفه فقد كان يختلف عنه في صفاته كل الاختلاف، فقد كان لوثريًا ومصلحًا إلى أقصى حد، وكانت له اليد العليا والسيادة المطلقة في الشئون الكنسية، فجعل لوثر وملانكتون يضعان القوانين واللوائح الخاصة بسياسة الكنائس وشكل العبادة، وواجبات الإكليروس ومرتباتهم، وكلّف وكلائه بنشرها وتعميمها عام ١٥٢٧م "وإذ كان مقتنعًا اقتناعًا كاملاً بصحة تعاليم لوثر، ومتأكدًا أنه لن يمكن المحافظة عليها مع بقاء السلطان البابوي، جعل نفسه الحاكم المطلق في الشئون الدينية. فأصدر الأوامر بتعيين رجال أكفاء أتقياء كمعلمين ورعاة للكنائس، وإقصاء كل من ثبتت عدم أهليتهم، وقد نسج على منواله الأمراء الآخرون في ألمانيا، الذين كانوا نظيره قد طرحوا نير السيادة البابوية عن كواهلهم"[٣/٢١].

وكان لا بد أن تظهر نتيجة هذه الإجراءات الحازمة سريعًا، وهي حدوث انشقاق بين الأمراء الذين استطاع فردريك باعتداله أن يحفظهم في حالة الاتحاد، أما تصرفات يوحنا فقد دلت صريحًا على أنه مصمم على فصل كنائسه من كنيسة روما. وقد أثار هذا مخاوف الأمراء الكاثوليك، الذين أخذوا يجتمعون معًا للتشاور في سبيل الدفاع عن الديانة القديمة ومعاقبة المبتدعين. ومن الجهة الأخرى تحالف الأمراء اللوثريون معًا، ولم يمنع أوروبا من الوقوع في حرب أهلية سوى حالتها المضطربة وقتذاك. فيدي شارل كانت مغلولة بحروبه المختلفة في أماكن عديدة، ولذلك ترك المصلحين أحرارًا إلى سنة ١٥٢٩م، وهي أشهر سنة في تاريخ حركة الإصلاح، ولا تفوقها شهرة إلا السنة التي نقترب إليها الآن، وهي سنة ١٥٣٠م. ولكن قبل أن ندخل أبوابها فعلاً علينا أن نتأمل في أمر أو اثنين أعطياها هذه الأهمية العظمى. فأولاً:

استئناف الأمراء

لقد استطاع الحزب البابوي بمجهود كبير أن يجعل مجلس سبيرز الثاني يؤيد مرسوم ورمز ضد لوثر، ويصدر قرارًا بتحريم كل جديد في العقيدة. وعلى أثر ذلك قدم الأمراء الإنجيليون احتجاجهم الخطير ضد هذا القرار، ولم يكتفوا بمجرد الاحتجاج على قرار المجلس، بل اجتمعوا عقب انحلال المجلس مباشرة، وكتبوا وثيقة دونوا فيها ما دار بالمجلس، مع ذكر مظالمهم والأسباب التي تبرر موقفهم، وصمموا بكل عزم وحزم على التمسك بشدة بحقوق الضمير المقدسة في مسائل الخلاص، وختموا الوثيقة بالاستئناف للإمبراطور ولمجمع عام يُعقد مستقبلاً. وهاك نص الفقرة الأخيرة من تلك الوثيقة التاريخية الشهيرة "من أجل ذلك فإننا بالأصالة عن أنفسنا وبالنيابة عن رعايانا وعن جميع الذين قبلوا أو يقبلون من الآن كلمة الله، نرفع أمر جميع الإجراءات التعسفية الماضية أو الحاضرة، أو ما يجد منها مستقبلاً، إلى صاحب الجلالة الإمبراطورية، وإلى مجمع حر عام من المسيحية المقدسة"، وقد ملأت هذه الوثيقة اثني عشر فرخًا من الرقوق، وذيلت بنفس الإمضاءات والأختام التي ذيل بها الاحتجاج[٤/٤٤].

وفي الحال انتخب الموقعون ثلاثة منهم حملوا نسخة من الاستئناف إلى الإمبراطور. وكان شارل في ذلك الوقت في طريقه من أسبانيا إلى إيطاليا، فالتقوا به في بلاشنتيا، ولكنه قابلهم أسوأ مقابلة، إذ غضب كل الغضب من هذه الحرية والجرأة في مقاومة مشيئته، الأمر الذي جرح كبرياءه في الصميم. وفي ثورة غضبه أمر بالقبض حالاً على المندوبين الثلاثة، منبهًا عليهم بعدم مغادرة أماكنهم، وبأن لا يكتبوا كلمة واحدة للأمراء البروتستانت، وإلا فالموت جزاؤهم. ولكنه هدأ من ثورته بعد قليل وأطلق سراحهم، وذهب إلى بولونيا حيث صرف عدة أشهر مع البابا كليمنت السابع.

وفي الوقت نفسه لم يسكت زعماء البروتستانت، بل كانوا يستخدمون أقوى الوسائل وأشدها فاعلية في نشر حركة الإصلاح وتقوية مركزهم لدى الشعب. ففي اليوم الخامس من شهر مايو، أي بعد توقيع الاستئناف بأحد عشر يومًا، طبعوا الاستئناف ونشروه في كل مكان، وبذلك اتخذت قضية الكاثوليك والبروتستانت شكلاً حاسمًا وأصبحت الآن معروضة على المسيحية بأجمعها.

اجتماعات البروتستانت

والآن قد تأيدت مخاوف الأمراء من نوايا الإمبراطور، فمعاملته القاسية للمندوبين، وصداقته الظاهرة في ذلك الوقت مع البابا، كانت علامات واضحة على الإجراءات القاسية التي كان يُفكر فيها ضدهم. فرأى الزعماء البروتستانت أن الوقت قد حان لأن يتشاوروا معًا للاحتفاظ بكيانهم ضد غضب شارل الحاقد، فعقدوا اجتماعات في صيف عام ١٥٢٩م في أربعة أماكن مختلفة، ولكنهم لم يصلوا إلى شيء نهائي نظرًا لانقسام الرأي فيما يتعلق بموضوع عشاء الرب. وأخيرًا قرروا في أحد اجتماعاتهم "أن الوحدة فيما يتعلق بفريضتي المعمودية والعشاء الرباني أمر جوهري، ولا بد منه لكل تحالف ديني بين المسيحيين". ولكن ويا للأسف الشديد كان المصلحون قد انقسموا إلى فريقين بسبب الجدل على فريضة العشاء.

وكان الحزب البابوي يعلم بأمر النُبذ الشديدة اللهجة التي تبودلت بين لوثر وزونِجلي في هذا الموضوع، فاستغلوها لتوسيع شقة الخلاف بين أتباعهما، وكان قد سبق للكاثوليك أن عيروا جماعة المصلحين في مجمع سبيِرز بهذه النقطة قائلين لهم: "أنتم تتفاخرون بتمسككم بكلمة الله الطاهرة، وها أنتم مع ذلك متناحرون مختلفون". وكان هذا التعبير الجهاري يجرح أعماق قلب أمير هيس، حتى أنه صمم على اتخاذ كافة الوسائل الممكنة للوصول إلى اتفاق بين المصلحين السويسريين والسكسونيين، ولهذا الغرض عُقد مجمعًا في ماربرج سنة ١٥٢٩م، دعا إليه لوثر وزونِجلي وبعض معلمي اللاهوت من قادة الفكر في الفريقين.

الفصل السابع والثلاثون

مشكلة العشاء الرباني

أن تعليم حضور المسيح الحقيقي في العشاء الرباني تثَبّت كعقيدة من عقائد كنيسة روما في مجمع لاتيران الرابع عام ١٢١٥م، وقد استمرت فكرة الاستحالة ثلاثمائة سنة هي المعقل الأساسي لروما ورجاستها العظمى، حتى أن عقيدة حضور المسيح بالجسد في العشاء المقدس ألقيت عليها هالة من الأهمية المقدسة، وأثارت خيال الشعب وتمكّنت في عميق عواطفهم، فصار العشاء أصلاً وأساسًا لكثير من المراسم والخرافات، ومصدر ثروة هائلة وسلطان عظيم للإكليروس، وأصبحت أروع المعجزات وأكبرها تنسب إلى الخبز المقدس في عالم الأحياء والأموات، وهكذا كان العشاء حجر الزاوية في بناء البابوية الشامخ.

ولوثر، ككاهن وراهب، كان يؤمن إيمانًا قويًا بهذه الفكرة الخاطئة، ولم يتخلص في كل تاريخه من الوهم الذي استولى عليه، فقد أخطأ ضد الله وضد ضميره عندما قبل رسامته أو تعيينه كاهنًا، ومن ذلك الوقت فصاعدًا يبدو أن غمامة تأديبية سيطرت على ذهنه فيما يتعلق بسلطان الكاهن على عنصري الخبز والخمر. وبالاختصار نقول إن الاستحالة، أو تحول الخبز والخمر تحولاً فعليًا إلى جسد المسيح الحقيقي ودمه الحقيقي بتقديس الكاهن كانت، كما لا تزال، مبدأ كنيسة روما المعترف به، وكل من ينكر هذا الأمر فهو كافر وهرطقي.

أما لوثر، كمصلح، فقد رفض كلمة الاستحالة (*ransubstantiation*) واستعاض عنها بكلمة أعقد منها، وهي ما يمكن ترجمتها "ازدواج المادة" أو "تشارُك المادة" (*consubstantiation*). فقد رفض لوثر النظرية البابوية القائلة بأن الخبز والخمر لا يبقيان بعد التقديس بل يتغيران إلى جسد المسيح المادي ودمه المادي، وكانت نظريته الغريبة أن الخبز والخمر يبقيان كما هما، خبزًا وخمرًا حقيقيين، وإنما يوجد مع الخبز والخمر في نفس الوقت مادة جسد المسيح الإنساني. إننا نستطيع أن نؤكد بكل ثقة أنه لم يوجد قط في تاريخ البشر بدعة مثل هذه الخرافة البابوية في السخافة والتنافر والتناقض. قال البابا أوربان في إحدى خطاباته في مجمع كاثوليكي عظيم "إن يد الكاهن قد أعطي لها أن تسمو إلى مرتبة يدي الله خالق الجميع، وأن تقدمه لأجل خلاص العالم أجمع. وهذا سمو فائق لم يُعطَ لملاك من الملائكة. هذا الامتياز يرفع البابا فوق الملائكة، كما يجعل فكرة خضوع البابا للملوك شر بغيض". على هذا القول صادق المجمع المقدس بصوت واحد "آمين". حقًا أن هذا لهو أقصى امتحان للسذاجة البشرية، وهو لا محالة منتهى التجديف البشري الفظيع *.

آراء زونجلي الأولى

كان ألريك زونْجلي، المصلح السويسري الكبير، ونديد لوثر، يختلف تمام الاختلاف مع روما ومع المصلحين السكسونيين فيما يتعلق بحضور المسيح الحرفي في العشاء المقدس. كان منذ صباه يعتقد اعتقادًا لا يتمشى مع هذا ولا ذاك، وكان متأثرًا منذ بداية تاريخه كمسيحي ببساطة الكتاب المقدس في موضوع عشاء الرب، فقد قرأ في كلمة الله أن المسيح ترك هذا العالم ورجع إلى أبيه في السماء، وأن هذا الحق صار موضوع إيمان ورجاء تلاميذه الخاص. هذا نجده موضحًا بجلاء في سفر أعمال الرسل حيث نقرأ «وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس أبيض وقالا: أيها الرجال الجليليون ما

* للتحقق من هذا التجديف الذي لا يصدق انظر كتاب «تقلبات البابوية» ص ٣٨٤ لمؤلفه أدجار[51].

بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ أن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلق إلى السماء» (أع١:١١،١٢)، من هذا نرى أن الرب المبارك صعد إلى السماء بشخصه وبجسده وبصورة منظورة، وأنه سيرجع هكذا، أي بالكيفية عينها، ولكن هذا لن يكون قبل نهاية التدبير الحاضر وانتهاء مدة الكنيسة على الأرض كما يتضح من القول «الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شيء» (أع٣:٢١).

وقد رأى زونجلي وأيقن في نفسه أن كلمات ربنا المبارك «هذا هو جسدي. هذا هو دمي» لها معنى مجازي، ولا تتضمن أكثر من كون الخبز والخمر مجرد رمزين أو صورتين لجسد المسيح، وأن الوصية أو الفريضة هي تذكار لموته لأجلنا «اصنعوا هذا لذكري».. «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء» (لو٢٢:١٩، ٢٠؛ ١كو١١:٢٢-٢٨).

ظل زونجلي يختزن اعتقاده هذا فيما يتعلق بعشاء الرب لسنين عديدة، ولكنه إذ كان يعلم مقدار تغلغل تعليم روما القديم في عقول الشعب الجاهل الخرافي لم يبُح بهذه الآراء، بل احتفظ بها لنفسه. ولكنه إذ رأى أنه قد بلغ الوقت لإعلان هذا الحق والجهر به، عالمًا أنه سيلاقي مقاومة عنيفة، عندئذ بدأ باجتهاد في نشر الحق وغرسه في النفوس في مجاله المحدود، حتى بذلك يتقوى مركزه. وأخذ يرسل الرسائل إلى علماء عديدين في أوروبا بقصد التأثير عليهم حتى يفحصوا كلمة الله، ولو لم يكونوا متفقين مع آراء المصلح السويسري. ولكن بينما زونجلي ينتظر بسكوت اللحظة المناسبة لرفع صوته بهذا الحق، إذا بآخر أكثر حماسًا وأقل حكمة يتسرع، فيكتب نبذة ضد تعليم لوثر عن عشاء الرب تسببت في إثارة عاصفة قوية من الجدل استمرت تدوي بعنف شديد أربع سنوات كاملة.

كارلشتاد ولوثر وزونجلي

كان أندور بودنشتاين، الشهير باسم الدكتور كارلشتاد، والذي كان مرة أستاذًا بجامعة وتمبرج، هو الذي بدأ الهجوم. هذا الرجل كان مشهورًا بالكفاءة والعلم وبالتكريس الصحيح لقضية الإصلاح، ولكن نظرًا لآرائه المتطرفة في هذا الموضوع وما اتصف به من روح ملتهبة وحماس مندفع، كانت تصرفاته ثورية مدمرة. كان لا يقنع بأقل من إبادة جميع الصور والتماثيل، وإلغاء كافة الطقوس البابوية في الحال. ولقد تقابلنا معه في سياق الصفحات الماضية من تاريخنا، فرأيناه من أول أصدقاء لوثر وأشدهم إخلاصًا، ولكنه رفض نظرية لوثر الخاصة بالحضور الحقيقي في العشاء الرباني، وتلك كانت الخطية التي لا تغتفر في نظر المصلح لوثر. كذلك كان كارلشتاد من أشد المشجعين على أعمال التطرف والتخريب التي قامت بها طائفة الأنابابتست أو "الأنبياء السماويين" كما كانوا يسمون، وهذا أعطى لوثر حجة لاتهام الزونجليين بنفس تهمة الأنابابتست، ولكن هذا لم يكن حقًا على الإطلاق، لأن زونجلي وأتباعه كانوا يمقتون تعصب "الأنبياء السماويين" بقدر ما كان يمقته لوثر وزملاؤه.

أما عن الدكتور كارلشتاد فقد كتب لوثر عام ١٥٢٥م نبذة ضد "الأنبياء السماويين" قال فيها "إن الدكتور كارلشتاد قد خرج منا وصار ألد أعدائنا، ولو أني متألم كل الألم لهذه الفضيحة، إلا أنني مسرور لأن الشيطان قد أظهر مؤامراته وسيبوء بالخزي والعار من وراء أنبيائه السماويين، الذين ظلوا عهدًا طويلاً يطلون من وراء الستار، وينفثون سمومهم في الخفاء، ولم يجرءوا على الظهور علنًا، حتى وجدوا مشجعًا في كارلشتاد. ولكن المؤامرة المخزية لم تظهر كلها بعد، بل لا تزال في الخفاء أشياء كنت أشتبه فيها من زمن. وإني أعرف أيضًا أن الدكتور كارلشتاد كان يخمر هذه الهرطقة في رأسه، ولو أنه للآن لم يجد الشجاعة الكافية لنشرها".

هنا اقتنع زونجلي أن وقت الصمت قد مضى، وهو وإن كان يؤيد آراء كارلشتاد فيما يتعلق بالعشاء الرباني، إلا أنه كان لا يوافق أبدًا على خطته وأسلوبه الجارح. فنشر في عام ١٥٢٥م رسالة هامة عنوانها "الديانة الصحيحة والديانة الكاذبة" ضمّنها آراءه عن العشاء الرباني بالتفصيل، واستنكاره لضلالة الأنابابتست، وأخطاء البابويين في المسألة موضوع النزاع. وسرعان ما برز له خصم في نبذة عنوانها "ضد الضلالة الجديدة" أجاب عليها زونجلي في نفس السنة ١٥٢٥م. وانتهز الفرصة لتذكير خصومه اللوثريين بأن يكونوا معتدلين في هجومهم وكتابيين في حججهم، وقد تميزت كتاباته بمسحة من الاعتدال والاحترام لم يكن يعرفها خصومه بالمرة. وحتى ملانكتون كان في بعض الأحيان يتمثل زعيمه في الشدة.

في ذلك الوقت كان أكولامبَديوس صديق زونجلي الحميم ينشر حق الإنجيل البسيط المتعلق بعشاء الرب في بلدة بازل، ولكنه إذ وجد أن خصومة صاروا يقرنون اسمه باسم كارلشتاد، نشر كتابًا بيّن

فيه آراءه ودفوعه عنها. وقد جاء الكتاب مُشبعًا بروح مسيحية صحيحة ومليئًا بأفصح الحجج وأقواها مستمدة من الكتاب المقدس وأقوال أشهر الآباء، حتى أن كثيرين أخذوا يفحصون ويدرسون هذه الآراء الجديدة. وبالاختصار كان أثر الكتاب عظيمًا للغاية، حتى كاد يُقنع إرازمس نفسه، الذي كتب لصديق يقول "لقد ظهر تعليم جديد يؤكد أنه لا يوجد شيء في الأفخارستيا سوى خبز وخمر، ويبدو أنه يصعب إنكار هذا التعليم، وذلك لأن أكولامبَدْيوس قد حصّنه ودعمه بأقوى الأدلة والحجج، بحيث قد ينغوي بها المختارون أنفسهم".

ظهر بعد ذلك بقليل رد جارح على هذا الكتاب بإمضاء أربعة عشر لاهوتيًا ألمانيًا، وبمقدمة بقلم لوثر. ولقد استاء زونجلي جدًا وتأثر أعمق التأثر من هذا الرد، وأظهر أسفه الشديد على مثل هذه الشتائم والإهانات الموجهة من إخوته الألمان إلى أخ مسيحي مصلح، فكتب يقول "لم أرَ شيئًا في هذا العصر لا يستحق المديح أكثر من هذا الرد، بسبب ما حوى من تهجم على الكتاب المقدس، وما يبدو فيه من كبرياء ووقاحة. فأكولامبديوس الذي هو أكثر الناس هدوءًا ومسالمة، وهو أنموذج صحيح لكل تقوى وعلم، والذي منه تعلم أغلبهم ما يعرفون الآن من أدب وعلم، ها هم يعاملونه أخيرًا مثل هذه المعاملة المحزنة، ويجازونه هذه المجازاة التي تدل على منتهى العقوق وإنكار الجميل. وأصبحنا الآن مطالبين لا أن نرد على إهانات وتعبيرات فقط، بل على شتائم ولعنات"(٦٧).

وهكذا استمر الجدل، وحزن لوثر كل الحزن ودُهش كل الاندهاش لأن يجد عددًا كبيرًا هكذا من الرجال العلماء والأتقياء متمسكين بنفس الآراء المتمسك بها زونجلي، ومن بينهم من كان يثق بآرائهم كل الثقة، والآن قد أعلنوا موافقتهم على الآراء الجديدة. ذلك كان مرارة وأفسنتينًا لنفس لوثر ملأه بحسرة وغضب لا يُعبر عنه، حتى أنه في خطاباته وكتاباته التي صدرت عنه في تلك الآونة وقع في عبارات متطرفة للغاية تدل على عدم الحرص ومنتهى الشطط، فقد أسماهم "جماعة أبشالوم، مدنسي القربان، الذين بالمقابلة مع جنونهم يبدو البابويون خصومًا معتدلين، آلات الشيطان في تجربتي". وقد ضرب تلاميذ لوثر على نغمة سيدهم، الذي استجمع كل ما أوتي من شدة وحدة طبع وصبه في هذا النزاع، فمنذ سنة ١٥٢٤م إلى سنة ١٥٢٩م كان ما كتبه لوثر بعنف وشدة ضد زونجلي كثيرًا جدًا بالمقابلة مع ما كتبه ضد البابويين، حتى قال أرازمس متهكمًا "إن اللوثريين راجعون بلهفة إلى أحضان الكنيسة".

الدعوة لمؤتمر ماربرج

هكذا كان مبلغ النزاع القائم بين المسيحيين، وهكذا كان شعورهم من نحو بعضهم البعض، حتى فشل أمير هيس في التوفيق بينهم، رغم المجهودات الكبيرة التي بذلها في هذا السبيل. وهذه حالة في الواقع مذلة للغاية، وتلقى ظلاً قاتمًا على موقف لوثر وطباعه. ففيليب السياسي أظهر في هذا النزاع وفي غيره من قبل روحًا مسيحية أكثر مما أظهر المصلح الكبير، ولو أن الباعث لفيليب ربما لم يكن مسيحيًا صرفًا، على أننا لا نحكم في البواعث. هناك آخر سيحكم في سرائر جميع الناس (١كو٤:٥).

لقد كان هذا النزاع العظيم سبب قلق شديد للأمراء البروتستانت، لما كان له من علاقة بالنهضات السياسية في ألمانيا، فقد كان أعظم حجر عثرة في سبيل وحدتهم. وكيف كان يتسنى لهم بغير وحدانية الفكر أن يقفوا أمام خصوم أقوياء وجبابرة مثل روما والإمبراطور؟ وفي الوقت نفسه كان اللاهوتيون البابويون يتتبعون بسرور وحقد تطور ونمو هذا الانشقاق المرير المُخزي، ولا يألون جهدًا في استغلاله لمصلحتهم. أما أمير هيس فكان بلا شك أكثر حزنًا لهذا الانشقاق من مصلحي وتمبرج أنفسهم، ولذلك صمم على أن يدعو بلا إبطاء مؤتمرًا يجمع شتات الزعماء، ويحاول أن يوفق بينهم إن أمكن. وهنا نقول إن المصلحين الألمان والسويسريين كانوا متفقين تمامًا فيما يتعلق بحقائق الكتاب الرئيسية، ولم تكن هناك إلا نقطة واحدة كانوا فيها مختلفين، وهي كيفية حضور المسيح في الخبز والخمر.

ويظهر أن فيليب لم يكن يرى في كل النزاع أكثر من خلاف على الألفاظ، كما يبدو من قوله "إن اللوثريين لا يريدون أن يسمعوا عن شيء اسمه اتحاد مع الزونجليين. إذًا فلنضع حدًا للاختلافات التي تفصلهم عن لوثر". وعليه أرسل للزعماء الدينيين في سكسونيا وسويسرا وستراسبورج، يدعوهم للاجتماع معًا في ماربرج في خريف ١٥٢٩م.

قبل زونجلي الدعوة بابتهاج، واستعد للحضور في الميعاد المحدد، ولكن لوثر الذي رأيناه مرارًا جريئًا غير هياب، أظهر الآن كل تمنع عن مواجهة زونجلي، فقد كان للنبذ المتبادلة بينهما أبلغ أثر في نفسه من جهة مقدرة زونجلي، حتى أنه حاول بكل الوسائل غير المشرفة أن يتجنب مقابلته، ولكن استعطافات الأمير المتكررة استطاعت أخيرًا أن تقنعه فكتب لفيليب يقول:

"وصلتني أوامرك بالذهاب لماربرج للدخول في مناقشة مع أكولامبديوس وجماعته بشأن العشاء الرباني، بأمل الوصول إلى السلام والوحدة، ومع أنني ضعيف الأمل جدًا في هذه الوحدة، غير أني نزولاً على رغبتك سوف لا أرفض القيام بمهمة أعلم أنها بلا طائل، وربما تكون محفوفة بالمخاطر، حتى لا أترك الفرصة لخصومنا أن يقولوا إنهم أكثر منا ميلاً للاتفاق. إني أعلم جيدًا أنني لن أتساهل معهم في شيء.. وإذا لم ينحازوا إلينا فكل تعبك ضائع سُدى". هكذا وجميع خطاباته الخاصة التي كتبها في ذلك الوقت تعطي نفس المعنى وتدل على نفس الروح، فكأن كل الموضوع قد ناقشه لوثر وانتهى منه قبل أن يبدأ بالرحيل إلى المؤتمر.

ولكنه لم يكن بأي حال من الأحوال مستريح الخاطر، بل يشعر في قرارة نفسه أن الغلبة لا بد ستكون في جانب السويسري، وهذا الشعور تدل عليه الأمور الآتية:

١- كتب لوثر يقول عن نفسه وعن ملانكتون إنهما لن يحضرا المؤتمر إلا بشرط "حضور بعض البابويين الأمناء، ليكونوا شهودًا ضد هؤلاء القديسين المتفاخرين... لأنه إن لم يكن هناك قضاة غير متحيزين فسيكون للزونجليين فرصة طيبة للافتخار بالنصرة". هذه عبارة عجيبة في تاريخ المصلحين السكسونيين، تدل على حركة رجعية عن مبادئ الإصلاح، وهي غريبة بصفة خاصة عندما تصدر من مؤلف "السبي البابلي" والقائل عن البابا إنه ضد المسيح. هل نسي لوثر أن البابويين كانوا أكثر الطوائف المسيحية تمسكًا بحضور المسيح الحرفي في الخبز والخمر؟ ومع ذلك يقترح حضورهم ويرشحهم كقضاة غير متحيزين. يا له من تغير، وقتي على الأقل، في هذا الرجل العظيم! كيف نعلل هذا؟ فلوثر هنا لا يقف على أساس كلمة الله الراسخ، ولكن على أساس خرافة سخيفة باطلة، وما كان له في هذه الحالة أن يتمتع بالشعور بحضور الله وموافقته، ولا عجب إذا كان قد أظهر مثل هذا الضعف والتذبذب، فبدلاً من اتكاله على الله الحي وعدم المبالاة بالباباوات والأباطرة، نراه يتحول الآن إلى أعدائه القدماء ليتخذ منهم أصدقاء وحماة في المناقشة المقبلة. يا له من درس خطير لكل المسيحيين! يا ليت الكلمة الحية تكون سندنا وملجأنا في كل الظروف والأحوال. ولسنا في حاجة إلى القول بأن فيليب كان من التحمس ضد البابوية ورجالها، بحيث لم يعر اقتراح لوثر أي التفات، وهكذا سقط الاقتراح إلى الأرض. ولم يترك لمقترحيه سوى العار الذي وصمه به التاريخ غير المتحيز.

٢- وفي خطاب يُنسب عادة لملانكتون مكتوب للأمير المنتخب بتاريخ ١٤ مايو يذهب لوثر إلى أبعد من ذلك فيقول "ليرفض الأمير التصريح لنا بالسفر إلى ماربرج حتى نتخذ ذلك عذرًا لنا". ولكن المنتخب كما يقول دوبينيً "لم يرض أن يسلك هذا المسلك المعيب، ولذلك وجد مصلحو وتمبرج أنفسهم مضطرين لتلبية الدعوة والذهاب لماربرج".

٣- وهناك شرط آخر وضعوه يدل على مبلغ تخوفهم، وهو "أن لا يكون زونجلي واحدًا من بين الذين يُدعون من سويسرا لحضور هذا المؤتمر". ولكن هذا الطلب أيضًا لم يجد قبولاً، فرسائل الدعوة كانت قد أُرسلت بالفعل، وكان فيليب قد وصل إلى درجة استياء من عناد لوثر بحيث لم يعد يُعير أي التفات لطلباته.

هذه الأمور الصغيرة لا تستحق الذكر والتسجيل إلا لكي تُظهر لنا الفرق الهائل بين ذات الرجل عندما يكون غرضه الدفاع عن حق الله وعندما يكون غرضه الدفاع عن بدعة غبية وسخيفة اسمها "ازدواج المادة". ففي الحالة الأولى يقف بالإيمان، والنعمة تعطيه الشجاعة الأدبية والثبات في العزيمة، والكرامة في الموقف مع عزة نفس، أما في الثانية فنراه يُظهر أذل علامات الضعف في عدم ثقة ورياء. أن حضور الله والإيمان به والاتكال عليه هو كل الفرق بين الحالتين.

مؤتمر ماربرج

رفض مجلس الشيوخ في زيورخ رفضًا باتًا السماح لزونجلي بالذهاب إلى ماربرج خشية أن يصيبه مكروه هناك، ولكن زونجلي شعر أن حضوره في المؤتمر كان ضروريًا لصالح الكنيسة ولذلك لا بد أن يذهب! وعلى ذلك استعد للسفر وبدأ رحلته في الليل لا يصحبه إلا صديق واحد هو رودولف كولن، الأستاذ اللاتيني، وقد ترك مذكرة لمجلس الشيوخ يقول فيها "إذا كنت أنا ذاهبًا بدون إخطاركم فليس ذلك تعديًا على سلطانكم أيها السادة الأمراء الحكماء، ولكني إذ أعلم المحبة التي تكنونها من جهتي فإني أعتقد أن قلقكم على سيقف في سبيل ذهابي".

وقد وصل الاثنان بسلام إلى بازل، وهناك انضم إليهما أكولامبديوس، ثم ذهبا إلى ستراسبورج حيث انضم إليهم بوشر،

وهديو، وستورم، ووصلوا جميعًا إلى ماربرج يوم ٢٩ سبتمبر، وفي اليوم التالي وصل لوثر وأصدقاؤه. وقد أكرم فيليب الفريقين ورحّب بهم ترحيبًا قلبيًا، مضيفًا إياهم في قلعته وعلى مائدته الخاصة.

وإذا لم يكن الأمير يجهل مبلغ النفور الذي أوجدته في النفوس مسألة النزاع الأخير، فقد رأى بحكمته أن يجتمع الزعماء معًا اجتماعًا خاصًا قبل الاجتماع العلني، ويتبادلوا الآراء لعلهم يهيئون الطريق للصلح والاتحاد. ولما كان يعلم طباع كل منهم، فقد أشار بأن يتحادث لوثر مع أكولامبديوس وملانكتون مع زونجلي. ولكن الزعماء السكسونيين اتهموا الزعيم السويسري بتهم عديدة تتعلق بضلال التعليم، حتى لم تؤدِ المحادثات التمهيدية إلى أي تفاهم صوب الاتحاد، وتعقد الموضوع الرئيسي أكثر من ذي قبل. وعلى ذلك تحدد عقد المؤتمر العلني في اليوم التالي، أي ٢أكتوبر سنة ١٥٢٩م.

وقد عُقد المؤتمر العام في ردهة داخلية من ردهات القصر بحضور الأمير ووزرائه المدنيين ومندوبي سكسونيا وزيورخ وستراسبورج وبازل وبعض العلماء الأجانب. وقد وُضعت منضدة للاهوتيين الأربعة لوثر وزونجلي وملانكتون وأكولامبديوس، الذين إذ اقتربوا إليها تناول لوثر قطعة من الطباشير وخط بها في الحال على مفرش المنضدة القطيفة بحروف كبيرة جملة «هذا هو جسدي». فقد أراد أن تكون هذه الكلمات أمامه باستمرار حتى لا تتزعزع ثقته، وحتى يتقهقر أمامها خصومه أو كما قال "أي نعم. هذه هي كلمات المسيح ومن هذه الصخرة لن يزحزحني خصم".

وأخيرًا التأمت جميع الأحزاب، وافتتح المؤتمر مستشار أمارة هيس، فأوضح الأسباب التي دعت للاجتماع والغرض منه، ونصح المتخاصمين بالتزام الاعتدال المسيحي والعمل على إعادة الوحدة والسلام. وهنا وقف لوثر، وبدلاً من أن يدخل حالاً في موضوع الأفخارستيا، أصر على التفاهم قبل كل شيء على مسائل أخرى تتعلق بقانون الإيمان، كألوهية المسيح والخطية الأصلية، والتبرير بالإيمان، ... الخ، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن السويسريين ليسوا أصحاء في هذه المسائل وأخرى خلافها. فما عساه يا ترى كان غرض لوثر في محاولته توسيع دائرة الجدل بهذا الشكل؟ هذا ما لا يحق لنا القول به، ولكن السويسريين أجابوا بأن كتاباتهم تحمل الشهادة الكافية بأنه لا خلاف بينهم في جميع هذه الأمور. فأبدى أمير هيس الذي كان عليه مسئولية توجيه الاجتماع إشارة الموافقة على ذلك، فأضطر لوثر لأن يتنازل عن مشروعه، ولكنه بطبيعة الحال كان غاضبًا ومضربًا في أفكاره، فقال "إني أحتج بأني أخالف خصومي فيما يتعلق بالأفخارستيا، وسأظل مخالفًا لهم. لقد قال المسيح «هذا هو جسدي» فليروني أن الجسد ليس جسدًا، أنا أرفض العقل والحجج المادية والبراهين الرياضية. الله فوق الرياضيات. إن لدينا كلمة الله ويجب علينا أن نحترمها وننفذها".

بهذه الصورة بدأت تلك المناظرة المشهودة. لقد كتب السكسوني العنيد عبارته على قطيفة المنضدة، وها هوذا الآن يُشير إليها قائلاً "لن يستطيع أي شيء أن يزحزحني عن المعنى الحرفي لهذه الكلمات، ولن أصغي إلى العقل أو المعقول وكلمات الله أمامي". ولنلاحظ أن هذا كله عمله لوثر وقاله قبل أن تبدأ المداولات، وقبل أن يتقدم أحد بحجة واحدة في موضوع المناقشة، وقد كان هذا التصريح منه، مقترنًا بما عُرف عنه من عناد، كافيًا لأن يبدد كل أمل في الوصول بالمؤتمر إلى نهاية مرضية.

ولكن السويسريين رغمًا عن موقف لوثر الدكتاتوري لم يرفضوا الدخول في المناقشة. لا شك أنهم كانوا يعرفون طاقته، ولم يعبأوا كثيرًا بتأكيداته المتصلفة، ومن المرجح أنه لم يخطر على بالهم قط إمكانية تحويله عن موقفه. فأجاب أكولامبديوس بلطف أنه لا يمكن إنكار أن هناك عبارات مجازية في كلمة الله، كالقول عن يوحنا «هذا هو إيليا» أو «والصخرة كانت المسيح» أو «أنا هو الكرمة». فأجاب لوثر وقال إنه يُسلم بوجود عبارات مجازية في الكتاب، ولكنه يُنكر أن العبارة الأخيرة مجازية.

وهنا قام أكولامبديوس وذكّر لوثر بقول الرب في يوحنا ٦:٦٣ «الروح هو الذي يحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئًا»، وأن المسيح الذي قال لأهل كفر ناحوم إن الجسد لا يفيد شيئًا قد استبعد بهذه الكلمات أكل الجسد الحرفي، ولذلك لا يمكن أنه يثبته في فريضة العشاء.

فأجاب لوثر بحدة قائلاً: "إني أنكر القسم الثاني من هذه النظرية. هناك أكل مادي لجسد المسيح، وهناك أكل روحي لهذا الجسد، والأكل الأول هو الذي قال عنه المسيح أنه لا يفيد شيئًا".

فأجاب أكولامبديوس أن هذا في الواقع تسليم بصحة النظرية، لأن معناه أننا نأكل روحيًا، وإذا كان الأمر كذلك فنحن لا نأكل

جسديًا، لأن الأكل الجسدي في هذه الحالة لا فائدة منه. فرد لوثر قائلاً: "إننا لا نسأل عن وجه المنفعة. كل ما يوصي به الله يصبح روح وحياة، فإذا كنا بأمر الرب نرفع قشة فنحن بنفس هذا العمل نكون عاملين عملاً روحيًا. يجب أن ننتبه إلى المتكلم وليس إلى ما يقوله - الله يتكلم فلتنصت الكائنات! الله يأمر فليطع العالم! ولنسقط جميعنا على وجوهنا ونقبل الكلمة بتواضع".

وهنا نرجو أن نُبدي ملاحظة هامشية، فنقول إنه لا يوجد أساس مطلقًا للظن بأن مسألة الأفخارستيا مشار إليها في الأصحاح السادس من إنجيل يوحنا، لأن هذه الفريضة لم تكن قد رُسمت بعد. أما موضوع هذا الأصحاح فهو تجسد المسيح وموته وصعوده. هذه هي الحقائق الجوهرية التي كان الرب يبسّطها لليهود في هذا الأصحاح كالوسيلة الوحيدة لنوال الحياة الأبدية وكل بركة روحية. وكما قال آخر في تفسيره "إن ذاك الذي هو نفسه الحياة الأبدية التي كانت عند الآب قبل كون العالم قد صار جسدًا. ليس فقط لكي يُعلن الآب ويكون المثال الكامل للطاعة كإنسان، بل لكي يموت بالنعمة لأجل كل واحد، ويسوي مسألة الخطية نهائيًا ممجدًا الله بالتمام مهما كانت الكُلفة على الصليب «إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض (كما علّمنا هو نفسه) وتمُت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير» (يو ١٢: ٢٤)، فموته ليس منظورًا إليه هنا كتقدمة لله كما هو الحال في مواضع أخرى كثيرة، ولكن المقصود هو امتلاك المؤمن لهذا الموت وتخصيصه لنفسه، وأكله وهضمه ومزجه بكل كيانه. هو وحده الحياة وليس سواه، ولكن ليس في حالة كونه حيًا بل مائتًا لأجلنا، لكي تكون لنا حياة معه وفيه ثمرة لفدائه، حياة أبدية كشيء أكيد راهن، ولكن لا يمكن دراكه تمامًا سوى في قوة القيامة التي تحققت وشوهدت في شخصه صاعدًا كإنسان إلى حيث كان أولاً كالله، وبعد قليل ستُشاهد فينا في اليوم الأخير عندما نظهر معه في المجد. إذًا فيسوع نازلاً إلى الأرض، ممالتًا في الجسد، ثم صاعدًا ثانيًا إلى السماء، هو موضوع هذا الأصحاح. فالرب يسوع، كالذي نزل ومات، هو طعام الإيمان طيلة مدة غيابه في الأعالي، إذ بموته يجب أن نتغذى به لكي نثبت فيه روحيًا وهو فينا *».

والآن نعود إلى ماربرج.. عند هذه النقطة دخل زونجلي في المناقشة، فأحدث ارتباكًا شديدًا واضطرابًا هائلاً لنفس لوثر بحججه القوية المستمدة من الأسفار الإلهية والعلوم الإنسانية والحواس الطبيعية.. ولكنه اتخذ موقفه أولاً على أساس الكتب المقدسة، فبعد أن اقتبس عدة فصول فيها الرمز موصوف بنفس الشيء المرموز إليه استأنف الحجة التي بدأها أكولامبديوس في الصباح من الأصحاح السادس من إنجيل يوحنا، مستنتجًا في النهاية أنه بناء على تصريح سيدنا بأن الجسد لا يفيد شيئًا صار لزامًا علينا أن نفسر كلمات الأفخارستيا بنفس هذه الكيفية.

ورد لوثر: "عندما يقول المسيح إن الجسد لا يفيد شيئا فهو لا يقصد جسده ولكن جسدنا نحن".

زونجلي: "إن النفس تتغذى بالروح وليس بالجسد".

لوثر: "إننا بالفم نأكل الجسد وليس بالنفس. فنحن نأكله روحيًا بالنفس".

زونجلي: "إذاً المسيح غذاء جسدي وليس روحيًا".

لوثر: "أنت معاكس".

زونجلي: "ليس كذلك. ولكنك تنطق بأمور متناقضة".

لوثر: "إذا قدّم لي الله تفاحًا بريًا فعليّ أن آكله روحيًا. وفي الأفخارستيا الفم يقتبل جسد المسيح والنفس تؤمن بكلامه".

وقد ظهر اضطراب كثير وتناقص شديد في أقوال لوثر، حتى كأن الكلمات «هذا هو جسدي» كان يجب أن تؤخذ لا مجازيًا ولا حرفيًا، ومع ذلك هو يريدها أن تؤخذ بالصورتين. وهنا رأى زونجلي أن المسألة قد وصلت إلى حد السخافة، وأنه لا خير يُرجى في متابعة مناقشة من هذا النوع. أما هو فكان يعتقد بحسب نظرته الأوسع إلى الأسفار الإلهية أن خبز وخمر الأفخارستيا ليسا هما نفس جسد ودم يسوع المسيح الحرفي، ولكنهما فقط يمثلان جسده المبارك ودمه.

ولكن لوثر لم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه، فصاح قائلاً: «هذا هو جسدي» مشيرًا بإصبعه إلى الكلمات المكتوبة أمامه ""هذا هو جسدي، ولن يستطيع الشيطان نفسه أن يزحزحني عن ذلك. أما محاولة إدراك هذا الأمر وفهمه فمعناه الارتداد عن الإيمان".

ولكن وإن كانت المناقشة لم تُحدث تأثيرًا طيبًا في ذهن لوثر، فإن كثيرين من السامعين تأثروا غاية الأثر ببساطة حجج زونجلي

* لفهم هذا الموضوع بأكثر إيضاح أنظر مجلة «خزانة الكتاب»[٧١] مجلد ١٠ ص ٢٥٧ و«مذكرات مختصرة على الكتب المقدسة» لداربي[٧٢] مجلد ٣.

ووضوحها، وتفتحت أذهان كثيرة لقبول الحق الخاص بهذا الموضوع الخطير، ففرنسيس لامبرت، كبير لاهوتي هيس، الذي طالما أعلن تمسكه بتعليم لوثر الخاص بالأفخارستيا، كان من أبرز الشخصيات التي تحولت إلى رأي زونجلي. كان من أعظم المعجبين بلوثر، ولكن ضميره حركه لأن يعترف بالحق فوقف وقال "عندما أتيت إلى هذا المؤتمر أتيت ونيتي أن أبقى كصفحة بيضاء يكتب عليها الله حقه بإصبعه، وها أنا الآن أرى أن الروح هو الذي يُحيي وأن الجسد لا يفيد شيئًا. إني أؤمن بما يؤمن به أكولامبديوس وزونجلي". كان ذلك صدمة لدكاترة وتمبرج اغتموا لها أكبر اغتمام، ولكنهم حاولوا أن يصرفوها بالصياح قائلين "تذبذب فرنسيسكاني!"، فأجابهم قائلاً: "ماذا؟ هل كان بولس الرسول متذبذبًا لأنه تحول عن الفريسية؟ وهل كنا نحن أنفسنا متذبذبين عندما تركنا مذاهب البابوية الضالة؟". وهنا ساد الشغب في القاعة، ولكن ساعة رفع الجلسة كانت قد أزفت، فانصرف المتنازعون وخرجوا للغذاء مع الأمير.

وفي جلسة بعد الظهر أستأنف لوثر المناقشة فقال: "إني أؤمن أن جسد المسيح في السماء، ولكني أؤمن أيضًا أنه موجود في الأفخارستيا، ولا يعنيني كثيرًا إذا كان ذلك مضادًا للطبيعة ما دام ليس مضادًا للإيمان. إن المسيح موجود ماديًا في العشاء الرباني كما ولد من العذراء تمامًا".

فأجاب أكولامبديوس مقتبسًا كورنثوس الثانية ٥:١٦ «نحن لا نعرف أحدًا حسب الجسد. إن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد».

فأجاب لوثر إن «حسب الجسد» في هذا الفصل معناها "حسب عواطفنا الجسدية".

فقال زونجلي "إذًا أجبني يا دكتور لوثر: إن المسيح قد صعد إلى السماء، فإذا كان هو في السماء باعتبار جسده فكيف يكون في الخبز أيضًا؟ إن كلمة الله تعلمنا أنه يشبه إخوته في كل شيء (عب ٢:١٧)، فهو بناءً على ذلك لا يمكن في نفس اللحظة أن يكون على كل مذبح من آلاف المذابح التي تقدم عليها الأفخارستيا".

فأجاب لوثر "لو كنت أرغب أن أتناقش على هذه الطريقة لكان ذلك تعهدًا مني أن أبرهن أن المسيح كان له زوجة وإنه كان له عينان سوداوان وأنه عاش في بلادنا العزيزة ألمانيا. إني لا أعبأ كثيرًا بالرياضيات".

فأجاب زونجلي "إن المسألة هنا ليست مسألة رياضيات بل مسألة قول الرسول بولس للفيلبيين إن المسيح أخذ صورة عبد وصار في شبه الناس".

وإذا رأى لوثر نفسه في خطر التزحزح عن مركزه الأصلي طار راجعًا في الحال إلى كلماته الثلاثة قائلاً "سادتي الأعزاء، ما دام ربي يسوع المسيح يقول هذا هو جسدي فأنا أؤمن أن جسده حقيقة هناك".

وهنا كان قد وصل زونجلي إلى حالة ضيق شديد بسبب عناد لوثر وتشبثه بأفكاره رغمًا عن كل دليل وبرهان، فانطلق مسرعًا نحوه وضرب بيده على المنضدة قائلاً له "أنت تعتقد إذًا يا دكتور أن جسد المسيح موجود ماديًا في الأفخارستيا لأنك تقول أن جسد المسيح هناك - هناك - هناك. وهناك ظرف مكان، فجسد المسيح إذًا من خواصه أن يوجد في مكان، فإذا كان في مكان فهو في السماء. وعلى ذلك هو ليس في الخبز".

فأجاب لوثر بحماسة "إني أكرر القول أنه لا شأن لي بالبراهين الرياضية، فحالما يُنطق بكلمات التقديس على الخبز فالجسد يكون هناك مهما كان الكاهن شريرًا الذي ينطق بهذه الكلمات".

ليلاحظ القارئ هذا القول أنه لا شك تجديف مرعب، ولو أنه غير مقصود، من ذلك الرجل المحبوب، إذ بناءً على هذا التعليم يتحتم على الرب، أراد أو لم يرد، أن ينزل إلى خبز الكاهن بمجرد أن يتمتم بكلمات التقديس، مهما كان هذا الكاهن شريرًا. هذه هي البابوية في أوقح تجديفاتها.

وإذ شعر الأمير بأن المناقشة كانت تزداد حدة، اقترح استراحة قصيرة. والواقع أنه عندما يكون المنطق السليم والإخلاص والاعتدال في جانب واحد لا تكون هناك فائدة من الاستمرار في المناقشة، فقد أثبت زونجلي وأكولامبديوس معتقدهما من الكتاب وبالفلسفة وبشهادة أقدم الآباء، ولكن هوذا كل ذلك قد قوبل بالجواب الواحد الذي لا يتغير «هذا هو جسدي»، وكأن لوثر أراد في النهاية أن يُهين السويسريين ويغيظهم فقبض على غطاء القطيفة المكتوب

عليه هذه الكلمات وشده من على المنضدة ورفعه بيده أمام عيونهم قائلاً: "انظروا. انظروا. هذا هو نصنا. وأنتم للآن لم تحولونا عنه كما كنتم تفاخرون، ونحن لا تهمنا أية براهين أخرى".

بعد إظهار مثل هذا الضعف والعناد مع الادعاء بالعصمة، لم يبقَ هناك أي أمل في جذب لوثر من معقله ولا فائدة ترجى من استمرار المؤتمر. ومع ذلك فقد استؤنفت المباحثات في صباح اليوم التالي، ولكن في نهاية اليوم لم تكن الأحزاب المتخاصمة أقرب إلى الصلح والوئام. وقد انتشر في ذلك الحين مرض وبائي في ألمانيا ووصل إلى ماربرج أثناء انعقاد المؤتمر، فكان ذلك مدعاة بلا شك لتعجيل نهاية المؤتمر. ولقد كان انتشار الوباء مزعجًا ومخيفًا، حتى امتلأ الجميع بالرعب ورغبوا في ترك المدينة بأسرع ما يمكن.

فوقف الأمير وقال متأثرًا "أيها السادة. لا يمكن أن تتفرقوا بهذه الصورة. ألا يمكن عمل أي شيء لجبر الكسر؟ أيتحتم أن نقطة الخلاف الواحدة هذه تقسم أصدقاء حركة الإصلاح انقسامًا نهائيًا؟". وقال المستشار: "ألا توجد طريقة بها يصل اللاهوتيون إلى تفاهم كما هي رغبة الأمير وشوق قلبه؟". فأجاب لوثر: "لا أعرف إلا طريقة واحدة للوصول إلى ذلك، وهي أن يؤمن خصومنا بما نؤمن به نحن". فأجاب السويسريون "نحن لا نستطيع ذلك". فقال لوثر: "إذًا فأنا أترككم لقضاء الله وأصلي إليه لكي ينيركم". فأجاب أكولامبديوس: "ونحن سنفعل كذلك لأجلكم". أما زونجلي فكان أثناء تبادل هذه العبارات جالسًا صامتًا لا يتحرك، وفي حالة تأثر عميق. وأخيرًا لم يستطع أن يملك عواطفه، فانفجر بالبكاء أمام الجميع.

اقتراح للتسامح والوحدة

هكذا انتهى المؤتمر دون التقدم خطوة واحدة صوب اتحاد الآراء، فسعى فيليب وبعض الوسطاء في أن يوجِدوا ولو على الأقل روح التفاهم المتبادل بين الطرفين، فدعا اللاهوتيين واحدًا بعد الآخر إلى غرفته الخاصة، وهناك خاطبهم بكل وسائل الإقناع والتوسل، تارة بالتحذير والإنذار، وتارة بالنصح والإرشاد. وأخيرًا استحلفهم داعيًا إياهم للتفكير في خلاص المسيحية وانتزاع التنافر من أحضانها، وأراهم خطورة الموقف من الوجهة السياسية، فشارل الخامس كان متحدًا مع البابا في إيطاليا، وفرديناند والأمراء الكاثوليك كانوا متحدين في ألمانيا، ولم يبق إلا أن يتحد جميع البروتستانت، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لحفظ كيانهم إزاء هذه الحالة التي تهددهم. ذلك ما كان يعتقده فيليب فجاهد كثيرًا للوصول إليه. ولكن عناد لوثر وتصلبه أفسد عليه الطريق ووقف حجر عثرة في سبيله.

أما السويسريون فقد أظهروا كل استعداد وترحيب قلبي لتلبية نداء الأمير والوصول إلى تحقيق رغبته، حتى قال زونجلي "دعونا نعترف باتحادنا في كل ما نحن متفقون عليه. أما المسائل الباقية فلنتخذ إزاءها موقف التسامح متذكرين أننا إخوة، وخاصة لأنه فيما يتعلق بضرورة الإيمان بالرب يسوع كوسيلة الخلاص الوحيدة لا يوجد بيننا أقل خلاف". فصاح الأمير متهللاً "نعم.. نعم.. أنتم متفقون. فقدّموا إذًا الدليل على اتحادكم واعترفوا بعضكم لبعض بأنكم إخوة". فتقدم زونجلي في الحال نحو دكاترة وتمبرج وهو يقول "إني أرغب من كل قلبي في الاتحاد معكم أكثر مما أرغب في الاتحاد مع أي مخلوق آخر على الأرض". وردد هذا الكلام أكولامبديوس وبوشر وهديو.

وقد بدا في تلك اللحظة أن هذه الحركة المسيحية الحقة ستأتي بالثمر المطلوب، وقد تأثرت فعلاً قلوب الكثيرين حتى من السكسونيين، واستمر الأمير مناديًا "اعترفوا بهم كإخوة". حتى أن لوثر نفسه بدا كأنه قريب من التسليم، وهنا كأن عين زونجلي الحادة رأت أن ما كان يرجوه لم يكن إلا شيئًا من التسامح، فانفجر بالدموع - دموع الفرح - واقترب من لوثر مقدمًا إليه يده ومتوسلاً إليه أن ينطق فقط بكلمة "أخ". ولكن يا للأسف، فإن ذلك القلب المتأجج بالفرح والأمل لم يلقَ إلا الخيبة القاسية، فبينما جميع العيون كانت تشخص إلى الزعيمين، وكل القلوب يملؤها الرجاء بأن عائلتي الإصلاح على وشك التصافح والاتحاد، وإذا بلوثر يرفض بفتور تلك اليد التي تقدمت إليه، مجيبًا على زونجلي بهذه العبارة الجارحة "إن لك روحًا تختلف عن روحنا". وكأنه يقول إن روحنا من الله وأما روحك فمن الشيطان!

ويقول دوبيني في وصف هذا المشهد المؤلم إن هذه العبارة وقعت على السويسريين وقع الصاعقة، وكان قلبهم ينفطر حزنًا كلما كررها لوثر، وكثيرًا ما كررها. وفي هذا يقول كننجهام "إن رفض لوثر أن يصافح زونجلي حتى جعل ذلك الرجل النبيل الشجاع ينفجر بالبكاء والدموع كان عملاً مذلاً ومؤسفًا للغاية،

وفي الوقت نفسه كان درسًا خطيرًا وصورة من أفظع ما شهد العالم من خداع الخطية والقلب البشري"(٤/٤٤)(٧٢).

وقد أعقب ذلك مداولة صغيرة بين دكاترة وتمبرج لم تأت بفائدة ما، تحولوا بعدها إلى زونجلي ورفاقه وقالوا لهم "إننا نؤمن بأن وجود جسد المسيح الحرفي في الأفخارستيا أمر جوهري لنوال الخلاص، ولذلك لا يمكننا بضمير صالح اعتباركم في شركة الكنيسة". فأجاب بوشر قائلاً "إذًا فقد كان من الغباوة أن نطلب إليكم الاعتراف بنا كإخوة، ونحن نعتقد أن تعليمكم هذا يمس مجد الرب يسوع الذي هو الآن جالس عن يمين الله في الأعالي. على أننا إذ نعلم أنكم في كل شيء تعترفون باتكالكم على الرب فإننا نحترم ضمائركم التي تضطركم لأن تقبلوا التعليم الذي تعترفون به، ولا نشك في أنكم للمسيح". فأجاب لوثر "ونحن نعلن مرة أخرى بان ضمائرنا لا تسمح لنا بقبولكم كإخوة". فأجاب بوشر "هذا حسن يا دكتور، ولكنكم إذا رفضتم التسليم بأن الذين يخالفونكم في أية نقطة هم إخوة لكم فلن تجدوا أخًا واحدًا في صفوفكم".

وهنا شعر السويسريون أنه قد نفدت كل وسيلة للوصول إلى اتفاق وأن جميع توسلاتهم قد ضاعت سُدى، فقالوا "إننا نعلم يقينًا أننا تصرفنا في كل شيء كما في حضرة الله". وكانوا على وشك الانصراف. ونظرًا لما أبدوه في كل مرحلة من مراحل هذه المناقشة من روح مسيحية صحيحة، فإن الشعور العام في المؤتمر صار في جانبهم وجانب مبدئهم. وإذا أحس لوثر بذلك، وخصوصًا لما لاحظه من حنق الأمير، أظهر شيئًا كثيرًا من المرونة، وتقدم إلى السويسريين قائلاً: "نحن نعترف بكم أصدقاء، ولا نعتبركم إخوة وأعضاء في كنيسة المسيح، ولكننا لا نستثنيكم من المحبة العامة التي نحن مدينون بها حتى لأعدائنا".

ومع أن هذا التنازل لم يكن إلا إهانة جديدة، فإن السويسريين صمموا على قبول ما قدّم لهم بدون زيادة جدال، وتصافحوا هم والسكسونيون متبادلين مع بعضهم البعض كلمات المودة والصداقة. فطرب الأمير للوصول إلى هذه النتيجة الكبيرة، وطلب في الحال تدوين محضر بهذه النتيجة السارة، قائلاً: "يجب أن يفهم العالم المسيحي أنه فيما عدا مسألة حلول الجسد والدم في العشاء الرباني فإنكم متفقون على جميع قوانين الإيمان". فوافقوا على ذلك، وتعين لوثر لتحضير قوانين الإيمان البروتستانتي.

وعلى أثر ذلك وضع لوثر صيغة الاتفاق، وهي تحتوي على أربع عشرة مادة أغلبها ذات صفة عامة، كالثالوث الأقدس، والتجسد، والقيامة، والصعود، والخطية الأصلية، والتبرير بالإيمان، وسلطان الكتب المقدسة، ورفض التقاليد. وأخيرًا عشاء الرب الذي وصفه بأنه شعور روحي بذات جسد ودم الرب يسوع المسيح. وكانت كلما قُرئت مادة من المواد الثلاث عشرة الأولى قال السويسريون بكل قلوبهم آمين. ومع أن الصيغة التي وُضعت فيها المادة الرابعة عشّرة كانت غير مقبولة لديهم، ولكن بما أنها كانت مبهمة وقابلة لتفاسير مختلفة فقد اتفقوا على التوقيع على الاتفاق بدون زيادة مناقشة. وقد أمضيت هذه الوثيقة الكبرى من الطرفين في ٤أكتوبر سنة ١٥٢٩م، وتجلت الرغبة في أن يتبادل الجميع روح المحبة المسيحية واجتناب كل مرارة وتحزب في التمسك بما يعتقد كل فريق أنه حق الله.

وأرسل قرار ماربرج للطبع والنشر، وقد أعطى ظهوره حجة للسكسونيين أن يقولوا إن السويسريين أقروا مبدأ لوثر وأمضوه، وإنهم سحبوا جميع أخطائهم ما عدا مسألة الأفخارستيا، وحتى هذه كانوا على استعداد أن يوافقوا عليها لولا خوفهم من جماهير العامة، وإنهم لم يقدموا حجة واحدة ضد نظرية لوثر سوى عدم مقدرتهم على تصديقها والإيمان بها. وقد طيرت أخبار مثل هذه إلى جميع أنحاء ألمانيا، ولكنها كانت طبعًا كلها أخبارًا كاذبة، إذ لا بد أن القارئ قد لاحظ أن شجاعة السويسريين وثقتهم كانت تزداد كلما تقدمت المناقشة، وأن اعتدالهم ولطفهم كانا أفعل في النفوس من غطرسة وكبرياء خصومهم.

وفي يوم الثلاثاء ٥أكتوبر، أي عقب المؤتمر، سافر الأمير من ماربرج مبكرًا وتبعه اللاهوتيون وأصدقاؤهم، ولكن كم الحق الذي استخلص والآراء التي أبديت شاعت في ألمانيا، وتحولت قلوب كثيرة إلى بساطة العهد الجديد فيما يتعلق بعشاء الرب.

تأملات في مؤتمر ماربرج

بشعور الشكر العميق والتذلل القلبي الصحيح نقف هنيهة لنتأمل في المشاهد الأخيرة التي وقعت في ماربرج. أما الشكر العميق فلله الذي استخدم هذه المناقشات لنشر حق الكتاب الخاص بعشاء الرب، وأما التذلل فللتناقض الغريب الذي ظهر من واحد

كان له مثل هذا التأثير القوي.

فالتعاليم التي كان ينادي بها السويسريون بكل بساطة ووضوح كانت إلى ذلك الوقت غير معروفة جيدًا في ألمانيا، بينما نظرية "ازدواج المادة" التي كان ينادي بها لوثر وأتباعه جعلت المعنى الحقيقي لهذه الفريضة المقدسة والغرض منها غير معروفين. ولذلك فإن الحقائق التي اكتُشفت حديثًا عقب ذلك المؤتمر أثارت اهتمامًا شديدًا في طول البلاد وعرضها، واعتنقها جمهور عظيم من الناس وانتشرت بسرعة في كل ألمانيا، وكانت سبب بركة أبدية لآلاف من النفوس الثمينة. فقد رأينا أن لامبرت اعتنق مبدأ زونجلي، والأمير نفسه صرح قبل وفاته بقليل أن المؤتمر أقنعه برفض ضلالة ازدواج المادة، وهكذا حول الله في حكمته وصلاحه هذه المجادلات الغبية لانتشار الحق وإتمام أغراضه الكريمة ومقاصد نعمته الصالحة. فلوثر لم يكن يفكر كثيرًا في مقدار الفائدة والرحمة التي سيستخرجها الله من هذا المؤتمر، ففي الوقت الذي كان كل هم لوثر يدور حول سمعته الشخصية، كان الله يهتم بنشر الحق وتقدم حركة الإصلاح تقدمًا حقيقيًا.

ولكن ويا للأسف ما هو الإنسان المسكين الأناني، وأين لوثر الآن من لوثر الذي رأيناه في بدء حركة الإصلاح؟ كيف تغير ذلك القلب الكبير الذي كان متسعًا وسموحًا، وانحط هكذا سريعًا إلى الغطرسة المكشوفة وعدم الانقياد وراء الحق! الجواب على ذلك واضح، فهناك كان يقف لوثر لله بقوة الإيمان. أما الآن فإنه يقف بالكبرياء لنفسه كزعيم حزب، وهذا لا يفسر فقط التغير الغريب الذي لحق بروح لوثر، ولكنه يفسر أيضًا الفشل الذي وقع فيه كثيرون من الرجال الممتازين من ذلك التاريخ إلى الآن.

ففي مجمع ورمز ومواضع أخرى كان لوثر يقف وحده مجاهدًا في سبيل حق الله ضد أكذوبة الشيطان، ولكنه في ماربرج كان يقف مجاهدًا في سبيل أكذوبة الشيطان في صورة نظريته الجديدة ضد حق الله. قد يقول قائل إنه كان يجاهد في سبيل الحق بحسب ضميره. قد يكون ذلك صحيحًا ولكن يجب أن نتذكر أنه كان يقاوم كل بحث سلمي للوصول إلى الحق، كما كان يقاوم كل وسيلة منطقية للوصول إلى إدراك صحيح لمعنى الكلمات الثلاث «هذا هو جسدي» ولم يكن يعبأ إلا بشيء واحد، وهو الاحتفاظ بمركزه وتعزيز سلطانه الشخصي كرئيس حزب.

ولم يظهر في لوثر أو أي واحد من السكسونيين أي اهتمام بصالح الإنجيل عامة، أو بتقدم ونصرة حركة الإصلاح، وهكذا أفسدت عمل لوثر العظيم المبارك وشوهته عقيدة من أسخف وأجهل ما ظهر في تاريخ البشرية!

هذا وتتجلى في الرأي الآتي عن لوثر حقيقة مركز من يجعل من نفسه زعيم حزب في أمور الله، والخطر الذي ينشأ عن مثل هذه الزعامة، "لقد كان لوثر في ماربرج "بابا" بمعنى الكلمة، فباعتباره رئيس حزب الإنجيليين وقف موقف المستبد، ولتعزيز مثل هذا الموقف، أي موقف الزعامة في الأمور الروحية، يتحتم الادعاء بالعصمة. فإذا هو أذعن ولو مرة واحدة في أي مبدإ من المبادئ، وإذا هو سلّم ولو مرة واحدة بوقوعه في خطإ، فقد ضاعت شخصيته وذهب سلطانه، هذا في نظر العامة على الأقل. ولذلك كان لوثر بحكم مركزه الذي كان يعتقد أنه يشغله، أو الذي كان يريد أن يشغله، مضطرًا لأن يدافع بأعلى صوت وبأشد عناد عن كل عقيدة أو نظرية قد سبق فنادى بها للجمهور. وحقيقة الأمر أن لوثر فقد بصفة عامة نفوذه وسمعته بسبب هذه المجادلة، وبأسلوبه المتغطرس وسفسطته المتعمدة خسر عطف واحترام جزء كبير من المعجبين به من بين المتعلمين، وبدأ الكثيرون يشكون في مواهبه وصراحته. فبدلاً من روح التكريس والتضحية التي تميز بها جهاده الأول، كأن روحًا من التفاخر والكبرياء قد استولت على نفسه، وهكذا انشق إلى نصفين ذلك الرداء الذي لولا هذا الموقف المُشين لكان جمع كل ألمانيا وسويسرا في حظيرة واحدة مستديمة.

أما الآن فلم يعد لوثر كوكب حركة الإصلاح وعلمها الخفاق. وإذ انحدر من ذلك السمو اللامع الذي منه بعث النور لجميع أرجاء المسيحية الإنجيلية، لم يعد فيما بعد أكثر من رئيس حزب، كان بلا جدال أشهر وأقوى هيئه في صفوف المصلحين في ذلك الوقت، ولكنه كان مقضيًا عليه بأن يصاب بعد ذلك بعثرات ونقائص، انتهت أخيرًا بأن صار اسم لوثر يطلق على مجرد قسم صغير من العالم الإنجيلي" (٢/٦٧).

الفصل الثامن والثلاثون

مجمع بولونيا

كان آخر عهدنا بالإمبراطور والبابا أننا تركناهما يصرفان معًا شهور فصل الشتاء في بولونيا، وقد وصل إليها شارل في ٥ نوفمبر سنة ١٥٢٩م بموكب عظيم، وعندما جاءت الأخبار إلى روما بقرب مجيئه عجّل كليمنت لاستقبال جلالته بأفخم موكب ديني، كما كان في انتظاره خمسة وعشرون كردينالاً كانوا قد خرجوا لاستقباله على الحدود، بخلاف جمهور كبير من الأشراف الأسبان والإيطاليين بحاشياتهم ومواكبهم الرائعة الخلابة. وقد هال البابا حضور ابنه البار إلى روما فحياه ثلاث مرات، وتقدم الإمبراطور متظاهرًا بتقديم الخضوع الواجب "لأبيه المقدس" فسجد على ركبتيه مُقبلاً قدميه ويديه ووجنتيه.

هكذا كانت مقابلة عاهلي العالم المسيحي الروماني، تلك المقابلة التي كان الغرض منها البحث في أنجع الوسائل لاستئصال جذور الهرطقة التي نبتت في ألمانيا. وقد نبّر البابا بما يتفق وأخلاقه على ضرورة الإسراع في اتخاذ أشد الإجراءات، بينما أشار الإمبراطور، وهو المعضّد بجيش قوي، بضرورة التريث، مقترحًا تمهيد الفرصة لمناقشات حرة في مجمع عام حول الحالة الحاضرة في الكنيسة. أما كليمنت الذي كان أكثر ما يخافه مناقشة عامة لمثل هذه المواضيع، فقد استخدم كل الطرق لإقناع الإمبراطور بالعدول عن غرضه، مؤكدًا له أن تسامحه لن تكون له أية نتيجة سوى تشجيع الهراطقة وجعلهم يعتقدون في أنفسهم أنهم شيء، وأن الحالة في ألمانيا أصبحت حرجة وخطيرة، وتتطلب استعمال القوة وعوامل التأديب. ولكن سياسة الإمبراطور قادته إلى اتخاذ تدابير أخف وطأة، فمع أنه لم يكن في قلبه يتعاطف مع حركة الإصلاح أكثر من كليمنت، إلا أنه كان يزداد اقتناعًا كل يوم بأن التهديد لن يكسر شوكة البروتستانت، كما أنه لم يكن مستعدًا للدخول في حرب ضدهم. وعلى ذلك بذل كل جهد في إقناع البابا بضرورة عقد مجمع عام، ولكن البابا الغاضب لم يكن ليفكر في شيء سوى سحق أعداء الإيمان الكاثوليكي بالقوة المسلحة.

قد يبدو هذا التصرف من جانب البابا غريبًا. غير أن الذين عرفوا مبادئ البابوية لن يجدوا في الأمر غرابة، وإن كان التأمل فيه محزنًا ومذلاً. وقد سجل المؤرخ المنصف هذه المباينة المحزنة بين البابا والإمبراطور، إذ قال: "من جانب كان الأمير العسكري وهو المحبذ الطبيعي لوسائل التعسف والإجراءات الغاشمة، ومن جانب الآخر كان رجل الدين والسلام الممثل لإله الرحمة على الأرض. ومع ذلك فإن كل ما يمكن العثور عليه في هذه المناقشة من فضيلة وتقوى، من عدالة أو شبه عدالة، من أخلاق فاضلة أو كرم وعطف سياسي، من احترام لحقوق الإنسان أو سعادته، من اعتبار لمبادئ المسيح وتعاليمه الجلية - بالاختصار كل ما كان يُرجى صدوره من خادم السلام والمحبة - فاهت به شفتا العاهل العلماني، بينما التوصيات الصريحة باستخدام القسوة وسفك الدماء فاهت بها شفتا الكاهن الروحي"(٣٦٧).

ولكن البابا الماكر كان يعلم أن المصلحين كانوا ضعفاء ومنقسمين، ولذلك ضغط على شارل لكي ينفذ بلا إبطاء حكم ليو مع قرار مجمع ورمز. ولكن شارل لم يكن الرجل الذي يتنازل عن رأيه وإرادته، ولو لأبيه المقدس. فأصدر التعليمات لمستشاره جاتينارا أن يوضح رأيه ومقاصده للمجمع، فوقف هذا وقال: "إن الإمبراطور قد تتبع بحزن عميق الانشقاقات التي ظهرت في يومه، تلك الانشقاقات التي تبدو قسوتها آخذة في الازدياد بدلاً من النقصان، وإنه من بين جميع الواجبات التي فرضتها عليه

العناية الربانية لا يوجد أحب إلى قلبه من إعادة السلام والطمأنينة إلى الكنيسة. وهو يعتقد أنه لا توجد وسيلة أكثر ملاءمة للكنيسة ولا أليق بالبابا أو بملك مسيحي من انعقاد مجمع حر عام، الغرض منه البت في جميع المجالات الكنسية في ضوء الكتاب المقدس، وأن هذا المجمع يجب أن ينعقد حالاً ويضم بين أعضائه أشهر اللاهوتيين من جميع الممالك، وأن تكون المناقشات فيه بتمام الحرية، وأن تصبح قراراته، بعد موافقة البابا دستور العالم المسيحي، وتؤيدها السلطات المدنية إذا دعت الحالة".

أما كليمنت فكان ينظر إلى عقد مثل هذا المجمع بعين النفور والإشمئزاز، فإن إجراءات مجمعي بيزا وكونستانس التي خذلت البابوات بندكت الثالث عشر وغريغوري الثاني عشر ويوحنا الثالث والعشرين وأنزلتهم من على عروشهم أثارت مخاوفه، علاوة على ما كان عنده من أسباب شخصية تدعوه للتخوف من مجمع مسيحي عام كهذا، فأجاب قائلاً إن "المؤتمرات الكبيرة لا تؤدي إلا إلى إدخال مبادئ وآراء شعبية علمانية، وأنه ليس بقرارات المجامع بل بحد السيف يجب أن يفصل في المجادلات". ولكنه وعد مع ذلك بأن يفكر في الأمر.

مجمع أوجسبرج

وأخيرًا انتهى الإمبراطور إلى نتيجة حاسمة، وهي أنه ليس من العدل أو الإنصاف مسايرة مجلس الفاتيكان وانتهاك قوانين ألمانيا بالحكم على مواطنين معتبرين لم تُسمع أقوالهم، وإعلان الحرب ضدهم. وبناءً على ذلك أرسل في شهر يناير سنة ١٥٣٠م رسائله إلى أنحاء ألمانيا يدعو إلى عقد مجلس الإمبراطورية في أوجسبرج في أبريل القادم.

وفي نفس الوقت أثناء وجوده في بولونيا أظهر رغبته في أن يتوج بواسطة البابا كما حدث مع كثيرين من أسلافه، وعين يوم ٢٢ فبراير لاقتبال التاج الحديدي كملك لومبارديا، ويوم ٢٤ من الشهر ذاته لاقتبال التاج الذهبي كإمبراطور الرومانيين، وهو اليوم الذي كان يوافق عيد ميلاده وعيد ذكرى موقعة بافيا.

ونحن نذكر هذه الحقيقة لأن شارل أصبح رجلاً آخر بعد أن ختم تعهدات تتويجه بيمين كاذبة. فبعد أن مسحه البابا بالزيت وسلمه الصولجان، قدم له سيفًا مسلولاً من غمده قائلاً له: "استخدم هذا السيف في الدفاع عن الكنيسة". ثم سلّمه الكرة الذهبية المرصعة بالجواهر وقال له: "أحكم العالم بالتقوى والحزم". ثم جاء دور التاج الذهبي المرصع بأحجار الماس، فانحنى شارل ووضع كليمنت التاج على رأسه قائلاً: "شارل، الإمبراطور الذي لا يُقهر! تقبل هذا التاج الذي نضعه على رأسك علامة لكل الأرض على السلطان الممنوح لك". وهنا قبّل الإمبراطور الصليب الأبيض المنقوش على كُم البابا الأرجواني وقال: "إني أقسم أن أستخدم على الدوام كل قوتي للدفاع عن السيادة البابوية وعن كنيسة روما". ولكن شارل لم يكن في ذلك الوقت يميل إلى استخدام السلطان المستبد ضد حركة الإصلاح، ولا كان قادرًا على اقتحام الأمور بهذا العتو، الأمر الذي كان يرغب فيه البابا بكل قلبه. فمنذ ثلاثة عشر عامًا والرب يسود بكلمته العليا على مجامع الملوك والباباوات، ويُسخّر كل العوامل والحوادث لإرادته الصالحة، حتى نجت حركة الإصلاح من كل ما كان يوجّه ضدها من مكائد ومؤامرات، وكان يغذيها بنعمته حتى تثبتت تدريجيًا على ذلك الأساس الراسخ الذي لم يكن ممكنًا لقوة بشرية أن تتغلب عليه. وأننا نرى بكل جلاء أن يد العناية الصالحة كانت تعمل في تلك اللحظة لحماية المصلحين من قسوة البابا وسلطان الإمبراطور، فإن المنافسة القائمة من عهد بعيد بين شارل الخامس وفرنسيس الأول، ودسائس الباباوات بين هذين الملكين، وتهديد الأتراك المتحفزين للتقدم والهجوم على الحدود، كل هذه العوامل طالما استخدمها الله لسلام وتقدم حركة الإصلاح. ولا عجب، فالعمل كان عمله وهو كان ساهرًا عليه.

اعتراف أوجسبرج

بعد أن عرفت الأسباب التي من أجلها أراد الإمبراطور عقد المؤتمر، أصدر المنتخب التعليمات إلى لوثر وصحبه أن يعدّوا صيغة اعتراف تبين مبادئ حركة الإصلاح، فإلى ذلك الوقت لم يكن قد نُشر شيء عن قانون إيمان المصلحين، وبما أن الإمبراطور كان محاطًا بكل أنواع الأفكار المتعصبة وتفاسير البابوية المغلوطة، لم يكن هناك من أمل في إزالة هذا التعصب وإعمال وجه العدالة سوى بإذاعة وثيقة تتضمن بيانًا جليًا لمبادئ حركة الإصلاح وأغراض المصلحين الحقيقية. وعلى أثر ذلك راجع لوثر بمساعدة ملانكتون واثنين آخرين السبع عشرة مادة التي كانت قد تقررت

وأمضاها الحزب اللوثري في شواباخ سنة ١٥٢٩م. وإذ رأوا أنها وافية بالغرض قدموها للمنتخب أثناء وجوده في تورجو حتى أصبحت تعرف باسم "مواد ترجو". وعلى أساس هذه المواد أعد ملانكتون، بأمر وتفويض من الأمراء، بيانًا أوفى وأدق لتعاليمهم وفرائضهم، موضّحًا أسباب معارضتهم لباباوات روما. ومن ذلك التاريخ أصبحت هذه الوثيقة تعرف باسم "اعتراف أوجسبرج".

وقد كانت مادة هذا الاعتراف الشهير من وضع لوثر، غير أنه عهد بمراجعتها وتنقيحها إلى قلم ملانكتون المعتدل، حيث قال لوثر "لقد وُلدت لأكون مجادلاً عنيفًا خشنًا. إني أمهد الأرض وأنقيها وأجعلها مستوية. أما البناء والغرس والزرع والسقي والتجميل فبنعمة الله من اختصاص فيليب ملانكتون". ولما كان غرض الإمبراطور من عقد المؤتمر هو الوصول إلى الاتفاق والوئام الديني، كان من الضروري أن يُصاغ الاعتراف بأسلوب لا يسيء البابويين، وفي الوقت نفسه لا يتعارض مع الأمانة لله ولحقه. وقد أشار المنتخب التقي على اللاهوتيين أن يفرقوا بين المواد التي يتحتم الاحتفاظ بها مهما كان الأمر، وبين المواد التي قد يمكن إذا دعت الضرورة تعديلها أو التنازل عنها، ولذلك بينما كان هذا الاعتراف الشهير معلنًا للحق كما يؤمن به جميع البروتستانت، كان في الوقت نفسه أقل ما يتمسكون به حبًا في السلام، وليس أسمى ما كان ممكنًا أن يقدموه على أساس كلمة الله وسلطانها.

وكلما كان يقترب موعد انعقاد المؤتمر كانت تزداد مخاوف بعض الأمراء بشأن مقاصد الإمبراطور الحقيقية وسلامة المنتخب، الذي كان الأول بين أمراء ألمانيا، والأول في إيمانه بالله ومحبته لحركة الإصلاح ومقاومته للبابوية، وفي تعهده بحماية لوثر من الانتقام البابوي أو الإمبراطوري، ولكنه مع ذلك سلك سبيل الحكمة والجرأة، فكان أول الأمراء الذين وصلوا إلى أوجسبرج.

وقد تأجل افتتاح المؤتمر إلى أول مايو، ووصل المنتخب في الثاني منه، تحف به حاشية عسكرية من مائة وستين فارسًا وكثيرين من أقطاب اللاهوتيين في بلاده. أما لوثر فقد بقي في كوبرج، ذلك لأن المنتخب خشي أن حضور لوثر في المؤتمر قد يُثير البابويين، ويدفع شارل إلى اتخاذ إجراءات صارمة لأنه كان محرومًا من البابا ومدانًا من الإمبراطور، ومعتبرًا السبب في كل هذه المشاكل والانقسامات المستعصية، ولكن المنتخب رأى ضرورة وجود لوثر في مكان قريب، لكي يتسنى له الاتصال به واستطلاع رأيه.

وقد كان حوالي ذلك الوقت أن نشر لوثر كتابه في تعليم أصول الدين المسمى "الأكبر والأصغر" المعمول به للآن في الكنائس اللوثرية، وكانت تصل إليه أخبار المؤتمر تباعًا في كوبرج، ويبدي فيها آراءه وإرشاداته برسائله العديدة. وقد نشر أيضًا قبيل افتتاح المؤتمر "احتجاجًا للروحانيين المجتمعين في أوجسبرج" الغرض منه تبرير موقف المصلحين وإنكار التهم الباطلة الموجهة إليهم، وتبيان مساوئ البابوية كموضوع معارضتهم المستمرة.

وفي ١٢مايو حضر فيليب أمير هيس وفي ركابه ١٩ فارسًا، وفي الوقت نفسه وصل الإمبراطور إلى إنسبروك في التيرول مصحوبًا ببطانته البابوية من أمراء وكرادلة وأشراف ألمانيا وأسبانيا وإيطاليا. ويخبرنا الدكتور روبرتس مؤرخ حياة شارل أن الإمبراطور كان كثير التفكير والاهتمام في طريقه إلى أوجسبرج، إذ كانت لديه فرص حسنة أثناء رحلته لأن يلاحظ ميول الألمان فيما يتعلق بنقط النزاع. وقد وجد أنهم في مكان ثائرون ومتحمسون، الأمر الذي أقنعه بأن لا يلجأ إلى الشدة والقسوة إلا إذا فشلت كل الحيل والوسائل الأخرى، ويظهر أنه ظل وقتًا طويلاً في إنسبروك لدراسة الحالة في ألمانيا ووضع أضمن الطرق للوصول إلى نجاح مشروعه.

وفي هذه الأثناء كانت جماهير أخرى كثيرة تفد على أوجسبرج من كل الجهات "فأمراء وأساقفة ونواب وأشراف وفرسان وقواد بملابسهم العسكرية الفخمة كانوا يدخلون المدينة من كل باب، حتى ماجت بهم الشوارع والفنادق والكنائس والقصور، فكل ما كان عظيمًا وفخمًا في ألمانيا كان مشغولاً بالاجتماع هناك. والظروف الدقيقة التي كانت تجتازها الإمبراطورية والمسيحية في ذلك الوقت، وحضور شارل الخامس، علاوة على غريزة حب الاستطلاع والرغبة في مشاهدة كل جديد، ومظاهر العظمة الخلابة والعواطف الثائرة، كل ذلك قذف بالألمانيين من مناز لهم صوب أوجسبرج"(٤٤/٤).

ومما هو جدير بالذكر أنه في هذه اللحظة عندما كان زعماء الإصلاح مجتمعين في أوجسبرج، والعدو على الأبواب والعاصفة على وشك الهبوب، قام الأمير الكريم النبيل بمحاولة أخيرة لإيجاد الصلح بين قسمَي الإصلاح الكبيرين، ولكن ولو أن لوثر كان

غائبًا إلا أن روحه كانت حاضرة، وكانت تتقد بالحمية بين تلاميذه. فأكدوا للأمير أنه لن يمكنهم الاعتراف بمن يتشبثون بالضلال كإخوة، وأنه باتفاقهم مع الزونجليين سيعرضون أنفسهم للكراهية اللاصقة بهؤلاء الآخرين، وبذلك يعرقلون نجاح حركة الإصلاح.

ولم يستطيع الأمير أن يفهم كيف أن ضلالة واحدة، بفرض وجودها، أو مسألة غامضة، تكون سببًا كافيًا للعزل من الشركة، ولكن مجادلاته مع اللوثريين ذهبت عبثًا، فلا خوف من خطر ولا أمل في نجاح كان يستطيع أن يحملهم على أن تكون لهم أية شركة مع الزونجليين(٣/٦٧).

ولما لم يصل الإمبراطور حتى ١٥ يونية، وكانت مدينة أوجسبرج تموج بجمهور المستطلعين، قرر الأمراء البروتستانت أن يجعلوا مبشريهم يعتلون المنابر في بعض الكنائس الرئيسية، وقد اتخذوا هذه الخطوة رغم توقعهم معارضة الإمبراطور، وذلك لأن المنتخب والأمير رأيا أن الفرصة السانحة للتبشير بالمسيح كانت أثمن من أن يهملاها، فأصدر يوحنا التعليمات لأحد رجاله اللاهوتيين بأن يقوم بواجب التبشير يوميًا، مع فتح الأبواب على مصراعيها في كنيستي الدومينيكان وسانت كاترين، كما عين فيليب أمير هيس كاهنه سنيف للتبشير بالإنجيل في الكاتدرائية، وهكذا بنعمة الله كان الخلاص بالنعمة وبدون أعمال الناموس يُنادي به في هذه الأماكن لجماهير غفيرة من الشعب المتلهف للسمع، وبفضل ذلك أصبح الجزء الأكبر من السكان لوثريين.

تلك كانت خطوة جريئة أدهشت الكاثوليك وأوقعتهم في حيرة، فقد كانوا يتوقعون أن يروا البروتستانت واقفين موقف المجرمين، وأنهم لن يجرءوا على رفع رؤوسهم ومنقذ الكاثوليكية على أبواب المدينة، ولكن ما العمل وقد وقع ما لم يكن في الحسبان. حينئذ أصدر أسقف أوجسبرج الأوامر لمبشريه أن يعتلوا هم أيضًا المنابر ويخاطبوا الشعب، ولكن كهنة روما لم يكونوا في يوم من الأيام مبشرين، كانوا يعرفون كيف يتلون القداس، أما أن يبشروا بالإنجيل فهذا ما لم يدخل قط في دائرة اختصاصهم. وكانت النتيجة أن غضب أتباع روما وأسرعوا يخبرون شارل بواقع الحال، وهذا أصدر أوامر مستعجلة من إنسبروك بمنع مواعظ اللوثريين العدائية في الحال، فأجاب المنتخب بأنه من المستحيل عليه أن يفرض الصمت على كلمة الله أو أن يحرم نفسه من تعزية الاستماع إليها، وأنه لا يذاع في هذه المواعظ إلا حق الله المجيد الذي لم نكن في وقت من الأوقات أحوج إليه أكثر من الآن، على ذلك لا نستطيع العمل بدونه.

وقد كان من الطبيعي جدًا أن يظن البروتستانت أن جوابًا كهذا سيعجل بوصول الإمبراطور، وقد استمر ملانكتون في إعداد صيغة "الاعتراف" المطلوب، ولكونه لطيفًا وهيابًا كان يزن كل كلمة يكتبها ملطفًا العبارة ما أمكن، ومنقحًا إياها بإمعان وتدقيق حتى كادت تخور قواه الجسمانية، وقد كان لوثر يرى أن كل هذا لا محل له، حتى أنه أمر ملانكتون أن لا يقسو على جسده الضعيف خوفًا من الأناثيما، ولا ينتحر من أجل محبه الله.

وبينما كان أصدقاء الإصلاح يعدّون العدة للكفاح في أوجسبرج، لم يكن لوثر يلهو في كوبرج، بل كان مشغولاً في إرسال مئات الرسائل والنبذ من معقله الجديد، وقد كانت هذه القلعة قائمة على ربوة عالية، وكان هو يشغل الطابق الأعلى منها. ولذلك كان بعض الأحيان يُصدر خطاباته بعبارة "تحريرًا في مملكة العصافير". وعندما ضجر من تأجيل المجمع يومًا بعد يوم كتب مرة لأصدقائه يقول إنه قرر عقد مجمع في كوبرج، وقال مرة مازحًا "وهانحن الآن في مجمع كامل، فملوك وأمراء وأشراف وعظماء آخرون يتباحثون ويتفاوضون في شئون مملكتهم، وبصوت لا يكل يُذيعون تعاليمهم ومبادئهم. إنهم لا يسكنون في تلك المغاير التي تسمونها قصورًا، بل السماء هي قبتهم والأشجار المورقة بألوانها الزاهية هي أرضهم وأطراف الأرض الأربعة هي حوائطهم. إنهم يفزعون من الكماليات والحرير والذهب التي لا قيمة لها، ولا يحتاجون لخيل أو سلاح، وجميعهم يلبسون لباسًا واحدًا. وللآن لم أر أو أسمع إمبراطورهم، ولكني أعتقد بقدر ما أستطيع فهم لغتهم لقد صمموا هذا العام على شن غارة هوجاء لا رحمة فيها ولا شفقة على كل ما هو فاخر وجميل من فواكه الأرض... ولكن كفى مزاحًا... المزاح الذي هو مع ذلك ضروري لتبديد ما يُخيم عليّ من أفكار مظلمة كئيبة". وقد ظل لوثر عدة شهور يعاني صراعًا نفسيًا مليئًا بالظلمة والعذاب العقلي، شبيها بتلك الحالة التي عاناها في فارتبرج.

وصول شارل إلى أوجسبرج

مات جاتينارا مُستشار الإمبراطور في إنسبروك. وقد حُسبت وفاته خسارة كبرى للمصلحين، فقد كان رجلاً معتدلاً معقولاً ومضادًا على خط مستقيم لآراء الحزب البابوي الدموية، وقد

كان له نفوذ عظيم لدى الإمبراطور، وكان هو الرجل الوحيد الذي يستطيع معارضة البابا، حتى قال ملانكتون عند سماعه خبر موته "لقد ذهب معه كل رجاء بشري في نجاح الحركة البروتستانتية".

وقد غادر الإمبراطور إنسبروك بعد وفاة جاتينارا بيومين، ووصل ميونخ في ١٠ يونيو وأوجسبرج في ١٥ منه، وكان دخوله المدينة بأبهة غير عادية، حتى قال بعض المؤرخين إن موكبه هذا لم يكن له مثيل في تاريخ الإمبراطورية(٤٧١). ونحن لا يعنينا في الأمر سوى ما يدل على جرأة البروتستانت وموقفهم الحازم، فقد خرج المنتخب والأمراء ومستشاروهم في الساعة الثالثة بعد الظهر لمقابلة شارل في طريقه إلى المدينة، وعندما صار على بعد خمسين خطوة من الأمراء الألمان نزلوا جميعًا من على جيادهم، وعندما لمحوا أن الإمبراطور يهم للنزول مثلهم تقدم بعضهم إليه ورجوه أن يبقى على ظهر جواده، ولكن شارل ترجل بلا إبطاء، وإذ تقدم إلى الأمراء بابتسامة حبية رقيقة صافحهم جميعًا مصافحة التلطف والإكرام. أما المندوب البابوي فظل جالسًا على ظهر بغله بكبرياء وعتو، ولكنه إذ رأى تلطف شارل رفع يديه وبارك جمهور الشخصيات العظيمة المجتمعة على الطريق، وفي الحال وقع الإمبراطور والملك والأمراء والأسبان والإيطاليون وكل من يتبعون البابا على ركبهم جاثين، أما البروتستانت فنظير مردخاي لم يسجدوا، بل ظلوا واقفين وسط هذا الجمهور الساقط على وجهه. يا له من مشهد مرير في عيون الحزب البابوي! ولكن شارل تظاهر بعدم ملاحظة الموقف، ولو أنه لا بد أدرك معناه، وبعد الرسميات المعتادة تقدم الموكب العظيم وأمامه ألفان من الحرس الإمبراطوري يفسحون الطريق.

كان الإمبراطور الآن في الثلاثين من عمره، ذا طلعه مهيبة وملامح جذابة، منظر جميل وصوت ضعيف، وخلق كريم وصفات تجذب إليه النفوس والقلوب، وكان سياسيًا أكثر منه محاربًا، وقد سار توًا إلى الكاتدرائية كعابد خشوع، وسط صفوف الإكليروس وكل صنوف الفخامة الكنسية، مضافًا إليها جميع مظاهر الكبرياء العسكرية الممثلة لأمم عديدة، ورؤوس متوجة كثيرة، وعندما وصل إلى المذبح، جثا على ركبتيه، رافعًا يديه إلى السماء وكأنه يقول إن كل ما يعنيه هو هناك وإنه هو نفسه ليس إلا غريبًا ونزيلاً على الأرض. وقد قدّموا له وسادة مطرزة بالذهب الإبريز، إلا أنه رفضها مفضلاً أن يكون ركوعه على أحجار أرض الكنيسة العارية، وقد ركعت معه كل الجماعة ما عدا المنتخب وزميله الأمير اللذين ظلا واقفين، فقد أرادا أن يكون حضورهما رسميًا ولكنهما تصرفا طبقا لإيمانهما بالله وبكلمته.

رؤساء مجمع أوجسبرج

قبل أن نتناول المجمع وأعماله يستحسن أن نضع أمام القارئ كشفًا مرتبًا بزعماء الفريقين. ففي الجانب البابوي كان الإمبراطور وأخوه فرديناند وأرشيدوق النمسا وملك هنغاريا وبوهيميا، وكامبجيو مندوب البابا، واثنان من رؤساء الأديرة، ويواقيم منتخب براندنبرج، وجورج دوق سكسونيا ووليم أمير بافاريا. أولئك كانوا جميعًا كاثوليك متعصبين، وكان لهم صوت مسموع في المجمع.

وفي الجانب البروتستانتي كان يوحنا منتخب سكسونيا وابنه يوحنا فردريك، وفيليب أمير هيس، وجورج حاكم براندنبرج، وأنسباخ وأرنست وفرانسيس أمراء لاننبرج، ودلفجانج أمير أنهولت، وألبرت كونت مانسفيلد، والكونت فيليب أمير هانوفر، علاوة على مندوبين من عدة مدائن إمبراطورية، واللاهوتيين ملانكتون ويوستس، ويونان، وسبلاتين وسنيف، وأجريكولا. كذلك كان هناك عدد من لاهوتي سويسرا مع بوشر وهديو وكابيت من ستراسبورج(٤٧٢).

والآن كانت الفرصة لامتحان حزم وثبات البروتستانت، ذلك لأن الإمبراطور عند وصوله إلى أوجسبرج كرر أمره بضرورة إبعاد المبشرين والوعاظ، فقال أمير هيس "إننا لا نستطيع حرمان أنفسنا من طعام كلمة الله، ولا يمكننا إنكار إنجيله، ونحن نستعطف جلالتكم أن تسحبوا أمركم، لأن وُعّاظنا لا يبشرون إلا بكلمة الله الطاهرة النقية". فاستاء شارل وتملكه الغضب وأجاب بشدة إنه لا يمكنه التنازل عن أمر قد أصدره، فأجاب الأمير قائلاً: "إن ضميركم ليس له حق أن يتحكم في ضميرنا". وهنا انبرى جورج حاكم براندنبرج الذي ظل صامتًا طول ذلك الوقت، وكان قد أبدى ملاحظة أجابه عليها فرديناند بجواب قاس، فقام على الفور ووضع يده على عنقه وقال بحمية وتأثر عميق "إنني أفضل بالأحرى أن أسقط في الحال في حضرة الإمبراطور وأخضع عنقي لسيف الجلاد من أن أكون غير أمين لله وأقبل أو أوافق

على ضلالة ضد المسيح". فتأثر شارل ودهش للغاية، ولكنه أجاب برقة وظرف بأنه لا توجد نية لقطع رقبة أحد، واقترح أن يلزم الصمت وعاظ الجانبين، وأن يترك له اختيار آخرين مدة انعقاد المجمع. فتأجل الموضوع إلى فرصة أخرى، ولو أنه يُفهم من دوبينْيّ ومؤرخين آخرين أن وعاظ البروتستانت استمروا في تبشيرهم ولو بصورة ألطف وأقل نشرًا من ذي قبل.

أما فرديناند الذي كثيرًا ما جرب قوته مع الأمراء في مجامع سابقة، فقد أراد أن ينصب هذه المرة شركًا لأرجلهم، أو بالحري لأعناقهم. ذلك أنه تصادف وقوع عيد الاشتراك المقدس ثاني يوم وصول الإمبراطور، وكان الملك يعلم جيدًا أن البروتستانت قد أبطلوا المراسيم المرتبطة بهذا العيد لاعتبارهم إياها كأشياء وثنية، وأن رفضهم حضور هذا الحفل سيثير غضب الإمبراطور وحنقه. وهكذا أحكم الشرك فلم يبق أي شك عند المندوب البابوي من نجاح المؤامرة، زد على ذلك أنه في ساعة متأخرة من مساء اليوم السابق للحفل استدعى الإمبراطور أمراء البروتستانت وأظهر لهم رغبته في أن يكونوا في معيته في موكبه الإمبراطوري اليوم المقبل، فالتمس الأمراء منه أن يعفيهم من هذه المهمة قائلين إن المسيح لم يرسم هذه الفريضة لكي تُعبد، فأصر الإمبراطور على ضرورة اشتراكهم في الحفل معطيًا إياهم مهلة للصباح لإعداد الرد.

وفي الساعة المعينة حضر الأمراء أمام الإمبراطور، فكرر لهم الأمر، وكرروا هم الرفض، وقد ذهب معهم إلى حد الاستعطاف ولكن بغير جدوى. ولم يكن شارل يتوقع مثل هذه المقاومة، فغضب غضبًا شديدًا. وانتهز المندوب البابوي الفرصة لإثارة حنقه إلى أقصى حد، وانبرى حاكم براندنبرج وتولى الكلام هذه المرة أيضًا فقال للإمبراطور "أنت تعلم كيف أني وأجدادي كنا دائمًا نعرض حياتنا للخطر في سبيل الدفاع عن أسرة النمسا الإمبراطورية، ولكن في هذه القضية التي تخص الله أرى نفسي مضطرًا لمقاومة كل تحكم من هذا النوع مهما كانت النتائج، فأنه مكتوب «ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس» (أع٥: ٢٩)، ومن أجل ذلك فإني في سبيل الاعتراف بالتعليم الصحيح الذي أعرف أنه كلمة الله وأنه الحق الأبدي، لا أتراجع من أمام أي خطر ولو كان على الحياة نفسها التي أسمع أنها مهددة من البعض". وهنا أيضًا ظهر ما تقوله كلمة الله أن «غضب الإنسان يحمدك» (مز٧٦: ١٠)، فكان على الإمبراطور وأخيه المندوب البابوي والآخرين أن يسمعوا حق الله، وهو أن فريضة العشاء، كما أجاب الأمراء، غرضها البركة الروحية للمسيحيين، وأنها لم توضع لكي يطوفوا بها بموكب وثني في الشوارع ليعبدها العامة. وهكذا صرح البروتستانت أن هذا العيد لا سند له من كلمة الله، وأنهم يأسفون ويتحسرون على مظاهر تحط من كرامة هذه الفريضة المقدسة.

وقد مر الميعاد المحدد للموكب، وغادر الإمبراطور وجماعته غرفهم، ولكن الأمراء البروتستانت عادوا إلى قصورهم يملؤهم الرجاء والفرح، ومضى الاحتفال بدون حضورهم.

وكانت هزيمة الإمبراطور ونصرة البروتستانت مرارة وأفسنتينًا في حلق المندوب البابوي وقلبه، ولكن بقيت أمامه مؤامرة أخرى يدبرها وشرك آخر ينصبه، وقرر لو أمكنه أن يقتنصهم. فافتتاح المؤتمر كان محددًا له يوم ٢٠ يونيو، وكان لا بد أن يسبق الافتتاح محفل قداس. وكان منتخب سكسونيا مارشال الإمبراطور قائد جيشه الأعلى وكان عليه بحكم وظيفته أن يحمل السيف أمام الإمبراطور في حفل كهذا، ولذلك قال كامبجيو لشارل "مُره إذًا أن يؤدي واجبه في حفل قداس الروح القدس الذي سيسبق افتتاح الجلسات"، ظانًا في قلبه أن هذا لن يكون مجرد وجود في معية الإمبراطور بصفة رسمية، بل اشتراك فعلي في طقوس بابوية. وهكذا طلب من المنتخب أن يكون حاضرًا، فرفض في بادئ الأمر، ولكنه بناء على تفسير رجاله الدينيين بأنه في هذه الحالة مطلوب منه القيام بمهمة مدنية وليس الاشتراك في طقس ديني، قَبِل أن يحضر، ولكنه احتاط للأمر فأخبر الإمبراطور أنه بعمله هذا إنما يؤدي عملاً رسميًا تقتضيه واجبات وظيفته، وليس تسليمًا دينيًا منه.

وهكذا شاءت العناية الربانية أن يقف المنتخب مرة أخرى موقف الشاهد لحق الله ضد الخرافات البابوية وذلك في نفس معقلها، فبصفته مارشال الإمبراطورية الأعظم وهو حامل السيف وواقف بجانب المذبح ظل منتصبًا هو وصديقه حاكم براندنبرج، بينما جثا جميع الحاضرين عند رفع الحمل، وهكذا تجاسر رجلان على أن يظلا واقفين وسط هذه الجماهير الغفيرة في لحظة ركوع وتعبد، وذلك في وجه القوى المعادية من بابوية وإمبراطورية.

قال واحد "إن هذه المناوشات البسيطة وإن لم يترتب عليها

نتائج شخصية خطيرة، فإنها مع ذلك تستحق عناية المؤرخ، ليس فقط كدلائل على مبلغ عزم البروتستانت على مواجهة الحالة، بل بصفتها حوادث لا بد أن كان لها تأثير قوي على نفس شارل وتوجّه أفكاره، فهو لم يكن ملمًا بمبادئهم ولا بصفاتهم. وقد كان شيئًا جديدًا عليه أن يرى نفسه غير مُطاع، لا بل ومقاوَم من أمراء في ذات حضرته، وذلك بقوة الضمير الديني". ومهما كان الأمر مع شارل ومهما كان شعوره إزاء هذه المقاومة الثابتة لأوامره، فقد ترك الكنيسة بعد انتهاء القداس مباشرة، ودخل مركبته التي سارت به توًا إلى قاعة البلدية، حيث كانت ستعقد جلسات المجلس.

افتتاح مجلس أوجسبرج

إن المجادلة الدينية العظمى التي بدأت براهب متواضع مغمور الذكر في سكسونيا، قد جمعت الآن حول حامي الإيمان المزعوم اثنين وأربعين ملكًا، علاوة على جمهور غفير من السفراء واللوردات والأشراف والأساقفة ونواب المدن... الخ، في شكل جمعية من أبهى وأفخم الجمعيات.

وقد افتُتح المجمع بخطاب طويل من الإمبراطور قام بقراءته الكونت بالاتين، وقد تناول الخطاب موضوعين رئيسيين، وهما الحرب مع الأتراك، والمجادلة الدينية. فقد كان الأتراك بقيادة سلطانهم سليمان قد استولوا على بلغراد وفتحوا رودس، وحاصروا فينا وهددوا جميع أوروبا. ومن ثم كانت الضرورة ملحة لاتخاذ أشد الأساليب لإيقاف تقدمهم. على أن الاختلافات الدينية في ألمانيا كان لها المكان الأهم في خطاب الإمبراطور. وقد لوحظ أن أسلوب الخطاب كان عدائيًا للبروتستانت أكثر مما كانوا يتوقعون، نظرًا لأن رسائل الدعوة التي وصلتهم كانت صيغتها ودية على نوع ما. ولكن شارل كان قد تُوج من حين كتب تلك الرسائل، وقد أقسم حينئذ أن يدافع عن البابا وكنيسة روما، كما أن محادثاته الكثيرة الخاصة ومقابلاته العديدة مع كليمنت في بولونيا لم يكن من شأنها أن تهدئ روحه تجاه المصلحين. وهكذا تغيرت لهجته تغيرًا عظيمًا، فأشار إلى قصة مجمع ورمز التي طالما تكرر ذكرها وقال "إنه يأسف جدًا لعدم تنفيذ قرار ذلك المجمع، ولعدم كفاءة جميع الوسائل التي اتُخذت بعد ذلك لهذا الغرض أثناء غيبته في أسبانيا. وها هو قد عاد الآن إلى ممتلكاته الألمانية ليقوم ببحث شخصي في الموضوع، وينظر في شكاوى وحجج جميع الأحزاب بمجرد أن تقدم إليه مكتوبة".

وقد تقدم اقتراح أن يُولي المجمع انتباهه الأول إلى الموضوع الديني، وعلى ذلك أنذر الإمبراطور المنتخب وأصحابه أنه في الجلسة القادمة التي ستنعقد في اليوم الرابع والعشرين يجب أن يقدموا له ملخصًا بمعتقداتهم، وبالمساوئ اللاهوتية التي يشكون منها، ونوع الإصلاح الذي يطلبونه.

وقد أعطى هذا الترتيب مهلة يومين للأمراء، فاجتمعوا عند المنتخب في اليوم الثالث والعشرين لمراجعة صيغة "الاعتراف" أو "الاعتذار" كما سُميَّ حينئذ، وفي الوقت نفسه كانوا يستودعون الأمر كله في يد الرب، وقد كانا يومين من القلق مع صلوات كثيرة. وفي اليوم التالي اجتمع المجلس، ولكن اتضح جليًا أن البابويين كانوا قد صمموا على أن لا يعطوا فرصة لقراءة الاعتذار. وقد كانت الساعة الثالثة بعد الظهر دون أن يبدأ المجمع في أي عمل، ثم ضاع بعد ذلك وقتٍ طويل في تقديم كامبجيو أوراق اعتماده وإلقاء رسالة سيده. ثم جاء بعد ذلك دور سفراء النمسا والمقاطعات المجاورة الذين أخذوا وقتًا طويلاً في وصف مصائبهم التي عانوها على أيدي الأتراك، والتماس المعونة العاجلة لحماية مقاطعاتهم، وقد ترتب على ضياع هذا الوقت الطويل في هذه الأمور التمهيدية أن وجد الإمبراطور حجة لعدم السماح بقراءة الاعتذار، إذ قال إن الوقت قد أزف. ولا شك أن مندوب البابا ظن أنه أصاب المرمى وحصل على مبتغاه، فإن جميع الكاثوليك من البابا إلى مادون كانوا يخشون من قراءة اعتراف البروتستانت بصورة علنية. على أن الأمراء من الجانب الآخر اعتصموا بالحزم وصمموا هم الآخرون على أن اعترافهم يجب أن يُقرأ علنًا في مجمع كامل الهيئة، حتى يكون له أقصى ما يمكن من الانتشار.

وعلى أثر ذلك هبت عاصفة قوية من الجدال بين الحزبين، أو بعبارة أصح، بين قوات النور وقوات الظلمة، فإن الشيطان «أبا الكذاب» استخدم كل وسيلة لإطفاء النور ولخنق الشهادة وتعطيل انتشار الحق، حيث أنه لم يستطع إهلاك الشهود. ولكن رجالاً قليلين يُعدون على الأصابع استطاعوا بنعمة الله أن يواجهوا بنبل وشهامة قوات الظلمة في شخص الإمبراطور العظيم والكرادلة والأساقفة والأمراء الكاثوليك، وفازوا عليهم جميعًا، فلم يكن أمام الإمبراطور

إلا أن يصيح قائلاً "سلموا اعترافكم للموظفين المختصين وثقوا أنه سيُجاب عليه". فقال الأمراء "إن شرفنا معرض للخطر وحياتنا مهددة. نحن متهمون علنًا ويجب أن نجاوب علنًا". وكلما كان يتشبث شارل بعدم السماح بقراءة الاعتراف كلما كان الأمراء يزدادون جرأة وعزمًا، فأكدوا للإمبراطور أنه لم يكن لهم أي باعث على حضور هذا المجمع سوى هذا الغرض بعينه، وأنهم لن يسمحوا لأوراقهم أن تغادر أيديهم حتى يصرح لهم بقراءتها علنيًا.

وقد أدهش شارل موقف البروتستانت وما اتسم به من رزانة واحترام مع حزم وثبات، واعتقد في نفسه أنه لا بد من التسليم لهم بصورة ما فقال: "غدًا سأسمع ملخصكم، ليس في هذه الصالة بل في قصر بلاتين". وقد وافق الأمراء على ذلك ورجعوا فنادقهم بقلوب تفيض بالشكر للرب، بينما رأى مندوب البابا وأصحابه أنه قد أصبح مقررًا بكل أسف بأنه لا مفر من قراءة الاعتراف وإذاعته علنًا.

وقد كان المعبد الذي اتفق الإمبراطور على سماع الاعتذار فيه أصغر بكثير من صالة البلدية، ولا يتسع لأكثر من ثلاثين شخصًا. وقد كانت هذه حيلة من العدو لمنع عدد كبير من سماعه، ولكنها حيلة لم تنجح كثيرًا، فكل الذين كان يهمهم الأمر ويتحتم تنويرهم في موضوع مبادئ الإصلاح استطاعوا دخول المعبد، كما ازدحمت الحجرات المجاورة بجمهور كبير من المستمعين الشغوفين.

وفي يوم ٢٥ يونيه سنة ١٥٣٠م، وهو يوم عظيم الأهمية في تاريخ حركة الإصلاح، بل في تاريخ المسيحية والبشرية بصفة عامة، وقف رؤساء البروتستانت أمام الإمبراطور، وقد أمسك كريستوفر باير مستشار المنتخب بنسخة ألمانية في يده، بينما أمسك بونتانوس مستشاره السابق نسخة لاتينية من ذلك الاعتراف المشهور، وقد طلب الإمبراطور أن تُقرأ النسخة اللاتينية، غير أن المنتخب ذكره بكل احترام بأنه بما أنهم في ألمانيا فيجب أن تقرأ النسخة الألمانية، فوافق الإمبراطور. وقد أراد المنتخب وأصدقاؤه أن يقفوا أثناء القراءة، ولكن الإمبراطور أشار عليهم بالجلوس. وعندئذ بدأ المستشار باير يقرأ الاعتراف. ويذكر التاريخ أنه أخذ يتلوه ببطء ووضوح وبصوت جمهوري موسيقي، حتى لقد قيل إن صوته وصل بجلاء إلى جميع الأماكن المجاورة، وقد استغرقت قراءة الاعتراف ساعتين. ومع ذلك فقد كان السامعون يصغون بانتباه شديد إلى محتوياته.

وقد كان لقراءة هذه الوثيقة بصورة علنية أثرها المنتظر، فقد وجد المنصفون من المستمعين الذين كانوا أقل تعصبًا من الآخرين أن مبادئ البروتستانت هي في غاية الاعتدال، وقد أدهش ذلك الكثيرين منهم، حتى قال المؤرخ سكِندورف "إن كثيرين من الأشخاص العقلاء الحكماء حكموا في صالح ما سمعوا، وصرحوا بأنهم سعداء لسماعه، وأنهم ما كانوا ليسمحوا بأن تفوتهم هذه الفرصة ولو كلفهم الأمر دفع مبالغ طائلة". ويقول الأب بولس "إن رئيس أساقفة سالزبرج، بعد سماعه الاعتراف، صرح لكل واحد بأن إصلاح القداس لازم، وحرية الأطعمة واجبة، ومطلب إعفاء الناس من عبء وصايا البشر الكثيرة عادل، غير أن الذي لا يحتمل هو أن يقوم راهب حقير بإصلاح كل هذا. إنه لا يقبل الإصلاح بواسطة راهب حقير"، ذلك هو تشامخ وتعصب القلب البشري. كان حري برئيس الأساقفة أن يتذكر أن الله اختار جُهال العالم ليخزي الحكماء، وضعفاء العالم ليخزى الأقوياء، لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه (١كو ١: ٢٧-٢٩). ولكن من ذا الذي يخلو خلوًا كاملاً من الميل نحو العظمة الشخصية، وأين هو الشخص الذي يسمو سموًا كاملاً فوق مغريات الجاه والنفوذ؟ فبعض الناس لا يهمهم البتة ماذا يُقال ما دام المتكلم ليس هو المعلم الذي اختارته قلوبهم في وقت معين. هذا شر خطير منتشر في الكنيسة الاسمية، وكان سببًا لكثير من الانقسامات والانشقاقات، علاوة على أنه يطرح بالجماهير من دائرة الإيمان بكلمة الله إلى الثقة في كلمة الإنسان. فعمل روح الله العظيم لاقى قبولاً كاملاً وموافقة تامة من رئيس الأساقفة الذي اعترف بأنه حق عادل وصالح، ولكنه رفضه لأنه جاء على يد راهب مسكين.

على أن ضمائر كثيرة قد مُست وقلوب عديدة قد تحركت بواسطة الاعتراف، فلقد أراد الرب أن يصل الحق إلى القلوب فيهزها وإلى النفوس فتشعر به شعورًا عميقًا حقيقيًا، وقد بدا في ذلك الوقت وكأنه قد انتصر انتصارًا نهائيًا، إذ صرح أسقف أوجسبرج "أن كل ما قاله اللوثريون حق ولا يمكننا إنكاره". وكذلك دوق بافاريا بطل البابوية العظيم في ألمانيا، بعد أن سمع الاعتراف صرح لإك قائلاً: "أي نعم يا دكتور، لقد أعطيتموني صورة مختلفة جدًا لهذه القضية وهذا التعليم. ولكن هل في استطاعتكم بعد كل ذلك أن تأتوا بأسباب وجيهة بها تدحضون اعتراف المنتخب

وأصدقائه". فأجاب الزعيم البابوي "كلا، لا نستطيع ذلك من كتابات الرسل، ولكننا نستطيع من كتابات الآباء وقرارات المجالس". فأجاب الدوق بلهجة موبخة "إذًا فأنا أفهم بناء على كلامك أن تعليم اللوثريين مستقى من الكتاب المقدس، أما تعليمنا فليس من الكتاب".

وقد فاق فرح لوثر كل حد عندما سمع بإحسان الله وصلاحه نحو أصدقائه. كتب يقول "إني أهتز فرحًا إذ أرى قرعتي قد وقعت في وقت فيه المسيح يتعظم علانية بمثل هؤلاء المعترفين البارزين، وفي اجتماع هكذا مجيد وعظيم. لقد ظن خصومنا إنهم صنعوا عجبًا عندما صمت المبشرون بقوة الأمر الإمبراطوري، وفاتهم أن اعترافنا الجهاري من شأنه أن يفعل في النفوس أكثر مما كان يفعله عشرة مبشرين. حقًا إن المسيح ليس صامتًا في المجمع، وكلمة الله لا تُقيد. أجل إنها إن مُنعت من المنابر فلا بد من أنها تُسمع في قصور الملوك".

وفي اليوم التالي لقراءة الاعتراف جمع شارل ممثلي الدولة الممالئة لروما وقال لهم "أي جواب نعطى على الاعتراف؟". وقد أشار مستشاروه بثلاثة آراء مختلفة: الرأي الأول قدمه رجال البابوية الكنسيون، وهؤلاء لم يكن من رأيهم طبقًا لعادات العصر وآرائه ومجامع كنيسة روما القاسية إلا الانتقام السريع، فقالوا "لن نناقش آراء خصومنا وحججهم، بل لنقنع اللوثريين بقرار مجمع ورمز، ونرغمهم بقوة النار والحديد على ترك ضلالاتهم والرجوع إلى شركة كنيسة روما". أما الرأي الثاني فقد قدمته جماعة أخرى يُقال لها "رجال الإمبراطورية"، وكان من رأيهم أن الاعتراف يجب عرضه على جماعة من الرجال المعتدلين غير المتحيزين، ويكون الرأي النهائي للإمبراطور. والرأي الثالث قدمه رجال التقاليد أو التقليديون كما كانوا يُسمون، وهؤلاء أشاروا إلى أن الاعتراف يجب أن يُنكر إنكارًا علنيًا، وأن يُرغم البروتستانت على مسايرة التعاليم الثابتة والطقوس المرعية حتى يتم البت في الموضوع نهائيًا بواسطة مجمع خاص. وقد تمت الموافقة على هذا الاقتراح الأخير بمصادقة الإمبراطور، وتعين إك وفابر وكوخلاوس، أبطال روما القدماء وأعداء حركة الإصلاح الألداء، ليقوموا بمهمة دحض الاعتراف ووضع صيغة الرد عليه وإعداده للمجلس في بحر ستة أسابيع، وفي الوقت نفسه انتشر مبعوثو روما السريون في جميع أنحاء ألمانيا، يعملون ليل نهار في رشوة الناس واستمالتهم بحيلها الماكرة، وتسميم العقول بالوسائل المنكرة التي خبرتها مرارًا، فوجدتها كفيلة بالنجاح بعد فشلها في ميدان المناقشة الحرة.

ولما كان اعتراف أوجسبرج هو أشهر وثيقة في تاريخ الإصلاح، وقد صار فيما بعد الدستور العلني لإيمان البروتستانت بصفة عامة، فيحسن أن نشير إلى الموضوعات التي تناولها. والاعتراف في ذاته يتكون من ثمان وعشرين مادة أو فصلاً، تشمل الإحدى والعشرون مادة الأولى خلاصة إيمان البروتستانت، بينما تتناول السبع المواد الأخيرة أخطاء ومساوئ كنيسة روما التي بسببها انفصلوا عن شركتها.

مواد قانون الإيمان

التثليث - الخطية الأصلية - شخص المسيح وعمله - التبرير - الروح القدس وكلمة الله - الأعمال، ضرورتها وقبولها - الكنيسة - الأعضاء غير المستحقين - المعمودية - عشاء الرب - التوبة - الاعتراف - الأسرار المقدسة - خدمة الكلمة في الكنيسة - المراسم - السلطات والمؤسسات المدنية - الدينونة والحالة المستقبلة - الإرادة الحرة - مسببات الخطية - الإيمان والأعمال الصالحة - الصلاة وشفاعة القديسين.

المواد الخاصة بمساوئ كنيسة روما

القداس - الاشتراك بنوعيه - الاعتراف الجهاري - الأطعمة والتقاليد - زواج القسوس - الرهبنة - سلطان الكنيسة.

وفي الفصل العاشر يقرر اللوثريون بلغة صريحة أن جسد المسيح ودمه الحقيقيين موجودان فعلاً في الأفخارستيا تحت عنصري الخبز والخمر، وبسبب هذا التوكيد الصريح لمبدإ ازدواج المادة رفض الحزب المُصلح أو الزونجلي التوقيع على اعتراف أوجسبرج، ومن ثم قدمت المدن الإمبراطورية ستراسبورج وكونستانس ولنداو وممنجن اعترافًا مستقلاً يسمى "اعتراف المدن الأربع"، وقد جاء هذا الاعتراف متفقًا في كل شيء مع اعتراف أوجسبرج إلا فيما يتعلق بنقطة حضور جسد المسيح الحرفي، ولكن الإمبراطور رفض السماح بقراءة هذا الاعتراف علنًا(١/٧٢)،(٣/٦٧)،(٤/٤٤)،(١/٣٨)،(٣/٢١).

مصاعب البروتستانت

بما أنه تحتم أن تمر ستة أسابيع كاملة قبل أن يُسمع رد الكاثوليك على الاعتراف ومحاولتهم تفنيده ونقضه، يحسن أن نوجه التفاتنا إلى إجراءات الأحزاب المتنازعة في تلك الفترة.

حقًا لقد كان وقتًا عصيبًا وفترة تجربة قاسية للبروتستانت، فقد كانوا محاطين بمصاعب من كل جانب. فروما أخذت تستخدم كافة وسائلها من وعد ووعيد، والمرغبات والتهديدات صوبت نحو جميع الأفراد للوصول إلى غاياتها الغاشمة. فحتى الإمبراطور العظيم لجأ إلى انجرف إلى سياسة القسوة مع منتخب سكسونيا وأمير براندنبرج، ابتغاء إبعادهما من حركة الإصلاح، كما حاول اقتناص أمير هيس وإغراءه بتاج ملكي، إذ قال له "ما قولك إذا رفعتك إلى مقام العرش الملكي؟" ولكنه أضاف على ذلك بقوله: "غير أنك إذا أظهرت نفسك عاصيًا لأوامري فعندئذ سأتصرف معك بما يليق بإمبراطور روماني".

ويعلق مؤرخ حياة الإمبراطور الدكتور النزيه روبرتسون على هذا التصرف من جانب شارل بالملاحظات الآتية "لما وجد شارل أن محاولاته مع اللاهوتيين قد فشلت تحول عنهم إلى الأمراء، غير أنه وجد أيضًا أن هؤلاء مع كل رغبتهم الصادقة في المسالمة وإرضاء الإمبراطور لا يحيدون قيد أنملة عن موقفهم، وغير مستعدين البتة للتنازل عن آرائهم. وفي ذلك الوقت كانت الغيرة على الدين والاستبسال في قضيته قد استحوذت على عقول الناس بدرجة لا يكاد يتصورها أولئك الذين يعيشون في عصر تضاءلت فيه إلى حد كبير نشوة الفرح بأول ظهور للحق وبأول اكتشاف للحرية. هذه الغيرة وصلت في قوتها إلى حد التغلب على جميع المصالح السياسية التي عادة ما تكون أقوى البواعث والمحركات لدى الأمراء. فمنتخب سكسونيا وأمير هيس ورؤساء البروتستانت الآخرون، رغم كل إلحاح واستعطاف من الإمبراطور، ورغم كل وسيلة من وسائل الإغراء التي كان يعرضها على كل منهم على انفراد، ورغم وعده إياهم بتلك الامتيازات العظمى التي كان معروفًا جيدًا أنهم كانوا يتمنون الحصول عليها، رغم كل ذلك رفضوا رفضًا باتًا، وبإباء جدير بأن يُتمثل به أن يتخلوا عما كانوا يعتقدون أنه قضية الله من أجل مكاسب وممتلكات أرضية"[٢٧٤].

أحزان ومخاوف ملانكتون

بعد أن فشل الإمبراطور في إغراء القادة من الأمراء وإبعادهم عن الاعتراف الإنجيلي، بدأ مندوب البابا وأعوانه في بذل كل جهد لاستدراج بعض القادة اللاهوتيين إلى جانبهم، وخاصة فيليب ملانكتون. فقد أظهر هذا قلقًا عظيمًا من جراء الاجتماعات السرية التي كانت تدور بين الإمبراطور والأمراء، وقاده ذلك إلى اقتراح تخفيض مطالب الاعتراف ابتغاء الوصول إلى صلح واتفاق، لا بل بلغ به الأمر إلى حد أنه بدافع التملق والإغراء من جانب مندوب البابا، والخوف من شبح الحرب، فقد توازنه وقتيًا وكاد يصل إلى حد التراجع والإنكار، حتى أن دوبينيّ نفسه يقول عنه "إنه كان يرى من واجبه أن يشتري السلام بأي ثمن، على ذلك قرر أن يتنازل في طلباته إلى أدنى حد ممكن". على أنه يجب أن لا يغرب عن بالنا أن مركز ملانكتون كان في غاية الدقة والصعوبة، فمسئولية تدوين الاعتراف كانت كلها على كاهله، ولم تكن مهمة هينة أن يدون في هذا الاعتراف الأسباب الكافية التي تبرر انشقاق المصلحين، مع تجنب كل ما من شأنه أن يسيء إلى البابويين في غير ضرورة حتمية، وقد عرّضه موقفه هذا إلى سخط أعدائه وتوبيخ أصدقائه، وكان عليه أن يجاري الأمراء من جانب واللاهوتيين من جانب آخر ورسل روما الماكرين من ناحية ثالثة.

وقد كانت روح ملانكتون الهادئة اللطيفة لا تصلح بحال من الأحوال لمجابهة كل هذه الميول والمنازعات، فلم تكن له تلك الطبيعة الحازمة التي لا تلين، ولا الحماس الديني الذي كان لمعلمه لوثر، ومع أن المؤرخين يتنافسون مع بعضهم البعض في مديح مواهبه العظيمة ومقدرته العلمية الهائلة، ووداعته التي تميز بها، حتى قال عنه الدكتور روبرتسن "إنه قلّما سمح لحدة النزاع والمناقشة أن تطغى على أسلوبه، حتى في كتاباته الجدلية البحتة". إلا أن الذي كان يقلقه أكثر من أي شيء آخر طوال هذه الستة الأسابيع العصيبة هو رغبته الشديدة في التنازل عن شيء أكثر في سبيل استرضاء الكاثوليك والوصول معهم إلى اتفاق في غير انتهاك للحق أو لحرمة الضمير، والخطاب الآتي الذي أرسله ملانكتون إلى المندوب البابوي يظهره في أحط حالات اليأس، إذ يتجاسر في هذا الخطاب فيؤكد أن البروتستانت كانوا على استعداد لأن يقبلوا أي شرط ينالون على أساسه الصلح والسلام.

رسائل ملانكتون ولوثر

كتب ملانكتون إلى كامبيجو يقول "إنه لا يوجد تعليم فيه نختلف مع كنيسة روما الكاثوليكية. إننا نحترم سيادة البابا العامة، وإننا على استعداد أن نخضع له ونطيعه، بشرط أن لا يرفضنا هو وأنه بعطفه الذي اشتهر به نحو جميع الشعوب يتكرم بالعفو أو الموافقة على بعض أشياء قليلة لم يعد ممكنًا لنا تغييرها .....

والآن فهل ترفضون أولئك الذين يظهرون بمظهر الاستعطاف أمامكم؟ هل تستمرون تطاردونهم بالنار والحديد؟ يا للأسف! إنه لا شيء يجلب علينا كل هذه البغضة في ألمانيا سوى تمسكنا الشديد بتعاليم كنيسة روما، ولكننا بمساعدة الله سنظل أمناء حتى الموت للمسيح ولكنيسة روما حتى ولو رفضتمونا". إلى هذا الحد وبهذه الكيفية وصل ملانكتون زعيم اللاهوتيين الإنجيليين في إذلال نفسه أمام روما وأمام كل البشرية، ولكن الله كان ساهرًا على حركة الإصلاح المباركة، وحوّل فشل خادمه لتتميم مقاصده وتمجيد اسمه القدوس.

هكذا انحط ملانكتون لدرجة أن يستعطف المنتخب أن يقصر طلباته على الخبز والخمر في الأفخارستيا وزواج القساوسة. لو أن هذين الأمرين أجيبا لكان معناهما بحسب النظرة البشرية تعطيل حركة الإصلاح والوصول إلى صلح واتفاق مع روما. ولكن مندوب البابا لم يوافق على شيء، بل قام البابويون على الأثر يتهمون المصلحين بوضع حد لهرطقتهم بهذا الاعتذار. على أن ملانكتون الذي ملأه الخزي والعار بسبب هذه الاقتراحات التي قدمها للمندوب الذي خدعه، وجد أخيرًا بكل تأكيد مكانًا للتوبة والرجوع.

كان لوثر لا يزال في كوبرج، ولكنه كان على اتصال مستديم بما هو حاصل، وداوم على مراسلة أصدقائه وخاصة المنتخب وملانكتون. ورسائله التي كتبها في ذلك الوقت تنم عن روح تختلف كل الاختلاف عما بدا من ملانكتون، ولكن كما يقول وادنجتن بحق "إن براري كوبرج وروابيها العالية كانت لا شك أكثر ملاءمة لمثل هذه العواطف الروحية التي لا تلين من صالات أوجسبرج وأفنيتها المزدحمة بالمتجادلين، وإن ذلك الاحتكاك المستديم بضعفات ومخاوف الأصدقاء وذلك القلق المترتب بطبيعة الحال من مؤامرات مستمرة من جانب الأعداء، كل هذا كان من شأنه بكل تأكيد أن تضعف عزيمة أي شخص ولو كان أكثر حزمًا وثباتًا من ملانكتون، ولو كان لوثر نفسه معرضًا طول ذلك الوقت لمثل هذه التجارب لكان من المحقق أن يزعزع هدوء باله، ولو أنها قد لا تلاشي شجاعته"[٣٦٧].

والمقتطفات الآتية من رسائل لوثر أثناء تلك الأزمة تعطي القارئ فكرة عن مبادئه المسيحية وصحة أحكامه.

"إنها فلسفتك، أيها العزيز فيليب، وليست لاهوتيتك، هي التي تضايقك هكذا.. الذات هي عدوك الأكبر، وأنت هو الذي تمد الشيطان بالأسلحة ضدك... أما عن نفسي فأنا لست قلقًا كثيرًا على قضيتنا العامة. إن الله في استطاعته أن يقيم الأموات. إنه قادر أن يعين قضيته عند ضعفها ويُقيمها عند سقوطها ويدفعها إلى الأمام عند وقوفها. إن لم نكن مستحقين أن نكون آلات له فلندع آخرين يقومون بالعمل، ولكن إذا لم نجد نحن تعزية وتشجيعًا في مواعيده فمن غيرنا على الأرض الآن تخصهم هذه المواعيد؟".

وقد كتب بعد ذلك بيومين يقول "إن الذي يؤلمني في خطابك هو أنكم تصفون أنفسكم بأنكم استخدمتم تفويضًا مني في هذه المسألة. إني لا أريد أن يُقال عني، أنني الذي أحرككم في هذه القضية، أو أكون هكذا بالفعل. إن لم تكن هي أيضًا قضيتكم كما هي قضيتي، فإني على الأقل لا أرغب أن تسمى قضيتي، ولا أن تُفرض عليكم فرضًا. إذا كانت القضية هي قضيتي وحدي، فأنا وحدي سأعمل فيها... إنني يقينًا أمين لكم وحاضر معكم في أناتي وصلواتي، وكنت أود أن أكون معكم أيضًا بجسدي. ولكن عبثًا أكتب هكذا لأنك باتّباعك مبادئ فلسفتك تصر على توجيه هذه الأمور بوحي العقل، وهكذا تتعب نفسك حتى الموت، غير عالم أن هذه القضية هي فوق متناولك ومشورتك".

وكذلك كتب في يوم ١٣ يوليو إلى ابنه في الإيمان يقول "أظن أنك قد حصلت الآن على اختبار كاف وأكثر من كاف بأن بليعال لا يمكن بأي حيلة مصالحته مع المسيح، وأنه لا رجاء في الوصول إلى وفاق عن طريق المجامع والمؤتمرات طالما الأمر يتعلق بالتعليم... أما عن نفسي فأنا بكل يقين لن أتزحزح قيد شعرة، ولو كان في ذلك دق عنقي... تمسك بموقفك على قدر ما يريد خصومك زحزحتك... لن يساعدنا الله إلا عندما يتركنا الجميع.

لولا أني أكون مجربًا لله لكنت رأيتني من زمن بجوارك".

وفي ٢١ منه كتب إلى يوستس يونان يقول "إني مسرور أن أرى فيليب قد بدأ يعرف بالاختبار دخيلة كامبجيو والإيطاليين... إن فلسفته تأبى أن تقتنع بشيء إلا عن طريق الاختبار. أما عن نفسي فلا أثق ذرة في مستشار الإمبراطور ولا في أي إيطالي آخر، لأن صديقي كاجيتان كان مغرمًا بي لدرجة استعداده لسفك الدم من أجلي. إن الإيطالي هو أحسن الناس عندما يكون صالحًا، ولكن هذا نادر جدًا... كم كنت أود أن أكون ضحية هذا المجمع كما كان هس ضحية مجمع كونستاس، فلكان ذلك آخر نصرة بابوية".

من هذه المقتطفات يستطيع القارئ أن يرى جليًا أن لوثر لم يكن شريكًا لملانكتون في خطابه المذل، كما أنه واضح من كافة التواريخ أن الله استخدم رسائل لوثر لتشجيع وتثبيت أصدقائه في أوجسبرج إبان تلك الفترة العصيبة، فمع أن الدبلوماسية البابوية قد استخدمت كل وسائلها، فإن البابويين لم ينجحوا في اكتساب مرتد واحد. وقد كان المنتخب هو هدف الإمبراطور بصفة خاصة، فقد كان يعتقد أنه بسقوطه يسقط الاعتراف معه، ولكن الرب مكّن خادمه من النصرة، حتى قال في جهاده "يجب أن أنكر الله أو العالم، ولكن اختياري مؤكد لا شك فيه. إني ألقي بنفسي بين ذراعيه وهو يفعل بي ما يحسن في عينيه. إن شهوة قلبي هي أن أعترف بمخلّصي" . يا له من موقف حازم مشرف! ويا له من جندي شجاع من جنود النور ضد قوات الظلمة! حقًا إنه ليس سلاح جسدي يستطيع أن يغلب الروحانيين المنقادين بالإيمان، وهنا كانت نصرة المنتخب وأصدقائه. يا ليتهم استمروا في هذا السمو الأدبي العظيم، ولكنهم بالأسف جاء اليوم الذي فيه انحدروا إلى وسائل العالم في الحرب والكفاح، وهنا كانت الخيبة وكل فشل وانحطاط، وسنرى بعد قليل الفرق الهائل بين السلاحين: سلاح الإيمان وسلاح العيان.

الفصل التاسع والثلاثون

الرد البابوي

في يوم ١٣ يوليو، أو بالتحديد قبل مرور ثلاثة أسابيع على قراءة الاعتراف البروتستنتي في المجمع، قدم مندوبو البابا اللاهوتيون ردهم للإمبراطور، وقد وقع هذا الرد في مائتين وثمانين صفحة، ولكن أسلوبه كان جافًا ولهجته شديدة جارحة، حتى أن شارل لم يسمح بتلاوته في المجمع، وأمر بغضب تدوين رد آخر أقصر وأكثر اعتدالاً في لهجته. وبعد أن تم إعادة طبع الوثيقة في صورة تتفق مع رغبات الإمبراطور أمر بقراءتها في المجمع منعقدًا بكامل هيئته في ٣ أغسطس. وكما يُدرك القارئ اللبيب كانت الصيغة الأولى مطابقة لمشورة البابا، بينما الثانية كانت متفقة مع سياسة شارل.

وبعد أن اعترف الكونت بالاتين بصفة عامة أن مساوئ كثيرة قد تسللت إلى الكنيسة ودخلتها خلسة، وأن الإمبراطور لا يدافع عن هذه المساوئ بأي حال، ألقى البيان:

"إن الإمبراطور وجد نصوص هذا الرد قويمة وجامعة ومتفقة مع الأناجيل، وأنه لذلك يطلب إلى البروتستانت أن يتركوا اعترافهم الذي نُقض، وأن يُسلموا بالنصوص التي تُليت عليهم. وإذا رفضوا ذلك فالإمبراطور سيستعمل حقوقه، وهو يعرف كيف يُظهر نفسه كحامي كنيسة روما والمدافع عنها".

ولم يكن البروتستانت ليجهلوا مغزى هذه الكلمات، إلا أنهم امتلئوا بالقوة والحماس. والآن قد أصبح كل فريق على علم بموقفه. فالبروتستانت كانوا يقفون على أساس كلمة الله، بينما الكاثوليك على أساس كلمة الإنسان - الآباء والباباوات والمجامع. أولئك كانوا ولازالوا وسيبقون دائمًا العناصر المهمة في كل أساس بشري، كما أن كلمة الله هي العنصر الوحيد لكل أساس إلهي. ففي اللحظة التي فيها يسمح المسيحي لنفسه بالوقوف على أي أساس خلاف حق الله فلا فائدة تُرجى منه، ولا حد لضلاله وتدهوره. صحيح أنه قد لا يصل إلى روما، ولكنه في طريقه إليها. وأولئك الذين يتمسكون بحق الله النقي كالأساس الوحيد لإيمانهم وسلوكهم وعبادتهم وشهادتهم. قد يندمون في مواقف كثيرة على نقائصهم وتقصيراتهم التي قد تخالط أنقى الخدمات المسيحية، ولكن السؤال المهم الذي يجب أن يضعه كل مسيحي نصب عينيه هو هذا: هل أستطيع أن أقبل أي أساس أدنى من فكر الله كما هو مُعلن في كلمته؟ إن كلمة «مكتوب» (مت٤) كانت هي الملجأ الحصين الذي تمنع به سيدنا نفسه في يوم تجربته، وبهذه الكلمة وحدها استطاع أن يغلب المجرب ويقهره ويرده على أعقابه خاسرًا مخذولاً. إن المسيح هو وحده درس المسيحي الأعظم كما يقول الرسول «وأما أنتم فلم تتعلموا المسيح هكذا، إن كنتم قد سمعتموه وعُلمتم فيه كما هو حق في يسوع» (أف٤: ٢٠،٢١)، والرسول نفسه يجعل دستور حياة المسيحي أكثر بساطة من هذا في قوله الحكيم الجامع «ليَ الحياة هي المسيح» كما لو يقول إن حياتي وعيشتي هي أن يكون المسيح دائمًا أمامي كغرضي ومحركي وقوتي، حتى بذلك يظهر المسيح في حياتي هنا على الأرض. بهذه الصورة تكون العين بسيطة والقلب موحدًا والطريق كلها مليء بالنور (في١: ٢١ انظر أيضاً غل٢: ٢٠، ٢كو٤: ١٠).

ولكن كفى من هذا فعلينا أن نعود إلى تاريخنا.

قد رفض الرد البابوي مبدأ التبرير بالإيمان بدون استحقاق الأعمال الصالحة رفضًا باتًا. أما فيما يتعلق بزواج القساوسة فقد استغرب الكاثوليك كيف جاز للبروتستانت أن يطلبوا مثل هذا المطلب، إذ أنه لم يحدث منذ أيام الرسل أن تزوج القساوسة. وفيما يتعلق بالقداس فقد قالوا إنه ليس سوى ذبيحة للأحياء

والأموات، مؤكدين "أن دانيآل قد تنبأ قديمًا أنه عندما يجيء ضد المسيح ستُبطل الذبيحة اليومية. ولكن هذا لم يجئ بعد في الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، إلا أنه في تلك الأماكن التي فيها يُزدرى بالقداس وتُهدم المذابح وتُحرق الصور قد تمت هذه النبوة". ذلك كان نوع الحجج المستنيرة التي قدمها معلمي روما، ففي اللحظة التي فيها يشيرون إلى الكتاب يبرهنون على جهلهم بمحتوياته، ويدللون على أن إله هذا الدهر قد أعمى أذهانهم.

هذا هو الرد البابوي الذي طلب شارل إلى الأمراء البروتستانت أن يوافقوا عليه احترامًا لسلطانه كإمبراطور وكحامي كنيسة روما والوحدة الدينية في الإمبراطورية.

رفض تسليم صورة الرد

بعد ذلك وقف يوحنا منتخب سكسونيا وأجاب بنبل وشهامة بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن أصدقائه بأنهم على استعداد أن يفعلوا أي شيء في سبيل الصلح لا يتعارض مع ضمائرهم الصالحة، وأنه إذا أمكن إقناعهم بأي خطإ بقوة المكتوب وعلى أساسه فإنهم على أتم استعداد للاعتراف بهذا الخطأ والرجوع عنه، ولكنه يطلب صورة من الرد حتى يتسنى لهم دراسته في فرصة أوسع، ويبينوا النقط التي لا يوافقون عليها، قائلاً إن هذا المطلب يتفق مع روح المداولة العادلة الحرة التي دُعوا إليها. غير أن هذا المطلب المعقول لم يُجَب، فالرد لم ينشر ولم تُسلم نسخة منه إلى البروتستانت، الذين مع ذلك أصروا على استلام نسخة منه. وأخيرًا وافق شارل على ذلك بالشروط الآتية: "أن البروتستانت لا يردون، وأنهم يجب أن يوافقوا الإمبراطور سريعًا ويخضعوا لقراره، وأن لا تعمل صورة من الرد ولا تُبلغ نصوصه إلى أي شخص آخر، لأن الإمبراطور لا يريد أية مناقشة أخرى في الموضوع". وبهذه الشروط رفض البروتستانت استلام النسخة المطلوبة، رافعين أمرهم إلى الله وحقه.

وقد أهاج هذا الثبات من جانب الأمراء ثائرة الإمبراطور، فهم بذلك قد رفضوا كل ما اقترحه عليهم، حتى ما كان يعتبره خدمة لهم، وقد فشل للآن فشلاً تامًا رغم جميع حيل روما وأساليبها الخادعة أن يستميلهم أو يفرقهم. ويقول دوبيني في وصف هذا الموقف الأخير "ظهر الاضطراب والغضب والهياج بصورة بارزة على كل مقعد من مقاعد المؤتمر، فإن رد البروتستانت كان معناه الحرب والثورة. حتى أن جورج دوق سكسونيا وأمراء بافاريا وكل أتباع روما المتحمسين ثاروا بحنق وغضب شديدين. وبالاختصار ساد المجمع حركة فجائية شديدة من التذمر والهياج والتهديد، حتى لكأنه قد انقلب إلى بركان ينفث حممًا من البغضة والكراهة للبروتستانت»[(٤٤)(٤/٤)(١/٧٢)].

مفاوضات خاصة

كان الهياج والاضطراب اللذان سادا المجمع عقب رفض البروتستانت اقتراحات الإمبراطور هكذا شديدين، حتى توسط في الأمر منتخبو ماينس وبراندنبرج، والتمسوا من الإمبراطور أن يسمح بحل نقط الخلاف بمفاوضات شخصية حبية، وقد قبل الإمبراطور هذا الاقتراح، وتعين الوسطاء وعددهم ستة، كلهم من أشد أعداء الإصلاح، وهم منتخب براندنبرج ورئيس أساقفة سالزبورج وأساقفة ستراسبورج وفورتزبرج وبامبرج وجورج دوق سكسونيا، وبهذا اتخذت المشكلة اتجاهًا جديدًا، إلا أنه اتجاه لا يدنيها إلى أي حل سلمي. ولو كان شارل تُرك لعقيدته الخاصة لكان من السهل الوصول إلى حل سلمي مع المصلحين، فقد كان في حاجة شديدة إلى المال والرجال من ألمانيا، ولم يكن يرضى بأن يرى سياسة تخريب المملكة وإبادة رعاياه لأنهم رفضوا إطاعة البابا. زد على ذلك إن بعض المؤرخين يعتقدون بأنه كلما كان يتعرف عن قرب أكثر بمبادئ الإصلاح كلما كانت هذه المبادئ تمس وترًا حساسًا في نفسه؛ علاوة على أنه من المحقق أن أخته ماري التي تزوجت من كرستيرن ملك الدانمارك كانت أميرة تقية، وفي الغالب كانت لوثرية. فكما كانت مرجريت تفعل مع أخيها فرانسيس الأول هكذا كانت ماري تفعل مع أخيها شارل، وتدافع عن البروتستانت.

هكذا كان الإمبراطور في ورطة، فقد كان عليه من ناحية أن يلعب دور السياسي، بينما كان من الناحية الأخرى مرتبطًا بقسم خطير أن يدافع عن كنيسة روما والكرامة البابوية. ولذلك كان لزامًا عليه أن يقف موقف المرضي للبابا وشيعته، إلا أنه لما كان بطيئًا في حركته وصلت رسائل سريعة من روما تستنهض همته بأشد الأساليب واللهجات، كما أن كامبجيو ضاعف غيرته وحماسه، فقال: "ليعقد الإمبراطور معاهدة مع أمراء ألمانيا الكاثوليك، وإذا تمادى هؤلاء

العصاة رغم كل تهديد ووعيد في عنادهم وطريقهم الشيطاني، فليستخدم جلالته النار والحديد، وليضع يده على جميع ممتلكات الهراطقة، ويُلاشي هذه الجراثيم السامة ملاشاة تامة، وليُعيّن مفتشين مقدسين يتتبعون آثار من يبقى من أعوان الإصلاح، ويعاملهم كما عاملت أسبانيا المراكشيين". علاوة على ذلك كان لا بد من تحريم جامعة وتمبرج وحرق كتب الهراطقة بالنار، وكل من تلقى العلم في تلك الجامعة يُعلن عنه بأنه غير مستحق لرضاء البابا والإمبراطور. وقد زاد المندوب الماكر على ذلك بأن قال لشارل: "ولكن قبل كل شيء يجب السير في عملية المصادرة العامة للأملاك، إذ حتى لو أن جلالتكم قصرتم في عملكم هذا على زعماء الإصلاح دون غيرهم، فيمكنكم من هذه المصادرة الحصول على مبلغ كبير من المال لا غنى لجلالتكم عنه في قيامكم بالحرب ضد الأتراك"[١٧٥].

تلك كانت مشورات روما، وتلك كانت الطريقة في بث روح الحماس في الوسطاء والمفاوضين الذين خاطبوا البروتستانت في أول مؤتمر بأسلوب حزبهم، مكررين لهم الإشارة إلى تساهل الإمبراطور واعتداله، وإلى رغبته في تدعيم وحدة الإمبراطورية والعمل بمعاونة البابا على معالجة بعض المساوئ التي تسللت إلى الكنيسة المسيحية، وهنا قال منتخب براندنبرج "ولكن ما أبعد مبادئكم الجديدة عن روح الإنجيل، فاتركوا إذًا أضاليلكم ولا تبقوا فيما بعد منفصلين عن الكنيسة وأمضوا الرد البابوي بلا إبطاء، وإذا رفضتم فكم من نفوس ستهلك بسبب خطئكم، وكم من أتعاب ومصائب ستحل بالإمبراطورية كلها". ثم قال بلغة صريحة وعبارة واضحة مشيرًا إلى منتخب سكسونيا "إنه إن لم يترك ويلعن التعليم الجديد الذي اعتنقه حديثًا فإن الإمبراطور بقوة السلاح سيجرده من ألقابه وممتلكاته، لا بل ومن حياته، وأن خرابًا سيحل برعاياه ويصيب حتى نساءهم وأولادهم". وقد تأثر الأمير الشيخ بهذا الأسلوب الهجومي إلى حين، ولكنه سرعان ما استعاد حزمه المعهود، وهكذا استمر باقي الأمراء ثابتين متحدين رغم ما كان يُحيط بهم من كل جانب من قوات الحرس الإمبراطوري، وكانت المدينة كلها تكاد تكون في حالة حصار.

ولم يكد ينتهي الاجتماع الأول حتى غادر أمير هيس أوجسبرج فورًا، وقد أحدث رحيله المفاجئ قلقًا شديدًا في نفس الإمبراطور والأمراء وجميع أعضاء المجمع. إن أحدًا لم يكن يعرف نواياه، ولكنه ترك مذكرة مع مستشاره ليقدمها للمنتخب فيها يؤكد له أنه لن يحيد قيد شعرة عن موقفه في سبيل قضية الإنجيل، وأنه مُصمم على سفك آخر نقطة من دمه دون أن يترك هذه القضية المقدسة، ويرجو من حلفائه أن لا يسمحوا لأنفسهم بأي حال أن يتحولوا قيد أنملة عن كلمة الله، وقد أمر وزراءه بالبقاء في المجمع مشددًا عليهم لإعطاء تعضيدهم الكلي لقضية البروتستانت[٢٦٧].

والذي نعتقده أن فيليب، وهو رجل حاد الذكاء وقوي التمييز أدرك أن المسألة قد دخلت الآن في دور أخطر من ذي قبل ولا يُرجى منه أي نفع، وإذ تضايق من وقاحة البابويين اشتاق أن يهجر المكان برمته ويذهب إلى بلاده، وقد كان حكمه هو الصحيح كما أثبت النتيجة في النهاية، فقد انقضى شهر أغسطس كله في مؤتمرات طويلة بلا جدوى، فالخلاف لم يُحسم، ولم تفكر كنيسة روما في سلوك طريق التسامح، كما لم يُفكر البروتستانت في الموافقة على الخضوع بلا قيد ولا شرط، الأمر الذي كان يطلبه منهم الكاثوليك. وفي نهاية الشهر أُعيدت المشكلة إلى الإمبراطور في نفس الحالة التي عليها أخذها المُنتخبون من يده، أي أنها لم تتقدم ولم تتأخر.

اختتام المجمع

إن الذي فشل في إتمامه دكاترة اللاهوت والأمراء ظن شارل العظيم أنه لا شك قادر على إتمامه سريعًا بوساطة نفوذه الشخصي، ولكنه خاب في ذلك خيبة مريرة. والواقع أن شارل على ما يظهر لم يفهم في يوم من الأيام طبيعة النزاع الحقيقية، أو على الأقل لم يفهم قوة الضمير المستنير بكلمة الله. لقد كانت هذه أمورًا جديدة على الإمبراطور، أما الترتيب الوحيد الذي كانت تدور حوله أفكار شارل فهو تنازل الطرفين عن بعض نقاط، أو خضوع طرف منهما خضوعًا كاملاً. ولكنه سرعان ما أدرك بالدليل والبرهان أن الضمير لم يكن البتة في متناول نفوذه الشخصي وقوة سيفه.

وإذ وجد أن جميع الوسائط الخاصة، مع كافة حيل الدبلوماسية البابوية لم تُفلح، استدعى رؤساء الجانب البروتستنتي لمقابلته يوم ٧ سبتمبر في قاعة الاستقبالات الإمبراطورية، ولم يحضر هذه الجلسة سوى أخيه مع عدد قليل من مستشاريه المقربين السريين. وإذ دخل الأمراء والنواب عبّر لهم بلسان الكونت بلاتين عن دهشته إزاء تصرفهم "كيف أنهم، وهم عدد قليل، سمحوا

لأنفسهم بأن يدخلوا تجديدات تتنافى مع أقدم وأقدس عادات الكنيسة العامة. كيف أنهم رسموا لأنفسهم شكلاً خاصًا ونوعًا فريدًا من الديانة، مخالفين في ذلك ما يعترف به الكاثوليك وما يعترف به هو نفسه وأخوه وجميع أمراء وشعوب الإمبراطورية، بل أكثر من ذلك، مخالفين على خط مستقيم جميع ملوك الأرض ونفس أجدادهم. ومع ذلك فرغبة منه في السلام سيستخدم نفوذه مع البابا والأمراء الآخرين لعقد مجمع عام حالما يمكن الاتفاق على المكان. ولكن هذا تحت شرط أنه حتى يُبت في الأمر يتبعون نفس الديانة التي هو وباقي الأمراء يعترفون بها". وردًا على ذلك أجاب البروتستانت بكل احترام أنهم يرفضون شروطه قائلين "إنهم ينكرون أنهم أنشأوا شيعًا جديدة تناقض كلمة الله المقدسة، وإنهم يشكرون اقتراحه الخاص بالمجمع، ولكنهم يقررون أنه ما من شيء يمكن إرغامهم على أن يعيدوا إلى كنائسهم المساوئ التي دونوها في اعترافهم، لا بل وبفرض أنهم قد يريدون إعادتها، فإنه من المستحيل عليهم أن يفرضوها على رعاياهم، الذين أصبحوا الآن مستنيرين لدرجة لا يمكن معها قبول هذه المساوئ".

لقد أُسقط في يد شارل أنه لم يكن يرغب في الحرب، ولكن كيف يمكن تلافيها الآن مع الاحتفاظ بالشرف والكرامة؟ "إنه لم يكن يتصور كيف أن أمراء قلائل، قوتهم المادية لا يُعتد بها يجرءون على رفض الشروط التي تنازل فاقترحها عليهم. إنه من واجبهم أن يحترموا قرار الأغلبية، ولا يفضلوا رأيهم الشخصي على رأي الكنيسة، وحكمتهم عن حكمة البابا وجميع أمراء المسيحية". وعليه التمس من البروتستانت أن يستأنفوا المؤتمر، وأنه يأمل الوصول إلى اتفاق لو استمر المؤتمر ثمانية أيام أخرى. ولكن البروتستانت أبوا استئناف المؤتمر، لأن ذلك لن يُنتج إلا تأخيرًا آخر لا معنى له، ولا طائل منه، وفي يوم ٩ سبتمبر انقطعت بينهم وبين شارل كل اتصال مباشرة.

المرسوم النهائي

والآن أصدر الإمبراطور أمره بانتخاب لجنة لتحضير المرسوم، وطلب إلى منتخب سكسونيًا البقاء أربعة أيام أكثر لكي يسمع صيغة مشروع المرسوم، والذين تعينوا لإعداد صيغة هذا المرسوم كانوا منتخبي ماينس وبراندنبرج ورئيس أساقفة سالتزبرج وأسقفي ستراسبرج وسبيْرز وجورج دوق سكسونيا ووليم دوق بافاريا وهنري دوق برُنسويك، وكلهم من أشد أعداء الإصلاح.

وفي يوم ٢٢ سبتمبر قُرئ المرسوم على البروتستانت، وقد جاء فيه أن إعتراف المنتخب وشركائه قد قُرئ علانية ودحض، وأنه في المؤتمرات التالية سحب هؤلاء الأمراء بعضًا من عقائدهم الجديدة، ولكنهم لا يزالون يتمسكون بالبعض الآخر، وأن المهلة الآن معطاة لهم لغاية ١٥ أبريل المقبل للرجوع إلى عقيدة الكنيسة ولو على الأقل إلى أن يصدر قرار بواسطة مجمع، ولكن عليهم أن يُعلنوا قرارهم النهائي في هذا الشأن جهرًا قبل ذلك التاريخ. وعليهم في الوقت نفسه أن يعيشوا في سلام وهدوء، وأن لا يسمحوا بدخول تغييرات في العقيدة، وأن لا يصدروا مؤلفات دينية جديدة، وأن لا يمنعوا أحدًا من رعاياهم من الرجوع إلى الإيمان القديم، وأن يشتركوا مع أمراء الإمبراطورية الآخرين في القضاء على طائفة الأنابابتست أي منكري وجوب المعمودية، وطائفة أتباع مذهب العشاء الرباني، مؤكدًا لهم أنه في ظرف ستة أسابيع سيرسل الإمبراطور دعوته لانعقاد مجمع عام يبدأ جلساته مع بدء العام التالي.

ولقد جاءت لهجة هذا القرار خفيفة ومعتدلة بالمقارنة مع ما عهدناه واعتدنا سماعه من لغة الحزب البابوي الشديدة الحادة، ولكن مهما كان الغرض فإن البروتستانت قد أجابوا بثباتهم العادي المعهود قائلين "إنهم لن يعترفوا بأن اعترافهم قد دُحض، بل بالعكس إنهم الآن أكثر اقتناعًا من أي وقت آخر بأن اعترافهم ينطبق تمام الانطباق على كلمة الله، الأمر الذي كانوا على تمام الاستعداد لايضاحه لو أن نسخة من الرد الداحض المزعوم قد سُلمت لهم". وهنا قدّم بونتانس إلى المجمع دفاعًا عن الاعتراف، وهو بمثابة رد على الدحض البابوي بقدر ما استطاع أن يتذكر من مواده التي سمعوها، وهذا الدفاع يُشير إلى استعدادهم الأكيد المتكرر لترك كل رأي غير قائم على أساس المكتوب، ويؤكد إخلاصهم القلبي العميق للإمبراطور والإمبراطورية، وينتهي بالتماس نسخة من مشروع المرسوم حتى يمكنهم تكوين رأي من جهته.

وفي صبيحة يوم ٢٣ سبتمبر استأذن المنتخب في السفر، وصرح الإمبراطور لبقية الأمراء البروتستانت بالرحيل.

وقد استمر المجمع في جلساته ما لا يقل عن شهر بعد سفر الأمراء البروتستانت، وكان جل همه في هذه الجلسات إعداد

العدة للحرب التركية، وقد نُشر قرار المؤتمر النهائي في ١٩ نوفمبر. ونحن نقدم للقارئ هنا خلاصة هذه الوثيقة الهامة بحسب ما جاءت في كتاب وادنجتن، لأننا نعتقد أنها أوضح وأبسط الخلاصات للقارئ الحديث. وهاك هي:

"إن الذين أنكروا حضور جسد المسيح الحرفي ودمه في الأفخارستيا قد حرموا. وقد صدر الأمر بإعادة جميع الأسرار القديمة، والطقوس والمحافل إلى الأماكن التي مُنعت فيها قبلاً. كما صدر الأمر بشلح الكهنة الذين تزوجوا، ولا يحل أحد محلهم ولا يُرسم أي كاهن جديد في أي مكان بغير موافقة الأسقف المختص. كذلك الصور والتماثيل التي رُفعت يجب أن تُعاد إلى موضعها.

وحرية الإرادة يجب أن تُحترم، وجميع التعاليم المضادة التي نُشرت يجب اعتبارها مُهينة لله. وهذا يسري على مبدإ التبرير بالإيمان وحده. ونُشدد على الطاعة للسلطات المدنية، كما ينبغي على الوعاظ أن ينبهوا الناس إلى ضرورة الالتجاء إلى شفاعة القديسين، وإلى حفظ الأعياد والأصوام وحضور القداس. وعلى الرهبان أن يطيعوا أحكام لوائح أديرتهم، وعلى رجال الإكليروس أن يحيوا حياة صالحة وشريفة. وكل من يحاول إدخال أي تغيير أو تجديد في التعاليم وطرق العبادة يُعرّض نفسه للاضطهاد والعقوبات البدنية. والأديرة التي تهدمت يجب إعادة بنائها مع إعادة أموالها ومواردها للرهبان. والمرسوم يجب تنفيذه بالقوة العسكرية حيثما لا يُقابل بطاعة اختيارية، وعلى الولايات أن توحد قواتها مع قوات الإمبراطور لهذا الغرض. وعلى المجلس الإمبراطوري مطاردة العصاة، وعلى الولايات المجاورة تنفيذ أحكامه. وسيطلب إلى البابا العمل على عقد مجمع في ظرف ستة شهور، على أن يجتمع هذا المجمع في ظرف سنة من تاريخ دعوته".

وبعد يومين من قراءة القرار النهائي قراءة علنية غادر شارل الخامس مدينة أوجسبرج، وبحسب رأي المؤرخ دوبينيّ كان مكتئبًا جدًا ومضطربًا للغاية في أفكاره، ولا يدري ما السبيل للخلاص من هذه الورطة المعقدة التي وقع فيها. فبصفته رأس الإمبراطورية قد تداخل لحماية الكنيسة والقضاء على أعدائها، ولكن النتيجة جاءت على عكس ذلك "فإذا لم ينفذ تهديداته ضاعت كرامته وسقطت هيبته وتصدع سلطانه ... إنه وهو الحاكم العظيم قد رأى كل سلطانه يهتز ويضعف أمام مسيحيين قلائل، والذي دخل المدينة الإمبراطورية دخول الظافر المنتصر هاهو يخرج منها الآن كئيبًا صامتًا كسير الروح. وبالاختصار أن أقوى قوة على الأرض قد تكسرت على صخرة قوة الله وسلطانه"(٤/٤٤)،(٣/٦٧)،(١/٧٣)،(٣/٤٧).

تأملات في مجمع أوجسبرج

إنها ليست دراسة جافة وعقيمة، وليست هي مضيعة للوقت، تلك التي تقودنا إلى معرفة أعمق بالله وإلمام أدق بطرقه العجيبة. إن رؤية يده تقود وتتحكم في مجريات أمور الناس وأدق قضاياهم، وتحولها كلها لتتميم مقاصده الصالحة لهو شيء منعش للغاية ومعز للنفس «من كان حكيمًا يحفظ هذا ويتعقل مراحم الرب». «ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله، الذين هم مدعوون حسب قصده» (مز١٠٧: ٤٣، رو٨: ٢٨). فالمؤرخون قد يتوسعون بالدهشة والإعجاب في سردهم لنتائج مثل هذا النزاع لنصرة الأقلية على الأكثرية والضعيف على القوي، ولكننا بينما نحاول أن نتكلم عن كل واحد من المتحاربين والمتنازعين في غير تحيز، فإنه يحلو لنا أن نضع عيوننا باستمرار على ذاك الذي هو «رأس فوق كل شيء للكنيسة التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل» (أف١: ٢٢، ٢٣).

لا شك أن القارئ قد لاحظ أن المندوبين وعلى رأسهم كامبجيو الداهية المحنك، وبجانبهم الإمبراطور قد فشلوا فشلاً تامًا في التغلب على الأمراء البروتستانت، وهم نسبيًا أقل حنكة وخبرة. فكالأمواج تتكسر فوق الصخور هكذا تكسرت كل حيلهم وأساليب مكرهم وخداعهم ومشوراتهم الشريرة على المنتخب وأعوانه، الذين بالإيمان وبالتمسك المستمر بكلمة الله استطاعوا أن يصمدوا راسخين وسط غضب أعدائهم وهياجهم وتهديداتهم. فالبابا والإمبراطور والمندوبون والأمراء بكل خبرتهم السابقة في السياسة والأساليب الدبلوماسية لم يستطيعوا إلا أن يدهشوا لهذا الفشل، وكيف أنهم لم ينجحوا في التغلب على هذه الأقلية الضعيفة. وفي هذا يقول أحد شهود العيان المدققين "من يوم إلى يوم كانت مشوراتهم تُفضح ومكائدهم تُعرف ويقضى عليها بواسطة رجال لا يدّعون بالمهارة السياسة، رجال ألمان بسطاء، سكان ولايات لا شهرة لها ولا صيت، رعايا أمراء صغار، لا خبرة لهم بفنون السياسة وبلاط الملوك، ولا دراية لهم حتى بأبسط قواعد الخداع

والدس. وعبثًا كان يحاول خصومهم استنباط طرق جديدة للتأثير عليهم، لكن جميع وسائلهم وحيلهم كانت تفشل أمام تلك الحكمة الرزينة الحريصة التي كانت تلازم هؤلاء الرجال".

وفي سياق تأملنا في أعمال مجمع أوجسبرج نجد ذاكرتنا تتجه قهرًا إلى مجمع ورمز، وإلى التغيرات العظيمة التي حدثت أثناء تلك السنين التسع، والتي يمكن أن نلخصها فيما يلي:

أولاً: في البداية كان لوثر يقف وحده ممثلاً لحركة الإصلاح، ولم يكن قد ظهر بعد أمير واحد يحتضن القضية. أما في أوجسبرج فكل شيء قد تغير، فبدلاً من راهب واحد منفرد نرى جماعة كبيرة وهيئة منظمة من الأمراء والأشراف واللاهوتيين، وجميعهم رجال لهم وزنهم واعتبارهم. ولكن روما لم تزل رافعة رأسها لم تأخذها الضعة أو الحيرة أمام القوة الثانية أكثر من الأولى، ولم تستطع أن تُسكت الراهب المنفرد كما لم تستطع أن تسكت جمهرة الأمراء. تلك كانت قوة الله الظاهرة فيما يتعلق بكلمته وسلطانها. حينذاك أصدرت روما مرسومًا كمرسوم أوجسبرج ولكنها لم تتمكن قط من تنفيذه. أي شيء أكثر من ذلك يبرهن على قوة حركة الإصلاح وضعف أعدائها؟

ثانيًا: لا شك أن نتائج مجمع أوجسبرج كانت في صالح البروتستانت. فقد كان غرض الحزب البابوي والهدف الأكبر الذي ترمي إليه البابوية هو سحق حركة الإصلاح بقوة سيف شارل وخلع جذورها تمامًا من أرض ألمانيا. ولكن بدلاً من تنفيذ مشورتها الشيطانية تشددت البروتستانتية وتقوت جدًا، وتأصلت جذورها وتخلصت من كثير مما كان يحيط بها من سوء الفهم. فقد كان لموقف الأمراء الهادئ الرزين ولتصرفهم الشريف المحاط بالعزة والكرامة ما جعل الكثيرين من البابويين يفهمون حركة الإصلاح على حقيقتها، ويعطفون على أعوانها، وأخيرًا يتحدون معهم.

"فمن بين أهم وأخطر من تحولوا إلى جانب الإصلاح كان هرمان رئيس أساقفة كولونيا، وفردريك كونت بلاتين رئيس وزراء الإمبراطور، الذي صار منتخبًا فيما بعد، وإريك دوق برونسويك ودوق مكلنبرج وبوميرانيا، ويواقيم أمير براندنبرج المنتخب، الذي حل محل والده عقب المجمع، وجورج أرنست ابن الأمير وليم حاكم هننبرج. هذا علاوة على أن بعض المدن الحرة التي كانت حتى ذلك الوقت بابوية النزعة أو محايدة انحازت إلى حركة الإصلاح وأعلنت تحبيذها لها. لا بل أن الإمبراطور نفسه وأخوه خرجا من هذا المؤتمر وهما يحملان نحو المبادئ البروتستانتية وحركة الإصلاح شعورًا مختلفًا عن ذي قبل، وتضائل نفورهما منها الذي تأصل قبلاً مما تعلماه وتلقناه على يد مستشاريهم اللاهوتيين".

ثالثًا: وثمة فائدة ثالثة نتجت عن هذا المؤتمر، وهي أن جزءًا كبيرًا من الحق الإلهي ظل أمام مخيلة هذا المجمع العظيم زهاء ستة شهور كاملة، وهذا مكسب لا يُستهان به، فكثيرون من رجال الكنيسة والدولة سمعوا في هذا المجمع حق الله لأول مرة. فبجانب الاعتراف الذي قدمته الكنائس اللوثرية عُرض على المجمع اعترافان آخران، أحدهما أرسله زونجلي، والآخر يسمى "اعتراف المدن الأربع" نسبة إلى كونه موقعًا عليه من مندوبي أربع مدن إمبراطورية وهي ستراسبورج وكونستانس وممنجن ولنداو. ويرجع الفضل في كتابة اعتراف المدن الأربع هذا إلى بوشر، كما يرجع الفضل إلى ملانكتون في كتابة الاعتراف اللوثري. وهكذا أراد الله أن يُعلن الحق ويؤيد بثلاثة اعترافات حسنة. وقد اتفق الثلاثة في كل ما تضمنته من الحقائق الجوهرية طبقًا لكلمة الله، ولم تختلف هذه الاعترافات الثلاثة إلا فيما يتعلق بوجود المسيح الحرفي ودمه أو بالكيفية التي يوجد بها هذا الجسد والدم في الأفخارستيا.

رابعًا: من السهل أن نشير إلى حقائق مباركة كثيرة في كلمة الله أغفلتها هذه الاعترافات، ولكن غرضنا هنا هو أن نذكر بالشكر وعرفان الجميل ما عمله أولئك الرجال النبلاء بنعمة الرب. أما حق الله الخاص بالكنيسة، جسد المسيح، وعلاقتها السماوية، وأعمال الروح القدس، والفرق بين بر الله وبر الناموس، واتحاد المؤمنين بمسيح مرتفع ممجد، ورجاء مجيء الرب لأجل قديسيه ثم بعد ذلك مع قديسيه ليملك على الأرض ويسود بسلطانه المطلق في مدة الملك الألفي، كل هذه ظلت حقائق مجهولة نسبيًا، إن لم يكن كليًا، لدى المصلحين، ولكنهم مع ذلك كانوا أمناء لما يعرفون وقد تمسكوا بالنور الذي عندهم أمام كل خطر وفي وجه كل مقاوم، وهكذا بالإيمان، وبالإيمان وحده، حصلوا على الغلبة والنصرة.

هنا يمكن القول بأن حركة الإصلاح من الوجهة الأدبية قد استقرت. صحيح أنه ستعقد بعد ذلك مؤتمرات وستدور مناقشات، وتبرم تحالفات وتحدث حروب وخصومات، إن لم نقل شيئًا عن حوادث لا حصر لها من الاضطهاد والاستشهاد. كل ذلك وأكثر

منه سيحدث، ولكن حق الله الذي يحرر النفس، والمتعلق بالخلاص بالإيمان بالرب يسوع المسيح بدون استحقاق الأعمال الصالحة قد استولى على الأذهان وتسلط على العقلية الأوروبية، بحيث لم يعُد في استطاعة سيف الإمبراطورية ولا مؤامرات البابوية ولا قوات الجحيم أن تلاشيه أو تطفئ نوره.

يد العناية في أمور شارل

لا شيء أجمل وألذ في تاريخ حركة الإصلاح من ملاحظة أعمال يد العناية الإلهية، تلك العناية العجيبة التي استطاعت أن تحمي شهود الله المختارين وتحافظ على كتاباتهم وشهاداتهم بوسائل لا تخطر على بال. حقًا إن الله وحده هو الذي كان في مقدوره أن يُحوِّل منازعات الملوك من ناحية، وجيوش الأتراك من ناحية أخرى، إلى وسائل وآلات لنشر إنجيل السلام وإذاعة الحق في كل مكان.

فعقب إصدار مرسوم ورمز ضد المصلحين مباشرة بدأت الحرب بين الإمبراطور وفرانسيس ملك فرنسا. وفي هذا يقول الدكتور روبرتسون "إنه مهما كانت رغبة الإمبراطور في وضع حد لتقدم لوثر، فإنه وجد نفسه مضطرًا أثناء عقد مجمع ورمز إلى تحويل أفكاره إلى أمور أهم كانت تتطلب انتباهه بأكثر سرعة وعجلة"، فالغرض الأكبر والمطمح الأعظم الذي كان يرمي إليه في ذلك الوقت هو مقاومة سلطان فرانسيس والوقوف ضد نفوذه. فكما يُخبرنا التاريخ المدني كان كل من شارل وفرانسيس يدّعي أن له الحق في دوقية ميلانو التي فقدها لويس الثاني عشر بعد أن كان قد استولى عليها بالفتح والانتصار، وهكذا كانت هذه الدوقية موضع نزاع بين شارل وفرانسيس "وقد نجح فرنسيس في بادئ الأمر في وضع يده عليها، ولكن حوالي سنة ١٥٢٥م استرجعها شارل مرة أخرى من تحت سيادته. وكان شارل من جانبه يعتبر أن له الحق في آرتوا باعتبارها جزءًا من هولندا كما كان عليه أن يُدافع عن نافار التي أخذها جده فرديناند من فرنسا". هذا يفسر لنا تردد الإمبراطور في إثارة أي عداء أو حرب ضد الألمان. إن هذه المنازعات والمخاصمات بين أكبر قوتين في أوروبا شغلت باله لسنين عديدة، فيها استطاعت حركة الإصلاح أن تنتشر انتشارًا كبيرًا رغم تهديدات البابوية المتكررة.

زد على ذلك أن صرامة مرسوم أوجسبرج أثارت بالطبيعة مخاوف شديدة لدى جميع أعضاء الهيئة البروتستانتية، أو قُل جميع ألمانيا. فشيء واحد كان متوقعًا في جميع أنحاء المملكة، وهو قيام حرب أهلية فورية يكون معناها إهلاك البروتستانت وإبادتهم. ذلك كان المظهر الخارجي للحالة، ولكن الله كان يدبر خلاف ذلك، فإن مركز شارل لم يكن ليسمح له في ذلك الوقت بإطلاق الاضطهاد في البلاد، كما أن قلبه لم يكن يطاوعه على ذلك، فاحتكاكه بالبروتستانت واختلاطه بهم ستة شهور تقريبًا علم منه أنهم ليسوا أناسًا متعصبين خطرين، أو أعداء خائنين كما كان يظن. لا شك أنه قد تأثر كثيرًا لعدالة قضيتهم، ولو أنه لم يكن يُدرك تمامًا معنى الحريات المدنية والدينية التي كانوا يطلبونها، ومع ذلك فلم يكن يرى سببًا لإنزال العقاب بهم كعصاة ثائرين حبًا في سواد عيون البابا. وقد استاء كليمنت وجميع أتباعه الإيطاليين لأن الإمبراطور لم يَقُم بواجبه كحامي الكنيسة، ولم يشن الغارة ضد الهراطقة الفاسدين في نظر البابوية، ولكن هذا - بعناية الله - كان مستحيلاً، حتى ولو كان شارل شغوفًا بسفك الدماء نظير كليمنت.

فالأخبار من الشرق أقلقت الإمبراطور وأوقعته في حيرة شديدة، وأنقذت البروتستانت وأفسحت أمامهم المجال، فسليمان السلطان العثماني أغار مرة ثانية على هنغاريا على رأس جيش قوامه ثلاثمائة ألف رجل واحتلها بهدف خلع فرديناند، الذي أقسم أن يقصيه وأن يقيم آخر على عرشه، وهذه الأخبار جذبت أفكار الإمبراطور وحولتها كليةً عن ألمانيا. وهنا يجب أن نتركه لنلقي نظرة على موقف البروتستانت.

تحالف سمولكولد

انفض مجمع أوجسبرج وأصدر مرسومه بما حواه من تهديد، فراح المنتخب وشركاؤه يفكرون تفكيرًا جديًا في اتخاذ أنجح التدابير للقضاء على هذا المرسوم وإبطال مفعوله، مع الاستعداد لأسوإ الاحتمالات. وقد كان للمخاوف والمصائب التي توقعها المصلحون في القريب العاجل أكبر الأثر على عقل ملانكتون الهادئ الضعيف، حتى دفعت به إلى حد اليأس، ولكن لوثر لم يفزع أو يضطرب، بل كان في عزلته في كوبرج يعزي ويشجع أصدقاءه ويزكي فيهم نار الحماس برسائله. وإذ كان يعتقد اعتقادًا راسخًا أن العمل هو عمل الله، كان يطلب إلى الأمراء أن يقفوا

راسخين على أساس الحق الأبدي، وأن يثقوا في حماية الله، ولا يُسلموا في شيء من تعاليم الإنجيل النقية.

وفي شهر نوفمبر سنة ١٥٣٠م قام أمير هيس، وكان أجرأ من الباقين وأقل منهم نفورًا من تعاليم المصلحين السويسريين الخاصة بعشاء الرب، وعقد تحالفًا لمدة ست سنين مع مقاطعات زيورخ وبرن وبازل ومدينة ستراسبورج. وفي يوم ٢٢ من الشهر التالي اجتمع أمير هيس وباقي الزعماء البروتستانت في سمولكولد من أعمال سكسونيا العليا، وهناك وضعوا الأساس للتحالف الشهير المعروف في التاريخ باسم "مواد سمولكولد" وقد كان أمير هيس ميالاً على الدوام لإيجاد الوحدة في صفوف المصلحين، ولذلك بذل أقصى جهد للسماح للسويسريين بدخول التحالف، ولكن لوثر وأتباعه رفضوا قبولهم رفضًا باتًا.

وبمقتضى هذا التحالف أصبحت الولايات البروتستانتية جبهة واحدة متضامنة معًا في الدفاع عن كيانها المشترك، ولكن لوثر وبعض أتباعه الآخرين الذين طالما تكلموا وكتبوا ضد فكرة إيجاد أي تحالف، ولو للدفاع عن قضيتهم، لم يرتاحوا إلى هذه المعاهدة، وأظهروا منتهى التخوف منها. وكان لا بد من استشارة رجال القانون واللاهوت في شرعية هذا التحالف، فأفتى الأولون "بأنه توجد حالات معينة تسمح فيها القوانين بمقاومة السلطة الإمبراطورية، فبمقتضى الاتفاق المبرم بين الإمبراطور بعدم مخالفة قوانين الإمبراطورية وبعدم الافتئات على حقوق وحريات الكنيسة الألمانية، وها هو الإمبراطور قد كسر هذا الاتفاق وأخل بشروطه، فأصبح من حق الولايات أن تتحد وتتحالف ضده". وقد أجاب لوثر بأنه كان يجهل ذلك، وبما أنه قد اقتنع الآن بأن الأمر كذلك فهو لا يمانع في التحالف، لأن الإنجيل لم يُبطل القوانين المدنية بأي حال، ولكنه لا يستطيع أن يوافق على إثارة أي حرب عدائية. هنا نود أن نبدي ملاحظة هامشية، وهي أن هذه الحركة كانت أول خطوة خطيرة في تدهور وانحدار البروتستانت، فبدافع الخوف من العدو تطوحوا عن الإيمان، حتى لوثر نفسه سقط. وبدلاً من سلطان كلمة الله والضمير اتحدوا وتحالفوا حلفًا رسميًا لمقابلة القوة بالقوة.

وحوالي ذلك الوقت حدث حادث لا علاقة له بالدين، ولكنه أعطى للبروتستانت سببًا لمقاومة الإمبراطور، ذلك أن شارل الذي كانت أطماعه تتزايد كلما اتسع سلطانه وتزايدت قوته، أظهر رغبته في أن يُنتخب أخوه فرديناند كملك الرومان، وعليه طلب إلى هيئة الناخبين بأن تجتمع في كولونيا لهذا الغرض، غير أن منتخب سكسونيا رفض الحضور وأمر أكبر أبنائه بأن يذهب إلى ذلك الاجتماع "ويحتج ضد هذا الانتخاب كباطل وغير قانوني ومخالف لنصوص "الإعلان الذهبي" وهادم لحريات الإمبراطورية". ولكن الاحتجاج ذهب أدراج الرياح ولم يعتد به أحد، واستطاع شارل أن يكسب باقي الناخبين إلى جانبه، فانتخبوا فرديناند ملكًا للرومان، ولم تمض أيام قليلة حتى تم تتويجه في حفل في أكس لاشابل.

الاجتماع الثاني في سمولكولد

في يوم ٢٩ مارس ١٥٣١م عقد البروتستانت مجمعهم الثاني في سمولكولد. وفي ذلك الوقت لم تبق العصبة قاصرة على المنتخبين والأمراء البروتستانت والولايات البروتستانتية، بل انضم إليها كل من معارضًا للإمبراطور ومحتجًا على انتخاب فرديناند بغض النظر عن معتقدهم، كما عملوا على إقناع ملوك فرنسا وإنجلترا والدانمارك وأمراء آخرين بالانضمام إلى التحالف، بعد أن انضم إليه دوق بافاريا وزعماء آخرون لم يكونوا حاضرين الاجتماع الأول. وبعد التشاور وضع المجتمعون لوائح يسيرون عليها في تقديم المؤن والجيوش حتى تكون على استعداد لوقت الحاجة.

شارل يحاول مصالحة البروتستانت

هذا التحالف الحربي النزعة ومركز شارل في الحرب التركية جعله يخطب ود البروتستانت ويكسب صداقتهم بدلاً من إثارة عدائهم. وقد كان في ذلك الوقت في حاجة شديدة للمساعدة، فأرسل إليهم يطلب رجالاً ومالاً، ولكنهم رفضوا أن يرسلوا جيوشهم ما لم تكن لديهم الضمانات التي تكفل سلامتهم. وقد كانت إجابتهم إجابة معقولة، وهي أنه لن يكون من الحكمة من جانبهم أن يضعوا وسائلهم للدفاع عن النفس في أيدي مضطهديهم، ولذلك هم يطلبون أولاً إيقاف جميع الإجراءات العدائية القائم باتخاذها المجلس الإمبراطوري. وهنا وجد شارل نفسه، في مأزق لأن إجابة هذا الطلب معناه في الواقع إلغاء مرسوم أوجسبرج.

وبعد مشاورات كثيرة ومفاوضات عديدة تقدم منتخب ماينس

وأمير بلاتين للتوسط بين الطرفين، وقد عُقد اجتماع لهذا العرض في شفينفورت، وهناك عرض الوسيطان مشروعًا كأساس للصلح، وهو "أن يُصبح اعتراف أوجسبرج بلا أي تعديل جديد أو أية علاقة مع الزونجليين أو الأنابابتست دستورًا لمذهب البروتستانت، لحين الوصول إلى قرار نهائي بواسطة مجمع يُعقد لهذا الغرض، وعلى البروتستانت أن يمتنعوا عن القيام بأية محاولة لنشر مبادئهم وتعاليمهم في المقاطعات الكاثوليكية، أو لإحداث أي تغيير أو انقلاب في نظم الكنيسة وطقوسها، وعليهم أن يقدموا المؤن والذخائر اللازمة للحرب التركية، وأن يخضعوا للقوانين والمراسم الإمبراطورية، ويقدموا ولاءهم لإمبراطور الرومان". فعارض البروتستانت في هذا الاقتراح، وخصوصًا لارتقاء فرديناند إلى العرش الذي أبوا الاعتراف له بهذا الحق، وقد أيدهم في ذلك بعض الأمراء الكاثوليك وملكا فرنسا وإنجلترا.

صلح راتِسبون

الآن وقد شعر البروتستانت بقوتهم ومتانة مركزهم، أجابوا الوسيطين بما يأتي: "يقوم الإمبراطور في الحال بإعلان صلح ديني عام. وأن يمتنع الطرفين عن إهانة أو مقاومة أحدهما الآخر. وأن تصدر التعليمات للمجلس الإمبراطوري بإيقاف جميع أحكامه وقراراته التي أصدرها في المسائل الدينية. وفي حالة الإجابة على هذه المطالب فإنهم من جانبهم يتعهدون بعدم إدخال أي تجديد أو تعديل في اعترافهم، وبعدم التدخل في نظام الاختصاصات الإكليريكية في الأماكن التي لا تزال هذه الاختصاصات قائمة فيها، كما يتعهدون بتقديم أخلص فروض الطاعة للإمبراطور، وبتقديم كافة المهمات الممكنة للحرب التركية". وبعد أن أعقب ذلك بعض مناقشات وتبين أنه ليس من المحتمل الوصول إلى اتفاق، تأجل المؤتمر إلى ٣يونيو سنة ١٥٣٢م في نورمبرج.

وفي الوقت نفسه كان الأتراك يتقدمون صوب النمسا، وبذلك كان قلب الإمبراطورية في خطر. تلك كانت الحالة عندما استأنف المؤتمر مفاوضاته في الميعاد المحدد، ولكن المناقشات والعقبات تذللت بغاية السرعة "فقد أسكت تقدم سليمان حجج السياسيين، وقُبلت شروط البروتستانت بلا مناقشة أو اعتراض، وكان الإمبراطور ينتظر النتيجة في راتسبون. ويذكر التاريخ أنه عندما وصلت المعاهدة أخيرًا وعُرضت عليه وقعها دون أن يُكلف نفسه حتى ولا عناء فحصها". وكان ذلك في ٢أغسطس ١٥٣٢م.

آراء المؤرخين

من المُلذ أن نلاحظ هنا كيف أن جميع المؤرخين قد أجمعوا على أن هذا النجاح الذي أصابه البروتستانت يرجع إلى تداخل الله المباشر. يقول وادنجتن "إنه من المحقق الذي لا شك فيه أن هذه النصرة التي حازها البروتستانت لم تكن راجعة لقوتهم المادية أو سلطان تعاليمهم الأدبية، بل إلى تلك العناية الإلهية العجيبة التي استطاعت أن تحول أسلحة الأعداء نفسها إلى آلات لإنهاض الإنجيل. وقد كانت هذه المعاهدة ذات أهمية جوهرية عظيمة، لأن مرسومي ورمز أوجسبرج قد أصبحا بها معطلين إلى أجل غير مسمي". كما يدعونا المؤرخ سكلتيتس أن نُظهر إعجابنا "بتلك العناية الإلهية التي جعلت من السلطان التركي آلة عظيمة لإلغاء مراسيم أوجسبرج، أو على الأقل تأجيل تنفيذها ضد المصلحين". أما ملانكتون فيقول: "إنه بوصية الله وأمره الخفي قد ترك الإمبراطور مشروعاته ضد الألمان بسبب الحرب التركية. فها هم الأتراك يسكنون مرسوم أوجسبرج. لم يكن شعب ما في مثل الخطر العظيم الذي كنا نحن فيه، ولم تكن طائفة معرضة لأسباب العداء والانتقام المر نظيرنا، ولم تصلنا معونة إلا من الله وحده".

لا بل إن شهادة المؤرخ العلماني الدكتور روبرتسون تفوق في ذلك شهادة المؤرخين الكنسيين. يقول هذا المؤرخ الشهير "نصت هذه المعاهدة على تثبيت السلام العام في كل ألمانيا إلى أن يُعقد مجمع عام يدعو إليه الإمبراطور في بحر ستة شهور، وأن لا يتعرض أي إنسان إلى اضطهاد ما بسبب الدين، وأن توقف جميع الإجراءات التي بدأها المجلس الإمبراطوري ضد البروتستانت، وأن تُلغى جميع الأحكام التي أصدرها هذا المجلس ضدهم، ويتعهد البروتستانت من جانبهم بمساعدة الإمبراطور بجميع قواتهم لمقاومة الأتراك. وهكذا استطاع البروتستانت بثباتهم على مبادئهم وبإجماعهم على المطالبة بحقوقهم وبحكمتهم في استغلال الفرصة والاستفادة من مركز الإمبراطور أن يحصلوا على شروط معناها في الواقع التصريح بمذهبهم. وأهم

ما في الأمر أنهم لم يتنازلوا عن شيء، بل كان التسليم من جانب شارل على طول الخط، فحتى النقطة المحبوبة لقلبه والخاصة بموافقتهم على انتخاب أخيه لم ترد إشارة إليها، وهكذا أصبح البروتستانت الذين لم يكونوا للآن معتبرين سوى حزب ديني، يُعتبرون قوة سياسية لها أهميتها وخطرها»(٣/٦٧)(١/٧٢)(٥/٧٦).

أما عن أثر هذه الأهمية السياسية وفائدتها وما حققته لصالح المسيحية فهذه مسألة أخرى، وإذا كان القارئ يرغب في معرفة رأينا الخاص في هذا الموضوع فإننا نحيله إلى استعراضنا لرسالة ساردس في مستهل كلامنا عن الحركة البروتستانتية، وسيرى القارئ معنا أن السياسي واللاهوتي ضدان لا يجب مطلقًا أن يتحدا في شخص واحد، فسيرة المسيحي أو رعويته هي في السماء، ومبدأ حياته هنا على الأرض هو مبدأ الغربة، مبدأ الغريب والنزيل (١بط٢: ٢، في٣: ٢٠).

وقد وفى الأمراء بتعهدهم لشارل بكل إخلاص وبكيفية تدل على الشرف والنبل، فأرسلوا جيوشًا إلى ساحة القتال أكثر مما كان منتظرًا، فتعاظم الجيش الإمبراطوري بهذه الإمدادات الجديدة حتى أصبح عدده تسعين ألفًا من جنود المشاة المدرَّبين وثلاثين ألفًا من الفرسان، علاوة على جيش عرمرم من الجنود غير النظاميين، وقد تولى الإمبراطور القيادة بنفسه، وأصبحت البشرية ترقب بقلق واهتمام نتيجة المعركة الحاسمة بين أعظم عاهلين في العالم وقتذاك، وهكذا استمر أكثر من نصف مليون رجل يواجهون بعضهم بعضًا، ويرقب كل واحد حركات الآخر بكل دقة، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ يظهر أن سلطان تركيا العظيم، سليمان الأكبر، ارتاع من هذه الجيوش الجرارة ودبت روح الخوف والارتباك وسط صفوفه، فانسحب بسرعة بجيشه الرهيب دون أن يلتحم مع جيش شارل في موقعة ما، ومن الأمور التي تستحق الملاحظة أن يكون شارل نفسه على رأس هذا الجيش في عصر امتاز بنزعته الحربية وقواده الحربيين. وفي هذا يقول مؤرخ حياة شارل "إن مواجهته لقائد عظيم مثل سليمان لم تكن شرفًا صغيرًا، وكونه استطاع أن يرغم هذا القائد العظيم أن يتراجع وينسحب من الميدان كان فخرًا كبيرًا استحق كل ثناء وإعجاب".

ولكننا نتساءل كيف تمت هذه النصرة السلمية الخالية من سفك الدماء؟ نظن أنه ليس من أحد إلا ويرى في هذا الانتصار العجيب يدًا أعلى بكثير من يد الإمبراطور. فعندما وصل الأتراك إلى إيقاع الرعب في قلب شارل، مما جعله يخضع لمطالب حركة الإصلاح، كان هذا هو كل المطلوب منه، وبذلك انتهت مهمته وأعاده الله الذي هو فوق الكل إلى وطنه، إذ كان لا يزال من اللازم إنقاذ الإمبراطورية من أجل خاطر حركة الإصلاح. فسليمان قد أعد العدة الهائلة من أجل حملته، ولكن لسبب يحار فيه الكل سوى الإيمان انتهت هذه الحملة بلا حادث يُذكر. فرجع شارل إلى أسبانيا للإشراف على تجهيزاته الحربية الهائلة، وعاد المصلحون للسهر على أعمالهم السلمية والمسيحية، واستراحت الكنيسة من الاضطهاد واستطالت مدة هدوئها واطمئنانها إلى ما يقرب من خمس عشرة سنة.

والآن وقد نالت حركة الإصلاح بفضل عناية الرب الساهرة انتصارًا عظيمًا وأساسًا راسخًا متينًا في ألمانيا، يجدر بنا أن نعرج قليلاً لمشاهدة قيام ونمو هذه الحركة المباركة في سويسرا.

الفصل الأربعون

حركة الإصلاح في سويسرا

إن القلب لَينتعش انتعاشًا عظيمًا إذ يلاحظ أثناء دراسة تاريخ حركة الإصلاح في ألمانيا وسويسرا ذلك الانسجام البديع والوحدة الكاملة بين أعمال الروح القدس في كلتا المملكتين. فمن الوجهة الوطنية والسياسية والاجتماعية كان الاختلاف بين هاتين المملكتين عظيمًا جدًا لدرجة التناقض، فبينما كان نظام الحكم في ألمانيا ملكيًا كان النظام في سويسرا جمهوريًا، لا بل مقابل الملكية في ألمانيا كانت تقوم ثلاث عشرة جمهورية في سويسرا. في الأولى كانت حركة الإصلاح تجاهد ضد السلطة الإمبراطورية، أما في سويسرا فكانت تجاهد ضد الديمقراطية. ولكن كما لو كان هذا الأمر متفق عليه، بدأ عمل روح الله العظيم في نفس الوقت تقريبًا في المملكتين وبنفس الحق في الحالتين. كان هذا لا شك من الله، ويدل على الأصل الإلهي لحركة الإصلاح. يقول زونجلي "بدأت أكرز بالإنجيل في سنة ١٥١٦م، أي في وقت لم يكن فيه اسم لوثر معروفًا أو مسموعًا عنه بالمرة في هذه المملكة. إني لم أتعلم إنجيل المسيح من لوثر، بل من كلمة الله مباشرة. إذا كان لوثر يكرز بالمسيح فهو يفعل ما أنا أفعله، وهذا هو كل ما في الأمر".

ودوبينْيِ هو المؤرخ الوحيد على حد ما نعرف الذي اهتم اهتمامًا خاصًا بملاحظة هذه الحقيقة العجيبة من ناحيتها الإلهية، وحيث أنه قد مضى إلى راحته فإنه مما يملأ قلوبنا بالسرور والانشراح أن نشهد لتقوى هذا المؤرخ، الذي استطاع أن يسير هكذا مع الله وسط أتعابه الكثيرة. حقًا إن طرق الله في الحكم كما في النعمة كفيلة بأن تبني نفوسنا إذا درسناها في الشركة معه، ولكن إن لم يملأ هو أفكارنا فإن أسمى الإعلانات الروحية تبدو أمامنا مبهمة وتنتهي بنا إلى طريق مسدود. يقول دوبينْيِ(٤٤/٢) "لم تكن هناك أية مراسلة بين زونجلي ولوثر، لا شك أنه كانت هناك حلقة اتصال بين هذين الرجلين، ولكن هذه الحلقة لا يمكن البحث عنها على الأرض، إذ أنها كانت من فوق. فذاك الذي أعطى الحق للوثر من السماء أعطاه أيضًا لزونجلي، فحلقة الاتصال بينهما ورابطة اتحادهما كان هو الله"(٤٤/٢).

على أنه وإن كانت الحركة في المملكتين وفي ولايات أخرى في أوروبا قد استمدت وحدتها العجيبة من الروح الواحد، فإنه ليس من الصعب إدراك الخواص القومية التي تميزت بها كل منهما. ففي ألمانيا نرى شخص لوثر وكأنه تمثال هائل يعلو ويرتفع فوق جميع المصلحين رفقائه، فهو الظاهر وهو المسموع وهو البارز في كل مكان وفي كل مناسبة، لا شيء يُعمل أو يقرر بدونه. هو زعيم لحزب ورئيسه المعترف به. أما في سويسرا فليس هناك مثل هذا الزعيم، فقد سَرَّ الله أن يُعلن الحق لقلوب كثيرة ويدرب نفوسًا عديدة في مقاطعات مختلفة في نفس الوقت، فهناك سحابة من الأسماء الشريفة، وكأنها مجلس شيوخ جمهوري، وقفت تناضل عن الحق وتدافع عن الإيمان، أمثال يوستس وتِنْباخ وزونْجلي وليوجودا وكابيتو وهالر وفارل وأكولامبديوس وأزوالد ميكونيوس وكَلْفن. ولكن إن لم يبرز واحد منهم بالزعامة ويتولى القيادة، فإن اسمًا واحدًا يدوي أكثر من الآخرين ويرتفع عليهم جميعًا، هو اسم ألريك زونجلي.

وحيث أن الفرع الأكبر من الكنيسة الاسمية الذي يسمى عادة "الكنائس المُصلحة" نشأ أصلاً من الحركة السويسرية، فهو يتطلب منا عناية خاصة ولو مختصرة نسبيًا. وهنا نشير إلى إن أشهر كتابين من كتب تاريخ الكنيسة المعروفة هما تاريخ موسهيم وتاريخ ملنر، ولكن كلاهما خلا من ذكر تاريخ حركة الإصلاح في سويسرا. فموسهيم وهو لاهوتي لوثري يكاد يتجاهلها تجاهلاً تامًا، بينما ملنر يمر مرورًا سطحيًا على ذكر الشخصيات البارزة لا أكثر. وعلى أي حال فقبل أن نحاول تتبع تاريخ حركة الإصلاح

يحسن بنا أن نستعيد إلى الذاكرة معلوماتنا عن الحالة الدينية في سويسرا قبل ظهور هذه الثورة الأدبية العظمى.

دخول المسيحية إلى سويسرا

دخلت المسيحية أولاً في سويسرا، مملكة الجبال والبحيرات، في القرن السابع على يد سانت جول الأيرلندي، تلميذ اللاهوتي الشهير كولومبانس الذي سبقت إليه الإشارة في الجزء الأول من هذا المختصر. وبعد وفاة سانت جول استمر تلاميذه ومبشرون آخرون من أيرلندا في تبشير السويسريين وتأسيس الأديرة ونشر الإنجيل. وقد أثمر جهادهم في تكوين كنيسة رومانية الصبغة، تدين بالولاء والخضوع للسلطة البابوية.

وحوالي منتصف القرن الحادي عشر نزح ناسكان من رهبان دير سانت جول إلى واد بعيد على بحيرة زيورخ. وأخذ الناس يفدون على الوادي تدريجيًا ويعيشون في جماعات حول صومعتي الناسكين الجديدين، وهناك على ربوة تعلو ألفي قدم عن سطح البحيرة أقيمت كنيسة، ثم بعد ذلك قرية فلدهاوس (ومعناها بيت البرية) التي كان شريفها أو عمدتها في أواخر القرن الخامس عشر رجلاً يدعى زونجلي، هو أبو المصلح الشهير. ومن ذلك يمكننا أن نتبع انبثاق نور الحق من أيرلندا إلى القارة، وفي الواقع من أيرلندا إلى أوروبا كلها والمسيحية جمعاء.

هذا وإن مركز سويسرا الجاثمة في أحضان جبالها في قلب أوروبا، جعل المؤرخين يشبهونها بمدرسة حربية منها تعلمت الأمم المحيطة بها فنون الحرب، وعنها تلقنت كيف تتقن أساليب الهجوم والدفاع. وقد اشتهر الجنود السويسريون بالشجاعة والإقدام وقوة الاحتمال، وذاعت هذه الشهرة عنهم في كل مكان، حتى ترتب على ذلك أن منيت سويسرا بعادة وبيلة، هي انخراط أبنائها بكثرة هائلة في سلك جيوش الممالك الأجنبية. ورغم تعلقهم الشديد بجبال وطنهم وحريته، فإن جاذبية الذهب الأجنبي أغوت الكثيرين منهم أن يهجروا مراعيهم الألبية في سبيل خدمة الغرباء.

وقد أصبحت هذه العادة شرًا قوميًا فظيعًا كان له أسوأ الأثر في سويسرا كلها، فالزراعة هُجرت ونساء ترملت وعائلات كثيرة أثكلت في أبنائها، وآلاف ذهبوا ولم يعودوا، والذين عادوا منهم رجعوا قد انحطت أخلاقياتهم. وبذلك تدهورت حالة الشعب، وأخذت الأمة تفقد بالتدريج بساطتها القديمة الأولى. ولكن مما يؤسف ويحزن القلب عند ذكره، ولو أنه قد أجمع عليه جميع المؤرخين الذين نعرفهم، هو أن أصل هذه الكارثة الوطنية وسببها الأول هو بابا روما، الذي في منازعاته الكثيرة مع الأمم الأخرى كان يجد نفسه مضطرًا لأن يستعين بسويسرا، ويلتمس من رجالاتها تلك المساعدة التي كان يأبى رعاياه أن يقدموها له، إما عن جبن أو خيانة. وهكذا كانت الخزينة الرسولية تغذي الحرب بالمال، بينما كان السويسري الفقير الشجاع يقرر مصير البابا في كثير من ساحات الوغى في شمالي إيطاليا، وكان على الكهنة الموزعين في نواحي سويسرا المختلفة أن ينفذوا تعليمات البابا، ويعدوا الشعب لهذا النوع من الطاعة لأبيهم المقدس "فكانوا يعلمون الجبليين البسطاء المخدوعين أنه شيء مقدس أن يمنطقوا أحقاءهم للحرب، وأنه استشهاد مجيد أن يسقطوا في ساحة المعارك في خدمة الكنيسة". وقد جاء يوم فيه بلغت عند السويسريين روح الطمع في الربح والكسب وبيع النفس بالمال إلى حد أن وضعوا خدماتهم في سوق المزاد والبيع والشراء، فمن دفع أكثر ضمن الحصول عليهم، وهذا جعل البابا يبرر السخاء العظيم في توزيع الغفرانات والبركات، الأمر الذي ترتب عليه بطبيعة الحال انتشار الفساد الأدبي والانحطاط الخلقي بين الكهنة والشعب على السواء. ومن ذلك الوقت بدأ الاحترام الشديد، الذي كانت كنيسة سويسرا تكنه من عهد بعيد، لبابا روما يتلاشى سريعًا.

"ففي بداية القرن السادس عشر كانت كنيسة روما قد بلغت من السمو والعظمة والسلطان حدًا جعل من المستحيل، بحسب الظاهر، أن أي شيء يستطيع أن يهزها أو يربكها، وبصفة خاصة في سويسرا، حيث كان يبدو أن كل محاولة لإدخال أي تجديد في الدين مقضي عليها بالفشل والخيبة الأكيدة بالنسبة للتحالف الوطيد القائم بينها وبين البابا من جهة، ولحالة الجهل المتناهي والفساد الشنيع المنتشر في ربوع البلاد من جهة أخرى. ولكنه في مثل هذه الظروف بالذات يُسر الله أن يعمل حتى يكون كل المجد له. فما كان ممكنًا لبِرّه أن يسمح أكثر من ذلك ببقاء هذا الفساد الشنيع المنتشر في كنائس أوروبا، والله لا بد أن يكون له ساجدون حقيقيون يسجدون له بالروح والحق"*.

تلك كانت الحالة بصفة عامة عندما بزغ فجر اليوم الجديد

*عن أبراهام روشات من لوزان كما اقتبسها سكوت(٢/٧٢)، وكتاب جاردنر ديانات العالم» (٢/٣٨).

في ربوع وديان الألب. وقد دُعي ألريك زونجلي "رسول حركة الإصلاح السويسرية"، وهو بلا شك حامل لوائها ومقدام جيشها، ولو أن البعض كانوا في الحقل قبله. وقد كان زونجلي على قدر عظيم من قوة الحجة وصفاء الرأي ونفاذ البصيرة، كما كان قلبه عامرًا بالمحبة الشديدة للحق والغيرة الملتهبة لنشره وإذاعته، وكانت تملأ جوانحه وتحرك مشاعره عاطفة نبيلة وغيرة شديدة على مجد الله وخير كنيسته. صحيح أن له أخطائه وعثراته، كما قد يكون الحال مع أحسن خدام الرب، ولكنه كان أهلاً لأن يوضع في مصاف أشهر الرجال أمثال لوثر وكلفن، وأن يُقرن اسمه بأشهر الأسماء التي تتلألأ في التاريخ الكنسي.

نشأة زونجلي وتربيته

كانت أسرة الزونجليين أسرة قديمة معتبرة، وكانت في ذلك الوقت ذات مكانة عظيمة في ولاية توكنبرج، وهي ولاية صغيرة ذات جبال شاهقة ووديان ضيقة تغطيها الغابات والمراعي. وكان ألريك الابن الثالث، وله خمسة إخوة وأخت. ولد عام ١٤٨٤م في يوم رأس السنة بقرية خاملة الذكر على بحيرة زيورخ تدعى فلدهاوس.

وكانت مهنة الأب وأبنائه رعاية الأغنام والماشية، وهي أغنى مورد للارتزاق في تلك الجهة، وقد كان ممكنًا أن لا تتخطى أقدام ألريك حدود توكنبرج الضيقة لولا أن بوادر النجابة البادية على طفولته وميوله التي تبشر بالخير جعلت والده يصمم على تكريسه للكنيسة. وقبل أن يبلغ سن العاشرة صار تحت رعاية عمه عميد كلية فيسيون. وقد كتب عمه يخبر أباه عن مقدرته ومواهبه، حتى استطاع بموافقته ومساعدته أن يواصل دراسته في بازل وبرن وفينا، ثم في بازل مرة أخرى. وبفضل تقدمه العجيب وتفوقه الممتاز في دروسه صار محبوبًا من أساتذته. وبينما هو في برن أُعجب رجال الدومينيكان بصوت الشاب الجبلي الرخيم، وأثّروا عليه أن يأتي ويقيم في ديرهم، ولكن عندما بلغ هذا الخبر مسامع والده أظهر معارضة شديدة، وأمر ابنه أن يترك برن في الحال ويذهب إلى فينا، وهكذا هرب الشاب الساذج البريء المخلص النية من تلك الجدران الرهبانية، التي طالما تعذب داخلها لوثر وظل يعاني من آثارها الأدبية كل أيام حياته.

وفي أثناء زيارته الثانية لبازل درس زونجلي علم اللاهوت على يدي اللاهوتي الحق المشهور توماس وتنباخ، ويبدو أنه من هذا اللاهوتي القدير، الذي لم يكن يخفي عن تلاميذه أخطاء كنيسة روما وأضاليلها، تعلم زونجلي نفس ما تعلمه لوثر حوالي ذلك الوقت من ستوبتز، ألا وهو مبدأ الله العظيم تعليم التبرير بالإيمان. كان وتنباخ يقول "إن الساعة لا بد آتية، وهي ليست بعيدة، فيها يطرح علم اللاهوت المدرسي جانبًا، وتنهض من جديد تعاليم الكنيسة الأولى". وكان يؤكد لأولئك الشبان الغيورين الملتفين حوله "أن موت المسيح هو الفدية الوحيدة لنفوسهم". وهكذا كان قلب زونجلي الملتهب المتعطش يشرب ويرتوي من الحق، وبغيرة شديدة وبشغف عظيم اندفع كالسهم إلى ميدان الكفاح الجديد كما فعل أستاذه وبعض من زملائه(٢/٤٤)،(٢/٦٧)،(٢/٣٨).

وهنا أيضًا كوّن بعضًا من أعز وأحر صداقاته التي لازمته كل حياته، ولم يستطيع الموت نفسه أن يفصم عراها، فالآن أصبح كابيتو وليوجودا الذي كان ابن أحد كهنة الألزاس، صديقي ألريك الحميمين. وقد كان زونجلي ككل الجبليين بصفة عامة ونظير زميله لوثر موسيقيًا بارعًا، يستطيع أن يضرب على آلات موسيقية مختلفة، فالعود والقيثارة والكمان والمزمار والسنطير والبوق كانت من الآلاته المحبوبة لديه، وكان يلجأ إليها في ساعة الكآبة والحزن للترفيه عن النفس بعد عناء الدراسة الشاقة.

زونجلي راعي كنيسة جلاريس

بعد أن انتهى زونجلي من دراسة اللاهوت وحصل على درجة أستاذ في الآداب، اختاره أهل جلاريس في نفس السنة (١٥٠٦م) راعيًا أو قسيسًا لهم، وهناك أقام عشر سنوات مؤديًا واجباته الرسمية بكل أمانة، دؤوبًا على دراسة كلمة الله بكل نشاط واجتهاد. ويظهر أنه حصل أثناء هذه المدة على المعرفة والخبرة والاستعداد اللازم لخدماته المستقبلية للرب ولكنيسته. يقول أحد مؤرخي حياته "لا تزال توجد في مكتبة زيورخ نسخة خطية شيقة، هي عبارة عن صورة كاملة لرسائل الرسول بولس باللغة اليونانية الأصلية، مع تعليقات وحواشي عديدة من أشهر الآباء الأولين كتبها زونجلي بخط يده، ثم حفظها بعد ذلك برمتها عن ظهر قلب، ومكتوب في أسفلها: نسخها ألريك زونجلي عام ١٥١٤م". كما أنه درس اللغة اللاتينية ومؤلفاتها، واستجمع من كتابات الآباء، وخاصة أوريجن وأمبروزو وجيروم وأغسطينوس ويوحنا فم الذهب، تعاليم وعادات

الكنيسة الأولى، وكان يقول عن نفسه "إني أدرس الآباء ومعلمي اللاهوت، ليس بصفتهم سلطات يتحتم الخضوع لها والأخذ بأقوالهم بلا مناقشة أو جدال، بل بنفس الغاية التي نرمي إليها عندما نسأل صديقًا قائلين: ماذا تفهم من هذا الفصل؟". وقد كانت كتابات ويكليف وهس معروفة لديه أيضًا، ولكنه كباقي تلاميذ عصره كان يلتهم مؤلفات إرازامس بمجرد ظهورها الواحد بعد الآخر.

ومن ذلك الوقت صارت المساوئ الكنسية التي أدخلتها روما واضحة وجلية لديه، وكلما اعتلى المنبر وفتح فاه بتفسير المكتوب تناول مستحدثات روما ومفاسدها وعالجها بكل أمانة وجرأة، وهكذا كان بزوغ فجر الإصلاح في سويسرا بتمسك زونجلي بسلطان حق الله المطلق وتشهيره بأخطاء روما وأضاليلها.

وبينما هو منهمك هكذا في واجباته المقدسة وجد نفسه مضطرًا لأن يرافق جيش الاتحاد السويسري في حملة إيطالية، إذ أن البابا عندما ارتاع من تهديد فرنسيس الأول بأنه لا بد أن ينتقم من إيطاليا لشرف الجيش الفرنسي استعطف الولايات السويسرية بمذلة عظيمة وإلحاح شديد أن تأتي لمعونته، وكانت العادة في سويسرا أن شريف الولاية أو رئيسها وراعي الأبروشية يرافقان الجيوش إلى ساحة القتال في حملات كهذه، فكان لا بد لزونجلي في عامي ١٥١٣ و١٥١٥م أن يتبع راية أبروشيته إلى سهول إيطاليا، وقد اندحر الجيش الفرنسي أمام الجيوش السويسرية في العام الأول في موقعة نوفارا، وراح الكهنة والرهبان يعلنون من على المنابر في كل مكان أن السويسريين هم شعب الله الذين انتقموا لعروس الرب من أعدائها، ولكنه في المرة الثانية شاهد انكسار مواطنيه انكسارًا مريعًا في موقعة مارنيان الدموية التي فيها كما يقول التاريخ هلكت زهرة شباب سويسرا، فما كان من زونجلي الذي لم يستطع أن يمنع هذه الكارثة العظمى إلا أن حمل السيف مدفوعًا ومغلوبًا من وطنيته وعواطفه القومية، وألقى بنفسه وسط الخطر. ذلك كان شيئًا طبيعيًا، وفي تلك الأيام كان يُعتبر شيئًا نبيلاً، ولكنه لم يكن مسيحيًا، فقد نسي وقتيًا في حماس الساعة أنه كخادم المسيح ليس عليه إلا أن يحارب بسيف الروح الذي هو كلمة الله «إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية» كما يقول الرسول «بل قادرة بالله على هدم حصون، هادمين ظنونًا وكل علو يرتفع ضد معرفة الله، ومستأثرين كل فكر إلى طاعة المسيح» (٢كو ١٠: ٤،٥).

والآن شعر زونجلي أكثر من أي وقت آخر بالحاجة إلى الإصلاح في الكنيسة والدولة على السواء، فقد رأى بعينيه نتائج تلك السياسة العقيمة والعادة الذميمة الشائعة بين مواطنيه، والتي تدفع بجيوشهم لخوض غمار معارك لحساب ممالك أخرى، ولفض منازعات لا تخصهم وليس لهم فيها ناقة ولا جمل، وقد رأى بعيني رأسه كثيرين من مواطنيه الشجعان يُذبحون ذبح الأغنام ويتجندلون صرعى فيما وراء الألب في سبيل الدفاع عن بابا جشع طماع عديم الإيمان، وقد أثرت في نفسه هذه المشاهد أيما تأثير وملأته بالغيظ والسخط الشديد.

فرفع الصوت عاليًا ومجاهرًا ضد هذه العادة، وبواسطته تركتها كثير من الولايات. كذلك رأى عندما كان في إيطاليا، كما رأى لوثر من قبله، كبرياء وأبهة الأساقفة، وجشع وجهل الكهنة، وإباحية الرهبان. وهنا تقرر خط سيره المستقبل، فارتقى المنبر، وبعزم مقدس وتصميم أقوى وأشد من ذي قبل بدأ ينادي بكلمة الله بوضوح أكثر وتوسع أكبر، مقارنًا أجزاء الكلمة بعضها مع البعض، وسرعان ما هبت على جبال سويسرا ووديانها روح جديدة من البحث والدرس.

وقد تساءل بعض المؤرخين: أيهما يا تُرى كان الأسبق في هجومه على البابوية؟ زونجلي أم حليفه السكسوني لوثر. ويبدو أن كليهما استقيا الحق في وقت واحد تقريبًا، وخاصة معرفة الخلاص بالنعمة بالإيمان فقط، ولكنه من الجلي أن لوثر كمصلح كان الأسبق في الحقل، فبينما كان زونجلي يكرز بالإنجيل بطريقة هادئة نسبيًا كان لوثر مجاهرًا بالكرازة ورافعًا راية الحق ضد الضلال، جاعلاً صوته يرن ويُسمع في جميع أنحاء المسيحية.

زونجلي في إينسيدلن

في خريف سنة ١٥١٦م. وصلت إلى زونجلي دعوة من رؤساء دير البندكتيين في إينسيدلن، يدعونه فيها للذهاب إليهم ليكون راعيًا وواعظًا في كنيسة "سيدتنا عذراء الدير". وقد أثبتت الحوادث فيما بعد أن يد الرب كانت في الأمر، فقد كان هذا الدير معقل الخرافة الأكبر في كل سويسرا، بل في كل المسيحية تقريبًا، حتى دعاه المؤرخ روشات "ديانا *الأفسسية" لِما أحاط بتاريخه الأول من أعجب الأقاصيص والخرافات. وهناك كان المجال

* ديانا هي أرطاميس الأفسسيين، التي كان يعبدها أهل آسيا الصغرى، وكان معبدها العظيم في مدينة أفسس (أع١٩: ٢٣-٤١)، وهو أحد عجائب الدنيا السبع، وقد دمره القوطيون أثناء غزوهم لآسيا الصغرى.

فسيحًا أمام المُصلح العظيم ليرى بعينيه صورة مجسمة لعبادة روما الوثنية، فقد كان أبرز شيء هناك تمثال عظيم للعذراء أحاطه الرهبان بكل مظاهر الجلال والبهاء، وذاع عنه أنه صاحب كرامات وقادر على عمل المعجزات، حتى صارت إينسيدلن كعبة الحجاج، تتوافد عليها الجماهير زرافات زرافات من كل أنحاء المسيحية للتعبد وتقديم الهدايا والقرابين.

وهناك على باب الدير يقوم تمثال في صورة ملاك يحمل لوحة محفور عليها بالخط الكبير "ها هنا يمكن الحصول على غفران كامل للخطايا". وقد جذبت هذه الخديعة التجديفية جماهير الحجاج من كل فج وصوب، يلتمسون هذه النعمة ويؤهلون أنفسهم لها بمشاق الحج يوم عيد العذراء، وهكذا كما يقول المؤرخ "كانت الكنيسة والدير والوادي بأجمعه يموج بجماهير عُبّاد العذراء، على أن الدير كان يمتلئ بالجماهير يوم "عيد الملائكة" بصفة خاصة، حيث كان الرجال والنساء يصعدون بالآلاف إلى الجبل في صفوف طويلة متلاصقة، وهو ينشدون التراتيل أو يَعدون حبات سبحاتهم. تلك كانت ولا تزال إلى يومنا الحاضر صورة المشاهد التي تحيط بتمثال ذلك الدير المشهور، حتى أنه يُقال إن ليس أقل من مائة ألف من هؤلاء المساكين المخدوعين يزورون هذا المكان سنويًا ليوفوا نذورهم. هذه هي البابوية حيثما وجدت إلى يومنا الحاضر، وهذا ما يحصل في مملكة حرة محاطة من كل ناحية بشعوب مستنيرة وعلى مقربة من مؤسسات بروتستانتية"(٢/٧٢)،(٢/٤٤).

بعد ما ذكرنا من صورة محزنة للقدسية العجيبة التي لهذا الدير، لعل القارئ يندهش عندما يعلم أن رئيسه كونراد أوف رشبرج كان أشهر صياد وصاحب خيول في المملكة كلها، وكان يكره الخرافة وينفر منها، ولذلك كان يُفضل الحصان والحقل عن الدير. وعندما ألح عليه زوار الدير مرة بأن يقوم بالخدمة على ذبيحة الأفخارستيا أجاب قائلاً: "إذا كان يسوع المسيح حاضرًا بحق في الخبز فأنا لست مستحقًا أن أتطلع إليه، وبالأولى لست مستحقًا أن أقدمه ذبيحة للآب، وإذا لم يكن حاضرًا فالويل لي إن أنا قدمت خبزًا للشعب ليكون موضع تعبدهم بدلاً عن الله... لستُ أستطيع إلا أن أصرخ مع داود: ارحمني يا الله حسب كثرة رأفتك. لا تدخل في المحاكمة مع عبدك. لست أريد أن أعرف شيئًا أكثر من ذلك".

أما مدير الشئون الإدارية للدير البارون جيرولدْسك فكان رجلاً من طراز آخر. يخبرنا عنه التاريخ أنه كان رجلاً حليمًا تقيًا مخلصًا غيورًا ومحبًا للعلم، وكان من أحب عاداته أن يدعو العلماء للاستفادة منهم، وإذ سمع بشهرة زونجلي وعلمه وتقواه دعاه لأن يقبل وظيفة الراعي لكنيسة الدير. وقد استطاع المُصلح الشاب أن يجد في هذه العزلة شيئًا من الراحة والفراغ، وأن يتمتع بامتيازات مكتبة كبيرة وأصدقاء أعزاء. وكان من أثر بلاغة الواعظ الجديد، وأخلاق مدير الدير الجذابة، أن أصبحت إينسيدلن قبلة أنظار العلماء. وسرعان ما استطاع زونجلي أن يكسب ثقة أتباع روشلان وإرازمس والمعجبين بهما، وأن يكون له من بينهم أخلص الأصدقاء وأوفاهم، إذ تطالعنا هذه الصفحة من تاريخه بأسماء فرنسيس زنك وميخائيل ساندر ويوحنا أكسلان وكابيتو وهديو، وكلهم رجال لمعت أسماؤهم في تاريخ حركة الإصلاح. ومع أن زونجلي كان يتمتع مع هؤلاء الرجال بقراءة الكتب المقدسة ومؤلفات الآباء وروشلان وإرازمس، إلا أن عمله الحقيقي كان الإصلاح، وعلى قدر فهمه للإصلاح وقتئذ كان يتابعه بكل غيرة وإخلاص.

زونجلي والإصلاح في إينسيدلن

بدأ زونجلي إصلاحه بمدير الدير، إذ قال له "ادرس الكتاب المقدس، فسيأتي وقت قريب يكون فيه مرجع المسيحيين ليس أقوال القديس جيروم أو أي معلم آخر بل كلمة الله وحدها". وقد اتبع المدير جيرولدسك هذه النصيحة من المصلح، كما سمح لراهبات الدير بأن يدرسن الكتاب المقدس باللغة القومية، وهكذا كان تقديره لزونجلي ومحبته له حتى أنه تبعه إلى زيورخ ومات معه هناك في ساحة كابل في ١١أكتوبر سنة ١٥٣١م. أما رئيس الدير الصياد فيبدو أنه هو الآخر استفاد من خدمات الواعظ الجديد، فاستبعد من الدير جميع الطقوس الخرافية، ومات سنة ١٥٢٦م معترفًا بأنه لا يثق ولا يؤمن إلا برحمة الله وحدها. وهكذا استطاع زونجلي أن يجذب بقوة تبشيره وأمانته جماهير غفيرة إلى كنيسة الدير، وأن يترك في نفوسهم وأذهانهم أكبر الأثر، إذ نجح في تحويلهم عن عبادة الصور والتماثيل إلى الإيمان بالمسيح وحده، وعن الاختراعات والتقاليد البشرية إلى تعاليم الإنجيل الطاهرة النقية، معلّمًا إياهم كل حين أن يطلبوا غفران خطاياهم ليس من العذراء المباركة، بل باستحقاق وشفاعة الرب يسوع المسيح.

إن ما تعلمه لوثر من زيارة روما تعلمه زونجلي من إقامته بإينسيدلن، فقد كانت روحه تثور فيه عندما كان يرى الآلاف من الحجاج قادمين من أبعد أصقاع أوروبا التماسا لاستحقاق غفران خطاياهم بتقديم الهدايا والتقدمات لسيدة الدير، ولم يتردد بين صوت ضميره وصالحه الخاص أو صالح الدير، بل رفع صوته عاليًا وبكل جسارة ضد هذا الخداع، ضاربًا بفأسه على ذات أصل الشر، معلنًا الخلاص المجاني بالإيمان بالمسيح وبدون استحقاق لأي حج أو نذر أو تقشف أو صك غفران، وكان يخاطب الجماهير مُركزًا كلامه بصفة خاصة حول حقيقتين جوهريتين عظيمتين، أولهما أن الله مصدر الخلاص وثانيهما أن الله هو هو في كل مكان. وكان ينادي من على المنبر قائلاً: "لا تتصوروا أن الله موجود في هذا المعبد أكثر من وجوده في أي مكان آخر في الخليقة. إنه مستعد أن يسمع صلواتكم وأنتم في بيوتكم كما وأنتم في إينسيدلن. هل تستطيع سفرات الحج الطويلة أو التقدمات أو الصور أو التشفع بالعذراء أو القديسين أن تحصل لكم على نعمة الله؟ ماذا تعني أو تفيد الكلمات الكثيرة التي نصوغ فيها صلواتنا؟ أية قيمة أو كفاية يمكن أن تكون لقلنسوة لامعة أو رأس محلوقة ناعمة، أو رداء فضفاض طويل أو حذاء مطرز مذهّب؟ الله ينظر إلى القلب ولكن، وأأسفاه، قلوبنا بعيده عنه".

وفي الوقت نفسه كان ينادي بنوال السلام والمصالحة بالإيمان بذبيحة المسيح الغالية الكفارية التي قدمت مرة واحدة على صليب الجلجثة. «ولكن الكل من الله الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح، وأعطانا خدمة المصالحة. أي أن الله كان في المسيح مُصالحًا العالم لنفسه، غير حاسب لهم خطاياهم، وواضعًا فينا كلمة المصالحة. إذًا نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا. نطلب عن المسيح: تصالحوا مع الله. لأنه جعل الذي لم يعرف خطية خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه» (٢كو٥:١٨-٢١).

كرازة زونجلي وأثرها في نفوس سامعيها

قد يقول البعض إن المتعاطفين مع زونجلي والمعجبين به يغالون في وصف مواعظه وما كان لها من أثر، غير أن المتتبِّع لتاريخ ذلك العصر يرى جليًا أن أقواله كان لها أقوى سلطان على نفوس سامعيه من جماهير الحجاج. يقول واحد: "إن هذه اللغة غير المنتظرة كانت تترك أثرًا من الصعب تصويره أو وصفه، فعلائم الإعجاب وفورات الغضب كانت تتجاذب النفوس، فكنت تارة ترى هذه، وتارة ترى تلك على كل وجه من وجوه السامعين لموعظة زونجلي، وعندما كان ينتهي من خطاباته كان يعقب ذلك همهمة تذمر تدل على مبلغ الأثر الذي أثاره في النفوس، إلا أن روعة المكان وقدسيته كانت تمنع الكثيرين من التصريح بأفكارهم، ولكن سرعان ما كان البعض يغادرون المكان حتى تنطلق ألسنتهم بالاحتجاج على هذا التعليم الجديد، مدفوعين في ذلك بتعصبهم القديم أو بمصالحهم الشخصية، بينما كان البعض الآخر يغادرون المكان وهم شاعرون بنور جديد قد أشرق في قلوبهم، وقد انطلقت ألسنتهم بمديح واستحسان ما سمعوا. فكثيرون قبلوا المسيح الذي نودي لهم به بكل يقين وإخلاص كمخلِّص الخطاة الوحيد وكمن جاء ليهب الحياة للهالكين. وكثيرون عادوا ومعهم الشموع والتقدمات التي كانوا قد أحضروها للعذراء، متذكرين وحاملين إلى بيوتهم كلمة المبشر الكبرى للحجاج "المسيح وحده المخلِّص، وهو يخلص في كل مكان". وهكذا جماعات كاملة كانت بقوة هذه الأخبار تقفل راجعة دون إتمام حجهم، وبذلك كان عباد العذراء يتناقصون في العدد يوميًا" (٢/٧٢)،(٢/٤٤).

غير أنه رغمًا من مهاجمة زونجلي لعقائد سامعيه الخرافية بهذه الصورة الحاسمة الجريئة، فقد كان الحزب البابوي لا يزال يثق في أرثوذكسيته ولا يشك فيها. وقد عرفوا مبلغ النفوذ والسلطان الذي يمكن أن يكون لشخص مثل زونجلي في جمهورية حرة كسويسرا، ولذلك حاولوا جهدهم أن يكسبوه بجانبهم. لقد ربحوا إرازمس قديمًا بالهبات والعطايا وألقاب الشرف، فلماذا لا يربحوا زونجلي أيضًا؟ علاوة على ذلك فإن مركز رئاسة البابوية في روما كان يسير على أسلوب من السياسة والدهاء، وذلك بالسماح للرجال البارزين المشهورين بشيء من الحرية ما داموا يعترفون بالسيادة العليا للبابا. وهكذا كان في هذا الوقت عينه، أي سنة ١٥١٨م، أن وصلت إلى زونجلي أخبار تقدير البابا ليو العاشر له، وقد كان بلا شك تقديرًا ظاهريًا. فقد أرسل إليه البابا مرسومًا بتعيينه قسيسًا خاصًا للكرسي البابوي، واستمر زونجلي يتقاضى مرتبه لمدة سنتين بعد ذلك من روما نفسها. إلا أن لوثر وزونجلي كانا قد تعلما منذ زمن أن كنيسة روما لا يمكن إصلاحها، وأنها قد فسدت أصلاً وفرعًا، وأن صوت الله لشعبه هو دائمًا «اخرجوا منها يا شعبي لئلا تشتركوا في خطاياها ولئلا تأخذوا من ضرباتها» (رؤ١٨:٤)، فعندما يجد المسيحي نفسه

في مركز خاطئ كنسيًا، ما عليه إلا أن يطيع صوت الله الذي يناديه في مواضع كثيرة من الكتاب، مبينًا له أن أول شيء يجب عليه عمله هو ترك هذا المركز والخروج من ذلك النظام، معتمدًا على الرب للاستنارة والهداية في المستقبل (أنظر إش ١: ١٦، ١٧؛ رو ١٢: ٩).

زونجلي يعود إلى زيورخ

بعد أن صرف زونجلي حوالي ثلاث سنوات في إينسيدلن وصلته دعوة من قسوس كاتدرائية زيورخ ليكون راعيًا وواعظًا لهم، وقد استطاع مدة إقامته في إينسيدلن أن يتعرف بكثير من الشخصيات العظيمة، وبذلك ازداد عدد أصدقائه زيادة كبيرة، إلا إنه لم يكن بينهم جميعًا أخلص من أزوالد ميكونيوس ناظر مدرسة زيورخ، الذي اشتهر هناك بتقواه وعلمه وذكائه. وبناء على هذه الدعوة وإلحاح صديقه ميكونيوس حضر زونجلي إلى زيورخ ليتبادل الرأي معه في الموضوع ويتأمله جيدًا في حضرة الرب، إلا أن بعضًا من القسوس خافوا من تأثير روح هذا الواعظ المجددة، ولذلك عارضوا في أمر تعيينه. ولكن مظهره الشخصي الجذاب مضافًا إلى سمعته الطيبة جعلت الكفة راجحة في جانبه، فقد كان رجلاً من أظرف وأرق ما يكون، ذا هيئة مهيبة وأخلاق دمثة وملامح جذابة إلى حد يفوق التعبير، لطيف الحديث حلو المعاشرة، جذابًا من كل وجه ومشهورًا في المملكة كلها ببلاغته وفصاحته ورزانته وحسن تصريفه للأمور، ولذلك تم انتخابه بأغلبية ساحقة وانطلق إلى زيورخ.

وهكذا في اليوم الأول من يناير سنة ١٥١٩م، وهو يوم ميلاده الخامس والثلاثين، بدأ زونجلي حياته الجديدة في زيورخ. وقد كان الرب يعلّم عبده مدة إقامته بالدير ويعده لمهمته الجديدة في هذه المنطقة المركزية الهامة. والذي اختار من قبل جامعة وتنبرج الجديدة للمصلح السكسوني لوثر، اختار الآن كاتدرائية زيورخ للمصلح السويسري زونجلي. وهكذا كان الرب يدبر كل شيء ويحوّل كل شيء لصالح كنيسته وتقدم الإصلاح.

وقد كانت مدينة زيورخ تعتبر عاصمة الاتحاد السويسري، ومنها استطاع المصلح أن يكون على اتصال بأرقى الطبقات المستنيرة في سويسرا وكذلك بجميع المقاطعات المحيطة بتلك الدولة القوية القديمة، وذاع صيته في كل مكان، وتوافدت على الكنيسة جماهير المتعبدين الذين جذبتهم طريقة وعظه الجديدة وأثرت في أذهانهم تأثيرًا كبيرًا؛ ففور وصوله ذكّره مدير الشئون التدبيرية بضرورة بذل كل مجهود لجمع أموال الأبروشية وتحريض المؤمنين من على المنبر وعند الاعتراف على أن يدفعوا عشورهم والتزاماتهم، وأن يُظهروا بتقدماتهم محبتهم للكنيسة. ولكن زونجلي كان، لحسن الحظ، قد خلص من هذه الروح الإكليريكية الجشعة، وأخذ يولي انتباهه ويحول مجهوداته إلى ناحية أخرى.

زونجلي والإنجيل

اشترط زونجلي قبل قبوله الوظيفة أن لا يتقيد في مواعظه بالدروس التي كانت تُقرأ على جمهور العابدين، أو الفصول المخصَّصة للمناسبات والأعياد وأيام الآحاد المختلفة على مدار السنة، بل يكون له مطلق الحرية في تفسير كل جزء من الكتاب المقدس، فقد رأى أن عادة الوعظ من فصول محددة ومقتطفات كتابية منعزلة سنة بعد سنة تحد بالضرورة من استنارة الشعب ومعرفته بكلمة الله. وقد كان له ما أراد، وبدأ خدماته بإنجيل متى قائلاً للمجتمعين "إن حياة المسيح ظلت مخفية عن الشعب زمانًا طويلاً، ولهذا سأتناول في وعظي إنجيل متى كله، فصلاً بعد فصل، وأصحاحًا بعد أصحاح، حسب ما أوحى به الروح القدس وبغير أي تعليق بشري، مغترفًا فقط من ينبوع الكتاب، سابرًا أعماقه ومقارنًا كل فصل بالآخر، باحثًا عن الاستنارة والفهم بالصلاة المستمرة والاتكال الكلي على إرشاد روح الله. إني سأكرس خدمتي لمجد الله، وتمجيد ابنه الوحيد الحبيب، وخلاص النفوس الحقيقي وبنيانها في الإيمان الصحيح ليس إلا". وهكذا استطاع زونجلي بمثل هذا النبل أن يضع حدًا لتلك العادة العقيمة، وهي الاقتصار على تلك الأجزاء المتفرقة المقطوعة من الإنجيل، والتي ظلت المرجع الوحيد للوعاظ البابويين من عهد شارلمان.

مثل هذه اللغة الجديدة، الجريئة، اللائقة مع ذلك بخادم من خدام الإنجيل، كان لها عميق الأثر في نفوس مجمع القسوس، فوقف بعضهم يقول "هذه الطريقة في الوعظ هي شيء مستحدث، وهي تجديد سيقود إلى تجديد، ولن نعرف أين سنقف". فأجاب زونجلي قائلاً "إن هذه ليست طريقة جديدة، بل هي العادة القديمة. تذكروا عظات ذهبي الفم عن إنجيل متى وعظات أغسطينوس عن إنجيل يوحنا". ويلاحظ من ذلك أن زونجلي لم يكن كلوثر يصدم أذهان سامعيه بردود عاصفة

خشنة، بل كان لطيفًا ومجاملاً في علاقاته ومعاملاته مع رؤساء الكنيسة، ولكنه من مكانه الخاص على المنبر كان يُعلن أخبار الخلاص المفرحة بكل ما أوتي من قلب جريء وصوت جهوري، ويرعد ضد مساوئ العصر في غير وجل أو مجاملة، فكان في كل وقت وفي كل مناسبة ينبر على ضرورة التمسك على طول الخط بكلمة الله المكتوبة واعتبارها الدستور الوحيد للإيمان، والمقياس الفريد للواجب، وهكذا كان تأثيره عظيمًا على أهل زيورخ، حتى أنه بعد مدة وجيزة لم تزد إلا قليلاً عن سنة واحدة منذ حلوله هناك، أصدر المجلس الأعلى مرسومًا مشددًا على كل الوعاظ والأشخاص الذين يهتمون بالنفوس أن لا يُعلموا شيئًا لا يستطيعون إثباته من الكتاب المقدس، وأن يمروا مر الكرام على كل ما هو من «تعاليم ووصايا الناس».

وكيوحنا المعمدان كان يطلب إلى جميع الطبقات بكل غيرة وحماس أن يتوبوا، فكان يهجم بفأسه على كل أضاليل ورذائل الشعب من كسل وإدمان ودعارة، وتعظم معيشة وظلم المسكين، وخدمة الأجانب في ميادين الحروب والقتال. يقول المؤرخ ميكونيوس "لم يرحم أحدًا من على المنبر، لا بابا ولا كهنة ولا إمبراطور ولا ملوك ولا أدواق ولا أمراء ولا لوردات، ولا حتى الملحدين أنفسهم. إنهم لم يسمعوا قط رجلاً يتكلم بمثل هذا السلطان. كل قوته وجميع ينابيع قلبه كانت في الله، ولذلك كان يحث الجميع ويطلب إلى كل مدينة زيورخ أن تتكل عليه وحده". وقد لازم أتعابه كل نجاح مفرح ومشجع، ففي نهاية سنة واحدة كان يستطيع أن يركن إلى أكثر من ألفي شخص قد اعتنقوا آراءه وأعلنوا جهارًا أنهم قد تحولوا إلى الإنجيل الذي ينادي به. وهنا نتركهم، فالله هو الذي يمتحن القلوب. ولكن يا لها من فرصة لمدينة زيورخ ونفوس الناس! فالرب الذي هو رأس فوق شيء لكنيسته كان يعضد ويقوي ويحمي خادمه، بينما كان روحه القدوس يعمل في قلوب وضمائر الشعب.

تلك كانت آلة الله الرئيسية في عمله الإصلاحي في سويسرا. وقد كان زونجلي يستند في إنكاره ورفضه لأخطاء النظام البابوي كما في اختباراته لقوة وسلطان الحق في العهد الجديد دون سواه، وبعبارة أخرى على كلمة الله النقية التي أوجدت فيه مثل هذه الغيرة المقدسة، إذ كان يعكف عليها باجتهاد وبكل إخلاص في الصلاة، طالبًا إرشاد وتعليم الروح القدس. فمن الفجر إلى الساعة العاشرة كان يصرف الوقت في القراءة والكتابة والترجمة، وبعد الغذاء كان يصغي إلى الذين جاءوا يلتمسون مشورته ونصيحته، وبعد ذلك يخرج ماشيًا لزيارة بعض أفراد الرعية، ثم يواصل دراساته بعد الظهر، ثم يتمشى قليلاً بعد العشاء، ثم يعود ليكتب رسائله التي طالما تشغله إلى منتصف الليل. وكان دائمًا يشتغل واقفًا، ولم يكن ليسمح لأحد بأن يزعجه ما لم يكن لأمر هام(٢/٤٤)،(٢/٧٢)،(٧/٦٦).

زونجلي وبيع صكوك الغفران

في أغسطس ١٥١٨م نُشر في سويسرا مرسوم البابا ليو العاشر الخاص ببيع صكوك الغفران. عندئذ قام المدعو برناردين شمشون، وهو راهب فرنسيسكاني عهد إليه البابا بهذه المهمة، وعبر جبال الألب الإيطالية بموكب كبير من أتباعه، وراح ينفذ هذه التجارة المشينة التي كلفه بها قداسته بنفس المزاعم التجديفية ونفس الضجيج والطبل والزمر الجريء الذي كان يفعله تتزل الألماني الشهير. وكان زونجلي في ذلك الوقت راعيًا لكنيسة الدير، فأخذ يشهد بكل جسارة ضد مزاعم شمشون وضد أخلاقه الشخصية. وكان من نتيجة هذه المقاومة من جانب المصلح أن باءت مجهودات شمشون بالفشل في مقاطعة شفيتز، فانتقل منها إلى لوسرن وبلاد أخرى، حيث وجد مشترين كثيرين، إلا أنهم بالنسبة لفقرهم لم يستطيعوا أن يدفعوا إلا بنسات قليلة في كل صك غفران، وحيث أن هذا لم يوافق صندوق شمشون فقد شد رحاله واستعد للرحيل، وهنا يقول المؤرخ السويسري الذي قاده حبه الطبيعي لبلاده أن ينتهز كل مناسبة فيشيد بجمالها وعظمتها "إنهم بعد مرورهم على جبال سويسرا الخصبة ووديانها الغنية، وبعد ممارستهم للتجارة البابوية في أجمل وأبدع أصقاع سويسرا وصلوا أخيرًا إلى حدود برن".

وهنا قوبل شمشون بشيء من التردد، ولكنه نجح أخيرًا في الدخول، حيث دخل المدينة بموكب فاخر تحت الأعلام والرايات، ونصب دكانه في كنيسة سان فنسان، وابتدأ يصيح على بضاعته وينادي على غفراناته بأثمان تتفاوت من بنسات قليلة إلى ما يوازي أربعة شلنات، فكان يقول للأغنياء "هاكم غفرانات على رقوق ثمن الواحد ريال إنجليزي"، وإلى الفقراء "ها هنا تحليلات على ورق عادى الواحد منها ببنس ونصف". يا للعار تلك كانت الحيل والألاعيب المخزية التي كانت الكنيسة الرومانية تسمح لرسلها بممارستها، بل التي كان يكلفهم بها البابا نفسه لكي يفرضوها على

أتباع الكنيسة المساكين الجهلاء وأولادها المخلصين البسطاء. وفي بادن وجد تجارته موضع هزء وسخرية الظرفاء، فانتقل إلى أبروشية أسقف كونستانس، ولما كان مستندًا في عمله على السلطان البابوي لا غير فلم يفكر في أن يقدم للأسقف أوراق اعتماده أو أن يستأذن منه، فاستاء الأسقف من هذا التصرف المعيب، وفي الحال كلف زونجلي باعتباره رئيسًا لقساوسة زيورخ ورعاة الأبروشية الآخرين أن يطردوا هذا الأجنبي من كنائسهم. ولم يأسف الأسقف على فرصة كهذه أتاحها هذا السبب الوجيه والعذر القوي لرفض هذا الدخيل المتطفل، الذي ما كان يمكن إلا اعتباره متعديًا ومتهجمًا على حقوق الأسقف والراعي وكاهن الاعتراف، الذين تأثر دخلهم ونقصت مواردهم بسبب هذه التجارة المثيرة للنفوس.

وبناء على هذا التكليف رفض هنري بولنجر والد المصلح الشهير المعروف بهذا الاسم قبول مندوب البابا في برمجارتن. وبعد مناقشة حادة، انتهت بتحريم بولنجر، ارتحل شمشون إلى زيورخ، حيث كان زونجلي، منذ شهرين، عندما علم أن العدو يقترب تدريجيًا ابتدأ يعد الشعب ويثير ثائرتهم ضد غفرانات البابا، فقد كان يوقن في نفسه ويحس في أعماق قلبه بحلاوة غفران الله المؤسس على الإيمان بذبيحة المسيح الغالية، ومع أنه نظير لوثر كان يقشعر من إحساسه بالخطية، إلا أنه وجد في نعمة الرب يسوع خلاصًا كاملاً من كل شكوكه ومخاوفه، فكان يقول "عندما يحاول الشيطان إزعاجي فيصيح بي قائلاً: إنك لم تفعل هذا أو ذاك مما يوصي به الله، أسمع في الحال صوت الإنجيل اللطيف معزيًا إياي بالقول: ما لا تستطيع أنت أن تفعله - وأنت بكل تأكيد لا تستطيع أن تفعل شيئًا - قد فعله المسيح وأكمله إلى التمام. أي نعم، عندما يضطرب قلبي بسبب عجزي وضعف جسدي تنتعش روحي بصوت الأخبار المفرحة القائلة بأن المسيح قداستي. المسيح بري. المسيح خلاصي. أنا لست شيئًا ولا أستطيع شيئًا. المسيح هو الألف والياء. المسيح هو الأول والآخر. المسيح هو كل شيء. هو يستطيع كل شيء. كل شيء في الخليقة يتركني ويخدعني، ولكن المسيح القدوس البار يقبلني ويبررني". هكذا كان ينطق ذلك المصلح المستنير المغبوط المتواضع، المتمتع بالإيمان واليقين "أي نعم. إن المسيح هو برّنا، وهو برّ جميع الذين سيظهرون أبرارًا أمام عرش الله".

في ظلال هذه المعرفة، وفي ضوء هذه السعادة، ويقين هذه الحقائق الروحية التي تأخذ بمجامع النفس فتحررها من كل قيد، أصبح أهل زيورخ على استعداد أن يغلقوا أبوابهم في وجه المدّعي، فعندما وصل إلى الضواحي أرسلوا إليه وفدًا قابله خارج أسوار المدينة، وقالوا له إنهم مستعدون أن يسمحوا له بالرجوع دون أن يصيبه أي أذى، بشرط أن يلغي تحريم بولنجر، وإذ رأى ذلك الشعور الثائر ضده قَبِل أن يرجع، قانعًا من الغنيمة بالسلامة. وهكذا انصرف وأخذ يسير ببطء بعربة تجرها ثلاثة من الجياد، ومحملة بالأموال التي استنزفتها أباطيله من دماء الفقراء، موليًا شطره نحو إيطاليا. وفي الحال أرسل المجمع احتجاجًا شديدًا للبابا ضد تصرفات مندوبيه المعيبة، وطلبوا منه أن يأمر بإعادته. وقد أجاب البابا بعد ذلك بشهرين في أبريل ١٥١٩م بإجابة رقيقة مشبعة بروح المسالمة والحلم، فقد تعلم من ثورة سكسونيا أنه بالتأني والحلم وكسب الوقت يمكنه يتجنب إثارة ثورة أخرى في سويسرا.

يقول دوبيني "إن المجمع السويسري كان أكثر حزمًا من مجمع ألمانيا، والسبب في ذلك أنه لم يكن به أساقفة أو كرادلة، ولذلك رأى البابا وقد حُرم من هؤلاء الأعوان أن يتصرف بحلم نحو سويسرا أكثر من ألمانيا. على أن مسألة الغفرانات التي لعبت دورًا هامًا في حركة الإصلاح بألمانيا لم تكن إلا أقصوصة في حركة الإصلاح بسويسرا".

بدء العاصفة

إن الغيرة التي أظهرها زونجلي في مهاجمة باعة الغفرانات وطردهم من أبروشية أسقف كونستانس نالت استحسان الأسقف العظيم، حتى أن وكيله جون فابر، الذي كان حينئذ صديقًا حميمًا لزونجلي، كتب يمتدحه ويشجعه بعبارات التقدير والإعجاب، حاثًا إياه "أن يتابع بكل حزم وعزم ما بدأه، وأعدًا إياه في الوقت نفسه بتشجيع الأسقف وتعضيده". وإذ تشجع زونجلي بهذا الاستحسان، وعلى أمل أن الأسقف كان يميل إلى تعضيد هذا العمل الذي يشغل المكان الأول في قلبه، أخذ يدعوه بكل وسائل الاستعطاف الخاصة والجهارية أن يقف بجانب حق الإنجيل، ويسمح بنشر الأخبار المفرحة وحرية الكرازة بها في طول أبروشيته وعرضها. يقول زونجلي "لم أقصّر قط في دعوته بكل احترام وتواضع، جهرًا

وسرًا، وبرسائل مكتوبة، أن يحتضن نور الإنجيل الذي بدأ يراه هكذا ساطعًا ومنفجرًا، بحيث لا تقوى قوة بشرية على إطفائه أو إخماده". إلا أن المصلح سرعان ما وجد أن أفكار الأسقف ووكيله قد تغيرت بعد أن ترك بائع صكوك الغفران المملكة، إذ يقول لنا بعد ذلك "إن ذينك اللذين قد أثاراني أخيرًا بتحريضاتهما المتكررة قد أصبحا لا يجيبان عليَّ إلا بمثل هذه الوثائق الرسمية، مع أن الوكيل قد أكد في بادئ الأمر، شفويًا وكتابة، أن الأسقف ما عاد يستطيع أن يحتمل أكثر من ذلك وقاحة وكبرياء بابا روما".

أما جون فابر الذي رأيناه في مجمع أوجسبرج شريكًا لإك، فقد أصبح بعد هذا الخلاف مع زونجلي من أعدى أعداء حركة الإصلاح. أما المصلح فلم يلبث منذ أن وطأت قدماه أرض زيورخ معلمًا الشعب معنى وغرض وصفة الإنجيل، ومؤكدًا لهم في الوقت نفسه ضرورة وأهمية الاسترشاد في كل الأمور الدينية بكلمة الله وحدها فإن «كل الكتاب هو موحى به من الله، ونافع للتعليم والتوبيخ، للتقويم والتأديب الذي في البر، لكي يكون إنسان الله كاملاً متأهبًا لكل عمل صالح» (٢تي٣: ١٦، ١٧). فما من «عمل صالح» إلا وكلمة الله فيها الكفاية لتعليمنا بشأنه وإرشادنا فيه.

ولكن سرعان ما وجد زونجلي أن مثل هذا التعليم لا يمكن أن يقابَل بالرضى من جانب رؤساء النظام البابوي، ولذلك عزم من الآن أن يؤسس كل آماله وأمانيه على أساس أرسخ وأمتن، وهو الاتكال المطلق على الله وحده، ولقد حاول أنطونيو بوتشي رسول البابا أن يخدعه ويزعزعه فلم يفلح، وفي هذا يقول: "حادثني أنطونيو بوتشي أربع مرات، وفي كل مرة كان يضع أمامي أفخر الوعود والأماني، ولكني قلت له أني من الآن فصاعدًا سأكرس نفسي بنعمة الله للكرازة بالكلمة كالوسيلة الوحيدة لهدم حصون البابوية وزعزعة سلطانها".

وإزاء هذا التصميم الذي لا رجعة فيه رفض في عام ١٥٢٠م قبول المعاش الذي كان يصله من البابا لحساب شراء الكتب بصفته كاهن البابوية. وهنا يقول "كنت قبلاً أعتقد أنه من الجائز لي أن أتمتع بسخاء البابا طالما أنا بضمير صالح أتوافق مع ديانته وتعاليمه، ولكن بعد أن نَمَوْت في معرفة ابن الله رفضت البابا وهداياه إلى الأبد".

ومن ذلك الوقت بدأ تعليم زونجلي يثمر ثمره الطيب في أذهان الشعب وعقولهم، وأخذ نفوذه يتغلغل في نفوسهم إلى أبعد حد، فبطل الكثير من شعائر روما الكنسية، وأصبحت لا يُعتد بها أحد. فالصوم الكبير مثلاً الذي كان يُراعى في الماضي بكل دقة لم يعد له مكان عند سكان المدن، فانزعجت لذلك السلطات الحكومية، وزجت بالبعض في السجون على أثر شكاوي من رجال الكهنوت، ولكن الشعب كان يقول إنهم في حريتهم كمسيحيين قد رفضوا مثل هذا التمييز الذي لا معنى له بين طعام وطعام، ولما رأى أسقف كونستانس هذه الحالة المضطربة أصدر في الحال مرسومًا ضد ما أسماه "المستحدثات والاختراعات" حاثًا الشعب بواسطة وكلائه على التمسك المستمر بالكنيسة، ولو على الأقل لحين صدور قرار من المجمع، وهي الطريقة المعتادة لتخدير الأعصاب. ويعلم القارئ أن مرسومًا كان قد صدر للرهبان من مجلس الشيوخ يأمرهم بالكرازة بكلمة الله دون سواها، وقد وقع هؤلاء الرهبان في حيرة، فمعظمهم لم يكن قد قرأ كلمة الله من قبل، ولهذا انتهزوا الفرصة وأصبح مرسوم مجلس الشيوخ هدفًا لأشد الاحتجاجات والاعتراضات من كل طائفة من طوائف الرهبان والقسوس، وبدأت المؤامرات تُحبك وتُدبر ضد زونجلي بصفته رئيس رعاة زيورخ، وصارت حياته مهدَّدة بالخطر، حتى كان من الضروري في بعض الأحيان تعيين دورية في الشوارع للمحافظة على حياة المصلح وأصدقائه.

بدأ زونجلي يرى العاصفة تتجمع وتتزايد في كل مكان، وكان يعلم جيدًا مَن هو المقصود منها، وإلى مَن ستوجَّه جامات غضبها، ولكن هذا لم يزده إلا غيرة وحماسًا، فأخذ يكتب المنشورات والنبذ دفاعًا عن الحق وعن أصدقائه، وراح يرسلها في كل مكان في طول المملكة وعرضها، وكان من أثر ذلك أن انتشرت مبادئ الإصلاح في كل سويسرا، لدرجة أن إرازمس كتب عام ١٥٢٢م إلى رئيس محكمة ميشلان يقول "إن روح الإصلاح قد نمت وترعرعت في جميع أصقاع الاتحاد السويسري، حتى إن ما يربو عن مائتي ألف نفس قد صاروا إلى حد بعيد يتبعون لوثر".

وإذ قد تبين لنا أن حركة الإصلاح قد أخذت تستقر وتنمو في أماكن مختلفة من الجمهورية السويسرية، فيحسن أن نقف هنا قليلاً ونلاحظ باختصار الموقف في بعض هذه الأماكن، وبعضًا من الرجال البارزين الذين سنتعرف بهم أكثر فأكثر في سياق تأملاتنا المقبلة.

الفصل الحادي والأربعون

زعماء الإصلاح في سويسرا

إذ قد تتبعنا بعجلة واختصار مجرى الحوادث في المشاهد المتتابعة لأتعاب زونجلي في الثلاث مقاطعات جلاريس وشفيتز وزيورخ، فإننا الآن نود أن نعبر إلى مشاهد أخرى، وهناك نتعرف بالبعض من أولئك الرجال الغيورين الذين أقامهم الله وأهلهم لنفس هذا العمل المبارك المختص بنعمته الغنية وسلطانه الفائق في سويسرا.

رجال الإصلاح في سويسرا

وأول من نقابله من هذه الطائفة النبيلة هو جون هوشين أو باليونانية

أكولامبديوس

وُلد في عام ١٤٨٢م في ونسبرج من أعمال فرانكونيا، أي حوالي سنة قبل ميلاد زونجلي ولوثر. وهو من عائلة شريفة، وقد قصد أبوه أولاً أن يعده للتجارة أو المحاماة، ولكن والدته اشتاقت أن تكرسه لله والكنيسة، ولهذا سهرت عليه كما سهرت مونيكا على أغسطينوس. وكان حليم الطبع مسالمًا ذا أخلاق فاضلة، كما امتاز في بداية عهده بالتفوق على أقرانه في تحصيل العلم، فقد أرسله أبوه أولاً إلى هيدلبرج ثم إلى بولونيا لدراسة القانون، ولكن لما كانت هذه الدراسة لا تتفق مع ميله الطبيعي ولا مع رغبة والدته، رضي والده أخيرًا بتكريسه لدراسة اللاهوت.

وتمشيًا مع إرادة والديه بدأ خدمته في بلدته، ولكنه لشدة حساسيته أيقن أنه ليس مؤهلاً لمثل هذه المهمة، وسرعان ما ذهب إلى بازل حيث تعين راعيًا لأكبر كنيسة هناك، وبعد سنتين منحته الجامعة لقب دكتور في اللاهوت. وقد كان مسيحيًا مخلصًا وكارزًا غيورًا وفصيحًا، حتى كان موضع محبة وإعجاب سامعيه، ليس فقط لخدماته الجهارية بل لتواضعه ووداعته وحياته التقوية.

زد على ذلك أنه كان ضليعًا في لغات الدين الثلاث لدرجة جذبت إليه انتباه إرازمس، وقد كانت بازل في ذلك الوقت مدينة العلم العظيمة، واشتهرت بمطبعتها الكبرى "وكان إرازمس في ذلك الحين مشغولاً بإعداد طبعته الأولى للعهد الجديد، فاستعان بخدمات أكولامبديوس في مقارنة نصوص العهد الجديد المقتبسة من العهد القديم بأصلها العبراني" وسرعان ما أصبح أكولامبديوس رفيقًا متحمسًا لإرازمس، حتى كان في خطر أن تتأثر نفسه بآراء إرازمس النصف الإصلاحية، ولكن الرب في صلاح عنايته شاء أن يستدعيه إلى بلده حيث تمتع بالهدوء والاعتكاف إلى حين. ويبدو أن إرازمس نفسه لم يكن أقل إعجابًا وولعًا بالمبشر الشاب، وقد اعترف بخدماته الجليلة التي قدمها له حيث قال "في هذا المجال حصلت على معونة ليست بقليلة من رجل قد امتاز ليس فقط بتقواه بل وبضلوعه في اللغات الثلاث، الأمر الذي يجعل منه لاهوتيًا قديرًا بمعنى الكلمة، وأعني به أكولامبديوس، وذلك لأني شخصيًا لست متمكنًا من اللغة العبرية لدرجة تخوِّل لي حق الحكم على مثل هذه النصوص".

وقد انتقل من بازل إلى أوجسبرج على أثر استلامه دعوة من قسوس الكاتدرائية ليكون واعظًا هناك، وقد كانت له الفرصة في ذلك المكان لكي يعظ بالمسيح لجماهير غفيرة من الشعب. ولكن تواضعه وشكوكه في مقدرته تابعته هناك أيضًا فاستقال، فمع أنه كان مسيحيًا بالحق إلا أنه لم يكن قد وجد بعد الراحة الكاملة لنفسه على أساس عمل المسيح الكامل. والواقع أن السلام مع الله هو العلاج الوحيد لمثل هذه النفوس القلقة الحائرة، فهو الذي يعطي استقرارًا للنفس وتوافقًا للعقل حتى في أمور الحياة العادية، فبه

نستطيع أن ننظر إلى الأشياء بهدوء ونزنها في حضرة الله، ونقدّرها في النور الذي يكشف طبيعة كل شيء وحقيقته. يقول صاحب المزمور «جعلت الرب أمامي في كل حين» وماذا تكون النتيجة «إنه عن يميني فلا أتزعزع، لذلك فرح قلبي وابتهجت روحي» (مز ١١٩:٨،٩). هذه هي النتائج المجيدة لو وضعنا الرب أمامنا كل حين كغرضنا الأوحد. عن يميننا، مكان القوة، وينتج عن ذلك استقرار وثبات في الأفكار، وفرح في القلب وابتهاج مستديم. ولكن أكولامبديوس كآلاف غيره في كل العصور لم يكن قد تخلص بعد من النظام الفاسد الذي وجد نفسه فيه، فبدلاً من أن يكف عن الشر وعندئذ يتعلم كيف يفعل الخير كما يعلمنا العهد القديم، أو بدلاً من أن يكره الشر وبعدئذ يلتصق بالخير كما يعلمنا العهد الجديد، استمر باقيًا في روما محاولاً عبثًا تطهيرًا لها ولمبادئها. ولما تملكه اليأس والقنوط وغلبه الفشل، كما هو مصير كل قلب مخلص يحاول أن يرقع الثوب القديم بدلاً من قبول الثوب الجديد، ألقى بنفسه في دير من الأديرة، ناويًا أن يصرف بقية أيامه في الاعتكاف والدرس.

وهناك صرف سنتين فيهما اختبر بنفسه، كما اختبر لوثر من قبله، حياة الرهبنة التي هي أحسن عنوان للنظام البابوي. وبعد أن غادر دير سانت برِدْجيه، وجد مأوى في قصر فرنسيس سيكنجنِ، الذي كان وقتذاك ملجأ الكثيرين من العلماء، وبعد وفاة سيكنجن رجع إلى بازل، حيث تفرغ جديًا لعمل الإصلاح، وحيث صرف فيه بقية حياته.

ليوجودا

ومعنى اسمه أسد يهوذا. ويصفه المؤرخون بأنه كان رجلاً قصير القامة ذو عقل جبار، محبًا للفقراء وغيورًا ضد التعاليم الباطلة، وبالاختصار قد قيل عن ليوجودا إن كل شيء يحتاجه الرجل الصالح لم يوجد فيه فقط، بل وجد فيه بفيض ووفرة. ولد ليوجودا في عام ١٤٨٢م من عائلة لها مكانتها في بلاد الألزاس، وبعد أن صرف وقتًا في مدارس شلشتاد نزح في عام ١٥٠٥م إلى بازل، حيث صار زميلاً لزونجلي في التلمذة لوتنباخ الشهير بعلمه وفضله. وقد بدأ خدمته الرعوية نظير أكولامبديوس في موطنه، ولكنه مثل سانت تيودور أخذ مكان زونجلي في إينسيدلن في عام ١٥١٨م، ومنها انتقل إلى زيورخ عام ١٥٢٣م لشغل وظيفة راع لكنيسة القديس بطرس، وليصبح رفيقًا حقيقيًا لزونجلي في عمل الإصلاح. وعلاوة على كونه مبشرًا غيورًا بالإنجيل كان أيضًا مغرمًا بدراسة مؤلفات روشلان وإرازمس ولوثر، وقد ترجم إلى اللغة الألمانية تفسيرًا للعهد الجديد من وضع إرازمس، وقد كان ذلك الكتاب ذا أهمية عظمى في ذلك الوقت، لأنه كان يندر وجود أي تفسير للكتاب المقدس باللغة القومية المنتشرة حينذاك. كما أنه استخدم معرفته باللغة العبرية في ترجمة الكتب المقدسة إلى اللغتين الألمانية واللاتينية.

كونراد كيرسنر

وهو أيضًا من الألزاس، ولد عام ١٤٧٨م، واشتهر بإتقانه الغة العبرية وآدابًا شرقية أخرى، استطاع أن يستغلها في تفسير الكتب المقدسة، ورغمًا عن معارضة أصدقائه الشديدة انخرط في سلك حياة الرهبنة في السادسة عشرة من عمره. ولما بلغ الرابعة والعشرين أهلته معارفه وتقواه لأن يتقلد منصب أستاذ اللاهوت في جامعة بازل. وبعد سنتين من ذلك التاريخ حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت بمرسوم من البابا. وبينما كان في طريقه إلى إيطاليا حيث كان سيتوج بألقاب شرف أخرى مرض في ميلانو وعاد أدراجه إلى بازل، وهناك كلفه الأسقف بتدوين ملخص للنقط الرئيسية في التعليم المسيحي حسب الكتب المقدسة، وقد ذاع صيته بسرعة وانتشر نفوذه وزادت ألقابه، ولكن صاحب هذه كلها تغيير صالح في اتجاه أفكاره، فقد بدأ يشك في التعاليم السائدة، وفي بدع البابوية، مثل صكوك الغفران والاعتراف والمطهر وسيادة البابا المطلقة، وكانت مؤلفات لوثر قد أخذت في الذيوع والانتشار في ذلك الوقت، فوصلت إلى يديه الخمسة والتسعون رسالة التي نشرها ذلك المصلح. وبعد أن اطلع عليها اقتنع بها في مجموعها، غير أنه كان يتمنى لو أن لوثر عبر عن أفكاره بوضوح أكثر، وبعد ذلك بدأ كيرسنر يلقى ثوب الرهبنة عن نفسه تدريجيًا، ويطرح كل أمل في التقدم أو الترقية، عاملاً باجتهاد في إذاعة حق الله الطاهر في دائرة بازل. ومنها انتقل عام ١٥٢٦م إلى زيورخ، حيث أقام حتى وفاته عام ١٥٥٦م.

ولفجانج فابريكوس كوفلن (أو كابيتو)

ابن أحد أعضاء مجلس الشيوخ في الألزاس، وكانت أمه من أسرة نبيلة، ولد عام ١٤٧٨م. ويتضح من هذا أن مقاطعة الألزاس كان لها شرف أن تكون مسقط رأس ثلاثة من المصلحين الأفذاذ البارزين. وكان كابيتو يميل بطبعه إلى الكنيسة، ولكن لما كان

والده يمقت صفات الإكليروس مُقتًا شديدًا ولا يوافق على علم اللاهوت السائد في ذلك العصر، فقد بدأ يدرس علم الطب. والواقع أنه درس بنجاح علم الطبيعيات واللاهوت والقانون ونال درجة الدكتوراه في كل منها. غير أنه بعد وفاة والده كرس نفسه للشيء الذي كان يميل إليه بطبعه وهو اللاهوت.

ويتلخص تاريخه في أنه شغل أولاً مركز أستاذ للفلسفة في فريبورج لمدة قصيرة، ثم واعظًا في سبيرز لمدة ثلاث سنوات، وبينما كان يزور هيدلبرج تعرف بأكولامبديوس واستمرت صداقتهما حتى وفاة الأخير. وفي عام ١٥١٣م انتقل إلى بازل بناء على دعوة من مجلس الشيوخ لكي يتقلد منصب راعي الكاتدرائية هناك. ويقول عنه إرازمس "إنه لاهوتي عميق، متفوق في اللغات الثلاث، وعلى جانب عظيم من التقوى والقداسة". وعندما استقر به المقام في بازل استطاع أن يقنع صديقه أكولامبديوس بأن يرافقه هناك. ذلك كان فجر حركة الإصلاح في ذلك المكان، حيث جاهد هذان الرجلان الغيوران في نشر الإنجيل وخدمة الكلمة باجتهاد وتعب كثير، وهكذا أُلقيت بذار صالحة كثيرة أثمرت محصولاً غنيًا من خلاص النفوس لمجد الله الآب.

وقد ظل كابيتو خمس سنوات كاملة إلى ١٥٢٠م مشغولاً بمهمة مغبوطة، وهي تفسير الكتب المقدسة، وخاصة إنجيل متى، في محاضرات كان يلقيها على جماهير غفيرة، وقد استطاع في تلك السنة أن يتحدث عن نجاحه المتتابع فقال "ها هي الأمور آخذه في التحسين المستمر، فها هم اللاهوتيون والرهبان معنا، وها هي الجماهير الغفيرة تأتي لتسمع محاضراتي عن إنجيل متى. صحيح أنه يوجد البعض ممن يهدرون ويهددون ضد لوثر، ولكن الحق قد تأصل في النفوس بحيث لا تستطيع القوة استئصاله. والبعض يتهمونني بأني أمالئ اللوثرية، ولكني أخفي عنهم اتجاهاتي بكل حرص". على أن هذه الحالة الهادئة لم تدم طويلاً، فسرعان ما وجهوا إليه تهمة الاشتراك في هرطقة لوثر، ودبر بعض الرهبان والقسوس مؤامرة ضده. وإذ استدعاه ألبرت أسقف ميتز لكي يتقلد منصب مستشار له قبِل الدعوة وذهب إلى هناك تاركًا بازل ومؤامرتها. ولكن وصل الخبر إلى مسامع الشعب، فثاروا وهاجوا واشتد حنقهم وغضبهم ضد القسوس والرهبان، ووقعت على أثر ذلك اضطرابات خطيرة في المدينة.

وهكذا ذاع صيت كابيتو كرجل علم وتقوى، حتى أن البابا ليو العاشر منحه لقب "رئيس" من تلقاء نفسه، ورقاه الإمبراطور شارل الخامس إلى رتبة شريف، وعينه ألبرت كبير أمراء الإمبراطورية الألمانية في وظيفة مستشار ديني، ولكن كل هذه الوظائف والرتب والألقاب لم تكن لتتفق مع أهدافه ولا مع رغبة قلبه الحقيقية، ولو أنه إلى تلك اللحظة لم يكن يدرك تمام الإدراك المهمة العظيمة التي كان يعده الرب لها. ولكن عينه أخذت تتفتح لاكتشاف الحق تدريجيًا، وأصبح موضوع الأفخارستيا يصدم ضميره، فأبى ممارسته من ذلك الوقت فصاعدًا. وبعد أن مكث حوالي ثلاث سنوات في بلاط الكردينال رئيس الأساقفة استقال من الوظيفة، وانضم إلى بوشر في ستراسبورج كمبشر متواضع بالإنجيل. واستمر في عمله الجليل هذا حتى رقد عام ١٥٤١م. ذلك كان العمل الذي استراحت إليه نفسه، وكان يجد لذته في الحث على ضرورة الإصلاح ومواصلة العمل بالاتكال المطلق على الله الحي، وقد كان منذ عام ١٥١٢م يعتقد أن عشاء الرب ما هو إلا تذكار لموت المسيح، وذلك قبل أن ينادي المصلحون السويسريون بهذا التعليم جهارًا بزمن طويل.

كاسبار هديو

من أهالي سوابيا. تعلّم في بازل، وأخذ يتعب ويجاهد كثيرًا في نشر الإنجيل، أولاً في ماينس، ثم في ستراسبورج. وعندما ترك كابيتو بازل تعين هو خلفًا له. فقام الحزب البابوي معارضًا، ولكنه كان يصرّح في وجوههم قائلاً: "إن الحق يلدغ، ومصادمة بعض الآذان الغضة به الآن ليس مأمون العواقب. ولكن لا حرج في ذلك، ولن تستطيع أية قوة تحويلي عن الطريق المستقيم". فضاعف الرهبان مجهوداتهم ضده وأخذوا يتصايحون "إنه تلميذ كابيتو" وازداد الهياج العام. وقد كتب إلى زونجلي في ذلك الوقت يقول "يغلب على ظني أني سأقف منفردًا مواجهًا في ضعفي هذه الوحوش الضارية. هوذا العلم والمسيحية الآن بين المطرقة والسندان. ها هو لوثر قد دين من جامعتي لوفان وكولونيا. وإذا كانت الكنيسة قد تعرضت لخطر عظيم في يوم من الأيام فهو الآن". ويبدو أنه انتقل بعد ذلك بقليل إلى ستراسبورج، حيث واصل عمله هناك في غير تشويش. وقد كان رجلاً حليمًا هادئ الطباع.

برتولد هالر مصلح برن

وُلد في ألدنجن من أعمال فورتمبرج حوالي سنة ١٤٩٢م. وقد كان زميلاً لملانكتون في الدراسة، وكان تأثيره عظيمًا على أهالي برن، الذين كانوا في بادئ الأمر معادين للتعاليم الجديدة وثائرين ضد زيورخ لممالأتها للوثرية، إلا أنه استطاع بتبشيره الهادئ بحق الإنجيل أن يخفف من حدة تعصبهم. وقد تعين شماسًا عام ١٥٢٠م، ثم واعظًا في الكاتدرائية، وقد كان يشاطره أتعابه سباستيان ماير الفرنسيسكاني، الذي كان أولاً بابويًا، ولكنه تحول إلى الحق وأصبح مبشرًا غيورًا بإنجيل نعمة الله. وقد كان هالر على مبلغ عظيم من العلم والفصاحة، واستطاع ببلاغته كمبشر أن ينال حظوة عظيمة لدى مواطنيه، وبفضل مجهودات هذين المصلحين أصبحت الحالة الدينية في وقت قصير تتطلب تداخل الحكومة في تلك المقاطعة.

وإذ كان بطبعه هادئًا هيابًا التجأ إلى زونجلي طالبًا مشورته، ومصارحًا إياه بكل متاعبه وتجاربه، وقد كان زونجلي أهلاً لأن يُوحي إليه بكل تعضيد وتشجيع. كتب مرة لزونجلي يقول "إن الحزن واليأس يغمران نفسي. إني لا أستطيع احتمال مثل هذه المعاملة الجائرة، وقد عزمت على الاستقالة من منبري والاعتكاف في بازل، حيث انضم إلى مجموعة وتنباخ، مكرسًا نفسي لدراسة الكتب المقدسة". فأجابه زونجلي "وا أسفاه! أنا أيضًا أشعر باليأس يدب إلى نفسي عندما أراني أعامَل معاملة جائرة وأهاجَم ظلمًا وعدوانًا، ولكن المسيح يوقظ ضميري بوعيده ومواعيده. فهو يرعبني بالقول «من ينكرني قدام الناس أنكره أنا أيضًا قدام أبي» ولكنه يعود فيشجعني بالقول «من يعترف بي قدام الناس أعترف به أنا أيضًا قدام أبي» (مت ١٠: ٣٢، ٣٣). آه يا عزيزي برتولد، تشدد وتشجع، إن أسماءنا منقوشة بحروف لا تُمحى في سجلات السماء. إني مستعد أن أموت من أجل المسيح. آه، يا ليت الوحوش التي تضطهدك كانت تسمع تعليم يسوع المسيح، لكانت تصبح أليفة في الحال، بل تصبح حملانًا وديعة. ولكن عليك على كل حال أن تتعهد عملك بكل لطف وتواضع تجاه هذه الوحوش لئلا تلتفت فتمزقك". وكان من أثر هذه النصائح أن امتلأ برتولد بالشجاعة والحماس، والشرارة التي كانت تلهب قلب زونجلي أشعلت قلبه، فأخذ ينادي بالإنجيل بكل غيرة وقوة، وببركة الله عاد الإنجيل الطاهر إلى جمهورية برن بعد أن ظل منفيًا عنها هكذا طويلاً.

أزوالد ميكونيوس

وهو غير فردريك ميكونيوس تلميذ لوثر. كان من أهالي لوسرن، وولد عام ١٤٨٨م. وقد أتم علومه في بازل حيث أصبح معروفًا لكثيرين من العلماء أتباع إرازمس وخاصة لزونجلي، وقد صار مديرًا لمدرسة بازل ثم مدرسة زيورخ، التي انتقل منها إلى مدرسة لوسرن، وهناك وسط الروح العسكرية المنتشرة في تلك الأصقاع قام المبشر بإنجيل السلام يناهض عادة الانخراط في سلك العسكرية الأجنبية ويثبط من ميولهم الحربية، فكان من الطبيعي أن يقابلوه بأشد أنواع المقاومة، وراحوا يطلقون صيحتهم المعهودة "إنه لوثري. لوثر يجب أن يحرق ومعه ناظر المدرسة". فاستدعته الحكومة للوقوف أمام المجلس، الذي أمره بعدم قراءة مؤلفات لوثر على تلاميذه أو ذكرها أمامهم، أو حتى مجرد التفكير فيها! فأجابهم قائلاً "وما الحاجة لذكر لوثر لإنسان أمامه الأناجيل وكتب العهد الجديد يستقي منها؟". وقد تأثرت روحه الوديعة وشعر بجرح أصاب نفسه الهادئة بطبعها، فملأه الحزن والغم وصرح "إن كل إنسان ضدي، وإذ تهاجمني هذه العواصف من كل ناحية لا أعرف إلى أين أذهب أو كيف أهرب. لو لم يكن المسيح معي لوقعت من مدة صريعًا تحت ضرباتهم المتوالية". وفي عام ١٥٢٣م نُفي من لوسرن، وبعد اختبارات مختلفة تعين أخيرًا خلفًا لأكولامبديوس في بازل كأستاذ وواعظ، وظل شاغلاً هذا المركز حتى وفاته سنة ١٥٥٢م. وقد كانت حياته سلسلة أتعاب في سبيل نشر الحق، وكانت خدماته في سبيل قضية الإصلاح عظيمة وجليلة.

يواقيم فون فالت (أو فاديان)

كان علمانيًا متميزًا من أهالي سان جول، حيث تقلد منصب المستشار ثماني مرات. وقد ضرب بسهم وافر في كل نوع من أنواع العلوم تقريبًا. وكان لمعضلة الإصلاح الخطيرة أكبر شأن في تفكيره، وبنعمة الله استطاع بمثابرة وغيرة وحكمة فائقة أن يساهم في دفع قضية الإصلاح وإدارة دفتها بمهارة فائقة. فقد ترأس مرات عديدة مجامع عامة كبرى كان لها وللمناقشات التي دارت فيها أكبر الأثر في تقدم حركة الإصلاح في سويسرا.

توماس وأندرو بلورر

المنحدران من عائلة شريفة في كونستانس، وكان لهما مجهودات قيمة في سبيل قضية الإصلاح من بادئ أمرها، وقد

امتاز الثاني بصفة خاصة بلقب "مصلح مدينته". وكانت تلك المدينة الشهيرة بما أصابها من الاضطهاد البابوي موضع أتعاب وخدمات المصلحين سبستيان هوفنستر وجون فونر، اللذين جاهدا جهادًا شريفًا في سبيل مبادئ الإصلاح في تلك المدينة الشهيرة بالرغم مما وقع عليهما من اضطهاد طويل *.

تأملات في فجر الإصلاح في سويسرا

من ذا يستطيع إلا أن يسجد ويتعبد أمام يد الرب الصالحة وبنعمة الله الغنية البادية في هذه السحابة النبيلة من الشهود الأمناء للمسيح وإنجيله. فها هم رجال عديدون مختلفون في أماكن عديدة مختلفة، ولكن كأنهم باتفاق سابق يدرسون جميعًا نفس الحقائق، تحدوهم نفس البواعث ونفس الرغبات، ويؤمنون بنفس النتائج، ومع ذلك يجهلون بعضهم بعضًا إلى حين. لم تكن لهم علاقة بما يدور في ألمانيا من حركة هي نفس حركتهم ولها نفس اتجاههم! وقد حاولنا أن لا نتعدى بتاريخ هؤلاء الطلائع حدود سنة ١٥٢٠م، وهي السنة السابقة لمجمع ورمز، والتي فيها بدأت مؤلفات لوثر تنتشر وتشق لها طريقًا إلى الممالك الأخرى.

ولا شك أن القارئ الفطن قد لاحظ أن جميع القادة الذين ذكرناهم كانوا رجالاً من أرقى الطبقات علمًا وكفاءة، ولهم من المؤهلات والمواهب ما يجعلهم يصلون إلى أسمى درجات الشرف وأرقاها، ولكنهم ضحوا بكل ذلك طواعية واختيارًا في سبيل الرب يسوع المسيح وخدمة إنجيله المقدس، والله الذي لا ينسى تعب المحبة ولا يمكن إلا أن يكرم كل من يكرم ابنه، وقد قبل منهم هذه التضحية الحبية، وقدس معارفهم ومواهبهم وصفاتهم لتتميم عمل نعمته العظيم، فجعل هيبتهم الأدبية تسطو على مقاوميهم فيعترف بها ألد أعدائهم، وهنا يمكن أن يُقال بحق «الرب يعطي كلمة، المبشرات بها جند كثير» (مز ٦٨: ١١). وقد قيل إن هؤلاء الرجال المشهورين كانوا كأخوة ساكنين معًا في وحدة تامة، وكانوا كلهم أصدقاء أمناء، وبقوا كذلك حتى النفَس الأخير من حياتهم، ولم يحدث على الإطلاق أن سُمع بينهم صوت انشقاق.

والحق أن قلب المؤمن ليرقص طربًا لرؤية يد الله عاملة بمثل هذه القوة المباركة لتمجيد ابنه العزيز المعبود، ولتحرير كنيسته من طغيان البابوية وتقاليد الناس. وليس أعجب ولا أبدع في هذا العالم من انتصارات الحق حيث الروح القدس يكون عاملاً.

فماذا نرى أمامنا الآن؟ نرى رجالاً قلائل، كانوا في البداية متسلحين بقوة الحق وحده، وعاملين على تغيير نظريات ومشاعر وعادات معاصريهم الدينية، حيث تقف في وجههم جبال شامخة من احترام البشرية لكل ما هو أثري وقديم، وحيث تعترض سبيلهم جبال ميول الناس نحو المحافظة على ديانة أجدادهم، ومصالح أخرى كثيرة تقف سدًا منيعًا في طريق التقدم والإصلاح. فها هم ملوك الأرض وجيوشها والبابا ورسله يتحدون معًا لمقاومة التعاليم الجديدة وإسكات الشهود وكتم أنفاسهم بالموت. ولكن كل هذا لا نتيجة له إلا تطهير نيات المصلحين وإلهاب غيرتهم، فالموانع والعراقيل التي كانت تسد عليهم المسالك قد تبدو للعين البشرية عسيرة ولا يمكن تخطيها، ولكن ها هي ذي قضية الحق تنتصر، وكل عائق يزول، وكل جبل ينخفض، وذلك بدون أية قوة منظورة بل بمجرد نشر الكلمة والصلاة.

وسنرى قوة وصدق ما نقول في سياق تأملاتنا المقبلة، فممالك وأمم بجملتها تطيع وتخضع لصوت المصلحين، وتترك طرق وأساليب أجدادهم في العبادة، محطمة أوثانهم وقاضية في يوم واحد على جميع عاداتهم التي توارثتها أجيال عديدة. والشيء الذي بدا في أول الأمر كمجرد نزاع لا يخص إلا جماعة اللاهوتيين، اتسع نطاقه وانتشر سلطانه فشمل جميع الطبقات، وأحدث في النهاية انقلابًا أدبيًا عظيمًا امتد أثره إلى أقاصي العالم المتمدن(٧٧مقدمة).

تقدم حركة الإصلاح في زيورخ (١٥٢٢م)

لقد كان عام ١٥٢٠م هو العام الذي تدخلت فيه السلطات المدنية لأول مرة في حركة الإصلاح كما رأينا، ففي هذه الأثناء بدأ التأثير الذي أحدثه زونجلي في نفوس الشعب يظهر، فعلاوة على موضوع الصيام الكبير الذي طُرح على بساط البحث في مجلس الشيوخ عقب مرسوم أسقف كونستانس، أثار زونجلي موضوع عدم زواج الإكليروس، ولفت أنظار الناس إلى الفضائح المترتبة على ذلك والتي كانت سائدة في سويسرا. وفي خطاب خاص كتب إلى الأسقف يستعطفه بأن لا يصدر أي مرسوم ضار بالإنجيل، وأن لا

* قد استقينا معظم هذه التواريخ والحقائق من "تاريخ الكنيسة" لسكوت(٢/٧٢) ص ٣٦٦-٣٨٤ حيث يستطيع القارئ أن يجد تفصيلات كثيرة تغاضينا عنها.

يسمح بالزنا فيما بعد، وأن لا يحكم بعدم زواج الإكليروس.

ويقول بعض المؤرخين في هذا الصدد "كان مفروضًا على رجال الإكليروس في بعض المقاطعات أن يقتنوا المحظيات، بينما في الأماكن الأخرى كان يمكن الحصول على تصريح بذلك بالمال". إلا أن الأسقف، بدلاً من الاستماع إلى هذه النصيحة المحترمة من المصلح الكبير، بدأ يضطهد كثيرين من القسوس الذين اعتنقوا مبدأ الزواج، واصمًا إياهم بأنهم "هراطقة لوثريون" يتمسكون بمبادئ معادية للكرسي البابوي. ومن ذلك الوقت تغير الحال، فإلى ذلك الحين لم يتعرض المصلحون السويسريون لأية مقاومة جهارية منظمة، ولكن الآن قامت الكنيسة تطلب من الحكومة التدخل الجدّي في الأمر والضرب بيد من حديد على هذه الحركة أينما وجدت.

ولكن عناية الله ويده الصالحة كانت في الأمر، فاستطاع أن يحول موجة الاضطهاد والمقاومة التي أخذت تعج في أماكن كثيرة إلى تعميق الحق في قلوب محبيه وتقوية العمل وانتشاره. فالمناقشات والمجادلات العلنية كانت من أهم الوسائل لتوسيع نطاق حركة الإصلاح في سويسرا، ولم يكن لهبوب رياح الاضطهاد إلا حمل بذار الملكوت الصالحة وإلقائها في كل مكان، وتقوية عودها في طول البلاد وعرضها. يقول المؤرخ السويسري "قام القسوس، كما في أيام الرسل، يناهضون هذه التعاليم الجديدة، ولولا هذه المقاومة لبقيت بذورها على الأرجح مخبوءة ومجهولة في نفوس بعض الأفراد الأمناء القلائل، ولكن الله كان يراقب الساعة لإظهارها للعالم. ولم تستطع المقاومة إلا أن تفتح طُرقًا جديدة لها، موجهة إياها إلى مسيرة جديدة ومحوّلة أنظار الشعوب إليها. والشجرة التي كان مُقدّرًا لها أن تظلل الشعب السويسري تأصلت جذورها في وديانها، وكان لا بد لها من الأعاصير والزوابع لتقوي عودها وتنشر أغصانها. وعندما رأى أعوان البابوية النار تشتعل في زيورخ اندفعوا لإخمادها، ولكنهم لم يزيدوا اللهيب إلا اشتعالاً وانتشارًا"(٤٤)٢/٦.

الرهبان يتآمرون ضد زونجلي

انتشرت وذاعت التعاليم الجديدة في زيورخ عام ١٥٢٢م لدرجة أزعجت ليس الأسقف وحده بل مجلس الشيوخ أيضًا، فحالة الانقسام والاضطراب التي سادت في المدينة كانت آخذه في الازدياد، فقام الرهبان بتشجيع من رؤسائهم يصيحون صيحتهم المعتادة "هرطقة وإلحاد" كان في المدينة في ذلك الوقت ثلاث طوائف من الرهبان، وهم الدومينيكان والفرنسيسكان والأغسطينيون، فقاموا جميعًا يتآمرون ضد زونجلي ويتهمونه أمام الحكام بتهمة "مهاجمة طوائفهم باستمرار والتشهير بهم في مواعظه، معرضًا إياهم لاحتقار وازدراء الشعب". وقدّموا التماسًا لمجلس الشيوخ يطلبون فيه إسكات هذا الواعظ وإلغاء مرسوم ١٥٢٠م، أو على الأقل السماح لهم باقتباس مواعظهم من أكويناس أو سكوتس، ولكن السلطات لم ترفض الطلب فقط، بل جددت الأمر بأنه "لا يجوز إذاعة أي شيء من على المنبر لا يمكن تأييده والبرهنة عليه من كلمة الله". فثارت ثائرة الرهبان، ولم يقووا في ثورتهم على إخفاء نواياهم، فتعاهدوا على أنه إذا لم يوقف زونجلي حملاته فلا بد من استعمال وسائل أشد قسوة وعنفًا.

وفي الوقت نفسه قام الأسقف وقدم احتجاجه الثاني الشهير إلى المجلس، واضعًا أمامهم سلسلة من التهم الخطيرة ضد زونجلي. وقد أرسل في الوقت نفسه رسالة طويلة إلى رجال الإكليروس والحكام في أبروشيته مرفقًا بها نسخة من مرسوم البابا ومرسوم ورمز ضد لوثر.

ولما وقف زونجلي وأجاب على تهم الأسقف الخطيرة مفندًا إياها الواحدة بعد الأخرى، صمت خصومه وأُسقط في يدهم. ولكنه تأثر غاية التأثر واغتم أشد الاغتمام لرؤية خصومه ومتهميه وقد كانوا مرة من أعز أصدقائه ومريديه، كما حزنت روحه في داخله للحالة بصفة عامة، حتى أنه التمس بوقار واحترام عقد مؤتمر عام تتاح له فيه الفرصة للدفاع عن نفسه وعن تعاليمه، وراح في الوقت نفسه يستخدم قلمه بكل ما أوتي من قوة وجلد واجتهاد لنشر الحقائق التي كان يعلم بها، وتبيان الأضاليل والمساوئ التي كان يشهد ضدها.

إصدارات زونجلي

في يوليو عام ١٥٢٢م أرسل زونجلي لجميع أعضاء الاتحاد السويسري "رجاء مخلصًا وديًا" ملتمسًا منهم "أن لا يقفوا في سبيل الكرازة بالإنجيل، وأن لا يعرقلوا قضية زواج الإكليروس" قائلاً لهم كرؤساء مقاطعات "لا تخافوا شيئًا من منحنا هذه الحرية. هناك علامات معينة يستطيع بها كل واحد أن يعرف المبشر الإنجيلي

الصحيح. فالذي يترك مصالحه الخاصة ويبذل كل جهده في تنفيذ مشيئة الله وإعلانها ووضعها موضع الاحترام، ويجذب الخطاة إلى التوبة، ويعزي المجربين والمحرومين، هو لا محالة خادم المسيح الذي يعيش في جو الشركة معه، ولكنك عندما ترى المعلمين يأتون كل يوم بقديسين جدد يقدمونهم للشعب ليكونوا موضع تبجيلهم واحترامهم، ولينالوا رضاهم بالنذور والتقدمات، وعندما ترى نفس هؤلاء المعلمين يتمسكون على الدوام بأقصى حدود السلطة الكهنوتية وسلطان البابا، فلك أن تحكم وتؤمن أنه لا هَمّ لهم إلا منفعتهم الخاصة، وأنهم يفكرون فيها أكثر بكثير من تفكيرهم وعنايتهم بالنفوس التي ائتمنوا عليها. وإن جاء مثل هؤلاء الرجال وأشاروا عليكم بوضع حد للكرازة بالإنجيل، فمن البديهي أنهم لا يستحقون منكم إلا الإعراض وسد الآذان أمام تحريضاتهم. وكونوا متأكدين أنه لا غرض لهم سوى منع ما يوجَّه إليهم وإلى مصالحهم ومراكزهم من انتقاد. قولوا لهم إنه إذا كان هذا العمل مصدره الإنسان فلا بد زائل من نفسه، ولكنه إذا كان من الله فلن تستطيع قوات الأرض مجتمعه أن تقف في سبيله"[٧٧].

وبعد أن أفاض في شرح وتفسير كنه الإنجيل، وبعد أن بين أن كل تعليم صحيح يجب أن يُستمد من الكتب المقدسة وحدها، عرج على المساوئ الخُلقية التي كانت سائدة بين رجال الإكليروس، وكانت من أقوى المعضلات في سبيل المسيحية وقبولها. ثم أخذ يدافع بكل قوة وإخلاص ضد مبدإ منع زواج القسوس، مبرهنًا على أنه اختراع حديث غرضه تعظيم الكنيسة وقطع الرُبط التي يجب أن تربط خدام الدين بالشعب، وجعل هؤلاء الخدام غرباء عن كافة العواطف العائلية، حتى بذلك يستطيعون تركيز كل حماسهم وخدمتهم في مصلحة الهيئة أو الطائفة التي ينتمون إليها، وفي تعظيم النظام البابوي ورفع شأنه.

وقد أرسل حوالي ذلك الوقت نفسه التماسًا آخر لأسقف كونستانس، الذي فيه كما يخبرنا المؤرخ هيس "استحلف الأسقف أن يضع نفسه على رأس العاملين على إصلاح الكنيسة، وأن يسمح لهذه الحركة المباركة بأن تهدم بالحيطة والحكمة ما قد بُني بالخوف والجهل". وقد وقَّع على هذين الالتماسين زونجلي نفسه وعشرة آخرون من أشد زعماء حركة الإصلاح في سويسرا إخلاصًا وحماسًا*.

وقد جاء الرد من الأسقف، فأجاب عليه زونجلي بوثيقة أخرى عنوانها «أركتيليس» أي «البداية والنهاية» ضمنها خلاصة وافية للنقاط الرئيسية التي هي موضع الخلاف بين المصلحين وخصومهم، وقد قال عنها المؤرخ جردر «أنها وثيقة تتضمن صورة واضحة للإصلاح الزونجلي، تختلف كل الاختلاف عما صورها به كتاب آخرون كثيرون» وقد لاقت هذه النشرة الأخيرة ذيوعًا كبيرًا وشهرة أعظم من النبذ التي سبقتها، ليس فقط في سويسرا، بل في الممالك الأخرى أيضًا، وأظهرت كاتبها كرجل مقتدر في الكتب، يجمع في نفسه إلى الشجاعة الأدبية اعتدالاً مسيحيًا صحيحًا.

شعر الأسقف بعدم قدرته على وقف التيار ومنع حركة الانشقاق المتزايدة، فاستنجد بالجمعية الوطنية المنعقدة في بادن، ملتمسًا تدخل الكتلة السويسرية بأجمعها لتنفيذ مراسيمه، ولكن بذور الإصلاح كانت تنمو وتقوى في تلك الأصقاع كما في زيورخ تمامًا، ولو على الأقل بين القسوس الذين كانوا قد قرروا بالإجماع عدم المناداة بأي مبدأ لا يمكن تأييده من المكتوب. ويقول المؤرخ وادنجتون «إن حركة الأسقف انتهت بنتيجة واحدة، هي إيقاع الاضطهاد على شخص واحد متواضع». هذا الشخص هو أوربان ويس راعي فسباك في مقاطعة بادن، الذي بدأ يجاهر ضد شفاعة القديسين، فألقي القبض عليه وسيق إلى السجن حيث ظل فيه مدة طويلة في كونستانس، وبذلك أصبح أول المصلحين السويسريين الذين تألموا من أجل الحق.

زونجلي وإخوته

ذكرنا في بدء تأملاتنا في تاريخ زونجلي أنه كان له خمسة أخوة. ومن المُلذ أن نعلم أنهم كانوا جميعًا أحياء عند هذه النقطة من تاريخنا. فعندما سمعوا بأخبار هرطقة أخيهم ألريك انتابهم القلق عليه، وصمموا على مقابلته والتشاور معه في الأمر. ومع أن قلقهم كان الباعث عليه حفظ كرامة العائلة أكثر من خلاص نفسه، إلا أنه وجد في تصرف إخوته فرصة لأن يفيض في الكتابة عن موضوع الإنجيل العظيم، ويعبر في ذلك عن عواطف قلبه المسيحية أعظم وأكمل تعبير.

فبعد أن وصف عميق عواطفه ومحبته لأخوته واهتمامه الدائم الشديد بصالحهم وخير نفوسهم، أكد لهم أنه لن يكف لحظة واحدة عن تنفيذ واجباته كراعٍ مسيحي بكل أمانة وغيرة واجتهاد، غير

* اقتباسات سكوت عن جيردر (أو جيرديسيوس) استاذ اللاهوت في جرونجن، وعن روشات.

متخوف البتة من العالم ومن جميع حكامه من طغاة أقوياء، إلى أن قال "إني بدون افتخار بنفسي أصرح بأني لست مستجديًا أو مستعطفًا، فإني منذ زمن طويل قد سلمت نفسي وكل ما يتعلق بي ليدي الله يفعل بي ما يشاء... كونوا متأكدين أنه ما من شر يمكن أن يقع بي إلا وأدخلته في حسابي ومستعد غاية الاستعداد لمواجهته. أني أعلم أن قوتي هي عين الضعف، وأعلم أيضًا قوة وجبروت الذين قد أخذت على عاتقي مناهضتهم والوقوف أمامهم، ولكني أستطيع مع الرسول بولس أن أقول إني «أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني» (في ٤:‏١٣). ولكنكم تقولون: كم يكون العار والشنار الذي يلحق بالعائلة كلها لو أنك وصلت إلى المشنقة أو الحريق كهرطقي، أو لو أنك مُت ميتة عار مهما كانت؟ وما الفائدة التي يمكن أن تنجم عن كل ذلك؟ يا أشقائي الأعزاء اسمعوا جوابي: لقد قال المسيح رب الكل الذي أنا جندي له «طوباكم إذا أبغضكم الناس وإذا أفرزوكم وعيّروكم وأخرجوا اسمكم كشرير من أجل ابن الإنسان. افرحوا في ذلك اليوم وتهللوا فهوذا أجركم عظيم في السماء» (لو ٦:‏٢٢،‏٢٣) فاعلموا إذًا أنه بمقدار ما يلحق أسمي من عار في هذا العالم من أجل الرب بمقدار ما يكون لأسمي من كرامة ومجد في نظر الله نفسه. إن المسيح ابن الله تنازل ليسفك دمه الثمين لأجل خلاصنا، فكل من لا يضحي حياته طواعية واختيارًا في سبيل مجد رئيسه وقائده هو جندي خائن يطرح سلاحه عنه، ويأخذ يفكر في هروب الخزي والعار.

أنتم إخوتي وأشقائي، وبهذه الصفة أعترف بكم، ولكنكم إذا لم تريدوا أن تكونوا أخوتي في المسيح فليس لي إلا أن أحزن وأكتئب من أجلكم بأعمق مشاعر الألم والأسف، لأن كلمة الرب تطالبنا أن نترك الأب والأم إن كانا يريدان أبعاد قلوبنا عنه، فاعتمدوا على كلمة الله بعزم ثابت لا يتزعزع. خذوا كل أحزانكم وآلامكم إلى المسيح، اطرحوها أمامه واسكبوا صلواتكم قدامه. اطلبوا منه وحده النعمة والسلام وغفران خطاياكم، وأخيرًا التصقوا بالمسيح وارتبطوا به ارتباطًا وثيقًا حتى يصبح فيكم وأنتم فيه، يا ليت الله يعطيكم نعمة حتى بوجودكم تحت رعايته الأبوية تنقادون بروحه وتهتدون بتعليمه. آمين. لن أنقطع عن أن أكون أخاكم المخلص، وكل ما اشتاق إليه أن تكونوا أخوة المسيح" *.

* تحرر في زيورخ بعجلة عظيمة سنة ١٥٢٢م ميلادية.

إن هذه التنهدات الخارجة من أعماق قلب زونجلي إنما تدعو كل قلب متجدد لأن يفيض بالشكر لإله كل نعمة. فيا له من تكريس للمسيح ولإنجيله ولكنيسته، ولأقربائه ولوطنه وللبشرية أجمع! ويا له من برهان ودليل ساطع وعجيب على أن هذه النفس كانت متعلمة من الله! فإن معرفته بطريق الخلاص وإدراكه العميق للحق الخاص بالوحدة مع المسيح الذي يريح النفس، كل ذلك يملأ القلب بهجة وإعجابًا. صحيح أنه لم يدرك تمامًا العتق من الخطية والشيطان والعالم بالموت كما يعلمنا الأصحاح السادس من رومية وفصول أخرى في الكتاب، وكذلك لم يستطع أن يعرف تعليم الكتاب الخاص بالكنيسة كجسد المسيح كما يقول الوحي «لأننا جميعًا بروح واحد أيضًا اعتمدنا إلى جسد واحد، يهودًا كنا أم يونانيين، عبيدًا أم أحرارًا، وجميعنا سُقينا روحًا واحدًا» (١كو ١٢:‏١٣). ولكنه كان يدرك وجود شركة في النعمة والبركة بالإيمان بالمسيح وبذبيحته الثمينة، ولو أنه استطاع أن يضع نفسه بصورة أقوى تحت تأثير «قوة قيامته» لما كان هناك مجال كبير لأن يدعوه مؤرخو حياته بهذه التسميات "الوطني المسيحي أو البطل المسيحي".

ليس معنى هذا أن زونجلي كان يحب جاره أو قريبه أو البشرية بمحبة أقل، بل إنه استطاع أن يظهر محبته هذه بصورة تتفق أكثر مع روح شخص لم يمت فقط مع المسيح بل قام أيضًا معه، وارتبط معه بسكنى الروح القدس. وقد كان زونجلي ينادي مثل لوثر بأن التبرير بالإيمان وحده هو مفتاح المسيحية وطريق الخلاص الوحيد، ولكنه كان أقل تعصبًا من لوثر، وله نظرة أوسع منه فيما يتعلق بالحق الإلهي، ومقدرة أكبر للتعبير عنه.

مجادلات زيورخ

بناء على طلب زونجلي الذي سبقت الإشارة إليه، وجّه مجلس الشيوخ في زيورخ الدعوة لعقد مؤتمر في ٢٩ يناير ١٥٢٣م للمناقشة في موضوع الخلاف وحسمه. وقد كان هذا أول المؤتمرات العامة والمجادلات العلنية التي استطاعت برعاية الله وعنايته أن تعمل على نشر وتقدم حركة الإصلاح. وقد أُرسلت الدعوة لكل شخص له شكوى ضد زونجلي أن يحضر هذا الاجتماع ويدلي جهارًا بما عنده من تهم.

على أن شرطًا واحدًا نبيلاً اشترطه مجلس الشيوخ في هذا

الشأن وهو "أن كل ادعاء يجب أن يكون مرجعه الوحيد كلمة الله كما يتضمنـها الكتاب المقدس، وليس مجرد حكم العادة أو تقاليد الناس". وقد دُعي إلى المجلس جميع رجال الإكليروس في الأبروشية، كما طُلب بإلحاح وبصفة خاصة إلى الأسقف أن يحضر شخصيًا، وإن تعذر ذلك فليرسل ممثلين عنه.

ولكي يكون الجميع على علم بموضوع المؤتمر وما سيدور فيه من مناقشات، ولكي لا يكون لأي واحد العذر في أنه أُخذ على غرة، أذاع زونجلي منشورًا يتضمن ٦٧ فقرة عن المبادئ التي كان ينادي بها، والتي هو متمسك بها ومستعد للدفاع عنها، وقد عمل على نشر هذا البيان في أوسع نطاق ممكن وفي وقت كاف لأن يتدبره كل من يهمهم الأمر.

بيان زونجلي

بما أن بيان زونجلي يعتبر دستور وقانون إيمان المصلحين السويسريين، فقد يكون من المُلذ للقارئ أن نشير بإيجاز إلى أهم محتوياته، وهي:

"إن الإنجيل هو دستور الإيمان الوحيد، وإن الزعم بأنه يتوقف على موافقة كنيسة روما هو زعم خاطئ. إن المسيح هو رأس الكنيسة الوحيد. والتقاليد جميعها يجب أن ترفض. وإن محاولة رجال الإكليروس تبرير عظمتهم وغناهم ومراكزهم هي سبب كل انقسام في الكنيسة. وإن وسائل التكفير والغفرانات التي تُفرض على الناس هي من اختراع التقاليد البشرية وليست بذات قيمة البتة في الحصول على الخلاص. وإن العشاء الرباني ليس ذبيحة، بل هو فقط تذكار لذبيحة المسيح، وإن الأطعمة لا قيمة لها. والله لم يحرم الزواج على أي طبقة من المسيحيين، وبالتبعية من الخطإ تحريمه على القسوس الذين أصبحت عزوبتهم سببًا للاستباحة والأخلاق المنحطة. وإن بيع الغفرانات ومنح التحاليل مقابل المال هو ارتكاب للسيمونية. وإن الله وحده يستطيع أن يغفر الخطايا، ولا تتكلم كلمة الله عن شيء اسمه المطهر. والزعم بأن النعمة يتحتم للحصول عليها تناول الأسرار المقدسة هو تعليم من الاختراعات والبدع المستحدثة. وإنه ليس من الجائز اضطهاد أي شخص لأنه عبر عن آرائه الخاصة. كما هو حق للحكومة أن تمنع نشر الآراء التي من شأنها إزعاج الأمن والسلام العام"(٧٧).

مجمع زيورخ

في ساعة مبكرة من صبيحة ٢٩ يناير اكتظ مكان الاجتماع، كما يذكر المؤرخون، بجماهير غفيرة من الذين وفدوا لحضور المجمع من رجال الإكليروس من الأبروشية ومن مقاطعات أخرى، وعدد كبير من رجال العلم والأدب وذوي المراكز الكبيرة، وقد ترأس المجمع قنصل الجمهورية مارك روست، وهو رجل ذو أخلاق سامية. وقد ألقى كلمة الافتتاح مشيرًا إلى بيان زونجلي وفقراته السبعة والستين، وطلب إلى كل من له اعتراض عليها أن يتقدم به في غير خوف. وقد كان حاضرًا في المجمع رئيس البلاط الأسقفي وفابر كبير رجال الإكليروس، وبعض اللاهوتيين كمندوبين عن الأسقف. وقد كان المتوقع من الجميع أن فابر سيقوم بمحاولة نقض مبادئ زونجلي وتدعيم النظام القائم، ولكن فابر كان يعرف خصمه تمام المعرفة، فأبى أن يناقش في أية نقطة من تعاليمه ومبادئه. وقد حاول زونجلي من جانبه أن يدفعه بكل وسيلة للدخول في المناقشة ولكن بلا جدوى، إذ صرح قائلاً "إنني لم أحضر هنا للمناقشة، بل للإصغاء... زد على ذلك أن هذا ليس هو المكان لمناقشة عظمى كهذه، وإنه من الحكمة انتظار قرار من مجمع عام، لأن هذا وحده هو المحكمة الشرعية للفصل في مسائل التعاليم والمبادئ الدينية، وسيدعى قريبًا للانعقاد. وإلى أن يحين ذلك الوقت فلديه من التعليمات ما يحمله على التوسط للقضاء على الخلافات التي أربكت المدينة".

أما زونجلي الذي كان يتعجل طرح مبادئه على بساط البحث والامتحان فقد استاء وتألم من أسلوب فابر الغامض، الذي هو أقرب للسياسة منه إلى الدين، فتقدم إلى منضدة عليها الكتاب المقدس وقال مستفهمًا "أليس هذا المجمع صالحًا كأي مجمع آخر؟ إنه ليس لنا غرض سوى الدفاع عن كلمة الله". وبعد أن ألقى هذه الكلمة، التي أعقبها صمت عميق بين المجتمعين، خاطب المجمع خطابًا طويلاً، شكا فيه من الحملات المنكرة التي يوجهها خصومه باستمرار ضد مبادئه التي هي مبادئ وتعاليم الكتاب، وتحدى ناقديه أن يقدموا في هذه الجلسة العلنية التي عقدت لهذا الغرض بالذات بما عندهم من حجج، ويناقشوه في المواد التي اشتمل عليها بيانه الذي أذاعه على الجميع. ولكن المصلح وجد أن أسرع الناس لمهاجمته والتشهير به خفية كانوا أكثرهم صمتًا

إذا ما دعوا للكلام جهرًا. أما هو فكان له ضمير صالح وأراد أن يقدم حسابًا عن مبادئه لمجلس شيوخ أمته، ويعرض تعاليمه جهارًا أمام رجال الأبروشية وأمام كنيسة الله كلها، مستعدًا أن يسمع ويناقض كل اتهام ضده، كما يكون مغتبطًا ومسرورًا لو أن أحدًا أرشده إلى الحق فيما لو كان على ضلال. ولكنه على أي حال لن يتزعزع أو يفرط ذرة واحدة فيما يعتقد أنه حق الله.

أما فابر فاستمر في رفضه الدخول في مناقشة مع زونجلي أمام المجمع، ولكنه وعد بأن ينشر بيانًا كتابيًا ردًا على أخطائه وأضاليله.

ولما لم يتقدم للكلام أي خصم آخر، قال الرئيس "إذا كان يوجد أي واحد هنا له اعتراض على زونجلي أو أحد مبادئه فليتقدم". وقد تكرر هذا النداء ثلاث مرات، ولما لم يتقدم أي شخص أعلن المجمع أن المبادئ الإنجيلية قد انتصرت انتصارًا إجماعيًا حاسمًا. وأصدر على الأثر مرسومًا فحواه "إن زونجلي تحدى خصومه علانية وباستمرار أن يتقدموا لمناقشة مبادئه أو إنكارها على أساس الكتاب المقدس، ولكن حيث إنه رغمًا من ذلك لم يتقدم أحد لهذه المهمة فله كل الحق أن يستمر كارزًا ومبشرًا بكلمة الله كما كان يفعل سابقًا. وعلى رجال الدين الآخرين سواء في المدينة أو خارجها أن يفعلوا المثل، فلا ينادوا بأي تعليم لا يمكن البرهنة عليه من المكتوب، وأن يمتنعوا كذلك عن اتهامه بالهرطقة أو خلافها من التهم الرديئة. ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للعقاب الشديد".

وعندما سمع زونجلي هذا المرسوم لم يستطع إلا أن يفيض جهارًا بعبارات الشكر والفرح القلبي، فصلى قائلاً "إننا نتقدم إليك بجزيل الشكر أيها الرب الذي تريد أن كلمتك المقدسة تسود في الأرض كما في السماء". ولما سمع فابر ذلك لم يستطع كتمان غضبه قائلاً "إن مبادئ زونجلي مناقضة لكرامة الكنيسة وتعليم المسيح، وسأبرهن على ذلك". فأجابه زونجلي "افعل ذلك، ولكني لن أرضى إلا بالإنجيل حَكَمًا".

نتائج المرسوم

يقول المؤرخ هيس إن هذا المرسوم نفخ روحًا جديدة في حركة الإصلاح، ودفع بها خطوات واسعة في سبيل التقدم، كما أن خطاب زونجلي في المؤتمر كان إلى حد كبير في صالحه وصالح تعاليمه، فإن بساطته وحزمه ووداعته أوحت إلى الحاضرين روح التقدير والاحترام لشخصه ولتعاليمه، كما أن بلاغته وعلمه أثرا في الذين كانوا يتأرجحون بين الفريقين فجرفاهم إلى صفه. كما أن صمت خصومه، الذي كان بمثابة دليل ضمني على عجزهم، خدم قضيته بقدر ما خدمتها حججه. ومن ذلك الحين ازداد أصدقاء الإصلاح وتكاثروا بسرعة بين مختلف الهيئات والطبقات. والحق يُقال إن المرسوم كان في منتهى الحكمة والاعتدال، فإنه لم يفرض أية عقوبات على أسس دينية، وإنما كان كل غرضه أن يحمي زونجلي وكل الرعاة الآخرين في مزاولتهم التبشير بكلمة الله كسابق عهدهم، وعلى هذه الكلمة يتوقف مصير المبشرين، أما تهديد السلام وكل ما من شأنه تعكير الأمن العام فكان عرضة لعقاب السلطات المدنية.

وفي خطاب أرسله فابر بعد المؤتمر إلى صديق له في ماينس عبر عن مخاوفه من زونجلي بالقول "ليس عندي أخبار جديدة أبلغك إياها سوى أن لوثرًا ثانيًا ظهر في زيورخ، وهو أشد خطرًا لأن عليه أن يناضل ضد أناس أقوى وأشد. وسواء أردت أو لم أرد فلا بد لي من الكفاح ضده، وأني سأفعل ذلك على مضض مني، ولكنني مرغم، وستدرك ذلك قريبًا عندما يظهر كتابي الذي سأبرهن فيه على أن العشاء الرباني هو ذبيحة"(٢/٦٧).

ولكن على قدر ما حاز المصلحون ومبادئهم من نصرة وتأييد على قدر ما لحق خصومهم من فشل وغيظ، فها هم أقدر زعماء البابوية وأبطالها قد صمتوا صمتًا عميقًا أمام مجلس بلادهم الكبير، ولا شك أن ذلك كان يرجع إلى خوفهم من الدخول في مناقشة مع زونجلي. غير أن روما العاتية كان لها أسلحة أخرى تناضل بها، فيذكر أصدق المؤرخين أن إنياس مندوب البابا ومعه أسقف كونستانس استأجرا عملاء لاغتيال زونجلي إذا ما تيسر لهم ذلك في غير تعرض لخطر كبير. وقد كتب صديق لزونجلي كتابًا سريًا يقول له فيه "إن شباكًا تُحاك لك من كل جانب، وسُمًا قتالاً قد أُعد للقضاء على حياتك. إني صديق لك، وستعرف من أنا فيما بعد". وقال آخر لقسيس كان يسكن مع زونجلي "غادر منزل زونجلي حالاً، لأن كارثة قريبة الوقوع فيه". ولكن رغم كل ذلك كان رجل الله متمتعًا بالهدوء والسلام متكلاً على الله في كل شيء. كان يقول "إن خوفي من أعدائي - بمعونة الله - كخوف

صخرة عالية من أمواج هائجة تتلاطم عليها". ولكن وإن كان السم القتال والخنجر الحاد قد فشلا في إتمام جريمتهما الشنيعة، فإن روما لم تعدم وسائلها الأخرى، فقد التجأت الآن إلى استعمال وسائل المداهنة والخداع.

فبعد صدور المرسوم مباشرة تظاهر هدريان الذي كان في ذلك الوقت يجلس على كرسي البابوية أنه لا يعبأ بما دار في زيورخ من مناقشات، وعليه أرسل خطابًا يفيض رقة ومداهنة لزونجلي داعيًا إياه "ابني المحبوب" ومؤكدًا له "خالص عطفه ورعايته الخاصة". وقد سأل ميكونيوس حامل الرسالة بالقول "وماذا كلفك البابا أن تقدم لزونجلي؟" فأجاب ذاك "كل شيء ما عدا كرسي القديس بطرس، فإن أعظم رتبة في الكاردينالية وخلافها كانت رهن إشارتي". ولكن روما كانت على خطأ كبير في ظنها من جهة زونجلي من هذه الناحية، فكل وعودها كانت لا تُجدي معه، حتى أن المؤرخ دوبينيٌ نفسه يعترف قائلاً "إن كنيسة روما قد وجدت في زونجلي عدوًا أصلب عودًا من لوثر"، فلم يكن زونجلي راهبًا في يوم من الأيام، وكان ضميره خلوًا من الوساوس التي كانت تحيّر لوثر، وكانت أحكامه حرة من سيطرة التعاليم البابوية القديمة، كما كان لا يعبأ بتقاليد العصور الأجيال التي كانت لا تزال تطغى بنفوذها على نفس لوثر مصلح سكسونيا، فكان يكفي أن يتعارض أي تقليد مع كلمة الله ليهاجمه زونجلي في غير رحمة ولا شفقة مهما كان هذا التقليد بريئًا في حد ذاته. والحق أن غيرة زونجلي على كلمة الله وكرامتها وكفايتها وسلطانها كانت لا تبارى، فقد اعتاد أن يقول "إن كلمة الله يجب أن تقف في صف وحدها"، ولو أنه قيل "إن هذا الاقتناع قد وصل إليه بتدريبات أقل مما كان للوثر، وكان تأثره به في قلبه أقل قوة من التهابه في قلب لوثر". وهذا نستطيع أن نراه جليًا في واحد من تعاليمها، وهو التبرير بالإيمان وحده. فالكل يجمعون، ومن السهل يحكمون، بأنه وإن كان زونجلي يؤمن بهذا المبدإ إيمان لوثر تمامًا، إلا أن الأمر لم يكن عنده من الشدة كما كان عند لوثر، فهذا المبدأ كحق إلهي كان لدى لوثر أصل ومصدر كل اعتقاداته وقوته وتعزيته وحيويته ونشاطه، فقد قاد الله الرجلين في طريقين مختلفين، وقد زود كلاً منهما بما يتفق مع عمله العظيم الذي أؤتمن عليه.

غيرة زونجلي وليوجودا

رغمًا من النفوذ العظيم والشهرة الواسعة التي نالها زونجلي عقب مؤتمر يناير فإنه لم يشأ أن يتعجل في إدخال التغييرات التي كان يرمي إليها، فكل غرضه كان ينحصر في تعليم الشعب وتنوير أذهانهم وتخليصهم من آرائهم العتيقة، وإيجادهم جميعًا برأي واحد قبل أن يوصيهم بتغييرات عظيمة، ولذلك كرس نفسه للكرازة بالكلمة بغيرة أعظم وجرأة أشد من ذي قبل.

وقد كان يعضده في ذلك صديقه القدير ليوجودا الذي كان قد أنتخب مؤخرًا راعيًا لكنيسة زيورخ. وليس من المحقق إن كان كتاب فابر عن العشاء الرباني ظهر على الإطلاق أم لا، ولكن المحقق هو أن زونجلي نشر كتابًا في نفس السنة خاصًا بهذا الموضوع، وفيه الحجج الدامغة ضد هذا التعليم الذي هو حجر الزاوية في النظام البابوي. وحوالي ذلك الوقت عينه نشر قسيس اسمه لويس هتزر رسالة عنوانها "حكم الله ضد الصور والتماثيل" أنشأت حركة عظيمة في أفكار الشعب وأثارت حماسهم الشديد.

وقد أصبح سكان زيورخ الآن أعوانًا متحمسين لحركة الإصلاح، وقد ذهب البعض منهم في غيرته المتطرفة إلى فكرة تطهير المدينة من الأصنام. وكان مُقامًا خارج أسوار المدينة صليب عال دقيق الصنع ومزين بأثمن الزينات، وكان هذا الصليب مبعث خرافات كثيرة، فصمم الشعب على أن يتخذوه هدفًا لإظهار غضبهم وسخطهم، فاتجه إليه بعض من عامة الشعب وعلى رأسهم أحد العمال المدعو نيكولاس هوتنجر، الذي يقول عنه المؤرخ بولنجر "رجل صالح وعالم بكلمة الله" وقلبوا هذا الصنم المحبوب رأسًا على عقب. وقد أحدث هذا العمل الجريء غير المشروع رعبًا شديدًا في كل ناحية، فقد أخذ أعوان روما يتصايحون "إنهم قد ارتكبوا جريمة تخريب وتدنيس للأشياء المقدسة، ويجب أن يموتوا". وقد اضطرت السلطات للتدخل في الأمر والقبض على زعماء هذه الثورة، ولكن في لحظة صدور الحكم انقسم أعضاء المحكمة إلى فريقين: فريق يرى أن المذنب يستحق الموت، وفريق آخر يرى أنه عمل حسنًا، وإنما نفذه بطريقة خاطئة بدافع الغيرة الهوجاء. وبينما كان هذا الحكم موضع أخذ ورد، كان زونجلي ينادي جهارًا بأن شريعة موسى تُحرِّم صراحة عبادة الصور والأصنام، وأن الذين هدموا الصليب لا يمكن اعتبارهم

متهمين بجريمة تخريب الأشياء المقدسة، وإن كانوا في الوقت نفسه يستحقون القصاص لمقاومتهم رجال السلطة.

وقد زاد أسلوب زونجلي هذا في حيرة القضاء، وانقسمت على الأثر المدينة كلها، فقرر المجلس عرض الموضوع مرة ثانية للمحاكمة، مع حبس المتهمين في السجن رهن التحقيق.

وهنا نرى أنه حتى أعمال العنف والعصيان من جانب أبناء حركة الإصلاح المتهوسين كانت بعناية الله الصالحة فرصة لإظهار ليس فقط ظلام البابوية، بل حق الله فيما يتعلق بأمور حيوية هامة، والحصول على نصرات جديدة وحريات أكبر للإصلاح والمصلحين.

المجادلة الثانية في زيورخ

كان قد تحدد يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٥٢٣م موعدًا لهذه المجادلة الثانية، وكانت الموضوعات التي سيدور عليها الجدل هي "هل عبادة الصور مصرح بها في الإنجيل أم لا؟ وهل يجب الاحتفاظ بالأفخارستيا كما هي أم لا؟». وكان عدد الحاضرين هذه المرة أكثر بكثير من المرات السابقة، فقد حضر الاجتماع حوالي ٩٠٠ شخص من جميع أنحاء سويسرا، بما فيهم مجلس المائتين الأكبر، وحوالي ٣٥٠ من رجال الإكليروس، وقد أرسلت الدعاوى لأساقفة كونستانس وكوار وبازل ولجامعة بازل والاثنتي عشرة مقاطعة لكي يتكرموا بإرسال مندوبين إلى زيورخ. إلا أن الأساقفة رفضوا الدعوة، فقد كانت لا تزال ذكرى المذلة التي أصابت مندوبيهم في اجتماع يناير حية في أذهانهم، ولم يكونوا على استعداد لأن يُعرضوا أنفسهم لخطر هزيمة أخرى.

وبعد أن انتظم عقد الاجتماع قُرئ مرسوم انعقاده والغرض منه، على أن يتولى زونجلي وليوجودا الرد على من يتصدى للدفاع عن عبادة الصور واعتبار الأفخارستيا ذبيحة.

وهنا اقترح زونجلي كما هي عادته أن يبدأ المجلس مناقشاته بالصلاة، مذكرًا الأصدقاء بوعد المسيح القائل «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» (مت١٨: ٢٠). وبعد الصلاة ألقى الرئيس كلمة مختصرة، ناشد فيها كل من يريد الكلام أن يأتي بأسانيده من الكتاب المقدس وحده، ثم طلب إلى زونجلي أن يفتتح المناقشة.

وقبل أن يبدأ زونجلي الكلام عن الموضوع الأول، عبادة الصور، التمس أن يدلي ببعض ملاحظات مختصرة عن مضمون كلمة "الكنيسة" كما يستعملها الكتاب، لأن على هذا المعنى وتحديد المقصود من هذه الكلمة تتوقف قيمة المناقشات التي ينوون الدخول فيها. وأول ما بدأ به أنه استنكر ادعاءات كنيسة روما المتطرفة بأن لا شيء له قيمة ومفعول في العالم المسيحي ما لم يكن بموافقتها واعتمادها. ففي اعتقاده تشير كلمة الكنيسة أولاً إلى جماعة المؤمنين في كل زمان ومكان، وثانيًا إلى أي قسم من هذه الجماعة مجتمعين معًا في بلد أو مدينة واحدة، مثل كنيسة أفسس وكنيسة كورنثوس وكنائس غلاطية أو كنيسة زيورخ. وهو ينكر أن يكون المقصود بهذه الكلمة هيئة محددة مكونة من البابا والكرادلة والأساقفة ورجال الإكليروس واللاهوت دون غيرهم. وكان غرضه من هذا الكلام تفنيد اعتراضات الكنيسة الكاثوليكية ضد الاجتماعات والمؤتمرات أمثال المؤتمر الحالي، والتدليل على أن كل جماعة مجتمعة معًا برابطة الإيمان بالمسيح وتحت راية الإنجيل كدستور الإيمان الوحيد لها كامل الحق في مناقشة مشاكلها وأمورها والوصول بها إلى حل حاسم بإرشاد الروح القدس. وبهذه الطريقة كان زونجلي يسلخ كنيسة زيورخ من دائرة اختصاص أسقف كونستانس، ويفصلها عن الهيمنة البابوية.

وهنا توقف زونجلي، وطلب إلى كل من عنده اعتراض على كلماته أن يتقدم ويدلي به في غير خوف. فالمصلحون كانوا ينشدون إذاعة الحق ونشره، ولذلك كانوا يرحبون بكل مناقشة شريفة عادلة. وهنا حاول أحد كهنة زيورخ المدعو كونراد هوفمان أن يجيب على كلام زونجلي، ولكن عندما تبين أن كلامه يدور حول محور واحد، وهو مرسوم البابا وأوامر الإمبراطور واللوائح الكنسية وعدم لياقة كل هذه المناقشات وأمثالها، دون أن يشير إلى الكتاب المقدس بالمرة، فقد نبهه الرئيس إلى عدم مراعاته القاعدة التي قرر المجلس السير عليها. أما رئيس الرهبنة الأغسطينية، وهو واعظ شهير ومتمسك بالأرثوذكسية القديمة، فقد صرح بأنه لا يستطيع تفنيد أقوال زونجلي ما لم يلجأ إلى قانون الكنيسة. وهنا أشار زونجلي إلى فقرة في القانون تنص على أن الكتاب وحده هو المعتمد، فصمت الراهب الكبير وعاد إلى مجلسه وهو يهمهم إلى نفسه قائلاً "هكذا قرر البابا، وأنا ملزم بتنفيذ قراره"، تاركًا المحاجة لآخرين.

وهنا قام ليوجودا الذي عهد إليه بالكلام في موضوع الصور، وخاطب المجلس طويلاً مبرهنًا من الكتاب المقدس على أن "الصور ممنوعة في كلمة الله، وينبغي على المسيحيين عدم صنعها أو إقامتها أو تقديم أي عبادة أو احترام لها". وفي اليوم الثاني للمؤتمر تناول زونجلي موضوع الأفخارستيا، مدللاً من الكتاب المقدس وخاصة الفصول المتعلقة بالفريضة على أن العشاء الرباني ليس ذبيحة، وأنه لا يستطيع إنسان ما أن يقدم لله ذبيحة عن إنسان آخر، وأن طريقة ممارسة هذه الفريضة في كنيسة روما تختلف كل الاختلاف عن الطريقة التي رسمها المخلّص له المجد. وبعد ذلك قام بعض الأعضاء بمحاولات ضعيفة لتأييد النظام المتبع في الكنيسة ولكن سرعان ما فندها بطلا الإصلاح زونجلي وليوجودا وسط استحسان المجلس ورضائه.

كلمة الله تفوز

وقد تركت المناقشة أثرًا عميقًا في أعضاء المجلس، لدرجة أن قام كبير منهم وقال "أيها الأخوة، إنكم إلى هذه الساعة كنتم تسعون وراء الأوثان، فسكان الوديان قد ذهبوا إلى الجبال، وسكان الجبال قد انصرفوا إلى الوديان. الفرنسيون إلى ألمانيا والألمان إلى فرنسا، أما الآن فقد وضح لكم أين تذهبون. إن الله قد جمع كل شيء في المسيح. يا رجال زيوروخ النبلاء وسكانها الأشراف، اذهبوا إلى النبع الحقيقي. يا ليت الوقت يكون قد جاء فيدخل المسيح أراضيكم وهناك يسود من جديد على إمبراطوريته القديمة". كما أن روست المحارب الشيخ وقف مخاطبًا المجلس بغاية الجدية والاهتمام وبلغة عسكرية قائلاً: "والآن دعنا نمتشق سيق كلمة الله، وليت الرب ينجح عمله". أما زونجلي فقد تأثر غاية التأثر من فيض هذا العطف وعبارات التأييد، فقال والدمع يكاد يطفر من مآقيه "إن الله معنا، والقضية قضيته، وهو لا بد ناصرها ومدافع عنها. فلنتقدم إلى الأمام باسم الرب". وهنا لم يستطع كبت عواطفه فصمت عن الكلام وانفجرت الدموع من عينيه، وشاركه في ذلك كثيرون، فاختلطت دموعهم بدموعه.

وعلى هذه الصورة انتهت المناقشة بعد أن استمرت ثلاثة أيام، وكانت نتيجتها حاسمة في صالح حركة الإصلاح، والنصرة كانت كاملة. فقام الرؤساء من أماكنهم، وقال أحدهم، وهو فاديان أوف سان جول، معبرًا عن نفسه وعن رفقائه "إنه لا ضرورة لأن يُصدر المجلس حكمًا معينًا. فقد سمعنا شهادة كلمة الله بخصوص هذين الموضوعين، وكذلك سمعنا الاعتراضات التي وجهت ضدهما. والآن على كل واحد أن يحكم لنفسه بالحكم الذي يرى أن المجلس كان لا شك سيحكم به، متبعًا في ذلك وحي ضميره". فوافق روست على ذلك مستعطفًا جميع الحاضرين أن يتخذوا كلمة الله نبراسهم الوحيد في هذا الأمر، وأن يتبعوها غير مخوفين من شيء. وبذلك أنفض الاجتماع.

تأملات في المجلس

إن كل من يعرف شيئًا عن قيمة كلمة الله لا يسعه إلا أن يغتبط كل الاغتباط للقرار الحكيم الذي اتخذه المجلس عند افتتاح المناقشة، وهو اعتبار كلمة الله السند الوحيد للمناقشات والقاعدة التي يسير عليها المجلس. ونحن نعجز عن تقديم الشكر الواجب من أجل هذا التقدير لكلمة الله من جانب المجلس. ومن هذه الناحية قد عمل زونجلي عملاً عظيمًا ونبيلاً حقًا، إذ أعاد الكتاب المقدس إلى مكانه الصحيح، كما أعاد الشعب إلى امتيازاتهم الصحيحة، فقد توفرت الحرية الكاملة للطرفين مع شرط واحد، وهو أن جميع الحجج والبراهين تكون مستمدة من الكتاب المقدس الذي هو الدستور الوحيد، أما مجرد المجادلات الشفهية وعبارات التشويش التي لا طائل منها ينبغي منعها. ولنحمل في بالنا أن هذا القرار النبيل المؤيد لسلطان كلمة الله وكفاية الكتاب المقدس دون سواه قد اتخذ في مجلس عام كهذا في وقت كانت فيه جميع الطبقات تقريبًا لا تزال متمسكة بالعادات القديمة، ولم تبدأ إلا من قريب جدًا تسمع عن شيء اسمه أخطاء البابوية، وشيء اسمه الكتاب المقدس وما يجب أن يكون له من سلطان مطلق. ولا يستغرب القارئ إذا قلنا إنه حتى من بين القسوس كان يوجد كثيرون لم يروا الكتاب المقدس طول حياتهم، والنادر منهم من أطلع عليه.

حقًا إن الأمر كان يحتاج إلى أكثر من حضور زونجلي وتأثيره على السامعين، كان يحتاج إلى أكثر من مواهبه الوقادة وعلمه الغزير الواسع وفصاحته الطبيعية للوصول إلى هذا الموقف الهام والاحتفاظ به. أي نعم فلا شيء أقل من الإيمان بالله الحي، وبحضور الله نفسه، كان يمكن أن يسند زونجلي ويجعله يحتفظ للنهاية بموقفه هذا. صحيح أن المهارة البشرية والخرافة كانت تستطيع كما تستطيع الآن وفي كل أوان أن تأتي بألف حجة لتأييد التعاليم البابوية واعتبارها فوق كل شيء، ولكن الإيمان استطاع

حينئذ كما يستطيع الآن وفي كل أوان أن يدك حصونًا ولو كان من ورائها الشيطان، ويهدم كل نظام مخالف لكلمة الله وحق الله. ففي وجه تسعمائة عضو من أعضاء كنيسة روما الكاثوليكية من لاهوتيين وعلمانيين وقف زونجلي وليوجودا وآخرون، متمسكين بأن كلمة الله الطاهرة التي يجب أن تكون في متناول أيدي الشعب هي الدستور الوحيد للإيمان والسلوك، وأن جميع عادات وتقاليد روما رغم كل ما يحيط بها من إجلال واحترام بسبب تقادم العهد عليها، ورغم موافقة الأجيال الساذجة ومصادقتهم عليها، ورغم كل ما يعززها من مظاهر عالمية وسلطات مدنية، ليست هي إلا اختراعات الكهنوت، وهي متلفة لنفوس الناس.

ذلك كان عملاً جريئًا حقًا وعلى الأخص في مثل ذلك الوقت، ولكن عندما يكون للمسيح مكانه الصحيح في القلب فإن قوته تكمل في ضعفنا. إن كلمة الله كما نعلم هي سيف الروح الذي به يجب أن يُحسم كل نزاع ويُفصل في كل موضوع، وهي دستور المسيحيين ومرجعهم الوحيد. فسطر واحد من الكتاب أغنى بكثير من عشرة آلاف حجة بشرية. ولكننا نتساءل: ما هو مبلغ ملاحظة هذه القاعدة يا تُرى في يومنا الحاضر؟ أين نجد مثل هذا التمسك الشديد بحق الله النقي الواضح؟ من المؤسف أن نسمع تساؤلات من كل ناحية عن حرفية الوحي، وهل كله من الله أم لا، كما نسمع القول إنه لما كانت الكلمة قابلة لتفسيرات شتى فلا يمكن الرجوع إليها كحد فاصل بين التعاليم المتضاربة. ومن هنا كان اختراع قوانين الإيمان والاعترافات المختلفة كأسانيد تستند عليها الكنيسة بدلاً من كلمة الله وسلطانها. هذه للأسف الشديد هي روح الإلحاد المنتشرة في يومنا الحاضر، والتي ستتطور وتتزايد حتى تصل بالمسيحية إلى الارتداد النهائي.

لكن في وسط هذا كله ليس على محبي الرب إلا أن يتمسكوا بكلمة الله كشيء راسخ لا يتغير، لأنه عظَّم كلمته على كل اسمه (مز ١٣٨: ٢) ولا يزال القول صحيحًا «إني أكرم الذين يكرمونني والذين يحتقرونني يصغرون» (١صم ٢: ٣٠). يا ليت الرب يعطينا نعمة لكي نكرم اسمه بحفظ كلمته والتمسك بها بكل أمانة. ويا ليتنا نقول دائمًا كما قال السيد الرب فيما يتعلق بكل أمورنا الروحية «هكذا قال الرب»... «مكتوب» (رؤ ٣: ٨؛ مت ٤).

الفصل الثاني والأربعون

نتائج المناقشات

بالرغم مما وصلت إليه السلطات من قناعة بأنه ليس في كلمة الله ما يبرر القداس واستخدام الصور، إلا أنهم حسبوا أن الوقت لم يكن موائمًا لأن يمنعوا أيًا منهما بقوة القانون. وقد كان زونجلي من الحكمة حتى أوصى بأن يؤخذ الأمر باعتدال وحرص شديد، فقال للمجمع "الله يعلم أنني في جانب البناء وليس الهدم، وليس بخافٍ عليّ أن هناك نفوسًا ضعيفة يملؤها الجبن تحتاج إلى من يهدئ من روعها. كما أن العامة لم تبلغ بعد من الاستنارة حدًا يجعلها تقبل بالإجماع تحولاً كبيرًا كهذا". وبناء على نصيحته سمح القادة لكل خادم أن يقرر بنفسه ما إذا كان يقرأ القداس أو يمتنع عنه حسبما يرى الوضع الأنسب، مع الاحتفاظ لأنفسهم بحق تقرير ذلك مستقبلاً.

أثناء ذلك كان أنصار الإصلاح يحثون المجلس أن يطلق سراح المعتقلين بسبب إلقائهم الصليب على الأرض، وأطلق سراحهم بالفعل عدا هونتجر، الذي بسبب دوره القيادي أُدين من قبل مجس زيورخ بتهمة التمرد السياسي، وحكم عليه بالنفي لسنتين. ولكن ذلك الحكم المخفف الذي لم يأت على هوى المشتكين عليه، أعقبه حكم بقتله بطريقة بشعة وقاسية.

أول شهداء الإصلاح في سويسرا

كلما كانت قضية الإصلاح تتقدم كلما ازداد غضب أضدادها. وحدث أنه في مجلس عُقد في لوسرن في يناير ١٥٢٤، كانت جميع المقاطعات السويسرية ممثلة فيه عدا مقاطعة زيورخ وشافهوزن، أن سعى الإكليروس الحاضرون لإثارة المجلس ضد التعاليم الجيدة والمنادين بها. وإذ صوّروا أمامهم النتائج التي يمكن أن تؤدي إليها التغيرات الحادثة بصورة مفزعة، قرروا ألا يقفوا موقف المتفرجين فيما بعد. وتحت تأثير أنصار روما أصدروا قرارهم بأنه "يحرم على الشعب المناداة بالتعاليم الجديدة اللوثرية والتكلم عنها في الدوائر الخاصة أو العامة، أو مناقشتها أو المجادلة فيها في الأندية أو المحافل، وأن القوانين التي يصدرها أسقف كنستانس فقط هي التي يجب مراعاتها والعمل بها. وعلى كل شخص، رجلا كان أو امرأة، كبيرًا أو صغيرًا، يرى أو يسمع شيئًا يتنافى مع هذا القرار سواء بالعمل أو بالقول، أن يبادر في الحال بإبلاغ الأمر إلى السلطات المختصة". وهكذا نُصبت الشبكة بمكر الشيطان لأرجل المصلحين، وامتدت أطرافها إلى كل سويسرا، فكان هونتجر أول من وقع في حبائلها.

فعلى أثر صدور الأمر بنفيه من زيورخ ولّى شطره نحو مقاطعة بادن حيث أقام هناك، وكان يعيش من عرق جبينه وعمل يديه، وفي الوقت نفسه لم تفته أية فرصة للتكلم عن مبادئه وعقائده الدينية، ولو أنه لم يكن يسعى من جانبه لخلق هذه الفرص، ولكنه كلما كان يسأله أحد عن التعاليم الجديدة التي كان ينادي بها رعاة زيورخ لم يحجم عن الإفصاح عنها بكل جرأة وصراحة، وقد كانت العيون والأرصاد مبثوثة حوله. وفي يوم من الأيام وصل عنه بلاغ للسلطات بأنه سُمع يقول "إن المسيح مات مرة عن جميع المسيحيين، وأنه بهذه الذبيحة الواحدة كما يقول الرسول بولس قد أكمل إلى الأبد المقدّسين. وعلى هذا فالأفخارستيا ليست ذبيحة، وأن شفاعة القديسين وعبادة الصور مخالفة لكلمة الله». وقد كان هذا البلاغ أكثر من كاف لإدانة هذا الرجل السليم النية، وسرعان ما قُبض عليه، وعندما سئل عن عقيدته الدينية لم يحاول أن يخفي شيئًا، بل صرح بكل معتقداته قائلاً إنه مستعد للبرهنة على ما يقول. وقد أصدرت المحكمة حكمًا ضده بأنه تعدى قانون البلاد الذي يحرم الكلام في المواضيع الدينية، وقد نقل على الأثر

إلى لوسرن، حيث حُكم عليه بالإعدام من مندوبي سبع مقاطعات.

وعندما سمع الحكم أجاب بكل هدوء "لتكن مشيئة الرب. ويا ليته يغفر لجميع الذين عملوا على قتلي". فقال أحد القضاة "كفى، نحن لم نأت هنا لنسمع مواعظ، يمكنك أن تكمل في وقت آخر". وقال قاض آخر "ينبغي أن تُقطع رأسه هذه المرة، فإن عادت إليه ثانية فعندئذ سنؤمن بعقيدته". فأجاب هوتنجر "هكذا قيل أيضًا للرب يسوع. فلينزل الآن من على الصليب فنؤمن به". وهنا تقدم أحد الرهبان بصليب إلى شفتيه فأبعده عنه قائلاً "إنه بالإيمان ينبغي أن نحتضن المسيح مصلوبًا في قلوبنا". ولقد تقوّى جدًا بحضور الرب معه في طريقه إلى مكان الإعدام. وكان الكثيرون يتبعونه والدموع تسيل من عيونهم، فقال لهم "لا تبكوا عليّ. إنني في طريقي إلى السعادة الأبدية". وأخذ يكرز بالإنجيل للشعب كشخص قد دنت نهايته، مستعطفًا إياهم في توسلاته الأخيرة إليهم أن ينظروا إلى الرب يسوع المسيح، الذي منه وحده يمكنهم نوال الغفران والخلاص الأبدي. وكانت آخر كلماته وهو فوق المقصلة "في يديك أستودع روحي يا ربي ومخلصي يسوع المسيح". وفي دقائق معدودات تغرب عن الجسد واستوطن عند الرب.

وهنا يجمع المؤرخون على أن روح الهدوء والشجاعة والحكمة التي أظهرها هوتنجر أمام قضاته وهو في طريقه إلى المقصلة كفيلة بأن تعطيه مركزًا ساميًا ممتازًا بين شهداء قضية الإصلاح، ففي دقائقه الأخيرة كان يصلي بكل هدوء وسلام، طالبًا الرحمة من الله لأجل قضاته لعل عيونهم تنفتح للحق. وبعد ذلك أدار وجهه نحو الجمهور وقال "إن كنت قد أسأت إلى أحد منكم فليغفر لي كما غفرت أنا أيضًا لأعدائي. صلوا إلى الله لكي يعين إيماني إلى النفس الأخير، فبعد أن ينفذ في حكم الإعدام لن تكون صلاتكم مفيدة لي"(٧٧).

دم هوتنجر يشعل حماس البابويين

أحتج مجلس زيورخ ضد هذه المخالفة من جانب حلفائه في إدانة أحد مواطنيه، ولكن هؤلاء بدلاً من الإصغاء إلى هذا الاحتجاج راحوا يتمادون في سياسة الاضطهاد التي ألهبتها حادثة هوتنجر، فإنه لم يكد يبرد دم هذا الرجل البريء حتى صمم المجلس على القيام بمحاولات أخرى قوية لسحق حركة الإصلاح نفسها، فقرروا على الأثر إرسال وفد لمدينة زيورخ، معقل الاضطراب في نظرهم، لكي يطلبوا إلى المجلس والشعب التخلي عن آرائهم الجديدة.

وتنفيذًا لهذا القرار ذهبت سفارة إلى زيورخ يوم ٢٩ مارس سنة ١٥٢٤م ممثلة فيها جميع مقاطعات لوسرن ماعدا شافهوزن، وهناك أخذ المندوبون في لغة خطابية خادعة ينوحون ويولولون على ما أصاب وحدة الإيمان المسيحي القديم من تفتت، وكيف أنه ينبغي أن يحل الحزن العام في جميع البلاد بسبب التغيرات المنحوسة التي أدخلتها التعاليم الجديدة، فقد انهارت حالة الهدوء السعيدة التي كانت تتمتع بها الكنيسة والدولة من أقدم العصور، وتعطل ذلك السلام الذي توارثوه عن الأباء والأجداد! وقالوا "أيها الحلفاء الأعزاء، اقرنوا مجهوداتكم بمجهوداتنا. دعونا نسحق هذا الإيمان الجديد بيد من حديد. فلو كنا ضربنا هذا الشر في بدايته، ولو كنا حافظنا كأجدادنا على مجد الله وكرامة العذراء المباركة وكافة القديسين، ولو أدى ذلك إلى دق أعناقنا وضياع أموالنا، لما ظهرت تعاليم لوثر المنتشرة الآن في كل مكان، ولما تغلغلت في نفوس الشعب وأصبحت تهدد كياننا بثورة جامحة". بهذا الأسلوب حاول المندوبون التأثير على سكان زيورخ وحملهم بكل وسائل الاستعطاف على إبعاد زونجلي وليوجودا، وهما مصدر هذا الوباء وانتشار عدواه إلى جميع السويسريين، وقد اعترفوا بعدم خلو النظام الإكليريكي من المساوئ، إذ أنهم جميعًا "يلاقون الاضطهاد على يد البابا وجيش أتباعه من الكرادلة والأساقفة ومن على شاكلتهم، الذين قد أفقروا البلاد وامتصوا ثروتها بالاغتصاب والسيمونية وصكوك الغفران، وأنهم لذلك على تمام الاستعداد للتعاون في أي مشروع يكون الغرض منه إصلاح هذه المساوئ وما شاكلها. ولكن المقاطعات المتحدة لا يمكنها أن تغض الطرف عن هذه التعديلات المستحدثة المنتشرة في كل مكان، والتي يغذيها مجلس شيوخ زيورخ".

هكذا تكلم خصوم الإصلاح! وبماذا كان لمجلس زيورخ أن يجيب على مثل هذه الأقوال الناعمة من مثل هذا العدد الكبير من مقاطعات سويسرا؟ إن الجواب كان سريعًا وحازمًا ونبيلاً، فموت هوتنجر لم يفت في عضدهم، بل بالحري أثار حفيظتهم وأوغر صدورهم ضد المقاطعات التي دبرت الجريمة و ارتكبتها.

رد زيورخ على لوسرن

أجابوا "إننا لا نستطيع المساومة فيما يتعلق بكلمة الله. فمنذ خمس سنوات ونحن نصغي إلى تعاليم رعاتنا المقدسة، وقد بدت لنا في بادئ الأمر كشيء جديد علينا، لأننا لم نسمع بمثلها من قبل، ولكننا عندما أدركنا وتأكدنا أن الغرض الأول والأخير من هذه التعاليم هو إعلان الرب يسوع المسيح كرئيس خلاصنا ومكمله، وأنه مات على الصليب كمخلّص البشرية، وسفك دمه الثمين لكي يطهرنا من خطايانا، وأنه الآن في السماء كالشفيع والوسيط الوحيد بين الله والناس - عندما سمعنا مثل هذه الرسالة الطيبة لم نستطع إلا اعتناقها بشغف شديد". وبعد ذلك استرسلوا في الرد بتوسع على كل ما جاء في أقوال مندوبي لوسرن، وفي كشف الستار عن مساوئ كنيسة روما، مؤكدين أن كل بركة لنفوسهم وكل سلام وهدوء للمقاطعات يجب أن يكون مصدره الطاعة الكاملة لكلمة الله، مكررين التأكيد على أن السلاح الوحيد للقضاء على أطماع البابويين وجشعهم إنما هو الكرازة بكلمة الله النقية الطاهرة.

يا له من أمر مفرح ومعّز للقارئ المسيحي في يومنا الحاضر أن يقرأ مثل هذه الأقوال، ويرى كيف أن طائفة من رجال السياسة والحرب والهيئات البرلمانية أمكنها بمثل هذه الصراحة والإيمان العجيب أن تتمسك بكلمة الله وتعطيها هذا الاعتبار اللائق بها خصوصًا في تلك الأيام، وأن تصبح هي وحدها مرجعهم الوحيد ودستورهم الفريد في كل قول وتصرف، فقد اختتم المجلس رده بهذه العبارة المؤثرة "إننا لا نطلب شيئًا بإلحاح ولا نرجو شيئًا من أعماق قلوبنا أكثر من انتشار السلام في ربوعنا. كما أننا لن نفكر يومًا من الأيام في كسر القوانين أو مخالفة معاهدات التحالف، غير أننا في هذا الأمر الذي يمس سلامنا الأبدي لا نستطيع أن نتصرف خلاف ذلك ما لم نقتنع أولاً بأننا على ضلال. ولذلك نحن نرجوكم من جديد كما سبق وفعلنا، أن تنظروا في الأمر، أن وجدتم أن تعاليمنا مخالفة للكتاب المقدس فبرهنوا لنا على ذلك وأقنعونا بخطئنا، ولكننا نلتمس منكم أن لا تؤخروا الرد عن آخر شهر مايو، فإلى أن يحين ذلك اليوم سنبقى في انتظار الرد منكم ومن الأساقفة وجامعة بازل".

إزالة الصور والتماثيل

لما انتهت المدة المعينة ولم يأتِ رد من المقاطعات الكاثوليكية، صمم مجلس زيورخ على المضي في عمل الإصلاح، فأصدر المرسوم القاضي بهدم الصور في شهر يناير، ولكن السلطات رأت التريث في التنفيذ. والواقع أنه لا يوجد شيء يدعو إلى الإعجاب في هذه النقطة من تاريخنا مثل روح التأني والصبر التي بها عالج أعضاء المجلس هذه المسألة الدقيقة، فقد تباطأوا في الأمر بهدف أن يتم العمل بالموافقة الإجماعية وليس بأية ثورة من جانب الشعب.

ولكن عندما خاب كل أمل، أصدر المجلس بناء على طلب الرعاة الثلاثة زونجلي وليوجودا وإنجلهارت مرسومًا بأن يُعطى المجد لله وحده، وأن الصور والتماثيل يجب إزالتها من كل كنائس المقاطعة، وأن تُباع حليّها وتُعطى أثمانها للفقراء، وأن المجلس يحرّم على كل شخص تحطيم أية صورة بدون إذن، ما لم تكن هذه الصورة ملكه الخاص، وأن لكل كنيسة أن تتبع طريقتها الخاصة في إزالة وتحطيم صورها، وأن الأشخاص الذين قد أقامت أسرهم صورًا في الكنائس يجب عليهم إزالتها خلال مهلة محددة، وإلا أُزيلت بواسطة السلطات العامة. وبهذه الإجراءات الحكيمة المعتدلة، التي جاءت بناء على مشورة زونجلي، أمكن تجنب كل صراع أهلي، وسار العمل في طريقه وكأنه بموافقة ورغبة المواطنين الجماعية.

وقد عيّنت الحكومة هيئة خاصة للقيام بهذه العملية تتكون من اثني عشر مستشارًا والثلاثة رعاة ومهندس المدينة المعماري، مع طائفة من البناءين والنجارين ومن يلزمهم من مساعدين آخرين. وقد بدأت هذه الهيئة تطوف على الكنائس المختلفة، وكلما دخلوا واحدة أغلقوا الباب وراءهم وأنزلوا الصلبان وطلوا مكانها، وأحرقوا الصور وحطموا كل تمثال حتى لا يصبح غرضًا للعبادة الوثنية فيما بعد. أما كنائس القرى فقد أظهرت حماسًا أشد من العاصمة في إزالة وتحطيم تماثيلها الأثرية. ويحدثنا زونجلي في شيء من الدعابة عن تمثال شهير من الحجر للسيدة العذراء في دير الراهبات بمدينة ألتنباخ كانت له مكانة عظيمة وشهرة معجزية هائلة، فيخبرنا أن الراهبات كن يؤكدن أنه لا يمكن نقل التمثال من مكانه، أو على الأقل لا يمكن حجزه بعيدًا عن مركزه الأصلي المقدس، فكن يدعين أنه نُقل مرارًا وتثبت تثبيتًا ممكّنًا في أماكن أخرى، بل وأغلقت

الأبواب دونه بمصاريع قوية، ولكنه لم يلبث أن عاد في الصباح التالي إلى مكانه الأول، ولكنه بالأسف لم يحقق هذه المرة تنبؤات الراهبات عنه. فقد استسلم بكل خضوع لمن نقلوه، ولم يعد إلى مكانه القديم بعد ذلك، وهكذا فقد التمثال هيبته في قلوب الشعب.

وفي هذا يقول زونجلي "إني أفرح وأدعو الجميع أن يفرحوا معي، لأن هذا الدجال الأثيم قد زال أخيرًا من أمام أعين الشعب، لأن بزواله أمكن إزالة كل بدع البابوية الأخرى بأكثر سهولة. ولربنا الذي بقوته ونعمته أمكن إتمام هذا الحمد والمجد من الآن وإلى الأبد آمين".

حركة الإصلاح في سويسرا وألمانيا

ويجدر بنا هنا إزاء هذه الحركة العظيمة من عمل روح الله أن نقف قليلاً متأملين في الفارق بين زعيمي حركة الإصلاح الكبيرين، لنرى الصفات الخاصة التي امتاز بها كل منهما، فتركت طابعها الخاص على مبادئهما وأعمالهما وما ترتب على ذلك من نتائج. ولقد استوقفنا هذا الفارق في مواضع عدة خلال تأملاتنا الماضية، وأشرنا إليه في بعض الأحايين. ولكن بما أن دوبينيٌ مؤرخ حياة لوثر والمعجب به والمتحمس له قد أبدى ملاحظاته على هذا الفارق فنحن نود أن نلفت إليه الأنظار في شيء من التفصيل.

إن الشيء الوحيد الذي كان يسيطر على أفكار زونجلي ويؤثر في كل تعاليمه وأعماله كمصلح هو تمسكه الشديد بالكتب المقدسة وإحلالها المحل الأول في كل شيء، فكل طقس ديني ليس له وجود أو سند في كلمة الله كان لا بد من ملاشاته في غير تردد أو تشكك، وكنت دائمًا ترى توراته العبرية وعهده الجديد باللغة اليونانية موضوعين دائمًا أمامه على المنضدة في صالات المناقشة، وما كان يعترف بأي حكم أو دستور سواهما. أما مبدأ لوثر في معالجة النظام الديني القديم فكان يختلف عن ذلك كل الاختلاف، فقد كان يشتاق لأن يحتفظ في الكنيسة بكل ما لا يتعارض مع الكتاب بصفة مباشرة صريحة. وهذا لا شك مبدأ غير مأمون وليس بصحيح، فقد يكون من الصعب جدًا أن تبرهن أن شيئًا معينًا محرم بصورة صريحة في كلمة الله، كما قد يكون أصعب أن تجد ولو إشارة واحدة في الكتاب المقدس إلى هذا الشيء المعين بالذات. إن الحق محدد وأكيد، أما هذا المبدأ فرخو وقابل لكل شك.

حتى دوبينيٌ نفسه يعترف بأن لوثر قاوم بشدة أولئك الذين قاموا يحطمون الصور في كنائس وتنبرج، في الوقت الذي كانت فيه التماثيل تنهار في كنائس زيورخ أمام أعين زونجلي وبإرشاده. فالمصلح الألماني كان يرغب في البقاء متحدًا مع كنيسة روما، وكان يقنع، لو أمكنه، بتطهيرها من كل ما يتعارض مع كلمة الله، بينما المصلح السويسري تخطى العصور المظلمة جملة وأسقطها من حسابه كلية، حتى لم يكن في نظره شيء له سلطان مطلق من كل ما كُتب أو ابتُدع منذ أيام الرسل. وكان مبدأ الرجوع إلى بساطة الكنيسة الأولى هو الفكرة التي تحدو حركة الإصلاح في كل سويسرا، وعلى هذا يمكننا القول إن أفكار زونجلي ومبادئه كانت أكثر كمالاً ونضوجًا كمصلح.

فبساطة المسيحية الأولى قد تحولت بفعل بر اليهودية الذاتي ووثنية اليونان إلى خليط هو الكاثوليكية الرومانية. فالعنصر اليهودي ساد على تعاليمها في الناحية التي تختص بالإنسان، كالخلاص بالأعمال، والاستحقاق البشري، وأضافوا عليها المتاجرة بخلاص نفوس الناس كما ظهر ذلك في بيع صكوك الغفران. بينما ساد العنصر الوثني بصفة خاصة في الناحية المتعلقة بالله كما تدل عليه آلهة البابوية الكاذبة التي لا عدد لها، وانتشار الصور والتماثيل والرموز المختلفة والطقوس والأعياد المتعددة. وبالاختصار إبعاد الإله الحكيم المبارك عن عرشه وسيادته المطلقة كما يقول المؤرخ دوبينيٌ "إن المصلح الألماني نادى بالتعليم العظيم الخاص بالتبرير بالإيمان، وبهذا صوب ضربة قاضية إلى بر روما الذاتي. والمصلح السويسري نادي في غير شك بنفس المبدإ. فعدم مقدرة الإنسان على أن يخلِّص نفسه كان المحور الأساسي الذي يدور عليه عمل جميع المصلحين، ولكن زونجلي فعل ما هو أكثر من ذلك، فقرر سيادة الله المطلقة التي لا مزاحم لها، وبهذا صوب ضربة قاضية لعبادة روما الوثنية"(٣/٤٤).

زواج زونجلي

لم يكن من بين المستحدثات الكثيرة في ذلك الوقت ما فضح الحزب البابوي فضيحة كبرى مثل مسألة زواج الإكليروس التي نهضت تتحدى كل تأديب أو ترتيب إكليريكي، وذلك على يد مَن كان يُنتظر منهم، أكثر من سواهم، المحافظة على سلامة هذا النظام. فالسلطات الإكليريكية كانت تغض الطرف، إن لم نقل كانت توافق،

على أن يعيش رجل الإكليروس خفية كما لو كان متزوجًا، أما أن يتزوج رسميًا فهذا أمر لا يطاق وخطية مميتة. ذلك كان مستوى البابوية الأدبي. ولكن روح الله كان عاملاً الآن، وبدأت عيون الكثيرين تتفتح إلى الحق، وحدث أن أحد الكهنة في مدينة ستراسبورج ممن كانوا يعيشون عيشة الاستهتار أدرك خطيته وتزوج في الحال، ولما كان هذا عملاً جهاريًا لم يستطع الأسقف السكوت عليه، فقام بضجة كبيرة ضد هذه المسألة في الكنيسة ومجلس الشيوخ، إلا أن الوقت الذي كان فيه الأسقف يستطيع أن ينفذ مشيئته كان قد ولى وأدبر، فقام الكثيرين يوافقون على المبدإ ويتزوجون، كما أبت السلطات المدنية التدخل في الأمر.

وفي إبريل سنة ١٥٢٤م تزوج زونجلي عملاً بهذا المبدإ القويم، الذي طالما نادى به كحق كتابي تجيزه كلمة الله، فاقترن في احتفال عام بالسيدة آنا رينهارت أرملة جون ماير لورد أوف وينتجن في مقاطعة بادن، وبذلك ضرب مثلاً طيبًا لإخوته. وفي العام التالي تزوج لوثر بالآنسة كاترين أوف بورا. وقد أحدثت هذه الحركة اضطرابا كبيرًا في الدوائر الإكليريكية، ولكن بما أن زونجلي لم يكن راهبًا ولا عروسه راهبة فلم يُعتبر زواجهما فضيحة في نظر الحزب البابوي بقدر ما كان زواج لوثر وكاترين.

تقدم الإصلاح

قد تنازل الرب فبارك أتعاب المصلحين في سويسرا بركة عظيمة في ذلك الوقت ودافع عنهم ضد أيدي أعدائهم الغشومة، وقد وجدت كلمة الرب مكانها الصحيح في قلوبهم، ومنهم انتشرت وتغلغلت في قلوب الشعب، والله أمين لا ينسى أن يبارك الشعب أو الأمة التي تكرم كلمته. والواقع أن هذا هو الطريق الأكيد للوصول دائمًا إلى أغنى البركات، فهو لا زال يقول «حاشا لي. فإني أكرم الذين يكرمونني» (اصم٢: ٣٠).

فقد أعقب هدم التماثيل انحلال أهم وأعظم مؤسستين دينيتين في زيورخ انحلالاً تطوعيًا. أولهما دير أثري قديم غني جدًا يعرف باسم فراون مونستر من تأسيس الملوك الأقدمين، وكان خاصًا بسيدات الطبقة الراقية، وكان يمتاز ليس فقط بمسحته الأثرية الثمينة، بل كان يتمتع أيضًا بحصانات وامتيازات كثيرة وبثروة هائلة وموارد عديدة، فهذه الهيئة غير العادية من النساء كان لها الحق المطلق في سك كافة النقود المتداولة، كما في تعيين من يرأسون مجالس القضاء، ولكنها سلمت من تلقاء نفسها كل ممتلكاتها للحكومة بشرط استخدام ريعها في الشئون الدينية والخيرية، مع الاحتفاظ بحقوق الوقفيات. أما رئيسة الدير كاترين سيمون فقد انسحبت من الميدان وتزوجت بعد زمن وجيز، وعلى أثر هذا التغيير استطاعت مدينة زيورخ عام ١٥٢٦م لأول مرة في تاريخها أن تسك عملتها الخاصة وتقيم محاكمها.

كذلك قامت مجموعة الرهبان التي كان زونجلي مرتبطًا بها، وبعد اتفاق مع الحكومة بشأن الحقوق المكتسبة، تمثلوا بدير الراهبات الثري، وما بقي من رهبان قلائل وُضعوا جميعًا في دير واحد، الصغار منهم يتعلمون حرفة نافعة، والكبار يقضون بقية أيامهم في سلام وهدوء.

وقد انتشرت على الأثر أخبار هذه الانتصارات التي حازتها كلمة الله في تلك البلاد، فتخطت الجبال والوديان وملأت الأسماع في كل أنحاء سويسرا. أما المقاطعات الكاثوليكية فامتلأت بالحنق والغيظ، وراحت الإشاعات الكاذبة تسعى كالثعابين في كل مكان وتتداول من إنسان إلى إنسان، حتى اجتمعت مجالس بغير علم مجلس شيوخ زيورخ، حيث تعاهد مندوبو المقاطعات على عدم السماح بأي حال من الأحوال بقيام الآراء الجديدة في سويسرا.

وفي الوقت نفسه لم يقف البابا كليمنت السابع موقف المتفرج، بل أذاع نداء إلى كل الجمهورية السويسرية متملقًا إياها بأرق عبارات الاحترام والمودة، مخاطبًا الجميع - علمانيين وإكليروس - بكافة أساليب المداهنة والتودد، وخاصة الذين يناضلون منهم في سبيل الإيمان الكاثوليكي، والذين يعتبر غيرتهم "أمجد من كل الانتصارات الحربية التي حازتها مملكتهم الجريئة" حاضًا إياهم على المثابرة في جهادهم المشكور إلى أن يلاشوا "التعاليم اللوثرية" من أرض سويسرا.

وعلى أثر هذا النداء وما أحدثه من حماس، علاوة على الأخبار الواردة من زيورخ، اجتمع مندوبو المقاطعات العشر التي لم تنضم للإصلاح، وقرروا إرسال وفد إلى زيورخ وشافهوزن بمهمة تبليغ تلك الحكومات بعزم المجلس المذكور على سحق التعاليم الجديدة، ومحاكمة تابعيها وتجريدهم من ممتلكاتهم وألقابهم، وإن استدعى الأمر من حياتهم. ولم يكن في استطاعة زيورخ أن تسمع مثل هذا التهديد دون أن تتأثر، ولكنها أعلنت

على الفور جوابها المعتاد وهو "أنه فيما يتعلق بأمور الإيمان يجب أن تُطاع كلمة الله وحدها". وبوصول هذا الرد امتلأت المقاطعات الكاثوليكية بالحنق والغضب، وصرحت مقاطعات لوسرن ويوري وشفيتز وتسوج وأنترفالدن وفرايبورج لأهالي زيورخ أنه لن يضمهم مع زيورخ وشافهوزن فيما بعد مجلس واحد ما لم ينكروا تعاليمهم الجديدة، وبذلك تصدعت وحدة التحالف من جانب أعوان روما، الذين صمموا رغمًا عن عهودهم ومعاهداتهم على مقاومة ومناهضة الحق بقوة السيف والاضطهاد.

أسلحة محاربة روما

بدأت الأمور الآن تتجه اتجاهًا خطيرًا وتأخذ شكلاً مفزعًا، وسرعان ما حدثت حادثة زادت في سوء التفاهم بين مقاطعات التحالف، وأعطت روما فرصة لأن تبين بأي الأسلحة هي مستعدة أن تحارب من أجل الإيمان القديم.

كانت قرية ستامهايم الواقعة على حدود تورجو تابعة لزيورخ في كل شئونها ما عدا قضاءها الجنائي الذي كان موكلاً إلى حاكم تورجو. وكان لهذه القرية كنيسة صغيرة باسم القديسة حنة، مليئة بالهدايا الثمينة المقدمة لها من جماهير الزائرين. ولكن رغمًا عن كل هذه الامتيازات العظيمة التي كان يتمتع بها الأهالي فقد كانوا يميلون لترك عاداتهم الوثنية وما كانوا يحصلون عليه من غنائم من ورائها، واعتناق مبادئ الإصلاح الجديدة. وكان يحكم القرية في ذلك الوقت شريف يدعى جون رث، وهو رجل صالح ومصلح مخلص، وكان له ابنان كاهنان، هما جون وأدريان اللذين أقامهما مجلس الشيوخ بقصد تعليم الشعب. وقد دفعتهما تقواهما وشجاعتهما كمبشرين غيورين للإنجيل أن يعلما الشعب بأن أصول العبادة والتكريم التي تقدم لشفيعة قريتهم القديسة حنة مهينة لله ومخالفة لكلمته المقدسة. وعندما وصلهما مرسوم مجلس زيورخ الخاص بالصور والتماثيل قاما بإحراق الصور الدالة على معجزات القديسة حنة، وإزالة التماثيل المقامة في ميادين ستامهايم العامة.

وقد كان الشعور العام في ذلك الوقت في جانب الإصلاح، ولكن كان لا يزال هناك كثيرون يتمسكون بأصنامهم تمسكًا وثنيًا شديدًا، ويتهامسون فيما بينهم بضرورة سفك دماء هادميها، وقد راح أمثال هؤلاء يقدمون شكواهم لحاكم تورجو المدعو جوزيف أمبرج، وقد كان هذا الرجل التعس في وقت من الأوقات ميالاً لاعتناق مبادئ زونجلي، ولكن رغبة في الحصول على أصوات أهالي المقاطعة وكلهم كاثوليك متحمسين، وعد وقت الانتخابات باستخدام كل قوته لسحق الشيعة الجديدة في تورجو.

وقد كان يود أن يلقي القبض على هادمي التماثيل في ستامهايم والزج بهم في السجن، ولكن هذه القرية كانت كما قلنا خارجة عن دائرة اختصاصه، ولكنه مع ذلك لم يخف كراهيته لعمدة القرية جون رث وابنيه، كما صرح بنيته في الانتقام للتماثيل التي أُهينت.

القبض على أوكسلن

وهنا جاءت روما بمكرها تساعد أمبرج، فقد رأى هذا أن الشعب كان في حالة ثورة فكرية تدل على استعدادهم للالتجاء إلى وسائل العنف والقسوة. وقد كانت هذه حيلته التي لجأ إليها، فألقي القبض على أوكسلن صديق زونجلي الحميم ورسول الإصلاح الأكبر في تورجو، وذلك رغبة منه في شل حركة الإصلاح وإيقاف نموها. ففي منتصف ليلة السابع من يوليو سنة ١٥٢٤م ذهب جنوده إلى منزل هذا الخادم التقي وأخرجوه من منزله رغم احتجاجه بأن في هذا تحقيرًا لكرامة وظيفته. وإذ سمع الأهالي بالأمر اندفعوا إلى الشوارع أفواجًا أفواجًا، وسرعان ما انقلبت القرية في مشهد رهيب مزعج، ولكنهم لم يستطيعوا إنقاذ راعيهم، لأن الجنود كانوا قد هربوا به، وظلمة الليل كانت حالكة، وبحسب العادة في ذلك الزمان قرعت أجراس الخطر، فهرعت إلى تورجو أهالي القرى المجاورة يتساءلون ما الخبر.

وعندما سمع جون رث وابناه أن صديقهم وأخاهم قد اختُطف بهذه القسوة سارعوا لنجدته، ولكن بعد فوات الأوان، إذ أن الجنود عندما سمعوا أجراس الخطر ضاعفوا سرعتهم وعبروا نهر تور، فأصبح فاصلاً بينهم وبين مطارديهم. وعلى ذلك قدموا التماسًا إلى أمبرج بالإفراج عن أوكسلن بكفالة، ولكن طلبهم رُفض. ولسوء الحظ أفلت زمام جماعة من مثيري الشغب الذين ينتهزون عادة مثل هذه الفرص، ودخلوا دير إتنجن يطلبون شيئًا من الطعام؛ ولكنهم إذ لم يقتنعوا بما قدم لهم أخذوا ينهبون ويسكرون. وقد حاول رث وابناه أن يوقفوهم عند حدهم بدون جدوى. وقد كان الشائع بين الأهالي أن رهبان هذا الدير هم الذين شجعوا أمبرج

على طغيانه، وأنه لا بد من الانتقام منهم، وفيما كان هؤلاء الغوغاء يمرحون ويسكرون اندلعت اللهب في الدير فدمرته عن آخره.

اتهام آل رث باطلاً

كان ذلك كافيًا أن يعطي الخصوم سلاحًا ينفذون به أغراضهم الشريرة، فقد أرسل الشريف الأكبر أمبرج تقريرًا عن الحادث للحكومة، ألقى فيه اللوم على أهالي بلدتي شتاين وستامهايم، متهمًا على الأخص رث وابنيه بأنهم السبب في قرع ناقوس الخطر، وأنهم محرضون على تخريب دير إتنجن وإشعال النار به.

وقد اجتمع مندوبو المقاطعات في مدينة تسوج للتشاور في الأمر، حيث بلغت بهم روح السخط والغضب حدًا يتمنون لو ساروا بجيوشهم توًا نحو هاتين البلدتين الآثمتين لتدميرهما وضرب أهليهما بحد بالسيف. أما مندوبو زيورخ فكانوا أكثر رزانة وتعقلاً حيث قالوا "إن كان هناك شخص مذنب فقد حق عليه القصاص، ولكن ليكن هذا بالعدل والقانون وليس بالقسوة والعنف". كما أنهم بيّنوا للأعضاء أن الشريف الأكبر قد أثار الشعور العام بانتهاكه حرمة امتيازات مدينة شتاين وإلقاء القبض غير الشرعي على القس أوكسلن. وفي الوقت نفسه أرسل مجلس زيورخ أحد أعضائه مع حرس من الجنود إلى مدينة ستامهايم التي تقع في دائرة اختصاصهم للقبض على المتهمين، ففر الكثيرون طلبًا في النجاة، أما رث وولداه الذين كانوا قد رجعوا قبل حرق الدير وأقاموا باطمئنان في ستامهايم فقد رفضوا الفرار، مرتكزين على براءتهم وعدالة حكومتهم، وعندما اقترب الجنود خاطبهم الشريف رث قائلاً "لقد كان في وسع رؤسائي في زيورخ أن يوفروا على أنفسهم هذا التعب، فلو أنهم أرسلوا ولدًا صغيرًا يستدعيني لسرت معه طائعًا". وهكذا ألقى الجنود القبض على رث وابنيه وصديقهم بورتشارد روتمان وساقوهم أسرى إلى زيورخ.

وبعد حجزهم ثلاثة أيام في السجن قادوهم إلى المحاكمة، فاعترفوا أنهم خرجوا عند سماع صوت ناقوس الخطر وساروا وراء الجمهور إلى إتنجن، ولكنهم أقاموا الدليل علي أنهم بدلاً من تحريض الفلاحين حاولوا إقناعهم بالهدوء والتزام السكينة، وعدم الاستسلام لعواطفهم الجامحة، وأنهم عادوا أدراجهم بمجرد أن سمعوا أن الشريف الأكبر رفض إطلاق سراح أوكسلن. وبالاختصار لم يثبت ضدهم شيء، فقد تصرفوا طبقًا للمبادئ الجمهورية التي تسير عليها بلادهم، وهي الخروج عند سماع ناقوس الخطر. وقد حكم المجلس بعد تحقيق كامل بأنهم أبرياء من كل تهمة.

مجلس بادن

وقد أرسلت أوراق التحقيق إلى مندوبي المقاطعات المجتمعين حينئذ في بادن، ولكن ذلك لم يُرضهم، فإن شهوة إيزابل لسفك الدماء قد استعرت إذ رأت أن فريستها قد دنت إلى متناول يدها، ولذلك صممت على تسديد القوس وإصابة المرمى، وخلافًا للعادات المعمول بها في الجمهورية طلبت تسليم الأسرى لمحاكمتهم في بادن. أما الزيورخيون فقد أبوا ذلك بحجة أن محاكمة رعاياهم هي من اختصاصهم دون سواهم، وأنه ليس للمجلس أي حق على المتهمين. وعندما سمع نواب المقاطعات ذلك استشاطوا غيظًا وصاحوا قائلين "يجب أن نحافظ على كرامتنا، فإذا لم يسلّم إلينا المتهمون فورًا فإننا سنسير بجيوشنا إلى زيورخ، ومن هناك نستحضرهم بقوة السلاح". ولما كانت المشاعر متوترة نحو زيورخ بسبب زونجلي والإصلاح، ورغبة في تجنب اندلاع ألسنة الحرب الأهلية في البلاد، استسلم مجلس الشيوخ إلى رأي المتطرفين.

يا لها من ساعة رهيبة كان فيها شرف زيورخ معلقًا في كفة القدر! قال زونجلي "إن الاستسلام للتهديد أو التنازل عن حقوقكم في وقت فيه أحد رعاياكم معرّض للخطر إنما هو جريمة شنعاء وضعف آثم، لن يترتب عليه سوى أوخم العواقب وأسوأها. ولو أن المتهمين كانوا حقًا مذنبين لكنت أول من يعمل على محاكمتهم وعدم إفلاتهم من سيف العدالة، أما وقد صدر الحكم ببراءتهم فكيف يسوغ تسليمهم لمحكمة قد صممت أن تجمع كل جامات غضبها ضد حركة الإصلاح وصبها على رؤوسهم". وهنا ثارت المدينة كلها وتضاربت الآراء، وأخيرًا وصل أولو الشأن إلى حل وسط، وذلك بتسليم المتهمين إلى المجلس، بشرط أن تكون محاكمتهم قاصرة علي حادثة دير إتنجن ولا تتناول معتقداتهم، وقد وافق المجلس على ذلك. وفي يوم الجمعة ١٨ أغسطس خرج رث وابناه وصديقهم من زيورخ يصاحبهم بعض مستشاري الدولة وعدد من الرجال المسلحين.

وهنا يقول المؤرخ "لقد عم القلق جميع سكان المدينة توقعًا لما كان مبيتًا للشابين المحبوبين ورفيقيهما الشيخين. وكنت لا تسمع سوى صوت البكاء والتنهدات من الجماهير المحتشدة على جانبي الطريق وهم يسيرون إلى حيث يلاقون مصيرهم. فالبعض كان يقول: يا له من موكب محزن مؤثر. وكان البعض الآخر يقول: لا شك أن الله سيعاقبنا على تسليمنا إياهم، فلنصلِّ إليه حتى يعطي نعمة لهؤلاء المأسورين ويقويهم في إيمانهم. وكانت الكنائس تموج بالمصلّين، وقد رفع زونجلي وآخرون كثيرون أصواتهم بالصلاة. والحق إنه لم يوجد واحد لم يبلل بدموعه تلك الباكورة الطيبة لله من شهداء حركة الإصلاح في سويسرا".

إدانة آل رث وروتمان باطلا

عندما وصل الأسرى إلى بادن زج بهم الجنود في أعماق السجن، وفي اليوم التالي بدأت المحاكمة الشكلية، فنودي على الشريف رث أولاً. وهنا قام الكاثوليك، وعملاً بشعارهم القديم أنه "من العبث والخطأ حفظ العهود مع الهراطقة"، بدأوا في الحال يستجوبون رث فيما يتعلق بتحطيم الصور والتماثيل في شتامهايم، وبعض نقاط أخرى تتعلق بمعتقداته. فاحتج مندوبو زيورخ على ذلك مذكّرين المجلس أن هذا انتهاك خطير للشروط التي بمقتضاها سُمح للمتهمين بالحضور. ولكن الاحتجاجات لم يكن لها قيمة الآن، فقوبلت أقوال الزيورخيين بالازدراء والاحتقار. وقد عرّضوا المتهمين لكل أنواع التعذيب رجاء الحصول منهم على بعض اعترافات قد تكسب إدانتهم صبغة من العدل، إذ أن النية كانت مبيتة على صدور الحكم ضدهم.

وقد وقعت أقسى أنواع التعذيب على الأب رث بغير اعتبار لمكانته أو لشيخوخته، ولكنه أصر على إعلان براءته من حادثة سلب دير إتنجن وحرقه. وقد استمر تعذيبه من الصباح إلى الظهر، ولم تكن صيحاته المؤثرة لله لكي يعينه ويشجعه في تجربته إلا لتجعل معذبيه يغالون في قسوتهم وغلاظة قلوبهم. ولقد قال له أحد المندوبين "أين مسيحك؟ دعه يأتي لمعونتك". أما ابنه جون فكان تعذيبه أشد وأمر، ولكن شيئًا لم يستطع زحزحته عن ثباته في المسيح الذي انتصر في آلامه وتمجد في استشهاده. أما الابن الثاني أدريان فقد هددوه بقطع عروقه واحدًا بعد الآخر إن لم يعترف بذنبه، ولكنه لم يعترف سوى بأنه كان يبشر بإنجيل المسيح، وأنه تزوج. وعندما مل وتعب معذبوهم بلا جدوى أرسلوهم إلى سجن مظلم. أما هؤلاء الشهود الأمناء للمسيح فقد تمزقت أجسادهم وتقطعت لحومهم، ولكنهم ظلوا أقوياء في إيمانهم ويقينهم ببراءتهم، متمتعين بحضور وقوة ربهم وسيدهم يسوع المسيح معهم.

وقد ذهبت زوجة الأب رث وأم القسيسين الشابين إلى بادن، تحمل طفلها الرضيع بين ذراعيها، لكي تلتمس الرحمة لزوجها ولديها من يدي قضاتهم. وهناك استعطفت هؤلاء القضاة بفيض من الدموع المنهمرة من عينيها، وقد استشفعت بعائلتها الكبيرة وخدمات زوجها الماضية في سبيل الدولة والوطن، ولكن كل توسلاتها ودموعها ذهبت هباءً منثورًا، والحق أن تضرعات هذه السيدة الفاضلة التي ما كانت لتصدر في مثل قوتها إلا عن زوجة ووالدة، بدلاً من أن تلين عواطف القضاة زادتهم قسوة فوق قسوة، ودلت على السبب الحقيقي لكل هذه القسوة من جانبهم، وما كانوا يخبئونه في صدورهم من بُغض شيطاني للحق. ولقد ساقت العناية الإلهية أحد القضاة وهو نائب تسوج أن يفوه بأعجب شهادة على أخلاق رث وخيانة قضاته. فقد سأله صديق للزوجة المسكينة المنكوبة "أتعرف الشرير رث؟"، فأجاب "أي نعم. لقد كنت مرتين شريفًا لمقاطعة تورجو وأقول إني لم أرَ في حياتي رجلاً نبيلاً مستقيمًا طاهر الذيل، ومضيفًا كريمًا مثل جون رث. فقد كان بيته كعبة القاصدين، وأبوابه مفتوحة لكل من يلتمس معونته، وبعبارة أخرى كان بيته دار ضيافة ومستشفى. ولست أستطيع أن أتصور أي شيطان قد ساقه إلى هذه الفتنة. ولو أنه ارتكب جريمة نهب أو سرقة أو قتل لبذلت كل جهد للحصول على العفو عنه، أما وقد أحرق صورة القديسة حنة المباركة أم العذراء فلا بد من موته، ولا يمكن أن يكون موضع أي رحمة". وعلى ذلك انفضّت المحكمة وعاد النواب إلى مقاطعاتهم، وأعيد الأسرى إلى سجنهم ولم يلتقوا إلا بعد شهر من ذلك التاريخ.

استشهاد روتمان وآل رث

وأخيرًا مرت هذه الأربعة الأسابيع العصيبة، واجتمع النواب مرة أخرى للمداولة في الحكم. وانتهاكا لكل نواميس الحق والعدل، وداخل أبواب مغلقة، صدر حكم الإعدام على رث الكبير وعلى ابنه جون كمن كان أقواهم في العقيدة ولكونه أضل ورائه

آخرين، وكذلك على الشريف روتمان. أما أدريان فقد أعيد إلى أمه رحمة بدموعها، وكأنهم أرادوا بذلك أن يغطوا موقفهم الظالم ويعطوا صبغة من العدالة لحكمهم الجائر.

وقد توجه الجند إلى السجن لاستحضار الأسرى إلى ساحة المحكمة، وعند سماع الحكم أجهش أدريان بالبكاء والدموع، وهنا انتهز والده الفرصة واستخلص منه وعدًا بأنه لن ينتقم لهم بأية طريقة. أما جون فقال لأخيه أدريان "تذكر يا شقيقي أن صليب المسيح يجب أن يتبع كلمته دائمًا، فلا تبك إذًا بل تشجع واكرز بإنجيل المسيح وكن مثابرًا في قضيته. إني أستطيع أن أقدم الشكر لسيدي هذا لأنه شرفني بالآلام والموت لأجل حقه، فليكن اسمه مباركًا إلى الأبد، ولتكن مشيئته الصالحة المقدسة".

بعد ذلك سيق ثلاثتهم إلى المقصلة. وقد كانت الآلام القاسية التي تحملها هؤلاء الرجال الأمناء في سجنهم الطويل المظلم، وأنواع التعذيب التي قاسوها، كل ذلك جعل الموت يأتيهم كرسول سلام ورحمة. أما جون ذلك الابن النبيل التقي الذي سيظل التاريخ يذكره بالإعجاب والاحترام إلى الأبد، والذي كان قلبه يفيض بالحنان والقلق على والده، فقد حاول بكل وسيلة أن يشجع والده ويسنده. ولقد انهمرت الدموع الغزيرة من مآقي جميع الواقفين عند رؤيتهم ذلك الابن المحبوب يعانق والده ويودعه على درج المقصلة قائلاً "أي والدي العزيز المحبوب. من الآن لن تكون أنت أبي ولن أكون أنا ابنك، كلانا أخوان في المسيح يسوع الذي من أجل محبته نحن الآن على وشك الموت. ولكننا ذاهبان إلى ذاك الذي هو أب لكلينا ولجميع المؤمنين، وفي حضرته المباركة سنتمتع بالحياة الأبدية. دعنا لا نرهب شيئًا". فأجاب الوالد "آمين. ليت الله يتمجد يا ابني العزيز المحبوب وأخي في المسيح". وفي أثناء ذلك كان الشريف روتمان جاثيًا يصلي في سكون.

وبعد ذلك جثا الثلاثة يصلون معًا باسم الرب يسوع المسيح. وفي لحظة سقطت رؤوسهم من على المقصلة، وانطلقت أرواحهم لتجد راحتها ومسكنها السعيد الأبدي في فردوس الله المنير.

وهنا تعالت أصوات الجمهور بالعويل والبكاء. وقد ترك الشريفان رث وروتمان اثنين وعشرين ولدًا وخمسة وأربعين حفيدًا. فقد أنجبت حنة زوجة رث أسرة كبيرة في مخافة الرب، وكانت موضع احترام عظيم في كل المقاطعة لما تحلت به من فضائل مسيحية كثيرة، ولكنها بموت زوجها لم تكن قد تجرعت كأس مرارتها كاملة، فقد صدر عليها الحكم أن تدفع ١٢ كراون للجلاد الذي قطع رأسي زوجها وابنها! فليتصور القارئ مبلغ هذه الوحشية والخسة والجبن والقسوة، التي تتلذذ بتفتيت كبد امرأة كسيرة الجناح مطعونة القلب، والعمل على زيادة آلامها وأحزانها «في مجلسهما لا تدخل نفسي، بمجمعهما لا تتحد كرامتي، لأنهما في غضبهما قتلا إنسانًا وفي رضاهما عرقبا ثورًا» (تك٤٩: ٦).

أما أدريان رث فقد أطلق سراحه مع تكليفه بالاعتراف بجريمته جهارًا في أينسدلن، ولكنه هرب إلى زيورخ حيث وجد ملجأ له، ثم صار راعيًا لكنيسة ألتورف وأبًا للمؤرخ الشهير رودلف أورالف مؤلف "تاريخ قضية العشاء الرباني". أما أوكسلن فقد أطلق سراحه بعد تعذيبه في لوسرن، وهو أيضًا وجد ملجأ في مقاطعة زيورخ، وصار راعيًا لإحدى الكنائس هناك*.

* إن أردت تفصيلات أكثر فانظر تاريخ "حياة زونجلي" لمؤلفه هس[٧٧] ص ١٧٨-١٩٤، دوبيني[٣/٤٤] الفصل الخامس، سكوت[٢/٧٢]ص ٤٩٤-٥٠١.

الفصل الثالث والأربعون

التقدم العام لحركة الإصلاح

الآن يمكن القول إن حركة الإصلاح في سويسرا قد تعمّدت بالدم، دم شهداء يسوع. فقد عمل عدو الإنجيل عمله القاسي المريع، ولكنه بذلك أثار النفوس وأيقظ الضمائر، وجعل الناس يفكرون، فقسوة الضربة كانت من الشدة بحيث دوى صداها المرعب في كل مكان، وشعرت بها جميع الطبقات في مختلف أنحاء سويسرا، فأخذت قوة روما تضعف، بينما كانت حركة الإصلاح تسير من قوة إلى قوة ومن نصرة إلى نصرة. ولم يعد الشعور بضرورة الإصلاح قاصرًا على عامة الشعب، بل حتى رؤساء المقاطعات الكاثوليكية أنفسهم، رغم كراهيتهم لحركة الإصلاح، لم يستطيعوا أن يخفوا عن بعضهم أن حالة الفساد الأخلاقي الضاربة أطنابها في كل مكان، والفضائح المخزية المنتشرة بين رجال الإكليروس، كانت تتطلب إصلاحًا ما، وأن نوعًا من العلاج كان لا بد منه. وإذ رأوا عدم مبالاة السلطات الكنسية بكل هذه الأمور صمموا على أن يقوموا هم أنفسهم بسد حاجات الكنيسة، وتوفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهلين؛ ولكن مشروعهم كان يصطدم بمعارضة الإكليروس الشديدة، ولم يكن لمندوبي المقاطعات أية قوة أو وسيلة بها ينفذون مقاصدهم. وهنا أخذ الكلام يدور من جديد حول ضرورة عقد مجمع عام، وهو المجمع الذي طالما طالب به الناس ووعدت به السلطات، والآن أصبح يعتبر الوسيلة الوحيدة التي منها يرجى إعادة السلام إلى المسيحية.

وبينما كانت هذه الأمور تشغل بال المقاطعات الكاثوليكية، كانت المقاطعات الإصلاحية تتقارب بعضها من بعض، فاستطاعت زيورخ وبرن وجلاريس وشافهوزن وأبنزِل أن تكوّن فيما بينها تحالفًا غرضه العمل على نشر الحق بوسائل أكثر فاعلية من ذي قبل، والمحافظة على حقوقهم وحريتاهم. ذلك كله كان نتيجة استشهاد آل رث وثمرة من ثمراته الطيبة، وفي ذلك يقول المؤرخ دوبينيٌ "في كل مرة كانت روما تنصب المقصلة وتتطاير من فوقها الرؤوس كانت حركة الإصلاح ترفع عاليًا كلمة الله المقدسة وتقضي على نوع معين من المساوئ، فعندما قُطعت رأس هوتنجر قطعت زيورخ دابر الصور والتماثيل، والآن وقد سقطت رؤوس آل رث، فتستجيب زيورخ بإلغاء قداس الأفخارستيا».

فمنذ أن أصدر المؤتمران السابقان قرارهما، ومجلس زيورخ مصمم على إلغاء الطقوس الخرافية بالأفخارستيا، ولكنه رأى من الحكمة تأجيل الأمر حتى يتهيأ الرأي العام لقبول هذا التغيير، ولذلك استمر القداس كما هو بعد ملاشاة الصور والتماثيل، واقتصر الأمر على عدم إرغام أي كاهن بتلاوته أو علماني بحضوره، وبذلك فقد مكانته شيئًا فشيئًا، وأصبح تقريبًا في حيز النسيان والإهمال، حتى صار من رأي الجميع أن الوقت قد حان لإلغائه كلية.

إلغاء القداس

في يوم ١١ أبريل سنة ١٥٢٥م تقدم ثلاثة من الرعاة، هم زونجلي وليوجودا وإنجلهارت يرافقهم ميجاندر راعي المستشفى وميكونيوس واعظ كنيسة الدير، إلى المجلس يطلبون إلغاء ذبيحة الأفخارستيا في الحال، وهنا لم يقُم إلا واحد فقط يدافع عن الرأي القديم. فأخذ إنجلهارت، وهو أصلاً دكتور في اللاهوت البابوي، يشرح للمجلس الفرق بين خدمة القداس في الكنيسة اللاتينية وخدمة الأفخارستيا كما رسمها المسيح له المجد ومارسها الرسل. ولا شك أن جميع الحاضرين كانوا يشعرون بأهمية الموضوع المطروح أمامهم والمطلوب منهم الوصول إلى قرار بشأنه، ولذلك رأوا من المستحسن تأجيل المناقشة إلى اليوم التالي. وعندما انتظم

عقد المجلس للمرة الثانية ودارت مناقشة طويلة بين الأعضاء واللاهوتيين، أصدر المجلس القرار الآتي: "من الآن فصاعدًا بمشيئة الله تُمارس الأفخارستيا طبقًا لرسم المسيح ونظام الرسل. ويكون مسموحًا للضعفاء وغير الأقوياء في الإيمان أن يستمروا في اتباع النظام القديم هذه المرة فقط. والقداس يلغى في كل مكان وبصفة قاطعة، ويطرح جانبًا كشيء أثري عتيق لكي لا يتكرر اعتبارًا من باكر". فنُقلت على الأثر المذابح من الكنائس ووُضعت مكانها مناضد الشركة، واشترك أغلب الشعب كاسرين الخبز حسب النظام الجديد، والذين مارسوا القداس كانوا أقل عددًا مما كان يتوقع المُصلحون، وهكذا تلاشى ذلك النوع الخرافي الذي طالما استولى على مشاعر البشر وسذاجتهم قرونًا عديدة. فالقداس كان يُمارس في الكنيسة اللاتينية من عهد بعيد، ولو أن السجود عند رفع الحمل كان من المستحدثات التي جاءت بعد ذلك.

ممارسة عشاء الرب

تكلم زونجلي أول كل شيء عن الآية «هو فصح للرب» (خر ١٢: ١١)، وبعد أن انتهى من موعظته مُدت منضدة عليها مفرش أبيض وفوقها خبز غير مختمر وكؤوس مملوءة بالنبيذ، تذكارًا لعشاء الرب الأخير مع تلاميذه. وعندئذ تقدم الخادم إلى المنضدة، وقرأ الشمامسة الفصل الخاص من رسالة كورنثوس الأولى وبعض فصول أخرى خاصة بالموضوع، وكان الجمهور هكذا غفيرًا والخدمات هكذا طويلة، حتى استدعى الحال أن يساهم الخدام والشمامسة في الخدمة. وبعد الصلاة ومناشدة الشعب وتحريضهم على فحص وامتحان ذواتهم، رفع الخادم الخبز وبصوت جهوري كرر كلمات الرب عن العشاء، وعندئذ سلم الخبز وبعد ذلك الكأس إلى الشمامسة ليسلموهما للشعب ليقتسموهما الواحد بعد الآخر، وفي أثناء طواف الخبز والخمر وقف أحد الخدام وقرأ من إنجيل يوحنا تلك الكلمات الحية الخالدة المباركة التي نطق بها السيد عقب ممارسته للفصح مع تلاميذه في أصحاح ١٣، وبعد العشاء جثا جميع الشعب ورفعوا شكرهم وتعبدهم القلبي للرب من أجل موته الكفاري على الصليب، وتصاعدت على الأثر أناشيد الحمد وأغاني التسبيح المليئة بأعمق عبارات الشكر والمديح للرب المخلِّص، وكان هذا ختام ذلك المشهد العظيم المؤثر، الذي هو أول مرة يُمارس فيها عشاء الرب في سويسرا. وقد استمر ثلاثة أيام، خميس العهد أو الآلام، والجمعة العظيمة، ثم أحد العيد.

ولتثبيت العمل الصالح في زيورخ ونشر الحق في كل مكان، أصدر زونجلي وليوجودا وبعض العلماء مؤلفات قيمة عديدة ونافعة للغاية في شرح الكتاب المقدس، مثل أسفار موسى الخمسة وبعض أسفار العهد القديم التاريخية الأخرى، علاوة على مقال بليغ عن "الديانة الصحيحة والديانة الكاذبة".

والآن لنترك زيورخ إلى حين، وقد قدمنا للقارئ صورة تفصيلية لعمل روح الله هناك، لذا فإنه قد يكون من اللازم أن نراعي الاختصار نوعًا ما في كلامنا عن الأماكن الأخرى، إذ لا تزال أمامنا بعد حقول عديدة، علاوة على أن العمل متماثل ومتشابه كثيرًا في الأماكن المختلفة.

الإصلاح في برن

كانت برن من أغنى مقاطعات الاتحاد وأعظمها نفوذًا، وكانت تضم في ربوعها عددًا كبيرًا من أصدقاء حركة الإصلاح، كما كانت تحتضن بجانبهم عددًا لا يُستهان به من خصومها. وفي السنين الأولى التي تلت ظهور لوثر وزونجلي كانت المقاومة هناك ضد الأفكار الجديدة على أشدها، حتى أنه كان يُظن أن الكفاح في برن سيكون أشد منه في أي مكان آخر، ولكن بفضل مجهودات هالر وماير وكرازتهما القوية بحق الإنجيل بدأت الأفكار التعصبية القديمة تفقد حدتها شيئًا فشيئًا.

وببركة الله على أتعاب هذين الخادمين الأمينين الغيورين نجحت قضية الحق. ومن قانون خاص أصدرته الحكومة عام ١٥٢٣م نستطيع أن نستنتج أن كفة الميزان كانت راجحة في صالح حركة الإصلاح، فقد جاء في ذلك القانون "بما أن مبادئ وتعاليم متناقضة أخذت تُذاع على الشعب، ورجال الوعظ صاروا يتراشقون ويرعدون الواحد ضد الآخر، فمن الآن فصاعدًا يتحتم على الجميع أن ينادوا بنفس الإنجيل الواحد، وهو التعليم المدون والمُعلن في كلمة الله، والموضح بالكتب النبوية وكتابات الرسل. وعلى الجميع أن لا ينشروا أي شيء يخالف كلمة الله المقدسة، سواء عن لوثر أو عن أي سلطة أخرى، كما عليهم أن يتجنبوا كل

الأقوال والخطب التي من شأنها إثارة الفتنة".

وفي هذا القرار الذي أصدره مجلس الشيوخ وجدت الكرازة بالإنجيل، في كماله وبساطته، تشجيعًا كبيرًا، وأصبحت كلمة الله الدستور الوحيد لكل مناقشة والمرجع الفريد للفصل في كل نقطة تتعلق بالحق، وهكذا وُضع الأساس الصحيح الحقيقي بموافقة الحكومة وتعضيدها. ولكن هذه الامتيازات المقصودة أو غير المقصودة كانت كافية لإلقاء الرعب في قلوب البابويين، ودفعت بهم إلى الالتجاء إلى أسلحتهم القديمة المحبوبة، وهي أسلحة الدس والخيانة والقسوة، فالشاهدان الأمينان في برن، هالر وماير، يجب أن يُلجما بكل الوسائل المشروعة أو غير المشروعة، فاتهموهما كذبًا وعدوانًا بأنهما بمساعدة وتنباخ الشهير حرضًا بعض الراهبات على ترك حياة الأديرة. وعلى ذلك صدر الأمر بنفيهما من برن، ولكن عند اكتشاف المؤامرة هاج الشعب وقويت المعارضة لدرجة أرغمت السلطات على إعادة النظر في الموضوع كله، وإحالته إلى المجلس الأعلى، الذي ألغى قرار المجلس الأول وأطلق سراح الخادمين، ناصحًا إياهما أن يُقصرا خدماتهما على المنبر ويبتعدا عن التدخل في الأديرة، وهذا كل ما كان يحتاج إليه هذان الرجلان المُخلصان: منبريهما. وهكذا نالت حركة الإصلاح نصرة جديدة، وباء الخصوم بالخزي والعار.

راهبات كونجْزفِلت

بعد هذا الحادث بشهور قليلة أحرزت حركة الإصلاح نصرة أخرى وعظيمة، ونالت مبادئها قوة فائقة، بانحياز راهبات كونجْزفلِت إلى جانبها واعتناق مبادئها. ذلك كان انتصارًا عجيبًا للإنجيل؛ فالدير كان يقع بجوار قصر هابسبرج ومحاطًا بأفخم وأروع مظاهر العصور الوسطى، وربما يعلم القارئ أنه من بيت هابسبرج تفرعت أسرة النمسا الإمبراطورية في القرن السابع، ومنها قام بعد ذلك أباطرة كثيرون جلسوا على عرش ألمانيا، ولذلك كنت تجد في هذا الدير كثيرات من بنات النبلاء والأشراف في سويسرا وسوابيا، فمثلاً بياتريس أوف لودنبرج شقيقة أسقف كونستناس كانت بين الراهبات هناك، ولكن حق الله الذي كان يقاومه الأسقف بكل ما أوتي من قوة وسؤدد استطاع أن يصل إلى قلوب الكثيرات في هذا الدير الإمبراطوري، ويجعلهن صديقات لحركة الإصلاح، فقد وجدت مؤلفات لوثر وزونجلي والأسفار المقدسة طريقها إلى هذه المؤسسة العظيمة، وهناك عمل الإنجيل عمله في خلاص النفوس ومنحها السلام الأبدي.

ولا عجب، فالله كان عاملاً بروحه القدوس، ولم يكن ممكنًا لأشد الأفكار تعصبًا أو لأعظم الموانع أن تقف في الطريق، والخطاب التالي من مرجريت واتفيل إحدى الراهبات الشابات وشقيقة عمدة برن، يعطي أحسن فكرة وأدق تصوير لثمار حركة الإصلاح، وللروح المسيحية التي سادت بين أولئك النساء التقيات أفضل من أي شرح أو تفسير نأتي به من جانبنا؛ فقد كتبت إلى زونجلي تقول: "لتكثر لك النعمة دائمًا والسلام في الرب يسوع من الله أبينا السماوي. إني أستعطفك أيها السيد العزيز والعالم المحترم الجليل أن تتقبل خطابي هذا، فإن محبة المسيح تحصرني أن أوجهه إليك، ولا سيما منذ سمعت أن الكرازة بإنجيل الخلاص تنتشر من يوم لآخر بفضل مجهوداتك التبشيرية ومناداتك بكلمة الله الطاهرة النقية. من أجل هذا أقدم الشكر والحمد لله السرمدي الذي أنارنا من جديد، وأرسل إلينا بروحه القدوس طلائع كثيرة مثل هذه تحمل كلمته المباركة. وإني في الوقت نفسه أرفع إليه تعالى أحر الصلوات وأعمق التضرعات أن يوشحك بالقوة مع جميع الذين ينادون بأخباره المُفرحة، وأن يُسلحكم جميعًا ضد أعداء الحق، حتى تتغلغل كلمته إلى جميع القلوب وتنمو معرفته لدى جميع الناس. أيها العالم الجليل إني أتجرأ أن أُرسل إليك الهدية الزهيدة المرافقة لهذا كعلامة لمشاعري وعواطفي من نحوك، أرجو أن لا تحتقرها، فإنها تقدمة محبة مسيحية. وإذا كان هذا المعجون يفيدك وتحتاج إلى المزيد منه فاخبرني من فضلك، فغاية سروري أن أعمل ما فيه خدمة لك. ولستُ أقول ذلك وحدي، بل جميع اللواتي يحببن الإنجيل في ديرنا في كونجْزفلِت، وإنهن جميعًا يحيينك أحسن تحية في المسيح يسوع. ونستودعك جميعًا وبلا انقطاع لحمايته القديرة ورعايته الصالحة".

وإذ رأين أولئك السيدات التقيات أنهن يستطعن خدمة الإنجيل خارج جدران الدير أكثر من داخله، قدّمن التماسًا إلى الحكومة بالسماح لهنّ بمغادرته، فارتاع المجلس من هذا التصرف الغريب وحاولوا جهدهم أن يقنعوهن بالعدول عنه والبقاء في الدير، إذ إن النظام سيختل

والمصاريف ستزداد، فكان جوابهن "إنها ليست حرية الجسد التي نطلبها بل حرية الروح". وإذ أصررن على طلبهن لم تسطع الحكومة أخيرًا إلا التسليم لرغبتهن. وقد جاء القرار الذي صدر بتحريرهن حاويًا لفقرة عامة تبيح نفس الحرية لكل من ترغب فيها بموافقة والديها، فانفتحت أبواب الدير على مصراعيها، مما أضعف من نفوذ وسلطان روما، وأظهر علانية قوة وانتصارات الإصلاح، إذ أن كثيرات من تلك الراهبات تزوجن بعد ذلك زيجات شريفة.

مجمع بادن

لئن كانت مبادئ الإصلاح قد نمت وانتشرت انتشارًا كبيرًا، إلا أن الحزب البابوي كان لا يزال حزبًا قويًا ونشطًا للغاية، وكان لا بد من خوض غمار معركة حاسمة قبل إعلان النصر النهائي.

فمنذ مجمع زيورخ الأول وأسقف كونستانس، أو بالحري جون فابر ساعده الأيمن ومستشاره الأكبر، يفكر في أية وسيلة هي الأحسن والأفعل في شل حركة الإصلاح والقضاء عليها. فالأوامر الأسقفية قد فقدت احترامها، وكتابة الكتب والمؤلفات لم تعُد لها أية قيمة، لأن المصلحين فاقوا خصومهم في العلوم والمواهب، وبالاختصار قد أصبح كل شيء يدل على أنه لا يُرجى أي نجاح ما لم يُقضَ على زونجلي الذي كانت شهرته في تزايد ونفوذه في تعاظم من يوم إلى يوم.

وقد حدثت حادثة سياسية حوالي ذلك الوقت جعلت البابويين يعتقدون أكثر من ذي قبل أنه لا بد من الإسراع في اتخاذ إجراء حاسم قوي سريع؛ فموقعة بافيا التي دارت رحاها بين فرنسا وجيش الإمبراطور ألقت ظلاً قاتمًا كثيفًا على سويسرا. بينما عكست في الوقت نفسه شعاعًا منيرًا على حكمة زونجلي ووطنيته ومسيحيته، ذلك أن أكثر من عشرة آلاف من الجنود السويسريين المرتزقة حاربوا في تلك المعركة التي كانت وبالاً على فرنسا، فقُتل منهم أكثر من خمسة آلاف ووقع الباقون في الأسر. ولما أُطلق سراح هؤلاء الأسرى وعادوا إلى بلادهم كانوا بأجسامهم المشوهة وهياكلهم الشاحبة النحيلة أشبه بأشباح مرعبة مخيفة، تطوف في كل البلاد وتترك أفظع الأثر في النفوس، فكانوا يقابلون في كل مكان بصراخ وعويل أرامل ويتامى الذين ماتوا في الحرب. وبدأ الشعب يتذكر زونجلي وبُعد نظره، وكم نادى من على منبره مُحذرًا ضد هذه العادة الذميمة من انخراط السويسريين في جيوش الأجانب، التي لا تجلب لهم ولعائلاتهم إلا الخراب والموت الزؤام. وهكذا أخذ الناس يتكلمون عن زونجلي كأصدق مواطن وأحب صديق.

رأى البابويون هذه الحالة، وأدركوا أن الشعور العام قد أخذ يتحول تحولاً قويًا سريعًا إلى ناحية زونجلي، فلا بد من عمل شيء للحد من نفوذه. ولكن ما السبيل إلى ذلك؟ من يستطيع أن يحل المعضل؟ إن الأمر يحتاج إلى حكمة متناهية. وهنا تقدمت إيزابل الخبيرة المحنكة تعرض بضاعتها وتقدم مساعدتها ومشورتها، فأول شيء يجب عمله هو إغراء زونجلي على مغادرة زيورخ، فهو لا شك سيذهب إلى المؤتمر، وبمجرد أن يخرج من دائرة زيورخ يُصبح في يدهم ويمكنهم حينئذ أن يقبضوا عليه ويحرقوه، وبموت الزعيم تموت الحركة كلها. على هذه الصورة وُضعت الخطة وحُبكت المؤامرة وأصبحت النصرة مضمونة وأكيدة، فمتى انحسرت السيول كما قال قائلهم: "فلا بد أن مياه الهرطقة ترجع منخفضة إلى الهوة التي منها خرجت، وجبال الإيمان الأبدية التي كاد الطوفان يغمرها تعود فترفع رؤوسها الشاهقة مرة أخرى وتقف راسخة ومهيبة كما كانت". وقد أبلغ فابر تفاصيل خطته إلى الدكتور إك، الذي نال شهرة عظيمة بين رجال حزبه على أثر محاربته لآراء لوثر في ليبزج، وتم الاتفاق على أن يتولى هو تنفيذ المؤامرة.

بدأ هذا الزعيم البابوي العاتي يدعو إلى محاربة زونجلي، فأرسل الرسائل إلى مختلف المقاطعات يملأها طعنًا وتجريحًا في زونجلي، ويؤكد أن في مقدوره إقناعه بأخطائه وأضاليله لو أتيحت له فرصة الاجتماع به في محفل علني. وكان مما قاله حرفيًا "إني واثق كل الثقة بأني أستطيع بغير عناء كثير أن أؤيد إيماننا وعاداتنا المسيحية الصحيحة ضد كل ما يمكن أن يقوله زونجلي، الذي لا شك قد حلب من البقر أكثر مما قرأ من الكتب". وأخيرًا تقرر عقد مجمع في بادن إحدى المدن البابوية في مايو سنة ١٥٢٦م.

وقد دُعي زونجلي وآخرون من رجال اللاهوت في زيورخ لحضور المجمع، ولكن مجلس الشيوخ رفض الدعوة، وقال المجلس إن إرسال زونجلي إلى بادن معناه إرساله لا ليناقش بل ليموت، فهناك سُفكت دماء آل رث، وتلك المقاطعات هي معقل البابوية، فقد أحرقوا كتبه في فريبورج وصورته في لوسرن، وهم الآن متعطشون لأن يحرقوه هو شخصيًا. والواقع إن الحزب

البابوي لم يحاول مُطلقًا إخفاء نواياه من جهة زونجلي، فقد وصفوه في منشوراتهم وبياناتهم العامة بأنه ثائر وهرطقي ومُحرف للكتب المقدسة. وإزاء هذه التهديدات قرر مجلس زيورخ عدم ذهاب زونجلي إلى بادن واحتجوا مقدمًا ضد القرارات التي قد تُتخذ في المجمع، ولكنهم في الوقت نفسه تعهدوا بضمان سلامة إك فيما إذا قبل المجيء لمناقشة المصلح في زيورخ، ولكن هذا الاقتراح رُفض وانعقد المجمع في بادن بغير حضور زونجلي.

افتتاح المجمع

توجه في الساعة المُعينة فابر وإك إلى الكنيسة، ومعهم لفيف كبير من الأساقفة ورجال الحكم ودكاترة اللاهوت بملابسهم الفاخرة من الحرير والدمقس، تزينهم السلاسل الذهبية والخواتم والصلبان. أما رجال الإصلاح فلم يحضر منهم سوى أكولامبديوس وهالر، وهما رجلان هادئان خجولان. وتقدم إك بمواضيع المناقشة، وهي هي نفسها التي طالما أثيرت في الماضي وأجيب عليها المرة بعد المرة، وهانحن نورد نص "المواد السبع" التي عرضها على بساط البحث كما دونها المؤرخ الكاثوليكي الصريح دي بان، وهي تضع أمام القارئ صورة لتلفيقات البابوية التي من أجلها أقامت الدنيا وأقعدتها، وفي سبيلها كان يحارب البابويون وكانوا على استعداد لأن يسفكوا لا دماء أحسن مواطنيهم فحسب، بل دماء قديسي الله أينما كانوا. وهاك هي المواد السبعة الشهيرة:

١- أن جسد المسيح ودمه الحقيقيين موجودان فعلاً في عُنصري الخبز والخمر على المذبح.

٢- أنهما بالحقيقة يقدّمان في ذبيحة القداس من أجل الأحياء والأموات.

٣- أنه من واجبنا أن نتقدم للعذراء المباركة والقديسين نلتمس وساطتهم وشفاعتهم.

٤- يجب أن تبقى صور وتماثيل يسوع المسيح وقديسيه قائمة في الكنائس.

٥- أنه يوجد مطهر بعد الموت.

٦- أن الأطفال يولدون بالخطية الأصلية.

٧- أن المعمودية تبعد عنهم هذه الخطية(٢/٤٧)، (٧٧).

ولم يتكلم إك إلا مُدافعًا عن عقائد البابوية هذه، ولكن غياب زونجلي خيب أمله وأفسد على المجمع غرضه الحقيقي. كتب أكولامبديوس إلى زونجلي يقول "إني أشكر الله لأنك لست هنا. إن الاتجاه الذي اتخذته الأمور يدلني دلالة صريحة على أنك لو كنت موجودًا لمات كلانا. كم من ضجر وملل يظهرون في الإصغاء إلى ما أقول، ولكن الله لن يترك مجده، وهذا كل ما نبغي ونريد". وأخيرًا أصدر المجمع الذي كان تحت سيطرة إك المطلقة قرارًا بحرمان زونجلي وكل أتباعه، وبصفة خاصة طلب إلى مجلس شيوخ بازل تجريد أكولامبديوس من وظيفته ونفيه من البلاد، وكذلك حرم تحريمًا باتًا بيع كتب لوثر وزونجلي، ومنع كل تجديد في العبادة أو التعليم، وكل من يُخالف ذلك يُعرض نفسه لأشد العقاب.

وقد غالى البابويون كثيرًا في وصف انتصارهم في بادن، ولكن الانتصار في الواقع كان ظاهريًا لا غير، فبازل قد فتحت أحضانها لإكلامبديوس وقابله الشعب بكل تهليل وترحاب، وهالر استمر في خدمته رغم الحرمان الصادر ضده، بينما طلبت مقاطعات زيورخ وبرن وبازل وشافهون الإذن بمناقشة قرارات المجمع، ولما رُفض طلبهم قرروا عدم الإذعان لها.

وقد كان من أثر المجادلة التي حدثت عقب رجوع هالر والمندوبين الآخرين من بادن أن وضعت قوة الطرفين في كفتي الميزان، فقبل المجمع بستة شهور كان قداس ذبيحة الأفخارستيا قد أُلغي في برن، والآن عملاً بقرارات بادن قرر المجلس المصغر إعادة القداس، ولكن المصلح رفض واستأنف المسألة إلى المجلس الموسع، ولا شك أن أعضاء هذا المجلس شعروا بدقة الموقف وحرج مركزهم. هل يلغون مرسوم ١٥٢٣ المتساهل ويؤيدون ١٥٢٦م المتشدد الداعي للاضطهاد؟ هنا جاء الشعب يُعضدهم ويعينهم على اتخاذ الطريق القويم، فالجمهور الذي كان يحب هالر حبًا شديدًا عقد اجتماعات تضم الآلاف، واتخذوا بعض القرارات، متعاهدين ومصممين على أنهم لن يُحرموا من راعيهم المحبوب، وإزاء هذا الصوت القوي من جانب الشعب قرر المجلس الأكبر بأن يستقيل هالر من وظيفته الرسمية، ولكنه يستمر يؤدي واجبه دون أن يُمارس إقامة القداس. على أن الوقت كان قد مضى الذي فيه كانت الجماهير تخضع للمراسم البابوية أو الإنذارات الكنسية، فقد نضج الرأي العام وأصبح من

المُحال التحكم في شعور الناس. وكانت الهوة التي تفصل بين الحزبين البابوي والبروتستانتي تزداد اتساعًا يومًا بعد يوم، وشعور العداء بين الطرفين يزداد حدة وقوة.

فحدث أن المقاطعات الكاثوليكية، أي التي كانت لا تزال متمسكة بالتعاليم القديمة، وهي لوسرن وأوري وشفيتز وأنترفالدن وتسوج، والتي يُشار إليها عادة "بالخمسة" انتهزت فرصة ما كانت تحسبه بعض التردد في برن وقدمت مساعدتها، طالبة من السلطات أن تسمح لها بإيفاد مندوبين من طرفها للدفاع عن الإيمان القديم. ولكن هذه الرسالة لحسن الحظ جرحت كبرياء برن المقاطعة العسكرية، فأجابت الحكومة بالقول: "إن مثل هذه السفارة لا داعي لها، فإن شعب برن كفيل بإدارة شئونه، وإن العناية بأمر دينهم هي من أخص شئونهم". وفي الوقت نفسه أعلنوا عدم ارتباطهم بالتعهدات التي التزموا بها في مجمع بادن على يد مندوبيهم الذين حضروا هذا المجمع، وأصدروا قرارًا أيدوا به مرسوم ١٥٢٣م وحددوا ميعادًا لمناقشة عامة تدور في مدينتهم في الشتاء التالي، فيها يتخذون قرارًا نهائيًا في المسائل موضوع النزاع.

الاجتماع العظيم في برن

وصلت الدعوة إلى أساقفة كونستانس وبازل وزيون ولوزان، وجميع دكاترة اللاهوت المشهورين هناك لحضور هذا الاجتماع الكبير، وإلا فإن برن تضع يدها على كافة ممتلكاتهم التي قد تكون واقعة في حدودها، كذلك صدرت الأوامر لجميع لاهوتي برن بالحضور، مقررين أن الكتاب المقدس سيكون المرجع الوحيد في هذا الاجتماع الخطير، الذي لا بد فيه من الوصول إلى حل نهائي لهذا الموضوع. ونشروا في الوقت نفسه عشر مواد باعتبار أنها هي التي تتمسك بها الكنائس الإصلاحية، وأن عليها ستدور المناقشة وهي:

١- أن الكنيسة التي يسوع المسيح هو رأسها الوحيد قد نبعت من كلمة الله، وأنها تقوم على أساس هذه الكلمة وحدها.

٢- على الكنيسة أن لا تراعي أي قانون آخر وهي ليست خاضعة لتقاليد الناس.

٣- أن موت المسيح على الصليب كافٍ للكفارة عن خطايا جميع العالم، وكل من يسعى للحصول على الخلاص بأية وسيلة أخرى يُنكر يسوع المسيح.

٤- لا يمكن البرهنة مطلقًا من كلمة الله على أن جسد المسيح ودمه الحقيقيين موجودان في عنصري العشاء الرباني.

٥- أن ذبيحة القداس تناقض الكتاب وتتعارض مع ذبيحة المسيح.

٦- أن المسيح هو الوسيط والشفيع الوحيد لشعبه عند الله الآب.

٧- أنه لا يمكن البرهنة من الكتاب على وجود مطهر بعد الموت، فالصلوات والحفلات والجنازات السنوية التي تُقام للأموات هي بلا قيمة ولا نفع فيها.

٨- أن عبادة الصور والتماثيل وما شاكلها مخالفة لكلمة الله.

٩- أن الزواج غير مُحرم على أية طبقة من الناس.

١٠- جميع الأشخاص الفاسقين يجب عزلهم من الكنيسة، لأنه لا شيء يتنافى مع كرامة الكهنوت أكثر من عزوبية فاسقة (٢/٦٧)،(٣/٧٢)،(٤/٤٤)،(٧٧).

وكان طبيعيًا أن يتجه هالر، واضع هذه المواد العشر، إلى زونجلي لكي يمد له يد المساعدة في الدفاع عنها. فكتب له يقول "إذا لم تمد يدك إليّ فقل على كل شيء السلام". وقد كانت الكفتان بحسب الظاهر غير متعادلتين، فمن الجانب الواحد البابوية بجيوشها وقواتها ونظامها القديم وتقاليدها المتوارثة عن الأجداد، ومن ورائها عصور وأجيال تسندها بالتعصب لكل أثر قديم، كما تسندها وتشد أزرها قوات السلطة المدنية في كل مكان. ومن الجانب الآخر برتولد هالر خادم الإنجيل الوادع الهياب، ولكن هناك سيف الروح الذي لا يُقهر. ومع ذلك كان على خادم الرب أن يجتاز في تدريبات نفسية عميقة قبل أن يختبر ضعف ذاته وأين قوته العُظمى الصحيحة. أما زونجلي وأكولامبديوس فقد وعداه بمساعدتهما.

وها هي اللحظة الفاصلة كانت تقترب، وها هي حركة الإصلاح في سويسرا كلها معلقة في كفة الميزان تنتظر مصيرها النهائي في الاجتماع المقبل.

المعارضة في روما

قام الحزب الكاثوليكي في روما وقعد عندما سمع بخبر هذا المؤتمر الخطير المزمع عقده في برن، وخشوا من النتائج الحاسمة التي قد تترتب عليه، فراحوا يبذلون جهد الجبابرة لمنعه. وعلى

الأثر اجتمعوا في لوسرن واحتجوا بشدة على المؤتمر، وأرسلوا يلفتون نظر البرنيين إلى قرارات بادن وكفايتها لحسم النزاع القائم والفصل في المسائل موضوع البحث. كذلك انزعج كاثوليك ألمانيا، فأرسلوا احتجاجًا شديدًا لحكومة برن، محاولين إقناعهم بالعدول عن فكرة المؤتمر "مستعطفين إياهم أن يحذروا ولا ينخدعوا بالبدع والمستحدثات بتأثير أفراد قلائل أغراب، بل يتمسكوا بدين آبائهم وأجدادهم الذي تحت ظلاله نالوا انتصارات مجيدة عديدة واتسعت حدود ممتلكاتهم اتساعًا عظيمًا". ولكن هذا الكلام المعسول لم يؤثر على حكومة برن، فأجابت بنبل "إن دين المسيح وخلاص النفوس وسلام الجمهورية في خطر، وإنه لا شيء يستطيع أن يزحزحهم عن قرارهم الذي اتخذوه على هذا الأساس". ولكن محاولات الكاثوليك لم تقف عند هذا الحد، بل لجأوا إلى وسائل أخرى من الإقناع والتهديد، فحاولت حكومة فريبورج إثارة خواطر أهالي برن وحملهم على الثورة والعصيان ضد حُكامهم، كما رفضت جوازات السفر للخدام الإنجيليين، ومنعت جميع الأشخاص من المرور في أراضي المقاطعات الكاثوليكية في طريقهم إلى المؤتمر. ولم تقف مشغوليات الإمبراطور الكثيرة حائلاً في سبيل إرسال بلاغ لحكومة برن حاثًا إياهم على تغيير فكرهم والاكتفاء بإحالة الموضوع كله على مجمع عام.

وللقارئ أن يكوّن رأيه الخاص في البواعث التي جعلت الكاثوليك يوحدون كل مجهوداتهم لمنع المؤتمر. والواقع أن لا شيء جعلهم يقفون هذا الموقف سوى رعبهم من نور الإنجيل، فالكاثوليكية لا يمكن أن تعيش إلا في الظلام الدامس فيما يتعلق بحق الله. ولكن جميع احتجاجاتهم وتهديداتهم ذهبت عبثًا، فمجلس برن كان حازمًا، والمبادئ الإنجيلية كانت قد انتشرت بين جميع الطبقات وتغلغلت إلى أعماق النفوس لدرجة أن كل محاولة لصد التيار وعرقلة قضية الإصلاح كان لا بد أن تؤدي حالاً إلى ثورة شعبية وحرب طاحنة.

افتتاح المؤتمر

وفي يوم ٧ يناير ١٥٢٨م بدأ المؤتمر العظيم جلساته، ولم يحضر أحد من كبار الإكليروس المدعوين، كما لم يحضر إلا عدد قليل من رؤساء الحكومات، ولكن مع ذلك جاء إلى المجمع عدد غفير من العلماء ورجال الدين من كافة أنحاء سويسرا والممالك المجاورة، فحوالي مائة معلم إنجيلي من جلاريس وشافهوزن وسانت جول وكونستانس وأولم ولنداو وإيزناخ وأوجسبرج وستراسبورج وأماكن أخرى توجهوا أولاً إلى زيورخ، لكي من هناك يرافقوا زونجلي ويذهبوا معًا إلى المؤتمر، ولكن هكذا كان مبلغ شكوك الزيورخيين نحو نوايا البابويين وخوفهم على حياة مصلحهم وسلامته حتى قرروا رسميًا إرسال حرس قوي لمرافقته ومن معه.

وقد اجتمع في المؤتمر أكثر من ثلاثمائة وخمسين من خدام الإنجيل، والحق أن كثيرين من هؤلاء الرجال الأفاضل يستحقون مكانًا رحبًا في صفحات تاريخنا من أجل الرب، ولكننا لا نستطيع إلا أن نذكر بعض الأسماء القليلة، فمنهم هالر الذي كان يؤيده زونجلي، وأكولامبديوس وكابيتو وبوشر، وهم زهرة حركة الإصلاح في سويسرا وستراسبورج، ومنهم أيضًا بليكان وبولنجر وبلورر وهوفميستر وميجندر وزنك وشمدت وعمدة المدينة رويست وفديان قنصل سان جول. أما من الجانب البابوي فقد تركت القضية كما يقول وادنجتون "في حماية أيدي ضعيفة من رجال لا علم ولا مواهب لهم، ولا شهرة ولا سلطان، ولا يمكن مقارنتهم بزعيمي البابوية المشهورين إك وفابر، وهم إليكسيوس جراد وتريجريوس وبوخشتاب وإجيديوس، وكلها أسماء لم يرد ذكرها في أي مناسبة أخرى في صفحات التاريخ. بينما مركز هالر كانت تحوطه وتدافع عنه حامية قوية من العلم الغزير والمواهب المدربة القوية". وهكذا لم يقُم الحزب البابوي إلا بمحاولات ضعيفة لتشويه روعة الإجماع من جانب المُصلحين، وفيما عدا ذلك لم يحدث شيء في المؤتمر يستحق الذكر والاهتمام وخصوصًا من قراء العصر الحديث.

لائحة المؤتمر

تعين للمؤتمر أربعة رؤساء. وحرصًا على تدوين كل شيء يحدث أو يُقال في المؤتمر بكل دقة وأمانة انتخب المجلس أربعة سكرتيرين - اثنين من كل حزب - حلفوا اليمين على أن يؤدوا مهمتهم في تدوين محاضر الجلسات بكل أمانة. وقد انعقد المؤتمر في كنيسة الفرنسيسكان، واستمرت جلساته من ٧ يناير إلى ٢٨منه. وكان يعقد كل يوم جلستين تُفتتح كل منهما بالصلاة. وأعطيت الحرية المطلقة للحزبين في المناقشات بشرط واحد وهو "عدم

قبول أي دليل من خارج الكتاب، وعدم قبول أي تفسير ما لم يكن له سند من الكتاب، الذي هو وحده هو الحَكَم الوحيد مفسرًا نفسه بنفسه، وذلك بمقارنة ما يبدو غامضًا من نصوصه بنصوص أخرى أوضح منها". وعلى هذا الأساس بدأ المجلس في مناقشة مواد هالر العشر واحدة بعد الأخرى. وقام زونجلي وأكولامبديوس وكابيتو وبوشر يدافعون عنها الواحد بعد الآخر دفاعًا مجيدًا موفقًا، حتى أن غالبية رجال الإكليروس في برن وزعماء الدومينيكان وقعوا على المواد معلنين حكمهم أنها في تمام الاتفاق والمطابقة للكتب المقدسة. وعندئذٍ قام رؤساء المجلس يطلبون إلى الحُكام اتخاذ ما يرونه لازمًا وحكيمًا وعمليًا من الإجراءات لصالح الدين وصيانته.

نتائج المؤتمر

بدأت السلطات تنفذ مباشرة مشورة رؤساء المؤتمر، فأزيلت المذابح من الكنائس وأبيدت الصور والتماثيل بغير قلاقل أو سفك دماء. وأذاعوا على الأثر، بموافقة الأهالي، مرسومًا بالمواد العشر باعتبار أنها عقيدة الجميع، معلنين بنفس المرسوم حرمان الأربعة الأساقفة من ممارسة سلطتهم القضائية داخل حدود أراضيهم، مع فصل المُعادين لحركة الإصلاح من عمداء القرى، وإلغاء القداس والصور من جميع أنحاء برن إلى الأبد. وهكذا تم سقوط البابوية سقوطًا تامًا ونهائيًا في كافة أرجاء هذه المقاطعة الواسعة، وتلاشت بين عشية وضحاها جميع الأصنام التي سادت في البلاد وتحكمت في نفوس الناس زهاء ألف ومائة سنة!

فمنذ أن اعترف قسطنطين بالمسيحية وجعلها طريقًا للرقي العالمي، والجنود والحُكام يتدفقون إلى الكنيسة. ولكن واحسرتاه! فقد جاءوا إلى الكنيسة بأصنامهم وأوثانهم، ومن هنا كانت التماثيل والصور والرسوم والزخارف وأشباه الآلهة، والاحتفالات والأعياد ومظاهر الفخفخة والعظمة، وتوارت كلمة الله وفقدت سلطانها ومكانتها في الكنيسة، وسادت الوثنية وملأت رحاب الكنيسة الاسمية، وكل ذلك توددًا منها للحكام ورغبة في كسب رضائهم والتمسح بأعتابهم. وهكذا من القرن الرابع إلى السادس عشر كانت الوثنية هي السائدة والمتسلطة، ولكن ها هنا نرى شخصًا أعظم من قسطنطين، وهو ابن راعٍ من رعاة غنم توكنبرج، هذا زونجلي راعي كنيسة زيورخ المتواضع المسكين، ها نحن نراه ينتصب أمامنا بالنعمة، بطلاً نبيلاً مُدافعًا عن كلمة الله، وخصمًا عنيدًا لا يلين ليهودية روما ووثنيتها. أي نعم هوذا الرجل المتواضع يقف أمامنا كأشرف وأنبل مثال يقدمه لنا القرن السادس عشر برمته. فلوثر كان مُصلحًا عظيمًا قويًا من حيث التعليم، ولكنه كان ضعيفًا تجاه الوثنية وأصنامها. أما زونجلي فكان بطلاً مقدامًا وفارسًا مغوارًا في كليهما. فها هو بنعمة الله وقوة الروح القدس يُعيد الكتاب المقدس من منفاه، ويجعله يتبوأ مكانه الصحيح اللائق به، مطهِّرًا الكنيسة من مساوئها ومخازيها القديمة، ومدحرجًا عنها عارها الذي لصق بها كل هذه السنين. فقبل أن يُغادر برن توجه إلى الكاتدرائية حيث كان قد هُدم خمسة وعشرون مذبحًا، وجيش عرمرم من الصور والتماثيل. وإذ وجد طريقه بين هذه "الخرائب" صعد إلى المنبر بين الجماهير الحاشدة وفي تأثر عميق نادى قائلاً "شكرًا لله، ها هو الحق ينتصر، ولكن النصرة الشاملة الكاملة تتوقف على المثابرة وحدها. إن المسيح ثابر حتى الموت، فاثبتوا أيها الإخوة الأحباء في الحرية التي حرركم بها المسيح، ولا تعودوا ترتبكون بنير عبودية بعد الآن. لا تخافوا. إن الله الذي أنار كم سينير حلفاءكم أيضًا، ولا بد أن سويسرا كلها، التي أيقظها الروح القدس، ستتمتع عن قريب بأفراح البر والسلام التي لا حد لها".

وقد اكتمل العمل في هذه المقاطعة سريعًا. فكما يقول المؤرخ "صدرت الأوامر لأفراد الشعب بلا استثناء بعدم الطاعة فيما بعد للسلطات الأسقفية، وإعفاء جميع الشمامسة والرعاة وكافة خدام الكنيسة من يمين الولاء للأسقف، وأزيلت جميع المذابح والصور والتماثيل، كما أُلغي القداس في كافة أنحاء المملكة. وكذلك أُلغيت قائمة المواسم البابوية الطويلة من مراسم وطقوس، وأعياد قديسين، وتدشين كنائس، واستعمال ملابس مقدسة، وأصوام وأعياد". وبدأت العاصمة تسير على طريقة العبادة الجديدة. ولم تمضِ إلا شهور قليلة حتى تبعتها في ذلك كافة البلديات الأخرى.

رحمة الإنجيل

ندر أن رأينا في تاريخنا نصرة عظيمة تصاحبها أعمال رحمة. ولكن ها نحن الآن، والآن فقط بالأسف، نرى شيئًا جديدًا في المسيحية، لم يكن هكذا قطّ في أيام حكم إيزابل. التي كانت تقضي على أولادها الذين تظنهم عصاة إما بإغراقهم في الدماء وقطع

رؤوسهم بحد السيف، أو بحرقهم وإبادتهم بالنار. ولكن طرق البابوية ومبادئها تتنافى على خط مستقيم مع طرق الإنجيل ومبادئه. فالأولى سلاحها السيف والنار أما الثاني فسلاحه المحبة والرحمة.

ففي برن نرى الحكومة والشعب يحيون نصرتهم العظيمة، نصرة الحق الهائلة بتهاليل الفرح العام وأعمال الإشفاق والرحمة، ففتحت الحكومة أبواب السجون وصدر العفو عن رجلين كان محكومًا عليهم بالإعدام، وأعيد آخرون كانوا مبعدين من البلاد، ورجع المنفيون إلى أوطانهم وبيوتهم. وهكذا سارت المحبة في إثر الإيمان وموكب الانتصار. كتب بولنجر يقول "وانطلقت صيحة عظيمة تردد صداها في أرجاء البلاد كلها. في يوم واحد سقطت روما في جميع أنحاء المملكة، في غير خيانة أو قسوة أو إغراء أو تحايل، بل بقوة الحق وحده". وسلّم الرهبان أديرتهم للحكومة، وخُصصت أموالها للأعمال الخيرية والأغراض العلمية، وتحولت البيوتات الدينية إلى مدارس ومستشفيات، ومنها دير كونجزفلت الإمبراطوري، الذي خُصص لنفس هذه الأغراض النافعة. وما أجمل ما كان يقوله الأهالي "لو أن ملكًا أو إمبراطورًا متحالفًا معنا زار مدينتنا أما كنا نتهلل ونفرح ونغفر الذنوب ونُحسن إلى الفقراء؟ وها هو الآن ملك الملوك، رئيس السلام، ابن الله، مخلّص البشر، يزورنا حاملاً إلينا غفران خطايانا، نحن الذين لا نستحق إلا الطرد الأبدي من أمام وجهه، أفما نفرح لمقدمه، وهل نستطيع أن نُحيي دخوله مدينتنا بأحسن من غفراننا للمذنبين إلينا؟".

وعلى هذه الوتيرة عينها تولدت في البلاد نهضة أدبية وسياسية لم تكن أقل نُبلاً وشرفًا من تلك النهضات المباركات التي كانت تسير في ركاب حركة الإصلاح أينما تم لها الفوز والانتصار، فصدر قانون يُحرّم الانخراط في سلك جيوش الممالك الأخرى، كما أُلغيت الامتيازات الأجنبية.

وفي عيد القيامة احتفل المسيحيون بعشاء الرب لأول مرة كما وضعه الرب ومارسه الرسل. أما في زيورخ فكان الاحتفال مهيبًا ورائعًا إلى أقصى حد، فقد خرج الناس رجالاً ونساء بلباس الحشمة والوقار، وجلسوا جميعًا حول مائدة الرب التي اعادت للأذهان البساطة السويسرية القديمة، فقد اختلط رؤساء الدولة بأفراد الشعب وجلسوا جميعًا معًا، وكل منهم يشعر بأن الرب حاضر معهم، حتى قال هوفمايستر متعجبًا "كيف يأبى خصوم كلمة الله أن يعانقوا الحق أخيرًا بعد أن شهد له الله نفسه مثل هذه الشهادة الرائعة؟".

هكذا قامت حركة الإصلاح في برن وهكذا استمرت حتى يومنا الحاضر. فإذا كانت المناقشة في بادن قد أكسبت الحزب البابوي شيئًا من القوة الوقتية، فإن ما حدث في برن وما صادفه الإصلاح فيها من قوة ونجاح كان أكثر بكثير مما كسبته روما، ذلك أن "أهالي كونستانس وشافهوزن وسان جول وجلاريس وتوكنبرج وأماكن أخرى، حيث الجهاد كان لا يزال قائمًا والنضال لم يصل بعد إلى نتيجة حاسمة، قاموا جميعًا على أثر الأخبار من برن وأعلنوا تمسكهم بالإصلاح، مقدمين البرهان المعتاد على غيرتهم الإنجيلية بإلغاء الصور والتماثيل والمذابح والقداس *".

الإصلاح في بازل

أجمع المؤرخين على أن انتصارات الإنجيل في برن كان لها أكبر الأثر في جميع المقاطعات الأخرى، وبصفة خاصة في المقاطعات التي كانت المبادئ الإصلاحية قد دخلتها من قبل. بل يذهب البعض إلى أبعد من ذلك فيقررون أن كل سويسرا قد تحركت بفعل تلك الخطوة الجريئة الحاسمة التي خطتها تلك المقاطعة القوية في طريق حركة الإصلاح، فيقول المؤرخ ويلي مثلاً "إن هذه الخطوة نفخت روحًا جديدًا في القضية البروتستانتية، ومنحتها حياة جديدة في كافة أنحاء المملكة، ففي الغرب فتحت الباب لدخول المذهب البروتستانتي إلى سويسرا الفرنسية، وفي الشرق نشطت الحركة في سويسرا الألمانية، فنجحت نجاحًا تامًا في المدن والقرى التي كانت المبادئ الإصلاحية آخذة في النمو فيها. أما في الجنوب، أي من الحدود الإيطالية إلى حدود الغابة السوداء حيث تقع بازل على ضفاف نهر الرين، فقد سرت روح الحركة في الشعب واتقد الحماس في المصلحين. ولم يبقَ سوى منطقة الجبال العالية الواقعة في وسط المملكة حيث البحيرات

* إن أردت تفصيلات أكثر عن هذه النصرة العظمى فانظر سكوت(٢/٧٢) حيث يقتبس من مذكرات بوشر عن الاجتماع وكذلك من مذكرات منستر وجردير وروشات وآخرين. أما المؤرخ دي بان فيبرر غياب الأربعة الأساقفة قائلاً: "إن المنازعات الخاصة بشئون الإيمان لا يجب حلها بالكتاب المقدس وحده لأن كل واحد يفسر الكتاب عندئذ بحسب هواه ... ولكن ناموس الله قد أوجد طريقة أخرى للفصل في كل الشُكوك الدينية وذلك بإحالتها إلى البابا والخضوع والحكمة". هذا هو منطق أعوان البابوية ونوع تفكيرهم، وهو يدل على مبلغ العمى الذي يُخيم على أعقل وأعلم وأخلص أبنائها.

والأنهار الجليدية، فهذه وحدها لم تتحرك، ولكن في الواقع لا يمكن أن يُقال إنها لم تتحرك مُطلقًا، فإن نصرة برن بعثت برعشة من الدهشة والخوف والفزع إلى تلك الأراضي أيضًا"(٢٧٨).

ولكن إصلاح بازل المدينة العلمية كان بلا ريب أعظم ثمر من أثمار الخطوة الحاسمة التي خطتها برن المدينة الحربية، فأهمية بازل في التحالف السويسري تقع في الترتيب بعد زيورخ وبرن. وقد سبق أن تكلمنا عن بازل عندما كنا نتأمل في نشأة زونجلي وليوجودا، حيث رأيناهما عند أقدام العالم الشهير وتنباخ، أول من بذر بذور الإنجيل الصالحة في سويسرا. وقد جاء بعد ذلك كابيتو وهديو على التوالي، فرووا تلك البذور الصالحة، بصلواتهما وتفاسيرهما لإنجيل نعمة الله، وفي سنة ١٥٢٢م جاء مبشر فاق هؤلاء وهو أكولامبديوس. وهنا أيضًا قام فروبن الشهير بطبع مؤلفات لوثر ونشرها في كل سويسرا والممالك الأخرى.

الشعب يسبق الحكومة

ظل الإنجيل زهاء ست سنوات يُنادى ويُكرز به بكل أمانة بواسطة خادم الرب المتواضع التقي أكولامبديوس، ولكن مع كل ما كان عليه أكولامبديوس من علم ومقدرة كانت تنقصه الشجاعة ويعوزه الحزم، حتى لقد قال البعض إن ما كانه ملانكتون بالنسبة للوثر المتشدد كانه أكولامبديوس بالنسبة لزونجلي الحازم الشجاع. على أن الطبقات الوسطى من الشعب كانوا قد تعلموا من راعيهم ما جعلهم أكثر استعدادًا وميلاً لقبول تغيير في الحالة الدينية من السلطات الحاكمة. يقول دوبينيً "كانت هناك ثلاث طبقات أرستقراطية: طبقة كبار الإكليروس، وطبقة الأشراف، وطبقة رجال الجامعة. وهؤلاء كانوا يعرقلون اتساع نطاق حركة الإصلاح". وإذ لم تُدرك هذه السلطات الفرصة المناسبة للخضوع للرأي العام اضطرت أخيرًا رغمًا عنها للتسليم لطبقات العامة والسير تبعًا لأوامرهم. والشيء الذي كان ينبغي أن يتم سلميًا بصفته إصلاحًا تم أخيرًا، بسبب مماطلة الحكام، بواسطة ثورة عنيفة جامحة.

فقبل هذه الحركة الجديدة عام ١٥٢٨م بسنين قليلة أصدر مجلس الشيوخ قرارًا فحواه أنه "يجب أن يكون في كل مكان تناسق في العبادة، ويجب بحث موضوع القداس في مجمع عام يُعقد لهذا الغرض في المستقبل القريب والوصول إلى قرار حاسم بشأنه بواسطة المناقشة وأخذ الأصوات". وقد ظن المجلس أنه بهذا القرار قد وضع أساسًا للسلام العام، ولكن ككل أنصاف الحلول التي يلجأ إليها المسئولون في مثل هذه الأوقات المضطربة فشل هذا القرار في إحداث النتيجة المرجوة. فاستمر الكاثوليك والمصلحون يعتدون على بعضهم البعض خفية وجهارًا، ولكن بسبب ما كان يُظهره أنصار البابوية من وقاحة نادرة وحقد وقسوة متزايدة بدأ الناس يخشون من أن يكونوا مستندين على نفوذهم في مجلس الشيوخ. وهذا الشك أهاج البروتستانت، فبدأوا يعقدون فيما بينهم اجتماعات كبيرة للتشاور فيما يجب عمله، ولكنهم قبل كل شيء أرسلوا وفدًا إلى مجلس الشيوخ يذكرونهم بنص القرار السابق وبضرورة احترام هذا القرار.

كان هذا في تمام التطابق مع القانون، ومتفقًا غاية الاتفاق مع المبادئ الجمهورية المقررة، ولكنه لم يحسن في أعين أصدقاء البابوية، الذين كان يقطن معظمهم في بازل الصغرى على الضفة الأخرى من الراين، فاجتمعوا مسلحين وحاولوا بسيوفهم وحرابهم منع الوفد من المرور إلى قاعة المجلس البلدي. وكان في الجانب الواحد ملتنجر العمدة وأحد زعماء البابوية الجريئين، وصاحب نفوذ كبير في المجلس، وهذا رفض الالتماس بعجرفة وكبرياء. وفي الجانب الآخر كان ماير، وهو أيضًا عمدة وصديق لحركة الإصلاح لا يقل غيرة وحماسًا عن ملتنجر، ومن ورائه قوة الشعب. إزاء هذا كله كان التصادم لا بد منه، حتى قال أكولامبديوس "إن الساعة الرهيبة تقترب، وهي ساعة لا شك مرعبة لأعداء الله". وقد حدثت مناقشات كبيرة حادة بغير نتيجة، فتظاهر المجلس بالحياد والتجأ إلى الكلام اللين، فنصح الفريقين بالانسحاب وقتيًا إلى منازلهم، ولكن الفرصة كانت قد مضت والعمل جاء متأخرًا، والعاصفة كانت تتزايد. فلم يقف المندوبون موقف الحزم فقط، بل طالبوا بأن "الشيوخ الذين كانوا يشجعون التعاليم البابوية ممتهنين القرار وعاملين على تزايد الاضطراب والشقاق يجب تجريدهم من مراكزهم". ولكن المجلس رفض هذا الطلب. ومن تلك اللحظة تزايد الهياج والاضطراب، وسرعان ما أصبحت بازل كمنطقة حربية في مقدور شرارة واحدة أن تحولها إلى منطقة قتال.

بازل في حالة حصار

في ليلة ٢٥ ديسمبر اجتمع أعوان الأسقف، مدفوعين بروح الفزع التي استولت عليهم من جراء التطور الأخير، حاملين سلاحهم بعد أن أطلقوا نداء أن جيشًا نمساويًا قادم لمعونتهم. هذا كان أول انحراف رسمي على الطريق القانوني. وإذ وصل هذا النداء إلى أسماع البروتستانت قاموا مسرعين من مخادعهم، وتناولوا أسلحتهم وخرجوا زرافات إلى المكان المدعو "ساحة الحدائق" وهو مكان اجتماعهم المتفق عليه. وإذ انتشرت أخبار ما كان جاريًا في بازل جاء إليها مندوبون كثيرون من كل المقاطعات البروتستانتية والكاثوليكية رغبة في المشاركة والوساطة. ولكن المصلحين من الأهالي كانوا ينتظرون بفارغ الصبر قرار الحكومة، وقد ظل الفريقان يحملون سلاحهم عدة أيام وليالٍ، وقد أُغلقت جميع أبواب المدينة ماعدا اثنين، وعسكر رجال الحراسة في كل مكان. وفي الوقت نفسه استمر المجلس في جلساته يصدر القرارات واحدًا بعد الآخر، ولكنها جميعًا كانت قرارات مبتورة غير حاسمة فزادت الموقف تعقيدًا وهياجًا، واشتدت الأزمة بدلاً من انفراجها. أما البروتستانت فحرصًا منهم على ما هو لائق بمجد المسيح وسلامة الشعب وخير الأجيال القادمة أعادوا الكَرة مقدمين طلباتهم إلى المجلس، وطالبين ردًا سريعًا من جديد.

وفي ٨ فبراير ١٥٢٩م أجاب المجلس أن الشيوخ المطلوب عزلهم "يمتنعون عن إعطاء أصواتهم في المسائل الدينية، ولكنهم يحتفظون بمقاعدهم وأصواتهم في كافة الأمور الأخرى". غير أن الشعب خشي أن يكون وراء المهلات المطلوبة وأنصاف الحلول المقترحة شر مبيت، وأن حرياتهم المدنية نفسها قد تكون هي الأخرى في خطر مثل حرياتهم الدينية. وإذ امتلأت نفوسهم بهذه المخاوف هجموا على أبواب المدينة وأبراجها واستولوا عليها استيلاءً حربيًا، وطلبوا عزل الأعضاء المشكوك فيهم بلا إبطاء. ومهما كان هذا العمل مُخالفًا في حد ذاته لروح إنجيل السلام، وهو لا شك كذلك، ولكن يجب أن لا ننسى مبادئ الحكومات الشعبية والتربية التي نشأ عليها هؤلاء الناس، وأنهم لم يكونوا إلا خارجين من عهد قريب من ظلمات البابوية. ولكن مع ذلك كانت هناك العناية الربانية التي تسامت فوق هذه الثورة الفظيعة، فلم تُسفك فيها نقطة دم واحدة مع أنها تمخضت عن نصرة حاسمة عظيمة.

وقد استمر صبر الأهالي معرّضًا لأقسى المحن والتجارب خمسة عشر يومًا بسبب سياسة المجلس المترددة. وقد أصبحت بازل قاب قوسين أو أدنى من حرب أهلية طاحنة، بل ومن "حرب منازل". وكانت شكوك الخيانة تحوم حول مجلس الشيوخ. أما صيحة الكاثوليك فكانت "القداس! القداس! أو السلاح، السلاح!"، مع عاصفة من السباب والشتائم والتهديدات الدموية. وكان جواب البروتستانت "لا قداس، لا قداس! لا قداس واحد بعد اليوم، فدون ذلك موتنا جميعًا". فأسقط في يد المجلس. أما أكولامبديوس فعاد إلى منبره ينادي بالوداعة والصبر بأسلوب ومسحة مؤثرة، جعلت الشعب يذرف الدموع. وارتفعت الصلوات إلى الله لكي يرشد خطواتهم إلى ما فيه مجده وخلاص شعبه من خرافات روما. وإذ كانوا يؤمنون بإخلاص أنهم إنما يكافحون من أجل حرياتهم المدنية والدينية، عقدوا النية على عدم التسليم بحال من الأحوال. وهنا توجه ألف ومائتا رجل مدججين بالسلاح ووقفوا أمام المجلس صائحين "نريد قراركم الليلة". وكانت الساعة التاسعة مساء. فأجاب المجلس "غدًا سنعطيكم جوابًا"، والتمسوا منهم الانصراف إلى منازلهم. ولكن الشعب أجاب "لن تُغمض عين في بازل هذه الليلة"، وصمّموا فيما بينهم على عدم الانصراف، ومرة ثانية ولآخر مرة طلبوا قرار المجلس في نفس تلك الليلة. أمام هذه الحالة شعر حكام بازل أنهم قد ظلوا هازلين وقتًا طويلاً، وأنه لا بد الآن من عمل شيء.

وفي نصف الليل جاء رسول يقول "جميع الأعضاء الذين لهم أقارب من رجال الإكليروس سيُعزلون من الهيئة. أما باقي طلباتهم المتعلقة بالدين والسياسة العامة فستسوى وفق مشيئتهم". إلى هنا كان هذا الرد مُرضيًا، ولكن الشعب اعتبر أنه ليس أكثر من مماطلة أخرى الغرض منها تمكين الأعداء من كسب الوقت، فاتفقوا على أن لا يتفرقوا، بل يظلوا ثابتين في مكانهم.

تحطيم الأصنام

بينما كان الفريقان على هذه الحالة من الترقب حدثت حادثة يبدو أنها غير مقصودة، ولكنها دفعت بالسفينة إلى مصيرها المحتوم، ذلك أن رجال الدورية والمعينين للتفتيش على نقط الحراسة في المدينة دخلوا كاتدرائية القديس بطرس، وهناك قاد حب الاستطلاع واحدًا منهم إلى فتح باب جانبي بواسطة رمحه،

وتصادف أن كان وراء ذلك الباب عدد كبير من التماثيل مخزون إلى حين، فوقع واحد منهم على الأرض وتحطم، وزاد هذا في إغراء المتفرجين بالاستطلاع فأخذوا يُخرجون التماثيل الواحد بعد الآخر من مخبأها في تلك الغرفة الصغيرة، وسرعان ما امتلأت الأرضية بأشلاء التماثيل من رؤوس وأبدان وسيقان وأعضاء أخرى مُحطمة، فصاح الكهنة الذين كانوا على مقربة من المكان وحاولوا أن يقاوموا، ولكن بدون نتيجة سوى الإسراع في عملية الهدم والتحطيم. وانتشرت أخبار الاضطراب في الكنيسة بسرعة البرق في أنحاء المدينة، وسرعان ما كان المئات من النواب المُسلحين في مكان الحادث، وهنا جاءت ساعة الحماس الديني فقال البروتستانت "لماذا نترك الأصنام التي هي سبب البلاء ومصدر كل الشقاق". وفي الحال انقض الأهالي عليها انقضاض العاصفة، فتحطمت المذابح وتكسرت الصور وانقلبت التماثيل، وجمعت أجزاؤها المحطمة في أكوام أشعلت بها النيران في الميادين العامة.

أما الكهنة فقد تولاهم الفزع، فأسرعوا يخبئون أنفسهم عن وجه الشعب. وهنا اجتمع مجلس الشيوخ على عجل، وحاولوا في حيرتهم استعمال سلطتهم لوقف الهياج وتهدئة خواطر الشعب، ولكن بعد فوات الوقت. فقد فشلوا في أول صفة يجب أن تتوفر في فن الحكم الشعبي، وهي صفة تمييز اللحظة الصحيحة والوقت المناسب لإجابة مطالب الشعب. فقد طال صبر الأهالي، ولكنهم كانوا يزدادون عزمًا وتصميمًا كلما زادهم المجلس مماطلة وتسويفًا بتأثير جماعة مغرضة قليلة داخل أروقته. والآن كان عليه أن يُصغي إلى جواب الشعب العنيف الجبار "ها نحن صانعون في ساعة واحدة ما كنتم تتفاوضون وتتناقشون بشأنه الثلاث السنوات الماضية". وهكذا، مع احترامهم لكل أنواع الممتلكات الخاصة، راحوا يحطمون الأصنام، ولم يرحموا تمثالاً أو صورة واحدة، بل أسقطوها جميعًا وقذفوا بها إلى النيران الملتهبة، فأضاءت ظلمة الليل ومنحت الدفء للجماهير المتحمسة.

وهكذا انتصر الشعب. وخضع المجلس فعزل الاثني عشر عضوًا المعارضين للإصلاح، وأجاب مطلب الأهالي بمرسوم قرر فيه:

١- للأهالي حق التصويت في انتخاب أعضاء المجلسين.

٢- من اليوم فصاعدًا تلغى التماثيل ويبطل القداس، ويكون في كل كنيسة خدام صالحون للكرازة بكلمة الله.

٣- في كل الشئون التي تتعلق بالدين والصالح العام يجب السماح لمائتين وستين من أصحاب الحرف وأعضاء الهيئات بحضور جلسات المجلس والاشتراك في مناقشاته(٦٧٨).

تلك كانت انتصارات ذينك اليومين المليئين بالحوادث: تأييد كامل للإصلاح الديني، وامتيازات مدنية عُظمى، وكل ذلك بدون سفك نقطة دم واحدة. وهنا نقول إن الغرضين الديني والمدني كانا دائمًا يسيران جنبًا لجنب في حركة الإصلاح السويسرية. يقول المؤرخ روشات في سياق كلامه عن هذا الدور الأخير في الحركة السويسرية: "إن الإصلاح بدأ في بازل بصورة ثورية بعض الشيء، ولكن الخاتمة كانت سعيدة وانتهت كافة المتاعب التي أثيرت حول الدين بنتيجة مُرضية للغاية، دون أن يُصاب مواطن واحد بشيء ما في حياته أو أملاكه".

وقد اجتمعت النقابات وأرباب الحرف اجتماعًا عامًا في ١٢ فبراير، وحلفوا جميعًا يمين الولاء للنظام الجديد. وفي يوم الأحد التالي أُقيمت الشعائر الدينية في جميع كنائس بازل على طريقة الإصلاح، وأُنشدت التراتيل والمزامير باللغة الألمانية، وخلال أسبوع صدر عفو عام شامل لجميع الجرائم والذنوب.

نتائج الثورة

كل شيء تغير الآن في بازل، وبدأ زعماء الحزب البابوي من كهنة ورهبان وأساتذة يستعدون للرحيل منها، ليس خوفًا من أي ضرر جسماني يلحقهم، بل كرهًا منهم للإيمان البروتستانتي. وقد استعطف البروتستانت الكثيرين منهم أن يبقوا، وخاصة إرازمس أشهر من غادر بازل في ذلك الوقت. وقد كتب لصديقه فركهيمر قبل رحيله بقليل يقول: "لقد أكد لي أكولامبديوس صداقته الخالصة، التي قبلتها بشرط أن يسمح لي بمخالفته في بعض النقط. وقد حاول كثيرًا أن يقنعني بعدم ترك بازل، ولكني قلت له إنني مُرغم أن أرحل عن مدينة أجدها ملائمة لي جدًا من عدة وجوه، غير أني لا أريد أن أُعرض نفسي للكراهية التي لا شك سأتعرض لها باستمراري في البقاء فيها، لأنه سيُنظر إلي كمن هو موافق على ما يجري بالمدينة". هذا ما كتبه لصديقه، وقد نفذ عزمه، فلم يكد ينتهي من هذه المقابلة الودية حتى رحل إلى فريبورج. فدخله ومركزه لدى العظماء والبابا والحزب البابوي

كانت كلها في خطر لو أنه استمر في هذا الوسط الموبوء حسب اعتقادهم. ولكن ميل هذا الرجل الأديب العظيم إلى التهكم والفكاهة لم يجعله يتمالك من أن يبدي الملاحظة التهكمية الآتية على خرافات حزبه، إذ قال "لقد كانت الشتائم والإهانات التي انهالت على الصور والتماثيل والصلبان كثيرة وقاسية، لدرجة تجعله من المستغرب للغاية كيف أن أولئك القديسين الذين تمثلهم والذين اشتهروا بالمعجزات والعجائب وأعمال القوة والانتقام لأقل إهانة التزموا الصمت في هذا الوقت العصيب واللحظة الخطيرة الحرجة، فلم يظهروا شيئًا من قوتهم المعجزية".

وقد قام على الأثر أساتذة آخرون يحلون محل أرازمس وأمثاله لملء الكراسي الخالية بالجامعة، نخص بالذكر منهم ميكونيوس وفريجو ومُنستر وجريناوس. وصدر في الوقت نفسه قانون بالإيمان الجديد في وثيقة تعتبر أثمن ما تميزت به تلك الحقبة من التاريخ (٢/٧٢)،(٢/٦٧)،(٤/٤٤).

النزاع حول العشاء الرباني

حوالي ذلك الوقت الذي وصلنا إليه قامت بين المصلحين أنفسهم في ألمانيا وسويسرا مشكلة محزنة، كانت من أقوى العوامل على تثبيط همتهم، وهي المشكلة الخاصة بالعشاء الرباني. فلوثر كما يذكر القراء، وهو المصلح العظيم الذي استخدمه الله لهدم النظام البابوي من أساسه تقريبًا، استمر إلى آخر حياته يتمسك بنوع من الاحترام الخرافي لشيء غريب في مادة العشاء الرباني، وهو ما كان يسميه "ازدواج المادة" بمعنى أنه كان يؤمن بحضور جسد ودم المسيح "مع" أو "في" أو "تحت" عنصري الخبز والخمر. لم يكن يؤمن كالبابويين بأن عشاء الرب ذبيحة، أو أن جسد المسيح الكائن في العنصرين يجب أن يُعبَد، ولكنه كان يؤمن بأن الجسد موجود فعلاً ويتناوله المشترك، ليس فقط بالإيمان بل جسديًا وحرفيًا. أما زونجلي فكان في منتهى البساطة في أفكاره عن العشاء المقدس. كان يعتقد ويؤمن أن الغرض الأعظم من هذه الفريضة المقدسة هو التذكار «اصنعوا هذا لذكري» ولكنه في الوقت نفسه كان يؤكد أن هذا التذكار لا يمكن ممارسته بصورة صحيحة إلا لمن لهم شركة في الإيمان. فنحن نُخبر بموت الرب لأجلنا، فقد سفك الدم الذي به تطهرت وغُسلت خطايانا، ولذلك نحن نستريح بالإيمان على موته كأساس حياتنا الأبدية الراسخ الأكيد، ونتغذى بفرح القلب بأثمار الفداء الكامل ونتائجه المباركة الغنية كشيء تام وكامل ومحقق.

• • •

والآن وقد سبق أن وصفنا مؤتمر ماربرج نعود إلى تاريخنا، فنصل أفكارنا حيث انقطعت.

الفصل الرابع والأربعون

اتساع حركة الإصلاح في سويسرا

تأيدت وترسخت حركة الإصلاح الآن في الثلاث المقاطعات الرئيسية في سويسرا، وهي زيورخ وبرن وبازل. وقد كان للمثل الذي ضربته هذه الحكومات القوية أكبر الأثر والنفوذ في معظم سويسرا الألمانية، ففي أماكن كثيرة بدأ الأهالي الذين كانوا يميلون إلى حركة الإصلاح يعلنون انضمامهم إليها صراحة. ولم يقف التأثير عند حد سويسرا الألمانية بل تعداها إلى سويسرا الفرنسية، وهي التي بحكم موقعها الجبلي ومركزها الجغرافي من غابات هائلة وسهول مرتفعة ظلت طوال هذه السنين بعيدة عن حركة الإصلاح متمسكة تمسكًا شديدًا ببابا روما.

اختلاط الدين بالسياسة

هنا يَجدر بنا أن نقف قليلاً ونلفت النظر إلى الغلطة الكبرى والمشتركة التي ارتكبتها البروتستانتية من أول عهدها، وهي اعتمادها على السلطات الأرضية لحمايتها بدلاً من مجرد الشهادة للحق والاتكال الكلي على الله الحي. فلم يكد المصلحون ينفصلون عن روما إلا ومدوا أيديهم للحكومات المدنية التماسًا لحمايتهم بجيوشها.

صحيح أن لوثر كان يمانع في استعمال قوة السلاح لنشر الحق وتدعيمه، ولا يثق إلا في انتصارات الإنجيل التي يحوزها بأمانة ومحبة، غير أنه كما رأينا قد وافق من أول تاريخ الحركة على أن يكون للأمراء الإشراف الكلي على الشئون الكنسية والروحية. أما زونجلي فقد ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير في ذلك الطريق الخطر. فعندما قامت الاضطرابات وأحدقت الأخطار بسفينة الإصلاح بسبب خيانة المقاطعات الكاثوليكية، ظن أنه من واجبه كجمهوري مخلص أو مسيحي وطني أن يتناول المسائل السياسية المتعلقة بالاتحاد الجمهوري بالمناقشة والبحث، وأن يتقدم بالمشورة لمجلس الشيوخ، ويوافق على التماس المعونة بالقوة والسلاح. ولكن نتيجة هذه الإجراءات، التي لا تتفق مع الكتاب المقدس، كانت - كما سنرى بالأسف - وبالاً على المصلحين، فمات المصلح الشهير ميتة شنيعة، كما أصيبت القضية الإنجيلية في سويسرا بضربة كادت تكون قاضية.

فمن الوقت الذي فيه تناولت الحكومات المصلحة شئون الكنيسة، بل واغتصبت واجباتها، وتدخل خدام الإنجيل في السياسة، فبدأت الغيوم تتكاثف والزوبعة تتهيأ للهبوب. فبرغبة صالحة طبعًا، وهي نمو العمل الصالح داخل مقاطعاتهم ونشره خارجها، أذاع حكام زيورخ وبرن عدة مراسيم يحرمون فيها على رعاياهم حضور خدمة القداس، وينهونهم عن انتقاد التغيرات الحديثة، ويأمرونهم بزيادة المواظبة على حضور الخدمات الإنجيلية. كما أصدروا أيضًا منشورًا عامًا ضد العوائد المتبعة في الأعياد من السُكر والتجديف، بغرض رفع المستوى الأدبي. ولكن بينما كانت السلطات المدنية تفرض على الناس ديانتها فرضًا بواسطة المراسم، كان زونجلي في الواقع ينزل عن مستوى دعوته المقدسة إلى مستوى رجال السياسة. ومن ذلك الوقت تخلت ذراع العناية الإلهية القوية، التي سندت المصلح العظيم وحركة الإصلاح السويسري، وأصيب مجلس زيورخ بالتردد والضعف والحماقة، بعد أن كان فخورًا بنفسه وقتًا ما.

الخطوة الخاطئة الأولى - التحالف

فكر زونجلي، منقادًا انقيادًا خاطئًا بتأثير تهذيبه الجمهوري كما نعتقد، إنه من صالح المصلحين والإصلاح أن يكوّنوا تحالفًا للدفاع عن أنفسهم. وإذ امتد ببصره إلى المستقبل، ورأى أن حركة الإصلاح لا بد إن تقسم بلاده المحبوبة إلى معسكرين، اعتقد أنه من الصواب أن يعقد تحالفًا مع الحكومات الإنجيلية، فاقترح في عام ١٥٢٧م عمل ما

يسمى "الكتلة المسيحية" فيها يرتبط كل المعترفين بالإنجيل في تحالف إصلاحي جديد. وكانت مقاطعة كونستانس أولى المقاطعات في إعلان الموافقة على التحالف الجديد، وأعقبتها برن وسان جول ومُلهوْزن وبازل وشافهوْزن وستراسبورج. ولكن يقول دوبينيُ "إن هذا الاتفاق المسيحي الذي قد يكون نواة لتحالف جديد أبرز في الحال خصومًا عديدين ضد زونجلي حتى من أشد أنصار الإصلاح"، فاصبح راعي زيورخ في مركز حرج، أثبتت النتيجة السريعة شدة خطره. وقد كان هذا مما نشأ عليه كشخص وطني يعتبر أن رفعة بلاده جزءًا من عقيدته، وأيضًا ما شاهده في الكنيسة التي نشأ في أحضانها، التي كانت منذ أجيال عديدة تستل السيفين، سيف الروح والسيف الحرفي. ونلاحظ أن لوثر لأن مبدأه كان ملكيًا كان ضد فكرة المقاومة الجسدية، وكان يقول "يجب على المسيحيين أن لا يقاوموا الإمبراطور، وإذا طُلب منهم أن يموتوا يجب أن يقدموا حياتهم".

المقاطعات الخمس تعقد تحالفًا مع النمسا

عندما سمع الكاثوليك بذلك التحالف الجديد الذي عقده البروتستانت امتلأوا رعبًا وغيظًا، وكانت المقاطعات الخمس، لوسرن وتسوج وشفيتز ويوري وإنترفالدن، متمسكة بولائها لروما، فالرعاة سكان تلك الجبال، الذين كانوا من عهد بعيد متمسكين بعاداتهم وتقاليدهم وديانتهم، سمعوا بحزن ورعب عن الهراطقة في السهول التي تحتهم، وإذ وفد بعض الكهنة والرهبان إلى تلك البقاع العالية قادمين من المواقع التي انتُهكت فيها حرمة تقاليدهم بكل جسارة، وقصّوا على أولئك الجبليين المتحمسين رواياتهم المدهشة التهبوا حماسًا إلى درجة الجنون فقالوا: "هذه حالة لا تُطاق. هذه الهرطقة الوبائية يجب أن تُمحى وتمحق بقوة السيف والنار". وهكذا تحرقوا شوقًا إلى إيقاد الجذوة وإشعال النار.

وإذ كانوا يجهلون كل شيء تقريبًا عن الإصلاح، وحتى عن معنى الكلمة ذاتها، يمكننا أن نتصور شعورهم عندما ركض إليهم الرسول تلو الرسول، يخبرهم أن المذابح التي كان يسجد أمامها آباؤهم قد هُدمت، وأن الصور والتماثيل قد أُحرقت باحتقار وهوان في الميادين العامة، وأن القداس قد أُلغي، وأن الكهنة المقدسين والرهبان قد نُفوا وشُردوا. وإذ ارتفعت غيرتهم وحماسهم الديني إلى الذروة القصوى بفعل الرهبان الماكرين، كانوا على استعداد للقيام بأي عمل بكل تهور ورعونة وهياج. ولم يؤخرهم عن الإقدام على ذلك فورًا سوى تفوق المقاطعات البروتستانتية عليهم في العدد والقوة. وقد أرسل إليهم أسقف كونستانس رسالة يدعوهم فيها إلى أن يعملوا بثبات وحزم، وإلا فإن سويسرا كلها ستعتنق مبدأ الإصلاح.

ولكن ماذا نعمل؟ هذا كان السؤال المهم في ذلك الوقت. إننا لا نطيق السكوت على هذه الحالة بعد الآن، وإذا عقدنا محالفة مع قوة أجنبية بدون موافقة جميع المقاطعات الأخرى نكون ناقضين للمبادئ الأساسية للتحالف السويسري ولعهد الإخاء، على أنه لا بد لنا من حلفاء، ومطالب الكنيسة أسمى بكثير من الإخلاص للوطن. وإذ علموا أن فرديناند شقيق شارل الخامس وكبير أمراء النمسا مشهور بكراهيته للبروتستانت، دخلوا في تحالف مع ذلك الأمير لاستئصال الإصلاح وحماية المذهب الكاثوليكي.

كان هذا عملاً غير دستوري وغير طبيعي، كما كان قاسيًا للغاية، لأن النمسا كانت الباغية من قديم، والعدو الطبيعي للأمة السويسرية، وكانت بطبيعة الحال آخر بلد ينتظر أن تفكر فيها مقاطعة سويسرية لطلب معونتها. يقول كاتب معاصر "هل نسوا النير الثقيل الذي وضعته النمسا على أعناقهم في الأيام الماضية؟ وهل نسوا الدماء التي تكلفها آباؤهم في سبيل فك ذلك النير؟ هل يطرحون الآن ما قاتلوا لأجله في ساحات مورجارتن وسمباخ الدموية؟ ولقد كانوا على استعداد أن يفعلوا كل هذا لأن العداء الديني قد طغى على العداء الوطني، ورعبهم من البروتستانتية هون عليهم خوفهم من عدوهم التقليدي". ولقد كان هذا التحالف ضد كل شعور وطني، لدرجة أن النمساويين أنفسهم شق عليهم أن يصدقوا أنه ينطوي على الصدق والإخلاص. فقال لهم الجبليون "خذوا رهائن واكتبوا نصوص المعاهدة بأيديكم، وأمروا ونحن نطيع". وقد خُتمت المعاهدة وأقسم الطرفان على تنفيذها في اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل سنة ١٥٢٩م في مدينة فالدْشوت.

وقد نصت المعاهدة على أن كل محاولة لتكوين شيع جديدة في المقاطعات الخمس يكون عقابها الإعدام، وعند الضرورة ترسل النمسا إلى سويسرا ستة آلاف جندي من المشاة وأربعة آلاف من الخيل مع كافة أدوات المدفعية اللازمة. وإذا اقتضى الحال تحاصر مقاطعات الإصلاح وتمنع عنها كل مؤونة[٢٧٨].

وقد أثارت أخبار هذه المفاوضات القلق والرعب حتى في

نفوس أعداء الإصلاح، لأنهم إذ ربطوا أنفسهم بهذه الكيفية مع قوة أجنبية إنما كانوا يفرطون في استقلال سويسرا، وعوضًا عن الحصول على حليف سيجدون أنفسهم أمام سيد. ولكن هذه المشاعر التي أثارتها وطنيتهم في بادئ الأمر سرعان ما أطفأها بغضهم للزونجليين، وأتحد رجال أنترفالدن وأوري في غيرة عمياء، وتقلدوا أسلحة النمسا مع أسلحتهم، وفي حماسهم الديني زينوا قبعاتهم بريش الطاووس الذي هو شعار النمسا، حتى أن هذا العمل حدا بشاعر من بينهم أن ينظم أنشودة يترحم فيها على كرامة السويسريين الذين رضوا بهذا التحالف المهين مطلعها:

ألا فابكي يا عينُ على أهلِ سويسرا — أيرهونَ بقوادمِ الطاووس فخرا؟
مع ثورٍ وحشٍ قد تحالفَ جُندُهمُ — فهل يُرجى من نطّحاته إلا ضَرَرا

أما المقاطعات الثماني الخارجة عن هذا التحالف، ما عدا فرايبورج، فقد أرسلوا مندوبين إلى حلفائهم الجبليين يطلبون إليهم المهادنة والصلح، ولكن المندوبين قوبلوا في كل مكان بالاحتقار والازدراء. أما البابويون المعتمدون على أن الجيش الإمبراطوري وراءهم فقد راحوا يوجهون كل أنواع الهجو والسباب لتعاليم وأشخاص المصلحين، فكانوا يصيحون "كفى مواعظ.. كفى مواعظ، ليت الله يدفن إيمانكم الجديد إلى الأبد". وعاد المندوبين بعد أن أخذتهم الدهشة وتولاهم الفزع، لا سيما عندما مروا أمام باب غرفة رئيس المدينة ورأوا أعلام زيورخ وبون وبازل وستراسبورج مدلاة متعانقة من سارية عالية.

المقاطعات البابوية تضطهد المقاطعات المصلحة

بدا شبح الحرب واضحًا في الأفق، بحيث لم يعد في الإمكان تجنبه. فكل شيء كان يدل على أن اندلاع لهيب الحرب لا مفر منه، فقد استأسد الجبليون وزاد حماسهم، وفي سبيل الدفاع عن ديانة آبائهم وإبعاد التعاليم الجديدة عن رعاياهم بدأوا يفرضون الغرامات والسجن والتعذيب والموت على أتباع الإصلاح. إلا أن إحدى هذه الحالات بلغت في بشاعتها حدًا أثار شعور البشرية بأجمعها، وأسرع بالأمور إلى أزمة حادة.

وخلاصة الحادث أن جيمس كيزر راعي مقاطعة زيورخ ورب أسرة كان يسير يوم السبت ٢٢ مايو في طريقة إلى أوبركرك في أبروشية جاستر، بنية الوعظ هناك صباح الأحد، وبينما كان يسير في أمن وهدوء بجانب المزروعات القائمة على الطريق، وهي منطقة طالما اجتازها من قبل، انقض عليه ستة رجال كانوا كامنين له هناك، وحملوه إلى شفيتز، وهناك بعد محاكمة صورية صدر عليه الحكم بالإعدام حرقًا لا لسبب سوى أنه قس إنجيلي. ولم تقابل احتجاجات زيورخ التي كان ينتمي إليها إلا بالاحتقار، وقد تم تنفيذ الحكم الوحشي على الأثر. ويقول المؤرخ إن هذا الرجل التقي عندما سمع الحكم أجهش بالبكاء، ولكن قبل أن تحين ساعة استشهاده كانت نعمة الله قد شجعته وملأت قلبه بالفرح، لدرجة أنه سار إلى مكان استشهاده بكل ثبات واطمئنان، معترفًا بإيمانه وشاكرًا الرب يسوع وسط اللهيب المتأجج حوله، وظل هكذا إلى آخر رمق من حياته ممجدًا لله الذي حسبه أهلاً لأن يموت من أجل الإنجيل، حتى قال أحد قضاة شفيتز لمندوبي زيورخ وهو يبتسم ابتسامه تهكمية "اذهبوا واخبروا زيورخ كيف يشكرنا". كان هذا تحديًا فظيعًا لرجال زيورخ، وقد أدركوا أنه هكذا.

إعلان الحرب

إزاء هذه الضربة المؤلمة لزيورخ، وما أحدثته في رجالها من شعور بالإهانة، لم يروا بدًا من إعلان الحرب ضد المقاطعات الخمس. وهنا نقول إنه وأن كان واجب القضاة ورجال الحكم الدفاع عن المظلوم ضد الظالم، فإنه من واجب خادم المسيح أن يتصرف بمقتضى دعوته المقدسة، ولا يدخل في الميدان سوى بسيف الروح الذي هو كلمة الله. ولكن، ويا للأسف، ها هو المؤرخ المحايد يسجل هذا الحادث المحزن، وهو انحراف المصلح العظيم عن تعاليم سيده، تعاليم النعمة التي كان ينبغي عليه أن يكون الشاهد الحي لها، فإن حرق أخيه الخادم قد حفر في نفسه أعمق الأثر كزميل ومواطن، فرفع صوته عاليًا ضد تعصب المقاطعات البابوية، وروح الانتقام السائدة فيها، والتي راح ضحيتها رجل وادع. فتردد صدى صرخته في جميع أرجاء مقاطعات الوديان، التي هبت عن بكرة أبيها تطلب الانتقام.

وقد طلب زونجلي إلى السلطات اتخاذ أشد الإجراءات لوضع حد لهذه الجرائم الشنعاء، ففي المجالس ومن فوق المنبر كان يدعو في كل مكان إلى حمل السلاح والوقوف بثبات وحزم ضد الأعداء. وأخذ يقول بلسان الجيش الذي كان هو راعيًا له "نحن لا نريد أن

نسفك دم أحد، ولكننا نريد أن نقص أجنحة حكومة الصقور، فإن تجنبنا المواجهة فإن حق الإنجيل وحياة خدام الرب لن تكون في أمان في وسطنا. يجب أن نتكل على الله وحده، ولكن عندما تكون لدينا قضية عادلة يجب أن نعرف أيضًا كيف ندافع عنها، ونظير يشوع وجدعون نسفك الدماء في سبيل وطننا وإلهنا".

لو أن زونجلي كان من رجال الحكم أو من أعضاء المجلس، أو لو كان قائدًا من قواد الجيش لالتمسنا له العذر في دعوته التي كانت تكون في محلها، أما وهو خادم من خدام رئيس السلام فقد نسي أن أسلحة محاربته ليست جسدية، بل روحية وقادرة على هدم حصون بقوة الله. ويجب أن نذكر في الوقت نفسه أن دعوته للجهاد والحرب لم تكن لخلاف في الإيمان، بل ضد مساوئ سياسية. فكان يقول "أما عن القداس والطقوس والأوثان والخرافات فلا إلزام على أحد أن يتركها، أو أن يرغم بالقوة على هجرانها. فكلمة الله وحدها قادرة أن تزيل كل هذا التراب بقوة تأثيرها. فلنطلب إلى المقاطعات الخمس السماح بحرية الكرازة بكلمة الرب والتخلي عن أحلافها الخبيثة، ومعاقبة المحرضين على الانخراط في سلك الجيوش الأجنبية"(٤/٤٤).

الاستعداد الحربية

ومن الجهة الأخرى لم تكن المقاطعات البابوية مكتوفة اليدين، فقد كانت تعرف ما عملت وما كان يجب أن تتوقعه. والواقع أن الحرب الدينية قد بدأت، وبوق الحرب قد انطلق ودوى صداه في الجبال والوديان، وأخذ الرجال يتجندون في كل مكان، والسعاة يتراكضون إلى النمسا. غير أن فرديناند الذي كان قد أغلق عليه الأتراك في ذلك الوقت لم يستطيع أن يمدهم بالجيوش التي وعدهم بها. ومع ذلك استطاع رجال المقاطعات الخمس بقوة اتحادهم فيما بينهم أن يسيروا يوم ٨ يونيو تحت راية لوسرن العظمى للاشتباك مع المصلحين. ومن الجانب الآخر لم تُضع زيورخ الوقت عبثًا، بل خرج من أبوابها في اليوم التالي أربعة آلاف جندي مسلحين لمقابلة العدو، وقد ازدحمت الأسوار والأبراج بالمتفرجين لمشاهدة خروج الجيش، وكان من بين المتفرجين حنة زوجة زونجلي. وفي الساعة التاسعة مساء وصل الجيش إلى قرية كابل على حدود زيورخ وتسوك، وفي فجر ١٠ يونيو أرسل المحاربون الزيورخيون رسولاً يحمل إنذار إعلان الحرب وإنهاء التحالف. وسرعان ما عجت مدينة تسوج على صغرها، وأسرع الرجال إلى سلاحهم، وأخذت النساء والأطفال في الصراخ والعويل.

ولكن بمجرد أن بدأ القسم الأول من جيش زيورخ المكون من ألفي جندي يعبرون الحدود، لاح من بعيد شبح فارس آتيًا صوبهم بسرعة البرق، وكان هذا الفارس هو ألبي عمدة جلاريس، الذي كان يصيح بحماس شديد "قفوا. إني قادم من عند حلفائنا. إن المقاطعات الخمس على أتم استعداد، ولكنى استطعت أن أقنعهم بالتوقف أن فعلتم ذلك أنتم أيضًا. ولهذا أناشدكم أيها السادة ويا شعب زيورخ أن توقفوا مسيركم مؤقتًا من أجل محبة الله وسلامة بلادنا. وسأعود إليكم مرة ثانية بعد ساعات قليلة، حيث أرجو بنعمة الله أن نحقق صلحًا عادلاً، وبذلك نمنع بيوتنا وأكواخنا من أن تمتلئ بالأرامل واليتامى"(٤/٤٤)(٢٧٨).

وكان المعروف عن ألبي أنه رجل شريف وصديق للإنجيل، ولهذا أوقف الزيورخيون مسيرهم على الفور، فقد اعتقد الكثيرون أن رسالته رسالة سلام، ولكن زونجلي وحدة شك في الأمر ورجح أنها ليست سوى خدعة وخيانة. وفي قلقه لم يرَ في تدخل ألبي إلا حيلة من الشيطان، واعتقد أن المقاطعات الخمس إذ لم تستطع الحصول على المعونة من النمسا في ذلك الوقت ادعت أنها ترغب في السلام لكي تكسب الوقت. ولذلك ذهب زونجلي إلى ألبي الذي كان يعرفه جيدًا، وهمس في أذنه كما برؤية نبوية قائلاً له "يا بني إنك ستُسأل أمام الله عن هذه الوساطة. إن أعداءنا في قبضة يدنا الآن، ولهذا فقط يرسلون إلينا بكلماتهم المعسولة، ولكنهم بعد ذلك سيأخذوننا على غرة، وليس من ينقذنا منهم حينئذ". والحق أن هذه النبوة تمت حرفيًا كما سنرى فيما بعد، وقد أجابه ألبي: "أبي العزيز، دعنا نرجو الخير ونعمل له ونتكل على الله، إن كل شيء سيكون حسنًا". وإذ قال هذا قفل راجعًا إلى تسوك، تاركًا زونجلي في تأمل عميق وهو يتوقع مستقبلاً مظلمًا ومرعبًا قائلاً "اليوم يلتمسون ويستعطفون، وبعد شهر، بعد أن نكون قد ألقينا سلاحنا، سيسحقوننا".

معاهدة كابل

مكث مندوبو زيورخ والمقاطعات البابوية بمعاونة المقاطعات المحايدة ستة عشر يومًا يتفاوضون في مواد الصلح للاتفاق عليها. وفي أثناء ذلك وقف جنود الجيش مقابل بعضهم البعض موقفًا غاية في النظام والود والإخاء، وكأنهم قد نسوا كل شيء إلا أنهم جميعًا

سويسريون. وكان زونجلي أو أي قس آخر يقوم بالوعظ في معسكر الزيورخيين كل يوم "فلم تسمع شتيمة ولم يقم نزاع، بل كانت الصلوات تقدم قبل الأكل وبعده، وكل كان رجل يطيع رؤساءه، كما أنه لم يكن هناك نرد أو ورق اللعب أو ألعاب أخرى مثيرة للشجار، بل بالعكس أغاني روحية ومزامير، وأناشيد وطنية وتمرينات بدنية. هذا كل ما كان يجرى في معسكر الزيورخيين. وأخيرًا عقدت في ٢٦يونيه سنة ١٥٢٩م معاهدة لم تكن - كما توقعها زونجلي - إلا فترة هدنة وإسكات وقتي للعاصفة. وما أن تم التوقيع عليها حتى خلع المحاربون أوتاد خيامهم وعادوا على الأثر إلى بيوتهم".

ولو أن المعاهدة لم تجيء بكل ما كان يطلبه البروتستانت، إلا أنها كانت مرضية لهم. كما لم تكن ضد الكاثوليك، فقد اتُفق فيها على أن تنهي المقاطعات الخمس تحالفها مع النمسا، وأن تكون حرية الضمير مكفولة ومضمونه للجميع، وأن تقرر الأبروشيات الصغيرة بأغلبية الأصوات النظام الديني الذي تريد اتباعه. وقد ابتهج شعب زيورخ - ماعدا زونجلي - بالنجاح الذي تكللت به مظاهرتهم الحربية. أما أهالي برن الذين لم يساهموا بشيء في هذه النصرة السليمة فقد بدأوا يحقدون على زيورخ ويحسدونها على نفوذها المتزايد، فأخذت بالأسف روح الشقاق والفرقة تدب بين هاتين المقاطعتين القويتين، مما أدى في النهاية إلى كارثة ١٥٣١م.

تحالف زونجلي المسيحي

وفي ذلك الوقت العصيب الذي كان فيه عقل زونجلي مشغولاً أكثر مما يجب بالسياسة وأساليبها الملتوية، وقع بالأسف في شرك العدو، فقد عرف الشيطان نقطة ضعفه كمسيحي، وراح يجربه بفكرة عظمى، وهى اتحاد سويسرا كلها والعالم المسيحي المصلح بوحدة الإيمان. ولا شك أن بواعثه كانت من أنقى وأسمى البواعث، فإذ كان يفكر ليلاً ونهارًا كيف ينشر الإصلاح، ويقلب تلك السلطة الطاغية التي أذلت أمم أوروبا واستعبدتها إلى ذلك الوقت، نبتت في رأسه فكرة اتحاد مقدس، يجمع بين كافة حكومات وأمم أوروبا البروتستانتية. فكان يمتد ببصره إلى العالم المسيحي أجمع. ولم يكن لإنسان قط في يومه مثل ما كان لزونجلي من إلمام دقيق بشئون تلك الأمم جميعًا سياسيًا وحربيًا ودينيًا، ولكنه إذ لم يدرك البون الشاسع بين مبادئ ناموس العهد القديم ونعمة العهد الجديد رأى بإخلاص أنه من واجب الدول المسيحية أن تضع جميع قواتها الحربية للدفاع عن الإنجيل. كان يقول "لماذا لا تنضم الدول البروتستانتية في حلف مقدس لسحق وإبطال الخطط التي يضعها البابا والإمبراطور للقضاء على الإصلاح"[٢٧٨].

وقد كان من أثر هذا المشروع الخطير المتعدد الأطراف أن دخل زونجلي في مفاوضات كثيرة لا نستطيع ذكرها في هذا المختصر، وهي مفاوضات وإن كانت مشرّفة للسياسي، إلا أنها لم تكن إلا عارًا للخادم المسيحي. ولكن مهما كانت مشروعاته ومهما كانت أخطاؤه فقد كان غرضه واحدًا، وهو غرض شريف، ألا وهو نشر وإقامة الإنجيل الطاهر في ربوع بلاده أجمع، وقد كان هذا الغرض أغلى عند زونجلي من الحياة نفسها.

ولا شك أن السيد - له المجد - يعرف كيف يكافئ عبده على نيته الصالحة، حتى وإن كان لا يمكن أن يوافقه على عمله. وعلاوة على ذلك فإن التاريخ يؤكد أن زونجلي لم يهجر لحظة واحدة خدمته وأتعابه الرعوية، وأنه كان على الدوام حيث يقتضي واجبه وحيث دعاه هذا الواجب.

المقاطعات الخمس تكسر المعاهدة

لما رأت المقاطعات البابوية تقدم حركة الإصلاح واقترابها إلى أبوابها، تملكها الغضب وبدأت تتحايل لعلها تجد حجة ولو واهية للتخلص من معاهدة كابل وشروطها، ولم يكن من الصعب عليها إيجاد هذه الحجة، لأنها في الواقع لم تحافظ في أي وقت على نصوص المعاهدة، فما كان يسمى فيها حرية الضمير، أو ما أسماه البروتستانت "حقوق الضمير" لم يكن له أي اعتبار عند الكاثوليك، فلم يراعوه قط، ولم يفرقوا إطلاقًا بين طاعة الله والطاعة المدنية، ولم يكن في مقدورهم على الإطلاق الاتفاق مع البروتستانت على هذه النقطة الرئيسية، ولهذا كانت موضوع نزاع مستمر بين الطرفين ومبعث مشاحنات ومجادلات محلية لا حد لها، ظلت تزيد كل يوم في النفور والجفاء، حتى دفعت الجبليين لنقض المعاهدة صراحة.

وأخيرًا امتلأ كاس حنق الكاثوليك، فراحوا يصرخون في طلب الانتقام وسفك الدماء. فليس شيء سوى سفك دماء المسيحيين الأحياء، كان يستطيع في نظرهم أن يكفر عن إبادة الأصنام

الصماء، وليس شيء سوى حرق قديسي الله يستطيع أن يكفر عن رماد مذابحهم وصورهم!! إيه يا روما يا روما!! متى تشبعين من دماء مفديي الله؟ إن عطشك لا تطفئه كل دمائهم، فأنهار الدم التي سفكتها لم تزده إلا اشتعالاً. وطوال زمان سلطانك لم نرك إلا عطشى للدم، ولكن ماذا يكون الحال عندما ينتهي سلطانك فلا تجدين دمًا تسفكينه؟ إن تلك الكلمة الرهيبة "اذكري" ستعود بك أخيرًا إلى ذلك الماضي الرهيب، وتملؤك بمناظر الدماء وسجون محاكم التفتيش، ولهب ضحاياك الأبرياء المساكين. عندئذ سيتغير كل شيء، فسعادة كاملة لا نهاية ستكون نصيبهم المبهج، ولكن ماذا عن ذلك المكان المرعب الرهيب، حيث النار لا تُطفأ والدود لا ينام، وحيث مناظر الماضي ستمر بلا انقطاع أمام نفسك القلقة التي لا تنعس، وحيث لا يمكن الحصول على نقطة ماء واحدة بها تبردين لسانك الملتهب. إننا نتركك هناك لذاكرتك الخصبة وشكايات ضميرك، وتوبيخات أولئك الذين خدعتهم بسحرك وأسقطتهم بخداعك إلى تلك الهوة التي لا مقر لها.

إشعال لهيب الاضطهاد من جديد

انقسمت سويسرا الآن إلى معسكرين تفصل بينهما هوة كانت تتزايد اتساعًا كل يوم، وقد أخذت المقاطعات التي يعضدها الإمبراطور وأخوه فرديناند تضطهد البروتستانت وتصب عليهم جامات غضبها بقسوة أكثر وأشد من ذي قبل. وقد توغلوا في ذلك إلى أقصى حدود الوحشية، فأينما عثروا على المبشرين بالإصلاح قبضوا عليهم وزجوا بهم في السجون، واغتصبوا أملاكهم وقطعوا ألسنتهم ورؤوسهم، ومن استطاع أن يفلت استعاذ بزيورخ لحمايته. وهنا وجد زونجلي أنه من واجبه أن يرفع صوته عاليًا، ويحرك المقاطعات المتحالفة للنهوض والعمل، فأخذ يزور أماكن عديدة شخصيًا، ويخاطب الجماهير في اجتماعات كبيرة، ويطرق كل باب، ويستعمل كل وسيلة من شأنها إثارة الشعب وإيقاد نار الحمية والغيرة في صدورهم، لكي يهبوا مدافعين عن الإنجيل وحرية الرعايا. فكان يقول "هؤلاء سويسريون تحاول جماعة صغيرة إخضاعهم وحرمانهم من حرية ورثوها عن أجدادهم. وإذا لم يكن من العدل أن نحاول إرغام خصومنا على إلغاء ديانة روما وإبطالها من وسطهم، فليس من العدل كذلك سجن وتشريد المواطنين وحرمانهم من ممتلكاتهم، لا لسبب سوى أن ضمائرهم تضطرهم لاعتناق مبادئ يمقتها مضطهدوهم".

وفي ٥ سبتمبر سنة ١٥٣٠م اجتمع كبار اللاهوتيين في زيورخ وبرن وبازل وستراسبورج، وهم أكولامبديوس وكابيتو وميجاندر وليوجودا وميكونياس، وأرسلوا إلى المقاطعات البابوية احتجاجًا مشبعًا بروح الإخلاص والمسيحية. ولكن المقاطعات الكاثوليكية لم تُعر هذا الاحتجاج أي التفات، بل احتقرته احتقارًا. وفي المؤتمر العام الذي عُقد بعد ذلك في بادن في شهر أبريل اشتد النزاع، وعبثًا حاولت المقاطعات التي كانت تقوم بدور الوسيط تقريب وجهتي النظر أو القضاء على أسباب النزاع. فالحزب البابوي وقد أصبح الآن مستعدًا تمام الاستعداد، كان مصممًا على إشعال نار الحرب علانية، بينما كان الزيورخيون في أشد حالات الانفعال والاحتجاج، حتى نادوا بالاحتكام إلى السيف. وقد ظن زونجلي أن هذه أنجع وأسرع طريقة للوصول إلى شروط معقولة مع الجبليين. أما رجال برن فكانوا أكثر اعتدالاً، فبينما كانوا يقرون أن المقاطعات الخمس قد كسرت معاهدة كابل وحنثت بوعودها حنثًا مزريًا، فإنهم مع ذلك يودون الالتجاء إلى وسائل أقل قسوة.

المقاطعة

قال البرنيون "دعنا نغلق أسواقنا في وجوه المقاطعات الخمس. دعنا لا نبيعهم قمحًا أو نبيذًا ولا ملحًا ولا حديدًا، وبذلك نقوي أيدي محبي السلام وسطهم، فلا تسفك دماء بريئة". وقد وافق الجميع على هذا الاقتراح وراحوا ينفذونه بكل شدة وحزم. ولما كانت هذه المقاطعات تقع في الجزء الجبلي من سويسرا، كان هذا الإجراء بالغًا في الشدة، فلم يكن لدى الأهالي بطبيعة أراضيهم موارد سوى قطعانهم، وكانوا يعتمدون في غذائهم اليومي على ما يجلبونه من محاصيل الوادي وأسواقه، ولكن ها هي الأسواق تُغلق دونهم، والطرق المؤدية إلى المدن توصد في وجوههم. والخلاصة كان هذا القرار القاسي كارثة أليمة عليهم، فبغتة أخذ الخبز والنبيذ والملح ينضب من أكواخ الفقراء، وراحت المجاعة بما يلازمها من مرض تنشر الجزع والموت في صفوف الأهلين، حتى أن صيحة البؤس التي انطلقت من الجبال حركت قلوبًا كثيرة وارتفعت أصوات عديدة

ضد هذا القرار داخل سويسرا وخارجها، ولكنها دفعت بمن يعاونونها إلى أقصى حدود الغيظ والمقاومة.

سياسة زونجلي

لما كان الدور الذي لعبه زونجلي في شئون زيورخ السياسية في ذلك الوقت موضوع انتقاد شديد من المؤرخين، وخاصة على ما نظن من دوبينيٌ، فإننا نود اقتباس رأي وادنجتون في هذا الشأن، وهو المؤرخ الذي لا يمكن اتهامه بممالأة الروح الجمهورية بحال.

قال "هنا يجب أن نذكر أن زونجلي قد أظهر معارضته الشديدة لهذه الإجراءات. لا شك أنه هو أيضًا كان يتمسك بذلك المبدإ العادل الذي طالما أكده لوثر، وهو أنه ليس لقضية العقل والحق في نضالها مع الظلم عدو أخطر من السيف. لا بل إنه كثيرًا ما اعتلى المنبر ونادى مشددًا ضد قرار الحجر هذا، فكان يقول إن سباب وشتائم البابويين يجب أن تُقابل بروح التسامح المسيحي، وإن المثل الأعلى لهذه الفضيلة الإنجيلية العظمى يجب أن يضربه بصفة خاصة جماعة المعترفين بالإنجيل. ولكن مواطنوه سدوا آذانهم بأصابعهم، وصمموا تصميمًا لا رجعة فيه على عدم الاستماع لنصائحه وتحريضاته، وبذلك اندفعوا في هذا السبيل القاسي إلى آخر ما شاءت لهم أهواؤهم"(٣/٤٤).

وقد كان من رأي زونجلي من الوجهة السياسية أنه إذا أُريد معاقبة المقاطعات الكاثوليكية كفاعلي شر، فإن الوسائل التي تبدو بحسب الظاهر عنيفة هي أفعل الوسائل في الوصول بهذه المقاطعات إلى الخضوع والاعتدال، وهي الوسائل الأفضل من الوجهة الإنسانية، ولكن أن تضرب شعبًا كاملاً بالمجاعة فهذا لا بد أن يملأ الأرض بأنين الألم وصيحات الغيظ والقنوط. كذلك كان يرى أن التأخير لا بد أن يكون وبالاً على زيورخ. كان يقول "إننا بهذا العمل نعطي الفرصة للخمس المقاطعات لتسليح أنفسهم والانقضاض علينا أولاً. لنحذر حتى لا يهاجمنا الإمبراطور من ناحية وحلفاؤنا القدماء من ناحية أخرى. إن الحرب العادلة ليست ضد كلمه الله، ولكن هذا العمل ضدها، لأن معناه منع الخبز عن أفواه الأبرياء والمذنبين على السواء، وزيادة آلام المرضى والشيوخ والأطفال، وجميع الذين يتألمون ويتوجعون من جراء ظلم خصومنا. يجب أن نحترس حتى لا نثير بهذه الوسيلة غضب الفقراء، وبذلك نخلق أعداء لنا من بين الكثيرين ممن هم في الوقت الحاضر أصدقاء وإخوة لنا"(٤/٤٤). ولكن رغمًا عن كل هذه النصائح والتحريضات الصادقة القوية من جانب المصلح، فإن المقاطعات وخاصة برن ظلت لا تتحرك.

وعندما رأى الجبليون أنفسهم محاطين بعدو مخيف جبار، وليس لديهم سوى الجدوبة والمجاعة الضاربة أطنابها بين بحيراتهم وجبالهم، صمموا على اتخاذ إجراءات شديدة، فقالوا "إن كانوا قد سدوا المسالك في وجوهنا فلنشق لنا طريقًا بحد السيف". ولكنهم قبل أن يفعلوا ذلك أرادوا أن يمهدوا له بممارسة بعض طقوسهم الدينية من تقديم صلوات خاصة، وقيام البعض بفروض الحج وقراءة المزامير، وإنشاد الأغاني والتراتيل. وقد كان المنتظر أن تقوم الحرب مباشرة، لولا أن وجد زعماء الكاثوليك أن التأخير في صالحهم، فقد علموا أن البروتستانت كانوا مختلفين فيما بينهم، وأنهم بتأخير الهجوم يرجون أن تزداد شقة الخلاف.

الوسطاء يجددون مساعيهم

قامت محاولات عديدة لإحلال الصلح بين الطرفين، ولكن بلا جدوى، فقد طلبت زيورخ وبرن أن يكون التبشير بكلمة الله مباحًا ليس فقط في الأبروشيات المشتركة، بل في الخمس المقاطعات أيضًا، وهذا كان مطلبًا فيه بعض المغالاة وقتذاك. وإذ وقفوا موقف التشدد في طلبهم لم يكن من الكاثوليك إلا الإمعان في العناد، فقالوا "كلا. لن نُصغي إلى أي اقتراح قبل رفع الحواجز وفتح الطرق". وقد اجتمع مندوبون من جميع المقاطعات خمس مرات بين ١٤ يونيو و٢٣ أغسطس، وواصلت المقاطعات المحايدة مجهوداتها بمساعدة سفراء من الممالك الأجنبية، حتى استنفذت جميع الوسائل التي كان يمكن للحكمة الإنسانية استنباطها، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يزحزحوا الطرفين خطوة واحدة نحو الصلح.

وقد كان مركز المصلح يزداد كل يوم تعقيدًا وحرجًا، وإنه لمن المستحيل إدراك حرج وصعوبة مركزه في تلك اللحظة بغير الدخول في أعماق آلام وأوجاع قلبه المكسور. ولكن واحسرتاه! فقد كان حائدًا عن خط كلمة الله المستقيم، ولم يكن مسترشدًا بإرشاده الإلهي.

وفي وسط هذا البحر الخضم من الشئون المضطربة، وإذ لم يكن في ميسور مجلس الشيوخ أن يعمل أو يتحرك بغير مشورته، سمح لعواطفه الطبيعية كمواطن أن تحل محل عواطفه كمسيحي وكمصلح. ولكن مهما كانت نواياه صالحة في خدماته هذه، فإنها كانت بلا شك تتعارض مع دعوته السامية المقدسة. فالاتحاد غير الطبيعي بين الكنيسة والدولة الذي أفسد المسيحية من عهد قسطنطين كان ينشر ذيول الاضطراب والارتباك في كل مكان، ويسرع بالإصلاح إلى خرابه المحقق. لا شك أن سياسة زونجلي كانت تميل إلى مزج الاثنين معًا في غير تنافر، ولكن كلمة الرب تبقى مع ذلك هي هي لا تتغير «لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين». فإن أهملنا هذا التعليم الإلهي، وهذا المبدأ المسيحي الثابت إلى الأبد، فلن نحصد سوى مرارة الخزي والعار. هذا ما حصل مع ذلك الرجل النبيل العظيم، مزج الإصلاح بالسياسة، فانفلت الزمام من يده ولم يعد في مقدوره تجنب عواقب فعلته المحزنة.

مركز زيورخ والإصلاح

كان زونجلي قلقًا مضطربًا، تملأ قلبه أشد المخاوف والشكوك من جهة المستقبل. كان يرى الغيوم تتجمع من كل ناحية، فأصدقاؤه قد تحولوا عنه وأصبحوا ضده، وأعداؤه انتهزوا فرصة هذا التحول، فأخذوا يمعنون في مضايقته وتعذيبه، لأن كثيرين كانوا لا يزالون في زيورخ ممن يميلون للاستبداد التقليدي القديم، ولو أنهم أظهروا بعض الغيرة لمبادئ الإصلاح. أما مؤيدي الرهبنة، وأنصار مبدإ الخدمة في الجيوش الأجنبية، والعاطلين، وكل متذمر من جميع الطبقات، فقد قاموا جميعًا واتحدوا معًا في الإشارة إلى زونجلي كأصل وسبب كل ما يعانيه الشعب من آلام. وإذ رأى أن أعماله لم تُفهم على حقيقتها، وأن إجراءاته التي أشار بها قد رُفضت، شعر أنه خير له أن ينسحب من الحياة العامة.

خاف الحُكام وارتاعوا، فكل من زيورخ والإصلاح كانا في خطر إن تخلى زونجلي عن قيادة السفينة، وهم الآن في نفس السفينة وعلى نفس مياه النزاع الديني الهائجة المضطربة. ففي الحال أرسل إليه المجلس بعثة شرف، والتمسوا إليه أن لا يتركهم في هذه الساعة العصيبة. فصرف ثلاثة أيام وثلاث ليال في الصلاة طالبًا الإرشاد الإلهي بإخلاص وحرارة، وعبثًا استخدام المندوبون جميع استعطافات الأصدقاء وكافة وسائل الحمية والوطنية في حمل زونجلي على تغيير رأيه، ولكنهم عندما صوروا له مبلغ الضربة التي ستصيب الإصلاح إن هو ترك زيورخ، سلّم لهم وقبل البقاء في مركزه.

وبقبوله البقاء على هذه الصورة على رأس الحركة كان يرجو أنه سيستعيد نفوذه الأول، ويعيد إلى زيورخ شجاعتها وتضامنها القديم، ولكنه كان مخدوعًا. فقد استحوذ على الحكام والشعب شعور غريب ضد فكرة الحرب، وصاروا يزدادون يومًا فيومًا نفورًا من هذه الفكرة التي طالما تحمسوا لها وطالبوا بها قبل ذلك، واستسلموا الآن إلى سياسة برن السلبية. وبينما كان المؤتمر الذي لا يزال يدعي بالميل نحو هذه الأغراض السلمية مجتمعًا في بريمجارتن، توجه إليه زونجلي خفية مع اثنين من الإكليروس، وهناك حاول أن يقنع أصدقاءه بإلغاء المقاطعة ورفع الحجر، مبينًا لهم الشرور الكثيرة التي نتجت عن هذه السياسة، والكارثة التي يبدو أنها ستنتهي بها، ولكن جميع محاولاته مع كل ما لازمها من دموع وانكسار قلب ذهبت أدراج الرياح. وفي هذه المناسبة ودع صديقه الشاب بولنجر الوداع المؤلم الأخير، مستودعًا إياه كنيسة الله المتداعية.

إعلان الحرب على زيورخ

وقفت المقاطعات الجبلية أثناء المفاوضات موقف التشدد الذي لا يرضى عن الحرب بديلاً. والواقع إن الاقتراحات التي تقدم بها وسطاء الصلح كانت على الأرجح مقبولة لدى البروتستانت، ولكن المقاطعات الكاثوليكية رفضتها رفضًا باتًا. فتعقدت الأمور واشتدت الأزمة وأصبحت الحرب لا مفر منها. ولم تكد المقاطعات الخمس تتم استعداداتها حتى قامت بالهجوم في ٦ أكتوبر سنة ١٥٣١م فكانوا هم المعتدين، وكان الدفاع عن الكنيسة والبابوية المقدسة هو غرضهم الحقيقي في شن هذه الحرب، وإن كان الحصار ومنع التجارة هو السبب الظاهري الذي تعللوا به. وقد كان الرؤساء متحدي الرأي وفي اتفاق تام، كما كان الشعب الغاضب الحانق لحرمانه من طعامه ومحاولة حرمانه من ديانته يُعضد هؤلاء الرؤساء ويشد أزرهم. والخلاصة أن إيمانهم المشترك وآلامهم المشتركة وحدتهم جميعًا بروح واحد ولغرض واحد. ومثل هذه الحالة المعنوية لا شك أنها بعثت فيهم أقوى دوافع العزم والحماس

والشجاعة للعمل. ولكن نذر الحرب الرسمية لم تكن قد أعلنت بعد، فكانت زيورخ لا تزال هادئة ومطمئنة ونائمة. أما المقاطعات الجبلية فقد وضعت يدها على جميع الممرات وقطعت كل وسائل الاتصال بين زيورخ وهذه المقاطعات، أو كما يقول مؤرخنا السويسري "إن جبل الجليد الهائل كان على وشك الانهيار من فوق قمم المرتفعات الثلجية، مكتسحًا الوديان حتى أبواب زيورخ نفسها، مهلكًا كل ما يصادفه في طريقه بلا إنذار سابق".

وقد كانت المقاطعات الكاثوليكية ترمي إلى تفريق المصلحين وإيجاد الانقسام في صفوفهم، ولذلك أعلنت الحرب ليس على المقاطعات الإصلاحية كمجموع، بل على زيورخ وحدها. ومن هنا ندرك أن عين إيزابل كانت متجهة إلى دم زونجلي دون سواه. فلينجُ من ينجو، أما هو فلا بد من ذبحه، إذ طالما هو على قيد الحياة فلا سلام للكنيسة المقدسة في سويسرا. فلتكن المعركة ضد الهرطقي الأكبر. هكذا كان روح الحزب البابوي ينفث سمومه في أفكار المحاربين الجبليين، موغرًا صدورهم ضد زونجلي. وعندما حانت الساعة اجتمعوا في كنائسهم، وبعد أن أقاموا القداس، وكان عددهم حوالي ٨٠٠٠، بدأوا مسيرتهم صوب الحدود البروتستانتية. ومن الجهة الأخرى انقض على المدينة جيش بابوي قوامه ١٢٠٠٠ من الجنود الذين دخلوا الكنائس المهجورة وشاهدوا الصور والتماثيل المحطمة والمذابح المنهدمة، فاشتعلت نيران غضبهم لدرجة الجنون، وراحوا ينشرون الهول والرعب في جميع القرى، وانقضوا عليها كالعاصفة المباغتة بوبال الحرب وفظائعها، يصبونها على الأهالي حيثما اتجهوا. فاستولى الرعب على القرويين المساكين، الذين أخذوا يستغيثون طالبين العون والنجدة فارين من كوخ إلى كوخ، ولكن صراخهم لم يستطع إيقاظ الزيورخيين. ولم تمض أربعة أيام حتى كانت زيورخ في حالة خراب شامل.

تغافل مجلس زيورخ

في مساء ٥ أكتوبر اجتمع المجلس على أثر الأخبار الأكيدة أن الحرب قد بدأت. غير أن المجتمعين كانوا قلائل، وبدلاً من دق ناقوس الخطر أو دعوة الشعب للسلاح، بعثوا باثنين من الأعضاء لكابل وبريمجارتن لاستقصاء الخبر واستجلاء الأمر، فقد زعموا "أن المقاطعات الخمس إنما تقوم بحركة صغيرة لتخويفنا وحملنا على رفع الحصار". ولكنهم في فجر اليوم التالي قاموا من فراشهم مذعورين على أثر وصول أخبار مؤكدة بأن العدو قد عبر الحدود واستولى على هيتزكِلْخ. ومع ذلك فلم يتنبه المجلس بالقدر الواجب، وانقضى اليوم كله في إلقاء الخطب والدخول في مناقشات بيزنطية طويلة. وكل ما هنالك أن سارت قوة مؤلفة من ٦٠٠ رجل بمدفعيتهم إلى كابل للوقوف في وجه المغيرين، على أن يلحق بهم الجيش بعد ذلك. وفي الساعة السابعة مساء دوى صوت ناقوس الخطر في أرجاء القرى والبلاد.

كانت ليلة مرعبة، وكأن الطبيعة نفسها كانت ترتعد لهول ما هو مزمع أن يسفك من دماء. يقول المؤرخ ويلي "غربت الشمس وتوارت خلف جبال الألب، وخيم الظلام على المدينة والبحيرة والمقاطعة كلها. ومع الظلام جاء الرعب والفزع، وجلجلت الأجراس تدعو الناس لحمل السلاح، وما كاد صوتها يدوي في الأرجاء حتى هبت عاصفة هوجاء على كل زيورخ والبلاد المحيطة. فكان صفير الرياح وصوت أمواج البحيرة، وقرع الأجراس مضافًا إليه هول الزلزلة التي هزت المدينة والمقاطعة حوالي الساعة التاسعة مساءً، كل هذه تعاونت معًا على إيجاد حالة من الفزع والرعب ندر أن شاهدها الناس من قبل. فلم تُغمض عين في تلك الليلة المشئومة. أما في منازل زيورخ فكانت الدموع تسيل وأصوات العويل تتصاعد لمشاهد الفراق المُر السريع بين أولئك الذين كانوا يشعرون أنهم على الأرجح يتعانقون لآخر مرة"(٢٧٨)(٤/٤٤).

مخاوف الشعب

تلك الليلة المرعبة كان سيتلوها يوم أكثر رعبًا وأشد هولاً. جاء الصباح وهدأت العاصفة، ولكن الفجر المشرق لم يستطع أن يبدد الكآبة التي استقرت في قلوب الزيورخيين. فأصوات الأبواق وقرع الطبول كانت تنادي الأهلين لحمل السلاح، ولكن مرت ساعات قبل أن تجتمع مئات قليلة من الجنود. يقول المؤرخ هس "إن تردد المجلس ملأ قلوب الأهالي بالقلق والاضطراب وأضعف فيهم روح الطاعة والخضوع. ولا عجب في ذلك فإن ضعف الحكومة وعدم استقرارها على شيء قد بدَّد كل ثقة. والأوامر المعطاة بتردد قلما تُطاع كما يجب". وبدلاً من جيش مؤلف من أربعة آلاف نفس يسيرون إلى كابل كما قرر المجلس لم يجتمع

في الساعة العاشرة سوى ٧٠٠ رجل. وهؤلاء كانوا غير منظمين وفي حالة هياج واضطراب بلا ملابس وبغير سلاح كاف. أما زونجلي فبناءً على أوامر المجلس وطبقًا لعادات البلاد فقد سار مع الجيش بصفة قس. وبقلب كسير ونفس دامية منسحقة عانق زوجته المحبوبة وأولاده المحبوبين لآخر مرة على الأرض. قال "أنا أعلم ماذا يعني كل ذلك إنني هو المقصود بهذا كله، وقد حدث كل ذلك رغبة في القضاء عليّ". وهو لم يخادع نفسه فيما يتعلق بنتيجة الحملة، ولكنه رأى من واجبه أن يطيع رؤساءه بدون أي اعتراض. وإذ احتفظ برباطة جأشه وسط أصدقائه ومحبيه، الذين كانوا يرتعدون إشفاقًا على حياته، أخذ يعزيهم ويشجعهم قائلاً: "إن قضيتنا عادلة، ولكن وسائل الدفاع عنها سيئة، وستكلفنا حياتي وحياة عدد من أفضل الرجال الذين يودون ويتوقون لو استطاعوا إعادة المسيحية إلى بساطتها الأولى، وبلادنا إلى عاداتها وأخلاقها الأولى. ولكن لا بأس! فالله لن يترك خدامه، وسيأتي لمعونتهم عندما يظنون أن كل شيء قد ضاع وكل أمل قد تلاشى. إن ثقتي في الله وحده وليس في الناس. إني أسلم نفسي لمشيئته المطلقة وإرادته الصالحة".

موقعة كابل

حوالي الظهر مرت قوة مؤلفة من سبعمائة رجل لا غير من أبواب زيورخ سائرة إلى ميدان القتال، وكانت حنة المحبوبة على السور ترقب زوجها وتتبعه بنظراتها حتى توارى عن العيون، ولكن كان لها أيضًا في هذا الجيش المنحوس ابن وأخ وعدد كبير من الأقارب والأصدقاء، الذين لم يكن يخالجها أي رجاء في عودتهم، فقد كانت تشترك مع زوجها في مخاوفه وتقاسمه تشاؤمه، وكانت تؤمن مثله أنهم في سبيل قضية الله العادلة وحقه الطاهر المقدس قد عرّضوا أنفسهم للخطر والموت، أو بعبارة أصح للاستشهاد.

وقد لوحظ أن زونجلي كان يتأخر وراء جنوده، واستطاع القريبون منه أن يسمعوه يصلي، وهكذا استمر يسير ممتطيا جواده حزينًا فريدًا، مصليًا من أجل خير كنيسة الله، إلى أن وصل إلى جبال الألب.

والمسافة بين كابل وزيورخ لا تزيد عن ثلاثة فراسخ ولكن الطريق بينهما يمر عبر جبال الألب. ووصل الجيش إلى قمة ذلك الجبل وقفوا عليها، واقترح البعض الانتظار هناك حتى تصلهم قوات أخرى، ولكن دوي المدافع البعيدة كان يدل على أن المعركة قد بدأت. وقد أيقظ هذا الدوي مشاعر زونجلي الوطنية فقال: "ألا تسمعون صوت المدافع تحتنا؟ إنهم يحاربون في كابل. فلنسرع لنجدة إخوتنا". وكان لكلمة زونجلي تأثيرها على الزعماء، فملأتهم بالحماس ودفعت بهم إلى الأمام.

وباكرًا في اليوم التالي كان جنود المقاطعات الخمس يحضرون الصلاة ويسمعون القداس، وبعد تقديم الصلوات من أجل خطايا الشعب بدأ الجيش المؤلف من ٨٠٠٠ رجل مسيره في الساعة التاسعة، وبدأ هجومه على حامية كابل حوالي الساعة الواحدة. ولكن لجهلهم بقوة هذه الحامية الحقيقة قنعوا بتسليط نيران المدفعية عليهم. وفي ظرف ساعتين وصل جيش زيورخ وانضم إلى رفاقه في المعركة.

أما الكاثوليك فكانوا يجهلون مدى هذه القوة الجديدة التي انضمت إلى الحامية، ولذلك لم يريدوا أن يغامروا بهجوم عام. وقد استطاعت مدفعية الزيورخيين بفضل موقعها أن توقع الفزع في صفوف الأعداء المشتتين على مساحة كبيرة أسفلهم. وكانت الساعة الرابعة، وقد أخذت الشمس في المغيب بسرعة وسمعت أصوات التذمر تتصاعد من صفوف الكاثوليك لإبطاء وتردد رؤسائهم. وفي أثناء هذه الجلبة تقدم أحد المحاربين الشجعان الخبيرين من مقاطعة أوري على رأس قوة مؤلفة من ثلاثمائة متطوع، وتسلل إلى غابة على الجبهة الشمالية لجيش زيورخ كانوا قد أهملوا احتلالها. وإذ تأكد من ضعف الجيش البروتستانتي قرر الهجوم عليهم في الحال. وإذ وصل الخبر إلى الجبليين قرروا هم أيضًا تسلق الجبل وإصلاء رجال زيورخ بنار حامية. وعندما وصلوا إلى مقربة منهم صدرت الأوامر بتصويب الطلقات على الأشخاص المقصودين بالذات، وبعد إطلاق النيران اندفعوا من الغابة وسيوفهم بأيديهم وانقضوا على الزيورخيين صائحين: "أيها الهراطقة! محطمي التماثيل! هاكم قد وقعتم في أيدينا".

موت زونجلي

لا يمكن تعليل ضعف الزعماء الزيورخيين والأخطاء التي ارتكبوها إلا بمبدإ العمى القضائي التأديبي، فقد انحرفوا بعيدًا عن طريق كلمة الله، ولذلك لم يكن الله معهم. فالكنيسة قد أصبحت الدولة، والدولة الكنيسة، والجيش القائم كان عبارة عن أعضاء

الكنيسة وقسوسها أكثر من كونه جنودًا سويسريين، وكان لا بد لله من إدانة هذا الفشل، وكان الكاثوليك قضيبًا في يده لتأديب أولاده المحبوبين. يا له من درس! وما أعظم ما يتضمنه من إنذار وتعليم للمسيحيين في جميع العصور!

وإذ أيقن رجال زيورخ موقفهم الحرج ووقوعهم في الشرك من كل جانب، لم يكن أمامهم إلا الاستماتة في الحرب والقتال. ولكن لما كان عددهم بنسبة واحد إلى ثمانية، لم يكن في استطاعتهم الصمود أمام الجيش المهاجم، فغُلبوا على أمرهم. ومما زاد الطينة بلة وأوقع الارتباك في صفوفهم أن تسلل بعض جواسيس الأعداء والتحقوا بمؤخرة الجيش وراحوا يصيحون "خيانة! خيانة!" مما أوقع الفزع في الصفوف الخلفية، ففر الجميع هاربين. أما رجال الصفوف الأمامية المشتبكة في القتال فسقطوا قتلى برصاص الأعداء. وكانت جبال الألب ترد صدى دوي الرصاص والمدافع عندما خيم الظلام وجاء الليل ليضع حدًا لمشهد الدماء المسفوكة، بعد أن سقط أكثر من خمسمائة من زهرة شباب زيورخ "فإن أحكم مستشاريها وأتقى مواطنيها وأقدر رعاتها وقعوا مجندلين في هذا الميدان الرهيب".

وإننا بشعور الخزي والأسف نسجل هذه الحقيقة المحزنة، وهي أنه من بين الذين قُتلوا كان خمسة وعشرون قسًا مسيحيًا ممن ساروا إلى ساحة القتال على رأس رعاياهم. ولا شك أنه من هذه الوجهة تقف موقعة كابل فريدة في تاريخ المعارك الحربية، وهذا دليل كافٍ على عدم رضى الله عن هذا الخلط الدنس بين الكنيسة والعالم، وبين رجال اللاهوت ورجال السياسة، وهي الغلطة الكبرى التي سادت حركة الإصلاح السويسرية.

ولكن كان هناك شخص واحد أثر موته على زيورخ وحركة الإصلاح في سويسرا أكثر من موت الآخرين جميعًا، ذلك هو إلريك زونجلي. فلم يكد يدخل الميدان وتبدأ المعركة حتى مال على شخص محتضر يواسيه ويعزيه، فأصابته شظية في رأسه أوقعته على الأرض. وحاول أن يقوم، ولكنه وقع مرة أخرى بعد أن أصيب بجروح أخرى كثيرة. إنه لم يستل سيفه، ولكنه كان قد رفع صوته عاليًا مجلجلاً فوق كل الأصوات والصرخات الأخرى، باعثًا روح الشجاعة والأقدام إلى قلوب الجند حتى لا تضطرب صفوفهم، وإذ خارت قواه في النهاية استلقى على الأرض قابضًا يديه كما في حالة صلاة وقد سُمع يقول: "وا أسفاه! يا لها من كارثة! ولكن الكل خير. إنهم يستطيعون أن يقتلوا الجسد ولكنهم لن يمسوا الروح". تلك كانت آخر كلماته.

غلمان المعسكر

عندما أصبح ميدان كابل في قبضة الكاثوليك، خرج غلمان المعسكر وفي أيديهم المشاعل يجوبون ساحة المعركة، مفتشين على القتلى لسلب ما قد يكون معهم. وكلما وجدوا واحدًا منهم لا يزال به رمق من الحياة صاحوا به "ادع القديسين واعترف لكهنتنا"، فإذا رفض المحتضر انهالوا عليه بالشتائم واللعنات، وقضوا عليه في الحال كهرطقي دنس، وقد كان من بين مئات المحتضرين شخص كانت عيناه ويداه مرفوعتين إلى السماء، فقال له واحد من القتلة وقد سلط ضوء مشعله على وجه الذابل "أتريد كاهنًا تعترف إليه؟" فهز رأسه علامة الرفض، فقالوا له "إذا كنت لا تستطيع الكلام فاطلب إلى والدة الإله والقديسين الآخرين ملتمسًا شفاعتهم". ولكن المحتضر هزَّ رأسه مرة ثانية شاخصًا إلى فوق ومثبتًا عينيه في السماء، فصاحوا قائلين: "هذا الرجل أيضًا هرطقي عنيد". ولكن أحد الجنود مدفوعًا بحب الاستطلاع أدار رأس الجريح إلى ناحية الضوء المنبعث من نار كانت مشتعلة بالمكان وصاح على الأثر "أظنه زونجلي". وهنا كان قد وصل الكابتن توكنجر من أولترفالدن، فعندما سمع الاسم استل سيفه في الحال وضرب به عنق زونجلي، منهالاً عليه باللعنات. وبذلك أخمد ما كان لا يزال باقيًا من تلك الحياة الفذة، وبذلك أيضًا تم المكتوب «كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (مت ٢٦: ٥٢).

كان الليل باردًا والجو ملبدًا بالغيوم، وانتشر الضباب فوق المكان وكأنه ملاءة قد لفت جثث الموتى وأجساد المحتضرين، إلى أن لاح الفجر وعرف الجنود جثة زونجلي، فانفجر أعداؤه الحانقون بالغضب عليه، وخاصة رجال الخدمة الأجنبية (الجنود المرتزقة) فراحوا يكيلون له كل أنواع الإهانة والسباب. وبعد أن مثلوا بجثته أشنع تمثيل، عقدوا مجلسًا على سبيل السخرية، واستحضروا الميت للمثول أمامهم. وبعدئذ أصدروا قرارهم بإدانته بتهمة الخيانة والهرطقة، وحكموا عليه بالحرق حتى يصير رمادًا، فقام حاكم لوسرن بتنفيذ الحكم، وذرُّوا الرماد في أربع رياح الأرض.

وقد كانت الحالة في زيورخ مضطربة جدًا، وبلغت من الهياج حدًا يجل عن كل وصف، وخاصة عندما بلغها بعض الجرحى وقصوا على الأهالي هول ما حدث. ولكننا لن نشغل أنفسنا بوصف تفاصيل الهياج والاضطراب والألم. ولسنا نشير إليه إلا لكي نقدم للقارئ شخصية رئيسية واحدة من بين الثكالى النائحات، وهي حَنَّة زونجلي. فقد كانت تسمع من منزلها دوي المدافع والطلقات المتتابعة وتساورها المخاوف والأحزان، ويا لها من ساعات رهيبة مرت على هذه السيدة الفاضلة. ولكنها أخيرًا عرفت كل شيء، عرفت أن زوجها وابنها وأخاها وجميع أقاربها وأحبائها تقريبًا قد سقطوا قتلى في ساحة الوغى، وأصبحوا جثثًا باردة هامدة على مرتفعات كابل. ولكنها وإن كانت امرأة وزوجة وأمًا، فقد كانت في الوقت نفسه مسيحية بالحق، فاستودعت نفسها وأطفالها الصغار لعناية الله ورعايته الرحيمة، وراحت تلتمس الفرح والتعزية وسط دموعها، لأن عددًا كبيرًا كهذا من أحبائها قد نالوا إكليل الاستشهاد.

تأملات في حياة زونجلي

تكررت الإشارة فيما سبق إلى صفات ومبادئ المُصلح السويسري العظيم، ولهذا لم يبقَ لنا إلا القليل نضيفه على سبيل التأمل. ولكننا لا نستطيع أن نودع هذا المشهد الأخير المُحزن دون أن نبدي عظيم احترامنا وتقديرنا لرجل قد أقامه الله واستخدمه هذا الاستخدام العجيب، ودون أن نعبِّر أيضًا عن عميق أسفنا لأن نورًا عظيمًا كهذا كان مصيره الانحراف عن الطريق الضيق وقيادة الكثيرين وراءه.

فمن اللحظة الأولى التي منها تتبعناه وهو لا يزال بعد في كوخ والده الراعي في وادي توكنبرج، رأينا فيه كل ما يثير إعجابنا وتقديرنا كما وتقدير وإعجاب الأجيال القادمة أيضًا. فقد كان شديد التمسك بمعتقداته، شجاعًا في الذود عن تعاليم كلمة الله، كما كان يفهم معناها الروحي وتطبيقها. فنحن لا يمكن أن ننسى أو نقلل من قيمة وقفاته النبيلة التي طالما وقفها في سبيل الدفاع عن سلطان كلمة الله المطلق، وذلك في وقت كانت فيه كلمة الله مهملة لا يكاد أحد يشعر بوجودها، ولم يكن يقرأها أحد حتى ولا الكهنة والرهبان. ففي تلك الصالات التي كانت تُعقد فيها المُجادلات، كان زونجلي يضع أمامه على المنضدة توراته باللغة العبرية وإنجيله باللغة اليونانية، مُشيرًا إلى هذين الكتابين كأساس الإيمان ودستور السلوك الوحيد، فكان الله يتمجد، وسلطانه يُعلن، فيرتبك الكاثوليك ويرجعون محتمين في ظلمة تقاليدهم وخرافاتهم.

أما زونجلي الذي كان يمثل جيله فقد وقف دائمًا رافع الرأس، وراح نور الإصلاح ينتشر بكل سرعة، بحيث بدا كأن أشعته ستشمل سريعًا كافة جبال ووديان سويسرا. فقد قبلت جميع المقاطعات ما عدا الجبلية منها الحق كاملاً أو جزئيًا. ولو أنه استمر مستندًا ببساطة الإيمان على الله الحي وكلمة نعمته لخضعوا هؤلاء أيضًا - لا شك - للإيمان الجديد في الوقت المعين، ولكن من الوقت الذي التجأ فيه زونجلي إلى زيورخ يستعديها على المقاومين، ويطلب معاقبة المضطهدين بالسيف، انحرف بذلك عن طريق الله الصحيح، متخذًا لنفسه صفة الرجل السياسي. ومع أنه كان لا يزال المسيحي المخلص والمصلح الغيور، لكنه كان يرى أنه من واجبه دراسة أعمال الوزارات ومجالس الشعوب وتحركات الجيوش. تلك كانت الصخرة التي ارتطمت بها سفينة الإصلاح وشُرُعها كلها مفتوحة وزونجلي نفسه على الدفة، وقد رأينا كيف ارتطمت وتحطمت. ولا شك أنها نهاية يجب أن تكون إنذارًا لجميع المسيحيين في كل العصور، ولكن مما يؤسف له أن كثيرين حتى من بين من يُسمَّوْن خُدام ورعاة الإصلاح لا يزالون إلى يومنا الحاضر يمتدحون غيرة زونجلي كوطني وسياسي، ويقولون إنه راح ضحية اندفاع وتهور أشخاص آخرين.

صحيح إنه مانع كثيرًا في الحصار الذي أدى إلى الحرب، ولكنه كان يدعوا إلى الاحتكام المباشر للسلاح، وهو أمر بعيد كل البعد عن روح المسيح، مثله مثل أي حصار تجاري تمامًا، والأمران اللذان كان زونجلي يحث حكومة زيورخ لشن الحرب من أجلهما كانا تعييرات البابويين واضطهاداتهم. ولكن ماذا يقول الرب المبارك في هذا؟ «طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السماوات. فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم» (مت٥: ١١، ١٢). وكذلك مكتوب «باركوا على الذين يضطهدونكم. باركوا ولا تلعنوا». ولأن سيدنا كان يعرف حالة الهياج وشعور الغضب الذي يُحدثه بطبيعة الحال التعيير والاضطهاد، فلذلك له المجد خاطب المظلومين في كلمته بعبارات

تفيض رقة وعطفًا وحنانًا. كما يقول الرسول بولس «لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانًا للغضب. لأنه مكتوب: ليَ النقمة أنا أجازي يقول الرب. فإن جاع عدوك فأطعمه وإن عطش فاسقه. لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه. لا يغلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير» (رو١٢: ١٤،١٩-٢١). لا شك أن الحصار التجاري والاحتكام إلى السلاح كلاهما يجدان حتفهما أمام هذه التعاليم الإلهية التي فاه بها سيدنا والتي سجلها في كلمته.

إن المسيحي مخلَّص بالنعمة، ويقوم في النعمة، لذا عليه أن يكون شاهدًا للنعمة في كل الظروف والأحوال، وهذا ما لم يفهمه المُصلح العظيم. فهو لم يدرك قط الحق الخطير الخاص بانفصال المسيحي عن العالم بموت وقيامة المسيح، وعلاقات الكنيسة السماوية كالعروس امرأة الخروف، ومع ذلك فكلمة الله جلية وليس لجهلنا أي عذر. وفي الوقت نفسه يجب أن نلتمس عذرًا لزونجلي أكثر مما نلتمسه لكثيرين من خدام الإنجيل في وقتنا الحاضر، الذين يتزعمون الحركات السياسية ويتخذون مراكز القيادة في الشئون العالمية. فنظرًا لخروج زونجلي من ظلمة البابوية التي كانت لا تعرف وسيلة للحوار سوى السيف، ونشأته في أجواء الحرية السويسرية، وتشبع أفكاره بتواريخ الجمهوريات القديمة، كان يؤمن إيمانًا خالصًا من حداثته بأن الطغاة يجب أن يقاوموا، وأنه على المسيحيين أن يتحدوا مع الحكومة في مقاومتهم والوقوف في وجههم. وإذ لم يدرك بعد تجديده دعوة المسيحي السماوية، تصرف بمقتضى هذه المبادئ كزعيم لحزب الإصلاح.

ويسرنا أن نجد أن دوبينيْ يشترك معنا في هذا الرأي، إذ يقول "إن زونجلي وقد لاحظ قيام كل القوات ضد الإصلاح، فكَّر في مشروع "الجبهة المسيحية" أو الدولة المسيحية، التي يجب أن تضم جميع أصدقاء كلمة الله في عُصبة واحدة مقدسة وقوية. وهذه الناحية من صفاته يعتبرها البعض أسمى مؤهلاته للعظمة والمجد، وإن كنا نحن لا نتردد لحظة في اعتبارها غلطته الكبرى. فقد سمح المُصلح لنفسه، وقد هجر طريق الرسل، أن ينقاد في طريق الضلال وراء مثال البابوية الخاطئ، فالكنيسة الأولى لم تقاوم مضطهديها قَطّ إلا بأساليب ومقتضيات إنجيل السلام، وكان الإيمان سيفها الوحيد الذي به قُهرت أقوياء الأرض". ولكن يظهر أن زونجلي نفسه كان في صراع ذهني من جهة هذا الأمر. ويتضح ذلك من قوله "لا شك أنه ليس بالقوة البشرية بل بقوة الله وحدها تنتصر كلمة الرب. ولكن الله كثيرًا ما يستخدم البشر كآلات لنجدة وإعانة الناس، فلنتحد إذًا ولنكوِّن من منابع الراين إلى ستراسبورج شعبًا واحدًا وتحالفًا واحدًا".

أما عن مقدرته العلمية ومؤلفاته الأدبية واللاهوتية فلندع شاهدًا مختصًا يُشهد له. ذلك هو وادنجتون، الذي يقول عن زونجلي "عندما نتأمل في عبقريته الفذة ومؤلفاته الضخمة في الشرح والتفسير والمجادلات اللاهوتية التي أنشأها في أقل من اثني عشر عامًا، وهي فترة كانت تتزاحم عليه فيها آلاف من الاهتمامات والمشاغل الأخرى، أقول إننا عندما نتأمل في هذه المؤلفات التي ستبقى على الدهر مثالاً ناطقًا لما كان عليه من تربية عالية، وعلم غزير، وحكم صائب، وطبع صريح ومُخلص ومحب، وإيمان هادئ رزين ومتواضع، لا يسعنا إلا الأسف الشديد للقضاء على حياته هكذا مبكرًا وقبل الأوان...

فإلى جانب آرائه الصائبة وتفسيراته الروحية العميقة، تتضمن مؤلفاته كثيرًا من العواطف النبيلة الصادرة عن قلب متسع وروح عالية. وقد استطاع بما وهبه الله من نظر ثاقب وغيرة مخلصة وأمينة وحكمة سامية، وما اتصف به من عزم وتسامح، أن يحتفظ بهذه الصفات العظيمة دون أن تلطخها نقيصة واحدة. فقد كان يُظهر أسمى الحكمة في تنفيذ وتتميم مقاصده، ولم يكن ينقاد قط في أعماله أو كتاباته بروح حزبية أو بواعث شخصية"[٣/٤٤].

لم يتجاوز زونجلي سن الثمانية والأربعين عندما مات، فقد رحل في ملء شبابه واكتمال علمه واقتداره. وكم كان يستطيع بمواهبه الفنية المتنوعة أن يخدم حركة الإصلاح في سويسرا، بل في أوروبا كلها، لو كان قد قصر خدمته على كلمة الله. ولكن إذا فشلنا في تنفيذ عمل الرب بطريقته هو، له المجد، فإنه قد يأخذه من أيدينا ويعطيه لآخر. «ليس أحد وهو يتجند يرتبك بأعمال الحياة لكي يرضي من جنده، وأيضًا إن كان أحد يجاهد لا يكلل أن لم يجاهد قانونيًا» (٢تي ٢: ٤،٥).

معاهدات السلام

أثارت أخبار المعاملة السيئة والإهانة الشنيعة التي عومل بها رُفات زونجلي أشد الحنق والغضب في زيورخ التي حشدت قواتها، وجاء البرنيون من كل فج وناحية لمعونتها، وكان الجيش المتحالف عظيمًا ورهيبًا جدًا، فبدأوا بالهجوم وأغاروا على مقاطعة تسوج.

ولكن الرب لم يكن معهم، وأظهروا مرة أخرى كل خوار وضعف. فبدون أن يضعوا خطة موحدة للعمل بدأوا هجومهم باندفاع وارتباك، وانتشرت على الأثر روح العصيان في صفوفهم، بينما كان الكاثوليك منظمين ومتحدين فكان النصر الكامل حليفهم.

وقد كان هذا الانتصار الذي فاق كل ما كانت تتوقعه المقاطعات الخمس سببًا في ازدياد حماسهم، إذ أوحى إليهم ثقة دينية بقداسة قضيتهم، بينما حدث العكس مع المصلحين، إذ دب روح الفشل واليأس في نفوسهم، ومالوا للمهادنة والصلح. فتجددت المفاوضات، ووقَّع الزيورخيون والبرنيون معاهدتين في ١٦، ٢٣ نوفمبر ألغتا معاهدة سنة ١٥٢٩م وأعطتا ميزات واضحة لأعداء الإصلاح. وقد كانت هاتان المعاهدتان على جانب عظيم من الأهمية، لأنهما وضعتا حدودًا دائمة للإصلاح الألماني والسويسري لم يطرأ عليها أي تغيير هام بين المقاطعات إلى يومنا هذا.

ويقال إن زونجلي قبل رحيله إلى كابل وهو شاعر بالإحساس المحزن أنه لن يعود أوصى بمن يخلفه، وهو بولنجر أوف بريمجارتن، الذي عُين بعد فترة جيزة رئيسًا للرعاة وأستاذًا للاهوت، وقام بعبء الوظيفتين زهاء أربعين سنة بكفاءة ظاهرة متميزة، وقدم خدمات عظيمة وهامة لكنيسة المسيح. وقد شاهد ذلك الخريف المنحوس اختفاء شخص آخر من أسطع أنوار حركة الإصلاح، وهو أكولامبديوس الوديع المتواضع، والعالم القدير المخلص، الذي عندما بلغه نبأ صديقه والإهانات التي لحقت بذكراه مات بعد مدة وجيزة بقلب كسير وهو لا يزال في سن التاسعة والأربعين.

وعندما شعر بأن رحيله يقترب جمع أصدقاءه وزملاءه حوله، وناشدهم بأسلوب مؤثر للغاية أن يعتصموا بالثبات والعزيمة، وأن يُكثروا في عمل الرب حتى يتمجد الله وتزداد قضية المسيح المباركة سطوعًا وجلالاً بواسطة نور طهارتهم. وهكذا أسلم أكولامبديوس الوديع الهادئ روحه، فكان موته كحياته مليئًا بالسلام والنور، وحل محله في بازل أزوالد ميكونياس العالم التقي الورع(٤/٤٤)،(٣/٧٢)،(٢٧٩)،(٣/٦٧)،(٢/٧٨).

• • •

أما تاريخ الإصلاح في سويسرا الفرنسية الذي تلا ذلك، والذي يسطع فيه أسماء وليم فارل وجون كلفن فإننا نتركه إلى حين، ولنعد إلى ألمانيا لكي نتأمل في سنوات المُصلح الألماني الأخيرة، والمشاهد التي اختُتمت بها حياته.

الفصل الخامس والأربعون

الإصلاح في ألمانيا

قد تتبعنا حتى الآن تاريخ حركة الإصلاح في ألمانيا منذ عام ١٥١٧م، عندما علق لوثر منشوره الشهير على باب كنيسة وتمبرج، إلى عام ١٥٣٢م، عندما وقع الإمبراطور معاهدة السلام في راتسبورن. ولا شك أن تاريخ هذه الخمس عشرة سنة من أبرز وأهم مراحل تاريخ البشرية، من بعد الجزء الأول من القرن المسيحي الأول. فنحن نستعرض في خلالها سلسلة من الحوادث المتتابعة المتميزة بالنعمة ونشاط الروح القدس وقوة يد الله الحاكمة الغالبة، إلى أن نخرج من ظلمة روما وخرافاتها إلى نور وحرية حق الله. والواقع إننا لا نعرف صفحة في تاريخ البشرية كلها لها ما لهذه الصفحة من وقع في نفوسنا، وتثير فينا ليس فقط أعمق الشوق بل وأعمق التعبد.

وقد نتساءل: كيف تمت هذه الثورة الهائلة بمثل هذه السرعة الغريبة؟ والجواب هو أنه ليس بالفلسفة ولا بقوة العلماء وقادة الحركة الإنسانية، بل بقوة وسلطان حق الله وحده عاملاً في ضمائر الناس بقوة الروح القدس. على أي أساس وقف لوثر وانتصر في مجمع ورمز؟ على أساس كلمة الله المؤيدة بنعمته. وعلى أساس أي مبدإ انتصر الأمراء في أوجسبرج؟ على أساس نفس المبدإ وليس سواه. وبأية وسيلة استطاع زونجلي أن يقهر أعداء الحق في زيورخ ويلزمهم بالفرار؟ بالالتجاء إلى كلمة الله، وبها وحده. ولكن عندما غير موقفه وانتقل من أساس الله إلى أساس الناس ضعف بالأسف وأصبح كباقي الناس. فطالما كان الضمير له سلطانه على عقل هذا الرجل الشريف ورافعًا ذلك الصوت القوي، كان يتعثر أمامه أشد أبطال روما وأقواهم، فيهربون خجلين من حضرته الرهيبة. ولكن واحسرتاه، فعندما قرن سيف الناس بسيف الروح انعكست الآية وأهين حق الله. لقد ترك مكان القوة وصار أضعف الضعفاء. صار ضميره ملومًا، فضاع درعه، وهذا دائمًا ما يسلب الإنسان شجاعته وسلامه وسعادته. إنه فقط بواسطة الضمير ينشر الحق سلطانه على عقول وطرق الناس.

هذه حقيقة مدهشة وعجيبة بشهادة التاريخ نفسه، ولذلك فإنها تستحق أعمق تأملنا. كان لوثر خاليًا من روح التعصب، كما كان خاليًا من روح الرياء. كان بسيطًا للغاية، وكان ضميره مرتبطًا بكلمة الله وكانت عواطفه ملتهبة، وإذ استمر هكذا متمسكًا بكلمة الله ارتعدت أوروبا كلها أمام قوة لا يستطيع أن يفهمها إلا الإيمان وحده. والخاصيتان اللتان يتميز بهما الإيمان هما استبعاد القوة البشرية، واستحضار القوة الإلهية، كما يقول الرسول «أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني» (في ٤: ٣١). والآن نلقي نظرة على آثار هذه القوة في خلال مدة الخمس عشرة سنة القصيرة.

نظرة إجمالية

إن الحق العظيم الذي نادى به المصلحون الأولون، وهو الخلاص بالإيمان وليس بالاستحقاق البشري، انتشر بسرعة تشبه سرعة الضوء في السماء، وفي وقت قصير عم الجزء الأكبر من أوروبا. ففي عام ١٥٣٠م كتب لوثر إلى المنتخب واصفًا ممتلكاته وكأنها مشهد من مشاهد الألف السنة السعيدة، يقول "إنه مما يعظم سروري واغتباطي أن أرى الأولاد والبنات يعرفون الله ويتكلمون عن المسيح أفضل مما كانت تفعل الكليات والأديرة ومدارس البابوية، بل أفضل مما تستطيع أن تفعل الآن. وبهذا أستطيع القول إن فردوسًا هنيئًا قد غُرس في أملاك سموكم لا يوجد مثيله في كل الأرض". والواقع إن البلاد كانت قد تطهرت من الأديرة وامتلأت من الكنائس والمدارس.

فقد رأينا كيف أن الإنجيل تغلغل في مقاطعتي هيس وسكسونيا، وانتشرت فيهما الكنائس والمدارس. وفي فرانكونيا وسيليسيا وفريزلاند الشرقية وبروسيا وبرونسويك ولونبرج وأنهالت كان نور الإنجيل آخذًا في الانتشار. وكذلك كثير من المدن الحرة فتحت أبوابها للمبشرين بالتعاليم الجديدة، وصاروا فرحين بالحق وشاهدين له بكل جسارة. بل إن الانتصارات السريعة التي حازتها حركة الإصلاح في سويسرا، والتي تأملنا فيها بشيء من العناية، تدخل هي أيضًا ضمن نطاق المدة الصغيرة موضوع تأملنا. فمن سلسلة جبال جورا إلى ساحل ليمان حتى أبواب نيف انتشر نور الإنجيل وأشرق في قلوب كثيرة، وفي الدانمارك والسويد تأصل الإنجيل. كما حدثت نهضة عظيمة في بوهيميا ومورافيا وهنغاريا. وحتى في بلاط فرانسوا الأول ملك فرنسا وجامعة السوربون المشهورة بأرثوذكسيتها، كان يوجد مؤمنون حقيقيون بمبدإ التبرير بالإيمان وحده، ولكن الدولة أو الحكومة كانت ومازالت كاثوليكية. ولا عجب إن كان التاريخ يخبرنا بعد ذلك أن هذه الدولة قد دفعت غاليًا ثمن رفضها للحق واضطهادها لشهوده في تلك الثورات المريعة والنكبات الهائلة التي حلت بها. أما في إنجلترا فكان أتباع ويكليف نشطين، كما رفع اللولارديون رؤوسهم وشهدوا للحق بشجاعة جديدة. وفي عام ١٥٣٣م ألقى الملك والبرلمان والشعب نير روما نهائيًا، ونودي بالملك رئيسًا أعلى للكنيسة الإنجليزية، وبذلك أُلغيت سلطة البابا في إنجلترا. أما تفصيلات هذا الحادث الهام فسنفرد لها فصلاً خاصًا في تأملاتنا إن شاء الرب.

ولم يأت عام ١٥٢٨م حتى كانت مؤلفات لوثر وترجمة تندال للعهد الجديد قد فعلت فعلها المبارك في اسكتلندا. واستشهد هناك في سبيل حق الله خادم الرب الوديع العالم الشريف باتريك هاملتون، الذي أُحرق حيًا في الساحة الكبيرة أمام باب كلية سان سلفاتور في أبردين بتهمة التمسك بهرطقات مارتن لوثر المختلفة[(١/٤٥)(١/٧٨)].

نمو عظيم

عقب معاهدة الصلح في راتسبورن نهض كثيرون ممن كانوا يخفون آراءهم، وبرزوا جهارًا في الميدان، يعلنون في صراحة اعتناقهم للمبادئ الإصلاحية. فملوك وأمراء وأشراف، ومناطق مختلفة ومدائن ألمانية كاملة كانت تعلن سنة بعد أخرى في غير خوف أنها قد طرحت المعتقدات القديمة واعتنقت المبادئ الجديدة.

وقد حدث حادث في ذلك الوقت، ولو أنه سياسي محض، إلا أن العناية الإلهية استخدمته لتشديد الحركة الإصلاحية بقوة عظيمة. فإن ألريخ دوق فورتمبرج أساء في عام ١٥١٥م إلى عصبة سوابيا، فنُفي من أملاكه التي صارت بعد ذلك تحت سيادة فرديناند. وبعد نفي طويل دام سبع عشرة سنة أُعيد الأمير من المنفى إلى عرش أجداده بمساعدة قريبه فيليب أمير هيس. ويبدو أنه حضر مؤتمرات ماربورج عام ١٥٢٩م، وتركت المناقشات في نفسه أثرًا طيبًا في صالح الإصلاح. ومن هنا كما يقول المؤرخ "كان أول أعماله بعد عودته إلى أملاكه أن فتح أبوابها على مصاريعها لمجد المسيح والكرازة بكلمة الله الطاهرة، وممارسة العشاء الرباني بحسب رسمه الإلهي، كما استعان ببعض اللاهوتيين في تنظيم وإقامة المدارس وترتيب شئون أخرى كثيرة وفقًا للمبادئ البروتستانتية. ذلك كان لا شك أشبه بالانتقال من الموت إلى الحياة لتلك الممتلكات الواسعة التي كانت ترزح تحت نير فرديناند الكاثوليكي".

وقد حذا حذو دوقية فورتمبرج دوقيات أخرى مثل برونسويك وكالنبرج وهانوفر وبوميرانيا ومكلنبرج ومدن أوجسبرج وبريمن وهامبورج. ولكن هناك عنصر آخر جديد دخل في جانب قضية الإصلاح حوالي ذلك الوقت، ويستحق تأملاً خاصًا باعتباره مثالاً مفسرًا لتداخل الله وتسييره لحوادث ذلك الوقت كما يشاء ويرغب.

ففي ٢٤ أبريل سنة ١٥٣٩م مات جورج دوق سكسونيا. وقد كان رأسًا للفرع الألبرتيني من أسرة سكسونيا، وكان يمتلك بصفته مركيز مسينيا وثورنجيا أملاكًا واسعة تضم درسدن وليبزج ومدنًا أخرى عظيمة. وقد كان من فجر الإصلاح ألد وأعند عدو لما كان يسميه اللوثرية، ويرجح أن مقاومته الأولى كانت عن عقيدة مخلصة في المبادئ الرومانية، غير أن معارضته ازدادت مرارة بسبب كراهيته الشخصية للوثر، وميل باقي أمراء العائلة لهذا المصلح المكروه منه. وعندما مات بلا خلف انتقلت أملاكه إلى أخيه هنري، الذي يمكن أن يقال إن تعلقه بمبادئ الإصلاح كان يفوق تعلق أخيه جورج بالبابوية. وقد عمل هنري ما عمله ألريخ، فاستدعى بعض اللاهوتيين البروتستانت ومنهم لوثر نفسه لمقابلته في ليبزج، ولم تمض أسابيع قليلة حتى انقلب نظام الطقوس القديمة كله وحل محله النظام الإصلاحي كاملاً، وذلك كله بموافقة الشعب وتهليل رعاياه جميعًا.

ذلك كان حدثًا له أعظم الأثر في تقدم حركة الإصلاح، فقد أزال من المشهد أكبر وأقدم عدو تقع أملاكه في قلب المقاطعات المصلحة نفسها، وخلق من نقطة الضعف مركزًا للقوة. هذه الحوادث العجيبة وتدبيرات العناية الغريبة التي كانت تؤول في النهاية إلى شغل العروش بملوك يميلون إلى الإصلاح زادت كثيرًا في قوة حلف سمولكولد البروتستانتية، فاتسعت حدودها وزاد عدد أعضائها، وأصبحت أملاك الأمراء والمدن الموالية لهم تمتد الآن في خط عظيم متصل من ساحل البلطيق إلى شواطئ الرين[٧٦].

غياب الشخصيات العظيمة من المشهد

بدأ الكثير من الأسماء المألوفة التي لعبت دورًا مهمًا في تاريخ الإصلاح الأول تتوارى الآن من المشهد. يقول عنهم وادنجتون "بعد أن أتموا المهمة المعينة لهم انطلقوا بالموت والقبر الذي ضم رفاتهم وأخفاها، وكان يمكنه أن يخبئ ذكريات أغلبهم بالطريقة عينها، لولا أن قرعتهم وقعت في عصر من تلك العصور الثورية، التي تنقض كالعاصفة على مجرى الحوادث البشرية العادية، فتترك وراءها آثارًا لا تمحى بما تخلفه أعمالهم من تغييرات جوهرية في مصائر البشرية، بحيث يصبح أصغر عمل من أصغر عامل له أهمية عظمى تستحق عناية الأجيال التالية المستنيرة، مهما باعد الزمن بين هؤلاء العمال وتلك الأجيال". ولكنهم سعداء جميعًا، وسعداء حقًا، أولئك الذين يلعبون دورهم في رواية الحياة العظمى بضمير صالح نحو الله والناس، الذين يهتمون بمجد الله وخير البشر.

إن الضمير له علاقة بمستقبل الإنسان أكثر مما نظن عادة، فالضمير الشرير يمنع الإنسان من تصديق نعمة الله في المسيح من نحو المذنبين. والإنسان يعرف الفرق بين الخير والشر، وإذ يعرف أنه اختار الشر ورفض الخير يعتقد أن الله ضده. وإذ يسيطر عليه هذا الفكر يحاول جهده الهروب من أي شيء قد يأتي به وجهًا لوجه أمام الله. وبالاستمرار في عدم الإيمان هكذا يزداد العقل ظلمة والقلب قساوة. كذلك فإن الاكتفاء بالذات بقوة وخداع الشيطان هو من أخطر الأمور وأضرها بالنفس، ذلك أن إله هذا الدهر يعمي الإنسان ويشغله بذاته، لدرجة لا يرى معها أي جمال أدبي في الرب يسوع، ولا أي حاجة إليه كمخلّص، بل ولا حاجة للخلاص الذي هو مطالب بقبوله بإلحاح. وهكذا يتوارى كثيرون من المشهد يحف بهم الاحترام خارجيًا، ولكنهم غير عابئين داخليًا بذلك الخطر العظيم الذي طالما جاءهم الإنذار للخلاص منه.

ونحن لا ندين الأموات، ولكننا نقدم خلاصة تأملاتنا لفائدة الأحياء. أما يحدث مع كثيرين أن الإنسان يستمر نائمًا بتأثير ضمير شرير، وبغرور الاكتفاء بالذات والرضا بما هو عليه، وبفعل وتخدير الشيطان، إلى أن ينتهي دوره في هذه الحياة، وعندئذ يستيقظ، ولكن متأخرًا، فيدرك أهمية وخطورة الحق الذي رفضه، والمخلّص الذي أهمله واحتقره؟ لكن، واحسرتاه! تكون الفرصة قد مضت، ويوم النعمة قد مرّ وعبر، وباب الرحمة قد أُغلق إلى الأبد. وإذ يدرك أن خسارته لا تعوض وكارثته لا تُعالج، يقع تحت طائلة اليأس حزين النفس مقطوع الرجاء، لا نصيب له إلا التعاسة والشقاء.

في ١٦ أغسطس سنة ١٥٣٢م مات يوحنا منتخب سكسونيا، بعد أن قاد سفينة الإصلاح بحكمة وعزم خلال سبع سنوات مليئة بالمواقف الحرجة. ففي أوجسبرج كما يذكر القارئ قد أظهر هذا الحاكم النبيل ثباتًا فاق بكثير تردد بعض اللاهوتيين، ومع ذلك كان ثباته مصحوبًا بشيء من الاعتدال، حفظه من الصدام المباشر مع الإمبراطور. فمرة هدده شارل تهديدًا صارمًا، ومرة لاطفه وأغراه بوعود سرية خلابة، ولكنه إذ كان قد تجرد من البواعث الشخصية والمصالح الذاتية، استطاع أن يبقى أمينًا لعقيدته ويكرس نفسه بسخاء لقضية القرن السادس عشر العظمى، أي حركة الإصلاح. أما عن حقيقة تقواه فلا شك فيها، وقد كان صديقًا حميمًا للوثر، وفي المسائل المشكوك فيها كان غالبًا ينحاز لرأيه. أما عن الكتب المقدسة فكان مغرمًا بها إلى حد أنه كان يجعل شبانًا من العائلات الشريفة يقرءونها له ما لا يقل عن ست ساعات يوميًا. ولحسن الحظ لم تفقد حركة الإصلاح شيئًا بموته، فإن ابنه يوحنا فردريك، المنتخب الجديد، كان منذ ريعان شبابه من أعوان حركة الإصلاح الغيورين، كما لم يكن أقل من أبيه التصاقًا بلوثر، وقد اتصف بالتقوى والثبات في الظروف الحرجة والأزمات الحادة التي كان عليه أن يجتازها فيما بعد[(١/٧٢)، (٣/٦٧)].

وهنا يجدر بنا أن نتأمل قليلاً في بعض أضداد لوثر الذين عاشوا بعده بعض الوقت.

البابا كليمنت السابع مات في ٢٧ سبتمبر سنة ١٥٣٤م، وقد رحل بشهادة التاريخ الإيطالي نفسه "مكروهًا من حاشيته مبغضًا

من الأمراء، تاركًا وراءه أسوأ سمعة وأبغض ذكر. فكان مشهورًا بالطمع، جشعًا خائنًا، وغير مبال بطبعه بعمل أي خير للبشرية"، وعلاوة على هذه الرذائل يصفه آخرون بالعناد والقسوة، وخاصة كلما تقدم به السن وشعر بالانحلال يدب في جسمه، وأن نجم حياته آخذ في الأفول. أما الفضائل التي تنسب إليه عادة فهي الوقار والتدبير وضبط النفس، والحذر وإن كان في حقيقته نفاقًا ورياءً. والحق أن هذه الصفة الأخيرة كانت من الأهمية في بلاط روما، حتى أن من تفوق فيها استحق من المديح ما يليق بمثل هذا التفوق *.

وكليمنت معروف لقرائنا بأنه الشخص الذي كان يدّعي دائمًا أنه مستعد لعقد مجمع ينظر في القضية، ولكنه كان يصر إلى نهاية حياته على اتباع وسائل الحيلة والخداع، التي كان يعرف أنها تؤخر - إن لم تمنع نهائيًا - عقد مثل هذا المجمع. والواقع أن عقله المظلم المتشكك كان يفزع من فكرة عقد مجمع عام، لأنه كان يخشى النور. كان يعلم أن ظروف تاريخه وارتقائه إلى العرش البابوي لم تكن خالية من اللوم. فما أبعد الفرق بين صفات ونهاية رئيس أمراء ألمانيا، وصفات ونهاية رئيس رعاة روما! يا ليتنا نتمثل بكل ما هو من الله في الأول، ونتجنب كل ما هو من الشيطان في الثاني.

يأتي بعده الكردينال كاجيتان أحد أضداد لوثر الأوائل، الذي مات في نفس السنة التي مات فيها كليمنت. وكان الكثيرون من رجال الكنيسة يعيبون عليه فشله في مناهضة لوثر في أوجسبرج، ولو أن الفاتيكان لم يشلحه، ويقول البعض إنه بدأ يهتم أكثر بدراسة الكتب المقدسة بعد فشله، ولكنه عاش ومات في خدمة البابوية.

ثم لورنزو كامبجيو مندوب البابوية، الذي اختير ليمثلها في مجمع أوجسبرج الشهير. هذا مات سنة ١٥٣٩م بعد أن مثل العظمة البابوية ومبادئ الفاتيكان بكفاءة عظيمة. فكان يحض شارل سرًا وبلا انقطاع على تشديد الإجراءات ضد البروتستانت. فالنار والسيف والمصادرة العامة والشاملة ومحكمة التفتيش، وحرق الكتب الهرطقية، كانت هي أسلحة المندوب من وراء الستار. ولكنه في جميعها لم يكن متعديًا الأوامر الصادرة إليه.

أما ألياندر بطل البابوية العظيم في مجمع ورمز فمات سنة ١٥٤٢م، بعد أن تقلد أرفع الأوسمة الإكليريكية لغيرته العظمى في سبيل القضية البابوية. ولكنه صرف معظم حياته في إدارة الأعمال العامة وشئون الدولة ومجالس الأمراء.

ثم إرازمس صاحب الشهرة العظيمة في عالم الأدب، ومن بعض الوجوه ممهد الطريق للوثر. فمات عام ١٥٣٦م في سن التاسعة والستين، واسمه يقترن على الدوام بلوثر وحركة الإصلاح، ولو أن لوثر كان يعتبره أخيرًا من أعظم أعدائها والعدو لكل ديانة صحيحة. كانت تنقصه المبادئ الجوهرية اللازمة للمصلح، فكان عديم الثبات مجردًا من الشجاعة، يرتعب من نتائج أعماله. كان مصلحًا، ولكن فقط إلى أن صارت حركة الإصلاح حقيقة كبرى. فقد هرب من بازل عندما تثبتت أقدام الإصلاح بإبادة الصور والتماثيل، وعاد إليها عندما هدأت الحالة وعادت إليها الطمأنينة. ولكن مع ذلك، ورغمًا عن تصلبه وعدم ثباته، فقد كان له احترام عظيم في النفوس بسبب شهرته الأدبية وصفاته الحميدة وأدبه الجم، وقد اعتُبر موته خسارة وطنية كبرى. والمعروف أنه مات في حضن الكنيسة البابوية معارضًا للممارسات الإنجيلية الجديدة.

أما جون إك، أستاذ إنجولشتاد، فقد اختتم تاريخه الصاخب سنة ١٥٤٣م في سن السابعة والخمسين، وقد كان البطل المغوار الذي لا يكل ولا يتعب في الدفاع عن عظمة بابوية روما وسيادتها المطلقة. كان متكبرًا متشامخًا، مدعيًا متفاخرًا، توفرت فيه بلا نزاع كل المواهب التي تجعل منه منازعًا من الطبقة الأولى. فقد كانت غيرته التي لا تعرف الملل تدفع به إلى كل حقل يحل فيه المصلحون، وفي كل مكان كان هو المقدام في النزاع والكفاح، يناهض ويصارع بقوة ونشاط، وفي أكثر من مرة أصاب النجاح. وهكذا كانت حياته خلال العشرين سنة الأخيرة سلسلة طويلة من المعارك الجدلية مع أقطاب الإصلاح، وهكذا عاش وهكذا مات متمسكًا إلى آخر لحظة بمزاعم روما في السيادة والسلطان.

نهاية حياة لوثر

يمكن أن يقال إن شهادة لوثر وأعوانه الجهارية توقفت عند إعلانهم اعتراف أو تصريح أوجسبرج، فمن هذا التاريخ، إن لم يكن قبله، تغيرت صفة النزاع، فلم يعد كما كان قبلاً بين هراطقة محرومين قائمين بالشهادة لحق الله ضد أباطيل روما، بل بين أمراء ألمانيا متحالفين ضد التحالف الإمبراطوري. ولكنهم وإن كانوا قد اختفوا عن المشهد العام، إلا أنهم استمروا يعملون بلا ملل

* من اقتباسات وادنجتون (٣/٣٩) عن جوشياردينى وعن فرا باولو.

في دائرة وظائفهم الخاصة، فرحين برؤية أثمار أتعابهم في انتشار كلمة الله ونموها السلمي. أما عن لوثر فيقول أحد مؤرخي حياته "إنه وإن كان قد استمر بغيرته المعتادة يؤدي واجباته الرسمية كواعظ ومعلم، وقد نشر تفاسير لأجزاء مختلفة من الكتاب المقدس، ولم يمتنع كعادته الأولى عن إذاعة منشور أو رسالة عامة كلما اقتضت الظروف والحالة الدينية، إلا أنه قد لوحظ وسط هذه الاهتمامات المختلفة أن روح المجازفة والنضال قد ضعفت فيه بعض الشيء، وأنه في السنين الأخيرة لم يجاهر بأي تعليم جديد"[٧٦].

وخلال هذه السنين كان المصلح العظيم الذي استحق هذا النصيب الكبير من اهتمامنا موضع التجربة بمرض طويل مؤلم، وكان يسير بسرعة نحو مقر راحته الأخير، حيث ينسدل ستار النسيان على مشاكل الحياة القاسية وعداواتها ومظالمها. وفي رسالة كتبها لصديق قبل رحيله بأيام قليلة قال "لقد أصبحت شيخًا ضعيفًا متعبًا خاملاً محرومًا من نصف بصري، ومع ذلك ففي الوقت الذي كنت أرجو فيه لنفسي قسطًا معقولاً من الراحة أراني لا زلت مرهقًا بالأعمال، فعلي أن أكتب وأتكلم وأعمل وأنشط كأني لم أعمل أو أكتب أو أتكلم في الماضي، بل كأني لم أعمل شيئًا على الإطلاق".

وفي يناير سنة ١٥٤٦م وقع خلاف بين أمراء مانسفيلد على بعض الحدود والميراث، فاستدعوا لوثر إلى إيزلبن مسقط رأسه ليقوم بدور الحكم في الموضوع، وقد لبى الدعوة رغم نفوره من التدخل في مثل هذه الشئون.

وفي ٢٣ يناير غادر وتمبرج مع أولاده الثلاثة وصديقه الأمين يوستوس جوناس، ورغم ضعفه ومرضه مكث حوالي ثلاثة أسابيع يعمل في المهمة التي حضر بسببها، وأخيرًا استطاع حل المشكلة بما يرضي أمراء مانسفيلد. وكان قد استقبله هؤلاء الأمراء بحفاوة عظيمة، فلاقوه في الطريق بحرس مؤلف من مائة فارس، وساروا به وسط قرع الأجراس في كل الكنائس. وقد قام بالوعظ في الكنيسة في بعض المناسبات، وكان يقول لأصدقائه عند توديعهم كل مساء "صلوا من أجل نجاح قضية الكنيسة، لأن مجمع ترنت هائج ضدها".

وفي مساء ١٧ فبراير تعشى مع أصدقائه وأولاده الثلاثة جون ومارتن وبول ويوستوس جوناس. وقد استطاعوا أن يقنعوه في ذلك المساء بالتخلي عن الأعمال والاعتكاف والهدوء في مكتبته، فأخذ يمشي في الغرفة جيئة وذهابًا، ثم تطلع من النافذة ورفع بصره إلى فوق وراح يصلي بحرارة، ومرت في مخيلته أفكار عميقة، ولكنها لم تدفعه إلى اليأس. هناك في تلك المدينة كان قد قضى فجر حياته، والآن قد شعر أنه سيقضي فيها مساءها، فقال "لقد ولدت وتعمدت في إيزلبن يا جوناس، وماذا إن بقيت ومت فيها".

وفاة لوثر

بدأ لوثر في ذلك المساء يشعر بشيء من الضيق في صدره، ولكن الحالة تحسنت بالتدليك والتدفئة، فغادر غرفته واشترك مع أصدقائه في العشاء. وقد كان أثناء تناول هذا الطعام الأخير مرحًا بعض الأحيان لدرجة المزاح، وبعض الأحيان كئيبًا غارقًا في لجة من التفكير العميق بخلاف عادته في مثل هذه الجلسات العائلية مع أصدقائه. وبعد العشاء عاوده الضيق الصدري، ولكنه رفض استدعاء الطبيب واكتفي بأن طلب قطعة من الكتان الدافئ يلف بها صدره. وفي الساعة التاسعة نام قليلاً على كرسي مستطيل، ولكنه استيقظ في الساعة العاشرة. وإذ رأى عددًا كبيرًا من أصدقائه حوله طلب إليهم أن يذهبوا إلى أمكنتهم ليستريحوا. وهنا ساروا به إلى غرفة نومه الخاصة، وعندما وضعوه على سريره قال "أذهب لأستريح عند الله. في يديك أستودع روحي". وإذ مدّ يده مستودعًا أصدقاءه إلى الصباح قال لهم "صلوا من أجل قضية الله". وبعد نعاس حوالي ثلاث ساعات استيقظ وهو شاعر بألم شديد فقال "يا إلهي.. كم أنا مريض، يا للضيق الذي أشعر به في صدري! لا شك أني سأموت في إيزلبن" فقال جوناس "يا أبي الفاضل، الله أبونا السماوي سيساعدك بالمسيح الذي كرزت به". وهنا انتقل إلى مكتبه بنفسه مكررًا القول "يا إلهي في يديك أستودع روحي".

وكانوا قد استدعوا طبيبين، فحضرا على الأثر، وكذلك الكونت ألبرت والكونتيسة عقيلته مع بعض الكرادلة ومعهم بعض الأدوية، وأحاط به أصدقائه وأولاده الثلاثة، فبدأ يشعر ببعض الراحة. وأخيرًا اضطجع على سرير صغير وغرق في لجة من العرق، فشعر أصدقائه ببعض الأمل، ولكنه قال "إنه عرق بارد، نذير الموت. وسأسلم روحي". وعندئذ بدأ يصلي قائلاً: "أيها الإله السرمدي، الرحيم، أبي السماوي، أبا ربنا يسوع المسيح وإله كل تعزية، أشكرك إذ أعلنت لي ابنك يسوع المسيح، الذي به آمنت، وبه كرزت، وبه اعترفت، والذي أحبه وأعبده كمخلصي وفاديّ العزيز، الذي

يضطهده البابا وجمهرة الأشرار ويعيرونه ويجدفون عليه. أتضرع إليك يا ربي يسوع المسيح، أن تقبل نفسي... أيها الآب السماوي، إني وإن كنت أنتزع من هذه الحياة، ولا بد لي أن أودع هذا الجسد، إلا إني موقن أني سأساكنك إلى الأبد، ولن يستطيع أحد أن يخطفني من يدك". ثم كرر ثالثًا هذه الكلمات "في يديك أستودع روحي. أنت قد فديتني أيها الرب إله الحق". ثم تمتم بكلمات الآية «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٦). وعندئذ صمت وبدأت قواه تخور. فناولته الكونتيسة شيئًا منشطًا، فهمس بلطف قائلاً "نعم أو لا" وعندما رفع جوناس صوته قائلاً "أبي المحبوب. هل تعترف بأن يسوع المسيح هو ابن الله مخلصنا وفادينا؟". أجاب بصوت واضح مسموع "نعم"، ولم ينطق بعد ذلك بكلمة. وبيدين مضمومتين وتنفس هادئ يتخلله بعض التنهدات، وفي وسط تأوهات أصدقائه المحيطين به، بين الساعة الثانية والثالثة صباحًا، رقد في يسوع *.

جنازة لوثر

كان يود أمراء مانسفيلد بكل سرور أن يبقوا جسد لوثر ويدفنوه في مسقط رأسه، ولكنهم خضعوا لمشيئة المنتخب التي قضت بنقله إلى وتمبرج. فنقل الجثمان إلى الكنيسة الكبرى في إيزلبن، حيث بلغ التأثر أشده بين الجماهير، فوقف جوناس وألقى موعظة التأبين على صفوف لا حصر لها من الناس. وعند ذلك وُضع الجثمان في عهدة عشرة من المواطنين لحراسته أثناء الليل.

وفي الصباح الباكر بدأ الموكب يسير نحو وتمبرج بين صفوف متراصة من الأهالي على طول الطريق حتى أبواب المدينة وما بعدها. وهنا خرج القرويون بنسائهم وعائلاتهم على أصوات النواقيس، وانضموا إلى المشهد الرهيب. وفي الطريق قابلهم وفد مرسل من قبل المنتخب. وهكذا سار الموكب الحزين حتى وصل وتمبرج في ٢٣ فبراير. وعندما وصل إلى أبواب المدينة استقبله مجلس الشيوخ ومدير الجامعة وأساتذتها وطلابها، وجميع الرؤساء والأعيان. وبعد ذلك بدأ يتقدم وسط جمهور السكان إلى كنيسة جميع القديسين، وعندئذ جاءت أرملة لوثر وبناتها وأولادها الثلاثة، والأحباء الأقدمون ملانكتون وبنتانوس وجوناس وبوميرانوس وآخرون، وهم شركاء الراحل الحقيقيون وشيوخ حركة الإصلاح.

وكانت ترانيم الوداع تُنشد، والموكب يسير في شوارع المدينة، وفي الكنيسة وُضع الجثمان على يمين المنبر، الذي منه ألقى بوميرانوس خطابًا مؤثرًا على الجماهير الغفيرة، وتلاه ملانكتون بخطاب تأبيني آخر. ولقد قيل "إن قوتهما كخطيبين لم يفقها سوى ما أبدياه في خطبتيهما من مشاعر عميقة وعواطف نبيلة، وإن محاولاتهما تقوية وتعزية الآخرين وتخفيف أحزانهم لم تكن إلا صدى لما كان يجيش في قلبيهما من فجيعة وحزن عميق"(٣٦٧).

تأملات في حياة لوثر

من الملذ والنافع لنا جدًا أن ندرس حياة الأشخاص الذين يمرون أمامنا في التاريخ، الذين وإن كانوا يختلفون في كل شيء لكن غرضهم كان مشتركًا. وحسنًا أن نتتبع بعين الإيمان آثار يد الله في كل أعمالهم وطرقهم، فهذه في الواقع دراسة لما هو الله في سياسته، ولما هو الإنسان في ذاته مهما كانت مواهبه، وتجديده بالنعمة. ففي كلامنا عن هؤلاء الرجال العظماء يجب أن نذكر دائمًا أن الإنسان غير معصوم. فهناك واحد فقط معصوم، وشكرًا لله لأننا لا نعترف بغيره رأسًا أو مركزًا، ولا باسم غير اسمه: اسم يسوع المبارك. ومن هذا البرج العالي وحده وبهذا المنظار الدقيق يتسنى لنا أن نقدر تقديرًا صحيحًا صفات الرجال وأحداث التاريخ.

وفي حياة لوثر وموته أعمق التعاليم لكل تلميذ، وخاصة عند مقارنته بمعاصره العظيم زونجلي. كان غرضهما واحدًا، ولكن وسائلهما لإدراك هذا الغرض كانت متباعدة بعد المشرق عن المغرب، ومن الصعب القول أيهما كان له القلب الأكبر للتمسك بحق الله ونشره. ربما كان قلب لوثر الأعمق والأكثر حماسًا، وقلب زونجلي الأكثر وضوحًا واتساعًا. الواحد حرب والآخر سلام. الأول كان يتوقع النصرة عن طريق الإيمان وحده والاعتراف الجريء بالحق، بينما ظن الثاني أن سيف الحكام قد يتحالف في بعض الحالات مع إنجيل السلام. كان مقدرًا للأول أن يرى أتعابه متوجة بنجاح يقرب أن يكون عامًا، بينما كان مقدرًا للثاني أن يرى كارثة كادت تقضي على حركة إصلاحه الغالية. الأول رقد في سلام محاطًا بأصدقائه ومحبيه، بينما تجندل الثاني بضربات أعدائه ومبغضيه. ولقد كان مبدأ لوثر في هذه الناحية هو المبدأ المسيحي،

* من تقرير يوستس يوناس إلى منتخب سكسونيا المسلّم الية بيد سكرتير الكونت ألبرت.

فحنق المضطهد يجب أن يُقابَل بوداعة الحق، وهي أنبل وأشرف إكليل على هامة الشهيد، وليس بالمراسيم السياسية والجيوش المسلحة. ولا شك أن الله قصد بهذين المثلين العظيمين أن يكونا درسين خطيرين للأجيال المستقبلة، فإن أردنا أن نتبع المسيح علينا أن نتحلى بروحه ونسير في إثر خطواته «من قال إنه ثابت فيه ينبغي أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضًا» (ايو ٢: ٦).

عناية الرب بعبده

لسنا في حاجة إلى صوت من السماء يؤكد لنا عناية الرب وسهره على عبده لوثر، لقد كان يثق بالله، وإيمانه لم يُخزَ. والواقع إنه ليس في صفحات التاريخ مثلٌ على عناية الله وقوته الحافظة أعجب من حياة لوثر. وما نجده في تلك الحياة من دروس كفيل بأن يقوّي إيماننا في الله الذي يسود على كل شيء. فها أمامنا راهب أغسطيني مسكين أعزل، بلا جاه وبلا سلطان وبلا حماية بشرية، يقف منفردًا أمام أحط وأشنع طغيان عرفه البشر وينتصر، ولسنا في حاجة لمن يذكرنا كل حين بتلك القوة الهائلة غير المنظورة التي كانت تسند ذلك الإنسان المسكين، فالإيمان يتمشى دائمًا مع فكر الله وسياسته. ذلك كان سر انتصار لوثر الأكبر، فقد كان وحيدًا عندما بدأ يقف غالبًا منتصرًا أمام ملوك وأمراء وباباوات وأساقفة، وكل ما هو قوي في القدرة ومعتبر بسبب التقاليد والقدم.

ولم يكن في استطاعة عين بشرية اكتشاف أي باعث آخر على هذا الموقف العجيب الذي اتخذه. لم يكن تكبرًا أو طمعًا أو تعصبًا. فلم يكن لوثر يطمع، ولم يحاول أبدًا أن يكسب لنفسه شيئًا أكثر من أن يكون مارتن لوثر. وقد كان الوقت وقت سلام عام وخضوع هادئ للسلطان البابوي، فلماذا إذًا تعكير المياه الساكنة؟ هناك جواب واحد لهذا السؤال: الضمير. كانت هناك قوة في ضمير ذلك الراهب المستنير لم يستطع سيف البابوية المشهر إخمادها أو التغلب عليها. فحتى الإنسان الطبيعي بدون ضمير لا يمكن أن يكون في يوم من الأيام رجلاً بمعنى الكلمة السامي النبيل. ولكن الإيمان وضع المصلح لوثر على أساس كلمة الله الراسخ، تلك الكلمة التي علمته الفرق بين الحق والباطل، الصواب والضلال، العدل والظلم، والآن هو يقف لحق الله. والله، في حكمته وقوته، وقف معه. فقد نادى بجرأة "إن الكتاب هو محك الحق الوحيد، وإن تفسير الكتاب كان حقًا وامتيازًا لكل فرد*، وإن للضمير حقوقه التي تتعالى فوق جميع قوات الأرض. وإن الاستبداد من أي نوع، سواء أكان روحيًا أو كنسيًا أو عقليًا، يخالف مشيئة الله ويتعارض مع سعادة وتقدم وكرامة الجنس البشري". على هذا الأساس قامت حركة الإصلاح، وبالتمسك بهذه المبادئ أمكن لراهب واحد في ردائه البني وقلنسوته الحقيرة أن يهز ذلك النظام الاستبدادي، الذي كان يُعتبر كلي السلطان في ذلك الزمان.

فلا عجب إن كانت روما في سبيل إهلاك هرطقي كهذا قد أظهرت استعدادها أن تعطي بسرور إلى نصف مملكتها، ولكنها لم تستطع أن تمس شعرة من رأسه أو تنقص يومًا أو ساعة من حياته. لقد استمر زهاء ثلاثين سنة يتحدى أشر أحقادها وأرهب رعودها وكل قواتها. أي نعم! قواتها التي كانت من عهد قريب قد أذلت أعتى الملوك وجعلتهم يرتعدون فوق عروشهم، ولكن ها هي المؤامرات تحبك في وتمبرج وفي الفاتيكان، وها هي المشاورات تقوم على قدم وساق، ماذا يُعمل بهذا الراهب العنيد؟ أليس في مقدور إنسان أن ينقذ قداسة البابا صاحب العصمة من عدو البابوية هذا؟ أين خناجر إيزابل وكؤوسها المسمومة التي طالما قُدّمت لإعانتها؟ ومع ذلك فهو دائمًا في متناول اليد، في مرمى البصر، يعمل كاتبًا أو متكلمًا، متحديًا خصومه أو باعثًا الشجاعة والحزم في قلوب أصدقائه ومريديه. ولكن ليس في يديه مشروعات دموية، فقد كان غرضه الحياة وليس الموت. وعندما يشتد أو يقسو فبالكلام فقط، وغرضه إيقاظ المسيحية من نومها الذي توالت عليه العصور، أو الغضب على عظماء الأرض لأنهم حاولوا إيقاف انتشار الحق. ولقد ارتفعت ضده أيدي كل أعوان البابوية الطاغية، ولكن واحدة منها لم تستطع أن تضربه الضربة القاضية.

ذلك هو أمن وسلام الرجل الذي يبيت في ظل القدير، فلتجتمع مجالس الإمبراطورية الألمانية الواحد بعد الآخر يعاونها مندوبو السلطة البابوية، فالكل بلا جدوى، فإنهم لا يستطيعون إلى لوثر وصولاً، مع أنه دائمًا ماثل أمامهم وفي متناول أيديهم، بابه دائمًا مفتوح، وللمساكين أن يدخلوه طالبين الإحسان. يدخل عنده غرباء بارزون من كل أنحاء أوربا، يتكلمون بكل حرية ويتناولون العشاء مع المعلم

* الأصح من هذا أن تكون معرفة الكتاب مسئولية شخصية لكل فرد أمام الله الذي تكلم إلى الإنسان.

الشهير، ومع ذلك ما من إنسان استطاع أن يضره. هكذا عاش في مدينة وتمبرج التي لا سور لها كما لو كان مقيمًا داخل أبواب السماء.

صفات لوثر

يقول أحد المؤرخين الناقدين "إن الرأي السائد للآن عن المصلح العظيم أن صفاته هي خليط من الشدة والخشونة. والواقع أن هاتين الصفتين كانتا بارزتين فيه لدرجة أنهما طغتا على الناحية اللطيفة من صفاته فحجبتاها عن الأنظار. ولكن الحق أن الأسد والحمل تلاقيا في لوثر، فما من شيء كان يفوق خضوعه ووداعته عندما تترك له الحرية لكي يختار أن يكون وديعًا أم جريئًا. ولكن عندما كان يتكلم الضمير فما من شيء في الوجود كان يحوله عن صوت ضميره ولو لحظة واحدة، ولا شك أنه عندئذ كان يهز الغابة بزئيره المرعب. ولا يلزم أن نطيل التأمل في قناعته الدائمة واحتقاره للغنى، لأن هذه هي صفة معظم الرجال العظماء، وهي في الواقع أثمن من كل ما يمكن للذهب أن يمنح. لكن صداقته الطويلة غير المنقطعة مع ملانكتون الذي كان يختلف عنه في الميول والصفات ويفوقه في بعض النواحي، حتى أنه كان أول من اعترف بذلك، هي أكبر دليل على ما كان يتحلى به لوثر من حلاوة الطباع وجميل الأخلاق. فالحسد والغيرة لم يتسربا لحظة واحدة إلى هذين الصديقين الحميمين، والحق يقال إن الحسد والغيرة لم يكن لهما أي سبيل إلى قلب لوثر، كما لم يقرب إليه الطمع يومًا من الأيام، ولم يعطِ لنفسه أية أهمية أو عظمة رغم جلائل الأعمال التي قام بها، بل كان دائمًا يعتبر نفسه إنسانًا عاديًا بين أناس عاديين.

ولكن هذه البساطة العظيمة لا تدل فقط على عظمته الفطرية، بل على ذلك العقل الرسولي الذي امتاز به كل رسل الله من موسى فما بعده، فمثل هؤلاء الرجال قد صيغوا باليد التي ترسلهم، ولم يكن لحوادث العالم أية قوة - كما هو الحال معنا - لتحويل أو تغيير صفاتهم الأدبية. هناك دائمًا تناسق وتوافق بين هذه الآلات المختارة، ويسودهم جميعًا فكر واحد. ومن هنا كانت بساطة لوثر ووداعة حياته، فلو أنه أراد أن يكون عظيمًا لكان قد دلل بذلك على أنه لم يكن مرسلاً من الله. ففي العائلة، وبين جيرانه كان اللطيف المحب التقي. ولكن تقواه لم تكن لباسًا خارجيًا، بل كانت ينبوعًا داخليًا يجري مع حياته اليومية وأحاديثه العادية"[٨٠].

زواج لوثر

إن زواج لوثر بعد شهر واحد من موت صديقه وعضده فريدريك أوف سكسونيا، وفي وقت كانت فيه كل ألمانيا تولول على دماء فلاحيها، قد بدا لنا كسوء تصرف من جانب لوثر، فأهملناه في قصتنا. والواقع إن حميته المعتادة قد بدت جلية في هذا الأمر.

كان اسم كاترين فون بورا قد اشتهر قبل ذلك بوقت طويل، فقد كانت من عائلة طيبة، ومن بين الراهبات التسع اللواتي هجرن الدير في مسِنيا، بعد أن درسن الكتاب وشعرن أن نذرهن لم يكن محتمًا وملزمًا لهن. وبعد مرور سنتين من خروجهن تزوجت ثمانية منهن، ولم تبق سوى كاترين، وكن في ذلك الوقت يعشن على مساعدات الأصدقاء التي كان لوثر يقوم بتوزيعها، وبهذه الوسيلة استطاع أن يعرف الشيء الكثير عن كاترين وطباعها. وقد أراد أولاً أن يخطبها لصديق من أصدقائه، وهو قسيس إنجيلي بسيط، ولكنها لم توافق على هذا الاقتراح وقالت ببساطة متناهية إنه لو خطبها لوثر لنفسه أو لأمسدورف لما وجدت في نفسها مثل هذا الاعتراض. ويقال إن لوثر تأثر غاية التأثر بهذا التصريح المشجع، وقرر في الحال أن يتزوج بها ونفذ ذلك فورًا وبغير تفكير كثير.

ففي ١١ يونيو سنة ١٥٢٥م توجه لوثر إلى بيت صديقه وزميله أمسدورف، وطلب إلى بوميرانوس الذي كان يسميه "القسيس" أن يبارك زواجهما. وقد كان الرسام الشهير لوكاس كراناش والدكتور جون أبيلا شاهدي الزواج. أما ملانكتون صديق الكل العزيز فكان غائبًا. وعندما سمع بإقدام لوثر على اتخاذ هذه الخطوة الجريئة بينما المصائب الكثيرة كانت تهدد حركة الإصلاح استهجن الأمر وقتًا ما، ولكن عندما ارتفعت صيحات الانتقاد ضد صديقه قام في الحال مدافعًا عن زواجه.

ولم يكد يُعرف خبر هذا الزواج الهادئ حتى تعالت أصوات الاستهجان، واضطربت أوربا كلها، وكانت هذه فرصة استغلها أعداء لوثر للتشهير به وإلصاق أفظع وأشنع التهم به، كما كان الأمر مذلاً لأصدقائه جدًا. ومن هذا الزواج بين راهب وراهبة تنبأ الكاثوليك بيقين كامل بحسب النبوات على حد زعمهم، عن ميلاد ضد المسيح أو المسيح الكذاب من هذا الاقتران العجيب، بينما أخذ الظرفاء والشعراء يسخرون بالعرس في أناشيد وأزجال تهكمية.

ونحن في يومنا الحاضر لا يمكننا أن نتصور مدى التأثير الذي كان لمثل هذا الزواج على عقول الناس بصفة عامة في ذلك العصر، فأقل ما يقال فيه إنه كان انتهاكًا شنيعًا لنذور كان لها من التبجيل والاحترام في قلوب الناس ما أكسبها صفة القداسة على مر الأجيال، حتى أن كثيرين من تلاميذ لوثر نفسه بدأوا يحسون بشيء من العار لزواج زعيمهم براهبة، ولا عجب فالاعتقادات القديمة ليس من السهل التغلب عليها بسرعة.

لكن وإن كانت خطوة الزواج التي خطاها لوثر جاءت متسرعة بعض الشيء، فإنه كان على أتم استعداد لتبريرها والدفاع عنها. ولقد قام فعلاً بمقابلة العاصفة بعاصفة مثلها من التهكم والنقد الشديد، على أن غرضنا هنا هو أن نعرض للموضوع من ناحيته المتعلقة بالضمير، وفي هذا قال لوثر "إن الزواج هو سنة الله وترتيبه، أما العزوبية فمن وضع الإنسان". وقال أيضًا "أنا لم أتخذ لي زوجة لكي أعيش معها طويلاً، ولكني إذ رأيت شعوبًا وملوكًا قد أطلقوا العنان لغضبهم عليَّ، وإذ شعرت بأن نهايتي تقترب وأنهم بعد رحيلي سيقومون من جديد ويدوسون تعليمي تحت أقدامهم، فقد قررت - رغبة في بناء الضعفاء - أن أضرب مثلاً حيًا وأقوم بشهادة قوية لما أنادي به من تعليم في هذا العالم". وقد كانت حرب الفلاحين قد جلبت عارًا كبيرًا على مبادئ حركة الإصلاح في ذلك الوقت، وبدأت روما تستعيد مركزها في أماكن كثيرة، حتى صارت ترجو لنفسها النصرة في النهاية. على أن زواج الراهب، الذي كان انصبت عليه لعنة البابا وسخط الإمبراطور، قد نشر الرعب والحيرة في صفوف البابوية، وكشف لها عن شجاعة العدو الذي ظنت أنها قد سحقته[٣/٤٤].

حفل الزواج

كتب لوثر في ١٥ يونيو لصديقه روشل يقول "لقد عزمت على أن أقطع آخر خيط يربطني بحياتي البابوية الأولى، ولذلك فقد دخلت الحياة الزوجية بإلحاح والدي". وقد كان صديقه هذا ثريًا ولذلك عندما أرسل يدعوه لحفل الزواج في ١٧ يونيو قال له في بساطة وبصراحته المعهودة "أي هدية تختار أن تحضرها معك ستكون مقبولة". وفي خطاب لصديقه سبلاتين حوالي نفس ذلك التاريخ يقول "لقد أسكتُّ أولئك الذين عيروني أنا وكاترين بورا. وقد عزمت بمشيئة الله أن أحتفل بهذا الزواج، فعليك أن لا تحضر بنفسك فقط، بل عليك أن ترسل لي كمية من لحم الغزال، وفي الوقت نفسه صل من أجلنا وامنحني بركتك". وإلى ونسلاوس لنك كتب يقول "بغتة وعلى غير انتظار، وعندما كنت أفكر في أي شيء آخر خلاف الزواج، ربطني الله بطريقة عجيبة بخطوبة الراهبة الشهيرة كاترين بورا". وقد دعاه للحفل، ولكنه شدد عليه أن لا يحضر أية هدية، لأنه كان فقيرًا مثله. وإلى أمسدورف كتب يقول "الخبر صحيح أني خطبت كاترين، وخطبتها بعجلة شديدة قبل أن تصلني شظايا الألسنة الحادة المعتادة، لأن أرجو أن أعيش وقتًا قصيرًا بعد، ولم أرد أن أرفض هذه الطاعة الأخيرة لإلحاح والدي". وكان الوالدان العجوزان يوحنا ومرجريت لوثر سيحضران من مانسفيلد لحضور الحفل.

نرى مما تقدم أن سببًا واحدًا حاول لوثر أن يبرر به زواجه، وهو إلحاح والديه، ولكن واحدًا من أنزه ناقديه يقول "لو تذكرنا الازدراء الذي به قابل الإلحاح الأبوي من عشرين سنة خلت، عندما اتخذ أخطر وأهم خطوة في حياته الأولى ضد رغبة والديه على خط مستقيم، لا يسعنا إلا أن نتساءل: هل هو حقًا نفوذ والديه الذي كان يسيِّره في أعماله الأخيرة؟ وهل ما نعرفه فيه الآن من صفات التشبث والتمسك العنيد بما يعتقده يمكن أن يتفق مع تأثير أي شخص، حتى ولو كان والده، في إقناعه بأن يتخذ أية خطوة لم يكن هو مصممًا عليها من قبل؟ إن هذا الدفاع كان يكون مقبولاً في حالة أي إنسان آخر بخلاف لوثر، ولكن مركزه المتميز بين إخوته المصلحين وأعماله الباهرة التي قام بها، والمبادئ السامية التي كان ينادي بها، وفوق كل ذلك، نجاحه العظيم الذي أحرزه بفضل صفاته، ومشروعاته المنزهة بلا أدنى شك عن كل مصلحة ذاتية، كل هذه كلها جعلت من حق أتباعه أن ينتظروا منه إنكارًا للذات أكثر مما ينتظرونه من أمثال سبلاتين أو كارلشتاد. كان لهم الحق أن ينتظروا منه مقابل ما كانوا يقدمون له من طاعة تكاد تكون عمياء أن يضحي بأي ميل شخصي، حتى ولو كان متمشيًا مع المبادئ الإنجيلية، ولا يتسبب في فضيحة - وإن كانت لا تستحق أن تسمى بهذا الاسم فعلاً - تصاب بها حركة الإصلاح التي يتزعمها. من ذلك الوقت بدأ يتحاشى الوقوف موقف الزعيم بين إخوته، وأخذ يتنازل إلى مستوى البشر العاديين"[٢/٦٧].

لكن وإن كانت هذه الخطوة غير الحكيمة قد أضعفت بلا شك من مكانة لوثر العامة، إلا أنها على ما يبدو لم تؤثر تأثيرًا فعليًا على قضية الإصلاح، فالعمل كان من الله، وكان أساسه أرسخ من أن تهزه ضعفات خادمه، ولعل عشرين سنة من الحياة العائلية السعيدة تكون قد عوضت للمصلح بعض ما فقده من الشهرة العامة.

حياة لوثر الزوجية

لا شك أن اقتران لوثر وكاترين، مع خلوه من نشوة عاطفة بادئة، كان اقترانًا سعيدًا، والرب باركهما بركة عظمى. والظاهر أنها كانت امرأة على شيء عظيم من الوداعة، ذات قلب رقيق وعقل راجح، فكانت تعزيه في حزنه بفصول من الكتاب، ووفرت عليه كل مشغولياته بالأمور المنزلية. وكانت تجتهد أن تجلس بجواره في لحظات فراغه مسلية إياه بتطريز صورته، أو مذكرة إياه بالخطابات التي عليه أن يكتبها. ولكنها بعض الأحيان كانت تزيد في الحديث العام أكثر مما يحب الدكتور، وكان كثيرًا ما يوبخها على ذلك مداعبًا. فمرة كان يقول لها مثلاً "هل تلوت صلاتك الربانية يا كاترين قبل أن تبدئي هذه الموعظة؟ لو كنت فعلت ذلك فلست أظن أنه كان يسمح لك بالوعظ". وبعض الأحيان كان يخاطبها بالقول "سيدتي كيتا" أو "الدكتورة" ولكن خطاباته لها كان تفيض رقة وحنانًا. وكلما تقدم به العمر ازدادت محبته لها، فكان يدعوها "زوجتي العزيزة الودودة" و"عزيزتي وحبيبتي كيتا".

وقد أنجبا ستة من الأولاد، ثلاثة بنين وثلاث بنات. وقد ماتت ابنتهما ماجدولين في الرابعة عشرة من عمرها، وقال والدها وهو يرثيها "ذلك هو نوع ومقدار العاطفة الطبيعية والمحبة الأبوية، حتى أني لا أستطيع احتمال هذا الأمر بدون دموع وتنهدات، ففي أعماق نفسي قد نقشت نظراتها وكلماتها وحركاتها، كما كنت أتفرس فيها في حياتها وعلى فراش احتضارها. آه يا بنيتي المطيعة اللطيفة! لا شيء يمكنه أن يمحو مني هذه الذكرى الأليمة، فقد كنت دائمًا طروبة جميلة، مليئة بالحياة".

وقد تكفل المنتخب بالأم والأولاد الخمسة الباقين بعد وفاة والدهم.

الخاتمة

قبل أن نترك المصلح العظيم الذي استحق منا كل هذه العناية ونحن نتتبع تاريخ الكنيسة، نود أن نضع أمام نظر القارئ صورة له كما يراها واحد من أقدر كتابنا، هو كاتب تاريخ حياة شارل الخامس، وكذلك تصوير المؤرخ وادنجتون لمؤلفاته ومدى انتشارها.

"لما كان لوثر قد أقيم من العناية الإلهية ليتزعم أعظم حركة ثورية سجلها التاريخ، فقد لا يوجد أي شخص تضاربت الألوان في تصوير صفاته كما تضاربت في تصوير حياة لوثر وصفاته، ففي عصره كانت هناك هيئة قد أثار غضبها، وألهب حنقها بمهاجمته العنيفة لكل ما كانت تعتبره مقدسًا، ولذلك نسبت إليه ليس مجرد نقائص ورذائل إنسان، بل صفات الشيطان. ومن الجهة الأخرى كانت هناك جماعة قد ملأ جوانحها بعواطف الإعجاب والشكران، الذين رأوا أنه يستحقها كمن أعاد الحق والحرية للكنيسة المسيحية، فراحوا ينسبون إليه كمالات تفوق البشر، وينظرون إلى كل أعماله باحترام وتبجيل يكاد يقرب من ذلك الاحترام والتبجيل الذي لا يقدم إلا لمن يرشدون بوحي مباشر من السماء. غير أن صفاته وحدها، وليس عيوبه التي ينسبها له خصومه، أو محاسنه التي يخلعها عليه أحباؤه، هي التي يجب أن تحكم أفكار مَن يريدون أن يحكموا له أو عليه في الوقت الحاضر. فغيرته القوية لكل ما كان يعتبره حقًا، وجرأته المتناهية في الدفاع عن معتقداته، ومقدرته الطبيعية والمكتسبة للذود عن مبادئه، ومجهوداته التي لا تعرف الكلل في سبيل نشرها وإذاعتها، هذه كلها فضائل تلمع بقوة في كل ناحية من نواحي تصرفاته، حتى لم يجد أعداؤه بدًا من أن يعترفوا بأنها قد توفرت فيه بدرجة فائقة. وإلى هذه الفضائل يمكن أن يضاف بحق طهارة عظمى وسمو في الأخلاق يليق بشخص وقف في التاريخ موقف المصلح العظيم، مع قداسة في الحياة العملية تزين تعاليمه التي كان ينادي بها، إلى إنكار ذات وتجرد عن كل مصلحة خاصة هذا كله يتفق مع عظيم إخلاصه وتكريس نفسه لعمله. وإذ قد سما عن كل اعتبار شخصي، وترك وراء ظهره كل مظاهر الحياة وزينتها، محتقرًا كل مسراتها ومباهجها، استطاع أن يترك وظائف الكنيسة ومرتباتها لتلاميذه، قانعًا في نفسه بمركزه الأصلي كأستاذ في الجامعة وراع في كنيسة وتنبرج وما تأتيه به هاتان الوظيفتان.

أما ذهنه القوي الجبار في كل ما كان يعمله ويخوضه من موضوعات فقد أدهش في مناسبات كثيرة أولئك الذين لا يعرفون مثل هذه العواطف القوية، أو الذين قد وضعتهم ظروفهم في مراكز أهدإ. وقد كانت هذه الروح القوية التي تعج بها جوانحه تدفعه بعض الأحيان إلى التطرف في أعماله لدرجة تجلب عليه انتقاد الآخرين، هذا وإن ثقته بأفكاره وما تقوم عليه من أساس صحيح كانت تصل به بعض الأحيان لدرجة التشامخ، كما أن شجاعته في توكيد هذه الآراء كانت تقوده إلى التسرع والهجوم، وثباته في التمسك بها كان يقوده إلى العناد، وحماسه في مواجهة خصومه كان يقوده للغضب وزلل اللسان. وإذ كان قد درب نفسه على اعتبار كل شيء خاضعًا للحق، كان يتوقع من الآخرين نفس هذا الخضوع للحق. وإذ لم يعمل حسابًا لما قد يخالجهم من خوف أو تعصب للقديم، كان يصب جامات غضبه واحتقاره على كل من يخالفه من هذه الناحية. وإذ لم يكن يعمل حسابًا لأي فرق في الوظيفة أو المركز أو الجاه عندما كانت تهاجم تعاليمه، كان يلهب سائر خصومه بلا أدنى تمييز بنفس العنف والشدة، فلا كرامة هنري الثامن الملكية، ولا شهرة إرازمس ومكانته الأدبية، استطاعت أن تحميهما من نفس الازدراء الشنيع الذي كان يعامل به تتزل وجون إك. على أن هذا القصور التي كان فيه لوثر ملومًا يجب أن لا يُنسب كلية لقسوة في طباعه، بل يجب نسبته جزئيًا إلى عادات عصره، فبعض تصرفات لوثر التي قد تبدو لنا الآن غير لائقة لم تكن هكذا في نظر معاصريه. هذا وقد ملأ نبأ موته الهيئة البابوية بأفراح الشماتة غير اللائقة، كما أضعفت روح الشجاعة في أتباعه، فلا أولئك ولا هؤلاء أدركوا إدراكًا كافيًا أن مبادئه قد تأصلت في النفوس، بحيث قد ضَمن لها النمو والتقدم بغير رعاية تلك اليد الأولى التي غرستها"(٦/٧٦).

"على أن أبرز حقيقة في تاريخ حركة الإصلاح، وفي رأيي أبرز حقيقة في تاريخ العالم قاطبة، لا تزال يعوزها التسجيل. تلك الحقيقة هي أن الحدود التي وصلت إليها حركة الإصلاح في حياة لوثر تكاد تكون هي نفس الحدود التي تفصل بين المذهبين البروتستانتي والكاثوليكي في يومنا الحاضر. فكل ما كسبته حركة الإصلاح قبل وفاته استمر باقيًا، بينما كل ما كسبته البروتستانتية بعد وفاته قد استعادته روما مرة ثانية. فبإرشاده وقيادته استطاع جيل واحد ملتهب أن يصل إلى تلك الحدود التي لم تتغير من بعده، وما استطاعت مجهودات تلاميذه، ولا أي احترام لاسمه وفضائله، ولا انتشار الإيمان والمعرفة والمدنية والنشاط التجاري أو العلوم الفلسفية خلال ثلاثة قرون من النمو المطرد، كل هذه ما استطاعت أن تضيف إلى العمل الذي تركه، بل إن هذا الهيكل قد استمر هو هو كما خرج من يد مهندسه الأول. صحيح أن الشكل قد يكون تغير نوعًا ما، وأن الجزء الذي كان يعتبره قدسًا قد ضاق هونًا ما بفعل ذلك التغيير، ولكن بالنسبة لعدو روما العنيد الذي لا يلين كان انتصارًا خالدًا أنه استطاع أن ينتزع بيديه من بين مخالبها كل ما كان محتمًا عليها أن تفقده، ولقد شاهد بنفسه أكبر مذلة شاءت العناية الربانية أن تحيق بها حتى يومنا الحاضر"(٣/٦٧).

الفصل السادس والأربعون

افتتاح مجمع ترنت

لم تكن الحالة تبشر بالسلام والحرية الدينية للبروتستانت في السنوات التي سبقت وفاة لوثر. وقد قادهم هذا لأن يعتمدوا ليس على الصلاة والثقة بالله كدرعهم وحاميهم، بل على تقوية عصبة سمولكولد والاستعداد للحرب، وقد أصبحوا الآن هيئة سياسية بحتة. ذلك كان مظهر البروتستانتية الخارجي في ذلك الوقت، فالرجل الذي كان يحب السلام قد توارى في قبره، ونسي أتباعه نصائحه ومشورته. ولم يكن لوثر يتصور في حياته مصيبة تحل بقضية الحق أفظع من أن يتولى السيف الدفاع عنها، فقد كان يفضل أن يموت أعوانه كشهداء من أن يصبحوا محاربين.

وقد كان الإمبراطور يتتبع نمو هذه العصبة بوجل عظيم، حتى قال عنها إنها "إمبراطورية داخل إمبراطورية". ولكن حملته المشئومة ضد الجزائر، وحروبه المتكررة مع فرنسيس، وغارات الأتراك وانتصاراتهم في هنغاريا، جعلته يؤجل مقاومته لهذه العصبة، وقادته لإخفاء مشاعره ونواياه إلى حين. وكل ما فعله أنه عقد عدة مجامع لتسوية الخلافات الدينية وإعادة السلام والاستقرار إلى الإمبراطورية، ولكن بلا جدوى. أما البروتستانت فقد خدعتهم هذه الحيل والامتيازات الظاهرية، فلم يعودوا حريصين كعهدهم في الماضي. ففي مجمع سبيرس عام ١٥٤٢م جدد البابا بولس الثالث بلسان مندوبه وعده بعقد مجمع عام للفصل في الأمر، وقد أشار بانعقاده في ترنت، وهي مدينة في التيرول خاضعة لملك الرومان وتقع على الحدود ما بين ألمانيا وإيطاليا. وفي الحال قبل فرديناند والحزب البابوي هذا الاقتراح وأظهروا رضاءهم به. أما البروتستانت فرفضوه، فلا هم قبلوا المكان ولا قبلوا المجمع الذي يقترحه البابا، بل طلبوا مجلسًا إمبراطوريًا وبدعوة من البابا، وبطبيعة الحال تحت رئاسته. إلا أن البابا لم يعر احتجاجهم أي التفات وأصدر مرسومًا بدعوة مجمع ترنت قبل أول نوفمبر، وعين ثلاثة كرادلة لرئاسة المجمع كمندوبين من قبله.

وفي الوقت المحدد حضر مندوبو البابا وسفراء الإمبراطور وبعض الأساقفة، ولكن بسبب ما كان دائرًا في ذلك الوقت من حرب طاحنة بين الإمبراطور وفرنسيس لم يكن في ميسور الكثيرين من رجال الدين أن يأمنوا على حياتهم إذا هم سافروا لحضور المجمع، وقد بدا جليًا لأول وهلة أن الحالة لا تشجع على الوصول إلى شيء مرض. لذلك، ورغبة في تجنب سخرية واحتقار خصومه، أجل البابا افتتاح المجمع إلى أجل غير مسمى. ولسوء حظ البابوية كان الإمبراطور وشقيقه فرديناند ملك الرومان في نفس هذا الوقت يجدان أنه من الضروري ليس التغاضي عن مسلك البروتستانت فحسب، بل وخطب ودهم بسلسلة من أعمال التسامح والتساهل، ففرديناند الذي كان يعتمد على مساعدتهم للدفاع عن هنغاريا ضد الأتراك لم يكتف بأن سمح بتدوين احتجاجهم في محاضر المجلس وسجلاته، بل جدد في صالحهم جميع الامتيازات التي منحها إياهم الإمبراطور في راتسبورن، مضافًا إليها كافة الضمانات التي طلبوها لزيادة أمنهم وسلامهم. وبذلك استراح المصلحون وتيسر الوقت لأن تتأصل وتنتشر المبادئ الإنجيلية، وإن كان ذلك ليس مرجعه النية الحسنة، بل حالة خصومهم المضطربة.

واستمر الحال على ذلك حتى عام ١٥٤٤م، عندما عقد مجمع آخر في نفس المكان، ورأى شارل بدهائه أن الوقت لم يكن قد حان بعد لإثارة سخط البروتستانت ودفعهم إلى تجديد تحالفهم، فحاول أن يهدئ الألمان بامتيازات جديدة، ولما كان لا يزال مشتبكًا في حرب أجنبية، ولا تزال يداه مغلولتين، استخدم كل وسائل الحيل

لمداهنة المنتخب وفيليب أمير هيس، وهما رئيسا الحزب البروتستانتي، محاولاً بواسطتهما تخدير أعصاب أعضاء التحالف.

وفي الوقت نفسه كان البابا يتقد غيرة يومًا بعد الآخر ضد هذه المفاوضات والامتيازات، فكان يتلهف كأسلافه الثلاثة إلى اللحظة التي فيها يستطيع بقوة السلاح أن يقضي على هذه الهرطقة الجبارة. ولقد كان غرض الفاتيكان من بدء حركة الإصلاح إحداث ثغرة عدائية بين الإمبراطور والبروتستانت، تؤول في النهاية إلى امتشاق الحسام ضد هؤلاء المناكيد، ولكن الله في حكمته وعنايته أبطل هذه المؤامرات الخبيثة ومنعها من النجاح زهاء ثلاثين سنة، وذلك استجابة بصفة خاصة لصلوات رجل واحد. ولكن هذا الرجل قد غاب الآن من المشهد، وأصبح إخوته يتكلون على تنظيمهم الحربي وقوتهم العددية، علاوة على أن موقفهم الحازم تجاه المجمع هيأ للبابا والإمبراطور كل فرصة لإيقاعهم في الشرك. وهذا ما حدث فعلاً كما سنرى بعد قليل.

فالغرض الظاهري من هذا المجمع الشهير كان بطبيعة الحال سلام الكنيسة وشفاء أمراضها، وإعادة وحدتها وبركة أولادها، ولكن الغرض الحقيقي كان القضاء على تعاليم المصلحين لوثر وزونجلي وكلفن، واضطهاد كل من يقاوم قراراته. ذلك كان الترتيب السري بين البابا والإمبراطور، لأنهما كانا يعلمان يقينًا أن البروتستانت لن يخضعوا للمجمع أو يطيعوا قراراته.

المعاهدة بين البابا والإمبراطور

وأخيرًا في ديسمبر ١٥٤٥م، بعد سنين هذا عددها من الدس والرياء والمشاحنة، اجتمع المجمع في ترنت واستمرت جلساته حتى عام ١٥٦٣م (٤١)،(٥٣)،(٢/٧٢)،(٦/٧٦).

على أن هذا المجمع الذي كان مقصودًا به تقرير مصير المسيحية، لم يكن إلا حلقة من مؤامرة هائلة للقضاء على اللوثرية. كان الإمبراطور قد أنهى حروبه مع فرنسيس بمعاهدة كرسبي، وكان قد عقد معاهدة أخرى بينه وبين سليمان سلطان تركيا، كما استطاع أن يستميل إليه بعض أمراء ألمانيا الكاثوليك. والآن بدأ يعد عدته للحرب بسرعة مقرونة بالحرص الشديد. غير أن البابا مع عدم موافقته على سياسة الإمبراطور الأخيرة لجزء من قوته، أظهر كل موافقة بأن تترك جانبًا كافة الشئون الأخرى، ويحصر الاهتمام كله في هذا الأمر الواحد الذي يشغل بال الجميع ويعتبر أهمها، وعليه أمضى مع الإمبراطور معاهدة أهم بنودها ما يأتي:

١- أن البابا والإمبراطور، حبًا في مجد الله والصالح العام، وخاصة صالح ألمانيا، قد تحالفا معًا على شروط معينة، وأن الإمبراطور يتعهد بتوفير جيش كبير وكل عدة الحرب، بحيث يكون مستعدًا استعدادًا كاملاً في شهر يونيو التالي، ويرغم بقوة السلاح جميع من يرفضون حضور المجمع ويتمسكون بالضلالات أن يعودوا إلى الديانة القديمة ويخضعوا للبابوية المقدسة.

٢- أن البابا يتعهد من جانبه أن يدفع، علاوة على المائة ألف بندقي *التي سبق أن دفعها، مبلغًا مساويًا لذلك كأمانة في بنك فينا لحساب تكاليف الحرب، وأن يتولى على حسابه الخاص الإنفاق مدة ستة شهور على ١٢٠٠٠ جندي مشاة و٥٠٠ فارس، وأن يمنح الإمبراطور عن هذه السنة نصف دخل الكنيسة في أسبانيا كلها، وأن يفوضه بأن يتصرف في أراضي الأديرة بتلك المملكة إلى ما يوازي ثمنه نصف مليون بندقي، وأن يستخدم الحرمان الروحي والقوة الحربية ضد أي أمير يحاول عرقلة تنفيذ هذه المعاهدة.

٣- أن يقوم المجمع بدوره بإعداد قانون للإيمان يشمل كافة المواد التي ترغب الكنيسة في أن يؤمن بها أعضاؤها، وأن تكون هذه مأمورية المجمع الأولى والرئيسية، وأن تُفرض اللعنات والحرمانات باسم وبقوة الروح القدس ضد كل من يرفض الاعتراف بقانون الإيمان المشار إليه**.

هكذا نُصبت الشبكة بكل مكر ودهاء، ولقد كانت حيلة جهنمية من الشيطان لإبادة البروتستانتية، ولكن قام بتنفيذها ذلك الذي يدعي العصمة ويتخذ لنفسه لقب الأب الأقدس بكل قواه. فقد رأى العدو أن المصلحين قد حادوا عن مركزهم الروحي إلى مركز سياسي، فلم يكونوا بعد مجرد محتجين لحق الله ضد أضاليل البابوية، بل أصبحوا تحالفًا مسلحًا مستعدًا لمواجهة الجيوش البابوية والإمبراطورية بسلاحهم. تلك كانت غلطتهم الكبرى، لذلك لم يقف الله في جانبهم وهم على أساس عالمي، وسرعان ما تجلت غباوتهم وانكشف ضعفهم. وهذا ما حدث:

* عملة قديمة

** انظر اقتباسات روبرتسون(٦/٧٤) ووِيلي(٢/٧٨) المأخوذة عن الأب بولس وتشندروف وشليدان والأب ميلوت.

بدأ المجمع مداولاته، مع أن أساقفة أسبانيا وإيطاليا الذين وصلوا كانوا قليلين، وفحص أول وأهم نقطة في الخلاف مع كنيسة روما، ألا وهي القاعدة التي بمقتضاها تُقرر كافة شئون الإيمان. وكانت النتيجة أن قرر المجمع، بسلطانه المعصوم، أن الأسفار التي يطلق عليها اسم الأبوكريفا لها نفس قيمة وسلطان الأسفار التي قبلها اليهود والمسيحيون الأوائل كجزء من الكتاب المقدس، وأن التقاليد المتوارثة من العصر الرسولي والمحفوظة في الكنيسة لها نفس القيمة والاعتبار كالتعاليم والمبادئ التي ضمّنها كُتّاب الوحي في أسفارهم، وأن الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس التي قام بها أو راجعها جيروم، والمسماة الفولجاتا، تُقرأ في الكنائس ويُرجع إليها في المدارس كالترجمة الكتابية الصحيحة.

ذلك كان هجومًا صريحًا على أول مبادئ البروتستانتية، وأساسًا خاطئًا للفصل في كل ما سيتناوله المجمع بالبحث، إذ هو بمثابة حكم مقدم في الأمور من شأنه أن يجعل كل مناقشة بين الطرفين بلا جدوى، فلوثر وأتباعه كانوا يتمسكون من البدء بأن كلمة الله هي القاعدة الوحيدة للحكم، ولم يعترفوا بأي سلطان آخر في أمور الإيمان غير دستور الكتاب المقدس الوحيد المعصوم. ذلك كان أساس البروتستانتية وحجر زاويتها، ولكن القرار الأول للمجمع كان مقصودًا به نسف هذا الأساس وهدم على البناء كله.

حرب سمولكولد

إذ شعر البروتستانت أن غرض المجمع الحقيقي لم يكن فحص طلباتهم، بل الحكم على إيمانهم بأنه هرطقة، والعمل على إيقاعهم في صدام مع الإمبراطور يقوده إلى الفصل في الموضوع بحد السيف، لم يروا بدًا من رفض قراراته. وقد أذاعوا في الوقت نفسه بيانًا طويلاً متضمنًا من جديد احتجاجهم ضد عقد المجمع، مسببًا بالأسباب التي جعلتهم يرفضون اختصاصه. ولكن شارل لم يكن بعد مستعدًا للحرب، فاستمر على سياسة الرياء، إذ لم يكن يرغب في إثارة حماس المجمع أو إحياء التحالف البروتستانتي، بل كان غرضه الأول خداع البروتستانت، حتى بذلك يكسب الوقت الكافي لإنضاج مشروعاته. ولهذا الغرض عمل جاهدًا على ترتيب مقابلة بينه وبين أمير هيس، أنشط وأقوى أعضاء التحالف وأكثرهم حذرًا وشكًا في نيات الإمبراطور، فتوجه إليه بأخلص العبارات الدالة على اهتمامه ومشغوليته بسعادة ألمانيا، ونفوره من وسائل العنف والقوة، وأنكر في عبارات حاسمة دخوله في أية معاهدة مع البابا، أو قيامه بأية استعدادات حربية تنم عن نية الحرب.

ذلك كان مبلغ رياء شارل ومكره، حتى استطاع أن يبدد جميع شكوك فيليب ومخاوفه، وأن يصرفه مزودًا بيقين تام في نياته السلمية، حتى أنه عندما رجع إلى أعضاء التحالف الذين كانوا مجتمعين في ورمز أعطاهم أجمل صورة لنيات الإمبراطور الحسنة نحوهم، جعلتهم يترددون في المضي في استعداداتهم، ظانين أن الخطر بعيد ووهمي. وإذ أصاخ هكذا زعماء البروتستانت إلى حيل الشيطان، وقعوا في العمى واستولى عليهم الغباء كما حدث لرجال زيورخ عام ١٥٣١م، فابتعدوا عن أساس الإيمان واعتمدوا على حكمتهم وقوتهم التي قادتهم إلى عارهم ومذلتهم. فمن ذلك الوقت كانت كل خطوة يخطونها تسير بهم في طريق الخطإ والانحدار.

أما تصرفات الإمبراطور فقد كانت في كل أمر تتناقض مع ادعاءاته بنية السلام، وقد كان ذلك ملحوظًا من الجميع ماعدا أولئك الذين كانوا أولى الناس بملاحظته والشك فيه. فقد أرسل هنري الثامن ملك إنجلترا يخبر الأمراء سرًا أن شارل الذي يعمل منذ زمن على سحق تعاليمهم جاد في استخدام مهلة الهدنة الحاضرة في الاستعداد والتهيؤ لتنفيذ مشوراته القديمة، كما أن تجار أوجسبرج الذين كان بينهم من يتعاطفون مع قضية البروتستانت، إذ علموا من مراسليهم في إيطاليا أن القضاء على المصلحين كان مبيتًا، حذروهم من الخطر الداهم الذي سيحل بهم. وقد أتت الأخبار من هولندا مؤيدة لهذه المخاوف، ومؤكدة أن شارل قد أصدر أوامر سرية بتعبئة الجيوش هناك، وفي نواح أخرى من مُمتلكاته. وبما أنه لم يكن في حرب مع فرنسيس أو سليمان أو أي قوة أخرى، فلم يكن هناك أدنى شك في أن المقصود بهذه الاستعدادات القضاء على تحالف سمولكولد، وعلى التعاليم التي انتشرت وذاعت في ألمانيا.

البابا يفضح السر

ذاع السر الآن وانتشر وأصبح في متناول الكثيرين، فضباط شارل وحلفاؤه لم يعودوا الآن يتكتمون الأمر، بل أخذوا يتكلمون بغير تحفظ عن مشاريعه ونواياه. وقد أخذت البابا نشوة من الفرح، فراح يُنشد أنشودة الحرب كما في أيام إنوسنت الثالث،

حاضًا المؤمنين على امتشاق الحسام في سبيل القضية المقدسة مع وعود بنوال الغفران. يقول الدكتور روبرتسون "إن البابا، بدافع المفاخرة بأنه منشئ هذه العصبة القوية ضد الهرطقة اللوثرية، يداعبه الحلم بأن يكون مجد القضاء على هذه الهرطقة من نصيبه، وأن العناية قد دبرت أن يتم ذلك على يديه، أذاع نصوص معاهدته مع الإمبراطور لكي يبين بها نوايا التحالف المقدس، ولكي يظهر غيرته التي دفعته للقيام بمثل هذه الجهود الجبارة للمحافظة على الإيمان في طهارته. ولم يكتف بذلك بل أسرع في إصدار مرسوم بابوي يتضمن أسخى الوعود بالغفران لكل من يساهم في هذا المشروع المقدس، مع أحر التحريضات لكل من لا تمكنهم ظروفهم وحالتهم من الاشتراك الفعلي في هذا الجهاد أن يعضدوه بصلواتهم الحارة وإذلال نفوسهم بكل وسائل التكفير، حتى يستدروا بركة السماء على القائمين به"(٤/٧٦).

واستاء البابا من شارل لمحاولته إظهار هذا المشروع كنزاع سياسي، بينما كان يجب أن يفخر به كمشروع لا غرض له سوى الدفاع عن الإيمان القديم، وندد كثيرًا بسياسته الملتوية، وأعلن في صراحة قرب نهاية اللوثرية. أما الإمبراطور وإن كان قد أسقط في يده بسبب إفشاء أسرار نواياه الحقيقية، واستاء لهذا الحقد وعدم التبصر من جانب البابا، إلا أنه استمر في متابعة خطته بكل جرأة، مؤكدًا أن نواياه لا تزال هي هي حسبما أذاعها في بادئ الأمر. وهكذا أصبح رئيسا المسيحية - ينبوع الحق وينبوع الشرف كما كانا يسميان - يعلنان للملإ أنه لا الحق ولا الشرف لهما وجود في أيهما. وهكذا يقفان أمام الأجيال المتعاقبة كمجرد مزيج من المكر والخداع والرياء والعنف.

إلا أن حيل شارل لم تنطل على كل الحلفاء البروتستانت، فالبعض منهم أدرك جليًا أن السلاح لا يُقصد به إلا القضاء على حركة الإصلاح وقتل الحريات الألمانية، ولذلك صمموا على الاستعداد للدفاع عن أنفسهم، عاقدين النية على عدم ترك حرياتهم الدينية أو التنازل عن ذرة من حقوقهم المدنية التي توارثوها عن الأجداد. وقد ذهب وفد منهم لمقابلة الإمبراطور لمعرفة ما إذا كانت هذه الاستعدادات الحربية بناء عن أمره وما غايتها، ومن هو العدو المقصود بها. وأمام سؤال كهذا في وقت كانت فيه كل الحقائق أوضح من أن تُنكر، لم يستطع الإمبراطور إلا أن يكون صريحًا في إعلان نواياه، ولكن بصورة مؤثرة من الرياء، بحيث خدع المندوبين. صحيح أنه اعترف أن ألمانيا هي المقصودة باستعداداته، ولكن غرضه الوحيد الذي يرمي إليه من ورائها لم يكن إلا صيانة حقوق الإمبراطورية وكرامتها، ولم يكن غرضه مضايقة أحد بسبب عقيدته، وإنما معاقبة بعض الأعضاء المشاغبين، وصيانة دستور الإمبراطورية القديم من عبثهم وتصرفاتهم الخليعة. وإن لم يصرح الإمبراطور بأسماء الأشخاص الذين يعنيهم بانتقامه، إلا أنه كان من المعروف جيدًا أن المقصودين هما جون فريدريك منتخب سكسونيا وفيليب أمير هيس.

ولئن كانت هذه المؤامرة مكشوفة ولم يغب الغرض منها عن كل من يعرف صفات الإمبراطور، إلا أنها على كل حال استطاعت تخدير أعصاب الجبناء والمرتعدين، فقد وجدوا فيها مبررًا للسكوت، لاعتقادهم كما قالوا إن الحرب لا تخص العقيدة، ولكنها مجرد مشاجرة بين الإمبراطور وبعض أعضاء العصبة. وهكذا أفلح الإمبراطور، بهذه المهارة في إيجاد الانقسام في شعور الحلفاء، أن يكسب الوقت ومزايا أخرى هامة.

جيش الحلفاء

اجتمع عقب ذلك أنشط أعضاء الحلفاء في أولم للتشاور في وضع خطط المستقبل، وقد صمموا فيما بينهم على مقابلة القوة بالقوة، والقيام باستعدادات حربية هائلة. كذلك قرروا أن يعالجوا ما فاتهم في الماضي من تقوية أنفسهم بتحالفات أجنبية، وذلك بتوجيه دعوة الاشتراك في التحالف إلى الفينيسيين والسويسريين وملكي فرنسا وإنجلترا. وهكذا بالأسف استطاع زعماء حركة الإصلاح في خلال ثلاثين سنة من تاريخ نشأتها أن ينحرفوا إلى هذا الحد عن مبادئها القويمة، التي انتصرت في ورمز وأوجسبرج، لا بل عن تعليم كلمة الله الواضح، بالتجائهم إلى معاونة رجلين مثل هنري وفرنسيس، ولكننا سنرى أية خاتمة لذلك.

لم تنجح مفاوضاتهم مع هذه الممالك الأجنبية، إلا أن الزعماء لم يجدوا صعوبة في جلب القوة الكافية إلى الميدان، فالنظام الإقطاعي الذي كان لا يزال إلى ذلك الوقت سائدًا بكل قوته في

ألمانيا مكن الإشراف من دعوة أتباعهم العديدين وتجنيدهم في أقرب وقت. يقول مؤرخ شارل "إنهم استطاعوا في أسابيع قليلة تعبئة جيش مكون من سبعين ألفًا من المشاة وخمسة عشر ألفًا من الفرسان، مجهزين بمائة وعشرين مدفعًا وثمانمائة عربة من الذخيرة، وثمانية آلاف من دواب الحمل، وستة آلاف من الضباط، وهو من أكبر الجيوش عددًا، وبلا شك أعظم وأقوى ما رأته أوروبا في ذلك القرن، لم يتطلب مجهودًا مشتركًا من كل أعضاء الحلف البروتستانتي لجمعه وإعداده، فلم يشترك فيه سوى منتخب سكسونيا وأمير هيس ودوق وتمبرج وأمراء أنهالت، والمدن الإمبراطورية أوجسبرج وأولم وستراسبورج. أما منتخبو كولونيا وبرادنبرج والكونت بالاتين وآخرون فوقفوا على الحياد، خوفًا من تهديدات الإمبراطور أو اعتمادًا على تصريحاته الخادعة.

هذا الجيش، والسرعة الفائقة التي جمعه بها الحلفاء، أدهش الإمبراطور وملأه بالقلق والمخاوف، ففي الواقع لم يكن في مركز يمكنه من القيام بمقاومة مثل هذه القوة الهائلة. وإذ رأى نفسه محاصرًا في راتسبون مع جيش لا يكاد يزيد عن عشرة آلاف لا بد أنه ارتبك لقدوم مثل هذا الجيش الرهيب عليه، فهو لا يستطيع محاربته أو حتى مجرد الإفلات منه بسلام.

ولكن لحسن حظ شارل لم ينتفع الحلفاء بهذه الفرصة النادرة التي كانت واضحة أمامهم كل هذا الوضوح، فأضاعوا الوقت في كتابة خطابات إلى الإمبراطور، وإذاعة بيان إلى كافة سكان ألمانيا. ولكن رغمًا عن مركز شارل الحرج وضعفه البيِّن فقد ظهر بمظهر الإمبراطور العاتي الجبار الذي لا يلين، فلم يكن جوابه على خطاب البروتستانت سوى إذاعة حكم الحرمان الإمبراطوري ضد منتخب سكسونيا وأمير هيس وكل من يجرؤ على مساعدتهما، وهذا الحكم كان معناه اعتبارهما ثائرين ومحرومين من حماية القانون، وتجريدهما من كل امتياز كانا يتمتعان به كعضوين في الهيئة الألمانية. فصودرت أملاكهما وتحررت رعاياهما من يمين الولاء لهما، وأصبحت الإغارة على ممتلكاتهما ليست قانونية فحسب، بل ومستحقة للجزاء والمكافأة. هذا الحكم الخطير بحسب القانون الألماني كان يتطلب موافقة مجلس الإمبراطورية، ولكن شارل تخطى هذا الإجراء مركزًا السلطة كلها في شخصه.

وإذ أدرك الحلفاء الآن أنه لم يبق أي أمل في السلام أعلنوا الحرب ضد شارل، الذي لم يعودوا يلقبونه بأي لقب آخر سوى الإمبراطور المدعي منكرين كل ولاء له. على أن العصبة كانت في هذه اللحظة مفككة وغير مستعدة، وقد أعطيت قيادة الجيش لمنتخب سكسونيا وأمير هيس بالتساوي. وكان هذا نذير الفشل المريع من بادئ الأمر، فأخلاق وميول الشخصين كانت على طرفي نقيض، فبينما كان المنتخب بطيئًا حذرًا مترددًا كان الأمير نشيطًا مغامرًا وراغبًا في الوصول بالحركة إلى نتيجة سريعة. لكن وإن كان فيليب الجندي الأفضل، فقد كان جون الأمير الأعظم، وهل كان من الجائز أن أميرًا يقود منتخبًا؟ وفي الواقع سرعان ما بدا للعيان كل ما يتبع السلطة المنقسمة من نقائص. فقد ضاع وقت كثير وتعددت الانشقاقات. وفي هذه الأثناء استطاع الإمبراطور أن ينقل معسكره إلى ممتلكات دوق بافاريا أحد الأمراء المحايدين، تاركًا حامية صغيرة في راتسبون. وهنا أضاع الحلفاء بعض الأيام في المداولة! هل يلحقون بشارل؟ أم يهاجمون راتسبون؟ وفي هذا الوقت كان الجيش الإمبراطوري قد ازداد إلى ٣٦٠٠٠ محارب، بينما تناقص عدد الجيش البروتستانتي بسبب عوامل الجبن إلى ٤٧٠٠٠.

مناورات البروتستانت الأولى

لم يحتط البروتستانت لاتخاذ أي إجراء لمنع الجيوش الأسبانية أو الإيطالية أو غيرها من الانضمام إلى الجيش الإمبراطوري، ولذلك استطاع الإمبراطور إرسال إمدادات كافية لحامية راتسبون، حتى ضاع كل أمل لدى البروتستانت في إمكانية التغلب على المدينة، فساروا صوب إنجولدشتاد على نهر الدانوب، حيث كان شارل معسكرًا بالقرب منها. يقول الدكتور روبرتسون "إنهم رفعوا صوتهم بالشكوى ضد الإمبراطور ومخالفته لقانون الإمبراطورية ودستورها، بدعوته للأجانب لدخول الأراضي الألمانية وخنق الحريات فيها. وقد انتشرت الإشاعات بينهم أن البابا لم يقنع بما جمتهم بالحرب بقوة السلاح، فلجأ إلى وسائل محرمة أخرى، بأن أرسل مبعوثيه في كل أنحاء ألمانيا لإشعال الحرائق في مدنهم ومتاجرهم وتسميم آبارهم وينابيع مياههم. وقد ثبت هذه الإشاعات بعض الشيء تصرف الجيوش البابوية،

الذين ما كانوا يتورعون عن الإتيان بأية جريمة ضد الهراطقة الملعونين من الكنيسة. ولذلك ارتكبوا أفظع الجرائم وأروعها في الممالك اللوثرية، وزادوا في مصائب الحرب بأن أضافوا عليها كل أنواع الوحشية والقسوة التي لا تمت للحرب بصلة".

كنا نظن أنه بفعل الحماس الناتج في الجيش البروتستانتي بسبب هذه الجرائم المنكرة المثيرة للعواطف، كان في مقدورهم وضع حد لهذه الكوارث، غير أن الزعماء لم يكونوا متحدين وهذا سبب البلاء. فعندما وصلوا إلى إنجولدشتاد وجدوا الإمبراطور في معسكر غير محصن وليس معه إلا جيش قليل العدد. إلا أن غرض شارل الأكبر الذي كان يرمي إليه من أول الأمر هو تجنب الدخول في موقعة فاصلة، وكان كل همه إدخال الملل إلى نفوس الحلفاء وإيقاع الانقسام في صفوفهم، حتى يستطيع الانتصار عليهم واحدًا بعد الآخر.

وكان يقع بجوار إنجولدشتاد سهل فسيح يسع جيوش الحلفاء مجتمعة، بحيث كان في مقدورهم الهجوم مرة واحدة. والحق أنه لم يكن لجيش ما مثل هذه الفرصة النادرة، وكانت صدور الجنود تجيش بالحماس والرغبة في اقتناص الفرصة لمهاجمة الإمبراطور، ولكن ويا للأسف ضاعت الفرصة الثمينة بسبب المنازعات بين القادة. ويمكننا القول إنها ضاعت من أيديهم إلى الأبد "كان أمير هيس يحتج بأنه لو أن القيادة في يده لأنهى الحرب في هذه الفرصة ولقرر مصيرها بهجمة واحدة عنيفة. أما المنتخب فكانت حجته أن قوات الأعداء منظمة ومدربة، وأن حضور الإمبراطور بشخصه وخبرة ضباطه تجعل العاقبة غير مأمونة، وتمنعه من المخاطرة بالهجوم". وبينما كان زعماء البروتستانت يتداولون ويتناقشون على هذه الصورة، هل يباغتون الإمبراطور أم لا، وصلت الإمدادات الإمبراطورية، وبذلك ضاعت الفرصة على البروتستانت.

ولكن رغمًا عن ترددهم هذا اتفقوا أخيرًا على مهاجمة العدو بغية استدراج الجيش الإمبراطوري إلى الخارج، ولكن الإمبراطور كان أحكم من أن يقع في هذا الشرك، إذ كان يحارب على أرضه وبأسلحته، وبهذه الكيفية كان أقوى من كل البروتستانت في ألمانيا، الذين كانوا يحاربون على أساس خاطئ وبأسلحة جسدية وليست روحية. فاستمروا يطلقون النيران على الأعداء عدة ساعات، ولكن شارل تمسك بخطته حتى النهاية، فقد أوقف جنوده وراء الخنادق، ومنعهم من التجول أو الدخول في مناوشات قد يعقبها التحام عام، وأخذ يمر على الصفوف على صهوة جواده مخاطبًا جنود الممالك المختلفة بلغاتهم، ومشجعًا إياهم ليس بكلماته فقط، بل بنبرات صوته الطروب ووجهه المنشرح، معرضًا نفسه في أماكن محفوفة بأكبر الأخطار وسط نيران الأعداء وقذائف مدافعهم. إلى أن جاء الليل وأيقن البروتستانت أنه لا فائدة من محاولة استدراج الأعداء إلى الخارج، فانسحبوا راجعين إلى معسكرهم.

وقد استغل الجيش الإمبراطوري فرصة هذه المهلة في تقوية تحصيناتهم، بينما البروتستانت وقد رأوا أنهم أضاعوا فرصتهم حولوا كل مجهودهم لمنع وصول إمدادات أخرى قوية من هولندا، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك كثيرًا، فقد وصلت الجيوش الهولندية، وبدأ الإمبراطور على الأثر في تنفيذ خطة الهجوم، ولكن بحرص شديد حتى يتجنب الوقوع في معركة عامة.

لقد أعلن مرارًا عن ثقة ويقين أن الخلاف وقلة المال سيعملان عملهما في صفوف البروتستانت، حتى يضطرانهم إلى التقهقر، وبذلك يكون قد قضى على هذه القوات الهائلة. ولذلك كان يراقب وينتظر بصبر كثير، حتى انتظروا هناك من منتصف الصيف إلى نهاية الخريف دون أن يعملوا عملاً يُذكر، أو أن يكسب أحد الجيشين شيئًا. إلى أن حدث حادث غير منتظر وضع حدًا للصراع، وقلب شئون البروتستانت رأسًا على عقب ومهد الطريق للمأساة التي تلت.

خيانة موريس

كان موريس ابنًا لهنري، وقد خلف والده في حكم ذلك الجزء من سكسونيا الذي كانت تحكمه السلالة الألبرتينية، وقد قال عنه أحد كبار المؤرخين "هذا الشاب الذي لم يزد عمره وقتئذ عن العشرين بدأ يشعر حتى وهو في هذه السن المبكرة أن له من المواهب العظمى ما يؤهله لأن يلعب دورًا فذًا ممتازًا على مسرح الشئون الألمانية، فلم يكد يتسلم مقاليد الحكم حتى اختط لنفسه طريقًا شاذًا لم يسبقه إليه سواه، وانطلق في هذا الطريق بكيفية ملفتة للأنظار ودالة على أنه كان يرمي من بدء تاريخه في الحكم إلى شيء عظيم وخطير غير مألوف"[١/٧٦]. فادّعى أنه بروتستانتي غيور، ولكنه مانع في الانضمام إلى عصبة سمولكولد، بحجة أن مبادئها لم تكن كافية روحيًا، ولكنه صرح بعزمه رغم ذلك على صيانة نقاوة العقيدة دون أن يزج

بنفسه في مشاكلها السياسية أو أن ينضم إلى هيئاتها وأحلافها. تلك كانت درجة رياء ذلك الشاب ونوع سياسته الشيطانية، فقد كان في نفس ذلك الوقت يزن الأمور بميزان حصافته السياسية لكي يتبين أي الكفتين أرجح. وإذ أدرك أن الإمبراطور هو الذي سيفوز في النهاية في الغالب، تظاهر بأنه يضع فيه ثقته التي لا حد لها، محاولاً بكل طريقة ممكنة كسب عطفه وعطف شقيقه فرديناند.

ففي مجمع راتسبون في شهر مايو سنة ١٥٤٦م عقد موريس معاهدة مع الإمبراطور، تعهد فيها بمساعدته كأحد رعاياه الأمناء المخلصين. وتعهد شارل في مقابل ذلك بمنحه جميع أملاك المنتخب بما في ذلك مقتنياته وألقابه وممتلكاته الخاصة. وقد كان المنتخب يثق في هذا الشاب الذي هو قريبه وجاره، وقد أسدى إليه في الماضي إحسانات عظمى وعديدة، وكان لا يشك البتة في أمانته، حتى أنه عند خروجه للانضمام للحلفاء ترك كل ممتلكاته أمانة في حمايته، وقد قبل بمكر خبيث القيام بهذه المهمة، متظاهرًا بالصداقة والمودة التي لا حد لها، وقد تمت المؤامرة بعد ذلك بأن أرسل الإمبراطور لموريس صورة من الأمر الإمبراطوري القاضي بحرمان المنتخب وأمير هيس، طالبًا إليه بحكم الولاء والواجب الذي يدين به إليه كرأس الإمبراطورية أن يقوم في الحال بوضع اليد على جميع ممتلكات المنتخب، والاحتفاظ بها في عهدته.

على أن هذه الحالة التي جعلت هذا العمل الإجرامي يبدو كأنه ضرورة حتمية لا حيلة لموريس فيها، لم تكن إلا ستارًا شفافًا لإخفاء خيانة الاثنين معًا، موريس والإمبراطور. وبعد أن قام موريس بمراعاة بعض الإجراءات الرسمية، التي كان يقصد من ورائها الظهور بمظهر التردد انقض على ممتلكات قريبه، وبمساعدة فرديناند هاجم جيوش المنتخب وهزمها، ووضع يده على كل أملاكه وتولى إدراتها.

حل العصبة

عندما وصلت أخبار هذه الغارة إلى مسامع المنتخب الطيب القلب، امتلأ بالغضب والدهشة وقرر العودة إلى الوطن في الحال بجيوشه للدفاع عن سكسونيا. وقد كان مترددًا غاية التردد في الانسحاب من الميدان، مفضلاً بالأحرى نجاح القضية المشتركة على سلامة ممتلكاته الخاصة. ولكن آلام وشكاوي رعاياه زادت إلى حد جعله يقرر رغمًا عنه العودة لإنقاذهم من ظلم وطغيان موريس، ومن فظائع الجنود الهنغاريين المعتادين أساليب الحرب الوحشية التي طالما اتبعوها نحو الأتراك. وقد كان في هذا الانسحاب الضربة القاضية على عصبة سمولكولد، وبذلك نجحت المؤامرة التي حبكت بمثل هذا المكر والخبث كما كان يشاء شارل ويشتهي.

فقد تسبب عن انسحاب المنتخب وقوع الفشل بين صفوف الحلفاء، فانفصلوا عن بعضهم البعض، وإذ دبَّ فيهم الانقسام صاروا فريسة سهلة للإمبراطور، وهكذا انتهى أمر العصبة، التي كانت حتى وقت قريب قوة هزت أركان العرش الإمبراطوري وهددت بطرد شارل من ألمانيا، فقد تفككت أوصالها وانحلت في أسابيع قليلة. حقًا ما أفشل كل شيء ليس فيه الله، وما أضعف كل شيء لا يكون هو، له المجد، مصدر قوته. وقد رأى شارل أن فرصته قد سنحت، فأمر جيشه بالزحف ولم يترك للحلفاء وقتًا ليفيقوا من حيرتهم، أو ليفكروا في مشروع جديد للوحدة. وقد برز في الميدان كمن غلب وانتصر، وراح يعامل أعداءه كما لو كانوا قد أصبحوا تحت رحمته فعلاً. وإذ كانت العصبة قد انحلت فقد أصبح الأمراء معرضين فرادى لوطأة انتقامه الكلي. ففيما عدا المنتخب وأمير هيس، خضع له جميع أمراء البروتستانت تقريبًا، والتمسوا عفو شارل الكاثوليكي بكل مذلة واتضاع. ولما كان في حاجة شديدة إلى المال، فقد فرض على كل منهم غرامة ثقيلة بكل جشع وقسوة[٨/٧٦].

والآن قد أصبح جميع أعضاء العصبة مجردين من الجيوش ما عدا المنتخب وأمير هيس اللذين طالما اعتبرهما الإمبراطور موضع انتقامه وغضبه. ولم يكن ليتأخر عن التقدم إليهما باقتراحات الصلح التي يزيدها، على أن ظروفًا مختلفة قد عطلت الضربة النهائية وقتًا ما، ولكن لم يكد شارل يتخلص من مخاوفه من حرب جديدة مع فرنسا بموت منافسة الأكبر فرنسيس الأول، حتى سارع في الزحف بجيوشه ضد المنتخب، الذي كان قد استعاد كل ممتلكاته تقريبًا من موريس الخائن.

وفي ربيع سنة ١٥٤٧م نشبت حرب طاحنة بين الإمبراطور والمنتخب في موهلبرج على الإلبي، وفي مُلهوزن، انهزم فيها المنتخب وجرح وأخذ أسيرًا، وبذلك انتهت الحرب. ولم تكلف هذه النصرة الحاسمة الإمبراطور أكثر من خمسين رجلاً، بينما قتل ١٢٠٠ من السكسونيين، ووقع كثيرون منهم أسرى. أما موريس فقد مُنح في الحال ممتلكات المنتخب مكافأة له على خيانته. ولم تبق سوى مدينة

جوتا ورقعة الأرض المحيطة بها خصص ريعها لعائلة المنتخب، أما المنتخب نفسه فقد تقرر استبقاؤه في الأسر المستديم.

والآن لم يبق إلا جيش أمير هيس، الذي لم يرغب في الاستسلام، ولكن نسيبه موريس أقنعه بالخضوع، مؤكدًا له أنه هو ومنتخب براندنبرج لديهما ضمانة من الإمبراطور بمنحه الحرية الشخصية، ولكن في كل هذا كان فيليب فريسة المؤامرة والخداع. وهناك ما يدعو إلى الظن أن نفس هذين الشريفين مع قيامهما بدور الوسيط كانا هما شخصيًا فريسة لخداع شارل ومكره، فقد كان غرضه الاستيلاء على شخص فيليب لكي يصبح في قبضة يده. ولكن رغمًا من تأكيدات وتوسلات موريس وبراندنبرج كان فيليب يشك في نوايا الإمبراطور، ولذلك رفض الظهور في حضرته، غير أن تردده تلاشى في النهاية بعد أن وقع هذان الأميران صكًا فيه يرهنان حياتهما وحريتهما مقابل حياته وحريته. وإذ تلاشت شكوكه توجه إلى المعسكر الإمبراطوري في هال من أعمال سكسونيا.

أما شارل الذي أراد أن يظهر بمظهر الغالب المنتصر في أبهته وعظمته الإمبراطورية، فقد جلس على عرش فاخر تحف به كافة مظاهر مجده، ويحيط به جمهور كبير من أمراء الإمبراطورية. وهنا تقدم فيليب وسط مظاهر وإجراءات خطيرة، ولم يكد يتقدم إلى العرش حتى سقط جاثيًا على ركبتيه. وقد استقرت جميع العيون على هذا الأمير التاعس، أشهر رؤساء البروتستانت بألمانيا. ويصف روبرتسون هذا المشهد الرهيب قائلاً "ما كان أحد يستطيع أن يتطلع إلى مثل هذا الأمير القوي العظيم جاثيًا على ركبتيه، ملتمسًا الرحمة في صورة الخاضع الذليل، دون أن يتأثر غاية التأثر وتثور في نفسه أعمق الأفكار عن زوال العظمة البشرية وعدم دوامها، ولكن كان هناك قلب واحد استمر جامدًا لم يتحرك بهذا المشهد المؤثر، ذلك هو الإمبراطور الأسباني القاسي وأمامه ألمانيا جاثية عند قدميه، فلم يتحرك أو يظهر عليه أي اهتمام".

وقد أصر على تسليم كامل، وخضوع شامل بلا قيد ولا شرط. يقول المؤرخ «كان على فيليب أن يسلم نفسه وممتلكاته للإمبراطور، ويلتمس العفو جاثيًا على ركبتيه، ويدفع مائة وخمسين ألفًا كرون نظير نفقات الحرب، ويهدم حصون جميع المدن في أملاكه ماعدا حصن واحد، وأن يلزم الحامية التي يضعها في هذا الحصن بحلف يمين الولاء للإمبراطور...الخ». الخ ولما كان فيليب تحت رحمة الإمبراطور، فقد وافق على هذه الشروط، وإذ ظن أنه بهذا قد كفر عن ذنبه قام عن ركبتيه وتقدم نحو الإمبراطور يبغي تقبيل يديه، ولكن شارل تحول عنه فجأة وبسرعة دون أن يظهر للأمير الساقط المتذلل أية علامة من علامات الرحمة أو الصلح.

وبعد ذلك سُمح لفيليب أن ينسحب، في مطلق الحرية بحسب الظاهر، بصحبة صديقيه موريس وبراندنبرج، وفي ضيافة دوق ألفا الذي عامله بكل إنسانية واحترام. ولكن بعد العشاء، عندما هم بالرحيل، أعلن الدوق الأوامر التي كانت لديه بحجزه. وهنا انعقد لسان الأمير التاعس، وغاص قلبه داخله، وبعد ذلك انفجر بعبارات الاستهجان القاسي ضد ظلم وخداع الإمبراطور، وهى عبارات اضطرته إليها طبيعة الظروف والمحنة القاسية التي أحاطت به، ولكن عبثًا كانت كل احتجاجاته. وقد استخدم موريس وبراندنبرج أمرَّ وسائل الشكوى والمحاجة والاستعطاف للوصول إلى إخراج الأمير البائس من الورطة المزرية والمركز الشنيع الذي سيق إليه بالخداع والخيانة، ولكن بلا جدوى. وقالا إن الأمر يتعلق بشرفهما وتعهدهما، ولكن كل هذا لم يكن ليحرك دوق ألفا، فقد كان على فيليب أن يستمر أسيرًا عنده، وقد وُضع في عهدة حارس أسباني، ولم ينل حريته إلا بعد خمس سنين عندما أصيبت شئون الإمبراطور بانقلاب كلي كان من شأنه إطلاق سراحه، وابتداء عهد جديد في تاريخ حركة الإصلاح.

معاملة الألمان كشعب مغلوب

أصبح الآن انتصار الإمبراطور كاملاً، وأصبح سيد ألمانيا بلا منازع. وفي استيلائه على وتمبرج زار قبر لوثر، وعندما كان يتفرس بصمت في ذلك المقر الهادئ الأخير، الذي هجع فيه ذلك الراهب الذي حرك أوروبا كلها وقادها للثورة والعصيان، متحديًا قوة البابا والإمبراطور، تقدم إليه الأسبان يطلبون إليه هدم ضريح الهرطقي وإخراج عظامه وإزالة كل أثر له. ولكن شارل أجاب بشيء من النبل "ليس لي شأن مع لوثر الآن، قد ذهب إلى دار أخرى ليس لنا أن نتعدى على حدودها. إني أحارب الأحياء وليس الأموات". ولكن ما أكبر الفرق بين مشاعره إزاء ذكرى رجل الإيمان ومشاعره الأخرى إزاء من رفعوا ضده راية العصيان!

فالأميران فردريك وفيليب كانا يسيران في ركابه ويتبعانه في موكب نصرته من مدينة إلى مدينة ومن سجن إلى سجن، وكأنه أراد بهما أن يكونا منظرًا لرعاياهما السابقين وعائلاتهما وأصدقائهما. هذه كانت مذلة قاسية لألمانيا. وقد ارتفعت الشكوى من كل ناحية ضد سوء استخدام هذه القوة الغشومة، وضد المعاملة القاسية التي كان يلاقيها أشهر أميرين من أمرائهم.

ولكن هذه المحنة أظهرت الصفات الحقيقية التي كانت تنطوي عليها جوانح كل من هذين الرجلين. ففردريك كمسيحي حقيقي قديم قبل التجربة من يد الرب وتواضع تحتها. كان ينظر إلى ما وراء الأشياء الظاهرة ويعلل التجربة بأمور أخرى، فتخلى عن روح المحارب وتمسك بروح الشهيد. وقد اتفق جميع المؤرخين في الإشادة بتواضعه وصبره ومسلكه المسيحي، حتى ثوانوس المؤرخ الروماني الكاثوليكي يقول عنه "لقد أجمع الكل على أنه ارتفع فوق ظروفه القاسية بقوة يقينه وهدوء باله وثباته".

ولكن، ويا للأسف، كان فيليب على نقيض فردريك على خط مستقيم. قد رأينا شيئًا من اعترافه بالتدين وغيرته على وحدة المسيحيين كما حدث في مؤتمر ماربرج، ولكن في يوم الضيق ضاقت قوته، وهكذا كان مبلغ عدم صبره تحت حمل تجربته، حتى أنه قبل طوعًا واختيارًا لا أن يتنازل عن ألقابه فقط، بل وعن مبادئه الدينية أيضًا، فلم يحكم أبدًا على نفسه أو طرقه في حضرة الله، ولذلك لم يستطع أن يرى يد الله العليا في تجربته. وفي هذين الشخصين نستطيع أن نرى نموذجًا للفرق الهائل بين مجرد صورة التدين، حتى ولو كانت مصحوبة بالنشاط والغيرة، وبين الإيمان بالرب يسوع المسيح الذي يستولي على القلب، فيعطي النفس ثباتًا ورسوخًا وسط أظلم الظروف وأقساها.

ويوم الامتحان هو الذي يكشف ويبين الفرق الجوهري بين الاثنين. الأول يحصر كل تفكيره في الخيانة المزرية التي حرمته من حريته، وفي الظلم الذي لا يزال يعامل به، إلى أن تثور عواطفه فينفجر بأشد الأقوال وينطلق لسانه بما لا يليق، بينما الثاني مع شعوره تمام الشعور بالظلم الفادح الواقع عليه يعترف بفشله الشخصي، ويقرر في نفسه بأن هناك يدًا عليا وحكيمة تدير الأمر كله، وهكذا ينتظر الله فتتجدد قواه ويذهب من قوة إلى قوة يومًا بعد يوم، فيستطيع بنعمة الله أن يفرح في أسره متمتعًا بحلاوة وجود الله معه، وموقنًا أن كل شيء سينتهي بتاج أعظم في السماء.

• • •

والآن لنرجع إلى أعمال الإمبراطور العامة...

لقد اتجه بعد ذلك إلى الأمراء الآخرين، فجعل الكثيرين منهم يشعرون بثقل يده الظالمة وإن كان بأسلوب آخر. فقد أمر جيوشه بالاستيلاء على مدافع وذخائر الأمراء الذين لم يكونوا تابعين لعصبة سمولكولد، فتجمع له بذلك ما يزيد عن ٥٠٠ مدفع، وهو عدد لا يستهان به في ذلك العصر، وأرسل جزءًا منها إلى هولندا وجزءًا آخر إلى إيطاليا، وجزءًا ثالثًا إلى أسبانيا، لكي يذيع بذلك شهرة انتصاره ولكي تكون هذه المدافع بمثابة آثار خالدة تشهد بأنه قد أخضع أمة كانت تُعتبر إلى ذلك الحين أمة لا تُقهر. بعد ذلك فرض بمحض إرادته ومطلق سلطته غرامات ثقيلة على الذين حاربوه. وقد استطاع من هذه الغرامات أن يجمع أكثر من مليون وستمائة ألف كرون، وهو مبلغ هائل بمقاييس القرن السادس عشر (٦/٧٦).

أما الألمان، وقد أفزعهم بالطبيعة زوال امتيازاتهم، فقد ارتاعوا بالأكثر لامتداد ظل هذا السلطان بصورة غير عادية. ولكنهم في مذلتهم لم يستطيعوا إلا الصمت والخضوع لأوامر الأسباني العاتي، ولو أن مقاومة الشعب وتذمرهم كانت عامة، وكانوا على استعداد لأن ينفجروا كالبركان في أول فرصة تواتيهم. وفي الوقت الذي كان فيه شارل يصدر الأوامر للألمان ويفرض عليهم قوانينه الجائرة كشعب مغلوب، وكان فرديناند يتصرف بنفس الاستبداد بين البوهيميين بعد أن جردهم من كافة امتيازاتهم تقريبًا.

الفصل السابع والأربعون

المرحلة الانتقالية

الآن وقد أصبح الإمبراطور سيد الموقف بلا منازع، بعد أن أخضع، كما ظن، روح الألمان المستقلة العنيدة، عقد مجمعًا في أوجسبرج طلب فيه من البروتستانت أن يعرضوا أمر الخلافات الدينية التي قامت في ألمانيا على مجمع ترنت وهو يحاصر المدينة بجيوشه المنتصرة. وكان غرضه من ذلك التأثير على المؤتمر، حتى تأتي قراراته متفقة مع رغبات سيد هذه الجيوش الواقفة بالباب. ولقد وضع يده في الحال على الكاتدرائية وبعض كنائس أخرى، وأعاد إليها العبادة البابوية، ولكن لم تكد الإجراءات تبدأ حتى علم شارل، بمذلة ومرارة، أن المؤتمر قد انتقل بأمر البابا من ترنت إلى بولونيا.

ذلك أن نجاح شارل العظيم وسيادته على ألمانيا أثار بطبيعة الحال مخاوف وشكوك وحسد البابا، الذي رأى بثاقب بصره أن سلطة الإمبراطور في تلك المملكة ستؤثر لا محالة في قرارات المؤتمر، وأنه قد يستخدم هذا السلطان للحد من سلطة البابا أو القضاء عليها، ولذلك انتهز أول فرصة لسحب الجنود البابوية من الجيش الإمبراطوري، ونقل المؤتمر إلى بولونيا لكونها خاضعة للبابا. ولقد قوبل قرار الانتقال هذا بمعارضة شديدة من جانب الإمبراطور وجميع الأساقفة الذين في صفه، فبقي هؤلاء في ترنت، بينما ذهب الأساقفة الأسبان والإيطاليون إلى بولونيا مع مندوبي البابا. وهكذا بدأ الانقسام يدب في نفس الجماعة التي دُعيت لشفاء المسيحية من انقساماتها، وانتهى الأمر بتأجيل المؤتمر إلى أجل غير مسمى. ولم توجد وسيلة لإعادته إلى ترنت حتى عهد يوليوس الثالث، الذي خلف بولس الثالث على كرسي البابوية عام ١٥٥٠م، ولكن الوقت كان قد مضى لتنفيذ مشروعات شارل وأغراضه.

وإذ أيقن الإمبراطور أن مسألة عقد مجمع عام قد صارت الآن أبعد مما كانت في أي وقت آخر، رأى من الضروري، حبًا في راحة رعاياه الشماليين وحسمًا لخلافاتهم الدينية، أن يقوم بإعداد نظام من التعليم يخضع له الجميع ريثما يتسنى عقد مجمع عام. وقد أطلق على هذا النظام "المهلة" أو "المرحلة الانتقالية" وقام بإعداد مواده اثنان من أقطاب كنيسة روما وثالث بروتستانتي هو أجريكولا الذي كان يعتبره إخوانه مرتدًا.

المذهب الجديد

كانت الوثيقة الجديدة عبارة عن نظام كامل الكاثوليكية، ولو أنها صيغت أغلبها في "كلمات لطيفة أو عبارات كتابية أو ألفاظ غاية في الدهاء والغموض". فقد احتُفظ فيها بكل مبدإ يتصل بالبابوية، أو كما يقول ويلي ملخصًا إياها إنها "أيدت، مع أشياء أخرى، سيادة البابا ومبدأ الاستحالة وذبيحة القداس وشفاعة القديسين والاعتراف العلني والتبرير بالأعمال، وحق الكنيسة وحدها في تفسير الكتب. وبالاختصار لم تتنازل روما عن امتياز واحد. وتشجيعًا للبروتستانت على تقبل هذا المذهب البابوي جملة وتفصيلاً مُنحوا هديتين صغيرتين، وهما أن القسوس الذين تزوجوا يظلون يقومون بخدمتهم بدون انفصال عن زوجاتهم، وأنه حيثما جرت العادة بممارسة فريضة العشاء الرباني على الطريقتين تظل هذه العادة مسموحًا بها. وقد أطلقوا على ذلك مقابلة البروتستانت في منتصف الطريق"(٧٨/٢)،(٧٤/٦).

وقد عرض الإمبراطور هذه الوثيقة الظالمة المُذلة للبروتستانت على مجمع أوجسبرج في ١٥ مايو ١٥٤٨م. وبمجرد أن قرئت على المجمع قام رئيس أساقفة منتز لفوره بدون أن يترك الفرصة لأية مناقشة، وشكر الإمبراطور على مجهوداته التقوية لإعادة السلام

للكنيسة، وأعلن باسم المجمع موافقتهم التامة على النظام الذي تُلي عليهم. وقد أدهش هذا الإعلان المفاجئ الخالي من أي شرط أو قيد أعضاء المجمع وأربكهم، ولكن لم يوجد بينهم واحد استطاع أن يقوم ويعارض على ما قاله رئيس الأساقفة، ولم يسع المجمع تحت ظل إرهاب الجيوش الأسبانية المحيطة به إلا أن يصمت. وفي الحال قَبِل الإمبراطور الإعلان كموافقة تامة على النظام الجديد، الذي أصبح مرسومًا إمبراطوريًا يبقى نافذ المفعول حتى يتسنى عقد مجمع عام، وعلى الجميع أن يخضعوا له، والويل لمن يجرؤ على مخالفته. وقد أذيعت الوثيقة على الأثر باللغتين الألمانية واللاتينية.

البروتستانت والكاثوليك يعارضون المذهب الجديد

فرح الإمبراطور بمشروعه، وظن أنه في طريقه إلى النصرة الكاملة وتتميم خططه، فراح ينفذ النظام الجديد بكل سرعة. ولكن لدهشته الشديدة وجد أن الجميع يحتجون عليه بشدة، فالبروتستانت حكموا عليه بأنه شامل لجميع أضاليل البابوية، بينما قاومه البابويون بحجة أن بعض تعاليم الكنيسة الكاثوليكية المقدسة قد أُهملت. أما في روما فقد كان الغضب والاحتجاج على أشده، فقد ثاروا ضد اعتداء الإمبراطور على حقوق البابوية المقدسة، مشبهين إياه بذلك المرتد، هنري الثامن ملك إنجلترا، الذي اغتصب لقب واختصاص البابوية العليا.

أما الأمراء البروتستانت فقد قام بينهم خلاف كبير في الآراء والمشاعر لسنا الآن في حاجة للدخول في تفصيلاته، فالبعض تظاهر بالخضوع، بينما آخرون وقفوا موقف الحزم والأمانة معارضين ومحتجين بكل شدة. وقد عرف شارل مبلغ تأثير سجينه فردريك على باقي الأمراء البروتستانت فيما لو استطاع الحصول على تعضيده، لذلك راح يستخدم كل وسيلة لنوال موافقته على المشروع، ولكنه لم يستطع زحزحة فردريك لا بالوعد ولا بالوعيد، فقد مناه بمنحه الحرية إذا وافق، وهدده بتشديد المعاملة إذا رفض، لكن لا هذه ولا تلك زحزحت فردريك الأمين قيد شعرة، فقد قابل الإمبراطور بأسلحة أقوى من كل الجبروت الإمبراطوري، هي الضمير وكلمة الله. وما أشد وأقوى تأثير هذين السلاحين لو أن البروتستانت والقضية البروتستانتية لم تعرف غيرهما لمقاومة تهديدات البابا والإمبراطور. ربما كان البعض قد تشرف بالاستشهاد، ولكن من المؤكد أن المملكة كلها كانت ستنقذ من أهوال الحرب، كما أن حركة الإصلاح كلها كانت ستطبع بطابع المجد الأدبي الذي لهذا المبدأ الإلهي العظيم.

فبعد أن أعلن فردريك بكل ما أوتي من حزم وثبات إيمانه الراسخ بمبادئ وتعاليم حركة الإصلاح، صرح قائلاً "إني لا أستطيع في شيخوختي أن أتخلى عن المبادئ التي ناضلت من أجلها في شبابي، كما إني لا أستطيع رغبة في الحصول على الحرية لأيام قليلة قد تمتد إليها حياتي الذابلة أن أخون تلك القضية الصالحة التي تألمت في سبيلها كل هذا الألم، ولا زلت مستعدًا لاحتمال الألم من أجلها. الأفضل لي أن أتمتع في وحدتي هذه بتقدير الرجال الأفاضل مع راحة ضميري، من أن أعود إلى العالم بفضيحة وعار الارتداد، ولتنغيص ما بقي من أيامي". وقد قابل الإمبراطور هذا الموقف النبيل الذي وقفه فردريك مثالاً صالحًا لمواطنيه، بأن صب عليه جامات جديدة من غضبه كما يقول المؤرخ "قد زاد في التضييق عليه وإشعاره بالوحدة والوحشة في منفاه، كما أنقص عدد خدامه، ولم يسمح للقسوس اللوثريين الذين كانوا يلازمونه بالبقاء معه، حتى الكتب الدينية التي كانت تعزيته الوحيدة في سجنه الموحش سُحبت منه".

خضوع ملانكتون

لكن من المحزن للغاية أن ملانكتون وهو اللاهوتي البروتستانتي، لم يقف موقف الحزم والثبات الذي وقفه فردريك في سبيل الحق ضد المشروع البابوي، ولكنه خوفًا من بطش شارل ونزولاً على إرادة أشخاص في مراكز عالية، حاول أن يسلك مسلكًا وسطًا، تبعه فيه لاهوتيون آخرون. وتبريرًا لموقفه أدخل بالأسف المبدأ البغيض الذي يقوم على ما أسماه "جوهريات وغير جوهريات" وأشياء "غير مهمة في الأمور الدينية". فقد قرر أن النظام الجديد لا يمكن بأي حال قبوله جملة، ولكنه لم يكن هناك مانع من الموافقة عليه فيما يتعلق بالأمور "غير الجوهرية" في العقيدة، أو الأمور "غير المهمة". إلا أن هذا أثار مناقشات طويلة ومُرّة في الكنيسة اللوثرية، فأتباع لوثر الحقيقيون لم يستطيعوا اعتبار مبادئ النظام الجديد غير مهمة، ومضوا يقاومون بكل شدة ملانكتون وأتباعه متهمين إياهم بأنهم قد باعوا

بروتستانتيتهم مقابل ديانة الإمبراطور. ومن المحزن أن هذا المبدأ الرخوي لا يزال إلى يومنا الحاضر يعمل عمله في الكنائس المصلحة. وما هو في الواقع إلا تغطية لأولئك الذين لا ضمير لهم بالنسبة لسلطان كلمة الله، والذين يريدون خدمة أغراضهم الخاصة. ولكن من المؤكد أنه لا يوجد جزء من الحق الإلهي يمكن اعتباره غير مهم أو غير جوهري، فكما يقول المرنم «كلام نقي كفضة مصفاة في بوطة في الأرض ممحوصة سبع مرات» (مز ١٢: ٦). حقًا ما أبعد الفرق بين تقدير روح الحق وتقدير علم اللاهوت لكلام الرب الممحوص سبع مرات(٢/٨١)(٢/٧٢).

معارضة المدن الحرة

كان قبول الجهات المختلفة أو رفضها لنظام المهلة يتوقف على قرب أو بعد هذه الجهات عن سلطة الإمبراطور، فحيث لم تكن جيوشه قد وصلت بعد، قوبل المشروع بمقاومة علنية، بينما في الجهات التي كانت تتأثر بسلطانه قوبل المشروع بالقبول الظاهري على الأقل. غير أن أشد ما لاقاه شارل من مقاومة كان في المدن الحرة، فهناك كانت حركة الإصلاح قد أينعت وتأصلت، وهناك استوطن أشهر رجالها كقسوس أو رعاة، وهناك انتشرت المدارس بأنواعها ومدارس اللاهوت لتعليم الأحداث مبادئ الإصلاح الجديدة. وكان من الطبيعي أن يلقى النظام الإمبراطوري الجديد كل معارضة ومقاومة، فراحوا يرسلون الاحتجاج تلو الاحتجاج، ولكن بلا جدوى، فقد صمم شارل على تنفيذ مشروعه كاملاً وفي كل مكان.

وقد بدأ بمدينة أوجسبرج، فجعل جزءًا من جيشه يحتل الأبواب، بينما وزع الباقين في أنحاء المدينة، ثم جمع الأهالي في صالة البلدية وتلا عليهم بموجب سلطانه المطلق مرسومًا بإلغاء شكل حكومتهم الحاضرة، وبحل جميع الهيئات والجمعيات. وعين عددًا محدودًا من الأشخاص ووضع في يدهم مقاليد الحكم، بعد أن أقسم كل منهم على احترام النظام الجديد. وقد بدأ الاضطهاد على الأثر، لأن كثيرين صمموا على أن يكون لهم ضمير صالح أمام الله، متمسكين بحق كلمته المباركة.

أما الرعاة البروتستانت فقد نُفوا بالقوة أو تم تشتيتهم وصاروا بلا مأوى في وطنهم، وتطهرت كنائسهم - حسب عرف الكاثوليك - من النجاسات البروتستانتية، وأعيدت إليها كافة الطقوس القديمة من قداس وملابس كهنوتية وصلبان ومذابح وشموع وصور وتماثيل وما إلى ذلك، وسيق الناس لحضور القداس بقوة الجند. ففي جنوب ألمانيا فقط هرب أربعمائة من المبشرين بالإنجيل الأمناء لعقيدتهم، مع زوجاتهم وعائلاتهم، بلا طعام ولا مأوى. ومن لم يستطع الهروب منهم وقع في الأسر في أيدي أعدائهم، وطيف بهم مكبلين بالسلاسل والأغلال. واستمر الحال على هذا المنوال زهاء خمس سنوات، فيها وصلت آلام الأمناء إلى درجة فاقت كل وصف أو تعبير، وقد ضاق عنها تاريخ الكنيسة. ولكن كان هناك واحد - له المجد - رأى وسمع ضيقات وتنهدات شعبه المعذب، رأى كل دمعة من دموع الباكين، وسمع كل آهة من آهات المتألمين «وكتب أمامه سفر تذكرة للذين اتقوا الرب وللمفكرين في اسمه. ويكونون لي قال رب الجنود في اليوم الذي أنا صانع خاصة، وأشفق عليهم كما يشفق الإنسان على ابنه الذي يخدمه» (ملا ٣: ١٦، ١٧).

اتجاه جديد في مجرى الحوادث

كانت قد وصلت آلامهم، أو بالحري عملية تطهيرهم، إلى حد الاكتمال تقريبًا، ولذلك كان يوم إنقاذهم على الأبواب، وإن كان هذا لم يخطر على بال الظالم المضطهد، الذي ظن أن نصرته قد تمت وأن مشروعاته قد نُفذت، وإن له الآن أن يستريح قليلاً من متاعب الحكم ومشاغله الكثيرة، ويتذوق حلاوة الاعتكاف والهدوء، ولذلك ذهب إلى إنسبروك ومعه نفر قليل من حراسه الخصوصيين. ولكن البعض كانوا يرون خلاف ذلك، كانوا يرون الغيوم تتجمع في كل مكان، والعاصفة المريعة تنذر بالهبوب، والظلام الحالك يكاد يخيم على كل ممتلكاته ويملأ بالويل والرعب سماء مجده وعظمته، ويجلل بالسواد جو حياته كلها، فيصبح سيد العالم بلا كرامة، فيترك الدنيا وما فيها، ويختم حياته التاعسة وحيدًا في صومعة من صوامع الرهبان والناسكين. وإليك تفاصيل ما أجملنا:

كان هناك في ذلك الوقت أربع مدن عظيمة لا تزال واقفة بالمرصاد للإمبراطور وتقاوم سلطانه، وهي مجدبرج وبريمن وهامبورج ولوبك. ولكن لما كانت مقاومة مجدبرج هي التي ترتبط بالحوادث التي غيرت وجه الإمبراطورية، فسنقتصر كلامنا على هذه المدينة وحدها.

في مجمع عقد في أوجسبرج عام ١٥٥٠ تقرر إرسال جيش

لحصار مجدبرج وإخضاعها، وهنا تقدم موريس أوف سكسونيا، وبحيلة ماكرة أخفى نواياه الحقيقية وتظاهر بالغيرة على شروط المهلة، وبرغبته الشديدة في فرضها بالقوة، فتعهد بإخضاع المدينة العاصية وإرغامها على الطاعة والتسليم، وقد قوبل اقتراحه بموافقة عامة من المجمع واستحسان كامل من الإمبراطور.

وكانت تدور بخلد موريس وكثيرين غيره أفكار خطيرة قبل هذا التعيين، ذلك أن انتصارات شارل الأخيرة كانت قد أيقظت المخاوف عند الكثيرين. وكان الفاتيكان أول من رفع صوت التحذير والإنذار، فأخذ البابا يندم على اندفاعه إلى هذا الحد في إنماء وتقوية سلطة قد تنقلب في يوم من الأيام وتصبح سيدة عليه، فها هو شارل قد بدأ فعلاً يدعي لنفسه مركز الزعامة في الأمور الدينية، وقد هز فعلاً أركان السلطة الإكليريكية بأن قام بنفسه يضع قوانين الإيمان ويحدد طرائق العبادة فيما أسماه "نظام المهلة". ولذلك بدأت المفاوضات والمحاولات لعمل معاهدات تحالف مع ممالك أجنبية، حتى بذلك يتسنى مقاومته في الحال مقاومة فعالة شديدة قبل أن يستفحل أمره ويصبح من العسير الوقوف أمامه.

ومن الجهة الأخرى قد أصبح الآن واضحًا للجميع أن شارل كان مصممًا على ضرورة مراعاة مبادئ وتعاليم كنيسة روما مراعاة تامة، وفرضها على الجميع بالقوة بدلاً من السماح بحرية الضمير كما وعد مرارًا وتكرارًا. وبالاختصار شعرت الأمة أنها كانت إلى الآن فريسة خدعة هائلة. فقد قيل لهم المرة بعد المرة قبل الحرب إنه ليس في خطة الإمبراطور تغيير عقيدة الإصلاح بحال من الأحوال. أما الآن فقد أصبح دين ألمانيا وحرياتها عند أقدام العاهل المخادع، مما كان لا بد أن يثير جزع أمراء الإمبراطورية، وخاصة موريس الذي كان الناس يلقبونه "يهوذا" من قبيل التهكم، ويتهمه مواطنوه بأنه أس البلاء وأصل كل هذه المصائب. في هذه الحالة المؤلمة قرر موريس الطريق التي يسلكها، فقد رأى أن شيئًا واحدًا دون سواه كان يستطيع أن يكفّر عن خيانته للتحالف البروتستانتي، وهو قلب سلطة الإمبراطور في ألمانيا قلبًا نهائيًا والقضاء عليها قضاءً كاملاً. وهذا ما قرر أن يفعله.

يقول روبرتسون "رأى موريس النير الذي كان يُعد لبلاده، وأيقن من انتصارات السلطة الإمبراطورية المتوالية السريعة أنه لم تبق سوى خطوات قليلة يصبح شارل بعدها السيد المطلق في ألمانيا كما صار السيد المطلق في أسبانيا". وقد كان موريس في قلبه بروتستانتيًا سياسيًا، وبحكم مركزه الانتخابي كان رئيسًا للحزب البروتستانتي. يضاف إلى ذلك أن أطماعه كانت تتفق مع حبه للحرية، وكان يشتاق أن ينتقم لفردريك حميه، الذي بإلحاح منه وضع نفسه في أيدي الإمبراطور فأذاقه مرارة السجن القاسي.

وعندما أطلع الأمراء على سر مشروعه الجرئ لم يصدقوه في بادئ الأمر، ولكنهم عندما تأكدوا أخيرًا من إخلاصه وعدوه بمساعدته على طول الخط. وإذ حصل على ثقة البروتستانت وجّه حيلته ودهاءه ومكره لخداع الإمبراطور وإيقاعه في الشرك. كان الإمبراطور قد بدأ يحنق على موريس لسماعه عن صداقته الأخيرة مع بعض أمراء البروتستانت، ولكن الآن وقد أظهر موريس هذه الغيرة ضد أهالي مجدبرج، فقد زالت كل شكوكه وامتلأ قلبه بثقة جديدة في موريس. أما موريس فبصفته قائد الجيش العام كانت لديه قوات كثيرة تحت إمرته، ولكنه استطاع تأجيل حصار مجدبرج حتى تنضج خططه، فعمل محالفات سرية مع أمراء عديدين، وعقد معاهدة مع ملك فرنسا القوي هنري الثاني، الذي أثبت أنه حليف فعال، ولو أنه كان كاثوليكيًا.

الثورة في ألمانيا (١٥٥٢م)

عندما أكمل موريس استعداداته أذاع نداء بالأسباب التي حملته على حمل السلاح ضد الإمبراطور، وهي سلامة العقيدة البروتستانتية التي كانت مهددة بالفناء العاجل، والمحافظة على قوانين ودستور الإمبراطورية، وإنقاذ أمير هيس من تعذيبات سجنه الطويل الظالم. وقد كان لهذا النداء تأثيره المرجو، فبالسبب الأول أثار حماس جميع أصدقاء حركة الإصلاح وضمن تعضيدهم ومساعدتهم، وبالثاني حصل على عطف وتشجيع أنصار الحرية في كل مكان من كاثوليك وبروتستانت على السواء، وبالثالث جذب إلى رايته ذلك العطف العام الذي أثاره في جميع القلوب سجن فردريك بظلم وقسوة، وإجراءات الإمبراطور المتشددة ضده. وفي الوقت عينه أصدر هنري ملك فرنسا نداء آخر لقّب نفسه فيه باسم "حامي حريات ألمانيا وأمرائها المأسورين".

أما الإمبراطور فكان معتكفًا كما رأينا في إنسبروك على مسيرة ثلاثة أيام من ترنت، متتبعًا عن قرب أعمال المجمع الذي كان في ذلك الوقت منعقدًا هناك. فأرسل إليه موريس، وهو لا يزال يخفي

نواياه تحت أرق العبارات وأعذبها، يؤكد له بلسان رسول أمين أنه سيكون تحت أمره في إنسبروك بعد ثلاثة أيام. وكان الإمبراطور ينتظر زيارة صديقه هذه بفارغ الصبر. ولكن الوقت للعمل كان قد جاء، وبوق الحرب قد دوى في الميدان، وسار موريس بجيش مؤلف من خمسة وعشرين ألف مقاتل، مصممًا على مباغتة الإمبراطور والقبض عليه. وهنا لم تبد الحاميات الإمبراطورية أية مقاومة، بل على العكس وصلت الأخبار إلى الإمبراطور أن ألمانيا كلها قد ثارت، وأنها تسير بكامل جيوشها إلى إنسبروك.

هروب الإمبراطور

كان النهار قد مال والليل بدأ يُرخي سدوله، والظلمة سادت، والمطر ينزل منهمرًا ولكن ها هو الخطر يقترب، وما من شيء ينقذ الإمبراطور سوى الهروب السريع. وقد كان منذ مدة مريضًا بالنقرس ولا يستطيع الهروب على ظهر جواده فوضعوه، على نقالة وهي أقصى ما كان يحتمل من حركة، وساروا به على ضوء المشاعل عابرًا فوق جبال الألب، حيث يكاد المسير يكون متعذرًا. وقد تبعه رجاله وخدمه بنفس العجلة، والكل في قلق واضطراب مريع. في هذه الحالة المحزنة التعسة وصل قاهر ألمانيا وركابه البائس إلى فيلاخ، وهي ركن منعزل بعيد في كارنثيا.

أما موريس فقد دخل إنسبروك بعد هروب الإمبراطور وأتباعه بساعات قلائل، ولكن بدلاً من تعقبهم ترك أمتعة الإمبراطور ووزرائه نهبًا لجنوده. ولم يكن الآن أمام الإمبراطور الساقط سوى طريق التفاوض، أو بالحري طريق الخضوع للشروط التي تُملى عليه، وهذه المهمة قد أناب عنه فيها أخاه فرديناند. أما موريس ووراءه كل ألمانيا تشد أزره فقد أصبح صاحب السلطان المطلق.

صلح باسو

في اليوم الثاني من أغسطس عام ١٥٥٢م تم التوقيع على معاهدة باسو الشهيرة، ومن شروطها إطلاق سراح فردريك ورجوعه بسلام إلى ممتلكاته، وعقد مجمع في بحر ستة شهور لحسم النزاع الديني القائم، وإلى أن يتم هذا تمنح الحرية التامة لجميع المتمسكين بالمبدإ البروتستانتي، وإذا فشل المجمع المزمع عقده في الوصول إلى اتفاق حبي فإن معاهدة باسو تبقى نافذة المفعول إلى الأبد. وهكذا أعيد السلام إلى الإمبراطورية، والحرية التامة للإيمان البروتستانتي. وجاءت بعد ذلك "هدنة أوجسبرج" عام ١٥٥٥م، التي لم تؤيد شروط معاهدة باسو فقط، بل منحت حريات دينية جديدة لألمانيا. وقد كانت هذه الإتفاقية الشهيرة هي التي أعطت للبروتستانت، بعد كل هذه المذابح والآلام والمصائب التي حلت بهم، السلام الديني الثابت الذي يتمتعون به إلى الآن. ولكن مما يؤسف له أن موريس الشاب الذي لعب مثل هذا الدور الأخير في سقوط وقيام البروتستانتية وقع قتيلاً في ميدان الحرب بعد أقل من سنة من صلح باسو، وهكذا لم تسمح له العناية بأن يرى النتائج الكاملة لتعهده الجريء(٣/٨١)،(٢/٧٨)،(٢/٧٣).

كل هذه الترتيبات والمعاهدات كانت مُذلة للغاية لشارل وهادمة لأطماعه، فالبروتستانتية التي كان يشتاق لسحقها قد أصبحت نامية ومترعرعة في جميع أنحاء الإمبراطورية، وكهنة القداس فُصلوا من خدمتهم، والرعاة البروتستانت المنفيون أعيدوا بالفرح والتهليل إلى جماعاتهم المحبوبة. وفردريك المحترم، الذي ظل شارل يطوح به من مكان إلى مكان خمس سنوات، عاد بسلام إلى عائلته وأصدقائه المحبوبين. ولكن كل شيء كان قاتمًا ومظلمًا أمام عيني شارل المضطرب، الذي لم يكن يقيم أي وزن للصداقة. وقد قيل إنه في حياته لم يكسب لنفسه صديقًا. وهكذا، وحيدًا ومنعزلاً وبائسًا، قبع الإمبراطور المهجور في مخابئ كارنثيا. ويخبرنا التاريخ المدني أنه في نفس هذا الوقت كانت رحى الحرب دائرة في هنغاريا ضد الأتراك المغيرين. وقد تقدم هنري الثاني ملك فرنسا إلى الميدان مبكرًا بناء على اتفاقه مع موريس، واستطاع بجيش منظم وكامل العدة أن يهزم الجيوش الأسبانية هزيمة ساحقة في الألزاس واللورين. وكانت إيطاليا على وشك الانفجار والثورة. ولكن الإمبراطور في المنفى، وخزائنه خاوية، وديونه على الآخرين ضائعة، وجيوشه مشتتة وحالتها المعنوية منحطة. وإذ أدرك أنه ساقط بسرعة من عليائه ولا أمل له في إعادة ذلك المركز السامي الذي ظل محتفظًا به طوال هذه السنين، عزم على أن ينسحب كلية من شئون هذا العالم، لكي يقضي أيامه الباقية في الاعتكاف والعزلة.

وعلى ذلك، وهو لا يزال في أزهى سني عمره، إذ لم يكن قد جاوز السادسة والخمسين، أدهش كل أوربا بتنازله عن العرش

الإمبراطوري لأخيه فرديناند، وعن باقي أملاكه الواسعة في أوربا وأمريكا لابنه فيليب الثاني، الذي كان قد سبق فمنحه نابولي وصقلية عند زواجه بماري الأميرة الإنجليزية.

وفي السنة التالية بعد أن صفى كافة شئونه انزوى في دير سان جوست بالقرب من مدينة بلاشنتيا في أسبانيا.

ولكنه كان لا يزال يتألم من داء المفاصل، حتى كان يُنقل بعض الأحيان محمولاً على كرسي، وبعض الأحيان على نقالة، مما كان يسبب له آلامًا مبرحة في كل خطوة، ولا يمكن التحرك به إلا بمشقة شديدة. ونظير باقي المنازل الدينية في تلك الأيام، كان دير سان جوست في موقع غاية في الجمال، تحيط به الأشجار الباسقة من كل ناحية، وينساب بين ربوعه نهر جميل صغير. وبفضل خصوبة أرضه واعتدال جوه كان يعتبر هذا الوادي الصغير أجمل وأصح بقعة في أسبانيا.

في هذا المكان عاش شارل حوالي سنتين، ومات في أول سبتمبر سنة ١٥٥٨م في السنة التاسعة والخمسين من عمره.

تأملات في الصفحات الأخيرة لشارل

لسنا في حاجة لأن نسترسل في الكلام عن أيام الإمبراطور التي قضاها في الدير، والتي كان يصرف غالبيتها في تسليات بسيطة روتينية كلما سمح له داء النقرس. وقد كانت إحدى هذه التسليات عمل حفل تمثيلي لجنازته قبل وفاته، فأمر ببناء ضريحه في الكنيسة، وبدأوا التمثيلية بأن وضعه الرهبان في النعش بخشوع عظيم، والتفوا حوله ينوحون ويبكون، ثم ساروا إلى الكنيسة في موكب جنائزي خطير وفي أيديهم الشموع السوداء، وهناك أقيمت خدمة الموتى وأنشدت الأناشيد الجنائزية، ورش النعش بالماء المقدس ثم انسحب المودعون وأغلقت الأبواب. وبعد ذلك قام شارل من نعشه وعاد إلى حجرته وهو يترنح بفعل تلك الإحساسات المخيفة التي لا شك تحدثها مثل هذه المهزلة السخيفة. والغريب أنه مات بعد هذه الحادثة بقليل.

أي نعم مات!! مات عن مجده الغابر وذله الحاضر، مات عن أطماعه وآماله، كما مات عن بؤسه ويأسه! مات عن كل مشروعاته وسياسته. أي نعم، ذلك الذي ضحى بمئات الآلاف من النفوس البشرية، وأنفق الملايين من الأموال في سبيل سحق البروتستانتية، مات في صومعة ضيقة من صوامع الرهبان، بينما كانت البروتستانتية تملأ العالم على رحبه ويغمر نورها ومجدها آفاق الفكر البشري الفسيح. وهنا نترك الإمبراطور العظيم، بل ربما أعظم إمبراطور جلس على عرش في هذا العالم من حيث اتساع النفوذ والأملاك، نتركه أمام محكمة العدل الإلهي، حيث توزن البواعث والنيات كما توزن الأعمال، وحيث لا بد من محاكمة جميع الأشرار بقانون الله الكامل العادل.

ولكن مما يؤسف له أننا نبحث عبثًا عن أي شيء أو أثر يدل على التوبة عند هذا العدو اللدود للمصلحين، بل هناك داخل جدران دير سان جوست بدلاً من التوبة والندم على تصرفاته القاسية ضدهم نراه يأسف لشيء واحد، وهو عدم معاملتهم بقسوة أشد. وعندما وصلته الأخبار أن اللوثرية آخذة في الانتشار في أسبانيا، وأن بعضًا من الأشخاص قد قُبض عليهم لأنه كان يُظن أن العدوى وصلت إليهم، كتب في الحال رسائل إلى ابنته بوصفها حاكمة أسبانيا وإلى خوان دي فيجا رئيس مجلس كاستيل، وإلى رئيس محكمة التفتيش العام، يحضهم جميعًا على استخدام كل قوتهم للقبض على كل الجماعة وحرقهم جميعًا، بعد بذل كل الجهد لجعلهم مسيحيين قبل موتهم. ذلك لأنه كان يعتقد اعتقادًا راسخًا أن واحدًا منهم لن يمكن أن يصبح كاثوليكيًا مخلصًا، وأن مقدرتهم على الجدل والمناقشة وإقامة الحجة وتثبيت الرأي لا تُبارى. ثم بعد ذلك يقول "إنكم إذا لم تهلكوهم بالنار فسترتكبون غلطة أفظع من غلطتي في السماح للوثر بأن يعيش. إني وإن كنت لم أقتله بسبب التعهد الذي قطعته على نفسي من جهة سلامته ليس إلا، إلا أني مع ذلك اعترف بأني ارتكبت غلطة كبرى في ذلك، لأني لم أكن ملزمًا أن أحافظ على وعدي لهرطقي. ولكن قد ترتب على عدم نزع حياته من الأرض أن استمرت الهرطقة تنمو وتنتشر بينما موته، كما أعتقد، كان كفيلاً بالقضاء عليها في مهدها"[٨٢].

هنا نرى قلب شارل على حقيقته، فلم يكن هناك بعد أي سبب للمكر أو الرياء، ولا داع لتصنع التسامح إزاء البروتستانت، فقد انتهى من حروبه وسياسته ولم يعد بعد في حاجة للرياء والمخاتلة. ولذلك بدت الروح البابوية على حقيقتها وانقشع عنها الستار الذي كان يسترها. وسبب الحزن الوحيد في شيخوخته كان أنه لم يقض على فريسته في شبابه. وكأنه كان يعض على بنانه ويصر بأسنانه بغضب وغيظ كلما تذكر لوثر، ويكتئب كمدًا لأنه لم يحنث

بوعده له. ولكن الرب - له المجد - كان ساهرًا على حياة لوثر وعلى حركة الإصلاح الناشئة، فحفظ يد شارل مشغولة ومشلولة أكثر من ثلاثين سنة لم يستطع خلالها شن الغارة على اللوثريين. ولكن البعض يظنون أن هذا كان دائمًا أبدًا أمامه: القضاء النهائي على الهرطقة كغرض حياته الوحيد ومطمع حكمه الأكبر.

ولكن في هذا النزاع بالذات ومن جراء هذا المطمح الذي رصد عليه كل موارده ومجهوداته، أضاع وفقد كل شيء، أملاكه وعرشه وتاجه وعظمته، والواقع أنه في تاريخ الملوك قاطبة لم تظهر يد الله واضحة وجلية ظهورها في شئون هذا الإمبراطور. ففي لحظة واحدة، وبضربة واحدة، تغير كل شيء "فقد انهارت قوته في اللحظة التي وصلت فيها إلى الذروة بحسب الظاهر. ولم يسبق سقوطه العظيم أية علامة من العلامات التي تسبق عادة مثل هذا الانهيار الهائل، فظلت مكانته الرفيعة شامخة برأسها إلى آخر لحظة. ولم يُغلب أو يُقهر في ميدان القتال، ولم يلحق مجده الحربي أي كسوف أو خسوف، ولم تنسلخ عنه مملكة واحدة من ممالكه"(٢/٧٨). ومن بين جميع الرجال العظام الذين عاصروه وبدأوا معه أمثال فرنسيس الأول وهنري الثامن وليو العاشر ومارتن لوثر لم يبق إلا هو، إذ عاش بعدهم جميعًا. لقد توارى من الميدان جميع منافسيه، ولم يبق واحد منهم ينازعه سلطانه وسيطرته على الميدان، بل بقي وحده سيد الموقف بلا منافس أو منازع، ولكن يد الرب كانت قد ارتفعت بالمجازاة العادلة ضد مضطهد شعبه. ومن يستطيع أن يحميه أو يقيه؟ فقد انتهى الأمر وارتفعت الأصابع تكتب على حوائط قصره «منا منا.. أحصى الله ملكوتك وأنهاه» (دا ٥: ٢٥، ٢٦)، وفي الحال لم تستطع أبواب سلطته النحاسية أن تقيه، فراح يهرب ويسقط أمام قوة قد أوجدها هو بنفسه بسياسته المخاتلة المخادعة. فالقضيب الذي كان قد أعده لتأديب ألمانيا وتحطيمها، قد استخدمه الله للقضاء عليه وهدم سلطانه هدمًا كاملاً. حقًا ما أروع سياسة الله ونعمته، وما أكبره من برهان على أن هذه السياسة الغالبة هي شيء حقيقي موجود فعلاً في هذا العالم. إن يد الله الغالبة تدير دفة السياسة العالمية، وتحرك قلوب أعظم وأقوى الملوك، وتعتني بأحقر وأصغر شيء في خليقته. هذه حقيقة يعرفها الإيمان جيدًا، وفيها يجد راحته وتعزيته الكاملة «لأن عيني الرب على الأبرار وأذنيه إلى طلبتهم. ولكن وجه الرب ضد فاعلي الشر» (١بط٣: ١٢).

نكبات البروتستانت

الدرس الآخر الذي تطالعنا به هذه الصفحات بصورة بارزة هو أن الله إله غيور ولا يعطي مجده لآخر. إنه ينفذ أعماله بوسائله الخاصة وبالطريقة التي يريدها. وليست هناك نكبة كان يمكن أن تُصاب بها حركة الإصلاح أفظع من أن يترك أعوانها مركز الإيمان الأقدس، وينحطوا إلى مستوى العالم الذي قوامه السياسة والسلاح. ولو أن حركة الإصلاح نجحت بهذه الوسائل لفقدت صفتها الحقيقية أو هلكت في مهدها ومكان ميلادها، ولأصبح المصلحون مجرد حزب سياسي. ولكن الله لم يرض بذلك ولم تكن هذه مشيئته، ولذلك سمح أن تصيبهم الهزيمة الشنيعة والخيبة المريعة، وتلاحقهم الخسائر وعوامل التجريد، إلى أن يصبحوا بلا حول ولا قوة، فيلقون بأنفسهم عليه ويتكلون على قوة ذراعه دون سواه. فلم يبق لهم حلف أو سلام أو مال، ولا قصور أو حصون أو أي شيء من وسائل الدفاع، وبذلك أعادهم الله إلى مبادئهم الأولى، الإيمان بكلمة الله، والاستشهاد، تلك المبادئ الإلهية التي لا تُقهر، وهذه الأسلحة القادرة على هدم حصون، التي كانت قد ماتت لديهم بموت زعيمهم العظيم وتوارت ودفنت معه في قبره، ولم يكن إلا الضيق العظيم والتذلل ليقود أتباعه إلى إدراك غلطتهم، وقد كان.

فلم يكادوا يشعرون أن ليس لديهم من وسيلة للدفاع إلا كلمة الله والضمير الصالح أمامه حتى جاءهم الإنقاذ والخلاص. لقد قال الرب «لا تستقر عصا الأشرار على نصيب الصديقين» (مز ١٢٥: ٣). هذا هو صلاح الرب وهذه هي طيبة ورحمة إلهنا، لا يحوِّل عينيه عن الأبرار. ولكن من أخطر الأمور في كل جيل وزمان أن نترك مبادئ كلمة الله، ونسير في طرقنا طبقًا لنظريات ومبادئ هذا العالم وسياسته، وهذا الحق ينطبق على كافة شئون الحياة. ولكن في الأمر الذي أمامنا نجد كلمة الله واضحة جلية كما يقول الرسول «إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية، بل قادرة بالله على هدم حصون». نعم! قادرة بالله. وكما يقول الرب المبارك نفسه «كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (٢كو ١٠: ٤، مت٢٦: ٥٢).

والآن قد تثبتت حركة الإصلاح في ألمانيا وتأيدت نهائيًا بما

في ذلك الكنائس اللوثرية. غير أن الكنائس المصلحة التي تضم أتباع زونجلي وكلفن لم تُدرج بمعاهدتي باسو وأوجسبرج، وبذلك ظلت محرومة من التمتع بامتيازات هاتين المعاهدتين، وغير معترف بها قانونًا، إلى أن تم صلح وستفاليا بعد ذلك بقرن تقريبًا. هذه المعاهدة الشهيرة أيدت معاهدة باسو، وأعلنت استقلال سويسرا لأول مرة، كما أن مبدأ "التوازن الدولي" الذي يقضي بحماية الدول الضعيفة حماية فعالة، ويمنع الدول القوية من استخدام مشروعات الهجوم والاعتداء التي طالما التجأت إليها لتحقيق أطماعها، كان من بين الأمور الهامة التي تناولتها مفاوضات ومداولات وستفاليا (٦/٦٦)(٢/٧٨).

قيام اليسوعيين

قبل أن نودع عهد شارل الخامس نهائيًا، يجدر بنا أن نذكر أن أمرين عظيمين مشهورين حدثا خلال ذلك العهد، وكان لهما علاقة وثيقة بحركة الإصلاح وبالكفاح الديني العظيم، الذي كان يشغل بال كافة الطبقات الاجتماعية في ذلك الوقت، هما مجمع ترنت وقيام جماعة اليسوعيين (الجزويت). وقد سبق أن ذكرنا شيئًا عن الأمر الأول، والآن نشير بإيجاز إلى الأمر الثاني.

من السهل أن ندرك أن أعداء حركة الإصلاح قد وصلوا الآن إلى آخر ما عندهم، ولم يبق أمامهم إلا أن يلقوا بآخر سهم في جعبتهم. فماذا يصنعون؟ إن السلاح الذي كان يتطلعون إليه منذ ثلاثين سنة كالوسيلة الأكيدة لسحق حركة الإصلاح لم يفشل فقط، بل ولم يعد صالحًا كمجرد وسيلة للمقاومة، بينما كانت حركة الإصلاح تسير بخطوات واسعة في مد نفوذها ومضاعفة عدد أتباعها. وقد خسر البابا الشيء الكثير من كرامته ونفوذه وموارده، كما تلاشت القوة الإمبراطورية، ولم يعد ممكنا اللجوء إليها والاستعانة بها. والرهبان بعديد ألوان ثيابهم من أسود وأبيض ورمادي صاروا مشتتين وبادت أديرتهم. فماذا يُفعل بعد ذلك؟ هذا هو السؤال الخطير والمعضلة الرهيبة لقلب إيزابل الشريرة ومشيريها، فرجال السلاح فشلوا، ولذلك وجب أن يكون السلام وقوة الإقناع عماد مناوراتها من الآن. هذا ما اقترحته وأشارت به روح الزعامة. يجب إقامة جيش يرتدي رجاله الزي الكهنوتي، ويكون شعارهم الفقر والعفة والعناية بالمسيحيين وتجديد الكافرين، وتكون مأموريتهم السلام والوصول إلى غرضهم بقوة الإقناع، وبهذه المظاهر يجب القيام فورًا بحملة ضد الإصلاح. وقد صودق في الحال على هذا الاقتراح بالإجماع، وإنه لاقتراح خبيث حقًا يدل أصرح دلالة على مصدره، ويحمل في طياته أوضح برهان على أنه من أسفل، من أعماق الشيطان. بل لم يظهر في الوجود اقتراح تم تنفيذه بطريقة شيطانية أكثر من هذا الاقتراح كما يدل على ذلك تاريخ اليسوعيين، حتى لكأنه يظهر أن كل ينابيع الشعور الإنساني من عطف أو شفقة أو رحمة قد نضبت وجفت في كل عضو من أعضاء هذه الجماعة، وتملكتهم بدلاً عنها ينابيع جهنمية شيطانية من تعصب وقسوة لا مثيل لهما في التاريخ.

إغناطيوس لويولا

جماعة اليسوعيين هي هيئة دينية تابعة لكنيسة روما، أنشأها إغناطيوس لويولا، ابن أحد الأشراف الأسبان. ولد إغناطيوس في سنة ١٤٩١م في مقاطعة بسكاي. وفي شبابه التحق ببلاط فرديناند وإيزابلا، ولكنه ملّ عيشة الترف والفخفخة، واشتاق أن ينخرط في سلك الجندية ويحارب حروب بلاده. وفي سنة ١٥٢١م نجده يدافع عن بامبلونا ضد الفرنسيين بشجاعة الشباب الجريئة، ولكنه أصيب في ساقيه ومرض بالحمى، وأصبح معيد مجد البابوية العتيد قاب قوسين أو أدنى من القبر قبل الأوان.

ولما كان بطبيعته حماسيًا خياليًا وميالاً للمغامرات، التهم أثناء مرضه الطويل روايات الفروسية الأسبانية، التي تقوم فصولها وموضوعاتها على حوادث الحروب والمنازعات بين قومه وأهل مراكش. وبعد أن انتهى منها كلها أخذ في مطالعة سلسلة أخرى من الروايات حوادثها أروع وأعجب، وهي قصص القديسين. وقد درس بشغف هذه الكتب التي تفيض بحوادث التكريس والتقديس العجيبة المدهشة، وصمم في نفسه على أن يمثّل في حياته فضائل بندكت أو دومينيك أو فرنسيس. وعلى ذلك لم يكد يغادر سرير المرض حتى اعتكف في دير بندكتي بالقرب من برشلونه، وهناك صرف الليل بأكمله عند ضريح العذراء مريم المشهور، وعلق رمحه وترسه أمام صورة للعذراء، وأقسم ليطيعن الله وكنيسته إلى النهاية. وبذلك استبدل الفروسية السياسية بفروسية دينية.

وبعد ذلك أراد أن يكرس نفسه "لسيدتنا" فذهب إلى مدينة قريبة

تسمى مانريسا. ونحن نعلم أن القداسة في نظر أمثال هؤلاء الناس ليست في التشبه الأدبي بالرب يسوع، بل بتعذيب الجسد. فلبس على جلده مباشرة ثوبًا غريبًا، يتكون على التوالي من سلسلة حديدية، ثم طبقة من شعر الخيل ثم زنار من الشوك، وكان كل يوم يجلد ظهره العاري بالسوط ثلاث مرات.

هذا لم يكن ليميت أعمال الجسد، بل بالأسف ليميت الجسد المسكين نفسه. هذه هي قوة الشيطان التي بها يعمى الناس، وهذه هي الظلمة التي يصل بها إلى أغراضه. وبعد أن ذهب ماشيًا وحافي القدمين لزيارة روما والقدس والأماكن الأخرى التي قدسها تاريخ المخلص، رجع إلى باريس حيث تقابل مع فرنسيس خافيير الذي صار فيما بعد رسول الهند العظيم. ثم التف حولهما بعض الأفراد الغيورين أمثالهما، فصاروا حوالي ثمانية أو تسعة وكانوا هم نواة جمعية يسوع أو اليسوعيين.

نشأة اليسوعيين

في ١٥ أغسطس من عام ١٥٣٤م، وهو يوم عيد صعود العذراء مريم، وفي كنيسة تحت الأرض في مونتمارتر، وبعد تناول الأسرار المقدسة، أقسموا جميعًا يمين الولاء للهيئة الجديدة، وتعهدوا بالتزام الفقر والعفة. ثم أقسموا بعد ذلك يمينًا خطيرًا بتكريس أنفسهم لتجديد الفاطميين في بيت المقدس، وللعناية بالمسيحيين، ووضع أنفسهم وخدماتهم بلا تحفظ عند أقدام البابا. وهكذا كان هذا الجيش صغيرًا كبيرًا! صغيرًا إذا عُد، كبيرًا إذا وُزن. ولكي يضمن لويولا نمو هذا المارد الوليد، كان قد أعد مقدمًا كتابه المسمى "التدريبات الروحية" وهو عبارة عن مجموعة قواعد تعلم الناس كيف يباشرون أعمال تجديد أنفسهم، وتتلخص هذه القواعد في أربعة تأملات كبرى، على التائب المنعزل أن يحصر فكره انحصارًا كليًا في كل واحدة منها بالتتابع في فترة شروق وغروب الشمس سبعة أيام. ويزعمون أن هذا الكتاب هو إعلان أو وحي. ففي ذلك يقول أحد اليسوعيين "إن كتاب التدريبات هو بحق مكتوب بإصبع الله، وقد نقلته إلى لويولا والدة الإله المقدسة"[٢٧٨].

وبعد شيء من التردد وافق البابا بولس الثالث على مشروع لويولا ورفقائه، وأصدر مرسومًا سنة ١٥٤٠م بإنشاء الهيئة تحت اسم "جمعية يسوع". وفي أبريل من العام التالي عُيِّن إغناطيوس "رئيسًا أعلى" تحت إشراف البابا مباشرة، وبذلك صار للهيئة صفة رسمية، يلبس أعضاؤها لباسًا أسود كرجال الإكليروس العلمانيين. ومن حيث أنهم لم يكونوا منعزلين في أديرة، كان في استطاعتهم أن يختلطوا بجميع الأوساط والطبقات. وسرعان ما وصلوا إلى بلاط الملوك وكراسي الاعتراف والمنابر، والإشراف على إدارة معاهد التربية والتعليم، وبذلك اكتسبوا محبة وتعضيد الشباب. وهكذا التف حول الراية الجديدة جماهير من الأتباع المتحمسين في كل الممالك ومن مختلف الطبقات.

غرض اليسوعيين الحقيقي

لقد اطلعنا للآن على وقائع لا نتبين منها صفة اليسوعيين الحقيقية، فلم نذكر لهم سوى عهود والتزامات غرضها الخداع، ولكننا إذا تتبعنا تاريخهم لعثرنا في كل أرض وفي كل بقعة على آثار الدماء التي تلطخت بها أقدام أتباع ليولا الخائنين القساة، فقد انتشروا في كل العالم ينفذون سرًا مراسيم الفاتيكان ورغباته الخاصة، وغرضهم الأكبر أن ينشروا سلطان البابا، ومبدؤهم الرئيسي الأكبر أن يدينوا له بالطاعة الكاملة العمياء في شخص رئيسهم الأعلى المقيم بروما. ولا شك أن نظام رابطتهم أوسع وأعم نظام في الوجود، حتى لقد قيل "إن مملكة اليسوعيين تغطي وجه الكرة الأرضية". ففي كل بقعة من بقاع العالم لهم أساقفة عموميون يتخاطبون مع الجنرال الأعلى بروما، حتى أنه عن طريق كرسي الاعتراف يستطيع هذا أن يرى ويعرف كل شيء يُعمل أو يقال، ليس فقط في كنيسة روما، بل في البيوت وبين العائلات وفي كل أنحاء المسكونة، فما من مكان ببعيد على اليسوعي، وما من صعوبات أو أخطار تقف في طريقه، وما من وسيلة يحجم عن استخدامها واللجوء إليها مهما كانت دنيئة، ما دام يلمح من ورائها أقل رجاء في توسيع سلطان البابوية.

فمؤامرة البارود الشهيرة، التي كان المقصود بها إبادة عظماء وأشراف إنجلترا بضربة واحدة، يُعزى تدبيرها إلى النفوذ اليسوعي، وهكذا المؤامرات الأخرى الكثيرة التي كان الغرض منها قتل الملكة اليزابيث. كذلك الحملة البحرية الجبارة التي وجهتها أسبانيا إلى إنجلترا بأسطول "الأرمادا" الشهير، والتي كان المقصود منها

القضاء علي هذه المملكة نهائيًا، ثم مذبحة سان بارثلميو الهائلة، إن لم نقل شيئًا عن المؤامرات الأخرى الكثيرة وحوادث التعذيب والاغتيالات والمذابح الصغرى، كل هذه الأهوال مرجعها سياسة اليسوعيين والبذرة التي بذروها. وقد وصل جبروتهم وطغيانهم وفسادهم إلى حد أن حكومات كثيرة وجدت من اللازم أن تحل هيئتهم. فيخبرنا التاريخ الحديث أنهم نُفوا من البرتغال سنة ١٧٥٩م ومن فرنسا سنة ١٧٦٤م ومن أسبانيا وأمريكا اللاتينية سنة ١٧٦٧م ومن جزيرتي سيشل سنة ١٧٦٨م. وفي سنة ١٧٧٣م ألغاهم البابا جانجانللي كليمنت الرابع عشر، ولكنه لم يكد يوقع على قرار نفيهم حتى وقع هو فريسة لانتقامهم، فمات مسمومًا. وفي سنة ١٨٠١م أعادهم البابا بيوس السابع وفي سنة ١٨٠٦م طردوا من صقلية، ولكننا لسنا في حاجة أن نقول إنهم سرعان ما وجدوا الطريق والوسائل للعودة. وقد أيد البابا بيوس التاسع إعادة الهيئة، حتى أنهم الآن يشغلون مركزًا هامًا وخطيرًا في روما، فلهم السيادة والإشراف على أغلب كليات التعليم في المدينة وأماكن أخرى كثيرة، مجرد ذكر أسمائها يملأ صفحة كاملة(٢/٧٨)،(٣٨)،(٦/٦٦)،(٨٣).

وهكذا استعادت السلطة البابوية قوتها وعظمتها، بعد أن كانت قد ضعفت واضمحلت، وكأن جرحها المميت قد شفي. فبسبب حركة الإصلاح طرحت أغنى وأقوى ممالك أوربا نير ولائها للبابا، وكان ذلك ضربة قاضية على عظمته وسلطانه، فتقلصت ممتلكاته وتضاءل نفوذه ونضبت موارده. بل الأكثر من ذلك أن شارل الخامس كما هو معروف جيدًا كان يفكر تفكيرًا جديًا في إضعاف – إن لم يكن في هدم – سيادة البابوية. ذلك كان مركز البابوية المنحط الوشيك الزوال عندما برز جيش اليسوعيين لمعونتها والأخذ بيدها، الأمر الذي يمكن أن نجد فيها ظلاً لرؤيا٣: ١٣، ولو أنه ليس التتميم الكامل لهذه النبوات الخطيرة بحال من الأحوال.

• • •

والآن نعود إلى تاريخنا العام لنلقي نظرة عاجلة على تقدم الإصلاح في الممالك المختلفة.

الفصل الثامن والأربعون

تأثير حركة الإصلاح في ألمانيا على ممالك أوربا

إن مركز الإمبراطورية الألمانية التي اختارتها العناية الإلهية لتكون ميدانًا لبزوغ فجر حركة الإصلاح وإشراق مجدها الرائع كان له أحسن الأثر، كما كانت ألمانيا أصلح مملكة للتأثير بثوراتها على حالة أوربا العامة. فألمانيا كما نعلم كانت في ذلك الوقت حلقة الوصل وطريق التجارة بين آسيا وأوربا، كذلك كانت مشهورة بمؤتمراتها الإمبراطورية التي جذبت إليها أشراف ورؤساء الممالك الأخرى من مدنيين ودينيين، كما أنها بتركيبها السياسي الخاص وأمرائها العديدين ومدنها الحرة أعطت لمنازعاتها الداخلية أهمية خاصة في نظر الممالك المحيطة بها. وفي كل هذا نرى حكمة الله حتى في ما يتعلق باختيار المكان، وكيف أن المسيحية كلها كانت تبعًا لذلك تتأثر بسرعة وبطبيعة الحال بنمو وتطور الأفكار الجديدة.

ولكن ليس المكان وحده، بل الزمان والأحوال كانت كلها معينة ومرتبة من الرب لكي يكون لها التأثير المباشر في إحياء الإنجيل وإعلانه. فالرقية السحرية التي امتلكت ناصية البشرية أجيالاً طويلة واستولت عليهم تلاشت لساعتها وإلى الأبد، والرأي العام الذي ظل طوال هذه الأجيال مستسلمًا وكأنه جُبل على تصديق كل ما يُقال له ويخضع لكل ما يُفرض عليه، نهض بغتة باحثًا متسائلاً ثائرًا، وطارحًا عن نفسه بكل احتقار ذلك النير القاسي الذي ظل هكذا طويلاً خاضعًا له في مذلة وخنوع. على أنه لم يكن الفكر البشري وحده الذي ثار بفعل هذا الكفاح الجديد حول العقيدة، بل النظام السياسي نفسه الذي درجت عليه أعظم وأقدم الممالك قد اهتز أيضًا من أساسه(٧٩)(١/٣١).

والآن دعنا نتتبع آثارها في الممالك التي تهمنا أكثر من غيرها.

السويد والدانمارك (١٥٢٠-١٥٣٠م)

عندما كنا نتأمل في عهد لويس التقي ملك فرنسا رأينا الإنجيل يدخل بلاد الدانمارك والسويد في القرن التاسع، فقد ظل المجاهد أنسجاريوس عاملاً وتاعبًا في تلك الأصقاع الشمالية زهاء الأربعين سنة، إلى أن مات سنة ٨٦٥م. وقد تبعه إلى هناك مبشرون آخرون، ولكن الأرجح أن المسيحية لم تثبِّت أقدامها تمامًا في تلك العصور البربرية وفي وسط ظلمة الوثنية التي كانت منتشرة وسائدة في تلك الأصقاع البعيدة إلى أن جاء القرن الثاني عشر ونجحت روما في تكميل العمل، وإضافة الكنائس السويدية إلى كرسي القديس بطرس. وسرعان ما فرض على هذه الكنائس، بحسب سياسة سر الإثم، نظام إكليريكي. وفي الحال امتلأت الأرض برجال الإكليروس من الأسقف الكبير إلى الراهب الفقير، وتلا ذلك كما هو الحال دائمًا انحطاط في التقوى وفقر واضمحلال في الشعب.

وفي فجر الإصلاح لم تكن الخرافات البابوية وتأثيرها على العقول راسخة في أي مكان رسوخها في هاتين المملكتين، فالشعب كان غارقًا في حمأة الفقر ومُداسًا تحت أقدام أسياده الطغاة الظالمين. وبسبب تركهم في حالة الجهل وعدم التعليم بواسطة مرشديهم الروحيين، ولعدم معرفتهم بكلمة الله أو الوصول إليها لأن الكتب المقدسة لم تكن بعد قد تُرجمت إلى اللسان السويدي، بدأ الشعب يعود إلى معتقداته الخرافية وممارساته الوثنية القديمة. وكما كان الحال في جميع الممالك الأخرى ابتلعت روما ثروة هاتين المملكتين، فأصبح الأساقفة يملكون موارد تزيد في أغلب الأحايين عن موارد الأشراف الأقدمين، وفي بعض الأحيان تساوي

أو تزيد عن موارد الملك. وفي معظم الحالات كانوا يعيشون في قصور وقلاع تهزأ بسلطة التاج وتتحداه.

وبمقتضى قانون قديم كانت الممالك الثلاث: السويد والدانمارك والنرويج مملكة متحدة تحت ملك واحد مثل إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا. وكان الطاغية القاسي كريستيرن الثاني، نسيب شارل الخامس، متربعًا على عرش الدانمارك عندما بدأت أفكار لوثر تنتشر في هاتيك الممالك. ولما كان فقيرًا بالمقارنة مع الإكليروس كان ينتظر الفرصة للقضاء على سلطانهم والاستيلاء على ثروتهم. وإذ رأى ببعد نظره أن البروتستانتية قد تجد صدرًا رحبًا تظاهر بتشجيع العقيدة الجديدة، واستدعى رينهارد أحد تلاميذ كارلشتاد وعينه أستاذًا للاهوت في ستوكهولم. ولكن رينهارد مات بعد ذلك بقليل وحل محله كارلشتاد نفسه. ولكنه لسبب مبهم لم يستمر في الدانمارك إلا مدة وجيزة، فدعا كريستيرن لوثر لزيارة ممتلكاته، ولكن المصلح رفض الدعوة. وفي الوقت نفسه، وبسبب ظلمه وطغيانه، رفض أهالي السويد الاعتراف به ملكًا عليهم، ونصّبوا عليهم حاكمًا آخر. فجمع كريستيرن جيشًا هائلاً بعد أن أمده الإكليروس بأموال طائلة، وأغار على السويد وانتصر عليهم، وانتقم منهم بأقصى معاملة من الفظاعة والوحشية، إذ ذبح سبعين شريفًا ذبح الأغنام في أحد الميادين العامة بموافقة أسقف أبسالا كما قيل. وكان من بين الضحايا الأشراف إريك فازا أبو جستاف فازا، وهو من أشهر الشخصيات وأعظمها في تاريخ السويد.

هذا الشاب النبيل هرب من يد كريستيرن القاتلة وفر إلى ألمانيا، وهناك درس مبادئ لوثر واعتنقها، وأخيرًا ترك مخبأه ورفع راية الثورة، حاثًا فلاحي السويد على الاستبسال في إعادة استقلال بلادهم. وبعد جهاد عنيف هزم الطاغية وأسقطه وخلّص وطنه من الظلم، فرفعه الشعب إلى العرش، وبذلك صنع من السويد مملكة مستقلة في سنة ١٥٢٣م. وقد اتبعت الدانمارك مثال السويد، فجاهرت بالثورة والعصيان وخلعت كريستيرن من على العرش وطردته من البلاد سنة ١٥٢٣م، ففر إلى الأراضي المنخفضة والتحق بحاشية شارل الخامس، وارتقى العرش بدلاً عنه فردريك دوق هولشتين، الذي عضد حركة الإصلاح وحكم بالعدل والمساواة.

ولما استتب العرش لجستاف الملك الوطني الحقيقي بذل قصارى جهده في استخدام كل طريقة مشروعة وشريفة لتثبيت اللوثرية في مقاطعاته. وكان شعاره "التعليم لا السلطة" لتجديد رعاياه، وكان أولاوس بتري وأخوه لورنثيوس هما أول من نادوا بالإصلاح في بلاد السويد، وقد قاما أيضًا بعمل جليل، وهو ترجمة الكتاب المقدس إلى لغة البلاد. وفي اجتماع للجمعية التشريعية في عام ١٥٢٧م أعلن جستاف جهارًا أنه يفضل أن يلقي بصولجانه ويتخلى عن عرشه عن أن يملك على قوم مستعبدين لسلطان البابا وأوامره، ويخضعون لمظالم الأساقفة أكثر من خضوعهم لقوانين حكامهم. وقد نفذت إرادة الملك، وضعف سلطان الإكليروس وقلت ثروتهم التي لم يكن يستطيع أن يتصور مقدارها أي إنسان في هذه الأيام، فقد امتلك الإكليروس الروماني بنفوذهم غير المقدس أكثر من ثلاث عشرة ألف عزبة تمتعوا بإيرادها وذلك في أقل من مائة سنة. ولكن كان العنصر البروتستانتي راجح الكفة في الجمعية التشريعية، حتى أنها أصدرت قرارها الذي نص على أن "كل القصور والقلاع والمزارع والأراضي التي امتلكتها الكنيسة تسحب منها، ويرد ما اغتصب منها من الأشراف إلى أحفادهم، وتضم بقيتها إلى أملاك الدولة". وقد خضع الأساقفة ووقعوا على هذا القرار، وبذلك توطدت دعائم الإصلاح في بلاد السويد.

وكان العمل في الدانمارك مشابهًا كل المشابهة للعمل في السويد، فقد أصدر فردريك مرسومًا بموافقة الجمعية التشريعية المنعقدة عام ١٥٢٧م ينص على أن كل فرد من رعايا الدانمارك له تمام الحرية في اعتناق تعاليم الإصلاح أو الالتصاق بكنيسة روما. وكان هذا كافيًا لتفوق المبادئ الجديدة، إذ قدم المبشرون من وتمبرج زرافات زرافات، وتم ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الدانماركية، وأدخل الترنيم في العبادة الجهارية والسرية على السواء، وتقدم الإصلاح وسط نغمات التسبيح الشجية الجديدة. وليس من السهل أن نصف بالتفصيل التغيير الذي حدث الآن في الدانمارك، فقد أشرق نور هادئ مبارك على جميع أرجاء المملكة، فلم يستطع الدانمركيون أن يقرأوا الكتاب المقدس العهد الجديد بلغتهم فقط، وأن يرنموا المزامير في كنائسهم وفي حقولهم وحتى في طرقاتهم العامة، بل كان بينهم أيضًا شراح عديدون للكلمة المقدسة، ومبشرون بالإنجيل فتحوا لهم ينابيع الخلاص *.

* لمزيد من التفاصيل عن تقدم حركة الإصلاح في السويد والدانمارك والنرويج وأيسلندا يمكن الرجوع إلى "تاريخ البروتستانتية" لكاتبه ج. أ. ويلي(٧٨).

إيطاليا

لم تدخل مبادئ الإصلاح إلى بلاد خارج ألمانيا في وقت مبكر مثل دخولها إلى المقاطعات الإيطالية. وفي هذا نرى يد الرب وحبل نعمته الفضي، فلقد كان له شعب هناك ولا بد من الإتيان بهم إلى المسيح. وقد آمن كثيرون وشهدوا بنبل لحق الإنجيل كما يشهد تاريخ استشهادهم الحافل. ولكن إيزابل التي تحب الظلمة لم تطق النور، وسرعان ما أطفأته بواسطة إجراءات محاكمها الظالمة.

ولم يكن المقام البابوي قليل الاحترام عند قوم أكثر مما كان عند الإيطاليين أنفسهم. فقد كان سلطان البابا عظيمًا وأوامره مطاعة ومهابة في البلاد النائية عن كرسي حكمه. أما الإيطاليون فقد وقعت تحت حسهم وبصرهم رذائل الباباوات الشخصية ومفاسد إدارتهم، والجشع والترف والخداع الذي كان يسود في ساحاتهم. وقد لاحظوا أن الغرض الرئيسي أمام كل واحد من الباباوات المتعاقبين هو أن ينمي ثروته بواسطة الأسرار المقدسة، وبذلك يترك لأقربائه ثروة غير محدودة، تشمل أحيانًا مقاطعات وممالك. من ثم كان الإيطاليون المفكرون وهم يشاهدون بأعينهم الحيل التي تستخدمها البابوية، على استعداد لأن يرحبوا بشيء أفضل يأتي إليهم.

قال الدكتور ماك كري[٨٤] "إن الجدل الحاد الذي دام عدة سنوات في ألمانيا، وانتهى أخيرًا إلى المحكمة البابوية لتفصل فيه، قد وجه أنظار الإيطاليين بدرجة كبيرة إلى تعاليم الإصلاح في وقت مبكر". ويتلخص هذا الجدل في أن يهوديًا مرتدًا اعتنق المسيحية وصار مسيحيًا بالاسم، استطاع بالاتفاق مع أحد أعضاء محكمة التفتيش في كولونيا أن يحصل من البلاط الملكي على مرسوم بحرق جميع الكتب اليهودية ما عدا الكتاب المقدس، باعتبارها مملوءة بالتجاديف ضد المسيح. وقد سعى جون روشلان الذي استرجع الثقافة اليهودية بين المسيحيين بكل جهده، بالكلام وبنشر المقالات، إلى منع تنفيذ هذا المرسوم الهمجي، ولكن مع الأسف الشديد كان رجال الإكليروس في جانب المرتد، وحكموا على روشلان في مجمع كولونيا وفي السوربون بباريس، ولكنه استأنف الحكم إلى روما. وأيد روشلان إرازمس وآخرون من أصدقائه المثقفين البارزين في كل أنحاء أوربا، وعزموا على أن يجعلوا قضيته قضية عامة. وفي الوقت نفسه حاول الرهبان الذين كانوا يبغضون إرازمس مع رجال الإكليروس وكل رجال العلم أن يحصلوا على الموافقة على تنفيذ المرسوم، ولكن محكمة روما أجلت القضية مرة تلو المرة، إلى أن قامت المجادلة الكبرى بين لوثر وبائعي صكوك الغفران ورُفعت إلى روما للفصل فيها، فتوارت القضية الأولى عن الأنظار.

كتابات لوثر

بهذه الطريقة العجيبة التي تظهر فيها يد العناية الإلهية وُجهت أنظار الإيطاليين إلى الألمان وإلى المصلح العظيم نفسه، الذي اشترك مع روشلان "ففي مدى سنتين من تاريخ حملة لوثر ضد صكوك الغفران وجدت كتاباته سبيلها إلى إيطاليا، حيث رحب بها المتعلمون هناك. وقد كتب جون فروبن صاحب المطبعة الشهير في بازل إلى لوثر حوالي ذلك الوقت يقول: "لقد قدم إليَّ بلاسيوس سالمونيوس بائع الكتب المعروف في ليبزج في سوق فرانكفورت الأخير بعض الرسائل من تأليفك والتي أقرها العلماء، فبادرت بطبعها وأرسلت ستمائة نسخة منها إلى فرنسا وأسبانيا، وقد أكد لي أصدقائي هناك أنها بيعت في باريس وقد قرأها الكثيرون، ووافق عليها بعض رجال السوربون أنفسهم، كما حمل إلى إيطاليا قسمًا كبيرًا من هذه المؤلفات عالم اسمه كالفوس كان يبيع الكتب في بافيا". وبالرغم من الخوف من المراسيم البابوية ومن إجراءات الملاحظين لتنفيذها، استمرت كتابات لوثر وملانكتون وزونجلي وبوشر تُوزع وتُقرأ بشغف ولذة في كثير من أنحاء إيطاليا، وقد ترجم بعضها إلى اللغة الإيطالية ووزع بأسماء مستعارة تجنبًا لشر المفتشين. وقد كتب راهب كرملي من لوكارنو إلى المسيحيين في سويسرا يقول "أيها الأمناء في المسيح تفكروا في لعازر المذكور في الأناجيل، وفي المرأة الكنعانية المتضعة التي طلبت أن تشبع من الفتات الساقط من مائدة الرب. وكما ذهب داود إلى الكاهن في ثياب حقيرة بلا سلاح، هكذا أطير إليكم طالبًا خبز الوجوه وسلاح الأقداس. وبنفس ظمأى أطلب ينبوع المياه الحية، وكالرجل الأعمى الذي كان جالسًا بجانب الطريق أصرخ إلى ذاك الذي يعطي البصر. نحن الجالسون هنا في الظلام نتوسل بانكسار ودموع وتنهدات اليكم أنتم المتصلون بمؤلفي كتب المعرفة أن ترسلوا إلينا من كتابات أولئك المعلمين المنتخبين الذين عندكم، وبالأخص كتابات زونجلي

اللاهوتي، ولوثر الذائع الصيت، وملانكتون المدقق، وأكولامبديوس المحقق. وسندفع لكم الثمن عن طريق فخامة وردميلر. ألا تشتاقون أن مدينة لومباردية مستعبدة لبابل وغريبة عن إنجيل المسيح تتحرر بأكملها؟"(٨٤).

هذه المقتطفات - ويمكننا إيراد كثير غيرها - ترينا بوضوح كيف دخل الإنجيل بسعة إلى إيطاليا في عهد مبكر من تاريخ الإصلاح. ولأكثر من عشرين سنة سُمح لأتباع لوثر وزونجلي أن ينشروا الحق وأن يبشروا جهارًا ويشهدوا للمسيح بغير مقاومة تُذكر. على أن الحروب التي كانت لنا فرصة الإشارة إليها في تتبعنا لتاريخ الإصلاح في ألمانيا قد أثرت تأثيرًا كبيرًا على إيطاليا، فلما كان البلاط البابوي مشغولاً بالسياسة الأجنبية ومنهمكًا في النزاع القائم بين تشارلس وفرنسيس لم يُعر اهتمامًا كبيرًا لما صُوِّر له عن تقدم الهرطقة. ولكن هذه الحروب، التي كانت وبالاً على البابا وعلى تراث بطرس الرسول(!) كانت سبب بركة لا تُقدَّر لآلاف من النفوس الثمينة، فآلاف من الجنود الألمان الذين رافقوا شارل الخامس في حملته الإيطالية، والمساعدون السويسريون الذين لازموا منافسه العنيد فرنسيس الأول كانوا بروتستانت. قال الدكتور ماك كري "كان أولئك الأجانب يتناقشون مع الأهالي الذين يعسكرون بينهم في أمر النزاع الديني بحرية رجال سيوفهم في أيديهم".

وكان تأثير هذه الآراء الحديثة في عقول الناس يزداد قوة بسبب التنافس المرّ المستمر بين البابا والإمبراطور. وقد رأينا شارل في مواقف كثيرة مرات كمحرِّض للبابا، ومرات كمقيد لسلطته، حسب تقلبات النزاع القائم بينه وبين فرنسيس الأول. ولكن خداع كليمنت السابع قد أثاره إلى حد الجنون، فنراه يتهم البابا بأنه هو الذي أشعل نار الحرب في أوروبا حتى يتجنب تلبية النداء العام الذي يطالب بعقد مجمع عام لإصلاح الكنيسة من رئيسها إلى أعضائها. وقد هدده في ذلك الوقت بإزالة سلطان البابا في أسبانيا، ولم يكتف بهذه التهديدات بل أرسل جيشًا إلى ممتلكات البابا تحت قيادة الجنرال دوق بوربون، فحاصروا روما وسلبوها وقبضوا على البابا في سنة ١٥٢٧م. وقد عامل الألمان الذين في جيش الإمبراطور سكان روما معاملة حسنة بعد ما تم في اليوم الأول من سلب ونهب، واكتفوا بإظهار مقتهم للوثنية، ولكن الأسبان لم يخففوا قط من قسوتهم في معاملة الأسرى لكي يحملوهم بكل أنواع التعذيب على الإرشاد إلى كنوزهم، وقد وقفت فرقة كاملة في نوافذ قصر البابا المسجون، ورفعوا جميعًا صوتًا واحدًا هاتفين "فليحيَ البابا لوثر، ليحي البابا لوثر".

وبذلك كان للبابا ومشيريه اضطراباتهم الكثيرة، أما المصلحون فقد تركوا أحرارًا بواسطة عناية الله الصالحة لاستئناف عملهم المبهج من تجديد النفوس وتعليمها.

اضطهاد المسيحيين

ما أن وافت سنة ١٥٤٢م حتى هال دوائر القصر البابوي في روما تقدم تعاليم الإصلاح، إذ انتشرت تلك التعاليم في جميع أرجاء إيطاليا تقريبًا، وقد اعتنق تعاليم الإنجيل البسيطة بعض المبشرين النابهين ذوي التأثير واسع النطاق، وكرزوا للجماهير الغفيرة التي كانت تستمع لهم عن الخلاص المجاني بالإيمان بالرب يسوع المسيح، ومن هؤلاء برناردينو وأوشينو، وبطرس مارتير وهو مشرع لنظام القديس أغسطينوس، وأونيو باليريو من الأساتذة الأتقياء العلماء. وقد بُثت الجواسيس لمراقبة حركاتهم وسماع مواعظهم، بل لإثارة مناقشات معهم بقصد تصيد اتهامات يوجهونها إليهم. وقد رأى أوشينو ومارتير سلامتهما في الهروب، فعبرا جبال الألب وافتتحا مصحة في سويسرا، ثم أخيرًا في إنجلترا، أما باليريو فقد توج حياته بإكليل الاستشهاد في بلاده.

ولما سأله متهموه "ما هي الواسطة الأولى التي أعطاها الله للإنسان للخلاص؟"، أجاب "المسيح". "وما هي الواسطة الثانية؟"، أجاب "المسيح". "الواسطة الثالثة؟"، أجاب "المسيح". وإذ رفض الأعمال الصالحة كواسطة الخلاص الثانية، والكنيسة كالواسطة الثالثة اعتبر من تلك اللحظة مذنبًا. ولكن ما زاد في جرمه تلك الرسالة المؤثرة التي كتبها في موضوع "فائدة موت المسيح" ولما نهض المفتش في النهاية لسحق اللوثريين وجمع كتبهم الهرطقية وقع في يديه نحو أربعين ألف نسخة من هذا الكتاب، وأخيرًا صدر حكم الإدانة على باليريو في أربع تهم، الأولى: إنكاره للمطهر، الثانية: عدم موافقته على دفن الموتى في الكنائس، الثالثة: سخريته من عيشة الرهبنة، الرابعة: إسناده التبرير إلى مجرد الثقة في رحمة الله التي تغفر خطايانا بيسوع المسيح. وبعد أن سُجن ثلاث سنوات في سجون محكمة التفتيش قدموا جسده وقودًا للنيران في سنة ١٥٧٠م وهو في سن السبعين.

انتهت بذلك آلامه ونُسيت حالاً في حضرة ربه السعيدة المباركة، أما ثمار شهادته الأمينة فستبقى إلى الأبد، فمن ذا الذي يستطيع أن يقدر تأثير أربعين ألف نسخة من كتابه في قلوب الإيطاليين ببركة الله. على أن ذلك الثمر لا بد أن يظهر جميعه في ذلك اليوم حين يجد باليريو في الإيطاليين فرحه وإكليل افتخاره ومجده أمام ربنا يسوع المسيح في مجيئه، كما يجد بولس في التسالونيكيين. حقًا إنها لرحمة عظمى أن يدعونا الله في أي ناحية من نواحي الحياة، ولا بد أن يمر الزمن ويأتي الرب، وما أبهج المستقبل الذي ينتظر الأمناء. على أنه كما ستتم مواعيده هكذا لا بد أن ينفذ وعيده، فقد كان دأب روما أن تفسد الأخلاق وأن تمحو ذكر شهدائها الذين تقتلهم، ولكن ذكرهم مسجّل في الأعالي ولا بد أن تظهر بالنور كل أعمال النعمة، ويكون ذلك لفرحهم ولدهشة وحزن وخزي متعقبيهم خزيًا أبديًا. ولا شك أن أولئك المفتشين سيتذكرون، وهم في قرار الجحيم، السعادة الأبدية التي ينعم بها ضحاياهم الأبرياء، وهذه الذكرى ستزيد في نشاط الدود الذي لا ينام وفي سعير اللهيب الذي لا يطفأ.

هذا وإن نخبة من خيرة الرجال الذين لم يكن لهم جريمة سوى محبتهم للرب يسوع وإيمانهم بكلمته عانوا مرارة الاضطهاد والاستشهاد حوالي ذلك الوقت الذي استشهد فيه باليريو، فقد انطلق الجواسيس المأجورون من الفاتيكان وانتشروا في إيطاليا، وراحوا يندسون في كل البيوت ووسط العائلات، وبكل وسيلة وخداع يكسبون ثقة الأفراد، ويبلغون الأخبار التي يحصلون عليها إلى مفتشي محكمة التفتيش. ولما كانوا مرائين مخاتلين، ويزعمون لأنفسهم التبعية لكل طبقة أو هيئة، ويلبسون لكل حالة لبوسها، كنت تراهم يجالسون الغني والفقير والعالم والجاهل بغية الوصول إلى أغراضهم الدنيئة الشريرة، وهكذا استطاعوا أن يقتنصوا في حبائلهم كثيرين من الأفراد الأجلاء النابهين، حتى امتلأت سجون محكمة التفتيش على اتساعها بالضحايا في وقت قصير بما في ذلك أشخاص من أصل شريف، رجال ونساء، وصناع ماهرون وكثيرون وغيرهم من المشهورين بالعلم والتقوى. وصدرت الأحكام على المئات منهم بالجلد والشنق والحرق، حتى أننا لو أردنا أن نعطي للقارئ ولو صورة موجزة لما عاناه هؤلاء الأفراد الأفاضل من سجن وتعذيب واستشهاد لاحتجنا إلى كتابة مجلد كبير.

أما الإنجليز في إيطاليا، كما يقول الدكتور ماك كري "فكانوا مبغَضين بصفة خاصة من أعوان محكمة التفتيش، الذين صبوا غضبهم في بادئ الأمر على الدكتور توماس ولسن الذي صار فيما بعد سكرتيرًا للملكة اليزابيث، واتهموه بالهرطقة وزجوا به في سجون روما بسبب أشياء زعموا أنهم وجدوها في كتبه التي ألفها في علمي المنطق والخطابة، ولكنه هرب من سجنه عندما كُسرت أبواب السجن وفُتحت عنوة أثناء الاضطرابات التي وقعت في روما على أثر وفاة البابا بولس الرابع. وقد كان من بين الذين هربوا بسبب هذا الحادث أيضًا جون كريج أحد مصلحي الإنجليز، الذي عاش حتى كتب العهد الوطني الذي فيه طلقت اسكتلندا الديانة البابوية طلاقًا بائنًا. أما الدكتور توماس رينولدز فكان أتعس حظًا، إذ مات في السجن بسبب ما عاناه من تعذيب. وفي سنة ١٥٩٥م أحرق في روما شخصان أحياء، أحدهما إنجليزي والآخر من سكان سيليزيا". ولكن دعنا لا نسترسل في ذكر هذه التفصيلات التعيسة المقبضة، ويكفي ما أشرنا إليه مجرد إشارات عاجلة، ولنتقدم إلى شيء أبهج، ولنعالجه باختصار أيضًا، وهو موضوع الأشخاص الذين هربوا لحياتهم وحرياتهم، والأعمال الجليلة التي قاموا بها، فإن ذلك سيعطي للقارئ صورة مؤثرة لعمل روح الله القدوس، ذلك العمل العظيم المبارك الذي تم في إيطاليا في القرن السادس عشر. والواقع أنه بين سنتي ١٥٢٠ و ١٥٥٠م لم تنتشر وتسود كلمة الله في مملكة ما في أوروبا مثلما انتشرت وسادت في إيطاليا بلد العمى الخرافي والترف والإباحية. تلك هي رحمة إلهنا، فحيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جدًا، لمدحه ومجده «كل ما يعطيني الآب فإليّ يُقبِل، ومن يُقبِل إليّ لا أخرجه خارجًا» (يو ٦:٣٧).

المنفيون الإيطاليون

لا يمكن أن تُقدم شهادة في جانب حقيقة وقوة ما ندين به من المعتقدات أصدق من الاستعداد لترك وطننا وأهلنا وكل ما هو عزيز لدينا في سبيل الطاعة لكلمة الله وتحت إملاء الضمير. إن مجرد وقوع العين على جمهور من الأجانب رجالاً ونساء يفدون إلى شواطئ إنجلترا كمنفيين كان كافيًا لأن يثير أعمق المشاعر وأطيبها في نفوس من أتوا ليلتجئوا إليهم، كما في نفوس اللاجئين أنفسهم. هكذا كان حال المنفيين الإيطاليين وهكذا كان التأثير الذي طبعوه، ليس على قلوب إخوتهم البروتستانت فحسب، بل على قلوب خصومهم الكاثوليك أيضًا، الذين لم يستطيعوا أن يتصوروا كيف أن رجالاً نبلاء كريمي

المنبت ذوي مكانة رفيعة في العلم والمركز الديني والاجتماعي معًا يستطيعون أن يضحوا بثروتهم ويتخلوا عن ألقابهم وامتيازاتهم، ويهجروا أعز أصدقائهم، بل ويعرضوا أنفسهم للفقر والصعاب وأخطار الهجرة السريعة في سبيل إطاعة صوت الضمير.

وكانت جمهورية جريسون بحكم جوارها لإيطاليا أول بلاد زارها أولئك المنفيون "لقد أثبت الإحصاء أن عدد المنفيين في عام ١٥٥٠م كان مائتي شخص، ربعهم أو على الأقل خمسهم من رجال الأدب البارزين، وقبل بداية عام ١٥٥٩م ازداد العدد إلى ثمانمائة. ومن ذلك الوقت حتى عام ١٨٦٥م لدينا ما يؤيد أن الزيادة كانت مطردة بهذه النسبة. وإلى نهاية القرن السادس عشر كان لا يزال يُرى بعض الأفراد في فترات متقاربة مهاجرين إلى الشمال ملقين بأنفسهم على ثلوج الألب هربًا من لهب محاكم التفتيش". ولفرح المنفيين بل لفرح الشعب نفسه تقدم الإصلاح في بلاد جريسون تقدمًا كبيرًا، حتى أنه صدر قانون في عام ١٥٢٦م هكذا مبكرًا يكفل الحرية الدينية لجميع الطبقات في الجمهورية. ثم تقرر في مؤتمر أهلي أن "لكل شخص رجلاً كان أم امرأة من مختلف الطبقات والدرجات في جميع أنحاء الجمهورية أن يعتنق ويجاهر بالعقيدة التي يختارها لنفسه، سواء أكانت الكاثوليكية أو الإنجيلية. وأنه لا يجوز لأحد أن يزعج غيره في ديانته في العلن أو في الخفاء سواء بالطعن أو بالتشهير، ومن يخالف ذلك توقَّع عليه عقوبة صارمة. وأن خدام الدين لا يجب أن يعلموا الشعب إلا مما هو في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، أو ما يمكنهم إثباته من الكتاب نفسه. وأن يؤمر كهنة الأبروشيات أن ينكبوا على دراسة الكتاب المقدس بصفته القانون الوحيد للإيمان والسلوك"، هذا القرار النبيل باق إلى الآن كالمرسوم الذي يخول الحرية الدينية في إقليم جريسون بالرغم من بعض المحاولات التي عملت لنقضه.

لقد كان كثيرون من سكان ذلك الجزء من سويسرا إيطاليو الأصل وفدوا إلى جريسون من زمن بعيد، ولكنهم احتفظوا بلغتهم وعاداتهم. فكان هؤلاء حقلاً مهيئًا لقبول خدمات المنفيين، الذين إذ وجدوا أنفسهم متمتعين بكامل الحرية والأمان لم يألوا جهدًا في تعليم القوم سرًا وجهرًا، وقد بارك الله خدماتهم، فربحوا نفوسًا كثيرة للمسيح، وقد تكونت اجتماعات وأقيم رعاة، ومورس العشاء الرباني وأديرت العبادة حسب مبادئ الكنائس المصلحة. وآخرون من المنفيين درسوا بإتقان مختلف لغات تلك الولايات حتى يمكنهم التبشير بالإنجيل للسكان، فكان تبشيرهم بأسلوب مؤثر وجذاب للغاية، إذ عددوا للقوم أعمال التفتيش الوحشية، وكشفوا لهم عن حيل وخرافات وجهالات ورذائل ومفاسد البلاط الروماني وكهنوته، بالمقابلة مع حرية الضمير ونقاوة التبشير بالإنجيل التي يتمتع بها أهل جريسون.

ومن ثم نرى كيف أن روما بقساوتها وقصر نظرها قد أضعفت قوتها في وطنها، وطردت نخبة من أفضل رعاياها ليفضحوا شرها ويضعفوا تأثيرها في الخارج، وليعلّموا كثيرين طريق الخلاص. وبعد مدة من الزمن انتشر كثيرون من أولئك المنفيين في أقاليم مختلفة، وسافروا إلى بلاد متعددة حاملين معهم نور الإنجيل. ولكن يا للحسرة! كان مقضيًا أن يظل وطنهم إيطاليا مسكنًا للظلمات، لأن قليلين من تلاميذ الإصلاح هم الذين ظلوا أحياء بعد ويلات محاكم التفتيش وأعمالها الجهنمية[(٨٤)، (٢/٨٥)، (٤/٤٤)، (٨٣)].

أسبانيا

لقد كانت لفظة "هرطقة" أبغض شيء لدى الأسباني في العصر الذي قامت فيه حركة الإصلاح. وكان أسمى ما يفاخر به الأسباني هو نقاوة الدم، فأفقر فلاح كان يعتبرها حطة في قدره أن يوجد في عروقه قطرة من الدم اليهودي أو المغربي، مع أنه لم تكن هناك مملكة في أوروبا فيها خليط كبير من الأجناس مثل أسبانيا. على أن تفاخرهم بالانتماء إلى سلالة من المسيحيين الأنقياء الكاثوليك القديسين جعلهم يغارون ضد كل طريقة للعبادة تخالف طريقتهم. فضلاً عن ذلك فقد نجحوا في تطهير البلاد من اليهود بطردهم إلى الخارج باعتبارهم ألد أعداء المسيح، كما أنهم تغلبوا على الإمبراطورية العربية التي أرست أقدامها في أفخر أقاليم بلادهم عدة قرون، فكيف يمكنهم الآن أن يخونوا الصليب الذي في ظل رايته حاربوا، ويهجروا الإيمان القديم من أجل بضعة أفكار جديدة لراهب ألماني مجهول؟ إن نجاحهم في الداخل، مضافًا إليه اكتشافاتهم العجيبة في الخارج، قد أكثر ثروتهم وأذاع صيتهم، حتى جعلهم يتصورون أنهم المقربون إلى السماء المعينون لنشر الإيمان الحقيقي والمحاماة عنه في ممتلكاتهم الواسعة.

وإلى جانب اكتشاف أمريكا بواسطة كولمبس، وبعض الممتلكات العظيمة الأخرى بواسطة بحريين أقل شهرة منه، يجب أن يضاف ازدياد القوة واتساع السلطة الذي نالته المملكة الأسبانية بجلوس ملكهم

الشاب شارل الخامس على عرش ممتلكات آبائه في هولندا والنمسا وبوهيميا والمجر، وارتقائه إلى عرش إمبراطورية ألمانيا.

دخول تعاليم الإصلاح إلى أسبانيا

هكذا كانت عظمة ومجد الأمة الأسبانية عندما طرقت التعاليم الجديدة أبوابها طالبة الدخول. ولكن بالرغم من كراهية الأمة للإصلاح الألماني كان يوجد كثيرون من الرجال المفكرين الخطيرين مهيئين لقبوله، لأن فساد رجال الإكليروس المعيب وأعمال محاكم التفتيش الوحشية قد نفرت نفوس الكثيرين من الديانة القديمة. من ثم نجد أن كتابات لوثر قد تُرجمت ووُزعت في شبه الجزيرة في عام ١٥١٩م هكذا مبكرًا. وفي عام ١٥٢٠م تُرجم إلى الأسبانية شرح المصلح لرسالة غلاطية، ذلك الشرح الذي ضمنه خلاصة تعاليمه عن النقط الهامة. وقد أعقب ذلك ترجمات لرسالته عن الحرية المسيحية، ورده على إرازمس عن "حرية الإرادة" وقد قرأ هذه الكتب واقتنع بها كثيرون من البارزين في المقام والعلم والنفوذ، ولولا تحالف العرش مع محاكم التفتيش في تحريم الكتب واضطهاد قرائها لأنجبت أسبانيا - كما نعتقد - نخبة ممتازة من المصلحين. على أنه في العشر السنين الأولى على الأقل لم تقوَ المنشورات البابوية ولا السلطات الحكومية على إيقاف تقدم تلك الحركة.

يقول هاردفيك إن المدرسة الإصلاحية التي رأسها الأخوان خوان وألفونسو دي فالديز كانت تزداد يومًا فيومًا في العدد وفي الأهمية، وكان لها ممثلون بين حاشية شارل الخامس نفسه. وفي بلدتي سفيل وفالادوليد كان جمهور اللوثريين الغيورين كبيرًا جدًا، لدرجة أنه تعذر إيجاد غرف لسجنهم فيها. وبعد هذين الأخوين قام كثيرون من الشهود النبلاء للإنجيل، إلى أن وافت سنة ١٥٣٠م التي فيها أتيحت الفرصة لشارل نفسه مع رهط من النبلاء ورجال الإكليروس الأسبان لسماع تعاليم البروتستانت الحقيقية من إقرار الإيمان الذي تُلي عليهم في المؤتمر الإمبراطوري الذي عُقد في أوجسبرج. وقد كان لتلاوة هذا الإقرار وفحصه جهارًا أكبر الأثر في تبديد الفكرة السيئة التي نشرها الرهبان الماكرون عن تعاليم لوثر. وقد كان لألفونسو دي فالديز، سكرتير الإمبراطور، الذي سبقت الإشارة إليه، عدة مقابلات حبية مع ملانكتون، وقد أطلع على الإقرار قبل تقديمه إلى المؤتمر. ثم أن دي فيرف قسيس شارل الخاص اقتنع هو أيضًا بالحقائق التي ينادي بها البروتستانت، وصار على حد قولهم لوثريًا. وعند عودة فالديز وفيرف وغيرهم إلى أسبانيا اتهموا باللوثرية وقبض عليهم المفتشون وألقوا بهم في السجن، ثم قبضوا بعدهم على طائفة كبيرة من النبلاء والكهنة والنواب والرهبان والراهبات، ولا متسع هنا لذكر تفصيلات سجنهم وتعذيبهم وقتلهم(٥٧)(٨٢).

مقاومة الإصلاح في أسبانيا

من رحمة الله أن ظلل بحمايته الكنيسة الناشئة في أسبانيا عدة سنين. فكانت للمسيحيين عادة أن يجتمعوا في السر محوطين بتكتم شديد، ويكسروا الخبز في البيوت. وبالحقيقة لا يمكننا أن نعزو انتشار الحق وازدياد عدد التلاميذ وبنيان الكنيسة في بلد أقسم فيه كل من الملك والبابا ومحاكم التفتيش بأن يحافظوا على كاثوليكية أسبانيا إلا إلى رحمة الله وحمايته. لقد وقعت حقًا حالات اضطهاد وسجن فردية، ولكن لم يحدث شيء بصفة بارزة أو واسعة النطاق حتى عام ١٥٥٧م.

وأول شيء يبدو أنه أثار نشاط المفتشين هو الاختفاء الفجائي لعدة أشخاص ظهر أنهم سافروا للإقامة في جنيف وفي أنحاء مختلفة من ألمانيا، حيث يمكنهم التمتع بحرية السجود لله بحسب كلمته المقدسة. لقد أدت هذه الهجرة إلى التحقيق والتحري عن سببها، وإذ وجدوا أنها مسألة دينية اشتبه المفتشون بطبيعة الحال في أن المهاجرين ليسوا هم وحدهم المعارضين، ومن ثم وجهوا كل قوة البوليس في الحال للبحث عن إخوتهم الذين تركوهم. وفضلاً عن المراقبة الدقيقة في داخل البلاد أرسلوا جواسيس إلى جنيف وألمانيا تظاهروا بالمحبة للمهاجرين، وحصلوا منهم على بيانات عن الذي اعتنقوا اللوثرية.

ومن المؤلم أن نقول إن خيانة زوجة أحد المبشرين كانت مصدر معلومات للمفتشين، وقد قادها إلى هذه الخيانة أساليب كرسي الاعتراف الشريرة. وتفاصيل الرواية أن صائغًا في مدينة فالادوليد اسمه خوان جراتسيا إذ علم بمقدار تأثير الكاهن على عقل زوجته الخرافي أخفى عنها ميعاد الاجتماع ومكانه. ولكن هذه المرأة المخدوعة المسكينة في سبيل الطاعة لأمها "إيزابل" الشريرة تعقبت زوجها في إحدى الليالي حتى عرفت مكان الاجتماع وأخبرت به الكاهن. وإذ حصلوا على هذا الاكتشاف الخطير أرسلوا رسلاً إلى

المحاكم المتعددة في طول البلاد وعرضها، وأعدوا العدة لأن يسدوا جميع السبل أمام الهرطقة بكل اجتهاد، فأقاموا الحراس في أماكن يستطيعون فيها القبض على من يحاولون الهرب، وهكذا بحركة متحدة في جميع البلاد في آن واحد قبضوا على البروتستانت. وفي يوم واحد أمسكوا مائتي شخص في سفيل وضواحيها، وبعد وقت قصير ازداد العدد إلى ثمانمائة. وفي فالادوليد وضع ثمانون شخصًا في السجون العامة والأديرة وحتى البيوت الخاصة بالضحايا. وقد هبت عاصفة الاضطهاد بنفس الشدة على أديرة الرهبان والراهبات التي عرفت بالميل إلى التعاليم اللوثرية.

لقد قصد فيليب الثاني الملك القاسي القلب بالاتحاد مع مفتشيه أن يلقوا الرعب في قلوب الأمة بأسرها، ومن ثم عاملوا المسجونين الأبرياء معاملة تؤدي إلى تحقيق ذلك الغرض الجهنمي، فعذبوا البعض بأن أطالوا مدة سجنهم، والبعض من شدة التعذيب انتهت حياتهم باستشهاد سري بطيء، بينما حُجز البعض من ذوي المكانة الرفيعة والمركز الإكليريكي الممتاز ليعدموا علنًا أو يموتوا حرقًا بالنار، وهذا ما كان يسمى في أسبانيا "عمل إيمان". على أنه وُجدت عائلة بين البروتستانت في سفيل لها قصة محزنة مؤثرة لا نمسكها عن القراء.

ألقي القبض على أرملة فرناندو نونييه من أهالي مدينة ليبيه مع ثلاث من بناتها وطرحوا في السجن. وإذ لم توجد براهين ضدهم وُضعوا تحت التعذيب، ولكنهم أبوا أن يعترفوا ضد بعضهم البعض. بناء عليه دعا رئيس المفتشين إحدى هؤلاء الشابات إلى قاعة المحاكمة، وبعد أن حادثها قليلاً أظهر لها تعلقه بها. وفي مقابلة ثانية كرر لها ذلك وأخبرها أنه لا يستطيع أن يخدمها إلا إذا صارحته بكل حقائق قضيتها، لأنها عندما تفضي إليه بكل شيء يمكنه أن يدبر الطريقة التي بها يطلق سراحها هي وصاحباتها جميعًا. فانخدعت الفتاة السليمة النية وأُخذت في الشرك، إذ اعترفت له أنها قد تدارست التعاليم اللوثرية مع أمها وخالتها وأخواتها في أوقات مختلفة. وفي الحال قدمها ذلك التعيس إلى المحاكمة، وأرغمها أن تعترف في ساحة القضاء بما أدلت به إليه في السر. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل ادعوا أن اعترافها لا ينطوي على الحق الصريح، فوضعوها تحت التعذيب القاسي بواسطة أشد الآلات إيلامًا، كالبكرات والحصان الخشبي، وبهذه الوسائل انتزعوا من بين شفتيها بيانات أدت لا إلى إدانتها هي وقريباتها فقط بل إلى القبض على أشخاص آخرين أيضًا والحكم عليهم فيما بعد بالموت حرقًا في اللهب المستعرة[٨٢].

حقًا لا تستطيع لغة بشرية أن تعبر عن دناءة وغدر شخص آدمي يستطيع أن يأتي عملاً كهذا. ويسهل على القارئ أن يستنتج من هذه المعاملة التي عوملت بها تلك الأرملة وشقيقتها وبناتها اليتيمات مقدار ما كان يقاسيه ضحايا التفتيش الذين يعدون بالآلاف من العذاب، وكل ذلك لأجل جريمة الإيمان بحق الله ورفض أكاذيب الشيطان.

تأملات في سياسة أسبانيا

يتعذر علينا في هذا الزمن وفي بلادنا التي نتمتع فيها بالحرية المدنية والدينية أن ندرك أي شيء كان يمكن أن يحرك الكنيسة بمساعدة الحكومة لاضطهاد آلاف من أعضائها المنتخبين، لمجرد اختلاف الرأي على بعض النقط الدينية، مع العلم بأن معظم الذين قُبض عليهم وألقوا في السجن أو ماتوا حرقًا لم ينفصلوا عن الشركة مع الكنيسة الرومانية، وإنما كان كل جرمهم أنهم ربما قبلوا نسخة من العهد الجديد باللغة الأسبانية أو ربما اقتيدوا إلى مباحثة في التعاليم الجديدة - فإن إحدى هاتين التهمتين كانت كافية لإثارة شبهات المفتشين وسجن أولئك المساكين. لكن يجب علينا أن نلقي نظرة أعمق إلى ما وراء سياسة الحكومة المفتونة العمياء ومظالم المحاكم البابوية، فإن النبع شيطاني صرف، والغرض الرئيسي من هذه السياسة هو استبقاء سيادة الظلمة. فالبابوية لا تستطيع أن تعيش في النور لذلك فلا بد من قمع وإبعاد الإنجيل الحقيقي بأي ثمن، ذلك الإنجيل الذي يصلح حالة الهيئة الاجتماعية، ويخلق في الناس روح الحرية، ويكشف الأخطاء ويصلحها بنوره الإلهي الساطع.

إن العدو الأعظم لله والناس يملك في ظلمة وخرافات البابوية، ولو أن سلطان الله في الوقت نفسه هو فوق الجميع. وقد رأى ذلك العدو من البدء أنه في كل البلدان حيث قُبل الإصلاح قد ارتقت الهيئة الاجتماعية واستنارت، وارتفع مستوى الحالة الأدبية، ونشطت أذهان الناس للبحث والتحقيق. ولكن تقدم المعرفة النافعة والتهذيب الأدبي ونشاط الحركة التجارية، تلك الأمور التي ترفع شأن الأمم، معناها اضمحلال السلطان البابوي.

لذلك فلا بد من قمع كل نهضة فكرية أو مدنية أو دينية من شأنها أن ترفع المستوى أو تنير أذهان الناس. لذلك أبدى الكهنة المتسلطون والمفتشون نشاطًا هائلاً في تفتيش المطابع ومعاهد التعليم تفتيشًا دقيقًا، حتى يوقفوا تقدم المعرفة العامة النافعة. والدليل القاطع على ذلك تفيض به القوائم التي كانوا ينشرونها من وقت إلى آخر بأسماء الكتب المصادرة المحظور اقتناؤها.

ولما حمي وطيس الاضطهاد ازداد عدد المنفيين، فبينما كان المبعدون الإيطاليون يعبرون جبال الألب، كان الأسبان يعبرون جبال البرانس، وكثيرًا ما كانوا يلتقون، بل ويتحدون في كنيسة واحدة. على أن ألوفًا من الأسبان المبعدين قد لجأوا إلى إنجلترا وتمتعوا بطيب الإقامة هناك. وإن كان الرب لا ينسى لإنجلترا هذا الصنيع ولكن البابا وفيليب المتعطش للدماء قد أساءهم ذلك، فكان من ضمن التهم التي احتواها المرسوم البابوي بحرمان الملكة اليزابيث حسن معاملة أولئك المنفيين. وكان فيليب يريد إعادتهم لا لكي يقوموا بأعمالهم كرعايا نافعين، بل لكي يقتلهم في حفلة إحراق هائلة. ولكن إنجلترا أثبتت في هذه المناسبة ما يتفق مع ما هو معروف عنها من مناصرة المظلومين وكرم إضافتهم.

وما أنبل ما كتبه الأسقف جيويل "لقد قبلتهم الملكة في بلادها بدافع العطف والمروءة، فهل يعتبر إظهار الرحمة عملاً منكرًا؟ لقد طلب الله من بني إسرائيل أن يحبوا الغريب متذكرين أنهم كانوا غرباء في أرض مصر. والرحمة لمن يصنع رحمة. ولكن ما هو عدد الأشخاص الذين أتوا إليها؟ ثلاثة أو أربعة آلاف. شكرًا لله أن هذه البلاد يمكنها أن تقبلهم، ولو كانوا أكثر من هذا العدد. وما الذي يمنع الملكة اليزابيث من قبول بعض أعضاء المسيح المتألمين الذي يحملون صليبه؟ إذا كان الرب قد استحسن أن يأتي بهم سالمين إلى مرافئنا وينجيهم من أخطار البحر فهل كان يجب علينا أن نطردهم بقسوة ليقفلوا راجعين؟ هل ينصح لنا البابا وكيل المسيح بذلك؟ وإذا كان ملك يقبل مثل هؤلاء ويعد لهم ملجأ فهل يكون جزاؤه على ذلك حكم الحرمان؟ إنهم إخوتنا، وهم لا يعيشون عاطلين، إذا استأجروا منا منزلاً دفعوا إيجاره، وإذا استغلوا أرضًا دفعوا ريعها المناسب، ليسوا هم عالة علينا ولا هم يشتهون شيئًا مما بين أيدينا، اللهم إلا استنشاق هوائنا ورؤية شمسنا. إنهم يشتغلون بجد ويعيشون باقتصاد، وهم أمثلة صالحة في الفضيلة والاجتهاد والإيمان والصبر، والمدن التي يسكنونها سعيدة لأن الله يتبعهم ببركته".

من هنا يمكن للقارئ أن يرى أن عمل روح الله في أسبانيا الكاثوليكية لا بد أنه كان عملاً عظيمًا ومباركًا، الأمر الذي نجد فيه لذة وتعزية كبرى. فإذا حسبنا الآلاف التي ذهبت ضحية التفتيش، وبجانبها الآلاف التي لجأت إلى إنجلترا، فضلاً عن أولئك الذين ذهبوا إلى سويسرا وألمانيا وهولندا وفرنسا، نرى كم كان عظيمًا حقًا عمل روح الله بواسطة الحق القليل الذي كان عندهم، وذلك كله في زمن قصير جدًا. وقبيل ختام ذلك القرن فاخرت أسبانيا بأنها استأصلت الهرطقة الألمانية من أراضيها، ولم تعلم في عماها أنها بذلك قد طعنت نفسها طعنة أعظم وأخطر من طعنتها لضحاياها الأبرياء، وأنها قد غرست بذار شقاء وظلم واستبداد لا تزال تحصد ثمارها من ذلك الوقت للآن.

ففي أوائل القرن السادس عشر امتد صولجان ملكها إلى ما يقرب من نصف المسكونة، ولكن ما هو حالها الآن! إنها ذليلة ومنحطة بالنسبة لباقي دول أوروبا، فهولندا مثلاً التي لم يكن لها أراض سوى ما أنقذته من وسط المحيط أصبحت غنية ومستقلة، بينما أسبانيا مع كل ممتلكاتها أضحت فقيرة وضعيفة[٨٢].

«الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضًا»، ما أصدق هذا المبدأ لا على الأفراد فقط، بل على الأمم أيضًا. هذا هو مبدأ سياسة الله، فمع أن النعمة الغنية تسمو فوق سقوط المؤمن وتباركه كما في حادثة داود، إلا أن السيف لم يفارق بيته. يقول الرسول «لا تضلوا. الله لا يُشمخ عليه. فإن الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضًا» (غل ٦:٧). قد يظن البعض أن هذا كلام قاس، ولكنه على كل حال كلام صحيح وعادل. إذا زرع إنسان زوانًا في الربيع فهل ينتظر أن يحصد حنطة في الخريف؟ وإذا زرع حنطة فهل يمكن أن يجني زوانًا، كلا. ولكن شكرًا لله لأن النعمة تملك لا على أنقاض الناموس والعدل بل تملك «بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا» (رو ٥:٢١)، فإذا ما تحول فشلنا إلى بركة أعظم لنفوسنا، فلا فضل في ذلك لنا بل لنعمة الله التي تقابلنا بحسب سلطانها المطلق على أساس عمل المسيح الكامل. وعندما نحكم على الذات، ونكسر الإرادة العاصية، ونثبّت عين الإيمان على شخص الرب المبارك، فإننا نتمتع لا بالسلام فقط بل أيضًا بقوة الروح القدس.

الأراضي المنخفضة (هولندا)

قبل وقت الإصلاح بمدة من الزمن وُجدت في الأراضي المنخفضة روح البحث في الأمور الدينية والمقاومة الهادئة الثابتة لسلطان كنيسة روما. وفي القرن الخامس عشر حصلت في عدة بلدان في الغرب، لا سيما في فلاندرز وبعض أجزاء ألمانيا نهضة تقوية تعبدية بواسطة مدرسة بعض المتوحدين الأتقياء أمثال توما الكمبيسي(٨٦). وتلك أيضًا هي بلاد جون وسل الذي سبق لوثر إلى أشياء كثيرة، وإرازمس الذي أتى بعد ذلك. وقد ترجمت معظم كتب المصلحين السويسريين والسكسون وطبعت ووزعت من أنتورب بكميات كبيرة. وكانت تلك المقاطعات غنية وناجحة بسبب تجارتها الواسعة ومصنوعاتها الكثيرة، فكانت أنتورب في ذلك العصر تُعتبر سوق العالم والمركز الرئيسي لتجارته، لذلك كان من السهل جدًا إرسال الكتب إلى جميع الأنحاء بواسطة إخفائها في بالات البضائع. ومن أنتورب بصفة خاصة وصلت الكتب الجديدة إلى إيطاليا وأسبانيا. وربما كانت كتابات إرازمس ضد الرهبان مما ساعد أيضًا على إعداد الطريق لتعاليم لوثر وزونجلي الأكثر تعمقًا. من ثم يمكننا أن نقول إنه كان من الطبيعي أن نور الإصلاح يخترق إلى الأراضي المنخفضة في وقت مبكر.

سياسة شارل

تلك كانت مجريات الأمور في ممتلكات شارل الموروثة عندما ارتقى عرش أسبانيا في عام ١٥١٩م، ولا شك أن تلك الحركة التي هزت أرجاء ألمانيا قد وصلت مبكرًا إلى جميع بلاد الإمبراطور الأخرى. وإذ كان ملكًا كاثوليكيًا فلا ريب أن ذلك مما ضاعف تدابيره ضد المصلحين منذ مجمع ورمز عام ١٥٢١م. وقد كان فرنسيس الأول والبابا من جهة والأتراك من جهة أخرى يرقبون تحركاته، وهو من جانبه يرقب حركاتهم، ولذلك لم يكن لديه متسع من الوقت لمطاردة الهراطقة. فضلاً عن ذلك فإن وفرة الإيرادات التي كانت تدرّها تلك المقاطعات الغنية على خزينة الإمبراطور جعلته لا يميل إلى أساليب الشدة لإيقاف تقدم التعاليم الجديدة. ولكنه في نفس الوقت أعطى تعليماته للحكام لاستخدام نفوذهم لقمع الهرطقة.

يتضح ذلك من إعلان قد نشرته مرجريت النمساوية عمته وحاكمة الأراضي المنخفضة عام ١٥٢١م باسم الإمبراطور، وفيه يوصف لوثر كمن هو "شيطان جاء في شكل إنسان وثوب راهب، حتى يسهل عليه إهلاك الجنس البشري وقيادتهم إلى الموت الأبدي". وهذا الإعلان مطول جدًا وفيه أوامر مشددة بحظر اقتناء الكتب التي تحتوي على أية إشارة إلى الكتاب المقدس أو تعاليمه. وأنه لا يجوز تداول أي كتاب بدون موافقة كلية اللاهوت في الجامعة *.

تقدُّم الحق رغمًا عن النيران

لقد أصبح تاريخ الأراضي المنخفضة من ذلك الوقت ممتلئًا بالاستشهاد، حتى لكأنها كانت عملية إبادة بطيئة للسكان. ولكن رغمًا عن ذلك فقد كان روح الله يعمل أعمالاً عجيبة، معطيًا شجاعة مقدسة للكثيرين، مما دل على حضور الرب معهم بنعمته المدعِّمة وقوته. وقد ظهر أن الرهبان الأوستنيين في مدينة أنتورب قد درسوا كتب لوثر وصادقوا عليها، فطُرح كثيرون منهم في السجن، وتم شلح ثلاثة رهبان وأُحرقوا بالنار في عام ١٥٢٣م. وبينما كانت النيران تُحمي كانوا يتلون قانون الإيمان، ثم رددوا تسبيحة الشكر "أنت الله" إلى أن أوقفت قوة اللهب ترنيمتهم السماوية. ويضطر إرازمس أن يشهد في تلك المناسبة بأن تلك الشهادة كانت لها نتيجة معاكسة تمامًا لما قصده الاضطهاد، فيقول "لقد كانت مدينة بروكسل، حيث أُعدموا، خالية من الهرطقة تمامًا إلى تلك الحادثة، ولكن بعدها مباشرة ابتدأ كثيرون من السكان أن ينحازوا إلى اللوثريين".

وبالرغم من استمرار الاستشهادات تجاسر كثير من الأشخاص البارزين من الإكليروس والعلمانيين على السواء على رفع قضية الحق. وهكذا كان الحال على الدوام، فإذا كان الاضطهاد يبعد بعضًا من محبي ذواتهم، فإنه يضم عددًا أكبر بحكم الغريزة التي تدفع الضمير البشري للثورة على الظلم والانحياز إلى جانب المظلومين. وفي ذلك الوقت استمرت اللهب في جميع أنحاء البلاد، وصدر المرسوم تلو المرسوم يزيد النار اشتعالاً، فكانت قراءة

* انظر مذكرات جيرارد براندت عن "الإصلاح في هولندا"(٨٨) حيث يجد القارئ تفاصيل الأحداث في تلك الأيام العصيبة يوما فيوما في أربع مجلدات. كذلك انظر كتاب "قيام الجمهورية الهولندية"(٨٩) لكاتبه موتلي. وكتاب "اتحاد لأراضي المنخفضة" لنفس الكاتب، وكلاهما يتضمن التاريخ السياسي والكنسي لتلك الأيام.

صفحة من الكتاب المقدس معناها الموت، ومناقشة إحدى مواد الإيمان وراؤها الموت، واقتناء إحدى كتابات لوثر أو زونجلي أو أكولامبديوس نتيجته الموت، كما أن إظهار أقل شك من جهة فاعلية الأسرار المقدسة أو سلطان البابا كانت عقوبته الموت. وفي عام ١٥٣٦م شنق وأحرق في مدينة فيلفوردي بالقرب من بروكسل ذلك الخادم الصالح والأمين للرب وليم تندال لأنه ترجم العهد الجديد إلى الإنجليزية وطبعه عام ١٥٣٥م(٨٧).

وفي عام ١٥٥٥م إذ شعر شارل أنه يتقدم في السن، مع أنه لم يكن قد بلغ إلا سن الخامسة والخمسين، تنازل عن العرش لابنه. وقد قيل إنه في مدة حكم الأب كان الصولجان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بعملية إحراق الهراطقة، وفي مدة حكم الابن كان أشد ارتباطًا بها، مع الفارق أن اضطهاد شارل كان سياسيًا، لأنه في الوقت الذي كان فيه يحرق الهراطقة كان يسلب روما ويسجن البابا وكرادلته، أما اضطهاد فيليب فكان بدافع تعصبه وطبيعته القاسية الميالة للانتقام. وفي مدة حكم الثاني اخترعت أقسى أنواع التعذيب وطرق الإعدام ونفذت بواسطة دوق ألفا، ووصل الاضطهاد إلى حد لا يطاق بدرجة أثارت سخط الشعب وحنقه، فثاروا أخيرًا وطرحوا عنهم النير الأسباني، واسترجعوا حرياتهم وقوانينهم القديمة. على أنهم لم يعملوا ذلك بعجلة، بل ساروا بخطوات وئيدة بالرغم من آلامهم التي لا نظير لها.

رابطة الأشراف

في عام ١٥٦٦م انتظم معظم الأشراف في رابطة لحماية البلاد والدفاع عنها، مع أن أولئك الأشراف كانوا بوجه عام من الكاثوليك. أما البروتستانت، فاستنادًا على وعد من مرجريت بإعطائهم الحرية، ابتدأوا يعقدون اجتماعات كثيرة في وضح النهار، وإذ لم تكن لهم أماكن مخصصة للعبادة كانوا يجتمعون في الحقول حيث كان المبشرون يجاهرون بحقائق الإنجيل وسط الجموع الحاشدة. ويقال إن داثن، أحد أولئك المبشرين، قد جمع مرة حوالي خمسة عشر ألف نفس لسماع عظاته. ولكن في تلك الظروف لم يكن ممكنًا أن تستمر مثل هذه الاجتماعات بدون بعض التشويش، فقد حاول أحد الحكام المتعصبين مرة أن يفرق شملهم، فاستل سيفه وحاول أن يقبض على الخادم ولكنه استُقبل بوابل من الأحجار انهال عليه حتى نجا بحياته بالجهد. وكانت مزامير داود ترنم عادة في تلك الاجتماعات، وكان صوت الجماهير القوي يصل إلى مسافات بعيدة ويسترعي أشد الانتباه. وكان حماس الكلفنيين يزداد من جهة، وعداء الكاثوليك يزداد من الجهة الأخرى، حتى كان خطر الثورة يزداد اقترابًا من يوم إلى يوم. ولاجتناب الثورة، وحتى لا تبقى حاجة لاجتماعات الحقول، قام كثيرون ممن عرفوا الحق واقتنوه بتشييد عدة كنائس خشبية في وقت قصير، وقد اشترك في العمل أناس من جميع الطبقات، بينما باعت النساء حليهن ومجوهراتهن لتوفير المال اللازم. ولو أنهم تُركوا وشأنهم لأسكتت قوة إيمانهم عاصفة الغضب والشهوات وشفت البلاد من أدوائها(٦٨٦).

تقدم البروتستانت، الذين كان يبلغ عددهم في ذلك الوقت مائة ألف نفس، بالتماس إلى الملك يطلبون منه، بكل احترام، أن يمنحهم الترخيص اللازم، متوقعين إجابة التماسهم كما أعطتهم أملاً بذلك مرجريت الحاكمة. وإذ انتهزوا فترة الهدنة القصيرة التي أوجدتها روح مرجريت السلمية كونوا ما يقرب من ستين اجتماعًا في فلاندرز كان يحضر في كل منها حوالي ألف شخص، وفتحت اجتماعات مماثلة في أرتواس وبرابانت وهولاندا وأوترخت وأيسلندا وفريزلندا وجهات أخرى. ولكن الملك المتعصب ضيق الفكر عوضًا عن الإنصات إلى الطلبات المعتدلة التي قدمها فريق محترم وكبير من رعاياه، رفض رفضًا باتًا التماسهم للحصول على حرية عبادة الله والحرية الشخصية. كانت مرجريت قد أوصت بمنحهم قسطًا معتدلاً من الحرية، وعندما عرض الأمر على الوزراء أيد المجلس الأسباني هذه التوصية، ولكن ذهب كل ذلك أدراج الرياح لأن سياسة الملك كانت في كل مظاهرها العنف والرياء وسفك الدماء، وبالأخص في الأراضي المنخفضة. وفضلاً عن رفض مشورة مرجريت فقد طلب الملك منها أن تعبئ جيشًا مؤلفًا من ثلاثة آلاف فارس وعشرة آلاف من جنود المشاة لتنفيذ مراسيمه بالقوة.

هكذا سعت الحكومة إلى تشتيت شمل تجمعات البروتستانت بالقوة، حتى كان الشعب يذهبون مسلحين إلى أماكن العبادة. إلى هذا الحد وصلت الحالة السيئة المحزنة بسبب عناد فرد واحد وخرافاته. وكثيرون من بين طبقات الشعب الغفيرة في أنحاء مختلفة من المملكة ابتدأوا يثورون متأثرين بكل ما كان جاريًا في ذلك الوقت، فاقتحموا الكنائس ومزقوا الصور وسائر الزينات،

وحطموا التماثيل والمذابح والصلبان والشبابيك المزخرفة، وقد كان هذا أيضًا مصير أرغون كاتدرائية أنتورب الذي يقال إنه كان أحسن أرغون في العالم. وفي تلك الحركة تشوهت ونهبت نحو أربعمائة كنيسة في أيام قلائل. ولقد سببت هذه الثورة حزنًا عميقًا لمسيحي الكنائس اللوثرية والكنائس المصلحة، وقدموا عرائض استنكارهم لها إلى فيليب. وعلاوة على إظهار سخطهم في هذه العرائض على تلك الأعمال العنيفة فإنهم أعادوا التماس منحهم الحرية لممارسة عبادتهم الجهارية التي اعتزموا أن يعيشوا ويموتوا فيها. وقد حاول أمير أورنج والكونت إيجمونت والكونت هورن أن يؤثروا على فيليب حتى يعير شيئًا من الالتفات إلى حالة الشعور الديني في الأراضي المنخفضة ولكن بغير جدوى، بل أصدر الأوامر بتوزيع القوات في أنحاء المملكة المرتبكة لتنفيذ مراسيمه الاضطهادية بالقوة، من ثم تعرض البروتستانت لضيقات عظيمة، فقتل كثيرون منهم وهرب كثيرون إلى خارج البلاد، وانحلت جمعية الأشراف وبدت الأراضي المنخفضة في كل مظهر البلاد المهزومة.

دوق ألفا

على أن كل هذا لم يكن ليشبع ذلك المتعصب قاسي القلب، فدبر غزوة ثانية لإبادة المصلحين، مع أنهم لم يكونوا سوى بضع عشرات الألوف. وفي عام ١٥٦٧م أرسل دوق ألفا إلى الأراضي المنخفضة بجيش مؤلف من خمسة عشر ألف جندي من الأسبان والإيطاليين، وأعاد نشاط التفتيش مما زاد في الرعب العام الذي ساد البلاد، وكان مجرد ذكر اسم ألفا أو لفظ "التفتيش" كافيًا لإلقاء الذعر في كل البلاد. وقد أتهم كونت إيجمونت وكونت هورن وآخرون من الرجال المشهورين باعتناق المبادئ التحررية، فألقي القبض عليهم في الحال ثم أعدموا. وقد هرب أمير أورنج إلى ألمانيا، وهجرت جماهير البروتستانت منازلهم وهربوا إلى الممالك الأخرى، كما هرب التجار والصناع والفنانون الأجانب من أنتورب ومن المدن الهامة الأخرى، كأنما قد تفشى الطاعون داخل أبوابها. وقد هدمت الكنائس الخشبية وعملت أخشابها مشانق عظيمة في بعض الأماكن لإعدام الراعي ورعيته عليها.

وبما أن المفتشين كانوا لا يزالون يمارسون أعمالهم الفظيعة بما أعطاهم شارل من السلطة قبل تنازله عن العرش، نرى من الضروري إيراد تفصيلات بعض الحوادث ليرى القارئ ماذا كان يحدث في تلك البلاد كل يوم تقريبًا، وذلك لمدة تقرب من الأربعين سنة. ومع ذلك فقد كانت كلمة الله تتقدم بقوة، وألوف من الناس يتجددون.

كان أحد المفتشين المدعو تيتلمان مشهورًا بكثرة ضحاياه، وكان يفاخر بأنه لا يقبض إلا على "الفضلاء والأبرياء، لأنهم لا يبدون أية مقاومة"، ومن بين الضحايا نساج اسمه توماس كالبرج من مدينة تورناي، قبض عليه بتهمة نسخ بعض الترنيمات من كتاب طبع في جنيف، وأحرق حيًا في الحال. وحوالي ذلك الوقت عام ١٥٦١م أحرق أيضًا شخص غني محسن محبوب حبًا جمًا اسمه والتر كابل بتهمة اعتناق الآراء التحررية. وبينما كان أعوان تيتلمان يربطونه إلى سارية الإحراق وقع مشهد غريب مؤثر، إذ جاء شخص فقير أبله من الذين كان يطعمهم ويرعاهم بعطفه وصاح قائلاً "أيها القتلة السفاحون. هذا الإنسان لم يفعل خطأ، بل كان يعطيني خبزًا لآكل". وإذ قال هذا ألقى بنفسه إلى اللهب مباشرة ليموت مع المحسن المحبوب. وبكل جهد تمكن الضباط من إنقاذه. وبعد ذلك بيومين زار ذلك الشخص مكان الإعدام، حيث وجد جثة والتر كابل النصف المحروقة لا تزال هناك، فحملها ذلك المسكين على كتفيه وذهب بها إلى حيث كان الحكام مجتمعين في جلسة، وشق طريقه إليهم بالقوة ووضع الجثة عند أقدامهم صائحًا "خذوا أيها القتلة. لقد أكلتم لحمه فهيا اقضموا عظامه". ولا يذكر التاريخ ماذا كان مصير ذلك المسكين، ولكن شهادة جريئة كهذه لا بد أنها أسكتت بالقوة.

وفي السنة التالية أمر تيتلمان بالقبض على شخص اسمه روبرت أوجير من مدينة ريسل في فلاندرز هو وزوجته وابنيه، وكانت جريمتهم أنهم لم يذهبوا لحضور القداس، وأنهم مارسوا عبادة سرية في البيت. وقد أقروا بذلك محتجين بأن لم يكونوا يستطيعوا أن يروا اسم مخلصهم الكريم يتدنس في الممارسات الوثنية. وقد سئلوا "أي الطقوس يمارسون في البيت؟". فأجاب أحد الابنين، وكان لا يزال ولدًا صغيرًا "نحن نجثو على ركبنا ونصلي إلى الله حتى ينير قلوبنا ويغفر خطايانا، ونصلي لأجل ملكنا حتى يكون ملكه ناجحًا وحياته في سلام، ونصلي أيضًا

لأجل الحكام وجميع الذين هم في منصب حتى يحفظهم الله ويحميهم جميعًا". وقد أسالت عبارات هذا الولد الفصيحة البسيطة العبرات حتى من عيون بعض القضاة، ومع ذلك فقد حُكم على الأب والابن الأكبر بالموت حرقًا وسط اللهب. وقد صلى الشاب وهو مربوط إلى السارية قائلاً "يا الله - الآب الأبدي - اقبل ذبيحة حياتنا باسم ابنك الحبيب". فقاطعه الراهب الذي كان يحمي النيران قائلاً بكل عنف "أيها المجرم الأثيم إنك لكاذب. ليس الله أباكم أنتم أولاد إبليس". وإذ اندلعت عليهم ألسن النيران صرخ الولد مرة أخرى قائلاً "أنظر يا أبي. هوذا السماء كلها مفتوحة، وأنا أرى آلافًا من الملائكة يتهللون ترحيبًا بنا، فلنفرح لأننا نموت لأجل الحق". فصاح ثانية ذلك الكاهن قائلاً "أنت تكذب. أنت تكذب. إن كل جهنم مفتوحة لكم، وأنت ترى آلافًا من الشياطين يستقبلونكم ليلقوا بكم في النار الأبدية". وبعد ثمانية أيام أحرقت زوجة أوجير وابنه الأصغر. وهكذا كان لهم نصيب أن يتلاقوا سريعًا في الدوائر العليا، دوائر النور والسعادة، في كمال راحة فردوس الله. وقلما فكر أولئك المفتشون القساة الأغبياء في أنهم إنما كانوا يرسلون كثيرين من أولاد الله إلى موطنهم وبيت أبيهم في العلاء ليكونوا مع المسيح، وذاك أفضل جدًا.

أعمال ألفا

في عام ١٥٦٧م عقد "مجلس الدم" كما أطلق عليه في أول اجتماعاته. ويندر أن يوجد بين القراء من لم يسمع عن ألفا الذائع الصيت في ميدان الشر والوحشية. يقول موتلي "إن قسوة كهذه، ومثابرة على الحقد والانتقام، وتعطشًا إلى الدماء بهذا المقدار، لا يوجد في وحوش الغاب الكاسرة، ويندر أن يوجد في قلب بشري، فلم تعد المسألة بعد مسألة محاكمة أفراد أو عائلات، لأن المجلس رأى أن تكون الحملة شاملة غامرة، فكان يرسل المتهمين في الحال إلى النيران أفواجًا". ولكن لم توجد جريمة في هذه المرة أشنع من جريمة الغنى. فلا اعتقادات ولا فضائل كان يمكن أن تكفر عن تلك الجريمة الشنعاء، فكانت التسلية اليومية لذلك العاتي هي سفك الدماء ومصادرة الأموال، وبذلك كان يشبع جشعه وقساوته. وكان يفاخر قائلاً: "لا بد أن يجري نهر من الذهب الإبريز عمقه ياردة" من الأراضي المنخفضة ليملأ خزانة سيدي. وفي مدينة تورناي وحدها صودرت أملاك أكثر من مائة من التجار الأغنياء.

وفي ذلك الوقت سال الدم مدرارًا، فمثلاً في يوم ٤ يناير أعدم أربعة وثمانون شخصًا من سكان فالنسينا، وفي يوم آخر أعدم خمسة وتسعون من جهات مختلفة في فلاندرز، وفي يوم آخر أعدم ستة وأربعون من سكان مالينز، وفي يوم آخر خمسة وثلاثون شخصًا من بلاد مختلفة. على أن هذه المذابح الهائلة لم تكن لتشبع شهوة فيليب وألفا ورجال الإكليروس، فأصدروا مرسومًا جديدًا بتوقيع عقوبات صارمة على كل أصحاب العربات والسفن والحمالين الذين يساعدون على هجرة الهراطقة، قاصدين بذلك أن لا يفلت أحد من أيديهم.

وفي أوائل السنة الثانية لمجمع الدم كما يقول موتلي "أذيع أعظم حكم بالإعدام لم يصدر مثله منذ خلق العالم. وكأنما تمنى الطاغية الروماني لو أن رؤوس جميع أعدائه كانت مركبة على عنق واحد، حتى يضرب ذلك العنق ضربة واحدة فيبيدهم جميعًا". وقد ساعدت محكمة التفتيش فيليب على وضع رؤوس جميع رعاياه في الأراضي المنخفضة على عنق واحد لنفس ذلك الغرض الدنيء. ففي يوم ١٩ فبراير سنة ١٥٦٨م صدر حكم من المجمع المقدس بإعدام جميع سكان الأراضي المنخفضة باعتبارهم هراطقة. وقد استثني من هذا الحكم العام أفراد قلائل ذكرت أسماؤهم حصرًا. وبعد عشرة أيام صدر مرسوم من الملك بتأييد ذلك الحكم الذي أصدرته محكمة التفتيش، وقد أمر الملك بتنفيذه في الحال على الجميع ذكورًا وإناثًا، بغض النظر عن السن أو أي اعتبار آخر. وربما كان ذلك المرسوم أكبر مرسوم جامع وموجز صاغته القريحة البشرية، ففي ثلاثة سطور حكم على ثلاثة ملايين من البشر رجالاً ونساءً وأطفالاً بأن يساقوا إلى المشنقة(٨٨)؛(٨٩).

يقول براندت "هذا المرسوم المرعب ضد أمة بأسرها دفع كثيرين مع زوجاتهم وأطفالهم إلى التفتيش على ملجأ لهم في غابات فلاندرز الغربية. وإذ صاروا متوحشين بحكم العزلة في الغابات وبسبب انطفاء آمالهم في الحياة، كانوا يخرجون من هناك في الليالي المظلمة وينقضون على الكهنة والرهبان لأجل الانتقام والسرقة".

الصفات الحقيقية للبابوية

من خلال هذا الحكم العام يستطيع القارئ أن يتبين الروح الحقيقية للبابوية، وماذا كان ينتظر كل من لم يخضع خضوعًا مطلقًا أعمى لكل خرافاتها ووثنيتها. ففي كل يوم بل في كل ساعة كان يُساق أناس من أعلى الطبقات ومن أدناها إلى الإعدام. وقد كتب ألفا إلى فيليب حوالي ذلك الوقت مجتهدًا في إرضاء سيده بأن أكد له أن تنفيذ حكم الإعدام بعد الأسبوع المقدس مباشرة سيكون فيما لا يقل عن ثمانمائة شخص. ولكي يمنعوا الضحايا من مخاطبة أصدقائهم أو التحدث إلى المارة في طريقهم إلى المشنقة كانوا يثنون ألسنتهم داخل حلقات حديدية ثم يكوونها بحديد محمى بالنار.

وكانت سياسة ذلك الوحش تتجه بوضوح إلى إقفار البلاد من سكانها نهائيًا، فيخبرنا التاريخ أن ناقوس الموت كان يدق في كل ساعة في كل قرية، وما من عائلة إلا وناحت على أعز أقاربها، وقد لطخت المشانق بدماء أفضل المواطنين وأشجعهم، ومات في السجن وفي النفي أكثر الرجال الذين كان تتجه إليهم عيون الأمة للقيادة والحماية. وقد استقرت روح الانتقام على الجميع حتى أن التسليم والخضوع لم يكن يجدي شيئًا كما أن الهروب كان مستحيلاً. وكان النواح يغطي الشوارع يوميًا، لأنه لم يكن من بيت إلا وقد أقفر، وحتى بوابات المنازل الخاصة وأسوار الحقول كانت محملة بالجثث البشرية المشنوقة أو المضروبة بالسيف أو المحروقة. وكان كثير من الأشجار في بساتين البلاد يحمل ذلك الثمر المرعب: أجسادًا بشرية. وحوالي ذلك الوقت مات في السجن دون كارلوس ابن الملك، ويعتقد البعض أنه قُتل بأمر أبيه "وتصرف الملك هذا في أنه لم يشفق على ابنه الوحيد عندما أظهر عطفًا على الهراطقة قد نال أسمى تقدير لدى البابا بيوس الخامس"(١/٨٨)،(٢/٨٩)،(٦/٦٦).

تلك كانت صفات حكم ألفا لمدة تقرب من الست سنوات، وإن القلب ليتوجع إذا حاول أن يسرد تفصيلات فظائع ذلك الطاغية القاسي القلب. ويمكننا أن نتصور مدى تلك المذابح المرعبة من مفاخرة ألفا نفسه بأنه قد أهلك ثمانية عشر ألفًا من السكان، بخلاف الذين سقطوا في الحرب. ويُظن أن أكثر من مائة ألف شخص هربوا إلى الممالك الأخرى. وقد هرعت جماهير منهم إلى الموانئ الإنجليزية حاملين معهم تلك المهارة الفنية في الصناعات المختلفة التي كانت لتلك البلاد بمثابة جزاء وفاق للكرم الذي أظهرته نحوهم.

ونحن نعجب كيف أن الكنيسة لم تفنَ في اللهب أو تغرق في الدماء، ولكن الله قد أظهر رحمته نحو البلاد المنخفضة بحفظ كثيرين من شهوده الأمناء وسط تلك التجربة المحرقة، ليكونوا له شهودًا في يوم مستقبل. وقد عُقد مجمع أهلي للكنائس الهولندية المصلحة في مدينة دورت عام ١٥٧٨م، وفي مدينة مدلبرج عام ١٥٨١م، وفي مدينة هاجو عام ١٥٨٦م ونفس الوسائل التي استخدمها ذلك الملك المتعصب ومفتشوه واليسوعيون للمحافظة على ديانتهم القديمة أتت بنتائج عكسية، فعوضًا عن حفظ تلك الديانة من الأخطار التي تعرضت لها أدت إلى هدمها هدمًا تامًا. فقد كانت نتيجة الحرب الأهلية التي نشبت في البر والبحر أن تكونت في أوروبا دولة بروتستانتية جديدة تسمى "السبعة الأقاليم المتحدة".

انتصار الحق والبر

إن تاريخ ذلك الصراع الطويل لأجل حرية الضمير هو من اختصاص المؤرخ المدني، أما نحن فلا نضيف على ما تقدم إلا أن وليم الذي من ناسوه أمير أورنج، أو كما كان يسمى عادة "وليم الصامت" شعر بضرورة اتخاذ تدابير حاسمة ليحول دون خراب البلاد خرابًا تامًا. وقد ساعدته في مشروعه هذا اليزابيث ملكة إنجلترا، كما ساعده ملك فرنسا والبروتستانت في ألمانيا. فضلاً عن ذلك فقد باع مجوهراته وأوانيه الثمينة وحتى أثاث بيته للحصول على المال اللازم. على أنه كان من الصعب عليه أن يناضل مع قوة ألفا وخبرته، ولذلك ظهر عدم نجاحه على مر الوقت، فانهزم أخوه لويس وقتل أخوه أدولفس، إلا أن الثورة نشبت في كثير من المدن، مما اضطر فيليب في النهاية إلى إجراء تعديل في سياسته، فاستدعى ألفا؛ ويقال إنه وبّخه على وحشيته. وقد نشبت الحرب من جديد واستمرت مع فترات هدنة قصيرة حتى عام ١٥٨٠م، حين اجتمع مجلس الولايات العام في مدينة أنتورب، وأصدر قرارًا بالاستقلال الوطني وطرح النير الأسباني إلى الأبد. وبذلك حصلت الجمهورية الناشئة تحت قيادة أمير أورنج على الحرية الشخصية وحرية الضمير، اللتين هما حق طبيعي للجميع، وأخذت تلك الجمهورية مكانها بين أمم أوروبا(٩٠)،(٣٨)،(٣/٢١).

من ذلك الوقت كان فيليب ينظر إلى ذلك الوطني العظيم بعين ملؤها الحقد والكراهية، إذ رأى فيه القوة المحركة لذلك الكفاح الذي قام في سبيل الحرية، ومن ثم قصد أن يقتله. فحاول خمس مرات أن يغتال وليم ولم يفلح، ولكنه لم ييأس، فأصدر حكمًا في سنة ١٥٨٠م أعلن فيه إدانة الأمير في أفظع الجرائم، وصرح فيه بأنه مسموح لجميع الناس أن يهاجموا وليم في أملاكه وفي شخصه وفي حياته أيضًا، ووعد بإعطاء خمسة وعشرين ألف كرون ذهب لأي شخص يسلم إليه ذلك الحاكم العنيد وليم الذي من ناسوه حيًا أو ميتًا، مع منح القاتل عفوًا شاملاً عن كل ما يكون قد اقترفه من الجرائم، علاوة على الأنعام عليه بلقب "نبيل". وقد جاء هذا المنشور الدنيء بنتيجته المرجوة سريعًا، ففي ١٠ يولية سنة ١٥٨٤م اغتال شخص من اليسوعيين اسمه جيرار هذا الأمير السليم النية، وكان قد اندس بين حاشيته بصفته من معتنقي التعاليم المصلحة، ثم أطلق عليه الرصاص في ردهة قصره من مسدس اشتراه بمال كان الأمير نفسه قد أعطاه إليه قبلها وقت قصير. وقد نطق ذلك الوطني الجريح بهذه الكلمات "اللهم ارحم نفسي وهذه الأمة البائسة"، ثم فاضت روحه في الحال. وكان متزوجًا من أرملة تيليني ابنة كوليني الشجاع، وبذلك تكون تلك هذه السيدة قد رأت كلاً من زوجها الأول والثاني وأباها يُقتلون بجانبها.

هكذا مات شخص من أعظم الشخصيات في التاريخ، بالنظر لتضحيته وحكمته وشجاعته وشهرته، فلقد حارب على رأس جيوش مواطنيه المظلومين وقادهم للنصرة، ولقد صاغ لهم المعاهدات، ولمدة عشرين سنة كان يصرف من أمواله ويضحي براحته وصحته للصالح العام، حتى أن أعداءه لم يستطيعوا أن يثبتوا أنه في مرة من المرات استخدم سلطته لأغراضه الذاتية، فاستحق بجدارة أن يدعى "أبو الأمة". ولقد ملأت أخبار هذا العمل الوحشي البلاد وما جاورها من الممالك بالحزن والسخط، وقد انتُقم من القاتل في الحال، إلا أن فيليب قد ابتهج وحده وسط الحزن العميق الذي ساد الجميع. وقد صرح محمولاً بالفرح قائلاً "آه لو أن هذا العمل قد تم قبل الآن بسنتين، إذًا لارتحت من متاعب كثيرة، ولكن على كل حال إتمامه ولو متأخرًا أفضل من عدمه"(٦٦)(١/٦٦)؛(٣/٣٨).

تأملات في مضادة روح التعصب للمسيحية

يصعب علينا أن نختم هذه الصفحات دون أن نستلفت نظر القارئ إلى نتائج التعصب الأعمى تحت اسم الدين، أو بالأحرى تحت ستار الغيرة لمجد الله. لقد رأينا ما فعلته تلك الخدعة الشيطانية في الأراضي المنخفضة وفي عدة أماكن أخرى، وكم قاست المسيحية من روح التعصب خلال تلك الألف والثلاثمائة سنة أو يزيد. فمبادئ العهد الجديد بالمقابلة مع تعاليم وتقاليد روما كانتا على طرفي نقيض، فالأولى هي السلام على الأرض والخير للبشرية، كما يقول المسيح بالروح «لذاتي مع بني آدم». وأي شيء مملوء بالنعمة ومعز للقلب وجدير بأن يملأنا بالمحبة نحو جميع الناس، ولا سيما المؤمنين، أكثر من هذا؟ أما الثانية فهي العناد عديم الإحساس، والقسوة التي لا تلين. ولنلاحظ أن هذا كان أسلوب تعامل البابويين مع من كانوا يعتقدون بأنهم خطاة وغير مخلصين، فإن كان كذلك فإنهم كانوا قتلة لا للجسد فقط بل وللنفس أيضًا، فهم كانوا يعتقدون أن هؤلاء غير مخلصين، فكان الأولى بهم أن يسعوا إلى تجديدهم، ولكنهم قد أسرعوا بإخراج نفوسهم من العالم، قائلين إنها نفوس غير مخلصة وجديرة بأن تُلقى في نيران جهنم.

ويمكننا أن نعتبر فيليب صورة مجسمة لديانة البابوية القائمة على التعصب، فلم يكن إنسان قط مهيئًا لأن يكون آلة صالحة لأغراض العدو مثل ذلك الملك التعس قاسي القلب ذي النفس النكدة والفكر الضيق، الذي كانت ملايين من البشر تحت رحمته. وقد مات عام ١٥٩٨م وهو في سن الثانية والسبعين، بعد أن قاسى آلامًا مبرحة لمدة طويلة من جراء أمراض خبيثة، يقال إنها من نوع مرض هيرودس.

إن مركز الأمان الوحيد هو في وضع المسيح أمامنا كالغرض الأوحد الذي يملك علينا. وكلما ثبتنا النظر فيه كلما انطبعت صفاته في نفوسنا، وكلما استطعنا أن نعكسها بوضوح للآخرين. إذا نظرنا إليه فإننا نستنير، أما إذا جعلنا أمام نفوسنا غرضًا آخر فإننا نبقى في الظلام. إن السحب التي توجد في قلب المسيحي من جراء مشغوليته بذاته فيها شيء من ظلال ذلك الظلام الدامس الذي نجده في التعصب البابوي الأعمى. لكي نكون شهودًا

حقيقيين للمسيح السماوي يجب أن نكون سماويين في أفكارنا وفي طرقنا، وهذا لا يتأتى لنا عن طريق المجهود الشخصي، بل عن طريق المشغولية بالمسيح السماوي بحسب ما يعلن لنا الروح القدس عن شخصه. فالسؤال المهم هو هذا: ما هو اتجاه العين؟ لأنه بحسب اتجاهها يتجه القلب، وتبعًا لذلك تتجه القدمان.

«لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلِّصة لجميع الناس، معلِّمة إيانا أن ننكر الفجور والشهوات العالمية، ونعيش بالتعقل والبر والتقوى في العالم الحاضر، منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلِّصنا يسوع المسيح، الذي بذل نفسه لأجلنا لكي يفدينا من كل إثم، ويطهِّر لنفسه شعبًا خاصًا غيورًا في أعمال حسنة» (تي ٢: ١١-١٤). هذه هي الصورة العملية للمسيحية من وجهيها السلبي والإيجابي.

الفصل التاسع والأربعون

الإصلاح في سويسرا الفرنسية

عندما نتتبع حبل نعمة الله الفضي في تاريخ أعمال الروح القدس نؤخذ بالأشكال المتنوعة التي تتخذها تلك الأعمال في البلدان المختلفة. فقد كنا نتأمل الآن في بلاد سماؤها محمرة بلهب الاستشهاد، وأرضها مشبعة بدماء القديسين. وهكذا كان تاريخ كل مملكة كان فيها نظام التفتيش. وفي ألمانيا حيث لم يدخل ذلك النظام كان الصراع بين الأمراء والسلطة الإمبراطورية. أما في سويسرا فكان موضوع الاختيار بين استبقاء الديانة البابوية أو قبول تعاليم الإصلاح موكولاً في كثير من الأحيان إلى التصويت. وهذه الطريقة لتقرير دين الدولة توضح بكيفية بارزة الصفة الجمهورية التي للحكومة السويسرية.

في سويسرا الألمانية كان المصلحون البارزون من أهل البلاد نظير زونجلي وأكولامبديوس وبولنجر وهالر ووتنباخ وغيرهم، أما في سويسرا الفرنسية، فكانت الآلات التي استخدمها الله من الأجانب، إذا استثنينا شخصًا واحدًا. وهناك رجل فرنسي يُدعى وليم فارل هدم بمفرده تقريبًا البابوية في عدة مقاطعات فرنسية، قبل أن يصل إلى جنيف أو يرى يوحنا كلفن. ودوبينيُ المؤرخ يتكلم عن فارلِ كلوثر سويسرا الفرنسية ويقارن كلفن بملانكتون.

ولد هذا الرجل العظيم وليم فارل من عائلة غنية نبيلة في مدينة جاب من أعمال دوفيني عام ١٤٨٩م، ورباه أبواه التقيان بكل نشاط على ممارسة الطقوس البابوية بكل أمانة. وإذ كان بطبيعته مخلصًا مستقيمًا وغيورًا، أمينًا لمعتقداته، كان يدعو العذراء ويستعين بالقديسين ليلاً ونهارًا كما كان يروي عن نفسه، وكان شديد التمسك بالأصوام التي رتبتها الكنيسة، وكان ينظر إلى بابا روما كإله على الأرض، وإلى الكهنة كمن بواسطتهم وحدهم تأتي جميع البركات السماوية، كما كان ينظر إلى الذين لا يظهرون غيرة مثل غيرته في التمسك بهذه الأمور كما لو كانوا ملحدين[91]

فجر تاريخ وليم فارل

بعد أن تلقى وليم فارل جزءًا من علومه في دوفيني أخذ تصريحًا من والديه أن يكمل علومه في جامعة باريس، التي كانت تعتبر في ذلك الوقت أمًا لجميع العلوم ونورًا حقيقيًا لامعًا للكنيسة. وكان أستاذ اللاهوت هناك هو جيمس ليففر دكتور إيتابل، وأشهر دكتور في السوربون. ولقد استمالت تقوى ذلك الأستاذ وغزارة علمه قلب وليم فارل الصغير. ومن قلب السوربون جاهر بغير وجل قائلاً "إن الديانة الصحيحة لها أساس واحد وغرض واحد ورأس واحد، هو يسوع المسيح المبارك إلى الأبد، فلا يليق أن ننسب أنفسنا إلى القديس بولس أو أبولس أو بطرس، لأن صليب المسيح وحده هو الذي فتح أبواب السماء وأغلق أبواب الجحيم". من ثم نرى أنه في عام ١٥١٢م هكذا مبكرًا أعلنت تعاليم الإصلاح الرئيسية أمام أعظم علماء السوربون. وبذلك صارت الجامعة في حالة ثورة فكرية، فالبعض أعجب بتلك التعاليم، والبعض الآخر قاومها. وكانوا يجتمعون جماعات جماعات كل يوم لمناقشة التعاليم الجديدة بشغف واهتمام.

ولكن كان بين الجموع المزدحمة للاستماع في قاعة المحاضرات شخص أعد الرب قلبه لكلمة الحياة، هو وليم فارل. ولقد اضطربت نفسه عندما سمع بأن نوال الخلاص هو بالإيمان بيسوع المسيح وحده، وأن الأعمال بدون إيمان باطلة، فكان يفكر في التعاليم والعوائد التي كان يسير عليها في البيت، ويتذكر رفقاءه الأولين وصلواته وآماله وسائر ذكرياته الطيبة. إلا أن تصريحات الكتاب المقدس قد أحدثت في نفسه تأثيرًا أعمق واقتناعًا أشد وأثبت. وفي بحثه وراء الحق درس كلمة الله باللغات الأصلية، فأشرق النور على نفسه إذ رأى أن الأمر لا يحتاج إلا إلى الرب يسوع وحده – يسوع وحده. وقد صرح

قائلاً "كل شيء يظهر لي الآن في شكل جديد، فكلمة الله واضحة، والنبوات مفتوحة أمامي، والرسائل تلقي نورًا ساطعًا على نفسي. وإني أسمع صوتًا لم أعرفه من قبل، صوت الرب يسوع راعيَّ وسيدي ومعلمي يتكلم إليَّ بقوة. وعوضًا عن القلب الأثيم، قلب الذئب الكاسر، أعطاني قلبًا وديعًا هادئًا. فما أعظم التغيير الذي حصل لي الآن. لقد انسحب قلبي عن البابا تمامًا وأعطى بجملته ليسوع المسيح".

ووليم فارل، على ما نعلم، هو أول من اعترف بالتعاليم المصلحة في فرنسا، وقد تجدد في جامعة باريس المشهورة بتمسكها بالديانة البابوية. وكان فارل وليففر يكنان لبعضهما صداقة متينة دامت مدى الحياة، وسنلتقي بهما مرة ثانية عند كلامنا عن الإصلاح في فرنسا. وعندما اضطُهدا في باريس بسبب تعاليمهما دعاهما أسقف مو وليم بريسونيه لزيارته، وهو رجل تقي صافي الذهن، وحثهما على التبشير بالإنجيل إلى شعبه. وقد اجتمعت جماهير كثيرة لتسمع، وعندما سمعوهما يحرضانهم بشدة أن يعطوا – لا أموالاً للكنيسة – بل قلوبهم للمسيح أخذت الدهشة والحماسة منهم كل مأخذ. إلا أن كهنة الأبروشية ورهبانها إذ رأوا إيرادهم يضعف وأرباحهم تتضاءل أثاروا عليهما شيطان الاضطهاد، فما كان على المبشرين إلا أن يهربا لحياتهما في الحال. وفارل إذ ترك مو ذهب للتبشير بالإنجيل في دوفيني، ويقول فيليس "إن ثلاثة من إخوته قبلوا تعاليمه وشاركوه في إيمانه، وإذ شجّعه هذا النجاح ذهب للتبشير من مدينة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر. وإذ حرّكت تعاليمه البلاد بأسرها فكر الكهنة في إثارة الشعب ضده. ولكنه لم يكن الرجل الذي يثني الاضطهاد عزمه، بسبب صفاته من جهة وسنه في ذلك الوقت من جهة أخرى، وإنما زاده الخطر إقدامًا وحماسًا، وحيثما وجد مكانًا ليضع قدمه، سواء على شواطئ الأنهار أو رؤوس الصخور أو عند مجاري السيول، كان يجد شخصًا ليبشره، وإذا ما هددوه كان يقف ثابتًا، وإذا ما حاصروه كان يهرب، وإذا ما طردوه من مكان كان يظهر في مكان آخر، وأخيرًا عندما وجد نفسه محاصرًا من جميع الجهات سار في الطرق الجبلية ذاهبًا إلى سويسرا، فوصل إلى بازل في أوائل عام ١٥٢٤م".

كرازة فارل في سويسرا

اضطر فارل أن يترك بازل بسبب عداء الإكليروس الكاثوليكي له، بعد أن ارتبط هناك بصداقة متينة لم يفصلها إلا الموت ببوشر وكابيتو وأكولامبديوس وآخرين، وذهب إلى مونتليارد حيث عمل بكل غيرة ونجاح محوطًا بحماية دوق ألريك، حتى أنه في مدى سنتين قبلت المقاطعة كلها التعاليم الجديدة، ولا يزال سكانها إلى اليوم من البروتستانت بوجه عام. أما في نيوشاتل فكانت المقاومة عنيفة لدرجة لم يستطع معها أن يمكث إلا وقتًا قصيرًا. بعد ذلك كانت دائرة خدمته في أيجل، وكانت تلك المدينة في ذلك الوقت ضمن دائرة برن القضائية تحت حكومة البرانس. وإذ كانت تلك الحكومة مناصرة للإصلاح أرسلت إليه مرسومًا بتنصيبه راعيًا لأيجل. وهو إذ أخذ هذا الترخيص من حكومة برن القوية بدأ يبشر في الحال، الأمر الذي سبب رعبًا كبيرًا للرهبان وسرورًا عظيمًا لكثيرين من الذين سمعوه. يقول التاريخ "لو كان قد سقط من السحاب لما صار الكهنة أكثر رعبًا ولا الشعب أشد دهشة، فنظرته الجريئة، وعيناه المتوقدتان، وصوته الذي يشبه الرعد، وكلماته السريعة الفصيحة المطبوعة بجلال الحق، وصلت إلى الضمائر وزادت في عدد الذين كانوا مهيئين في وادي أيجل لاتخاذ كلمة الله كمرشدهم الوحيد"(٢/٧٨).

على أن الكهنة والطبقات الوضيعة التي تتبعهم قاموا بهياج عظيم، وكان الحاكم يعضدهم بصفة سرية، وقد أهانوا فارل بكل وسيلة في وسعهم، ورفضوا إطاعة حكومة برن في هذا الأمر، إذ اعتزموا أن يحافظوا على ديانتهم القديمة. ولكن كثيرين قبلوا الإنجيل في ذلك الوقت وجاهروا بالتصاقهم بفارل واستعدادهم للدفاع عنه، إلا أن فارل حقنًا للدماء، لأن الأمور كانت على وشك أن تؤدي إلى إسالتها، انسحب بهدوء وبشر بالإنجيل في أماكن أخرى كانت خاضعة لحكومة برن. ومع ذلك فقد رجعوا كالعادة إلى التصويت للفصل في الأمر، فكانت النتيجة أن الأغلبية في أيجل كانت في جانب الإصلاح.

وفي ربيع عام ١٥٣١م رجع فارل إلى نيوشاتل معتزمًا أن يتمم غزواته هناك. ومن أول زيارة هناك انتشرت تعاليم الإصلاح بين الشعب انتشارًا واسعًا، فصاح الكهنة كعادتهم وعملوا كل ما في وسعهم لإثارة الهياج، فدقوا الناقوس لتنبيه الحكام والشعب كما لو أن جيشًا مغيرًا قد وصل إلى الأبواب، ولكن كثيرين اجتمعوا حول فارل وأرغموه على ارتقاء منبر الكاتدرائية بالرغم من كل مقاومة. وكانت عظته بالغة منتهى القوة، حتى أنه عند انتهائها صاح كل الشعب قائلاً "سنتبع العقيدة البروتستانتية نحن وأولادنا، وفيها سنعيش ونموت". فهاج الكهنة والرهبان، وطلبوا قتل فارل، ولكن الشعب صمم على الفصل في الأمر بالطريقة القانونية، وتقدموا

بأنفسهم إلى حاكم ونواب برن للتصويت في موضوع ما إذا كانت الديانة الرومانية أو البروتستانتية هي التي تكون ديانة نيوشاتل الرسمية. ففاز الإصلاح بأغلبية ثمانية عشر صوتًا. على أنه لم يرغم أحد على ترك البابوية، إنما تثبت الإصلاح بصفة رسمية.

تلك كانت طبيعة عمل فارل في قطاعات سويسرا التي تتكلم الفرنسية عند سفح جورا وعلى شواطئ بحيراته. على أن هذا لم يكن بالعمل الهين في تلك الأيام، بل لقد قابل فارل في كل مكان مقاومات عنيفة من الكاثوليك، وكثيرًا ما ثار ضده الرعاع بإيعاز من الكهنة، حتى لقد اعتبر هذا سببًا كافيًا لدق الناقوس، وإعطاء إشارات الخطر، مما أوجب السكان أن يخرجوا من بيوتهم مندفعين إلى مشهد الهياج. وكم كانت تلك المناسبات قاسية على نفس فارل ونفوس معاونيه في العمل، ففي فالنجن مثلاً قُبض عليه وضُرب ورُجم بالحجارة، وزُج به في كنيسة وطلب منه أن يركع أمام تماثيل القديسين، وإذ رفض ضربوه مرة أخرى بقسوة ووحشية، حتى تركت قطرات دمه آثارًا متصلة على جدران الكنيسة، وأخيرًا ألقوه في السجن، ولكن أطلق سراحه بعد ذلك بوساطة أصدقائه في نيوشاتل. وقد قوبل بمثل هذه المعاملة في سانت بليز حتى تشوه جسمه لدرجة تعذر فيها على أصدقائه تمييز شخصيته. إلا أنه بعد أن صرف وقتًا في مورات للعلاج ذهب إلى أورب للتبشير.

من الناحية الأخرى نرى أن من اعتنقوا التعاليم الجديدة كانوا غالبًا يتعجلون في تحطيم رموز العقائد القديمة، وكان هذا العمل كثيرًا ما يتخذ صورة الانتقام العام، فكانوا يدخلون الكنائس ويهدمون المذابح ويحطمون التماثيل ويمزقون الصور. وكم سقطت أمامهم نُصب ثمينة وآثار قيمتها الفنية لا تقدر. ولكن لم توجد في تلك البلاد البدائية محاكم تفتيش ولا مفتشون بين الشعب البسيط المشتغل برعاية ماشيته على الجبال أو زراعة الحنطة وغرس الكروم في أوديته الخصبة، ولا وجد هناك "ألفا" بأعوانه الأسبان المتوحشين ليذبحوا ويحرقوا ويخربوا، وكانت ثوراتهم عادة بدون إراقة دماء، وكان الفوز فيها في غالب الأحيان في جانب الإصلاح(٣/٤٤)،(٢/٧٢)،(٢/٧٨).

فارل يصل إلى جنيف

وجّه فارل شطره يم جنيف، التي اعتبرها فيما بعد مركزًا لنشاطه، وكان أهل جنيف يصارعون منذ مدة من الزمن مع دوق سافوي ومع الأسقف المنافق لأجل الحصول علي الحرية السياسية، ذلك الصراع الذي استشهد فيه في سبيل الحرية برتلييه وبونيفار ولِفْرير. إلا أنه كان أمامهم الآن صراع جديد لأجل حرية أسمى وأقدس.

وصل فارل إلى جنيف في خريف عام ١٥٣٢م يصحبه أنطوني سونييه، وبيده خطابات توصية من حكومة برن. وبما أن جنيف صارت من ذلك الوقت المركز الثاني للمسيحية المصلحة فإننا نقتبس للقراء جزءًا مما دبجه يراع مؤرخ البروتستانتية بخصوص مركز تلك المدينة وحالتها الكنسية "لا يوجد في سويسرا واد أروع من حوض نهر الرون، الذي تتكون من فيضاناته بحيرة ليمان ذات الشواطئ البديعة. فإذا ما توجه الإنسان صوب مشرق الشمس يرى عن يمينه سلسلة جبال الألب الشامخة البيضاء، وعن يساره وادي جورا الأخضر. وهذه السلسلة البديعة تحيط بمشاهد متنوعة، أروعها مشهد البحيرة الزرقاء كزرقة السماء، الساكنة كالمرآة، وعلى ضفافها عدة فيلات جميلة وجملة مدن بديعة كأنها غارقة وسط خضرة الحدائق الغنّاء والكروم الكثيرة... وتطل على غابات الكستناء والصنوبر، تلك القمم العظيمة المكسوة بحلة من الثلوج الناصعة لا تقل جمالاً عن حلة السهول المكسوة بأزهار الوادي اليانعة.

على أن تلك البلاد الخصبة البديعة كانت في ذلك الوقت من أقوى حصون البابوية، فكان وادي بحيرة ليمان مزدحمًا بالكاتدرائيات والأديرة الغنية، والمزارات الشهيرة التي يحج إليها كل عام جيوش من الحجاج. وكانت تلك الأماكن بمثابة حصون استطاعت روما بواسطتها أن تحتفظ بسيادتها على تلك البلاد. وكان كل حصن من تلك الحصون يعج بجماهير الكهنة والرهبان كأنهم حاميات حربية.

ففي جنيف وحدها كان يوجد تسعمائة كاهن، وفي المدن والقرى الأخرى المحيطة بالبحيرة، وعند سفح جبل جورا لم تكن أقل من ذلك. وحيثما توجهت كنت تشاهد القلانس والهامات المحلوقة وملابس الكهنوت ونقاب الراهبات. وذلك الجيل من الرجال المحلوقي الهامات والنساء المقنعات كان يكوّن ما يسمونه الكنيسة. والأموال التي كانوا يفرضونها على السكان العلمانيين ويسلبونها منهم، والاحتفالات والأناشيد والتعاويذ، والصفعات التي كانوا يردونها إليهم مقابل تلك الأموال كانت تكوّن ما يسمونه الديانة"(٢/٧٨).

تلك كانت الحالة الأدبية والكنسية لمدينة جنيف عندما دخل إليها فارل وسونييه. وإذا أضفنا إلى ذلك الوصف لأسراب الإكليروس أن

السكان كانوا في ذلك الوقت لا يتجاوزون الاثني عشر ألفًا لحق لنا أن نندهش كيف كان يُعال هذا الجمهور النهم. ولكن الأعجب من هذا كيف أمكن لمبشر - بمفرده تقريبًا - أن يتجاسر على مهاجمة ذلك الجيش على أرضه حيث الظلام والشر؟ وجوابنا على ذلك هو أنه بمجرد الإيمان بالله الحي. لا ريب أن فارل كان مبشرًا عظيمًا، ومن أعظم مبشري القرن السادس عشر، إلا أنه كان يعتمد على الإيمان بوجود الله وبقوة روحه القدوس في الكلمة التي يبشر بها.

أول كرازة لفارل في جنيف

أول موضوع تكلم فيه فارل كان "الكتب المقدسة"، وفيه أوضح أنها هي الينبوع الوحيد الذي منه نستقي كل معرفة عن الأمور الإلهية، والسلطان الوحيد على الأرض الذي ينبغي أن يخضع له ضمير الإنسان. وقد شهّر بتقاليد الآباء وقرارات المجامع، معلنًا أن لا سلطان لها على الضمير أمام الله. وموضوعه الثاني كان عن كمال ومجانية غفران جميع الخطايا على أساس عمل المسيح على الصليب، وفيه بيّن أن ذلك الغفران مجاني لأعظم الخطاة بواسطة الإيمان بالمسيح، بينما لم يكن ممكنًا الحصول على الغفران البابوي إلا بالمال والعقوبات التكفيرية. ويمكننا أن نتصور مقدار حماس المبشّر المتقّد وهو يعمل هذه المقابلة المؤثرة بين حق الله المطلق وخرافات البابوية، وكيف آمن كثيرون بالنعمة.

لما نما هذا الخبر إلى الشمامسة والكهنة ارتاعوا جدًا، سيما وأنهم سبق أن سمعوا عن أعماله التدميرية في إقليم دي فود، وفي الحال قبضوا عليه وساقوه أمام المجلس، وكما كانت عادتهم في مثل هذه المناسبات ادعوا أنه عدو للحكومة ونافخ في بوق الثورة. فأجاب فارل قائلاً إنه ليس من عوامل الثورة وإنما هو مبشر بالحق، وإنه مستعد أن يضع حياته لأجل الحق الإلهي، ويكفي لإثبات أمانته أنه من رعايا حكومة برن، وأن من حقه أن يحاكم جهارًا وبغير محاباة، فإذا رفضوا طلبه هذا فإنهم يسيئون إلى الله وإلى الإنجيل وإلى حكام مدينة برن. وقد كان لعباراته الأخيرة قيمة كبيرة في نظر المجلس، لأن جنيف كانت في تحالف مع برن. وبناء عليه أطلقوا سراح فارل ناصحين إياه أن يمتنع عن التبشير مرة أخرى.

على أنه لم يكن ممكنًا إرضاء الكهنة بالسهولة التي اقتنع بها مجلس المدينة، فدعوا فارل وسونييه أمام محكمة أسقفية بحجة مناقشتهم في موضوع الخلاف، وحينئذ صارت حياة وليم فارل في خطر من الاعتداء عليه خفية، لولا أن رافقه اثنان من الحكام كمندوبين من مجلس المدينة. وكان بعض الكهنة يخفون أسلحتهم تحت الملابس الكهنوتية، ولكن بالرغم من هياج الإكليروس الجامح كان فارل غير هياب ولا وجل، وطلب أن تعقد مناظرة علنية فيها تسمع تعاليمه وتناقش بين هجوم ودفاع، ولكن هذا الطلب رُفض بطبيعة الحال. ومن ثم تكلم فارل بجرأة عظيمة مدافعًا عن تعاليمه، وختم بهذه الكلمات "إني لا أعترف إلا بسلطان الله الذي أنا مُرسل منه". فصرخ واحد من القضاة قائلاً "لقد جدف، ما حاجتنا بعد إلى شهود، إنه مستحق الموت. خذوه إلى نهر الرون إلى نهر الرون!! خير أن يموت هذا اللوثري الشرير من أن يعيش ويفسد الشعب". فأجاب فارل بسرعة "تكلم بأقوال الله لا بأقوال قيافا". وإذ قال هذا صرخت الجماعة بصوت واحد "اقتلوا اللوثري. اقتلوه". وأحاطوا بالمبشرين واستل الكهنة أسلحتهم، وكان كلاهما على وشك الموت لولا تدخل الحكام. وفي الحال صدرت الأوامر بمغادرتهما المدينة فورًا.

ولكن جاء هذا متأخرًا، إذ كانت حركة الإصلاح قد ابتدأت فعلاً، وكان الله عاملاً بقوة، والكهنة يحاولون إيقاف تقدم نعمة الله بلا توانٍ، على أنهم إنما كانوا يظهرون روح قائدهم. وعندما ترك المبشران المحكمة الأسقفية حُفظا بالجهد من هياج النساء اللواتي حركهن الكهنة وكن على وشك أن يذهبن بالمبشرين إلى نهر الرون بدون محاكمة وبلا رحمة، ولكن الله تداخل في اللحظة الحرجة وأرسل فرقة عسكرية أنقذت المصلحين وحرستهما حتى وصلا إلى منزلهما. وقد رأى أصدقاء الإصلاح في ذلك الوقت أن تبشير فارل جريء أكثر مما يجب، وأن اسمه صار مخيفًا للكهنة، ففكروا أن يعتكف فارل مدة من الزمن ويقوم بالعمل بدله شخص غير معروف، وبطريقة أهدإ. وقد وافق فارل على ذلك وترك المدينة شاعرًا بأنه لم يعمل إلا قليلاً، ولكنه حصل على نتيجة أكثر مما كان يفتكر. وفي الوقت نفسه وصل عدد من المبشرين لا نعرف من بينهم غير فرومنت أو فرومنتيوس، الذي تحول إلى ناظر مدرسة محاولاً أن يوصل تعاليمه إلى الآباء بواسطة الأبناء، مستعملاً لذلك إلقاء الدروس وتوزيع كتب العهد الجديد والكتب الأخرى. وكان الرب لا يزال يعمل، وقد آمن عدد من ذوي المكانة وأقبلوا إلى معرفة الحق.

فارل يرجع إلى جنيف

في شهر ديسمبر عام ١٥٣٣م دخل فارل أبواب مدينة جنيف مرة أخرى، مصممًا على أن لا يعود يتركها حتى يتأصل عمل الإصلاح فيها. وقد وصل حوالي ذلك الوقت نفسه بطرس فيريه الذي من مدينة أورب، وبذلك كان في جنيف ثلاثة من أقوى المبشرين في ذلك العصر، وهم فارل وفيريه وفرومنت. وقد تجدد الكفاح الداخلي بواسطة المصلحين، إذ مارسوا العشاء الرباني حسب رسمه الأصلي، واشترك معهم فيه بعض من أغنياء وأعيان جنيف، الأمر الذي أحدث ضجة كبيرة انقلبت إلى ثورة عنيفة.

كان الكاثوليك لا يزالون أغلبية، ولم يكونوا ليقنعوا إلا بإخماد الحركة الجديدة تمامًا، فاجتمعوا قاصدين أن يتوصلوا في النهاية إلى عمل مذبحة عامة للمصلحين. يقول وادنجتون "لقد ثبت أنه كان يقود هذه الحركة ما لا يقل عن خمسة آلاف من الكهنة المسلحين، محصّنين بتصريح واسع النطاق من الأسقف بموافقته على كل عمل يقترفونه ضد أعداء الإيمان الكاثوليكي مهما كانت الظروف". وقد انضم إلى جمهور الكاثوليك عدد من النسوة يملأن مآزرهن بالأحجار. على أن هذه الثورة قد خمدت قبل حدوث ضرر كبير، إذ اتفق وجود عدد من تجار فرايبورج في جنيف في تلك اللحظة، وهؤلاء إذ رأوا الكاثوليك يلوحون بالسيوف والأسلحة الأخرى تدخلوا ببسالة ومنعوهم من تحقيق غرضهم. وبعد ذلك بيومين صدر قرار صلح من مجلس الستين في جانب حرية الضمير، جاء ضمن نصوصه أنه "ممنوع التعليم بشيء لا يمكن إثباته من الكتاب المقدس".

ولكن شروط الصلح هذه لم تستمر إلا وقتًا قصيرًا، ففي أقل من ستة أسابيع قام الكاثوليك مرة أخرى بفتنة أشد من الأولى أعقبتها نتائج خطيرة. ويظهر أن المحرض على هذه الفتنة كان الدياكون ورالي، الذي كان رجلاً قويًا ومحاربًا عظيمًا قيل عنه إنه كان بارعًا في استخدام سيفه ومصارعًا سريع المناورة. هذا الشخص تزعم الثورة لابسًا كامل سلاحه ومستلاً سيفًا ذا حدين. وعندما أرخى الليل سدوله سرت إشاعات الحرب في الشوارع ودق الناقوس، وبحسب عادة تلك الأيام اندفع معظم السكان إلى الشوارع مسلحين، ولكن حال الظلام دون التمييز بين الصديق والعدو. وقد قتل في هذا الهياج البطل البابوي العظيم وتشتت الكاثوليك. وإذ كان ورالي من عائلة شريفة وقوية في مقاطعة فرايبورج البابوية، وجدت تلك الحكومة حجة تستند إليها للتدخل في قلاقل جنيف، فطلبت البحث عن قاتلي ورالي ومعاقبتهم، والتوسط بصفة عامة لتثبيت الديانة القائمة، وبذلك ازداد أعداء الإصلاح زيادة كبيرة ونشأت متاعب جديدة من جراء عنف دوق سافوي وغدر الأسقف(٤٤/٢٠١).

مناقشة عامة

اتجهت الأنظار من كل ناحية إلى مدينة جنيف الصغيرة، فكان البابا كليمنت السابع والإمبراطور شارل الخامس يراقبان الصراع باهتمام. ولكن كان قصد الله أن يبارك، فحول بسلطانه المطلق جميع تلك القلاقل والفتن إلى تحقيق غرض نعمته. فبعد أن تبودلت عدة إنذارات واحتجاجات بين حكومتي برن وفرايبورج استقر الرأي على عرض هذا الموضوع الخطير في مناقشة علنية.

وفي يوم ٣٠ مايو سنة ١٥٣٥م تقابل المتناظرون في القاعة الكبرى في دير ريف، وكان بطلا الكنيسة هما كارولي، الدكتور بجامعة السوربون، وكابيوس وهو دومينيكي من جنيف. بينما كان يقود الدفاع عن التعاليم المصلحة شخص اسمه برنارد، وهو فرنسيسكاني مؤمن حديثًا، يدعمه فارل وفيريه وفرومنت. وقد عين ثمانية أعضاء من المجلس للرئاسة، كما عين أربعة سكرتيرين لتدوين كل ما يقال من الجانبين. وقد استمرت المناقشة أربعة أسابيع، وكان الفوز حليف المصلحين كما كان دائمًا في مثل هذه المناسبات. وكان ذلك النصر تامًا وباهرًا جدًا، حتى أن كارولي وكابيوس اعترفا بانهزامهما، وأعلنا في حضور الجمع الحاشد اعتناقهما لمبادئ الإصلاح، وتبعتهما جماهير كثيرة معترفين بإيمانهم بالحق الذي أوضحه المصلحون في المناقشة، حتى أن كثيرين من رجال الإكليروس، ومن الرهبان جرفهم هذا التيار.

ولكن روما لم تكن لتيأس أو تفرغ جعبتها. فمع أن حرمانات البابا وتسلح الكهنة وشراسة النسوة جميعها قد فشلت، إلا أنه كان هناك عمل أشر ليرتكب للمحافظة على الإيمان الكاثوليكي. فقد حدث أن كان الخدام الثلاثة كارل وفيريه وفرومنت يقيمون معًا في بيت برنارد، الأمر الذي أوجد فرصة سانحة لقتل الثلاثة دفعة واحدة بالسم. فأوعز الكاثوليك إلى امرأة أن تغادر مدينة ليون

وتذهب إلى جنيف متظاهرة بالتدين، وبذلك قُبلت في بيت برنارد كخادمة، وبعد مدة قصيرة وضعت السم في الغداء الذي جهزته للخدام، ولكن لحسن الحظ تغدى فرومنت في مكان آخر في ذلك اليوم. وفارل إذ كانت صحته معتلة لم يتناول غداءه، أما فيريه فذاق الطعام المسموم ووصل إلى حافة الموت، ثم شُفي ولكن بقي تأثير السم في جسمه إلى نهاية حياته. وقد اعترفت المرأة التعسة بجريمتها، إلا أنها اتهمت قسيسًا وكاهنًا بأنهما أغرياها بالمال على ارتكاب جنايتها، ولكنهما أنكرا التهمة بقسم، فأطلق سراحهما، أما المرأة المسكينة فحُكم عليها بالإعدام.

إن فشل الكاثوليك في هذه المكيدة، وفي عدة دسائس أخرى دبروها فتح عيون الكثيرين، وعمل على تعجيل انهيار صرح الخرافات البابوية في مدينة جنيف، وأصبح الشعور العام في ذلك الوقت في جانب الإصلاح، ولكن المجلس كان أكثر ميلاً إلى أضعاف حماس الجمهور منه إلى تشجيعه. ولكن في النهاية بعد أن ظهر باليقين شعور الأغلبية الشعبية الساحقة انعقد مجلس المائتين وقرر رسميًا أن توقف إقامة القداس. وأعقب هذا القرار مرسوم عام نص فيه على أن "تؤدى الخدمات الإلهية من الآن فصاعدًا بحسب ما هو مرسوم في الإنجيل، وتبطل كل أعمال الوثنية البابوية نهائيًا". ومن ذلك اليوم كان المبشرون الإنجيليون يكرزون بحرية كاملة. بعد ذلك هوجمت الأديرة وظهرت بيانات مريعة عن الخدع التي كانت متسلطة على الأذهان هناك والخرافات التي كانت متمكنة إلى أقصى حد.

كيف كان الرهبان يخدعون الشعب

كان كثير من تلك البدع والخدع السرية قبيحًا للغاية لدرجة لا نسمح أن ندنس صفحاتنا بذكرها. ولكن يمكن لنا أن نورد واحدة منها تعتبر مسلية أكثر منها مثيرة. فقد كانت هناك أنوار غريبة أو شعلات صغيرة من النيران تظهر أحيانًا متحركة حول حوش الكنيسة في الليل، وكانت تسبب دهشة عظيمة للناس، وكانوا يتساءلون "ما عسى أن تكون هذه؟"، فكان الكهنة يجيبون برصانة: "هذه نفوس آتية من المطهر لتثير شفقة أقربائها الأحياء عليها حتى يطلبوا لها الرحمة، وهي تصرخ قائلة: ألا يجود الآباء والأمهات، الأزواج والزوجات ببعض المال لإقامة صلوات وقداديس، حتى لا نعاد إلى مكان العذاب؟". وكانت نتيجة تلك البدعة محصولاً ذهبيًا جديدًا للكهنة. ولكن ماذا كانت حقيقة تلك الأنوار الداكنة واللهب الزرقاء؟ لم تكن سوى بضع حيوانات مائية من ذوات الأصداف *ملصق على ظهورها شمعات صغيرة مضاءة، فكانت حرارتها تدفع تلك الحيوانات إلى السير والدوران. وبعد أن استنار الجمهور اغتاظ لبقائه كل ذلك الزمان مخدوعًا بهذا الشكل، فنزع الشمع وأعاد تلك الحيوانات إلى مياه البحيرة الباردة(٢/٣٩)(٢٧٨).

إلى الآن كان انتصار الإصلاح قاصرًا على مدينة جنيف، وكانت الخطوة التالية أن يمتد إلى إكليروس الأرياف، فوكل إلى بعض الخدام أن يعلموهم ويبشروا بالتعاليم الجديدة في كنائسهم. وكان هذا المشروع ذا تأثير عظيم، حتى قبل جميع سكان تلك القرى إيمان العاصمة.

تأسيس الإصلاح في لوزان

تعتبر لوزان وما جاورها من الأماكن التي تأسس فيها الإصلاح في ذلك الوقت. ولقد كان لهذه المدينة أهمية عظمى في أزمنة البابوية، إذ كانت محطًا للحجاج الذين كانوا يتجمعون هناك للسجود أمام تمثال "سيدتنا" ولمشتري صكوك الغفران، تلك التجارة التي كانت تدر مالاً وفيرًا على خزائن الكنيسة. وكانت تلك المدينة تفاخر بأن فيها فضلاً عن الأسقف اثنين وثلاثين قسيسًا، وبها دير للدومينيكان وآخر للفرنسيسكان وعدد وفير من الكهنة. ولكن بالرغم من كل تلك العدة المهيأة للتعليم الديني كانت تلك المدينة غارقة دون المستوى العادي في لجة الجهل والخرافات وشرور ذلك الزمان، ولم تأت زيارة فارل الأولى للوزان عام ١٥٢٩م بأي ثمر. غير أن مجرى الأحوال الكنسية في ذلك الوقت كان يسير بقوة في جانب الإصلاح، فلما زارها فيريه في ربيع عام ١٥٣٦م كان تأثير كرازته هكذا عظيمًا، حتى أن الجمهور حطم بعض التماثيل بغضب وسط صياح الكهنة والشمامسة. وبعد عدة مفاوضات بين برن ولوزان دعي المصلحون إلى عقد مناقشة عامة دامت ثمانية أيام متوالية، وانتهت بنفس النتيجة التي انتهت إليها مناقشة جنيف، ولذلك كان انتصار الإصلاح تامًا في لوزان أيضًا.

والنتيجتان الرئيسيتان اللتان كانتا تعقبان عادة هذه التغييرات الدينية ولا سيما عند المصلحين السويسريين هما التطهير الأدبي والتقدم العلمي. وإذ كان هؤلاء المصلحون متشبعين بروح قديسي

* سرطان البحر ذو الظهر الصدفي الصلب.

العهد القديم فقد سنوا قوانين صارمة ضد لعب القمار والتجاديف والروايات الهزلية والأغاني الفاسدة، والرقص والتنكر لأجل السخرية، وضد كل شكل من أشكال الفجور والدعارة. ونجد دائمًا أن سن مثل هذه القوانين كان يعقب مباشرة انتصارات الإصلاح في جميع الأماكن المهمة. ولقد ظهر هذا بنوع خاص في جنيف، حيث صك الأهالي عملة جديدة تخليدًا لذكرى تأسيس بروتستانتيتهم، واتخذوا لهم شعارًا قوميًا جديدًا "بعد الظلمة النور".

وصول كلفن إلى جنيف

في غضون شهر أغسطس سنة ١٥٣٦م كان بين جمهور المنفيين الذين كانوا يصلون كل يوم إلى أبواب مدينة جنيف شاب فرنسي من بلدة بيكاردي في الثامنة والعشرين من عمره، نحيل القوام شاحب اللون، ذهب هناك ليستريح ليلة واحدة ثم يرتحل في الغد؛ هذا الشاب هو جون كَلفن. ومع أنه كان حديث السن يتسم بالحياء، إلا أنه شهرته كعالم ولاهوتي ذي خبرة وصديق للإصلاح لم تكن قليلة. وكان قد ترك روما قاصدًا الإقامة المستديمة في بازل أو ستراسبرج، غير أن الحرب التي كانت مشتعلة حينئذ بين فرنسا والإمبراطورية اضطرته إلى اتخاذ طريق دائري يمر بجنيف. ولكن فارل النشيط رأى أن شخصًا ككلفن هو رجل الساعة لجنيف، فحثه على البقاء فيها، قائلاً إن إله كل نعمة قد أرسله إلى هناك في اللحظة الحرجة. فأجاب كلفن بأنه لم يتم دراسته بعد، وأنه لا يزال محتاجًا إلى كثير من التعليم والاختبار قبل أن يؤهل لشغل مركز خطير كمركز الخدمة في جنيف في ذلك الوقت، وطلب إليه أن يسمح له بمتابعة سفره إلى بازل أو ستراسبرج. وهنا رفع فارل صوته كما بسلطان رسولي معطًى من الله مباشرة وقال "ولكني أصرح لك من قبل الله بأنك إذا رفضت العمل معنا في خدمة الرب ستقع لعنته عليك، حيث أنك بتظاهرك بطلب العلم تطلب ما هو لنفسك لا ما هو للرب".

كان كلفن إلى ذلك الوقت يظن أن دائرة خدمته الخاصة هي مكتبته، وأن أداة عمله الوحيدة هي القلم، ولكن إذ شعر برهبة تصريح فارل الذي أظهر فيه مشيئة الله بكل سلطان، ذلك التصريح الصادر من رسول معتبر من رسل الإصلاح، لم يتجاسر على رفض نير الخدمة الذي وضعه عليه الرب، فمد يده إلى فارل كما سلم قلبه لعمل الرب في جنيف "وقد تعين في الحال أستاذًا للاهوت، ثم بعد ذلك بقليل خادمًا لإحدى الأبروشيات الرئيسية، وتلك الوظيفة المزدوجة أفسحت المجال لظهور مواهبه العظيمة، ومهدت السبيل لذلك المركز الفريد الذي حصل عليه فيما بعد في كل من دائرتي الكنيسة والحكومة"[٢/٣٩].

وقد خدم هناك نحو ثمان وعشرين سنة، إذا استثنينا فترة النفي القصيرة. وصار القائد العظيم للبروتستانتية ورجل الإصلاح البارز.

تاريخ حداثة كلفن

بما أن المصلح الفرنسي الشهير قد استقر الآن في جنيف، وصار من ذلك الوقت الشخصية البارزة في حركة الإصلاح العظيمة، فمن الملذ للقارئ أن يعرف شيئًا عن تاريخ حداثته. لقد ولد في بلدة نويون من مقاطعة بيكاردي في العاشر من يوليه عام ١٥٠٩م وكان أبواه متوسطي الحال، إلا أنهما كانا موضع احترام الجميع. وكان أبوه جيرار سكرتيرًا للأسقف، وكان ذا اعتبار عظيم عند الأعيان والخاصة، حتى أن ابنه جون تعلم في صغره مع أبناء عائلة مومور النبيلة.

وعندما بلغ سن الرابعة عشرة ذهب كلفن إلى باريس ودرس هناك اللغة اللاتينية في كلية دي لامارش على يد الأستاذ المشهور ماتوران كورديه الذي لم يكن أستاذًا قديرًا فحسب، بل كان على جانب عظيم من التقوى الحقيقية، والذي إذ اعتنق مبادئ الإصلاح انتقل فيما بعد إلى جنيف حيث استمر يعمل كأستاذ في الكلية العامة هناك إلى نهاية حياته، وقد مات وهو في سن الخامسة والثمانين في عام ١٥٦٤م بعد تلميذه العظيم بنحو ستة شهور.

وإذ أتم كلفن دراسته على يد كورديه انتقل في عام ١٥٢٦م إلى كلية مونتج التي كانت خاصة بتعليم الكهنة. وإذ كان ممكنًا بحسب عادة ذلك الوقت أن ينال الأشخاص حديثو السن مراكز إكليريكية سامية، كان كلفن قد حصل بمسعى والده على وظيفة قسيس لكنيسة لاجزين، وهي كنيسة صغيرة في الضواحي وهو في سن الثانية عشرة، فحلق له الأسقف هامته وأصبح عضوًا في الإكليروس.

تغير كلفن

يلذ لنا أن نرى علاقة متينة بين تجديد كلفن وبين جامعة السوربون في باريس، فقد سبق أن رأينا أن ليفبر كان واسطة تجديد فارل. والآن يظهر أنه كان هناك شاب آخر يستمع إلى محاضراته حوالي

ذلك الوقت عينه، وبواسطته حصل على معرفة الحق كما هو في يسوع، وذلك الشاب هو بيتر روبرت أوليفيتان ابن عم كلفن الأكبر منه بقليل. وأوليفيتان هذا هو الذي ترجم الكتاب المقدس فيما بعد إلى الفرنسية. وعندما وصل كلفن ابن عمه إلى باريس عرفه بالإنجيل الذي اعتنقه، ولكن كلفن الصغير كان في ذلك الوقت كاثوليكيًا متمسكًا، وكان يحصن نفسه ضد حجج ابن عمه بممارسة طقوس كنيسته ممارسة دقيقة. فقال له أوليفيتان "إن الديانة الصحيحة ليست هي تلك المجموعة من الطقوس والفرائض التي تفرضها الكنيسة على تابعيها والتي تفصل النفوس عن المسيح. آه يا ابن عمي العزيز! أترك مجاراة البابويين في صياحهم دائمًا قائلين: الآباء! المعلمين! الكنيسة! وأصغ إلى الرسل والأنبياء، وادرس الكتاب المقدس". فأجاب كلفن "إني لن أقبل شيئًا من تعاليمك الجديدة، فكونها جديدة يعثرني، فلا يمكنني أن أستمع إليك. هل تظن أني تعلمت كل حياتي تعليمًا خاطئًا؟ كلا إني سأقاوم هجماتك بكل حزم". على أن أوليفيتان وضع بين يديه الكتاب المقدس متوسلاً إليه أن يدرسه.

كانت حركة الإصلاح في ذلك الوقت تشغل الأذهان في جميع معاهد العلم، فلم يكن من همّ للأساتذة والطلاب إلا مناقشة التعاليم الجديدة. لا شك أن بعضهم كان مدفوعًا بمجرد حب الاستطلاع أو بقصد تحقير المصلحين وتفنيد تعليمهم، ولكن حدث تنبيه عام للضمائر، واستعداد للإيمان بإنجيل نعمة الله الحقيقي.

ومن حسن حظ كلفن أنه كان ضمن الفئة الأخيرة، إذ فصلته الأسفار المقدسة، ببركة الله، عن كاثوليكية روما كما فعلت بابن عمه أوليفيتان.

ولربما جاز كلفن في تدريب نفسي عميق أكثر من ثلاث سنوات من عام ١٥٢٣م حتى ١٥٢٧م. ويقول دوبينيٌ الذي هو أحسن مرجع في هذه النقطة "لم يكن ممكنًا أن يوجد كلفن المتوقد الذهن الدقيق الملاحظة وسط الحركة العظيمة الحادثة في العالم دون أن تكون له تأملات في الحق وفي الضلال وفي نفسه. فكثيرًا ما كان يخلو بنفسه، وإذ تنقطع عنه أصوات الناس يسمع صوتًا أقوى يتكلم إلى قلبه، فتصبح غرفته مسرحًا لمصارعات نفسية عنيفة كتلك التي كانت تجري في صومعة لوثر في إرفورت، فقد وصل كلا المصلحين العظيمين إلى بر السلام والهدوء بعد عبور العواصف. إلا أن تجديد كلفن لا نرى فيه الإثارة واللذة التي وجدها الجميع في تجديد لوثر، وذلك بسبب عدم تسجيل التفصيلات، فلم يمكن العثور على الخطابات التي كتبها لوالده في ذلك الوقت، ولا الخطابات التي كتبها أوليفيتان لأصدقائه". ويقول تيودور بيزا أخص أصدقائه "إذ تعلم كلفن العقيدة الصحيحة بواسطة أحد أقربائه المدعو بيتر أوليفيتان، وإذ درس الكتاب المقدس بإمعان، ابتدأ ينظر برعب إلى تعاليم الكنيسة الرومانية، وعزم على الانفصال عن شركتها". هذه كلمات صديقه، ولكنه قال هو نفسه ما هو أقوى من ذلك فيما بعد "لما كنت عبدًا عنيدًا لخرافات البابوية، وكان مستحيلاً بحسب الظاهر إخراجي من طين الحمأة، أخضعني الله بتغيير فجائي وجعل قلبي أكثر طاعة لكلمته".

من هنا نرى الحلقات الروحية المختلفة التي ربطت جامعة السوربون بالمصلحين الأوائل العظام. يقول دوبينيٌ "كان فارل طليعة الإصلاح في فرنسا وسويسرا، وقد هجم على الغابة وأسقط وحوشها بسيفه. وبعده جاء كلفن الذي وإن كان يختلف عن ملانكتون في صفاته إلا أنه يشبهه في خدمته كلاهوتي وكمنظم. هذان الرجلان قد شيّدا وثبّتا ونظما ما افتتحه المصلحان الأولان". ويتكلم بيزا عن ليففر كالرجل الذي "ابتدأ نهضة ديانة يسوع المسيح الصافية بكل شجاعة، ومن قاعة محاضراته أخرج كثيرين من أحسن رجال العصر ورجال الكنيسة"(١/٩٢)(٢/٩٣)

كلفن كطالب حقوق

إن النور الإلهي الذي ملأ نفس كلفن كشف له عن الظلمة الدامسة التي تغمر كنيسة روما، التي كان ينظر إليها قبلاً كعظمة تخلب العقول، ويعتقد أنها مسكن الله وباب السماء، ولكن أصبح يراها بعينيه المفتوحتين حديثًا كهيكل الأوثان وباب الجحيم، ونستخلص هذا من عدم استطاعته أن يستمر في خدمة مذابحها واستقالته من منصبه الإكليريكي. ومن حسن حظه أن كان هذا بموافقة والده، فاتجه مباشرة إلى دراسة الحقوق في أورليانز وفي بورج، إلا أن دروس القانون لا بد أن رفضها ذوق ذاك الذي كان قد هرب حالاً من لهب الاستشهاد في باريس، فكان أستاذه يقول "من واجب الحاكم أن يعاقب على الجرائم التي ترتكب ضد الدين، كما على الجرائم ضد الحكومة"، ثم يزيد على ذلك قائلاً "أنشنق اللص الذي يسلب أموالنا ولا نحرق الهرطقي الذي

يسلبنا السماء؟". ولا شك أن هذا المبدأ عندما لقنه الكهنة للشعب بإسهاب وإطناب كان يفسد مشاعرهم ويسلبهم العاطفة، ويجعلهم يوافقون على إعدام الهراطقة. هذا هو التعليم الذي كان يتلقنه كلفن وجميع الفرنسيين في ذلك الوقت. وإذ كان له صورة العدل وأنه ما وُضع إلا لحماية الديانة الحقيقية فقد تملك على العقول الخرافية، وكان يمكن أن يؤثر على ذهن كلفن أكثر مما تصور.

كلفن يهجر دراسة الحقوق

عندما كان كلفن في بورج هجر دراسة القانون وعاد إلى الكنيسة كما قد رآها حديثًا في الكتاب المقدس، وشرع في دراسة اللغة اليونانية والعبرية والسريانية حتى يستطيع فهم العهد القديم بكيفية أدق وأوفى، لأن دراسة اللاهوت كانت لا تزال غايته المحبوبة. وكان له شوق أيضًا إلى توصيل الحق، الذي آمن به ووجد فيه لذته، إلى الآخرين، فكان المستمعون يزدحمون حوله حتى تعذر عليه أن يتمتع بعزلته المحبوبة. وقد قال عن نفسه "إني بطبيعتي ميال إلى الانزواء والسكون، فابتدأت أبحث عن مكان منعزل ووسيلة بها أنسحب من العالم، ولكن هيهات أن أحصل على أمنيتي، فكل الزوايا النائية والأماكن المنفردة صارت لي مدارس عامة".

ولكنه لم يكن من أولئك الذين يكتمون ما يعتقدون، فكان يبشر في الاجتماعات السرية في بورج وفي باريس. ويقول عنه تيودور بيزا "إنه عمل على تقدم أمور الله بكيفية عجيبة وسط عائلات كثيرة، معلمًا الحق بلغة بسيطة، لأنه كان دائمًا يمقت التكلف والتصنع، ولكن برزانة في الكلام وتعمق في المعرفة، حتى أن كل من سمعه امتلأ عجبًا".

تجاسر كلفن مرة أخرى على الذهاب إلى باريس، إذ كان يشتاق أن تكون فرنسا الدائرة وباريس المركز لعمله. ولكن قسوة الاضطهاد اضطرته أن يخفي نواياه بل ونفسه أيضًا. وكان في ذلك الوقت في سن الرابعة والعشرين وممتلئًا غيرة ونشاطًا. وكان أحد أصدقائه نيقولا كوب من مدينة بازل وهو الطبيب الأول للملك ورئيس جامعة باريس، وكان على هذا الصديق أن يلقي خطابًا في يوم "جميع القديسين" كالعادة المتَّبعة، فقال له كلفن "يا لها من فرصة سانحة للتبشير بالإنجيل من فوق أكبر منبر علني في المسيحية". ولكن إذ شعر كوب أنه ليس كفوًا لتحضير مثل هذا الخطاب كلف كلفن بكتابته. وفي يوم أول نوفمبر عام ١٥٣٣م وقف رئيس الجامعة وألقى خطابه وسط علماء باريس، الذين أصغوا إليه بسكون ودهشة، وقد نسي كلفن أن يذكر شيئًا في الخطاب عن القديسين مع أنه كان يوم "جميع القديسين" بل حصر جهده في تعظيم نعمة الله كالأمل الوحيد لخلاص الإنسان وغفران خطاياه بواسطة ذبيحة المسيح الثمينة.

ولما انفرط عقد الاجتماع ثارت العاصفة، إذ اعتبروا هذا الخطاب خيانة عظمى ضد القديسين، وضربة شديدة على أساسات روما. ولكن كوب كان هو الطبيب الأول للملك وشخصية محبوبة ومقربة، فما العمل؟ شكته السوربون إلى البرلمان وإلى جلاد الهراطقة، وإذ رأى كوب الخطر محدقًا به هرب إلى بازل، وبذلك نجا من لهب الاستشهاد وانتهت مسألة كوب، ولكن صديقه كلفن اتُّهم بأنه الواضع الحقيقي للخطاب، وصدر الأمر إلى الضابط المجرم المشهور بقسوته يوحنا مورين بالقبض عليه. وإذ كان جالسًا في عزلته يظن أنه في مأمن دخل عليه أحد زملائه مهرولاً ومتوسلاً إليه أن يهرب فورًا، حيث أن الضباط على الباب الخارجي، فتدلى من النافذة بواسطة ملاءة وهرب. ثم ارتدى زي فلاح وحمل فأسًا على كتفه ووصل إلى بلدة أنجوليم منتحلاً اسم شارل هيفيل. وهناك قبله القس لويس دي تيليه في بيته، حيث مكث مدة من الزمن ومكتبة القس الغنية متاحة له.

نشر "المبادئ المسيحية"

كان كلفن في ذلك الوقت مشغولاً بكتابة مؤلفه العظيم عن المسيحية، الذي ربما جمع بعض مواده من مكتبة دي تيليه، ولكن إذ كانت حياته في خطر انتقل إلى بازل مدينة الملجأ للفرنسيين المنفيين في ذلك الوقت، وهناك أكمل ونشر أشهر مؤلفاته "مبادئ المسيحية". وقد ظهر هذا الكتاب في شهر أغسطس عام ١٥٣٥م.

يقول فيليس "كان هذا الكتاب أول أثر لاهوتي وأدبي لحركة الإصلاح الفرنسية. وإذ انتشر انتشارًا واسعًا في المدارس وقصور الأعيان ومنازل النواب، حتى في المصانع الأهلية، أصبح بمثابة مبشر قوي، بل أقوى المبشرين. وقد التف المصلحون حول هذا الكتاب كتلة واحدة كما حول المثل الأعلى، فقد وجدوا فيه كل شيء من تعليم وتهذيب وترتيب كنسي. وهكذا أصبح المدافع عن الآباء مشرعًا لأبنائهم". وفي الرسالة التي بها أهدى

الكتاب إلى فرنسيس الأول توسل إلى الملك أن يفحص كتاب الاعتراف بإيمان المصلحين، فإذا ما وجده مطابقًا للكتاب المقدس لا يعود يعاملهم كهراطقة فيما بعد. فيقول للملك "من واجبك يا مولاي أن لا توصد باب قلبك وفكرك دون دفاع عادل كهذا، لا سيما والموضوع على أعظم جانب من الأهمية، لأنه يختص بكيفية المحافظة على مجد الله على الأرض... موضوع يستحق اهتمامك واهتمام مملكتك وعرشك الملكي". ولكن هناك أدلة كافية على أن الملك لم يتنازل ويقرأ حتى مقدمة الكتاب.

كان كلفن في ذلك الوقت القائد المعترف به لحركة الإصلاح في فرنسا، لأن لوثر كان بعيدًا، وفارل كان حارًا أكثر من اللازم، أما كلفن فكانت له الأخلاق المتينة والعواطف الحية التي تناسب فرنسا. وقد زار حوالي ذلك الوقت رينيه الفرنسية الذائعة الصيت بنت لويس الثاني عشر ودوقة فيرارا التي هي من أولى المقاطعات الإيطالية التي قبلت الإصلاح. وكانت رينيه قد قبلت الإنجيل الصحيح مثل بنت مرجريت التي من فالوا، وصارت محامية عن المصلحين المضطهدين في إيطاليا، حتى تحملت هي نفسها فيما بعد اضطهادًا قاسيًا مع أنها ابنه ملك. وهذه الزيارة أنشأت صداقة لم تنفصم عراها، حتى أن كلفن أرسل إليها خطابًا وهو على فراش الموت *.

وفي عام ١٥٣٦م عُيِّن كلفن راعيًا وأستاذًا في جنيف. ويضيق نطاق هذا المختصر عن وصف النهضة الدينية والأدبية والفكرية، بل وحتى السياسية، التي أتى بها معه إلى تلك المدينة. على أن كثيرين قد كتبوا عن حياته ومعظم أعماله، ولكننا سنستخلص منها ما يدخل في مشروع هذا المختصر.

سرعان ما وجد كلفن أن المركز الذي دعي لأن يشغله لم يكن هيِّنًا، لأن الشعب كان قد صعد حديثًا من حمأة الجهل والخرافة والفساد الأدبي الذي ظلت المدينة منغمسة فيه عدة قرون. ولا ريب أن شر التسعمائة كاهن قد طبع صورته على أخلاق السكان. ولكن كلفن وفارل عملا بكل همة على توبيخ جميع المفاسد والملاهي الخليعة بكل شدة وحزم في السر والعلن، فلم يكونا عدوين ظاهرين لأقل أثر من آثار البابوية فقط، بل كانا من أدق الأدبيين أيضًا، ولو أن غالبية الشعب لم يكونوا مهيئين بعد لإنكار الذات بهذه الصورة. لقد حاربوا بشدة لطرح نير روما ونير دوق سافوي، والآن كان عليهم مقاومة ما اعتبروه نيرًا أقسى منها جميعًا، وهو فرض نظام أدبي كنسي متزمت وطرح كل مسراتهم، حتى أن كثيرين ممن اعتنقوا تعاليم الإصلاح ظاهريًا لم يكونوا مهيئين قلبيًا لاتباع نظام كلفن. وكانت فكرته ترمي إلى اعتبار الحكومة تحت رئاسة الله، وإلزام الناس أن يعيشوا طبقًا لناموس الله تحت التهديد بدينونات العهد القديم.

كلفن وفارل يُنفيان من جنيف

سرعان ما زُج بالخدام المصلحين كما كان مُنتَظرًا في منازعات عنيفة مع الجماهير. ولا شك أنهم كانوا مخطئين في محاولاتهم أن يقيدوا شعبًا كان معتادًا أن يعيش على هواه بنظام ضيق دقيق بدون تدريب أدبي كاف وإعداد قلوبهم بواسطة نعمة الله.

بمجرد أن استقر كلفن في جنيف وضع خطة للتعليم والسلوك المسيحي، وأخذ على عاتقه مع بقية الخدام أن يحرضوا الشعب على وجه العموم في اجتماعاتهم الجهارية أن ينبذوا البابوية، ويقسموا على انتهاج الخطة المرسومة لهم في التعليم والسلوك. وإذ رفض الكثيرون ذلك نشأت الاضطرابات ونشطت روح الحزبية. وإذ كان الخدام متشددين رفضوا أن يمارسوا العشاء الرباني بين الشعب، والشعب من ناحيته صمم على نفي الخدام وحرمانهم من منابرهم.

وفي عام ١٥٣٨م. ترك الخادمان المنفيان بقلوب حزينة المدينة التي بذلوا فيها جهودًا كبيرة، وذهب فارل إلى نيوشاتل حيث كان قد عمل قبلاً، وبقي هناك حتى نهاية أيامه. وقد نجح هناك في إقامة النظام الذي قاومته جنيف، وخدم الرب وكنيسته بكل نشاط واجتهاد حتى عام ١٥٦٥م، الذي فيه رقد في الرب يسوع وهو في سن السادسة والسبعين.

كلفن في ستراسبرج - عمله وزواجه

استأنف كلفن سيره إلى بازل ومنها إلى ستراسبرج التي دعاه إليها بترحاب راعيا المدينة بوشر وكابيتو. وفي الحال عُين أستاذًا للاهوت وراعيًا لجماعة مكونة من اللاجئين الفرنسيين. ولا شيء يدلنا على مقدار شدة الاضطهاد الذي كان مشتعلاً في فرنسا في ذلك

* يعطي ماك كري تفاصيل ممتعة عن حياة هذه الأميرة الفاضلة المحبة في كتابه "تاريخ الإصلاح في إيطاليا"(٨١).

الوقت أكثر من أن خمسة عشر ألف شخصًا من المنفيين الفرنسيين كانوا يجتمعون حول كلفن ليسمعوا الإنجيل بلغتهم الأصلية. فإذا كان قد وجد في ستراسبرج وحدها خمسة عشر ألفًا فكم عدد الذين هربوا إلى إنجلترا وألمانيا والبلاد الأخرى. وهناك اشتغل كلفن في الكرازة والكتابة لمدة ثلاث سنين، وقد وافق ذوقه رقي المجتمع وزيادة تهذيبه عن المجتمع الذي تركه في جنيف، وكان ذلك بلسانًا لقلبه المكلوم. وهناك أعاد نشر كتابه عن "مبادئ المسيحية" موسعًا، وكتب تفسيره لرسالة رومية ونبذة عن عشاء الرب.

ومما يدل على سعادة ذلك المؤدب الشديد التدقيق في ستراسبرج أنه وافق على الزواج، إذا أمكن لأصدقائه أن يجدوا له زوجة مناسبة. وأول سيدة ذكروها له كانت من عائلة شريفة وغنية، ولكن كلفن عارض في الزواج بمن هي أعلى منه درجة. ومع ذلك قال إنه إذا قبلت السيدة أن تتعلم اللغة الفرنسية يعطي رأيه النهائي، ولكن السيدة لم تقبل وبذلك انتهى موضوع. كانت هذه المشورة الأولى. ثم اقترحوا عليه اسمًا آخر، وفي هذه المرة خطا كلفن نفسه بعض خطوات في الموضوع، ولكنه لحسن الحظ اكتشف في الوقت المناسب أسبابًا كافية لعدم التقدم أكثر. أخيرًا بمشورة صديقه بوشر تزوج إيدوليت دى بير، وهي أرملة على جانب عظيم من التقوى العميقة والشجاعة المسيحية. ولا شك أن القارئ ستحضره في الحال المقابلة بين زواج لوثر الذي أجراه باندفاع وفي غير أوانه، وبين مفاوضات كلفن هذه. وفي هذا الأمر نرى الطابع المميز لكل من المصلحين العظيمين (٢/٧٨).

رجوع كلفن إلى جنيف

بينما كان كلفن مستخدمًا بنجاح مبهج في ستراسبرج كان التشويش قد ضرب أطنابه من الناحيتين السياسية والدينية على ضفاف بحيرة ليمان، فإذ وجد الإباحيون والأنابابتست والبابويون أن المصلحين المدققين قد مضوا أطلقوا لأنفسهم العنان في الخلاعة والعصيان. وفي الوقت نفسه كانت نهاية بعض الحكام الذين تزعموا حركة اضطهاد الخدام سيئة ومحزنة للغاية. هذه الأمور جعلت الناس يشعرون أنهم أخطأوا ضد الله في طردهم خدامه الأمناء، وقادتهم لأن يرفعوا الصوت عاليًا طالبين رجوعهم. وقد قرر مجلس المائتين عام ١٥٤٠م "أن يسعى بكل الوسائل الممكنة لإعادة السيد كلفن كمبشر، حتى تتقدم الأمور الخاصة بمجد الله وكرامته". وقد قررت جمعية الشعب العمومية "أن ترسل إلى ستراسبرج لاستدعاء السيد يوحنا كلفن الغزير العلم ليكون خادمًا في هذه المدينة".

فضلاً عن هذه التأكيدات بترحيب المدينة الحار أرسل المجلس وفدًا محترمًا إلى كلفن ليتوسل إليه أن يرجع، ولكن مجرد التفكير في العودة إلى جنيف كان يسبب انزعاجًا عظيمًا لكلفن، إذ كان يفزع من تذكر الإساءات الوقحة التي أصابته من خصومه ولا سيما الإباحيين. ثم هل يترك مقره الهادئ السعيد في ستراسبرج ليرمي بنفسه في بحر الاضطرابات؟ على أنه قصد أن يعمل مشيئة الله وأن يتبع إرشاده. وعلاوة على الدعوة الرسمية التي قدمت إليه بصور مختلفة، وصلته خطابات خاصة من أصدقاء مسيحيين يحثونه بإلحاح على العودة. ويؤكد له أحدهم أنه "سيجد أهل جنيف شعبًا جديدًا، وقد صاروا هكذا بنعمة الله التي استخدمت فيريه لهذا الغرض". ورعاة زيورخ أيضًا ألحوا عليه بالعودة، مبينين له الأهمية العظيمة التي لمركز جنيف باعتبارها واقعة على حدود ألمانيا وإيطاليا وفرنسا.

وأخيرًا وافق على العودة، ولكنه فعل ذلك بدافع الخضوع القلبي الحقيقي لما اعتقد أنه إرادة ربه وسيده، قائلاً "لا يوجد مكان تحت السماء أجزع منه أكثر من جنيف، ومع ذلك لن أرفض شيئًا يكون لصالح تلك الكنيسة". وقد كتب لفارل ينبئه بقراره بالعودة قائلاً "بما أني واضع نصب عيني أني لست لذاتي ولا لي تصرف فيها، فإني أقدم نفسي مربوطًا ومقيدًا كذبيحة لله". وقد بدأ الرحيل يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٥٤١م يتقدمه رسول من جنيف ممتطيًا جواده، وعند وصوله استقبل استقبالاً مشرقًا (٢/٧٢)،(٦/٩٢)،(٢/٧٨).

كلفن وسرفيتوس

يعتبر الكتاب البابويون والبروتستانت على السواء أن محاكمة وموت ميخائيل سرفيتوس، كبير الهراطقة في جنيف، وصمة عار كبرى في حياة المصلح العظيم، التي لم يكن عليها غبار فيما عدا ذلك. ولكن عند تكوين حكمنا على علاقة كلفن بهذا الحادث المحزن يجب أن لا يغيب عن بالنا الفرق الكبير بين القرن السادس عشر والأيام التي نعيش فيها. فكثيرون من قادة الإصلاح في ألمانيا وسويسرا على السواء كانوا يعتقدون أنه من واجبهم معاقبة الهراطقة

بالإعدام، على أنه بالرغم من هذه الاعتبارات يجب على كل مسيحي مستنير أن يوقع اللوم وكل اللوم على تصرف كلفن في هذه القضية.

ونحن في يومنا هذا نعجب كيف أن تلميذًا للكتاب المقدس كهذا لم يستطع أن يرى النعمة التي تتلألأ في العهد الجديد. فالمسيحي مخلَّص بالنعمة ومقيم في النعمة، ومن واجبه حقًا أن يكون شاهدًا للنعمة في عالم شرير. فضلاً عن ذلك لنا تعليم الرب ومثاله «الذي إذ شُتم لم يكن يشتم عوضًا وإذ تألم لم يكن يهدد، بل كان يسلم لمن يقضي بعدل» (١بط٢: ٢٣)، وفي موعظته على الجبل يعلم تلاميذه هكذا «أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين... فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل» (مت٥: ٤٤-٤٨)، الذي معناه بكل بساطة أن نكون كاملين على مثال النعمة الكامل الذي يظهره أبونا السماوي.

ولكن من الغريب أنه لم يغب عن كلفن كل هذا المكتوب فقط، ولكنه اعتبر أيضًا أن الكتاب قد أثنى على نبوخذنصر لأنه أعلن حكم الإعدام على كل من يجدف على إله شدرخ وميشخ وعبدنغو، ولم يكن يشك في أنه لو وجد حاكم تقي وغيور في أيام بولس لما تردد الرسول في تسليم هيمينايس والإسكندر إليه لينالا العقوبة التي يستحقانها. وإن كان في إمكان محبي كلفن أن يقولوا إن هذه لم تكن غلطته هو، بل غلطة العصر الذي عاش فيه، على أننا يجب أن نضع في بالنا أنه ما لم يكن المسيح أمامنا كمثالنا وقائدنا في الحياة لا يمكننا أن نتخلص تمامًا من مثل هذه الأفكار الناموسية في أي عصر. يجب أن يختفي موسى وإيليا، ولا يبقى إلا يسوع وحده «من قال إنه ثابت فيه ينبغي أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضًا» (١يو٢: ٦).

شخصية سرفيتوس والقضاء عليه

كان ميخائيل سرفيتوس أسباني الأصل، وولد في نفس السنة التي ولد فيها كلفن، وكان ذا عقل جبار وذهن متوقد، قادرًا أن يحسن أية مهنة يختارها. ولكن لسوء الحظ كان نظريًا أكثر من اللازم في الأمور المقدسة. ودرس الطب والقانون واللاهوت، ولكنه بالنسبة لجسارته وروح الثقة في الذات التي تملكته تطرف بأفكاره إلى أقصى حدود التطرف في مبدإ تأليه الكون والمادة، ومعارضة تعليم الثالوث الأقدس. ومن خلال كل هذه الهرطقات كان مثيرًا للشغب والفتن مثل الأنابابتست الذين ادعوا أنهم "الأنبياء السماويين".

مثل هؤلاء يكون هدفهم دائمًا قلب الحكومات القائمة مع نقض التعاليم المسيحية. هذه كانت الجريمة العظمى والسبب الحقيقي في اضطهاد الأنابابتست في تلك الأيام، الذين كانوا يتعقبون المصلحين في كل بلد يذهبون إليها، ويعلمون أن المصلحين لم يسيروا سوى نصف الطريق، وأن مسيحيين مثلهم يجب أن يمسكوا بزمام الحكم السياسي كما بزمام الكنيسة، وأنه قد جاء الوقت الذي يجب أن يأخذ فيه القديسون مملكة هذا العالم.

قبل أن يأتي سرفيتوس إلى جنيف مباشرة كان قد خرج من السجن الذي حبس فيه في فيينا لتأليفه كتابا يحتوي على إهانة وتجديف، وهناك أحرق ذلك الكتاب فيما بعد مع خمس بالات من مؤلفاته. وقد صرح كلفن، الذي كان يعرفه جيدًا وقد أثبت هرطقاته قبل حبسه في فيينا بمدة طويلة، بقوله "لو جاء سرفيتوس إلى جنيف فيجب أن لا يخرج منها حيًا مهما بذل من المحاولات". وقد تم ذلك فعلاً وجاء سرفيتوس إلى جنيف، فأخطر كلفن المجلس بوصوله واستخرج مواد الاتهام من كتاباته، تلك الاتهامات التي أدت إلى إدانته وموته. وقد طلب المجلس إلى سرفيتوس أن يدفع عن نفسه تلك التهم بأن ينكرها أو يدافع عنها كما يستحسن، وقد أعطاه المجلس الوقت الذي طلبه لتحضير دفاعه. ولكنه عوضًا عن أن يكتسب أعداءه ويستميل آخرين إليه بواسطة صياغة دفاعه في قالب رزين وفي روح معتدلة وقورة استعمل أوقح أسلوب، فنسب إلى كلفن الكذب المرة بعد الأخرى، وخلع عليه أردأ الألقاب كسيمون الساحر وما أشبه. وقد أرسلت وثائق هذه القضية إلى عدة مقاطعات أخرى لإبداء الرأي. وقد قيل إنه "برأي واحد أجمع الكل على أن سرفيتوس قد أحيا من جديد تلك الأخطاء المهينة التي أزعج بها الشيطان الكنيسة في القديم، وأنه وحش لا يمكن احتماله". وعلى أساس إجماع هذه الآراء واتفاقها مع رأي مجلس جنيف حكم عليه أن يساق إلى شامبل ويحرق حيًا هناك.

ولم يظهر هذا الرجل التعس أي علامات للتوبة حتى اللحظة الأخيرة، إلا أنه أظهر فزعًا كبيرًا من الموت. وعندما سمع كلفن

بالحكم تأثر جدًا وتوسط لدى المجلس، لا لكي يُبرأ سرفيتوس، بل لكي تخفف عنه العقوبة فيستبدل الإحراق بالسيف، ولكن المجلس رفض طلبه. وفي اليوم السابع والعشرين من أكتوبر عام ١٥٥٣م سيق إلى قمة شامبل حيث نصبت له سارية الإحراق. ويقال إنه عندما اندلعت فيه ألسنه النيران صرخ صرخة مريعة سمعت إلى مسافة بعيدة، وجعلت الجمهور يسقط إلى الوراء. وقد أحرقت كتبه معه، وكانت النيران تشتعل ببطء فبقى حيًا نصف الساعة *.

خدمة كلفن

بالرغم من الصراعات الكثيرة التي شغلت كلفن، كان يقوم بلا كلل بأعماله الرعوية، وبإظهار الأغلاط التي ترتكب في الكنيسة وفي الحكومة وانتقادها، وبنشر النور والحق في جميع الكنائس. وبتأثير هذا اللاهوتي الممتاز قد ازدادت كنيسة جنيف في العدد بسرعة فائقة، وكان يُنظر إليها كالمركز الرئيسي لقضية الإصلاح، وقد أنشأ مجلس الأعيان، عام ١٥٥٨م ، بناء على اقتراح كلفن، كلية كان أساتذتها هم كلفن وتيودور بيزا وغيرهم من أصحاب المواهب السامية وذوي العلم الغزير. وقد ذاعت شهرة هذه المؤسسة العلمية حتى أمَّها الطلاب من إنجلترا واسكتلندا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا ليتلقوا العلوم المقدسة والدنيوية أيضًا وبهذه الواسطة انتشرت مبادئ الإصلاح انتشارًا عظيمًا في مختلف ممالك أوروبا، "فإلى أفضال يوحنا كلفن تدين الكنائس البروتستانتية بالشكر العميق، لا سيما الكنائس المشيخية، كمن قد خلع على نظامهم الكنسي قوة اسمه وتأثيره". وإلى جانب هذه الملاحظة البديعة التي اقتبسناها من كتاب "أديان العالم" لا بد لنا من اقتباس بضعة سطور عن المؤرخ الأسقفي المتعصب فراي: "سرعان ما سقط احترام كنيسة إنجلترا لجنيف بسبب الصورة التي ألبستها للنظام المشيخي للحكومة الكنسية، وبسبب الهجوم العنيف من بعض قادتها الروحيين على الحكومة الأسقفية القديمة التي كانت لا تزال قائمة بجلالها وعظمتها في إنجلترا وأيرلندا".

ومؤلفات كلفن التي نُشرت كثيرة جدًا وتشغل مجلدات ضخمة، وقد بلغت طبعة جنيف اثني عشر مجلدًا كبيرًا كبير القطع، وطبعة أمستردام التي يقال إنها الأحسن بلغت تسعة مجلدات، إذ كان قطعها أكبر وحروف طباعتها أصغر، كما أنه قد نشرت أيضًا ترجمة بواسطة "الجمعية الكلفينية" في ٤٥ مجلدًا من القطع الصغيرة، وتحتوي هذه المجلدات على تفاسيره ومحاضراته التفسيرية، ومقالات متنوعة، والمبادئ، وخطابات المؤلف. أما تفاسيره فقد كانت بلا شك هي أساس دراسات طلاب المدرسة الكلفينية من ذلك الوقت إلى الآن. ومن ذا الذي يستطيع أن يعبر عن عظمة تلك المؤلفات ومقدار تأثيرها؟ ولكن علاوة على تلك المؤلفات الباقية إلى الآن يجب أن لا ننسى الأوقات الطويلة التي كان يصرفها ذلك الرجل المعدود في مقابلة الزائرين من مختلف أنحاء العالم، وفي الخدمات الجهارية اليومية، وفي الأعمال العامة من كل نوع، فضلاً عن النصائح والمشورات التحريرية التي كان يبعث بها إلى الكنائس الأخرى. يقول أحد المعجبين به "إذا تفكرنا في خطاباته التي كتبها في المسائل الهامة الكبرى وأرسلها إلى ذوي المكانة الأولى علميًا واجتماعيًا في أوربا نجدها كثيرة جدًا، حتى يخيل إلينا أنه كان يكتب خطابات ولا يعمل شيئًا آخر. ثم إذا نظرنا إلى تفاسيره الضخمة القوية المشبعة بالروحانية والحرارة، والتي تفيح منها رائحة كلمة الله الزكية، يخيل إلينا مرة أخرى أن أمامنا مؤلفات عملت في حياة بأكملها"(٢/٨٧).

كلفن والكلفينية

سواء كنا نتفق مع كلفن في تعاليمه وفي الأسلوب الذي عالج به بعض موضوعاته أو لا نتفق، فإننا لا بد أن نشهد لغيرته وتكريسه ونشاطه شهادة كلها تقدير واعتبار. فقد أكمل عملاً عظيمًا في حياة قصيرة نسبيًا وفي جسد ضعيف عليل. على أنه يخشى أن تكون بعض عباراته الحادة ولهجته القاسية التي استعملها إزاء الانحراف والمنحرفين قد أضرت كثيرًا من النفوس الثمينة، وهي لهجة لا تجيزها كلمة الله كما نعتقد. يقول سكوت "ولكني أعتقد أن الحقيقة هي أنه كان يوجد نوع من البرود والقسوة في عقلية كلفن، جعله أحيانًا يعتبر الأمور التي تحرك مشاعر غيره مجرد مواضيع عقلية، لذلك أعتقد أنه لم يكن يقدِّر تأثير

* أكتشف ألبرت ريليه المحاضر الأصلية لمحاكمة سرفيتوس أمام مجلس جنيف المصغر ونشرها عام ١٨٤٤ مع تعليق مختصر عليها. ولعل نشر هذه المحاضر يخفف من حدة الرأي العام عن دور كلفن في هذه القضية.

لهجته على الآخرين، وأظن أنه إلى هذه اللهجة القاسية والعبارات المتطرفة يرجع معظم السبب في عاصفة اللوم والطعن التي لم تزل توجه إلى كلفن والكلفينية إلى هذا اليوم"(٣/٧٢).

أيام كلفن الأخيرة

مع أننا قد لا نستطيع أن نتبع العالم اللاهوتي في أبحاثه الواسعة أو أن نقبل كل التعاليم التي نادى بها، إلا أننا عندما نلتف حول فراش موته نشعر أن له قلبًا وفكرًا واحدًا معنا. وإذ سمع صديقه القديم والأمين فارل بمرضه الخطير كتب إليه يقول إنه سيأتي ليراه، وكان يبلغ من العمر وقتئذ خمسًا وسبعين سنة، وكان معتل الصحة. ولكن كلفن إذ أراد أن يوفر عليه مشقة السفر المضني أملى الرد الرقيق المختصر الآتي "الوداع يا أعز وأخلص أخ، حيث أن مسرة الله هي أن تعيش بعدي في هذا العالم، فعش متذكرًا دائمًا وحدتنا التي بقدر ما كانت نافعة لكنيسة الله ستحمل لنا ثمرًا باقيًا في السماء. يا أخي لا تتحمل لأجلي مشقة، إني أتنفس بصعوبة وأنتظر من لحظة إلى أخرى خمود أنفاسي، ولكن يكفيني أني أعيش وأموت في المسيح الذي هو الحياة لشعبه. والموت هو ربح. الوداع مرة ثانية لك ولجميع الإخوة زملائك.

جنيف في ٢ مايو عام ١٥٦٤م".

إلا أن ذلك الرجل الشيخ الطيب القلب وصل إلى جنيف بعد ذلك بأيام قلائل، وصرف وقتًا قصيرًا مع صديقه في غرفة مرضه، ولكن التاريخ لم يدون لنا ما دار بينهما في تلك الفرصة، فقد كان كلفن يختلف عن لوثر في هذا، كان لوثر محاطًا دائمًا بأصدقاء معجبين به، وكانوا يدونون في الحال كل ما يقول أو يفعل، وبذلك أكسبوا كل حادثة في حياته صفة روائية شيقة، أما كلفن فلا نعرف شيئًا عن حياته الخاصة سواء العائلية والاجتماعية، الأمر الذي ينقص من اللذة التي كانت تليق بسيرة شخصية عظيمة كهذه.

وقد شعر أن عمله قد انتهى بعد أن قابل أعضاء مجلس الأعيان والخدام الذين في دائرة حكومة جنيف وخاطبهم بكل مودة وإخلاص. أما الأيام الباقية من حياته فقضاها في صلاة مستمرة تقريبًا. وإذ كان يردد كلمات الرسول «فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن...» (رو ٨:١٨) لفظ النفس الأخير دون أن يتمكن من إكمال الآية، وكان ذلك في السابع والعشرين من مايو عام ١٥٦٤م.

يقول بيزا "لقد عاش أربعًا وخمسين سنة وعشرة شهور وسبعة عشر يومًا قضى نصفها في الخدمة المقدسة، وكان متوسط القامة أسمر اللون يميل إلى الصفرة، لامع العينين حتى اللحظة الأخيرة مما يعبر عن حدة ذكائه. وقد عاش بلا لوم تقريبًا، وكانت ذاكرته مدهشة بدرجة تكاد لا تُصدَّق، وحكمه على الأمور صحيحًا سليمًا حتى كانت قراراته كأنها نوع من الوحي، وكان كلامه ما قل ودل، وكان يحتقر الفصاحة المتكلفة، ومع ذلك فقد كان كاتبًا مجيدًا. وبسبب توقد ذهنه وتعوده أن يملي كتاباته إلى كاتب كان كلامه أكثر اختصارًا مما لو كتب هو بنفسه. وإذ قد سردتُ بأمانة تاريخ حياة وموت كلفن بعد معاشرته ومشاهدة أعماله ستة عشر عامًا أشعر بأن من حقي أن أصرح أننا نجد فيه مثالاً جليلاً لما يجب أن تكون عليه حياة وموت المسيحي الحقيقي، حتى أنه من الصعب مباراته كما أنه من السهل الافتراء عليه"(٣/٧٢).

الفصل الخمسون

الإصلاح في فرنسا

تخالجنا مشاعر مختلطة عندما نتأمل في تاريخ الإصلاح في فرنسا، فبينما نشعر باللذة والامتنان والإعجاب لتقدم الحق بكيفية عجيبة في تلك المملكة المرحة العابثة، تمتلئ قلوبنا حزنًا لأجل مقاومة العدو وانتصاره. لقد كانت فرنسا وقتئذ أمة عظيمة، وقد تمتعت ببركات تعاليم الإصلاح في زمن مبكر، فقبل أن يُسمع صوت لوثر أو زونجلي بأربع سنوات ارتجت جامعة باريس بإعلان الخلاص المجاني لأعظم الخطاة بواسطة الإيمان بالمسيح بدون أعمال أو استحقاق بشري. فتعليم الإصلاح الأساسي لم يرد إليها إذًا من ألمانيا أو سويسرا، بل نبت في التربة الفرنسية نفسها. ولا يسعنا إلا أن نبدي عميق أسفنا لأن مملكة عظيمة مفكرة كهذه لم تُلقِ عنها النير البابوي كما فعلت إنجلترا واسكتلندا والدانمرك والسويد ونصف ألمانيا. على أنها دفعت ثمن رفضها للنور غاليًا في ثوراتها الدموية المتعاقبة، وقد ظلت مسرحًا لصراع عنيف بين إنجيل نعمة الله وخرافات روما، ذلك الصراع الذي نتجت عنه مآسي من أفظع ما أثبته التاريخ.

بدأت النفوس تتنبه بنعمة الله إلى أهمية الحق بواسطة جيمس ليففر، وابنه في الإيمان وليم فارل كما سبق أن رأينا. وكان الأول قد بلغ السبعين وقتئذ، بينما كان الثاني لا يزال في مقتبل العمر. ثم أتى بعدهما أوليفتان، وكان بدوره واسطة لاقتياد كلفن إلى معرفة الرب. يقول ليففر في تفسيره الذي نشره عام ١٥١٢م "إن الله هو الذي يعطينا بالإيمان ذلك البر الذي يبرر للحياة الأبدية على أساس النعمة لا سواها". هذه الكلمات القليلة ترينا بجلاء أن دكتور السوربون هذا قد تعلم من الله، نظير راهب إرفورت الذي اكتشف الحق العظيم «البار بالإيمان يحيا»، وأن النور الإلهي قد ملأ نفسه، وأن هذا الشعاع السماوي كان كافيًا لإنارة نفوس الآخرين. وهكذا نجد أنه بينما كان ليففر يزرع بذرة الحياة الأبدية في قاعة محاضراته، كان فارل، وقد تحرر تمامًا من خرافات روما وتعلم إنجيل المسيح جيدًا، يبشر في الخارج بشجاعة عظيمة. يقول فيليس "كان شابًا قوي الإرادة ثابت الرأي، حتى جعل صوته الرعدي تتجاوب أصداؤه في الأماكن العامة". وبما أنه حصل على درجة أستاذ في الآداب، فقد أتيحت له الفرصة لأن يحاضر في كلية الكردينال ليموان الشهيرة، وهي إحدى كليات اللاهوت الأربع الرئيسية في باريس المعادلة للسوربون في درجتها. وكان بعض مبشرين آخرين من الشبان يشتركون في التبشير بالإنجيل ونشر الحق.

على أن هذا قد أقلق كهنة ودكاترة السوربون خوفًا على مصالح أمهم المقدسة، فأصدرت الجامعة قرارًا رسميًا ضد الآراء الجديدة. ولكن قبل أن نتقدم في سرد الحوادث يحسن بنا أن نلاحظ دخول ثلاثة أشخاص إلى المشهد عليهم توقف مصير فرنسا من ذلك الوقت، وهم فرنسيس الأول ومرجريت أخته وأمهما لويزا أوف سافوي كونتيسة أنجوليم.

مات الملك الصالح لويس الثاني عشر، الذي كان يلقّب بأبي الشعب، في أول يناير عام ١٥١٥م، ولم يسبق أن كان لفرنسا ملك محبوب ومكرّم نظيره، فكان لموته رنة أسى في جميع القلوب. ولما مر موكب جنازته في الشوارع في طريقه إلى كاتدرائية نوتردام كان يتقدمه النائحون يدقون نواقيسهم وينادون بأصوات تخنقها العبرات "لقد مات الملك الصالح أبو شعبه". ونستطيع أن نستنتج من مجريات الأمور أنه لو كانت حركة الإصلاح قد حدثت في مدة ملكه لصارت فرنسا بجملتها بروتستانتية، أما خلفه فكانت صفاته تختلف عنه اختلافًا كبيرًا.

في اليوم الخامس والعشرين من يناير عام ١٥١٥م توّج فرنسيس أوف أنجوليم دوق فالوا ابن عم الملك في مدينة ريمس باحتفال عظيم. وكان طويل القامة جميل الطلعة له كل مؤهلات الفارس والجندي، ولكنه كان خليعًا مندفعًا إلى حيث تقوده أهواؤه. على أن تهذيبه على يد بواسي لم يذهب هباء، بل كان يعتبر أكثر أمراء فرنسا تهذبًا، وكان يحب العلم ويكرم العلماء. وقلما ذكر التاريخ زوجته الملكة كلود، ولكن شقيقته مرجريت التي صارت فيما بعد ملكة نافار تشغل دائمًا مركزًا بارزًا، وكانت تكبره بسنتين، وكان لها تأثير كبير عليه. وقد تعرفت بالمخلّص في وقت مبكر وكانت من أوائل من اعتنقوا تعاليم الإصلاح، واستخدمها الله لحماية المضطهدين ولإمالة قلب الملك إلى الرأفة. ولكن سياسة الدولة، والغيرة المصطنعة على الكنيسة، وتأثير البرلمان والسوربون، هذه كلها طالما ظهر أنها أقوى تأثيرًا على الملك من محبة شقيقته. وقد كانت كأخيها طويلة القامة، وعلى جانب عظيم من الجمال، كما كانت صفاتها جذابة، فضلاً عن عقلها الكبير وكفاءتها الممتازة. ولكن بعد إيمانها وقفت كل قواها وامتيازاتها ومركزها على خدمة الرب وشعبه.

في تاريخ هذه الشخصيات البارزة نجد إيضاحًا هامًا ونافعًا لتأثير النعمة والحق على القلب والحياة. لقد كان الملك وأخته وحيدي لويزا التي ترملت وهي لم تبلغ العشرين من عمرها، ولم تكن بنتها مرجريت حينئذ قد أتمت الحول الرابع من عمرها، بينما كان الطفل فرنسيس لا يتجاوز شهره الخامس عشر. وإذ كانت لويزا ذات قلب شجاع ومواهب سامية وإدراك واع للواجب قامت بمسئوليات مركزها الجديد بكافة الطرق الممكنة، فجعلت طفليها العزيزين غرض عواطفها، وموضع عنايتها التي لا تعرف الكلل، الأمر الذي نالت عنه جزاء وفاقًا فيما بعد، إذ صارت موضع محبتهما وإجلالهما مع اختلاف مذاهبهما الأدبية. على أننا يجب أن نعود الآن إلى تاريخنا المباشر.

أول ثمار الإصلاح

"مو" هي أولى مدن فرنسا التي سمعت تعاليم الإصلاح تشرح جهارًا، والتي نضجت كباكورة لثمار الإنجيل. وإذ كانت تلك المدينة لا تبعد عن باريس أكثر من خمسة وعشرين ميلاً شرقًا ولا تبتعد كثيرًا عن حدود الفلاندرز، كانت زاخرة بالصناع الميكانيكيين وغازلي الأصواف والقصارين والنساجين وعمال سائر الصناعات الأخرى. وكان أسقف المدينة وليم بريسونيه رجلاً رفيع القدر، إذ كان كونت مونتبرو، وقد قبل التعاليم الجديدة. وإذ كان من عائلة شريفة ومقتدرًا في الخطابة أرسله فرنسيس الأول مرتين سفيرًا من قبله إلى الفاتيكان، وكان يعود في كل مرة إلى باريس أضعف تمسكًا بالكنيسة مما كان قبل ذهابه، لأنه ربما انفتحت عيناه مثل لوثر إلى شرور روما الفاضحة، وإلى أن طقوسها الفخمة جوفاء فارغة.

وعند رجوعه من بعثتيه الدبلوماسيتين لشد ما كانت دهشته عندما رأى الاهتمام الكبير الذي أثارته التعاليم الجديدة والتغيير العظيم الذي أحدثته في البلاد. فالجامعات كانت ممتلئة بالبحوث والمجادلات بشأنها، وقلوب الصناع في أبروشيته قد تحركت من جراء أخبار الإنجيل التي وصلتها. وكان هذا في عام ١٥٢١م، أي بعد أن علق لوثر بيانه على باب كاتدرائيته بأربع سنوات، وفي نفس السنة التي ظهر فيها أمام مجمع ورمز. وقد ساعد قرب مدينة مو من بلاد الفلاندرز ومشابهة تجارتها لتجارة كبريات مدنها على إيجاد حركة اتصال وتعامل بينها، مما أدى بلا شك إلى انتشار التعاليم الجديدة.

وطلب الأسقف، الذي كان رجلاً تقيًا متواضعًا ولكن تنقصه الجرأة، مقابلة ليففر ليتزود منه أكثر بخصوص التعاليم الجديدة، فوضع الدكتور الشيخ الكتاب المقدس في يدي الأسقف، مؤكدًا له أن الكتاب المقدس، والكتاب المقدس وحده، هو الذي يرجع دائمًا بالنفوس إلى الحق كما كان في بدء إنجيل المسيح. فقبل أن توجد مدارس وطوائف وطقوس وتقاليد كان الحق هو الواسطة والروح القدس هو القوة للخلاص. وبناء عليه فتش الأسقف الكتاب بكل اجتهاد، وببركة الرب صار له ينبوع سعادة عظيمة. وإذ يكتب إلى مرجريت التي كان له عليها تأثير كبير يقول "ما أحلى مذاق الطعام الإلهي! إن الذهن لا يشبع منه، بل كلما ذاق الإنسان كلما تعطش أكثر. فأي إناء يستطيع أن يسع ملء هذه الحلاوة التي لا ينضب معينها؟"(١/٩٤)،(٣/٤٤)،(٥٦).

عين مرجريت تنفتح

كثير من الشخصيات البارزة التي تكوّنت منها حاشية فرنسيس في ذلك الوقت والذين كانوا موضع ثقته كانوا يميلون إلى تعاليم ليففر والأسقف. لقد كانوا من رجال الأدب الذين شجعهم فرنسيس

ومرجريت، وحموهم من هجمات السوربون، التي كانت تعتبر دراسة اللغتين العبرية واليونانية من أشر الهرطقات. ولكن فرنسيس الذي كان يحب العلم كان يدعو إليه العلماء معتقدًا – كما يقول إرازمس – "إنه بذلك يجعل عصره زاهرًا مشهورًا أكثر مما لو بنى الأهرام أو أقام أقواس النصر أو شيد أفخم المباني". وقد ظل الملك مدة من الزمن محمولاً بتأثير شقيقته وبريسونيه وعلماء حاشيته، فكثيرًا ما كان يحضر مباحثات العلماء مصغيًا بشغف إلى مناقشاتهم، وفي ذلك الوقت أعد الطريق لكلمة الله بإنشاء درجات علمية لدراسة العبرانية واليونانية.

على أننا يجب أن لا ننسى العطف الذي كان يظهره كثير من العلماء في ذلك الوقت نحو فكرة الإصلاح، وأنهم لا شك شعروا بقوة التعاليم التي نادى بها المصلحون، ولكنهم لم يكونوا مهيئين للانفصال عن شركة كنيسة روما. لقد شعروا واعترفوا بالحاجة إلى الإصلاح، وتمنوا لو أن روما بكهنوتها تقود الإصلاح المنشود، وبهذه الطريقة تتحقق آمالهم. على أنه وُجدت شخصية في تلك الدائرة المستنيرة وصل اقتناعها إلى درجة أعمق، وتحرك ضميرها بنشاط أكثر، فكانت تدرس العهد الجديد باللغة اليونانية بكل اجتهاد، تلك هي مرجريت أوف أنجوليم ذات المواهب الممتازة. ولكنها لم تكن مبتهجة، بل كان قلبها حزينًا وسط مباهج البلاط. وكان فرنسيس مغرمًا بشقيقته شغوفًا بها، حتى كان دائما يدعوها "عزيزتي"، ولم تكن هي أقل حبًا وإخلاصًا لشقيقها، فقد نشأا معًا وتجولا معًا في الحدائق والحقول في طفولتهما، وظلت حياتهما وأذواقهما واحدة مدة طويلة. ولكن أتى الوقت الذي فيه يفترقان – أدبيًا على الأقل.

ثم إن الوقت الذي حدث فيه هذا الافتراق الأدبي ساعد على ازدياد قسوته، فقد كانت مرجريت في نعمتها وجمالها زينة البلاط الملكي، وكان شقيقها يتمنى أن تبقى أبدًا بجواره. يقول ويلي "بعد أن تردد فرنسيس بعض الوقت بين الإنجيل وروما، بين مسرات العالم والأفراح الأبدية، اختار أخيرًا – ولكن يا للحسرة! اختار الطريق المضاد لطريق شقيقته الفاضلة. وإذ ألقى بقرعته مع روما، مخاطرًا في ذلك بتاجه ومملكته وخلاصه، شرع في محاربة الإصلاح". والأم بالأسف اتبعت ابنها في كل دهاء ومكائد السياسة الحكومية، وكان لها تأثير غير محدود على الملك، وإلى تصرفاتها السيئة يرجع السبب في بعض مصائب فرنسا. وقد أقامها نائبًا للملك أثناء غيابه في حملته على إيطاليا، موقعًا بذلك ضربة قاضية على برلمانه.

أما مرجريت فقد قادتها نعمة الله، بواسطة بريسونيه على الأخص، إلى إدراك الإنجيل إدراكًا أوضح وأتم، وإلى معرفة الرب يسوع معرفة مخلصة. وكان هذا حوالي عام ١٥٢١م، أي في وقت ابتداء الاضطهاد. وقد وجد كثيرون من المضطهدين داخل أبوابها ملجأ سبق أن أعدته العناية الرحيمة ضد الشرور التي كانت قريبة الوقوع.

وقد شعرت الشخصيات العالية في البلاط وفي الأوساط الأدبية في العاصمة بتأثير ما حدث لمرجريت، فكانت دهشتهم عظيمة، وكان اعتناق أخت الملك للتعاليم الجديدة موضوع حديث الجميع. والذين سعوا إلى تعطيل عمل الله اجتهدوا في القضاء على مرجريت، فشكوها إلى الملك، ولكنه تظاهر بأنه يعتقد أن كلامهم غير صحيح. يقول برانتوم "لقد كانت في غاية الحنو والشفقة والوداعة واللطف، وكانت محسنة عظيمة لا تحتقر أحدًا، وتريح جميع القلوب بصفاتها الفائقة". كم يميل القلب إلى إطالة التأمل في مَثل كهذا من أمثلة نعمة الله الغنية في وسط فساد وخلاعة بلاط فرنسيس. هكذا شاء الرب أن يكون له شهود وأنوار حتى في القصر الملكي في فجر الإصلاح. على أن تلك الشابة المسيحية الفاضلة قد اضطُهدت بشدة، وكان الصراع بين ضميرها وما يتطلبه مركزها عظيمًا وطويلاً. يقول دوبيني "كان قلب الأميرة الضعيف يرتعد أمام غضب الملك، وكانت تتردد باستمرار بين أخيها ومخلّصها، غير قادرة على أن تصمم على التضحية بأحدهما. على أن تلك الشخصية بحالتها مبهجة على صفحات التاريخ، لا نظير لها في تاريخ ألمانيا أو إنجلترا". لا شك أن نورها كثيرًا ما حُجب وشهادتها كثيرًا ما أُسكتت بواسطة نظرات غضب الملك، عندما كان يظهر بغضه للإصلاح وللأصدقاء الذين أحبتهم مرجريت، ولكن الرب كان معها، ولو أن ضعفها النسوي قد قادها أحيانًا إلى تجنب حرارة الشمس والجلوس في الظل.

إصلاح بريسونيه

كان الأسقف الأديب الشريف مرحّبًا به دائمًا كضيف في القصر الملكي، وهناك تمكن من وضع الكتاب المقدس في يدي مرجريت. كما أن صداقته لفرنسيس قد هيأت له فرصًا عديدة لنشر التعاليم

الجديدة بين الفلاسفة والعلماء الذين قرّبهم ذلك الملك إليه. وإذ كان أسقفًا ومقرّبًا للبلاط وجد مستمعين كثيرين، وربما كان الفضل لبريسونيه ومرجريت وأمثالهما في ميل الكثيرين من أشراف فرنسا إلى اعتناق البروتستانتية. أما الملك والأغلبية الساحقة من الشعب فاستمروا مخلصين لروما، وكثيرون من الأشراف تحت تأثير تهديدات واضطهادات روما ترددوا وتراجعوا، إلى أن انطفأت استنارتهم أخيرًا وبقوا عبيدًا للظلمة، إذ لم تتوفر لديهم الشجاعة الأدبية الكافية لإنقاذ أنفسهم منها(١/٤٤).

كان بريسونيه في ذلك الوقت ممتلئًا بالغيرة لإصلاح الكنيسة، فقصد أن يقدّم مثالاً بإصلاح أبروشيته، وعند عودته من باريس إلى مو تحرى عن حياة وتعاليم خدام الكنائس، فاتضح له أن معظم المنابر يشغلها رهبان فرنسيسكان، بينما القسوس والنواب الرسوليون وأصحاب المناصب الدينية كانوا يصرفون أوقاتهم في الكسل والسعي وراء إيراداتهم في باريس. وقد تأكد أنه لا يكاد يوجد في كل أبروشيته عشرة كهنة مقيمين وأربعة عشر قسيسًا يمكن له أن يوافق على ممارستهم للخدمة من جملة مائة وسبعة وعشرين راعيًا في أبروشيته، من ثم تحول الأسقف إلى رجال غير الإكليروس، واستدعى إليه صديقه القديم ليففر وكذلك فارل ودارفاند وروسل وفرنسيس فاتابل. هكذا سُحب نور الإنجيل تدريجيًا من باريس حيث كان الله في نعمته المطلقة قد أرسل أشعته الأولى، وخرج المضطهِدون يطاردون النور، إلا أن الله لم يسمح بهياج العاصفة في ذلك الوقت، بل رتب بعنايته أن يحمي المصلحون إلى أن يكملوا عملهم(٢/٤٤)(١/٩٤).

الكتاب المقدس بالفرنسية في مو

اشتاق ليففر الشيخ، مثل وكليف الإنجليزي، أن يكون لكل إنسان في فرنسا الامتياز بأن يقرأ الكتاب المقدس بلغته الأصلية. وقد بذل جهدًا كبيرًا في سبيل ذلك، حتى أمكنه بمساعدة بريسونيه أن ينشر الأناجيل الأربعة بالفرنسية في أكتوبر عام ١٥٢٢م، وبعد ذلك بقليل نُشرت بقية أسفار العهد الجديد. وفي أكتوبر عام ١٥٢٤م نُشرت في مو طبعة كاملة للعهد الجديد، فهناك كان أول دخول لمصدر النور الأعظم، الذي جعل العمل مبنيًا على أساس وطيد؛ وهناك انعقد أول اجتماع علني للبروتستانت.

وقد ساعد الأسقف التقي بأمواله وغيرته على تقدم العمل الصالح، فانتشرت كلمة الله انتشارًا واسعًا وسريعًا، وقد زُود الفقراء بالكتاب المقدس مجانًا. ولم يحدث أن أسقفًا كرس أمواله لمقاصد أنبل من هذه، بل لم يحدث أن بذارًا أتت بمثل هذا المحصول المجيد. وقد انتقل المبشرون من باريس إلى مو، وإذ لم يجدوا عقبات في سبيلهم كانوا يعملون بحرية تامة، بينما كانت كلمة الله تُقرأ باجتهاد في منازل الشعب ومصانعهم. وكانت النتيجة عظيمة ومفاجئة، إذ حل النور الإلهي محل الظلمة البابوية، وأصبح الكتاب الجديد موضوع حديثهم المستمر، لأن الصناع وهم ممسكون بمغازلهم وأنوالهم كان يخبر أحدهم الآخر عن اكتشاف جديد اكتشفه في الأناجيل أو في الرسائل، وهكذا كان القرويون في الكروم يجتمعون في أوقات تناول الطعام، ويقرأ أحدهم بصوت عال والباقون من حوله يستمعون، يقول مؤرخ من ذلك العصر "لقد تولد في الكثيرين شوق حار لمعرفة طريق الخلاص، حتى أن الصناع والقصارين وغازلي الصوف لم تكن لهم رياضة أخرى وهم يشتغلون بأيديهم إلا أن يتحادثوا مع بعضهم في كلمة الله، ويعزوا بعضهم بعضًا بها. وكانت أيام الآحاد وأيام العطلة تكرس بنوع خاص لدراسة الكتاب المقدس والبحث في إرادة الرب الصالحة".

ونقتبس فيما يلي أقوال مؤرخ كاثوليكي، وهي وإن تكن بلهجة عدائية، إلا أنها تحمل شهادة عن تأثير كلمة الله المباشر على الشعب "إذ كان ليففر مشهورًا بسعة علمه حاول أن يطوي الأسقف بريسونيه تحت لوائه ويغويه بحديثه المنمق القوي الحجة. وقد كان سببًا في انحرافه المحزن، حتى أنه لم يمكن إلى هذا اليوم تحرير مدينة مو وأبروشيتها من تلك التعاليم الفاتنة، إذ كانت قد انتشرت هناك انتشارًا مدهشًا. وقد تسبب عن انحراف هذا الأسقف الصالح ضرر بليغ، لأنه قبل انحرافه كان مخلصًا لله وللعذراء مريم إخلاصًا تامًا"(٣/٤٤).

النتائج المباركة لكلمة الله

بسرعة عجيبة صار أولئك القوم البسطاء أغزر علمًا من معلميهم السابقين من الرهبان الفرنسيسكان، وحلت المسيحية محل الخرافة، وقد أعلنت كلمة الله لنفوسهم شخص المسيح كمركز النور الإلهي، فاتضح لهم أن الصلاة للقديسين إنما هي وثنية، وأن المسيح هو الوسيط الوحيد بين الله والناس، وأن عرش النعمة

متاح للجميع. من ثم أصبحت مدينة مو بؤرة أشعة النور، وانتشرت أخبار العمل العظيم في جميع أرجاء فرنسا، حتى كانوا يقولون عن كل شخص معروف باعتناقه التعاليم الجديدة ذلك القول الذي جرى مجرى المثل "لقد استقى من ينبوع مو".

وقد انحصر تبشير الخدام الجدد في الاجتماعات الخاصة مدة من الزمن، ولكن إذ ازداد عدد سامعيهم تشجعوا على ارتقاء المنابر العامة. والأسقف بشر بدوره طالبًا من الشعب أن لا يصغوا إلى من يحولونهم عن كلمة الله، حتى إذا أتاهم ملاك من السماء وبشرهم بإنجيل آخر فلا يصغوا إليه. وإذ كان ليففر يشرح كلمة الله في مرة من المرات قال بحماس "يجب على الملوك والأمراء والأشراف وعامة الشعب وكل الأمم أن يفتكروا في المسيح وحده ويتخذوه غرضهم الوحيد. اقترب إليه أيها الأسقف. اقتربوا أيها الملوك. اقتربوا يا ذوي القلوب الكريمة، استيقظي أيها الأمم إلى نور الإنجيل وتنسموا الحياة السماوية. إن كلمة الله فيها كل الكفاية". وقد أصبحت هذه الجملة من ذلك الوقت شعارًا لذلك الجيل "كلمة الله فيها كل الكفاية".

من ثم نرى أن شعاع النور الذي رأيناه يلمع وسط ظلمة الفرائض حوالي عام ١٥١٢م. حينما أعلن ليففر من منصة السوربون بطلان الأعمال بدون إيمان، ونادى بالوسيط الواحد بين الله والناس، وشهر بجسارة بوثنية من يتشفعون ويقدمون الصلوات للعذراء والقديسين، هذا الشعاع الإلهي لم ينطفئ، بل ظل يمتد حوالي اثنتي عشرة سنة، حتى أصبح منارة وسط الظلمة المحيطة ترشد الألوف وعشرات الألوف إلى سبيل الحياة والسلام، وتبعدهم عن طرق الموت والهاوية[١٩٤].

ابتداء الاضطهاد في فرنسا

لننظر الآن إلى الوجه الثاني من الصورة. إذا كان القطيع الصغير في مو قد تمتع بالتغذي على مراعي الإنجيل الخضر في سلام، فإن الرهبان الذين لا تهمهم مراعي الإنجيل الخضر كانوا يفقدون نفوذهم ودخلهم، وكان الرهبان الشحاذون يعودون من طوافهم بجرابهم فارغة إلى بيوتهم، فيقولون "هؤلاء المعلمون الجدد هراطقة، وهم يهاجمون أقدس الفرائض وينكرون الأسرار المقدسة". وإذ تجاسروا شيئًا فشيئًا تقدم أكثرهم غيظًا إلى السراي، وطلبوا من الحاكم أن يسحق هذه الهرطقة، وإلا امتد الوباء الذي أفسد مدينة مو إلى جميع أرجاء المملكة. وقد اهتز بريسونيه وأزعجته جسارة الرهبان ووقاحتهم وقتًا ما، ولكنه لم يتقهقر. على أن ذلك الأسقف وإن كان تقيًا وغيورًا بكيفية عجيبة، إلا أنه كان ذا طبيعة متقلبة، يخاف إذا هاجمه الخطر، يعوزه الثبات واستقرار الروح اللذين بهما استطاع البعض أن يسلموا حياتهم في أيام الاضطهاد، ولا يسلموا الحق والضمير. وبناء عليه فقد فشل الأسقف وسلم الحق والضمير لينقذ حياته وحريته.

فقد هاج الرهبان لعدم نوالهم حظوة لدى الأسقف، وصمموا على رفع شكواهم إلى محكمة عليا. فأسرعوا إلى باريس واشتكوا الأسقف إلى السوربون والبرلمان قائلين "لقد تلوثت مدينة مو وما جاورها بالهرطقة التي خرجت مياهها الفاسدة من القصر الأسقفي". من ثم ارتفعت الصيحة بالهرطقة وسرعان ما سمعت فرنسا كلها صيحة الاضطهاد ضد الإنجيل. وقد استمع نويل بيدا المشهور بفظاعته والتواق إلى الحرب بطبيعته إلى تلك الصيحة، وكان قد اختير رئيسًا للسوربون قبل ارتقاء فرنسيس إلى العرش بوقت وجيز، لذلك شعر بمسؤولية إثارة الحرب ضد كل تعليم يخالف فلسفة المدارس الرومانية أو مواد الإيمان الكاثوليكي. تقول مس فرير "لقد فصَّل كتابات المصلحين بشغف ليستخرج غلطاتهم ويقدمها بفخار إلى السوربونيين أعداء الإصلاح. وقد حمل بأسلوبه الفصيح الناري ضد دراسة اللغتين اليونانية والعبرانية. وقد اهتزت باريس والجامعة مرة أخرى باحتجاجات ذلك الرئيس الشديد الحنق، وأحدثت تعبيراته المليئة بالتعصب والتهليل لعزمه على إشعال نار الحرب هزة رعب سادت على الجامعة، حتى أنه لم يتجاسر أحد على إظهار انحيازه إلى الإصلاح عندما أجرى ذلك الرئيس تحرياته الدقيقة للتفتيش على الهرطقة، مع أن الجميع - ما عدا شخصه - كانوا يعلمون أنه ليست هناك هرطقة قَط". هذا هو الرجل الذي كان على بريسونيه الرعديد أن يواجهه مع آخرين من ذات الروح. وقد اعتاد إرازمس أن يستعمل هذا التعبير "في بيدا واحد يوجد ثلاثة آلاف راهب".

بعد ذلك جاءت هزيمة بافيا، التي سقطت فيها زهرة مجد فرنسا، حين أخذ الملك الفارس أسيرًا لشارل الخامس في مدريد. فصارت لويزا أم الملك نائبة لملك فرنسا. وكان هذا لسوء حظ

المصلحين، لأنها كانت وارثة لعداء أسرة سافوي للإنجيل، وقد قادت أعمال الخلاعة والفجور التي لم تفسد بها بلاط ابنها فقط، بل كانت عائقًا كبيرًا في سبيل انتشار الإنجيل الصافي.

بريسونيه يتهم بالهرطقة

كنائبة ملك عرضت لويزا هذا السؤال أمام السوربون "ما هي الوسائل التي بها يمكن مطاردة وإبادة تعاليم لوثر اللعينة من هذه المملكة المسيحية الصميمة؟". فكان الجواب مختصرًا ومؤكدًا "بالمشنقة"، وأضافوا إلى ذلك أنه إذا لم ينفذ هذا العلاج بسرعة يكون في ذلك ضرر بليغ لشرف الملك ومدام لويزا أوف سافوي. بناء عليه، وتحت الادعاء الكاذب بالمحافظة على العرش كالمعتاد، وحفظ القانون والنظام، اضطرت السلطات إلى امتشاق سيف الاضطهاد، فدعي البرلمان للاجتماع، واستدعي بريسونيه للظهور أمامه. وقام بيدا ورهبان مو بحملة الاضطهاد على الأسقف وأصدقائه المصلحين بكل ضغينة وحقد، فاتهموه بالتمسك بالتعاليم اللوثرية، وبإخراج طبعة العهد الجديد بالفرنسية بالاشتراك مع ليففر، وحملوا بشدة على المقدمة التي وضعها ليففر في صدر تلك الطبعة المعنونة "إلى جميع القراء المسيحيين" وقد استخرج بيدا من هذه المقدمة ومن مؤلفات أخرى نشرت في مو ثماني وأربعين فقرة أقرت هيئة كلية اللاهوت بأنها هرطقية.

رأى بريسونيه بوضوح ما كان أمامه: فإما أن يتخلى عن التعاليم الجديدة، أو يطرح في السجن وربما يُقاد إلى المشنقة. ولم تكن له الشجاعة الكافية للمقاومة، لأن إنذارات وتهديدات بيدا قد أزعجته، وكان بطبيعته ضعيفًا هيابًا. فضلاً عن ذلك فقد أوعز إليه أصدقاؤه بأن يذعن ويسلم على قدر ما يرضي روما، ثم يستمر في عمل الإصلاح بكيفية سرية. وفي الوقت نفسه كان له أن يعتمد على حماية مرجريت القوية، وكانت في ذلك الوقت في سان جرمان. ولكنه بكل أسف لم يكن مهيأ لأن يحتمل احتقار العالم ويترك كنيسة روما ويضحي بمركزه وثروته من أجل الحق، فتغلبت عليه أخيرًا قوة الأمور الحاضرة، فسلم بمطالب السوربون وأصدر في أكتوبر عام ١٥٢٣م أوامره الأسقفية بما يأتي:

١- تعاد الصلوات العامة للعذراء والقديسين.

٢- محظور على كل شخص أن يشتري أو يستعير أو يقرأ أو يقتني أو يحمل معه مؤلفات لوثر.

٣- يحرم ليففر وفارل وزملاؤهما من ارتقاء المنابر العامة، وليس ذلك فقط بل يبعدون من أبروشية مو كلية.

وبالرغم من كل ذلك فقد حكموا على الأسقف بغرامة قدرها مائتا جنيه.

وكم كان سقوط هذا الصديق الكريم صدمة قوية على الخدام والشعب على السواء! فتشتت القطيع وخرج الرعاة بقلوب حزينة من مو. فذهب ليففر إلى نيراك، وهناك أكمل سعيه تحت حماية مرجريت، ورقد في سن الثانية والتسعين. وهرب فارل إلى سويسرا حيث رأيناه مشتغلاً بسرور في عمل الرب. وإلى جيرار روسل يرجع الفضل في تقدم حركة الإصلاح في مملكة نافار. أما أعضاء الكنيسة فتشتتوا من جراء الاضطهاد في جميع أنحاء فرنسا. على أن بقية القطيع الذين أعاقهم الفقر عن الهروب كان عليهم أن يواجهوا هول العاصفة(٢/٧٨)،(٣/٤٤)،(١/٩٤)،(٧١).

شهداء فرنسا الأوائل

الآن سقط بريسونيه، واضطر ليففر وأصدقاؤه إلى الهروب، وتشتتت الكنيسة المصلحة في مو، وعاد الرهبان إلى ارتقاء المنابر، فكان هذا بداية انتصار لروما. ولكنها لا تشبع ولم يسبق لها أن شبعت وارتوت إلا بسفك دماء القديسين. لقد استلت السلطات الكهنوتية والمدنية والسوربون والبرلمان سيوفهم، تلك السيوف التي كانت مزمعة أن تتلطخ بالدماء، وشرعوا في العمل، إذ أن تعصب روما لم يكن ليشبعه إلا الدم من قديم الزمن.

واستمر المسيحيون في مو يجتمعون في بعض أماكن خاصة لقراءة الكلمة والصلاة، بالرغم من أنهم تُركوا بلا راع بشري. وقد كان أحدهم، وهو يوحنا ليكلرك غازل الصوف متقدمًا في الكلمة بدرجة جعلتهم يعتبرون أن الرب أقامه لتقويتهم وتشجيعهم. صحيح أنه لم يتعلم في إحدى الكليات ولا وُضعت عليه الأيدي، ولكنه قد نال مصادقة السماء على القيام برعاية القطيع الذي هجره الأسقف المتعلم. وقد ابتدأ ليكلرك بداءة حسنة، فطفق يزور البيوت بيتًا بيتًا معلمًا ومثبتًا للتلاميذ. إلا أن نفسه قد ثارت فيه عندما شاهد الرهبان متهللين بانتصارهم، وكانت شهوة قلبه أن يهدم لو استطاع كل بناء البابوية، ويملأ فرنسا بحق الإنجيل، ولكن ككثيرين غيره في تلك الأيام حملته غيرته إلى تجاوز حدود

التبصر والحذر، فكتب إعلانًا يصف فيه البابا بأنه ضد المسيح، ويتنبأ بسقوط مملكته، وبأن الرب على وشك أن يبيدها بنفخة فمه. وبكل جسارة علق إعلاناته على أبواب الكاتدرائية. وفي الحال تجمع الكهنة والرهبان والأهالي أمام الإعلانات في حالة هياج واضطراب، وقد اتهموا ليكلرك وألقوا القبض عليه ووضعوه في السجن. ثم انتهوا من محاكمته في أيام قلائل، فقضوا عليه بأن يجلد بالسياط في قلب المدينة ثلاثة أيام متوالية ثم يكوى بالنار في جبهته. فقادوه في الشوارع ويداه مربوطتان ورقبته معراة ونفذوا فيه الحكم بقلوب مبتهجة. وقد تبعه جمهور عظيم. وصاح البابويون في هياج، أما أصدقاؤه فأظهروا له كل دلائل العطف والمواساة. ولما طبعوا على جبهته سمة العار بقطعة حديد محماة دنت امرأة من ذلك الشهيد الدامي الظهر المحروق الجبين في محاولة لتشجيعه. تلك كانت أمه وقد تزاحم في قلبها عاملان، الإيمان ومحبة الأم، وأخيرًا انتصر الإيمان، فصاحت بصوت عال "المجد للرب يسوع ولشهوده". وإذ اخترق صوتها المؤثر إلى أعماق قلوب الجمهور أفسحوا لها الطريق، فرجعت إلى منزلها دون أن يتعرض لها أحد، أما ابنها فنُفي من مو.

ذهب ليكلرك إلى متز حيث تقدم الإصلاح نوعًا ما. ومع أنه كان يحمل سمة الهرطقي على جبهته، إلا أن غيرته لم تفتر وشجاعته لم تنقص، وأيضًا حذره وتبصره لم يتقدما. وكان أحد الأعياد العظمى للمدينة قريبًا، وكانت توجد خارج أبوابها على مسافة قريبة كنيسة بها تماثيل للعذراء والقديسين المشهورين في تلك المقاطعة. وقد اعتاد جميع سكان متز أن يحجوا إلى تلك الكنيسة في يوم معين من السنة ليسجدوا لتلك الآلهة الحجرية، ويحصلوا على غفران خطاياهم. اضطربت نفس ليكلرك التقية الشجاعة اضطرابًا شديدًا، إذ تفكر في أن المدينة كلها التي يجب أن تسجد للإله الحي الحقيقي وحده ستنحني غدًا أمام تلك الأصنام الخشبية والحجرية، وبدون استشارة الإخوة المتقدمين هناك تسلل من المدينة قبل غلق أبوابها، وجلس قبالة تلك التماثيل في صراع فكري عنيف، وقد اعتقد أن روح الرب وضع أمام ضميره الفصل الوارد في خر٢٣: ٢٤ «لا تسجد لآلهتهم ولا تعبدها ولا تعمل كأعمالهم، بل تبيدهم وتكسر أنصابهم». وحسب تعبير بيزا "مدفوعًا بإلهام إلهي" كسر التماثيل ونثر حطامها أمام المذبح وعند بزوغ النهار عاد إلى متز.

وبعد ساعات قليلة تحركت مدينة متز القديمة كلها، فكانت النواقيس تدق والجماهير تجتمع والأعلام تخفق، والجميع يسيرون يتقدمهم القسوس والكهنة والرهبان وسط شموع مضاءة وبخور متصاعد، ووجهتهم كنيسة سيدتنا، ولكن فجأة سكتت كل الآلات الموسيقية، وتملك الجميع اضطراب لا يوصف، حينما رأوا رؤوس آلهتهم وأيديهم وأرجلهم منتشرة في كل المكان الذي كان سيعبدونهم فيه.

استشهاد ليكلرك

وقد اتهم الهرطقي الموسوم الجبهة، وصاح الجميع "الموت الموت للشرير التعس" وعادوا بسرعة في هرج ومرج إلى متز، وألقوا القبض على ليكلرك. وقد اعترف بفعلته، وتوسل إلى الشعب المخدوع أن يعبدوا الله وحده. وعندما أتوا به أمام القضاة اعترف بكل جرأة بإيمانه بالمسيح، الذي هو الله الظاهر في الجسد، وجاهر بأن له وحده ينبغي السجود. وقد حُكم عليه بأن يُحرق حيًا، وفي الحال جروه إلى مكان التنفيذ. وقد أمعن مضطهدوه في جعل عقوبته مرعبة ومخيفة إلى أقصى حد. وقد شاهد بعينيه ما أعدوه لتعذيبه، ولكنه كان هادئًا وثابتًا لم تثره الصيحات الوحشية التي صاح بها الرهبان والشعب، وبنعمة الله العجيبة وقوته الفائقة لم تشوه جمال ومجد تضحيته أي علامات الضعف، فقد بدأوا بقطع يده اليمنى، ثم شرعوا يمزقون لحمه بكماشة محماة لدرجة الاحمرار، وأعقبوا ذلك بحرق صدره، وبينما كان أعداؤه يجهدون أنفسهم بهذه الكيفية متفننين في اختراع أساليب التعذيب، كان ذهن ليكلرك مستريحًا وكان يردد بتؤدة وبصوت عال كلمات صاحب المزمور «أصنامهم فضة وذهب عمل أيدي الناس. لها أفواه ولا تتكلم. لها أعين ولا تبصر. لها آذان ولا تسمع. لها مناخر ولا تشم. لها أيد ولا تلمس. لها أرجل ولا تمشي ولا تنطق بحناجرها. مثلها يكون صانعوها بل كل من يتكل عليها. يا إسرائيل اتكل على الرب. هو معينهم ومجنهم» (مز١١٥: ٤-٩). وبعد هذه التعذيبات أحرقوا ليكلرك بنار بطيئة. هكذا كان موت أول شهيد للإنجيل في فرنسا[٣/٤٤].

على أن كهنة متز لم يكتفوا بدم مشاط الصوف المسكين، بل

هوذا الرئيس الإكليريكي شاتلان قد اعتنق تعاليم الإصلاح، ولا يمكن زعزعته عن الإيمان، فاشتكوه إلى كردينال لورين، الذي جرده من ملابسه الكهنوتية وسلمه إلى السلطة الزمنية في ثياب العلمانيين. فحكمت عليه تلك السلطة بأن يحرق حيًا، وفي الحال أحرق خادم المسيح وسط اللهب المستعرة. إلا أنه كما هو المنتظر كان من أثر هذه المآسي أن انتشرت اللوثرية في جميع أرجاء مقاطعة متز. يقول أحد المؤرخين "كان المتفرجون يندهشون، بل كانت تأخذهم الشفقة، حتى أن كثيرين كانوا يرجعون من المشاهد المحزنة معترفين بالإنجيل الذي في سبيله رأوا الشهداء يقدمون حياتهم في نبل وهدوء وبثبات وجَلَد".

تأملات في سقوط بريسونيه

يصعب علينا أن نترك رفات ليكلرك دون أن تخالجنا أفكار حزينة عن الأسقف المسكين. فإن كنا نأخذ على ليكلرك قلة تبصره، فإننا نُعجب بشجاعته. ولكن ماذا نقول عن بريسونيه، الذي إذ كان له أصدقاء كثيرون في البلاط، نجى عمامته وقصره وأمواله، ولكن على حساب الضمير والحق وإكليل الحياة؟ يقول ويلي "ماذا كانت يا ترى أفكار بريسونيه وهو يرى الواحد تلو الآخر ممن كان هو راعيًا لهم يذهبون إلى ساحة الإعدام ومنها إلى السماء؟ ألم تمر عليه لحظات شعر فيها وكأن عمامته التي أنقذها بثمن باهظ بهذا المقدار تحرق جبينه؟ ألم يخالجه شعور بأنه يجب عليه أن يقوم ويترك قصره بكل أمجاده ويلحق عن طريق السجن والإعدام بالأفراد الذين كانوا تحت رعايته، وقد سبقوه في نفس هذه الطريق، ويرث معهم أمجادًا وأفراحًا أسمى بما لا يقاس مما يستطيع البابا أو ملك فرنسا أن يمنحا؟ ولكن كيفما كان شعوره، وكيفما كانت المقاصد السرية التي انتواها في بعض الأحيان، فإننا نعلم أن تلك الأفكار والمقاصد لم تنضج قط، ولم تخرج إلى حيز التنفيذ".

إننا بحسب الإنسان نميل إلى نسبة سقوط بريسونيه إلى ضعف طبيعي في شخصيته، وإلى غرور الغنى وإلى تأثير بعض أصدقائه ذوي الاستحسان البشري. ولقد نظرت قضيته في جلسات سرية، ولذلك لا نعرف إلى أي حد قد أنكر الإيمان الذي نادى به وعمل على نشره بغيرة كانت ظاهرة الاتقاد والإخلاص. إلا أننا نعلم أنه بقي في شركة مع روما إلى وفاته التي حدثت بعد ارتداده عن الحق بسنين قليلة، وكان يجتهد أن يعيش بكيفية لا يتسرب معها لأحد الشك في صحة عقيدته.

على أننا قبل أن نصدر حكمًا في مثل هذه القضايا في الوقت الحاضر علينا أن نراعي اعتبارات شتى. فقد كانوا في ذلك الوقت خارجين توًا من ظلمة وخرافات وشرور البابوية التي يعجز عنها الوصف، والأشخاص ذوو العقول النقية التقية كما كان بريسونيه بالحقيقة، كانوا يرون الحاجة الماسة للإصلاح، ويرغبون بإخلاص أن يعملوا على تقدمه، ولو أنهم لم يفكروا في الانفصال التام عن شركة روما، إذ لم يكن ضمن تعاليم تلك الأيام فكرة الانفصال كما بسطها الرب لتلاميذه في يوحنا ١٧، حيث يضعهم في مركز رفضه من الأرض وفي مكان قبوله في السماء. ولوثر نفسه وهو رجل قوي الإيمان لم يكن قط منفصلاً انفصالاً حقيقيًا بالروح عن وثنية روما، فلم يحطم التماثيل، وكان تعليمه عن الأسرار المقدسة مناقضًا للحق الذي نادى به.

لم يدرك المصلحون الأولون العلاقات السماوية التي للمسيحي والتي للكنيسة إدراكًا كاملاً، فكان تعليمهم عن حقيقة الانفصال نادرًا ونظريًا لا يمس القلب. وقد فات المصلحين في القرن السادس عشر أيضًا حقيقة سكنى الروح القدس في القديسين أفرادًا وفي الكنيسة كبيت الله، ورجاء مجيء الرب. من ثم يجب علينا أن نتسامح ولا نقسو في الحكم على بعض الذين ترددوا أو حتى تقهقروا وقتًا ما حينما رأوا الإعدام أمامهم، كما أننا من الناحية الأخرى نعجب كل الإعجاب بنعمة الله التي انتصرت في كثيرين ممن عرفوا شيئًا قليلاً من الحق، وكان الروح القدس معلمهم وكانوا يعرفون ما هو لازم لخلاصهم ولمجد الله.

اهتداء بركين وإيمانه

من الضحايا البارزين في تلك الأيام الأولى لويس بركين من مدينة أرتواس، وكان ضابطًا في الحرس الملكي. يقول بيزا عنه إنه "كان يمكن أن يكون لوثرًا ثانيًا لفرنسا لو أنه وجد في فرنسيس مثل ما وجد لوثر في منتخب سكسونيا". ولم يكن كغيره من فرسان عصره الذين لا يعرفون شيئًا سوى الخوذة والسيف، بل كان متعلمًا مفكرًا صريحًا، عطوفًا ومحسنًا إلى الفقراء، وكان

ذائع الصيت في بلاط فرنسيس. وقد استغل حماية الملك في دراسة مؤلفات المصلحين باجتهاد. وسرعان ما اهتدى وصار من أنصار الإصلاح الغيورين، وقد ظهرت بنعمة الله ثمار اهتدائه العملية، إذ كرس كل علمه وفصاحته وتأثيره من تلك الساعة لخدمة الإنجيل، وقد اعتبره كثيرون مصلح بلاده. وكان يصرف ساعات في ترجمة مؤلفات لوثر وملانكتون وإرازمس إلى اللغة الفرنسية. وكان يكتب نبذًا عن التعاليم الرئيسية في الإيمان المسيحي ويطبعها بنفسه سرًا.

اعتقد بيدا أن هذا الهرطقي أشر من لوثر، ولكن هذا الفارس المسيحي كان من الحكمة والتبصر بحيث كان يصعب أن تُمسك عليه علة تؤسس عليها إقامة الدعوى ضده بتهمة الهرطقة. فاستخدموا عددًا من الجواسيس راقبوه مراقبة دقيقة في كل كلمة تخرج من فمه، وأخيرًا وجدوا شهودًا يثبتون أنه قال إنه من الهرطقة التشفع بالعذراء مريم عوضًا عن الروح القدس قبل الموعظة في خدمة القداس، وكان هذا كافيًا. فحصل بيدا على إذن من البرلمان بتفتيش مسكن بركين، ومن هناك جمع كل كتبه وأوراقه وعرضها على هيئة كلية اللاهوت، التي قررت أن فيها اتجاهًا هرطقيًا. وبناء عليه زُج ببركين في السجن، ووُضع في حبس منفرد تمهيدًا لمحاكمته الرسمية، التي نتيجتها المؤكدة الإعدام إذ قال بيدا السفاح "لن يفلت منا هذا كما أفلت بريسونيه وليففر".

أُخبرت مرجريت بما أصاب بركين، وطُلب منها أن تتدخل لصالحه، وكانت دائمًا تبدي إعجابها بمواهبه الممتازة وتحمل له كل اعتبار. وإذ تمثلت أمامها قضية صديقها بريسونيه المحزنة، وخوفًا من أن ترى بركين يساق إلى ساحة الإعدام، كتبت إلى أخيها لأجله. وقد جسَّمت أمام الملك وقاحة السوربون في التجرؤ على القبض على ضابط من حرسه الخاص بحجة سخيفة باطلة دون الحصول على إذن ملكي. وقد مست هذه الأقوال كبرياء فرنسيس، فتميز غيظًا وهدد البرلمان، وأصدر أمرًا بإطلاق سراح ضابطه في الحال. ثم سُجن بركين مرة ثانية، وفي هذه المرة أيضًا عمل الملك على نجاته، ناصحًا إياه بأن يكون أكثر حذرًا وتبصرًا. ولكن شعوره بواجبه كشاهد للمسيح لم يكن ليقيَّد، فكان يعمل على نشر الحق بين الفقراء في الأرياف وبين أصدقائه في المدينة وفي البلاط، وكانت شهوة قلبه المتقدة أن يوصل الحق إلى فرنسا كلها. وقد أُلقي في السجن مرة ثالثة، وفي هذه المرة ظن جماعة السوربون أنهم تمكنوا من فريستهم، إذ كان الملك مسجونًا في مدريد، وكان كل النفوذ في يد لويزا التي كانت تؤيد مثيري الاضطهاد هي ودوبْرات مستشارها الشرير، ولكن لا. فقد تغلبت في هذه المرة أيضًا كلمة مرجريت عند أخيها، وصدر أمر ملكي مؤرخ في أول أبريل عام ١٥٢٦م بتأجيل القضية إلى أن يعود الملك.

لما أُطلق سراح بركين توسل إليه أصدقاؤه الفاترون أن يتجنب إساءة الدكاترة الذين ظهرت نياتهم السيئة من نحوه، وإذ علم إرازمس أنه على وشك أن ينشر ترجمة لأحد مؤلفاته اللاتينية، مع إضافة بعض الملاحظات، كتب إليه الخطاب تلو الخطاب لإقناعه بالعدول عن ذلك قائلاً له "اترك تلك الزنابير وشأنها، وفوق الكل لا تزج بي في هذه الأمور، لأن حملي ثقيل بدرجة كافية. إن كانت مسرتك في النزاع فليكن، أما أنا فليست لي رغبة في ذلك". وفي خطاب آخر يقول له "اطلب النقل إلى سفارة في بلد أجنبي. سافر إلى ألمانيا. أنت تعرف بيدا وأصدقاءه إنه كتنين ذي ألف رأس يقذف بسمومه وحماته إلى جميع الجهات. إن أعداءك اسمهم لجئون. إنهم لن يتركوك حتى يأتوا بك إلى نهاية قاسية. لا تثق في حماية الملك. ولكن على كل حال لا تشبكني بهيئة كلية اللاهوت". على أن هذا الخطاب الذي ينم عن سجية هذا الفيلسوف الجبان، الذي كان يتخذ دائمًا طريقًا متوسطًا بين الإنجيل والبابوية، لم يكن إلا ليضاعف شجاعة بركين. حتى أنه عزم على أن لا يظل فيما بعد في موقف الدفاع، بل يتخذ خطة الهجوم، فشرع في العمل واستخرج من كتابات بيدا وإخوته اثنتي عشرة قضية رفعها إلى فرنسيس باعتبارها باطلة وهرطقية ومضادة للكتاب المقدس.

ارتبك رجال السوربون وصرخوا صرخة مرعبة: "ماهذا؟ أيتهم لوثري حماة الإيمان وأعمدة الكنيسة بالهرطقة، بينما كان هو نفسه يستحق الموت ألف مرة؟"[٤١] على أن الملك لم يأسف لتلك الفرصة المواتية لإذلال أولئك الدكاترة المشاغبين، فأمرهم أن يدحضوا أو يثبتوا تلك القضايا الإثنتى عشرة من الكتاب المقدس. ولا شك أن هذه كانت مهمة شاقة عليهم، وكان الأمر على وشك أن يتحول تحولاً خطيرًا، لولا وقوع حادثة حولت كل شيء إلى صالح السوربون. ذلك أن تمثالاً للعذراء في أحد أحياء باريس قد تحطم في نفس ذلك

الوقت. من ثم صاح الكهنة "إنها مؤامرة واسعة النطاق ضد الدين وضد الملك وضد نظام الدولة وطمأنينتها، وسوف تنقلب كل الشرائع وتلغى كل المقامات. هذه هي ثمار التعاليم التي ينادي بها بركين". ومن تأثير صيحات السوربون والكهنة والبرلمان والشعب أثير الملك نفسه، فقبض على بركين وألقاه في السجن للمرة الرابعة.

حكم السوربون واستشهاد بركين

انتدب البرلمان لجنة من أثني عشر عضوًا، فحكمت على بركين بأن يعمل استنكارًا علنيًا، ثم يبقى في السجن بقية حياته بدون كتب ولا قلم ولا ورق، بعد أن يثقب لسانه بسيخ محمى بالنار. فقال بركين "إني أستأنف إلى الملك". فأجاب واحد من القضاة "إن لم تخضع لحكمنا فسنجد وسيلة لإيقاف دعواك إلى الأبد". فقال بركين "إني أوثر أن أموت ولا أوافق على إنكار الحق بهذه الكيفية". فأجاب القضاة بصوت واحد "إذًا فليشنق ويحرق في ميدان دي جريف". ولكن رأت الحكمة أن يؤجل تنفيذ الحكم إلى وقت غياب فرنسيس، خشية من أن تتحرك عواطفه القديمة نحو خادمه المخلص المحبوب، فيأمر بإطلاق سراحه للمرة الرابعة.

وقد قُدم التماس بتأجيل التنفيذ أسبوعًا، ولكن بيدا قال "ولا يوم واحد: فليُعدم في الحال". وفي نفس ذلك اليوم الموافق ٢٢ من أبريل عام ١٥٢٩م اقتيد بركين للموت. وقد رافقه إلى مكان التنفيذ ستمائة جندي وجمهور عظيم من المتفرجين. ويصف إرازمس هيئته في ذلك الوقت بناء على شهادة شاهد عيان قائلاً "لم يظهر أي علامة للحزن، وكأنك كنت تراه في مكتبته يواصل دراساته، أو في معبده يتأمل في أمور إلهية، ولما قرأ الجلاد صورة الحكم بصوته الخشن لم يتغير وجهه، بل نزل من العربة بخطوات ثابتة. على أن هذا لم يكن ثبات عدم المبالاة كما يفعل المجرمون الغلاظ القلوب، بل كان هدوء وسلام الضمير الصالح". وإذ كان من أشراف فرنسا ألبسوه لباسًا يتفق مع مقامه "فلبس ثوبًا من القطيفة وصدرة من الحرير والدمقس وجوارب ذهبية. وما انتحب ولا بدت عليه إمارات الخوف، بل بدا وكأنه متهيئ للظهور في البلاط، ولكن ليس بلاط فرنسيس بل بلاط السماء".

وإذ أراد أن يعرف الجمهور المسكين المحيط به بالمخلّص حاول أن يكلمهم، ولكن الرهبان أعطوا علامة، وفي الحال اشتد الصياح وقرقعة الأسلحة فحالت دون سماع الكلمات المقدسة التي فاه بها الشهيد المائت. على أن موته تكلم بعبارات أبلغ إلى فرنسا كلها وذلك بصوت لا يمكن لأي صياح أن يسكته. ثم عملت النيران عملها تاركة في المكان الذي وقف فيه شريف فرنسا العظيم والمسيحي المتواضع كومة من الرماد، وقد كان استشهاد بركين لفرنسا ما كانه استشهاد ردلي لإنجلترا - شمعة موقدة بنعمة الله لا تنطفئ، بل تضيء جميع أرجاء المملكة(٢/٧٨)،(٢/٩٢)،(٩١).

سرعة انتشار تعاليم الإصلاح

لقد أوردنا مثلين للاستشهاد، أحدهما من الطبقة المتواضعة والآخر من الطبقة الرفيعة، ويعتبر هذان المثلان عينة للحوادث الأخرى التي بلا حصر. ويضيق نطاق هذه الصفحات عن وصف الآلام المريرة التي احتملها بصبر كثيرون من شهود المسيح النبلاء، الذين واجهوا الموت بانتصار. ولكن بالرغم من قسوة الاضطهاد قد ازداد عدد المتجددين أكثر من أي وقت آخر. وقد كانت شهرة فرنسيس الأول بميله إلى رجال العلم، ودعوته لملانكتون للإقامة في باريس، بتأثير شقيقته، من العوامل التي شجعت كثيرين من رجال الإصلاح في ألمانيا وسويسرا على زيارة فرنسا والمساعدة في عمل الرب الصالح. وبهذه الكيفية دخلت إلى تلك البلاد كتابات لوثر وزونجلي وغيرهم وانتشرت انتشارًا واسعًا، وسرعان ما تقدمت الآراء الجديدة بين طبقات الشعب، وكان مرسلو الإصلاح يظهرون هنا وهناك والاجتماعات تتكون، ومن وقت لآخر كان يساق الواحد تلو الآخر من اجتماعات الصلاة أو دراسة الكلمة إلى حيث يختم على إيمانه بدمه.

ولكن في عام ١٥٣٣م بدا كأن أيامًا أفضل ستشرق على حركة الإصلاح، فقد ماتت الملكة الأم لويزا أوف سافوي، التي كانت من ألد الأعداء وأقسى المضطهدين، وعقد فرنسيس معاهدة مع البروتستانت المنتمين إلى تحالف سمولكولد، ومن ثم تقوى تأثير مرجريت التي انتهزت تلك المناسبة الحسنة وفتحت منابر باريس لروسل وكورالت وبرتول، الذين كانوا يميلون إلى تعاليم الإصلاح. ولم يبد الأسقف جون دي بلاي أية معارضة، فازدحمت الكنائس. وحاول بيدا ودكاترة السوربون أن يثيروا الشعب، ولكنهم منعوا من ذلك. في تلك الأثناء عاد فرنسيس إلى باريس من

مرسيليا، حيث كان قد قابل البابا كليمنت السابع بشأن زواج ابنه هنري بكاترين دي مديشي، وقد كان لتجديد صداقته مع البابا عم كاترين تأثير كبير في تحويل أفكاره ضد الهراطقة، فألقى كثيرين منهم في السجن ومنع الخدام الثلاثة المشتبه فيهم من التبشير.

هكذا كان فرنسيس الأول، لم يأت قط إلى قرار حاسم بخصوص موضوع الإيمان الكلي الأهمية، فلم يكن يعلم حقيقة اتجاهه أو رغباته، ولكنه كان إلى ذلك الوقت يعطف على المصلحين بدافع كراهيته الطبيعية للرهبان وقوة تأثير شقيقته عليه، على أنه قد حدثت حادثة حوالي ذلك الوقت كان فيها المصلحين ملومين كثيرًا، وقد وضعت تلك الحادثة حدًا للصراعات الكثيرة بين مرجريت وشقيقها من حيث معاملته للمصلحين، كما وضعت حدًا أيضًا لتذبذب الملك بين الجانبين.

كان كثيرون من المصلحين يميلون إلى الاعتماد على عطف البلاط في تقدم الإنجيل، وكانوا يرون أن يتصرفوا باعتدال متجنبين كل ما يسيئه. هؤلاء كانوا يسمونهم المعتدلين. وكان الفريق الآخر المسمى بالكتابيين يرى أن لا يعتمد بالمرة على عطف الملوك، بل ينادي بالإنجيل بشجاعة مقاومًا لكل شيء من شأنه أن يأتي ثانية بخرافات روما. وإذ انقسمت كنيسة فرنسا الحديثة العهد بهذا الشكل اتفقوا على أن يرجعوا في الأمر إلى معلميهم الأولين فارل وباقي المنفيين، فانتدبوا شابًا مسيحيًا اسمه فيريه وأرسلوه إلى سويسرا، وما أن عبر جبل جورا حتى وقعت عينه على منظر يختلف كل الاختلاف عما في باريس، ففي المدن والقرى كانت المذابح تهدم والأصنام تحطم، وكل مظاهر الوثنية تزال من العبادة الجهارية، وهذا كما رأينا كان من عمل فارل وفيريه وسونييه وأوليفتان وفرومنت وآخرين. أما فرنسا فكانت بخلاف ذلك تمامًا. فهناك كان ملك قوي وكهنة متكبرون يناضلون باستمرار ضد نفر قليل من المصلحين.

قال المبشرون السويسريون "إن هذا الخليط من الإنجيل والبابوية لا يمكن أن يعيش طويلاً كما لا يمكن أن توجد النار مع الماء". وقد انحازوا إلى فكرة الإقدام والشجاعة، قائلين إنه يجب أن توجه ضربة قوية إلى تلك التي هي قلعة الإمبراطورية البابوية، والقداس يجب أن يُلغى، لأنه إذا كان النظام الكهنوتي هو الشجرة التي قتل ظلها المميت بذار الكلمة الحية فإن القداس هو أصل تلك الشجرة، واقترحوا كتابة إعلانات ووضعها في جميع أرجاء فرنسا.

سنة الإعلانات

أخيرًا كتب الاحتجاج الإنجيلي، والرأي السائد أن فارل هو مؤلفه. وقد تبارى المؤرخون في وصف شدة أسلوبه، فقال واحد "لقد كان التحقير يسوق قلمه الجسور" وقال آخر "كان هذا الاحتجاج نارًا مشتعلة متلفة" وآخر "كان صاعقة عظيمة شديدة مرعبة، تشبه تلك العواصف التي تتجمع في الظلمة المخيفة على قمم تلك الجبال التي كُتب الاحتجاج عليها، ثم ينفجر منها نور وهاج يضيء السماء كلها، وينبعث منها صوت رعود مدوية تهز الأودية المحيطة"(٢/٧٨)،(٣/٩٢)،(٩١)،(٢/٩٤).

لما وصلت الإعلانات إلى باريس رأى كثيرون من المسيحيين أن لهجتها مرة وشديدة أكثر من اللازم، ولكن الأكثرية كانت في جانب إذاعتها، فحُددت ليلة ١٩أكتوبر عام ١٥٣٤م لنشرها في جميع أنحاء فرنسا في وقت واحد.

وأقبلت تلك الليلة المشهودة، فغطت تلك الإعلانات جدران جامعة باريس الموقرة، والأبنية العامة في العاصمة، وأبواب الكنائس، والسوربون نفسها، وقد حدثت تلك الحركة في فرنسا كلها في نفس الوقت. وكان عنوان الإعلانات مكتوبًا بحروف عريضة "نبذة حقيقية عن المساوئ العظيمة المرعبة التي لا تطاق، مساوئ القداس البابوي المخترع مضادًا للعشاء المقدس، عشاء ربنا ووسيطنا الوحيد ومخلصنا يسوع المسيح". وقد هاجم الإعلان بكل شدة الباباوات والكرادلة والأساقفة والرهبان، وكل عقائد الإيمان الكاثوليكي الأساسية. وقد شغل هذا الإعلان المطول أكثر من خمس صفحات من تاريخ دوبيني. وهو ينتهي هكذا "وأخيرًا لقد فارقهم الحق، والحق يهددهم، والحق يطاردهم، والحق يملأهم رعبًا بكل ما سيبيد مُلكهم إلى الأبد عن قريب".

ولا تستطيع أية لغة أن تصف الصرخة الواحدة العامة، صرخة الغضب والهياج التي تجاوبت أصداؤها في جميع أرجاء فرنسا في صبيحة اليوم التاسع عشر، فقد تجمع الناس جماعات جماعات حول الإعلانات، واضطرم غضب الكهنة والرهبان قائلين "لقد دبر اللوثريون مؤامرة مزعجة لإحراق الكنائس وإشعال النار في المدينة وعمل مذبحة عامة". فصاح الجمهور كله "الموت. الموت. للهراطقة". وكان الملك في ذلك الوقت مقيمًا في قصر دي بلوا.

وقد ألصق إعلان - لا شك أنه بيد معادية - على نفس باب الجناح الخاص بالملك. وقد ألفت مونتمورنسي والكردينال دي تورنو نظر الملك إلى تلك الورقة، فاضطرب الملك واصفر وجهه ولم ينطق بكلمة، لأنه رأى في ذلك إهانة عظمى، لا إلى سلطانه فقط بل إلى شخصه. وقد ثبت هذه الفكرة في ذهنه مورنتمونسي وتورنو، حتى صرح الملك في غضبه قائلاً "ليُقبض على الجميع. لتُبد اللوثرية كلية". وقد طلب أعضاء الجامعات أيضًا أن يُصدر حكم عام بالموت حرقًا للانتقام من هذا التجديف الجريء.

الآن هبت بكل شدة تلك العاصفة التي حجزتها العناية الإلهية زمنًا طويلاً، وانضم الملك إلى حركة الاضطهاد بكل ثقله. ومهما يكن من الاعتبارات المخففة فلا يمكننا أن نخلي المصلحين من اللوم. هل كان الرسل ليكتبوا ويعلقوا إعلانات كهذه؟ إنه لا يوجد لنا قياس للعمل ولا مرشد إلا كلمة الله. ومع ذلك فلا يتملكنا من نحو أولئك المتألمين إلا شعور واحد، هو شعور العطف والإشفاق القلبي.

أصدر الملك أوامره في الحال بالقبض على أعداء السر المقدس أحياء أو أمواتًا، وقد أرشد شخص خائن إلى بيوتهم، وفي وقت قصير قُبض على الجميع وزُج بهم في السجن. وإذ دخل الضابط المجرم إلى بيت أحدهم المدعو برتلماوس ميلون، وكان أعرج عاجزًا في الجسد، قال له "تعال أخرج حالاً". فأجابه المريض المسكين "بالأسف يا سيدي! الأمر يحتاج إلى سيد أعظم منك ليرفعني". فحمله الجاويش خارجًا، وهو ممتلئ بالسلام والشجاعة المقدسة، حتى أن زملاءه في الأسر تقووا وتثبتوا بواسطة تحريضاته لهم. وقد كان سابقًا يشعر بألم في كل عضو من جسده عندما يرفعه أصدقاؤه ولكن الرب في رحمته العظيمة أزال منه هذه الحساسية، حتى اعتاد أن يقول في السجن "إن أقسى لمسة تبدو رقيقة".

التنفيذ

انتهت بسرعة محاكمة اللوثريين وبدأ التنفيذ. قالوا إنه لا بد من كفارة لتطهير فرنسا، وبناء عليه يتحتم تقديم الهراطقة كذبيحة، ومن ثم وزعت في جميع أنحاء باريس الحزم التي يُربط بها المحكوم عليهم ويُحرقون. وبدأ التنفيذ في الأيام التالية. وقد ابتدأوا بميلون الأعرج، فدخل السجان إلى زنزانته وحمله على ذراعيه ووضعه على عربة وسار الموكب إلى ميدان دي جريف. وإذ مر ببيت أبيه ابتسم مودعًا بيته القديم، إذ كان يرى أمامه البيت الأبدي في السماء. قال الضابط "خفضوا اللهب، فالحكم ينص على أن يحرق بنار بطيئة". فرفعوه وألقوه في اللهب، ولكنه احتمل العذابات البطيئة كأنه مدعم بقوة معجزية. ولم تخرج من بين شفتيه إلا كلمات السلام بروح هادئة حلوة، بينما صعدت نفسه المفتداة بدم المسيح الثمين على أجنحة الملائكة إلى فردوس الله.

وبعده أعدم دي بورج صديق كلفن. وأعقبتهما قائمة طويلة من الأسماء، من بينهم كثيرون من الرجال البارزين. وآخرون إذ رأوا تلك الإنذارات هربوا، وبينما كانت العاصمة تضطرب تحت تأثير تلك المشاهد الثورية كانت مرجريت تقيم في قصرها في نيراك وقد ملأتها تلك الأخبار بالفزع. وإذ كان أعداؤها الآن ذوي حظوة لدى الملك عملوا على إثارة فكره ضدها. لقد كان فرنسيس فيما مضى يُسكِت في الحال وبكل عنف من يتعرض بإشارة خفيفة إلى مسلك شقيقته المحبوبة، أما الآن ففي ظلام ذهنه كان يعطي أذنًا صاغية لوشايات رجال حاشيته، الذين أوعزوا إلى الملك بأنه إذا كان يريد حقيقة أن يستأصل شأفة الهراطقة من مملكته فليبدأ من بلاطه ومن أقرب المرتبطين به. وعلى ذلك استدعى مرجريت إلى باريس، فحضرت في الحال واثقة من نقاوة نياتها ومن محبة شقيقها، وغير خائفة من اللاهوتيين الذين يبغضونها والذين لم تكن لتحترمهم أو تهابهم. ولأول مرة في حياته استقبل فرنسيس مرجريت في اللوفر ببرود وجفاء، معنفًا إياها من أجل الشرور التي أتت على مملكته نتيجة لحمياتها للهراطقة. فبكت مرجريت، ولكنها أخفت دموعها عن أخيها الغاضب وبدأت تعاتبه بلطف. وسرعان ما أحست أن التعصب لم يخمد كل حبه لها، فتشجعت وتجاسرت على أن تقول له إن قسوة الفريق المتعصب هي التي ملأت المملكة بالاضطراب، وصرحت له أن مسألة الإعلانات قد أحزنتها كما أحزنته، ولكنها متأكدة أنه لا يد في إذاعتها لأحد من الخدام الذين تعرفهم.

ولا نريد أن ندخل في التفاصيل، وإنما نضيف على ما تقدم أن توسلاتها كانت سببًا في إطلاق سراح المبشرين الثلاثة روسل وبرتول وكورالت، وفي تغير وجه الملك من نحو الذين تكلموا بالسوء على نيات شقيقته. وقد كان وجودها في باريس بعض الوقت معطلاً لمشروعات المضطهدين، ولكنها إذ علمت أن

فرنسيس عازم على تسيير موكب عام في شوارع باريس لتطهيرها من دنس الإعلانات، استأذنت الملك في السفر إلى بيرن، فأذن لها بامتعاض.

الموكب وحوادث الاستشهاد

في اليوم الحادي والعشرين من يناير عام ١٥٣٥م اجتاز موكب ذبيحة السلامة في أهم شوارع باريس في جلال كئيب، ملقيًا رعبًا رهيبًا في قلوب المتفرجين، وكانت ستائر الحداد تغطي المنازل على طول طريق الموكب. وقد اشتركت في الموكب جميع الهيئات الدينية في باريس، حاملين عاليًا الآثار المقدسة التي تمتلكها أديرتهم، رأس سان لويس حامي فرنسا، وقطعة من الصليب الحقيقي كما زعموا، وإكليل الشوك الحقيقي! ومسمارًا مقدسًا!! ورأس الحربة التي طعن بها جنب ربنا!! ولم يسبق أن عُرضت آثار كثيرة بهذا المقدار في شوارع باريس في مناسبة أخرى. وتبع الآثار الكرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة لابسين ثيابهم الكهنوتية وقلانسهم، وكان هؤلاء يتقدمون ذبيحة القداس يحملها أسقف باريس تحت غطاء على شكل خيمة من المخمل القرمزي، يدعمهما ولي العهد ودوق أورليانز ودوق أنجوليم ودوق فندوم، ويسير حول الأسرار المقدسة مائتا رجل من العائلة المالكة كل منهم يحمل مشعلاً متقدًا من الشمع الأبيض، يحيط به أبناؤه والأمراء الذين من الدم الملكي. بعد ذلك سار جمهور لا عدد له من أشراف البلاط والأمراء والسفراء والأجانب، يحمل كل منهم مشعلاً متقدًا. وكان النواب واقفين أمام بيوتهم وفي أيديهم شموع موقدة، وعندما مر عليهم القربان المقدس خروا على ركبهم. ولم ينته الموكب بذلك، بل سار خلف هؤلاء في صمت كئيب رجال البلدية وأعضاء الجمعيات وموظفو البلاط والحرس السويسري وجوقات الترتيل التابعة للكنائس الملكية، وبلغ العدد عدة آلاف، كل واحد منهم يحمل شمعة موقدة. هذا هو الوجه الهزلي من رواية تعصب الملك الجنوني، وتلاه الوجه المفجع "التماسًا لرحمة الفادي حتى يغفر الإهانة التي وجهت إلى ذبيحة القداس".

وإذ مشى الملك من كنيسة اللوفر إلى كاتدرائية نوتردام جلس على عرش وألقى خطابًا ضد التعاليم الجديدة من أقسى ما يمكن أن يتصوره العقل أو تعبر عنه الألفاظ، قال "إذا أصيب ذراعي بعدوى هذا الوباء الخبيث فإني أقطعه. وإذا بلغت التعاسة بأحد أبنائي إلى الحد الذي يجعله يميل إلى ذلك الإصلاح الجديد ويرغب في الاعتراف به، فإني لا أتردد عن أن أقدمه بنفسي ذبيحة للعدل الإلهي ولعدالتي". ثم انتقل من دور الخطابة إلى دور التنفيذ، فأمر في ذلك اليوم نفسه بأن يحرق ستة من اللوثريين أحياء بعد أن تقطع ألسنة أكثرهم شجاعة حتى لا يقولوا كلمة تحريض للجمهور أو تسمع أصواتهم وهم يصلون لله، فعلقوهم على مشنقة متحركة تنزل بهم فتغمرهم في النيران ثم ترتفع... وهكذا. واستمرت تلك العملية إلى أن احترقت الحبال التي كانت تربطهم بالعارضة فسقطوا في المرة الأخيرة وسط اللهب المستعرة، وما هي إلا لحظات حتى صعدت أرواحهم كما في مركبة من نار إلى الدوائر البهية، دوائر البركة الأبدية الصافية.

مجازاة العدالة

هكذا افتُتح عصر الاضطهاد والاستشهاد في فرنسا. ويبدو أن يوم ٢١ يناير كان يومًا مشؤوما لتلك البلاد الثورية، فبعد مائتين وخمس وثمانين سنة من التاريخ الذي فيه قاد فرنسيس أتباع المسيح الوادعين إلى الموت حكم بالإعدام على شخص من أخلص وأكرم أعضاء أسرة بوربون، ونفذ فيه الحكم في يوم ٢١ يناير من عام ١٧٩٣م. ولا شك أن المنظر كان مؤلمًا إلى حد يفوق التصور، حينما جرّ السجانون الملك المسكين لويس السادس عشر إلى المقصلة، ليس كالشهداء الذي وضعوا حياتهم بسرور لأجل المسيح، بل جروه قسرًا وربطه جلادوه إلى المقطرة، وظل هكذا مقيدًا عليها إلى أن لمع نصل السيف في الهواء وهوى على رأسه ففصلها عن جسمه فوق المقصلة. على أن هناك حادثة ثالثة حدثت في يوم ٢١ يناير أيضًا، وهي أكثر الحوادث الثلاث إذلالاً لكبرياء فرنسا، فيقال إن باريس قررت التسليم للألمان المنتصرين في يوم ٢١ يناير من عام ١٨٧١م. إن اتفاق هذه التواريخ مدهش وملفت للنظر، ولكننا نتركه بدون تعليق. فالذين يدرسون التاريخ في اتجاه صحيح لا بد وأن يؤمنوا بالعناية الإلهية التي تجازي جزاءًا عادلاً، إلا أن الله لا يعطي لأحد بيانًا عن طرقه، أو كما يقول صاحب المزمور «في البحر طريقك، وسبلك في المياه الكثيرة، وآثارك لم تعرف» (مز ٧٧: ١٩).

يقول فيليس مؤرخ البروتستانت في فرنسا مشيرًا إلى ذلك

العصر المرعب "إنه عصر مهم في تاريخنا، لأنه من ذلك الوقت اشترك العامة من أهل باريس في مناهضة الهراطقة، وإذ اعتلوا المسرح مرة لم يتركوه حتى النهاية. وفي سلسلة الحوادث نرى أن ذلك الموكب الذي اقترن بإجراءات التنفيذ كان بداية تلك الأيام الدموية في القرن السادس عشر. وكان من الطبيعي أن تحدث نتيجة لذلك مذبحة سان بارثلميو، وإقامة المتاريس، ومقتل هنري الثالث واغتيال هنري الرابع".

وإذ اغتاظ أمراء ألمانيا بحق عندما سمعوا بفظائع فرنسيس هددوا بأن يتحدوا مع البيت النمساوي ضده. وإذ خشي الملك من حدوث انقسام أرسل في الربيع سفيرًا إلى سمولكولد، وكان العذر الذي قدمه هو عذر جميع المضطهدين في كل العصور، وهو التحريض على الفتنة، فقال إن الذين قتلهم هم رجال متمردون أعداء للأسرار المقدسة وليسوا لوثريين. وصرح بأن له رغبة قوية في الحصول على معلومات أوفى بخصوص تعاليمهم، وذلك بلا شك لكي يكون في صلح مع تحالف سمولكولد. وطلب منهم أن يرسلوا أحد لاهوتييهم المشهورين إلى بلاطه. وحاول أن يغري ملانكتون على السكن في باريس، ولكن رياءه وأعماله ذات الوجهين قد فشلت، فرفض ملانكتون وأبى تحالف سمولكولد أن يعقد معاهدة مع مضطهد إخوتهم.

ولقد كان من تأثير ذلك العزم على سحق الهراطقة الذي تملك فرنسيس أن هاجرت مرجريت من باريس إلى مملكتها الصغيرة بيرن، وهي مقاطعة قديمة في فرنسا، وصار بلاطها هناك ملجأ للرجال المشهورين الذين فروا من الاضطهاد "لقد جاءت عائلات لاجئة كثيرة بصناعاتها وأموالها إلى هناك، واتخذ كل شيء شكلاً جديدًا، فعدلت القوانين وهذبت الفنون وتحسنت أحوال الزراعة، وأنشئت المدارس وتهيأ الناس لقبول تعاليم الإصلاح. وفي وقت قصير وُضعت أساسات ذلك التقدم المشهود الذي جعل تلك المملكة الصغيرة الواقعة في جبال البرانس تشبه واحة وسط صحراء فرنسا وأسبانيا، لأنهما هكذا ابتدأا أن يصيرا"[٢٧٨].

وفي عام ١٥٤٩م ماتت مرجريت ملكة نافار التقية، فحزن عليها البيرنيون حزنًا عميقًا، وكانوا دائمًا يرددون أقوالها الكريمة "إن الملوك والأمراء ليسوا أسيادًا على رعاياهم، وإنما هم خدام أقامهم الله لخدمتهم والمحافظة عليهم". ومرجريت هي أم جان دالبريه، إحدى النساء الشهيرات في التاريخ، وهي جدة هنري الرابع.

الفصل الواحد والخمسون

التقدم العظيم للإصلاح

في أواخر أيام فرنسيس وفي مدة حكم ابنه هنري الثاني تقدمت حركة الإصلاح تقدمًا سريعًا لا يتسع المجال لتتبعه في كل تفاصيله في هذا المختصر، وإنما نأتي بخلاصة موجزة للحوادث الرئيسية من وقت موت فرنسيس الأول إلى مذبحة سان بارثلميو.

لقد عاش فرنسيس ومات مثل غيره من الملوك، وقد بدأ ملكه بأبهة عظيمة، ولكن أنهاه في ظلمة وتعاسة. فعندما اعتلى العرش كان كل شيء بهيجًا، كان يحيط به عدد كبير من الفرسان والشجعان وزعماء الطبقة الأرستقراطية في فرنسا، وكانت أكرم وأشرف سيدات المملكة في حاشية سيدتهم اللطيفة الملكة كلود، فكانوا يزينون البلاط. ولكن ما أبعد الصورة قبيل نزوله من العرش إلى القبر! فنعيم البلاط وولائمه وحفلاته التي كانت يومًا ما موضع إعجاب أوروبا كلها لم تُعطه راحة ولا عزاء في أيامه الأخيرة، فقد أصابته في جسده أوجاع مبرحة بسبب حياة الخلاعة التي عاشها، كما كانت نفسه في عذاب مرير بسبب الفظائع التي حدثت بموجب أوامره، مما جعله يئن أنات عميقة، كما كانت تنتابه نوبات رعشة فجائية شديدة تهز جسمه. وكان يخيم على نفسه وعلى وجهه في بعض الأحيان ظل قاتم، كأنما يرى أمامه منظرًا مخيفًا يفزعه ويزعجه بدرجة تفوق التصور، وحينئذ تسري في كل جسمه قشعريرة سريعة. وكثيرًا ما سُمع يتمتم ببعض كلمات تدل على أنه كان يقاسي عذاب الضمير المشتكي، فيقول "لست أنا الملوم. لقد تجاوزوا الحد وعملوا أكثر مما أمرتهم به". ولا شك أنه كان يشير بذلك إلى المذبحة القاسية الوحشية للولدانسيين الأبرياء. وكان يحيط به جمهور غفير من الكهنة والندماء والنساء الفاجرات، ولكنهم لم يكونوا ليبالوا بالملك المائت، مما زاد في آلامه.

ينتهي المشهد، وتخرج الزفرة الأخيرة، وتعبر الروح محملة بمسؤولياتها للظهور أمام الله. يا له من فكر رهيب! لقد أتت الحقائق، ولا يمكن لعرش الدينونة أن يتأثر بالامتيازات الملكية، ولا محاباة للوجوه عند الله، بل سيُدان كل إنسان بحسب أعماله في الجسد، ولكن ماذا يا تُرى تكون دينونة مَن يقفون بأيديهم محمَّرة ثيابهم ملطخة بدم قديسي الله؟ لا شيء يمكن أن يمحو هذا الوزر إلا التوبة في أوانها والالتجاء إلى دم المسيح الثمين. يا ليت جميع الذين يقفون بضع لحظات ليتأملوا في هذا المشهد المحزن، مشهد تلك الساعات الأخيرة لذلك الملك، يؤمنون بهذا ويوجهون التفاتهم إلى الرب يسوع ابن الله، الذي دمه يطهر من كل خطية، الذي يؤكد لنا في نعمته قائلاً «من يقبل إليّ لا أخرجه خارجًا» (يو ٦:٣٧). لقد مضى زمان طويل منذ أن ماتت لويزا وفرنسيس ومرجريت، ولا يسعنا إلا أن نقف قليلاً متأملين في هذا الفكر الخطير، حتى يتهيأ القارئ إلى ذلك الانتقال الذي لا يتغير الحال بعده إلى الأبد. كل شجرة تُعرف من ثمرها، وفي الموضع الذي تسقط فيه الشجرة هناك تبقى. من ذا الذي لا يقول أن طريق مرجريت كان أسعد الثلاثة؟ صحيح أنه كان عليها أن تقاسي في حياتها تعييرًا لأجل اسم المسيح، وتوسم كهرطقية، ولكنها قبلت بسرور أن تنضم إلى قديسي الله المتألمين. وما أعظم مكافأتها في السماء! إن احتمال الآلام أعوامًا قليلة، ولو وصل الأمر إلى الاستشهاد، خير من البقاء إلى الأبد في الجحيم «حيث دودهم لا يموت والنار لا تُطفأ» (مر ٩:٤٤-٥٠، مت ٥: ١٠-١٢).

أيها القارئ العزيز.. احذر! فالله لا يمكن أن يُخدع. فالذي تزرعه في الزمان لا بد وأن تحصده هنا وفي الأبدية!

هنري الثاني

مات فرنسيس الأول عام ١٥٤٧م، وخلفه في المُلك ابنه هنري الثاني زوج كاترين دي مديشي السيئة السمعة، التي كانت كإيزابل قديمًا مهيأة وميالة لأن تثير الاضطهاد ضد أمثال نابوت والاستيلاء على أملاكهم. وقد حدث هذا فعلاً على نطاق واسع، وفي حالات كثيرة أُنفقت الأموال التي اغتصبت في أغراض مخجلة للغاية، ولقد كانت هناك عوامل كثيرة تثير ذلك الملك لاستئناف سياسة الاضطهاد، فكان يحيط به مستشارون على جانب كبير من الدهاء والعداء للإصلاح، وكان أمامه مثال والده السيئ، ومن خلفه تأثير زوجته، فلا غرابة إذا سقط في مدة حكمه جموع كثيرة من الشهداء. فلما حدثت الهزيمة المنكرة في معركة سان كنتان العظيمة، ووقف الأسبان على أبواب باريس، ارتفعت الأصوات بتلك الصيحة الوثنية القديمة ضد المسيحيين الأوائل "إننا لم ننتقم لكرامة الله انتقامًا كافيًا، ولذلك ينتقم الله منا". فنُسبت تلك الكارثة إلى المعاملة اللينة التي عومل بها الهراطقة، كما حدث تمامًا عندما هاجم البرابرة روما، حيث نسب الوثنيون ذلك إلى تسامحهم مع المسيحيين.

وإذ هال رجال الإكليروس تقدم الإصلاح الذي لم يعرفوا سببه استعملوا كل الحيل لإزعاج الملك، فأكدوا له أن الهوجونوت - لأنهم هكذا كانوا يسمونهم نسبة إلى هوجوس، أحد الكلفنيين من جنيف - هم ألد أعداء الحكام وكل السلطات الملكية والإكليريكية، فإذا ما امتدوا لا بد وأن يدوسوا عرشه تحت أقدامهم، ويطرحوا بفرنسا بين براثن الكفرة والثوريين. وكان من تأثير هذه التصويرات السيئة التي كان يقوم بها على الأخص كردينال لورين أن تضاعفت حوادث الاستشهاد. وبما أن تلك الحوادث كانت تعتبر تسكينًا لغضب السماء، فكلما أكثر الملك نفسه من ارتكاب الخطايا كان يكثر من إحراق الشهداء للتكفير عن خطاياه! ولكن الروح القدس كان يعمل بنشاط عظيم على نشر الكتاب المقدس والكتب الدينية بكيفية جعلت كل الوسائل التي استُعملت للقضاء على الهوجونوت فاشلة وعقيمة، وكأنما كانت تقوم جيوش عظيمة من رفات الشهداء. يقول فيليس "كان كثيرون من رجال الأدب ومن رجال القانون، ومن رجال الحرب ومن رجال الكنيسة نفسها يسرعون إلى الانضواء تحت راية الإصلاح، وكانت عدة مقاطعات عظيمة تذخر بالمصلحين، منها لانجدوك ودوفني وليون وجوين وسانتونج وبواتو وأورليانز ونورماندي وبيكاردي وفلاندرز أهم مدن المملكة، وبورج وروان وبردو وتولوز ومونتبلييه ولاروشل. ويدل الإحصاء على أنهم في سنوات قليلة بلغوا ما يقرب من سدس السكان، وهذا السدس كان هو صفوتهم ونخبتهم".

على أن اللهب كانت لا تزال تستعر في جميع أحياء باريس وفي كل مدن فرنسا، ويُساق إليها أشخاص من مختلف الأعمار رجالاً ونساء ليكونوا وقودًا للنيران، يقاسون أشد أنواع العذاب والوحشية. ولكن كلما زادت الاضطهادات عنفًا كلما ازداد عدد التلاميذ، الذين اندمج في سلكهم أمراء من الدم الملكي، منهم ملك نافار ودوق فندوم وأمير كونديه وكولنيي وشاتيلون وعدد عظيم من أشراف فرنسا. ويقول مؤرخ كاثوليكي "علاوة على هؤلاء. كان من أوائل الذين تأثروا بسهولة كثيرون من النقاشين والمثّالين والصياغ وصانعي الساعات وبائعي الكتب والمشتغلين بالطباعة، وغيرهم ممن أكسبتهم مهنهم شيئًا من التفكير الشريف الحر"[(١١)(٢٧٨)].

وكان فارل وزملاؤه من المنفيين يغمرون فرنسا في ذلك الوقت بالكتب الدينية والكتب المقدسة من مطابع جنيف ولوزان ونيوشاتل بواسطة الطوافين، الذين خاطروا بحياتهم لكي يوصلوا تلك البضائع الثمينة إلى قصور الأشراف وأكواخ الفلاحين.

ازداد هلع الملك، وقال في نفسه: "بعد قليل تصبح فرنسا كلها لوثرية". فقال له مشيروه: "إن من أول واجبات الملك أن يحافظ على الدين الحقيقي ويبيد أعداءه". فتقدم الملك المغتاظ إلى دار البرلمان ليستشير أعضاءه عن أنجع الوسائل لإزالة الاختلافات الدينية من المملكة، وكان هذا في اليوم العاشر من شهر أغسطس عام ١٥٥٩م. ومع أن حضور الملك بالذات كان يقصد به إرهاب الأعضاء، إلا أن ذلك لم يمنعهم من أن يتكلموا في الموضوع بصراحة. تكلم الرئيس جيل ليميتر محبذًا فكرة الإحراق، وموصيًا باتباع مثال فيليب أوغسطس، الذي أحرق في يوم واحد ستمائة من الألبيين. والمحايدون تكلموا كلامًا عامًا غامضًا، ولكن الكلفنيين في السر، وبالأخص أناس دي بورج، طلبوا عمل إصلاحات دينية بواسطة مجمع وطني.

قال آناس دي بورج "إننا نرى جرائم ترتكب كل يوم دون أن يعاقب مرتكبوها، بينما تخترع ألوان جديدة من التعذيب لأناس لم يجنوا ذنبًا. هل يتهم بالخيانة العظمى أناس لا يذكرون اسم المليك

إلا عندما يصلون لأجله؟ وهل تعد آلات التعذيب لا للذين أثاروا الفتن في المدن وأشعلوا نيران الثورة في المقاطعات، بل لأولئك الذين كانوا المثل العليا لإطاعة القوانين وكانوا أشد المدافعين عن النظام؟ لقد كان على أعظم جانب من الخطورة أن يحكم بالموت حرقًا على أناس أسلموا الروح وهم يدعون باسم الرب يسوع".

واستشاط الملك غيظًا بسبب أقوال دي بورج الصريحة الصادقة، فأمر قائد حرسه أن يقبض عليه، وصرح علنًا أنه سيراه بعينيه وهو يحترق، فزجوا به في سجن الباستيل، وقبضوا على أعضاء آخرين من البرلمان في اليوم التالي. وبعد أربعة عشر يومًا من زيارة هنري التذكارية لبرلمانه كان الملك يستعرض قوته ومهارته الفروسية في حفل للعبة السيف وسط إعجاب الكثيرين، إذ صد هجمات دوق سافوي ودوق جيز، وهما أحسن قائدين في خدمة فرنسا، وكان يمكنه أن يغادر المشهد حينئذ بين تهليل السيدات وتصفيق أشراف فرنسا، ولكنه أصر على أن يلعب دورًا مع كونت مونتجومري قائد حرسه. ولا شك أن ذلك القائد أراد أن يعطي للملك فرصة الانتصار عليه كما فعل سابقيه، ولكنه لم يحسن توجيه حربته الخشبية، فانكسرت في قناع الملك ودخلت شظية منها في عينه ونفذت إلى المخ، فسقط الملك من على حصانه، وسرت في المتفرجين هزة رعب. وبعد قليل مات الملك ولم يرَ بعينيه حرق دي بورج كما قال. وقد رتبت العناية أن تكون اليد التي قبضت على دي بورج هي نفسها التي وجهت الضربة القاضية إلى الملك.

استشهاد دي بورج

لم يطلق سراح المسجونين بسبب موت الملك، وإنما أجلوا تنفيذ الحكم في دي بورج إلى عطلة عيد الميلاد في ديسمبر عام ١٥٥٩م كما يفعلون مع أشر طبقة من المجرمين. ولما تلي عليه الحكم لم تتغير أسارير وجهه، بل صلى إلى الله لكي يغفر للقضاة الذين حكموا عليه، وقال "أنا مسيحي. نعم أنا مسيحي. وإني أنادي بأعلى صوتي لمجد ربي يسوع المسيح". ولما علقوه على المشنقة نادى بالحق للجماهير التي حوله وصاح بصوت عال "يا إلهي! يا إلهي! لا تتركني حتى لا أتركك".

هكذا مات ذلك الرجل التقي الشهير وهو في سن الثامنة والثلاثين، وقد كان من عائلة طيبة إذ كان عمه مستشار فرنسا. وكان على جانب عظيم من العلم، فضلاً عن أمانته وإخلاصه لواجباته. وكان كل جريرته أنه تكلم في صالح العقيدة الجديدة. يصرح فلوريموند دي راموند، وكان طالبًا حينئذ "إن كل فرد في الكليات تأثر لدرجة البكاء، وقد دافعوا عن قضيته بعد موته، وقد أضر استشهاده بالديانة الكاثوليكية أكثر مما كان يمكن لمائة من الخدام أن يفعلوا بواسطة كرازتهم ومناداتهم".

غرس الكنيسة المصلحة الأولى في فرنسا

في عام ١٥٥٥م تأسست في باريس الكنيسة الفرنسية الأولى المعترف بها على المبادئ المصلحة، وكان قد مر أربعون عامًا منذ أن نادى ليففر بالإنجيل لأول مرة في الجامعة، في أثنائها تقابلنا مع كثيرين من تلاميذ المسيح النبلاء وكثيرين من المعترفين ومن الشهداء، ولكننا لم نجد اجتماعات علنية، بل كانت هناك دائمًا اجتماعات سرية للأمناء، ولكن بدون رعاة ثابتين وبدون ممارسة منتظمة لعشاء الرب، لأن كلفن مرشدهم المعترف به قد أشار عليهم أن لا يمارسوا العشاء الرباني إلا بعد أن يكون لهم خدام معترف بهم، ونتيجة لذلك مع كثرتهم في مجموعهم كانوا كأفراد منعزلين بعضهم عن بعض، يعملون منفردين دون أن يعرفوا المبدأ الجامع العظيم، مبدأ حضور وسكنى الروح القدس، وقد كان يجب أن يجدوا سندًا كافيًا لصنع ذكرى موت الرب والإخبار به من خلال كسر الخبز في قول الرب «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» (مت١٨: ٢٠).

تكونت الآن في باريس كنيسة على النظام الجنيفي، أو بالحري المشيخي، بخادم وشيوخ وشمامسة. وسرعان ما حذت بواتيير وأنجِرس وبورج وبلاد أخرى حذو باريس. ومن ذلك الوقت ابتدأ عمل التنظيم بهمة، وفي ظرف خمس سنوات فقط وجد في فرنسا أكثر من ألف اجتماع كلفني، وكانت الخطوة التالية التي يجب اتخاذها هي اتحاد تلك الكنائس المنعزلة في كنيسة واحدة عامة. ولهذا الغرض عُقد مجمع عام في باريس في الخامس والعشرين من مايو عام ١٥٥٩م. ولكن الصعوبات التي لاقاها الخدام في السفر من جميع أنحاء فرنسا كانت عظيمة بدرجة لم تمكن سوى ثلاث عشرة كنيسة من إرسال مندوبيها إلى المجمع. وأولئك المندوبون واجهوا في طريقهم موتًا محققًا. يقول فيليس

"لقد دارت مباحثات ذلك الاجتماع في بساطة وعظمة أدبية تملأنا بالاحترام، فلم تكن هناك قوة خطابة ولا وسائل عنف، بل كان هناك وقار هادئ وقوة ساكنة تسود الجميع، وكان أعضاء المجمع يتباحثون في سلام عميق تحت حماية القوانين".

وفي ذلك الوقت وضعت الأسس الكنسية للإصلاح الفرنسي، وهي تتكون من أربع درجات للسلطة أو المجالس الكنسية:

١- المجلس الكنسي المكون من الشيوخ والشمامسة يرأسهم الخادم. ويختص هذا المجلس بالنظر في أحوال الجماعة المحلية.

٢- المجمع الإقليمي وفيه يتشاور مندوبو كنائس الإقليم فيما يختص بمصالحهم المشتركة.

٣- السنودس وهو محكمة لقضايا المجلس الكنسي، ويتكون من خدام كنائس المقاطعة وشيخ من كل كنيسة فيها

٤- المجمع العام، وفيه يحضر خادمان وشيخان من كل مجمع إقليمي، وهو المحكمة العليا التي يرفع إليها كل استئناف وتفصل في كل القضايا الهامة والتي يخضع الجميع لسلطتها كالمرجع الأخير (٤١)،(٧٨)،(٣٨).

فرنسيس الثاني

كان الملك الجديد فرنسيس الثاني في سن السادسة عشرة تقريبًا عندما ارتقى العرش، ويستعرضه التاريخ كولد مريض ضعيف الجسم والعقل. وكانت زوجته ماري ستوارت الإسكتلندية تناهز هذا السن تقريبًا، وكانت جميلة قليلة العقل، تصرف وقتها في الملذات. هكذا كانت حالة الملك في فرنسا عام ١٥٥٩م بينما كان الأمر يستلزم يدًا قوية وإرادة حديدية لحماية السلطة الملكية، لأن إسراف الملك السابق وخلاعته كانت قد بدأت تأتي بثمرتها الطبيعية، إذ عم البلاد روح الغضب والتبرم، وكان البلاط مرتعًا للدسائس والمكائد، وكانت الأمة منقسمة إلى أحزاب وعلى وشك الاشتعال بحرب أهلية، وكانت كاترين دي مديشي ومونتمورنسي وأسر جيز وشاتيلون وبوربون، يستخدمون كل منهم هذين الطفلين الملكيين الضعيفين لصالحه الشخصي، ويمزجون منازعات أطماعهم السياسية بالمناقشات الدينية.

وأصبح الكردينال والقائد، وهما من أسرة جيز، مديري البلاط، وإذ كانا عمي الملكة الشابة ووصيين على الملك الضعيف كانت لهما الكلمة المسموعة عند كليهما، وبذلك تفوقا على مناظريهما، ولكن كان لهما منافس مقرب من العرش، وهو الملكة الوالدة كاترين دي مديشي، التي كانت بغضتها للهوجونوت لا تقل عن بغضتها لهما وهما رئيسا الحزب الكاثوليكي. فقد كانت تبغض أيضًا كل الذين ينازعونها السلطة. وإذ كانت محتالة وطموحة وشديدة المراس ولكي تعمل على هدم سلطة أسرة دي جيز وتثبت سلطتها هي، أظهرت لمدة من الزمن أنها تميل إلى جانب الهوجونوت. وكان هذا بترتيب عناية الله الرحيمة لإضعاف سلطة دي جيز، وتفتيت قوة الحزب البابوي ونجاة المصلحين. وكانت كاترين تتظاهر بإمساك الميزان بين الحزبين، ففي الظروف المتقلبة كانت تنضم إلى ذلك الحزب ثم تهجره إلى الحزب الآخر وهكذا.

نأتي الآن إلى الحروب الدينية. ابتدأت الأحزاب تتكون بدوافع سياسية، الأمر الذي طرح بفرنسا كلها في أحضان أفظع حرب أهلية مخربة دامت أعوامًا عديدة، بل إن شئت فقل أجيالاً لا أعوامًا فقط، فيما عدا فترات قصيرة. فكل أنصار الحرية في فرنسا صاروا هوجونوت، التي كانت معناها ببساطة "ضد البابوية"، وهكذا صار البروتستانت الفرنسيون حزبًا سياسيًا عظيمًا في الحكومة، وكان ذلك لضررهم البليغ، بل ولخرابهم النهائي. وفي الوقت نفسه مات فرنسيس الثاني بعد أن ملك سبعة عشر شهرًا فقط، فوجدت كاترين فرصة سانحة لتحقيق مطامعها الخفية، فطالبت بالوصاية على نجلها الثاني شارل التاسع الذي لم يكن قد تجاوز التاسعة من عمره، وقبل أن يجتمع مجلس البلاط قامت بالوصاية على الملك بل بممارسة السلطة الملكية بالفعل.

مذبحة سان بارثلميو

إذ أصبحت الأم الإيطالية متسلطة في المملكة بدأت توسع مشروعاتها لطرد الهراطقة من مملكة ابنها. وقد عملت على تحقيق غرضها بثبات وإقدام بما لها من الحيل والأساليب الخفية. ولقد شبّهها بعضهم بحق بالحوت الذي في العاصفة يتعقب السفينة، وفي السكون يترقب فريسته. لقد كانت البلاد منقسمة إلى قسمين متعادلين في القوة بحسب الظاهر، وليس من الممكن التوفيق بينهما. وقد حدثت عدة معارك بينهما جعلت الكاثوليك لا يأملون الانتصار على الهوجونوت في الميدان، ولذلك عولت إيزابل على استخدام سياستها

القديمة التي كانت من خصائصها الغدر والاغتيال السري. وفي الوقت نفسه يؤكد فيليس أنه لم يكن هناك سبب من جانب الحكومة يمكن أن يبرر حدوث تلك المذبحة، فروما لم يكن لها ما تخافه على سيادتها، كما أنه لم يكن للتاج ما يخافه على سلطته السياسية. إنما هو التعصب والحقد وتعطش إيزابل لدماء قديسي الله تعطشًا لا يُطفأ، تلك كانت الدوافع إلى سحق الأقلية عام ١٥٧٢م.

وكان العاملون الأول الحقيقيون في المذبحة هم كاترين والبابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك أسبانيا، ولم يكن بينهم واحد فرنسي، وإن استُدرج آخرون إلى المؤامرة. ولكن لم يمكن عمل شيء بدون تصديق الملك، وهذا التصديق حصلت عليه أمه بمساعدة البابا، فقد أبدى ذلك البابا الماكر للملك الشاب أن مركزه الآن شبيه بمركز شاول ملك إسرائيل، الذي صدر إليه أمر الله على فم صموئيل النبي أن يبيد العمالقة الملحدين ولا يستبقي منهم فردًا واحدًا بحال من الأحوال. ولكنه لما لم يطع أمر الله جرده الله من عرشه ثم من حياته، محرفًا هكذا كلمة الله تحريفًا خطيرًا. وإذ رأى شارل انطباق هذه الإشارة عليه وافق في النهاية على قتل جميع الهوجونوت حتى لا يبقى واحد منهم ليؤنبه على فعلته.

الشرك الذي نصبه الملك لاصطياد الهوجونوت

كانت المشكلة التالية هي كيف يمكن تحقيق هذا الغرض؟ إن رؤساء المصلحين منتشرون في المقاطعات، فكيف السبيل إلى اجتذابهم وحصرهم في مكان واحد ليكونوا في متناول اليد؟ تظاهر شارل الذي كان قد انضم إلى المؤامرة بأنه يرغب رغبة حارة في وضع دعائم سلام دائم، ولذلك يقترح بأن يزوج شقيقته مرجريت دي فالوا بملك نافار الشاب، الذي صار فيما بعد هنري الرابع. كان هذا عرضًا عظيمًا على بيت نافار، ولكن الأم جان دالبرت لم تنبهر بذلك، بل فضلت خوف الرب على الغنى الجزيل قائلة "إني أفضل أن أتنازل لأزوج ابني بأفقر فتاة في فرنسا على أن أضحي بنفسي ونفس ابني على مذبح العظمة والأبهة". ولكن مَن ذا الذي لا يقع في حبائل كاترين ولو كان أعظم المصلحين في فرنسا.

وجان دالبرت هي بنت السيدة التقية الفاضلة مرجريت أوف أنجوليم، ولكن الابنة كانت من بعض الوجوه أعظم من أمها، فقد كانت على الأقل أكثر منها حزمًا في المجاهرة بالإصلاح. ولكن لا يجب أن ننسى أن مرجريت الأم كان أمامها عائقان كبيران، وهما أخوها وأمها الفاسقان. وفي عام ١٥٦٠م جاهرت جان دالبرت باعتناقها الإيمان البروتستانتي، وألغت الخدمة البابوية في جميع أنحاء مملكتها، وأدخلت مكانها العبادة البروتستانتية. وإذا تذكرنا أن مملكتها الصغيرة تقع في منحدر جبال البرانس تمس فرنسا من الجهة الواحدة وأسبانيا من الجهة الأخرى، أدركنا مقدار شجاعتها في اتخاذ تلك الخطوة التي جعلت البابوات يرعدون بحرماناتهم ضدها، كما جعلت ملكي فرنسا وأسبانيا القويين يهددان بغزو بلادها ومحوها من خريطة أوروبا. ولكن الله قد حمى تلك الملكة التقية مدة اثنتي عشر سنة، ترجمت في أثنائها الكتاب المقدس إلى لغة بلادها، وأنشأت الكليات والمدارس، ودرست القوانين، وعملت على تحسين حالة رعاياها تحسنًا كبيرًا.

والشخصية التي تليها في العظمة والشهرة هي شخصية الأميرال كولني، الذي كان مسيحيًا حقيقيًا ورجلاً تقيًا بالحق، وكان أقدر قائد لجيوش الهوجونوت. وقد أبدى رسل البلاط للملكة جان وكولني ورؤساء الهوجونوت أن هذا الزواج سيكون أقوى ضمان للسلام الثابت بين العقيدتين، وأعلن شارل أنه سيزوج شقيقته لا إلى أمير نافار فقط بل إلى حزب الهوجونوت بأكمله. وقد انخدع كولني بذلك واثقًا في صدق قَسَم جلالة الملك، فضلاً عن أن المشروع كان براقًا حقًا، لأنه سيؤدي إلى اتحاد المملكة برمتها.

رياء الملك وخداعه المستكمل

وافقت جان دالبرت في النهاية على الزواج، وزارت البلاط في بلوا في شهر مارس من عام ١٥٧٢م، ولكنها لم تأخذ ابنها معها إذ كانت يخالجها شعور بالريبة. وقد أكرم الملك والملكة الوالدة وقادتها إكرامًا ظاهريًا بالغًا، ولا سيما الملك الذي كان يدعوها عمته الكبرى، ويقول إنها أفضل من يحبه وإنها كل شيء له، وقد بالغ في احترامها وتبجيلها بشكل دعا إلى تعجب الجميع. وقد وصلت إلى باريس في مايو، وفي الرابع من يونيه مرضت، وفي التاسع منه ماتت. ويقال إن بائع عطور من فلورنتان يدعى رينيه مشهور باسم "مسمم الملكة" باعها قفازات مسمومة، ولكن نهايتها كانت سلامًا، إذ كانت مسرورة بالانطلاق إلى وطنها، فلم تنطق بشيء ضد قاتليها، وإنما أظهرت

شوقها إلى أن يهتم ابنها هنري وابنتها كاترين بصالحهما الروحي. وإذ استودعتهما إلى عناية الرب الرقيقة رقدت في الرب يسوع وهي في سن الرابعة والأربعين.

والأميرال كولنيي أيضًا زار البلاط، وفي المقابلة الأولى انحنى أمام الملك، فرفعه شارل بيده داعيًا إياه أبي وعانق الملك ذلك الشيخ العظيم ثلاث مرات قائلاً له "لقد فزنا بحضورك الآن فيجب أن تبقى معنا. هذا هو أسعد يوم في حياتي". وإذ حضر أيضًا إلى باريس رؤساء الهوجونوت الآخرون عُقد الزواج في كاتدرائية نوتردام في الثامن عشر من أغسطس عام ١٥٧٢م باحتفال عظيم حضره الأشراف البارزون من الجانبين البروتستانتي والكاثوليكي. ثم أعقب الاحتفال سلسلة من الولائم وحفلات السرور، اشترك فيها قادة الفريقين على السواء. وبذلك تبددت مخاوف الهوجونوت تمامًا، فقد نجح شارل بريائه وكاترين بابتساماتها الغادرة في خداع الجميع، وبدا كأن عصر سفك الدماء قد انتهى، واعتبر الجميع هذا الزواج مبشرًا بمستقبل مكلل بالنجاح والسلام لبلاد طال عليها عهد الشقاء بسبب الحروب الأهلية. ولكن في نفس تلك اللحظة التي كانت فيها جميع الطبقات فرحة مستبشرة عُقد مجلس سري تقرر فيه عمل الترتيب اللازم لمذبحة عامة للهوجونوت.

وقد تبرع الملك بخمسة آلاف كرون لمن يأتي برأس كولنيي الذي كان قد عانقه بحرارة منذ يوم واحد فقط. ولكي يحصل على تلك الجائزة تربص شخص اسمه مورفير للأميرال في منزل بقرب كنيسة سان جرمان في اليوم الثاني والعشرين من شهر أغسطس، وأطلق عليه ثلاث رصاصات كسرت سبابة يده اليسرى وجرحت ذراعه الأيسر، وهرب القاتل الذي يسميه مؤرخو ذلك العصر "القاتل على نفقة الملك" أو "على نفقة السفاح العام". وقد تمكن كولنيي من الوصول إلى فندقه حيث عالجه الجراح المشهور أمبروز باريه. وقد زار الملك وأمه الأميرال كشخصين بريئين مظهرين عدم ارتياحهما بسبب الحادث المشؤوم، وأقسما أغلظ الإيمان على الانتقام من القاتل انتقامًا لا يُنسى أبد الدهر. وقال الملك للأميرال "أنت تحمل الجرح وأنا أحمل الألم الدائم". يا له من غش ونفاق لا نظير لهما!

ليلة سان بارثلميو

اقترب اليوم المحدد للمذبحة العامة، وفيما بين الساعة الثانية والساعة الثالثة بعد منتصف ليلة ٢٤ أغسطس، وهي ليلة عيد القديس بارثلميو، وبينما كان الملك جالسًا في غرفته مع أمه ودوق أنجو، دق ناقوس كنيسة سان جرمان الكبير مؤذنًا بحلول ساعة الصلاة المبكرة. وكانت هذه هي الإشارة المتفق عليها، فما كادت أول دقة تقطع سكون الليل حتى ابتدأ إطلاق النار، فانزعج شارل انزعاجًا عظيمًا، وتصبب من جبينه عرق بارد وأرسل كلمة إلى دوق جيز ليوقف العمل، ولكن سبق السيف العذل، فقد كانت الملكة الوالدة غير واثقة من ثبات ابنها، ولذلك أمرت أن تحدد ساعة الإشارة من قبل، وما هي إلا لحظات حتى كانت جميع منائر كنائس باريس ترسل رنين أجراسها. وقد اختلط رنين مائة ناقوس بصيحات السفاحين وصرخات وتأوهات الهوجونوت المذهولين. ولكي يميز القاتلون أنفسهم في الظلام لبس كل منهم شريطًا أبيض على ذراعه اليسرى ووضع صليبًا أبيض على قبعته. وعند سماع صوت الناقوس اندفع الرجال المسلحون خارجين من كل باب وهم يصيحون "لله وللملك" ففاضت شوارع باريس بالدماء البشرية وتجاوزت وحشية الكاثوليك كل الحدود.

وأسرع دوق جيز ومعه ثلاثمائة جندي إلى مسكن كولنيي، الذي كان قد استيقظ على صوت الطلقات النارية، وإذ كان خائفًا مما هو أشر انشغل بالصلاة هو ومرلين، وإذا بخدامه قد اندفعوا إلى غرفته صائحين "ياسيد. لقد اقتحموا الدار ولا سبيل للنجاة". فأجاب الأميرال برزانة "لقد استعددت للموت من زمن بعيد. أما أنتم فنجوا أنفسكم إذا استطعتم، ولكنكم لا تستطيعون أن تنقذوا حياتي". وكان أول من دخل إلى الغرفة خادم لدوق جيز اسمه بيهام، وعند دخوله بادره بالسؤال "ألست أنت الأميرال؟". فأجاب كولنيي ناظرًا بهدوء إلى السيف المسلول بيد السفاح "نعم أنا هو". ثم ابتدأ يقول بعض كلمات خطيرة لذلك الشاب، الذي سرعان ما أغمد سيفه في صدر ذلك الجندي القديم، ثم عاوده بضربة أخرى على رأسه. وقد صاح دوق جيز الذي كان منتظرًا بفارغ الصبر في الساحة قائلاً "هل أتممت المهمة يا بيهام؟"، فجاوبه الخادم "أتممتها يامولاي" فرد عليه الدوق "ولكننا يجب أن نرى

لنصدق. ألق به من النافذة". وإذ كان الأميرال لا يزال يتنفس قبض على خشب النافذة عندما رفع الخادم جثمانه، ولكن سرعان ما ألقى به في الساحة، وحينئذ مسح دوق جيز الدم من على وجهه وقال "إني أعرفه، هو هو". ثم ركل الجثة بقدمه، وأسرع إلى الشوارع صائحًا "تشجعوا يا أصحاب. لقد بدأنا حسنًا. لنكمل". وبعد هذه الحادثة بستة عشر عامًا قُتل هنري جيز هذا في قصر بلوا بأمر من الملك هنري الثالث، الذي عندما طُرحت أمامه الجثة ركلها في وجهها بقدمه. آه. يا لعدالة سلطان الله المطلق.

في تلك الليلة المشؤومة قُدِّم تيلني صهر الأميرال وخمسمائة من أشراف البروتستانت ذبيحة لمولوك النهم، وذلك باسم الدين المقدس. وكانوا يعملون بموجب المثل القائل "الحشيش الكثيف أسهل جزًا من الحشيش الخفيف". ولذلك كانوا قد أسكنوا البروتستانت في حي واحد من أحياء باريس، وكان ذلك الحي محفوظًا على ذمة دوق جيز القاسي الشرس. أما حاشية ملك نافار الشاب الذين أتوا في معيته لحضور حفل زواجه بأخت الملك فقد أسكنوهم في اللوفر كضيوف الملك الخصوصيين، ولكن كان ذلك بحيلة شيطانية، القصد منها سهولة ذبحهم جميعًا. وقد دُعوا من غرفهم واحدًا فواحدًا بالاسم، ونزلوا غير مسلحين إلى الميدان حيث قُطعوا إربًا إربًا أمام عيني الملك مضيفهم، وكومت أجسامهم أكوامًا عند أبواب اللوفر، ولا يعرف تاريخ البشرية مذبحة أفظع وأكثر غدرًا وخيانة من هذه.

وقد امتدت المذبحة في ذلك الوقت إلى جميع أنحاء باريس إذ اندفع إلى الشوارع ألوف من السفهاء، مسلحين بحراب وبنادق وسيوف ومدي وكل سلاح من أسلحة الجنود أو قطاع الطرق، قاتلين كل من وجدوه ممن ليس في قبعاتهم الصليب الأبيض. وقد اقتحموا بيوت البروتستانت وذبحوا سكانها رجالاً وأطفالاً وسيدات وهم في ملابس النوم، وألقوا بجثثهم مختلطة معًا إلى الشوارع، ولم يُسمع من أحد صوت رثاء أو استعطاف للإشفاق عليهم. وقد فتشوا جميع المساكن حتى المنزوية في أضيق الأزقة ولم يُبقوا على أحد. وبعد قليل أشرقت الشمس على باريس، والملك شارل التعيس الذي ارتجف قليلاً في بدء المذبحة ذاق دم القديسين فصار نهمًا سعرانًا متعطشًا إلى الدماء، وخرج مع أمه الإيطالية الدموية إلى شرفة القصر ليمتعا عيونهما بمشهد أكوام المذبوحين، وقد جرى الدم في الشوارع أنهارًا، وسدت جثث الرجال والنساء والأطفال المكدسة طرقات المدينة، وسُمعت من جميع الجوانب تأوهات المحتضرين وصرخاتهم الأخيرة من جهة، وتجاديف وشتائم ولعنات القتلة المتوحشين المجانين من جهة أخرى. وقد رأى شارل بعض الذين عمدوا إلى الهرب يسبحون في النهر مجاهدين في عبوره، فأمسك بندقيته وأطلقها مناديًا رعاياه "أقتلوا! أقتلوا!". قال فيليس "بعد هذه الحادثة بمائتين وسبع وعشرين سنة أخرج ميرابو بندقية شارل التاسع التي علاها تراب الأجيال، مصوبًا إياها ضد عرش لويس السادس عشر". فإن يسُد الشيطان وقتًا إلا أن النصرة النهائية لله. وفي صباح ذلك الأحد عينه استدعى شارل هنري أوف نافار نسيبه الجديد، وهنري أوف كونديه وقال لهما بكل خشونة وغلظة "إما تناول الأسرار المقدسة أو الموت أو الباستيل". وبعد أن أبدى الأميران بعض المقاومة قبلا أخيرًا أن يتناولا من الأسرار المقدسة، ولكن لم يثق أحد في إخلاصهما. وفي اليوم الرابع إذ كانت وحشية السفاحين قد أشبعت، وكان معظم الهوجونوت قد قُتلوا، ساد شوارع باريس سكون رهيب. وأتى دور الكهنة ليعقِّبوا على ذلك المشهد المحزن بمظاهر الابتهاج. ففي يوم الخميس أقاموا يوبيلاً فوق العادة، وأقدامهم غائصة في الدماء، وعملوا مهرجانًا عامًا ليعيدوا إلى المدينة حركتها ويحتفظوا الناس بحماسهم، ورددت المنابر أيضًا أصوات التشكرات، وضُربت مدالية خاصة عليها هذا الشعار "التقوى أيقظت العدالة".

المذبحة في الأقاليم

على أن تعطش إيزابل للدماء لا يقف عند حد. من ثم أرسلت الأوامر من البلاط الملكي إلى جميع المقاطعات والمدن الرئيسية ليتابعوا العمل بنفس هذه الخطة. وقد رفض حكام نحو اثنتي عشرة مقاطعة تنفيذ تلك الأوامر، وقد رفضها أيضًا كاهن يستحق أن يُذكر اسمه بعاطر الثناء والشكر للرب. فما إن أتى الضابط الموفد من قبل الملك إلى جون هنوييه أسقف ليزييه وسلم إليه الأمر بذبح الهوجونوت، أجابه الكاهن "لا. لا. يا سيدي إني أعارض وسأعارض دائمًا في تنفيذ مثل هذا الأمر. أنا راعي ليزييه، وأولئك القوم الذين تأمرني بذبحهم هم رعيتي. وإن كانوا قد ضلوا حاليًا إذ تركوا المرعى الذي عهد إليَّ ملاحظته يسوع المسيح رئيس الرعاة، إلا أنه يرجى رجوعهم ثانية. وإني لا

أرى في الإنجيل أن الراعي يمكن أن يسمح بسفك دماء خرافه، بل بالعكس أجد فيه أنه ملزم بأن يبذل دمه وحياته لأجلهم". فطلب منه الضابط أن يثبت رفضه كتابة، فأثبته بلا تردد.

أما في روان وتولوز وأورليانز وليون وفي معظم المدن العظيمة في المملكة فقد تجدد سفك الدماء بنفس الشدة والفظاعة وبلا رحمة ولا شفقة ولا ضمير، واستمر ستة أسابيع تقريبًا. وقد ألقيت في الأنهار ألوف الجثث، التي تخلف بعضها عند منحنيات الأنهار، واندفع البعض الآخر إلى البحر. وقد ذُبح أصدقاؤنا الأولون الأمناء في مو في السجون، وقد استعمل السفاحون المطارق الحديدية، إذ لم تسعفهم السيوف. وقد نهب وخرب أربعمائة منزل في أجمل أحياء المدينة. على أننا إذا أردنا أن نتبع هذه الحوادث بالتفصيل يتملكنا التعب والإعياء الشديد، وفي الحقيقة ما كنا لنأتي على ذكر تلك المآسي لولا أن مذبحة سان بارثلميو هي أعظم وأشنع جريمة ارتُكبت في العصر المسيحي، وهي التي يمكنها أن تعطينا صورة حقيقية فريدة لمبادئ البابوية الجوهرية. وإذا كانت أعماق الشيطان وشدة غوايته قد ظهرت في تاريخ شر الإنسان، فهذه الحادثة هي أبرز حادثة ظهرت فيها. فإذا استعرضنا تلك الأقسام الخطيرة التي أقسم بها الملك، وتلك الحيل التي بها استدرج الكلفنيين إلى باريس، ومؤامرة الزواج الملكي، ووضع الخنجر في أيدي الرعاع بواسطة رؤساء الحكومة في وقت كان فيه السلام شاملاً، نجد أمامنا دسيسة لا مثيل لها في تاريخ البشرية. ثم بعد ذلك نرى جمهور الكاثوليك من البابا فما دون رافعين أياديهم إلى السماء شاكرين الله على ذلك الانتصار المجيد!!

وقد قوبلت تلك الأخبار في روما بمظاهر الفرح والتهليل، وكوفئ المبشر بالأخبار السارة بمنحه ألف قطعة من الذهب، وقد أمر البابا بإطلاق المدافع من قلعة سان أنجيلو، وأذاع غفرانًا عامًا، وضرب ميدالية شرف لذكرى الحادث. وقد اشترك في مظاهر الابتهاج هذه فيليب الثاني ملك أسبانيا ودوق ألفا وكاردينال لورين. ولكن التأثير الذي أحدثته تلك المذبحة في الممالك البروتستانتية كان بعكس ذلك تمامًا. فقد وصل إلى إنجلترا وألمانيا وسويسرا عدد من اللاجئين مخبرين بتلك المأساة المحزنة وهم بين أحياء وأموات وفي حالة رعب شديد، فلعنت تلك الأمم اسم فرنسا. وجنيف المرتبطة برابطة المحبة بالضحايا البالغ عددهم سبعون ألفًا، الذين غطت جثثهم سهول فرنسا وشواطئ أنهارها، أقامت يوم صوم وصلاة لا يزال معتبرًا إلى يومنا هذا. وفي اسكتلندا أعلن جون نوكس الطاعن في السن الانتقام الإلهي ضد بيت فالوا على أسلوب نبوي، قال "لقد صدر الحكم ضد ملك فرنسا القاتل، ولن يبرح انتقام الله بيته، وسيذكر أحفاده اسمه باللعنات، ولن يتمتع أي شخص خارج من صلبه بالملك في سلام، إلا إذا حالت التوبة دون تنفيذ القضاء الإلهي". وفي إنجلترا أعلنت الملكة اليزابيث الحداد في بلاطها، وعندما التمس السفير الفرنسي مقابلتها لتقديم تفسيره المشحون بالرياء لهذا الحادث قوبل بصمت عميق، وقد جاز بين لوردات البلاط وسيداته المكتسين جميعًا بثياب الحداد الطويلة دون أن يحيوه أو يتنازلوا بأن يرمقوه بنظرة احتقار.

عدد الضحايا

لا يمكن تقدير العدد الكامل لضحايا تلك المذبحة تقديرًا دقيقًا، ولكن يرجَّح أن عدد الضحايا في باريس وحدها كان بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف، إذ يقول برانتوم إن شارل التاسع قد رأى حوالي أربعة آلاف جثة طافية على نهر السين، ويقول ويلي "في سجلات حسابات مدينة باريس وجد مثبتًا صرف مبلغ إلى حفاري القبور بجبانة الإنوسنت نظير دفنهم ألف ومائة جثة كانت متخلفة بمنحنيات نهر السين بالقرب من شايو وأوتُويل وسان كلود، ومن المرجح أن جثثًا أخرى حملها النهر إلى جهات أبعد، فضلاً عن أنه لم تلق جميع الجثث في النهر". أما مجموع الضحايا في جميع أنحاء باريس فيقدر بسبعين ألفًا على الأرجح. وبيرفكس أسقف باريس في القرن السابع عشر يرفع العدد إلى مائة ألف، ولكن فيليس يقول "إن هذا العدد الأخير ربما كان مبالغًا فيه إذا حسبنا أولئك الذين قتلوا قتلاً شنيعًا فقط، أما إذا أضفنا من ماتوا من البؤس والجوع والحزن، والشيوخ الذين تركوا بلا عائل، والنساء اللواتي صرن بلا مأوى، والأطفال الذين لم يجدوا ما يسد رمقهم، وكل المخلوقات التعيسة التي قصرت حياتها بسبب تلك الفاجعة العظيمة، فإني أعترف أن العدد الذي أعطاه بيرفكس يكون أقل من الحقيقة *

* عدد ضحايا المذبحة مأخوذ أساسًا عن المؤرخ الفرنسي فيليس، الذي بطبيعة الحال يميل إلى التخفيف من هول المذبحة من أن يضخم تفاصيل لا تشرف أمته. انظر أيضًا "تاريخ البروتستانتية"(٧٨)، و"تاريخ الهوجونوت"(١٥)، و"تاريخ فرنسا" لوايت(١٩).

نهاية قادة المذبحة

لقد كان عمل روح الله الذي عمله بواسطة الحق في فرنسا عجيبًا لدرجة أدهشت أولئك الذين كانوا ينتظرون ألا يروا بعد تلك المذبحة سوى حطام الهوجونوت المسحوقين، ولكنهم وجدوهم في كثير من أنحاء المملكة مصممين على مقاومة القوات الملكية. لا شك أن البروتستانتية الفرنسية اصطبغت بصبغة سياسية، ولكن ليس على طول الخط. فلا بد أن كان هناك آلاف من المسيحيين الحقيقيين، ولو أنهم كانوا مخطئين في الاعتقاد بوجوب مقاومة ظالميهم والمحاربة لأجل حياتهم وعائلاتهم وديانتهم. وفي حصار سانسير الذي مات فيه معظم الأطفال جوعًا نورد مثالاً واحدًا من أمثلة نعمة الله الكاملة. كان صبي في العاشرة من عمره قد قارب الموت، وإذ رأى والديه يبكيان بجانبه وهما يدلكان ذراعيه وساقيه اليابسة كالخشب قال لهما "لماذا تبكيان إذ تنظراني أموت جوعًا؟ إني لا أطلب منك خبزًا يا أمي لأني أعلم أنه لا خبز لك. ولكن بما أن الله يشاء أني أموت هكذا فيجب أن نرضى. ألم يتحمل لعازر الجوع؟ ألم أقرأ ذلك في الكتاب المقدس؟". وهكذا انتقل ذلك الحمل الصغير العزيز مع كثيرين غيره لينضموا إلى أحضان الراعي الصالح الذي مات لأجلهم، وهكذا سينطبق عليهم القول «لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر، لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية، ويمسح الله كل دمعة من عيونهم» (رؤ٧: ١٦، ١٧).

ولكن الملك القاسي الغادر لم يمُت هكذا، إذ أن الجريمة الشنعاء التي كان له فيها نصيب وافر قد أزعجت فكره حتى اللحظة الأخيرة من حياته. فقد لازمته المناظر المزعجة التي شاهدها في ليلة سان بارثلميو نهارًا وليلاً، وكان دائمًا يتخيل ضيوفه المقتولين جالسين بجانب سريره وعلى مائدته. ففي نومه وفي يقظته كان الهوجونوت المذبوحون ماثلين دائمًا أمام عينيه بوجوه تعلوها صفرة الموت وهم يتمرغون في دمائهم. وذلك الملك الذي اشترط عندما أصدر أوامره بمذبحة سان بارثلميو أن لا يبقى ولا واحد من الهوجونوت ليبكته على فعلته، رتب الله أن يعوده على فراش موته طبيب من الهوجونوت، وتخدمه ممرضة من الهوجونوت أيضًا. ويظهر أنه لم تكن له أدنى ثقة بأي واحد من عشرائه القدماء، حتى أمه كان يشعر شعورًا مزعجًا، ويعتقد أنها قد دست له سمًا بطيئًا سيكون السبب في وفاته. وقد مات بمرض غريب فظيع، كان من أعراضه رشح الدم من خلال مسام جسمه وذلك بعد مذبحة سان بارثلميو بأقل من سنتين، وكان في الخامسة والعشرين من عمره وقد ملك أربعة عشر سنة.

ويقال إن جميع من اشتركوا في مذبحة سان بارثلميو ماتوا مقتولين ماعدا واحد فقط، ولكن لا حاجة بنا إلى تتبع تاريخهم المحزن، فقد اقتحم الانتقام الإلهي أولئك السفاحين وأحدرهم بالدم إلى الهاوية. أما كاترين دي مديشي فقد عاشت إلى أن رأت فشل جميع مشروعاتها وموت جميع شركائها في الجريمة، وانقراض سلالتها الملكية. وكردينال لورين قتل في السجن، وهنري الثالث آخر أعضاء أسرة فالوا خرَّ صريعًا في خيمته مقتولاً بالخنجر، وهكذا تمت نبوة جون نوكس.

لقد استغرقت حوادث الإصلاح في فرنسا من وقتنا أكثر مما قدَّرنا، وشغلت من صفحاتنا أكثر مما توقعنا، ولكن عظمة عمل الرب هناك، وشدة الصراع بين النور والظلمة، وشعور الحزن الذي يجب أن يتملك الجميع بسبب ما آلت إليه الأمور، كل ذلك يعطيها مكانًا خاصًا بين الثورات الكبيرة التي حدثت في القرن السادس عشر.

مجمع ترنت

انعقد مجمع ترنت المشهور عام ١٥٤٥م، واستمرت جلساته حتى عام ١٥٦٣م، وفي أثناء انعقاده حدثت تلك المآسي التي وصفناها بالإيجاز. وفي ذلك المجمع تحددت قوانين الكنيسة الكاثوليكية بأكثر دقة، واتخذت تدابير أكثر فاعلية في قمع الهرطقة. ولا بد أن تأثرت مداولات ذلك المجمع وقراراته بالحالة العامة في أوروبا في ذلك الوقت تأثرًا كبيرًا. ولكن بما أننا سبق أن تكلمنا عن الغرض الأصلي لذلك المجمع* فلا حاجة بنا إلا إلى إيراد ما لم نذكره قبلاً.

إن ما تميز به هذا المجمع بصفة خاصة ليس هو سن قوانين جديدة، بل هو تحديد تعاليم الكنيسة الرومانية بكيفية أدق، وتثبيتها بواسطة خلع سلطة المجمع عليها. يقول موسهيم "لم يقر الآباء

* أنظر الفصل ٤٦.

الذين تكوَّن منهم مجمع ترنت شيئًا جديدًا، ولكنهم ثبَّتوا تعاليم كان قبولها أو رفضها متروكًا إلى ذلك الوقت للاختيار الشخصي بالنظر لعدم استنادها إلى سلطان كاف. فكنيسة روما مدينة بقانون إيمانها إلى أولئك اللاهوتيين، ومعظمهم من الإيطاليين والأسبان الذين تألف منهم المجمع في القرن السادس عشر، لأنهم هم الذين أعطوه صفته الرسمية. وقد كان للباباوات كل التأثير في المجمع بواسطة الأساقفة الإيطاليين الخاضعين لهم، حتى أنهم أملوا كل قوانينه وكوَّنوها، ليس بنية إزالة الانقسامات وإصلاح الأخطاء القديمة وإعادة الوحدة إلى الكنيسة، بل لتثبيت سيادتهم وسلطانهم".

يقول سكوت إن التعاليم التي كانت تُعتبر إلى ذلك الوقت مجرد آراء شخصية معرضة للمناقشة جُعلت الآن - رغم سخافتها - من مواد الإيمان، وأصبح الجميع ملزمين بقبولها، وإلا تعرضوا للقطع. والطقوس التي كانت قبلاً تمارس جريًا على العادة فقط، ثُبتت بواسطة قوانين كنسية، وأعلن أنها من أجزاء العبادة الجوهرية *(٣/٢١)،(٣/٧٢)،(٥٣).

قانون إيمان البابا بيوس

أصدر البابا بيوس الرابع خلاصة موجزة للتعاليم التي قررها المجمع مسماة باسمه، ومعتبرة من ذلك الوقت خلاصة معتمدة للإيمان الكاثوليكي منها:

"أعترف أنه يوجد بالحقيقة سبعة أسرار لشريعة العهد الجديد وضعها يسوع المسيح ربنا لخلاص البشرية، ولو أنها ليست جميعها لازمة لكل فرد، وهي: سر المعمودية، سر التثبيت، سر الأفخارستيا، سر التوبة، سر المسحة، سر الكهنوت، سر الزيجة. وأعترف أن هذه الأسرار تمنح نعمة. ومن هذه الأسرار: سر المعمودية، وسر التثبيت، وسر الكهنوت، لا تكرر أبدًا وإلا كان في ذلك انتهاك لقدسيتها.

أؤمن وأعترف أيضًا بطقوس الكنيسة الكاثوليكية التي تجرى عند ممارسة جميع الأسرار السابق بيانها.

أؤمن وأعتقد أنه في القداس تقدم لله ذبيحة كفارية حقيقية لأجل الأحياء والأموات، وأنه في ذبيحة الأفخارستيا المقدسة يوجد فعليًا وحقيقيًا وماديًا الجسد والدم مع روح ولاهوت ربنا يسوع المسيح. وأن جميع مادة الخبز تتحول إلى الجسد، وجميع مادة الخمر تتحول إلى الدم - ذلك التحول الذي تسميه الكنيسة الكاثوليكية: الاستحالة.

أعترف أيضًا أنه بتناول أي من المادتين على حدة يُقبل المسيح والسر الحقيقي بتمامه وكماله.

وأعتقد اعتقادًا راسخًا بأنه يوجد مَطهر، وأن الأرواح التي تُحجز هناك تنال معونة بواسطة صلوات الأمناء.

وأعتقد أيضًا أن القديسين المالكين مع المسيح يجب تكريمهم والتشفع بهم، حتى يرفعوا لأجلنا أدعية إلى الله. وأن آثارهم يجب تكريمها واعتبارها.

وإني أتمسك بكل شدة بأن صور وتماثيل المسيح وأم الله الدائمة البتولية، وصور وتماثيل القديسين الآخرين، يجب أن تُقتنى ويُحتفظ بها ويقدم لها جميعها إكرامًا واحترامًا متساو.

وأؤمن يقينًا أن قوة الغفرانات تركها المسيح في الكنيسة. وأن استعمالها كلي الفائدة للشعب المسيحي.

وأعترف بالكنيسة الرومانية الجامعة الرسولية المقدسة، أم وسيدة الكنائس كلها، وأتعهد بأن أقسم يمين الطاعة الحقيقية لبابا روما خليفة بطرس الرسول رئيس الرسل ووكيل المسيح.

وأعترف أيضًا وأؤمن دون تشكك ولا ريبة بجميع الأشياء الأخرى المسلَّمة والمبينة في القوانين الكنسية المقدسة والمجامع العامة، وبالأخص مجمع ترنت المقدس. كما أني أرفض وأحرم جميع الأشياء المناقضة لما سبق، وجميع الهرطقات التي تدينها وترفضها وتحرمها الكنيسة.

هذا هو الإيمان الكاثوليكي الذي بدونه لا يمكن أن يخلص أحد؛ والذي أعترف به الآن بملء حريتي وأتمسك به حقًا. أنا الآن أعد وأتعهد وأقسم بأن أتمسك وأعترف به كاملاً غير منقوص بمساعدة الله إلى النَفَس الأخير، وأن أجعل بكل ما فيَّ من قوة هذا الإيمان يُعلَّم ويكرز به ويُعتَنق من جميع الذين تحت سلطاني أو الذين تحت رعايتي بحكم مركزي ووظيفتي. وعلى ذلك ساعدني يا الله أنت وهذه الأناجيل الإلهية المقدسة".

* موسهيم مجلد (٣)، وسكوت مجلد (٣). على أن المصدر الرئيسي لما نعرفه عن هذا المجمع هو "تاريخ الأب بولس"، وهو كما يقول روبرتسون "نقل في تفصيل دقيق وشرح كافة قرارات المجمع بوضوح تام وحللها عن عمق في الفهم، مما جعل تاريخه يأخذ مكانه بين أفضل التواريخ عن جدارة".

الفصل الثاني والخمسون

الولدانسيون

تتبعنا من قبل تاريخ أولئك القوم حتى عام ١٥٦٠م، حين قاسوا كثيرًا من الآلام المبرحة في بلادهم نفسها وفي سهول كالابريا، ونتابع الآن باختصار تاريخهم منذ ذلك الوقت، ولو أننا لا ينبغي أن نتوقع أن نجد في هؤلاء القوم تلك النعمة التي يجب أن يتميز بها أتباع الرب المبارك والذين يحذون حذو رسله، وذلك ليس لأنهم لا يؤمنون بالرب يسوع كمخلّصهم، أو بدمه الثمين كالعلاج الوحيد الشافي من الخطية، ولو كانوا قد تركوا في بلادهم الجميلة دون اضطهاد لبقوا آمنين وادعين مثل قطعان أغنامهم ومواشيهم، ولكن إذ اضطهدهم الكاثوليك بشدة، اتخذوا من يشوع وجدعون وداود أمثلة لهم بدلاً من الرب ورسله. وإذ كانوا يعتقدون بإخلاص وبساطة أن إلههم إله الحروب، حاربوا تحت لوائه واثقين بأنه ليس ثمة مستحيل عليه.

وبلا شك كان هذا المبدأ سببًا في أن تشغل مسألة اضطهادهم أروع صفحات البطولة في تاريخ الكنيسة. ومثل الكثيرين في يومنا هذا، لم يميزوا الفارق بين الناموس والنعمة، ولكن الله تنازل بنعمته واستجاب صلواتهم إذ كانوا شعبًا يخاف الله، وكان يملك على قلوبهم الولاء للمسيح الذي هو بلا شك أهم الأمور. ويشبههم في هذا الإسكتلنديون الذين حاربوا لأجل تاج ومملكة عمانوئيل بحكم انضمامهم للميثاق الخاص بذلك.

هكذا كان حال رجال الوديان المساكين، فكانوا يؤمنون أن الكتاب المقدس هو إعلان الله، ولذلك اتخذوه قانونًا لهم على قدر ما فهموه. وكان جيرانهم الكاثوليك من الناحية الأخرى يعتقدون أن الله قد أعطى لكنيسة روما ورئيسها سلطانًا على العالم المسيحي كله، وأن كل الذين يرفضون الخضوع لسلطانها ليسوا هراطقة فحسب، بل رعايا متمردون للحاكم حق في معاقبتهم كما يشاء. كانت هذه ولا زالت عقيدة روما الراسخة. وبناء عليه لم يكن ممكنًا أن تكون هناك حرية لأي شخص يتجاسر أن يناقش مطاليبها، متى كان في متناول يدها سلطة تنفيذ مهمتها التي تدعيها لنفسها.

وكان الحاكم في بعض الأحايين يرفض إطاعة الكاهن، وبذلك كان الناس ينجون من الموت. ولكن سيرى القارئ كيف كان في مقدور روما أن تجد بسهولة حجة مناسبة للاضطهاد متى وافق ذلك هواها، وكيف كانت القلنسوة تتفوق دائمًا على التاج.

بعد هدوء عاصفة حروب عام ١٥٦٠م الجامحة، سُمح لمن بقى من الولدانسيين بالرجوع إلى وديانهم وتعمير بيوتهم وفلاحة كرومهم، إذ كانت كرومهم قد قطعت وصارت مزارعهم وقراهم أكوامًا من الخرائب، وتركت حقولهم بلا من يعني بها أو يزرعها، من ثم وجدوا أنفسهم أمام المجاعة وجهًا لوجه. غير أنه كان في قلوب الكثيرين ما هو أشد إيلامًا من المجاعة: أين آباؤنا وأمهاتنا، أين أزواجنا وأولادنا، أين رعاتنا ومرشدونا، أين الكثيرون ممن محقهم العدو محقًا؟ الآن هم مع الرب كما كان الرب في نعمته الغنية معهم.

إلا أنه نظرًا لطبيعة الأرض الخصبة لم يكن من العسير أن يجد هؤلاء القوم ما يسد رمقهم. تحدث الدكتور بيتي عن وادي رورا فقال "إن أشجار الكستناء الباسقة كانت ترسل ظلها الظليل على الهضاب الصغيرة، ومن ثمار هذه الأشجار كانوا يعملون الخبز في زمن القحط، ومن هذا الخبز مع اللبن الطازج تقدم مائدة شهية يتناولها أرقى الناس مزاجًا في لذة ومتعة. أما الأراضي العالية فقد اكتست ببساط سندسي من النبات، وعندما كان يحين فصل الرعي، كان السكان يقصدون إليها بعائلاتهم ومواشيهم، وبعد تمضية فصل الصيف على التلال في عيشة ساذجة بسيطة، ينزلون ثانية إلى الوادي عندما تبدو دلائل حلول

فصل الشتاء، ويعكفون على الاشتغال بالصناعة في فروعها المتنوعة التي تقوم بسد احتياجاتهم المختلفة".

ويحدثنا نفس هذا الكاتب ذو الخيال الشعري عن وادي أنجرونيا فيقول "إذا قلنا عن ذلك الوادي أنه صورة مصغرة من سويسرا، فإن القارئ يستطيع أن يكوّن فكرة إجمالية صحيحة عن صفات هذا الوادي من حيث المناظر الطبيعية في جبال الألب، من شلالات وصُخور ومنحدرات وأخاديد وينابيع وغابات يجد فيها الإنسان مأوى وقوتًا أيضًا، ومراعٍ خضر تتعهدها النهيرات بالنضارة والإنتاج، وحقول وبساتين تحوي ما أنضجته الأجواء المختلفة، التي تشهد على ما يتحمله السكان من عناء العمل الشاق في سبيل الحصول على أقواتهم وسط أشق الظروف وأقساها"[٦٦].

وإذ نتأمل في بساطة سكان تلك الوديان، هؤلاء المطبوعون على الفطرة، وفي عيشتهم الوادعة وعوائدهم النشيطة، وآدابهم السليمة وتدقيقهم في حفظ يوم الرب، وأمانتهم في دفع ما عليهم من إيجارات وديون، وخلوهم من عادة شرب الخمر وعادة الحلفان ومن جميع أمثال هذه الرذائل، إذ نتأمل في كل ذلك فإننا نتعجب ونتساءل لماذا يسعى ملكهم ومالك أراضيهم لاستئصال شأفتهم؟ والجواب على ذلك هو فيما يلي:

حروب الإبادة

لم تكن فترات الهدوء الظاهري القصيرة التي تذوقها الولدانسيون فترات أمان أو راحة، بل على العكس كانت مليئة برَد فعل أليم عنيف وتشاؤم من المستقبل مخيف. إنهم لم يعرفوا لمئات من السنين طعمًا للسلام الحقيقي في الاطمئنان على حياتهم الشخصية وعلى ممتلكاتهم أو على حريتهم الفكرية، تلك التي هي حقوق الإنسان المقررة الثابتة.

ففي عام ١٥٦٠م حدث حادثان كانا كافيين لإثارة الحروب الطاحنة التي أعقبت تلك الفترة.

أولهما: جلس على عرش سافوي شارل عمانوئيل الثاني، وكان صبيًا في الخامسة عشرة من عمره. وقد كان لطيفًا رقيق القلب، ولكنه كان مثل شارل التاسع ملك فرنسا تحت وصاية أمه، وكانت تلك من عائلة مديشي وحفيدة كاترين التي استحقت أعمالها الدموية لعنة البشرية. وكان الملك الصبي تحت سلطان أمه التي كانت نائبة للملك وهو قاصر، وكانت هي بدورها تحت سلطان الفاتيكان.

ثانيهما: تأسيس جمعية "نشر الإيمان" في نفس ذلك العام في مدينة تورين، فتسابق إليها النبلاء والعظماء والنبيلات والشمامسة، وكان الدافع إلى ذلك إنما هو الغفران المطلق الذي كان من نصيب كل من يشترك في "العمل الصالح" الذي كان شعاره "هداية الهراطقة أو إبادتهم".

وابتدأ الأعضاء عملهم المهلك تحت ستار التظاهر بالدعوة إلى الهداية، وصارت سيدات البلاط وجموع الرهبان شعلة غيرة في هذه الجمعية، ينتقلون من بيت إلى بيت. وحوالي ذلك الوقت تأسست الأديرة في البلاد وألغيت مدارس وكليات فودوا، وصادق قانون البلاد على خطف الذكور دون الثانية عشر والإناث دون الرابعة عشر لغرض هدايتهم. ولكن أعقب هذه الأعمال الفظيعة اضطهاد عنيف يشبه ذلك الذي حدث في عام ١٥٦٠م.

فظهر في يناير سنة ١٦٥٥م "قانون جاستالدو الدموي"، وقد تسمى بهذا الاسم بالنسبة لما ترتب عليه من النتائج. وعبثًا حاول الأهالي المساكين بكل وسائل الرجاء والاستعطاف التي توسلوا بها إلى جميع من بيدهم الأمر والحكم أن يتفادوا العاصفة الوشيكة الوقوع. وفي أقسى أيام الشتاء سيق أفراد أكثر من ألف عائلة من بيوتهم مجردين من أمتعتهم إلى أعالي الجبال المغطاة بالثلوج حيث لا مأوى. وقد أمروا بتنفيذ هذا الأمر في ظرف ثلاثة أيام وإلا تعرضوا للقتل، ولا يمكن أن يتصور العقل ما هو أكثر من هذا وحشية وبربرية. فجميع السكان بما فيهم الأطفال والعجائز والمرضى والضعفاء وطريحو الفراش كان عليهم أن يتركوا بيوتهم وسط الصقيع في شتاء جبال الألب القارص، وكان عليهم أن يسيروا في رحلتهم خلال وديان مغطاة بالثلج وعبر أنهار مترعة بالفيضان، وعلى قمم جبال مغطاة بالجليد. صحيح أنه قد عرض عليهم شيء آخر، وهو أن يذهبوا إلى القداس، ولكن يخبرنا ليجر المؤرخ أنه كان عنده اجتماع مكوّن من ألفي شخص، وأنه ولا واحد من هؤلاء كلهم قَبِل هذا العرض مطلقًا، فهو يقول "إنني أستطيع أن أشهد عنهم هذه الشهادة، علمًا بأني كنت راعيًا لهم مدة أحد عشر عامًا، وإني أعرفهم كل واحد باسمه. فاحكم أيها القارئ، ألم يكن لي أن أبكي فرحًا كما أبكي أسفًا، حين كنت أرى أن كل بطش أولئك الذئاب لم يكن ليؤثر في واحد من هؤلاء

الحملان، وأنه لم يكن لأية منفعة عالمية أن تنال من ثباتهم؟ كنت أرى آثار دمائهم على الثلج والجليد حيث كانوا يجرون أرجلهم الممزقة؟ أما كان لي أن أبارك الله إذ رأيت نقائص شدائد المسيح تتكمل في أجسادهم المسكينة، وخصوصًا حين رأيتهم يحملون في نبل وعزم وثبات صليبًا ثقيلاً كهذا ؟!"(٢٧٨).

خيانة بيانِسا

يقول المستر هوف أكلاند "لو كان الاضطهاد قد وقف عند هذا الحد لتخلصت البشرية من وصمة عار لا تمحى، ولكن دخل المركيز بيانسا وديانهم على رأس خمسة عشر ألف من رجاله، وتلت ذلك مذبحة هي أروع وأفظع من أن تسرد بالتفصيل". لم يشعر بوطأة قانون جاستالدو إلا بعض الولدانسيين فقط، ولكن كان غرض الجمعية الثابت هو استئصال شأفة هذا الجنس كله. وقد عمل المركيز حساب المقاومة الباسلة التي لا بد أن يلاقيها إذا فر سكان فودوا واعتصموا بالجبال وانتظم عقدهم هناك، فتسلح بسلاح إيزابل القديم، ألا وهو الخيانة، فتظاهر برغبته في الصلح، ودعا مندوبين للمفاوضة في مواد الصلح. وبكل أسف نجحت حيل العدو، لأنه إذ كان ماهرًا في سبل الخداع خدع تمامًا أهل فودوا البسطاء، بعد أن أظهر لهم عطفًا كبيرًا، مؤكدًا لهم أن كل شيء سينتهي وديًا إذا هم قبلوا جماعة قليلة من الجنود في قراهم المختلفة، دليلاً على إخلاصهم وولائهم، ومع أن بعض البصيرين وثاقبي الفكر، خصوصًا الراعي ليجر قد أوجسوا خيفة حصول خيانة، إلا أن الشعب على العموم، إذ كانوا يريدون أن يعيشوا في سلام، فتحوا أبوابهم لجنود بيانسا. ومضى يومان وهم جميعًا في صداقة متينة، فكان الجنود والقرويون يأكلون معًا على مائدة واحدة وينامون تحت سقف واحد، ويتحدثون معًا في حرية وعدم كلفة. وقد استخدم العدو هذين اليومين لتجهيز المعدات لعمل المذبحة العامة. وكانت القرى والطرق كلها مليئة بالجنود.

وفي الساعة الرابعة من فجر اليوم الثالث ٢٤ أبريل أعطيت الإشارة من القصر، وابتدأ السفاحون عملهم الفظيع. ولم يحاول أحد من المؤرخين أن يأتي على التفاصيل إلا الراعي ليجر، الذي ما فعل ذلك إلا أداء للواجب بصفته شاهد عيان، وقد أيد الآخرون روايته. وقد رافق كل فرقة من الجنود كاهن وراهب لإشعال النار في البيوت حالما يُقتل سكانها. يقول ليجر "إن وادي لوسرن الذي كان مثل أرض جاسان قد تحول إلي جبل بركان أتنا الحي، يقذف شررًا ونارًا ولهيبًا، وأصبحت الأرض كالتنور، وامتلأ الهواء بظلام دامس يلمس كما كان في أرض مصر بتأثير الدخان المتصاعد من المدن والقرى والهياكل والقصور والمزارع والأبنية، التي كانت جميعها تحترق بنار الفاتيكان". ولكن لم يكن الحال هنا كما في مذبحة سان بارثلميو، التي كانت إجهازًا سريعًا على الضحايا، بل تفننًا بطيئًا في أساليب القسوة والوحشية التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً. وبما أن كثيرين من الأقوياء هربوا بفضل معرفتهم للتلال، فقد أضحى الأطفال الصغار وأمهاتهم والمرضى والشيوخ المسنون الهدف الرئيسي لانتقام جنود جمعية نشر الإيمان. على أننا لا نريد أن نكسر قلوب قرائنا بإيراد التفاصيل المريعة التي ذكرها ليجر.

إيمان وبطولة جيانافلو

أثناء ذلك الاضطهاد المزعج الذي فيه عمل السيف والنار عملهما في كثير من الوديان، كان لوادي رورا النصيب الأوفر من المصائب. إلا أن تلك المصائب قد أذكت روح الحماس والغيرة التي يثيرها الرب من وقت إلى آخر ليظهر تلك الفضائل التي قلما تتحرك إلا في أوقات الضرورات القصوى. ونريد أن نشير هنا إلى يشوع جيانافلو من أهالي وادي رورا، الذي كان جبار بأس بحق، وكانت له مواقف بسالة وإقدام جديرة بالإعجاب. ففي صبيحة يوم ٢٤ الذي حدثت فيه المذابح الفظيعة في وادي لوسرن ووادي أنجرونيا ووادي تور ووادي فيلار ووادي سان جون وغيرها، كانت النية متجهة إلى تنفيذ نفس الخطة في وادي رورا أيضًا، وكانت هذه المهمة موكولة إلى كونت كريستوفل مع أربعمائة من الجنود.

لاحظ جيانافلُو حركاتهم عن كثب، وكان معه سبعة رجال ذوي عزم وبأس، فألقى بنفسه في المضيق الذي كان لا بد للعدو أن يعبره للوصول إلى وادي رورا. وقد تقدم الجنود غير مهتمين بالنظام إذ ظنوا أنهم سيدخلون بكل سهولة، لأن أعمال العنف والقسوة السابق إجرائها لا شك أنها شلت في الشعب كل مقاومة. وإذ كان جيانافلو وجماعته مختبئين وراء الصخور والأشجار، استطاعوا أن يصغوا إلى حديث الجنود، فسمعوا واحدًا يقول: "لا شك أن

شعب الرورا سيستقبلوننا بالترحاب". مشيرًا بذلك إلى سهولة المهمة التي أمامهم، وإذا بصوت يشبه قصف الرعد يجيبه "نعم سنستقبلكم". وكان الصوت مصحوبًا بطلقات نارية تنهال في آن واحد من اليمن واليسار على الصف المتقدم، فقتل سبعة أشخاص، ثم أعيد حشو البنادق وإطلاقها بعد تغيير الموقع بسرعة، فقتل سبعة آخرين، على أن الجنود لم يشاهدوا أحدًا، وإنما استنتجوا من الدخان الكثيف المتموج بين الصخور أنهم قد حصروا بين نارين، فتملكهم الرعب بسبب هذه التحية المباغتة وتقهقروا بسرعة وارتباك، ولكن جيانافلوا ورجاله استمروا يقفزون من صخرة إلى صخرة وهم يطلقون النار، حتى خيل للجنود ذوي العقول الخرافية أن كل شجرة تطلق الرصاص. وكانت النتيجة أن ترك الجيش خلفه أربعة وخمسين من القتلى ونجا وادي رورا مما أعد له من الخراب.

عزم بيانسا على أن يمحو العار الذي لحق بمشروعه، فحاول الغزو من جديد مجردًا فرقة مؤلفة من نحو ألف جندي لعبور الجبل. إلا أن جيانافلوا الذي علم يقينًا أن ذلك لا بد أن يكون، كان قد اتخذ الحيطة، وكانت جماعته قد ازدادت إلى سبعة عشر رجلاً من الرماة الماهرين، فلما تقدم الغزاة إلى نقطة معينة أطلق عليهم ذلك الجيش الخفي نارًا مزعجة بدرجة اضطرتهم لأن ينكصوا على أعقابهم مرة أخرى راجعين إلى معسكراتهم، بعد أن لحقت بهم خسارة جسيمة.

كانت أخبار هذه الهزيمة الثانية بمثابة دق الناقوس للانتقام، فعمل بيانسا على زيادة جيشه طالبًا إمدادات من المحطات المجاورة. وإذ اكتمل عدد جنوده المسلحين أرسلهم مرة أخرى للعبور إلى رورا. وجثا ذلك الوطني الغيور وجماعته على ركبهم، وصلّوا شاكرين الله الذي على أيديهم خلص الشعب مرتين، طالبين منه أن يشدد قلوبهم وأيديهم للحصول على خلاص آخر. وفي الحال هجموا على الجيش المحمل بالمتاع، الذي سرعان ما تملكه الرعب والفزع، فسعى إلى الهروب طارحًا متاعه عنه غنيمة للشعب. وقد كان هروبه مفجعًا، إذ سقطت عليه قطع كبيرة من الصخور اشتركت مع رصاص البنادق في تمزيق أجسامهم، كما أن كثيرين منهم من عجلتهم سقطوا فوق المنحدرات ولم ينج من الجيش إلا النفر القليل.

ولكن بيانسا، ذلك المتعصب الأعمى، عوضًا عن أن يرى في هذه الحوادث المتكررة إصبع الله ازداد غضبه اشتعالاً وغيرة على شرفه العسكري، فجمع كل الكتائب الملكية حتى بلغ عدد الجنود من ثمانية آلاف إلى عشرة آلاف، واستدعى ضباطه وعقد مجلسًا حربيًا، ما العمل؟ لقد هزمت حفنة من الفلاحين جيشًا مدربًا وألصقت به عار الجبن وعدم الكفاءة، فتقرر أن ينقسم الجيش كله إلى ثلاث فرق منفصلة، ويتحرك معًا في آن واحد من الجهات المختلفة، فيضمن إفناء سكان الرورا. ولكي يواجه جيانافلوا هذه القوة الهائلة اضطر لأن يقف على قمة الممر، وبينما كان يناضل ببسالة ضد الفرقة الأولى البالغ عددها ٣٠٠٠ جندي إذا بالفريقين الآخرين يهجمان عليه من النواحي الأخرى.

المذبحة

وقعت قرية رورا في قبضة يد جنود البابوية، الذين إذ لم يجدوا أمامهم مقاومة تذكر تفرغوا لمهمة التخريب. وكانت غالبية السكان من الشيوخ والنساء والأطفال، إذ كان الرجال الأشداء يناضلون في المقدمة. وقد تبع ذلك مذبحة عامة، فهجم نحو عشرة آلاف من السفاحين على الفلاحين الوادعين بكل عنف وقسوة، كما تهجم الذئاب على قطيع الأغنام، غير مميزين بين طفل وشيخ ولا بين رجل وامرأة. على أن الذين قتلوا في الحال يعتبرون سعداء الحظ إذ نجوا من المخازي والوحشية التي نمسك القلم عن وصفها. يقول الدكتور بيتي: "لقد اتخذ كل جندي لنفسه مهمة الجلاد، حتى بدت القرية الوادعة وكأنها مقصلة واسعة الأطراف، والضحايا منثورة عليها وأنهار الدماء تجري منها. ولما أشرقت شمس الصباح على القرية لم يسمع فيها صوت ولا رؤى فيها بيت قائم، بل أكوام من رماد الحريق، وكأن أشباح المقتولين تطل من بينها رافعة دعواها إلى أبواب السماء".

وقد أبقى بيانسا على زوجة وبنات جيانافلو الثلاث فلم يقتلهن بالسيف، حتى يؤثر بهن على عواطف الأب والزوج، مهددًا إياه بأن يحرقهن أحياء إذا لم يسلم نفسه أسيرًا ويرتد عن ديانته. فأجاب جيانافلو بنبل "أما عن الشرط الأول فزوجتي وبناتي بين يديك، وإذا كانت هذه مشيئة الله فلتنفذ فيهن تهديدك، على أن هذا العمل الوحشي لن يؤثر إلا على أجسادهن التي تعلمهن ديانتهن أن لا يهتممن بها كثيرًا. فإذا ما أخذتهن للإحراق فإن الله سيسندهن في ساعة التجربة، لأن إيمانهن لا ينفذ إليه الفزع، وإنما يجعل الأبرياء ينظرون باطمئنان إلى ما لا يُفزع إلا المذنبين. وإني أقول لبيانسا الآن ما قيل لبيلاطس

من قبل: لم يكن لك عليّ سلطان البتة لو لم تكن قد أعطيت من فوق. أما عن مسألة الارتداد فهل أتخلى عن المبادئ التي دافعت عنها بدمي هذا الزمن الطويل؟ تلك المبادئ الثابتة ثبات كلمة الله. هل أهجر قضية المسيح لأجل أماني وقتية؟ حاشا! إني مستعد أن أموت في سبيل القضية التي عشت لأجلها. إن عذاب الاضطهاد خفيف جدًا بالمقابلة مع تبكيت الضمير، فلن أعرض نفسي للسقوط تحت طائلة ذلك التبكيت خوفًا من الاضطهاد". ثم هرب إلى جنيف.

وماذا يستطيع بيانسا أن يفعل؟ بل ماذا تستطيع الجيوش البابوية والقوات الجهنمية كلها أن تفعل ضد إيمانًا قويًا كهذا يخلق أبطالاً كهؤلاء للدفاع عن حق الله؟ قد يستطيعون أن يسحقوا مؤقتًا الأقلية الضعيفة "أذل الغنم" ويبدو كأنهم انتصروا، ولكن الله وسط شعبه، ولا بد أن يحتفظ بكيفية عجيبة ببقية أمينة له وبنسل يخدمه كحلقة فضية في سلسلة الشهادة المتصلة الحلقات. ولا بد أن يأتي قريبًا اليوم السعيد الذي فيه يمجد الرب شهوده أمام الكون أجمع، رافعًا رؤوسهم واضعًا عليها إكليل الشهادة، بينما يكون أعداؤهم مغمورين في الخجل وموسومين بالخزي الأبدي، ينحدرون إلى الظلمة الخارجية ليخفوا فيها شناعة جرائمهم وآلام شقائهم عديم الرجاء، وستعود إلى مسامعهم تلك الصرخات والتأوهات التي دوت وتردد صداها بين جبال الألب، وستمثل أمام عيونهم بشكل مزعج أجساد الأطفال المرتعشة فزعًا، التي لم تهز فيهم المشاعر الإنسانية. وما عسى أن يكون مكان العذاب ذاك، الذي فيه كل هذا الاضطراب المستمر بالأشباح والأصوات، وبثقل الجريمة على الضمير، تلك الجريمة التي مجرد تصورها يحز في النفس ويضغط على القلب؟ كم ستغذي تلك الذكريات الدود الذي لا يموت! وكم ستزيد في اشتعال النار التي لا تطفأ إلى الأبد. ولكن يلذ لنا أن نشير هنا إلى الحقيقة الثابتة أنه بالتوبة في أوانها والإيمان الحقيقي بالرب يسوع تمحى خطايانا مهما كثرت، أما الشخص الذي يموت بغير توبة فيهلك إلى الأبد.

عطف إنجلترا

ذهلت الحكومات البروتستانتية في أوروبا عندما وصلت إليها أخبار تلك المذابح المريعة. وقد هزت صيحات تلك الوديان أعطاف القلوب، وأحدثت أشد الاحتجاج والاستنكار، لا سيما في إنجلترا. "نادى كروموبل الذي كان على رأس الحكومة وقتئذ بصوم عام، وأمر بعمل اكتتاب للمنكوبين، وكتب إلى جميع الملوك البروتستانت وإلى ملك فرنسا لاكتساب عطفهم ومساعدتهم لشعب فودوا، وكتب تلك الرسائل ملتون السكرتير اللاتيني، وإظهارًا لشدة الاهتمام أوفد كروموبل سير صموبل مورلاند بكتاب إلى دوق سافوي"[٢٩٨].

وقد عرج السفير بحكمة على الوديان في طريقه إلى تورين، ورأى بعينيه الآثار المرعبة للخراب الذي يسودها. وعند مقابلته للدوق أشار إشارة موجزة إلى الفظائع التي أرسله حاكم إنجلترا ليشكو منها. ثم قال في صراحة تامة وحماسة ظاهرة "إني أكتفي بذلك، مع أني أستطيع أن أعدد أكثر كثيرًا، لولا نفور إحساساتي من ذلك. لو اجتمع طغاة جميع الأجيال والعصور - أقول هذا دون التعرض لمقام سموكم الملكي، لأني أعتقد أنه ليس شيء مما حصل يمكن أن ينسب إلى سموكم - لا شك أنهم كانوا يخجلون إذ يجدون أنهم لم يفعلوا شيئًا من القسوة والوحشية بالمقابلة مع تلك الأعمال التي لم تكن تمر لهم بخاطر، تفزع من هولها الملائكة، والبشر تأخذهم الدهشة والذهول، والسماء نفسها كأنما يتملكها العجب عندما تصل إليها صرخات المعذبين، والأرض ذاتها تخجل إذ لطخت بدماء عدد عظيم كهذا من الأبرياء! ألا تنتقم لنفسك يا الله لأجل هذا الشر العظيم. واغسل بدمك أيها الرب يسوع تلك الدماء!".

وقد حضر سفراء أيضًا من مقاطعات سويسرا وجنيف وهولندا وعن البروتستانت بفرنسا، واستنكروا جميعهم تلك الأعمال الوحشية بأشد العبارات وأقواها. "لم يظهر قط اهتمام شديد نظير هذا في أي مناسبة أخرى، لا من حيث عدد الملوك والولاة الذين اشتركوا في إظهاره، ولا من حيث ضخامة المبالغ التي جمعت للتخفيف عن الولدانسيين المنكوبين"[٢٩٧].

اضطر دوق سافوي، أمام تلك المعاتبات العنيفة، أن يقترح الصلح مع رجال الأودية، وقد شعر ذلك الأمير الشاب أن أمه ومشيريها قد خدعوه، وأنه فقد ألوفًا من أفضل رعاياه وأمهر الزراع وأحسن دافعي العوائد، بل أكثر الناس إخلاصًا لعرشه. وأكثر من ذلك قد فقد أفضل جنود جيشه، وأضاع مقدارًا كبيرًا من أمواله. وقد صرح قائلاً "إن قتل شخص واحد من الفودوا كلفه خمسة عشر جنديًا". وماذا استفاد من كل ذلك؟ لقد خسر من جميع الوجوه في هذه الحياة، ولكن كهنته أكدوا له أنه كسب رضى السماء!

عند احتضار ملك فرنسا العظيم لويس الرابع عشر سأل لي شيز أبا اعترافه قائلاً "بأي الأعمال الصالحة يمكنني كملك أن أكفر عن خطاياي الكثيرة؟". فأجابه ذلك اليسوعي في الحال "إبادة البروتستانتية من فرنسا". وفي الحال أذعن الملك للنصيحة وأمر بإلغاء مرسوم نانت، الأمر الذي ترتب عليه قتل ونفي عشرات بل مئات بل ألوف من شهود الله الأمناء في فرنسا. على هذه الطريقة أثروا على دوق سافوي بإرسال قوة مسلحة إلى الأودية حتى يخضعوا السكان للسلطة البابوية أو يبيدوهم، ولكنه شعر بغلطته، ولا شك عندنا أنه قصد بإخلاص إجراء الصلح الذي تم بالفعل. على أن موت كرومويل في سنة ١٦٥٨م أفقد الولدانسيين أخلص أصدقائهم وأقوى المدافعين عنهم، فقد أمر باكتتاب لأجلهم ودفع من جيبه الخاص ألفي جنيه، وبلغت جملة المبالغ المجموعة في ذلك الوقت ثمانية وثلاثين ألف جنيه.

صلح عام ١٦٥٥م

لقد دام الصلح الذي أعقب المذبحة التي حدثت عام ١٦٥٥م حوالي ثلاثين عاما. ولكن التاريخ يتكلم عن هذه المدة كفترة راحة فقط بالمقابلة مع شدة العواصف التي سبقتها. فقد وجد الكاثوليك عدة طرق أيضًا لإزعاج واضطهاد أولئك الذين لم يستطيعوا أن يقهروهم ولا أن يردوهم عن عقيدتهم. يصف السير صموئيل مورلاند السفير الإنجليزي حال الفودوا بعد عقد معاهدة الصلح قائلاً "إلى هذا اليوم لا زالوا يرزحون تحت أحمال ثقيلة جدًا، وضعها على أكتافهم مسخرو روما القساة. وتلك الوديان التي يقطنونها ليست إلا سجنًا بابه حصن لاتور. فضلاً عن كل ذلك فإنه بالرغم من المساعدات الكبيرة التي وصلتهم من إنجلترا والبلاد الأخرى كان عدد الجياع عظيمًا، وكان ظلم أعدائهم البابويين قاسيًا، أولئك الأعداء الذين كانوا رابضين ليتلقفوا كل منحة تأتيهم، وينتزعوا من أفواههم كل لقمة تصل إليها. حتى كادوا يأكلون لحوم أجسادهم من العوز إلى الخبز. والرضع لصقت ألسنتهم بحنوكهم، والأطفال الصغار كانوا يطلبون الخبز فلا يعطيهم أحد، والكبار والصغار كانوا ينامون على الأرض في الشوارع، حقًا إن بؤسهم وشقاءهم كان أشد من أن تعبر عنه الألفاظ. لقد كانوا أمواتًا في صورة أحياء، انقطع الغنم من الحظائر ولا بقر في المذاود، لا عنب في الجفنة، ولا حنطة في المخازن ولا طعام في البيوت ولا زيت في الأوعية"(٩٧).

اضطهاد الولدانسيين ونفيهم

على هذه الصورة استمر سكان الوديان مجاهدين حتى عام ١٦٨٦م، حين نشبت حرب جديدة بقيادة فكتور أماديوس الثاني، ولكن في الحقيقة بتأثير من لويس الرابع عشر ملك فرنسا. وقد بلغ عدد القوات بعد أن وصلت إليها الإمدادات الفرنسية بين خمسة عشر وعشرين ألف مقاتل. ومع أنه قتل عدد كبير من هذا الجيش، إلا أنه طغى على الفلاحين المساكين، حتى أن من نجا من انتقام السيف سيق إلى السجون، وكانت النتيجة أن أقفرت الوديان من سكانها. ولا يتسع لدينا المجال لسرد التفاصيل، وإنما نقول إن سير الحرب كان يتميز من الجانب الواحد بالخديعة والفظاعة كالمعتاد، ومن الجانب الآخر بالبطولة والتفاني. ولكن كانت كلمة الفصل في الحرب للخديعة، وأعقب ذلك الفظائع والكبائر. يقول هنري أرنود "لقد طرح أربعة عشر ألفًا من الجبليين الأصحاء في سجون بيدمونت، ولكن عندما توسط النواب السويسريون وفتحت تلك السجون دلف منها ثلاثة آلاف هيكل عظمي فقط". تلك كانت مراحم الكنيسة الأم المقدسة، ولو أتيحت لها الفرصة الآن لكانت مراحمها على هذا المنوال أيضًا. وإن القلب لينفطر والعقل لينفر من أن يتأمل في تلك الفظائع الوحشية وإن مر عليها زمان طويل. لقد مات أحد عشر ألفًا في بضعة شهور من البرد والجوع والمرض وفساد الهواء والقسوة والإهمال التام. كل هذا العدد يموت داخل السجون! فكيف يا ترى كان هواؤها؟ ولكننا نمسك القلم عن زيادة الإيضاح.

فتحت أبواب السجون في أوائل أكتوبر، ولكن على شريطة أن يخرج المسجونون في الحال خارج البلاد في نفي مؤبد. وكان الشتاء قد أوشك أن يحل بكل أهواله، ومع ذلك أرغم هؤلاء المساكين الجائعون على الرحيل في نفس ذلك المساء إلى جبال الألب بدون رحمة ولا شفقة. فساروا متجهين إلى جبل سيني، وسرعان ما أدركهم الليل، وقبل بزوغ شمس اليوم الثاني كان أكثر من مائة وخمسين منهم قد ماتوا في الطريق. ولكن المفجع المبكي في هذه المأساة منظر الأمهات الراحلات عندما جابهتهن

العاصفة، فاحتضن أطفالهن بين أذرعهن وأعطين ظهورهن للزمهرير لكي ينقذن فلذات أكبادهن، ولكن كثيرات منهن سقطن صرعى من الإعياء والتعب، والتففن بأكفان جليد الألب. وطلب أولئك المنفيون التعساء بشدة وإلحاح مستر حمين قائدهم أن يستريحوا يومًا واحدًا، خصوصًا لأنه لاحت في الجو علامات هبوب عاصفة جليدية، ولكن القائد الظالم أبى أن يجيب ملتمسهم وأمرهم باستمرار السير، فأذعنوا مرغمين. وإليك أيها القارئ وصف لتلك العاصفة الجليدية بقلم الدكتور بيتي "كانت قطع الجليد المتناثرة تتطاير بشدة كأنها زبد أمواج هائجة قد حملها الريح، ثم تتجمع كتلاً هائلة في طريق المسافرين. إن عواصف الألب الثلجية كثيرة الشبه في تأثيرها بالعواصف الرملية التي تهب في الصحراء، فتشبع الهواء بذرات الرمال المتطايرة، وعندما يواجهها الإنسان تعمي بصره وتحرق جلده. إزاء كل هذا كانت كل ساعة تمر على هؤلاء التعساء يتحملون فيها صنوف العذاب ألوانًا مما ثبط من عزمهم وقل من عددهم"[٢٦][٧٨].

وصول المنفيين إلى جنيف

حوالي منتصف شهر ديسمبر وصل الناجون من تلك الجماعة إلى أبواب جنيف، ولكن في حالة إعياء شديد، حتى أن كثيرين منهم ماتوا فيما بين باب المدينة الخارجي وبابها الداخلي، فكانت نهاية حياتهم في نقطة بداية حريتهم. وبعضهم لم يقووا على الكلام بسبب ورم ألسنتهم، وآخرون لم يستطيعوا مد أيديهم لقبول إحسانات أصدقائهم الجدد لأن أذرعهم قد تجمدت من الصقيع. على أنه قد قُدم إليهم من وسائل الإسعاف والإنعاش كل ما يمكن للإنسانية والمحبة المسيحية أن تقدم. ولكن لم يكن من المستطاع إبقاؤهم جميعًا في جنيف، فعملت الترتيبات اللازمة لتوزيعهم على المقاطعات المصلحة، التي تنافس سكانها في الترحيب بالمنفيين والمبالغة في إكرامهم، وتقديم أرق خدمات المحبة الأخوية إليهم.

ولكن لم تكن التعزيات التي قُدمت إلى أولئك المنفيين ولا الآمال التي وُضعت أمامهم لتنسيهم وطن آباؤهم وأجدادهم. وإذ كانوا يتمشون على ضفاف نهر الرين كانوا يفعلون ما فعله اليهود قديمًا على أنهار بابل، يعلقون أعوادهم على الصفصاف ويجلسون يبكون عندما يتذكرون أوديتهم المحبوبة وما يحيط بهم من ذكريات عزيزة لقلوبهم.

وقد قاموا بعدة محاولات، لتنفيذ رغبتهم الشديدة في الرجوع إلى أوطانهم ولكنها فشلت، لأن نواب المقاطعات التي كانوا لاجئين إليها عندما كانوا يكتشفون مشروعهم كانوا يتخذون التدابير اللازمة لمنعهم من السفر، إذ كانوا يرون أن سفرهم لا بد وأن يعرضهم للاصطدام بالقوات البابوية. وقد شعر الفودوا بخيبة الأمل وبصدمة عنيفة لقلوبهم التي تحن شوقًا إلى وطنهم عندما عادوا إلى المقاطعات التي آوتهم واستأنفوا أعمالهم وصناعاتهم. ولكنهم كانوا في السر يدبرون خططًا لاستئناف المشروع متى لاح ظرف مناسب. وفي الوقت نفسه وصلت إلى دوق سافوي أخبار عزم المنفيين على الرجوع، فأعد العدة لمواجهة الحالة، ووضع جنوده على طول الحدود واتخذ أهبة القتال، وأصدر أوامره أيضًا إلى فرقتين مؤلفتين من ألف جندي بقيادة ضابط من الطبقة الراقية لمراقبة الطرق والكباري والممرات. وإذ كان المنفيون يتباحثون في أفضل الوسائل التي تتبع في هذا الموقف المؤلم وجه إليهم راعيهم وقائدهم هنري أرنود الكلمات الواردة في لوقا ٢١ «لا تخف أيها القطيع الصغير» تلك الكلمات التي أنعشت نفوسهم وأضرمت حماسهم.

سفر المنفيين

اجتمعت عدة ظروف معًا جعلت الفودوا يعتقدون أن يد الرب قد فتحت لهم طريق العودة، وكان المكان الذي عينوه لاجتماعهم معًا هو غابة كبيرة بالقرب من مدينة نيون على الشاطئ الشمالي من بحيرة ليمان. عندما تهيأ كل شيء رفع قائدهم صلاة إلى الله في وسطهم، مستودعًا الحملة في عهدته تعالى. وكان بدء رحيلهم فيما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة من مساء يوم ١٦ أغسطس عام ١٦٨٩م، وقد عبروا البحيرة على ضوء النجوم، وعندما وصل الجميع إلى الشاطئ الجنوبي للبحيرة كان عددهم يتراوح بين ثمانية وتسعة آلاف، وكان أرنود، وهو رجل مشهور بالتقوى والوطنية والشجاعة والمهارة في الفنون الحربية، قد قسمهم إلى ثلاث فرق، الحرس الأمامي والحرس الخلفي والقلب، بحسب النظام الذي كانت تتبعه دائمًا جيوش الفودوا النظامية. وهكذا شرعوا في السير عائدين إلى أوديتهم، ويعتبر بعض المؤرخون هذه الرحلة من أعجب الأعمال الباهرة في التاريخ، ففضلاً عن صعوبات الطريق الطبيعية

مثل الارتفاع الشاهق للجبال وعمق الثلوج وخداع الجبال الثلجية وغزارة الأمطار، كانت الطرق والمعابر مكتظة بجنود الدوق تعاونها الجنود الفرنسية، فكان عليهم أن يحاربوا في كل شبر يتقدمونه في طريقهم إلى وديانهم.

ولا يمكن للخيال مهما بلغت روعته أن يصف الشعور الذي جاش في صدر أولئك المنفيين عندما هلت عليهم طلعة جبال وطنهم لأول وهلة. ولا شك أن بعضهم استطاعوا أن يميزوا عن بعد الجبل الخاص الذي تحت ظله قضوا أيام طفولتهم وشبابهم، مع آلاف الذكريات العزيزة. وإذ مثل هذا المشهد العجيب أمام عيونهم لم يبق للخوف مجال إلى قلوبهم، ولم يكن لعدو أن يعيق سيرهم، لأن صوتًا خفيًا كان يهمس في آذانهم أن تقدموا، فهوذا السماء تعيد ميراثكم إليكم.

هَذي *رُبى الوادي الجميل تلوحُ وعبيرُ أزهار الكُروم يفوحُ
لم يبقَ للخوف مكانٌ عندهمْ كلا ولم ترعبْهُمُ الأشباحُ
صوتٌ يدوّي في آذان القوم من أعلى السماء أتى برعده ريحٌ
تقدموا، ميراثكمْ سأردُّهُ لكُمُ، وهذا الوعدُ مني صريحُ
في ثلج "البكُمُ" دمٌ ضحى به أجدادُكمْ، ولكَم توارى ذبيحُ
ولكَم لأجلي تشردَتْ آباؤكم هل أنسى أمًا ثكلى حيْرَى تنوحُ؟
شهداءَ ماتوا ولم يمتْ إيمانُهم ولذا فحضني للشهيد يُريحُ

وقد استغرقت رحلتهم من شواطئ بحيرة جنيف إلى وديانهم واحدًا وثلاثين يومًا تميزت بحوادث لم يشهد التاريخ مثلها، ولكنها كللت أخيرًا بالنجاح **. وقد سمحت العناية الإلهية أن ينشأ في ذلك الوقت نزاع بين ملك فرنسا وفكتور أماديوس، جعل هذا الأخير ينضم إلى صف تلك الجماعة الباسلة، فقال للبقية المشتتة من رعاياه البيدمونت "لقد كنا أعداء، ولكن من الآن فصاعدًا سنبقى أصدقاء، والوقع أنه على عاتق غيري يقع أكبر قسط من تبعة الويلات التي قاسيتموها". وقد أعقب ذلك عقد معاهدات بين الحكومة الإنجليزية وحكومة البيدمونت في عهد الملك وليم الثالث والملكة آن. ومن ذلك الوقت إلى الآن أخذت بريطانيا على عاتقها بموجب تلك المعاهدات مهمة التوسط لحمايتهم. وكان يجب أن تتمتع كنائسهم بالسلام، لولا اضطرارهم بين آن وآخر إلى أن يواجهوا بعض المظالم والمتاعب لأسباب تافهة وادعاءات باطلة.

وفي أثناء إمبراطورية نابليون الفرنسية، عندما وُضع تاج إيطاليا الحديدي على رأس ذلك الكورسيكي، تمتع الولدانسيون بالمساواة في الحقوق والامتيازات مع بقية مواطنيهم. ولكن عندما عاد بيت سافوي إلى مملكة سردينيا عادت أحوالهم السيئة إلى ما كانت عليه، وذلك بسبب المشيرين الأردياء الذين كانوا حول الملك. أما هو شخصيًا فقد اعترف في أكثر من مناسبة بما قدمه الولدانسيون دائمًا لأسلافه من براهين واضحة على ولائهم وإخلاصهم ومودتهم، ثم أضاف إلى ذلك قائلاً "إني أعلم أن الولدانسيين رعايا أمناء، وأنهم لن يسيئوا سمعة شرفهم". ولكن تغلب عليه مشيرو السوء فأعاد وضع النير على أعناقهم.

كانت الصعوبة الكبرى التي واجهها الولدانسيون في ذلك الوقت هي الضائقة المالية، ولكن البروتستانت في إنجلترا لم يغضوا النظر عن حالة اخوتهم في وديان بيدمونت، فقد عملوا جمعًا عامًا في جميع أنحاء المملكة في عدة مناسبات، وكانت تتولى تلك العمليات جمعية نشر الإنجيل في البلاد الأجنبية وتوصل إليهم مبالغ لا يستهان بها.

وبهذه الكيفية اعتنى الرب بهم واحتفظ بشهادة لنفسه في ربوع تلك الأودية من قديم الزمن. ولا يزال زيت نعمته جاريًا ومصباح حقه متقدًا، بينما اندكت عروش ظالميهم وبادت سلالتهم الملكية إلى الأبد، حتى أبواب روما قد انفتحت أمامهم. وأننا نترك الكنيسة الولدانسية بفضل عناية الرب العجيبة في حقل واسع مفتوح لممارسة نشاطهم المسيحي ومجهوداتهم التبشيرية (١١/٢٠)(٢/٧٨)(١٨).

---

* عن قصيدة للشاعر المؤرخ دكتور بيتي. وكما في جميع قصائد هذا المختصر، حاولنا قدر المستطاع نقل أفكار الشاعر مع نظمها شعراً عربيًا.

** التفاصيل الرائعة لهذه الملحمة تجدها في كتاب هنري أرنود راعيهم وقائد نضالهم المعنون «الاسترداد المجيد لأرض الحدود» مع مختصر لتاريخ شعب فودوا لهوف دايك أكلاند. وقد استغرقت رحلة العودة واحداً وثلاثين يوماً، وفي هذا الكتاب تجد تفصيلات أحداثها يوماً فيوماً.

الفصل الثالث والخمسون

الإصلاح في الجزر البريطانية

أيرلندا

وإن كان بالجهد يمكننا أن نتكلم عن إصلاح في أيرلندا، إلا أنه يمكننا أن نلاحظ باختصار التغييرات التي حصلت في نظامها الإكليريكي. لقد نشأت علاقة أيرلندا بتاج إنجلترا، كما سبق أن رأينا، بواسطة معاهدة بين هنري الثاني والبابا أدريان الرابع وأساقفة أيرلندا في ذلك الوقت. يقول الدكتور فيلان "إن هذه المعاهدة تكشف لنا عن رياء وظلم وخداع أولئك الذين عقدوها، ومما يعطيها أهمية أكثر أن تلك الصفات الذميمة قد سرت في خلفائهم، وكان لها تأثير مستمر على مجريات الأمور في أيرلندا، ولا يمكننا أن نميط اللثام عن تاريخ أيرلندا ولا يمكننا أن نحكم حكمًا صحيحًا عن حالتها في الأزمة الحاضرة إلا إذا وضعنا تلك الأمور في بالنا". ويقول موسهيم "مما ساعد هنري في سعيه للسيطرة على أيرلندا رغبة السلطة الدينية الوطنية في الحصول على الاستقلال والنفوذ اللذين كانت تتمتع بهما كل الطوائف الإكليريكية التي كانت متصلة بروما اتصالاً وثيقًا، وبذلك تحسنت أحوال الأساقفة تحسنًا كبيرًا وازدادت إيراداتهم، وإن كانوا قد باعوا بذلك استقلال بلادهم".

وفي عام ١١٧٢م أكمل هنري فتح البلاد وخضع الإكليروس للأوامر البابوية، ووافقوا على دفع ضريبة بطرس لروما، واعترفوا بحق هنري في السيادة المطلقة على أيرلندا، وأقسموا يمين الولاء له ولخلفائه. قال أحد أصدقاء الكاثوليكية "لقد اغتصب أدريان حقوق الأمم وسلب حريتها بدون جريرة ولا محاكمة". على أن الهيئة الدينية لم تأسف على هذا التغيير، إذ كان الرؤساء المدنيون إلى ذلك الوقت مسيطرين على الكنيسة، الأمر الذي جعل الكهنة في حالة الفقر والمذلة. من أجل ذلك رحبوا بسيادة إنجلترا وبسلطة روما لحمايتهم من مظالم أولئك الرؤساء.

"لقد كان الأمير الأيرلندي بحسب النظام القديم سيدًا مطلق السلطان على الكهنة كما على بقية الرعية، ولكن هنري الثاني أدخل نظامًا جديدًا، ومن ذلك الوقت نُقلت جميع امتيازات الكنيسة الإنجليزية إلى الإكليروس الأيرلندي، الذي تمسك بها بكل شدة". وهكذا صارت الكنيسة الأيرلندية كاثوليكية خاضعة لأوامر البابا، ووضعت كل حقوق الأساقفة من مدنية وروحية تحت تصرفه. ولكي يحتفظ هنري بسيادته على الإكليروس الأيرلندي ملأ مراكز الأبروشيات الخالية بأساقفة من الإنجليز، وكانت النتيجة أن دبت روح الحسد والعداء بين الكهنة الإنجليز والأيرلنديين ونشأت المنازعات، فتمسك الملك الإنجليزي بحقه في تعيين من يشاء. ورفع الكهنة الأيرلنديون الأمر إلى روما للفصل في الموضوع، وكانت القلنسوة دائمًا تتغلب على التاج، وبذلك توطدت دعائم السلطة البابوية[٩٩].

من ثم بدأ النزاع بين ملوك الإنجليز والكهنة الأيرلنديين، وسعى الأخيرون في نقل تبعيتهم من ملك إنجلترا إلى بابا روما باعتبارهم رجالاً كنسيين. وهكذا استمر التنازع على السلطة أجيالاً عديدة حتى عصر الإصلاح.

هنري الثامن والكنيسة الأيرلندية

عندما حصل هنري على إذعان رعاياه الإنجليز، بل ترحيبهم بمبادئ الإصلاح، عزم على الوصول إلى نفس النتيجة في أيرلندا أيضًا، ولكن لشد ما كانت خيبته حينما وجد أنهم قابلوا اقتراحه بمنتهى الإهمال وعدم المبالاة. فأولئك الذين كانوا في جانب سلطة البابا ضد سلطة الملك قاوموا المشروع بشدة يتزعمهم جورج

كرومر، وكان عالمًا مقتدرًا، وكان رئيس أساقفة أيرلندا كلها، وفي الوقت نفسه كان يشغل منصب كبير المستشارين. وكانت النتيجة أن أعيق تقدم حركة الإصلاح في أيرلندا مدة من الزمن.

أما الشخص الذي كان بمثابة العامل الرئيسي في الدعاية للمشروع الملكي فكان جورج براون، وهو أول أسقف بروتستانتي أقيم على أبروشية في أيرلندا، إذ عيّنه هنري رئيسًا لأساقفة دبلن، وقد كان غيورًا لتعاليم الإصلاح ضد عقائد الكنيسة الكاثوليكية، الأمر الذي عرض حياته للخطر أمام متهوسي الكاثوليك المتعصبين. على أنه بناء على اقتراح قدمه براون دُعي البرلمان الأيرلندي للانعقاد في مدينة دبلن عام ١٥٣٦م، وكانت من نتيجة ذلك أن قمعت كل مقاومة وتغيرت ديانة البلاد، واعتُرف بالتعاليم المصلحة كدين الدولة الرسمي. "وسُنت عدة قوانين لتثبيت هذا الغرض ونودي بالملك كالرأس الأرضي للكنيسة في أيرلندا، واعتُرف باستحقاقه لباكورات الأسقفيات والأديرة والكليات والمستشفيات، ومُنع الرجوع إلى روما في المسائل الدينية، ورُفضت سلطة البابا، وكل من تجاسر بالاعتراف بها في أيرلندا عرض نفسه لأشد العقوبات. وطُلب إلى الموظفين من جميع الدرجات أن يقسموا يمين الطاعة، وكل من رفض اعتُبر مرتكبًا جريمة الخيانة العظمى كما في إنجلترا. وهكذا اعتبرت البروتستانتية دين أيرلندا بحكم القانون، وقد أدمجت ممتلكات المؤسسات الدينية في التاج"(٢/٣٨)،(٣/٢١).

شعر الفريق البابوي في أيرلندا بامتهان كرامتهم بسبب السلطة الروحية التي اتخذها ملك إنجلترا لنفسه. وتطوع كثيرون من الرؤساء الأيرلنديون للقتال دفاعًا عن ديانتهم القديمة، وأرسلوا في السر رسلاً إلى روما للتعبير عن ولاء كرومر وحزبه للأب المقدس، وليتوسلوا إليه أن يتدخل للدفاع عن سلطته الروحية في أيرلندا. فأرسل البابا مبعوثين من قبله في الحال لتشجيع الفريق المقاوم للقوانين الحديثة، ولاستثارة رؤساء الشمال وبالأخص أونيل، ولجمع شملهم حول شعار أجدادهم المقدس حتى يستلوا السيف للدفاع عن السيادة البابوية. وقد قبل أونيل بسرور المهمة التي وكلها إليه البابا، وتألفت هيئة لقمع الهراطقة، وتكوّن جيش، ونادى أونيل بنفسه رأسًا لشمال أيرلندا على جبل الملكية القديم، حسب عادة ملوك أيرلندا الوطنيين. ولكن هذه المظاهرة الباطلة سرعان ما وقفت عند حدها، لأن نائب الملك سبق فتوقع قيام مثل هذه الحركة واستعد لها. وجاء انتصار بلاهو على حدود ميث كاسرًا لشوكة رؤساء الشمال، الذين إذ تملكهم الذعر هربوا جميعهم. وقد عملت عدة محاولات بعد ذلك للقتال دفاعًا عن سلطة البابا، ولكن إجراءات الحكومة السريعة كانت تقمع كل ثورة جديدة في الحال وتشتت الرؤساء وعصاباتهم في جميع الجهات. وكان من نتيجة هذه الهزائم المتوالية أن ضعف تأثير الأشراف، وفشلت قضية البابا واعترف بعض الرؤساء المشاغبين بالولاء لحكومة الملك.

هنري ملك أيرلندا

منذ السيادة على أيرلندا عام ١٥٣٧م كان الحاكم يسمى لورد، ولكن في عام ١٥٤٢م اعتُرف به ملكًا لأيرلندا. فإلى ذلك الوقت لم يكن البابا يسمح لحكام إنجلترا بأن يتخذوا أكثر من لقب لورد، ولكنه الآن قد تغير بقرار من البرلمان إلى لقب ملك. وبهذه المناسبة منحت رتبة الإمارة لبضعة أفراد من رؤوس العائلات العظيمة، ومنح البعض ممن هم أقل درجة لقب بارون، وبذلك عاد السلام لأيرلندا من ناحية العلمانيين. أما الكهنة فلم يكن من السهل اكتسابهم لجانب قضية الإصلاح.

وبعد موت هنري وارتقاء إدوارد السادس إلى العرش أصدر الملك أمرًا إلى نائب الملك في أيرلندا يشدد عليه في ملاحظة إحلال النظام الديني الإنجليزي الجديد محل الطقوس الكاثوليكية، وقد أثار ذلك ثائرة الإكليروس فعقدوا اجتماعًا يضم الأساقفة ومن دونهم من طبقات الكهنة، وقابلوا النظام الديني الجديدة بأشد ازدراء، وكان داوديل رئيس الأساقفة عنيفًا في مقاومته لنظام إدوارد، كما كان كرومر إزاء سيادة هنري. على أن هذه المقاومة قد فشلت، وبأمر الحكومة أجريت الخدمة الإنجليزية في كاتدرائية كنيسة المسيح بمدينة دبلن يوم عيد القيامة عام ١٥٥١م.

قامت ثورة جديدة على أثر موت إدوارد المبكر وارتقاء ماري إلى العرش، كان من نتيجتها أن تغيرت ديانة البلاد مرة أخرى. وداوديل الذي كان قد انسحب من البلاد أثناء ملك إدوارد استرد ثانية إلى مركز رئيس أساقفة، وهرب بعض خصومه الألداء، ورجع كثير من رجال الإكليروس إلى ديانتهم القديمة. وقد أعطيت الحرية لممارسة القداس بدون ضغط أو عقوبة، وبذلك

تثبت الدين الكاثوليكي مرة أخرى في أيرلندا. وقد قرر البرلمان الأيرلندي عام ١٥٥٦م اعتبار من يعترف بالبروتستانتية مستحقًا للعقوبة. وبدأت روح التعصب وسفك الدماء تظهر مطالبة بالقضاء على كل من يقاوم البابوية بالسيف والنار. ولكن لحسن الحظ كانت الإجراءات الحكومية بطيئة، فأخرت التصريح بقيام حركة اضطهاد فعلية. يقول موسهيم "على أنه قد أُعدت أخيرًا رسائل تفويض لهذا الغرض أُرسلت من لندن إلى دبلن بيد الدكتور كول الذي من شدة فرحه بمشروع سحق البروتستانتية الأيرلندية كان يفاخر بمهمته أمام سيدة شديدة التمسك بمبادئ الإصلاح في مدينة شستر، وكان لها أخ في العاصمة الأيرلندية، فعمدت إلى سرقة أوراقه الرسمية ووضعت له مكانها مجموعة من ورق اللعب. ولم يفطن ذلك السفير الثرثار للأمر، فواصل سفره حتى وصل إلى دبلن في ٧ أكتوبر عام ١٥٥٨م، وهناك لشد ما كان ارتباكه عندما فتش على أوراق اعتماده فوجدها قد استبدلت بتلك الكيفية المزرية. وقد حصل بعد مدة طويلة على أوراق اعتماد غيرها، ولكن قبل وصولها إلى دبلن كانت الملكة ماري قد ماتت"(٢/٢١).

وعندما ارتقت الملكة اليزابيث إلى العرش بعد وفاة أختها انتعشت قلوب البروتستانت في جميع أرجاء مملكتها، بسبب ما كان معروفًا عنها من الانحياز إلى جانب الإصلاح، وتغيرت مجريات الأمور في أيرلندا، فتحركت البلاد كلها من إكليروس وعلمانيين، وقلب نظام ماري الإكليريكي رأسًا على عقب، وأعيدت البروتستانتية واعترف بها كدين البلاد الثابت من ذلك الوقت.

الكنيسة الأيرلندية المشيخية

قلنا ما فيه الكفاية عن تأسيس الكنيسة الأسقفية في أيرلندا، والآن لا بد لنا من أن نبدي ملاحظات مختصرة على منشأ الكنيسة المشيخية في تلك المملكة.

لما ارتقت اليزابيث العرش وجدت أيرلندا كلها وكأنها في حالة حرب داخلية بسبب مطامع الرؤساء وغيرتهم التي لا تهدأ. وفي أواخر ملكها كما في أوائل ملك خلفها جيمس الأول كانت المقاطعات الشمالية مسرحًا لمؤامرات وقلاقل مستمرة، فما تكاد تهدأ فتنة حتى تقوم أخرى، مما جعل البلاد في حالة دائمة من الهياج والاضطراب. وكان باباوات روما دائمًا يضرمون نار تلك الثورات، وكثيرًا ما كان يساعدهم فيها فيليب الثاني ملك أسبانيا وكردينال ريشليو في فرنسا. وكان البابا يصدر المنشور تلو المنشور داعيًا الأمراء والأساقفة والأشراف وجميع شعب أيرلندا إلى الجهاد لاسترجاع حريتهم والدفاع عن الكنيسة المقدسة، محرضًا إياهم على تضحية حياتهم خيرًا من تأدية يمين الطاعة الشرير، الذي به يغتصب صولجان الكنيسة الكاثوليكية من يد وكيل الله على الأرض. ولا شك أن تحريضات كهذه من جانب البابا نفسه كان لها أثرها القوي على ذلك الشعب الخرافي الجاهل.

ويضيق نطاق هذا المختصر عن وصف تلك الحروب الداخلية الطويلة الأمد، وعن ذكر تفاصيل إلغاء الألقاب ومصادرة الأملاك، وإنما نقول إنه بموت بعض قادة الثورة وبفرار آخرين آلت معظم مقاطعة أولستر إلى أملاك التاج واستولى عليها الملك جيمس. وكانت تلك البقعة الواسعة تشتمل على ست مقاطعات شمالية وتزيد مساحتها عن خمسمائة ألف فدان. وقد عزم الملك على تغيير معالم تلك البقعة بنقل المالكين القدماء وإدخال مستعمرين من الإنجليز والاسكتلنديين مكانهم. وقد أدى ذلك إلى زراعة تلك المنطقة مما عمت منفعته إلى هذا اليوم. وفي وقت قصير تغير وجه البلاد، فزرعت الأراضي وشيد عدد كبير من المدن الزاهرة وأصبحت مقاطعة أولستر أعظم مقاطعات أيرلندا تقدمًا وازدهارًا. ولكن الروح الشريرة، روح عداء البابوية لإنجلترا ولكل مظهر من مظاهر البروتستانتية، لم تكف عن عمل الدسائس الخفية التي ما لبثت أن ظهرت في شكل ثورة عظيمة ومذبحة هائلة عام ١٦٤١م. وقد ابتدأت المذبحة في اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر، وفي اليوم الثلاثين من الشهر صدر الأمر من معسكر السير فيليم أونيل بعمل مذبحة عامة، وبعد فترة قصيرة أذيع منشور الأسقف ماكماهون بابتداء حرب العصيان(٩١)(٢/٢٨)(٩٥).

وبعد معركة بوين بدأ وليم أمير أورنج حكمه بأن أكد للبروتستانت في أيرلندا بأنه قد جاء إلى أيرلندا ليحررهم من مظالم البابوية، وأنه عظيم الثقة بنجاح مقصده بمساعدة العناية الإلهية. وقد وضعت الحرب أوزارها وعاد السلام إلى البلاد وأعيدت الكنيسة المشيخية بكل امتيازاتها، وأخذت على عاتقها مهمة التبشير بالإنجيل ونشر الحق وتوصيل البركة لكثير من النفوس الثمينة.

اسكتلندا

إذ قد تتبعنا في صفحات ماضية الحالة الدينية في اسكتلندا منذ بدأ تاريخها إلى فجر الإصلاح، نبدأ الآن ببيان ما كان لحركة الإصلاح العظيمة هذه من الأثر على سكان تلك البلاد. ولكن من المستحسن أن نرجع بعض خطوات إلى الوراء لنجدد تعرفنا بأحوال تلك البلاد في ذلك الوقت.

قبل أن يشق الإصلاح الذي بدأ في ألمانيا طريقه إلى شواطئ اسكتلندا النائية، ابتدأت أن تظهر في عدة مقاطعات روح إصلاح ديني، وبالأخص في أراضي اسكتلندا المنخفضة. وكثيرون من اللولارديين أو تلاميذ ويكليف الذين هربوا من الاضطهاد في إنجلترا التجأوا إلى اسكتلندا وسكنوا هناك. وإذ التقوا بسلالة الكُلديين القدماء كونوا في هدوء جماعة تبشيرية صغيرة، وحفظوا منارة الشهادة لله مضيئة في تلك البلاد التي غشاها الظلام، وقد أنكروا تعليم الاستحالة وسلطة الكهنوت، مقررين "أنه يوجد كهنوت عام، كل من يؤمن بالمخلّص هو عضو فيه، رجلاً كان أو امرأة. وأن البابا الذي يعظم نفسه فوق الله هو ضد الله. وأنه لا يجوز تقلد السلاح للدفاع عن أمور الإيمان، وأن الكهنة يجوز لهم أن يتزوجوا".

وكان من ضمن المدافعين عن أولئك المسيحيين المستنيرين جون كامبل لورد أوف سسنوك، وهو رجل ضليع في المكتوب، إلا أنه لم يصل إلى مستوى زوجته، التي كانت "تستطيع أن تضع تعاليم الكهنة في مواجهة الكتب المقدسة وتبين بطلانها" كما يقول أحد المؤرخين. ويقول آخر "إنه بشهادة الصديق والعدو كان يندر أن توجد مقاطعة في منخفضات اسكتلندا خالية من اللولارديين. فقد كانوا كثيرين في فايف وأكثر جدًا في مقاطعتي كننجهام وكايل". وفي أثناء ملك جيمس الرابع حوالي عام ١٤٩٤م رفعت الدعوى على نحو ثلاثين شخصًا أمام المحكمة الأسقفية العليا في جلاسجو بتهمة الهرطقة، وكان معظمهم من أصحاب الأراضي، وقد أُسندت إليهم تهمة إنكار القداس والمطهر وعبادة الصور والتماثيل والصلاة للقديسين، وإنكار وكالة البابا وسلطانه على مغفرة الخطايا، وبالجملة كل معتقدات الكاثوليكية الخاصة. ويظهر أن دفاعهم كان قويًا بدرجة جعلت الملك، الذي استأنفوا قضيتهم أمامه، يحميهم من الحكم الذي كان ينوي رئيس الأساقفة بلاكادر أن ينطق به ضدهم بكل تأكيد(٦/٦٢)(٣/٧٨).

ويمكننا أن نقول أن نيران الاستشهاد لم تكن قد أضرمت بعد، ولم تكن روح الإحراق قد تملكت الكهنوت، وإلا لم يكن أولئك الهراطقة لينجوا. على أن أولئك الشهود يثبتون بجلاء تلك الحقيقة التي شاهدناها في ممالك مختلفة، وهي أن روح الله كان يعمل ويعد قلوب الكثيرين في جميع أنحاء أوروبا لتلك الحركة العظمى التي حدثت في القرن السادس عشر.

تقدم الإصلاح

في عام ١٥٢٦م هكذا مبكرًا تقدمت تعاليم الإصلاح تقدمًا محسوسًا في اسكتلندا، فكانت تصل السفن إلى أبِّردين ومونتروز ودوندي وليث من جميع أنحاء القارة، آتية بآخر الأنباء عن تقدم البروتستانتية، وتفرغ في السر طرودًا من نبذ ومواعظ المصلحين، وبهذه الكيفية انتشرت بذور اللوثرية في شواطئ فريث أوف فورث. ولما ترجم تندال العهد الجديد إلى اللغة الإنجليزية استوردت من فلاندرز كميات كبيرة من النسخ ووزعت بنشاط بين الشعب. وهكذا ابتدأ الإصلاح على أساس إلهي، والظلام الذي خيم على ربوع تلك البلاد زمنًا طويلاً ابتدأ ينقشع أمام نور السماء. وكان كل شخص تقريبًا يملك نسخة من العهد الجديد، الأمر الذي كان سبب بركة عظمى للكثيرين.

يعتبر الكتاب المقدس مبشر اسكتلندا ومصلحها الوحيد في ذلك الوقت. قال واحد "ابتدأ الكتاب يجوب أطراف البلاد صامتًا، فوصل إلى أبواب قصر رئيس الأساقفة دون أن يُشعر بوقع أقدامه. وبشر في المدن دون أن يتنبه الأساقفة إلى صوته، ومر في الشوارع والأزقة دون أن يلاحظه الرقباء والجواسيس، فرجل الكنيسة كان يرى كل شيء هادئًا ساكنًا، بينما في سكون الليل كان الناس يرحبون بهذا المعلم الجديد ويفتحون قلوبهم لتعاليمه النافعة المعزية. فبالحقيقة كان الكتاب المقدس هو المعلم الوحيد العظيم لتلك الأمة، وهكذا طبع الإصلاح الاسكتلندي بطابع الكتاب الذي لا يمحى. فكان المكان الذي احتله الكتاب المقدس في عواطف الشعب، والسلطان الذي ملك به على أفكارهم مما لا يمكن أن يزول أثره"(٣/٧٨). ومع أن هذه الشهادة النبيلة صادقة تمامًا، إلا أنه كان لا بد من صوت المعترف وموت الشهيد لإيقاظ الأمة من سباتها العميق الذي أغرقتها فيه البابوية زمنًا طويلاً.

الشهداء الأوائل للإصلاح الاسكتلندي

يحتل باتريك هاملتون مكانًا متميزًا بين الشهداء، فشبابه ومؤهلاته وتهذيبه وعلمه ونقاوة حياته ونبله ورقته، هذه كلها اجتمعت لتجعل استشهاده موضوع حسرة عامة. ومع كل هذه الصفات السامية كان في نظر روما مذنبًا ذنبًا لا يغتفر. ولقد منحه ربه وسيده الشرف بأن يكون أول مبشر ببشارة الخلاص الطيبة إلى مواطنيه، وأول من ختم على شهادته بدمه، وأكثر من ذلك قد جعل الله الموت القاسي الذي عاناه هذا الشاب الملكي سبب بركة عظمى للكثيرين من المتعلمين وغير المتعلمين على السواء.

هذا الشاب هو ابن السير باتريك هاملتون وحفيد الملك جيمس الثاني من جهة الأب والأم معًا. ولد عام ١٥٠٤م، وكُرس للكنيسة وأنعم عليه بدير فيرن أثناء طفولته كعادة تلك الأيام. وقد تلقى علومه الابتدائية في جامعة سانت أندرو، ثم سافر من اسكتلندا عام ١٥١٧م لإتمام علومه في جامعة باريس، وهناك حصل على درجة أستاذ في الآداب، وربما يكون قد تلقى أيضًا شيئًا من معرفة الحق في مدرسة ليففر وفارل. وفي عام ١٥٢٣م عاد إلى بلاده ودخل جامعة سانت أندرو. وقد أثار حوله شبهات رجال الإكليروس بسبب صراحته في المناقشة واللهجة الحرة التي كان يتكلم بها ضد مفاسد الكنيسة، حتى راقبوه ليمسكوا عليه علة من جهة آرائه الدينية. وإزاء هذه الظروف عاد فترك اسكتلندا وقصد إلى وتمبرج مشدودًا بما سمعه عن صيت لوثر. وبعد أن صرف وقتًا مع لوثر وملانكتون ذهب لإتمام دراساته في جامعة ماليورج، التي كان الأمير هيس قد افتتحها حديثًا، وهناك كان له الحظ أن يعاشر العالم التقي فرانسيس لمبرت الذي من أفينيون ويتعلم منه، وقد تكونت علاقة محبة وثيقة بين ذلك الفرنسيسكاني السابق الذي قد التقينا به قبلاً في ماليورج وبين هذا الشاب الاسكتلندي، مما كان له أقوى تأثير على تكوين أخلاق الأخير. ولكن بينما كان يتقدم من يوم إلى يوم في معرفة الكتاب المقدس كان يزداد شوقًا لتوصيل معرفة المسيح والخلاص الذي تذوق لذتها لمواطنيه. قال لامبرت لفيليب "لقد جاء هذا الشاب من آخر الدنيا إلى أكاديميتك ليتعمق في معرفة حق الله، وأني لا أعرف رجلاً يستطيع أن يشرح كلمة الله بروحانية وصدق مثل هذا الشخص".

وفي عام ١٥٢٧م عاد إلى اسكتلندا غير خجل بإنجيل المسيح، وقد ذهب إلى قصر العائلة في كينكافيل بالقرب من لينلثجو وكرز بالإنجيل لأقاربه وجيرانه، ويظهر أن كثيرين من أشراف القوم وعامته اعتنقوا العقيدة الجديدة. بعد ذلك عزم على أن يحمل الإنجيل إلى كنيسة سانت مايكل في لنلثجو، التي يسميها المؤرخون فرساي اسكتلندا، وكانت سراياها مستعملة حصنًا وسجنًا أيضًا، وكانت منتزهًا يقصد إليه أعضاء البلاط طلبًا للراحة والاستجمام، وقد ولدت بين جدرانها ماري ستوارت التعيسة الحظ. إلى ذلك المكان أتى ذلك الشاب بالإنجيل على مسمع من كهنة سانت مايكل وأعضاء الأسرة الملكية. وكانت فصاحته ورقة أسلوبه جديرتين بكسب قلوب سامعيه، إلا أن الإنجيل الذي بشر به لم يوافق الكهنة، إذ كان يصرح قائلاً إنه لا خلاص للمذنب إلا في موت الرب يسوع المسيح الذي مات لأجل أول الخطاة، وإن الذي يملأ النفس بالنعمة هو الروح القدس، لا ميرون الكنيسة. ومن ثم اشتكوه إلى بيتون رئيس أساقفة سانت أندرو باعتباره لوثريًا مفسدًا.

كان بيتون غيورًا لدرجة لا يمكن معها أن يتسامح مع اللوثرية. ولكن كان في سبيله عقبات، لأن ذلك الهرطقي لم يكن من العامة، بل من السلالة الملكية، ولا شك ستحميه أسرة هاملتون وغيرها من الأسر الشريفة، وربما الملك نفسه، فما العمل؟ تظاهر الأسقف القاسي الماكر بأنه يريد أن يتحادث معه بشأن بعض نقاط خاصة بإصلاح الكنيسة، واستدرجه للوقوع في شرك سانت أندرو، وقد اشتبه هاملتون وأصدقاؤه في أن يكون في الأمر خيانة، ولكنه رأى من واجبه أن يذهب، وكان قد تزوج منذ أسابيع قليلة بسيدة من النبيلات، فتوسلت إليه بدموع مع آخرين حتى يبتعد عن طريق بيتون. ولكن يظهر أنه شعر أن الرب قد يجعل من موته خدمة لبلاده أعظم من حياته، ولذلك صمم على الذهاب إلى سانت أندرو.

وعند وصوله استُقبل بكل مظاهر الحفاوة والاحترام، وكان الأسقف يبتسم في وجه الشاب بينما هو عازم على اغتياله. وإذ كان بيتون يعرف ما يحيط بهذه القضية من الصعوبات شعر بالحاجة إلى وقت لتمهيد طريق النجاح، ولذلك أعطى لباتريك شيئًا من الحرية في القصر، فكان المصلح الشاب يتناقش بحرية مع الدكاترة والطلبة والكهنة كأنه في مستوى واحد معهم، ولكن بيتون إنما كان يكسب وقتًا، لأن المقاومة كانت عظيمة وقوية، ولذلك أحيطت

المحكمة التي حوكم فيها ببضعة آلاف من الرجال المسلحين، مما دل على مقدار مخاوف الكهنة. وقد اتضح لهم من التحقيق معه أنه ملوث بعدوى كثيرة من هرطقات مارتن لوثر، ومن ثم أصدروا الحكم بتجريده من رتبة العالمية والدينية، وحرمانه من معاشه، وتسليمه للسلطة الزمنية لحرقه حيًا. وقرر الكهنة أن ينفذ الحكم في ذات اليوم، لأن شقيقه السير جيمس كان على مقربة منه على رأس قوة حربية، وكان عازمًا على إنقاذه. وما أن صدر النطق بالحكم حتى كان الجلادون على أبواب كلية سان سَلفاتور، حاملين الكومة التي سيحرق عليها هذا الشاب الملكي.

استشهاد باتريك هاملتون

عند ظهر آخر يوم من أيام شهر فبراير عام ١٥٢٨م وقف هذا الشاهد النبيل أمام كومة الإحراق، وقد كشف رأسه ورفع عينيه نحو السماء، وبقي بلا حراك بعض الوقت مصليًا، ثم تحول إلى أصدقائه وسلم إلى أحدهم نسخته من الأناجيل، الكتاب الذي أحبه كثيرًا. وبعد ذلك استدعى خادمه وخلع ثيابه وسلمها إليه قائلاً له "خذ هذه الثياب. إنها بلا فائدة لي في النار، ولكنها قد تكون ذات فائدة لك، هذه آخر هبة ستنالها مني فيما عدا مثال موتي، الذي أرجو أن تحتفظ بذكراه في قلبك، لأنه وإن كان هذا الموت مرًا للجسد ومخيفًا في نظر الناس، ولكنه يوصل إلى الحياة الأبدية، التي لن يحصل عليها من ينكر المسيح يسوع أمام هذا الجيل الشرير". وعندما ربط الجلادون جسمه بالسلسلة الحديدية في السارية عاد فقال "باسم يسوع أقدم جسدي للنار وأستودع روحي في يدي الآب"، وقد أطيلت مدة عذابه إلى ما يقرب من ست ساعات بسبب جهل ووحشية الجلادين. وإننا نمسك القلم عن وصف التفصيلات المريعة لهذا الحادث، فقد أشعلت النار في الكومة ثلاث مرات وثلاث مرات انطفأت النار لأن الخشب كان أخضر. ومن ثم وضعوا بارودًا داخل الكومة فلما انفجر البارود قذف بعض الكتل في وجه الشهيد، مما سبب له جراحًا بالغة. وعندئذ التفت إلى الجلاد وقال له بوداعة "ألا يوجد عندك خشب جاف؟". وحينئذ أحضروا خشبًا جافًا من القصر، ولكن لم يتم احتراق جسد الشهيد إلا بعد الساعة السادسة مساء. ويقول شاهد عيان "في خلال هذه الست الساعات لم يبد الشهيد علامة واحدة من الضجر أو الغضب، ولا طلب من الله الانتقام من قاتليه، فما كان أعظم وأقوى ثقته في الله!". وكان آخر ما سُمع منه من الكلمات قوله "حتى متى يا رب يغطي الظلام هذه المملكة؟ إلى متى تسمح ببقاء ظلم الإنسان! أيها الرب يسوع اقبل روحي".

هكذا مات رئيس شهداء الإصلاح اللوثري. وقد انتشرت أخبار موته بسرعة في جميع أنحاء البلاد، فقابلها الجميع بالفزع والارتعاد، وطلب الناس في كل مكان أن يعرفوا سبب قتل هذا الشاب بهذه الكيفية الفظيعة القاسية. وقد انحاز الجميع إلى جانب هذا الشهيد، حتى أن أول حركة جادة للإصلاح الاسكتلندي بدأت بلا شك حول جنازته. فقد أثارت وداعته وصبره وثباته وأخلاقه السامية التي أظهرها في ساحة الإعدام إعجاب الجميع، ومست صميم قلب الأمة. قال أحد المؤرخين العصريين "لقد انتقم الله عن قتل هاملتون فيما بعد بقتل ابن عم وخليفة مضطهده. على أن اللهب التي أحرقت هاملتون قد أضاءت اسكتلندا كلها في مدى جيل واحد، كما أنها أحرقت بكل شدة الخرافات الكاثوليكية والسلطة البابوية"(١٠)(٦/٩٢)(٣/٧٨).

وتُرى يد العناية الإلهية ظاهرة بكل وضوح في تاريخ باتريك هاملتون بجملته، فلم يكن ممكنًا أن حياة، مهما طالت وكثر فيها النشاط، أن تخدم قضية الإصلاح مثل ما خدمتها محاكمة باتريك واستشهاده التي تمت كلها في يوم واحد. ولم يكن ممكنًا لأقل من هذا الاستشهاد أن يوقظ الأمة من السبات الذي أغرقتها فيه البابوية.

لقد بدأ استشهاد هاملتون يأتي بثماره في الحال. وقد تبعه في الاستشهاد هنري فورست البندكتي من دير لينلثجو، وكان قد اهتدى إلى معرفة الحق بواسطة كرازة هاملتون. قيل لرئيس الأساقفة إن فورست لديه نسخة من العهد الجديد، وإنه قال "إن هاملتون شهيد وليس هرطقيًا"، فأجاب بيتون "إنه مثل باتريك في رداءته. ينبغي أن نحرقه". وكان واقفًا شخص ذكي اسمه جيمس لندساي، فقال بجسارة "احرقوه يا سيدي في حفرة، لأن دخان حريق باتريك هاملتون قد أوصل العدوى إلى كل من هب عليه". ولكن رئيس الأساقفة لم يعبأ بهذه الكلمات اللاذعة، بل نصب السارية لإحراق فورست في أعلى مكان في البقعة كلها، حتى يرى سكان أنجُس وفورفار اللهب، فيعرفوا خطر السقوط في البروتستانتية. وهكذا صار هنري فورست شهيد اسكتلندا الثاني.

اعتناق كثيرين من الأشراف ورجال الإكليروس مبادئ الإصلاح

توجد ظاهرة بارزة تميز حركة الإصلاح في اسكتلندا، وهي أنها بدأت بين رجال الإكليروس، وكان من أوائل المنضمين إليها النبلاء والأعيان ذوو الأملاك، ومعظم شهدائها الأوائل من الرهبان وكهنة الأبروشيات. وقد اهتدى أليسيوس وهو شماس أوغسطيني في سانت أندرو إلى معرفة الحق وتثبت في إيمان الإنجيل بواسطة الشهادة التي أداها هاملتون للحق أثناء محاكمته، وبمظهر البطولة الجميل الذي ظهر به عند موته. وإذ كان موت هاملتون موضوع مناقشات كثيرة بين الشمامسة في ذلك الوقت لم يستطع أليسيوس أن يحجم عن التعبير عما اعتقده وأحس به، فتكلم عن حالة الكنيسة التعسة وافتقارها إلى الرجال الأكْفاء الصالحين لتعليمها، وأنها مسبية بعيدًا عن معرفة الكتب المقدسة. وكان في هذا الكفاية لأن يشكوه الشمامسة الذين لم يطيقوا هذا الكلام إلى هيبرن رئيس الدير، وهو رجل شرير فاسد، فزج به في سجن قذر وعامله معاملة قاسية وحشية، ولما انتشر هذا الخبر أثار اهتمامًا عظيمًا بين المواطنين والأشراف الذين رفعوا الأمر إلى الملك، ولكن رئيس الأساقفة ورئيس الدير نجحا في إبقائه في السجن ما يقرب من سنة، إلى أن ذهب الشمامسة الموالون له وفتحوا باب السجن وشددوا عليه أن يغادر البلاد في الحال دون أن يقول كلمة لأي إنسان. وقد نفذ ما أشاروا به عليه بعد تردد ونجا بحياته.

وألكسندر سيتون، وهو راهب دومينيكاني وأب اعتراف الملك، اهتدى أيضًا إلى معرفة الخلاص بالإيمان بالرب يسوع المسيح بدون أعمال الناموس، وفي عام ١٥٣٢م إذ تعين للوعظ في كاتدرائية سانت أندرو في لنت، عزم بشجاعة على أن يعترف علنًا بالتعليم السماوي الذي كان بسببه يُنفى الكثيرون ويستشهدون قائلاً "إن الإيمان الحي الذي يستند على رحمة الله في المسيح هو غاية الناموس للبر، ولا يستطيع أحد أن يفي مطاليب العدالة الإلهية بأعماله. ولكن كم من السنين خيم فيها ظلام تقليد الناس فأخفى نور ناموس الله". وقد تعجب الناس من هذا التعليم واستغربوا من عدم كلامه عن زيارة الأماكن المقدسة وعن الأعمال المبرورة. أما الكهنة فخافوا أن يتكلموا ضده كثيرًا، إذ كان أبا اعتراف الملك وذا مكانة كبيرة بين الشعب. ولكن بيتون لم يكن الرجل الذي يتردد فقال "إن هذا المبشر الجسور ينفخ علنًا في بوق هاملتون وأليسيوس، فيجب اتخاذ الإجراءات ضده". وقد نجح رئيس الأساقفة في تغيير فكر الملك ضده، حتى اضطر سيتون إلى الفرار لينجو بحياته، فذهب إلى لندن حيث صار قسيسًا لدوق سافولك، وكانت له الفرصة للتبشير بالإنجيل الكامل لجمهور كبير.

وكثيرون من طلبة كلية سانت ليونارد وتلاميذ الدير اقتنعوا بالحق الذي لأجله مات هاملتون، واعتنقوا مبادئ الإصلاح بواسطة تعليم جاوين لوجي مدير الكلية وجون ونرام نائب رئيس الدير.

على أن النتائج المباركة لاستشهاد باتريك لم تقتصر على سانت أندرو، بل وُجد في كل مكان أشخاص اعتقدوا أن رئيس دير فيرن الشاب مات كشهيد ولم يكن هرطقيا، وآمنوا كما كان يؤمن. وإذ ارتاع الإكليروس من تقدم الآراء الجديدة انتهجوا أشد الخطط لقمعها، فحاكموا دافيد ستراتيون من رجال فوفارشير المعتبرين، ونورمان جورلاي وهو من طغمة الكهنة في إدنبره، وأثبتوا إدانتهما وأخذوهما إلى صليب جرينسايد وأحرقوهما حيين كهرطقيين. وحوالي ذلك الوقت حدث تغيير في أبروشية سانت أندرو، ولكن إلى أسوإ. فقد مات جيمس بيتون وخلفه في المنصب دافيد بيتون ابن أخيه، وهو طاغية أكثر قسوة وتعطشًا للدماء من عمه. وقد كافأه البابا على غيرته بترقيته إلى رتبة كردينال لكي يوسع نفوذه.

غيرة كردينال بيتون المتقدة

في ذلك الوقت أجرى تفتيش دقيق عن الهراطقة، واضطرمت نيران الاضطهاد في جميع أنحاء البلاد بعد أن كانت قد خمدت مدة أربع سنوات من عام ١٥٣٤م حين أحرق ستراتيون وجورلاي إلى عام ١٥٣٨م. وفي تلك المدة ازداد عدد المعترفين بالمسيح كمخلصهم وسيدهم الوحيد بدرجة كبيرة أهاجت الكردينال الجديد، فصمم على قمع تلك الحركة بقوة النار والسيف، فقبض في الحال على دين توماس فورست النائب الرسولي في دولار، وسير دُنكان سيمسون من الكهنة، وكيلور وبفردج من الرهبان، وفورستر مسجل العقود في سترلنج، وحاكمهم بتهمة الهرطقة أمام مجلس كونه لهذا الغرض، وقضى عليهم بالإعدام حرقًا. وفي ذات اليوم أشعلت نار هائلة على تل القصر في إدنبره وألقي هؤلاء الرجال الخمسة الأمناء في وسط النيران، وقد رآهم الجمهور يحترقون وسط اللهيب وهم هادئون ومسرورون، لأن النار لم تكن لتخيف الإيمان، إذ قد انتُزعت

شوكة الموت. وقد تبع هؤلاء أشخاص آخرون استشهدوا بنفس الطريقة على ذلك التل، أشخاص قليل عليهم أن نشيد بإيمانهم وأمانتهم على هذه الصفحات، ولكنهم مكتوبون في سفر حياة الخروف، وتاريخهم مسجل في الأعالي، وأسماؤهم مدرجة في قائمة جيش الشهداء الأشراف، ولا بد أن ينالوا في ذلك اليوم إكليل الحياة الذي وعد به الرب من يكونون أمناء إلى الموت، وسيحظون بابتسامة الرضى الأبدي على ثغر سيدهم وربهم. وفي ذلك اليوم، يوم مجده ومجدهم، ستُنسى جميع آلامهم، ولا تُذكر إلا نعمة الله التي سندتهم وأعطتهم الشرف الممتاز بأن يتألموا لأجل اسمه. الآن هم مع المسيح فعلاً منذ ذلك الوقت في راحة وهدوء الفردوس، ولكن حينئذ عندما يلبسون أجسادهم متغيرة على صورة جسد مجده، أي تسبيح يمكن أن يقدموه لأجل النعمة التي شرفتهم بإكليل الاستشهاد! وحينئذ ستعلن السماء تقديرها للذين اعتبرتهم روما هراطقة، وسينال قاتلوهم نصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت الذي هو الموت الثاني (رؤ ٢١: ٨).

كان غضب الإكليروس الذي ترأسه في ذلك الوقت دافيد بيتون الطاغية يزداد يومًا بعد يوم، حتى اضطر كثيرون إلى الفرار إلى إنجلترا وإلى الممالك الأخرى لينجوا بحياتهم. ومن هؤلاء كثيرون من العلماء والرجال الأفذاذ، أمثال جون ماكبي وجون فايف وجون ماكدوال وجون ماكبراي وجيمس هاريسون وروبرت ريكاردسون وجورج بوكنان الشهير، الذي لا شك أن الرب قد أعانه على النجاة من السجن وأنقذ حياته بواسطة الهروب السريع، وهو مشهور بأنه مؤلف نسخة المزامير المنظومة المستعملة في اسكتلندا والمجلدة مع الكتاب المقدس هناك. ولم ينهزم أمام مخاوف المقصلة إلا قليلون اعترفوا بالعودة إلى الديانة القديمة، ولكن سرعان ما ازداد عدد المعترفين بالحق. وما وافت سنة ١٥٤٠م حتى كان كثيرون من الرجال البارزين قد قبلوا التعاليم الإنجيلية، منهم إيرل أوف إرول وإيرل أوف جلينكيرن ولورد روثفن ولورد كلمانز وسير دافيد لندساي وسير جيمس سانديلاندز وعدد كبير غيرهم من ذوي التأثير والنفوذ.

قائمة الكردينال بيتون

كانت ظروف جيمس الخامس ملك اسكتلندا في ذلك الوقت مؤلمة مربكة، فقد كان مغمورًا بالحزن العميق على فقد ولديه الوحيدين آرثر وجيمس، وكان مديونًا ومفتقرًا إلى المال بشدة. وكان قد أغضب عمه هنري الثامن ملك إنجلترا إذ رفض أن يجعل اسكتلندا مستقلة عن روما نظير إنجلترا، وأن يصادر أملاك الكنيسة وبذلك يملأ خزانته الفارغة كما أشار عليه هنري، وكان تأثير السلطة الدينية - ألد أعداء هنري - كبيرًا على جيمس، حتى نجحت في إثارة الشقاق بين العم وابن أخيه، ذلك الشقاق الذي انتهى بالحرب وبموت جيمس.

على أن الكردينال بيتون قد اقترح من الناحية الأخرى مصادرة أملاك الأشراف الهراطقة، وليس إيرادات الكنيسة المقدسة لصالح الخزانة الملكية. يقول كننجهام "إنه عمل قائمة بأسماء ثلاثمائة وستين شخصًا من ذوي الأملاك المتهمين بالهرطقة، الذين لو صودرت أموالهم لسدت جميع المخصصات الملكية". ويقول ماك كري في كتابه "حياة نوكس" مشيرًا إلى نفس ذلك الوقت "لقد حاول الإكليروس مرتين أن يبيدوا أنصار الإصلاح بضربة طائشة، بأن يقدموا إلى الملك قائمة تشتمل على أسماء بضع مئات من ذوي الأملاك والثراء اتهموهم بالهرطقة، وحاولوا أن يحصلوا على موافقة الملك على إعدامهم مغرين إياه بالأموال الطائلة التي تؤول إليه من ضم أملاكهم إلى الخاصة الملكية". ويتكلم دوبيني ويلي عن "قائمة تشتمل على أكثر من مائة اسم وضعها بيتون بقصد إعدامهم، بينهم لورد هاملتون أكبر زعيم في المملكة وإيرل أوف كاسيليس وإيرل أوف جلينكيرن وإيرل أوف ماريشال"(١/٤٥)،(٦٠)،(٦/٩٢)،(٣/٧٨).

وقد تكون هذه القائمة الأخيرة هي إحدى القائمتين اللتين تكلم عنهما الدكتور ماك كري، وقد تكون عُدلت الأسماء التي تشملها وخفضت إلى هذا العدد. وبما أن روايات المؤرخين تختلف فقد أوردناها جميعها ولكننا لا نشك في صحتها من حيث الجوهر.

وهنا يجدر بالقارئ أن يقف مذهولاً أمام هذه الخطة المرعبة. فالذي يدعي لنفسه لقب رئيس الكنيسة الاسكتلندية ورئيس رعاة قطيع المسيح، الذي من واجبه أن يضع نفسه لأجل الخراف، لا يتورع عن أن يكتب قائمة تشتمل على بضع مئات من أشراف وأعيان البلاد، ويحاول أن يضع معثرة أمام الملك ليصادق على إعدامهم، مغريًا إياه بأموالهم وممتلكاتهم! هل عرف التاريخ مؤامرة شيطانية خسيسة أردأ من هذه؟ ولكن القوات الجهنمية لم تدبر هذه المكيدة بقصد إغناء الملك، بل للقضاء على جميع الذين

عُرفوا بالانحياز إلى تعاليم الإصلاح، وبقصد إطفاء نور الحق في اسكتلندا إلى الأبد، والاحتفاظ بسلطة الإكليروس وبتلك المفاسد الدنيئة التي منها يستمد هذا الإكليروس ثروته.

ولما عُرض هذا الاقتراح على الملك في أول الأمر يقال إنه طرد الرسل من حضرته، مبديًا أشد علامات الاستياء. ولكنه أخيرًا انقلب ضد أشراف بلاده، ولا سيما بعد اجتماعهم في فالا مير، ورضخ لتأثير الإكليروس لدرجة كاد معها أن يستسلم لإرادتهم في إعدام أولئك الأشراف، لولا تدخل عناية الله الساهرة ويده المسيطرة فوق الجميع، وكانت النتيجة أن الملك وليس الأشراف والأعيان هو الذي أحدر به الإكليروس إلى القبر قبل أوانه.

ارتباك الملك وموته

كان هنري الثامن يتوق إلى أن تكون له مقابلة شخصية مع جيمس، وقد حصل على موعد لمقابلته في يورك، وقد حضر هنري في الميعاد المحدد وبقي هناك ستة أيام، ولكن جيمس لم يظهر، لأن الكهنة، إذ تخوفوا من تأثير هنري على جيمس في موضوع الإصلاح، نجحوا في التأثير عليه بالبقاء في مكانه وإرسال اعتذار رقيق إلى هنري، ولكن الملك الإنجليزي المعتز بكرامته لم يكن من السهل إخماد غيظه، بل كان لا بد له من الانتقام. فقد شعر بأنه أهين وجرحت كرامته، فصب جام تهديده ولعناته على ملك اسكتلندا، وكانت النتيجة أن شبت نار الحرب. وقد أوعز الكهنة إلى جيمس بالذهاب إلى الحرب دون أن يستدعي الأشراف المكتوبين في القائمة للانطواء تحت رايته، بل يجعل جيشه مؤلفًا من الأساقفة والكهنة ومشايعيهم، حتى إذا ما عاد الملك منتصرًا من الحرب يقبض على جميع المتهمين بالهرطقة ويقتلهم كذبيحة شكر بمناسبة النصر. ولكن يا للحسرة! عندما كان جيمس قابعًا في قصر لوكمابن منتظرًا أخبار الانتصار، إذا ببعض الفارين من الجيش يصلون إليه ويخبرونه بانهزام جيشه انهزامًا تامًا في صولواي موس، فشعر بتعاسة لا تحد وانقبض صدره بدرجة جعلته لا يكاد يقوى على التنفس، بل كان يتمتم ببعض تأوهات غامضة. لقد خارت قوى ذلك الملك المرح فلم يقو على احتمال الصدمة، وكان ألمه من الخديعة التي خدعه بها ذلك الرجل الدنيء الذي وثق به أكثر من ألمه من انتصار الإنجليز.

في حالة اليأس القاتل هذه حبس الملك نفسه في قصر فالكلاند، وسرعان ما سببت له حدة أحزانه سريان الحمى في جسمه، وفي تلك الأثناء وصل إليه الخبر بأن الملكة التي كانت في لينلثجو وضعت بنتًا، التي صارت فيما بعد الملكة ماري، فكان هذا جرحًا جديدًا لنفسه إذ لم يكن له ولد. وإذ شعر أن أسرته ستنقرض وأن تاجه سيضيع تمتم قائلاً "لقد أتانا التاج عن طريق فتاة وسيزول عن طريق فتاة"، فجرى هذا القول مجرى المثل. وبعد ذلك بسبعة أيام مات الملك في يوم ١٤ ديسمبر عام ١٥٤٢م. وعندما خلعوا عنه ثيابه وجدوا في جيبه تلك القائمة المروعة، وعندئذ رأت الأمة كيف أن عناية الله الرحيمة قد أنقذتها من كارثة مزعجة بهذا المقدار كانت على وشك الحلول بها. وقد أدى هذا الاكتشاف إلى زيادة عدد معتنقي الإصلاح زيادة محسوسة، وإلى تمهيد الطريق لانهيار ديانة من شأنها أن تدبر مثل تلك المؤامرات الموسومة بالجشع والوحشية.

خلا الآن العرش، ولم تفت هذه الفرصة الكردينال بيتون، فقدم مستندًا زعم أنه وصية الملك الراحل، فيه يعينه ملكًا مدة الوصاية على الأميرة الطفلة. ولكن كان الاعتقاد العام أن هذه الوثيقة مزورة، ومن ثم أسند الأشراف منصب نائب الملك إلى إيرل أوف آران في هدوء وسلام. وهكذا نرى يد الله المسيطرة فوق الجميع تضع الشخص الذي كان اسمه في رأس قائمة الأشراف المعدين للذبح، تضعه رأسًا للحكومة، وتستخدمه تلك العناية الفائقة نفسها لوضع الكتاب المقدس في يد كل اسكتلندي. فكان التغيير الذي حدث في سياسة المملكة على أثر موت جيمس وتنصيب آران لصالح حركة الإصلاح.

وإذ كان الإيرل قد سبق واعترف بإيمانه بتعاليم الإصلاح أحاط به مستشارون من ذات مبدئه. ويلذ لنا أن نرى الإصلاح في اسكتلندا في دوره المبكر هذا يضم زهرة الأشراف والأعيان. وليس المعنى أننا نعتقد أنهم كانوا جميعًا مسيحيين حقيقيين، ولكننا نقرر الواقع، وهو أن تغيير الديانة القديمة كان أمرًا مستبعدًا ومشكوكًا فيه، وكان هؤلاء الناس يتخذون خطوة تعرض حياتهم وأموالهم لأشد الأخطار، ومن ثم لا يمكننا أن ننسب إليهم غرضًا في انضمامهم إلى الإصلاح إلا اقتناعهم الشخصي.

الكتاب المقدس يرد إلى الأمة

في شهر مارس عام ١٥٤٣م اتخذ البرلمان خطوة هامة نحو إصلاح الكنيسة، بأن أباح لكل فرد من رعايا المملكة أن يقرأ الكتب المقدسة بلغة بلاده. وقد اقترح لورد ماكسويل الذي طرح الأمر أمام اللجنة الخاصة بالبرلمان أن يسن قانون "يبيح لكل رعايا المملكة بأن يقتنوا ترجمة صحيحة من الكتب المقدسة، أي كتب العهد القديم والجديد، بلغة البلاد الإنجليزية أو الاسكتلندية. وأنه لا جريمة عليهم في اقتنائه وقراءته". ولقد رفع الأساقفة طبعًا الصوت عاليًا محتجين ضد هذا الإجراء، ولكن البرلمان أقره بالرغم من ذلك، وأعطيت التعليمات لكتبة التسجيل بإذاعته في السوق وإرساله إلى جميع أنحاء المملكة بأمر نائب الملك. وكان هذا العمل العلني في جانب الحرية الدينية علامة انتصار للحق على الباطل، فابتدأ الكهنة يصيحون بصوت واحد قائلين "هرطقة! هرطقة! إن نائب الملك يساعد على تقدم الهرطقة!".

يقول نوكس "لم يكن الانتصار الذي أحرزه يسوع المسيح على أعداء الحق قليل الأهمية، إذ ضرب بوق الإنجيل في الحال من ونجتون في الجنوب إلى أنفرنس في الشمال وكان ذلك تعزية ليست بقليلة للنفوس والعائلات التي لم تكن إلى ذلك الوقت لتجرؤ على قراءة الصلاة الربانية أو الوصايا العشر باللغة الإنجليزية خوفًا من اتهامها بالهرطقة. والكتاب المقدس الذي ظل زمانًا طويلاً مخبوءًا في طي النسيان أصبح الآن يوضع علنًا على موائد الأتقياء وعارفي الحق. ومع أن العهد الجديد كان قد وُزع بكثرة، إلا أن كثيرين ممن اقتنوه أظهروا أنهم لم يكونوا مستحقين له إذ لم يقرأوا فيه قط عشر جمل خوفًا من الناس، أما الآن فكانوا يستطيعون أن يمسكوه في وجوه مفتشي البابوية. وقد ازدادت معرفة الله بكيفية عجيبة بواسطة قراءة الكتاب المقدس وأعطي الروح القدس بوفرة للبسطاء". وهذا العمل العظيم الذي أجراه البرلمان الاسكتلندي لم ينسخ بعد ذلك قط(٦/٩٢)(١/٤٥)(٦٠).

إلى ذلك الوقت كانت حركة الإصلاح في اسكتلندا تتقدم بواسطة الكتب التي ترد إليها من إنجلترا وسائر أنحاء القارة، أما الآن فقد انتشر الحق وذاع، وصدرت من المطابع الاسكتلندية كتب كثيرة تكشف عن أخطاء البابوية. وقد اشتغل الشعراء والنقاد بهذه المهمة أيضًا، فأنشأوا القصائد والأناشيد وكتبوا الروايات والكتب، معرضين بفساد أخلاق الإكليروس وجهلهم وسخافات وخرافات الديانة البابوية، وكانوا ينتهجون في هذه المؤلفات أسلوبًا حرًا جريئًا. وكان الشعب يتهافت على تلك الكتب الصادرة بلغة بلاده ويقرأها بشغف عظيم، مما عمل بكيفية قوية على تحويل أذهان الجمهور عن الديانة البابوية.

جورج ويشارت

في صيف عام ١٥٤٤م، أي بعد أن نالت اسكتلندا نعمة الحرية الدينية بقليل، ظهر في ذلك المشهد المضطرب رجل من أبرز الشخصيات التي نلتقي بها في تاريخ الإكليروس، ذلك هو جورج ويشارت. وهو ابن السير جيمس ويشارت من بيتارو من عائلة من أعرق وأكرم العائلات. ولقد هرب هذا الرجل من وجه اضطهاد أسقف بريشن عام ١٥٣٨م، وقضى نحو ست سنوات في القارة وفي كمبردج يتعلم ويعلم. ولما رجع يقال إنه تفوق على جميع مواطنيه في العلم ولا سيما في اللغة اليونانية. وقد كان أديبًا دمث الأخلاق وكانت حياته غير ملومة، وتقواه مشهودًا لها، وغيرته وشجاعته في سبيل الحق ممتزجة بروح الاعتدال والوداعة والصبر والمحبة، كما كان أسلوبه كمبشر غاية في الفصاحة وقوة التأثير.

وقد بدأ في الحال ينادي بتعاليم الإصلاح في مونتروز ودوندي، وقد ذاع صيته بدرجة كبيرة حتى كانت تجتمع جماهير عظيمة لتسمعه، وكان يتبع الطريقة السويسرية في شرح تعاليم الخلاص بحسب رسالة رومية في سلسلة متتابعة من المحاضرات. وكانت معرفته الواسعة بالكتاب المقدس ولهجته الفصيحة وحملاته الشديدة ضد أباطيل البابوية مثيرة للجماهير، لدرجة جعلتهم يهجمون على أديرة الفرنسيسكان والدومينيكان في دوندي ويتلفونها. وعلى أثر ذلك اشتد حماس الجماهير وهياج الكهنة والرهبان وصياحهم حتى اضطر الحكام إلى التدخل في الأمر. وقد انسحب ويشارت بفطنة وذهب إلى المقاطعات الغربية حيث كان أصدقاؤه ذوي نفوذ كبير. فكان لينوكس وكاسيلس وجلنكيرن قادرين على حمايته وإدخاله في جميع كنائس الأبروشيات، ولكن ويشارت إذ كان بطبعه رجل سلام لم يكن يسمح باستعمال القوة، بل عندما كان يرى أية مقاومة لتبشيره في الكنيسة كان يذهب إلى الأسواق والحقول. على أن إغلاق الكنائس في وجهه كان احتياطًا لا لزوم له، لأن الكنائس

بطبيعة الحال لم تكن تتسع للألوف المؤلفة التي كانت تتقاطر لتسمعه. وقد بشر في بار وجالستون ومنكلين وأير، وكان يحاط دائمًا برجال مسلحين، لأن سفاحي بيتون المأجورين كانوا يترصدونه لاغتيال حياته.

الوبأ في دوندي

بعد أن طُرد ويشارت من دوندي بوقت قصير دخل إليها الوبأ. وإذ سمع ويشارت بذلك أسرع إلى هناك بكل تفان ومحبة، وعمل بلا كلل في التبشير بالإنجيل وزيارة المرضى وإعداد المحتضرين لمواجهة الموت. ولما كان المرضى قد عزلوا خارج البوابة الشرقية، ولكي يوصل ويشارت صوته إلى سامعيه في كلا الجانبين ارتقى البوابة المسماة كاوجيت، وفتح كتابه وقرأ لهم من مزمور ١٠٧ «أرسل كلمته فشفاهم» مؤكدًا لهم أن رحمة الله في المسيح مقدمة مجانًا للجميع، وأن كل من يرجع إليه رجوعًا صحيحًا يحصل على البركة التي لا يستطيع شر الناس وعداؤهم أن ينقص منها شيئًا، وقد أكد له بعض سامعيه أنهم قد امتلأوا سلامًا وتعزية بواسطة موعظته، بدرجة لا يخشون فيها الموت بل يفضلون أن ينطلقوا ليكونوا مع المسيح على أن يبقوا في هذا العالم. وكان أقسى ما يخشاه الناس هو أن يحرموا من النعمة المنسكبة من ذلك الفم، إذ كان يداخلهم إحساس خفي بأن الخطر قريب منه، وهكذا كان. فقد استأجر الكردينال بيتون كاهنًا اسمه ويجتون لاغتيال ويشارت، فوقف ذلك الكاهن عند أسفل الدرج الذي كان لا بد لويشارت أن ينزل عليه من فوق البوابة، منتظرًا نزوله ومخفيًا مدية كبيرة تحت ثيابه. ولكن عند نزول المبشر على الدرج لمح بعينه الحادة ذلك الكاهن وهو يخفي يده بحذر تحت ثيابه وقرأ نية القتل في وجهه، فبادره بالقول "ماذا تريد أن تفعل يا صديقي؟"، قال هذا وقبض في الحال على يد الكاهن مختطفًا منها السلاح فوقع السفاح عند قدميه معترفًا بقصده السيئ، وحينئذ صاح الجمهور "سلم الخائن إلينا" وهجموا عليه. ولكن ويشارت طوقه بذراعيه قائلاً "إن من يؤذيه يؤذيني لأنه لم يضرني بشيء" وهكذا أنقذ حياة من قصد أن يغتال حياته(٥).

وقد بدأت تخف وطأة الوبأ في المدينة من رحمة الله، كما بدأ فيها الإحساس بحياة جديدة. وكان ويشارت يبذل جهده في مساعدة المنكوبين، فيتخذ التدابير لتوزيع الطعام والدواء عليهم. وبينما هو مشغول بهذا العمل المبارك إذ وصلته إشارة من إيرل أوف كاسيلس يستدعيه للحضور لمقابلته مع أصدقاء من غرب إدنبره لعمل مجادلة علنية مع الأسقف. وقد لبى ويشارت الدعوة ولو أنه كان يعلم أن الكردينال بيتون قد أضمر له السوء، وأن موتًا قاسيًا ينتظره. وقد وصل إلى ليث، وإذ كانت هذه المدينة قريبة من إدنبره فقد توسل إليه أصدقاؤه أن يخفي نفسه يومًا أو يومين، ولكنه رفض قائلاً "ما الفرق بيني وبين إنسان ميت سوى أني آكل وأشرب! إلى هذا اليوم استخدم الله مجهوداتي لإنارة الظلمات، فهل بعد ذلك أختبئ كإنسان خجل ولا أجترئ على إظهار نفسي للناس؟". فقال له أصدقاؤه "أنت تعلم الخطر الذي يحيط بك"، فأجابهم "ليفعل إلهي بي كما يريد".

بدأ ويشارت بعد ذلك يبشر في ليث، ثم تقدم إلى إيست لوثيان حيث أكرم وفادته لوردات برونستون ولونجْنيدْري وأورمستون. وكان في تلك المناسبات يحاط بخدم أصدقائه المسلحين وكان السيف يحمل خلفه. وهناك انضم إليه جون نوكس الذي كان في ذلك الوقت معلمًا في عائلة دوجلاس في لونجنيدري، وكان قد سبق له أن اعترف جهارًا بالتعاليم الإنجيلية، أما الآن فقد التصق بويشارت وكان يخدمه باستمرار ويحمل السيف أمامه، وكان ويشارت مسرورًا جدًا من روح الغيرة التي في نوكس ويظهر أنه تنبأ عما سيكون له من شأن ومستقبل نافع. وبعد التبشير في هادنجتون ذهب ويشارت إلى أورمستون هاوس حيث كان عليه أن يقيم. وقد ألح نوكس في طلب مرافقته، ولكنه صرفه قائلاً له "لا. لا. ارجع إلى تلاميذك وليباركك الله. إن واحدًا يكفي لأن يذهب ضحية"(٦٠)(٥)/١.

القبض على ويشارت واستشهاده

أتى بيتون في ذات الوقت إلى إدنبره، وإذ سمع أن ويشارت في البلاد المجاورة عزم على القبض عليه في الحال. وفي منتصف الليل حوصر أورمستون هاوس بفرقة من الفرسان تحت قيادة إيرل أوف بوثويل الذي طلب ويشارت. ولكن اللورد رفض أن يسلم ضيفه بأي حال ولم تجد معه الوعود ولا التهديدات. فأكد له بوثويل بشرفه أنه لن يسمح لأية قوة من الكردينال أن تؤذي ويشارت، بل سيكون في كمال الأمن في عهدته. فمال أورمستون إلى الثقة في ذلك الوعد الخطير وأخبر ويشارت بما حدث فأجابه ويشارت "افتح

الأبواب لتكن إرادة الله الصالحة". ولكن يا للأسف لقد نقض بوثويل وعده وأسرع بفريسة الإيرل الغادر والكاهن المتعطش للدماء من إدنبره إلى سانت أندرو حيث طرح في السجن.

وكانت غيرة آران على قضية الإصلاح قد فترت كثيرًا في ذلك الوقت، وصارت السيادة في الأمة للكردينال الذي كان ذا تأثير عظيم على الإيرل الضعيف الجبان. وإذ كان القانون الكنسي لا يجيز لرجال الإكليروس أن يتدخلوا في قضايا الدماء، طلب بيتون من المحافظ أن يعين قاضيًا علمانيًا لينطق بحكم الإعدام على ويشارت إذا ثبتت إدانته بالهرطقة، ولكن آران مع ضعفه وتردده رفض ذلك بتاتًا وأصر على التأجيل. على أن بيتون لم يكن الرجل الذي يقف أمامه القانون الكنسي أو تعيقه إنذارات نائب الملك، فدعا ويشارت للمحاكمة أمام محكمة إكليريكية أثبتت إدانته بالهرطقة وحكمت عليه بالموت حرقًا.

وفي يوم أول مارس عام ١٥٤٦م نصبت المقصلة أمام قصر سانت أندرو وكومت حزم الخشب الجاف حولها. وإذ رفضت السلطة المدنية أن تشترك في الإجراءات قام الكردينال بالعمل بدلها، وكان رجال مسلحين بالحراب والسيوف والبلط وكافة أنواع الأسلحة، وقد صوبت مدافع القصر نحو تلك البقعة لئلا يحاول أصدقاء ويشارت الكثيرون أن ينقذوه. وفي نفس الوقت كانت شرفة القصر مزينة بالحرائر ومجهزة بالمساند المخملية حتى يمكن لبيتون والأساقفة الآخرين أن يتمتعوا بمشهد الإحراق وبمنظر تعذيب الشهيد المقدس وهم في كمال الراحة الجسدية. ولما تجهز كل شيء أحضر اثنان من الجلادين ويشارت من السجن، وألبساه ثيابًا سوداء وربطا أكياسًا صغيرة من البارود في عدة أجزاء من جسمه، وأوثقا يديه خلفه بشدة وربطا حبلاً حول رقبته وسلسلة حديدية حول وسطه لتثبيته في السارية، وقد ركع الشهيد أمام الكومة وصلى، ثم حرض الشعب على أن يحبوا كلمة الله ويحتملوا الآلام بصبر وبقلب مستريح في سبيلها، لأنها خلاصهم الأكيد وعزاؤهم الأبدي. ثم قال "إني أتألم اليوم من الناس لأجل الإنجيل الصحيح الذي قد أعطى لي بنعمة الله، وأحتمل الآلام لا بحزن بل بقلب فرح. لأجل هذا أُرسلتُ لكي أحتمل هذه النيران لأجل خاطر المسيح. وإني لا أخاف من هذه النار الهائلة لأني متأكد أني سأتعشى هذه الليلة مع مخلصي المسيح الذي لأجله أتألم". وكلمات أخرى جميلة كثيرة قالها كما يثبت ذلك نوكس وبوكنان وآخرون.

ولما رُبط في السارية قال "يا مخلص العالم تراءف عليّ. أيها الآب السماوي في يديك استودع روحي". ثم أشعلت النار، وكان الكردينال، ودنبار، وأساقفة آخرون في الشرفة يتفرجون على ازدياد النار التدريجي وآلام الشهيد، وإذ لمح ويشارت الكردينال وجلسائه ثبت نظره في الكردينال وقال "إن الذي في موقف كهذا يتطلع من قصره العالي ويغذي عينيه بمنظر تعذيبي، سيشنق بعد أيام قليلة في نفس هذه النافذة ويُنظر إليه بازدراء ومهانة كما ينظر هو الآن وهو متكئ في كبرياء وتعظم". وحينئذ ضيقوا عليه وثاق الحبل الذي حول رقبته حتى لا يتكلم ثانية، ثم عملت فيه النيران عملها محولة جسده إلى رماد.

موت الكردينال بيتون

لقد أحدث موت ويشارت تأثيرًا قويًا في جميع أنحاء اسكتلندا وأثار في الناس مشاعر متباينة، فرجال الكنيسة عظموا بيتون كبطل روما العظيم وحامي الكهنة، أما الأتقياء فقد بكوا بدموع غزيرة على رفات الشهيد دون أن يداخلهم أي فكر للانتقام. إلا أنه كان هناك أناس كريمو المحتد، ومع عدم اتفاقهم مع ويشارت في العقيدة، أعلنوا جهرًا أنه لا بد أن تؤخذ حياة بحياة، لأن حريات الرعية تصبح في خطر إذا ما كان في وسع الطاغية أن يتخطى سلطة نائب الملك ويخمد صوت الشعب. ومن ثم دبرت مؤامرة ضد بيتون، وتكونت جماعة قليلة ولكنها قوية، بعضهم كان مدفوعًا بعامل الحقد لأضرار شخصية أصابته، وآخرون كانت تحركهم الرغبة في الانتقام من فظائع الأسقف وإنقاذ البلاد من مظالمه. وقد اقتحمت تلك الجماعة الجناح المخصص للكردينال في قصر سانت أندرو وكسروا المتاريس التي كان يحصن بها غرفة نومه، وقتلوه في الحال وعلقوا جسده العاري الممزق في النافذة كما تنبأ ويشارت. ثم احتلوا القصر وطردوا الخدم دون أن يؤذوهم، وأرسلوا رسولاً إلى البلاط الإنجليزي ليخبروا هنري بنجاحهم. ومن المعروف جيدًا أن الملك الإنجليزي لم يكن ليتوق إلى شيء أكثر من موت بيتون، فقد كان العقبة الكئود في سبيل تحقيق مشروعه المحبوب وهو اتحاد التاجين بواسطة زواج ابنه الأمير إدوارد بالملكة الطفلة. ويقول البعض إن المتآمرين كانوا مأجورين من جانب إنجلترا(١٩/٢٠)، (١/٤٥)، (٤/١٠٠).

نتائج موت الكردينال بيتون

ترتب على قتل الكردينال الرئيس نتائج في غاية الأهمية، فقد زال من الطريق أعتى وأقسى أعداء الإصلاح، وأعظم حماة الكاثوليكية في اسكتلندا، وقد كان مثل ولسي هو الكل في الكل في البلاد كملك غير متوج. وكان حكمه متصفًا بالصلابة والدسائس السياسية، إلا أن غرضه الرئيسي كان اضطهاد القديسين وإبادة الإصلاح ونصرة روما.

ولكن عمل روح الله لم يكن ليحتاج إلى مساعدة السفاحين، ومن المؤكد أن الحياة المسيحية التي عاشها كل من باتريك هاملتون وجورج ويشارت، والشهادة التي قدماها في موتهما كانت أقوى تأثيرًا في سبيل تقدم عمل الله في اسكتلندا من موت عدو الإصلاح. وكان إيمان وثبات وهدوء الشهداء ينتصر دائمًا على قسوة المضطهدين ويجتذب كثيرين إلى جانب الإصلاح بحكم تلك الغريزة البشرية التي تدفع ضمير الإنسان إلى الثورة على الظلم ونصرة المظلوم. ولا شك أنه كان بين أخطاء المصلحين الأوائل كما أشرنا مرارًا أنهم اعتمدوا على حماية الملوك والأمراء. على أنه كان على المصلحين الاسكتلنديين أن يتعلموا من خلال سلسلة طويلة من الآلام أن قوتهم هي في ذراع أرفع من ذراع ملوك الأرض، وهي وحدها التي تستطيع أن تحمي الضعفاء وتنصرهم. وقد كانت عند المصلحين أيضًا فكرة عن المسيح كملك، كما كان شعار العهديين المكتوب على رايتهم هو "تاج المسيح وعهده".

يقول دوبيني "إن الحياة الجديدة التي ثبتت في القرن السادس عشر كانت هي بعينها في كل مكان، إلا أنه كان لها صفة خاصة مميزة في كل مملكة من الممالك التي ظهرت فيها. ففي وتمبرج كان الفكر المسيحي متجهًا لناحية الإنسان: سقوطه ثم تجديده وتبريره بالإيمان. أما في جنيف فكان متجهًا لناحية الله: سلطانه المطلق ونعمته. وفي اسكتلندا كان متجهًا نحو المسيح كالمخلص بموته، ولكن فوق الكل كالملك الذي يحفظ شعبه ويحكمه بالاستقلال عن السلطة البشرية". ونحن نؤيد هذا المؤرخ في تقديره الصحيح لمميزات الحياة الجديدة في الممالك المختلفة، ولكن لا بد أن نزيد على ذلك بأن الكتاب المقدس لا يكلمنا قط عن المسيح كملك الكنيسة، ولكنه يكلمنا عنه دائمًا كملك اليهود. أما عن الكنيسة فيقول إن المسيح رأسها وهي جسده، وإنه جُعل رأسًا فوق كل شيء للكنيسة. وكونه ملكًا يعطي فكرة عن رعية له، ولكن بما أن الكنيسة واحد مع المسيح، جسده وعروسه، لذلك لا يقول الكتاب قط إنه ملكها، ولو أنه ملك باليقين وسيملك حينما تصير «ممالك العالم لربنا ولمسيحه» (رؤ ١١:١٥).

توجد ثلاث طرق بها يُعلن مجد الله بواسطة المسيح:

أولاً: في النعمة. كما كان هنا على الأرض، ومنذ ذلك الوقت إلى الآن.

ثانيًا: في المُلك. وهذا سيكون في مدة الألف السنة حينما يملك القديسون مع المسيح.

ثالثًا: في المجد. وهذا سيكون إلى الأبد «لأنه مهما كانت مواعيد الله فهو فيه النعم وفيه الآمين لمجد الله بواسطتنا» (٢كو ١:٢٠؛ يو ١٧:١؛ رؤ ٢٠:٦؛ ٢١:١-٨).

يوحنا نوكس

ملأ يوحنا هاملتون رئيس دير بيسلي وأخي نائب الملك كرسي أبروشية سانت أندرو الخالي في الحال. ومع أنه لم يصل إلى درجة سلفه في النشاط وسعة العقل، إلا أنه كان يضارعه في الغيرة الشديدة التي بها تعقب كل من انحاز إلى جانب الإصلاح، فلم تخف وطأة الاضطهاد بعد موت بيتون. وقد رحب المتآمرون الذين احتلوا القصر بجميع الذين كانت حياتهم مهددة بالخطر لاعتناقهم المبادئ الجديدة، وسرعان ما انضم إليهم عدد كبير من اللاجئين السياسيين والدينيين، وحُصن المكان بحامية من الرجال الأقوياء الذين تحدوا نائب الملك وشقيقه رئيس الأساقفة، وكان بين من دخلوا إلى القصر جون نوكس المحامي العظيم عن الإصلاح، كان ذلك الرجل العظيم الذي ظل اسمه يتردد على جميع الألسنة في اسكتلندا زمنًا طويلاً والذي اقترن تاريخه بحوادث جسام في سن الأربعين في ذلك الوقت. فقد ولد بحسب الاعتقاد السائد في قرية جيفارد بالقرب من هادنجتون عام ١٥٠٥م، وقد كان والداه من الريفيين ميسوري الحال لدرجة مكنتهما من إعطائه قسطًا وافرًا من التعليم. ويظهر إنه تخصص في الفلسفة وعلم اللاهوت، وأخذ رتبة كهنوتية قبل وصوله

إلى السن القانونية. وبعد أن ترك الكلية اختفى ذكره ولم يعرف شيء عن تاريخه، إلى أن ظهر بصحبة ويشارت قبل استشهاده مباشرة[٦٠] (١٠٠/٤).

دعوة نوكس للخدمة

لا شك أن الجماعة التي كانت داخل القصر قد رحبت بهذا المصلح ترحيبًا عظيمًا، وتوسلت إليه أن يصير واحدًا من مبشريهم، ولكنه قاوم توسلاتهم بحزم محتجًا بأنه لا يستطيع أن يتسرع بالذهاب إلى حيث لم يرسله الله. على أن الجماعة كلها عادت فقدمت إليه الدعوة بالإجماع، وقد شدد الضغط عليه مستر روف وهو أحد المبشرين، طالبًا منه أن لا يرفض دعوة الله وإلا تعرض لتأديبه وعدم رضاه، وعندئذ انفجر نوكس بالبكاء وانسحب من الغرفة. وقد كانت لديه في ذلك الوقت أفكار عن أهمية الخدمة وخطورتها خلاف الأفكار التي كانت عنده عندما تقلد سابقًا الوظيفة الكهنوتية. إن مهمة إعلان كل مشورة الله دون تأخير شيء مهما كان ذلك غير مقبول عند السامعين، ومع كل الاضطهادات التي كان المبشرون بالتعاليم الإنجيلية معرضين لها، كل هذا ملأ ذهنه بالخوف والانزعاج. ويظهر أنه قد جاز في صراع نفسي شديد في تلك المناسبة، لأنه مع متانة أخلاقه وشجاعته الطبيعية كان أمينًا وحساسًا ونقي الضمير إلى أقصى حد. ولكن لما اقتنع أنه مدعو من الله للمساهمة في عمله عزم على الاضطلاع بأعباء الخدمة مع مسئولياتها، قائلاً مع الرسول «ولكنني لست أحتسب لشيء ولا نفسي ثمينة عندي حتى أتمم بفرح سعيي والخدمة التي أخذتها من الرب يسوع لأشهد ببشارة نعمة الله» (أع ٢٠: ٢٤).

وقد بدأ خدمته كمبشر بشجاعته المعهودة، وبارك الله خدمته لحامية القصر ولسكان المدينة على السواء. وفي أول موعظة له في كنيسة سانت أندرو ابتدأ يبرهن على أن بابا روما هو إنسان الخطية وضد المسيح والزانية البابلية التي يتكلم عنها الكتاب، وهكذا وجه ضرباته إلى أصل البابوية حتى ينهار النظام بأكمله. وفي أثناء الشهور القليلة التي بشر فيها في سانت أندرو هجر البابوية عدد كبير من السكان، فضلاً عن حامية القصر، واعتنقوا الإيمان البروتستانتي واشتركوا في عشاء الرب على طريقة الإصلاح في اسكتلندا. إلا أن هذه المجهودات النافعة سرعان ما قوطعت.

ماري دى جيز والأسطول الفرنسي

بعد موت بيتون أظهرت الملكة الأرملة ماري دى جيز عداءها العلني للإصلاح، وإخلاصها التام لفرنسا وروما، شأنها شأن أسرتها. وماري هذه هي أخت هنري القاسي الذي حارب ضد الهوجونوت، وكان له الضلع الأكبر في مذبحة سانت بارثلميو. فبعد أن أخفق نائب الملك في استرداد قصر سانت أندرو ظهر في الخليج أسطول فرنسي مكون من ست عشرة سفينة مسلحة بقيادة ليو ستروزي. وكان الترتيب أن تضرب السفن الاستحكامات الخارجية من جهة البحر، بينما تحاصر قوات آران القصر من البر، وسرعان ما فتحت ثغرة، وفي أقل من أسبوع سلم قصر سانت أندرو وحمل جميع من فيه بما فيهم نوكس على ظهر السفن الحربية ونقلوا إلى فرنسا. ويقال إن شروط التسليم قد خرقت، وحبس الرجال البارزون في روان وشربورج وبرست وجبل سانت ميشيل بناء على توسلات البابا وملكة اسكتلندا ورجال الإكليروس، وقد حبس نوكس مع أفراد قلائل غيره مقيدين بالسلاسل على ظهر السفن ومعرضين لجميع الإهانات التي كان البابويون يوجهونها إلى من يعتبرونهم هراطقة.

وفي أثناء أسرهم استخدمت معهم القسوة والتهديدات لحملهم على تغيير عقيدتهم، أو على الأقل تأييد العبادة البابوية، ولكن مقتهم لذلك النظام كان هكذا شديدًا، حتى أنه ولا واحد من كل الجماعة في البر أو في البحر أمكن التأثير عليه للاتحاد معهم ولو في أصغر الأمور. وكثيرًا ما كان القداس يتلى في مسامعهم. وفي تلك المناسبات يهددون بالتعذيب إذا هم لم يؤدوا علامات الاحترام المعتادة، ولكنهم عوضًا عن الخضوع كانوا يغطون رؤوسهم حالما تبتدئ الخدمة. وفي ذات يوم أحضر تمثال جميل للعذراء إلى إحدى السفن، وطلب من أحد المسجونين الاسكتلنديين وهو على الأرجح نوكس أن يقبله قبلة التعبد، فرفض قائلاً إن هذه الأصنام دنسة لا يمكنه أن يمسها. فأجابه أحد الضباط "ولكن لا بد لك من ذلك" مقدمًا التمثال نحو فمه فما كان من السجين إلا أن أمسك التمثال وألقاه في البحر قائلاً "لتخلّص سيدتنا نفسها ولتتعلم العوم". وبالجهد خلص الضباط إلهتهم من الأمواج ولم يعودوا يزعجون المسجونين بإلحاحهم بمثل تلك الطلبات[٦٠].

ولا شك أن الرب قصد أن يعلم خادمه المحبوب وزملاءه دروسًا هامة بواسطة سجنهم القاسي. فقد اضطر نوكس أن يخفي نفسه وأن ينتقل من مكان إلى مكان فرارًا من اضطهاد هاملتون وسعيًا لضمان سلامته، وإزاء هذه الظروف لا نستغرب من التجائه إلى القصر. ولكن بدخوله إلى هناك كأنه ألقى قرعته مع قاتلي الكردينال، وعلى ذلك حصد النتائج معهم، فقد حجز تسعة عشر شهرًا كأسير في سفينة في المياه الفرنسية، ولكن أحدًا من زملائه لم يُقتل.

على أن المؤرخين قد اختلفوا في الوسيلة التي بها حصل أولئك المسجونون على حريتهم، ولكن الدكتور ماككري يستنتج استنتاجًا معقولاً "فإذ كان البلاط الفرنسي قد حصل على موافقة برلمان اسكتلندا على زواج الملكة ماري بولي عهد فرنسا، وإذ حصل على شخصها لم يعد يشعر بأي ميل للانتقام لأجل منازعات الإكليروس الاسكتلندي".

نوكس يسترد حريته

بعد أن استرد نوكس حريته قصد إلى إنجلترا، هزيلاً في الجسم ولكن قويًا ونشيطًا في الذهن. وقد وصل صيته الذي حصل عليه بسبب قوة تبشيره والآلام التي قاساها في سجنه إلى البلاط الإنجليزي، فاختاره إدوارد السادس ضمن قسوسه ووهب له إيراد عيد جميع القديسين في لندن، الأمر الذي رفضه حيث أنه لم يكن يوافق على الطقوس الإنجليزية. إلا أن موت إدوارد المبكر وارتقاء ماري إلى العرش ألزمه أن يهرب لحياته، فرحل إلى سويسرا مارًا بفرنسا. وبعد أن زار الآثار المقدسة المشهورة في الكنيسة السويسرية استقر في جنيف.

كان جون كلفن المشهور في أوج قوته وصيته في ذلك الوقت، وقد استقبل نوكس بكل محبة كلاجئ اسكتلندي. وسرعان ما توثقت بينهما عرى الصداقة، وهكذا اجتمع المصلحان العظيمان اللذان ظهرا في ذلك العصر، وكانا متقاربان سنًا ومتشابهان كثيرًا في أفكارهما من جهة التعليم والسياسة الكنسية، غير أنهما كانا يختلفان في المظاهر البارزة من أخلاقهما "فكان نوكس جافًا صلبًا متحمسًا، ولكنه مملوء من المرح، أما كلفن فكان هادئًا حساسًا وصارمًا دون ثورة، متفوقًا على جميع أقرانه بالذكاء وصفاء الذهن. ولا شك أن كلفن كان له تأثير عظيم على زميله المصلح، لأن نوكس إنما كان في بداية عمله، بينما كان عمل كلفن قد اكتمل، وكان صيت نوكس مبتدئًا، بينما كان كلفن مشرعًا لقسم كبير من المسيحية"(٤٥/١).

ولكن الصداقة والأمان الشخصي ومجال الخدمة التي تمتع بها نوكس لم تكن لتبعد عن ذهنه التفكير في مواطنيه المضطهدين، بل كان على الدوام يكتب خطابات لتشجيعهم ويصدر نبذًا لتقويتهم في حق الله، وكانت تصله الأخبار عن كل ما يحدث هناك.

نوكس يرجع إلى اسكتلندا

في عام ١٥٥٥م بعد غياب ثماني سنوات عاد نوكس إلى وطنه مرة أخرى، وقد أكرم وفادته جيمس سايم من أعيان إدنبره، وكان أصدقاء الإصلاح يجتمعون في بيته ليتدارسوا في خططهم ومشروعاتهم. وكان كثيرون من أصدقاء الإصلاح الحميمين إلى ذلك الوقت يشتركون في القداس، ولم يكونوا منفصلين انفصالاً ظاهرًا عن الشركة في الكنيسة الرومانية. ولكن خطابات نوكس الحارة الحاسمة أقنعتهم بخطئهم، وجعلتهم يقررون أن لا يعودوا يشتركون في العبادة الرومانية. وبعد ذلك بوقت قصير مورس العشاء الرباني بحسب النظام البروتستانتي. وبهذا العمل المتحد وُضعت أسس الكنيسة المصلحة في اسكتلندا. ومن بين النبلاء الذين اجتمعوا حول المبدإ البروتستانتي في ذلك الوقت لورد لورن ولورد إرسكين ولورد جيمس ستيوارت وإرل أوف ماريشال وإرل أوف جلنكيرن وجون إرسكين ووليم متلاند، وكان كل هؤلاء يواظبون بنشاط على سماع مواعظ نوكس ومساعدته في عمله. وبواسطة حراسة هؤلاء صار المصلح حرًا طليقًا في تبشيره لا في العاصمة فقط، بل في الأقاليم أيضًا. وفي شتاء عام ١٥٥٥- ١٥٥٦م بشر في كايل وكننجام وأنجاشير وأماكن أخرى، باعثًا ببركة الله حياة جديدة في حركة الإصلاح، ومثبتًا العمل الصالح بقوة في نفوس كثيرة. وقد ذاعت أخبار كل ذلك العمل في جميع أنحاء المملكة، فارتاع الإكليروس وصمموا على القبض عليه. ولكن نوكس إذ أدرك أن استمرار وجوده في البلاد سيثير عاصفة جديدة من الاضطهاد على الجماعة الناشئة انسحب بحكمة إلى جنيف.

العهد الأول

من ذلك الوقت صار تقدم الإصلاح في عدة أجزاء من اسكتلندا سريعًا وحاسمًا. وقد كان لزيارة المصلح القصيرة أثر كبير في خدمة قضية الإصلاح، فكثيرون من النبلاء والبارونات والأعيان والمزارعين انفصلوا عن شركة روما وصاروا يجتمعون لقراءة الكلمة والصلاة. وبحسب النظام المشيخي لم يكن ممكنًا لهم ممارسة العشاء الرباني بدون خادم مرسوم. إلا أن تلك الاجتماعات الصغيرة مهدت السبيل للنظام الأكثر اكتمالاً. وكانت الخطوة التالية التي خطاها النبلاء هي تحضير ما يعرف في تاريخ الكنيسة بالعهد الأول، ويسمى واضعوه لوردات الجماعة، وفي ذلك العهد يتعهدون "أمام جلال الله وجماعته أن يكرسوا كل قوتهم وأموالهم وحياتهم نفسها لحفظ وتثبيت وتقدم كلمة الله المباركة وجماعته ... الخ". وفي ذلك اليوم الثالث من ديسمبر عام ١٥٥٧م دعا الله للشهادة للحق إرل أوف أرجيل وإرل أوف جلنكيرن وإرل أوف مورتون ولورد أوف لورن وإرسكين. على أن تلك الخطوات قد أزعجت الإكليروس، إذ رأوا أن سقوطهم أصبح قريبًا ما لم يتخذوا وسائل قوية لتثبيت مركزهم، ولكن لا يوجد عندهم إلا سلاح واحد، وهو لهب الاستشهاد التي سرعان ما أضرموها، فاتهموا بالهرطقة رجلاً تقيًا عجوزًا اسمه والتر هل وأحرقوه حيًا في سانت أندرو في ٢٨ أغسطس سنة ١٥٥٨م، وعندما وقف في مكان الإحراق خاطب الشعب بهذه الكلمات "أما من جهتي فإني أبلغ الآن الثانية والثمانين، ولم يكن ممكنًا أن أعيش أكثر من ذلك بمقتضى الناموس الطبيعي، ولكن سيقوم من رفات عظامي مائة شخص أفضل مني. ولي ثقة بالله بأني سأكون آخر من يُقتل في اسكتلندا لهذا السبب".

وقد كان هذا الشخص كاهنًا في أبروشية بالقرب من مونتروز، ولكنه قُتل لأنه كان مؤمنًا حقيقيًا بالرب يسوع المسيح.

وقد ارتبك رجال الإكليروس لأن الاستشهاد لم يكن إلا ليزيد عدد البروتستانت، وكان الناس يوالون بكثرة ترك القداس ويتحدون جهارًا مع المصلحين. وقد ظهر الآن جليًا أنه ما لم يقم البابويون بتوجيه ضربة قاضية فلا بد لهم من التسليم، فاشتكى الرهبان إلى الأساقفة والأساقفة إلى السلطة المدنية، وحينئذ انحازت الملكة الأرملة الكاثوليكية المتعصبة التي من بيت لورين إلى جانب الديانة الرومانية علنًا، بينما كانت قبل ذلك تلعب دورًا وسطًا بين الأساقفة ولوردات الجماعة، وقد أصدرت في ذلك الوقت مرسومًا يحظر على أي شخص التبشير أو ممارسة الأسرار المقدسة بدون ترخيص من الأساقفة. ولكن المبشرين المصلحين لم يطيعوا هذا المرسوم، فاستدعتهم الملكة لمقابلتها في سترلنج والدفاع عن أنفسهم عن تهمتي الهرطقة والعصيان، ولكن لوردات الجماعة تدخلوا في الأمر. وإذ اندهشت الملكة من ثباتهم وافقت على تأجيل المحاكمة حتى تفحص المسألة بأكثر تدقيق.

عودة نوكس النهائية إلى اسكتلندا

كان الأمر يحتاج في وسط تلك الظروف المثيرة والتهديدات الشديدة إلى قائد قوي، فأرسلوا مندوبين إلى جنيف يلتمسون من نوكس العودة إلى البلاد. وفي يوم ٢ مايو سنة ١٥٥٩م وصل إلى ليث، وكان لخبر وصوله وقع الصاعقة على الفريق البابوي. وفي الحال صدر مرسوم باعتبار نوكس متمردًا وخارجًا على القانون، إلا أن تلك المراسيم لم يكن ليلتفت إليها كثيرًا في ذلك الوقت. وإذ اتفق مروره بمدينة برث بعد ذلك بقليل ألقى إحدى مواعظه العنيفة ضد وثنية القداس وعبادة التماثيل، وكان الناس ناضجين لسماع تلك الموعظة فأثرت فيهم كثيرًا، ولكنهم انصرفوا بهدوء بعد الاجتماع. إلا أن كاهنًا تخلف في المكان، وأراد أن يظهر احتقاره للتعليم الذي سمعه، فكشف الغطاء عن مذبح نفيس مزين بالتماثيل وبدأ يتلو القداس، فصاح أحد الأولاد الواقفين على مقربة منه "هذه وثنية" فاغتاظ الكاهن وضرب الولد بشدة، فأمسك الولد حجرًا ورمى به الكاهن، فأخطأه وكسر أحد التماثيل، وقد كان متأخرًا بالكنيسة بعض أشخاص متباطئين فتعاطفوا مع الولد، وفي ظرف بضعة دقائق كان المذبح والتماثيل والصلبان وكل حلية في الكنيسة قد تحطمت وديست بالأقدام. وسرعان ما اجتمع الرعاع على ضوضاء التخريب، وزاد الهياج وقد صاح أحدهم قائلاً "إلى الأديرة". وفي وقت قصير صارت أديرة الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان خرابًا. ثم تحول الغوغاء المتهيجون إلى الدير الرئيسي شارتر هاوس وفي الحال لم يبق في ذلك البناء الفخم إلا الجدران العارية. وحالما سمع حكام المدينة والمبشرون بذلك أسرعوا إلى المشهد، ولكن لم تستطع نصائح المبشرين ولا سلطة الحكام أن تهدئ العاصفة(٦٠)(٣٧٨).

الثورات الشعبية

إن عمل التخريب الذي بدأ بمدينة برث في ثورة غضب الشعب وهياجه سرعان ما امتد إلى سانت أندرو وكوبر وبعض أماكن أخرى في فايف، وإلى سكون وكامباسكنيث ولينلثجو وسترلنج وإدنبره وغيرها. وكان معظم سخط الشعب وعنفه موجهًا إلى الأديرة، إذ كان لها سمعة سيئة بين الناس، وكانوا يعتبرونها كأوكار للبطالة والشراهة والفساد. ويعزو التقليد إلى نوكس القول "اهدموا الأوكار تطر الغربان". وفي يوم واحد خربت ومحيت تلك الأوكار، أوكار الدنس والرياء التي ظلت قائمة عدة أجيال.

ولقد تميزت الملكة غيظًا بسبب تلك الثورات، وأقسمت بأن تهدم مدينة برث إلى الأرض وتزرع أساساتها ملحًا علامة على خرابها إلى الأبد، فجمعت جيشًا قويًا ظهر بالقرب من المدينة بعد أيام قلائل، فأغلق الأهلون أبواب المدينة وأرسلوا خطابات إلى الملكة النائبة، وإلى الأشراف وإلى جيل ضد المسيح، وإلى الأساقفة المفسدين ورهبانهم الموجودين داخل اسكتلندا. وقد أظهرت تلك الخطابات أن لوردات الجماعة على استعداد لمواجهة قوات الملكة، التي إذ رأت عزم الشعب وقوته عملت بفطنة على عقد صلح معهم، وعولت على قضاء مآربها بالخديعة والنفاق.

وفي ذلك الوقت ابتدأت حرب دينية، ومن المحزن والمؤلم جدًا أن نرى المصلحين يتقلدون أسلحة العالم الجسدية في دفاعهم، وبذلك يطرحون جانبًا سيف الروح. على أن دعوة الملكة إلى حمل السلاح هي التي قادت المصلحين لأن يوجهوا لأنصارهم نفس الدعوة دفاعًا عن النفس. وفي ذلك العصر كانوا يعتقدون أنه من الجائز لهم أن يقتفوا مثال يشوع وداود، كما يتمثلون ببطرس وبولس. ولكن الله في رحمته الغنية تداخل في الأمر، فأخذ من المشهد الملكة الأرملة بالموت. وقد حدث هذا في قصر إدنبره في العاشر من يونيه عام ١٥٦٠م، وكان موتها بمثابة الضربة القاضية على التدخل الفرنسي في الشئون الاسكتلندية، ونتج عنه تحرير الأمة من النير الأجنبي، وبذلك صار الباب مفتوحًا على مصراعيه لتثبيت الإصلاح. وكانت الأمة بسبب تبشير نوكس المدهش مدة الخمسة عشر شهرًا الماضية مهيئة لطرح النير البابوي ومحو سيادته من البلاد.

إلغاء البابوية بقرار من البرلمان

دُعي البرلمان للانعقاد مبكرًا في أغسطس عام ١٥٦٠م. وكان الغرض من انعقاده أخذ أصوات الهيئات البرلمانية الثلاث المجتمعة في تقرير مسألة الديانة. وقد تطلع جميع الناس إلى ذلك الاجتماع باعتباره من أهم الاجتماعات التي عُقدت منذ صارت اسكتلندا أمة. ولكننا لا نستطيع أن نورد هنا إلا النتيجة فقط، فقد قررت هيئات المملكة إلغاء الرئاسة الدينية الرومانية وتثبيت الإيمان البروتستانتي.

وقد عمل نوكس وزملاؤه اعترافًا مختصرًا أو ملخصًا للتعليم المسيحي قُرئ في مسامع البرلمان، وقد أقرته الهيئات البرلمانية وثبتته باعتباره "تعليمًا صحيحًا سليمًا مؤسسًا على كلمة الله الصادقة". وبذلك تم الانتصار العظيم، وبلغ حماس الجماعة أشده، وقام لورد لندساي الموقر وصرح أنه يستطيع أن يقول مع سمعان الشيخ «الآن تطلق عبدك يا سيد... بسلام لأن عيني قد أبصرتا خلاصك» (لو ٢: ٢٩، ٣٠).

وإذ خلا الجو لإقامة بناء كنسي جديد، وجهز نوكس تنظيم الكنيسة المصلحة في كتابه المعروف باسم "كتاب النظام الأول" ونظام الكنيسة المبين في ذلك الكتاب مشيخي صميم. ففيه تقسم وظائف الخدمة العادية الدائمة إلي أربعة أقسام:

١- الخدام وهم الذين يعظون الجماعة.
٢- الدكاترة وهم الذين يشرحون التعاليم للطلبة في المعاهد والجامعات.
٣- الشيوخ وهم الذين يشتركون مع الخدام في إدارة سياسة الجماعة.
٤- الشمامسة الذين يديرون الأمور المالية ويعتنون بالفقراء.

ثم توجد أربع محاكم:

١- مجلس الكنيسة.
٢- المشيخة.
٣- مجمع الأقاليم.
٤- السنودس العام.

وهكذا أصبح نجاح حركة الإصلاح مستقرًا، إذ أعلن البرلمان أن البروتستانتية هي عقيدة البلاد، وجهز نوكس نظام الكنيسة

الجديدة وقانون إيمان أعضائها، ولكنه غض الطرف كلية، كجميع المصلحين الآخرين، عن تعليم كنيسة الله كما علم به ربنا يسوع المسيح ورسله، ورسم نظامًا بحسب الحكمة البشرية، ولو أنه بلا شك كان يعتقد أن ذلك النظام بحسب كلمة الله. وقد رأينا نتائج هذا الخطأ الظاهر في خطاب الرب لكنيسة ساردس. إلا أننا لا بد أن نُعجب كل الإعجاب بتلك السنين الأربع والثلاثين، التي تجلت فيها الشهادة الأمينة للحق بالرغم من الاضطهاد والتعذيب والقتل. وقد بارك الرب التبشير بالإنجيل، حتى تحول ذهن الأمة جمعاء تقريبًا نحو التعاليم الجديدة في تلك الفترة.

وقد أبيدت مذابح الخرافة وأوثانها في طول البلاد وعرضها وسط استحسان الجماهير [(١٠١)،(٣/١٠٢)،(٧٨)،(٦٠)،(١٠٣)].

ومن ذلك الوقت حتى ثورة عام ١٦٨٨م كان آل ستوارت المخادعون الأشرار يضطهدون المشيخيين بشدة، راغبين في تثبيت الأسقفية بدلاً من المشيخية في اسكتلندا. إلا أن تاريخ تلك الأيام خارج عن نطاق اتجاهنا في هذا المختصر.

ولنلق الآن نظرة سريعة إلى نتائج الإصلاح في إنجلترا.

الفصل الرابع والخمسون

إنجلترا

من أيام ويكليف المصلح الإنجليزي العظيم استبقى الرب بقية في إنجلترا شهدت للحق ضد تعاليم وخرافات روما. وقد مررنا بكثيرين من نسل اللولارديين أو أتباع ويكليف في المقاطعات الغربية من اسكتلندا، أولئك الذين كانوا مهيئين لقبول التعاليم الجديدة التي نادى بها لاهوتيو القارة. وهكذا كان الحال في إنجلترا، فقد وجد الكثيرون والكثيرون جدًا من الطبقات الفقيرة لم يزالوا متمسكين بتعاليم رئيسهم العظيم، ولكنهم كانوا مضطرين لإخفاء ذواتهم وعقد اجتماعاتهم في السر. "فكانوا يعيشون غير معروفين، إلى أن يجرهم الاضطهاد إلى النور ويطاردهم حتى يوصلهم إلى السماء". وكانت أقل همسة بما يخالف عقائد الكنيسة المقدسة الأم تُقابَل بأشد العقوبات. ومن قبيل ذلك ما حدث لستة رجال وامرأة، إذ سيقوا إلى القتل حرقًا في كوفنتري عام ١٥١٩م لأنهم علموا أبناءهم الصلاة الربانية والوصايا العشر وقانون إيمان الرسل باللغة العامية.

تلك كانت مشاهد الحياة اليومية في إنجلترا قبيل الإصلاح، فكان الكهنة كما يقول الرسول «ذئابًا خاطفة لا تشفق على الرعية» (أع٢٠: ٢٩). وكان ريتشارد هن تاجرًا أمينًا في لندن، مُجدًا في دراسة الكتاب ورجلاً تقيًا بالحق، ولو أنه كان لا يزال في شركة مع الكنيسة الرومانية. وحدث أن مات أحد أولاده، فطلب منه الكاهن أتعابًا باهظة فرفض أن يدفعها، وبسبب ذلك سيق إلى محكمة النائب البابوي. وقد شعر تبعًا للروح العامة لمواطنيه أنه من الإهانة استدعاء رجل إنجليزي أمام محكمة أجنبية، وبناء عليه رفع دعوى ضد الكاهن بامتهان كرامة حكومة جلالة الملك. وقد أثارت تلك الجرأة النادرة في ذلك الوقت ثائرة الإكليروس إلى أقصى حد، فقالوا "لا بد من وضع حد لتلك الجسارة بكل صرامة، وإلا تجرأ كل علماني على مقاومة الكاهن"، فاتُهم هن بالهرطقة وطرح في برج اللولارديين في سانت بول، وتُرك هناك بطوق من حديد حول رقبته وسلسلة ثقيلة كان يجرها بكل صعوبة على أرضية سجنه.

ولما قُدِّم أمام قضاته لم يقدم ضده أي إثبات على الهرطقة، وقد لوحظ في دهشة أنه كان يحمل مسبحته معه في السجن. فتحير مضطهدوه جدًا، فإن أطلقوه حرًا أعلنوا بذلك هزيمتهم، ومن ذا الذي يستطيع أن يوقف المصلحين إذا كان يمكن مقاومة الكهنة بهذه السهولة؟ إلا أن ثلاثة من المجرمين تطوعوا أن ينقذوا الآباء المقدسين من ورطتهم، ففي نصف الليل قادهم أحدهم، وهو ضارب جرس الكنيسة، إلى غرفة هن على ضوء خافت، فانقضوا عليه وخنقوه، ثم وضعوا حزامه حول رقبته وعلقوا جثته على الحائط في حلقة حديدية، وعلى هذه الكيفية وجده حافظ السجن في الصباح، فانتشرت الصيحة في لندن "لقد قتله الكهنة"، وطلب الشعب فحص جثته فوجدت فيها آثار استعمال العنف كما وجدت آثار من الدم في الغرفة، وبناء عليه قرر المحققون أنه مات قتلاً. فضلاً عن ذلك فإن اثنين من المجرمين الثلاثة ضربهم ضميرهم بشدة، فاعترفوا بجريمتهم. من ثم وقع الكهنة في أشد حالات الارتباك: ما العمل؟ إنهم إذا لم يبرروا أنفسهم بطريقة ما، تكون هذه ضربة قاضية عليهم، فعمدوا إلى تفتيش منزل هن، وهناك وجدوا كتابًا مقدسًا من ترجمة ويكليف، وكان في هذا الكفاية، فحكموا عليه كهرطقي وأحرقوا جسده في سميثفيلد. إلا أن كل هذا لم يكن ليغطي جريمتهم، بل بالعكس كشفها للناظرين. وقد رُفعت قضية هن إلى البرلمان، فبرأ هن واتهم الكهنة بالقتل، وأمر برد ممتلكات هن إلى عائلته، إلا أن المجرمين لم يعاقبوا بتأثير من ولسي.

استشهاد جون براون

مع أن الإكليروس كانوا غير موفقين في قضية هن وعرّضوا أنفسهم للفضيحة والعار، إلا أنهم لم يكونوا ليَيأسوا من متابعة خطة الاضطهاد القاسية، فعذبوا كثيرين وقتلوا شهداء كثيرين حوالي ذلك الوقت كما يدل على ذلك تاريخ الشهداء الإنجليز.

وفي ربيع سنة ١٥١٧م، وهي السنة التي فيها علق لوثر احتجاجه على أبواب الكنيسة، حدث أن جلس رجل مسيحي فهيم اسمه جون براون من أشفورد بجوار كاهن في معدية، فقال الكاهن بكل كبرياء وعجرفة "أتعرف من أنا؟". فأجاب براون "لا يا سيدي". فقال الكاهن "إذًا فاعلم أني كاهن، وأنك اقتربت مني أكثر من اللازم". فأجاب براون "عفوًا يا سيدي هل أنت كاهن خاص أم نائب رسولي؟". "كلا. أنا كاهن للنفس. إني أرتل القداس لتخليص النفوس". فقال براون "حسنًا وهل تستطيع أن تخبرني أين تجد النفس عندما تبدأ القداس وأين تتركها عندما تنتهي منه؟". فأجاب الكاهن "لا أدري". فقال براون "كيف لا تدري وأنت تدّعي أنك تخلّصها؟". فأجاب الكاهن غاضبًا "امضِ إلى حال سبيلك. أنت هرطقي وسأنتقم منك".

وبمجرد أن نزل الكاهن من المعدية ذهب إلى كانتربري واشتكى براون إلى رئيس الأساقفة. وبعد تلك المحادثة بثلاثة أيام بينما كان براون جالسًا إلى مائدة الغداء مع عائلته إذ برجال شرطة ورهام يدخلون ويسحبون الرجل من بيته، ثم ربطوه على ظهر جواد وساروا مسرعين غير مبالين بصرخات زوجته وأطفاله التي تمزق نياط القلوب، لأن رسل الأسقف كانوا قد ألفوا مثل تلك الصرخات والدموع فلم يكونوا ليتأثروا بها. وطرح براون في السجن وظل هناك أربعين يومًا، وعائلته لا تعرف له مقرًا طول هذه المدة ولا تعرف ماذا صُنع به. وفي نهاية تلك الفترة أحضروه للمحاكمة أمام رئيس أساقفة كانتربري وأسقف روشستر، اللذين طلبا منه سحب تجديفه. فقال براون "لقد قُدم المسيح مرة لكي يحمل خطايا كثيرين، وبهذه الذبيحة نحن نخلص لا بواسطة العبارات التي يكررها الكهنة". وعندما سمع رئيس الأساقفة هذه الإجابة أعطى إشارة للجلادين، الذين سرعان ما نزعوا حذاء وجورب ذلك المسيحي التقي، ووضعوه عاري القدمين فوق وعاء به فحم متقد. وقد كانت هذه القسوة الوحشية ضد القوانين الإنجليزية التي تحظر تعذيب أي فرد من رعايا التاج، ولكن الإكليروس كانوا يضعون أنفسهم فوق القانون. قال الأسقفان لذلك المعذب "اعترف بفاعلية القداس". فأجابهم "إن أنكرت ربي على الأرض فسينكرني أمام أبيه في السماء". وقد احترق لحم قدميه حتى العظم، ومع ذلك ظل براون ثابتًا غير متزعزع. وإذ شعر الأسقفان بعجزهما التام أمام القوة الإلهية أمرا بإحراقه حيًا، وهذا منتهى ما تصل إليه القسوة البشرية.

اقتادوا الشهيد ثانية إلى أشفورد، واتفق أن كانت خادمة العائلة خارج المنزل عند وصوله فرأته، فهرولت مسرعة إلى المنزل صارخة "لقد رأيته. لقد رأيته". فأسرعت زوجته المسكينة لتراه، وقد كان مربوطًا في المقطرة بشدة، حتى تعذر عليه أن يحرك رأسه عند كلامه مع زوجته التي جلست بجانبه. وكانت ملامحه قد غيّرها الألم، فحز ذلك في نفس زوجته بكيفية لم تعبر عنها إلا الدموع المنهمرة من عينيها، ولكنه شكر الله الذي سنده أثناء تعذيبه وأعطاه القدرة على الاعتراف بإيمانه بالرب يسوع المبارك، وحرض زوجته الفاضلة اليزابيث على أن تستمر كما بدأت في محبة الرب لأنه صالح، وفي تربية الأولاد له.

وفي الصباح التالي، وكان الأحد، أخرجوه من المقطرة وربطوه في السارية، وقد اجتمع حول الحزم زوجته وابنته أليس وباقي أولاده، مع بعض أصدقائه ليتلقوا بركته الوداعية. فرنم ترنيمة بينما كانت اللهب تتلاعب حوله. ولما شعر أن النيران قد أوشكت على إنجاز مهمتها فيه نطق بصلاة ربه وسيده «يا أبتاه في يديك أستودع روحي» (لو٢٣:٤٦)، ثم قال "فديتني يا إله الحق"، وبعد ذلك صمت الشهيد، ولكن تعالت إلى عنان السماء صرخات الألم منبعثة من زوجته وابنته، حتى لقد كادا يفقدان صوابهما، الأمر الذي أثار في جمهرة النظارة عاطفة الإشفاق على تلك العائلة المنكوبة وشعور السخط على الجلادين. ولكن ضابطًا وحشيًا اسمه شلتون قال "تعالوا نطرح أولاد الهرطقي في النار لئلا يشبوا هراطقة هم أيضًا". وإذ قال هذا اندفع نحو أليس، ولكنها فرت صارخة مرتعبة ونجت من الوحش[١٠٤/٢].

أولئك كانوا خدام رئيس الأساقفة، وهكذا كانت المشاهد التي تفتت الأكباد في إنجلترا إلى أيام لوثر ومُلك هنري الثامن، الذي علينا أن نرجع إليه الآن.

هنري الثامن

لقد ظلت مسألة الارتقاء إلى العرش الإنجليزي موضع صراع عنيف مدة طويلة بسبب التنافس بين أسرتي يورك ولانكستر. وقد نشب هذا الصراع بين أحزاب الأشراف المتناحرة حوالي الوقت الذي فيه بدأت تظهر جهود جوتنبرج في الطباعة. وقد عمل هذا الصراع على إعاقة تقدم العلوم والفنون التقدم الطبيعي، لأن البلاد تأثرت تأثرًا كبيرًا بهذه الحروب الداخلية في كل مرافقها، فانحطت التجارة إلى أدنى حد، وعم الجهل أرجاء البلاد، واضمحلت التقوى الحقيقية إلا بين جماعة اللولارديين المحتقرة والمضطهدة(٦/٦٦).

هكذا كان مجرى الأمور عندما ارتقى هنري الثامن العرش عام ١٥٠٩م. وقد جمع في شخصه مطالب كل من الأسرتين المتنافستين يورك ولانكستر، لذا كان موضع احترام كليهما. وبدا كل شيء في صالح الملك الشاب، وكان هذا بشيرًا بمُلك سعيد هادئ، فأبوه هنري السابع نجح في تأسيس أسرة تيودور المالكة، وترك له شعبًا هادئًا وخزانة مملوءة بما يساوي الآن عشرة أو اثني عشرة مليونًا من الجنيهات الذهبية. وكان هنري الثامن شابًا في نحو الثامنة عشر من عمره، بهي الطلعة جميل الصورة، ممتلئًا صحة ونشاطًا، وكان من طباعه الصراحة التامة، كما كان حائزًا لصفات الرجولة، مما جعله معبود الأمة. وقد أقيمت عقب زواجه وتتويجه معالم الأفراح والسرور لعدة أيام متوالية، مما استنفد مبلغًا كبيرًا من الأموال التي تركها أبوه المقتصد.

وكان هنري أيضًا شغوفًا بالآداب، وكان يُسَرّ بمجمع العلماء ويبسط عليهم رعايته. ومع أن والده قد وهبه للكنيسة وأعطاه قسطًا من التعليم في هذا الاتجاه، إلا أن عقله ازداد اتساعًا بواسطة التهذيب، حتى فاق ملوك عصره في العلم وسعة العقل، وكانت قد حصلت في إنجلترا منذ وقت نهضة لدراسة الآداب الحديثة. لم يكن هذا هو الإصلاح، ولكنه كشف عن جهل رجال الإكليروس وأعد عقول الناس للتغيير القادم. وكان الكهنة يقاومون العلماء مثل الهراطقة تمامًا، وكانوا يتهكمون على اختراع الطباعة وصناعة الورق، قائلين إن هذه كلها من الشيطان، وإنها ينابيع للهرطقة. ولكن بما أن الملك كان يحب العلماء البارزين، لم يكن من السهل على الكهنة أن يقتلوهم أو يحرقوهم كما فعلوا مع هن وبراون المسكينين.

ولكن بين جميع علماء إنجلترا كان الكهنة أشد كُرهًا لإرازمُس، الذي كما رأينا في سياق تاريخنا لم يكن ليطيق جشع الرهبان ونهمهم وجهلهم، وكثيرًا ما سدد إليهم سهامه الحادة وتهكماته اللاذعة، حتى أنه أسرف في إحدى كتاباته في التهكم ضد أسقف سانت آساف. وبناء عليه عزم الأساقفة على نفيه إن لم يستطيعوا حرقه، ولو أنه صديق للبلاط، وإذ رأى إرازمس نياتهم ترك البلاد. وكانت العناية الإلهية عاملة في هذه الحادثة بكيفية عجيبة ومباركة، إذ ذهب إرازمس مباشرة إلى بازل، ونشر طبعته اليونانية واللاتينية للعهد الجديد، وصدّر كميات منها إلى لندن وأكسفورد وكمبردج، حيث تلقفتها الجماهير بحماس عظيم. لقد ظن الكهنة أنهم بطردهم رجل العلم يحتفظون بالظلام مخيمًا على البلاد، ولكن الله استخدم طرده واسطة ليعيد بها إلى إنجلترا نور الحق الأبدي، إنجيل ربنا يسوع المسيح الصافي، فقبل أن يعلق لوثر قضاياه كانت الكتب المقدسة قد وزعت في إنجلترا، وبذلك كان العامل الأكبر في الإصلاح في إنجلترا هو كلمة الله التي فيها يعلن شخص المسيح ومجده كمخلّص الخطاة، ويعلن أيضًا الخلاص بالإيمان بدمه الكريم، والاتحاد معه بواسطة سكنى الروح القدس.

يقول دوبيني "لقد تأثر الإصلاح في إنجلترا بكلمة الله أكثر منه في أي مكان آخر في القارة. فتلك الشخصيات العظيمة التي ظهرت في ألمانيا وسويسرا وفرنسا أمثال لوثر وزونجلي وكلفن لم تظهر في إنجلترا. إلا أن الكتب المقدسة كانت منتشرة انتشارًا واسعًا، وكلمة الله التي هي قوة الله الحي الخفية هي التي أتت بالنور إلى الجزر البريطانية، وعلى الأخص بعد عام ١٥٢٦م. فديانة الجنس الأنجلوسكسوني تتميز بنوع خاص بصفتها الكتابية"(١/٦٧).

توماس ولسي

بينما بدت كل الأمور مساعدة على سرعة تقدم الإصلاح برز في المشهد كاهن قوي اسمه توماس ولسي أعاق هذا التقدم ردحًا من الزمن.

كان هذا الرجل الشهير ابن جزار ثري من إبسويك، وقد ولد عام ١٤٧١م، ويبدو أنه كرس للكنيسة منذ نعومة أظفاره، وتربى في كلية "المجدلية" بجامعة أكسفورد. وحوالي عام ١٥٠٠م عين قسيسًا للملك هنري السابع تحت تأثير فوكس أسقف ونشستر،

وسرعان ما استرعى نشاطه وكفاءته في العمل نظر الملك الشيخ، الذي كافأه بوظيفة رئيس كاتدرائية لنكولن ذات المرتب الضخم. وقد نجح في كسب ثقة الملك هنري الثامن كما كسب ثقة أبيه تمامًا. ومع أنه كان يكبر الملك الشاب بعشرين سنة، إلا أنه سايره في نزعاته وميوله، فمع كونه كاهنًا لم يكن يتورع عن الانغماس في الرذيلة، بل كان حاذقًا في تكييف نفسه بحسب مقتضيات مصلحته دون مراعاة لمطاليب الضمير. وقد اكتسب على مر الوقت تأثيرًا قويًا على عقل هنري، حتى أصبح وكأنه الحاكم الحقيقي للمملكة. وقد انهالت عليه الثروة والنياشين والوظائف المدنية والإكليريكية بغاية السرعة، فجعل أسقفًا لتورناي، ثم رقي في عام ١٥١٤م إلى منصب رئيس أساقفة لنكولن ويورك، وفي السنة التالية وضع على رأسه تاج الكردينالية مع منصب قاضي القضاة.

وقد ساعدت ثروته العظيمة التي جمعها من موارد عديدة داخل البلاد وخارجها على ظهوره في مركزه السامي بمظهر الأبهة التي تفوق أبهة الملوك، "فحيثما ظهر للجمهور كان يتقدمه كاهنان من أطول وأجمل الكهنة، يحملان أمامه صليبين فضيين، أحدهما ليبيّن مركزه كرئيس أساقفة، والثاني ليدل على أنه سفير البابا. وكان قصره مليئًا بما يزيد عن الخمسمائة من الخدم والحشم والطباخين والسقاة والكتبة والياوران وسائر رجال الحاشية، بينهم تسعة لوردات أو عشرة. وكان لباسه عادة من المخمل (القطيفة) والحرير القرمزي مع قبعة وقفازات من ذات اللون، أما حذاؤه فكان مطرزًا بالذهب والفضة ومرصعًا باللآلئ والأحجار الكريمة". ولكن مع كل هذه الأبهة والفخامة كانت كفاءته في العمل ممتازة، بل كانت تتسع باتساع نطاق وظائفه ومناصبه السامية. وكان يشجع العلم ويتماشى مع ميول هنري العلمية، بينما كان في سياسة الدولة أثقب فكرًا من كل مستشاري البلاط الإنجليزي، ولو أن مطامعه كثيرًا ما انحرفت به عن جادة الصواب (٥/٤٤)؛(٣/٧٨)؛(٦/٦١).

وهكذا سمح الله أن تتمثل كنيسة روما أم الزواني في هذا الرجل، الذي كانت له السيادة في الكنيسة والحكومة معًا، والذي كان يتسربل بكل المجد العالمي الموصوف في رؤيا ١٧، وبذلك وجد في إنجلترا نوع من البابوية. ولم يكن يعوز هذا الشخص إلا التاج المثلث، وحينئذ كان يشهد الشعب الإنجليزي نوع المجد الذي كان للبابوية قبل أن تختفي من البلاد.

بدء الإصلاح

إن المقام السامي الذي حصل عليه هذا الرئيس البابوي واشتراكه في السياسة الداخلية والخارجية بقسط أوفر من الملك هنري نفسه، لم يكن طبعًا في جانب حركة الإصلاح. والكهنة إذ تشجعوا بظهور السلطة البابوية بهذا الشكل عزموا على أن يقفوا في وجه العلماء والمصلحين، ولكن وقت تأثيرهم على الأذهان كان قد مضى، ولو أن عقوباتهم على الهراطقة كانت لا تزال شديدة، فقد حان وقت الإصلاح إذ تنبهت أذهان الناس وفقدت البابوية سلطانها التقليدي على الضمائر والمشاعر، وكان العهد الجديد الذي أرسله إرازمُس إلى إنجلترا يعمل عملاً أعظم من جميع المعلمين والدكاترة الذين في البلاد، وظهرت في ذلك الوقت شخصيات من أعز الشخصيات لقلب كل مسيحي ومن أبرزها في تاريخ إنجلترا.

سمع توماس بِلْني الطالب بكلية الثالوث بجامعة كمبردج بعض أصدقائه يتحدثون ذات يوم عن العهد الجديد الذي أرسله إرازمُس، فأسرع باقتناء نسخة منه، مع أن الكاثوليك كانوا يحظرون ذلك بتاتًا ولكنه كان يباع في السر. وإذ فتح الكتاب الذي قيل له إنه نبع كل هرطقة، وقعت عيناه على هذه الكلمات «صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول، أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلّص الخطاة الذين أولهم أنا» (اتي١:١٥) فوضع الكتاب وتأمل في هذه الكلمات المدهشة في نفسه: "ما هذا؟ القديس بولس هو أول الخطاة، ومع ذلك فالقديس بولس متأكد من خلاصه!" وقد أعطى الروح القدس لهذه الكلمات المقدسة ضياءً إلهيًا سطع على نفسه، معلنًا له المسيح وخلاصه الكامل. وفي الحال بدأ يبشر الآخرين بالمسيح، وكان أداة مباركة في يدي الله للإتيان بالكثيرين إلى معرفة المسيح، من بينهم هوف لاتيمر المشهور.

وكان وليم تِندال، الذي فيما بعد ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية، طالبًا في أكسفورد في ذلك الوقت، وكان له صيت كشاب تقي نقي السيرة ومغرم بدراسة الكلمة. وقد اقتنى نسخة من الكتاب الذي كان جاذبًا لأنظار الكثيرين في ذلك الوقت، فاستخدم الله هذا الكتاب لتجديد نفسه. وفي الحال شرع في إلقاء محاضرات عامة عن إنجيل المسيح وطريق الخلاص بالإيمان بشخصه، ولكن لما كان هذا فوق طاقة أكسفورد في ذلك الوقت تركها والتحق بالمبشر المحبوب بلني في كمبردج.

وكان جون فريث مشهورًا بين طلبة الكلية الملكية، بحدة ذكائه ونقاوة حياته. هذا أتى إلى المسيح بواسطة تندال، وصار هؤلاء الطلبة الثلاثة الذين تحرروا تمامًا من نير روما بواسطة كلمة الله وحدها، بين المبشرين الأوائل بتعاليم الإصلاح. وقد شرفهم الله أخيرًا بأن وضع عليهم إكليل الاستشهاد.

وقد شعر تندال بمسئولية خاصة في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية، ولكن إذ لم يجد مجالاً متسعًا من الحرية للقيام بهذا العمل في إنجلترا سافر إلى القارة واستقر في أنتورب، ومن هناك أصدر ترجمة للعهد الجديد عام ١٥٢٧م.

مؤلفات لوثر تصل إلى إنجلترا

في ذات الوقت الذي كان فيه روح الله عاملاً بهذه الكيفية الظاهرة في الجامعات وصلت كتابات لوثر إلى المملكة واتسع نطاق تداولها بين الشعب، الذين كانوا يتكلمون كثيرًا عن الوقفة النبيلة التي وقفها ذلك الراهب في مجمع ورمز، تلك الوقفة التي أثارت اهتمام الناس بكتاباته، مما أدى إلى ارتباك رجال الإكليروس وجعل الأساقفة يعقدون الاجتماعات للمشاورة فيما ينبغي عمله.

وقد وصل إلى إنجلترا مرسوم البابا ليو ضد لوثر، كما أصدر ولسي أيضًا مرسومًا من عنده ضده. وقد عُلق مرسوم البابا على باب الكنيسة، بينما قرء مرسوم ولسي على الشعب علنًا أثناء القداس. وقد أصدر الكردينال أوامره في نفس الوقت إلى الأساقفة بمصادرة جميع كتب الهراطقة والكتب التي تحتوي على أخطاء مارتن لوثر، وبالتنبيه في جميع الكنائس بأن أي شخص لديه كتبًا من هذه ولا يسلمها في ظرف خمسة عشر يومًا يعرض نفسه لعقوبة الحرمان. ولم يكن هذا هو الكل، بل ذهب الكردينال العظيم في موكب حافل إلى كاتدرائية سانت بول وأحرق علنًا كتاب رئيس الهراطقة.

على أن النتيجة الرئيسية لكل تلك المظاهرات - كما قال بعضهم - مع تعليق تعاليم لوثر التي يعتبرونها أخطاء على أبواب الكنائس والكاتدرائيات، إنما كانت إعلانًا عن مؤلفاته وإيقاظًا للشعب الإنجليزي من سباته، وإعداده للاعتراف بتعاليم الإصلاح بلا خوف. وقد تشاور الأساقفة لإيقاف تقدم الإنجيل، ولكن كانت النتيجة في هذه الحالة كما في كثير غيرها أن مجهودات الأعداء إنما زادت من سرعة تقدم العمل العظيم، وتحول غضب الإنسان إلى حمد لاسم الرب.

هنري ولوثر

لما كانت كتابات لوثر تجتذب الأنظار بهذه الكيفية، وقف الملك موقف المناظر كبطل الكنيسة وكتب ضد تعاليم لوثر، وكان في ذلك الوقت خصمًا متعصبًا لمبادئ الإصلاح، كما كان حاقدًا على لوثر بسبب احتقاره لكاتبه المحبوب توما الإكويني، ولكن لوثر غير مخوف بشيء من خصمه الملك، وغير مقتنع إطلاقًا بمنطقه الملكي، سرعان ما رد عليه بأسلوبه المعهود، مظهرًا بوضوح أنه في دفاعه عن مبادئ الإصلاح العظيمة لا ينظر إلى الأشخاص.

الزيجات الملكية

ليس من العسير أن نميز يد العناية الإلهية عاملة في التغييرات المدهشة التي كانت جارية في ذلك الوقت، وكيف أنه لا ثقة في الإنسان ولو في أحسن الحالات. فذلك البطل نفسه هنري الذي أظهر غيرة شديدة على الإكليروس الروماني، وكوفئ بأن خُلعت عليه ألقاب "أعظم ملك مسيحي" و"حامي الإيمان" وغيرها، نراه بعد وقت قصير ينكر سلطة البابا ولا يعترف بسيادته، ويسحب مملكته من الطاعة لأحكام البابوية. ونفس سياسة الكاثوليك ذات الوجهين التي حولت فكر هنري كانت سببًا في سقوط ولسي، فخسرت روما كليهما، هنري وولسي، وربح الإصلاح ربحًا جزيلاً بكيفية غير مباشرة. ولما كانت الحوادث التي أدت إلى تلك النتائج قد سُردت بتفصيلاتها الدقيقة بمعرفة جميع المؤرخين فيمكننا أن نعتبر القارئ ملمًا بها.

لقد نشب النزاع بين الملك والبابا أول ما نشب بسبب موضوع الزيجات الملكية، فقد تزوج آرثر الابن الأكبر لهنري السابع بكاترين ابنة فرديناند وإيزابلا، ومات بعد زواجه بستة شهور دون أن يعقب نسلاً، فاقترح أبوه المحب للمال أن يزوج كاترين لابنه الثاني هنري، الذي كان في ذلك الوقت أمير ويلز، حتى يحتفظ بفوائد التحالف الأسباني، كما يحتفظ أيضًا بمهرها البالغ مائتي ألف دوكات. وقد عارض بعض الأساقفة في هذا الزواج باعتباره مخالفًا لشريعة الله، بينما حبذه غيرهم، ولكن لفض النزاع حصلوا على مرسوم من البابا يوليوس الثاني بالتصديق عليه. وقد تم الزواج عقب ارتقاء هنري إلى العرش مباشرة، ومضت سبع عشرة سنة لم يثر فيها موضوع صحة هذا الزواج بالمرة.

وقد أنجبا ثلاثة أولاد وبنتين، لم يعش منهم إلى ما بعد سن الطفولة إلا ماري. وكان موت الأطفال هذا من بين الأسباب الكثيرة التي زادت من شكوك الملك في قانونية زواجه، فابتدأ يفكر في أن يكون هذا تأديبًا من الله لأجل زواجه بأرملة أخيه. على أن الاعتقاد السائد هو أن منشأ هذه الشكوك هو علاقة الحب التي تكونت بينه وبين آن بولين، وقد نوقش موضوع الطلاق لأول مرة حوالي عام ١٥٢٧م، وسرعان ما ترتب على هذا الموضوع أهم النتائج في كل من الكنيسة والحكومة، بل وفي الأمة على وجه العموم. فقد التُجئ إلى البابا لاستصدار مرسوم بعدم شرعية زواج هنري بكاترين، وبالتصريح للملك هنري بأن يتزوج غيرها، فوقع البابا في حيرة عظيمة، لأنه لو أعلن أن ذلك الزواج لم يكن شرعيًا لأثبت للمسيحية جمعاء أن سلفه يوليوس الثاني المعصوم قد أخطأ في إعلانه بأن الزواج شرعي. على أنه لم يكن من العسير على ذلك البابا الحاذق الذي كان يتمنى أن يرضي ملك إنجلترا أن يحل هذا الإشكال، ولكن جيوش شارل القوي، ابن أخي كاترين كانت في إيطاليا في ذلك الوقت، وكان يسوءه جدًا طلاق عمته.

وقد أدى هذا التعارض بين المصالح المختلفة إلى التجاء البلاط البابوي إلى أحط الحيل والمؤامرات، وكان تصرف ولسي ذا وجهين، لأن شارل وعده بمركز البابوية إذا هو وضع العراقيل في سبيل الطلاق، الأمر الذي أدى، بعد أن اكتشفه الملك، إلى موت ولسي موتًا مهينًا. وقد بقي هنري القلق منتظرًا سبع سنين طوال بسبب سياسة البابا الماكرة، الأمر الذي يبين من الناحية الأخرى سلطان كلمة البابا على عقول الملوك ذوي الحكم المطلق. ولكن إذ اغتاظ هنري عزم على أن يأخذ لنفسه سلطة التشريع ويلغي سلطان البابا نهائيًا من إنجلترا. وفي عام ١٥٣٤م أصدر البرلمان قرارًا بدون معارضة تذكر "بإنهاء السلطة البابوية والتوقف عن دفع أي نوع من الهبات التي كانت تحصّل إلى ذلك الوقت من العلمانيين أو من الإكليروس لكنيسة روما"(٤٦)،(٤/١٠٥)،(٢/١٠٦)،(٦/٦٦)،(١/١٠٧).

بدء الاضطهاد

طلب الملك بكل فطنة وحذر موافقة الإكليروس على التغييرات العظيمة التي كان مزمعًا أن يدخلها على النظام الإكليريكي في إنجلترا، وقد حصل فعلاً على هذه الموافقة. غير أن الأساقفة ارتبكوا جدًا قائلين فيما بينهم "إذا اعترفنا بالملك كرأس الكنيسة الأعلى في إنجلترا طرحنا البابا جانبًا". ولكنهم كانوا مرغمين على الخضوع لما يسنه الملك، وإلا وقعوا تحت طائلة غضبه. ولكي يكفروا عن خضوعهم وجبنهم المهين وتضحيتهم البابا عزموا على إشعال نيران الاضطهاد من جديد، تلك النيران التي كانت قد خمدت كثيرًا أثناء السنين الأخيرة من سلطة ولسي، فازداد عدد المبشرين واتسع نطاق اللوثريين.

من ثم عزم الأساقفة على حرق قادة الإصلاح، قائلين للملك "لقد دافعت جلالتك مرة عن الكنيسة بقلمك عندما كنت مجرد عضو فيها، أما الآن وقد صرت رأسها الأعلى فيجب على جلالتك أن تسحق أعداءها، وبذلك تكسب الثناء العطر". وقبل أن نشير إلى إجابة هنري على هذا التملي الخبيث، من الضروري أن نبين أن التغييرات التي عملها الملك لإبعاد السلطة البابوية من إنجلترا لم تقدم شيئًا للإصلاح من جهة عتقهم من الاضطهاد، ولم يكن في نية هنري أن يساعد الإصلاح، ولو أن الخطوات التي اتخذها قد استخدمتها العناية الإلهية لتقدم تلك الحركة العظيمة. وقد نُص في المرسوم الذي صدر بجعل الملك رئيسًا للكنيسة على أنهم "لا يقصدون بذلك أن يختلفوا مع كنيسة المسيح بخصوص قانون إيمان المسيحية الكاثوليكي، ولا بخصوص الأمور الأخرى المعلن في الكتاب المقدس أنها ضرورية لخلاصهم".

ولما كان هنري قد أنتن لدى البابا، شعر بضرورة التقرب أكثر لرجال الإكليروس لينال ولاءهم، وبما أنه كان مغتبطًا بلقب "حامي الإيمان" فقد وافق على تسليم تلاميذ لوثر الهرطقي إلى أيدي الكهنة. ومن ثم عقد الملك اتفاقًا مع رجال الإكليروس من أردإ الاتفاقات التي لطخت صفحات التاريخ. فقد أعطى الملك للإكليروس السلطة ليسجنوا ويحرقوا المصلحين، بشرط أن يساعدوه على امتلاك السلطة التي اغتصبها من البابا. وكان هذا مُرضيًا للكهنة لأنهم يقبلون أن يوافقوا على أي شيء ويتعهدوا بأي شيء إذا ما أعطيتهم مجرد السلطة على حرق الهراطقة. وسرعان ما شرع الأساقفة في اصطياد أصدقاء الإنجيل ورجال الله القديسين.

ونحن نأسف لأن المجال لا يتسع أمامنا لإيراد التفصيلات الوافية عن شهداء ذلك العصر، ولكن يمكن للقارئ أن يجد هذه التفصيلات في تواريخ أخرى كثيرة(٢/١٠٤)،(١٠٨)،(٥/٩٣)،(٤/٠٩٢)، على

أننا نثق أن تاريخهم مسجل في السماء. وإذا كان القارئ مؤمنًا بالإنجيل الذي كانوا يدعونه في ذلك الوقت هرطقة، فلا بد أن يقابل أولئك الشهداء في صباح القيامة الأولى، لأن هذا هو الرجاء الأكيد لجميع المؤمنين الحقيقيين «لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء، والأموات في المسيح سيقومون أولاً، ثم نحن الأحياء الباقين سنُخطف جميعًا معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء. وهكذا نكون كل حين مع الرب» (اتس٤: ١٦،١٧). ولا يوجد أصرح من كلمات الحق الأبدي هذه، فالكنيسة التي هي جسده كاملة، وسيأتي الرب نفسه لأجلها، وستسمع صوته، سواء من كان منها في القبور أو من كان حيًا على الأرض، وستصعد في مركبة السحاب وسيلاقيها الرب في الهواء، ويقودها إلى بيت أبيه ذي المنازل الكثيرة، بيت محبة قلبه الذي أعده لعروسه. في ذلك اليوم سيضيء جيش الشهداء النبلاء بكل سناء وسط ربوات الجند السماوي، وهناك سيكون كل شيء كاملاً كمالاً مطلقًا كما أن المسيح نفسه هو كامل. وسيكون فرح الواحد هو فرح الكل، لأن الجميع سيكونون مثل المسيح وسيعكسون مجده الكامل.

وفي ذلك اليوم ستُنسى السجون والمشانق ولهب النيران وأسرّة المرض، وإن ذكرت فإنما لتعظيم النعمة التي أعطتنا القدرة على تمجيد الرب في وسطها على نوع ما. ولا يمكن أن يكون هناك من هم غير مميزين، لأننا سنعرف بعضنا البعض هناك وستبقى إلى الأبد تلك العلاقات التي كونها الروح القدس على الأرض. هذا هو المستقبل البهيج المبارك الذي ننتظره ونشتاق إليه ونصلي لأجله، ولكننا نعلم أن الرب أمين ولا يمكن أن يأتي قبل الوقت المعين. وهذا هو مستقبل جميع الذين يؤمنون بالمسيح ضعفاء وأقوياء على السواء. والمسيح الآن يقبل كل من يأتي إليه ولا يرفض أحدًا، بل هو يقول متألمًا «لا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة» ثم يقول «من يُقبل إليّ لا أخرجه خارجًا» (يو٥: ٤٠، ٦: ٣٧).

وبين المصلحين الأوائل المشهورين في إنجلترا نجد أسماء بلْني وبيِّفيلد وتويكسبري وبارُنز وبينهام وفريث، وآخرين ممن استشهدوا حوالي ذلك الوقت. على أنه كان من الصعب أن ينجو أي إنسان مخلص من الاضطهاد في ذلك العصر من تاريخ إنجلترا، فالمصلحون كانوا يُضطهدون كهراطقة، وكثيرون من البابويين كانوا يُضطهدون كخونة، لأن أولئك الذين كانوا يرفضون أن يقسموا يمين الطاعة للملك كرأس الكنيسة كانوا يحاكمون بتهمة الخيانة العظمى. فالدكتور فيشر أسقف روشستر الشيخ الذي يبلغ حوالي الثمانين، وسير توماس مور الذي كان سابقًا كبير المستشارين والمعتبر أنه إرازمُس إنجلترا، قد عوقبا بالإعدام عام ١٥٣٤م لرفضهما الاعتراف بهنري كرأس الكنيسة الأعلى. ولم ينظر الطاغية المنتقم إلى اعتبارات السن أو الخدمة أو العلم أو الفضيلة أو ما شابه ذلك.

• • •

ونحو هذا الوقت بينما كانت المشانق وسواري الإحراق وغيرها من وسائل الإعدام تملأ البلاد، اجتذبت أنظار الملك إحدى وصيفات الشرف الخاصة بالملكة آن، وأثارت رغبته الدنيوية الآثمة، ولكنه لم يجد أساسًا يستند عليه في طلب طلاق "آن بولين"، فعزم على أن يمهد طريقه إلى الزواج الجديد بجان سيمور بالفأس كما قال أحدهم، فتظاهر بالشك في أمانة الملكة، وبناء عليه طرحها ذلك الوحش في برج، وحرمها حتى من مساعدة الدفاع أثناء محاكمتها. وقد أثبت القضاة إدانتها مضطرين للخضوع لمظالم سيدهم، وبناء عليه قُطع رأس الملكة الجميلة، والصالحة كما يقول كثيرون، في التاسع عشر من مايو عام ١٥٣٦م. وتزوج هنري بجان سيمور في اليوم التالي.

إلغاء الأديرة

لقد حرم البابا الملك هنري، وخرج الإنجليز من الولاء للبابا، وكانت المملكة مهددة بأن يغزوها شارل الخامس انتقامًا لقضية عمته كاترين، ولو حدثت ثورة بابوية لتجمع الرهبان برمتهم وعضدوا حركة العصيان. هذه الاعتبارات والمخاوف لا شك أنها ملأت فكر الملك، فقصد أن يلغي الأديرة ويستولي على ثروتها قبل حلول الخطر، فعهد إلى رئيس وزرائه السير توماس كرومويل، الذي كان يميل إلى الإصلاح، بأن يؤلف لجنة لتزور أديرة الرهبان والراهبات والجامعات في كل أنحاء المملكة وتعمل تقريرًا وافيًا عن حالتها. وقد كانت النتيجة مذهلة للغاية، فعوضًا عن وجود تلك المؤسسات الدينية في حالة الفقر والطاعة والفضيلة، تلك الصفات التي أنشأت لتمثيلها، وجد أنها قد رفعت نفسها فوق قوانين البلاد، فضلاً عن تضخم ثروتها. أما

أعمالها وما كان يجري فيها فهذا نتركه في موضعه في التواريخ الأصلية. قال الأسقف بيرنت "لقد رأيت صورة جزء من هذا التقرير خاصًا بمائة وأربع وأربعين مؤسسة تحتوي على رجاسات في داخلها لا تقل عما كان يجري في سدوم"(١/٦٧).

لما تُلي تقرير اللجنة على مسامع الملك والبرلمان عزما على إلغائها، وكان يبلغ عددها، صغيرها مع كبيرها، ستمائة وخمس وأربعين، بينما كانت تُقدَّر ممتلكاتها بخُمس المملكة، "كان في أيدي الرهبان خمس أراضي إنجلترا على الأقل". وفضلاً عما آل للتاج من ثروة عظيمة من وراء إلغاء تلك المؤسسات الدينية فقد استولى الملك على صندوق ذخائر ضريح توماس بيكيت في كانتربري، ذلك الصندوق الغني، ومحا اسمه كقديس من التقويم السنوي. وقد هام الرهبان على وجوههم ساعين في تدبر أمرهم، الأمر الذي سبب اضطرابًا عظيمًا في جميع أنحاء البلاد. وقد طلب كرانمر ولاتيمر أن يُخصَّص جزء من الأملاك المصادرة لإنشاء مستشفيات وملاجئ للمرضى والفقراء، ومعاهد للتعليم، ولكن الملك وحاشيته لم يكونوا ليبقوا على شيء من المال لأجل مثل هذه الأغراض، كما قال تِنْدال "لم يُعمل مشروع إلغاء الأديرة بقلب نقي وبدافع محبة الحق، بل للانتقام ولأكل لحم الزانية وقرض عظامها".

المواد الست

بالرغم من هذا الإصلاح الظاهري كان هنري رومانيًا صميمًا في داخله، ومع أنه ألغى سلطة البابا في مملكته إلا أنه احتفظ بتعاليم روما. وقد عمل بتأثير جاردنر ومونر، وهما من البابويين المتعصبين، ست مواد صادق عليها البرلمان، وتسمى عادة بالقانون الدموي، وهو يقضي بالموت على كل من يعارض تعليم الاستحالة والاعتراف السري ونذر البتولية والقداسات الخصوصية، وكذلك كل من يدافع عن زواج الإكليروس ويعطي الكأس للعلمانيين. كان هذا القانون رومانيًا صميمًا، وقد بذل كرانمر كل جهده في وقف تنفيذه حتى عرض نفسه لاستياء الملك، ولكنه لم يفلح لأن الفريق البابوي كان لا يزال قويًا، ولأن طباع الملك زادت حدة عن ذي قبل. وقد طرح لاتيمر أسقف ورشستر في السجن، وسرعان ما تبعه مئات من المسيحيين، حتى ازدحمت سجون لندن بجميع طبقات الناس من المتهمين بالهرطقة. وكان البابويون يشنقون لإنكارهم سيادة الملك الدينية، والرجال والنساء يحرقون زرافات لإنكارهم تعليم الاستحالة. وقد عين موظفون مختصون بتنفيذ هذا العمل، ومن يستطيع أن ينجو؟ فمن كان بابويًا مخلصًا كان ينكر رئاسة الملك الدينية، ومن كان بروتستانتيًا مخلصًا كان ينكر استحالة الخبز إلى جسد المسيح الحقيقي. ولا يمكننا حصر عدد الأشخاص الذين أُعدموا مدة حكم هنري الثامن، ولكن يقول البعض إنه يبلغ اثنين وسبعين ألفًا(٢/٧٨).

النبع الحقيقي للإصلاح

يقول بعض الكتّاب إن الإصلاح في إنجلترا يعزي إلى إجراءات الملك، ولكننا نعتقد أن هذه غلطة كبرى، لأن هذه الحركة القوية كان لها نبع أنقى من قلب هنري سفاك الدماء، فضلاً عن ذلك فقد كان هنري رومانيًا إلى نهاية حياته، وقد أوصى بمبلغ كبير من المال ليصرف في إقامة قداسات لراحة نفسه بعد وفاته، ولكن الحقيقة هي أن العمل كان من أوله إلى آخره من الله، وبواسطة المبشرين وكلمة الله المقدسة.

سبق أن رأينا العهد الجديد باللغتين اليونانية واللاتينية في أيدي المتعلمين في إنجلترا، أما عامة الناس، فإذا لم يكن عندهم نسخة من ترجمة ويكليف كان عليهم أن يحصلوا على معرفة الحق بواسطة المبشرين، أمثال بلني ولاتيمر وغيرهما. وقد ترجم وليم تِندال الرجل المختار من الله لهذا العمل الكتاب المقدس من اليونانية إلى الإنجليزية في أنتورب، وأرسل آلافًا من نسخ العهد الجديد الذي ترجمه إلى إنجلترا مخبأة في السفن المسافرة إلى الموانئ الإنجليزية. وكثيرًا ما كانت تُضبط تلك النسخ وتحرق، ولكن عددًا كبيرًا منها أفلت من التفتيش وانتشر انتشارًا واسعًا. وقد ظهرت نسخة التوراة الكاملة باللغة الإنجليزية التي ترجمها تِندال بمساعدة مايلز كوفرديل عام ١٥٣٥م مهداة إلى الملك، فكانت أول طبعة للكتاب المقدس تصدر بأمر الملك. ويرجح أن هنري قد أمر بحرية بيع الكتاب المقدس بتأثير كرانمر، كما أمر أن تزوّد كل كنيسة في المملكة بنسخة منه باللاتينية والإنجليزية، وتربط تلك النسخة في عمود في صدر الكنيسة حتى يتسنى لكل شخص أن يتناولها ويقرأها. كتب كرانمر إلى كرومويل يقول "إني أبتهج إذ أرى يوم الإصلاح هذا يأتي على إنجلترا، وفيه يشرق نور كلمة الله على البلاد دون أن تحجبه سحابة ما".

لقد طرحت إنجلترا الآن عنها ظلم روما وألغت نظام الرهبنة بجملته، وعادت إلى تثبيت سلطة الكتاب المقدس، ولكن مع كل ذلك لم يتقدم الإصلاح تقدمًا كبيرًا في بقية حياة هنري. فقد هدم صرح التقاليد الرومانية ووضع أساس بناء جديد يكفل إعادة الكتاب المقدس إلى أيدي الشعب، إلا أن الأمر كان يحتاج إلى كثير من العناء والصبر والاحتمال قبل أن يكمل هذا البناء.

مُلك إدوارد السادس

عند وفاة هنري عام ١٥٤٧م تغيرت حالة الإصلاح الإنجليزي تغيرًا تامًا، فقد نودي بإدوارد السادس، ابن هنري من زوجته الثالثة جان سيمور، ملكًا على إنجلترا في الثامن والعشرين من يناير عام ١٥٤٧م، وهو لم يتجاوز بعد التاسعة من عمره. وقد تم تتويجه في شهر فبراير، وفي ذلك الوقت أُطلق سراح أصدقاء الإنجيل من السجون، وألغيت المواد الست، وعاد كثيرون من المنفى، وارتفع شأن المصلحين ارتفاعًا كبيرًا. ولمَّا أوشك الموكب أن يتحرك من كنيسة وستمنستر إلى القصر، أتوا بثلاثة سيوف لتُحمل أمام الملك المتوج إشارة إلى ممالكه الثلاث، فلما رأى الملك هذه السيوف قال "إنه ينقصها سيف آخر". ولما سأله عظماؤه "وما هو؟" أجاب "الكتاب المقدس. هذا الكتاب هو سيف الروح ويجب أن يُفضَّل على هذه السيوف، لأنه ينبغي له أن يحكمنا في كل شيء، وبدونه نحن لا شيء. ومَن يحكم بدون هذا الكتاب لا يستحق أن يُدعى ملكًا أو خادمًا لله". وقد أُحضر الكتاب المقدس فعلاً وحُمل بكل إجلال في الموكب.

ويقال إن مواهب إدوارد الطبيعية كانت فائقة، لدرجة رفعته فوق مستوى الطفولة العادية بكثير. وكان والده قد اختار له معلمين أتقياء ممن كانوا أيضًا أصدقاء للإنجيل. وكثير من الخطابات التي كتبها هذا الملك، الذي نضج قبل الأوان، باللغة اللاتينية والفرنسية قبل أن يبلغ العاشرة من عمره لا يزال باقيًا إلى الآن. وقد أشرفت كاترين بار زوجة أبيه السادسة على تربيته بعناية فائقة، وهي حسبما يُقال كانت سيدة فاضلة وعلى جانب كبير من الذكاء.

وفي مدة مُلك إدوارد القصيرة عُملت كل الوسائل المشجعة على نشر الكتاب المقدس بالإنجليزية. ومع أن ملكه لم يمتد إلى أكثر من سبع سنوات، فقد صدر في خلالها ما لا يقل عن إحدى عشرة طبعة من الكتاب المقدس وست طبعات من العهد الجديد، كما أُدخلت عدة تحسينات في نظام الخدمة الدينية. وقد صدرت الأوامر برفع التماثيل من الكنائس ومنع إقامة صلوات لأجل الموتى، كما أعلن أن الاعتراف السري وتعليم الاستحالة غير كتابيين. وقد سمح بزواج رجال الإكليروس، وأمر أن تكون الخدمة في الكنائس باللغة الإنجليزية عوضًا عن اللاتينية. وقد عقد مجمعًا وافق على مواد الإيمان البالغ عددها اثنتين وأربعين. وهذه المواد قد خفضت إلى تسع وثلاثين في مدة الملكة اليزابيث، ولا تزال من ذلك الوقت هي قانون إيمان الكنيسة الإنجليزية. وقد نقح كتاب الصلاة المعروف باسم "كتابي إدوارد السادس: الأول والثاني" مرتين بواسطة كرانمر وردلي بعد استشارة بوشر ومارتر، وقد صادق الملك والبرلمان عليه، وبدأ استعماله عام ١٥٥٢م، وهو في جوهره ذات كتاب الصلوات العامة المستعمل الآن.

وبينما كانت أعمال الإصلاح العظيمة هذه تسير بنشاط عظيم إذ بالملك التقي إدوارد يموت في السادسة عشرة من عمره، وذلك في اليوم السادس من شهر يوليه عام ١٥٥٣م. وبموته المبكر أقبل على الإصلاح في إنجلترا ليل حالك الظلام. وكانت صلاة الملك الأخيرة هي هذه: "أيها الرب إلهي بارك شعبي وخلِّص ميراثك. أيها الرب الإله خلص شعبك المختار في إنجلترا. أيها الرب الإله احمِ هذه المملكة من البابوية، واحفظ ديانتك الحقيقية، حتى نسبح أنا وشعبي اسمك القدوس، لأجل خاطر يسوع المسيح". ويمكننا أن نقول إنه أثناء هذا المُلك القصير قد تثبت الإصلاح واتخذت البروتستانتية شكلها الذي هي عليه الآن في كل النقط الجوهرية. "لما انحدر هنري الثامن إلى القبر في عام ١٥٤٧م لم تكن إنجلترا إلا حقلاً ممتلئًا بالخرائب، منتثرة فيه أنقاض ذلك البناء القديم الذي حطمه الملك بضرباته القاسية. وكان الأمر يحتاج إلى جيل كامل لكي تُرفع فيه تلك الأنقاض، وتزول تلك المبادئ التي ظلت موضع الاعتبار زمانًا طويلاً، وتُقتلع تلك الأفكار المتأصلة منذ عهد بعيد، وتتبدد ظلمة الجهل المنتشرة بين جميع الطبقات، ويبدأ تشييد بناء جديد"(٢/٧٨)،(١/٣٨)،(٤٦). ومع ذلك ففي ظرف ست سنين فقط أُجرى العمل بسرعة عظيمة، حتى أن الديانة القديمة التي ظلت موطدة الأركان مدة ألف سنة قد زالت إلى الأبد.

مُلك ماري

ارتقت الأميرة ماري العرش في شهر يوليه عام ١٥٥٣م، وقد ورثت عن أمها كاترين أوف أراجون البغضة الشديدة للبروتستانتية، والتعلق القوي بالديانة الرومانية الكاثوليكية، فكان من أوائل أعمالها إلغاء القوانين التي أصدرها أبوها وأخوها في جانب الإصلاح وضد البابا والعبادة البابوية. وقد أطلقت سراح جاردنر وبونر من السجن، ووضعت مكانهما قادة الإصلاح كرانمر وهوبر وكوفرديل وروجرز وغيرهم، وسرعان ما وصل الكردينال بول من إيطاليا، وبيده كامل السلطة من قبل البابا لإرجاع مملكة إنجلترا إلى الحظيرة البابوية، ومن ثم بدأ الاضطهاد وعصفت العاصفة. يقول مارسدن "لقد أسرع إلى مغادرة البلاد ألوف من المصلحين، من بينهم خمسة أساقفة وخمسون من أصحاب الرتب الكنسية، وكثيرون من النبلاء وغيرهم ممن كان مركزهم في الهيئة الاجتماعية يجعلهم غير مرغوب فيهم. وقد رحل معظم هؤلاء إلى جنيف وبازل وزيورخ حيث كان الإصلاح معترفًا به، وقد سميت سنة ١٥٥٥م سنة الإحراق والدماء".

وكان أول شهداء ذلك الوقت روجرز، الذي كان زميلاً لتندال وكوفرديل في ترجمة الكتاب المقدس. وبينما كانوا يسوقونه إلى سميثفيلد رأى زوجته واقفة وسط الجمع منتظرة مروره لكي تراه، وعلى ذراعيها طفل صغير وحولها عشرة أطفال آخر. ولم يستطع إلا أن يودعهم جميعًا بنظرة ملؤها الإيمان والمحبة. ولما وصل إلى كومة الإحراق عرضوا عليه العفو عنه إن هو رجع عن مبدئه، فقال بجأش ثابت "إني مستعد أن أختم بدمي على ما بشرت به". فقال له المأمور "إنك لهرطقي". فأجاب الشهيد "سيظهر ذلك جليًا في اليوم الأخير". وعلى أثر ذلك أشعلت النيران وارتفعت اللهب حواليه، وقد تحمل الآلام بهدوء تام ويداه مرفوعتان إلى السماء إلى أن سقطتا في النيران. وهكذا مات جون روجرز أول شهداء اضطهاد الملكة ماري.

وهوبر أسقف جلوسستر السابق أحرق حيًا أمام كنيسته ذاتها، وكان ذلك في يوم السوق، فاجتمع ما لا يقل عن سبعة آلاف شخص ليشهدوا اللحظات الأخيرة لمن أحبوه حبًا جمًا. وإذ خشي أعداؤه من تأثير كلماته البليغة منعوه عن الكلام وهددوه بقطع لسانه إذا تكلم. ولكن يقال إن وداعته، والهدوء الخارق للعادة الذي بدا على محياه، والشجاعة التي بها تحمل العذاب الذي أمعنوا في تنويعه وإطالته، كل ذلك أدى لقضيته شهادة أعظم من أي كلام كان يمكن أن يفوه به. وقد كان معظم الوقت في حالة صلاة، ومعظم الجمهور المتفرج يذرفون الدموع. يقول مؤرخ آخر "إذا أغضينا الطرف عن تقواه وعن القضية التي استشهد في سبيلها، فيكفي أن نقول إنه كان مثالاً نبيلاً للخلق الإنجليزي الصحيح، إذ كان رجلاً أمينًا نقي السيرة شجاعًا غير هياب، ثابتًا غير متزعزع، ذا عواطف حارة وقلب محب". وكانت كلماته الأخيرة "أيها الرب يسوع أقبل روحي".

وبعد موت هوبر بأيام قلائل أحرق سوندرز في كوفنتري، ودكتور تيلور في هادلي، وفيرار أسقف كنيسة سانت دافيد في كارمرثن في ويلز وجميعهم من رجال الإكليروس.

هكذا أشعلت النيران في جميع أنحاء إنجلترا لإلقاء الذعر في قلوب الشعب، حتى يمتنعوا إزاء هذه الأمثلة المريعة من الانحياز إلى جانب المصلحين. إلا أن النتيجة جاءت عكسية، لأن الناس استطاعوا بسهولة أن يقارنوا بين المعاملة الحسنة التي عومل بها البابويون في مدة مُلك إدوارد، وبين الفظاعة التي عُملت مع الأبرياء أثناء مُلك ماري. ومع أن الأمة كانت بربرية غير متمدينة في ذلك الوقت وكاثوليكية الثقافة، إلا أنها روعت فوق الوصف من جراء فظائع بلاط الملكة ماري، ولا سيما الأمر الذي صدر إلى مأموري المقاطعات المختلفة بأن يأخذوا تعهدًا من الشهداء بأن لا يلقوا أية كلمة أثناء موتهم، وإلا قطعت ألسنتهم، وبذلك حرم الأهل والأصدقاء من كلمات ذويهم المائتين الأخيرة الوداعية المقدسة. وقد تظاهر بالخجل حتى أشد البابويين تعصبًا بسبب هذه الإجراءات الوحشية، لا سيما عندما رأوا تأثيرها في الأمة. وعلى أثر ذلك حلت البغضة الشديدة للكنيسة في القلوب محل الاحترام الخرافي، لأنها هي التي شجعت على هذه الفظائع، وقد تحركت قلوب الألوف وعشرات الألوف بالعطف على المظلومين ومناصرة قضيتهم، وفي صيف تلك السنة المروعة أحرق برادفورد قسيس كنيسة سانت بول في سميثفيلد مع شاب في التاسعة عشرة من عمره، وآخرين كثيرين لا نستطيع أن نحصر أسماءهم. ولكننا لا بد أن نبدي ملاحظات مختصرة عن ثلاثة من الرجال المكرمين المشهورين في قائمة شهداء إنجلترا.

ردلي ولاتيمر وكرانمر

هؤلاء الرجال الثلاثة بعد أن فُحصوا بمعرفة مندوبي الملكة في أكسفورد عن تهمة الهرطقة حُكم عليهم بالموت حرقًا كهراطقة عنيدين. وكانوا شيوخًا علماء، ولهم اعتبار كبير كخدام المسيح، وكان لاتيمر في الرابعة والثمانين ويعتبر من أفصح المبشرين في إنجلترا. وقد أعيدوا إلى السجن حيث ظلوا ما يقرب من الاثني عشر شهرًا وحكم الإعدام معلق فوق رؤوسهم، وفي أكتوبر عام ١٥٥٥م صدر الأمر بالتنفيذ في ردلي ولاتيمر، فساقوهما إلى خندق المدينة على الجانب الآخر من كلية باليول، وبعد أن صرفا بضع لحظات في الصلاة رُبطا في السارية، وقد أشعلت الحزم التي حول ردلي أولاً، فوجه لاتيمر الشيخ المحبوب إلى زميله كلمات لا تزال جديدة وقوية بعد ثلاثة قرون كما في يوم أن قيلت "تعزَّ وتشجع يا مستر ردلي، وأظهر الرجولة الحقة، فسنشعل اليوم في إنجلترا بنعمة الله شعلة أثق أنها لن تنطفئ". وقد انحنى كلاهما إلى الأمام كأنما يحتضنان اللهب كما لو مركبة النارية على وشك أن تنقلهما إلى السماء، وانطلقت روحاهما السعيدتان لتكونا مع الرب إلى الأبد. وقد مكثتا مستريحتين في أحضان المحبة الأبدية طول هذه المدة المديدة، وستظلان هناك إلى صباح القيامة الأولى، حينما تقوم رفات مفديي الله الراقدين، وتتغير أجسادهم على صورة جسد مجد المسيح «بحسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شيء» (في٣: ٢١).

أما كرانمر فكان لا يزال في السجن، وإذ كان قد لعب دورًا هامًا على مسرحي الكنيسة والسياسة في عهد كل من الملكين هنري وإدوارد، قصدوا أن يذيقوه أشد مرارة الذل والهوان. فضلاً عن ذلك فكان قد أعطى صوته في جانب الطلاق، تلك الخطية التي لا تُغتفر في نظر ماري. وقد زاره في السجن كبار العلماء والمثقفين من الفريق البابوي، وعاملوه بكل تجلة واحترام، مظهرين له رغبتهم في أن تطول حياته ليتمم خدمته، وقد نوهوا له بأنهم سيعطونه دائرة هادئة في البلاد. ولما كان رقيق الشعور ومتقدمًا في السن فقد خارت شجاعته أمام حيل أولئك المخادعين، فسقط سقوطًا مهينًا ووقع على صك الخضوع المطلوب منه. وقد تهلل الكاثوليك بسقوط فريستهم، وعللوا النفس بأن يكون هذا السقوط طعنة نجلاء في صميم الإصلاح. على أن ماري والكردينال لم تكن عندهما نية العفو عنه، فأرسلت الأوامر سرًا إلى أكسفورد لتجهيز المعدات لإعدامه. وفي صباح اليوم الحادي والعشرين من مارس عام ١٥٥٦م سيق هذا الأسقف المحترم في موكب عظيم إلى كنيسة سانت ماري. وفي الحال عملت نعمة الله عملاً عظيمًا في أعماق قلبه، فندم ندامة صادقة وردت نفسه، وتهيأت للاعتراف بإيمانه اعترافًا جريئًا. وقد وضعوه على إفريز عال أمام المنبر وألقى الدكتور كول موعظة كالمعتاد في مثل تلك المناسبات، قال فوكس "إن ذاك الذي كان قبلاً رئيس أساقفة إنجلترا ومستشار الملك الخاص قد أوقف الآن في ثياب رثة ممزقة، وعلى رأسه قبعة مربعة عتيقة، معروضًا لاستهزاء جميع الناس. وقد خاطب الجمهور ليس عن نفسه فقط، بل عن حالتهم ومستقبلهم أيضًا، وقد انهمرت الدموع من عينية أكثر من عشرين مرة ساقطة بغزارة على وجهه الأبوي".

استشهاد كرانمر

لما انتهى الدكتور كول من موعظته طلب إلى كرانمر أن يبرئ نفسه من كل شبهة من الهرطقة بالاعتراف العلني أمام الجمهور. فقال كرانمر "نعم سأفعل ذلك عن طيب خاطر". ونهض مخاطبًا الجمع المحتشد معلنًا مقته للتعاليم الرومانية وتمسكه التام بالتعاليم البروتستانتية، ثم قال "والآن آتي إلي الأمر العظيم الذي يتعب ضميري أكثر من كل ما فعلته أو قلته مدة حياتي، وبما أن يدي هذه قد أثمت إذ كتبت بخلاف ما بقلبي، فستعاقب هذه اليد أولاً، فإذا ما أتوا بي إلى النيران فسأقدم يدي للحريق أولاً". وما أن فاه بهذه الكلمات حتى امتلأ الكهنة من الغيظ، إذ سمعوا منه اعترافًا بعكس ما كانوا ينتظرون، فجروه في موكب ثوري إلى المقصلة التي كانت قد نصبت فعلاً في المكان الذي استشهد فيه لاتيمر وردلي. وعندما اقتربت منه اللهب وضع يده اليمنى حيث النار الحامية وصاح قائلاً "هذه اليد الآثمة"، وأبقاها هناك حتى احترقت مكررًا القول "هذه اليد الآثمة". وقد أثار ثباته إعجاب مضطهديه، إذ وقف في وسط اللهب لا يُبدِ حراكًا كالخشبة التي رُبط فيها. وكانت كلماته الأخيرة الكلمات المألوفة على فم كثيرين من الشهداء والتي نطق بها أولاً أنبل

الشهداء، ألا وهي «أيها الرب يسوع اقبل روحي» (أع٧:٥٩). وما هي إلا لحظات حتى انطلقت روحه السعيدة وقد تخلصت من كل الهموم والمتاعب، لتنضم إلى رفاقه في فردوس الله متغربة عن الجسد ومستوطنة عند الرب (٢كو ٥: ٨).

وخلال ثلاث سنوات من عام ١٥٥٥م إلى ١٥٥٨ أعدم حرقًا مائتان وأربعة وثمانون شهيدًا بحسب تقدير مؤرخي ذلك العصر، بينما مات كثيرون في السجون من الجوع وسوء المعاملة. قال واحد "لقد استعرت تلك اللهب المهلكة في جميع أنحاء إنجلترا من المقاطعات الشرقية إلى ويلز في الغرب، ومن المناطق الداخلية إلى شواطئ القنال الإنجليزي، وقد سيق إلى المقصلة كثيرون من كلا الجنسين ومن جميع الطبقات ومختلف الأعمار، من الصبي الذي في الثامنة من عمره إلى الشيخ الذي جاوز الثمانين، وأُحرقوا جميعًا، فرادي في بعض الأحيان، وبالعشرات في أحيان أخرى. حتى أنه قبل وفاة الملكة بيومين اثنين أحرق خمسة شهداء دفعة واحدة في كانتربري". وعندما أذيع خبر وفاة الملكة امتلأت البلاد بمظاهر الابتهاج والتهليل، ويقال إنه قد أضيئت المشاعل، ووضع الناس مناضد في الشوارع وضعوا عليها خبزًا وخمرًا، فأكلوا وشربوا وفرحوا. وهكذا تم قول الحكيم «بخير الصديقين تفرح المدينة، وعند هلاك الأشرار هتاف. ببركة المستقيمين تعلو المدينة وبفم الأشرار تهدم» (أم١١: ١٠، ١١). إن العالم بالرغم من عداوة قلبه الطبيعية يشهد للأتقياء، سواء من الملوك أو من الشعب. ويا لها من شهادة ضد الشر أن تقام معالم الابتهاج عند وفاة حاكم شرير. هكذا كان الحال عند موت ماري، فقد دوت في طول البلاد وعرضها رنة فرح وتهليل. وهكذا سيكون في النهاية عندما يقضي الله على الزانية وينتقم لدماء قديسيه من يدها، حينئذ ستبتهج السماء وتهتف بصوت عال. «هللويا. هللويا» (رؤ١٨: ١٩). وفي ذات اليوم الذي لفظت فيه ماري نفسها الأخير وهو ١٧ نوفمبر عام ١٥٥٨م مات الكردينال بول مستشارها المجرم. وبموت هذين هُدم صرح نظام إيزابل الذي أقيم على أنهار دماء القديسين ولم تقم له قائمة مرة أخرى. وقد كان مما أضرم غيرة ماري على روما زواجها بفيليب الثاني ملك أسبانيا، وساعد على ذلك مستشاروها الثلاثة جاردنر المتعصب وبونر الوحشي وبول السفاح بأن أدخلوا في روعها أنه بحرقها لرعايا البروتستانت تنفذ مشيئة الله. وكانت تحزن بسبب برود عواطف فيليب من جهتها، إذ قلما كان يحضر لزيارتها، فأكد لها بول أن نفور زوجها إنما هو علامة على عدم رضى الله عنها بسبب تسامحها مع عماليق، وحينئذ كانت تأمر بقتل عدد أكبر، ولكن فيليب لم يكن ليهتم بزيارتها، الأمر الذي استخدمته رحمة الله على تلك الأمة المتألمة مع غيره من العوامل للقضاء على حياة الملكة في الثالثة والأربعين من عمرها وفي السنة السادسة من ملكها(١٠٤)،(١٠٩)،(١٠٦)،(١٠٧)،(٧٨).

الفصل الخامس والخمسون

مُلك اليزابيث

في عام ١٥٥٨م ارتقت إلى العرش الأميرة اليزابيث بنت آن بولين، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، وبارتقائها العرش تغيرت الأحوال تغييرًا تامًا، فانقشع في الحال ذلك الظلام المخيف الذي خيم على البلاد مدة ملك ماري سفاكة الدماء، ودقت أجراس جميع الكنائس في المدن والقرى دقات الفرح والابتهاج، وفتحت أبواب السجون وأطلق سراح أولئك الذين حجزتهم ماري ليحرقوا، وألغيت جميع القوانين التي أصدرتها ماري بإعادة البابوية، وأدخلت الخدمة الإنجليزية مرة ثانية. وكان مسلكها إزاء الإصلاح هو المسألة العظمى التي شغلت الأذهان في ذلك العصر، وقد كان مسلكًا يقطع كل أمل في إعادة البابوية مرة أخرى، مع أنها هي نفسها كانت تميل إلى الطقوس الرومانية. والإجراءات العلنية التي اتخذتها لم تؤدِّ إلى إزالة الأخطاء إزالة تامة كما كان يشتهي الكثيرون. وقد عارضت جماعة البيوريتانز - أي المتطهرين - معارضة شديدة ضد الملابس التي أُمروا بلبسها وضد بعض العادات، حتى كتاب الصلاة نفسه اعتبروه غير خال من الخرافة، وقد أدى هذا إلى حدوث شقاق كبير في الكنيسة ومباحثات كثيرة مؤلمة دامت من أيام اليزابيث إلى عودة شارل الثاني، ولكننا لا نستطيع هنا إلا أن نشير إلى بدايتها إشارة موجزة.

جماعة المتطهرين *Puritans*

يقول مارسدن "من أوائل من أدخلوا إلى إنجلترا المباحثة التي نتج عنها فيما بعد تكوّن طائفة ا "لمتطهرين " هو الأسقف هوبر الشهيد. فقد عاش بضعة سنين خارج البلاد، وكان صديقًا لكل من بولنجر وجوالتر من قادة البروتستانتية في ألمانيا وسويسرا. وعندما عاد من نفيه في أيام إدوارد السادس برزت مواهبه وتقواه، وفي الحال تعين أسقفًا لجلوسستر، ولكن ضميره ارتبك، وابتدأ في نفسه صراع داخلي لم يهدأ قط، فكان يعترض على الملابس التي يلبسها الأسقف عادة في حفل تنصيبه". كان هوبر وكثيرون من المنفيين يميلون بشدة إلى نظام العبادة البسيط الذي كان يتبع في الكنائس المصلحة في القارة، ولذلك كانوا يرون أن الإصلاح في إنجلترا لا يزال فيه كثير من النقص والأخطاء سواء في العبادة أو في التعليم .

وقد طلب هوبر أن يتنازل عن الأسقفية أو يقبلوه بدون إجراء المراسم المعتادة، ولكن تحت تأثير بيتر مارتر وبوشر اللذين كانا من أساتذة اللاهوت في أكسفورد وكمبردج، وافق في النهاية على استعمال الملابس الرسمية عند تنصيبه وأن يعظ بها مرة واحدة على الأقل أمام الحاشية الملكية، ولا يُعلم بالتحقيق إذا كان قد لبس تلك الملابس بعد ذلك مرة أخرى أم لا. ولكن المباحثات في الموضوع بدأت في ذلك الوقت، وقد غذاها هوبر بمركزه السامي وفصاحته الجهارية، حتى أن بعضًا من أعظم الشخصيات في كنيسة إنجلترا في ذلك الوقت انضموا إلى جانب الإصلاح الذي ينشده المتطهرون. وقد رفض الكثيرون أن ينصّبوا في الملابس التي يلبسها أساقفة كنيسة روما، والتي اعتبروها سمة ضد المسيح. ومع أن اليزابيث كانت ضد البابوية، إلا أنها صممت على أن تحتفظ بمظاهر الأبهة والعظمة في الشعائر الدينية على قدر المستطاع، ومن ذلك الوقت أصبح فريق البلاط وفريق المتطهرون متضادين. وقد أصدرت الملكة أمرها بضرورة لبس الملابس الرسمية الكاملة عند تأدية جميع الطقوس والفرائض، وأعقبت ذلك بأمر آخر بضرورة توحيد الزي في الحال، ومن يخالف هذا الأمر يمنع من الوعظ ويجرد من وظيفته. فتحرجت الأمور وعزل كثيرون من

الخدام الأتقياء وأُبعدوا عن كنائسهم، ومُنعوا من التبشير في أي مكان آخر. وإذ قطع كل أمل في استمرار إصلاح الكنيسة، كون الخدام المفصولون جماعة مستقلة عن كنيسة إنجلترا التي اعتبروها نصف مصلحة فقط، فغضبت اليزابيث وهددتهم بعدم رضاها الملكي عنهم، ولكن أمام الاضطهاد ازداد عدد المتطهرين بسرعة، وقد خلع توماس كارترِيْت الشهير وثلاثمائة آخرون حللهم الكهنوتية في يوم واحد وبين جدران كلية واحدة(٢/٣٨).

في أثناء ملك آل ستوارت ازداد الاضطهاد وقطع جماعة المتطهرين الأمل من إنصافهم، فهربوا زرافات إلى القارة. وعند ارتقاء شارل الأول إلى العرش أدخلت طقوس جديدة بواسطة لود، وازدادت القسوة التي عومل بها المتطهرون، فلم يبق أمامهم من أمل سوى الهجرة، فأقلع كثيرون منهم كمنفيين وحطوا رحالهم على الشواطئ الغربية من الأطلنطي، واستقروا في إنجلترا الجديدة، وسرعان ما هرع عدد غفير إلى هذه المستعمرة التي سميت "مستعمرة الآباء السائحين"، وازدادت الرغبة في الهجرة بدرجة ألقت الذعر في قلب الحكومة، فأوقفت، بأمر ملكي، ثماني سفن كانت على وشك الإقلاع من نهر التيمز مملوءة بالمهاجرين إلى إنجلترا الجديدة، وكان في تلك السفن بعض الخدام المعزولين من أرقى الطبقات وبعض ذوي المقامات الرفيعة، من بينهم أوليفر وكرومويل وهامبدن وهسلرج ولورد بروك ولورد ساي. وقد أعقب هذا المنع من السفر حوادث مدهشة تضطرنا لأن نقف قليلاً ونتعجب، لأننا نرى فيها عناية الله المهيمنة على كل شيء واضحة كل الوضوح. يوجد واحد فقط يعلم النهاية من البداية. طوبى لجميع الذين يتكلون عليه. أما الإنسان فلا يعرف المستقبل ولا يستطيع أن يسد حاجات نفسه ولا أن يدفع عن نفسه خطرًا مقبلاً. ففي عام ١٦٤٢م، أي بعد منع السفن من السفر بخمس سنوات، بدأت الحرب بسبب مظالم شارل وطرقه البابوية، وانتهى القتال بانقلاب عرشه وإعدامه وتأسيس حكومة جمهورية تحت رئاسة كرومويل.

وفي عهد الحكومة الجمهورية طرحت الثياب جانبًا بصفة عامة، وزال سبب الخلاف والنزاع. إلا أن المتطهرين المتأخرين ذهبوا إلى أبعد مما ذهب إليه جماعة هوب وكارترِيْت الأولون، فناضلوا ليس ضد الملابس والمظاهر فقط، بل ضد دستور كنيسة إنجلترا. وفي الحال أصبح هؤلاء جماعتين عظيمتين: المشيخيين والمستقلين.

شارل الثاني وجيمس الثاني

بعد عودة شارل الثاني أُعيدت الأسقفية بكل طقوسها البابوية. وفي اليوم التاسع عشر من مايو عام ١٦٦٢م صدر مرسوم ينص على أن "كل من لم يُرسم رسامة أسقفية يجب أن تعاد رسامته بواسطة الأساقفة. ويجب على كل خادم في اليوم الرابع والعشرين من أغسطس أو قبله أن يعلن موافقته التامة على كل ما هو مدون في كتاب الصلاة العامة، ومن لا يفعل ذلك يُحرم من مرتبه". "وقد جاء ذلك اليوم المرتقب، وكان الجميع يتطلعون بشغف إلى النتيجة: هل سيثبت الإصلاح في إنجلترا أم سيسقط. ولكن نعمة الله انتصرت وانهزم العدو، ففي ذلك اليوم ضحى ألفا خادم بمعاشهم وهجروا المساكن المُعدّة لهم، ولم يمتثلوا لذلك المرسوم. وبذلك أُبعد أقدر خدام كنيسة إنجلترا وأكثرهم أمانة وتعرضوا للفقر المدقع والمعاملة السيئة".

وفي عام ١٦٨٥م مات شارل الثاني وارتقى العرش دوق يورك باسم جيمس الثاني، ومع أنه كان متهمًا بكونه بابويًا، إلا أنه استولى على التاج في سلام وهدوء، ولكن سرعان ما ظهرت صفاته ونياته الحقيقية. وإذ كان يحيط به مستشارون من اليسوعيين فقد أصدر المرسوم تلو المرسوم بقصد تغيير قوانين ونظم المملكة وإعادة البابوية بكامل سلطانها. وعلى أثر صدور أحد هذه المراسيم والأمر بقراءته أثناء الخدمة في جميع الكنائس، بدأ الصراع النهائي، إذ رفض كثيرون من الأساقفة وعدد كبير من رجال الإكليروس أن يقرأوه. ومن ثم استدعى سبعة أساقفة أمام المجلس الإكليريكي، وأرسلهم القاضي جيفريز الشرير للسجن في البرج. ولكن قلب البلاد كان بروتستانتيًا صميمًا، فلم يطق الخضوع طويلاً لمثل تلك المظالم. وقد حوكم أولئك الأساقفة في وستمنستر وبرئت ساحتهم، فدوت قاعة المحاكمة بهتافات الفرح واندفع الجمهور إلى الشوارع صائحين: "براءة! براءة!". وسرعان ما سرى الفرح في جميع أنحاء لندن. ولكن جيمس اضطرب وارتبك إذ سمع من وراء هذه الأصوات دوي العاصفة القادمة.

إذ رأى الشعب المسلك الشائن الذي سلكه كل من شارل وجيمس، وأعمال القسوة والوحشية التي أتاها كل من جيفريز في إنجلترا وكلافرهاوس في اسكتلندا، اقتنعوا تمامًا أنه لا بد لهم من اتخاذ إجراءات شديدة حاسمة إذا أرادوا الاحتفاظ ولو بجزء يسير من

الحرية. وقد رغب معظم الأشراف في توسيط وليم أمير أورنج صهر جيمس والوريث الثاني للعرش، فأرسلوا رسائل يستدعونه، كما أوفدوا رسلاً يتوسلون إليه أن يأتي ويتوسط بين الملك ورعيته، وأن يتخذ إجراءات مشددة إذا لزم الحال. وإذ درس وليم الموضوع وقلّبه من جميع وجوهه أعد عدته وأبحر تحت العلم الإنجليزي، جاعلاً شعاره "الديانة البروتستانتية وحريات إنجلترا". ووصل إلى ميناء بركسهام في تورباي في اليوم الخامس من نوفمبر عام ١٦٨٨م. وإذ كان جيمس يعرف جيد المعرفة شعور الاستياء العام الذي في قلوب رعاياه من نحوه هرب دون أن يبدي أية معارضة.

ثورة عام ١٦٨٨ م

عُقد مؤتمر أهلي أعلن خلو العرش بتنازل جيمس، ووضع التاج على أمير وأميرة أورنج. يقول ويلي "لم يكن هذا انتصارًا للبروتستانتية في إنجلترا فحسب، بل وفي جميع أرجاء المسيحية"(٣/٧٨)،(٦/٦١).

هكذا تمت أغراض ثورة ١٦٨٨م بدون ضجة ولا سفك دم، إذ أن هروب جيمس والملكة إلى فرنسا قد أزال العراقيل من أمام السلطات الحاكمة، وساعد على ترتيب الأمور الخاصة بتنصيب الملك الجديد. وفي الحال صدرت المراسيم بتحرير البروتستانتية وبتأمين الحريات المدنية والدينية للشعب الإنجليزي. وكان وليم الذي نشأ كلفنيًا يميل كثيرًا إلى تأييد المنشقين، إلا أن عددًا كبيرًا من الأساقفة ورجال الإكليروس رفضوا أن يقسموا يمين الطاعة للحكومة الجديدة، وكانوا يناضلون في سبيل الحقوق الإلهية للملوك، مكونين حزبًا مشاغبًا باسم "رافضي قسم الطاعة". وكان يوجد في أيرلندا الكاثوليكية وبين القبائل البابوية في اسكتلندا العليا أحزاب قوية تميل إلى آل ستوارت.

وفي أيرلندا قام تيركونل على رأس جيش من الكاثوليك، وقد التحق بهم جيمس من فرنسا بأسطول مكون من أربع عشرة قطعة، زودها لويس بالرجال والمال والأسلحة، وقد وقعت عدة معارك قبل أن يتم إخضاع البلاد، وحدث في ذلك الوقت حصار دري المشهور في التاريخ. ولكن الموقعة الحاسمة كانت موقعة بوين الشهيرة التي وقعت في أول يوليو سنة ١٦٩٠م. وإذ وجد جيمس أنه فقد كل شيء هرب مرة أخرى إلى فرنسا، حيث عاش عيشة نسكية تقريبًا، مما جعل أصدقاءه الكاثوليك أنفسهم يهزءون به قائلين إنه قد ضحى بثلاث ممالك لأجل القداس.

وفي اسكتلندا نجح كلافرهاوس الرديء في تأليف جيش كبير من الجبليين في جانب الملك المخلوع، وقد تقابل هذا الجيش مع الجيش الإنجليزي بقيادة الجنرال مكاي في ممر كيليكرانكي، حيث حدثت معركة خطيرة كانت نتيجتها ضد جيش وليم، إلا أن قضية جيمس خسرت خسارة لا تعوض بموت كلافرهاوس الذي قتل في المعمعة وهو يشجع جيشه على القتال. وبموته فقدت القبائل البابوية القوة المنظمة التي كانت تلم شعثها، فطرحت الأسلحة وخضعت تدريجيًا لسلطة وليم.

نظام الوراثة البروتستانتي

مما يجعل مُلك وليم جديرًا باهتمامنا بصفة خاصة أنه وضع عرش المملكة المتحدة على أسس بروتستانتية صميمة، فقد نص في قانون الوراثة على أن "يحرم من التاج إلى الأبد كل شخص في شركة مع كنيسة روما أو متزوج بزوجة بابوية. وليس ذلك فقط، بل في حالة ارتداد أحد الملوك البريطانيين إلى البابوية يكون الشعب محلولاً من يمين الولاء له، ويجب أن يخلفه في الحال من يليه في ترتيب الوراثة إذا كان بروتستانتيًا، كما لو أن الملك الذي رجع إلى كنيسة روما أو تزوج بزوجة بابوية قد مات فعلاً". وقد صدرت هذه الوثيقة الشهيرة عقب تنصيب وليم مباشرة عام ١٦٨٩م.

ويمكننا أن نقول إن الكنيسة الإنجليزية الآن هي نفسها كما كانت في أيام وليم، فالأسقفيون هم الحزب الحاكم، وينتمي إلى ذلك الحزب العائلة المالكة والقسم الأهم من الأشراف والسواد الأعظم من الشعب. وقد وضع حوالي ذلك الوقت أيضًا الأساس الوطيد للمذهب المشيخي في اسكتلندا بقرار من البرلمان الاسكتلندي، الذي اعتمد "قانون إيمان وستمنستر" كقانون إيمان تلك الكنيسة(٤/٢١)،(٢/٤٥)،(٦/٦١).

إن الحرية غير المحدودة التي يتمتع بها الرعايا البريطانيون من جهة نشر آرائهم بدون مقاومة، وعبادة الله بحسب وحي ضمائرهم المستنيرة بالحق كما هو في يسوع، من شأنه بطبيعة الحال أن يفسح المجال لظهور مذاهب مختلفة ومنازعات دينية مستمرة، وقد يلذ لدارس تاريخ الكنيسة أن يتأمل في كثير منها، إلا أننا قد توسعنا أكثر من اللازم، ولا يسعنا إلا أن نبدي ملاحظات

مختصرة على أسماء زعماء المذاهب التي يكون تابعوها الآن أقسامًا كبيرة معروفة في الكنيسة الاسمية.

إبنزر إرسكين

لقد كانت كنيسة اسكتلندا في أيامها الأولى متحدة متماسكة لا تتسامح مع أي انحراف عن معتقدها. وكلامنا هذا منصب على الأيام الأولى فقط، لأنها مع الأسف لم تحتفظ بوحدتها إلى النهاية. وكان قانون إيمانها دقيق التركيب، وإذا حدث أقل انحراف كان يفحص أمره في الحال بموجب ذلك القانون. والملاحظات التالية التي كتبها كننجهام المؤرخ وأحد خدامهم تعبّر تمامًا عما كانت عليه تلك الكنيسة في ذلك الوقت. "كان كل خدامها يقولون نفس الشيء بالضبط، وكان تفكير كل منهم مطبوعًا بطابع تعاليم وستمنستر بالتمام. وبالرغم من استقلال العقلية الاسكتلندية في التفكير فإن ذلك الاستقلال قلما ظهر في مسائل الإيمان. وبالرغم من اتساع دائرة العلوم العقلية كانت دائرة التعاليم اللاهوتية محددة بكل حرص. وبالرغم من الخلافات الكثيرة التي حدثت لم تستطع الهرطقة أن ترفع رأسها في تلك البلاد، ولو أنه قد احتاج الأمر في مناسبات قليلة أن تتعرض المجالس الكنسية لبعض حالات الهرطقة".

وفي عام ١٧٣٢م نشأ نزاع حول تعيين القسوس في الأبروشيات الخالية. فقد أصدرت الجمعية العمومية قانونًا يقضي بأنه إذا كان عبء الأبروشية يقع على عاتق المشيخة بسبب عدم تمكن الناظر، وهو عادة من العلمانيين الأغنياء، من ممارسة مهامه لسبب من الأسباب، فإن تعيين القسيس يصدر من شيوخ الأبروشية وملاك أراضيها. وقد اعترض بشدة على هذا القانون إبنزر إرسكين، وهو رجل روحاني وقور ونشيط. وقد دافع عن فكرة انتخاب الأعضاء للخادم انتخابًا حرًا قائلاً "أي فارق يمكن لقطعة من الأرض أن تعمله بين إنسان وإنسان فيما يختص بملكوت المسيح الذي ليس من هذا العالم؟ يجب أن يكون لنا إيمان ربنا يسوع المسيح في عدم محاباة". وقد مال إلى وجهة نظره أكثر الناس روحانية، كما أن كثيرين اتحدوا معه في احتجاجه. وقد انتقلت القضية من محكمة إلى محكمة دون أن يمكن التوفيق بين الطرفين، لأن كلا منهما تمسك برأيه ولم يتحول عنه، وبناء عليه حدث الانشقاق. ولكن الله استخدمه بفائق حكمته لإنهاض الإيمان وانتشار الحق وبركة النفوس الثمينة.

هؤلاء المنشقون القلائل الذين لم يتجاوز عددهم الخمسة سرعان ما تكونت منهم مشيخة، وابتدأوا ينشرون الكتب ويبشرون بالإنجيل بالانفصال عن الكنيسة الرسمية، وكانت هذه هي البداية الصغيرة للطائفة المسماة الآن "المشيخية المتحدة" التي ينيف عدد أتباعها عن نصف المليون *.

يوحنا وسلي

لما كانت الحالة الروحية في إنجلترا منحطة جدًا في البداية كما كانت في اسكتلندا، فقد حدث رد فعل كبير منذ أيام المتطهرين، إذ ألقى الشعب عن كاهله قيودهم، أو بالأحرى قيود المسيحية وعادوا إلى مسراتهم وملاهيهم، وسرعان ما غرقوا في لجة الجهل والحالة العالمية التي كانوا فيها أولاً. ولكن الله في رحمته العظيمة كان قد جهز في نفس ذلك الوقت خدامه المختارين لإحياء عمله وانتشار حقه والتبشير بإنجيله الذي يجب أن يصل إلى قلوب وضمائر الناس في جميع مرافق الحياة.

كان صموئيل وسلي أبو يوحنا وتشارلس وسلي المشهورين من أصل بيوريتاني من المتطهرين، وكان متزوجًا بابنة الدكتور أنسلي أحد الخدام المبعدين. فلما حدثت الثورة كان وسلي أول من كتب في جانب ذلك التغيير الأهلي العظيم، وأهدى كتابه إلى الملكة ماري التي كافأته بمنحه منصب أسقف إبورث في لنكولنشير، التي ولد فيها ابنه الثاني يوحنا مؤسس مذهب الميثودست في يونيه عام ١٧٣٠م. وبعد أن تلقى يوحنا علومه الابتدائية في مدرسة كارترهاوس ذهب إلى مدرسة كنيسة المسيح في أكسفورد، حيث لحق به أخوه الأصغر شارل في عام ١٧٢٧م، وهناك درسا بعض الكتب مثل "الاقتداء بالمسيح" لتوما الكمبيسي، و"قوانين حياة وموت القداسة" لإرميا تيلور، فانزعجا كثيرًا بخصوص خلاص نفسيهما، ولكنهما كانا في ظلمة دامسة من جهة تعاليم الإنجيل البسيطة وطريق الخلاص بالإيمان بالرب يسوع المسيح، لأنهما إذ كانا متعمدين وقد تناولا الأسرار المقدسة، ظنا كما قد تعلما وكما كان يعتقد أغلبية الناس في ذلك الوقت، أن الطريق الوحيد الذي يجعل لهما أملاً في الخلاص هو المثابرة

* هذا التعداد التقريبي في وقت كتابة هذا المختصر وطبقا لتقديرات كننجهام(٢/١٥)، تاريخ الكنيسة المنفصلة لتومسون(١١٠)، حياة إبنزر إرسكين لفريزر(١١١).

على الأعمال الصالحة إلى نهاية حياتهما، فجاهدا في هذا السبيل كما فعل لوثر وكلفن من قبلهما، ولكن هيهات أن يصلا إلى ما يشبع نفسيهما، بل بالعكس كانت حالتهما تزداد تعاسة يومًا بعد يوم. إلا أن إله كل نعمة قد لمس بهذه الطريقة قلبيهما وأوجد فيهما فراغًا لا يمكن أن يملأه إلا معرفة المسيح في شخصه وكمال عمله.

في حالة الاضطراب النفسي هذه عقد الوسليان مع اثنين أو ثلاثة آخرين اجتماعات خاصة في أثناء الأسبوع لأجل التقدم في التقوى الشخصية، والتمسك الدقيق بجميع الأحكام المدونة في قوانين الجامعة. وقد أثارت حياتهم الدقيقة وانسجام عاداتهم احتقار وهزء رفاقهم الطلبة الأشرار، الذين كانوا يطلقون عليهم لقب "ميثودست" و"النادي المقدس".

جورج هويتفيلد

في نفس ذلك الوقت التحق بتلك الجماعة الصغيرة شاب مخلص وغيور مثلهم اسمه جورج هويتفيلد من جلوسستر، وقد كان من عائلة محترمة، ولكن أباه كان بائع خمور في جلوسستر، وهناك وُلد جورج عام ١٧١٤م. وقبل أن يتقابل مع الأخوان وسلي كانت نفسه منزعجة بخصوص الأمور الدينية. وقد زاد في ارتباكه مطالعته لكتابات توما الكمبيسي، كما حدث مع الأخوان وسلي. ولا يتسع المجال هنا لتتبع تفاصيل التدريبات النفسية العميقة التي اجتازوا فيها، وإنما نقول إنه لم يمض وقت طويل حتى قادهم الله بالروح القدس وبواسطة حقائق الكتاب المقدس الصريحة إلى معرفة الإنجيل لسلامهم وفرحهم الشخصي وللتبشير به للآخرين.

وإذ كانوا من رجال الإكليروس في كنيسة إنجلترا فقد أتيحت لهم الفرصة لأن يبشروا في الكنائس بالإنجيل المتضمن الغفران في الحال والخلاص الحاضر بإيمان بالمسيح بدون أعمال أو استحقاق من جانب الإنسان، ولكن الشعب لم يحتمل هذه التعاليم لبساطتها التامة ولكونها كتابية محضة، ولذلك لم يمض وقت كبير حتى قفلت في وجوههم جميع المنابر في إنجلترا، وحينئذ اضطروا إلى التبشير في الهواء الطلق، وبذلك افتتحوا هذا النوع من التبشير الذي صار مألوفًا فيما بعد. وفي مورفيلدس وكننجتون وغيرهما من الأماكن بشروا في المدن وفي الخلاء، وكان يستمع إليهم جمهور يتراوح عدده من عشرة إلى عشرين ألفًا. وبنعمة الله ظل رسولا إنجلترا التوأمان وسلي وهويتفيلد أمينين مخلصين إلى نهاية حياتهما.

وقد استخدمهما الله لإنقاذ الشعب الإنجليزي من أعماق الظلمة الأدبية، ولهداية الآلاف في تلك البلاد كما في أمريكا إلى قدمي الرب يسوع. وقد شهد الناس من جميع الطبقات لقوة حججهما، وخضع كثيرون من الفحامين والنجارين والحراثين، مع عدد غير قليل من الفلاسفة والأشراف، لقوة الحق الإلهي، إلا أن السجل الصحيح لأعمالهما موجود في السماء، وستبقى ثمار مجهوداتهما خالدة إلى الأبد. وقد مات هويتفيلد في أمريكا عام ١٧٧٠م ووسلي في لندن عام ١٧٩١م وهو في الثامنة والثمانين من عمره[١١٢][١١٣].

الانتعاش في كامبوسلانج

كان القرن الثامن عشر عصر نهضات وانتعاشات عظيمة في ممالك مختلفة، واتخذت تلك النهضات شكلاً متميزًا في كل من هذه الممالك. ففي ربيع عام ١٧٤٢م بدأت تظهر علامات غريبة لنهضة دينية في كامبوسلانج في مقاطعة لاناركشير باسكتلندا، وكان ماك كلوك خادم الأبروشية معروفًا بتقواه، غير أن صفة التبشير لم تكن بارزة فيه، وقد بدأ بعض رجال أبروشيته يزورونه في البيت مهتمين اهتمامًا زائدًا بخلاص أنفسهم. وكانت هذه ظاهرة جديدة وغير منتظرة، ولكن كان هناك شوق ظاهر متزايد نحو كلمة الله، حتى أن عددًا كبيرًا من رجال الأبروشية وقعوا التماسًا بتنظيم محاضرة أسبوعية، علاوة على خدمات يوم الأحد المعتادة. وفي ذات مساء في شهر فبراير اتخذ هذا الخادم موضوعه «من صدق خبرنا ولمن استعلنت ذراع الرب» (إش٥٣: ١)، وعلى الأثر صرخ كثيرون في الاجتماع بصوت عالٍ نادمين على خطاياهم. ومن ذلك المساء صارت مثل تلك المشاهد مألوفة، ورغب الشعب في أن تكون لهم عظة في كل مساء وحضر خدام آخرون لمساعدة خادم الكنيسة، والتفت جموع كثيرة حول المبشرين في كل مناسبة. وقد تحركت قلوب الرجال والنساء بشدة فقرعوا على صدورهم في حزن عميق، كما هتف آخرون من شدة الفرح "لقد وجدته! لقد امتلكته فلن أفلته أو أرخيه". وآخرون امتلأوا بالروح القدس وبفرح فائق حتى صرخوا قائلين

«الآن يا رب تطلق عبدك بسلام... لأن عيني قد أبصرتا خلاصك» (لو ٢: ٢٩، ٣٠).

وكما في كل المناسبات المماثلة، مناسبات افتقاد الروح القدس بكيفية عجيبة، تجمعت جماهير كثيرة آتية من جميع الأنحاء لينظروا عمل الرب العظيم. وفي خلال شهر أغسطس عندما كان يوزع عشاء الرب كان مجتمعًا حوالي ثلاثين ألفًا، وكان يقوم بالتبشير في الخلاء وبتوزيع العشاء داخل الكنيسة أربعة عشر خادمًا، وكان جورج هويتفيلد أحد أولئك الخدام، وكان معينًا له أن يقوم بالتبشير في المساء، وكانت الخيمة منصوبة على حافة نهر صغير وأمامها شاطئ مدرج مكسو بالخضرة الجميلة. ونحو الساعة العاشرة مساء نهض هويتفيلد ليلقي آخر عظة في اليوم، وقد وصف المبشر المكان بأنه هيكل الطبيعة الذي بناه الله لهذا الجمهور العظيم ليعبد فيه. وبينما كان صوته العميق يدوي بين تلك الجماهير في حماسة وفصاحة كان الجمهور يرد له الصدى بأناته وتأوهاته، وسرعان ما انفجر عشرات الألوف بالبكاء. وقد تغيّر في هذه الحركة المباركة مئات من الناس تغييرًا حقيقيًا كما قال ماك كلوك الخادم بعد ذلك الوقت بتسع سنين.

وقد عمل الروح القدس نهضات مماثلة في كيلسيث وأماكن أخرى. ولا يسعنا إلا أن نقتبس جزءًا مختصرًا من خطاب مؤرخ ١٦ مايو سنة ١٧٤٢م. "لقد سدد الرب سهامه إلى أعماق قلوب أعدائه في هذا اليوم، لا لإهلاكهم بل لإرجاعهم إليه، فقد حدث في هذا اليوم صراخ عظيم من الخطاة المتنبهين تحت تأثيرات وآلام نفسية عظيمة كتلك المدونة في الأصحاح الثاني من سفر الأعمال. وقد تكلمت مع سبعة وعشرين منهم في هذا المساء، كما تكلم معهم برهة مستر أوترسون الذي استدعيته. فعظّموا اسم الرب، وصلوا لأجلنا كثيرًا، وأخبروا كل واحد ليسبّح الرب لأجل رحمته علينا، وليطلب منه أن يديم علينا هذه الحالة طويلاً"(٢/٤٥).

مدارس الأحد

من المعلوم أن أعمال مدارس الأحد العظيمة التي أتت بنتائج مفيدة خلال أكثر من قرنين من الزمان، قد بدأت بشاب في مدينة جلوسستر. وُلد روبرت رايكس مؤسس مدارس الأحد في سنة ١٧٣٥م، وكان والده صاحب مطبعة ومدير "جريدة جلوسستر"، وقد علم ابنه تعليمًا راقيًا، ثم أخذ يدربه معه على العمل الذي خلفه فيه بعد زمن. أما حياته فلم يكن فيها ما يميزها عن حياة رجل مجتهد في مهنته. ولولا عطفه على المسجونين في سجن جلوسستر، وعلى أطفال تلك المدينة البائسين الجهال، لانطوى اسمه وذكره معه في أعماق القبر.

لقد راعه أن يتسكع ذلك العدد العديد من أبناء بلدته الأطفال خارج المدينة وفي شوارعها خصوصًا في أيام الآحاد، وصمم على أن يحاول تحسين حالهم. واهتدى أولاً إلى ثلاث أو أربع سيدات ممن يستطعن تعليم الأطفال القراءة، واتفق معهن على أجر يومي قدره خمسة قروش لكل منهن نظير ذلك. ثم أخذ يغري الأطفال على الحضور إلى المدرسة ونجح في ذلك نجاحًا باهرًا. وكثيرون منهم لم يشغفوا بتعلم القراءة فقط، بل أخذوا يترددون من تلقاء أنفسهم ومعهم كتب العهد الجديد على أماكن العبادة.

في بدء محاولته وجد إعراضًا من أطفال كثيرين بسبب ملابسهم البالية، ولكنه طمأنهم بأن الأيدي والأوجه النظيفة والشعر المرتب، هو كل المطلوب في المدرسة. وكان لهذا العمل الصالح نتائجه المباركة، إذ تأسست مدارس أحد في جميع الجهات، وعلى مر الأجيال المتعاقبة اتسع نطاقها وعظمت فوائدها لبركة الكثيرين.

من المحتمل أن أغراض مستر رايكس من ذلك العمل الجليل الذي قام به لم تكن تتعدى دائرة أعماله الضيقة، ولكن أعظم النتائج في أمور الله لا تتوقف على تفكيرنا أو تدبيراتنا البشرية. إن رجل الإيمان يتكل على الله، وما عليه إلا أن يتجنب كل تباه أو إظهار للذات، وبكل هدوء في عمله يترك الأمور بين يدي الله. إن رايكس يعتبر مثالاً حيًا لما يجب أن يقوم به كل واحد من عمل يضعه عليه الرب، بدلاً من انتظار تضحيات الآخرين أو تقدمهم في الميدان لينسج على منوالهم. إن المسئولية الفردية هي المبدأ الحقيقي لخادم المسيح، وعليه أن يسهر ضد كل تنظيم أو تعاون يخرج به عن دائرة الإيمان. لقد امتلأ قلب رايكس بالشبع عندما رأى، قبل موته في ٥ أبريل سنة ١٨١١م، أن جهوده الأولى المتواضعة أصبحت أعظم وسيلة فعالة لتعليم الأطفال الفقراء في جميع نواحي المملكة(١١٤).

الإرساليات الأجنبية

عرفنا في بدء حركة الإصلاح في القرن السادس عشر أن نور الإنجيل انتشر بسرعة في ممالك أوروبا. وكثيرون في ذلك الوقت دفعتهم غيرتهم المتقدة إلى العمل على نشر الحق في نطاق أوسع، فبعثوا الإرساليات إلى الأقطار الأجنبية. ومن بين تلك الإرساليات الأولى كانت إرسالية السويسريين والسويديين والهولنديين والمورافيين. ولكن اعترض سبيل الكثير منهم صعاب كثيرة، وبعضهم لم ينجح. أما في إنجلترا فيظهر أن أهم جمعية من هذا القبيل كانت جمعية الإرساليات المعمدانية. ولا شك أنها هي التي نبهت الكنائس الأخرى إلى مسئولياتها إزاء الوثنيين الذين في الظلمة. ففي أكتوبر سنة ١٧٩٢م اجتمع عدد قليل من خدام المعمدانيين في كترنج بمقاطعة نورثهامبتون شير بقصد تأسيس جمعية لنشر الإنجيل بين الوثنيين. وكان وليم كاري الخادم المعمداني في ليشستر شير هو العامل النشيط في تلك الجمعية. ولقد رحل فيما بعد إلى الهند كأحد المرسلين، واشتهر بمعرفته للغات الشرقية. وقد ترجم العهد الجديد إلى اللغة البنغالية، ومن ثم عيّنه المركيز ولسلي الحاكم البريطاني العام مدرسًا للغتين البنغالية والسانسكريتية في كلية فورت وليم الجديدة. والجميع يعرفون جهود مستر كاري ومستر مارشمان ومستر ورد في الهند.

ويقال عن كاري إن له شرف إنهاض غيرة الكنيسة على عمل الإرساليات الأجنبية. وفي سنة ١٧٩٥م تكونت من المسيحيين على اختلاف طوائفهم "جمعية المرسلين بلندن" التي غرضها نشر الإنجيل بين الوثنيين. وكان شعارها: "نشر الحق بغض النظر عن الفوارق الطائفية"، لذلك كان تأسيس هذه الجمعية على هذا النطاق الواسع يقابَل بالترحيب في كل مكان، كأنه بدء عهد جديد للكنيسة المسيحية: أما اهتمامها فاتجه قبل كل شيء إلى جزر البحار الجنوبية. وفي سنة ١٧٩٩م تكونت جمعية المرسلين الكنسية من أعضاء كنيسة إنجلترا، وقد أوفدت إرسالية إلى إقليم ساسو بجوار سيراليون. وفي سنة ١٧٩٦م تكونت جمعية المرسلين الاسكتلندية في إدنبره وبدأت أعمالها في إقليم فولا بجوار سيراليون أيضًا .

وفي سنة ١٨١٢م أبحر جودسون ونيوول وهل وآخرون كثيرون تحت إشراف "مجلس الإرساليات الأجنبية الأمريكي" إلى كلكتا حيث خدموا في كثير من جهات الشرق الأقصى.

وفي سنة ١٧٨٦م أبحر كثيرون من الخدام الوسليين كمرسلين من إنجلترا إلى نوفاسكوتيا. ولكن بعد أن واجهتهم سلسلة من العواصف اضطر القبطان إلى تغيير طريقه وعرج على جزر الهند الغربية. ولما وصلوا إلى أنتيجوا وجدوا السكان على استعداد لقبول الكلمة، لذلك صمموا على تأسيس إرسالية في جزر الهند الغربية ... هذه هي الظروف التي رتبتها عناية الله والتي قادت المثاليين إلى توجيه التفاتهم إلى الوثنيين وإلى طريق نشر المسيحية بينهم[١١٥/٣].

ولا شك أننا نشكر الله من كل قلوبنا من أجل هذه الجمعيات، بغَضّ النظر عن نقائصها الكثيرة، فقد ظلت سنين عديدة تنشر بركات المسيحية بين كثير من القبائل والألسنة التي سادت عليهم الظلمة. وهكذا وصل نور وحياة الإنجيل إلى ملايين كانوا جالسين في الظلمة وظلال الموت. إن سقوط وقيام الإمبراطوريات أو الحصول على انتصارات عظيمة، أو اكتشاف وتعمير بلاد جديدة، أو تقدم الفنون والعلوم، كل ذلك لا يُحسب شيئًا إذا قيس بنشر الإنجيل في أنحاء العالم، الأمر الذي يجعل «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة» (لو ٢: ١٤).

يا ليت الرب يبارك الإرساليات الأجنبية والمحلية، وينجح خدمات مدارس الأحد، حتى يتمجد اسمه وتخلص ملايين النفوس العزيزة إلى الأبد.

• • •

والآن قد وصلنا بعناية الله الصالحة إلى القرن التاسع عشر، ولكن قبل أن نتكلم عن عمل روح الله القوي الفعال في بداية ذلك القرن يجب أن نشير إلى الكنيستين الأخيرتين، فيلادلفيا ولاودكية، اللتين تشرحان لنا فكر الرب عن حالة الكنيسة المعترفة باسمه قبيل أن يرفضها الرب نهائيًا وإلى الأبد.

الفصل السادس والخمسون

فيلادلفيا

باستعراض ترتيب الكنائس حسب ورودها في سفر الرؤيا نجد في أفسس انحرافًا، وفي سميرنا اضطهادًا، وفي برغامس انغماسًا عالميًا، وفي ثياتيرا خرابًا، وفي ساردس مواتًا، أما في فيلادلفيا فنجد الرب المبارك معزّيًا بقية أمينة دون أن يصف أعمالهم، مع أنه عرفها حق المعرفة. فهو يكلمهم، ليس كما يكلم كنيسة ساردس عن سلطته القضائية أو عن وفرة بركات الروح القدس، بل يكلمهم عن نفسه في مجده الأدبي «هذا يقوله القدوس الحق» (رؤ٣:٧). فالشركة الشخصية مع الرب نفسه كالقدوس الحق هي الصفة البارزة لرسالة فيلادلفيا. وبهذه الكيفية هو يعلن نفسه للبقية الضعيفة التي تشهد له، فهو لا يتكلم عما له بل عما هو في ذاته، ومع أن تلك البقية لها قوة يسيرة، إلا أنها في ارتباط وثيق به وشركة عميقة معه.

وإذ ترى تلك البقية خراب الكنيسة الظاهر حولها، وتشعر أنه لا فائدة تُرجى من محاولة ردها إلى مبادئ كلمة الله، تتمسك هي بالرب الذي له وحده عدم التغيير. والفيلادلفي الحقيقي يشكر الله لأجل شركة القديسين الثابتين في الحق، أما كل العقائد والنظريات والترتيبات البشرية فتبدو في نظره ميتة وباردة. وهو لا يجد لذته إلا في المسيح في الكلمة، والمسيح في المجد، المسيح المكتوب والمسيح الحي. ولكن يقول قائل: ألا يضيّق هذا دائرة تفكيره وخدمته؟ نقول: بالعكس، إننا نعتقد أن هذا يفصله عن العالم وديانة العالم. ونجد أن رسول الأمم العظيم يلخّص حياته وخدمته في كلمة واحدة: المسيح. «لي الحياة هي المسيح» (في١:٢١). إن يكن المسيح غرضنا وقوتنا والباعث لنا على العمل فإن دائرة خدمتنا تتسع بواسطة الصلاة والشهادة في نطاق عمل الروح القدس الواسع. ويوحنا أيضًا في رسالته الأولى عندما يكلم «الأولاد» في عائلة الله يقول لهم «لأن لكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء» وأيضا «ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية. أيها الأولاد احفظوا أنفسكم من الأصنام» (١يو٢:٢٠، ٥:٢٠،٢١). فإذا لم يكن المسيح هو الغرض الوحيد الذي يسود على قلب المسيحي يكون للأصنام مكان هناك. فالمسيح في مجده الأدبي هو موضوع مشغولية عواطفنا، وهو المستوى الوحيد اللائق بالخدمة والشركة والتلمذة، لأن المسيح هو «القدوس الحق».

من الطبيعي أن كثيرين منا ينفرون من مطاليب التلمذة الشاقة، ويتركوا الأمور تجري في طريقها ما داموا هم شخصيًا لا يساءون، وكرامة الجماعة لا تُمس. ولكن في هذا نزول عن مقياسنا، فالمسألة بالنسبة لشركة الكنيسة، ليست هي ما يوافقنا نحن، بل ما يوافق المسيح: هل هذا مقدس؟ هل هذا حق؟ إن القداسة والحق يجب أن يكونا الدعامتين العظيمتين لسلوك الكنيسة العملي. ويجب أن نسأل أنفسنا دائمًا هل هذا يوافق المسيح طبقًا لما يعلنه عن نفسه؟ المسيح الذي هو «القدوس الحق».

ومما لا شك فيه أن حالة الكنيسة في ساردس تختلف كل الاختلاف عن حالتها في فيلادلفيا. فهي في الأولى سلبية، وفي الثانية إيجابية. فالمسيح يقول لساردس «أنا عارف أعمالك أن لك اسما أنك حي وأنت ميت. كن ساهرًا وشدد ما بقى الذي هو عتيد أن يموت، لأني لم أجد أعمالك كاملة أمام الله» (رؤ٣:١،٢).

فهناك كان المظهر خلابًا، لكن لم يكن شيء كاملاً أو تامًا. فأعمالهم لم تطابق كلمة الله ولم يتمسكوا بالمكتوب تمسكًا دقيقًا، بينما الصفة المميزة لكنيسة فيلادلفيا أنها حفظت كلمة صبر المسيح ولم تنكر اسمه، وهذه هي الصفة المميزة للفيلادلفي الحقيقي حيثما وُجد من ذلك الوقت حتى الآن. فالمسألة ليست

مسألة قوة أو مظهر خارجي عظيم، بل شركة شخصية عميقة وثيقة مع المسيح نفسه بواسطة الكلمة المكتوبة بقوة الروح القدس. قد يكون كل ما حوله سائرًا سيرًا خاطئًا أو مرتبًا بحسب طقوس وفرائض ومظاهر عالمية، أما هو فيسير مع المسيح وسط هذا كله، ومثل الأسماء القليلة التي في ساردس لا ينجس ثيابه.

ثم نرى نعمة الرب يسوع تكافئ أمانة الفيلادلفيين بامتيازات وبركات كثيرة. «هذا يقوله القدوس الحق الذي له مفتاح داود، الذي يفتح ولا أحد يغلق ويغلق ولا أحد يفتح. أنا عارف أعمالك. هأنذا جعلت أمامك بابًا مفتوحًا ولا يستطيع أحد أن يغلقه لأن لك قوة يسيرة وقد حفظت كلمتي ولم تنكر اسمي» (رؤ٣: ٧،٨). فالمسيح لا يعلن نفسه فقط في مجده الشخصي لهؤلاء الأمناء، بل أيضًا في سلطانه وقوته الإلهية بسبب «قوتهم اليسيرة». فهو الذي له مفتاح داود طبقًا للنبوة القديمة «وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه، فيفتح وليس من يغلق ويغلق وليس من يفتح» (إش٢٢: ٢٢)، وهكذا كل كنوز العلم، وكل غنى النعمة، وكل قوة الروح القدس، وكل موارد بيت داود الملكي في يده وتحت أمره.

لو أن البشارة بالإنجيل مُنعت إلا حسب قوانين ونظم دينية خاصة فالأفضل للمبشر أن يكف عن التبشير، وينتظر الرب بإيمان الفيلادلفي الحقيقي، لأنه يعلم أن المفتاح في يد السيد. إنه لا يحتاج إلى فتح الباب باستعمال القوة، فقد يكون الوقت لم يأت بعد. لقد مُنع بولس مرة من أن يتكلم في آسيا، لكن الباب فُتح أمامه فيما بعد، وخدم هناك عدة سنين. مكتوب عن الرب المبارك نفسه في يوحنا ١٠: ٣ أنه له «يفتح البواب»، ولم يستطع الكتبة أو الفريسيون أن يمنعوا خراف بيت إسرائيل الضالة من سماع صوت الراعي الصالح. فالشخص الذي ينتظر الرب هو موضوع عطفه، ويستطيع أن يتكل على وعده «هانذا جعلت أمامك بابًا مفتوحًا ولا يستطيع أحد أن يغلقه».

نذكر هنا ثلاثة أشياء عن الفيلادلفيين يجب ملاحظتها بدقة. «لأن لك قوة يسيرة، وقد حفظت كلمتي، ولم تنكر اسمي». فلم تتميز حالتهم بأي مظهر من مظاهر القوة، وكانوا بلا اشتهار أمام العالم، ولم تكن لهم مواهب كورنثوس التي كانت شهادة للعالم غير المؤمن، ومن كلمات الرب نستدل على أنهم كانوا محتقرين في نظر كنيسة ساردس «هأنذا أصيرهم يأتون ويسجدون أمام رجليك ويعرفون أني أنا أحببتك» (رؤ٣: ٩). فالضعف كان صفتهم المميزة، ولكن الرب لم يوجِّه إليهم أي لوم. وذلك الضعف نفسه متى امتزج بالإيمان يكون عين القوة. «حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي» (٢كو١٢: ١٠). فإذا كان مظهرهم الخارجي مظهر الضعف فهم في الداخل أقوياء، لأن الرب لا يتوانى عن أن يمدهم بالنعمة اللازمة وقوة الحياة الداخلية التي تنحدر منه كالرأس المرتفع في المجد لتغذية أعضائه على الأرض. ولنلاحظ النبرة الخاصة التي يضعها الرب على ضمير المتكلم (الياء) «حفظت كلمتي ولم تنكر اسمي» فالكلمة المكتوبة هي كلمة المسيح، وهي ضماننا الوحيد وحجتنا ومرجعنا في كل الأزمان، وهي الواسطة للشركة المباشرة مع شخصه. واسم الرب معناه إعلان ما هو، فنحن نعرفه كالمخلص الذي تستريح النفس عليه للخلاص، وكالمركز الذي حوله نجتمع ككنيسة الله بقوة حضور الروح القدس «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» (مت١٨: ٢٠).

وظاهر من عدد ١٠ إن الرب يتكلم عن عصر تكون فيه قوة ضلال جارفة سينقذ خاصته منها «لأنك حفظت كلمة صبري أنا أيضًا سأحفظك من ساعة التجربة العتيدة أن تأتي على العالم كله لتجرب الساكنين على الأرض» ويقول الرسول بولس «ولكن الناس الأشرار المزورين سيتقدمون إلى أردإ» (٢تي٣: ١٣)، والوعد ليس أن يحفظهم عندما يجتازون في التجربة كما اجتاز نوح في مياه الطوفان، بل من التجربة كأخنوخ الذي نُقل إلى السماء قبل مجيء الطوفان. فعلينا أن نتمسك بكلمة صبره التي هي رجاء مجيئه، وعندما يأتي سيلاقينا بإكليل «ها أنا آتي سريعًا. تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك» (ع١١) وهذا يختلف كل الاختلاف عن مجيئه كلص في الليل كما هو يقدمه لكنيسة ساردس.

بعد ذلك تأتي المواعيد «من يغلب فسأجعله عمودًا في هيكل إلهي ولا يعود يخرج إلى خارج، وأكتب عليه اسم إلهي واسم مدينة إلهي أورشليم الجديدة النازلة من السماء من عند إلهي، واسمي الجديد. من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس» (ع١٢، ١٣).

هذه المواعيد جميعها ترتبط ليس بمستقبل الفيلادلفي الحقيقي فقط، بل كل مؤمن حقيقي بالمسيح يسوع. فهي ترتبط بمجد المسيح وأورشليم مدينته الجديدة، وبموطن المؤمن وراحته. وكأن في حالتنا في المجد جوابًا لما كنا عليه على الأرض، فأولئك الذين أخذوا في أنفسهم مركز الضعف، ولكن أمام الشر مركز

الثبات المقدس، سيُجعلون أعمدة هناك. ولأنهم لم ينكروا اسمه هنا سيكتب هو اسمه الجديد عليهم هناك.

ولا يزال يمثل أمامنا ذلك الفكر المبارك، فكر الاتحاد بالمسيح نفسه، إذ باتحادنا بذاك الذي هو موضوع سرور الآب التام قد صار لنا هذا المكان من القرب المقدس منه في الهيكل. ثم أن ياء المتكلم الغالية تعلن مركزنا العجيب في الهيكل! «اسمي»، «كلمتي»، «صبري»، «إلهي»، «اسمي الجديد». ويا لها من بركة عجيبة وفائقة لا يمكن وصفها أو إدراكها، أن نكون أعمدة في هيكل الله ولا نعود نخرج من هناك، وأن يُكتب علينا اسم الله، واسم مدينة الله أورشليم الجديدة، واسم المسيح الجديد كالإنسان المرفَّع في المجد. إن التأمل في مشهد هذه البركة الأبدية التي لا تشوبها شائبة يأسر كل تفكيرنا، فلا يسعنا إلا أن نحمد ونتعبد ونشتاق إلى الوجود هناك.

في بيت الآب في العُلا أُعِدَّ منزلي
هناك راحتي كَما خيرُ الجزاء لي
معْ مَن أحبُّ طاهرًا المعُ بالمجد
محضرُهُ يُبهِجُني وحبُّهُ سَعدي
إثْرُ الخطايا ينمحي والشرُ سيغيبْ
وفي النهار الأبدي أساكنُ الحبيبْ

لاودكية

يعزّ علينا أن نتحول عن صورة غاية في الجمال لننظر إلى صورة أخرى مؤلمة جدًا. إن لاودكية على عكس فيلادلفيا بالتمام. في فيلادلفيا يُرى الرب متنازلاً إلى خاصته الضعيفة الأمينة وبيده مفتاح داود ليسد كل أعوازهم وليظهر لهم ذاته كغرض عواطفهم، وهذه صورة مباركة للغاية وفي منتهى الجمال. أما لاودكية فمهدَّدة بالرفض النهائي بسبب عدم الأمانة، فليس هناك قلب مخصص للمسيح ذاته كالقدوس الحق. «واكتب إلى ملاك كنيسة اللاودكيين، هذا يقوله الآمين الشاهد الأمين الصادق بداءة خليقة الله، أنا عارف أعمالك أنك لست باردًا ولا حارًا، ليتك كنت باردًا أو حارًا. هكذا لأنك فاتر ولست باردًا ولا حارًا أنا مزمع أن أتقيأك من فمي» (رؤ ٣: ١٤-١٦). فعدم أمانة كنيسة اللاودكيين لدعوتها السماوية، وعدم أمانتها كشاهدة للمسيح الموجود عن يمين الله، أصبحت علنية وسافرة لدرجة لا يمكن احتمالها بعد.

هذه للأسف صورة حقيقية للحالة المحزنة التي ستكون الكنيسة الاسمية قد وصلت إليها عند تنفيذ القضاء المعلن هنا «أتقيأك من فمي» فالكنيسة لا تزال موجودة شكليًا، ولا تزال الدينونة تتمهل عليها، ولكنها مؤكَّدة الوقوع لا محال. وعندما يتم هذا سيأخذ المسيح مركزه «كالشاهد الأمين الصادق»، وأيضًا باعتباره «الآمين» الذي فيه تتم كل مواعيد الله بالارتباط مع الخليقة الجديدة. والمسيح هنا يقدم نفسه كالمتمم لما فشلت الكنيسة في تأديته كشاهدة لله على الأرض، والمحتفظ بكل مواعيد الله بعد أن خاب منها الآخرون «لأن مهما كانت مواعيد الله فهو فيه النعم وفيه الآمين لمجد الله بواسطتنا».

كما رأينا بدأ الفشل يدب أولاً في أفسس «أنك تركت محبتك الأولى». ولاودكية، آخر السبع الكنائس، تمثل ما ستكون عليه المسيحية عندما تنضج للدينونة، ولكنها، مثل الأموريين، لم يكمل بعد مكيال إثمها بعد. إن النعمة لا تزال تتمهل، والإنذارات لا تزال تتكرر، والباب لا يزال مفتوحًا، وكل من يُرد فليدخل بالإيمان بيسوع المسيح، فيجد ملجأ من الدينونة القادمة. وقبل أن يُفك ختم أو يبوّق بوق أو يُصب جام غضب، ستكون الكنيسة الحقيقية قد اختُطفت للسماء، حيث تقدم السجود في سلام في هيكل الله.

وما قلناه عن تعاقب هذه الكنائس في بداية تاريخنا يبدو مؤيَّدًا بالتمام من كلام الرب نفسه إلى لاودكية، وإنذارها بالرفض التام. ومع أن الكنيسة الاسمية لم تصل حتى الآن إلى حالة الخيبة المتناهية، إلا أنها مندفعة بسرعة نحوها، وهي بكل تأكيد تتقدم إلى أردإ من سنة إلى أخرى. فلا نجد فيها فقط رجوعًا عامًا إلى الطقوس، وجنوحًا إلى الديانة العقلية في كل مكان تقريبًا، بل هناك أيضًا كفر علني صريح حتى بين أساتذة اللاهوت ومعلمي النشء. وإذا كان المنبع هكذا فاسدًا فماذا ستكون حالة الأنهار؟ أما التمسك الشديد بكلمة المسيح، وعدم إنكار اسم المسيح، وانتظار مجيئه، التي هي صفات الفيلادلفي الحقيقي، فلا نجدها إلا نادرًا وسط المسيحية في هذه الأيام.

إن الفتور أو الرخاوة المتمثلة في عدم المبالاة بالحق وبمجد شخص المسيح هو خطية لاودكية، وهذه الحال لا تنتج عن الجهل، بل عن التهاون وعدم الاهتمام. تقول الكنيسة «أنا غني وقد استغنيت ولا حاجة لي إلى شيء» (ع١٧) وهذا إدعاء فارغ بالغنى

الروحي في الكنيسة ذاتها. لاحظ القول «أنا غني»، هذه هي علامة الفقر الأكيد، لأن الغنى الحقيقي في المسيح وحده، لذلك يقول الرب «ولست تعلم أنك أنت الشقي والبئس وفقير وأعمى وعريان». هذا هو تقدير المسيح للكنيسة المنتفخة، التي تفتخر معلنة عن غناها الذاتي، بينما هي خالية من الحياة الإلهية والتمييز الروحي، ومجرَّدة من غنى المسيح وبر الله.

ونعتقد أنه من السهل تطبيق الحالة اللاودكية على الوقت الحاضر. إننا نخشى أن يكون هناك عدد كبير من الكنائس تدّعي الغنى الروحي ولا تبالي بكلمة الرب يسوع واسمه. فأين نجد الاعتراف بالسلطان المطلق للكلمة، وباسم المسيح كقوة ومركز الاجتماع الوحيد؟ نحن لا نتكلم عن أفراد، بل عن الهيئات المسماة كنائس. أو ليس هناك منابر عديدة وصل بها الأمر إلى حد المناقشة في صحة وحي الكتاب المقدس؟ وحيث توجد هذه الحالة لا يمكن أن يكون للسامعين غير مباحثات عقلية بشرية، بغض النظر عما يظهر من قوة الذكاء والادعاء بالغنى الروحي.

ونحن نترك للقارئ أن يطبق هو فيلادلفيا ولاودكية على الوقت الحاضر، فهما تسيران مع ثياتيرا وساردس إلى رجوع الرب. على أن أولاد الله يجب أن يسهروا ضد الفتور بالنسبة إلى الأمور التي حولهم، لا بل ويعملوا على اتّباع مثال المسيح الذي لا يزال يدعو النفوس المخدوعة، إذ لم يرفضهم بعد.

«أشير عليك أن تشتري مني ذهبًا مصفى بالنار لكي تستغني، وثيابًا بيضًا لكي تلبس فلا يظهر خزي عريتك، وكحل عينيك بكحل لكي تبصر» (ع١٨). فالكنيسة لم تكن تطلب هذه الأمور من الرب بل كانت تفتخر بغناها الذاتي كما لو كانت هي مستودع النعمة وليس المسيح «أنا غني وقد استغنيت ولا حاجة لي إلى شيء» ولكن الرب المنعم عرف حاجتها وأشار عليها أن تشتري منه بلا فضة وبلا ثمن.

إن الذهب هو رمز البر الإلهي، بر الله الذي صاره كل مسيحي في المسيح، لذلك هو يمثل أساس قبول القديسين. «والثياب البيض» هي البر العملي، أعمال القديسين أو أثمار الروح القدس فيهم، مثل «المحبة والفرح والسلام وطول الأناة واللطف والصلاح والإيمان والوداعة والتعفف» فأين نرى أثمارًا كهذه في الكنيسة الاسمية؟ إننا لا نستطيع أن نقول في الوقت الحاضر إنها روحيًا تشغل مركزًا أسمى من العالم المحيط بها. ثم هناك الكحل، لأنهم بالطبيعة عميان عن أمور الله، بغض النظر عن ادعائهم بالنور الروحي. لا يمكن أن يقال للاودكيين «لأن لكم مسحة من القدوس وتعرفون كل شيء» فلمن يمكن أن يقال هكذا في الوقت الحاضر؟ ولكن الرب يقول «كن غيورًا وتب» وما أعظمها نعمة وما أعظمه صبرًا! وما أحوج الكل إلى هذه الكلمة في هذا الوقت. إن محبة الرب لا تزال تطرق الباب، ويا للأسف هو في الخارج «هانذا واقف على الباب وأقرع» (ع٢٠)، ياله من مكان! خارج الباب.

وأخيرًا تُسمع الطرقات، والنائم يستيقظ، والخراف تسمع صوته وتعرفه، وهو يجمعها ويخرج بها، وعدد شعبه يتم، ويكمل الجسد، ويختطف إلى السماء. ثم تأتي النهاية، وينصب الغضب، وتُطرح كتلة المسيحية الفاسدة خارجًا إلى الأبد. وبعد ذلك تتوالى دينونات الأرض، دينونة ارتداد المسيحية وضيقة يعقوب. أما الكنيسة الحقيقية، عروس المسيح المختارة المقدسة، فتكون معه في بيت الآب ذي المنازل الكثيرة.

ولا نسمع بعد ذلك عن كنيسة على الأرض، وكل تاريخ الكنيسة ينتهي هنا. كانت أول صفحة من تاريخها العجيب في أعمال ص٢ وآخر صفحة منه في رؤيا ص٣. وهوذا باب يفتح في السماء، ويدعى يوحنا ليصعد إليه ليرى ما لا بد أن يكون بعد اختطاف القديسين. في الأصحاح الأول يقول «فالتفت لأنظر الصوت الذي تكلم معي، ولما التفت رأيت سبع منائر من ذهب» (ع١٢). وفي الأصحاح الرابع يدعوه الصوت نفسه، لا لكي يلتفت، بل لكي يصعد إلى باب السماء المفتوح ليرى ما يجري في الداخل. ونحن أيضًا لنا أن نلتفت ونرى الحيوانات الأربعة، والأربعة والعشرين شيخًا مكللين وجالسين على عروش وساجدين، كما نسمع رعودًا وبروقًا وأصواتًا تنبعث من العرش، ولكن القديسين في حالة الراحة الأبدية المباركة الكاملة.

إن مجد الله يتعظم في الخليقة في الأصحاح الرابع، وفي الفداء في الأصحاح الخامس، أما في الأصحاح السادس فيبتدئ موضوع سفر الرؤيا فعلاً. يا ليت الرب يساعد القارئ والكاتب معًا لحفظ كلمة صبر المسيح، وعدم إنكار اسمه، والتمسك بما عندنا لكي لا يأخذ أحد إكليلنا.

• • •

في ضوء الشرح الذي قدمناه عن الرسالة إلى فيلادلفيا وإلى لاودكية نتوقع أن نجد في القرن التاسع عشر شيئًا جديدًا من عمل الروح القدس، وخصوصًا من جهة كشف القناع عن حقائق كثيرة

خفيت على الكنيسة الاسمية من أيام الرسل تقريبًا. إن كنيسة فيلادلفيا هي الوحيدة التي لم يوجه لها الرب لومًا، بل يطلب إليها أن تتمسك بكلمته، وأن لا تنكر اسمه، وأن تحفظ كلمة صبره، التي تعني توقع مجيئه باستمرار، وهذه الصفات لم نجدها في أية جماعة في تاريخ الكنيسة السابق، فمن بعد أيام الرسل مباشرة حلت الاختراعات البشرية محل كلمة المسيح والترتيبات البشرية محل سلطان اسمه، ولم يذكر أو يكتب شيء، إلا النادر جدًا عن موضوع مجيء الرب للكنيسة كعروسه حتى القرن التاسع عشر، وبلا شك قد تكون هناك في أزمنة مختلفة بعض القلوب المحبة التي حنت واشتاقت إلى مجيئه، ولكن هذا لم يكن جزءًا من الحق الذي كانوا يعلمون به، سواء في العصور الوسطى أو عند الإصلاح. إن التعاليم الخاصة بوحدة كنيسة الله، وبمجيء الرب كرجاء الكنيسة الحي، وبحضور الروح القدس على الأرض بينما المسيح جالس عن يمين الله، جميعها خفيت على رجال الإصلاح.

الحق النبوي

انتعشت دراسة الحق النبوي جدًا في أوائل القرن التاسع عشر. ففي سنة ١٨٢١م ظهرت رسالة قصيرة عنوانها "المطر المتأخر" بقلم القس لويس واي، وكان غرض الكاتب الأساسي هو أن يبرهن من الكتاب المقدس على مجد المُلك الألفي. وفي سنة ١٨٢٤م ظهرت قصيدته التي عنوانها "بالينجنيسيا" أو "العالم العتيد". وفي سنة ١٨٢٦م ظهر كتاب "آراء عن انتظارات الكنيسة بحسب المكتوب"، بقلم بازيليكوس، وفي هذا الكتاب تناول الكاتب دائرة أوسع من سابقه، ولو أن المُلك الألفي احتل مكانًا عظيمًا فيه. وفي سنة ١٨٢٧م حاول القس إدوارد إيرفنج أن ينبه الكنيسة وخصوصًا إخوته في الخدمة إلى الشعور بمسئوليتهم من جهة صدق النبوات، فترجم كتاب بن عزرا وهو يهودي متنصر عن "رجوع المسيا بالمجد والجلال"، مع مقدمة طويلة له، هذا الكتاب كُتب أولاً باللغة الأسبانية، ونشر لأول مرة في أسبانيا سنة ١٨١٢م.

كان تداول هذه الكتب، وأخرى غيرها ظهرت حوالي ذلك الوقت، ومقالات جديدة كانت تظهر في المجلات، سببًا في إنعاش الرغبة العميقة في دراسة الكتب النبوية، التي أصبحت دراستها في ذلك الوقت شيئًا جديدًا من نوعه، وأدت إلى تأسيس ما يسمى "الاجتماعات النبوية" في بريطانيا وأيرلندا. وكانت تُعقد بصفة خاصة في "ألبوري بارك" في إنجلترا وفي "باورز كورت" في أيرلندا. وكان يحضر هذه الاجتماعات كثيرون ومن بينهم بعض رجال الإكليروس، ولكن يظهر أنهم لم يدركوا من قراءاتهم أكثر من مجد المُلك الألفي، أما علاقة المسيح بالكنيسة كشيء متميز عن إسرائيل والأرض فلم تكن واضحة حينئذ.

الحق الخاص بالكنيسة

حوالي ذلك الوقت كان روح الله يعمل بشكل واضح في أفكار كثيرين في جهات مختلفة من المملكة، منبهًا كثيرين من أبناء الله، ليس فقط إلى أهمية الحق النبوي، بل أيضًا إلى ما أعلنه في كلمته من جهة الكنيسة كجسد المسيح التي يكونها ويقودها الروح القدس. وكان الأمر كذلك على وجه خاص في تلك الآونة في مدينة دبلن، حيث أحس بعض الرجال المسيحيين الغيورين في أعماق قلوبهم بالحالة الروحية المنحطة بين مختلف الطوائف المسيحية، وبالتباين العظيم بين كنيسة الله كما هي في نور كلمته وبين تلك التي يسميها الإنسان الكنيسة. ومن خلال اختبارات قلبية عميقة وشعور عميق بالألم، وصلوا إلى الاقتناع بوجوب الانفصال الفعلي عن الأنظمة الدينية الكائنة في ذلك الوقت، والتي كانت تربطهم بها روابط عديدة.

كان هذا شيئًا جديدًا في تاريخ الكنيسة، لأن أفضل المصلحين في جميع العصور لم تكن عنده الرغبة في قطع علاقته بكنيسة روما إذا هي قبلت بإصلاح أخطائها. وتقريبًا معظمهم قد عُزلوا منها عزلاً. حتى المتطهرون ووسلي وهويتفيلد كانوا قد طُردوا من الحظيرة الرومانية.

ولما كان كثيرون ممن أخذوا مركز الانفصال في بداية هذا العصر لا يزالون أحياء * فسوف لا نكتب إلا عن أصل هذه الجماعة، ثم نأتي بكلمة مختصرة عن كيفية تقدّمها، لأننا لا نستطيع أن نسرد تاريخ الكنيسة حتى الوقت الحاضر دون أن نخصص لها مكانًا. أما بخصوص ما ظهر من مطبوعات وما كتبوه بأنفسهم فلنا أن نتكلم عنه بكل حرية. إن كتاباتهم سواء في نبذ أو كتب أو مجلات دوريه هي من الذيوع والانتشار على وجه المسيحية عامة بدرجة لا تحتاج إلى كلام أو تعليق.

* عند كتابة هذا الكتاب باللغة الإنجليزية في أواخر القرن التاسع عشر.

الإخوة

في شتاء سنة ١٨٢٧-١٨٢٨م، اتفق أربعة من المسيحيين الذين فهموا وأدركوا حالة الكنيسة الاسمية، على الاجتماع معًا في صباح أيام الرب ليسجدوا ويشتركوا في كسر الخبز حسب كلمة الرب، وهم مستر داربي ومستر كرونن، مستر بلت ومستر هتشنسون، وعقدوا أول اجتماع لهم في منزل هتشنسون في مدينة دبلن رقم ٩ميدان فيتز وليم. وكانوا قد تواتروا لمدة طويلة على دراسة الكتاب المقدس مع كثيرين ممن كانوا يحضرون اجتماعات الدراسة معهم، مقارنين ما يجدونه في كلمة الله مع حالة الأمور التي تحيط بهم، سواء في الكنيسة الوطنية الرسمية أو في الجماعات المنشقة العديدة. وقد قادهم هذا لأن يأخذوا مركز الانفصال عن جميع هذه الأنظمة الكنسية، ويجتمعوا معًا باسم الرب يسوع، معترفين بحضوره وسيادته في وسطهم وقيادة الروح القدس، مجتهدين بحسب ما عندهم من حق، «أن يحفظوا وحدانية الروح برباط السلام» (مت١٨: ٢٠، أف٤: ٣،٤). وواظب الإخوة على الاجتماع في ميدان فيتز وليم، وانضم إليهم آخرون بالتدريج.

جماعة قليلة العدد، اجتمعت معًا باسم الرب يسوع، معترفين بحضور الروح القدس في وسطهم، كانوا يبشرون بالإنجيل الكامل بوضوح وقوة لم تُعرف منذ أيام الرسل، كما راحوا يقدّمون الحق التعليمي والعملي في نبذ وكتب ينشرونها على نطاق واسع المدى. وقد قادهم الرب إلى استخراج الحقائق العظمى الخاصة بالكنيسة، وأعمال الروح القدس، والرجاء المبارك بسرعة مجيء الرب، بقوة عظيمة ولمعان فائق لرفع قلوب كثيرين ولبركة عدد وفير من النفوس الثمينة بركة أبدية.

تحت قيادة الروح القدس أنكب هؤلاء الرجال، ومعهم كل من تأثر في اجتماعاتهم بالحق الإلهي، على فحص كلمة الله فيما يتعلق بالأنظمة الكنسية التي حولهم، فتعمق في نفوس الكثيرين اقتناع شديد بأن كثيرًا من التعليم في الطوائف من حولهم لا يتفق مع كلمة الله، وأن كثيرًا من العوائد كان مبنيًا على التسليم التقليدي ولا يتفق مع الشريعة والشهادة (إش ٢٠:٨). وأن المبادئ والممارسات المفصّلة بوضوح في رسالتي كورنثوس وغيرهما، والتي أُعطيت لكنيسة الله دستورًا لكل جيل، لم تكن متبعة في الطوائف المسيحية، وبذلك أهدرت تلك المبادئ التي هي إلى «جميع الذين يدعون باسم ربنا يسوع المسيح في كل مكان» (١كو ١: ٢).

وقد نتج عن تلك الحركة أخطر النتائج، لأنهم وجدوا في النهاية أنهم لا يستطيعون أن يبشروا أو يعلموا ويمارسوا كل ما يجدونه مكتوبًا في كلمة الله لو أنهم ظلوا في الطوائف التي تتجاهل فصولاً من كلمة الله وتفسر فصولاً أخرى تفسيرًا متعسفًا، فاقتنعوا بوجوب الانفصال كما تعلمهم الكلمة (رو١٨: ٤، ٢تي ١٥:١٩).

وقد أثار هذا اهتمامًا عظيمًا بين الجماعات المسيحية. وكل من كان يحضر اجتماعات الإخوة التي انتشرت وتأسست في عدة جهات من المملكة المتحدة (إنجلترا وويلز وأيرلندا واسكتلندا) كان يندهش لرؤية مئات من الأشخاص يجتمعون معًا بدون خادم مرسوم، ومع ذلك فلا فوضى ولا اضطراب بل «كل شيء بلياقة وحسب ترتيب».

ولم تكن تعاليم وشهادة هؤلاء الرجال الأتقياء هي التي أحيت وغذت النهضة التبشيرية التي عمت البلاد منذ سنة ١٨٥٧م فحسب، بل أعطت صبغة جديدة لمشروعات الإرساليات، وأبرزت بفضل المواظبة على دراسة كلمة الله، عدة حقائق ثمينة، أصبحت الآن ميراثًا عامًا لكنيسة الله في الأجيال التالية.

إنه بدافع الملل من المنازعات الطائفية والشوق إلى حياة عملية مطابقة للمثال الرسولي تكونت جماعات صغيرة من رجال مخلصين غيورين بدأوا يجتمعون معًا، وكانوا لا يعرفون بعضهم البعض، فلم يكونوا قبل ذلك من طائفة دينية واحدة، واتفقوا على عدم الخضوع لأية قيادة بشرية. وكان منشأ تلك الحركة إشراق نور جديد في القلوب عن شخص الرب يسوع المسيح. وكان هذا هو السر الخفي الذي ألهب حياة كثيرين، مغيرًا حياتهم من الداخل والخارج. وقد تأثر بتلك الحركة بعض من رجال الفكر ومن رجال العائلات العريقة، ومن العلماء، ومن الطلبة، ومن رجال القانون، ومن كبار ضباط الجيش، ومن أصحاب الأملاك الواسعة، كما من سائر طبقات المجتمع، ومن مختلف المهن والحرف، ومن بينهم من زودهم الرب بطاقات خاصة ومواهب غنية.

وفي الفترة ما بين عامي ١٨٢٨، ١٨٦٨م أذيعت كلمة الإنجيل بصورة عجيبة تشهد لعمل روح الله في النفوس، فكانت الكلمة تذاع في الهواء الطلق وفي الخيام التبشيرية وفي القطارات وفي الصالات العامة وفي الكنائس وفي المسارح وفي الملاعب وفي حلقات السباق، وبواسطة توزيع النبذ والكتب المقدسة. كذلك لم يكن غريبًا أن تخلص

نفوس تعد بالمئات في اجتماع واحد وفي ليلة واحدة.

لم تدّعي تلك الجماعة (أو الجماعات) العصمة من الخطإ، ولكنهم بسرور وبفرح احتفظوا بأداء شهادة راسخة وشاملة من جهة حقائق الإيمان الجوهرية، بما في ذلك صحة وحي الكتاب المقدس، وكمال ناسوت ربنا يسوع المسيح، ولاهوته الأزلي، وقيمة عمله المجيد، وخراب الإنسان خرابًا شاملاً، وضرورة وكفاية الكفارة، وامتلاك المؤمن من الآن للحياة الأبدية، وكهنوت جميع المؤمنين، ووحدة جسد المسيح أي كنيسة الله التي تتسع لتضم جميع القديسين، ولكنها تضيق حتى لا يدخلها شخص واحد غير مؤمن، وكمال وكفاية كلمة الله المكتوبة في كل أمور الإيمان، وفيما يتعلق بعيشة المؤمنين وسلوكهم. وكسر الخبز أسبوعيًا كامتياز لجميع أولاد الله، والانفصال عن العالم وعن هيئاته، واجتماع المؤمنين معًا باسم الرب بعيدًا عن الأسماء الطائفية والادعاءات الإكليريكية، ومجيء المسيح ودينونة الأحياء والمُلك الألفي، وعذاب الأشرار عذابًا أبديًا حقيقيًا، وبركة ومجد المخلصين بركة أبدية.

وإذ أقروا بسيادة كلمة الله وسلطانها، وطرحوا جانبًا قوانين وأنظمة البشر التي صارت حواجز طائفية في سبيل شركة القديسين، اعترفوا بأن المبدأ الأساسي للجماعات المسيحية هو أن تكون كلمة الله هي المرجع الوحيد في كل ما يختص بالتعليم والحياة العملة، وأن قراراتها حاسمة وملزمة للجميع.

نبذة الإخوة الأولى

في هذه النبذة مستند واضح وإيجابي بالنسبة لبداية تاريخهم ومبادئهم، يعتمد عليه أكثر مما يعتمد على تقرير عام أو روايات شخصية.

ففي سنة ١٨٢٨م نشر جون داربي نبذته الأولى وعنوانها "طبيعة ووحدة كنيسة المسيح". ويمكن اعتبار هذه النبذة كتقرير عما آمنت به ومارسته تلك الجماعة الصغيرة، وكتقديم للأساس الإلهي الذي عليه كانوا يعملون. كما يمكن أيضًا اعتبارها تعبيرًا عن معظم عناصر الحقائق البارزة التي عُرفت وكشفت للإخوة من ذلك اليوم حتى الآن. ليس أن الكاتب قصد شيئًا من ذلك، ولكنه إنما أراد أن يفيد الآخرين بما تعلمه لنفسه من كلمة الله. ولكن من ذا الذي يشك في إرشاد الروح القدس للكاتب في مثل هذه النبذة؟ لا شك أنه كان يقود آلاته المختارة بكيفية لم يدركوها، حتى يكون الفضل في البركة الناتجة لنعمته وحقه وحدهما.

ولما كانت هذه النبذة هي أول شهادة علنية في حركة واسعة أتت بثمرات مباركة فيما يختص بتحرير النفوس، فسنأتي هنا، لفائدة القراء، ببعض مقتطفات منها، خصوصًا ما ورد فيها عن وحدة الكنيسة *.

"نحن نعلم أن قصد الله في المسيح أن يجمع في واحد كل شيء، ما في السماء وما على الأرض، مصالحًا الكل لنفسه فيه. وأن تكون الكنيسة بعمل الروح القدس شاهدة لهذه الحقيقة على الأرض، بجمعها لأبناء الله الذين كانوا متفرقين، وإن تكن بالضرورة في حالة عدم الكمال أثناء غياب الرب. والمؤمنون يعلمون أن جميع المولودين من الروح لهم وحدة في الفكر، بحيث يعرفون بعضهم البعض ويحبون بعضهم البعض كإخوة. ولكن ليس هذا هو كل القصد، حتى لو أمكن تتميمه عمليًا، الأمر غير الحاصل الآن، بل المقصود أن يكونوا واحدًا لكي يعرف العالم أن يسوع أُرسل من قبل الله. وفي هذا يجب أن نعترف جميعنا بفشلنا المحزن. ولست أحاول أن أضع هنا مقاييس أمام أولاد الله لتأسيس مبادئ قويمة، لأني مقتنع أن هذا يجب أن ينتج من تأثير روح الله الفعال ومن تعليمه غير المنظور. ولكن لا بأس من أن نلاحظ ما ينطوي عليه هذا الاتحاد، والموانع الإيجابية التي تحول دونه.

فأولاً ليس المطلوب اتحادًا شكليًا بين الهيئات المعترفة ظاهريًا بالمسيحية، وإن كان من المدهش أن يرغب في هذا البروتستانت المفكرون، إلا أنني أعتقد أنه لو أمكن تكوين هيئة كهذه فلا يمكن أبدًا أن يُعترف بها ككنيسة الله، إذ يكون مثلها مثل وحدة كنيسة روما، فلن تكون للكنيسة حياة، ولا لكلمة الله سلطان، وتغيب وحدة الحياة الروحية تمامًا. ولكن مهما تكن النتائج بحسب خطط العناية الإلهية، فلا يجب أن نعمل إلا وفق مبادئ النعمة فقط. والوحدة الحقيقية هي وحدانية الروح، ويجب أن تكون من عمل الروح.

فإذا كان الوجه الذي استعرضناه عن حالة الكنيسة صحيحًا فلنا إذًا أن نحكم أن من يخدم أغراض أية طائفة خاصة إنما هو عدو لعمل روح الله، وأن أولئك الذين يؤمنون «بقوة الرب يسوع المسيح ومجيئه» عليهم أن يحترزوا من روح كهذه،

* يمكن للقارئ أن يرجع إلى النص الكامل لهذه النبذة في "كتابات ج. ن. داربي" *Collected Writings of J. N. Darby, Ecclesiastical vol.1*.

لأن في هذا رجوع بالكنيسة إلى حالة نتجت عن الجهل وعدم الخضوع للكلمة، وأدت إلى أسوإ النتائج المناقضة للمسيحية. «إنه لا يتبعنا» هذا مرض فكري شديد الوطأة ومنتشر حتى بين المسيحيين الحقيقيين.

قليلاً ما يعي المسيحيون كيف يسيطر هذا الفكر على عقولهم، وكيف أنهم يطلبون ما هو لأنفسهم وليس ما هو للرب يسوع المسيح، وكيف أن هذا يجفف ينابيع النعمة والشركة الروحية، وكيف أنه يحول دون الاجتماع باسم الرب، الأمر الذي تقترن به البركة. إن كل اجتماع لا يتسع ليضم جميع أولاد الله على أساس سيادة ورئاسة الابن لا يستطيع أن يجد ملء البركة، لأنه لا يقدره ولا يقبله بالإيمان.

وعلى ذلك فالعامل الوحيد والعلامة الظاهرية للوحدة هي الاشتراك في عشاء الرب «لأننا نحن الكثيرين جسد واحد لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد» (١كو ١٠:١٧). وما هو الغرض الحقيقي من هذه الممارسة والشهادة الحقة فيها كما يقول عنها الرسول بولس؟ إنه «كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء» (١كو ١١:٢٦). هنا إذًا نجد طابع حياة الكنيسة الذي إليه دُعيت، والذي فيه تقوم حقيقة وجودها، والذي فيه فقط الوحدة الحقيقية.

فهل أنا بذلك أطلب إلى المؤمنين أن يصلحوا الكنائس؟! إنني أرجوهم أن يصلحوا أنفسهم بأن يعيشوا كما يحق لرجاء دعوتهم. إنني أطلب إليهم أن يظهروا إيمانهم بموت الرب يسوع، وافتخارهم باليقين المجيد الذي حصلوا عليه بواسطة هذا الإيمان، وأن يظهروا إيمانهم بمجيء الرب وينتظروه عمليًا بالعيشة اللائقة وبالأشواق المنحصرة في هذا المجيء، وليشهدوا ضد عمى الكنيسة وروحها العالمية، وليدققوا في سلوكهم. ليكن حلمهم معروفًا عند جميع الناس، لأنه حيث تتغلغل روح العالم لا يمكن أن يكون هناك اتحاد روحي.

قليلون من المؤمنين هم الذين يعرفون كيف أن الروح التي فتحت الباب بالتدريج أمام انتشار الارتداد لا تزال تبث تأثيرها المهلك المخرب وسط الكنيسة الاسمية... إني أؤمن أن الله لا يزال يعمل بوسائل وطرق خفية لإعداد الطريق وصنع سبله مستقيمة، وبمزيج من العناية والشهادة هو يعمل ما كان إيليا يعمل، وإني متيقن أنه سيجعل الناس يخجلون بنفس الأمور التي بها كانوا يفتخرون. كما إني متيقن أنه سيحط من كبرياء المجد البشري «فيُخفَض تشامخ الإنسان وتوضع رفعة الناس، ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم» (إش ٢:١٧).

ولكن هناك جانب عملي على المؤمنين أن يسلكوا فيه، فهم عُرضة لأن يضعوا أيديهم على أمور كثيرة لا يمكن أن تثبت عمليًا أمام قوة ذلك اليوم، أمور تدل على أن رجاءهم ليس في ذلك اليوم، مثل مشاكلة العالم التي تبين أن الصليب ليس له مجده الصحيح في أعينهم. زد على ذلك أن الوحدة هي مجد الكنيسة، ولكن الوحدة التي من ورائها نحقق مصالحنا الشخصية ليست هي وحدة الكنيسة، بل ما هي إلا تحالف بشري وإنكار لطبيعة ورجاء الكنيسة. أما وحدة الكنيسة فهي وحدة الروح، ولا تكون إلا في أمور الروح، ولذلك لا تكمل إلا في الأشخاص الروحيين. إذًا ماذا يفعل شعب الرب؟ لينتظروا الرب، ولينتظروا حسب تعليم روحه القدوس، ولينتظروا حسب مثال الابن المبارك بقوة حياة الروح القدس.

ولكن إن كان أحد يقول ماذا أنت فاعل ومن حولك هذه الأمور؟ أقول إنه لا يسعني إلا أن أعترف بالتقصيرات العديدة وأحزن من أجلها، إني أعترف بضعف إيماني، ولكني أطلب هداية الرب بلجاجة. دعني أكرر ما سبق أن قلته إن وحدة الكنيسة لا يمكن أن توجد إن لم يكن غرض أفرادها جميعًا هو مجد الرب، رئيس الإيمان ومكمله. مجده الذي سيُعلن في بهائه عند ظهوره. والرب نفسه يقول «ليكون الجميع واحدًا كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني. وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما أننا نحن واحد. أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد، وليعلم العالم أنك أرسلتني وأحببتهم كما أحببتني» (يو ١٧:١٢-٢٣).

يا ليت الكنيسة تزن هذه الكلمة، وتنظر هل حالتها الحاضرة لا تحول دون إعلان مجد الرب ودون تتميم ذلك الغرض الذي إليه دُعيت، هل اشتهت الكنيسة شيئًا من ذلك ورغبت فيه؟ أم هي قانعة بأن تجلس وتقول: إن وعد الرب قد انتهى إلى الأبد؟ بكل تأكيد إذا لم نستطع أن نقول كما قيل عن أورشليم الأرضية «قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك» (إش ٦٠:١)، فلنقل «استيقظي استيقظي ألبسي قوة يا ذراع الرب. استيقظي كما في أيام القدم كما في الأدوار القديمة» (إش ٥١:٩).

هل يعطي الرب مجده لهذا الفريق أو لذاك؟ أو أين يجد مكانًا لهذا المجد ليستقر عليه بيننا؟

لقد ذهبت إلى أبعد مما كنت أقصده في هذه النبذة، لكن إن كنت قد ذهبت في أي شيء إلى أبعد مما يريده روح الرب فإني بكل شكر أقبل التوبيخ وأطلب من الله أن يجعل ما شططت فيه نسيًا منسيًا".

أول مكان اجتماع عام للإخوة

كان تأثير هذه الحقائق الكتابية الواضحة فعالاً وعظيمًا، وتردد صداها في قلوب الكثيرين، فالمسيحيون الغيورون الذين كانوا يشعرون بحالة الكنائس المنحطة ويحزنون عليها رحبوا بهذا الحق الذي أُعلن لهم، وكثيرون تركوا طوائفهم التي ينتسبون إليها، وانضموا إلى تلك الحركة الجديدة، ولقد ازداد عددهم حتى أنه بعد سنة تقريبًا أصبح منزل مستر هتشنسون غير مناسب لاجتماعاتهم، فاستأجر بارنل (الذي صار لورد كونجلتون فيما بعد) والذي انضم إلى الإخوة في سنة ١٨٢٩م، غرفة مزادات واسعة في شارع أونجير لاجتماع الإخوة في يوم الرب. وكانت فكرته أن مائدة الرب يجب أن تكون شهادة علنية عن مركزهم. وهذا أول مكان عام لاجتماع الإخوة فيه بدأوا يكسرون خبزًا في ربيع سنة ١٨٣٠م ويمكن اعتبار هذا المكان عينة لأمكنة الاجتماعات التي اتخذها الإخوة في جميع أنحاء المملكة من ذلك الحين. ولكي يهيئوا المكان للاجتماع في صباح يوم الرب تعود ثلاثة أو أربعة من الإخوة أن يزيحوا الأثاث جانبًا كل مساء سبت. وكثيرون كانوا معتادين على أبهة الكنائس والمعابد شعروا بغرابة المكان عند حضورهم فيه لأول مرة، لكن الحقائق التي سمعوها كانت جديدة في تلك الأيام مثل الفداء، ومعرفة الغفران والقبول، ووحدة جسد المسيح، وحضور الروح القدس في الاجتماع، ومجيء الرب الثاني.

يقول مارسدن(٤٦) "من الصعب أن نضع أمام القارئ وفي شكل بسيط مبادئ هذه الجماعة، فهي لم تصدر قوانين إيمان، ولم تعمل ترتيبات خاصة بالعبادة أو الممارسات، ولكنها تعترف بممارسة المسيحية كما أعلنها ربنا والرسل، وكما جاءت في العهد الجديد. والإخوة يعارضون الكنيسة الوطنية، كما يعارضون جميع الطوائف الأخرى، فهم يقولون عن الكنائس الوطنية إنها تفتح الباب لقبول جميع سكان المملكة في ممارسة أخطر أجزاء العبادة والشركة المسيحية، وهذا إنما هو غلطة رخوية. أما عن الطوائف الأخرى فهم يقولون إنها متحزبة، لأنها تغلق الباب أمام المسيحيين الحقيقيين الذين لا يستطيعون أن يوافقوهم على كل معتقدات طائفتهم. فنظام الأولى يوسع دائرة الكنيسة أكثر من الحدود الإلهية، ونظام الثانية يضيقها أقل من تلك الحدود وفي كلتا الحالتين الفكرة الكتابية الصحيحة عن الكنيسة تتحطم عمليًا. فالطوائف الأخرى تبين بتصرفها أن الكنيسة ليست جسدًا واحدًا بل أجساد كثيرة، بينما الكنيسة الوطنية تنكر عمليًا أن ذلك الجسد الواحد هو جسد المسيح. إن الذي يكّون الكنيسة هو الروح القدس وحضوره في الاجتماع. والوجه البارز في شهادة الإخوة هو الاعتراف بحضور الروح القدس حضورًا فعليًا كالمهيمن الوحيد على الكنيسة، الذي فيه كل الكفاية في فترة غياب الرب".

ثم يقتبس مارسدنُ من كتاباتهم فيما يختص بموضوع الخدمة فيقول "إن افتراض عدم وجود خدمة بعيد كل البعد عن فكر الإخوة، بل هم بالعكس يتمسكون دائمًا بما جاء في أفسس ٤: ١٢،١٣ من أن المسيح لا يقصر في أن يهيئ الخدمة بشكل مستمر لجسده الموجود على الأرض. وكتبهم ونبذهم وتعاليمهم الخاصة والعامة تؤكد هذا كحق مقرَّر ثابت، حتى أن من يتهمهم بإنكار المركز المقدس والدائم للخدمة في الكنيسة على الأرض كمن يتهم شارل الأول بإنكار الحق الإلهي للملوك (أي أنه اتهام بطلانه واضح). وحيثما سر الله أن يقيم رعاة حسب قلبه فإنهم بكل فرح وشكر يقبلون نعمته، ويعتبرونهم كثيرًا جدًا في المحبة من أجل عملهم".

وفي مقال كتبه داربي عن الإخوة ردًا على صحفي فرنسي، لا نجد فقط الحقائق بل أيضًا الأفكار والمشاعر التي تتصل بتكوينهم، قال "كنا أربعة رجال فقط، اجتمعنا معًا لكسر الخبز والصلاة استنادًا على سلطان هذا الوعد «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» (مت١٨: ٢٠). اجتمعنا ليس في روح الكبرياء والادعاء، بل بروح التذلل العميق على حالة الأمور التي حولنا، مصلّين لأجل جميع المسيحيين، واضعين في الاعتبار أن كل الذين فيهم روح الله هم مسيحيون حقيقيون وأعضاء في جسد المسيح حيثما وُجدوا بين الطوائف عمومًا. ولم نفكر في شيء إلا إشباع حاجة النفس حسب كلمة الله، ولم نرغب في أكثر من ذلك. ولقد اختبرنا حضور الرب

الموعود به، وآخرون إذ شعروا بنفس الحاجة سلكوا نفس الطريق، وانتشر العمل بطريقة لم نكن نتصورها".

وظاهر من هذه العبارات أن الإخوة لم يفكروا في تكوين نظام كنسي جديد، ولا في إعادة إنشاء الكنيسة كما كونها الرب في البداية، أو إرجاعها إلى مجدها الخمسيني، وهذا هو الشرك الذي أغوى به الشيطان إدوارد إرفنج، ذلك الرجل النبيل. أما الإخوة فيظهر أنه لم تكن عندهم خطة موضوعة ولا نظام خاص، ولا وضعوا ترتيبات معينة، بل كان لهم إيمان جميع المسيحيين مستقيمي الرأي فيما يتعلق بالحقائق الأساسية، ولكن إذ وصلهم نور من كلمة الله عن ماهية دعوة ومركز ورجاء الكنيسة لم يستطيعوا البقاء في ما سماه الإنسان والعالم بالكنيسة. هذه الأفكار والتدريبات القلبية نجم عنها، كما رأينا، انفصال أفراد كثيرين من مختلف الطوائف المسيحية، واجتماعهم معًا للعبادة والشركة على أساس «الجسد الواحد» كما يكونه ويقوده «الروح الواحد».

انتشار الحق

كان داربي يميل من البداية إلي التجوال، أو بالحري إلى توصيل الحق من مكان إلى آخر، بعد تكوين الاجتماع في ميدان فيتز وليم، شرع في القيام برحلة، وبروح رسولية حقة استمر في طريقه خمسين سنة، وقد ازداد نشاطه في العشر أو الخمس عشرة سنة الأخيرة. وكانت مدينة ليمريك هي أول مدينة زارها، وهناك عقد اجتماعات لدراسة الكتاب المقدس حضرها بعض الأعيان ورجال الإكليروس، وقد عمل معه توماس مونسِل أحد سكان تلك المدينة، وكان الخادم النشيط لمدة طويلة. ثم رحل داربي إلى مدينة كلير التي منها انفتح باب لعمل الرب في مدينة إنيس، ذلك العمل الذي واصله توماس ماهون، ثم أبحر بعد ذلك إلى باريس حيث وجد بعض المؤمنين هناك، وعقد اجتماعات لدراسة الكتاب بنفس تلك الطريقة الهادئة. وعند رجوعه إلى إنجلترا زار كمبردج وأكسفورد، ثم توجه جنوبًا نحو بليموث بناء على طلب نيوتن، حيث تقابل مع الكابتن هول الذي كان يبشر حينئذ في القرى. وهناك عُقدت اجتماعات لدراسة الكتاب، وبعد مدة قصيرة ابتدأ عدد من الأشخاص يكسرون الخبز، وكان ذلك حوالي سنة ١٨٣١م.

أصل كلمة "إخوة بليموث"

كان مكان أول اجتماع عام للإخوة في مدينة بليموث يسمى "كنيسة البروفدنس" أي كنيسة العناية الإلهية، ولما كان الإخوة يرفضون أن يطلقوا على أنفسهم اسمًا خاصًا كان الناس يسمونهم "جماعة البروفدنس". ولكن لما ابتدأ الإخوة ينطلقون إلى خارج المدينة للتبشير بالإنجيل في القرى، الأمر الذي كان نادرًا في ذلك الوقت، كانوا يقولون عنهم إنهم "إخوة من بليموث". وكانت النتيجة الطبيعية أن أُطلق عليهم لقب "إخوة بليموث" وانتشر هذا الاسم بسرعة في إنجلترا وفي كل مكان آخر. ولما ازداد العدد اشترى الإخوة هذه الكنيسة الصغيرة ووسعوها. وسرعان ما ظهر تأثير الحق على قلوب وضمائر الإخوة. وكانت هناك نضارة ظاهرة وبساطة شديدة مع تكريس وانفصال عن العالم، وكان لمظاهر الروحانية هذه جاذبية قوية لدى أفكار الكثيرين. ولا شك أن بعض الذين تركوا طوائفهم واتحدوا مع الإخوة لم تكن عندهم المعرفة الكاملة عن ماهية الخطوة التي أقدموا عليها، لكن كل شيء كان جديدًا، وكانوا يوجدون دائمًا مع بعضهم، ويعكفون على دراسة كلمة الله. وسرعان ما اختبروا حلاوة الشركة المسيحية، ووجدوا الكتاب المقدس ككتاب جديد، على حد تعبيرهم. ولقد كان هذا العمل في تلك الأيام الفتية الناضرة عملاً بارزًا مباركًا لروح الله، حتى صار تأثيره ملموسًا ليس في إنجلترا فقط بل في أوروبا كلها والبلاد النائية. وكثيرًا ما كنت تجد المجوهرات الغالية الثمن في صناديق الجمع في تلك الأيام، فيبيعها الشمامسة ويوزعون ثمنها على الفقراء.

غير أن ازدهار تلك الحركة الجديدة ما لبث أن امتدت إليه يد الشيطان الماكر، فنيوتن، مع أنه أحد الخدام الأولين في بليموث، يظهر أنه لم يكن قد وصل إليه الحق الخاص بالمركز الذي للإخوة، بل كان من البدء يسلك مسلكًا مخالفًا للآخرين. فكان يميل في تعاليمه إلى تقويض الحقائق التي كان يعلنها الرب بواسطة خدمة الإخوة، وإلى أن يقيم من جديد ما رفضه الإخوة ولو في صورة جديدة، ولو أن ظل متخفيًا زمنًا. وكان يرمي من وراء ذلك إلى الوصول إلى سلطة ومركز إكليريكي، وبذلك أنكر عمليًا أهم المبادئ الأولية لكنيسة الله ووقع في فخ الشيطان. ولما لم يسترح كثير من الإخوة الذين خدموا طويلاً في بليموث

إلى مسلك نيوتن، تركوا المدينة ليخدموا في جهات أخرى، فرحل داربي إلى الخارج، والكابتن هول إلى هيرفورد، وويجرام إلى لندن. وكان بللت في ذلك الوقت يخدم بنشاط عظيم في دبلن.

اكتشاف التعاليم الفاسدة

بعد عام ١٨٤٥م مباشرة عندما وصل العدد في بليموث وديفنبورت وستونهاوس إلى حوالي الألف نفس، نشأت بعض المتاعب، ولكن ما وافت سنة ١٨٤٨م حتى انكشف ما كان البعض يشتبهون فيه، فقد وقعت في يدي مستر هاريس بعض مذكرات مكتوبة من محاضرات مستر نيوتن، ظهر منها أنه كان يعلّم بنشاط وبانتظام لا ما يتفق مع الإكليروسية فحسب، بل ما هو هرطقة متأصلة بخصوص شخص المسيح أيضًا.

لما عُرف هذا تأثر الإخوة تأثرًا شديدًا في جميع الجهات بسبب هذه الأخبار المحزنة، وانعقدت اجتماعات عديدة في مختلف الجهات لاستقصاء هذه التهم، وبعد صلوات كثيرة واعترافات اتفق الجميع تقريبًا على أن التعاليم التي كان مستر نيوتن يعلم بها ليست فقط تعاليم مزيفة، ولكنها أيضًا مناقضة للحقائق المسيحية الأساسية.

ولكن مع أنهم اتفقوا في الرأي إزاء صفة الهرطقة، إلا أنهم اختلفوا في حكمهم بالنسبة لمبدإ الانفصال عنها. ففريق منهم ظن أنه ربما يكون سم تلك التعاليم التي ظل مبدعها يعلم بها في الخفاء بضعة سنين، قد أثر في عدد من النفوس أكثر مما هو ظاهر، وعلى ذلك لا يمكن أن تكون لهم شركة مع أي شخص يتهاون مع هذه التعاليم أو تكون له شركة مع صاحبها في كسر الخبز. وظن فريق آخر أن هذه التحديدات عن الشركة صعبة جدًا، وأن كل شخص يطلب الاشتراك يُفحص، وإذا وجد أنه لم يفهم ولم يتشرب من تلك التعاليم يُقبل حتى ولو كان آتيًا من اجتماع نيوتن وفي شركة معه، وأن كل مسيحي حقيقي يجب أن يُقبل على أساس صحة إيمانه الشخصي، بغض النظر عن الاجتماع الذي هو مشترك فيه. ولكن كثيرون عارضوا بشدة هذا الأسلوب في معالجة مسألة خطيرة كهذه، واعتبروا أنها مسألة تخص مجد المسيح، ونقاوة كنيسته أيضًا. وأن هذا المبدأ يترك الباب مفتوحًا لدخول الهرطقات، ومعنى هذا ضياع وحدة كنيسة الله كأساس العمل، والرجوع إلى فكرة الاستقلال.

الانقسام

انقسم الإخوة عند هذه النقطة، وتمسك فريق منهم، بناء على مبدإ الجسد الواحد، بأن الشخص الآتي من اجتماع يُنادى فيه بتعاليم فاسدة يعتبر موصومًا، حتى ولو كان سليم الإيمان شخصيًا، وأن قبول عضو واحد في الجماعة هو قبول الكل. واجتهدوا في تأييد فكرتهم بالمبدإ الإلهي الذي طبقه الرسول على كنيستي كورنثوس وغلاطية «أم لستم تعلمون أن خميرة صغيرة تخمر العجين كله» (١كو٥:٦، غل٥:٩). واتبع الفريق الآخر المبدأ الرخوي الذي أقروه. واتسعت شقة الخلاف وتعذر التوفيق بينهما. وظل موقف الإخوة هكذا من ذلك اليوم حتى الآن. وهناك أمر تجدر ملاحظته وهو أن لقب "الإخوة" كما تدل على ذلك الإحصاءات وغيرها، استمر يطلق من ذلك اليوم على الفريق الأول الذي تمسك بمبادئ الإخوة الأصلية. وفي تعداد سنة ١٨٥١م أي بعد ثلاث سنوات من الانقسام كتب أحدهم مقالاً جاء في خاتمته ما يأتي:

"إن عدد أماكن العبادة التي اعتبرها رجال الإحصاء في إنجلترا وويلز كأماكن يتردد عليها الإخوة هو ١٣٢، ومن المحتمل أن يكون هذا العدد أقل من الواقع، وذلك بسبب معارضتهم في أن يأخذوا لأنفسهم اسمًا مذهبيًا". وفي قائمة ينشرها الإخوة سنويًا لأجل إرشاد الإخوة المتغربين، نجد عناوين ٥٢٣ اجتماع في إنجلترا و٨٤ في أيرلندا و٧٥ في اسكتلندا، كما أن هناك عددًا كبيرًا في أوروبا واستراليا ونيوزيلندا وجزائر الهند الغربية وكندا والولايات المتحدة وفي كل مكان، خصوصًا إذا أخذنا شهادة مجلة "سذرن ريفيو" التي جاء فيها:

"إن الجماعة، أو مجموعة الرجال المسيحيين، الذين يلقّبون عادة باسم إخوة بليموث قد انتشروا بسرعة في أنحاء المسكونة، والواقع أنهم احتلوا مكانهم في المسيحية في غفلة من الزمان، حتى أنه لا مناص الآن من الاعتراف بهم كقوة في الأزمة الشديدة الحاصلة الآن في تاريخ العالم، أو الصراع الهائل بين قوات النور وقوات الظلمة، سواء كان ذلك خيرًا أم وبالاً. أما ذلك فظاهر من مشغولية الأذهان في الوقت الحاضر بإخوة بليموث في جميع أنحاء العالم البروتستانتي، تلك المشغولية التي أنتجت مباحثات وكتابات ونبذ ومجلدات بلا عدد"*.

* عن نشرة «سذرن ريفيو» أبريل ١٨٧٧، الصادرة عن مشيخة الميثودست الأسقفيين في جنوب بلتيمور.

كتبت هذه المقالة القوية في حوالي تسع وسبعين صفحة، وناقشت موضوع "إخوة بليموث" أكثر من أي مجلد من مئات المجلدات التي وقعت تحت بصرنا، ولما كان كاتبها من المثوديست، فبالطبع لم يوافق على تعاليمهم، ولكنه أعجب بغيرتهم على نشر العمل، وأقر بأنه استفاد من كتاباتهم، ومن كل قلبه وبّخ منتقديهم بغير حق.

كنيسة اسكتلندا الحرة

هذا القسم العظيم المهم في الكنيسة الاسكتلندية تكوّن على شكل هيئة دينية متميزة عن الكنيسة الرسمية في سنة ١٨٤٣م. وكان الخلاف بين الإنجيليين ومن يُسمون بالمعتدلين الذي انتهى أخيرًا بهذا الانقسام العظيم قد نشأ بسبب موضوع نظارة الأبروشيات.

منذ انفصال إبنزر ورالف إرسكين عن الكنيسة الرسمية، كما استعرضنا ذلك من قبل، كان الفريق الإنجيلي يقاوم دائمًا تدخل النظار في الأمور الدينية للجماعات. وبتأثير الخدمة الفعالة التي قام بها كل من دكتور تشالمرز في جلاسجو ودكتور طومسون في إدنبره، اتجه تيار الشعور العام إلى جانب حركة المقاومة للنظار بكيفية قاطعة. وقد وافق المجمع العام الذي عُقد سنة ١٨٣٤م على القانون الأساسي المشهور الذي تقدم به الفريق الإنجيلي، الذي ينص على أنه "لا يجوز أن يفرض خادم على أية جماعة ضد إرادتها، وأنه إذا كانت غالبية رؤوس العائلات المشتركة في الكنيسة لا توافق على أي خادم فالمشيخة بناء على ذلك ترفضه بدون فحص الأسباب. على أنه إذا دعي المعارضون للتصريح أمام المشيخة بأنه لم يحفزهم على هذا الرفض أي دافع جسداني، بل المصلحة الروحية وحدها فلا يمتنعون عن ذلك". وفي الحال صار هذا القرار موضوع بحث كثير بخصوص قانونيته من عدمها، حيث أنه يتدخل تدخلاً مباشرًا في حقوق النظار المدنية.

وبعد شهور قليلة من إقرار حق الاعتراض قام إيرل أوف كينول بتقديم روبرت يونج إلى كنيسة الأبروشية في أوكترادر ولكن إذ لم تصادق الجماعة عليه رفضت المشيخة أن ترسمه. فشق على الإيرل أن يُحرم من حقوقه كناظر، ورفع دعواه إلى المحاكم المدنية، وقد أعقب ذلك مناقشة طويلة تناولت بالبحث مسألة تحديد علاقة الكنيسة بالحكومة. وكان حكم المحكمة المدنية العليا ضد الكنيسة، بل وأكثر من ذلك قضى بعقوبات مالية وتعويضات للأشخاص الذين حرموا من كنائسهم، لأن المشيخة رفضت تعيينهم. وبذلك صار المحتجون هيئة عظيمة محبوبة ولها أثرها. ورفضوا كل اتفاق وسلكوا مسلك الشهداء، وأصروا على قولهم إنهم إنما يجاهدون من أجل "حقوق ربوبية الرب يسوع المسيح رأس الكنيسة وملكها الأوحد". وانعقدت اجتماعات عامة في جميع أنحاء المملكة، وأخذ الخدام يلقون فيها الخطب الحماسية، حتى أصبحت اسكتلندا في حالة اضطراب ديني وشغب من أقصاها إلى أقصاها، وشهروا بالنظار العلمانيين باعتبارهم مخالفين لروح ومبادئ دستور كنيسة اسكتلندا المشيخية. كما اعتبروا أن قرار مجمع عام ١٨٣٤م بتقرير حق الاعتراض للجماعة صدر بمصادقة إلهية، وعلى ذلك فعوضًا عن الخضوع للقانون الذي أصدرته المحكمة العليا أعلنت الجماعة في سنة ١٨٤٢م بأغلبية كبيرة أنه يجب إلغاء النظار العلمانيين، ورفعت إلى الحكومة مذكرة بالمطالبة بحقوقها التي تغتصبها المحاكم المدنية. ولكن مجلس اللوردات أصدر حكمه في يوم ٩أغسطس ضد غالبية المشيخة في أوكترادر، وفرض عليهم تعويضًا للمستر يونج والإيرل أوف كينول.

الانفصال

انقطع كل أمل في أية تسوية ودية من جانب الحكومة. ولقد وقع ما كان يخشاه البعض من زمن طويل، إذ تعذر على الدكتور تشالمرز وأتباعه أن يتراجعوا عن موقف الاستقلال الذي اتخذوه، وحتمت عليهم كرامتهم أن ينفصلوا عن الكنيسة الرسمية. وفي المؤتمر العمومي الذي انعقد في مايو سنة ١٨٤٣م قدم الدكتور واش احتجاجًا يرمي إلى هذا الغرض وانسحب. وقد تبعه أولئك الذين وافقوا على هذا الاحتجاج، وفي هدوء تام توجهوا إلى قاعة تانفيلد في كانونميلز، وهي بناية عظيمة مشيدة في الطرف الشمالي من مدينة إدنبره، وهناك أدمجوا أنفسهم في المؤتمر العام للكنيسة الحرة الاسكتلندية، مختارين الدكتور تشالمرز كرئيس لهم.

وفي يوم الثلاثاء ٢٣مايو أمضى الخدام والمعترفون، وكان عددهم ٤٧٤، متنازلين رسميًا عن المرتبات التي كانوا يتقاضونها أثناء ارتباطهم بالكنيسة الرسمية، معلنين أن مراكزهم أصبحت شاغرة.

بهذه الطريقة القانونية تمم الخدام انفصالهم عن الكنيسة الرسمية،

وأخذت الكنيسة الاسكتلندية الحرة مركز هيئة كنسية متميزة، لها نفس التعاليم ومراعية لنفس أنظمة العبادة كما تسلمتها وسارت عليها الكنيسة الوطنية. وهكذا في يوم واحد ترك هؤلاء الخدام المرسومون في الكنيسة الاسكتلندية الرسمية بيوتهم وكنائسهم وإيراداتهم وتعضيد الحكومة لهم. كما اضطر نساؤهم وأطفالهم أن يتركوا منازلهم المريحة الملحقة بالكنائس، وحدائقها وملحقاتها، حتى أن كثيرات منهن انتقدن قادة هذه الحركة واعتبرن أنهم ذهبوا في مسلكهم إلى حد بعيد. ولكن سرعان ما وجد الخدام في غيرة الشعب وعطفه عليهم سدًا لكافة احتياجاتهم، فعينوا في كنائس أجمل من تلك التي تركوها. وفي ظرف سنوات قليلة بنيت حوالي ثمانمائة كنيسة جديدة، بلغت تكلفتها ما يقرب من المليون جنيه تبرع بها الشعب بكل سخاء. وكان الدكتور تشالمرز قد سبق وفكر قبل الانفصال بشهور في تكوين جمعيات في نواحي المملكة لجمع تبرعات لإعانة الخدام. ولقد كان مصيبًا في فكرته، حتى أنه قبيل يوم الانفصال كان عدد الجمعيات التي تكونت في نواحي المملكة قد بلغ ٦٨٧ جمعية مستقلة. وفي نهاية السنة الأولى من تاريخ الكنيسة الحرة كان دخلها قد بلغ إلى ٣٦٠٧١٩ جنيه وأربعة عشر شلنًا وثلاثة بنسات. هكذا كان الشعور العام نحو هذه الحركة في اسكتلندا، حتى أن الجميع ساهموا بسخاء في مختلف الاكتتابات المتعلقة بالكنيسة الحرة، وإلى هذا اليوم لا تدل مواردها على شيء من مظاهر العجز.

النهضة في سنة ١٨٥٩م

بما أن النهضة العظيمة التي حدثت في سنة ١٨٥٩م وملأت كثيرًا من الأقطار بثمار الخلاص المباركة لا تزال جديدة في أذهان الكثيرين، فلا حاجة بنا إلا إلى الإشارة باختصار إلى بدايتها المتواضعة. وقد كانت لنا دائمًا في هذا التاريخ لذة خاصة في معرفة بداية الحوادث. فحينما يعمل روح الله ويقصد أن يتمم شيئًا عظيمًا سواء في أفراد أو في أمم نراه عادة يبدأ في الخفاء، بعكس الإنسان الذي لا يعمل عملاً إلا ويقرع الطبول قدامه.

أصل اجتماعات الصلاة وقت الظهر

في سبتمبر سنة ١٨٥٧م لاحظ مرسل في نيويورك أن البنائين والفعلة عندهم وقت راحة أثناء فترة الغذاء، فعزم على أن يتكلم إليهم في تلك الفترة عن أمور الرب. وإذ وافق أولئك الرجال على ذلك كانوا يجتمعون حول هذا المبشر حوالي العشرين دقيقة كل يوم. ثم ازدادت رغبتهم، وإذ كان الشتاء يقترب، طلب هذا المبشر أن يستأجر حجرة دراسة ملحقة بكنيسة في شارع فُلتون حيث كان يعمل الرجال. وإذ أعطيت لهم تلك الغرفة أخذوا يجتمعون لأجل هذه الخدمة القصيرة، أما الرب فكان له عمل عظيم ليعمله هناك. فقد اجتذب آخرون إلى هذا الاجتماع الصغير الذي كان ينعقد في ظهر كل يوم. ولقد شعروا بمسحة الروح القدس واستُعلنت البركات الإلهية، وسرعان ما كبر هذا الاجتماع وصار عظيمًا، وظهرت في أماكن مختلفة أخرى اجتماعات مماثلة كان يحضرها الخدام ورجال الأعمال وطبقة الأشراف ومختلف طبقات الشعب. وفي زمن قليل انتشرت اجتماعات الصلاة الظهرية في جميع أنحاء الولايات المتحدة. وأعقب ذلك نهضة روحية، وقيل إن الآلاف من النفوس الثمينة رجعت إلى الرب.

شمال أيرلندا

في نفس الشهر من ذات السنة انقاد أربعة من الشبان بالروح القدس وبدأوا اجتماعاتهم المسماة "اجتماعات شركة المؤمنين" بالقرب من كونور بمقاطعة أنتريم، وكان غرضهم الرئيسي من هذه الاجتماعات هو الصلاة ليبارك الرب عملهم كمعلمي مدارس الأحد، وليحيي بروحه القدوس الكنائس المحيطة بهم، والتي شعروا بأنها في حالة جمود روحي. ولقد هطلت بركة الله على هذه الحركة المتواضعة، كما بوركت مثيلتها على الشاطئ الآخر من الأطلنطي، وازداد العدد بسرعة. وظهرت فاعلية الصلاة في الجهات المجاورة، فخلصت نفوس في اجتماع الصلاة، وكان روح الله يعمل بقوة، وسادت روح الصلاة حتى أنه في السنة التالية، أي سنة ١٨٥٨م، كانت اجتماعات الصلاة بلا عدد، وكان منها في حي واحد ستة عشر اجتماع للصلاة في كل ليلة من ليالي الأسبوع. ولقد أدلى بهذه الحقائق شهود لازالوا على قيد الحياة.

تلك هي أسس النهضة العظيمة في شمال أيرلندا التي استمرت تتقوى وتتعمق ثمانية عشر شهرًا، قبل أن تبرز وتتسامى إلى جلال عظمتها في سنة ١٨٥٩م، وكان الإيمان في تلك الأيام تصحبه عادة علامات التقوى والسجود، حتى أن الشخص المخلّص

كان يقضي يوميًا عدة ساعات راكعًا في الصلاة.

ولقد استخدم الله عوامل مشابهة لإيقاظ عمل النهضة في جرينوك وجلاسجو وبعض جهات أخرى في اسكتلندا.

أسبوع الصلاة

حوالي ذلك الوقت أرسل بعض المرسلين في لوديانا دعوة لجميع الشعوب المسيحية لتخصيص الأسبوع الثاني من شهر يناير سنة ١٨٦٠م للصلاة، وكانت الدعوة موضوع أحاديث الناس، وما أن حل الميعاد حتى لبى هذه الدعوة جميع طبقات المسيحيين، وكان أسبوع صلاة حقيقية إلى الله لكي يحيي عمله ويبارك التبشير بالإنجيل لخلاص كثير من النفوس. ولقد تصاعد مثل هذا الصراخ من كل أنحاء العالم، واستمر في كثير من الجهات لأكثر من أسبوع.

وكشركاء في هذا الافتقاد العجيب الذي افتقدنا به الروح القدس في نعمته، نستطيع أن نشهد عن قوة الصلاة التي سادت حينئذ، وعن غيث البركات المتهاطل الذي غمر الكنيسة كما غمر نفوسًا ثمينة بلا عدد. فانعقدت اجتماعات للصلاة في الصباح الباكر، وعند الظهر، وفي المساء، حتى تتاح الفرصة لكل الطبقات، كما ظهرت روح جديدة لم تكن مألوفة من قبل في التبشير بالإنجيل، فقد ظهر فجأة مبشرون من أفقر طبقات المجتمع كما بمعجزة، واختصوا بمواهب كانت تجتذب ألوفًا إلى المسيح في كل مساء، كما تحول بعض الأشراف أيضًا إلى مبشرين بالإنجيل، وهكذا أتيح للطبقات الفقيرة أن تسمع الأخبار المفرحة من شفاه اللوردات الأشراف، وأن يتصافحوا معهم يدًا بيد وأن يشعروا بتوسلاتهم إليهم بأرق العبارات الحبية أن يسلموا قلوبهم للرب يسوع ويصيروا له وحده.

وهكذا ظهر كأن عمل الإنجيل العظيم قد انتقل تمامًا إلى أيدي العلمانيين. ولم يسمح المجال عندئذ لاعتراض رجال الإكليروس، لأن الله الذي هو فوق قواعد التقاليد كان يعمل، ولقد خلص كثيرون فقراء وأغنياء، ومن بينهم عدد من الأطفال أيضًا.

لم يستمر عمل الروح بهذه القوة طويلاً، إذ بعد سنوات قليلة ظهرت الذات الإنسانية الساقطة، وأدخلت بعض أنظمة العبادة لجعلها أكثر ترتيبًا. أما القوة الروحية فقد اضمحلت سريعًا، لأن الصلاة لكي يعمل روح الله حسب نظامه الخاص شيء، وترتيب نظام من عندياتنا ثم الصلاة لكي يعمل الله حسب هذا النظام شيء آخر. ومع ذلك فلا تزال نتائج تلك النهضة العظيمة باقية إلى هذا اليوم، ويمكن تلخيص هذه النتائج في ثلاث نقط:

أولاً: ازدياد عدد اجتماعات الصلاة.

ثانيًا: النشاط المتزايد في عمل الإنجيل سواء في التبشير أو في توزيع النبذ.

ثالثًا: الاهتمام العام المتزايد بمجيء الرب الثاني، فلقد ارتفع صراخ نصف الليل «هوذا العريس مقبل» (مت٢٥: ٦) بين المسيحيين عمومًا منذ سنة ١٨٥٩م. ولا نشك في أن هذا الصراخ بدأ في الجزء الأول من القرن التاسع عشر، ولكن النهضة أعطته أجنحة النسور. وكل شيء كان يسير بسرعة سواء في الكنيسة أو في العالم، وكأن كل شيء كان يعمل على تقريب مجيء الرب. فلقد كان هذا القرن قرن الاختراعات واستعراض نشاط الإنسان، وكأنه يسعى لأن يصل إلى أعالي قمة الشهرة البشرية قبل رفضه النهائي. كما حدث نشاط عظيم أيضًا في جميع أقسام الكنيسة الاسمية، لأن ذلك كان هو الوقت الذي قال عنه الرب في المثل «فقامت جميع أولئك العذارى وأصلحن مصابيحهن» (مت٢٥: ٧)، فلم يعد أحد نائمًا، بل قامت الجاهلات كما قامت الحكيمات تصلحن مصابيحهن جميعًا. ولقد نشط أيضًا الشر في وسط الكنيسة متمشيًا مع نشاط الخير، فتقدمت تعاليم التقليديين والعقلانيين والكفر العلني بخطوات واسعة في السنوات الأخيرة، وامتزج كل شيء بروح العلم والعالم.

الخمسون سنة الأخيرة

إبان خدمة ربنا على الأرض كان هناك ثلاثة أنواع من الخمير تعمل بين اليهود: خمير الفريسيين وخمير الصدوقيين وخمير الهيرودسيين. وهذه كانت تمثل على الترتيب: التقليد، والتشكيك، والاتفاق مع العالم. وإلى جانب هذه كانت هناك أيضًا مجموعة رابعة هي البقية التقية التي قبلت الرب يسوع كالمسيا. هذه الصورة يمكن أن نلحظها أيضًا في الأربع الرسائل الأخيرة الموجهة إلى كنائس آسيا في سفر الرؤيا. وقد استمرت هذه التيارات على مر العصور، لكنها ازدادت واشتد أثرها في الخمسين سنة الأخيرة.

في الأصحاح الأول من سفر الرؤيا يعبر عن الكنائس السبع بسبع منائر ذهبية، كل منها شهادة أقامها المسيح لأجل مجد الله بواسطة روحه. ولكن في الأصحاحين التاليين نرى هذه الكنائس

في مركز المسئولية. وهنا يدب الفشل ويستبيح الناس فعل الشر ويتبعون التعاليم الفاسدة، وسنتكلم الآن عن الأربع الكنائس الأخيرة التي تستمر إلى النهاية: فثياتيرا تسبِّب المرأة إيزابل تنشر رجاساتها وشرورها وسط ربوع البابوية وفي الكنائس التابعة لها. وساردس عوضًا عن أن تشدد ما بقي الذي هو عتيد أن يموت أصبحت هي نفسها مصدر النظام الديني الذي له اسم أنه حي وهو ميت، الذي تولدت عنه روح النقد العالي للكتاب، وتعاليم العصريين. غير أنه هناك بقية أمينة في ساردس، وهذه البقية تصبح فيما بعد فيلادلفيا التي تمثل النهضة الإنجيلية في السنين الأخيرة. وفي جميع الأجيال كانت هناك تلك البقية التي «حفظت كلمته ولم تنكر اسمه» والتي غالبًا ما اضطُهدت واتهمها العالم المتدين بالهرطقة، ولكنها كانت معروفة عند الله، مثل الولدانسيين والمصلحين والمتطهرين ونهضات وسلي وهويتفيلد. بل في الواقع كل طائفة إنجيلية مهما كان بُعدها الآن عن كلمة الله إلا أنها كانت تمثل في أول نشأتها نهضة خاصة، قصد بها الروح القدس إنعاش شعب الله. ولاودكية تبين صفة المرحلة الختامية من تاريخ الكنيسة كشاهدة لله في مجموعها، وهي لا توصف بالخطإ التعليمي أو الانحطاط الأدبي، بل بالفتور والاكتفاء بالذات، وبذلك فقد المسيح مركزه في وسطهم، فهو يُرى خارج الباب. وهذا هو سر كل سقوط فردي أو جماعي.

التقليد الديني

تميزت الخمسون السنة الأخيرة بهذه النهضات التي سارت في خطوط متوازية إلى يومنا هذا. وفي سنة ١٨٧٠م دعا البابا بيوس التاسع مجلس الفاتيكان للانعقاد لتثبيت عقيدة عصمة البابا. وهذه العقيدة لا يُقصد بها أن أي بابا هو في ذاته معصوم، بل أن أقواله وقراراته التي يصدرها كممثل الكنيسة كلها هي معصومة. وهكذا يقصد الشيطان دائمًا أن يتعظم الإنسان ويسلب من المسيح كماله وتقدمه في كل شيء. وإذا كان صاحب المزمور يقول بحق «كذب بنو البشر» (مز ٦٢:٩)، فكيف يمكن أن يكون ممثل جماعة هذا وصفها معصومًا؟ لا يوجد إلا شخص واحد معصوم: المسيح الذي هو الحق، والذي ينقل روحه الحق إلينا بواسطة الكلمة.

إن تاريخ البابوية خير جواب سديد على الادعاء البابوي. ولقد أشار أعداؤها إلى الحوادث التي أعقبت ذلك الادعاء كالتعليق الإلهي عليه. ولقد أدت الحرب الفرنسية البروسية إلى سحب الحامية الفرنسية من روما واستيلاء فيكتور عمانوئيل عليها وضياع السلطة الزمنية. ومن ذلك الوقت أطلق البابا على نفسه محتجًا لقب "سجين الفاتيكان". ومع أن الإكليروس لم يفتأ يندب فقدان السلطة الزمنية، إلا أن هذا زاد من اتساع سيادة روما الروحية في العالم ولم يضعفه. ولكن ضياع السلطة الزمنية قد أذلها على أي حال وإن كانت هي لم تذلل نفسها أو تخفض مطاليبها الروحية أو الزمنية.

تعاليم العصريين

لقد انتشرت في نفس ذلك الوقت في كل أرجاء الكنيسة الاسمية حركة أخري كالخمير الذي يفسد الحياة الدينية في جميع نواحيها. تلك هي ما تسمى بالروح العصرية أو "النقد العالي". وتاريخها في الواقع قديم يرجع إلي بدء العصر المسيحي، بل إلي جنة عدن نفسها. إن للشيطان فخًا لكل نوع من العقليات. فللعقلية الخرافية يقدم الديانة الرومانية والطقسية، وللعقلية المفكرة يقدم التعاليم العصرية. والطقسي يبطل كلمة الله بتقاليده، كما أن العقلاني يبطلها بحججه الباطلة.

ولقد ابتدأت التعاليم العصرية بالحركة العقلانية التي ظهرت في كنيسة روما، والتي اقترن بظهورها أسماء الأب لوازي والأب تيرل. ولقد قُضى على هذه الحركة بسرعة، إلا أن مفعولها ظل باقيًا. وبالرغم من ادعاء كنيسة روما بوحدة التعليم إلا أن هذه الروح العصرية ظلت منتشرة على نطاق واسع فيها.

إن التعاليم العصرية التي ظهرت في فرنسا بمعناها الذي عرفت به في الأيام الأخيرة كالنقد العالي كان أصل منشأها في ألمانيا. وكان الدكتور كولنسو الذي من ناتال هو الذي قاد هذه الحركة في إنجلترا. ولقد أثارت مؤلفاته التي فيها انتقد أسفار موسى الخمسة وسفر يشوع طوال تسعة عشر عامًا من سنة ١٨٦١-١٨٧٩ عاصفة من الجدل. غير أنه صار الآن في عالم النسيان وانتهت هجماته بالفشل الذريع. أما كبار المنتقدين في هذه الأيام فقد ذهبوا إلى أبعد مما كان يخطر بباله من الخيالات الجامحة، ولا شك أنهم سائرون في طريق الفشل، ولو أن كل ادعاء من ادعاءاتهم له خطره على الناس، فهم يتكلمون كمن يحتكرون التعليم، ولا يفتئون يكرروا القول بأن نتائج أبحاثهم هي ما لا بد أن يصل إليه أساتذة العلم. إن اقتناعًا كهذا ولو أنه خطأ لا بد وأن يملأ الناس بالثقة في آرائه،

ولكن هذا بعيد عن الحقيقة. ولذا سُر الله أن يقيم من بين شعبه أبطالاً أكفاء لإعلان حقه.

ونحن نعتقد أنه كان يجب أن تُكتب ردود وافية على كتابات أولئك العصريين. إلا أنه يوجد بعض الرجال السلماء، يظهر أنهم يحبون السلام بأي ثمن، ويظهر أنهم يخلطون بين التسامح والتهاون في الحق، وبين المسالمة ومجاملة الشر. هؤلاء لحبهم في تجنب المباحثات ينادون قائلين "لا تدافعوا عن الكتاب المقدس". حسنًا يقولون، ونحن لا نعتقد أن الكتاب المقدس يحتاج إلى دفاع، ولو اجتمع كل نقاد العالم فلن يستطيعوا أن يبطلوا آية واحدة منه، ولكننا نخشى أن ذلك «يقلب إيمان قوم» (٢تي ٢: ١٨).

ومما زاد في تقدم هذه الحركة نشر كتب ومقالات بواسطة رجال لهم مركز رسمي في الكنيسة الإنجليزية، حتى أن واحدًا منهم صار فيما بعد رئيس أساقفة كانتربري. كما قد تعين بعضهم أساتذة للعلوم الدينية في جامعة أكسفورد.

نظرية النشوء والارتقاء

كان لظهور مؤلفات داروين "أصل الأجناس" في سنة ١٨٥٩م و"تطور الإنسان" أثر عميق في السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر. ولقد بهرت تعاليمه المشتغلين بالعمل، كما أحبها العامة واعتبروها كأنها ليست نظريات فرضية بل حقائق لا تقبل الجدل كقانون الجاذبية الأرضية وغيره من القوانين الطبيعية. أما العلماء الحقيقيون فلم تتعد عندهم حيز الفرض، واعتبروا أنها تفتقر إلى تفسيرات أكثر استنادًا إلى الحقائق. إن تعاليم دارون ونظرية التطور التي تدافع عنها تلك التعاليم هي بالتأكيد هجمات موجهة إلى صفة الله كخالق. وهيكيل يقول "إن تعاليم داروين هي حجة ضد سفر التكوين بها أحرز انتصارًا نهائيًا على وقائع الكتاب المقدس الخرافية العتيقة". وما من شك في أن هذه التعاليم قد ألقت ظلاً قاتمًا على سلطان الوحي المقدس، كما أظلمت بسببها قلوب مؤلفيها ومعتنقيها. أما الآن فتعاليم داروين يستهجنها الكثيرون، ولقد علق الأستاذ ديبوا ريمون بالقول "إننا إذا تمسكنا بتعاليم داروين فكأننا نشبه غريقًا يتعلق بالحَلْفاء"، كما قال الأستاذ ويلسر "إن من لا يرفض تعاليم داروين ليس بعالم البتة". ومع ذلك لا نزال نسمع أن نظرية التطور قائمة، فإذا كانت الأدلة على صحتها لم تقم بعد فكيف يمكن علميًا أن نتمسك بما لم يستطع أحد أن يثبته أو يبرهن على صحته؟ ولكن لا عجب، إذ أنه في الصراع المتتابع بين الحق والباطل يجب أن تعقب الكذبة أختها، إلى أن يمتلئ مكيال الإثم، وعندئذ يشرق الحق ويظهر كما هو من الله وحسب كلمته.

البدع الروحانية غير الكتابية

تتفشى عادة مع التعاليم العصرية كل تعاليم الإلحاد أو عدم الإيمان. فقد انتشرت البدع الروحانية في جميع البلاد المتمدينة، مثل تعاليم جماعة تحضير الأرواح التي هي ضد الكتاب وضد المسيحية، وجماعة العلم المسيحي، وجماعة فجر الألف سنة، وجماعة السبتيين المجيئيين، ومنكري الخلود، والمنادين بعمومية الخلاص، وغيرهم ممن يضلون الألوف. ولقد وقع كثيرون من أولاد الله الحقيقيين في فخاخ تعاليم القداسة المزيفة وغيرها من التعاليم الخاطئة، كتعاليم الخمسينيين وحركة الألسنة وغيرها من التعاليم التي إذا فُحصت في ضوء حق كلمة الله ونور العهد الجديد لظهر زيفها، ولكن العالم الديني قد انخدع واستمر الغش. يا للأسف!! لقد تصدع تاريخ كنيسة الله بسبب هذه التعاليم وغيرها. ومن يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط.

ولكننا لا نندهش لكل ذلك، إذ سبق الروح القدس وأعلمنا به، فنحن الآن في الأيام الأخيرة الصعبة، والكلمة صريحة إذ تقول «ولكن الناس الأشرار المزوِّرين سيتقدمون إلى أردأ مُضلِّين ومُضَلِّين. وأما أنت فاثبت على ما تعلمت وأيقنت عارفًا ممن تعلمت. وإنك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة القادرة أن تحكِّمك للخلاص بالإيمان الذي في المسيح يسوع. كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ، للتقويم والتأديب الذي في البر، لكي يكون إنسان الله كاملاً متأهبًا لكل عمل صالح» (٢تي٣:١٣-١٧).

النهضة الإنجيلية الحديثة

دعنا الآن من مبتكرات العقل البشري، سواء أكانت دينية أو عقلية، ولنلق نظرة أخرى سريعة على أعمال روح الله في كنيسة فيلادلفيا. فهذه الكنيسة تميزها ثلاثة أمور وهي «قوة يسيرة» و«تمسك بكلمة المسيح» و«عدم إنكار اسمه». ولقد تمثلت هذه الأمور في النهضة الإنجيلية الحديثة التي ابتدأت في القرن الثامن عشر بحركة الميثودست التي قام بها وسلي وهويتفيلد. إن عمل الإنسان، على

عكس عمل الله تمامًا، يشبه الشجرة الكبيرة المذكورة في إنجيل متى الأصحاح الثالث عشر، محبوب من العالم ولكنه بلا قيمة أو فائدة للمسيح أو كلمته، ولقد جنت الخمسون السنة الأخيرة ثمار نهضات سنة ١٨٥٩م التي ابتدأت في أيرلندا وألقت أشعتها على كل العالم، إذ مهدت السبيل لموجة النشاط التبشيري والعمل الخيري الذي تركز بنوع خاص حول زيارات المبشرين الأمريكيين العظيمين مودي وسانكي، التي بدأت في سنة ١٨٧٣م واستمرت بعد ذلك عشرات السنين. ولد د. ل. مودي في مدينة نورث فيلد بالولايات المتحدة في سنة ١٨٣٧م، وكانت شيكاغو هي أول مدينة شهدت خدماته التبشيرية. وفي سنة ١٨٧٠م انضم إليه د.سانكي، وكان يصغره بثلاث سنوات، وقاما معًا بعدة جولات تبشيرية في أمريكا، ثم جميع أنحاء بريطانيا وأيرلندا وسط غيث من البركات والتعزيات. ولقد ازدحمت القاعات الكبرى في لندن مثل قاعة الأوبرا وقاعة الجمعية الزراعية، وغيرهما من القاعات التي أنشئت خصيصًا، بجماهير غفيرة من الشعب لم يشهد مثلها منذ أيام هويتفيلد.

الملاجئ

تحتل الملاجئ مكانًا هامًا في دائرة الشهادة لله في العالم. ولد جورج موللر في بروسيا عام ١٨٠٥م، وقد اهتدى لمعرفة الرب عندما كان طالب لاهوت في مدينة هول وهو في سن العشرين. وبعد ذلك مباشرة أتى إلى لندن ليستعد للقيام بالعمل التبشيري بين اليهود، ولكن الرب وجه طريقه إلى ناحية أخرى، ففتحت الملاجئ عام ١٨٣٦م، لا لتكون عملاً من أعمال الرحمة فقط، بل شهادة أساسية لأمانة الله. وغني عن البيان أن جورج موللر ليس هو أول مَن أنشأ فكرة الاعتماد على الله لأجل الحاجات الزمنية. ولكن الملاجئ التي كانت تحت رعايته ورعاية خلفائه كانت بكيفية بارزة كمظاهر تشهد وتنادي بأمانة الله الثابتة، كما كانت مشجعة للآخرين من الخدام على سلوك هذا السبيل عينه. ولكن العيشة بالإيمان ليست قاصرة على الأعواز الزمنية، لأن الرسول بولس عندما كتب قائلاً «فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان إيمان ابن الله» (غل ٢: ٢٠) لم ينطق بذلك كرسول فقط، بل كمسيحي، لأن جميع المسيحيين مدعوون لسلوك نفس هذا الطريق. وقد يكون الاتكال على الله في الأمور السماوية أسهل في بعض الأحيان من الاتكال عليه لأجل رغيف العيش التالي أو الكسوة الجديدة، مع أنه لا يجوز أن تكون الأمور هكذا. ومن سنة ١٨٣٦م إلى وفاة جورج موللر في سنة ١٨٩٨م وصل إليه ما ينيف عن مليونين من الجنيهات بدون الطلب من أي إنسان، بل من الله الحي وحده باسم يسوع المسيح. ولا ريب أن في ذلك تشجيعًا لكل من الكاتب والقارئ ليتكل على الله في «كل حين» و«بكل القلب» و«إلى النهاية».

جمعية الشبان المسيحية YMCA

هناك اسم آخر ترك أثرًا بارزًا في السنوات الأخيرة من القرن الماضي، هو السير جورج وليامز مؤسس جمعية الشبان المسيحية. لم يكن يخطر ببال ذلك الكاتب البسيط من مدينة دلفرتون عندما افتتح في سنة ١٨٤٦م حجرة صغيرة في فناء كنيسة سانت بول ليتردد عليها شباب المدينة، أنه إنما يبدأ حركة مباركة عادت على الآلاف بمعونة جدية.

وفي سنة ١٨٨٠م اشترى السير جورج بالاشتراك مع بعض المسيحيين قاعة إكسيتر بمبلغ ٥٢ ألف جنيه، التي لم تصبح فقط المركز العام لجمعيات الشبان المسيحية، بل أيضًا محط رجال الخدام الإنجيليين ومقر الجمعيات التبشيرية. ولما مات قدم أولاده إلى الجمعية منزل أبيهم كهدية تذكارية، وهو الآن مقر جمعية الشبان المسيحية في تونتهام.

غير أن هذه الجمعية في هذه الأيام قد ابتعدت كثيرًا عن مبادئها الأولى، ولو بعث مؤسسها من قبره اليوم لملأ الحزن قلبه ولغطى الخجل وجهه، خصوصًا بسبب مجاراتها لروح التعاليم العصرية. ولم تتمسك جمعيات الشبان المسيحية بمبادئها الأولى، بل بدأت تباري العالم في مسراته. فإن كانت الكنيسة تصير عالمية لتربح العالم فمعنى هذا أن العالم هو الذي ربح الكنيسة. فعندما كان رؤساء هذه الجمعية روحيين تجنبوا هذه الكارثة، ولكن عندما أصبحوا عالميين لم يكن بُدّ من هذه المأساة.

ولقد حدث نفس الشيء في جمعيات الشابات المسيحية، غير أنها لم تقع في خطأ مجاراة الروح العصرية بقدر ما وقعت في خطأ مجاراة الروح العالمية، لأن فكرة التبشير الذي حسب الحق هي أن نأخذ من العالم شعبًا على اسم الله، وليس أن نحسّن الأمور العالمية أو نكوّن عالمًا أفضل.

إن الوقت الحاضر هو وقت امتحان الأعمال والمبادئ، فما

كان منها من الله فسيثبت، أما الباقي فسينحدر مع تيار الارتداد ليأخذ نصيبه من دينونة العالم.

جيش الخلاص

في سنة ١٨٦٥م قام السير وليام بوث بحركة تبشيرية في لندن، ولقد استمرت هذه الحركة ثلاث عشرة سنة، حتى كانت سنة ١٨٧٨م حين أخذت صفة هيئة دينية حربية عنوانها "جيش الخلاص". ولد مؤسس هذه الهيئة في نوتنجهام في سنة ١٨٢٩م. وفي سنة ١٨٥٠م رسم خادمًا بين الميثودست حتى سنة ١٨٦١م التي فيها انتقل إلى لندن. ولقد قوبل جيش الخلاص في بداية الأمر بمعارضة شديدة في إنجلترا وفي غيرها من البلاد، ولكن أعماله الاجتماعية كانت كفيلة بتحطيم هذه المعارضة. وهو الآن يحتل مكانًا بارزًا في الحياة القومية. إن العالم يقدر «تعب المحبة» أما «عمل الإيمان» فهو عندهم أردأ من الحماقة، فعمل الإيمان الظاهر في تقديم إسحاق كذبيحة أو قبول راحاب للجاسوسين لا يعدو في نظرهم أكثر من جريمة قتل ابن في الحالة الأولى، وجريمة خيانة دنيئة في الثانية. هذا الجيش يعمل الآن في ٩٧ قطرًا ومستعمرة، وليس لنا أن نقسو في اللوم على عمل أي واحد من خدام الرب «لا تحكموا في شيء قبل الوقت» (١كو٤: ٥)، لأن عمل كل إنسان سيُمتحن ويظهر من أي معدن هو، ولكننا إنما نسأل هذه الأسئلة: بأي حق تعطى السلطة للمرأة على الرجال في أمور الله؟ وبأي سلطان يمكن أن تحل خدمة التدشين محل المعمودية؟ أو يقوم اجتماع تقديسي مقام العشاء الرباني؟ إلا أننا من الناحية الأخرى نبتهج بلا شك لأنه بواسطة هذا النظام العظيم قد سمعت عن المسيح جماهير من الناس كان يمكن أن تعيش وتموت دون أن تسمع عنه.

خيمة سبرجن (الخيمة المركزية)

بينما كانت مجهودات وليام بوث وغيره من الرجال العاملين تدعم حركة الملاجئ وجيش الخلاص، وحتى قبل هذه الحركة بسنوات، كان هناك مبشر تلتف الجموع العظيمة حوله لتسمعه في لندن. ذلك المبشر هو تشارلس سبرجن، الذي ذاع صيته بسبب مواعظه ومؤلفاته، وأصبح شهادة عالمية لإنجيل نعمة الله.

ولد تشارلس هادون سبرجن في سنة ١٨٣٤م بمدينة كلفيدون بمقاطعة أسكس، وكان والده خادمًا مستقلاً، وما أن بلغ سن السادسة عشرة حتى كان مبشرًا علمانيًا في كمبردج، ثم أصبح فيما بعد راعيًا معمدانيًا في ووتر بيتش. وفي سنة ١٨٥٤م حضر إلى لندن، ولعلها تكون شهادة لموهبته الخارقة للعادة أنه اختير بعد هذا التاريخ بأربع سنوات، وكان حينئذ في الخامسة والعشرين من عمره، ليلقي عظة على جمع مكون من ٢٤٠٠٠ شخص في قصر كريستال في يوم "الصوم القومي" أثناء حركة العصيان الهندية، وفي سنة ١٨٦١م تم بناء "الخيمة المركزية الكبرى" وكانت تسع ٦٠٠٠ شخص، حيث استمر سبرجن لمدة ثلاثين سنة يلقي مواعظه في الجموع الحاشدة. ولقد أصبحت هذه الخيمة كعبة يحج إليها الإنجيليون من جميع أنحاء العالم. وفي سنة ١٨٥٦م أسس سبرجن "كلية الرعاة" وفي سنة ١٨٦٧م أسس "ملجأ ستوكويل". وإلى جانب مواعظة الأسبوعية ومجلته الشهرية "السيف والمنجل" قد زود العالم بأكثر من مائة مجلد.

وفي سنة ١٨٨٧م انفصل عن الاتحاد المعمداني، وكان قد ترك من قبل التحالف الإنجيلي لأنه ضم بين أعضائه كثيرين من رجال الإكليروس الإنجيليين، الذين بينما كانوا ينكرون تعليم التجديد بالمعمودية بلسانهم، ظلوا يعلمون به في قانون إيمان كنائسهم ومراسيم عبادتهم.

ولما ترك الاتحاد المعمداني كان أكبر المعضدين له من الإخوة، الذين لم يكن يميل إليهم كثيرًا قبل ذلك الوقت. وفي سنة ١٨٩٢م رقد في الرب وهو في الخامسة والثمانين من عمره تاركًا اسمًا لا يُنسى. ولقد راجت مواعظه التي طُبعت رواجًا عظيمًا، وخلفه على منبر الخيمة وعاظ، كانوا بالطبع أقل مقدرة منه، ولكنهم كانوا أمناء على الحقائق التي كان ينادي بها.

جمعية التوراة وغيرها من الجمعيات

من الصفات المميزة لجمعيات التوراة أنها لا تتخذ لها اسمًا طائفيًا، والسبب في ذلك أنها تعتبر أن رابطة الوحدة المسيحية هي فوق الفوارق الطائفية، وهذا هو الحال في جمعية التوراة البريطانية والأجنبية التي تكونت في سنة ١٨٠٨م و"إرسالية مدينة لندن" التي تكوّنت في الثلاثين سنة الأولى من القرن السابق، و"التحالف الإنجيلي" الذي تكون في سنة ١٨٤٥م. وهذا التحالف لم يكن يضم كنائس بل أفرادًا مسيحيين من أي قطر يعتنقون المبدأ الإنجيلي.

ولقد عقدوا عدة مجامع في كثير من العواصم مثل لندن وباريس وبرلين وجنيف ونيويورك... الخ. وانضم إلى هذه الحركة الفريق الإنجيلي في كنيسة إنجلترا. وكانت نقطة الانتقاد ضد هذا الاتحاد هي أن أعضاءه اعتبروا الفرد أكثر من اعتبارهم للكنيسة، وهذا حق إذا كان المقصود من كلمة كنيسة "نظام كنسي" ولكنه مخالف للحق إذا قصد بها جماعة روحية تضم جميع أعضاء المسيح الحقيقيين. ولقد أطلقوا على هذا التحالف اسم "الكنيسة غير المنظورة" والكنيسة بالطبع هي هكذا من حيث أنها مجموع، ولكن بكل تأكيد يجب أن تكون مسيحية الفرد ظاهرة للعيان. وكان أحرى بكل هذه الهيئات أن يجتهدوا لحفظ وحدانية الروح والاجتماع معًا باسم المسيح كأعضاء لرأسهم المقام من الأموات. ولقد كان المظهر الوحيد لتحقيق هذه الأمنية هو "اتحاد أسبوع الصلاة" في رأس كل سنة. ولطالما سئل هذا السؤال "إذا كان من الممكن أن تجتمعوا معًا كمسيحيين في الأسبوع الأول من كل سنة باسم الرب، فلماذا لا تكون لهذا الاسم الكفاية للواحد وخمسين أسبوعًا الباقية؟".

مجامع ميلدماي وكيزيك وغيرهما

حركة أخرى تستلفت النظر، هي حركة اجتماع المسيحيين معًا من مختلف الطوائف لبضعة أيام. ويعتبر مجمع ميلدماي أول الاجتماعات التي من هذا القبيل. ولقد وجهت الدعوة إلى هذا الاجتماع في أول مرة بواسطة وليام بنيفاذر قسيس ميلدماي. واستمر هذا المجمع ينعقد عدة سنوات تحت قيادة مؤسسه والسير أرثر بلاكوود، والكابتن مورتون ويوحنا مانيسون، واللورد بول ورث واللورد كنتور وغيرهم. وفي هذه المجامع كانت الحقائق الخاصة بوحدة جسد المسيح ورئاسة الرب متحققة بدرجة ظاهرة، بالاقتران مع بهجة روحية في الأعضاء. ولا نظن أنه عقدت بعد ذلك مجامع احتفظت بهذا المستوى الروحي العالي وسلامة التعليم كما كانت تلك المجامع التي عُقدت فيما بين سنة ١٨٧٠، ١٨٩٠م.

ولقد حلت محل هذا المجمع، مجمع كيزيك وكان شعارهم هو "الكل واحد في المسيح يسوع". وكانت هذه المجامع واسطة لإنهاض الجماهير، إذ كان المسيح يقدّم للجميع كمصدر كفاية المؤمن سواء للإيمان أو التقديس أو التبرير. ولكن الخطر الدائم على مثل هذه النهضات هو أن يحتل نظامها التعليمي مكان المسيح شيئًا فشيئًا، وبذلك تجف البركة كما جف نهر كريث، وعلى هذا المنوال تفكك مجمع كيزيك وتطور إلى حركة نشاط تبشيري. وكثيرون من دعاة هذه الحركة حملوا بشارة الإنجيل إلى أقاصي الأرض، حتى أن الإرسالية العمومية لجنوب أفريقيا، والإرسالية العمومية لجزيرة سيلان وغيرهما من الإرساليات قد تشربت كثيرًا من روح هذه الحركة. ومن دواعي الأسف أيضًا أنه بينما يعترف بوحدة جسد المسيح وبكفاية اسمه وحده في مدة انعقاد المجمع، تعود أسماء أخرى إلى الظهور في اليوم التالي لانتهاء المجمع عند عودة كل واحد إلى بلده. وما كان أكبر التناقض بين التعاليم السامية التي كان ينادي بها أولئك الرجال على منبر المجمع وبين التعاليم الطائفية ونظام العبادة الميكانيكي الذي كانوا ينحدرون إليه بعد أن ينفض المجمع! وكانت تنشر أخبار مجمع كيزيك والتقارير الخاصة به في عدة جرائد ومجلات دينية استمرت تحمل علم الحق في دوائرها الخاصة.

نهضات وإرساليات خصوصية

من بين أسماء الكثيرين من جنود الصليب الشجعان يمكن أن نذكر أسماء أخرى مثل براون لونورث، وهنري فارلي، وريجنالد رادكليف. وهناك اسمان آخران يستحقان أكثر من مجرد الإشارة إليهما. لم يكونا من أقطاب السياسة ولا من رجال الأعمال الخيرية، ولكنهما تركا أثرًا عميقًا في الحياة الروحية وسط الإنجيليين، وهما اللورد كونجلتون واللورد رادستوك. فالأول نذكره لارتباطه بحركة مباركة من حركات روح الله وسط شعبه، والثاني نذكره من أجل شهادته التبشيرية في مختلف الأقطار وبين مختلف الطبقات. والحركة التي ارتبط بها اللورد كونجلتون هي حركة الإخوة، التي وإن لم تعدم لها نقادًا ومعارضين، إلا أن كل شخص روحي لا يمكن أن ينكر أنها محاولة مخلصة للرجوع إلى الكتاب المقدس، وأنها قامت بواجبها كملح الأرض لإيقاف فساد المسيحية إلى حد كبير.

بدأت هذه الحركة حوالي سنة ١٨٣٠م بكيفية ليس لها أي صفة رسمية ظاهرة، فقد وضع الرب في قلوب بعض أشخاص مثل أنتوني نوريس جروفس، وجورج بلت، ودكتور كرونن، ولورد كونجلتون، وجون نلسون داربي، وآخرين في أماكن مختلفة، أن يهربوا من فساد المسيحية ويرجعوا إلى البساطة الأولى. ولم يخطر قط ببال أولئك الساعين وراء الحق أن يكوّنوا "كنيسة" أو أن يتركوا كنيستهم،

ولكن أشرق عليهم الفكر بأنه توجد امتيازات عديدة تمنحها لهم كلمة الله ولكن تحرمها عليهم كنائسهم، كما أن تلك الكنائس قد فرضت شروطًا حتمية لم يُنص عنها في كلمة الله مثل الرسامة الأبرشية لتأهيل الإنسان للتبشير أو لخدمة كسر الخبز. فقالوا في أنفسهم لماذا بصفتنا مسيحيين لا نجتمع كما كان يجتمع التلاميذ في البداءة في أول كل أسبوع لنصنع ذكرى موت ربنا يسوع؟

ومن الواضح أن الإنسان عندما يصل مرة إلى هذا المبدأ، وهو أن لا قيمة إلا لأوامر ونواهي كلمة الله، لا بد وأن يتسع أمامه المجال ويكتشف عالمًا جديدًا. فكل ما لا يمكن أن يقال عنه «هكذا قال الرب» يجب أن يُترك ويرفض. لقد قال النقاد "إن الإخوة لم يقيموا وزنًا للاختبارات التي اختُزنت خلال ثمانية عشر قرنًا مسيحيًا"، ولكن الحقيقة أنهم استفادوا من اختبارين على الأقل: الأول كيف أن أقل انحراف عن كلمة الله يقود إلى ضلال بعيد المدى، والثاني كيف أن أقل إضافة إلى كلمة الله تتطور إلى عبء ثقيل لا يُطاق. وبناء عليه رجع هؤلاء المؤمنون الذين من دبلن ومَن سلكوا مسلكهم إلى العهد الجديد مباشرة. فلم يقفوا ليتساءلوا "ماذا تقول روما؟" أو "ماذا يفتكر الآباء؟" بل ماذا يقول الروح القدس في رسله وأنبيائه؟

رجوع إلى كلمة الله

هذا هو مبدأ الإخوة، بل إن أساس كل نهضة حقيقية تحدث إنما هو الرجوع إلى كلمة الله. ولطالما سئل هذا السؤال: "أية طائفة من الطوائف الصغيرة في المسيحية قد ضمت بين رجالها العاملين أمثال يوحنا داربي وفرنسيس وليام نيومان (أخو الكردينال) وجورج موللر وأنتوني نوريس جروفس وصموئيل بريدو تريجيل؟ ويمكننا أن نضيف إلى هؤلاء وليم كلي وروبرت تشابمان. ولكن لا يفتخرن أحد بالناس، فأي شيء لهؤلاء لم يأخذوه؟

ومع أن هذه الحركة لم تكن في أصلها من عمل أية شخصية بارزة، إلا أنه يمكن أن يُسأل هذا السؤال البسيط: "أي شخص من هؤلاء المذكورين آنفًا كان له التأثير الأكبر على انتشارها فيما بعد؟".

ولد يوحنا نلسن داربي في لندن سنة ١٨٠٠م قبل مولد الكردينال نيومان ببضعة أشهر، وتلقى علومه في مدرسة وستمنستر. وفي سن الخامسة عشرة دخل كلية الثالوث الأقدس بدبلن، وفي سنة ١٨١٩م حاز على الميدالية الذهبية شهادة لتفوقه في العلم، الأمر الذي يتفق تمام الاتفاق مع ما ظهر فيه فيما بعد من مواهب نادرة وقدرات ممتازة في اللغات، استخدمت بشكل ظاهر في خدمة المسيح. وهو مثل ج. بللت قد دُعي لاحتراف المحاماة، ولكنه أذعن لدعوة أخرى وعُين شماسًا ثم قسيسًا في كنيسة أيرلندا. ولغاية سنة ١٨٣٤م، مع أنه كان على اتصال وثيق مع المشتركين في "كسر الخبز"، إلا أنه لم يكن قد انفصل نهائيًا عن كنيسة أيرلندا، لأن حركة الإخوة بدأت بكيفية غير محددة. وكان اللورد كونجلتون (جون بارنل حينئذ) من بين الأوائل الذين كسروا خبزًا على نظام الكنيسة الأولى أيام الرسل، واستمر أمينًا لمبادئ الشهادة التي تميزها البساطة حتى نهاية حياته الطويلة.

ولقد أشرنا آنفًا إلى ظهور حركة الإخوة، تلك الحركة تغلغلت في جميع نواحي العالم القديم والجديد، خصوصًا في الإمبراطورية البريطانية وكندا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية. وفي أوروبا لم يقتصر الأمر على أنها مجرد حركة أنجلوسكسونية، بل انتشرت أيضًا في فرنسا وألمانيا وسويسرا. ويقال إن روسيا أيضًا كان فيها اجتماعات للمؤمنين البسطاء أكثر عددًا مما في الجزر البريطانية.

ويندر أن توجد مملكة ليس فيها عدة جماعات على هذه المبادئ البسيطة، مبادئ العهد الجديد. والواقع أنه حيثما اعتُمد على الله وأُعطي للمسيح مركزه الحقيقي في وسط شعبه، وبُشر بكلمته بالاتكال على الروح القدس، فلا بد أن تكون النتيجة تمجيد الله وبركة النفوس. وأما حيثما كان الافتخار بالمناصب وعدم اعتبار المسيحيين الآخرين، وإدعاء الجماعة بأنها هي "كنيسة الله" فهناك الفشل والانقسام. ولا شك أن محاولة تكوين نظام ليعم العالم كله واعتباره معبرًا عن "جسد المسيح"، فيها تجاهل للعدد الوفير من أعضاء هذا الجسد الذين ليسوا داخل نطاق هذا النظام. إن ادعاءنا بأننا أكثر من "بقية شاهدة" لأجل مجد الله، لهو عدم اعتراف منا بفشل الكنيسة كشهادة متحدة لله.

على أن هذه الحركة قد قامت بنعمة الله شاهدة لرئاسة المسيح، ووحدة الجسد، وحضور الروح القدس، وكهنوت جميع المؤمنين، وكمال وكفاية كلمة الله وإنجيل نعمته لكل الخليقة. وقد تنازل الله بنعمته فأكرم هذه الشهادة من الناحيتين الشفهية والتحريرية. ولكن قولنا إن هذه الحركة تمثل فيلادلفيا كما افتكر البعض يعتبر تجاهلاً

لسلطان الله المطلق، وتقليلاً من شأن كل حركة أخرى من عمل الروح القدس، أو بعبارة أخرى بمثابة النظر إلى الجزء بدلاً من الكل. وحرية الروح التي تتمسك بها هذه الحركة ليست هي إطلاق الحرية لكل واحد ليفعل ما يريد، بل للروح القدس ليفعل كما يريد هو. فليس كل واحد كفوًا لخدمة الكلمة أو للتبشير بالإنجيل، بل الحرية في ذلك متروكة لأولئك الذين دعاهم الرب وزودهم بالمواهب. ولقد جعل الله كثيرين من أولئك المؤمنين البسطاء بمثابة عطايا للكنيسة من المسيح الذي صعد إلى العلاء، وذلك بصفة عامة بواسطة كتاباتهم، ولا سيما الخاصة منها بدراسة النبوات. وإنك لتجد في كثير من المكتبات الإنجيلية بخلاف مكتبات الإخوة عدة مؤلفات مثل مذكرات ماكينتوش على أسفار موسى الخمسة، وكتاب مجد الرب يسوع الأدبي لبللت، ومؤلفات داربي وكلي وموللر وتشابمان وغيرهم. وكان بينهم أيضًا من امتازوا بكتابة النبذ وتوزيعها.

روح عدم المبالاة

إن آخر دور من أدوار تاريخ الكنيسة يجب أن نشير إليه باختصار هو دور لاودكية. ولقد كانت هذه الكنيسة موضوع صلوات رسولية (كو ٢:١) وقد أعطيت الامتياز بأن توصل إليها رسائل الرسل (كو ٤:١٦) ولم توصف بالفساد الأدبي ولا بالخطإ التعليمي، وتبدو جميع الأشياء في موضعها، إلا المسيح الذي هو المركز. فعوضًا عن أن يكون في الوسط كان خارج الباب، والكنيسة فاترة وغير مبالية ومكتفية بنفسها. وماذا يُرجى بعد ذلك؟ أيرجى إصلاح العالم تدريجيًا وتهيئته لعصر سلام عالمي بدون الملك الشرعي؟ أيرجى تجديد العالم أو حصول نهضة عامة؟ كلا لا شيء من هذا، بل رجاء الكنيسة هو رجوع المسيح. وهذا هو ما ينتظره ويشتاق إليه عدد كبير من شعب الرب. «يقول الشاهد بهذا نعم. أنا آت سريعًا. آمين تعال أيها الرب يسوع» (رؤ ٢٢:٢٠).

الخاتمة

هذه، للأسف هي ما يسميه الإنسان والعالم "الكنيسة" في نهاية هذا التاريخ. فالارتداد بدأ، ومجيء الرب قد اقترب، وسلامة المسيحي في هذه الأيام الأخيرة هي في وضع شخص الرب نفسه أمامه باستمرار، وانتظار رجوعه يوميًا ويجب أن تكون مسيحيته فردية إلى حد كبير، فعليه أن يتمسك بسلوك مقدّس أمام الرب، وأن تكون له شركة متصلة بشخصه، وأن ينفصل تمامًا عن أمواج الشر التي تتلاطم على كل جانب، وعندما تتكاثف الظلمة وتقوم الصعاب فملجأ النفس الوحيد هو في حضور الرب. قد تتصارع الأمم، وقد يتصاعد ضجيج الحرب من كل مكان، وقد تقع على مقربة منا الكوارث المدلهمة، وقد تسير الكنيسة الاسمية في مراحل الانحدار إلى «طريق قايين.. وضلالة بلعام.. ومشاجرة قورح» (يه ١١). إلا أن مكان هدوء النفس وراحتها بعيدًا عن مخاصمات الأمم وانقسامات المسيحيين هو دائمًا في محبة الرب المعبود المبارك، تلك المحبة غير المتغيرة وغير القابلة للتغيير.

ونحن نترك القارئ ليطبق بنفسه حسب تمييزه الروحي مبادئ فيلادلفيا ولاودكية على الكنيسة الاسمية في هذه الأيام الحاضرة. فدور فيلادلفيا لم يمض وينقض، ولكننا يجب أن نسهر ضد الروح اللاودكية التي تنتشر بسرعة بين جميع طبقات المعترفين بالمسيح.

يا ليت الرب الطيب يحفظ القارئ والكاتب معًا بالقرب من شخصه، إلى أن نرى وجهه ونسمع صوته، ونوجد معه في ملء الفرح بمحبته ومجده.

آمين

فهرس الموضوعات والأعلام

ل

م

فهرس الشواهد الكتابية

إرميا

دانيال

زكريا

ملاخي

متى

مرقس

لوقا

يوحنا

أعمال

رومية

كورنثوس الأولى

كورنثوس الثانية

غلاطية

المراجع والمصادر

نظراً لتعدد المراجع والمصادر التي نقل عنها الكاتب، ولتكرار الإشارة إليها في كل مرة رجع الكاتب إليها، فقد قمنا بترقيم المراجع والإشارة إليها بالأرقام بين القوسين، مع وضع رقم المجلد أو الجزء من المرجع كمقام لرقم المرجع. فعلى سبيل المثال يدل الرقم (٣/٤٤) على مرجع المؤرخ دوبيني" تاريخ الإصلاح في أوربا" المجلد الثالث، ويدل الرقم (٤/٢١) على مرجع المؤرخ موسهيم" التاريخ الكنسي" المجلد الرابع ... وهكذا.

1. **Haydn,** *Dictionary of Dates.*
2. **Kelly W.,** *Lectures on the Gospel of Matthew*
3. **Darby J. N.,** *Synopsis of the Books of the Bible*
4. *The Church and the World (Magazine)*
5. **Smith** *Dictionary of the Bible*
6. **Kelly W.,** *Lectures on the New Testament Doctrine of the Holy Spirit*
7. **Bellett J.G.,** *Christian Witness*
8. **Kelly W.,** *Lectures on Galatians*
9. **Cave,** *Lives of the Apostles*
10. **Burton,** *Ecclesiastical History*
11. **Cave,** *Life of St. James the Great*
12. **Horne,** *Introduction to the New Testament*
13. **Smith,** *Student's New Testament History*
14. **Kelly W.,** *Notes on the Book of Daniel*
15. **Kelly W.,** *Introductory Lectures to the Acts of the Apostles, etc..*
16. **Conybeare and Howson,** *The Life and Epistles of St. Paul*
17. **Porter,** *Five Years in Damascus*
18. *The Present Testimony (Magazine)*
19. **Milman D.,** *History of the Jews*
20. *Encyclopedia Britannica*
21. **Mosheim,** *Ecclesiastical History.*
22. **Cave,** *Primitive Christianity*
23. **Wake A.,** *The Genuine Epistles of Clement, Polycarp, Ignatius, and Barnabas, 6th ed.*
24. **Kelly W.,** *Lectures on the Revelation, by*
25. **Milner,** *Church History*
26. *Journey and Martyrdom of Ignatius*
27. **Clarke,** *Irenaeus against Heresies., Edinburgh*
28. **Neander,** *Ecclesiastical History.*
29. **Bingham** *History*
30. **Eusebius,** *Life of Constantine*
31. **Robertson J.C.,** *History of the Church*
32. **Milman D.,** *History of the Christianity*
33. **Cave,** *Lives of the Fathers*
34. **Hooker,** *Ecclesiastical Polity*
35. **Burnet,** *on the Articles*
36. **Gale,** *Reflections on Wall's History*
37. *General Church History*
38. **Gardner,** *Faiths of the World*
39. **Waddington D.,** *History of the Church*
40. **White J.,** *Eighteen Christian Centuries*
41. **Landon** *Manual of Councils*
42. **Greenwood,** *Cathedra Petri*
43. **Milman,** *Latin Christianity*
44. **D'Aubigne,** *History of the Reformation in Europe*
45. **Cunningham,** *Church History of Scotland*
46. **Marsden,** *Dictionary of Christian Churches and Sects*

47. **Du Pin**
48. **Stephen J. Sir,** *Ecclesiastical Biography*
49. **Morrison J.C.,** *The Life and Times of St Bernard*
50. *Literature of Europe in the Middle Ages*
51. **Edgar,** *Variations of Popery*
52. **Butler,** *Lives of the Saints*
53. **Paul,** *Council of Trent*
54. **Milner,** *End of Controversy*
55. **Bartlett,** *Scenery of the Waldenses*
56. **Stephen J. Sir,** *History of France*
57. **Llorente,** *History of the Inquisition*
58. **O'Dell,** *Travers Hill English Monasticism*
59. **Froude,** *History of Ireland*
60. **McCrie,** *Life of John Knox*
61. **Knight,** *Biographical Dictionary*
62. **Beattie W.,** *Scenery of the Waldenses*
63. **Fox,** *Acts and Monuments*
64. *Literature of Europe*
65. **Smiles S.,** *History of the Huguenots*
66. **Bagster and Sons,** *Universal History*
67. **Waddington,** *History of the Reformation*
68. *Froude Short Studies on Great Subjects*
69. **Darby J.N.,** *Lectures on the addresses to the Seven Churches.*
70. **Kelly W.,** *Two lectures on Corinthians 12 and 14*
71. *Bible Treasury (Magazine)*
72. **Scott J.,** *History of the Church*
73. **Scott J.,** *Continuation of Milner*
74. **Robertson,** *History Charles the Fifth*
75. **Ranke,** *History of the Popes*
76. *Things New And Old (Magazine)*
77. **Hess J.G.,** *Life of Zwingle Translated by Lucy Aikin*
78. **Wylie G.I.,** *History of Protestantism*
79. **Fry J.,** *History of the Church*
80. **Blackwood's** *Magazine*
81. **Mosheim,** *History of the Lutheran Church on the Controversies*
82. **McCrie Dr.,** *History of the Reformation in Spain*
83. **Hardwick,** *History of the Reformation*
84. **McCrie Dr.,** *History of the Reformation in Italy*
85. **Young Miss.,** *Life and Times of Paleario*
86. **Hardwick,** *Middle Ages*
87. **Anderson C.,** *Annals of the English Bible*
88. **Brandt G.,** *Reformation in the Netherlands*
89. **Motley,** *The Rise of the Dutch Republic*
90. **Motley,** *History of the United Netherlands*
91. **Felice**
92. **D'Aubigne,** *Calvin*
93. **D'Aubigne,** *Luther*
94. **Freer,** *History of Margaret*
95. **White,** *History of France*
96. **Beattie Wm.,** *History of the Waldenses, and Graphic Descriptions of the Protestant Valleys of Piedmont*
97. **Dyke H.,** *Acland History of the Vaudois*
98. **Gilly,** *First and Second Visits to the Valleys of Piedmont*
99. **Phelan Dr.,** *History of the Policy of the Church of Rome in Ireland*
100. **Tytler,** *History of Scotland*
101. **Lorimer,** *History of the Scottish Reformation*
102. **Spottiswood** *History*
103. *Knox Original History*
104. **Foxe,** *Book of Martyrs*
105. **Strickland Miss.,** *Queens of England*
106. **Fuller,** *Church History of Britain*
107. **Burnet,** *History of the Reformation*
108. **Strype,** *Memorials of the Reformation*
109. **Froude,** *History of England*
110. **Thomson,** *History of the Secession Church*
111. **Fraser,** *Life of Ebenezer Erskine.*
112. **Bevan F.,** *The Story of John Wesley*
113. *Life and Labours of George Whitefield*
114. **Knight** *Dictionary of Biography*
115. **Brown Dr.,** *History*